N° 17-18



فهرس العدد



من اللغة
تبدأ ثورة التجديد

عثمان شبوب

لا يمكن لثورة شعبية ان تنجح وتحقق اهدافها الا اذا كانت اللغة الوطنية فيها تحتل مكانتها الطبيعية. كما ان المضمون الحقيقى للثورة هو تحقيق مقومات الشخصية الوطنية وفى طليعتها اللغة. لان اللغة هى رمز القومية الرئيسى، ويستحيل على اى شعب ما ان يغير مصيره الى الافضل بواسطة لغة اجنبية عنه. والشعب الذى يفقد لغته يفقد حريته واستقلاله. وهذه الفقرة التى ساوردها هنا للاميرال قيدون الوالى الفرنسى على الجزائر اثناء الاحتلال تكفى للدلالة على دور اللغة فى الحفاظ على الامة. يقول هذا الوالى فى خطاب توجه به الى الآباء البيض سنة ١٨٧١ :

« انكم اذا سعيتم الى استمالة الاهالى بواسطة التعليم وبواسطة ما اسديتم اليهم من احسان قد قدمتم بعملكم هذا خدمة جليلة للبلاد الفرنسية. فليس فى وسع فرنسا ان تنجب من الابناء ما يكفى كى تعمر بهم الجزائر. وصار من اللازم ان يستعاض عنهم بفرنسة مليونين من البرابرة الخاضعين لسلطاننا. واصلوا عملكم بحنكة ودربة وحيطة ، ولكم منى التاييد ، وفى امكانكم ان تعتمدوا على كل الاعتماد. (مجلة العالمين الصادرة فى باريس اول افريل ١٩٢٥) .

وكتب الكادرينال لافيجرى ايضا مانصه : « اذا كسبنا ثقة الشعوب بالاحسان وتعليم الصبيان (الفرنسية طبعا) فلا بد ان ياتى يوم ينفصم فيه ما يربط بينها من عرى بكيفية تلقائية ، فلا دنى هزة هى تسقط ، كالثمرة الناضجة ، ونجنى نحن قطوفها » .

فاللغة الوطنية ليست فقط وسيلة للحفاظ على الشخصية وضمان تماسكها وانما هى الى ذلك اساس كل نهضة حقيقية شاملة. وكل الحركات الثورية فى العالم كانت قضية اللغة بالنسبة اليها هدفا استراتيجيا ثابتا. وليست قضية شكلية كما يقول بعض قصيرى النظر عندنا. فالفرنسيون مثلا ، لم يكد يمضى على ثورتهم اربعة اعوام حتى اجتمع رجال الفكر منهم للنظر فى قضية اللغة على اى نحو يتصورونها ، وفى اى اتجاه يوجهونها ، ولا عادة بنائها على خطة جديدة تتفق وروح ثورتهم. وكونوا لهذا الغرض سنة ١٧٩٥ معهدا جديدا اسموه : « المعهد القومى للعلوم » ومن بين اقسام هذا المعهد الاساسية ذلك القسم الذى يبحث فى تحليل الاحساسات والافكار وعلاقة اللغة به ، باعتبارها الوسيلة الاساسية لنشاة المعرفة الانسانية وتطويرها. وضم هذا القسم باحثين من جميع الاختصاصات ، ومن جميع الاتجاهات الفكرية والثقافية لا فرق فى ذلك بين الملحد والمؤمن ، واليسارى واليمينى ، لانهم جميعا يعتبرون أن البحث فى اللغة لا ينبغى أن يتاثر بالاختلاف العقائدى والاديولوجى .

واورد نموذجا آخر من الفيتنام امل ان يتدبره اولئك الذين يتصورون اللغة مسالة شكلية ، ويرمون الدعوة الى حمايتها بالتعصب والشوفينية. يقول الاستاذ تران هيوتيك الرئيس المساعد للجمعية العامة للطب فى الفيتنام : « ان اللغة القومية مقدسة ، ينبغى ان تكون هى لغة التعليم العالى فى بلد يتمتع باستقلال حقيقى ، فى بلد ذى سيادة. حر وديمقراطى. هذه هى الحقيقة الواضحة » .

والواقع ان تجارب الشعوب ومختلف الثورات الحقيقية فى ميدان اللغة معروفة ولا تحتاج الى تكرار. وهى عند ذوى العقول السليمة بديهية عقلية واضحة. ولكننا فى الجزائر ما نزال مع الاسف فى حاجة الى تكرار مثل هذه البديهيات ما دامت مصيبتنا فى هؤلاء الذين نسميهم ضحايا الاستلاب الثقافى قائمة .

* * *

ونستعرض الآن بعض العينات من تفكير هؤلاء فيما يخص وضع اللغة ووظيفتها :

اللغة اداة لا غير :

يرى بعض هؤلاء ان اللغة لا تعدو ان تكون اداة شكلية لنقل الافكار والنظريات. وينبغى الا نتمسك بقضايا شكلية .



وبالرغم مما تكشف عنه هذه النظريه من فقدان لروح الاعتزاز بالشخصية وللشعور الوطنى • نقول : ان جل الباحثين فى قضايا اللغة وعلم الاجتماع والنفس يكادون يتفقون على ان الابداع الحقيقى لا يكون الا باللغة الوطنية • وان ما هو وطنى فى مضمونه لا يمكن التعبير عنه بعمق ، يبرز كل تفاصيله بلغة غير وطنية •

وان استعمال لغة اجنبية تنشا عنه نتيجتان : فكرية ، ولسانية • فالواقع الجزائرى الذى نريد وصفه مثلا باللغة الاجنبية يكون قد وقع ادراكه بنسق لسانى اجنبى عنه• وبهذا فان هذا النسق يكون غير قادر على الابلاغ بامانة •

يقول السيد مالك حداد الكاتب الجزائرى باللغة الفرنسية : « ان الكلمات وهى معد اتنا اليومية ليست فى مستوى افكارنا بله عواطفنا ، وليس هناك الا توافق تقريبى بين فكرتنا العربية والفاظنا الفرنسية » •

فاللغة ليست لمجرد التعبير عن افكار تكونت ، بل هى جزء لا يتجزأ من عملية التفكير نفسها • بل ان تكوين الافكار وثيق الصلة بتكوين الكلمات•

انظر مثلا الى الانسان عندما يتناول الطبيعة من حوله بكل ما فيها ومن فيها تجد لالفاظ اللغة التى يستخدمها وطرائق تركيبها جذورا عميقة فى هذه الطريقة المستخدمة : فاختلاف لغة عن لغة فى التعبير عن الزمن مثلا ، ايضا ، ينشا عنه اختلاف فى اللفتة العقلية عند اصحاب اللغتين : فقد يكون موضوع الاهتمام عند فريق هو ان تجىء الافعال فى اللغة دالا على الضبط الزمنى بين حادث سبق ، وحادث لاحق• فى حين يكون الاهتمام عند الآخر هو مضمون الاحداث لا ترتيبها الزمنى •

* * *

ويقول آخرون : انه من الاحسن والافيد الاعتماد على اللغة الاجنبية فى دراسة العلوم والتقنيات • وحصر مجال اللغة الوطنية فى المواد النظرية • وهذا خطأ كبير • لانه كما قال الاستاذ عبد الله المازونى : « من الخطر الكبير من اية جهة كانت ان نوجد نهجا ثقافيا تكون فيه التقنية مقطوعة عن اللغة القومية• اذ تكون نتيجة هذا فى العاجل ان ننفر من العربية شبابا همه النجاعة ، ومهجته متجهة الى العلوم الصحيحة التى هى علوم الطبيعة• وان نوهمه ان اللغة الاجنبية وحدها القادرة الى التعبير عن العقول والتقنية وان لا مناص منها اذا أردنا ان نضع انفسنا ، وان نقتحم العالم العصرى » • كما ان القيم لا يمكن تكوينها الا من خلال واقع محدد : جغرافيا ولغويا فى آن واحد • وان الثقافة الوطنية انما تتشكل مما تقوم به الامة ـ اية امة ـ من تاليف ما أكتسبته من العلوم والفنون والآداب • وان اللغة الوطنية تمثل عنصر تلاحم لاغنى عنه • فلا بد من اقتحام اللغة الوطنية مجالات العلوم حتى نحس بعمق ، بانتمائنا الى العصر •

* * *

وهناك ايضا مسالة الازدواجية التى يدعو اليها البعض •

يقول الجاحظ عند التعرض للترجمة والنقل فى عصره : « ومتى وجدنا الترجمان قد تكلم بلسانين علمنا انه قد ادخل الضيم عليهما• لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتاخذ منها

وتعترض عليها • وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة ، وانما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليها •••» •

ولابــــن خلدون رأى فى الازدواجية اللغوية ويسميها : مخالطة العجمة » : « ملكــة ممتزجة من الملكة الاولى » ومفاده ان خطر الازدواجية كبير على اللسان الاصلى لانها تبعد المتعلم عنــه وكأنه يدعو الى التقيد بلغـــة واحدة اصلية فى تعليم الاطفال حتى تقوم ملكتهم الاولى ، يقــول : « لان البعد عن اللسان الاصلى انما هو بمخالطة العجمة • فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عــن ذلك اللسان الاصلى أبعد • لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التى كانت للعرب • ومن الملكة الثانية التى للعجم • فعلى مقدار ما يسمعونه من العـــجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى » •

ويقول عالم اللغة المعروف مارتيني : « لكـل لغة نظامها الخاص بها فى مجال معطيات التجربة فتعلم لغة ثانية لا يعنى وضع علامات جديدة على أشياء معروفة بل يقتضى ان يقع تحليل آخر لما يهدف اليه الابــلاغ اللغوى » فبمجرد ما يتحول المرء من لغة الى اخرى يفقد جزءا كبيرا من روح اللغة الاولى •

وفى هذا المعنى يقول ايضــــا : فيما يخص الدراسة النظامية وهى يجب ان تبتدئ ـ فيمـا نعتقد ـ حوالى السادسة من العمر وان تستمر الى الخامسة عشرة ، نلاحظ فى البداية ـ حتى حوالى الثانية عشر ـ ان الازدواجيين متاخرون ذهنيا من وحيدى اللسان ؟ ••• وفيما بعد نشاهد الاذكياء من التلامذة الازدواجيين يتقدمون على اذكياء التلامذة الوحيدى اللغــــة •

على انه يمكن ان نضيف اعتبارات اخرى ذات قيمة منها ان الازواجية قد تكون صدمـــة تظهر آثارها مثلا بنوع من التمتمة لدى الازدواجيين كما أن الطفل اذا ما مارس لغة ذات اعتزاز قـــد ينفر عن اللغة الثانية ، مما يؤدى الى شيء مـــن عدم الاستقرار يعبر عنــــه بالمركب • وتوضح الاحصائيات ببلاد الغال ما يتبع الازدواجية مـــن الصعوبة لدى الطفل غير الموهوب ، ولا غرو ان هناك حملا اضافيا لا يمكن الطفل أن يتحمله ••»•

* * *

لا اود ان يفهم من هذا كله اننا ضد اللغـــات الاجنبية ، او اننا نريد غـــلق الابواب والنوافذ عن نسيم الثقافة العالمية• فهذا ما لا يقول بـــه عاقل• لكن الازدواجية المضرة والخطيرة فى رأيى انما تتمثل فى ذلك الانفصام بين الفكر والحيـــاة الوطنية فى جميع ابعادها• فالفكر هــو حصيلة التفاعل الحي بين عناصـــــر الثقافة والشخصية وظروف البيئة المحلية وحركة التطور الاجتماعى والنفسى ولن يتم ذلك الا باللغة الوطنية• هذا من الناحية النظرية• ومن الناحية العملية فالازدواجية يعنى ان اللغة الوطنية تدخـــل فى مسابقة غير متكافئة• وكلنا نعلـــم ان العربية اذ تدخل هذا السباق وهى ما تزال مثقلة بأوزار عهود الانحطاط والجمود •• وفى وسط يعيش حالـــة استلاب ثقافى وحضارى ستخسر السباق •

ورأيى الخاص ، ان ظاهرة الازدواجية ينبغى ان ننظر اليها على انها مرحلة من مراحل التطور ، وانها تدخل فى حركة جدلية واسعة الابعاد • فاذا كانت المرحلة الاولى هى مرحلة الانعزال ، والمرحلة الثانية هى مرحلة التفتح على الفكر العالمى مع

تجاهل الثقافة الوطنية او التنكر لها· فان المرحلة الثالثة ـ ونأمل ان نكون فى بدايتها ـ هى الرجوع الى الثقافة الوطنية بروح ومفاهيم جديدة ·

* * *

واما القضية الاخرى التى تثار من خلال هذا الحوار حول التعريب ، فهى قضية العامية والفصحى· وهذه القضية قديمة ووقع حولها نقاش واسع فى المشرق العربى خاصة· وكان انيس فريحه مثلا يقول : « ان العربية ليست لغة الكلام فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة الواقعية كما تستطيعه العامية· والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقوله بالعامية· واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا ، قاسيا ، خلوا من العنصر الانسانى » · وما يزال الحوار حول هذه المسالة حتى الآن ·

والواقع ان ظاهرة العامية ليست ظاهرة تنفرد بها اللغة العربية ، فقد عرفتها كل اللغات تقريبا · ووقائع التجارب الآن على مستوى العالم العربى تؤكد ان نشر التعليم ، وتعميم الثقافة بالوسائل التقنية الحديثة ، ومبادرة بعض البلدان ، ومن بينها الجزائر ، الى تفصيح كثير من المفردات الدارجة ونشاطات المعاهد اللغوية والمجامع فى البلاد العربية · كل ذلك من شانه ان يوفر الجو الطبيعى لسيادة الفصحى لتكون لغة الحياة اليومية والثقافة ·

* * *

اما المسالة الاخرى التى تثار ايضا فهى ادعاء البعض ان التعريب يؤدى الى انخفاض المستوى· ومع اقرارى بهذا الضعف· فهو ليس وقفا على الاقسام المعربة ، فهو ضعف عام متجانس نجده ايضا فى الاقسام غير العربية· وكان ينبغى ـ لو توفر الشعور الوطنى والارادة الثورية ـ ان يدرس هذا الضعف بهدف تجاوزه لا ان يكون تبريرا لتخريب التعريب ·

واما القول بان المعربين عاجزون· فيمكن الرد عليه باننا منذ الاستقلال وكل امورنا الادارية والثقافية والعمرانية وغيرها بايدى هؤلاء· فاي اصلاح ادخلوه على حياتنا· انهم كما قال الاستاذ عبد الله شريط فى مقال له عن هذا الموضوع · مكبلون بالقيود الفرنسية· واقفلوا جميع النوافذ المطلة على النماذج الانسانية الاخرى · واقول ايضا ان هذا العجز قاسم مشترك بين الجميع · واذا كان هناك فرق فهو فى درجة الوطنية والاعتزاز الوطنى فقط ·

* * *

اما المسالة الاخرى فهو ادعاء البعض ممن ينتسبون زورا الى التقدمية· ان التعريب شعار ترفعه الرجعية فى هذا الظرف بالذات لتغطية قضية الثورة الزراعية· وان التعريب ردة شوفينية ·

اقول لهؤلاء ان التعريب ليس هذا او ذاك · انه فى احدى وجوهه مشكل صراع طبقى بين الاغلبية الساحقة ، وبين الاقلية المتعلمة باللغة الاجنبية· وان تحليل الاصول الاجتماعية لكلا العنصرين يوضح من يقف فعلا ضد جميع الاختيارات الاساسية للثورة ومن بينها الثورة الزراعية· ولا شك بناء على هذا التحليل ان المعربين ومعهم الجماهير الشعبية العريضة لا يوجد أى تناقض بينهم وبين الثورة الزراعية · هذا من الناحية النظرية المنطقية· ومن الناحية التاريخية ، وبتتبع سير حركة التحرر الوطنى الجزائرى يتبين لنا ان الريف كان الوعاء الذى



حمي الثقافة العربية الاسلامية من التلاشي • وهذا التلاحم بين الفلاحين وكل الفئات الكادحة والثقافة الوطنية هو الذى يفسر العمق الخلفى للثورة الجزائرية الذى يتالف من كلمتين : الارض واللغة •
والريف بعد ان انتزعت منه الارض تحول الى قلعة حصينة قاومت عملية المسخ الثقافى • فهناك اذن امتزاج عضوى بين النضال من اجل استعادة الارض ومقومات الامة وفى طليعتها اللغة • وهذا الامتزاج هو الاساس الايديولوجى للثورة الجزائرية •

ولنا ان نتساءل : من هم المتحمسون للتعريب والثقافة الوطنية ككل ، ومنهم المعارضون له ؟ ان الرغبة فى تعلم اللغة الوطنية موجودة بصورة واضحة بين الجماهير الشعبية الواسعة • اما المعارضون فهم الاقلية التى تسيطر وتملك جميع ادوات السلطة الحقيقية •

وادعو هؤلاء الى تامل التحول الاجتماعى فى بلادنا منذ الاستقلال حتى الآن • فسيجدون ان هذه الطبقية الثقافية تتحول شيئا فشيئا الى طبقة لها امتيازات اقتصادية واجتماعية متناقضة مع مصالح الجماهير الشعبية •

والواقع ان الصراع حول وضع اللغة والثقافة الوطنية ومستقبلها لا يضع فى مقدمة المواجهة هذه الطبقة البيروقراطية والجماهير الشعبية فحسب ، ولكنه يضع ايضا قمة الدولة باعتبارها المعبرة عن اهداف الثورة •

فاحتكار هذه الاقلية لجميع السلط الادارية وغيرها يقف وراء التعثر فى حركة التعريب الى درجة ان بعض الآباء اصبحوا يحتجون عندما يعين ابناؤهم فى الاقسام المعربة • ويقولون كانت الفرنسية فى العهد الاستعمارى لغة الخبز والحياة واليوم هى كذلك • فلماذا نحرم ابنائنا ؟

صحيح انه يوجد من بين المعربين من له اتجاه او موقف ايديولوجى مخالف • ولكنه يوجد ايضا منهم متحمسون لاختيارات الثورة ، ونفس الظاهرة تلاحظ بالنسبة لغير المعربين •

واما مسالة اثارة موضوع التعريب فى هذا الظرف ، ظرف معركة الثورة الزراعية واعتباره تشويشا لسير هذه المعركة • فتاويل ساذج • ولو درسوا بالعمق تاريخ انطلاق الحركات الاشتراكية فى العالم لتوصلوا الى نتائج مهمة تساعدهم على انضاج ثقافتهم • ان اول قضية بادر لينين بعد انتصار الثورة هو اصلاح اللغة الروسية لا استبدالها بلغة اخرى • وانه فى سنوات المجاعة كان لينين يتحدث ويعبىء الجهود للقضاء على الامية ولم ير اى تعارض بين تعليم اللغة الروسية لافراد شعبه وبين استمرار تطبيق الاشتراكية • ويقول لينين : « شعب يعتمد فى حياته الفكرية والثقافية على لغة اجنبية لن يتمكن ابدا من التحرر الاقتصادى والاجتماعى والسياسى • لان اللغة الاجنبية ستبقى وقفا على طائفة ذات امتيازات ثقافية • ومن ثم تؤول الى امتيازات اقتصادية واجتماعية وسياسية •

وكان هدف الحزب الشيوعى الفيتنامى منذ الايام الاولى لتاسيسه اعادة الاعتبار للغة الوطنية والعمل من اجل سيادتها • يقول السيد نغويين فان هوين : كان الحزب منذ تاسيسه الاول يصدر قراراته وتوجيهاته ومنشوراته ونداءاته باللغة الفيتنامية • وكانت القضايا العقائدية والسياسية تقدم بلغة الشعب • صدرت كتب عن الماركسية باللينينية وحررت فى مرحلة الكفاح السرى



باللغة الفيتنامية وانتشرت فى جميع انحاء الوطن واثرت تاثيرا عميقا على مختلف طبقات الشعب» ٠

فهل نتهم لينين والشيوعيين الفيتناميين عندما يؤكدون على دور اللغة الوطنية بالشوفينية والرجعية ؟ ان الخطر الحقيقى ليس هو التعريب بالنسبة للثورة الاشتراكية ٠ وانما الخطر فى هذه الظاهرة : وهى اننا فى ظرف عشر سنوات انتشرت اللغة الفرنسية على نطاق لم يصل اليه الاحتلال الفرنسى طيلة حكمه الطويل ، وان عدد الكتب الفرنسية ـ ونقتطف هنا بعض ما جاء فى تصريح للوزير الفرنسى السابق رونى بورون عارض به ريموند كرطى فى ندوة تليفزيونية حيث ذكر ان عدد الكتب المستوردة من فرنسا بالنسبة للجزائر ، هو خمسة اضعافها سنة ١٩٦١ ٠ وما نتج وينتج عن هذا من نزوع محموم نحو التقليد واعتبار النموذج الغربى الراسمالى اعلى المستويات الثقافية والحضارية ٠

ونلاحظ بازاء هذا ذلك التقتير المقصود فيما يتعلق باستيراد الكتاب العربى وما ينشا عن ذلك من مضاعفات على حركة التعريب ٠

وهنا نتساءل اليس انتشار ما يسمونه انفسهم ، بالثقافة الغربية الراسمالية عن هذا الطريق وغيره هو الذى يهدد نجاح الاشتراكية ؟ ! ومع ذلك لم نشاهد هؤلاء يتخذون اى موقف تجاه هذا الخطر٠

* * *

ينبغى ان تقف هذه المزايدة والثرثرات العقيمة البعيدة عن الواقع الموضوعى للجماهير الشعبية ، هذه الشعارات التى تخدع بردائها الثورى الظاهرى ، وتخفى فى طياتها خواء الفكر والبعد عن الواقع٠ ووضع المسالة على وضعها الصحيح وهو ان التعريب يعنى : ثقافة وطنية بلغة وطنية وعلى اسس شعبية ثورية ٠

واملنا اخيرا ان نعمل جميعا على تطوير اللغة الوطنية بحيث تحقق شرطين : ان تحافظ على عبقريتها اولا ٠ وان تكون اداة للتوصيل والابلاغ لا مجرد وسيلة للترنم بها ٠ وبهذا ندخل مع الانسانية عصر التفكير العلمى الذى يواجه المشكلات ٠

عثمان شبوب



ج ـ ر ـ عـدد 36 بتاريخ 3 مايو سنة 1968

أمر رقم 68 ـ 92 مؤرخ فى 28 محرم عام 1388 الموافق 26 ابريل سنة 1968 يقضى باجبارية معرفة اللغة الوطنية على الموظفـين ومن يماثلهـم

ان رئيس الحكومة ، رئيس مجلس الوزراء ،

ـ بناء على تقرير وزير التربية الوطنية ، ووزير الداخلية ،

ـ وبمقتضى الامر رقم 65 ـ 182 المؤرخ فى 11 ربيع الاول عام 1385 الموافق 10 يوليو سنة 1965 والمتضمن تأسيس الحكومة ،

ـ وبعد الاطلاع على الامر رقم 66 ـ 133 المؤرخ فى 12 صفر عام 1386 الموافق 2 يونيو سنة 1966 والمتضمن القانون الاساسي العام للوظيفة العمومية ولا سيما المادة 25 منه ،

يأمـر ما يلي :

المـادة الاولى : تتمم المادة 25 من الامر رقم 66 ـ 133 المؤرخ فى 12 صفر عام 1386 الموافق 2 يونيو سنة 1966 والمتضمن القانون الاساسي العام للوظيفـة العمومية كما يلي :

« 4) اذا لم يثبت معرفة كافية للغة الوطنية أثناء تعيينه . غير ان هذا الشرط لا يلزم به المترشحون لوظيفة عمومية من الذين لا يتمتعون بالجنسيـة الجزائريـة بصـورة اصلية .

سيصدر مرسوم بتحديد كيفيات وميدان تطبيق الفقرة 4 من هذه المـادة » .

المـادة 2 : ينشر هذا الامر فى الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبيـة .

حرر بالجزائر فى 28 محرم عام 1388 الموافق 26 ابريل سنة 1968 .

هـواري بومـدين

احدى قرارات الدولة لاجبارية اللغة الوطنية فى الادارة .





على هامش المؤتمر الثانى للتعريب

نحو خطة شاملة لتطوير اللغة العربية



عبد الحميد مهرى
الامين العام لوزارة
التعليم الابتدائى والثانوى

لعل أهم ما نستخلصه من مناقشات المؤتمر الثانى للتعريب وتوصياته هو الشعور المتزايد لدى المشاركين فيه بالحاجة الى خطة شاملة ودقيقة تنظم الجهود التى تبذل لتطوير اللغة العربية ٠

فقد لمس الجميع مدى التخبط الذى ينجم عن فقدان مثل هذه الخطة فى كل قضية من القضايا التى تناولها البحث فى المؤتمر ٠ واذا كان المؤتمرون قد عبروا ، أكثر من مرة ، عن تقديرهم للجهود التى بذلتها الهيئاتالعلمية العربية وبعض الافذاذ من العلماء العرب لتطوير اللغة العربية العلمية والنتائج التى وصلوا اليها فانهم أدركوا بدون شك ان فقدان خطة مدروسة لتنظيم هذه الجهود فى المستوى العربى العام هو السبب فى عجز هذه الجهود عن تفجير ثورة لغوية ترقى الى مستوى طموح المجتمع العربى المعاصر وتطلعاته ٠

وقد ساعد تقلص بعض الافكار السلبية (مثل انعكاس التمزق السياسى على العمل اللغــوى والاتكال على اصالة اللغة لتضمن تطورها ، وضعف الايمان بضرورة العمل العربى المشترك الخ ...) فى هذا المؤتمر ، على الاقتناع بامكانية وضع خطة للعمل فى المستوى العربى العام . فاندفـــع المؤتمرون لتقديم مقترحات بناءة ضمن بعضهـا فى التوصيات الاخيرة . وهذه نتيجة ايجابية الى ابعد الحدود اذا وجدت من المسؤولين فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب تنسيق التعريب من يتعهدها بالرعاية والتطبيق .

ولكن تصور هذه الخطة لم يتحدد بعد بما فيه الكفاية ، وليس على المؤتمر فى هذا لوم . لان هذا الموضوع لم يكن مندرجا اساسا فى جدول اعماله. كما انه من الصعب ان نزعم بان المؤتمرين خرجوا بتصور موحد لهذه الخطة بالرغم من طابع الشمول الذى اتسمت به التوصية الاخيرة .

وقد يكون من المفيد ان نجمل عناصر هذه الخطة كما برزت من خلال توصيات المؤتمر ومناقشاته ومن اللقاءات الخاصة التى جمعت بين المؤتمرين حتى يستقر النقاش حولها بعد المؤتمـر وحتى يشترك فى هذا النقاش عدد اكبر من المهتمـين بقضايا اللغة العربية وهذا مما يساعد حتما على بلورة هذه العناصر وترتيبها حسب اهميتها . ولهذا فان الترتيب الذى نورد فيه هذه العناصر لا يتضمن حكما بالاولوية بل هو مجرد سردلقضايا كلية تتداخل فى بعض الاحيان حتىليصعب عزلها عن بعضها . وهذه العناصر ، كما يبدو لى ، هى :

اولا : ان العمل الذى يبذل الآن لتطوير اللغة العـربية العلمية غـير كاف من الناحية الكمية ومن الضرورى ايجاد طرق جديدة لعمل الهيئات القائمة واشتراك هيئات اخرى فى هذه المهمـــة لسد هذا العجز الكمى .

ان المجامـع العربيـة الثلاثـة فى القـــاهرة وبغـداد ودمشق قامت بجهـــود كبـــيرة لملاحقة ركب العلـــم ولكـــن التنسيـــق بينهـا مـــن جهـــة وبينهـــا وبـين بعض الجامعات والهيئات التى اهتمت بالمصطلحات العلمية كان غير كاف وقد تاتى هذه الجهود بنتائج اكبر لو اضطلعت جميع الهيئات التى تستعمل اللغة العربيـــة فى العمل والتدريس بالاسهام فى وضع المصطلحات وقام بينها وبين المجامع حوار دائم ومنظم تتولى فيه المجامع مهمة الاشراف والقيادة ويمكن مـــن وضع المصطلحات وتحقيقهاوتجربتها فى مستويات مختلفة من مسار ينطلق من المجامع ويعود اليها ويشارك فيه المجمعيون والممارسون للغة العلميـــة جميعا . ويمكن ان يقوم بهذه المهمة فى الاقطار العربية التى ليس فيها مجامع اما بعض الجامعات المهيئة لهذا العمل او هيئات خاصة تنشا لهـــذا الغرض . وبهذه التغطية الشاملة للاقطار العربية يمكن ان نضمن تنسيقا ديناميا ومثمرا فىالمستوى القطرى . اما التنسيق على المستوى العربى العام فتتولاه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بواسطة مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربى واعانة اتحاد المجامع والجامعات العربية . وهـــذا العمل يستلزم ان تخصص المنظمة فى برامـــج نشاطها جزءا اكبر لندوات التعريب ومؤتمراته



وان يعطى مكتب التعريب ـ وهو الجهاز المتخصص للمنظمة ـ من الوسائل البشرية والمادية والتقنية ما يمكنه من تحضير هذه الندوات والمؤتمرات تحضيرا دقيقا من الناحيتين العلمية والمادية ٠ والتنسيق في المستوى العربي العام يمكن ان يتم عن طريق العمل المشترك بين الهيئات وداخل الندوات والمؤتمرات كما يمكن ان يتم بتوزيع العمل بين الاقطار والهيئات العربية للاستفادة من جميع امكانيات العالم العربي وكفاءاته ٠

ثانيا : ان اثراء اللغة العربية بمصطلحات العلم الحديث لا يمثل الا جانبا هاما من قضية متعددة الجوانب ، بل انه لا يمثل كل البحث والعمل المعجمي التي ما زالت اللغة العربية في حاجة اليه ٠ واستئثار هذا الجانب بالاهتمام ووضعه في مصاف الاولويات له مبرراته الفكرية والعلمية ٠ ولكن حل قضية المصطلحات العلمية حلا جذريا لا يمكن ان يتم بمعزل عن حلول بقية المشاكل الحقيقية او الوهمية التي تعوق تطور اللغة العربية ٠ ولعل المشاكل الحقيقية ـ في هذا الميدان ـ تكون اسهل علاجا من المشاكل الوهمية ٠

ولهذا فمن الضروري ان يغطي البحثوالتجربة جميع هذه المشاكل وان تحاط الجهود المبذولة بالجد العلمي والتنسيق الواعي الذي يخرجها من طور المحاولات الى ميدان البحث المخطط الطويل النفس ومن الجهود الفردية المتقطعة الى العمل الجماعي المنظم ٠

فالجامعات العربية مدعوة للتوسع في تدريس اللسانيات الحديثة لتخريج الاطارات اللازمة في مختلف التخصصات ووزارات التربية مدعوة لاقامة مراكز بحوث للدراسات اللسانية التربوية واللسانية النفسية ، تعمل باتصال مع الجامعات من جهة ومع المربين والمدرسين من جهة اخرى ٠ فقضية الكتابة العربية مثلا وقضية القواعد العربية ، وقضية الرصيد اللغوي الاساسي ، لا يمكن حلها الا باسهام منظم من وزارات التربية في البلاد العربية ٠

ومن الضروري ان نواجه مشاكل اللغة العربية بشيءمن الحرص والحزم فليس لدينا الوقت كله لحل هذه المشاكل بل اننا مدعوون لاحكام الاداة اللغوية التي ليست الا وسيلة لتحقيق ثورة ثقافية وعلمية عميقة الجذور باسقة الافنان ٠

ثالثا : ضرورة وضع سياسة عربية موحدة في اعلى المستويات للتوسع في استعمال اللغة العربية في الداخل ونشرها في الخارج ٠ وهذه النقطة الهامة لم تكن موضوع نقاش في المؤتمر ولكنها كانت تخيم على هذا النقاش كلما ابتعد عن الجوانب التقنية البحتة واقترب من تحليل الوضع اللغوي السائد في الوطن العربي ٠ وقد مكن لقاء رؤساء الوفود مع الرئيس بومدين من طرح هذه القضية في آخر جلساتالمؤتمر وافرادها بتوصية خاصة نرجو ان تكون لها نتائجها المرجوة

والواقع ان تطوير اللغة العربية لا يمكن ان يتم الا ضمن سياسة لغوية سليمة ومهما كان حرصنا

على التقيد بالمنهجية العلمية في عملنا اللغــوي فان ذلك لا يعوض فقدان سياسة لغوية سليمة ولا يصحح من باب الاحرى، سياسة لغوية خاطئة. ان أغلب الحكومـات العربيـــة تنتظـــر مـــن المجامـــع والهيئات العلمية القيام بمهمة تطوير اللغة العربية ولا يظهر انها تشعر بضرورة القيام بشيء آخر . والواقع ان عمل العلماء لا يمكن ان يأتي بنتائج حاسمة في هذا الميدان الا اذا قامت السلطة السياسية برسم الطريق أو على الاقل بازالة بعض المتناقضات الصارخة التي ظلت تواكب السياسة اللغوية في معظم الاقطار العربيــة منــد عشرات السنين : مثل تكليف المجامع بتطوير اللغة العربية العلمية والاستمرار في تدريس العلوم باللغات الاجنبية في الجامعات ! فحرمان اللغة العلميـــة الموضوعة من طرف المجامع والهيئات العلمية من الاستعمال في ميدانها الطبيعي هو قضاء عليهـا وقضاء على جهود المجامع بالعقم .

وقد حان الوقت على ما اعتقد لتصحيح هـــذا الخطأ الاستراتيجي في سياستنا اللغوية ونبـد الفكرة القائلة بتأجيل استعمال اللغة العربية في تدريس العلوم حتى تتأهل لذلك . اذ يكـــون معنى هذا ان اللغة العربية التي اصابها القصور لبعدها عن مواكبة العلم سوف يستقيم أمرها اذا أبقيت بعيدة عنه عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى .

وهناك ظاهرة أخرى تتصل بمكانـة اللغـــة العربية في العالم ، فالمنطقة الحضارية العربية من أكثر المناطق اقبالا على دراسة اللغات الاجنبية وفي هذا الخير كل الخير اذا سلمت النيات . ولكن حظ اللغة العربية ضئيل بين اللغات الاجنبية في هذه الدول التي تحتل لغاتها مكانة ممتازة في بلادنا . بحيث أدى هذا الاختلال الخطير الى عكس ما يرمي اليه الفلاسفة من تشجيع دراسة اللغات الاجنبية وهي زيادة التفاهم بـين الشعوب والحضارات ، أدى هذا الاختلال الى فهم من جانب واحد وسوء فهم – على الاقل – من الجانب الآخر .

ان هذه القضايا كلهـــا يجب ان تبحث في مستويات عربية عليا وان ما يصدر فيها من قرارات وتوجيهات سيجعل عمل العلماء يسيرا في المؤتمرات المقبلـــة .



التعـريب قضيــة ارادة ثــوريــة



د. بوعلام بن حمودة
وزير العدل
وحامل الاختام

حينما قررنا التعريب الشامل فى القضــاء ، اودنا ان نجاوز الجدال العقيم الذى كان يــدور منذ الاستقلال حول مسالة التعريب - فقد اطلعنا على عدة مقالات ناتجة عن هذا الجدال : فالبعض منها ابدى تحمسا للتعــريب والبعض الاخر لفت الانظار الى الصعوبات التى ستنجم عن تعــريب سريع بيد ان اناسا فضــلوا الاحتفاظ باللغـــة الفرنسية لانهم يعتبرون اللغة كاداة للتعبير فقط والمهم عندهم هو المحتوى ·

لقد اتيحت لنا فرصة الاطلاع على المجهودات الكبيرة التى بذلتها وزارة العدل لتطبيق التعريب بشكل علمى منظم . من ذلك تاسيس مطبعتين بالعربية احداهما فى سجن الحراش والاخرى بالدار البيضاء لطبع الاوراق الادارية المستعملة يوميا باللغة العربية وتنظيم محاضرات يومية ودورية وباللغة العربية لتكوين واعادة تكوين القضاة وتعليم اللغة العربية بوسائل عصرية نامل من المؤسسات والمصالح الادارية وغيرها الاستفادة من هذه التجربة. و الواقع ان تجربة وزارة العدل تعتبر رائدة . وتستحق تحقيقا خاصا سنقوم به فى احد اعدادنا القادمة

طال الجدال اذا ولكن بدون جدوى حتى مل المحررون من الحديث عن التعريب وحتى ضجر القراء من مطالعة دراسات متصلة بالموضوع ·

ونحن نقول ان بعض المبادىء الاساسية لا تقبل الجدال مثل مبدأ الحرية والاستقلال ومبدأ الاعتزاز بمميزات الشخصية الوطنية · فما كان علينا الا ان ننطلق من الحقيقة التاريخية الثابتة وهى ان الجزائر تنتمى الى العروبة والاسلام وان لغتها كانت عربية حين احتلتها الجيوش الاستعمارية ·

فكان من المفروض ان نعود الى لغتنا بمجرد الحصول على الاستقلال · واننى اعتقد شخصيا ان الشعب الجزائرى ، لو قررنا التعريب الكامل فى ١٩٦٢ لاعتبر قرارا مثل هذا طبيعيا ولتكيف مع الوضع الجديد ·

كما عرف كيف يواجه مشاكل الفراغ الادارى وقد بينت لنا التجربة ان الخطوة الاولى هى الحاسمة : فاذا كان الايمان قويا فلا شىء يوقف السير والمثال الحى الذى ياتى الى اذهاننا هو اندلاع ثورة اول نوفمبر الذى تحقق بقلة اسلحة وقلة رجال ولكن الشروع فى المعركة المقدسة فجر الطاقات وحنك المناضلين حتى اصبحوا قادرين على حل مشاكل لم يكونوا يتصورونها قبل بداية الثورة ·

فايمانا منا بان التعريب الكامل ضرورة حتمية يؤكد عليها برنامجنا الثورى ، شرعنا فى العملية بدون تردد ·

وقد كنا نعلم ان التعريب الشامل والمفاجىء سيطرح مشاكل وقد طرحها ولكن كنا نعلم ايضا ان الانسان قادر على التكيف السريع امام امر لا رجوع فيه · وهنا تذكرنا قول طارق بن زياد لجنوده « العدو امامنا والبحر وراءنا فاختاروا أيهما شئتم » ، واحراقه للسفن الحربية عبارة عن قطع كل وسيلة للرجوع وعن سد الذرائع·

ونحن نعترف بان قرارنا كان يتصف بشىء من المغامرة غير انه ادخل فى الحسبان وجود ثلث القضاة معربين ووجود ١٠ فى المئة من الكتاب معربين واخذ بعين الاعتبار التعريب الذى كان قد تم فى فرع الاحوال الشخصية وفى ولايتى بشار والواحات· وعلاوة على ذلك حسبنا حسابا لنجاعة الوسائل السمعية البصرية التى تستطيع ان ترفع المستوى اللغوى فى ظرف قصير من الوقت ·

فما كانت اثار القرار وما هى الحالة التى خلفها وكيف تطورت ؟

من الناحية النفسانية احدث القرار تخوفا واضطرابا عند البعض وامالا كبارا عند البعض الآخر ·

ولكن بعد أيام من الدهشة وبعد ان تيقن الكل من ان الامر لا مرد له ، بدانا نرى الناس يالفون الوضع الجديد ويبتدعون وسائل مختلفة لتطبيق القرار ولتحسين مستواهم فى اللغة العربية ، وبالفعل اكتشفنا ان بعض القضاة والموظفين والمحامين تعاطوا دراسة العربية لاول مرة منذ الاستقلال وهذه الملاحظة تبين ان عامل الزمن الذى يعتمد عليه البعض لتحقيق التعريب لم يكن كافيا اذا لم تخط الخطوة الاولى فى العملية ·

ولتشجيع حرص الجميع على تعلم اللغة العربية نظمنا دروسا فى الوزارة وفى كل محكمة وانشانا مركزا خاصا دوره التكوين المهنى وتعميق المعلومات فى اللغة العربية (وهذا المركز المعرب

تماما فتح ابوابه فى سنة ١٩٧٣ واستقبل خمسين قاضيا وخمسين كاتبا لمدة ثلاثة اشهر) ٠

وقرار التعريب اضطر الوزارة ، لحسن الحظ ، الى اتخاذ تدابير سريعة منها :

ـ تكوين سريع للكتاب على الآلة الراقنة ، (والجدير بالذكر ان الآلات التى اشترتها الوزارة تحتوى على الحركات لان الاحكام التى تصدر مشكولة تزداد وضوحا عند المواطنين) ٠

ـ اعادة النظر فى مئات المطبوعات والاستمارات التى كانت تستعمل باللغة الفرنسية فحددنا برنامجا واسعا لطبع هذه الاستمارات بالعربية فقط لاننا لاحظنا ان الموظفين يملؤونها بالفرنسية اذا كانت مطبوعة باللغتين ٠

ـ الشروع فى عملية كبيرة وهى طبع القوانين الهامة ومجموعة المناشير والاحكام الهامة التى صدرت منذ الاستقلال لتكون فى متناول الجميع٠

ولتجنب الاختلاف فى المصطلحات القانونية جمعناها فى قاموس صغير وزع على القضاة والمحامين ٠

فالعملية ضخمة لان عدد انواع الاستمارات ٦٠٠ تقريبا وكل استمارة نستخرج منها مئات الآلاف من النسخ ٠

فكذلك عدد القوانين التى صدرت منذ الاستقلال كبير وسيرتفع جدا اذ ان الجزائر قررت ان تتخلص من التشريع الفرنسى فى ٥ جوليت ١٩٧٥ ، ومشكل اليد العاملة فى المطبعة لم يطرح لان عملية التعريب صادفت تطبيق مشروع آخر يهدف الى تربية المسجونين وتثقيفهم وتكوينهم ، وتشغيلهم فاستخدمناهم فى المطبعة التابعة لوزارة العدل وقوينا هذه المطبعة ماديا وبشريا وهى عبارة الآن عن مصنع كبير ٠

كل المجهودات الفعلية التى بذلتها وزارة العدل قطعت على الناس كل الاعذار ، غير اننا لا ننكر الصعوبات التى واجهناها وذللنا الكثير منها ٠

ولاعطاء صورة عن بعض الصعوبات نذكر ما يلي :

ـ لقد حاولت قلة من الناس عرقلة تطبيق القرار بعدة وسائل ولكنها لم تنجح ٠

لقد حاول محامى فرنسى مثلا ان يرافع بالفرنسية فى اليوم الاول من دخول القرار حيز التنفيذ ، فلله در القاضى الذى اسكته قائلا : اننى لا افهم لغتك الفرنسية فاذا اردت ان ترافع فتكلم باللغة العربية كما نصت عليه تعليمات الوزارة والا فاننى اطلب منك الانسحاب من قاعة الجلسات ٠

ـ مثال آخر ، تباطأ بعض القضاة فى ممارسة المناقشات العلانية بالعربية فارسلنا اليهم انذارا يطلب منهم ان يطبقوا فورا تعليمات الوزارة والا الحقنا بهم العقوبات التى يوقعها قانون الوظيف العمومى على كل موظف يعصى اوامر رؤسائه ، فبعد هذا التهديد امتثلوا للامر ٠

ـ وقد طلب منا محامون اتوا من فرنسا للمرافعة فى قضايا تمس مواطنيهم الاعفاء من الدفاع بالعربية فرفضنا طبعا منبهين اياهم اننا لا نظن ان محكمة فرنسية تقبل من محام عربى ان يرافع بلغته ٠













(*) نماذج من المعاجم التي اصدرتها وزارة العدل لمساعدة القضاة والمحامين على استعمال المصطلحات العربية .

إعلانٌ بِمسَائِلَ قَضَائِيٍّ		بَيَانَةٌ (1)
نَوعُ الجِنَايَاتِ، الجُنَحِ أوِ المُخَالَفَاتِ	أُدِينَ جِنَائِيًّا رَقْم	(1) النيابة العامة بـ ... أو نيابة وكيل الدولة بـ ...
المُتَّهَمُونَ (2)		الشُّهُودُ (ش) ، المَجْنِيّ عَلَيْهِم (م) ، المُدَّعُونَ المَدَنِيُّونَ (م.م) (2)
المَسْؤُولُونَ مَدَنِيًّا (2)		(2) اسماؤهم والقابهم واعمارهم ومهنهم ومحل اقامتهم

(3) تلخيص الحكم :

لِيَ الشَّرَفُ أَنْ أُحِيطَكُمْ عِلْمًا بِأَنَّ القَضِيَّةَ المُبَيَّنَةَ أَعْلاهُ

☐ رُتِّبَتْ بِدُونِ تَتَبُّعٍ

☐ مَوْضُوعُ التَّتَبُّعِ أَمَامَ

بِجَلْسَةِ 19

☐ مَوْضُوعُ حُكْمٍ بِتَارِيخِ 19

ابْتِدَائِيًّا أَوْ نِهَائِيًّا يَتَلَخَّصُ كَمَا مُقَابِلَهُ (3)

مجلس قضاء :

محكمة

أُعْلِنَتْ دَعْوَةُ طَرَفَيِ الخُصُومَةِ لِلْحُضُورِ إِلَى يَوْمِ

عَلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ وَالنِّصْفِ صَبَاحًا وَذَلِكَ لِلْبَتِّ فِي أَصْلِ الدَّعْوَى

وَفِي هَذَا التَّارِيخِ نُودِيَ عَلَى القَضِيَّةِ المُسَجَّلَةِ فِي الجَدْوَلِ العَامِّ لِلْقَضَايَا

إِنَّ المَحْكَمَةَ

حَيْثُ أَنَّ

و

تَزَوَّجَا بِتَارِيخِ وَسُجِّلَ زَوَاجُهُمَا

بِسِجِلِّ الحَالَةِ المَدَنِيَّةِ لِبَلَدِيَّةِ

وَوُلِدَ لَهُمَا أَوْلَادٌ

عَنِ الطَّلَبِ الأَصْلِيِّ المُتَعَلِّقِ بِ

حَيْثُ أَنَّ

وَعَنْ طَلَبِ الاعْتِرَاضِ .

حَيْثُ أَنَّ

وَعَنِ الحَضَانَةِ وَحَقِّ الزِّيَارَةِ

حَيْثُ أَنَّ

(*) وهذه بعض الاوراق الادارية المتداولة وهي معربة تماما.

هذه امثلة تبين المحاولات التى كانت ترمى الى عرقلة القرار او تـأجيل مفعوله والتى لم يقض عليها الا بالحزم الذى وجدته لدينا ٠

ـ نـوع آخر من الصعوبات ، الادارات التى تتصل بوزارة العـدل ما زالت تعمل بالفرنسية فيضطـر القاضى الى ترجمتها وهذا تضييـع للوقت ٠

ـ وفى بعض المحاكم تم التعريب الكامل بسبب وجود قضاة وكتاب يحسنون العربية ولكن فى بعض المحاكم نجد قضاة ضعفاء فى اللغة العربية وكتاب يحسنونها او العكـس ، فحاولنا بقـدر الامكان اصـلاح هذه الوضيعة بقرارات التبديل وبالتكوين المستمر الذى ذكرته فى بداية المقال ٠

ـ ومن الصعوبات ايضا ما هو ناتج عن ترجمة الاحكام من العربية الى الفرنسية : فلتسهيل فهم الاحكام وتنفيذها قررنا ان نتبعها بترجمة فرنسية٠

ونظـرا لتضييع الوقت اكتفينا بترجمة منطوق الحكم فقط وهو قصير عادة ٠

فهكذا اجتهدنا ولاءمنا تدابيرنا مع سير العملية فالان كل التعليمات التى تحكم العملية صـدرت من الوزارة وشرحت مرات فى اجتماعات عقدناها فى الوزارة او فى الولايات ٠

وكم كان سرورنا شديدا اذ وجدنا محاكم عربت اشغالها مئة فى المئة ومحاكم اخرى ساعية كـل السعي الى تعريب كامل الفروع ٠

ونستطيع القول بـان وزارة العدل فى ميدان التعريب قطعت المرحلة الحاسمة ، فبالقضاء على الصعوبات الباقية وبالتزام اليقظة الدائمة ستصل لا محالة الى النجاح فى العملية التى كانت تعتبر مغامرة ولكن المغامرة اذا كانت فى سبيل الوطن وفى سبـيل استرجاع لغتـه فهى مقبولة بـل مستوجبة ٠



التعريب من الوجهتين الاجتماعيّة والسّياسيّة



عبد المجيد مزيان
كلية الآداب
جامعة الجزائر

« لم يبعث الله نبيا الا بلغة قومه »
حديث

١) ملابسات « التحول الثقافى »

توجد فى كثير من بلاد العالم الثالث اليوم طوائف من المثقفين لقنت النقد الذاتى من مرايا مشوهة تعكس لهم وجوههم فى ابشع الصور وحسب الرسوم التى يرسمها لهم مستعمروهم القدماء ، وينتج عن هذا التشويه أنهم كرهوا صورتهم اشد الكراهية وارادوا استعارة وجه جديد.

اعطنى صورتك اتقنع بها ، اعطنى دماغك افكر به ، اعطنى يدك اعمل بها ، اعطنى لسانك اتكلم به » . لو سمعنا انسانا ينطق بهذه العبارات لقلنا انه يهذى ، اننا تعودنا فى لساننا العربى ان نسمى هذيان الطائفة الاجتماعية استلابا واغترابا. ان المجتمع المسلوب الثقافة يشابه الشخص المسلوب العقل ، والاغتراب الاكبر هو ان تغرب عن قومك فيجدونك تتكلم معهم بلسان الآخرين. والافراط فى الجنون والاستلاب هو ان تقول لقومك اغتربوا جميعا حتى تصيروا مثلى لاننى بخير .

لقد اصبح المفكر السياسى الذى يدعو الى تفتيت الوطنيات من اجل عالمية مثالية يشابه الممثل الهزلى ، ما دام الناس يعلمون ان تفتيت وطنية ، ان فرضنا وقوعه ، يؤدى حتما الى الذوبان فى وطنية اخرى اشد قوة .

وهذا شأن دعاة الثقافة العالمية اليوم ، يتصورونها خياليا ولا يلتمسونها واقعيا الا فى الثقافات الوطنية المسيطرة : فى الانجليزية ، وفى الفرنسية مثلا. ان التحول الثقافى بناء على هذا الاعتبار تحول كاذب من الوطنية الى العالمية ، بل هو مجرد تحول من وطنية الى وطنية اشد قوة ، ومثال من يدعو الى هذا التحول مثال الانسان المسلوب العقل الذى يفكر بدماغ الآخرين وينطق بلسان الآخرين. من الملابسة ان يقول المرء ان الانفتاح على العالم والاقلاع عن التخلف يقتضى الاخذ بالعلم والتكنولوجيا بكل اسراع ، وثقافتنا ولغتنا لا تسعان هذا العالم الضخم فلنأخذه من عند ذويه دون تردد. ان الغلط هنا هو ان لا نفرق بين ما هو علم وما ليس بعلم . ليست « العلوم الانسانية » علوما راسخة القواعد حتى الآن. انها مطايا للعقائد ومغارات للنتوحات الثقافية ، والجزء اليسير منها الذى هو علم حقيقى يمكن ان تسعه اى لغة من لغات الدنيا دون كثير عناء .

ومن الملابسة ان نقذف بلغتنا بعيدا عن وجودنا كانها الشىء المنفصل عن كياننا ونصب عليها اللعنات فنسميها لغة القرون الوسطى ، ولغة الشعر والعاطفة، واخيرا لغة الرجعية والرجعيين. ان لغة مجتمع ما تعكس حياة هذا المجتمع بكل اخلاص فاذا قلنا ان لغتنا لغة الشعر والعاطفة فمعنى هذا ان مجتمعنا مجتمع الشعر والعاطفة. واذا قلنا وصح قولنا ، انها لغة القرون الوسطى فمعنى هذا اننا لا زلنا نعيش حياة القرون الوسطى. وبما أن اللغة ليست الا جزءا من انتاج المجتمعات ونشاطاتها فعلينا ان نلوم انفسنا عن كل عجز يلاحظ فى لغتنا ، ولا يمكن ان نتصور عزم امة متخلفة على الاقلاع عن التخلف دون ان نتصور عزمها على محاربة الامية ودون ان نتصور عزمها على النهوض بلغتها بكل اسراع ، الا ان تكون امة تعيش اشد الاستلابات وطأة وهو الاستلاب الثقافى الذى ينبىء بالانقراض القريب .

وانه لمن الملابسة ان نقول ان التمسك باللغة الوطنية امر عاطفى اكثر مما هو عقلانى ومنهج التغلب على مظاهر التخلف لا يتطلب الا العقل البارد الصرف. واعترف اني لو سئلت لماذا احب لغتى الوطنية لوقع مني التهافت على التماس الادلة العقلية ولكنها ادلة ستغطى الواقع العميق، وهو ان حب الانسان للغته امر شعورى لولاه ولولا شعورات اخرى مثل الاعتزاز بالوطن والتضحية من اجله ، لما كانت هناك اوطان او امم يفاخر بعضها البعض ، ولا يتجاهل هذه الحقيقة

الا المتجاهلون لاحوال المجتمعات· ولـو سالنـا الانجليزى والفرنسى لماذا تصرف الاموال الضخمة فى مختلف بقاع العالم من أجل التحصيل عـلى اشعاع ثقافى للغة الانجليزية واللغة الفرنسية ، لقيل لنا : « نحن امم تحب لغاتها وتتمنى لهـا الانتشار فى جميع الانحاء ، ولو تناولنا بالبحث ظاهرة حرص الامم على نشر لغاتها لوجدنا ان الناحية العاطفية لا تقل اهمية فيها عن النواحى المصلحية ·

واذا كانت العاطفة شـبه جريمة فى الميدان العلمى الصرف ، لانها مفسدة للبحث النـزيه ، فانه من الجريمة فى ميدان التمسك بالوطن واللغة ان لا تكون هناك عاطفة او ان نلابس على انعدامها عند الامم الضعيفة باللجوء الى العقلانيات التى تبرر التحول الثقافى المهىء للذوبان ·

ونقول اخيرا ان الملابسة الكبرى فيما يتعـلق بظاهرة التحول الثقافى· هى ان نتناسى تاريخية هذا التحول وارتباطه الوثيق بالاستعمار ، واذا كانت اجيالنا الحالية فى العالم الثالث تتجاهـل الحقيقة البديهية التى هى تخطيطات الاستعمار فى الميدان الثقافى ، فما عليها الا ان تجرى فحصـا على نفسها لتجد ان تكوينها اللاعلمى من قيـم اجتماعية وخلقية ، واذواق ، يرجع معظمه وحتى الآن الى مدارس الاستعمار·

نكاد نتسائل هل نحن اليوم اكثر وعيا ام كان وعينا اقوى منذ عشرين سنة· لقد كان الضغط الاستعمارى يجرى علينا مباشرة اذ ذاك ، وكنـا ننتبه بسببه الى مخططات العدو ونحاول احباطها فى انفسنا قبل كل شىء ، وكنا نشاهد التفككات العميقة التى يتعرض لها مجتمعنا وندرك بالبصر واللمس الذى لا يحتاج الى التحليل ، ان امتنـا مهددة بالانقراض من كل جانب ـ وكنـا نتمسك ببقايا من ثقافتنا كآخر وسيلة للنجاة ، اما الآن وقد زال الخطر المباشر فيظهر ان انتباه الكثـير منا قد عرف بعض الفتور· لقد اصبحنا نتكلم عن ثنائية الاصالة والتفتح كشعار يفهمه كل منا حسب تكوينه الحالى ، مع جهد قليل فيما يخص التأصل· ولا غرابة أننا نجد بعض المثقفين يضيقون مفهوم الاصالة لحصره فى حدود الثقافات الشعبية او لحصره فى شبه تقليد لاسلافنا مع التكاسل عـن الاصالة الحقيقية التى هى الخلق والابداع الذى تتطلبه النهضة الواجبة على اجيالنا الحاضرة ·

٢) للثقافـة بنياتها :

يمكننا ان نقـول ان للثقافة بنياتها كمـا ان للمجتمع بنيات· غـير ان البنيات فى الثقافـة مربوطة بمعيارية لا مناص منها اذ ان هناك فروقا عظيمة بين المستويات· من اجل هذا ، لا يمكننـا ان نضع كلا من الفلكلور والتكنولوجيا فى نفس المستوى ·

وان الانتباه الى تاريخية الوضع الثقافى منذ اتصالنا بالاستعمار يجعلنا نشاهد ان معظـم مجتمعاتنا فى العالم الثالث قد توضحت فيهـا الفوارق بين البنيات الثقافية ، فثقافة المستعمر تعتبر البنية العليا او تاج الثقافة عند الاجيـال الحاضرة ، وانعكاس هذه الوضعية على الحياة المجتمعية يجعل بطبيعة الحال ، هذه الثقافة فى قمـة الهـرم المجتمعى ، ولا عجـب ان تكون بيرقراطياتنا وتقنوقراطياتنا ذات جذور استعمارية فى غالب الاحيان اما الثقافة الوطنية فانها بمثابة البنية الوسطى ، وهى قبل كل شىء ثقافة التراث يعتنى بها قدر الحاجة الى بناء التاريخ القديم ، واحياء المعارف الاسلامية ويعتنى بها احيانا فى

حملات التأصل• وقوة هذه الثقافة راجعة فى اغلبها الى اللغة الوطنية ، غير ان هذه اللغة تعامل معياريا ، كلغة ثانوية لانها ليست لغة العلوم ، فيما يزعمون •

اما اسفل البنيات فانها بنية الثقافات الشعبية ويمكن ان نجد فيها هى الاخرى مختلف المستويات : من الفلكلور السخيف الى مستوى الشعر الراقى• وحيوية هذه الثقافات ترجع الى حيوية اللهجات المحلية وقدرتها على تصوير الواقع الاجتماعى بوسائل فنية خاصة بها •

واذا اردنا حسب المفهوم العادى ان نلمس الاصالة فى هذه المستويات فسنجدها مربوطة بالبنيتين السفلى والمتوسطة•

اما التفتح او جسر العالمية فكله مربوط بالبنية الثقافية العليا ، ومعنى هذا ان التفتح حسب المفهوم الجارى عندنا ، يعنى فى غالب الاحيان اكتساب الثقافة الاجنبية ، تارة للفعالية العلمية والتقنية ، واحيانا اخرى للتحصيل على مستوى التمدن الذى توحيه الثقافة العالمية المزعومة ، الا وهى ثقافة المستعمر القديم ، فى ميادين غير علمية مثل الآداب ، والاذواق ، والقوانين• نقول ان هذا التحليل المتعلق بالبنيات الثقافية قد يكون مبسطا للغاية• واذا اردنا ان نذهب الى اعماق الواقع ، فاننا سنتعرض لمشكلتين• اولهما مشكلة ربط للمستويات بالواقع الاجتماعى الاقتصادى الذى يتجلى فى تباين الطبقات ، والمشكل الثانى هو مشكل اللغة الوطنية ومكانتها بالنسبة لمختلف الطبقات• ومن هذه المعرفة للواقع يمكننا ان نتصور المشاكل التى تعترض سبيلنا فى تطبيق سياسة التعريب ، سنكون من المشوهين للواقع اذا ادعينا ان كل المتمسكين بالثقافة الاجنبية ينتسبون الى طبقة اجتماعية موحدة للعنصرين البورجوازى والبيروقراطى ، ذلك لان كثيرا من حملة الثقافة الاجنبية ، بفرض تخصصهم التقنى او المهنى ، يجهلون ثقافتهم الوطنية ولكنهم لا يضمرون لها الاحتقار والعداء ، ويودون ان لو مكنتهم الظروف من معرفة هذه الثقافة ، وهم مربوطون ذهنيا وسلوكيا وعضويا بالطبقات الشعبية• كما ان هناك حملة للثقافة الوطنية مربوطين ذهنيا وسلوكيا وعضويا بالعنصرين البورجوازى ـ البيروقراطى •

ولو طبقنا مثل هذا التصنيف المبسط على مشكلة اللغة ، لوجدنا ان هناك مستويات تكاد تكون طبقية• فالجارى عندنا مثلا ان اللغة الفرنسية او الانجليزية تعد بمثابة البنية الفوقية ، واللغة الوطنية تقوم مقام المستوى الاوسط بينما اللهجات المحلية تكون المستوى الاسفل •

قد يقال ان هذا الوضع طبيعى ما دامت اللغة الوطنية دون مستوى اللغات العلمية غير ان عرض القضية بهذا الاختصار مع معاملة اللغة الوطنية كعبء موروث محدود فى مستوى معين ، انما هو تعبير عما يجرى فى خلد طبقة معينة ، تريد بسبب تكاسلها وبسبب ارتباطاتها ان تستمر فى تقليد مستعمريها الى اجل غير محدود ، والتعبير الوطنى السليم يفرض هنا ان نقول : « يجب ترقية اللغة الوطنية الى مستوى العالمية ومستوى التبليغ العلمى مهما كلفنا ذلك من جهود »•

وبفضل هذه الجهود يمكن التخفيف من حدة الفوارق فى المستويات ، ويمكن وضع اللغة الوطنية فى القمة ، ووضع اللغة الاجنبية فى مكانتها الطبيعية كلغة اضافية للتبادل العالمى• وبهذا المفهوم يمكننا ان نتكلم عن الاصالة والتفتح

بدقة اكثر فتكون الاصالة ابداعا وخلقا فى مستوى العالمية وبواسطة لغة وطنية راقية ، ويصبح التفتح تبادلا بين الاكفاء ، وتزول الالتباسات والاستلابات المتعلقة بالتحول الثقافى والعالمية الثقافية المزعومة ٠

واذا أردنا ان نبسط مشكلة التعريب من حيث الغاية التى يجب رسمها من الآن ، فلا يمكن ان نتناسى قضية المستويات الموجودة حاليا ولا نتناسى ان اللغة الوطنية اذا بقيت بمعزل عن التعبير العلمى والتقنى ، عدت باستمرار لغة البنية الوسطى ، اى لغة ثانوية ، بمعيار الثقافة الحالية ، حتى ولو كانت لغة الادارة ، ولغة المدارس الابتدائية والثانوية ولغة التخاطب اليومى ان فرضنا نجاحنا فى محاربة الامية٠ هذه بعض منطلقات لسياسة التعريب ، اذا اخذت بكيفية اجمالية ، اما الجوانب العملية والجزئية من هذه السياسة فانها اشد تعقيدا مما يظن لاول وهلة ، اذ انها تثير مشاكل نوعية بالنسبة للمراحل ومختلف الاجيال وبالنسبة للطبقات ، والفئات والاشخاص الذين تسند اليهم المسؤوليات فى الادارة والتعليم ٠

التعريب ظاهرة اجتماعية طبيعية

تعودنا ان نطرح فى هذه السنين قضية التعريب من الوجهة السياسية كهدف وطنى ، نسترجع به شخصيتنا الثقافية التى فككها الاستعمار ، وانه لموقف سليم ان ننظر الى هذه القضية فى اطار التخطيط الوطنى٠ واذا كان التعريب يعد عند بعضنا من المتطلبات البديهية ، بحكم واقع الامة وبحكم تاريخها وضمان كيانها فى المستقبل ، فان هناك طوائف لا تحس بهذه البداهة ، ولعلها ترى البداهة فى ابقاء الحال على ما كان من سيطرة الثقافة الفرنسية ، واتمام مخطط التحول الثقافى الذى شرع الاستعمار فى تنفيذه منذ بداية هذا القرن ٠

يمكن ان يقال لهذه الطوائف المحافظة التى تمشى على تخطيطات ما قبل الاستقلال ان التعريب ليس اختيارا سياسيا من بين اختيارات متعددة ، ولكنه فرض طبيعى فرضه واقعنا الاجتماعى ، ولا يمكن التخلى عنه دون معاكسة هذه الطبيعة التى تاكدت طوال عشرة قرون ٠

اننا لا ندعى ان التعريب فى اقطار الغرب الاسلامى وقع دون مجهود او تخطيط من رجال الثقافة عبر الاجيال ، ولا ندعى انه كان امرا تلقائيا لم يحتج الى اى تدعيم من طرف قادة البلاد ، الواعين لاهمية الثقافة فى البناء الحضارى٠ بل كان التعريب لمدة مئات من السنين ثمرة مجهودات جبارة من طرف المثقفين وبعض رجال الدولة ، غير ان الامة جمعاء كانت تحتضن هذه المجهودات كتشخيص لرغبتها العميقة فى اكتساب الثقافة العربية وكوسيلة ضرورية لفهم العقيدة الاسلامية الراسخة فى النفوس ، ويمكننا ان نعد هذه الرغبة الجماعية ابرز مظهر يجعل من التعريب ظاهرة اجتماعية طبيعية ، لانها مقرونة بحضارة الامة وكيانها ٠

كل انواع التعريب كانت مربوطة بالثقافة الاسلامية

لقد تعود المؤرخون ان يصنفوا لانواع التعريب ويرون ان هناك نوعين : نوعا حضاريا ينطلق من المدن ، ونوعا لغويا محضا ياتى عن طريق التعايش بين القبائل ذات اللسان العربى وغيرها٠ وليس احسن من المشاهدة فى نظرهم لاثبات هذه الظاهرة اذ ان لهجاتنا العامية تنقسم اجمالا الى لهجات حضرية ولهجات بدوية وقد تفنن المستشرقون فى

الوقوف على الفوارق العديدة بين اللهجات ، مقررين فى سرعة استنتاجاتهم ان كل لهجة لها شبه كيان مستقل وتطور خاص ، رغم تفرع جميع اللهجات عن الجذر المفقود او اللغة « الميتة » التى هى اللغة العربية ٠

ولقد ادت بهم نظرتهم التجزيئية الى عدم تصور الواقع على حقيقته ويتلخص هذا الواقع فى هيمنة التعريب الثقافى على كل انواع التعريب ، وفى توحيد حركات التعريب ضمن المعطيات الثقافية ، وتظهر هذه الحقيقة عمليا ، فى المجهود المستمر الذى كانت تبذله كل جماعة فى الحصول على قدر ادنى من الثقافة العربية الاسلامية لتنتسب للامة٠ كما انها تظهر فى سهولة ترك الكثير من القبائل لهجاتها الاصلية للاخذ باللسان العربى العامى كخطوة اولى للوصول الى لسان الثقافة الاسلامية الذى هو اللسان العربى الفصيح ولم يتيسر لاغلبية المستشرقين ان يدركوا ان التقييمات السياسية الاساسية للشعوب الاسلامية كانت فى الغالب تلك التى تجعل وحدة الامة اساس شعورها ونشاطها٠ ولم تكن الا قليميات والوطنيات الا مجرد تفرعات سياسية تعتبرها الشعوب عوارض عائقة فى طريق الوحدة ، او مراحل فى سبيل تحقيقها٠ ولا تتنافى هذه الحقيقة مع تمسك كثير من الجماعات بلغاتها المحلية غير ان اللغات المحلية لم تزاحم فى يوم من الايام لغة الامة ولغة الثقافة الاسلامية التى كانت تحل محل البنية العليا منذ ظهور الاسلام بهذه البلاد ، وسواء تعرب الناس عن طريق المدن ، او عن طريق البوادى ، سواء تركوا لهجاتهم الاصلية نهائيا او حافظوا عليها مع اكتساب العربية كلغة للامة الاسلامية التى ينتسبون اليها من اعماق شعورهم فان انواع التعريب كلها راجعة الى الثقافة الاسلامية٠

هذا هو المتجه التاريخى الاجتماعى العام الذى يجب الوقوف عليه للاقتناع بان التعريب كان امرا طبيعيا بالنسبة لجميع سكان الغرب الاسلامى ، وهناك حقائق جزئية لا بد من الاطلاع عليها لدراسة كيفيات التعريب وتطور نماذجه عبر الاجيال٠

الاشعاع الثقافى للمدن الاسلامية :

يفترض بعض المؤرخين ان التعريب فى الغرب الاسلامى ، كان من الممكن ان ينحصر فى كبريات المدن ، لولا توالى هجرات السكان الناطقين باللسان العربى ويبدو لنا ان مثل هذا الافتراض لا اساس له من الصحة ، لان رغبة الجماعات المحلية فى التعريب كان مقرونا بالتطلع الى الحضارة واكتساب الثقافة الاسلامية٠ ومهما كانت اهمية الدور الاقتصادى والسياسى الذى كانت تلعبه الحواضر الاسلامية الكبرى ، فان اشعاعها الثقافى كان يعتبر اهم شىء فى نظر الامة ، وانه لمن السخافة ان نربط ظاهرة التعريب بالعرق العربى ، كما كان يفعله المستعمرون بالامس واتباعهم من ابناء امتنا اليوم٠ ذلك ان حملة الثقافة الاسلامية كانوا من مختلف الاعراق ولا يهمهم البحث عن اجناس البشر بقدر ما يهمهم الانتساب الى الامة ، وليس من العجب ان تجد فى مجتمعاتنا الحضرية جل المعربين من السكان الاصليين ٠ واننا اذ نتكلم عن الاشعاع الثقافى للحواضر الاسلامية انما نعنى بذلك ان العلوم العربية والاسلامية لم تكن منحصرة وراء اسوار المدينة ، بل كان الطلبة المتخرجون من حلقات العلم بكبريات المدن ، يذهبون الى قراهم ويقومون بنفس الدور الذى قام به شيوخهم ، وسرعان ما تصبح

القرية عبارة عن مدينة مصغرة لها رسالتها في نشر العقيدة والشريعة واللغة العربية.

واذا كانت هناك مدن « قطبيـة » تدور حولها حركات ضخمة من الانشطة الحضارية والثقافية مثل القيروان وقرطبة وفاس ، فان هناك عواصم جهوية لا يمكن تناسي ادوارها في نشر العلوم الاسلامية وربما كان لها القسط الاوفر في حمل الثقافة العربية الاسلامية الى أبعد الآفاق ، وان بجايـة وتلمسان وتمنطيط ، لتعد نماذج لهذه العواصم الجهوية التي كانت تسهر على تعريب السكان بتعدد الاتصالات وارسال الطلبة الى مختلف النواحي ، وليست قضية الاشعاع الثقافي مربوطة حتميا بكبر المدينة او صغرها ، ولا باستقرارها او عدم استقرارها السياسي ، ذلك لان المثقفين المنبثقين من الجماعات الشعبية كانوا يلقون في بعض الاحيان مساندات من السلطان ، كما كانوا يلاقون احيانا اخرى معاكسات ، ورسالتهم الثقافية هي هي لا تعرف اى فتور . وقد تجد النشاط العلمي زاخرا في المدينة الصغيرة ، بينما تجده محدودا في المدينة الكبيرة ، غير أن الظاهرة العامة بالنسبة للاشعاع الثقافي في المدن كانت تتلخص في شعور مثقفيها بضرب حصار منظم على الجهل اينما وجد ، وكانوا يستغلون كل اتصال لبث معارفهم العربية الاسلامية. ومن العجب انهم كانوا لا يفرقون بين السكان الناطقين باللسان العربي وغيرهم من السكان في القيام برسالتهم الثقافية ، ولا فرق عندهم بين هؤلاء وهؤلاء اذ يعتبرونهم سواء في الجهل بالشريعة وبلغة القرآن ، فالتعريب الحقيقي الذي هو تعريب ثقافي كان يحتاج الى مؤسسات علمية ثابتة مستقرة ، ولم تكن تتوفر شروط الاستقرار الضامن للاشعاع الا في المدن التي تحتضن فيها الجماعات المحلية هذه المؤسسات ، فليست قضية التعريب اذن قضية سكان ناطقين او غير ناطقين باللهجات العربية ، وليست قضية تشجيع او عدم تشجيع من طرف السلطان ، وليست قضية مدن كبيرة او مدن صغيرة ، ولكنها قضية شعور شعبي وجماعة واعية ومنظمة تعمل على تحقيق هذا الشعور.

الصفة الشعبية ـ الجماعية للتعريب :

كثيرا ما يظن الدارسون لحركة التعريب عبر التاريخ ان السياسة لعبت الدور الاهم في تثبيت هذه الظاهرة ، وان الدول كانت تصاحب حركاتها العسكرية بحركة ثقافية وحضارية موازية ، ولا زلنا نسمع حتى اليوم من المتمسكين ببقايا الدعاية الاستعمارية ، ان تطور الاحداث الثقافية في القرون الوسطى شبيه اشد الشبه بالتطور الثقافي في عصر الاحتلال الفرنسي ، وان شعب الغرب الاسلامي قد حول عن ثقافاته القديمة بالضغوط والتخطيطات السياسية من لدن الفاتحين الاولين ، ثم من لدن الاقليات الحاكمة من بعدهم. وليست تعني مثل هذه الدعاية سوى التوصل الى استنتاجات سياسية تجعل المغترين بها يعتقدون ان التحول الثقافي الذي فرضه الاستعمار الفرنسي يشبه التحول الثقافي الذي فرضه المحتلون المسلمون واصبح الكثير من هؤلاء المغالطين بدعايات الاستعمار يوهمون الناس ان الاقليات التي لا تتكلم العربية ، تكون النواة الثقافية ، في نظرهم ، للرجوع الى ما قبل الثقافة العربية الاسلامية ، وكلنا يعلم ان مثل هذه الدعايات لا يعرف عنها الشعب ادنى شيء ، ولكن حملتها من المثقفين المتعشقين للقيم الفرنسية ، تغذيهم العرقية الفرنسية بكل ما اوتيت من

تمويهات لا حباط سياسة التعريب والمحافظة على هيمنة الثقافة الفرنسية فى بـــلادنا· ولسنا فى حاجة الى عرض كل الحجج التى ياتى بها انصار هذه الدعاية ، وسواء كانوا صادقين او كاذبين فى تبنيهم لها ، فانـــه يكفى ان نقوم بعـــرض موضوعى للواقع التاريخى ، الاجتماعى لتتبين لنا مغالطات المؤرخين الاستعماريين واتباعهم فـى هذا الميدان ·

نقول ان التحول الثقافى الذى احدثه الاستعمار الفرنسى قد صدر بقوة الســلاح وبعد التقتيل والتشريد الذى عرفه جميع السكان ، وبـعد ان استئصلت المؤسسات الثقافية الشعبية من اعماقها بينما كان التحول الثقافى الذى احدثه الاســلام تحولا برغبة الشعوب ، ولم تكن الدول الا منفذة لرغبة الشعوب فى هذا الموضوع ، وربما لم تكن منفذة لرغبة الشعوب الا فى هذا الميدان·

اننا نعلم حق العلم ان جل المؤسسات الدينية والثقافية كانت من منجـــزات الشعـب تســهر الجماعات المحلية على بنائها وتمويلها ، وتسهر على توظيف اطاراتها ، وتحبس الاملاك للقيـام بمختلف شؤونها· وتتجلى صفتها الجماعية ايضا فى كيفية تسييرها والانتفاع بها ، فلم يكن المسجد ولا المدرسة وقفا على طبقة او فئة بل كان من حق جميع السكان أن يستفيدوا منهما دون قيود ولا شروط · ولو فرضنا ان السياسة كانت تلعب الدور الاهم فى التعريب ، لا قتصرت هذه الحركة على المدن الكبرى التى توجد فيها السلطة الحاكمة بكل قواها· ولدينا مئات الامثلة التاريخية تثبت ان الثقافة كانت من نشاط الجماعات المحلية حتى فى كبريات المدن التى هى « كراسى للملك » كما كان يسميها الاقدمون· ولدينا أكثر من مثال على استقلال الجامع ، او الرباط ، او المدرسة عـــن رجال « المشور » · وكثيرا ما كانت تقع الصراعات بين فقهاء الشعب وفقهاء « المشور » ، وتناصر الجماعة المحلية مثقفيها حتى لا ينتصـــر عليهم اعداؤهم ، ولدينا اكثر من مثال على قياس النزاهة العلمية عند الاقدمين بتحملهم الفقر فى ظل الحياة الجماعية وتفضيلهم هذه الحياة على الجـــاه والترف المعروض عليهم من طرف الامراء·

ولو فرضنا من جهة اخرى ان السلطة الاقطاعية كانت·تلعب الدور الاهم فى التعريب ، فكيف يمكن ان نجد النواحى النائية التى لا علاقة لها بالسلطة الا علاقة الانتساب الى الامة ، ولا تعانى أى ضغط عسكرى او ادارى ، تتحمس لانشاء المؤسسات الثقافية وتمويلها ، وتتحمس شديد التحمس الى الثقافة الاسلامية والتعريب ؟ لو وقفنا مثلا على تاريخ قرية نائية مثل قرية تمنطيط الموجودة فى اقصى صحرائنا الغربية ورأينا كيف عربت نفسها بنفسها ، وكيف بعثت البعوث الثقافية الى اقاص افريقيا السوداء ، لعلمنا ان التعريب كان منبثقا من صميم الرغبات الشعبية وان الجماعات المحلية هى التى لعبت فيه أهم الادوار·

ولنا فى التاريخ البعيد والقريب امثلة متعددة عن التعريب الذاتى ، وتوقان الشعوب الى الثقافة الاســلامية وربما كانت هذه الحركات الشعبية قوية النشاط فى عصور انهيار السلطات المركزية على الخصوص· ولا يمكننا ان نفسر هذه الظاهرة الا بحيوية الروح الجماعية فى بـــلادنا ، وأن نلاحظ ان الجماعات المحلية كانت السبب الاهـم فى نشر الثقافة الاسلامية واللغة العـــربية فى الغرب الاسلامى وفى افريقيا منذ عشر قرون·

هذه بعض المعطيات التاريخية والاجتماعية عن ظاهرة التعريب فى بلادنا ، واننا اذ نتطرق اليها اليوم ، من خلال التاريخ فلا يعنى ذلك ان الظروف القديمة لا زالت ممتدة الآثار ، وبنفس الكيفية ، حتى فى عصرنا الحاضر. ان الجماعات المحلية قد فقدت من حيويتها ، وان العقيدة الاسلامية الحاملة للتعريب قد فترت ايما فتور ، غير اننا قد حصلنا على مكتسبات اجتماعية وسياسية جديدة لم تكن متوفرة عند اسلافنا .

لقد اكتسبنا عوضا عن الجماعة المحلية والامة الواسعة ، امة محددة واضحة التوقان والنشاط ، واكتسبنا عوضا عن السلطان الاقطاعى دولة عصرية شديدة الرغبة فى التوحيد الثقافى بين مختلف الجهات والطبقات ، واكتسبنا اخيرا امكانيات علمية وتقنية للاسراع بتنفيذ رغبات الشعوب.

ونعتقد ان رغبة شعبنا فى اعطاء ثقافته الوطنية مكانتها التى هى مكانة الاولوية ، لا زالت كما كانت فى القديم رغبة اكيدة لا يجوز معاكستها أو التحيل على تأجيل تطبيقها الى ابعد الآجال.



لغة عربيّة "وظائفيّة"

في المغرب العربي

عرف بمناسبة مؤتمر المستشرقين المنعقد مؤخرا في باريس ، أن كلا من الجزائر والمغرب وتونس قرر اعتماد لغة عربية « وظائفية » موحدة في التعليم المدرسي ابتداء من السنة القادمة . والمراد من لفظة « وظائفية » في عرف اللغويين هو اختيار الالفاظ المطابقة لمقتضيات العصر الصناعي الحاضر ، فضلا عن اهمال العامية المحلية التي تقوم عائقا جسيما بين دولة وأخرى .

فان الشمال الافريقي يواجه اليوم مشكلة التعريب اذ انه يريد في آن واحد الانسجام مع العصر ، دون الانقطاع عن الثقافة العربية الاصيلة .

لهذا وضع علماء اللغة « الرصيد اللغوي » الذي تضافرت على وضعه ثلاث مؤسسات : مؤسسة الرباط للدراسات والابحاث اللغوية والتعريب ، ومؤسسة علم اللغة في الجزائر ، والفرع اللغوي في جامعة تونس .

7000 لفظة اساسية :

مهدت للرصيد اللغوي ثلاث عمليات :

– عملية تفتيش في الكتب المدرسية الحاضرة لمعرفة الالفاظ الناقصة مع أنها ضرورية .

– عملية مراقبة واحصاء لدى المدارس احصيت في هذه العملية 7000 لفظة من أصل مجموعة يبلغ عدد الفاظها نحو مئة وعشرة آلاف كان العقل الالكتروني في مؤسسة الجزائر قد عينها . وسميت مجموعة السبعة آلاف لفظة « الالفاظ الاساسية » .

– عملية اختيار قائمة من الالفاظ التقنية والصناعية التي لابد من فهمها للعيش في المدن في الثلث الثالث من القرن العشرين .

اما العربية « الوظائفية » فقد حصلت على ضم هذه القوائم بعضا الى بعض ، وهي تضم المفردات والتعابير المطابقة لوظائف العصر .

بديهي ان الوحدة الثقافية لا تستقيم الا بوحدة اللغة وباصالتها . والاصالة تقتضي من المتكلمين الا يتنقلوا في الحديث من الفصحى الى الدارجة العامية ، ومن العربية الى الفرنسية او الانجليزية للتعبير عن المفاهيم والافكار .

هذا ما توخاه اصحاب هذا المشروع في محاولتهم .

الثورة الثقافية تعريب
والتعريبُ ثورة ثقافية



د٠أحمد طالب الابراهيمى
وزير الاعلام والثقافة

- الازدواجية تعنى عندنا اسلوبا من اساليب الثراء اللغوى وهى بحكم المرحلة الحضارية الحالية ضرورة علمية .
- ان العلم لا يمكن ان يفهم وان ينتشر الا فى نطاق اللغة الاصلية .
- اللغة هى الفكر . اننا نفكر باللغة، واللغة أداة للتعبير عما نفكر فيه .

السؤال : هناك التباسات ما تزال سائدة حول مفهـوم التعريب : فهناك من يـرى التعريب فى القضاء على اللغة الفرنسية ، وهناك من يراه فى الازدواجية ‧‧ فما رأيكم فى كل هذا وغيره ؟

الجواب : لا اظن ان هناك ما يدعو الى الالتباس فى مفهوم التعريب اذا نحن وضعنا الامـور فى موضعها الصحيح ‧‧ كل مفهوم يمكن ان يتشعب وأن يضطرب ، ولكن مفهوم التعريب فى الجزائر واضح جدا ، اذا نحن مضينا مع التاريخ وتطلعنا الى المستقبـل ‧

ان الامر يبدو لي على النحو التالى :

ا ــ الجزائر جزء من العالم الاسلامى العربى ‧ وقد اتخذ العربية لغة كما اتخذ الاسـلام دينا ‧ وقبل الاستعمار الفرنسى كنا نتحدث العـــربية ونتعلم بها وندرسها وندرسها ، وكنا نسهم فى كل حقول المعــرفة آنذاك بالعـــربية ‧‧ كان عندنا محدثون وفقهـــاء ولغويون ومؤرخون ورحالة وجغرافيون ، وكيميائيون ورياضيون ، وفلكيون وطبيون ، وادباء وشعراء ، كانوا جميعا عـلى امتداد التاريخ الاسلامى يكتبون بالعربية ويؤلفون بالعربية‧ وكان يشارك العربية احيانا فى الجزائر فى الحديث اليومى الضيق ، لهيجات محليـة ــ وهى لهيجات موجودة فى كل لغة وفى كل بيئـة ‧ ولكن يبقى دائما أن اللغة الاصيلة واللغة الاصلية واللغة التى ترتبط بالدين واللغة التى ترتبط بهـا الثقافة واللغة التى تصل بيننا وبين غيرنا مـــن المسلمين او التى تصل بيننا وبين الدول الاخرى هى العربية ‧

ب ــ بعد غزو الجزائر ، دخلت لغة اجنبية مع الغزاة‧ الغزاة الفرنسيون حاولوا ان يجعلوا من الجزائر قطعة من فرنسا‧ حاربوا الدين وحاربوا اللغة العربية لارتباطها بهذا الدين ‧ ولكنهم تعلموا من الحروب الصليبية ان الحرب الدينية طويلـة المدى بطيئـــة النتائج فخططوا لها على المـــدى البعيد ‧ أما الحرب اللغوية فقد فرضوها فى كل مكان وبكل اسلوب ومن اساليبهم فى ذلك ما هو مباشر : اى فرض اللغة الفرنسية ، وما هو غير مباشـــر من احياء اللهجات المحليـة ‧ وهكذا اتخذوا طريقهم الى الاغراء بهذه اللهجات ‧

ج ــ بعد حرب التحرير وانتصار الثورة كان لا بد من ان تعود الامـور الى مجراها الطبيعى اى الى اصالتها ‧ اى ان نبدأ من حيث انشعب الطريق ، وبتعبير واضح ان نبدأ باعادة العـربية الى مكانتها : لغة دين وثقافة وتعامل يومى ، لغة المدرسـة والحيـاة ‧

كذلك يبدو لي مفهـوم التعبير : عـــودة الى الاصالـــة ‧

وحينذاك لا يلتبس الامر لان الاهتمام بالعربية وتاكيدها لا يعنى اغلاق النوافذ فى وجه اللغات الاجنبية ، سواء أكانت اللغة الاجنبية فرنسية ام انجليزية او ما شئت من اللغات الاخرى ‧‧‧ اننا لا نريد القضاء على اللغة الفرنسية ما دامت لغة من هذه اللغـــات الاجنبية التى نحتاج اليها فى الاستقاء من موارد الثقافـة فى العالم ‧‧ ولكن نريد القضاء على بقايا الاحتلال الفرنسى من حيث هى ادوات احتلال وبقايا احتـلال ‧‧ الفرنسية فى ذهنى ولسانى لغة ولكنها اذا حلت محـــل العربية على السنة الاطفال والتلاميذ وفى عقـول الطلاب والجامعيين فهى ليست لغـــة وانما هى احتلال ‧ وقد افتقدنا مليونا ونصف من الشهداء وقاسينا تاريخا طويلا من النكبات من اجـل ان نطارد الاحتـلال ‧

وتشير في سؤالك الى الازدواجية ٠

انى اعرف ان هذا اللفظ دار ، ويدور ، على كثير من الالسنة ، ولكنه قد يكون تعبيرا مرحليا٠٠ نحن نفهم الازدواجية بمعنى ان يكون الشاب الجزائرى متقنا للغة العربية متفتحا على لغة من اللغات الاجنبية او على اكثر من لغة ٠٠ الازدواجية لا تعنى ضرورة وجود لغة بعينها الى جانب اللغة العربية ٠٠ الازدواجية عندنا تعنى اسلوبا من اساليب الثراء اللغوى وهى بحكم المرحلة الحضارية الحالية ضرورة علمية ، ولذلك فنحن نؤمن بالازدواجية ـ بالتفسير الذى قدمته لك ـ فى نطاق ما هو سائد من امر التركيب اللغوى فى البلاد النامية٠ أما اذا تطور التركيب اللغوى ونشطت حركة الترجمة واستخدمت فيها الاساليب والآلات وأصبح من الممكن أن نضع بين يدى المثقفين ترجمات مباشرة وسريعة لكل نتاج جديد ، فما الحاجة الى ان يبذل كل انسان وكل متعلم وكل طالب جهدا لتعلم لغة اجنبية ؟

من هذا الشرح يبدو لي ان مفهوم التعريب يجب ان يكون بعيدا عن كل التباس :

حركة التعريب اذن عودة الى الاصالة ٠ انها تعنى استعمال اللغة العربية وتعميمها واتقانها ، وذلك امر لا يسد الطريق على اللغة الاجنبية اية لغة ولكنه لا يشترط الازدواجية شرطا ولا ينطلق منها ولا يحتم ان تكون اللغة الثانية هى اللغة الفرنسية ٠

● السؤال : يقال ان التعريب وضع على مستوى المشاعر والدعاية أكثر مما هو موضوع على اساس علمى حقيقى ومن هنا كان الاخفاق فى محاولات التعريب ، ما رأيكم فى هذا القول ؟ ٠

الجواب : أ ـ فى سؤالك اشارة الى تشويه التعريب ، وكانه ليس له اساس علمي والحق ان الاضطراب اللغوى الذى خلقه الاستعمار هو الشيء البعيد عن الاساس العلمى ٠ انّه نوع من الاكراه والفرض ٠ انه خلق طبقة خاصة تحسن الفرنسية وترك للقاعدة العريقة : للجماهير ان تتسلى بقشورها بالفاظ يومية ليس لها حصيلة فكرية تقتصر او تكاد ، على اسماء الطعام والشراب وبعض الافعال وبعض كلمات الصباح والمساء ٠

ان هذا ليس ثقافة لغوية ولكنه تشتيت وتشويه لغوى ٠

ان الاساس العلمى الذى انتهت اليه الدراسات العلمية والنفسية اللغوية اثبتت ان العلم لا يمكن ان يفهم وان ينتشر الا فى نطاق اللغة الاصلية ٠٠ العلماء الكبار وحدهم يحتاجون الى اللغة الاجنبية لانماء بحوثهم ودراساتهم اما الذين دونهم فلا يدركون المعرفة العلمية الا بلغتهم الاصلية ٠

ولهذا كان للتعريب هذه القاعدة الصلبة العلمية

ب ـ اما الحديث عن اخفاق التعريب وان هذا الاخفاق دليل على (انه موضوع على مستوى المشاعر والدعاية اكثر مما هو موضوع على اساس علمى حقيقى) كما جاء فى نص السؤال فهذا كلام خاطىء كما يبدو لي ٠

ان طرح الموضوع على هذا الشكل محاولة للتبشير باخفاق التعريب ٠ ومن الذى يستطيع أن يقول ان التعريب قد اخفق ؟

قل لي : متى بدا التعريب ؟

اذا تذكرت انه لم يبدأ الا منذ عشر سنوات ، فهل تعتقد ان عشر سنوات كافية لاصلاح ما افسده الاحتلال خلال قرن ونصف تقريبا ؟

كيف نقول اذن ان التعريب قد اخفق وهناك خطوات واسعة اتخذت فى هذا المضمار فى كل المجالات لتحقيق التعريب ؟

قد نكون فى حاجة الى خطى اسرع ٠ ولكن ارجو ان نلاحظ نقص الادوات عندنا ، وحاجتنا الى الاستعارة ، وكثرة الاعباء التى ينهض بها الوطن الجزائرى فى البناء ٠ كل ذلك لا بد له من ان يقيد خطواتنا ٠٠ فنحن شعب عانى الاستعمار طويلا ، وتركة الاستعمار ثقيلة٠ وليست قضية التعريب هى القضية الوحيدة المطروحة امامنا فى الساحة وان كانت من القضايا الاساسية ٠

السؤال : ما هى الاطارات التى نعتمد عليها لانجاح التعريب ؟

الجواب : الاطار الاول الذى نعتمد عليه هو اطار التعليم : التعليم فى وزارات التعليم الابتدائى والثانوى والعالى والاصلى ، والاطار الثانى الذى نعتمد عليه هو اطار التعليم ولكنه فى هذه المرة فى نطاق الاعلام والتلفزة والاذاعة ، والاطار الثالث الذى نعتمد عليه هو كذلك اطار التعليم ولكنه فى هذه المرة فى نطاق كل دائرة او مؤسسة٠

والجواب الكامل والموجز اذن هو ان نجاح التعريب مرتبط بنجاح حركة التعليم ٠

السؤال : نعتقد فيما يخصنا ان الثورة الثقافية لا يمكن أن تتم بدون تعريب ، ويرى بعض الفوضويين الذين ينتسبون زورا الى التقدمية ، بان المهم فى الثورة الثقافية هو المحتوى وأن لا اهمية للغة فى نظرهم ما رايكم فى هذا القول ؟٠

الجواب : فى الثورة الثقافية لا يمكن فصل المحتوى عن الاطار أو عن الشكل ، هذا اولا ٠

ثم اننا فى الثقافة لا نجد المضمون وحده واللغة وحدها ٠ فهناك الارتباط الكامل بينهما ٠ اللغة بالنسبة الى الفكر ليست اطارا ولا وعاء خارجيا ٠٠ اللغة هى الفكر اننا نفكر باللغة ، ونستعمل اللغة للتعبير عما نفكر فيه ٠

ان العلاقة بين الفكر واللغة مسلمة علمية ، ولذلكفانه لا ثورة ثقافية فى المحتوى وحده بل فى المحتوى والمضمون ٠ اى لا ثورة ثقافية دون تعريب ٠٠ هذا اذا لم اقل ان هناك هذا التطابق الكامل بينهما٠ فالثورة الثقافية تعريب ، والتعريب ثورة ثقافية ٠

السؤال : وقعت التباسات فيما يخص كلمة « اصالة » لدرجة ان بعضهم ربطها بالاعراق ونحن اعتدنا ان لا نتكلم عن الاصالة الا فى نطاق ثقافى ٠٠ ما رأيكم فى هذا ؟ ٠

من الذى يربط بين الاصالة والعرق ؟ هذا تحريف لمفهوم الاصالة ٠

ان الاصالة مجموعة من الخصائص ، ولكنها ليست ابدا خصائص عرقية او دموية لقد تجاوز العالم اليوم الوقوف عند الاعراق ، ولم تنته الابحاث العلمية فى ذلك الى نتائج ، لان العالم تعرض لموجات من الامتزاجات الغث ــ او أوشكت ان تلغى خصائص الاعراق ، المجتمع العالمى قد انفتح بعضه على بعض فى كل الدول والامبراطوريات الكبرى ٠٠ وفى منطقتنا الاسلامية العربية كان هنالك هذا الامتزاج الكبير٠ واحب بعد ان انفى هذه الصلة بين الاصالة والعرق أو الجنس أن تعود الى ما كنت ذكرته لك فى السؤال الاول عن الاصالة ٠

السؤال : كيف ترون واقـــع التعـريب الآن ومستقبلـــه ، وعلى الخصوص كيفيـــة حـــمل البيروقراطية على التخلى عـن العـــراقيل التى تضعها فى طريق التعريب ؟ ٠

الجواب : أجد نفسى ، مرة أخرى ، أحيلـك الى وقائع مؤتمر التعريب الذى ينعقد هذه الايام فى الجـــزائر ٠

ان التعريب عملية نشطة ، ولكننا نريدها اكثر نشاطا ٠ ومن هنـــا اشارتك الى العراقيل التى تضعها البيروقراطية ، اننى لا أعتقد ان هنـــاك من يضع العراقيل قصدا ، فهذا مخالف لمسيرتنا التاريخية ولثورتنا التحريرية وللثـورة الثقـافية التى هى احدى ثوراتنا الثلاث ٠٠ ولكن قد تكون هنالك عراقيل فى طريق العمل نفسه ونحن نـأمل ان تتعاون القـوى جميعا لا زالة هذه العراقيل ٠

والعراقيل فى الاصل ، موجودة فى كل عـمل انشائى جديد ٠٠ وحين نمارس حركة ضخمـــة كحركة الاصالة والتعريب يجب ان ندخل هـذه العراقيل فى حسابنا ويحسن أن نفهم ذلك مـــن جانبه النفسى والانسانى ، فالجزائرى الذى ظـل خمسة أجيال أو اكثر يتكلم الفرنسية فى مكتبـه ومع موظفيه ويتعامل مـــع الحرف اللاتينى فى ادارته وكتابته ومادة عمله وثقافته ، لا بد له من ان يجد الصعوبة حين ينتقل الى التعامل مـــع حرف آخر ولو كان حـــرفه الاصيل ان القضية ليست سهلـــة ، ولكن لا بد فيها من شـــىء من المحاربة٠ واذا كان الفرنسيون صبروا عشـرات السنين لفرنسة لغة الجزائر ، افلا يليق بنا أن نصبر كذلك حين نحاول العـودة ٠



ايها الاخوة ٠٠

ان التعـريب يجب أن يرتبط بتجربة الثـورة الجزائرية ويستفيـد من التجـارب فى البـلاد العربية وغـيرها ٠

واعتقد شخصيا ان التعريب فى الجزائر لا بد ان يرتبط ارتباطا عضويا بالتجربة الوطنية الجزائرية الاساسية ٠ فهذه ملاحظة اولى ٠

وهناك ملاحظة ثانية وهى انه لا بد أن نستفيد من التجارب التى وقعت فى العالم العربى ومن التجارب التى وقعت فى العالم بصفة عـامة بدون أن يكون لنا مركب نقص وبدون ان نكون حذرين أكثر من اللازم بالنسبة لهذا الموضوع ٠ وهناك ملاحظة ثالثـة ، وقد أشار اليها بعض الاخـوان ، وانا أؤكدها مرة أخرى ، وهى انه يجب أن لا نربط قضية اللغة الوطنية بالوضع الذى يوجد عليه المجتمع العربى اليوم ٠ واننا لنرتكب غلطا فادحا اذا مـا ربطنا قضية اللغة بانحطاط المجتمع العربى بعد ان عرف حضـارة لا زال يتجاهلها المفكرون الغربيون عن قصـد ٠

ان هناك ملاحظة أخرى وهى عدم ربط مشكل التعريب بالقضية الوطنية لاسباب لا يجهلها معظم أعضاء هذه اللجنة ٠ واذا نحن توغلنـا فى هـذه المناقشة وتساءلنا عمّا اذا كان المثقف بالعـربية كان أكثر وطنية وعما اذا كان المثقف بالفرنسية أكثر أو أقل وطنية لبلاده ، فهذا جدال يجب أن لا نخوض فيه ، لان أوضاع الجزائريين وأوضاع الجزائر بصفة عامة أثنـاء المرحلة الاستعمارية كانت أوضاعا معـروفة ٠

من خطاب الرئيس بومدين أمام اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم
فى 29/4/1970

الجامعـة والتعـــريب



محمد الشريف مساعدية

مسؤول التوجيه والاعلام بالحزب

- التعريب هـو الجانب اللغـوى فى الثورة الثقافية ◆
- التعريب حلقة فى سلسلة حلقـات تصفية الاستعمار ◆
- اللغة العربية مطلب شعبى وارادة القيادة الثورية تلتقى مـع الارادة الطيبة ولكن الاجهزة غـير ذلك ◆

س ١ : هناك التباسات ما تزال سائدة حول مفهوم التعريب : فهناك من يرى التعريب في القضاء على اللغة الفرنسية ، وهناك من يراه في الازدواجية : ... الخ ، فما رأيكم في كل هذا وغيره ؟

ج) لعل استمرار الالتباس الذى ذكرتموه لدى البعض حول مفهوم التعريب ، حتى الآن ، ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على استعادة البلاد لسيادتها الوطنية ، يعود فى الاساس الى سوء الفهم أو بالاحرى تعمد عدم الفهم لمضمون التعريب ... ومكانته في قائمة اختيارات الثورة واهدافها واذا كان الامر يحتاج الى تأكيد فاننا نقول ان التعريب اختيار أساسى من اختيارات الثورة الجزائرية وهدف من اهدافها الاساسية المقدسة . فشعار الثورة والحرية والاستقلال واستعادة السيادة الوطنية كان مفهوما شاملا ومتكاملا بجوانبه السياسية والاقتصادية والثقافية ، واذا كنا لم نقبل وجود سيادة اخرى فى هذه البلاد غير السيادة الجزائرية وحدها ، واذا تخلصنا من الجيوش الاستعمارية ، وحررنا الاقتصاد الوطنى من سيطرة الاحتكارات الاجنبية ، فلماذا يا ترى نقبل تقاسم السيادة الثقافية فى بلادنا أو بالاحرى استمرار التبعية الثقافية .

وان المعركة فى ميدان التعريب تعتبر من اهم المعارك التى نخوضها ولا بد ان ننتصر فيها ، ولا تكتمل الشخصية الجزائرية ما لم تسترجع العربية مكانتها اللائقة بها فى جميع الميادين الحيوية . وعلى هذا الاساس يحق لكل مواطن ان يتساءل عن مفهوم التعريب فى بلادنا .

ان كلمة التعريب فى حد ذاتها لا تعبر فى نظرنا ، عن العمل الجبار الذى تسعى البلاد جاهدة لانجازه . ذلك ان التعريب فى مفهومه اللغوى هو ترجمة أو نقل اشياء مكتوبة بلغات مختلفة الى اللغة العربية وليست هذه هى نية الجزائر الاساسية وان ما نريده ، فى نظرى ، هو ان تسترجع اللغة القومية مكانتها التى زحزحت عنها منذ أكثر من مائة واربعين سنة . ومن ثمة فان هذه العملية تصبح جزءا لا يتجزأ من الثورة الثقافية التى لا بد منها والتى تبدأ بادىء ذى بدء بتغيير العقليات التى عششت فيها الافكار الاستعمارية وباضت بحيث صار اصحابها يرون فى اللغة العربية منافسا للغة الاجنبية يتحتم على كل مثقف ان يحاربها ويحد من توسعها لان ما يتم الآن من خطوات فى سبيل التعريب ومحو الامية يعتبر فى نظرهم ، توسعا استعماريا فى مجال الثقافة .

ان التعريب ، اذن هو الجانب اللغوى من الثورة الثقافية ... واذا اردنا انجاحه بصفة جدية لا بد من الشروع فورا فى الاعداد لاشعال هذه الثورة وان لم نفعل واكتفينا بتعليم الحروف الهجائية فان عملنا يكون ناقصا ومهددا بالفشل والزوال فى كل لحظة مهما بعد الزمن . ذلك ان معظم المشرفين على محو الامية وكثيرا من المستفيدين يحتاجون ، أولا وقبل كل شىء ، الى من يغسل امخاخهم ويخلصها من مركب النقص الذى يسيطر على عقولهم .

واصدار القرارات وحده لا يكفى اذا لم تكن هناك عقول ثورية تتبع سائر العمليات فى مراحل تنفيذها ، واذا لم تكن هناك اطارات مكونة تكوينا يتناسب مع واقع الثورة •

وفى هذا المجال نستطيع ان نسوق امثلة لا حصر لها ، ولكننا نكتفى هنا بما يلى :

لقد صدر مرسوم بتاريخ 22 مايو سنة 1964 يقضى بتاسيس مدرسة عليا للترجمة يكون الغرض منها تكوين هيئة من المترجمين والتراجمة يساعدون فى مرحلة اولى ، على خلق جو من التفاهم بين المثقفين باللغة القومية والمتعلمين بلغات أجنبية • وفى مرحلة ثانية يقومون بترجمة تراثنا المكتوب بغير العربية الى اللغة الوطنية حتى يتسنى للباحثين ان يدرسوه ويخلصون من مظاهر التشويه التى عقلت به على مر السنين ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ينقلون الى اللغات الحية المختلفة مؤلفاتنا العربية حتى نعطى صورة للعالم صورة صادقة ومعبرة عن بلادنا كما انهم يسهرون على تتبع التطور العلمى والتكنولوجى ونقل المصطلحات الفنية الى لغتنا الوطنية لتصبح فى متناول الجميع ولتحقيق هذه الاهداف ينص المرسوم على ان المدرسة تعبىء جميع الوسائل المالية الموضوعة رهن اشارتها ضمن ميزانية الدولة • ومن ثمة لم يبق من المشاكل سوى مسالة اختيار الاساتذة المختصين ووضع البرامج المناسبة لتكوين ما نحتاجه من اطارات • وعلى الرغم من ان المرسوم قد حاول تحديد نوعية التعليم الذى تقوم به المدرسة ، فان النتائج بعد حوالى عشر سنوات سلبية للغاية • ذلك ان هذه المدرسة لم تكن ، خلال هذا العقد من الزمن ، سوى انصاف مترجمين بعيدين كل البعد عن الثقافة الواسعة المطلوبة منهم ، عاجزين عن التاثير فى المصالح التى عينوا فيها وعن النقل الجدى بصفة عامة ، كما ان المدرسة لم تنشر ولو كتابا واحدا مترجما من هذه اللغة أو من تلك •

وامام هذا الوضع غير الطبيعى نجد انفسنا أمام تساؤلات محيرة ، من السؤول عن هذه السلبية ؟ أهو المرسوم أو مدير المدرسة ؟ أو الاساتذة ؟ أو الطلبة ؟ اما المرسوم فانه صريح ولا يمكن ان نلقى عليه التبعية • واما الطلبة فانهم لا يمكن ان يكونوا الا كما اعدوا • فتبقى اذن مديرية المدرسة والاساتذة ، هذه تلصق المسؤولية بهؤلاء وهؤلاء يلقونها على تلك • والواقع ان هناك عوامل كثيرة قد تدخلت فى الاخير لافشال مهمة هذه المؤسسة الوطنية • ومصدر هذه العوامل كلها تقريبا ناتج عن عدم تتبع المرسوم فى مراحله التنفيذية ، وما من شك ان مثل هذه التصرفات مناهضة للثورة ، ومهما حاول أصحابها ان يبرروها فانهم لن يجدوا لها مبررا ، لانهم بدلا من ان يبحثوا عن الحلول الجذرية لجاوا الى التمييع ثم القتل وبذلك حرموا البلاد من اطارات تكون مكونة تكوينا يتناسب مع واقع الثورة واحتياجاتها ومتطلباتها •

والمرسوم الثانى الذى نتعرض له هنا هو ذلك الذى صدر بتاريخ 26 أفريل سنة 1968 ، ويقضى

باجبارية معرفة اللغة الوطنية على الموظفين ومن يماثلهم لكي ناخذ نفس العبارة الواردة في المرسوم .

فعندما صدرت هذه الوثيقة ظن الجميع بان التعريب قد تم ، وان المسألة لم تعد سوى قضية وقت ثم ينتهي كل شيء . وكان من الممكن ان يكون الامر كذلك لو كانت الاجهزة المكلفة بالتنفيذ تعرف بان استرجاع مكانة اللغة العربية مطلب شعبي ، وان ارادة القيادة الثورية تلتقى مع الارادة الشعبية حول هذه النقطة ؛ ولكن الاجهزة لم تكن كذلك مع الاسف . ولذلك وبعد مرور خمس سنوات ، فان المرسوم لم ينفذ حتى بكيفية جزئية والاسباب اذا بحثنا عنها واضحة للغاية وهي في نظرنا كالآتي :

1) ان الاطارات المسؤولة عن التنفيذ كلها مفرنسة او وشبه مفرنسة لم تعمل في عقولها بدور الثورة الثقافية بحيث غلب عليها الاعتقاد بان عملية التعريب هذه موجهة ضدهم ، لذلك يتحتم عليهم ان يتصدوا لها ففعلوا . فعلوا ذلك عندما وقفوا تعليم اللغة الوطنية على الحجاب والموظفين البسطاء واعتبروا خطا ، ان نزولهم لتعلم لغة ميتة ، في اعتقادهم ، مضيعة للوقت الذي يقضونه في المسامرات التافهة لن لم نقل في الشوارع والملاهي . وفعلوا ذلك عندما لم يتتبعوا مراحل محو الامية بانفسهم ، ولم يوجدوا محفزات لانجاح العملية . بل ان كثيرا من المدراء قد بذلوا كل ما في وسعهم لخلق انواع وانواع من العراقيل ، واحس البسطاء باستخفاف المسؤولين وعد اهتمامهم بتطبيق المرسوم، فاخذوا المسالة ماخذا غير جدي .

2) ان بعض الاجهزة لم تقم بواجبها ، وكان من المفروض ان تساهم في خلق الظروف اللازمة لتنفيذ هذا المرسوم ، فهناك مصالح باكملها كان ينبغي ان تعرب كالاحوال المدنية والبريد والمواصلات وغيرها من المصالح التي لها اتصال مباشر بالجماهير الشعبية التي لا تعرف غير العربية . وكان من شان مثل هذه الاجراءات الثورية ان تساعد ، لو تمت على دفع الموظفين الى بذل اقصى ما يمكن من الجهود لتعلم لغتهم . لكننا ، مع الاسف ، شاهدنا ، بدلا من ذلك ، اسراعا في السير نحو فرنسة حتى ما كان معربا .

3) ان البلديات والولايات والدوائر لم تقم بواجبها في تعريب اللافتات والواجهات في الشوارع والطرقات حتى تجعل المواطن يشعر بانه على ابواب ثورة ثقافية فيستعد لذلك ويهتم بتعلم اللغة القومية التي ستكون بلا شك ، هي المنطلق لهذه الثورة .

4) ان الوظيف العمومي لم يساعد على خلق جو من الجدية حول هذا المرسوم . وكان بامكانه ان يفعل ذلك بمراجعة ترتيب الموظفين مهما كانت مستوياتهم وفقا لتقدمهم في معرفة اللغة الوطنية

5) اصدار قرارات وزارية تتنافى مع المرسوم وتشجع الموظفين والاطارات بالخصوص على عدم اخذه بعين الاعتبار . وللتدليل على ذلك نذكر القرار الصادر عن وزارتي التعليم الابتدائي والثانوي والداخلية بتاريخ 21 مارس سنة 1973.

نكتفي بهذين المرسومين : ولم نفعل ذلك الا لنؤكد بأن اصدار القرارات وحده لا يكفي اذا لم يكن هناك تنفيذ ، وان التعريب ينبغي ان يكون هو محور الثورة الثقافية .

ومن الناس من يقول بان التعريب لا يهم هذا الجيل بل هو من اختصاص الاجيال المقبلة يريدون مخادعة الرأى العام ، وإيهامه بان اللغة العربية صعبة للغاية وان طرق تدريسها عقيمة ، وعليه يجب انتظار عشرات السنين اى عندما يصبح التعليم وحيا لا يكلف مشقة ولا عناء . هناك من يزعم بان اللغة القومية عاجزة عن مسايرة الركب الحضارى ، وانها لا تصلح ان تكون لغة علم لانها وضعت أساسا لقول الشعر لا غير .

وعلى هذا الاساس رأينا الجامعة تتحايل لابقاء الفرنسية حتى بالنسبة للفروع التى اعلن عن تعريبها مثل علم النفس وعلم الإجتماع ، ولمنع اللغة القومية من اقتحام بعض الفروع الاخرى مثل الرياضيات والطب . ويدعى المسؤولون عن هذه التصرفات بانهم انما يفعلون ذلك حفاظا على الاجيال كأنما الذى يحافظ على الاجيال ينبغى ان يقتلع جذورها ويحرمها من أساس ثقافتنا .

ولتغطية مناهضة التعريب فى الجامعات انشئت لجان للتنسيق اطلق عليها اسم لجان التعريب مهمتها تنسيق ومراقبة جميع العمليات المقررة فى المخطط العام للتعريب داخل كل جامعة . وبالفعل فان هذه اللجان تؤدى دورا أساسيا لانجاح ما يسمى بالمخطط العام ولا ادل على ما نقول من ان كلية الحقوق التابعة لجامعة الجزائر لم تبدأ تدريس اللغة العربية فى العام الماضى ألا فى أواخر ديسمبر أى بعد مضى اربعة اشهر من السداسى الاول واقتراب الامتحانات لكى يهتم الطلبة اهتماما بالغا بتعلمها . اما فى هذه السنة فان التدريس فى نفس الكلية ، قد بدأ فى أواخر نوفمبر . ألا يوجد هناك تقدم وتحسن ملحوظان ؟

اما الازدواجية ، فاننا نبدأ بالتساؤل عن المقصود منها والالحاح عليها من قبل البعض فاذا كان المقصود منها الايحاء بعجز اللغة العربية عن اداء دورها الوظيفى فى جميع مجالات الحياة ، فان النقاش فى هذا التحفظ أو هذا الاتهام الذى تجاوزته الاحداث يصبح نوعا من السفسطة .

اما اذا كان المقصود اكتساب واتقان لغة اجنبية اخرى ، وتمكين ذوى الثقافة العربية من الانفتاح على الخارج فنحن لنا مع الازدواج فقط وانما نحن من انصار التعدد ولماذا نقصر هذا الازدواج على اللغة الفرنسية وحدها ، فالجزائر اليوم لها علاقات واسعة مع العالم أجمع ، وبهذا الاعتبار فاننا يجب ان نهتم لا باللغة الفرنسية فقط وانما باللغات الاخرى الانجليزية ، والاسبانية والرومانية والصينية الخ ... والإهتمام بهذه اللغات يجب ان يتم فى مرحلة لاحقة من التعليم ولا ينبغى ان تعامل على قدم المساواة مع اللغة العربية ، ولكن لو جللنا هدف الازدواجية فى اطارها المحدود ، لوجدنا انه لا يخرج عن طريق

مقاسمة اللغة العربية لسيادتها في عقر دارها ، وترسيخ التبعية الثقافية التي نعمـل للتخلص منها • وهذا أمر في الواقع لا يقبلـه أي شعب حريص على شخصيته ، فأي لغة كانت ليست مجرد وسيلة اتصال وتخاطب، وانما هي الوعاء الرئيسي للشخصية الوطنية واهـم عنـاصر مقومـاتهـا وعـلى هـذا الاسـاس فان الموضـوع ليس موضـوع مفاضلـة بـين هـذا الاسلوب او ذلـك أو محاولـة التوفيـق بـين هـذا المفهوم او ذلك ، وانما المسالة في النهاية مسالة اختيار ثوري وكل اختيار ثوري لا يقبل انصاف الحلول • وبعد هذا كله اعتقد انني لم أعد في حاجة الى القول بأن الازدواجية ليست هي التعريب ، كما ان التعريب لا يعني ابدا القضاء على الفرنسية ولا على غيرها من اللغات الحية والتي يتحتم عـلى الجزائريين ان يتعلموها ليتمكنوا مـن مواكبـة الركب الحضاري •

س 2 : يقال ان التعريب وضع عـلى مستوى المشاعر والدعاية أكثر مما هو موضوع على أساس علمي حقيقي ومن هنا كان الاخفاق في محاولات التعريب ، ما رأيكم في هذا القول •

س 3 : ما هي الاطارات التي نعتمـد عليهـا لانجاح التعريب ؟

ج : في اعتقادنا ان هذا السؤال والذي يليه يطرح قضية رئيسية ومبدئية وهي قضية العلاقة بـين الاختيارات والشعارات المعلقة والوسائل المكرسة لتحقيقها والوسط أو المناخ العام الذي يتم فيـه تحقيق هذا الهدف •

فالتعريب باعتباره اختيـارا مـن اختيارات الثورة الاساسية واجه مثل غيره من الاختيارات الاساسية للثورة حربا ومقاومة من قبل أعدائه ، سواء عن وعي أو عن جهـل • فاذا كان البعض يعارضه عن وعي فان البعض الآخر يعارضه نتيجة لتصور بان التعريب سوف يحرمه مـن جميع الامتيازات •

وهذا النوع من التفكير الطبقي ناتج عن الروح الرجعية المتاصلة في نفوس هؤلاء •

وعلى هذا الاساس ترى زمرة من المتفرنسين ، ان اللغة العربية اصبحت لغة ميتة وانها لم تعد اهلا لدراسة العلوم والرياضيات وان الجزائر لو اتخذتها بالفعل وتخلت عن الفرنسية لصارت حتما الى الانهيار والتقهقر ، وانقلبت عن طريق التقدم والازدهار شأن سائر البلدان العربية التي ما زالت تعيش تحت سيطرة الخرافات والاوهـام بينما تحاول الامم المتقدمة ارتقاء أسباب السماوات بحثا عن اكتشافات جديدة وسعيا وراء تطـور الاحداث العلمية •

ان هـؤلاء يهزؤون بمطالب الشعب معتقدين بان الجماهير نائمة لا تبصر ما يفعلون ، والا كيف يتجاهلون المؤلفات العربية التي تركها لنا ابن سينا وابن الهيثم والبيروني وجابـر الخوارزمي والرازي وابن النفيس والزهراوي وابن يونس والصوني وابن العـوام وغيرهـم في الفلـك والرياضيات والضوء والهندسة والجبـر والطب والكيمياء حتى قيل ان الينبوع الاول للعلـوم الطبيعية انما تفجر في العصر العربي الاسلامي •

ان اللغة العربية قد أثبتت وما زالت تثبت قدرتها على التعبير العلمي وعلى نقل المصطلحات العلمية ، ولذلك يتحتم علينا ان نفتح لها أبواب

الفروع العلمية واسعة في جامعاتنا . ولا يمكن ان يتم ذلك الا اذا تخلصنا من مركب النقص الذي يطغى علينا كلما اردنا ان ننال من سلطان اللغات الاجنبية التي ما تزال تسيطر على عقول الاغلبية من اطاراتنا المسؤولة . ألا فليفهم هؤلاء بان علمية اللغة تخضع لعلميتنا ، وان الانسان العالم هو الذي يخلق لغة علمية ولنا على ذلك امثلة كثيرة نستطيع اخذها من مختلف انحاء العالم .

ولقد اثبتت التجربة من جهة اخرى ان تعلم اللغة العربية ليس بالعملية الصعبة اذا كان المتعلم ذا ارادة قوية ، ولقد شاهدنا بعض الاخوات البيض بدأن دراسة العربية مع بداية الاستقلال وهن الآن معلمات يدرسن هذه اللغة للابناء الجزائريين . ولاحظنا من خلال مختلف النشاطات السياسية اليومية ان كثيرا من كبار المسؤولين في اجهزة الدولة قد اصبحوا يتكلمون اللغة الوطنية بسهولة ، وكانوا قبل اليوم لا يجيدون حتى النطق بها . وما من شك ان السر في الحصول على مثل هذه النتائج الايجابية يتطلب بالاضافة الى الارادة القوية التي اشرنا اليها من قبل تخلصا نهائيا من مركبي النقص والكمال اللذين لا يزالان مع الاسف عالقين بأذهان بعض اطاراتنا ، وليتهم كانوا يعلمون ان الاطار لا يكون كاملا ونافعا الا اذا كانت له شخصية متكاملة . وبهذا الصدد يؤسفني ان اتعرض الى بعض الحصص المتلفزة ، وهي من المفروض حصص موجهة الى سواد الشعب الذي يفهم الفرنسية ..

ان كثيرا من هذه الحصص التي تتلفز قصد المساهمة في عمليات الشرح والتفهيم لانجاح مختلف الحملات الوطنية يجتهد اصحابها في ان تكون شروحهم واجاباتهم كلها بالفرنسية ، كانهم يخاطبون جمهورا فرنسيا ، والعجيب في الامر انهم لا يستحيون لا من انفسهم ولا من الشعب الذي تولوا باسمه هذه المسؤوليات .

ورب من قائل، ان الذين يشاركون في الندوات المتلفزة هم في معظمهم من التقنيين ولا يستطيع التقني ان يعبر عن افكاره الا بلغة اجنبية . ومثل هذا الادعاء لا يستحق منا ان نقف عنده لان اللغة العربية فندته في جميع الازمنة ، هذا اذا صح ان اصحاب هذه الندوات تقنيون فعلا . ولكن الحقيقة غير ذلك ، لاننا لا نرى أين تكمن التقنية في حديث موجه لشرح مجانية العلاج أو التعليق على فيلم حربي أو بوليسي في غالب الاحيان .

وهكذا ، فالتعريب ضرورة ملحة في الجزائر ، لان اللغة العربية ـ هي المرآة التي تعكس الشخصية الجزائرية ونحن لا نستطيع ان نتخلى عن هذه الشخصية .

ولكن التعريب لا يعني ترجمة النصوص والخطب من الفرنسية كما يحاول او يوهم الرأي العام بعض السادة الذين يسعون في الخفاء للنيل من قيمة العربية ومن قيمة مثقفي هذه اللغة ويظهرون انفسهم للعيان كاكبر حماتها . فهؤلاء السادة الذين نجدهم ، في الغالب ، مكلفين

بشؤون التعريب ـ مع شدة الاسف ـ يؤمنون ايمانا جازما بان الترجمة كما تمارس في بلادنا خنق وقتل للعربية ... ذلك ان ميادين الترجمة ـ اذا صح ان نسميها ميادين ـ لا تخرج عن ترجمة التقارير يكتبها بعض انصاف المثقفين بفرنسية رديئة ، او ترجمة الجريدة الرسمية والرسائل التي يكتبها المواطنون بلغتهم القومية.

يقولون . لا نريد ان نتعجل في التعريب . ان العمل الجدي هو العمل البطيء . ولكن ماذا انجزوا منذ حوالي عشر سنوات ؟ .

ان التعريب حركة اصيلة في الجزائر ومستقلة عن الترجمة يجب ان يقوم بها ابناء العربية المخلصون لها ، والتعريب لا يخص وزارة التربية الوطنية وحدها ، بل انه عملية مشتركة ينبغي لانجاحها ان تتوفر شروط ، اهمها : المحيط والمبادرة في العمل .

اما المحيط فلان الانسان يتاثر كثيرا بالوسط الذي يعيش فيه ويتطبع بطبائعه ، واذا كنا نريد التعريب ارادة صادقة ، يجب ان نخلق له الجو المناسب .

واما المبادرة في العمل فلان التاني لا مآل له غير الفشل ولان العمل الذي يبدأ لا بد ان يتم.

وميادين التعريب ، كما قلنا ، لا تنحصر في مؤسسات وزارة التربية والتعليم بل تتعداها الى مصالح البريد والبلديات والمحاكم وغيرها من الهيآت التي لها اتصال مباشر بالجماهير الشعبية .

س 4 : وقعت التباسات فيما يخص كلمة « أصالة » الى درجة ان بعضهم ربطها بالاعراق . ونحن اعتدنا ان لا نتكلم عن الأصالة الا في نطاق ثقافي ، ما رأيكم في هذا ؟ .

ج) : فيما يتعلق بالأصالة ، لا يمكن ان تتجاوز النطاق الثقافي والنطاق الثقافي بالنسبة الى هو ذلك النطاق الواسع الذي يشمل التعليم والعادات والتقاليد وكل ما له صلة بانماط الحياة . وفيما يخص الجزائر فان مفهوم الاصالة لن يكون له معنى الا في اطار الثورة الثقافية أما الذين يريدون ربط الأصالة بالأعراق فهم اما من الذين تسيطر عليهم الروح العنصرية فصاروا يتحاملون على التاريخ ويتحينون جميع الفرص لخلق الاجواء الملائمة لغرس افكارهم ، واما من الذين لا يحبون العيش في ظلال الوحدة فصاروا يختلقون الاسباب لتسهيل التجزئة وعمليات الانقسام التي لا تخدم عادة سوى مصالح الاستعمار والامبريالية بجميع اشكالها ، وفي جميع الحالات فان اصحاب الطائفتين يمثلون خطرا على مصالح الشعوب ، ومن ثمة فهم مفسدون يتحتم على السلطات الثورية ان تقف لهم بالمرصاد وتضع حدا لمناورتهم لانهم في العادة لا يتحركون الا لتغطية نزعاتهم الهدامة المناهضة للثورة ولتطور التاريخ الحتمي . وربط الاصالة بالاعراق ، زيادة على كونه عملا اجراميا في حق العدالة والاخوة يقلل من قيمة الاصالة كاساس لبناء الشخصية الوطنية وللحفاظ عليها ، ذلك ان التاريخ على الرغم من الوسائل العلمية الحديثة لم

يتمكن حتى الآن ولن يتمكن من تحديد مصادر الانسان الاول وضبط سائر التفرعات التى يبنى عليها المجتمع البشرى ٠

واخيرا نكرر بان التعريب مطلب وطنى لانه يضع حدا لذلك الاحتلال الرهيب الذى تعرضت له شخصيتنا والذى اصبح عائقا يمنع المجتمع الجزائرى من ان يتفتح تفتحا طبيعيا ، وبالفعل فان الشخص اذا كان ينتمى الى مجموعة لغوية يجهلها ، لا يستطيع الاتصال بالجماهير المكونة لمحيطه . ولا يكون قادرا على التفاهم معها ، ولا على التعبير عن افكاره الا فى لغة اجنبية يستعيرها من الغير ٠ وفى هذه الحالة ، يتقمص صاحبنا ـ لاشعوريا ـ بشخصية المجتمع الذى يستعمل لغته ويتطبع بطبائعه فينفصل بالتدريج عن آهله وذويه ٠ وان هذا الطلاق اللاارادى يجعل الفرد المصاب بجهل لغته لا يتجاوب مع المطامح الشرعية التى يصبو اليها أبناء الشعب وتتقلص طاقته الخلاقة ثم تضمحل وتزول لانه لا يتكلم نفس اللغة التى تتفاهم بها الجماهير ٠ يحدث ذلك فى كثير من الاحيان على الرغم من ميوله الوطنية ومن شعوره واحساسه بالانتماء القومى ٠

س 5 : واخيرا كيف ترون واقع التعريب الآن ومستقبله ، وعلى الخصوص كيفية حمل البيرو قراطية على التخلى عن العراقيل التى تضعها فى طريق التعريب ؟ ٠

ج : اذا اخذنا بعين الاعتبار كل العوامل التى سبق ذكرها والتى تشكل حواجز وعقبات ، فيمكن القول اننا قد انطلقنا من مركز القوة ، حيث ان التجاوب بين القيادة والجماهير قد تمتن وتدعم ٠

وعلى هذا الاساس نستطيع القول اننا قطعنا أشواطا ٠ وذللنا صعابا ، وحصلنا على نتائج ايجابية قد لا تكون فى مستوى طموحنا ، ولكنها مهمة اذا اخذنا بعين الاعتبار عملية التخريب والتشويه التى قام بها الإستعمار طيلة مائة وثلاثين سنة ضد العربية وأهلها ٠

وأما عن مستقبل التعريب وتحقيق مضمونه الكامل فهو يتطلب منا جهدا مضاعفا وارادة قوية ويقظة دائمة لتذليل المصائب واحباط العراقيل ومعالجة ما تعنونه بالبيروقراطية تتطلب أمرين :

اولا : المتابعة الدائمة ، فلا يكفى ان نصدر القرارات والمراسيم فقط ، وانما لا بد من السهر عليها ومراقبة تنفيذها فى المراحل التطبيقية حتى يكون التنفيذ فى مستوى الاهداف المنشودة ومطابقا لروح القرارات والمراسيم ٠

ثانيا : ان كل هدف ثورى يتطلب تقديم التضحيات اللازمة سوا. أكانت هذه التضحيات مادية او بشرية فاذا كانت التضحية المالية تتمثل فى الاعداد المادى وتهيئة الوسائل والامكانيات الضرورية ، فان التضحية البشرية تعنى الى جانب الجهد المتفانى والمخلص تطويع بل وحتى التخلص من العناصر والعقليات التى تعرقل تطبيق هذا الهدف الثورى ٠

بـــــلاغ
حـول الملتـقى الثـامن للفـكر الاســـلامي

تعلن وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية أن الملتقى الثامن للفكر الاسـلامي سينعقد في بجـاية بقاعة المسرح البلدي من الفاتح الى الثـاني عشر من ربيـع الاول 1394 هـ الموافق الخامس والعشرين مـارس الى الخامس من ابريل 1974 م ٠

وسيحضره طلاب وطالبات جامعات الجزائر ، وقسنطينة ، ووهران ، وتلاميـــذ وتلميذات السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الاولى والنهائية سابقا) من اى بلد كان ، وسيسمح لغير الطلبة من الجزائر وغيرها ممن هم في المستوى المذكـــور بالمشاركة في الملتقى حسب الاماكن الشاغرة ٠

وستدعى الى الملتقى شخصيات جامعية ورجال بحث من الجزائر وغيرها من انحاء العالم الاسلامي وبلدان أخرى لالقاء المحاضرات ، وعقد الندوات ، والمناقشة فيمـا بينهم بحضور الطلبة ومشاركتـــهم ٠

ونظام الملتقى هو النظام الداخلي ، ويمكن السماح بالنظام الخارجي لمن يطلبه ٠

هذا وتتحمل الوزارة ، في اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التـراب الوطني ، وبالنسبة للطلبة الآتـين من أوروبا فستتحمل الوزارة نفقات سفرهم ذهابا وايابا من مرسيليا واليها او احد موانى البحر الابيض المتوسط ٠

وسيطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا او غيرهم ٠

وترسل طلبات المشاركة الى ادارة البحوث الاسلامية ، نيابة الملتقيات ، وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية 4 ، نهج تيمقاد حيدرة ، الجزائر ، مع ذكر كلمـــة « الملتقى » على زاوية الغلاف ٠

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبه شهادة دراسية وشهادة طبية ٠

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هـــو السابع من محرم 1394 هـ المـــوافق 31 يناير 1974 م ٠

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتي :

1) ـ وضع الاقليات والجاليات عموما والاسلامية خصوصا في كثير من بلدان القارات الخمس ، وواجب العلماء والمفكرين ، ورجال الاعلام نحوها ٠

2) ـ دور المفكر اليوم وعلى مر العصور في أمته وتجاه الانسانية في كل مـن قضايا الساعة وآفاق المستقبل ٠

3) ـ مساهمة بجاية الحمادية في الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين وأسباب وآثار انحطاطهما ٠

4) ـ مساهمة الحضارة والفكر الاسلاميين في مختلف مجالات العلوم ، والفنون، والتراث الانساني على العموم٠ عوامل ازدهارهما ـ أسباب انحطاطهما وشروط انبعاثهما٠

5) ـ الاصالة والتفتح ـ ما معناهما ؟ وما مدى أهمية هذا الجمع اليوم بالنسبة للافراد والامم ولمصير الانسانية كلها ؟

اللغة والشخصية في حياة الأمم

مولود قاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

ساحاول ان أتكلم عن الصلة بين اللغة والشخصية من جهة ، وصلتهما معا باستمرار حياة أمة من الامم ، من جهة أخرى ، مع التركيز فى النهاية على الجزائر .

وسأكون مسهبا، ومسهبا جدا فى بعض الامثلة، وعابر سبيل ، سريعا ، بالنسبة لاخرى . وأول ما أبدأ به تجربة مرت بها أمة فى القرن الماضى ، او أوشكت أن تمر بها ، فى نظر أحد فلاسفتها ، وسأقف طويلا لدى هذه التجربة نظرا للدور الديناميكى الاساسى الفعال والمباشر الذى لعبته فيها شخصية فذة ، ونظرا لانطباق آراء هذه الشخصية على اية أمة من الامم فى جزء كبير من هذه الآراء التى كانه يخاطبنا بها ، والتى لا تزال لها صلاحيتها وصحتها حتى اليوم .

محاضرة القيت فى 24 مايو 1968 فى قاعة المحاضرات الجامعية بدعوة من وزارة التربية الوطنية . ونشرت فى كل من الشعب والمجاهد بالفرنسية ثم فى « الثقافة » . ونعيد نشرها فى هذا العدد الخاص بالتعريب ، لما فيها من المقارنات مع الاوضاع فى بعض الشعوب والدول الاخرى قديما وحاضرا . ولما تساهم فى تصحيح بعض المفاهيم حول اللغة « الاصالة » .

تلك الامة هي المانيا ، وهذه الشخصية الفذة هو أحد فلاسفتها العظام ، أحد الفلاسفة العظام على الاطلاق في سائر العصور ، الذين كانوا يحلقون في آفاق التجريد المحض والمثالية الخالصة العليا ، ومع ذلك لم يفقدوا الاتصال بالمحسوس والملموس ، ولم يكتفوا بالحديث عن جنس الملائكة وخلود الروح ، بل اهتموا أيضا وبالدرجة الاولى بالقضايا الوطنية والانسانية اليومية ، بآلام الشعب ومصير الامة كامة ، فوضعوا طاقتهم ، كل طاقتهم في خدمة أمتهم وانقاذها ، وضمان خلودها، وأقصد بهذه الشخصية الفذة الممتازة يوهان غو تليب فيخته J. G. Fichte، استاذ الفلسفة بجامعة برلين ، الذى صارع نابليون ، ومات شهيد الحرية والدفاع عن أمته ، وشخصيتها ، ولغتها ، هذه اللغة التى لم يكن يتصور أمته بدونها ، والتى كان يرى فيها العنصر الاساسى لشخصية كل أمة تسمى نفسها أمة ، وتستحق ان تسمى كذلك • وتريد لنفسها الكرامة والخلود !•

يرى فيخته ، صاحب فلسفة الانية أو الذاتية (وكلمة الانية هذه لابن سينا) ، ان وجود أمة من الامم بوجود انيتها التى هى شخصيتها ، وان هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة : الدين واللغة وحب الوطن •

وسنتعرض لكل نقطة من هذه النقاط على حدة، على انها في غاية التداخل عند فيخته ، وذلك انه لم يكن يتصور عنصرا من العناصر الثلاثة بدون الآخرين ، بل متشابكة متكاملة عنده بحيث انه لم يكن يتصور أن يكون هناك ألمانى متدين ولا يحب وطنه ولغته ، كما أنه لا يتصوره محبا للغته دون وطنه ودينه ، ولا محبا لوطنه دون دينه ولغتــه •

I) — فيقول عن العنصر الدينى :

« ان تربية الشعب على التماسك بالدين والاخلاق هى أساس كل حكومة ، وعلى الحكومة أن تؤسس معهدا دائما لهذه التربية الدينية ، وهذا المعهد جزء لا يتجزأ من مؤسسات كل دولة حكيمة طيلة دوامها » •

« وان ظن الدولة (أى الالمانية) بانها فى استطاعتها تسيير الشعب بدون هذه التربية الدينية والاخلاقية ، وتهاونها فى هذه المسالة هما اللذان أديا بها الى الحالة التى تتخبط فيها اليوم ! » •

ويضيف فيخته :

« على ان هذه التربية الدينية والاخلاقية لا ينبغى ان يكون هدفها العالم السماوى غير الحسى فحسب ، اذ أن الحياة ارضية وسماوية ، والذى لا يؤمن بالحياة الارضية مصيره الى الزوال السريع » •

« ان الفهم الحقيقى للأشياء هو ان الحياة الارضية حياة حقيقية جميلة ، علينا أن نحياها ونتمتع بها بحق شاكرين ، فى ظل احترام الدين والاخلاق ، وفى انتظار الحياة السماوية التى هى أعلى منها » •

« على أنه اذا كانت فى الدين تعزية للعبيد المضطهدين عن عبوديتهم ، فان الروح الدينية فى الواقع هى التى ينبغى ان تحث هؤلاء العبيد على رفض عبوديتهم تلك ، وعلى تحرير انفسهم . ويجب علينا ان نعمل كل ما نستطيع ضد استغلال الدين وامتهانه ، الى دركة (أى عكس درجة) جعله تعزية وسلوى للعبيد ! » .

« ان الطغاة يميلون طبعا الى امتهان الدين واستعماله كمخدر لحرمان ضحاياهم من الحياة الارضية، بدعوى ان هناك حياة سماوية تنتظرهم. ولكن علينا الا نقبل من الطغاة هذا الامتهان للدين ، كما ان علينا ان نمنعهم من تحويل الارض الى جهنم ، ليشوقونا أكثر الى الحياة السماوية».

٤) — ثم ينتقل فيخته الى الكلام عن عنصر اللغة ويؤكد عليه كل التأكيد ويجعله المحور الذى يدور حوله كل ندائه الى الامة الالمانية ، اذ أن اللغة الاصيلة فى نظره هى «رمز وجود الامة ، وبقدر اصالة اللغة والمحافظة على اللغة الاصلية او فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة وشعبا اصيلا أو مجرد أشتات فحسب » .

وهكذا يفرق فيخته بين الالمان الذين هم فى نظره شعب أصلى أصيل ، وأمة ، والشعوب الجرمانية الاخرى التى تفرعت عن الالمان واتخذت لغات أخرى .

ويرى انه الى عنصر اللغة يضم عنصر التراب ، الارض ، ولكن المحافظة على اللغة أهم فى نظره ، « اذ ان اللغة او المحافظة على الاصل تؤثر على التراب، اى الوطن الجديد ، فالالمان الذين هاجروا الى امريكا وكونوا هناك جاليات ومدنا كاملة يتكلمون بلغتهم ، ويحيون حياتهم ، ويحافظون على تقاليدهم ، بقوا المانا رغم تبدل التراب ، اى رغم حياتهم فى بلاد غير بلادهم الاصلية. اما الالمان الذين لو تغلب عليهم المحتل الاجنبى وانساهم لغتهم فهم لن يعودوا المانا رغم انهم بقوا فى المانيا » .

ولذا يرى فيخته أن الالمان بمحافظتهم على أصالتهم ، أى لغتهم الاصلية التى بقيت متعلقة بجذورها ، أمة ، بينما الشعوب الجرمانية الاخرى التى هى من اصل واحد والشعب الالمانى ، ولكنها تخلت عن اللغة الاصلية او خلطتها بلغات اخرى ليست الا قبائل ، جرمانية حقا ، كالامة الالمانية ، ولكنها تبقى قبائل وأشتاتا وليست امة مثلها !

« ان اللغة هى التى تكون الانسان ، وليس العكس ، وهى التى تؤثر فيه ، وليس العكس ، فهى صدى روح الامة ، وتؤثر فى التصورات وتصبغ عليها معانى والوانا ، وتعكس عليها اشعة او ظلالا خاصة بها هى التى تجعل الانسان من هو، وليست مجرد اداة يعبر بها الانسان عن نفسه ، بل هى ، أى اللغة ، الطبيعة الانسانية التى تبرز منه فى شكل أصوات خاصة معينة لا يمكن ان تكون غيرها ، وبهذه الاصوات الخاصة التى هى صدى الروح بما تحمله من شحنات عاطفية وتصورات ومفاهيم وذكريات مشتركة يتفاهم الانسان بها مع من يشاركونه نفس التصورات ، ونفس المفاهيم، والطبائع ، والتقاليد ، والعادات، والذكريات ، أى مواطنيه ، ولو كانوا ولدوا فى قارات اخرى غير قارته ! »

« فهي تلك الطبيعة الانسانية ، اى الطبيعة الوطنية المشتركة التى تبرز فى شكل اصوات ، هى الالفاظ ، هى اللغة . انها التى تكون الخلية ، وتطبع الانسان بطابعها ، وتشكله بشكلهـا ، وتؤثر فيه التاثير العميق الذى يجعل منـه انسانا آخر ، بمميزاته الخاصة به ! »

« انها تلك القوة الطبيعية العارمة التـى تتدفق تلقائيا ، وتؤثر فى الانسان والحيـاة تاثيرا مباشرا فعالا ، بما تشحنه من طاقة كامنة ، وقوة ديناميكية فياضة تدفع الى الامام !

« انها ذلك السيل المتواصل لا بمعنى السيلان الدائم الديمقريطى ، أى التغير ، بل بمعنى الدوام والاستمرار والاستقرار !

« ان الذى يفقد لغته يمزق الخيط الذى يصله بالاجداد ، ويفقد معها حلقات ماضيه ، ويشعر بفجوة عميقة حقيقية فى تطوره ، ينقطع عن اصله، « كجلمود صخر انفصل عن الصخرة الام ، وحطه السيل من عل ، فجرفه وقذف به بعيدا الى اعماق الذوبان ، والامحاء ، واللاوجود ، « لان اللغة الاصلية الاصيلة هى الحياة ، والتى تمد بالحياة ، ولان الامم المغلوبة التى تفقد لغتها تندمج وتذوب فى جنس اللغة الغالبة !

« ان اللغة تؤثر فى الشعب المتكلم بها تاثيرا لا حد له ، يمتد الى تفكيره ، وارادته ، وعواطفه ، وتصوراته ، والى اعماق اعماقه ، وان جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التاثير ، ومتكيفة بـه .

« بل وأبعد من هذا : ان الشعب المتاثر بلغة أجنبية يبتلع بدون شعور حتى الشتائم الموجهة اليه ، ويتبناها ، ويوجهها الى نفسه ، رغم انها ضده ، وعند ما يفيق من ذلك فكل ما يبقى له هو محاولة التجرد من نفسه ، وتقمص شخصية الامة الغالبة ماديا او روحيا او كليهما معا ، حتى يتم اندماجه فيها كلية ولا تنطبق عليه كلمات التحقير المخصصة لبنى قومه .

« ولأن اليونان غرسوا فى الرومان مركب النقص وسموهم المتوحشين حاول الرومان طاقة جهدهم تقليد اليونان فى كل شىء ليتخلصوا من جلبابهم ويصبحوا يونانا ، ولا تنطبق عليهم صفة المتوحشين .

« وكذلك لأن الرومان وصفوا الالمان بهـذا النعت بذل هؤلاء الاخيرون كل ما استطاعوا من جهد لتقليد الرومان والاندماج فيهم ، وذهب بهم مركب النقص ، والتاثر بالرومان ، والتعلق بهم ، والحرص على التشبه بهم الى حد الغاء جميع ألكلمات التى يبدو عليها طابع الاصالة الجرمانية، ليحلوا محلها كلمات لاتينية ، لان هذه الاخيرة فى نظرهم مثال النبل والاناقة ورمز الثقافة الرفيعة ! وحتى عند ما بقيت هناك كلمات المانية بجانب كلمات لاتينية بنفس المعنى كان اجدادنا الجرمان اولئك يستعملون الكلمات اللاتينية طبعا ، ويفضلونها على الالمانية التى كانت فى نظرهم بحكم اندماجهم ومركب النقص لديهم رمز التاخر والبدائية والهمجية !

« **مساكين اولئك المندمجون الهاربون من اصلهم ، اللاجئون الى اعدائهم ! وهذا مرض عميق فى نفوسنا ، نحن الالمان ، حتى جاء مارتين لوتر فاحيا الالمانية من جديد ، وبعث فيها النشاط والقوة ، وارجع لها مكانتها واصالتها !**

« **ان لغة امة من الامم هى قوتها الطبيعية ، كما ذكرنا ، وعليها ان** تستنفد كل ما فى هذه اللغة من امكانيات وملكات وقوة طبيعية للتعبير عن نفسها ، مع تنسيق الالفاظ واختيار المعانى ، بحيث تصبح كلا متناسقا منسجما انسجاما منطقيا ، ودالادلالة واضحة تامة .

« **اما تلك الطبقة التى تتساهل فى لغتها او تريد تبسيطها ، وتتوخى السهولة ، وتتحاشى الالفاظ الصعبة النطق ، فهى لا حق لها اطلاقا فى المشاركة معنا فى هذا الموضوع ، اذ ان هذه الطبقة نفسها هى التى تتباهى بكل ما هو اجنبى عنا من لغة ، وعادات ، ولباس ، وترى فيه النبل كل النبل ! »**

(وهنا نفتح القوس لنذكر بمحاولة فاشلة فى المشرق العربى كانت تدعو ـ تحت تأثير الاستعمار ـ الى استبدال الحروف اللاتينية بالعربية ، اى ترك العربية لفائدة اللاتينية فى الكتابة العربية ، بدعوى التبسيط والتسهيل !

ومحاولة اخرى لا تزال تظهر من حين لآخر حتى الآن فى المشرق العربى ايضا وهى الدعوة الى اللغة العامية ، اى اللهجة المحلية لكل قطر من الاقطار العربية .

وقد فضح المستشرق المجرى المعروف عبد الكريم جرمانوس المسلم هذه المؤامرة من الخارج وهذه البلاهة فى الداخل بقوله ان هؤلاء العرب (الشرقيين) جهلة يريدون ان يقلدوا أتاتورك ، وهم جهلة لا بتطور اللغات فحسب ، بل وبتاريخ لغتهم وعبقريتها ايضا .

ونغلق القوس الآن لنعود الى فيخته الذى يتكلم عن شعبه فيقول :

« **وان هذا المرض ، مرض التهافت على كل ما هو من الخارج لدى طائفة من مواطنينا هو اصل جميع مصائبنا ، وسبب الهوة التى تزداد اتساعا بين هذه الطبقة المترطنة بلغة الاجانب ، والمتباهية بزيهم فى الملبس ، والمقلدة لهم فى الاخلاق ، وعامة الشعب المتمسك باخلاق البلاد ، والمحافظ على لغته التى هى قوته الطبيعية ، والضامنة لأصالة واستمرار شخصيته ووجوده !**

ويمضى فيخته فيقول :

« **والدولة التى تفرض على الشعب التجنيد الاجبارى لرد الغزو المادى ، مع احترام حقوق الفرد وحريته فى الظروف العادية ، لا يحق لها فقط ، بل يجب عليها ان تفرض عليه ايضا التربية الصحيحة لتحصينه من الغزو الروحى ، وتضمن له الاستمرار والخلود ، وكل تربية صحيحة سليمة لا يمكن ان تقوم الا على اساس اللغة القومية الاصيلة التى هى القوة الطبيعية الاولى للامة !**

« ولأن ضمان استمرار الامة متوقف كـــل التوقف على هذه التربية ، نرى ان حل مشكلـة التربية شرط اساسى لحل جميع المشاكل الاخرى، وان الامة التى تحقق التربية المثلى هى الوحيـدة التى تستطيع ان تحقق الدولة المثلى !

« **وفى هذا السياق تتحتم** علينا كتابة تاريـخ امتنا ، تاريخ يلهب ويحمس ، ويدفع بنا الـى الامام ، تاريخ يكون لدينا مثل الانجيل ، ويقـرأ بنفس الحب والتقديس والاجلال ، تمجيـــدا للاجداد ، وحثا لأنفسنا على اقتفاء اثرهم ، لنكون جديرين بالانتساب اليهم ، ولنترك شيئا للاجيال المقبلة ، لاستمرار شخصيتنا !

« انّ هذا الفسخ والمسخ لروحنا ، وان هـــذا المحو لشخصيتنا وانيتنا ، وان هذه التبعيـــة العقلية والعاطفية للاجنبى ، وهذا الانسلاخ عن الشعب ، كل هذا يؤدى الى حب التقليد للاجانب، وترك الشعب بعيدا ، بل يؤدى حتى الى خيانته وغدره ، وصراخ فى وجهه اذا ما تأدى للرجوع الى اصله واحترام أصالته !

« وهذه التبعية نجدها احيانا تختفى ، وتتستر، وترتدى اردية مختلفة تتقنع بها • ولكنها تنكشف فى النهاية ، مهما كان مخبؤها عميقا ! »

3) ـ وعن العنصر الثالث للشخصية وحيـاة الامة ، **وهو حب الوطن ، يقول فيخته :**

« فكما ان الدين هو العنصر الدائم لحيـــاتنا الروحية العليا كحياة روحية بمعنى الكلمة ، فان حب الوطن هو العنصر الدائم والاساسى لحياتنا المدنية كمواطنـين » •

ثم يتساءل فيخته من هو الوطنى ؟

ويجيب :

« ان الوطنى هو الذى يعمل على تحقيق هدف الانسانية قبل كل شىء فى امته التى هو عضـــو منها • ان الوطن خالد ، هذا الوطن الارضى الحسى الذى نحن فيه ، وان الذى لا يحب وطنه ليس له وطن ، وانى لأرثى كل الرثاء لمن لا وطن له !

« ان الذى يريد الخلود لنفسه لا بد ان يريـده لوطنه ، وان الوطن لخالد ، والحب لا يتعلـــق الا بالخالدات ، والذى يريد هذا الخلود لوطنه ارادة حقة يدركه لا محالة !

« انظر فقط الى مثل الرومان وتمجيدهم لروماء، لانهم كانوا يرون فيها الخلود ، لها ، ولانفسهـم من خلالها ، ولكل ما تمثل من قيم فى نظرهـم ! وقد تحقق لهم ذلك ! فكل ما فى روما حقيقـــة خالد، لانها ارادة شعب كامل اراد لها ذلك الخلود !

« ونحن الالمان ، كيف كنا سنصبح تحت حكم الرومان الذين كانوا يزحفون علينا لاحتـــلال أرضنا ، ومحو لغتنا ، والقضاء على ثقافتنا ، لولا حب الوطن هذا ، ولولا رغبة الخلود لدى اسلافنا ، ولولا كفاحهم الطويل المرير ؟

« لقد حاول الرومان ان يغدقوا علينا نعمهــم كلها ، التى كانت تتمثل فى الالقاب ، وفـــى ثقافتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، مع العبـــودية ، لتعويضنا بذلك كله عن حريتنا ، وثقافتنــــا ، ولغتنا ، وعاداتنا •

« ولكن اسلافنا اعتبروا جميع تلك النعم نقما، وقاوموا ، وتشبثوا بلغتهم ، وثقافتهم ، وعاداتهم، وحريتهم ، وبفضل كفاحهم ورغبتهم فى الخلـود بقينا من نحن ، أى الالمان الى الابد ، ولاسلافنـا أولئك تدين ايضا حتى تلك القبائل والشعـوب الجرمانية الاخرى التى لم يمحها الرومان من الوجود.

« وعلينا يقع اليوم عبء ومسؤولية العمل على ازالة شبح العبودية الجديدة فى شكل الرومان ، الجدد ، الذين يريدون ان يمحوا كياننا ! »

« علينا ان ندافع عن ثقافتنا ، وأصالتنـــا ، ولغتنا ، حتى نبقى دائما المانا ونضمن الخلـــود لانفسنا وأبنائنا ، واحفاد أحفادنا الى أبد الآبدين ولنبقى من نحن ، بجميع مقوماتنا وعناصر كياننا، أى ان نبقى المانا ! »

« وانا سنتغلب فى النهاية ، لان النصر ليس للقوة المادية ، ولا لكثرة الاسلحة وتنوعها ، بـل للقوة الروحية ، للعزم وارادة الخلود ! » .

ويمضى فيخته فيقول :

« أرجو ـ وربما اخطات فى هذا الرجاء ولكن بما انى لا اريد أن أبقى حيا بعد اليوم الا من أجل هذا الرجاء ، لا اريد الا ان اتمسك به ، وهو ـ ان أقنع بعض الالمان **بان التربية وحدها هى التى ستخرجنا من هذا المازق ، وتنقذنا من جميع هذه المصائب التى بلينا بها، وليضحك كل من تساوره نفسه بالضحك من هذا الامل ، وليسخر بى ان شـــاء ! »** .

« ان الاشياء باسبابها . ونحن نعرف الاسباب التى أدت بنا الى ما نحن عليه الآن ، وهو الاهمال والتهاون . ولكن هذا الاهمال كان فى الماضى ، ولنترك الماضى ماضيا لانه خارج طاقتنا » .

« واذا كان الحاضر ايضا ليس فى وسعنا لانه نتيجة لذلك الماضى ، فان المستقبل بايـــدينا ، وعلينا ابتداء من اليوم أن نعد انفسنا لمستقبـل جدير بنا وبامتنا ، وكل من تتجاوز اهتماماتـه البحث عن الخبز فقط مطالب بان يساهم فى هذا التجنيد لاعداد المستقبل،وليكن المسؤولون الاولون فى الدولة ومساعدوهم ومستشاروهم على رأس العاملين لهذا المستقبل حتى نرى فى حياتنا ذلك اليوم الذى يمحى فيه العار الذى الحق بالاسـم الالمانى وبالمانيا محوا نهائيا والى الابد ! » .

« ان التربية فقط هى التى تستطيع ان تنقذنا من هذه الهمجية الانحلالية الزاحفة علينا ، ولذا يتحتم على جميع الالمان الذين يتمتعون بمعرفـة الالمانية وليس فقط بالجنسية الالمانية ان يعملوا من اجل هذا الهدف الوطنى المشترك بين جميـع الدول والدويلات الالمانية اللغة ! » .

« ان هذه التربية ينبغى طبعا ان تكون باللغة الالمانية ، والمعلمون ينبغى ان يعلموا بالالمانية ، والكتب الدراسية تكون بالالمانية وذلـك انى لا اتصور كيف يكون الامر غير ذلك ! انى لا أتصور أن تكون هذه التربية بلغة اخرى غير الالمانية ، انى لا اتصور ان يعلم المعلمون وتـؤلف الكتب الدراسية بلغة أخرى غير اللغة الالمانية ، ايـــة كانت هذه اللغة ! » .

« ان هذه التربية يجب ان تكون وطنية بمعنى الكلمة لا مواد أجنبية مترجمة ، بل باللغة الالمانية، تتدفق من ينابيعها ، وتستمد قوتها من حيـــاة هذه اللغة ، التى سميناها القوة الطبيعية للامة !»

« انى ادعو الدول الالمانية الى التسابق فى هذا المجال ، وان الفضل سيكون للتى ستأخذ المبادرة وستتلوها جميع الدويلات الالمانية الاخـــرى ، معترفة لها بالجميل والتقدير والاحترام ، وشاكرة لها قصب السبق كأكبر محسن الى الامة كلها ! »

وهنا نفتح القوس لنقول ان هذا النداء كان يمكن ان يوجه ايضا الى العالم العربى فى جملته ليحيى العربية الفصحى ويعممها اذا كان يريد لها ان تكون لغة دولية حية :

يحكى الكاتب المصرى عفيفى فى كتابه «تاريخ المستشرقين » ان مستشرقا المانيا كبيرا ـ واظنه فيما اذكر فريتاج او ليتمان ـ فى احدى زياراته للمغرب الشقيق خرج مرة الى البادية ليتفسح ، ولما اراد فى المساء ان يعود الى المدينة اخذ يبحث عن سيارة ايجار ، ولما لم يجد عاد يبحث عن حمار ويقول : « اود ان استاجر حمارا » « بــودى ان اكترى حمارا اعود به الى المدينة » ، الخ ، وحاول بجميع الصيغ المكنة ليعبر عن رغبته فلم يفهمه احد ، ثم عاد راجلا الى المدينة ولم يصل الا فى وقت متاخر من الليل عند مستضيفه المغربى » .

ولما حكى قصته وسبب تاخره قال له صديقــه المغربى :

« طبعا لا يمكن ان يفهمك احـــد ان تكلمت بالفصحى ، فكان ينبغى ان تقول : نحب داب ! »

ولما عاد المستشرق الالمانى الى بلاده كتب يقول « يا حسرتاه على عمر قضيته فى تعلم لغة لـــم توصلنى فى النهاية حتى الى ركوب حمار » .

وهذه الحكاية كان يمكن ان تحدث طبعا فى اية بلاد مغربية أخرى ، بل وشرقية أيضا .

ولذا نتساءل هنا ولا نفهم : لماذا لا تـــزال الجامعات الشرقية ـ عدا الجامعة السورية ـ تدرس باللغة العـــامية والانجليزيـــة ؟ الى متى تبقى الجامعات الشرقية ـ عدا الجامعة السورية ـ تدرس بالانجليزية والجامعات المغربية بالفرنسية ؟ كيف يمكن لهذه اللغة العربية ان تحتل مكانتها بـين اللغات العالمية الحية الكبرى ؟

فيما نعلم تدرس الجـــامعة السورية ـ وهى الوحيدة ـ جميع المواد بالعربية . هل المستـوى فيها أقل مما هو فى أخواتها فى بقية العالم العربى ؟

ولنغلق القوس لنعود الى فيخته الذى يقـــول بالحرف :

« ان الموقف خطير ، وانى لا امزح . ولست هنا لاحكى لكم النكتة الاخيرة ، هذه العادة السيئة التى بدأت تتفشى لدينا ! وذلك ان الامة الالمانية أمة مهددة فى كيانها وانيتها المميزة لها عن الغير!»

« ان اللغة تسير جنبا الى جنب مع الاستقلال ، فالشعب الذى يفقد الاستقلال ، يفقد لغته بصورة آلية وحتى اذا لم يفقدها ، فلا يمكن ان يكون لها أدب ، وذلك انه اى ادب يمكن ان يكون لشعب فقد استقلاله السياسى ؟ » .

« كما ان الذى يفقد لغته ينتهى به الامر الى الذوبان ، كما ذكرناه آنفا ، وذلك ان اللغـــة هى القوة الطبيعية الاولى لامة ما ، فهى صـــدى روحها واصالتها ، وهى لسان شخصيتها والحافظة

لتراثها ، والضامنة لاستمرارها الـروحى ، والرابطة بين أجيالها الى آخر الايام ! » .

« ان العبد ياخذ لغة سيده ، الا نرى الآن ادباء لنا وقد بداوا يتسابقون الى الكتابة بلغة المحتل، للمدح والتملق والتقرب ؟ ماذا سيكون المصير بعد جيل او جيلين أو ثلاثة ؟ » .

« ان التاريخ يعلمنا انه كلما وجدت امة من الامم الا وكانت لها لغتها الخاصة ، وان فقدانها لهذه اللغة يؤدى بها لا محالة الى فقدان وعيها وانيتها وذاتيتها ، لان المحتل يحرس دائما على فصل ضحاياه عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التى هى صدى اسلافهم ، والقوة الطبيعية الحية لامتهم ، اذ ان اللغة المكتوبة هى الاسمنت الذى يضمن تماسك الوحدة الوطنية ، وهى العروة الوثقى التى تربط بين الاحيا، وتصل بالاموات ، ويكتب بها سجل الامم ! » .

« ان شخصية أمة من الامم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا ، بل هى شجرة تضرب بجذورها فى اعماق تلك الامة ، وان عظمة امة من الامم ليست فى المظاهر العابرة، وعبقرية الرجال لا تقاس بالتماثيل التى تقام لهم ، ولا بالتصفيق والهتاف اللذين يقابلون بهما ، ولا هى فى الالقاب التى يسبغونها على انفسهم ، وانما تقاس بالاعمال التى يقومون بها وتتمثل فى راحة ضميرهم، وحكم الاجيال وسجل التاريخ ! » .

« ولذا لا أفهم هؤلاء الذين يتملقون هذا العبقرى العظيم الذى يريدون ان يسندوا اليه مهمة العالم وتسيير الشؤون الدولية ! » .

« ان هؤلاء المساكين لا يعرفون معنى العظمة والعبقرية ! » .

وفيلسوفنا هنا يقصد مواطنه الشاعر غوته والعالم هومبولدت والفيلسوف هيجل الذين هللوا بنابليون الذى غزا بلادهم واحتلها، ورحبوا به فى ربوعهم مهنئين معجبين بما ينسبونه له من روح عالية سامية ، يجرون اليه ويطلبون مقابلته فى الوقت الذى كان هناك آخرون مثل فيخته وشيللر وبيتهوفن يرفضون كل اتصال به ويكرسون كل طاقتهم ، كل فى ميدانه ، للتنديد به والسخط عليه ونداء الشعب الالمانى الى ازاحة ذلك الكابوس عن نفسه ، وطرد المعتدى من بلاده .

وعندما كتبت اليه زوجته وهو بعيد عن برلين تخبره بمقابلة هومبولدت لنابليون ، أجابها فيخته : « **انى لن يحصل لى ابدا مثل هذا الشرف المخزى ! » .**

ويمضى فيخته فيقول لهؤلاء المتملقين ــ كما يسميهم ــ : « لا ، أيها الالمان ، أيها المواطنون ، لا نسمح لكم بهذا الهراء ، ولا نترككم تدنسون لغتنا الى هذا الحد بتملقكم هذا وهى التى خلقت للتعبير عن الحقيقة ! » .

ويختم فيخته نداءه هذا الى أمته بقوله :

« أيتها الامة ، أيها الالمان ، استمروا فى نومكم وتهاونكم ، حتى تفقدوا جنسيتكم ولغتكم ، وان أبناءكم هم الذين سيدفعون ثمن تهاونكم هذا ! أفقدوا أعز ما يملكه الانسان ، الخلق ، وذوبوا فى غيركم ! » .

« لا ، أيها المواطنون ، بل قوموا ودافعوا عن بلادكم وشخصيتكم ولغتكم ، وثقوا ان أصوات الاجداد الذين طردوا الرومان من هذه الربوع ، وحرروا هذه الجبال والسهول والانهار تمتزج الآن ، في هذه اللحظة ، بندائي هذا اليكم لتحثكم على انقاذ اصالتكم ولغتكم ، واسترجاع حريتكم ، والا تلحقوا بهم العار والشنار » .

« قوموا ، ان مصير الانسانية كلها مرتبط بكم ومتوقف على مصيركم ، واذا غرقتم فستغرقون الانسانية كلها ! » .

« هل تعرفون شيئا أدهى من الموت ؟ انه ينتظرنا على كل حال ، قمنا أم لم نقم . وقدضحت شعوب بحياتها لمسائل أقل أهمية بكثير من قضيتنا . وهل هناك قضية أهم من هذه ؟ » .

« هذا ما أردت ان اقوله لكم ، واؤكده ، وكان واجبا على ان اقوله واؤكده !» .

وبهذا ختم نداءه الى امته وذهب ليتطوع في الجيش وتبعه اغلب تلامذته من جامعة برلين ، كما تبعته زوجته ، ولكنه لم يقبل في الجيش ، ورجع الى الجامعة يحاضر ، ويوجه نداءاته وينتقل من جامعة الى أخرى ، ثم اعاد الكرة ورفض من جديد ، ولكن زوجته قبلت كممرضة في احد مراكز الجرحى ومرضى الاعصاب من الجيش في برلين ، فاصيبت بعدوى ومرضت ، وعوض العناية بها ظل فيختة يحاضر ويوجه نداءاته في جامعة برلين ، ليسكت بصوته طبول نابليون ومزاميره وهي تضج حول الجامعة ، وفي احدى المرات قفل الى البيت مهرولا فوجد زوجته في حالة سيئة وقد تفاقم مرضها، فأخذته الشفقة عليها واقترب منها كثيرا يسالها عن حالها ، فاصابته العدوى ومرض بدوره !

وعند ما قدم له ابنه دواء قال له فيخته رافضا: « دع ، كفى ، اني انتهيت » ومات في سبيل مبادئه ووطنه بعد ان تحررت بلاده بايام قليلة ، وذلك في 27 من يناير 1814 ، مرتاح الضمير ، هادىء البال ، راضيا عن نفسه ، ولا يزال يعتبر حتى اليوم كاكبر انصار الحرية من بين الفلاسفة الالمان ، الى جانب استاذه كنط ، وصديقه شيللر، وصديق الجميع : الموسيقى الثائر الخالد : لودفيغ فان بيتهوفن ، الذى ظل يزمجر باقواله ، ويرعد بالحانه ، ويحرك العزائم والهمم ، انتصارا لبلاده، ولقضية الحرية ككل !

أيها السادة

قد يقول البعض ان هذا الحماس كله من طرف فيخته حماس مؤقت بالظروف التي احاطت بالمانيا اذ ذاك ، وان هذا لم يعد ينطبق على عصرنا هذا ، عصر تشابك المصالح والمجتمعات الدولية الكبرى والتقدم الصناعي ، الذى لم تعد فيه اللغة محملة بتلك الشحنة من العواطف والانفعالات ، وان المهم هو هذا التقدم الصناعي ، باية لغة كانت ، اذ ان اللغة ليست الا اداة لا غاية في ذاتها .

وهنا اقول لا والف لا ! واحدث الادلة والتجارب لدى بعض الامم عديدة لتاكيد صحة ما نقول .

فلنستعرض استعراضا خاطفا بعض الامثلة ٠

ففى المانيا نفسها التى تكلمنا عنها وهى فى القرن التاسع عشر نجد ان فكر فيخته قد اخصب ولا تزال له فعاليته حتى اليوم ، على الاقل فى هذه النقطة التى تعنينا هنا وهى اللغة ٠

واكتفى هنا بمثل بسيط واحد ولكنه كله دلالة ومغزى فقد جاء فى جريدة دى فيلت الالمانية بتاريخ 25 ابريل 1968 خبر على الصفحة الاولى تحت عنوان :

« **لا بكالوريا مع «ضعيف» فى اللغة الالمانية** » ومفاده ان طالبة المانية فى التعليم الثانوى سقطت فى امتحان البكالوريا لانها حصلت على علامة « ضعيفة » فى اللغة الالمانية ٠ فشكت امرها الى المحكمة الادارية الفيدرالية ضد حكومة مقاطعة (هيسن) التى توجد فيها لجنة الامتحان ، ولكن المحكمة الفيدرالية اصدرت حكمها بتأييد حكومة المنطقة المذكورة ولجنة الامتحان ضد الطالبة الضعيفة فى اللغة الالمانية !

وفى فرنسا نفسها ، ألا نقرأ يوميا فى جرائدها ومجلاتها مقالات ونداءات وصرخات تنذر بالخطر على اللغة الفرنسية ، وتخبر عن انشاء لجان ومنظمات،منها منظمة يشرف عليها رئيس الحكومة نفسه ؟ ألا نسمع عن تلك المنظمة القائمة على أساس اللغة والتى ستشمل بلدانا عديدة فى مختلف القارات ؟

ففى مايو 1968 ، نشر فى جريدة لوموند تحت عنوان « الدفاع عن اللغة الفرنسية » ، وهى سلسلة مقالات دائمة تصدر منذ سنوات بانتظام تحت هذا الشعار ، ان مجلسا دوليا للغة الفرنسية قد تكون وتنتمى اليه اغلب البلدان التى تدعى او تدعو نفسها بالفرنكوفونية ٠ وان هذا المجلس الدولى بدأ عمله وبصفة رسمية فى قصر فرساى فى اكتوبر من العام نفسه ، وان هذا المجلس الاعلى للغة الفرنسية سيصدر القاموس العالمى للغة الفرنسية يشارك فى تحريره علماء من جميع تلك البلاد ، واخيرا ان « دارا للغة الفرنسية » ، وهى مقر هذا المجلس، ستدشن قريبا فى باريس ٠

وفى اسرائيل ما هو الوضع ، وكيف حلت حثالة البشرية مشكلة اللغة لخليطها المزركش ؟ لنستمع الى ما نشرته جريدة لوموند بتاريخ 15 يونيه 1965 ، لقد نشرت مقالا لنكولاى بوديه يلخص فيه فصلا من كتاب كان ينوى اصداره عن اسرائيل ، وهذا الفصل يلخص جهود اليهود ثم اسرائيل لاحياء لغة ميتة ــ كما تقول الجريدة نفسها فى مقدمتها لهذا المقال ــ وهذه اللغة الميتة هى كما تعلمون العبرية !

يقول مؤلف الكتاب : « انه اذا كان الدين فى اسرائيل من الشؤون الخاصة لكل فرد ، فان التوراة ملك مشترك بين جميع المواطنين ، بل هى دستور هذه الدولة اللادينية ٠ وجاء فى اعلان استقلال اسرائيل ما يلى : « ستقوم دولة اسرائيل على مبادىء الحرية والعدالة والسلم كما كان يفهمها انبياء اسرائيل ٠ »

« ان هذه الدولة ليس لها دستور ، ولــكن دستورها العمل هو التوراة ، ومن حين لآخــر تصدر قوانين جزئية حسب الحاجة ٠

« ان الشيء الاول الذى يلفت النظر فى اسرائيل هو هذا المجهود الجبار المبذول لاحياء تراثهــا ، لاحياء التوراة : فالمهاجرون المثقفون الذين جاؤوا من اوروبا والآخرون الذين يجرون جلابيبهــم الشرقية ، اذا كانوا يختلفون فى هذه الاشيــاء او تلك ، فهم يجمعهم شيء على الاقل : وهو انهم كلهم يتكلمون العبرية ويسكنون فى بلاد تقــوم كل حياتها على اساس التوراة !

« انهم احيوا لغة مشتركة بينهم ماتت منــذ ما يقرب من الفى سنة !

« لقد كانت لاغلبية المهاجرين اليهود الى ارض فلسطين لغة فى روسيا وبولونيا واوروبا الشرقية عامة ٠ وقد كانت لهذه اللغة آدابها ٠ ولكنهــم تركوها وآدابها ليحيوا لغة اخرى ماتت عمليــا منذ نحو الفى سنة، ألا وهي العبرية ٠ وهذا الاحياء الذى يبدو لأول وهلة اصطناعيا هو الطابــع الاساسى والاكثر أصالة لاسرائيل والاكثر اقناعا بوجودها كدولة وامة ٠

« فكم من مدينة ونهر وشارع لهــا اسمــاء ماخوذة من التوراة ، وطوابع البريد والعملــة تستعمل رمــوزا توراتية ، وعــربات النقـل «الاتوبيسات» ترفع شعارات واعلاما توراتيــة ، والاذاعة تبدأ وتنهى نشراتها بتلاوة نصــوص من التوراة ، والتلامذة فى المدارس بجميع انواعها يكرسون نحو ثلاثين فى المائة من مجموع دروسهم لقراءة وشرح التوراة ، التى هى البداية والنهاية وجمع الجوامع فى نظرهم ٠

« وفى ظرف الثمانى سنوات التى يستغرقهــا التعليم الاجبارى أى الابتدائى يكــون التلميــذ الاسرائيلى قد قرأ وفهم التوراة تقريبا من ألفهــا الى يائها وحفظ جزءا كبيرا وتعود على شروح أهم مفسريها ! » ٠

المسابقة الوطنية والدولية حول التوراة التى تنظم سنويا فى الهواء الطلق ٠

« والذى يلفت النظر فى هذا هو ان الاسرائليين غير ـ المتدينين او احرار الفكر ـ كما يقــال ، يعكفون على دراسة التوراة بنفس الحماس ، وذلك من وجهة نظر وطنية وتاريخية واخلاقية وادبيــة او حتى أثرية !

« وفى الوزارات ومختلف الادارات تتكون حلقات منتظمة لدراسة التوراة ، حلقات تضم اناسا من القمة الى القاعدة فى جهاز الدولة ٠

« واكثر هذه الظاهرة كلها دلالة على اهتمــام الشعب كله بالتوراة هى المسابقة المنظمة سنويا داخل الجامعة العبرية فى القدس والتى يتتبعهــا باهتمام أكثر من ستين فى المائة من مجمــوع السكان وثمانين فى المائة من كبارهم ٠

« وحتى فى الابحاث الجيولوجية والاثــرية والنباتية والزراعية بصفة عامة تلعب التــوراة دورا اساسيا ، بل وحتى الستراتيجية العسكرية

تستقى من التوراة معلومات وذلك باستمـــرار وبصفة دائمة !

« حقا انا نجد فى كثير من بلدان العالم اسماء عبرية مستقاة من التوراة وتطلق على مؤلفـــات ادبية واعمال فنية ومسرحيات ، الخ • ولــكن الذى يزيد هذا اهمية ويعطيه صدى اكثر فـــى اسرائيل هو اللغة ، هذه اللغة التى كانت قــد فقدت طابعها كلغة حية ولم يعد تتكلم بها منــذ اكثر من الفى سنة ، ها هى تعود الى الوجـــود والحياة بصورة غاية فى النجاح !

« لقد انشئت اول مدرسة ابتدائية لاحيــاء هذه اللغة سنة 1888 • وخلق لها منشؤها اليازر بن يهودا مفردات جديدة بذل كل الجهد فـــى ايجادها ، ومن هذه المدرسة الابتدائيـــة ، من هذه النواة البدائية ، انطلق خط مستقيم متواصل ادى فى النهاية الى تاسيس الجامعات الاربع التى نجدها اليوم فى اسرائيل !

« واستمر هذا الجهد فى خلق مفردات حيـــة على اساس القديم لمسايرة الركب الحضارى وتطور العلوم ، ويوجد منذ سنة 1953 المجمع العلـــمى للغة العبرية والى جانبه كون ايضا مجلس اعـلى للغة يشمل نحو اربعين لجنة مخصصة فى مختلف الميادين العلمية والتقنية والادبية والفنية وغيرها لانشاء واشتقاق المفردات الجديدة حسب الحاجـة ووفقا لروح اللغة وعبقريتها ، وبعد ان يتـــم الاتفاق على صلاحية تلك المفردات تنشر فـــى الجريدة الرسمية ويصبح استعمالها اجباريا فى جميع دواليب واجهزة الدولة • »

اما فى فييتنام المكافح المناضل منذ اكثر من عشرين سنة فان لغة المعاهد والكليات والمعامـل النشيطة تحت الارض والمعرضة فى كل وقـت للقنبلة والتدمير ليست الا الفييتنامية والفييتنامية وحدها ، وهذا لجميع المواد بدون استثناء • وقد استاصلوا من لغتهم جميع الكلمات الاجنبيـــة ، حتى الكلمات الواردة اليهم من البلاد الصديقـة المجاورة !

ولكن هذه البلاد كلها الى جانب مشاكل البناء والتشييد لا ينازع فيها احد فى هذه الحقيقـــة الناصعة التى عبر عنها رونى ماهو ، المدير العام لليونسكو ، فى حديث له لمجلة جون افريك سنة 1964 ، ونص كلمته حرفيا :

« ان الامة التى لا تؤمن بنفسها لا وجود لها ، وذلك انه لا يكفى ان يكون لها سفراء ، ورئيس دولة ، وعلم ، وموظفو الجمارك ، الخ • فاذا لـم يكن لشعبها طابع خاص به يعبر به عن نفســه وخصائصه ومميزاته وطرقه الخاصة به فى الحياة فلا وجود له،واستقلاله استقلال سطحى لا يدوم• ان الطريقة الوحيدة لأى شعب من الشعوب لان يعبر عن وجوده هى الثقافة ، والوعى بالطـــابع الخاص الذى يميزه عن غيره ! » •

وما هى هذه الثقافة ، وما هو هذا الطابـــع الخاص وتلك المميزات اذا لم تكن اللغة من بينها ؟ وان جمال الدين الافغانى هو الذى كان يقول قبل رونى ماهو بنحو قرن :

« لا سبيل الى تمييز امة عن اخرى الا بلغتها ، وهذا الامر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه الى دليل او برهان » !

واذا اردنا الآن ان نخلص الى الجزائر ونلقى نظرة فاحصة سريعة على مراحل تطورها فى هذا المجال وجدنا انها مثل اخواتها من البلاد الشقيقة كانت لها مساهمتها فى التراث العربى الاسلامى المشترك ، ومن خلال التراث الانسانى العالمى ، فكانت لها جامعاتها وكان لها علماؤها ، وكانت هذه الجامعات يؤمها علماء وفلاسفة من الغرب فى القرون الوسطى وبدء النهضة .

ولا نذكر منهم الآن الا اثنين . احدهما ، ويؤسفنى الا أتذكر اسمه بالضبط الآن . لان ذلك من قراءات قديمة وليس لدى الآن المرجع ، لكنى أظن انه الاخضرى ، وكان عالم كيمياء ، وكتابه كان يدرس فى جامعة منبوليى فى فرنسا . والعالم الثانى كان ريمون لول الذى جاء الىالجزائر ليدرس العربية والمنطق فى بجاية ، وهو صاحب الكتاب « الفن الكبير Ars Magna » المعروف فى المنطق .

وقد استمر ازدهار تلك الجامعات حتى الى قرب الاحتلال الفرنسى الذى وجد آثارها حية .

ففى كتابه « التعليم فى الجزائر » يقول المؤرخ الفرنسى : بولار Poulard
«L'enseignement en Algérie avant 1830»
كانت للجزائر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة كانت تدرس فيها الفلسفة والآداب والعلوم المختلفة من طب وفلك وطبيعة وسياسة وغيرها من طرف أساتذة لامعين .

وقال السيناتور كومب فى مجلس الشيوخ الفرنسى ما يلى : ان الجزائر كان فيها عند احتلالنا لها أكثر من الفى معهد ثانوى وعالى . ويضيف فالسن Walsin Esterhazy وأوربان Urbain فى عدد يوليو (سبتمبر) 1955 من « مجلة التاريخ الحديث والمعاصر » تحت عنوان : « الحالة الثقافية والاخلاقية فى الجزائر سنة 1830 » .

« ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1830 كانت أقل منها فى فرنسا بالنسبة لتعداد السكان ، أى انها كانت أعلى فى فرنسا ! » .

ويضيف بولار الذى ذكرناه آنفا : « ان احتلال فرنسا للجزائر احدث فوضى عامة فى ذلك العالم من العلماء والمفكرين ، وكثير منهم تركوا البلاد » .

وكانت تلك الثقافة طبعا بالعربية وطيلة العهد الاستعمارى خنقت العربية ومنع تعليمها وكانت المدارس العربية تغلق وأموالها تصادر ، ومعلموها يلقى بهم فى السجون والمنافى .

ولم يكن هدف الاستعمار من خنق العربية محو الشخصية الجزائرية واحلال الفرنسية محلها فحسب بل كان ايضا يرمى الى الجهل واسدال ستار الظلمات على الجزائر وفصلها عن العالم العربى والعالم كله ، ولم يكن يسمح حتى بتعليم الفرنسية الا بقدر ما يحتاج اليه من أعوان له فى مهمته بقصد الخلود ، وتدلنا على هذا الاحصائيات الفرنسية الرسمية سنة 1955 ،

ص 44 الى 46 ، التى تقول ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1954 بلغت 94 ٪ بين الرجال و96 ٪ بين النساء ·

وقام ابن باديس ليصرخ فى وجه الاستعمار وليوجه نداءه الى الامة الجزائرية ، ذلك النداء الذى يشبه كثيرا نداء فيخته إلى أمته ، الذى يتلخص فى قوله المشهور من « ان الجزائر ، لم تكن فرنسا وليست فرنسا ولا يمكن ان تكون فرنسا ، ولا تريد ان تكون فرنسا » تلك الجمل الثلاث الخالدة التى يتلخص فيها كل ما قاله فيخته ، وهى :

« الجزائر وطنى والاسلام دينى والعربية لغتى » وواصل مهمته بعد وفاته أخوه الابراهيمى ، وكلماته فى موقف الاستعمار من الجزائر ولغتها معروفة مشهورة ، ولسنا فى حاجة الى اعادة ذكرها الآن وقد سمعنا جزءا منها فى ذكراه منذ الكفاح الثورى المسلح الى ان تحررت بلادنا واسترجعت كل امكانيات العمل لتصحيح الوضع واعادة المياه الى مجاريها ووصل الخيط حيث قطعه العهد الاستعمارى الطويل ·

وليس غريبا ان تصبح العربية على ما اصبحت عليه بعد قرن وربع قرن احتلال من أبشع الاحتلالات خلال التاريخ ، خاصة اذا ما تذكرنا ما قاله فيخته عن الالمان وخوفه من فقدهم للغتهم وهم لم يروا من احتلال نابليون الا بضع سنوات معدودة ·

ولكن الغريب الا نتصدى نحن الآن بكل حزم لكل من يريد ان يماطل ويؤجل ويؤخر يوم اعادة هذه المياه الى مجاريها الطبيعية ، بدعاو ومزاعم فى غاية السخف والتناقض مع التاريخ،والتعارض مع تجارب الامم ·

ان دعوىهذه الغربان التى اكلعليها الاستقلال وشرب ، أو ينبغى ان يفعل ، هى ان اللغة ليست الا أداة ، والعربية كأداة لمسايرة الركب الحضارى والتقدم التقنى غير متهيئة وغير صالحة على الاقل فى مرحلتها الحالية ، ولذا ينبغى فى نظرهمالتمهل وعدم التسرع وانتظار الغد البعيد ! ·

واصحاب هذه المزاعم هم فى الواقع رهناء المحبس ، وسجناء الماضى غير البعيد ! بل هم يتجاوزون حدود الجزائر فى زعمهم هذا الى حد الرغبة فى شمول سائر أنحاء العالم بلغة مستعمر الامس ، التى هى لغة ثقافية حقا ، ولكنها اجنبية لا تأتى الا فى الدرجة الثانية بعد اللغة القومية ·

وهنا لا بأس بذكر نكتتين ، أو ثلاث ، احداها وقعت فى الجزائر فعلا ، وقد كنت كتبت ذلك فى ديسمبر 1962 ، والثانية والثالثة على سبيل التمثيل :

فقد وجهت احدى وزاراتنا فى اواخر سنة1962 أى بعد تأسيس الحكومة الاولى فى عهد الاستقلال رسالة الى اليمن باللغة الفرنسية ، وقد كتبت اذ ذاك فى « المجاهد » مقالات منها : تعريب الامخاخ والقلوب قبل تعريب « الالسنة » وذكرت هذا المثل وتساءلت : متى تسللت الفرنسية الى بلاد السلال ؟ ·

ولقد شاهدت في الخارج نموذجا آخر من هذا النوع من ضحايا العهد الاستعماري لدينا • فهم يتوقعون من العالم كله ان يتكلم الفرنسية مثلهم، وعندما يأتون الى بلاد اجنبية أخرى خارج المنطقة الفرنكوفونية يستغربون من عدم تكلم الناس هناك بالفرنسية ! ويرون كل شيء من خلال منظارهم ذلك ! •

وبعض هؤلاء المواطنين عاشوا سنوات في بلدان أجنبية طيلة كفاحنا المسلح أو قبله أو بعده ولم يكلفوا انفسهم عنت تعلم لغة البلاد ، وربما كانوا ينتظرون ان تتعلم تلك البلدان اللغة الفرنسية عنهم ! •

انهم يشبهون ذلك الاسباني الذي تروى عنه مقدمة كتاب لانقانشايد Langenscheidt لتعلم اللغة الدانماركية من ان اسبانيا عاش في كوبنهاجن أكثر من عشرين سنة ولم يتعلم اللغة الدانماركية وعندما زاره بعد طول هذه المدة صديق له من اسبانيا وساله عن الدنماركيين ، اجابه صاحبنا بقوله : « انهم يا أخي احمرة ! اني هنا بين ظهرانيهم منذ عشرين سنة ولم يتعلموا الاسبانية بعد ! » •

ان هذه الضحايا للعهد البائد تدعي ان اللغة العربية قد تجمدت ، وتوعكت اعصابها ، وشاخت عروقها ، ولم تعد في حالتها هذه صالحة لتدريس العلوم الحديثة بها ! » •

وهل هناك مقارنة بين موت العبرية ، وتجمد العربية ؟ ومع ذلك فقد رأينا كيف اجتازت اللغة العبرية بفضل ارادة المتكلمين بها أو الذين ارادوا احياءها والتكلم بها في طفرة — اجتازت فراغا يمتد الى اكثر من ألفي سنة ، أي الى وقت لم تكن تعرف فيه العلوم ! أي انها لم تعرفها قط في الماضي ! •

اذا كان هذا حال العبرية فكيف بالعربية التي كانت لغة العلوم والفلسفة والحضارة في العصور الوسطى وبدء النهضة الاوروبية ؟ •

لنستمع الى ما تقوله المؤلفة الالمانية سيجريد هونكه في كتابها : « شمس الله تسطع على الغرب » عن العربية والعلوم :

« قبل ستة قرون كانت مكتبة كلية الطب في باريس اصغر مكتبة في الارض ، اذ كانت تتكون من كتاب واحد مستعار ، استعاره الملك الفرنسي لويس الحادي عشر مقابل 12 ماركا ذهبيا ومائة تالر فضي لينسخ له منه اطباؤه الخواص نسخا يرجعون اليها كلما اصابه مصاب أو احس بوعكة ما ، ولا يزال طلبة كلية الطب الجديدة في شارع سان جرمان دي بري في باريس يرنون في مرورهم نحو مدرجات الكلية الى تمثال قائم في بهو الكلية وهذا التمثال لمؤلف الكتاب المذكور ، وهو واحد من أكبر أطباء جميع الامكنة والازمنة : انه أبو بكر بن محمد زكريا الرازي ! » •

وتضيف المؤلفة الالمانية فتقول : « وكان يقال عن أي طبيب ماهر في أوروبا انه روح ابن سينا » « Anima Avicennae » وهذا حتى القرن السابع عشر ! •

« ونظريات ابن سينا فى الجيولوجيا وكتابه عن المعادن بقوا المرجع الاساسى لاوروبا حتى القرن الثامن عشر » .

اما كتابه القانون فى الطب ، فقد ذكر المؤرخ الفرنسى للفلسفة Picavet medièvales.

فى كتابه:

Esquisse d'une histoire générale et comparée des philosophes

انه كان يدرس فى جامعة لوفان ببلجيكا حتى سنة 1909 ! نعم ، 1909 ! .

ونعود الى المؤلفة الالمانية اذ تقول : « ان العرب الذين ازدهرت جامعاتهم منذ القرن التاسع الميلادى هم الذين أمدونا بنموذج الجامعات وتقسيمها الى الكليات المختلفة ، والحاق الفروع الضرورية بكل كلية مثل المستشفيات والمخابر لاجراء التجارب ، ومنهم تعلمنا اجراء الامتحانات ومنح الشهادات ، وعنهم اخذنا مناهج التعليم ، واخيرا : فمنهم أخذنا المحتوى أيضا ، ولم نتلق منهم الكأس فارغة بل بمحتواها ، تلقيناها مليئة بالراح المعتقة !

فالعرب هم الذين أنشأوا الكيمياء التجريبية ، والطبيعيات بالمعنى الحالى ، والجبر والمقابلة والرياضيات وحساب المثلثات الكروية والجيولوجيا وعلم الاجتماع .

وفى الفلسفة ؟ الم يكن تأثير الفلاسفة المسلمين فاصلا فى تاريخ الفكر الفلسفى الاوروبى ؟

ولقد تكلم الغزالى عن الزمن والمكان فى احياء علوم الدين بقرون قبل كنط ، وان كان ليس بذلك التوسع والتفصيل ، وانية ابن سينا نجد لها صدى لدى كل من ديكارت وفيخته ، وعندما تقرأ بعض تعابير ديكارت وكنط عن حرية الاختيار تظن انك تسمع واصل ابن عطاء وابا الهذيل العلاف وابا اسحاق النظام يتكلمون ! واخيرا ، وليس آخرا ، ان ابن رشد قد سبق كنط بقرون الى القول بذلك الامر الجازم أو الالزامى المعروف !

وقد ظلت فلسفة ابن رشد هى محور الحديث فى جامعات بولونيا بايطاليا ، وكولونيا بالمانيا وفى السربون بفرنسا ! وكان طلبة الحى اللاتينى اذ ذاك بل والاساتذة ايضا قبل ان يبدأوا أية مناقشة فلسفية يسألون بعضهم بعضا كمدخل ولمعرفة موقف الخصم مقدما : « هل أنت مع ابن رشد أو ضده ؟ » .

والذى يروى لنا هذا ليس ممن يعطفون بصفة خاصة على الاسلام والفلسفة الاسلامية ، ومع ذلك لم يجد بدا من التغلب على عواطفه والاعتراف بهذه الحقيقة .. انه أرنست رينان فى كتابه : ابن رشد والرشدية .

ويقول لنا مؤرخ الفلسفة الفرنسى المعروف البير ريفو Albert Rivaud فى كتابه (تاريخ الفلسفة) : « أن تأثير الفلسفة الاسلامية على الاوروبية ظل سائدا حتى أوائل القرن التاسع عشر ! » .

والآن أيها السادة ، نتساءل : ما هى اللغة التى عبر بها أولئك المسلمون عن جميع هذه الجوانب المختلفة للكون والكائنات وما يربطهما من علاقات ؟

انها العربية التي كانت ايضا اللغة السائدة في قصور ملوك النورمان وقياصرة ألمانيا فترة من الزمن !

لقد كان فيلهلم الثاني ملك صقلية ينتقي مساعديه واطباءه ووزراءه من بين العرب ، وكان هو نفسه يقرأ ويكتب ويتكلم العربية التي كانت لغة قصره .

ويذكر لنا ابن جبير الغرناطي في رحلته التي قام بها سنة 1185 الى بالرمو عاصمة صقلية بعد احتلالها من طرف النورمان ان نساء بالرمو المسيحيات يقلدن المسلمات لا في ملبسهن فقط ، بل وفي لغتهن ايضا ، فكن يتكلمن بالعربية !

وكان فريدريك الثاني الالماني ، ملك صقلية وقيصر الامبراطورية الالمانية الرومانية المقدسة وحفيد فريدريك بارباروسا الاول ، يتكلم العربية التي كان يجيدها كلغته الالمانية ، ودرس الفلسفة والجدل بالعربية لدى قاضي المسلمين المتبقين في بالرمو .

وهكذا فكما كانت الفرنسية هي اللغة الغالبة على اوروبا في القرن الثامن عشر وكانت لغة العصر في بروسيا في وقت فريدريك الكبير وفي عاصمة روسيا في وقت القيصرة كاترين ، كانت العربية هي لغة فيلهلم الثاني وروجي الثاني وخاصة فريدريك الثاني ، ملك صقلية وقيصر الامبراطورية الرومانية الالمانية المقدسة .

كما كانت العربية لغة العلم والفلسفة لدى علماء اوروبا الذين كانوا يحرصون على تعلمها في القرون الوسطى وبدء النهضة الاوروبية ، فتعلمها البرتوس ماقنوس وابيلاردوس في في المانيا ، وتعلمها القديس الفيلسوف الايطالي توماس الاكويني .

اما في اسبانيا ، فزيادة عن ريمون لول الذي ذكرنا انه درس في الجزائر وانه صاحب الكتاب المعروف في المنطق « الفن الكبير » ، وعن الفيلسوف اليهودي الاندلسي موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد والاستاذ الروحي لسبينوزا وسائر الفلاسفة اليهود في مختلف انحاء اوروبا فيما بعد حتى القرن الثامن عشر ، الى جانب هؤلاء نجد ان العربية غزت سائر الاوساط الاسبانية ! لنستمع الى ما يقوله الكاتب الاسباني القديم الفارو في القرن التاسع الميلادي ، أي في عهد عبد الرحمن الثاني :

« ان ارباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الادب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها . ولقد ساء ذلك بعض كبار الاسبان فقال : ان اخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب واقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الاسلوب العربي الفصيح .

« فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ واين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والانبياء ؟ وا أسفاه ! ان الجيل الناشيء من المسيحيين الاذكياء لا يحسنون ادبا او لغة غير الادب العربي ،

ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمــان ، ويترنمون فى كل مكان بالثناء على الذخائـــر العربية، بينما هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الاصغاء اليها ، محتجين بأنهـا شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات ! فيا للاسى ! ان المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلا تكاد تجد فيهـم اليوم واحدا فى كل الف يكتب بها خطابا الـى صديق ! أما لغة العرب فما اكثر الذين يحسنون التعبير بها على احسن أسلوب ! »

وتجدون هذا النص بالعربية فى كتاب العقاد « أثر العرب فى الحضارة الاوروبية » ، وهو نقله عن المستشرق الهولاندى المعروف رينهارت دوزى فى ص 317 من الجزء الاول من كتابه الكبـــير : « تاريخ مسلمى الاندلس » وهو نفسه نقله عن المجموعة الاسبانية الكبيرة لألفارو تحت عنوان : Indiculus Luminosus In Espana Sagrada المجلد الحادى عشر ، الصفحـة الحادية عشرة . (وكتاب دوزى موجود بالمكتبة الوطنية) .

وبصفة عامة كانت العربية لغة الدراســـة والبحث للكثير من العلماء والفلاسفة الاوروبيـين الذين مهدوا لعصر النهضة التى ادت بدورهـــا الى انطلاق اوروبا ، ذلك الانطلاق الذى لم يكن ليتم لولا منطلقه الحقيقى ألا وهى الحضــــارة الاسلامية التى كانت لغتها العربية !

هكذا تحس الامم بوخز الضمير يحركهـــا ويوقظها ويعيد اليها الوعى بنفسها ! واظن ان الالم الذى يحز فى نفس هذا الاسبانى ينبـغى ان نشعر به نحن ايضا تجاه لغتنا وثقافتنا .

ولقد اكد الرئيس بومـدين هذه النقطـة فى خطابه فى قسنطينة اخيرا بمناسبة تدشـــين جامعتها اذ قال :

« وكما حرصنا على استرجاع جميع مواردنـا وثرواتنا المادية سنعمل على تعزيز هذا التكوين بتربية وطنية مثلى تساعدنا على استعادة جميـع ثرواتنا المعنوية وعناصر شخصيتنا والمكونـات الاساسية لذاتيتنا ، ومن اهمها الوسيلة الاولى للتعبير عن هذه الشخصية وتماسكها وازدهارها ، حسب عبقرية شعبنا وأصالته .

« وبدون استرجاع هذا العنصر الهـام الذى هو عنصر اللغة فان مجهودنا سيظل ابتـــر ، وشخصيتنا ناقصة ، وذاتيتنا جسما بلا روح !

« وانه ليحلو لنا ونحن فى عاصمتنا الثقافية مركز الاشعاع الفكرى القومى طوال العهـــد الاستعمارى ان نؤكد هنا ما سبق ان قلناه من ان التربية مهما كانت راقية اذا لم تكن وطنيـــة فليست بتربية ، وان التكوين مهما كان عاليا ، اذا لم يكن بلغة البلاد سيبقى ناقصا ابتـــر ، بل وربما ترتبت عنهما انحرافات تحيـــدنا عن الجادة ، وتفصلنا عن وجهتنا الصحيحة السليمة ، وان احلال لغتنا مكانتها الجديرة بها فى التعليم والادارة ومختلف مظاهر الحياة اليومية والقومية لا يقل اهمية فى نظرنا عن اى مشروع مـــن مشاريعنا الثورية الكبرى ، كاعادة تنظيم اجهزة الدولة ، وتصنيع البلاد ، وتحقيق الثـــورة الزراعيـــة .

« وذلك انلغتنا هي من اهم عناصر شخصيتنا، ولساننا الذي ينبغي ان نعبر به عنها ، وانها من اهم مطالب شعبنا طوال العهد الاستعماري ، واحد الاهداف الاساسية لنضالنا الطويل وثورتنا المجيدة ٠

« ونحن اذ نؤكد عزمنا هذا مرة اخرى نترك الى جانب ذلك جميع النوافذ مفتوحة على لغات وثقافات العالم الاخرى ، فهي تكميلية لنا ، بل وضرورية ، كما هي الحال بالنسبة لأية بلاد اخرى في العالم ، تنهل من جميع الثقافات ، ولكنها تمنح المكانة الاولى ثقافتها ولغتها الخاصتين بها ، واللتين هي بهما ما هي ، فهما اساس وجودها كامة ، وعنوان كيانها ، ورمز شخصيتها » ٠

وقد قررت الحكومة فعلا كخطوة اولى لبدء تحقيق هذا المشروع جعل معرفة لغتنا معرفة كافية شرطا لازما لتقلد أية وظيفة ابتداء من سنة 1971 ٠

كما ان وزارة التربية الوطنية من جهتها تبذل جهودها المتواصلة لتحقيق هذا الهدف ، بطريقة تضمن له النجاح ٠

ولكنا نرى ايضا ان هذه المهمة ، مهمة وطنية يجب ان يتجند لها جميع المواطنين ، وانه على كل منا ان يتحمل قسطه من هذا الواجب الوطني ، بتطبيق المبدأ على نفسه ، وعلى عائلته ، واقناع اصدقائه ، وزملائه في دائرة عمله واتصالاته بضرورة الاسراع الى تعلم اللغة القومية ، والا يعتذروا بقلة الوقت وكثرة العمل والمشاغل ٠ فهذا لم يعد عذرا !

وليتعلموا من الاصدقاء والاعداء في هذا الميدان ، فقد رأينا جهود الفييتناميين ، كما نعرف مثل اسرائيل ، وكيف انّ جولدا مايير ، وبن غوريون ، وموشي شرتوك ، وليفي اشكول الذين هم من اصل بولوني وروسي ، وكيف ان ثيودور هرتزل النمساوي وابا ايبان المولود في جنوب افريقيا ، وموشي ديان المولود في فلسطين، كيف ان هؤلاء كلهم تعلموا العبرية ، وباستثناء هذا الاخير فالجميع تعلموها وهم في انحاء الدنيا المتناثرة المتباعدة ، وفي اغلب الاحيان في سن متقدمة ، وكيف ان الجامعة العبرية في القدس الشريف والجامعات الاسرائلية الثلاث الاخرى ومعهد وازيمان للذرة تدرس فيها جميع المواد بالعبرية ، وكيف ان افاقين وافدين من اكثر من مائة بلد من القارات الخمس احيوا لغة ماتت منذ الفي سنة ليجعلوا منها لغتهم الرابطة الحية لشملهم ، ولغة الاستعمال اليومي ، والتدريس ، والادارة ، والبحث والانتاج !

فليتجند لهذا الهدف الوطني كل من في امكانه القيام بشيء للاسهام في تحقيقه ، بالبدء بنفسه وعائلته واصدقائه ، وبالاقناع،والتوعية، والتنبيه ، والقدوة الحسنة ، او العدوى الايجابية، ليعمل كل منا في مجاله ودائرة نشاطه ، وبجهوده الخاصة ، وليضرب المثل العملي الحي في هذا الاتجاه كما لو كان تحقيق هذا الهدف

الوطنى العظيم مهمة ملقاة على عاتقه وحـــده ، وكمبشر ، وعليها وحدها كمبشرة ، متوقفـــا عليه وحده ، وعليها وحدها ، واذ ذاك فقـــط تكون لمساعى المسؤولين فى هذا المجال فعاليـة وقوة ، واذ ذاك فقط يوجد جو حماسى عـــام يكتنف جهود المسؤولين ويشجعهم عـــلى المضى بسرعة وتجاوز المراحل عوض الاكتفاء باجتيازها، وبأقصى سرعة ممكنة !

وبذلك فقط نكون قد دخلنا فىالمرحلة أنفاصلة الحاسمة لتحقيق هدفنا هذا،لاسترداد هذا العنصر الاساسى من شخصيتنا ، كما كان يقول فيخته ، هذه الأصالة القومية ، هذه الرابطة الوطنيـــة المعززة والضامنة لوحدة الامة ، ألا وهى لغتنـــا التى تساهم فى اطـارها فى الجهـد الحضـارى الانسانى المشترك ، والتى هى رمز شخصيتنا ، وعنوان حياتنا ، ولساننا الذى نفصح بـه عن وجودنا بين الامم ٠



اللغة العربية لغة رسمية فى المنظمة الاممية

ووافقت لجنة الموازنة التابعة للامم المتحدة يوم السبت على ضرورة اضافة اللغة العربية الى جانب اللغات الرسمية المعمول بها فى هيئة الامم المتحدة .

ووافقت الدول العربية على ان تغطى نفقات هذا الاجراء خلال السنوات الثلاثة الاولى .

ويتطلب تتفيذ التوصية الحاق 98 مترجما وعددا آخر من الموظفين بالسكرتارية العامة للامم المتحدة .

وستكون اللغة العربية رسمية ومعمول بها فى الامم المتحدة الى جانب الصينية والانجليزية والفرنسية ، والروسية والاسبانية .

دور اللغة العربية فى الحفاظ على الشخصية الوطنية عبر التاريخ

من الثابت الذي لا شك فيه أن اللغة تعتبر من أهم العوامل فى خلق وارساء الوحدة بين عناصر الشعب الواحد أو بين شعوب الأمة الواحدة وتقوية أو اصرها وشد عزمها على التآخي والتعاون ، ودفعها للسير قدما فى مضمار التطور والالتحاق بقوافل الحضارة وهذا ما يثبته تاريخنا الاسلامي ونعيشه حاليا من تضامن بين الشعوب العربية ، فى المشرق والمغرب .

من هذا المنطلق ، فان الجزائر ظلت محافظة على الثقافة العربية الاسلامية التي تقبلتها وانصهرت فى بوتقتها منذ الفتح الاسلامي ، وعبر القرون التالية له اذ حافظت على هذه اللغة بصلابة نادرة المثيل ، ساهمت فى اثراء التراث العربي الاسلامي بكثير من الانتاج والشروح والتعليقات والمؤلفات القيمة ، وانتفعت بالتيارات الثقافية العربية التي قدمت ليها من الأندلس ، والأقطار العربية الأخرى ، فازدهرت اللغة العربية بفضل هذه المدارس والجامعات الموجودة فى كل من تلمسان ، ووهران ، وبجاية ، وقسنطينة ، والتي كانت مصدر اشعاع ثقافي باهر .

وهكذا اصبحت اللغة العربية جزءا من كيان لا ينفصل عن الشخصية القومية الجزائرية ، وأصبحت لتغلغلها فى النفوس ومكانتها هي الوسيلة والاداة فى التعامل فى كل المجالات الادارية ، والعلمية ، والعسكرية .

وهكذا كانت جميع الوثائق الرسمية للدولة الجزائرية تصاغ بالعربية ؛ ومن أمثلة ذلك الوثائق المتبادلة بين الأمير عبد القادر والعسكريين الفرنسيين الغزاة وهي الآن محفوظة بالمكتبة الوطنية لتثبت أن العربية ارتفعت فوق اللهجات وكانت دائما فى الجزائر لغة الدولة والدين والوطن .

دور الـزوايا والرباطات فى الحفـاظ على اللغـة :

وابان العصور الوسطى انتشرت الزوايا والرباطات التي أدت الى حركات ثقافية قدر لها أن تستمر ردحا من الزمن وقد اشتهر بعضها باسماء أصحابها واصبحت مركزا للأدب والامامة والارشاد ، ويكفي الاستشهاد بقول المؤرخ الفرنسي « بولارد » فى كتابه « التعليم فى الجزائر » اذ يقول : « كان فى الجزائر فى القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة ، وكان فيها أساتذة متمكنون فى علوم الفلسفة ، والفقه ،

والآداب ، والطب ، والنحو ، والفلك ؛ وكانت المدارس منتشرة في ربوع البلاد ، وكان التعليم فيها دينيا ومدنيا . » وجاء في تقرير للجنرال « كالازي » سنة 1834 : « يكاد كل العرب (الجزائريين) يعرفون القراءة والكتابة . » فاذا قارنا هذا الوضع بنسبة 90 % من الأميين في الجزائر غداة الاستقلال ، تبين لنا بوضوح مقدار ما خسرته البلاد حين أصيبت بنكبة الاستعمار .

الحقبــة الاستعمــارية :

وفي الحقبة الطويلة من أيام الاستعمار اراد المحتل أن يمحو شخصيتنا ويعزلنا عن مجموعتنا فجند كل الطاقات لتشويه ماضينا التليد ، وطمس معالمه ، والعمل على تجريد الشعب من كل مقوماته الاساسية ، فحارب اللغة العربية لأنها العامل الموحد والمحرر ، ولأنها أيضا السلاح الفكري الفعال في ميدان الصراع بين الأصالة الراسخة من جهة ، وبين عمليات المسخ التي قام بها الاستعمار من جهة ثانية .

وتمشيا مع هذه الخطة القاضية بسحق اللغة العربية في الجزائر ، أصدر الاستعمار الفرنسي خلال سنة 1904 م قانونا يمنع أي معلم عربي أن يتعاطى مهنته الا برخصة تحدد نشاطه وفق شروط أهمها ما يلي :

1) اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير ،

2) عدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو الى التحرر من الظلم والاستبداد ،

3) استبعاد دراسة التاريخ العربي الاسلامي ، والتاريخ المحلي ، وجغرافية القطر الجزائري والأقطار العربية الأخرى الخ . . ،

4) استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه .

وقد جرت هذه العمليات الاستعمارية على مراحل وبواسطة أجهزة متعددة شارك فيها عدد كبير من الباحثين ، والمفكرين ، والمستشرقين ؛ وتمثلت خاصة في الاجراءات التالية :

- غلق كل الأبواب في أوجه الاجزائريين حتى لا يتمكنوا من تعلم لغتهم ،
- فرنسة الادارة ، والاقتصاد ، والتعليم ،
- محاربة العقيدة الاسلامية وذلك بتحويل المساجد الى كنائس وثكنات ، أو حتى الى اصطبلات ، علما بان تحويل مسجد يعني تحويل مدرسة ومكتبة وقاعة للمحاضرات ومركز ثقافي ، اذ أن المسجد كان ايضا الجامعة ، ومركز الاشعاع الثقافي والديني والعلمي ، وله الدور الذي تقوم به جامعة الزيتونة بتونس ، وجامعة الأزهر بالقاهرة ، وجامعة القرويين بالمغرب .

ردود فعل الشعب ضد هذه السياسة :

ان هذه السياسة الفرنسية الاستعمارية الرامية الى مسخ الشخصية الجزائرية ادت الى ردود فعل قوية نابعة من الضمير الاجتماعي للشعب الجزائري العربي المسلم . وكان من نتائجها أن نضالنا تضمن فى كل وقت بعدين متلازمين : تحرير الوطن ، واستعادة القيم الرحية والثقافية المتمثلة فى اللغة العربية .

وتجسد هذا النضال بادئ ذي بدء فى حركات الاصلاح الديني والاجتماعي والتربوي ، التي ظهرت بوادرها فى اعقاب الحرب العالمية الأولى ، وكانت هذه الحركات تحث الشعب على تاسيس المدارس والمساجد ، والجمعيات الثقافية للمحافظة على اللغة ، والعقيدة . ونمت نموا مطردا بعد تاسيس الحركات الوطنية ، والاصلاحية التي كان منهاجها يتلخص فى هذا الشعار « الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننـــا » .

كما أدى هذا التيار الوطني الذي كان اول رد فعل منظم ضد الفرنسة والتجهيل ، الى انشاء مئات من المدارس الحرة ، يمولها الشعب بواسطة التبرعات والاشتراكات .

ومع هذا كله فقد كان الجزائريون يبعثون بابنائهم الى كل مكان تدرس فيه اللغة القومية ، طلبا للعلم واستزادة من المعرفة ، الى أن اندلعت الثورة التحريرية المظفرة فى مطلع فجر فاتح نوفمبر 1954 م ، فاعتمدت اللغة العربية أساسا فى معاملاتها الداخلية والخارجية وفرضت استعمالها فى كافة الولايات الوطنية .

ذلك أن ايمان الثورة وايديولوجيتها مستمدان من أصالة الشعب الجزائري بماضيه التليد ، الماجد ، واعتزازه بلغته ودينه كجسر لمستقبله المشرق .

وأثناء الكفاح المسلح كانت السجون والمعتقلات والمحتشدات عبر التراب الجزائري مدارس شعبية عامة يتلقى فيها السجين والمعتقل تعليما كاملا باللغة العربية .

وما أن استعادت الجزائر حريتها واستقلالها حتى اخذت تعمل بجد لتستعيد مجدها الثقافي الأصيل ، وتتخلص من التبعية الفكرية البعيدة عن واقعها. وقد كان التعليم بكل أنواعه من الميادين الحيوية التي تجلت فيه هذه الارادة الراسخة .

ان قضية التعريب هي مطلب وطني وهدف ثوري (ونحن لا نفرق بين التعريب وبين تحقيق أهداف الثورة في الميادين الاخرى) وأنا شخصيا أعتقد انه يجب أن يكون الاختيار على هذا الاساس حتى يكون اختيارا واضحا

وان الاختيار في الميدان الاقتصادي مثلا طرح على اسس واضحة ، وقد قلنا آنذاك هل نحن نؤيد فكرة بناء اقتصاد اشتراكي أم نؤيد فكرة بناء اقتصاد ليبرالي ٠٠ فكانت المناقشة على هذا الاساس واختارت البلاد المنهج الاشتراكي ، ولم نجد آنذاك أناسا أرادوا نظاما مشتركا نصفه اشتراكي والنصف الآخر ليبرالي ، فكان الاختيار كاملا ٠

ان اختيار البلاد كان دائما اختيارا كاملا ، وحاولنا دائما أن نتفادى الحلول الوسطى ولا يمكن أبدا ان نختار الحلول الوسطى في القضايا المصيرية ٠٠ فاذا انطلقنا من تحليل منطقي سليم للقضايا المصيرية لا يمكن أن نقف في وسط الطريق ٠

اذا فالتعريب بالنسبة الينا هو مطلب وطني ، فهو هدف من الاهداف الكبرى بالنسبة للجماهير ، كل ذلك انه توجد في الجزائر نخبة مثقفة وشعب ٠٠ وفي مثل هذه الحالة أعتقد انه يجب على النخبة المثقفة ان ترجع الى الشعب خاصة بالنسبة لهذا الموضوع .لان الشعب هو الذى احتضن عبر السنوات كل ما يمثل عنصرا أساسيا لما نسميه اليوم بالمقومات الشخصية ٠

ثم ان الاختيار لا يكون بين تعليم الفرنسية ـ التي تمثل لا أكثر ولا أقل فرنسة للشعب الجزائري وتحقيق الحلم الذى راود لعشرات السنين المستعمرين الفرنسيين في الجزائر ومسخ هذا الشعب والقضاء على مقوماته وشخصيته وربطه بصفة نهائية لفرنسا حتى يصبح عبارة عن حظيرة صالحة لكل شيء ـ وبين تعليم العربية ٠

اذن فالقضية قضية التعريب الكامل المطلق وهو هدف استراتيجي لا بد من تحقيقه لانه ليس لدينا اختيار فنحن مرغمون على السير في هذا الطريق ٠

من خطاب الرئيس بومدين في ١٩ جوان ١٩٧٥

التعريب واقعه ومستقبله
في المغرب العربي



عبد الكريم غلاب
رئيس اتحاد كتاب المغرب
مدير جريدة «العلم» المغربية

حينما استقلت بلاد المغرب العربي وجدت نفسها تحت عبء ضخم تخلف من سيرة الاستعمار الفرنسي في هذه الاقطار ، سواء في الميدان السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي .

وليس من مهمة هذا الحديث ان يتناول الارث الثقيل في مختلف الميادين ، فذلك موضوع بناء استقلالنا على أنقاض هذا الارث الضخم ، ولكننا نقتصر فقط على مشكلة أساسية تتصل بمقوماتنا الوطنية والقومية والفكرية ، وهي مشكلة اللغة . فقد جاء الاستعمار بعقلية جديدة غريبة هي تغيير معالم أقطار المغرب لتكون نموذجا ممسوخا لمعالم البلد المستعمر أو الدولة الام كما كانت تسمى .

كان ذلك هو منطلقهم فى العمل الاقتصادى باقطار المغرب ، ليكون هذا الاقتصاد مكملا للاقتصاد الفرنسى دون اعتبار لما يجب ان تدره تنمية هذا الاقتصاد على الانسان المغربى • ولذلك كان الاقتصاد لا يستهدف تنمية ما بين المغاربة من موارد اقتصادية لصالحهم وصالح الجالية الاجنبية التى « تتعايش » معهم ، ولكنه كان يستهدف سرقة مواد الاقتصاد من أرض فلاحية وموارد معدنية وثروة سمكية وصناعات مختلفة ـ الا بعض الصناعات التقليدية التى لا تدر مالا ـ وتمليك كل ذلك للاجانب حتى يصبح المواطن المغربى فى الاقطار الثلاثة مرغما على ان يطيع ، لان سياسة التفقير وسيلة للارغام وسبيل للطاعة •

وكان ذلك أيضا منطلقهم فى العمل الفكرى • والتعليم واللغة أول مراحل هذا العمل •

سياسة التعليم فى الاقطار الثلاثة قامت على أساس الفرنسية • ولا نحتاج ان نتحدث عن قيمة التعليم ومستواه فى العمق أو فى الانتشار ولكنا فقط نشير الى ان التعليم الذى « منح » لبعض المواطنين فى المغرب العربى كان فرنسى اللغة ، بالاضافة الى انه فرنسى التوجيه والمحتوى

والهدف منه ـ كما لا نحتاج ان نقول ـ ليس اخراج مثقفين أو أطر كبرى للدولة ، فذلك من اختصاص الجالية الفرنسية التى كانت تتمتع بتعليم فرنسى منقول بمدرسته ، وأساتذته وبرامجه وتوجيهه الى الجزائر أو تونس أو المغرب، وانما كان الهدف منه اخراج مساعدين للادارة الفرنسية يترجمون لمدير الادارة ـ ولتكن أبسط ادارة أو أصغرها ـ وللحاكم ـ وليكون حاكم قرية مثلا ـ ما يقوله هؤلاء الاهالى « ليزانديجين» من كلام يعسر فهمه على المدير أو الحاكم ، أو ينقلون أوامر المدير والحاكم لهؤلاء « الانديجين » الذين لا يفهمون ما يقول المدير أو الحاكم ••••

من هنا كانت المدرسة ـ على علاتها ـ فرنسية اللغة والتوجيه والفكر • وبما ان الادارة كانت تحت السلطة الفرنسية ، فقد كانت هى الاخرى فرنسية اللغة والتوجيه ، وبما ان المسيرين على الحياة الاقتصادية والاجتماعية كانوا هم الفرنسيين الذين لم يتأقلموا وبالتالى لم يتعلموا لغة البلاد ولم يستعملوها ، لان هدفهم نقل هذه البلاد الى بلادهم لا نقل الانسان الفرنسى الى بلاد المغرب العربى ، فقد كانت الحياة العامة هى الاخرى فرنسية اللغة فى المعمل والمتجر والحقل والشارع •

وهكذا وجدنا بلادنا بعد الاستقلال مفرنسة فى كل قطاعات الحياة المتحركة : اللغة والفكر والادارة والحياة العامة •

حقيقة ان معظم أبناء الشعب كانوا يتكلمون العربية أو البربرية فى المنزل والشارع • واحيانا عربية أو بربرية ممزوجة بكلمات فرنسية ـ تكثر نسبتها سنة بعد سنة ـ وهذه اللغة المتحدث بها احتفظت لنا بمظهرنا اللغوى نسبيا • ثم ان الاسلام والقرآن احتفظ لنا بكياننا العربى وبأصالتنا اللغوية • ولكن القرآن ظل منزويا فى

المساجد وعند القلة الذين يتلونه تبركا أو تفهما· ولغة المنزل والشارع ليست اللغة الحية المتطورة التي تساير الحضارة الفكرية والعملية الانسانية· ولذلك ظلت ضعيفة معزولة لا تكاد تعبر الا عن أبسط العمليات الذهنية والرغبات البدائية ·

ومعنى هذا انلغة الحياةوالفكر والادارة ـ وهي لغة الحركة العملية للانسان المتطور ـ أصبحت هي الفرنسية · وقد حاولت هذه اللغة ان تقضي حتى على ما تبقى من لغة الحديث البسيطة ، أو لغـة القرآن المنزوية ، أو لغة التعليم الاسلامي وخاصة في القرويين والزيتونة والمدارس الاسلاميـة بالجزائر ، ولكنها من حسن الحظ لم تستطع ان تنفذ الى أهدافها · والفضل في ذلك يرجع الى الاسلام والقرآن أولا ، ثم الى التمسك القـوي بقوميتنا · فقد ظل المستعمرون أجانب رغم قرن وثلث قرن من الاستعمار في الجزائر ، وثلاثـة أرباع القرن في تونس وثلاثة وأربعين سنة في المغرب · ثم يرجع الفضل ايضا الى الـــروح الاستعمارية التي كانت تدفع بالمستعمرين الى نوع من التعالي على المواطنين في الاقطار المغربية· وهذه سياسة دفعت بالمواطنـــين الى التشبث بالعزلة عن الفرنسيين · ولذلك فقد كاناستعمار فرنسا استيطانيا ، ولكنه لم يكن استعمـــارا اندماجيا · وهذا من مصلحة احتفاظ شعـــوب المغرب العربي بمقوماتها الذاتية ، ومنها اللغـة العربية في مظهرها البسيط كلغة حديث ، وفـي مظهرها العميق المنزوي كلغة القرآن والاسلام ·

المشكلة التي وجدناها اذن بعد الاستقـــلال تتشخص في النقط الآتية :

ـ اللغة الفرنسية هي لغة التعليم ·

ـ هي لغة الادارة والحياة العامة ·

ـ اللغة العربية ـ على ضعفها وانزوائهـــا واختلاطها ـ لغة الحديث تشاركها في ذلـــك البربريـــة ·

ـ هي لغة القرآن والتعليم الاصيل الـــذي يتضاءل في وجوده من جهة · وليست له صلة بالحياة العملية الادارية والاقتصادية من جهـــة أخـــرى ·

هذه المشخصات أعطت لبلاد المغرب العـربي الصورة الآتية :

بلاد مستقلة سياسيا تستعمل في تعليمهـــا وادارتها لغة اجنبية وتتبع الفكر الاجنبي وترتبط من اجل ذلك بالاقتصاد الاجنبي ، وتكاد تقتصر ارتباطاتها الثقافية والاقتصادية على بلاد أجنبية بعينها بوحي من اللغة المشتركة أو بأمر منها ، وهو التعبير الصحيح ·

وهذا ما دفع بالكثيرين ان يصنفونا في البلاد « الفرنكوفونية » ودفع بالبعض منا الى المشاركة باسمنا في جمعيات الجامعات والمؤسسات التي تكونها البلاد المتحدثة بالفرنسية (كلا أو بعضا) وكاد هذا التصنيف يجعلنا من البلاد التي ليست لها لغة قومية · واصبح من حق الذين لا يعرفون تاريخنا وحقيقة شعبنا ان يحسبونا من البلاد الافريقية التي لا يمكنها حضاريا وثقافيا الا أن

تلجأ الى لغة حديثة معروفة بانها لغة علم وحضارة هى الفرنسية لتكون لغتها ٠

هذا مظهر من مظاهر الاخطار الناتجة عن الوضعية اللغوية التى ورثناها عن الاستعمار ٠ وهو مظهر خطير لانه يسلبنا من احد مقومات كياننا القومى وهو اللغة ٠

وباقى الاخطار نتصورها كما يلي :

1 ـ استمرار الشعور بالنقص أو التشكيك فى القومية المغربية واللغة احدى مقوماتها ٠

2 ـ الارتباط المستمر باللغة التى نستطيع التفكير بها ٠ ومتى ارتبطت باللغة التى نفكر بها ارتبطت بالفكر والاقتصاد والمجتمع الذى ينبع من هذه اللغة ٠ واذن فسنظل مستعمرين ولو كنا مستقلين ٠

3 ـ استعمال هذه اللغة كلغة تلقين فى التعليم يفرض عدة صعوبات تعرقل تطور التعليم وتعرقل نمو تعليم الطفل وفى مقدمتها :

أ ـ تعليم الطفل لغتين فى وقت واحد يحد من قوة ادراكه ويجعله يعانى مشكلة ازدواج الادراك والفهم ٠ وخطر ذلك تربويا واضح جدا ، وخاصة بتعليم لغتين يختلف قواعد ومنطق احداها عن الاخرى ، وبذلك يخرج الطفل ضعيفا فى اللغتين معا ٠

ب ـ استعمال الفرنسية كلغة تلقين للمواد العلمية والرياضية والاجتماعية كما كان الامر منذ الاستقلال فى اقطارنا الثلاثة (وقد بدأ الوضع يتغير الآن بتعريب التاريخ والجغرافية فى المغرب والجزائر) يدفع بالطفل الى الاحساس بان هذه اللغة أحسن من لغته وأجدر منها بالاستعمال فى العلم ، والا لما اختيرت لتكون لغة تلقين ٠ ومن هنا يبدأ الشعور بالنقص ـ ان لم نقل بالاحتقار ـ ازاء اللغة الوطنية ٠

ج ـ مما لا شك فيه ان اللغة الفرنسية مدروسة أكثر وكتبها منظمة ولها صلة بالحياة ، وعلى الاخص فى الكتب التى تستعمل فى المدارس فهى اذن الاقوى ٠ وحينما يجد الطفل نفسه بين لغتين احداهما تمكنه من الفهم والتفكير أكثر من غيرها يميل اليها بوعى منه أو بغير وعى لتصله بالحياة الاجنبية فكريا واقتصاديا على حساب لغته ومصلحة بلاده ٠ كل ذلك نتيجة لسباق لغتين ليست لهما نفس الحظوظ ونفس الامتيازات

د ـ الازدواجية تفرض ميزانية مضاعفة تقريبا للتعليم ٠ فوزارة التربية مضطرة ان تنفق على تعليم اللغة الاجنبية منذ المرحلة الاولى للابتدائى ٠ ثم هى مضطرة الى توظيف مدرسين وأساتذة اجانب لا لتعليم اللغة الفرنسية فحسب، ولكن لتعليم العلوم الملقنة بالفرنسية ٠ وبقطع النظر عن ان فرنسا لم يعد فى استطاعتها ان تلبى حاجاتنا الى هؤلاء الاساتذة ، وبقطع النظر عن المستوى المنحدر الذى اصبح عليه الاساتذة الذين يرسلون الى هذه الاقطار فى نطاق المساعدة التقنية فمعظمهم من المجندين الذين ليس لهم مستوى بيداغوجى تربوى ، وانما يرسلون الينا ليؤدوا واجب الخدمة العسكرية فى عمل مدنى هو تعليم أبناء افريقيا والمغرب العربى ٠

بالاضافة الى ذلك فهم يحصلون على مرتبات عالية تماثل على الاقل ثلاثة أضعاف مرتب الاستاذ المواطن . ونظرا لهذه المرتبات التى لا تحتملها ميزانية التعليم فى بلاد نامية كالمغرب أو الجزائر أو تونس فان تكاليف التعليم تصبح مضاعفة مما يعود بالضرر على تعميم التعليم ورفع مستواه .

وفى هذا الاطار يمكن ان ننقل شهادة من بعثة البنك الدولى التى زارت المغرب فى سنة 1966 لدراسة مشاكله الاقتصادية وقد جاء فى تقرير هذه البعثة (وهو رأى صادر عن تفكير اقتصادى وليس عن تفكير قومى أو وطنى حتى يتهم بالتطرف) : « تعتبر بعثة البنك الدولى ان المغرب لا يمكنه ان يستعمل فى تعليمه لغتين لما فى ذلك من اسراف . ولهذا فان البعثة توصى بان يختار المغرب اللغة العربية ويقوم فى المدة التى تنتهى فى سنة 1970 بالمهام الآتية :

1 ـ **اتخاذ التدابير الضرورية لجعل اللغة العربية صالحة لتلبية حاجيات العصر .**

2 ـ **جعل اللغة العربية لغة الادارة .**

3 ـ **جعل اللغة العربية لغة التعليم .**

أما فيما يخص التعريب فيجب حالا تعريب التعليم الابتدائى جميعه . ويجب تعريب التعليم الثانوى ابتداء من السنة الدراسية 1970 ـ 1971 ويجب كذلك تلقين لغة ثانية (الفرنسية أو الاسبانية أو الانجليزية) ابتداء من السنة الاولى من الثانوى » .

كل ذلك يؤكد ان بقاء اللغة الاجنبية كلغة تلقين يعتبر مساسا بقوميتنا من جهة ، واعطاء الفرصة لهذه اللغة كى تبقى متغلبة على لغتنا القومية من جهة أخرى ، واسرافا فى ميزانية التعليم على حساب التعميم ورفع المستوى من جهة ثالثة .

هـ ـ من المعروف ان جزءا مهما من المواطنين فى المغرب والجزائر على الاخص يتحدثون البربرية أو لهجة من لهجاتها المتعددة فى البيت وربما فى الشارع أيضا . فاذا كانت لغة الحديث عنده هى البربرية ـ وهو لا يتعلمها فى المدرسة كلغة علم وثقافة ـ ولغة العلم والكتابة والادارة هى الفرنسية ، فقد تحقق ما كان يقصده الاستعمار الفرنسى من السياسة البربرية التى حاول ان يطبقها فى الجزائر والمغرب ، وانفصلت عناصر الشعب فكريا ولغويا بعضها عن بعض .واصبحت اللغة المشتركة للتفاهم هى الفرنسية التى هى لغة أجنبية عن بلادنا تماما ، كما هى لغة تفاهم بين الشعوب المختلفة فى المؤتمرات والمنتظمات الدولية .

و ـ استرد المواطنون فى المغرب العربى اعتبارهم ، ولم تعد صلتهم بالادارة مقتصرة على تلقى التعليمات والاوامر ، ولكن الادارة اصبحت ـ أو هكذا يجب ان تكون ـ فى خدمتهم وتصفية المشاكل التى تعترض طريقهم أثناء عملهم الحياتى اليومى سواء كان عملهم يتصل بالفلاحة أو التجارة أو الصناعة أو السياسة أو البناءوالتعمير أو بالتحصيل أو الاداء فى البريد والمصارف الخ دخل المواطنين الحياة العملية من اوسع ابوابها نتيجة لاعلان الاستقلال ، فكان ذلك انقلابا فى

حياة الانسان المغربى كان من الطبيعى ان يمنح الاداة الضرورية للتصرف وفق هذا الانقلاب ٠ أعنى ان تتحول الادارة لصالحه ، وان تكون فى خدمته على قدر ما يستطيع ان يستفيد من هذه الخدمة ، فتتخلى عن تعقيداتها ومكتبيتها (بيروقراطية) وسيرها التقليدى البطىء المطرد (الروتينية) ٠ وفى مقدمة ما كان ينبغى ان تتخلى عنه : اللغة الاجنبية التى كانت دائما حاجزا بين المواطن العادى والاستفادة من الادارة التى كان يشرف عليها الاجانب ، فاصبح يشرف عليها فى الغالب مواطنون ولكن بلغة اجنبية ٠

الادارة فى بلاد المغرب العربى كانت امام ضرورتين لا محيد عنهما اذا أرادت ان تكون فى مستوى الاستقلال الذىحققه الشعب بنضاله :

أولهما : تأطير الادارة بالمواطنين ٠

ثانيتهما : تعريب الادارة ٠

بهذين العملين يمكن القضاء على العزلة المتبادلة بين الادارة والمواطن ٠

نعود فنقول اننا وجدنا انفسنا فى بلاد المغرب العربى أمام مشكلتين :

- تعريب التعليم ٠
- تعريب الادارة والحياة العامة ٠

ومن الانصاف للتاريخ ان نقول : ان الشعب ممثلا فى منظماته الوطنية أخذ يشعر منذ اليوم الاول للاستقلال بضرورة تعريب هذين القطاعين ٠ ويمكننى ان اتحدث عن العمل الشعبى فيما يخص تجربة المغرب الاقصى لانى كنت وما ازال على صلة بهذا العمل معتذرا عن عدم تحليل العمل الشعبى والحكومى الذى قام به القطران الشقيقان لنقص معلوماتى فى الموضوع ٠

كان تطلع الشعب يستهدف تعريب التعليم والادارة ٠ وكانت المنظمات الوطنية تطالب بهذا التعريب فى الوقت الذى كانت الحكومة وادارتها تشعر بنوع من العجز عن الاستجابة لهذا المطلب الشعبى ٠

وسأعود الى هذه النقطة الاخيرة فيما بعد ٠

فيما يخص الطلب الشعبى تجلى عند المواطنين وفى الصحافة الوطنية التى كانت تلح دائما على تعريب التعليم والادارة باعتبار التعريب قضية وطنية أولى ٠ وقد اسست فى المغرب عدة لجان وطنية فى اطار وزارة التربية شارك فيها ممثلون عن الاحزاب والنقابات والجمعيات الثقافية والاساتذة والمثقفين عموما ، وكان التعريب هو الحل المقترح لحل مشكلة التعليم أو جانب منها على الاصح ٠ فهو سبيل التعميم ومغربة الأطر ووصل المتعلم بحياة بلاده ومجتمعه ٠

كان هذا هو اتجاه اللجان المختلفة ٠ وهو الاتجاه الذى تبناه المجلس الاعلى للتعليم فى الدورات التى اجتمع فيها ٠ ثم كان هو المطلب الاساسى الذى قدم مشروعه فريق التعادلية والمشروعية الى البرلمان الاول سنة 63 ، 64 ٠

مرحلة أخرى مرت بها مشكلة تعريب التعليم فى المغرب الاقصى ٠

كان ذلك فى ربيع سنة 1966 حينما تقدم وزير التربية آنذاك بمشروع مذهب لاصلاح التعليم واثار هذا المذهب ردود فعل على النطاق الوطنى وعارضته المنظمات الوطنية • ويهمنا من هذا المذهب ومعارضته جانب التعريب •

يقول المذهب الذى اعلنه وزير التربية فى ندوة صحفية ، فقرة منه تحت عنوان : ضرورة اختيار لغات التعليم : « ان تعريب التعليم يعتبر هدفا من الاهداف الاساسية التى قر العمل على تحقيقها منذ الاستقلال • ولكن اذا كان من اليسير الاتفاق على مبدأ من المبادىء ، فان تطبيقه بدون وسائل امر ليس باليسير ولا بالهين • ان اصلح وسيلة لتعريب التعليم تكمن فى تكوين أطر وطنية ذات كفاءة ومقدرة • والواقع انه يستحيل على المغرب الآن وبعد سنين ان يجد ما يحتاج اليه من أطر وطنية يمكنها ان تدرس المواد العلمية بلغة الضاد ولا سيما فى التعليم العالى والتعليم الثانوى ، واجهة ما سيلتحق به من تلاميذ تقدر بنحو 1.600 أستاذ جديد فى كل سنة • بالاضافة الى تعويض 4.600 أستاذ اجنبى الموجودين حاليا فى المغرب ••• فالظاهر اذن ان استعمال لغة اجنبية كأداة لتدريس المواد العلمية لازال يعتبر أمرا لا محيد عنه لفترة انتقالية » •

ونظرا للمعارضة القوية التى لقيها مذهب السيد الوزير فقد قام جلالة الملك باستشارة الاحزاب السياسية والهيئات الوطنية عن السياسة التى ينبغى اتباعها فكانت أجوبتها متفقة فى الجوهر ، ومعظمها قدمت رأيا مجملا • غير ان حزب الاستقلال قدم مذكرتين احداهما فى يونيو 1966 وثانيتهما فى أغسطس من نفس السنة • وهما دراستان مسندتان بالارقام والرأى التوجيهى وتهمنا فيما يخص التعريب المذكرة الاولى وهى تخطيط ثمانى لتعريب التعليم فى المغرب يعتمد على الاسس الآتية :

- تخطيط محكم فى الزمان والمراحل التعليمية والسنوات •
- تكوين المعلمين والاساتذة المغربة الاطر •
- تاليف الكتب المدرسية لتغطية مراحل التعليم المعرب •
- تحديد المصطلحات العملية والتقنية المعربة •

وتقترح المذكرة تخطيطا زمنيا لتحقيق التعريب فى ثمان سنوات تفصلها بالارقام سواء فى المرحلة الابتدائيه و الثانوية ، بحيث يتم تعريب المرحلة الابتدائية فى اربع سنوات تنتهى سنة 1970 • ويتم تعريب المرحلة الثانوية سنة 1973 ويشمل التعريب المواد الادبية والعلمية • ويقوم البرنامج المقترح على اساس ممكنات الدولة وفى نطاق الميزانية المخصصة للتعليم •

ظلت المشكلة قائمة دون ان تجد لها حلا • وظل التعليم والادارة فرنسيى اللغة رغم المحاولات التى بذلت هنا وهناك • ولكن الشعب ظل يطالب بتعريب القطاعين معا ، وهو يعرف ان تعريب التعليم لا يكون مجديا دون تعريب الادارة ، وبالتالى لن يكون تعريب الادارة ناجزا دون تعريب التعليم •

أيهما يجب ان يكون مقدما على الآخر ؟

من الواضح ان التعليم الذى يكون الاطر الادارية يجب ان يكون معربا حتى تستطيع هذه الاطر ان تستعمل العربية فى عملها الادارى ٠ ولكن اقرار تعريب الادارة وفق تخطيط زمنى وفى قطاعات متعاقبة يمكن ان يكون ضغطا على تعريب التعليم ٠

المشكلة من حيث المبدأ مفروغ منها ، أو كان يجب ان تكون كذلك ٠ فقد وجد فى المغرب ، وربما فى الجزائر وتونس ، من يعتقد ان تعريب التعليم أو الادارة فكرة نابعة عن تعصب لا ينظر الى المشكلة من وجهة نظر واقعية ٠ ويعلل هؤلاء وجهة نظرهم بان اللغة ليست الا وسيلة ، وليس من مصلحتنا الآن ان نهتم بالوسائل على حساب الاهداف ٠ الهدف هو التعليم وهو سير الادارة وليكن ذلك باية لغة كانت ، خاصة واننا سرنا فى طريقنا خطوات باحدى الوسائل هى الفرنسية فلا معنى لان نعدل عنها لنبدأ من جديد بوسيلة أخرى هى العربية ٠

وما من شك فى ان هؤلاء تراودهم فكرة تقدم اللغة الفرنسية كلغة علم وحضارة ودبلوماسية ، وتخلف العربية فى كثير من الميادين ٠ ولذلك فهم ينظرون الى الجانب الاسهل فى الموضوع، وهو استعمال اللغة المتطورة ولو على حساب اللغة القومية ، بدلا من ان ننهض بلغتنا لتكون وسيلة التعليم والادارة مستعينين باللغات الاجنبية المتطورة عالميا ، وكثير منها يفوق الفرنسية فى الميدان العلمى والقتنى ٠

هؤلاء قلة ما يزالون مستلبين تحت التأثير الاستعمارى من الاحساس باهمية اللغة كاحدى مقومات القومية والوطنية ، واهميتهما فى استرجاع الكيان الوطنى ، بل والاقتصادى ، لبلاد ظلت تحت نير الاستعمار فترة قصيرة من الزمان ٠

بقطع النظر عن هؤلاء المعارضين ، وهم قلة ، كما قلنا ، لا يصمدون لحوار فكرى فى الموضوع ولا يجرأون على الجهر بافكارهم بله الدفاع عنها ، فان هناك مشاكل تقف فى وجه التعريب يوردها المعترضون والباحثون عن الحقيقة بحسن نية ، نلخصها فيما يلى :

I ـ اللغة العربية غير اهل لان تساير التقدم العلمى والتقنى ٠

وهذه المقولة التى تغرى الكثيرين من الذين يجهلون العربية ولا يعرفون ماضيها ، كما تؤثر على الكثيرين من الذين عاشوا فى مجتمع فكرى بعيد عن اللغة العربية ، لا يعرفون مثلا غير الفرنسية ، وقد يحسون بان غيرها من اللغات ـ الانجليزية أو الالمانية أو الروسية ـ غير قادرة على ان تساير التقدم العلمى والتقنى ٠

وقد تكفل بالرد على هذا الايهام كثير من المختصين فى علم اللغات المقارن ونشرت فى المغرب عدة ابحاث ومقالات وألقيت عدة محاضرات لرفع هذا الايهام من عقول الذين يمكن ان يغرهم بمنطقه ٠ ويمكن ان أذكر على سبيل المثال الجهود التى بذلها الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله الامين

العام لمكتب تنسيق التعريب التابع للجامعة العربية ، ومقره الرباط سواء بالابحاث التى كتبها عن قابلية اللغة العربية لمسايرة التقدم العلمى والتقنى ، أو الابحاث التى كتبها مساعدوه فى المكتب ونشرتها مجلة لسان العرب • كما يمكن ان اذكر المقالات والابحاث التى كتبها الاستاذ أحمد الاخضر مدير معهد التعريب فى جريدة العلم والمحاضرات التى ألقاها فى الموضوع •

ومن كل هذه الابحاث يتضح ان قابلية اللغة العربية لمسايرة التطور العلمى والتقنى حقيقة علمية لا يمكن ان يجادل فيها الا من يجادل فى القابلية التى اكتسبتها اللغات الاخرى كالروسية والصينية واليابانية مثلا مع ان جميعها كانت لغات متخلفة – تقنيا وعلميا – فى الربع الاول من هذا القرن ، أو فى القابلية التى اكتسبتها اللغات الاروبية المتقدمة كالفرنسية والانجليزية والالمانية وتاريخ تطورها معروف ونعيش جزء منه يوميا •

2 – اللغة العربية ناقصة فى المصطلحات العلمية والتقنية والادارية •

واذا كان هذا حقا بالنسبة للغة المستعملة فى المغرب العربى فانه عار عن الصحة – تقريبا – فى اللغة المستعملة فى المشرق العربى • فقد استطاعت المدارس والجامعات فى المشرق ان تعرب وتبتكر مصطلحات فى العلوم التجريبية بما فيها الطب والهندسة والزراعة والفيزياء والكيمياء وعلوم الفضاء • وما تزال تسير فى هذا الاتجاه ولو انها لا تلاحق التقدم العلمى والتقنى الذى يحتاج يوميا الى عشرات – ان لم نقل – مئات – الكلمات الجديدة المبتكرة •

وفى هذا الميدان يستطيع المغرب العربى ان يستفيد من خبرة المشرق ، فهى لغتنا جميعا • كما يستطيع ان يستفيد من الجهود التى يبذلها مكتب تنسيق التعريب ومعهد التعريب • فلم ينشأ الا لملاحقة التطور العلمى والتقنى •

ومهما يكن فليس هناك نقص فى المصطلحات المدرسية بحيث يعرقل تعريب التعليم الذى كان معربا منذ البداية فى معظم البلاد العربية •

3 – نقص الاطر التعليمية المعربة •

وهذه مشكلة حقيقية • ولكن حلها واضح يتلخص فى تكوين الاطر وفق برنامج وتخطيط زمنى مرحلى • وبما ان التعريب يمكن ان يطبق ابتداء من القاعدة (المرحلة الابتدائية) ومن القمة (المرحلة الجامعية) فان تنفيذه سيكون بحسب ممكنات تكوين الاطر • بل يمكن تطبيقه بحسب الاقاليم مثلا ، أى اننا نعرب كل اقليم استطعنا تكوين المعلمين والاساتذة الذين تستغرقهم مدارسه •

ومن الواضح ان تكوين الاطر فى التعليم لا يختلف عن تكوينهم فى أى قطاع متحرك ، اقتصادى أو صناعى • فلكى تؤسس معملا لا بد من تكوين أطره • وقلة الاطر أو انعدامها لم يعرقل الحياة الاقتصادية عند الدول التى تصنع نفسها من ان تسير فى طريق التصنيع • والحاجة تخلق الوسيلة كما يقال •

4 — نفس المشكل — أو المشكلين السابقين — يثاران عندما تعرض قضيـــة تعريب الادارة • المصطلحات الادارية ناقصة • الاطر الادارية غير معربة • وقد تحدثنا عن معالجة مشكل المصطلحات أما مشكل الاطر الادارية الحالية — وبعضها لا يعرف العربية — فان هـذا « البعض » لا ينبغي ان يعرقل تطور ادارتنا نحو التعريب • ثم ان الحكومات تستطيع ان تكون هؤلاء تكوينا سريعا في اللغة العربية المبسطة التي يستطيعون بهـا ان يسيروا عملهم الاداري • وقد حاولت وزارة الشؤون الادارية بالمغرب سنة 1961 القيام بهذا التكوين للموظفين الذين لا يحسنون العربية في مختلف القطاعات • وأتت المحاولة بعض ثمارها • ولكن المشروع أقبر بعد التغيير الوزاري آنذاك • وقامت الجزائر بمشروع علمي آخر هو وقـف ترقيات الموظفين الذين لا يحسنون العربية الا بعد ان يحسنوها •

على ان لغة الادارة لغة بسيطة غير معقدة ويمكن اتقانها والتمرين عليها عند الاستعمال بسهولة، كما أتقن الموظفون الاداريون اللغة الفرنسيـــة بالاستعمال • فكثير من مصطلحاتها لم يكونوا يعرفونها قبل الممارسة •

فاذا أضيف الى عملين كهذين قرار حكومـي منفذ بتعريب الادارة فسيضطر الموظفون الذين لا يحسنون العربية الى تعلم هذه اللغة والا كانوا معرضين لان يفقدوا وظيفهم •

5 — انخفاض المستوى •

ولعله من الواضح ان مستوى التعليم انخفض نسبيا (هذه تجربة المغرب وربما كانت تجربة كل من الجزائر وتونس أيضا) • والذين يلاحظون انخفاض مستوى التعليم يخشون ان تزداد نسبة الانخفاض اذا ما عرب • واسباب انخفاض مستوى التعليم ترجع الى انه لم يعد للنخبة بل اصبح — إلى حد ما — معمما في المدن الكبرى على الاقل ، في الوقت الذى لم تهتم الحكومات ببناء الاقســـام الكافية لاستيعاب الكثرة التي تكدست في الاقسام كما لم تهتم بتكوين الاساتذة تربويا (بيداغوجيا) تكوينا قويا • والاساتذة والمعلمون من فرنسا مثلا أصبحوا في مستوى أقل مما كانوا عليه ايام الحماية والاستعمار •

اذن فالتعريب لن يكون سببا في انخفاض المستوى اذا نفذ بشروطه : أى تكوين الاطر علميا وتربويا باللغة العربية ، مع رفع الاسباب التي ادت الى انخفاض مستوى التعليم ولا صلة لها مطلقـــا بالتعريب •

معنى هذا ان معركة التعريب مربوحة من الوجهة النظرية • وكل الاعتراضات التي يثيرها خصوم التعريب بحق أو بباطل ، بحسن نية أو بسوئها ، انما هي اعتراضات شكلية وصعوبات عاديـــة يمكن التغلب عليها عند الممارسة • واذا كنـــا جميعا متفقين على ان التعريب هدف فيجب البدء بالوسيلة للحصول الى الهدف ، مع العلم بـان لكل تجربة مشاكلها وصعوباتها ، ومع العلـم أيضا بان صعوبات التعريب أقل مما نتصوره • والمشاكل التي يثيرها خصوم اللغة العربية فتلقى

صداها فى النفوس هى مشاكل وهمية ستتبدد بمجرد الاقتناع بكل مقومات قوميتنا ، وستنتهى عندما تبدأ فى التنفيذ ·

والذى أعتقده ان اشتراك المغرب العربى فى المشكلة كان يجب ان يبعث على حلها فى نطاق المغرب العربى بمؤتمر يعقده رجال التربيـــة والتعليم تحضره زمرة من المثقفين يستهدف البحث فى صلاحية اللغة العربية لتكون لغة تلقين وادارة· ثم وضع الاسس والاساليب لتنفيذ المبدأ متى ما أقره المؤتمر حتى تسير كل أقطار المغرب العربى على منهج واحد يستفيد بعضها من تجارب الآخر وفق تخطيط محكم موقوت · ونحن لا ندعو الى مؤتمر من هذه المؤتمرات النظرية التى تنتهى بتوصيات تنشر فى الصحف وينساها بعد ذلك حتى الذين وضعوها ، ولكنا ندعو الى مؤتمر عملى يبحث وسائل تنفيذ التعريب فى الادارة والتعليم· ونعتقد ان مؤتمرا من هذا المستوى يمكن ان يكون فيه نوع من الالتزام يساعد شعوبنا على الخروج من المأساة الفكرية والعملية والنفسيـــة التى نعانيها : مأساة شعوب تتعلم وتتعامل بغير لغتها·



كتبت «فرانس سوار»: «ان حرب البترول» هي التي نشبت بالفعل في هذه المرة انها حرب اقتصادية وسياسية في وقت واحد . ان قضايا الصناعة البترولية معقدة الى درجة انه ، اذا اعوز جيراننا البترول فانه قد يعوزنا ايضاً حتى ولو قررت حكومات بلدان الخليج العربي اتخاذ موقف ايجابي من الحكومة الفرنسية » .

تلك هي نتائج الدعم الذي تقدمه الاوساط الامبريالية للعدوان الاسرائيلي على الشعوب العربية . وقد قال جمشيد اموزيغار، وزير مالية ايران ، ان الغرب يفقد قرابة ٤٠٠٠٠٠ طن من البترول في اليوم بنتيجة المقاطعة . وذكر ان شحن البترول الى البلدان الغربية سيزداد انخفاضاً عما قريب .

وتجدر الاشارة الى ان رجالات الاعمال في اميركا الذين لا يوافقون على سياسة دعم اسرائيل كانوا يحذرون، منذ زمن طويل، من مثل هذه النتائج . فمن المعروف ان رئيس ادارة الشركة البترولية « ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا » اوتو ميلر كان يقول باصرار ان على الولايات المتحدة ان تولي مزيداً من الاهتمام لمطالب البلدان العربية وان تكون اكثر انتقاداً لموقف اسرائيل .

ان عامل البترول يفعل مفعوله بقوة اكبر في الوقت الحاضر . ولم يعد في وسع واشنطن ان تتجاهل ان من مصلحة الاقتصاد الوطني الاميركي الاسهام في تسوية ازمة الشرق الادنى . وقد كتبت صحيفة « كريستيان ساينس مونيتور » تقول : « ان اربع حروب في غضون ربع قرن قد بينت ان من المستحيل الحصول على مثل هذه التسوية بنتيجة العمليات العسكرية . ان اسرائيل لم تعد تستطيع مواصلة احتلال الاراضي العربية الجديدة فالجديدة . كما انها لا تستطيع البقاء لمدة غير محدودة على الحدود غير المقبولة بالنسبة للعرب ولاغلب اعضاء منظمة الامم المتحدة .

وقالت « نيويورك تايمز » بدورها « ان الحل الوحيد الذي يمكن الى حد ما ان يبرر التضحيات المؤلمة التي عاناها حالياً الاسرائيليون والعرب هو في تسوية سياسية شاملة تراعي مصالح جميع بلدان وشعوب الشرق الادنى » . وكل حال آخر سيكون منافياً للاتجاه السائد في تطور العلاقات الدولية ، الاتجاه نحو الانفراج ونحو تدعيم الامن العالمي .

نوفوستي ١ / ١١ / ١٩٧٣

أضواء على

قسم اللغة الوطنية في كلية العلوم

المهندس عبد الحميد شنيني

معيد في فرع الفيزيا
قسم اللغة الوطنية
كلية العلوم ــ الجزائر

لقد كثر النقاش حول قضايا التعريب في هذه الايام . ولذا رأى صديقي السيد محرر هذه المجلة أن أدلي ببعض التصريحات التي تتعلق خاصة بقسم اللغة الوطنية في كلية العلوم .

وانني انتهز هذه الفرصة لاعطاء بعض التوضيحات عن هذا القسم العلمي المعرب ، ليس كمسؤول لانني لست مسؤولا فعلا عن طريق رسمي ، وليس فقط كمعيد في هذا القسم ولكن كانسان شارك بكل ما لديه من قوة في استتباب وضع هذا القسم منذ اللحظة الاولى لانشائه الى يومنا هذا ، وأنا مسؤول مسؤولية شخصية عن كل كلمة اقولها في هذا المقال .

وقبل أن أتطرق الى أى موضوع أنتهز الفرصة كذلك وأقوم بدعوة عن طريق هذه المجلة لاطلاع اخواتنا الطالبات واخواننا الطلبة فى الثانويات والذين يدرسون باللغة الوطنية أو الذين هم فى الفصول الثنائية اللغة Bilangue على أن هناك قسم فى التعليم العالى بكلية العلوم جامعة الجزائر يدرس المواد العلمية فى كلتا فرعيها ·

أ – العلوم الصحيحة والتكنولوجية
Sciences exactes et technologiques

ب – العلوم البيولوجية Sciences Biologiques

لقد أنشىء هذا القسم بمقتضى قرار وزارى فى اكتوبر او نوفمبر عام ١٩٧١ (ارجع الى الجريدة الرسمية) وبمقتضى هذا القرار فقد تخصص هذا القسم لتخريج الدفعات من اساتذة التعليم الثانوى بعد الحصول على شهادة ليسانس التعليم Licence d'Enseignement والتى تطول مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يختار فيها الطالب تخصصا حسب ما اذا كان فى قسم العلوم الصحيحة والتكنولوجية أو فى قسم العلوم البيولوجية ·

وهذه التخصصات هى بالنسبة للقسم الاول (ع· ص· ت) فى تحضير ليسانس التعليم :

أ – فيزيا وكيميا (أ)
ب – فيزياء وكيمياء (ب)
ج – رياضيات

بالنسبة للقسم الثانى (العلوم البيولوجية) فى تحضير ليسانس التعليم :

أ – علم الحيوان
ب – علم النبات

وأتوقف هنا لحظة لارد عن تساؤل كثيرا ما يطرح نفسه وهذا التساؤل هو لماذا لا يفتح فى القسم المعرب بالعلوم الشهادات الاخرى العليا مثل شهادة الدراسات العليا D. E. S. سواء كان هذا فى قسم العلوم الصحيحة أو فى العلوم البيولوجية أو كذلك شهادة المهندس فى مجال العلوم الهندسية ؟

هذا التساؤل كثيرا ما كان محل نقاش بين صفوف الطلبة وغيرهم· وأكثر الاراء انتشارا والتى سمعتها من اكثر من مصدر أن المسؤولين يشكون فى مقدرة اللغة العربية على مواصلة الدراسة فى هذه المجالات المتقدمة من التعليم وأنه ليس لهم أى ايمان باللغة العربية أو بالتعريب · وفى الحقيقة أنا لا أشارك الاخوة فى هذا الرأى ، وفى اعتقادى أن المسؤولين في الوزارة وفى الجامعات قد فكروا فى مصلحة الجزائر وفى ضمان تعريب التعليم الثانوى فيها فأرادوا كمرحلة أولى تكوين الشباب الجزائرى المعرب فى العلوم فيدخلون هذا الميدان بجانب اخوانهم العرب المعارين الىالجزائر ثم الاستعداد لسد عجز أو نقص محتملين فى صفوف اساتذة التعليم الثانوى فى العلوم باللغة الوطنية فالموضوع اذن يمس الجزائر فى تطور تعليم الثانوى باللغة العربية فيها ·

والآن اذا طرحت مسالة الشهادات العليا السابقة الذكر أمام المسؤولين فماذا سيكون رد فعلهم ؟

أعتقد أنهم سيبحثون أولا عما اذا آن الاوان لهذه الشهادات ام لا ؟ ثانيا اذا تخذ المسؤولون قرارهم فى فتح باب الشهادات العليا فعلا ، هل يكون هناك فى الامكان توفير الامكانيات ··· كل الامكانيات فى الاطارات والمراجع وغيرها ··· ! هذا موضوع شائك وسنتناوله فيما بعد ·

ولكن رغم ذلك فقد أفصح بعض الطلبة الذين لهم رغبة فى تحضير الشهادات العليا ورأوا فى مقدرتهم متابعة دراستهم باللغة الفرنسية (رغم عدم اجادتهم لها اجادة كاملة) ولكن مقدرتهم هو ذلك الحافز القوى الذى يدفعهم الى الاستزادة من التعليم وعندئذ رأى المسؤولون أنه ليس هناك أى مانع أن يتابع الطالب الذى يريد أن يتابع دراسته طالما أن العلوم هى العلوم سواء كانت باللغة الفرنسية أو باللغة الانكليزية أو باللغة العربية فالموضوع لا يتعدى أن يكون موضوع مصطلحات وبمعرفة اللغة الاخرى معرفة متوسطة يمكن للطالب أن يواصل. على ذلك فقد قرر عميد الكلية انه بعد الفصل الرابع أى بعد سنتين يقضيها الطالب فى القسم المعرب يمكنه بعد ذلك أن يحول الى القسم الفرنسى لتحضير الشهادات العليا .

ثم نأتى بعد ذلك الى سؤال يطرح نفسه دائما ، وهذا السؤال هو النداء بخلق ادارة خاصة بقسم اللغة الوطنية داخل كلية العلوم ؟ فى الحقيقة هذا سؤال خطير ، والاجابة عليه أخطر ، ولكن أرى أنه لكي نوفى هذا الموضوع حقه يجب أن نتطرق الى كل الجوانب وهذه العملية تتعذر علينا الآن فى مقال قصير مثل هذا ... ولكن سأحاول هنا أن أعبر عن رأئى باختصار ولكن سيظل الباب مفتوحا للمناقشة فى مقالات أخرى اذا أراد الاخوة ...

لي فى الحقيقة وجهة نظر الشمول والعموم وهذا يعنى أنه لا يجوز معالجة الامور فى نطاق ضيق فنأتى مثلا لحل مشاكل القسم المعرب نخلق له ادارة فى وسط ادارة أخرى فنكسر بذلك فكرة الشمول او العموم التى لها مقدره اكبر فى حل المشاكل بطريقة جذرية وخاصة ان كل الطلبة هم طلبة جزائريون والبعض الآخر من الاقطار الصديقة وأن كل المسؤولين هم مسؤولون جزائريون ويجب على كل مسؤول طبعا أن يتحمل مسؤوليته ... فلو فكرنا اذن فى خلق ادارة خاصة بالقسم المعرب فمعنى هذا انه ليس لنا ثقة فى هؤلاء المسؤولين وهذا بطبيعة الحال شيء خطير ... وأرى كذلك أنه من الافضل الا ينعزل هذا القسم عن باقى الكلية لانه لربما أن تكون هذه العزلة هى الضربة القاضية عليه بدلا أن تكون هى نجدته ... فاذا كانت هناك مشاكل فستكون عامة على كل من فى الكلية واذا كان هناك اصلاح فسيكون عام على كل من فى الكلية ولهذا يواصل الجميع فى السراء والضراء ولا خير لعربى على أعجمى الا بالعمل الصالح .

ربما يريد البعض أن ينتقد الادارة فاقول أن أى ادارة فى الدنيا محل نقد ولا ينجو منها أحد وخاصة اذا تكلمنا عن ادارتنا فى الجزائر ككل وهذا شيء يعرفه الجميع .

اذن كان هذان التساؤلان اللذان كنت اريد أن ادلى برأى فيهما ولست أدرى ما اذا كان هناك تساؤلات أخرى وعلى كل حال فالباب مفتوح للمناقشة ويمكن أن نتناول أى نقطة بالبحث .

أريد أن أتطرق الآن بسرعة الى النواحى الايجابية والنواحى السلبية فى القسم المعرب بكلية العلوم حتى يكون الطريق واضح أمام الاخوة الطلبة الذين سينالون شهادة البكالوريا فى نهاية هذه السنة الدراسية .

أول كلمة اقولها أن قسمنا المعرب بكلية العلوم بخير – وأعتقد أن البعض سيثور من هذه الكلمة –

ولكن اكررها دائما لان اجماليا فالقسم فعلا بخير اذا مـــا قيست النـــواحى الايجابية والنواحى السلبيـــة ٠

أهم نقطة ايجابية يمكن ذكرها هنا ان القســم المعرب بكلية العلوم استطاع أن يواصل طريقــه رغم كل المصاعب التى سياتى ذكرها فى السلبيات وما بقى امامه الآن سوى فصل دراسى واحــد وتتخرج أول دفعة من اساتذة الثــانوى الذين سيقومون بمهمتهم فى تحقيق الهدف الذى انشىء القسم المعرب من أجله ، كمــا أن هناك البعض الآخر الذين سيواصلون دراستهم فى الشهادات العليا باللغة الفرنسية فيتخرجون فى العلـــوم وهم يجيدون اللغتين وحينذاك يمكن ان يستفيد بهم القسم المعرب لكي يصبحوا أحد اطاراته أو منهم من سيختار الشركات الوطنية ٠

ولربما البعض ينتقد كيفية سير القسم المعرب منذ أن وجد ، وهنا أؤكد أن سيره كان متعثـرا ولا زال متعثرا والمهم فقط الا ننسى ان هذا القسم قد واصل طريقه ويجب أن نوليه كل اهتمامنا حتى يواصل طريقه ويخرج من الفترة العابرة ويدخل الفترة الدائمة المنتظمة ٠

ليعلم الجميع أن قضية التعريب هذه قضيــة مفروغ منها فقد أصبحت حقيقـــة لا جدال فيها وبالتالى فالموضوع بالنسبة للقسم المعرب ليست قضية تعريب بقدرما هى قضية دراسة امكانياته التى تكفل له المواصلة والنجاح ٠

نقطة ايجابية أخرى تكفل لهذا القسم المثابرة وقدرة المواصلة والنجاح هى نفسية طلبــة هذا القسم فالاغلبية الساحقة من هؤلاء الطلبة لهــم ذلك الحافز القوى والارادة الفعالة فى الاستزادة من التعليم ونجد لهم كذلك فى بعض المقررات التى تدرس بطريقة صحيحة ذلك التحرر من مــركب النقص بالنسبة لزملائهم فى الاقسام الفرنسية ٠

نجد كذلك كنقطــة ايجابية أخرى تفانى بعض الزملاء الآخرين من الاساتذة والمساعدين ســواء من الجزائــر أو من الاقطار الشقيقة فى خدمتهم لمصلحة القسم المعرب والعمل بكل اخلاص كمــا أن هناك بعض الزملاء المسؤولين فى الادارة الذين يعملون قدر استطاعتهم فى خدمة القسم المعرب ٠

فهذه نظرة تفاؤل بالنسبة للقسم المعرب ومــا أضيق العيش لولا فسحة الامل٠ وعلى العمـــوم فالوضع يتحسن فصل عن فصـــل ٠

والآن بالنسبة للنواحى السلبية التى يتأثــر من تحتها القسم المعرب هو النقص المفــزع فى اعضـــاء الهيئة التدريسية وكفاءة بعضهم أولا وثانيا موضوع الكتب والمراجع ٠

أول شيء جدير بالذكر هنا بخصوص حاجيات القسم المعرب نذكر أن اكبر نقص يشكو منه القسم المعرب هو بالنسبة لاستاذة الرياضيات ونلفت انتباه الاخوة هنا أن هذا النقص يشكو منه العالم العربى عامة بما فى ذلك مصر وسوريا والعــراق حيث ان استاذ مادة الرياضة هناك يعمل اكثر من عشرين ساعة أسبوعيا نتيجة للنقص ٠

وفى موضوع قفل فرع الرياضيات للتخصص فمن وجهة نظرى انها خطوة صائبة وليس عليها أى غبار لان من غير المعقول ان يزجى بالطلبة فى تخصص غـــير مضمون لـــه أى مواصلـة او استمرارية فتكون النتيجة أن يتوقف الطلبة كلية عـــن متابعة دروسهم أو أن يـــؤتى لهم ببعض المعيدين فقط دون محاضرات او بالاساتذة مــن فرع الفيزياء الذين هــم بعيدون عن الرياضيات

البحتة فيصير تكوين هؤلاء الطلبة هزيل وضعيف قياسا بزملائهم فى الاقسام المفرنسة وهنا اذن يستوجب أن نقف قليلا فى موضوع الامكانيات حيث ان الامر يتطلب قبل اتخاذ اى قرار ان ندرس امكانياتنا فى تحقيق هذا القرار والا فستصبح المسالة عبارة عن تصرفات عشوائية لا حكمة ولا تدبير فيها وعليه فقد كان من الافضل قفل التخصص فى فرع الرياضيات حتى تتوفر جميع الامكانيات التى تضمن استمراره··· وحيث أن الفصلين الدراسيين الاولين يستوجبان دراسة ثلاث مقررات أساسية فى الرياضيات فقد وفرت كلية العلوم استاذ ومعيدين لضمان دراسة هذه المقررات الاساسية ·

ثم يأتى بعد ذلك موضوع كفاءة بعض أعضاء الهيئة التدريسية وهذا فى الحقيقة موضوع شائك يصعب النقاش فيه وانما يدخل تحت بند «الاساتذة المعارون فى الجزائر» أو كما نسميه باللغة الفرنسية «مشكلة المتعاونين فى الجزائر» وهذه مشكلة يعرفها الجميع ولا يغفلها أى شخص حيث أنه من المعروف أن هناك متعاونون مهما كانت جنسيتهم أوروبيون أو عرب أو غيرهم من لهم كفاءة وضمير فى العمل ومجموعة أخرى لهم كفاءة وليس لهم ضمير ومجموعة أخرى ليس لهم كفاءة ولهم ضمير ··· فهذا فى الحقيقة موضوع قائم بذاته وليس لي أى رأى فيه هنا ·

وكما أن مشكلة المتعاونين مشكلة قائمة بذاتها فادارتها فى الجزائر كذلك مشكلة قائمة بذاتها كما ذكرت سابقا ··· ولقد كان من أهم أسباب تذمر بعض المتعاونين هو شكواهم من الادارة فاذن هاتان المشكلتان بعيدتان عن موضوع مقالنا هذا كل البعد وفى الحقيقة فهما بعيدتان كذلك عن الاخوة الذين يريدون أن يتطرقوا اليه كل البعد والنقاش فيه يعتبر تدخل فى شؤون الغير ·

ناتى الآن الى موضوع الكتب والمراجع ··· ففى الحقيقة هذا ليس مشكلة بالمرة حيث أنى أشهد أن سيادة وزير التعليم العالى والبحث العلمى بنفسه قد أطلق حملة تدعى « الكتاب العربى » وسافر وفد خاص الى الشرق بهذا الغرض ولكن فى الحقيقة كل الكتب التى وجدها الوفد لا تتلائم كليا مع المقررات التى تدرس فى الكلية والتى هى تعتبر مقررات رسمية ومع هذا فقد اشترى الوفد بعض امهات الكتب العلمية المترجمة فى سوريا وهى الآن معروضة أمام الطلبة فى مكتبة الجامعة· وهنا أنبه الاخوة أنه من الافضل أن تقوم حملة ترجمة تلبى طلبات الكليات وعليه يجب تشجيع الترجمة ·

يبقى موضوع صغير وهو ليس نقطة سلبية فى القسم المعرب وهذا الموضوع هو مشكلة المصطلحات العلميةفى كلية العلوم حيث يوجد مقابلات عربية متعددة للمفهوم العلمى الواحد ، ولحين ما تتفق كل الدول العربية عن المصطلحات العلمية المستخدمة فى التعليم العالى بمثل ما وقع بالنسبة للتعليم الثانوى فان اللجنة الدائمة لتعريب التعليم العالى بالوزارة منكبة على هذا الموضوع والمشكلة الآن هى مشكلة امكانيات فقط ـ وعلى كل فقد اتبعنا اسلوبا ظريفا جدا فى كلية العلوم وهو أن يستخدم المعيد نفس المصطلحات التى يستخدمها المحاضر وقد طبقت هذه الطريقة بين البعض ولم تطبق مع البعض الآخر مع الاسف ·

من أدب النفط

النفط والوجود [١]

لم يسبق قط أن فوجىء امرؤ يقف متأملا قرب مضخة بنزين ، وهو يتصورها شجرة َخير التكنولوجيا وثمرها . لكن ، هوذا التوازن غير المستقر في جانب من العالم قد لفته العنف ، والشجرة تهدد بالتوقف عن حمل الثمار . فقرار البلدان العربية بتوقيف الامدادات جزئياً بمنتجات الطاقة جاء يوجه ضربة للمجتمعات الصناعية .

في أي زمن سيحملنا ملاك العنف على التقهقر الى وراء بسيفه اللاهب ؟ عسانا نضطر عند ذاك للخروج من الجنة مفعمة قلوبنا بخطايانا .

التأمل حول النفط يجعلنا نعاود اكتشاف صلتنا المتينة بالأرض . يتراءى لنا أننا تركناها حين غادرنا حضارة الزراعة لنستقر في عالم الآلات ، أسفاه ! النفط ليس من تلك الثمار النامية في كل موضع . هو ثروة نزوية ترتضي التخفي ههنا لا هناك ، بعيداً عن المواقع التي كان يمكن لأنانيتنا أن تجد فيها لنفسها دوراً أيسر. وما دام النفط يقلص مدى صحبته ، فهو يعطينا درساً في الأخلاق .

فنحن نعرف ، في الواقع ، أن المخزونات ستنفد في مدى عدد من السنين ، حتى بغير مداخلات سياسية . غير أن التساؤل الأعجل في هذه الأيام الاخيرة – ما نفعل بغير نفط ؟ – أفاد في تنشيط خيال الكسالى . التهديدات وحدها تفسح مجال التفكير ، إننا ندخل عن وعي عالمَ العلم – الخيالي الاقتصادي ، عالمَ اختفاء البترول كما يرويه كاتب روائي .

---

(١) يفسح العنوان الاصلي لهذه القطعة المجال أمام القارىء لان يذهب بتفكيره الى كتاب شهير لغابريل مارسيل « الماهية والوجود » ، اذ يُكتب العنوانان في عدد من اللغات الأجنبية بالطريقة ذاتها L'essence et l'existence ، فكأنما الكاتب يذكر بأن النفط للانسان يوشك أن يكون في مقام ماهيته ، ما دامت كلمة essence تعني « الماهية » كما تعني « النفط » .

"المعرفة" السورية

التعريب بين الأمس والغد

محمد زنيبر

كلية الآداب
الرباط

لقد كان من الطبيعي ان تثار قضية التعريب بصورة ملحة بعد حصول اقطارنا المغربية على الاستقلال وبعد التفكير جديا وعمليا في بناء ذلك الاستقلال من سائر جوانبه • وقد برزت المشكلة بكل حدتها في ميداني الادارة والتعليم • فادارتنا الفتية لم تستطع ان تتحرر في الحين من استعمال اللغة الاجنبية ، نظرا لكون عدد كبير من اطاراتها حصلوا على ثقافة فرنسية بحتة ووجدوا من السهل عليهم ان يستمروا في استعمال الفرنسية ، فكان ذلك سببا في البطء الحاصل في تحقيق التعريب• وهذا ما يقال ايضاعن التعليم الذي ظل متوقفا على المساعدة الاجنبية ، من جهة ، والذي وجد عددا من اطاراته الوطنية مثقفين•ثقافة فرنسية بحتة ، من جهة اخرى • وكلما اتجه التفكير الى تعريب التعليم تطرح في الحين مشكلة الاطارات القادرة على تحقيق هذا الهدف ويتبين انها غير كافية من حيث الكم والكيف ، وان كان عددها يتزايد بصورة مطردة سنة بعد اخرى •

واذا تدبرنا الموضوع بعمق وموضوعه ، نجد ان المشكلة مشكلة زمان لا غير·طبعا ، اننا من الناحية العاطفية نثور حينما نرى اللغة الاجنبية لا زالت تحتل مكانا بارزا فى بـــلادنا المستقلة وتضايق العربية التى هى لغتنا القومية · ولكنها ظاهـرة طبيعية فى المـــرحلة التى نجتازها لان التخلص من الارث الاستعمارى ان امكن تحقيقه بسرعة فى الميدان السياسى مثلا ، فانه فى ميادين اخرى كالثقافة لا يمكن ان يتم بالصورة المرضية الا بعد مرور فترة من الزمان لان الامـــر يتطلب مجهودات وتصميمات ·

ولذلك ، فلســت اعتقد ان هنالك خطـــرا محققا يهدد التعريب فى بلادنا ، سيما وان الاجماع حاصل فى راينا العام على السير فى هذه الوجهة وان المواطنين المتاثرين بالثقافة الاجنبية انفسهم يشاركون فى هذا الاتجاه ويسلمون بأن وضعيتهم لا تخلو من شذوذ · ومن الصعب ان نتصـــور وجود مواطن يتمتع بكامل عقله ورشده يدافـع عن بقاء اللغـــة الاجنبية ويريد ان يحلها محل العربية · نعم ، هنالك مواطنون يكتبون بالفرنسية لانهم لا يستطيعون ان يكتبوا بغيرها · فهل يحق لنا ان نستنكر عملهم ؟ لست اعتقد ذلك · فمـــا داموا يتمتعون بكل مقومات المواطنة ، وما داموا يصدرون فى كتابتهم عن وطنية صادقة ، فلا بد لنا من ان نرحب بكتابتهم ولو كانت بلغة أجنبية· ولا ننس انهم ، فى اغلب الاحوال ، من ضحايـا الاستعمار الذى حرمهم من تعليم العربية وفرض عليهم لغته · فاذا ما قمنا اليوم بالواجب نحـو الجيل الناشىء ولقناه العـــربية واطلعناه على جمالها ودربناه على استعمالها والتعبير بها ، فستنقرض فى الحين تلك الظاهرة العربية الشاذة ظاهرة انتشار الكتابة باللغة الاجنبية ·

لكل هذا لست اعتقد ان قضية التعريب فى بلادنا تستحق ان نطلـق عليها كلمـة **مشكلة** · فلفظة مشكلة تشير الى وضعية يصعب الخـروج منها · وليس الامر كذلك بالنسبة للتعريب اذ هو امر ميسور لا يعارض فيه واحد ويحظى بالتاييد الشعبى · واذا جاز لنا ان نستعمل كلمة مشكلة فلنكرر ما قلناه آنفا من أنها مشكلة زمان ·

هنالك اسباب اخرى تجعـــل من التعريب ضرورة محتومة لا يمكن ان يتطرق اليها الشك ·

فيجب أن نعتبر ، قبل كل شىء ، ان العربية ليست لغة جديدة على بلادنا وشعوبنا نريد ان نفرضها عليهم فرضا كشىء دخيل لا عهد لهـم به · بل هى لغة البـــلاد الاصلية ولها تاريخها العريق ورجالها الذين كتبوا بها · وهى اللغـة الرسمية التى استعملها الاغالبـة والادارسـة والزيـريون والحماديون والمرابطون والمـوحدون والزيانيون والمرينيـون الخ ··· وانما حـــاول الاستعمار بمخططاته الماكرة ان يطمسها ويسدل عليها رداء الاهمال والنسيان · ولكنه ، فى الواقع كان يحاول المستحيل · فشعوبنا فى احلك ساعات اليأس ظلت ترى فى اللغة العربية لغتها القومية التى تجسد شخصيتها التاريخية · وتاريخ العالم يشهد بالعديد من الامثلـة القديمة والحديثة ان اللغة القومية هى اصعب شىء يمكن القضاء عليه مهما كانت قوة المتغلب · فكم حكمت روما مـن شعوب ! ولكن هل استطاعت ان تحولها عن لغتها لقد حكمت المغرب ومصر والشام واليونان عدة قرون ، ولكنها ما ظفرت بأن تستبدل لغة اهـل تلك البلاد بلغتها · وكم خضعت بولونيا ، مثلا ، للسيطرة الاجنبية ! ومع ذلك فقد احتفظت بلغتها· واحسن مثال معاصر يمكن ان نقدمه كبرهان هو

شقيقتنا الجزائر التى بعد مرور قرن من الحكم الاستعمارى الغاشم القاسى ظلت متشبثة بكل مظاهر ثقافتها العربية · ففى الوقت الذى كان الاستعمار يحتفل بمرور مائة سنة على احتلال الجزائر ، كان العلماء الجزائريون يحملون لواء الثقافة العربية ويؤسسون المعاهد والمدارس ويصدرون المجلات والجرائد ، وكان التمثيل العربى يشق طريقه ، وكانت الموسيقى الاندلسية باشعارها وتواشيحها ترن فى كل الاندية كل هذا يدل على ان اللغة القومية جزء من كيان الامة وروحها وان المساس بـه من قبيل المستحيل · فالتطور نحو التعريب ، والحالة هذه ، ما هو الا نهاية محتومة لمسلسل تاريخى ·

هنالك ملاحظة قد يبديها بعض القراء تمشيا مع المنطق الظاهرى فيقولون ان العربية كانت هى ايضا ، فى وقت من الاوقات التاريخية طارئة على البلاد وان سكان البلاد الاصليين لم يكونوا يتكلمون بها بل كانت لهم لغاتهم ، فلم ، يا ترى ، نميز العربية عن غيرها من اللغات فى هذا الباب ؟ والجواب على مثل هذا التساؤل يقتضى منا عودة أخرى الى التاريخ ·

قبل الاسلام ، كان الوضع اللغوى بافريقيا الشمالية كما يلي :

كانت هنالك **لهجات بربرية** تختلف من ناحية الى ناحية، بل من قبيلة الى اخرى· ولم تتمكن اى لهجة من تلك اللهجات ان تتمركز تمركزا كافيا وتصبح عامل توحيد وتتحول الى لغة حضارية وثقافية فى المستوى العالى · وكانت الى جانب تلك اللهجات لغتان حضاريتان : **اللاتينية** التى تمثل لغة الادارة والسيطرة الرومانية والكنيسة المسيحية والتى كان لها وجود فى بعض المراكز الحضرية ، **البونيقية** وهى لغة سامية وشقيقة للعربية والتى كان لها ، على ما يظهر ، انتشار واسع فى البلاد المغربية بسبب النفوذ المعنوى والثقافى الذى استطاعت الدولة القرطاجية المنقرضة ان تحرزه فيما سبق من الايام ·

وهكذا نستطيع ان نقول انه لم تكن هنالك **لغة قومية** موحدة فى بلاد المغرب قبل الاسلام ، ومن المعلوم ان الفتح الاسلامى احدث فى المغرب ثورة عميقة لا زالت لم تدرس لحد الساعة من جميع جوانبها · والمقارنة التاريخية بين الفتح الرومانى والفتح الاسلامى تبرز أن هذا الاخير استطاع ان يغير عقلية المغاربة فى ظرف وجيز ويجعلهم من المتكفلين بالدعوة الاسلامية والمدافعين عن مبادئها واهدافها · فشاركوا فى فتح الاندلس ، وثاروا على دولة الخلافة باسم الاسلام ولم يحاول العرب الفاتحون ان ينهجوا سياسة استيطان كما فعل الرومان ، بل اعتمدوا كثيرا على الرابطة الدينية فى المحافظة على وحدة دار الإسلام · وتركوا المغاربة احرارا فى تسيير شؤونهم فنتج عن ذلك ان تأسست دول اسلامية مستقلة منذ القرن الثانى للهجرة كالدولتين الخارجيتين الرستمية بتاهرت والمدرارية بسجلماسة ودولة الادارسة بفاس · وكلها دول مغربية صميمة لاتمثل اى سيطرة خارجية، وميزتها الوحيدة انها ترتبط فقط بآصرة الدين مع الخلافة الاموية ثم العباسية ·

وهذه الدول المغربية الاسلامية الاولى تمثل حدثا حاسما فى تاريخنا · فهى ، فى الواقع ، تكون اول صورة للكيان المغربى المستقل ، بكل معنى الكلمة · فالتاريخ السابق كان يطغى عليه

ظل قرطاجة او روما او بيزنطة • اما العهد الاسلامى الجديد ، ففيه تحرر واسع ضمن روابط الامة الاسلامية •

وهذه الدول المغربية هى التى عملت على نشر اللغة العربية بمحض اختيارها • فجعلت منها ، اولا ، لغة رسمية فى دواوينها ومحاكمها • وكانت هى لغة التعليم فى المساجد والكتاتيب والمعاهد • وعن طريق القرآن واقامة الشعائر الدينية انتشرت العربية شيئا فشيئا فى الحواضر والبوادى ، وطمح الى تعلمها واتقانها كل من اراد ان يصير مثقفا او عالما وكل من رغب فى ان يتبوأ مرتبة مرموقة فى المجتمع • وهكذا ، فالعربية لم تستقر بالمغرب كلغة سيطرة اجنبية فرضت على السكان فرضا ، وانما تبناها المغاربة فى نطاق اقبالهم على الثورة الاسلامية واقدامهم على تأسيس دول قومية • ولم تضايق اللهجات المحلية التى استمر وجودها وانما جاءت لتملأ فراغ اللغة الحضارية والثقافية وتكون عامل توحيد فى البلاد المغربية • ولا أدل على ذلك من كون الدول البربرية من زيرية وحمادية ومرابطية وموحدية وحفصية ومرينية كانت هى انشط العاملين على نشرها كما تدل على ذلك مراسلاتهم ومجهوداتهم فى نشر العلم واستقدامهم لا ساتذة اللغة وشيوخ البلاغة من الاندلس وغيرها •

لكل هذه الاسباب التاريخية التى اشرنا اليها بكل ايجاز ، حظيت العربية بامتياز خاص بالنسبة لغيرها من اللغات الطارئة على المغرب ، فانتشرت واسع الانتشار واصبحت هى لغة البلاد ، بصورة تلقائية وبدون عنف • فالتاريخ على ما اعلم ، لا يحدثنا بأى نزاع منشؤه قضية اللغة ، كما لا زال يحدث الى اليوم فى اقطار اخرى • وقد حاول الاستعمار ، فى نطاق سياسة التفرقة ، ان يخلق المشكلة ويثير حولها البلبلة والفتنة فى النفوس • كما حاول عن طريق نشر الفرنسية دون العربية ان يضعف تعلق المغاربة بلغتهم ، ولكن ، ماذا كانت نتيجة هذه السياسة ؟

فلو كان المغاربة يشعرون بأن العربية دخيلة عليهم لما ترددوا فى نبذها وقد أتيحت لهم فرص عديدة خلال تاريخهم الطويل • ولهذا ، فقد كان رد الفعل على السياسة الاستعمارية هو رفع شعار التعريب والدفاع عن العربية ، كما كانت عزيمة شعوبنا غداة الاستقلال هى العمل على محو آثار الخطط الاستعمارية وارجاع اللغة العربية الى مركزها الطبيعى فى حياة البلاد •

فاذا انتقلنا الآن بنظرنا من اعتبارات التاريخ والماضى ، التى هى كافية فى حد ذاتها ، الى آفاق المستقبل ومقتضياته نجد هنالك دواعى اخرى للايمان بالتعريب • ان شعوبنا المغربية المتحررة تريد ان تكتب صفحة جديدة فى التاريخ ، صفحة ناصعة مشرقة ، نابعة من شخصيتها ومعبرة عن اصالتها • فهل تستطيع ان تقوم بهذه المهمة بالاعتماد على لغة غير لغتها ؟ اننا نريد ان نخلق ثقافة جديدة فى بلادنا ، ثقافة عصرية وتقدمية ، بأبلغ ما فى الكلمة من معنى ، ثقافة تعتمد على العلم وعلى العقل وعلى الجرأة فى التفكير • فكيف ، يا ترى ، نستطيع ان نبرز بعملنا هذا اذا لم نعبر عنه باللغة التى نتجاوب بها مع شعبنا • فلا ننس ان الشعب ، فى معظمه ، ظل بعيدا عن اللغة الدخيلة ، وان الفرنسية لم تمس الا اقلية محدودة من المتعلمين حتى اصبحت ، اليوم ، ذات مظهر طبقى فى مجتمعنا •

فنحن اذا القينا نظرة على مجتمعنا ، نجد هنالك اتجاهين فى استعمال اللغة · هنالك فئة قليلة من الناس تميل الى استعمال الفرنسية فى محادثتها وفى جو الحياة العائلية · وغالبا ما يقترن ذلك المظهر مع الحياة البورجوازية · فالطبقة البورجوازية يميل بها الكبرياء الى الى التأفف من لغة الجماهير وتفضل أن تتميز باستعمال لغة تعتبرها « راقية » ولو كانت أجنبية · وهنالك اتجاه السواد الاعظم من الشعب الذى لا يجد ارتياحه الحقيقى الا فى استعمال العربية ، دارجة كانت أم فصحى · وهذا ، بالطبع ، هو الاتجاه السليم لانه يمثل ارادة الجماعة وشعورها

فاللغة الاجنبية ، حتى فى وقت اشتداد سطوة الاستعمار ، لم يكن لها الا مظهر سطحى فى مجتمعنا · فلم تستطع فى يوم من الايام ان تصبح لغة يتكلم بها الشعب ولم يتجاوز استعمالها نطاق الاقلية الضئيلة من المتعلمين فى المدارس الفرنسية · بل ان هؤلاء انفسهم لم يكونوا يتحدثون بها الا فى اوقات ومناسبات محدودة وتراهم يرجعون الى العربية كلما وجدوا مع ذويهم ومواطنيهم ·

وهنالك اعتبار آخر يهم المستقبل والمصير · ان عالم اليوم والغد ينحو الى تكتيل الشعوب فى مجموعات كبيرة قادرة على ان تدافع عن نفسها وتثبت وجودها · فها نحن نشاهد اروبا تعمل جاهدة على انشاء وحدة فعالة بين شعوبها ، ونشاهد روسيا تكتل حولها شعوبا سلافية وغير سلافية تحت شعار الاشتراكية ، ونشاهد الصين تسير فى نفس الاتجاه بالشرق الاقصى · وليس من المعقول ، فى مثل هذه الحال ، ان يظل العرب مشتتين وموزعين وهم قادرون على ارساء وحدتهم على اسس متينة · ومن جملة هذه الاسس وحدة اللغة · بل من الممكن ان نقول ، دون ان نخشى المبالغة ، ان اللغة هى التى اشعرت العرب بوحدتهم فى العصر الحديث وهى التى كانت اقوى عامل للتضامن فيما بينهم فى كل المعارك التى خاضوها ولا يزالون يخوضونها · فالسير قدما فى طريق التعريب هو ، فى الحقيقة ، سير فى طريق تدعيم هذه الوحدة الضرورية امام التكتلات الكبرى التى يشاهدها هذا العصر · وهو سير فى طريق المزيد من القوة والاطمئنان · فالمجموعة العربية ، اليوم ، برغم ما يعترض طريقها من مشاكل ومصاعب ومآس ، تكتسب يوما عن يوم مكانا مرموقا فى المجال الدولى ويزيد وزنها ثقلا ، هذا مع العلم بان وحدتها لا زالت لم تتحقق بالصورة المنشودة وان هنالك جوانب سلبية لم تستطع لحد الساعة ان تتغلب عليها · فالاقليمية لم يبق لها محل فى عالمنا الحاضر لانها تمثل انعزالا خطيرا ومخيفا · ولذلك فالتعريب يفرض علينا نفسه فرضا لانه يجنبنا مزالق ، الانعزال ويمكننا من ربط آصرة محكمة مع مجموعة كبيرة من الشعوب تستطيع ان تفرض احترامها اكثر فاكثر فى المجال الدولى ·

الا ان قضية التعريب لا ينبغى ان نكتفى بالنظر اليها من الجهة العاطفية · بل تقتضى منا ان نواجهها بطريقة واقعية وعملية · ومعنى هذا انه لا يجمل بنا ان نكتفى بترداد بعض الاقوال مثل : « لا يوجد لغة اجمل من لغة الضاد » · أو « العربية هى اشرف اللغات وأحسنها » · وما الى ذلك من الاقوال والتأكيدات التى تضر بالعربية اكثر مما تنفعها · اننا لا نشك فى ان العربية من اجمل اللغات واقدرها على التعبير والتصوير · ومع ذلك ، فلا ننس ان اللغة هى ، قبل كل شيء

اداة وجدت لخدمة الانسان • والاداة ينبغى ان تتطور مع حاجات الانسان وتطور المجتمع •

وفى هذه الناحية ، يجب ان نعترف بان امامنا عملا كبيرا يجب ان نقوم به لنجعل من العربية لغة حضارتنا الحالية حتى تصبح قادرة على اداء كل العلوم والفنون وتنافس فى هذا المضمار اكبر اللغات العالمية • ولقد بذلت لحد الساعة جهود مشكورة فى المجامع اللغوية العربية وفى مكتب تنسيق التعريب ، الا ان اثر هذه المجهودات يجب ان يخرج من النطاق الاكاديمى الى نطاق الاستعمال العام • ومن الواجب كذلك ان نضع تحت تصرف اطفالنا بالمدارس الابتدائية والثانوية كل المفردات التى تساعدهم على التعبير عن الاشياء التى تحيط بهم حتى لا يعانوا ما نستطيع ان نسميه الفقر اللغوى •

ومن دون شك ان تخلفنا اللغوى ، فى الوقت الراهن ، راجع الى تخلفنا العام • فمتى سرنا فى طريق التقدم والتنمية بخطوات واسعة ، ستتطور لغتنا هى ايضا لتستجيب لحاجاتنا الجديدة ، سيما اذا شمل التعريب سائر المرافق فى حياتنا الاجتماعية • فاذا اخذنا ندرس لطلبتنا سائر العلوم بالعربية فى الجامعات والمعاهد نستطيع آنذاك ان نقفز بلغتنا قفزة كبيرة وحاسمة • ولكن لا ينبغى لنا ان نعتمد على التطور الطبيعى وحده فى تحقيق التعريب • بل يجب من الآن ان نعد له العدةونجند له الخبراء ونؤسس المعاهد ونرعاه بكل التشجيعات المادية والمعنوية •

اننا ، فى الحقيقة ، كلما اثرنا قضية التعريب ، نرجع بفكرنا الى تراثنا الثقافى المجيد ونتملى بما خلفه الاجداد من آثار ادبية وعلمية • وهذا موقف طبيعى ومعقول • الا انه موقف يحجب عنا الحقيقة فى قضية التعريب كما هى مطروحة أمامنا اليوم • فنحن لا نريد التعريب من اجل التراث ، او من اجل الماضى ، ولكننا نريد التعريب لاننا نريد ان ننشىء ثقافة عربية جديدة ونخلف تراثا آخر لاجيال المستقبل • فالعربية ليست لغة اجدادنا وحدهم ، بل هى لغتنا نحن ، ايضا • واذن ، فالواجب يقتضى منا ان ننظر الى التعريب من زاوية الحاضر والمستقبل ، قبل كل شىء •

فالتعريب سيتيح لنا ان نملأ الفراغ الفكرى الذى تعانى منه بلادنا اليوم • ولئن كان شبابنا ينصرف الآن الى الآداب الغربية فيطالع مختلف آثارها من قصص ومسرح وفلسفة ، فلانه يعدم فى بلاده الغداء الفكرى الذى يحقق المستوى المنشود • فمهمتنا هى ، اذن ، أن نملأ هذا الفراغ بواسطة ما نكتبه بلغتنا العربية •

ونحن لو القينا نظرة على تطور الكتابة بالعربية منذ بداية هذا القرن الى اليوم فمن المؤكد اننا نجد دواعى كثيرة للتفاؤل • لقد وقع تقدم عام وشامل • فقد كثر الانتاج فى ميدان التاليف ، ونبغ كتاب وشعراء فيهم من تسنم ذروة عالية • وانتشرت الصحافة فى كل الاقطار العربية من يومية واسبوعية وشهرية • وغزت العربية سائر وسائل الاعلام • ومما لا شك فيه ان الراديو والتلفزة عاملان قويان فى نشر الفصحى بين الجماهير الشعبية • لكن هذه ، فى الحقيقة ، ما هى الا بداية ومرحلة تمهيدية • فلا زال امامنا مجال واسع لرفع مستوانا فى سائر ميادين الانتاج الفكرى واختراق سبل الابتكار والابداع حتى لا نبقى مقلدين ومقتبسين وتلامذة •

والطريق نحو التعريب الصحيح تبدأ من الكتاب المدرسى الذى هو رفيق التلميذ الدائم ومرجعه الاساسى بعد الاستاذ · ومن التجربة التى عشناها بالمغرب الاقصى ، تبين لعدد من الاساتذة انه من الممكن ان نعرب فورا مغظم مواد التدريس · فبالاضافة الى المواد الادبية البحتة ، من الممكن ان نعرب التاريخ والجغرافية والفلسفة وكل ما يرتبط بالعلوم الانسانية · تبقى بعد هذا بعض المواد العلمية من رياضيات وفيزياء وكيمياء وغيرها التى يمكن التريث فى تعريبها حتى تتكون الاطر اللازمة لذلك فى وقت محدود · فالمسالة هنا ليست مسالة عجز اللغة العربية بقدرما هى مسالة ايجاد الاساتذة المعربين · واعتقد ان هذا هو الجانب الذى يجب ان تنصب عليه مجهودات المهتمين بالتربية منذ الآن · فمن اللازم ، أولا ، ان نعمل على تعريب أساتذة العلوم بتخويلهم تدريبات منظمة · ومن اللازم ، ثانيا ، ان نكون الاساتذة الجدد على أساس اعدادهم للتدريس بالعربية · والكتاب المدرسى المعرب ، كما قلت آنفا ، هو الذى سيساعد الاستاذ والتلميذ ، على السواء ، على السير قدما فى طريق التعريب ·

هنالك نقطة لا بد من ان نوضحها فى الاخير وهى تتعلق بفكرة التعريب من اساسها · ان الدعوة للتعريب ، كما أفهمها ، ليست مبنية على أى تعصب أو انعزال فكرى · بل انها تهدف فقط لا حلال اللغة القومية محلها الطبيعى والمشروع· ولذلك ، فهى لا تتنافى ، مطلقا ، مع دراسة اللغات الاجنبية · بل يجب أن نؤكد ، وبكل الحاح ، ان مثقفنا المغربى فى حاجة ماسة الى معرفة اللغات الحية الكبرى · فهى نوافذ مفتوحة على عوالم اجتهدت وتقدمت فى سائر ميادين الحضارة · وكل اتصال بالثقافات الاجنبية فيه خير كبير لنا لانه سيمدنا بلقاحات ستفيدنا فى بناء ثقافتنا الجديدة كما اننا عند مزاولة البحث العلمى ، لا غنى لنا عن المراجع الاجنبية ، بحيث ان الباحث الذى يتقن اللغات الاجنبية يجد أمامه الطريق معبدة للاستفادة من كل المجهودات السابقة فالتعريب لا يعنى اغلاق الباب واسدال الستور على النوافذ بل هو تعريب من أجل التفتح والاتصال ، جريا مع تقاليد ثقافتنا كما كانت فى أيام الرشيد والمأمون ، صاحب « بيت الحكمة » ·



المجلـة التـاريخيـة المغربيـة

نعلمكم بانشاء هاته المجلة الجديدة التى ستعمل على دراسة تـاريخ المغرب العربى الحديث والمعاصر ، وسيتعاون على تحريرها جامعيون من بلدان المغرب والاجـانب ممن اختص بتـاريخ مغربنا ، لنعمـل جميعـا على اثـراء وتعميق الدراسات التاريخية المغربية وسوف نركز على الاستفادة من المصادر العربية والتركيـة .

ان الهدف الذى نعمـل من اجله هو تعزيز البحث العلمى وفتـح مجـالات جـديـدة للخلق التاريخى ، وسوف تستعمل المجلـة العربيـة والفرنسيـة والانقليزية ، على ان كل دراسة سوف ترفق بموجز لها فى لغة ثانية ، كمـا اننا خصصنا قسما من صفحات المجلة لنشر الوثائق الجديدة .

اننا ندعوكم الى مشاركة عملنا وتعزيز تجربتنا بمـا توفدونـه علينـا من دراسات او وثائق او تحقيقـات ، وسيصـدر عـددان فى السنـة ، فى اول جانفى وأول جوان .

ونأمل ان تلقى هاته المجلة تشجيعا منكم ومن جامعتكم ومكتبتكم او معهـد دراساتكم وابحاثكم .

هـذا هـو محتـوى العـدد الأول :

البحـوث :

- **امرى** ، مرسال ـ استغلال عظام المسلمين فى تصفية السكر .
- **التميمى** ، عبد الجليل ـ التفكير الدينى والتبشيرى لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين فى الجزائر ، فى القرن التاسع عشر .
- **الساحلى** ، خليل ـ سجلات المحاكـم الشرعية كمصـدر فريـد للتـاريخ الاقتصادى والاجتماعى .

وثائق تنشر لأول مرة :

- **التميمى** ، عبد الجليل ـ انطباعـات حـول أهميـة الـدين فى الممتلكـات الفرنسية بافريقيا .

(Réflexions sur l'importance de favoriser la Religion dans les possessions françaises d'Afrique).

- **الجمالى** ، محمد فاضل ـ كيف حققـت ليبيـا استقلالهـا ؟ مـن ذكريـات محمد فاضل الجمالى .

(Mémoire de Mohamed Fadil Jamali : Comment la Libye obtint-elle son indépendance ?)

- **الساحلى** ، خليل ـ من سجلات محاكم الشرع فى بورصة: مغاربة فى تركيا فى آخر القرن الخامس عشر .

(Documents sur des Maghrébins tirés des registres judiciaires de la ville de Bursa du XVe siècle).

- **سعد الله** ، أبو القاسم ـ وثائـق جديـدة عن ثـورة الاميـر عبـد المالك الجزائرى بالمغرب .

(Documents nouveaux sur la révolte de l'Emir Abdul-Malik au Maroc).

الاشتراكات توجه الى الشركة التونسية للبنـك المركزى ، حساب جارى 62 ـ 650 تونس .

المغرب العربى .... 3 د. ت.

العالم العربى ، وفرنسا .... 40 فرنكا فرنسيا او 9 دولارات .

غير هاته البلدان .... 45 فرنكا فرنسيا أو 10 دولارات .

الاشتراكات ومراسلات التحرير بالعنوان التالى :
عبد الجليل التميمى ـ 21 شارع سوفيل الوردية ـ حى الازدهار ـ تونس .

Abonnements : Subscription C.C.B., N° 62-650, S.T.B., siège-Tunis, Tunisia.

Maghreb .... 3 dinars tunisiens
Maghreb .... 3 Tunisian Dinar

The Arab World, France .... 40 FF or $ 9.00
Monde arabe, France .... 40 francs français ou $ 9.00

Other Countries .... 45 FF or $ 10.00
Autres pays .... 45 francs français ou $ 10.00

Correspondance, abonnements & Secrétariat :

A. TEMIMI, 21 rue Souville - la Cagna - Tunis, Tunisia.

انى ارغب فى تسجيـل اشتراك للمجلـة التاريخية المغربيـة (عددان فى السنة لكل اشتراك) .

Je désire m'abonner à la « Revue d'Histoire Maghrébine » (2 n° par abonnements).

Enclosed is my pre-payment by International money order, by check or Bons Unesco.

Name
Nom ______________________ الاسـم

Adress
Adresse ______________________ العنوان

ابعث اليكـم المبلـغ ____________ عن طريق حـوالة بنكية او حوالة بريدية او بطاقات اليونسكو النقدية .

Je vous adresse le somme de ____________ par C.C.B, chèque bancaire ou Bons Unesco.

تعريب التفكير أولاً

د. عبدالله ركيبي
كليـة الآداب
جامعـة الجزائر

لا أشك مطلقا فى أن ما أسوقه فى هذا الحديث من آراء وأفكار ، وما أعرض فيه لقضية خطيرة ناقشها الكتاب وأخذت من الاهتمام ما لا يدانيـه سوى الحديث عن حرية الشعب واستقلاله ، قلت لا أشك فى أن ما أقوله عن التعريب سيثير سخط أناس ان لم أقل غضبهم وثورتهم ، لانهم تعودوا على المألوف من القول والعادى من الامور ، بـل ألفوا الرتابة فى حياتنا الثقافية وألفوا أن يؤمـن على كل ما يفعلون ويمدحون على الصواب والخطأ حتى فى القضايا المصيرية التى تمس واقع الشعب ومصيره على الســواء ٠

وحين يسعى بعضنا لتنبيه بعض العقول التى ألفت الخمول والركود ، يسارع أصحابها الى رمى الحجارة فى وجوه الذين يسعون جادين مخلصين الى اثــارة القضايا ومناقشتها بموضوعــية ونزاهة ٠ وهذا التفكير المتحجر الجامد هو سبب المأساة التى نحسها فى حياتنا الثقافية والادبية٠

ورغم ما الفناه من رد فعل هذه الفئة ومن عقليتها ومن تصرفاتها التى عانينا منها وما زلنا ، رغم ذلك ، فاننا لن نبحث عن رضائها ولا عن سخطها أو اثارتها ، فنحن لا نصدر فيما نكتب أو نقول سوى عن مسؤولية وعن صدق فيما نعتقد وايمان بما نقول دون هدف آخر ٠

والواقع أن التعريب تعرض لضغوط كما تعرض لاستغلال عجيب٠ فهناك من رفعه شعارا لتحقيق مآرب خاصة ومصالح آنية ثم لاذ بالصمت ، وهناك من لا يزال يرفع شعاره طمعا فى أمور يرجو تحقيقها فى المستقبل ، ولكن هناك من دافع عنه **كقضية قومية مثل القضايا الوطنية لا لمرحلة من المراحل ٠**

ويمكن أن نلمس هذه المواقف المختلفة فى كثير من القضايا مثل الاشتراكية ، فالبعض نادى بها بوصفها حل لمشاكل الشعب وتحقيقا للعدالة وحين تحقق له المسكن المريح سكت ، ولكن الاشتراكى الحقيقى ما فتىء يطالب بها وينادى بشمولها سواء عن طريق الثورة الزراعية أو عن غيرها٠ ويمكن أن نسوق أمثلة من قضايا كثيرة ومن مواقف متخلفة لو أن المجال يسمح لذلك ٠

على انه فيما يتعلق بالتعريب فان المرء مطالب بان يعرض لتطوره لا من حيث الاحصائيات أو من حيث تقديم الحلول ، فقد سبق لى فى مكان آخر أن بينت رأيى بوضوح فى هذا الامر ، ولكننى هنا فقط أود أن أقدم بعض الملاحظات بعد سنوات مرت على الاستقلال وعلى الثورة ثم مرت على البداية فى تحقيق التعريب ٠

والظاهرة التى تلفت النظر فى وضعية التعريب فى بلادنا ، هى أن التعريب مر بمرحلتين واضحتين منذ الاستقلال حتى الآن ، مرحلة الستينات ومرحلة السبعينات ، فالاولى كانت دفاعا عن التعريب وعن اللغة العربية بوصفها احدى الاختيارات الوطنية ، التى لا رجوع فيها وأن التعريب من المقومات الاساسية للشخصية القومية ٠

ومن هنا نشأ ذلك الصراع الطويل بين من يؤمنون بالتعريب وبين من يقفون ضده ، وكان صراعا سافرا بارزا للعيان٠ فقد كان خصوم التعريب يحاربونه فى وضح النهار ، ويقفون ضده بالقول والفعل معا ، ويبذلون جهدهم لعرقلته فى شتى المجالات وبشتى الوسائل٠ كما تعرض انصاره الى حرب نفسية قاسية والى ضغط شديد وصل الى القدح فى ثقافتهم وكفاءتهم فوق الدعاية المغرضة التى تتهم الثقافه العربية بالخمود والتأخر ، فكانت المقارنة باستمرار بين اللغة العربية وبين اللغات الاجنبية ، والهدف هو الوصول الى نتيجة معينة وهى أن اللغة العربية قاصرة عن أن تستوعب ما تنتجه الحضارة الحديثة وبالتالى فهى لغة لا تصلح للعصر ، واذا فلا بد من بقاء اللغة الاجنبية واستمرارها٠ بل وصل الامر الى الارهاب الفكرى ايضا دفاعا عن اللغة الاجنبية واضطهادا لمن يدافع عن اللغة القومية من بعض العناصر المتعصبة للغة الاجنبية٠

هذا مجمل ما كان يجرى فى المرحلة السابقة٠ أما المرحلة الجديدة بالنسبة للتعريب ، فانها تختلف عن الاولى فى الملامح والسمات والمظاهر ، ولكنها تتفق معها فى النتيجة ، **ذلك أن التعريب فى السبعينات أصبح مقننا فقد سنت من أجله القوانين وصدرت فى حقه القرارات الحكومية ، وأصبح بحكم التشريع وبحكم القانون أمرا مقررا لاخلاف حوله٠ فماذا كان رد فعل خصومه ؟**

لقد لجأوا الى طـــرق جديدة ، **طرق ملتوية يفسرون بها النصوص القانونية حسب أهوائهم ، ودخل التعريب فى مـرحلة المناورة بدل المبادرة وتنفيذ القانون**· فمـــا دام القانون يسنده فان الوقوف فى وجهه جهارا نهارا ، قد يعرض مـن يفعل ذلك الى المتابعة القانونية والشعبية ، فتغيير التكتيك ، وتغيير الاسلوب ، وأصبح الشعار فى الظاهر هو : « كلنا مع التعريب وكلنا مع اللغـة القومية » ولكن الحقيقة أن مقاومـــة التعـريب استمرت كما كانت فى السابق تحت صور متعددة ، تغيرت الاصباغ ولكن الجوهر لم يتغير ، فما زالت النظرة كما هى بل أشد مما كانت عليه فى السابق·

فالعراقيل التى توضع أمام التعريب اليوم أشد عليه من الفترة الماضية ، فهى عراقيل مدروسـة بعناية كبيرة من بعض خصومه· فـــقد افرغوا القانون من محتواه ، اشترطوا للوظيف مستوى للترسيم والتثبيت ولكن حين جاء التطبيق تدخلت الاعتبارات الخاصة والنوايا المبيتـة والافكـــار المسبقة ، فوجدنا ممن لا يستطيع كتابة جملـة بالعربية مرسما فى وظيفة· وبذلك استغلوا القانون كما استغلوا الفراغ الذى سببه عـدم المراقبـة الصارمة على تنفيذ النصوص ، وظن أصحــاب النية الطيبة أن القانون وحده يكفى لردع المغرضين واذا بالتعريب يتعثر بحيث لم يدخل قطاعات كثيرة كان المفروض أن يدخلها ، لم يدخل حتى المجالات البسيطة التى تعبر عنها العامية فضلا عن العربية الفصيحة المعربة ، والا فكيف نفسر عدم تعريب أمور لا تتطلب ثقافة أو تعمقا فى اللغة فى مستويات كثيرة ابتداء من البلديات مـرورا بالحزب حتى المؤسسات الاخرى حسب السلم الادارى·

وما قيمة الامتحانات التى عقدت للعربية وما أثرها فى التعريب لقد اتهم أنصار التعريب دائما بالحماس وعدم الواقعية فى نظرتهم لهذا الموضوع وسكت المعربون الا القليل ، واعتبروا أن القانون سيضع حدا للمناورات ضد التعريب ولكن الواقع يؤكد أن أعداء التعريب يتظاهرون بالعمل لـــه بينماهم فى واقع الامر يحاربونه بشدة ، وبذلك سدوا الطريق أمام أنصار التعريب ، بل وسبقوهم الى الدفاع عنه فى المناسبات ، وهذا الاســلوب الذكى يدل على أن الافكار قد تلبس قفازا ناعمـا ولكنها تبقى كامنة حتى تأتى الفـرصة الملائمة للظهور ، وهذا ما يسمى بالاحتراف· والحقيقة التى لا بد أن نسجلها أن خصوم التعريب ليســوا فى درجة واحدة من رفضه ومقاومته· فهناك مـن يقف ضده بحسن نية أو بسذاجة وعدم فهم ، بل وبايمان بأن التعريب قد يـــؤخر البلاد· وهذا الصنف من خصوم التعريب من الممكن اقناعــه بالحجة وبالتجربة والواقع· بل من واجب المؤمنين بالتعريب أن يفتحوا نقاشا هادئا متزنا مع الذين لا تحركهم عقد أو مركبات خاصة تجاه التعريب ، وانما ينقصهم فقط الفهم وادراك الحقيقة·

ولكن الصعوبة التى تواجه التعريب **فعلا مـن** تلك العقلية التى رسخت **فى أذهان الصنف الآخر** الذى يقف ضد التعريب ويرفضه رفضا باتا بدافع العداوة المبنية على سوء النية وعلى الفكرة المسبقة التى أشرت اليها فى بداية هذا الحديث· وهؤلاء لا بد أن يتجردوا من أنيابهم التى يمزقون بهـــا الشخصية الوطنية· ان اســـناد الوظائف لـــهم واعطائهم الحرية المطلقة فى أن يتصرفوا كمـــا يشاؤون فى قضايا تمس مستقبل الوطن ومستقبل الاجيال ، ان هذا سيكلفنا الشىء الكثير ، قـــد لا ندركه اليوم ، لاننا نعيش الاحداث اليومية بحكم

العادة وعدم التنبه للتاريخ ، ولكن سياتى اليـوم الذى يحكم فيه غيرنا علينا وعندئذ ستظهر الحقيقة المــرة ·

هذا الحكم ليس من وحي النظرة التشاؤمية او الحساسية المفرطة تجاه قضية مبدئية مصيرية· ولكنه حكم مبنى على الملاحظة والتجربة المعاشة· ولكن بعضنا يلاحظ ويسكت وبعضنا يفضل قول الحقيقة ولو كان مرا ·

وهنا يمكن أن نتساءل : لماذا يسير التعـريب ببطء ويتعـــثر باستمرار ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يحمله عنوان المقال· فالمشكلة فى تصورى **هى اننا نظرنا الى التعريب نظرة لغوية بحتــة ، ونسينا الجوهر الاساسى فى الموضوع ، فالتعريب اللغوى لا يكفى ، لان من يقرا بالعربية او يكتب بها قد يلتقى مع اى اجنبى يحسن العربية ، يلتقى مع المستشرق الذى يتقن العربية مثل اهلها وربما اكثر منهم· ويلتقى مع من يتعلم لغة اجنبية بغض التعامل مع اصحابها· فى حين ان التفكير هــو المهم فى الموضوع· فربما وجدنا مواطنا لا يحسن العربية ومع هذا يدافع عن العربية والعروبـــة اكثر من بعض الذين يتقنون العربية·**

ولو كان خصوم التعريب يحملون ولاء للتفكير العربى لما وقفوا ضده ، فمثلا نجد الشاعر مالك حداد لا يعرف العربية بتاتا ومع هذا فهو يـؤمن باللغة القومية وله ولاء كامل للامــة العــربية ولمصيرها الواحــد·

فالذين ينظرون للتعريب نظرة لغوية ، يجردونه من مضمونه ، من حقيقته ، ويسعون فى الوقت نفسه الى تكريس الاقليمية ، ويعملون لاستمـرار التجزئة والتشتت وابقاء الامة العربية جســدا بلا روح· فالوحدة لا تتم مـــع الاقليمية ولا مــع التعريب اللغوى ، وانما تتم مع التجانس الفكرى ، مع التوافق ، مع تعريب التفكير·

واظن ان تقســيم المثقفــين الجزائريين الى « معربين ومفرنسين » ، انطلق من مفهوم لغوى ومن نظرة سطحية أو مقصودة مغرضة· فالتسمية علميا ووطنيا وقوميا غير مفهومة وغير دقيقـــة وغير سليمة ، بل وغير مقبولة ، أو مبررة·

فمن غير المقبول اطلاقا ان نستخدم مصطلحات ـ مـثل هذين المصطلحين ـ دون ان نفكـــر فى مدلولها سوى الفهم السطحى الساذج· او اننــا نستخدمها مــن منطلق النظرة اللغوية وبالتالى نجرد التعريب كمـــا قلـت من محتواه الصحيح ونحصره فى زاوية ضيقة بحيث لا يعبر عن قيم معينــة او تقاليد راسخة او جذورا عميقـــة فى تاريخنا ؟ !

قد يقال هذه امــور شكلية ، ولكن الشكليات احيانا قد تحدث البلبلة فى الاذهان والنفوس لان تحديد الاشياء يعطيها مدلولها الحقيقى· فالغموض يحدث الفوضى ويترك المجال للاجتهادات الخاصة والتفسيرات المختلفـــة ، خاصـــة فى القضايا الجوهرية ذلك أن تناقض المفاهيم ينشا من تناقض التعبير وتضارب المصطلحات فى شتى المجالات · فوضوح الـــراى من وضوح الفكـــرة ووضوح التعبيـر ·

فمشكلة الانسان مشكلـة التعبير باستمراره فاللغة من الانسان بمعنى أو آخر· واعتقد ، انني حين اقول : قل لى باية لغة تتكلم أقل لك من انت ؟ اعتقد ان هذه المقولة صحيحة ، فاللغة بهذا المعنى التفكير والتعبير معا· لان لكل لغــة خصائصها

ومميزاتها التى تجسم بها تفكير أهلها والناطقين بها ، لهذا المعنى تعتبر اللغة مقوما اساسيا لشعب من الشعوب بل حتى التى تعطيه طابعا خاصا يميزه عن غيره ·

وفى تصورى ، فان ما عرضت لـه من آراء خاصة بالتعريب وبالرغم مما احسه من فجوة عميقة ما زالت تفصلنا عن التعريب الحقيقى ، فان الامل يبقى دائما فى الجيل القادم الذى عاش ظروفا تاريخية لم يتلوث فيها بأفكار قديمة ورواسب استعمارية ولم يخضع لمركبات نفسية خاصة ، فهذا الجيل هو الذى يمكن أن يحقق التعريب اللغوى والفكرى اذا خططنا له تخطيطا سليما وهيانا له المناخ الملائم· أما اذا تركنا الامر للزمن وحده فانه لن يحل المشكلة فلا بد من رقابة يقظة مستمرة ، ولا بد من تفكير فى سبل جديدة لتحقيق المزيد من النجاح·

واذا كنا ننشىء مجالس شعبية للرقابة والتوجيه والتسيير ومصالح مختلفة تسهر على تحقيق اهداف الثورة ، فلماذا لا ننشىء مجلسا يتابع ما انجز من تعريب ، ويساعد على بلوغ الغايات والاهداف ويعمل على استمرار التعريب الكامل الشامل· لقد فعل هذا اناس لم تتعرض لغتهم لمثل ما تعرضت له لغتنا من حصار وضغط من قبل الاستعمار الفرنسى· وعانت الكثير من أعدائها وخصومها وربما حتى من بعض أنصارها الذين القوا المسؤولية على غيرهم لسبب أو لآخر· وهم مسؤولون عن التمهيد للثورة الثقافية التى سيكون التعريب من بين أهدافها وهى آتية لا ريب فى ذلك سواء طال الزمان أو قصر· لانها ستغير من مفاهيم كثيرة وستصلح أخطاء عديدة تحدد مقاييس جديدة للثقافة والفكر والتقدم·



نزاع الشرق الأدنى والبترول العربي

اثار قرار البلدان العربية باستخدام بترولها كاداة في النضال من اجل ازالة آثار العدوان الاسرائيلي رد فعل عنيفاً عند الغرب . فكتبت جريدة « ناسيون » الفرنسية تقول : « ان تخفيض شحنات البترول العربي يمكن ان يسبب هبة من التضخم النقدي ». وقالت « التايمز » اللندنية : « من الواضح تماماً ان البترول هو مصلحتنا الحيوية في الشرق الادنى » . وقالت « كريستيان ساينس مونيتور » بقلق : « ان العرب يشدون بالمزمه ، شيئاً فشيئاً ، الولايات المتحدة التي يعوزها البترول ، مستهدفين من ذلك معاقبة واشنطن على الدعم الذي تقدمه الى اسرائيل » .

ان البلدان العربية المنتجة للبترول التي اعلنت عن عزمها على تخفيض انتاجها من البترول وعلى وقف شحنات البترول الى الولايات المتحدة كلياً، تنتج سنوياً حوالي ٨٠٠ مليون طن من البترول . وفي الولايات المتحدة انتج في العام الماضي ٤٧٠ مليون طن من البترول وليس ثمة أي أمل في زيادة انتاجه وفي الوقت ذاته يزداد استهلاك البترول . وقد ازداد منذ مطلع الستينات قرابة مرتين مؤلفاً في عام ١٩٧٠ قرابة ٧٥٠ مليون طن . وفي حوالي هذا العام كانت الولايات المتحدة تستورد اكثر من ٢٠٠ مليون طن من البترول ومن مشتقاته، أي اكثر من ربع كل استهلاك البلاد . وكما يمكن التوقع فان نصيب المستوردات من البترول في العام الجاري سيرتفع في البلاد الى ٣٥ ٪ ، وبعد عامين ، الى ٥٠ ٪ .

وقد كتبت صحيفة « كريستيان سانيس مونيتور » ان الولايات المتحدة متعلقة حالياً بالبترول العربي ، وما دام ليس لها طاقية مماثلة اخرى ، فستظل متعلقة به بقدر اكبر فأكبر » .

وفيما يتعلق بأوروبا الغربية فانها متعلقة منذ الآن بمستوردات البترول العربي بنسبة ٧٠ ٪ واليابان بنسبة اكثر من ٨٠ ٪ .

التعريب ووسائل تحقيقه



محمد الفاسي
رئيس جمعية الجامعات الاسلامية
ـ الرباط ـ
وعضو مجمع اللغة العربية

من المركبات العميقة التى خلفها فى نفوسنا اتصالنا الطويل بالحضارة الغربية واستيلاء النفوذ القهرى الاستعمارى على بلادنا هذه النظرة الى لغتنا من انها لا تفى بمتطلبات هذا العصر وانها فى حاجة الى الاصلاح والتطوير فى كتابتها وفى مفرداتها وحتى فى تراكيبها ونحوها وصرفها. والى أن يتم هذا التحويل الجذرى فى نظر المتفرنسين يجب أن تبقى اللغة الفرنسية اداة التعليم والعلاقات الادارية وحتى التعبير الادبى. وذلك أن المستعمر كان افرغ كل جهوده فى محاولة القضاء على لغة البلاد من جهة وفرض استعمال لغته فى المدارس وفى الدواوين الادارية من جهة أخرى . وقد كان لهذا الغزو المعنوى وهو اشد من الغزو السياسى اثر عميق على كثير من المثقفين فى بلاد المغرب العربى خصوصا الذين تخرجوا فى المدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية سواء منها المؤسسة فى بلادنا أو الموجودة بفرنسا نفسها وبالاخص من بين هؤلاء المثقفين من لم تكن لهم معرفة باللغة العربية مطلقا أو كانت هذه المعرفة سطحية هزيلة .

وازاء هذه الحالة الخطيرة على مستقبل ثقافتنا واصالتنا قام المخلصون من ابناء البلاد عندما لمسوا خطر هذه السياسة الجهنمية بمحاربتها بشتى الوسائل من انشاء المدارس الحرة التى تعتمد فى تعليمها على العربية والجمعيات الثقافية والجرائد والمجلات وبالقاء المحاضرات ونشر الدراسات حول اللغة العربية وبمقاومة النزعات الانحرافية عند تلك الثلة من المثقفين بالفرنسية ، ومنهم من كانوا ذوى نيات حسنة وبعيدين عن الخيانة الا أن دعاة السياسة الاستعمارية نجحوا فى بث سمومهم فى نفوسهم.

وبعد الاستقلال كان أول ما اتجهت اليه اهتمامات المسؤولين القضاء على هذه الظاهرة واحلال اللغة العربية فى مكانتها كلغة وطنية صالحة لكل ما تصلح له أية لغة فى أى بلد واطلق على هذه الاجراءات لفظة التعريب. وهكذا مثلا قررت لجنة وطنية أسست فى مطلع سنة ١٩٥٦ بالمغرب لوضع أسس السياسة التعليمية مبدأ التعريب من جملة المبادىء التى ركزت عليها هذه السياسة . وأخذ فى الحين فى تطبيقها فى المدارس الابتدائية وفى مدرسة نموذجية ثانوية وهى مدرسة يعقوب المنصور بالرباط . ومن الناحية العامة صدر قرار بالزام كل أصحاب المتاجر والمعامل والمهن الحرة كتابة الاشارات واللافتات بالعربية ازاء الكتابة بالفرنسية وكانت فى الغالب الاغلب وحدها مستعملة . ولكن مع الاسف وقعت بعد ذلك نكسة فى هذه الخطة وبقيت مسألة التعريب تتخبط منذ ذلك الوقت بين مد وجزر الى أن اقتنعت الحكومة الآن بضرورة تطبيق التعريب بكيفية شاملة فى التعليم والادارة والحياة العامة .

وان لفظة التعريب التى تحمل اليوم فى التفكير المغربى المقام الاول والتى تشغل بال الشعب وطبقات المفكرين والمسؤولين فى الدوائر العليا والتى صارت بكثرة ما رددتها الا لسن فى النوادى والمجالس ، واشاد بها الكتاب والصحفيون والمذيعون كأنها الترياق لكل أدوائنا خصوصا المتعلقة بالثقافة والتعليم وعليها يتوقف كذلك النمو الاقتصادى والتقدم الصناعى ، هذه اللفظة السحرية يكتنفها رغم كل هذا كثير من الغموض والابهام وكل واحد ينظر اليها بمنظار خاص . فتعين اذن قبل الخوض فى هذا الموضوع أن نتفق على مدلوله ومفهومه وما يقصد به . والواقع أن التعريب له مدلولات كثيرة ومفاهيم متعددة كما قلنا ، وليس الضرر فى هذا ولكن الضرر فى عدم الوضوح والاشتغال بمسالة التعريب على أن لها مدلولا واحدا مع أن كل واحد من المتكلمين أو الكاتبين يعنى شيئا ليس هو المعنى عند صاحبه . أما لو أننا نتكلم جميعا على التعريب ونحن نقصد به مثلا احلال اللغة العربية فى التعليم محل اللغات الاجنبية أو توسيع اللغة العربية بادخال مصطلحات جديدة عليها ، والزام الادارة بعدم استعمال لغة دون اللغة العربية أو العمل على أن تكون لغة التخاطب هى العربية وحدها والدعاية لها ومقاومة كل الذين ينبذون لغتهم للتفاهم فيما بينهم بلغة أجنبية أو غير هذا من المعانى التى يمكن أن تحتملها لفظة التعريب فيكون حينذاك الخطب سهلا ويمكن للمتكلمين فى الموضوع باحد معانيه المذكورة كمثال أن يصلوا الى حلول نظرية وأن يسطروا خططا عملية لتطبيقها . لذلك يتعين علينا أن ندرس هذه القضية بكيفية تفصيلية مقدمين لذلك بالتعريف الواضح لما نقصده من لفظة « تعريب » .



وقبل كـــل شيء ينبغي أن لا نتعرض لتعريب لا يهمنا مطلقا فى هذا البحث وهو اصطلاح لغوى اتفق عليه علمــاء المجمـــع اللغوى بالقاهـــرة ويقصدون به أخذ كلمة أجنبية كما هى واعتبارها عربية ، وهذا ما كان علماء اللغة يعبرون عنـــه بالمعرب أو الدخيل وليس للفظة التعريب فى اكثر المعاجم العربية هذا المعنى ، وقد أورد لها صاحب القاموس احد عشر اطلاقا منها اعطاء العربون وتهذيب المنطق من اللحن والاكثار من شرب الماء الصافى الخ ٠ وليس من بينها المعنى المشار اليه ، ومن أورد المعنى المذكور فانما فعل ذلك استنادا الى أن لكل فعل مصدرا ، ومن المناسب ان نقـول انه ليس من بينها كذلك المعنى الذى نعطيـه لهذه اللفظة فى المغرب لذلك اتفقنا فى مـؤتمر المجمع اللغوى سنة ١٩٦١ على أن نعتبر كلا من هذين الاطـلاقين الجديدين صحيحـا وسيـاق الحديث يخصص المعنى المقصود ٠

واذن ما هو التعريب الذى نريد ان نحققـه ؟ يلوح لي أن التعريب هو فى معناه الاعم السعى لجعل اللغة العربية اداة صالحة للتعبير عن كل ما يقع تحت الحس ، وعن كل العواطف والافكار والمعانى التى تختلج فى ضمير الانسان المتمدن الذى يعيش فى عصر الذرة والصواريخ ٠

يستنتج أولا من هذا التعريف ان هذه اللغـة التى يراد لها هذا المصير هى لغة لا تؤدى هذه الرسالة اليوم على أكمل وجه ٠ وهذه هى الحقيقة الاولى التى يجب أن نواجهها ولا نترك للعاطفـة مجالا فى سترها عنا ٠ والكل يعلم أن اللغـة العربية وسعت فى وقت عزها وازدهارها علـم اليونان وفلسفتهم وأدب الفرس والهند وحكمتهم وانها استطاعت أن تؤدى الرسالة التى نريد أن تؤديها الآن حيث تمكنت من التعبير عن أرقى ما وصلت اليـه المدارك الانسانية فى وقت بلـــوغ الحضارة الاسلامية أوج عظمتها ٠ ولكنها أو قل ولكن أهلها أصابهم من الركـــود والخمود مـا جعلهم يتقهقرون ويتخلفون عن ركـب الحضارة الجديدة التى أخذت المشعل من يد العرب وصارت تنير به الطريق بعدهم ، وقد أخلدوا الى السكون مما اداهم الى ذلك السبات العميق ٠ فلما قيض اللـــه لهم من الرجال المصلحين من ينبههم من نومهم ويبعث فيهم روح النهضة والتقدم وجدوا أن الامر قد أفلت من أيديهم وأن العلوم والفنون والصنائع أحرزت على انتصارات باهرة ووصلت الى غايات بعيدة على يد أمم غير الامم الاسلامية لها لغات بلغت كذلك درجة عليا فى الترقى ، مما اضطر المسلمين لتعلمها واتخاذها فى كثير مـن الامـم الاسـلامية العـــربية وغيرها كلغة العلم والتعليم ٠ وكانت هذه المرحلة ضرورية فى أول النهضة ، ولكن سرعان ما تنبـه زعماء الفكـــر العربى خصوصا فى البلاد المشرقية الى الخطر الذى كان يهدد كيان الامة العـــربية فى أقوى دعامة لها وأهم العناصر التى تتكون منها وهـى لغتها ٠ فأخذوا ينادون بوجوب الاهتمام بهـــا بالتعليم والنشـــر والدعاية والبحث عن أسباب تاخرها وعن وسائل علاجها ، وقد بدأت العناية بهذه الشؤون بالمشرق فى أواسط القرن الماضى٠ ومن العجيب أن هذه النهضة استمرت فى نفس الوقت مع التيار المعاكس الذى يتمثل فى غـــزو اللغات الاجنبية للبلاد العربية شـرقا وغـربا ٠ فبينما كانت اللغة التركية بالمشرق تحتل المقـام الاول فى الدواوين والمدارس كان أنصار القومية العربية يعلمون على ترقيتها بالترجمة والطباعة والصحافة وبالمطالبة **خصوصا فى الشام والعراق**



بحقها فى الحياة · أما فى المغرب الاقصى فلم تكن العربية فى خطر لاننا من جهة كنا أحرارا لا تفوذ لسلطة أجنبية علينا ، ومن جهة أخرى لم نكن انتبهنا من سباتنا واتصلنا بعلم الغرب ومدنيته ولغاته ، وكانت اللغة العربية تؤدى حاجياتنا الثقافية اذ ذاك على أكمل وجه بمعنى أن لغة الدواوين والمراسلات الرسمية كانت أسلم لغة عربية فى العالم وأفصحها حتى أن كتابة أدباء ذلك العصر من أمثال ابن ادريس وغريط وابن المواز وغيرهم تذكرنا بنثر أدباء الذخيرة والقلائد ·

ثم جاء دورنا فاصبنا باستعمار دهمنا على حين غفلة منا ولم يكن لنا ما نتحصن به ضد شروره ، فلا نحن عرفنا أساليب الغرب ولو عن طريق غيرنا كما كان الشأن فى البلاد العربية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ولا نحن كنا أحسسنا بضرورة الاقتداء بالغرب فى ميادين الحضارة الحديثة كما كان الشأن فى مصر مثلا على عهد محمد على الذى كان له من حملة بونابارت خير مدرسة لادخال النظم والمؤسسات العمرانية الحديثة لبلاده ، الا ما كان من تلك المحاولة الجريئة التى قام بها السلطان مولاى الحسن الاول رحمه الله حيث وجه فى أواخر القرن الماضى بعثات من الطلبة لاوربا بقصد التخصص فى العلوم والفنون الحديثة من طب وهندسة وما الى ذلك ، ولكن هذه المحاولة الشبيهة بالخطة التى رسمها اليابان فى نفس الوقت وسار عليها لم يكتب لها نفس النجاح الذى أحرزت عليه فى الامبراطورية اليابانية · لذلك عندما استولت سلطة الحماية على مقاليد الحكم فى بلادنا كان كل ما أحدث بالمغرب من ألفه الى يائه على النمط الفرنسى وباللغة الفرنسية وبالاساليب الفرنسية أو بالطابع الاسبانى فى كل ذلك بالقسم الشمالى من الوطن المغربى · ومن هنا كان الاحساس بعد الاستقلال بذوبان شخصيتنا فى الشخصية الاجنبية احساسا عميقا أخذ علينا كل مشاعرنا وجعلنا نسعى للتخلص من ثقل هذا الكابوس على أنفسنا بكل الوسائل · وتبلور هذا الشعور فى نقطة واحدة ، بل فى كلمة واحدة هى التعريب ، ونقصد به ليس فحسب ذلك المعنى العام الذى ذكرت وانما أيضا وقبل كل شىء احلال اللغة العربية والاساليب العربية فى التعليم والادارة وفى كل مناحى النشاط القومى محل اللغة والاساليب الفرنسية أو الاسبانية ·

ومن البديهى أن هذا لا يتأتى الا اذا كانت اللغة العربية صالحة وقادرة على أن تقوم بهذا الواجب وتؤدى هذه الرسالة بنفس الطريقة والدقة والكفاية التى تؤديها بها اللغة الفرنسية أو الاسبانية · وهذه الملاحظة تردنا لذلك التعريف الذى أعطيناه للفظة التعريب فى معناه الاعم ، وهو التعريف الذى ينطبق على كل البلاد العربية والذى تحل دراسته كل المشاكل الخاصة بكل بلد عربى على حدة ·

فماذا ينقص اذن اللغة العربية اليوم لتكون تلك الاداة الصالحة على حد ما وصفناه فى التعريف المذكور ، وما هى المشاكل التى تعترض طريقها ؟ ذلك ما يجب أن نتبينه بدقة حتى اذا تشخص الداء سهل البحث عن الدواء ·

أول مشاكل اللغة العربية حسب نظرى الآن بعد الاهتمام بهذا الموضوع طيلة سنين طويلة ترجع لطريقة الكتابة · وذلك أننا فى ما سوى القرآن الكريم وبعض الدواوين الشعرية القديمة نكتب

الحروف مجردة عن الحركات . ورغم ما كتب عن هذه المسالة ورغم المناقشات الحادة والخلافات العميقة التى شغلت افكار الباحثين والتهجمات التى تعرضت لها لغة القرآن فاننى أعتبر أن هذا المشكل اصطناعى . بل انه مدسوس علينا لان الحروف العربية تامة كاملة تقوم برسالتها فى تأدية الاصوات العربية وحركاتها على أكمل وجه . ولا يلزم من كون الحركات تؤدى بعلامات توضع فوق الحروف أو تحتها أن تكون طريقة الكتابة العربية ناقصة ، والسبب فى اغفالنا لهذه العلامات هو أن طبيعة اللغة العربية فى نحوها وصرفها تجعل المتضلع فى ما يسمى علوم العربية يقرأ بدون خطا اى نص قديم أو حديث ولو كان مجردا من الشكل . ولكن هذا التضلع كان متيسرا لما كان التعليم منحصرا فى عدد قليل ممن يكرسون حياتهم للعلم والتعلم اى فى الغالب ابناء الفقراء ومتوسطى الحال خلافا لما يمكن أن يتبادر الى الاذهان من أن الذين كان فى وسعهم أن يحصلوا على تعلم متين هم ابناء الاغنياء . وقديما قيل : «لولا أبناء الفقراء لضاع العلم » وذلك أن الحالة الاجتماعية كانت تقتضى من أبناء التجار ورجالات الدولة من القواد والرؤساء ونحوهم أن يتولوا مهن آبائهم ومناصبهم بدون أن يحتاجوا الى ثقافة واسعة بخلاف الآخرين فانهم كانوا مضطرين ان ارادوا الصعود فى السلم الاجتماعى أن يتدرعوا بالعلم وهكذا نرى أن أغلبية العلماء من المدرسين والمفتين والقضاة وكتاب الدواوين السلطانية كانوا من ابناء الفلاحين والصناع وصغار التجار خصوصا وأن التعليم كان لا يتطلب المصاريف الباهضة التى يتطلبها اليوم وكانت الاحباس تجرى على طلاب العلم فى الجامعات كالقرويين والزيتونة والازهر والمساجد الكبرى فى المدن الاسلامية كلها والزوايا والخانقات والمدارس .

ولكن عندما اتصلنا بالمدنية الحاضرة التى تقتضى السرعة فى التعلم والتى يحتاج فيها كل واحد الى المعرفة ليشغل عملا فى المجتمع ولو كان صناعة يدوية بحيث صار تعميم التعليم من الضروريات اللازمة ، ظهر للوجود هذا المشكل ، ولم يكن حقا من المتوقع أن يتنبه اليه فى أول ادخال الطباعة للبلاد العربية ، ولكن منذ الوقت الذى تنبه العرب الى هذا النقص ـ الذى ليس بنقص فى حقيقة الواقع ـ كان ينبغى أن يعمد الى طبع كل الكتب والجرائد والمجلات بحروف مشكولة تمام الشكل . ورغم القرارات المتخذة فى هذا الشان فى المجامع اللغوية والندوات والمؤتمرات التى عقدت لدراسة هذا الموضوع لا نزال نطبع كل جرائدنا وأكثر كتبنا مجردة عن الشكل .

وقد كنا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة قررنا أن تطبع كل الكتب الدراسية والنصوص الادبية القديمة بالشكل التام على غرار ما نفعله فى طبع المصاحف ، ولم يدع أحد أن قراءة القرآن الكريم صعبة ، وما ذلك الا لانه يطبع دائما مشكولا . ولم يطبق هذا القرار بكيفية شاملة فى كل البلاد العربية وفى طبع كل أنواع الكتب المذكورة . كما أن أحد الباحثين التونسيين وهو الاستاذ البشير ابن سلامة فى كتابه « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » (١) توصل لنفس النتيجة بعد دراسة واسعة وتحليل واقعى لكل جوانب المسالة وان كنا لا نوافق على كل النظريات التى يحتوى عليه هذا الكتاب القيم .

(١) الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٧١ .

وهنا تطرح مشكلة اقتصادية ، وذلك أن جعل الحركات على الحروف او تحتها فى الطباعة يستلزم نفقات زائدة • هذا صحيح • الا أن جهودا محمودة بذلت لتسهيل وسائل الطبع باثمان مناسبة وقد انكب الاستاذ أحمد الاخضر مدير معهد التعريب بالرباط منذ عشرين سنة على معالجة هذه القضية وتوصل الى طريقة مسجلة تجعل أشكال حروف الطباعة لا تتعدى اثنين وأربعين شكلا ومع العلامات الحركية والاملائية والارقام تبلغ تسعين شكلا لا غير وهو العدد المعيارى لكل المطابع بالحروف الاعجمية وذلك مع المحافظة على جمال الحروف العربية وأصالتها وقد تبنتها الحكومة المغربية وأيديها عدة شخصيات وندوات ومؤتمرات نذكر من بينها على سبيل المثال التوصية التى أصدرها مؤتمر التعريب الذى كانت دعت اليه حكومة صاحب الجلالة الحسن الثانى والذى انعقد تحت اشراف جامعة محمد الخامس وكان لي شرف رئاسته وذلك ما بين ٣ و ٨ أبريل ١٩٦١ وقد ضم نخبة من رجال العلم والفكر من الاقطار العربية • ونص هذه التوصية :

التوصية ٤ فى موضوع تيسير الطباعة العربية : (٢)

ا ـ ان وسائل الطباعة فى صورتها الراهنة لا تلائم سرعة التقدم والنشاط التعليمى المطرد فى الزيادة وذلك لتعدد عدد حروفها الى المئات مما يقتضى المزيد من النفقات والجهد والزمن ويعوق حركة نمو التعليم ، ولذلك فان المؤتمر يرى :

ب ـ أن الضرورات الحاضرة تفرض ابتكار وسائل جديدة لتيسير الطباعة العربية باختصار عدد الحروف فيها الى أقل قدر ممكن •

ج ـ ويقرر أن السبيل الى ذلك هو محاولة تطويع صور الحروف العربية للآلات الطباعية لا تطويع الآلات لصور الحروف الراهنة ، مع المحافظة على جمال الحروف العربية وعدم تغيير صورتها العامة •

د ـ ويرى أن الطريقة التى ابتكرها الاستاذ أحمد الاخضر هى أحسن ما توصل اليه لحد الآن•

هـ ـ ويشكر المؤتمر الحكومة المغربية على مؤازرتها للمشروع •

و ـ كما يوصى الحكومات العربية بالانتفاع بهذه الطريقة وتشجيع المطابع الخاصة على الانتفاع بها كذلك ، لتوفير النفقات والجهد والزمن •

فالحل اذن ميسر وسهل بل وقد برهن التطبيق العملى لهذه الطريقة على أن المصاريف بهذه الطريقة يكلف ثلث مصاريف الطريقة الحالية التى لو استعملت على ما هى عليه مع زيادة علامات الحركات لكلفت حقا مصاريف باهضة لان مجموع أشكال الحروف اذاك يبلغ خمسمائة شكل مع تعدد العمليات الطباعية •

فيتعين على هذا تعميم الطبع بالحركات ولا تبقى اذاك مشكلة ويمكن حتى للمتوسط الثقافة قراءة الكتب والصحف بدون جهد وبدون تشويه لصفاء اللغة ونصاعتها •

(٢) انظر مجلة « التربية الوطنية » عدد ٥ من السنة الثانية : الرباط ـ أبريل ١٩٦١ ص ٤٩ ـ ٥٠

وينبغي في هذا الصدد التنبيه أيضا الى ظاهرة غريبة تتعلق بصوت واحد يوجد في كل اللهجات العامية خصوصا في بعض الاعلام التاريخية والجغرافية ولا نعرف كيف نكتبه وهو القاف المعقودة وقد وجد له سلفنا حلا بسيطا وهو زيادة ثلاث نقط على الكاف ان كان لفظا اعجميا كاثدير مثلا وثلاث نقط على القاف ان كان لفظا عربيا تنطق قافه معقودة مثل شراقة قبيلة في أحواز فاس وثلاث نقط تحت الجيم ان كان لفظا عربيا تنطق جيمه كما تنطق الجيم القاهرية وذلك مثل الجزار اسم عائلة ٠ وكل هذا بسبب الكسل الفكري وعدم المبالاة فترانا نكتب اسم المدينة المغربية اكدير بالكاف أو بالغين أو بالجيم أو حتى بالقاف ولا واحد منها يؤدي النطق الحقيقي ، مع أن الاعاجم وجدوا الحل لهذه المشكلة البسيطة فالا يرانيون مثلا يكتبون هذه القاف المعقودة كافا فوقه مطة هكذا ک وهي الطريقة التي أقررناها في مجمع اللغة العربية ولكن ذلك بقي حبرا على ورق ٠ وفي طريقة الاخضر مضموما اليها طريقة ابتكرتها لكتابة اللهجة العامية المغربية بأصواتها وحركاتها الخاصة أثبت شكل كتابة القاف المعقودة حسب أصل الكلمة ٠

ومن النقائص التي تنسب للغة العربية ما يسمى بالازدواجية وهي أن الشخص العربي يتكلم لغة ويكتب لغة أخرى على خلاف ما هو الشان عند غيرنا بمعنى أن اللهجات العامية التي نتكلمها مخالفة للغة الفصحى التي نكتبها ٠ وهذا أيضا بكيفية عامة صحيح ٠ ولكن في هذا الادعاء مبالغة ومغالطة وذلك أن الفرق بين العامية والفصحى ليس بهذه الدرجة حتى يسمى كل مما نتخاطب به وما نكتبه لغة بل باستثناء الاعراب وبعض المفردات فهما لغة واحدة ٠ وكل لغات الدنيا تتسم بهذه الفوارق فهل لغة العامة بفرنسا مثلا ولغة الكتابة ليس بينهما بون لا يقل عما بين لهجاتنا من جهة وبين لغتنا الفصحى من جهة أخرى ؟ بل أرى الفرق بين لغة عمال ضاحية باريس ولغة الشاعر فاليرى يفوق بمراحل الفرق بين ما يتكلمه العامل الجزائري وما ينظمه من شعر الشاعر مفدي زكرياء ٠ على أن هناك لغة علمية راقية وهي الالمانية تحتوي على اعراب معقد يتسلط حتى على أداة التعريف تكون مذكرة ومؤنثة ومحايدة وبالافراد وبالجمع وبحالات الفاعلية والمفعولية وغيرهما من الموجبات الاعرابية وذلك مثل : Des, Den, Dem, Der, Die, Das الخ (١) ثم انها لا يتكلمها أحد اذ لكل ناحية لهجتها الخاصة وانما تستعمل الفصحى للكتابة وهي التي توحد بين مختلف أجزاء البلاد الجرمانية وهي في هذا تماما مثل العربية ولم يمنع ذلك من أن تكون اللغة الالمانية من أهم لغات العلم والادب ولم ينبزها أحد بنقص ٠

فالمسالة اذن في هذه « المشكلة » مسالة تعليم فقط فلو لم يكن التعليم عاما بالبلاد الالمانية لكان لهم مشكل من هذا النوع ولكن حيث ان كل فرد من مجموع الاقطار التي لغتها جرمانية (الالمانيتان والنامسا وجزء سويسرا الالماني وما جاور هذه البلاد ممن يتكلمون لهجة جرمانية) يحسن الالمانية الفصحى فانه يقرأ كل ما يكتب أو يلقى في الاذاعة والتلفزة ولا يحس بنقص ولا ينسب للغتهم عجز ٠ وعندنا يبرز هذا الفرق بسبب الامية الفاشية ببلادنا ٠ فالذي لا يحسن

(١) كل هذه الصيغ وباقي الحالات الاعرابية يعبر عنه في لغتنا بـ أل ٠

العربية الفصحى لا يمكنه أن يفهم ما يقرأ ان هو استطاع القراءة ولا ما يسمع ، وعندما يعمـــم التعليم تسقط هذه المشكلة من نفسها ويتضح أن الامر لا يرجع لطبيعة اللغة ولا للفوارق الطبيعية التى تتسم بها لغة التخاطب العادية ولغة الكتابة والتاليف · فالحل اذن هو تنشئـــة ابنائنا على العـــربية الفصحى وتعويدهم التخاطب بها فى المدرسة وخارجها على أن الفـــوارق نفسها بين العامية والفصحى تزول يوما فيوما حتى بالنسبة للكبار بفضل الاذاعات المسموعة والمرئية خصوصا فى البرامج التى تستعمل اللغة الفصحى ·

وهذا يجرنا الى الكلام على لغة المسرح · ان من أكبر العـــوامل الضــــارة باللغة العـــربية وبمستقبلها وحتى بمستقبل الـــوحدة العـــربية استعمال اللهجات المحلية فى السينما والمســرح وفى الاذاعة والتلفزة اذ يجمع بين البلاد العربية الا لغة القرآن والعدول عنها الى اللهجات المحلية هو فصم لهذه الوحدة وقد قال الدكتور طه حسين رحمه اللـــه : « الذين ينادون باحـــلال العامية لسهولتها محل الفصحى لصعوبتها هم اشبـــه بمن ينادون بتعميم الجهل لانه سهل ، والغـــاء العلم لانه صعب المنال » ·

وثالث المشاكل التى تتعلق باللغة العربية هو قضيـــة المصطلحات العلميـــة والحاضرية التى تخلفنا فيها منذ دخلت المدنية الاسلامية فى طور الركود للاسباب التاريخية المعروفة التى ليس هنا محل تفصيلها ، اذ العلوم أخذت تتقدم وتتوســع والنظـــم السياسية والقضائية والادارية تتطـــور والصنائع تنمو وتترقى ، وكل هذا استلزم احداث الآلاف بل مئـــات الآلاف من الالفاظ والاصطلاحات للتعبير عنه فى الوقت الذى بقيت لغتنا على مـــا كانت عليه لما جمدت القرائح ووقف الفكر العربى عن الاختراع والابتداع ، بل زاد المسالة تراجعا وتأخرا ان المثقفين فى أكثر البلاد العربية باقبالهم فى أول الاتصال بالحضارة الحديثة على اللغات الاجنبية والثقافات الغربية أهملوا تراثهم اللغوى وقلت المعرفة بدقائق اللغة وبمصطلحات العلـــوم والفنون التى كانت بلغت درجة عالية فى الدقـــة والاتســـاع فاهملت تلك الثـــروة العظيمة وبقت مخبأة فى طيات الموسوعات والمؤلفات المختصـــة المخطوطة منها والمطبوعة ·

ولما تنبه المصلحون فى فجر النهضة العـــربية المباركة لهذه الحالة المؤسفة كان أول ما انصرفت اليه الجهود هو ايجاد المصطلحات واحياء الآثار الثمينة بالنشر والبحث وساهم فى هذه الجهود الافراد والجماعات ، وكان للصحافة دور هـــام رغم ما تنبز به فى كل عصر من استعمالها للالفاظ استعمالا غير صحيح أو تحريفها للمعنى العـــربى الفصيح أو العبث به ومخالفتها للقواعد اللغوية والنحوية والصرفية الى غـــير ذلك مما يجمـــل التعبير عنه بهذه العبارة : « لغة الجرائد » · ولكن فضلها مع ذلك لا ينكر وعلى علماء اللغة والمجامع العـــربية والمعـــاهد المختصة أن تنخـــل كل ذلك وتصفيـــه ·

وهنا يجب التنويه بمجهودات هذه المجامـــع التى تســـهر على صفاء اللغة من جهـــة وتقوم بتنميتها من جهة أخرى ، انما يؤخذ عليها البطء فى العمل وقلة الانتاج وعدم التنسيق فيما بينها ·

واذا كان من الممكن بل من الواجب أن نصل الى طريقة عملية للتنسيق فان الاتفاق فى العمـــل وظروف العاملين فى هذه الميادين يجعـــل البطء وبالتالى قلة الانتاج من الصفات التى تلازم عمل

كل المجامع فى الدنيا ومثال الاكاديمية الفرنسية فى وضعها للقاموس الرسمى للغة فولتير مثال مشهور ٠ الا انه من الممكن تحسين هذه الحالة ، والملاحظ أن نشاط المجمع اللغوى بالقاهرة مثلا فى هذه السنين الاخيرة نعلق عليه اكبر الآمال وما تم وضعه فى هذه الحقبة من مصطلحات فى مختلف العلوم والفنون وفى الفاظ الحضارة يعادل مرات الانتاجات السابقة ٠

ولكن الحالة التى وصفناها تستدعى حلولا أخرى ووسائل اكثر فعالية ، لان الزمان لا ينتظرنا ، والعلوم ومصطلحاتها فى تقدم مستمر بمعنى ان فى مجموع النشاط الفكرى الانسانى توضع آلاف الالفاظ فى كل سنة بحيث اننا رغم كل المجهودات المذكورة يجب أن نتحقق باننا نتأخر فى حين يظهر لنا أننا نتقدم ٠ واننا مادمنا لم نهتد الى وسائل أخرى سريعة فانه سيكون من الصعب علينا ان لم يكن من المستحيل أن نلحق بالركب وان نصل الى النتيجة التى نتوخاها من جعل اللغة العربية تؤدى الرسالة المحددة فى التعريف الذى عرفنا به التعريب فى أول هذا البحث ٠

وان الحلول العملية الناجعة التى تمكننا من بلوغ الهدف فى اقرب وقت لان المسالة كما قلت مسالة زمان قبل كل شيء تتخلص فى ما يلي :

١ ـ يجب أن يكلف كل قطر عربى بناحية من نواحى النشاط الفكرى أو بعدة نواح اذا كانت تتوفر لديه وسائل كثيرة من اشتماله على عدد كبير من المؤسسات العلمية والهيئات الثقافية ٠ ويعهد اليه وضع كل المصطلحات الراجعة للناحية الفكرية التى عينت له ٠

وينبغى أن يسبق هذا العمل القيام بتجريد كل المؤلفات القديمة واستخراج مصطلحاتها ٠ فمن كلف بوضع مصطلحات القانون مثلا يجب أن يشكل عدة لجان فرعية تكون مهمتها الرجوع الى امهات كتب الفقه الاسلامى فى سائر المذاهب السنية وغيرها بما فى ذلك كتب أصول الفقه والنوازل والوثائق والفتاوى والخلاف والاحكام والفرائض والمسطرة القضائية والسياسية الشرعية ٠ فان مجموع هذا التراث الاسلامى يكون ثروة لغوية تكون خير عون لنا لسد الفراغ ، وتجلعنا من جهة أخرى نربط الصلة بماضينا العلمى المجيد فتبرز شخصية حضارتنا وتصطبغ بصبغتها الاصيلة وتكون نهضتنا الحالية امتدادا لمدنيتنا السابقة ٠

وهكذا يكون العمل بالنسبة لكل العلوم والفنون الاخرى ، واننى لا ادعى أننا سنجد فى ذلك التراث الخالد كل ما نتوقف عليه من مصطلحات وانما نستفيد من هذه الطريقة كمية ذات بال من هذه المصطلحات ونكتسب بالرجوع الى الاصول الملكة والحنكة على استنباط ما لا نجده فيها ٠

٢ ـ ثم يتعين كذلك أن تخصص لجان فى كل قطر للعكوف على دراسة اللهجات العامية فى محاورات الناس وفى حكاياتهم وفى أمثالهم وازجالهم واغانيهم ومصطلحات أهل الصنائع والحرف منهم ، فان من يشتغلون بهذه الناحية من الدراسات اللغوية يؤكدون أن هذه اللهجات العامية قد حافظت على ثروة هائلة من الالفاظ الفصيحة المهملة عند الكتاب والادباء والمصطلحات العربية الصميمة التى استنبطت ايام ازدهار المدنية العربية ولم يضمها معجم ولا سجلها أحد من علماء اللغة الا فى القليل النادر ٠ وينبغى فى هذا الباب

الرجوع الى الكتب الموضوعة قديما فى ما يسمى بلحن العامة او تقويم اللسان وهى مصادر مهمة بالنسبة لهذا الموضوع ٠

ثم ان هناك مصدرا قليلا ما يرجع اليه الباحثون مع انه لو عرف كيف يستغـل على اكمل وجـــه لافادنا الشىء الكثير ، وهو الكلمات العربية التى اقتبستها اللغات الا جنبية عـــن لغتنـا وبقيت محافظة عليها بمعناها الاصلى أو بمعنى آخـر خصصتها له فى استعمالات اصطلاحية علمية أو حضارية ، ومنها ما بقى كذلك حيا فى لغتنا ومنها ما سقط من الاستعمال وعفى عليه الزمان ٠ ومن هذا القبيل الشىء الكثير فى اللغات الغـــربية كالاسبانية فى الدرجـــة الاولى واللغات اللاتينية الاخرى والانكليزية وحتى الـروسية ٠ ثـم فى اللغات الاسلامية من هذا القبيل كميـة وافـــرة خصـــوصا فى التـــركية والفـــارسية والاوردو والبربرية ٠

فيكون هذا العمل أيضا من اختصاص لجـــان اللهجات العامية مع تكليف كل قطر عربى بلغـة من هذه اللغـــات ٠

وتجدر الاشــــارة هنا الى قضـــية تتعلـــق بالمصطلحات العلمية حيث يعـــمد البعض ممن يهتمون بوضعها الى اللفظ الاعجمى وينقلونه على علاته بحروف عربية معتمدين على ادعاء باطـل ومغالطة لا أصـــل لها من الصحة وهى أن هذه ألفاظ عالمية دوليـة تستعمل فى كل البـــلاد ٠ والواقع أن لفظة من هذا النوع لا وجود لها ، واذا كانت اللغات اللاتينية واللغة الانكليزية ـ هــذه اللغات التى كان اتصالنا بها اكثر من الاتصـال بغيرها ـ تستعمل أحيانا ألفاظا متقاربة متشابهة فان باقى الشعوب لها ألفاظها الخاصة المنبثقة من عبقـريتها وخصائصها الذاتية ٠ ولنضـرب لذلك مثلا بلغة أوربية كان يعمها هذا الشمـــول لو كان حقا أن المصطلحات العلمية هى عالمية ، ولكنها فى الواقـع تستعمل ألفاظا جرمانية بحتة ولنأخذ ســـت كلمات علميـــة وهى هيدروجين وأوكسجين وتليفون وتلفزة وجغرافية وبتـــرول فنـــرى أن الالمان لا يستعملون واحـدة من هذه الكلمات وانما يقولون :

لهيدروجين = فاسر شتوف Wasserstoff أى مادة المـــاء ٠

ولاوكسجين = زاور شتوف Sauerstoff أى مادة حامضـــة ٠

ولتليفون = فرن شبيخر Feernsprecher أى التكلم البعيـــد ٠

ولتلفزة = فرن زيهن Erdkunde أى الرؤيـة البعيـــدة ٠

ولجغرافية = اردكونده Fernsehen أى معرفة الارض ٠

ولبترول = اردول Erdol أى زيت الارض ٠

وهذا رغم كون لغتهم من فصيلة اللغات الهندية الاوربية وهى شقيقة اللغات اللاتينية والانكليزية٠ فما بالك باللغات البعيدة عن هذه الفصيلة كلغات المجر والفنلاند والصين واليابان وغيرها ؟

وما ادعاء عالمـــية المصطلحات الا مـن تلك المركبات التى ركزها فى أدمغتنا نفوذ الاستعمار على بلادنا فى الحقبـــة الطويلة التى منينا بـه وصرنا لا نعرف الا ما اتصـــل بحضارة فرنسا وانكلترا وكل ما لا يتفق مع معاييرهما وأساليبهما لا نقبله ٠ فوقع لنا مثل ما يحكى عن أعمى لم ير

الضوء منذ ولد وفجأة فتحت عيناه فوقع بصره على فأر ثم عمى مرة أخرى بمثل السرعة التى أبصر بها فصار كل من حدثه عن شىء يسأله هل هو مثل الفــــأر ؟

ومن المشاكل التى تعترض اللغة العربية فى سبيل تأديتها لرسالتها صفة حميدة من جهة اذ تدل على ثروتها وغناها وهى اتساعها بكثرة المترادفات ولكنها فى نفس الوقت تجعل كذلك الغموض والبلبلة من صفاتها وتجعل الخلاف يتسع بين مختلف الاقطار العربية ، فلو أن للعرب كلمة واحدة لتأدية معنى من يقوم مقام غيره لما كنا نقول حسب الاقطار للتعبير عن هذا المعنى : خليفة ، نائب ، وكيل ٠ وكاهية التركية الدخيلة ٠ وكذلك الشأن فى القسم والصف والطبقة والفصل للحجرة التى يتعلم فيها التلاميذ فى المدرسة وهكذا دواليك ٠ واذا كان هذا الخلاف غير ذى شأن كبير فى ما يرجع للشعر والانتاجات الادبية المجردة فانه بالنسبة للمصطلحات الحضارية ولغة القانون والطب فاحرى بالنسبة للمصطلحات العلمية البحتة يكون أكبر خطر على الوحدة العربية التى ترتكز فى أساسها على اللغة ٠ واذا لم يجعل حد لهذا التباين مع كثرة ما يستحدث من ألفاظ واصطلاحات أصبحنا وقد عظم الفرق بين مختلف الاقطار العربية واتسع الخرق وصعب الرتق ٠ لذلك يتعين علينا أن ننظر بجد فى الوسائل الناجعة لتلافى هذه الاخطار ٠ وأرى أنه ان كان للبلاد الشقيقة المشرقية دورها الهام فى الناحية الايجادية الابتكارية فان لنا أن نساهم فى هذا البرنامج الواسع المنهجى بدور التنسيق والتوحيد ٠ وذلك ما تقرر فى مؤتمر التعريب المشار اليه سابقا الذى انبثق عنه مكتب تنسيق التعريب الذى مقره بالرباط وهو يقوم بجهود مشكورة فى هذه السبيل وعلى نجاح هذا المشروع يتوقف ضمان استمرار الوحدة العربية نفسها ومن حسن حظنا وبفضل القرآن الكريم أن هذه الفروق الآن لا تتعدى المفردات ولا تمس القواعد النحوية والصرفية بحيث أننا لا نحتاج الا لتنظيم العمل والسير فيه على طريقة منهجية لنصل الى الغاية المنشودة ٠

وان تعلقنا بلغتنا وسعينا فى المحافظة عليها وتصفيتها من الشوائب ليس أمرا خاصا بالعرب بل نرى اليوم الشعوب الراقية كلها تسير فى نفس هذه الطريق ومنها من يبلغ به الامر الى حالة التعصب مثل ما نراه عند أهل بلجيكا المتكلمين بالنيرلاندية (وهم يفضلون هذه التسمية على الفلامانكية التى يستعملها مواطنوهم من المتكلمين بالفرنسية فى هذا الصدد) حيث قرروا أخيرا العقاب بالسجن وغيره لكل من ثبت استعماله الفرنسية تكلما أو كتابة وهو يقوم بعمل رسمى ٠ وتوجد عشرات الهيئات الرسمية والخاصة تقوم بالمحافظة على اللغة الفرنسية وابعاد الكلمات الدخيلة التى غزتها فى هذه السنين الاخيرة خصوصا الانكليزية حتى أطلق أحد الاساتذة الفرنسيين المشهورين وهو الاستاذ Etiemble على لغة فرنسا فى الوقت الحاضر لفظ الفرانكلية le franglais أى الفرنسية الممزوجة بالانكليزية (١) وعلى رأس هذه المؤسسات المجمع الفرنسى الذى لا يدخل فى قاموسه الا ما كان سليما من

---

(١) وقد تبعه فى ذلك الاستاذ قاسم الزهيرى سفير المملكة المغربية بالصين فى محاضرة له سماها العرنسية مشيرا بذلك الى اللغة التى تتكلم بها بعض الاوساط وهى مزيج من العربية والفرنسية ٠

حيث الاصل الفرنسي وموافقا للذوق والاساليب الفرنسية • وآخر هيئة سمعنا بتأسيسها أخيرا بالكانادا هي SITEST pour sauver le français scientifique أي سيتست = Service international de terminologie scientifique et technique المصلحة الدولية للمصطلحات العلمية والتقنية لانقاذ اللغة الفرنسية العلمية) • وتوجد هيئة عليا فرنسية تضع المصطلحات الفرنسية محل ما انتشر منها باللغة الانكليزية بين العلماء الفرنسيين وتنشر قوائم لهذه المصطلحات في كبريات الصحف ليطلع عليها الجمهور المثقف •

ثم ان المطالبة بالتعريب في بلادنا بكيفية عامة أمر طبيعي ضروري فكل الشعوب تستعمل لغاتها في سائر مناحي الحياة حتى الامم التي ليس لها ماض حضاري ولم تخلف تراثا ثقافيا عظيما مثل الذي خلفته الامة العربية وأثرت به الحضارة الانسانية جمعاء مما سهل علينا الجهود الموفقة التي بذلناها لادخال اللغة العربية كلغة عمل في منظمة اليونسكو على قدم المساواة مع الانكليزية والاسبانية والروسية والفرنسية فكانت اللغة العربية هي اللغة الغير الاوربية الوحيدة التي تحظى بهذا الاعتبار •

فيجب على أبنائها قبل كل واحد أن يعرفوا لها هذا الفضل ويشدوا بالنواجذ عليها ويعملوا على المحافظة على صفائها لضمان استمرار وجودها كلغة حضارة أسدت في تاريخها المجيد أكبر الخدمات للانسانية جمعاء •



حركة التعريب
وصل بين الماضي والمستقبل

د. شكري فيصل

الأمين العام
لمجمع اللغة العربية
- دمشق -

عندما اتحدث عن حركة التعريب ، وانا ازور الجزائر مشاركا في المؤتمر الثاني للتعريب الذي ينعقد فيها هذا العام استمرارا للمؤتمر الاول الذي عقد من قبل في المغرب عام ١٩٦١ يتملكني احساس عميق بالقيمة الكبرى لهذا العمل . وينبع هذا الاحساس عندي من الفكرة التي اومن بها وانطلق منها وهي أن حركة التعريب ليست حركة تراثية بحال من الاحوال ، ليست حركة متصلة بالماضي فحسب ولا يمكن ان تكون ، وليست متصلة بالارث الذي نملكه ولا يمكن ان تكون، وانما هي حركة وصل بين الماضي الذي كنا نعيش فيه وبين المستقبل الذي نتطلع اليه .

في ضوء هذه الفكرة أجدني أمضي وفي هديها اجد تفسير كل ما تقوم بـه المؤسسات المختلفة في هذا السبيل .

ولكي أبين عن ذلك بوضوح ، يحسن أن الاحظ ان هذه الشعوب العربية الاسلامية التى تمتـد فى هاتين القارتين فى آسيا ، وافريقية شعـــوب لها ماضى حضارى طويل · انها فى فترة طويلة من فترات التاريخ ورثت الحضارة الانسانية · ولكنها لـم تكتف بأنها حافظت على هذا الارث ، وانما لجأت الى المحافظة عليه من جهــة ، والى اغنائه من جهة أخرى ، والى تعريبه من جهـــة ثالثـــة ·

أ ـ أما انها حافظت عليه فذلك واضح فى أنها منطلقة من خلفية فكرية رائعة أساسها الايمـــان بحرية الفكر وحركته ـ استطاعت ان تتلاقى مـع هذا الارث ، وأن تقبل عليه ، وأن تتفهمه ، وأن تفتح قلبها وعقلها له فى حدود ، كان من رسالتها الانسانية ·

ب ـ وأما انها اغنته فذلك لانها ـ فى حركـة تزاوج فكرى رائع بين العناصر الانسانية كلهـا وفى ظـــلال دعوتها الى مجتمـع عالمى واحد ـ أضافت الى هذا التراث الانسانى اضافات كبيرة ، وان هذه الاضافات تناولت الجوانب العلمـــية الانسانية منه ، وزاوجت بين النظريات والتطبيق ·· فكان من ذلك كله أن لبست الحضارة الانسانية لباسها العربى الاسلامى خلال ستة قـــرون أو تزيد ·· ثم اختفت فى بلد اثر بلد ، او حملت على ان تختفى وراء حركات جديدة قامت على اساس الكـــره والحقد ، فاضطرت الشعوب العـربية والاسلامية الى أن تقف موقف المدافع عن وجوده ، وبذلك توقفت حركتها الابداعية ·

جـ ـ وأما أنها عربته ، فذلك لانها دمجت مـــا بين هذه الحضارة ومـــا بين اللغة العـربية ، فاتسعت هذه اللغة للحضارة التى جاءت نتيجـة لظهور الاسلام وانتشاره ، وأضحت اللغة العربية هى لغة التفكير العلمى ، وهى كذلك لغة الحـس الادبى ، وارتبط ، ما بين اللغـــة العربية وبين الحضارة العالمية برباط وثيق ، بحيث أصبـــح عسيرا على الانسان ـ قبل أن ينحدر المجتمـــع الاسلامى ، أن يكون مثقفا اذا لم يكن على اتصال باللغة العربية واتقان لها ·

* * *

هذه الشعوب العربية الاسلامية اذن تتميز بهذا الاقتران الفاعـل بينها وبين الحضارة الانسانية الواسعة · بمعنى أنه اذا كان هنالك نوعان من الشعوب : شعوب لم تسهم فى الحضارة المشتركة وانمـــا كان لها حضاراتها الخاصة الضيقـــة والبدائية ·· وشعوب أخرى أسهمت فى الحضارة المشتركة وكانت جـــزءا منها ـ فـان الشعوب العربية الاسلامية هى من هذه الشعوب الاخيرة التى داخلت الحضـــارة المشتركة وداخلتها هذه الحضارة المشتركة بحيث ارتبط ما بينهما ·

هذه الشعوب ، عندما تحاول أن تطرق بـــاب الحضارة الانسانية من جديد ليس من خيرهـا ولا من مصلحتها أن تتقدم فى هذا الاتجاه لتبدأ المرحلة من بدايتها ، من الصفر · ذلك ليس من مصلحتها وليس ممكنا لها حتى اذا هى أرادته · لان هذا الارث الحضارى يداخل كل جزئية مـن جزئيات حياتها الفاعلة ، وحياتها العاقلة ، حياتها الشعورية ، وحياتها العقلية ، انه يداخل عقلها ، ويداخل مشاعرها ، يمتزج بها حتى ليكون جزءا منها ، وتمتزج به حتى لتكون جزءًا منه ·

واذن فانها لا تقـــف فى الدرجات الدنيا من السلم الحضارى ، وانما تقف على بعض درجاته·

ومهمتها ان تتابع السير فى هذا الطريق مستفيدة من كل الاكتسابات التى سبق لها ان خاضتها من اجل هذه المتابعة ، من أجل أن يكون رصيدها الذى تملكه رصيدا منتجا وفاعلا ، فان حركة هذه الشعوب نحو تقبل الحضارة والمشاركة فيها لا يمكن أن تتم بعيدا عن اللغة التى اصطنعتها فى التفكير وفى التعبير على السواء ٠

لقد نشأت عند هذه الشعوب علوم ومعارف ، ونظريات وآراء ٠ وخاضت فى كل فروع المعرفة العلمية والتطبيقية ، النظرية والعملية ٠٠ أبدعت فيها وجددت ٠٠ وكان هنالك علماء دائما على طول هذا الخط الذى يمتد من جاكرتا الى طنجة ، ومن صقلية آلى جنوب الصحراء ٠٠ لم يخل بلد من بلاد الاسلام من عالم كان له ، فى هذا النحو او ذاك من نواحى المعرفة والعلم اسهام وتجديد ٠

ومعنى هذا ان المنطق والحياة والواقع ، كل ذلك يفرض علينا أن نتابع الطريق ، ولن تتم هذه المتابعة الا اذا كنا نستخدم الاداة ذاتها ، اعنى اللغة العربية ٠

* * *

ان هذه اللغة تمثل قطبين اساسيين : تمثل مستودع معارفنا ، وتختزن كذلك أسلوب تفكيرنا ٠ واذا كان هنالك حركة جديدة نحو اكتساب مزيد من المعارف ، او نحو تصحيح بعض أساليب الفكر ، فان هذا يجب أن يتم فى نطاق حركة ذاتية ، أعنى فى نطاق تطور ما عندنا ، دون ان ننسلخ عنه ، ونتابعه دون أن نهدر منه ٠

ولهذا فان حركة التعريب لا تستهدف شيئا كما تستهدف هذه الصلة بين الماضى والمستقبل ٠٠ اننا فى حركة النهضة الحديثة نحاول ان نتخلص من فترات الضعف ولكننا لا نحاول أن نتخلص من عناصر القوة ٠٠ ونتطلع الى مواكبة العصر ويجب أن نتخذ لهذه المواكبة اقصر طرقها واسرعها ٠٠ ولهذا تظل اللغة ذات الرصيد الفكرى الفخم والتجارب الثقافية الغنية هى لغة هذه المواكبة واداتها ٠

* * *

ان امامنا ، بالشوط الحضارى الذى حققته الشعوب الاخرى لا يعنى عندنا الغاء الاشواط الحضارية التى كنا اصحابها ٠٠ ان الامر على النقيض ٠٠ فاشواطنا الحضارية السابقة يجب ان تمثل عندنا القوة النفسية الدافعة التى تمنحنا الثقة المطلقة باننا قادرون على المتابعة ، متمكنون منها ٠٠ عندنا المادة المساعدة عليها وعندنا الاداة الصالحة لها ٠٠

وليس ادل على أن حضارتنا السابقة لا تزال تحمل حتى اليوم بعض ضمائر المستقبل انها تؤلف ، وفى مرات كثيرة ، نقاط ارتكاز حتى للمعارف العصرية ، وان أبحاث كثيرين من المستشرقين فى التراث العلمى القديم ، لا تزال تتتالى من أجل ان تقدم للابحاث الجديدة بعض المنجزات الحضارية السابقة ٠

وعلى ان هذه قضية اخرى ، فان الذى يرتبط باذهاننا فى حركة التعريب انها حركة مستقبلية ، وانها حين تنظر الى الماضى فانما تنظر اليه ليكون طريقا الى المستقبل ، وان استخدام اللغة العربية فى ذلك هو ضرورة يمليها وجودنا نفسه ويمليها حرصنا على استمرار هذا الوجود فى المستقبل ، ويمليها ان العربية انما تؤلف ، فى جملة عملها فى ذلك ، هذا الوصل الكامل بين الماضى والمستقبل ٠

لنتخيل اجتماعاً لكتّاب ، وعلماءِ مستقبل ، ومصورين ومؤلفي أغان يقفون أمام تساؤلنا . سيتخيل أكثرهم سطحية أن المشاة الراجلين سيفوزون في الكفاح من أجل استمرار الحياة ، وأن سائقي السيارات ، بما لهم جميعاً من عضلات ضامرة لاتعينهم على الخروج في أقل نزهة ، سوف يُجمعون في مآو ينهون فيها أيامهم . ومن أجلهم سيعاوَد في أوربا اكتشاف الاحساس الذي فُقد من قبل بالمسافات ، وسوف تُخلي المصانع أماكنها للكاتدرائيات وأقواس النصر ، في حين يقرر مؤتمرٌ للمشاة في «فيينا» خطة جديدة لاعادة توزيع السلطة ويُقطِع تخوم البلاد للهيبيين ، أفضلِ مستخدمي الأقدام ومستعملي أقل قدرٍ من الموارد الطبيعية .

وسيعتبر علماء المستقبل المبشرون بنهاية العالم من جهتهم ان نهاية البترول ، اذ تبطل تحدي البلدان المتخلفة ، ستقود الامم غير المصنعة لأن تفرض على العالم ضرباً من الحضارة ، بدائي الشكل ، يحتوي على مناطق شاسعة لرعي المترحلين : وهو نموذج مذهل ، لكنه غير جديرٍ بتلبية الحاجات التي ولّدها تكاثف السكان ، ولا نملك شهادات اختراع صنع البيفتيك من ماءات الفحم (هيدروكاربور) فما عسانا نقدم من طعام الى ذرارينا ، وقد تكدسوا بحد من العنف والشدة يعرضهم لأن يأكل بعضهم لحم بعض ؟

وأشد الاختصاصيين قدرة على التنبؤ بالمستقبل سيتساءلون : لمَ يُقدّر للنفط فجأة أن يتوارى . ليس بسبب حرب ما – سيقولون – بل الأحرى أن يجري ذلك بقرار تتفق عليه البلدان الصناعية التي تعتبر أن التلوث بلغ درجة لا تحتمل بسبب الاستخدام المكثف للمواد الهيدروكاربورية ، ما دامت الانهار المسمّمة لم تعد تقدم سمكاً والبحر يمتنع على الصيد .

وبعد عصر النفط قد لايتبقى سوى أمر واحد يُفعل ، هو استيراد الهواء النقي من البلدان المتخلفة في خزانات كروية هائلة . فتهب فوق مناطقنا ريح مقوية تعيد الها النشاط والحياة ، شريطة ألا تقطع البلاد المصدرة بالطبع – وهي الممونة الشكاكة الناكثة ، بالعهد – حركة التموين بهذا الهواء المحيي من جديد .

ستيفانو ريجياني

صحيفة « لاستامبا » الايطالية

واقع ومستقبل
حركة التعريب بالجزائر

يحي بوعزيز
كلية الآداب
جامعة وهران

الظروف التاريخية التى خلقت قضية التعريب :

يعتبر التعريب ثالث الاثافى للثالوث الكبير أو الثورات الثلاث : الصناعية ، والزراعية والثقافية ، التى تخوضها الجزائر بعد الاستقلال من اجل البناء والتشييد للحاق بركب التطور والتقدم الحضارى • وهو صميم الثورة الثقافية وضرورة ملحة وعاجلة وخطيرة فى نفس الوقت لان الاستعمار الفرنسى حاول المستحيل خلال عهد الاحتلال الطويل ، أن يطمس شخصية الجزائر ويمحو قوميتها ، ويشوه تاريخها ويفصلها تماما عن امجادها الفكرية والحضارية •

وكانت محاربة اللغة العربية من أخطر المحاولات التى بذلها الاستعمار الفرنسى ، ولم يترك أية وسيلة لتحقيق فكرة « الفرنسة والتعجيم » فهدم الكثير من المساجد وحول الكثير الى ثكنات للجيش الاستعمارى ، وكنائس للبعثات التبشيرية وشجع حركة التنصير والتمسيح لمقاومة الاسلام فى عقر داره وهو عقيدة الشعب الجزائرى العربى المسلم واغلق المدارس العربية ، ومنع الجزائريين من تعلم لغة آبائهم واجدادهم القومية العربية ، ومنع الكتاب العربى من الدخول والانتشار فى البلاد ، كما منع الصحافة العربية من الظهور والتداول ٠

وحتى تعليم القرآن الكريم وضع ضده قيودا وعراقيل وشدد على الذين يتصدون لتعليمه وفرض عليهم رقابة شديدة ومنعهم من شرح معانيه الى النشىء خاصة الآيات والصور التى تتصل بالجهاد والكفاح ٠ وحرص على توظيف اطار دينى فى المساجد جاهل وعميل أناط اليه وظيفة الجوسسة ضد السكان الجزائريين ٠

ورغم ان شعب الجزائر قاوم هذا المسخ الاستعمارى ، وتشبث بقوميته وشخصيته العربية الاسلامية بفضل جهود الزوايا الدينية ، والكتاتيب القرآنية ، والمدارس الحرة ، الا ان التأثير الاستعمارى كان قويا وشديدا ،استطاع ان يعزل العربية ، ويحاصرها ، ويفرض لغته كأداة ووسيلة للعمل فيما عرف « بالفرنسة والتعجيم » جريا وراء تحقيق خرافة : « الجزائر الفرنسية » ، واخطر من كل هذا انه خلق فى البلاد طبقة عميلة ما يزال بعض افرادها حتى اليوم يجحدون تراث بلادهم وامجادهم التاريخية والحضارية ، ويحتقرون لغتهم القومية العربية ، ويرفضون ان يعترفوا أو يصدقوا بانها لغة العلم والعمل والمخبر منذ اكثر من اثنى عشر قرنا ، وان الذى عاق تطورها هو تخلف اهلها نتيجة لظروف الاستعمار التاريخية فى العصر الحديث ٠

امثلة من التاريخ على حتمية التعريب :

ان ظروف الجزائر التاريخية هى التى خلقت ما ندعوه اليوم « قضية التعريب » ، وهى التى تحتم العمل على تحقيقه كقضية ملحة وضرورة عاجلة ٠ ذلك ان الاستقلال السياسى وحده لا يكفى لاثبات شخصية أمة وابرازها ما دامت لا تملك لغة قومية كأداة لعمل الخلق والابداع ، ووسيلة للتطور الفكرى والحضارى خاصة فى عصرنا الحالى بل ان ذلك الوضع يجعل تلك الامة باستمرار فى مؤخرة القافلة وعالة على الغير فى كل شىء مذلولة وحقيرة ٠

وهناك امثلة عديدة من التاريخ تؤيد حتمية التعريب بالجزائر ، منها المانيا فى القرنين الثامن والتاسع عشر ٠

فقد كانت المانيا ممزقة الى اكثر من ثلاثمائة وستين امارة،الكثير منها يخضع للسيطرة الاجنبية النمساوية والفرنسية ، والبعض مستقل بذاته وليس للامبراطورية الرومانية المقدسة الا سيطرة اسمية وشكلية عليها ٠

وكان الشعب الالمانى يعانى من هذا الانقسام والتمزق ، وهذه السيطرة الاجنبية ، كما كان يعانى من الشكل الفكرى بسبب حروب الثلاثين عاما الدينية (1618 – 1648) . ويحس بطعنة خنجر فى كيانه فماذا صنع ؟

لقد انكب على احياء تراثه وبعثه ، وشهدت المانيا أواخر القرن الثامن عشر ميلاد « أمة » من ناحية الفكر والادب ، وبرز الشاعر ليبنيتز Leibnitz والعقليون من الفلاسفة والشعراء والكتاب ، والمتورعون الدينيون ، والمتنورون ليخوضوا كلهم معركة احياء الفكر والتراث الحضارى الالمانى ·

وظهرت الصحف والمجلات الادبية والاخلاقية بشكل واسع زادت على مائة واثنين وثمانين مجلة وصحيفة · وجرى الاهتمام بانشاء واصلاح الجامعات مثل جامعة ووتنجن Wottingen وادى كل ذلك الى تقديس كلما هو المانى ونبذ غيره،واصبح تفكير رجال الفكر « ألمانيا بحتا » . ولعب كل من هيجل Hégel وقوته Gothe وكانت Kant وشيلر Schiller وهيردر Herder دورا فى الهاب حماس الالمان ودفعهم الى الاهتمام بتراثهم الفكرى والادبى ، فعملوا على احيائه وابرازه بلغتهم القومية الالمانية ·

ومن اقوال هيردر ان اللغة أو لسان الشعب نفسه هى الاداة الاساسية للافصاح عن عبقريته والتعبير عن مزاجه واحاسيسه وأفكاره وكل ما هو متصل به وبقدرته على الابداع والابتكار ، وان الكاتب العظيم حقا هو الذى تتسم اللغة التى يكتب بها بالطابع الوطنى الصميم ويرفض محاكاة وتقليد التعابير الاجنبية ·

ونتيجة لتلك الحركة الفكرية « الملتزمة » برز فى المانيا ما دعى « بأدب الحروب » لدى الشعراء والمفكرين الالمان . وظهرت مدارس قومية وتاريخية ركزت على قضية التحرير والوحدة مثل المدرسة القومية التاريخية التى فسرت التاريخ تفسيرا قوميا ، ومهدت الطريق للشباب الالمان الذين أخذوا ينظمون المقاومة فى النوادى والجامعات ضد تسلط ميترنيخ النمساوى زعيم الرجعية فى أوروبا القرن التاسع عشر · وحملت امارة بروسيا بعد ذلك لواء تحقيق الوحدة انطلاقا من حركة الاحياء الادبية للفكر الالمانى واللغة الجرمانية ، واهتمت بتقوية نظمها الاقتصادية والعسكرية ، ولم تتردد فى خوض ثلاثة حروب كبيرة ضد الدانمارك ، والنمسا ، وفرنسا ، انتهت بانتصارها وتتويج امبراطورها الالمانى فى بهو قصر فرساى الكبير بباريس فى جانفى 1872 بعد ان اسرت الامبراطور الفرنسى نابوليون الثالث ومائة الف من جنوده المقاتلين فى ميتز ، وسيدان ·

فاذا كانت المانيا التى لم تتعرض لمحاولة محو لغتها وتراثها ، بذلت مثل هذه المحاولات ، فكيف بالجزائر التى عمل الاستعمار الفرنسى طوال قرن وربع قرن على «فرنستها» بكل الوسائل وازالة شخصيتها القومية من الوجود · انها أعظم رسالة وأقدسها بعد معركة التحرير ·

التعريب المطلوب والعراقيـل التى تعترضه :

عندما ظهرت قضية التعريب بالجزائر عام 1962 برزت معها الصعوبات والعراقيل والحواجز وظهر اتجهان رئيسيان متناقضان فى البلاد ٠

ــ اتجاه كان يتظاهر بتأييد حركة التعريب ولكنه يعمل فى الخلف ، على عرقلته وذلك بتحقيق تعريب سطحى لا يغير من الواقـــع فى شيء ولا يمس جوهر القضية الحقيقى ، عن طريق تعليـــم اللغة العربية فى المدارس على شكل محو اميـــة الحرف ، ولا يتعدى الامر معرفة الفعل والفاعـل وحفظ بعض الاناشيد للمناسبات ٠ وهذا يجعل العربية دائما فى مركز ثانوى متأخـر ، وتبقى الفرنسية » او الفرنسة والتعجيم « صاحبة المركز الاول ولغة المخبر ٠

والذى دعا اصحاب هذا الاتجاه الى اتخاذ هذا الموقف هو خوفهم من ان يفقدوا مكانهم فى الحياة العامه ويساقون الى الهامش ويوضعون على الرف، يضاف الى هذا كونهم لا يؤمنون اطلاقا بأن لغـة بلادهم القومية العربية هى لغة المخبر والعمل ، وكانت قبل الاحتلال تحتل مكانها كلغة حضارة مآت من السنـــين ٠

وتفكيرهم هذا خاطئى من أساسه لا يعتمد على اى أساس ، فالعربية كانت وما تزال لغة العمل والمخبر ، والجزائر بحاجة اليهم والى غيرهم فهى تستقدم سنويا آلافا من المتعاونين الاجانب الكثير منهم يضرون البلاد اكثر مما ينفعونها فيستنزفون اموالها ويخربون اقتصادها ويسممون اجيالهـا الصاعدة لكونهم لا يريدون لهذه البلاد التطوير والتقـــدم ٠

واخطر ما فى هذا الاتجاه هو أنه صاحب ثقل وتأثير فى مصائر امور البلاد حتى هذا الوقت ٠

ــ أما الاتّجاه الثانى فعلى عكس الاول يؤمن بضرورة التعريب ، ويـــدرك أهمية استعـــادة الشخصية القومية للجزائر ، ولكن أزمته فـى كونه معزولا لا يملك من الوسائل الا الايمـــان بعدالة قضية التعريب ، والحماس المعنوى لتحقيقه ولا يقرأ حساب لاحساسه وايمانه ، بل وحتى لبعض صيحاته واستغاثاته ٠

ان وجود هذين التيارين المتناقضين ، جعـل حركة التعريب تتعرض لهزات كبيرة وتتأخر اكثر من اللازم رغم ان السلطة العليا والقيادة الثورية عملت ما فوق جهدها لانجاح حركة التعريب ٠

ان التعريب المطلوب فى الجزائر لا ينبغى ان يقتصر على التعريب الحرفى ، بل ينبغى ويجـب ان يغزو الافكار والامخاخ وهو ما يحتم القيـام بثورة ثقافية » عنيفة « تهز كيان » الفرنسة « ، وتحطم رواسبها المتخلفة وتغسل ادمغة الذيـن ما يزالون يؤمنون بخرافة » رسالة الاستعمـار التمدينية « ، وهم كثيرون وان كانوا لا يستطيعون ان يرفعوا رؤوسهم ويظهروا نواياهم ٠

ويسير التعريب الحرفى حاليا سـيرا طبيعيا متثاقلا فى المدرسة ويحاول ان يقتحم وسائـــل الاعلام وبعض الزوايا الجانبية والهامشية فـى المعاهد العليا والجامعات ، ولكنه عجز تماما عـن

اقتحام ميدان الادارة ، التى يسيطر عليها اصحاب الاتجاه الاول ، وذلك من المخاطر الكبرى لحركة التعريب .

وعندما نفحص الخطوات التى يخطوها التعريب نشعر بالامل والتفاءل ، لان عوامل النجاح له اكثر من المعرقلات التى تعترضه .

ـ فالاغلبية الساحقة منالشعب الجزائرىعربية صميمة تؤمن بأهمية التعريب وضرورة تحقيقه ، وتدعم بكل قواها المساعى التى تبذل فى سبيل ذلك . وهذه القاعدة الشعبية هى التى حالت سابقا دون « فرنسة الجزائر » و « تعجيمها » .

ـ والمدرسة الجزائرية بعد الاستقلال لعبت وتلعب دورا مشرفا فى غرس اللغة القومية العربية بعقول اجيالنا الناشئة طليعة المستقبل بفضل جهود المعلمين الذين يعملون فى صمت ودون جعجعة لسان ، رغم كل المشاكل التى يتعرضون لها من طرف الاجهزة الادارية المفرنسة .

ان القاعدة الشعبية ، والمدرسة الجزائرية هما العماد الهام والاساسى لنجاح حركة التعريب وامتدادها الى كل جوانب الحياة العملية الاخرى. والى حد الآن يتوفران على طاقة هائلة لدفع حركة التعريب الى الامام .

ـ وهناك محاولات معدودة فى وسائل الاعلام رغم اهمية هذه الوسائل فى حركة التعريب .

ـ فالصحافة المكتوبة بالعربية تزاحمها صحافة اخرى تكتب بالفرنسية وتحتفظ بتفوق مادى وفى الاطارات الكفاة ، قد يكون مقصودا وقد يكون غير مقصود . وعلى سبيل المثال فقط فان صحيفة المجاهد اليومية المكتوبة بالفرنسية تغطىكثيرا على صحيفة الشعبالعربية . ولو لا ان الاغلبية الساحقة من شعبنا عربية الاتجاه لأفلست صحيفة الشعب واغلقت أبوابها . فلماذا لا تسخر لها الامكانيات والاطارات الكفاة لتصبح صحيفة البلاد الاولى والناطق الرسمى للدولة والقيادة . ومصدر الاخبار لكل الجهات الداخلية والخارجية؟ان الذى يحفز العالم الخارجى علىالتعرف على اخبارنا ليست الجريدة الناطقة بالفرنسية ، وانما أعمالنا وجهودنا فى البناء ، ان اخبار الاهرام المصرية ،وهى جريدة عربية ، تخطف من المطبعة لتوزع الى كل ارجاء الدنيا ، وهنا نلاحظ اهمية مجلة الاصالة التى تسير بخطوات ناجحة فى سبيل احياء تراث الجزائر الاصيل كما يلاحظ ذلك فى الجدية التى تتسم بها الدراسات التى تنشرها ، وفى الاسعار الزهيدة التى لا تغطى حتى تكاليف الطبع على ما يظهر . وذلك ما تحتاجه الجزائر وتتطلبه فى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخها .

ـ والتلفزة الجزائرية تلعب دورا حيويا فى التوعية وترسيخ فكرة التعريب بما تقدمه من برامج متنوعة باللغة القومية ، ولكن هذه البرامج تزاحمها برامج أخرى ذات خطورة ، اذ زيادة عن كونها تقدم بلغة اجنبية تهدد اخلاقنا وتقاليد مجتمعنا بما تعرضه علينا من افكار مسمومة واساليب جارحة لعواطف اسرنا ، ومنافية لطموحنا الكبير نحو المستقبل الزاهر والنظيف . ان بلادنا تقاوم الاجرام ، والتلفزة تعرض علينا

الافلام التى تعلم جيلنا فنون الاجرام ، وبلادنـا تقاوم التحلل الخلقى ، والتلفزة تعرض علينا ما يشجع على ذلك • وهى امور منافية لاهدافنـــا القومية التى نكدح ونسعى بكل قوانا لتحقيقها •

ــ ولعل صحافة الاثير « والاذاعة » هى التى تبذل جهودا ناجحة فى تعميق فكرة التعريب ولكن ينبغى مراجعة برامجها وتزويدها باطارات كفاة حتى تكون فى مستوى طموحنا الكبير الهادف الى احياء وابراز شخصيتنا القومية العربية الاسلامية•

ــ واما الجامعات والمعاهد العليا فما تزال حتى اليوم لم تقدم أية خدمة حقيقية للتعريب ، وتعتبر من العوارض والعقبات الخطيرة له لانها هى التى تخلق الاطارات الضرورية ولكنها بعقلية غــير العقلية القومية التى نريدها وننشدها ، وما ذلك الا لان محاولاتها لجعل اللغة العربية لغة المخبــر محدودة جدا ان لم تكـــن معدومة • ومشكـــل الجامعــات العليا يكمن فى اطاراتها الغير المؤمنة بقضية التعريب كقضية قومية ، اذ ليس مـــن المعقول لعميد كلية أو مدير معهد مثلا جاهـــل للغة القومية ان يسعى ويعمل على تعريب مؤسسته يضاف الى هذا ان مؤسسات التعليم العالى يوجد بها اطار اجنبى كبير يلعب دورا كبيرا فى عرقلـة التعريب ، فطالما لم يسلم امر الجامعات والمعاهد العليا الى اطارات عربية صميمة فى تفكيرها مؤمنة بالتعريب كقضية قومية ، فلا يمكن لها ان تلعب دورها المطلوب منها • ومن نافلة القول الاشارة الى ما تعانيه الاقسام العربية فى كليات الآداب بجامعاتنا الثلاث بسبب ذلك ، وهنا لا بد من ملاحظة الدور الذى تؤديه المعاهد الاسلاميــــة والمدارس والثانويات المعربة فى خلق وتنشئة اجيال معربة مؤمنة بامجاد بلادها القومية ولغتها العربية

ــ والى هنا ناتى لأخطر العراقل التى تواجـه حركة التعريب وهو اطارات الادارة الجزائريـــة التى يتكون معظمها من اجهزة مفرنسة تـرى فى التعريب خطرا ، كما ذكرنا سابقا ، على مستقبلها فحتى اليوم ، وبعد عشر سنوات مـــن تحقيـــق الاستقلال الوطنى لم تعرب أية ادارة جزائرية ، عدا وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينيـــة ، اللهم الا كتابة العناوين على بعض أوراقها الرسمية بصورة شكلية •

فأين تعريب ادارات البريد ، ووسائل النقل ، والبنوك، والمصارف العامة. وأين تعريب الوزارات والدواوين القومية والوطنية ؟ واين تعريب وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، ووزارة التعليم العالى والبحث العلمى ، وهما مصدر خلق الاجيال طليعة المستقبل• ان معظم التعليمات والمنشورات الصادرة عن وزارة التعليم الابتدائى والثانوى تصدر باللغة الفرنسية وهى اولى الوزارات كلها فى احتضان التعريب •

لقد اعلنت القيادة الثورية منذ عام 1969 ان عام 1971 هو عام التعريب ولكن الذى منع مـــن تحقيق ذلك بصورة ملموسة هى اطارات الادارة هذه التى لا تؤمن بالشخصية القومية لبلادهـــا وشعبها ، وليس من السهل اقناعها بالعودة الى

جادة الصواب لان من شب على شيء شاب عليه كما يقول المثل • وليس هناك من دواء الا زحف الاجيال الصاعدة التى ترضع العربية من المهد وتنشأ فى مدارس قومية اصيلة ، لتتسلم المسؤوليات ومستقبل البلد . ولعله من المفيد هنا والمهم ان نسجل ان رئيس الدولة والقيادة الثورية قد دفع بحركة التعريب الى الامام بخطوات هامة، بفضل تكوينه العربى الاسلامى• انه عندما يخطب بلغة البلاد القومية يبرز حقيقة وجه الجزائر الحقيقى النظيف ، ويجسمه فى اطاره العربى المسلم ، وتأثيره فى هذا الميدان لا ينكره احد • وبفضل تمسكه بهذا المبدأ أرغم العديد على اتباع نفس الطريق ولو بخطوات وئيدة ، وهذا مما يبشر بنجاح حركة التعريب مستقبلا بالجزائر • ومع ذلك نلح على تطبيق الامور التالية لضمان النجاح والسرعة اكثر :

ـ التوسع فى تعريب المدرسة الجزائرية حتى تصبح العربية لغة العمل والمخبر حقيقة •

ـ التعريب الكامل لاجهزة الاعلام المكتوبة والمرئية حتى نفرض على غيرنا ان يتعلم لغتنا اذا ما اراد ان يفهمنا ويتعامل معنا مثلما يفعل هو معنا ولا ينبغى تملقه ومداراته على حساب تقاليدنا وقوميتنا ، وهو ما فعلته بعض الامم قبلنا كالمانيا مثلا ، والصين ، واليهود الذين احيوا لغتهم العبرية التى ماتت منذ الفى عام •

ـ اعطاء ابعاد جديدة للتعريب تمتد الى السينما والشاشة الصغيرة ، والصحافة • والمجلة والكتاب • والنشرات الدورية والخاصة •

فرض اللغة العربية فى كل الادارات الجزائرية دون استثناء ، وتشجيع الاطارات المعربة باسناد الوظايف العليا لها فى المؤسسات والمعامل والمصانع والوحدات ، والمزارع ، حتى تلعب دورها فى غرس اللغة القومية بين كل الفئات •

ـ القيام بثورة ثقافية حقيقية تستهدف تطهير البلاد من كل الرواسب الاستعمارية المادية والمعنوية ، وخلق اتجاه قومى ينكب على احياء الامجاد القومية للبلاد ، وابراز شخصيتها العربية الاسلامية •

وهذه الثورة الثقافية ينبغى ان تكون جدية و « عنيفة » تمس كل جوانب الحياة : الاطارات البشرية المنحرفة ، والتراث الدخيل والمسموم مكتوبا كان أو مصورا أو منحوتا أو منقوشا • أو فى شكل عادات وتقاليد •

ان هذه الثورة الثقافية هى الوسيلة الفعالة التى تفرض اللغة القومية وتجعلها لغة العمل والمخبر • والجزائر قادرة على خوضها مثلما خاضت بنجاح الثورة الصناعية والثورة الزراعية • وهى بحاجة ماسة وأكيدة الى خوضها •

على اننا كما قلنا مرارا نرى أن التعليم لا بد أن يعود بلغة البلاد حتى لا يكون ناقصا أبتر لأن كل ثقافة لا تستمد أساسها من تراث الاسلاف ولا تضرب بجذورها فى أعساق تاريخهم تبقى ناخرة جوفاء وبلا روح •

وبهذه المناسبة واذ اشيد بالجهود المبذولة حتى الآن لنشر لغتنا التي أصبحت الآن لغة التعليم فى كثير من المستويات من الابتدائي حتى الجامعي لا يسعني الا أن أذكر بالميعاد الذى ضربناه لانفسنا بخصوص العمل بها فى ادارتنا بل وحياتنا اليومية والقومية وهو سنة ١٩٧١ •

وعلى كل منا ان يأخذه بالجد ليكون على أهبة واستعداد •

وذلك انهذا الهدف لايقل ثورية ولااهمية واستعجالا عن الثورة الصناعية ولا الزراعية ولا الادارية و لاعن أي هدف من أهدافنا الثورية العليا •

ولهذا كلفت لجنة اصلاح التعليم باعداد الخطة الكفيلة بتحقيق هذا الهدف لنضمن لانفسنا تعليما قائما على أساس متين هو تراثنا الثقافي ومطعما بقيمنا الروحية السامية تعليما كاملا يعطينا اطارات كفأة مسلحة لضروريات العصر ومقتضيات التنمية ومحصنة ضد جميع انواع الانحراف الخلقي الذى بدأ يستفحل ويكتسح مجتمعات عدة فى عالم اليوم •

لغة التاريخ

د. هشام الصفدي
كليه الآداب
جامعة الجزائر

تتصادف كتابة هذا البحث مع اشتعال حرب التحرير التى تخوضها مصر وسوريا، ومن ورائهما الامة العربية ـ دفاعا عن الارض والوجود ، ومن أجل حياة حرة كريمة ٠

واليوم اذ يتعرض الوطن العربى فى مشرقه لطعنة رابعة غادرة توجهها اسرائيل ـ حليفة الاستعمار الجديد وخنجره المسموم ـ الى قلب الامة العربية ٠

ألتفت الى التاريخ أسأله : تراه تعود عجلته الى الوراء،فيحقق للاستعمار الجديد ما عجز عنه سلفه القديم ؟ أتستطيع أسلحة البغي والدمار ان تستعبد أمة جذورها راسخة فى اعماق الزمان ، وحضارتها ملء سمع وبصر الانسان ؟

من جبهات القتال ، ومن الجزائر بالـذات ، وحيثما كتبت الحرية بالدماء يتناهى رجع الجواب : لا لن يعود التاريخ الى الوراء ، ولن يكتب تاريخ امتى بغير لغة الضاد ٠

تعتبر الثورة الثقافية فى طليعة المواضيع الهامة التى يتصدى لها المجتمع الجزائرى بعد نجاحه فى ثورة التحرير ٠ وهو ينطلق فى ما صمم عليه من مبدأين اساسيين :

أ ـ احلال اللغة الوطنية مكانها الطبيعى كأداة للثقافة وللتعليم ٠

ب ـ اعادة النظر فى هياكل البرامج الثقافية والتعليمية وخاصة تلك التى ورثتها الجزائر عن العهد البائد وفى الحقيقة كانت اضرار التركة التى خلفها الاستعمار فى هذا الميدان ثقيلة الوطأة ، بعيدة الآثار ٠ فهى لا ترجع الى سنوات ، ولا الى عقود ، بل تعود الى اكثر من دهر من التخطيط والتطبيق لاقصاء اللغة الوطنية من حياة المجتمع المغلوب على أمره ولتلخيص المشكلة الراهنة من المفيد جدا ان نستشهد بالتشخيص الناجح الذى وضعه لها الفيلسوف الفرنسى جاك بول سارتر(1)

« ان من متطلبات النظام الاستعمارى ان يحاول سد طرق التاريخ على المستعمرين (بفتح الميم) ٠ ولما كانت المطالب القومية فى اوروبا تعتمد دائما على وحدة اللغة ، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات ، لان اللغة العربية تعتبر فى الجزائر لغة اجنبية منذ عام 1830 ٠ انهم يتحدثون بها ، ولكنها كفت عن ان تكون لغة مكتوبة الا بالقوة ، لا بالفعل ٠٠٠ ولقد سلبنا المسلمين كل شىء ، ثم حرمنا عليهم كل شىء حتى استعمال لغتهم الخاصة ٠٠٠ وعلى كل حال اردنا ان نجعل من « اخوتنا المسلمين » شعبا من الاميين ٠٠٠(2)

من الطبيعى اذا ان يعبر الشعب الجزائرى ـ غداة استرجاعه لسيادته ـ عن مطلب عزيز طالما تلهف اليه وهو : استعادة لغته الوطنية فى كافة مجالات الحياة ٠ ولقد عبر الجزائريون عن ذلك مرارا وتكرارا وعلى لسان قادتهم ومفكريهم قبل الثورة وبعدها ٠ وفى ذلك كتب المناضل الرائد الشيخ البشير الابراهيمى فى احدى افتتاحيات جريدة البصائر :

« ان هذه الامة تعتقد ـ وتموت على ما تعتقد ـ ان لغتها جزء من كيانها السياسى والدينى ، وشرط فى بقائها ، وقد التقى على الكفاح فى سبيلها الدين والسياسة ٠٠٠ ثم يقول فى موضع آخر :

« والامة تريد تعليما عربيا عليه طابعها ، وفيه أثر يدها ، وله ما لها من روح ، وعليه ما عليها من سمات ٠٠٠ » (3) ٠

1) جان بول سارتر ، عارنا فى الجزائر ، ترجمة سهيل ادريس ، ص 23
2) جان بول سارتر ، نفس المرجع ، ص 61 ، ص 23
3) الشيخ البشير الابراهيمى : اختلاف ذهنين فى معنى التعليم العربى ، عيون البصائر ، دار المعارف القاهرة ، ص 305

الوضع السابق للتاريخ فى الجزائر :

هذا ما كان عليه حال اللغة العربية فى الجزائر ابان عهد الاستعمار وهو وضع تبرز آثاره فى مختلف جوانب الحياة ، وتنعكس خاصة فى مجالات التربية والتعليم • وكان من المفروغ منه أن يتناول الحجر المفروض على اللغة العربية ، التدريس والتأليف فى ميدان العلوم الاجتماعية — وفى مقدمتها التاريخ والجغرافيا — باللغة الوطنية• فالتاريخ عامة ، والتاريخ القومى خاصة — مادة شديدة الخطر سريعة الالتهاب اذا ما احسن تغذية عقول الناشئة بها • والتاريخ فى جوهره تعبير عن كبرياء الشعوب وسجل لعزتها ولامانيها • وهو يبين لكل جماعة الاطار الذى يجب ان يحكم تطورها ، والاتجاهات التى يجب ان تسير فيها عملية تقدمها ، حتى لا تخرج جماعة ، فى سياق عملية التطور من جلدها ، فتتطور الى جماعة أخرى ، أو تندمج فى جماعة أخرى وهى لا تدرى • ولعل من أهم قوانين التطور ان تتطور المجماعة وترقى ، ومع ذلك تكون بالتطور الصق بكيانها التاريخى ، واصدق تمشيا مع قيمها التاريخية (4) ودور التاريخ معروف فى حركات نشوء القوميات — وخاصة القوميتين الالمانية والايتالية — فى القرن التاسع عشر ، وفى تحقيق عمليات التحرير والتوحيد لشعوب عديدة منها الشعب العربى •

اى تاريخ يدرس :

انطلاقا من هذه الحقائق يلاحظ أيضا ، ان الدول المستعمرة فرضت تدريس تاريخها على الشعوب الواقعة تحت سيطرتها ، سواء بلغتها الاجنبية او حتى باللغة الوطنية (كالدول المحمية أو الواقعة تحت الانتداب) • وبالمقابل اهملت التاريخ الوطنى للاهالى Indigènes أو ادمجته بتاريخ مناطق اخرى • وبذلك اصبح الطالب فى البلاد المستعمرة يعرف أدق التفاصيل عن تاريخ نابليون بونابرت وفتوحاته ، أو عن تاريخ عصر الملكة فيكتوريا الاستعمارى — مثلا — وعن تضاريس أوربا وجبالها وطول انهارها وتعداد مدنها ، اكثر مما يعرف عن تاريخ قطره ، أو عن طبيعة بلاد جيرانه الافريقيين الذين تشده اليهم أوثق روابط اللغة والدم والدين والتاريخ المشترك •

لم يكن تدريس التاريخ لابناء الجزائر يندرج فى ضمن هذا المخطط فحسب ، بل يتميز ايضا فى ان المستعمر انفرد بفرض لغته سواء فى تدريس هذه المادة ، أو فى تأليف كتبها ، أو فى اختيار مواضيعها واساتذتها • فانحسرت اللغة الوطنية بالضرورة عن ميدانى التاريخ والجغرافيا شأنها فى ذلك شان بقية العلوم الاخرى • ومع مرور الزمن غدت كتابة التاريخ والبحث عن مصادره المادية والاثرية وقفا على المؤرخين والاثريين واللغويين الفرنسيين والاجانب • وعشية استقلال الجزائر لم يكن عدد المختصين فى التاريخ من ابنائها — حتى باللغة الفرنسية — يتجاوز اصابع الايدى • أما بالنسبة لكتابة التاريخ باللغة العربية فقد وجدت

4) هنرى جونسون ، تدريس التاريخ ، ترجمة الدكتور ابو الفتوح رضوان ، القاهرة 1965 ، ص (ى — ك) ، المقدمة

محاولات ضئيلة لطرق هذا الميدان من قله مـــن الافراد الغيورين على تاريخ بلادهم ، وعلى تثقيف أبنائهم بلغة آبائهم وأجدادهم ـ أمثـال الاستاذ مبارك الميلي والاستاذ دبوز وغيرهم ... ويعبـر الاستاذ الميلي في مقدمة كتابه (تاريخ الجـــزائر في القديم والحديث) عن الوضع المؤسف لتأليف التاريخ بالعربية أنذاك : « انى لست من فرسان هذا الميدان ... ولم يحملنى على الخوض فى هذا الموضوع الهام غير الشعور بواجب خدمة الوطـن وقراء العربية طالبا من اهل المقدرة والدراسـة الا يجهلوا كبر ما عليهم من المسؤولية امــــام الوطن والعربية ، وان لا يجعلوا ـ بتفريطهم فى نشر هذا الفن ـ حظ الجزائر منقوصا مغبونا» (5)

اهـداف تدريس التـاريخ :

للتاريخ اهداف عديدة متشعبة سواء فـــى المجالات القومية او التربوية لا حاجة لحصرها فى هذا البحث منهـا : ان يلـم مواطن المستقبـل بمعرفة للظروف التى تطـور فيها المجتمــع . فالتطور عملية مستمرة لها مقـدمات ونتـائج ، تولدت من شىء سابق الى شىء لاحق . والتاريـخ بالمثل حركة مستمرة الحاضر فيها يختلف عـــن الماضى ولكنه وثيق الصلة به بحيث لا يمكـن ان يوجد نظام جديد للاشياء يستطيع ان يقطع صلته بالماضى ويقفز الى صورة جديدة ليس لها مقدمات (6) . وبكلمات اخرى يستفاد من التاريخ لكى يرى المواطن بوضوح اكثر فى المواقف الـــتى تستدعى منه استجابة معينة ولكى يتمكن المواطن من معرفة ما عليه عمله ، يتوجب عليه ان يعرف المكان الذى يقف فيه .

اما على الصعيد القومى فان تعليم التاريـــخ فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والثـانوى يراعى الهدف العام للتعليم وهو : خلق المواطـن المحب لدولته وللامة التى ينتسب اليها . وفـى تقرير اعد لمدارس المعلمين فى فرنسا ، تتضـح روح تعليم التاريخ فى الجملة التالية : « من بـين كل المواد التى تعلم فى المدرسة نجد ان التاريـخ مع الاخلاق والتربية الوطنية أقوى عامل يمـــكن ان يوحد ارادة الامة » . ويتم التوحيد على افضل وجه عند ما يتاح للمواطن ان يدرس بشـــكل سليم تاريخ بلاده وان يقارنه بتاريخ الشعـــوب والحضارات الاخرى ، فتتولد لديه الرغبة الاكيدة لمتابعة البناء ودفع التطوير فى الحاضر ومن اجل المستقبل . وبذلك يكون المواطن نتاج التاريـــخ من جهة ، وقوة احداث الحوادث الحاضرة من جهة اخرى ، وهو فى الحقيقة همزة الوصل بينهما .

يلاحظ ان مثل هذا التفاعل الخلاق والهـادف بين المواطن الجزائرى والتاريخ كان معدوما خلال الحكم الاستعمارى . وذلك لاسباب عديدة نورد منهـــا :

1 ـ كرس المؤرخون الفرنسيون جهودهم لتبرير استعمار الجزائر واضفاء الشرعية عليه ، وخدمة

5) مبارك بن محمد الهلالى الميلى ، تاريخ الجزائر ، الجزء الاول ، مكتبة النهضة الجزائرية ، ص 12

6) هنرى جونسون ، نفس المرجع ، ص 64

الادارة الاستعمارية وذلك بحكم انتمائهم الـى الشعب المستعمر • وكان تاريخ الاستعمـار الروماني للمغرب مصدر وحي واقتـداء للعديـد منهـم •

2 ـ تم اهمال التاريخ الوطني الجزائري وتطور مجتمعاته سواء في عملية التاليف والبحث او في عملية التعليـم •

3 ـ بذلت محاولات مستمرة لقطع الصـلات التاريخية والجغرافية بين الجزائر وبقية العالـم العربي • وتجنبت الاشارة الى كل ما يمت الـى العربية او الى المجتمع العربي بصلة • فحلت مثلا اصطلاحات شمال افريقيا والشرق الاوسـط بديلا للتسميات الاصلية للمشرق والمغرب العربي كما اغفل ذكر الحركات التحررية والتطـورات الاخيرة التي طرأت على التاريخ العربي المعاصر •

4 ـ زرعت التفرقة واضعف الشعور بالوحدة الوطنية والدينية لدى المواطن عن طريق القـاء الظلال على مرحلة من ازهى مراحل التاريخ المغربي وهي المرحلة الاسلامية ، التي اصبحت تسـمى « بالقرون الغامضة » • ويظهر جليا تعمد المؤرخين الفرنسيين في تقديم الجانب السلبي « للفتـح العربي الاسلامي » و « للغزوة الهلالية » •

5 ـ التشكيك بالثورات التحررية التي خاضها الشعب الجزائري عبر الزمن والتقليل مـن دور وطنية قادته ، ورميهم بالتعصب •

6 ـ انعدام الكتاب العربي والاقتصار فـي كتب التاريخ على تلك المؤلفة باللغة الفرنسيـة •

كما كان الاهتمام بالتاريخ السياسي ـ وخاصه لتاريخ أوربا ـ يتم على حساب التاريخ الحضاري العـام •

التعريب (أو لغة التاريخ)

لاسباب عديدة كان من الطبيعي ان يحدث في الجزائر اثر انتزاع الاستقلال ، شيء مشابه لما تم في عهد الخليفتين الامويين عبد الملك وابنه الوليد• ونعني بذلك عملية التعريب التي فرض الامويون اللغة العربية لغة رسمية لدواوين واعمال الدولة العربية الاسلامية بدلا من اللغتين اليونانيـة والبهلوية الغريبتين على المجتمع العربي • ولقـد تميز الاستعمار في الجزائر بجهده الدائب منـذ عام 1830 لتغريب اللغة العربية في بلادها ، بعد ان فقد الشعب حريته وسيادته في وطنه • وعلى الرغم من المستعمرين نجحوا في مسعاهم عـلى الصعيدين الرسمي والثقافي ، عجزوا عن مسح اللغة العربية من صدور السنة أهلها • فهي لسان الملة ، ولغة القرآن ، ووعاء الحضارة الاسلامية •

والآن والجزائر المستقلة تجابه بكل تصميـم موضوع التعريب لا بد من تقرير حقيقتين هامتين :

1 ـ ان التعريب في الجزائر لا يقل أهمية عما تصدى له من قبل خلفاء بني أمية في دمشق •

2 ـ ان اصطلاح التعريب قد يفقد شيئا من مدلولاته الحقيقية اذا نظر اليه البعـض وكأنـه مرادف لعملية « الفرنسة » التي كانت تمارس في ظل الاستعمار • ولعله من الانسب الحديـث عن عملية استعادة اللغة الوطنية العربية «Restauration»

عند التصدى لموضوع استعادة اللغة الوطنية لمكانها الطبيعى فى المجتمع ـ وفى الثقافة على الاخص ـ يتبادر الى الخاطر أول ما يتبادر ان يكون التاريخ ـ والتاريخ الوطنى خاصة ـ أول ما ينبغى «توطينه» اى اعادة كتابته وتدريسه باللغة الوطنية. لقد كتب هيرودوت « ابو التاريخ » تاريخ الامة الاغريقية وعلاقاتها بالشعوب الاخرى باللغة الوطنية الاغريقية ، وكذلك فعل زملاؤه توكيديدس وبوليب ، وبالمثل اختار المؤرخون اللاتنيين امثال «تيت ـ ليف» و«سالوت» لغتهم اللاتينية لكتابة تواريخهم الشهيرة • اما المؤرخون العرب من الطبرى الى البلاذرى والمسعودى • الخ فقد خلدوا التاريخ العربى الاسلامى بمؤلفاتهم القيمة والتى لم يختاروا غير العربية لغة لها • وهكذا كان حال المؤرخ مومسن الالمانى ، وجيبون الانكليزى كل كتب التاريخ بلغته الوطنية وبها درس • وبهذه اللغة العربية كتب شيخ المؤرخين العرب الموسوعى ابن خلدون ، وحدد مفاهيم التاريخ والاجتماع ••• (7) ووضع لها مبادىء ما زالت رائدة للعلماء التالين حتى ان المؤرخ الاوربى المعاصر أرنولد توينبى يعرب عن رغبته الاكيدة فى ان تكون له شخصية المؤرخ العربى ابن خلدون من بين كافة المؤرخين (8) •

يتبين من الامثلة المتقدمة ان الشعوب حرصت على كتابة التاريخ بلغتها الوطنية ، وعلى تدريسه لاجيالها بهذه اللغة اعتزازا باللغة ، واجلالا للتراث ورغبة فى سهولة الفهم • ولم يمنع ذلك بالمقابل من وجود كتب للتاريخ وابحاث بلغات اجنبية تغنى البحث التاريخى • ولهذه الاسباب يضطر الباحثون اليوم الى تعلم اللغات الاغريقية واللاتينية لدراسة وفهم تاريخ وحضارة هذين الشعبين ، مثلما يحتاجون الى تعلم العربية لدراسة التاريخ العربى ـ الاسلامى ، وعلاقات العرب بالحضارات الاخرى •

المسائل الناجمة عن تعريب التاريخ :

للتاريخ اليوم اختصاصات محددة وفروع يحرص الباحثون على الالتزام بها • فهنالك ما قبل التاريخ ، والتاريخ القديم ، والوسيط ، والحديث، والمعاصر • ويتميز تاريخ المغرب باتضاح كل من هذه المراحل فيه • وتكاد المصادر العربية تكون متوفرة فيها اعتبارا من العهد الاسلامى ، وتقل نسبيا فيما يخص حقبة التاريخ الحديث والمعاصر• ولهذه الحقبة مصطلحاتها وتقسيماتها ومؤرخوها وفيها كتب وفيرة باللغة العربية , او مترجمة اليها من مؤلفين اجانب وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاوربى الوسيط أو الحديث • وبالمقابل تشكل حقبتا التاريخ القديم وما قبل التاريخ ثغرة فى المكتبة التاريخية العربية • وقد بدأ المؤرخون العرب عقب استقلال الدول العربية بالتخصص فى هذه المواضيع كالتاريخ المصرى القديم ، والرافدى ، والكنعانى ، والكلاسيكى

7) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 2 ـ 16

8) ارنولد توينبى ، حديث من محطة الاذاعة البريطانية ، أوت 1972

... الخ · وساير الاهتمام بها التعمق في ميداني علم الآثار واللغات القديمة التي تعتبر المصـــدر الرئيسي للتاريخ القديم · وهي دراسات لم تبدأ في أوربا ايضا وبشكل جدي الا في القـــرون الثلاثة الاخيرة · ورغم ان دراسات التاريخ القديم وعلم الآثار جديدة على المكتبـة العربية نسبيا ، هنالك محاولات مستمرة للبحث والتأليف فـي هذه المواد · وقد وجد الباحثـــون في مفردات اللغة العربية الفنية مقابلا ، وامكانيات اشتقاق او توليد لكثير من المصطلحات الفنية والعلميـة التي يستخدمها العلماء الاوربيون · كما أخذت تظهر معاجم باللغة العربية نشرتها المجامـــع اللغوية في سوريا ومصرلترجمة هذه المصطلحات· وهي تساعد الباحثين على الوصول الى المرادفات وعـــلى توحيـــد المصطلحات نفسهـا في الاقطار العربية (9) · ولتكتمل المكتبة العربية يجـرى حاليا الاستعانة بامهات الكتب في التاريخ القديم وعلم الآثار المؤلفة بلغة اجنبية ، وترجمتها الى لغة عربية سليمة · فتسدحاجةالطالبأو الباحث· غير ان هذا العمل المؤقت لن يغني عن ان يمارس أهل المغرب أيضا البحث التاريخي والاثري في مخلفات الحضارات التي عاشت على ارضهم وان تنشر نتائج هذه الابحاث وفق الاساليب العلمية المتبعة في العالم · هذا العمل يتطلب بالضرورة اعداد المختصين في حقول التاريخ المختلفة نظرا لضخامة التراث الحضاري المتوفر في الجزائـــر وفي المغرب عامة ·

يطرح تعريب مادة التاريخ مسائل عديدة · اذ لا تقتصر العملية على مجرد نقل المعلومـــات التاريخية من لغة الى أخرى ، أو مجرد تدريسها للطلبة بلغة بدلا من أخرى، بل انها تشمل سلسلة من الاجراءات والتدابير مترابطة الحلقات ، متكاملة الاثر يمكن عرضها باختصار على الوجه التالي :

ا ـ تدريس التاريخ :

في نطاق تطبيق سياسة احلال اللغة الوطنية في مراحل الدراسة ، تصدت وزارة التربيـــة الجزائرية بنجاح كبير لعملية تدريس التاريـــخ بالعربية · وقد ساعد في ذلك والى حد كبـــير توفر عنصرين هامين :

1 ـ نشر المعهد التربوي الوطني لمجموعـــة من كتب التاريخ المدرسية تغطي حاجات الدراسة الاولية حتى الثانوية (10) · وقد اعدت الكتب وفق مخطط عصري يراعي الناحيتين التربويـــة والعلمية ، اضافة الى التأكيد على الجانب الوطني في تكوين الطالب · وهي جهود مشكورة تستحق التقدير · واغلب الظن ان القائمين على هـــذه السلسلة الهامةسيحاولون في المستقبلالاستفادة من اعادة طبع الكتب ، لتنقيح بعض ما ورد فيها مناخطاء مطبعية،أو لغوية أو تاريخية· واستكمال بعض المواضيع الاخرى ·

---

9) راجع يحيى الشهابي ، معجم المصطلحات الاثرية ، دمشق 1967

10) اصدر المعهد التربوي سلسلة من كتب التاريخ المدرسية تحت اشراف الاستاذ جموعي مشري المفتش العام للتاريخ

2 ـ تم التكامل فى تدريس التاريخ بين نشر الكتب المدرسية المشار اليها ، واقبال الجامعات الجزائرية على تطبيق تعريب التاريخ ثم الجغرافيا فى معاهدها • وبذلك امكن تخريج عدد مـــن المجازين فى الآداب سنويا يسدون حاجات التعليم الاعدادى ـ الثانوى للاطارات المؤهلة . وقد تـــم تخريج أول دفعة منهم عـــام 1969 ، وما زالت اعدادهم تتزايد سنويا بشكل ملحوظ يؤدى الى الاكتفاء الذاتى من جهة ـ والى تزويد التعليـــم باساتذة على قدر كاف من المعرفة التاريخيـــة واللغوية •

3 ـ **اصلاح التعليـم الجامعى** : كانت عمليتا التعريب ، وتطوير التعليم الجامعى تطويرا عصريا فى طليعة الاهداف التى توخاها الاصلاح الجديد • فقد قضى فى ميدان تدريس التاريخ على ازدواجية التعليم (بلغتين) واقتصر على تعليم التاريـــخ باللغة الوطنية فقط•كذلك استبدل الاصلاح نظام الشهادات القديم بأطره الجامدة ، بنظام الفصول المرن والمتعدد الفوائد • فأضيفت الى البرنامـــج الجديد علوم مكملةللتاريخ ! كالدراساتالاجتماعية والاقتصادية ، والتربية ، وعلم النفس ، والاعمال الميدانية ••• واهتم بابراز تاريـــخ المغـــرب بدراسته دراسة وافية فى كافة مراحله • وان نظرة مقارنة لما كان يحتويه برنامج التاريخ فى القسم باللغة الفرنسية مـــع ما يدرس حاليـــا بالعربية لتكفى لايضاح الفارق •

ويتمثل تطوير التعليم الجامعى ـ فى المرحلة الانتقالية الحاضرة ـ فى اعطاء الطالب عددا كبيرا من المحاضرات النظرية ، والاعمال التطبيقيـــة يتراوح مجموعها من فصل لآخر بين خمســـة وعشرين الى خمسة وثلاثين ساعة فى الاسبوع وقد يكون ذلك العدد الضخم لتعويض قصر مدة الدراســـة البالغـة ثـلاث سنـــوات اى ستة فصول ، للحصول على شهادة ليسانس التعليـم فى التاريخ (11) •

ولكى يحقق البرنامج الاصلاحى الجديد كافـة اهدافه فى مجال تعليم التاريخ كان من الضرورى توفير العناصر الاساسية التالية :

أ ـ وجود العددالكافى **من الاساتذة المختصين** والمساعدين • ولايتوفـــر الاساتذة فى كافـــة اختصاصات التاريخ ـ حاليا ـ فى كافة جامعات الجزائر بنسبة واحدة • وللتغلب عـــلى هـذه الصعوبة الراهنة , لا بد من الالتجاء الى وسيلتين مساعدتين : أولا اتباع التنسيق بتبادل الاساتذة والاستعانة بخبراتهم بين جامعـــات وهـــران وقسنطينة والجزائر • ثانيا : دعوة الاساتـــذة الزائرين من الجامعات الشقيقة والاجنبية لتغطية بعض المواد أو دعمها •

ثالثـــا : أما الاساتذة المساعدون فلا توفـــر الجامعة جهدا لانتقائهم بين المبرزين من الطلبـــة المتخرجين • واصبح هنالك عدد لا بأس به منهم ، يرتبط مستقبلهم العلمى بما سيتبلور عليـــه

(11) تبلغ مدة الدراسة فى جامعات المشرق اربعة سنوات للحصول على شهادة الليسانس (الاجازة فى الآداب) •

المشروع المعد لاصــلاح الدراسات العليا · وعلى هؤلاء المساعدين وعلى نوعيــة تكوينهم يعتمـــد مستقبل « جزأرة » التعليــم الجامعى وتكويـــن الاطارات العلمية الضرورية · وسنشير الى دورهم فى الحديث عن البحث العلمى ·

ب ــ كتب التاريخ الجامعية : لاسباب تتعلــق بطبيعة وروح التعليـــم الجامعى تعـــذر تأليف سلسلة من كتب التاريخ الجامعية فى الاختصاصات المختلفة ، تماثل ما قامت به وزارة التعليـــــم الابتدائى والثانوى · اذ ان الدراسة الجامعية لا تعتمد فى الاصل على كتاب واحد يقـــرر لجميـع الطلاب ، أو لكافة الجامعات ، بل تترك لكـــل استاذ عادة تدريس الكتب التى يفضلها · كذلك يتطلب لاعداد سلاسل الكتب الجامعية توفـــر الوقت ، لان الكتب المؤلفة هى نتيجة لا بحاث الاساتذة فى ميادين اختصاصهم خلال سنـوات التدريس · ومن جهة أخرى لم يتوفر لقســـم التاريخ الذى لم يمض على تعريبه بعض سنوات ــ فى الجامعات الجزائرية ــ كافة الاطارات المختصة التى يمكنها املاء هذا الفراغ · علاوة عـــلى ان الاساتذة المتعاونين يقومون بالتدريس لفتـــرات محددة · لهذا توجب اعتماد الطلاب الجامعيـــين على مراجع ومصادر من كتب التاريخ المؤلفـــة بالعربية فى جامعات ومعاهد المشرق والمغرب ، وهذه الكتب تقــوم فى وجه استيرادها صعوبات عديدة ، يقال بانها ادارية !

أما محاولات طبع الامالى أو ما يسمى بملخصات لمحاضرات الاساتذة المحاضرين ، فانها « شر لا بد منه » وحل مؤقت فيما اذا توفرت الامكانيات المادية والفنية : وفى مقدمتها عدد وفير مـــــن الضاربين على الآلة الـكاتبة ، وجهاز للمراقبــة والتوزيع · **لان الامالى لا يمكن ان تكون بديلــة للكتاب الجامعى** ــ خاصة وان الاولى غالبا ما تصدر حافلة بالاخطاء المطبعية ، اضافة الى كونها بحد ذاتها ليست على مستوى الكمـــال فى البحث · والواقع ان الطلاب يقتصرون غالبا على وريقات الامالى ، ويستغنون بها عن الرجوع الى المصادر والمراجع الضرورية لتكوينهم العلمى ·

ويلحق بمشكلتى الكتب والامالى ، مشكلـــة الاطالس التاريخية والخرائط ، والصور الضوئية الملونة Diapositive وأرشيف جيد للوثائق التاريخية التى يساهم توفرها فى انجاح البرنامج التعليمى ، وفى اعطاء تعليم التاريخ فى الجامعــة طابعا عصريا يضاهى المستويات التى وصلت اليها الجامعات الاخرى ·

حـ ــ يعتبر الطالب العنصر الثالث والهـــام فى التعليم · وان كان التعريب قـــد استهدف بنجاح كلّا من المناهج والاساتذة ولغة التدريس من خلال عملية اصلاح التعليم العالى ، فانه شمل بالمثل الطالب نفسه · هذا الطالب الذى اصبح يصل الى الجامعة بعد انهائه للدراسة الثانويـــة ، وقد تعلم معظم مواد دراسته باللغة الوطنية · الا ان هنالك عددا لا بأس به أيضا من الطلبـــة يصلوا الى الجامعة ــ بحكم المرحلة الانتقاليـــة الحاضرة التى يمر بها التعليم الثانوى ــ يصلوا

من مدارس يمارس فيها ثنائية اللغة فى التدريس. ويلاحظ الاساتذة الجامعيون ضعف هؤلاء الطلبة فى اللغة العربية . ويشمل هذا الضعف ايضا بعض الذين درسوا بالعربية . ومن البديهى ان يكون اتقان اللغة الوطنية شرطا اساسيا لفهم المحاضرات ، وقراءة المصادر وكتابة الابحاث ، وخاصة فى الاعمال التطبيقية وفى الامتحانات ، ثم فى ممارسة التعليم فيما بعد للاجيال الجديدة . ولهذه الغاية لعله من الضرورى تخصيص ثلاثة ساعات مسائية أسبوعيا يجبر الطلاب على الاشتراك فيها — تحت اشراف قسم اللغة العربية — لتقوية طلاب الفصول الاولى باللغة العربية (12) بمواد اختصاصهم . وذلك اسوة بالدروس المخصصة لتعليمهم اللغة الاجنبية والمقررة فى البرنامج .

يتميز المنهاج الاصلاحى بالمرونة والبعد عن المركزية ، وخاصة عندما يترك للوحدات البيداغوجية — التى اشترك فيها الى جانب الاساتذة ممثلون عن الطلبة — مجالا واسعا لمراقبة تطبيق البرنامج الجديد على الطبيعة . كذلك عندما ترك لهم اعداد الدراسات والملاحظات التى تضمن تعديل المنهاج بما يتلاءم مع حسن اداء مهمته . واعطى للاساتذة المشرفين والمنسقين صلاحيات عديدة الغاية منها اضفاء التطور المستمر والحيوية على الدراسة الجامعية . ومن بين الملاحظات التى تجمعت على ضوء التجربة العملية خلال السنتين الفائتتين ، يجدر تقديم النقاط التالية بالنسبة لمادة التاريخ عامة :

1 — حدث فصل بين التاريخ والجغرافيا ، ومن الضرورى اعادة ادخال مواد من الجغرافيا فى عداد المواد المكملة للتاريخ والعكس بالعكس بالنسبة للتاريخ . ذلك ان حامل لسانس التعليم فى التاريخ أو فى الجغرافيا مطالب بالضرورة بتدريس كلا المادتين فى المدارس الاعدادية والثانوية ، علاوة على العلاقة الوثيقة بين العلمين.

2 — هنالك ميل لدى الاساتذة والطلاب لطلب الاقلال من عدد المحاضرات وفى المواد التكميلية خاصة ، التى تكاد تطغى على الدراسات التاريخية نفسها فى الفصل الاول .

3 — جعل مادة علاقات المغرب الحضارية مع الشعوب الاخرى (فى الفصلين الخامس والسادس) مادة الزامية لكافة طلبة التاريخ ، ورفع عدد المحاضرات المخصصة لمراكز الحضارات الاولى فى الشرق القديم وفى مصر الى محاضرتين لكل وحدة منهما (الفصل الاول) .

4 — اعادة النظر فى توزيع بعض مواضيع التاريخ بشكل يتناسب مع عناوينها من جهة ومع عدد الساعات المخصصة لكل منها من جهة أخرى ، مع مراعاة التوازن والتسلسل فى المواد.

5 — تخفيض عدد الساعات التطبيقية فى الفصول الثلاثة الاولى نظرا لقلة خبرة الطلاب المبتدئين ، ولوجودهم المستمر يوميا فى قاعات المحاضرات . وبالمقابل تخفيض عدد ساعات المحاضرات فى الفصول النهائية . اذ ان الاعمال

التطبيقية تتطلب قضاء وقت كبير في المكتبات . وتستهدف تنمية القدرة الذاتية للبحث لدى الطالب ·

6 ـ توفير كتب الدراسة والمراجع باللغة العربية والاجنبية للطلاب ·

7 ـ الغاء تقييد ليسانس التاريخ «بالتعليم» ، وفتح مجال البحث العلمي والعمل للخريجين في مرافق الدولة : كالدبلوماسية ، والآثار ··الخ·

5 ـ تحقيق التفاعل الخلاق بين الطالب ومجتمعه :

لا نبالغ اذا قلنا ان نجاح التعليم في خلق التفاعل المثمر يتوقف على الخطوة الاولى التيخطاها الاصلاح الجامعي وهي : استعمال اللغة الوطنية ـ التي رضعها الطفل مع لبن امه ـ واسطة لتلقي المعرفة · وتتميز العلوم الاجتماعية بانها تتعرض اكثر من غيرها لعلاقة المواطن بالمجتمع · والتاريخ بالذات يضع النقاط على الحروف بالنسبة لمواضيع هامة وفيرة مثل : الحرية . العبودية ، الاستعمار ، الاستقلال ، التطور ، العدالة الاجتماعية ، الثورة ··· الخ · من المفاهيم ·

أما الخطوة الثانية فتكمن في ضرورة توفير مناخ جامعي وحياة جامعية تنعدم فيها الحواجز المصطنعة بين الطالب وزملائه ، وبين الطالب واساتذته · فيتم عن طريق اللقاءات والندوات والرحلات والاعمال الجماعية (او في نادي للطلبة والاساتذة) تبادل الافكار وتحليل وتفهم ووعي مشاكل المجتمع ومواضيع الساعة · ولقد أظهر اقبال الطلبة الجامعيين على موضوع حيوي كموضوع الثورة الزراعية مثلا ··· أظهر جانبا من الجوانب الايجابية العديدة التي حققها اصلاح التعليم الجامعي · ولسوف تعرف هذه البادرة الطيبة آفاقا أوسع عندما تتدعمبمزيد من توجيه الاساتذة وبالتفافهم مع ابنائهم الطلبة حول أماني الشعب لتحقيق المشاريع الضخمة التي وضعها قادة ثورته ·

ج ـ البحث العلمي

قدمنا في بداية هذا البحث المتواضع صورة عن الوضع المؤسف الذي كانت عليه ابحاث وكتابة التاريخ بالعربية في العهد الاستعماري · واذا كان من مهمات الجامعة حاليا ان تعد وتخرج اساتذة للتاريخ يملأون اطارات التعليم في الجزائر ، فان **مهمة الجامعة بالنسبة للبحث العلمي أساسية ومستمرة** · وفي الجامعة يمكن توفير المناخ المناسب لنشوء الابحاث التاريخية : الجزائرية ، والمغربية ··· الخ · واعداد العاملين فيها ·

واذا كان من المهم تدريس وبحث التاريخ باللغة الوطنية . فان من الاهم اعطاء هذه الفعاليات فرصة للنجاح ، وجعلها تبلغ مستوى الدراسة باللغات الاخرى ، وذلك بوضع اطارات ومناهج ودرجات الدراسات العليا في الجامعة على المدى البعيد وبشكل واضح·كذلك يتوجب انشاء المعاهد التي تتخصص في كل ميدان من ميادين البحث

التاريخى • وما اعظم الفراغ القائم فى هـــــذا المجال (13) • نعم ينبغى انشاء « **معهد للدراسات التاريخية المغربية فى الجزائر** » يستوحى العاملون فيه نشاطاتهم من محاور ثلاثة اساسية : مغربية ، عربية – اسلامية ، متوسطية ويشمل فروعـــا للاختصاصات التالية :

– الدراسات ما قبل التاريخية والمغربية •
2 – الدراسات التاريخية الاسلامية – العربية
3 – دراسات تاريخ حوض البحر المتوسط
4 – الدراسات اللغوية القديمة •
5 – الدراسات الأثرية •

ويضاف الى هذه الفروع دار للوثائق التاريخية اما الكتب والدراسات والمجلات التى ستصدر عن هذا المعهد باللغة العربية وباللغات الاجنبية الاخرى ، فستكون الدليل الحى والمستمر – عـلى الصعيدين الوطنى والعالمى – على نجـاح الجهـود البناءة التى بذلتها الثورة الجزائرية فى مضمارى اعادة الاعتبار للغتها الوطنية ، وتطوير التعليـم العالى • وفى كليهما اثبات دور الجزائر , الطليعى لا فى المغرب فحسب ، بل وبالنسبـة للقـــارة الافريقية •

---

13) نرى من الضرورى لفت انتباه القارىء الى الاهمية الكبرة الى توليها اسرائيل لتدريس التاريخ والعلوم الانسانية (باللغـة العبرية وانشائها العـدد الضخم من المعاهد ودور الوثائق التاريخية التى تمارس بحث تاريخ الشعب اليهودى وعلاقاته بالمناطق وبالشعوب الاخرى . راجع : شؤون فلسطينية ، ابريل 1972 ، ص 143 – 176 •

دور الألسنية في المساهمة في التعريب

صالح القرمادي
مدير بحوث قسم الالسنية
التابع لمركز الدراسات والبحوث
الاقتصادية والاجتماعية
– تونس –

تواجه بلدان المغرب العربي في الفترة الراهنة من تاريخها مشكلة هامة جدا يتوقف عليها تطورها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي عنينا مشكلة التعريب ذلك الواجب التاريخي الحتمي الذي لا مناص من تحقيقه لاستعادة مستويات الذات الآيلة وبناء مستويات الذات المجددة المتحركة على أساسها .

بحث قدم الى المؤتمر الثاني للتعريب المنعقد بالجزائر من 12 الى 20 ديسمبر 1973 .

فكيف سيتسنى لهذه البلدان ان تتجـــاوز مرحلة التفكير والتردد التى دامت طويلا فتتخذ لنفسها فى اقرب الاجال سياسية لغوية رضينة منطقية منظمة مخططة تكون غايتها تعميم استعمال اللغة القومية الوحيدة فى هذه الديار ، أى اللغة العربية فى جميع مستويات حياة البلاد ٠

وكيف ستتمكن فى نفس الآن من ادخـــال التعديلات والتحويرات التدريجية اللازمة فـى تعليم اللغات الاجنبية من انجليزية وفرنسيــة وروسية وألمانية واسبانية وايطالية ٠٠ باعتبارها أداة هامة ــ وان كانت ثانوية بالنسبة الى اللغة القومية تسمح بالتفتح الضرورى عـــلى العالــم العصرى ؟ وقد احتد النقاش الايديولوجى فى بلدان المغرب العربى حول مسألة التعريب (I) منذ الاستقلال وحمى وطيس الحرب القلمية فـى هذا الشأن بين مختلف الفئات الاجتماعية والثقافية المتعايشة فى صلب المجتمع المغربى ــ فمـــن مدافع عن التعريب التام فورا الى ذائد عــــن ازدواجية اللغة ومن قائل بوجوب استعمـــال اللهجات الدارجة الى مناصر لفكرة الفرنكوفونية حتى ان المتصفح للصحف والمجلات المغربية اصبح يجد فيها جميع المواقف والانتماءات فى هـــذا الصدد ٠

وقد شرعت اقطار المغرب بعد الاستقلال ــ وهى مستمرة فى ذلك الى الآن ــ فى انجاز بعـــض التجارب فى ميدان التعريب اختلفت كما وكيفا من حيث درجـــة شمولهـــا وتخطيطها المنطقى ومنهجيتها العلمية فاختلفت بالتالى من حيـــث حظها من النجاح والدوام ٠

ويبدو فى هذا السياق ان اثبت تجربة قيم بها فى بلدان المغرب العربى هى التى تجرى الآن بالجزائر الشقيقة ٠ فقد ادرجت حكومة هـــذه البلاد منذ سنة 1968 فى رائدها الرسمى قوانين خاصة بالتعريب متبنية اياه بصورة رسميـــة باعتباره مهمة عظمى ينبغى انجازها ضمن برنامج انجاز المشاريع الحكومية الاخرى من ثورة زراعية واقتصادية وثقافية ٠

ومن الطبيعى فى مثل هذه الملابسات التاريخية وامام عظمة العمل الذى يستدعيه التعريب على أسس عصرية ناهضة ان تنفتح فى وجه الالسنيين المغربيين من مغاربة وجزائريين وتونسيين آفاق عريضة للنشاط العلمى وامكانيات لا تحصى للبحث والتصنيف من ذلك :

I ــ ميدان شاسع للتنقيب العلمى الاساسى فى حقل البحوث الالسنية مثل :

وصف كامل الواقع اللغوى والاجتماعى ــ اللغوى فى البلاد وصفا علميا دونما تفريط فى أى عنصر من عناصره ٠

ــ تحليل مختلف اللغات المتعائشة بالبلاد من الناحية الالسنية ٠

ــ القيام بدراسات مقارنة يقارن اصحابهـا فيها بين تراكيب مختلف هذه اللغات من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية المعجمية ٠

I) هذه المسألة هى موضوع دراسة مشتركة يقوم بها قسم الالسنة وقسم علـم الاجتماع التابعين لمركـز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية .

2 ـ امكانيات لاحد لها للقيام بانجازات عملية تجرى على هدى تعاليم الالسنية التطبيقية منها ٠

ـ المساهمة فى تعريب بعض الكتب المدرسية المستعملة فى البلدان المتقدمة والخاصة بالميادين العلمية من المعرفة مثل الحسابيات والفزيـــاء والكيمياء والعلوم الطبيعية والجغرافية الطبيعية وذلك قصد استعمالها فى المدارس المغربية ٠

ـ المشاركة اللغوية فى تحرير الكتب المدرسية القومية باللغة العربية وذلك فى المواد ذات الطابع القومى المغربى مثل التاريخ والجغرافية البشرية والاقتصاد والحقوق ٠

ـ المشاركة اللغوية فى اعادة تكوين المدرسين المغربيين للمواد العلمية من الناحية اللغوية وذلك بتلقينهم بسرعة ما يحتاجون اليه من قواعد العربية ويمدهم بالخصوص بقائمات من الالفاظ العربية المقابلـــة للمصطلحات الاجنبيـــة التابعـــة لاختصاصاتهم ٠

وفى حالة ما اذا تبنت جميع حكومات المغرب العربى التعريب باعتباره مهمة رسمية يتحتـــم تحقيقها فى نطـــاق مخططاتهـــا الاقتصاديـــة والاجتماعية والثقافية فوفرت للالسنين المغربيين ما يحتاجون اليه فى هذا المضمار من وسائل مادية وبشرية جبارة فانه يبدو لنا ان هؤلاء الاختصاصيين فى اللغة مستعدون الآن لجمع قواهم وتكثيـف جهودهم للمساهمة العلمية فى تحقيق التعريب بوصفه مشروعا قوميا عظيما باعثا على الحماس وما من شك فى ان جميع صعوبات التعريـــب الحقيقية الموضوعية من شأنها ان تذلل عن طريق مثل هذا العمل العلمى الثابت المثابر المخطـط تخطيطا عقلانيا رصينا والجارى فى نطاق برنامج حكومى واسع المدى لتنمية بلداننا تنمية عصرية متماشية ومقتضيات الحياة المتجددة ٠ هذا وان هؤلاء الالسنيين واللغويين المغربيين المتجمعـين الآن فى صلب معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر والمكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط وفى قسم الالسنية التابع لمركـــز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس قـــد شرعوا بعد فى التعاون والعمل المشترك ٠ وقد تم تكييف جهودهم بالخصوص فى نطاق البحث الخاص بوضع الرصيد اللغوى المغربى ٠

وفى نطاق هذه الدراسة المشتركة التى تظافرت عليها جهود الالسنيين المغربيين وكذلك فى نطاق البرنامج العام فى البحث العلمى الخاص بقســم الالسنية بالمركز نقدم اليوم لحضرات المؤتمريـن لمحة عن عمل هذا القسم ٠

لقد اسس قسم الالسنية التابـــع لمركـــز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعيـــة فى بداية سنة 1964 وما انفك اعضاؤه منذ ذلك الحين يعملون جهدهم فى سبيل تحقيق برنامـج مزدوج الهدف :

1 ـ **القيام فى مرحلة أولى واجبة** بابحـــاث علمية اساسية غايتها وصف الواقع اللغـــوى التونسى بجميع مقوماته من عربية فصحى وعربية دارجة وبربرية وفرنسية الخ ٠٠٠ وصفا علميا موضوعيا دونما تحيز للغة دون أخرى أو تفريط فى واحدة منها جميعا ٠

2 — القيام فى مرحلة ثانية واجبة كذلك بابحاث واعمال تطبيقية تتمثل فى وضع المعلومات والنتائج المتحصل عليها اثناء ابحاث المرحلة الاولى فى خدمة تطوير الواقع اللغوى فى بلادنا تطويرا عصريا وذلك بالمساهمة خاصة فى التعريب بوضع مواد ووسائل بيداغوجية جديدة اهمها كتب القراءة لتعليم اللغة العربية بالاعتماد على احدث الطرق التى جاءت بها معطيات الالسنية الحديثة .

ولقد تمكن قسم الالسنية باستعمال هذه المنهجية الرصينة من القيام بعدة دراسات وبحوث نشر عدد كبير منها بتونس نخص بالذكر منه ثلاثة كراريس يتعلق واحد منها بوصف فونولوجيات بعض اللهجات التونسية وآخر بالنظر فى الالفاظ المستعملة فى كتب القراءة العربية بالنسبة الاولى من التعليم الابتدائى وثالث بدراسة بعض مظاهر الازدواجية (أو الثنائية) اللغوية ببلادنا وكذلك البحث الهام الخاص بضبط الرصيد اللغوى أو ما يسمى بالعربية الاساسية . كما ان أعضاء القسم (2) عاكفون الآن على انجاز مشروع عظيم جدا يتمثل فى وضع وصف ألسنى جديد للغة العربية الفصحى الحديثة وذلك الى جانب أهتمامهم بتعريب بعض كتب الالسنة الاجنبية وبوضع معاجم مبوبة للمصطلحات العربية المستعملة فى ميدان الالسنية فى كامل البلدان العربية .

هذا وان نشريات قسم الالسنية التى كانت تصدر بالفرنسية بحكم بعض الظروف القاهرة الخاصة اصبحت الآن تنشر بالعربية فقط أو باللغتين العربية والفرنسية وذلك عند الاقتضاء ولتعميم الفائدة .

أيها السادة المؤتمرون :

انه ليبدو لنا ان مهمتنا الاساسية اليوم تتمثل فى محاولة الاجابة العلمية على عدة اسئلة يتساءلها مجتمعنا فى نطاق تطوره وفى قلق وحيرة لما لها من عظيم الخطر بالنسبة الى تجديد حضارتنا وشخصيتنا فى المستقبل .

فترى باية لغة يجب ان نثقف اطفالنا اليوم وغدا ؟ وما هى اللغة التى سيجد فيها الطفل العربى المغربى هويته المتطورة وكذلك وفى نفس الآن الفعالية اللازمة التى ستمكنه من الخروج من النسيان التاريخى الذى نا. عليه بكلكله ومن الطفو على صفحة التاريخ .

وفى الواقع فالجواب على مثل هذه الاسئلة ليس بان يقال : الامر بسيط اذ هذه اللغة هى العربية بداهة وانما بان يوضع سؤال آخر هو التالى : أية عربية ؟ فترى ما هى العربية التى ستكون لغة غدنا أى لغة يتكلمها ويفهمها ويكتبها ويقرأها كل فرد منا ؟ أفهل ستكون لغة القرآن أم لغة ابن قتيبة أم ابن منظور أم نجيب محفوظ أم على الدوعاجى أم لغة الاذاعة والصحافة أم لغة

2) وهم الآنسة زهرة الرباحى والاساتذة الطيب البكوش ورشاد الحمزاوى ومحمد المعمورى وعبد القادر المهيرى وهشام سكيك واحمد العايد ومحمد العونى وصالح القرمادى .

بعض القادة والزعماء العرب أم اللغة التىيتعامل بها الناس فى الشارع أو بالمنزل بل اللغة التى يتخاطب بها أعضاء مؤتمرنا الموقر اذا ما خلوا الى انفسهم بعد المناقشات والمجادلات ٠

سـادتى :

ان الجواب الرصين على هذه الامور لن يكـون الا عن طريق العمل العلمى الرصين المثابـــر المتوقف أولا وبالذات وفى نطاق مساعدةالحكومات على تعاون الالسنيين والعلماء والمربين ٠

على ان تكون الفكرة الاساسية التى نقتدى بها فى هذا المضمار هى التعريب قدر الامكان بـين مستويى لغتنا أى مستواها الفصيح ومستواها المستعمل الشائع بين الناس والجماهير العربية وذلكحتىيتسنى لنا شيئا فشيئا اتخاذ لغةمتكاملة تعبر عن جميع مستويات الحياة بما فيها من راق نبيل ويومى بسيط لغة يكون تركيبهـا الصرفى والنحوى والمعجمى تركيبالفصحى الحديثةالمبسطة وتكون فى نفس الوقت متفتحة قابلة عند الاقتضاء للدخيل من الالفاظ الدارجة والاجنبية الضرورية للحضارة ٠ وذلك حتى يكون التعريب ليس غاية جمالية فحسب وانما وسيلة اجماعية ثمينة تمكننا من الاتكاء على الماضى للقفز فى المستقبل وهضم التليد لاستيعاب الجديد وترك الجمود والاخذ فى الصعود ٠

والسـلام عليكـم



مشكلة اللغة والمجتمع

د. عبد الله شريط
كلية الآداب
جامعة الجزائر

موضوع هذا البحث هو اللغة والمجتمع من خلال التجربة الجزائرية .

فنحن هنا نشعر بضغط شديد تثقلنا به المشكلات الثقافية ازاء المجتمع ، لاننا منذ انبعاث الحركة الوطنية السياسية والحركات الاصلاحية الثقافية في بلادنا ، أي منذ الثلاثينيات ، تعودنا ان نربط بين هذه الحركات وشعاراتها ومنهجياتها من ناحية ، وبين وضعية الشعب التي نستمد منها الكثير من محتوى هذه الحركات من ناحية اخرى .

الطبقة الكادحة بصورة أخص ، يصورون بؤسها

وليس معنى هذا اننا قد وفقنا الى تخطيـط ما يسمى بالايديـولوجية الفلسفـة المتكاملـة ، وتطبيقها حسب مراحل مضبوطة ، وانما يرجـع السبب فى هذه « الشعبية » الى ان العنـاصر البشرية التى انبعثت منها فى الاصل هـذه الحركات كانت تنتمى فى اغلبيتها الى الاوساط الشعبية ، وحتى ان وجد من بينها من ينتمى الى وسـط ما يسـمى فى لغـة اليـوم بالـوسط البورجوازى (وأبرز مثل عليه هو الشيخ عبـد الحميد بن باديس) فانه ـ لكى يؤدى رسالتـه الاصلاحية الثقافية بصورة وافية ـ لم يلبث أن انسلخ عن وسطه الاجتماعى ، وعاش فى وسـط أوسع محيطا وأغزر محتوى اجتماعيا وانسانيا ، وهو المحيط الشعبى .

ولهذا المنزع الشعـبى فى نظرنا جـوانب ايجابية لا تنكر ، واهمها تحقيق اقتسام متساو نسبيا فى اشاعة روح اليقظة والنضج السياسى والفكرى بين الاطارات الوطنية على قلتها وبـين جماهير الشعب الواسعة على كثرتها .

ولكن كان لهذا الاتجاه ، الى جانب اسبـاب أخرى حضارية ، جوانب سلبية أهمها بقـاء اطاراتنا الثقافية فى مستوى متوسط لم ترتـق معه الى تخريج اعلام كبار ، من المفكرين والمثقفين، لانه لم يتح لها ان تنقطع للبحـث والتقـصى والحياة الفكرية الخالصة .

ومما ساهم فى تكوين هذا الاتجاه الشعـبى ايضا ان ضغط الاحتلال الفرنسى على الجـزائـر بلغ من الشدة والتوسع والارهاق حدا لم يبلغه أى استعمار فى أى بلد عربى آخر ، بحيث لـم يترك مجالا من الاختيار أمام الاطارات المثقفـة : أما ان تندمج فى تقاليد اجنبية تدين بالثقـافة للثقافة ، والعلم للعلم ، والفن للفـن ، واما ان يلقى بها على الهامش بعيدا عن الحياة الفكرية ، وقريبا من المحيط الشعبى المحروم من هـذه الحياة الفكرية حرمانه من الحياة المادية ، فـكان المثقف الجزائرى ، على ندرته فى عهد الاستعمار، مضطرا لان يعيش معه ان لم يكن متطوعا لذلك . وهذا ما جعل الانتاج الثقافى فى الجزائر منـذ الثلاثينيات الى الستينات ينطبع بطابع الـروح الشعبية سـواء منه مـا كتب باللغـة العـربية الفصحى او حتى باللغة الفرنسية .

فكانت الاطارات الثقافية فى الجزائر تتميـز من ناحية بروح شعبية نسبيا فى اتجاههـا وتكوينها الاجتماعى ، وتتميز من ناحية أخـرى بالمستوى المتوسط من حيث تكوينها وانتاجهـا الثقافيين .

وقبل ان ندخل فى تفاصيل هذا الوضع يجب ان نشير الى ان لنا فئتين من المثقفين : فئـة عربية اللغة ، وفئة فرنسية اللغة . وقليـل من ثقافة مزدوجة ، واذا كانت الفئة الثانية قـد ارتبطت بمجتمعها من حيث العاطفة والشعـور ومحتوى الانتاج ، فانها منقطعة عنه من حيـث أداة التبليغ الى هذا المجتمع : مولود فرعـون وكاتب ياسين ومولود معمرى ومالك حـداد ، يتحدثون فى رواياتهم كلها عن الشعب ، وعـن

الطبقة الكادحة بصورة أخص ، يصورون بؤسها وحرمانها وأميتها ، ولكن هذه الطبقة بالذات لا تعرف شيئا مما كتبوا ، وبالتالى فهؤلاء الكتاب معروفون فى الخارج أكثر مما هم معروفون فى بلادهم .

واما الفئة العربية الثقافة ، فهى تحمل نفس العاطفة ونفس الاهتمام بنفس هذه الفئة الاجتماعية الامية المحرومة ، ولكنها ليست اكثر اتصالا بها من حيث أداة التبليغ من الفئة الفرنسية الثقافة .

هذا واقعنا الذى نعيشه من حيث مشكلة اللغة منظورا اليها من زاوية علاقتها بالمجتمع ، ولكن هذا الموضوع كما تعلمون ، بالرغم من انه كان مطروحا فى المجتمع العربى منذ بداية الاختلاط فى العصر الاموى الى اليوم ، الا انه لم يبحث فى تراثنا بحثا وافيا باستثناء ابن خلدون والجاحظ ، بشكل غير مقصود .

وحتى فى تراثنا الحديث لم أعثر شخصيا على بحوث علمية فى هذا الموضوع ، فقد رجعت مثلا الى كتاب «اللغة والمجتمع» للدكتور عبد الواحد وافى ، وهو مختص فى علم الاجتماع الذى درسه فى اوربا من ناحية ، وفى علم اللغة الذى درسه فى الازهر من ناحية أخرى ، ولكننى لم اجد عنده حتى طرحا للمشكلة ، فضلا عن تحليلها ، وانما وجدت اشارات لقضايا جزئية عن اللغة العربية فى معرض الآراء الغربية عن لغاتهم ومجتمعهم ، من نوع استحياء اللغة العربية واللغات الاوربية الحديثة عند ذكر العورة ، وعدم استحياء اللغة اللاتينية عن ذلك ، وانتقال المعنى المجازى من المعنى الاصلى فى العربية ، او انتفاع اللغة العربية من اللغات الفارسية واليونانية فى بعض المفردات الى آخره .

كذلك يجب ان نشير هنا الى المعركة التى قامت فى وقت ما بين دعاة الفصحى ودعاة العامية ، او احياء بعض اللهجات الاقليمية كالفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والبربرية فى الجزائر والمغرب .

ولكن هذه الدعوات مثل الحملات المضادة لها ، لا تدخل فى ميدان البحوث العلمية بقدر ما تقتصر على نزوات سياسية عارضة لم تعمر اكثر مما تستحق ، ولم تستفد منها اللغة والمجتمع شيئا يذكر ، وبقيت المشكلة قائمة الى اليوم فى الوطن العربى كله ، ولكن على تفاوت ، وهى مشكلة انفصال لغة الثقافة لا عن لغة المجتمع فقط ، بل عن حياة المجتمع العربى برمته ، ونحن ازاء هذه المشكلة ما زلنا فى طور الاشارة اليها فى بعض البحوث ، والتشكى من وجودها ، دون مهاجمتها بالبحث العلمى المنظم ، فالاستاذ عبد العزيز بلال فى ملتقى شهر نوفمبر سنة 1970 ، بمدينة «لوفان» LOUVAIN يذكر : « ان العالم العربى عاش فترة تاريخية طويلة قبل ان يتغلغل فيه الاستعمار الاوربى على انظمة اقتصادية واجتماعية متجمدة ، كما عاش على ثقافة «متهرئة» وان احتفظت بمجدها التاريخى وصيتها الحضارى الذى كان للعرب » .

ان هذه الثقافة التى ادركتها الشيخوخة قد أصابها الشلل والقعود عن التقدم بسبب ثلاث متناقضات : تناقض بين اللغة المكتوبة واللغة المقروءة ، وآخر بين ثقافة ارستقراطية وثقافة شعبية ، وأخيرا تناقض بين مفاهيم وثوقية متحجرة ، واخرى مؤمنة بالتقدم العلمي والتقني» (انظر كتاب : نهضة العالم العربى ص 19) .

واذا كانت هذه الظاهرة تشمل الوطن العربى من المشرق الى المغرب ، فاننا نجدها أكثر استحكاما فى الجزائر للاسباب التى ذكرناها فى مطلع هذا البحث ، ولكننا لنفس السبب نجد الاهتمام بها ايضا بالغا أشده ، فبالاضافة الى كل ما يكتب عندنا فى الصحف والمجلات عن مشكلة التعريب ، ومعالجتها من مختلف الاوجه البيداغوجية والتقنية والاجتماعية والى النشريات والكتيبات التى تؤلف فى اللغة لمختلف الاطارات الادارية ، وللعمال والفلاحين ، وهى جهود كبيرة بالنظر الى انخفاظ المستوى الثقافى العام الذى عليه اكثرية القائمين به ، وبالنظر لتنوع المستويات من الجماهير المستهلكة لهذه النشريات والكتيبات ، ولتنوع ميادينها فى العمل ، مما يستلزم تنوعا فى التأليف ، او بالاضافة اخيرا الى الحملات التى لا تخلو من عنف والتى يقوم بها المثقفون بالعربية ضد تهاون الموظفين — خصوصا — فى بذل الجهد اللازم لتعلم لغتهم القومية ، حتى يستطيعوا الاتصال بمجتمعهم أكثر ، ويزول بينهم وبينه جدار اللغة الاجنبية وتخرج البلاد من فترة الازدواجية اللغوية التى تجتازها الآن فى الحياة الادارية على الخصوص وما يتبعها — أقول بالاضافة الى هذه الجهود التى لن تأتى بثمارها الكاملة الا بعد سنوات أخرى ، هناك مجهودات اخرى فى مستوى فكرى أرقى ، ودراسات جادة عميقة الاثر ، تتناول مشكلة اللغة عندنا من الوجهة الاجتماعية خاصة، ومرتبطة بضرب من الانديولوجية الشعبية الوطنية التى أشرت اليها فى مطلع هذا الحديث، وهو اتجاه متحرر من الديماغوجية الماركسية السطحية فى بعض اوساطنا ، أعنى فى الجزائر وفى العالم العربى كله ، مثلما هو متحرر من الديماغوجية الاخرى المقابلة ، وهى ديماغوجية عبادة الماضى بمحاسنه ومساوئه ، تلك التى ينظر اصحابها الى اللغة على انها معبد مقدس لذاته ، وليست أداة للتبليغ الثقافى لدى مختلف طوائف المجتمع .

هذا الاتجاه الشعبى القومى ، كما يمكن ان نسميه ، هو الذى اردت ان اعرضه عليكم كمثال عن معالجتنا لمشكلة اللغة والمجتمع عندنا ، وانا لا ادرى الى أى حد يتجاوب مع بقية البلاد العربية الاخرى ، وذلك نظرا لوضعية الجزائر الخاصة فى هذا الموضوع .

واحسن من يمثل هذا الاتجاه عندنا هو : الاستاذ مصطفى الاشرف ، فى دراسات قيمة نشرها فى عدة مجلات عالمية مثل «ايسبرى» و «الازمنة الحديثة» وقدم البعض منها الى مؤتمرات ثقافية عقدت عندنا .

يعتقد الاستاذ الاشرف ان ما دفع بالشعب الجزائرى الى اعتناق الثقافة الفرنسية ولغتها ، ليس هو كون هذه الثقافة ولغتها قد فرضتا عليه فرضا بقدر ما يرجع السبب الى ان الشعوب ذات التقاليد العريقة فى الثقافة مثل الشعوب العربية لا تستطيع ان تقبل الفراغ الثقافى بسهولة ، حتى ولو اضطرت الى سد هذا الفراغ بتبنى ثقافة ولغة اجنبيتين عند ما تنعدم وسائل التثقف بلغتها الوطنية ، كما وقع للشعب الجزائرى تحت الاحتلال الفرنسى .

وبالرغم من اننا فى مواجهة هذا العالم الحديث بثقافته العلمية ، بقينا متمسكين بجوانب من ثقافة القرون الغابرة ، وخاصة ما يتصل منها بالحياة الاخلاقية والروحية ، الا اننا فى هذه المواجهة لا بد لنا من ان نقيم موازنة عن شعور او لا شعور ، بين التراث الانسانى والدينى ، الذى بقى متحكما فينا ، وبين الضرورات الجديدة للدخول فى العالم المعاصر ، واللغة ليست فقط تراثا للامة ، بل هى بالاضافة الى ذلك أداة حركة للمجتمع الذى يريد ان يتنصل من العجز والتعفن

والجزائر حافظت طيلة عهد الاستعمار على لغتها المكتوبة التى تجمعها بالشعب العربى فى كل مكان ، كما حافظت على لهجاتها المحلية التى تستعملها لأغراض عملية بحتة ، وقد حافظت عليها بوسائل تعلم بسيطة احيانا ، فى الارياف والقرى والمدن ، فى المساجد ، والمدارس والزوايا وحتى فى المناطق التى لا يتكلم اهلها اى لهجة من اللهجات العربية ، بل يتكلمون بدلا من ذلك بلهجة بربرية ، ولكن لم يكتب لهذه اللغة يوما فى عهد الاستعمار ان تعلم تعليما رسميا ، بل هى ازيحت من ميدان التعليم الرسمى منذ سنة 1830 ، كما ازيحت كل الثروات الوطنية الاخرى واقيمت مقامها ثروات المحتل الاجنبى .

ان هذه العملية تولدت عن واقع ، هو واقع الاحتلال ، وهى يمكن ان تحل بأى بلد متطور كما تحل ببلد متخلف ، وبعبارة اخرى : حتى لو افترضنا ان الاستعمار الفرنسى لم يمنع تعلم اللغة العربية فى الجزائر ، فان مصيرها لم يكن ليختلف كثيرا عن المصير الذى آلت اليه بالمنع ، ونفس الامر كان سيحدث لهذه اللغة او تلك من اللغات الاوربية تحت الاحتلال الالمانى لو كتب له ان يمتد جيلا او جيلين،ولكن من سذاجتنا نحن فى فترة الكفاح الوطنى اننا كنا نعتقد مخلصين ان اللغة العربية فى بلادنا لو لم يمنعها المحتل من التعلم لاستطاعت ان تكسب كل خصائص اللغات العلمية المعاصرة ، حتى ولو بقى بلدنا فى المجالات الاخرى بلدا زراعيا متخلفا ، على ان خطورة هذه السذاجة ما زالت تلاحقنا الى اليوم ، وهو اعتقادنا بأن تخلصنا من الاستعمار الذى قضى على لغتنا مدة قرن وثلث القرن ، سيجعلنا بفضل الاستقلال ، وبدون اى جهد عقلى منظم ، قادرين على جعل لغتنا تحتل بصورة تلقائية مكانة اللغة العلمية فى ظرف عام أو عامين او عشر سنوات .

والحقيقة ان طابع التخلف الذى يطبع لغتنا العربية لم يأت من اساليبها البيداغوجية

الموضوعية التي بقيت دون تغيير ، ولا من محتواها الذي بقي جامدا تقريبا ، بقدر ما جاء هذا التخلف اللغوي من تخلف المجتمع العربي ازاء ظهور موقف آخر نشأ من الاستعمار والاحتكاك بالعالم الحديث .

ان هذا الوضع الثقافي الجديد الذي يضع لغتنا وثقافتنا وجها لوجه مع لغات الامم المتقدمة وثقافتها العلمية ـ هو الذي صير كل قيمنا اللغوية والثقافية فارغة من محتواها النفعي للمجتمع ، ومع ذلك فان هذا الفراغ لم ينقص من تشبثنا بها ، اننا لم نستطع ان نحقق التوازن العسير بين ما اكتسبناه من الماضي ، وما اكتسبناه من الاجانب بصورة عارضة مبترة، صيرته أخطر علينا من مكتسباتنا التقليدية . فسرنا في طريق يلامس الماضي والحاضر والمستقبل من بعيد ، دون ان يتوغل في اي واحد منها ، وهذا ما يفسر خطواتنا المتعثرة الصعبة الى الامام ، والتواء اعناقنا الى الماضي كاننا نودعه لاننا نعرف اننا لن نعود اليه ، وهو ايضا ما يفسر غموض الرؤيا واضطرابها عندنا في مجال اللغة والثقافة عامة مما نشأ عنه احيانا نتائج فاجعة في دخولنا* الى العالم المعاصر مع احياء تراثنا القومي .

ان وضعنا الثقافي اليوم هو وضع المصاب بالمجاعة تبدو عليه اعراض كل الامراض ، دون تحديد واحد منها بوضوح .

نعم ان لدينا بعض التكوين الايديولوجي السياسي ، ولكنه تكوين آلي فقير مرتجل ، لايمكن ان يغذينا او يقضي على مجاعتنا اذا لم يكن لدينا أساس من الثقافة مطبوع بالدراسة النقدية ، هذا فيما يتعلق بمشكل اللغة المكتوبة او الفصحى .

أما فيما يتعلق باللغة الشفهية التي يتكلمها المجتمع الجزائري ، فان الاشرف يريد ان يصحح أيضا وضعا كثيرا ما وقع فيه الخطا ، وهو يتعلق بما يزعم من ان اللغة الفرنسية طغت في الجزائر حتى على اللغة الشفهية التي تتكلمها الطبقات الشعبية ، والواقع ان الجزائريين لم يفتأوا يتكلمون لغتهم الوطنية ، أو ان شئنا لهجاتهم الوطنية ، لكن حدث ، وهذا من رواسب اخطاء حركتنا الوطنية ، ان رحنا نشتكي في معرض التنديد بالاستعمار الفرنسي ، بأن هذا الاستعمار لم يقض على تعلم اللغة الفصحة وحسب في بلادنا وانما قضى أيضا على لهجاتنا المحلية الشفهية نفسها التي تتكمها الطبقات الشعبية ، وهكذا شاع عنا في الخارج بأننا شعب مسلوب ليس فقط من سيادته السياسية وثرواته الاقتصادية وتراثه الثقافي ، بل هو مسلوب حتى في لهجاته اللغوية التي يستعملها في حياته اليومية ، وأن الاستيلاب في هذا الميدان لم يقف عند الطبقات المثقفة في استعمالها الثقافي ، بل تجاوزه الى طبقات الشعب البعيدة عن الاجواء الثقافية ، وقد ساهم في هذه التعمية للحقيقة ان بعض مثقفينا ممن درسوا في المشرق العربي ، كانوا لا يبعدون كثيرا عن الذين درسوا في بلاد الغرب

من حيث جلهم بالمشاكل الاولية لوطنهم ومجتمعهم فهم لا يكادون يلمون بعض الالمام الطفولي باللغة الفصحى حتى ينغمسوا في ضرب من اللاواقعية والتفنن السقيم يجعلهم يبدؤون علاقتهم الفكرية مع مجتمعهم باحتقار لهجته ، كما كان يفعل المثقفون حتى في اجتماعاتهم العلمية بلغة مجتمعهم التي يتكلمونها في حياتهم اليومية ، كما ينسون ان هذه اللهجات ظلت شائعة في مختلف المجتمعات العربية منذ اوائل العصر الاموي الى اليوم . واذن فلم يكن من الصواب ان ننقص من قيمة هذه اللهجات القومية العربية بمقارنتها مع اللغة الفصحى ، ولا ان نعتبرها من ناحية اخرى لغة قائمة بذاتها يجب ان ندرسها في مدارسنا ، وانما كان ينبغي فقط ان نعترف بانها واقع ، واقع لا يفيدنا شيئا ان نتجاهل وجوده ، ثم هي اداة تبليغ طبيعي في مجتمعنا ، ووسيلة اضافية لثقافة فرعية ذات تعبير شفوي، واذا كانت العلاقات بين القمة الثقافية والسياسية والادارية وبين القاعدة الشعبية تتعرض في أكثر الاحيان الى الاخفاق والنتائج السلبية وسوء التفاهم ، فذلك راجع الى حد كبير الى هذا التفاوت اللغوي بين القمة والقاعدة ، والى ان المثقفين لم يبذلوا أي جهد لتطوير اللهجة الوطنية التي هي لغة التخاطب بالنسبة لثلثي ابناء البلاد الاميين . ان تطوير هذ اللهجات لو قام به المثقفون بالعربية عندنا لساهم أكثر من أي وسيلة أخرى ، وهذا ما يغفل عند البيداغوجيون كثيرا ، في تهيئة من سيترشح لتعلم الفصحى من الصغار او من الكبار . اما الفائدة الكبرى التي تجنيها من هذا التطوير لو حدث أو يحدث يوما ، فهو انه يمكننا من مراقبة هذه اللهجات والسيطرة عليها وتوجيهها حتى تأخذ شيئا فشيئا طابع اللغة الثقافية او تنضم الى لغتها الاصلية ليصبح مجتمعنا يوما يتكلم كما يكتب ، ويكتب كما يتكلم ، ولكن مثقفينا بدلا من ذلك بقوا متشبثين بالتعالى عن اللهجات المجتمعية ، ولا ندرى في هذه الحالة كيف يمكننا ان نهيء هذه الجماهير المهملة لتطوير افكارها حتى تنسجم مع قمتها فيما تدعوها اليه من تطور علمي وتجربة ثورية .

ان النتيجة الحتمية لهذا الاهمال هو اننا نصدر تعليمات الى الجماهير اما بلغة اجنبية او باللغة الفصحى ، فلا تمس اكثر من 15 في المائة من السكان ، لان الـ 85 في المائة الآخرين لم يقرأ لهم أحد حسابا . ولاننا ما زلنا نصر عن وعي او عن غير وعي ، على ان اللغة حتى ولو بقيت غير مستعملة من اغلبية المجتمع ، فان قيمتها الذاتية تكفيها للحياة والتطور مع الزمن ، والمجتمع من ناحيته سيتطور علميا وسياسيا ، حتى ولو كانت اللغة التي يستعملها ويفهمها غير سياسية ولا علمية ، واللغة السياسية والعلمية لا يفهمها ولا يستعملها ، ووضعية كهذه من الافتقار لا تقود الا الى الفناء التدريجي للغة والمجتمع معا ، لان اللغة لا بد لها من مجتمع والمجتمع لا بد له من لغة يعيش كل منهما من

الآخر ويتغذى منه ويتفاعل معه ويكسب منه القوة على البقاء والتطور .

ان طريقة الفصل التى اتبعناها الى اليوم بين الاغلبية الكبرى من المجتمع وبين اللغة التى تغذيه ويغذيها علميا وسياسيا ، قد قعدت بنا فى عمر الفكر الميتافيزيقى ولم تستطع ان تنقل الى العمر العلمى ، وليس من التناقض فى شىء أن نزعم ان موقف المثقفين بالفصحى من اللهجات الشعبية انما اتاهم من عدم تمكنهم من اللغة الفصحى نفسها ، بالاضافة الى كونهم لا يعتبرون اللغة أداة عمل وبحث وتبادل ولا يعرفون ان تعاملها مع المجتمع هو الذى يثريها ويزيدها طواعية ومرونة وقدرة على التعبير ، ومما زاد فى فداحة هذه المشكلة عندنا فى الجزائر خصوصا ان اللغة الفصحى او المكتوبة ما تزال مطبوعة بطابع البلاغة اللفظية والتشبع بالمعانى الفلسفية، واللهجة الخطابية والنصائح الاخلاقية الكسولة التى تستعمل للاستهلاك اليومى ، مع شعور بالغيرة على اللغة الفصحى كشعور المؤمنين بالفن للفن ، فكان لهذه النظرة الجمالية للغة عندنا ان صيرت فائدتها لا تتعدى الجمال فى القول على حساب الفعالية والتبادل النفعى فى المعرفة ، أى صيرتها حبيسة فى عمر الطفولة لا تتعداه ، مشلولة عن القيام بحركتها الطبيعية التى هى التفتح نحو المجتمع والتحرر من ترف القدسية فى بلاد لا يجوز لها أى ضرب من ضروب الترف .

أما مشكلة المثقفين باللغات الاجنبية عندنا فان مجهودهم فى احسن الحالات ينحصر فى التبحر فى اللغات الاجنبية ومعرفة دقائقها فى العلوم ، كما لو كان الفكر العلمى لا يقتضى البحث العلمى ولا يستوجبه ، وانما يقف عند تعليم ما تعلمنا او نقله الى لغتنا ، والنقل نفسه لا يصحبه مفهوم واضح للعالم المعاصر ومكاسبه العلمية ، وهذه النظرة الضيقة للمعرفة تخنقها وتمنع عنها التنفس ، اننا فى هذا النقل الجزئى للمعارف نعيد طريقة بيداغوجية تقليدية تجعل التلميذ يقف امام الاستاذ وقفة المتلقى ، أو وقفة المهزوم امام المنتصر ، ذكر « ريشارد لومى » RICHARD LEMAY فى كتابه : « الترجمة من العربية الى اللاتينية » « ان الثقافة العربية بسبب كثافتها واشاعها فى اسبانيا الى نهاية القرن الثانى عشر قد خلفت وراءها كل المراحل والفترات الاخرى السابقة واللاحقة ، من حيث نقل المعرفة العربية الى الغرب ، ويرجع تفوقها فى الدرجة الاولى الى التلاقى الحاسم مع انتاج الفكر الساذج المتخلف من القرن الثامن اللاتينى ، فقد ظهر ما للتآليف العربية من الطواعية والقدرة على الوصول الى الذهن ، وبفضل أساليب النقل التى نضجت فى القرن الثانى عشر أمكن للفكر العربى الحديث اذاك ان يتسرب بسهولة الى الغرب ابتداء من القرن الثالث عشر ، فى حين ان هذا الفكر لم يأت بعد بكل ثماره الكاملة فى العالم الاسلامى » ثم يقول : وهذا ما يهمنا هنا ـ :

« ان الاتصال بالاسلام قد وضع حدا للعزلة والتأخر اللذين كان عليهما الفكر اللاتينى الغربى،وما استفاده رواد الفكر الغربى الاول من

الاتصال بالفكر الاسلامى لم يكن فيما احتوت عليه النظريات الاسلامية او مناهج بحثها ، بقدر ما كان فى اطلاقها لمواهب كانت فى الغرب معطلة مشلولة ، اذ بدأ هؤلاء الرواد الاول يقدرون بدقة وموضوعية اكثر ملاحظة الظواهر ، ومكانة الانسان الحقيقية فى عالمه المادى ، هذه فى نظرنا هى قيمة اكتشافنا للعالم العلمى عند العرب ، ذع العالم الذى تعرفنا اليه بفضل الوجود العربى فى الاندلس حيث امكن للمسيحيين من رجال الدين والحرب والادارة ورجال الاصلاح من كل نوع ان يجدوا انفسهم محمولين حملا فى تيار الحركة العامة التى حولت ظروف الحياة والثقافة » .

ان الاستاذ الاشرف يخرج من هذه المقارنة ، واعتقد ان هذا الامر ينطبق على الثقافة العربية المعاصرة فى غير الجزائر ايضا ، بان ما نأخذه اليوم عن الغرب هو اجزاء مفككة من المعلومات الغربية ، وليس هو الروح العلمية التى تحول الثقافة والحياة عندنا ، ان حقيقة وضعنا اليوم أننا أكثر تأخرا عن الغرب عنه ما كان يأخذ عنا فأحسن الاخذ ، لانه كما يقول «لومي» « لم يستفد من النظريات الاسلامية او مناهجها بقدر ما استفاد من انطلاق مواهبه التى فك اغلالها احتكاكه بالاسلام .

وانطلاق المواهب هو الذى لا نبحث عنه نحن اليوم فى احتكاكنا بالعالم الاوربى . اننا ما زلنا كما وصفنا ابن خلدون فى عهد انحطاطنا ، ميالين الى السهولة والى البسائط من الامور ، لان نقل الجزئيات او المفردات العلمية أيسر من نقل الروح العلمية ، وهذا الشكل الكسول ـ كما يسميه الاشرف فى اقتناء المعارف ـ جعلنا ندور بين امرين فى الثقافة :

اما الفراغ والتكرار ، لان ما نريد ان نحصل عليه قد حصل من قبل ، وانما نكسوه اليوم بلهجة جديدة من الديماغوجية التى تستعملها القمة الثقافية ازاء القاعدة الشعبية. واما الانحراف الذى نشاهده عند المثقفين من الشباب المسلوبين من شخصيتهم والمتشبعين بالهيجانات السلبية التى يعتقدونها ثقافة لانها تمكنهم من احتلال مناصب يحتقرون منها المجتمع ويتمردون عليهم ويبذرون تراثه السليم ، مع حرصهم على استعمال شعاراته التى يغالطونه بها .

* * *

قد يبدو فى هذا الحكم ظل من القتامة القاسية عند ما ننظر الى وضعنا نحن المثقفين من الداخل ، ونقطع النظر عن علاقتنا بالمجتمع ، ولكن هذا الحكم سيبدو لنا صحيحا فاجعا فى صحته عند ما نضع انفسنا داخل مجتمعنا ، وننظر الى وضعنا من هناك ، ونتساءل : أى شىء أتينا به لهذه الاغلبية الكادحة التى تعيش على هامش التاريخ من ابناء مجتمعنا فى الميدان الثقافى ؟ وهل أدخلناها فى الحساب يوما ، ونحن نعدد حاجياتنا الثقافية ومشكلاتنا الفكرية ؟

فلننظر مثلا الى ميدان اللغة : لنا ثلاث مجامع لغوية فى الوطن العربى ، ما هى مهمتها ، لقد

لخصها الدكتور طه حسين أخيرا بان مهمة المجمع منذ اربعين سنة هي الاهتمام بالفصحى ، حيث انها لغة واحدة ، اما اللهجات المختلفة - حسب تعبيره - والعامية فهي ليست لغة ، وما يكتب بهذه اللغة لا يسمى أدبا ، ونحن لا نعترف باللغة العامية ، وليس ذلك بموجب قانون المجمع ، ولكن لاننا اساسا عرب » .

وأسارع هنا الى القول بأننا على اتفاق تام مع المجتمع في أن اللهجات العامية ليست لغة أدب راق وان خالفنا بذلك رأى ابن خلدون ونزيد عليه أنها ليست لغة علم ، وأنها قوميا وسياسيا لا تصلح ان تكون أداة تعامل بين ابناء الامة العربية التي تنزع الى الوحدة في جميع اشكالها ومستوياتها ، ولكن هناك واقع - كما يقول الاشرف - واقع مجتمعي يعيشه ابناء أمتنا في هذا الميدان كما واقعهم في ميدان الطب الاهلي ووسائل تجميلهم المحلية ، وفنونهم الجمالية ، فهل يشكل هذا الواقع تراثا يجب أن نعتني به وندرسه ونعقله وننقله من مادة الواقع المعاشي الى العلم المدروس ، بواسطة التحليل والملاحظة ، والوصف والمسح في مرحلة أولى ، ثم ننتقل الى مرحلة ثانية من الدراسة هي استثماره بشكل من الاستثمار نحقق به الانسجام بين أجزاء تراثنا ما كان منه عاميا وما كان خاصا ؟ أم نبقى هذا النشاز قائما في مجتمعنا يفصل بين قطاعاته ويمزقها الى طبقات في الحياة الثقافية تزيد من استفحال الطبقية المادية وتغذيها ؟ والى متى سيظل مجتمعنا مجتمعين في حياته الثقافية واللغوية ، تعيش أكثريته في العصر البدائي وأقليته في العصر الذرى ؟

هذا هو السؤال المطروح امام المثقفين العرب وفي مقدمتهم القائمون بعلم الاجتماع ، وعلم اللغة ، وهذا على أية حال هو السؤال الذي نلح في طرحه هنا في الجزائر ، ونحاول توضيح معالمه ، قبل البحث له عن حل ، ولكن ما ينقصنا فيه هو وسائل البحث ، أعني الوسائل البشرية في الدرجة الاولى .

ان الدكتور طه حسين يشتكي من ان المجمع اللغوى يتعب نفسه بتعريب المصطلحات الحضارية والعلمية ، ثم لا ينفذ اى شيء مما يقوم به .

ونعود الى ما يؤاخذه الاشرف على المثقفين بالفرنسية في الجزائر ممن يظنون ان مهمتهم العلمية تنحصر في نقل المصطلحات الاجنبية وشرحها للطلاب ، غافلين عن اننا في حاجة الى نقل الروح العلمية اكثر من حاجتنا الى نقل المصطلحات الجزئية ، ثم لماذا يمنع المجمع اللغوى نفسه من البحث في وسائل تبليغ اللغة الفصحى الى المجتمع ، وسائل تنسجم مع روح العصر ، ونعني بها تبسيط قواعد اللغة وتقريبها من تناول الجمهور ، ووسائل رفع لغة الجمهور حتى تلتقي لغته مع لغة الخاصة ، أو لغة الادب والعلم .

العجيب ان الدكتور طه حسين الذى كان في وقت زعيم تعميم التعليم واجباريته في مصر ، وكانت روحه الشعبية هذه مما خلد ذكره في

الآفاق العربية كلها ، ينقلب اليوم الى شبه خصم لجمهور المجتمع العربى ويقول بالحرف : «لاأطلب من المجمع ان يكون له أى اتصال بالجمهور . . فالمجمع جهة معنية بالبحث العلمى فقط » كما لو كان البحث فى وسائل تحقيق الانسجام اللغوى بين أجزاء المجتمع الواحد ، ليس من البحث العلمى الذى يجب ان يهتم به المجمع

ان مثل هذا التزمت السهل الذى لا يكلفنا مشقة البحث هو الذى يولد الانفجارات المتطرفة السهلة هى ايضا ، وهو الذى دفع برجل مثل الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « تجديد الفكر العربى » الى القول بان «الثورة الفكرية مستحيلة بغير معاودة النظر فى اللغة المستخدمة للعلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة . . وان اللغة الفصحى فى تراثنا الادبى لم تكن أداة اتصال بمشكلات العالم الارضى ولا وسيلة للثقافة المتصلة بحياة الناس . . واننا عند ما ندخل فى عالم اللغة عندنا ، فانما ندخل عالما مسحورا لا عالما مألوفا» ، بل هو يتفق مع جاك بيرك فى كتابه «العرب» بان «اللغة العربية كما نراها فى التراث الادبى ، وكما لا تزال تستخدم عند كثيرين ممن يظنون انهم يكتبون ادبا ، توشك ان لا تنتمى الى دنيا الناس فلا تكاد ترى علاقة بينها وبين مجرى الحياة العملية ، ولذلك لم يجد المتكلمون بالعربية مفرا لهم من ان يخلقوا ـ الى جانب الفصحى ـ لغات عامية يباشرون بها شؤون حياتهم اليومية » ، ثم يعزز كل هذا بأدلة من نوع «انك عند ما تقرأ كتابا من / عيون تراثنا الادبى تجد نفسك فى احبولة عجيبة من الفاظ وتراكيب ، خيوطها سحرية تصرفك عما يرد من معنى ، لتعكف على النغم والجرس ، انك تقرأ سطرا كما تقرأ سطرين ، أو عشرين سطرا ، فاحساسك هو انك واقف مسمر القدمين فى مكان واحد ، لا تتقدم من فكرة الى فكرة ، انما هو دوران فى لا شىء ، فهو فى فراغ يملؤه بالزخارف ، لكنه ضرب من الكتابة لا يصلح أداة فى عصرنا تصل بين كاتب وقارىء فيما يراد عمله بالنسبة الى اوضاع الحياة اليومية الجارية . . واذا كان هناك ما نحمد الله عليه فهو «ان الناس فى حياتهم اليومية يعرفون كيف يتفاهمون بلغة دالة على واقع » .

نعم ان اصحاب هذه الاتهامات للغة العربية فى انفصالها عن المجتمع العربى ، او عن الاغلبية الساحقة منه (معدل ثمانين فى المائة من الاميين) وعن شؤون الحياة اليومية ـ لا يقدمون لنا بديلا ولا حلا ، وهم لا يجرؤون عن ان يقدموا لنا اللغات العامية كبديل لانهم يعرفون انها قد تصلح محليا لهذا القطر او ذاك من الاقطار العربية ، ولكنها لا تصلح للامة العربية بأجمعها، وهم يعرفون ان اللغة العربية مهما كان عجزها الحالى عن استيعاب المصطلحات العلمية ، فانها سترتقى برقى مجتمعها او جزء المثقفين منه لهذا الاستيعاب ، ولكن ما يبقى مشكلا ، وما يوشك ان يظل مشكلا دهرا آخر طويلا ، لانه بقى قائما منذ حوالى أربعة عشر قرنا ، وما يريد نحن اليوم ان نطرحه فى هذا المجمع ، فهو وجود

لغتين للمجتمع الواحد ، لغة للخاصة يتفاهمون بها ، فى جميع انحاء القطر العربى ، كما نفعل نحن اليوم ، ولغة أخرى تفصل بين كل فئة مثقفة فى كل قطر ، وبين جمهورها فى القطر نفسه ، كما تفصل بين الجماهير العربية فى مختلف اقطارها ، ونحن نعلم ان هذا الفصل والتمزق لا يقتصر على اللغة او مخارج حروفها ، وانما يستتبع فصلا اعمق يتناول العاطفة والشعور والفكر والنظرة الى الحياة ، وما ندعو اليه هو القضاء على هذه الفواصل بالقضاء على الفواصل اللغوية .

نعم ان لغة الصحافة اليوم ربما حققت شوطا فى هذا الغرض ، وان بقى من بين فصحائنا من يتعالى عن استعمال لغة الصحافة استكبارا اجوف ولكن ألا يكون من العجيب ان تترك امرا خطيرا كهذا لا يبحثه علماء الاجتماع ، ولا علماء اللغة ، ولا علماء المجامع اللغوية ، ويبقى لمبادرات الصحفيين وهم ما هم عليه من ضعف المستوى فى المواد العلمية وفى المادة اللغوية ، وفى معرفة مشكلات المجتمع جميعا معرفة معمقة ؟

ان الدكتور طه حسين يؤاخذ الحكومات العربية على انها لم تحمل الناس على استعمال المفردات التى يخرجها المجمع اللغوى من مصنعه الضخم ، وهذه المؤاخذة تكون فى محلها لو كانت الحكومات العربية مثل الحكومات فى العالم الاشتراكى تأخذ كل شىء بيدها وتحمل عليه الناس حملا شاؤوا ام كرهوا:فهى تنظم الاقتصاد وتحدد الاسعار وتضبط العمل وكيفية الانتخابات ومقدار الملكية ، وتوجه الكتاب والمؤلفين وتسيطر على الفن واللغة والدين والاخلاق وتقوم بالثروات الثقافية . . الخ .

أما الحكومات التى ليس هذا منهجها العام ، بل هى تترك الحرية للناس فى كل شىء وتطالبها بأن تضغط عليهم فى استعمال مفردات المجمع اللغوى وحدها ، فهذا ضرب من الثورة لم يخلق بعد .

اننا بوصفنا علماء اجتماع ليس من شأننا ولا من اختصاصنا أن نتولى نحن تبسيط قواعد اللغة وحذف ما فيها من حشو ، وابتكار أساليب جديدة فى تعلمها وكتابتها ، ولكن من شأننا ومن اختصاصنا أن نطالب علماء اللغة بأن يحولوا بعض جهدهم الى هذه الناحية من بحوثهم اللغوية لاننا أعرف من غيرنا بأن اللغة هى الممر الرئيسى الذى ينتقل منه مجتمعنا من التخلف الى التقدم ، ومن القعود الى النهوض ، ان أى عامل اليوم ، وأى فلاح لا يستطيع أن يساهم فى نهضة أمته ولا فى اعالة ذريته اذا لم يكن له نصيب أدنى من المعرفة العلمية بعمله ، والمعرفة العلمية تتطلب لغة علمية من ناحية ولغة مبسطة مطواعة سريعة فى متناول أكثرية الناس من ناحية أخرى ، نحن نطالب بوصفنا اجتماعيين ، أن تكون لمجتمعنا لغة واحدة لا لغتان ، وأن بقاء اللغة على ما هى عليه وعلى ما ظلت منذ قرون الى اليوم سيدفع مجتمعنا ، ولعله فعل بعد ، الى تبنى لغة لا هى عامية ولا فصحى ولا قومية اطلاقا ، وانما هى خليط من مفردات عربية وأخرى انكليزية وبعضها

ايطالى والآخر يونانى أو روسى ، مع قبول ما ينشأ عن ذلك من قضاء على وحدة المجتمع بل ووحدة الامة أيضا .

ونحن بوصفنا علماء اجتماع نستطيع أن نخطط ما نشأ فى الاقتصاد والزراعة والعمل والتجارة ، ولكن الاقتصاد يبقى قبل كل شىء سلوكا انسانيا تشكله الثقافة والمستوى الحضارى والثقافة والمستوى الحضارى والتمكن من الروح العلمى ، تزدهر كلها فى المجتمع أو تنكمش بما تكون عليه لغته من ازدهار أو انكماش ، لقد صدق « مونتى » فى قوله :

« ان اللسان هو الذى يعرف به الطبيب أمراض الجسم ، والفيلسوف أمراض النفس » .



خطوات في
طريقة تعريب التعليم في الجزائر

د. عبدالملك مرتاض
كلية الآداب
جامعة وهران

1

لقد تحدثنا في مقالات نشرناها ببعض الصحف والمجلات الجزائرية عن التعريب ، طوال السنوات العشر الماضية ، كما تحدث غيرنا عن هذا الموضوع نفسه بكثرة دعت اليها اهمية القضية ، وشرفها ، وصلتها بالشخصية الوطنية ، وارتباطها بمصير الامة الجزائرية.فهل لنا ان نؤكد مرة اخرى بان التعريب ما كان يوما قط قضية خبز ، او قضية الحصول على وظيفة سامية او ممتازة ، وانما التعريب قضية شرف وطني ، واصالة جزائرية ، وتصحيح فكري في اتجاهنا الثقافي الذي آن له ان يتحدد بدقة ، فنعرف معالمه ، ونبصر مسالكه .

فامة بدون لغة وطنية أمة بدونشخصية ٠ وكل أمة لا شخصية لها ، لا قيمة لها فى التاريخ ٠

2

نحن لا نتجاهل الظروف التاريخية والسياسية القاسية التى تسلطت على الشعبالجزائرى فارغمته على تعلم لغة لا علاقة لها بماضيه ولا بحضارته ولا بدينه ، ولا بجنسه العربى الاصيل ٠

كذلك نحن لا نتجاهل ما خلفت هذه الظروف من آثار ، ظلت قائمة بعد الاستقلال ، بل ربما اشتد سلطانها بعد الحصول على الاستقلال السياسى لاسباب بيناها فى غير هذا الفصل ٠

ولكن ذلك كله ما كان ليحول بـين الشعب الجزائرى واسترجاع شخصيته الوطنية استرجاعا كاملا ، فيتخلص ، فى تعليمه ، منهذه الازدواجية المقوتة التى تجعل ابناءنا وشبابنا لا هم عرب فيتحدثوا عربية ، ولا هم فرنسيس فيتحدثـوا فرنسية ! ولظروف وأسباب شرحناها فى غير هذا الوطن ، تسيطر الفرنسية على العربية فاذا وجود العربية لا يعدو ان يكون شكليا ليس غير ٠

ولما كان التعريب قضية ذات صلة شديـدة بالتعليم ، فانه لا يتم الا بتعريب التعليم ٠ فليس من الخير ولا السداد ان نتحدث عن التعريب اذن، حيث يجب ان نتحدث عن التعليم ٠

ما شأنه ؟ وما تم فيه من تعريب ؟ ومـا هى المواد التى بادر المسؤولون بتعريبها والتخلص من رطانة لغتها الى الابد ، ان شاء الله ؟

ذلك بعض ما سنحاول الاجابة عنه فى هـذا الحديث العابر . وليكن حديثنا هذا منقسما الى ثلاثة أقسام ، كل قسم يمثل مرحلة من مراحل التعليم الثلاث ٠

1) التعريب فى التعليم الابتدائى :

3

جاء فى الأثر الشريف الصحيح : (يولد المرء عـلى الفطـرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ٠

يدل هذا الحديث الشريف على ان الاسلام قدر التربية حق قدرها ، واعطى للتعليم الـدينى ، والتوجيه المبكر ، كل عناية فالابن قطعة من العجين اللين الطيع ، وانما ابواه هما اللذان يستطيعان ان يتخذا من هذا العجين ما شاءا : اما مجرمـا فاسقا ، او مؤمنا مسالما ، او عربيا صريحا ، او فرنسيا قحا ، وهلم جرا ٠ هذا كله من حيث اللغة ٠ اما من حيث الدين فحدث ولا حرج ، لان التوجيه المبكر فى تربية الطفولة يكون له أثـره الذى لا ينكر ٠

فماذا صنعت الحكومة الجزائرية.لانقاذ الطفولة الجزائرية من التغريب (بالغين المعجمة) والرطانة والانحلال؟لقد صنعت كل خير ، وبذلت كل جهد٠ ونحن نقول هذا لا لحاجة فى نفسنا نريد قضاءها ولا رغبة منا فى كيل الكلمات الغزليةللمسؤولين عن التعليم الابتدائى ٠ وانما نقوله لايماننا به ، ولاننا نراه حقا فقلناه ٠

فقد أقدمت وزارة التعليم الابتدائى على تعريب معظم المواد الدراسية فى هــذه المرحلة • فاذا العربية تغزو المواد واحدة فتحتلها،لتطرد عنها الفرنسية التى ضايقتها ظلما وعدوانا فى عقــر دارها • فاذا هى تغزو التاريخ فتخلصه من لغة السين ، وذلك منذ السنوات الاولى من الاستقلال ثم لم ترض بذلك حتى غزت الجغرافية فانقذتها من غربة اللغة ورطانتها • ثم ما لبثت ان امتــد طموحها المشروع الى مادة العلوم فنفضت عنها غبار العجمة ، وشر الرطانة فاذا هذه المادة العلمية تدرس لاطفالنا فى المدرسة الابتدائية بلغتهــم الوطنية • ومثل ذلك يقال فى مادة الحساب •

4

وهكذا تتقــدم اول دفعة من الاطفال معــربة منذ المرحلة الابتدائية فى يونيو المقبل ، الى امتحان الدخول الى الثانوى • فى حين كان التلاميذ يتبعون طرقا ملتوية ، ويسلكون سبلا غريبة معقدة من أجل الاعتزاء الى التعليم الثانوى المعرب • • لــم تعد هذه المشكلة قائمة ، فيما يبدو ، انطــلاقا من السنة الدراسية الحالية ، لاكتساح التعريب جميع مواد التعليم الابتدائى الى السنة الخامسـة منــه •

ولم يبق للفرنسية من سلطان فى التعليــــم الابتدائى على فلذات اكبادنا الا من حيث انهـــا مادة لغوية تدرس لذاتها المحضة • فقد مضى ذلك الزمن الذى كانت تدرس فيه العربية لذاتهــا ، والفرنسية الغريبة تدرس لذاتها ثم تدرس مـــع المواد المفرنسة الاخرى • ان ذلك الاثم قد تطهر منه التعليم الابتدائى فى الجزائر ، وان تلك المحنة التى كانت اصابت العربية فى هذه الديار قــد نجت اليوم منها •

واذن فاننا نستطيع ان نقول ، بان التعريب فى التعليم الابتدائى لم يعد مشكلة قائمة ، ولا معضلة من المعضلات التى لا حل لها • وهكــذا يتعرب تعليمنا الابتدائى فى ظرف عشر سنوات فقــط •

ويعتبر هذا الصنيع نصرا مبينا للتربية السليمة المثالية فى الجزائر اذ أمكن الآن توجيه الناشئة توجيها عربيا اسلاميا خاليا من تلك العقد النفسية التى تتكون فى انفسهم من فعل تلقى دروس مختلفة لغاتها ، تبعا لاختلاف معلميها • كل يكون حسب هواه ، وكل يزرع فى نفس الطفل البريئة الوانا من المزروعات التى لا يمضى زمن عليها ، حتى تنبت الوانا من المشاكل النفسية التى لا تلبث ان تتولد عنها مشاكل اجتماعية فيقـــع الانحراف ، ويتخبط ، شبابنا فى الضلال ، فلا يدرون أى طريق يتبعون ، ولا أى اتجاه يسلكون•

2) التعريب فى التعليم الثانوى :

5

لقد امتد سلطان العربية الى التعليم الثانوى ، تبعا لامتداده الى التعليم الابتدائى ، واستطـاع هذا السلطان ان يشمــل كثيرا من المــواد ذات الصبغة الوطنية أو التاريخية أو الانسانيـــة المحضـــة •

وقبل ان يمتد سلطان العربية الى بعض المواد ليشملها بالتدريس كالتاريخ والجغرافية ، ابتدأ بتضخيم حجم الحصص الخاصة بتدريس اللغة لذاتها فبعد ان كانت العربية فى سنة 1962 لغة أجنبية غريبة لا مكانة لها بجانب الفرنسية ، تغير الوضع منذ أكتوبر من تلك السنة نفسها ، فاذا العربية فى الجزائر (حرة ليس لها ضرة) على حد تعبير الابراهيمى رحمه الله ، واذا عدد الساعات التى تدرس فى السنتين الاوليتين من التعليم الثانوى لا يقل عن تسع ساعات فى الاسبوع بالرغم من ان هذا العدد يتخفض الى ان يصبح اربعا فقط فى الفروع العلمية ·

6

ويبدو ان أول ما عرب من مواد التعليم الثانوى فى الجزائر بعد تضخيم حجم الساعات الخاصة باللغة العربية فى حد ذاتها ، دروس التربية الوطنية والدينية · وبالرغم من ان هذه المادة لم يخصص لها أكثر من حصة واحدة فى الاسبوع فانها كانت تحولا ميمونا فى مسيرة التعريب فى التعليم الثانوى ·

ولكن ما لبث المسؤولون ان عربوا مادة التاريخ·وقد كان يجب ان تعرب هذه المادة فى السنة الاولى من الاستقلال،لانها مادة يتصل موضوعها بتراثنا الحضارى والثقافى ، ويتصل بماضينا السياسى ، بما فيه من مقاومة وكفاح ، وبما فيه من بطولات وامجاد · فكان من الخطا ترك هذه المادة لمدرسين كانوا يحاربوننا بالامس القريب · وان الزمن لا يمحو الاحقاد كلها،وان من الحكمة الحذر فى ايداع اطفالنا لدى اساتذة لايعرفون من التاريخ الجزائرى أو الاسلامى شيئا ذا بال ·

وقد كانت كتابات ظهرت منذ بدء عهد الاستقلال تطالب بتعريب هذه المادة ، لانها تنضاف الى التربية الدينية واللغة العربية باعتبار مالها من تأثير فى تكوين عقلية اطفالنا وناشئتنا ·

7

من أجل ذلك كله الفينا المسؤولين عن التعليم الثانوى يسارعون الى تعريب هذه المادة بعد سنتين أو ثلاث فقط من التردد والاحجام · ونحن حين نرى ما نرى حول تعريب هذه المادة ، لاتعصبا على هذه الفرنسية التى ابتلى الجزائريون بها ابتلاء عظيما ، وانما حبا فى تقرير مبدا تربوى مفيد للناشئة · ذلك بان التاريخ ينصب فى الابتدائى والثانوى الاول على أهم المواقف العظيمة للامة ، ويبرز النواحى الذهبية فى الصفحات التى كتبها الاجداد للاحفاد · فاذا أسندت هذه المادة الى أجنبى من حيث لغته ومن حيث دينه ، ومن حيث عقيدته السياسية أيضا ، أضل أطفالنا وجعلهم يتيهون فى بيداء ليس لها من مخرج ·

ان تكون الشخصية لدى الطفل يبتدىء من أيامه الاولى الى نهاية الشباب المبكر ، وهذه هى المرحلة التى يكون فيها دور المدرسة مفيدا له ، ان كان فى هذه المدرسة ما يفيد ، ويكون دورها سيئا فى تكوينه اذا أودعته أجانب يعبثون بعقليته عبثا ·

واذن فقد عربت مادة التاريخ ، واحسن المسؤولون بذلك صنعا ٠

8

وحين عرب التاريخ أيقنا بأن الجغرافية فى طريقها الى التعريب لانها جزء من التاريخ ، بل هى أصله ومضطربه ٠ فالتاريخ زمان ٠ والزمان احداث ٠ والاحداث لا يمكن ان تضطرب فى غير مكان ، بل لا بد لها من مكان معلوم ٠ وهذا المكان المعلوم هو الجغرافية بما فيها من طبيعة الارض ، وثروات البلاد ، وأصل السكان ٠

ثم انها ليست من العلمانية بحيث يكلف تعريبها تضحية ما ، أو مشكلة ما ٠ ان تعريبها كتعريب التاريخ لا اكثر ولا اقل ٠ كل ما فى الامر القاء الدروس بالعربية بدل هذه الفرنسية التى اصابنا منها فى الجزائر ما أصابنا ٠

لا سيما اذا علمنا بأن هذه المادة قد عربت فى المشرق العربى من زمان طويل ، حيث مهد الجغرافيون العرب المعاصرون كل الصعوبات الكبرى المتصلة بالمصطلحات التى هى ظاهرة كل علم . وقاموس كل فن ٠ فما بقى نحن امامنا شىء ، غير الشجاعة فى نبذ الفرنسية والاقبال على العربية لوضع الثقة فيها للقيام بهذه المادة أثناء التدريس ٠

9

ثم ان الجزائريين انفسهم كانوا قد عربوا هذه المادة فى المدارس الوطنية منذ عقود طويلة ٠ فقد كانت الجغرافية تدرس فى مدارس جمعية العلماء ، ومدارس حزب الشعب باللغة العربية ، ولم يكن يومئذ أحد يزعم أو يفكر فى الزعم بأن العربية ليست قادرة على تدريس الجغرافية وقد كانت هذه المادة معربة ، ومعها التاريخ طبعا ، فى معهد ابن باديس بقسنطينة ٠ وكانت تدرس بالخرائط والطرق العلمية المبسطة ٠

فنحن اليوم ، فى الحقيقة ، حين نعرب هذه المادة لا نكون قد صنعنا شيئا مثيرا يستحق الاهتمام ، لان هذه المادة – وكل ما عربناه حتى الآن فى التعليم الثانوى – كان معربا منذ اكثر من عشرين سنة فى معهد ابن باديس ٠ ان الجزائر على الصعيد الشعبى ، كانت معربة حتى قبل الاستقلال ، من حيث تسجيل المواليد والوفيات ومن حيث عقود البيع والشراء ٠ ولكن الاغرب فى الامر ان بلدياتنا ، الى اليوم – فيما نعلم – لم تعرب الحالة المدنية ، فياليت شعرى ما هى الصعوبات التى تحول دون تحقيق هذه الغاية التى بدون تحقيقها ، وتوظيف شبان متعربين فى مصالحها ، ستظل أسماؤنا واسماء آبائنا وأبنائنا وبناتنا مكتوبة بهذه الحروف اللاتينية التى لا تؤدىء مخارج الحروف العربية فاذا محمد « مهمد » ،واذا على « ألى » ، واذا خالد « كالد » واذا رحيق ، « رحيك » ، وأحلام « أهلام » ٠٠ ان الابقاء على هذه الظاهرة وحدها سيعجم ابناءنا ، ويرطن السنتهم ويجعلهم فى تضايق نفسى شديد للتوفيق بين الامرين فى اللغتين العربية والفرنسية ٠ ولذلك لا نزال نسمع أطفالنا وشبابنا ايضا وهم يتنادون بهذه الاسماء

المرطنة المهجنة المعفنة ، لان الاطفال يسمعون من الشباب،والشباب يسمعون من الشيوخ وهم جميعا يقرأونها فى السجلات الرسميـة فى البلديات مهجنة معجنة ، فيرطنون ٠

10

ويأتى أمر الفلسفة ، بعد التربية الدينيـة ، والتاريخ والجغرافية وقد صارع أصحاب الفرنسية صراعا مستميتا من أجل الابقاء على فرنسة هذه المادة ، وقد وفقوا توفيقا كبيرا حين ظلت تدرس بالفرنسية فقط، ثم بالعربية والفرنسية،على ان يكون الامتحان بالفرنسية فقط ، ثم للاقســام المعربة بالعربية ، وبالفرنسية للاقسام المزدوجة اللغـــة ٠

لقد امتحنت الفلسفة امتحانا شديـــدا فى مدارسنا الثانوية حتى كدنا نيأس من تعريبها ، ولا سيما بعد ان عربنا هذه المادة فى الجامعـــة تعريبا نهائيا ٠ ومع ذلك لم تظفر العربية بالنصر الا منذ نحو سنة حين اصبحت الفلسفة معربـــة لا دخل لضرتها الفرنسية فى امرهـا ٠ تدرس بالعربية ويكون الامتحان فيها بالعربية ولا خيـار للطلاب فى ذلك ، بل هم مجبرون على دراستها والامتحان فيها باللغة الوطنية ٠ وبذلك قضى على عجمة اخرى طالما هدمت عقائد شبابنا ، وأغرتهم بالكفر فكفروا ، واوحت اليهم بكثير من الشرور فاضطربوا فيها ٠

11

وبتعريب الفلسفة لم يبق من المواد المفرنسة الرئيسية غير المواد العلمية البحتة ، كالعلـــوم الطبيعية ، والفيزياء والكمياء والرياضيات ٠

ونحن نتساءل ما يمنعنـــا الآن من تعريـب الرياضيات وقد وصلنا الى هذه المرحلة من التعريب لا شيء فان المتخرجين من كليات العلوم أصبحوا يسلمون بالعربية فى الجامعات الوطنية ، وهـم لا يعدمون قدرة ما على تدريس هذه المادة بالعربية فى كثير منهم ٠ هذا الى أننا نستعين بالمدرسين الاجانب لهذه المادة ، فلم لا نستعين بالمصريين او السوريين وهم اخوان لنا ؟ ومثل ذلك يقال فى بقية المواد العلمية التى آن لها ان تعرب ، لا سيما بعد ان عربت فروع كلية العلوم ببعض الجامعات الجزائرية ٠ فأين سيوظف المتخرجون المعربـون من هذه الكليات ؟ ولم لا نفكر من الآن فى وضع مخطط شامل للتعريب بالمدارس الثانوية ٠

ربما كانت وزارة التعليم الابتدائى والثانوى قد فكرت فعلا فى هذا المخطط بل ربما كانت قد وضعته فعلا ٠ فعسى ان يكون الظن حقيقـــــة والاعتقاد يقينا ٠

فان شخصيتنا ، وشخصية شبابنا ستكـون ممزقة منحلة ما لم يتلقوا تعليما معربا يوحى لهم بأنهم عرب مسلمون ، وانهم جزائريون قبل كل ذلك ٠

12

هذا الشأن فى التعليم الثانوى العام ، أمـا التعليم الثانوى التقنى فقد استطاعت العربية فى الجزائر ان تغزو بعض مواده فتزيح عنها الفرنسية الى الابد ٠

ففي التكميليات التقنية نجد قسم «السكريتارية» قد عربت مواده كلها ، بما فيهـــا الاختزال ، والمحاسبة، والتجارة والمكتب التجاري، والمراسلة التجارية والقانون • واصبح هذا القسم يتألف من ثلاث سنوات ، يسلم الى الطالب الناجح على اثرها شهادة الكفاءة المهنية في هذا القسم الفني• وستتخرج الدفعة الاولى من حاملي هذه الشهادة باللغة العربية ، لاول مرة في تاريخ الجزائر،لدى نهاية السنة الدراسية الراهنة •

13

على أن المسؤولين غيروا الاتجاه ، ولكـــن في صالح التعريب بحيث تصبح الدراسة التقنية في التكميليات أربع سنوات عوضا عن ثلاث ، يتقدم الطالب على اثرها الى امتحان لنيل شهادة تسمى شهادة التعليم المتوسط التقني • ومما يدرس الطلاب في هذا التوجيه التربوي الجديد الـذي ابتدأ منذ هذه السنة الدراسيـــة ، الاقتصاد ، والمحاسبة ، و « تقنية التسيير » •

14

وهناك ثانويات كثيرة معربة ، يتلقى فيهـــا التلاميذ جميع المواد باللغة العربية ، ولا يدرسون الفرنسية او الانجليزية او غـيرهما الا لـذات اللغـــة •

وهذه الثانويات في حقيقة الامر قد غيرتمجرى التعليم في الجزائر،وصححت الشخصية الجزائرية تصحيحا سليما ، فهي التي أصبحت تمد بواسطة المتخرجين فيها ، معاهد ترشيح المعلمين المعربة ، والجامعات • وكانت هذه الثانويات تجد صعوبة في الحصول على تلاميذها الذين يلتحقون بها كل سنة ، حيث ان التعليم الابتدائي لم يكن معربـا بنسبة تامة ، والآن وقد عرب هذا التعليم ، فان هذه الثانويات ستجد لها تلامذة عاديـين درسوا العربية وسائـــر المواد الاخـــرى في المدارس الابتدائية بصورة منتظمة ، وتعلموا على أسس تربوية ممتازة تؤهلهم لان يجعلوا من هذه الثانويات المعربة خلية قوية ينطلق منها جنود التعريب •

15

ونعرج على تعليم آخر ثانوي ، فنجده معربا بنسبة تامة أيضا منذ أسس في مطلع عهـــد الاستقلال • وهذا التعليم هو الخاص بالمعـــاهد الدينية التابع لوزارة التعليم الاصلي والشـؤون الدينية • ان التعليم الاصلي الذي يعتبر بمثابة المكيف العقلي أو المنظم الآلي للاتجاه التربـــوي والفكري في البلاد • لان التلاميذ الذين ينتمون الى هذه المعاهد يتقنون اللغة العربية اتقانا جيدا• وهذه الصفة تتيح لهم ان يكونوا عناصر حيـة للدفاع عن العربية لا بالكلام عنها ، ولكن بالعمل بها • اذ يدرسون كل شيء بالعربية ، لان هـذه الوزارة هي الوحيدة المعربة في الجزائر تعريبـا تاما • ثم تأتي بعدها ، من غير ترتيب ، وزارة الدفاع ، ووزارة التعليم الابتدائي والثانوي ، ووزارة العدل ، ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي •

غير ان التعليم الاصلي سيكون محدود الفائدة ، ضعيف التأثير ، اذا اقتصر فيه على المرحلة الثانوية وحدها، فان المفروض في حاملي البكالوريا الاصلية ، ان يلتحقوا بجامعة اسلامية تدرس الديانة الاسلامية وفكرها وحضارتها على مستوى اكاديمي عال ، فيصبح لنا علماء دين باحثون منتجون واعون ، فقد لاحظنا فراغا شديدا في المؤتمر الاسلامي السابع الذي انعقد بتيزي وزو أثناء الصيف الماضي ، فلم نشعر في ذلك المؤتمر بأن الجزائر لها اطار ديني قوي يجادل في القضايا الدينية ، ويقرع الحجة بالحجة ، ويرد القول بالقول ويقيس الفروع على الاصول ، ويستمد من الحكم الاصلي احكاما فرعية ٠ أو بعبارة فقهية جامعة : بان الجزائر ليس لها مجتهدين في الدين ٠

ونحن نقدر لو اسست كليات لدراسة الشريعة الاسلامية وأصولها في الجزائر ، لكان لنا في بحر عشر سنوات جيش من الباحثين والوعاظ والخطباء المختصين في الدين فعسى ان يتم فتح هذه الجامعة للتعليم الاصلي ، قريبا٠فان فتحها سيغلق كثيرا من النوافذ والابواب التي يتسرب الى فكرنا وحضارتنا وشخصيتنا منها الاذى والشر والسم والريب ٠

3) **التعليم العالي :**

16

ان مرحلة التعليم العالي تعتبر استمرارا لمرحلة التعليم الثانوي ، كما ان التعليم الثانوي في حد ذاته يعتبر امتدادا للتعليم الابتدائي ٠ فهي متكاملة متشابكة ، كل منها يمد الآخر ، ويتوقف عليه في حياته وازدهاره ٠ فلا ثانويات بدون مدارس ابتدائية ٠ ولا جامعات بدون ثانويات وكل هذه بديهيات ٠

ولكن مما يلاحظ في التعليم العالي ، رغم توقفه على الثانوي لانه امتداد له ، فان الجامعات الجزائرية لم تنتظر حتى يتعرب كل شيء في الثانوي لتتعرب هي ، بل بادرت الى تعريب بعض الفروع العلمية قبل ان تتعرب في الثانويات نفسها ٠ ومن ذلك الفلسفة التي تعربت منذ بداية عهد الاستقلال ، وكذلك التاريخ والجغرافية غير ان المتفرنسين كانوا يدعون الى شيء من التوءدة واللين فيمسيرة التعريب ، حتى لا يقع اي اضطراب ٠ ومما ظل قائما بعض الزمن، بفعل تأثيراتهم وتشكيكاتهم ، وجود فرعين في التاريخ فرع معرب ، وفرع مفرنس ولم تتخلص الجامعة الجزائرية من هذا الشر الا منذ السنة الماضية حيث قضت ، فيما نعلم ، على فرنسة التاريخ ٠

17

غير ان هذه الظاهرة ظلت قائمة الى اليوم في جامعتنا ، حيث نجد مظاهر ناشزة غريبة نابية يملؤها التناقض الشديد ، في دوائر العلوم الاجتماعية ٠ وتتمثل هذه المظاهر في احداث فرعين اثنين في فرعي علم النفس ، وعلم الاجتماع فاذا علم الاجتماع له فرعان : أحدهما تدرس فيه المادة بالعربية ، وأحدهما الثاني تدرس فيه بالفرنسية ٠ ومثل ذلك يقال في فرع علم النفس٠

مع ان الطلاب آتون من مدارس متشابهة جدا فى المواد الدراسية والسياسة التربوية • فلم ابقاء هذه الفرنسية بجانب العربية ؟

فما بال هذه الضرة تصاحبها فى كل محفل ، وتصارعها فى كل مأقط ؟ فاما ان تعرب المادة ، واما ان لا تعرب • ولا حالة بعد ذلك • وانا لا ندرى كيف تعرب الفلسفة والتاريخ تعريبا تاما ، ولا يستفيد علم النفس وعلم الاجتماع من هـذا القرار الثورى العظيم •

18

اننا نطالب المسؤولين بتعريب هذين الفرعين تعريبا نهائيا كما وقع بالنسبة للتاريخ والفلسفة• لان علم الاجتماع أصبـح يقـوم على الدراسة الميدانية، والامتزاج بالاوساط الشعبية، والاتصال بالسكان فى القرى النائية والارياف البعيـدة ، فمن الحق ، والحال هذه ، ان تعرب حتى لا يخاطب الطلاب الشعب بهذه الفرنسية التى أنى لها ان تنجزر انجزارا ، ويتقلص ظلها فينحصر ، موقتا فى المواد ذات الصبغة العلمية المعقدة كالطب مثلا•

19

أما دوائر اللغة العربية وثقافتها فى الجامعات الجزائرية ، فهى معربة طبعا ، بل منها يشـع التعريب ، وفيها يقوى لينطلق مفيضا نوره عـلى الدوائر والكليات الاخرى • فقد ذهب ذلك الزمن المظلم الذى كان المستشرقون فى جامعة الجزائر يدرسون فيه الادب العربى بواسطة اللغة الفرنسية وكيف يقبل عقل ان تدرس العربية بالفرنسية فى الجزائر ؟ وكيف يحق للغة ان تزدهر وتحيـا على حساب لغة أخرى فى وطنها وبين أهليها ؟ ان الجواب عن هذا نعرفه ، ولكنا لا نخوض فيه • لان الله قد أذهب عن الجزائر ذلـك الكابوس الرهيب الذى تسميه اللغة بالاستعمار •

غير اننى اعتقد ان دوائر اللغة العربية تلقى بعض التضييق المتعمد أو العفوى ، فى أداء مهمتها التعريبية • فان بعض الكليات ربما صعرت خدها واشمخرت بأنفسها ، حين يقال لها : يجب على الطلاب المنتمين اليك أن يدرسوا العربية لانها أصبحت مقياسا واجبا على كل من يدرس باللغة الاجنبية • بل منهم من يتحمس فى الدفاع عـن «مصالح» الطلبة فيزعم قائلا : كيف يعقل أيها الناس ، ان تضطرب دراســة طالب ممتاز فى الحقوق أو العلوم أو الطب بسبب هذا الشىء الذى تسمونه « عربية » ؟

ورغم النصوص القانونية الصارمة التى تحتم على كل طالب يتابع دراسته بلغة أجنبية ، ان يتلقى مقاييس محددة ، بالقوانين والقرارات ، فى تعلم العربية فانى أخشى ان كليات معينة لا تحترم هذه القرارات احتراما تاما فتتخذ من الحبة قبة ، ومن السبب البسيط نتيجة ضخمة ومن مشكلة التوقيت والقاعات عقبة كأداء لا يصعدها أحد !

20

غير ان هناك دوائر بالجامعات أصبحت ترحب بتدريس « مقاييس » اللغة العربية ، بحيث تقوم

بجميع التسهيلات والمساعدات الممكنة لانجاح عملية التعريب · وأمثل لذلك ، بالنسبة لجامعة وهران ، بدائرة اللغات الاجنبية التي تعتبر اكثر الدوائر تحمسا للتعريب ، حتى ان رئيسها كان قد كتب جميع اللافتات التي تكتب على الابواب لتحديد وظيفة المكاتب ، باللغة العربية وحدها ·

ومن الانتصارات التي حققها التعريب ، ما يتجلى في اجبار كل طالب متخرج في الجامعة بالفرنسية ان يؤدي امتحانا في اللغة العربية · ولا تسلم له الاجازة الا اذا نجح في هذا الامتحان غير انني أخشى ان تكون بعض الكليات المعينة تجاهلت هذا القرار الثوري الكبير ، لتستمر في استخفافها بالعربية واصحابها ·

21

فاذا ذهبنا الى كلية العلوم بجامعة الجزائر بالذات ألفينا فيها قسما معربا · وهذه النتيجة التعريبية لم تحققها بعض الدول العربية رغم نيلها الاستقلال قبلنا ·

أما في كلية الحقوق فقد تعرب فيها فرع العلوم القانونية ولم يبق الآن الا فرع العلوم الاقتصادية الذي نود ان يشمله التعريب ايضا ·

غير ان ما كنا لاحظناه في علم النفس وعلم الاجتماع ، فان العلوم القانونية تدرس باللغتين معا · ونحن نرى ان ترك الفرنسية بجانب العربية يعتبر لونا من التشويش الفكري ، أو ضربا من التلاعب بالقيم · فانا لا أفهم التعريب الا على انه ازاحة لفرنسية ، واحلال لعربية · فاذا ظلت الفرنسية وادعة مطمئنة ، وقائمة مستقرة ، فما قيمة العربية ؟ ان التعريب سيادة وطنية، وشعور شعبي ومبدأ أساسي في تحديد معالم الشخصية الجزائرية ، وتطهيرها من الاوضار التي اصابتها من فعل هذه العجمة الغريبة · ان التعريب ليس أمرا شكليا ، بحيث يدرس التاس العلوم القانونية بالفرنسية ان شاءوا ، وبالعربية ان شاءوا ايضا فان في حرية هذه المشيئة كثيرا من الاثم الوطني·

فاما ان نعرب ، واذن فلنمط هذه الفرنسية من الطريق ، واما ان نترك دار لقمان على حالها ، وهنالك فلتتربع هذه الفرنسية على أرضنا الى أجل معلوم · غير اننا لا نرضى ان تستمر في تربعها سيدة مختالة متجبرة ، يملؤها البطر والغرور ، ويغعمها التعالي والازدراء ، على اللغة العربية صاحبة الدار ·

22

نستخلص مما سبق ، أن الجامعات الجزائرية بذلت جهدا مشكورا في مجال التعريب ، وانه بالنية الحسنة ، والارادة الطيبة في التغيير والتصحيح ، سيكون للعربية شان عظيم فيها ، في العشر السنوات المقبلة ، بعد ان تم في العشر السنوات الماضية تعريب العلوم القانونية ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع والفلسفة ، كما تم تعريب قسم خاص في كلية العلوم بالجزائر العاصمة · بالاضافة الى فرض تعلم اللغة العربية ودراسة المصطلحات العلمية بها ، على كل الطلاب الذين يدرسون باللغات الاجنبية في جامعتنا ·

ينضاف الى كل ذلك فرض امتحان خاص فى اللغة العربية ، بالنسبة للطلاب الذين كانوا خاضعين للنظام القديم ، على كل من تخرج فى الجامعة ، وكان يدرس بلغة أجنبية ٠

أما التعريب فى المدارس الابتدائية فقد رأينا انه بخير كثير ، فى حين أنه أقل خيرا وسعادة فى التعليم الثانوى الذى لا يزال يدرس المواد العلمية كلها بالفرنسية ٠ ولكن لا يعنى ان هذه المواد لن تعرب ، فان الجزائر العظيمة التى صححت شخصيتها العربية فى بضع سنوات ، كفيلة بأن تحقق المعجزات فى مجال التعريب ، كما حققتها فى مجال التنمية والاقتصاد ٠



تبرعـوا بالكتب لمكتبات المساجد

اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، وولد صالح يدعو له ، او علم نافع ينتفع به .

حديث شريف

ابعثوا بكتبـــكم الى :

المكتبـة المركزية لـوزارة التعليـــم الأصلى والشؤون الدينية

قصر حسن ـ ساحة ابن باديس

الجزائر العاصمة

تجربتان في التعريب

إسماعيل العربي
كاتب جزائري

بدات حركة النقل والتعريب منذ العصور الاسلامية الاولى ، تحت تاثير عدد من العوامل ٠ فبعد ما استولى العرب في موجة الفتوحات الاولى على البلدان التي كانت خاضعة لنفوذ الفرس وبيزنطة الثقافي ، في سورية والعراق وايران ومصر والمغرب ، حيث وجدوا حضارات عريقة وعمرانا مزدهرا ، تولدت عن الاحتكاك بهذه الامم حاجة للتعريب على شعوبها ولتفهم انظمتها الاجتماعية والاقتصادية ٠ وفي نفس الوقت ، اقتضى اتساع رقعة العالم الاسلامي ، معرفة العرب بالطرق التجارية والاقاليم والانتاج ، وغير ذلك مما يدخل في علم الجغرافيا ٠ ثم ان القرآن الكريم الذي يحث على التفكير في ملكوت السماوات والارض ، وعلى طلب العلم ، خلق حوافز لهذه الغاية ، وايضا لتطبيق أحكام الشريعة بدقة (مثلا الامور التي تتعلق بضبط أوقات الصلاة وبداية شهر الصوم) ، فاتجه العرب الى معرفة علم الفلك وغير ذلك من العلوم التي بلغت مرحلة متقدمة عند هذه الامم ٠

ومن جهة أخرى ، فقد كانت الجيوش الاسلامية التى تطيح بالعروش والانظمة السياسية ، تكتفى بالاستيلاء على مقاليد الحكم فى البلاد التى تفتحها، بينما تترك المؤسسات والاجهزة الادارية واعمال المكاتب وشبكات الاتصالات التجارية والموظفين ، بل والعملة المتداولة نفسها (1) على الوضع الذى كانت عليه فى العهد السابق بدون تغيير . وكذلك ظلت اللغات اليونانية والفارسية والسريانية واللاتينية والقبطية (2) لغة الادارة والاعمال فى هذه البلاد عشرات السنين ، بعدما دخلت تحت السيادة الاسلامية ، ولم يفرض العرب لغتهم فى هذه المجالات ، حرصا على عدم احداث خلل فى نظام الحياة العامة .

وفى هذه الاثناء ، كانت الاطارات المدربة ومختلف الطاقات الذهنية التى تسير الدواوين وتوجه الحياة الثقافية فى الشعوب المغلوبة على أمرها ، تدرك بفطنتها ، خطورة التطور الذى طرأ على الحياة السياسية فى بلدها . فاخذت تكيف نفسها بنشاط ، بتعلم اللغة العربية ، وباستيعاب ثقافتها ، وبالاندغام فى النظام الجديد (والناس على دين ملوكهم) ، بل وراحت تسابق العرب انفسهم فى خدمة لغتهم وثقافتهم حتى جاء يوم حازت فيه قصب السبق فلم « يقم » كما يقول ابن خلدون «بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم»(3) .

وفى نفس الوقت ، أخذت اللغة المستعملة فى المعاملات والمرسلات التجارية وفى مختلف المرافق الاقتصادية ، تترك مكانها تدريجيا للغة العربية التى أثبتت حيوية ومقدرة عجيبة على التطور ، كما كانت الشعوب المغلوبة على أمرها تقبل على تعلم هذه اللغة لممارسة شعائر الدين الاسلامى الذى اعتنقته ، ولمواجهة التغيرات التى تطرأ على الحياة اليومية .

واذا كانت حركة التعريب العلمى لم تشهد الازدهار الذى عرفته الا فى العصر العباسى ، فان حركة الترجمة ، مع ذلك ، تمتد جذورها الى عهد بنى أمية ، بل والى فترة مبكرة من هذا العهد . فان الجاحظ وابن النديم ، يذكران ان خالد بن يزيد بن معاوية ترجمت له كتب فى الصنعة والطب والنجوم (علم الفلك) . (4)

على ان من الممكن القول بان النقل والترجمة العلمية ، قد أصبحت مهمة من مهام الدولة ، ترعاها وتنفق عليها بسخاء ، ابتداء من عهد جعفر المنصور ، الخليفة العباسى الثانى (158 هـ 775 م) .

---

1) ظل الدرهم الساسانى المضروب من الفضة ، والدينار البيزنطى المضروب من الذهب يمثلان العملة المتداولة فى العالم الاسلامى على أساس نظام المعدنين ، حتى سنة 75 هـ ـ 667 م ـ ، حينما ادخل عبد الملك بن مروان اول اصلاح حقيقى للنقد بصك الدينار الاسلامى .

2) كانت اللغة القبطية ، كما يذكر لومبارد، فى الفصل المنشور فى هذا العدد من كتابه «الاسلام فى مجده الاول» ، هى لغة الحديث والكتابة فى مصر ، فى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى ، بحيث ان المامون قد اضطر الى ان يصطحب معه مترجما حينما قام بزيارة وادى النيل سنة 217 هـ 832 م .

3) راجع الفصل الذى خصصه المؤرخ المغربى لمساهمة العجم فى تنمية الثقافة واللغة العربية ، فى مقدمة تاريخه ، طبع بيروت 1 ـ 543 ـ 545

4) البيان والتبيين ، نشر التاليف والترجمة والنشر ، ص ، طبع القاهرة ، ص 328 ، والفهرست ، طبع القاهرة ص 340 .

واذا كان تعريب الدواوين والاعمال فى مختلف المرافق يجرى فى عملية داخلية ويخضع لدوافع من مصلحة الافراد والجماعات ، كما اشرنـــا ، فان التعريب الثقافى والعلمى ، يحتاج الى تخطيط وتنظيم من الدولة والى تخصيص موارد مـــالية له • وهذه العملية ، ترتبط ارتباطا وثيقا بجمع الكتب وتأسيس المكتبات العمومية ، وباستقدام العلماء والمترجمين الذين يتقنون لغتين أو اكثر ، بالاضافة الى امتلاكهم قاعدة من المعرفة فى العلوم التى يترجمون فيها •

وقد تعرض المسعودى لذكر حركة التعريـب الثقافى فى عصر بنى العباس ، فاشاد بــدور الخلفاء فى هذه الحركة ، وقال فى معرض الحديث عن ابى جعفر المنصور انه « كان أول خليفـة قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم وكان معـه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه ــ وهو ابو هؤلاء النوبختية ــ وابراهيم الفزازى المنجم ، وعــلى بن عيسى الاسطرلابى المنجم • وهو أول خليفـة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية، ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهنـد • وترجمت له كتب ارسطاليس من المنطقيـــات وغيرها ، وكتاب أوقليدس » (1) •

ويضيف ابن اصيبعة ان المنصور أستدعـــى جورجيس بن بختيشوع ، كبـــير الاطبـــاء فى بيمارستان جند يسابور ورئيس مدرسته ، ليكون بجانبه ، وانه نقل له كتبا كثيرة من اليونانية الى اللغة العربية • (2)

وفى عهد الرشيد ووزرائه البرامكة ، اتخذت حركة النقل والترجمة ابعادا جديدة تحت رعاية هذا الخليفة العظيم • فقد كلف الرشيد يوحنا بن ماسوية (3) بمهمة الاشراف على نشاط الترجمة العلمية ، بعد ما استجلب له كتبا من بلاد الروم ووضع له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه • (4)

وكذلك قام الوزراء البرامكة بمجهود عظيـم فى تشجيع الترجمة ورعاية المترجمين وعملوا على نقل الذخائر النفيسة الى العربية من الروميـــة واليونانية والفارسية والهندية • ونحن نذكر ، مثلا ، ان يحيى بن خالد البرمكى ، قد طلب الى بطريك الاسكندرية ان يترجم له كتابا فى الزراعة عن الرومية فترجمه له برسمه • (5)

وحينما نشطت الحركـــة العلمية فى العصر العباسى ، ظهرت طائفة من فطاحل المترجمين من مختلف اللغات ، الى اللغة العربية وقامت بتغطية

1) مروج الذهب ، طبع القاهرة 4 ــ 241

2) عيون الانباء ، طبع دار الفكر العربى ، الجزء الثانى من القسم الاول ، ص 37

3) يوحنا بن ماسويه ، ابو زكريا : من علماء الاطباء ، من اصل سريانى ولكنه عربى المنشأ ، كان ابوه صيدليا من جند يسابور (بخوزستان) والى جانب عمله فى خدمة النقل والترجمة ، كان ابن ماسويه يعمل طبيبا للرشيد والمامون ومن بعدهما الى ايـام المتوكل ، وقد عرف شهرة واسعة كما كسب ثروة طائلة وخلف نحو 40 كتابا ، راجع ترجمته فى كتاب خير الدين الزركلى ، الاعلام ، الطبعة الثالثة ، طبع بيروت ، الجزء التاسع صفحة 279

4) ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء ، طبع القاهرة ، ص 65

5) راجع تاريخ الادب العربى ــ العصر العباسى الاول ــ لشوقى ضيف الذى ينقل عن ماكس مايرهوف ، طبع دار المعارف ص112

الحاجة لتغذيةهذه الحركةولتدعيمها بالاثار العلمية والفلسفية الاجنبية • ونحن لناخذ فكرة عـــن مدى اتساع نشاط النقل والترجمة ، يكفى ان نلقى نظرة متأملة على قائمة مشاهير المترجمـين التى أوردها ابن النديم فى الفهرست (1) ، ولو انها تقتصر على ذكر المترجمين من الفارسية دون ما سواها من اللغات ، الى العربية • وسنجـد فى مقدمة هؤلاء ، عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت ومحمد بن جهم البرمكى ، وزادويه بن شاهويه الاصفهانى ، وبهرام بن مردان شاه ، وغـيرهـم ممن ارتبطت اسماؤهم، هم وغيرهم، مثل يوحنا بن ماسوية ، ارتباطا وثيقا بازدهار العلوم والفنون العربية وكانوا حلقة وصل بين الحضارات القديمة والنهضة الاوروبية فى عصر التنوير •

وقد بلغت حركة النقل والترجمة أوجها فـى عصر المامون الذى غذاها بالموارد المالية وجمع لها الرجال والكتب ، وانشأ لها مؤسسات ، أهمها « بيت الحكمة » المشهور الذى وقف عليه الاموال للذين يريدون الانقطاع لترجمة كتب الفلسفـة الى اللغة العربية • وقد ذكر ابن نباتة فى سرح العيون ، عند ترجمته لسهـــل بن هارون ، ان المأمون عينه كاتبا على خزائن دار الحكمة ، التى تشتمل على كتب الفلسفة التى نقلت الى المأمون من جزيرة قبرص (2) • وذلك ان المأمون ، لما هادن صاحب هذه الجزيرة ، ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فارسلها اليه ، وجعل سهل بن هارون خازنا عليها •

ولما استظهر المأمون على الروم (215 هـ ـ 130 م) بلغه ان اليونان كانوا قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات والقوا بها فى سراديب ، فكتب المأمون الى ملك الروم يستاذنه فى انقاذ ما يختار مـن هذه الكتب وان يعطيها له بدل الغرامة التى كان قد فرضها عليه ، فقبل ثيوفيل ، ملك الروم ، هذا العرض واعتبره كسبا كبيرا له • (3)

وقد شملت حركة النقل والترجمة جميـــع مجالات العلم المعروفة لدى الامم القديمة ، بما فى ذلك الفلسفة والطب والكيمياء والرياضيـــات والفلك والجغرافيا والموسيقى ، وشملت فيمـــا شملته الملل والنحل والديانات القديمة « وقـد ترجم فيما ترجم كتاب زرادشت المسمى «أفستا» وما عليه من شروح) ، بل وكتب العجائـــب والاساطير ايضا • وهذه الاثار المترجمة ، تتجمع فى دكاكين الوراقين ويعكف على نسخها النساخون وسرعان ما تجد طريقها الى بيوت العلماء والباحثين حيث تتحول الى خميرة للتفكير وشرارة تنبعث منها تيارات بعيدة الاثر فى الفلسفة والديـــن والاجتماع •

وقد اعتمد المترجمون فى النقل • طريقـــة الترجمة اللغظية ، أو التى نسميها اليوم «الحرفية»

1) الفهرست ، ص 224 وما يليها

2) سرح العيون ، طبع القاهرة ، ص 166

3) الفهرست ص 339

وطريقة الترجمة المعنوية ، معا • ففى الطريقـة الاولى ، التى كان على رأس العاملين بها ، يوحنا بن البطريق وعبد المسيح بن الناعمة الحمصى ، ينظر الناقل فى كل كلمة فى النص بمفردها ثم يضع لها مرادفها من اللغة الاخرى • وقد انتقدت هذه الطريقة بحق ، بان عددا كبيرا من الكلمات فى كل لغة لا يوجد مرادف لها يحمل معناهـا بالضبط ، فى لغة أخرى• ثم ان المجاز والاستعارة لا يمكن ان تنقل بالطريقة الحرفية من لغة الى لغة أخرى • والطريقة المعنوية , وكان يتزعم اتباعها حنين بن اسحاق ، تقضى بان ينظر المترجم فـى الجملة فيحصل معناها فى ذهنه، ثم يعبر عنهـا بالمعنى الذى يطابقه فى اللغة الاخرى ، جملـة فجملـة •

* * *

وبعد هذه النظرة السريعة نوعا ما الى التجربة الاولى للتعريب ولتلقيح الثقافة العربية ، يجدر بنا ان نطرح سؤالا , وهو ، هل يمكن استخلاص درس منها قد يفيدنا لتوجيه خطانا فى تجربـة التعريب الثانية ، التى تحاولها البلدان العربية فى العصر الحاضر ؟

لقد تغير كل شيء منذ عهد هارون الرشيـد والمامون • تغير مفهوم الدولة الاسلاميـة ونظـام الحكم ، وتغير مفهوم الفلسفة والعلوم , كما تغيرت اللغات التى تحتاج اللغة العربية الى الاقتباس منها والنقل عنها • ولكن اللغة العربية نفسها لم تزل حية ببلاغة تراكيبها وخصبها , وقد اتسعت ثروة مفرداتها وكسبت مرونة عبر العصـور •

والحاجة الى النقل والتعريب اليوم – وهى أقوى مما كانت من قبل – تقوم على نفس الاعتبارات التى قامت عليها فى العصر العباسى : سد الفجوة التى تمتد على عدة قرون والتى تفصل بين الحضارة العربية وحضارات أمم أخرى تقدمت عنهـا فى العلم والمعرفة ، والموارد المادية التى يتطلبهـا مجهود التعريب ايضا متوفرة للتجربة المعاصرة كما كانت متوفرة للتجربة الاولى • فان الثروة الطائلة التى كانت تتدفق على قصور بغـداد وسمحت للخلفاء العباسيين باقامة المؤسسـات وتشجيع الباحثين وجمع المترجمين واستقـدام الكتب ، اذا كانت تختلف من حيث مصدرها عن الثروة التى يملكها العرب اليوم والتى تمكنهم ان يخصصوا جزءا صغيرا منها للتعريب ، فهى ليست اكبر من الثروة المتولدة من النفط وغـير ذلك من الموارد • وبصفة عامة , يمكن القول بان الفوارق بين التجربة الاولى والتجربة التى تمر بها اللغة العربية فى عصرنا , من حيث الدوافع والمناخ العام والنتائج المامول تحقيقها ، هـى فوارق ظاهرية اكثر منها حقيقية • وبالتالى ، فان التجربة التى تمت فى عصور الاسلام الاولى ، ذات قيمة حية ويمكن ، فى رأى هذا الكاتب ، الاسترشاد بها , ولا سيما فيما يتعلق بتحديد الاولويات وتركيز التوجيـه وبناء منشئـات التعريب وافساح المجال لمساهمة جميع العناصر فى مجهود التعريب ، بقطع النظر عن الاعتبارات الدينية والقومية •

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن فى سياق هذه المقارنة العامة هو :

ما هى قيمة النتائج التى حققتها البلدان العربية فى مجال التعريب على ضوء معطيات التجربة الاولى ، ثم ما هى قيمة المنهج الذى اعتمدناه لهذه الغاية ؟

فيما يتعلق بمحاولة الاجابة على الشق الاول من هذا السؤال ، يجب ان نبدأ بملاحظة فارق شكلى بين التجربتين ليس له صلة بالتعريب نفسه ، بل بالناخ العام الذى يجرى فيه التعريب ونعنى بذلك الوضع السياسى • فاناللغة العربية قد دخلت فى التجربة الاولى للتعريب ، وهى فى مركز القوة ، فكانت جميع السبل ، لذلك مسيرة امامها • أولا من حيث توفر المادة العلمية (المخطوطات) الاصيلة التى يحصل عليها العلماء والخلفاء بسهولة (أو فى مقابل غرامة فرضت على البلد المفتوح) • وثانيا اقبال العلماء والاطباء والفلاسفة والمترجمين من مختلف الملل والنحل على المساهمة فى تنمية تراث الثقافة العربية طلبا للمال أو للجاه والحظوة لدى الخلفاء ، أو لكلا الامرين •

واما اللغة العربية فى العصر الحاضر ، فهى تواجه عقبات ادبية يصعب التغلب عليها ، اهمها حجود ابناء الحضارة الغربية الذين يعتبرونها لغة متخلفة ، ان لم تكن ميتة • وهذه النظرة ، بطبيعة الحال تؤثر على الاقبال على تعليمها والمساهمة فى تنميتها (1) وهذا فضلا عن العقبات المادية التى تتمثل فى شراء حقوق الترجمة ودفع نفقات النشر التى لا يمكن ضمان استرجاعها ، حتى على المدى الطويل فى كثير من القطاعات المتخصصة •

أضف الى ذلك ، ان التراث العربى الاساسى الذى يمكن ان يقوم عليه أى مجهود حقيقى واسع النطاق للتعريب ، ولا سيما فيما يتعلق باحياء المصطلحات القديمة وتكييف معانيها ، اصبح معظمه اليوم مشتتا فى مختلف انحاء العالم ، بعد ما نهبه المستعمرون ، فى شكل مخطوطات أو اعمال نشرت بقصد التعريف بها فى الغرب ونفدت طبعاتها منذ أزمان طويلة •

واما قيمة النتائج التى حققناها فى مجال التعريب بصفة عامة فى التجربة الحالية ، فهى تبدو ايجابية ، خصوصا ، اذا اخذنا الى الاعتبار عامل الزمن ، حيث ان المجهود المعاصر يمتد على أقل من نصف قرن ، بينما تمتد التجربة الاولى على اكثر من قرنين • ولكن الفرق الحقيقى بين التجربتين ، فرق فى النوع • فبينما اتجهت التجربة الاولى التى كانت تجرى فى مجتمع تسود فيه حياة البذخ واللهو ، بعزم وتصميم الى اثراء التفكير العربى بالاغتراف من العلوم والفلسفات الاجنبية ، بحيث تجاهلت الثروة الادبية اليونانية الهائلة ، بل وحتى اعمال المؤرخين اليونان والبيزنطيين (تلك الاعمال التى لو قدر لها ان تترجم لغيرت نظرة المؤرخين العرب الى الشؤون العالمية) ، اتجهت حركة الترجمة فى عصرنا ، اساسيا ، الى الادب، ولا سيما القصص والروايات العاطفية (وكثير منها فى شكل افلام) ، ولم ننتبه الى اهمية ترجمة الاعمال العلمية الا فى وقت متأخر نسبيا •

(1) راجع بشان تناقص الاقبال على تعلم العربية وقلة عدد المستعربين فى فرنسا ، مثلا ، الاستعراض الذى نشرناه فى العدد السباق من مجلة الاصالة لكتاب بول بالطا ، المعنون « سياسة فرنسا تجاه العرب ، من دوجول الى بومبيدو » .

- ما هو سبب هذه الظاهرة ؟

ان تحليل هذا السبب ، سيفضى بنا الى محاولة الرد على الشق الثانى من السؤال الذى طرحناه آنفا ، ونعنى بذلك قيمة المنهج ·

فان الفرق الاساسى بين التجربتين يتصل بتخطيط التعريب وتنظيمه · فان الباحث والمترجم فى التجربة الاولى ، كان يستمد الوحى والتوجيه من القمة السياسية ، أى من الخليفة نفسه · وقد كانت هذه العناية الشخصية فى حد ذاتها ، كفيلة بضمان الجد فى العمل وعدم تضييع جهد المترجم فى اعمال تافهة ، وخصوصا بابعاده عن السعى لكسب رضا الجماهير بالانتاج للتسلية · ولكن المترجم ، زيادة على ذلك ، كان يكلف بالعمل فى قطاع محدد ، أو بترجمة كتاب معين من قبل الخليفة · فان المؤرخين يذكرون ، مثلا ، ان وفدا هنديا حضر الى بغداد لزيادة ابى جعفر المنصور فى سنة 154 هـ — 771 م ، وكان ضمن رجاله احد العلماء الهنود ، وكان ماهرا فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر اعمال الفلك ، على مذهب علماء الهند ، فكلف المنصور هذا العالم باملاء مختصر لكتاب السندهند باللغة العربية ثم أمر المنصور بان ينقل الكتاب كله الى اللغة العربية (1) · ثم ان الخليفة أمر أبا اسحاق ابراهيم بن حبيب الفزارى ، بان يستخرج من الكتاب المترجم ، كتابا تتخذه العرب اصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق بها ، فعمل منه زيجات (2) ، اشتهر بين علماء العرب فلم يعملوا الا به ، حتى ايام المأمون ·

فهذه القصة تدلنا الى أى مدى كان يبلغ اهتمام الخليفة بالتعريب العلمى · فان المنصور ، لم يكتف باستغلال فرصة زيادة عالم هندى له ، ليطلب اليه ان يملى فى عجالة ، بدون شك ، ملخصا لكتاب لا يتسع الوقت امامه لترجمته كله · بل هو يواصل الاهتمام بهذا العمل ليامر بنقله كله ، فى مرحلة تالية ، الى اللغة العربية · وكأنما ابى الا ان يقدم دليلا لتبرير اهتمامه بهذا العمل ، فامر باستخراج ما فيه من الجداول الحسابية لوضعها تحت تصرف العلماء والمهتمين بعلم الفلك ·

وفى مقابل عناية السلطة المركزية وتوجيهها المباشر لنشاط التعريب العلمى والثقافى ، تلك العناية التى تستمر فى بعض الحالات (كما فى المثال السابق) حتى مرحلة تطبيق النظريات المترجمة ، فى التجربة الاولى ، نجد ان السلطة المركزية فى التجربة الثانية قد منحت الاولوية المطلقة للتعريب فى قطاعين حيويين : الادارة والتعليم ·

وكذلك نجد ان معظم الدول العربية قد حققت فى ظرف وجيز لا يكاد يتجاوز ربع قرن ، تعريب مختلف النواحى الادارية وانظمة الجيش ، واجهزة الاعلام ، واعمال المصارف ، والاعمال التجارية ، ووسائل النقل الخ ··· ، وهذه

1) راجع احمد امين ، ضحى الاسلام — الجزء الاول — طبع بيروت ، ص 242 — 243 ، وشوقى ضيف ، المصدر المذكور ، ص111 وعمر فروخ ، تاريخ العلم عند العرب ، طبع بيروت ، ص 116 ، والمراجع التى نقلوا عنها

2) الزيج (جمعه : زيجات وازياج) ، جدول حسابى يبين مواقع النجوم وحساب حركاتها

مهمة تتطلب كثيرا من العناية والتخطيط ، كما تتطلب فترة طويلة من الوقت • ولكن النجاح فيها ، يتوقف خصوصا ، على مدى ما حققه البلد من التقدم فى تعريب التعليم • فان تكوين اطارات تلقت التعليم والتدريب فى مختلف المجالات ، فى معاهد قومية وباللغة العربية، بالعدد الكافى ، وعلى المستوى المطلوب ، امر حيوى لتعريب الادارة و مختلف مرافق الاعمال •

والبلدان العربية تختلف حظوظها من النجاح فى تعريب التعليم بين بلد وآخر • فبينما نجد بعض البلدان قد حققت التعريب فى جميع مراحل التعليم ، بما فى ذلك التعليم العالى ، ولم تعد تستخدم اللغات الاجنبية الا للتدريس فى بعض نواحى التخصص ، فاذا ببلدان أخرى لم تحقق سوى مرحلة ، قد لا تتجاوز مرحلة التعليم الابتدائى ، مع محاولات لتعريب بعض اقسام الدراسات العليا ، مما يتصل بالعلوم الانسانية•

وهذا التركيز فى البلدان العربية فى مجموعها على تعريب التعليم له ، بدون شك ، ما يبرره • بل ان تخصيص جميع الموارد والجهود لتعريب التعليم، فى المراحل الاولى ، كان ضروريا ، بسبب قلة الموارد المالية والبشرية التى تملكها البلدان العربية فى تلك المرحلة • ولكن اهمال التعريب الثقافى ، أو بعبارة أدق ، تركه تحت رحمة التجار وقوانين السوق (العرض والطلب) ، كانت له نتائج سيئة ستظهر خصوصا فى انحطاط مستوى الانتاج ، حيث ان المترجم ، ودار النشر التى يهمها فى المكان الاول ، رواج العمل المترجم ، والحصول على الربح السريع ، سيتجه فى اختياره حتما ، الى تملق الجماهير وسد حاجتها الى التسلية وتزجية الوقت • واما الاعمال الهامة التى تعالج موضوعات ثقافية علمية فوق مستوى معين ، فان نشرها يتطلب استثمارات على المدى الطويل حيث انها تتجه الى جمهور محدود • وبالتالى، فهى تكلف عناء ومشقة للمترجم بدون مقابل ، ولا تضمن الربح المنشود للناشر التاجر • ثم ان المترجم الذى ينقل للتسلية وتزجية الوقت لايجد مبررا لاجهاد نفسه فى تحرى الدقة فى الترجمة والعناية بالاسلوب، فضلا عن محاولة اثراء العمل المترجم بالهوامش والشروح ، حيث ان القارئ المقصود ، لا ينتظر منه ذلك ، بل ولربما يتضايق منه ، اذ يفسد عنه قراءته السريعة المسترخية •

وهذه الظاهرة التى نشاهدها فى اسواق الترجمة ، خصوصا فى بلدين عربيين معروفين بنشاط المطابع وبسعة اسواق النشر فيهما (وهذا يشمل الكتب والافلام الطويلة والقصيرة) كانت لها آثار سلبية على مستوى التعليم الذى كان من المفروض ان يجد دعامة متينة فى الترجمة التى تسمح للطالب بان يستدرك ما فاته وتتيح له ما يكمل به معلوماته المدرسية التى هى ناقصة بطبيعة الحال ، كما تفسح المجال للخريج لتوسيع آفاقه الفكرية بدون عناء أو جهد خاص •

وعلى صعيد التعليم العالى ، يمثل الضعف الذى يعانيه التعريب الثقافى تهديدا بفشل محاولات تعريب هذا النوع من التعليم بان يصبح تعليما شكليا عقيما • فان التعليم الجامعى يقوم ،

أولا وقبل كل شيء ، على مجهود الطالب لاكمال تعليم نفسه وللتدريب على مناهج البحث والاستقصاء • واما دور الاستاذ الحقيقى ، فهو يكاد ينحصر فى النصح والاشراف على هذا المجهود وتوجيهه فى الطريق الصحيح • ونجاح هذا المجهود لا يمكن ضمانه الا بتوفر مكتبة غنية بالقواميس المعتمدة والموسوعات وأمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون •

والحق انه يوجد تناقض واضح فى السياسية التى تعمل جاهدة لتعريب التعليم فى مختلف مراحله ، وتهمل فى نفس الوقت ، العمل الضرورى لتوفير قاعدة من وسائل البحث من الكتب الاساسية والموسوعات الخ ••• التى يستحيل علينا القيام بوضعها فى المرحلة الحالية من تطورنا ، ولكننا نستطيع نقلها والاستفادة منها بلغتنا بسهولة •

وقد يقال ان الطالب العربى يدرس لغة اجنبية أو لغتين فى المرحلة الثانوية ، وبالتالى ، فهو يستطيع الاستفادة من المراجع الاجنبية فى المرحلة الجامعية • ولكن هذه الحجة تنطوى على تبسيط مضلل للمشكلة • وقيمتها الوحيدة فى نظرنا هى انها يمكن ان يستعمل للتخدير وتشجيع التقاعس والخمول الذهنى • لان الاستقلال الثقافى ـ النسبى ـ الذى ننشده ، لن يتحقق ابدا ، اذا لم نكتف بالبقاء عالة على غيرنا ، بل نأبى الا ان نستعمل ما يكتبه الاجانب وباللغة الاجنبية •

ونحن نعرف ان الفرنسى ، مثلا ، يدرس لغات اجنبية فى المدارس الثانوية كالانجليزية والاسبانية والعربية ، ولكنه انما يعتمد فى تكوينه العلمى على ما توفره مكتبة بلده وعلى ما ينتجه علماؤه ، أو ينقل الى لغته من الاثار الاجنبية • واما اللغة الاجنبية التى يدرسها ، فهو انما يستفيد منها ، خصوصا ، فى حالة ما اذا اتجه الى التخصص فى آداب تلك اللغة وتاريخها ، أو ينوى الاقامة أو ممارسة اعمال من نوع خاص فى البلد الذى يتكلم تلك اللغة •

صحيح ان بعض البلدان العربية قد اضطرت تحت ظروف صعبة واجهتها بعد الاستقلال مباشرة الى انتهاج سياسة محافظة فى التعريب ، فان تحويل المرافق والمعاهد والمناهج وخصوصا ، العقليات التى تركها الاستعمار ، لا يمكن ان يتم بين عشية وضحاها • ولذلك فقد فضلت حلولا سهلة نسبية ، واعتمدت نظام الازدواج اللغوى • ولكنه فى مقابل ذلك ، نجد بلدان أخرى حاولت متجاهلة جميع العوائق والمثبطات ، ان تطوى المراحل ، بحيث تحقق التعريب الشامل فى اقصر وقت ممكن • وهذه البلدان تعمل فى المكان الاول لاحداث الصدمة النفسية الضرورية لتحويل عقليات الافراد والجماعات ولتغيير العادات الذهنية المستعصية • ومن ثم ، فنحن لا يمكننا ان نتوقع منها ، ان تهتم فى هذه المرحلة بالنوع بقدر ما تهتم بالكم •

والمثال الذى يتبادر الى الذهن لهذه الفئة من البلدان ، هى الجزائر •

فان هذا البلد الذى بذل الاستعمار كل ما فى وسعه للقضاء على شخصيته ولغته العربية خلال

فترة تمتد على قرن وربع ، وضع مسالة التعريب بعد حصوله على الاستقلال ، فى مقدمة الاولويات القومية التى يسعى لتحقيقها • وعلى الرغم من بعض جوانب النقص التى تشوب جهوده ، فقد استطاع جعل اللغة العربية لغته الرسمية ، وتعريب التعليم الابتدائى وبعض فروع التعليم العالى ، ولا سيما دراسات التاريخ والآداب والقانون • وكذلك حقق التعريب فى عدد من المؤسسات وفى معظم اجهزة الاعلام والادارة • وقد حصل البلد على هذه النتيجة المبكرة بفضل سياسة واضحة هادفة للتعريب ، وجدت سندها خصوصا فى المرسوم الذى صدر فى سنة 1971 والذى يفرض معرفة حد ادنى من اللغة العربية على موظفى الدولة •

وتعليم اللغة العربية خارج المدارس ، يجرى تحت رعاية الدولة بعناية مختلف اجهزتها ، وسواء فى ذلك ما يتصل بالدروس الليلية التى تقدم للعمال فى نطاق برنامج محو الامية الذى نص عليه المخطط الرباعى الاول للتنمية الاقتصادية والاجتماعية (الذى ينتهى العمل به فى نهاية سنة 1973) ، أو بالدروس التى تلقى بواسطة الاذاعة الصوتية والاذاعة المرئية أو التى تلقى فى المساجد •

وبالطبع ، فان من سبق الاوان التكهن منذ الآن بالنتائج المنتظرة لجهود الجزائر فى مجال التعريب ولكن المؤكد ، ان الشعب يعلق آمالا كبيرة على هذه الجهود ويعتبر النتائج التى يأمل فى الحصول عليها حيوية لاعادة تركيب شخصيته القومية ولتقدمه الثقافى •

وخلاصة القول ، ان التعريب ، بوصفه عملية واعية هادفة لاثراء التفكير واللغة العربية ، ووسيلة لربط الحضارة العربية بثقافات الامم القديمة من جهة ، وبالحضارة الحديثة التى تقوم على العلم والتكنولوجيا ، من جهة أخرى ، قد شهد تجربتين اساسيتين ، بلغت أولاهما أوجها فى اواخر العهد العباسى ، وهذه التجربة عرفت حظا من النجاح لم يشهد له التاريخ مثيلا قبل الفتح الاسلامى ، حيث وفرت الدعامة التى قامت عليها النهضة العلمية والفنية التى شهدتها أوروبا فى القرن السادس عشر • وعلى الرغم من تغير الظروف التاريخية ، فان التجربة الاولى ، تنطوى على عناصر ذات قيمة يمكن درسها للاستفادة منها فى حركة التعريب المعاصرة ، ولا سيما ، فيما يتعلق باقامة مؤسسات التعريب ومنح الاولوية للتعريب الثقافى والعلمى ، والاستعانة بالعناصر الاجنبية الصالحة •

والتجربة الثانية ، هى التى تعيشها الامة العربية فى الوقت الحاضر • وهى على الرغم من انها سجلت تقدما تختلف درجته باختلاف الاقاليم العربية ، الا انها ، فى مجموعها ، لا تزال فى المراحل الاولى • وتبعا لذلك ، فان الحكم على نجاح هذه التجربة أو فشلها ، يجب ان يكون جزئيا ومؤقتا ، ولا يتناول الا النواحى القطاعية • ولكنه من الضرورى ، مع ذلك ، متابعة التقييم باستمرار حتى يمكن اصلاح ما يقع فى التجربة من الخطأ فى التوجيه وفى اختيار الاولويات •

والملاحظة العامة (والاخيرة) التى نود تسجيلها بعد هذا التحفظ ، تتعلق باتجاه التعريب الذى يخضع فى الوقت الحاضر لقوانين السوق ، الى ارضاء حاجة الشعب الى المتعة والتسلية ، واهمال التعريب الثقافى والعلمى •

لاصلاح هذا النقص ، يقتضى الامر تدخل الدولة واجهزتها بطريقة فعالة ، تماثل تدخل أبى جعفر المنصور ، ان صحت هذه الاشارة • ونظرا لان التعريب العلمى ، يتطلب استثمارات كبيرة الحجم وتجنيد الطاقات العلمية المتوفرة فى جميع البلدان العربية ، يحتاج القيام بهذه المهمة بطريقة ناجحة الى تعاون وثيق بين الدول العربية • وهذا التعاون ، يمكن ان يجرى فى نطاق الاجهزة الاقليمية والشبه الاقليمية الموجودة (مثل جامعة الدول العربية واللجنة الاستشارية لدول المغرب العربى) ، أو فى نطاق جهاز دائم مشترك بين الحكومات ينشأ لهذه الغاية ويقوم بمهام أساسية منها :

1 ـ تنسيق البرامج القومية التى تمولها الدولة للتعريب وادغامها فى مخطط عربى شامل وربط التعريب بمختلف النشاط الثقافى والبحث العلمى فى الوطن العربى •

2 ـ تكوين مكاتب فرعية فى جميع البلاد العربية لتبادل المعلومات بين الناشرين الخصوصيين والعلماء والمترجمين ، بشأن الاعمال العلمية المترجمة والمنشورة ، أو التى هى فى طريق الترجمة والنشر ، حتى يمكن تجنب التضاعف والتكرار الذى يكون مضرا ، حتما ، بالناشر والمترجم معا •

3 ـ تسهيل الحصول على الاعمال العلمية المنوى تعريبها ومساعدة المترجم ، متى كان يقوم بالعمل لحسابه الخاص ، أو لحساب دار للنشر ، وخارج نطاق البرامج الحكومية، للاتصال بالناشرين المحتملين ، وتزويده بالمعلومات والاضاحات التى تتعلق بمختلف النواحى التجارية والقانونية (مثل حقوق التاليف والنشر الخ •••) •

منشـــورات
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

قريبا ستصدر في طبعة مستقلة كاملة مع الترجمة

اليـــاذة الجـزائـر

التي نظمها خصيصا للملتقى السادس
للتعرف على الفكر الاسلامي

الشاعـــر
مفـدى زكريـــاء

التعريبُ والشخصيَّة الوطنيَّة

د. محمد مصايف
كلية الآداب
جامعة الجزائر

موضوع « التعريب والشخصية الوطنية » ، موضوع لا أعتقد ان موضوعا آخر نال من الكلام مثل ما نال ، فقد تحدث عنه الرئيس بومدين في مناسبات مختلفة ، واتخذ فيه موقفا من أوضح المواقف الرسمية عند ما أكد « ان التعريب مطلب ثورى » ، وناقشه وزيرا التربية الوطنية فى غير مرة . وألقى فيه السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية منذ حوالى ثلاث سنوات محاضرة قيمة ، وتحدث عنه الصديق عبد الحميد مهرى ، الامين العام الحالى لوزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، فى محاضرة هامة كذلك ، وناقشته اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم طوال شهور

*) محاضرة القيت بالمركز الثقافى الاسلامى التابع لوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

متعددة، وكتب فيه الادباء ومنهم محاضركم الليلة، دراسات مطولة ثرية . فهل وصلنا من كل هذه الاهتمامات والمواقف الى موقف موحد فى قضية التعريب ؟ هل نحن اليوم متفقون على الخطة الثورية الموحدة التى يجب ان يسير التعريب فى اطارها ؟ هل حققنا كل ما كان فى الامكان تحقيقه طوال السنوات الاحدى عشرة الماضية ؟ فما هى الاقتراحات العملية التى يمكن ان تسهم بها هذه المحاضرة المتواضعة فى دفع عجلة التعريب الى الامام ؟ هذه الاسئلة الاربعة وغيرها هى التى تشكل محور حديثى اليكم فى هذه الليلة . وقبل محاولة الاجابة عليها اريد ان احدد على وجه التقريب ما نعنى بكلمة « شخصية وطنية » , وان اذكر العلاقة العضوية التى ربطت بين هذه الشخصية وبين اللغة العربية طوال تاريخنا الحديث .

لقد اعتدنا ان نبسط حديثنا عن مفهوم « الشخصية الوطنية » ، فنكتفى بذكر مقوماتها البارزة التى تقع تحت ادراكنا جميعا ، وهى المقومات التى غالبا ما نحصرها فى عناصر الدين، واللغة ، والتقاليد ، والحضارة او التاريخ . وهى كما اسلفت ابرز ما يتبادر الى اذهاننا كلما اثرنا كلمة « شخصية » ، لانها السمات الاساسية الظاهرة التى تواكب اية امة فى مسيرتها التاريخية , ولو ان بعض المفكرين يناقشون فى كون الدين عنصرا من عناصر الشخصية الوطنية ، باعتبار ان الامة الواحدة قد تتعدد الأديان فيها ، كما هو الشان فى معظم الامم ، وفى الهند بصفة خاصة . غير ان الامة الجزائرية تختلف عن هذه الامم ، لان مواطنيها يدينون بدين واحد ، هو الدين الاسلامى الحنيف ، الدين الذى واكب مسيرتها منذ ان اعتنقته فى القرن الاول من انتشار الاسلام , واتخذته نبراسا لها فى حياتها الدنيوية والاخروية . هذا بالاضافة الى ان الاسلام هو الذى ضمن وحدتنا ، ومكننا من الصمود للضغوط الاستعمارية ، وحفظ علينا شخصيتنا الوطنية فى عهود التخلف والجهل . فالدين الاسلامى بالنسبة الينا مقوم اساسى لا ينبغى التفريط فيه بحال ، لان التفريط فيه تفريط فى الجماهير التى قامت على كاهلها الثورة المسلحة ، وتقوم اليوم على عاتقها الثورة الاشتراكية .

وتشكل اللغة أبرز مقوم للشخصية الوطنية ، لانها وسيلة التعبير عن مشاعر الافراد والجماعات وأداة التفاهم بين ابناء الوطن الواحد . واللغة التى يستعملها المواطنون أكثر ، وتثبت قدرتها على مواكبة الحضارة الانسانية هى اللغة الوطنية بالنسبة الينا ، وهى اللغة العربية التى ثبتت للمحن التى سلطها عليها الاستعمار طوال قرن ونصف قرن من الزمان ، وهى التى نقلت الينا حضارة أسلافنا ، وسجلت علومهم وامجادهم ، وتقوم اليوم بنفس الرسالة للامة العربية جمعاء . انها اللغة القادرة على استيعاب اللهجات الوطنية للشعب الجزائرى . فاللغة العربية اذن مقوم أساسى من مقومات شخصيتنا . وسنرى كيف انها كانت المعبر الصادق عن شخصيتنا فى

مختلف العصور ، وانها لذلك ستكون الضمان الوحيد لحفظ هذه الشخصية من الامحاء والتبعية.

ومن المقومات الاساسية لاية شخصية وطنية ما نطلق عليه اسم « التقاليد » ، ونعني بهذه الكلمة كل ما يعبر عن نفسية امتنا باعتبارها « امة » ، ويعطي صورة عامة عن حياتها اليومية خلال تاريخها الطويل . وابرز هذه التقاليد تقاليد الاسرة الجزائرية . وانك لتجد هذه التقاليد واحدة أو متشابهة جدا في جميع انحاء الوطن . وبالرغم من ان اتصال بعض المواطنين في المدن بالحضارة الغربية قد صور شيئا من هذه التقاليد ، فانها مع ذلك حافظت على روحها واهم سماتها . وان هناك تقاليد اعمق من السابقة ، وادل على نفسية شعبنا . ولعل احسن مصدر لمعرفة هذه التقاليد هو الادب الشعبي بما فيه الاساطير والشعر والغناء . وتعد التقاليد الوطنية من اهم الموضوعات للدراسات الاجتماعية. واتصال التقاليد بالحضارة والتاريخ الوطني مما لا يخفى على احد . ولذلك كان التاريخ بما فيه التطورات الاجتماعية والحركات الشعبية التي تتخلل هذا التاريخ مقوما هاما من مقومات شخصيتنا الوطنية والجزائري مهما تطور في حياته اليومية ، ومهما اختلفت نظرته الى مواطنيه ، فهو اعلق بتاريخه الوطني العربي الاسلامي ، فهو يذكر امجاده بكل اعتزاز ، ويتعظ بالنكسات التي حدثت لامته في الماضي القريب أو البعيد . ويتمنى ان يتطور هذا التاريخ في اطار الاستقلال والعزة والتقدم . وكل ما يقوم به المواطن في سبيل الوطن يعد خدمة لهذا التاريخ ، ومساهمة في تطويره . بل حتى اهتمام المواطن بمصالحه الخاصة يدخل في آخر المطاف في هذا الاطار العام الذي هو تاريخ امتنا الفتية . لان انتظام حياة الافراد ما هو الا انتظام لحياة الامة .

هذه هي المقومات البارزة التي اعتدنا ذكرها بمناسبة الحديث عن «الشخصية الوطنية» ، وهي مقومات اساسية فعلا ، لانها تشكل ابرز السمات لنفسية الشعب الجزائري في جميع عهوده واطواره . ونفسية الشعب الجزائري هذه هي التي اعتبرها الشخصية الوطنية الحقة لامتنا ، وهي من الاتساع والعمق والخلود بحيث تشمل ديننا وتقاليدنا وتاريخنا وحضارتنا وآلامنا وآمالنا ومطامحنا . فهي بذلك تنطلق من الماضي السحيق لتستمر في المستقبل البعيد . ومن هنا كانت الشخصية الوطنية ميراثا وصلنا من الاسلاف ، وامانة يجب علينا ان نسلمها للاجيال المقبلة كما استلمناها من الاجيال الماضية . وما دامت الشخصية الوطنية تشمل التاريخ والحضارة والتقاليد التي هي أثر من آثار الاجيال السابقة فاننا لا نخطيء اذا ارجعنا جذور هذه الشخصية الى العهود الاولى من حياة امتنا ، فشخصيتنا تعتمد على تاريخنا قبل الاسلام ،وتزداد قوة وتأصلا وتحديدا بدخول الاسلام الى هذه الديار ، وباتخاذ اسلافنا اللغة العربية أداة تعبير بينهم . ولو قارنا بين مواقف اسلافنا في الماضي ، ومواقفنا في الحاضر ابان الاستعمار واثناء الثورة ، لوجدنا شبها كبيرا

فى النظرة ، وفى ردود الفعل ازاء الاحداث والمحن. وآمال الجزائرى قبل قرون هى آماله اليوم . والمستقبل سوف لا يكون غير امتداد طبيعى لهذا الماضى الذى صنعه اسلافنا ، وهذا الحاضر الذى خلقناه وما نزال نخلقه فى هذه الفترة الحاسمة من حياة امتنا . فالشخصية الوطنية للشعب الجزائرى اذن هى قبل كل شيء نفسيته ، وما يتفرع عن هذه النفسية من تقاليد ومواقف وآمال ومطامح ، وهى بصفة عامة هذه الحضارة العربية الاسلامية التى نتحرك فى اطارها . وما الدين والتقاليد واللغة الا مظاهر لهذه النفسية وبما ان حياة هذه المقومات دليل على حياة الشخصية الوطنية ، كانت المحافظة على اللغة والدين والتقاليد محافظة على الشخصية ، والتفريط فيها تفريطا فى الشخصية . وفى نهاية الحديث عن مفهوم الشخصية الوطنية كما اتصوره يكون من المفيد جدا ان نتبين العلاقة بين هذه الشخصية وبين اللغة العربية ، لنرى بعد ذلك السبب الذى يجعل دعاة التعريب الكامل يلحون على الاسراع بتطبيق هذا الاخير فى جميع مراحل التعليم ، وعلى تعميمه فى الادارات والمؤسسات المختلفة .

لقد ادرك الاستعمار هذه العلاقة بين الشخصية واللغة ، ولذلك لم يفرق فى عدائه للامة الجزائرية بينهما ، فكان يحاول سلخ الشعب الجزائرى من شخصيته الوطنية، والحاقه بالشخصية الفرنسية. ولبلوغ هذه الغاية استخدم جميع الوسائل التى ابسطها الاغراء والتهديد ، واشدها تحويل المساجد الى كنائس ومنع الواطنين من تعلم دينهم كما يريدون،وارغامهم على التحاكم لقوانينه المدنية المنافية للاسلام . فلما صعب عليه ان يحقق مراده ادرك انه ما دام الشعب الجزائرى يتحدث اللغة العربية ، ويعرض عن اللغة الفرنسية ، يستحيل عليه ادماجه فى الامة الفرنسية . ولهذا وجه أكبر جهوده لمنع اللغة العربية من التعلم ، واضطهاد من حاول تعليمها بطريقة أو بأخرى . ولعل معظم الحاضرين يذكرون الاضطهاد الذى نال المعلم الحر قبل اندلاع الثورة المباركة ، ويعرفون ان المدارس الحرة كانت لا تفتح الا لتغلق ويلقى بمسيريها ومعلميها فى السجون . هذا كله بالاضافة الى اعتبار اللغة العربية لغة اجنبية فى درجة اقل من اللغات الاجنبية الاخرى . ومن الواضح ان الاستعمار لم يقف هذا الموقف من اللغة العربية الا لادراكه ان العلاقة بين هذه اللغة وبين الشخصية الوطنية الجزائرية علاقة عضوية يستحيل معها القضاء على احداهما دون الاخرى . وفعلا فان الشعب الجزائرى ظل يعتبر اللغة العربية رمزا لحياته الوطنية ، ومقوما من مقومات شخصيته التى لا ينبغى التفريط فيها بحال . وهذا ما يفسر انكماشه فيما يخص تعلم اللغة الفرنسية فى عهد الاستعمار ، التى كان يعتبرها بحق منافسة للغته القومية ، كما يفسر كذلك تحمله كل شيء فى سبيل الحفاظ على لغته ، وتعلمها بكل الوسائل والطرق ، يبنى من اجلها المدارس بالمآت رغم فقره واحتياجه ، ويحول الزوايا والمراكز والمساجد الى حلقات دروس تعلم

فيها اللغة العربية ، ويبعث بابنائه الى تونس والمغرب الاقصى والبلدان العربية الشقيقة الاخرى استزادة من فقه اللغة واصول الادب والدين ٠ وما اهتمام الجزائريين فى عهد الاستعمار بتتبع اخبار ابنائهم الطلبة فى البلدان العربية ، والاعتزاز بهم بعد رجوعهم الى مساقط رؤوسهم ، والالتفات حولهم رغم تهديد الادارة الاستعمارية لهم ، الا دليل قاطع على ربط الجزائرى العادى بين ثقافته العربية وبين حياته الوطنية وحضارته بصفة عامة ٠

لم يخطىء الشعب الجزائرى فى فهم هذه العلاقة بين الشخصية الوطنية واللغة العربية كما لم يخطىء الاستعمار كذلك فى هذا الفهم ، فقد افاد تعلم اللغة العربية واصول التاريخ والحضارة العربية افادة كبرى فى نشأة الوعى الوطنى بين الجماهير ، وتطوره بسرعة عجيبة ادت الى تأصل النزعة الثورية فى هذه الجماهير ٠ ولعل موقف المصلحين والسياسيين الجزائريين من الشخصية الوطنية واللغة العربية مما يدل على فهمهم لهذه العلاقة التى سبق الحديث عنها ٠ فقد يذكر الكثير ان المصلحين والوطنيين لم يكونوا دائما على اتفاق٠وفتح الجرائد الوطنية والاصلاحية قبل ثورة نوفمبر وحده يبين لنا جانبا من المعارك التى كانت تدور بينهم حول تزعم الامة الجزائرية ولكن بالرغم من هذا النزاع،ومن المعارك الشديدة التى كثيرا ما ادت الى السباب والشتم ، فان مواقفهم كانت مع ذلك تقوم على احترام المبادىء التى كان يمثلها كل منهم ٠ وهكذا لم نجد وقوفا واضحا من طرف أهم الشخصيات الاصلاحية ضد الحركة الوطنية كمبدا ، ولا وقوف الوطنين ضد المصلحين باعتبارهم حركة تخدم اللغة العربية والثقافة الاسلامية ٠ وهذا لان كلا منهم كان يعرف ان الوطنية التى هى عنوان الشخصية الثائرة ، واللغة العربية التى هى تعبير صادق عن هذه الشخصية ، لا يمكن ان تتعاديا مبدئيا ، وان الاولى لهما ، ان لم تستطيعا السير معا فى حركة واحدة ، ان تسيرا متوازيتين نحو غاية واحدة ، هى تحرير االشعب الجزائرى من جميع أنواع التسلط الاستعمارى ٠ وهذا ما حصل بالفعل الى ان دقت ساعة الثورة ، فصهرت جميع الحركات الاصلاحية والوطنية فى حركة تاريخية واحدة ، هى حركة التحرير الشامل ٠

فالمعركة التى كانت دائرة بين الشعب الجزائرى وبين الاستعمار اذن كانت معركة حول الشخصية الجزائرية واللغة العربية ٠ وكما كان الاستعمار لا يفرق بينهما فى موقفه العدائى من الشعب الجزائرى ، كان شعبنا كذلك لا يفرق بينهما فى صموده ومقاومته وحفاظه على مقوماته ٠ فمن نجح يا ترى فى هذه المعركة التى دامت ما يقرب من قرن ونصف ؟ فهل نجح الشعب الجزائرى ، فحافظ على شخصيته ولغته الى يوم الاستقلال ، أم نجح الاستعمار فقضى على هذه الشخصية وهذه اللغة ؟ الواقع ان الاجابة على هذا السؤال يتخذ **شكلين اثنين :** شكلا عاما يلاحظ فيه بكل سرور نجاح الشعب الجزائرى بالرغم من كل ما سلط عليه من تهديد ، واغراء ، واضطهاد ،

وتفقير ، وتقتيل في كثير من الاحيان ، فقد استقلت الجزائر سنة 1962 وشعبها عربي في لغته ودينه وقوميته وآماله ومطامحه • والدليل على هذا انه ما كادت علائم الاستقلال تبدو في الافق حتى ظهر الشعب الجزائري في شوارع المدن كأقوى ما يكون ، وهذا رغم اسلحة الاستعمار ودباباته • ولم تكن مظاهرات 1961 في شوارع المدن الكبرى الا تشخيصا لهذه النفسية التي سبق الحديث عنها ، نفسية الاباء والتضحية والحفاظ على التقاليد , وهي كما سبق من اهم مقومات شخصيتنا •

بيد ان هناك جانبا آخر من الجوانب ، وهو لحسن الحظ لا يخل بالجانب السابق•وهذا الجانب الثاني هو ان الاستعمار كان قد نجح في تشكيل بعض النفوس الجزائرية بالشكل الذي اراد ، وهذا بفضل ثقافته ولغته من جهة ، وعن طريق اغراءاته من جهة ثانية ، واعني ببعض النفوس الجزائرية ها هنا هذه الطائفة الجزائرية التي تثقفت باللغة الفرنسية وحدها ، ولم تطلع الاطلاع الكافي على الحضارة العربية ، بل لم تعرف عن هذه الحضارة الا ما يحط من قيمتها في نفوسهم • واذا عرفنا ان الاستعمار هو الذي كان يلقنهم تاريخهم في مدارسه وبلغته ، سهل علينا ان ندرك القدر الذي حصلوا عليه من الثقافة العربية ، والشكل الذي حصلوا به على هذا القدر • فهؤلاء الجزائريون رغم مشاركتهم في حركة الثورة ظلوا يحافظون على هذه النفسية الخاصة التي خلقها الاستعمار فيهم ، وانتظروا نهاية الحرب التحريرية ليعلنوا عن هذه النفسية في غير مواربة • وهم الذين وقفوا في طريق التعريب منذ سنة 1962 ، ولم يفتأوا يشيعون القيل والقال حول الدين الاسلامي الحنيف ، واللغة العربية ، والصبغة الشرقية لحضارتنا • وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى اقتطاع الشعب الجزائري من هيكله العام ، هيكل العروبة والاسلام • والذي زاد من خطورة هذا الموقف هو وجود هؤلاء الاخوان ـ لثقافتهم وحاجة الجزائر اليهم ـ على رأس الحركة التربوية في بلادنا • فمنذ سنة 1962 الى سنة 1969 تقريبا ومسؤولية التربية الوطنية بين ايديهم•وبالرغم من اخلاص وزراء التربية الوطنية في حكومتنا,وقصدهم الى احلال اللغة العربية مكانتها،فانهم لم ينجحوا الا قليلا فيما ارادوا ، اذ كانوا دائما يصطدمون بهذا الاطار المسير الذي‌كان يقدم لهم الامور بالصورة التي يريد،والسبب واضح في‌وقوف‌هؤلاء الاخوان ضد الاسراع بالتعريب ، وهو انهم يخشون من تسلط اللغة العربية على مقاليد التعليم والتسيير، فيفقدون المسؤولية التي يتمتعون بها في النظام التربوي • فهم لا يفرقون بين مصالحهم الخاصة ومصلحة الشعب الجزائري • على انهم مخطئون شديد الخطأ في تخوفهم من نجاح التعريب ، فهذا لا يعني الافراد مهما كان تصورهم للاشياء ، ولا يهدف الى تحقيق مصلحة طائفة معينة ، بل يهدف الى ارجاع الامور الى مجاريها ، وتمكين الجماهير العربية من متابعة المسيرة الثورية التي تسيرها بلادنا • وهكذا نستطيع ان نؤكد ان الشخصية

الوطنية للشعب الجزائرى قائمة كما ارادها الله والتاريخ ، وان اللغة العربية ما تزال هى المعبر الوحيد عن هذه الشخصية فى أحسن الظروف كما عبرت عنها فى أحلكها ٠

ولكل ما سبق كان على الحكومة الجزائرية منذ قيامها فى آخر سنة 1962 ان تفكر فى قضية اعادة اللغة العربية الى مكانتها التاريخية المشروعة ، وان تبحث عن احسن الطرق للقيام بهذه العملية فى احسن الظروف ٠ ولم يكن للحكومة الجزائرية ان تفعل غير هذا . لان العلاقة بين اللغة والشخصية التى سلف الحديث عنها ، هى التى تفرض عليها مثل هذا الموقف ، فالجزائر استرجعت سيادتها بعد كفاح مرير ، وتضحيات لا نظير لها فى حروب التحرير ، وهى لا تريد ان تفقد هذه السيادة من جديد ، بل تريد ان تمتن استقلالها السياسى باستقلال اقتصادى وثقافى كامل ، وهذا لا يكون الا بالاعتماد على نفسها فى جميع الميادين ، وبالمحافظة على شخصيتها واختياراتها الوطنية ٠ وقد رأينا قبل ان المحافظة على الشخصية الوطنية لا يمكن ان يكون دون المحافظة على اللغة، والعكس صحيح ٠ فالسبيل الوحيد للمحافظة على مكتسبات الثورة اذن هو افساح المجال للغة العربية فى نظمنا التربوية ، وفى حياتنا اليومية ، لانه بفضل هذه اللغة وحدها يستطيع الجزائرى ان يعبر عن آماله ومطامحه ، فتقوى عاطفته الوطنية ، ويعمق وعيه بالمرحلة التى قطعتها الثورة ، وبالمرحلة التى عليها ان تقطعها فى ظل الاستقلال ٠

فاذا اضفنا الى هذا الاعتبار خروج الجزائر من الكفاح الوطنى ، أى احتفاظها بالمبادىء التى كانت تكافح من أجلها، عرفنا انه لم يكن فى امكان الحكومة الجزائرية ان تغفل هذه المسؤولية الوطنية مسؤولية احلال اللغة القومية مكانتها فى المدرسة الجزائرية ، وفى الادارات والمؤسسات المختلفة ٠ وقد حاولت ان تنهض بهذه المسؤولية ، فادخلت اللغة العربية منذ فجر الاستقلال فى منهاج التربية ٠ ولكن امكانياتها لم تكن تسمح لها بان تفعل شيئا كثيرا فى هذا الميدان ، فكانت السنتان الاوليان بالنسبة لتعليم اللغة العربية عبارة عن محاولة لاحلال الحق فى نصابه ، فلم تكن النتائج مرضية للمسؤولين لسببين : الاول انعدام الكتاب العربى فى ايدى المعلم، فضلا عن التلميذ، والثانى ضعف مستوى معظم الاطار الجديد الذى انخرط فى سلك التعليم لاول مرة ٠ ولست فى حاجة الى التنبيه الى ان هذا الضعف كان عاما فى اللغة العربية والفرنسية معا ، ومصدره هو ان الجزائر اضطرت فى السنتين الاولى والثانية الى قبول حاملى الشهادة الابتدائية فى سلك التعليم ، وهو المستوى الذى لا يكفى لخلق معلم مقتدر ٠ وبعد سنتين من الاستقلال اخذ هذا الاطار يتطور، وتشدد فى اجراء امتحان الانخراط فى سلك التعليم ٠ غير ان هذا كله لم يفد كثيرا حركة التعريب ، فظلت القضية غامضة بالنسبة لكثير من المسؤولين الجزائريين ، وظهرت نزعات متباعدة فى كيفية تعريب التعليم ، وبرزت قضية ما اسمى « الازدواج اللغوى » ، وما دعى « بالاتجاه العلمى»

للمدرسة الجزائرية ، وألح بعض الاخوان الذين سبقت الاشارة اليهم على ان اللغة العربية غير متطورة ، أى انها لا تكفى كأداة علمية فى السير بالجزائر الثورية فى طريق التقدم·وهذه النزعات المخلصة منها وغير المخلصة،هى التى كانت السبب الرئيسى فى كون التعريب لم يحقق أهدافه المنتظرة الى اليوم ، وظل يحبو عوض ان يسير سيرا ثوريا ومضبوطا الى الامام ·

لقد صرح الرئيس بومدين مرة بان «التعريب مطلب ثورى لا هدف فقط » · وفى هذا التمييز بين المطلب والهدف ما يبين شعور الدولة بضرورة التعجيل بتحقيق التعريب ، اذ ان كونه «مطلبا» يمنحه صفة المشروعية الثورية ، ويجعله فى مقدمات اهتمامات الثورة ، وتتخذ من اجل تحقيقه جميع الوسائل الضرورية ، فى حين ان كونه « هدفا » لا يعنى اكثر من انه احد الاهداف التى تسعى الثورة الى تحقيقها ، وقد يكون من الاهداف البعيدة التى يمكن ان تنتظر · فاذا اضيف الى هذا التحديد الرسمى لقضية التعريب ان المدرسة الجزائرية يجب ان تكون **ديمقراطية** ، وان تكون فى خدمة الجماهير ، أى فى خدمة الاهداف التى تنتظر هذه الجماهير تحقيقها بالسرعة المطلوبة ، اذا اضفنا هذا عرفنا مدى ضرورة التعجيل بتحقيق التعريب ، فديمقراطية التعليم تقتضى ان تكون الاداة التعليمية لغة الجماهير ، اى اللغة التى يمكن ان يتابع بها مجموع الشعب الجزائرى تعلمه بمساواة كاملة · وهذه المساواة لا يمكن ان تحصل بين طفل المدينة وطفل القرية الا بلغة واحدة ، هى اللغة القومية · ثم اننا نريد ان تكون الثورة من الشعب والى الشعب ، أى ان تكون من صنع الشعب · وهذا يتطلب من هذا الشعب ، وعيا بالمسؤولية ، وفهما للمرحلة التى تجتازها امتنا ، واستعدادا للعمل الواعى الجاد·وكل ذلك يكون بالتعليم والتوعية ، وكل من التعليم والتوعية لا يفيد الا اذا كان باللغة التى تفهمها الجماهير ، وهى اللغة العربية · وهكذا نرى ان التعريب كان منذ الاستقلال ضرورة لم يدع اليها الاخلاص لارواح الشهداء فحسب ، بل دعت اليها كذلك حتمية الدفاع عن السيادة الوطنية ، والرغبة فى تمتين الشخصية الوطنية التى تضررت اثناء العهد الاستعمارى ، كما تطلبتها استراتيجية الثورة الاشتراكية التى تستند اليها مسيرتنا الوطنية ، ويؤمن بها شعبنا · فهل وفقت بلادنا الى تحقيق هذه الضرورة فى التعريب ؟

لا بد ان اعترف بان حركة التعريب لا تسير وفق تخطيط ثورى هادف · وهذا للاختلاف فى النزعات الذى اسلفت الحديث عنه · واهم هذا الاختلاف يكمن فى النظر الى اللغة العربية ، اذ يتفق الجميع على ان من حق المدرسة الجزائرية ان تتجه اتجاها علميا ، لان هذا الاتجاه هو الذى ينقذ بلادنا من حالة التخلف التى ورثناها عن العهد الاستعمارى البائد · واذا كنا نتفق الى هذا الحد فاننا نختلف بعد ذلك فى الاداة اللغوية التى ينبغى اعتمادها فى هذا الاتجاه ، فدعاة التعريب ، والغيورون على الشخصية الوطنية ، ومعتنقوا الايديولوجية الاشتراكية

كل أولئك يرون ان لا سبيل الى تطوير بلادنا علميا الا فى اطار لغة قومية قوية ، ويعتقدون ان هذه اللغة من الاستعداد للتطور بحيث تستجيب لاهداف ومطالب ثورتنا ، لا سيما وان بلدانا شقيقة سبقتنا الى التجربة ، واظهرت ان لغتنا لا تختلف عن اللغات الحية الاخرى فى شىء . وافراد هذه النزعة ، وهم يشكلون الاغلبية الساحقة من المواطنين الواعين ، يرون ان استخدام لغة اخرى مكان اللغة القومية كفر بروح الثورة ، وتنكر للمبادىء التى سقط من أجلها ما يربو على المليون شهيد . وهم لذلك لا يقبلون أى تنازل فى هذا المطلب الثورى على حد تعبير الرئيس بومدين .

بيد ان النزعة الثانية ترى غير هذا ، وتؤكد لمن يريد ان يسمعها ان من المخاطرة بالثورة الجزائرية اعتماد اللغة العربية كأداة تعليم، وتضيف الى هذا ان اللغة الفرنسية قد اظهرت قدرتها على استيعاب العلوم المختلفة ، وهى موجودة بالفعل فى المدرسة الجزائرية ، فلم لا تتخذ أداة لتعليم العلوم ، على ان تخصص اللغة القومية بتعليم الدين والتربية والعلوم الانسانية الاخرى ؟ ان افراد هذه النزعة لا يشكلون الا أقلية ضئيلة فى نظام تربيتنا ، غير انها أقلية ديناميكية تشغل مسؤوليات عليا فى وزارتى التربية والتعليم . ولهذه الديناميكية وهذه المكانة الادارية التى تشغلها استطاعت ان تعطل اتخاذ موقف ثورى فى قضية التعريب . فكلمتها مسموعة فى وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، وكذلك فى وزارة التعليم العالى ، وهى التى تضع المناهج ، وتقدم التقارير ، وتفرض من خلال هذه المناهج وهذه التقارير وجهة نظرها التى ليست دائما فى صالح اللغة العربية . والغريب فى الامر انها استطاعت ان تجعل حركة التعريب تقف على ابواب السنة الثالثة ابتدائى ، وان تفرض تعليم الحساب باللغة الفرنسية ابتداء من السنة الخامسة . وبالنظر فقط الى المرحلة الابتدائية يتضح ان وجهة نظر هاته الطائفة من المواطنين مطبقة حرفيا فى نظام تعليمنا . فالطفل يتعلم باللغة الام وحدها فى السنتين الاولى والثانية ابتدائى ، لانه لا خطر منها فى نظرها على سير التعليم فى المستويات التالية . فاذا ما دخل الطفل الى السنة الخامسة ، السنة ما قبل الاخيرة فى اعداده لدخول المرحلة التكميلة عادت العربية غير قادرة فى نظر هذه الطائفة ، لان تعليم الحساب مثلا يصبح شيئا جديا لا تقدر على تأديته غير لغة متطورة هى اللغة الفرنسية . ومن هذا الوقت المبكر ، بل ابتداء من السنة الثالثة التى يصطدم فيها الطفل باللغة الفرنسية لاول مرة ، تبدأ الصعوبات فى المدرسة الجزائرية . صعوبات مصدرها فرض لغة اجنبية على طفل صغير السن والعقل . ولا غرابة اذا راينا بعد ذلك هذه الصعوبات تلاحق الطفل فى اللغتين الى آخر مرحلة من التعليم . فهو فى الغالب لا يهضم أية لغة بطريقة مرضية ، ويظل يبحث له عن طريق بين اللغتين فلا يفلح الا فى تعميق احساسه بالعقبات التى تحيط به ، ولا يستطيع منها فكاكا .

ان من بين العقبات التي يضعها هؤلاء الاخوان في طريق التعجيل بالتعريب عقبة ما يسمونه « الازدواج اللغوى » ، وهو شيء ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قبله العذاب • ويعنون به ان تأخذ الجزائر بلغتين اثنتين في نظامها التربوى ، فلا نفرط في لغتها القومية ، ولا في اللغة الفرنسية التي تشكل النافذة الحقيقية لثقافتها على العالم الخارجي • وهم في هذا يعتمدون على ان الثقافة الحية المعاصرة لا تقوم في البلدان المتقدمة على لغة واحدة ابدا . وكثيرا ما يضربون مثلا بسويسرا التي يتكلم شعبها اكثر من لغة واحدة ، وببلجيكا التي يتكلم مواطنوها الفرنسية والفلمانية • وهنا يكمن الخطأ ، وهو ان هؤلاء الاخوان يجرون قياسا مع وجود الفارق ، فشعب سويسرا لا يتكلم اللغات الثلاث او الاربع بنفس المستوى ، والفرنسية والفلمانية لا يتعايشان بنفس الدرجة في نفس الصف • فاذا اراد هؤلاء الاخوان بازدواجهم اللغوى ان يتحدث الطفل الجزائرى اللغتين في نفس الوقت ، وبنفس المستوى ، فهذا شيء لم يقل به احد , ولا سيما بالنسبة للاطفال • فاذا ارادوا بذلك ان تتوزع اللغتان المواد الدراسية بالسوية ، فهذا شيء ينطوى على قصد الاضرار باللغة القومية ، لان القائلين بهذا سيضيفون اليه ان المواد العلمية يجب ان تكون من نصيب اللغة المتطورة علميا ، وهي عندهم اللغة الفرنسية طبعا ، وان المواد الادبية والاجتماعية من حقها ان تقصر على اللغة القومية ، لعلاقة هذه المواد بالشخصية الوطنية اولا , ولعجز اللغة العربية في نظرهم عن تادية المواد العلمية من جهة ثانية • وهذه النظرة الى اللغتين ، وهذا التحكم في توزيع المواد الدراسية عليهما ، هما اللذان سميتهما « عذابا » تارة ، و « اضرارا باللغة العربية » تارة اخرى ، لان مثل هذا الموقف من اللغة القومية سيجعلها لغة اقليمية تفيد في التخاطب والحياة اليومية ، ليس غير ، وهو ما سيحيلها مع الايام الى لهجة محلية عاجزة عن تحمل اية رسالة انسانية • ومن الواضح أن قبول هذا المصير للغة العربية يعد تراجعا خطيرا عن اهم مبدا من مبادىء ثورتنا , وهو مبدأ المحافظة على الشخصية الوطنية بما فيها من دين ولغة وتقاليد •

ولكنى ساكون مقصرا اذا انا لم اسجل في هذه المحاضرة الخطوات الايجابية التي حققها التعريب في السنوات الثلاث الاخيرة ، فقد استطاعت وزارة التعليم الابتدائي والثانوى بفضل وزيرها الديناميكى ، وامينها العام الصديق عبد الحميد مهرى ، ان تخطو بالتعريب بعض الخطوات العملية التي سيكون لها اثر مؤكد على نظام التربية الوطنية • وتتلخص هذه الخطوات في تعريب الشعبة الادبية ابتداء من السنة الاولى ثانوى تعريبا كاملا ، اذ بفضل هذا التعريب الكامل لشعبة هامة من شعب التعليم الثانوى سيزداد عدد المترشحين المعربين لامتحان الباكالوريا سنة بعد أخرى ، وفي السنة المقبلة سيكون المترشحون لنيل هذه الشهادة كلهم عربيي الثقافة ، ويسقط بنفس المناسبة ما يسمى



بالباكالوريا المزدوجة . وهو شيء ذو خطر على مستقبل التعليم الجامعي ، اذ ستلتحق اغلبية الحاصلين على هذه الشهادة بفروع اللغة العربية وعلومها بالجامعة • ومما يذكر لوزارة التعليم الابتدائي والثانوي انها عربت ثلث اقسام الشعبة العلمية في السنة الاولى ثانوي ، الامر الذي سيضطر الجامعة الى انشاء شعبة علمية معربة لاستقبال الحاصلين على الباكالوريا العلمية المعربة • وهذا شيء سيكون له اثر كبير على موقف المسؤولين من اللغة العربية ، فيضاعفون من مجهوداتهم في ميدان التعريب • ويعد من الخطوات الهامة في تحقيق التعريب ما قامت به الوزارة من تعريب ثلث السنتين الاولى والثانية من المرحلة التكميلية ، لان هذا التعريب سيمكن نسبة هامة من التلاميذ من التشبع بروح الثقافة العربية منذ بداية المرحلة التكميلية ، ويضاعف عدد التلاميذ الذين سيلتحقون بالشعبتين الادبية والعلمية المعربتين في المرحلة الثانوية • كل هذه الخطوات التي حققتها وزارة التعليم الابتدائي والثانوي ستضطر المسؤولين على التربية والتعليم الى ان يعدلوا من نظرتهم الى اللغة العربية ، وبالتالي الى ان يتخذوا مواقف اخرى اكثر ثورية في صالح هذه اللغة •

وتبين الخطوات التي سبق الحديث عنها المبدأ الذي اختارته وزارة التعليم الابتدائي والثانوي في مجابهة قضية التعريب ، فهي لا تريد ان تتعجل الامور ، لان العجلة قد تؤدي الى بعض الانتكاسات وقد سمعنا حتى مللنا الحديث عن تراجع الاشقاء المغاربة والتونسيين عن بعض المواقف التي اتخذوها في ميدان التعريب • والتعليل الشائع لهذا التراجع هو ان هذه المواقف اتخذت دون دراسة كافية للمخاطر التي قد تنجر عنها للاجيال المقبلة • ولا يشك احد في ان مسؤولي وزارة التليم الابتدائي والثانوي لا يريدون ان يلحقوا اى ضرر بالاجيال الجزائرية الصاعدة، ولهذا يحتاطون اشد الاحتياط في كل خطوة يخطونها ، ولا يخطون الخطوة التالية حتى يتأكدوا من نجاح الخطوة السابقة • وهذا الاحتياط هو الذي جعلهم يميلون الى التعريب النسبي في السنة الاولى تكميلي والسنة الاولى ثانوي ، ويرفضون التعريب حسب المواد ، وبصورة شاملة • ان هذا التعريب النسبي يسمح لوزارة التعليم الابتدائي والثانوي باعداد الاطارات الضرورية ، ويمكن في الوقت ذاته بقية الاقسام من متابعة الدراسة باللغة الفرنسية • وهو شيء لا باس به اذا نظرنا اليه من حيث العمل والتطبيق ، ولكنه شيء مضر من حيث مكافاة الفرص ، لان المقياس الذى تختار بموجبه النسبة المعربة مقياس غير سليم ، ولان هذا العمل يثير بين تلاميذ المستوى الواحد نوعا من النعرة والتنافس نريد الا يحدث بين جيل واحد صاعد • وكان في امكان الوزارة ان تنتهج نهجا آخر في اختيار النسبة المعربة ، كان تلحق بالاقسام المعربة مثلا كل تلميذ يقل معدله في الفرنسية عن عشرة ، سواء كان قويا في العربية او متوسطا • غير ان هذا كله شيء ثانوي بالقياس الى ما يجب ان يتخذ من موقف ثوري

واضح فى قضية التعريب ، لان مثل هذا الموقف الثورى الواضح هو الذى يملى على المسؤولين الخطة العملية المناسبة · وما دمنا لم نتخذ هذا الموقف الثورى فان التعريب سيظل عملا اجتهاديا اكثر منه خطة محددة توفر لها الميزانيات ، وتعد الاطر والمناهج · وقبل اقتراح بعض المواقف العملية للاسراع بتحقيق التعريب فى اسرع وقت ممكن , وفى ظروف حسنة ، اريد ان اشيد بموقف الصديق عبد الحميد مهرى من اللغة القومية , موقف يعد ردا حاسما على النظرة القائلة بعجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم·

يتلخص هذا الموقف الذى عبر عنه الاخ مهرى فى المحاضرة التى القاها فى 29 ماى 1970 ، وعلق عليها محاضركم الليلة فى 1 جوان من نفس السنة فى جريدة الشعب ، فى القول بضرورة الاتفاق على « الاداة الاساسية للتعليم » فى المدرسة الجزائرية ، وعلى نوع التعايش الذى يجب ان يقوم بين اللغتين القومية والفرنسية · والموقف يمتاز فى الواقع بالشجاعة وعدم التهرب من مجابهة الحقيقة العارية ، فالاخ مهرى لا يريد اقل من تحديد « اللغة التعلمية » · ومن الطبيعى ان يختار الاخ مهرى اللغة العربية كأداة تعليمية · وموقفه الى هذا الحد موقف ممتاز يستوجب منا كل تقدير ، غير انه يعود فيطالب باقامة علاقة جديدة بين اداة التعليم , وهى اللغة العربية ، وبين اللغة الفرنسية التى لا يمكن انكار وجودها فى المدرسة الجزائرية · ولو قصر الاخ مهرى هذه العلاقة على المرحلة التكميلية لكان موقفه واضحا وعلى غاية من الاهمية · ولكن الامين العام لوزارة التعليم الابتدائى والثانوى يرى اقامة هذه العلاقة بين اللغتين فى المرحلة الابتدائية ، وهو ما اضعف قوله السابق بجعل اللغة العربية « اداة تعليم » ، لان مثل هذه النظرة هى التى سمحت ببقاء اللغة الاجنبية فى المرحلة الابتدائية ، وبجعل تدريس الحساب والمواد العلمية من نصيب هذه اللغة · فى حين ان التعريب ينبغى ان يتجه اتجاها آخر اكثر وضوحا · بيد ان هذه الملاحظة العابرة لا تقلل من اهمية المجهودات العظيمة التى يقوم بها الاخ مهرى فى خدمة اللغة العربية فى باقى المراحل التعليمية ·

اريد ان اختم هذه المحاضرة المتواضعة باقتراح بعض الحلول العاجلة للخروج من المازق الذى تتخبط فيه قضية التعريب · وقبل ذلك اؤكد من جديد ان الحلول التى اتخذت الى اليوم ، والحلول التى سأقترحها فى هذه الخاتمة ، سوف لا يكون لها المفعول المنتظر الا اذا طبقت فى اطار موقف ثورى يقوم على اساس اعتبار اللغة العربية « الاداة الوحيدة للتعليم فى المدرسة الجزائرية »، على الا تكون اللغة الفرنسية اكثر من لغة اجنبية من بين لغات اخرى يختار منها الطالب عند ما يدخل السنة الاولى او الثانية من المرحلة التكميلية

ارى ان من الضرورى مواصلة التعريب تدريجيا فى المرحلة الابتدائية , بحيث يعم التعريب السنة الثالثة ثم السنة الرابعة وهلم جرا ، لان هذا الحل وحده هو الذى يخرج الطفل الجزائرى من البلبلة التى تحيط بدراسته ،

فيكون في امكانه مواصلة هذه الدراسة في ظروف عادية كسائر اقرانه في البلدان المتقدمة • وهو ما سيسمح للمدرسة الجزائرية كذلك بتحسين مستوى اطفالنا ، وتمكينهم من المبادىء الاساسية الاولى للغة الام بطريقة مرضية • واعرف ان مثل هذا التعريب عند ما ينتهي في المرحلة الابتدائية سيستلزم منهجا جديدا في المرحلة التكميلية ، لان تعلم الطفل لمادة الحساب الى السنة الاولى تكميلي باللغة القومية سيجعله قادرا على مواصلة هذه المادة وغيرها بنفس اللغة • وبهذا يكون على وزارة التعليم الابتدائي والثانوي ان تنظر نظرة جديدة الى المكانة التي ينبغي للغة الفرنسية ان تحتلها ، او بعبارة اخرى سيكون عليها ان تنظر في طريقة التعايش بين اللغتين ابتداء من السنة الاولى او الثانية من المرحلة التكميلية ، لا قبل هذه المرحلة • وبهذا فقط تتوحد المستويات ، وتنشأ المدرسة الجزائرية الموحدة • ينظر الى مكانة اللغة الفرنسية من نظام تعليمنا في المرحلة التكميلية ، اما على انها لغة اجنبية كسائر اللغات الاخرى الحية ، واما على انها لغة اجنبية محظوظة • ففي الحالة الاولى يخير الطالب بينها وبين اللغات الاجنبية الاخرى ، وفي الحالة الثانية يطالب التلميذ باختيارها ودراستها كلغة اجنبية محظوظة الى آخر المرحلة التكميلية ، وفي السنة الاولى ثانوي (الخامسة ثانوي سابقا) يختار الطالب لغة اجنبية ثانية • وفي كل الحالات ينبغي ان تدرس اللغة الفرنسية كلغة اجنبية حية ليس غير ، اذ جميع المواد يجب تدريسها باللغة الام ، اللغة التي درس بها الطالب في المرحلة الابتدائية • اعرف ان مثل هذا الحل سيضطر بلادنا الى اعداد الآلاف من الاطار المعربة • غير انه هو الحل الوحيد الذي يخلق المدرسة الجزائرية ، ويمنح هذه المدرسة ذاتية تتميز بها عن المدرسة الفرنسية القديمة • واعداد الاطار ليس من الصعوبة بحيث يظن بعض الاخوان • والصعوبة الكبرى .انما تكمن في ايجاد عشرات المراكز لاعداد المعلمين، وفي احضار الاساتذة الاكفاء لهذه المراكز • ولا اعتقد ان ايجاد الاساتذة والمراكز مما يعسر على حكومة ثورية تعالج شؤون البلاد بحزم وتصميم • اما الطلبة الذين سيقبلون في هذه المراكز فلا اعتقد ان العثور عليهم يشكل مشكلة صعبة الحل ، فالشبان الذين يحملون الشهادة التكميلية يعدون اليوم في بلادنا بالآلاف • وانما ينبغي ان يكون قبول ترشيحهم حسب خطة مدروسة مسبقا ، حتى يكون اعدادهم مفيدا للمدرسة الجزائرية،وحتى يملأوا الفراغ الهائل الذي نحس به في الاطار العربي • ولا اشك في ان تخطيطا هادفا وثوريا لتكوين الاطار العربي سيقلب الوضع رأسا على عقب في بضع سنوات ، وسيقضي قضاء نهائيا على الادعاء القائل بعجز اللغة العربية في المواد العلمية •

اقترح كذلك ان تنظر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في طريقة جديدة لقبول الحاصلين على الباكالوريا في الجامعة ، وان تفرض في اطار هذه الطريقة على هؤلاء الطلبة كيفما كان

الفرع الذى يختارونه سنة تحضيرية قبل الليسانس يدرسون فيها اللغة العربية وحدها ، لان اغلب هؤلاء الطلبة ياتون مزدوجى اللغة ، اى ضعيفى المستوى فى اللغة القومية • وبهذه الطريقة تنحل مشكلة التعريب الذى يفرض على هؤلاء الطلبة فى فروع اللغات الحية والعلوم والطب والحقوق وما اليها • فسنة دراسية واحدة فى اللغة العربية كفيلة بتحسين مستوى هؤلاء الطلبة وجعلهم بعد ذلك قادرين على استخدام اللغة القومية فى مباشرة مهنهم التى يتخصصون فيها • وان مثل هذه الطريقة ستسمح لكثير من الطلبة بالقيام بتدريس العلوم مثلا فيما بعد باللغة العربية ، فنكون قد ربحنا عددا لا باس به من الاطر لمواصلة قضية التعريب بنجاح وفعالية •

هذه هى بعض المقترحات التى اراها ضرورية كمرحلة عملية عاجلة فى انتظار موقف جذرى يضع اللغة العربية فى مكانها الى الابد • واعود فاؤكد ان العمل بهذه المقترحات لا يتطلب اكثر من العزيمة والتصميم وبعض التضحيات المادية• وقد علمتنا بلادنا الا تبخل بشىء فى سبيل خدمة القضايا الوطنية الاساسية • واعتقد ان بلادنا ستزداد رفعة فى عين الامة العربية اذا ما قامت بهذه الخطوات التى تطوى صفحة الماضى الى الابد ، وتفتح صفحة جديدة يظهر فيها الشعب الجزائرى كاقوى ما يكون وطنية وايمانا بنفسه ومستقبله •

وبعد ، فهذه محاضرة ما هدفت منها الى انتقاد احد ، وانما قصدت من ورائها الى توضيح الحالة التى وجد عليها التعريب خلال السنوات الاحدى عشرة الماضية ، والى تبيين العقبات التى ما تزال تقف فى طريق اللغة العربية ، والتى يجب ان تزال بحزم وتصميم حتى يظهر الشعب الجزائرى كما هو فى الواقع ، وكما كان فى سائر العصور الماضية التى عرف فيها الفشل فلم يؤخره عن واجبه الوطنى ، وذاق النصر فلم يحمله على ترك النظرة الواقعية للاشياء • وان شعبا خاض حربا تحريرية عرف التاريخ قليلا من مثيلاتها لجدير بان يخوض ثورة التعريب فى ثقة بالنفس ، وايمان بالنصر المؤكد ، والله الموفق فى الاول والآخر •

والسلام •



التعريب

عبد القادر حجار
مفتش بوزارة التعليم
الابتدائي والثانوي

ان موضوعي ليس محصورا في التعريب داخل المدرسة فقط ، بل يتعداه لميادين أخرى وعوامل أخرى لنرى منها ما كان مناصرا ودافعا للنجاح ، وما كان مثبطا ودافعا للفشل ، وأحاول ان انقل الواقع بكل آلامه وويلاته كواحد عاشه لحظة بعيدا عن اصطناع المناهج واتباع الترقيم ، تاركا الواقع يتحدث بكل مرارة وانفعال ، ولست ناقلا الا ما أعتقده وأعمل له وأستعد للدفاع عنه بكل ما يتطلب ذلك من جهد واجهاد ، ويبدو لأول وهلة ان الكلام عن موضوع مثل هذا أصبح مملا ومعادا لما كثر فيه من لغط وخلط ، ولما دار فيه من جدال ونزال، وهو موضوع على أى وجه قلبناه أثرنا حساسيات عديدة ومتنوعة ، وكلما حاولنا

الموضوعية والابتعاد عن الذات الا وجدنا انفسنا منغمسين فيها ، متحدثين بها وعنها ، لان اللغة ليست وصفا لمسميات الجوامد من الصخور فحسب ، بل هى احسن وسيلة معبرة عن خلجات الشعور ، بل هى بطبيعتها شحنات نفسية مليئة بالآمال ، متفاعلة بتقلب الظروف والاحوال ، والالفاظ كالانسان حيوات متجددة على طريقة التناسخ فى فلسفة الهنود ، تسمو فى لحظات سمو النبوة والاشراق ، وتتية فى لحظات اخرى تيهان التشرد والهلاك ، ومن هنا تكون مهمة الباحث صعبة ومعقدة ، لان حديث اللغة باللغة هو : حديث بالذات عن الذات ، وخاصة اذا كانت العلاقة بين الذات وذاتها علاقة نرجسية تتحول من واقعها الى واقع تصنعه الاحلام والخيالات ، وتنميه وتباريح العشق والهيام.

* * *

اللغة ظاهرة اجتماعية تتقدم بتقدم شعوبها .

ان اللغة العربية كجميع اللغات الحضارية ظاهرة اجتماعية ووعاء جامع لتجارب الشعوب العربية رفعة وسموا او ضعة وانحطاطا تقدمت بتقدم شعوبها فحوت كتاب الله لفظا وغاية وسبرت اغوار الفلسفات اليونانية ، والحكمة الهندية ، ومعماريات الفرس ، بل لم تعجز عن الفلك والطب والصيرفة ، ولا عن الهندسة والجبر والحساب ، ولا عن التاريخ والاخبار والانساب ، ولا عن الفقه والحديث والتفسير ، ولا عن الادب شعرا ونثرا فى كل اغراضه وفنونه ، كان ذلك عندما كانت شعوبها راقية بالجهد ، متقدمة بالجهاد ، مكتشفة بالاجتهاد ، ولما تحول الجهد الى كسل وتواكل ، والجهاد صار جهادا للنفس وقتلا لها بواسطة الصوفية المخالفة لتعاليم الدين الحنيف ، والاجتهاد اغلقت ابوابه بأمر من صاحب سلطان ، فتحجر التفكير وجمدت معه لغة التعبير ولم ينتبه العرب الا وهم تحت وطأة الاستعمار ، فلسبت خيرات البلاد واستعبدت الارواح والاجساد ، ولم اجد صيحة اقوى من صرخة الفجيعة لشاعر النيل مغموسة بجرحات قلب الى كل القلوب النابضة بالعروبة والاسلام :

ايطر بكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوادى فى ربيع حياتى

واذا تركت العوامل الداخلية ورحت استشف اعمال المستشرقين ودراساتهم المغرضة والمنطلقة فى غائية عرقية وحقد صليبى اعمى ، فتحاملوا على اللغة لكونها تعبيرا عن قرآن ، ورموها بالعقم والجمود ، واعتبروا القواعد التى كانت دلالة البيان عرقلة وعجزا فى اللسان ، ولم يعترفوا لها بفضل الا من شذ منهم عن الاجماع ، فاذا كان فى العربية بعض من صعوبة فهذه الفرنسية التى اعتبرت بغير حق فى بلادنا لغة العلم والخبر والادارة ، تشكو كثرة الازمنة والقوالب ، وصعوبة الاملاء والالقاء ، وكثرة الحروف وتنوعها وتقاربها فى اللفظ الواحد ، فهل هانت لغة فرنسا عند الفرنسيين لانها صعبة وعويصة ، ولغة الصين اقوى حجة ، وافحاما لكل متقول افاك ، لانها عبارة عن رموز لمسميات بصيغ كاملة تتجاوز العشرات من الالوف ، ولم تعرف حتى الآن الضرب على الآلة الراقنة ، ولم تقف صعوبة اللغة حاجزا فى طريق الوصول لصنع القنابل الذرية والهيدروجينية .

وهذه اسرائيل التى طالما سميناها بالعصابة او بلدويلة ، ونعتنا جالها رجالها بنفايات الارض وشذاذ الآفاق ، احيت لغتها بعد آلاف السنين من الموات ، وصيرتها لغة علم وادارة ، وفيما تقوله بعض الصحف : ان معهد ويزمان للعلوم النووية بتل أبيب تدرس فيه جميع المواد باللغة العبرية . ومن هنا نلاحظ ان العبرة كثيرة والقدوة اكثر ،

ولكن ما فائدة القدوة بدون اقتداء ؟ وما قيمة العبرة بدون اعتبار .

التعريب بين الخصوم والانصار :

كفانى تجوالا ، فقد حان وقت الحديث عن جرح نتألم له وبه منذ عشر سنوات ، بل حول مريض أعراض الداء فيه واضحة ، واختلافنا فى تعريف التشخيص ، ذلكم المريض هو التعريب فى الجزائر ، يراه أهلوه وذووه ضعيفا يجب ان يقوى ، هزيلا يجب ان يسمن ، مظلوما يجب ان ينصف ، ويراه الخصوم دخيلا متطفلا يجب ان يبعد ، مريضا معديا يجب ان يتقى ، شبحا مخيفا يجب ان يزول . ومن هنا تعثر التعريب بين عين راضية لا تـرى فيه الا الكمال وبين عين ناقمة لا ترى فيه الا المساوئ والنقائص ، ودون ان أتوه فى الحديث عن محاربة فرنسا للعربية ، وتكوين لجان ابتداء فى ١٨٨٠ وظيفتها العمل الجاد لمحو ثلاثة عشر قرنا فى العروبة والاسلام فى الشمال الافريقى وايصال افريقيا المسيحية قبل الفتح العربى بتمسيح شمال افريقيا بعد الغزو الفرنسى ، ولا اتحدث عن حربها الضروس على المدارس العربية ولا من اعتبار تدريسها جرما يعاقب عليه القانون ، ولا من مخططات كثيرة ومتنوعة تهدف للقضاء على شخصية الشعب الجزائرى فى أعز مقوماته : الدين واللغة . ومشروع قسنطينة سنة ١٩٥٨ والذى جعله ديجول مخططا للقضاء على الثورة الجزائرية كان من بين أهدافه تعميم التعليم بالفرنسية سنة ١٩٥٩ وفى اعترافه الشهير ١٩٥٩ فى تقرير المصير للشعب الجزائرى شريطة ان يضع الثوار سلاحهم ويجرى استفتاء شعبى عام بعد أربع سنوات ، ولما رفضت الثورة هذه الاغلوطة وتنبهت لهذه الاحبولة ، واصلت فرنسا حربها الاستعمارية لمدة أربع سنوات . ما معنى ذلك ؟ انه تخطيط محكم يهدف لاشياء كثيرة منها فى اسوءا الحالات التبعية التامة لفرنسا وفى أحسنها تهزم الثورة وتتحقق اكذوبة الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا . وبواسطة الثورة والتضحيات والعزم قضى الشعب الجزائرى على المخططات والوهم ، وكان النصر حليفنا ، ولم يكف الله المؤمنين القتال ، حيث انتقلنا من جهاد فيه جنود العدو على مرمى بنادقنا ، الى جهاد فيه فكر العدو داخل رؤوس الكثير من أبنائنا .

(أ) تسلل المتفرنسيين غير الثوريين لمراكز حساسة بأجهزة الدولة

خرجت البلاد من حرب ضروس دفعتها الحاجة لكل ابنائها ، ولم تصنع الاخلاص مقياسا لتسليم المناصب ، ولا الكفاءة ميزانا لعمل الرجال ، وصدفة وبلا مقدمات وجدت جماعة من المتفرنسين من غير الثوار نفسها فى أعلى مراكب السلطة والتوجيه ، وراحت تخطط من مصادر التشريع لمستقبلها ومصالحها على حساب المبادئ والاختيارات ، فجاءت كثير من القرارات حسب المقاس ، وهى واعية ان وصولها لمراكز السلطة

وصولية وانتهازية يأتى اليوم الذى فيه تسـال الحساب ، وبطبيعة العمل وافته انتشرت الفرنسية فى سنوات قليلـة أكثر مما انتشرت فى عـهد الاستعمار ، رغم المشاريع والتشريع ، ورغـم المناهج والبرامج ، ورغم الدراسات والابحاث فى علوم النفس والاجتماع ، وأصبحت هذه الفئة متحدة بالمصلحة على التعـريف المشهـور فى السياسة « السياسة تصالح على المصالح » واذا كان الوفاق فيما بينها على المصلحة والحاجـة فعدواة التعريب ومحاربته كانت بالطبع والضرورة أوصلتهم الفرنسية لقمة السلطة ، والجالس على القمم لا يخشى شيئا الا السقوط الى الحضيض رأسا دون ان يمر بالمنحدرات ، لانه وضع عـلى القمة رأسا دون اجتياز المرتفعات أنصار الفرنسية وضعا ومصلحة كانوا فى القمـة ، وأنصـار التعريب واقعا ومكانـة كانوا فى الحضيض ، أنصـار الفرنسية هم المشـرعون والمخططون والساهرون على التعريب وكان كل ذلك وليـد دراسات وحسابات متعمقة ودقيقة تسير بالتعريب للنهاية المحدودة والمحددة بالفشل والاخفاق ، بل شرعوا للمعربين كذلك ، فأبعدوهم عن مراكـز القيادة فى كل شيء ، وسودوا ملفاتهم بملاحظات تسويدا وتشويها تهتز له الضمـائر ، طعنـا فى الكفاءة ، ومسا فى الشخصية ، وامتهانا للكرامة وتعقيدا للمشاعر ، عومل المعـرب معاملة العبيد وهو حر ، وفرضت عليهم الغـربة والعزلة بين أهليه وذويه ، وكان يـرجى منه لكونه ممثـلا للطبقات الكادحة ان يغير ويبدل أوضاعا وحقائق صنعها الاستعمار لخدمته وخدمـة أذنابه ، كان يرجى ان يكون فى طليعة الثورة الاجتماعية لقلب المفاهيم المتعفنة رأسا على عقب ، كان يرجى منه ان يكون فى خط الهجوم اعتمادا على انه يمثـل حضارة هذا الشعب وآماله وآلامه غير ان الطعنات وجهت له تباعا ، والصقت به نقائص الدنيا كلها ، من تحجر فى الفكر ، وجمود فى الطبيعة ، وتزمت فى السلوك ، ورجعية فى السياسة ، وتخلفـا فى النظر ، وعجز فى الكفاءة ، ونقص فى الوعى وبعد عن المدنية ، وافساد للحضارة ، وما الـى ذلك من الاوصاف والتشبيهات ، وأصبحت كلمة : Arabisant هى العنوان الشامـل لكل هذه المطاعن والمثالب ، لغته لغة الشعر والخيال ، ولغة فرنسا لغة العلم والحضارة ، وهكذا صـور العربى بعربيته ، ممثلا لسلبيات العصر ، وهكذا صور المتفرنس بفرنسته ممثلا لايجابيات العصر فى فهم الغفل والاغوار ۰ لم تتوقف دعاياتهم عند هذا الحد ، بـل امتدت لاخواننا الشرقيين الذين طلبنا منهم يد العون والمساعدة ، وتعللنا لهم فى سنوات الظلم والاضطهاد ، اولائك الذين وجدناهم بالامس سندا قويا فى أحلك الظروف القـاسية ، تعرضـوا مـن أجلنا للغـزو والاحتلال وجعلوا أراضيهـم واعـلامهم ومـواقفهم السياسـية والديبلوماسية خدمة لقضيتنا ، وكان الغـرب متعاضدا ضـدنا وكانت أحـلافه متحالفة علينا بالمـال والرجال ، وبضربة لازب انقلب العـدو صـديقا ، وجاءت جحافله فى اطـار التعـاون « المحتـرم » ، قدمت للفاتحين الجدد من فرنسا وأروبا الهدايا والصبايا ، ولهجت الالسنة بعلومهم ومعارفهم وحولت ضعفهم الى قـوة ، وسلوكهم الشائن الى خلـق حميد ، ووفرت لهم الجـو النفسانى المسـاعد على التغـرير باجيالنا التى قدمت لهم طينة مسنونة قابلة لكل شكل او تشكيل اما اخوان السراء والضراء من بنى العـروبة فوجهت اليهم اشنع التهم ومسوا فى أقدس مـا يملك الانسان : وهى الكرامة والنفس ۰ وتعرضوا

للعراقيل المفتعلة فى الادارة والامتهان المبيت فى المعاملة والاهانات اللااخلاقية فى الشوارع وشربوا من تعجرف بعض المسؤولين السم القاتل اعمالا تتنافى وكرم الضيافة ، وتعادى روح الاخوة وتخالف أعراف التعاون النزيه حتى لو لم تجمعنا وشائج القربى ، وأواصر الرحم ، وذكريات الآلام والآمال وليت كان هذا من السوقة والرعاع ، بل ارتفع لاعلى المستويات ٠

أيها السادة ، ان الموقف واضح أبلج من نهار ، وان هذه الفئة التى وطنت نفسها على محاربة شخصيتها الوطنية والتى تنتمى لنا بالجنسية والولادة ، والتى فوض لها ان تتحدث وتخطط وتنفذ باسم الجزائر العربية للقضاء على اللغة العربية ، اذا ننتسب لمثل هؤلاء ، فانى أصرخ مع نزار قبانى صرخته اليائسة :

ان كان من ذبحوا التاريخ هم نسبى
على مدى الدهر انى أرفض النسبا

انصار التعريب وضعف الكم والكيف :

وان كنت صريحا واضحا عندما تعرضت لاعلاء التعريب فلن أكون أقل صراحة عن الحديث عن أنصار التعريب واجراء عملية تقويم على علي ان أشخص الداء الذى نخر عظامنا٠ لقد كان نحن حماة العربية وأنصارها ضعافا كما وكيفا وما زلنا كذلك اذا ما قيست قوتنا بكثافة المتطلبات العاجلة والمستحدثة التى واجهت البلاد فى كل الميادين ، وخاصة فى ميدان التعليم والتعريب ، كانت الميزة الجامعة لنا هى اننا أبناء الطبقات الكادحة ، وان ماضينا الدراسى كان غير متجانس بالقياس الى الينابيع التى نهلنا من معينها ، والمتمثلة فى الكتاتيب القرآنية وزوايا الطرقية والمدارس الحرة او من الزيتونة والقرويين ومع عدد ضئيل من خريجى الجامعات العربية والجزائرية٠ وقد ساعد على اضعافنا بالاضافة لعدم التجانس هو ما تعرضت له البلاد من حرب ضد كل المقومات ، وتميزنا فى أغلب الاوقات بضباب فى الرؤية وتضارب فى التدبير ، ونقص فى اليقظة والتفطن لما يحاك لنا فى الظلام ونتيجة لذلك عشنا فرديين ، كل قيس وليلاه ، فهزيمة الواحد او ضربه او عزله لا تتحرك له الجماعة ، وصارت المسالمة وروح الاستسلام هى أكبر علامة يحملها المثقف بالعربية كثور كسير القرن ، دليل ضعفه فوق رأسه ، وفى كثير من الحالات فرضت علينا المعارك فرادى فى كثير من بقاع الصراع وترك المقاتل فردا فى الساحة يجابه يمنة ويسرة حتى يخر مجندلا على مسمع ومرأى منا ، تنافرت صفوفنا وتناثرت وانزوينا ذهولا امام الصدمة لبلد كان يناضل من أجل مبادىء من بينها لغته ، تحول الى واقع من مصلحته محاربتها واختلق الخصوم وسائل جهنمية وقفت ضد الشرعية التى نتمتع بها نظريا ، وحولوها الى حرب بيننا وعداوة تستعصى فى كثير من الحالات عن التصالح او الاصلاح بل رحنا نلوك بعضنا بالسنة حداد واختلقنا مثالب وعيوبا قدمناها لاعدائنا على مائدة التملق والابتذال ، واحتقرنا كل انتاج لنا فى الثقافة والادب ، ومن اراد ان يقتحم الصفوف من جماعتنا ويلقى بصدره نار الخصوم من أجل المبدأ العام والظلم المشترك وجهنا له طعنات فى الظهر غادرة ترديه طريحا يئن تحت وطأة الخيانة وكل لسان صرخ باسمنا أخرسناه ، وكل نبيه منا وصل مركزا هو أهل له وأصلح ، رميناه بالجهل فى العلم والجهالة فى السلوك ٠

علام نخاف ايها الاخوة ، وقد فقدنا كل شيء حتى الكرامة ، وفيم التخاذل ونحن الصق الناس بأرضنا واكثرهم تمثيلا لشعبنا لانجاح ما لم يتحد الصف ، ولا نعتبر التعريب رسالة مالم يستعد رسل العربية لبذل كل غال ونفيس وان قلدت الثورة زمام الارض للفلاحين والكادحين لتغيير وضعية الريف ، واعطاء خيرات الارض لفالح الارض ، فقد كلفتنا الثورة رغما عنا باحلال لغة الضاد محلها الطبيعي ، وارجاع اللسان العربي للشعور العربي ، وانى أقتبس فقرة من كلمة الترحيب فى ملتقى المفتشين بالجزائر اذ جاء فيها ما مفاده : ان مليونين ونصف من ابنائنا فى مدارسنا وتحت اشرافنا فان نجحنا فى تعريبهم نكون قد قضينا نهائيا على خرافة الفرنسة فى الجزائر وان كان العكس لا قدر الله ، فان محكمة التاريخ لن تغفر لنا ، وعلى عظم الجرم يكون العقاب .

انجازات التعريب :

ولنعد الآن فى لمحة خاطفة على الانجازات التى تحققت فى ميدان التعريب ، فبالنسبة للتعليم عربت السنتان الاولتان تعريبا كليا والثالثة والرابعة جزئيا والثلث فى مادة الحساب فى السنتين الخامسة والسادسة ، وتعريب العلوم والتاريخ والجغرافيا وادخال العربية بمعدل عشر ساعات فى باقى السنوات ، اما الثانوى فقد عرب التاريخ فى كل الاقسام والجغرافيا سنة فسنة والفلسفة فى الشعب الادبية وتعريب ثلث الاقسام ابتداء من السنة الاولى اعدادى وثانوى اى ؟ وعربت الاقسام الادبية نهائيا ابتداء من نفس السنة ، كما لا ننسى الاقسام المعربة كلية داخل أغلب الثانويات المزدوجة ، وهناك ثانويات معربة كاملة ، اما باقى الاقسام المزدوجة فتتراوح فيها حصص العربية من خمس لعشر ساعات ، اما فى التعليم العالى فقد انشئت ليسانس فلسفة وليسانس تاريخ وليسانس جغرافيا ، واخذت العربية حصصا مرموقة فى ليسانس علم النفس ، وليسانس علم الاجتماع ، هذا بالاضافة الى ليسانس فى اللغة العربية وحوصرت اللغة الفرنسية فى دائرة اللغات الحية ولا يمكن للدارس ان يحصل الا على ليسانس فى الآداب الفرنسية هذا فى كلية الاداب وقررت اجبارية اللغة العربية مستوى الثالث على حملة الليسانس فى اللغات الحية كما احدثت ليسانس بالعربية فى كلية الحقوق وبدأت الافواج الاولى من المتخرجين تحتل مراكزها فى كثير من المستويات ، وفرضت العربية كمادة اجبارية فى ليسانس حقوق بالفرنسية كما لا ننسى ليسانس فى الترجمة عربية فرنسية والعكس ، وليسانس فى العلوم الصحفية بالعربية وديبلوم التجارة وشهادة الكفاءة للتفتيش كما فتح قسم معرب فى كلية العلوم ، اما باقى الفروع ففرضت فيها اللغة العربية كمادة اجبارية كما يجب ان ننوه بالخطوة الجبارة التى قامت وزارة العدل فى تعريب التقاضى والمرافعة فى الاحوال الشخصية والمدنية ، ونرجو ان تقدم على تعريب القضاء فى الاحوال الجنائية اما التعريب فى دواليب الدولة واجهزة المؤسسات الوطنية فقد صدر فيه مرسوم رئاسى حدد فيه حد ادنى لمعرفة اللغة العربية وجعل سنة ١٩٧١ سنة للتعريب وخصصت الدولة ميزانية سميت بميزانية التعريب وقررت ثلاث ساعات أسبوعيا لكل موظف او مستخدم داخل النصاب القانونى لعمله لكن القضية لم تؤخذ مأخذ الجد حيث اقتصرت على

تعريب البوابين والضاربين على الراقنات اما علية القوم واكابر السادة فقد أعفو انفسهم لكونهم مسؤولين عن التعريب ومثقفين جدا بلغة الاستعمار ونزولهم لمستوى التلمذة خدش ف كرامة المسؤول. ان تخصيص ميزانية ضخمة للتعـــريب وتنظيم الدراسة بهذا الشكل تعتبر ضربة قاصمة للتعريب والمعربين ، فالتعريب مسؤول عليه من جعل لـــه وفرض عليه ، وأستاذ العربية الذى طالما تغنـى برسالة التعريب تحول الى مرتزق حقير يجـرى وراء السويعات الاضافية هنــا وهناك وأصبـح يعامل بامتهان وذل ، لان كرامته داسها شـره الارتزاق ، ومن هذه السلبيات تولد جو نفسـى قاتـــل امتزجت فيه القيـــم والمفاهيم بالاغراض والاطماع وأصبحنا نسمع كلاما وثرثرة لا متناهية حول علية التعريب ، وتخطيط التعريب ، وتنظيم التعريب ، ومنهجة التعريب ، والتمهل فى التعريب وتهويل تجارب تـونس والمغـرب فى التعريب ، وكلها اقنعة زائفة سخيفة اذا ما قيست بالعواطف الكامنة لدى شعبنا وحبه للغته وتلقائيته فى تعلمها والتغنى بها والعمل بها .

لا تنجح التعريب الا بالقضاء على التزييف :

ان نجاح التعريب الكامل لا يكون الا بالقضاء على التزييف ، وكشف أعدائـه اينما وجـدوا ، والقيام بحملة نفسية مركزة تتوجة رأسا للقضاء على مـــركبات النقص التى تعـــانى منها بعض الموظفين فى مستويات عليا بأجهزة الدولة ، وعقد النقص أمراض مستوطنة فى اللاشعور ، يصعب علاجها بادوية عادية ، ولن يكون الدواء ناجعـا الا بتحديد مدة زمنية جادة وصارمة يشمل فيها التعريب كامل الادارات ويقضى نهائيا على الميوعة والانحلال الثقافى ، وعزل الجزائم الطفيلية بطريقة فرز سهلة للقياس ، وذلك بمعرفة كل الذين مرت عليهم عشر سنوات بعد الاستقلال دون ان يتعلموا لغتهم ، واعتبارهم عجموات بهمية لخلوهم مـن الضمير الوطنى والانتماء الثقافى امـا المثقفون بالفرنسية والذين ما زالوا مرتبطين بشعبهـــم متفاعلين بأتراحــه وأفراحه ، عليهم ان يتحملوا المسؤولية ويبرهنوا أكثر من أى وقت مضى على انتمائهم لهذا الشـــعب ، ودفاعهم عـن قضاياه الجوهرية ، والقيام بواجباتهم كاملة غير منقوصة وتحويلهم الواجب حقا ينبغى مطالبته والدفـاع عنه ، تمشيا مع أحدث الفلسفات الاخلاقية الثورية التى تعتبر الحـــق وحده استهلاكا فى عـــرف الاقتصاد والواجب انتاجا ، وكل شعب تجاوزت حقوقـــه واجباته تقهقر واندحر ، وكل شـــعب تجاوزت واجباته حقوقه تقدم وازدهر ، وكفاهــم من تحميل اخوانهم المعربين اكثر مما احتملـوا فهذه الحواجز هم بناتها ، وهذه الثمار المتعفنة هم الغارسون لاشجارها واشواكها ، فقد حـان الوقت للتكفير وعليهم بالانصاف دراسة ، وعلينا بالافضـــاح تدريســـا ، وتعريبهم ليـس تبديل المصطلحات العجمية ببديلة عربية ، بل التعريب هو تعـريب العقول والوجدان وتعريب السـلوك واللسانى .

التعـريب تعـريب للفكر والسـلوك :

اننا لا تريد من التعريب ان يكون بدلا للفرنسية فقط بل نريده خـــلاقا تواقا طموحا نحـو العلى ومشاركا فعالا فى ميادين الحضـارة الانسانية والرقى العلمى والتقنى ، واذا توافرت النـوايا الحسنة وتكاتفت الجهود وتوعينا دور المدرسـة الحاسم والفعال فى تزويد مرافق الدولة بالاطارات المختلفة وأذا خلقت المدرسة الانسان الجـزائرى

المؤمن بالجزائر وطنا ، وبالاسلام دينا ، وبالعربية لسانا ، وبالعروبة انتمـاء ، وبالاشتراكية نهجا لا شك اننا مهدنا سبل النجاح أمام الاجيال ، واذا تنبهنا للشراك التي ما زالت منصـوبة وعـربنا المواد العلمية ابعادا للتهم التي تصف العـربية بالعاطفة والخيال وجعلناها لغة تدريس في جميع المـواد وتتحول ميزانية التعريب التي خصصت للادارة الى مرافق تعليمية صحيحة تشفع بقوانين صارمة تجبر الطغاة على الركوع أمام لغتهم حتى يتعاملوا مـع شعبهم وكفاهم اذلالا لهذا الشعب وإستقلالا وغطرسة ، وكفاهم من اشعار المواطنين بوجود فرنسا خطابا ومعاملة رغم ذهابها ٠

ويكون دور المثقفين بالعربية هو جعل التعريب رسالة ولكل رسالة شهداؤها وضحاياها ٠

برهن الحوب في هذه الفترة على صلاحية الحياة فيه وفي لغتـه

لم يبق لي الآن الا ان أقول في الختام ان رجال العربية رغم قساوة الظرف ، وكهرية الجـو ، وضعف الصف ، برهنوا على أهلية الرسالة وعلى صلاحية الحياة فيهم وفي لغتهم وبذلوا جهـدا لولا تكاثف الأخبـاث وتكاثف الاعداء لاعتبرت أعمالهم معجزة من اكبر المعجزات وان الكثير منهم بذل فوق طاقـة البشـر في جهود مضنية لحاقا بالركب ومسايرة للعصر وخدمة للبلاد والثقافة وان الكثير منهم ثبتوا في الميدان ببسالة المجاهدين لا يئنون ولا يبكون ، ولكنهم يكافحون على جبهات عديدة ، ويواصلون السير رغـم الكلوم الدامية ورغم شضايا الحقد والكراهية المبثوثة لهـم في كل سبيل ٠

ولقد تلقى المعربون خلال سنوات خلت ظلـم ذوي القربى بشجاعة الصبر ، ومرارة الوعـي ، وكانت ثقافتنا محصورة حتى اليوم في النقـد كتعبير ، ولكن يجب ان تتحول الى تقويم وتغيير ، وان الفرصة التي تعيشها البـلاد اليوم لمواتية للعمل ، وان الظروف الموضوعية التي حققناهـا بجهادنا مقدمة للنجاح ، وان وقت الدفاع عـن النفس تجاوزته الاحداث ، فالنفس آمنة ، والخطى ثابتة والسلاح حاد وفتاك وتباشير النصر لا حت في الافق ، واشارة الضوء أعطيت للهجوم ، وان هذه الجولـة لهي الجولـة الحاسمة بيننا وبين التفرنس ، فلنأخذ مواقعنا في الصف الاول ، ولن يكـون ذلك الا بتوحيدنا وايماننـا والمشاركة الـواعية لجميعنا ٠



ملاحظات حول تطوير اللغة العربية
لمسايرة التطور العلمي والتقني

د. محمود الجليلي
عضو المجمع العلمي العراقي

تضمن جدول اعمال مؤتمر التعريب الثانى المقرر عقده فى الجزائر فى شهر كانـــون الاول (ديسمبر) 1973 بحوثا للمناقشة فى الاجتماع العام للمؤتمر منها (الطرق المتبعة لتطوير اللغة العربية العلمية) ، واقترحت المنظمة العربيـــة للتربية والثقافة والعلوماعداد بحثعن الموضوع. فقمنا باعداد الملاحظات التالية الغرض منها اثارة النقاش وتوجيهه وجهة عملية .

بحث قدم الى المؤتمر الثانى للتعريب المنعقد بالجزائر من 12 الى 20 ديسمبر 1973 .

1 ــ ان اتساع اللغة العربية يجعلها قابلة للتطور لتستوعب النمو السريع فى مختلف العلوم والفنون ، وقد سبق لها ان استوعبت العلــوم والفلسفة قبل مئات السنين ، وهى الآن ماضية فى نفس السبيل ٠

2 ــ ومن اهم العناصر اللازمة لتطوير العربية وجود مصطلحات تفى بالاغراض العلمية الــتى اصبحت سرعة نموها فى سنوات اكثر مما كانت عليه فى قرون ٠ وقد أولت المجامع فى البــلاد العربية المصطلحات العلميــة والحضارية عنــاية متزايدة ، كما أخذ الباحثون يعملون بجد فى هذا المضمار ، ولكن لا بد من ان نؤكد نقطة مهمة وهى ضرورة العمل على توحيد هذه المصطلحات قبل ان تتعدد وتتنوع فى الاقطار العربية ، فيصعب بعد ذلك توحيدها بعد ان تكون قد رسخت فى القطر الذى وجدت فيه ٠ ان وجود مصطلحات موحدة متفق عليها أو مقبولة فى الاقطار العربية اصبح حاجة ملحة ٠

ومما يجب التنويه به ان انشاء اتحاد المجامع العربية والاتحادات العلمية والمهنية الاخرى خطوة مهمة فى تسهيل وتوحيد المصطلحات ٠ وقــد تم انجاز المعجم العسكرى الموحد بسعى جامعة الدول العربية ، وتم انجاز معجم المصطلحــات الطبية بسعى اتحاد الاطباء العرب ، كما أقرت مصطلحات كثيرة فى مختلف العلوم فى اجتماعات للمتخصصين أو المعنيين بها فى الاقطار العربية ٠

3 ــ وقد كان تيسير اللغة العربية موضــع اهتمام منذ عشرات السنين ٠ ويجب ان نفــرق بين مجموعتين من طلاب الدراسات العــربية ٠ أولئك الذين يختصون بها وعليهم اتقانها عــلى اوسع مدى واولئك الذين يختصون بفروع أخرى مــن المعرفــة كالطب والهندســة والعلــوم الصرفة (البحتة) أو التطبيقية ، والذين عليهم اتقان مقدار كاف يسهل لهم حسن الاداء من دون خطأ ، اذ لا يمكن الفصل بين الفكرة العلميــة والتعبير عنها ، واللغة أداة عرض الفكرة وواسطة التفاهم بين المشتغلين بالعلوم ٠

ان الحاجة الى لغة عربية للمشتغلين بالعلــوم واضحة ، وتزداد مع تقدم العلوم السريع ٠ ويوجد فى لغات كثيرة كتب لغوية للمشتغلين بالعلــوم عامة والعاملين بفروع علمية أو فنية خاصة وقد حان الوقت لاعداد شيء من ذلك باللغة العربية خاصة ونحن نجد كثيرا من المشتغلين بالعلوم ليس بامكانهم الكلام أو الكتابة بلغة صحيحة خالصة من الخطأ ٠

ولا بد ان نذكر ان طلبة المدارس بعد انهائهم احدى عشرة أو أثنتى عشرة من الدراسة ليس بامكانهم ــ الا من ندر ــ التكلم أو الكتابة دون لحن أو خطأ كبير ، كما ان كثيرا من طلبة الجامعات فى الدراسات العلمية وربما الادبية هم كذلك ٠ فلا بد من بحث وتقييم الطرق التى يدرس بها الطلاب اللغة العربية ، فهل الخطأ فى اعــداد الطالب ، أم فى اعداد المدرس ، أم الخطأ فى مادة وطريقة التدريس ، أم فى الكتاب المدرسى ، أم الخطأ فى اكثر من جهة واحدة ٠

4 ــ ولقد عملت لجان الاصول خاصة فــى مجمع اللغة العربية فى القاهرة ثم فى المجمـع

العلمي العراقي على تذليل بعض الصعوبات ، كما قام بعض الباحثين بشيء من ذلك وقد حظي القياس والاشتقاق واستعمال صيغ للدلالة على الامراض أو الحرف أو الآلات ، ولكن العربية ما زالت تحتاج الى كتاب في النحو والصرف يحتوي القواعد العامة ويتجنب الشواذ • ويوجد باللغات الاجنبية كتب من هذا النوع تتدرج مع الطالب ، أو تكتب لمعلمي اللغة من الاجانب •

لقد جرت محاولات لتسهيل النحو وتيسيره ولكن الذي نحتاجه هو كتاب لطلبة العلوم لا لطلبة قواعد اللغة •

5 ـ يضاف الى ما تقدم توضيح الاملاء بحيث لا يترك مجالا للخطأ مثال ذلك تنقيط الياء لتفريقها عن الالف اليائية مثل المصفي والمصفى ، اذا لم يكن ثمة مجال لكتابة الالف المقصورة الفا قائمة •

غير ان الدعوة الى اجراء تبديل في الحروف العربية لا مبرر لها وقد تؤدي الى قطع صلة الامة بماضيها وتراثها • اما مشاكل الطباعة فلم تمنع النشر باللغة العربية منذ ان عرفت الطباعة، وحلها يكون عن طريق التطور التقني في هذا الشان •

6 ـ الاسلوب العلمي ـ ان عرض الفكرة العلمية يحتاج الى اختيار دقيق للكلمات واستعمال موفق للجمل ، وذلك يستوجب تحديد المعاني واستعمال الكلمات بوضوح بحيث يقل المجاز المرسل وغيره مما ينافي دقة التعبير العلمية ، وتقل الصيغ والتعابير التي فيها مجال كبير للتأويل والتفسير ، ومن المستحسن ان يصار الى الاسلوب الموضوعي المجرد بدل الاسلوب الشخصي

ومن الضروري ان تحتوي كتب الادب واللغة نماذج من الكتابات العلمية الى جانب الشعر والنصوص الادبية الاخرى • وهناك مسألة النسبة في اللغة وضرورة الاستعانة بها للتميز الدقيق كان ينسب بطرق مختلفة للتدليل على معان مختلفة كان يقال في النسبة الى كلمة بيضة بيضي عندما تقصد البيضة ومشتقاتها ، ويقال بيضوي عندما يقصد شكلها ، وكذلك النسبة الى الجمع أو المفرد للتفريق فيقال جرثومي عندما نقصد الجرثومة ويقال جراثيمي عندما يقصد المختص بعلم الجراثيم •

7 ـ ان الاستعمال الدقيق للمفردات يوجب بحث الترادف فهل هو ترادف صحيح ام ان لكل كلمة مدلولها المميز ، ام ان كل قبيلة كانت تستعمل كلمة دون أخرى • وما يضيرنا في اللغة العلمية اذا حددنا لكل من هذه المترادفات مدلولا خاصا • اما الاضداد فلا بد من اهمالها •

ان تحديد المعنى الدقيق للكلمة يستوجب معرفة تطور استعمالها •

ولنضرب لذلك مثلا كلمة التعريب • فللتعريب معان متعددة اقربها الى ما نحن بصدده قول مجد الدين الشرازي (الفيروزابادي) في القاموس المحيط (والتعريب تهذيب المنطق من اللحن) ، وفي لسان العرب لابن منظور قوله (وتعريب الاسم الاعجمي ان تتفوه على منهاجها ، تقول عربّبَة العرب وأعربته أيضا) •

وفي المعجم الوسيط الذي أخرجه مجمع اللغة العربية التعريب الآتي (اعرب الاسم الاعجمي

نطق به على منهاج العرب ... وعـرب الاسـم الاعجمى عربه ...) .

وعند بدء المصطلحات العلمية بحث «التعريب» بحثا واسعا وتقرر استعماله فقط عند الضرورة القصوى .

ولكنا نجد انه اصبح للكلمة مدلول آخـر ، فاصبح الكلام عن (تعريب التعليم) مألوفـا ويقصد به التدريس باللغة العربية ، وكذلـك اسم مؤتمرنا هذا (مؤتمر التعريب الثانى) وكما سبق ان أنشىء (المكتب الدائم لتنسيق التعريب) واصدر دراسات وابحاثا عديدة .

8 ــ على ان تسهيل اللغة العربية للعلوم يجب ان لايدع مجالا لتسلل العامية أو الركة الى اللغة الصحيحة ، فهناك درجات من البلاغة فيجـوز استعمال البليغ مع وجود الابلغ وكذلك هنـاك درجات كافية من المعرفة بقواعد اللغة واصولها لتؤدى الى اداء صحيح بها كتابة أو تكلما .

ــ ان استمرار البحث العلمى فى اللغـة واستنباط القواعد الشاملة من الامور الضرورية ، وقد يكون فى استعمال الحسابة فى ذلك ما يسهل هذه البحوث .

10 ــ ولأجل ان تتمكن اللغـة العربية مسايرة التطور العلمى والتقنى فلا بد من اتباع السبل التالية :

1 ــ ايجاد مصطلحات موحدة تستعمل فـى البلاد العربية ، بامكانها مسايرة التطور السريع فى العلوم .

2 ــ استعمال الاسلوب الواضح الدقيـق واللغة الصحيحة فى التخاطب والكتابة والتدريس وابتعاد وسائل الاعلام كالاذاعة من غير ذلك .

3 ــ تأليف المعاجم المتخصصة وقـد الف بعضها ، ومن المفيد تأليف معجم للتطور الحضارى لاستعمال الكلمات .

4 ــ اصدار نشرات أو مجلات دورية باللغـة العربية فى مختلف العلوم تحتوى على البحـوث الاصلية والتطبيقية اضافة الى بحوث مراجعـة المصادر والمستخلصات والخلاصات .



خصائص اللغة العربية فى التعبير العلمي

د. عبد الحليم منتصر
عضو مجمع اللغة العربية
- القاهرة -

منذ اكثر من احد عشر قرنا من الزمان وفى عهد الخليفة المامون على التحديد تقاطر المترجمون على بيت الحكمة فى بغداد ، ينقلون الذخائر العلمية التى تركها الاغريق والفرس والهنود والسريان والقبط وغيرهم الى اللغة العربية وشجع الخليفة العالم هذه الحركة العلمية العارمة فكان يولى العلماء عطفه ورعايته كما فتح لهم خزائن المال ، يغدق عليهم منها ، استحثاثا منه لهم على نقل هذا التراث الى اللغة العربية وكذلك تم نقل هذا التراث الضخم فى الطب والفلسفة والمنطق والاخلاق والسياسة والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان وما اليها من علوم لم يكن للعرب بها عهد .

بحث قدم الى المؤتمر الثانى للتعريب المنعقد بالجزائر من 12 الى 20 ديسمبر 1973

وليس من شك فى ان تلك كانت نقطة بدء رائعة للانطلاق وغدت بغداد مركز اشعاع علمى حضارى تاهت به على حوافز ذلك العصر ودانت الحضارة الانسانية لبغداد المأمون وغدا الخليفة المـأمون رمــزا للملك العالم ، وجمـــع حوله جمهرة من العلماء علا بهم بلاطه وزين ملكه نقلوا له روائع ابقراط وفيثاغورس وافلاطون وارسطو وبطليموس وجالينوس وديسقوريدوس واقليدس وارشميدس وغيرهم من علماء اثينا والاسكندرية ٠

وعرفت الامـــة العـربية طب ابقـــراط وفلك بطليموس وهندســة اقليدس وقـــراوا مجسطى بطليموس ، واصول اقليدس وجامع اوريباسوس، ومئات بل الوفا من كتب ارسطو وجالينوس وثاون وهيرون وغيرهم من رواد العـــلم فى العصرين الاغريقى والاسكندرى ووسعت العربية الجومطريا والاسطرونوميـا والميتافيزيقـــا والاريثماطيقـــا والماثيماطيقا ومصطلحات التشـريح والهندســة والفلك والطب والرياضيات وما اليها٠ واستمرت الحركة العلمية فى النمـــو والازدهار وشــملت الحواضر العربية كلها من بغداد الى دمشق الى القاهرة الى مراكش الى الاندلس فى الجامــع المنصور والجامع الاموى والجامع الازهر وجامــع القيروان وجامع قـــرطبة وفى بيت الحكمة ودار الحكمة ودار العلم٠ فكانت هذه وتلك تؤدى مــا تؤديه الجامعات ومعاهد العلم فى الوقت الحاضر، وكانت منازل العلماء وقصور الخلفاء والامـــراء والمساجد ودور الكتب تزدان بمجالس العلم والادب وامتدت الامبراطورية العربية والاسلامية مـــن حدود الصين شرقا الى حدود فرنسا غربا واكب علماء المسلمين على التاليف بلغة عربية سليمــة حتى كانت اعمال العالم منهم تــعد لا بالاحاد ولا بالعشرات ولكن بالمئات ، وتـــاه هذا العصــر بعشرات ومئات من العلماء العرب يقرنون الــى أعاظم العلماء فى كل عصر وآن وها هى ذى تآليفهم ومخطوطاتهم تزدان بها دور الكتب والمتاحف ، مما يعد بمئات الالوف مما يحتاج تحقيقه وعرضه الى جهود عصبة من أولى العزم من العلماء ليعكفون على دراستها وتحقيقها وعرضها ملخصة ومخلصة وقد انصفنا بعض مؤرخى العلم حين قالوا ان الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب فى كـل فروع المعرفة وانه كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والصوفى والبيرونى والكندى لكى يتسنى ظهور جاليلو وكيلر وكوبرنيق ، وانه لولا اعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الاوروبية ان يبداوا من حيث بدأ هؤلاء ولتاخر سير المدنية عدة قرون وانـــه لو لم يعوقنا المغول والتتـــار والتـــرك والاستعمار لكانت هذه النهضة التى تفاخر بهـــا اوروبا تكون من نصيب الامة العربية وتكون لغتها هى العربية وتتقدم عليها فى التاريخ عدة قرون ٠

ولا شك ان القارىء لمؤلفات ابن سينا وابـــن الهيثم والبيرونى وجابر والخوارزمى والــرازى وابن النفيس والزهراوى والصوفى وابن يونس وابن العوام وغيرهم ليتملكه الاعجاب والاكبـار باسلوبهم العلمى الاخاذ ولغتهم العربية السبيمة التى كتبوا بها فى الفلــك والرياضيات والضوء والهندسة والجبر والطب والكيمياء٠ لقد طوعوا العربية لمصطلحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة حتى قـــال المنصفون ان الينبوع الاول للعلــوم الطبيعية انما تفجر فى العصر العربى الاســلامى الذى ازدان بامثال من ذكرنا ٠

ولكن الايام دول كما يقولون فضعف امر الامة العربية بعد ان قدمت لاوروبا زاد نهضتها العلمية

عن طـريق الاندلس التى سطعت فيها الحضارة العربية الاسلامية عدة قرون وعن طريق صقلية التى دانت لحكم العرب بضعة قرون ، وعن طريق الحروب الصليبية ثم عـــن طريق الامبراطورية العثمانية فى شرق اوروبا وظلت كتب من ذكرنـا من العلماء العرب هى المراجع المعتمدة فى جامعات اوروبا طيلة قرون وانشئت الجامعات الاوروبية على غرار جامعة الازهر العتيدة وترجمت الكتب العربية الى اللغـــة اللاتينية واللغات الاجنبية الاخرى وسطعت شمس الحضارة العلمية عـلى اوروبا فى حين انحسرت عن الامة العربية ٠

* * *

وفى اوائل القرن الماضى بدأت الاتصالات بين بعض الدول الاوروبية وبعض البلدان العربية كان هدفها الاول حربيا استعماريا ، لم يكتب لهـــا فيها نصر ولم تتحقق اغراضها منه ولكنما تحققت اتصالات علمية كان من نتائجها نقل العلوم الحديثة الى البلدان العربية وانشاء بعض المدارس الحديثة وارسال البعثات العلمية الى اوروبا ، وعاد هؤلاء المبعوثون ليقودوا نهضة علمية حديثة٠ ومـــنذ اوائل القرن الثامن عشر انشئت فى مصر مدارس الطب والهندسة والمعلمين وغيرها مـــن مدارس وشارك علماء من اساتذة هذه المدارس من الاجانب والمصريين فى ترجمة امهات الكتب العلمية الـى اللغة العربية ان فى الطب او الهندسة او الزراعة او الصيدلة او الكيمياء ومـــا اليها من علـوم وفنون٠ وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم الى اللغة العربية وان تكون اللغـــة العربية لغة التدريس فى هذه المعاهد ٠

وفى أخريات القرن الماضى عاد الاحتلال ينشر ظله الثقيل مرة أخرى ، وشيئا فشيئا جعل لغـة التدريس هى الاجنبية ، ولم يكتف بان يكون ذلك فى المعاهد العليا وحدها ولكن عم ذلك فى المدارس الابتدائية والثانوية فاستقر فى اذهان الكثيرين ان هذه العلوم مستوردة هى الاخرى من الخارج وانه لم يكن لنا بها عهد ، وتناسى الكثيرون انها بضاعتنا ترد الينا وان العلماء العرب هم واضعو اسس هذه العلوم وهم مبتكرو كثير من اجهزتها وادواتها بل ومصطلحاتها ايضا ٠

ومنذ أوائل القرن العشرين عادت للغة العربية مكانتهـــا فى التدريس فى المـــدارس الابتدائية والثانوية ، كما انشئت فى مصر الجامعة الاهلية وكانت مقصورة على كلية الآداب كمـــا انشئت معاهـــد عليا كثيرة وفى اواسط عشرينيات هذا القرن ، انشئت الجامعة المصرية الاميرية وكانت تتكون آنئذ من اربع كليات هى الآداب والحقـوق والطب والعلوم وكانت العلوم هى وحدها التـى انشئت انشاء فى ذلك التاريخ لم تكون متحولة عن معهد أو مدرسة أخرى ، وضمت اليها بـعد ذلك كليات أخرى ، ثم انشئت فى اوائل الاربعينات جامعة الاسكندرية ثم جامعة عين شمس فى سنة ١٩٥٠ ٠ وتتابعت الجامعات فى مصر بعد ذلـك فى اسيوط وطنطا والمنصورة والزقازيق كمـــا تتابع انشاء الجامعات فى كثير من البلدان العربية فى العراق : فى بغداد والموصل ، وفى سوريا : فى دمشق وحلب وفى الاردن فى عمان ، وليبيا وتونس ، والجـزائر ، والمغـــرب ، والكـويت ، والسعودية وغيرها ٠ كما انشئت المجامع اللغوية فى القاهرة وبغداد ودمشق للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مسايرة للنهضة العلمية ٠

ومن اسف أن اللغة العربية لا تزال وئيدة الخطو لتكون لغة التدريس فى الكليات العملية خاصـــة باستثناء جامعة دمشق ٠

وقد آمن الكثيرون ان التدريس انما كان بلغة اجنبية ضرورة مؤقتة لم يكن معدى عنها وانهم ليرقبون اليوم الذى يعم فيه اتخاذ العربية لغة العلم · فالعربية لم تقصر عن اللحاق بركب العلم انما قصر ابناؤها ·

وفى اوائل الثلاثينيات صدرت فى مصر مجلة علمية باللغة العربية وفيها دعوة صريحة لتحقيق هذا الهدف ، وكان العدد الاول يحمل استفتاء بين كبار أعضاء هيئة التدريس وكلهم يجمع على تحقيق ذلك الهدف · وتكونت جماعة اطلقت على نفسها اسم جماعة انصار اللغة العربية كان هدفها تحقيق هذا العلم وتدريب اعضاء هيئة التدريس والطلاب معالجة الموضوعات العلمية بلغة عربية سليمة ، يتناولون فى محاضراتهم ومقالاتهم أحدث الموضوعات العلمية من كيميائية وجيولوجية وطبية وصيدلية ونباتية وحيوانية ورياضية وهندسية وطبيعية بلغة عربية لا عجمة فيها · لقد حدث كل ذلك آنئذ فى كلية العلوم بالجامعة المصرية وكان للانجليز فى ذلك الوقت سلطان ودولة ، لا فى السياسة فحسب بل فى العلم والتعليم كذلك· ومع ذلك فقد توافر لدى الكثيرين من أبناء العربية من القوة والشجاعة ما جعلهم ينادون بتعريب العلم· وانى لاسجد لله شكرا ان عشت حتى أرى فجر هذا اليوم يبزغ وما أشك فى أن ضحاه قريب ما دمنا نحمل هذه القلوب القوية والعزمات الفتية ، وما دام أبناء العربية ، فى ارجاء الوطن العربى يستهدفون وحدته ورقيه وقوته ومتعته ليكون وطنا كريما يسعد أبناءه ويشرف أبناؤه بالانتساب اليه ·

وهاهم العلماء العرب يتزايد عددهم يوما بعد يوم يحاولون ان يعيدوا مجد اسلافهم من امثال من ذكرنا وهاهم أولا يعقدون المؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية والعلمية العربية فى كل رجا من أرجاء الوطن العربى من أقصى شرقيه الى أقصى غربيه تحت راية لغة الضاد ــ ليعلن عن حيويته الكامنة وليقود الانسانية مرة أخرى الى رحاب العلم والرفاهية والسلام وانه على ذلك لقدير ما اتخذ من العلم هاديا واماما وما رفع راية لغة الضاد يجعلها من مقومات ثقافته وحضارته ، بل وكيانه ، ولا مراء فى أن أولى مراتب الثقافة الرفيعة علم المرء بلغته ، وقدرته على التعبير والابداع العلمى فيها فى كل مرفق من مرافق الحياة ·

ولا مراء فى ان مجمع اللغة العربية بالقاهرة ــ وقد عاصرته زهاء ثلاثين عاما ــ اعظم خدمة لتعريب العلم اذ خصص جانبا غير يسير من وقته وجهده لترجمة المصطلحات العلمية الى اللغة العربية بعد ان جند لها الخبراء من الاساتذة المتخصصين· كان يجتمع بهم اعضاء المجمع فى لجان واجتماعات تعقد بصفة منتظمة لهذا الغرض ثم يعرض ما تقرره اللجان على اعضاء المجمع مجتمعين فى صورة مجلس ثم تعرض مرة أخرى على هيئة المجمع فى صورة مؤتمر حين يعقد المجمع مؤتمره السنوى ليناقش ويقر ما انجزه المجلس من اعمال طيلة العام فكان مرور المصطلح والتعبير العلمى بهذه الخطوات جميعا كفيلا بصقله وحسن صوغه ·

وقد اقر مجمع اللغة العربية الوف المصطلحات والتعبيرات العلمية فى مختلف فروع العلم ، نشر منها حتى الآن نحو خمس عشرة مجموعة تضم بضع عشرات من الوف المصطلحات ، فضلا عن عدد غير قليل منها يتضمنه المعجمان اللذان يصدرهما المجمع ، وهما الوسيط والكبير ·

وقد ذهب فريق من المشتغلين بهذه المسالة الى انه لا بـد من ايجاد جـذور عـربية للكلمات والمصطلحات المراد ترجمتها والتعبير عنها ، وانه لا ينبغى ان تدنس العربية بعجمة أو لكنة وانمـا تبقى مصفاة مطهرة • وقد يبدو هذا الرأى وجيها لولا أن هناك استحالة فى تنفيذه او الاخذ به على أية صورة• فالمصطلحات العلمية فى تزايد مستمر بـل انها لتتكاثر كمـا يتكاثر الانسان والنبات والحيوان ، فيزيد عددها يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى أضحى مجرد حصرها مشكلة تعترض الفنيين والمتخصصين واضحت دور النشر تخرج علينا بين حين وآخـر بمعاجم تتفاوت حجوما واشكالا ، وتختلف فى لغاتها وطرائقها ، فمنها ما يصور بلغة واحدة ، ومنها ما يصور بلغتين ، ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر• فملاحقة هذا التكاثر بلغـة عـربية أصيلة يبدو مستحيلا لاسباب ، ليس اقلها شأنا ان العرب لم تكن تعرف هذه الموضوعات وان هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين وان الكثير منها انما رأى النور وعرفته الانسانية فى مطالـع هذا القرن ، بل وبعد ان تنصف فمن أين تـأتى الجذور العـربية لهذه المستحدثات والمستعدثات والنظريات التى لم يكن للعرب بها عـلم •

اننا نكلف العربية شططا ، ونكلف أنفسنا جهدا لا طائـل تحته ان نحن صممنا على التنقيب فى بطون المعاجم عن أصول عـربية للميكروسكوب والترمومتر والالكترون والنيترون والميزون وما اليها مما يعد بعشرات الالوف ، فما علينا الا أن نبحث وندقق فان اسعفتنا المراجع ببغيتنا ، فبها ونعمت ، والا ففى التعريب متسع لهذه الالوف المؤلفة من المصطلحات والتعبيرات العلمية فى كل علم وفن ويسعنا ما وسع الاقدمون من استعمال اريثماطيقا وميتافيزيقا وجومطريا واسطرونوميا وغيرها •

واذا نحن اتفقنا على الترجمة العربية لكلمة فلعله من الواجب توحيدها وتعميم استعمالها فى الاقطار العربية ، بل التزام هذا الاستعمال واذا ترجمنا ميكروسكوب فهل نستعمل مجهر بصيغة اسم الفاعل او مجهر بصيغة اسم الآلة أو نقـول مجهار على وزن مفعال •

واذا نحن ترجمنا كلمة ترمومتر فهل نقول ميزان الحرارة أو نستعمل اسم الآلة فنقول « محـرار » على وزن مفعال أو نبقى على ترمومتر تقريبا فهذا كما نرى امرا محيرا ، تختلف فيه الآراء وتتباين فيه الاذواق •

توحيد الترجمة العـربية للمصطلحات

وهناك أوجه خلاف بين الدول العربية والمثقفين العرب بشأن هذه المصطلحات فالعراق والاردن ومصر لوثتهم الثقافة الانجليزية حينا فتأثروا بها• وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ثقافتها فرنسية فتأثرت مصطلحاتهم العلمية بالاصول الفرنسية للكلمات ، فلا بد لنا اذن من الترجمة ثم توحيد هذه الترجمة • ولنضرب بعض الامثلة لهذا التباين فى التعبير العلمى فى بعض البلاد فعلم الطبيعة كما نعرفه فى مصر يسمى فى سوريا والعـراق والاردن ولبنان « فيزياء » والاولى ترجمة والثانية تعريب على ان التعريب ليس كامـلا او صحيحا فالتعريب الصحيح هو « فيزيقا » كذلك استعمله العلماء الاقدمون كما استعملوا ارثماطيقا للحساب وماثيماطيقا للرياضيات وجومطريا للهندسة وهكذا فكلمة فيزياء لم تلتزم فيها العربية الفصحى ولا

التعريب السليم ولا عيب فى كلمة طبيعة الا احتمال الشبهة مع Nature التى تترجم بنفس الكلمة « طبيعة » .

ونحن نقول فى مصر كما يقول أهل العراق بؤرة العدسة ولكن الاقطار الاخرى تقول «المحرقة» ونحن فى مصر نقول بندول الساعة تعريبا لكلمة Pendulum وفى العراق يقولون « رقاص » وفى سوريا « نواس » وفى الاردن « خطار » فينبغى ان تختار الدول العربية ترجمة واحدة للمصطلح الواحد .

وفى مصر والعراق تطلق كلمة « طحلب لتدل على Alga على حين انهم فى سوريا ولبنان يقولون « اشنة » اما اشنة فنستعملها فى مصر لكلمة Lichen على حين تقول الاقطار الاخرى طحلب .

وكلمة Endosperm عربت فى مصر الى اندوسبرم وترجمت فى بعض البلاد العربية الاخرى الى سويداء .

وكلمة Ecology ترجمت فى مصر الى علم البيئة وفى اقطار اخرى الى علم المحيط «وفصيلة» Rutaceae ترجمت فى مصر الى سدبية نسبة الى اسم النبات الذى اشتق منه اسم الفصيلة واستعملت الاقطار الاخرى ليمونية نسبة الى اشهر نباتاتها .

وكلمة Nucellus ترجمت الى « جويزة » فى البلاد العربية وعربت فى مصر الى نويسلة .

وكلمة Micropyle ترجمت الى نفير فى مصر وفى البلاد العربية الى «بويب» .ونحن فى مصر نقول « جرام » تعريبا لكلمة Gram الافرنجيةوغيرنا يقول غرام .

ونقول مغنطيسية تعريبا لكلمة Magnetism فعربنا الجاف بالجيم حينا وبالغين حينا آخر . ونحن نقول ابجروسكوبى وآخرون يقول ايغييروسكوبى ... وهكذا .

وليست الترجمة العربية للمصطلح جامدة ابدا فما أيسر ان نتبين أن هناك ترجمة او تعبيرا أفضل حتى نعدل عن الاول اليه ، فلم تكن الترجمة جامدة ابدا ، فقد كانت الترجمة تعرض فى المقالات والبحوث وللدراسات فيصقلها ويصححها الذوق العام والاستعمال. ومن امثلة ذلك ترجمة المصطلح الذى يدل على درجة تركيز ايون الايدروجين ويرمز له بالافرنجية بالرمز P H ، فقد سمى اولا ـ الجهد الايدروجينى ثم الاس الايدروجينى ثم عدل اخيرا الى « الرقم الايدروجينى » .

وكذلك تلك الظاهرة التى سميت حينا « ادمصاص » ثم عدل عنها الى التجمع السطحى وها هى ذى يقرها المجمع اللغوى والذوق العام بين المشتغلين بالعلم الى « امتزاز » ترجمة لكلمة Adsorption

ومصطلح غروى اتخذ ترجمة لكلمة Colloid ثم عدل عنها الى شبه غروى ثم الى غراوانى.

وكذلك كلمة Alkaloid عربت حينا الى قلويد ثم ترجمت الى شبه قلوى ثم الى «قلوانى» وهكذا.

« مصطلحات فى علم الطبيعة »

وهناك مصطلحات متقاربة المعنى متفاوتة المدلول لا بد من تعريفها تعريفا دقيقا ، ولا بد من وضع الترجمة الصحيحة لكل مصطلح يتميز بها عن المصطلح الآخر فالمانعة والمعاوقة ، والمقاومة قريبة فى معناها ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

المانعة ترجمة ال Reluctance

والمقاومة « ال Résistance

والمعاوقة « ال Impédance

ثـم المجاوزة والمهاودة والمسايرة قريبة فى معناها ، ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

المجاوزة ترجمة ال Permittance

والمهاودة « ال Susceptance

والمسايرة « ال Admittance

ثم المفاعلة ، والمنافذة ، والمواصلة ، والمحانة قــريبة فى معناها ، ولكـــن مدلولاتها متباينة فوضعت :

المفاعلة ترجمة ال Réactance

والمنافذة « ال Perméance

والمواصلة « ال Conductance

والمحانة « ال Inductance

ثم ابتكرت صيغ جديدة لم تكن تستعمل كثيرا كالمصدر الصناعى فنقول :

المانعية ترجمة ال Reluctivity

وهى مقدار قابلية المادة المغنطيسية لتوصـيل الفيض المغنطيسى وهى مقلوب المنفذية

والمنفذية ترجمة ل Permeability

وهى النسبة بين كثافـــة الفيض المغنطيسى المنتج فى وسط ما الى القوة المغنطة المنتجة له٠

والمجاوزية ترجمة ل Permittivity

وهى النسبة بين الازاحة الكهربية لوسط مــا الى القوة الكهربية المنتجة له

والمقاومية ترجمة ل Resistivity

وتعنى المقاومة الحجمية للمادة ، ويقصد بذلك مقاومة جرام من تلك المادة طوله الوحدة ومساحة مقطعه الوحدة تسمى ايضا المقاومة النوعية ٠

والمتأثرية ترجمة ل Susceptibility

وهى النسبة بين شدة التمغنط الى شدة المجال المغنطيسى فى الدائرة المغنطيسية

والمفاعلية ترجمة ل Reactivity

والمعاوقية ترجمة ل Impedivity

والموصلية ترجمة ل Conductivity

وهى خاصية للمادة بفضلها تسمح للتيـــار الكهربائى بالمرور خلالها ٠ اذا كان هناك فـرق جهد وهى مقلوب المقاومية ٠

وكذلك تتقارب معـــانى الانحـلال والتدهور والفساد والتفتت والتحلل وقد ترجمت على هذا النحـــو :

انحلال ...... Dégénération

تدهور ...... Détérioration

هـــدم ...... Destruction

تفتـت ...... Disintégration

تحـــل ...... Analysis

فســاد ...... Decay

« مصطلحات طبيـــة »

وابتكرت صـيغ قياسية كثيرة فى المصطلحات الطبيـة ، كأن نقول عصـــاب ترجمة للمصطلح Neurosis

وهو مرض عصبى وظيفى لا تصحبه علامات عضوية ، ومن انواعه :

أ) عصاب القلـق ...... Anxiety neurosis

ب) عصاب اصابى .... Teaumatic neurosis

جـ) عصـــاب قلبى .... Cardiac neurosis

د) عصاب كـلالى .... Fatigue neurosis

هـ) عصاب متاخر .... Neurosis tarda

و) عصاب انحصارى قسرى ٠ Obsessive Compulsive

ز) عصاب مهنى .... Occupational neurosis

وكذلك نقول عن المرض الجلدى ـ جلاد
Dermatosis

وعن مرض الصدفية ، صداف	Psoriasis
ونقول بواغ الشعر	Sporotrichosis
والورام الزهمى	Stratomatosis
وفطار الشعر	Trichomycosis
وعقاد الشعر	Trichonodosis
والعراق المصن	Asmidrosis
والعراق الفسفورى	Phosphoridosis
الصحام	Ochronosis

وترجم الى العمه الحسى مصطلح Agnosis
وهو القصور عن تمييز الاشياء وانواعه :

أ) عمه سمعى	Auditory agnosis
ب) عمه بصرى	Optic agnosis
ج) عمه لمسى	Tactile agnosis

وترجم الى ... الحركى المصطلح
Apraxia agnosis

وهو عدم القدرة على الاتيان بحركة ذات قصد٠

وهناك عشرات من الامثلة لهذه المجاميع من الكلمات او المصطلحات التى تتقارب فى معانيها وتتفاوت فى دلالتها ومن أسف ان المراجع الاجنبية كثيرا ما تستعمل الكلمة الواحدة لاكثر من معنى ومدلول ٠ فكان على المترجم ان يحتاط كذلك٠ ومن حسن حظ العربية انها غنية جدا بالمترادفات وان فقهها من أغنى لغات الارض بالمدلولات والالفاظ والاقيسة ، وكانت الطريقة الوحيدة هى جمع هذه الاشياء وتسليط الاضواء عليها واستنباط المدلولات الحقيقية لها والغوص فى المعاجم لاستخراج الكلمة الملائمة وتعميم الاستعمال والتزامه ٠

«الوحدات والرموز والثوابت »

وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة ، وتميزت اللغات الاجنبية بالخطوط المتغايرة ، فالرومانى والاغريقى والايطالى والخفيف والثقيل والكبير والصغير لكل صورة مما جعلنا نحصل على مئات الصور للحروف الابجدية ، ومن حسن الحظ ان الخط العربى هو ايضا متعدد الصور فهناك النسخ والرقعة والمثلث وما الى ذلك فنجد مثلا هذه الصور :

الكاف	ك	ك	ک	ک	ک
الميم	م	م	م	م	م
النون	ن	ن	ن	ن	ن
الجيم	ج	ج	ج	ج	ج
السين	س	س	س	س	س
القاف	ق	ق	ق	ق	ق
الياء	ى	ى	ى	ى	ى
الراء	ر	ر	ر	ر	ر

فكان علينا ان نؤلف بين هذه الحروف لنجد الرموز الكافية لمئات الوحدات والمقاييس والعناصر ، فنهاك رموز للثوابت مثل ثابت سرعة الضوء ، ثابت ، فوجادرو ، ثابت فراداى ، ثابت شحنة الالكترونات ، ثابت الجاذبية ، وثابت لكتلة الالكترون ٠

وهناك وحدات المقاييس من طول وعرض وارتفاع ونصف القطر والقطر والزاوية والمساحة والحجم ٠

ووحدات الوقت والزمن والتردد والسرعة وطول الموجة والاتساع والكثافة والعزم والشغل والقوة والوزن والضغط والطاقة والقدرة والكفاءة والشد والثنى والانحراف والالتواء والاحتكاك

واللزوجة والولاء والتوتر والتيار والمقاومة والحد والسعة والفيض والجهد والمقاومة والممانعة والمجاوزة والمواصلة والاضاءة ·

ثم معاملات الانكسار والانحراف ودرجات الحرارة والتمدد والموصلية والعدد الذرى والوزن الذرى والتكافوء والتحلل والتأين ·

ثم المتر والمليمتر والسنتيمتر والميكرون والميليلتر والثانية والدقيقة والساعة والسيكل والكيلو سيكل والجرام والميلجرام والكيلو جرام·

والسعر والكيلو سعر والواط والفولط والامبير والجول والقنديلة والكولومب والفولط كولومب والفولط امبير والهنرى والفاراد والكورى والميكروكورى ، والبوصة والقدم والياردة والجالون والحبة والاوقية والباوند والباوندال والحصان ··· الخ ·

هذه أمثلة لوحدات لا تجاوز المائة وهناك مئات غيرها لا يتسع المقام لذكرها عدا اكثر من مائة من العناصر الكيميائية ينبغى أن يتفق على رموز من حروف عربية لها · وقد قال قوم بالابقاء على الوحدات والرموز الاجنبية الا ان هذا الرأى قد رفض ورؤى التزام بالعربية والمعادلات الكيميائية رؤى تعريبها هى الاخرى ما دامت الرموز قد عربت جميعها ·

وتتبين الصعوبة اذا عرفنا ان القدرة والقوة والقطر ، وقوة المجال المغنطيسى والقوة الدافعة الكهربائية والطاقة والدقيقة كل هذا وغيره كثير يرمز اليه بالحرف «ق» ولا بد من التمييز بينها فقد يقع اثنان او اكثر فى معادلة واحدة كذلك المساحة والسعة وستوكس وغيرها يرمز لها بالحرف «س»· والشدة والشغل والشحنة ومعامل الانتشار وغيرها يرمز لها بالحرف «ش» والتردد والتيار والتورك (عزم الدوران) والوقت ومعامل الانتقال وثابت سرعة التفاعل يرمز لها بالحرف «ت» ·

وعدد افوجا درو والزمن وثابت الدوران وعدد اللفات الجزئيات والسعة الحرارية للجزىء وعدد الانتقال ووحدة نيوتن كل ذلك يرمز له بالحرف «ن» ·

وهكذا من عشرات الامثلة التى يرمز فيها بالحرف الواحد لعدد كبير من الاحداث والثوابت والمعاملات وما اليها من وحدات ومقاييس عالمية معيرة ينبغى ان توجد لها مقابلات بالاحرف العربية فضلا عن ان الحرف الواحد قد يرمز الى اكثر من عنصر كيميائى واحد فالزئبق والازوت والزرنيخ قد يكون رمزها جميعا « ز » فضلا عن ان حرف «ز» نفسه يرمز به لعدد آخر من الوحدات مثل وحدة ازاحة التيار ومعامل الاسموز وما أشبه ·

لذلك كان لا بد من اختيار صور مختلفة للحرف الواحد فضلا عن ضرورة الجمع بين حرفين أو اكثر منعا للبس وكذلك الابقاء فى بعض الحالات على الحروف الاغريقية كرموز بعض الوحدات العالمية المعيرة او الرموز الرياضية حيث بدا صعبا احيانا ايجاد رموز من حروف عربية موحدة· ولا بد أن يمضى بعض الوقت حتى تتكامل طريقة سوية مبرأة من المآخذ بعد ان يصقلها ويصححها ويسبغها الرأى العلمى العام والذوق العام وبعد أن تعيننا المطابع والمسابك على ايجاد الصور المطلوبة للحروف وقد جربت صور مختلفة لخطوط النسخ والرقعة والمثلث والفارسى والكوفى بل وحروف التاج التى ابتدعت حينا ثم عدل عنها ·

وعلى الذين يقولون بالابقاء على الرموز والمعادلات الحروف الافرنجية ويضربون امثلة على ذلك باللغات الاوروبية المختلفة التى اتفقت على الرموز نفسها فى هذه اللغات فاتهم ان الحروف فى هذه اللغات جميعا متشابهة الى حد كبير فضلا عن انها تكتب جميعا من اليسار الى اليمين فاذا فرضناها فى كتاباتنا وبين سطورنا العربية جاءت نشازا ·

وفى علوم الحياة أقر مجمع اللغة العربية قاعدة موحدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب اسماء المواليد والاعيان ومن نبات وحيوان فأقر حلقات التصنيف الآتية :

عالم ········	Kingdom
عويلم ········	Sud Kingdom
شعبة ········	Phylum
شعيبة ········	Sub Phylum
طائفة ········	Class
طويئفة ········	Sud Class
رتبة ········	Order
رتيبة ········	Sub Order
فصيلة ········	Family
فصيلة ········	Sub Family
قبيلة ········	Tribe
قبيلة ········	Sud Tribe
جنس ········	Genus
جنيس ········	Sub Genus
نوع ········	Species
نويع ········	Sub Species
ضرب ········	
سلالة ········	Race
عنزة ········	Strain
فرد ········	Individual

وقد ازالت هذه الاسماء التى اتفق عليها واقرها مجمعنا الموقر ازالت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفى كتب المواليد ، واصبح اليوم كل اسم عربى يدل اصطلاحيا على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الاسماء الاعجمية المقابلة لها وواضح ان اسماء حلقات التصنيف هذه تعد من أسماء المعانى ، وانها ترجمت الى العربية ولم تكن الصعوبة فى الترجمة ولكن فى تخصيص كل حلقة باسم عربى واحد راجح وهذا ما أقره المجمع· وهو قرار خليق بان يتبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى فى هذه المسميات وذلك لان فيه خلاصا من فوضى تعدد الاسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد ·

وقد اقر المجمع القواعد الآتية فى ترجمة وتعريب اسماء المواليد والاعيان

الاولى ترجمة الالفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الاوسع فى حلقات التصنيف العليا وهى الشعب والطوائف والرتب ·

الثانية اسماء القبائل والفصائل النباتية او الحيوانية تكون عربية او معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذى تنسب اليه·

الثالثة اجناس المواليد التى ليس لها اسماء عربية تعرب اسماؤها العلمية اذا كانت منسوبة الى الاعلام وتترجم بمعانيها اذا امكن ترجمتها فى كلمة عربية واحدة سائغة وان لم يكن ذلك ممكنا رجح تعريبها ·

الرابعة لا مجال للتعريب فى الالفاظ العلمية الدالة على انواع النبات لان جميع الفاظها او معظمها نعوت أو صفات تترجم ترجمة فى جميع اللغات الحية ·

الخامسة يوجد مجال للترجمة او التعريب جميعا فى الالفاظ الدالة على السلالات والاصناف او الضروب ٠

السادسة لا مجال للبحث ولا للتركيب المزجى فى تصنيف المواليد ولا حاجة اليهما وفى اللجوء اليهما تشويه للغة العربية ٠

ومع ذلك فقد راى المجمع ضرورة الازدواج اى ذكر الاسماء العلمية اللاتينية فى الدراسات العليا وفى حالة احتمال اى لبس ٠

فمثلا لا مجال للتعريب فى الفقاريات والاسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات فى رتب الحيوان٠ كذلك لا مجال للتعريب فى غشائية الاجنحة وحرشفيات الاجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الاجنحة وما اليها من رتب الحشرات وكذلك للنباتات الزهرية واللازهرية وذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما اليها ٠

فهذه جميعا ترجمات معقولة مقبولة مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا وكذلك نقول فى الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والنرجسية والسحلبية والخبازية وكذلك اسماء الاجناس كالقمح والشعير والخردل والقطن والورد وما اليها ٠

اما النوع فينبغى ان دل على صفة بعينها ان نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمى كاملا ويتعين ذلك خاصة فى الحالات التى تختلف فيها المسميات فالبطاطس فى مصر هى البطاطا فى سوريا ، والخوخ هو الدراق والكمثرى هى الاجاص ٠ بل ان الديس والبوط والبردى اسماء مختلفة لنبات واحد ولكنه يعرف باسماء مختلفة فى الجهات المختلفة ففى كل هذه الحالات وفى مجال البحث العلمى والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمى باللغة اللاتينية ٠

« فى الجيولوجيا »

وفى المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بالفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضحالة والملوحة والعذوبة والبرى والتفتت والتشقق والانفصال والانفصام وما الى ذلك فاذا بها معطاء كاجزل ما يكون العطاء ٠

فنجد النور والغسق والدغش والغبق والاظلام ٠
كما نجد الضحل ، والغائر والعميق والسحيق ٠
وفى مدى استجابة الصخور ورد الفعل فيها بالنسبة للحركات الارضية ٠

فاصل وتفصل	Jint, Jinting
صدع وتصدع	Fault, Faulting,
شق ، تشقق	Fracture, Faulting
دسرة ، ودسر	Thrust, Thrusting
تفلق	Cleavage
انزلاق	Sliding
تزحلق	Slipping
زحف	Creeping

وفى باب الطى :

طية وطى	Fold, Folding
ثنية وثنى	Plicate, Plicating
تعرج	Corrugation
قبة ، تقبب	Deme, deming

وفى درجات ملوحة الماء نقول :

ماء عذب	Fresh water
ماء مسوس	Brackish water
ماء ملح	Saline water

ماء زعاق ...... Hypersaline water
ماء اجاج ...... Brine water

وفى باب ما يشبه :

غراواتى ...... Colloid
بلورانى ...... Crystalloid
فلزانى ...... Metalloid
سكرانى ...... Saccharoid
كروانى ...... Spheroid
دلتانى ...... Deltoid

وفى موضوع البرى والسحج والتحات والتآكل : نقول :

البرى او السحج ..... Abrasion
التحات ...... Erosion
التآكل ...... Corrosion

ونقول :

صواعد ...... Stalagmites

وهى اعمدة من كربونات الكلسيوم ترسبت فى أرضية الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى اعلى :

وهوابط ...... Stalactiles

وهى اعمدة من كربونات الكلسيوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى اسفل · وهى صيغ عربية سليمة ما أظن ان الاقدمين قد استعملوها ·

وفى مراتب ومراحل الزمن الجيولوجى نقول : الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة واللحظة·

١) الدهر : Eon

اطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجى لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل الى الف او اكثر من ملايين السنين · مثل دهر الحياة الظاهرة

٢) الحين : Era

اطول مراحل العصر فى الزمن الجيولوجى ويقاس مداها ببضعة ملايين من السنين (لا يتجاوز العشرة عادة) ويتميز كل حين من الاحيان الجيولوجية بفصائل اجناس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته· مثل حين الحياة القديمة ·

٣) الحقب : Period

المدة من الزمن ترسبت اثناءها صخور المجموعة· وتقدر بمئات الملايين من السنين مثل الحقب الكربونى ·

٤) العصر : Age

اطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين· ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض اغلبها أو تقل اهميتها الجيولوجية مع نهاية الحقب

ولم تسمح وسائل تقسيم الاحقاب الى عصور الا فى الاحقاب الثلاثة الاخيرة فقط التى تتبع دهر الحياة الظاهرة ·

٥) البرهة : Hemero

مرحلة من الزمن الجيولوجى يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر ان يبلغ مداها اكثر من مليون سنة· وهى اطول مرحلة ينقسم اليها حين من الاحيان الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة انواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض او تقل فى الاهمية الجيولوجية كثيرا مع نهايتها ·

٦) اللحظة : Moment

أقصر مراحل الزمن الجيولوجى واصغر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من الاف

السنين ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها او بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع ٠

« جهود مجمع اللغة العربية »

واذا نحن عرضنا للهيئات التى كان لها الفضل فى هذه الحركة المباركة من تطويع للغة العربية للاستعمال فى التعبيرات والمصطلحات العلمية فاننا لنضع على رأسها مجمع اللغة العربية٠ فهو الذى يسر الامر بجهود اعضائه وخبرائه من اساتذة الجامعات المتخصصين فهم جميعا قوم عاكفون على صون اللغة وسلامتها وهى الضمان الوحيد للتفاهم الصحيح بين قطان الوطن العربى اذ ان العامية واللهجات المختلفة لا يستقيم بها تخاطب ولا تفاهم وانما يكون ذلك باللغة العربية السليمة التى يحافظ عليها وينميها مجمع اللغة العربية باعضائه ولجانه وخبرائه وكانت حصيلة جهوده فى هذا المجال خمس عشرة مجموعة تضم عشرات الالوف من المصطلحات فى العلوم المختلفة٠

« المجمع المصرى للثقافة العلمية »

واذكر بالتقدير المجمع المصرى للثقافة العلمية وقد عاصرته منذ انشائه منذ نيف واربعين عاما لا اذكر انى تخلفت عن محاضرة من محاضراته او مؤتمر من مؤتمراته الا لعذر قاهر طارىء لقد جعل من اهم اغراضه تعريب العلم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية٠ وقد حقق هذا الغرض كاملا بما نشر واذاع من كتب ومحاضرات وبما ترجم وعرب وناقش من موضوعات هى من صميم الموضوعات العلمية نشرها على الناس بلغة عربية سليمة لقد استحق اعضاؤه ومؤسسوه كل تقدير أن أسهموا بأوفى نصيب فى خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمى ٠

ولا ننسى المؤتمرات العلمية العربية التى نظمها الاتحاد العلمى العربى والمؤتمرات العلمية العربية والمؤتمرات الطبية العربية التى عقدت فى العواصم العربية منذ عشرين عاما ٠ فقد عقد المؤتمر الاول فى الاسكندرية سنة ١٩٥٣ ، وكان الثانى فى القاهرة سنة ١٩٥٥ ، والثالث فى بيروت سنة ١٩٥٧ ، والرابع فى القاهرة سنة ١٩٦١ ، والخامس فى بغداد سنة ١٩٦٦ ، والسادس فى دمشق سنة ١٩٦٩ ، والسابع فى القاهرة سنة ١٩٧٣٠ لقد عرضت من بين ما عرضت لموضوعات المصطلحات واوصت من بين ما أوصت بضرورة الاسراع فى وضع معجم علمى عربى موحد اعد له نحو مائة الف مصطلح روجعت حيزا ذات نحو ثلثها ومن اسف ان توقف العمل فيه وكان فى كنف وزارة البحث العلمى ثم اكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا ٠

وكذلك عقدت مؤتمرات طبية عربية كثيرة كونت هيئة لترجمة المصطلحات كانت نواة لتاليف لجنة المصطلحات الطبية بمجمع اللغة العربية ٠

وينبغى ان نذكر بالشكر جهودا اخرى بذلتها جامعة الدول العربية حين جمعت الادارة الثقافية بها ــ المصطلحات العلمية التى تستعمل فى المدارس الثانوية وعملت على توحيد ترجمتها فى الاقطار العربية فجمعت مئات المصطلحات مما يستعمل فى الرياضيات والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وعرضتها على المختصين فى البلاد العربية وقد أقرت الترجمة العربية الموحدة فى المؤتمرات العلمية ٠

« خبير أجنبى »

ولعلنا ان نذكر فى هذا الصدد جهود خبير أجنبى هو السيد « جمبلت » الذى استقدم بمعرفة

اليونسكو ابان انعقاد المؤتمر العلمي العربي الثاني سنة ١٩٥٥ ، وامضى بمصر ستة اشهر عكف فيها على جمع نحو الف واربعمائة مصطلح فى علم الطبيعة جميعها وتعريفها من المعاجم المعيرة وفرقها فى جذاذات وزعت على المختصين لترجمتها ، ثم جمعت فى كتاب يقع فى جزاين عرضت بعد ذلك فى المؤتمر العلمي العربي الثالث فى بيروت· وقد اشار الخبير بمعالجة المصطلحات جملة حسب الموضوعات لافرادى حسب التربيب الابجدى كما اشار بانشاء مكتب خاص للمصطلحات وباستعمال النظام العشرى العالمى فى تنسيقها وتبويبيها ·

« مكتب التعريب »

وها هو ذا مكتب التعريب يقوم بدوره فى هذا المجال وقد اخرج حتى الآن عددا من المجموعات التى تضم الوف المصطلحات ·

« معاجم مختلفة »

ولعلنا نذكر كذلك عددا من المعاجم كان لها اثرها فى تذليل الصعاب مثل معجم شرف للمصطلحات الطبية والعلمية ومعجم المعلوف للحيوان ومعجم عيسى للنبات ومعجم الالفاظ الزراعية للامير مصطفى الشهاوى ثم معجم المصطلحات العلمية والفنية الذى يضم نحوا من خمسة وثلاثين الف مصطلح فى العلوم الميكانيكية والهندسة والرياضة والطيران والبحرية وما اليها ·

وهناك المعجم العسكرى الموحد الذى اشرفت على اصداره جامعة الدول العربية ويضم نحو ثمانين الف مصطلح ·

ولعله قد آن الاوان لتنسيق هذه الجهود جميعا والعمل على اصدار معجم علمى عربى موحد وهو ما أوصت به المؤتمرات العلمية العربية المختلفة وكذلك العمل على اصدار دورية علمية عربية تكون مدرسة لكبار المتخصصين لنشر الثقافة العلمية الرفيعة والموضوعات العلمية المتخصصة الدقيقة·

« خاتمة »

وخلاصة القول ان اللغة العربية قد اثبتت قدرتها على التعبير العلمى وعلى نقل المصطلحات العلمية الدقيقة اليها وانها قادرة على ملاحقة التقدم العلمى فى مختلف مجالاته لولا هذا التعويق الذى يأتى عن طريق نفر من ابنائها ولا يصبرون على ادائها يستسهلون استعمال اللغات الاجنبية فيظن شبابنا ان هذه العلوم مستوردة من الخارج مع انها بضاعتنا ترداليا ومع اننا نحن العرب أهل اصالة واثالة فيها ·

ومن الحق ان نقول ان التعليم فى كل بلاد العالم باللغات العربية لتلك البلاد ، فيما عدا قلة ضئيلة تلك التى تعددت فيها اللغات الاقليمية او التى خضعت للاستعمار الاجنبى ردحا طويلا ، فاضطرت لاتخاذ لغة المستعمر لغة رسمية وتعليمية لها ·

ونحن فى وطننا العربى لا نستطيع ان نحقق ديمقراطية التعليم ما لم يكن باللغة القومية ولست ادرى لماذا لم تكن العربية هى لغة التدريس فى الجامعات العربية ؟ فلماذا يتعين ان تكون الانجليزية او الفرنسية ؟ ان استعمال اللغة العربية فى التعليم الجامعى انما هو وسيلة اكيدة للابداع العلمى وربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى الثقافى والعلمى للامة العربية ومنع

الانفصال بين التفكير والتعمير ولامـــراء فى ان الدعوة الى بناء المجتمع العربى تبقى ناقصة اذا اغفلت التركيز على اللغة العربية باعتبارها المقوم الرئيسى للوجود العـــربى وليس معنى اتخـاذ العربية لغة للتدريس فى الجامعات والمعاهد عدم العناية باللغات الاجنبية بل على النقيض ان ذلك ادعى بمضاعفة الجهد فى سبيل تقوية الطلاب فى اللغات الاجنبية وذلك لمتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية بلغاتها الاصلية ·

واذا كان قد غدا من العسير ملاحقة التقـدم العلمى الهائل حيث ينشر اكثر من مليونين مــن البحوث العلمية المبتكرة سنويا فى اربعين لغـة فلا اقل من ملاحقة ما ينشـر باللغات الاجنبية الاكـثر شيوعا كالانجليزية والفرنسية والروسية والالمانية الى جانب الوف الكـتب العلمية التى تنشر بهذه اللغات ، وانما يكون ذلك بتقليد مـا فعله الرشيد والمأمون من انشاء ديوان للترجمـة فى بيت الحكمة فى العصر الذهبى للحركة العلمية فى العصر الاسلامى ·

والآن وقد ثبتت قدرة اللغـة العـربية على التعبير العلمى فحبذا ان يوصى مؤتمرنا بالآتى :

١) لان تكـون العـربية لغـة التدريس فى جميع الجامعات والمعاهد العربية ·

٢) الاسراع فى اصدار معجم علمى عربى موحد·

٣) انشاء ديـوان للترجمة تحشد له ارقـى الكفايات العلمية لنقل البحوث والكتب العلمية الى اللغة العربية ·

٤) تاكيد العناية بتدريس اللغة العربية واللغات الاجنبية فى المدارس والجامعات والمعاهد ·

وبعد ، فانه مما يشـرف جيلنا ان ننفى عن العربية تهمة الجمود والقصور وان نجعلها لغة العلم كما فعل اسلافنا فى الزمن الماضى ، حين جعلوا منها لغة للنشر العلمى العالمى وعنها نقل أهل اوروبا علوم العرب وفنونهم ·· ولولا هذه الاغفاءة التى طالت بضعة قرون لكان الحال غير الحال ، ولا ستمر قصب السبق فى ايدينا ، نـدل به على من نشاء ، وحا نحن ننضو ثوب الخمول ونركض نحو المجد وثبا نريد ان نستعيد مجـد السلف وان نلحق بالركب ونشارك فى بناء صرح المدنية والحضارة ونحن الائى أسسنا بناءه واقنا دعائمه فى سالف الازمان ، وتمد نـهر المعرفة برافد من أعذب روافده واغزرها مادة وأسلسها اسلوبا وافصحها بيانا ، انها معرفة علمية صيغت بلغة الضاد يقرؤها مائة مليون من الانفس هـم قطان الوطن العربى نريد لهم وحدة قوية عزيزة ، محاطة بسياج من العلم ، سداها العلم ولحمتها العلم ولغتها العربية الفصحى ·

والله ولى التوفيق والسلام ···

من محاضرة للدكتور سعيد شيبان فى ملتقى الفكر الاسلامى بوهران 1971

.... فالذين ينتقدون التعريب في العلوم والفنون يقولون مخلصين أو مخادعين ، أن مستوانا العلمي والتقني سينحط ان عربنا التعليم العالي ، بعدما عربنا جزءا من التعليم الثانوي في العلوم والتكنولوجيا ، ولكن في الحقيقة ان أردنا أن تكون اللغة العربية ، يتكلم بها الشعب العربي ، واللغة رمز للسيادة القومية، فيجب ان يكون التعريب العام تابعا لمستوى عال، مستوى التعريب العالي ، فيكون التعريب في القمة ، وهكذا يكون التعريب فى أسمى معانيه وفى أعلى مقاصده ، يكون ضمانا لمستوى اللغة العربية عند العامة ، ولمستوى اللغة العربية في المدارس الثانوية ، وكذلك نكون متصلين بالتيار العالمي في الرقي العلمي والتمدن ، ففي الجامعة تنقل العلوم من جميع البلدان وتعرب تعريبا واعيا ، والمزية الثانية للتعريب الجامعي هي أكبر بكثير للمستقبل ، بالتعريب يتمكن الطالب الجزائري العربي من الابتكار ، هذه نقطة ثانية هامة جدا ، لا بد أن نلاحظها ونركز عليها الذهن بالاخص أمامكم ايها الشباب ، والشباب أساس الابتكار وسلاحه الاكبر ، سلاح الاكتشاف واساس الاختراع ، واساس النهضة الحقيقية ، النهضة العلمية والادبية والفنية ، فالابتكار والاختراع حسب نتائج الباحثين في هذا الميدان الهام ، من علم النفس والمنطق ، حسب العلماء الذين يدرسون هذا الجانب بصفة مستمرة في جميع البلدان المتقدمة لانهم يريدون ان يجعلوا الاختراع اختراعا يكاد يكون صناعيا ، يتمكن منه كثير من الناس لتكون الامة متقدمة دوما ، فيقول علماء النفس : ان للاختراع أنواع ، فمنه ما يأتي من تلاطم الافكار ، وهذا منهج يعرف بالانجليزية Brainstorming ويترجم بالعربية « الزوبعة الدماغية » ، فهذه الزوبعة الدماغية تخلقها بين أعضائها جماعة من الناس فهو مجهود للاختراع الجماعي ، ففي المصانع الحديثة في جل البلدان من الغرب والشرق ، في أكبر المعاهد العالية العالمية ، في المؤتمرات العلمية من الطراز العالي ، يأخذ هذا المنهج للانتاج الفكري حظا يزداد يوما بعد يوم من العناية ، فتستعملها الجماعات لخلق افكار جديدة ولتبتكر وتخترع.
فما هي هذه الطريقة ؟...

أن نكون أو لا نكون تلك هي المشكلة[1]



د. محمد عزيز الحبابي
مستشار في البحث العلمي
بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي

في المؤتمرات السابقة ، عرضت ، على مسامعكم الموقرة ، تاملات عن « الانسان والتعبير » وعن « الانسان والرمزية » ، وعن « الانسان حيوان يتكلم » • سيرا على هذه السنة ، أتقدم اليوم بتأملات أخرى ، من نفس النوع ، شاكرا لكم مسبقا ، الملاحظات التي ستتفضلون بها •

1) نص محاضرة ألقيت بمجمع اللغة العربية في دورة 1973

ينطلق هذا العرض من أرضية تتصل مباشرة بأوضاع اللغة العربية بالتجارب التي يعانيهـا المتكلمون والكاتبون ، وبما تعانيه هي بدورها منهم · انى،قبليا متيقن من تسامحكم عما قد يجده البعض من تطرف فى النقد الذاتي الذى تتسم به هذه الصفحات · فاذا كان الهدف صالحا ، سهل تجاوز شكلية الوسائل ·

والتوفيق من الله ·

* * *

أيها السادة الخالدون ·

عنوان هذا العرض شكسبيرى ، وقد أتى كذلك عن عمد وسبق اصرار ، لان وضع لغتنا وضـع درامـى ·

أكدنا ، فى الموضوعات السابقة ، ان اللغـة تعكس الوجدان والفكر ، وانها أيضا من صميم الجسد لكونها حركات لا تتصل بالاجهزة الصوتية وحسب ، بل تحرك شخص المتكلم بكليته وتتفاعل معه·اما نوعية التفاعل والانفعال فهى التى تميز اساليب الكلام بعضها عن بعض ، من فرد لآخر ، ومن طبقة لاخرى · فمثلا ، نحن هنا نستعمـل جميعا نفس اللغة ، ولكننا نتكلم مختلفين · لا أقصد اختلاف اللهجات ، ولكن اختلاف الثقافات، ولبيانه كما يتجلى فى اختيار الالفاظ والصيـغ التركيبية والمحتوى ، حسب المحيط التربوى لكل واحد منا · فقد لا تستغربون منى استعمـال اصطلاحات ك«فكرلوجيا» (للدلالـة عما اشتهر اليوم بـ«ايديولوجية») وك«ذوت الأمر» (نسبة الى ذات ، فى مقابل موضوع) ·

ولكن هذه الالفاظ لا محالة تفاجئكم كثيرا لـو استعملها ، مثلا ، استـاذ كبـير من المحافظـين (من اسرة) الاتباعية الكلاسيكية · فالمتحدث يخضع للمحيط المعشرى الذى عاش فيه ، والمحيط المكتسب الذى يعيش فيه ، (نقابـة ، ومعمـل ، وشوارع) اذ لكل مناخ لغوى نكهة اقليمية وطبقية: تعابير المثقفين ليست تعبير الاميين ، عمـالا وفلاحين · ونحن هنا لا نعطى تقييما ولا نفضل هذا الاسلوب أو ذاك ، وانما نكتفى بملاحظـة واقع محسوس فقد يكون كلام فلاح ما أكثـر دقة واقل حشوا من كلام كثير من الجامعيـين والصحافيين · وذلك انالكلام صدى خاص للحياة، أى اسلوب شخصى لكل متكلم · وتتعدد الاساليب اللغوية بتعدد المتكلمين ، فى اللسان الواحد ·

* * *

للكلام وظيفتان : اسبهام اعلامى « موضوعى »، وتواصل ذاتى يحمل رنات وجدانية وفكريـة وثقافية · فالحديث تعرية للمتحدث : « تكلموا تعرفوا » · ان الاناقة فى التعبير ، كالاناقـة فى اللباس، اشارات الى ما لا يظهر عيانا · فبقطع النظر عن قوة أو ضعف التمكن من المعرفة اللغوية فى حد ذاتها ، يمكن أن نتبين عدة مستويات فى

التحدث٠فالمستعرب الذى يحتاج الى مترجم اذا شاء اقتناء تذكار من (خان الخليلى) ينال اعجاب الفيلولوجيين المرموقين عند ما يحدثهم عـن معانى « اذ » وعن وجوه استعمال « اما » فى العربيـة الفصحى ٠

اذن ، هنـاك مستوى الادراك الحسى ، (أى المعرفة المباشرة عن طريق الحواس ، وهو مستوى الملاحظة والتقاط الانطباعات) وهناك مستـوى نهم ما تحمله الدلالات وما يكتسبه الكلام حسب لمحيط المجتمعى ، حيث « لكل مقام مقال » ٠ فهذا لمستوى الاخير يخضع لعادات ولاعراف اصطلاحية (كلمات حب ، وخمر ، وفناء ، عند ابن الفارض، لا تدل على نفس المعانى فى قصص احسان عبـد القدوس ، مثلا) ٠

* * *

ـ ماذا نود قوله ؟

نريد ان نؤكد (خلافا للنظرية الفلسفيـة المثالية) انه لا يمكن التفكير ان يستقـل عن الجسد وعن المجتمع ، هذا أولا ٠ ثانيا ، ان اللغة والجسد والفكر أقانيم متلاحمة فى كينونة كـل شخص سوى ٠

فالتفكير السليم لا يحصل الا باللغة السليمة والجسد السوى ٠ ان الفكر يسير الجسـد وان اللغة ، بوصفها كيانا للفكر وطرقه وقوالبه ، لا تنفصل عن حياة الجسد وتطور المجتمع ٠لـذا ، يجوز القول بأن وهن الاجساد ينعكس فى التفكير السقيم ٠ فما اعطت قط أمة جائعة خائرة القوى تفكيرا خصبـا ٠

نتيجة لذلك ، ان تجربة التأمل تؤكد ان فصل المعنويات عن الماديات ، أى فصل « الروح » عن الجسد ، ثنائية مثالية تخالف الواقع ، وتفسـد على الناس الالتزام التاريخى الـذى تفرضـه الحياة ٠

جاء فى القرآن (الذاريات الآية 23) : « فورب السماء والارض انه لحق ، مثل ما أنكم تنطقون » هناك معادلة بين **حقيقة الواقع** وبـين **النطق** ، فكما لا يمكن نكران ما هو واضح وبديهى ، مثل غريزة الكلام فى الانسان ، لا يمكن نكـران الظاهرات الكونية ، بل يجب ان لا يراودنا ريب فى حقيقة وجود الارض وفى ما بها من آيـات ٠

اللغة نوع خاص بين الغرائز : انهـا صنف وحيد نوعه ، أى « جوهر محايد » ، كما سميناه فى مكان آخر (1) ٠ فقوام اللغة ليس فقط معانى (مجال الفكر)، وليس مجرد مقاطيع صوتيـة (مجال الجسد) ، ولكنه مزيج خاص يستلزم وجود الكائن الكل ، أى وجود تكامل مصاغ فى وحـدة منسجمة ، هى الشخص ، فكما لا أضع وجودى الشخصى محل تساؤل (ما عدى فى الشك المنهجى المؤقت ، كما عند ديكارت) لا استطيع ان انـكر الكيان اللغوى لاى شخص ٠

«٠٠٠ وفى الارض آيات للموقنين ، وفـى انفسكم أفـلا تبصرون ؟ وفى السماء رزقـكم

1) محاضرات الفكر الاسلامى (الملتقى الخامس ، ص 100 ، الجزائر ، 1972)

وما توعدون • فورب السماء والارض انه لحـق مثل ما أنكم تنطقون » •

يؤكد القرآن المعادلة بين تلك الحقيقة وبـين التكلم ، بالقسم وبلام التأكيد • فالكلام فـي نفس الدرجة من الواقع التى تتبوأها الظاهـرات الكونية فى سلم البديهيات المعاشة • فهو ليس طبيعيا فى الكيان البشرى وحسب ، بل انه من « جوهر » حقيقتنا ومن « حقيقة » واقعنـا ، لا نستطيع ان نجادل فى ذلك او نمارى • ان اللغة قوام الفكر والتخاطب ، فلا مجال للفكر خارج الكلام •

ـ البيضة أم الدجاجة ؟

اللغة والانسـان « يتـذاوتان » ونعـنى بـ « التذاوت » ان علاقة اللغة بالانسان ليست ذاتية ، وليست موضوعية : اللغة تصنع الكائن البشرى وتشخصه وهى ، من جهتها ، صنيعـته وصنعته أى أنه لا فراق بينهما ، هذه وليـدة ذلك ، وهذا وليد تلك • (2)

نعم ، ولادة ، بل توالد ، ولكن لا نستطيع ان نعرف من هو الاسبق • نحن أمام الام التى تلدها ابنتها ، أو بالاحرى ، اننا نجهل من هى الام ومن هى البنت : فالمفارقة فى كون البنت أم والدتها وطفلة لها ، فى نفس الآن • لذا كثيرا ما انمحت اللغة باندثار قومها (اللغات الميتة) ، كما اندثرت شعوب باندثار لغاتها • فأنى للمؤرخين ان يعلموا من منها علة موت الاخرى !

ان انبعاث الامم يكون باللغة ، واللغات تنهض بنهضة الامم • ولنضرب مثلا على ذلك : توقفت العبرية عن الحركة وبقيت فى اسبات شبيه بموت أبدى ، وذلك منذ بداية التشرد • وها هى اليوم قد انتعشت واصبحت لغة التدريس والمعاملات اليومية ، لغة أدب وعلم ، لان اصحابها نهضوا ، وها هم يتقدمون لان لهم لغة تماشى التقدم• تلك تجربة تسلتزم الكثير من الامعان عالم العروبـة وهو يبحث عن نهضة حق ، وعن تفاعل قويم مع التاريخ الحـديث •

* * *

اذا كان وضع اللغة من الانسان هو كذلـك ، فهل من الصواب ان تنصب كل اهتمامات مسؤولى الدول العربية على القطاعات الاقتصادية والدفاعية ليجعلوها قطاعات فى مستوى التصنيع الكبـير أو نفاثات الميراج ، وبـ 52 ••• ، فى حين يتركون اللسان العربى فى مستوى الحرف اليدويـة والصناعات التقليدية ، وحروب السيف والرماح؟

هذا سؤال اول ، وانه لمذهل لو فحصنـاه بالقدر الكافى ، وانتصرنا للموضوعية عـلى العاطفـة •••

2) « التذاوت » مقولة فى نظرنا لا تقل واقعية عن سواها ، مثل الفعل والانفعال والاضافة

ان نوعية علاقات الاحـــداث والظاهـــرات الوجدانية والطبيعية هي التى تحدد نوعية ارتباط التاريخ بالتأريخ • (3)

عندما اتحدث ، من المتحدث ؟ كل كلام هـو عمليا ، محادثة عن احداث • الحديث ولغة الحديث لا يفترقان ، كما ان المتحدث والمتحدث معهـم ينتسبون لتاريخية l'historicité (4) واحـدة موحدة (بكسر الحاء) • فعندما أتحـــدث ، ان العالم الذى احمل معى هو الذى يتحدث • فنحن هنا ، على مستوى التذاوت • ففقر اللغة ينبىء عن تقلص مادى ومعنوى على اختلاف الآفـــاق ، كما ان حيوية اللغة تعكس دينامية حضرية •

* * *

مفارقة ؟ ان الكائنات الحية الاشجار والاحجار كلها معطيات طبيعية ، ولكن تسميتها من ابداع الانسان • ومع ذلك ان اللغة لغـــز ، فليست مقاطع صوتية ، وليست الفاظا ، بل نسق بديع انها جهاز مركز فى وجدان الافراد والجماعات ويتصل بأشياء وكائنات الطبيعة • اذن : اللغة ذات وموضوع فى آن وتفاعل مستمرين • وبالاضافة الى ذلك ، وبمعية ذلك ، بل وفوق ذلك ، انهـا فى تذاوت مع المتكلم : لا كلام بدون نطق ، ولا ناطق دون لغة • النتيجة هى ان اللغة معاناة الانسان لأصالته ، فيها وبها يمارس انسانيته • اللغة جهاز طبيعى بشرى بلا سحر ، وبلا قدسية• اللغة هى الحيز الذى يقع فيه الوعى بالاحداث •

* * *

بعد ما سبق ، يجب التساؤل عن اللغة العربية فى علاقاتها بالانسية المعاصرة l'humanisme على اختلاف الصراعات والظاهرات •

ان الامة العربية جائعة ، ومريضة ، وجاهلة • فلا غرابة ان تكون لغتها مفككة العضلات هزيلة ، وضبابية فى التعبير •

فهل اللغة هى المسؤولة عن أوضاع العرب ، أم العرب هم المسؤولون عن تخلف لغتهم ؟

نحن هنا امام مشكل شبيـــه بالبيزنطينيات (على الاقل من حيث وضعه الصورى) : هـــل البيضة ولدت الدجاجة ، أم الدجاجـة هى التى اعطت البيضة ؟ رغم المعنى القدحى الذى يصاحب « البزنطينية » والسفسطائية ، لا بد من الاعتراف بأن فى الحياة مواقف حاسمة لا نستطيع ان نفرق فيها بين ما هو علة وما هو معلول • هناك تذاوت اى ان شيئا من «الموضوع ــ السبب وشيئا مـن

3) هناك فرق بين **التاريخ** l'histoire **والتاريخ** l'histoire
فالمفهوم الاول يدل على :

أ ــ مجموع الاحوال المتغيرة التى يمر بها كائن من الكائنات الحية او العالم ، مثلا : لكل انسان تاريخ (سجل أو لم يسجل) كما ان هناك تاريخ الارض وتاريخ الطب .

ب ــ تطلق هذه اللفظة على الاحداث والاحوال الخاصة التى تمر بها المتجمعات البشرية فى تطوراتها
المفهوم الثانى (تاريخ) : مصدر من أرخ ، اى دون أحداثا تاريخية

4) l'historicité التاريخية : تاريخ الوجود البشرى ، اى ابراز مميزات علاقة الانسان بالتاريخ

أ ــ فى المعنى الابستمولوجى : خاصية كائن ما من حيث اتصاله بواقعه التاريخى
ب ــ عند الوجوديين : تدل اللفظة على وضعنا كموجودين يدفعنا الوجود الى استخدام حريتنا فى نزوع نحو المستقبل

الموضوع ـ المسبب» تداخلا ، بحيث بقيت الحدود دون تحديد، ٠ لذلك يمكن القول بان الدجاجة ذات (اى فاعل) والبيضة موضوع (اى نتيجة لها) كما يمكن ان نقول العكس ٠

* * *

فلنعد الى السؤال عن تخلفنا ٠

اذا سلمنا بالثالوث الذى عملنا عـــلى ابرازه (الجسد ـ اللغة ـ التفكير) كان الجواب هو ان المسؤولية مشتركة ٠ فلغة شبه ميتة تعكس شعوبا متخلفة والتخلف الاقتصادى والثقافى يقضى على اللغات بالسكون وبلبلة رتيبة ٠

طغت الدارجات على الاذاعات والاغانى والافلام وحتى على الدروس الجامعية ، أحيانا ٠ طغـــت الدارجات المحلية فأصبحت اللغة العربية الحــق لغة الابراج العاجية ٠ انها « لغة فصحى » ، وقفا على قلة القلة من النخبة ، تستعمل فى محافـــل خاصة ٠ وعند ما ينزل من البرج العاجى احـــد المتقنين لـ« الفصحى » ويضع رجليه على عتبـــة سيارته ، يخاطب السائق بالدارجة ٠٠٠

وما أدراكم ما الدارجة ؟ خليط من تعابير عربية محرفة ، والفاظ اعجمية مشوهة ٠

* * *

ـ اننا أمة بدون لغة :

سنبقى فى وضعنا الغريب المفجع ، ما دامت لغة مجامع اللغة والجامعات تقترب من لغة القاموس المحيط أكثر منها من لغة الخباز والجزار ، ودونما علاقة بالمطبخ وغرفة النوم ، والازقة ، أى مـــن الحياة فى مدها وجزرها ، من التاريخ اليومى الذى نعانيه ، نصنعه ويصنعنا ٠

لقد كثرت المعارك الكلامية حول صلاحية أو عدم صلاحية اللغة العربية لتدريس العلـــوم الحديثة ٠ هناك النافى ، وهناك المرتاب ، وهناك الحائر ٠ وانه لمشكل خاطىء لو تدبرنا الامر على اعتبار الواقع الموضوعى لا عـــلى الاوهام التى تعشعش فى ذهنة السواد الاعظم ٠

للغة العربية قابلية تدريس كل العلوم والفنون ولكنها تظهر قصورا وتقصيرا فى الحياة العادية ٠

فالخوارزمى ، والبيرونى ، وابن النفيس والرازى والادريسى ٠٠٠ ألفوا بالعربية ، وتعد تآليفهـم علمية ، بل مراجع فى بابها وحجة على ما وصل اليه البحث فى عهدهم ٠ فاللغة لم تعقهم عن ان يصلوا الى القمة المعرفية ويكونوا أساتذة عباقرة عالميين ٠ لغة العلوم ليست هى العقبـــة الاولى والكبرى ٠

لقد اقامت العربية الحجة على قدرتها فى نشر المعرفة بكل أنواعها ، من الحرف والصنائع ، الى الفلك والرياضيات والفلسفة والطب والالعـاب الفكرية،كالشطرنج٠ان المشكل فى العوائق التى ورثتها عن عصور غابرة ، ولما يهتد او لما يتشجع المحدثون لصارعتها بجدية المكافح وموضوعيـــة الباحث ٠ حقا ، لغتنا تتطور ، ولكن ببطىء يبقيها دون ما جريات الحياة المتسارعة ٠ اللغة العربية لم تعد تتداوت مع التاريخ الجارف ، فبينها وبين صراعات الواقع تفاوت كبير ، لا تزيـده الايام الا شدة وعمقا ٠

ان مصير العرب فى شدق الغول الذى يفترس أوقاتنا ، ويتحول أحيانا الى سلحفاة تتربع فوق الادمغة ، وأحيانا الى حلزون ديق فوق الالسنة انه الضفدع المهرج ابدا (ضوضاء ولا ابداع) ليس ذلكم الغول المارد ذو الرؤوس العديدة الا لهجاتنا الكثيرة ! لقد تفرقت أمتنا فى اللسان لهجات ، وتفرقت كل لهجة دارجات ، حتى أصبح لكل شعب عربى لهجات ودارجات ، ولكن مجموع الامة لا لغة تجمعه ، لغة يتكلم بها الجميع ، ويكتب بها الجميع ويقرأها الجميع ٠

فى صالون (الجوبرى) ٠

يسألنى التونسى : كيف نك ؟

ويطلب منى المصرى : انت عاوز أرب الكوبر خذ طاكس اجرة جيز ٠٠٠ باردو افندم ؟

ويظهر على عدم الفهم ، فيصيح الجزائرى :

روح دروك ، راه مخلوقة تزق عليك ٠

ويضيف المصرى :

أى خدم يا بيه !

وأجيب ، أنا المغربى

ما بغيت حتا حج ٠

قد يسترسل حوار الاخوة العرب على هذا النمط ، بدارجات لا نسب لها ، ولا حسب ، ولا عرض ٠٠٠ وكأنهم صم — بكم ٠

اننا أمة جد غنية بالعاميات ، ومفتقرة الى لسان جامع ٠

نخلص من هذا الى وجوب اعادة النظر فى المفاهيم التى نكونها عن الانسان وعن اللغة ٠ لقد لاحظ المرحوم أحمد أمين أننا : « نعلم التلميذ والطالب فى المدرسة والجامعة قرابة اثنىعشر عاما ثم لا يستطيع بعد ذلك ان يقوم لسانه ، وهذه هى العقبة الكبرى التى تقف امامنا الآن اذا اردنا ان نعمم التعليم بين طبقات الشعب ، من فلاحين وعمال » (5) ٠ يلاحظ د٠احمد امين اخفاق طرق التعليم عندنا ، وصرح منذ ربع قرن ، وقد لاحظ ذلك قبله عبد الرحمن ابن خلدون، وعرضته **المقدمة** بوضوح ٠

ومرت ستة قرون على النقد الخلدونى وما زلنا نجتر الخيبة خانعين ٠ لا ينقصنا الدارسون الذين يبحثون اللغة من حيث كنهها وخصائصها وتطوراتها ٠ فهؤلاء كثيرون ، ولكن ، كما يؤكده د ٠ ابراهيم أنيس ، ان أبحاثهم ، بتفاصيلها واسهابها : « تبقى جهودا مقصورة أو محصورة فى مجال ضيق من الدارسين المتخصصين فى اللغات بالكليات والمعاهد وينتقل سيادة ذ ٠ د ٠ الى ابراز مدى الاثر العميق للغة فى عقول الناس ونفوسهم ، والى « مدى استمساك الشعوب بلغاتهم ، واستعدادهم للتضحية فى سبيلها بالانفس والارواح » (6) ٠ من ذلك « المشاكل التى لا تنتهى بين شعوب الارض » ٠ (7)

---

5) محضر جلسات المؤتمر 14 لمجمع اللغة العربية (1948) ، ص 472

6) **اللغة بين القومية والعامية** ، القاهرة ، دار المعارف ، 1970 ، ص 5

7) انظر : الفصل الرابع نفس المرجع : « فتش عن اللغة » من ص 113 الى 147

خيبة العروبة ، انه لا اصداء بين مشاعـــر المتأدبين الواعين والكافة المنتجة • فالتفاعل بين الطبقتين سطحي وغامض • هذه في جزيرة مهددة دوما بالفيضانات ، والاخرى محصنة (أو محاصرة) في بروج مغلقة • فلن نستحدث لانفسنا وسائل التجميع والتآلف والتناغم اذا لم نزح من طريق العربية الفصحى الموانع التي تعوقها عن ان تكون لغة شعبية •

ان خطورة هذا الوضع لا تعادلها أية كارثــة : شعوبنا تعيش فراغا ذهنيا ووجدانيا،لانها تعاني استلابا لغويا هو افظع من نكبة الفيضان أو الحريق فالنجدة تنظم للغارقين،ويوجد علاج للمحروقين، لكن لا دواء لصدمات اليأس والحرمان اذا استأثرت بوجدان العامة حيث تجد قلوبا خالية فتتمكن • **هواء ، ولغة ، واختناق** • يتحمــل المرء الجــوع والعطش لضرورة أو عن ارادة (كالصوم التعبدي والاضراب عن الطعام احتجاجا) لكن لا حياة ، ولو مؤقتا ، دون هواء ودون لغة •

* * *

هذه الصفحات لا تدعو الى حــذف اللهجات والعاميات ، وانما تود ان يقع تقارب اكثر ما يمكن بينها وبين الفصحى ، وذلك بالعمل على التوحيد والتسهيل لتصبح الفصحى أداة تعامل شامــل في كل مرافق الحيـــاة اليومية ، يشتــرك في استعمالها الخاصة والعامة •

فالقضية ليست كما يقول د• احمد امــين ، في « العقبة التي تقوم أمامنا الآن » ، بـــل في محافظتنا على العقبة ، التي ورثناها عن عصور الانحطاط ، ولا نعمل كل ما يجب • وبالشكــل الذي يجب ، على تسطيحها وتعبيد رسائــل • العقبة لا « تقف امامنا الآن » بل **أقيمت و منــذ زمــــان •••**

ليس هناك ابهام يصعب استجلاؤه • فبين نية الاصلاح (أو الانقاذ) وبين ما نحققه عمليا بون شاسع • وهذا مظهر آخر من مظاهر التخلف •

يخيل لنا انه لم يستقر المسؤولون بعد على خطة قاطعة • فكثيرهم الذين طالبوا بتيسير اللغة الفصحى لتعود لها شعبيتها ، وبالتالي صلاحيتها• فالقوات التي تكبح التطور ، ولو بخطوة متواضعة ما تزال تصول وتجول وتردع وتعوق كل تفتح• لقد التزم القوم بمهمة واحدة : ان يرغموا العربية على ان تقتنع بالتعبير عن دنيا الفكر والعلم والفن، دون باقي ميادين الحياة ، أي أن تقتنع بان لا تكون الا لغة المصطلحات ، يتداولها الاختصاصيـــــون وحدهم • فطبيعي ان ينفصم اللسان العربي الى لغة فصحى يستعملها الخاصة (في حالات خاصة) والى عاميات يستعملها الكافة والخاصة ، **معا ، وفي كل الحـالات** ، الا ما نــدر •

لقد بلغ اليوم مدى هذا الانفصام حدا خطيرا ، اذ الفصحى تختص بالعبادات وببعض ما يكتب ، أما الدارجات فتستولي على التخاطب ، بكل أنواعه مما يجعل التعامل مذبذبا ، كثير الالتباس ، لان الدارجات لا تتوفر على اللوينات التعبيرية في كل المستويات • هناك ، اذن ، شقة خلاف بين لغــة

الكتابة والعبادة ولغة كل الناس ، فى كـــل الاوقات ٠

ومن الاخطار على الفصحى فى وضعها الحالى ، ان لكل دارجة شعراء قصائد (الملحون) ومسرحيين وسينمائيين ، مما يهددها على صعيد الكتابة ، فى الميدان الادبى ــ الفنى ٠ فاللاتينية بقيت لغـــة الكنيسة ولغة الكتابة الى ان ظهرت آثار أدبيــة بالدارجات المتفرعة عنها ٠ فأول مؤلف فلسفى لم يصدر باللاتينية ، هو « حــديث المنهـــج » لـ (رونى ديكارت) سنة 1636 ، الذى كتـب باللغة الفرنسية ، وقد صدرت قبله « الكوميديا الالهية » لـ (اليغى دانتيه) الاطـالى فى (القرن الرابـــع عشر) و « دون كيشوط للاسبـــانى « سيرفانطيس » فى اوائل القرن 17 ٠ بمثل هذه الروائع ، تحولت تلك اللهجات الى لغات قومية تفرض نفسها واضحت مسامير فى نعش اللاتينية ٠

فلنحذر ، اذن ، المحبة التى تحتضن الحبيب أكثر من اللازم فتقتله ! ٠٠

* * *

لا ندعى ان وجود العاميات فى العربية بدع فى تاريخ وتطور اللغات ٠ لكنا نؤكد ان الفصحى ارث فخم ، بيد انه ، وياللاسف ! محظــور عــلى الورثة الشرعيين حق التصرف فاستنادا على أى قانون عقلى أو وضعى يحرم على الاحفاد حق المتعة بما ترك الاجداد ؟

فلا مبرر معقول لهذا التحجير وتلك الحضانــة ٠ فحفاظا على الفصحى ، يجب ان « ندرجها » ، دون اطاحة بالبنيات ، فتقويض أركان اللسان العربى جريمة ، كما يعد جريمة تجميدها والالقاء بهــا فى الاخطار القاتلة ٠

« نفصح » الدارجات ، بتيسير كلما جــاز التيسير فلا يكفى ان نستبدل « مبتدأ وخبر » بـ « مسند اليه ومسند » بل الامر الملحاح هــو حل مشكل « نون النسوة » ، و « العدد ، والممنوع من الصرف ، وحروف العلة فى الفعل الاجوف ، مع تسهيل قضية الاعراب ، وتوحيد الخطوط ، ووضع الحركات على الحروف وتحت الحروف » ، الى غير ذلك من المشاكل التى راجت منذ أيام زمان وما زالت تروج دون حلول حاسمة ، ولا يدرى ، أحد متى ستصل الى الانقاذ (8) فالشباب يفتن بالاغنية الحديثة الدارجة ، وبالفلــم العامى ، وبالقصة الغرامية العامية ٠ الشقة تتعمق واننا لنقترب من الحافة ، من الطلاق البائن بين الفصحى والدارجات ولا أحد يستطيع ان يعارض تيـــار الحياة الجارف بعنف الرفض اللفظى وباللعنات ففى طبيعة العاميات الغزو السريع والمباغتات ٠ فهل من مخرج قبل ان يفوت الاوان ، والى الابد ؟

المسابقة مفتوحة ، والعاقبة للمجدين ٠ حقا ، الانتصار لن يكون سهلا ، ولكن على قدر أهــــل العزم تأتى العزائم ٠

8) انظر : د . محمد كامل حسين ، « النحو المعقول » ، مجلة **مجمع اللغة العربية** ، ج 27 (1971) القاهـرة ، الهيأة العامة لشؤون المطابع الاميرية . ان فى هذا البحث ما يشفى غليل كل الغيورين وينير طرق الاصلاح بمنهج « معقول »

لقد وضع المشكل بكثير من الدقة ذ • محمد فريد أبو حديد ، هنا بهذا المجمع الموقر ، في 3 أسئلـــة :

1 ـ ألا يمكن ان نقبل في الفصحى غير مـا يصح في لغة قريش ؟

2 ـ هل نجعل الاصل هو منع ما لم يستعمل في الفصحى من قبل ، أو نجعل الاصل اجازة كل ما يمكن اجازته ، ما دام قائما في لغة الحياة ؟

3 ـ ألا يمكن ان نتجرد من التحيز الى أساليب القدماء في الكتابة والتعبير اذا كانت لا تعبـــر حقا عن احساساتنا وتفكيرنا ؟)9(•

ـ العربية لغة التجديد ، لغة الثورة :

أتى الاسلام بثورة شاملة . وكانت معجزتـه اللغة ، ولا نعني بالاعجاز عـــدم مقدرة فصحاء الجاهلية على ان يأتوا بمثل آيات القرآن ، ولـــو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، بل نقصد ان المعجزة المحمدية في كون الاسلام استطاع ان يكيف بـين الاقوال والافعال،وان يتلاحم آمال القبائل العربية، مع نماذج بنسبة شمولية • جاء بلسان عـربي **مبين ، أي مفهوم من الجميع . لسانا شعبيا موحدا** موحدا • فبعد ان كانت العربية لهجات بدويـة قبيلية ، قسرت الى لغة تصنع تاريخا مجتمـــا عاما ، هو تشريع ، وفن وعلم • يتجاوز حـدود العروبة •

فواجب المسلمين الثوريين (والمسلم الحقيقي ثوري بطبيعة مبادئه) ، وواجب العرب (مسيحيين واسلاميين) ان يفتحوا المجال للسان العــربي ليعبر عن مقتضيات الساعة •

وسيتحقق ذلك عندما يتيقن ان أي لســـان لا يكون مبينا ومعبرا حقا الا عندما يصبح **شعبيا•** فالعلوم والتقنيات مكتسبات شعبية ، لان التاريخ البشري تصنعه الشعوب •

كان مجيىء الاسلام ثورة خلقت معها لغتها • فلا نعثر في الجاهلية على فكرولوجيات عربية ، ولا نثرا فنيا يفي بحاجات التعبير المتفتح عـــلى الترجمة والتفلسف،والبحث في العلوم الطبيعية• واتى الاسلام ، فبدأت الثورة الجديدة في الذوق والذهن ، واندفع المجتمع الاسلامي يتفتح عـلى الترجمات ويحتك بالثقافات المختلفة ، فتقـوى المد الفكري والحضاري •

نترك الى المؤرخين ان يفسروا كيف تم للاسلام ان يأتي بثورة لم تهيئها لغة • انه مثل شاذ في التاريخ • لكن توحيد القبائل العربية في أمـة متفتحة على كل انماط التلاقح ومتوثبة الى النضج المعنوي والرقي الحضاري ، اتى معاصرا لتوحيد اللهجات المختلفة في لغة واحدة نموذجها القرآن •

تاريخيا ان الاسلام حدث ثوري ، جعل مـــن القرآن حدثا لغويا ثوريا ففي القرآن نظرة كونية جديدة . بالاضافة الى توحيد اخلاقي يتناسق مع

9) محاضر الجلسات ، الدورة 13 (1946 ـ 1947) من ص 236 ، الى 301 ، والدورة 14 (1947 ـ 1948) من ص 455 الى 467 ، والمناقشات من ص 468 الى 477



تشريع موضوعى مجتمعى تتمحور فيه العلاقات البشرية ، داخل اطار مقدس حول الله : ان الله رب الجميع ، بالتساوى ، فلا قدسية للاوثان ، أو القوى ، أو العصبيات ٠

كانت الفصحى ، فى صورتها الاولى «شعبية» والا لما فهم العرب القرآن الذى خاطب البرجوازية المكية ، من أصحاب الرحلات التجارية ، وبقية القريشيين ، كما خاطب مجموع القبائل ، على اختلاف طبقاتها ، فكان المستضعفون من فقراء وأرقاء ، هم اوائل المسلمين : « قالوا انؤمن لك واتبعك الارذلون ؟ » (١٥) ٠

وبعد طفرة التيار الحيوى الوحداوى ، تنبه المسلمون الى قيمة الكتابة وأثرها فى تركيز الدعوة القرآنية ، فحولوا الابجدية العربية اذ جعلوا نقطا فوق حروف واخرى تحت حروف ٠ وهذا تجديد جذرى تغلبوا به على الكتابة المنقوصة فقفزوا بالعربية الى رتبة لسان حضارة ، يهضم ثقافات الهند والاغريق ، وفارس ، بلا حرج ، مطبقا « أطلبوا العلم ولو بالصين » ٠

نعم ، تقبل اللسان العربى الترجمات الكثيرة واستساغها ، وخلق حولها مناقشات ، بلا ملل وكأنه يقول : « هل من مزيد ؟ » ٠

نقط على الحروف وأخرى تحت الحروف ! مثال على الشغف بالوضوح ، وعلى الشجاعة أعطاه أوائلنا ، فتركوا لنا حق الاجتهاد مفتوحا ٠ فالثورة التى تستوجبها ظروفنا هى ان نعمم وضع الحركات على المفردات ليتسنى تسهيل القراءة واعطاء الكلمات كيانها الكامل ٠ **لا بد من حد معقول لهيمنة الاسلوب الجاهلى المعاصر ، اذا كنانود ان نتغلب على التخلف بذهنية ثورية ، والثورة فى الفكر تمر بالثورة اللغوية ٠ انه تواز مطرد ٠**

* * *

يريد منا المتشبثون بالماضى فى كليته ، بخيره وشره ، يريدون منا ان لا نفكر الا بمقولات ذهنية وسيطية لم يعد يعتمدها الفكر الحديث فى دراسة الطبيعة والمجتمعات الحية ٠ لقد اكتشف المفكرون المعاصرون بعدا هاما فى الطبيعة البشرية ، هو البعد المأساتى المشترك بين جميع الافراد والشعوب لكن ، بينما الآخرون يصعدون الشعور بالمأساة ويجعلونه طاقة فى توتر خلاق ، لم نع نحن المأساة بعد ، على مداها الحقيقى ، وحتى الذين شعروا بها ، لا يحيونها الا على حدة ، وبحياد ، اما خوفا من مواجهتها مجتمعيا ، واما لانهم لم يجدوا وسائل دقيقة للتعبير عنها ، أو للسببين معا ٠ على كل حال ، الشعوب العربية لم تع بعد المأساة ، لذا ما تزال تتخدر ، فى الغدو والآصال بـ « ليلى يا عينى ٠٠٠ يا ليلى ٠٠٠ » ويطلع الفجر فيتساوى مع الغروب فى تفاهة المصير وعبث الايام الرتيبة ٠ وقديما قالوا بخرافة : « التاريخ يعيد نفسه » ، واليوم ، نحن العرب نعيش على هامش التاريخ ، نحيا فى تاريخ لا يفعل ولا ينفعل ولا

١٥) قرآن ، الشعراء آية ١١١

يعيد شيئا ، لانه دون حركة ودون نفس ودون نفس · ان مرجع هذه القطيعة بيننا والتاريخ ، هو انفصال النخبة عن الشعب ·

* * *

فلا يكفى ان ينتسب مثقف للشعب ليكون منه فالنخبة العربية ، مثلا ، تسيطر على الوساطات المؤثرة فى الرأى العام ، من مدرسة وصحافـة واذاعة وكتب وسينيما ، وغير ذلك من أصناف (Mass-mechia) · فماذا فعلت بها ؟ ان أمتنا فى أشد الحاجة الى بداغوجية منهجية جديدة , والى فلسفة اعلامية جديدة لكى نفهم بدقة القوانين التى تتحكم فى تطور المجتمعات البشرية · فالـذى ينطلق فى البحث بقبليات وبوثوقية ، عازما على ألا يغير شيئا ولا يقبل أية تضحية ، لن يتحرك من مكانه ، ان لم يرجع القهقرى · فبدون لغـة مبسطة ، نحوا وصرفا ، وكتابة ، أى لغة عامـة موحدة , لايمكن تأطير الجماهير ورفعها الى مستوى وعى الاوضاع · ولن تلعب اللغة (أية لغة) هذا الدور الا اذا خضعت لقانون التطور الذى يقضى بتكيف دائم قصد انسجام الفكر بالصيغ التعبيرية وانسجام الذوات بالاحداث والموضوعات المتجددة·

* * *

علينـــا ألا ىسى ان الحركات التى أطـاحت بالاحتلالات الاجنبية للوطن العـربى ، حركـات جماهرية ، وانه بمقاومتها حافظت على الكيـان التاريخى للامة العربية ، بما فيه اللغة · فلماذا تبعد النخبة الشعوب من مكتسباتها ؟

فبمجرد ما تفقد اللغة طابعها الشعبى تصاب بهبوط الضغط الحيوى · فالانتساب الى «الفصحى» ليس فى مستطاع الشعبيين ، لان منهج كتـاب سبويه وألفية ابن مالك والشمقمقية لا يفهمه الا الخاصة والذين يتوفرون على الكثير من الوقت · أيجوز ان يطالب من يريد الانتساب الى الفصحى ان يحفظ المعلقات والمقامات ؟ هذا ايضا ليس فى متناول الا القلة من الناس · (II)

انى استعمل لفظة « أنتساب » لان النخبـة نفسها فى غربة عن اللغة ، تعاملها كلغة ميتة ، اذ لا تسمح بأى تغيير · ان الاستقرار الدائم على حال واحدة من خاصيات الموتى : الموت وحده عدو التحول ·

لا بد من منهج علمى عملى يرمى الى الدقـة والايضاح والوضوح لنرقى بالعربية الى مستوى الواقع الشعبى الحى , فيتفتح لساننا على الاصالة دون تناقض مع دينامية التاريخ العام المعاش · بذلك المنهج ، يمكن أمتنا ان تجند مجموع طاقاتها الكمينة وامكانياتها الابتكارية والتطورية ، **تلبية لحاجات القطاعات الحياتية ، والا سنبقى على هامش التاريخ وصيرورته ، حفاظا على تخلف تعبر عنه لغة مكبوتة ومجمدة ، يتبرك برناتها الموسيقيـة بعض المحظوظـين** · لقد موضعـوها ، ونصبوها

(II) وحتى هؤلاء ، على قلتهم ، مطالبون بان يصارحوا ابن ما لك بان الالفية « أحاجى الا ان تجعل الطلاسم مقبولة عند بعض الناس ، وقد يعجب من يستهويهم هذا اللون من التاليف دون ان يتعلم بها احد صواب الكلام » محمد كامل حســين المرجـــع السابق ، ص 25

وثنا ، ولا يسمحون بتذويتها وتداوتهـا • ان خصوم تطور اللغة يعملون ، موضوعيا ودون وعي أحيانا ، على ان نبقى حراس مقابر • ان العربية في محنة، ومحنتها آتية من الذين يحتضنونها حتى الاختناق ، « ومن الحب ما قتل ! » •

يجب ان نتعلم كيف نحب ، اعنى كيف نعامل المحبوب وكيف ننمى المحبة • فالركود يقتل الحب• اذا لم يتجدد وجه الحبيب يبلى ويقل تعلق المحبين• فكثيرهم مثقفونا الذين يفضلون التخاطب بلغات أجنبية ، لانها مرنة ، لانها تفى بحاجاتهم التعبيرية الانجليزية والفرنسية والالمانية تلتصق بالانشطة البشرية (لان أصحابها في صميم الواقع) كأداة اتصال لا تنفصل عن تطور الانسان وحاجاته •

تتجذر مشارب حياة اللغات في الحياة العملية حيث تتلاقى الشلالات الدافقة من التاريخ العـام في صيرورة لا منقطعة ، اللغة بنت السوق والمعبد، بنت الحقول والمعامل ، تلازم الانديــة والملاعب الرياضية ، انها ربيبة الشمس ومسامرة الليل • فلماذا لا نبحث عنها الا حيث تصيبها الرطوبـة المزمنة ، في قعـر الكتب الصفراء ، ومناقشات المصنف والمحشى ، والمحشى على المحشى ، والمعلقين على المعلقين ؟ ارفعوا العربية الى مستوى مقتضيات العصر لتصبح كما كانت ، كانت لغـة السوق (ويا ما اشهر سوق عكاظ • • •) ، ولغة الواقع كما تظهر في القرآن والحديث ومؤلفات التشريع حيث الكلام يمتزج بالحس والفكــر • يجب الا نحملها نحن على ظهور قوضها التخلف وقرون من التعسف ، بل ان نجعلها مطيعة مطواع تؤدى مهامها على الوجه الاحسن الممكن • الحقيقة المـرة تبرق في كأس بلورى • فلنسقها جهرا « رجال الفكر » و « رجال الثقافة ! » يا قوم ! أعطونـــا لغة حية ، لنكون أمة غير متخلفة : **اتركونا نستغل لغة الماضي لبناء المستقبل** • نريدها مجالا ديناميا نحركه فيحركنا ، نتذاوت واياه ! ان « **الفصحى** » تمثل في الواقع مجالا مستقلا عن الحياة ، وكأنها (No mans land) بالنسبة لكل الشعوب العربية ، بما فيها الاجهزة التعليمية والادارية • وتلك هي المأساة •

هل من سبيل ؟

نعم ، ان نفعل ما فعله غيرنا • فالى جانـــب تجربة العبرية التي وثبت من الجمود الى المعاصرة والعصرية، هناك مثال أضخم واوسع • لقد حررت الصين الشعبية ربع سكان المعمورة أو يزيـــد ، وألفت بينهم في امة واحدة ونظام واحد ، وذلك بفضل اعادة النظر في اللغة وتسهيل ضوابطهـا وحصر المفردات اللازمة الاستعمال (اللغة الاساسية)

انطلقت الماهورية من سياسة « المشى عـــلى قدمين » ، أى ان السياسة التحريرية بالصـــين كانت ترتكز على الثورة الصناعية والثورة الثقافية، بعد ان مر المكافحون بمرحلة « المسيرة الكبرى » التي قام بها الفلاحون •

لقد اتخذت الشقيقة الجزائر خطـة مماثلة في نطاق خاص بوضعياتها • يرمى التصميم الجزائرى الى استكمال بلورة الشخصية الوطنية ، بتكييف الاصالة وتطويـر البنيات الـذهنية والجسـدية

والمجتمعية ، نعنى ان الجزائريين قد اختاروا السير على ثلاثة أقدام ، سيرا متوازيا : الثورة الصناعية والثورة الثقافية ، والثورة الزراعية ٠ فقضيـــة التعريب غير مستقلة عن التيار العام الذى جندت له الدولة كل الامكانيات الانسانية والماديــة ٠ فالتعريب أساس الثورة الثقافية ، وهذه تنصهر فى الثالوث : صناعة ـ زراعة ـ ثقافة ٠ ففى نظر المسؤولين ، لن تتم جزأرة الاقتصاد الا على كيان الأصالة ، اى الا باللغة القومية التى تتجسد فيها شخصية الامة ، كما لا يكتمل استرجاع الاستقلال الا اذا كان فى صالح مجموع الشعب ، بلغـــة شعبية ، لغة الجهاد اليومى ٠ لذا لزم ان تعمـل الجزئر على تعبئة كل الطاقات لاثبات أسس المجتمع الجديد ٠ (I2) ان النمـــو الاقتصادى ضرورى لمحاربة التخلف الثقافى كما ان كلما ازدهـــرت الثقافة ازدهر معها الاقتصاد ، فالتقدم أفكـــار تتجسد فى أفعال ، والافعال أعمال منظمـــة لا نظريات تجريدية محض : كل انتاج تطورى يتطلب لغة تطور ، فبالنسبة للفكر الخلاق ، اللغـــة هى المادة الاولى (كما فى اصطلاح علم الاقتصاد) بها ينمو ، وبها ينمى ما حوله ٠

ـ **خاتمة :**

فيما تقدم ، أشرنا الى دراسة للاستاذ الدكتـــور محمد كامل حسين تحت عنوان : « النحو المعقول» وانه بحق مقال ثورى قد يكون فتحـــا جديـدا بالنسبة للسان العربى ، لو أخذناه بعين الاعتبار، ففيه الكثير من الحلول لمشاكـــل الاعـــراب ، والصرف ٠ (I3) يكفى ان نجرؤ ، فنتجرد مـن عبء الاغلال المنقولة التى تكبل الاساليب والتراكيب لتحل أمامنا الصعاب ، فنطور الفصحى تطويرا يقترب من العاميات ، أى من لهجات الشعـــوب العربية فى تفاعلها الصيرورى والمصيرى مـــع الجغرافية والتاريخ يقينا ان ذلك لن يعـــود على الفصحى ، وعلى الامة العربية الا بكل خبـــرات اليقظة والنهوض ، ويكسبها شبابا وحماسة ٠

* * *

التأملات السابقة موجزة ، وفى مجملهـــا وتفصيلها قابلة للمناقشة ٠ فكلما احتد النقاش حول أمورنا الجوهرية ازددنا تعمقا للمشاكل ووعيا للمناهج الموصلة الى حلها ٠ فالمهم هو ان نعمل على ألا نسيء وضع المشاكل وتأويل بعض المحاولات خوفا أو مجاملة ، أو نقصا فى التقييم ٠

اللغة صورة صادقة عن مدى تقدم أو تأخـــر الناطقين بها ٠ فالنمو العام فى أمة مرتبط بنمو لغتها ٠ فهذه الوحدة مسلمة أساسية يجب ان ينطلق منها كل بحث عن المأساة العربية الحالية ٠

I2) نحن هنا لا نقيم نتائج المشاريع الجزائرية ، وانما نحاول ابراز الخطاطة التى رسمتها الدولة للقضاء على التخلف كمـــا نحاول اظهار قيمة اللغة القومية فى تلك المشاريع . فالطريق مازال غير معبد ، والعراقيل كثيرة

I3) من ص 24 الى 59 (من المرجع السابق)

مستقبل اللغة العربية
بالمغرب الأقصى

محمد محيي الدين المشرفي
الامين العام لوزارة
الثقافة والتعليم الاصلي
بالمغرب

• الحديث عن موضوع اللغة العربية وما يتطلبه ذلك من بحث فى كيفية العمل للوصول الى تطويرها ليس بالسهل ولا باليسير ، حتى على اولائك الذين لهم دراية واختصاص بعلم اللغات عامة ، وعلم اللغة العربية بنوع خاص ، فكيف يستطيع رجل مثلى لم يدع ابدا هذا التخصص وهذا الاقتدار ان يحدثكم فى موضوع يعتبر من الصعوبة بمكان ، وهو هذا الموضوع الذى اتطفل على مسامرتكم فى شانه هذا المساء ، ذلك ان الظروف وحدها ـ بحكم الوظيفة التى اضطلع بها كمدير لمعهد التعريب منذ ما يزيد على ثلاث سنوات هى التى دفعتنى فى الواقع الى الاهتمام بهذا الموضوع الشائك وما يثيره من مشاكل مختلفة الجوانب نحن نعمل بكل قوانا على قهرها وازالتها من الطريق •

من جل هذا وذاك ، يسرنى جدا ان اقدم لزملائى المحترمين المجتمعين حول هذه المائدة المستطيلة طائفة من الملاحظات توصلت اليها بعد مشقة وبحث طويلين ، فيما يرجع لمستقبل اللغة العربية فى هذه البلاد وفى بقية بلدان المغرب العربى ، وما يعترض هذه اللغة من عقبات وعراقيل تصدها صدا عن اداء مهمتها على الوجه الاكمل باعتبارها اداة تلقين وبحث فى آن واحد ٠

والذى لا سبيل الى انكاره فى هذا المقام هو ان هذه اللغة مع مالها من المزايا التى لا ينكرها الا مكابر او عنيد لم تعد بقادرة فى الوقت الحاضر على القيام بالدور الفعال الذى كانت تقوم به فى الزمن الماضى ايام ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ٠ والبرهان على هذا الضعف الذى اصاب المتكلمين باللغة العربية فى هذا العصر هو الوضع اللغوى الذى تعيش عليه بلدان المغرب العربى جميعا ، وهو وضع يدل دلالة واضحة على تقلص نفوذ اللغة العربية الفصحى خلال سنوات الاحتلال على الاقل ، وتقهقرها لفائدة لغات ولهجات اخرى شرعت فى غزوها فى كل مكان بصورة يكاد يضمن لها النجاح ٠ واذا عدنا الى الواقع اللغوى الذى اشرنا اليه بعدما سلخت بلاد المغرب العربى الكبير عدة اعوام من حياتها فى الاستقلال ، نلاحظ ان كل بلد من هذه البلدان يتحمل بصفة عامة اعباء ثلاث لغات :

اولا ــ اللغة العربية الفصحى التى نستخدمها فى حياتنا الدينية واليومية ، كما نستعملها اداة لتبليغ بعض المواد الدراسية كالفقه والتوحيد والجغرافية والتاريخ فى كافة المدارس بوجه عام ، باستثناء المؤسسات العلمية التى تعول على اللغة الاجنبية خاصة فى تدريس المواد العلمية ، او القيام بأعمال فنية بحتة ، ولعل هذا هو الذى جعل شبابنا يرمون اللغة العربية بالعقم ويرون انها ليست قادرة على مسايرة الحضارة العصرية ومما لا شك فيه ان الامة الراقية لا تكون لغتها راقية فى ناحية دون ناحية ، كأن تكون لغة الادب والشعر والدين ولا تكون لغة باقى العلوم ، ولذلك قال علماء اللغة العربية الكبار : « اللغة التى لا تعبر الا عن بعض احوال الامة هى لغة عوراء تظل عرضة للزوال » ٠

ثانيا ــ اللغة العامية وهى اكثر انتشارا من الفصحى نظرا لسهولة تعابيرها وبساطة القواعد التى تختص بها هذه اللغة العامية التى تولدت ــ كما تعلمون ــ عن الفصحى ، وواكبتها نتيجة اتصال العرب الفاتحين بغيرهم من الشعوب الاخرى ، وعلى كل حال فالعامية دليل على ان الناس عندما لا يستطيعون تحمل ضوابط نحوية ثقيلة كالتى حملتها الينا اللغة العربية الفصحى او اية لغة اخرى كاللاتينية مثلا ، يتحررون منها نسبيا ، ومن ثم نشأت العامية التى اصبحنا نعتمدها كلغة تخاطب ومعاملات نظرا للتساهل الذى سمحنا به لانفسنا فيما يرجع لتطبيق القواعد النحوية الفصيحة ٠ وهذا التساهل هو الذى فعل فعله ايضا فى اللغة اللاتينية مما ادى بالمتكلمين بها شيئا فشيئا الى احداث لغة اخرى بعيدة نوعا ما عن اللاتينية تعرف باللغة الرومانية ، التى اصبحت بعد قرون معروفة باللغة الفرنسية ٠

هذا ونظرا لانتشار العامية بيننا ، وسهولة تعابيرها وقواعدها بالنسبة للعامة ، فانه بدا لبعضهم ان اللغة الفصحى مرادفة للتعقد والتحجر والجمود ، ولا يدرون ان الجمود كامن فى عقول المتكلمين بالفصحى ، اما اللغة العربية الفصحى

فانها ما زالت حية ترزق فى بطون الكتب وعقول الذين درجوا على التحدث بها على الاقل ·

هذا ولا ننس انه بازاء اللغة العامية توجد عدة لهجات بربرية لا يزال العمل جاريا بها وان كانت اللغة العربية تغزوها شيئا فشيئا لعدة اعتبارات ، أهمها انتشار التعليم فى السهول والجبال ، وتعدد المواصلات بين مختلف جهات هذه البلاد ·

ثالثا ـ وهناك اللغة الفرنسية التى تستعملها طائفة من السكان فى اقطار بلدان المغرب العربى عموما ، باستثناء ليبيا التى عاشت فيها اللغة الايطالية ايام الاحتلال والتى استعاضت عنها ـ على ما يظهر ـ بالانكليزية منذ الاستقلال · ويبدو ان طائفة من المواطنين ما زالوا يتحدثون بهذه اللغة الاجنبية اما لضعفهم فى اللغة الام ، او لتفضيلهم اياها على لغتهم الاصيلة ، لانهم درجوا عليها منذ الصغر ، وقد يلجأون اليها لانها تتوفر على المصطلحات التى تمكنهم من التعبير عما تطفح به قلوبهم من مشاعر واحاسيس ولم يتفطنوا الى ان استعمالهم لغة اجنبية عوضا عن لغتهم الاصلية يؤدى بهم شيئا فشيئا الى اضمحلال شخصيتهم وطمس معالم ذاتيتهم القومية · ومن ثم ضعفت اللغة العربية وانكمشت على نفسها ، لا تستفيد الا قليلا مما تحمله الحياة العصرية فى طيها من مفاهيم ، وتجره معها من مصطلحات صالحة للتعبير بدقة عن تلك المفاهيم·

ولقد افضت هذه الحالة الى صراع عنيف على ارض المغرب الاقصى طيله عشرات من السنين بين اللغة العربية واللغة الاجنبية او اللهجات الاخرى ، فكانت معركة المصير التى غذتها المدارس الحرة بروحها الوثابة ، معركة مصير لغة اصيلة استطاعت ان تبقى وتحيى وتدوم بفضل تضحية ابنائها البررة ، وذلك ما عبر عنه احد فلاسفة اللغة بقوله : « عندما تتلاقى لغتان تحت سقف واحد ، اى على لسان شعب واحد ، لا يبقى هذا التلاقى باردا ، بل تلتحم اللغتان فى معركة حامية الوطيس ، وماذا يحصل بعد ذلك ؟ تغطى لغة المستعمر على لغة المستعمر حتى اذا اشتد وعى الامة المستعمرة ، وانتفضت فى سبيل حريتها عادت لغة المستعمر القومية الى سالف مجدها ··· » وهذا هو الهدف الذى اصبحت اللغة العربية تتجه اليه فى بلادنا ، بما نشاهد من نشوء محيط عربى صار يغمر الاوساط وكافة مرافق الحياة ، ومما يلاحظ ان هذا المحيط اللغوى او المناخ اللغوى هو الذى يدعم عادة اللغة السائدة ويساعدها على الذيوع والانتشار ·

ماذا نستنتج من كل ما سبق ؟ انه من العبث ان نعتمد على لهجة من اللهجات ، او لغة من اللغات الاجنبية لخلق ذلك التطور الذى تفتقر اليه بلادنا بل اذا كنا نريد لشعوبنا الالتحاق بركب الدول المتقدمة ماديا ، والاسهام فى عملية الخلق والابتكار فلا بد من ان نقر اللغة العربية الفصحى كاداة ثقافة وعمل فى المدرسة والادارة والمجتمع ، واللغويون يعلمون حق العلم ان اللغة بنت الالزام لا تتطور الا بتطويرنا اياها ، فاذا كنا لا نزج بانفسنا فى مثل هذه الحاجة ، كى نشعر بضرورة البحث عن الكلمات التى تنقصنا ، لا نرى كيف نستطيع ان نزود اللغة العربية بمصطلحات نحن بأمس الحاجة اليها ، وان كانت المصطلحات لا تكون وحدها بنيان اللغة العربية ، نعم هى جزء من هيكلها الضخم ، بل الذى يكون هيكل اللغة بالذات هى المفاهيم الحضارية ، والمفاهيم الحضارية لا تنشأ وتتفرع الا عن مجتمع يعج

بالحياة النشيطة الخلاقة ، اذ المفروض فى الذين يعملون داخل هذا المجتمع الحى انهم يكتسبون بحكم النشاط الذى يزاولونه ، وعن طريق اللغـة التى يتكلمون بها جملـــة من الافكـار والمفاهيم المتصلة باعمالهم مهما كانت تلك الاعمال متنوعة معقدة ، وهكذا تخلق اللغة المعبرة عما يكمن فى النفوس بما يقتضيه ذلك المجتمع المتقدم من دقة فى التعبير ووضوح فى التفكير ٠

اذن يتعين علينا ان نوجه كامل اهتمامنا لهذه اللغة ، ونعتمد عليها فى سائر مـرافق الحياة ، وذلك بزجها فى الحياة الاجتماعية عن طـــريق حملات تعريبية منظمة بواسطة محاضرات وندوات وملتقيات ومناظرات تستخدم فيها ايضا امــواج الاذاعة والتلفزة ، وبذلك سنتمكن من خلق المناخ اللغوى المنشود الذى يساعد على انتشار اللغـة واخذ حظها من الذيـــوع والرواج بحيث تاخذ بلاعناء مكانها فى المجتمع ٠

على ان هذه العملية لا تكفى وحدها لجعـل اللغة العربية صاحلة للاستعمال ، ذلك انه لا بد من ادخالها للادارة ، ودخولها المؤسسات الادارية يعيد الى العربية قطعا اعتبارها ، ويمكن الطبقات المتكلمة بها من ان تتعرب عقليا ، فيزداد الاقبال عليها يومــا بعد يوم ، وتصبح شيئا فشيئا اداة صالحة للتعامل والاتصال ، على ان اقرار اللغة العربية فى الادارة لا يتطلب اكثـر من استعمال طائفة من المصطلحات يوجد معظمها فى بطـون القواميس والمعاجم ، ولا حاجة الى الاثبات فى هذا المقام ان العرب الفاتحين عرفوا جيدا بعد اختلاطهم بالشعوب اليـونانية والفارسية كيف يأخذون عنها عن طريق الاقتباس والتعريب مـا تحتاج اليه العربية من كلمات واسمــاء لمسميات كانت جديدة بالنسبة اليهم ٠

وكما يجب ان نعمل على اقرار اللغة العربية فى المجتمع والادارة يجب كذلك ان تحتل محلها فى كافة معاهد التعليم على اختلاف مستوياتها ٠

فبالنسبة للتعليم الابتدائى لا يعقل ان يحمـل الاطفال على تعلم لغة اجنبية بالاضافة الى لغتهم الاصلية ، خاصة فى سن مبكرة من حياتهم ، لما يترتب عن ذلك من تحريف لشخصيتهم ، بل حملهم على تعلم لغتهم الاصلية وحدها فى هذه المرحلة من حياتهـــم لما يعين على ابـــراز شخصيتهم والمحافظة على كيانهم الروحى ، وهذا معناه ان استعمال لغة اجنبية او عدة لغـات فى المرحلة الابتدائية بالاضافة الى اللغة الوطنية يضاعف لامحالة من الصعوبات التى تعترض الطفل بمـا تضيفه من صعوبات لغوية الى صعوبات فنيـة فى حد ذاتها ٠ ثم ان اللغة الام لا تستطيع الحياة مع لغة اخرى تحت سقف واحد ، كما اسفلناه ، والا بقى الطفل مـــوزعا بين عقليتين : عقليـــة يستمدها من لغته الام وعقلية يستمدها من اللغة الاجنبية ٠ ولا سبيل ان يستشهد فى هذا المقـام بما يجرى فى بعض البلدان او المقاطعات التـى يتحدث اهلها باكثر من لغـــة واحدة كسويسرة وبلجيكا وكندا او مقاطعة الالزاس بفرنسا ، بـل نعتقد ان فى ذلك حجـــة على الذين يريدون ان يثقلوا كاهل الصغار بحملهم على تعلم اكثر مــن لغة فى صغرهم ٠ فالجماعات التى يخيل الينـا انها تتكلم لغات كثيرة فى تلك البلدان لا تحسن فى الواقع الا لغـــة واحدة ، انما هى تستعمل بالاضافة الى اللغة المتمكنة منها لغة ثانية بصفة ثانويـة لا تمكن تلك الجماعات من التعمق فيهـا الى حد الابتكار والاختراع ٠ ففى سويسرا مثلا ثلاث مناطق يتحدث اصحابها الفرنسية والايطالية

والالمانية، لكن هناك منطقة خاصة يحسن اصحابها الفرنسية اصلا وشيئا قليلا من الالمانية ، كما ان المنطقة المجاورة لالمانيا يتكلم اصحابها الالمانية بطلاقة في حين انهم يستعملون ايضا اللغة الفرنسية ، وما قيل في الفرنسية يقال كذلك في الايطالية بمعنى ان الذين يتحدثون سليقة باحدى اللغات الثلاث يستطيعون مع ذلك استخدام لغة بصورة تعينهم على قضاء حوائجهم العادية لا اكثر ولا اقل ، فهل ذلك معناه انه من الخير ان يدرس الانسان اكثر من لغة في المرحلة الابتدائية ؟ بل نعتقد انه من المفيد ان نقتصر على تدريس لغة واحدة في المرحلة الابتدائية ٠

ان الوضع الطبيعي للتعليم في كل مكان وبالنسبة لكل امة هو ان لا يكون الا بلغة الام ، اذ في ذلك تركيز لاستقلالها ، وتجسيم لشخصيتها حيث يجعلها محررة من كل تبعية للغير ٠ يضاف الى ذلك ان تعريب التعليم العالي قبل غيره بمواده الادبية والعلمية والتكنولوجية على الخصوص واجب ، وضروري أن يسبق تعريب التعليم الثانوي والابتدائي ٠

التعريب في بلادنا لكي لا تتعرض معاهدنا على نوع من التدهور والاضطراب يجب أن يشرع فيه من أعلى ، وينحدر بالتدرج حسب مخطط واضح الى اسفل ، وذلك بحمل الطلاب عقب انهاء دراستهم العالية على تدريس ما درسوه باللغة العربية في المعاهد الثانوية ٠ ويكون تعريب التعليم الثانوي تصاعديا رعيا لصعوبة المواد وتخصص الاساتذة ، فنبدأ مثلا بتعريب الفلسفة والعلوم الاجتماعية ثم تعريب العلوم الطبيعية ، ومنها ننتقل الى الكيمياء والفيزياء والرياضيات ، فلا يمضي وقت طويل حتى تتعرب المدارس الثانوية ، ويسري مفعولها في المدارس الابتدائية بما يتكون في هذه المعاهد الثانوية من شبان قادرين على الانخراط في سلك معلمي المدارس الابتدائية ، اذ كل متخرج من مدرسة ثانوية يكون بحكم تكوينه العربي قادرا على تحمل اعباء التعليم في المدارس الابتدائية بلغة عربية سليمة مع المحافظة طبعا على المستوى اللائق ٠

واذا كان من الواجب العمل من الآن على اعداد الاطفال لتلقي دراستهم الثانوية بالعربية لانها الاصل ، وذلك هو الوضع السليم ، فان نظاما كهذا لا يمنع مع ذلك من اعطاء التلاميذ فرصة تلقي عدة لغات اجنبية كالفرنسية والانكليزية والاسبانية والروسية او لغات شرقية يمكن ان تحل محل اللاتينية واليونانية عندنا ، هي الفارسية والتركية والعربية : والاعتقاد السائد عند علماء اللغة والمربين ان تعاطي هذه اللغات من شأنه ان يعين على تفتح اذهان الدارسين وتطعيم اللغة الاصلية بكثير من المفردات والمفاهيم التي تعوز العربية اليوم ٠

والواقع ان العربية الفصحى لم تتمكن لحد الآن من ان تتبوأ المقعد اللائق بها ، وذلك يعاد بحسب علماء اللغة والاستشراق ، الذين بحثوا طويلا عن اسباب الانحطاط الذي اعترى بوجه عام الحياة الاسلامية واللغة العربية خاصة ، ابتداء من النهضة الاوربية ، الى عوامل كثيرة من الممكن ان نعددها فيما يلي مع ما يقتضيه المقام من التحفظ والاحتياط في الحكم ، هذه العوامل هي عوامل لغوية وبيولوجية واجتماعية وسياسية وفنية ٠

اولا ـ يعتقد اولائك العلماء عن حق أو بدون حق ان كمال اللغة العربية كما فصلت تفصيلا في

القرآن الكريم والفصاحة التى طبعت آياته الكبرى كل ذلك من العوامل التى بهرت عقول العرب الاولين بما جاء به القرآن من سحر وبيان ، اعجزهم عن محاولة الاتيان بمثله ، وعاق بالتالى علماء اللغة عن اغناء العربية بما يمكنها من الاستمرار فى التقدم والتطور ، تطورا يجعلها لا تتخلف عن ركب اللغات الحية الاخرى ، بل يضيف علماء الاستشراق الى ذلك ـ ولا ادرى الى اى حد يمكن الموافقة على ما يقولون ـ ان العجز الذى اصاب اللغويين كان ايضا من حظ الفقهاء والمتكلمين الذين لم ياتوا باحسن مما جاء به القرآن والحديث من احكام وقوانين تشريعية تعتبر آية فى الدقة ٠

ثانيا ـ وهناك عامل اساسى كان له الدور الفعال فى تقهقر اللغة هو ذلك النوع من الاستسلام او الخضوع الذى يلاحظ فى الجماعات الاسلامية تجاه حوادث معينة ، حملت المسلمين على الاعتقاد بانها نتيجة للقضاء والقدر ، ولا سبيل الى الفرار منها ، هذا النوع من الاستسلام ادى بطبيعة الحال الى نوع من التحجر الذهبى تبعا للرضى بالامر الواقع الذى لا يرتفع ، ومنعهم من البحث عما يغنى اللغة العربية بشتى وسائل العمل والتفكير ، بل يزيد اولائك الذين يعيبون علينا هذه العقلية المتحجرة انه حتى عندما كانت المجتمعات الاسلامية تتمتع بنوع من التقدم من الوجهة الاقتصادية ، كان من نتيجة هذه العقلية الجامدة ان عاقت المشتغلين فى ميدان الصناعة عن البحث عن وسائل جديدة ترقى بالمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه ٠ فانظر مثلا الى الوضع الاقتصادى الذى كانت تعيش عليه المدن المغربية كفاس مثلا تجد هناك مجموعة من الصناع اوضح ما يوصفون به هو ذلك الرضى بالحالة الاقتصادية التى كانوا يتمتعون بها كانوا يربحون اقواتهم من صنع يدهم كما انهم كانوا يستخدمون ما كان بيدهم من ادوات وآلات لصنع عدد من الاشياء التى كانت تتوقف عليها حياتهم اليومية ، وذلك حسب اسلوب رتيب وروتين لم يكونوا ليقلعوا عنهما بسهولة ، ولم تحدثهم انفسهم فى يوم من الايام بالتفكير فى وسيلة تمكنهم من احداث آلة ارقى من التى كانوا يستخدمونها بحيث تعينهم على صنع ادوات احسن واكثر عددا من التى كانوا يصنعونها ٠ وكانت الجماعات الاوربية فى ذلك العصر بالذات تعيش هى الاخرى فى وضع اجتماعى وجغرافى مماثل للوضع الذى كنا نعيش فيه ، بل ربما كانت تلك الجماعات متاخرة متخلفة بالنسبة للمجتمع المغربى كما كان يظهر فى عواصمنا المتحضرة خلال القرون الوسطى ، الا ان الصانع الاوربى كان فى ذلك الوقت يشعر بضرورة المثابرة على العمل المفيد ، ويتوق الى سلوك احسن الطرق واقربها لتحسين المنتوجات الصناعية التى كانت تخرج من يده كما انه كان يشعر دائما بنوع من الفضول ويستسلم لتساءلات لا يستطيع ان يتملص منها ، هى التى كانت تحوم فى ذهنه حول ما يشاهده من احداث ومظاهر طبيعية تثير انتباهه احب ام كره ، والملاحظ انه كان يعمل فكره فى كل ما يشاهده من حوله بغية معرفة الاسباب الدافعة الى حصول حوادث معنية ٠ ولا شك ان هذا الفضول هو الذى حمل « دونى بابان » على ان يركز انتباهه فى ارتفاع غطاء القدر نتيجة تصاعد قوة البخار ٠ قد يكون الحادث المذكور بسيطا فى حد ذاته ، ولكنه على اى حال كان نقطة انطلاق ابتدأ منها تطور العالم باسره تطورا مدهشا ٠ فنحن لا ننكر ان مئات الآلاف من الشخصيات ممن درجوا على وجه الارض سبق

لهم بالتاكيد قبل « دونى بلبان » ان شاهدوا غطاء القدر يتحرك فى صعود وهبوط ، ولكن من المؤكد ايضـــا انه لم يتفطن واحـــد منهم من قبل الى استغلال تلك الظاهرة الطبيعية البسيطة حتى طلع علينا القرن التاسع عشر ، فكان ذلك التحـول العميق فى سير المدنية المعاصرة من حظ عامـل بسيط ، له ضمير حى متوقد ، وارادة تستطيع ان تهز الجبال ·

ان ذوى الضمائر الحية هـــم الذين يتصفون ايضا بمـــا يسمى بالعقلية الصناعية والعقلية الصناعية هى وحدها التى تستطيع ان تدفع بعجلة البلاد الى الامام ، وتضعها على قضيت التقـدم الســريع ·

ثالثا ـ يقول المستشرقون الذين سبق لهم ان تعمقوا فى دراسة اسباب التقهقر الذى تشكـو منه اللغة العربية اليوم ، ان نوع النظام السياسى قد يكون له اثر فى انتشار اللغة العربية واشعاعها ويعللون ذلك بقولهم انه اذا كان النظام ارستقراطيا فان الامـــة تكون اذ ذاك تعيش داخل جماعات صغـــيرة مفصلـة بعضها عـــز بعض بحكـــم الفـــوارق التى تفصلهـــا عن بقيـــة الشعب ، وتكون هذه الجماعات الصغرى ، فى مثل هـذه الحالة ، تستعمل لغة خاصـــة قليلة الشيـوع ، ومفردات وتراكيب لا تقوى بالتالى على الانتشار ، فتبقى اللغة محبوسة الأنفاس ان صح هذا التعبير فى حين ان النظام الديموقراطى يعين طبعا على ذيوع لغة بحكم استعمالها من طرف الســـواد الاعظم من الامة ، وفى هذا ما يضمن حيـاتها وبقاءها ، وهذا الرواج الذى يحدث داخل جماعات لا تفصلها حواجز عنصرية عن بعضها لا يضمن للغة امكانية الانتشار والذيـوع فحسب ، ولكن يمهد لها سبيل الاستقرار فى الاذهان ، ومما يلاحظ فى هذا المقام ان النظام الديموقراطى لا يضـــن الحياة والبقاء الا للالفاظ والكلمات التى يتقبلها الذوق السليم ، اما الالفاظ التى تمجها الاسماع فانها تضمحل بسرعة وتتبدد مع الرياح الاربع ·

يضاف الى ما تقـــدم ان من منافـــع النظام الديموقراطى انه يعطى المسؤولين فرصة توزيع الارزاق بالتساوى على افراد الجماعات ، كـــل بحسب ، قدرته على العمل والانتاج فى وسـط غنى بالمواد والمقومات الحضارية التى جـاءت بها الحياة العصـــرية ، او قل ، ان احببت ، ان النظام الديموقراطى يساعد معظم المواطنين على التمتـــع بهذه المقومات الحضارية المتمثلـة فى الاشياء والادوات التى نستخدمها يوميا ، كمـا يعطيهم فرصة استعمال الالفاظ والتراكيب الدالة عليها ، فتروج اللغة تبعا لذلك وتصبح شائعـة اكثر فاكثر بين الناس ·

رابعا ـ يعتقد بعضهم ـ وهذا صحيح الى حد بعيد ـ ان انقسام المجتمع الاسلامى الى طبقتين ، طبقة الرجال وهم الذين يستاثرون بالاعمال كلها على وجه التقريب مع تحمل جميع المسؤوليات ، وطبقة النساء اللواتى لا يظفرن الا بقدر قليل من تلك الاعمـــال لدليل على تخلف هذا المجتمـــع الاســلامى وتحجره ، وبالاضافة الى ان ابقـاء النساء بعيدات عن مراكز العمل والانتاج حكـم فى الواقـــع على ذلك المجتمـع بالعقم والافلاس مسبقا ، ان ظاهرة اجتماعية كهذه تعوق اللغة عن الانتشار بالسرعة اللازمة وذلك لان المتكلمين بها لا يزيد عددهم على نصف ذلك المجتمـع المتخلف الذى يعتبر نصفه جامدا أشل ·

خامسا ـ وهناك عـــوامل تقنية تعوق اللغة العربية فى حالتها الراهنة عن الذيوع والانتشار وهذه العوامل ترجع الى قواعد اللغة التى يعترف

الكثيرون بصعوبتها كما تكمن فى تعدد اشكـال الحروف العـربية بحسب وقوعها من الكلمة ، بحيث يتحمل الصغار مشقـة كبرى فى التعرف عليها وبالتالى فى الانطلاق وراء عملية القراءة ، ومما لا شك فيه ان تلك المصاعب تقف حجر عثرة فى نشر الكتاب بالسرعة المطلوبة وتحمل الناشرين ثمنا باهضا عند طبع كتبهم مما يسبب عرقلة فى سبيل سير اللغة العربية وانتشارها ·

ويضيف بعض المهتمين بمستقبل اللغة العربية ان الداء كله يكمن فى عدم توفرنا على المفردات العـربية الدالة على المفاهيم التى جاءتنا بهـا الحضارة الغـربية ، ويذهبون الى القول بأنـه يكفى لايجاد تلك المفردات وخلقها خلقا عن طريق النحت والاقتباس وغير ذلك من اساليب الاشتقاق الاخرى لتصبح اللغة العربية قادرة على الذيـوع والانتشار ، وهذا قول مردود ، اذ لو كان الامـر كذلك لكفى المتكلمين بالعربية وجود هذه المعاجم والكتب التى امتلأت بشتى المفـردات والتراكيب ليتمكنوا من التعبير عن كل ما يروج فى خواطرهم من افكـار ومفاهيم تتصل بهذا المجتمع الحى المتطور الذى نحياه ·

لكن القضية لا تتعلق بكمية هذه المفردات بقدر مـا تتعلق بقدرتنا على استحضار هذه المفردات وترويجها فى الوسـط الفقير الذى نعيش فيه ، وبكلمة أخرى يمكن القول بانه ما دام المحيط الذى يتقلب فيه الطفل المغربى كالبيت مثلا يشكو فقرا فى الاثاث والادوات ومقومات الحياة المادية التى يزخربها عادة بيت الطفل الاوربى الذى ينتسب الى مجتمع متقدم راق ، فان هذا الطفل العـربى او المغـربى سيظـل فقيرا كذلك من حيث الالفاظ والكلمات التى تنطق بمعالم الحياة المادية ، لانه لا يجد فرصة لاستعمالها فى البيت ولا فى الشارع·

ومعلوم ان توفر الادوات التى ترتكـز عليها الحياة البيتية فى مجتمع متقدم ، دليل قاطع على تقدم البلاد التى ينتمى اليها ذلك المجتمـع مـن الوجهة الاقتصادية ، بحيث كلما توفرت الاشياء والادوات التى تشـير اليها الكلمـات الجديدة المتولدة عن الحياة العصرية الا واصبحت هـذه الكلمات حية رائجة بحكم الضرورة والحاجة الى استخدامها · وهكذا نستطيع ان نقول ان الكلمة لا تروج وتعلق بالذهن الا اذا اقترن استعمالها ، على الاقل فى اول الامر ، بالشىء الذى تـدل عليه ، ومن ثم تفهم قيمة النصيحة التى ننصـح بها المعلمين المبتدئين كى لا يقدموا درسـا فى المحادثة او الاشياء الا مقـرونا بالاشياء التى يتحدثون عنها للصغار ، فذلك ادعـى لرسـوخ الكلمات والمفاهيم التى تعبـر عنها فى عقولهم ، اما اذا كان الدرس عبارة عن محادثة لفظية فان من المقطوع به ان الاطفال سيبقون غائبين بعقولهم عما يقول المعلم ، والتجارب علمتنا فيما يـرجع لدرس الاشياء والمحادثة خاصـة ان الكلمة اذا كانت مصحوبة بالشىء الذى تدل عليه تستقر فى اذهان المتعلمين بصورة لن يمحوها الزمن · معنى هذا ان الوسط كلما كان غنيا من الناحية المادية اضطر اهله الى البحث عـن الالفاظ والتراكيب التى تعبر عما اشتمل عليه ذلك الوسط من ادوات وآلات واشياء هى وليدة الحياة العصرية المادية نفسها ·

ان تطور اللغـة رهـين بالتطور المادى الذى يتمتع به المتكلمون بتلك اللغة ، ومع ذلك يقـول بعض اللغويين ان اللغة رهينة بالاوضاع السياسية

التى تعيشها الامة ، فمتى كانت الامـــة عظيمة متحدة زاد الاقبال على لغتها وآدابها ، فالمشكلة الاولى فى نظرهم مشكلـة سياسية ، ويضربون على ذلك مثلا فى ان اللغة العربية انتصرت على اللغة الفارسية لان اللـه كتب الغلبة للمسلمين بعدما خضعت الدولة الفارسية لسلطانهم · اجل ان فى هذا القول نصيبا من الصحة ، فقد سبـق لكل منا ممن عاشـــوا الحرب العالمية الثانية ان لا حظوا كيف تحولت رغائب معظم تلاميذ المدارس الثانوية ، سنة ١٩٤٥ بعد اندحار دول المحـور امام الجيوش الاميركية المظفرة الى دراسة اللغة الانكليزية عوضا عن اللغات الحية الاخرى · لكن النظرية السابقة لا تعبر مع ذلك الا على جانب من الحقيقة ، اذ لو كان الامر كما قيل ان السياسة تتحكم وحدها فى انتشـــار اللغـة وازدهارها لاستطاعت بلدان المغرب العربى التى يهمنا امرها قبل غيرها من ان تركز اللغة العربية فى كل مكان بعدما انجلى الحاكـم الاجنبى عن اراضيها · لكن القضية ليست سياسية فقط ، بل لها عـلاقة وثيقة فى آن واحـــد بالنمو الاقتصادى وتقـدم المجتمع الذى يعتمد هذه اللغة او تلك فى حياتـه اليومية ، بـل يرى بعض المتخصصين فى علمى الاجتماع والاقتصاد ، ونرى معهم ، ان التطـور الاقتصادى فى بلد ما شرط اساسى فى التطـور الاجتماعى والفكرى فى ذلك البلد · فهناك نمـو وتقدم من الوجهة الاقتصادية والمادية كلما كانت الحياة الفكرية نامية مزدهرة ، كما يلاحظ ان تقدم الجماعات من الناحية الفكرية والعقلية فى احدى الجهات تعبر فى الواقع عن تطـــور ملحوظ فى احوالها من الوجهة الاقتصادية والعمرانية ·

والذين يعودون الى التاريخ يلتمسون منـــه الاسباب التى دعت الى انتشار اللغة العربية فى الاقطار التى بسط المسلمـــون نفوذهم عليها ، يلاحظون ان هذا الانتشار كان دائما متمشيا جنبا الى جنب مع التطور الاقتصادى فى تلك البـلاد ، بحيث كلما ازدهت الحيـــاة الاقتصادية فيها الا وواكبها تقدم لغوى وبالعكس ، وتـرتب عن ذلك زيادة فى الدخل الفردى بالنسبة للسكان عموما· ولنا دليل على ذلك فى التقدم الاقتصادى الـذى كانت تتمتع به بلاد المغرب العربى خلال القـرون الوسطى ، اى عندما كانت الحياة مزدهرة فيها بوجه عام · فقد كان الناس فى دائرة تلك الحياة البسيطة يعبرون عن مدركاتهم وان كانت محدودة بكلمات واسماء دقيقة واضحة ، فـــلا يعوزهم المصطلح للتعبير عما كانوا يقومون به من اعمال ونشاطات مختلفة فى مجتمع متطور ، وليس مـن شك فى ان ازدهار الصناعات المحليـة فى ذلك العصر كما يحدثنا عنها ابن خلدون فى مقدمتـه فى مدن المغـرب المتحضرة كالقيروان وتلمسان وفاس مثلا كان يواكبه ازدهار فى الثقافة ايضا · فلما تدهورت الحالة فى تلك المدن على الخصوص لاسباب لا سبيل الى ذكرها فى هذا المقام لحـــق الحياة الفكرية نوع من التحجر والركود ·

هذا ويلاحظ من جهـــة اخرى ان الدول التى سبقتنا فى طريق النمـــو والازدهار الاقتصادى كالولايات المتحدة الاميركية وروسيـــا وفرنسا تتمتـــع هى الاخرى بازدهار ملحوظ فى حياتها الاجتماعية والفكرية ، والذى يدعو الى الانتباه هو ان اثر ذلك التطور لم ينحصـــر فى الحياة المادية بل انتقل مفعوله الى اللغات التى تتحدث

بها تلك الدول ، وهكذا اصبحت لكل من تلك الدول لغة طيعة مرنـة استطاعت ان تستوعب مفاهيم الحضارة العصرية بدون عنـــاء ، فكأن اللغة ، والحالة هذه ، ثمرة بيولوجية لما يجرى عادة فى سائر المجتمعات التى طرأت على حياتها تحولات عميقة كانت فى الواقع قاعدة لانطلاقها فى طريق التقدم والرقى ، لا فرق فى ذلك بين تقدمها فـى الميدان المادى او الفكرى ، وذلك معناه ان هذا التطور المادى والاقتصادى يتمشى مع التطـور الفكرى واللغوى جنبا الى جنب فتكون اللغة وهى وعاء كل حياة فكرية بالطبع متقدمة راقية متـى كان المجتمع الذى تنتسب اليـه مجتمعا راقيـا متقدما ، والحياة الاقتصادية فيه فى نمو مستمر ، كما انها تكون متأخرة فقيرة كلما تقهقر الوسـط الاجتماعى الذى هو مبعث هذه اللغة .

واذا كان الامر كذلك فينبغى على المسؤولين فى البلاد النامية عموما وفى بلاد المغرب العـربى على الخصوص ان يعطوا الاسبقية لكل ما مـن شأنه ان يعين على تحقيق نهضة اقتصادية تدفـع بعجلة التقدم فى هذه البلاد الى الامام ، وذلـك بتركيز وحدات صناعية فى كل مكـــان لان ذلك لا يساعد فقط على بعث نهضـــة اقتصادية فيها تكون بمثابة نقطة انطلاق وتحرر من كل تبعية ، بل هى فى نفس الوقت خير وسيلة لتنمية لغـــة الوطن واغنائها بما هى فى حاجة اليه من مفردات ومصطلحات علمية وفنية ، من شأنها أن تجعل هذه اللغة قادرة على تلبية حاجتنا اليها كوسيلة للتعبير عن مفاهيم الحضارة التى اصبحت مـن مميزات اللغات الاوربية الحية . ذلك ان اقحـام اللغة العربية فى المعمل والمصنع والورش والشارع وحمل الصناع والمزارعين على استخدامها يتيح لها لا محالة فرصة التكيف والنمو طبقا لمتطلبات الحياة الاجتماعية باعتبار ان اللغـــة ظاهـــرة اجتماعية وثمرة بيولوجية لحياة الفرد تخضـع كما يخضع غيرها من الوان النشاط الانسانى الى عوامل الزمان والتطور والحاجة . نقول عندمـا تتقدم الصناعـة والزراعـة وتنتشر التعاونيات ويزدهر من جهة اخرى العلم والثقافـة والتربية بالاعتماد على اللغة العربية فى التعليم والادارة معا ، اذ ذاك يرتفـــع مستوى المواطنين ماديـا ومعنويا ، وتتضاعف حتمـــا قدرة اللغـــة على التعبير ، فيـزكو محصولها من الالفاظ واذ ذاك ـ واذ ذاك فقط ـ يكون فى مستطـاع القطاعات الخلاقة التى يؤلفها الصناع والمزارعون والفنيون وارباب الحرف والصنائع على اختلافها ان تمـد اللغة بامدادات من اسماء الآلات والادوات وما تتصف به من حركات كما تمدها فى نفس الوقت بكل الالفاظ المعبرة عن الحضارة بما فيها مـــن علوم وآداب وفنون وقدرة على الخلق والابتكار .

يستخلص من كـــل ما سبـق ان الاقبال بكل حيويـة ونشاط على الحياة الصناعية هو الذى يورث العمال تلك العقلية الصناعية ، التى بدونها لا يستطيع بلد من البلدان ان يخطو خطوة الى الامام فى طريق التقدم ، بكل ما فى هذه الكلمة من مدلول وبما ان رواج اللغة يتصل اتصالا وثيقا بالتطور الذى يعترى الحياة الاجتماعية فى بلد ما ، وان هذا التطور الاجتماعى الذى هو فى الواقع نتيجة لتقدم مادى ينعكس مفعوله على مجتمع معين ، يخيل الى انه بالامكان ابراز المشكل كله فى شبه معادلة ثلاثية نستطيع ان نعبـــر عنها بقولنا : الاقتصاد الناهض يفضى حتما الى تكوين مجتمع حى متطور والمجتمع المتطور الحـــى لا يستعمل اهله الا لغة حية طيعة متطورة كذلك .

على ان ذلك كله لا يتم الا اذا تذرعنا بالصبر والعمل المستمر ، والاكباب على ما نحن مطوقون به بكل جد وفعالية ، اذ ذاك نستطيع ان نقفز الى مرحلة الخلق والابتكار .

التعريب بين اللغة والفكر

فتيحة بغاي
استاذة فلسفة
الجزائر

تعرضت في مقال سابق الى مشكله تدريس مادة الفلسفة بلغتين مختلفتين ومن طرف استاذين مختلفين وما تحدثه هذه الوضعية من ذبذبة فى التفكير وتقسيم للشخصيــة ، واشرت الى بعض الحلول ، تاركة اختيار أصلحها للمعنيين بالامر ـ وتقرر اخيرا تعريب هذه المادة الهامة واننا اذ نشكر المسؤولين بوزارة التعليم الثانوى عـــلى اتخاذ هذا القرار الثورى العظيم الذى سيساهم لا محالة فى استرجاع احد العناصر الاساسيــة للشخصية الجزائرية ألا وهو التفكـــير الوطنى فاننا ندرك مدى أهمية هذا القرار ومدى خطورة أبعـــادة .

ولقد جاء القرار فى أوانه بعد تجربة طويلة ووعى تام لوضعية أضحت غير محتملة فى فترة تخوض فيها البلاد ثورة ثقافية كبرى لبعث الاصالة الجزائرية من جهة ولايقاظ الوعى الفكرى وتنشيطه من جهة أخرى ·

هذه الثورة التى تستمد جذورها أساسا من اصلاح التعليم بجميع مراحله ·

اصلاح فى طرق تعليم اللغة العربية واصلاح فى تحرير التفكير منرواسب الذهنية الاستعمارية ومن أهدافها المغرضة لارساء أسس سليمة تقوم عليها مقومات شخصية امة باكملها بما لديها من تفكير ولغة ومناهج تسلكها فى الحياة لتساير بمقتضاها ركب الحضارة الانسانية وان ما اردت الاشارة اليه فى الموضوع السابق هو ان يوضع الطالب بين يدى استاذ واحد يتولى تكوين تفكيره ملتزما ببرامج جزائرية تخدم اهداف المجتمع وحاجاته الاكيدة على ضوء المذاهب الفكرية الكبرى وعلى ضوء مناهج التفكير العلمى والرياضى ·

تلك المناهج التى من واجب الاستاذ ان يسعى الى تحويلها الى حقائق واقعية حتى تصبح سلوكا عمليا وذهنيا ينتهجه الطالب فى حياته اليومية حاضرا ومستقبلا ·

وان تحقيق ذلك يتطلب اعداد تخطيط دقيق واستعدادا ماديا وبشريا ·

الاستعداد المادى :

يتمثل الاستعداد المادى فى اعادة النظر فى البرامج واعداد مراجع بسيطة فى متناول الطالب بالاضافة الى المرجع الموسع الجزائرى ؛ الوجيز للسيد المفتش العام محمود اليعقوبى ·

أما البرامج فهى تتطلب بعض التغييرات من حيث المحتوى ومن حيث التجزئية كأن يضاف مثلا . الى المواضيع المقررة بعض المواضيع الخاصة بالجانب التوجيهى والتوعية الوطنية ـ ويقع ذلك بدراسة مشاكل المجتمع الجزائرى واتجاهاته السياسيةمع اعطاء مكانة بينةللفلسفة الاسلامية·

ويستحسن ان تقسم البرامج على السنتين النهائيتين من التعليم الثانوى فيخصص للسنة السادسة من التعليم الثانوى :

1 ـ قسم علم النفس وعلم الاجتماع ·

2 ـ قسم المناهج والميتافيزيقا والاخلاقيات للسنة السابعة النهائية ·

وينطبق هذا التقسيم على الفرع الادبى والعلمى على السواء ·

المراجع :

بالاضافة الى الاعتماد على المرجع الجزائرى : « الوجيز فى الفلسفة » والى المراجع العربية والاجنبية الاخرى ينبغى العناية بالتاليف المشترك

كأن تطبع مثلا بعض المحاضرات لاساتذة الجامعة أو الثانويات وتوضع تحت تصرف طلاب الاقسام النهائية ·

التأليف :

1 ـ تشكل لجنة تحت اشراف المفتش العام تختص بتبسيط أسلوب بعض مواضيع الفلسفة الاسلامية المتعلقة بالبرامج الخاصة بهذه المادة ووضعها فى سلسلة مبسطة واضحة ·

2 ـ لجنة لترجمة بعض المواضيع من وثائق أجنبية ٠

3 ـ تاليف قاموس لترجمة مصطلحات الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع التابعة للدروس المقررة فى البرامج الجزائرية ٠

الاستعداد البشرى :

يستحسن ان يتقن استاذ الفلسفة لغة اجنبية الى جانب اللغة الاصلية العربية كما يجب ان يتخرج من المدرسة العليا للاساتذة أو يتلقى تكوينا مهنيا عمليا فى الجامعة يمكنه من الشروع فى مهمته وهو يمتلك تجربة مهنية ضرورية حتى ولو كانت ضئيلة بحيث يكون ملما عند مباشرته للعمل بمادة تعليمه وبمبادىء علم النفس عامة وبنفسية المراهق خاصة واستعداداته وقدراته كما يلم بمناهج تدريس هذه المادة وتقنياتها الاولية التى تعصمه من التعثر فيضيع وقتا طويلا ثمينا لاكتساب هذه الخبرة الاولية وبالتالى تضيع أوقات الطلاب المقبلين على امتحانات بها يتحدد مصيرهم ومصير عائلاتهم فى المستقبل وعليها يعتمدون ٠

2 ـ التكوين المهنى بعد التخرج من الكلية :

أو من المدرسة العليا للاساتذة وكلنا نعلم ان مجهودات المفتش العام فى هذا الصدد كبيرة ٠ هناك ندوات تربوية تعقد ودروس مثالية تعرض على الاساتذة ولو اضيفت بعض الندوات الشهرية تعرض خلالها أهم المشاكل التى تعترض الاساتذة فى تدريس هذه المادة ٠

ويقع البحث عن حلول مشتركة من شأنها ان تساعد الجميع ٠

عرض دروس مثالية : من طرف اساتذة مختلفين اذا امكن الامر ، كل حسب درجة نجاحه فى جانب من جوانب مادة الفلسفة أو علم النفس أو علم الاجتماع أو المناهج ٠٠٠

دروس تجريبية :

تخصص بعض دروس تجريبية للمبتدئين يفسح فيها المجال لمناقشات حرة بناءة من شأنها اضاءة السبيل للجميع والكشف عما هو غامض كما تعطى لهم نماذج لمذكرات فى تدريس كل نوع من انواع مواضيع البرامج ترسم عليها :

- مراحل عرض درس فى المنهجيات ٠
- مراحل عرض درس فى علم النفس ٠
- مراحل عرض درس فى علم الاجتماع ٠
- مراحل عرض درس فى الميتافيزيقا ٠
- مراحل عرض درس فى الاخلاقيات ٠

الدروس المتلفزة لمادة الفلسفة :

ساهمت الدروس المتلفزة مساهمة فعالة فى تكوين الاساتذة من جهة وفى مساعدة الطالب على مراجعة بعض الدروس والتعمق فى فهمها غير انها لم تعرض كل الدروس المقررة كما ان وقت عرضها غير مناسب للتفكير والتأمل ـ كما ان عملية معاناة

المشكل الفلسفي المطروح كانت غير مضمونـة للمشاهد ومحاولة حل الاشكال المطروح والتفاعل معه ومع جو القسم لا يمكن ان يحصلا في هـذا الصدد وبالتالي فان تقويم تفكير الطالب المشاهد غير ممكن ·

هذا علاوة على ان مستوى الطالب ووضعيته كمشاهد لا تسمح له بأخذ ملاحظات كتابيـة ـ نرجو ان تضاف الى مثل هذه الدروس محاضرات فلسفية عامة من نوع الثقافة للجميع متبوعـة بمناقشة قصيرة حول الموضوع فى نطاق برامج الفلسفة المقررة لطلاب التعليم الثانوى ·

هذا بالنسبة لتعريب مادة الفلسفة وما تطلبه من مجهودات , رغم انها لا تمثل الا جزءا مـن عملية التعريب ككل اذا اعتبرنا اللغة كمنطلـق لكل تعريب·

والتعريب كما نعلم قضية مفروغ منها غير ان المشكل لا ينحصر فى حذف لغة أجنبية ووضع لغة وطنية مكانها وتدريسها بالوسائل القديمـة بما فيها من نصوص وأساليب وتفكير لا تساير التاريخ ولا تعبر عن احداثه المختلفة وميادينـه المتنوعة فى المجال الاقتصادى والعلمى والاجتماعى والفنى والعقائدى والفلسفى والسياسى ، فحيث تكون لغة عادة يكون عالم متغير متطور ابـدا عالم العمل والقرارات والمشروعـات والخلـق والابداع ، وعالم الصخب والعطب والتعثر كذلك·

وحيث يكون عالم يكون تاريخ لان اللغة ليست أداة جاهزة أو تراثا مقدسا تركه الاجـداد ولا يقبل أى تغيير ، بل هى تلـك « الحادثـة » التى تملك بين يديها أعلى امكانيات الوجود الانسانى وتطور اللغة لا يعنى ضعفها ، بل حياتها ، وحتى لا نترك اختيار التطور اللغوى والحضارى لحريـة التقدير وشعوذة هذا وذاك ، حسب مفاضلة كل منهما بين شتى المصادر ومختلف الاتجاهات وجب اعادة النظر فى أسس تدريس هذه اللغة حتى لا نقضى عليها بوسائلنا وبذلك نحود عن الهدف الذى لا بد ان يرمى اليه تعليم أية لغة وهو اعداد الاجيال الصاعدة لخوض الحياة الثقافية المقبلـة والقيام بمهامها الاجتماعية الحديثة وما تتطلبـه من يقظة ووعى ودقة فى التعبير والتفكير والايجاز والوضوح حتى يخرج الطالب من المدرسة وهـو يمتلك زمام لغة عصرية دقيقة واضحة مرنـة وتفكيرا سليما منطقيا قابـلا للتطور والنضج بعيدا عن التحجر والجمود والثقل والاطراء , لان الهدف الاساسى مـن تعليم اللغة هـو دراستها كوسيلة للتعبير عن أفكارنا فى هذا العصر لا عن أفكار أسلافنا تعبيرا دقيقا منطقيا ، أى دراستها كمادة حية تؤدى وظيفتها فى الاتصال والتفاهم من خلال وحدانها المتفاعلة المتكاملة ·

واننا لا ندرسها لنتامل رونقها ، بل ندرسها لاعادة أكتشاف عناصرها أكتشافا جديـدا كى نستثمر مكنوناتها استثمارا ثريا · ونتنـاولها كعلم ملاحظة لا يقل عن العلوم الطبيعية الاخرى دقة وتشخيصا وحيوية ·

ان ملاحظة أشياء طبيعية ومقارنتها واستنتاج القواعد التى تخضع اليها مجموعة ما من الاشياء

ثم الخروج بهذه القواعد أى القوانين لتطبيقها على ظواهر أخرى متشابهة ما هى الا ملاحظة التراكيب اللغوية وتحليلها وفهمها وتركيبها ومقارنتها ثم استنتاج قواعد الوحدات اللغوية للخروج بها الى ميادين مشابهةحرة نعبر بواسطتهاعن افكارنا تعبيرا قياسيا منهجيا صحيحا ·

وكل ذلك يتطلب أسسا منهجية وتربوية ولغوية ونفسية واطارات كفأة لتحمل مسؤولية هذا المصير الحضارى الوطنى ·

ورغم ما حققه التعريب فى مختلف مستويات التعليم من نجاح فانه لا زال يعانى ضعفا كبيرا ويلاقى عراقيل عديدة منها العراقيل العفوية الناتجة عن جهل بعض المعربين لاسس تدريس اللغة الحية ومنها العراقيل المدبرة والمقصودة من طرف مناهضى التعريب والتى تهدف الى معارضة وتمديد أجل انتشاره بشتى الوسائل الفنية والديبلوماسية المحكمة ·

فالتعريب قضية تنفيذ عملى أكثر مما هو قضية تخطيط وزارى · والتنفيذ لا زال معهودا الى ذوى اللغة الاجنبية ·

أما كيف يسير التعليم حاليا ؟ فمما لا جدال فيه هو ان اللغة العربية تدرس لجميع التلاميذ وعلى جميع المستويات الابتدائية والثانوية والجامعية غير ان بعض الاقسام أخضع لتجربة التعريب الكامل بما فيه المواد العلمية والاخرى تدرس فيه هذه المواد باللغة الاجنبية بالاضافة الى تعليم اللغة العربية كلغة · ويواصل كل فريق دراسته حسب الاتجاه الذى أعطى له فى الابتدائى وهذا على جميع مستويات التعليم ، من الابتدائى الى الجامعى الامر الذى يجعلنا نلاحظ ان التعليم يسير وفق اتجاهين مختلفين : ويخرج طبقتين متميزتين : طبقة معربة وطبقة مفرنسة · ومهما كانت أسس هذه التجارب منطقية ومعقولة فى فترة من الزمن ، فانها الآن تشكل خطرا جسيما على ديمقراطية التعليم وعلى وحدته الحضارية ان لم نقل انها تواصل خطة استعمارية طالما عملت على تفرقة افراد الامة الواحدة لغويا وفكريا ومنهجيا ·

ان التعريب لا بد ان يشمل كل المواد الدراسية وكل المستويات مع ادخال اللغات الحية الاخرى فى جميع المدراس من الابتدائية الى الجامعية وهذا معمول به فى عدة بلدان غربية متقدمة ·

أما على مستوى الاطارات والتكوين المهنى :

فرغم التحسن الملحوظ ، وسير الاطارات نحو الجزأرة التامة فانها لا زالت تشكو تنوع اتجاهات المدرسين وتنوع طرقهم ولهجاتهم واختلاف تكوينهم مما يجعل مهمة الاطارات المشرفة على المراقبة والتكوين المهنى أساسية وخطيرة فى نفس الوقت ، ان لم تؤد على أكمل وجه · فبقدر ما يكون للمفتشين العامين والابتدائيين والمستشارين التربويين من كفاءة دينية وعلمية وادارية وخبرة فنية واختصاصات معينة يمكن ان نضمن تحسين اطارات المدرسين ·

دور المعاهد التكنولوجية في عملية التكوين المهني:

ان المعاهد التكنولوجية من أروع الانجازات التى حققتها القيادة الثورية والتى تعلق عليها آمالا كبيرة وقد ساهمت فى ادخال بعض التحسن على الاطارات الحديثة من الشباب ولو أدخلت عليها بعض التعديلات , على ضوء التجارب الاخيرة لكانت فى طليعة الاجهزة الحيوية للتكوين المهنى الناجح ، كأن تحدد ادارة التكوين المهنى مثلا :

1) المذهب Doctrine التربوى التوجيهى العام وتضبطه فى وثائق رسمية ومراجع مدرسية يكون الغرض منها توحيد طريقة اعداد المدرس الجزائرى ٠

2) نوع الاطارات المسيرة والمنشطة لهذه المعاهد التكنولوجية ٠

3) التنسيق بين مختلف عناصر التكوين المهنى من مفتشين الى اساتذة التربية والى المعلمين المطبقين ٠ ونصل فى النهاية الى دور التاليف المدرسى ودور المراجع المدرسية فى عملية التعريب عامة والتكوين المهنى خاصة ٠

فنلاحظ ان المراجع المدرسية والوسائل التربوية تكاد تكون فى طليعة الادوات التى تضمن لنا حاليا التغلب على كل النقائص المذكورة سابقا ٠ وهذا اذا ما تحسن محتواها ومنهجها ٠

والدليل على ذلك ، ان التجربه التى اجريت فى السنة الاولى والثانية من التعليم الابتدائى ادت الى نتائج مدهشة بنسبة 90 ٪ رغم قلة خبرة المعلمين ، وهذا دليل واضح على مدى اهمية هذه المراجع فى تكوين المعلم وافادة التلميذ بمعلومات مدروسة مسبقا ، روعيت فيها الجوانب التربوية والنفسية والعلمية ـ كيفا وكما ـ مما يجعلنا نعتقد ان التعريب يتوقف بالدرجة الاولى ، من الناحية العملية على هذه الوسائل التربوية والمراجع المدرسية ٠ فاننا عند ما نعد كتابا يحتوى على نصوص حية من واقع الطفل ، فيه تمارين عملية متنوعة تشمل كل فروع اللغة ومذكرات خاصة بكل فرع منها فاننا نصل فى هذا الطريق الى :

1) ضمان اعداد الدروس اعدادا كافيا ٠

2) اجبار المعلم على استعمال هذه الرسائل الجاهزة وتطبيقها حسب التوجيهات التربوية التى ترافقها ٠

3) افادة التلاميذ بمعلومات مدروسة تتوفر فيها الشروط التربوية الضرورية ٠

وكل ما أضافه المعلم الى ذلك يعتبر من باب التوسع والابداع وهذه من الكمالات بالنسبة لواقعنا ـ فى الوقت الراهن ٠

واقع اللغة العربية
في الصحافة الإصلاحية في الجزائر

د. محمد ناصر
كلية الآداب
جامعة الجزائر

تمهيـــد :

لعل المقاومة التى حاضتها الامة الجزائرية من اجل الحفاظ على لغتها ضد طوفان «التغريب» لم تقل عنفا وضراوة عن مقاومتها من اجل الارض ٠ فانه بقدر ما كانت زوابع التعرية والتجريد من طرف السلطات الاستعمارية هوجاء عنيفة ، بقدر ما كانت نزعة التشبث بلغة القرآن من طرف المسلمين الجزائريين مصرة وعنيدة ٠

فمنذ السنوات الاولى للاحتلال الفرنسى ، راحت السلطات العسكرية تنفـذ مخططا جهنميا تهدف من ورائـــه الى القضـــاء على مميزات الشخصية الجزائرية وذلك بالقضاء على دينها الاسلامى ، ولغتها العربية ، حتى تسهل لهـــا بعد ذلك عملية تذويب هذه الامة الصلبة •

فقد كتب الجنرال « فالز » سنـة (١٨٣٤) بان كل العرب (الجزائريين) تقريبا يعرفون القراءة والكتابة حيث ان هناك مدرستان فى كل قرية •• وفى تقريـــر لنابليون الثالث ، كتب الجنـــرال « دوهوتبول » سنة ١٨٥٠ بان الدراسات الاسلامية كانت فى وضع مزدهر نسبيا عشية الاحتلال •

اما الاستاذ « ديميرى » الذى درس طويلا الحياة الجزائرية فى القرن التاسع عشـر ، فقد اشار الى انه قد كان فى قسنطينة وحدها ، قبل الاحتلال خمسة وثلاثون مسجدا تستعمل كمراكز للتعليم ، كما كان هناك سبـــع مدارس ابتدائية ثانوية يحضرها ما بين ستمائة وتسعمائة طالب ويدرس فيها اســـاتذة محترمون لهـم اجـــور عالية (١) •

ان امثال هذه الاعترافات (١) •• تصور لنا مدى الازدهار الذى وصلت اليه اللغة العربية فى الجزائـر وتبين لنا من جهة اخـرى ، نتيجة انتصار الاسلحة الفرنسية التى قوضت المساجد التى كانت تزاول فيها هذه اللغة ، وشردت الشيوخ والطلبة فى مطاردة وحشية •

ويبدو ان الحكومـة الفرنسيـة قد ادركت جيدا بانها بمحاولاتها تلك قـد اصابت المسلمين فى الصميم ، وفضحت سياستها اللاتينية المسيحية باسلوبها العدوانى ذاك ، فراحت تتحايل عـلى الاهالى باصـــدار القوانين التى تزعـــم بانها ستفتح للغة العربية مكانا فى مدارسها •

ففى قانون التعليم الاجبارى الصـــادر فى سنة (١٨٨٢) بفرنسا والذى اصبح سارى المفعول بالجزائر فى سنة (١٨٨٣) احتوت مادته الثالثـة والاربعون على ان التعلـيم فى مدارس الاهالى سيكون باللغتين العربية والفرنسية (٢) •• غير ان هذه المادة لم يكتب لها رؤية النور ابدا •

وحتى تلك المـــدارس الرسميـــة الثـلاث المؤسسة منذ سنة (١٨٥٠) فى انحاء مختلفة من القطر فانها لم تدرس اللغة العربية الا لتخـرج لها ما تحتاج اليـه من موظفـــين فى ادارتها ، قضاء وترجمة ، وتدريسا بل ووعضا فى المساجد ايضـــا •

ولقد اوضع بعض غلاة «المعمرين» انه مـن الافضل للحكومـة الفرنسية ان تستمـــر عـلى تدريس اللغة العربية فى هذه المدارس ، لان هذا يضمن لها توجيه ، المثقفين بها توجيها سياسيـا كما تريد ، ثم لتضرب بها «الزوايا» التى مـــا انفكت تتمسك بلغـــة القـران بدافـــع التعصب الدينى (٣) •

والحق ان فضل بعض الزوايا « على الامة الجزائرية لا ينكـــر ، فانها ـ حسب ـ شهادات

---

1) ابو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ص 73

1) انظر Ali Merad, Regards sur l'Enseignement... pp. 617-621.

2) انظر م . س ، ص : 617 ـ 616

3) انظر م . س ، ص 168

متعددة (١) قاومت فى صبر عظيم فى سبيل الحفاظ على لغة القرآن سيما بعض تلك الزوايا ، الكبيرة التى كانت تفضل العمل الجدى على الشطحات الصوفية ، مثل معهد الهامل ، ومعهد البلولى ، ومعهد سيدى منصور ·

كما كان فضل الجرائد والمجلات العربية المشرقية التى كانت تمد الجزائريين بنفس الحيلة فى هذا المجال عظيما · فانها هى التى لقحت افكارهم بالنهضة العلمية الرائعة التى كانت فى هاتيك البلاد · وعلمتهم بان «صيانة اللغة العربية لغة الدين والثقافة ولغة القومية من احسن الاسلحة اصابة لخيبة مساعى الاستعمار ·· فزادهم ذلك التحقيق ايمانا وتشبثا وعزما وحرصا على الدراسات اللغوية وحثهم على العلوم الاسلامية اكثر من ذى قبل (٢) » ·

وعلى اعتاب الحرب الكبرى أخذت بوادر اليقظة تفتح بعض الاعين فتأسست فى سنة (١٩١٣) بجهود بعض الفضلاء المخلصين فى مدينة « تبسة » الجمعية الصديقية لاحياء اللغة العربية « فكان من اعظم نتائجها فتح مدرسة اهلية على نظام عصرى بديع ، اعدها لتكون اول مدرسة حرة نظامية أسست بالقطر الجزائرى واستقدمت للقيام بشؤونها معلمين من علماء تونس ، ولكن الاستعمار الذى كان يفزعه شبح اللغة العربية وترعبه كلمة الاسلام ، اغلق ابوابها وشرد اصحابها ، بعد ثلاثة اشهر فقط من افتتاحها (٣) » ·

ولندلعت الحرب العالمية الاولى فكانت للغة العربية فى القطر الجزائرى حدا فاصلا بين ماض حالك متجهم ، ومستقبل مضطرب مضبب ، فانها « اثرت تأثيرا لا يقل نفوذا عن تأثير الاستيلاء الفرنسى ولو كانت نتائج الحرب العالمية الاولى مناقضة كل المناقضة لنتائج الحرب الاستعمارية الفرنسية ، اذا الحكم الفرنسى اوقف سير ونمو اللغة العربية بالجزائر بينما الحرب العالمية الاولى بعثت فى المجتمع الجزائرى العربى تيارات اقتصادية وسياسية وثقافية طفرت باللغة العربية طفرة لا مثيل لها (١) ·

وتمخضت احداثها الكبرى عن جيلين : شباب مثقف باللغة الفرنسية متخرج فى مدارس الحكومة ، اكثره معجب بهذه اللغة وآدابها · وشباب مثقف باللغة العربية متخرج فى الزيتونة بتونس والازهر بمصر وغيرهما ، مؤمن بلغته وحضارته وبينما كان الفريق الاول يسعى لان يجعل من لغة المستعمر اداة بعث ووسيلة حصول على الحقوق ، راح الفريق الثانى يكافح فى استماتة عن لغة القرآن ، ويتخذ منها حجر الزاوية فى بناء الشخصية العربية الاسلامية لجزائرية·

واستمر الصراع بين الفريقين على اشده حتى انتصر الفريق الثانى وتبلورت نتيجة جهاده فى تأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التى كانت تدوى من مدارسها هذه الشعارات « الاسلام ديننا ، العربية لغتنا ، الجزائر وطننا »·

---

1) انظر توفيق المدنى ، كتاب الجزائر ، ص 375 ، وسعد الدين ابى شنب ، النهضة العربية فى الجزائر ، مجلة كلية الآداب ، ع 1 ، (1965) ص 38

2) م . س ، ص 40

3) انظر تاريخ نشاة هذه المدرسة بجريدة البريد الجزائرع 3 (1913/9/12) وجريدة الصديق ع 30 (1921/4/18)

1) ابن شنب النهضة العربية ، ص 33

المقالة الصحفية واللغة العربية

كانت الصحافة الوطنية فى طليعة الصفوف تدافع باستماتة عن حرمة اللغة العربية ومكانتها فى الجزائر ولم يتبلور دفاعها ذاك فى المقـالات الحارة التى فتحت لها صدرها ، وتدفقت عـلى انهرها فحسب بل كانت هى نفسهـا عامـلا من عوامـل نموها ، وانتشارها فى انحاء القطـر الجزائرى بما منحته لهذه اللغة من تطور مـع متطلبات العصر ، واستعمال للاساليب البسيطة الهادفة التى خرجت باللغـة من قوالب عصـر الانحطاط المتحجرة ٠

ولقد نبهنا ابن باديس الى ما كان للصحافة من فضل كبير فى جعل اللغة العربية فى الجزائر لغـة متداولة رغـم الحواجز والعقبات : ٠٠٠ « والشعور بهذا الواجب يعزى الفضل فيه الـى ما قام به نبغاء الجزائر ودهماؤها من الدعـوة والارشاد فظلوا ينافحون عن اللغـة والديـن ، مظهرين ما لهما من الروعة والجلال ، والى مـا قامت به الصحافة الجزائرية الفتية من ضروب التعضيد والتأييد والاذاعة ، فتوصلت بعد جهاد طويل الى غرس ملكة الذوق العربى فى النفوس ، فتذوق العموم من ثم حلاوة اللغة العربية وطلاوة اساليبها الرشيقة (١) » ٠

ويبدو أن ابـن باديـس يعنى بالصحافة الجزائرية الفتية ، تلك الصحف الوطنية الصادرة فى العشرينيات على الاقل ، لان هذا الموضوع لم تعالجه المقالة بصفـة جدية متكاملة الا بعد الحرب الكبرى ، اما قبل ذلك فاننا لا نجد غـير مقالات قليلة جدا تعد على الاصابع ٠

ـ ١ ـ

يجىء فى طليعـة المقالات التى تصدت لمعالجة قضية اللغة العربية فى الجـزائر ، مقال (٢) ٠٠ قد صدر فى سنة (١٩٠٤) جمـع الـى افضلية السبق ، التركيز والموضوعية ونم عمـا يتمتع به كاتبه من عقل نير وافق واسع ، ونظرة بعيدة ٠

ويدلنا عنوان المقال « حياة الامة بحيـاة لغتها » على الفكرة الجوهرية التى اتخذها الكاتب منطلقا ثم راح يجمـع حولها آراءه فى ثـلاث حلقات ، فجاءت قويـة غزيرة تتدفـق بالامثلة الواقعيـة والشواهد المحسوسة دون ضعف او تـردد ٠

٠٠هذه لغتنا العربية الشريفة التى انزل بها الكتاب ، لغة القرآن والدين الاسلامى ٠ قـد اصبحت منذ عهد مديد بعد اشراق انوارها على الخليقة كسفينة فى لجة البحر تتهددها العواصف وتتجاذبها عوامل الحدثان ، تكاد تذهب بها ريح الاهواء وعوامل الاهمال بمنعتها الراسخة عـلى دعائم البيان ٠ ويسؤنا ان نرى من تلك العوامل ، واسباب التدلى والتداعى لبنائها السواد الاعظم من بنيها الذين رضعوا افاويقها ، وتغذوا بلبنها فانفطروا على تعشقها تعشق العارف بمقدارها٠٠ كيف لا وقد جاء الكتاب المبين بهذا اللسان الفصيح آيـة الاعجاز ومنتهى البلاغة ٠٠ ولذلك نـرى الشعوب الاسلامية على اختلاف لهجتهم وتعدد صبغتهم يجتمعون فى لغـة القـرآن العظيم لمـا يعلمون من انـه الاس المتين لهيكل الجامعـة الاسلامية مهما بعدت الدار ونأى المزار ٠

1) الشهاب ، ج 8 م 5 (سبتمبر 1929 م ، ص 29

2) المقال بدون امضاء عنوانه « حياة الامة بحياة لغتها » المصباح ع : 18 و 19 و 20 (1904/9/30) واقدر بانه مطبوع باسلوب عمر بن قدور وروحه

1) م ٠ س ع : 19

··وان كان الفضل للغة العربية ومحاسنها فى عالـــم الترقيات الفكرية الاوروبية انصـــار ينشرون مفاخرها ، ويتحدثون بذكرها ويمجدون آثارها على صفحات النشر والاطراء فلها مــن غيرهم خصوم واعداء يطوون فضائلها ويغبنونها حقها ، فيقولون بصعوبة مناطقها وتعقد الفاظها ·· واستحالة الالمـام بجميعها لـمن استغـرق العمر فى تدريسها وما ذلك الا لاحد امرين اما جهلا وتجاهلا بحقيقتها واثباطا للعزائم وتكاسلا عن مزاولتها او لغاية فى النفس ودسيسة تدس··

··وقد طالما رأينا من الفريق الثانى افرادا تطفلوا على العربية فلم يشموا لبلاغتها ريحـة الا بالاحتكاك او المخالطة ، ينكرون على العربية فضلها فيقولون انها لغة غير صالحة لتعليم العلوم الوقتية مانعة عن تقدم النشـأة الاسلامية يحبب العدول عنها فى التقدم اما الى البربرية العامية او الى لغة اجنبية وربما تفنن بعضهم فى افانين الاختراع فجاءت قريحته الكاسدة بتعويضها بلغة عامية تكتب بحروف افرنجية وهو رأى الالمـانى (ولهلم سبتا) المتوفى (١٨٨٢) وقامت الجـرائد الشرقية عموما والمصرية خصوصا بتفويق سهام التنديد والتقريع وتشديد الملام على المستريلمور المستشار بمحكمة الاستئناف المصرية الذى الف كتابا ادلاج « المؤيد الاغر » ترجمة مقدمته ـ فى جعـل اللغة العامية المصرية فى التعليم بـــدلا من اللغة العربية الفصحى وحاول اقناع المصريين بان ذلك الاستبدال خير لهم واولى ولا يخفى ما فى هذا الزعم الذى ردته صحيفتنا « المـــؤيد » وغيرها بردود ابكتت وافحمت والجمت من قـام به التلاعب بالافكار ودس السم فى الدسم واظهار الشر للامة والعمل على محو رسمها من لـــوح الوجود بترك لغة دينها وشريعتها وعلومها وآدابها والاجهـــاز على قـــوام وجودهـــا وحياتهـــا الاجتماعية (١) ··

هذا مقال صدر فى سنة١٩٠٤ وقد عرضنا اكثر فقراته ، عمدا ، حتى تقف على ما يحتـوى عليه من افكار هادفة تجمع بين الدقة والشمول · وكأن تلك الافكار الحية التى عرض الكاتب على ضوئها ما تلاقيه اللغة العـربية من خصومها ، واعدائها ، تمهيد مكثف يحتوى على كل العناصر الجوهرية التى ستصادفنا فى المقالات القادمـة بصفة متفرقـة · وهو قبل هذا وذاك يوضـــح للمهتم بتتبع سير حركة الفكر فى الجزائر بـان موقف الجزائريين من لغتهـــم كان ابـدا موقفا رصينا ثابتا لا يتزحزح وهو يوضح بان الحرص على مصير اللغة العربية ، والتمسـك باهدابها معناه حرص وتمسك بالدين الاسلامى بل هـــو الحرص والتمسك بالجامعـة الاسلامية قاطبة ، لان لغة القرآن لا تجمع تحت لوائها العرب وحدهم فقط ولكنها تحتضن كل المؤمنين بشريعة الاسلام·

كما يندد بخصوم اللغة العـربية واعدائها ســـواء فى ذلك ابناؤها الذيـن جحدوا فضلها ففضلوا عنها لغات دخيلة اخرى ، او اعداؤهــا الاجـانب الذيـن ما فتئـــوا يكيدون لها بالدس والتحايل لمطامع سياسية او احقاد صليبية ·

كتاب الحركة الاصلاحية واللغة العـربية : (١٩٢٥ ـ ١٩٣١)

لقد كان من اهداف الحركـــة الاصلاحية الاساسية نشر الثقافة العـــربية فى الاوســاط

١) م · س ع : 20

الجزائرية ، وقد صاحبتها هذه الدعوة منذ بداية ظهورها على صفحات المنتقد والشهاب ، وما عاضدها بعد ذلك من صحف عربية اخرى « كالبرق » (١) « ووادى ميزاب » (٢) « والاصلاح » (٣) ·

وظهرت فى المقالات المنشورة فى هذه الفترة بعض الافكار الجديدة التى لم نعرفها من قبل فقد انقلب التشكى من الواقع المرير الى دراسة تحليلية جدية لمعالجة الموقف ، وتحولت النظريات الفردية ، الى شبه اجماع تلتقى عنده نظرات المصلحين ، وكان هذا التوحد سببا فى اثارة اعداء اللغة العربية بمختلف نزعاتهم واهوائهم ، وكان على الكتاب الاصلاحيين من جهة اخرى ان يتصدوا لكل هذه العناصر وهم ، ينافحون عن اللغة القومية كأداة لبناء الشخصية الجزائرية·

هنالك شباب متفرنس بهره بهرج المدنية الغربية فتعصب للغة الفرنسية وتنكر للغة القومية وهنالك المستعمرون الحاقدون الذين يسعون جاهدين لاخماد انفاس كل ما من شأنه بحث الذاتية الجزائرية·وهنالك الطرقيون الاستغلاليون الذين يرون فى انتشار العربية الفصحى بأساليبها العالية وسيلة لفتح الا عين فتطلع على اصول الاسلام الصحيحة ، فيخسرون بذلك هذه الجماعات الهائلة التى كانوا يسخرون جهلها وسذاجتها لجشعهم · واخيرا العنصرية البربرية التى اخذ المستعمر يروج لها ويغذيها ليصيب الوحدة الوطنية بالتجزأة والتفرق · وبقدرما كانت تلك المقالات الصريحة عنيفة مع المتفرنسين والطرقية بقدر ما كانت حذرة ، متحايلة مع السلطات الحاكمة ·

لعل تعصب المتفرنسين للغة الفرنسية ، كان من اشد العقبات وقوفا امام انتشار اللغة العربية بل ان المصلحين انفسهم كانوا يعانون فى جلساتهم من وباء انتشار اللغة الفرنسية وهى تعرقل باشواكها سيرهم ·

فاننا نجد فى جريدة « المنتقد » مقالا (١) · يحدثنا فيه كاتبه عما عاناه المجتمعون فى احدى الجلسات من تفرق لغتهم ، وصعوبة وسيلة التفاهم بينهم وكانت الحاجة الى شرح وجهات النظر جد اكيده ، لانها جلسة تأسيسة لانشاء احد النوادى ·

··كان اكثرية الحضور بالجلسة العامة الفارطة تفهم العربية الكتابية وفيهم عدد قادرون على الخطابة بها ، وكثير منهم لا يعرفون الفرنسوية وكانت الاقلية تفهم الفرنسوية وتخطب بها ، ولا تعرف من العربية الا الدارجة ولكنها لا تستطيع ان تعبر بها عن جميع افكارها ، ومن هؤلاء الذين تولوا تحرير قانون النادى لمعرفتهم وذكائهم ، فكتبوه بالفرنسوية التى يعرفونها دون العربية التى يجهلونها ، فلما اجتمع القوم جاء المشكل المحزن وهو عسر التفاهم بين اخوة دينهم واحد ، ووطنهم واحد ، ولغتهم واحدة بم يتفاهمون ؟ أبالدارجة ؟ أم بالعربية ؟ أم بالفرنسوية ؟

1) البرق : صاحبها محمد السعيد الزاهرى صدرت بالجزائر 1927
2) وادى ميزاب : لابى اليقظان صدرت بالعاصمة فى سنة 1926
3) الاصلاح : للطيب العقبى صدرت فى بسكرة فى سنة 1927
1) بدون امضاء (ولعله لابن باديس) نقدات حول النادى ،لا تفاهم بغير العربية ، المنتقد ، ع : 9 (1925/8/27)

••نكتب هذا والاسف ملىء قلوبنا على ضياع لغتنا حتى كاد ينسد طريق التفاهم بيننا ، وبكل اخلاص نقول لاخواننا الذين برعوا فى لغة غيرهم حتى كادوا يفوقون اهلها : « يجب عليكم ان تعتنوا شيئا بلغتكم حتى لا يحرم اخوانكم من جواهر معارفكم ولا تحرموا انتم مما عندهم فانه لا يحصل التفاهم بينكم الا بها •

تلك هى المأساة الاليمة التى كانت تعيشها لغة الضاد بين اهلها وتلك هى احدى النتائج القاسية التى سجلتها اللغة الفرنسية على ارض يدين اهلها بالاسلام ، ولعمرى ان الصورة المحزنة التى وصفها المنتقد فى سنة ١٩٢٥ م كانت نتيجة حتمية لما حذر منه كاتب مقال « المصباح » فى سنة (١٩٠٤ م) •

ـ ٢ ـ

وعن هذه الحالة الاسيفة يطالعنا ، الحافظى الازهرى (١٨٩٥ ـ ١٩٤٨) هو الآخر بمقاله وقد عاش الازهرى فى مصر طويلا ، ولمس عن قرب ما للغة العربية فى تلك الديار من الاجلال والتقدير ثم قارن بين حالها هناك وحالها فى القطر الجزائرى فهاله ما رآه من هوان امرها ، وما سمعه من رطانة الشباب المسلم ، واستنكافه عن النطق بلغته القومية •

وكأنه ادرك عقدة النقص التى دفعت اولئك الشباب الى اساءة الظن بلغتهم ، والنظر اليها بنظرة فيها كثير من الزراية والاحتقار فهم ما انفكوا يصفونها بالعجز عن مسايرة التطور العصرى ، فرجاهم ان يلفتوا انظارهم الى الافق المشرقى ليشاهدوا ما هنالك من تقدم ورقى لم تقف اللغة العربية حجر عثرة فى سبيله ابدا ، وان اهلها المعتزين بها قد بلغوا من النهضة شأوا بعيدا وسجلوا فى الميدان الثقافى انتصارات رائعة •

بينما يجد الجزائريين المتفرنسين فى الميدان العلمى فى مؤخرة القافلة وفى الميدان الوطنى القومى مذبذبين بين جنسيتهم وغيرها من الجنسيات الدخيلة •

••« هذه المظاهر التى نراكم عليها فى هجران لغة قومكم ، واعتناق لغات اوروبا حتى فى العوائد الجارية والمخاطبات الاعتيادية مما يحملنا على الظن بان العاقبة بكثير من الجزائريين بعد حين من الدهر ـ ستكون نتيجتها استبدال جنسية بجنسية لا سمح الله • ولست اقول بان نبقى على جمودنا بان لا نتعلم اللغة الفرنسوية وغيرها • كلا والف كلا •• بل اقول يجب ان نتعلم اللغة الفرنسوية والعلوم المدرسية ، ويجب ان نتعلم بجانب ذلك لغتنا العربية الفصيحة لنحتفظ على تعاليمنا الدينية ، ومزايانا التاريخية وآدابنا القومية حتى نأمن من الانسلاخ من جنسيتنا وشعارنا العربى ••»

ـ ٣ ـ

ثم نجد ابا اليقظان (١) (١٨٨٨ ـ ١٩٧٣) هو الاخر متألم النفس ، منكسر القلب ، حين يحدثنا عن المستوى المنحط الذى هوت اليه لغة الحديث بين المسلمين فى المجتمعات الجزائرية فقد

---

1) الحافظى الازهرى صوت العلم يناديكم فهل من مجيب ؟ الشهاب ع 43 (1926/8/2)
1) اللغة العربية غريبة دارها ، وادى ميزاب ، ع 55 (1927/11/3)

اصبحت بحكم المسخ العام « رطانة غريبة ، وخليطا من اللغة لا هو عربى ولا بربرى ، ولا فرنسى ، وانما هو مزيج من اللغة العربية والبربرية ، والفرنسية ، والعربية منه اقل الثلاثة مع ما هى عليه من التكسر ــ والاختزال ، والاغرب من هذا ، انه كثيرا ما يقع اشكال بين المتخاطبين بالعربية واذا التجؤوا الى الفرنسية تفاهموا وزال الاشكال والكل عرب مسلمون » ·

ولا تخفى ما فى هذا التعليق الاخير من تهكم مرير ، وسخرية لاذعة حزينة لا يدانيها فى المرارة والحزن الا العوامل التى يعتبرها الكاتب سببا فيما وصلت اليه لغة القوم فى هذه الديار·

اولا : جهل المسلمين واعراضهم عن العلم الصحيح ، وضعف تمسكهم بالدين الحنيف ، فلو انهم عضوا عليه بالنواجذ واقبلوا على العلم الصحيح ونفروا من الجهل نفورهم من الفقر ، لكان للغة العربية بينهم مالها بين اخوانهم فى المشرق من المكانة العليا والمنزلة الرفيعة ·

ثانيا ــ عدم غبة الحكومة فى وجودها ، والعمل على قتلها واماتتها لاسرار تعلمها هى ، فلو تركتها وشانها ولم تصبها فى مقاتلها بتقييد حرية نشرها اوانها نشطت سيرها · وانعشت روحها فجعلتها بجانب لغتها ، رسمية فى الادارات والمدارس وغيرها كما يقتضيه الانصاف نحو الاغلبية الساحقة ؟ لكان لها شأن واى شأن ·

ثالثا ــ وهن القومية العربية ، واندماجها فى القومية البربرية ، وعدم اعتبار هذه العربية لما يجب للاسلام من الاعتبار وللوسيلة حكم المقصد ، فلو كانت للعنصرية العربية نعرتها على احياء لغتها ، وكان للعنصرية البربرية نحو اللغة العربية مالها نحو الدين من التقدير ، والاعتبار لقاموا جميعا ــ وهم كلهم مسلمون وهى لغتهم جميعا ــ بخدمات جليلة نحوها تجعلها فى الجزائر كما هى فى تونس ··

غير ان ابا اليقظان رغم كل هذه المظاهر المحزنة يتفاءل خيرا ببوادر النهوض المتمثلة فى ظهور الجرائد العربية وتأسيس بعض النوادى كما يعتبر ان الشعور السارى بين الكتاب لواقع اللغة العربية المرير ، دليل تقدم وباعث على النهضة ·

ــ ٤ ــ

ويبدو ان تلك التيارات المعاكسة للغة العربية اخذت تتجمع مع مرور الايام وتتعالى امواجها الصاخبة مهددة بطوفان مسخ شامل ، فقد ازدادت جبهة المستعمرين صلابة ، وكشرت عن انيابها علانية ، ونشرت مخططاتها العدوانية وهى تستعد لغزو فكرى مع مرور مائة عام للاحتلال العسكرى ·

وآية ذلك رد الفعل القوى ، الذى اخذ يطبع المقالات المكتوبة ما بين (١٩٢٩ ــ ١٩٣١) بصفة عامة ، والمعالجة لقضية اللغة العربية بصفة خاصة فقد تدفقت افكارها فى حرارة عارمة ، وكانها صرخة استنجاد اخيرة تحذر المسلمين الجزائريين من الوحش اللاتينى المسيحى الذى فغرفاه لا بتلاعهم ·

ولم تكن خطورة الموقف لتذهل الكتاب من اتخاذ الحيطة ، ودراسة المعركة عن روية وتدبر ، فاقترحوا لها الحلول المناسبة وهيؤوا لها المناورة الذكية كما ان قوة الخصم بمختلف عتاده لم تسلمهم للياس والقنوط ، وانما راحوا يقاومونه فى صبر وجلد حتى كتب لهم النصر (بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ·

ففى سنة (١٩٢٩) طالعتنا جريدة «النجاح» بمقال «يصور فيه كاتبه خطورة الموقف ويستنفر الامة الجزائرية لتعمل يدا واحدة فى سبيل انقاذ لغتها · والفكرة فى حقيقتها لا تختلف عما رأيناه عند الكتاب الآخرين ، ولكنها تتخذ هنا طابع التوكيد والالحاح اكثر ·

··هذه الامة الجزائرية بست ملايينها اصبحت خاملة الذكر لا شعور لها بمالها من واجبات ولا علم بما يجرى امامها من ضروب العبر والعظات ··

·· اننا اذا لم نفن العظم واللحم فى احياء لغتنا ، والسهر على نشرها لا ترجع لنا حياة ، ولا يبقى لا قدر الله لا مجدولا فخار والحال اننا كنا اساتيدها والذادة عن حماها ·

·· ان لغتك العربية اصبحت غريبة لا يستقر لها قرار الا اذا نفضت عنك عبار الكسل وتقدمت لها بالمال لتؤسس المدارس وتشيد المكاتب فانفق لها ساعة من الزمن واحيى بنى ملتك بماء لغتهم ··

ـ ٥ ـ

اما ابن باديس ·· (١) فقد حز فى قلبه ما رآه من تقهقر اللغة العربية فى المدارس والقرى وهو ان حالها فى المدن الكبيرة ، وهو يرى ان السبب فى تقهقرها فى المداشر والقرى ـ حيث المقبلون عليها ـ ما يستعمله مشائخها فى التدريس من اساليب عقيمة فالعناية فى هذه الكتاتيب مصروفة الى الحفظ والاستظهار لمتون اللغة دون التفقه فيها وصقلها بالادب لما وقر فى النفوس من جعل قواعد اللغة اداة صماء ، لفهم المسائل الدينية فهما سطحيا لا غير وهو يريدها ان تكون اداة ناجعة يفهم على ضوئها الجيل الناشىء دينه فهما صحيحا فان ادراك المسائل الدينية ادراكا صحيحا يتوقف على حذق اللغة واساليبها الدقيقة بن وعلى حذق العلوم الاجتماعية ·

لكن العوائق التى وقفت دون تحقيق هذا الغرض فى رأى ابن باديس يشترك فيه طبقتان ·

الاولى طبقة الاكفاء الذين فى قدرتهم تدريس اللغة العربية بهذا الاسلوب ، انسحبوا من الميدان وانزووا الى بعض المدن حيث لا رواج لبضائع امثالهم فيها « لان الجمهور من قطين المدن الكبرى عاد اليوم لا يصرف جزءا فى الالف من عنايته بلغته بالنسبة الى عنايته بغيرها ، وقد انفعل بذلك تغليبا للمنفعة الراهنة ··»

اما الطبقة الثانية فهم الذين استهوتهم اللغة الفرنسية ففضلوها على غيرها « استجابة لعاطفة الشهوة واللذة المؤقتة فطفقت تثقف النشىء باحد اللسانين مقتصرة عليه ، وغافلة عن اللسان الاخر القومى ·· »

وينبه ابن باديس هو الآخر الى ما ينتظر الجزائريين من خطر ان استمروا على هذه الحالة من الغفلة والبرود ·

··« الخطر كل الخطر الذى يواجه الشعب الجزائرى فى هضم هذه الطبقة لحقوق لغة البلاد الملية ، ولعل السبب فى هذه النزعة المرتكزة على غير العقل والوعى الصحيح هو اخفاق هذه الطبقة فى مسعاها حيث انها لم تجد اية ثمرة مادية من اللغة العربية ، فشاعت من ثم ان تقصر الابناء على تعلم اللغة الضامنة للعيش واليسر ·· »

١) مستقبل اللغة العربية بالجزائر الشهاب ، ج 8 م 5 (سبتمبر 1929) ص 25 ـ 29

اما احمد توفيق المدنى او (المنصور » ــ كما امضى مقالـــه هذا (١) ‥ فانه يـرى الامـــة الجزائرية » « بين الموت والحياة » وهى فيمـــا يقدر تقبل فى ســـرعة مذهلة على هوة سحيقة لا قرار لها ، فليست القضية عنده قضية صـــراع بين لغة عربية وفرنسية ولكنها صراع بين شخصية عربية اسلامية تريد للامـــة الحياة ، وشخصية مسيحية لاتينية تريدان تسلب من الامة الحياة ٠ ولقد كان المـدنى موضوعيا صـــريحا ، وكذلك وجب ان يكون لانه يضـــع للجزائريين برنامج الحاضر والمستقبل على حد تعبيره ٠

‥ فـالمسالة الموضوعة امامنـا الآن ، هى **مسالة المحافظة على الاســـلام وعلى العربية ، وهذه المحافظة هى البرنامج الوحيد الذى يجب ان يكون برنامج الجـــزائر بأسرها فى حاضـــرها ومستقبلهـــا ‥**

‥ وكأن الجزائر اليوم ، غير شاعرة بتلك الحقيقة الرهيبة القاسية التى نراها رأى العيـــن امامنا ، كأنها ليست شاعـــرة بان الاســـلام فى الجزائر سائـــر فى طريق الموت ، وكانها ليســـت شاعرة بان العربية فى الجـــزائر سائـــرة نحو الاضمحلال ، وكانها ليست شاعرة بانها ان فقدت اسلامها وعربيتها فقد فقدت كل شىء ولم تنـــل اي شىء ‥

والرأى عند المدنى ، بانه لا حياة للغـــة العربية فى الجزائر ما لم يعمل الشعب الجزائرى العمل الجدى الصالح فى هذا السبيل ، وليس له من سبيل الا ان يعتمد على نفسه وحدها ، امـــا ان يعتمد على الحكومة فعليه ان ينتظر عشرين قرنا آخر ، ولا يقول ذلك عاطفة او اتهاما ، ولكنه حساب صحيح مبنى على تجربة قرن كامل ٠

‥ ان الحكومة قد عاشت اليوم معكم مائة عام كاملة ، فما كانت نتيجـــة جهودها لتعليمكم الاســـلام والعربية ؟ ‥

خاتمـــة :

ان النهضة الوطنية التى بدأت مع السنوات الاولى للعشرينيات غيرت من نظرة الكتاب الـى اللغة العربية فاتخذوها اساسا لبعث الشخصية العربية الاسلامية فى الجزائر وصحبت النهضـــة بتمجيد عظيم للغة العربية على انها لغـــة الدين ولغة الحضارة ، وحركت هذه النظـــرة الجديدة الاحقاد فى نفوس المتحزبين للغة الفرنسية فراحوا يعملون على ان تكون اللغة الفرنسية هى السائدة فى الجزائر وحدها ، واثارت هذه المعركة كذلـــك حفيظة الاستعماريين الذين كانوا متأهبين للقضاء على كل حـــركة تشتم منها رائحـــة العـــربية او الاســـلام ٠

وعندما دخلت اقلام الكتاب الاصلاحيين الى الميدان فى سنة ١٩٢٠ استفادوا من هذه التجربة فغلفوا دعوتهم الى اللغة العربية اول الامر بداعى محو الامية والقضاء على الجهل ، والمحافظـــة على الدين ، وكانت تلك النظرة منهم حذرا وتقية لا شك ٠ كما وقفوا من اللغة الفرنسية موقفا مسالما فهم لم يدعوا الى نبذها وراء ظهـــريا ، ولكنهم كانوا يدعون دائمـــا الى الاعتناء بهذه اللغـــات

١) المنصور ، بين الموت والحياة ، الاصلاح ع : 13 (1930/2/27)



الاجنبية كأداة للثقافة المعاصرة (١) ·· التى لا بد منها لكل امة تريد الحياة وهذه النظرة تنم عن سعة فى الافق هنا ·

ولكن الايام انضجت افكار كتاب الحركة الاصلاحية ، وعلمتهم التجربة أن يمارسوا اساليب جديدة اخرى تتسم بالاصالة والعمق ، وبعد النظر ، واذا بالدعوة التى كانت تستوجب اللغة العربية بدافع دينى او قومى ، تصبح عقيدة وطنية تهدف فى تحمسها للغة العربية تحمسا للشخصية العربية الاسلامية الجزائرية التى يجب ان تكون مبنية من هذه العناصر حتى تقف امام كل سياسات التجنيس والادماج والفرنسة ·

وكان لها لكى تنجح خطتها الجديدة هذه ان تقاوم فى اربع جبهات فى سبيل الحفاظ على اللغة العربية ·

١) تقاوم المستعمرين الذين كشفوا عن نواياهم السيئة فى محاولتهم القضاء على كل مقومات الامة الجزائرية لغة ودينا بغية افناء هذا العنصر الصلب ·

٢) الطرقيين الذين شوهوا الدين بالخرافة والتدجيل مستغلين بساطة العامة وجهلها وسذاجتها ، وما من سبيل ينقذ هذه الامة من براثنهم سوى فهم الاسلام فهما صحيحا ، ولن يتسنى هذا بغير حذق اللغة العربية وتذوق اساليبها واسرارها البيانية والبلاغية ·

٣) المتفرنسين الذين اغواهم بريق الحضارة الاوروبية فشدت انظارهم الى الافق الغربى فتنكروا للغتهم وحضارتهم ودينهم واعتقدوا فى اللغة الفرنسية التقدم ، والتطور ، والرقى ، بينما نسبوا للغتهم ، التاخر ، والجمود ، والعجز ·

وهكذا لم تعد الدعوة الى اللغة العربية دعوة الى محو الامية او محافظة على القرآن فحسب ولكنها اصبحت دعوة فيها فلسفة عميقة وبعد نظر فالفصحى واجبة للجيل الصاعد لا زمة له ، لانها هى التى تحفظه من كل التيارات الدخيلة والمنحرفة ، ثم هى الاداة التى تفهم بها الامة دينها فهما صحيحا صافيا من كل خرافة او تدجيل ·

وكان هنالك هذا التطور الفكرى الذى اخذ يضرب الامثلة بتونس ومصر والشام ، وكأن هذه النظرة من بعض الكتاب ، كالامير خالد ، والحافظى وابى اليقظان ، وابن باديس ، محاولة منهم لربط الشباب الجزائرى بالافق المشرقى حيث العروبة الاصيلة ، والحضارة الاسلامية الزاهرة تحويلا لابصارهم عن هذه الافق الغربى الذى بهر انظار المثقفين المتفرنسين ·

---

١) يقول ابن باديس عن هذا الموضوع ما يلى « يعلم قراؤنا اننا لا زلنا نصرح فى كل مناسبة ان التعليم العربى الفرنساوى ضرورية حيوية للجزائريين وان اخذ الجزائريين منه يلازمهم هو فى صالح فرنسا ايضا ومنفعتها وشرف سمعتها ولذا ترانا دائما مؤيدين لكل دعوة اليه وسعى فيه خدمة للجانبين . الشهاب ج 3 ، م 6 (1930) ص (152)

من محاضرة للدكتور سعيد شيبان في ملتقى الفكر الاسلامي بوهران 1971

ماهي قيمة اللغة العربية في تبادل المعلومات بين الناس ؟ الذي يطرح هذا السؤال كأنه يقول لنا : ما هي قيمة اللغة العربية بحد ذاتها؟ فاللغة العربية ـ وكلامي هذا ليس كلام اختصاصي ، وكلكم تعرفون ذلك من التقديم ، ولكن محب للغة العربية ـ واللغات العالمية هي لغات تمدن ، هي في الحقيقة لغات متكاملة ، صفة من صفات تمدن اللغة هي أن تقبل الترجمة الى غيرها من اللغات . فحين اخذ اجدادنا بتكييف لغتهم للعالم المعاصر لهم ، اخذوا يترجمون عن الاغريق والفرس والهنود ترجموا من هذه اللغات كلها الى لغة الضاد ، فمكنونا من ذلك العصر بالطرق التي تستلزمها الترجمة والعادات التي تلتزم على كل لغة تريد ان تكون لغة مدنية ان تمتلكها ، حينما ترجم العرب الاولون من اللغات الاجنبية الطبيعة ، والمنطق ، والعلوم ، قاموا بدور تكوين لغة مدنية يمكن لها ان تستوعب كل المعلومات الموجودة عند الاخرين ، فحين نسمع سؤالا مثل : ما هو اتساع اللغة العربية ؟ يكون الجواب : ان تعلمون انه ليس للغات حقل محدود ، فاللغات التي انتجت الطاقات الكبرى في العالم المعاصر تتقدم دوما ، فجزء كبير من مفردات هذه اللغات المتقدمة في العصر الحاضر لا تعلمها الا القواميس الخاصة ، او لا يعلمها الا القليل النادر من الاخصائيين من الطراز العالي ، وهذا لا يعتبر نقصا في اللغة بحد ذاتها ، فالاطارات التي كونتها اللغة العربية في الماضي البعيد لدليل قاطع لامكانيات التعليم العالي بالعربية ، فحينما ننظر الى العباقرة الذين تسابقوا في المدنية العربية الاسلامية لا يسعنا الا ان نقول ان هذه اللغة لجديرة أن تعتبر لغة جامعيةفي اعلى مرتبة ، ما هو الحال بعد هذا العرض لحالة اللغة في الماضي ، ما هو الحال في بلادنا الجزائرية ؟ لقد تقدمنا بسرعة في بضع سنوات ، ان التعليم العالي باللغة العربية في بلادنا بدأ حياته في قسم الآداب وقسم القانون ولقد انتج هذه السنة قسم القانون دفعة تقرب من المائة (١٠٠) من حاملي الليسانس باللغة العربية ، فهناك قسم في الآداب له انتاج معروف ، أما في القسم العلمي فانه الى حد الان تدرس المواد كلها بالفرنسية ، ولكنه أن لم تكن المواد العلمية معربة فالمعلمون ـ والحمد لله ـ فى غالب الأحيان جزائريون ، خصوصا فى كلية الطب ، ولا ننسى ان المعلمين كانوا في ماض قريب جدا كلهم فرنسيين ، فلقد برهن الفكر العربي الجزائري في مدة قليلة نسبيا على امكانياته في التعليم العالي وهذه مرحلة لها قيمتها في طريق التعريب ، هذا دليل اول على امكانيات التعريب فى التعليم العالي ، ان لم تعرب الالسنة المدرسة ، فالمعلمون عرب ، فكل هذا يمكن ان يعتبر تابعا للضرورة الحتمية ، ضرورة تعريب التعليم العالي في جميع البلدان العربية ، كما نادى به السيد وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية في خطابه الافتتاحي .

في قضايا اللغة العربية

ومستوى التعليم العربي

أحمد الأخضر غزال
مدير معهد الدراسات
والابحاث للتعريب
– الرباط –

تمهيـــد :

كثر الكلام عن موضوع انخفاض المستوى فى التعليم العربى ، وأبديت فيه الآراء العديدة ، منها ما هو نتيجة ملاحظات واقعية أو نظريات عامة ، ومنها ما هو صادر عن عواطف صادقة أو افكار سديدة ، الا ان الباحث المتعمق فى قضية انخفاض مستوى تعليمنا يجد ان كل هذه الآراء مهما كان مبعثها ، صحيحة لا ينبغى نبذها كلها أو اعتبار بعضها دون بعض .

وبعبارة أخرى كل ما قيل فى هذا الموضوع جائز بصفة عامة وكل رأى فيه مبنى على أساس له نصيب من الصحة ، اذ كل قول من هذه الاقوال يدل على وجه من وجوه الانخفاض • وهذه الآراء المختلفة اذا دلت على تعدد الوجوه فانها تشعرنا بأن الموضوع خطير انه لا يجدر بنا ان نقلل من أهميته وستصغره ، بل يجب ان نقتنع بعكس ذلك وان نقول : بما اننا لم نصل بعد الى حل المشكل فذاك لانه مشكل معقد عويص وان لم يكن كذلك فى حد ذاته فهو كذلك فى مكوناته • ومكونات التعليم كثيرة بطبيعة الحال ، منها المبانى والاثاث والسن والعدد والبعد والقرب ، والصحة والمرض والفقر والغنى ، والتفتيش والمراقبة ، وأوقات العمل وفراغها ، والتجهيز حسنه وسيئه ، والميزانية توفرها وقلتها ، وتحسين وظيفة المعلم وعدم تحسينها ، ووجود اطر التعليم وعدمها ، وحصول التلاميذ على الكتب والادوات التعليمية وعدم حصولهم عليها ، الى غير ذلك من الشروط الضرورية العامة العادية لكل تعليم كيفما كان نوعه وبلاده ولغته • واذا اختل جزء من هذه الاجزاء أثر ذلك الاختلال على صحة التعليم وكأنه كائن حى هو الآخر ، كلما اشتكى منه عضو تألم له الجسم بكامله • كل هذا نسبيا كما هو الشأن فى جميع الامور •

ولكننى لا أظن ان جميع مدارسنا ناقصة فى هذه الميادين ولا أظن ان العالم العربى يفتقر كله الى هذه الحاجيات • ولا اعتقد كذلك ان التعليم العربى اذا اشتكى من انخفاض المستوى فذلك لان جزءا من هذه الاجزاء المذكورة نقصه اذ هناك مدارس فى بلدان عربية تتوفر فيها الشروط السابقة وتخرج أجيالا تعتبرها صالحة من معلمين واساتذة واطباء ومهندسين ، ومع ذلك فان الاجماع ما زال على ان المتكون بالعربية ناقص بالنسبة الى المتكون بلغة من لغات الامم الراقية • هذا هو الامر الواقع العام ، وفى كل أمر بطبيعة الحال تفاوت نسبى ، منه ان المتكونين بالعربية اذا اكتسبوا لغة اجنبية امكنهم اتمام تكوينهم بها واصبحوا فى مستوى لا بأس به •

بقى لنا النظر فى رمى اللغة العربية بالنقص • وفعلا فقد رماها بالنقص كثير ممن لهم تكوين اجنبى ورماها بالنقص كثير ممن لهم تكوين عربى • وهل هذا صحيح ؟ ان الجرائد والمجلات تزخر بمقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، تناولتها أقلام من يقولون بان العربية بخير وأقلام من ينكرون هذا الرأى ويزعمون بان العربية ليست بخير اما نحن فقولنا هو ما يلى : صحة لغتنا فى يدنا وذلك نسبيا بطبيعة الحال لان زمام الامر فى هذا الميدان منه قسم نتصرف فيه ومنه قسم ليس فى أيدينا ولا سلطة لنا عليه لان اللغة ، وهى كائن حى ، لها ناموسها الخاص فى حد ذاتها تخضع له ــ وله وحده ، فى تطورها البدنى ؛ وفى نفس الوقت تتغذى بما يغذيه بها اهلها من مواد حسية وشعورية وفكرية وعقلية وروحانية الخ ••• فمثلها مثل شجرة تنمو طبقا لنواميس احيائية وطبقا لما يتوفر لها من مواد غذائية • ولنترك هذه المسالة

مؤقتا لان صلتها بموضوعنا صلة غير مباشرة ·· نسبيا بطبيعة الحال ! سنعود اليها من بعد ان شاء الله ·

لا يتعلم ابناؤنا بالعربية ما يتعلمونه باللغة الاجنبية ·

نقول ـ وصلب موضوعنا هو انخفاض المستوى ـ ان المستوى يحدد بالنسبة الى درجة معينة · وهذه الدرجة هى ، فى الوقت الراهن درجة مستوى التعليم عند الامم الراقية التى نقتدى بها ونسعى فى الالتحاق بركب حضارتها · وبما ان التكوين هو حصيلة معلومات ما ، فى ميدان ما ، يكتسبها الشخص بواسطة تعليم ما ، بقى ان المستوى فى هذا التكوين هو تلك الدرجة التى يجب على الشخص ان يحصل عليها بواسطة ذلك التعليم فاذا كان التعليم ناقصا كان التكوين ناقصا واذا كان التعليم فى المستوى كان التكوين كذلك فى المستوى · وقولنا بأن المعلمين غير اكفاء معناه ان تكوينهم ناقص واذا كان تكوينهم ناقصا فذلك اما من ناحية المعلومات واما من ناحية التلقين · ولنترك ناحية التلقين (البيداغوجية) ولنسلط الاضواء على ناحية المعلومات ·

ان وسائل التعليم الاساسية هى اللغة والبرامج والكتاب المدرسى والمعلم · وهذه الوسائل متداخلة تداخلا وثيقا ، الا ان فيها يجد مادته الملموسة السهلة المنال فى الكتاب المدرسى لانه مرآة اللغة والبرنامج وحتى المعلم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد ·

نقول : يجب ان يكون مضمون الكتاب المدرسى محتويا على نوعين أساسيين من المعلومات : نوع يتصل بمفاهيم العلوم الضرورية المشتركة بين البلدان الراقية ، والتى تلبى حاجة التحاقنا بصف هذه البلدان ، ونوع يتصل بمفاهيم قيمنا الوطنية الخاصة التى نريد ان يكون متوفرا عليها مواطننا الصالح · وبناء على هذا ينبغى ان يكون الكتاب الاداة الصالحة لبلوغ هذه الغاية باحتوائه على المقدار العلمى المشترك بين الدول الراقية ·

وهذا الكتاب العربى الذى يوجد بين أيدى ابنائنا ، والذى يصحبهم دوما على ادراكها من حيث المعارف العلمية ومن حيث القيم الوطنية ؟ كتابنا هذا الذى به يتكون التلميذ ونمنحه الشهادات باعتبار ما حصل عليه فى ذلك الكتاب من معارف ، ونسميه معلما فيما بعد ، ونعينه فى مدرسة من مدارسنا ليعلم بدوره النشء الصاعد· هل هو فى المستوى المحدد أعلاه بالنسبة الى المحتوى العلمى عند الامم الراقية ؟

مقارنة المعلومات بين الكتب العربية والكتب الاوروبية ·

هاكم الجواب عن هذا السؤال بعد احصاءات عديدة ومتنوعة غايتها مقارنة الكتب الاوروبية الرسمية (فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا، وانكلترا) بالكتب العربية كيفما كان بلدها · وما أثبتنا هنا من ارقام يعتبر معدلا بين الكتب الاوروبية وبين الكتب العربية · (ملاحظة : نستسمح القارىء فنغفل عن اسم الكتاب ومؤلفه وبلده)·

1) الحيوانات :	الكتاب الاجنبى :	112 اسم ــ	الكتاب العربى :	44 اسم
2) النباتات :	» »	55 » ــ	» »	22 »
3) جسم الانسان :	» »	50 » ــ	» »	11 »
4) المحسوسات :	» »	370 » ــ	» »	106 »
5) الاوصاف :	» »	262 » ــ	» »	94 »
6) الافعــال :	» »	444 » ــ	» »	250 »
المجموع :		1333		527

واليكم مثالا لقائمة الالفاظ المتعلقة بجســم الانسان :

فى الكتاب الفرنسي :

ــ فــم	1 bouche
ــ حدبة	2 bosse
ــ ذراع	3 bras
ــ ندبة	5 cicatrice
ــ قلب	6 cœur
ــ شعر	7 cheveux
ــ لمــة	8 chevelure
ــ جسم	9 corps
ــ عنــق	10 cou
ــ جمجمة	11 crâne
ــ اصبع	12 doigt
ــ ظهــر	13 dos
ــ عاتق	15 épaule
ــ سيا ، وجه	16 figure
ــ جبهة	17 front
ــ ركبة	18 genou
ــ سبابة	19 index
ــ ساق	20 jambe
ــ لسان	22 langue
ــ شفة	23 lèvre
ــ عضلة	24 muscle
ــ يــد	25 main
ــ ربلة	26 mollet
ــ شارب	27 moustache
ــ انف	28 nez
ــ اذن	29 oreille
ــ عظم	30 os
ــ عين	31 œil
ــ ظفر	32 ongle
ــ رجل	33 pied
ــ ملمح	34 profil
ــ مقدم الرجل	35 pointe des pieds

ـ صدر	36 poitrine	ـ بطن	44 ventre
ـ معصم	37 poignet	ـ سن	45 dent
ـ سلامى	38 phalange	ـ خد	46 joue
ـ هيكل عظمى	39 squelette	ـ ذقن	47 menton
ـ عقب	40 talon	ـ مرفق	48 coude
ـ رأس	41 tête	ـ هدب	49 cil
ـ وجه	42 visage	ـ حاجب	50 sourcil
ـ صوت الحلق	43 voix		

فى الكتاب العربى :

عين ، ناب ، كف ، فم ، ظفر ـ عظم ، يد ، اصبع ، وجه ، رأس ، قدم ٠

ملاحظة 1 : الكتب الاجنبية المجردة خاصة بنصف السنة التحضيرية وسنة الامومة ، أما الكتب العربية المجردة فهى مقررة فى السنة التحضيرية بكاملها ٠

2) كثير من المدارس عندنا فى المغرب لا يدرس الطفل فيها الا نصف الحصة ،فيجب اذن اعتبار نسبة التخلف أخطر مما هى عليه فى الحقيقة ٠

3) اذا اعتبرنا ما سبق فنسبة التخلف بين لتلميذ الاوروبى وبين التلميذ العربى الذى يدرس الحصة بكاملها تتعدى 40٪ ، أى ان التلميذ العربى لا يعرف الا 40٪ مما يعرفه التلميذ الاوروبى فى نفس المستوى ، واليكم نوعا آخر من احصائية لها مدلولها :

أخذنا أربعة كتب فرنسية مقررة فى السنة التحضيرية وأربعة كتب عربية من مختلف الاقطار العربية مقررة فى نفس السنة ٠ واخترنا موضوع « القسم » فاننا نجد فى الكتب الفرنسية الكلمات الآتية مشتركة فيما بينها ٠ ونجد فى مقابل الكلمات الفرنسية الكلمات العربية الآتية :

الكتب الفرنسية	الكتب العربية			
	الاول	الثاني	اثالث	الرابع
classe	0	غرفة الدرس	فصل	غرفة الصف
mur	0	جدار	حائط	جـدار
plancher	0	0	0	ارض مغطاة بالخشب
plafond	0	0	0	سقف
porte	0	باب	باب	باب
fenêtre	0	شباك	نافذة	نافذة
table	طاولة	0	0	طاولة
banc	0	مقعد	مقعد	مقعد
pupitre	0	0	0	0
chaise	0	كرسي	0	0
bibliothèque	0	0	0	0
gravure	0	0	0	0
image	0	صورة	صورة	مصورة
maître	معلم	معلم	معلم	معلم
tableau noir	0	لوح اسود	سبورة سوداء	لوح اسود
écolier	0	0	0	0
cartable	0	0	0	0
cahier	0	0	0	0
livre	كتاب	0	0	0
ardoise	0	0	0	0
porte-plume	0	0	0	0
crayon	قلم رصاص	0	0	0
règle	مسطرة	0	0	0
plume	0	0	0	0
poêle et tuyau	0	0	0	0

ملاحظة : فى كل كتاب عربى الفاظ لا توجد فى الكتب العربية الاخرى وهى :

فى الكتاب الاول : ورق ، املاء ، تلاوة ، قصة .

فى الكتاب الثانى : منبر ، خريطة ، ممسحة ، طباشير .

فى الكتاب الرابع : منبرالمعلم، فناء .

مقارنة النصوص

1) المطالعــة

قبل استخلاص النتائج حول هذا الموضــوع ينبغى ان نتمم هذه المقارنة بمقارنــة النصوص لتكتمل الفكرة وتتضح ، لان المواضيع ، كمـــا قلنا ، متداخلة بعضها مع بعض ولان كل موضوع له أثره فى غيره . فقلة المفردات لها أثرها فــى قيمة النصوص وفى اساليب التعبير وفى الحصيلة التكوينية كما سيتضح ذلك فيما بعد . ودونكم اذن النص الفرنسى فى موضوع الضفدع مثـلا وهو فى مستوى نصف السنة التحضيرية كذلك .

LA GRENOUILLE

Puc était devenu une belle petite grenouille verte qui sautait dans l'herbe ; personne ne l'aurait reconnu. Les gracieuses libellules passaient près du pauvre Puc sans le voir.

Pour se nourrir, il devait maintenant dévorer ses amis les insectes. Le premier jour, il crut mourir asphyxié dans l'étang : Il n'avait pas encore l'habitude de vivre dans l'eau ! «Quelle triste existence est la mienne ! se lamentait Puc. Ah ! si la fée Sylvue pouvait me voir ! ».

A ce moment survient un jeune garçon. Avec une épuisette, il captura Puc sans effort. On mit la pauvre grenouille dans un bocal.

Depuis, Puc reste perché tout en haut de sa petite échelle !

واليكم نصا حول الضفدعة فى مستوى السنة التحضيرية بكاملها :

★ ضفـدعـة ★

ذهب صالح الى حوض ، عــلى حافته ضفادع تنقنق ، فضحك صالح من نقيقهـــا . سمعت ضحكه ضفدعة ، فغاصت فى حوضها وتبعتهـا اخواتها فسكتن .

وهـــذا نص فرنسى فى مستـــوى السنـــة التحضيرية :

LE CHAT

Vous ne l'auriez jamais deviné :

Celui qui a bu tout le lait du grand pot blanc, c'est moi, le chat. Je me suis régalé : Tant pis pour vous ; il ne fallait pas le laisser sur la table de la cuisine.

Ensuite, étendu sur votre beau tapis, j'ai fait un bon somme.

C'est là que vous venez me caresser, me dire que je suis beau, mais en voilà assez ! Je ne suis pas un jouet. Je m'étire et à petits pas, je m'en vais. N'insistez pas, je vous prie, car si je commence à baisser mes oreilles et à découvrir mes dents pointus, pff ! gare à ma griffe : elle vous laissera sur la main une douloureuse marque rouge et, croez-moi, vous la garderez longtemps !

Je n'aime pas le chien : il est brutal et maladroit. Quand je le vois, mon poil se hérisse et je fais le gros dos, Grr !!
Je voudrais bien croquer le serin qui sautille dans sa cage.

Mais elle est accrochée si haut, si haut ! que l'oiseau jaune ne craint rien ; sûr de lui, il me nargue.

La nuit, le grenier m'appartient. Penda nt des heures, je guette la souris qui grignote dans son coin. Je l'entends sans la voir, mais je sais où elle est. Gare,, si elle se risque hors de son trou : hop ! je ne la raterai pas !

En hiver, j'ai ma place à la chaleur, sur mon coussin, près du radiateur. Qu'importe le vent ou la neige ! Moi, j'ai chaud, je ronronne. Je m'étire et je baîlle en montrant ma langue sèche et rose.

Puis, jusqu'à l'heure de ma tasse de ait, je dors, je dors. Je suis bien !... je suis le chat !

قطتى (فى مستوى التحضيرى)

لمنير قطة لطيفة . منير يقدم لها لبنا فى كوب. يقبل منير قطته ، قطة منير هى رفيقته فى داره ، رسم لها منير صورة بقلمه .

وهذه قطعة اخرى :

★ هـــرى ★

هـرى هـرى * حسن الشعر
ولـه وجـــه * مثـل النمـر
ولـه عـــين * مثـل الشـرر
يمشى حـولى * حانى الظهـر
فـأداعبـــه * فـوق الحجر

وعـلى كتفى * وعلى صـدرى
فـاذا لاقـى * فـأرا يجـرى
يعـدو حـالا * خلف الفـــأر

وهـذه قطعة اخرى :

★ قـطـــتى ★

(فى مستوى الابتدائى الاول !)

لى قطة جميلة أحبها كثيرا . شعرها ناعـــم وعيناها زرقاوان وانفها صغير . تحرك ذيلهـــا عندما أتمسح بها وامر يدى على شعرها ، فتتطلع الى وتدخل رأسها بين ذراعى ، سميت قطاتى : كوكو.فاذا ناديت كوكو ! جاءت مسرعة وتمسحت بى . وأختى آمنة تناديها : بش بش ولكن كوكو تحبنى أكثر من أختى آمنة .

أنا لا أضرب كوكو ولا أزعجها ان كانت نائمة لذلك أجدها فى انتظارى بباب المنزل كلما رجعت من المدرسة .

ان قطتى أليفة . ولكنها تدافع عن نفسها اذا حصل لها ضرر ، فتخرج مخالبها وتخمش جسم من يعتدى عليها .

انها تجازى الخير بالخير والشر بالشر .

2) دروس الاشياء :

العربى ج 2 والفرنسى ج I

العـــين

العـين أثمن الحواس . هى نور الانسان بـه يهتدى لقضاء حاجاته ، وبدون العين تصبح لـه الدنيا ظلمة دامسة . أبدع الخالق القدير العـين

بحكمة فائقة ، اجزاؤها دقيقة جدا ، وقد وضعت للمدافعة عنها الحواجب والجفون والاهداب • حافظ على سلامة وصحة هذا العضو الثمين بكل الوسائل الممكنة • اذا اغتسلت بالصابون فلا تدعه يدخل فى عينيك ؛ لا تمسح عينيك بيد قذرة بل بمنديل نظيف ولا تدع الذباب والحشرات تستقر عليها ، لا تستعمل ما، أو منديلا استعمله قبلك آخـــر منعا للعدوى ؛ ولا تعرض عينيك للنور الشديد ، ولا تقرأ فى موضوع مظلم •

L'ŒIL

Les yeux sont très fragiles, mais ils sont bien protégés. Chaque œil est logé dans un renforcement des os de la tête appelé orbitre.

Devant les yeux, les paupières se ferment au moindre danger et leurs cils arrêtent les poussières. Les deux sourcils empêchent la sueur du front de couler dans les yeux.

Les yeux sont très mobiles. Chaque œil ressemble à une bille blanche sur laquelle on voit de petits vaisseaux sanguins. Sur le devant de l'œil, une peau transparente laisse voir à l'intérieur un anneau coloré, nommé l'iris.

Au centre de l'iris, se trouve un petit trou appelé pupille. Par ce trou, on voit le fond de l'œil : il est tout noir. La lumière pénètre dans l'œil par la pupille. Celle-ci s'élargit à l'obscurité et au contraire, se rétrécit quand la lumière est vive.

ملاحظة :

1) يحتوى الجزء الاول العربى على ما يلى : « واعلم يا بنى » اننا نعرف ما يحيط بنا بواسطة حواسنا الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس •

2) ينقسم الدرس الفرنسى الى قسمين : قسم للتلاوة وهو الذى ترجمناه وقسم خاص بالاسئلة والملاحظات والتطبيقات الكل مصور ملون لـــم نترجمه •

3) الدرس الفرنسى للسنة الثانية من التعليم الابتدائى والدرس العربى للسنة الثالثة مـــن التعليم الابتدائى •

4) عدد المصطلحات فى الدرس الفرنسى 14 وفى الدرس العربى 4 •

5) أرجو من القارىء ان يتحقق بنفسه مـــن الفرق العظيم الذى يوجد بين كتابين فى دروس الاشياء الاول بالفرنسية والثانى بالعربية •

3) الهندســة :

المستوى المدروس هوالسنة الاولى من الثانوى• الدرس الفرنسى يبتدىء بأعمال تجريبية من ضغط سن قلم رصاص على ورقة وسؤال التلميذ عـــن وصف أثر عمله وتشبيه النقطة بنقطة الوقف الخ الشىء الذى لا يوجد فى الكتاب العربى •

الخط :



(جدار)

السلك المعدنى مثلا ليس بخط ولكنه جسم ، ولكننا مهما بالغنا فى سحب ذلك السلك حتى يصبح فى غاية الدقة فالناتج لا يكون خطا هندسيا بل يقرب جدا منه .

النقطة :

نرى فى شكل الجدار انه اذا التقى خطان منه ، فانهما يلتقيان فى نقطة فالنقطة هى حد الخط وليس لها طول ولا عرض ولا ارتفاع . ويستنتج من ذلك ان .

« **النقطة هى كل ما له وضع مجرد من الطول والعرض والارتفاع** » .

من الممكن اعتبار نهاية كل خط أو موضع تلاقى خطين كنقطة هندسية .

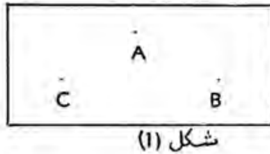
يقول الدرس فى الهندسة بان « النقطة هى حد الخط » بينما الخط لا نهاية له .

1 - Le point :

En appuyant la pointe d'un crayon bien taillé ou d'une aiguille fine sur une feuille de papier, en évitant tout glissement, on marque un point.

On désigne un point par une lettre (en général majuscule d'imprimerie) que l'on place au voisinage du point de façon qu'elle soit bien visible et qu'il n'y ait pas de doute sur le point qu'on veut désigner.

Ainsi la figure 1 représente trois points désignés par les lettres A, B, C.



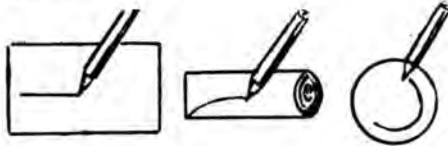
شكل (1)

2 - Ligne :

Si l'on déplace la pointe du crayon ou de l'aiguille sur le papier, sur un mur, sur un rouleau ou sur une boule, on dessine une ligne (fig.2).

Nous exprimons ce fait de la façon suivante :

.... Un point qui se déplace engendre une ligne



شكل (2)

Souvent une ligne est désignée par une lettre majuscule placée entre parenthèses.

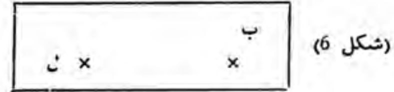
Applications : etc...

وهذا كتاب عربى آخر فى نفس الموضوع :

بند 8 ـ النقطة . الاثر الذى يتركه سن قلم أو دبوس على قطعة من الورق يدل على وجه التقريب على النقطة .

فالنقطة وضع هندسى مجرد عن البعد ، ليس لها طول ولا عرض ولا سمك •

وتسمى النقطة باحد الحروف ، فنقول مثـلا : النقطة (ل) أو النقطة (ب) (شكل 6)

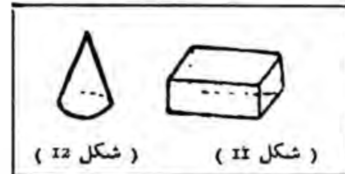


(شكل 6)

(ثم ينتقل الى الجسم ثم يدرس السطح ثـم يأتى فى البند II الى الخط فيقول) •

بند II • سطوح الاجسام تنفصل بعضها عـن بعض بفواصل نسميها خطوطا وهذه الخطوط قد تكون مستقيمة أو منحنية ، تأمـل متـوازى المستطيلات :

(شكل II) ان لـه سطوح مستوية تتلاقى مثنى مثنى فى اثنى عشر خطا تسمى أحرفه وهى خطوط مستقيمة •


(شكل II) (شكل I2)

أما المخروط فسطحـه الجانبى سطح منحـن وقاعدته سطح مستوى وينفصل السطحان بخط منحن على شكل محيط دائرة (شكل I2) •

فالخط اذن ينشأ عن تقاطع سطحين 2

وهو على نوعين :

I) مستقيم الخ

2) محن الخ

3) الاثر الذى يتركه سن قلمك عندما يتحرك على ورقة هو خط وعلى ذلك يمكننا اعتبار أيضا ان الخط مسار نقطة متحركة •

خلاصة مقارنة النصوص :

فى المطالعة	**النص الفرنسى** • حى بألفاظ غنية ، موح بافكار وعواطف ، واصف بفتح آفـاق الخيـال ـ مشـوق للمطالعـة والانشاء مسل بالطرف والتشخيص وفن الاساطير الخ ••• **النص العربى** • قليل الالفاظ ، غير موح ، واصف بالسرد الجاف ، غـير مشوق ، غير مسل ، بسيط الفكـرة ساذج الشعور الخ ••
دروس الاشياء	**النص الفرنسى** • مضبوط ، مفصل ، مشجع على الملاحظة ـ موح بالتشبيه بين الاشياء المحيطة بالتلميذ ، غنى بالمصطلحات الخ ••• **النص العربى** • غير مضبوط ، مجمل ليس فيه مـا يحض عـلى التبصر والملاحظة مـوح بالقدرة الالاهية فى صنع الانسان ، قليـل المصطلحات واعظ الخ •••

الهندسة	**النص الفرنسي** • ممهد للتلميذ، آخذ بيده لممارسة الدرس • مشرك اياه في توسع الدرس ، مبنه اياه على الفروق . مضبوط المنطق في تسهيل وتبسيط(من النقطةالى الخط الى السطر)
	النص العربي • غير ممهد ، غير آخذ بيد التلميذ ، غير مضبوط ، غير منطقي (من الخط الى النقطة أو الى الاشكال ثم الى السطر فالنقطة) •

فكرة أساسية :

ومن تأمل جيدا مقارنة أنواع الكتب في اللغتين لكشف اشياء أخرى غير هذه ولاتضحت له ما هي عليه كتبنا بصفة عامة ، من فراغ علمي وفقر فكري مما يفسر أزمة الثقافة العربية التي امتلأت صفحات مجلاتنا وجرائدنا بالاسئلة عنها والتأسف عليها • والثقافة انما هي نتيجة اختمار المعلومات والشعور والاحاسيس والعواطف والافكار داخل النفس البشرية • فاذا كانت مواد الاختمار قليلة نقص نضج اختمارها وبالتالي بقيت فطيرة • والثقافة تعبير عن ذلك الاختمار فاذا قل التعبير قلت الثقافة • وبديهي ان المعلومات والعواطف والافكار لا يعبر عنها الا باللغة • واللغة ألفاظ من اسم وفعل وحرف وتراكيب تكتسب بالتعليم بمعناه العام كما ان مادتها الخام تكتسب بالمشاهدة والتحليل والتأمل والتركيب والتجربة ، وبعبارة أخرى فان اللغة تغني العقل والنفس والروح كما ان العقل والنفس والروح تغني اللغة • ولكننا اذا تعمقنا في هذا الموضوع بالنسبة الى الامر الواقع في يومنا هذا وفي الظروف الحديثة التي نعيش فيها وجدنا ان اللغة هي الاداة الاساسية لكل تنمية كيفما كان نوعها والوسيلة الضرورية اللازمة لكل رقي مهما كانت درجته • وسنعود الى هذه النقطة في مقال آخر ان شاء الله !

المحادثة :

واذن فان المعلومات والعواطف والافكار التي توجد في الكتاب العربي ناقصة بالنسبة الى المعلومات والعواطف والافكار التي يحتوي عليها الكتاب الفرنسي ، ولو كان هذا النقص ضئيل النسبة فحسب لما اكترثنا لذلك • ولكن هذه النسبة منخفضة انخفاضا مدهشا فوجب علينا ان نبوح بالامر وان نقرع ناقوس الخطر . لا سيما وان المستوى منوط بهذه النسبة ، ومع استواء التعليم يستوي التقدم ومع انخفاضه يحصل التأخر •

وحقيقة الامر ليست في عدد الكلمات بل في اختيارها وفعاليتها بالنسبة الى الواقع والمفهوم والفكرة ، فان الطفل أول ما يتعلم يتعلم الحروف بواسطة أسماء ما يحيط به من الاشياء التي يعرفها • ومن المسلم به ان ما يحيط بالطفل في الوسط الحضري يختلف عما يحيط به في الوسط البدوي • والاشياء التي يعرفها طفلنا المغربي في سن السادسة كثيرة ولكنها مجسمة في ذهنه باللغة العامية • مثال ذلك في الاسماء خيزو (جزر) كرموس (تين) شطابة (مكنسة)

وفى الافعال : دار يدير (عمـل يعمل) ناض ينوض(نهض ينهض) وشافيشوف (رأى أونظر) باش (لـ أو كى) منين (لما أو عندما) لهيـه (هناك) بعكس الطفل الفرنسى الذى تكاد جل ألفاظه الشفوية تطابق ألفاظه المكتوبة ٠

وحتى نقوم لسانه منذ الخطوات الاولى ، ونجعل لهجته العامية تتقابل مع اللغة الفصيحة يجب ان نعلم طفلنا الالفاظ الفصيحة المقابلـة للاسماء العامية التى فى دهنه والتى يمارسها كل يـوم وذلك بالتدريج مثل : خبز ولحم وفراش وقـط (لا « هر ») وخيمة ودار وعين وسن لا (« ناب » ولا « ضرس » ولا « قاطعة ») وغزال (لا «ظبى») وبلبل (لا « هزار ») ٠

ويجب ان تكون غايتنا أولا : امداد الطفـل بوسائل التعبير ليصف ما حوله فى مرحلة أولى ٠ ثانيا : اطلاعه على ما يوجد فى بلاده خارج وسطه فى مرحلة ثانية ٠ ثالثا : اطلاعه على ما يوجـد عند غيرنا من البلدان الاخرى ٠ وبعبارة أوضح نسهر على تكوينه من حيث حاضر بلاده وحاجياتها (التكوين الوطنى) ثم على تكوينه من حيث حاضر العالم الذى يعيش فيه (التكوين الانسانى العالمى) حتى يتلاءم فكره الفتى مع حاجيات وطنه الصغير ، وينسجم فيما بعد مع مقتضيات وطنه الكبير وهو الانسانية جمعاء ٠

وأتذكر أننا فى صبانا لما كنـا فى المدارس الفرنسيه الاسلامية كما كانت تسمى آنـذاك ، تعلمنا بلغة أجنبية جميع أشياء الحضارة البعيدة عن وسطنا فى ذلك الزمن ٠ واتذكر الى يومنـا هذا ، اذ ما زالت راسخة فى ذاكرتى ، تلـك الصور بأسمائها المطبوعة باللون الاحمر التى كنت أراها على جدار القسم ، وفى الكتاب الفرنسى ، من قطارات ومحطاتها وأثاث أوروبى مرتب حول المدخنة فى « الصالون » ، والبيانو بارز فى جانب اللوحة ، ومن بواخر عـلى البحر ماخرة يتعالى بخارها فى السماء ، كما اتذكر تلك الصـور الخاصة بالبدو ، رجالهم على أفراسهم والبنادق مرفوعة فوق رؤوسهم ، ونساؤهم جالسات امام الخيمة فى صف واحد ، كل واحدة مشتغلة بعمل من أعمال تحضير الغذاء ، هذه تعجن وتلك تفتل « الكسكس » وأخرى عند الفرن تدفع بالحطب الى النار ٠ كل هذا وانا قاطن فى قعر مدينـة فاس لم أكن رأيت من قبل لا قطارا ولا باخـرة ولا بيانو ولكن مخيلتى الفتية كانت تحلق بى فى ذلك العالم البعيد الذى كان يبدو لى غريبـا وشد ما كان شوقى عظيما لرؤيته والتعرف عليه والسفر اليه على متن ذلك القطار أو تلك الباخرة والعزف على ذلك البيانو والحصول على أثاث تلك المنازل الجميلة والركوب على الخيل واطلاق نار الفرح من فوق صهواتها ثم الاستراحة داخـل الخيمة والتمتع بطرافة حياة البادية لان الطفـل يستهدف الحركة والمغامرة ويصبو الى المزيد من التعرف على كل شيء وبالخصوص على ما لا يحيط به من الغريب والجديد فى كل ميدان ٠

والتعليم اذن مرحلتان مرحلة ادماج الطفـل أولا فى وسطه حتى لا يقتلع عنه ويكون ذلـك

بتسديد لغته الفصيحة منذ البدء وبث حبها في قبله وامداده بأداة الوصف مع تمرينه على ثروة لغته حتى يستطيع التعبير عما يختلج في نفسه ، ثم بعد ذلك الاخذ بيده ورفعه الى ادراك حقائق الامور التي تحيط به وابراز سر تركيبها وقوانين حدوثها واسباب وجودها ليدرك ان من وراء الشيء اشياء أخرى لم يكن يشعر بوجودها من قبل وان الملاحظة والتأمل واجادتهما كفيلان بجعله يكتسب عنصر العلم ألا وهو النظر الى العالم بعين جديدة مدققة كاشفة شاكة متسائلة في آن واحد ٠

ووعاء العلم في التعليم هو الكتاب هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فاننا نعتبر طفلنا في ذكاء أي طفل من أطفال العالم ٠ فاذا كان المستوى الذي يحصل عليه طفلنا باللغة الفرنسية لا بأس به فلماذا لا يحصل على نفس المستوى بلغته الام ؟ واذا كانت اللغة العربية تنخر من حصة اللغة الفرنسية لفائدتها أليس بطبيعي ان يبقى المستوى في نفس الدرجة التي كان عليها باللغة الفرنسية؟ واذا انخفض المستوى فهناك سبب وهذا السبب **هو اننا لا نعلم بلغتنا ما نتعلمه بلغة غيرها ٠**

هذا هو القصد الاول الذي يجب على المشرفين على التعليم ان يقصدوه ولا ينبغي بل ليس من الجد في شيء ان يرموا المعلمين بعدم الكفاءة ٠ فلو كان هذا صحيحا لبرزت مدارس أو أقسام بتعليم في المستوى اذ من المستحيل ان يكون جميع المعلمين عديمي الكفاءة دفعة واحدة في جميع مدارس البلاد لا سيما وان هؤلاء المعلمين كونهم هؤلاء المسؤولون انفسهم فأصبحوا يرمونهم اليوم بالضعف ٠

في دروس ألاشياء والعلوم :

أما في موضوع دروس الاشياء فنقول :

ان المستوى بالنسبة الى أوروبا يجب ان يحافظ عليه٠ وهذا المستوى ليس مراعا في كتبنا ٠ فيجب ان نبوئه فيها أولا ثم ان نحافظ عليه فيها ثانيا ٠ فلم لا يتعلم طفلنا بالعربية من العلوم ما يتعلمه بالفرنسية الطفل العربي أو الطفل الفرنسي ؟ اذلك لان بعض العلوم خاصة بالاوروبيين وبعضها الآخر خاص بالعرب ؟ قد يمكن ان يكون ذلك صحيحا بالنسبة الى باب أو بابين مثل باب الخنزير أو باب الخمر ولكنه غير صحيح بالنسبة الى الابواب الاخرى ٠ ولماذا تفصل أجزاء العين للطفل الاوروبي في الابتدائي الاول ولا تفصل بنفس الدقة للطفل العربي في نفس السنة وباضافة معلومات أخرى زائدة لاسباب منها مرض الحثار (التراكوم) مثلا الذي يفتك بمناطق الجنوب في بلداننا ٠

ولماذا يكاد درس العين هذا الذي يلقن في الابتدائي الاول الفرنسي لا يساويه درس العين في المتوسط الثاني العربي ؟ واذا أرجأناه الى هذا القسم الاخير أفظنا منا ان الطفل الفرنسي سوف لا يتقدم في دراسة العين وينتظر ان يلحق به الطفل العربي حتى يصلا الى الشهادة الثانوية أو الباكالوريا في مستوى واحد ؟ انا لا افهم ذلك ٠

ولقد قارنت غير ما مرة مستوى استاذ عربى حاصل على اجازة فى العلوم الطبيعية بالعربيــة (بمعناها الطبيعى لا الفيزيائى !) قارنته بمستوى استاذ فرنسى حاصل على نفس الاجازة فى نفس المادة فوجدتان هذا يفوق ذلك أضعافا مضاعفة ٠ وان كنتم فى ريب مما قدمنا ٠ فقارنوا بانفسكم بينهما يتضح لنا جميعا خطر الداء !

الهندســـة :

وفى الهندسة ، لماذا يزخر الكتاب الفرنسى بالتمهيدات والتطبيقات والتواضيح البسيطـــة المفصلة والمنطقية معا ، فيقول بان النقطــة هى عنصر الخــــط يبدأ هــذا بها ، ثم اذا تحركت النقطة نتج عن اثر تحركها ما يسمى بالخط الذى هو بدوره ، مهما تغير اتجاهه ، اصبـــح عنصر الزوايا التى هى بدورهــا عنصر المثلــث ٠ واذا تعددت الزوايا نتجت عن .لك اشكال المربــــع والمخمس والمسدس الخ ٠ واذا تحرك هذا الخط فى اتجاه جانبى نتج عن ذلك التحرك السطــح ومركباته من هرم ومخروط ومكعب الخ ٠ ولماذا ينحو الكتاب العربى نحوا مخالفا يؤدى الى الابهام والغموض والتعقيد لا سيما وان الدرس الهندسى الذى مثلنا به خاص بتلاميذ السنة الاولى مــــن الثانوى أى بأطفال عمرهم لا يتعدى اليوم أربع عشرة سنة على أكثر تقدير ، ويبدأ بالخط وأى خط ! ذلك الخط الوهمى الذى يجب ان يقــدره التلميذ على جدار ويقدر ان سببه هو الفاصل بين لبناته ! ثم يقول الكتاب بان النقطة هى ملتقى خطين من خطوط ذلك الجدار فيختم بهذا التعبير المدهش لعقل التلميذ : « هو كل وضع مجرد عن الطول والعرض والارتفاع » فأى وضع ؟ وما هو الوضع ؟ وأى تجريد ؟ وما معنى التجريد ؟ ! ومعنى هذا كله فى الحقيقة لا شىء ؟ ، العدم ! وقل مثل ذلك فى الكتاب الآخر الذى ينتقل من « بند » الى « بند » ويرجع ويستدرك الخ ٠٠٠ كل هذا مما يفسر لنا تلك الغرابة فى التفكير التى نلاحظها عند المكونين علميا بالعربية !

الخلاصة فى موضوع الكتاب المدرسى :

هذا هو الامر الواقع ! اضيف ان هذه المقارنة الموضوعية تتبعناها حتى نهاية السنة الثالثــة للثانوى أى سنة الشهادة الثانوية ، شعبة شعبة ومادة مادة وصنفا صنفا ثم بعد ذلك عكفنا على طوائف الالفاظ من حيث المفهوم ومن حيث الدقة ومن حيث الحيوية ومن حيث المسايرة والتدريج والدرجان ، ولم نعرها اهتماما من حيث الغرابة اذا كانت٬ الكلمة تؤدى معنى حديثا وتسد لنــا فراغا فى اللغة ، الى غير ذلك من عمليات البحث والاحصاء المتداولة, متفحصين أنواع الكتب المقررة فى سائر الاقطار العربية للقــراءة والمحفوظات والنحو والرياضيات والعلوم والتقنيات الخ ٠٠٠

واما المقارنة من حيث الاخراج والطباعـــــة والتجلية والتقديم ، فنتيجتها ان الفرق شاسع جدا بين الكتب العربية والكتب الفرنسيـــة اذ الكتاب العــربى لا يلبى مقتضى المبــادىء التربوية الاساسية من وضوح الحروف وشكلها وتنوعهــا

ومن ضبط الصور والرسوم ودقتها ونصاعتهـا وتلوينها ومن ترتيب الصفحة وابراز فصولهـا وفقراتها الخ ...

فتبين لنا علميا لا مجال لاى شك فيه ان هذا التباين العظيم بين محتوى الكتاب العربي وشكله وبين محتوى الكتاب الاوروبي وشكله ، لهو أول الاسباب في انخفاض المستوى وعدم تقدمنا في القضايا التعليمية والمشاكل اللغوية بصفة عامة .

اذ كيف نريد ان يكون تعليمنا في المستوى ومحتواه ناقص بالنسبة الى هذا المستوى الـذى نريد ؟ .. كيف نريد ان يكون تلميذنا عالما بما لا نعلمه اياه ؟ كيف نريده معبرا ونحن لا نمـــده بوسائل التعبير ؟ ونريده واصفا ونحن لا نقدم له أداة الوصف ؟ كأننا نريده ان يحسب دون ان نعلمه الحساب ! أو نود ان يدافع عن نفسه في معركة بينما نكبل يديه !

ما يعرف أبناؤنا الا ما علمناهم ! وانهم لفي المستوى الذى أردناه لهم انهم يعبرون كما علمناهم ان يعبروا لا أقل ولا أكثر ويصفون بما سمحنا لهم ان يصفوا وجعلناهم يحسبون بالارقام القليلة التى علمناها اياهم ، واخيرا فانهم يدافعون كما تاتى لهم ان يدافعون بل هم صورة واضحة لما نحن عليه ، صورة وفية مخلصة .

الكتاب المدرسي والمعلم :

وما قلناه في تلميذنا نقوله في معلمه حرفا بحرف ، اذ المعلم الا تلميذ أنهى دراسته ، تلك الدراسة التى وضعناها له بمستواها ومحتواها ، من حيوانات ونباتات وأوصاف وأفعال ومعلومات وأشياء الخ ... فكوناه بلغـة وكتب وأدوات تعليمية وبرنامج الكل ناقص واذا كان تكوينـه ناقصا فاننا نحن الذين قصرنا في تكوينه ! واذا قصرنا في تكوينه فذلك لانه نقصنا الجهاز الفنى الذى يبين لنا الدرجة التى يجب ان نتمسك بها في التكوين ويمدنا بالادوات الصالحـة لذلك التكوين . وهذا الجهاز الفنى هـو « المعهـد التلقينى » Institut Pédagogique الذى يوجد عند كل الامم الراقية ولا يوجد عندنا ! ووجوده حيوى بالنسبة الى الامم المتخلفة غايته تتبع رقى شؤون التعليم عند سائر الامم والسهر على ان تكون دوما في بلاده مسايرة لما هى عليه عند الامم الرائـــدة حتى لا يحصل أى تأخر وبالتالى أى تخلف (اذا تكافأت الاوضاع) .

وان قال قائل ان هذا المعهد موجود عندنا في البلاد العربية ومع ذلك لم تتحسن أوضاع التعليم ولا مستواه قلت : وجود الجهاز لا يكفى بوحده ان لم توضع رهن اشارته الطاقات والوسائل الكفأة الكافية وان لم يعره المسؤولون ما يجدر به مـــن اهتمام وما يليق به من انصات .

ولنتأمل ما جاء في التوصية 48 لوزارات التربية الوطنية المنبثقة عن الدورة 22 للمؤتمر الدولى حول التربية الوطنية المنعقد في جونيف 1959 .

تصنيف الكتب المدرسية للتعليم الابتدائى ، اختيارها واستعمالها .

« يجب ان يعكس كتاب التعليم الابتدائى **التقدم** الذى حصلت عليه علوم التربية ، وان يتضمن المناهج المتناسبة مع **نفسية الطفل** ... وان تكون مواده معروضة **بمنطق** ومراعاة **أهتمام الطفل وقدرته الذهنية** ــ يجب ان يحتوى كل كتاب مدرسى ابتدائى على مجموعة من الحوادث والافكار والايحاءات مطابقة **للواقع وللعلم** مع السهر على **تجديدها يوما بعد يوم** ــ يجب ان تعطى عناية خاصة **للمفردات والاسلوب** حتى يكون تقدم التلميذ **تدريجيا** لا مبعثرا وغير منظم ــ يجب ان يكون لدى **الهيئة المختصة** بشؤون الكتاب المدرسى قائمات الكتب المختارة الصالحة التى « توجد عند **الامم الراقية** حتى يتسنى لها ان تقارن بين ما يصدر فى بلادها وبين ما يصدر عند غيرها » وذلك **للمحافظة على المستوى** ــ الكتاب المدرسى هو الكتاب الاول **الذى يدخل الاسرة** ــ يجب ان يكون الكتاب المدرسى **فى يد كل تلميذ** ــ فى البلدان التى فيها حرية الطبع يجب بصفة خاصة ان **ينتقد المسؤولون محتوى الكتاب المدرسى وقيمته العلمية** بالرجوع الى **الاختصاصيين فى الموضوع** وطلب رأيهم فيه ويحسن ان يجرب نوع من الكتاب على نطاق ضيق قبل اقراره حتى تتبين **صلاحية نشره على نطاق** واسع ــ يجب ان يتوفر فى الكتاب المدرسى **على** تدريج العلوم **من قسم الى قسم** الخ ....



من محاضرة للدكتور سعيد شيبان في ملتقى الفكر الاسلامي بوهران 1971

فمن اي باب طرقنا مسألة التعريب نجد ان ضرورة التكوين للتعريب في التعليم الثانوي وضرورة التعليم المساير للعصر والرقي . كل هذا يظهر لنا ضرورة التعريب الجامعي والابتكار الذي هو علامة التقدم وسلاحها الاقوى ، هذا الابتكار يجبرنا على الرجوع الى الأصالة . فلقد اعطى السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي اهمية كبيرة للاختراع في ندوته الصحافية منذ يومين فهذا الابتكار الضروري للتعريب المحرر يحتاج الى طلبة يتعلمون ويهضمون ، فليس هناك هضما ان لم تعط قالبك الخالص لما تأكله . فحين نقرأ مجلة علمية بلغة من لغات العالم المتقدم ، نجد جل المراجع التي يبني المؤلف مقالته عليها ، مراجع من بني جلدته ولغته . اذن فالألزم أن تنشر اولا الاختراعات الاصيلة باللغة الاصلية . فان أكبر انتاج يحصل في بلد من البلدان ان يأتي بطريق اللغة القومية . فالذى ينشر اكتشافه بلغته يزيد فى رأس مال أمته فى الميدان العلمي . والذى ينشر بلغة الغير فقط يزيد فى مراجع الغير وبضائعه .

ففي التاريخ الحديث استغل الاستعمار لمصلحته ومجده بطولة جنود عرب وتضحيتهم ، فهل نترك اكتشافات شبابنا وعلمائنا في العلوم ترفرف عليها راية الغير ، وان كان العلم عالميا فقيمة العالم تكون على قدر أصالته . لو كان ابن الهيثم ، لو كان الفارابي ، لو كان جابر بن حيان ، وجميع العلماء الذين تفتخر بهم المدنية العربية الاسلامية ، والذين بنت على آثارهم وزادت عليها الاجيال البشرية ، قد تعلموا باللغات الاجنبية وكتبوا باللغات الأجنبية ، ماذا كان يحصل في التراث العربي ، وهل كان ليبقى في هذه الميادين تراث، والاعذار كلها متوفرة أمامهم ، بالرغم من أن مؤلفات هؤلاء النبغاء كانت بالعربية فالكثير منهم غربت أسماؤهم .

كان الاجداد يترجمون الى العربية المعلومات الموجودة في كتب غيرهم وكانوا يدرسونها بالعربية . ثم في المرحلة الانشائية أخرجوا منتوجاتهم بالعربية فأعطوا للغتنا مكانة رفيعة بين اللغات طيلة قرون ، فكان عهد الترجمة مثالا للمجهود الفكري الضخم الذي ضمن الشخصية العربية الاسلامية من الاندماج المبطل في ثقافة الغير ، فاللغة التي حملت علم الثورة الثقافية بين الناس ، ما كانت لتقبل من ابنائها العجز ولا الكسل ولا عدم الثقة بالنفس فبهذه الصفات تغلب الاجداد فى عهد الترجمة وعهد التعريف الاول على صعوبات تعتبر صعوبات اليوم امامها العاب اطفال . فالاجداد الزموا انفسهم على البحث والتدبير وتعلم جميع ما يعلمه الغير ، ولكنهم حينما يدخلون تلك العلوم الى الدار ، دار الامة يخرجون انتاجهم وعليه القالب الاصيل .

لغوفي اللغة

محمد عزيز الحبابي
ترجمة :
فاطمة الجامعي الحبابي

صدر هذا الحديث بالمجلة الجزائرية:

Réalités - Alger وقدمته بما يلي :

« نشرت ، مؤخرا زميلتنا (Histoire du Maroc) بالدار البيضاء ، تدخلا لصديقنا الاستاذ محمد عزيز الحبابي ألقاه فى ملتقى حول « ازدواجية اللغة » ، انعقد بالربـاط فى 21 جانفى 1960 ، شارك فيه ثمانون عضوا من رجال التعليـم ، أغلبيتهم فرنسيون ٠

ورغم مرور ثلاثة عشر عاما ، فان ملاحظات فيلسوفنا المغربى (المستشار حاليا ، فى البحث العلمى بوزارة التعليم العالى بالجزائر) ما تزال تحتفظ بقيمتها ٠ ولذا نقدمها لقرائنا » ٠

ايها الزملاء ، نلاحظ ان المناقشات حادة حول « **اللغة العربية** » وقابليتها على مسايرة العصر بتقنياته وتجدده المسترسل ، وحول صعوبتها ، تعلما وتعليما • ويتدخل ممن لهم المام بالعربية ، وممن لا المام لهم بها ، وانما يسمعون عنها ، من قريب أو بعيد •



ان موقف المستعربين من اللسان العربي واضح ، لانهم تعلموا العربية بالطريقة التي يتعلم بها آخرون اللغات الميتة ، فمعرفتهم بقواعد النحو والصرف لا تنكر ، واتصالهم متين بالنصوص الوسيطية الكلاسيكية • بيد انهم لا يستخدمون ، ابدا ، هذه اللغة كوسيلة في المعاملات اليومية ، لذا يحملون تبعية هذا النقصان العربية ذاتها • لقد تعلموا الحديث «عن» العربية لا الحديث «ب» العربية ، كما تعلموا الكتابة «عن» العربية ، لا «ب» العربية (الا أقلية ضئيلة منهم) اذن ، تجربتهم ليست حجة على اللّسان (العربي) ولكنها برهان على اخفاق منهجية بعض المستشرقين المطلعين ، فرغم سعة اطلاعهم تنقصهم البيداغوجية والتطبيق بالنسبة لتعليم اللسان العربي •

انصتنا ، في هذه الندوة ، الى كلمات بعض الزملاء ، حول اللغة العربية وهم لا يتقنون الحديث بالعربية وليسوا مستعربين •

لا احد يستطيع ان يقاوم تعجبه منهم ، مع كل الاحترام الذى نكنه لحسن ارادتهم • لقد قضيت عدة اسابيع في الصين ، فهل يكفي هذا لكي أسمح لنفسي بالمقارنة بين اللغة الصينية واللغة العربية أو الفرنسية ؟ لكي نكون جديين ، فليتكلم كل منا عما يجيد معرفته • ان الاقامة في المغرب ، أو في أية دولة عربية ، بضعة شهور لا تكفي ، ابدا لاصدار أحكام على اللغة العربية • فواجب الدارس لاية لغة ان يأخذ بعين الاعتبار العامل الزماني ، ليتمكن من معرفتها في محيطها المجتمعي والتاريخي والثقافي ، قبل ان يتصدى للحكم عليها • كذلك لا يجوز ان تقبل احكام بعض المثقفين المغاربة على اللسان العربي ، فهم وان تكلموا بالعربية الا انهم كانوا ضحايا لنظام الحماية الفرنسيةفاتقنو، لغة المستعمر ولم يتعلموا الا النزر اليسير من العربية •

ان تدخلنا هذا يرمى الى وضع نقط على حروف ، لنبلور بعض مشاكل نظنها اساسية •

لن يخطر لنا ، ابدا ، ان ننصح الفرنسيين بان يبدلوا لغتهم الوطنية باللغة الانجليزية ، لما تفوق به الولايات المتحدة فرنسا من تقدم تكنولوجي وعسكرى واقتصادى • ولن نتجرأ ، ابدا ، فنحرض الفرنسيين على ان يوثروا اللغة الروسية لكونها لغة الصواريخ ، على لغتهم الام • في حين يبدو انكم تبذلون جهودا لاقناعنا بان أحسن وسيلة تساعدنا لكي نخرج من التخلف ، تتمثل في التخلي عن تعريب ثقافتنا والعمل على فرنسة عقليتنا ، وبعبارة أخرى ، ان نتنكر لانفسنا ، كأمة لها تاريخها وشخصيتها ، فنصبح مجرد طفيليين على هامش ثقافة أجنبية •

اننا نتقبل ضرورة التلاقح الثقافي ومعرفة اللغات الاجنبية • فالاوساط العربية المثقفة تردد ، منذ القديم ، بيتا شعريا أصبح مثلا ، يؤكد ان كل لغة مكتسبة تمثل ، عمليا ، شخصية تنضاف الى شخصية الفرد الاساسية : « كل لسان في الحقيقة انسان» • ان كل شخص مزدوج اللغة يعادل شخصين ، شريطة ان ينطلق من الاصالة ، أي من لغته الام ومن ثقافته الوطنية اللتين يقوم عليهما كيانه• فاليابانيون والصينيون مثلا ، يكونون أمتين عظيمتين ، والسر في هذا المجد انهم استطاعوا المحافظة على مميزاتهم الشخصية •

ان روح المواطنة والشخصية القومية كلتاهما تتجسد في التاريخ (وجذور تاريخ الشعوب هي اللغة ، والمعتقدات ، والاعراف ، •••) • لذا يجب علينا ان نناصر لغتنا القومية ، وان لا نجحدها حق المواطنة حتى لا يجرفنا الضياع • علينا ان نختار احد موقفين : **أما ان نلتحم وننصهر في قومنا ، واما ان نتلاشى في الغير ،** لكن الملايين من المواطنين الذين ضحوا بحياتهم من أجل استقلال البلاد ينيرون لنا سبيل الاختيار ويلقنوننا الواجب •



نحن وان سلمنا بضرورة التمسك بالعربية كلغة قومية في كل مرافق الحياة ، لانجيز لانفسنا سياسة النعامة ، فندعي ان اللسان العربي يتمتع اليوم بكل قوة المناعة والحياة ، دون احتياج الى اى تجديد او اثراء • فليس من المعقول ان نساير في هذا الادعاء ، بعض المغاربة من الذين فاتهم الركب ، ولم يبق لهم محل من الاعراب •

نعم ، ان مشاركة بعض المثقفين المغاربة في هذا الملتقى لدليل على تأييدهم لكل مبادرة تساعد على مصارعة التخلف ، سواء في الميدان الثقافي أو في الميدان التعليمي •

اننا نعي، حق الوعي ، كل ما ينقصنا ، وكل ما يجب ان نحققه ، كما نعي ما يلزم ان نفكه وما يلزم ان نركبه • واننا ، كذلك ، نقدر مساعدتكم التقنية لنا ، حق قدرها ، ولكنا نرفض الحلول الجاهزة مسبقا ، كما نرفض القردية (التقليد الاعمى) ، ونرفض ، بالاخص ، كل ما يدخل أي عطب على شخصيتنا الاصيلة •

لا شك ان اللغة العربية في حاجة الى تحويرات والى روافد لتزداد نموا ، طبقا لقانون تطور كل ما هو انساني • اننا نعترف بكل ذلك ونحاول علاجه ، فلا يرفض النقد الذاتي الا متشائم يائس ، او بليد •



اسمحوا لي ان انتهز فرصة ملتقى اليوم ، لأؤكد تعجبي من « أبوية » (Paternalisme) بعض الزملاء : انهم يناشدوننا ، بالحاح ، ألا نضحي باللغة الفرنسية ، خوفا علينا من ان نصبح صما بكما •

لا خوف ايها السادة ! ان اللغة الفرنسية اثراء ثقافي لنا ، وستظل كذلك ما دامت تسهم في تطعيم الثقافة المغربية ، دون ان تحاول اجتثاء شخصيتنا من تاريخها الاصلي •

أمن اللائق ان يتخذ بعض الزملاء موقفا معاكسا لاختيارات المسؤولين الاكفاء في هذا البلد ؟ انهم يحذروننا من « مغبة » تعريب التعليم والاجهزة الادارية • انه لموقف تنقصه اللياقة والظرف ، وقد لا يخلو من مس بالكرامة القومية المغربية ؛ ذلك ان الاستقلال الوطني لا يتم الا باسترجاع الاصالة الشخصية التاريخية • والواقع ان ما يطلبونه منا يتلخص فيما يلي :

« قوموا انتم انفسكم بما لم ينجح المستعمرون في تحقيقه ؛ اى اعملوا على فرنسة شعبكم » •



لقد اصبحت اللغة العربية نجمة سينمائيه يحتضنها البعض بشغف احتكاري (وبما ان للعشاق منطقا يخالف منطق الآخرين فمن الصعب التفاهم معهم) •

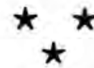
هناك زملاء آخرون يهتمون بنجمتنا ، غير انهم يعاملونها وكأنها مراهقة • فمن كثرة ما يحرصون على صيانتها واحتضانها جعلوا الحياة لديها غير محتملة الى حد الاختناق •

ايها الزملاء ! ان لم اكن قد اسأت الفهم ، فاجتماعنا اليوم هنا يضم لجنة تحكيم في مباراة انتخاب ملكة جمال المغرب ، من بين مرشحتين : الاولى خرجت من شاطىء نهر « السين » حيث ما فتىء خالدو «الاكاديمية الشهيرة بباريز» ، منذ ثلاثة قرون ، يلبسونها ويزينون ملامحها وينعشون شبابها وجمالها ، بكل ما وسعهم من قدرات ووسائل • ما اجملها ! رشاقة ، وأناقة ، دعابة ، وخفة روح !••• لقد حبيت بلطف ومواهب جمة ، منذ (كورناى) و (باسكال) و (ديدرون) و (بودلير) حتى السيدة (دو بوفوار) والسيدة (صاغان) ، بالاضافة الى المحظوظين الذين احرزوا على جوائز «غونكور» و « روندو » و «فيمينا» • فملاحة اللغة الفرنسية تتوالد وتتجدد باستمرار ، كمياه « السين » •

اما المرشحة الثانية فليست الا « النجمة » الصغيرة التي ذكرناها سالفا ؛ فلا هي أنيقة في لباسها ، ولا هي حاذقة في حركاتها ، راعية صغيرة أصلا ، غير انها على العكس من الراعية الشهيرة (برنديت) قدسية (اللورد) ، لم تحظ ، منذ عدة قرون ، لا بالهامات ولا برؤى ••

اذن ، لقد وقع الاختيار مسبقا ، فلم يبق الا ان يصدر الحكام قرارهم بالاجماع • لكن ، ويا للاسف ، المشكل لا ينحصر في اعتبارات جمالية ولا في أوضاع جغرافية ، انه يتجاوز ، بكثير ، الاناقة والملاحة والجغرافيا (على ان لكل نوع من الجمال جاذبيته) • المشكل جد معقد ، لا يمكن ان ينحصر في المظاهر •

سيداتي سادتي . ليست اللغـة العربيـة ، بالنسبة للمغاربة ، مجرد اداة ثقافة وتبادل فكرى بل انها اساس التعبير عن كل ما هو اساسى في حياتهم ، بصفتها وسيلة تواصل ، في كـل اللحظات ، بين أمهات وأطفالهن ، كما هي أداة تواصل بين مقومات الحياة ، (اقتصاديا ، ودينيا ، وسياسيا ، ومجتمعيا) . **فاللغة الام وحدها هي التي تستطيع اجلاء كل اللوينات العاطفية . انها روح الشعب وكل وشجاته الوجدانية ، الواضح منهما والمعقد.** اللغة الام هي ماضى الام الحاضر . انها ذكرياتنا العاطفية ووجداننا ومنطقنا وقـد نشأت كلها من دم ولحم الاجيال التي توالت على هذا الوطن . انها نحن انفسنـا . فالذيـن لا يفهمون ذلك لا يمكنهم ان يتفاهموا ، وبالاحرى ان يفهموا اللهفة التي تعانيها كل الشعوب الفتية وهي تجهد نفسها لبعث تراثها الثقافي ، واحياء ماضيها وشخصيتها عن طريق اللغة الام .



قد يرى البعض اننا نتعصب للمرشحة البدوية واننا بالغنا في الاعجاب بجمالها . وقد ينصحنا آخرون : « انظروا عن قرب نجمتكم العربيـة ! جردوها عن زينتها ، ستبدو لكم أقل شبابا مما تظنون ، كالممثلة في مقصورتها وقد ابتعدت عن الديكور والاضـواء . فعوضا عـن العضلات والاعصاب ، ستجدون تجاعيد واعضاء مرتخية مشلولة » .

جوابا على هذا ، نؤكد اننا لا نخاف من النقد الذاتي ، فبكل موضوعية ، نعترف بان العربية لغة عريقة في القدم ، لكنها لم تمت ، ولهست محتضرة . كل ما هناك انها متعبة ، لما اصابها ، الى حد ما ، من جمود وهمود .

فالواجب هو ان نفك الحصار مـن حواليها لنقضي على الجمود . لا بد لهذه اللغة ان تتحمـل بعض التحويرات ، كما هو الشأن بالنسبة لكل اللغات الحية ، مثلها كمثل الشجرة المسنة التي تتحمل التخلي عن الاغصان الجافة المتصلبة كي تستعيد فتوتها ، هنا نذكر عبارة يتداولهـا الفلاحون في المغرب : « لجـودة الزيتون يجب القضاء على ربايب الشجرة » ، ويعنون « الربايب» الاغصان اليابسة والطفيلية .

اذن ، من الواجب احصاء ربايب اللغـة العربية ، وأخذ القرار الجازم لازاحتها .

فما هي تلك الربايب ؟ .

سنترجم هذا السؤال في العدد المقبل .

(يتبـع)

الغاز
نقص وازمات
الزبيب
لوائن البلاستيك
نقص وازمات
نقود للتسليف العقاري
أزمات
النحاس
المنسوجات
النفط
ازمة الوقود للترفئه
طباعة الصحف
اللحوم
ازمات
الورق
حبوب الصويا
الاسمنت
اللامينيوم
عن صحيفة الهرالد تربيون
بلد الرخاء والخيرات

التعريب والازدواجية في تونس

اصدر مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس الكراس الثالث من السلسلة اللغوية في نوفمبر 1970 (213 ص) وهو خاص بدراسة بعض اوجه الازدواجية اللغوية في تونس (1) ، ويضم ثلاثة بحوث :

1 ـ **رشاد الحمزاوي** : تعريب وزارة الداخلية ص 11 ـ 73 + ملحق ص 75 ـ 97 (يضم صورا لبعض الوثائق التي اعتمدتها الدراسة)

2 ـ **زهرة الرياحي** : استعمال تلامذة الثانوي للعربية والفرنسية ص 99 ـ 165 (يضم 19 جدولا) .

3 ـ **الحبيب العونلي** : لغة الطلبة ـ ص 167 ـ 213 (يضم 10 جداول) .

وقد صادف ظهور هذه النشرية احتدام النقاش في موضوع التعريب والازدواجية ، فرأينا أن نقدم هذه البحوث ، لا للتعريف بها فحسب ، وانما خاصة لتحليل ما تضمنته من وصف مجرد لبعض المظاهر اللغوية في تونس وما يمكن ان تثيره من مشاكل وتوحي به من افكار تتعلق بظاهرة الازدواجية اللغوية وتبعا لذلك ، بمشكلة التعريب ، وما ذلك الا لايماننا بضرورة وصف الواقع اللغوي التونسي من جميع جوانبه بالطرق العلمية الخالية من كل عاطفة أو تعصب حتى يمكن فهم هذا الوضع كما وكيفا ليمكن بعد ذلك التأثير فيه ، ومعالجته بانجع الوسائل واسلمها حتى نسلم من خطرين الانبتات من ناحية وعقلية عصور الانحطاط من ناحية اخرى وان ايجاد التوازن الضروري لابطال هذين الخطرين اصبح امرا حيويا ، وهو لا يتم الا بالموضوعية والنزاهة في معالجة المشاكل بعد فهمها وتحليلها تحليلا مجردا .

وان هذه البحوث لترمي الى هذا التحليل قبل كل شيء ، وتستحق فيما نعتقد ان توضع في هذا الاطار باعتبارها محاولة ومشاركة في تصوير واقع لغوى معقد ، يخرجنا من الاحساس الغامض بالحدس والتخمين ، الى المعرفة الصحيحة بالاحصاء والارقام .

تحليل البحوث

تحليل البحث الاول :

يتميز البحث الاول بانه لا يصور واقعا لغويا قديما موروثا ، وانما يصور واقعا جديدا ، ناتجا عن تجربة تتمثل في تعريب احدى الادارات التونسية في نطاق وزارة الداخلية ، وهي ادارة حرس المرور .

(1) Quelques aspects du bilinguisme en Tunisie. Cahiers du C.E.R.E.S, série linguistique 3 novembre 1970, 213 p.

وقد بدأ صاحبه بتقديم المشكل تاريخيـا (9 ص) ، وذلك بالرجوع الى عهـد الحماية حيث كانت مسألـة التـعريب مندرجـة في نطاق المطالب الوطنيـة عمـوما ، ولكنهـا اخذت شيئا فشيئا تتميـز بالمرونـة والواقعيـة مراعاة للاوضاع والمصاعب .

ثم حدد بعد ذلك **اختيارين** في موضوع البحث (15 ص) ، معللا حصر الاختيار الاول في وزارة الداخليـة بانعدام التقاليد العـربية في هذه الوزارة قبل الاستقلال اذا ما قورنت بوزارة العدل . اما الاختيار الثاني ، فاننا نجـد فيه تحليلا لخصائص ادارة الحرس الوطني اكثر مما نجد تعليلا ولا سيما انه كان يمكن زيادة اختيار ثالث يتعلق بحرس المرور الذي هو موضوع البحث الاساسي .

ويحلل القسم الثالث (4 ص) **وسائل التعريب** البشرية وكذلك المـادية المتمثلة في مدرسة الحرس الوطني والمكتبة ، وفيه جدولان يبين اولهما مواد الدراسة وساعاتها ويضبط ثانيهما مطالعات الحرس باللغتين العربية والفرنسـية حسب المـواد . وهما يستحقان تعليقـا استنتاجيا يبين اهميتهمـا بالنسبـة للبحث اي من حيث اهميـة دورهمـا في التعـريب .

ويعدد القسم الرابع ـ وهو يقع في صفحتين ـ الوثائق المكتوبة التي اعتمدت في البحث وهي « المقتطعـات المـالية » و « دفاتر الخـدمة » و « دفاتر التصريحـات » و « المحـاضر » و « متفـرقات » مشيرا الى انها تجسم مختلف مراحل التعريب . واننا نعتقد ان تحليل هذه المـراحل من اهم ما يجب القيـام بـه في المستوى اللغوي للمس قيمـة هذه التجربة في التعريب بفهم اتجاههـا وتطـورها وتبين مدى نجاحهـا حتى تكـون من المعـايير في هذا المجـال .

ـ اما القسم الخامس الاخير وهو اضخمهـا واهمهـا (33 ص) فهـو خاص **بالوصف اللغـوي** وينقسـم الى خمسـة محاور رغم ان فقـراته غير واضحـة تمام الوضـوح احيـانـا :

يتضمن المحور الاول (6 ص) مشكلة **الرسم** ، رسم الكلمات العربية ، الفصيحة والعامية ، ورسم الكلمات الاجنبية بالاحرف العربية . وقد استعملت للتعبير عن هذا المفهـوم الواحد ثـلاثة مصطلحات فرنسيـة (2) حملت من المعـاني مالا تحملـه في الواقع ، ودون حاجة الى ذلك ولاسيما ان الكلمـة الثـالثة بدت في التبويب مقابلـة للاولى ، بينمـا قصد الكاتب فيما يبدو مقابلة الثانية للثالثة في نطاق محـور واحد عبر عنه بالكلمـة الاولى . وكان يحسن في نظـرنا ـ اجتنـابا لهذا الغمـوض والالتباس ـ الاقتصـار على اللفظ الثالث مع اضافته الى اللغـة المقصـودة .

ثم ان الامثلة العديدة التي قدمت في نطـاق هـذا المحـور ، باعتبـارها اغلاطا رسميـة ، تمثل مادة هامة جدا يمكن ان تحلل تحليلا لغويا مفيدا ويمكن أن تثير مسألة صلاحية الخط العربي التقليـدي لرسم لغة ادارية شديدة التأثر بالعـامية خاصه وكذلك بالفرنسـيـة . وان الاضطراب الموجود في ذلك ليدل بوضوح على الحيرة والتردد وعلى انزلاق لغـة مازالت تبحث عن نفسها حتى في الرسم . كما أن عددا كبيرا من هذه الامثلة لا يخضع للرسم وانما يرجع الى اسباب صوتية محضة ، تستحق تحليلا وتعليلا مستقلين ولاسيما ما يتعلق منها بالحركات التي لا شيء يدل عليها في وثائق غير مشكولة مما يجعل درسها علميا غير ممكن .

ويتعلق المحـور الثاني (16 ص) **بالنـاحية الصرفيـة** . الا انه ليس دراسـة صرفية ، وانما هو شبه معجم يضم عددا كبيرا من الصيغ والكلمـات الواردة في الوثائق مبوبة حسب ابنيتهـا الصرفيـة وتضم مختلف مشتقـات المجـرد حسب الترتيب الالفبائي ، متبوعة بمشتقات الافعال المزيدة ولاسيما اسماء الفاعل والمفعول والمصادر . ولانجد ذكرا للاسباب الداعية الى طرح الافعال قصدا والاقتصار على المشتقات التي تتفاوت في قيمتهـا الاسميـة

وينتهي هذا المحور ببعض الملاحظات المتعلقـة بالمحاكاة اللغوية ، مدعمة بامثلة من قانون الطـرقات ، والترادف ، المتمثل في اعطاء الكلمـة الاجنبيـة مقابلين او اكثر في العربية ، وهذه الظاهرة في حاجة الى تحليل ، واخيرا الشرح الذي هو حل السهـولة عندما لا يتوفر لفظ مقابل للمصطلح الاجنبي .

اما المحور الثالث (6 ص) فيتعلق **بالنحـو** وتدور الامثلة المقدمة حول الاغلاط الاعرابية من ناحية والجملة من ناحية اخرى بتركيز امثلة الجمل على المحاكاة والقوالب المبتذلة . وكل هذه الامثلة في حاجة الى تبويب وتحليل .

ويتعلق المحور الرابع (صفحة واحدة) **بالدخيـل** . ولانجد درسا للالفاظ الدخيلة وانما نجد ملاحظات حول استعمـال بعض المصطلحـات الطبيـة المتعلقـة بالفحوص والتقـاريـر .

اما خامس هذه المحاور وآخرها (صفحـة ونصف) فيتعلق **بالخصائص اللهجية** في تقارير الشرطة ولانجد هنا ايضا بحثافي تأثير اللهجة التونسية في عربية الشرطة في مستوى الالفاظ والابنية والتراكيب والتعابير ، وهو ميدان زاخرثري ، وانما نجـد خاصة اثارة لمشكل هام يتمثل في تردد الشرطة بين تسجيل تصريحات الناس بلغتهم التونسية وبين ترجمتها الى العربية وما ينتج عن ذلك من تأويل وتحريف قد يكون له تأثير في الاحكام الصادرة . وحتى عندما تسجل التصريحات بأمانة فان الرسم العربي الذي جعل للغـة مختلفـة ، لايؤديها بكامل الامانة ايضـا .

وفي الخاتمة لاحظ الكاتب ان « لغة الحرس » تمثل تداخلا بين الفصحى والعامية . واستنتج من هذا وجود ثلاثة مستويات من العربية « الفصحى » . عربية الادب وعربية الصحافة وعربية الادارة المتأثرة بالصحافة ، وقد اعتبر الكاتب لغة الادارة حلا وسطا بين الفصحى والعـامية وصفه بأنه « لغة ثالثة » تمثل العربية « الوسطى » الشائعة .

ونحن لا نوافق الكاتب على ذلك لان لغة الادارة لا تمثل الا مستوى فنيـا لا يمكن ان يكون شائعا او ان يتخذ نموذجا للغة عصرية ، خلافا للغة الصحافة ذات الاثر العميق في تطوير اللغـة لمـا لهـا من انتشـار .

وكنا نود ان تقع الاشارة في الخاتمة الى جوهر المشكل وهو التعريب ، فما هي حدود هذه التجربـة في التعريب الاداري ، وما هي قيمتهـا الذاتية ؟ ما هي ايضا فوائدها ومضارها ان وجدت ؟ هل المنهاج الذي اتبع في حاجة الى المواصلة ام الى التغيير او التنقيح والتعديل ؟ والى اي حد يمكن لهذه التجربة ان تكون نموذجا لغيرها في سائر الادارات ؟

(2) a) Ecriture, l'orthographe,
b) transcription.

ان صعوبة تقييم هذه التجربة علميا بالاجابة عن مختلف هذه الاسئلة التي تخامر ذهن قارىء البحث عند الانتهــاء منه ، ترجع الى مالمح اليه الكاتب نفســه (ص 72) من ان لغة الحرس ، بما فيها من مستويات وتداخل بين الفصحى والعامية فى حاجة الى تحديد وتدقيق وهو مايجعل قيمــة هذا البحث تتمثــل خاصة فى مادته الغزيرة المتنوعة وفى محاولة تبويبها . فهــذه المادة الثرية جديرة بان تكون موضوع بحث لغوى يحلل كنه هذه اللغة ويحدد ابعادها . وان لنافى الختام على الكاتب بعض المـآخذ الطفيفة المتعلقة بهيكل البحث فنحن نلاحظ من خلال اقســام البحث ومحاوره تفاوتا كبيرا بينها لا تبرره اهمية المحــاور لعل بعض ذلك يرجع الى ان الكــاتب فضل الاختيــار على الاستيعــاب فاهتم ببعض النــواحي اكثر من البعض الآخر ، الا انه افرط فى تحليــل الاختيارات التي هي نوع من التقديم اذ استغرقت ربع البحث . ثم ان اهمية الفقرات لا تبين احيانا بوضــوح اضطراب العنــاوين وطريقة ترقيمهــا كما يظهر ذلك ص 31 (حيث « أولا » بدون « ثانيا ») و 36 و 37 (حيث تتداخل الحــروف والارقــام) ، وكذلك بين ص 41 و 44 . وقد تكون رداءة الطباعة مسؤولة عن بعض ذلك . ولئن كان القارىء يتعثر احيانا ، فان ذلك لا ينقص كثيراً من الفائدة التي تحصل له وهو يتابع تفكير الكاتب ويتامل عديد الامثلــة التي يعــرضهــا عليــه .

اما الملحق الواقع فى 22 صفحة والذي يضم تقــريبا عشرين وثيقة مصورة فانه يبدو كالزائد او الخــالي من الفائدة لا فتقــاره الى تعليق او تقديم يبين الغــاية منه أواساس الاختيار ولاسيما أن بعض الوثائق لا يكاد يقرأ . ولعله كان من المفيد أن تقع الا حالة عليها أثناء المقدمة التاريخية فتكــون مرجعــا يدعم البحث . الا انها رغم ذلك تدل على ضخامة المجهــود الذي بذله الكاتب لاستقــرائهــا .

تحليــل البحث الثــاني :

يعتمــد هذا البحث المتعلق بلغة تلامذة الثانوي ، تحقيــقا أجري في أواسـط سنــة 1968 بثلاثة معاهد ثانوية بالعاصمة ، اثنان للفتيات وواحد للفتيان . وقد تم استجواب مائة تلميذ (68 فتاة و 32 فتى) من السنتين الخامسة والســادسة آداب عصرية وعلوم من شعبــة « ب » ، وهي اهم الشعب كمــا انهــا تضم التلامذة الذين تتساوي قوتهم فى اللغتين العربيــة والفــرنسية مبدئيا وان كان جانب الفرنسية فيها اوفر بكثير . فهي اذا شعبــة الازدواجية اللغــوية المثلى (خلافا لشعبة « ء » العربيــة و « ج » الفرنســيــة) . وينقسم البحث الى ثلاثة اقســام كبرى يمكن ارجاعهــا الى المحــاور الاربعــة التــاليــة :

1 ــ اللغة التي يستعملهــا التلامذة فى **الوسط العائلي** (12 ص) : فى مستوى القول ، اي الحديث ، يستعمل اغلب التلامذة اللهجة التونسية الا بالنسبة لمن يعيشون فى وسط مثقف ، فانه يغلب عند ذلك الخلط بين اللغتين . غير انه خلط لا يشوه الهياكل النحــويــة الخــاصة باللغــة التونسيــة حتى نعتبر هذا الخلط « لغة مزيجا » من نــوع « السبير » .

الا انه من الغريب ان ثلث التلامذة يؤكدون انهم يستعملون الفرنسيــة عندما يكونون فى حالة غضب او حالة اخرى من حالات الانفعال . ونحن نعتقد ان فى هذا التأكيد مبالغة ترجع الى ظن التلامذة فى هذا المستوى : انهم يتكلمون الفرنسية حين يستعملون بعض الكلمات فى لغتهم اليومية . واللجوء الى كلام اجنبي فى حالات البذاءة وما يتصل بهــا ، يرجع فى ما يبدو لنا الى ظاهرة الكناية والتورية لغاية التلطيف وبدافع الاحتشام

اللاشعوري . فالكلام الاجنبي ليس له نفس الشحنة العاطفية التي تكون للغة الانسان الاولى . وهذه ظاهرة طريفة يمكن ان تدرس من حيث علم النفس وعلم اللغة .

ـ اما في مستوى المكتوب ، اي التراسل مع افراد الاسرة ، فان الاجوبة تدل على انه اذا توفر الاختيار ، يميل التلامذة الى استعمال الفرنسية . وهذه الظاهرة ليست هي السبب في ضعف نسبة الذين يراسلون اسرهم كما يبدو من استنتاج البحث وانما يرجع ولاشك الى الظروف الخاصة التي لم تقع الاشارة اليها ايضا مطلقا ، فقد كان من الواجب النظر في نسبة من لا يعيشون وسط اسرهم لتبرير الحاجة الى المراسلة .

وقد ركزت خاتمة هذا القسم على ابراز نزعة التلامذة الى تفضيل الفرنسية ولاسيما لدى الفتيات . ونحن نرى ان هذه الظاهرة ترجع الى عاملين جوهريين :

ـ يتعلق الاول بنزعة عامة ، تتمثل في الميل الطبيعي الى استعمال لغة هي في نفس الوقت لغة دراسة ولغة عمل بالاضافة الى انها لغة ثقافة . فلا يمكن ان يعاب على الشباب التونسي استعمال الفرنسية في الحديث لان السياسة التربوية قد منحت هذه اللغة اهمية تفوق اهمية اللغة القومية اضعافا وهو ما جعل التونسي يعيش في جو تطغى عليه الفرنسية من كل جانب ولا يمكن ان يسلم من تاثير ذلك الجو .

ـ اما العامل الثاني المتعلق ببروز هذه النزعة بصفة اقوى لدى الفتيات ، فانه يتمثل في تعلق الفتيات عامة بكل ما هو عصري مميز ، والفرنسية مظهر من مظاهر العصرية في مجتمع كالمجتمع التونسي .

2 ـ اللغة المستعملة في الوسط المدرسي (23 ص) .

ان الظروف المدرسية لما يساعد على استفحال الازدواجية . كانت العربية تفوق الفرنسية في برامج السنوات الثلاث الاولى من التعليم الابتدائي فان الفرنسية تاخذ في التفوق ابتداء من السنة الرابعة ، ويتواصل ذلك تصاعديا في الثانوي والعالي حيث يصبح البون شاسعا والهوة عميقة .

ونظرا لندرة قدرة التلاميذ على التعبير عن افكارهم في كلتا اللغتين بنفس القدرة فان اغلبهم يستعين باحدى اللغتين على فهم الدروس الملقاة بالاخرى . ويتبين من الاحصاء ان نسبة الذين يستعينون بالفرنسية لفهم درس عربي تساوي ضعف نسبة الذين يستعينون بالعربية لفهم درس فرنسي . ونجد نفس النسبة لدى الذين يجدون صعوبة في مستوى فهم الالفاظ وهو تقريبا خمسون في المئة من المستجوبين . ويدل على ضعف فادح في رصيدهم اللغوي الادبي وهو ما يلجئهم الى الاستعانة بالفرنسية والعامية . ونحن نرى ان ذلك يرجع الى ان جل المفردات التي تعلموها ليست مما يحتاجون اليه في الحياة العملية او للتعبير عن افكارهم العصرية . ويرجع هذا ولاشك الى خلل في الاختيارات الادبية وانتقاء النصوص الملائمة الى جانب عوامل اخرى اكثر تشعبا تفسر انعدام الحافز . وينتج عن كل ذلك سوء فهم للدروس ، وعجز عن التعبير في القول والمكتوب يزيده التمزق بين الفصحى والعامية استفحالا .

اما في حديث التلاميذ فيما بينهم خلال الدروس من ناحية ومع الادارة من ناحية اخرى ، فان الخليط اللغوي يسود . وانه لجدير بان يدرس من حيث تركيب الجمل . الا ان الفرنسية تتفوق هنا ايضا لاسباب لغوية ونفسية : فالفصحى لغة كتابة ، والعامية لغة الشعب والالفة ، بالاضافة الى انها قد تكشف عن خبايا الشخص فتدل على نسبته

الجغرافية والاجتماعية . وهكذا فان العامية تكسر الحدود القائمة بين التلميذ والمسؤول وتبدد الهالة التي يحيط بها المسؤولون انفسهم . فليس « أسلم أذن من الفرنسية » ، والحال هذه لانها « لغة الحياد » . وينتج عن كل هذه الاعتبارات أن ثلاثة ارباع التلاميذ يعتبرون الفرنسية اجدى من العربية واكثر ضرورة لتكوينهم الفكري والفني تكوينا عصريا . وهكذا نرى أن المدرسة وسط ملائم جدا لانتشار الازدواجية .

3 ــ فى **مستوى الاصدقاء** (8 ص.) نجد تقريبا نفس النسبة السابقة . الا انه من الهام ان نلاحظ ان اكثر من ثمانين فى المائة فى هؤلاء التلامذة يعترفون بانهم يعبرون عن عواطفهم بالفرنسية فى الكتابة ــ وان تساوت النسبة بين العامية والفرنسية فى الحديث ــ وتقول فتاة من السنة الخامسة فى ذلك « اني استطيع ان اقول كل شيء بالفرنسية **بدون احتشام** واشعر انني **اكثرحُرية** » . (3) .

4 ــ اما المحور الاخير (15 ص.) فيتعلق **بالاختيارات اللغوية الذاتية** ومواقف التلامذة ثقافيا . ويستنتج من الاجوبة أن ثلاثة ارباع التلاميذ يطالعون الجرائد الفرنسية وان نسبة ارفع تطالع الكتب الفرنسية . وبعض هؤلاء يصف العربية بانها لغةميتة . ثم ان ثلثي التلامذة يفضلون كتابة مذكراتهم وآثارهم بالفرنسية ان شعروا يوما بالقدرة على ذلك . ولايرى الا العشر أن العربية صالحة لكل ميدان .

ويظهر من مختلف الاجوبة ان التلاميذ يشعرون بضيق وقلق فى المستوى اللغوي يرجع الى احساسهم بالضعف فى كلتا اللغتين نسبيا . فالازدواجية اذا عممت دون مراعاةاختلاف المستويات الذهنية واقيمت على تعادل اللغتين ولو نظريا فانها تسيء اكثر مما تفيد وتؤدي فى اغلب الاحيان الى الحصر والرتج والاضطراب والتذبذب . وكل هذا يفسر تردد التلامذة فى تحديد الثقافة التي ينتمون اليها ، فاكثر من الخمس امسكوا عن الاجابة ، بينما الثلث ذكر انه ينتمي الى الثقافة الفرنسية .

ولئن كانت نتائج هذا البحث غير قابلة للتعميم نظرا لقلة المستجوبين وانعدام تنوعهم اجتماعيا وجغرافيا ، فانها تعطي صورة صحيحة فى خطوطها الكبرى عن واقع صنف من الشباب التونسي .فهذا الشباب لا يعارض الازدواجية مبدئيا ، لانه مقسم بين شعوره القومي تجاه العربية ورغبته في استعمال اداة لغوية طيعة عصرية هي الفرنسية التي لم يعدالتونسي يشعر ازاءها بمركب النقص المميز للمستعمر . لذلك يعبر التونسي عن اعجابه بالفرنسية بدون تحفظ لان عهد الاستعمار قد ولى ولم تعد اللغة نتيجة لذلك مطلبا قوميا ووسيلة من وسائل مقاومة المستعمر .

وقد ركز البحث فى الخاتمة (4 ص) على الثنائية المتمثلة فى الفصحى والعامية والتي تزيد مشكل الازدواجية تعقيدا ولاسيما ان الفارق بين الفصحى والعامية كبير يحتاج الى دراسة علمية تضبطه حتى لاتكون الاحكام ملقاة جزافا . وقد ادى هذا الموضوع الى شيء من الاسهاب فى الحديث عن الموضوع الثقافي التونسي .

تحليـــل البحث الثـــالث :

اجري هذا البحث لمعرفة المشاكل التي تعترض الطلبة فى المستوى اللغوي والطرق التي يعالجونها بها والمواقف النظرية والعملية التي يتخذونها ازءها وذلك بفضل استجواب قدم باللغتين العربية والفرنسية ، وينقسم الى قسمين كبيرين جعلا فى البحث ثلاثة دونمـا مبـرر ظـاهـر .

(3) من البديهي ان التربية التي تعتمد الكبت بانواعه تؤثر حتما فى اللغة فاذا الكلمات العاطفية تصبح فيها ثقيلة على اللسان لذلك يلجأ المتكلم الى لغة أجنبية تبدو له الطف .

اولا ــ ظروف الطلبة اجتماعيا وثقافيا :

وهو قسم في الواقع تمهيدي ، يواصل المقدمة التي تحدد الموضوع وتضبط المنهجيــة المتبعة في البحث (3 ص) .

لم يذكر الكاتب عدد الذين استجوبهم ولا توزعهم على الكليات وهو سهومخل كما ان الجدول الاول الذي يضبط اللغات التي يستعملها الطلبة ودرجة اتقانهم لهــا بقي فيه الركن الخاص بهذه اللغات فارغا نتيجة خلل مطبعي ولاشك ، مما يجعل هذا الجدول الهام عديم الفائدة وحده . وقد وقع بعد ذلك استعــراض مختلف اللغات المستعملة في الدراسة حسب مختلف الكليات المدروسة وهي على التوالي مدرسة ترشيح الاساتذة المساعدين وكليات الآداب والشريعة والحقوق والعلوم ، وكذلك لغة مهنــة المستقبــل .

ثم وقع الانتقــال الى « **المواقف** » تجاه كل صنف من اللغــات المستعملة وذلك بابداء الراي في المستوى الفردي وفي المستوى القومي ، فعبر الطلبة عما يفضلون من اللغات (الفرنسية والفصحى والعامية والوسطى) وعما يعتبرونه منها أصلح في الحياة فترددوا في التفضيل لوجود عدة اعتبارات تتجاذ بهم ، فالتفتح على العالم العصري يدفعهم الى الفرنسية ، والتمســك بالاصول يشــدهم الى الفصحى ، واعتبار الواقع القومي يفرض العامية ، والانتماء الى الفكر والثقافة يميل بهم الى عربية وسطى .

لكن اعتبار الفائدة العاجلة في الحياة يغلب آخر الامر الفرنسية بنسبــة تفوق النصف وتليها العربية الوسطى بنسبة الثلث وتتأخر الفصحى عن العامية طبقا لهذا الاعتبــار .

اما في المستوى القومي فان الوسطى تصبح الاولى وتليها الفصحى ثم الفرنسيــة والعامية . فالطلبة يشعرون ان جعل العامية لغة قومية يحتاج الى جهد كبير ووقت يضيع في جعل هذه اللغة الشعبية لغة ثقافيــة .

اما موقف الطلبة من الازدواجية والتعريب فهو جدير بالاهتمام وان دل احيانا على سوء فهم لجوهر القضية : فثلاثة ارباع يفضلون بقاء الازدواجية عموما مما يدل على انهم لا يفرقون بين انواع الازدواجية ولا يشعــرون بان الازدواجية السليمة هي التي تكون تفتحا واثراء للغة القومية لا التي تحل فيها لغة اجنبية محل لغة قومية . أما في مستوى التعليم فان النصف يحبذون بقاء الازدواجية والنصف الآخر يشعر بما في ذلك من ضياع للوقت الذي يذهب في محاولة امتلاك لغتين فكثيرا مايؤدي ذلك الى العجز في كلتيهما . الا ان جل الطلبة يفضلون تعريبا جزئيا في المواد غير العلمية وترك العلوم بالفرنسية لفقد ان العربية ماكان لهــا من دقة ولافتقارها الى المصطلحات الحديثة التي تزيد كل يوم بسرعة تفوق سرعة تعــريبهــا ، لان دور العــرب في ذلك دور مستهلك لا مشارك في الانتاج ، على ان المشكل في نظرهم ليس لغويا بل هو حضاري فمثلما كانت العربية لغة علم يوم كان العلم عربيا فان هذه اللغة لن تكون لغة علم الا عندما يشارك العرب في الحركة العلمية خلقا وابتكارا . وقد يبدو من الغريب ان نسبة الطلبة الذين ينكرون على العربية الفصحى القدرة المطلقة على التعبير عن الواقع الادبي نفسه تفوق لدى طلبة الآداب نسبة طلبة العلوم ، وما ذلك الا لان طلبة الآداب العربية يعرفون اكثر من غيرهــم حدود الفصحى في التعبير عن الواقع اليومي العصري وهو ما يدفع بعض الادباء الى استعمال مستويات لغوية اخرى تصل احيانا الى العامية . على ان الطلبة يشعرون ــ اذا مادعت الحاجة يوما الى استعمال العربية الفصحى ــ بضرورة تبسيط

هذه اللغة وتنقيحها ولاسيما في مستوى نحوها ورسمها بالشكل وضرورة الحد من تنوع الحروف رسما وهو ما يذكر بمقترحات السيد الاخضر المغربي في هذا الصدد . ولم ينتبه الى خطر ذلك الا عشر الطلبة الذين شعروا بان كل اصلاح جذري للخط يقود الى فصم الروابط مع الماضي ويجعل التراث الضخم القديم في حاجة الى نشر جديد يتطلب من الوقت والتكاليف والجهود ما يفل العزائم .

وقد وقع تخليص نتائج هذا القسم الكبير الاول المتعلق بآراء الطلبة في المشاكل اللغوية (ص 190 — 1) قبل الانتقال الى تحليل القسم الكبير الثاني المتعلق بالسلوك اللغوي الذي يصور الواقع بصدق اكثر ويكون من المفيد ان يقارن بالآراء .

وقد وقع الاعتماد في هذا القسم ، جانب الاستجواب ، على تسجيل بعض المحاورات التي جرت بين بعض الطلبة في موضوع اللغة .

وقد ركز هذا القسم الثاني على اربعة محاور تتعلق باللغة التي يستعملها الطلبة فيما بينهم ، ومع اساتذتهم ومع الادارة ومع افراد الاسرة .

1 — تختلف لغة الطلبة فيما بينهم باختلاف الاوساط :

— ففي الجامعة — بما فيها القسم — يغلب استعمال لغة الدرس واضخم نسبة للفرنسية ويليها الخليط العربي الفرنسي الذي تأخذ نسبته في الارتفاع كلما ابتعد الطلبة عن جو القسم ، الى ان يصبح في المرتبة الاولى اذا ما انتقلنا من مواضيع الدراسة الى مواضيع الساعة ولاسيما خارج الجامعة . وهذا الخليط يعتمد العامية اكثر مما يعتمد الفرنسية . وان تحليل هذا الخليط لغويا لا يخلو من طرافة وفائدة في المستويين النفسي واللغوي . فالتحليل العلمي الدقيق لهذه الظاهرة يمكننا من ان نعرف متى ينتقل المتكلم من لغة الى اخرى ولماذا . وقد حاول الكاتب ان يحلل بايجاز بعض النماذج من ذلك (ص 199) . ويمكننا ان نستنتج بصفة عامة ان نزعة الخلط ترجع الى نزعة المجهود الادنى ، فالخلط فرار من الصعوبة والبحث ، اذ يستعمل المتكلم اول لفظ يرد على لسانه بقطع النظر عن لغته وذلك لوثوقه من فهم السامع . لكنه عندما يجد نفسه في ظرف يحتم عليه استعمال مستوى لغوي واحد ، فانه يتعثر ويصبح كلامه ابطأ ومجهوده اكبر ، ولو تكرر الامر لا صبح الكلام بلغة واحدة دون خلط أمرا يسيرا . لذا فمن المبالغة في نظرنا اعتبار الخلط خطر ، لانه مرتبط بظروف معينة ويسهل ازالته بتغيير تلك الظروف . **الا ان هذه الظروف لا تتغير الا بتعريب التعليم والادارة .**

2 — ونظرا الى ان حظ الفرنسية في الدراسة أوفر من حظ العربية فان الفرنسية تطغى كذلك في حديث الطلبة مع الاساتذة التونسيين لا في القسم فحسب ولكن حتى في الراحة وكذلك خارج الجامعة وان انخفضت نسبتها قليلا في هذه الحالة الأخيرة لصالح الخليط (4) والعامية .

3 — ولا يختلف الأمر كثيرا مع الادارة فنظرا الى انها غير معربة ، فان الفرنسية متفوقة حتى في حديث الطلبة مع المسؤولين الاداريين ، مع الملاحظة أن نسبة الفرنسية تنخفض تدريجيا كلما نزلنا في سلم المسؤوليات الادارية . الى ان تتغلب العامية عليها مع العمال .

(4) نقتصر على لفظ « الخليط » للدلالة على الخليط العربي الفرنسي .

4 ــ اما فى نطاق الأسرة فان العامية تعود الى المرتبة الاولى بلامنازع متبوعة من بعيد بالخليط ثم بالفرنسية ويتبين من خلال هذا القسم الثاني الكبير ان للطلبة اكثر من لغة . وتستعمل كل واحدة وحدها حينا وممزوجة بغيرها حينا آخر دون ان يكون للطالب الخيار فى ذلك عادة وانما يخضع لحكم الظروف كالمكان والموضوع والسامع وهكذا فان استعمال الفرنسية والعربية الفصحى مقيد بينما استعمال العامية والخليط مطلق تلقائى فى الغالب .

ويستنتج من خاتمة البحث ان الطلبة يعيشون وضعا لغويا حادا هم به شاعرون . وتتمثل حدة هذا الوضع فى انه لا توجد لديهم لغة واحدة قادرة على التعبير عن جميع تجاربها لجميع مخاطبيهم فى جميع الاوساط والمستويات ، مما يجعلهم يشعرون بنوع من التمزق وعدم الرضى والا طمئنان : فالعربية الفصحى اقلها استعمالا رغم قداستها ورغم انها اللغة الرسمية وذلك لانها ابعدها عن الحياة ، مما يجعلها لغة اعتزاز لا يتقنها الا انفار . والفرنسية انسب لكل المستويات لكن جل الشعب لا يفهمها فهي لغة اجنبية يرفض الشعور القومي احلالها محل اللغة القومية . أما العامية فانها قد لا تصلح الا للشؤون اليومية لانها ليست بعد لغة ثقافة .

ونظرا لتكامل هذه اللغات لدى الطالب التونسي ، فمن الطبيعي ان يلجأ الى الخلط بينها فى شيء من الاستسلام لوضع ازدواجي غير طبيعي ولحل السهولة امام مشكل معقد . ولكن يبدو ان نزعة المزج اللغوي ، رغم استفحالها ، قد اخذت تزاحمها نزعة اخرى تتمثل فى استعمال لغة عربية وسطى مزيج من الفصحى والعامية ، تظهر عندما يتحدث المثقفون فى مواضيع جدية وهي شبيهة بلغة رجال السياسة حين يخطبون وهي لغة لم تدرس بعد علميا ، الا انه يبدو لنا انها تخضع اجمالا للخصائص الآتية :

نحوها هو فى الغالب نحو العامية وابرز ما فيه اسقاط الاعراب . وصرفها مزيج من الابنية الصرفية العامية والعربية القديمة . وهذه الخاصية احوجها الى الضبط العلمي لصعوبة الحكم فيها بدون احصاء تواتري . اما معجمها فهو مزيج طريف يملأ فيه المتكلم كل شغور باحسن ما تجود به كلتا اللغتين دون استنكاف من الدخيل عند الحاجة .

وقد ختم البحث برسم مثالي يجعل من الفصحى والعامية والفرنسية قاعدة مثلث ، ينتج فيه عن التقاء الفصحى بالعامية ، لغة عربية وسطى تقابل الخليط الناتج عن العامية والفرنسية . وهذان المستويان يتطوران ليلتقيا فى « **لغة الغد** التي مازالت فى طور المخاض وهي ما يمكن تسميته باللغة العربية العصرية » ، وهي قمة هذا الرسم وغايته . ولكننا لا نرى اين يضع الكاتب لغة الصحافة مثلا ؟ فهي بدون ريب مظهر من مظاهر العربية العصرية رغم انها اقرب الى الفصحى نحوا وصرفا ولا تبتعد عنها الا فى بعض التراكيب وفى جانب من معجمها .

على اننا نود فى خاتمة هذا العرض التنبيه الى امرين يبدو ان لنا من قبيل الخلل فى هيكل البحث : اولهما التفريق بين القسمين الاولين من البحث بينما يمثلان قسمين من محور واحد يمكن ان يقابل هيكليا المحور الاخير . وقد شعر الكاتب نفسه بذلك عندما جعل لهما خاتمة واحدة (ص 190) .

ثانيهما عدم ذكر اللغة الخليط في القسم الاول من البحث لمعرفة موقف الطلبة منها ولاسيما ان مايقابلها وهي اللغة العربية « الوسطى » قد ذكرت مما يضفي على البحث شيئا من التوجيه غير المقصود . لكن هذا البحث يمتاز رغم ذلك بميزتين كبرتين : الدقة في التزام الموضوع واحكام الربط بين مختلف اجزائه مهما دقت .

خاتمة العرض

يتبين لنا من خلال هذا العرضان لهذه النشرية مكانة خاصة نظرا الى ان ظهورها صادف كما اسلفنا عودة قضية التعريب في تونس الى الظهور بشكل اشد حدة من ذي قبل . ثم انها ــ اذ تصور بعض المظاهر من الواقع اللغوي التونسي وتحلل ظواهر هامة منه ــ تثير عديدا من المشاكل التي لا تقل تعقدا عن هذا الوضع ذاته نظرا لما يطغي عليه من تصارع بين اللغتين العربية والفرنسية وما بينهما من مستويات تتقابل حينا وتلتقي لتمتزج حينا آخر . وان هذا الصراع ليجسم احسن تجسيم التمزق الذي تعيشه البلاد باكملها في جميع الميادين ، في مرحلة انتقالية دقيقة تحاول فيها المحافظة على توازن صعب بقدر ما هو ثري مفيد . هو توازن بين **الاصالة** (5) وما تقوم عليه من ارث حضاري عربي اسلامي لغة وثقافة ، وعقائد وتقاليد ، وبين **العصرية** (5) وما تفرضه من تفتح على العالم الغربي المتمدن وتقبل لثقافته وتقنيته وعلومه واساليب تفكيره وما تتبع ذلك من قيم روحية ومادية كثيرا ما تصطدم بالقيم التقليدية الموروثة هذا التوازن يفرضه وضع تونس التاريخي والجغرافي . ويبدو لنا ان الخوف من فقدان هذا التوازن هو الذي حمل المسؤولين على المحافظة على الازدواجية اللغوية في التعليم والادارة بشكل لا يختلف كثيرا عما كان عليه الوضع قبيل الاستقلال . الا ان ظروفا متعددة الجوانب جعلت هذا التوازن ــ الذي لم يكتمل ابدا ــ يختل بموضوع تدريجي ، عوض ان يتواصل حتى يبلغ النضج والاكتمال وان هذه البحوث التي حاولنا تحليلها لتدل بوضوح على ان الاعتدال والتوازن مفقودان وهو امر يدعونا الى التفكير في الوضع اللغوي الراهن بكل جد ورصانة لما للغة من ابعاد نفسية واجتماعية وثقافية تجعلها التعبير الحضاري الأمثل .

الطيب البكوش
دار المعلمين العليا الجامعة التونسية

(5) هذان المفهومان لا يمثلان هنا طرفي نقيض وانما تربطهما علاقة تلازم تجعلهما ملتحمين التحاما حركيا يجعل الواحد منهما لا معنى له بدون الآخر .

عبدالله بن المقفع

زعيم التعريب في عصره

عبد الحميد حاجيات
كليـة الآداب
جامعـة الجزائر

لقد اصبح موضوع التعريب يشغل بال الجميع فى سائر الاقطار العربية· ويرجع ذلك ، قبل كل شىء ، الى الجهود الجبارة التى تبذل فيها على مستوى السلطات المعنيـــة ومختلف المؤسسات العلمية واجهزة الاعلام وغير ذلك· وتهدف هذه الجهود الى احلال اللغة العربية المنزلة اللائقـة بها فى الحضارة العصرية ، وجعلها قادرة عـلى مواكبة التطور العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، وذلك بانماء رصيد اللغـــة القومية ، ووضـــع المصطلحات للتعبير على المفاهيم الجديدة ، وكل ما اخترعه الانسان فى عصرنا هذا ·

وقد كثر الحديث حول مشاكل التعريب ، فى وقتنا هذا ، الى حد أن كثيرا من المواطنين ، ممن ليس لهم اطلاع واسع على الحضارة الاسلامية ، أصبحوا يعتقدون أن العرب لم يواجهوا هذه المشاكل ولم يصطدموا بقضايا التعريب الا أثناء القرن العشرين ·

والحقيقة أن هذا النوع من النشاطات ليس خاصا بلغة من اللغات أو عصر من العصور ، بل يمكن القول بأن التجديد فى المجال اللغوى حركة دائمة ، تزدهر اللغة وتنمو باستمرارها ، وتسقط فى هوة الركود والانحطاط بانقطاعها· وقد كان تاريخ العرب مسرحا لحركات قوية من هذا القبيل، امتدت عبر القرون الخالية ، وقطعت باللغة العربية أشواطا بعيدة فى طريق التحول والتطور ؛

وقد رأينا أن نعيد الى الاذهان بعض الحقائق التى تشهد بأهمية حركة التعريب فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، ونجاحها الباهر فى سائر المجالات ، مما كان له أعظم الاثر فى ازدهار الحضارة الاسلامية· وبما أن هذا الموضوع واسع جدا ، وأنه يتعدى الحجم الذى يسمح به هذا المقال ، ذهبنا الى الاقتصار على الدور الذى قام به عبد الله بن المقفع فى حركة الترجمة ، والتركيز عليه لاظهار مدى أهميتها ونجاحها ·

وقبل أن نتناول الحديث عن ابن المقفع ودوره هذا ، يجدر بنا أن نتبين الخطوط العريضة للاوضاع الثقافية خلال القرن الاول للهجرة وأوائل القرن الثانى ، أى الى عصر ابن المقفع ·

لقد كانت أول خطوة فى طريق التعريب ناتجة عن اختلاط العرب بمختلف الشعوب اثر حركة الفتح ، حيث ان العرب وجدوا بفارس والعراق والشام وغيرها من الاقطار ، ثقافات قديمة ، فتأثروا بها وأخذوا عنها ماشاؤوا من أنظمة وتقاليد ، وأهم ما نتج عن ذلك تعريب دواوين الدولة وما يتصل بها من مصطلحات ·

والجدير بالملاحظة أن القرن الاول الهجرى لم يشهد نشاطا ملحوظا فى مجال استيعاب ثقافات الاقطار المفتوحة ، ونقل آدابها وعلومها الى العربية· والظاهر أن رجال العلم وجهوا عنايتهم آنذاك الى نشر الاسلام ، وتفهم أصول الشريعة من قرآن وحديث ، وايضاح ما غمض من ذلك ، فانحصرت الحياة الفكرية فى تمكين نفوذ الدين الجديد ونصرته على الاديان الاخرى ·

ووافق ذلك اقبال الشعوب المختلفة على الاسلام ، ودخولها فيه أفواجا متتالية ، وانتشار تعاليمه البسيطة وتغلغلها فى سائر الفئات والاوساط ، مما يسر ذيوع اللغة العربية بين الاعاجم والموالى· وقد أتقنها بعض هؤلاء ، فنبغ من بينهم كتاب وشعراء وعلماء· وأخذت اللغة تصطبغ بصبغة جديدة من تأثير هؤلاء الموالى ، الذين أعرضوا عن استعمال الغريب الشاذ من المفردات ، وعمدوا الى السهل المألوف منها ، كما أخذوا يستسيغون الاطناب فى رسائلهم وخطبهم ·

غير أن الثقافة العربية لم تزل أثناء ذلك منحصرة فى الفنون المألوفة ، من شعر وخطب وأمثال وقصص ، ولم تتفتح آنذاك لعلوم اليونان والفرس وآدابهم· وكانت الثقافات الفارسية واليونانية والهندية لا تزال تحظى باقبال الاعاجم من أهالى فارس والعراق والشام ومصر ، وان كانت قد دخلت فى مرحلة فتور وانحطاط· وظلت بعض المراكز الثقافية القديمة ، فى تلك الاقطار ، تمارس نشاطها العلمى الى العصر العباسى

الاول ، واشتهرت من بينها الاسكندرية بمصر ، وحران فى شمال الشام ، والرها ونصيبين فى العراق ، وجنديسابور بفارس .

وهكذا أصبح العالم الاسلامى الجديد يحتضن ثقافات مختلفة ، تنتمى كل واحدة منها الى شعب عريق فى الحضارة ، وتتميز عن غيرها بما لها من خصائص .

وفى تلك الظروف ظهر الى الوجود رجل كان من أشهر عباقرة الادب والفكر ، الا وهو عبد الله ابن المقفع .

* * *

ولد ابن المقفع بفارس ، فى قرية تدعى جور ، وهى فيروز اباد الحالية ، سنة ١٠٦ هـ . واسمه الفارسى روزبه بن داذويه . أما البيئة التى نشأ فيها فكانت فارسية ، اذ تربى فى احضان الديانة المجوسية ، وتثقف بثقافة أجداده ، واطلع على آثارهم التاريخية والاخلاقية والادبية فحصل على ثروة علمية وافرة ، وأدرك حكمة الهنود عن طريق ما ورد منها باللغة الفارسية .

ثم حدث لابيه أن انتقل الى العراق واستقر بالبصرة ، فاخذه معه . وكانت البصرة قاعدة هامة للجند العربى ، ومركز اشعاع للثقافة العربية فى العراق ، وعندئذ ، وجد ابن المقفع نفسه فى بيئة جديدة تختلف تماما عن التى عرفها بفارس ، وتمتاز بقيمها الروحية التى جاء بها الاسلام ، وبلغة العرب وآدابهم . وكان والده من الموالى المستعربين الذين شغلوا المناصب الادارية ، وتمتعوا بحماية أنصار الدولة الاموية من العرب . فكان من الطبيعى أن ينصرف ابن المقفع الى التطلع على الثقافة العربية ، والاجتهاد فى استيعاب لغة العرب والتعرف على شعرهم وخطبهم وقصصهم وكثر تردده على المربد ، قرب البصرة ، حيث كان ملتقى الشعراء والادباء والخطباء ، يفتخر كل بقومه وقبيلته ، وينافس الآخرين فى مجال الفصاحة والبلاغة .

وكان ابن المقفع يصبو الى انتهاج الطريق التى سلكها أبوه ، والدخول فى سلك موظفى الدولة ، قد أصبح الكتاب آنذاك يحتلون منزلة سامية لدى الامراء والولاة والعمال ، اذ كانوا يلعبون دورا هاما فى المراسلات الرسمية ، بما يظهرونه فى رسائلهم من براعة وفصاحة . وقد أدى به طموحه هذا الى توجيه كل ما لديه من جد وعزم نحو اتقان اللغة العربية ، فلم يأل جهدا حتى ملك ناصيتها وتشبع بفصاحة العرب ، فاكتملت بذلك ثقافته ، بل صار يفوق كثيرا من أبناء عصره ، بحصوله على الثقافتين الفارسية والعربية ، واتساع أفقه الفكرى بما تحمله كل منهما من قيم وآداب وعلوم .

وحينئذ انصرف ابن المقفع الى العمل فى دواوين الامراء والولاة ، فعين كاتبا فى كرمان لعمر بن هبيرة ، ثم فى العراق ، لابنه يزيد ، وذلك فى عهد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية .

ثم اندلعت الثورة العباسية فى خراسان ، فاجتاحت بلاد فارس ، فالعراق ، وقضت على مقاومة عمر بن هبيرة وابنه يزيد ، فانهارت الدولة الاموية ، ودانت الاقطار لبنى العباس ، وقد نتج عن هذا الانقلاب فى الاوضاع السياسية أن قوى شأن الموالى الفرس فى أجهزة الدولة الجديدة ، وانفسح أمامهم المجال للعمل فى دواوينها . أما ابن المقفع فاتصل بوالى الاهواز عيسى بن على ،

عم الخليفة العباسي ، فاعجب بمواهبه الادبية ، وغزارة علمه ، وعلوهمته ونبله ، فعينه كاتبا له ، وعهد اليه بتاديب ابناء أخيه اسماعيل ٠

وهنا تبدأ مرحلة حاسمة في حياة ابن المقفع ، ظهر فيها من انتاجه الادبي ما أثار اعجاب الادباء والكتاب ، فمنهم من أولاه محبة وتقديرا ، ومنهم من ابغضه غيرة وحسدا ٠ وفي مقدمة هذه المرحلة ، هناك حادث بالغ الاهمية ، هو اعتناق ابن المقفع للاسلام ، على يد الوالي عيسى بن علي ٠ فكان اسلامه دليلا على انتمائه الى التيار الفكري الجديد ، وعلى رغبته في الاندماج في الملة الاسلامية اندماجا كليا ، وخدمة حضارتها الفتية الناشئة ٠

وقد وردت أخبار متضاربة عن اسلام ابن المقفع ، وقضية اتهامه بالزندقة ٠ وقد تكون معظم هذه الاخبار قد اخترعت بعد وفاته ، لتبرير مقتله وصرف الانظار عن الاسباب السياسية وعلى كل ، فمناقشة هذه المزاعم تخرج عن نطاق موضوعنا ، والتعرض اليها قد يبعدنا عن غرضنا وهو ابراز دور ابن المقفع في حركة التعريب ٠

فعلينا اذن أن نلتفت الى انتاجه الادبي ، وأن نلقي نظرة عابرة الى ما وصل الينا من ذلك الانتاج ، وخصوصا ما يندرج في حركة الترجمة ، مكتفين ببيان خصائصه وقيمته ٠

وينحصر انتاج ابن المقفع الادبي في اتجاهين رئيسيين ، احدهما سياسي محض ، وهو ما يتناول الواقع السياسي في عصره ، ويتمثل في « رسالة الصحابة » ، والآخر ادبي وتاريخي واخلاقي ، ويشمل اغلب ما جادت به قريحته ، وهو الذي يهمنا لانه مترجم كله عن الفارسية ٠

فلنضع جانبا « رسالة الصحابة » ولنستعرض هذا الانتاج المترجم ، الذي يشمل مجالات عديدة ، من تاريخ وحكمة وأخلاق وقصة ٠

فمن كتب التاريخ التي نقلها ابن المقفع ، كتاب « التاج » في سيرة كسرى أنو شروان ، وكتاب « خداي نامه » في سير ملوك الفرس ، وقد اعتمد على هذا التاليف الفردوسي في نظم ملحمته الشهيرة « شاهنامه » ٠

ومن كتب الدين والاخلاق ، كتاب « الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة » في أخبار الصالحين ، وكتاب «مزدك» ، وكتاب « آيين نامه » في عادات الفرس وآدابهم ٠ وقد ضاعت كل هذه التآليف واندثرت ، ولم تصل الينا الا عناوينها ٠

ومن التآليف التربوية والادبية « الادب الكبير » و « الادب الصغير » ، وهما كتابان في الحكمة والاخلاق ، نقل فيهما ابن المقفع الاقوال المأثورة عن الفرس ، في هذا المجال ، وقد وردت هذه الاقوال في غير ترتيب ، فتجد الحكم الاخلاقية تتخللها اقوال في السياسة ، وأخرى في آداب الصداقة ، ومعاملة الناس ، وغير ذلك ٠

غير أن أهم ما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، كتاب « كليلة ودمنة » ، وقد نقله الفرس بدورهم عن الهندية ، وأضافوا اليه مقدمات لشرح الظروف التي وقعت فيها ترجمته من الهندية الى الفارسية ، وما يتصل بذلك من استطرادات أخلاقية وادبية ، وزاد ابن المقفع على تلك المقدمات مقدمة أخرى ضمنها شرح غرض الكتاب ، ومغزاه الاخلاقي العميق ، وارشاد القارىء الى أنجع سبيل للاستفادة منه ٠

وقد جاء هذا الكتاب في صورة طريقة ، غير مألوفة لدى العرب آنذاك ، وهي تلقين الحكمة

للناس ، وخصوصا منهم الملوك والوزراء وسائر رجال السلطة ، عن طريق القصص ، وعلى ألسنة الحيوانات والطير · وكليلة ودمنة هما أخـــوان من بنات آوى ، ورد ذكرهما في باب الاسد والثور، وفي بـــاب الفحص على أمر دمنة ، ثـم أطلق اسمهما على الكتاب أجمع· ويمثل دمنة المحتال الخداع ، وكليلة ، الصديق الوفي المخلص ·

والغرض من هذا الكتاب تهذيب الاخـــلاق ، وتزويد القارىء بمختلف النصائح والحكـــم ، بغية تثقيفه وتوجيهه نحو سبل النجاح في الحياة ، والتغلب على ما يعترض طريقه من عقبات وصعاب فالهدف الرئيسي لكتاب « كليلة ودمنة » هو اصلاح المجتمع ، وحث المــرء على التحلي بالاخـــلاق الفاضلـــة ، واجتناب الرذائل · وهو موسوعة تتضمن تجارب القدماء وأمثالهم وحكمهم ، وردت في قالب تسلية وترفيه ، وفي أسلـوب يمتـــاز بسلاســة العبارة ، ووضوح المعاني ، واجتناب التصنع والتكلف ·

ويظهر من هذه التآليف أنها ترمي ، قبل كـل شيء ، الى تكوين الانسان الكامل ، وذلك بتلقينه الاعتماد على العقل والارادة للتغلب على الاهواء والنزعات النفسية· وقد يكون من أسباب انصراف ابن المقفع الى ترجمتها ، ما أسند اليه من مهمة تربوية وتأديبية· ولا شك أن هذا الانتاج كـان خير ما يقدم لابناء اسماعيل بن علي ، من كتب الحكمة والاخلاق والادب ·

* * *

وبعد ، فان ما نقله ابـــن المقفع عن اللغـــة الفارسية قد أثرى الادب العربي بادخال فنـــون جديدة على ما كان معهودا من قبل ، ممـــا كان له أثر محمود في اتساع الافق الثقافي ، وبعث الاجيال التالية الى التطلع على الثقافات القديمة ، والتعرف على آدابها وعلومها ·

ثم ان الترجمة ، في حد ذاتها ، تتطلب وضع المصطلحات الجديدة ، وانتقاء المفردات القـادرة على تأدية المعنى المطلوب · ولا شك أن حـركة الترجمة ، التي ازدهرت في أواخر القرن الثاني الهجري وطوال القرن الثالث ، وشملت ســـائر الفنون والعلوم ، قد ساهمت في وضع مصطلحات عديدة ، بأخذهـــا عن اللغـــات الاخــــرى ، أو باستنباطها من أصول عربية ·

فأصبحت اللغة العربية في عصـــر ازدهار الحضارة الاسلامية ، اللغة العلمية ، لا بالنسبة للعالم العربي فحسب ، بل بالنسبة للعالم الاسلامي أجمع ، وحتى بعض شعوب حوض البحر الابيض المتوسط المسيحية ·

أما دور ابن المقفع ضمن حركة الترجمة هذه ، فانه كان عظيما · ويمكننا أن نلمس أهميته باعتبار أسبقية ابن المقفع في هذا المجال· نعم ، لقد كان ابن المقفع أول من ترجم الى العربية ونقل اليها آثار الثقافات القديمة ، وذلك أن انتاجه ، الذي يرجع الى السنوات العشر الاخيرة مــن حياته ، يقـــع بين سنة ١٣٢ هـ ، تاريـخ التحاقه بوالي الاهواز عيسى بن علي ، وسنة ١٤٢ هـ ، تـاريخ وفاته ، أي قبل تخطيط بغداد بثلاث سنين ، أيام أبي جعفر المنصور · واذا اعتبرنا أن الترجمة لم تزدهر الا ابتداء من عهدي الرشيد وابنه المأمون ، وانها كانت قليلة الانتاج في عهد المنصور ، تكاد تنحصر في علمي الطب والتنجيم ، ثم ان المنصور كان منشغلا ، قبل تخطيط بغداد ، بالتخلص من منافسيه في الحكم ، أمثال أبي مسلم الخراساني ،

وعمه عبد الله بن علي ، وزعيم الشيعة محمد النفس الزكية ، ادركنا أن ما ترجم بأمر من المنصور كان جله بعد تاسيس بغداد ، وبعد وفاة ابن المقفع ٠

وبناء على هذه الاعتبارات ، يمكن لنا أن نستنتج أن نشاط ابن المقفع ، فى مجال التعريب ، لا يندرج فى اطار حركة أو مدرسة تتمتع بتأييد الخليفة وتشجيعه وتعمل وفق أوامره ورغباته ، كما كان الامر بالنسبة لمعظم ما ترجم بعد ذلك ، وانما كان نشاطا تلقائيا لا يهدف الا خدمة الثقافة والمعرفة ٠

وقد يكون ما أحرز عليه كتاب « كليلة ودمنة » وغيره مما ترجمه ابن المقفع ، من شهرة عظيمة بين الناس ، اكبر حافز على اعتناء الخلفاء والامراء والوجهاء بالترجمة ، وازدهارها فيما بعد ٠

ولذا ، فاننا لا نظن أننا نبالغ اذا أسندنا الى عبد الله بن المقفع دور الرائد الطلائعى فى حركة الترجمة والنقل ، وفى حركة التعريب بصفة عامة ، وهذا أجل ما يحق الافتخار به فى المجالات الثقافية ٠



المــــراجـع

1) ابن المقفع : كليلة ودمنة تقديم وتحقيق عبد الوهاب عزام وطه حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، 1941.

2) ابن المقفع : الادب الصغير والادب الكبير ورسالة الصحابة ، تقديم وتحقيق يوسف أبو نخلة ، بيروت مكتبة البيان ، 1960 .

3) آثار ابن المقفع ، تقديم وتحقيق عمر أبو النصر ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1966 .

4) حنا الفاخوري ، ابن المقفع ، سلسلة نوابغ الفكر العربي رقم 20 ، القاهرة ، دار المعارف ، بدون تـــاريخ .

5) خليل مردم ، ابن المقفع . دمشق ، 1930 .

6) عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ، القاهرة ، 1941.

7) محمد سليم الجندي ، عبد الله بن المقفع ، دمشق ، 1355 هـ .

8) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، الجزء الاول ، القاهرة ، 1938 .

9) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي، الجزء الثالث ، القاهرة ، 1902 .

10) بطرس البستاني ، أدباء العرب في الاعصر العباسية ، بيروت ، مكتبة صادر ، 1958 .

11) أحمد الاسكندري وغيره ، المفصل ، الجزء الاول ، مصر ، بدون تاريخ .

12) محمد كرد علي ، أمراء البيان ، الجزء الاول ، ص 99 ـ 158 ، القاهرة ، 1937 .

13) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، ص 24 ـ 79 ، القاهرة ، 1936 .

14) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص 44 ـ 52 ، القاهرة ، 1946 .

15) حنا الفاخوري ، تاريخ الادب العربي الطبعة الثالثة ، ص 434 ـ 471 ، حريصا ، 1960

16) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، القاهرة ، 1946 .

17) C. Brockelmann, Gerch. der arab. littér. ,I , p. 151.

18) Cl. Huart, Littérature arabe, p. 211-12 et 278-314, Paris, 1902.

19) F. Gabrieli, l'opera di Ibn al-Mugaffa, dans Rivista degli studi orientali, XIII, 1932, p. 197-247.

20) P. Kraus, Zu Ibn al-Mugaffa, dans Rivista degli studi Orientali, XIV, 1934, p. 1-20.

21) G. Richter, über das Kleine Adabluch des Ibn al-Mukaffa, dans Der Islam, XIX, 1931, p. 278-81.

22) D. Sourdel, la biographie d'Ibn al-Mugaffa d'après les sources anciennes, dans Arabica, I, 1954, p. 307-23.

23) P. Charles - Dominique. le système étique d'Ibn al-Mugaffa d'après ses deux épîtres « al-sagir » et « al-kabir 4 dans arabica, XII, 1965, p. 45-66.

24) F. Gabrieli, Ibn al-Mukaffa, dans Encyclopédie de l'Islam (nouvelle), III, p. 907-9.

25) C. Brockelmann, Kalila wa Dimna, dans Encyclopédie de l'Islam, II, p. 737-41.

قاموس فرنسي عربي

للمفردات الكهربائية

صدر مؤخرا في باريس قامـــوس صغير يشتمـل على المفردات الخاصة بعلم الكهرباء . ويشتمل على نحو اربعـة آلاف لفظة عربية في مقابل مرادفها الفرنسي .

قال المؤلف « جان جاك شميدت » في مقدمة الكتاب ان اللغة العربية على عكس ما يظن ، لها طاقة غير محصورة على الاستيعاب وعلى « هضم » المفردات الاجنبية . فان اسلوب « النحت » او الاشتقاق يمكن اللغة العربية من امتصاص الالفاظ الدخيلة ومن تحويلها الى صيغة عربية اصية . فاذا تمعنت في بعض الالفاظ التركية او اليونانية المنقولة قديمـا الى العربية ، رأيت ان لها رنة عربية تجعلك تتساءل احيانا عن أصلها الحقيقي ! وانك عبثا تحاول ان تجد لها أصـــلا اعجميـا .

ولاحظ صاحب القاموس ان اللغة العربية ظلت حتى فجر القرن السادس عشر الاداة الاساسية في نقل المعارف العلمية الى المغرب ، سواء في الفيزياء او الرياضيات او الكيمياء

وضرب مثالا على مقدرة العربية على التعبير عن المفاهيم العلمية فقال ان عمر الخيام قد استعمل الفارسية لغتـــه الاصلية عندما اراد التعبير في الـــرباعيات عن مشاعره وشهواته . وانما استعمل العربية عندما كتب في الفلكيات والرياضيـــات

ويتوخى من هذا القاموس تسهيل المبادلات بين الفرنسيين والعرب في نطاق العلائق العلمية بين الشعبين

عنوان القاموس : « المحادثة الفرنسيـــة ـــ العربيـــة للمهندس والتقني » .

التعريب قديمًا وحديثًا

د. أحمد فؤاد الأهواني

لا اريد ان اتحدث كلاما عاطفيا فى هـــذا الموضوع ,وانما أود ان اسجل افكارا علمية ، فنحن نعيش فى عصر العلم ومن المناهج التى لابد ان نتبعها فى بحث هذه القضية ان نرجـــع الى التاريخ ننظر فيه لنستقى منه العبرة ... هذا من جهة ، ثم من جهة أخرى لابد ان ننظر فـى قضية التعريب هذه ما هى ، وما المقصود منها ، فان للتعريب معانى كثيرة ، مفاهيم كثيرة .

نص المحاضرة التى إلقاها المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى بمركز الاعلام العربى ، وكان المرحوم استاذ فلسفة بجامعة الجزائر قبل ان يوفيه الاجل .

وقد نبدأ من أعلى المستويات فى التعريب ... ثم نهبط من هذه المستويات العليا الى المستويات السفلى فى التعريب أو ترتفع من أسفل المستويات ، ثم نصعد مرة أخرى الى أعلى المستويات ، قد نفهم من التعريب انه تعريب التعليم الابتدائى ثم الثانوى ثم الجامعى ، وقد نفهم من التعريب مستوى ثقافيا محضا ، وهذا مختلف عن المستوى الخاص بالتعريب فى التعليم ، وقد يفهم من التعريب انه خاص بتعريب الادارة وقد يفهم من التعريب انه خاص بأعلى مستوياته فى وضع العلوم الحديثة فى تعريب عربى .

كل ذلك حق ، وأولئك الذين يقصرون التعريب على ناحية واحدة فقط ، انما يلتفتون الى جانب واحد من هذه القضية .

ومن أجل ذلك لا بد ان ننظر الى مسألة التعريب ككل من شتى نواحيها ولم اتطرق الى قضية التعريب الخاص بالتعليم الابتدائى مثلا أو الثانوى او غير ذلك ... أو تعريب الثقافة العادية لرجل الشارع أو تعريب الادارة فهنا شىء ممكن ان ينفذ اذا استطعنا ان نصل بين حلقات التعريب حلقة حلقة وان نبدأ باعلى المستويات التى سأتحدث عنها عما قريب .

ونبدأ أولا بان نربط بين التعريب حديثا والتعريب قديما ، ولن احدثكم عن اشياء معروفة ولكن لضيق الوقت سأتحدث عن نقاط جديدة كل الجده ، فالتعريب قديما كان مختلفا عن قضية التعريب حديثا كل الاختلاف . ففى الوقت الذى ظهر فيه الاسلام . والعروبة والاسلام لا ينفصلان وانا أهنىء شعب الجزائر لانى سمعت هذه النغمة هنا وهى عقيدتى .

فمن أقدم العصور والعروبة والاسلام صنوان لا يفترقان ... جاءت من كتاب الله الذى يتلى فى كل مكان ... كتاب خالد على مدى العصور والازمان .

نقول ان الاسلام عندما ظهر ، فى جزيرة العرب ، ثم بدأ ينتشر ، فغزا الفرس والروم أولا ، وكان الفرس يتحدثون بلغة فارسية وكان اهل الشام أو ما يسمى بالروم يتحدثون بلغة أخرى ، اما باللغة السريانية أو باللغة اليونانية أو شىء من هذا القبيل ... ثم فى مصر لم يكن اهل البلاد يتكلمون اللغة العربية بطبيعة الحال ، وانما كانت اللغة القبطية المنحدرة من أصل هيرو غليفى .

ولا بأس من الاستطراد بعض الشىء فى قضية تعريب الدواوين قديما نقول :

عندما دخل العرب فارس والشام ومصر وأخضعوا تلك البلاد للاسلام منذ عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، أبقوا الدواوين على ما هى عليه ، فان كانت بالفارسية بقيت بالفارسية وان كانت بالرومية بقيت بالرومية ، وظل الحال كذلك حتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فى أواخر المائة الاولى من الهجرة ، حيث تم نقل الدواوين فى عهده الى العربية .

لم يكن للعرب فى مواجهة هذه المشكلة سبيل غير الانتظار هذه الفترة الطويلة من الزمن الى ان تنتشر اللغة العربية على الالسنة .

لقد كان المسلمون الاوائل فى شغل شاغل لنشر الاسلام ، وتعليم الدين ، وتحفيظ القرآن، وبخاصة فى البلاد التى لم تكن تدين بدين سماوى ، ويعتنقون النصرانية .

كان ذلك قديما فيما يختص بتعريب الدواوين، اما حديثا فان الدواوين كانت معربة ، والاصل فيها كذلك ، ثم جاءت اللغة الفرنسية فشاءت ان تقطع الصلة بين عروبة الدواوين وبين العصر الحاضر .. ان تعريب الدواوين لا يعدو ان يكون عودا على ما جرى عليه العمل منذ مائة عام .

وليس هذا النوع من التعريب معقدا او صعبا، لان اللغة العربية واحدة فى كل مكان ، ونعنى هنا بالعربية الفصحى لا اللهجات المحلية الخاصة بكل قطر عربى .. ولنا ان نتمثل باقوال البيرونى ، وهو عالم اسلامى هندى ، وصاحب الكتب المشهورة فى الفلك ، فانه يقول ما فحواه اعجابا باللغة العربية : والهجو بالعربية احب الى من المدح بالفارسية . كما قال ايضا ما فحواه : ان العربية لغة عاطفية ما دامت هى لغة الصلاة فى المساجد ، ولغة الخطباء من فوق المنابر يوم الجمعة .

وما اريد ان اصل اليه هو ان الاسلام عند ما انتشر فى ارجاء الارض شرقا وغربا على مدى قرن من الزمان حتى عندما جاء الى شمال افريقيا وذهب الى الاندلس لم يكن أهل تلك البلاديتكلمون اللغة العربية . فهذا فارق اساسى بين التعريب قديما ، والتعريب حديثا ، نحن الآن فى البلاد العربية فى الجزائر مثلا ، اهلها لا يزالون يتكلمون اللغة العربية ، فهى لغتهم ونريد ان نعيدها اليهم ولم يكن الحال كذلك فى التعريب قديما .

واذا كان هذا هو الفارق بين التعريب للشعوب قديما وحديثاً ، فهناك نقطة يلتقى فيها التعريب بين القديم وبين الحديث ، عند ما ظهر الاسلام ولم يمر قرن من الزمان لم يكن عند العرب علوم ، لان العلوم انما جاءت من فلاسفة اليونانيين ، وقد نقلت هذه الفلسفة ونقلت هذه العلوم واتخذ الخلفاء العباسيون ابتداء من المأمون ، حركة التعريب هذه كانت اقدم من ذلك ، وانما نشأت منظمة عند ما نشأ فى بغداد ، او انشىء فى بغداد بيت يسمى دار الحكمة ، وضع فيها اكابر النقلة ينقلون العلوم المختلفة التى نشأت وكتبت باللغة اليونانية ثم باللغة الهندية وغير ذلك . ونقلت الى اللغة العربية .

ان اللغة العربية اتسعت لجميع هذه العلوم ووجد بها جميع هذه المصطلحات ، فلا يمكن ان يقال ان اللغة العربية عاجزة عن ان تساير التطور العلمى ، واذا كانوا فى القديم قد انشأوا بطريقة منظمة بيت الحكمة لكى ينقل هذه العلوم ، فمن الممكن ان نستفيد من الماضى عبرة ننشىء فى الوقت الحاضر بيوتا للحكمة تقوم على نقل العلوم الحديثة السريعة التطور بسرعة سريعة جدا الى اللغة العربية .

وقد كان فى قديم الزمان لبلاد المغرب دور فى نقل العلوم لم يكن المشرق وحده فى بغداد هو الذى قام بنقل هذه العلوم ، بل ان المغرب العربى وفى الاندلس وفى صقلية وفى كثير من

الاماكن وجد بها نقلة ، وكذلك العلوم المختلفة ، ويقال ويروى ان ملكا من ملوك الاندلس اراد ان ينقل كتابا فى النبات يسمى كتاب الحشائش « لدنفور بدس » وهو باليونانية مزين بالصور ، فطلب وهو فى قرطبة من ملك بيزنطة ان يرسل اليه احدا ممن يعرف اللغة اليونانية لينقل هذا الكتاب الى اللغة العربية • وهذا كتاب فى العلوم، لانه يبحث فى النبات وفى الاعشاب الخاصة بالعلاج •

اذكر هذه الواقعة لأبين ان المغرب العربى كان له دوره فى التعريب ••• لا نريد ان نطيل فيه ، ولكن فى الوقت الحاضر يستطيع ان يقوم بمثل هذا الدور •

كان ذلك هو التعريب قديما ، وكانت تلك هى خيوطه الرئيسية بعد ان نقلت تلك العلوم ثم استفاد منها القدماء وتطوروا بها واصبح هناك علماء من العرب انفسهم ، كما هو معروف من اطباء ومن فلكيين وغير ذلك من علماء وفلاسفة وقفت هذه الحركة وجمدت . فنحن الآن قد شرعنا نترك هذا الدور من الجمود ، ولكن ما نستطيع ان نأخذ به وان نعترف به ، هو ان اللغة العربية قادرة على ان تستوعب الحركة العلمية الموجودة فى الوقت الحاضر كما استطاعت فى القديم ان تفعل ذلك •

فاللغة العربية لغة عالمية ، كانت صالحة للتعبير والحديث بين العامة من الناس ، لانها لغة الثقافة ، وبين طائفة العلماء لانها لغة العلم ، فهى اللغة التى كان يعبر بها من اعلى المستويات الى ادناها ، من طبقة العلماء والفقهاء الى طبقة العامة ، ان صح هذا القول ، لان الاسلام فى طبيعته دين مساواة ، لا فرق بين عربى واعجمى الا بالتقوى ، والعلم طريق مفتوح لكل طالب علم ، فقيرا كان ام غنيا •

وكما اتسعت اللغة العربية للعلم والحضارة قديما ، فانها لا شك تصلح حديثا . وجدير بنا ان ننظر فى قضية التعريب قديما كيف تمت فقد نستطيع الاستئناس بما فعله القدماء ، والاستفادة من تجاربهم ، لنحل مشكلة التعريب حديثا •

لقد مرت حركة تعريب العلوم فى الزمن القديم فى مراحل ثلاث ، الاولى مرحلة عفوية غير منظمة بدأت فى القرن الاول للهجرة منذ اختلاط العرب باهل الشعوب التى خضعت للفتح الاسلامى • بل يمكن القول ان هذا النقل بدأ منذ الجاهلية • فقد استقرت الحضارة اليونانية بما فيها من علوم وفلسفة ، وبخاصة علم الطب فى مدينة جند يسابور بايران منذ القرن الثالث بعد الميلاد • واتسعت الحركة العلمية بجند يسابور بعد ان قرر الامبراطور اغلاق المدارس الفلسفية فى اثينا سنة 527 ميلادية ، فهاجر فلاسفتها وعلماؤها الى جند يسابور ، ونقلت هذه العلوم الى اللغة السريانية التى اصبحت لغة العلم ، وكادت ان تشيع بدلا من اللغة اليونانية ، لولا ظهور الاسلام وانتشار اللغة العربية فانتزعت الراية وحملتها بدلا عنها ، وظلت اللغة السريانية الوسيط العلمى حتى القرن الثالث للهجرة •

وقد ألف الكندى فيلسوف العرب رسائل باللغة السريانية للرد على اطباء من النصارى ·

ولقد ذهب بعض عرب الجاهلية الى جند يسابور يتعلمون الطب منهم الحارث بن كلدة ، الذى تعلم هناك ، وعاد الى بلاد العرب ، وكان معاصرا للرسول عليه الصلاة والسلام بعد البعثة · وقد مرض احد المسلمين فى ذلك الحين فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله ، فأجاب : «ايت الحارث بن كلدة فانه شخص يتطبب» ·

غير ان الحركة المنظمة لم تنشأ فى الاسلام الا مع الدولة العباسية · ذلك ان المنصور العباسى ، مؤسس الدولة ، والذى بنى مدينة بغداد ، استقدم من جند يسابور جبريل بن بختيشوع ، وجعله رئيس اطبائه · ومع استقرار الدولة العباسية انتقلت اسرة بختيشوع الى بغداد ، وأفل نجم جند يسابور ثم انشأ المأمون بيت الحكمة · وقام على حركة النقل من السريانية ومن اليونانية حنين بن اسحاق وتلامذته من بعده · وهنا بدأت الحركة الثانية فى النقل نعنى النقل المنظم · ولكن هذه الحركة لم تكن يسيرة ، ووجد النقلةكثيرا من المشقة فى ترجمة المصطلحات « فعربوها » اى وضعوها كما هى ولكن بحروف عربية ، مثل لفظة موسيقى ، وفلسفة ، وغيرهما من آلاف المصطلحات التى بقيت كما هى حتى الآن بعد اكثر من ألف عام ·

وقد نقلت الكتب العلمية والفلسفية اكثر من مرة ، المرة الاولى كان النقل مشوشا ، غامضا · والمرة الثانية ، ويسمى النقل الثانى ، اصلحت الترجمة السابقة · والمرة الثالثة اصلحت الترجمتان السابقتان · ومن الطبيعى ان ينظر العالم فى هذه الترجمات ، وان يتأمل فى معنى المصطلح ، وقد يبقيه كما هو باليونانية ، وقد يضع له معنى بالعربية يؤدى ما يقصد منه باليونانية ·

ونضرب بعض الامثلة اليسيرة لتوضيح ما سبق :

قاطيقورياس : CATEGORIES اصبحت بالعربية المقولات

ب) سلجسموس SYLLOGISM اصبحت بالعربية القياس ·

ج) انتليخيا : ENTELECHIE اصبحت بالعربية كمال اول ·

وذلك فى تعريف النفس بان النفس كمال أول لجسم طبيعى

د) شيما ــ او سيما ASNEMA واصبحت بالعربية هيئة ·

* * *

استمرت هذه الحركة الثلاثية ما يقرب من قرن ونصف من الزمان الى ان ظهر عند العرب علماء لا مترجمون من امثال ابن سينا والبيروني وابن رشد · وقد ابتعد العهد فى القرن الرابع ، ثم الخامس الهجرى عن الاصل اليونانى ابتعادا تاما ، فكان ابن سينا يجهل اليونانية ، وكذلك ابن رشد · والف هؤلاء العلماء الكتب المشهورة فى

شتى الفنون ، كالطب والهندسة ، والفلك وغير ذلك • وكانت اوربا فى غاية التاخر ، فى الوقت الذى كان العالم الاسلامى فى غاية التقدم • عند ما ارادت اوربا ان تنفض عنها غبار التأخر والجمود قامت بنقل الكتب العربية ، فنقلت قانون ابن سينا فى الطب ، وكذلك كليات ابن رشد وغيرهما من الكتب ، وظلت هى المراجع التى تدرس فى الجامعات الاوروبية حتى القرن السابع عشر •

فاليوم ، ليس عيبا ان ننقل العلوم عن الغرب ، فهذه دورة التاريخ نأخذ اليوم كما كنا ناخذ قديما وكما اخذت اوروبا عنا •

نقول ، ان اللغة العربية كغيرها من اللغات ليست [illegible]ية مقصودة [illegible]ذاتها وانما اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر [illegible] بايجاز رموز ، هذه الرموز لها دلالات ، ثم هذه الدلالات تجرى فى سياق معين وفى بنية معينة ، فاللغة اذا قرأت فى معجم لا يكون لها معنى ، وانما اذا جرت هذه الألفاظ حديثا بين الناس واستخدمت ، اتخذت من الحديث بها ومن التعامل بها ، ومن استعمالها ومن وجودها فى داخل هذا الاطار وهذه البنية حياة جديدة • ومن اجل ذلك فلا بد اذا شئنا لقضية التعريب ان تنجح النجاح المرجو المرغوب ان تجرى هذه الالفاظ العربية فى داخل المجتمع وان يتعامل بها الناس وان تجرى فى الاصطلاح، وان يستخدمها العلماء والمثقفون فى كتبهم وفى احاديثهم حتى تستطيع ان تستقر هذه الالفاظ وان تتحدد معانيها ، ان تحديد المعانى فى المعاجم لا يمكن ان يؤدى المقصود منه من دلالة بمقدار ما تدل به هذه المعانى عند ما يستخدمها الناس بغرض الى ما بدأنا به فنقول ان قضية التعريب متصلة الحلقات من اعلا الى اسفل ولا بد اذا شئنا لهذه القضية ان تنجح لا فى الجزائر وحدها بل فى جميع انحاء الوطن العربى هو ان تبدأ من اعلا هذه المستويات وهو ان تنقل بواسطة جماعة من ابرز العلماء العلوم الحديثة فى شتى الميادين • وهذا ممكن اولا فى كل وطن عربى وثانيا فى الجزائر نفسها باعتبار اننا نخص بالذكر دولة الجزائر • فاذا كانت البلاد العربية الاخرى تنقل اكثر ما تنقل عن اللغة الانجليزية لان لغة التعليم كانت اللغة الانجليزية وقد رأيت بعض المحدثين ينقلون عن اللغة الروسية فهناك كتاب مثلا اعرفه لانه يتصل بالفلسفة وبتاريخها الفه مستشرق روسى مشهور اسمه كراتشوفسكى تحدث فيه عن تاريخ الجغرافيا عند العرب ، نقله بواسطة جامعة الدول العربية احد من يعرفون اللغة الروسية ، اقول ان بلاد الجزائر ممكن ان تسهم فى هذه • ولعلكم ادركتم الآن من اى لغة يستطيع العلماء الجزائريون ان ينقلوا العلوم ، انها من اللغة الفرنسية ، فهم اقدر من غيرهم على النقل من هذه اللغة • وبذلك يمكن ان نضيف حصيلة جديدة الى الوطن العربى يقدمها لنا اهل الجزائر • وأيضا يمكن ما دمنا نتحدث فى هذا المستوى العالى من التعريب فلا يتم التعريب بمجرد نقل العلوم الحديثة فى كتب فقط ، وانما ايضا لا بد من الاتفاق على الالفاظ العربية التى نضعها

للعلوم الحديثة المتطورة ، هذا التطور فى الوقت الحاضر فى معظم البلاد العربية نجد جهـــات متخصصة للاتفاق على تعريب هذه المصطلحات تسمى مجمع اللغة، فيوجد مجمع فى العراق، وآخر فى سوريا ، وثالث فى مصر وهكذا • ولكن يحسن ان ينشأ ايضا فى الجزائر مجمع لوضع المصطلحات الحديثة باللغة العربية • ومن المقطوع به ان هناك اتصالا بين هذا المستوى الرفيع من التعريب فيلتقى شهرا من كل عام وفود من شتى الدول فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وممثل الجزائر هو الاستاذ توفيق المدنى للاتفاق على وضع المصطلحـــات واقرارها بحيث تكون موحدة وبحيث تـــكون هذه الالفاظ العربية ، التى توضع الفاظا جارية فى سائر انحاء الوطن العربى ، احسب انـــه بهذين المقترحين يمكن ان تسهم بطريقة مجـدية بهذا المستوى الراقى فى التعـــريب بحيث اذا انتشرت هذه الكتب وهذه المصطلحات وجرت فى التعامل بين الناس استطاعت معظم المستويـات الاخرى الاقل من هذا المستوى ، سواء عـــلى المستوى الادارى ام على مستوى التعليم الثانوى او الابتدائى ، ام على المستوى الثقافى العـام ، استطاعت جميع هذه المستويات ان تاخذ روافدها من هذا النبع الكبير العام • ليست قضية التعريب مشكلة الا فى رؤوس الذين لا يريدون للتعريب النجاح • انها مشكلة عند اولئك المستعمـــرين الذين يرغبون فى قطع الصلة بين اللغة العربية التى هى اصل من اصول الشخصية العربيـــة الاسلامية لكى يتمكنوا من العودة الى ذلك الغزو الصليبى بين الشرق وبين الغرب • وليســـت هذه المشكلة بالنسبة لنا قائمة ما دام العـــزم موجودا ، وما دامت الارادة ماضية حازمة • ولا يمكن للتاريخ ان يرجع الى الوراء • وقد بـدأت البـــلاد العـــربية فى جميـــع انحـاء الوطـن العـــربى أن تمضى فى طريـق التقـــدم وفى طريــق الـرقى ، وفى طريق استعادة ما كانت له من قديم الزمان • لا يمكن لهذه الانطـلاقـة ان تتوقف عند حد ، ولا بد ان تمضى قدما الـى الامام • قد يقوم فى سبيلها بعض العقبـــات ، ولكن النهاية معروفة ، والمستقبل للامة العربية ، وستنهض بعون الله ، وتستعيد ما كان لها من عظمة وحضارة فى قديم الزمان • وسيعود الغرب بما تسوده الآن من مادية بغيضة ومن انحـــلال سيعود مرة أخرى الى احضان الهمجية كما تنبأ بذلك كثير من الفلاسفة من امثال شبنجلر مثلا •

وتعود الحضارة ومشعلها فى يد العرب — ان شاء الله — فى القريب العاجل •

صفـــوة القول :

ان الافكار الاساسية فى التعريب هى :

1) التعريب متصل الحلقات ، يبدأ من اعـلى المستويات ويتدلى الى ادناها •

2) لا بد من انشاء هيئة منظمة جزائريـــة لتعريب الكتب العلمية عن اللغة الفرنسية •

3) انشاء مجمع للغة العربية فى الجزائر •

اما وقد اوضحنا هذه النقاط ، فان مشكلـة تعريب التعليم تصبح يسيرة يمكن حلها بانشاء مدارس ابتدائية وثانوية تعلم باللغة العربيـــة وييسر وضع المعلمين بالعربية ، مع تزويـــدهم بالكتاب العربى •

والسلام عليكم ورحمة الله

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صــدر كتـــاب



الرصيد اللغوي المغربي

أحمد العايد
كلية الآداب
جامعة تونس

ان اقطار المغــرب العربى الثلاثة تواجه اليوم مشكلة جد هامة مشكلة التعريب تلك التى لا مناص منها تاريخيا اذ تتوقف عليها معطيات التطور الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، تلك التى ستتحقق بفضلها الذات المغربية الاصيلـة ضمن عالم متجدد متحرك ٠

ولئن مرت أقطارنا الثلاثة فى هذا الميدان بمرحلة التفكير والتردد فانها اليوم ساعية سعيا حثيثا لا تخاذ سياسة لغوية مصممة المراحل منظمة الاهداف تعمم بها استعمال اللغة القومية العربية فى ديارها ، هذا الى ادخــال تعديلات تدريجية ضرورية فى تعليم اللغــات الاجنبية من فرنسية - وهى الاولى - الى انكليزية وايطالية وألمانيـة واسبانية وروســية ٠٠٠ باعتبارها أسـاسية للتفتح الحركى العالمى ٠

وهكذا وجد الالسنيون المغاربة انفسهم فى هذا الظرف التاريخى الحاسم أمام ميادين لغوية من الواجب البحث فيها :

- وصف شامـــل للواقــع اللغوى بدون أي تفريط فى ظاهرة من ظواهره ٠
- تحليل علمى للغات المتعايشة فىْ البـــلاد ومقارنتها من زوايا المعجميـــة وعلـــوم الاصوات والصرف والنحو ٠
- المشاركة فى التعريب فى شتى المـــواد فى مختلف المستويات ٠
- المشاركة مع زملائهم المربين فى تاليف الكتب المدرسية ذات الطابع القومى المتعصر ٠

وفعلا تكتلت جهودهم لوضع رصيد لغـوى مغربى ضمن خلايا ثلاث :

معهد الدراسات والابحاث للتعريب بالرباط ومعهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر وقسم الالسنية بمركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس (١) وفعلا أنجز هذا الرصيد فى شهر مارس ١٩٧٢ :

وذلك بفضل اتباع توصيات لجنة الرصيد اللغوى المجتمعة بالجـــزائر فى جانفى ١٩٦٩ ، تلك التى غيرت من طريقة العمل الاعتباطى ـ الذى شرع فيه ابتداء من شهر فيفرى ١٩٦٧ ، وأنجـز على ضوئه مشروع رصيد على يد السيد محمود شعبان ومساعدين له (١) ووجهت العمل توجيها علميا عمليا :

وذلك بالانطلاق من المفهوم لا من الكلمة ومز المدلول لا من الدال وتجريد المكتوب والمقول ٠

(١) ـ **تجريد المكتوب** : تحصى كلمات السنـة الاولى والثانية من التعليم الابتدائى مشـــكولة حسب الحوار مرتبة ترتيبا افبائيا مع ذكر نسبة تواترها ٠٠٠ والقصد من هذا الاحصاء هو معرفة المفاهيم التى عبرت عنها الفاظ مختلفة حتى يتـم اختيار كلمة واحدة **تصبح مشتركة** ٠

(٢) ـ **تجريد المقول** : يسجل كلام الصبى الذى يتراوح عمره ما بين الخامسة والتاسعة وهو فى محيطه الحضرى او الريفى (فى البيئات الثلاث بالمنـــزل بالمدرســة وبغيرهما) لضبط المفاهيم ولانتقاء الالفاظ والتراكيب العربية من لسانه ٠

وتبـــع هذا الاجتماع ملتقى آخـــر بين المختصين فى الرصيد بتونس (جويلية ١٩٦٩) ضبطت فيه المنهجية العلمية والعملية : المسـجل والمسجل عنه وطريقة التسجيل (غـير توجيهية وشبيهة بالتوجيهية وتوجيهية) ووسائل التسجيل وتجريد التسجيل وشرعت الاقطار الثلاثة ـ المغرب والجزائر وتونس ـ فى أعمالها ـ أما ليبيا فقـد اعتزلت عنا منذ خــــريف ١٩٦٩ ـ وشملت فى تونس التسجيلات ثمانى ولايات وأنجز العمل فى نوفمبر ١٩٦٩ فى ظروف عســـيرة جدا نظـرا للفياضانات التى اجتاحت أغلب ولايات الجمهورية ثم بعثت النصوص المسجلة الى الآلة الرتابـــة L'ordinateur بمعهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر فكانت قائمتان :

(١) الباحثون الذين شاركوا فى هذا العمل هم : الآنسة زهـرة الرياحى والسادة الطيب البكوش وهشام سكيك واحمد العايد والحبيب العلتى وصالح القرمادى ومحمد المعمورى

(٢) انظر النشرة التربوية للتعليم الابتدائى عدد 66 (ماى ـ جوان 1968)

(١) ـ قائمة الرصيد اللغـــوى التونسى (١) (٣٢١٦ لفظة وهى لغة الطفل ما بين الخامســة والتاسعة) ٠

(٢) ـ قائمـــة الالفاظ المقولـة المشتركة بين المغرب والجزائر وتونس (٦٧٧٧ لفظة) ٠
ثم كان ملتقى لجنة الرصيد اللغوى بالرباط (اكتوبر ١٩٧١) درس اثناءه الاساتذة أحمد الاخضـــر غـــزال المغـــربى وعـبد الرحمن الحاج صالح الجزائرى وأحمد العايد التونسى هذه القائمـة المغربية للمقول المشترك لفظة لفظة باعتبار مقاييس التواتر والتوزيع والكون والتدخل (« تواتـر » ادناه ١٠) ثم مادون ذلك « توزيع » فى قطرين على الاقل ، ابراز كلمات « كامنة » عند الصبى وان لم تظهر فى القائمة ، « تدخـــل » لاداء مفاهيم حضارية متواترة فى كتب بلدان متقدمة)٠

واخيرا كان ملتقى الجزائر (مارس ١٩٧٢) اضاف أثناءه الاساتذة المذكورون قائمة مفردات عربية أو معربة تؤدى مفاهيم حضارية عصريـــة ســـدا للفراغات الموجودة فى الكتب المـدرسية المستعملة الآن بالاقطار الثلاثة فى المرحلة الاولى من التعليم الابتدائى وذلك :

(١) ـ باحياء اللفظـة العـــربية المناسبة ان وجدت مثلا « تساخين » pantoufles ٠

(٢) ـ بوضع لفظة ـ ان لم توجد ـ تـؤدى نفس المفهوم عملا :

ـ بمراعاة قياس العربية مثـلا : « مقطورة » wagon de train

ـ بمبدا عدم الالتباس بلفظة أخرى ٠

ـ بمبدا عدم تنافر مخارج الحروف ٠

ـ بمبدا حذق الكلمات الهجينة المدلول فى قطـر من الاقطار ٠

هكذا انجز نهائيا **الرصيد العربى الوظيفى** للمرحلة الاولى من التعليم الابتدائى فى مستوى المغرب العربى فى :

(١) قائمة الفاظ عربية فرنسية انكليزية رتبت ترتيبا الفابئيا اشتقاقيا

(٢) قائمة الفاظ فرنسية عربية

(٣) قائمة الفاظ انكليزية عربية

(٤) قائمة محورية عربية فرنسية انكليزية

(٥) قائمة تكميلية عربية فرنسية

(٦) قائمة تكميلية فرنسية عربية (٢) ٠

نرى أن هذه القائمة المشتركة المشتملة على الفاظ ضبطت ضبطا علميا وعمليا بالاعتماد على الطريقة الاحصائية (كطريقة الفرنسية الاساسية (Français fondamental)

لا على الطـريقة المنطقية وعالمية اللغـــة (كطريقـــة الانكليزية الاساسية (Basic english) تناســـب مشاغـــل الصبيان ـ وحتى الشبان والكهول ـ من شتى البيئات ومن شتى المستويات الاجتماعيــة والاقتصاديــة والثقافية وتسايـــر الحضارة المعاصرة العربية والغربية ٠

---

1) سينشر هذا الرصيد التونسى بمستوية (لغة الطفل ما بين الخامسة والرابعة عشرة) فى قائمتين الفبائية وتواتريـــة فى كراريس مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية السلسلة اللغوية عدد 4 (تحت الطبع)
in Cahiers du CERES, Série linguistique n° 4

2) ستطبع هذه القائمات الست قريبا فى معهد العلوم للسانية والصوتية بالجزائر

ان هذا الرصيد الذى نعتناه بالوظيفى :

ء) ـ يحتوى على **الفاظ اساسية** ـ يحسن ان نتقيد بها ـ بعيدة عن الاقليمية اذ رغم اعتبارنا لمبدا التقريب قدر الامكان بين مستويى لغاتنا الفصيح والدارج فهو متفتح على العالم العربى باسره •

(ب) ـ يطمئن المربين الحيارى لانه سد فراغات المقول (من مفاهيم معدومة ومن الفاظ مترادفة لا فائدة فيها) •

(ج) ـ هو مفتوح لكل زيادة ونقصان فى قائمته التكميلية اذا اللغة حية متطورة ضرورة •

ان هذا الرصيد العربى الموحدة الفاظه الموحدة أغراضه حدث تاريخى اذ هو الاول من نوعه فى البلاد العربية انجز بفضل الاتصالات العضوية الدورية التى كانت بين نفس خبراء الخلايا اللغوية المغربية الثلاث الذين تفانوا لتحقيق حلم توحيد لغة التدريس التى ستصارع حتما اللهجات من جهة واللغة الاجنبية من جهة أخرى ، لكن النجاح سيكتب لهذه القائمة المشتركة الموحدة ـ التى حرص وزراء التربية والتعليم للمغرب العربى على بعثها للوجود منذ ١٩٦٧

ـ بالاستعمال البيداغوجى المناسب فى نطاق التاليف المدرسى ـ بالطريقة الحوارية أو بغيرها

ـ وفى نطاق التربية الشاملة فى كل مجالات الحياة ولا شك أن نتائج هذا الرصيد الذى شرع فى انجاز قسمه الثانى فى مستوى الابتدائى ـ سوف تظهر على السنة الصبيان المغاربة فى آخر التعليم الابتدائى لا سيما ان وحدت البرامج أو اقتربت من بعضها بعضا •

كذلك ان هذا الرصيد ستكون له ـ ولا شك ـ أبعاده الثقافية والاجتماعية والاقتصادية اذ سيوحد ويطور المغرب العربى من اساسه بفضل هذه العربية القريبة من السنة الصبية بنسبة مرموقة ، المقربة حتما بين مستويين المقول والمكتوب ، المتكاملة اذ تعبر أو تكاد عن أغلب مستويات حياة الطفل ، المصارعة غدا صراع الند للغتين الاجنبيتين الفرنسية والاسبانية ـ الاصيلة دون افراط ، المتفتحة على عالم اليوم دون تفريط •



إنصاف لا تشريف

عبد الكريم غلاب
رئيس اتحاد كتاب المغرب
ومدير جريدة
«العلم» المغربية

ان قرار الأمم المتحدة اعتبار اللغة العربية لغة رسمية لن ينهض بمستواها. تلك مسؤوليتنا وليست مسؤولية المنظمات الدولية ، ومع ذلك فسيكون من العار أن يتحدث الناس بلغة عربية فى قصر اليونيسكو وفى ناطحة السحاب التى تسكنها الامم المتحدة ، ونستعمل نحن فى الرباط أو الجزائر أو تونس الفرنسية لا فى حديثنا ، ولكن كذلك فى مدارسنا ومراسلاتنا .

بعث الينا الاستاذ عبد الكريم غلاب هذا المقال الثانى بعد قرار الامم المتحدة اعتبار اللغة العربية لغة رسمية . فله منا جزيل الشكر

قررت الامم المتحدة اعتبار اللغة العربية لغة رسمية فى المنظمة واستعمالها كلغة للمناقشة والمعاملة والمراسلة فى اجتماعات الجمعية العامة والمؤسسات التابعة لها· وكانت منظمة العلوم والآداب والتربية (اليونيسكو) قد قررت منذ بضع سنوات استعمال اللغة العربية لغة رسمية ·

ولا أعتبر القرارين تشريفا للغة العربية ، ولكنى اعتبرهما انصافا ليس غير· ذلك ان اللغة العربية لم تكن فى حاجة الى استعمالها فى المنظمات الدولية لتحتل مكانتها العلمية والدولية ، ولكنها كانت فى حاجة فقط الى انصاف من اهلها ، ومن الآخرين ، لتحتل هذه المكانة ·

هى احدى اللغات التى عاشت اكثر من اربعة عشر قرنا – على الاقل فى وضعها الحالى ولهجتها المعاصرة – باستمرار وبدون توقف ولا تحول ، قائمة بمهمتها الفكرية والادارية والسياسية على نطاق واسع فى العالم العربى والاسلامى والدنيا التى كانت تتعامل مع العالم العربى والاسلامى ·

وقد نهضت هذه اللغة برسالتها الفكرية والدينية عن طريق القرآن الذى كان وما يزال ابلغ كتاب واصح كتاب وأسلم كتاب عاش هذه الفترة الطويلة من الزمان بنفس اللغة التى نزل بها ، فلم يكتبه الاحبار والرهبان ولم يضيفوا اليه ويتزيدوا عليه ويقتصوا من اطرافه ويرووه حسب ما اتى اليهم من اخبار كما عمل الاحبار والرهبان ببعض الكتب السماوية التى كتبت بلغات ولهجات حتى لا يستطيع احد ان يعرف اللغة التى نزلت بها ، ولكنه الكتاب الذى استطاع أن يحتفظ بلغته والفاظه واسلوبه وترتيبه فى هذه الفترة الطويلة من الزمان ·

وعن طريق هذا الكتاب استطاعت اللغة العربية ان تحتفظ بمكانتها العلمية والدينية والادبية ، كما استطاعت ان تحتفظ بمكانتها الديوانية اى الادارية ·

اذن هناك قابلية هذه اللغة للحياة وقابليتها للتطور والنمو تفوق قابلية اللغة الصينية واليونانية مثلا ، وهما من اللغات التى عاشت عصور الحضارة القديمة رغم ما دخل عليهما من تغيير اساسى خلال عصور التاريخ ·

وقابلية اللغة العربية ليست عملية ذاتية ، بحيث تكفى هذه القابلية لتطور اللغة العربية وتنمو وتساير العصر ، ولكنها عملية مرتبطة بأهلها ، كما ان حفظ هذه اللغة وسلامتها طيلة تاريخها الطويل لم يكونا عملية ذاتية ، وانما كانا عملية مرتبطة بأهل اللغة من علماء وادباء ورجال الدواوين والادارة· هؤلاء جميعا هم الذين حافظوا على القرآن – بعد حفظ الله له – وحافظوا على التراث العربى الادبى منه والعلمى واستمدوا منه القدرة على التعبير والاحياء وممارسة التفكير والتعبير العلمى والادارى والادبى ·

لم تكن اذن اللغة العربية فى عصر ما عاجزة عن استيعاب فلسفة اليونان ولا حكمة الصين والهند ، ولا عن العلوم التجريبية والرياضية التى ابتدعها العرب او اخذوا بعض اصولها من غيرهم وطوروها ونهضوا بها· وهذا ما يؤكد انها غير عاجزة اليوم عن ان تنهض بهذه المهمة ·

من الواضح ان التطورات العلمية والرياضية فى العصر الحاضر قد تفوق فى يوم من حياة العلم التفوق الذى حدث فى قرن من حياة العلم فى الماضى ، وهذا ما يعمق من مسؤولية اللغة او قل اللغات جميعها· ولكن هذه المسؤولية

المشتركة ، التى يدعوها تطور العلم الى التعبير عنه ، ليست مسؤولية اللغة بمقدار ما هى مسؤلية القائمين عليها. فكل اللغات سواء ازاء تطور العلوم ، وكل اكتشاف علمى او حضارى يخلق ويبتدع وهو لا يحمل اسمه. ولكن الناطقين باللغة من علماء ومثقفين يشتقون له اسما او يبتدعونه فى الحال ثم يصبح جزء من اللغة ، ويالفه اهل اللغة من كاتبين وناطقين ولو كان نافرا او ثقيلا او غير مستساغ فى بداية الامر .

ولكن من الواضح كذلك ان اهل اللغة العربية لا يشاركون فى هذه النهضة العلمية والفكرية كي تستطيع لغتهم ان تساير ركب اللغات الحية التى تسير فى ركب العلم. فهذا التخلف العلمى والحضارى يعقبه ولا شك تخلف لغوى. ويزيد فى تعقيد المشكلة ان هناك اسرة لغوية علمية مشتركة بين اللغات الاوربية على الاقل. فالمخترع العلمى فى بلد ينطق بالانجليزية يوضع له اسم او مصطلح ماخوذ او منحوت او موضوع من اصل انجليزى او مقتبس من مثيل له اغريقي او لاتينى ، ولكنه يصبح مصطلحا علميا فى سائر لغات العلم بأروبا ، لا تنفر منه الفرنسية ولا الاسبانية ولا الالمانية او الايطالية وربما لا تنفر منه الروسية أو التشيكية أو البولونية. أما فى العربية ، فالمشكلة معقدة بعض الشىء اذ اننا نرغب فى تعريب المصطلحات حتى لا تطغى على لغتنا العجمة مع طغيان المفردات العلمية .

هل لا يضر اللغة العربية فى شىء ان تتبنى جميع المصطلحات العلمية الاجنبية التى تتوارد على الميدان العلمى والرياضى يوميا بالآلاف. وعند ذلك تصبح لغتنا العلمية مشتركة مع سائر اللغات ؟

أم أنها مضطرة الى ترجمة الكلمات العلمية عن طريق الاقتباس من الماضى او الاشتقاق والوضع ؟

هنا تقف امام مسؤولية اختيار. لو اخترنا الجواب عن السؤال الاول بالايجاب لاصبحت لغتنا ، العلمية على الاقل ، بعد سنوات ، اجنبية لا تمت الى العربية بصلة ، ولن تعود لنا من لغة العلم الا كلمات الربط لتكوين جملة عربية سليمة كبعض الافعال والحروف .

هذه وجهة نظر. ولكن ينقضها ان المصطلحات العلمية الحديثة لا تنتمى للغة معينة ، فهى لغة علم مشترك بين الحضارات العلمية فى العالم . واستعمال هذه الألفاظ لا يضر العربية فى شىء ، فقد اقتبست كلمات يونانية وفاريسية فى عصر الترجمة والوضع العلمى وهى يومئذ لغة قوية لها مكانتها العلمية والادبية الدينية. فاذا اقتبست الآن من اللغات المتطورة علميا مصطلحاتها فستوفر جهدا ، وستدفع باللغة الى امام فى طريق مسايرة المجهود العلمى .

اما اذا كان جوابنا على السؤال الثانى بالايجاب فقد تعترض العربية مشلكتان او هما ثلاث :

اولاها : البطء وعدم مسايرة التطور العلمى بالسرعة المطلوبة. فليس من السهولة فى شىء ان نتابع ميدان العلم التجريبى والرياضى وميدان الحضارة الحديثة بالسرعة المطلوبة ونحن نلهث وراءه لترجمة كل كلمة ــ ويصدر منها يوميا الآلاف .

وثانيها : اننا قد لا نجد الكلمات الضرورية ذات الاصل العربى لان الكلمة الاجنبية الموضوعة

نفسها لم يكن لها اصل فى الانجليزية او الفرنسية وعند ذلك نقع فى المشكلة الاساسية : مشكلة الفقر والبطء ٠

وثالثها : ان لغتنا ستكون عمليا معزولة بحيث يصعب تبادل الفكر العلمى معها٠ واذا صح هذا الانعزال فى الميدان الادبى الذى يعتمد على المقومات الذاتية والقومية والاحاسيس الفردية مثلا ، فقد لا يصح فى الميدان العلمى الذى هو حقل مشترك بين البشر جميعهم ٠

اذا كنت اميل الى الاخذ بوجهتى النظر٠ أى اجيب عن السؤالين معا بالايجاب بمعنى اننا يجب ان نترجم ما يمكن ترجمته وان نقتبس من اللغات الاجنبية ما يجب الاقتباس منه ، فليس معنى ذلك اننى اتخذ رأيا نهائيا فى الموضوع٠ وكم احب ان يشارك ذوو الرأى فى هذا الموضوع بما يعن لهم من آراء٠ وان كان الخالدون من اعضاء المجامع العلمية قد لا يرضيهم ان نتدخل نحن – غير الاعضاء – فيما لا يعنينا ، فى انتظار مقرراتهم الايجابية ٠٠٠ وما نظنها ستصدر الا بعد ان يتجاوز العلم السماكين ، وقد تجاوزهما ٠

نحن اذن مدعوون ان ننهض بلغتنا٠ ومن المؤسف ان نضيف : مدعوون ان نستعمل لغتنا حتى فى تعليم : ١ + ١ = ٢ وفى الادارة التى لا تحتاج اكثر من لغة مبسطة لا هى علمية ولا تقنية٠ ومدعوون ان نمنح لغتنا مكانتها الحقيقية فى بلادنا قبل ان تمنحها اياها الدول الاجنبية او المنظمات الدولية ٠

واحب ان اضيف ان قرار الامم المتحدة اعتبار اللغة العربية لغة رسمية اذا كان ليس تشريفا للغة العربية ، فهو لن ينهض بمستوى اللغة العربية٠ فتلك مسؤوليتنا وليست مسؤولية المنظمات الدولية٠ ولكن مع ذلك سيكون من العار ان يتحدث الناس بلغة عربية فى قصر اليونيسكو بباريس ، وفى ناطحة السحاب التى تسكنها الامم المتحدة فى نيويورك ونستعمل نحن فى الرباط أو الجزائر أو تونس الفرنسية لا فى حديثنا فحسب ، ولكن كذلك فى مدارسنا ومراسلاتنا ٠



خصوم العربية في المغرب العربي

عبد الله كنون
أمين عام رابطة علماء المغرب

جهلوها فناصبوها العداء   ومن الجهل ما يكون بلاء
ليت شعري ما يعلمون وان كا   نوا ادعاء يطاولون السماء
جهلوا حرفهم فكانوا بحكم الـ   ـعقل فيهم والاميين سواء
انهم اميون في لغة العر   ب يضاهون العجم و الغرباء
فصح في رطانة الروم و الافـ   ـرنج لا يخرمون منها بناء
يلتوي نطقهم بأبنية الضا   د كعلج فلم يعاني الهجاء
ويخطون أحرفا كالهراوى   ليتها في رؤوسهم ؛ أشلاء

* * *

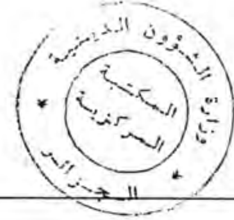
أتراهم من العقوق أصيبوا   أم دهوا من بصيرة عمياء
أم نمتهم للاجنبي دماء   فأفاءوا لأصلهم و أفاء

* * *

لا تقولوا من هاشم نحن او من   عبد شمس صليبة لا ولاء
ما أهنتم شأن العروبة الا   حين كنتم في يعرب أدعياء

* * *

رحم الله (طارقا (فهو اولى   بقريش منكم و أدنى انتماء
لم تكن من كلامه ولقد بـ   ـدبنيها برا بها و اعتناء
و (ابن تاشفين) اذ حماها من الغز   و فزادت عزا به و اعتلاء
و (المصاميد) بعده اذ رعوها   فأفادت غنى بهم و نماء
و (مرينا) و حزبها حين أعلوا   راية بيننا لها ولواء



عربا كان هؤلاء و ناهيك بهم اريحية و اباء

هم (كسلمان) (1) من أعاريب جاء الوحى نصا عليهم و ثناء

ما رضوا قط ان يكونوا ذيولا لأعاديهم و لا اولياء

و رضيتم انتم بها ، فى كلام و نظام ، ذمية صفراء

فنبذتم شرع الاله و ألغيتم لسانا به هدى الأملاء (2)

و هجرتم كتابة واطرحتم سنة فى بيانه غراء

وانسلختم من قومكم و اندمجتم دخلاء فى طغمة دخلاء

و عهدتم اليهم ببنيكم و اتخذتم منهم لكم نصحاء

* * *

غيل جيل تبنيه زعنفة (الغال) (3) وانى ترعى الذئاب الشاء

* * *

ضل شعب ألقى مقاليده ما بين ايدى خوارج عملاء

* * *

ما عهدنا (أبا رغال) زعيما كيف صرتم فى قومنا زعماء

* * *

تزعمون النهوض بالشعب هل ينهض بالشعب من يسير وراء

* * *

ان شعبا بغير خلق و نطق لا يساوى بين الشعوب هباء

المغرب ـ عبد الله كنون

---

1) لما نزلت (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم) الى قوله تعالى (وءاخرين منهم لما يلحقوا بهم) وضع النبى (ص) يده على سلمان وقال هذا منهم • وفى الحديث : ان العربية ليست منكم بأب ولا أم ، ولكن من تكلم لغتنا فهو منا •

2) جمع ملأ ، والملأ من الناس جماعتهم واشرافهم •

3) اجداد الفرنسيين •



حول
التعــريب

عبد الوهاب حسن
صحفى

اطـار المشكل :

هناك ظاهرة غريبة اذا اعتبرنا انه فى بلد عربى تطرح مشكلة مثل هذه : ايجب اتخاذ اللغـة العـربية كوسيلة للتبادلات الفكريـة بيننا ، ام تركتها واستعمال لغة اجنبية عنا باعتبار أن هذه اللغة (الفرنسية) لغة عصرية كاملة الشـروط يسهل استخدامها فى المجالات العلمية وبصفـة عامة فى ميادين البحث والتنقيب ؟

بودنا قبل البدء فى مناقشة هذه الاراء ان نستمر فى طرح القضايا كما الف مؤيدو هذه الاراء طرحها يقال ايضا من ناحية اخرى أن اللغة العربية مغرقة فى أساليب عتيقة غير صالحة لاتخاذ الاشكال الحديثة والمعانى المستحدثة ، ويعتمد فى البرهنة على ذلك بقولهم : أنظروا الادب العربى فليس فيه ما يستحق أن يوصف بالعالمى أنظروا الى موسيقانا فهى لا تبرح باكية بساتين وقصور انقرضت ، ويبث انغاما ناعسة ،ـ وطوابعها لا تصور البتة الحياة التى نعيشها • أين هى الكتب العلمية فى الرياضيات فى الفيزياء فى العلوم النظرية بصفة عامة ؟ فلا يستطيع طالب أو باحث الاستغناء عن اللغات الحية كالفرنسية والانجليزية والروسية والالمانية •••

اضف الى ذلك أن هناك من يقترح بعد أن يقتنع بأن الحجج السابقة التى ذكرناها ليس لها أساس من الصحة غير عواطف وأحاسيس غير جلية وانها أحكام عن غير دراية ، قلنا بعد كل هذا يقترح أن تكتب العربية بأحرف لاتينية (ولست أدرى لم لا تكتب بأحرف معنوية مثل اللغة الصينية) ويضرب فى هذا الصدد بأمثلة مثل ما قام به مصطفى اتاتورك •

ونسال نحن البسطاء ما الفائدة من هذا والعربية تتمتع بأحرف وابجدية تكفيها شر هذا الجهد ، فيقال لتسهيل استعارة الالفاظ (تصويرها فوتوغرافيا ، نحن نفضل هذه الكلمة الصريحة) الجديدة مثلا وخطها (وكتابتها) فى عربية (لغة عربية) لم يبق فيها ما يعيقها عن ذلك•

بعد هذا العرض وقد تركنا جانبا كبيرا من التفاصيل وذلك حرصا منا على أن لا نثقل اكثر كاهل القارىء بهذه البراهين والعلل ، نعود فنأخذ هذه المشاكل واحدا واحدا لنرى اسمها ودوافعها وأهدافها ثم لنتساءل هل لها نوعا من الواقعية ، هل هى تعتمد على اعتبارات صحيحة ولماذا ؟ بعد ذلك نقول رأينافى هذا الموضوع معللينه•

التاريخ ، التاريخ :

بالنسبة للجزائر مشكلة التعريب خلفها ونماها الاستعمار الفرنسى ، فمن المعروف أن الاستعمار مهما حل بمكان جعل همه الاول محو اللغة التى تقوم على أساسها الوحدة فى البلاد ، وهذا أمر اشتركت فيه كل الحركات الاحتلالية مع فوارق منها أن هناك حركات عقائدية ترمى من وراء محو اللغة المحلية الى تكوين وحدة كبيرة تكون هى مسيطرة فيها بطبيعة الحال لكن المحليين مدعوون بجميع الوسائل (بالنار والحديد خاصة) الى الالتحاق بالفكرة الوحدوية•

أما فى ما يخص الاستعمار فهو يرمى من وراء قتل اللغة المحلية خلق فوارق كثيرة تعتمد على ما يسمى باللغة الكلامية Parlée وهو يعمل جاهدا كى لا يندمج بلغته الا عدد ضئيل جدا يستعمله فى ايصال أوامر الى مستعمريه أى يستعمل هذا العدد الضئيل كوسيلة للانتاج لفائدته ولذلك يحطم الاستعمار وسائل التدريس للغة العربية ، ففى الجزائر عرقل الاستعمار الفرنسى المدارس العربية ومنعها ثم عمم الدراسة (لابنائه وللاقلية المشار اليها) بالفرنسية وذلك لطمس العربية ثم منع كل من يريد الاستمرار فى الدراسة الى مستوى جامعى وشجع الاقليات على التثقف والتدين باللغة والدين الدخيلين الى غير ذلك من الوسائل الجهنمية أى بعبارة وجيزة **نقول أن الاستعمار شن** حربا بكل ما لهذه الكلمة من معانى

على اللغة العربية وهذه الحرب **كانت اطول واعمق وكلفته جهودا اكبر** من الحـــرب التى قـــام بها لاحتال البلاد عسكريا٠

نتائج هذه الحرب معروفة ايضا لدى الجميع انعدام المثقفين باللغة العربية انعداما يكاد يكون تاما ووجود عدد قليل ضئيل من الذين اطلق عليهم عبارة (التحت المثقفين) اشارة لكونهم ترعرعوا فى وسط ثقافى ليس لهم به شأن سوى علاقة العبد بسيده اذ ان الاستعمار **لا يدمجهم ولا ينفثهم** وهنا تأتى أن هذه الشلة كانت غريبة فى ثقافتها عـــن بقية افراد شعبها واجنبية باحاسيسها عن افــراد الثقافة التى تمكنوا منها ٠

واتى الاستقلال ٠٠والتفتت الجزائر الى مثقفيها ليهدوها بجهاز وشكل دفعت من أجله مآت الآلاف بـــل المليون ونصف من ابنائها ، غير ان هؤلاء وقفوا يتساءلون وهم فى بلبلة بل فر منهم من فـــر من هذه المسؤولية وانكر الباقى أشياء واضحة بديهية مختلقين فى ذلك أوهـــام سنعود لمناقشتها فيما يلى ونوضح كيف أنهم ساروا بذلك**ضد التيار** التاريخى وكانوا معرقلين رغم أدعاآتهم انهـــم غير رجعيين ولا انتهازيين٠

واقــع أم تفلسف ؟ :

وبودنا لو كان يمكننا المجال أن نتحدث عـــن مفهوم التيار التاريخى ومفهوم التقدمية والرجعية والانتهازية لا بطريقة فلسفية اذ اننا لن نصل الى نتيجة اللهم نتيجة لا تهمنا لكونها ذات صبغـــة ميتافيزقية (ما وراء الطبيعة) وهذا لا يعيننا على التقدم خطوة فى توضيح الامور ولكننا سنقـــول كلمـــة كانت وجيزة فى هذه المعانى ونعتمد فى براهيننا على مقدار الفائدة التى يريد الحصـــول عليها من يتكلم عن التقدمية وغير ذلك من الكلمات التى لا مضمون لها فى ميدان تتصارع فيه قوى متعاكسة للفوز بالسيطرة٠

قلنا أن الجزائر طلبت من هؤلاء المثقفين أن يمدوها بما ليس فى مكنتهم اعطاءه وذلك لامـــر بسيط للغاية وهو : **فاقد الشيء لا يعطيه** وظـــن بعضهم ان الجزائر ستنحنى أمامهم ضارعة لكي يمدوها بخدماتهم وآرائهم وثقافتهم وانتظـر هذا البعض وطال انتظارهم٠ لنعد بعد هذه الاعتبارات العامة الى عين الموضوع٠٠ قال مثقفونا بعـــيد الاستقال ان أكبر عدد من الجزائريين (الذين لهم مستوى ؟) لا بأس به من حيث التكوين الفكرى (التكوين الفكرى ؟) ـ مفرنسين ـ (بفتح النـــون وكسرها) ولذلك يجب على الجزائر ولو من حيـث اعتبارات اقتصادية أن تستمر فى استعمال اللغة الفرنسية بالاضافة الى أن هذه اللغة أحسن من اللغة العربية وذلك الحسن ـ لان اللغة الفرنسية غنية وسهلة ـ الاستعمال ولا سيما فى المـــواد العلمية وميادين البحث والاقتصـــاد والسياسة الدولية ٠٠٠ فاذا عدنا الى لغـــة الضاد (هذه التسمية يجهلها عـــادة من يتلفظ بهذه الاشياء ، أعنى بصفة واضحة يحكمون على لغة لا يعرفونها) ينحدر المستوى الثقافى وغيره و ، البلد بشلل وتأخر ، (وكأنه الآن متقدم) ٠

وقد ارتفعت أصوات تندد بهذا الهذيان اذ كيف لبلد قام بثورة هى من أعظم الثورات التى سجلت فى القـــرن العشرين ضـــمن سلسلة الحركات التحريرية ، كيف له أن يسمح لتقاليد استعمارية وافكار أجنبية عن مفاهيمه بالاستمرار ؟ وما معنى الثورة ولفظ الثورة التى قام بها يا ترى ؟

ولذلك قررت الجزائر رغــم هذه الاعتبارات الاقتصادية أن تدخل فى اتجاه اعادة لغتها والآن يجب علينا **أجوبة من الواقع :**

أن نبدأ الرد : أولا نحن نعتبر كشرط أساســى أنه لا حق لمن لا يعرف اللغة العربية أن يحكم عليها مهما كان ذلك الحكم الذى يتفوه به ، قد يقال أن هذا تطرفا ورد فعل عاطفي غير أننا نقول كيف يستطيــع مثقف أن كان يستحــق هذا الوصف (ومعناه بالنسبة لنا من له امكانية أصدار أحكام وضعية مدروسة غــير افترائية ولا عاطفية ولا دماغوجية ولا دعائية) ان يقارن بين لغة وأخــرى وقد عزف عن ذلك حتى المتخصص فى اللغويات واللسانيات اذ انهم رأوا أن كل لغة لها ميزاتها فى افصاح ما يحتويه الانسان من رمزية.

(أنظر كتاب فرويد موسى والتوحيد) جـــاك دريدا كتـــاب Tel Quel رقــم ٣٨ افـــلاطون والفرمكولوجية كتاب ٠٠ واذا طبقنا ميزان العالم الشهير فى علم السيبرنيتيك نوربرت فبيز Wiener القائل بأن التتابع او الموجه الاخبارية تكون أغنى (أى لهـــا امكانيات ترجمية اكبر) كلما ضعفت نسبتها اليقينية (ممكناتها Probabilités) أى أن الجملة الكلامية مثلا تكون اغنى معنى كلما ارتفعت نسبة امكانيات تاويلها لناخذ مثلا : اذا قرانا على ورقة هذه العبارة : تعالى غدا ثم نفس العبارة ولكــن بالفرنسية ثم بالانجليزية ٠

نرى أن الجملة العربية تعنى اننى اخاطـب شخصا من الجنس اللطيف واقول له أن ياتى يوم غــد ، بالفرنسية صــورة العبارة لا تدخـــل أن الشخص من الجنس اللطيف قد يكون رجــلا أو امــرأة بالانجليزية نفس الصورة اقل تحديد اذ أنها تخاطب اما رجلا أو اكثر واما امراة أو اكثر ، أى أننا لوكتبنا برقية الى جماعة من الناس لقلنا لهـــم ٠

ومن هذا كانت الانجليزية فى هذا المثال ذات الاكبر امكانية من الجملة الفرنسية٠ واذا اعتبرنا أن العربية تمتاز حسب قولهم «بعدم الدقة» فهى اذن بتطبيق قانون Wiener ذات امكانيات اكبر من لغات أخرى دقيقة الالفاظ٠ ونحن اذ نقــول هذا فانما للرد فقط على هذه الشلة من العازفين بآلات يجهلون امكانياتها٠ أما مسالة ضبط الالفاظ وتحديدها فنحن نقول أن هذا ميدان الاصطلاح واللغة العربية معروفة بقوة ودقــة أصطلاحاتها والباقى٠ واذا الميدان شاسعا فمن أراد السباحة فليفعل ومن لا يستطيع لا يلــومن الا نفسه٠ ولا يلقى مسؤولية ضعفه على اللغة ٠

نحن لا نقول أن اللغـــة العربية محتاجة الى الاستعمال لكي تتطور وتأخذ أشكالا عصرية اذ أن هذا الكلام شيء بديهى ويمكن تعميمه على جميع اللغات اذ من الواضح أن أى لغــة أن بقيت بين طيات الكتب ولم تدر على السنة الناس مكثت فى المستوى الذى تركت فيه ٠ ولكل هذه الاعتبارات **لا ينفعنا ذكر أشياء لا تختص بها لغة عن أخرى وسردها وكانها ميزة وعاهة اللغة العربية وحدها** فان كان هناك بعض المجالات ليست اللغة العربية معبدة فمـــا علينا الا تعبيدها وتوسيعها٠ وهذه عملية مستمرة واضحة وكلما توقفت (هذه العملية) تاخرت بالتالى اللغة عن بقية اللغات التى تستمر فيها الحركة والبحث والعمل لناخذ مثلا الفرنسية كل من درسها يعـــلم أن الانجليزية تضايقها فى ميادين شتى (التجارية الاقتصادية وخاصة العلمية) ومن الميادين التى أصبحت الفرنسية غير كافيــة فيها ميدان الفيزياء فجــل المنشورات Publications

بالانجليزية والروسية والبحاثة الفرنسيون مفروض عليهم اذا ارادوا أن يبقوا فى مستوى البحث العلمى أن يتعلموا أو على الاقل يترجموا (الى حد ما) من الانجليزية والروسية. غير أن **مثقفينا لن يحكموا على الفرنسية بما أنها مضطرة لاستعمال العدد من الالفاظ والعبارات الانجلزية لن يحكموا عليها بانها غير صالحة** وذلك لتشبعهم ولثقتهم التى وضعوها فيها ولسبب أكثر أهمية وهو أنهم لو فعلوا يكونون قد وضعوا انفسهم والثقة التى يضعونها بأنفسهم بالميزان وهذا بطبيعة الحال أمر لا يرتضيه الشخص لنفسه.

قبل ان ننتقل الى جوانب أخرى نختم اشارتنا الى ما سبق من «اتهامات» مثقفينا : اكثرية المفرنسين بالجزائر يعتقدون عندما يدور الكلام حول اللغة العربية أن ليس هناك لغة الا تلك التى استعملت فى سوق عكاظ اى تلك اللغة التى لم تتحدث الا على البيد والنوق. نعم هذه اللغة لا زالت مسجلة مثل ما زالت الفرنسية القديمة مسجلة. وهل منعت انجليزية شكسبير من دراسته وفهمه من طرف االانجليز المعاصرين ؟ لماذا لا يقال أن لغة فرانسوفيو Villan مثلا غير صالحة للاستعمال اليوم والاعتماد بذلك لرفض الفرنسية الحديثة وبصفة عامة ؟ لماذا يذهب بعضهم الى الحكم على العربية من خلال الكتب والمؤلفين القدامى ، ولا يشير للكتاب المعاصرين ؟ فان كان ذلك عن جهل فالجاهل لا حق له فى الكلام . ان توفيق الحكيم والرافعى وطه حسين والعقاد ، ملحم كرم واحمد أمين والجارم ونزار قبانى وخليل جبران واحمد زكى ومحمد عبده والمئات غيرهم يكتبون بلغة مفهومة أو **هى على الاقل لغة يستطيع عاملنا وفلاحنا وعاطلنا هنا بالجزائر** وغيرها من البلدان العربية **يستطيع فهمها اكثر من فهمه** لكاموا Camus وسارتر وبطاى Bataille وشار Char وبارث Barths و.. و.. فاذا قيل : الاولون بسطاء وهؤلاء أقوياء اعتمادا على باطنية الاخرين و «سهولة» الاولين نقول قد يكون الامر كذلك ، وان كان هذا فى رأى هراء ودليل على نفسية .

الشكل ـ المحتوى :

مستعبدة ، بيد أننا هنا ننتقل من مجال المحتوى أى محتوى اللغة ونكون قد رفضنا اللغة لانه لم تكتب فيها مواضيع هامة أو عميقة أو جديدة واذن نعود ثانية الى سوءالنا فنقول لماذا نحن نختار اللغة الفرنسية بالذات وهناك لغات كتب فيها ما هو أهم ولا سيما ان هذه اللغة مدينة لغيرها (خاصة فى عصرنا هذا) فى جميع الميادين بدون استثناء وبدون مبالغة : فى العلوم وهذا أمر واضح ، فى العلوم الانسانية بالنسبة الى أمريكا مثلا (علم الاجتماع علم النفس واللسانيات) وفى الفلسفة الى أمريكا والمانيا خاصة.. ونحن نقول هذا وان كنا نعتقد أن هذا يعد حكما جائزا على الفرنسية لانها كما استفادت فهى تفيد ، وهذا أمر عام بالنسبة لجميع لغات العالم حتى «البداية» منها (ان صح هذا التعبير وهو غير صحيح).

واذن ما هى القضية ؟ نجيب بلا تردد : القضية تتعلق كما قلنا بوضعية خاصة لمجتمعنا وهذه الوضعية نتجت عن مجموعة من الاسباب منها **الاجتماعية ومنها النفسانية** ومنها **العقائدية** ونحن نعتبر أن أهم شىء من بين هذه الاسباب يرجع الى **عامل استغلالى واقتصادى**.

حقيقـة المشكـــل

اذا تصفحنا المجتمع الجزائرى بعد سنــوات من الاستقلال نشاهد أشياء عجيبة هذا اذا فتحنا اعيننا ونظرنا للواقــــع كما هو لا كما نريده أن يكـــون ·

نرى أن الطبقة المثقفة ـ وهنا ننبه اننا نقصد بهذه الكلمــة ابتداء من هنا المفرنسين والمعربين معا ـ هذه الطبقة اذا تحدثت عن التعريب وهى لا تفعل الا نادرا ـ أول مـــا تظهره هو صعوبة الامر (بالنسبة لمـــن ؟) واذا أمعنت فى الحديث فانما لتركز على الجوانب التى تقف حجر عثـرة فى سبيل ذلك والتى يجب دراستها دراسة «علمية» واذا قلنا ما معنى عبارة «الدراسة العلمية» لتطبيق التعريب بالجــزائر ؟قيل يجب اعـــداد الظروف الايجابية والمادية الملموسة لانجاح هذا ، ومـــا هى الظروف أو الشروط ؟ دراسة الوضع كما هو· وبديهى أن هذا التفكير لم يزد على انه قام بدائرة كلامية عاد على نهايتها الى نقطة الابتداء ولكن لا علينـــا فـــمن الـــذى يـــدرس الوضـــــع كما هو ؟ الجواب لجنة أو لجان من من ؟ مـــن أناس مخلصين اوفياء فى اللغة العربية ؟ مـــن يكونهم ؟ أناس آخرين ، خلقوا (التعريب) قضية من قضايا ما وراء الطبيعة من لا شىء ؟ وهكذا يصير الامـــر وذلك من ضخامة التهويل فهــؤلاء يضيفون ان لم تـــراع هذه الشروط فسيقع مـــا سيقـــع ؟ وبالتحديد ولنعينهم على هذا التهريج : سيتم نجاح التعريب او عدم نجاحه وليكن ؟ فان تـــم النجاح قال «علماؤنا» (البعديون) تـــم ذلك لتوفر هذا السبب وهذا وهذا وهذا ·· واذا تـــم «عدم النجاح» قيل ارأيتم لانكـــم لم تراعوا هذا الشرط وهذا وهذا ··

ونقول نحن : قبل ذلك لم يكن فى مكنتنا معرفة هذه الشروط بالتحديد والآن سنراعيها ونستمـــر فى عملنا الى ما لا نهاية ·

لقد عجلنا عمدا وبطريقة موجزة ايضاح رأينا والآن نعـــود الى السبب الحقيقى الذى يجعـــل « المثقفين» ضد التعريب سواء كانوا على بينـــة من ذلك أو عن دون قصد ·

الى غاية هذا الحد تحدثنا عن قضية التعريب فى الجزائر ولم نشر مرة واحدة الى المدرسة ؟ وهذا قد يبدو غير وضعى سيما وان جميع الامال مركزة على المدرسة لمساعدة التعريب نحن عـــند كلامنا عن التعريب لا نقصد تعلم اللغة العـــربية كما يتعلم طلابنا مثـــلا الالمانيـــة والانجليزيـــة والروسية وغيرها مـــــن اللغات· نحن نعتبر أن لا تعريب يذكر ما لم تدخل اللغة فى الحياة اليومية ما لم تدخل العربية فى التفكير العميق· اى يجب ان تكون اللغات الاخرى تستعمل للفتكه لا العكس·

نحن نقصد من التعريب اعادة الجدية فى الكلام وثقل اللفظ من حيث المعنى الذى تتميز به اللغـــة العربية· ونحن نقول هذا لاننا رأينا «المعربين» اى طـــلابنا الذين لم يتعلموا الفرنسية ـ رأيناهـــم يتوقون لذلك ـ لا لتوسيع معلوماتهم وبذلك يتم فى نفس الوقت توسيع العربية «بل للتخلص» من هذا الحمل المشؤوم العالق باذهانهم ؟ ولذلك ترى بالجـــزائر المعربين وقد تعلموا الفرنسية وأمـــا المفرنسيون فلم (ولن ؟) يتعلموا العربية ؟

قد يتساءل متساءل : اذن من اين اتى الصراع ان كان الجميع يتوقون الى الفرنسية ؟ وهنا نذكر بما اكدناه بدون برهان وهو الجانب الاستغلالى· ففى المجتمع الجزائرى اذا اراد شخص الحصول على عمل يدر عليه راتبا مرتفعا يجب عليه معرفة

الفرنسية أما العربية فهى محصورة فى بعض الميادين الضيقة· وكأنها شىء يخشى من تبيانه فيتسبب فى جلب العار على صاحبه اى ان هناك تياران : التيار الذى يسانده الشعب دون ان يتفوه بكلمة والتيار الذى يسانده «المثقفون» الجزائريون مع قولهم وتاكيدهم بتأييد التعريب · وهكذا يصبح الطابع الديماغوجى واضحا · ولذلك ايضا كانت المدرسة تدرس لغة لا تستعمل الا عند كتابة الواجب المدرسى اى أن المدرسة لم تستطع التاثير على الواقع خارجها وبقى عملها يذهب سدى· بل اصبح **الواقع خارج المدرسة يقف ضد المدرسة** ويقاوم عملها فى كل مكان بالمقهى بالسينما وسط حافلات النقل العمومية فى المنزل بالراديو بالتلفزيون ··

أما الاسباب النفسانية العقدية فنحن لا نهتم بها كثيرا لان ذلك قد درس منذ مئات السنين· ومن يريد أن يقرأ عنها ما عليه الا ان يتصفح كتاب العالم الفذ ابن خلدون «المقدمة» اذ يتعرض لهذه الظاهرة حيث يشير الى الناس الذين كانوا دائما يتساقطون على لغة الغالب وذلك للتشبه به ومحاكاته· فبالنسبة «للجزائرى» المثقف «الفرنسى» هو الرجل الذى يمثل ذروة الفكر والذى يضرب به المثل فى كل شان ولا يعنيه كثيرا راى الانجليزى أو الالمانى أو السوفياتى أو الايطالى أو الصينى ··

وبالنسبة «للمصرى» الانجليزى هو ذروة الفكر ولا يهتم برأى الالمانى وغيره ·· وهكذا·

ولكن الجميع يعلمون أن الرجل الجاد العامل هو الذى يصل الى ذرى وقمم التفكير·

واذا كان فى الماضى لكل شعب جولة فانه يجب علينا ان ندخل المعمعة من جديد ونلعب دورا لم نفتأ نلعبه او على الاقل نرمى للقيام به وهو المشاركة بنصيب فى الجهود التى تبذل لرقى وتقدم الحضارة البشرية فيجب علينا ان نتجاوز مستوى **الاستهلاك الى مستوى الانتاج والابداع**· ولن نستطيع ذلك الا فى وبلغتنا ·

وهذا ليس تعصبا بل واقعيا· نحن نعتبر اننا لم ولن نتمكن من لغة مثل تمكن اصحابها بها· ولذلك فلن يكون لنا ادباء بالفرنسية مثل الادباء الفرنسيين بالفرنسية ولن يكون لنا علماء ·· ما دمنا تحت هيمنة لغة أخرى ·· وقد يتنادر للذهن بعض الاسماء من من تم لهم بعض النجاح فى لغة غير لغتهم فنقول ان ذلك دليل على أن نجاحهم حدده كونهم يستعملون لغة اخرى· ونسال لم لم ينجح كتاب جزائريون الا بعد الحرب التحريرية ؟ فكاتب يس مثلا لو استعمل العربية لنجح فى ميدانين على الاقل وهما تطوير لغة المسرح العربية الى مستوى حديث ثم مد اللغة العربية بجوهرة تنفع بها غيرها · زد على ذلك انه كان يؤثر على مواطنيه اكثر مما هو الحال الان (رغم التراجم)· وهذا المثال يمكن أن يعمم وبعبارة أخرى يجب علينا فى هذه الفترة الحاضرة خدمة اللغة لتخدم لفائدتنا ثانية· ولكن هناك مشكل وهو : **هل يوجد رجال مستعدون للحرث ثم الحصد ؟** للاسف كلنا مستهلكون أى نريد الحصد وكفى ؟ «وعلى الزيت نامت الصحراء» كما يقول الشاعر وهذا هو الامر الذى جعل منا أمما لو انقطع امداد الامم المنتجة عليها لبقيت فى المستوى **الذى هى فيه**·

واذا لم نتكلم عن الميادين العلمية بصفة خاصة فهذا راجع لكوننا نعتبر ان العلوم يمكن هضمها بصفــــة سريعة نسبيا ، امــا الميادين الانسانية الفلسفية الادبية الفنية ٠٠ هذه الميادين يجب علينا أن نبدأ فى العمل بجد لتحريرها والقاء اضــواء جديدة واساليب جذرية اخرى عليها ٠

ان الامر ليس ايجاد طرق للبحث جديدة فقط بل واكثر من ذلك خلق ميادين (اكتشاف) ميادين اخرى لم تبحث من قبل وذلك لان كل حضارة تأتى ومعها حدود ادراكها وتناولها للاشياء٠ فاذا ما وصـــلت الى الحدود التى لا تستطيع تجاوزها وجب الشروع فى بحث اطارات وامكانيات اخرى موجودة ضمنيـــا٠ بالاضافــــة الى الامكانيات الموجودة ماديا (الصناعة والزراعــــة والادارة والتعليم) التى يمكن بتعريب اوراقها ومطبوعاتها تسجيل نجاح كبير فى ميدان التعريب ٠

«نوفمبر»

المـــراجـــع

— Cambridge History of India, 6 vol. 1947. Sup. 1953.
— The Times of India Directory and yearbook, Bombay and London annual.
— Handbook of travellers in India etc., ed. by F. Rushbrook Williams, London 1962.
— Desai (A.R.), The Social Background of Indian Nationalism, Bombay, 1954.
— Grifiths (P.J.), The British impact on India, London, 1952.
— Kesavan (B.S.) and Kulkarwy (V.Y.) (ed.), The National Bibliography of Indian literature, New Delhy, 1963.
— Philips (C.H.), The Evolution of India and Pakistan, Selected Documents, London, 1963.
— Smith (V.E.), Oxford History of India, K 3 d. ed., London, 1958.
— Yasdany, (C.) Sarly History of the Deccan, 2 vol. London, 1960.
— The Statesman Yearbook, 1970-71.

تجربة لغوية من العالم الثالث :

الوضع اللغوي في الهند

اسماعيل العربي
كاتب جزائري

يدل تعداد النفوس الذى اجرى فى الهند فى سنة 1971 ، على ان عدد سكان الهند يبلغ آنئـذ 547 مليون نسمة ، وان 474 مليون منهم ينتمـون الى اللغات الاربع عشرة التى وردت فى ملحـق خاص بدستور سنة 1950 . وهذا العدد ، يمثل 87٪ من سكان الهند . واما بقية الهنود (اى 13٪) فهم ينتمون الى مائة وعشرين لغة اخرى . وبعض هذه اللغات ، واسعة الانتشار ، بحيث يحـدث كثيرا ان يتجاوز عدد الناطقين بها عشرة ملايـين نسمة . واما نظم الحروف الهجائية التى يكتـب بها الهنود هذه اللغات ، فهى تبلغ عشرة او تزيد.

الهند (بهارات باللغة الهندية) ، دولة تقع في آسيا الجنوبية ، تمتد اراضيها على مساحة 000 268 3 كيلو متر مربع ، وعاصمتها دلهي الجديدة • والجمهورية تتكون من سبع عشرة دويلة ، وهي : اندهرا برادش ، وأسام ، والبنغال الغربي ، وبيهار ، وغوجرات ، وهريانا ، وجامو - الكشمير ، وكرالا ، ومدهيه برادش ، وثاميلناد ، ومهراشترا ، وميسور ، وناجالند ، واوريسا ، والبنجاب ، وراجستان ، واوترا برادش ، وذلك بالاضافة الى عشرة اراضي (جزر أندمان ، والنيكوبار ، ودادرا ، وناجارهافيلي ، ودلهي ، وهيماشال برادش ، وجزر اللاكديف ، ومعها مينيكوي وجزر أميندفي ، ومانيبور ، وباتجيم ، وبونديشري ، واراضي الحدود الشمالية الشرقية)

شهدت الهند منذ نحو 3500 سنة موجة من الغزاة الآتين من آسيا الوسطى والذين انتشروا في شبه القارة واستوطنوها وبثوا فيها ثقافتهم ولغاتهم ووضعوا فيها دعائم حضارة من اعرق واقدم حضارات العالم • وهذه الحضارة ستتلقى روافد معتبرة بالفتح الاسلامي وبتفاعلها مع الحضارة العربية التي سيحمل مشعل ثقافتها في تلك البقاع **علماء جهابذة من طراز ابي الريحان البيرون ، بعد ان مهدت لها فتوحات محمود الغزناوي** • وهذا التفاعل مع الثقافة العربية تظهر آثاره واضحة في الارقام العربية وفي العديد من الكتب العلمية والفلسفية والادبية التي اتجه العرب الى نقلها منذ اوائل عصر بني العباس ، وخصوصا في لغة الاوردو ، وفي انتاج فطاحل شعراء الهند وباكستان ، مثل طاغور ومحمد اقبال •

فالصلة اذآ ، بين العرب والهند ، ليست بعيدة كما قد تبدو • بل ان وقوع الهند تحت الاستعمار المخرب للحضارات والشخصيات القومية ، مثل البلدان العربية ، وفي نفس الفترة الزمنية ، تجربة من شأنها ان تثري الصلات القديمة وتقرب التوازي بيننا ، معشر العرب وبين الهنود الذين يناضلون ، مثلنا ، ضد لون جديد من الاستعمار ، وهو الاستعمار والغزو الثقافي •

ولكن المقارنة في مجال تنمية لغة قومية لتكون وسيلة فعالة للتفكير والتعبير ، تقف عند حد واضح • لانه في الوقت الذي يملك فيه العرب لغة حفظ متنها وقواعدها عبر القرون ، لغة حية متفاعلة ومعترفا بآثارها الخالدة دوليا ، نجد ان الهند التي يمثل سكانها سبع سكان المعمورة ، لا تزال ، بعد ربع قرن من الاستقلال والسيادة القومية ، تبحث عن لغة قومية حقيقية تكون اداة للتفكير والتفاهم بين الهنود ، في مختلف انحاء الجمهورية •

والوضع اللغوي في الهند معقد بصوة لا مثيل لها في اي بلد متطور كبير او صغير ، ويعتبر شاذا ، حتى ولو اخذنا الى الاعتبار عناصر ليست ذات صلة مباشرة باللغة ، مثل اصول السكان وتعدد الاديان والملل والنحل ، واختلاف الاوضاع

الاجتماعية · ولو كانت لدى الهند ثلاث او اربع لغات قومية ، مثل بعض البلدان الاروبية (تشيكوسلوفاكيا وسويسرا) لكان من الممكن الامل (بواسطة تشجيع تعليمها وتنميتها عن طريق اجهزة الاعلام والتبادل الثقافى) فى ان تنصهر الامة الهندية فى نهاية الامر وتكون مجموعة ثقافية يتحد فيها التفكير ، وان اختلف التعبير · ولكن المسألة أخطر من ذلك كثيرا ، حيث ان مجموعة اللغات الهندية الآرية ، التى انبثقت منها اللغات الهندية الاروبية ، وحدها يبلغ عددها اربع عشرة لغة · وكون الدستور الهندى يعترف بها جميعا ويعتبرها لغات رسمية نوعا ما ، وكون اكثر من اربعمائة مليون نسمة ينطقون بهذه اللغات ، لا يغير من حدة المشكلة فى قليل او كثير ·

صحيح ان اللغة الهندية تحتل مركز الصدارة بين هذه اللغات ، وتعتبر من الناحية الشكلية اللغة الرسمية الاولى للاتحاد الهندى · ولكن عدد السكان الذين تشملهم رقعة هذه اللغة ، لا يزيد عن 162 مليون نسمة (اى حوالى ربع السكان) ، وبالتالى ، فهى لغة اقلية · اضف الى ذلك ان عدة لغات اخرى (البيهارية والراجستانية والفهرية والفهلية) يبلغ عدد السكان الناطقين بها 52 مليون نسمة ، تزاحم هذه اللغة الكبيرة فى الرقعة الجغرافية التى تنتشر فيها · بل ان نظام الحروف التى تكتب بها هذه اللغة يختلف عن النظام الذى تكتب به تلك اللغات !

واما اللغة الاوردية التى يعتقد الكثيرون انها لغة المسلمين فى الهند (61 مليون) ، فهى فى الحقيقة لا تعد ان تكون لغة نصفهم فقط (29 مليون) · فان المسلمين الذين يقيمون فى المناطق الشمالية وفى وسط الهند ، هم وحدهم الذين يتكلمون بالاردية ·

واللغة البنجابية التى هى لغة طائفة السيخ (10 ملايين) فلا يزيد عدد السكان الذين يتخذونها وسيلة للتعبير عن 15 مليون نسمة ·

ومهما يكن من شيء ، فان هذه اللغات الثلاث التى تشملها كلمة « الهندستانية » ، تشكل ، هى ، واللهجات التى تتفرع عنها ، نواة لغوية لا يستهان بها ، حيث يبلغ عدد مجموع السكان الناطقين بها ما لا يقل عن 259 مليون نسمة ، (او ما يمثل 47٪ من مجموع سكان الاتحاد) ·

وحول هذه المجموعة الصغيرة من اللغات التى تنتشر ، خصوصا ، فى شمال البلد وفى الوسط ، وهى المناطق التى تدعى « هندستان » وتتوزع مختلف اللغات الهندية الآرية الجانبية ، واهمها

– فى الشرق البنغالية ، (45 مليون نسمة · وهذا الحساب لا يشمل بطبيعة الحال سكان بنغالديش الذين يبلغ عددهم ستين مليونا) والاورية (20 مليون نسمة) ، والاسامية (9 ملايين نسمة) ·

– فى الغرب ، المراثية (42 مليون نسمة) ، والغوجراتية (26 مليون نسمة) ، والسندية

خريطة الهند اللغوية



(2 مليون نسمة) . والكونكانية (1،5 مليون نسمة) وفى الشمال الغربى ، الكشميرية (2ر5 مليون نسمة) ·

واما جنوب الهند ، فهو موطن اللغات الدرافيدية DRAVIDIENNE (128 مليون نسمة) · وهذه اللغات ، لا صلة لها بأية لغة اخرى فى العالم · واربع من هذه اللغات ترتبط ارتباطا وثيقا بالعناصر الاثنوغرافية وبرقعة من الارض شهدت ازدهارا ادبيا يمتد على عدة اجيال · وهذه اللغات هى : التلوجوية TOULOUGA (45 مليون نسمة) ، والطامولية TAMOUL (34 مليون نسمة ، وذلك مع عدم اعتبار سيلان حيث تسود هذه اللغة) ،والمليالامية MALAYALAM (22 مليون نسمة) ، والكنادية KENNADA (22 مليون نسمة) · واللغات الاخرى المنتشرة فى هذه المنطقة ، اقل اهمية من اللغات المتقدمة · فان لغة الطولو TOULOU مثلا ، لا يتحدثها الا مليون وربع المليون من السكان · ولغة الآراون ARAON ، لا ينطق بها اكثر من مليون وثلاثمائة الف ، والجوندية GONDI مليون وسبعمائة الف نسمة ·

ـ وفى الشمال الشرقى من اقليم دكان ، تنتشر مجموعة لغات موندا MOUNDA (6ر5 مليون نسمة) · وهذه اللغات ترتبط بصلة باقدم اللغات السائدة فى الجنوب الشرقى لآسيا (مثل لغة مون ـ MON وخمير KHMER الخ) · وفى سفوح جبال هذه المنطقة تسود اللغات التبتية والبرمانية القريبة الصلة باللغة الصينية (واهمها : سانتالى SANTALI (3ر4 مليون نسمة) ، وموندرى MOONDARI (1 مليون نسمة)، وكوركو KOURKOU وسافارا SAVARA الخ ·

وهذه اللغات ، مثل بعض اللهجات السائدة فى وسط الهند (مثل بهيلى BHILI فى الغابات والاحراش ، تعتبر على هامش الحياة اللغوية فى الهند ، وبالتالى ، دخيلة على الثقافة الهندية ·

ولكن هل يعنى تعدد اللغات ان سكان الهند ينتمون الى قوميات متعددة وانهم يشكلون اجناسا وامما ، وليس امة واحدة ؟

ذلك هو ما يتبادر لأول وهلة للباحث الاجتماعى الذى يلاحظ ان الحقيقة اللغوية تعكس فوارق كبيرة بين ثقافات الهند ، كما تعكس نمو مختلف اقاليمها التاريخى ، وانقساماتها الدينية والطائفية ، فان هذه الاعتبارات كلها تتمثل بالقوة ، اسسا لقوميات متعددة . غير ان الحركة الوطنية التحريرية التى قادها غاندى وتلميذه نهرو ، من بعده ، قد اتجهت منذ البداية الى اتخاذ وحدة الهند السياسية قاعدة لنضالها ضد الاجنبى المحتل . وكذلك ورثت الهند الحديثة ، فيما ورثته عن زعيمها العظيم هذا التقليد ، وعززت هذه الحركة بمؤسسات ديمقراطية حقيقية تسمح لكل اقلية بالتمسك بلغتها وثقافتها وعقائدها الدينية ، بكل حرية ، بعيدا عن الضغط والاكراه . وهذه المؤسسات ، وتشبث الهنود بحريتهم ، هى بدون شك سر تماسك الهند ومصدر نفوذها الادبى والسياسى فى العالم اليوم .

واولئك المعقبين (خصوصا من الغربيين) الذين كانوا يتشككون فى عمق شعور الهنود الوطنى ويرون فى تشعب الولاء الثقافى والدينى والعرقى عقبة فى طريق الهند نحو الوحدة القومية ، لم يلبثوا ان اكتشفوا خطأهم حينما رأوا هذا البلد ، فى اكثر من مناسبة ، يقف وقفة رجل واحد للذود عن حدوده وللدفاع عن قيمه الروحية والسياسية .

والواقع ان الهنود كانوا عبر العصور متماسكين فى اطار حضارة (او ان شئت ، مجموعة من الحضارات) قومية،مثلما تتماسك قطع الفسيفساء المختلفة الالوان لتشكل صورة واحدة . وهذه الوضعية تذكرنا كثيرا بالوضعية التى كانت تسود فى اروبا فى العصور الوسطى ، حينما كانت مختلف شعوب القارة تشكل امة واحدة تستمد عناصر وحدتها من الثقافة والدين .

صحيح ان فى الهند اتجاهات انفصالية تغذيها الثقافات الاقليمية ، كما توجد فيها تيارات اندماجية قوية . ولكن الهنود (الاغلبية الساحقة) يعرفون ان عصر التكنولوجيا وعصر التكتلات الاقتصادية الكبرى ، هو عصر الوحدة بين القوميات ، وليس عصر التفتت القومى .

على أن بداية النزعة الانفصالية ليست وليدة اليوم ، وانما هى تعود الى بداية الاستعمار الانجليزى الذى حاول الابقاء على وحدة الهند بصورة مصطنعة ، بعد ما قضى على القواعد التى تقوم عليها هذه الوحدة ، وأهمها اللغة الفارسية التى ستحل محلها اللغة الانجليزية. وكذلك أصبحت الهند أكبر مجموعة بشرية تحكم باللغة الانجليزية التى ستظل قرنا من الزمن لغة القوانين ولغة العلم والفن فى شبه القارة الهندية. ولكن فرض اللغة الانجليزية كان له رد فعل فى تمسك كثير من الاقليات بعاداتها وتقاليدها الثقافية ولغاتها ، مما سيشكل أساسا وحججا لدعاة الانفصال ، فى مختلف الاقاليم .

وعلى غرار ما حدث فى الجزائر حينما بسطت فرنسا سيطرتها السياسية والثقافية على هذه البلاد ، وتأثرت اللغة الفرنسية بالمحيط المغربى فاستعارت تعابير واكتسبت لهجتها رنة خاصة ، فان اللغة الانجليزية قد تكيفت هى الاخرى ، واستفادت من احتكاكها بالثقافة والمجتمع الهندى حتى ظهرت لغة تعرف بـ « الانجليزية الهندية » .

ولكن اللغة الانجليزية، اذا كانت لا تزال تحتل مركزا قويا فى شبه القارة الهندية ، فهى كانت ، ولا تزال ، لغة النخبة المثقفة ، ولا تمس الا طبقة ضحلة من الشعب الهندى .

* * *

ينص دستور سنة 1950 على نظام متعدد اللغات فى الهند ، بحيث يعترف للغات القومية الرئيسية بوضع فى المدارس والمحاكم والادارة. وقد منح الدستور للدويلات التى تشكل الاتحاد الحق فى أن تعتمد اللغة التى تختارها كل منها . وهذا الدستور ، لا يصف أية لغة باللغة القومية ، ولكن الاربع عشرة لغة الاقليمية (التى أضيفت اليها اللغة السندهية فى سنة 1966) وضعت فى قائمة الحقت بالدستور . ولكن الحكومة أعلنت أن اللغة الهندية ، هى « اللغة الرسمية للاتحاد ». وقد كان من المقرر أن تحل هذه اللغة محل اللغة الانجليزية فى الادارة والاعمال ، فى منتصف العقد الماضى .

ولكنه سرعان ما اتضح أن التخلى عن اللغة الانجليزية على المستوى الفيدرالى ، أمر مستحيل وذلك لاسباب تقنية ، من جهة ، وبسبب قيام نزاعات خطيرة بين الاقليات الاثنوغرافية تستنكر الحضوة التى نالتها اللغة الهندية . **وهكذا استمر الحال على ما كان عليه .**

ولكن مشكلة اللغات الاقليمية ، بدات تتخذ أبعادا جديدة وتصبح موضوعا لمناقشات ، بل ولعراك خطير منذ أوائل العقد الخامس ، حينما اتضح للعيان ان تقسيم الاستعمار البريطانى للولايات ذلك التقسيم الذى اعتمد دستور 1950 ، على اسس اثنوغرافية ، كان يقوم على التحكم والقوة اكثر مما يستجيب لحقائق ثقافية وجغرافية .

وقد بدأت حركة التذمر والثورة على هذا الوضع فى الجنوب ، حينما طالبت الاقلية الناطقة باللغة التيلوغوية الانفصال عن دويلة مدراس التى تتحدث أغلبية السكان فيها باللغة التامولية ، كما سبق أن اشرنا الى ذلك . وبعد عراك استغرق عدة اشهر ، اضطر شيرى نهرو الى تكوين دويلة جديدة وهى دويلة اندهرا براداش فى سنة 1953 .

وهذه البادرة قد شجعت أقاليم أخرى وراح كثير منها يناضل من اجل الاعتراف بلغتها . وكذلك تقرر اعادة النظر بصفة شاملة فى مشكلة اللغات فى سنة 1956 ، حينما وضعت خريطة ادارية جديدة للهند على أساس اللغات الاقليمية الكبيرة .

وفى اطار هذه الحركة ، انشئت ، ثلاث دويلات أخر ، وهى كيرالا ، وتاميل ــ نادو (دويلة مدراس سابقا) وكرناتكة ، (ميسور سابقا) ٠

وعلى الرغم من ان الهند قد استطاعت المحافظة على التنظيم الجديد فى مجموعه ، فان عددا من الحركات المحلية تمكنت من ادخال تعديلات عليه والحصول على ترضيات اللغات التى تنطق بها ٠ وكذلك اختفت الدويلات ذات اللغات المزدوجة ، مثل بومباى ، التى انقسمت فى سنة 1960 الى مهاراشترا وغوجرات ، كما انفصلت دويلة البنجاب فى سنة 1966 ، عن هاريان الناطقة باللغة الهندية ٠

وفى هذه الفترة أيضا ، تكونت الاراضى الجبلية فى الشمال الشرقى ومنحت استقلالا اداريا ولغويا : نجالند فى سنة 1962 ، وميزورام ، وميجهالايا ، وأرومشال برادش فى سنة 1972 ٠ والجدير بالذكر ان الولايتين الاوليتين قد انشئتا اثر قيام ثورة مسلحة ، بينما قامت الولاية الثالثة عقب نزاع حاد ومشادات فى البرلمان الفيدرالى ٠

وكذلك اصبح الاتحاد الآن يتكون من 21 دويلة وتسعة أراضى تتمتع بالاستقلال الادارى ٠ وهذه الاراضى سائرة فى طريقها لان تصبح هى الاخرى دويلات ، وذلك فيما عدا شانديجارا التى ينتظر ان تندمج فى البنجاب ، ودلهى الجديدة التى تمتع بوضع خاص ، هى واراضيها ، بوصفها عاصمة للاتحاد الفيدرالى ٠ وفيما يتعلق بجزر المحيط الهندى ، مثل اندمان ، ونيكوبار ، واللاكديف ، فان المنتظر ان تستمر على وضعها الحالى ، بوصفها اراضى وقتا طويلا نسبيا ٠

وهذه الوحدات الاقليمية الثلاثين ، تقوم كل منها ، مبدئيا ، على أساس لغة واحدة ، ومعظمها يقوم أيضا على عنصر واحد أو متشابه ٠ واذا استثنينا الاردو ، لغة المسلمين الهند وستانيين، والسندهية التى هى لغة اللاجئين من باكستان والسنسكريتية ، فان اللغات الخمس عشرة الواردة فى الدستور اصبحت لكل منها الآن دويلة تعتبرها لغتها الاقليمية ٠

واما الاقليات الاثنوغرافية الصغيرة ، فان وجودها اللغوى ينعكس بطريقة تختلف قوة وضعفا فى هذا الاطار الدستورى ، بين أقلية واخرى ٠ فان بعضها مثل جو GOA والجماعات التبتية البورمية ، قد أعترف لها باوضاع خاصة منذ الآن ٠ ولكن بعض الاقليات المنسية ، تقوم الآن بحركات وتطالب بالاعتراف لها باوضاع الدويلات ٠ وهذه هى حالة بعض قبائل الجنوب ، مثل ميثيلا وجهاركند ٠

والمشكلة الاخرى التى يواجهها الاتحاد الهندى ، هى وجود أقليات متراصة نشيطة فى بعض الولايات تجمعها روابط اللغة والعنصر بسكان ولاية مجاورة ٠ وكذلك ظهرت توترات خطيرة فى دويلات متجانسة من الناحية العنصرية فى الظاهر ولكنها تهدد بالانفجار بسبب اختلاف اللغات ٠ وهذا التوتر يتخذ اشكالا مختلفة ، مثل الاضرابات وحركات المقاطعة والمظاهرات الخ ٠ ،

ويعتبره البعض دليلا على ضعف السلطات المركزية التى تحرص عادة على ترك الحرية للسلطات المحلية لمعالجة شؤونها الداخليـــة ، ولكن الواقــع ان السلطات الفيدرالية تنظر الى مشكلـــة اللغـة باعتبارها من العوامل المفرقة بعين لا تقل قلقـا عن نظرتها الى مشكلة الطوائف والملل التى اوشكت ان تدفعت بالبلد اكثر من مرة فى تاريخها الى حافة الهاوية ·

ومع ذلك ، فان المعقب ، لا يسعه الا ان يقف موقف الاعجاب للروح المدنية العالية التى تسود بين مختلف فئات الشعب الهندى · فان تماسك هذا البلد خلال ربع قرن من الاستقلال يدل عـلى ان النظام الديمقراطى البرلمانى الذى اختاره ، قد نجح لا فى الابقاء على وحدة الامة الهندية فقط، بل وأيضا فى تجنيد الطاقات الخلاقة للانطـلاق فى طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية نحو مستقبل أفضـــل ·

فان الهند قد تغلبت الآن على العناصر الـتى كانت تهددها منذ سنة 1947 بالتفتت ، بـــل وزيادة على ذلك ، فقد ضمت اليها الاراضى التى كانت تشكل الممتلكات الفرنسية والممتلكـــات البرتغالية سابقا ، واصبحت ـ مع احتفاظ كـل منها بشخصيتها ـ جزءا لا يتجزأ من الاتحـــاد الهندى ، وكذلك فقـــدت حجج الانفصاليين ـ خصوصا ، من الناطقين باللغة التاملية ، والسيخ والناجا ، والميزو ـ كثيرا من حدتها بفضل النظام البرلمانى الذى يضمن حرية الرأى والتعبير عنه ، فى الوقت الذى يسمح للزعماء المحليين بممارسة السلطـة وربط اطراف الحوار فى نطـــاق حزب المؤتمر ·

والنزعة الانفصالية القوية الوحيدة فى الهند ، هى التى يتمخض بها كشمير منذ سنين عديدة ·

والحق ان الهند قد ضربت مثالا نادرا فى العالم فى التماسك والتضامن القومى و « الوحدة فى التنوع » ، كما تقول الصيغة اليونانية القديمة ·

والارادة السياسية ، هى ـ بـــدون شك ـ العامل الاساسى فى هذا النجاح · ولكن سعـه الصدر وتقبل « الاجنبى » بدون حرج والتنازل والتسامح ، وغير ذلك من الفضائل التى عاش من اجلها ومات من اجلها غاندى ، كانت عوامـــل اساسية فيما حققته الهند ستكون قاعدة أدبية متينة لما ستحققه فى المستقبل من التقدم الثقافى والاجتماعى ·

من الارشيف :

وختاماً ..
لك ألف سلام ..

م ٠ دين

تساؤل ملح اثاره فى نفسى الحماس البالغ الذى ميز الانتخابات الاخيرة ٠٠ ظهرت اجابته على استحياء ٠٠ كأنها مواطن يطلب مشروبا ٠٠ باللغة العربية ! ٠٠ فى احدى مقاهى العاصمة ! ٠

لو طرحت **فكرة القيام بثورة مسلحة** قبل الصحوة فى نوفمبر 1954 ٠٠ أى نسبة من جماهير شعبنا ستقبل ان تحارب ٠٠ بالفوشى والخدمى وبقايا الحرب العالمية ٠٠ تحارب جيوش دولة كبرى يدعمها الحلف الاطلسى ؟

هذا المقال كتبه م دين فى مجلة الجيش وصدر فى كتاب : انطباعات الذى ضم مجموعة من الانطباعات صيغت بمهارة ودقة ، ننشر فى هذا العدد أحدى هذه الانطباعات لعلاقتها الصميمة بموضوعنا رغم الفاصل الزمنى

والاجابة هى نفسها مفتاح الحل فى قضية التعريب ، وهى شرح للتناقض السطحى بين ما قلته فى العدد الماضى من ان التعريب ضرورة قومية والتزام ثورى وبين ما ردده عثمان من ان التعريب ·· مطلب شعبى وقومى ··

التعريب خطوة ثورية تبدل وجه التاريخ فى هذه البلاد، والثورة لا تخضع للمظاهر الديمقراطية الكلاسيكية لانها **رهن بتحرك طليعة ثورية** تؤمن بهدف سام ولا يفت فى عضدها نقص امكانيات أو ضعف وسائل ·

معنى هذا بكل بساطة ·· بكل تجرد ·· وبكل صراحة **ان التعريب ثورة ·· والثورة تفرض ولا تستجدى ·**

الثورة التزام ضميرى لطليعة مؤمنة تطرق باب التاريخ ، تحطمه ·· لتتبعها الجماهير ·· ولتعبد بأقدامها ·· بأجسادها ·· طريق الخلود ·

ولكن ·· كيف ؟

* * *

هنا اسمح لنفسى بوضع الملامح العامة ·· ولن يكون لى فيما أقول فضل المخترع أو المكتشف ·· فقبل ان اتحدث عن التعريب ·· وقبل أن يغرقنا الاخ التركى بمقالاته ، والجيلالى ببحوثه ، وبشنون بحلقاته ، وعثمان بحقائقه ·· تولى الاستعمار نفسه رسم الطريق ·· الطريق المنطقى المعقول ·

لقد فرضت الفرنسية لانها جعلت **لغة للحياة اليومية ، وشرطا للوظيفة الحكومية** ·· من الجارد شمبيط الى طبيب المستشفى أو قاضى المحكمة · ولن يمكن بأى حال من الاحوال أن تعود العربية الى مكانها الطبيعى الا اذا أصبحت ·· لغة للخبز وشرطا للحصول عليه ·

* * *

شعارات ·· شعارات ·· مجرد شعارات ·· ان أعداء التعريب يرفعون شعاراته ليجوبوا بنا بعد ذلك متاهات الخطوات المدروسة والتدرج والبعد عن الطفرات ·· حتى ننسى الهدف الرئيسى

* * *

وأعطيك مائة حق عزيزى القارىء ·· لو صرخت فى وجهى ·· لو طالبتنى بأكثر من مجرد العناوين ولكننى أطلب منك ان تكون معى فى كل خطوة فالطريق طويل ·· وطوله يزداد ان عز الرفيق ·

الخطوة الاولى لتحقيق التعريب هى **اعتباره قضية وطنية تناقش وتحل على مستوى الوطن كله** والبداية المنطقية تفترض **تكوين لجنة عليا من المثقفين الثوريين** – وبدون مراعاة لسفسطة الازدواج اللغوى – تتولى عمل الطليعة الثورية ·

ولا يملك تكوين هذه اللجنة الا **أعلى** مستويات الدولة ·· فالقمة تخلق هذه اللجنة وتجعل منها **ابنا شرعيا** لها فيه قرابة المبادىء وأخوة النضال، وبهذا تكون اللجنة العليا للتعريب **فوق مستوى اى ادارة حكومية** ، وبهذا أيضا يتكامل لها عنصر التجرد وامكانيات التنفيذ ·

وختاما لك الف سلام

وتتولى هذه اللجنة بتوجيهات القمة ، ووحي الضرورة القومية الملحة وضع الخطة الكاملة لتحقيق التعريب بحيث يسير تنفيذه في ثلاثة خطوط متوازية ٠

(1) تعريب التعليم
(2) تعريب الادارة
(3) تعريب الاعلام

وتوضح خطة السنوات الست (وهي مدة الدراسة الابتدائية) لتحقيق التعريب على مستوى الوطن كله ٠٠ وأقول ستسنوات وهي مدة كافية لتعريب فرنسا ولفرنسة بريطانيا عند الذين يؤمنون بهدف وضعت أمامهم امكانيات تحقيقه ٠

* * *

بالنسبة لتعريب التعليم (وبدون ان أغرق نفسي في التفاصيل الدقيقة التي يملك رسمها رجال التربية ٠٠ المؤمنون بهذا البلد ٠٠ بماضيه ومستقبله ٠٠ أقول) يجب ان يتركز العمل في ثلاث جبهات ٠

الاولى : تعريب المرحلة الابتدائية (1) تعريبا كاملا دون ارهاق للبراعم الصغيرة بمتاعب الازدواج اللغوي ودون لخبطتهم بين الكتابة من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين ، ومعنى هذا ان تلغى سخافة التدريس بالعربية في السنة الاولى وبالفرنسية في السنة الثانية ٠

الثانية : ادخال العربية كمادة أساسية في الدراسة الثانوية وفرضها كشرط رئيسي للقبول في الجامعات ، ومعنى هذا الا يكون تدريسا في هذه المرحلة تدريسا للغة اضافية يترك للطالب فيه الخيار بين أداء الامتحان وعدم أدائه (وهذا يتطور بطبيعة الحال بعد انتهاء مرحلة الست سنوات الاولى ليصبح تعريبا كاملا للمرحلة الثانوية) ٠

وفي هذه الفترة بالذات ــ تدخل اللغة العربية (كلغة) الى الجامعة وتؤدي فيها الامتحانات السنوية ٠٠ مثلها مثل أي مادة علمية ٠٠ ثم تدرس بها بعض المواد كالطب الشرعي في كلية الطب والرياضيات في كلية العلوم والقانون المدني في كلية الحقوق) (2) ويستمر زحف التعريب في الجامعة الى ان يصل الى أقصى مدى ممكن بعد ثلاثة عشر عاما ٠

« قف » ٠٠ يصرخ رجل منطقي التفكير ! ! انه ــ لرقة قلبه ــ يخاف على قلوبنا سرعة السير ! رجل يزعم انه يريد لنا الخير !

* * *

« قف »

« ومن اين نأتي بمدرسي العربية ونحن نعاني عجزا فاضحا فيهم » ؟

واعتراض اخينا المنطقي ٠٠٠ **سفسطة وخداع وتضليل**٠ فنحن نعاني العجز في مدرسي الفرنسية اكثر مما نعانيه في مدرسي العربية ولسبب بسيط ٠٠ لاننا لا نخجل من محاولة استيراد عشرة مدرسين للفرنسية مقابل كل مدرس عربي نحتاج اليه ٠

1) في عام 1970 كان قد تم تعريب السنوات الاولى وحذفت منها اللغة الاجنبية .
2) في العام التالي لهذه السطور انشئت كلية الحقوق بالعربية .

ويتراجع اخونا المنطقي ولكنه يستدرك محاولا الدخول عن طريق النافذة ٠

يقول « انني اعنى بالذات مدرسى المراحـــل العليا الذين يشترط فيهم اعداد بيداغوجي خاص ٠ وخبرات قد يكون من العسير الحصول عليها ٠

ولن احيله بالطبع الى عشرات الاسماء لحملة الشهادات العربية العليا ، والذى يمارس الكثير منهم ــ تنفيذا لخطة التشتيت ــ اعمالا تبعد عن اختصاصه ٠٠ ولكننى اكتفى بالقول بان هـــذا الاعتراض هو نفسه الجبهة الثالثة لتعــــريب التعليم ٠

ذلك ان خلق اربعة معاهد عليا يجب ان يكون ضمن برنامج خطة الست سنوات وهكذا يمكن اعداد مجموعة ضخمة ــ من الممرنين مثلا ــ لمعمل فى المراحل الدراسية العليا ٠ ولا يمكن الاحتجاج بكثرة التكاليف فالابنية الصالحة موجودة فى كامل التراب الوطنى ٠

ولست احب ان اغوص اكثر من هذا فى شؤون التربية والتعليم غير اننى قبل ان اغلق بـــــاب الحديث فى هذا الميدان احب ان اقف لحظات امام المشكلة المفتعلة عن عدم وجود « الكتاب المدرسى » ٠

وانا على استعداد ــ رغم ما فى هذا من اجحاف وظلم ــ للتسليم باننا لم نصل بعد الى المستوى الذى نستطيع معه خلق الكتب الدراسيـــــة بالعربية ٠٠ على الاقل ٠٠ لان الذين قـــــد يستطيعون اعدادها تشغلهم مسؤوليات الحيـــاة اليومية ، وعدم امكان التفرغ للتاليف ٠

وعلى هذا فلست ارى اى مانع شرعى يحـول بيننا وبين استعمال نفس الكتب المستعملـة فى الشرق العربى ٠ فنحن واياهم نؤمن بان الارض كروية ، وبان الشمس تشرق من الشرق ، وان الطاقة تساوى حاصل ضرب الكتلة فى مربع سرعة الضوء ، وان امريكا الشمالية توجد فى الشمال بينما تصر استراليا على ان تبقى فى الجنوب ٠٠ وان الفاعل مرفوع بالضمة ٠٠ وان كان ترفـع المبتدأ وتنصب الخبر ٠

ويمكننا ــ ارضاء لوطنية اخينا ذى المنطــق السليم والعقل الراجح !! ــ اجراء بعض التحويرات التى تلائم مزاجنا ٠٠ فمثلا ٠٠ ؟ تلغى جملـــة « **ضرب زيد عمرا** » الخالدة وتستبدل بجملــــة « **ضرب مقران قدورا** » ٠٠ ويمكننا ان نستبدل أهازيج الاطفال بأغنية الحمام اللى ربيته !! الخ » ٠

اذن ٠٠ فالخط الاول لتعريب الدولة هـــو التعليم وهذا الخط يضمن تحقيق التعريب عـلى المدى البعيد ولكن فعاليته لن تتم الا اذا سار معه وفى موازاته خط تعريب الجهاز الادارى للدولة ٠

ذلك فى حد ذاته اقوى حافز لتمسك الطـالب فى المدرسة بلغته العربية ، واكثر الدوافع فعالية لدفعه الى تدعيم مقدرته ــ بوسـائله الفردية ــ فيها ٠

وتعريب الجهاز الادارى للدولة (وايضا ٠ ٠ بدون ان نغرق فى التفاصيل) يجب ان ينحصـر فى اتجاهين :

وختاما لك الف سلام

الاول : تعريب الوثائق والمطبوعات الحكوميه من تذكرة الترولى الى قرارات الضرائب وطلبات التعيين فى الوظائف ــ وهذه العملية لو أسندت للاكفاء لما زادت مدتها عن ستة اشهر ــ وهـــذا فى حد ذاته لا ينفى ضرورة استخدام الفرنسية مع العربية فى الادارات ذات الصلة المباشرة بالاجانب (كالضرائب ومصلحة جوازات السفر ٠٠الخ)٠

الاتجاه الثانى : لتعريب الجهاز الادارى يجب ان يتمثل فى وضع معرفة اللغة العربية كشـرط اساسى لترقية الموظف (وليكن هذا بعد عامين من صدور القرار) ثم كمسوغ للتعيين فى الوظيفة الحكومية (ويمكن هذا بعد ستة سنوات من صدور القرار) (I) ٠

وهنا تبدو اهمية المعاهد التى سبقت الاشارة اليها بجانب المعاهد الخاصة (الغير تابعة للدولة) فهذه المعاهد بتخصيصها ساعات معينة فى المساء لدراسة اللغة ستستطيع محو الامية العربيـــة بين الموظفين فى فترة لن تزيد على ثلاث سنوات٠٠ ذلك اننا لن نكون فى حاجة الى طه حسين او محمد العيد لكى يملأ خانات يومية فى سجل المواليـــد او ليحرر مخالفة لمواطن تجرأ ومشى على الخطوط الصفراء او لتسجيل استهلاك الغاز والكهـــرباء فى بيت أو مؤسسة ٠

وينفجر سؤال محرج ٠٠

اعرف بالضبط من الذى فجره ٠٠

« **انطلب من القاضى فى شيخوخته ٠٠ مـــن الاستاذ الجامعى بوقاره من المسؤول الكبـــير بالتزاماته ٠٠ ان يعود كل منهم الى مقعـــد الدراسة ٠٠ اى اهانة هذه ! !** » ٠

والاجابة يعرفها من يزعم التفكير المنطقى ! « فان الكثير ممن يحتويهم السؤال يعرفون العربية ٠٠ ولعل بعضهم يعرف منها اكثر مما اعـــرف ٠ بل ان مسؤولا كبيرا يعرف معنى عجلة التاريـخ قد اتخذ لنفسه معلما خاصا بالعربية خـــلال العام الماضى وحصل على نتائج رائعة ٠

ومع ذلك ٠٠ يمكن على المستويات العليا **تعيين مترجمين دائمين** ولن تزيد حاجتنا منهم فى طـول البلاد وعرضها على خمسين مترجما ٠٠ وهو عدد يوجد بصفة حتمية فى اى بلد له مثل علاقاتنـــا الخارجية ٠

بقيت تفاصيل لا بد من الحديث عنها لاستكمال تعريب الجهاز الادارى ٠٠ **مدرسة الادارة** مثلا٠٠ الفترات التدريبة للموظفين ٠٠ وانا على عجلة من امرى ٠٠ لا املك مناقشتها وأفضل تركهـا ــ بدلا من التحليق فى العموميات ــ لمن يملك رسم برنامج مفصل لها ٠٠

لقد تحدثت عن **خط التعريب الاول** وهو **التعليم** وعن خطه **الثانى** وهو **الادارة** وبقى ان اتحدث عن أخطر هذه الخطوط كلها ٠٠ الخط الذى يسير موازيا لرفيقيه وان دعت الحاجة الملحة الى ان يسبقهما٠٠ هو خط تعريب الاعلام ٠

فى ميدان الاعلام تظهر بوضوح النظرة الواسعة التى تشمل الوطن الجزائرى كله ، ولا تخطفها أضواء الواجهات الزجاجية المتمثلة فى العاصمة والمدن الكبرى ،

I) اتخذ قرار رئاسى سينفذ ابتداءمن عام 1971 .

هذه البلاد هى ملك للفلاح الذى ينطق الراء .. لا غينا ، **هى ملك للعامل** الذى يتكلم العربية لانه لا يعرف غيرها وهى ملك للمثقف الثورى الذى يؤمن بأن العزة القومية تتمثل أولا وقبل كل شيء .. فى التمسك باللغة القومية .

والاعلام .. تدفع تكاليفه أنا وأنت .. ومن حقنا عليه ان يقدم لنا ما نحن فى حاجة اليه . أما ان يكون مقصورا على فئة ضئيلة من سكان هذا البلد فهو ما يؤكد فشله .

ولعل المناسبة الاولى التى اثبتت فيها أجهزة الاعلام فعاليتها .. وهى مناسبة الانتخابات البلدية .. حيث كانت دليلا يكاد يفقأ أعين الذين ما زالوا يؤمنون بانه يمكن الحديث مع الشعب والتحدث اليه .. بغير العربية .

واذن .. فلا بد من تعريب جهاز الاعلام بأسرع ما يمكن لانه .. الصلة الاولى بين الشعب وقيادته ويجب ان تكون تجربته الماضية تجربة توضع محل الدراسة وعلى الطبيعة لا داخل « أقجار » المكاتب.

ـ فعلى مستوى الصحافة : يجب ان يوقف نهائيا هذا الطوفان من المجلات الاوروبية وعلى الاخص قصص الاطفال ومغامرات زورو وجيمس بوند والتى تتسلل الى بلادنا والى رؤوس شبابنا وملابس فتياتنا (1) .

وعلى هذا فاللجنة المختصة بالاعلام والمتفرعة عن اللجنة العليا للتعريب تتولى وضع قائمة باسماء الكتب والمجلات الاجنبية التى يسمح لها بدخول بلادنا على ان تعطى الاولوية للكتب العربية (مع اعفائها من الضرائب او تقليل الضرائب عليها) .

ويهمنى وانا اتحدث عن الصحافة الاجنبية ان اوضح نقطة يغلفها ضباب الادعاء ، فالفرنسى الذى يصر على قراءة **لوموند** دون **الفيجارو** او **لومانيتى** كالانجليزى الذى لا يقرأ الا **التيمس**.. هى اتجاهات يفرضها واقع الحياة الحزبية فى كل منهما ، وهو امر لا يهمنا من قريب او بعيد اذ ان **معظم الصحف الاجنبية تكاد تتفق على اتجاه واحد فيما يتعلق بسياستنا** ، ولهذا فان تعدد الصحف الاجنبية التى تدخل الى بلادنا ـ والفرنسية منها بوجه خاص ـ لن يؤدى الا الى ربطنا باتجاهات ليس من مصلحتنا على الاطلاق ان نهتم بها .

وهذا لا يعنى اطلاقا منع الصحف الفرنسية من الدخول ولكن تنظيم عملية دخولها يجب ان يخضع لتخطيط دقيق وبحيث لا تتخذ **صورة الغزو** الثقافى على حساب الصحافة الوطنية (وهو ما تحدث عنه بوقاحة المدعو ايف كيو فى حديثه الذى نشر فى الفيغارو وبدا فيه كمن يكتب عن الجزائر من خلال الواجهة الزجاجية لسيارة د . أس . 21) .

« وهنا ايضا يجب ان لا ننظر بجدية الى من يقول بان **الفكرة لا تحطمها الا فكرة اخرى اقوى منها** .. ولا مانع من ان نسمح بدخول كل شيء ما دام ايماننا قويا وعقيدتنا راسخة ! ! الخ » .

1) طبق قرار المنع فيما بعد على عدد كبير من المجلات الرخيصة .

من اختصاصها بجانب المراقبة ٠٠ المبـــادرة بحملات محو الامية على المستوى المحلى ٠٠ فـــى مزارع التسيير الذاتى وفى التجمعات الشعبيـة وفى اطارات المنظمات الوطنية ٠

* * *

وعند ما ألقى نظرة أخـــيرة على ما كتبت ٠ ٠ أشعر بالضيق ٠ ٠ أشعر باننى لم أوف الموضوع حقه ٠٠ ومع كل الارهاق الذى أشعر به تطـوف بذهنى كلمات قالها ميكيافيلى :

« واذا قدر لامكانياتى المتواضعة وتجـــاربى المحدودة ان تجعل من جهودى غير كاملـــة فان هذه الجهود على كل حال ستمهد السبيل امـــام انسان آخر بامكانيات أضخم لتحقيق ما عجزت انا عن الوصول اليه » ٠ ٠

ومعذرة عزيزى القارىء ٠٠ وختاما ٠٠ لـــك ألف ســـلام ٠



تحذير المسلمين من: بدعة استخدام الحروف اللاتينية بدل العربية

القاهرة : عقد مجلس البحوث الاسلامية بالازهر اجتماعا برئاسة فضيلة الدكتور - عبد الحليم محمود شيخ الازهر بحث خلاله موضوع البدعة الاستعمارية الداعية الى استبدال الحروف العربية باللاتينية واصدر بعد الاجتماع نداء الى جميع المسلمين فى العالم حثهم فيه على تعلم اللغة العربية وذكرهم بان قيام الدين الاسلامى موقف على العلم بلغة كتابه المنزل - وسنة نبيه المرسل سواء فى ذلك هدايته الروحية ورابطته الاجتماعية وحذر المجمع من البدعة الاستعمارية وهى اتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة بعض اللغات التى يتحدث بها المسلمون فى آسيا وافريقيا .

وقد حاول اعداء الاسلام من قديم الترويج لهذه البدعة لاحلالها محل الحروف العربية فى اللغة العربية ولكنهم اخفقوا فى ذلك اخفاقا كاملا والحروف اللاتينية كما ثبتت علميا قاصرة فى تصوير الاصوات اللغوية بغير اللغة التى نشات لها .. ونبه المجمع المسلمين الى ان معرفتهم بالحروف العربية والفهم لها فى لغاتهم القومية يديم صلتهم بالتراث الاسلامى الذى كتب بالعربية على مدى اربعة عشر قرنا فى جميع الاقطار الاسلامية من مشرق الى غرب افريقيا ..



دور معهد اللسانيات في التعريب

• أمنيتى أن يطلق اسم الخليل بن أحمد على المعهد



عبد الرحمان حاج صالح

اجرينا هذا الحديث مع الاستاذ عبد الرحمن الحاج صالح ، أستاذ اللسانيات وعلم اللسان العربى فى الجامعة ، ومدير معهد العلوم اللسانية والصوتية ·

وقد رأينا أن نتصل بالاستاذ صالح لا لكونه مديرا لهذا المعهد فقط ، بل لانه زيادة على ذلك متخصص فى اللسانيات العامة ومنطق الرياضيات المطبق على البحث اللغوى بصفة خاصة ·

ويقول الاستاذ الحاج صالح : انه منذ اكثر من ١٢ سنة وهو يبحث فى موضوع على غاية من الاهمية وهو ماهية الابحاث اللغوية التى قام بها النحاة العرب فى دفعتهم الاولى • (ابو عمرو بن العلا ، والخليل بن احمد وسيبويه واصحابه) لانه اكتشف مفاهيم عديدة عند هؤلاء ما انتبه اليها الغربيون الا فى العصر الحاضر وربما يكون البعض منها لم ينتبه بعد اليها تماما ، فاراد ان يستخرج هذه المفاهيم التى لم يتفطن اليها اكثر المثقفين ، لانها لا توجد الا فى الكتب القديمة او لان المقارنة بينها وبين غيرها من المفاهيم الحديثة غير متسرة •

ويقول فى آخر حديثه : وأمنيتى هى أن يحمل هذا المعهد اسم أعظم رجل يفتخر به العرب جميعا ، وهو **الخليل بن أحمد** الفراهيدى الذى لا يعرف فضله الا من أطال النظر فيما أنتجه هذا الرجل العبقرى وتمكن فى نفس الوقت أن يقارن بين ما قاله واثبته وبين ما أثبته العلم الحديث •

اما فيما يتعلق بالتعريب :

فيقول الاستاذ الحاج صالح : التعريب من حيث هو مبدأ فلا نقاش فيه لانه أصل وليس فرعا • ولذلك فالسؤال الذى ينبغى أن يطرح هو : **كيف تتم عملية التعريب ؟ وكيف نطبق هذا الاصل ؟**

اننا نعتقد أن هذه العملية هى مثل جميع العمليات الثورية التى تقوم بها الدولة ، مثل الثورة الصناعية والثورة الزراعية : لا فرق بين عملية التصنيع وعملية التعريب **فلا بد لكلتا العمليتين من تخطيط** ، يشمل الامكانيات المادية والاطارات الكفاة • هذا من ناحية ولا بد قبل التخطيط من الحصول على عناصر ومعلومات اولية تبنى عليها هذا التخطيط ، وها هنا لا مناص من ان يتدخل البحث العلمى لا كتفكير وتأمل ، بل كعمل اكتشافى ، تطلعى يرمى الى توضيح الاوضاع وبيان اسبابها من الناحية النظرية ، وضبط الوسائل التى يحتاج اليها الاداريون والمخططون ، ثم ضبط الوسائل الدقيقة لاجراء عملية التعريب ، فالبحث العلمى اللغوى يكون دوره اذن فى التعريب على الشكل الذى اصفه لكم فى النشاطات التى يقوم بها هذا المعهد مع الاستاذ الحاج صالح ، مدير معهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر •

دور المعهد فى التعريب :

هذا المعهد له وجود من سنوات قليلة انشىء رسميا فى سنة ١٩٦٦ وخرج الى الوجود المحسوس منذ ١٩٦٩ فقط • وبما انه مؤسسة انشئت فقط للبحث العلمى لا للتكوين ولا للتعليم فهو مركز على دراسة اللسان البشرى بصفة عامة كظاهرة يمكن تتبعها بكيفية موضوعية وعلمية لان هناك ظواهر عامة الوجود ينبغى ان تدرس على نفس الكيفية التى يجريها الباحثون فى ميادين أخرى مثل ظواهر الفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها ، اى اننا نعتمد فى ذلك على مشاهدة السلوك اللغوى ، نجمع ونستقرىء ونحلل هذه المجموعات والمدونات من الظواهر والاحداث اللغوية تحليلا علميا دقيقا مادة وصورة نسلط عليها مقاييس استدلالية عقلية• وهذه المقاييس هى مقاييس العلم بمعناه الكامل ، هذا العلم الذى يعيشه الجيل الجديد وهو لا يعتمد على المنطق الارسطى القديم بل على المنطق الذى بنيت عليه الرياضيات الحديثة فبما أن اللغة

هى ظاهرة عظيمة الشان لانه لا يمكن ان يوجـد الانسان بدون لغة فهى صفـــة الانسان الذاتية لا تفارقه واذا فارقته خرج من انسانيته العاديـة الى البلاهـــة أو الحيوانية البحتة وبما ان هذا المعهد يهتم بكل الظواهر اللغوية كان من المحتم علينا أن نتعرض لجميع جوانب البحث فى اللسان البشرى والواقع أن له جوانب عديدة جــدا : الجانب الفيزيولوجى والجانب الفيزيائى والجانب النفسانى ، والاجتماعى وغير ذلك مما له عـلاقة مباشرة أو غير مباشرة بظاهرة اللسان · وكـى نعرف جمهور المثقفين محتوى هذا البحث شرعنا فى تحرير مدخـــل الى علم اللسان الحديث فى مجلة اللسانيات حتىيعرف غرضنا والاهداف التى نرمى اليها ونرجو ان يكون الباحثون قد اطلعوا على ما صدر منه الى الآن وســوف تستمر فى المستقبل ان شاء الله رغـم الصعوبات الجسيمة (التى لا يمكن أن تتصور !) ·

والآن نتسائل ماذا عسى ان يحققه هذا المعهد فى داخل هذا الاطار أى اطار البحث العلمى فى الظواهر اللغوية وفى أهم مشكل عرفته البلدان العربية وهو مشكل شيوع للغة القومية الفصحى وصلاحيتها للتعبير عن جميع ما يخطـر بالبال ومواكبتها للرقى العلمى والحضارى ؟

بما أن اللغة العربية هى كسائر اللغات تحتاج الى ان تحور وان تكيف حتى تسايـر الــركب الحضارى فان البحث الذى يقوم به المعهد من أجل التعريب هو بحث فى نفس الوقت نظرى وتطبيقى· وسبق لنا أن قلنا فى موضع آخر أنه مع اهــم معتقداتنا ان البحث النظرى لا يمكن ان يفصـل عن البحث التطبيقى ، والا جمد كل واحد منهما ، ويجب ان نشير ان مشاكل اللغة العربية بصفة عامة هى الهدف الاخطر الذى جعله معهدنا نصب عينيه فاكثر البرامج التى تتعلق بالبحث اللغوى تخص هذه المشاكل ، وبما أن العلم الحديث ميال الى النظر فى الشىء من جميع وجوهه والاعتداد بجميع ما يكتشفه العلماء فى مختلف الميادين اذا كانت ترتبط وتتداخل من حيث لا يشعر (فالعلم الحديث ميال اذا الى الشمولية وعدم الاقتصار على جـانب واحد) أردنا امتثالا لهذه النزعــة العظيمة الفائدة ان يجتمع فى معهدنا عــدد من الباحثـــين المختلفى الاهتمامات والاختصاصات لاننا نرى ان هذا التداخل وهذا التشابك والتضامن فى عمل البحث شــرط ضــرورى لترقيته · هذا فماذا عسانا أن نكون قد قمنا به حتى الآن ثـم ما هى الاهداف التى لم نحققها بعد ؟

بناء على ما سبق ، فان هناك عدة ميادين تهم البحث العلمى فى اللغة العـــربية · نبدأ مثـــلا بالبحث عن الرصيد اللغوى ونعنى بـه العـــدد الادنى والاقصى (فى نفس الوقت) من المفردات ، (ثم من التراكيب) التى يجب ان يحصـل عليها التلميذ فى مستوى من المستويات وان لا يتجاوز هذا العدد فى اثناء تعلمه لها والا يقف دونــه لان هناك مقاييس وحوافز تدلنا على ان كميــة الاشياء الملقنة ينبغى ان لا تتجاوز حدا معلوما يستخرج بالتجربة · واحد مشاكل التعليم بالنسبة للغة العربية خاصة هو ان المادة الملقنة للاطفال وحتى للكبار والاميين مثلا ليس لها حــد ادنى ولا حد أقصى معروفين معينين ثـم ليست هذه المادة فى ذاتها مخططة على الاطلاق وزد عـلى ذلك ان مضمون هذا الشىء الملقن يتصف بعيب كبير جدا هو أولا : كثرة المترادفات (خذ مثـلا بالنسبة الى مفهوم واحد : فرس ، جواد ، حصان

الخ) كذلك الكلمات المشتركة المبهمة الملبسة ثم الكلمات الغريبة الوحشية التى يحتاج المعلم احيانا الى البحث عنها فى كتب اللغة • هذا كله بالاضافة الى الفقر الهائل من حيث المفاهيم الحديثة ، فلربما نجد فيما يتعلمه الطفل من المفاهيم التى يحتاج اليها اشد الاحتياج الشيء القليل جدا فالذى قمنا به من هذه الناحية هو اننا بحثنا فى الاقطار الثلاثة تونس والجزائر والمغرب عن الواقع اللغوى اى الوضع الذى هو عليه الآن اطفالنا ، فاجرينا لذلك تحريات فى هذه الاقطار الثلاث وحصلنا على مدونة من المحاورات التلقائية بلغت عشرات الآلاف من الكلمات وذلك فى عدد كبير من المدن والقرى وهكذا اضطررنا الى ان نستعمل الآلة الالكترونية التى نسميها بالرتابة حتى نحصى بكيفية لا تحتمل الخطأ كل مفردة وتواترها فالشيء الذى اتضح لنا هو جد مهم • لاحظنا ان ٧٩٠ كلمة يستعملها بالفعل الطفل المغربى هى فى نفس الوقت فصيحة حتى فى النطق ، ثم رأينا ان ٦١٦ كلمة مشتركة بين جميع اللهجات ، ولكن الذى اتضح لنا اكثر هى هذه الكارثة : ان من ٢٠٠٠ كلمة مختلفة استخرجناها من المدونة بالاحصاء لا يقابلها الا ٦٠٠ مفهوم ! فالذى يجب ان ننتبه اليه هو ان المفاهيم النشيطة المعبر عنها باللغة العربية من التى يقتضيها العصر الحاضر قليلة الوجود فى المحاورات التلقائية • فالعيب يوجد بالنسبة الى ما يتعلمه الطفل فى نفس الوقت فى هذا الحشو اللفظى الهائل ، وفى الفقر والعوز المفهومى • فبناء على هذا اتفق معهدنا مع جماعة من الباحثين التونسيين والمغاربة على ان يحور هذا الرصيد اى ان يتحاشى كل الكلمات المترادفة الا القليل للحاجة اليه وتسد مع ذلك الفراغات المفهومية • وها نحن قد انهينا هذا العمل منذ سنة وهذا الرصيد خاص بالمرحلة الاولى من التعليم الابتدائى ، (وهو الآن تحت التجربة) •

وهناك ارصدة اخرى ستهيىء بالنسبة للمراحل الاخرى وارصدة تخص التراكيب ايضا ، وبصدد المفردات ينبغى ان نشير الى ان المعهد سياخذ على عاتقه المساهمة الفعالة فى حصر وضبط المصطلحات العلمية • وقد شارك فى اعمال اللجنة الدائمة للتعريب التابعة لوزارة التعليم العالى والبحث العلمى وقدمت هذه اللجنة تخطيطا لخمس سنوات •

وهناك مبادىء أخرى فى ميدان آخر شبيه بهذا وهو المحاولة التى قمنا بها منذ اكثر من سنة فى حصر واحصاء جميع المفردات التى جاءت فى الادب الجاهلى مثلا ، فالذى نريده من وراء ذلك هو ان نضع قوائم للمفردات مرتبة على حروف الهجاء تدل على العدد من المرات التى استعملت فى نص من النصوص (تواترها) ثم فى عصر من العصور ، او بالنسبة الى شاعر أو أديب واحد (أو أى مؤلف) وندل ايضا على مراجعها وهذا لا يخص طبعا الادب الجاهلى فانه سيتجاوز هذا العصر الى العصور التالية والقصد من ذلك هو ان تتبين أين ومتى وكم مرة وبأى معنى استعمل اللفظ العربى الفلانى حتى تكون هذه المعلومات مرجعا ضخما (لا مثيل له بالنسبة الى العربية) ضروريا لكل من يريد وضع المصطلحات أو غير ذلك مما يهم اللغة •

هذا كله يخص اللغة اى المفردات ، ولكننا نهتم ايضا بشيء آخر وهو التراكيب أعنى بذلك التراكيب الاسنادية اى الجمل ، لانه ان كانت

المفردات كثيرة جدا فان المركبات تكاد تكون غير متناهية ولذلك يجب ان تضبط بالآلات الالكترونية أى الرتابات ونحن الآن نبحث عن انجع طريقة (رياضية) لحصر المركبات وهذا سيحملنا فى المستقبل القريب على تحليل رياضى بحت لبنية الجملة العربية وسيفضى بنا هذا البحث فى المستقبل الذى عساه ان يكون بعيدا الى امكانية الترجمة الالكترونية من اللغات الاجنبية الى العربية وبالعكس ٠

الجانب التربوى :

كان المشكل الذى عالجناه الى الآن هو المادة اللغوية الملقنة التى كان يجب ان تحور وان تكيف٠ غير ان كيفية تلقينها لا يقل اهمية ولذلك شرعنا فى البحث عن مناهج ناجعة لتعليم اللغة العربية بالاعتماد على المختصين بعلم النفس اللغوى ، والاحصاءات الرياضية ، وغير ذلك مما يتعلق بعلم اللسان التربوى ٠ ولا يزال هذا الميدان جديدا لاننا اردنا ان نقلب الاوضاع التقليدية ونتحرر من كل ما كان يجف دماغ الباحث الى يومنا هذا من الافكار السائجة او الاوهام الراسخة ٠

وهناك ميدان له علاقة وثيقة جدا بالمشاكل التربوية وهو ميدان العلاج الطبى للذين اصيبوا بعلة فى التعبير او ما يسمى بالامراض اللغوية وامراض التعبير وكيفية علاجها هو من مهام اللغوى المربى ، واهتمامنا بهذا الجانب من البحث حافزه هو :

اولا : عدم وجود على الاطلاق فى الجزائر اى اختصاصى فى هذا النوع من العلاج باللغة العربية فان العدد القليل من الاختصاصيين الموجودين الآن فى الجزائر يعالجون المرضى٠اى يصلحون العيوب التعبيرية على اساس ان هؤلاء الاطفال **يتكلمون بالفرنسية** فالحاجة اذن مسيسة الى تكوين اختصاصيين باللغة العربية لان التعبير التلقائى فى الاوساط **الشعبية** هو باللغة العربية وكذلك الكثير من الاوساط المثقفة ٠

زد على ذلك ان البحث فى الطب اللغوى يزيدنا علما فيما يخص اليات اللغة العامة الوجود ونتعرف بذلك على الاسباب لان فساد التعبير قد يبين سبب صحته احيانا كثيرة (زوال الشىء قد يدل على ارتباط بين هذا الشىء وشىء آخر)٠

نتكلم الآن عن جانب آخر وهو يخص ما نسميه بجغرافية اللغة ٠ فمهام المعهد فى هذا الميدان هو وضع اطلس لغوى للقطر الجزائرى ونعنى بذلك عددا من الخرائط الجغرافية تصور لنا الوضع اللغوى الراهن بالنسبة مثلا الى الفين أو ٣٠٠٠ كلمة وتركيب فكل خريطة تمثل لنا التوزع الجغرافى لكل واحد من هذه المفردات والتراكيب وهذا له اهمية عظيمة جدا لان جهلنا للوضع اللغوى فى وقت من الاوقات قد يمنعنا عن اقامة الطرق الناجعة لتعليم اللغة من جهة ثم يمنعنا ايضا من الاستمرار فى الحث اللغوى نفسه اذ اننا نريد ان نلم بكل ما هو موجود بل وما كان موجودا من قبل الماما علميا دقيقا حتى نتمكن من تخطيط العمل والاصلاح والتحوير ونكون بذلك قد تطلعنا الى المستقبل بالاعتماد على الحاضر والماضى ٠

وتوجد عندنا مخابر مختلفة نستعين بها لتكوين جماعات من الباحثين الشباب باللغة العربية كاساس ولغة اجنبية او لغتين اجنبيتين للاطلاع على ما ينتجه غيرنا ٠



الا اننا نلاقى الآن صعوبات كبيرة جدا وهذه الصعوبات راجعة فى الغالب الى سوء تفاهم بين الباحثين والاداريين والماليين · ونتمنى ان شاء الله ان نسير قدما فى هذا النهج الذى سطرناه ولكننا نعتقد ان المؤسسة القومية لا يمكن ان تكون ناجعة الا بشرطين :

ان تندمج اندماجا منطقيا وماديا فى نظام المؤسسات الحالية ، ان تتمتع فى نفس الوقت باستقلال مالى وادارى يضمن لها السير السليم ، والانتاج النافع العميم وكان هذين الشرطين متناقضان وليسا فى الواقع متناقضين لان الاندماج معناه عندنا التوفيق بين الاهداف الجزئية المتخالفة احيانا وطرق تحصيلها ، وان يكون كل جزء فى المجموعة المنتظمة متضامنا بالاجزاء الاخرى او الدواليب الاخرى **شريطة ان لا يستغل كل واحد منها اعمال الآخر من جانب واحد** ، فلا بد من التبادل لانه اساس التضامن · وعلى هذا الاساس يتحقق الاستقلال الادارى والمالى لانه ما دامت ادارة المؤسسة ومجلسها قد خططت لاعمالها تخطيطا دقيقا جدا واتفقت مع الادارة العليا على جميع ما فى هذا التخطيط فانه لا نجد بعد هذا الاتفاق وقبل موعد مراقبة النتائج أى مبرر للتدخل فى نشاط الباحث لان ذلك سوف يشغله عن الخطة التى رسمها لنفسه والتى وافق عليها جميع المسؤولين ، فبين المنطلق (وهو الوقت الذى توافق الادارة العليا على التخطيط) والوقت الذى ينتهى فيه انجاز هذا التخطيط يجب ان يكون الباحثون ومؤسساتهم احرارا فى داخل اطار التخطيط المذكور ·







دراسات سياسية

أوربا والعالم العربي

من حرب السويس إلى حرب أكتوبر



بول بالطا
مراسل جريدة لوموند بالجزائر

لقد كشفت حرب اكتوبر عن عدد من الحقائق ظلت خفية حتى الآن عن الرأى العام ، وعن عدد من الحكومات الاوروبية التى كانت تتعامى حتى لا تضطر الى استخلاص النتائج مما تراه • ومن بين الحقائق التى ظهرت نتيجة لاستخدام سلاح النفط نستطيع ان نذكر طبيعة العلاقات التى تربط الدول الاوروبية بالدولتين العملاقيتين من جهة ، وبالدول العربية واسرائيل ، من جهة أخرى • لقد تيقظت الدول الاوروبية فجاة واخذت تزن الاضرار التى لحقت بمصالحها فى البحر الابيض المتوسط وفى العالم العربى ، وتدرك اهمية الخلافات التى تفصل بينها وبين الولايات المتحدة ، فى الوقت الذى اكتشفت فيه عجز الجماعة الاقتصادية الاوروبية عن القيام بدور حاسم فى ايجاد حل لأزمة الشرق الاوسط •

بل الاسوأ من كل ذلك ، ان اوروبا الغربية قـد تعرضت للوم الولايات المتحدة التى اتهمتهـا بتجاهل التضامن فى نطاق الحلف الاطلسـى « ولو ان اوروبا لم تسكت على هذا الاتهام » ، كما اتهمتها اسرائيل بالفتور والسلبية • وعلى نفس المنوال كشفت الضغوط التى اجرتها الـدول العربية على هولندا ، والى حد ما على المانيـا الغربية ، عن الضعف الذى يتسم به تكتل الدول التسع ، ولكن تلك الضغوط اضطرتها فى نفس الوقت الى تعديل مواقفها ، بادخالها فى الحساب حقائق عالم يمر بعملية تطور سريع •

لقد كان غياب اوروبا فى حرب اكتوبر نتيجة للاحداث التى تتابعت منذ الحرب العالمية الثانية ، حتى استقلال الجزائر فى سنة 1962 ، بقـدر ما كان نتيجة لعجز الدول الست فى المرحلة الاولى ، ثم الدول التسع فى المرحلة الثانية عن تحديد مواقف واضحة تجاه الدول التى تتعاون معها • ونحن نعرف ان ظاهرة سعى المستعمرات للتخلص من الاستعمار ، كانت الظاهرة المتغلبة فى تاريخ الجيل الماضى • وقد كان لبنان وسورية اللتان نالتا استقلالهما فى سنة 1944 أولى الدول العربية التى حصلت على استقلالها ، ولكن عددا من البلدان الافريقية لا تزال ترزح تحت الاستعمار حتى الوقت الراهن • واما حملة العدوان الثلاثى على قناة السويس فى سنة 1956 ، فقد كـانت بداية اضمحلال السيطرة العسكرية والسياسية التى كانت تمارسها الدول الاوروبية الكبيرة علـى الضفة الجنوبية للبحر الابيض المتوسط ، وبصفة عامة ، فى القارة الافريقية • فان فرنسا وبريطانيا اللتان قامتا بهذه المغامـرة ، قد ارتكبتها اخطاء فى التقدير ، لم تظهر خطورتها بوضوح الا بعد مضى وقت من الزمن •

ففى المكان الاول ، اهملت الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية فى الحساب الضرر الادبـى الذى يلحق بسمعتها بسبب تحالفها مع اسرائيل ضد مصر ، فى العالم العربى الذى تحتم عليهما الظروف الجغرافيـة والتاريخية التعاون معـه • وثانيا ، فقد قللت الحكومتان من اهمية رد الفعل العربى على الصعيد السياسى والاقتصادى • واذا كانت الدول العربية المنتجة للنفط والتى كانت الشركات الاجنبية تتمتع فيها بامتيازات ، لـم تلجأ الى سلاح النفط فى ذلك الحين ، فان بعض زعماء العرب قد استخلصوا العبرة من هـذا الدرس ، كما لاحظنا ذلك خلال العدوان الاسرائيلى فى سنة 1967 ، وبصفة اقوى وأوسع ، فى سنة 1973 •

ومهما يكن من شىء ، فان اغلبية الدول العربية قد قطعت علاقاتها الديبلوماسية فى ذلك الحـين مع فرنسا وبريطانيا اللتين تعرضت مصالحهمـا الاقتصادية والثقافية فى المنطقة لخطر كبير • وقد كان الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ، الى حد ما ، هما الدولتان اللتان استفادتا من هـذه الوضعية بسبب الدور الذى قامتا به فى حـل هذه الازمة ، ثم المانيا الغربية وايطاليا واليابان، لبقائهما على الحياد •

والعامل الثالث الذى قللت الدولتان من أهميته ، هو الاغراء الذى كان من المحتم ان تشعر به موسكو وواشنطون للتدخل لوقف العدوان الثلاثى . صحيح ان جى موليه وانطونى ايدن كانا واثقين فى ذلك الوقت من ان الولايات المتحدة التى كان موقفها الرسمى هو السبب فى قيام الازمة ، ستتركهما ليقوما بتنفيذ مخططهما ، وان من الطبيعى ان يقف الاتحاد السوفييتى نفس الموقف .

هذه حقائق جديرة بالتذكير ، لانها تلقى ضوءا على الحاضر . فقد كان الرئيس الراحل ، عبد الناصر يسعى لتنفيذ مشروع ضرورى للتنمية فى بلده ، كان المصريون يحلمون به منذ بداية القرن : مشروع السد العالى فى اسوان . وقد وافق البنك العالمى على القيام بتمويل المشروع جزئيا ، كما اعلنت الولايات المتحدة عن نيتها فى المساهمة فى هذا التمويل . ولكن السلطات الامريكية غيرت رأيها فجاة لأسباب سياسية، حيث كانت تريد بهذا الرفض ان تقدم انذارا لعبد الناصر الذى قبل شحنة من الاسلحة السوفيتية (عن طريق تشيكوسلوفاكيا) ، بعد ما رفضت الدول الغربية طلباته فى عدة مناسبات (1) . وقد كان فوستر دالس مقتنعا بان الاتحاد السوفيتى لن يقوم بتمويل مشروع السد العالى ، الذى كان يبدو طموحا وباهظ التكاليف وفوق طاقة امكانيات روسيا التى كانت تهتم اولا وقبل كل شىء بالاسراع فى تنمية اقتصادها . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فقد كان وزير خارجية امريكا الاسبق يعتقد ان مصر لا تملك أية وسيلة للرد على الرفض الامريكى .

وهذا الخطأ الفاحش فى التقدير نبه اليه السيد كوف دو مورفيل الذى كان سفيرا لفرنسا فى وشنطون حينئذ ، وانذر وزير خارجية أمريكا بعواقبه . فان الدبلوماسى الفرنسى الذى استشاره دالس ، والذى كان قبل ذلك سفيرا لبلده فى القاهرة ، قد عبر عن رأيه بان عبد الناصر قدّ يقوم بتأميم قناة السويس ، ولكن دالس رد عليه بقوله ان هذا الاحتمال يستبعده الخبراء الامريكيون الذين يرون أن مصر لا يمكنها ان تتخذ مثل هذا الاجراء وتقوم بمفردها بتامين الملاحة فى البرزخ ، ونحن الآن نعرف ماذا حدث ، حيث ان عبد الناصر قد أعلن اجراء التاميم فى 26 يوليو 1956 ، كما أعلن الدخل الذى ستحصل عليه الدولة من القناة ، سيخصص لتمويل بناء السد العالى،الذى سيساهم فيه الاتحاد السوفيتى مساهمة كبيرة .

وكذلك قدم فوستر دالس باجراء الرفض ، ورقة ثمينة للاتحاد السوفيتى وفتح له باب مصر التى كانت مسموعة الكلمة فى العالم العربى على مصراعيه ، فى الوقت الذى سمح لها بتدعيم الوجود الروسى فى البحر الابيض المتوسط . وهذا الخطأ الاستراتيجى ، سيغير التوازن الذى

(1) ربما وقعت الولايات المتحدة تحت تاثير فرنسا . فان السيد بينو الذى كان آنئذ وزيرا للخارجية قد صرح فى اذاعة له فى اغسطس 1956 ، بانه قد طلب الى فوستر دالس ان يرفض تمويل السد العالى ، وان الاخير أصغى بعناية الى رايه .

كان في مجموعة في صالح الدولة الغربية في المنطقة • واما العدوان الثلاثي الذى اشتركت فيه اسرائيل على أمل اسقاط عبد الناصر ، فانه لم يزد كفة الميزان الا تأرجحا في صالح الاتحاد السوفيتي • وهنا أيضا ، ارتكبت حكومة الجمهورية الرابعة خطأ باعتقادها ان حرب التحرير الجزائرية التى بدات في سنة 1954 ، لم تكن الا ثورة خالية من كل تاييد في الداخل ، وانما هى توجه وتغذى من القاهرة ، وان هذه الثورة ستنتهى بانهيار نظام عبد الناصر • والمرء لا يستطيع الا ان يندهش لان يرى مثل هذا التحليل والتقييم يصدر بعد مؤتمر باندونج ، وفى الوقت الذى كان فيه نضال شعوب العالم الثالث لتحرير نفسها يتخذ كل يوم أبعادا جديدة •

ومهما يكن من شيء ، فان وقف اطلاق النار الذى فرضته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فى 4 نوفمبر ، قد وضع حدا للتدخل الثلاثى • وقد كانت الولايات المتحدة تعمل فى تدخلها تحت ضغط ثلاثة دوافع : محاولة ازالة الانطباع الذى احدثه رفضها المشاركة فى تمويل السد العالى ، وعدم ترك الاتحاد السوفيتي سيد الموقف ، وزحزحة الدولتين الاوروبيتين الكبيرتين عن مواقعهما فى الشرق الاوسط ، وتدعيم المصالح الامريكية ، وذلك فى الوقت الذى تؤكد فيه زعامتها للعالم الغربى بصفة عملية • والواقع ان لندن وباريس قد ساهمتا فى سنة 1956 فى اضمحلال نفوذ أوروبا فى البحر الابيض المتوسط وساعدتا على تدعيم نفوذ الدولتين العظميين •

وفى سنة 1973 ، تركت هاتان الدولتان أوروبا الغربية جانبا فى محاولة ايجاد تسوية لمشكلة الشرق الاوسط ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا ترغب فى القيام بدور ايجابى ولكنها كانت مشلولة بسبب عجزها عن تحديد مواقفها •

وهذا العجز له عدة اسباب • فان الجماعة الاوروبية التى تتكون من دول لا تدين بنفس النظريات فى السياسة الخارجية ، وجدت نفسها تعتنق اتجاهات مختلفة ، وبدلا من ان تتفق على اختيار سياسة واحدة ، فضلت التهرب من المشكلات تاركة للزمن ان يقرر فى مكانها ـ وهو أسوأ موقف فى السياسة ـ أو هى تضع حلولا مؤقتا لم تثبت قيمتها • وكذلك نجد انه على الرغم من ان الدول التسع قد أعلنت نيتها فى بناء أوروبا الاوروبية ، فان تصميمها لم يبلغ بها الى درجة ان تقرر موقفها تجاه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، صحيح انها قد دلت على تماسكها فى المفاوضات التى تتعلق بالشؤون الاقتصادية والنقدية تجاه واشنطون ، ولكنها فى هذه الحالة كانت مضطرة لكى تدافع عن الحد الادنى من مصالحها التى لحقت بها اضرار جسيمة وكذلك وقفت الدول الاوروبية موقفا متماسكا منذ حوالى سنتين فى الامم المتحدة (وهذا باستثناء حالة أو حالتين) فى المناقشات التى جرت بشان الشرق الاوسط • ومع ذلك ، فهى لم تتمكن من تحديد موقف موحد فى ازمة الطاقة وفى النزاع العربى الاسرائيلى • فلو فعلت فى الحالة الاولى لجازفت باثاره شركات النفط الامريكية ، وبالتالى

الولايات المتحدة نفسها • وفى الحالة الثانيـــة ، لو اتخذت موقفا موحدا لاضطرت الى طرح بعض الاسئلة المحرجة على نفسها ، فيما يتعلق بعلاقاتها بالولايات المتحدة فى اطار الحلف الاطلسي، وبشان تاييدها لاسرائيل •

والواقع ان الدول الاوروبية فيما يتعلق بالبحر الابيض تتجاذبها عوامل متناقضة وبالتالى فهى محتارة بين الاستجابة لعواطفها نحو اسرائيل ، ورعاية مصالحها فى العالم العربى • فهى تشعر بالذنب نحو اليهود ، حيث ان شعـور العـداء للعنصر السامى انما اتخذ أعنف اشكاله فى عهد محاكم التحقيق وفى عهـد النازيـة فى أوروبـا الغربية • وكذلك يشعر الاوروبيون بمسؤولية أدبية نحو اسرائيل التى ساهموا فى خلقها • ولـكن هل تستطيع أوروبا ان تستمر فى تجاهل ثقـل العالم العربى المتزايد فى حوض البحر الابيض المتوسط الجنوبى الذى تربطها به علاقات متينة منذ اكثر من ألف سنة ؟

من الناحية الاقتصادية ، تبلغ قيمة واردات الجماعة الاقتصادية الاوروبية من اسرائيل ومـــن الدول العربية على التوالى 187 مليـون و 5,400 مليون دولار فى سنة 1969 • وكذلك نـــرى ان الواردات الاوروبية من البلدان العربية هى أكبر بـ 28 مرة من الواردات الآتية من اسرائيل • واما صادراتها ، الى العالم العربى ، فهى تبلغ ست اضعاف صادراتها الى اسرائيل • ومنـذ هـــذا التاريخ ؟ زادت هذه الاتجاهات قوة ووضوحـا باستمرار •

وفيما يتعلق بالنفط ، تستورد أوروبا 80 ٪ من استهلاكها من الدول العربية • واما الغاز الطبيعى العربى ، فان حاجة أوروبا اليه تتزايد مع مرور الزمن ، ولو ان هذه الحاجة لا تزال محدودة •

ولكن مصالح اوروبا فى البحر الابيـــــض ، لا تنحصر فى هذه النواحى ، لانها تشمل ايضـا المجلات الثقافية والسياسية والاستراتيجية •

لقد كان الجنرال دوجول اول رئيس دولـــة اوربية يستخلص النتائج التى تفرض نفسها من هذا الوضع ، علانية ، ولكنه لم ينجح فى تحويل اهتمام الاوروبيين اليها الا جزئيا • فقد انطلـق دوجول من فكرة مؤداها ان العالم العربى الـذى اصبح مستقلا ، لا يمـكن معاملته باحتقـــار ، خصوصا بعد ما تأكد مركزه فى النفط وفى الموارد المالية ، ذلك المركز الذى سيسمح له بالوصول الى مرحلة الانطلاق فى التنمية الاقتصادية قبـل نهاية القرن الحالى • ومما يزيد من اهمية هـذا المركز ، موقع العالم العربى الاستراتيجى . بين آسيا واوروبا من جهة ، وبين افريقية الواقعـــة جنوب الصحراء ، من جهة اخرى • وكذلك اقتنع دوجول ، بان الدول العربية ذات النظـــــم التقدمية ، اذا كانت تقبل التاييد المــــــادى السوفيتى ، فهى أبعد ما تكون عن تقبـــــــل الايديولوجيا الشيوعية ، وان علاقات الـــدول العربية المحافظة بالولايات المتحدة الامريكيـــة التى يوحى بها تخوف تلك الدول من الماركسية، لا تنطوى على أى ولاء غير مشروط • وفى جميع الحالات ، فان الدول العربية التقدمية والمحافظة ،

ان ثورتنا الخالدة قامت على اسس متينة عتيدة لبناء مجتمع جزائرى معتز بماضيه العربى الاسلامى فخور بتراثه الغنى الشاسع غيور على تاريخه الذى منه انبثقت قوى عزيمته لاسترجاع سيادته وعزته وكرامته ٠

وكيف نتمتع بهذه الشخصية ونفرض وجودنا كشعب متمسك بتقاليده المستوحاة منها انظمته الحيوية ان لم نتحرر من عادة التعبير باللغة الاجنبية تلك اللغة التى هيمنت على تفكيرنا عهدا طويلا وتعرقل طموحنا الطبيعى الى البروز الى العالم بابتكارات اصيلة وفى حلتنا الخاصة بنا ونحن نعرف ان لكل شىء شكله ومحتواه المتكاملين ٠

ان لغتنا القومية تحفظ لشعبنا خاصية من خاصيات استقلاله الوطنى وتدرأ عن شخصيته كل شائبة اذ ان الامة لا يدوم وجدانها الا بدوام لغتها التى هى لسان حالها المعبر حقيقة على جميع مقاصدها ٠

فاذا كان القضاء قد حرر نفسه بفضل الاصلاحات المتمثلة فى قوانين ١٩٦٦ تحررا محسوسا من العوامل والشوائب الاجنبية فانه لمن الواجب عليه أيضا ان ينسلخ من هـذه الاداة الغريبة عنه ويتحـلى بلغته الوطنية واذ ذاك فقط ، عندما يكون بلغة الشعب ، باللغة القومية يكون قريبا من الشعب ويكون قضاء وطنيا شعبيا شكلا ومضمونا ، وجهازا كاملا متكاملا مع بقية اجهزة الثورة العتيدة ٠

ولما كان استرجاع اللغة القومية من أهداف ثورتنا وجب حتما ان نواصل الجهود بدون توان للوصول الى هذا الهدف المنشود فى المجال الذى نحن بصدده ؟ الا وهو تعريب القضاء تعريبا كليا يتماشى ورغبات الشعب المحافظ على تقاليده والحريص على مقومات شخصيته وذاتيته والمعتز بهذه الاداة المتوارثة اجيالا عن اسلاف ٠

من خطاب للرئيس بومدين فى افتتاح السنة القضائية 69 - 70



ندوة الأصالة

مَشاكل اللغة العربيّة

أدار الندوة
عثمان شبوب

المشاركون فى الندوة :

- الاستاذ عبد المجيد عطية ، مدير المعهد القومى لعلوم التربية تونس .
- الاستاذ أحمد صوة مفتش التعليم الثانوى للعربية ، تونس
- الاستاذ محمد خليل مفتش أول بوزارة التربية بالمملكة المغربية
- الاستاذ عبد القادر بن الشيخ باحث بمعهد علوم التربية ، تونس .
- السيدة محفوظ ، باحثة بمعهد علوم التربيـة ، واستاذة فلسفة وعلم النفس ، تونس .
- الاستاذ شرشان باحث بمعهد علوم التربية ، تونس .
- الاستاذ محمد بوشوش باحث بمعهد علوم التربية ، تونس.

الآراء التى جاءت فى هذه الندوة لا تعبـر بالضرورة عن آراء المجلة ، وننشرها فى اطـار حرية الراى والايمان بالحوار كاسـلم طريـق للوصول الى الحقيقة .

عقدت هذه الندوة اثناء انعقاد الملتقى المغربى حول قضايا الكتاب والمطالعة بالحمامات بتونس من 21 الى 25 نوفمبر 1972 .

عثمـــان شبــــوب : نعقد هذه الندوة لدراسة اوضاع اللغة العربية ، والمشاكل التى تواجهها فى الوقت الحاضر ، سواء من حيث التدريس ، أو من حيث الاتصال الثقافى العـــام بالجماهير او باللغات والثقافات الانسانية الاخرى·

واللغة العربية ـ كما نعرف ـ تواجه مشاكل كثيرة ، هناك مشكل الشكل الذى تكلم عنه الاستاذ عـبد المجيد فى هذا الصباح (١) ، وكذلك تقويم الاتهامات التى تتهم بها اللغة العربية من انها لغة تجريدية لا تساعد الطفل على اكتسابها ، وعـلى ادراك محتواها· وهنالك ايضا مشكل العاميـة والفصحى وأيهما أدق من حيث التعبير· وايضا الوسائل السمعية والبصرية وهل تســاعد على انتشار اللغة العربية أم أن الكتاب هو الذى يتولى هذه المهمة ··· الخ·

الاستاذ عبد المجيد عطـية : ربما اذا أردنا أن نتحدث عن قضية الطباعة والشكل ، فهى من أقل المشاكل صعُوبة· قضية الشكل هى قضية قديمة· نحن نعلم أن اللغة العربية فى القديم كانت تكتب بوسائل بدائية ، حتى أن الانسان فى عهد الاسلام كان لا يستطيع أن يقرأ ، وانما يستطيع ذلك ، اذا كان يحفظ النص ، وهذا كـان صالحا بالنسبة للقرآن· فانه يعتمد على حفظه لمعرفة النص ثـم يستعين بالنص اذا مـا خانته الحافظة ، وهكذا يكون التعاون بين ما هو مكتوب وبين ما هـــو مخزون فى الحافظة· وفيما بعد وقع اللجوء الى تحسين وضع القراءة ، وتحسين وضع الكتابة ، واستعملت النقط ، ثم ظهر أن النقط غير كافيـة ولهذا وقع الالتجاء الى الشكل ، وحتى الشكل كان وقع عن طريق النقط ، ثم ان هذه النقط ظهرت غير واضحة ، وغير كافية ، فوقع الالتجاء الـى الشكل ، من سوء الحظ ، فيما بعد أصبح المتعلمون ينفرون من الشكل لانهم يرون فيه رميا بالقصور وبجهل اللغة ولهذا يفضلون ان يقرأوا ما كان غير مشكـول ·

اليوم اذا اردنا أن تصبح اللغة طيعة وان يقع الاقبال على اللغة لا بد من شكل كـــل ما يهيأ للقراءة ، وحتى من ناحية التكوين الفكرى فلا بد من ان يتم هذا الشكل لكي يتعود التلميذ ثـــم الشاب ثم الكهل الدقة فى النطـق بالاصوات فى اللغة العربية· هنالك عدة محاولات كثيرة ولعـل كثرتها هى التى كانت مانعا أى عائقا من اتخـاذ حل من الحلول· هذه الوسائل تتراوح بين تغيير الحروف العربية وتعويضها بالحروف اللاتينية ، وهو حل اقصى ويعتبر متطرفا ، والاوساط العربية طبعا رفضته· وهنالك حلول وسطى فيها ربمـا امكانيات النجاح ، مثلا الحل الذى يسهل الطباعة بكيفية أن الشكل يصبح لا يكلف وقتـا اكثر ولا مصاريف اكثــر· وقعت محاولات مثل هذه فى المغرب بالنسبة للمحاولة التى قام بها الاستـاذ الاخضر فى تونس كذلك البشير بن سلامة قـــام بمحاولة من هذاالنوع لكنها بقيت لحد الآن نظرية ولم تدخل حـيز التطبيق· واذا ما دخلت حـيز التطبيق فحينئذ اللغـــة العـربية تستفيد كثيرا· بالنسبة للتلاميذ يصعب ان نبقى على هذا الوضع أى اننا نطالبهم أن يقرأوا ما كان غير مشكول·

١) نظمت هذه الندوة اثناء انعقاد الملتقى المغربى حول قضايا الكتاب والمطالعة بالحمامات بتونس من ٢١ الى ٢٥ نوفمبـر ١٩٧٢ ·

وكذلك بالنسبة للاميين الذين تعلموا القـــراءة والكتابة فانهم لم يصلوا الى حد قراءة الجريدة غير مشكولة ، وهذا عائق ، كان تعلمهم العـربية لم يستفيدوا منه· فلا بد من الاعتماد على الشكل لتصبح اللغة طيعة وتصبح القراءة ممكنة·

الاستاذ احمد صوة : لا شك أن ما قاله الزميل عبد المجيد عطية هو الواقع بعينه· وقد مررنا من خـلال السنوات الماضية ومن خـــلال التدريس بتجارب صعبة ومؤلمة فى نفس الوقت ، لقد كان الشاب يتقد حماسا لدراسة العربية ويؤمن بانها العنصر الاساسى للوطنية وان كل كلمة يتعلمها او كل كتاب يقرأه الا وكان معولا يهدم الاستعمار سواء كان الاستعمار المادى او الثقافى ولبنـــة جديدة يضعها فى بناء المستقبل الذى يحلم بــه ، ويتمناه· وصعوبة قراءة العربية بالاضافة الـى ما يحيط بالعربية من أبواق ناعقة انها لا تساير الحياة وانها لا تــؤدى الاغراض التى يحتاجها الانسان فى حياتـــه ، كل هذه العـوامل جعلت الفرنسية تطغى فى بلادنا على العربية بحكم الواقع الذى تعيشـــه ، فالمراكز الحيوية فى المجتمـع تستعمل الفرنسية ، والاتجاه الحالى فى عصرنا هو اتجاه مادى والحسابات طبعا تجعل الشبان او التلاميذ ينظرون الى المستقبل هذه النظرة ، حيث يرون مستقبلهم فى تعلم كل اللغات الاخرى ما عدا العربية التى لن تفيدهم فى الارتقاء فى سلم المجتمع ، او التمتع بضمانات الحياة المعاصرة ، واعتقد ان مما يزيد فى العقبات القائمة فى تاريخ العربية هو الشكل· لان مجتمعنا فى تونس يختلف احيانا فى ضبط الكلمات ، من حي الى آخر· ففى تونس العاصمة مثلا ، نجد ضبط الكلمات يختلف من وسط المدينة مثلا من حي القرجانى ومن حوالى جامع الزيتونة· يختلف عنه فى رأس الدرب او فى باب السويقة· فى نفس العاصمة يوجد هـذا الاختلاف فما بالكم بالقاطعات مثلا· من الجنوب الى الشمال او من قرية الى أخرى مجاورة فنجد فروقا احيانا واضحة فىضبط الكلمات ، ونفس تركيب الجمل ، ووجود جالية كبرى من الاجانب فى تونس وفى المدن الكبرى فى تونس ، ووجود قسم كبير من اليهود فى المراكز الحساسة للبلاد أثر فى اللغة· جعلها خليطا ومزيجا من المفردات ومن التراكيب لا تتماشى مـــع الحس اللغوى للعربية· مثلا يقولون «ياسر مليح» نفس التراكيب الفرنسية وطبعا سهولة تعلم الفرنسية وسهولـة انتقال الانسان فى مراقى الحياة او المجتمع عـن طريق الفرنسية وانعدام هذه الصعوبات تقريبـا او تكاد تنعدم فى اللغة الفرنسية او فى اللغـــة الانجليزية او فى غيرهما ، جعل التلاميذ ينصرفون نوعا ما عن ذلك الذى حركهم فى الاول عن ذلـك الاســـاس الوطنى او تلك الروح الوطنية التـى حركتهم فى الاول أيـام الكفاح ضـــد المستعمر وشغلتهم مطالب الحياة ومقتضيات الحياة عـــن هذا الوازع او هذا الدافع فوجدوا انفسهم امام هذا المشكل : هل اذا هم ارادو ان يتعلموا العلوم وغيرها بالعربيةسيقلون نجاحا اكثرمما لوتعلموها بالفرنسية ، والظروف الكثيرة اقتضت أن يتغلب جانب الفرنسية· وقضية الشكل اعتقد انها مـــن الامور ـ كما قال الزميل عبد المجيد عطية ـ التى نفرت او ساهمت فى تنفير أو فى ابتعاد الكثيرين عن التعلم وخاصة فى المدن حيث الحياة مزدهرة وبين العائلات التى كانت تمثل نخبة البلاد ، لان نخبة البلاد كانت ثقافتها فرنسية وكذلك الذيـن تصدروا للحكم والادارة لشؤون الدولة فى البـلاد بحكم ثقافتهم زادوا الامر صعوبة وتعقيدا ·· لذا اعتقد انه لو توصلنا الى حل مشكلة الشكـل فى

اللغة لاستطعنا ان نقطع خطوات شاسعة فى سبيل اعادة الحياة الى العربية او اعادة العربية الى الحيـــاة ٠

الاستاذ محمد خليل : ان سؤالكم يحتوى فى واقع الامر على اسئلة عدة وبودى ان اجيب عـن كل سؤال اوان أقول كلمة حول كل نقطة من النقط التى اثرتموها فى سؤالكم الجامع ، ولكن ضيق الوقت ورغبة مختلف الزملاء الحاضرين معنـــا فى مشاركتهم فى هذه " [illegible] قد لا يسمح لي التعرض لكل ما سالهم عنه ، ولكننى ساقتصر على نقطـــة واحدة وهى المتعلقة بمشكل اللغــة العربية ، مشكل الطباعة ، مشكل الشكل ، مشكل اللهجات المتعددة والطريقة التى ينبغى ان نفكـر فيها من اجل اعادة الوحدة بين الدول العــربية فى هذا البـــاب ٠

اللهجات كما نلاحظ تختلف من بلاد الى اخرى، فالمصرى مثلا عندما يتكلم قد لا يفهمه المغربى الا بمشقة واحيانا قد لا يفهمه اطلاقا ، اللبنانى كذلك ولكن التونسى ، والجزائرى ، والمغربى ، قد تكون اللهجات الثلاث فيما بينها لهجة واحدة ، ولكن لا بد ان نلاحظ وان نعترف بان هناك فوارق ، فاذن ما العمل ؟ الشيء الذى نحمد الله تعالى عليه هو وجود لغة موحدة وهى اللغــة العربية الفصحى ، والحمد لله على وجود هذا العنصر الموحد بـين هذه الاقطار٠ هذه اللغة الموحدة والموحدة فى آن واحد فيها بعض المشاكل ، من حيث الشكل ، ومن حيث الطبع٠ لقد تعرض لذلك زميلى الاستاذ عبد المجيد عطية وكذلك الاستاذ احمد صوة٠ مشكـل الطباعة مشكل صعب ، وعويص ، مشكل فنى ، بالمقارنة الى الطباعة فى الحروف اللاتينية هناك فرق شاسع ، ففى الوقت الذى نجد فيه أن الحروف اللاتينية قليلة العدد وبالتالى هذه القلة لا تؤدى الى الطبع السريـــع الذى لا يتطلب من الناحية الاقتصادية مصاريف كثيرة ، نجد الامر بالنسبة للحروف العربية يشكل مشكلا كبيرا جدا وكنت اذكر بدقة عدد الحروف الموجودة فى المطبعـــة العربية ، ولكن الشيء الذى اذكره هو الفـــرق الشاسع الموجود اذا ما قارنا بينهما ، وقد اشار الاستاذ عبد المجيد عطية الى ان المغرب فى هذا الباب قد فكر كالدول العربية الاخرى وكتونس والجزائر فى معالجة هذا المشكل ، والاستاذ احمد الاخضر فى المغرب منذ سنة ١٩٥١ فيما اذكــر قد صدع بهذه الفكرة ، وبذل من مجهود ما أدى الى نتيجة مهمة وهى اظهار مطبعة جديدة حافظت على الحروف من حيث الشكل ، ومن حيث جمال الحروف العربية ولكنها اختصرت٠ واعطى مثالا على ذلك مثلا حرف «ح» يكتب على اشكال اربعة ، الحاء فى الاول ، الحاء فى الـوسط ، الحاء فى النهاية٠ فى الوسط والنهاية فهناك نجد الحـــاء ترسم على اشكال اربعة ، بينما الامر يتعلـــق بحرف واحد ، فكر الاستاذ الاخضـــر فى هذا وقدمها على شكل واحد سواء كان الامر يتعلق بكتابتها فى الوسط او فى الاول او فى الاخير او فى الوسط والاخـير فى آن واحد٠ وظهرت هذه المطبعة بالفعل وهى موجودة فى المغرب ولقــد كتبت عدة كتب فى هذه المطبعة ، بل ان كتبا توجد فى الديوان الملكى ، خطب جلالة الملك الحســـن الثانى قد كتبت هى ايضـــا بالمطبعة الجديدة ، مطبعة احمد الاخضر٠ وأمل المغرب وأملى انـا شخصيا الا تبقى هذه التجربة بين جدران المغرب وحده ولكن ان تتعدى حدود المغرب الى مختلف البلدان العربية وان تنتشر لانها تجربة نتجت عن

جهود متواصلة وكانت ثمرات هذه الجهود ان وصلت الى هذه النتيجة فالامل ان تعتبر تلك الجهود فى الحقيقة هى جهود جميع الدول العربية وبالاخص دول المغرب العربى ، تستفيد هذه الدول كلها من نتيجة هذه التجربة فيما يتعلق بالشكل ، جزء من هذا المشكل ايضا ، قد حل عن طريق الطباعة ، لان حروف هذه المطبعة الجديدة تحتوى فى معظمها على حركات ، ولكن يبقى هناك ما ينبغى تكميله بطريقة او باخرى ، ولكن الامر هنا هو ان البداية موجودة ٠

عند ما ظهرت الرياضيات الحديثة فى أوروبا وكانت عبارة عن ثورة جارفة فى ميدان التعليم ، هذه الرياضيات الحديثة لما ظهرت اخذت تصدر كتبا للاطفال للآباء واخذنا نشاهد فى المكتبات كتبا موجهة للاباء مكتوبا عليها الرياضيات الحديثة للاب ، والرياضيات الحديثة للام ، والامل معقود على ان الطفل ـ كما قلت سابقا ايضا ـ ينبغى ان يصبح بالنسبة لكل ما استفدناه فى هذا الملتقى همزة وصل بين المدرسة وبين الاباء انفسهم بحيث المعلم يوصل الى الطفل الذى يقوم بواجبه فى المجتمع الصغير الذى يتجسم فى المدرسة ، والاطفال الذين يعيشون فى هذا المجتمع الصغير يعودون الى بيوتهم بالفوائد ويؤثرون على الاباء والامهات بحيث يكونون هم ايضا همزة وصل بين المثقفين : بين الذين يفكرون ويهيئون المشاريع ، وبين الاباء والامهات الذين ينبغى هم ايضا ان يكونوا ضمن المستهلكين لما يهيأ ولما يفكر فيه من اشياء فى منتهى الاهمية داخل المعاهد ومؤسسات البحث٠ ولقد سمعت امس ـ واستسمحكم ان اعود شيئا ما الى الوراء ـ الى الاذاعة التونسية فى حديث طريف فى منتهى الاهمية يتعرض الى مشكل اللغات ، استمعت الى ان اليهود فى العالم الذين تجمعوا فى فلسطين المغتصبة يتكلمون اكثر من ثمان لغة٠ فهم فى هذا الباب ليس لهم مطلقا اى عنصر فى التوحيد٠ كل يتكلم بلغة ، ولكنهم لجاوا الى لغة ميتة لم يكن لها وجود مطلقا وهى اللغة اليهودية وادخلوها الى المدارس رغم ما تشتمل عليه من الصعوبات من حيث النحو ، ومن حيث التراكيب ، ومن حيث كل شيء ، بل كانت ضمن اللغات الميتة٠ ومع ذلك واجهوا هذه الحقيقة بما يتطلب ذلك من العزم والثورية ، وكانت لغتهم الميتة عنصر التوحيد ٠ بالنسبة لهذه المجموعة المتشردة من البشر تجمعت حول ارض مغتصبة وبواسطة لغة ميتة توحدوا٠ حقيقة عندما نستمع الى كلام من هذا النوع ، وعندما نرى حقيقة من هذا النوع نأسف جدا لكون المجهودات التى نبذلها فى ميدان اللغة العربية لا نذهب بها بعيدا للوصول الى الغايات التى نتمناها جميعا٠ ونقول اننا نعمل جميعا من اجل الوصول اليها ولكن نرى دائما ان المسافة ما تزال بعيدة للوصول الى هذه الغايات٠

عبد القادر بن الشيخ ، هناك ثلاث مواقف من اللغة العربية : موقف الاديب ، واختص منه الشاعر ، وموقف الانسان المغربى المنتسب الى الجماهير الشعبية٠ وهناك موقف ثالث وهو موضوعى ، اى هو موقف الباحث٠ ولعلنى احاول فى عجالة استعراض هذه المواقف ، ثم استمد منها بعض الملاحظات ، ولا يسعنى الا ان اختم ببعض الامنيات المتعلقة بالبحث خاصة٠

المـــوقف الاول :

كل منا يذكر قصيدة رائعة كتبها الشاعر العربى المصرى المعروف (١) التى تغنى فيها بمحاسن اللغة العربية ، واشار الى عجز الناطقين بهـــا مؤكدا عدم عجزها هى على ان تنتج وتسايـــر هذا العصر التقنى المعقد العسير بالنسبة الينـــا ولجماهيرنا٠ انه موقف عاطفى هام لانه منطلق لتـــربية اطفالنا فى البيوت ، اكواخا كانت او مساكن محترمة٠ هو اذن المنطلق العاطفى الذى يمهد لتربية اولادنا٠ ثم هناك موقف الانســـان المغربى المنتسب الى الجماهير الشعبية وهو كله حنين الى اللغة العربية التى يجهلها او يحـــاول الاستماع اليها ولعله يطمح الى ادراكها لا عـــن طريقه هو ، بل عن طريق ولده وبنته ومن ثـــم تفسر لهفة الجماهير على ايداع اولادهم بالمدارس والكليات ، ثم هنالك موقف ثالث وهو ما اسميه بالموقف الموضوعى ، وهو الذى اقتصـــر على تحليله ٠

ان تطور اللغة العربية مرتبط شديد الارتباط بمدى معرفتنا معرفة دقيقة جدية للقضايا المفصلة الخاصة باللغة العربية ، هل يحبها اطفالنا ؟ هل يحبها مراهقونا ؟ مـــا هى الاصناف الاجتماعية التى تحبها ؟ وما هى اسباب كـــل ذلك ؟ ماذا يطالع اطفالنا باللغـــة العربية ؟ ولماذا يطالعون باللغـــة الفرنسية ؟ كيف نفسر ــ هذا ما اثبتته الدراسات المتواضعة فى المجتمع التونسى ــ ان المراهق التونسى وقد لا يجـــوز التعميم ــ لان الدراسات لم تتعدد بعد ــ كيف نفسر تحولا جذريا فى ميل الطفـــل الى اللغة الفرنسية ابتداء من المرحلة الثامنة من التعليم الثانوى وهى مـــرحلة يقول فيها المراهق ان اللغة الفرنسية هى لغـــة التفتح على العـــالم ، وعلى الحضارة التقنية ، والصناعية ، اى هو يتفتح على ما هو محـــور لهفته ، وتعطشه ، على كل ما تحتويه الحيـــاة اليومية التى تنتهى اليه بعض النماذج منها عـــن طريق الاذاعـــة والتلفزة ، اذا كان من المستمعين اليهما ، بحيث انى اربط قضية اللغة اولا بوجوب معرفتنا لمشاكلها عن طريق البحث٠ واريـــد ان اضرب بعض الامثلة : قضية المطالعة لو انطلقت مما اعلم ــ العلـــم النسبى ــ لقلت ان الجـــرائد التى توجد بتونس يوميا اربع جرائد ، العمـــل الصباح ، لا بريس ، لا كسيون ، ثم ان هناك جرائد ثانوية اخرى ، لعلنى لا ابالـــغ ان قلت ان منذ الاستقلال مع الملاحظ ان هناك تطورا فى عـــدد النسخ بالنسبة لجرائد اللغة العربية ان عـــدد المطالعين لهذه الجرائد هـــم من الذين يطالعون بالفرنسية ، لا سيما اذا اضفت الى ذلك ما يستورد يوميا من كميات هامة جدا تضاف الى الانتـــاج المحلى ، وهنا يجدربنا ان نـــقدم مـــلاحظة بين قوسين ، لست اعنى انه علينا ان نغلق الباب وان نقتصر على ما هو موجود هنا ، انى مـــن الذين يؤيدون تعدد اللغات واذا حظيت شخصيا ــ مثل بقية اصدقائى الذين مررنا بالصادقية ــ بتعـــلم لغتين فانا اؤكد وجوب تعلم لغتين بل اضافـــة لغة ثالثة حتى يعظم غذاؤنا الفكرى والعلمى ، هذا مثال بسيط ، لقـــد شرعنا ــ مـــا زلنا فى البداية ــ فى معـــرفة مكانة المطالعة ، مطالعة الكتـــاب ، بالنسبة لوسائل الاعـــلام الاخـــرى

١) هو الشاعر المحوم حافظ ابراهيم ٠

كالاذاعة والتلفزة ، انا نعلم أن هذه الوسائل اذا وجدت فى أوساط ما تحتل مكانة هامة ، ولكن امتن الحصص واكثرها وقعا وتاثيرا فى القلب والنفس والعقل هى الحصص ذات اللسان الفرنسى ، ثم هناك الكتاب ، ولا أريد أن أطيل ، ساضرب مثالا بسيطا وهو كتاب المطالعة فى المرحلة الاولى من التعليم الثانوى وخاصة فى السنة الاولى ، ان **الطفل المزدوج اللغة مع العلم انه فى هذه المرحلة ، امكانياته اللغوية بالنسبة للعربية اعظم واهم من امكانياته بالفرنسية ، هو يجد بين يديه الكتاب الشيق الذى يطرق موضوعا يتماشى تماما وما يحلم به وما يطمح اليه وما تشتهيه نفسه ، وتلذه عينه ، لان القراءة عملية عينية ان صح التعبير ، فى حين اننا ، ونحن على علم بهذا ، ان الطفل لا يجد نفس ذلك الكتاب بلغته ، واذا وجده فانه يجد ادبا ، فيه مواضيع كهول واسلوبه اقرب الى اسلوب الكهول ، بمعنى يقدم اليه انتاج ادبى هو اولى بالكهل منه الى هذا المراهق الناشىء او الطفل**· اوردت بايجاز ، مثال الجريدة ، والاذاعة ، والتلفزة ، والكاتب· ثم لعلنى اضيف بعدا آخر وهو الفراغ الذى تتصف به المكتبة العلمية· من اين يستقى الطفل ، من أين يتعلم الطفل فى هذا الميدان ، انه يتعلم عن طريق اللغة الاجنبية ، عددت هذه الامثلة لكي أعود من جديد الى هيكلين اثنين ، هيكل الكتابة وهيكل البحث ، هناك وظيفة هامة وهى وظيفة الكاتب ، وهناك وظيفة أخرى ثانية وهى وظيفة الباحث ، وأنا أعتقد اننا ما دمنا نتغنى وننشد عملية التطور فاننا لا نتطور ، لان الذين سبقونا فى التطور بمنهجية مضبوطة ، وبتحليل نظرى دقيق ، وبوضع اسس علمية مكنتهم من تطور تقنى ، ومكنهم بدوره أن جابهوا هذه القضية ، ان عصرنا هو عصر العلم كما يقول نجيب محفوظ فى « الشحاذ » ، وتوفيق الحكيم فى « الطعام لكل فم » ، أن اللغة العربية لا يتسنى لها أن تتطور الا اذا ركزت معالجتنا لها عن طريق البحث وعن طريق الكتابة وهما ميدانان متكاملان فى نظرى· وشكرا·

السيدة محفوظ :

En ce qui me concerne, mon intérêt à l'intérieur de l'équipe de mutuation de lecture pour les problèmes de lecture porte surtout sur le contenu de la lecture. Je pense qu'une étude du contenu de lecture nous renvoie à deux domaines :

— D'abord un domaine pédagogique essentiellement : comment créer des habitudes de lecture chez l'enfant lecteur ? et chez le lecteur tunisien d'une faon générale.

— Le deuxième objectif c'est de connaître à travers le contenu du livre, de la lecture la société tunisienne, maghrébine d'une façon générale et de connaître donc les structures de l'œuvre : comment elle est constituée ? et on peut évidemment déboucher sur une perspective pédagogique dans la mesure où on s'adaptera des livres pour enfants écrits par les adultes aux enfants.

Donc on peut rejoindre de la lecture du point de vue donc de son contenu est une ouverture interressante sur les problèmes de la société Arabo-musulmane d'une façon générale. Et je pense que notamment lorsqu'on analyse des contes tunisiens et plusieurs identités faites comme on l'a vu hier matin, l'étude portant si bien sur l'étude sémantique, de l'étymologie (l'étude de la ration des mots) علم المجاز . علم المعانى nous permet de découvrir des symboles utilisés par l'écrivain, des symboles culturels, des symboles individuels pro par l'écrivain, rattachés à sa vie et à un contexte psychologique ; symboles universels valables pour la société maghrébine ou musulmane en général.

On retrouve ça notamment dans les contes et plus précisément dans ce qu'on appelle les petites

anecdotes. النـــوادر Donc ce que nous disons à côté du but essentiellement pédagogique, des problèmes de la lecture, du contenu de la lecture et des livres. On peut viser un autre objectif qui est plus lointain qui est une sorte de psychanalyse du savoir, de la culture maghrébine, de la culture Arabe peut-être. Une psychanalyse donc à travers les symboles, à travers les problèmes qui se posent dans l'écriture ; parce qu'on sait très bien, nous le savons tous comme vient de le souligner "Ben Cheikh" que chaque écrivain qui écrit, écrit d'abord pour évoquer des problèmes personnels propres à lui, mais aussi des problèmes humains.

Il écrit pour transmettre une inquiétude, pour transmettre un message, pour dépasser sa solitude, donc plusieurs objectifs. Et aussi pour rendre compte des problèmes essentiellement sociaux. On peut se référer là au livre de Abd El Madjid Atia ou bien de celui de Monsieur Ben Cheikh, sur aussi les problèmes de l'exode rurale notamment. Il y a d'autres problèmes ? Voilà ce que l'on peut tirer donc de l'étude linguistique et sociologique d'œuvres maghrébines et tunisiennes. Je ne peux parler du problème de la langue parce que ce n'est pas, disons ma direction, mais adressant le contenu lui-même et déboucher sur une culture et une société données. Et nous savons très bien que si on prend un exemple d'écrivain très connu comme Ibn Khaldoun nous voyons à travers ses œuvres, il rend aussi bien la dimension sociologique de la société que la dimension linguistique, culturelle notamment quand il parle de dichatomie entre la ville et la campagne. Et dans la langue courante, nous est resté énormément d'expressions qui renvoient justement à cette grande influence qu'a eu Ibn Khaldoun et quand on dit par exemple je pense de ces expressions " « اذا عربت خربت » " c'est des expressions qui sont passées dans le langage courant, qui auront une certaine conception de la lecture, qui est rattachée aussi à une certaine conception de la sociologie.

La culture conçue par Ibn Khaldoun dans la ville, à la campagne. La ville est le centre de la civilisation et de la culture. La campagne est tributaire, elle est au service de la ville. Et les gens qui viennent de la campagne ce sont des gens qui vont se rattacher des citadins, des gens "cultivés", des gens disons possesseurs de la culture, commencent par habiter d'abord dans les remparts de la ville pour ensuite se rapprocher petit à petit de la ville ; et aussi du symbole que représente la ville qui est la civilisation.

الاستاذ محفوظ شرشان اظـــن أن النظر الى العربية من حيث الشكل والطباعة والقراءة يمثل فى حد ذاته مشكلا ، اذ هو يدعم الموقف القائل بأن العربية لغة كتابة لا لغة كـــلام ، أهم مشكل فى الوقت الحاضـــر بالنسبة للعربية هـــو المشكل المنطوق ، هل فى العربية ســـجل منطوق أم لا ؟ نلاحظ أن الطـــفل عندما يتعلم فى الدرسة هذه اللغة التى نسميها لغة عربية نلاحظ انه اذا خرج من المدرسة لا يمكنه استعمالها ، فهذا يمثل فى حد ذاته مشكلا ، اذا لم يستطع متعلم العـــربية ممارسة العربية فلا يمكن أن نسمى هذه اللغـــة لغة بأتـــم معنى الكلمة ، وقعت محاولات عديدة للتقريب بين لغة الطفل ولغة المدرسة ، لكن هذه المحاولات بقيت محاولات بطيئة لم تأت بالنتائج المرجوة كذلك الطـــرق التى استعملت أو التى ابتكرت لمعالجة هذا المشكل ، كثيرا ما تصادمت بالواقع٠ انكر تجربة الطريقة الحوارية التى نقوم بها فى تونس ، لاحظنا مرارا اننا عندما نطالـــب الطفل بالتعبير بالعربية أو بما نسمـــيه العربية الفصيحة نكبته عـــن التعبير٠ اذن مـــاذا يكون موقفنا ؟ أقول أن موقفنا كعـــرب أو كباحثين أو كمربين من مشكل الاستعار ، استعارة لفظة من اللغة المنطوقة ، أو استعارة لفظة من لغة أجنبية ، موقفنا هو موقف رفض٠ وأتساءل : ألم يكن هذا الموقف ، أى مـــوقف الرفض ، هو موقف قـــتل اللغة العربية ، لان اللغة كائن حي يتطور بتطـــور

الزمان ، اقول حتى التراكيب ان كان لا بد من تغييرها فلماذا لا تتغير ، اذا قلنا ان اللغة كائن حي تتجدد فالمفردات والتراكيب نفسها لا بد ان تتغير وتتجدد. وشكرا .

الاستاذ محمد خليل ان اللغة وجدت كوسيلة للتعبير عن الافكار ، فالغاية هى الافكار وليست اللغة ، واذا كانت هى كوسيلة وهنا اضرب مثالا عن راكب سيارة ، المهم انه يصل الى غايته سواء كانت حافلة أو سيارة او حتى دراجة صغيرة هذا لا يهم ، المهم تجاوز هذه الوسيلة ، لا نعقدها ونجعلها غاية فى حد ذاتها ، لان التفكير تحول من غاية الى وسيلة واصبحت الوسيلة هى الغاية فى حد ذاتها ، فاللغة خلقت للتعبير عن الافكار واصبحت ايضا عند ما ننطلق بالكلمات توحى بافكار اخرى.

ان اللغة العربية فى ميادين عدة ، هناك بادرة التطور ، ولكن كثيرا ما نقف عند هذا التطور موقفا سلبيا ، انا اعتقد ان الذين يساهمون فى هذا التطور هم الكتاب ، والكتاب عندى نوعان ، كتاب الكهول وكتاب الاطفال ، ثم هناك صنف آخر من الذين يطورون اللغة هم الذين يتكلمون اللغة العامية ، اقول انهم هم الذين يساهمون ، وآخذ مثالا لذلك ، اجرينا تحقيقا اجتماعيا فى سيدى فتح الله فى ضواحى تونس ، وكان التحقيق يهدف الى معرفة حياة السكان الذين جاءوا من الوسط ومن الجنوب واستقروا بتلك المنطقة ويعملون فى منطقة صناعية ، لما حلوا بذلك المكان كانوا يجهلون كل شىء عن مصطلحات المصانع ، ولكن ظروف العمل دفعتهم الى خلق كلمات واستعمالها استعمالا جماعيا ، اعتقد ان دراسة تماشى اللغة اليومية او ما يسمى باللغة الدارجة ، لو درسنا كيف تتطور هذه اللغة وحاولنا ان نستمد منها بعض الشىء لا نتهينا الى بعض الحلول.

والنقطة الثانية ، انا لا اعتقد ان قضية الشكل هى القضية الرئيسية لحل المشكلة ولا قضية الرصيد اللغوى وسترد بعض الملاحظات فى التقرير النهائى ، ثم ان قضية الشكل تحل مستوى معينا ، صحيح ان الطفل عندما يطالع يجد صعوبة لكنه لا يجد صعوبة عندما يسمع مثلا المسلسل التلفزيونى او المسلسل الاذاعى ، ان الكلمات التى وقع اختيارها وان انطلق اصحابها من محاولة اهتمام الاطفال الا انهم اهملوا مستوى هاما هو مستوى اللغة اليومية التى ترد فى مستوى المكتوب. ان المستوى المكتوب هو المستوى الذى يدل فى نظرى على مدى تطور لغة ما وتماشيها مع الحياة العصرية .

الاستاذ احمد صوة انا مع الاستاذ عبد المجيد عطية فيما ذهب اليه من اننا يجب ان نسعى الى تحرير السنتنا كما سعينا لتحرير عقولنا ، واذكر انه فى سنة ١٩٥٣ اثناء معركة الاستقلال فى تونس قمت بمحاضرة فى قصر الجمعيات الفرنسية واتخذت موضوعا لها « الشاعر بهاء الدين زهير » واخترت هذا الشاعر بالذات فى ذلك الوقت لسهولة لغته ولان اللغة التى كان يستعملها فى شعره يستطيع كل شخص ان يفهمها ، واتخذتها ايضا ذريعة لكي اتحدث عن العربية ، ومن جملة ما قلت ان العجز ليس فى اللغة العربية ولكنه فى السنة من ينفرون من العربية ، واذكر ان القاعة كانت مليئة بالمستمعين ولكن اكثرهم من الشرطة السرية الفرنسية وكان بجوارى زميل لي طلبت منه ان ينبهنى كلما رآنى تورطت وتطرقت فى الموضوع ، وطبعا كنت اعيش على اعصابى اثناء

القاء تلك المحاضرة ، وعند النقاش قام أحـــد الزملاء وقال بانى لحت فى أربع أو خمس جمل فى تلك المحاضرة ، أؤكد لكم انى احسست نحـــوه بالاشفاق ، نحن الآن نقتل الارواح ونسيل الدماء فى الشوارع من أجـل الاستقلال وقد استبحنا حرمة النفوس البشرية فلم لا نستبيح لانفسنا حتى اللغة لكي نعيش ، هذا جرنى فى أحد الاجتماعات مع الزملاء المتفقدين عند الحديث عن الانشـاء التحريرى وطريقة معالجتها ، لانه اعتاد التلاميذ ضبط نـــص الانشاء بالشكل فوقعت اعتراضات وقالوا التلميذ سيسقط فى الامتحانات نتيجة لكثرة الاخطاء ومتى كانت الانشاء أخطـــاء نحوية أو صرفية ؟ ! وأخذت اناقشهم الامر وقلت لهم ان الانشاء خلق ، والخلق هو صورة ذهنية قبـل أن يتحول الى صـــورة تعبيرية ومشروع ذهنى ، ولهذا فلنعط الافكار الاهمية الاولى ثم يتفاوت تقدير هذه الافكار ، مثلا نعطى علامة ١٢ عـلى عشرين اذا قدرنا الانشاء على عشرين الخ ٠٠٠ وحتى الاساتذة تهيبوا الامر فى الاول ولكنهم بعد ذلك اقتنعوا بهذا الامـــر٠ اذن لقـد حان لنا أن نتحرر بعض الشيء من اعتبار الزلات اللسانية كمهدم لصرح العربية ان هذا الصرح قد تحطـم من زمـــان ونحن نحاول أن نبنيه من جديد وأن نرفع هيكله من جديد فلنرفعه لابفصاحة اللسان وقوة البيان وجواب الشكل فى التنوين وغيرها ، فلنرفعه اولا بالفكر ، الفكر الناضج ينتج عنـــه تعبير ناضـــج ، لكن فيما يتعلـق بالشكل بين المكتوب والمسموع الذى تعرض اليه الزميل عبد القادر بن الشيخ ، قضية الشكل انا أوافق الاخ عبد المجيد على انها تيسر وتسهل ، لا أقصـــد بالشكل أو آخر الكلمات بل بنية الكلمة ككل ، لانك تجد أمامك كلمة (كتب) هل تقرؤها كتب ، كتب ، كتب ، كتب ، كيف تقرؤها ؟ لا ننظر الى أشخاص مثلنا الذين قضوا سنوات طويلـة فى التعليم ، ولكن ذلك الطفل الصغير الذى نريد أن نحبب اليه اللغة وأن نجعله ينفذ من وراء تلك اللغـــة الى الافكار التى تحملها ، والى الثقافة التى تحملها ، فعندما نوضـــح له الطريق ولو بشموع بسيطة لا تفى بالغرض المطلوب ليست كالانوار الكاشفـة ولا غيرها ، لان الشموع تضيء له تلك الكلمـة فلا يضيف الى صعوبات الحياة صعوبة أخـرى فى اجتياز الكلمة والجملة الى المعنى٠ هذا مـــا اردت أن أقوله بخصوص هذه النقطة ، وشكرا٠

عبد المجيد عطية : أؤيد ما قاله الاستاذ أحمد صوة ٠ فدور النحو فى الفهم ليس بعظيم ، قـام محمدا ، فأجابه الآخر لا ، يجب أن تقول : قـــام محمدا ، لان محمدا فاعل ، قال له اذا قلت قـام محمدا هل معنى ذلك انه جلس ؟ بل بمعناه قام ، والدليل على أن دور النحو ليس بهام فى الفهـم لاننا نصوب الانسان اذا ما أخطأ ، عندما يقول : قام محمدا ، نقول له لا ، ينبغى أن تقول قام محمدا لماذا استطعنا أن نصوبه لاننا فهمنا قصده ، اذن فالنحو كان زائدا ، الصرف بالعكس ، له دور فى افهام المعنى وفى التبليغ ، فكما قال كتب ، كتب ، كتب ٠٠ الخ٠ له دور هام فى الفهم ، أما النحو فدوره فى الفهم قليل ، ولهذا سقط من اغـلب اللغات ، فى اللغة الدارجة مثلا حذف الاعراب ، ٠٠ الخ٠ ثم اذا عدنا الى فصاحة اللسان بمعنى التعبير بوضوح ، فاذن اللسان الدارج ، ومعنى الدارج أصبح مفهوما ، فتصبح اللغة الدارجة هى اللغة الفصيحة او ربما تصبح هى اللغة المتفصحة اما اللغة الفصحى فى الواقـــع هى اللغـة التى

يفهمها الناس لان كلمة فصاحة مأخوذة من الوضوح. ففى الجاهلية لم تكن هنالك لغة عربية ، انما وجدت لغة موحدة هى اللغة التى كانت تستعمل فى عكاض فهذه اللغة الموحدة هى لغة لظروف ولمستوى ، ما نستطيع ان نقول بانها محاطة بعاملي الزمان والمكان ، فهى لغة تستعمل فى ظروف ما .

الاستاذ محمد خليل ، تدخل الاستاذ عبد المجيد جعلنى افكر فى تعدد اللغات فى العصر الجاهلى ، كنا نعرف هذه الطريقة وجاءت لغة قريش وهى التى كانت موجودة ، وأؤكد لكم اننى عندما اشاهد الافلام المصرية لا افهم الكلام الذى يدور بين الممثلين ، بينما هى لغة عربية ولكن دارجة ، لهجة ، يكفى ان تلامذتنا نرهقهم بلغتين فى السنوات الابتدائية ، واخص بالذكر هنا المغرب وتونس ، العربية والفرنسية ، ان كل لغة شخص ، ولغتان شخصان ، هناك دور يجب أن يقوم به الكتاب وهو ان الكلمات التى تخلق فى المختبرات هذه الكلمات يجب الا تبقى حبرا على الاوراق ولكن يجب أن ياخذها الناس الذين يروجونها وهؤلاء هم المؤلفون والقصاصون والمذيعون ، اما قضية الشكل فان طريقة الكتابة تشكل مشكلا فى هذا الباب ، لانك عندما تكتب حرف (ب) مثلا تضع فوقها ضمة أو فتحة أو تحتها كسرة ، وصورتها الحقيقية بالنسبة للطفل الصغير لا تتغير ، هذه النقطة بالذات يجب أن تكون نقطة تفكير بالنسبة للاساتذة الباحثين فى المعاهد واوجه الكلام بصفة خاصة الى الزميل الاستاذ ابن الشيخ. وكذلك من جملة نقاط التفكير اضافة الى ما وقع ابتكاره فى المغرب فى المطبعة الموحدة او يقع تكميل الصورة بحيث تختلف مع الحفاظ على جوهرها الاصلي الحقيقى لكي لا يضيع جمال الخط العربى ، ولكن تكون بعض التكميلات وبعض الاضافات حتى يستطيع الطفل أن يفرق بين (ب ـ ب ـ ب) مثلا ولكن تبقى الباء هى الباء ، وشكرا.

الاستاذ محمد بشوش : قضية الشكل ليست هى كل قضية اللغة العربية ، ولكنها تمثل جزءا هاما وفى هذا الباب اذكر مثالين او نكتتين ان شئتم ، النكتة الاولى تعرفون كلكم حكاية ذلك المؤذن الذى يقرأ «ترحى رحمة ربك» دائما فاتت ذبابة فوضعت نقطة على الحاء فأصبح يقرؤها «ترخى» فاتاه رجل ذات يوم وقال له : لا ترخى ولا ترحى بل هى : ترجى ، وهنا فى كلمة «ترحى» نلاحظ أمرين ، الامر الاول بالنسبة للشكل أهمية النقط على الحروف ، والناحية الثانية هى أهمية الحركات لان لا «ترحى ، ولا ترخى» ثم الناحية الثانية فى الشكل هى كذلك اختلاف النقد ، فاذا رجعنا الى النقد نجد مثلا اساتذتنا وبعض مؤدبينا ينقطون حرف (ف) من الاسفل و (ق) نقطة من فوقه ، بينما الامر هو تواضع واتفاق ، وكل هذه الامور هى فى واد واحد وهو ما يسمى بعلم العلامات ، كما أن مثلا فى الطرقات فان اللون الاخضر يدل على السلامة والاحمر على الخطر ، كذلك فى الكتابة ، هذا جزء من قضية النقد والشكل ، فلا يمكن ان نفصل العربية على بقية اللغات او اللهجات لان العربية تطورت كاللغات الاخرى ، وهذا التطور وأضح من حيث الاستعمال لان اللغة مرتبطة شديد الارتباط بالاستعمال ، والاستعمال هو المعيار الاساسى فى تطوير اللغة ، ونحن لنا موقف واضح من العربية ، كلنا نميل الى العربية التى نعتز بها والدليل على ذلك على

سبيل المثال انا لي اخت لم تتعلم قط فى أى مدرسة ولكننى علمتها الحروف الابجدية واصبحت الآن تحسن قـراءة روايات نجيب محفوظ وغيرها ، هذا يدل على ماذا ؟ يدل على أن للعربية طاقـة تعبر عن افكار وخواطر ، ولكنها تدل كذلك عـلى انها لا زالت مـــرتبطة باللهجة التى نستعملها ، فالاستعمال أمر هـــام٠

عثمـــان شبوب : اشكر جميع الاخوان الذين شاركوا فى هذه الندوة٠ فيما يخص اللغة كلنـا متفقون على المبدأ ، ولكننا نسعى الآن الى كيفية ادخال هذه الاصلاحات الى اللغـة العربية حتى تؤدى وظيفتها ، اما التساهل الذى يـــؤدى الى انحلال هذه اللغة فهذا لانرضاه ، ونختـــم هذه الندوة بمثال فقط ، فى السنة الماضية فى المانيـا الغربية هناك طالبة رسبت فى شهادة الباكالوريا لانها اخذت عـــلامة ضعيف فى اللغة الالمانية ، ورفعت القضية الى محكمـــة فـرعية بفرانكفور وحكمت لصالح لجنة الامتحان ، ثم رفعت القضية الى المحكمـــة الفدرالية فى بـــون فحكمت كذلك لصالح اللجنة٠ قالت المحكمة الفيدرالية لا يمكن أن ينجح فى الباكالوريا الالمانية ضعيف فى اللغة الالمانية٠ ولنا وطيد الامل ان تثير هذه الافكـار التى جاءت فى هذه الندوة نقاشا موضوعيا من شانه ان يثرى لغتنا ويمكنها من احتلال مكانتها الوظيفية فى المجتمع٠ وشكـــرا٠







اللغة العربيّة
وكيف حلت محل اللغات القديمة

تاليف :
موريس لومبارد

ترجمة وتعليق :
اسماعيل العربى

يعتبر كتاب « الاسلام فى مجده الاول » اهم محاولة بذلت حتى الآن لدرس الحضارة الاسلامية ولاستقصاء العناصر الثقافية التى تتركب منها ، على ضوء العوامل الاقتصادية والتفاعلات الاجتماعية التى شهدتها مختلف المجتمعات والدول الاسلامية ، خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر الميلادى (القرن الثانى والقرن السادس الهجرى) ، اى فى العصور الذهبية الاسلامية * وهذه الدراسة تتناول الفضاء والمحيط الجغرافى والامتداد الديموغرافى وعناصر الاجناس ، وعلاقات العالم الاسلامى بالغرب البربرى ، والهند والصين ، وطرق التجارة البرية والبحرية (ولا سيما طرق الذهب والفضة والعبيد والتوابل) وشؤون النقد ، والتاثير الثقافى المتبادل بين الجزيرة العربية والبلدان العريقة فى الحضارة التى فتحتها الجيوش الاسلامية ،

I) قمت بترجمة هذا الكتاب الذى اشترت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع حقوق نشره باللغة العربية من ناشره ، جاليمار ، وهو الآن تحت الطبع . (المترجم)

مثل ايران ، ولكنها تركز بصفة خاصة على توضيح القواعد الماديـــة التى سمحت باقامة المـــراكز العمرانية الكبيرة فى الشرق والغرب ، وبامتداد السيطـــرة الاقتصـــادية والنقدية ، الاســـلامية خصوصا على الغرب البربرى · والكتاب ، معدن زاخـــر بالمعلومات والبيانات المستقاة من أقـــدم وأندر الوثائق والتى صهرت فى بوتقة من التفكير التحليلى واستخلصت منها نتائج ، لا شك فى أنها سيكون لها اثر غير قليل فى توجيه البحث ، متى عـــرفت ، توجيها جديدا فى الاسلاميات · وممـــا يـــزيد من هذه النتائج ذلك الشـــعور ــ شـــعور التعاطف والمودة ــ الذى يفيض فى كل فصل من فصول الكتاب ، نحو العالم الاسلامى والاثار التى ساهم بها فى بناء الحضارة البشرية · والكتاب يحتاج الى عرض خاص ، قد تتاح لنا الفرصـــة للعودة اليه ، وتقديمه لقراء « الاصالة » الغراء ·

ولكننا فى هذه المـــرة ، رأينا ، تمشيا مـــع الخطوط التى حددتها مجلة الاصالة للعدد الخاص بالتعريب ، ان نقتبس الفصل الرابع من الكتاب ، وهو يعكس تفاعل اللغة العربية (وتصارعها فى بعض الحالات) مـــع لغات العـــالم القديمة التى انتصرت لغة الضاد على معظمها ، قبل ان تصبح لغة العلم الدولية ·

(المترجم)

العاميـة والعـربية الفصحـى :

« قلنا ان العالم الاسلامى كان عبارة عن بوتقة انصهرت فيها عناصر مختلفة ، كان بعضها أجنبيا عن البعض الآخر ، وضعت جنبا الى جنب ، ثم ، ادمجت ، وذلك فى الوقت الذى استمر فيه تأثير تقاليد قديمة · ودرس الوضع اللغوى ، عن طريق المشكلة اللغوية والحروف الهجائية ، سيسمح لنا بتحديد الجانب الاساسى لهذه الظاهرة ·

كان الوضع قبل الفتح الاسلامى ، على وجـــه التقريب ، كما يلي :

كان يوجد فى مقابل مجموعة اللغات السامية ، اللغات الهندية ــ الاروبية ، واللغات التـــركية ــ المنغولية » أو لغات المناطق التى تمتد بين جبـــال الإرال والالطاى » ولغات افـــريقية الســـوداء ، ومنطقة اللغة القبطية ، ومنطقة اللغة البربرية ·

وقد كان من نتائج التوسع الاسلامى فى العالم القديم انتشار اللغة العربية التى ستنقسم عـــلى نفسها بوصفها لغة الحديث الى فئتين أساسيتين من اللهجات : لهجات المشرق ولهجات المغـــرب · وعلى اطراف العالم الاسلامى ، تسود لغـــات تجارية مركبة من عناصر متعددة : اللغة الصدغية فى آسيـــا الوسطى ، والسواحلية على شواطىء افريقية الشرقية ، ولغة أزر Azer فى السودان ، وأخيرا ، لغات الافرنج فى منطقة البحـــر الابيض المتـــوسط ·

اللهجـات العاميـة الساميـة :

يسود فى المنطقة السامية غير العربية النظام التركيبى اللغوى الارامى · فان اللغة الآراميـــة قد « ابتلعت » فى القرن الرابع قبل الميلاد ــ على الاقل ، على مستوى اللغة العامية ــ جميع اللغات السامية السائدة فى المنطقة ، وذلك فيما عـــدا اللغة العـــربية ·

وقد كانت اللغات الرسمية السائدة قبل الفتح الاسلامى فى المنطقة ، هى : اللغة البيزنطية فى سوريا ، واللغة الفهلوية فى منطقة ما بين النهرين الخاضعة للساسانيين ، ولكن الآرامية كانت لغة حية ويتحدثها الجميع ·

واللغة الارامية لهجتان : اللهجة الارامية السائدة فى المناطق الغربية الواقعة تحت بيزنطة ، وهى لغة الحديث والكتابة ، وبها كتب التلمود فى فلسطين خلال الفترة التى تمتد بين القرن الرابع والقرن السادس الميلادى واللهجة الارامية السائدة فى المناطق الشرقية فى مملكة الساسانيين · وهى تشتمل على لهجتين فرعيتين : اللهجة البابلونية ، وهى لغة الحديث والكتابة ، وكان يستعملها اليهود ، وبها حرر تلمود بابل خلال الفترة بين القرن الخامس والقرن السادس الميلادى ، واللهجة السريانية الاديسية (١) التى كانت لغة الكتابة وستصبح ولغة الاداب الدينية لجميع الكنائس المسيحية ، اليعقوبية والنسطورية ، من فلسطين حتى ما بين النهرين والفرس · وقد كانت فترة ازدهار اللغة السريانية ، هى التى تمتد بين القرن الخامس والقرن الرابع عشر الميلادى ·

وفى عهد الغزو العربى ، كانت الوضعية اللغوية كما يلي :

فان لهجات المدينة ومكة التى كان يستعملها الفاتحون ، قد أصبحت هى لغة القرآن (٢) واللغة العربية المكتوبة · وأما الشعوب المغلوبة على أمرها فى سوريا وما بين النهرين ، فقد كانت تتحدث اللغة الارامية « الغربية والشرقية » وتكتبها ، أو تكتب اللغة السريانية ، بحروفها النسطورية أو بحروفها اليعقوبية ·

وجميع هذه اللغات متجاورة وحروفها الصامتة متشابهة · ولمقاومة ميوعة لغة الحديث ، بذلت محاولات عديدة لوضع علامات صوتية ، بقصد تثبيت النصوص المقدسة فى اللغة العبرية ، فى مركز الدراسات اللغوية فى طبرية الذى كان يأوى علماء النحو والصرف اليهود ، وهؤلاء العلماء ذهبوا بعيدا فى بحثهم عن الوثائق وبلغوا ما بين النهرين حيث تسببوا فى اختلاط لهجتين ظلت كل منهما منفصلة عن الاخرى ، حتى ذلك العهد : الارامية الشرقية والآرامية الغربية · وبذلك ظهرت لغة للحديث هى خليط بين اللهجتين ·

وهذا الاتجاه الى الجمع والخلط والتركيب انما سمح به توحيد العالم الاسلامى ، بل الاولى أن نقول انه كان قوام هذه الوحدة ·

وفى نفس الوقت ، وفى نفس الاتجاه ، ولنفس الغرض ، حاول الكتاب السريانيون طرقا لتثبيت نطق الكلمات فى النصوص المقدسة ، فوضع اليعقوبيون (نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادى) حركات اغريقية تركب فوق السطر أو تحته ، بينما وضع النسطوريون (ابتداءا من القرن الثامن) حركات هى عبارة عن نقط تركب فوق السطر أو تحته · وفى نفس الفترة أيضا جرى عمل مماثل لضبط وتشكيل حروف الآيات

---

1) نسبة الى اديس **Edess** ، مدينة ومحطة للقوافل فى جنوب ما بين النهرين ، انتشرت المسيحية فيها فى وقت مبكر ، كما أصبحت من أهم مراكز الصليبيين بعد استيلائهم على مدينة القدس وقد استرجعها الترك فى سنة 1144 ميلادية . (المترجم)

2) الواقع انه اذا كانت لهجات مكة والمدينة هى الاساس الذى تقوم عليه لغة القرآن ، كما يقول استاذنا المؤلف ، فان من المعلوم ان اختلاف اللغات واللهجات العربية ، قد نجم عنه اختلاف القراءات فى القرآن . واللهجات « أو الروايات » الاساسية سبع . وقد روى عن ابن عباس ، انه قال : « نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازان ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن،وهم خمس قبائل او اربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصربن معاوية وثقيف » وتبعا لذلك ، فان قراءات القرآن ، كما يقول احمد أمين ، يمكن دراستها من هذه الناحية ، ناحية كونها تمثل بعض لهجات قبائل العرب . (المترجم)

القرآنية ، فوضعت الفتحة والكسرة والضمة التى تركب تحت الحروف أو فوقها (١) ٠

واما اللهجة الارامية العامية التى كانت لغة الحديث فى سوريا وبين النهرين ، فقد اختفت فى حوالى سنة ٨٠٠ ميلادية على أقصى تقدير ٠ وقد اخذت عناصرها وحلت محلها لغة سامية أخرى : اللغة العربية ٠ واللغة الارامية والسريانية ، اصبحتا لغتين مقدستين ، لا تستعملان بعد الآن الا للكتابة ٠

واللغة العبرية بدورها لم تعد تدرس الا بوصفها لغة ميتة ومقدسة فى محافل احبار اليهود فى فلسطين ، وفيما بين النهرين ٠ وهكذا تم رسم التلمود فى شكليه القدسى « نسبة الى مدينة القدس » والبابلى (نسبة الى بابل) ٠ واما التلمود نفسه ، فينقسم الى قسمين : الشرائع ٠ « ميشنة » التى حررت باللغة العبرية وتم تحريرها فى القرن الثانى الميلادى ٠ والهوامش « جمارا » التى وضعت على نصوص الشرائع ، وتم تحريرها باللغة الارامية الغربية او الشرقية ، طبقا للنصين المختلفين من التلمود ٠

وبذلك اصبح المتدينون بالديانة اليهودية منقسمين ، كما نرى ، ومضطرين الى الازدواج اللغوى ٠

كان لسوريا فى العالم الاغريقى/اللاتينى ، اربع لغات : لغة الحديث (العامية) الارامية ، ولغة مكتوبة يستعملها المسيحيون اليعقوبيون ، السريانية ، ولغة أخرى مكتوبة ، العبرية التى تدرس فى مدارس فلسطين ، وأخيرا ، الاغريقية التى تستعمل فى الشئون الادارية والخارجية ٠

ومن الناحية الاخرى ، كانت بلاد ما بين النهرين التابعة للساسانيين ، تستعمل نفس اللغات ، مع تحفظ واحد ، هو ان الفهلوية لغة الفرس ، هى التى تقوم بدور اللغة الاغريقية فى الشئون الادارية الخارجية ٠ أضف الى ذلك ، أن اللغة العبرية واللغة السريانية كان لكل منهما هنا خصائص معينة ٠ فان الثقافة اليهودية فى هذه المنطقة عرفت ازدهارا وانتشارا واسعا ، وكان « رش جالوتا » (رئيس الغربة) من الشخصيات التى تحتل مكان الصدراة فى بلاط العباسيين ٠

واما اللغة السريانية ، فتمثلها الكنيسة النسطورية ٠ وهنا ايضا ، نجد أن رئيس الجماعة النسطورية الكاثوليكية فى استيزقون سيلعب دورا لا يستهان به فى بغداد ٠

واهمية اللغة السريانية تتجاوز الاطار الاقليمى ، حيث ان التأثير المتبادل بين التفكير اليونانى والتفكير الفارسى ، سيقع عن طريق هذه اللغة ٠ واللغة السريانية ، وهى لغة مكتوبة نبيلة ولغة الثقافة ، هى التى ستسمح بامتزاج خطير الشأن بين الافكار والالفاظ ٠ وعن طريق

---

١) يجدر بنا الاشارة هنا الى ان الكتابة فى العصور الاول كانت « فيما عدا القرآن » غير منقوطة ولا مشكولة . ومن هنا دخول ما يسمى بالتصحيف الى اللغة فى المراحل التالية . والتصحيف ، كما يقول العمرى ، هو ان يأخذ الرجل اللفظ من قراته فى صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال ، فيغيره عن الصواب . وقد وقع فى التصحيف ، كما قال صاحب المزهر ، جماعة من الاجلاء من أئمة اللغة وائمة الحديث ، مثل الخليل والاصمعى . وقد طعن فى الخليل الذى أورد فى كتاب العين « بغاث » (وهو يوم كان فيه حرب الاوس والخزرج) بالغين المعجمة ، وليس بعاث كما هو بالعين المهملة،لانه يوم مشهور لا يصح ان يخطىء فيه . والخوف من وقوع التصحيف ، يفسر لنا حرص المؤلفين الاوائل على ذكر النقاط والحركات للكلمات التى هى مظنة للالتباس ، فيقولون مثلا : بالخاء المعجمة وبالكسر ، الخ . « المترجم »

السريانية ستتـــركب فى هذه البوتقة اللغــوية حضارة من عناصر مختلفة تقوم خصوصا ، على اســـاس الاتصالات بين الحضارات والقارات ، تلك الاتصــالات التى تشكـــل احـدى المميزات الثقافية الواضحة لشعوب الشرق القديمة ·

واذا حـــولنا انظارنا الآن ، ونحن دائما فى المنطقة السامية ، الى منطقة اللغة العربية ، فماذا نجد يا تـــرى ؟

تنقسم مجموع اللهجات السائدة بين السكان فى شبه الجزيرة العـــربية الى ثـــلاث فئات ، ستوحدها رسالة القرآن ابتداء من القرن السابع الميلادى ·

أولا ، توجد اللهجـــة السائدة فى الجنـوب العربى والتى تنقسم بدورها الى حميرية وسبئية ويمنية · وهذه اللجهة تغطى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ، وهو ما يعرف باليمن السعيدة ، مع ميناء عدن Athena الذى يقع فى منطقة ذات اهمية حيوية فى العلاقات التجارية ، حيث يشكل ملتقى لطرق التجارة البحرية فى المحيط الهندى ، مع نظام طرق القوافل المنتشرة فى غرب شبـــه الجزيرة ، والطرق التجارية المتجهة من مكـــة (المكرمة) الى بلاد ما بين النهرين من جهة ، والى موانىء البحر الابيض المتوسط من جهة اخــرى · واللهجة العامية السائدة فى هذه المنطقة نجـــد نماذج منقوشة محفوظة منها تمثل الفترة التـى تمتد بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السادس الميــلادى ·

واللهجـــة العمانية ، هى لهجـــة الشواطىء الجنوبية الشرقية التى كانت هى الاخرى مركـــزا مهما للعلاقات البحرية ، حيث تسيطر على مدخل الخليج العربى · وبحكم هذا الوضع الجغرافى ، لا نستغرب من أن نجد هذه اللهجة مشربة باللغة الفارسية ومتأثرة بنفوذ القوم الذين يقعون على الشواطىء المقابلة ·

واما اللهجة النبطية التى كانت لهجة الحديث فى الشمال ، فهى ترتبط بآثار البترا (سلع) (١) مدينة القوافـل الكبيرة التى كانت مزدهرة فى القرون الاولى التى اعقبت ميلاد المسيح · وهذه اللهجة ، وصلت الينا نقوش منها يرجع تاريخها الى الفترة التى تمتد بين القـرن الاول والقـرن السادس بعد الميلاد ·

وأخيرا ، فان وسط شبه الجزيرة العـــربية تسود فيه لهجة سكان المدن الحجازية ، ولا سيما مكة وهى مركز مهم لتجارة القوافل التى تسيـر بين السبئيين فى الجنوب والنبطيين فى الشمـــال ، أو لهجات البدو الرحل فى نجد ، وهم مشهورون بنشاط تربية الجمال وهذه اللهجات غير مكتوبة· والشعر الجاهلى الذى نظم بها ، لم يسجـل الا بعد ظهور الاسلام ، وعلى أساس روايات شفهية· ومن اللغة الشعرية المشتركة بين مناطق وســـط شبه الجزيرة العربية ، تتكون لغة القرآن فـى معظمها · وهذه هى لغة الآداب والتراث العربى القديم وهى التى ستغلب على مختلف اللهجـات ، وتنتشر فى جميع انحاء الجزيرة العربية ·

---

١) موضع بالاردن ، كان عاصمة لدولة النبط فى العصر الهلينى (القرن 6 ــ 2 ب . م) ينفذ اليها من مدخل جبلي ضيق يدعى « الشق » وقد شهدت المدينة ازدهارا كبيرا بفضل موقعها على طرق القوافل بين شبه الجزيرة العربية والشواطىء السورية احتلها تراجان سنة 106 ميلادية ، ثم اصبحت مركز أسقفية مسيحية حتى الفتح الاسلامى . وهى تحتوى على آثـــار منهـــا قصر ، ودير ومسيلات ، وقبور . « المترجم »

وهكذا نجد ان العالم السامى يقوم على قوتين لغويتين : اللغة الارامية ، فى سوريا وما بين النهرين ، واللغة العربية ، فى شبه الجزيرة العربية · والعلاقات بين اللغتين ، من جهة اخرى وثيقة ، حيث ان لهما هياكل متشابهة ، ثلاثية الصوامت وتجمع بينهما امالات صوتية غير مسجلة ، وحروف ابجدية متحدة اساسيا ، ماخوذة من الحروف الهجائية الفنيقية ·

ومن المجابهة التى وقعت بين اللغتين ، خرجت اللغة العربية منتصرة ، بفضل الفتوحات الاسلامية ومنذ وقت مبكر (فى اوائل القرن التاسع الميلادى) تحول العالم الارامى ، الذى وجد فى التقارب بين اللغتين معينا ، الى التحدث باللغة العربية فى سوريا وما بين النهرين ·

ولكن اللغة الآرامية ، لم تكن الضحية الوحيدة التى طردتها اللغة العربية من معقلها · فان تعريب الدواوين الذى بدأ منذ القرن الثامن الميلادى ، قد طرد اللغة الاغريقية والفهلوية ايضا · واما اللغة السريانية التى تجمدت واصبحت لغة الكتابة والادب فقط ، فانها لم تعد فى نهاية القرن العاشر الا لغة علمية ، يكتب المؤلفون المسيحيون بها وباللغة العربية ، بدون تمييز · ومع ذلك ، فان اللغة السريانية لم تمت كلية ، بل على العكس ، ستشهد بعض التوسع والانتشار ، بفضل البعثات التبشيرية النسطورية التى كانت تجوب اسيا الوسطى والصين ·

اللهجات العامية غير السامية :

والآن لنلق نظرة ، ونحن دائما فى سياق الفتح الاسلامى ، على المناطق اللغوية غير السامية ·

تنحدر اللغة القبطية ، وهى لهجة وادى النيل ، من اللغة المصرية القديمة · وهى تسجل باحرف اغريقية مكيفة · وفى وادى النيل ايضا ، ستختفى اللغة القبطية واللغة الاغريقية ، وتحل محلهما اللغة العربية ، ولو ان هذه العملية جرت بسرعة أقل مما شاهدناه من اختفاء الارامية فى سوريا وبين النهرين · والتواريخ التالية ستسمح لنا بتكوين فكرة دقيقة عن تقلص اللغة القبطية والاغريقية واختفائهما ·

تم فتح مصر خلال الفترة بين ٦٣٩ ـ ٦٤١ ميلادية · ونحن نلاحظ ان اول ورق بردى مكتوب بلغتين (العربية والاغريقية) يرجع تاريخه الى سنة ٦٩٣ ، وآخر ورق بردى باللغتين ، بتاريخ ٧١٩ ميلادية · ومع ذلك فان آخر ورق بردى باللغة الاغريقية يرجع الى سنة ٧٠٠ م · ولكن اول ورق بردى مكتوب كله باللغة العربية ، مؤرخ فى سنة ٧٠٩ ميلادية ·

وكذلك يمكننا ان نستخلص دلالات اخرى من مصادر ادبية ومنقوشة· فنحن نقرأ ان البطريق ميشل « ٧٦٨ ـ ٧٥٢ ميلادية » لا يعرف اللغة العربية ، وان الخليفة المأمون كان يرافقه مترجم اثناء زيارته لمصر فى سنة ٨٣٢ ميلادية · وفى مقابل ذلك ، يوجد ما يحمل على الاعتقاد ، بان رجال الكنيسة كانوا يعرفون اللغة العربية فى القرن التاسع الميلادى ، لاننا نجد ان نصبا تذكريا مسيحيا بتاريخ ٩٠٩ ميلادية ، مكتوب باللغة العربية ·

صحيح أن شعرا شعبيا قبطيا كان لا يزال ينشد فى اواخر القرن التاسع · ولكنه ابتداء من القرن العاشر كان رجال الكنيسة القبطية يكتبون باللغة العربية حينما يريدون أن يتاكدوا من ان ما كتبوه

يمكن فهمه · ومع ذلك ، فان اللغة القبطية ظلت وقتا طويلا اكثر من مجرد لغة دينية · بل اننا نجد أن المثقفين من رجال الكنيسة القبطية فى القرن الثالث عشر كانوا يعرفون هذه اللغة · وكذلك كان البطارقة فى هذه الفترة يكتبون القبطية والعربية · وآخر النقوش التى وصلت الينا باللغة القبطية ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر· ولكن هذه القبطية كانت لغة الكتابة والعلم · وأما لهجة الحديث اليومى ، فقد اختفت بسرعة اكثر · وقد حلت اللغة العربية محل اللغة القبطية فى القرن العاشر الميلادى · وهذا معناه أن اللغة القبطية عاشت نحو قرن من الزمن ، بعد ما اختفت اللغة الارامية ، وأصبح العالم الارامى عالما عربيا ·

واذا كانت الوضعية اللغوية قد شهدت ، بالطريقة التى وصفناها ، انتصار اللغة العربية فى المناطق المركزية فى الامبراطورية الاسلامية ، فان الامور لم تجر على هذا المنوال فى طرفى العالم الاسلامى ، حيث استمرت كتلتان من اللغات على قيد الحياة ، على الرغم من توغل التعريب فى المدن والادارات وفى أوساط المثقفين ، ونعنى بذلك اللغة الفارسية فى المشرق ، واللغة البربرية فى المغرب ·

ونحن هنا سنقتصر على الحديث على اللهجة الفارسية المتوسطة التى خرجت من لهجة قديمة · وهذه اللهجة المتوسطة هى الفهلوية التى تنحدر منها مباشرة اللغة الايرانية الحديثة والتى ظلت زمنا تستعمل ، الى جانب اللغة العربية ·

من المؤكد ان النفوذ الذى كان الفرس يتمتعون به فى العصر العباسى ، كانوا يمارسونه عن طريق اللغة العربية · ولكن النفوذ الذى مارسه الفرس فى العالم الاسلامى فى القرن العاشر والقرن الحادى عشر ، ولا سيما فى عهد الدولة السامانية فى خراسان ، وبعدها فى عهد السلاطين الغزنويين ، كانوا يمارسون عن طريق اللغة والثقافة الفارسية · ونحن نعرف أن واحدا من أعظم الاثار الادبية الفارسية ، شهنامة الفردوسى وضعت فى هذا العهد : ٩٩٠ ــ ١٠٢٠ ميلادية ·

وفيما يتعلق باللغة البربرية ، فقد كانت لغة الحديث فى المناطق الخلفية التى تمتد من وادى النيل وبرقه حتى أقصى المغرب ، من جهة ، والى ساحل النيجر (السودان) من جهة اخرى · فان اللغة العربية فى هذه المنطقة انما توغلت أولا وقبل كل شىء فى المدن · وهذه اللغة التى هى لغة الدين والحضارة والمدنية ستتقدم بخطى بطيئة فى الجبال والهضاب البربرية · وبالتالى ، فان اللغة العربية انما تغطى المناطق التى كانت تابعة لقرطجنة · والفيلسوف البربرى ، سانت أجستين بل وبروكوب Procope أيضا (فى القرن الرابع الميلادى) ، يخبرنا بان اللغة الفنيقية كانت لا تزال شائعة فى المناطق المجاورة للمراكز التى كانت تابعة لقرطجنة ثم وقعت تحت سيطرة الرومان· وهذا قد يكون من العوامل التى تفسر لنا سرعة انتشار اللغة العربية فى المدن الرومانية فى افريقية الشمالية : هذا ، على الاقل ، هو الفرض الذى اقترحه جزيل St. Gsell.

ومهما يكن من شىء ، فان التغيير السريع الذى وقع من اللاتينية الى العربية ، يمكن تعليله بحاجة المراكز المدنية الى الاعتماد على لغة حقيقية للكتابة ، وهى لغة الادارة والتبادل التجارى التى لا يمكن مقارنتها باللغة البربرية غير المكتوبة ·

ومن جهة أخرى ، فقد لوحظ توغل اللغة العربية فى جبال بلاد القبائل الصغرى (بلاد

كتامة) فى غضون الفترة التى تمتد بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر الميلادى ، ذلك التوغل الذى لا بد من ربطه بحركة الفاطميين ونشاطهم فى تلك المنطقة • وكذلك ادى غزو بني هلال فى القرن الحادى عشر للمغرب الى انتشار اللغة العربية فى افريقية ثم فى التلول المرتفعة فى الجزائر فى غضون الفترة التى تمتد بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر •

ولكن هذه العملية كانت بطيئة ، ولم تكن تشمل فى الحقيقة سوى المدن والاراضى التى تحيط بالمدن مباشرة •

ما هى الوضعية اللغوية فى اسبانيا وفى الطرف الغربى للعالم الاسلامى ؟

كانت اللغة اللاتينية لا تزال تحتفظ بمكانتها ، وكانت تتطور الى لغة رومانية ستصبح بدورها اصل لهجة الحديث فى شبه جزيرة الاندلس • وكذلك نشاهد ، بعد الفتح الاسلامى تأثيرا لغويا للبربر ، ولا سيما فى المناطق الجبلية التى تمتد من الجنوب الى الشرق والتى تقطنها عناصر من البربر الذين هاجروا من افريقية الشمالية • وفى نفس الوقت ، كانت الجماعة اليهودية التى تقيم فى الاندلس تستعمل اللغة الارامية ، ويضاف الى كل ذلك العنصر الجديد ، اللغة العربية •

ففيما يتعلق باللهجة العربية العامية ، اقترح فرض يقول بوجود كتلة من اللهجات العامية الغربية التى تشمل سكان المدن فى اسبانيا الاسلامية وسكان المدن فى المغرب ومالطة وصقلية (١) • وهذه العربية الغربية تعرف ، فيما يقال ، باسم « الغربية » التى حرفت باللغة الاسبانية الى Algarbia ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية Charabia (٢) • والى جانب هذه اللهجة العامية ، توجد ، بطبيعة الحال اللغة العربية الفصحى ، لغة الاداب والفلسفة فى جميع ارجاء العالم الاسلامى • وهذه ايضا هى لغة الدين والادارة والتجارة والحضارة • وهى ستلعب فى الاندلس نفس الدور الذى لعبته اللغة اللاتينية من قبل ، فى العالم الغربى المسيحى ، او اللغة الاغريقية فى العالم البيزنطى •

لغة التجارة :

ولكن اللغة العربية سوف لا تقنع بتأمين تفوقها المطلق فى داخل الامبراطورية الاسلامية (٣) ، حيث انها سوف تخترق الحدود مع التجار اليهود من نربونه ، او مع التجار البربر الذين يعملون فى بلاد افريقية الغربية (السودان) ، بل الى مناطق التبادل التجارى العربية/الفارسية على المحيط الهندى ، وفى اندنوسيا والهند الصينية ، والصين الجنوبية (والمعروف ان مدينة قانطون كانت تأوى مستعمرة كبيرة من التجار الذين ينتمون الى مختلف انحاء العالم الاسلامى) • وكذلك انتشرت اللغة العربية فى اتجاه الشمال ، حتى بلغت الانهار الروسية الكبيرة ، ودخلت مدنا مثل أتل ، وبلغار ، واكييف والقسطنطينية نفسها ،

1) راجع : Colin, «Un Document Nouveau sur l'Arabe Dialectécal d'Occident au XIIème Siècle», Hisperis, XII, 1931, PP. 1-32.

2) معناه بالفرنسية : لغة غريبة ، غير مفهومة (المترجم)

3) ورد فى كلام يهودى كان يكتب من مدينة القيروان ، وكان قد تجول فى العراق وفى الاندلس وافريقية الشمالية ، قوله انه يعتذر لعدم كتابته باللغة العبرية ولالتجائه الى الكتابة بالعربية ، حيث انه مستعجل وليس لديه وقت . واللغة العربية اكثر ملاءمة له . (راجع : I. Goldziher, Melanges Judes — Arabe, XXII., Revue des Etudes Juives, L. 1905, PP. 182-188.

ستشتمل على مسجد يضم جماعة المسلمين الذين يعيشـــون فيها ٠

بقى الآن ، أن نبين وضع اللغات التى تتكـون من عدة عناصر والتى نمت على هامش العالـــم الاسلامى ٠ وهذه اللغات التى ولدت فى نفـس الفترة ولكنها ستتطور مع مرور الزمن ويكـون لها خطرها هى :

السواحلى التى كانت تستعمل فى مـــراسى المحيط الهندى على شواطىء افريقية الشرقية ٠ وهى لغة افريقية تحتوى على كثير من الالفـــاظ المأخوذة من اللغة العربية ٠

ـ لغة آزر Azer ، وهى لغة المناطق التجارية حيث كانت تجرى المعاملات فى الذهب والعبيد ، على سواحل السودان (على المحيط الاطلسى) ٠ وهى تشتمل على كثير من الالفاظ المأخوذة مـن اللغـة العـــربية واللغـة البربرية ، واللهجـات السودانية (وخصوصا ، الصونكى والصونغاى)٠

ـ اللغة الصغدية التى كانت لغة التجارة منذ عصر الساسانيين وهى لغة ايرانية تشربت كثيرا من الالفاظ المأخوذة من اللغات المجاورة ٠

ـ لغة الفرنك التى كانت منتشرة على ضفاف البحر الابيض الاوروبية . وهى لغة عاشت طويلا ، حيث أن آخر رجل كان يتحدثها مات فى منتصف القرن التاسع عشر ، فى راجزز Roguse

وكذلك لعبت لغـــة قريبة من اللغـة الماليزية (كانت لهجة الحديث فى موانىء جـــزر المحيط الهندى) دورا يشبه الدور الذى لعبته لغة الفرنك ولكن فى وقت متأخر ٠

فهذه اللغات التى نمت فى أطراف العـــالم الاسلامى ، تبدو غير ذات بـال على الخريطة ، ولكنها فى الحقيقة ذات اهمية بالغة ٠ فهى تمثـل بوتقات تتحول فيها المصطلحات التقنية ، وتعابير البحريين والالفاظ المستعملة فى التجارة ، ثـــم تنتقل الى اللغات المجاورة ٠ واهمية هذه اللغـات تستحـق التنـــويه حيث انها ساهمت فى نقـل المصطلحات التقنية من العالم الاسلامى الى اللغة الرومانية (١) ٠

١) لغة مشتقة من اللاتينية ، وتقدمت تاريخيا اللغة الفرنسية (المترجم) .



تأثير العوامل الخارجية على اللغة

اجرى علماء اجتماع اللغة في المانيا اول تجربة من نوعها على حوالي نصف سكان قرية صغيرة تقع في منطقة الايفل لدراسة تأثير العوامل الخارجية على اللغة والتعابير التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية . ويبلغ عدد سكان القرية ٤٣٦ نسمة ، وقد اختار العلماء منهم ٢٠٠ شخص يغادرون القرية يوميا للعمل في اماكن اخرى خارج القرية . فلاحظوا دخول تغير على لغة تخاطبهم بسبب دخول تغير هام على مكان سكنهم الجماعي . وقد قرر العلماء اجراء اختبارات اخرى لكي يقفوا على العوامل التي تؤدي الى ادخال التعديلات على اللغة وما هو مدى سرعة تأثر اللغة الدارجة بالعوامل الخارجية . وسوف تقدم نتائج هذه الابحاث للمدارس للاستفادة منها في تعليم صغار التلاميذ الحديثي العهد باللغة الفصحى .



ملـف

التعريبُ فى الجـزائر

تنشر فيمـا يــلى
تقارير بعض الوزارات
الـتى اتصلنـا بهـا
عـن سـير عمليـة
التعـريب

وزارة التعليم الابتدائي والثانوي

التعريب في المرحلتين الابتدائية والثانوية

في أول دخول مدرسي للجزائر المستقلة أي في أكتوبر 1962 ، اتخذت وزاره التربية آنذاك قرارا يقضي بادخال اللغة العربية في جميع المؤسسات التعليمية التابعة لها بنسبة سبع ساعات في الأسبوع . وكان هذا القرار بمثابة اعلان عن النية الثابتة والعزم الأكيد لتغيير أوضاع المدرسة الموروثة عن العهد الاستعماري ، واعطائها طابعها القومي كما نصت عليه مواثيق الثورة وذلك رغم المصاعب الكثيرة التي كانت تواجهها ورغم ما يستلزمه مثل هذا القرار من توفير المعلمين بالعربية وقد تم بالفعل توظيف 3452 معلما دربوا بسرعة واسندت اليهم مهمة تدريس اللغة العربية لا كلغة اجنبية ، ولكن كلغة وطنية لها من التوقيت الرسمي نسبة محترمة وذلك لأول مرة منذ أن وقعت البلاد تحت السيطرة الاستعمارية .

واذا لم يكتب لهذه الاجراءات أن تطبق في كل المدارس بصفة نظامية نظرا للمتاعب العديدة التي واجهتها البلاد أثناء هذه المرحلة الانتقالية ، فان الدخول المدرسي الثاني بعد الاستقلال 1963 – 1964 قد شاهد حملة كبيرة لتنظيم تدريس العربية وتعميم الاجراءات المتخذة بهذا الشأن على جميع المدارس وتدعيمها بالتعليمات التطبيقية . ومع تبلور الأمور شيئا فشيئا في هذا الميدان ، بدأت عمليات التقييم لنتائج تلك الاجراءات الأولية فتبين بوضوح أن اللغة العربية ينبغي أن يتطور وضعها من مرحلة تلقينها كلغة وطنية فحسب ، الى مرحلة تعليم سائر المواد بها . وقد قام رجال التربية والمثقفون بشكل عام بحملة واسعة تدعو الى تعريب السنوات الأولى من الابتدائي تعريبا كاملا مستندين الى ما يلقاه الطفل الجزائري من متاعب الازدواجية اللغوية عند أول اتصال له بالمدرسة ، اذ يطلب منه تعلم القراءة والكتابة بلغتين مختلفتين أشد الاختلاف من حيث القوالب والبنيات والمفاهيم

وهكذا تقرر تعريب السنة الأولى الابتدائية تعريبا كاملا في الدخول المدرسي الثالث بعد الاستقلال سنة 1964 – 1965 ، وأصبح التلاميذ في هذه السنة لا يتعلمون الا العربية ، ويتعلمون بالعربية كل مواد البرنامج . وقفز في هذه السنة عدد المعلمين بالعربية الى 10.961 معلما ، وشمل هذا الاجراء مجموع التلاميذ الذين التحقوا بالمدرسة لأول مرة في تلك السنة .

وقد استلزمت هذه الاجراءات مجهودات ضخمة لتوفير الأعداد اللازمة من المعلمين ، والمفتشين ، والمستشارين التربويين ؛ وبدأت فى نفس الوقت اهتمامات المربين تنصب على وضع المناهج والبرامج والكتب الجزائرية الملائمة لروح الأطفال وواقع البلاد . وكانت قضية الكتب خاصة الى هذا التاريخ متروكة للمكتبات الخصوصية التي تستورد اشتاتا من الكتب التجارية التي لا تساير الخط التربوي المطلوب . لذلك تقرر أن تشرف المصالح التربوية على اختيار الكتب المستوردة ووضع قوائم الكتب المسموح باستعمالها فى كل مستوى من المستويات .

ومرت سنتان آخريان 1965 و 1966 تركز العمل خلالهما على تدعيم هذه السنة المعربة وتتبع نتائجها ، واكمال ما تستلزمه من الترتيبات البيداغوجية ، كما تواصلت عمليات التنظيم والتدعيم لباقي السنوات الأخرى فى نطاق الساعات الأسبوعية ، وقد رافق كل ذلك جهد مستمر لتكوين المعلمين بالعربية ورفع كفاءتهم عن طريق الندوات التربوية ، والملتقيات التكوينية التي تنعقد بصفة دورية تحت اشراف المفتشين الابتدائيين والمستشارين التربويين .

وفى آكتوبر 1967 طبق القرار القاضي بتعريب السنة الثانية الابتدائية تعريبا كاملا ، أي بتدريس كل مواد البرنامج باللغة العربية وحدها ، وعدم تدريس أية لغة أجنبية فى هذا المستوى . وقد ارتفع عدد المعلمين بالعربية فى هذه السنة الى 17.047 معلـم .

فى هذه الأثناء قفزت قضية التعريب الى الصعيد الأول من اهتمامات رجال التربية والثقافة والمسؤولين فى مختلف المستويات ، وكان النقاش يدور فى الغالب حول الطريقة التي ينبغي أن تتبع لتحقيق التعريب الشامل . قد كانت أغلب وجهات النظر متفقة على آن التعريب آمر حتمي لازم ، كما كانت متفقة على أنه سيتطلب كثيرا من الجهد والارادة والوقت . ويمكن تلخيص الطرق المقترحة لبلوغ الهدف فى النقاط التاليـــة :

1 ـــ تعريب رأسي ينطلق من السنة الأولى للتعليم الابتدائي ويأخذ سنة بعد سنة فى التوسع حتى يأتي على كل المرحلة الابتدائية ثم يستمر رأسيا فى التعليم المتوسط والتعليم الثانوي لينتقل فى آخر الأمر الى الجامعة .

ويؤخذ على هذه الطريقه أنها تشتمل على أخطار كثيرة منها استحالة التمكن من توفير كل الأعداد التي يتطلبها التعريب من المعلمين والأساتذة باللغـة العربية فى كل سنة مما يجعل الهياكل التعليمية أمام أمر واقع لا مخرج لها منه الا باحدى اثنتين : تحمل الانتكاس فى مرحلة ما من مراحل المد التعريبي بكل ما يترتب على ذلك من عواقب ، أو الاكتفاء بفتح أقسام معربة ظاهريا ،ولكنها فى الحقيقة خالية من معلمي وأساتذة المواد الأساسية .

2 ــ تعريب محلي جغرافي ينطلق من الجهات التي سلمت الى حد ما من تأثير الوجود الثقافي الفرنسي ، كمناطق الجنوب مثلا .

وأكبر مآخذ على هذه الطريقة أنها تعطي للتعريب صورة مشينة باقتصاره على الأرياف والبوادي وتعرض وحدة تكوين الأجيال الصاعدة للخطر بحفر الهوة بينهـا .

3 ــ تعريب نقطي يتناول مستوى من مستويات التعليم الابتدائي والثانوي أيا ما كان بنسبة محدودة ، ويشمل كل المواد التي تدرس فى ذلك المستوى ، ويطبق فى جميع البـلاد

وينظر الى هذه الطريقة على أنها أشد فعالية ، وأكثر مسايرة لمقتضيات التخطيط اذ أن تعريب ثلث الأقسام مثلا فى احدى السنوات الابتدائية أو المتوسطة أو الثانوية على الصعيد الوطني يركز الجهود على أمر معقول يمكن تحقيقه ويجنب الوقوع فى جعل التعريب مساويا لانحطاط المستوى ، ويدعم عمليات التعريب فى المستقبل كما يتيح المهلة اللازمة لتصحيح الانحراف وتقويم خط المسيرة على ضوء التجربة الميـدانية .

وعلى كل حال ، فان هذه الطريقة الأخيرة هي التي سيشهد المستقبل وضعها موضع التنفيذ ، ابتداء من سة 1971 على وجه الخصوص .

ولكن قبل الشروع فى التحدث عن هذه الخطة ومنجزاتها ابتداء من التاريخ المذكور ، فانه يبقى أن نذكر أن الطريقة الأولى ــ أي التعريب الرأسي السنوي ــ قد استبعدت منذ البداية . ولعل استمرار المناقشات حول الطريقة التي يجب

اتباعها هي التي أجلت تاريخ الانطلاقة الحقيقية لسياسة التعريب النقطي الى سنة 1971 على أن توسع التعريب لم ينتظر البت فى تلك المناقشات ، لأن الدفعات الأولى التي التحقت بالتعليم الابتدائي فى بداية الاستقلال قد بدأت تصل الى مرحلة التعليم المتوسط وفيها نسبة محترمة من التلاميذ الذين تفوقوا فى العربية اما لأن بيئتهم العائلية قد ساعدتهم على ذلك التفوق ، واما لأنهم درسوا فى المدارس الحرة التي كانت تديرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي أدمجت بقطاع التربية العمومية فى مطلع الاستقلال وظلت تتمتع طيلة سنوات بوضعية منفردة اذ كانت شبه معربة بالاضافة الى عدة ساعات من تعليم اللغة الفرنسية .

ومهما يكن من أمر فقد دعت الحاجة الى انشاء أقسام معربة فى التعليم المتوسط فى عدة مدارس متوسطة بحيث بلغ عدد التلاميذ فى هذه الأقسام 5660 تلميذا فى السنة المدرسية 68 — 1969 .

ويمكن تلخيص هذه المرحلة الأولى التي استمرت الى سنة 1970 بأنها أرست نهائيا مكانة اللغة العربية فى النظام التعليمي واهتمت بتدعيمها فى المرحلة الابتدائية حيث أصبحت لغة التعليم لكل المواد الأدبية . أما فى التعليم الثانوي ، فقد شهدت انطلاقة تعريب مادة التاريخ نظرا الى أهميتها البالغة واتصالها اتصالا مباشرا بالجوانب الروحية والقومية والثورية وكل المقومات الأساسية للبلاد . ان أبرز ما تم انجازه فى هذه المرحلة هو فتح ثلاث ثانويات : واحدة للبنات (ثانوية عائشة) واثنتان للبنين (ابن باديس وابن خلدون) تشتمل كل منها على المرحلتين المتوسطة والثانوية ، ويتم فيها تدريس جميع المواد الأدبية والعلمية باللغة العربية كما تدرس فيها اللغة الفرنسية لجميع التلاميذ ، وتدرس الى جانبها لغة أجنبية ثانية يختارها التلاميذ من بين الانكليزية والألمانية والروسية والاسبانية .

هذه الثانويات كان ينظر اليها حين فتحت على أنها تمثل بصفة عامة ، شكل ثانويات المستقبل حين يتم تعريب التعليم كله وهي قد شرعت فى تخريج دفعات من حملة الباكالوريا الرياضية والعلمية والأدبية ، ابتداء من سنة 1968 . وهي التي أمدت التعليم الثانوي بالدفعة الأولى من أساتذة المواد العلمية الجزائريين ، كما أمدت الاقسام العلمية المعربة فى الجامعة بالدفعات الأولى من الطلاب المسجلين فيهـا .

جدول يلخص منجزات التعريب فى التعليم الابتدائى
والثانوى فى نهاية المرحلة الاولى (63 — 70)

المرحلة الابتدائية

السنة	
السنة 1	معربتان تعريبا كاملا . لا تدرس فيهما اية لغة اجنبية
السنة 2	
السنة 3	تدرس المواد الادبية باللغة العربية والمواد العلمية باللغة الفرنسية ويتراوح توقيت المواد المدرسة بالعربية مابين 10 و 15 ساعة فى الأسبوع .
السنة 4	
السنة 5	
السنة 6	

المرحلة المتوسطة

السنة	
السنة 1	المواد الادبية — باستثناء .
السنة 2	الجغرافية — تدرس بالعربية والمواد العلمية تدرس بالفرنسية ويتراوح توقيت المواد المدرسة بالعربية مابين 8 و 10 ساعات .
السنة 3	
السنة 4	

ملاحظة : توجد نحو 15 متوسطة معربة بالاضافة الى اقسام عديدة معربة ايضا فى المتوسطات والثانويات المزدوجة .

المرحلة الثانوية

السنة	
السنة 1	يتراوح توقيت العربية من 5 الى 8 سعات فى الاسبوع حسب اللغة التى تدرس بها مادة التاريخ .
السنة 2	
السنة 3	

ملاحظة : توجد 3 ثانويات معربة تعريبا كاملا بالاضافة الى اقسام عديدة معربة فى بعض الثناويات المزدوجة .

يتبين مما سبق أن مسيرة التعريب فى المرحلة الأولى قد شهدت اجرائين أساسيين يؤرخ كل منهما للنفسية السائدة آنذاك ، وللمناخ السياسي ـ الثقافي ـ التربوي الذي كان يكتنف قضية التعـريب .

• الاجراء الأول : ادماج حصة لتعليم اللغة العربية فى التوقيت الرسمي منذ أول سنة للاستقلال ، وتدعيم التدابير المتصلة بذلك فيما بعد ـ كان بمثابة رفع الراية الوطنية على المدرسة حيث حوربت لغة الشعب ، وأخرجت نهائيا من المنظومة التعليمية . لذلك كانت اعادتها اليها ، ولو بصفة نظرية ، منذ الشهور الأولى للاستقلال ، ترجمة لمعنى من معاني السيادة الوطنية واستجابة لأحد المطالب الجماهيرية وتجسيدا لأحد أبعاد الثورة التحريرية .

• والاجراء الثاني : تعريب القسمين الابتدائيين الأولين ، وتدريس بعض المواد باللغة العربية فى باقي الأقسام ـ كان موقفا عمليا يترجم عن الرغبة الأكيدة فى افساح المجال أمام اللغة القومية لتحتل مكانها الطبيعي فى مدارس الجزائر المستقلة . وقد أتاح ـ ذلك الاجراء ـ انتقال اللغة العربية من مجرد لغة تدرس لحد ذاتها ، الى لغة تعليم تدرس بها مواد أخرى وتستعمل لتبليغ أنواع من المعلومات غير اللغـوية .

على أن طبيعة هذه المهمة الجديدة ، ما لبثت أن أثارت حولها كثيرا من الخلاف الذي عكست الصحافة الوطنية جانبا كبيرا منه .

لقد اعتبرت بحق مكسبا ضخما للغة الوطنية ، وانتصارا كبيرا لدعاة التعريب الا أن هؤلاء كان يملؤهم الخوف الشديد على مستقبل العربية اذا هي قدر لها أن تنحصر مهمتها فى نقل المعلومات الأدبية ولعل الذي كان يقوي هذا الخوف فى نفوسهم ، ما يشاهدونه من نتائج هذا الأسلوب فى بعض الأقطار الشقيقة التي سلكت هذا السبيل .

الواقع أن هذا الخوف لم يكن بلا أساس ، بل كان له ألف مبرر حياة اليوم هي حياة العلوم والتكنولوجيا ، والمجتمع الراقي هو الذي يملك أسبابهما ، والسلطة فى البلاد ماضية بعزم فى تحقيق ذلك الرقي عن طريق العلم والتكنولوجيا بالذات ، واذن فما مصير لغة ترسم لها دائرة لا تتجاوزها ، هي دائرة الأدب : شعرا ونثرا ؟ فاذا اتسعت الدائرة شملت ـ فى أحسن الأحوال ـ ما يسمى بالعلوم الانسانية . كل هذا فى الوقت الذي يترك فيه للغة الأجنبية مهمة نقل العلوم والتكنولوجيا .

ان هذه القسمة الظالمة تعطي للغة الأجنبية عناصر النشاط والحيوية ، والتطور ، أي بكلمة واحدة تمنحها مفاتيح المستقبل ، وتحرم اللغة القومية من كل ذلك مما يبرزها أمام الشبيبة الطامحة فى مظهر العجز والشيخوخة والجمود .

وهكذا نضجت الأفكار فى هذا الميدان ، وأصبحت المواقف واضحة ووصلت الأمور فى هذه المرحلة من مسيرة التعريب الى درجة من التبلور لم يعد بالامكان معها الاستمرار فى تجاهلها .

فريق يرى أن التعريب الذي يقتصر على المواد الأدبية يسيء الى العربية أكثر مما يخدمها ، وأن اللغة التي تخوض غمار الحياة النشيطة هي التي يتجدد شبابها باستمرار وتبقى مسايرة للعصر وتطلعاته ، وأن ابعاد العربية عن ذلك يساوي بالضبط الحكم عليها بالجمود فبالتدهور والفناء .

وفريق آخر يرى أن تخصيص العربية للمواد الأدبية والعلوم الانسانية يعيد الاعتبار للكرامة الوطنية ، أما العلوم والتكنولوجيا ، فان العربية ليست صالحة بعد للتعبير عنها بالدقة المطلوبة ، وبما أن البلاد تشكو من حالة التخلف التي تركها عليها الاستعمار ، فان المنطق يقتضي ربح الوقت ، واختصار الطريق ، مما يحتم استعمال اللغة الفرنسية الجاهزة لمثل هذا الاستعمال فى انتظار أن تتغلب اللغة العربية على قصورها ، وتصبح قادرة على أداء الوظيفة العلمية بنجاح .

لقد بات واضحا أن الخلاف تجاوز الجوانب الشكلية للموضوع وتطرق الى القضايا الجوهرية بالذات وان هذا الخلاف ستحسمه التدابير العملية التي آن الأوان لاتخاذها كما تبين بصفة جلية أن هذه التدابير سواء أأدت الى ترجيح هذا الرأي أو ذاك ، فستكون صفحة أخرى فى ملف التعريب ومرحلة ثانية فى مسيرته الطويلة وانها ستكون ــ على الأخص ــ موقفا تاريخيا تترتب عليه ــ الى حد بعيد ــ آفاق التعريب ، ومكانة العربية فى الأجهزة المدرسية . وكذلك كان .

فقد انعقدت فى ربيع سنة 1971 الندوة السنوية لاطارات التربية وضمت المسؤولين فى المصالح المركزية لوزارة التعليم الابتدائي والثانوي ، والمفتشين العامين ، ومدراء التربية والثقافة فى الولايات وكان موضوع التعريب احدى النقاط البارزة فى جدول الأعمال . وبعد النقاش الواسع ، وتبادل الرأي فى الجلسات العامة وفى اجتماعات اللجان المنبثقة عن الندوة صادق المجتمعون على ثلاث

اجراءات في نطاق الخطة المسماة بالتعريب النقطي .

1 ــ تعريب السنتين الابتدائيتين الثالثة والرابعة بجعل كل مواد البرنامج تدرس بالعربية مع ابقاء تدريس اللغة الفرنسية كمجرد لغة أجنبية .

2 ــ تعريب ثلث الأقسام المفتوحة في مستوى السنة الأولى المتوسطة ، في جميع مؤسسات التعليم العام المتوسطة والثانوية وذلك بتدريس كل مواد البرنامج باللغة العربية وحدها ، بالاضافة الى تدريس الفرنسية كلغة أجنبية

3 ــ تعريب ثلث الأقسام العلمية في مستوى السنة الأولى الثانوية تعريبا كاملا ، أي بتدريس جميع مواد البرنامج ــ ومن بينها المواد العلمية من فيزياء ، وكيمياء ، ورياضيات ، وعلوم ــ بالعربية وحدها ،وتدرس اللغات الأخرى بصفتها لغات أجنبية (الفرنسية + اللغة التي كان التلميذ قد اختارها في المرحلة المتوسطة) .

وبدأ الاعداد لوضع هذه التدابير ــ التي اعترف لها بالطابع الثوري ــ موضع التنفيذ وتركزت الجهود حول قضيتين اثنتين كلتاهما تتحكمان الى حد بعيد في نجاح المشروع : تأليف الكتب العلمية الملائمة للبرنامج ، وتوفير أساتذة المواد العلميـــة اللازمـــين .

وليس من نافلة القول الاشارة الى أن هاتين المهمتين مما ينوء بهما كاهل الوزارة لأنهما في الحقيقة ترجعان الى مشكلة واحدة هي العنصر البشري العلمي المعـــرب بالاضافة الى أن المستوى المطلوب منه يزيد في صعوبة توفيره اذ أن كلتي المهمتين : تأليف الكتب العلمية المدرسية ، وتدريس المواد العلمية في المرحلة الثانوية ، تستلزمان تجربة واسعة ، وكفاءة عالية .

وبدأت الأعمال فورا ، فشكلت اللجان لتأليف الكتب العلمية وبدأت الاتصالات بالأقطار الشقيقة لاستعارة المدرسين للاقسام المعربة .

وقد وضع المسؤولون نصب أعينهم حقيقة ما كان بامكانهم تجاهلها هي أن العربية ستوضع عند تطبيق الاجراءات الجديدة ، في حالة منافسة لا مفر منها مع اللغـــة الفرنسية . ذلك أن المجتمع المدرسي خاصة ومحيط المدرســة بصفة عامة سيضطران اضطرارا ــ ذاتيا أو موضوعيا ــ للمقارنة بين هذه وتلك ، بين كتاب

الفيزياء ـ مثلا ـ بالعربية ، ونفس الكتاب بالفرنسية ، بين أستاذ الرياضيات ـ مثلا ـ بالعربية وأستاذ الرياضيات بالفرنسية . . . وأنه ينبغي أن يبذل أقصى ما بالامكان من الجهد لجعل اللغة القومية فى وضع ان لم يسكنها من السبق ؛ يجنبها على الأقل أن تظهر فى هيأة المتأخر .

واذا كان تجسيد هذا الطموح فى ميدان توظيف المدرسين لا يخضع لمشيئة المسؤولين فى وزارة التعليم الابتدائي والثانوي ، فقد كللت الجهود فى حقل الكتب المدرسية بنجاح كبير وجاءت انتاجا يبشر مضمونه وشكله بكل خير . ولعل من دواعي الفخر فى هذا الميدان أن يتم هذا الانجاز فى فترة قياسية اذ تمكن أفراد قلائل من وضع سلاسل كاملة فى الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية لكافة الأقسام المتوسطة والثانوية فى ظرف زمني لا يتجاوز ثلاث سنوات .

ووضعت اجراءات التعريب موضع التنفيذ فى الدخول المدرسي لسنة 71 ـ 72 وانطلقت المسيرة انطلاقة لا رجوع فيها ، وانتقلت العربية الى مرحلة التعبير عن المفاهيم العلمية والتقنية . وفى سنة 72 ـ 1973 أكملت خطة التعريب النقطي بتوسيع الاجراء الى السنة الخامسة الابتدائية ، فعرب ثلث الأقسام المفتوحة فى هذا المستوى لتتصل حلقات السلسلة بعضها ببعض فيمتد الثلث المعرب من السنة الخامسة الابتدائية الى قسم الباكالوريا . كما تقرر من ناحية أخرى تدعيم الأقسام العلمية المعربة بالتدابير التربوية التي تضمن لها النجاح . ورغبة فى اخلاء سبيل التعريب العلمي من العراقيل التي قد تعترض سبيله أو تلهي المسؤولين عن التصدي لمعالجته ، والاهتمام بمسائل أقل أهمية ، تقرر تعريب كل الشعب الأدبية المفتوحة فى السنة الأولى الثانوية وبذلك تبقى الاقسام العلمية محط الانظار ويبقى الحديث عن التعريب منصبا على الأقسام العلمية كما تقرر فى هذه السنة أيضا تدريس مادة الفلسفة بالعربية فى كل الشعب الأدبية من السنة النهائية الثانوية .

كانت هذه أهم التدابير التي اتخذت بصدد التعليم العام ، وقد اتخذت تدابير أقل أهمية منها فى نطاق التعليم التقني وتبدو الوضعية فى المتاقن ومؤسسات التعليم التقني كما يلي : كل مواد التعليم العام فى البرنامج معربة : الأدب ، التاريخ ، التربية الخلقية والدينية ، الجغرافيا الى مستوى السنة الثالثة . أما الجانب التخصصي من البرنامج ، والمواد العلمية الملحقة به فتدرس بالفرنسية ، وقد كان يجري التفكير

فى أنجع الطرق لتوسيع التعريب الى ميدان التعليم التقني ، وبدأ بالفعل تعريب عدد من الأقسام التجارية والسكرتارية ، الا أن اعادة النظر فى هذا التعليم بصفة عامة ، وتبني مشروع اصلاحي واسع يتناول كل مراحل التعليم قد منح التعريب فى هذا الميدان أبعادا جديدة .

ذلك أن المخطط الرباعي القادم « 74 — 77 » سيشهد اصلاحا جذريا يتناول شكل التعليم ومضمونه ويتلخص فى الغاء الحواجز المصطنعة بين ما يسمى بالتعليم التقني ، وما يسمى بالتعليم العام ، وانشاء مدرسة أساسية تشتمل على تسع سنوات من التعليم الاجباري ، يبدأ فى السنة السابعة منها « تعليم متعدد التقنيات » يشمل فى الوقت نفسه المعارف العامة والمعارف التقنية . وقد تقرر فى هذا الباب أن تكون العربية لغة التدريس لجميع المواد . وبذلك يعم التعريب .

يتبين من كل ما تقدم أن التعريب فى الجزائر قد أخذ طريقه الصحيح ، وأن شموله لكل القطاع التعليمي يتوقف على توفير الأساتذة الأكفاء ، لذلك اتخذت قرارات على جانب كبير من الاهمية فى ميدان تكوين المعلمين ، فبعد تعريب المعاهد التكنولوجية (دور المعلمين) لتكوين المعلمين الابتدائيين ، تقرر تكييف الدروس التي يتلقاها طلبة معاهد التكوين لأساتذة التعليم المتوسط بحيث يتخرجون فى نهاية الدورة وهم قادرون على تدريس مادة اختصاصهم (كل المواد العلمية والتكنولوجية خاصة) باللغة العربية وبذلك يصبح التوسع فى التعريب مرتبطا بكميات الأفواج المتخرجة مما سيؤدي الى تجاوز نسبة الثلث بل الى تحقيق التعريب الشامل ، لأن الثلث يصبح الحد الأدنى ، فاذا أتاحت الوسائل البشرية تجاوزه فذلك هو المطلوب .

تلك هي مسيرة التعريب جرى تتبعها بايجاز من أول خطواتها حين كانت عبارة عن تخصيص عدد من الساعات الأسبوعية لتدريس اللغة العربية ، قيمتها الرمزية أكثر بكثير من جدواها العملية الى أن شملت كل الجانب الأدبي من التعليم وأكثر من ثلث الجانب العلمي منه . ولم تكن الطريق سهلة ولا ميسورة ، بل كانت شاقة ، وكانت مملوءة بالمصاعب من كل نوع ، الا أن الارادة الصلبة فى بناء المدرسة الجزائرية على أساس الأصالة القومية ، والارتباط الوثيق بواقع الشعب ، وتطلعات البلاد نحو المستقبل المشرق قد أتاحت التغلب على أكثر تلك المتاعب ، ومكنت من تحقيق هذه المنجزات .

التعريب فى المرحلة الابتدائية

لسنة 1973 — 1974

السنة 1	معربة تعريبا كاملا .
السنة 2	معربة تعريبا كاملا .
السنة 3	معربة تعريبا كاملا + تدريس الفرنسية كلغة اجنبية .
السنة 4	معربة تعريبا كاملا + تدريس الفرنسية كلغة اجنبية .
السنة 5	$\frac{1}{3}$ الاقسام معربة . تعريبا كاملا ، مع تدريس الفرنسية كلغة اجنبية . و $\frac{2}{3}$ الاقسام مزدوجة تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية .
السنة 6	$\frac{1}{3}$ الاقسام معربة . تعريبا كاملا ، مع تدريس الفرنسية كلغة اجنبية . و $\frac{2}{3}$ الاقسام مزدوجة تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية .

التعريب فى المرحلة المتوسطة

لسنة 1973 – 1974

السنة	
السنة 1	فى كل سنة من السنوات الثلاث :
السنة 2	$\frac{1}{3}$ الاقسام معربة تعريبا كاملا
السنة 3	وفى $\frac{2}{3}$ الباقين تدرس كل المواد بالعربية ما عدا مادة الرياضيات ؛ والعلوم الطبيعية واللغات الاجنبية
السنة 4	**المواد التي تدرس بالعربية :** كل المواد تدرس بالعربية ما عدا : الرياضيات ـ العلوم الطبيعية ـ الجغرافيا واللغات الأجنبية .

ملاحظة : مادة الجغرافية يتواصل تعريبها سنة فسنة ، وقد وصل تعريبها فى هذا العام الى السنة الثالثة المتوسة .

التعريب في المرحلة الثانوية
لسنة 1973 — 1974

	شعبة الاداب	شعبة الريضيات	شعبة العلوم
السنة 1	كل الاقسام معربة تعريبا كاملا .	$\frac{1}{3}$ الاقسام معرب تعريبا كاملا و $\frac{2}{3}$ الاقسام تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية .	$\frac{1}{3}$ الاقسام معرب تعريبا كاملا و $\frac{2}{3}$ الاقسام تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية .
السنة 2	كل الاقسام معربة تعريبا كاملا .	$\frac{1}{3}$ الاقسام معرب تعريبا كاملا و $\frac{2}{3}$ الاقسام تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية .	$\frac{1}{3}$ الاقسام معرب تعريبا كاملا و $\frac{2}{3}$ الاقسام تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية .
السنة 3	كل المواد تدرس بالعربية باستثناء الرياضيات (1) والجغرافية .	$\frac{1}{3}$ الاقسام معرب تعريبا كاملا و $\frac{2}{3}$ الاقسام تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية بالاضافة الى الجغرافية والفلسفة .	$\frac{1}{3}$ الاقسام معرب تعريبا كاملا و $\frac{2}{3}$ الاقسام تدرس فيها المواد الادبية بالعربية ، والمواد العلمية بالفرنسية بالاضافة الى الجغرافية والفلسفة .

(1) ملاحظة : سيعرب هذا القسم تعريبا كاملا في السنة القادمة 74 — 75 ، بمقتضى انتقال تلاميذ السنة الثانية الى السنة الثالثة .

ملحقـــات احصـــائية

الجدول رقم 1:

تطور التوقيت الاسبوعي للمواد المدرسة

باللغة العربية في مرحلة التعليم الابتدائي

(الارقام في الخانات تدل على عدد الساعات)

العام الدراسي	السنة 1	السنة 2	السنة 3	السنة 4	السنة 5	السنة 6	السنة 7
64 – 1963	3	7	10	10	10	10	10
65 – 1964	15	15	10	10	10	10	10
66 – 1965	15	15	10	10	10	10	10
67 – 1966	15	15	10	10	10	10	10
68 – 1967	20	20	15	10	10	10	10
69 – 1968	20	20	15	10	10	10	10
70 – 1969	20	20	20	15	10	10	10
71 – 1970	20	20	20	15	10	10	10
72 – 1971	24	24	14	14	12	12	10
73 – 1972	24	24	14	14	12	12	10

الجدول رقم : 2

تطور التوقيت الاسبوعي للمواد المدرسة باللغة العربية في المتوسطات والثانويات العامة المزدوجة

(الارقام في الخانات تدل على عدد الساعات)

العام الدراسي	السنة الاولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة				السنة السادسة				السنة السابعة		
					الادبية -2-	الادبية -1-	الرياضية	العلمية	الادبية -2-	الادبية -1-	الرياضية	العلمية	الادبية	الرياضية	العلمية
64_1963	7	7	6.	5	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	4	4	2
65_1964	8	8	7	6	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	4	4	2
66_1965	9	9	6 ر30	6 ر30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	6	5	3
67_1966	10	9	6 ر30	6 ر30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	6	5	3
68_1967	10	10	7 ر30	6 ر30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	6	5	3
69_1968	10	10	9 ر30	6 ر30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	5 ر 30	–	5 ر 30	5 ر 30	6	5	3
70_1969	10	10	8	8	8	6	5 ر 30	5 ر 30	8	5	4	4	7	3	3
71_1970	10	10	8	9	10	8	7	7	10	7	5	5	7	7	6
72_1971	10	10	8	7 ر30	10	8	7	7	10	7	5	5	7	7	6
73_1972	10	10													

ملحـــق
البيانـــات الاحصـــائية

ان النظر فى هذه البيانات الاحصائية يتيح استخلاص الملاحظات التالية حول المنجزات فى حقل التعـريب :

1 ـ الأقســـام :

فى سنة 63 ـ 64 كانت الأقسام المعربة تمثل نسبة 3ر1 % من المجموع العام . وفى سنة 70 ـ 71 انتقلت هذه النسبة الى 4ر5 % . أما فى سنة 72 ـ 73 ، فان نسبة هذه الأقسام المعربة قد أصبحت تمثل 2ر32 % من المجموع العام وذلك بعد تطبيق سياسة « التعريب النقطي » .

2 ـ التـــلاميذ فى المتـــوسط والثانـــوى :

كان عدد التلاميذ الذين يدرسون فى أقسام معربة من التعليم المتوسط والثانوي 859 تلميذا سنة 63 ـ 64 . وبلغ عددهم 12.747 فى سنة 70 ـ 71 . أما فى عام 72 ـ 73 ، فقد بلغ العدد 106.916 تلميذا .

3 ـ المعلمـــون :

كانت نسبة التلاميذ المسجلين فى أقسام معربة من معاهد تكوين المعلمين تبلغ 4ر24 % من المجموع العام فى سنة 65 ـ 66 وارتفعت هذه النسبة الى 4ر54 % سنة 70 ـ 71 فكان المعدود 2019 من مجموع 3698 وفى سنة 72 ـ 73 ارتفعت النسبة الى 3ر84 % فكان المعدود 4130 من مجموع 4446 .

4 ـ الامتحـانات :

(أ) الشهـادة الابتدائية : كان عدد التلاميذ الناجحين 4.247 سنة 63 ـ 64 وانتقل العدد الى 54.956 سنة 70 ـ 71 . ووصل فى 72 ـ 73 الى 82.451

(ب) شـهادة الأهليـة : كان عدد الناجحين 238 تلميـذا سـنة 63 ـ 64 من مجموع 7.713 وانتقل العدد الى 17.166 سنة 70 ـ71 من مجموع 32.116 وفى سنة 72 ـ 73 كان عـدد الناجحين 15.020 من مجموع 32.085 .

ويلاحظ أن العدد قد انخفض وذلك راجع الى الغاء شهادة الأهلية واستبدالها بشهادة التعليم المتوسط .

(ح) الباكالوريا : كان عدد الناجحين في امتحان الباكالوريا سنة 67 — 68 قد بلغ 45 بنسبة قدرها 6ر2 % من مجموع الناجحين ، ووصل العدد الى 418 سنة 70 — 71 ، أي بنسبة 48ر7 % ، وفي سنة 72 — 73 بلغ عدد الناجحين 1.198 تلميذا ، ووصلت النسبة الى 73ر17 % .

توقعـــــات

يستخلص من الاحصائيات التوقعية التي وضعت اعتمادا على حساب التلاميذ المسجلين سنة 72 — 73 في السنة الأولى الثانوية ، (مع اسقاط حصة الرسوب 10 %) ، يستخلص ما يلي :

1 — يكون عدد التلاميذ المسجلين في الأقسام النهائية من التعليم الثانوي (وهم المترشحون الى امتحان الباكالوريا) سنة 72 — 73 ، قد بلغ 11.800 ؛ منهم 1.408 في الأقسام المعربة ، أي بنسبة 92ر11 % .

2 — **وفي سنة 73 — 74 :** سيبلغ عددهم 14.173 ، منهم 4.023 في الأقسام المعربة ، أي بنسبة 38ر28 % .

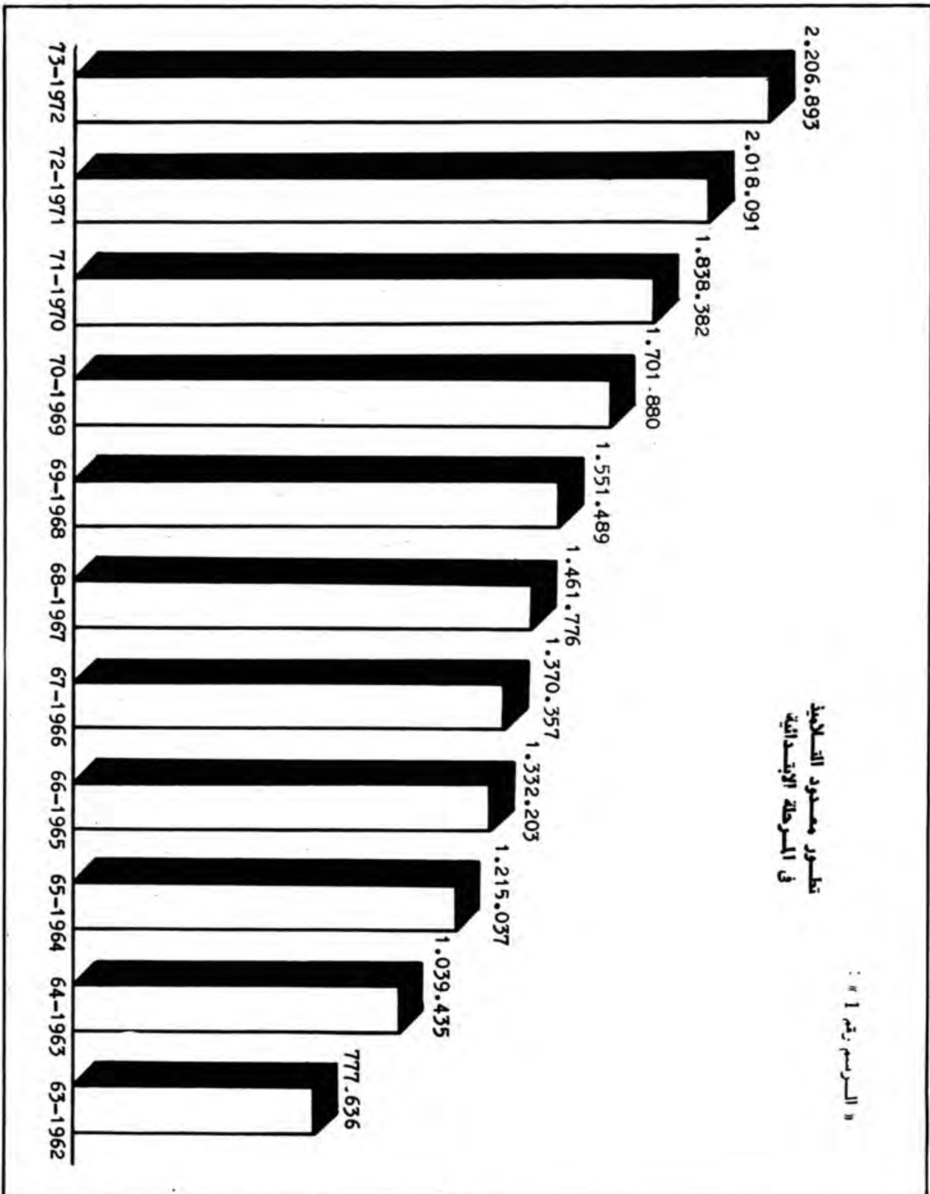
3 — **وفي سنة 74 — 75 :** سيبلغ عدد المسجلين في الأقسام المعربة وحدها : 10.266 بينما سيكون عدد المسجلين في الأقسام المزدوجة 8.095 تلميذا ، أي أن هذه السنة ستشهد تحولا جذريا في الوضعية ويصبح عدد المترشحين الى الامتحان المزدوج يمثلون 08ر44 % من المجموع .

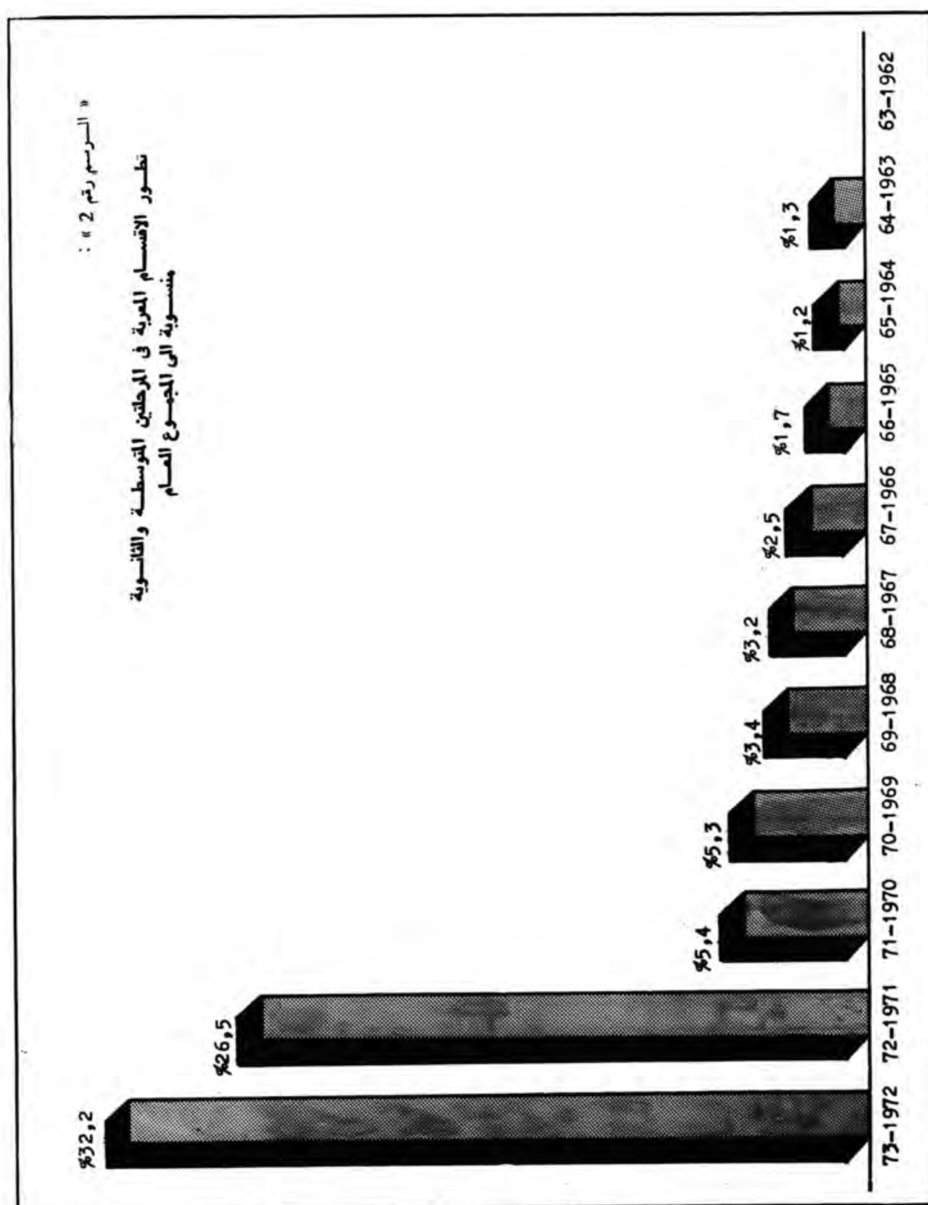
وتعطي نفس الاحصائيات التوقعية لهذه السنة 74 — 75 التوزيع التالي :

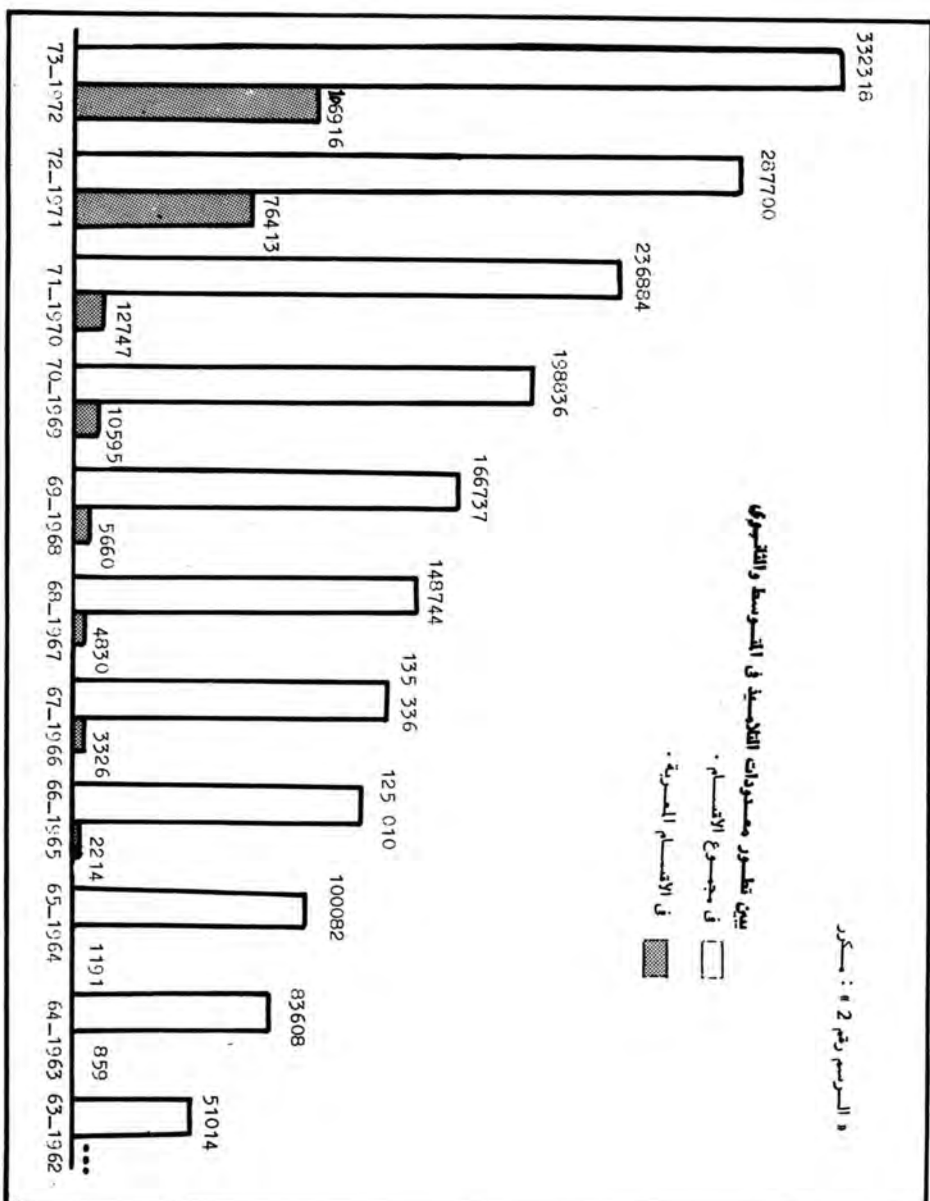
(أ) **في الشعبة الادبية :** الباكالوريا الأدبية تكون معربة كلها .

(ب) **وفي شعبة العلوم :** يكون عدد المترشحين الى الامتحان المعرب 3.369 ، مقابل 4.962 مترشح الى الامتحان المزدوج .

(ح) **وفي شعبة الرياضيات :** يكون عدد المترشحين الى الامتحان المعرب 1.425 ، مقابل 3.133 مترشح الى الامتحان المزدوج .


« الرسم رقم 1 » :
تطـور معـدود التـلاميذ
في المـرحلة الإبتـدائية
777.636
1.039.435
1.215.037
1.332.203
1.370.357
1.461.776
1.551.489
1.701.880
1.838.382
2.018.091
2.206.893
63-1962
64-1963
65-1964
66-1965
67-1966
68-1967
69-1968
70-1969
71-1970
72-1971
73-1972


« الرسم رقم 2 » :
تطور الأقسام المعربة في المرحلتين المتوسطة والثانوية
منسوبة الى المجموع العام
%32,2
%26,5
%5,4
%5,3
%3,4
%3,2
%2,5
%1,7
%1,2
%1,3
73-1972
72-1971
71-1970
70-1969
69-1968
68-1967
67-1966
66-1965
65-1964
64-1963
63-1962

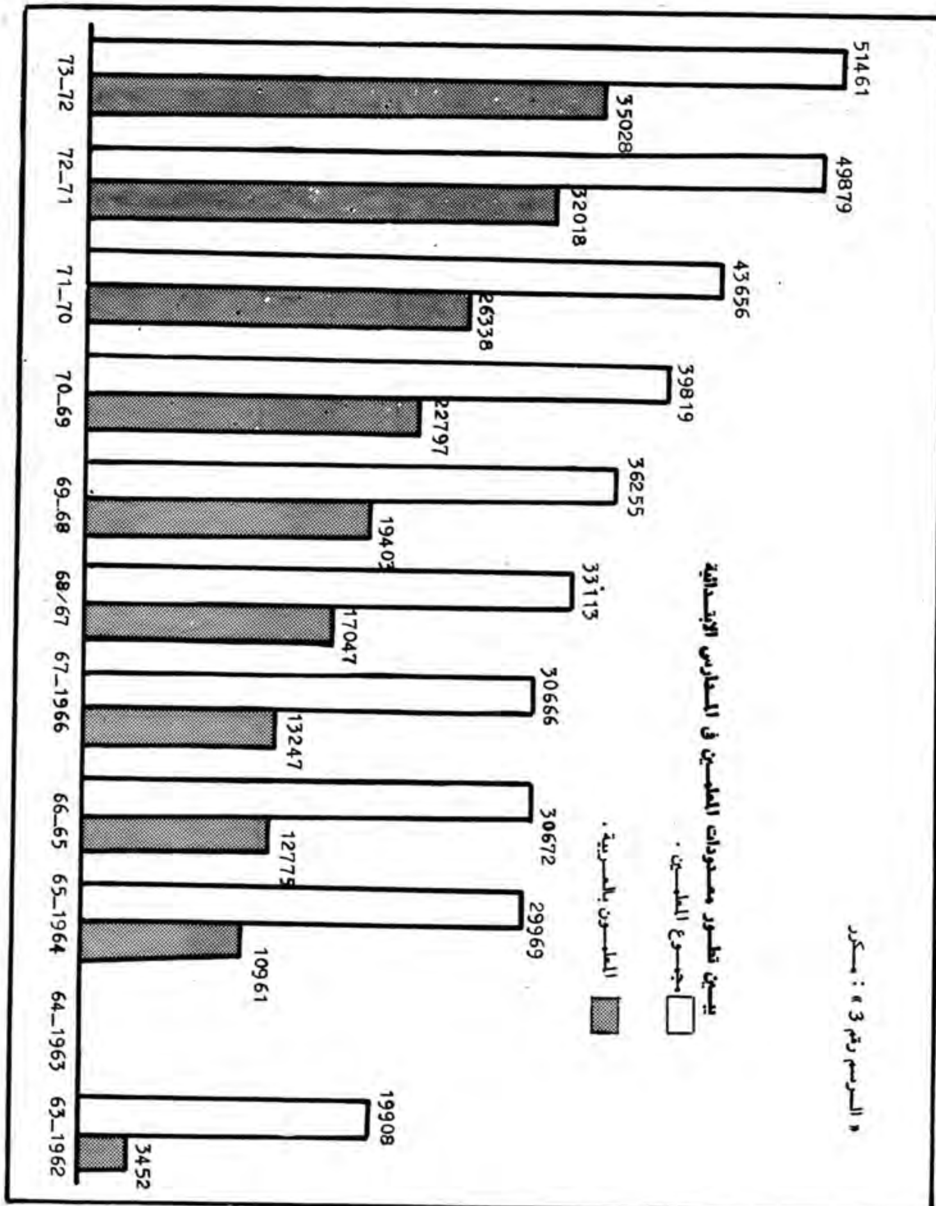

« الرسم رقم 2 » : مكرر
يبين تطور معدودات التلاميذ في المتوسط والثانوي
في مجموع الأقسام .
في الأقسام المعربة .
332316
106916
287700
76413
236884
12747
198836
10595
166737
5660
148744
4830
135 336
3326
125 010
2214
100082
1191
83608
859
51014
...
73_1972
72_1971
71_1970
70_1969
69_1968
68_1967
67_1966
66_1965
65_1964
64_1963
63_1962

الجدول رقم : 3

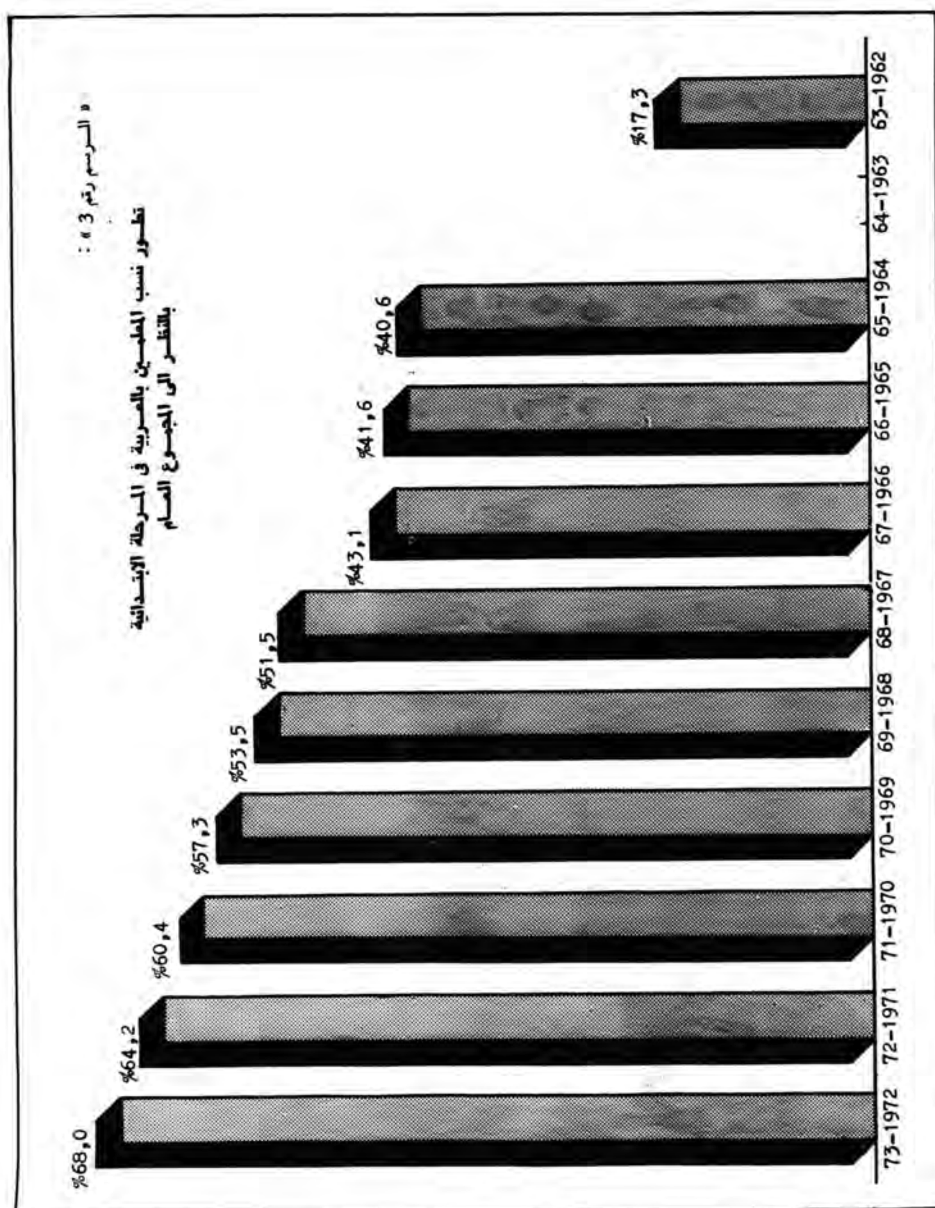
تطور التوقيت الاسبوعي للمواد المدرسة باللغة العربية في المتوسطات التقنية ومدارس المرحلة الثانوية التقنية .

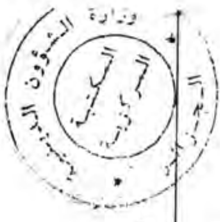
(الارقام في الخانات تدل على عدد الساعات)

العام الدراسي	متوسطات التعليم التقني			مرحلة التعليم الثانوي التقني		
	السنة 1	السنة 2	السنة 3	السنة 1	السنة 2	السنة 3
64_1963	5	4	2	4	4	4
65_1964	5	4	2	4	3	4
66_1965	5	4	2	4	4	2
67_1966	5	4	2	4	4	2
68_1967	5	4	2	4	3	2
69_1968	5	4	2	4	3	2
70_1969	5	4	2	3	2	2
71_1970	5	4	2	3	2	2
72_1971	5	4	2	3	2	2
73_1972						



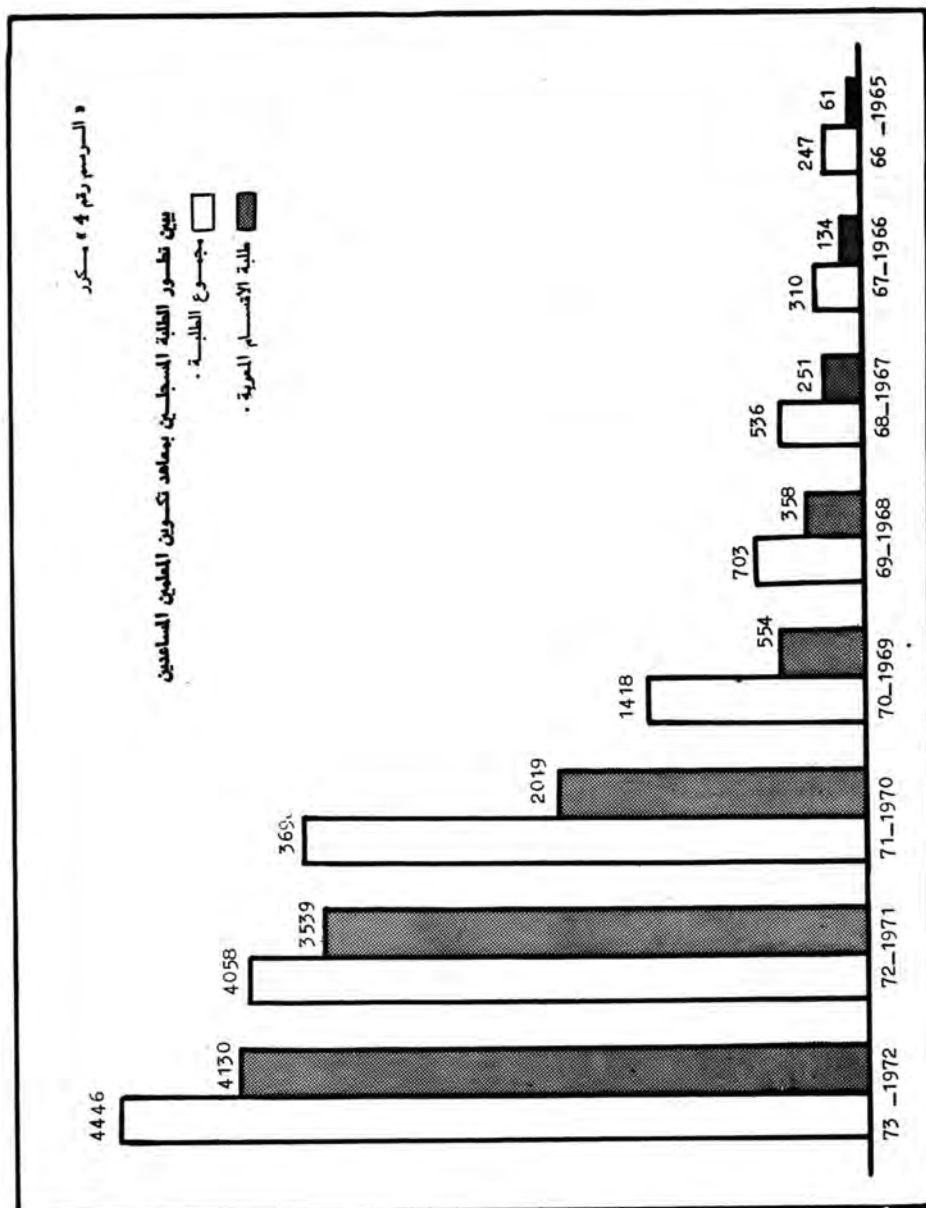
الرسم رقم 3 : مكرر
يبين تطور معدودات المتعلمين في المدارس الابتدائية
مجموع المتعلمين .
المتعلمون بالعربية .
51461
35028
49879
32018
43656
26338
39819
22797
36255
19403
33113
17047
30666
13247
30672
12775
29969
10961
19908
3452
73_72
72_71
71_70
70_69
69_68
68/67
67_1966
66_65
65_1964
64_1963
63_1962


« الرسم رقم 3 » :
تطور نسب المعلمين بالعربية في المرحلة الابتدائية
بالنظر الى المجموع العام
%17,3
%40,6
%41,6
%43,1
%51,5
%53,5
%57,3
%60,4
%64,2
%68,0
63-1962
64-1963
65-1964
66-1965
67-1966
68-1967
69-1968
70-1969
71-1970
72-1971
73-1972

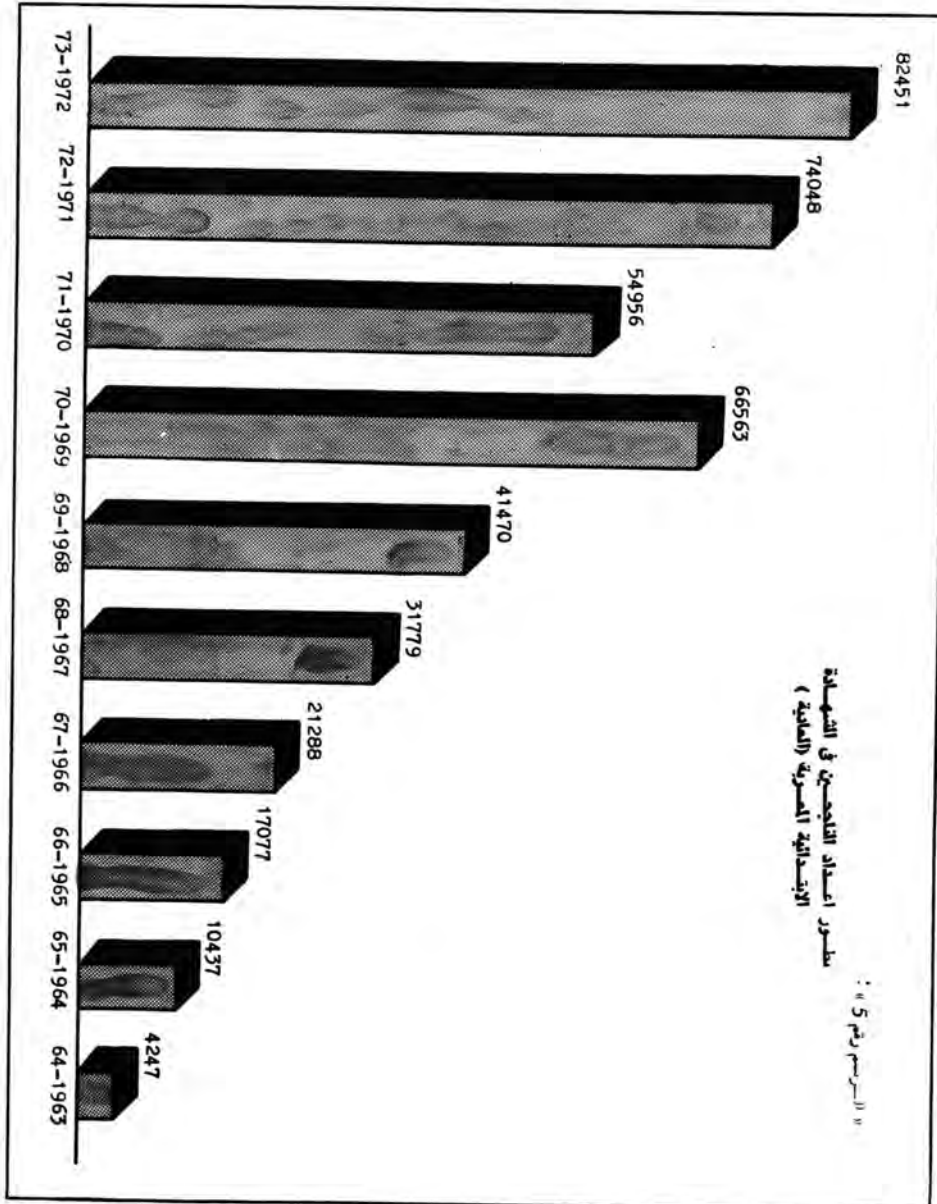


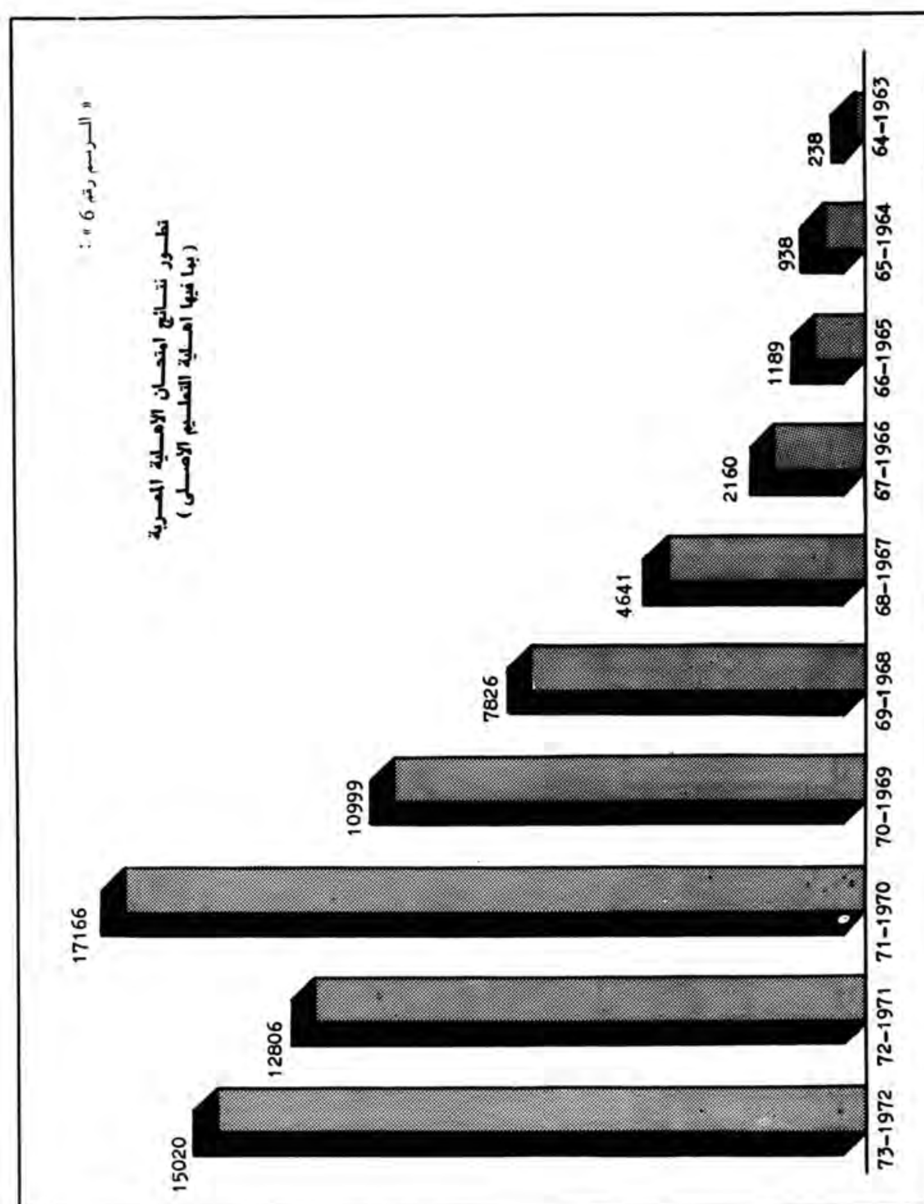

« الرسم رقم 4 » :
تطور نسب الطلبة المسجلين في الأقسام المعربة من معاهد
تكوين المعلمين المساعدين
73-1972
72-1971
71-1970
70-1969
69-1968
68-1967
67-1966
66-1965

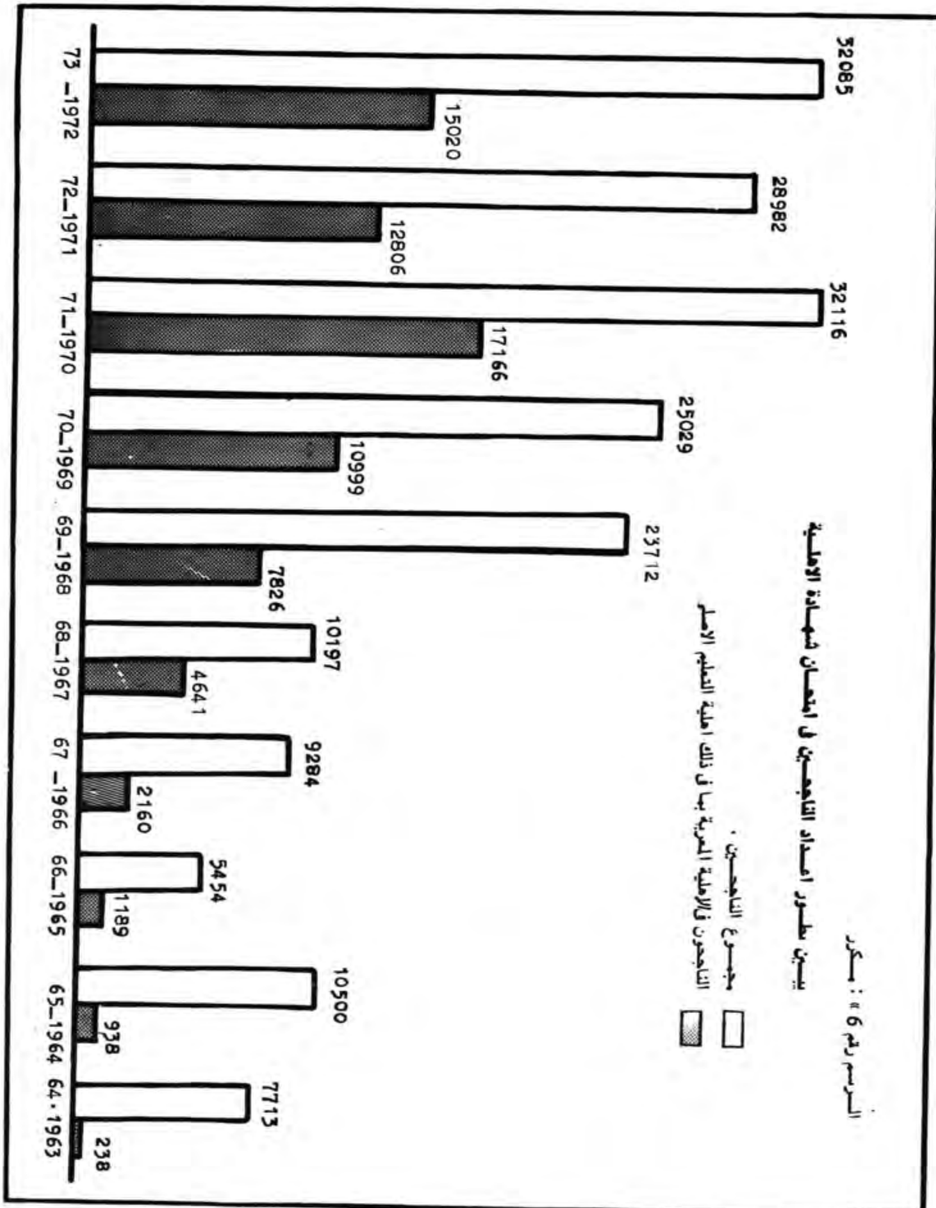


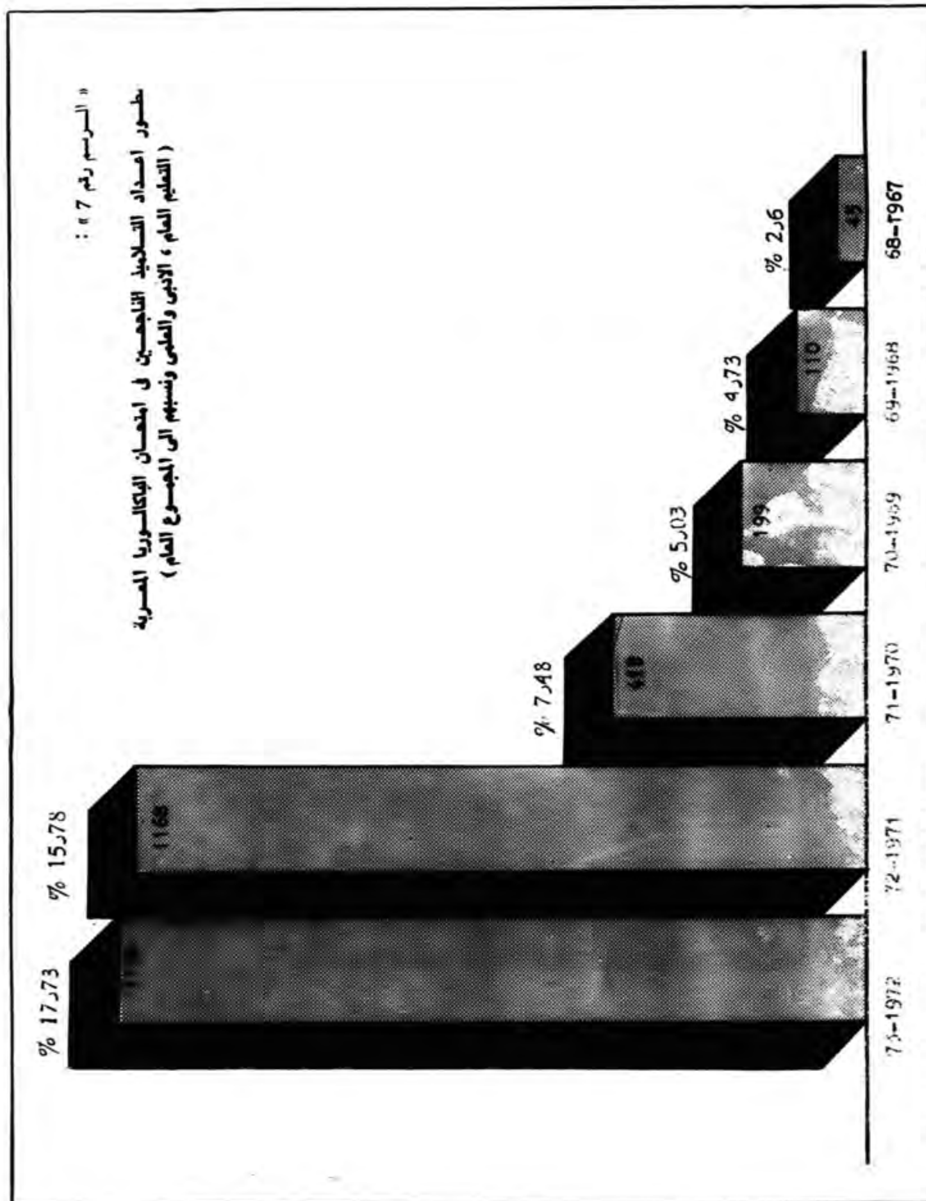


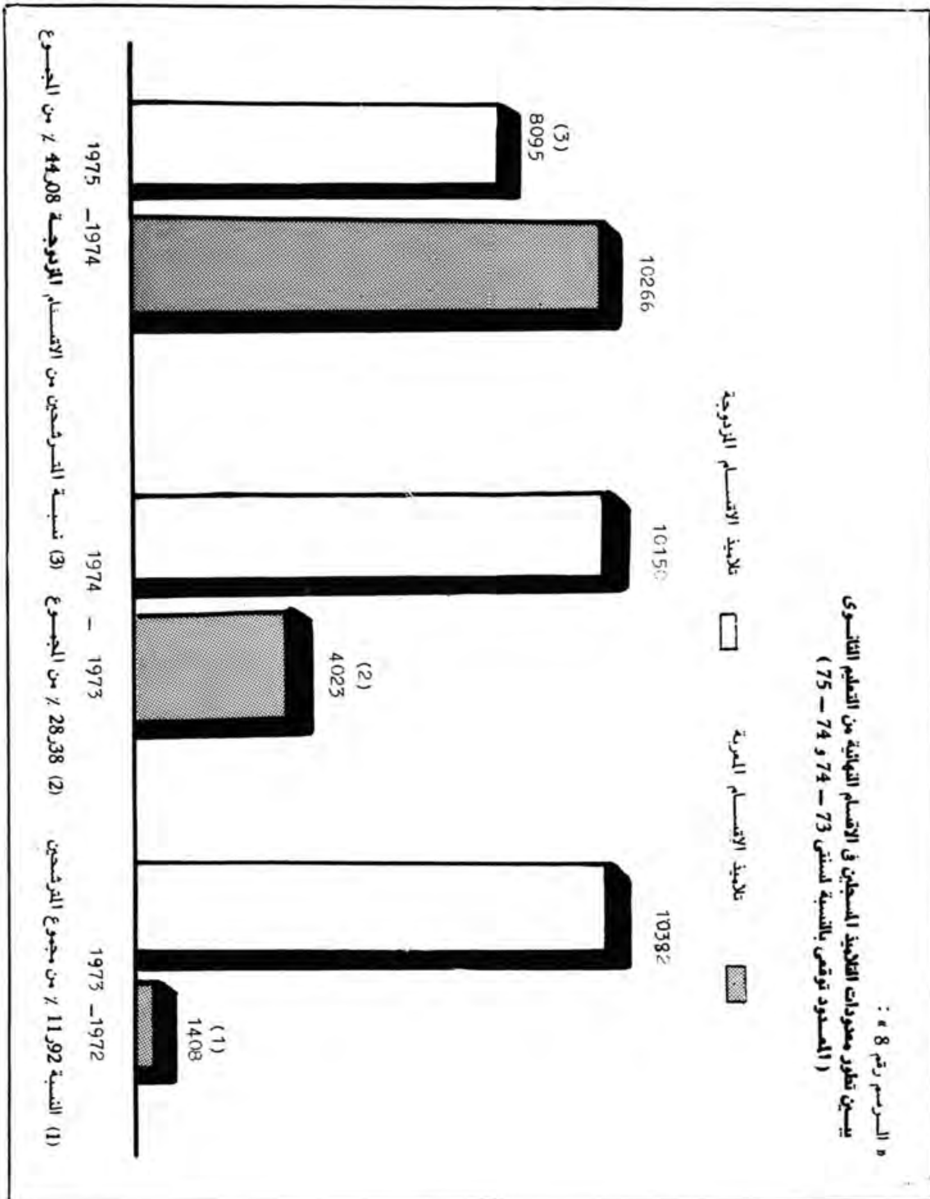
« الرسم رقم 4 » مكرر
يبين تطور الطلبة المسجلين بمعاهد تكوين المعلمين المساعدين
مجموع الطلبة .
طلبة الأقسام المعربة .
1965 _ 66
1966_67
1967_68
1968_69
1969_70
1970_71
1971_72
1972 _ 73
247
61
310
134
536
251
703
358
1418
554
369
2019
4058
3539
4446
4130


« الـرسم رقم 5 » :
تطـور اعـداد الناجحـين فى الشهـادة
الابتـدائية المصـرية (العادية)
82451
74048
54956
66563
41470
31779
21288
17077
10437
4247
73-1972
72-1971
71-1970
70-1969
69-1968
68-1967
67-1966
66-1965
65-1964
64-1963


« الرسم رقم 6 » :
تطور نتائج امتحان الأهلية المعربة
(بما فيها اهلية التعليم الأصلى)
238
938
1189
2160
4641
7826
10999
17166
12806
15020
64-1963
65-1964
66-1965
67-1966
68-1967
69-1968
70-1969
71-1970
72-1971
73-1972


الرسم رقم 6 » : مكرر
يبين تطور اعداد الناجحين في امتحان شهادة الاهلية
مجموع الناجحين .
الناجحون في الاهلية المعربة بما في ذلك اهلية التعليم الاصلي
32085
15020
28982
12806
32116
17166
25029
10999
23712
7826
10197
4641
9284
2160
5454
1189
10500
938
7713
238
73 _1972
72_1971
71_1970
70_1969
69_1968
68_1967
67 _1966
66_1965
65_1964
64 · 1963


« الرسم رقم 7 » :
تطور أعداد التلاميذ الناجحين في امتحان البكالوريا المعربة
(التعليم العام ، الأدبي والعلمي ونسبهم الى المجموع العام)
% 17,73
% 15,78
1168
% 7,48
610
% 5,03
199
% 4,73
110
% 2,6
45
73-1972
72-1971
71-1970
70-1969
69-1968
68-1967


الرسم رقم 8 :
يبين تطور معدودات التلاميذ المسجلين في الأقسام النهائية من التعليم الثانوي
(المعدود توقعي بالنسبة لسنتي 73 – 74 و 74 – 75)
تلاميذ الأقسام المعربة
تلاميذ الأقسام المزدوجة
(1)
1408
10382
(2)
4023
10150
10266
(3)
8095
1972 – 1973
1973 – 1974
1974 – 1975
(1) النسبة 11,92 ٪ من مجموع المرشحين (2) 28,38 ٪ من المجموع (3) نسبة المرشحين من الأقسام المزدوجة 44,08 ٪ من المجموع

تجربة الجيش الوطني الشعبي
في ميدان التعريب
ونشر اللغة الوطنية

بالرغم من أن تجربة الجيش الوطني الشعبي في ميدان التعريب لم تستكمل ملامحها ، ولم يحن بعد أوان تقييمها واستخلاص نتائجها ، بالرغم من كل هذا فان مظاهرها العامة ، والخطوات التي قطعتها والمراحل التي اجتازتها لحد الآن ، قد تركت انطباعا حسنا بدا يتولد عنه شعاع من الامل يضيء معالم دربها ويبلور اتجاهها الصحيح ، خاصة وهي في سيرها نحو النجاح ، لا توحي باي شعار متطرف ، كما ان مقوماتها تستند على جذور عميقة مستمدة من الماضي لتاخذ منه ما يلائم واقع العمل اليومي وطبيعة الشخصية العسكرية ذات الفعالية الدائمة والنشاط المستمر ٠

ان فهم هذه التجربة فهما صحيحا لا بد ان يوازيه ويواكبه على الدوام ـ فى راينا ـ فهم واقعى لظروف الحياة المعاشة داخل صفوف الجيش الوطنى الشعبى بكل ما تزخر به هذه الظروف من قيم روحية ، وعمل يومى جاد ، ونضال مستمر ، وروح انضباطية عالية ، وتفان فى اداء الواجب ، وحب العمل • وبدون فهم كامل لهذه المعطيات الواقعية سنظل عاجزين عن تحديد مدى الفرصة المتاحة للتطبيق والتنفيذ اللازمين لهذه التجربة فى ظروف تتسم بالجدية والاندفاع التلقائى لتنفيذ الواجبات اليومية فى اطار من الالتزام والنزاهة والاخلاص ، وبكيفية تتناسب تناسبا كليا مع ما لهذا الجيش من تقاليد ورثها الخلف عن السلف عبر تاريخه النضالى الطويل •

لقد جعل كل هذا من الهدف المتوخى شيئا آخر ليس هو تعليم فرد فى الجيش الوطنى الشعبى ليصبح موظفا أو أى شىء آخر ، كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة بقدر ما هو محاولة لتمكين هذا الفرد من استخدام معارفه العربية الاصيلة فى عمله اليومى ، ومهما كان نوع هذا العمل ومكانه ، فان الخطة ترتكز فى الاساس على ربط المدرسة بالواقع ، لان ذلك معناه تشجيع وحماية النحو الحيوى للجيش الوطنى الشعبى فى اطار من الانسجام والتوازن بين مراتبه ، ومعناه أيضا ، اخضاع التجربة للظروف السائدة وما توفرها هذه الظروف من امكانيات ووسائل •

فربط المدرسة بحياة الجندية يعنى اذن تكييف بنية التعليم مع ظروف وامكانيات الجيش الوطنى الشعبى ، وعلى هذا الاساس تكون المدرسة فى الجيش الوطنى الشعبى ليست غاية فى حد ذاتها ، بل هى وسيلة يتحتم عليها تماما ، مثل الوسائل الاخرى ، أن تتكيف مع متطلبات الجيش الوطنى الشعبى وتطور البلاد ، وبهذا يأخذ محتوى التعريب بعين الاعتبار طبيعة الجهد اليومى لكل مراتب الجيش الوطنى الشعبى سواء أكان هذا الجهد عضليا أو فكريا •

بهذا المفهوم الواقعى للتعريب انطلق الجيش الوطنى الشعبى فى تجربته يخطو الخطوات المتزنة الثابتة ، ويقطع المرحلة تلو الاخرى بعزيمة وايمان ، وكان سيره لتحقيق هدفه الواضح يمر عبر محورين اساسيين هما :

١) ـ تعريب الافراد •

٢) ـ تعريب الادارة •

١ ـ تعريب الافراد :

لقد كان واضحا من أول وهلة أن مشكلة محو الامية لا بد من أن تأخذ أولويتها ليس استنادا فقط الى النظرة الانسانية وحدها ، ولا انسياقا وراء النظرة التقليدية ، بل انطلاقا من نظرية ثورية لا تعتبر الامية مجرد حرمان ثقافى فحسب ، وانما تعتبرها أيضا محورا للصراع الطبيعى ، خاصة والامية على المستوى التربوى ـ كما نعرف جميعا ـ ما هى الا ظاهرة معقدة من العوامل الاقتصادية والنفسية والسياسية والاجتماعية ••• هذه العوامل التى وضعت فئة كبيرة من الافراد فى ساقة الركب الثقافى لامتهم وليس بالامكان الحاق هذه الفئة بالركب بمجرد اعطائها بعض الدروس الاولية •• ان عملا مثل هذا سيزيد ولا شك من فارق المسافة بين المؤخرة والركب ، وسيجعل التحاقها بالركب أمرا متعذرا ان لم يكن مستحيلا ، ولكى لا تكون أخطاؤنا

سببا لاضرار قد تصاب بها هذه الفئة المحرومة من معرفة اللغة الوطنية ، عملنا من أجل اعدادها تعليميا وتربويا وتوجيهيا فى آن واحد ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لقد أثبتت التجارب العديدة لمحو الامية أن الاعتبار الاول والهام هو ضرورة العمل على محو الامية فى اطار الاهتمامات والمطامح السائدة ، ومحوها بمعزل عن هذا الاعتبار لن يؤدى الى نتيجة مرضية ٠

من هذا المنظور الدقيق والواضح انبعث الالحاح والتصميم للقضاء على الامية داخل صفوف الجيش الوطنى الشعبى فى أسرع وقت ممكن رغم استمرارية دخول أفواج جديدة فيها أميون الى صفوف الجيش ٠٠٠ فجرى تنظيم عام وضعت بموجبه برامج غنية تناولت جميع جوانب محو الامية وفق الطرق التربوية الحديثة ، لتعليم الكبار ، وأحدثت اقسام دراسية تتوفر على جميع شروط الدراسة الناجحة ، كما خصص الوقت اللازم للتعليم ، وتم تجنيد جل العسكريين الذين لهم مستوى ثقافى معين فى اللغة الوطنية يسمح لهم باعطاء دروس محو الامية ، وانتداب بعض المعلمين المدنيين للقيام بنفس المهمة ٠

لم يمض وقت طويل حتى بدات مجهوداتنا تؤتى ثمارها فى هذا الميدان ، وبدت النتيجة واضحة تجلت فيها ارادة الجندى الجزائرى فى التحول ، وقدرته على مواكبة ركب التطور العام الذى تشهده البلاد ٠

وبقدر ما كانت هذه النتيجة محل رضا الجميع ، فقد اثارت بالقدر نفسه استفسارات وتساؤلات على كل المستويات المعنية ٠ ولعل من أهم ما طرح : هل نكتفى بما حققنا أم نستمر ؟ واذا قررنا الاستمرار ، فما هو الطريق الافضل ؟

لقد كان الجميع متفقين على أن نجاحنا فى محو الامية يجب أن يكون بمثابة رأس جسر لتامين العبور نحو مرحلة أكثر دقة وتنظيما ، وكان غرض الوصول الى شىء اكثر ثباتا واستقرارا يسيطر على الجميع ، وظهر جليا ان الطريق الى هذا الهدف يمر عبر مرحلة أخرى اسطلح على تسميتها بمرحلة «اثبات المستويات» والتى انطلقت منذ عام ١٩٦٩ ، ولا زالت مستمرة نظرا للافواج الجديدة ــ من شبابنا ــ التى تلتحق بصفوف الجيش الوطنى الشعبى سنويا ٠ ويمكن تحديد الغاية من هذه الحملة كما يلي :

١ ــ معرفة مستوى كل مستجد فى اللغة الوطنية ، ثم تثبيت هذا المستوى رسميا فى دفتر التعليم ، وفى شهادة تعطى للمستجد وتوضع نسخة منها فى ملفه الشخصى لاستعمالها عند الحاجة ، ثم الحاقه بواسطة هذه الشهادة بالمستوى المعين لاستكمال تعلمه ٠

٢ ــ تهدف الى فرز عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة ثم تصنيفهم حسب المستويات الموجودة ، وبالتالى الحاق كل واحد منهم بالمستوى الذى تحصل عليه فى امتحانات « اثبات المستوى » ٠

٣ ــ معرفة عدد الجنود فى كل مستوى ، سواء فى الوحدة أو المصلحة حتى يتسنى للمسؤولين توفير الامكانيات اللازمة والمطلوبة لضمان انطلاقة حسنة فى مستهل كل عام دراسى ٠

لقد كانت هذه العملية تبدو ضرورية للغاية ــ نظرا لاختلاف ظروف العمل والتكوين والتوزيع لدى مراكب ج ــ و ــ ش ــ عبر التراب الوطنى ــ من أجل بداية سليمة تستهدف عملا منظما فى هذا الميدان لوضع أول لبنة فى بناء مدرسة الجيش الوطنى الشعبى الابتدائية ، وتكون بالنسبة لها

بمثابة المعين الذى يزودها بعدد كاف من الذين لهم مستويات مختلفة فى اللغة الوطنية • ولحد الساعة فقد استطعنا بواسطة هذه العملية ـ عملية اثبات المستوى ـ أن نعرف مستوى ما يقرب من ٧٠ ٪ من منتسبى ج•و•ش فى اللغة الوطنية بصفة عامة •

وبتحقيق هذه النتيجة المعتبرة أمكننا تامين الامكانيات البشرية المنظمة والضرورية التى تسمح لنا بفتح مدرسة الجيش الوطنى الشعبى النظامية بصفة رسمية ، ولكن عملية الاعداد النظرى كانت قد سبقت هذه المرحلة وتركزت حول :

١ ـ تاسيس أرضية فكرية لمدرسة ج•و•ش•

٢ ـ محاولة تطوير الاطر الفنية للمدرسة ، وذلك باجراء دورات بيداغوجية للمعلمين العسكريين ليستطيعوا القيام بواجبهم الجديد الذى يتعدى محو الامية ، وبعقد الاجتماعات على المستوى المركزى والجهوى لنقد المناهج وتقديم الاقتراحات لسد التغرات وتطوير ثقافة الجنود النظامية •

٣ ـ اجراء دراسة ونقد ومقارنة لمناهجنا الابتدائية مع بعض المناهج الاخرى •

وبهذا تم اجتياز مرحلة محو الامية ، واكتمل الاعداد المادى والفكرى وتوفرت الشروط لبداية موفقة كانت سنة ١٩٦٩ بمثابة خط الشروع فيها •

منذ ذلك الوقت ، وحتى اليوم ، أصبح التعليم فى الجيش الوطنى الشعبى يعتمد فى برامجه ومناهجه على ما قررته وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، خاصة فى عدد المواد المقررة والكتب المستعملة ، مع اختصار سنوات التعليم الابتدائى الى أربع سنوات فقط ، نظرا لعدة اعتبارات ، لعل من أهمها فارق السن وعدم توفر العدد الكافى من المعلمين لدى بعض الاكاديميات الشىء الذى جعل مدى الاستفادة من المساعدة القيمة التى تقدمها لنا فى هذا المجال وزارة التعليم الابتدائى والثانوى محدودا فى بعض الاحيان • ونتيجة لهذا عينا بعض العسكريين الذين لهم مستوى معين لممارسة هذه المهمة بعد المشاركة فى دورات بيداغوجية تجرى تحت اشراف اساتذة متخصصين من المعهد الوطنى التربوى ، ورغم هذه الاجراءات فلا زلنا نجابه الصعاب للتغلب فى مستهل كل سنة دراسية على النقص الواضح فى عدد المعلمين ، ويعود هذا بالدرجة الاولى الى الزيادة المعتبرة فى عدد المتعلمين سنويا (ولكى ندرك مقدار هذه الزيادة السنوية ونسبتها نذكر أن عدد الجنود المتعلمين كان فى نهاية ١٩٧١ بلغ ١٤٣٨٣ متعلما بينما نجد هذا العدد يرتفع فى السنة التالية الى ٢٧،٢٤٧ اى زاد بنسبة النصف تقريبا) •

ان هذا الوضع جعلنا نفكر جديا فى كيفية حل هذا المشكل الذى أخذ يعرقل زحفنا نحو التعميم الكامل للتعليم المنظم فى الجيش الوطنى الشعبى • وهناك عدة اقتراحات مطروحة على بساط البحث والمناقشة فى هذا الموضوع ، تقوم أساسا على سياسة الاعتماد على النفس ، سواء بالعمل على دمج المعلمين الذين يلتحقون بالخدمة الوطنية فى سلك معلمى مدارس ج•و•ش أو بمحاولة توسيع قاعدة المعلم العسكرى نفسه بحيث تضم أيضا بعض المتحصلين على الشهادة الابتدائية فى مدارس ج•و•ش خاصة وأن عددهم قد بلغ فى آخر هذه السنة ٢٥٠٠ متحصل على

الشهادة الابتدائية ، مما يتيح لنا فرصة اختيار العنصر اللائق وتوفير العدد المطلوب ... الخ .

لقد كان واضحا من الاول انه لا بد من تخصيص وقت كاف للتعليم ، وان يكون هذا الوقت بقدر يحقق سيرا طبيعيا للتعليم ، فيستوعب كل المواد المقررة ، ويعطى فرصة التطبيق لجميع المستويات بطريقة مبسطة ، وبشرط الا يكون هذا الوقت على حساب العمل اليومى والواجبات الاخرى للمتعلم ... وبعد التجربة والاختبار استقر الرأى على اعتماد ساعتين فى اليوم ، وتقرر اعتبار التعليم كمادة من مواد التدريب اليومى ، مع اضافة بعض الوقت للمستوى الرابع أى أن ساعات التعليم أصبحت تتجاوز أسبوعيا عشر ساعات فى جميع مؤسسات الجيش . فاذا أضفنا ساعات المذاكرة اليومية الاجبارية والاختيارية أمكننا أن نقول ان ساعات التعليم تصل يوميا الى أربع ساعات ، وأسبوعيا الى عشرين ساعة تقريبا .

كان من الطبيعى ، والحالة هذه ، اعتماد فرع خاص بالتعليم فى هيكل المحافظة السياسية فى النواحى العسكرية مهمته السهر على ضمان السير العادى والمنظم للتعليم ، بما فيه من تنفيذ للبرامج والمناهج وتوحيدها ومراقبة التنفيذ واتخاذ الاجراءات الضرورية على المستوى الجهوى لشاركة منتسبى الجيش الوطنى الشعبى فى امتحانات الشهادة الابتدائية التى تشرف عليها وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، ووضع رزنامة خاصة بامتحانات الانتقال ، الخ ...

٢ ـ تعريب الادارة :

لقد كان من الممكن جدا الاقتصار على هذه المجهودات الموفقة لتعريب الافراد والاكتفاء بها تمسكا بالقاعدة المعروفة «لا تعريب بدون معربين» ولكن روح المبادرة لدى قيادة ج.و.ش جعلت التعريب أيضا يمتد ليشمل مجال الادارة حيث تقرر أن تصدر اللوائح والنصوص العامة باللغتين ، على اعتبار أن النص العربى هو الرسمى ، كما تم تعريب جل الخواتم الرسمية قبل صدور الامر المنشور فى الجريدة الرسمية بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٧٣ . هذا بالاضافة الى صدور بعض اللوائح الداخلية بلغة مزدوجة أو باللغة الوطنية فى بعض المديريات بوزارة الدفاع الوطنى ، وتعريب التدريب فى كلية شرشال لمختلف الاسلحة ومدرسة ضباط الصف بالبليدة وغيرهما . وكل هذا انعكس بدوره على طريقة التسيير فى الوحدات ، فتم تعريب التدريب فيها أيضا ، وأصبحت التعليمات والايعازات وغيرها تصدر فى الغالب باللغة الوطنية .

ولكي تكتمل الحلقة ويتم الوصل بين الاطراف فى مجهودها العام من أجل تحقيق تعريب الادارة قررت وزارة الدفاع الوطنى اعتماد برنامج خاص لتعريب موظفيها ، فكونت أربعة أقسام ، وخصصت من الوقت الرسمى للعمل ثلاث ساعات فى الاسبوع قسمت الى حصتين ، لكل حصة ساعة ونصف ساعة .

ان ما تحاوله قيادتنا اليوم هو تكوين قاعدة أساسية يمكن الانطلاق منها بخطوات واسعة ، ولكنها ثابتة نحو آفاق جديدة للتعريب لتشمل كل النشاطات الموجودة وتستوعب كل الاهتمامات

السائدة ٠ وبذلك يتحقق مزج ارادة التطور فـى اتجاه الاصالة لدى الفرد فى ج٠و٠ش بكيفيـة تتلاءم مع استعمال ادق الوسائل فى العمل اليومى سواء كانت هذه الوسائل ادارية أو فنية ، ومـا يبشر بنجاح هذه المحاولة هو هذا الامـل الذى يتحلى به أفراد الجيش الوطنى الشعبى لبلـوغ الغاية المطلوبة ، فجميع النيات جادة فى اتجاهها من أجل بلورة هذه التجربة واعطائها كل معانى التجسيد وابعاده ٠ ولن يمضى وقت طويل حتى يتحول العزم الى حقيقة ٠٠٠ حقيقة تتأكد كـل يوم بعمل بناء صامت يعتبر ترجمة حقيقية لدى ايمان الجيش الوطنى الشعبى بالتعريب كهدف استراتيجى وأساسى من أهداف ثورتنا الشاملة ٠

اننا لا نريد أن نسبق الاحداث فى تقييـم هذه التجربة المتواضعة ، ولكننا نستطيع التأكيد بما يتوفر من صحة العزيمة ودلائل الايمان ، وبما تحقق من نتائج وما يمكن ان يتحقق فى المستقبل القريب ، ان التجربة ماضية فى طريقها المرسوم لها ، وستكون السنوات القادمة مليئة بالمشاريع والآمال ، وتوقعاتنا متفائلة طموحة ٠٠٠



(ح)

التعـــــريب

في

وزارة التعليم الاصلى والشـؤون الـدينيـة

التعليـــم الأصـــلي

منذ أن نشأت مؤسسات التعليم الأصلي بعد الاستقلال ــ وكانت تسمى الى سنة 1390 هـ/1970 م بالمعاهد الاسلامية للتعليم الديني ــ وهي تعمل كخلية حية صادقة النماء ، فى حقل اللغة العربية ، الا أنها فى مراحلها الأولى كانت تسير ببطء نظرا الى ضحالة الامكانيات المادية وكثرة المتطلبات ، وظل التعليم فى هذه المؤسسات فترة « طفوليا » يعيش على الامكانيات الخاصة الضعيفة للوزارة من جهة ، والتشجيع الشعبي من جهة ثانية ، الى أن جاءت انتفاضة 19 جوان 1965 التي وضعت حدا لهذا الوضع الشاذ وأوجدت حلا حاسما للأزمة التي كان يعيش فيها هذا التعليم ، الذي منح النفس الحقيقي ضمن المخططين الثلاثي والرباعي ، وأصبح قائم الذات كنظائره من المؤسسات العامة ، بفضل ما أولته السلطة الثورية من رعاية وتشجيع ، فخصصت لمؤسسات التعليم الأصلي اعتمادات ضمن ميزانية الدولة ، وصدرت بشأنه المراسيم الرئاسية للاعتراف بشاهداته ، وتوسيع نطاقه .

لقد كان عدد مؤسسات التعليم الأصلي فى السنوات الأولى من استرجاع الاستقلال سبعا(7) ، ثم تدرج تبعا للاقبال المتزايد عليه من طرف الشعب الى أن بلغ الآن مجموع ثانويات وتكميليات التعليم الأصلي بالنسبة للعام الدراسي 1394/93 هـ 1974/73 م ، 35 مؤسسة ، تحتضن عدد 23.807 تلميذ .

التلاميذ الافارقة وغيرهم :

ويوجد من بين هذا العدد من التلاميذ ، تلاميذ غير جزائريين وتعدادهم 200 تلميذ قدموا من مختلف البلدان الصديقة التالية : السنغال ، الداهومي ، سيراليون ، نيجيريا ، الصومال ، تشاد ، فولتا العليا ، ساحل العاج ، غامبيا ، غانا ، غينيا بيساو ، مالي ،موريتانيا ، تايلاندا ، أرتيريا .

وهم الآن يدرسون الى جانب الطلبة الجزائريين ويتمتعون بالنظام الداخلي مع منحة شهرية لكل طالب ، كما أن تكاليف السفر داخل التراب الجزائري والكتب المدرسية وثمن العلاج تسدده وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، ونشير الى أن الفوج الأول من هؤلاء الطلبة الأفارقة قد تحصلوا على شهادة البكالوريا للتعليم الأصلي وقفلوا راجعين الى بلدانهم ، كما أن هناك عددا آخر من التلاميذ الأفارقة فى طريقه الى مؤسساتنا لم يلتحق بعد .

خـريجو مـؤسسـات التعلـيم الاصـلى :

بالاضافة الى العدد الذي يعمل حاليا فى ميدان التعليم من حملة الأهلية والبكالوريا والبالغ عددهم نحو 4000 متخرج ، وحوالي 1000 متخرج يوجدون بالمعاهد التيكنولوجية التابعة لمختلف الوزارات ، هناك عدد آخر من الطلبة التحقوا بالجامعات الجزائرية والأجنبية .

بـرنامج مؤسسات التعلـيم الاصـلى :

ان التعليم الأصلي له منهج دراسي كامل ، مستمد من أحدث الطرق العلمية المعمول بها حاليا فى الدول المتقدمة ، وقد روعي فى اعداده مبدأ الأصالة والتفتح .

ان برنامجه هو نفس برنامج وزارة التعليم الابتدائي والثانوي مع برنامج ايضافي يتمثل فى العلوم الشرعية من تفسير ، وحديث ، وفرائض ، وأصول ، ومنطق ، وفلسفة اسلامية ، وتاريخ الفلسفة المقارن ، وتاريخ الأديان المقارن .

وبهذا يكون المتخرج من هذه المؤسسات مكتمل الشخصية ومتوفرة لديه كافة الامكانيات الثقافية التي تفتح له آفاق المستقبل ، وتمكنه من المتابعة فى

مختلف الكليات الجامعية ، مع البقاء على أساسه المتين الذي يضمن له جميع مكونات شخصيته ، وعناصر أصالته .

الجـامعة الشعبيـة :

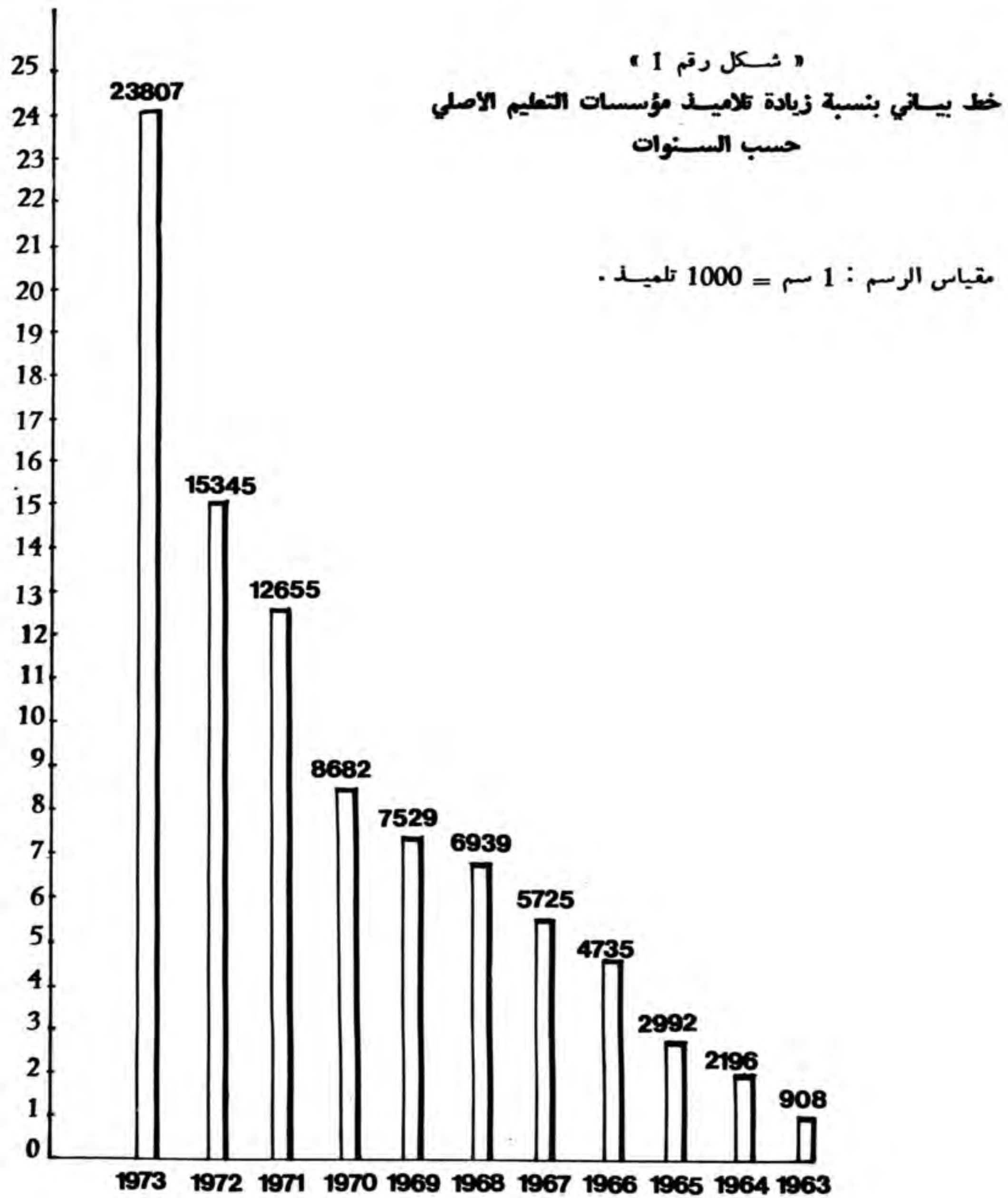
ونظرا للاقبال المتزايد على هذه المؤسسات التعليمية ، كما هو مبين ذلك فى الرسم البياني رقم (1) الملحق بهذا ، ارتأينا من باب شمول الفائدة ، وتعميم التعليم فتح جامعة شعبية على مستوى المؤسسات المذكورة ، لجميع المستويات الدراسية ، دون التزام بالشروط الضرورية للتلاميذ النظاميين .

وذلك تمكينا لمن فاته التعليم بسبب السن أو كانت له رغبة فى اتمام معلوماته .

هذه الجامعة تفتح أبوابها لاستقبال الراغبين فى التعليم ابتداء من الساعة السادسة مساء الى الساعة التاسعة ليلا ، ونفس البرنامج المعمول به لدى التلاميذ النظاميين ، يطبق برمته على تلاميذ الجامعة الشعبية ، سواء بسواء ، وقد بلغ مجموع تلاميذ الجامعة الشعبية خلال عام 1393/92 هـ — 1973/72 م 5402 طـالب .

الادارة والتعـريب :

بناء على خطة التعليم المتبعة فى مؤسسات التعليم الأصلي ، والتي منهاجها تدريس كل المواد باللغة القومية ، عدا اللغات الأجنبية ، فان الادارة بهذه المؤسسات تعتمد فى تسيير شؤونها على اللغة العربية وذلك امتـدادا للتعريب الـذي شمل المصالح الخارجية التابعة لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، وادارتها المركزية باستثناء القسم المالي الذي له ارتباطات مع ادارات مختلفة خارج الوزارة .


« شكل رقم 1 »
خط بياني بنسبة زيادة تلاميذ مؤسسات التعليم الأصلي حسب السنوات
مقياس الرسم : 1 سم = 1000 تلميذ .
25
24
23
22
21
20
19
18
17
16
15
14
13
12
11
10
9
8
7
6
5
4
3
2
1
0
23807
15345
12655
8682
7529
6939
5725
4735
2992
2196
908
1973
1972
1971
1970
1969
1968
1967
1966
1965
1964
1963

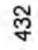
« شكل رقم 2 » : خط بياني لمراكز محو الامية وعدد المستفيدين من هذه الحملة

الرقم الاعلى : عدد المستفيدين 35000

الرقم الاسفل : عدد المراكز 1615

مقياس الرسم : 1 سم = 1000 شخص .

	عدد المستفيدين	عدد المراكز
الجزائر	4915	123
عنابة	1400	106
الأوراس	2899	54
قسنطينة	3200	160
الأصنام	1507	50
المدية	1500	88
مستغانم	1576	52
الواحات	2511	144
وهران	2330	112
سعيدة	1666	47
الساورة	1240	53
سطيف	4656	231
تيارت	900	35
تيزي وزو	2500	320
تلمسان	2200	40



تعريب الموظفين

فى وزارة الشبيبة والرياضة والمؤسسات التابعة لها

تشكلت سنة ٧٠ ـ ١٩٧١ لجنة داخل الوزارة لتنظيم دروس فى اللغة العربية لجميع الموظفين التابعين لوزارتنا بمعدل خمس ساعات فى الاسبوع ·

وفى حينها ارسلت كافة التعليمات اللازمة لسير عملية التعريب الى جميع المديريات ومراكز التكوين والمصالح التابعة لوزارة الشباب والرياضة فى كافة الولايات ·

ومنذ ذلك التاريخ بدات عملية التعريب عندنا ، وقد صادفتها اول الامر بعض المشاكل نتيجة عدم اقتناع بعض الموظفين المسنين بجدوى تعليمهم ونتيجة عدم ايجاد المعلمين الاكفاء فى تعليم الكبار ونتيجة فقدان الكتاب المناسب ... ولكننا خلال السنة الاولى من بدء عملية التعريب استطعنا ان نتغلب على هذه المشاكل بالاقناع والمراقبة والاستفادة من خبرات المعلمين التابعين لوزارة التعليم الابتدائى والثانوى واستعمال بعض الكتب المدرسية المناسبة والكتب المعدة من طرف المركز الوطنى لمحو الامية .

كما اننا قمنا بتحديد ساعات التعليم بما يوافق اوقات الموظفين والمعلمين مع العناية بمراقبة الغياب والحضور وعقد اجتماعات دورية مع المعلمين لاستعراض كل ما يلزم بخصوص سير عملية التعريب فى احسن الظروف .

واننا فى بداية كل سنة نجرى اختبارات المستوى للموظفين ونقوم بتوزيعهم على الاقسام حسب مستوياتهم وعلى التصنيف التالى :

١ ـ المستوى الاول : ويضم الذين يجهلون تماما القراءة والكتابة بالعربية .

٢ ـ المستوى الثانى : ويعادل السنة الاولى والثانية من التعليم الابتدائى .

٣ ـ المستوى الثالث : ويعادل السنة الثالثة والرابعة من التعليم الابتدائى .

٤ ـ المستوى الرابع : وهو مستوى الشهادة الابتدائية من التعليم الابتدائى .

وقد عملنا فى بداية كل سنة دراسية ان نجرى اتصالات بجميع المراكز والمؤسسات التابعة لنا لنحدد لهم تاريخ بدء عملية التعريب ، كما نوجههم بخصوص البرنامج وتنظيم الاقسام وتوزيع المتعلمين واختيار المعلمين .

كما اننا فى نصف السنة نرسل مجموعة من الاسئلة الى تلك المراكز والمؤسسات للاجابة عنها مما يسمح لنا باخذ فكرة واضحة عن سير التعريب .

كما اننا فى نهاية السنة الدراسية نطالب بان يرسلوا الينا النتائج النهائية وخلاصة عن نشاط التعريب فى كل ولاية .

وقد لاحظنا ان بعض المؤسسات التابعة لنا قد تتاخر او تهمل الاجابة عن اسئلتنا ، لذلك فقد بدانا منذ السنة الماضية بملاحظات سير عمليات التعريب فى عين المكان وذلك خلال جولات المراقبة التى تنظمها الوزارة عبر الولايات .

ومن الجدير بالملاحظة ان حوالى ٩٠ ٪ من العمال والموظفين التابعين لوزارتنا يتلقون دروس اللغة العربية .

كما ان عددا كبيرا منهم قد شارك فى امتحانات الشهادة الابتدائية للكبار واحرز عليها .

وبالنسبة لموظفى وزارتنا بالعاصمة فقد حصل اكثر من ١٥ موظفا على الشهادة الابتدائية خلال هذه السنوات .

وختاما نشير الى ان عملية التعريب ما زالت فى وزارتنا مستمرة ، وسنواصل نشاطها الى ان يصبح لدى موظفينا المستوى المطلوب فى اللغة الوطنية .

ومن الجدير بالذكر ان موظفينا الذين تحصلوا على الشهادة الابتدائية بالعربية اصبحوا يواصلون دراسة برامج التعليم الاعدادى فى اوقات فراغهم ، تطلعا منهم الى ترقية مستواهم الثقافى .

كما نلاحظ ان الذين كانوا يجهلون القراءة والكتابة بالعربية بمجرد ما يكشفون المقدرة على القـراءة يتحمسون لمواصلـــة التعليم ويبذلون جهدهم من أجله ٠

وهنا لا يفوتنى ان أؤكـــد على الضرورة توفير جو التعريب بمختلف مؤسساتنا الوطنية وذلك بادخال اللغــة العــربية ضــمن المراسلات والعلاقات والمخاطبات الادارية ممــا يشجـــع المتعلمين على استعمال لغتنــا الوطنيــة عمليــا ويساعد فى اقناعهم بان تعلمها لا يرجـــع الى دوافع دينية أو لمجـــرد حماس وطنى يفرضــــه الاستقلال فقط وانما نتعلمها لانها هى اللغة التى سنعبر بها فى المستقبل عن كل ما يتعلق بأوجـــه حياتنا ماديا ومعنويا ٠

وبهذا الخصوص اشير الى اننا فعلا قــد قمنا بخطوات لا بأس بها فى مجالات التعريب ، الخصها فى النقاط التالية :

١ ـ تعريب الدراسة فى المعهد الوطنى لتكوين اطارات الشباب بتيكسراين ٠

٢ ـ تعريب التعليم فى مركز التربية البدنيـــة بالسرايدى فى عنايـــة ٠

٣ ـ تعريب الدورات الخاصة باعداد ممرنى وممرنات المخيمات الصيفية ٠

٤ ـ تعريب المجلـــة الدورية التابعـــة لمكتب المخيمات الصيفية ٠

٥ ـ اصدار مجلة « الفين » باللغة العربية ٠

٦ ـ توجيه برنامج « آفاق الشباب » عن طريق الاذاعة الى الشباب بالعربية ٠

٧ ـ طبع الاناشيد فى اسطونات ، وتعميمها ٠

٨ ـ تعريب الانشطـــة الثقافية كالمســـرح والعرائس والمسابقات الادبية فى مختلف النوادى والمراكز التابعة لنا ٠

٩ ـ جلب الاســاتذة المتعاونين مــن البلــدان العـــربية للتدريس فى مختلف مجالات الشباب والرياضـــة ٠

١٠ ـ وكما اننا استقبلنا طلابا من السودان واليمن والمغـرب وتونس وموريطانيا للدراســة فى مراكزنا المعربة ، كذلك سنقوم بارسال طــلاب من طرفنا للدراسة فى بعض البلدان العربية ٠

١١ ـ كما اننا نهتـــم كثيرا بانشاء المكتبات العربية فى مختلف مؤسساتنا ، واننا عن قريب سننشىء مطبعة كبرى بالعربية ٠

١٢ ـ وكذلــك فاننا نقــوم بتبــادل اللقاءات والزيارات ، والوثائق والمطبوعات مــع مختلف البلدان العربية ٠

هذا بالاضافة الى ان لدينا مستشارا خاصا بشؤون التعريب ، واننا نلاحظ ان كل عام يمر الا ونتقدم فيه خطوات هامة فى ميادين التعريب ٠



السيارة: طراز "التي تعيش بعدها"

التعـــريب
فى وزارة الصحـــة

فجوابا على كتابكم رقم ٧٣/٩٣/١٨٢ المؤرخ فى ٣ رمضـــان ١٣٩٣ بخصوص ســير عملية التعريب اخبركم بما يلي :

اولا ـ **فيما يتعلق بالتعليم :**

١ ـ مدرسة المكفوفين يوجد بها نوعان مــن التعليم احدهما مزدوج من عربية وفرنسية والآخر كله معـــرب والبرنامج المطبق هو نفس برنــامج التعليم العــام ٠

ب ـ **مدرسة الصـــم والبكـــم :**

ـ سيتم قـــريبا تكوين معلمين جزائريين اختصاصيين ويسند اليهم تعليم الاطفال بالعربية ٠

ج ـ **مدارس شبه طبيـــة :**

ـ لا زالت الدروس تعطى بالفرنسية الــى حد الآن الا ان البرنامج يحتوى على ساعـــة بالعربية فى الاسبوع فى مستوى الرابعة المتوسط٠

ـ ومادة العربية مفروضة فى امتحـــان الدخول ولا يقبل المترشح الذى لا يحصل عـلى النقاط المطلوبـــة ٠

ـ وللوزارة فى هذا الميدان مشروع يـرمى الى تعليم المصطلحات الطبية او التعليم المزدوج او انشاء اقسام كلها معـــربة ٠

ثانيا ـ **فيما يخض الادارة**

ـ عربت مطبوعات وحررت رسائل نموذجية جعلت تحت تصرف المديريات قصـد استعمالها عند الحاجة وطبق مبدأ الرد باللغة الوطنية على الرسائل الرسمية الواردة باللغة العربية ٠

وقد اضطررنا زمنا طويلا الى ملازمة الصمت او التحدث بلسان المستعمر ، لهذا اصبح من الواجب المقدس ان نعود الى لغتنا والى الكلمات التى ورثناها من آبائنا وتعلمناها منذ صبانا ورافقت طفولتنا وآمالها وأحلامها ، ان الكلام أول وسيلة للتعبير عما يحيط بهم من عالم خارجي لوصفه واثرائه وللسيطرة عليه والتحكم فيه ٠

ان أية ثقافة عبارة عن كل لم يأت عفوا وانما وضع لبناته رجال متعاقبون وكان الكلام من بين الادوات التى شيدوا بها حياتهم حسب أفكارهم ومشاعرهم ، وبالتالى فلا يمكن قطعهم عن لغتهم دون المس من توازن شخصيتهم بل النيل من وجودهم وكيانهم المعنوى ٠ لقد عرفنا هذا الانفطام اللغوى بحيث بلغ بنا ان اضطرت بعض شعوبنا الى تبنى لغة المستعمر والاستعاضة بها عن لغتها التى هى صلتها الاولى بماضيها والعقد الذى تندرج فيه مع الاسلاف والاجيال المقبلة وان لم تكن تلك الاستعاضة اختيارية وانما فرضتها العلاقات بين الغالب والمغلوب ٠

وليست هناك مبدئيا لغة أقدر من الاخرى على شحن العلم والمعرفة فكل لغة معبرة عما يعيشه الناس ويساورهم ويخالج أفكارهم ٠

ففى الوقت الذى توقف فيه نمونا وأنكرت فيه ثقافتنا وحرم تعليم لغاتنا كان يجب علينا ان نزيد من التمسك بها والحفاظ عليها ، كما يجب علينا اليوم مضاعفة جهودنا لنحافظ على لغاتنا هذه ولنجعل منها أداة ناجعة فى تطوير بلداننا وشعوبنا والتعجيل بتنميتنا فى جميع المجالات ٠

من خطاب الرئيس بومدين في افتتاح المهرجان الثقافي الافريقي الاول
1969

تقـــريرحول سَـير عمليـة التعريب
بوزارة الأشغال العمومية والبنـاء

بناء على احكام الامر رقم ٩٢ ــ ٦٨ المؤرخ ٢٦ ابريل ١٩٦٨ الذى يلـــزم الموظفين ومن فى حكمهم بمعـــرفة اللغـــة الوطنية ، قامت وزارة الاشغال العمومية والبناء بتنظيم حملـة التعريب على مستوى المصالح المركزية للوزارة والمصالح الخارجية التابعة لها ٠

وفي هذا الصدد استعانت الوزارة بخبرة موظفيها القدماء الملمين باللغة العربية وقواعدها من ناحية ، ومن ناحية أخرى استكملت جهاز التدريس من بين مدرسي اللغة العربية التابعين لسلك التعليم ·

وفي أوائل عام ١٩٧٠ بدأت الوزارة بأولى خطوات تنفيذ الامر المشار اليه آنفا ، وأول خطوة كانت الاختبار الذي أجري بصفة مبدئية للموظفين لمعرفة مستواهم ومدى درايتهم · وبعد هذا الامتحان ، قسمت طوائف الموظفين الى مستويات· كل مستوى في فصل دراسي · وحددت المستويات بثلاث ، مع مراعاة المنهاج الذي حدده القرار الوزاري المشترك المؤرخ ١٢ فبراير ١٩٧٠ المتضمن تحديد مستويات معرفة اللغة العربية بالنسبة لموظفي ادارات الدولة والجماعات المحلية والمؤسسات والهيئات العمومية ·

أولا ـ تنظيم حملة التعريب :

نشير في هذا المقام الى أن الدروس التي القيت على الموظفين كانت مستقاه ـ الى حد ما ـ من الكتاب الاول والثاني من « نعمل ونتعلم » الصادر عن المركز الوطني لمكافحة الامية ، علما بأن القاء الدروس كان يحتم على المعلمين الاستعانة ببعض الكتب الخارجية في النحو وقواعد اللغة ، حتى تكون دروس اللغة العربية على أسس علمية سليمة ·

ومرت المرحلة الاولى من القاء الدروس وأجري امتحان عام ـ من طرف الوظيفة العمومية ـ وكان من بين المتسابقين موظفي وزارة الاشغال العمومية والبناء والمصالح الخارجية التابعة لها ، ونجح منهم عدد وفير في هذا الامتحان · منهم من انتقل بمقتضاه من مستوى الى مستوى أعلى ، ومنهم من بقي في نفس المستوى حتى يلم الماما اكثر بمبادىء اللغة ·

ولا يخفى على المسؤولين الصعاب التي واجهتنا في بداية المرحلة السابقة نظرا لاقبال الكثير من موظفي الوزارة والمصالح التابعة لها على تلقي الدروس ، في الوقت الذي لم تكن هناك الاطارات الكافية للقيام بمهمة التدريس ، مما ترتب عليه مضاعفة جهد قدامى موظفي الوزارة الملمين باللغة العربية ·

ثانيا ـ النتائج الاولية :

كانت للتجربة الحية لالقاء الدروس نتائج هامة ، وضحت أمام نظر المسؤولين بالوزارة ، وأول نتيجة نثيرها هنا هي قيام المعلمين (موظفي الوزارة) الى وضع نصوص تتفق من الناحية العملية مع طبيعة العمل بالوزارة · ونضرب لذلك بعض الامثلة :

١) دروس في تنظيم الادارة المركزية للوزارة : أعد بشأنه ما يقرب من ثلاث نصوص حول الادارات ومسمياتها والقائمين بالاشراف عليها ·

٢) بعض النصوص عن الاشغال العمومية وماهيتها والادوات المستعملة في البناء (مع اعداد رسومات توضيحية) كوسائل ايضاح ·

٣) نصوص تتعلق ببيان حالة الموظف من حيث الاسم والسن والوظيفة ومحل السكن ومحل الازدياد ومستواه في التعليم ورقم جواز السفر ··· الخ البيانات التي يلزم أن يلم بها الموظف ·

وكان لهذا الاعداد والتغيير في الدروس والبرامج أثر حسن في نفوس الموظفين ·

ثالثا ـ الاستعدادات الحالية :

وتجدر الاشارة الى انه بجانب القاء دروس اللغة العربية على موظفى الادارة المركزية للوزارة هناك تحول ملموس فى تعليم اللغة العربية بمدرسة مهندسى الاشغال العمومية بدار البيضاء فبجانب القاء دروس اللغة العربية ، تلقى دروس فى العلوم القانونية باللغة العربية وخاصة ما يتعلق بالقوانين الادارية والقوانين المتعلقة بعمل مهندسى الاشغال العمومية ومنها على سبيل المثال قانون الصفقات العامة ، ومرسوم تنظيم الادارة المركزية للوزارة ومصالحها ، فانه يدرس باللغة العربية بجانب دراسته باللغة الفرنسية .

وبالمصالح التابعة للوزارة فى مختلف الولايات (المديريات العامة للهياكل والتجهيزات) تلقى الدروس بانتظام مختلف المستويات .

ومن أجل تطوير البرامج حاليا ـ رؤى اعداد نصوص فى اللغة العربية من واقع الاعمال اليومية التى يقوم بها الموظف وعلى سبيل المثال :

ا ـ اعداد طلب العطلة .

ب ـ الاذن بالغياب والخروج .

جـ ـ الامضاءات .

د ـ تحرير الخطابات الصغيرة .

كما أن نيابة التكوين المهنى بالوزارة قامت باعداد بعض النصوص باللغة العربية لالقائها فى العام الدراسى الحالى بمراكز التكوين المهنى بمختلف الولايات ، وتدور هذه النصوص حول موضوعات الاشغال العمومية والبناء ، كما أعدت بعض الدروس القانونية فى كل من القانون الادارى والتنظيم الادارى وتشريع العمل وبعض المصطلحات المتعلقة بعلم المساحة العامة وقانون الصفقات العامة وتحرير العقود . (هذا فيما يتعلق بتكوين التقنيين المتخصصين وأعوان التقنيين) .

رابعا ـ التوصيات :

توصى الوزارة بتشكيل لجان تختص بوضع برامج علمية عملية تتفق وطبيعة عمل كل وزارة ـ ومن الممكن توحيد البرامج بين عدة وزارات كلما أمكن ذلك ، خاصة اذا تشابهت فيها طبيعة العمل .

كما نرى ضرورة توفير الكتب العربية بين أيدى الموظفين ـ وبثمن رخيص ـ ومما هو جدير بالذكر أن الكتب العربية مرتفعة الثمن ، الامر الذى يؤدى الى احجام الكثير عن شراءها ، وقد يرجع ذلك الى قلة المطابع بالعربية ـ وفى هذا الشان نوصى بتدارك الامر حتى يمكن مواجهة الصعوبات المحتملة وتذليلها .

هذا ويلزم مكتبات الوزارات والمؤسسات بالكتب التى تدور حول تسيير الامور العامة ، كتب تتفق مع طبيعة عمل كل وزارة أو مؤسسة أو هيئة .



ثوب مريح أكثر من ذلك الزي الخانق وهو أفيد لي أيضا
عن صحيفة الهيرالد تريبيون

تقرير عن سير خطوات التعريب

في وزارة البريد والمواصلات

الى السيد رئيس تحرير مجلة الاصالة .

الموضوع : تقرير عن سير خطوات التعريب في وزارة البريد والمواصلات .

الاحالة : خطابكم رقم 73/93/170

بالاشارة الى خطابكم ذي الرقم والاحالة اعلاه ، يشرفني ان أطلعكم على سير خطوات التعريب في وزارة البريد والمواصلات .

لقد اتخذت ادارة البريد والمواصلات منذ أن نشر الامر رقم 92 ـ 68 المؤرخ فى 26 أفريل 1968 القاضى بوجوب معرفة الموظفين للغة العربية ، جميع التدابير اللازمة لاداء مهمتها على الوجه الذى ينبغى فى هذا النطاق ٠

وتجدر الاشارة الى ان السيد الوزير يـولى اهتماما بالغا لقضية التعريب من ذلك امره بالحرص على ضرورة توظيف أعوان معربين فى شبابيك البريد من صوب ووجوب التخاطب بالعربية لاسيما فى المكالمات الهاتفية من صوب آخر ٠

هذا وقد شمل التعريب بادى بدى جـل المطبوعات البريدية التى تستعملها الادارة فى علاقاتها مع الجمهور : من صكوك ودفاتر وصيغ وقوانين داخليـة وتقارير ومراسـلات وبعائث وتعليمات ادارية وغيرها فضلا عن تعريب الاختام والعناوين ٠

ولعل خير شاهد على ما نقول اصدار طـوابع بريدية باللغة العربية لتخليد أهم الاحداث التاريخية العربية الاسلامية والتعريف برواد النهضة الذين عملوا على احياء اللغة العربية كالامير عبد القادر وعبد الحميد بن باديس الخ ٠٠٠

كل ذلك استلزم مصلحة خاصة للسهر عـلى تنسيق هذه الاعمال هى مصلحة التعريب والترجمة التى تساعد أيضا على تحرير وترجمة الوثائـق الواردة أو الموجهة الى الهيئات والمؤسسات الخارجية التى تستعمل اللغة العربية وسيلة تعبير واداة عمـل ٠

ولقد بلغ من عناية السيد الوزير ان ألحقهـا بديوانه الخاص ٠

تعليم اللغة العربية :

تشرف ادارة البريد والمواصلات عـلى تدريس اللغة العربية فى برنامج حافـل لهـا يساعـد مستخدميها على الالمام بمعلومات اللغة التى نصت عليها احكام الامر الآنف الذكر ٠

وقد شملت حركتها فى هذه الناحية الميادين التالية :

1 ـ تنظيم دروس على نفقتها الخاصة كلمـا سمح عدد الراغبين فى تعاطيها بتكوين قسم تزاول فيه ٠

2 ـ وقد دعى المستخدمون فى القرى الصغيرة الى قيد أسمائهم فى الدروس المسائيـة التى تلقى فى مؤسسات التعليم بالمنطقة ٠

3 ـ ويتابع اعوان وتلاميذ مراكـز التكوين المهنى التابعة للبريد والمواصلات دروسـا فى اللغة العربية ساعة كل يوم ٠

فيما يلى تفصيل لهذه النشاطات وبيان للنتائج المحصل عليها ٠

ـ جـــدول ا ـ

الدروس المفتوحة تحت اشراف ادارة البريد والمواصلات لتعليم اللغة العربية سنة 1973

المصـــالح	المستوى : 1	المستوى : 2	المستوى : 3	المجمـوع
المصالح المركزية	182	241	90	513
المديرية الجهوية للجزائر	462	341	82	885
المديرية الجهوية لوهران	238	281	36	555
المديرية الجهوية لقسنطينة	602	693	290	11585 ·
المديرية الجهوية للاغواط	18	17	9	44
المجموع :	1502	1573	507	2582

ـ جـــدول ب ـ

امتحانات شهادة معرفة اللغة الوطنيـة

1) امتحان 4 ديسمبر 1971 ·

انتمـاء المترشحـين	عدد المشاركين	النتـــائـج	
		مقبــولـون	غـير مقبـولـين
المصالح المركزية	897	482	415
المديرية الجهوية للجزائر	236	117	119
المديرية الجهوية لوهران	1125	681	444
المديرية الجهوية لقسنطينة	1915	847	1068
المديرية الجهوية للاغواط	64	37	27
المجموع :	4237	2164	2073

2) امتحان 10 فبراير 1973 ·

انتمـاء المتـرشحـين	عدد المشاركين	النتـــائـج	
		مقبــولـون	غـير مقبـولـين
المصالح المركزية	909	لم يعلـن عنهـا بعـد	
المديرية الجهوية لوهران	1150		
المديرية الجهوية للجزائر	1303		
المديرية الجهوية لقسنطينة	1108		
المديرية الجهوية للاغواط	204		
المجموع :	4674		

هذا وتقدم عدد من الاعوان مترشحين احرارا لامتحان الشهادة الابتدائية ويقدر عددهم بحوالى 150 ٠

3) آفاق المستقبل :

تشجيع السيد الوزير للحاصلين على شهادة معرفة اللغة العربية بتخصيص مكافآت لهم لقاء اجتهادهم ونجاحهم

– اجراء المسابقات والامتحانات باللغة العربية أيضا ٠

– اعداد منجد في المصطلحات البريدية باللسانين العربي والفرنسي وتعميمه على سائر ادارات ومكاتب البريد ٠

– فتح دروس لتدريب المستخدمين على فهم المصطلحات البريدية باللغة العربية واستعمالها في تحرير التقارير والاعلانات وسائر الانشاءات الادارية تعهيدا لتعريب الادارة والمصالح البريدية المختلفة تعريبا شاملا ٠

– فتح اقسام معربة بالمدرسة المركزية للبريد والمواصلات بالجزائر ٠

– فتح اقسام معربة بالمعهد التكنولوجي للمواصلات والالكترونية بوهران ٠

– ملحق أول –

نص الكلمة التي ألقاها عضو وفد ادارة البريد والمواصلات للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية خلال انعقاد الجلسة 5 الخاصة بالمصطلحات في المؤتمر التنفيذي الثاني الاسكندرية 18 اغسطس 1973 ٠

احسب ان مجال القول في هذا الموضوع فسيح جدا ولكني اقتصر على ما يلي :

أولا – الا سبيل الى توحيد المصطلحات الا باستعمال الفصحى فحسب ٠

ثانيا – يتوقف وضع التسميات العربية المناسبة للمصطلحات الدولية وتعريبها وفق ما نص عليه القرار رقم 23 (ن) من اتفاقية بغداد ، على مدى استيعاب مفهوم المصطلح من صوب وحسن الاختيار والانتقاء اللفظي من صوب آخر ٠

وليس من التعريب في شيء صوغ المصطلح في قالب عربي بادخال لام التعريف عليه كأن تقول المسج (ال Message) وقد سمعتها تتردد على لسان الكثير ، أو باضافة ياء النسبة أو تاء التأنث وما شابه ذلك ٠ في حين يتغاضى عن بديله العربي الذي هو أقوم قيلا وأثبت دليلا ٠ والامثلة التي أضربها على ذلك كثيرة استقيها من كتاب المؤتمر مثلا مستند 4 حيث جاءت فيه الكلمات التالية :

ترابيزة / طرابيزة

فوتيل – دفاية (الصواب مدفاة)

اربعة افرع (فروع) – بللور (بلور)

حامل أقلام به قلمين حبر (به قلما حبر)

براية – مبراة

جمع: قوائم – قائمات / مواضيع – موضوعات

كابل : أصلها العربى — حبل —

الترسانة : من Arsenal دار الصناعة

ولقد سلفت الاشارة فى اكثر من مرة الى ان الجزائر تريد ان تستفيد من تجربة البلاد العربية لكن على غير هذا النحو ٠

ولهذا فمن حقنا ان نطالب باحترام القواعد العربية النحوية منها والصرفية واللغوية الخ ٠٠٠ غيرة على لغتنا العربية العزيزة وابرازا لوجهها المشرق الوضاء على غرار ما كانت عليه منذ نشأتها الزاهرة وعهودها الذهبية من نحو 14 قرنا خاصة فى حين لم يكن فيه وجود البتة للعديد من لغات اليوم التى اصابت عجمتها لساننا فلوثته ومسخت معه انيتنا وأصالتنا فرأيتنا نعمد خشية ان نرمى بالتقوقع والتعصب والعقم الى المطالبة برفعها الى مستوى هذه اللغات ٠ فمن كان هذا زعمه فهو مردود عليه وكبرت كلمة تخرج من فيه ، اذ العقم منه آت لا من عروس الروض طرا وكأنى بها تقول : فهل سألوا الغواص عن صدفاتى ٠

ولا جرم اننا امام مسؤولية عظمى تجاه تاريخنا الحافل بالامجاد والبطولات وصنوف العلوم والكشوف والفنون ، وتجاه انفسنا على النطاقين الوطنى والقومى وعلى الصعدين الاسلامى والدولى٠

فلنتحر أيها السادة الدقة والنزاهة العلمية والذوق السليم فى انتخاب المصطلحات وترجمتها بمقابلها العربى الاصيل لا بالدارجة او البديل ٠ ونود فى هذه الفسحة أن نسوق اقتراحا وهو :

1 — ان تراجع قواميس المصطلحات المترجمة من الفرنسية والانجليزية فى هذا الحقل من قبل لجنة مختصة يشرف الجزائر ان تكون احد أعضائها وذلك من أجل حصحصة الغث من السمين وضبط المترجمات وتنقيتها ٠ وتقدم بعد ذلك فى ثوبها القشيب الى المجمع اللغوى للمصادقة عليها ٠

2 — القيام بانتقاء المصادر المعتمدة فى الترجمة والتعريب واعطاء الاولوية للعربى الصرف منها الخالص من الليتنة ٠

3 — العمل على توحيد المصطلحات والمترجمات بين المغرب والمشرق تماشيا مع اهدافنا السامية المشتركة ٠

والله نسأل التوفيق فى مساعينا العلمية ٠

— ملحق ثانى —

نص الكلمة التى ساهم بها عضو وفد الجمهورية الجزائرية بخصوص المستندرقم 7 المتعلق باستعمال اللغة العربية فى الاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية ٠

السيد مغلى محمد البشير الهاشمى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، انه لا يسع الوفد الجزائرى الا ان يتوجه بجزيل الشكر وفائق الامتنان لما تفضل به الوفد الكويتى الموقر من مقترح نبيل بشان استعمال اللغة العربية فى الاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية ولكم كانت هذه المسألة موضوع نقاش وباتتدون ان نتخذ حيالها اى قرار ايجابى حاسم رغم الاهمية

البالغة التى تكتسيها والنفع العميم الذى تستلجبه للبلاد العربية فى المحافل الدولية الهامة

كما نتقدم بالشكر والثناء الى الامانة العامة للاتحاد العربى للمواصلات السلكية واللاسلكية لما اسدته من خدمات جلى وبذلته من مساعى حميدة من أجل تحقيق مثل هذه الاهداف السامية التى ترنو اليها جميعا متمنين نقلها سريعا الى حيز الفعل ٠

ولا حاجة لنا فى ان نشير بهذا الخصوص الى المجهودات الضخمة التى تبذلها الحكومة الجزائرية فى سبيل احياء اللغة العربيةومتعلقاتها «التراثية» وبالتالى استرجاع مقومات شخصيتها الوطنية ارومة وذاتية انية واصالة , بالرغم من المخلفات الاستعمارية التى اكتست طوال ما يربو على قرن ونصف طابعالوحشية والقسوةواللاانسانية اذ ان المستعمر البغيض لم يدخر حيلة ولا مكيدة ولا اية وسيلة مكر الا استخدمها فى طمس معالمنا الحضارية وتشويه ما تبقى منها وتحطيم شخصيتنا العربية والاسلامية التى نادى بها الامام عبد الحميد بن باديس رحمه الله واصبحت المبادىء الاساسية للثورة الجزائرية الظافرة :

الاسلام دينى ٠
العربية لغتى ٠
الجزائر وطنى ٠

هذا وان الجزائر لتواقة الى الاستفادة من تجربة البلاد العربية فى هذا النطاق ٠٠ لذلك الفيتموها أيها السادة ، تتوخى فى سياسيتها ككل التدرج والتريث والمرحلية ٠ ولئن كانت خطاها فى ميدان التعريب ، وئيدة فهى ثابتة ومجدية ومؤتية اكلها لا محالة ٠

وانه ليشرف الوفد الجزائرى ان يتقدم باقتراح يتمثل فى القيام بدراسة استعمال اللغة العربية فى الاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية دراسة موضوعية وجادة كسائر الموضوعات الهامة التى ستدرس فى المؤتمر القادم للمندوبين المفوضين المزمع عقده باسبانيا فى شهر سبتمبر ٠

هذا وبما ان اللغة العربية العزيزة لها دلالتها القومية فضلا عن كونها مستعملة فى محافل دولية كثيرة ، فانه يجب علينا ان نعمل جادين ما وسعنا ذلك على السمو بها الى مستوى اللغات الاجنبية الاخرى كالفرنسية والانجليزية وغيرهما كما جاءت الاشارة الى ذلك فى الاتفاقية الدولية بمنترو 1965 المادة 17 «234» ٠

ان استعمال اللغة العربية بصورة رسمية يفرض نفسه بنفسه سيما انه معترف بها فى أكثر من منظمة دولية (كاليونسكو ، والمنظمة الدولية للصحة ٠٠٠) ولا مراء فى ذلك خاصة واننا فى عصر ميسمه العدالة السياسية والمساواة بين الانسان واخيه الانسان فى غير ما تفرقة عنصرية أو لغوية أو عرقية ٠

ولا ننس ايها الاخوة ان اللغة العربية وعاء حضارتنا الزاهرة ولسان مجدنا التليد ومرجع عزتنا فمن ثمة يترتب علينا ان نساند ونؤيد كلية المقترح النبيل الذى تفضل به الوفد الكويتى بناء على :

1 ــ احترام المبادىء الاساسية للمساواة التى ارتسمها الاتحاد .

2 ــ احترام المبادىء الاساسية للمساواة بين الشعوب .

3 ــ رفض هيمنة لغة على لغة وسيطرة مجموعة لغوية على أخرى وذوبانها فيها .

بالاضافة الى تاييد الوفد الليبى الشقيــق فى تعقيبه الموفق من حيث تطوير اللغة العربية وجعلها تواكب العصر وتستوعب كل ما يستجد فيه من كشوفات علمية وفنية وغيرها .

وبهذا نكون قد حصلنا على كسب كبير من أجل تعزيز موقفنا الموحد بهذا الصدد .

وانه ليسعدنا كثيرا ان ننوه بالمساعى الحميدة التى يبذلها السيد الأمين العام من أجل تحقيــق هذه الغاية السامية المرجوة .

ولكم منا سالف الشكر والتقدير .



فالمسألة واضحة ولابد ان تتواصل المعركة حتى نهايتها المعروفة وستبوء كل محاولات اعداء التعريب بالفشل لذا فانه من الاحسن والافضل ان يبذل الجميع الجهود لتعلم لغة بلادهم لغة ماضيهم لغة حضارتهم وحتى نكون كلنا على موعد «١٩٧١» وذاكرتنا بالنسبة لهذا الموعد ذاكرة قوية ٠

لقد حددنا موعد «١٩٧١» ليتحصل كل موظف على قسط ولو ادنى من التعليم بلغته وسنكون على استعداد لاتخاذ جميع الاجراءات والقرارات اللازمة فى هذا الموعد ٠

واذا رجعنا الى القضاء فانى اكرر ما ذكرته فى السنة الماضية عندما قلت انه من المستحيل ان يمثل فلاحان أمام قاض ومحاكم يتكلمان باللغة الفرنسية بينما هما ينتظران ان يبلغهما الحكم مترجم ٠

«من خطاب للرئيس بومدين في افتتاح السنة الدراسية القضائية 1969»



من وراء البحـار أفكار ومذاهب

اعـداد:
اسماعيل العربى

(اروبا الغربية والنفط العربى ـ شقوق فى صرح سيكلوجية الطفل ـ مشروع قائمة عالميـة للكتب ـ مسيحية الشمال ... أو ما بقى منها ـ هل يواجه العالم ازمة فى المواد الغذائية ؟) .

اوروبا الغربية والنفط العربي

الآن ، وبعد ما ثبتت اهمية النفط ، بوصفه السلاح المطلق ، فى معركة التحرير التى تخوضها البلدان العربية ، يحاول المعقبون فى مختلف بلدان العالم القاء الضوء على العناصر الاساسية فى ملف العلاقات النفطية بين العالم المصنع ، وخصوصا ، أوروبا الغربية ، والعالم العربي ، وفى هذا السياق ، تطرح نفسها على بساط البحث ثلاث اسئلة حيوية ، وهى :

1 ـ ما مدى اعتماد أوروبا الغربية على النفط العربي ؟

2 ـ ما وجه العدالة السياسية فى المقاطعة العربية ؟

3 ـ ماذا كانت الحالة قبل « احتكار » الدول المنتجة للنفط المزعوم للذهب الاسود ؟

كشفت أزمة الطاقة التى تواجها أوروبا الغربية فجأة النقاب على عاملين جوهريين فى الموقف وهما : السلبية السياسية من جهة ، والخطأ الفادح فى تقييم الارادة السياسية العربية ، من جهة أخرى وبالنسبة الى العامل الاول ، تدل الدلائل على أن أوروبا الغربية مستعدةللتضحية برخائها ورفاهيتها المادية فى استسلام عجيب للقضاء والقدر ، دون أن تحاول تدارك الموقف قبل ان يفلت زمامه من يدها ، بانتفاضة ، تعيد بها العلاقات بينها وبين اسرائيل والولايات المتحدة ، وبينها وبين الدول العربية الى وضع من التوازن الطبيعي . وفيما يتصل باعادة النظر فى تقييم تصميم العرب على الدفاع عن قضيتهم العادلة ، فان أغلبية الساسة الذين يشاهدون صناعة بلادهم تتعرض للانهيار لا يزالون يرفضون النظر الى الحقائق ويتقاعسون عن بذل المجهود الذهني الضرورى لهذه الغاية ومع ذلك فان أوروبا الغربيةمهما طال صبرها وتماديها، ستواجه الواقع حتما ، وتراجع مواقفها .

وذلك لان أوروبا الغربية ، هى أهم منطقة لاستهلاك النفط ، بعد الولايات المتحدة الامريكية، وهى ، خصوصا ، أكثر مناطق العالم اعتمادا على الخارج لتموين نفسها بالنفط .

عالجت دراسة اصدرتها الجماعة الاقتصادية الاوروبية عن الموقف ، قبل انفجار أزمة الطاقة الحالية بوقت قصير ، فسلطت الاضواء على تزايد اعتماد الدول الاعضاء فى المستقبل بسرعة ، على الموارد الخارجية للطاقة ، بسبب التوسع الذى يمر به اقتصادها . وتدل التقديرات التى أوردتها هذه الدراسة على ان استهلاك المنطقة للطاقة سيرتفع خلال الفترة بين سنة 1970 و 1985 ، مما يساوى 800 طن الى 17،00 مليون من النفط . وبعبارة أخرى ، فان حاجة أوروبا الى النفط ستضاعف فى طرف 15 سنة . وفى غضون الفترة ، 1985 ـ 2000 ، ستتضاعف هذه الحاجة من جديد .

واما نصيب النفط فى مجموع استهلاك الطاقة فى أوروبا الغربية ، فهو سيرتفع أيضا من 57 ٪ الى 64 ٪ .

كيف توفر أروبا الغربيــة لصناعتها ولمتعتها هذه الموارد الهائلة من النفط ؟ ان آبار النفــط المنتجة التى عثر عليها فى بحر الشمال، لن تتمكن من تغطية اكثر من 15 ٪ من حاجات أروبا فى سنة 1980 • ومن ثم ، فان الاعتماد عــلى نفط الشرق الاوسط وشمال افريقية ، سوف يتجاوز بطريقة متزايد نسبة الاعتماد الحالية التى تبلغ 80٪(1)•

جاء فى تصريح لمسؤول فرنسى كبــير عـــن شؤون الطاقة ، ادلى به لصحيفة « لوموند »، قبل اعلانالقرار العربى باكثر منشهرين (23أغسطس)

« لكى يمكن حل معضلة توفير الطاقة للغرب فى الثمانينات يجب ان تنتج المملكة العربيـــة السعودية اكثر من مليار طن سنويا من النفــط الخام • ويجب ان يزيد هذا البلد انتاجه مــــن الآن حتى نهاية العقد الحالى ، بمعدل 15٪ سنويا • انه لا يوجد حل بديل لهذا الحل » •

وأضاف الناطق قائلا : « يجب ، خصوصا ، ان تحذروا من اثارة غضب العرب » •

ولكن المحذور وقع الآن • وبدلا من ان يزيد العرب انتاجهم ، أخــــذوا يخفضونه بطريقـــة محسوسة •

نتيجة لهذا الاجراء ، فسيبلغ نقص العـــالم المصنع من النفط العربى فى شهر ديسمبر 1973، نحو 20 ٪ • وبحساب المتوسط باعتبار التفريق بين البلدان « الصديقة » التى لا يتأثر تموينهـا بالحظر العربى ، والبلدان « المحايدة » التى يطبق عليها التخفيض بنسبة 5 ٪ ، والبلدان «المعادية» التى يطبق عليها القرار بنسبة مائــة بالمائــة ، فستنخفض نسبة العجز فى مجموع أروبا الغربية الى 10 ٪ • وهذه نسبة محتملة اذا اتخذت الدول المعنية اجراءات اقتصادية أولية لمعالجة الموقف •

ولكن الصناعات التى تتوقف على النفط مباشرة (مثل السيارات وتصفيــة النفــط والصناعات الكيميائية المتفرعة عن النفط ومثــل اللـــدائن والخيوط الصناعية الخ ،) ، ستتعرض للاختناق حتما ، وهو تطور ستكون له آثار اقتصاديـــة واجتماعية (البطالة) خطيرة •

وهكذا نرى ، ان المشكلة ليست مشكلة منــع تسيير السيارات الخصوصية للنزهة يوم الاحد ، فقط ، بل ان المشكلة التى تواجهها أروبا الغربية، هى مشكلة تسيــير عجلــة الصناعــة والتنظيــم الاجتماعى والاقتصادى الذى سيتعرض للانهيار اذا لم تقم بانتفاضة صادقة قبل فوات الأوان •

* * *

ان استخدام الدول العربية للنفــط بوصفــه سلاحا سياسيا شىء جديد ، بالنسبة الى هـــذه البلدان ، ولكن الدول التى تشكو من هذا الاجراء وفى مقدمتها الولايات المتحدة ، تعرف هذا النوع من الحظر جيدا حيث انهــا مارستــه ولا تــزال تمارسه • فان حظر تصدير المواد الاستراتيجية الذى فرضته الدول الغربية ضـــد البلـــدان الاشتراكية فى أروبا الشرقية منذ عهد الحـــرب

1) هذه هى النسبة التى أوردها Denis Bauchard فى مقال نشره فى « لوموند ديبلوماتيك » الصادر فى 8 أغسطس ، 1973 تحت عنوان « أروبا تستعد لازمة الطاقة »

البارد ، لا يزال قائما من الناحية المبدئية ، وذلك على الرغم من رفع الحظر مؤخرا على بعض المواد التى تشتمل عليها القائمة • ومقاطعة جنوب افريقية وروديسيا الجنوبية اقتصاديا بموجب قرارات للامم المتحدة وافقت عليها الدول الغربية والتزمت بتطبيقها ، لممارسة ضغط لحمل هاتين الدولتين على العدول عن السياسة العنصرية التى تنتهجها ، مثال آخر لاستعمال الاسلحةالاقتصادية فى معركة سياسية •

ولكن المعركة العربية ضد اسرائيل سياسية وعسكرية فى نفس الوقت • ونحن اذا استطعنا ان نفترض توفر حسن النية فى الدول الغربية التى تستورد النفط العربى ، واقتنعنا بانها لا تقوم باعادة تصديره الى اسرائيل (والمراقبة أمر صعب) التى تستعمله لتسيير دباباتها وطائراتها فنحن لا يمكننا ان ننسى أبدا ان نسبة من النفط العربى تستعمل فى أروبا الغربية وامريكا لصنع الاسلحة التى نزود بها اسرائيل ولنقل هذه الاسلحة • ومن ثم ، فبقطع النظر عن جميع الاعتبارات التاريخية والسياسية ، يمكن تبرير مبدا الحظر الذى فرضته الدول العربيةعلى تصدير النفط الى البلدان التى تتخذ موقفا عدائيا من قضيتنا ، بكل بساطة،بان النفط مادة استراتيجية حيوية يستفيد منها العدو ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، لتعزيز امكانياته العسكرية •

* * *

وفيما يتعلق بدعوى ان الدول المنتجة للنفط تمارس احتكارا لهذه المادة الحيوية للبلدان الصناعية ، فينبغى ان نذكر بان احتكار النفط لم يبدأ فى أوائل العقد الماضى ، حينما قررت هذه الدول ممارسة حقوقها الشرعية فى السيطرة على ثرواتها الطبيعية وانما هو بدأ منذ ان حصل وليام كنوتدارسى من الشاه نصر الدين على ترخيص لاستكشاف النفط فى جميع انحاء ايران ، أى منذ اكثر من نصف قرن •

وفى غضون هذه الفترة ، كانت الشركات الاحتكارية الامريكية والاروبية ، هى التى تفرض قانونها على البلدان المنتجة والمستهلكة معا • فكانت تجمد الاسعار أو ترفعها ، وتخفض الانتاج أو تزيد منه ، حسبما ما يتفق مع سياسيتها التى لا تستهدف الا زيادة الفوائد والارباح • وقد استمرت شركات النفط العالمية على سياسة اغتصاب ثروة النفط والتحكيم فى ظروف الاستهلاك فى العالم كله ، حتى ظهرت أزمة سنة 1970 ـ 1971 التى كانت نتيجة لنقص فى العرض (بسبب اقفال سورية خط انابيب تابلاين وتخفيض ليبيا للانتاج) وزيادة الطلب زيادة كبيرة ، بسبب التوسع الصناعى الذى شهدته اروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان •

ونتيجة لهذا الوضع ، فقد كانت شركاتالنفط لا تترك للبلد المنتج لهذه المادة التى كان الرئيس الراحل عبد الناصر ، يسميها « دم الحضارة والتقدم » ، سوى الحد الادنى من الدخل ، قبل الاتفاق الذى وقع فى طهران فى 14 فبراير 1971 •

وعند توقيع هذا الاتفاق ، كان السعر النهائى الذى يدفعه المستهلك للنفط ينقسم كما يلى :

- تكاليف الانتاج : 2،7 ٪
- ضرائب تحصل عليها الدول المنتجة: 7،9٪
- تكاليف النقل : 6ر3٪
- التكـرير : 3ر3٪
- التوزيـع : 26ر0٪
- صافى ارباح الشركات : 6ر3٪
- ضرائب تحصل عليها الدول المستهلكـة : 47ر5٪

ومن المعلوم ان الشركات الكبرى تملك شركات تتفرع عنها للقيام بأعمال التكرير والنقـــل والتوزيع،وبالتالى ، فقد كانت من الناحية العملية تتقاسم الدخل من النفط ، تقريبا ، مناصفة مع الدول الصناعية التى تنتمى اليها هذه الشركات. وهذه الحالة ، هى التى حاول الدكتور مصـــدق فى سنة 1951 ، ادخال تعديل عليها بقيـــامه بتاميم النفط الايرانى . على ان تحالف الشركات الاحتكارية مع الاستعمار الجديد ، كان من نتائجه مقاطعة النفط الايرانى وفرض ما يشبه الحصار الاقتصادى على ايران .

ولكن الوضع الآن ، قد تغير تماما ، أولا ، لان الدول المنتجة قد اتخذت الاجراءات الكفيلـــة بتحقيق ممارسة سيطرتها على ثرواتها النفطية ، وثانيا لان التضامن الذى ابدته فى نطاق منظمة البلدان المصدرة للنفط لتنفيذ مختلف الاجراءات الفردية والجماعية ، اصبح عاملا رادعا ويحميهـا من مختلف الضغوط والمؤامرات التى قد يقـــوم الاستعمار الجديد بتدبيرها .

وضع الكاتب الفرنسى « جان راسباى » مؤخرا قصة طويلة بعنوان « معسكر القديسـين » (1) تخيل ثورة قام بها الجائعون فى العالم الثـالث على العالم الصناعى المنهمك فى رفاهيته وانانيته، فوصف اسطولا تقوم قطعه من خليـج البنغـال بنقل الملايين من الجائعين الهنود والباكستانيـين الى الشواطىء الاروبية . ذلك هو المظهر الـــذى تتخذه الثورة على التخلف فى اذهان كتاب العالم الصناعى ... ولكن الدول العربية قد ارشدت ، بقرار حظر النفط ، الى طريقة أجدى واشد فعالية لثورة العالم الثالث : فبدلا من سفن تنقـــل الجائعين ، ستحسن الدول المتطورة صنعا ، اذا اعادت ناقلات النفط والنحاس والمطاط ، وغـير ذلك من المواد الاولية ، فارغة الى شواطىء الدول الصناعية . وهذا بطبيعة الحال ، لن يمنع عجلة الصناعة فيها عن الدوران ... ولكنها سـوف تدور فى فراغ !

شقوق فى صرح سيكلوجية الطفل :

يعتبر العلامة جان بياجى السويسرى ، أكبـر اختصاصى فى العالم فى سيكلوجية الاطفـال . وقد أقام بآثاره العديدة قاعدة متينة للابحـاث التى وضعت حتى الآن بمختلف اللغات عن نفسية الطفل ونموه العقلى . ولكن النظريات التى تتعلق

(1) Jean Raspail, Le Camp des Saints. Ed. Robert Laffo nt, Paris, 1973.

بنمو الطفل النفسى والتى اكتملت خصوصا ، فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، قد ظهرت فيها شقوق خطيرة ، وذلك على الرغم من ان الاسس التى تقوم عليها لا تزال سليمة . وكذلك أخذ بعض الباحثين يتهجمون على آراء الاستاذ بياجي وعلى النتائج التى استخلصها خلال مدة تزيد عن اربعين سنة من البحث والتجارب .

ومن بين النظريات الاساسية التى تقوم عليها سيكلوجية الطفل عند بياجي ، تلك التى تتعلق بالسن التى يكون عند بلوغها ، قادرا على الاستنتاج المنطقى فى أبسط صوره . فالاستاذ بياجي ، يقول ان الطفل يمر بمراحل فى نموه الذهنى تتطابق مع مراحل زمنية فى تقدمه فى السن . وقد اثبت بتجاربه العديدة ان الطفل لا يمكنه القيام بأنواع معينة من الاستنتاج المنطقى قبل الرابعة والسابعة، أو الحادية عشرة من عمره.

ولكن عددا من الباحثين يحاولون فى الوقت الحاضر ان يثبتوا ان الاستاذ بياجي يغالى فى تشاؤمه : لان الطفل ، فى رأى هؤلاء ، قادر على تصورات منطقية قبل مرحلة السن التى يحددها الاستاذ السويسرى .

وكذلك يقدر كل من الاستاذ بريان ، من قسم علم النفس التجريبى فى جامعة أوكسفورد ، والاستاذ اطرأباسو ، من قسم علم النفس بجامعة برينسطون ، ان الطفل يتمتع منذ سن الرابعة على القدرة على التفكير والاستنتاج ، بينما هو ، حسب نظرية بياجي ، لا يملك هذه المقدرة قبل سن السابعة .

والعملية الذهنية التى يدور الجدل حولها هى : هل يستطيع الطفل ان يستنتج من المقدمتين التاليتين : « أ » أكبر من « ب » ، و « ب » أكبر من « ج » ، وبالتالى ، فان « أ » أكبر من « ج » ؟ وبالطبع فان المشكلة لا تطرح على الطفل بهذه الصيغة التجريدية ، بل بطريقة عملية محسوسة بقدر الامكان ، وبحيث يستطيع ادراكها بوضوح.

وعند هذه النقطة ، يفترق العالمان ، بريان واطرباسو ، عن بياجي ، قائلين انه اذا كان من الصحيح ان الطفل فى كثير من الحالات (ولا سيما باستعمال نماذج التجارب التى سار بياجي على استعمالها) لا ينجح فى حل المشكلة التى يطلب اليه الاستنتاج حلها ، فان ذلك مرجعه ليس عدم توفر المقدرة الذهنية ، بل ان السبب فى هذا العجز يعود بكل بساطة الى الذاكرة ، لان الطفل ينسى المقدمتين بحيث يختلط عليه الامر فى المثال المتقدم ، فلا يعرف ما اذا كان « أ » أكبر من « ب » ، أم لا . وهو أمر يعوقه بطبيعة الحال عن الاستنتاج المطلوب . فالمسألة اذا ، ليست مسألة توفر المقدرة الذهنية على التفكير ، بل هى مسألة الذاكرة . واذا اتخذنا الاحتياطات الضرورية لتجنب دور الذاكرة السلبى فى التجارب ، فسيكون فى وسعنا حمل الطفل على التفكير والاستنتاج منذ السنة الرابعة من عمره .

ولكن هذا النقد ، تعرض بدوره للنقد . فان عالمين ، جيمس يونس وهانس فورث ، وكلاهما يعمل فى مركز البحوث عن التفكير واللغة فى الجامعة الكاثوليكية فى واشنطون ، قد استنكرا

تفسير براين واطراباسو وقالا ان الاحتياطات التى اتخذت لعزل دور الذاكرة وابرازه، ليست كافية. هذا من جهة ، ومن جهـــة أخرى ، فان نـــوع الاستنتاج (مستواه) المنطقى الذى اسفرت عنه تجارب العالمين ليس من نفس النوع الذى يقصده بياجى . فان استعمال الطباشير الملونة لتمثيل الحروف الثلاثة المذكورة (وهى الوسيلة الـــتى التجأ اليها العالمان فى تجاربهما) ، سيجعـــل الطفل يقارن بينها بطريقة « مباشرة » ، دون ان يدخل فى عملية من التفكير والاستنتاج . وبالتالى فان الطفل لا يزال فى المرحلة « السابقة للمنطق» على الرغم من تمكنه من حل مشكلـــة بطريقـــة منطقية فى ظاهر الامر . ولكن براين لا يسكت على هذا النقد ، لانه يرد ، بان تجارب أخرى استعمل فيها وسائل غير الطباشير الملون ، اكدت النتائج التى توصل اليها ، كما اكدت ضرورة عزل دور الذاكرة فى عملية التفكير والاستنتـــاج عنـــد الطفـــل .

والجدير بالذكر فى هذا السياق ان بريان ليس هو العالم الوحيد الذى يتشكك فى نظريات بياجى فى سيكلوجية الطفل ، ويحاول ان يثبت ان تجاربه لم تكيف كلها بالقدر الملائم لموضوعها. فان بياجى مثلا يرى ان فكرة وضع شىء بالنسبة الى شىء آخر (كون الكتاب موضوعا على يمين الصحن، يستلزم ان يكون الصحن موضوعا على يسار الكتاب) ، لا يمكن ان تدخل فى ذهن الطفل قبل ان يبلغ العاشرة من العمر . ولكن ثلاثة من كبار علمـاء سيكلوجية الاطفال من جامعة ولاية ميشيجان ، يرون ، على العكس ، ان الطفل يستطيع ان يدرك هذه الفكرة فى السابعة من العمر . واذا كانت تجارب بياجى قد عجزت عن الكشف على مقـدرة الطفل على ادراك هذه الفكرة قبل العاشرة ، فان ذلك ليس دليلا على عجزه ، وانما هو نتيجة لاختيار بياجى كلمتى : يمين ـ شمال . ونحن اذا وضعنا فى التجربة بدلا منهما كلمتى : فوق ـ تحت ، فسنجد ان الطفل يدرك النسبة فى وضع الاشياء قبل سن العاشر بكثير .

ومن جهة اخرى ، فان العالم جيمس راسل ، الاستاذ بجامعة جلاسجو ، بانجلترا ، يرى ان كثيرا من تجارب بياجى فشلت فى تحقيق غرضها، لانها تتطلب معرفة بمفردات لغوية لا يملكها معظم الاطفال الذين أجريت عليهم .

ومهما يكن من شىء فان من سبق الاوان الزعم بان صرح النظريات الذى شيده العلامة بياجى يتعرض للانهيار ، فان الانتقادات التى توجه اليه لاتتناول فى معظم الحالات سوء التفاصيل . وزيادة على ذلك ، فهى ـ كما رأينا ـ عرضة ، بدورها لانتقادات أخرى ، كما هى الحالة دائما فى العلوم البشرية . ولكن الشىء الذى يدعو الى القلق ، هو كثرة عدد الذين يتهجمون عـــلى الاستاذ بياجى وتجاربه ونظرياته التى استخلصها منها .

مشروع قائمة عالمية للكتب :

الحلم الذى يساور رجال المكتبات فى جميـع بلاد العالم ، هو ان يتمكنوا يوما ما من معـــرفة اكثر ما يمكن من التفاصيل والخصائص الـــتى

تميز الكتب التى نشرت أو هى تحت الطبع فى أى مكان من الكرة الارضية • ولكن ، هل يتحقق هذا الحلم فى يوم من الايام ؟ ذلك على الاقل هو السؤال الذى كان يتردد فى اذهان نحو ثمانمائة وخمسين من ممثلى المكتبات فى 75 بلدا الذين اشتركوا فى مؤتمر عقد مؤخرا فى جروتوبل للاحتفال بمناسبة مرور 39 سنة على تكوين الاتحاد الدولى للمكتبات العمومية • وقد خرج هؤلاء من المؤتمر وهم مقتنعون بان تكوين قائمة عالمية للكتب قد أصبح هدفا ممكن التحقيق •

وطموح هذا المشروع ، يتضح لنا اذا عرفنا ان عدد الكتب التى تصدر فى العالم سنويا يزيد عن 300،000 كتاب ، وذلك بالاضافة الى عدة ملايين من الكتيبات والنشرات ، وظهور هذه الكتبفى السوق ـ بعد انتهاء العمل فى تاليفها ـ ثم الاعلان عنها فى الصحف والمجلات ، وادراجها فى قوائم المكتبات التى توزع فى الخارج عملية تستغرق وقتا طويلا وتجعل مهمة محافظىالمكتبات فى المتابعة واقتناء الكتب الجديدة مهمة عسيرة للغاية •

ومن هنا فكرة وضع قائمة عالمية للكتب الحديثة الصدور بحيث يتمكن العلماء والاختصاصيون من الاطلاع على عناوينها والاستفادة منها فى ابحاثهم بسرعة نسبية •

ولكن المشكلة معقدة نوعا ما ، بسبب اختلاف التنظيم الداخلى للنشر والسهولة أو الصعوبة فى جمع المعلومات عن الكتب فى مختلف بلدانالعالم•

فبينما نرى ان بريطانيا والمانيا الغربية والولايات المتحدة تستعمل الادمغة الاليكترونية فى مكتباتها العمومية وتعالج بها بالسرعة المطلوبة مختلف الكتب والمطبوعات ، نجد ان بلدانا أخرى ولا سيما البلدان المتطورة ، تعانى من بطء شديد فى جمع المعلومات ومعالجتها وتمحيصها • ونحن نعرف ان كثيرا من البلدان لا تلزم الناشر والمؤلف قانونيا بايداع عدد من النسخ •

والمشكلة الاخرى التى تواجه المشروع تتعلق بتنوع لغات بلدان العالم ، بل وتعدد اللغات فى البلد الواحد •

ونحن ندرك خطورة هذه المشكلة ، اذا تذكرنا ما صرح به مندوب الاتحاد السوفيتى فى المؤتمر ، حين قال ان اللغات التى تصدر بها كتب فى بلده، تبلغ 89 لغة •

كيف يمكن ترجمة عناوين جميع هذه الكتب مع ذكر المعلومات الاساسية عنها ، مثل عدد الصفحات وفهارس الكتاب ومستوى القراء الذين يتجه اليهم الخ ••• ؟ المهم ان هذه•المعلومات ستكون قائمة ذاتحجم معتبر ولا بد وان يستغرق طبعها وتوزيعها بعض الوقت • للتغلب على هذه العقبات ، اقترح انشاء مراكز وطنية للمكتبات العمومية لتعمل بتعاون مع مكاتب الايداع القانونى ، ثم وضع جهاز دولى ليكون حلقة اتصال ويساعد فى مهمة الترجمة والتوزيع الخ • وقد بلغنا ان اتصالات تجرى الآن بين اتحاد المكتبات العالمية واليونسكو لهذه الغاية •

ولكن هذا لا يعني ـ مع الأسف ـ أننا سنجد غدا قائمة عالية للكتب معروضة في واجهات بائعي صحفنا اليومية ٠

مسيحية الشمال ـ أو ما بقي منها :

نظمت مظاهرة دولية ضخمة في أعقاب الصيف الماضي في كابنهاجن ، عاصمة الدانمارك ، اشترك فيها اكثر من عشرة آلاف شخص من المسيحيين الذين حضروا لهذه الغاية من مختلف انحاء العالم، وخصوصا ، من المانيا وانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة واليابان واسرائيل ٠ وقد عقد هذا المؤتمر الذي اطلق عليه اسم « مهرجان المسيح » لبحث وسائل نشر الديانة المسيحية خارج البلدان المسيحية ولمقاومة نفوذ الديانات الاخرى ، ولا سيما الاسلام في افريقية السوداء ، وقد صرح الناطق باسم المهرجان ، بان الهدف من هذا التجمع الدولي ، هو اقناع العالم بان المسيحية حقيقة حية ، وبضرورة اعتناق جميع الناس لها ، وبان النصر سيكون للمسيح ولا ريب » ٠

ومن بين المظاهرات التي اشتمل عليها برنامج المهرجان ، مظاهرة احتجاج في شوارع كوبنهاجن، تنظم ضد قرار اتخذه وزير الثقافة الدانماركي قبل ذلك بوقت قصير ٠

فان هذا الوزير قد خصص مساعدة مالية ، بناء على توصية من معهد السينما الدانماركي ، قدرها 600 000 كورون (ما يزيد عن نصف مليون دينار جزائري) لمشروع فلم بعنوان «شؤون المسيح الغرامية » ٠ وهذا المبلغ يمثل ربع الميزانية التي خصصتها الحكومة الدانماركية لمساعدة الفنون الجميلة ٠

واما المخرج الذي يقوم بانتاج الفلم واخراجه ويتلقى هذه المساعدة ، فهو جان ثورسون الذي اشتهر باخراج عدد من افلام الدعارة التي منع عرضها في عدد من البلدان بما في ذلك باريس ، بسبب تركيزها على المسائل الجنسية بدون اي تستر ٠ ومن بين افلامه التي اثارت موجة من الاحتجاجات ومنع عرضها ، الفلم المعنون « الايام الهادئة في كليشي » ٠ بل ان المخرج قد تعرض لمضايقة البوليس حتى في البلدان السكاندينافية التي تدين ، وخصوصا بلده الدانمارك ، بالاباحية الجنسية التي تخلي القانون عن كل تدخل فيها ، فيما عدا حالة الاعتداء ٠

وفيما يتعلق بالفلم الذي يجرى اخراجه ، فان ثورسن قد صرح في مؤتمر صحفي ، بان هدفه هو « فضح حياة السيد المسيح الجنسية ، وكشف النقاب الذي اسدل عنها في اروبا منذ نحو الفي سنة » ٠ وهو ينوي أن يمثل المسيح « مستغرقا في الشراب وفي اعمال الخطف والسرقة ومضاجعة النساء من كل الانواع » ٠

وفي البرلمان الدانماركي ، تقدم الحزب الشعبي المسيحي الذي يمثله عدد من النواب ، باحتجاج مائع زاد من قلة جدواه ، فراغ القاعة عند ما تقدم به ٠٠٠

وكذلك تعالت احتجاجات فردية في البلد ، لا للدفاع عن الدين وعن شخصية المسيح

المقدسة ، بل لأن تمويل الحكومة للفلم ، سيودى حتما الى زيادة الضرائب التى تثقل كاهل الشعب، حيث ان ميزانية الدولة تشكو الآن من عجـــز مهـــم !

ولما سئل وزير الثقافة عن تصرفه ، اجـاب بانه حينما قرر منح المساعدة للفلم لم يأخذ الى الاعتبار سوى الناحية الفنية للمشروع دون ان يهتم بالناحية الاخلاقية ٠

ولكنه بعد ما تقرر اخراج الفلم ، بقى عـــلى ثورسن ان يجمع الممثلين ويختار المكان الملائـــم لاخراجه ٠ أى ممثل قادر ، مهما كانت درجـــة إيمانه او كفره بالمسيح ، يستطيع ان ينـــزل بشخصيته وفنه الى هذا الحضيض ؟ لم يجـــد المخرج مشكلة فى ذلك على الاطلاق ، لانه بمجرد ما عرف مشروعه ، تلقى اكثر من مائتين مـــن الطلبات من ممثلين يعرضون انفسهم لتقمـــص شخصية المسيح ٠

واما مكان الاخراج ، فقد تقرر ان يكـــون قرية « فوكوز » فى عمالة أفيئيون ، بفرنســـا حيث يوجد « ديكور » طبيعى مـلائـم للاحداث التى تخيلها المخرج ٠ والطريف ان معهد السينما الدانيماركى الذى اوصى الحكومة بتقديم المساعدة لمشروع الفلم ، رفض ان يمنح المخرج اذنا ليقوم بتصوير المناظر فى الدانمارك ٠

ولكنه بعد ما قبلت بلدية « فوركوز » فكـرة القيام بالتصوير فى بلدتها ، ظهر وكان المشكلة قد وجدت حلها ٠٠٠ غير ان تدخل رئيس اساقفة أفينيون فى الموضوع ، جعل البلدية تعيد النظر فى قرارها ٠ فقد جاء فى تصريح لرئيس كنيسة أفينيون « ان المسيحيين فى أفينيون وفى فوكروز قد اثبتوا تعلقهم بحرية الفن والثقافة ، ولكنهم يرفضون ٠٠٠ هذا المشروع الذى يجرح شعور الايمان بالمسيح والتعلق بالكنيسة » ٠

واخيرا ، تدخل قداسة البابا بول السادس بنفسه ليصف مشروع الفلم بانه « عـــدوان حقير على شخصية المسيح ، وكفر بكل ما جـاء به » ٠ وكذلك صدرت ردود فعل مماثلـــة عن كبار رجال الكنيسة البروتستانية ٠

ولكن ، هل أثرت هذه الاستنكارات عـــلى غزيمة المخرج او على المساهمين فى الفلم ؟ لا يبدو ان الامر كذلك ! بل على العكس ، فان الاخبـار تقول بان ثورسن قد وجد فيها تشجيعا كبيرا ، حيث يعتبرها خير دعاية للفلم ٠ والواقع ، ان هذه هى المرة الاولى فى التاريخ التى يشتـــرك فيها رئيس الكنيسة المسيحية فى الدعاية لفلـم سينمائى ٠ والمهم ، ان المخرج اصبح الآن متأكدا من ان فلم « شؤون المسيح الغرامية » سيضمن له رقما قياسيا من المشاهدين ومن دخل شبـاك التذاكر !

واما تعليقنا نحن على هذه القصة فيمكننا ان نوجزه فى كلمة واحدة ٠ **ليس هذه هى الطريقة التى يمكن بها للمسيحيين مقاومة الاسـلام فى القارة الافريقية وضمان انتصار المسيحيـــة فى العـــالم !**

هل يواجه العالم تهديدا بنقص فى المواد الغذائيـــة ؟

ساد الاوساط الدولية خلال الصيف وجزء من الخريف الماضى قلق شديد بشان حالة الاغذية فى العالم ، تلك الحالة التى نجمت عن عدد من العوامل أهمها سوء محاصيل الحبوب فى الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية فى العـام الماضى ، واضطرار البلدين الكبيرين الى شراء كميات هائلة مـــن الحبوب من الولايات المتحدة الامريكية وكنـدا • وكذلك كان لحالة القحط التى أصابت البلـدان الافريقية الواقعة فى جنوب الصحراء ، وتناقص الفائض المخزون الامريكى من القمح أثر فى زيادة المخاوف التى كانت تساور المسؤولين فى اجهزة الامم المتحدة المتخصصة ، وفى مقدمتها منظمـة الاغذية والزراعة ، ومجلس القمح الدولى •

وكذلك أدلى السيد بورمة المدير العام لمنظمة الاغذية والزراعة بعدد من التصريحات التىاعتبرت بمثابة انذارات بخطورة الحالة ، ولا سيما تلـك التى أصدرها عقب انتهاء اعمال مؤتمر الدول المصدرة للقمح الذى انعقد فى مقـر المنظمة فى أواخر سبتمبر 1973 • فقد ذكر مدير منظمـــة الاغذية والزراعة ان العالم يواجه أزمة فى المواد الغذائية ، ولا سيما من القمـح ، الـذى نقص الاحتياطى العالمى منه بصفة خطيرة ، وذلك عـلى الرغم من تأكيد مندوبى الـدول المصـدرة بان الكميات التى ستتوفر للتصدير ، ستكون أكبـر مما تتوقعه التقديرات الاولية •

وقد تأثرت اسعار الحبوب فى اسواق الولايات المتحدة وبريطانيا (وهى بمثابة مقياس للضغط) تأثرا كبيرا ببوادر هذه الازمة ، فسجل سعـر القمح رقما قياسيا فى الولايات المتحدة حيث بلـغ سعـر « البواسو » (25،4 كيلو) أربـع دولارات ، بينما كان هذا السعر قبل ذلك ببضعة اشهر لا يتجاوز 2 دولار •

وكذلك سجل سعر القمح فى سوق لنـــدن ارتفاعا فى ظرف اسبوع واحد بنسبة 11 ٪ ولكن هذا الارتفاع كان الى حد بعيد استجابة للظروف المحلية ، حيث اصيبت المحاصيل فى بريطانيا باضرار كبيرة نتيجة لرداء الاحوال الجوية •

وبعد ما استقرت أسعار القمح نوعا ما عـلى مستوى مرتفع ، اخذ الضغط ينصب على الذرة التى بلغ سعرها لاول مرة فى التاريخ 3 دولارات للبواسو ، بل وزاد عـلى ذلك ، قبل ان يستقـر عند هذا الحد •

واما ازمة انتاج اللحوم الذى شهد العـــالم انخفاضا كبـيرا فى تـوسعه فقد كانت محـور المناقشات فى المؤتمر الذى اشتركت فيه 58 دولة والذى انعقد فى أوائل أغسطس فى مقـر منظمة الاغذية والزراعة فى روما • فان انتاج العالم من اللحوم لـم يرتفع الا بنسبـة 1 ٪ بالقياس الى المستوى الذى كان عليه فى سنة 1972 (بينمـا كانت نسبة الزيادة فى تلك السنة بالقياس الى سنة 1971 ، تقرب من 4 ٪) • وهذا النقص ، مرجعه خصوصا ، الى الركود الذى اصاب انتاج

ما يعرف باللحم الاحمر (لحم البقر والغنم والخيل) •

على أن التطورات الاخيرة فى مجال انتاج الحبوب تبعث على التفاؤل ، ولا سيما بسبب جودة المحاصيل فى الاتحاد السوفيتى ، وهو عامل سيرفع كثيرا من الضغط الذى تتعرض له الاسواق العالمية • وكذلك لاحظ مندوبو 58 دولة الاعضاء فى لجنة المنتوجات التابعة لمنظمة الاغذية والزراعة والتى عقدت اجتماعا خلال الفترة بين 8 و19أكتوبر 1973 ، ان الطلب والاقبال على معظم المواد الغذائية سيكون على المدى القريب ، متوازنا مع العرض ، ولو أن الاسعار ستظل علىمستوى مرتفع • وكذلك أعلنت اللجنة ان عددا من الدول قد أتخذت اجراءات فعالة لتشجيع الانتاج خلال الموسم القادم ، وأن المتوقع ، تبعا لذلك ، ان يسجل الانتاج فى الفترة الاخيرة من هذه السنة ، وفى الفترة الاولى من سنة 1974 ، زيادة مهمة بالقياس الى انتاج الفترة السالفة ، وعلى الرغم من المخزون لا يزال ضعيفا والاقبال شديدا ، فان المنتظر أن يدخل تحسن معتبر على الموقف •

ومن جهة أخرى ، فقد ابلغ ممثل مجلس القمح الدولى اللجنة ان المجلس يتوقع تحسنا كبيرا فيما يعلق بانتاج القمح فى العام المقبل ، حيث ان كل الدلائل تشير الى ان انتاج القمح فى الولايات المتحدة وكندا ، سيسجل رقما قياسيا فى هذه السنة • ونتيجة لذلك ، فان الكميات التى ستتوفر للتصدير فى هذين البلدين ستكون أكبر مما حددته التوقعات الأولية ، أى انها ستبلغ ما يتراوح بين 63 و64 مليون طن ، بدلا من 59و62 مليون طن ، المقدر سابقا •

وأما الطلب على الاستيراد ، فسيكون أقل من المتوقع ، حيث كان المقدر ان يبلغ رقما يتراوح بين 62 و 65 مليون طن ، فى سنة 1974 •

توفى الاستاذ «ريجى بلاشير» ، أحد كبار المستعربين والمتخصصين فى العلوم الاسلامية فى 7 اغسطس الماضى عن سن تناهز الثالثة والسبعين بعد عمر قضاه فى البحث العلمى والتدريس والتاليف • وسيرة الفقيد غنية متعددة الجوانب ، بحيث ان الرجل يتميز عن الصورة التقليدية المرتسمة فى اذهان الكثيرين عن حياة المستشرق بعدة امور •



فهو فى المكان الاول ، عالم متضلع واسع الافق ، ويمكن اعتباره متخصصا فى اكثر من مجال واحد • ومن جهة أخرى ، فان تفرغه للتدريس (نيفا ونصف قرن) والتاليف ، لم يعزله عن تيار الاحداث السياسية ، بل ان بلاشير كان فى مقدمة رجال الجامعة الفرنسيين الذين دافعوا عن استقلال بلدان المغرب بألسنتهم وأقلامهم • وقد تحدى الاستعمار ، وهو فرنسى عاش وعمل معظم حياته فى المستعمرات • ثم ان ريجى بلاشير ، يمتاز فى معاملته لتلامذته (وكاتب هذه السطور يعتز بان يكون واحدا منهم) ، متى أحس فيهم روح الجد والمقدرة على طلب العلم ، معاملة الند للند ، بعيدا عن الميل الى الاستعلاء والتبنى ـ ذلك الميل الذى لا يزال ، مع الاسف ، يسود العلاقات بين المستشرقين والطلبة الشرقيين فى اوروبا عموما ، اذا استثنينا الجامعات البريطانية •

قضى بلاشير صباه فى الدار البيضاء حيث أتم دراسته الثانوية ، وفى الجزائر حيث تخرج من كلية الآداب ونال اجازة التبريز وشهادة دكتوراه الدولة فى الآداب • وقد اشتغل استاذا فى مدرسة مولاى يوسف الثانوية فى الرباط (22 ـ 1929) ومديرا لمعهد الدراسات الاسلامية العليا (30 ـ 1935) ثم استاذا فى مدرسة الالسن الشرقية (35 ـ 1950) ، وأخيرا أستاذا للآداب فى جامعة باريس • وكذلك خلف بلاشير ليفى بروفنصال فى مركز مدير معهد الدراسات الاسلامية فى باريس ، وشغل هذا المنصب قرابة عشر سنوات (56 ـ 1965) •

وفى هذا المجال ، يجب التنويه بان الفضل فى ادخال اللغة العربية الى المدارس الثانوية فى فرنسا ، باعتبارها لغة ثانية ، يرجع فى المكان الاول الى جهود الاستاذ بلاشير المتواصلة سنوات عديدة لهذه الغاية • ولو لم يقدم بلاشير للعالم العربى الا هذه الخدمة لاستحق ثناءنا وتقديرنا العميق • ولكن بلاشير الى جانب ذلك ، كان ، هو وجاك بيرج ، الاستاذ فى الكوليج دو فرانس ، داعيا وسفيرا لثقافتنا العربية فى بلده • ومن أجل تقريب الشقة بين ضفاف البحر الابيض المتوسط الجنوبية والشمالية ، كان بلاشير كثير التردد على بلاد المغرب والقاهرة وبغداد •

كم عدد الطلبة الذين تخرجوا على ريجى بلاشير فى البلاد العربية ؟ المئات ؟ الآلاف ؟ لا يمكننا الجزم فى ذلك • ولكننا ، على كل حال ، كثيرون ممن يدينون له بالفضل فى التوجيه والارشاد الى الآفاق المجهولة فى ثقافتنا وتاريخنا •

ولكنه ، اذا كان بلاشير المعلم يقف على قمة ، فان بلاشير المؤلف يقف على قمة أخرى •

دخل بلاشير الى العالم الاكاديمى باطروحته لنيل شهادة دكتوراه الدولة ، عن الشعر العربى وقد تناول بحثه المتعمق، هذه الظاهرة التى تتحدى الاجيال ، أبا الطيب المتنبى • وهذه الدراسة تعتبر فتحا فى عالم الاستشراق ، لان الشعر

العربي بانغامه وقوافيه البدوية، كان ولا يزال يمثل أفقا مغلقا على اذواق المستعربين • وكانما ادرك الرجل ان ثغرة واحدة في حائط النسيان والاهمال لا تكفي لفتح آفاق الادب العربي للناطقين باللغة الفرنسية ، فاردف هذه الاطروحة بكتابه عن «تاريخ الادب العربي ، حتى القرن الخامس عشر» •

والى جانب هذه الاعمال الاساسية في التاريخ والادب العربي ، الف بلاشير عددا كبيرا من الكتب المدرسية التي من بينها كتاب بعنوان « عناصر النحو العربي » • وبعض هذه الكتب وضعها باشتراك مع بعض المستعربين ، مثل سيكالدي ، وجوديفرواي ديمومبين • ويتوج هذه الاعمال الطالبية قاموسه العربي – الفرنسي – الانجليزي الذي يجري طبعه الآن ، بمساعدة باحثين كبيرين والذي ينتظر ان يكون خطوة هامة في طريق سد الفراغ الذي نعاني منه في مجال القواميس العلمية•

ومهمة وضع القواميس مهمة نعرف جميعا كم هي شاقة ، وهي تحتاج الى تعمق في العلوم اللغوية وفي آداب لغات القاموس ، ولكنها تحتاج خصوصا ، الى ممارسة طويلة للترجمة • وهذه ناحية برز فيها بلاشير ، بحيث لا نعرف له فيها نظيرا بين المستشرقين المعاصرين • فقد ترجم بلاشير في سنة 1957 مختارات مهمة الى اللغة الفرنسية من مقامات الهمذاني ، ولكن الشهرة الدولية التي يتمتع بها ، تقوم على اساس ترجمته للقرآن الكريم •

بل ان بلاشير ترك للناطقين باللغة الفرنسية ترجمتين متميزتين للقرآن : تقوم احداهما على متابعة النص بدقة وامانة ، مستعينا في اختيار معاني الكلمات بآراء المفسرين ، وهي تتجه للجمهور • والترجمة الثانية ، تقع في ثلاثة مجلدات (احدها عبارة عن مقدمة) ، وتتجه الى العلماء والمتخصصين في الشؤون الدينية وفي المشرقيات • واهم ما يميز هذه الترجمة الاخيرة هو ان بلاشير ، حاول فيها اعادة ترتيب السور، على أساس زماني • وهذه الطريقة في رأي المترجم « من شانها ان تسهل على الناس خارج العالم الاسلامي ، فهم رسالة محمد » (الجزء الاول ، ص 277) •

والى جانب تآليفه التي لم نذكرها كلها، والاعمال التي قام بترجمتها ، خلف لنا بلاشير ، عددا كبيرا من الابحاث القيمة والمقالات التي كان ينشرها في المجلات المتخصصة في الشؤون العربية والشؤون الشرقية ، مثل « هيسبيرس » ومجلة الدراسات الاسلامية ، و « ارابيكا » ، كما حرر عددا من الابواب في الانسيكلوبيديا الاسلامية •

وعلى الجملة ، فان حياة بلاشير كانت حياة مليئة وذات ابعاد واسعة • واذا كان عالم الاستشراق قد فقد فيه واحدا من أعمدته القوية ، فان العالم العربي ، خسر بوفاة هذا العالم، مبشرا بثقافته وقيمه الادبية وصديقا يدافع عن قضاياه ويرفع صوته بشجاعة عند الشدائد والملمات •



مع المجلات

الآراء التى ننقلها عن هذه المجلات ، لا تعبر بالضرورة عن أفكار واتجاه المجلة ، وانما ننشرها للاطلاع .
«الأصالة»

اعداد :
بهية ع .

- **« الجيش » الجزائرية :**
الفروع العلمية المعربة بالجامعة ومصاعب قلة الاطارات .
- **« البلاغ » البيروتية :**
يريدون لغة لبنان فرنسية ازدواجية وعامية و . . . لاتينية .
- **« الصباح » التونسية :**
لا تفتحوا أبواب المدارس أمام اللهجات العامية .

التعليم المستمر

الفروع العلمية المعربة بالجامعة ومصاعب قلة الإطارات

ساحاول في هذه السطور التحدث عن تجربة تعريب بعض الفروع العلمية بجامعة الجزائر ، وأركز بالخصوص على تجربة تعريب فرعي العلوم البحتة ، (الطبيعيات) وفرع الرياضيات بكلية العلوم وكذلك فرع الجغرافيا بكلية الآداب أو « معهد الجغرافيا » كما يسمونه ٠ ان الذي لا يختلف فيه اثنان أن التعريب في الجزائر قد قطع أشواطا معتبرة الى الامام خلال العقد الاول من الاستقلال الوطني في ميدان التعليم بمختلف مراحله ، اذا قسناه بالحالة التي وجدت عليها الجزائر عشية الاستقلال الوطني ، ولست في حاجة أن أذكر في هذا الصدد اعداد التلاميذ الذين هم الآن في المدارس يتلقون يوميا قدرا لا باس به من العربية ، ولست كذلك في حاجة الى ذكر مختلف الفروع التي عربت بكليات العلوم الانسانية ، من كلية الآداب الى الحقوق الى مختلف المدارس العليا ، والمعاهد التيكنولوجية وغيرها ، لكن السؤال المطروح اليوم هو : هل أن النتائج التي تحصلنا عليها الى الآن في ميدان التعريب كانت في مستوى طموحنا ، وهل هي أقصى ما كان في وسع بلادنا أن تقوم به في هذا المجال ؟ قد تصعب الاجابة لكن المؤكد هو أن النتائج التي حققناها في ميدان التعريب تعتبر انجازا ضخما اذا قارناها بلا شيء ، اذا قورنت بسنة 63ـ73 اذا قورنت وضعية العربية صبيحة الاستقلال بوضعيتها بعد 10 سنوات من الاستقلال ٠

أمـا اذا قارنا ذلك بطموح الشعب وغيرته على لغته واصالته وشخصيته الوطنية ، اذا قارنا ذلك بالخطوات التى نطعتها الفرنسة المقننة فان النتائج سوف تبدو لنا دون شك جد هزيلة ، ولا نذهب بعيدا ولنقارن فقط بين مجموع ساعات التعليم المعرب والتعليم المفرنس بأى مرحلة من مراحل التعليم من المتوسط حتى آخر سنة جامعية أو نقارن اعداد الطلاب أو التلاميذ الذين يدرسون بالفرنسية بأولئك الذين يدرسون بالعربية ، أو نقارن اعداد الطلاب والتلاميذ الذين كانوا يدرسون بالفرنسية غداة الاستقلال بالاعداد الحالية لنقارن ذلك وسوف ننتهى بسرعة الى النتيجة ٠

ومع ذلك هناك ممن لا يزالون يمنون على الشعب الجزائرى بما تحقق فى ميدان التعريب . ويبرزون الخطوة التى خطوها بقطعها التعريب على انها عمل ضخم موهين بتلك الخطوات التى تقطعها عملية الفرنسة بالمقابل ٠ وينصحون في نفس الوقت بضرورة التأنى فى تطبيق سياسة التعريب تجنبا ، تجنبا لما قد ينجر عن عملية الاسراع فى التعريب من انتكاسات لا تحمد عقباها ، ويتجاهلون المصاعب التى ستسببها سياسة الفرنسة على المدى المتوسط والبعيد للبلاد ككل وللتنمية الاقتصادية بالخصوص ٠

ومن هنا نفهم سياسة اقتصار التعريب فى التعليم الجامعى على بعض الفروع النظرية دون ان يمتد الى الفروع العلمية الاخرى ٠ أو التراجع فى استمرار بعض الفروع التى فتحت منذ سنوات ٠

ففى سنة 1971 كان الطلبة بمدينة قسنطينة يطالبون بفتح فرع بكلية الحقوق والعلوم الاقتصادية بالعربية وكانت بعض العناصر تعارض فى ذلك ولكن فى النهاية انتصرت ارادة الخير وفتح الفرع بعد أن ذهب جزء من السنة الجامعية ، رغم أن الاساتذة كانوا متوفرين والقاعة كانت موجودة ولكن الذى كان مفقودا هو ارادة الخير ، وفى نفس السنة فتح فرع بكلية العلوم بجامعة الجزائر والتحق العديد من الطلبة المعربين الذين درسوا بالثانويات المعربة بهذا الفرع ٠



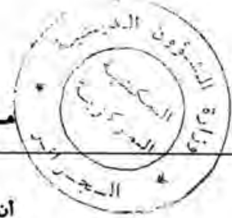
ومعلوم أن الثانويات المعربة تدرس المواد العلمية مثـل بقيـة الثانويات الاخرى وكان الطلبة الذين يحصلون على البكالوريا فى الفروع العلمية بالعربية يجدون أنفسهم مضطرين لتغيير لغة الدراسة عند دخولهم الى الجامعة حيث يدرسون بالفرنسية فى الفروع العلمية مع تحمـل كـل مصاعب استبدال لغة الدراسة الاساسية بلغة أخرى ثانوية أو يغيروا الفرع الذى نالـوا فيه شهادة البكالوريا الى الفروع الادبية الاخرى التى عرب بعضها مـع تحمل خسائر الاختصاص والموهبة والميول ، والكثير منهم يفشل فى دراسته بعد ذلك بسبب فقدان الرغبة فى الدراسة ·

وعندما فتح الفرع المعرب بكلية العلوم تنفـس هؤلاء الطلاب الصعداء واطمأنوا على مستقبلهـم ، وسـارعوا بـالتسجيل وكلهـم ثقـة فى النجاح ، وتحملوا كل مصاعب البداية بكل عزم وثبات وحققوا فى نهاية السنة الجامعية نتائـج مقبولة رغم مصـاعب بداية التجربة كقلة الاطارات الكفؤة ، وقلة الكتب الدراسـية العلمية ان لم نقل فقدانها تماما ·

ودرسوا كذلك السنة الثانيه واستقبلت السنة الاولى الطـلاب الجدد لكن هذه السنة انتشرت أخبار مفادها أن السنة الثانية المعربة بهذا الفرع سوف تحذف وما على الطلاب الا أن يتجهوا الى الفرع الفرنسى ليـواصلوا الدراسة أو يغيروا الفرع الدراسى والسبب فى ذلك هـو قلـة الاطـار التعليمى ، فـالاساتذة المحاضرين لم يحضروا من المشرق العربى لاسباب لا يعلمها الا الله ووزارة التعليم العالى والبحث العلمى ·

والسـؤال المطـروح هو لماذا وجدت الجامعة الاساتذة فى السنة الاولى والسنة الثانية فى السنة الماضية والسنة الثالثة هذا العام ولم تجد ذلك للسنة الثـانية فى السنة الدراسية الحالية ؟ ثم لماذا لم يأت الاساتذة من المشرق العربى ؟

ان الفـرع المعرب بكلية العلوم قد حقق فى السنة الجامعية الماضية نتائـج مشجعة باعتراف المسـؤولين عليه فى ادارة الكلية والجامعة ولست ادرى لماذا يتوقف جزء منه عن الدراسة هذهالسنة؟ ولماذا لم تفكر الـوزارة فى مشكل قلة الاطار قبل فـتح هذا الفرع فى سنة 197، ، وهل يعقل أ نيغلق جزء منه بعد



أن استفحلت التجربة • نعم ان الاطار العلمى المعرب مفقود في الجزائر خاصة فى التعليم العالى وهو أيضــا نادرا فى البلدان العربية بالمشرق العــربى رغم انها قطعت اشـــواطا فى مجال التعليم العلمى المعرب ،ومع ذلك بامكاننا أن نستفيد من بعض الخبرام الى حد ما •

ان بعض الاساتـــذة المعربين الذين استعيروا من الاقطار العربية الشـقيقة فى اطار التعاون الثقافى للتدريس فى الاقسام المعربة قد اضـطرتهم ظروف معينة ــ وهذه حقيقة ــ الى عدم تجديد تعاقدهم مع المؤسسات الجامعية لانهم لم يلقوا الترحيب الكافى بهم :

ــ فمنهم من لم يتصل براتبه الا بعد ستة شهور من تاريخ اسـتلامه العمل بصفة رسمية ، وظـــل يعيش على مـــا يقترضه من معارفه وعــادة يكون قلة لانه غريب عن أهله وذويه ، بالاضافة الى انه يعيش فى الفنـــادق والمعد فة فنادق الجزائر فيها الاماكن أولا ومريحة ثانيا ! ومنهم من غـادر الجزائـر ولم يحصل على سكن يأوى اليه •

ــ والبعض الاخـر غـــادر الجزائر بسبب سوء المعاملة التى يتعرض لها من بعض الاوساط فى الادارة بالجامعة والوزارة حيث يعاملونهـم معاملة رب العمل لعماله الاجرام ، لانه لا يحمـــل شهادة جامعية من باريس أو من لندن • وجام يساند الجزائر فى قضيـة وطنية ذات أهمية بالغة •

والحقيقة أن الاضطراب فى سياسة التعريب لا يعود الى شكل قلة الاطارات فقط كما يدعى البعـــض وانما يعود بالدرجة الاولى الى فقـدان خطة شاملة لتنفيذ التعـــريب فى مختلف مراحــل التعليم، والدليل على ذلك تعثر التعريب فى فروع العلوم الاجتماعية ايضا وليس فى مجال العلوم الطبيعية فقط •

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هى : وجود تناقض بين استمـرار الثانويات المعربة فى التعليم الثانوى فى تـدريس المواد العلمية بالعربية وتخريج كل سنة اعـــدادا من الطلبـة المعربين ، وبين استمرار بعض الفروع العلمية بالجامعة غير معربة ، او محـــاولة غلق ما هو مفتوح منها • وكان مـــن الاحسن أن يكون هؤلاء الطلبة نواة لتكوين اطارات علمية معربة ذات تكـوين جامعى عال عن طريق اعطائهم دراسة جامعية اولية داخل الـوطـن والسـماح لهم بمتابعة الدراسات العليا خـــارج الوطن وقد سبقتنا دول شقيقة وطبقت هذه التجربة بنجاح ، وكونت بعض الاطارات العلمية المعربة اضطلعت بعد ذلك بمهام تعريب العلوم الطبيعية •

لكن مع الاسف أن هذه العناصر ما تـــزال تهمل الى الان بدعوى ان اللغة العـــربية التى تكون بها عاجزة اتجاه الاصطلاحات العلمية والفنية الحديثة ، وهذه صعوبة موجودة لا يمكن نكرانها ولكنها ليســـت عقبة لا يمكن التغلب عليها •

وليست مشكلة قلة الاطاراتالعلمية المعربة مطروحة فى كلية العلوم فقط ولكنهـــا مطروحـــة أيضا فى معهـد الجغرافيا الذى لا تزال الدروس معطلة به الى الان بسبب فقدان المعهد للاساتذة المحاضرين فى هذه المـــادة • رغم أن القسم المعرب لا يوجد بـــه الا الفرع التعليمى أى الفرع الذى يؤهل الطالب لان يكون استاذا فى التعليـــم الثانوى والمتوسط ، أما الفروع الفنية الاخرى فالدراسة بها مقصـــورة على الاقسـام الفرنسية فقط لاسباب يقال انها ترجع الى ندرة الاطارات المعربة !!! وان كان النص القانونى القـــاضى بانشاء هذا الفرع ينص على أن للفرع أربع مهمات هى :

ــ تكوين اطـارات معربة لسـد حاجات التعليم •

ــ تكوين اطارات معربة فـى مجـــال استصلاح الاراضى •

ــ تكوين اطارات معربة فـى مجـــال الاستصلاح الريفى •

ــ تكوين مهندسين جغرافيين •

ولـــم يتحقـق من هذه المهمات الا الهدف الاول وما زال هو الاخر يتعثر أمام مشكل قلة الاطارات •

ويقول أحد الطلبـــة بالمعهد : أن الوسائل الفنية الخاصة بـالدراسة تكاد تكون مفقودة بالقسم العربى ، وحتى الحافلات التى تنقل الطلبـــة للميدان للقيـام بدراســاتهم على الطبيعة ، لا يستخدمها القسم العربى لانهم يدرسون بالعربية والعربية لا تؤهلهم الى القيام بمثل هذه الرحلات الدراسية ؟!!

والخلاصة هى أن العربية وان كانت قد قطعت بعض الخطـــوات فى مجـال التعليم الابتدائى والثـانوى والجامعى بفروع العلوم الاجتماعية فانها لا تزال دون المستوى المطلوب فى مجال العلوم الطبيعية رغم أن الفـــروع العلميـة بالثانويات المعربة هى التى تعرف أقوى تسجيلات فى السنوات الاخيـــرة حيث أصبح الطلبة يتجهون للدراسات العلمية اكثر من اتجاههم الى العلوم الاجتماعية وهذا يتماشىوالاختيار العلمى والتقنى•

وليس هـــذا مقتصرا على الفروع المعربة بل ان الفروع المفرنسة هـى الاخرى تشهد اقبالا متزايدا بالمراحل الثانوية ، وان كـــانت كفة الميـزان بالنسبة للدراسات الجـامعية راجحـة ناحية العلوم الانسانية ، اذ أن حوالى 60 ٪ من الخريجين من الكليات المختلفة يحملون شهادات فى العلوم الانسانية •

وفى النهاية فان المشاكل التى تتعرض لها اللغة العربية وهى تـــزحف نحـو اســـتعادتها لمكانتها اللائقة فى الحياة اليومية للشعب لا تكتسى طابعا لغـويا فقط وانما هى بالدرجة الاولى مشاكل سياسية واجتماعية وتربوية ، لا بد من البت فيها بصورة صريحـة وواضحة ، وقد حاول البعض اعطـاء هذه المشاكل طابعا لغويا بحتا لابعـــاد القضية عن مدارها الحقيقى ؟

«الجيش»

يريدون لغة لبنان فرنسية، ازدواجية، عامية و.. لاتينية!

يومـا بعد يوم ، تنمو في لبنان ظواهر « انعزالية » جـديدة ، تحاول الان مد جذورهـا في مختلف النشـاطات الفكرية والادبية والفنية ، لاعطاء الفكر الانعـزالي بعدا ايديولوجيـا جديدا ، يساعده على الصمود ضد كل موجات الانفتاح والتغيير والتطور ، والانتقال من لبنان ــ المزرعة الى لبنان ــ الوطن ، لبنان الشباب ، لبنان العربي. وسوف نحاول في هذا المقال ، وفي سلسلة مقالات تليه ، ان نحدد بوضوح ، بعض المظاهر الاساسية النامية في الفكر الانعزالي الذي يعيش الان عهده الذهبي . وسوف يتطرق هذا المقال الاول ، الى موضوع : « التيـارات الانعزاليـة في اللغـة » .



شـارل حلو : لغة العقل والقلب



هنري « دي » طربيه : معاهدة نيامي

اللغـة

■ في ظروف المحنة التي يعيشها العالم العربي بعد حزيران ، ومع تصـاعد النضالات الاجتماعية والوطنية في لبنـان في السنوات الاخيرة ، اخذت تبرز في الجهـة المقابلة دعوات انعزالية جديدة وقديمة ،تحاول استغلال جو الهزيمة لترسيخ اقدامها ، وهي تتخذ لنفسها اشكالا متعددة ترمي كلهـا الى هدف مزدوج ، يتلخص اولا في الابقـاء على التفكك الداخلي في المجتمع اللبنانـي لمصلحة بعض الطبقات والفئات المسيطرة ، ويتلخص ثانيا في السعي الى خلق مزيد من التباعـد بين لبنان ومحيطه العربي ، الذي يعيش عصر التحولات الكبيرة ، ويعيش ايضا ، وبشـكل اساسي ، قضية فلسطين ، وانعكاساتها على كل الاصعـدة .

وما نقوله في هذا المقال ، والمقالات التي ستليه ، ما هو سوى محاولـة اولية لرصد التيـارات التي اصطلـح على تسميتها « بالانعزالية » ، وهي تمر الان في مرحلة تبلور وازدهار ، لم تشهدها من قبل .

فهنالك اليوم تيار « لغوي » ناشط ، واخر يتخذ من التاريخ مادته الاساسية ، وثالـث يدعى « الفلسفة » ، ورابع يتسلح بدعـوات « قومية » مشبوهة ، وخامس يشجع العنصرية وتيارات اخرى كثيرة ، تتيح لها التركيبـة البنوية القائمة حاليا في المجتمع اللبناني ، ان تصب كلها في طاحونة الطائفية ، باعتبـارها قالبا نموذجيا لاحتواء كل دعايات ودعـوات الفكر الانعزالي الطبقي ، العاجز عن مواكبة تطور التجربـة الحضارية ، والحركـة الديموقراطية ، في لبنان .

السلاح اللغوي من اقدم الاسلحـة التي سخرتها الانعزالية لخدمتها . وهو كذلـك من احدث هذه الاسلحة . فلم تمض اسابيع على عدة تظاهرات فنية شهدتها المصايف اللبنانية

▪ مدير معهد الدراسات الشرقية ميشال



ميشال شيحا : الفرنسية لغته الام



سعيد عقل : الحرف اللاتيني !



الدكتور صبحي الصالح : فضح الدعوة العامية

خلال فصل الصيف ، وكانت ترمي كلها الى ترويج الثقافة واللغة مع البضاعة الفرنسية في لبنان ، وفي اقطار اخرى كثيرة ، كما كان الحال مع مهرجان « دير القمر » المسرحي ، والمهرجان السينمائي الذي اقيم في «بيت مري» للدول الفرنكوفونية .

ومقابل هذا الوجه « الشعبي » لنشاط الثقافة المضادة ، هنالك وجه رسمي .فالرئيس شارل حلو عاد منذ فترة وجيزة من زيارته « لمونتريال ــ كندا » حيث رأس اجتماعا «للجمعية الدولية للبرلمانيين الناطقين بالفرنسية» ومعروف عن الرئيس حلو انه من غلاة المدافعين عن اللغة الفرنسية في لبنان . فقد اعتبرها في احدى خطبه « لغة العقل والقلب » ، واعتبر فرنسا « نداء يعيش ويغني في قلوب الناس والشعوب التي تعاني من العنف والاضطهاد » ! وليس ادل على ذلك من الموجات العنصرية اللئيمة والحاقدة التي يتعرض لها عمالنا العرب في بلاد « العقل والقلب » المعطوبين !

كما قام مؤخراً وزير التربية السابق هنري « دي » طربيه ، برحلة ميمونة الى باريس ، حيث احتل منصبه كنائب لرئيس مجلة ادارة الوكالة التابعة لدول معاهدة « نيامي » التي تضم ٢٤ بلدا ، كان اخرها لبنان . وهي في غالبيتها العظمى من المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا . وكانت قد تأسست في مدينة « نيامي » عاصمة النيجر عام ١٩٧٠ ، تحت اسم « وكالة التعاون الثقافي والفني » ولها مدرسة في « بوردو » للمتدربين ، ومركز « للتدريب على حقائق العالم الثالث » يديره حبيب بولاريس وزير الثقافة التونسي السابق!

وهذه المنظمات والنشاطات تهدف ، كما هو واضح ، الى الترويج للثقافة الفرنسية ، ومن ورائها للسياسة الفرنسية ، في دول « ما وراء البحار » !

تدريس اللغة .. خدمة عسكرية

وهنالك كذلك وجه « ادبي » للدعوة الفرنسية في لبنان ، يتمثل بوجود عدد كبير من الكتاب اللبنانيين باللغة الفرنسية كجورج شحادة ، وناديا تويني ، وغابريال نفاع ، واندريه شديد ، وصلاح ستيتية الذي منحوه جائزة في باريس منذ ايام ، على ديوانه بالفرنسية !

وهؤلاء جميعا ، يمثلون ظاهرة خلفها الاستعمار الفرنسي وراءه اينما كان . ولكن بينما يعتبر الكاتب الجزائري مالك حداد انه « منفي في اللغة الفرنسية » ، وبينما نجد كاتب ياسين ، الذي يعتبر من ألمع الكتاب المعاصرين باللغة الفرنسية ذاتها ، يلجأ في تجاربه الاخيرة الى استخدام التعبير العربي ، كما في اخر اعماله المسرحية بعنوان « يا محمد خذ حقيبتك وارحل » ، فاننا لا نجد في لبنان اية رغبة مماثلة لدى بعض « كتابنا » للعودة الى اصول اللغة الام ، لا بل نجد تشجيعا للتغرب تحت ستار الانفتاح الكاذب، الذي لا يستند الى شخصيةوطنية كاملةالمعالم.

وقد لا نستغرب بعد ذلك ، وجود « رابطة ◀

الآب يعتبر أن التطور غير ممكن في لبنان دون اللغة العربية



الاب سليم عبو : ازدواجية



الاب اسطفان صقر : العربية لغة اجنبية

للناطقين باللغة الفرنسية » مكونة من بعض خريجي المعاهد الفرنسية ، كما لا نستغرب ان تكون اربع « شاعرات » من اصل ست لبنانيات ، اخترن لتمثيل لبنان في « انطولوجيا النساء الشاعرات » يكتبن باللغة الفرنسية .. كما لن نستغرب اخيرا ، ان بعض الاساتذة الذين ترسلهم فرنسا للتدريس في معاهدها هنا ، انما يأتون لتأدية خدمتهم العسكرية ! .. تماما كما ان بعض اصحاب المناصب العالية في الجامعة الاميركية في بيروت ، هم من مبعوثي وزارة الدفاع ، ووكالة الاستخبارات الاميركية !

هذه بشكل عام ، الصورة التي يظهر عليها حاليا تيار اللغة الفرنسية في لبنان ،باعتباره اقدم التيارات الثقافية الاجنبية المنتشرة عندنا، علما بان التيارات الانكلو ــ سكسونية تقوم الان باعداد نفسها لوراثته ، وهو ما زال حيا يرزق !

ولعله من المفيد التذكير هنا ، بان اول عمل قام به الاستقلال كان تعديل المادة ١١ من الدستور التي كانت تعتبر الفرنسية لغة رسمية (تعديل ٩ نوفمبر ١٩٤٣) . واذا كنا نشهد في الاونة الاخيرة ، اتجاها واضحا وصحيا ، لدى جيل الشباب الذين درسوا في المعاهد الاجنبية ، يدعو الى العودة للغة العربية ، والانتهاء من انفصام الشخصية الذي يعانون منه طيلة حياتهم ، وجعل اللغة اداة اتصال بشعبهم ، لا اداة ابتعاد وابتعاد عنه ، واذا كانت مظاهر هذا الاتجاه الجديد تتكاثر يوما بعد يوم ، كما حدث مثلا في « بيت مري » خلال مهرجان الافلام الناطقة بالفرنسية ، حين اصدر السينمائيون الشباب (واغلبهم درس او يدرس في فرنسا) ، بيانا هاجموا فيه الثقافة الفرنسية في لبنان ، واعتبروا استخدام اللغة الاجنبية مدخلا عصريا للاستعمار الجديد ، واداة تفريق طبقي في المجتمع .. فاذا كانت هذه الظواهر الصحية ترسم بوضوح خطوط المستقبل ، فان جهدا كبيرا يجب ان يبذل للقضاء مقابل ذلك ، على مؤسسات الثقافة الاجنبية والاستعمار الثقافي في بلدنا ، متمثلة بالدرجة الاولى بالمؤسسات التعليمية . وهذه مصدر السرطان الاساسي الذي يغذي التفرقة اللغوية والطبقية بين ابناء الشعب الواحد ، ويروج لكل التيارات اللاوطنية واللاعلمية .

ولا بد بعد ذلك ، من القضاء على كل مظاهر البنية الفوقية للثقافة الاستعمارية في بلادنا : الاذاعة بالفرنسية ، والتلفزيون بالفرنسي ، والصحافة بالفرنسية .. وكل الادوات والاجهزة التي تتيح استمرار الاستعمار الثقافي .

ازدواجية على طول الخط

اما التيار اللغوي الثاني الهارب من العروبة ، والذي يستبدل الصراع الاجتماعي بصراع لغوي من تأليفه وتلحينه ، فهو تيار « الازدواجية اللغوية » التي يرفع لواءها الاب اليسوعي سليم عبو . فالاب عبو يعتبر ان ازدواجية اللغة العربية ــ الفرنسية بشكل رئيسي ، وازدواجية اللغة «على مر التاريخ!» تشكل مقومات الامة اللبنانية التي لا جدال فيها ! وبالطبع فذلك يعني اننا خلقنا لكي نكون « فسيفساء » ، او لا نكون على الاطلاق! وتنعكس هذه النظرية على الصعيد الاجتماعي بترسيخ الطائفية ، وعلى الصعيد السياسي بازدواجية الانتماء الى الشرق والغرب باعتبارنا « نافذة » صغيرة للشرق على الغرب ، و « بابا » مفتوحا على مصراعيه للغرب على الشرق !

والاب عبو صاحب اطروحة عرمرمية حول هذا الموضوع . فقد كتب ٥٠٠ صفحة حاول فيها نبش « الاصول التاريخية » لتلك الازدواجية المستمرة ، حسب اعتقاده ، « منذ ايام فينيقيا وحتى اليوم » ، وهي الان تقوم متخفية ، بزحفها الكبير من المدينة الى الريف اللبناني !

ومن الواضح ان هذه النظرية اصبحت بحاجة الى اعادة النظر . اولا لان انتشار الانكليزية ، اصبح يستدعي استنباط بعض المرتكزات التاريخية السرمدية لنظرية جديدة تستند على « الثالوث » اللغوي . وثانيا لان احدث الابحاث اللغوية اظهرت انه « يوجد في الفينيقية نحو ثمانين بالمئة من الجذور العربية الخالصة التي لها طابعها الاصيل باعتبارها احدى اللهجات الكنعانية »، كما ورد في دراسة للدكتور صبحي الصالح ! وثالثا لان الفينيقيين « كانوا يتكلمون سبع لغات » ، كما يؤكد

ذلك الاب اسطفان صقر ! ورابعـــا لان المستشرق اليسوعي الفرنسي ميشيل آلار ، مدير معهد الدراسات الشرقية في بـيروت ، يعتبر أن التطور غير ممكن في لبنــان دون اللغة العربية ، التي تشكل « رباطا بين النخبة والبلد بمجموعه » .

وحتى كمال الحاج ، في كتابه « في فلسفة اللغة » ، كتب عن الازدواجية يقول : « اذا كان المقصود بتعدد اللغات ، أو الالسنة ، ان يتقن الانسان الاتقان ذاته اكثر من لغتــه الام ، بحيث لا يعود ثمة لغة ام تلعب الدور الاول ، ولغات اخرى تلعب دور المســاعدات لها ، اذا كان المقصود هو هذا الفحوى ، فنحن ممن يرفضونه لانه تخريب لكيان اللطيفة البشرية . اكثر من ذلك ، لانه غير ممكــن اطلاقا .. ان من اللبنانيين من تبنوا الفرنسية لغة ام لهم ، فجاءت الانكليزية او العربيـــة في المقام الثاني . ومنهم من تبنوا الانكليزية لغة ام لهم ، فجاءت الفرنسية او العربية في المقام الثاني . ومنهم من تبنوا العربيـــة لغة ام لهم ، فجاءت الفرنسية او الانكليزيـــة في المقام الثاني . المهم في نظرنا ، ان هنـــاك لغة ام واحدة عند اللبناني ، وميشال شيحا عينه ، لم ينحرف عن هذا الاساس ، الـــذي ندافع عنه ، والذي نعتبره صامدا في وجــه النقد . لقد ترسخت الفرنسية في قلب شيحـــا فجاءت اللغة العربية ثانية . اللبناني كفرد لم يستطع ان يكذب هذا الناموس البشري »

هذا كمال الحاج ، وهو الاخر صـــاحب مواقف انعزالية ، يدلي برايه بميشال شيحا ، وباصحاب دعوة الازدواجية اللغوية ، الـــذين ليسوا اقل منه اطلاقا حرصا على « الديمومة اللبنانية » !

اية عامية تريـــدون ؟

الدعوة اللغوية الثالثة الناشطة هذه الايام، تتمثل بالترويج للعامية باعتبارها خـــير بديل للفصحى ! وكانت اخر مظاهرها «الرسمية» ، الحلقة الدراسية التي انعقدت منذ اشهر في فندق « برنتانيا ـــ برمانا » ، تحت رعـــاية مزدوجة من شركة ـــ فورد ـــ الاميركيـــة ، ومركز البحوث التربوية في بيروت ، والـــذي تمخض عنه ما سمي بمشروع « اللغة العربية الاساسية » الذي اصدره المركز منذ ايام في كتاب خاص !

والمشروع الذي تقدم به الاب المستشـــرق رولان مينه خلال الحلقة المذكورة ، هو دعوة صريحة لاحلال العامية محل الفصحى في المدرسة تحت ستار « اعتماد التدرج التصـــاعدي .. والانطلاق من المعلوم الى المجهول » ! ونستعير من الدكتور صبحي الصالح رده على هـــذا المشروع ، وقد كان هو احد المشاركين باعمال الندوة المشار اليها ، حين تساءل عن ايـــة عامية بالضبط يتحدثون ؟ « ففي كل منعرج عامية لبنانية ، بل في كل مسرب من المنعرجات لهجة عامية مختلفة عنها في المسرب الاخر !!»

ومن بين ابرز المنظرين الاخرين لفكرة نشر العامية ، الاب اسطفان صقر مدير جامعـــة « الروح القدس » في الكسليـــك . ويذكر الكثيرون بهذه المناسبة ، انه عندما كان عضوا في لجنة تنظيم البرامج المدرسية ، التي شكلت ايام وجود غسان تويني في وزارة التربيـــة (على الارجح) ، قدم مشروعا يقضي بضرورة تدريس اللغة « اللبنانية » في الصفوف الاولى! وظن المستمعون انه يقصد اللغة العربيـــة ، ولكم كانت دهشتهم كبيرة ، وطريفة ، عندمـــا تابع الاب صقر شرح فكرته قائلا : انه بعد اقرار « اللبنانية » كلغة اساسية ، يمكن ان تتاح للطالب بعد ذلك ، حرية الاختيـــار بين احدى اللغات الاجنبية التاليـــة : الفرنسية ، او الانكليزية .. او العربية ! وبقيت علاقة تلك اللغة « اللبنانية » ، باللغة العربية «الاجنبية» علاقة دفينة في قلب الاب صقر !

هذه اذن بعض محاولات التنظير للعامية على المستوى « الفكري » . وتجري على المستوى « الشعبي » محاولات ناشطة لترويـــج بلبلة الالسن بين طلاب المدارس ، كتلك المهرجانات التي نظمت في قاعة الاونيسكو لالقاء الشعر العامي ، والتي غالبا ما يرعاها بعض احفاد سعيد عقل كمي المر او اسعد جوان ، بوحي من اساطير بلاد الجن والحرف والشمس ! وهؤلاء يجب ان نميزهم عن الزجالين الشعبيين وعن شعراء اللغة المحكية امثال موريس عواد وطلال حيدر ، وخليل روكز ، الذين ينتمون الى ادب التراث الشعبي ، الغني والمزدهر ، والذي يرفد الادب الكلاسيكي ويغنيه ، ولكنه لا يطرح نفسه بديلا عنه !

سعيد عقل .. اللاتيني !

بقي ان نشير الى دعوة لغوية رابعـــة ، تعتمد على الحرف اللاتيني الذي ابتدعه سعيد عقل في كتاب « يارا » ! وحتى اشعار اخر، فان سعيد عقل هو ، على حد علمنا ، القارئ الوحيد للمقالات التي يكتبها بهذا الحرف !واذا كان من سؤال يطرح بهذا الصدد ، فهو التالي: هل كان لاحد ان يسمع بالحرف الجديد ، لو ان صاحبه لم يشتهر اولا كشاعر عربـــي من الطراز الاول ، يقول العارفون في امور الشعر ان قصائده تنتمي الى العصر الجـــاهلي من حيث صفاء اسلوبها ، ورنـــة قوافيها ؟!

هذه اذن اربع دعوات لغوية ، على وجه التقريب ، نسمع صداها يوميا . الاولى تدعو الى اللغات الاجنبية . والثانية الى الازدواجية والثالثة الى العامية . والرابعـــة الى الحرف اللاتيني . ويجمعها كلها رغم التنـــاقضات الواضحة فيما بينها ، خيط واحـــد ، ومحرك اساسي ، هو العداء للغة العربية وللعروبة، والتنكر لدور لبنان في النهضة العربية .

واذا كانت هذه التيارات تهدف الى ابعـــاد لبنان عن محيطه العربي على الصعيد السياسي فهي ترمي على الصعيد الاجتماعي للابقـــاء على الفسيفساء الاجتماعية ، ولخلق تناقض بين النخبة الطبقية والثقافية ، وبـــين جماهير الشعـــب اللبناني ، التي تتكلم بكثيرتهـــا الساحقة اللغة العربية الاصلية والاصيلة . وهي في نهاية المطاف ، ادوات طبقيـــة بيد الفئات المسيطرة ، تســـاعدها على حرف النضالات الاجتماعية عن اهدافهـــا ، والهـــاء الشعب عن مطالبه الاساسية بصراعات لا ناقة له فيها ولا جمل !

جورج الراسي ■

« البلاغ »



جريدة الصباح :

لا تفتحـــوا أبـــواب المـــدارس أمـــام اللهجـــات العاميـــة

البعض يرى فى اللغة العربية الفصحى أساسا للتعليم فى كافة مراحله ، والبعض الآخـر يتجه الى اللغة العامية يحاول نشرها واستعمالها فى التعبير عن الفكر رغم حدودها المحلية الضيقة .

لذلك قام المؤتمر التربوى لدراسة مشـــروع العربية الاساسية الذى نظمه المـــركز التربوى للبحوث والانماء ، بعقد جلساتـــه فى فنـــدق « برنتانيا بالاس » فى برمانا استمرت من ١٤ الى ١٦ جوان ١٩٧٣ واشترك فيه مسؤولون عن المركز التربوى للبحوث والانماء وممثلون عن الجامعـة اللبنانية ومعـــهد الاداب الشـــرقية والجامعة الامريكية والجامعة العربية ومؤسسة فورد وقسم التـــربية فى الاونسكو وعـــدد من المستشرقين الاختصاصيين فى الشؤون اللغوية من جامعات فـرنسا ، هولندا ، تـــونس ، الولايات المتحدة الامريكية وانقلترا .

وقد تناقش المؤتمرون فى اهـداف المشروع ، استنادا الى التقرير الذى وضعه المركز وتوصلوا بعد المناقشة الى عدة مقررات منها :

ـ الغاية من المشروع تربوية اكثر منها لغوية ، اذ ان المقصـــود معـــرفة ما هو كثيـــر الترداد والاستعمال لغويا وما هو نادر واقل ترداد ليتاح ايجاد تعليم متدرج ومتكامل يبدأ بما هو اكثـــر شيوعا وينتهى بما هو قليل الاستعمال فالمشروع لا يهدف الى تبسيط اللغة ، بـــل تيسير تعليمها لتلامذة الصفوف الابتدائية .

ـ تنحصر فائدة المشروع ، بمرحلته الاولى ، فى الصفوف الابتدائية ، اذ يتضح من الاحصاءات ان اكثرية التلامذة فى لبنان وفى الدول العربية ، يتوقفون عن دراستهم فى نهاية المرحلة الابتدائية ويعجزون بالتالى عن قراءة النصوص العـــربية وفهمها ، فيجب اذا تمكين هؤلاء من القراءة والفهم ليتم لهم الاتصـــال بعالمهم ولتمكينهم من المعرفة

اللغوية الواسعة لانهم يشكلون قسما كبيرا مــن المواطنين ولذا فان مشــروع العربية الاساسية يدخل ضمن اطار تعميم التعليم وديمقراطيته وقد شدد رئيس مكتب اللغة العربية وءادابها فى المركز التربوى ، الدكتور محمد على موسى ، على ان اعمال تاليف الكتب المدرسية وكتــب القــراءة للصفوف الابتدائية تعترضها امور ترتبط بمنهجية اللغة الاساسية ، اذ ان اكثرية الكتب المتداولة فى الصفوف الابتدائية نادرا مــا تعنى بمستلزمات الاتصال والتفاهم بسبب فقدان الرؤية التــربوية الصحيحة فى اختيار مفرداتها وتراكيبها •

« ان دراسة المفردات والتراكيب المشتركة بين اللغة الفصحى واللهجات العامية ، واعتمادها فى تدريس الاطفال ، تقدمان العون لهم على الانتقال من اللغــة العامية الى العربية الفصحى دون غيرها » •

وقد بدأ العمل فى مشروع اللغة العــربية الاساسية فى عام ١٩٦٨ ، وباشر به الباحثــان الفرنسيان جاك بيول واندرى رومان ، ثم جــرت الاتصالات بين معهد الاداب الشرقية فى الجامعة اليسوعية ووزارة التربية الوطنية لتتبنى الاخيرة المشروع ، وفى عام ١٩٧٠ تم الاتفاق الذى يحمل اســم مشروع ٢٨ ، وبوجود المــركز التربوى للبحوث والانماء انتقلت مسؤولية انجاز المشروع اليه لانه المؤسسة الحكومية الوحيدة التى تملــك الامكانيات المادية اللازمة لمشروع كهذا ، وهــى الوحيدة التى تقــدر ان تحصل على المساعدين اللازمين لانهائـــه •

ولقد قام معهد الاداب الشرقية عـــام ١٩٧٢ بالدروس اللازمة لاكمال المشروع رقم ٢٨ جــرى اجتماع فى « اكس ان بروفانس » دام اسبوعـــا واستهدف اجراء الدراسة الاخيرة للدفعة الاولى ، اى ادخـــال التصحيحات والتلفيظ ، ولا نتقــاد الطريقة المتبعة حتى الآن واستخلاص العــبر ودرس التعديلات الواجب ادخالها على الطريقة ومنهج العمــل •

يبقى ان المقررات التى توصل اليها المــؤتمر هى مراحل اولى تتبعها مرحلة التطبيق فى التعليم « وتنطوى على وضع المؤلفات ، وكتب القراءة ، وغير ذلك مــن الوسائل التربوية التى سنتمكن عبرها من تحقيق الاهداف التى وضعناها نصب اعيننا » ، كما ورد فى كلمة رئيس المركز التربوى الدكتور وديع حداد •





توصيات المؤتمر الثانى للتعريب

ان المؤتمر الثانى للتعريب الذى عقد فى الجزائر من الثانى عشر حتى العشرين من شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٣ ، قد صدر فى عمله الذى نهض به خلال ايام انعقاده عن المبادىء التالية التى تؤلف حصيلة التجربة اللغوية العربية المعاصرة والتى تؤكدها التجارب اللغوية المختلفة فى العالم :

١ ـ اللغة مقوم رئيسى من مقومات وجود الامة واستمرارها · وكل خطر يهدد اللغة هو خطر يتهدد شخصية الامة واستمراريتها وارتباط ما بين اجيالها ·

٢ ـ ان تأصيل التعليم وانتشار المعارف فى أمة من الامم لا يكون الا بلغتها · ولذلك فان لحاق البلاد العربية بالحضارة العلمية المعاصرة ومواكبتها لها ، ثم مشاركتها فيها ، يجب ان يبدأ باستخدام اللغة العربية لغة للتدريس ، واعداد المصطلحات العلمية الموحدة لذلك ·

٣ ـ ان تأصيل اللغة لا يقتصر على الاخذ بها فى مرحلة دون مرحلة ، وانما يجب ان يمازج مراحل التعليم كلها منذ بدايتها ، حتى يتيسر لابناء هذه اللغة ان يعايشوها معايشة كاملة تساعد بعد ذلك على التصرف بها وتطويرها ·

٤ ـ ان ما لحق اللغة العربية من قصور فى العصور المتأخرة لا يعود الى العربية نفسها وانما يرتد الى ما فرضه الغزو اللغوى ـ على درجات متفاوتة ـ من مباعدة بينها وبين اصحابها ، ومن تشكيك فيها ، وعزل لها عن الحياة والمجتمع · والتجارب اللغوية المعاصرة فى العالم تثبت ، على نحو لا يقبل الشك ، ان دؤوب اصحاب اللغة على الاخذ بها واشاعة استعمالها فى كل الميادين النظرية والعملية ، والدراسات العلمية والانسانية ـ كفيل بتمكينها من الوفاء بحاجات العصر المتطورة ·

٥ ـ ان اللغة العربية قادرة ـ بحكم طبيعتها وخصائصها وتراثها الذى اسهمت فيه فى الحضارة الانسانية ـ على ان تكون لغة العلم الحديث : تدريسا وتاليفا وبحثا ·

٦ ـ ان الدعوة الى تدريس العلوم باللغة العربية والعناية بهذه اللغة لا تعنى اهمال الاهتمام بتدريس اللغات الاجنبية ولا تقصد اليه ·

من هذه المبادىء التى أنطلق منها المؤتمر انتهى الى تقرير الاتجاهات التالية :



ثانيا : الاتجاهات

ان المؤتمر ينعقد فى ظل غايـــة رئيسية هى : توحيد المصطلح العلمى ·

١ ـ والاعضاء الذين يشاركون فيه من البـلاد العربية يصدرون عـــن ايمانهم بمـلاحقة التطور العلمى ومصاحبته· ولكنهم يلاحظون ان نقل المصطلح العلمى او وضعه او الاخذ به تفاوت بين قطر وآخـــر تفاوتا أضحى يحتـم عليهم توحيد هذا المصطلح تمهيدا للغة علمية مشتركة ·

وهم يدركون أن أسباب هذا التفاوت تعود الى فقدان العمل المنظم فى هذه السبيل فقد أسهمت فيه مجامع وجامعات ، وهيئات وأفراد ، وكـــان أكثر النقل فيه عن اللغتين الفرنسية والانجليزية ، واتخذت فى اصطناعه اساليب مختلفة من الوضع والترجمة والنحت والتعريب· ولذلك فان توحيد هذا المصطلح يـرتبط بسلسلتين من العـــوامل : عوامل تتصل باللغة العربية والتعليم العـــربى والطباعة العربية ، وعوامل أخرى تتصل بالظروف الاجتماعية والسياسية· ولا بد لذلك من ان يتخذ العمل فى المصطلحات وجهة تتلخص فى دراســة هاتين السلسلتين دراسة علمية ، واصطفاء مـــا يؤدى الى الالتقاء والتوحيد ، والابتعاد عمـــا يقود الى التفرق والتشتيت ·

٢ ـ ان اختيـــار المصطلحات العلمية فى هذا المؤتمر لمقابلة المصطلحات العلمية الاجنبيـة لا يؤلف غاية فى ذاته بقدر ما يكون سبيلا الى غايات أخرى هى تطبيق هذه المصطلحات واستعمالها فى كل مجالات الاداء والابلاغ : فى المدارس والاندية ، وفى وسائل الاعلام وفى الدوائـــر والمكاتب ، وذلك فى عمـل مشترك عام يعايش المجتمع فى كل طبقاته وفئاته وفى كل مراحله التعليمية ، حتى يتم التفاعل بين اللغة والمجتمع على نحو يقود التطور الفكرى والتطور اللغوى فى خطين متكاملين ، يقطع الطريق على التفاوت او التناقض الذى نشهده أحيانا بين الحيـــاة واللغة وتطبيقاتها المختلفة ·

٣ ـ ان اختيار المصطلح العلمى فى نطاق التعليم العام فى المؤتمر الثانى للتعريب لا يعنى ان المؤتمر يريد ان يقف باللغة العلمية عـــند حدود التعليم الثانوى· ولكنه يعتبر ان عمله هذا تمهيد للخطوة التى يجب ان تلى بـعد ذلك ، اى نحو المصطلح العلمى فى التعليم الجامعى· ذلك لان تدريس العلوم بالعربية فى المرحلة الثانوية وحدها نوع من العمـل الناقص لا يضمن تحقيق الغاية المرجوة·· ولهذا فان المؤتمر يأخذ بالاتجاه الى تدريس العلوم باللغة العربية فى التعليم العـــالى كله فى الجامعات والمعاهد ، ويؤكد ان هذه البيئات العالية تشكل ميدانا بالغ الاهميـة يجب ان تتجلى فيه ارادة الامة العربية فى صيانــة لغتها واعطائها الفرص الحقيقية والمنتجة للتعبير عن المفاهيم الفكرية للعصر ومنجزاته التطبيقية والتقنية ، ويرى المؤتمر فى التجربة التى قدمتها بعض الاقطـــار العربية والتى اعطت اطيب ثمارهـا تأكيدا لسلامة هذا الاتجاه ولضرورة الاخذ به ·

٤ ـ ان النتائج التى انتهى اليها المؤتمر فى هذه المصطلحات التى تدارسهـــا ، مقدمـــة لاستخدامها فى التعليم والتاليف ووضعها موضع التجربة والممارسة· غير ان اختيـار



المصطلح لا يعنــى تجميده ، فالمصطلحات العلمية بطبيعتها عمل مستمر متصل ·

وتطبيقا لهذه الاتجاهات انتهى المــؤتمر الى جملة التوصيات التالية :

فى المنهــــج

يوصى المــؤتمر باتباع منهجية للعـــمل فى مشروعات المصطلحات فى المستقبل على ان تتناول هذه المنهجية مراحل العـــمل كلها فى **الاعـــداد والدراســة والاقـــرار** ·

١ ــ **ففى الاعـــداد :** لا بد من عمل اولى منظم يتناول استقصاء المصطلحات القديمة وجمع المصطلحات الحديثــة ·

أ ــ فىاستقصاء المصلحات والتعابير القديمة :

مظـــان هذه المصطلحات : الكتب المتخصصة والمعاجم ، ولكن لا بد من تجاوزها بعد ذلك الــى الكتب الاخرى التى قد تستعمل هذه المصطلحات ، منمثل : كتب الادب العامة والمحاضرات والمجاميع وكتب الفقه والفتاوى والنوازل· ولا بد كذلك من ترتيب هذه المظـــان ترتيبا تاريخيا ، ومسحها ، وجرد ما فيها ، وتقديمه على انه جزء من الارث العربى فى الاقطار العـــربية كلها ، الحضـــارة والباديـــة ·

ومثل هذا العمل يعين على احياء المصطلحات العلمية المبثوثة فى كتب التراث·العلمى العـــربى وتدقيق مدلولاتها وربطها بالتعبير العلمى العربى والعالمى المعاصر· وكذلك يمكن ان يكون تمهيدا للمعجم التاريخى اللغوى الذى نتطلع اليه ونأمــل تحقيقه ·

ب ــ فى جمع المصطلحات الحديثة ·

وهى المصطلحات التى اقـــرتها المجامـــع او استعملتها الجامعات ، او تواضعت عليها الهيئات او اخذت بها المعاجـــم الجديدة او نشرها بعض العلمــــاء ·

جـ ــ استخدام وسائل التقنية وعلوم اللسانيات الحديثة للمساعدة **على انجاز هذا العمل** والاســراع فى تحقيقه ·

٢ ــ **وفى الدراســـة :**

أ ــ لا بد من اللجوء الى نظام المراحل المتدرجة فتتقـــدم مرحلـــة الجمـــع والاستقراء والاستقصاء على اية مرحلة ، ثم تاتى مرحلة اللجـــان المتخصصـــة والندوات للتمحيص والتصفية قبل مرحلة المؤتمر العام ولجانه للمصادقة· وتاتى مرحلة العمل فى المستوى المحلى القطرى قبل مرحلة العمل فى المستوى **العـــربى القومى** ·

ب ــ وفى الدراسة كذلك وفى الاتجاه نحو الاقرار لا بد من التواضع على طائفة مـــن مبادىء التعريب وطرقه والاخذ بالاساليب المعتمدة فيه ، ضمانا لحصول مشترك يحفظ الجهـــد من التبدد ويقطع **الطريق على الاختلاف**

وفى ذلك يوصى المؤتمر اتحاد المجامـــع ان يقوم بجمع قرارات لجنة الاصول فى مجمع اللغة العـــربية بالقاهرة والقواعد التى انتهى اليها المرحوم مصطفى الشهابى فى مجمع اللغة العربية بدمشق وما اقره المجمع العلمى العراقى ببغـــداد وغير ذلك من جهود الهيئات والعلماء ، ويتولى دراسة ذلك كله والتنسيق بينه وتوحيده واصداره ليكون دليل عمل بين ايدى العاملين فى التعـــريب



والمهتمين بـه من العلماء والباحثين واعضـاء اللجان المحلية والقومية التى تـدرس مشروعات المصطلحات ٠

٣ ـ وفى اقرار المصطلحات لا بـد من استلهام هذه الاصول والقواعد والتقيد بها لتتوافر للمصطلحات : سلامة اللغة ، وسهولة الاداء ووضوح الفكر ، ودقة التعبير ٠

فى الالتـــزام

يرى المؤتمر أن قضية المصطلح العلمى لـم تنل من العناية فى التنفيذ قدر ما نالت من عناية فى الاعداد والدراسة والاقرار ، وانه اذا كانت قضية المصطلح عملية مستمرة فان ذلك يقتضى الا يستمر الجدل النظرى حولها الى ما لا نهاية له ، وانه لا بد من ان يخرج هذا النقاش النظرى الى مرحلة التطبيق والتجربة العملية حتى يكون استخدام المصطلح هو الذى يحقق امتحانه والحكم عليـه ٠

ولذلك فان اعضاء المؤتمر يذهبون الى وجوب الاخـذ بمبدأ الالتزام بهذه المصطلحات يلتزمونها هم فى مدارسهم وجامعاتهم وبحوثهم ومعاجمهم ويدعون اليها حتى حين يكون تدريسهم باللغـة الاجنبية ، ثم يهيبون بالسلطات المختصة ان تلتزم بها ، ما كان ذلك ممكنا ، فى المدارس والادارات والمؤسسات ووسائل الاعلام والشركات حتى تكون جزءا حيا فى الحياة العلمية والعملية والادارية ، وحتى يتحقـق لها اكبـر قـدر من الشيـوع والاستقـرار ٠

والمؤتمر حين يؤكد هذا المبدأ يؤمن بأنه لا بـد من اتاحة الفرصة امام الاقطار العربية ـ حسب قدرة كلّ قطر وظروفه ـ للاخذ بذلك ، آمـلا أن يكون الجهد فى الاخذ بهذا المبدأ أقوى من الصعوبة وان يكون التعارض بين الرغبة والامكان ادنـى الى غلبة الرغبة على عوائق الامكان ٠

وهذا الالتـزام يقود الى الاخـذ بالتوصية التاليـة :

طبع هذه المصطلحات فى معجم ، ونشر هـذا المعجم وتزويد الجهات المختصة فى البلاد العـربية بنسخ منه لوضعه موضع التجربة فى مدارسها ومؤسساتها ٠ ثم تجميع الملاحظات حوله تمهيدا لمعاودة طبعه معدلا منقحا ٠

فى التاليف والبحث والترجمة

١ ـ يوصى المؤتمر وزارات التربية فى البـلاد العربية ان تستعمـل المصطلحات العلمية المقررة وذلك فى كتبها الدراسية فى مختلف مراحل التعليم العـام ٠

٢ ـ يوصى المؤتمـر المنظمة العربية للتـربية والثقافة والعلوم أن تقدم الخبراء والمعونات الفنية اللازمة لتاليف كتب مدرسية للمواد العلمية فى مراحل التعليم العام تستعمل فيها هذه المصطلحات العلمية المقررة وذلك للدول العربية التى تطلب ذلك ٠

٣ ـ يوصى المؤتمر بأن تخصص المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ووزارات التـربية فى البلاد العربية جوائز تشجيعية لمـؤلف احسن الكتب فى مختلف العلوم وفى مختلف سنوات التعليم العـام ٠

٤ ـ يوصى المؤتمر ان تدرس المنظمة العـربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع اتحاد الجامعات العربية تاليف كتب فى المـواد العلمية المختلفة تستخدم فيها المصطلحات

المقررة وذلك للسنتين الاوليين من الدراسة الجامعية تيسيرا على الدول العربية التى لا تستطيع فى هذه المرحلة النهوض بهذا العمل ·

٥ – يوصى المؤتمر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالعمل على اصدار نشرات ومجلات باللغة العربية فى مختلف العلوم تستعمل فيها المصطلحات المقررة وتحتوى على البحوث الاصيلة والتطبيقية والمترجمات اضافة الى بحوث مراجعة المصادر ، والمستخلصات والخلاصات المهمة ·

فى المجامع والجامعات

١ – يوصى المؤتمر بان تقدم الحكومات العربية للمجامع واتحادها ، وكذلك للجان التعريب كل عون لتتابع عملها المهم حرصا على المشاركة الكاملة بين الاقطار العربية فى موضوع المصطلحات : دراسة واقرارا واستعمالا ·

٢ – يوصى المؤتمر اتحاد الجامعات العربية باستكمال كل وسائل التعاون بين الكليات العلمية بالطرق المناسبة ، مثل تناوب الاجتماعات الدورية واصدار النشرات والمجلات العلمية باللغة العربية ·

٣ – يوصى المؤتمر اتحاد الجامعات العربية ، والجامعات العربية التى لم تبدأ تدريس العلوم باللغة العربية ، بالمبادرة الى استعمال العربية فى القاء الدروس والمحاضرات· كما يوصى ان يكون التدريس فى الكليات النظرية باللغة العربية· ويؤكد ان تكون العربية السليمة – بعيدا عن اللهجات العامية – هى الاصل فى ذلك ·

٤ – يوصى المؤتمر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واتحاد الجامعات العربية بالعمل على اعداد معلمين لتدريس المواد العلمية باللغة العربية فى مراحل التعليم العام وعقد دورات تدريبية لهم ، تحقيقا لافضل المستويات فى تعريب التعليم العلمى·

فى الارقام والرموز والسوابق واللواحق

يوصى المؤتمر بمتابعة دراسة الموضوعات التاليـة :

١ – استعمال الارقام العربية (1 – 2 – 3 – ······) ·

٢ – استعمال الرموز المتفق عليها عالميا فى مراحل التعليم العالى وكتابة المعادلات العلمية والرياضية بهذه الرموز ، مع الابقاء على الرموز المستعملة مبدئيا ·

٣ – كتابة صور بعض الاصوات الاجنبية غير الواردة فى اللغة العربية ·

٤ – ظاهرة السوابق واللواحق فى المصطلح العلمى فى اللغة العربية واللغات الاجنبية ·

قرار الشكر

يقدم المؤتمر للسيد رئيس مجلس الثورة والحكومة الجزائرية ولاعضاء الحكومة ولرجال وزارة التربية والتعليم وللجنة الوطنية لتحضير المؤتمر أصدق الشكر واعمق التقدير لما كان من اهتمام الجزائر بالمؤتمر ، بداية واعدادا واستضافة ، ويرى فى ذلك مظهرا من مظاهر استمرار الحكومة الجزائرية فى متابعة ثورتها الثقافية الاصيلة ·



كما يعبر المؤتمر عن صادق الشكر للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتبها لتنسيق التعريب على الجهد المبذول فى الدعوة لهذا المؤتمر وتنظيمه واعداد وثائقه ومشروعات معاجمه. ويرى فى هذا العمل تمهيدا نيرا للآفاق الواسعة التى ترودها حركة تعريب التعليم .

توصية خاصة

ان المؤتمر الثانى للتعريب الذى ينعقد فى الجزائر بين ١٢ ــ ٢٠ من ديسمبر « كانون الاول » سنة ١٩٧٣ .

اذ ينطلق من الايمان بأن اللغة مقوم رئيسى من مقومات وجود الامة واستمرارها ، وان تأصيل اللغة لا يقتصر على الاخذ بها فى مرحلة دون مرحلة أو فى نوع من انواع العلوم دون نوع .

وان اللغة العربية قادرة على ان تكون لغة العلم الحديث كما كانت من قبل ، وحرصا منه على نجاح مهمته التى ترى ان المصطلح العلمى العربى الموحد اول الطريق الى اشاعة المعرفة العلمية فى المجتمع العربى .

وان المعرفة العلمية هى الطريق الى مواكبة العصر .

وان مواكبة العصر هى طريق الحياة الفعالة والمنتجة .

فانه يرجو الحكومات العربية جميعا ان تباشر بتطبيق برنامج مرحلى مرسوم لتعميم التدريس باللغة العربية فى مراحل التعليم كلها للمواد العلمية والادبية بدء من العام الدراسى المقبل ٧٤ ــ ١٩٧٥ .

ويرى فى ذلك خطوة اساسية لا بد منها لتحقيق الوجود العربى المشترك الذى يسعى لكسب المعركة فى ساحاتها كلها فى المرحلة الحاضرة والمراحل المقبلة .

وهو يهيب بالملوك والرؤساء ان يسلكوا الى ذلك اقرب الطرق ، ويضع امكاناته كلها فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وفى المجامع والجامعات وفى اتحاديهما رهن المعاونة على استكمال اسباب النجاح لتحقيق هذه الامنية القومية .

ان المؤتمر ــ اذ يناشد الملوك والرؤساء العمل على ذلك تحقيقا لتساوق خطى الشعب العربى فى مختلف اقطاره. وتاكيدا لاستمرار التاريخ وتوجيها نحو المستقبل وانسجاما مع اعتبار اللغة العربية فى المؤسسات الدولية احدى اللغات الست الرسمية ــ يثق انه يضع هذه الامانة الغالية فى موضعها الامين .

تقرير لجنة الرياضيات

اجتمعت لجنة الرياضيات بتاريخ ١٣/١٢/١٩٧٣ الى يوم ١٩/١٢/١٩٧٣ وقد نقحت معجم الرياضيات واضافت اليه قائمة من الكلمات عددها ١٥٠ كلمة وتوصى اللجنة بما يلى :

(١) ادماج الرياضيات العصرية والتقليدية .

(٢) ايجاد موسوعة للرياضيات لكتابة الكلمة واعطاء معناها الرياضى .

(٣) عقد مؤتمرات دورية للرياضيين العرب على ان تكون لغتها العربية .

(٤) تكوين جمعية غربية للعلوم الرياضية .

N°19

فهرس العدد

هـــــذا العـــــدد

لقد افردنا هذا العدد الخاص من مجلة « الأصالة » لمدينة بجايـة بمناسبة انعقاد الملتقى الثامن للفكر الاسلامى بها ، ونظرا لدورها الهام فى تاريخ الجزائر السياسى، والثقافى، والحضارى. ودعونا للمساهمةفيه عددا من المؤرخين والمفكرين من الجزائر ومن الاقطار العربية الاخرى •

ويلمس القارىء بعد اطلاعه على مختلف ابحاث ودراساتهذا العدد ذلك الدور الهام الذى قامت به الجزائر فى بناء مجد الحضارة العـربية الاسلامية الى جانب المراكز الحضارية الاخرىفىالعالم العربى الاسلامى. وأنها ، من خلال ما انجبت من علماء ومفكرين فى شتى ضروب المعرفة السائدة آنذاك ، وما انطلق منها من حركات سياسية،وفكرية،ودينيــة كانت احد مصادر الاشعاع والالهام للفكر والحضارة الاسلامية فى كامل العالم الاسلامى •

ومجلة « الأصالة » الحريصة على طرح قضايانا المصيرية بروح بناءة لا تكتفى ـ فى نطاق هذه الجهود المبذولة لاعادة النظر فيما كتب عـن تاريخنا ومراجعته ، وتفسيره من جديد وازالة جميع ماالصق به مـــن تشويه ومسخ ـ بالدفاع المطلق عن هذا التاريخ ،وانما تـرى ضرورة ممارسة ما يسمى بالنقد الذاتى لازالة ما فيه من عناصر سلبية •

واخيرا ننوه بجهود جميع الاساتذة الافاضل الذين لبوا دعـــوة « الاصالة » وساهموا فى هذا العدد مساهمة هامة ومشرفة •

عثمان شبوب



ميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة



لقبال موسى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

لقديتساءل البعض عن السرفي استمرار « البقاء » لاسم بجاية ، واختفاء أسمي صلداى ، والناصرية ؟ ويبدو للنظرة الاولى أن ذلك ربما يرجع الى أن اسم بجاية الصق بالبيئة المحلية ، وأكثر اتساقا ، أو تعبيراً عن المحتوى البشرى ، لقطاع هام من وطننا الفسيح الارجاء ، بخلاف مركز « صلداى الفنيقى » ، واسم الناصرية الحمادى · فالاول أرتبط لفترة ، بطيف هجرة اجنبية ، استقر بعض رجالها فى نقطة ما من ساحل بلادنا ، للراحة ، وللاتصال . والثانى وهو اسم الناصرية ، اختفى الا من بطون الكتب ، لانه ارتبط مؤقتا بذكرى شخصية ، واريد منه التعبير للاجيال عن مجد البانى ، اي لم يكن للسكان أى دخل فى هذه التسمية الاخيرة كما لم يكن لهم أى دور فى التسمية الاولى ايضا ·

وهكذا نستنتج بأن كل ما يرتبط بذكرى «الشعب» كله او بعضه يدوم ويستمر ، دوام الشعب وتجدده ، وما يراد به تخليد شيء آخر سرعان ما يمحى من ذاكرة الاجيال · أما لماذا كان اسم بجاية اقرب من غيره الى ضمير الشعب ؟فلانه يذكر بفرع هام هو فرع بجاية الذى ينتمى الى قبيلة عتيدة ، بل الى حلف كبير ذلك هو حلف صنهاجة الشمال ، وهم سكان قطاعات هامة من المغرب الاوسط فى العصور الوسطى فبجاية اذن ـ مجموعة صغيرة من حلف صنهاجة الكبير ، كان افرادها يضربون فى المناطق الجبلية غرب وادى الصومام وحول مرسى صخرى قديم ، عرف بمرسى بجاية وبذلك ورد عند ابن حوقل وهو من رحالة وجغرافى القرن الرابع الهجرى · ولم تستطع الاحداث المتوالية أن تمحوه على الالسنة أو من ذاكرة التاريخ وبطون الاسفار ، رغم أن الناس أنصرفوا لفترة ما عن اسم بجاية ، بتأثير الحاكم الى استعمال اسم الناصرية والى التغنى به ·

ومن مجموعة «بجاية» بنو ورياكل (ورياجل) - وكانت مضاربهم حول ناحية قرية تعرف «ملالة» التي وردت باعتبارها قرية عند بعض رحالة القرن السابع الهجري (13 م) -

وأهمية ملالة لا تبدو فقط في قيمة من انتسب اليها من العلماء ، وانما أيضا في أهمية الاحداث والمعاني التي تذكرنا بها ، ومنها : اتصال عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي بمحمد ابن تومرت وما ترتب على ذلك من نتائج في مقدمتها ميلاد تيار الوحدة المغربية الشاملة في المجال السياسي وتيار الوحدانية والرجوع الى الاصول والنضال لاقرار الفضيلة والعدل والمعروف في المجالين الديني والاجتماعي - وتذكرنا ملالة أيضا بمبدأي كرم الضيافة وحماية اللاجيء والمستجير اللذين امتاز بهما سكان هذه الناحية وبقية سكان بلادنا مما هو ملحوظ حتى يوم الناس هذا اتجاه زعماء الحركات التحررية وأصحاب المبادىء الشريفة - وذلك لان هذه القرية نزل بها لاول مرة مهدي الموحدين — محمد بن تومرت أو أمغار — بعد عودته من المشرق العربي فكان محل تكريم واجلال من فريق بني ورياكل ، الذين حموه من بطش السلطان الحمادي العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الذي بلغه بأن هذا النزيل الغريب يحتسب على الناس ويباشر تغيير المنكر جهارا ، ويعزر المخالفين امام الملا ، دون خوف أو تردد" — ومن بني ورياكل ، يوجد فريق في غير مجال ملاله — من أرض المغرب العربي الكبير -

ويظهر أيضا ، أن رهطا من فرع بجاية هاجروا الى افريقية (تونس) ، لاننا نلاحظ حتى الآن بقاء اسم بجاوة في شمال تونس ، وانتساب كثير من النبهاء اليها في عصرنا ، والنسبة اليها كالنسبة الى بجاية الجزائر ، فان صحت نسبة بجاوة تونس الى بجاية الام في المغرب الاوسط ، تكن هي واسم المدينة الحالية ، آخر ما بقي من آثار هذا الفرع الصنهاجي الهام - ومما ينبغي التذكير به في هذا المجال استمرار تيار الهجرة الداخلية ، بين مجالات المغرب العربي الكبير التي كانت تدفع اليها اما عوامل داخلية ، سياسية واقتصادية ، ومذهبية ، أو عوامل خارجية في مقدمتها : ضغط الهجرات الخارجية التي انطلقت تباعا من المشرق منذ ما قبل الاسلام واستمرت قوية مؤثرة بعد انتشار الحركة الاسلامية -

ولبجاية المدينة — رغم انها في مجال صنهاجة أهمية أخرى من حيث انها لا تعتبر مهدالها وحدها لان ابن خلدون يجعلها حدا غربيا لمجال قبيلة أخرى عتيدة هي قبيلة كتامة ، كما انها على هامش مجال فرع عتيد من هذه القبيلة الكبيرة ، وهو فرع زواوة - أي أن بجاية كانت نقطة لتكامل وتجمع قبائل صنهاجة وكتامة وزواوة في العصور الوسطى -

وللجغرافيين العرب والمسلمين الحق عندما جعلوا بجاية النهاية الغربية لمصطلح اداري قديم استخدمه العرب المسلمون بعد فتح بلاد المغرب - ذلك هو مصطلح — افريقية — فكانتها في هذه الناحية

وفى فترة ما باعتبار عدم دخولها فى مدلول افريقية ، اشبه بوضع بغداد بالنسبة لمصطلحى المغرب والمشرق الاسلاميين فى عرف بعض المـؤرخين والجغرافيين المسلمين ، لان بغداد دار السلطان ومقر الخليفة كانت قلب العالم الاسلامى ، ولذلك لم تنتسب الى المغرب ولا الى المشرق من الناحية الادارية ·

وكذلك غدت بجاية بعد تمصيرها سنة 460 هـ / 1067 ـ 1068 م · على يد الناصر بن علناس وباشارة محمد بن البلبع ، رسول تميم بن المعز اليه ، دار السلطان الحمادى بل عـــين الدولة ، وقاعدة المغرب الاوسط ، ام اقطاره وعاصمة امصاره ، على حد تعبير بعض المؤرخين ·

ان اشارة محمد بن البلبع ـ بتشييد المدينة فى موقعها الحالى ، تحتاج الى وقفة قصيرة ، ذلك لأن من اهم مميزات هذا الموقع ، التفتح على التيارات الخارجية ، السياسية والاقتصادية ، والثقافية والاجتماعية · ثم الحصانة الطبيعية بسبب وجود المرتفعات ، ومن هذه المرتفعات جبـل امسيون (مسيون) الذى وصف بانه صعب المرتقى ، وبأن فى اكنافه جملا من النبات المنتفع بـه فى صناعة الطب · وهذه اشارة لطيفة تحتاج الى عناية بعض اطبائنا والمهتمين بصناعة الادوية فى بلادنا · اما نهر الصومام ـ ويعتبر عامل وصل وفصل معا · فقد لعب دورا هاما فى الملاحة ، اى فى ربط الصلات بين من يوجدون فى مجال المدينة ، وبين من هم بعيدون عنها فى مجال جرجرة بافقها البديع وفى نفس الوقت فصل بين السكان هنا وهناك باعتباره حاجزا مائيا طبيعيا ·

والميزة الاخرى لموقع المدينة ، هى التوسط النسبى ، بين مدن وامصار افريقية والمغــرب الادنى وهذه الميزة لم تخف على بعض الجغرافيين المسلمين الذين لا حظوا بأن المدينة « قطب لكثير من البلاد » وركزوا على المسافات القصيرة التى تفصلها عن هذه المـدن والحواضر الكبرى فى افريقية والمغرب الادنى ·

اما اهمية تمصير المدينة فى حد ذاته ، وبالنسبة للدولة الحمادية ، فتبدو فى ميزة الاتصال المباشر بمراكز الثقافة والاقتصاد والحضارة فى الحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط · وهى الميزة التى لم تتوفر للدولة من قبل ، عندما كانت القلعة عاصمة وحيدة لها ، ولهذا السبـب وصفت بجاية منذ العصر الوسيط ، بانها ساحـل قلعة ابى طويل (وهى التى عرفت بقلعة بنى حماد) · اى منفذ لها على البحر المتوسط ·

وهنا لا بد أن نشير الى ظاهرة تعرض للبشـــر كما تعرض للمدن والدول ، وهى أن ميلاد بجاية كحاضرة وكقاعدة سياسية كان يعنى تدريجيا بداية تضـــاؤل اهمية القلعة فى المجـــال السياسى ، ومعنى ذلك أن بجاية استفادت من التطورات الجديدة التى صيرت منها مركزا رئيسيا

للسياسة وللسطان وللنشاط المتعدد الجوانب فتصدرت الاحداث بينما انحسر نفوذ القلعة ، فتخلت الى الابد ، عن دورها السياسى وقنعت بدور العاصمة (الروحية والثقافية والتاريخية للمغـــرب الاوسط فى عصر الحماديين) ٠

وهذا الوضع الذى صارت اليه القلعة بعـد تمصير بجاية طبيعى ، اذ يوجد نظيره عـــبر تاريخ المغرب والمشرق الإسلاميين فى العصور الوسطى ، ومن هذا القبيل ما صار اليه وضـــع قسنطينة وتلمسان بالنسبة لجزائرنا ، وفاس ومراكش بالنسبة لرباط الفتح ، والقيروان والمهدية بالنسبة لتونس ، والفسطاط والاسكندرية ، بالنسبة للقاهرة ــ والكوفة والانبار والهاشمية بالنسبة لبغداد ٠

واذا اخذنا بما ورد فى مسالك البكرى ــ نقلا عن مصدره الرئيسى وهو شيخه محمد بـــن يوسف الوراق يكون سكان منطقة بجاية فى عهد الاخير خاصة ــ وهم من قبيلة كتامة واحلافها شيعة اسماعيلية ٠ أثر عنهم حسب رواية ابن الوراق ، أنهم كانوا يبالغون فى الاحتفاء بكل مــن تمذهب بمذهبهم أو تجاوب مع وجهة نظرهم ٠

والاقرب الى الصواب ، الا تفهم اشارة البكرى على أساس أنها صادقـــة على عصـــره (ق 5 هـ / II م) ، لان عصره يوافق سيادة السنة ، وعودة المغربين الادنى والاوسط الى حظيرة مذهب الجماعة ٠ كذلك فالملاحظ أن استمرار حركة انفصال الحماديين عـــن أقاربهم الزيرين ، لا ينبغى أن تفسر فقط على أساس أنها حركة سياسية أو صراع شخصى أو أسرى بل هى أيضا حركة مذهبية أى ثورة ضد المذهب الشيعى ، سبقت بزمن طويل ثورة المعز بن باديس ، التى رفعت شعارى التسنن واضطهاد المتشيعين ٠

وبجاية المدينة ، فضلا عن كونها احتلت لفترة طويلة مركزا سياسيا خطيرا باعتبارها عاصمة لدولة الحماديين ، ثم حاضرة كبرى تاتى فى المرتبة الثالثة بعد تونس وقسنطينة ، فى عهـــــد الحفصيين ،حبتها الطبيعة بأفق فسيح ، كانت تستغل أراضيه وسهوله استغلالا جيدا فى الانتاج الزراعى وكان يصدر منه الفواكه والتين الى آفاق بعيدة فى أفريقية والمغرب العربى ــ والتين من بين المنتجات هى الثمرة الطيبة ، وهبة الطبيعـــة السخية التى اريد لها أن تبقى أكلا شهيا وتحفة متجددة على طول الدهر ــ وكان حظ بجاية فى الميدانين التجارى والصناعى كبيرا ، فكانت تختلف اليها المتاجر برا وبحرا ويأتيها التجار من مختلف الافاق ، « والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع اليها نافقة » أما فى الميدان الصناعى فكانت كذلك مركزا صناعيا هاما باعتبار ما حفلت به من صناعات مختلفة وصناع مهرة ٠

وقد ساعد على هذا النشاط الجم فى التجارة والصناعة ماضى المدينـــة العـريق ، ووفرة خيراتها وموادها الاولية ، ثم اخلاق سكانها ، وكانت تتســـع لجميع من يختارها موطنا أو مركزا لنشاطه البناء لا غرابة فقد عبر الشريف الادريسى عن هذه الظاهرة بقوله : « وأهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق » • وهى ملاحظة جديرة بالتصديق •

وكان لا بد لهذا النشاط الجم ان تنعكس آثاره الحسنة على السكان ، وعلى «مجتمع المدينة» ومن ثم لاحظ الشريف الادريسى نفسه بأن أهلها «مياسير وتجار» •

ومن هذا القبيل ، ما لا حظه البكرى عن سمت مرسى بجاية فى مواجهة أرض الاندلس ، لان اثر ذلك ظهر فى نشاط حركة التجارة ، والاتصال الفكرى والهجرى بين البلدين ، فلقد استقرت فى بجاية جالية اندلسية كبيرة ، ضمنها التجار والصناع ، والعلماء والطلاب ، ومع هذه الجالية المهاجرة ، انتقلت تيارات فكرية أندلسية الى بجاية ، كان لها تاثيرها الذى نلحظ مظهره فى الرقة والجمال ، وسمو الذوق ، والحس الحضارى الذى يمتاز بها سكان المدينة •

وقد احتضنت بجاية منذ عصر الحماديين دارا من أهم دور صناعة وتعمير السفن التجارية والحربية • وقد ساعدها على ذلك : وفرة المواد الاولية لبناء السفن ، ومنها الاخشاب والزفت الجيد والقطران ، والحديد ، والجبص ، والاخير يوجد بصفة خاصة فى أحدى القرى القريبة منها وهى متوسة •

وتفرد صاحب الاستبصار برواية أن بجاية آوت فى العصر الموحدى مركزين لبناء وتعمير السفن مما يشير الى اهتمام السلطة ، والسكان بسياسة تمتين خطوط الدفاع والهجوم ثـــم الى الرغبة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية •

ودار صناعــة السفن فى بجاية يبدو أنها كانت فى وضع الصدارة بالنسبة للمركزين الآخرين الموجودين على ساحلنا الشرقى ، وهما : مرسى الخرز (القالة) وبونــه (بلد العناب) • وفى الوقت الذى كان فيه أسطول المغرب الاوسط فى بجاية منذ عصر الحماديين ، درعا وقى المدينة من شر الغارات المدمرة ، وربطها بمراكز التجارة والصناعة والحضارة فى العصور الوسطى ، أى تحقق بفضل نشاطه الغرض الاقتصادى والغرض الحربى ايضا ـ عانى سكان مـدن ومراسى مجاورة وبعيدة وهى مرسى القل ، ومرسى جيجل ، ومرسى الدجاج (بين مستغانم وارزيو) من غارات النورمان المخربة منذ القرن الخامس الهجرى II م حتى انهم كانوا يضطرون أحيانا خاصة فى فصلي الربيع والصيف ، لمغادرة مدنهم خوفا من الغارات المفاجئة والمستمرة ، فى هذين الفصلين اللذين يعظم فيهما نشاط الاسطول النورمانى فى عرض البحـــر •

واشباع روح المغامرة ، وارضاء النزعة الصليبية ، والرغبة فى السلب والنهب وفى تأديب الحماديين والزيريين بسبب تعاطفهم مع اخوانهم مسلمى صقلية ، ثم ملاحقة من استقر من هؤلاء الاخيرين فى المدن الساحلية هذا مع وجود نقط ضعف فى سياسة الدفاع بسبب طول الساحل كل هذه تعبر عن الاسباب الحقيقية للغارات النورمانية ٠

وما قام به النورمان من نشاط ، مثله الاسبان والبرتغاليون ، ضد مسلمى الاندلس والمغرب العربى منذ بداية حركة (الركونكستا) الى ما بعد سقوط غرناطة ، كما نقله الاروبيون الغربيون الى بلاد الشام ومصر ، فيما يسمى بالحركة الصليبية ، حيث كان القرن الخامس الهجرى 11 م عصر الحرب الصليبية الشاملة ضد العرب والمسلمين فى المغرب وفى المشــــرق ٠

وقد تنبــه لهذه الحقيقة ، وربط النشاط الصليبى ضد المسلمين فى بلاد المغـرب والمشــرق المؤرخ ابن الاثير الذى ضمن حوادث سنة 491 هـ / 1097 ـ 1098 م ٠ قوله الهــــام « وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج ، واستبداد أمرهم وخروجهم الى الاسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها سنة 478 هـ فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الاندلس ثم قصدوا سنة 484 هـ جزيرة صقلية وملكوها ٠٠٠ وتطرقوا الى أطراف افريقية فملكوا منها شيئا وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره ٠٠٠ فلما كانـت سنة 490 هـ خرجوا الى بلاد الشام ٠٠٠

ومن يتأمل جيدا ما تضمنته نصوص البكرى بصدد نشاط المجاهدين البحريين من مراكزهم فى كل من بونه ومرسى الخرز ، وما قاله الادريسى بصدد دار صناعة السفن فى بجاية ، ترتسـم أمامه صورة عصر ازدهار البحرية الجزائرية ، ثم معالم وأسباب الحـــــرب الصليبية التى كان يشنها النورمان وسكان جزر الحوض الغربى مــن البحر المتوسط ضــــد سواحلنا ٠ بيد أن هذه الصورة تتغير بعد منتصف القرن السابع الهجرى 13 م أى بعد تفكك امبراطورية الموحدين وعودة ظاهرة التجزئة عاملا مسيطرا على الحياة السياسية فى بلاد المغرب العــــربى ٠ وقد عبر عـــن ظاهرة التغير ، من عصر القوة الى عصر التدهور والانحلال وضعف الدفاع الرحالة العبدرى فى قوله بعد ما شاهده من حيرة سكان مدينة بونة ازاء قلة من القراصنة فرضوا ارادتهم وشروطهم من زورقهم الصغير على سكان المدينة ونص ما قاله « ثم وصلنا الى مدينة بونة فوجدناها بـــلدة لطوارق الغير مغبونة ، مبسوطة البسيط لكنها بزحف النوائـــب مطوية مخبونة ، ومن أغـــرب المسموعات أننا صادفنا وقت المرور بها زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا ، وقـــد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج وأسروا من البر أشخاصا فامسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين فى فدائهم » ٠

واستمرار التدهور ، وتكرر عمليات التحرش بالسواحل المغربية والتحدى لمشاعر سكانها من طرف قراصنة البحر الاروبيين فى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة هما اللذان ساعدا على ظهور قوة جديدة فى الميدان المغربى هى قوة المجاهدين البحريين التى كانت مقدمة لامتداد نفوذ الاتراك العثمانيين فى الاجزاء الشرقية والوسطى من المغرب العربى الكبير ·

أما الحقيقة التى نريد أن ننهى بها هذه الملاحظات عن اهمية مدينة بجاية فهى أن تاريخها كمركز لصنهاجة او بالاحرى تاريخ صنهاجة فيها قد خص بالتآليف من طرف ابن حماد فى : «الدرة» ، كما خص علماؤها واعيانها فى القرنين السادس والسابع بالتآليف من طرف القاضى ابى العباس الغبرينى فى : «عنوان الدراية» ، وحظيت كحاضرة هامة فى المغرب الاوسط بوصف بديع فى مسالك ابن حوقل والبكرى ، وفى نزهة المشتاق للادريسى ، وفى الرحلة المغربية للعبدرى ، وكلام الاخير عنها يلفت النظر بسبب منهجه الخاص الذى أملى عليه تسليط الاضواء على العيوب وتجريد المدن التى مر بها من كل ميزات حسنة كانت لها قبل عصره وفى رواية سابقة · ولقد حفلت المصادر التاريخية بالعديد من العلماء والنبهاء الذين ولدوا فيها أو أنجبتهم بيئتها الثقافية ، اغلبهم عرف بلقب الزواوى واقلهم عرف بلقب البجائى ·

ويهمنا من بين هؤلاء وأولئك : اثنان : أحدهما من مواليد المدينة وثانيهما ، ارتبطت حياته الوظيفية والعلمية بها ، وان لم يكن من مواليدها · فأما الاول فهو ابو الحسن على بن أبى نصر فتح بن عبد الله البجائى الذى ولد ببجاية سنة 506 هـ 1112 ـ 1113 م ونشأ بها · فلما أصبح على درجة كبيرة من الادراك ، التزم جانب الحياة الروحية الخالصة ، فعاش زاهدا منقطعا عن مشاكل المادة ، منصرفا الى العبادة والى التدريس ·

وميزته الكبرى انه يعتبر ثمرة طيبة امتزجت فيها الاتجاهات الفكرية فى المغرب والاندلس بتلك التيارات التى كانت سائدة فى بعض حواضر المشرق العربى فكان لابى الحسن البجائى فى مصر وحدها شيخان روى عنهما واستفاد من خبرتهما وهما : أبو محمد عبد الواحد بن اسماعيل ابن طاهر الدمياطى ، ثم ابو القاسم الحسن بن عبد السلام الذى اجتمع به وأخذ عنه فى ثغر الاسكندرية ، وفى بيت المقدس ، أجتمع بابن جبير البلنسى وروى عنه ، ومع هؤلاء وغيرهم من العلماء والنبهاء كانت لابى الحسن البجائى مجالس علمية ارتبطت بذكريات حسنة حفظها ورواها عنه طلاب العلم والمعرفة فى حاضرة بجاية ·

أما ثانيهما : فهو أبو العباس الغبرينى الذى تبدو اهميته فى أنه يعتبر حجة علماء المدينة ومخلد آثارهم او «شاهد عصرهم» كما يقال الآن·

لا غرابة فقد وصفه ابن خلدون بكبير بجاية ، وقاضيها ، وصاحب شوراها ، وهو وصف لم يظفر به غيره من بين علماء المدينة ونبهائها ونكتفى من حياته العامة التى لها علاقة ببجاية بما جرى بينه وبين معاصره ابى محمد عبد الله بن الديم قاضى قسنطينة ، لان ذلك يؤيد قيمته الخاصة ، وطموحه فى أن يظفر قضاء بجاية ومركزها بمكانة سامية لا تقل عن قضاء حاضرة قسنطينة ومركزها ·

وصورة ما جرى بين الرجلين : ابى العباس ، وابى محمد ، أن الاخير ـ ظهر منه فى مناسبة خاصة بحضرة الامير الحفصى ابى زكرياء يحيى ما يشير الى شعور بالتفوق والامتياز على معاصره الغبرينى قاضى بجاية ، بحكم اهمية مركز قسنطينة ، مقر الامير ، اذ لم يفسح ابن الديم المجلس لقاضى بجاية حتى يجلس بجانب الامير ، ونافسه فى ذلك مع انه ضيف حتى بدا التاثر على الغبرينى وواجه ابن الديم بقوله « ان اهلكم لا يقدروننى » فلم يتراجع ابن الديم عن موقفه بل اجاب على الفور « ان قضاة بجاية محدثون » والهدف من وراء ذلك اشعار الغبرينى ، بانه اقل اهمية منه لان بجاية فى ذلك الوقت كانت تابعة سياسيا وقضاء لحاضرة قسنطينة مقر السياسة والسلطان ·

والخلاصة :

ان مدينة بجاية وهى تعيش اليوم حاضرا مشرقا بالصناعة والتجارة والطاقة والمنشآت العمرانية يمكنها أن تحول من حاضرها فى الميدان الثقافى ايضا فتجعله امتدادا لماضيها الحضارى الاصيل : قلعة حصينة للدفاع ، ومركز اشعاع للتاثير ، ومهد دراسات عربية اسلامية سليمة ، ونقطة جذب وتجمع للتيارات الفكرية ، وللمفكرين والعلماء والنبهاء · واحسب أن اختيارها لعقد مؤتمر الفكر الاسلامى ، عودة ذات مغزى ولفتة ذات ايحاء ، وتشريف لماضى يستحق كل التشريف ، وتكليف لحاضر نريده مشرقا بالمعرفة ملتزما بالاصالة ·

بعض مصادر مراجع البحث

- ابن حوقل صورة الارض .
- البكرى المغرب فى وصف بلاد افريقية والمغرب
- الادريسى وصف افريقية الشمالية والصحراوية (قطعة من نزهة المشتاق)
(لمجهول) الاستبصار فى عجائب الامصار
- العبدرى الرحلة المغربية
- ياقوت معجم البلدان
- البيدق اخبار المهدى بن تومرت
- ابن الاثير الكامل فى التاريخ
- الغبريني عنوان الدراية
- ابن خلدون العبر
- ابن غلبون التذكار
- ابن الانبيرى علاج السفينة فى بحر قسنطينة (خ • خ)
- دائرة المعارف الاسلامية
- لقبال الحسبة المذهبية
- عبد الوهاب بن منصور قبائل المغرب
- لمجهول مفاخر البربر
- الاصالة مقال ابن حماد الصنهاجى - جلول بدوى -



منـــارة القلعـــة

دور بجاية فى الحضارة

د. ابراهيم حركات
كلية الآداب
جامعة محمد الخامس
المغرب

لم يكن تأسيس مدينة بجاية مجرد مصادفة تاريخية ، فيكاد البحث المستمر وتتبع تاريخ معظم المدن الرئيسية فى العالم يقودنا الى ان مكان هذه المدن كانت توجد مراكز سابقة حملت نفس الاسم أو تعددت أسماؤها واشكالها ومحتواها مع تعاقب الايام وتوالى الاحداث . فلا عجب والحالة هذه أن نجد أن بجاية الحمادية انشئت مكان مدينة Saldae الرومانية . ومكة المكرمة انشئت حيث كانت مضارب جرهم ، والقاهرة امتداد للفسطاط التي شادها عمرو بن العاص وطنجة كانت قبل الاستيطان الفينيقي مجموعة مداشر يقطنها سكان محليون والامثلة اكثر من أن تحصر .

واذا كانت بجاية قد عرفت فى القرون الوسطى كميناء رئيسى بالمغرب الاوسط وكمركز اقتصادى ذى أهمية كبيرة فى ميدان التبادل مع دول البحر المتوسط ، فهى ايضا مركز ثقافى لامع شهد نشاطا واسعا فى عصر بنى حماد وبنى مرين وغيرهم .

ولعل أحد أوائل من كتبوا عن بجاية ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى الذى عاصر مولد بجاية ومرحلة اولية من مراحل ازدهارها قال :

« مدينة بجاية ازلية عامرة بأهل الاندلس ، بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة ، وهو مرســى مأمون مشتى قد خرج عن محاذاة جزيرة الاندلس .

ولقد عودنا الجغرافيون والمؤرخون الاقدمون اذا ذكروا أن مدينة من بناء الاوائل أو وصفوها بأنها أزلية أن يقصدوا بطبيعة الحال انها أسست قبل العهد الاسلامى ، ولذلك كان البكرى يشير هنا الى الاصل الرومانى للمدينة ٠

أما الادريسى فقد أشار الى ازدهار حركة النقل البحرى وصناعة السفن فى عين المكان ووصف السكان بالحذق فى الفنون والحرف مما ساعد على ازدهار التجارة التى كانت فى القرن السادس الهجرى نشيطة مع كل من المغرب العربى والاصقاع الصحراوية والبلاد الشرقية ٠ وقد اندهـــش الادريسى لما كانت تتوفر عليه بجاية من خصب ورخاء فى المعيشة وكثرة المواشى ولا حظ بحق أن بجاية كانت مدينة صناعية ونقطة ارتكاز تجارى كبـــرى ٠

ولقد التحق العديد من أهل الاندلس ببجاية لعدة أسباب ، فهناك العلاقة الطيبة التى تربـــط الصنهاجيين بأهل الاندلس ، حتى كان بين ملوك الطوائف من أسس امارة صنهاجية ، وعدم استقرار الامور فى الاندلس التى كانت لا تزال بيد ملـــوك الطوائف وقت بناء المدينة ، وميل كثير من سكان شبه الجزيرة الى اختيار المرافىء ليستقروا بها وكانهم على موعد مع المستقبل ليتولوا مقاومة العدو فى جهاد بحرى أرهق دول أوروبا لعدة قرون وشملت الانطلاقة مـــراكز ساحلية كثيرة فى شمالى افـــريقيا ٠

وسجل شمس الدين الانصارى الدمشقى المتوفى سنـــة 727 والمعروف بشيخ الربوة وصفا لطيفا للمدينة حيث قال : « بجاية مدينة حسنة البناء طيبة الغناء ، ولها نهر بهيج تدخله المراكب من البحر الى البلد ، بناها بن الناصر بن علناص (كذا) احد بنى حماد سنة سبع وخمسين وأربعمائة وبناحيتها جبال الرحمن وهى جبال تعمرها قبائل كتامة ، وبها معادن النحاس واللازورد » ٠

واشتهرت بجاية الحمادية بقصورها الشامخة المنيفة ومبانيها التى استحقت تنويه ابـــن الخطيب فى أعمال الاعلام ٠ فالناصر مؤسس بجاية بنى قصر اللؤلؤة الذى وصفه الشعراء ٠ ومنهم ابن فكاه القيروانى الذى أنشد :

قالت سعـــاد وقد زمـــت ركائبنا	مهـــلا عليك فانت الرائح الغادى
فقلت تاللـــه لا انفك ذا سفـــر	تجرى بى الفلك أو يحدوبى الحادى
حتى اقبل تـــرب العز منتصـــرا	بالناصـــر بن علناس بن حماد !

وقد سلك مسلكه فى الاهتمام بالاعمال العمرانية كل من ابنه المنصور وحفيده الناصـــر بن المنصـــور ٠

وتحتل بجاية فى الميدان الفكرى مكانا رحبا فى تاريخ الشمال الافريقى قاطبة ، فقد كانت مركزا ثقافيا حل به مدة كل من المهدى بن تومرت وعبد المومن بن علي وابن خلدون وعشرات من رجال الفكر الذى ذكرهم الغبرينى فى عنوان الدراية وغير الغبرينى فى مراجع لا حقة ·

وكان ابن خلدون قد تعرف الى الامير ابى عبد الله الحفصى بالمغرب فى بلاط ابى عنان فنشات بينهما الفة وطيدة وتعرض كل من الامير وابن خلدون الى الا ذى بسبب هذه المودة حيث اتهم الاول بمحاولة العودة الى امارة بجاية والاستبداد بها واتهم الثانى بكونه والاه حتى وعده الامير بتوليته حجابته · وفعلا حصل ابن خلدون على امنيته ، واثبت هذه الحادثة بشىء من التنويه حيث قال فى التعريف : « وكتب لى الامير ابو عبد الله بخطه عهدا بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه · ومعنى الحجابة فى دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته لا يشاركه فى ذلك احد » ·

والحقيقة ان منصب الحجابة كان فى كل من افريقية والمغرب الاوسط شبيها فى اهميته بمنصب الوزير الاول · وقد وجدنا هذه الميزة فى بلاط الحفصيين ومملكة بنى عبد الواد ، اما فى المغرب فكان الحاجب يطلق عليه المزوار فى غالب الاحيان ولكن دوره اقل على العموم من دور الحاجب فى بجاية او افريقية ·

والواقع ان الامير ابا عبد الله رحب ترحيبا عظيما بمقدم ابن خلدون فقد اركب وجوه دولته لاستقباله وقال يصف هذا اللقاء « وتهافت اهل البلد على من كل اوب يمسحون اعطافى ويقبلون يدى ، وكان يوما مشهورا » ·

ويذكرنا طموح ابن خلدون وتهافته على المناصب شرقا وغربا بطموح المتنبى الفائق والذى لم يتحقق منه شىء على اي حال ·

وفى اوائل القرن العاشر الهجرى (16 م) كانت بجاية كما وصفها الحسن الوزان تتوفر على العديد من المساجد والمدارس والزوايا · وكانت حركة التعليم زاهرة بها كما دل على ذلك كثرة طلابها واساتذتها فى وقت كانت مراكز ثقافية اخرى متعددة فى العالم الاسلامى قد دخلت منذ زمن مديد فى ذمة التاريخ كالبصرة والكوفة والقيروان · وبالاضافة الى ما تقدم كانت بجاية فى القرن المذكور تحتوى على فنادق وملاجىء واسواق منظمة وكانت القلعة المجاورة لها مزخرفة بالفسيفساء والنقوش الجبسية والخشبية · ويشير الوزان الى الدور الذى قامت به بجاية فى الجهاد البحرى على الشواطىء الاسبانية حيث احدث ذلك رد فعل عنيف من الاسطول الاسبانى · وكانت الضاحية تتوفر على بساتين غزيرة المياه والفواكه فضلا عن الغابات التى تكتنف الجبال · وبما ان بجاية تتوفر على عناصر اندلسية اثرت فيها بحضارتها الاسبانية فقد كان اهلها يتذوقون الموسيقى

ويقضون بعض فراغهم فى الاستماع اليها حتى ان كلا منهم كان موسيقيا حقيقيا ، ومن ثم انطلقت اخلاقهم وتهذيت طباعهم فكانوا الى مسالمة الناس أميل منهم الى مجابهتهم بالعداء - ولكن هذا لم يمنع من قيام شجعانهم بممارسة الجهاد ضـد الاسبان فى عقر دارهم حتى أدى ذلك الى تدخل الكونت Pierre Navarro والستيلائه على بجاية التى نهبها وبنى بجوارها جملة من التحصينات -

والحق أن سكان المدينة تنفسوا الصعداء من الخناق الذى ضربه الاسبان عليهم بتدخل القائد بربروس الذى هب لنجدته كل السكان المجاورين غيـرة وتشبثا بالتراب السليب - وبالرغـم مـن تضعضع حدث فى صفوف جيش بربروس فقد توبع النضال العثمانى الجزائرى ضـد الاحتلال الاسبانى الى أن تم تخليص بجاية -

ولقد اكتفى نافارو فى شبكته الدفاعية بتحصيناته الخاصة كحصن موسى الذى اقامه مكان قصر النجمة والقصبة وحصن عبد القادر على الساحل الذى رممه ترميما شاملا- على أن الاسبان لم يكتفوا بذلك ، بل نقلوا ما خف حمله وغلا ثمنه سالكين به البحر الابيض المتوسط الى بلادهم ولكن عاصفة هوجاء جعلت سفنهم يبتلعها البحر بما فيهـا -

وبفضل الشبكة الدفاعية القوية التى اقيمت حول المدينة تمكن الاسبان من المقام فى بجاية لمدة 36 عاما الى أن طردهم الرئيس صالح سنة 1555 وهو قائد عسكرى وسياسى قام بدور بالـغ الاهمية فى التاريخ العثمانى بافريقيا الشمالية -

وتعزو الرواية الفرنسية الى الوجود التركى لا الاسبانى خراب بجاية وخلوها من السكان - لكن مدنا بالمغرب ايضا لم يحل بها الاتراك كاصيلا والعرائش اللتين كانتا تحت الاحتلال الاسبرى ولما تم استرجـاعهما فى العصر العلوى لزم نقـل آلاف من سكان الريف لتعميرهما بعد افتقارهما من أهل البلاد خلال الاحتـلال -

غير ان بجاية مهما تغيرت معالمها الآن فقـد احتفظت الآثار الباقية منها بطابع الفخامة والدقة التى تميز به البناء الحمادى الصنهاجى ، فكأبواب أسوار الرابطين والموحدين نجد باب البنـود يمثل الصمود والتماسك بالرغم من تعاقب القرون -

والكتابات الكوفية التى وجدت فى النقوش الحمادية تشبث بالطابع العربى الاســلامى للحضارة ، والصلة قوية بين الشرق والغرب حيث الاصل واحد ، لكن ظاهرة تصوير الحيـوان وحتى الانسان على الخزف من مميزات الفن الحمادى التى لا تكاد تجد له نظيرا فى فـن دول أخرى بالمغـرب -

وتأخذ المعينات فى القيشانى وعلى الحجر مكانا ملحــوظا وهى مــن الاشكــال التى كان الصنهاجيون سباقين اليها فى المغرب العربى - أما تغطية الارض وتبليطها فتأخذ أشكالا خاصـــة أيضا ، فهناك مربعات مجوفة من جهات أربع وهناك أشكال متقاطعة متنوعة - والمقرنصات نجدها تدخل لاول مرة فى القصور والمساجد وتتكرنا الكتابات والنقوش الرخامية على قبــور الحماديين بما نلاحظه بعد خمسمائة سنة فى القبور السعدية من حيث الدقـــة -

ولن اشير هنا الى المؤثرات الاسبانية والتركيـــة التى طـــرأت بعد الحماديين والحفصيين فالشخصية الحمادية هى بدون جدال عنصر القوة والشمول فى حضارة بجاية -





مصابيح من الآجر كانت تحفا فنية

سياسة الناصر بن علناس تجاه بلاط المهدية

اسماعيل العربي
كاتب جزائري

يمكننا تقسيم عهد بنى حماد لغرض هذا البحث الى ثلاث فترات اساسية متميزة :

شهدت الفترة الاولى التى تمتد بين سنتى 398 ـ 441 هـ (1007 ـ 1050 م) (وهذا التاريخ الاخير هو تاريخ تاسيس القلعة) ، مولد قوة بنى حماد ونموها فى اطار المقومات المميزة للمغرب الاوسط وفى ظل تقاليد ومنشئات الرعيل الاول من ملوك صنهاجة • والشخصية التى تطغى على الاحداث العسكرية والسياسية وتوجهها خلال هذه الفترة ، هى شخصية حماد بن بلكين بن زيرى ، بن مناد • وقد كانت اهم الخصائص المميزة للاتجاه السياسى فى المغرب الاوسط فى هذه الفترة ، هى العمل لتدعيم الدولة الجديد ، بحيث يصبح الانفصال عن القيروان شاملا ونهائيا• وعلى الرغم من اقدام حماد على خلع طاعة العبيديين واعلان الدعوة (للعباسيين) فان مشكلة العلاقات الخارجية لم تطرح نفسها بوضوح فى هذه الفترة • وهذا الاجراء نفسه الذى قد يبدو خطوة فى طريق اعتماد سياسة خارجية مستقلة ، انما اوحت به فى الحقيقة اعتبارات ايديولوجية تتصل بالدرجة الاولى بالسياسة الداخلية •

وفى غضون الفترة الثانية التى تمتد بين سنتى 441 ـ 481 هـ (1049 ـ 1050 م) شهدت دولة بنى حماد استكمال نموها السياسى ، كما شهد المغرب الاوسط ازدهارا ثقافيا وعمرانيا لم يعرف له مثيل فى تاريخه ؛

وفى هذه الفترة ظهرت القلعة التى خلفـت القيروان على المسرح الدولى ، عقب غزو بنى هلال لافريقية • وقد كان من نتائج هذا الغزو تدفق رؤوس الاموال والخبرات التقنية ، والكفاءات العلمية مع سيل المهاجرين الى القلعة وغيرها من مدن المغرب الأوسط ، هربا من عبث العربان وتهديهم لافريقية ، وبذلك اتسعت موارد المملكة المادية وامتدت آفاق النشاط العلمى والادبى فيها ، ووجـد الخلق والابداع الفنى فى قصورها ومساجدها الدعامة الضرورية • ولكن هذه أيضا هى الفترة التى واجهت فيها المملكة مشكلة زحف العربان واضطرت الى بناء عاصمة جديدة (بجاية) فى سنـة 457 ـ 458 هـ (1064 ـ 1065 م) للاستعاضة بها عن القلعة التى أصبحت مهـــددة بالاختناق الاقتصادى • وهذه الفترة هى التى تهمنا فى هذا البحث •

وأما الفترة الثالثة التى تمتد بين 481 ـ 558 هـ (1088 ـ 1163 م) ، فقد شهدت تقلص نفوذ بنى حماد السياسى تدريجيا ، وأما الحضارة التى اقاموا دعائمها فى القلعة ، فستفتح لها بجاية ابوابها وتحميها من حشود بنى هلال المتوحشة بجبالها وتغذيها بعناصـــر جديدة نشيطة مـــن البربر وغيرهم •



* * *

حينما تولى الناصر بن علناس الحكم فى القلعـــة ، فى سنة 454 هـ (1062 م) ، كان سلفه (وضحيته) بلكين ، بن محمد ، بن حماد ، قد مهد السهل والوعر ودوخ المغرب الاقصى كلـــه واحتل مدينة فاس وسحق قوات زناتة وطرد جيوش يوسف بن تاشفين من سجلماسة ودفع بها فى اتجاه الصحراء • ولكن اتساع رقعة الامبراطورية الحمادية بهذه الصـــورة ، انما كان نتيجة لتوسع عسكرى بشأن فتوحات كبرى المغرب الاقصى ولم تكن تدعمه ادارة منظمة ولا يقوم على عناصر اثنوغرافية منسجمة (1) ولذلك ، فان حدود بنى حماد فى الجنوب والجنوب الغـــربى ، سوف لا تستطيع مقاومة ضغط الملثمين ، على الرغم من أن سياستهم التوسعية كانت تتجـــه الى الاندلس ، اكثر مما تتجه الى الشرق • وقد كان هذا من العوامل الاساسية التى قللت من أسباب الاصطدام بين بنى حماد والمرابطين • والعامـل الآخر المهم أيضا ، هو تقلص نفوذ زناتة الذين دفع بهم المعز بن باديس فى أواخر حياته الى الصحراء فى الشرق ، وشتت الملثمون شملهم وقضوا على دويلاتهم فى المغرب ، وبذلك توزعت عناصـــــر هذه القبيلة الخطيرة الشأن واندمجت فى مختلف التيارات السياسية السائدة فى المغرب • بل ان فلول زناتة التى بقى لها شىء من التماسك ستجد فى جوار احفاد حماد الصنهاجيين ، أعداء القبيلـــة التقليديين ، شيئـــا من الراحـــة والاستئناس • وقد وجد الناصر بن علناس فى منح بنى وامانو الذين يعترفون بسلطانه نوعا من

الاستقلال الذاتى (2) ، ضمانا مزدوجا ، من حيث أن هذه الامارة تشكل حاجزا بين مملكته وبين المرابطين على الحدود الغربية ، من جهة ومن حيث ان الاعتراف بوجود أدبى لاحفاد زيـرى بن عطية ، عامل من شانه أن يكسر شوكة هذه القبيلة التى طالما كانت مثارا للقلاقل فى المغرب • وقد انتهى الامر بالناصر انه تزوج احدى بنات ماخوخ ، زعيم هذه القبيلة ، كما سيفعل ابنه ، المنصور بعـــده •

وكذلك يمكن القول ، بان الوضع على الحدود الغربية يتسـم بما يسمى فى التعبير الحديث بتوازن القوى ، وهو وضع مرض لبنى حماد ، من حيث أنه يؤمن مؤخرة مملكتهم ، ويسمح لهم بتوجيه اهتمامهم السياسى كلية لمتابعة التطورات الخطيرة التى تجرى على حدودهم الشرقية ، فى افريقيـــة •

ولكن ما هو الوضع فى افريقية ؟

كانت تونس منذ أواخر عهد المعز بن باديس مسرحا لظاهرة لم يعرف العالم لها مثيلا منذ انقضاض البرابرة (القوط والوندال الخ •) على الامبراطورية الرومانية فى الغرب وتقويض دعائمها ، خلال الفترة بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادى • وهذه الظاهرة تتمثل فى غزو قوة همجية من القبائل التى نبذها العالم العربى فى الشرق منذ زمن بعيد وأبعدها الفاطميون الى مصر العليا (الصعيد) ، بسبب الخطر الذى كانت تشكله على الامن العام ، وخصوصا على طرق الحجاج •

وهذه القوة تتكون من عدد من القبائل (من اهمها بنو هلال وبنو سليـــم) التى اطلقها الخليفة الفاطمى ، صاحب مصر ، بقصد تخريـب شمال افريقية والقضاء على معالم الحضارة التى اقامها فيها بنو زيرى ، للانتقام منهم بسبب تحول المغرب عن دعوة الشيعة وعودته الى مذهب اهل السنـــة •

فبعد أن تازم الموقف بين القاهرة والقيروان ، نتيجة لانفجار ثورة شعبية ضد الفاطميين الذين فرضوا عقيدتهم فى افريقية ، اعلن المعـــز طاعة العباسيين فى عهد القائم بامر الله ، وأمر بقطع الخطبة للعبيديين ولعنهم فى سنة 440 هـ (3) •

ولما احكم اليازورى (فلاح من اهل الشام استوزره المستنصر) خيوط مؤامرة الانتقام ، بعث بحشود العربان افواجا متوالية كاسراب الجراد ومضت تخرب المدن وتفسد الزرع وتسبى وتقتل السكان حتى وصلت الى مكان يقع على مسيـرة ثلاثة ايام من القيروان حيث هزمت جيـــوش المعز فى معركة كانت نقطة تحول فى تاريخ صنهاجة التى استرخت للنعيم والرفاهية وفقدت روح النضال والحرب •

و بهذه الهزيمة انفتح الطريق أمام العربان لنهب القيروان والقضاء على العمارة العظيمة فيها « في ساعة واحدة » ، حسب تعبير ابن عذاري(4) واضطر المعز الذي رأى مملكته تتحـــول الى صحراء ، الى الاعتصام بالمهدية في سنة 449 هـ • والاحتماء باسوارها المنيعة •

*

* * *

واما بنو حماد ، فقد استقبلوا الاحداث التي يتخبط فيها بنو عمومتهم في افريقية بشـــعور الارتياح ، وقد استغل بلكين تلك الظروف التي أمن فيها جانب المعز لبسط سيطرته على المغرب ، كما رأينا على حساب زناتة والملثمين • بل ان هذا الشعـــور سيتبلور الى التشفي والنكايـــة خصوصا في عهد الناصر بن علناس • فان بني حماد لم يكتفوا بالوقوف موقـــف الحياد في هذا الصراع الاسطوري بين قوى الظلام الهدامة وقوة الحضارة التي اقامها اجدادهم ، بل سارعوا الى التحالف مع بعض عناصر العربان ، على أمل التعجيل بسقوط الدولة الزيرية في افريقية •

وبعد ما وجد سادة المهدية انفسهم رهينة في يد امراء العرب واضطروا الى التحالف مـــع رياح وزغبة (بل والى مصاهرتهم ايضا) طلبا لحمايتهم ، تعاقد سادة القلعة مع الاثبج اعـداء زغبة ورياح ، ورحبوا بهم في مملكتهم وتخلوا لهم عن الارياف لينهبوا فيها ويسطوا كما شاءوا • ولما طردت رياح زغبة من افريقية وسارع هؤلاء الى وضع انفسهم في خدمة القلعة ، استقبلهم بنو حماد بنفس الكرم والسخاء ، حيث كانوا يرون فيهم حشودا من الجنود المرتزقة لتوجيهها ، متى شاءوا ، ضد اعدائهم الذين يضمرون ضغائن واحقادا متوارثة لهم في افريقية (5) • وهذه الغلطـة في التقدير سيدفع الناصر ابن علناس ثمنها غاليا ، حيث كان أشبه بمروض الثعابين الذي لا يلبث أن يجد عنقه محاطا بالافعى التي يعتقد انها لا تزال في قبضته • وستكون الضحية الاولى لهذه السياسة المخطئة ، هي القلعة التي قطع العربان عنها شرايين الحياة الاقتصادية واضطروا بني حماد الى التخلي عنها والاستعاضة عنها ببجايـــة •

ومع ذلك فان من الخطا الاعتقاد بان محالفة عناصر من الهلاليين كانت نتائجها كلها سلبية لبني حماد في المرحلة الاولى • على العكس ، فان هذه السياسة قد أتت ببعض الثمـــار وكانت ايجابية من حيث أنها سهلت امتداد سلطانهم الى المشرق ، حيث أخذ نفوذهم يملا تدريجيا بعض الفراغ الذي تركه انحسار سلطان الزيريين ، حتى أصبحت صفاقس وقسطيلة ، بل تونس نفسها فيما بعد ، تدين بالولاء لبني حماد • ثم ان زحف العربان على المغرب الاوسط ، لم يكن له ذلك الطابع الفجائي والعارم الذي شهدته افريقية ، لان هجرتهم كانت في المرحلة الاولى محصورة في المناطق الجنوبية الشرقية ، وبالتالي ، لم يكن هناك مبرر للتخوف من آثارها على التل الذي كان على

كل حال ، فى وضع يسمح لنشئاته ومدنه ومرافقه الاجتماعية ، بان تستوعب عناصر من العربان ليندمجـــوا فيها ، كما اندمجت فيها عناصـــر من سكان حواضر افريقية من الاعيان والعلماء والفنانين الخ • وباختصار ، فقد كان الناصر بن علناس يمثل اكبر قوة ، بل القوة الوحيدة فى المغرب كله (6) ، وقد كان مما يتفق مع المنطق ومعطيات التحليل المتعمق أن يطمح الى ان يتمكن ، متى تمت له السيطرة على افريقية ، من اخضاع هذا العنصر المضطرب ، كما اخضع زناتة ، بل ومن اقراره وتمدينه • ولكن مثل هذا الحساب ، يتجاهل بطبيعة الحال ردود فعل الزيريين ويستخف بذكاء رجل مثل تميم بن المعز وحنكته السياسية وممارسته الطويلة لـ « شئون العـــرب » •

ومهما يكن من شيء ، فقد كان من المألوف ــ ان لم نقل من الطبيعي ــ ازاء تأرجح ميزان القوة بين الملكين بهذا الشكل ، أن يرثى الناصر لحالة ابن عمه ويفكر ، أو يتحدث فى مجالسه الخاصة ، سواء أكان جادا أوهازلا ، عن نيته فى محاصرة المهدية والقضاء على آخر ملوك بنى زيرى فيها •

وسواء صدرت هذه التهديدات فعلا عن الناصر أم لم تصدر عنه (ونحن نشك فى أن يكون الناصر جادا فى مثل هذه الاقوال ، بسبب مناعـة المهدية المشهورة والتى لم يكن من الممكن اخذها الا من البحر ، ولان بنى حماد لم يكن لديهم اسطول حربى يذكر قبل عهد بجاية) ، فـان ما قـاله الناصر فى مجالسه بلغ الى تميم بن المعز • ويقول المؤرخون انه تحقق منه ، بل وتحقق حتى مـن بعض تفاصيل الخطة التى عزيت الى الناصر بالهجوم على المهدية • وكذلك تحقق ملك المهديـة من أن الناصر يذمه ويشتمه وينعته بالضعف ، وانه قد تحالف مع بعض عناصر زناتة وبنى هلال ليعينوه على محاضرة عاصمته ومعقلة الوحيد •

واثر ذلك ، أرسل فى طلب بنى رياح ، فلما حضروا اليه قال لهم : « انتم تعلمون ان المهدية حصن منيع فى البحر ولا يقاتل منه فى البر الا من أربعة ابراج يحميها أربعون رجلا • وانمـا جمع الناصر هذه العساكر (للسير) اليكم والى بلادكم » • فقال امراء العـــــرب « ان الذى يقوله السلطان حق ونحب منه المعونة بالعدة » • فاعطاهم السـلاح من الرماح والسيوف والدرق ، كما أمر لهم بعشرة آلاف دينار ، لكل أمير منهم الـف دينار •

ولما خرجت أمراء العرب من عنده ، جمعوا اقوالهم وتحالفوا واتفقوا على الناصر ثـــم انفذوا شيخين سرا الى بنى هلال الذين كانوا مع الناصر (7) يقبحون عندهم مساعدتهم للناصر ابن علناس ويخوفونهم منه ان قوى ، وانه سيهلكهم بمن معه من صنهاجة وزناتة • وذكروهم بغدر جده حماد لباديس وغدر من جاء بعده من بنيه • « فاذا وطئى بلادنا بصنهاجة وزناتة قاصدا تميم ابن المعز ، وتميم فى حصن منيع بالمهدية ، لا يقدر عليه • وعندما يملك بلاد افريقية يخرجنا واياكم منهـــا » (8) •

وأضاف العربان نصيحة الى اخوانهم قائلين انه انما يستمر لهم المقـــام والاستيلاء على البلاد « اذا اشتد الخلاف بين فرعى صنهاجة وضعف سلطانهم » ·

وقد فهم مشائخ بنى هلال فى المغرب الاوسط هذا المنطق البسيط الذى فات عبقرية الناصر وابن عمه تميم ، واعترفوا بوجاهة تحليل ابناء عمومـتهم فى افريقية للموقف ، فقالوا : « والله لقد صدقتم ! فاذا التقينا ، فاجعلوا أول حملة تحملونها علينا ، ونحن ننهزم بالناس ثم نرجع عليهم (على الناصر وجيشه) · فان ملكنا رقابهم ، كان لنا من الغنيمة الثلث ، ولكم الثلثان · » وقال الشيخان رضينا !)

كان ذلك هو الطرف الاول فى المؤامرة ، واما الطرف الآخر ، فقد تم بين تميم وعناصر زناتة الموالية للناصر بن علناس والتى كان يتزعمها المعز بن عطية بن زيرى · وقد ارسل المعز رســـالة الى رجاله شرح لهم نفس الخطة وكلفهم بالقيام بنفس الدور ، فوعدوه أن ينهزموا فى الوقت الملائم حينما يلتحم القتال وتشتد المعركة ·

ولما خرج الناصر بن علناس على رأس جيش متجها الى افريقية فى سنة 457 ، كان من بين رجـــاله المقربين الذين ساروا فى ركبه ، المعـــز بن عطية ، رئيس زناتة وشيـــوخ بنى هلال · وعندما وصلوا الى سبيبة (9) ، لقيتهم رياح وزغبة وسليم (10) ، والتحمت المعركة : حملت رياح على بنى هلال ، فانهزموا ، كما وقع الاتفاق ، ثـم هاجموا جيش الناصر غدرا · وكذلك فعلـــت زناتة ·وكانت هزيمة الناصر منكرة ، بحيث لم يسلم الا فى عشر من الفرسان ، ونجا بفضل تدخـل أخيه القاسم الذى أخذ العلم منه وتتبعه العدو معتقدا انه الناصر ، فقتله · وبذلك ، فداه بنفسه ·

ويروى ابن الاثير والنويرى أن القتلى من صنهاجة وزناتة فى هذه المعركة بلغ عددهم اربعـة وعشرين الفـــا (10) ·

وقد غنمت العرب جميع ما كان فى معسكـر الناصر من مال وسلاح وادوات واقتسموا ذلك بينهم طبقا للخطة المرسومة · واما الطبول والبوقات والرايات ، فحملوها الى تميم لتكون حصته الرمزية فى اسلاب ابن عمه (11) ·

ولكن بقية من عزة النفس ، حملت الاخير على ردها اليهم معتذرا ، وفى نفســه ما فيها من الحزن ، لنتيجة هذه المعركة ، التى كان هو المدبر الاول لخططها ·

كانت نتيجة معركة سبيبه وبالا على افريقية والمغرب الاوسط من عدة وجوه · كانت شرا لان أسرة بنى زيـــرى قد انقسمت على نفسها واستنزفت قوتها فى عراك دمـوى داخلى لم يكن له سبب سوى الاحقاد والضغائن الشخصية فعرضت بذلك ما بقى من افريقية ، كما عرضت مملكة

القلعة للضربات القاصمة والاخيرة التى سيسددها العربان لحضارة بنى زيرى ، فى الوقت الذى شجعت فيه النورماندين فى صقلية لاعداد العدة للاجهاز على المهدية ·

وكانت نتيجة سبيبة وبالا على الناصر بن علناس بصفة خاصة ، لانها جردته من القوة التى ورث جزءا منها عن سلفه ، بلكين ، وبنا هو بنفسه الجزء الآخر بكثير من المشقة والتضحية · وها هو الآن مضطر لان يسلم مدن التل ، بل والقلعة نفسها ، لعبث العربان ويضع نفسه تحت رحمة غرائزهم المخربة ·

ومن ذا الذى يستطيع ان يتكهن بمصير ملك الناصر واحفاده ، لو لم تقع معركة سبيبة ؟ من الذى يستطيع ان يحسب حساب النتائج الايجابية التى سيجنيها من استمراره على سياسته البعيدة النظر التى تقوم على مجاملة المهدية ومهادنة العربان وتدعيم القواعد التى تدين له بالولاء ، مثل تونس وصفاقس ؟

أغلب الظن أن نتيجة ذلك ستكون انتشار سلطان الناصر على افريقية والسيطرة على تيارات العربان التى اخذت تفقد كثيرا من شوكتها باتصالها بالمراكز الحضارية من جهة ، وبانقسامها على نفسها ، من جهة اخرى · وبذلك تزداد قوة الناصر ويضمن احفاده اساسا لمقاومة فعالة لنفوذ الموحدين من الغرب ولهجمات النورمانديين من الشمال ·

وايا ما كان الامر ، فقد اتجه الناصر بعد معركة سبيبة التى تقرر فيها مصير افريقية والمغرب الاوسط ، الى قسنطينة ثم الى القلعة التى ضربت عليها قبيلة بنى رياح التى كانت تلاحقه حصارا محكما ، ثم اخذوا يخربون بواديها ، واستولوا على طبنة والمسيلة ، فهد موهما ، وعطفوا على غيرهما من المنازل والقرى والضياع والمدن « فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير ، وغوروا المياه واحتطبوا الشجر واظهروا فى الارض الفساد » (12) ·

وبعد ما استقر الغبار فى سبيبة ، وأخذ كل من الطرفين يراجع قراراته ويحاسب نفسه على اخطائه ، ظهرت بوادر تدل على جنوح كل منهما الى المهادنة والمسالمة · وبعدما بلغ الناصر حزن ابن عمه وأسفه لانتصار العرب ، كلف وزيره أبا بكر باستخدام علاقاته الشخصية ببلاط المهدية بقصد اعداد جو ملائم لاستئناف العلاقات الديبلوماسية ولاجراء مفاوضات الصلح مع تميم ابن المعز · فارسل ابو بكر بن الفتوح من عنده رسولا الى تميم يعتذر ويرغب فى اصلاح ذات البين · وكما نتوقع ، فقد وجد هذا المسعى صدى فى نفس صاحب المهدية ، واستشار أصحابه فى اختيار سفير يمثله ، فاتفقوا على أن محمد بن البعبع الذى كان يتمتع بحظوة كبيرة لدى تميم ، هو أصلح من يقوم لهذه المهمة (13) ·

وكذلك وجه تميم بن البعبع الى بلاط القلعة مزودا بتعليمات منه لاستعادة العلاقات مـــع ابن عمه الى مجراها العادى ٠

ولما وصل ابن البعبع الى قرية صيادى السمك الصغيرة (بجاية) تامل موقعها وادرك على الفور الاهمية التى يكتسبها وفكر فى انه يصلـح لاقامة مدينة ومرسى ودار لصناعة السفن ٠

ومضى ابن البعبع حتى وصل الى القلعة وادخل على الناصر الذى كان معه وزيره ابو بكـر ، فسلمه رسالة تميم ثم قال له : لى وصية اليك واحب ان تخلى المجلس (وكان يعـــرف ميول ابى الفتوح نحو تميم) ٠ فقال له الناصر : انا لا اخفى على وزيرى شيئا ٠ فقال ابن البعبــع : بهذا امرنى الامير فقام الوزير وانصرف ٠ ولما خرج ، قال سفير المهدية للناصر : ان وزير مخامر عليك مع تميم وهو لا يخفى عنه من امورك شيئا ٠ وتميم مشغول مع عبيده النصارى وقد طرح صنهاجة وتلكاتة وجميع القبائل ٠ فو الله لو وصلت بعسكر الى المهدية لما بت الا فيها ٠ وانا اشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها من بلاد افريقية ٠ ثـم اشار عليه ببناء بجاية واتخاذها عاصمة لملكه ٠ ومضى ، فعرض عليه ان ينتقل اليه باهله ويدير دولتـــه (I4) ٠

وعلى الرغم من ان الاتجاه الذى ينصح بـه بن البعبع والذى لم تكن خطورته لتخفى على الناصر ، يتناقض مع مهمته الاساسية ومع نيـات العاملين الصنها جيين فى احلال الوئام محل الخصام ، فقد اصغى اليه الملك الحمادى ، واصطحب معه سفير المهدية الى موقع بجاية ، حيث رسم له ابن البعبع موقع المدينة والميناء ومكان القصر ، وغير ذلك من المرافق ، وسر الناصر بهذه البادرة وشكر صاحبها وامر بالبدء فورا فى بناء المدينـــة ٠

ولكن اخبار الشروع فى بناء عاصمة جديدة لبنى حماد وقت وجود سفيره فى بلاط الناصر ، اثار شكوك تميم فى نيات الناصر الذى يتهمه بانه يريد منافسة المهدية واسطولها ، وفى رسوله الذى يتوجس ان يكون له ضلع فى القضية ٠ ولكن الرسول انكر لما سئل لدىعودته الى المهدية ، ان يكون له علم بهذه التطورات ٠ وتطبيقا لخطته ، كتب ابن البعبع الى الناصر بقلق تميم لبناء بجاية وبمضمون الحديث الذى جرى بينه وبين الامير بهذا الشان ٠

وبعد ما قرا الناصر رسالة ابن البعبع ، اوقف عليها وزيره ابا بكر الذى اظهـر استحسانه لسلوك ابن البعبع واثنى عليه ، ولكنه مع ذلك مضى الى داره وكتب نسخـةطبق الاصل من كتاب الرسول وحفظها ، ثم بعث بنص رسالة ابن البعبـــع ، وهى بخطه ، الى تميم ومعها رسالة منه يشرح له فيها تطور الامور من البداية الى النهاية٠

ولما وصل كتاب أبى بكر الى تميم ، وجد فيه ما يلقى ضوءا ساطعا على نشاط سفيره ، فوضع منزله تحت حراسة مشـــددة ٠

وذات يوم استدعاه لاستجوا به فى الامر بمحضر بعض اصـــدقاء السفير ، ومن بينهـــم الشريف الفهرى ٠ ولما وصل ابن البعبع الى بـــاب القصر ، لقيه رجل يحمل اليه كتابا من الناصر يامره فيه بالحضور عنده ٠ وبينما كان يأخذ الكتاب ، خرج تميم بن المعز ٠ ولما رءاه ابن البعبع اضطرب وسقط الكتاب من يده ، واذا بعنوانه : من الناصر بن علناس الى خليله فـــلان ٠

قال تميم : من أين هذه الكتب ؟ ولكن الرسول التزم الصمت ، فاخذها تميم وقراها ٠ وقال له ابن البعبع العفو يا مولانا ! فقال تميم : لا عفا الله عنك ٠ وأمر به فقتل واغرقت جثته ٠

واثر هذه الحوادث ، كان من الطبيعى ان تاخذ العلاقات بين القلعة والمهدية اتجاها غيـــر الاتجاه الذى خطط لها ٠ وبدلا من الوئام والصلح ، عاد الطرفان الى سابق عهدهما وسادت بينهما من جديد روح المنافسة والتشكك واخذ كل منهما فى اعداد العدة للهجـــوم أو للدفاع ٠ وكذلك استعاد تميم الى حكمه تونس والقيروان وطرد منهما ولاة الناصر ، ابن خراسان وابن ميمون على التوالى ، فى سنة 458 ٠

وبعد ذلك بسنتين ، وكانت آثار سيبية على قوة الناصر قدزالت الان جزئيا ، كر الناصر بن علناس على الاربس واستعادها ، ثم استولى من جديد على مدينة القيروان ٠

ولكنه فى السنة التالية ، عاد الملك الحمادى الى القلعة خوفا من جموع العـــرب الذين اشتدت شوكتهم ، كما يقول ابن عذارى (15) ٠

وهكذا استمرت العـــلاقات بين بيلاطى صنهاجة تتارجح بين المد والجزر سنوات اخرى ، حتى حلت سنة 467 ، حينما وقعت معركة دموية بين رياح وزغبة ، انتهت بانتصار بنى رياح على ابناء عمو متهم وطردهم من افريقية الى المغرب الاوسط ٠ وحينئذ وجد تميم نفسه محروما حتى من المساعدة السلبية التى كان يلقاها من تطاحن العربان الغزاة ، وأصبح الآن وجها لوجه أمام قبيلة بنى رياح المنتشية بانتصاراتها ٠

ومن جهته ، وجد الناصر نفسه أمام تضخم سيل هؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم بمقدم زغبة التى سرعان ما اصبحت سهول بونة موبوءة بهم ، بينما كان بنو عمومتهم ، معقل ، يتوغلون تدريجيا من أطراف الصحراء الجنوبية الشرقية فى اتجاه تيطرى ٠

وكذلك وجد تميم بن المعز والناصر بن علناس فى نهاية الامر ، وبعد مضى ست عشرة سنة من تسلم كل منهما مقاليد الحكم فى دولته ، أن الوقت قد حان لدفن خصومة شقى أسرة بنى زيرى

ومنافستهما التى كانت مصدر ضعف لكلتا الدولتين وعجز عن مقاومــة العربان الذين يتربصون الدوائـر بينهما ·

وفى سنة 470 ، توصل الفريقان الى اتفـاق لا نعرف مضمونه ولكنــه اعاد العلاقات بين الملكين الى مجراها الطبيعى · وقد تعزز هذا الاتفاق ، بتزويج تميم الناصر بابنته بلاره التى زفها ومعها هدية قيمتها 30،000 دينار من الذهب ، وفى رفقتها قوة عسكرية شرفية وعدد كبير مــن الحيوانات النادرة ·

وقد ابى الناصر بن علناس ، من جانبه ، الا يكون أقل اسرافا وبذخا من ابن عمه ، فبعث اليه بمبلغ 30،000 الف دينار (صداقا) ·

ولكن تميم اقتصر على تناول دينار رمزى واحد واعاد الباقى الى الناصر · وقد نجـح هذا الزواج نجاحا نادر المثال ، وبلغ من حب الناصر لبلارة انه بنى لها قصرا فى القلعة وقصرا آخر فى بجاية وسما كلا القصرين باسم هذه الاميرة الساحرة · وقد ولدت بلارة للناصر عدة اولاد ، وفى مقدمتهم المنصور الذى سيتربع على عرش بجاية بعد ابيــه ·

مراجــع البحــث :

— ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، تحقيق ونشر G. J. Toremberg ليدن ، 1891 (14 جزءا) ·

— ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر ، طبع بولاق 1807 (7 اجزاء) ·

— ابن الخطيب (لسان الدين) ، اعمال الاعلام ، طبع الدار البيضاء ، 1964 ·

— ابن حوقل ، المسالك والممالك — تحقيق ونشر De Goeje (B. G. A.) T. III ليدن ، 1876 ·

— ابن عذارى ، البيان المغرب فى اخبار المغرب ، طبع بيروت ، 1950 ·

— الاستبصار فى عجائب الامصار ، لمؤلف مغربى مجهــول ، نشــر زعلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، 1958 ·

— ابو عبيد البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق De Slane ، الطبعة الثانية باريس 1965 ·

— النويرى ، نص مقتبس من نهاية الارب ، نشره وحققه مع ترجمة اسبانية:
D. José Diaz - Martin de Cabrera Revista del Centro de Studios Historicos de Grenada y su Reino, 1971, Tomo VII.

— الوطواط (محمد بن ابراهيم بن يحيى) مناهج الفكر ومناهج العبر (مخطوط محفوظ فى مكتبة اكسفورد) تحت رقم 957 ·

— ياقوت الحموى ، معجــم البلدان ، تحقيق Wuctenfeld ليبزيغ ، 1866 ·

هـــوامــش :

1) قارن اعمال الاعلام ، ص 88 ، والعبر 6 / 172 – 173 .

2) كان بنو والمانو من اشد بطون زناتة شوكة ، وكانوا يحتلون الاراضى التى تمتد بين اسفل الشلف حتى قرب وهران . راجع بشان هذه المصاهرة ، العبر ، 6 / 174 .

3) اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا بشأن تحديد تاريخ خلع المعز طاعة الفاطميين . فقد ذكر ابن الاثير وابن خلكان ان المقاطعة وقعت فى سنة435 هـ ، بينما يحدد ابن خلدون تاريخ هذا الحادث فى سنة 437 . وأما صاحب النجوم الزاهرة ، فيذكـــر القطيعة دون تحديد تاريخ وقوعها . ولكن رواية ابن عذارى (1 / 397 و 399 و 343) تلقى بعض الضوء على تطورات القضية . فقد اعلن المعز ، حسب رواية هذا المؤلف ، طاعة العباسيين فى سنة 433 (وفى رواية النويرى سنة 435) ولكنه لم يأمر بقطع الخطبة للعبيديين ولعنهم على المنابر ، الا فى سنة 440 . وبعبارة اخرى ، فقد ظل الموقف مائعا قرابة سبع سنوات دون أن يصدر رد فعل عن الفاطميين ضد هذا التحول ، اذ كانوا يرون ، بدون شك ، فى احتفاظ الزيريين باعلامهم واستمرار الدعوة لهم على المنابر وضعا يحفظ المظاهر ، على الاقل . ولكن قرار المعز باحراق بنودهم ولعنهم فى خطبة الجمعة وتبديـل عملتهم بالدينار المسمى «التجارى» ، كان موقفا لارجعة منه ولذلك قرر سادة القاهرة ان الوقت قد حان لتسديد الضربة القاصمة .

4) البيان 1 / 321 . راجع فى الصفحة التالية من نفس المصدر بشأن بعض اعمال الوحشية التى كان يرتكبها العربان ، نقلا عن شاهد عيان .

5) قارن الكامل ، 10 / 30 والنويرى ، ص 336 .

6) يجدر بنا ان نذكر فى هذا السياق ان أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذى سيحل محـــل الناصر بن علناس فى زعامة المغرب ، لم يبايع بالملك ، الا فى سنة 462 هـ . اثر وفاة أبى بكر بن عمر بالصحـــراء .

7) هى اثبج وبنو عدى . واما القبائل المحالفة لتميم ، فقد كانت رياح وزغبة وسليم .

8) راجع النويرى ، ص 236 قارن الكامل ، 10 / 31 .

9) فى الكامل ، غلطا : سبته · وسبيبه ، من اعمال القيروان ، مدينة قديمة اشتهرت بكثرة المياه والبساتين وبجودة الزعفران فى ارضها · ولكنها اشتهرت خصوصا بزراعة الكتان · وهى غير سبيبة التى ذكرها ذو الرمة فى قوله

نظـــرت بجـــرعاء السبيبة نظـــرة ضحى وسواد العين فى الماء غامس

والى سبيبة القيروان ، ينتمى ابو عبد الله محمد بن ابراهيم السبيبى الفقيه والخطيب (قارن الكامل 10 / 31 ، والبكرى ، ص 146 ، وابن حوقل ، ص58 ، ومعجم البلدان ، 3 / 186 وانظـر الاقتباس الذى اورده FAGNAN من مناهج الفكر للوطواط ، فى EXTRAITS INEDITS

10) قارن الكامل 10 / 31 ، والنويرى ، ص 237 ، والبيان 1 / 429 ، والعبر 6 / 173 ·

11) وقع مؤلف كتاب الاستبصار فى اضطراب كبير فى روايته لمعركة سبيبة ، اذ يقول « ان صاحب القلعة ، المنصور (كذا) بن حماد كان اشد شوكة من صاحب القيروان واكثر جيشا ، فخرج لنصرة ابن عمه وجيش جيشا كبيرا فلقيته العرب بفحص سبيبة ، فكان يوما عظيما حتى هـــــزم المنصور وقتل اخوه واكثر صنهاجة » الاستبصار ، ص 129 ·

12) العبر ، 6 / 219 ـ 220 ·

13) قارن النويرى ، ص 339 والكامل 1 / 31 ، والعبر 6 / 173 ·

14) تعتبر رواية ابن الاثير عن سفارة ابن البعبع أوفى وأدق من غيرها (راجع تفاصيلها فى الكامل ، 10 / 32 ـ 33) · وهى تتفق فى خطوطها الرئيسية مع رواية ياقوت الحموى (راجع معجم البلدان ، 1 / 495) ، ومع رواية النويرى (ص 338 ـ 339) ·

15) البيان ، 1 / 339 ·

لمحة عن

زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية

580 هـ 1184 م

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائري

انبثق ملك دولة المرابطين من اعماق الصحراء الكبرى ، وهم من قبيلة « لمتونة » المتفرعة عن القبيلة العتيدة (صنهاجة) التى كان منها ملوك دولة بنى زيرى التى خلفت الدولة الفاطمية بالقيروان والمهدية ، ونفحت القطر الجزائرى والاندلسى بشجعانها البواسل وابطالها الميامين هم ملوك القلعة وبجاية وغرناطة ومالقة من بنى حماد ، وكانت الرئاسة فى عصر المرابطين (462 ـ 541 هـ / 1070 ـ 1147 م) لقبيلة لمتونة كبرى قبائل الملثمين بالصحراء الكبرى ، ولهذا يسمى بعض المؤرخين دولة المرابطين بالملثمين .

وهم كما قال ابن حوقل : اهل باس ومفخرة مفطورون على الفروسية سريعون الى اختراط السيوف وخوض غمار الحرب ... وفيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم ، وفيهم البسالة والجراة والفروسية على الابل ، ولم ير لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يلثمون وهم اطفال وينشاون على ذلك ، ومن اجل ذلك يسميهم كثير من المؤرخين بالملثمين ، اما تسميتهم بالمرابطين فذلك ان شيخهم عبد الله بن ياسين سماهم بذلك ليكونوا مؤمنين مجاهدين مستعدين للحرب والجهاد فى كل وقت اشارة لقوله تعالى : « يايها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

انتشر ملك هذه الدولة من المحيط الاطلنطي باقصى المغرب الى حدود مدينة الجزائر ، بل والى مدينة بجاية شرقا والى حدود بلاد النيجر جنوبا ، ثم مد عامل هذه الدولة الاكبر مؤسس مدينة مراكش يوسف بن تاشفين (410 ـ 500 هـ / 1019 ـ 1106 م) بصره الى ما وراء هذا البحر الابيض المتوسط فاستولى على البلاد الاندلسية ايام ملوك الطوائف وكانت حينئذ تلك الوقعة الشهيرة موقعة (الزلاقة) الذائعة الصيت (479 هـ / 1086 م) انتصر فيها ابن تاشفين تلك الانتصار العظيم الذى كان سببا فى تكوين امبراطورية المرابطين التى شملت مراكز الحضارة بالمغرب والاندلس .

وكان علي بن يحيى المسوفي ـ نسبة الى مسوفة ـ وهى قبيلة من قبائل الملثمين بصحراء التونة ، مقربا لدى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فتزوج امرأة من حضايا القصر تدعى (غانية) انجبت له ولدين هما محمد ويحيى وكلاهما نشأ وتربى فى بلاط المرابطين ، وكان يحيى اول من ولى الاندلس من بنى غانية من طرف المرابطين ، فتولى اولا مدينة بلنسية فى شرق الاندلس ثم قرطبة فى غربه ، وولى اخاه محمدا على بعض أعمالها ، وخاض يحيى معارك مع الافرنج (520 ـ 538 هـ / 1126 ـ 1143 م) دحر فيها جيش الانفونش ملك ارغـون (528 هـ / 1133 م) وأصلح الله على يديه ـ كما يقول المراكشي ـ كثيرا من جزيرة الاندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم ، وظل على ولائه للمرابطين ايام ظهور الموحدين (524 ـ 668 هـ 1130 ـ 1269 م) ثم بعد وفاته (543 هـ / 1148 م) انصرف اخوه محمد بتعيين من امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الى ولاية جزيرة (ميورقة) احدى الجزر الشرقية المعروفة فى كتب الجغرافيا باسم (جزائر الباليار) .

وقد دخلت تحت حكم المرابطين منذ سنة 509 هـ / 1115 م فنزل بها محمد بن علي بن يحي المسوفى واخذ معه اهل بيته واولاده وحشمه ، ثم استولى على الجزيرتين حولها (منورقة ويابسة) وأنشأ بها امارة مستقلة وجعل الدعاء فيها لبنى العباس كما كان يفعل المرابطون واشتهر بلقبه (بالميورقى) ، ومن تلك التاريخ وبنو غانية يتوارثون امارة الجزائر الشرقية (الباليار) الى آخر القرن السادس الهجرى (12 م) حين قضى عليهم الموحدون .

وكان الموحدون لما تم لهم الاستيلاء على هذا الشمال الافريقى واحتلوا معه الاندلس تركوا جزائر الباليار لبنى غانية ـ حلفاء خصومهم المرابطين ـ لغاية انهم كانوا يريدون ان يجعلوا منهم انصارا لهم فى عرض هذا البحر الابيض المتوسط ، فكانوا ينتظرون منهم ان يدخلوا فى طاعتهم من دون قتال ، ولكن الامر كان بعكس ذلك ، فان بنى غانية ثبتوا على مبداهم وحافظوا على ولائهم ووفائهم للمرابطين ، وظلوا يتربصون الفرصة لاعادة مجد المرابطين .

ولما توفى محمد الميورقى (546 هـ /1151 م) تولى بعده ولده اسحاق امارة الجزائر الشرقية ـ الباليار ـ وجرى فيها على طريقة الملوك ، فانشأ جيشا واسطولا لغزو الروم ودفع غزاتهم ، وكانت له فى كل سنة رحلتان الى ديارهم يغنم ويسبى ويعود ظافرا ، وبالغ فى مجاملة الموحدين بنى عبد المؤمن فكان يهاديهم ببعض ما يغنم ليشغلهم عنه ، فكانوا يقبلون منه ذلك ولكنهم كانوا لا يفترون عن دعوته الى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ، وتارة نراهم يتوعدونه على ترك ذلك ، فكان يعدهم ولا يفعل الى ان استشهد فى بلاد الروم سنة 579 هـ / 1183 م ، وتولى بعده ابنه محمد فبعث بطاعته لخليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن فقبل منه ذلك وبعث اليه قائده على بن الروبرتير ليختبر امره ويتاكد من بيعته ، وكان لمحمد هذا عدة اخوة يساهمونه فى الرئاسة فلما انتهى اليهم خبر البيعة وعلموا بالامر الذى قدم من اجله قائد الخليفة انكسروا عن اخيهم لانه لم يكن اعلمهم او اخبرهم بمكاتبة خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن فعملوا على القاء القبض على اخيهم محمد ومعه قائد الموحدين علي بن الروبرتير ، وقدموا لرئاسة جزائر الباليار اخاهم علي بن اسحاق وهو صاحب هذا الزحف على بجاية ـ بل وعلى المغرب العربى كله ـ كما سنوجزه فى هذه الصفحات من مجلة الاصالة الغراء ، وفى ذلك نجد الغبرينى يقول :

« وكان اسحاق ابن غانية بجزيرة ميورقة وهو بقية اللمتونيين فوجه له من مراكش من قبل خليفتها من يطلبه بالبيعة والدخول تحت الطاعة فامتنع من ذلك ، وكان بين يديه ولداه علي ويحيى ، فقال للرسول : انا لا اراهم ولا يروننى وهو يعنى الموحدين ـ ولكن قل للموحدين يهيئون ما ينفقون على رأس هذين ، واشار الى رأس ولديه ، فانفصل الرسول عنه وتجهز الولدان بعد كبرهما فى طرائد فيها بعض الفرسان وصلا الى شاطىء بجاية بمحل بيع السبى منها ـ اى بحومة المنبج من جهة ربضها ـ وكانت البلدة شاغرة من الجيش ، فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لاجل السبى ، فنزلت الخيل معدة ، ولما وصلت له مستعدة ، والناس ما عندهم من شانهم خبر ، فطلعوا على جبل الخليفة ودخلوا من « باب اللوز » الى قصبة البلد وتملكوا البلد ، ولم يكن فوق باب اللوز سور فى ذلك الزمان وطالبوا الناس بالبيعة فبايعوهم .

...ثم ان الموحدين تجهزوا برا وبحرا من فورهم ليستاصلوا من البغاة شافة امرهم ، فانفصل على بن غانية عن الحال وتبع الموحدون الناس بما ظهر منهم من مقال أو فعال ... » .

وكان الذى جرأ على بن غانية هذا على هذا الزحف الذى اشار اليه الغبرينى وتكلم عنه المؤرخون مثل المراكشى عبد الواحد وابن خلدون وابن الاثير هو ما كان يتوقعه عندما سقط خليفة الموحدين ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى وقعة (شنترين) غربى جزيرة الاندلس متاثرا بجراحه فمات (580 هـ / 1184 م) واخذ الموحدون حينئذ فى اخذ البيعة لابنه يعقوب ، فتوقع فيمن

كان معه نشوب الخلاف بين ابناء عبد المؤمن لكثرتهم ، ولعلـــه تصور ايضا انـــه قد يوجد فى المصامدة وهم قبيل المهدى بن تومرت من يدعو الى نفســه ؟ وذلك بالاضافة الى ما كانت تنطوى عليه احناء صدر الميورقى من حب الانتقام من هؤلاء الذين قضوا على دولتهم دولة المرابطين مـــن لمتونة التى هى قبيلته وفيها اقاربه ، ولكنه راى أنه لا قبل له بالمقاومة بارض الاندلس لضيق المجال هناك وعـدم وجود العدة والعدد فاختار الانتقال الى المغرب لعله يجد به من الاعـراب والبربر الموالين للمرابطين والناقمين على الموحدين من يساعده على الانتصار على اعدائه ، ولربما انـه لاحظ كذلك جانب العقيدة فيما جاء به الموحدون من عقائد الشيعة فيما يتصل بنظرية الامام المهدى والمهدوية ومباحث الاشاعرة فيما يتعلق باصـول الدين مما يخالف ما كان عليه اهل المغـــرب من بساطة العقيدة على عهد المرابطين ، ولا سيما انـه وجد الى ذلك ببجاية يومئذ من اعيانها مـــن دعاة الى تملكها والاستيلاء عليها ، وقد وقعت بيد الموحدين منذ سنة 546 هـ / 1152 م ، كـل ذلك نراه صالحا لان يكون سببا مباشرا وعاملا مشجعا للميورقى على هذا الزحف والمخاطرة بنفسه وباتباعه فى قدومه الى المغـــرب .

وفعلا نشط الميورقى للعمل على تقويض مملكة الموحدين بالاندلس وبالمغرب ثم اجمع امـــره واعتزم على شن غارته على المغرب اولا فنظم اسطولا يحتوى على 32 قطعة حربية وعدها ابن الاثير عشرين ؟ وملأها بجيش يبلغ عدده 4000 مشاة ، و 300 فارس ، وفى الكامل لابن الاثير قال نحـو مائتى فارس ؟ ... وما كاد يحل يوم الاثنين لست خلون من شعبان سنـــة 580 هـ / 12 نـوفمبر 1184 م حتى كانت جيوش ابن غانية بساحل بجاية ، واخذت تنزل بنا حية المذبح فى مكان بيـــع السبى من المدينة ، فقاتله بعض اهلها فتغلب الميورقى عليهم واحتل جبل الخليفة ودخلت جيوشـــه المدينة من (باب اللوز) ولم يكن اذ ذلك مســورا ، وبما ان والى المدينة ابو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن كان متغيبا فى جيشه عن المدينة ذاهبا فى طريقه نحو المغرب الاقصى مغفـلا لشان المدينة حيث تركها رهـن الطوارق ، فانتهزها الميورقى فرصة وتقدم الى القصبة فاحتلها من غير قتال وركز علمه الاسود بها ــ وهو شعار العباسيين ــ ثم يمم المســجد الجامع والناس فى صلاة الجمعة فاحاطهم بجنوده ، وما راع اهل بجاية الا ونطاق الحصار مضروب عليهم من كـل جانب ، فارغموا عندئذ على مبايعة ابن غانية الميورقى باسم الخلافة العباسية فكان من بايعه خلى سبيله ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه وكان فيمن امتنـــع عن البيعة قاضى بجايــــة العـلامة الامــــام ابــــو علي حسى المسيلى فاكرهوه عليها ، فقال لا نبايع من لا نعرف هل هو رجـــل أو امرأة معرضا بزي الميورقى الذى كان سائرا على عادة اسلافه اللمتونيين من استعمال اللثام بحيث لا يبدون وجوههم لاحد وحينئذ كشف الميورقى عنوجهـه قال صاحب العنوان : وهذا هو منتهى ما بلغ توقفه ، وهو أمر كبير عند مطالبته بالبيعة لولا علو منصب الفقيه أبى على رضى الله عنه

ما ساعده ، وتلقب الميورقى بامير المسلمين وهـو لقب المرابطين وقد زالت دولتهم ، ووافقه على ذلك بقايا دولة بنى حماد المنحرفون عن دعوة الموحدين وتاسست يومئذ امارة افريقية مستقلة ٠

ولقد كانت هذه المباغتة الحربية فيما يستقبل سببا فى غلــق الناس لابــواب المدينة عند انقطاعهم لتادية صلاة الجمعة فى المساجد وبقيت فيهم سنة متبعة ٠

وصادف يومئذ ان كان والى القلعة موجودا بمتيجة فلما بلغه الخبر اسرع لمظاهرة والـى بجاية وكانت هناك حرب وقتال شاركت فيه نحـو الالف من سكان قبائل تلك الجهـات واعرابها المنضمة الى ابن غانية فانتصر فيها على الموحدين واخذت جنوده فى الانتشار على مدن المغـــرب الاوسط فاحتلوا مدينة الجزائر ومليانة ونـواحى مازونة وتلمسان ووهران والقلعة الحمادية كما توجهوا الى ولاية قسنطينة فاحتلوها ما عدا مدينة قسنطينة فانهم لم يقووا على فتحها ٠

وكان فيمن استعان بهم ابن غانية فى حملته هذه وتماديه على الغزو واستمراره فى تتبــع اثر الموحدين بهاء الدين قراقوش الغزى الذى كان متوليا على طرابلس الغرب وهو احـد موالى السلطان صلاح الدين الايوبى فاستعان به ثم انقلب عليه واخذ منه طرابلس نفسها واستولى عـلى بلاد الجريد وصفاقس والقيروان والمهدية وجـزء من ولاية قسنطينة ٠

ثم وقع زحف خليفة الموحدين يعقوب المنصور على المغرب الاوسط فجاءه فى عشـرين الف فارس يسايره اسطوله البحرى الذى كان يقل معه عددا عظيما من الجند وكانت هناك معارك طاحنة ووقائع دامية انتصر فيها المنصور وفر علي بن غانية الى الصحراء فلم يدر مكانه حتى وجد ميتا بخيمة عجوز اعرابية كانت تسكن بنواحى توزر من بلاد الجريد التونسية (585 هـ / 1189 م) ٠

ثم بعد ذهاب على بن غانية ظهر فى الميدان اخوه يحيى (597 هـ / 1200 م) بمظهر القوة والباس ، وشايعه فى ثورته هذه طوائف من اعراب بنى هلال وسليم ، اذ كانوا يرون فيه انه من بيت ملك ورئاسة سابقة فانقادوا اليه ، فزحف بهم على القطر الجزائرى مرة اخرى ، وقاومه هذه المرة ابو الحسن والى بجاية وكان اللقاء بينهما بنواحى قسنطينة انهزم فيها جيش الموحدين ، ثـم تقدم يحيى الى ارجاء الصحراء فاحتل مدينة بسكرة ونكل بأهلها وسجن عاملها ابا الحسن بن ابي يعلى ، واستولى على تبسة وبونة ــ عنابة ــ وقفصة وبلغ الى تونس فاحتلها بعد اربعة اشهر من حصارها ثم عاد الى قسنطينة فاجلاه عنها الموحدون فارتحل الى بجايــة (599 هـ / 1202 م) وبسط عليها نفوذه نحو سنتين ، ويومئذ اخذ الموحدون فى شـــن غاراتهم على جـــزائر الباليار فاحتلوها وقتلوا صاحبها عبد الله بن اسحاق بن غانية وقضوا بذلك على ملك بنى غانيـــة بتلك الجزر ، واستمر الكفاح بأرض الجزائر ضـــد الثائرين المايورقيين حتى استرد الموحدون مدينة

بجاية من يحيى فنزل بها الخليفة الناصر الموحدى سنة 601 هـ / 1204 م والحقها بولايـــة تونس ونصب على هذه الولاية ابا محمد عبد الواحد بـن ابى حفص جد الاسرة الحفصية المتملكة بعد ذلك بتـــونس .

وحينئذ اختفى يحيى بن غانية ريثما استعاد بعض قوته فاعترض الخليفة الناصر بسهل شلف وهو فى طريقه الى المغرب الاقصى فكانت بينهما مقتلة عظيمـة (604 هـ / 1207 م) بتلك النواحى انهزم فيها يحيى شر هزيمة وفتر بعدها ذكر ابـن غانية ردحا من الزمن ثم ظهر امـــره بنواحى تيهرت حيث نزل بها واحتلها وقضى على حامية الموحدين بها وقتل عاملها يومئذ ابا عمر ابن موسى بن محمد حفيد عبد المؤمن (606 هـ / 1209 م) فكان ذلك آخر العهد بعمران تيهرت القديمة .

ثم تصدى بعدها عامل افريقية الحفصى لقتال ابن غانيـــة فقضى على شـــوكته (618 هـ 1221 م) وبقى فى اثره حتى ادركه بارض الزاب الجزائرى فاجـلاه عنه (622 هـ / 1225 م) فخرج يحيى فى فلوله متوجها نحو مدينة الجزائر فلقيه بمتيجة منديل بن عبد الرحمن المغراوى وكان فى اخضاع اهالى لمدية وونشريس فاقتتل هناك الجمعان وقتل منديل فحملت جثته الى الجـــــزائر ونصبهـــا يحيى المايورقى على بـــاب المدينـــة وبقي يحيى يعمل على اثـــارة الفتـن بارض الجزائر ودخل بجاية ودلس مرة اخرى واخذ يتقلب فى البلاد هنا وهناك الى ان تجرد لقتاله ابو زكرياء الحفصى فاصلت عليه السيف ولاحقه حيث ما حـــل وارتحل فتشرد ابن غانية فى اقطار المغرب الاوسط ودخل مدينة واركلة وتسرب منها الى ارض الـزاب واستمر على تشرده الى ان ادركه حمامه بوادى شلف وقيل بارض الزاب سنة 631 هـ / 1233 م وقيل بعد ذلك بسنتين ؟ ... وبموته كان انقراض ملك لمتونة من الوجود وذهب ذكر بنى غانية فى الذاهبين .

والخلاصة ان النصر فى هذه الحرب كاد ان يكون فى جانب بنى غانيـــة لولا ان الموحدين كانوا قد احكموا خطط حربهم ضد هؤلاء المايورقيين وعرفوا كيف يسوسون رعاياهم بالحسنى حتى تمكنوا من ناصية القبائل المنشقة عنهم وعادت اعقاب الثورة كلها بالوبال والخسران عـــلى مثيريها من بنى غانية بل لم يكن فيها لاحد من الطرفين اى مصلحة فكثر فيها القتل وانتشر فيها الفساد والنهب والحقت بالناس اضرارا كثيرة فقطعت الاشجار وهتكت الاعراض وخربت الحصون والمدن والقرى ، وفيها كان خراب تيهرت ، ومتيجة ونواحى شلف والقلعة وحمزة ومرسى الدجاج وأرشقول بسيف هذا البحر وغيرها من المدن الجزائرية والتونسية ... وعمت الثورة كامل ارض المغرب الاسلامى بما فيه من البلاد الطرابلسية الليبية ، ولكنها كانت كلها أولا وبالذات وبالاعلى صاحبها باضمحلال امارة بنى غانية بجزر الباليار ، ثم انها آلت بالهلاك على اهل المغـرب قاطبة فيما أصيبوا به فى اموالهم وانفسهم من العيث والفساد وعلى دولة الموحدين نفسها فانها خسـرت

وحدتها السياسية باضمحلال سلطتها الزمنية فى كلا القطرين : الجزائرى والتونسى ، فالاول كان من حظ الزيانيين (633 ــ 962 هـ / 1235 ــ 1554 م) والثانى كان من حظ الحفصيين (627 ــ 943 هـ 1229 ــ 1536 م) ثم اخذ شان الموحدين يتدهور منذ واقعـــة العقاب الشهيرة بالاندلس (609 هـ 1212 م) وهكذا الى ان سقطت دولتهم بيد المرينيين سنة 668 هـ / 1269 م « وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

مصـــادر البحــث :

المعجب لعبد الواحد المراكشى طبع ليـــدن 1881 م

تاريخ ابن خلدون ج 6 طبع بـــولاق 1284 هـ

عنوان الدراية لاحمد الغبرينى طبع الجزائر 1910 م

المسالك لابن حوقل ــ المكتبة الجغرافية ــ طبـــع ليدن 1938 م

الكامـــل لابن الاثيرج 11 ــ 12 طبع بيروت 1966 م

وفيات الاعيان لابن خلكان ج 2 طبع بولاق 1299 هـ

الاستقصا لاحمد الناصرى ج 2 طبع الدار البيضاء 1954 م

الاعلام لخير الدين الزركلى الطبعة الثانية، القاهرة 1954 ــ 59 م

موجز التاريخ العام للجزائر عثمان الكعاك طبع تونس 1944 م

تاريخ الجزائر للميلى ج 2 طبع قسنطينة 1932 م

تاريخ المغرب لمحمد بن عبود ج 1 طبع تطوان 1951 م

تاريخ الجزائر العام عبد الرحمن الجيلالى ج 2 الطبعة الثانية (بيروت) 1965 م .



صحن داخلي بقصر زيـــري (العشـير)

بجاية

هايزيس فون مالتسان
ترجمها باختصار :
د· ابو العيد دودو
كلية الآداب
جامعة الجزائر

لا شك ان بجاية العربية ، التى كانت فى العصور الوسطى تحمل اسم « بوجيا » ، تحتل مكان « صالدى » الرومانية القديمة · فقد توهم الاثريون السابقون ، بناء على تشابه الاسماء ، ان بجاية هى «واغا» او «باغا» القديمة ، وذهب مانير الى انها مدينة «شوبى » التى ورد ذكرها فى خريطة الطرق ، غير ان ليون رينيير قد برهن بواسطة نقشين ، عثر عليهما حديثا وحفظا فى متحف « اللوفر » ، على ان راى شون الذى اكتشف فى بجاية مدينة صالدى القديمة ، هو الصحيح ·

وهناك آثار كثيرة ، تعود الى العصور الغابرة ، تدل على ان جميع الشعوب ، التى تمت لها ، على التوالى ، السيطرة على هذه السواحل ، كانت تعرف اهمية هذا الموقع · فقد بقيت آثار السور الرومانى ، الذى لاتقل دائرته عن سبعة آلاف وخمسمائة ، فى عدة اماكن ·

ومن بين النقوش الرومانية الهامة والجديرة بالاعتبار نقش او فيديوس هو نورا توس ، الذى عثر عليه هنا وحفظ فى متحف الجزائر ، وتتمثل اهميته فى انه يحتوى على تاريخين مختلفين فى آن واحد ، التاريخ الرومانى القنصلى ، الذى سميت فيه السنة باسم القنصل ، والتاريخ الاقليمى الموريتانى · وبفضل هذا التاريخ المزدوج اصبح فى الامكان تحديد سنة 40 بعد ميلاد المسيح على انها بداية التاريخ الموريتانى الذى كانت معرفتنا به ناقصة · وقد عثر هنا بالاضافة الى ذلك على عدد كبير من الطوب المحروق الرومانى والاجر المجوف ·

Tegulae Hamatae وكان الكثير من ذلك ذا نقوش متعددة ، مما جعل لها اهمية ما رغم تفاهتها فى حد ذاتها ٠

وكانت صالدى Saldae قبل العصر الرومانى مستعمرة فينيقية ويشتق غيسنيوس Gesenius فى صرد Sered والكلمة تعنى « الحجر الصلد » وسوف يبدو هذا الاشتقاق معقولا لكل من يعلم ان صالدى كانت فى العصور القديمة تدعى صاردى Sardae هكذا عند Strabon وعلى هذا يكون اسمها مشتقا من نفس الاسم الذى اشتق منه اسم جزيرة سردينيا ، الذى اطلقه عليها الفينيقيون ايضا ٠ ولا تزال كلمة صلد العربية حتى يومنا هذا تعنى « الحجر الصلد » ٠

ويقول بطليموس ان موقع صالدى على بعد خمس دقائق من يوليا القيصرية ٠ واذا قسمنا هذه الدرجة الى نصفين ، حصلنا على فارق الطول الحقيقى بين شرشال Caesarea وبجاية Saldae وجاء فى خريطة الطرق ان المسافة بين بجاية وشرشال هى 218 معلما ، وهذا العدد يناسب تماما 305 كم ، وهى المسافة بين المدينتين على امتداد الساحل ٠

ويطلق بلينيوس Plinius على القرية الرومانية، التى رفعها، فيما ذكر، القيصر اغوسطوس الى مقام مستعمرة ، اسم Colonia julia Augusta Saldautium ويقول سترابو Strabo ان هذه كانت فى العهد الاغوسطى تكون نقطة الحدود بين ولايات ملك موريتانيا يوبا الثانى وبين اقليم نوميديا الرومانى ٠ وفيما عدا هذا فان التاريخ لم يترك لنا كثيرا عن هذه المدينة ٠ ولكن بما ان صالدى كانت تمثل ملتقى لعديد من الطرق الرومانية ، فاننا نستطيع ان نستنتج من ذلك ان هذه المستعمرة الملكية كانت لها فى القديم اهميتها ٠ ومن الطبيعى ان صالدى كانت فى الفترة المسيحية اسقفية ، وكان اسقفها بابكاريوس Paucharius قد شارك فى مؤتمر زعماء الكنيسة الذى انعقد سنة 484 فى مدينة قرطاجنة ٠

ولا بد أن تكون صالدى قد فقدت وشيكا تلك الاهمية التى كانت لها ايام كان لرومة سلطانها العظيم وقوتها الكبيرة ، ذلك ان القبائل ، التى كانت تقيم حول المدينة ، وكان بعضها خاضعا جزئيا للرومان ، وبعضها الآخر لم يكن خاضعا لهم على الاطلاق ، قد بدات بعد سقوط الامبراطورية تظهر عداوتها للمدينة ، وكانت غالبا ما تحاصرها وتشل حركتها ٠

واتخذ الفندال صالدى عاصمة لهم قبل ان يبلغوا مدينة قرطاجنة ، وهذا ما ابقى على أسوارها ، فى حين ان جميع الامكنة الافريقية الاخرى قد هدمت من طرف ابناء عمومتنا الجرمانيين نتيجة الفهم السياسى الخاطىء ، لقد ادرك غيزريك بنظريته الحادة اهمية موقعها فاختارها مقرا له ، وأمر هذا الملك الفندالى بتوسيع اسوارها ، وكان محيط السور الفندالى 15،000 اى انه كان

ضعف السور الروماني · ولا تزال بقايا هذا السور الى اليوم ، ولعله الاثـر الحقيقى الوحيد فى افريقيا ، الذى يرجع الفضل فى نشاته الى ذلك الشعب الذى لم يكن يعرف غير التدمير والتحطيم · وعندما فتح غيزريك قرطاجنة ، اصبحت هذه عاصمة الامبراطورية الجرمانية الكبيرة في افريقيا ، نعادت صالدى الى ما كانت عليه فى السابق من قلة الاهمية ·

ولم يرتفع شانها وتزدهر من جديد الا فى القرن العاشر عندما اسس بنو حماد ، وهـم من قبيلة صنهاجة ، مملكتهم هنا ، حيث اتخذوها عاصمة لهم واطلقوا عليها اسم بجاية · وقد اثنى عليها الادريسى الذى وصفها بعد مضى قرنين ، فذكر أن تجارتها فى غاية الازدهار ، وان ميناءها ترسوبه سفن كثيرة ، وان سكانها اغنياء وصناعها ماهرون ، وخاصة فى صنع الاسلحة والمصنوعات الجلدية · ومما يدل على اهمية المدينة العربية وعظمتها دلالة واضحـــة ان السكان لم يلبثوا ان شعروا بأن الاسوار القديمة قد ضاقت بهم ، فحرصوا على بناء سور جديد يزيد محيطه عن سبعة كيلو مترات ، ولا يزال قسم من هذا السور الشرقى قائما الى اليوم ، وتعلوه بروج عديدة ، ويمتد من قمة جبل غراية الى سفحه ولعل مدينة بجايـة كانت فى ذلك الحين أهم مركز تجارى فى شمال افريقيا · وكانت القبائل ، التى لم يحاول بنو حماد اخضاعها بالقوة ، وانما حاولوا التاثير عليها بطرق سلمية ، كانت هذه القبائل صديقة لملك بجاية واهاليها الذين كانوا يشترون منها منتوجات اراضيها الخصبـــة ·

وحين استولى عبد المؤمن الموحدى سنة 1152 على ممتلكات دولة بنى حماد ، وتمت تبعا لذلك الوحدة بين بجاية ومملكة المغرب ، ثم عندما اصبحت بعد ذلك عام 1240 تابعة للمملكة التونسية ، بقيت التجارة فيها على الرغم مما حدث ، مزدهرة على سابق عهدها لمدة طويلة · ففى هذه الفترة بدات العلاقات التجارية بين بيز وبجاية ، ثم بين هذه وبين البندقيـــة وجنـــوة ، وبقيـت هذه العلاقات التجارية قائمة الى ان استولى الاسبان على بجاية · وكانت للبنزانيين والجنويين فيها خاناتهم وحماماتهم وكنيستهم ومقبرتهم ، وكانوا يتحركون فى هذه المدينة وفى البـــلاد كلها ايضا بحرية تامة ، وما ابعد الفرق بين هذه المعاملة الإنسانية التى عرفها الاجانب فى ظل الحكم العربى وبين تعصب الاتراك ووحشيتهم حين حرموا فيما بعد ، على الاوروبيين ، خلال ثلاثة قـــرون ، الدخول الى هذه البلاد بصفة قطعية تقريبا !

كان المسيحيون فى ايام الحكم العربى هـم الذين يظهرون التعصب ويميلون الى النـــزاع · فقد اختلف الجنويون سنة 1390 مع سلطان بجاية فى ذلك الحين ، وهو ابو العباس باي تونس وقاموا بحملة صليبية مثيرة للسخرية ضد الساحل الافريقى ، وطلبوا من الملك شـارل السادس ان يكون قائدهم فيها امير فرنسى يتمثل فى شخص دوق بوربون ، ولكن عجز هذا القائد جعل هذه

الحملة اكثر اثارة للسخرية فيما كانت عليه هي في حد ذاتها ، فبعد اقامة قصيرة ، بمنطقة خالية على ساحل المهدية ، لافائدة منها ، تخلت القوات الفرنسية ، وعلى راسها "الامير ، عن الجنويين وعادت عاطلة الى فرنسا ، فما كان من الجنويين الا ان اسرعوا الى عقد الصلح مع باي تونس ابي العباس ، الذي كان قد افزعه سلاح الحلفاء القوي ، ونالوا منه شـــروطا كانت في صالحهم ، فاصبحت التجارة منذ ذلك الحين بيد الجنويين ٠

وفي القرن الخامس عشر بدأت سمعة بجاية تسوء عند هؤلاء التجار المسالمين فقد شـــرع سكانها في القيام باعمال القرصنة ، تلك العدوة اللدودة لكل حركـــة تجارية وملاحية ٠ ويبدو ان الاسبان هم اكثر من تضرر من قرصنة اهل بجاية ولوضع حد لها ارسل الكاردينال خيمينس Ximenes سنة 1510 حملة الى بجاية بقيادة الكونت بيد رودي نافارو Pedro de Nayarro الذي استطـاع بالفعل ان يستولي على المدينة بعد أن قضى على مقاومة الامير التونسي عبد الرحمن التي لم تـــدم طويلا ٠وقد ابتهج الكاثوليكيون المتخمون بهذا النصر ابتهاجا عظيما فاقيمت الصلاة في رومة واسبانيا اما اهالي جنوه والبندقية فانهم كانوا اقل سرورا باستيلاء اكثر الدول المسيحية تعصبا على بجاية لان هذا الاستيلاء قد قضى على الحركة التجارية دفعة واحدة ٠ فاخرج الاسبان منها جميع المسلمين تقريبا ، وعينوا لها اسقفا ، مع ان سكانها ، باستثناء القليل منهم ، كانوا من الجنود ، وارسلوا عددا من الرهبان ومفتشا لتنصير اليهود وتتبع الزنادقة فيها ٠

ولكن قلعة الكاردينال المتعصب السياسية لم يقدر لها ان تبقى طويلا ، فقد نشأت في افريقيا قوة جديدة ، لم تلبث ان عظمت واتسع سلطانها ٠ وتمثلت هذه القوة في الانكشاريين والقراصنة الاتراك ، وفي مقدمتهم الاخوان ذو اللحية الحمـــرآء (كان كلا هما يدعى ذا اللحية الحمراء) عروج وخير الدين ، اللذان حاربا اسبانيا دون هوادة ، ولو لم يكن لهما النصر في البداية دائما ، اذ فقد بابا عروج ، اكبر الاخوين ذراعه امام بجاية ، التي حاول فتحها سنة 1512 ، ولكن خلفاءه لم يعرفوا الراحة الى ان تمكنوا في النهاية من طرد الاسبان من هذا الموقع المهم ، ففي سنة 1555 استسلم الدون الفونسودي بيرالتا Don Alfouso de Peralba آخر حاكم اسباني لبجاية ، فانتقلت الى ملكية صلاح رايس ، باشا الجزائر ، ان الاسبـانقد خدعتهم شجاعتهم هذه المرة ٠ وكان الحاكم عاجزا عجزا كبيرا ، الى درجة انه لم يعرف كيف يفرض على قاهريه شروط الاستسلام التي تنفع الحامية ، ذلك انه لم ينج في هذه المناسبة الا الحاكم نفسه وعشرون جنديا اختارهم بنفسه ، امـا الباقون ، وعددهم يزيد عن الالف فقد ارسلوا عبيدا الى الجزائر ، حيث استعملوا في الاشغـــال الحكومية ، ولم ينعم بيرالتا بحياته التي اشتراها بالعار ، مدة طويلة ، فقد اتهمه شارل الخامس بالخيانة بعد حين وامر باعدامه في الساحة ببلد الوليد ، ويروى ان هذه الحادثة ، التي لطخت

اسبانيا بالعار ، قد تركت اثرا سيئا فى نفس الملك شارل الخامس ، الى درجة ان تلك المحنـــة ، بالاضافة الى ظهور ذلك الشهاب ، الذى فسر تفسيرا اساسه الوهم ، كانا السبب المباشـــر فى تنازله عن العـــرش ٠

وظلت بجاية فى فترة الحكم التركى ، الذى يقف فى مقابل الحكم الاسبانى من حيث التعصب محتفظة بالمكانة الوضيعة التى انزلها اليها الكاردينال خمينيس ، بل ازدادت مكانتها من تدهور وانحطاط ٠

وعندما استولى عليها الفرنسيون فى 29 سبتمبر سنة 1833 ، كانت قد اتخذت طابع قريـــة تعسة ، وبقيت المنطقة الفرنسية فى هذا القسم من الساحل مقصورة على المدينة لمدة طويلة ، فكان سادة الجزائر يعيشون فيها محاصرين تقريبا ، فقد كانت القبائل ، التى لم يتمكنوا من اخضاعها ، تحيط بهم من كل جانب ، وفى سنة 1836 عم الاستياء فرنسا كلها حين قتل الحاكم الفرنسى مـــن طرف احد زعماء القبائل، وهذه الحادثة لها دلالتها الخاصة فى هذا المقـــام ٠

فقد حدث ان الشيخ سعيد ، شيخ اولاد تامسالس ، كان قد تآخر مع مرابط عجوز ، فاقترب هذا الاخير ، حين كانت العداوة لا تزال قائمة بين القبائل المحيطين ببجايـــة والفرنسيين المقيمين فيها ، فى المواقع الفرنسية ، فالقى عليه القبض واتهم بالجوسسة واعدم ٠ وما ان سمع الشــــيخ سعيد بموت صديقه واخيه ، حتى اقسم ان ينتقم له ، وبما انه لم يستطع العثور على الجنود الذين القوا القبض على المرابط واعدموه ، وكان بالاضافة الى ذلك يعتبرهم مجرد آلات فى أيدى غيرهم ، لا يستحقون منه إى اهتمام ، فقد قرر ان ينتقم من حاكم بجاية نفسه ، لانه فى اعتقاده هو الذى امـــر باعــــدام شخصيـــة هى شخصية صـــــديقه المرابط ، ولم يكن الحاكم طبعا يعـــرف شيئا عن قضية الاعدام هذه ، وقد كان الاعدام يتم بناء على امر عام ، لا يحتاج معه فى مثل هذه الحالة الرجوع الى الحاكم العسكرى او اخباره بذلك ٠

ولم يستطع الشيخ سعيد ان ينفذ قراره بسرعة ، لان الفرنسيين كانوا قـــد تحصنوا خلــف اسوار مدينة بجاية ، واكتفوا بالدفاع عن مراكزهم ، فانتظر فرصة خروجه للقيام بحملة ، ولكن هذه الفرصة لم تتم ٠ ذلك ان الفرنسيين كانوا قد تلقوا الاوامر بعدم الهجوم على القبائل المجاورة مهما بلغ تحدى الشيخ سعيد لهم ، فقام الشيخ سعيد لذلك ، لانه لم يستطع الانتقام لصديقه ، ولكنه لابد ان ينتقم له فى يوم من الايام ، فالعرف يحتم مثل هذا الانتقام والا فهو جبان ، وكانت القبائل الاخرى تحرضه على ذلك باستمرار ، واهتدى اخيرا الى طريقة تمكنه من عدوه ، فاخذ يتقرب الى الحاكم العسكرى ، ودعاه لاجراء حديث معه ، القصد منه توقيع اتفاق بينهما ٠

وفى اليوم التالى حضر الحاكم العسكرى سلومون دى موى الى خيمة الشيخ سعيد ، يرافقــه ترجمان وبعض الضباط ، فانتقم منهم جميعا ، الامر الذى آلم الفرنسيين كثيرا ، الا انه كان فى امكانهم ان يتجنبوا مثل هذه الحوادث لو انهم حاولوا التعــرف على عادات اهــل البلاد ، ولم يحتقروها احتقارا كبيرا ، كان هذا اقل ما يطلب منهم ، ولكن الفرنسيين كانوا ينظرون الى الاهالى على اختلافهم على انهم « بدو تعساء » لا فرق بين هؤلاء واولئك ٠

ولم تتمكن فرنسا من اخضاع القبائل كلها الا فى سنة 1857 ، وكانت الحملات التى تمت قبل ذلك بدون نتيجة ، ومنذ ذلك الحين تخلت بجايــة من الحصار الذى كان مضروبا عليها من ناحية البر ، وقد بدأت الآن ، باعتبارها عاصمة ارض شاسعة خصبة ، تنهض من كبوتها وتستعيد الاهمية التى كانت لها ٠ ولكن سكانها لا يزيدون فى الوقت الراهن (1862) طبعا عن 1200 اروبى و 900 حضــــرى ٠

وليس لبجاية ميناء حقيقى ، ليس لها على الاقل ما هو جدير بهذا الاسم ، غير ان المراسى فى مأمن من العواصف بصورة عامة ، وغير بعيد من بجاية يوجد بين رأس البر واق وقلعة عبد القادر ميناء سيدى يحيى ، الذى يحمى السفن فى اى فصل من فصول السنة ٠

لم تقدم لي بجاية الا القليل من وسائل الراحة الحديثة ، ففى « فندق الامم الاربع » ، الذى نزلت فيه ، لم استطع حتى الحصول على غرفة بمفردى ، فقد فرض على ان اقتسمها مع سائــح آخر ، وكان هذا السائح من معارفى القدماء ، ولكنه لم يكن من ذلك النــوع الذى ارتاح اليه كان انجليزيا ، التقيت به اثناء قيامى برحلة الى المغرب ، وكان يريد ان يدرس قرب سبته الجبــل المعروف باسم الاخوة السبعة ، غير ان القبائل المجاورة هاجمته واستولت على متاعــه ٠ وكنت لا اسميه الا باحث الاخوة السبعة ٠ وقد تمت رحلتى الى المغرب قبل رحلتى الى بلاد القبائل وبعد رحلتى الى كل من ولايتى الجزائر ووهران ٠

وكان طعام الفندق رديئا ايضا ، ولم استطع الجلوس فى المقهى ، لانها كانت تعج بالجنود القذرين ، الذين تتصاعد منهم الروائح الكريهة ، وهم يلعنون باستمرار ، ففضلت ان اقضى وقتى فى الهواء الطلق ، وكانت المناظر الممتعة فى انتظارى ، فقد صعدت الى الجبل ، الذى يشــرف على تلين مخروطى الشكل ، تقع فوقهما بجاية ، وتمتــد بينهما هوة سيدى تواتى بخضرتها البديعة وغابتها الكثيفة ٠ ويدعى الجبل الذى كنت واقفا فوقه جبل غراية ٠ وكان امامى منظر ساحلى رائع ، تزيد فى جماله صفحة البحر الاخاذة ٠ وكان هناك نهر صغير ، يشبه الساقية ، يتخلل المروج المرعة ويتفرع عنه سواق ، تمنح الحقول ، والبساتين الخضرة والحياة ٠

وتعلو جبل غراية اليوم قلعة فرنسية ، يتألم لمنظرها كل مسلم ، لانها تحتل مكان ضـــريح يحمل اسم مرابط مشهور ، تعود المؤمنون على زيارته فى جميـــع الانحاء · فقد كان الفقراء والمرضى خلال القرون الماضية يحجون اليه ، لعجزهم عن الحج الى مكة ، ويعتبرونه مساويا لمكة وبفضل هذا الضريح اتخذت بجاية خلال فترة طويلة اســـم مكـة الصغيرة « ولكن الفرنسيين لم يعرفوا شيئا لا عن الوالى ولا عن مكة الصغيرة ! فقد هدموا ضـريح الوالى بوحشية ، ومنذ ذلك الحين اصبحت مكة الصغيرة مجرد مدينة عاديـة مبتذلـــة ·





منظر لتقربست

نضال بجاية ومنطقتها
ضد الاستعمار الفرنسي

رشيد قايد
بكلية الآداب – جامعة الجزائر

عندما وصلت اخبار احتلال الفرنسيين للجزائر (5 يوليو 1830) قام عدد من الافراد الذين لا ضمائر لهم برحلة من بجاية الى الجزائر ليعرضوا على السلطات الفرنسية الوسائل التى تسمح لهم بالاستيلاء على المدينة ·

ففى 3 اكتوبر 1830 نزل اثنان من الكلوغليين ، واحدهما اسمه مراد ، من قارب فى الجزائر قادمين من بجاية وطلبا مقابلة دو بورمونت · وفى هذه المقابلة التى جرت بمحضر عدد من الضباط ، قدموا اليهم معلومات عن المدينة والحا على التنوية بقوتهما فى بجاية ، وعرضا عليهم تقديم المدينة الى الفرنسيين بمجرد ما يعربون عن رغبتهم فى ذلك ، على شرط أن يعين احدهما قائدا على المدينة والآخر ضابطا للميناء ، وسواء اكان الكونت دو بورمونت مقتنعا باقوال هذين الشخصين ، أم أنه رأى أن العملية على كل حال لن تكلفه شيئا ، فقد وافق على طلبهما وأرفق قاربهما بسفينة شراعية حتى ميناء بجاية ·

ولم يكد الرجلان يغادران الشاطئ ، حتى وجدا فى انتظارهما جمعا من الناس انقضوا عليهما وقتلوهما فى عين المكان · وأما السفينة الفرنسية التى بقيت فى عرض البحر ، فانها كانت هدفا لعدة طلقات من المدافع اضطرتها الى العودة ادراجها ·

وبعد ذلك ببضعة أيام ، اغتنم أحد الكلوغليين ، ويدعى بوسطه فرصة انسحاب الحامية التركية من المدينة وأعلن نفسه ، بمساعدة أصدقائه ، قائدا على المدينة · ولكن أحد أبناء البلد ، ويدعى

امزايا ، نازعه فى ذلك وحاربه ، ثم قصد الى الجزائر وخلع على نفسه لقب القائد ومدير الميناء واتصل بالسلطات العسكرية الفرنسية بواسطة شخص يدعى جولى · وهناك عرض عليهم ان يمنحهم حرية الدخول الى الميناء ومساعدته لاحتلال المدينة · ولكنه نظرا لفشل المحاولة الاولى التى قاموا بها ، فانهم لم يعيروه اية اهمية ·

من الصحيح ان القوات الفرنسية كانت منهمكة فى عمليات فى جهات اخرى ، ولذلك ، فان الاستيلاء على سفينة فرنسية وقعت عند ساحل بجاية وقتل ملاحيها فى سنة 1831 ، لم يكن له اى رد فعل من السلطات العسكرية الفرنسية وفى سنة 1832 ، اضطرت سفينة شراعية فرنسية رست فى ميناء بجاية للقيام بعمليات مسح طبوغرافى ، الى الرحيل، بعدما كانت هدفا لطلقات مدفعية (1) ·

وفى نفس السنة ، واجهت سفينة انجليزية جاءت ، على الارجح لنفس الغاية ، نفس المعاملة · وقد احتجت الحكومة البريطانية على هذا العمل وطلبت ترضيات من الحكومة الفرنسية ، قائلة انه « اذا لم تفرض فرنسا احترام أعلام اصدقائها على الشواطىء التى تعتبرها تابعة لها ، فان الحكومة البريطانية ستضطر الى استعمال وسائل اخرى لمنع تكرار هذه الاهانة ··· ولما اعتقدت الحكومة الفرنسية ان بريطانيا انما تبحث عن معاذر للتدخل فى هذه المنطقة ، فقد سارعت الى ارسال حملة الى بجاية ·

وكانت الخطوة الاولى ، هى تجديد الاتصال بالشخص المسمى بوسطه عن طريق صاحبه جولى وقد حضر بوسطة بنفسه الى الجزائر لاجراء اتصالات رسمية وللمطالبة بامتيازات شخصية قبل كلشىء · ولما حصل على ترضيات عاد الى بجاية على متن السفينة « لو زبر »بمرافقة القبطان لامور سيير وعدد من الرجال · وقد نزلوا فى مكان منعزل غير بعيد من منزله ·

ولكن بعض السكان لا حظوا العملية فقاموا باضرام النار فى المنزل ولم ينجح لاموريسيير وبوسطة فى الهرب الى بشق الا نفس وبعد ذلك عادوا الى عرض البحر · وبعد يومين من الانتظار على أمل ان تقوم مظاهرة للترحيب بهم ، عادوا ادراجهم الى الجزائر ·

ولما وصل الى الجزائر ، اتصل بوسطة باربعة اشخاص ، احدهم تركى يدعى على قارة نجا بنفسه من عقاب احمد باى بقسنطينة بعد ما دبر مؤامرة ضده ، والآخر يسمى على عجوز ، من سكان بجاية ، وثالث اسمه المدنى ، تاجر فى الزيت من بجاية أيضا ، والرابع رايس فلوكة يدعى ابراهام زرداب ، من بجاية كان يعمل تحت اوامر قائد سفينته «رايس» من مدينة الجزائر · وقد

1) كانت توجد فى حصن القصبة تسع قطع مدفعية ، وفى حصن موسى اربع قطع ، وفى حصن عبد القادر عشرون قطعة ، وفى حصن بواك سبع قطع ، وفى حصن دموس 4 قطع وهى ذات ابعاد وعيارات مختلفة ·

تقدم هؤلاء ، وهم يحملون رسالة مزورة تحمل خاتم قاض (2) وصادرة ، فيما ادعوا عن سكان بجاية الذين يطالبون بحماية الفرنسيين من تعسف القبائل المجاورة ، ووضعوا على رأسهم بوسطة ، وطلبوا مقابلة السلطات الفرنسية • ولما عرضوا الامر على الجنرال فوارول ، الوالى العام ، الذى كان قد قرر مبدأ ارسال حملة عسكرية ، وعدهم بانه سيستجيب لطلبهم •

وبعد ذلك ببضعة ايام كلف الجنرال تريزل ردنسن اركان حرب جيش افريقية ، بالقيام بالعملية • وعلى الرغم من أن هذه الخطة كانت محاطة بالسرية التامة ، فان الامر قد افتضح وانتشر الخبر بسرعة فى المدينة ووصل الى بجاية • وكذلك استعد السكان الذين استولوا على حصون المدينة بعد رحيل الحامية التركية لمقاومة العدو •

سقوط بجاية :

وفى 29 سبتمبر 1832 ، دخلت سبع سفن حربية وثمان عشرة سفينة تجارية تحمل على متنها 1،800 جندى وضابط ، الى ميناء بجاية وقد قامت حصون عبد القادر وموسى وبرج ليلى وبواك باطلاق نيران المدافع على سفن العدو ، ولكنه نظرا لان مداها قصير ولان اطلاق النار لم يكن ، فيما يرجح مضبوطا، فانها لم تمنع نزول قوات العدو التى كانت تغطى عملياتها المدفعية البحرية • واثر ذلك ، غادر معظم سكانها المدينة وحل محلهم المقاومون الذين جاءوا اليها من مزايا وبنى وغليس وتا مزالت وافنايا وتوجه • وقد تمكنت اسلحة المقاومة من وقف زحف العدو وقتا قصيرا ، ولكن الفرنسيين كانوا يملكون اسلحة اكثر فعالية ويتمتعون بنظام أفضل ، ولذلك فقد كانوا يكسبون الارض تدريجيا ، وكذلك احتل الغزاة على التوالى حصن عبد القادر وأعالى بريجا ، قبل حلول الليل • وقد استمر اطلاق النار طوال الليل الذى تمكن الطبجية الفرنسيون تحت ستاره من وضع قطعة مدفعية فى أعالى بريجة • وفى نفس الوقت كانت الزوارق تكمل بمدافعها العمليات التى كانت جارية فى ضواحى برج داموس ، بينما كانت قطعة المدفعية التى وضعت فوق بريجه تقصف المدينة بدون تمييز •

وقد قام المقاومون الذين اجتمعوا فى حي باب البنود بشن هجوم فى عدة مواقع فى وقت واحد على العدو • وكذلك سارع الجنرال تريزل والقبطان لامورسيير الى موقع المعركة التى كانت شديدة فان كلا الفريقين فقد عددا كبيرا من الموتى كما سقط عدد كبير من الجرحى • ولما تخلى المقاومون عن سيدى التواتى ، احتله العدو وراح يقصف منه المنازل المجاورة التى كان المقاومون متحصنين بها •

2) سرق هذا الخاتم ابن القاضى ، رشاه بوسطه •

وفى ليلة 2 و 3 اكتوبر ، كان بوسطه يتجول فى انقاض البيوت المهدمة للبحث عن التحف والاشياء الثمينة ، حينما أطلق عليه جندى فرنسى النار وأرداه قتيلا . هل كانت الطلقة غير مقصودة ، أم ان الجندى قتله ليستحوذ هو على الطرف التى جمعها ؟ على كل حال ، فان أحدا لم يبك على هذا المغامر ، وقد اعتبر الحادث عقابا من الله على خيانته وجشعه (3) .

وفى يوم 4 اكتوبر ، انسحب المقاومون من مراكزهم الاولى والتجئوا الى الحدائق المجاورة وهناك اضطر العدو الى استعمال الوسائل الكبيرة لحمل المقاومين المحاصرين على الاستسلام . ولما أنتهى اطلاق النار ، دخل الجنود الفرنسيون الذين تدفعهم روح الانتقام والجشع الى المنازل وقتلوا كل من فيها يحرابهم . ولما شاهد بعض الضباط هذه الاعمال الوحشية تدخلوا بعنف لانقاذ الباقين على قيد الحياة — ستون من الشيوخ والنساء والاطفال (4) .

ولما تم له احتلال المدينة ، عمل الجنرال تريزل على اصلاح الخرائب وازالة الانقاض وبناء بعض التحصينات الصغيرة .

وفى هذه الاثناء ، كان المقاومون يطلقون أعيرة نارية من الهضاب المجاورة ، ولكن هذه الاعمال لم يكن لها اثر يذكر فى نشاط القوات المحتلة . ومع ذلك ، ولكي يضمن الامن التام ، صعد الجنرال لو مرسيى اليهم وشن هجوما على مواقعهم على رأس قوة تتكون من 900 جندى من التعزيزات التى وصلت مؤخرا الى المدينة .

ولما عاد الهدوء الى المدينة ، قام الجنرال تريزل والقايد مدنى (احد رفقاء بوسطة) بمجهود لاعادة اعمار المدينة بالسكان باستدعاء العائلات القديمة ومزايا من المناطق المجاورة .

وكذلك عادت بعض العائلات الى المدينة والى منازلها ، أو الى ما بقى منها ، بينما عادت عائلات اخرى لغرض واحد ، وهو محاولة العثور فى الانقاض على بعض الامتعة التى كانوا يأملون فى امكان العثور عليها . وقد حاول القايد مدنى ، عبثا اغراء مزايا التى هى قبيلته ، على العودة ، فعرض عليهم منازل جديدة كما عرض أن يمنحهم تعويضات للخسائر التى لحقت بممتلكاتهم . وبدلا من عودة القبائل ، فرضت على بجاية حصارا اقتصاديا اضطر معه الفرنسيون الى استجلاب التموين الضرورى للمدينة عن طريق البحر .

3) بمجرد وصول الفرنسيين الى المدينة ، سارع بوسطه الى منزل القايد منافسه . ولما لم يجده فى البيت هجم على عائلته التى يبلغ عدد افرادها 17 شخصا وقتلهم عن آخرهم . وبعد ذلك اتجه الى الذين عارضوا فى تعيينه فى الايام الاولى وقتل منهم 28 شخصا .

4) وهؤلاء الشيوخ وضعوا فى منزل صغير عند الحصن الاسبانى وفى شارع لا يزال يحمل اسمهم .

وبفضل الوعود والسخاء ، نجح المسؤول عن الشؤون الاقتصادية ، جنتي ، ومساعده لوسى على اغراء بعض التجار من الجزائر كما استجلب عددا من الصناع الايطاليين واستقدم 70 من سكان العاصمة وضواحيها وفتح لهم مسجدا وعين للمسجد اماما ٠

المقاومة المحلية :

كانت الحامية الفرنسية فى المدينة قوية حيث يبلغ عدد رجالها نحو 4000 رجل ، ولكنها مع ذلك لم تكن قادرة على منع هجمات المقاومين الذين تبلغ بهم الجراة حدا يتحدون معه المراكز الامامية ويستولون على قطعان الماشية التابعة للجيش ٠ وقد حاول الجيش ابعاد خطر المقاومين ووجه اليهم حملة فى مارس ويوليو 1834 أصيبت بهزيمة منكرة ٠

وهذا النجاح شجع المواطنين للقيام بهجمات اكثر جراة ، وفى ليلة 9 اغسطس ، قاموا بهجوم مفاجئ نجم عنه انتشار الفزع والخوف بين السكان المدنيين بحيث سارعوا جميعا الى الميناء وركبوا السفن واستعدوا للرحيل ٠ وفى ليلة الغد ، كرر المقاومون العملية من جهة باب فوكه ٠ وبعد ما احتلوا المنازل المجاورة ، أشعلوا النار فى حصن سالم ثم فى منازل الحيى ٠ ولكن اضواء النيران ساعدت الفرنسيين على احكام طلقات مدافعهم ومنعوهم من التقدم الى الامام ٠ ولذلك ، فقد انسحبوا عند مطلع الفجر ٠

ولكي يحول دون وقوع مفاجئات من هذا القبيل ويضمن مزيدا من الامن ، أمر الكلونيل دو فيفيى بقطع جميع الاشجار الموجودة فى الحدائق العمومية ٠

وفى سنة 1835 ، حاول الوصول الى اتفاق مع قبائل بنى ميمون ومزايا المسئولين عن هذه الهجمات ، ولكن القايد مدنى قام بمناورة عند الوازى المذكور ، بحيث يجرى الاتفاق مع أورابح ٠ وكذلك قامت السلطات الفرنسية بعقد اتفاقين متوازيين ، ولكنه بينما كان اتفاق دو فيفى معروفا ، ظل الاتفاق الآخر سريا ٠ ولما وصل وفد بنى ميمون للاجتماع بالكلونيل دو فيفى ، وقع فى كمين نصبه له انصار أورابح وقتل ثلاثة من رجاله ٠

اعتبر الوازى المسئول الاول عن هذه المؤامرة ، ولذلك طلب اليه دو فيفى ترك بجاية ٠ ولكن الوازى نجح فى اقناع الوالى العام عندما وصل الى الجزائر بالفوائد التى يضمنها اختياره لاورابح ٠

وفى 8 اكتوبر وقع اتفاق بين الطرفين يقضى بوقف « جميع اعمال العدوان بين الفرنسيين والقبائل » وجميع الاهالى مدعوون للاقامة فى بجاية حيث تضمن لهم سلامتهم ويحترم دينهم ويتمتع

بالحماية الضرورية · وستفتح اسواق فى المدينة وتفرض الحماية على عمليات البيـع والشراء فى تجارة الحبوب · واذا حاولت بعض القبائـل المترددة القيام باعمال حربية ، فان الشيـــخ اورابح يلتزم بان ينضم الى الفرنسيين لاخضاعها ··· وبالمثل الخ ·· وفى مقابل هذا الالتزام ، حصل اورابح على احتكار تموين الحامية الفرنسية كما حصل على لقب قايد ·

والواقع ان سلطة اورابح لم تكن قوية على القبائل بحيث يحملها على احترام نصـــوص هذا الاتفاق · وقد كان مضطرا الى أن ياخذ الى الاعتبار الرأى العام الذى كان معاديا للفرنسيين ويعارض فى كل اتصال بالمسيحيين وكذلك تجاهل كلية بنى عيدل عندما اجتازوا اراضيه للهجـوم على مواقع الفرنسيين · ومن جهة اخرى ، فلكي يثبت للراى العام ان عواطفه مناقضة للميول التى يعزوها اليه الفرنسيون ، كلف صديقه ، سيدى محمد امقران ، بحمل رسالة منه الى أحمد بـــاي فى قسنطينة يعلن اليه فيها ولاءه ويعرض عليه مساعدته لمواصلة النضال ضد المسيحيين · قد رد عليه باي قسنطينة برسالة بعد ذلك ببضعة أيـام يهنئه فيها على موقفه ويشجعه على عمله ويطلب الحضـــور اليه شخصيا ، أو ارسال احد ابنـائه للاتفاق على طبيعة المساعدة التى ينـــوى تقديمها وعلى طريقة تنسيق العمل ضد العدو · ولكن اورابح لم يرد على هذه الرسالة ·

كان الماريشال كلوزيل يرى ان وضع حامية تتكون من اربعة آلاف رجل ، أمر لافائدة منه بسبب قلة اهمية بجاية ومنطقتها من الناحية الستراتيجية · فهو يرى ان ارسال هذه القـوة الى المناطق الشرقية لتواجه احمد باي ، اوالى الغرب لتحارب الامير عبد القادر افضل كثيرا · وقد فكر فى المرحلة الاولى ، ان يضع على بجاية حامية من الانكشارية التركية ، ولكنه ادرك ان كثيرا من افراد هذه القوة قد غادروا الجزائر · ولذلك اقترح على اورابح القيام بحراسة المدينة والمحافظة على ارواح الفرنسيين فى مقابل منحه ثمانى قطع من المدافع وأسلحة وكميات من الذخيرة وعـددا من الجنود والمدربين ليقوم بتدريب الحرس الاهلى وذلك بالاضافة الى مبلغ من المـــال لمواجهة نفقاتـــه العامة ·

ولكنه بمجرد ما عرف مشروع جلاء الحامية الفرنسية غادر المدينة عدد كبير من السكان الفرنسيين والمسلمين فى عجالة · فاما الاروبيون ، فقد عادوا الى الجزائر ، واما الاهالى · فقد اتجهوا الى مدن اخرى او التجئوا الى الريف · ولذلك ، فان المدينة فرغت من سكانها مرة أخرى ولم يبق فيها سوى عدد صغير من السكان الذين امتدت جذورهم فيها ·

وكذلك اقنع الكلونيل مبرسيى الماريشال كلوزيل بتعديل هذا المشروع الذى كان من نتائجه خراب المدينة قبل الشروع فى تنفيذه ٠ وهكذا ضيق نظام الدفاع عن المدينة بحيث يكفى لحمايتها الف رجل (5) ٠

اعتبر اورابح التخلى عن مشروع كلوزيل عملا يدل على عدم الثقة فيه ٠ ولذلك حلل نفسه من التزاماته السابقة واستانف اعمال العدوان بمناوشة المواقع الامامية للفرنسيين بواسطة رجاله ٠

وبعد وفاته فى نفس السنة (1835) ، سـار اخوه ، امزيان على نفس السياسة ٠

وفى 7 نوفمبر جرح امزيان اثناء هجوم كبير شنته بعض القبائل المتحالفة واشترك هو فيه ٠ وهذا الهجوم الذى حطمه العدو ، استؤنف فى 28 نوفمبر ٠ وقد اشترك فى هذا الهجوم الاخيـر شيوخ افنايا ومزايا وسى محمد أمزيان ٠ وهذا الهجوم تمكنت من صـده القوات الفرنسية التى كانت تتمتع بتفوق بفضل المدفعية على الاسلحـة التى كان يحملها المقاومون والتى كانت قديمة فى معظم الاوقات ٠

وفى شهر اغسطس 1836 استؤنف القتـال بعنف اكبر ، اثر قتل جندى فرنسى شخصـا يدعى الشيخ ابراهيم كان يتمتع بحماية أورابح ، وفى غضون هذا الهجوم ، لقي حتفه قائد الحامية الفرنسية ، سالومون ، والمترجم طابونى ، كما جرح القايد مدنى جرحا خفيفا وقد نجا من الموت ، باعجوبة اثناء كمين وقع فيه ، واما الخيول التى استولى عليها المسلمون فى هذه المعركة ، فقد قدمت الى احمد باي قسنطينة الذى شكر مزايا وأورابح على هذه الهدية ، كما وجه الى الاخير برنوسا احمر رمزا لتنصيبه قائدا ووجه اليه دعوة للانضمام اليه ٠ ولكن امزيان الذى استغرقت الحوادث المحلية كل اهتمامه ، لم يتمكن من السفر الى قسنطينة ٠

وبعد هذا التاريخ ، انحصرت المعركة فى مناوشات بين الطرفين وقام بينهما اتفاق ضمنى فيما يبدو على تقسيم السهول بين القبائل والفرنسيين ٠

وفى سنة 1839 ، حاول الامير عبد القادر كسب سكان هذه المنطقة الى صفه ٠ وبعد ما قام بزيارة لابن سالم ولمنطقة بنى يعلى ، نزل فى اقبو ثم هبط الى وادى الساحل وتوقف فى زاوية سيدى معمر ، على مقربة من بجاية ٠ وهناك جاءه رسول من قائد حامية بجاية يطلب اليه استقبال

---

5) وبذلك ضم سور قلب المدينة الى حصن موسى ، وهذا الحصن الى حصن عبد القادر ، بينما يخترق منخفض ابزاز ويتوج اعالى بريجه ٠ وحسب هذا النظام ، يكفى للحامية الاعتصام بخط الدفاع الخارجي للتحصينات دون ان تحتاج الى الخروج للزحف على القبائـل او مطاردتها وراء النقاط المحصنة ٠ وهذه النقاط ، هى حصن سالم الذى يقع على البحر ، وحصن دوريا ، وحصن لوميرسيى ، وحصن جورايا ، والمعسكر الداخلى ٠ (راجع Shiferoud, P. 3, 4, 1.

الامير له · لم يكن هذا الطلب ينطوى على ما يدعو الى الاستغراب فى نظر الامير حيث انه ربما كانت المقابلة المطلوبة لمجرد المجاملة ، حيث ان الامير كان يرتبط بمعاهدة مع فرنسا (معاهدة تافنا) (6) ·

وفى سنة 1840 ، قام بنو سليمان وبنو ميمون بثورة جديدة · واثر ذلك زحف الجنرال دوسال والجنرال سانت ارنو على هذه القبائل وحطموا مقاومتها · على ان تحالفا قام بين قبائل بنى سليمان واوجهان ويريشا كان اساسا لمقاومة اشترك فيها الرجال والنساء والاطفال وسمح لهذه المنطقة بتقليل الخسائر · ودفع العدو فى طريق العودة الى بجاية ·

وللانتقام منهم ، قام الجنرال سانت ارنو بحرق الغابات والمحاصيل الزراعية ، كما اعتقل عددا من الشخصيات وأمر بنفيها · وفى مقدمة هذه الشخصيات التى كانت قد التجات الى بجاية ، احمد أو مهنا بن سعيد اورابح ، وسى مدنى ، قايد بجاية الذى اتهم بان يكون له ضلع فى الثورة ·

وفى غضون بضعة اشهر ، كانت تجتاح المنطقة موجة من البغض والحقد على المحتل ، كما كان يسودها جو ثقيل من الرغبة فى الانقضاض على العدو وتحطيم قيود العبودية · وكذلك كان حادث وقع فى السوق واشترك فيه ضابط فى المكتب العربى ، فى سنة 1850 ، كافيا لاشعال نار ثورة اتخذت ابعادا لم تكن متوقعة ·

كان مولى ابراهيم فى المرحلة الاولى ، هو الذى يغذى هذه الثورة · ولكن الحركة الثورية سرعان ما اتسع نطاقها ، فشملت قبائل بنى مليكش وبنى يمثل وبنى وغليس وتبفرات · وبعد ذلك انضم اليها محمد بن عبد الله ابو سيف (الذى عرف بأبى بغلة) الذى وسع ابعادها · وبعد ما قام بعدة هجمات ونصب كمينا اثر كمين، تراجع والتجأ الى بنى مليكش · وعلى الرغم من وقوف القوات المساعدة (القوم) فى وجهه ، فقد واصل حملاته المتعددة والفعالة · وكذلك كلفت السلطات الفرنسية المقرانى وابن على الشريف بتعزيز القوات المساعدة وبتوجيهها لمقاتلة ابى بغلة حيثما ظهر هو وانصاره · وقد كان انصار ابى بغلة يتكتلون فى جماعات تتكون من خمسة أو ستة اشخاص ويتجولون فى القرى حيث يلقون المواعظ ويدعون الى الجهاد فى المساجد ويبعثون الشعور الوطنى ويحثون الناس على العمل للاستقلال الذى كان رغبة الجميع · وكذلك كانوا يرددون على اسماع الناس اسماء الرجال الذين سقطوا فى ميدان الشرف من الاباء والاجداد واستشهدوا فى المعارك السابقة · وفى نفس الوقت يدعمون اقوالهم بالايات الكريمة

6) ولكن السكان رأوا فى هذا المسعى ما يدعو الى الريبة والتشكك فى الامير ، فاساءوا استقباله ، بل وطاردوه فى مرحلة تالية (المترجم)·

والاحاديث النبوية التى تثير حماس الناس · وقد كانت النساء تستقبل هؤلاء الدعاة بالزغاريد والاناشيد التى تمجد المقاومة ·

وتخلق جوا من الحماس الشعبى بحيث لا يجد الناس مهربا من الوقوع تحت تاثير ابى بغلة · وسرعان ما جمع جيشا كبيرا وساندته زواوة وبنو يجر · ثم صدقه وايلماتن ويلولة واسيف الحمام ، وحصل على ضمان من للا فاطمة نسومر التى كانت العدو الرئيسى لتوغل العدو فى منطقة جرجرا ·

وفى شهر ديسمبر 1850 ، قاد ابو بغلة حملة ضد قبيلة ايت اعمر المتخاذلة وخرب قرية تيزى القرن ، على الرغم من تدخل القوات الفرنسية بقيادة مترجم الجيش احمد خاطرى ، لحماية القبيلة · وقد اضطرت هذه القوة الفرنسية الى التراجع الى بجاية ولطلب تعزيزات ·

وفى مارس 1851 ، وصلت تعزيزات فرنسية من سطيف ومن سور الغزلان وزعت بين منطقة البيبان واعالى بنى منصور ومرتفعات اقبو · وعندئذ ركز بوبغلة اعماله فى التوغل فى وادى السومام حيث يشجع انصاره ويهدد المتقاعدين والمعارضين ويحث القياد على الانضمام الى قواته· وقد اعلن ان الحماية التقليدية التى منحت ، مهما يكن السبب ، لم تعد لها قيمة ·

وفى هذه الاثناء ، انضم اليه بنو وغليس وبنو ايمساسن وبنو يمل فى منطقة بجاية ، وأيت يحيا وأيت بودرار فى جرجرا · وقد دفعت كل قرية من تلقاء نفسها مساهمتها فى صندوق المقاومة واثر ذلك اشتدت حركة المقاومة واتسع نطاقها وامتدت ابعادها ·

ولما حاول سى محمد سعيد بن على الشريف تخريب تنظيم الحركة بمناوراته ، رأى ضيعته (العزيب) طعمة للنيران بينما نهب المقاومون قطعانه ، ولم ينج بحياته الا بتدخل بعض عناصر المقاومة · ولكنه عند ما قصد الى اراضى بنى عباس ، اعتقل المقاومون ابنه واركبوه ظهر حمار وتجولوا به فى مختلف القرى المجاورة ليظهروه للناس وليلحقوا به اكثر ما يمكن من الاهانة · ولكن هذا العمل لم يكن من شانه ان يرضى ايت يموله وطلبة زاوية بن على شريف · ولذلك فقد خرجوا من حركة المقاومة ونصبوا كمينا لابى بغلة قتل فيه ثمانية من اتباعه ·

وقد تم الصلح بين الطرفين باطلاق سراح الرهينة وبتقديم تعويض لاهالى الضحايا ·

ولكي لا يتورط مع المقاومة او مع السلطات الفرنسية ، هاجر محمد سعيد بن على الشريف البلد والتجأ الى السلطات العسكرية فى سور الغزلان التى كان تابعا لها من الناحية الادارية · وفى مرحلة تالية ، انتقل الى الجزائر ، ثم الى باريس ، حيث سيشارك فى حفلة توزيع نابليون الثالث الاوسمة فى سنة 1852 ·

وكذلك اضطر القايد الشريف بن المهوب الذى حاول التدخل لتاييد الفرنسيين الى الهـروب بدوره لينجو بنفسه من انتقام الشعب ٠

ولما عاد سى المدنى ، القايد السابق فى بجاية والذى كان منفيا فى شرشال منذ سنة 1849 ، انضم الى ابى بغلة وتعاون معه لنشر الدعاية ولاحكام تنظيم الحركة ٠ وعندئذ ، اتسع نطـــاق المقاومة بحيث شملت جميع بلاد القبائل من البابور حتى آخر قرى جرجر واشدها مناعة ٠ واثر ذلك ، اخذ القياد واعوان الفرنسيين يهربون الواحد تلو الاخر ويتركون عائلاتهـــم وممتلكاتهم ليبحثوا عن ملجئى لهم فى بجاية ٠

وفى 8 مايو ، اتجه الكومندان واجنى على راس كتيبة من الجنود يرفقه بوزيد بن عنون قايد مزايا واحمد الكولى قاضى بجاية الى سوق القصر لحث الناس على مقاومة «الثـوار» ٠ وفى الطريق ، قابلهم القايد بن الشريف بن المهوب ومعه ثلاثة من خدمه وهم جميعا فى حالة يرثى لها من التعب والعرق يسيل من خيولهم ، وكانوا هاربين فى طريقهم للالتجاء ببجايـــة ٠ وبعد ما طمأنهم قائد القوة الفرنسية دعاهم للانضمام اليه ٠ ولما وصلوا الى السوق اغلقوا جميع المنافذ على الناس وارغموهم على الاستماع الى الخطب التى يلقيها عليهم هؤلاء الزوار ٠ وكذلك خطب كل من القايد بوزيد والقاضى الكولى ليحثوا الناس على احتـــرام السلطـــة الفرنسية ومقاومة «الثوار» ٠ ولما رأى القايد بوزيد علامات البرود وقلة الاكتراث مرتسمـــة على وجوه الناس ، استشاط غيضا وطلب الى قائد القوة الفرنسية ان يأمر باطلاق الرصاص عليهم جميعا ويحـرق منازلهم وقراهم ٠ وبالطبع ، فان الرغبة فى العمل بهذه النصيحة لم تكن تنقص القائد الفرنسى ، ولكنه ادرك ان قوته ستعرض للخطر اذا قام بمثل هذا العمل ، ولذلك كتم غيضه وعاد ادراجه ٠

وفى طريق عودته ، عندما وصل الى توريرت الاربعاء ، نصب له الثوار كمينا ، كان من الممكن ابادة جميع افراد قوته فيه ، لو لم يتدخل صادق اوزجار ومحمد وعلى بن مزايا على رأس قوة من المساعدين لانقاذهم فى الوقت الملائم ٠

وفى 9 مايو سار الكومندان واجى على راس قوة تتكون من 500 مقاتل وجماعة منظمة يبلغ عدد رجالها 100 شخص ومدفعين جبليين و 25 من قناصة افريقية ، و 20 من الخيالة السبايس ، وذلك لاخذ الثار لما وقع له ٠ وبينما كان الطرفان منهمكان فى تعزيز مواقعهما العسكرية ، انضم الى القوة الفرنسية عدد من القياد طلبا للحمايـــة ٠ وكان فى مقدمة هـــؤلاء : اورابح بن سعيد وقياد امدان وتوجة الذين طردوا من دواويرهم لانهم حاولوا منـــــع السكان من الارتباط بحركة المقاومة ، أو لانهم رفضوا هم انفسهم التورط فى الحركة ٠

وفى غضون تلك الليلة ، كان وادى الساحل والجبال المجاورة تلمع باضواء عديدة بالنيران الموقدة هنا وهناك والاشارات اللاسلكية التى تصف تقدم المقاومين ومعسكرات القبائل العديدة · ولما رأى العدو أنه محاط به من جميع الجهات ، قرر التراجع منذ فجر اليوم التالى · ولكنه لــم تكد تدق الساعة العاشرة ، حتى تلقى الجنود الذين عادوا الى ثكناتهم أمرا بالاستعداد للقيــام بعملية · فان الجماعات التى كانت تتعقب من قريب القوة الفرنسية المنسحبة ، قد هبطت الى سهل بجايـــة عن طريق بير سالم وهضاب ايغيل او عزوج ، قامت باحراق مزارع المعمرين والخونة وهدم بيوتهم وتخريب محاصيلهم ·

وقد زحف المقاومون فى تشكيل يشبه هـلالا يعتمد جناحاه على مرتفعات بير سالم والسفوح التى تشرف على حصن كلوزيل ، واخذوا يتقدمون وهم يرددون « الله اكبر » ، بينما قامت القوات الفرنسية والقوات المساعدة التابعة لعشرين قايد بهجوم مضاد · وقد تمكن المواطنون من صد الهجمات الاولى دون ان يتخلو عن شبر من الارض · ولكن العدو حاول اختراق صفوفهم ثلاث مرات وردوه على اعقابه · على انه أعاد الكرة فى هجوم اشتركت فيه جميع قوات العدو وتؤيدها المدفعية وفى هذه المرة ، تراجعت صفوف الوطنيين الاولى · وقد ادى هذا الانسحاب الى اضطراب عظيم فى الصفوف الخلفية بحيث احرز العدو على نجاح باهر · وقد فقد الثوار فى ذلك اليوم عددا كبيرا من الرجال ، لا بسبب تفوق العدو من حيث العدد والعدة فحسب ، بل خصوصا ، بسبب مطاردة القوات المساعدة للثوار فى غير هوادة · وقد ابدى احمد خاطرى وبشير اورابح ومحمد العربى اورابح ومصطفى التلمسانى ورجال مزايا كثيرا من الجرأة والشجاعة فى هذه المعركة · وقد اثنى عليهم الكومندان واجنى ثناء كبيرا على مسمع الناس ولفت الانظار الى بطولتهم فى الدوائــر العليــا (7) ·

وبعدما عاد الهدوء الى المنطقة ، شرع الفرنسيون فى شق الطريق التى تنطلق من تيزى وزو وتخترق بلاد القبائل من الغرب الى الشرق ، موازية لوادى سبو مارة باعكورن والقصر لتنتهى عند بجاية · وحتى لا تعرقل القبائل التى كان ولاؤها مشكوكا فيه عملية بناء الطريق قام الكومندان واجى الذى تلقى امدادات عسكرية جديدة من الجزائر بغزو قبيلة بنى ميمون وبنى مسعـــود والجبابرة · وبعد ذلك انضمت اليه القوات التى كانت تعمل فى منطقــة جيجل ، فسار متوغلا فى وادى الســاحل ·

7) وهذا السلوك كان من نتائجه أن أعادت السلطات الفرنسية النظر فى أمر حمو أمزيان او رابح والــد بشير او رابــح واحمد أو مهنا والد محمدالعربى اللذين اعتقلهما بيجـــو وسانت ارنــو على التوالى وارسلوا الى جزر سانت مرجريت ·

وفى هذه المرحلة ، ظهر بو بغلة من جديد على راس قوات جمعها فى وادى غير · عسكر اولا فى عين أنو ، ثم قام بحركة فى اتجاه الشمال فى انتظار أن يصل اليه جميع المتطوعين الذين ينتظر عودتهم الى مراكزهم · ولما علم الجنرال كامو والجنرال بوسكى بهذه الحركة اتجهوا الى تلك المنطقة على رأس قوة يبلغ عددها 6000 مقاتل فى اول يونيو 1851 · وقد نشبت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة أبى بغلة وتشتيت جيشه · وعندئذ انسحب هو الى جرجرة ·

وعقب ذلك ، قامت القوات الاستعمارية بانشاء مراكز أمامية (8) وضعوا فيها حاميات عسكرية صغيرة ولكنها تتمتع بتاييد قوى من القوات المحلية التى يجمعها القايد ·

وفى أوائل سنة 1852 ، نشب خلاف حاد ـ وهو عبارة عن منافسة بين بعض القرى ـ بين بعض فروع قبيلة آيت عمر · فاما سكان تيزى القرن ، فكانوا يناصرون ابا بغلة · وقد طلبوا مساعدته · واما الفرع الاخر ، فقد التجأ الى القوات المساعدة للفرنسيين ·

وفى 3 يناير قام بو بغلة على رأس 400 من رجال زواوة وبنى يجر ووصل يوم 6 الى تيفريت ، وفى يوم 14 وقع صدام بين فرعى القبيلة · وبعد هزيمة القوات المساعدة ، احتلفت المنطقة كلها بهذا النصر فى سرور وابتهاج · واثر ذلك ، جاءت القوات المساعدة من رجال القبائل لتنضم الى أبى بغلة · وفى 20 يناير سارت هذه القوة لمهاجمة قرية أورير التى كانت تحت القايد الموهوب بن الحاج حميش · وقد كان تفوقهم من حيث العدد يسمح لهم بالقبض على القايد نفسه بعد ما هزموا رجاله · ولكن الجنرال بوسكى انقض على مؤخرتهم ، ولم ينج بو بغلة من يد العدو الا باعجوبة ·

وفى 24 يناير بعث الجنرال بوسكى بقوة تتكون من 3000 جندى وضابط لينقضوا على قرى سيد موسى أو يدير وايث منصور وتيفرات · وهناك قاموا باعمال وحشية فاحرقوا القرى وقتلوا النساء واستولوا على المواد الغذائية وعلى جميع ما وقع فى أيديهم · وبعد ما حول المنطقة الى خراب ورماد ، انسحب وطلب الى سكانها تشكيل قوة من الميليشيا للدفاع عن انفسهم تعمل تحت سلطة القايد ·

وهذه الانتصارات التى كان من نتائجها ابعاد الخطر عن المدينة ،ستشجع المعمرين على شراء الارض فى المناطق الخلفية فى البلد · وأحد هؤلاء المعمرين ويسمى جورج جرافيوس ، انشأ

---

8) انشئ مركزان فى منطقة وادى اميزور ، احدهما فى توريرت الاربعاء على الضفة الشرقية والآخر على الضفة الغربية وقد اصبح المركز الاخير تابعا لملكية برج اورابح ·

مصنعا للزيت فى قرية تنساوت ، على ضفاف وادى بو سلام • وقد فكر بعض المقاومين فى الهجوم عليه ومفاجاته ليلا حينما يستغرق الجميع فى النوم • ولكن هذا المشروع بلغ الى علم الرجل بواسطة خادمة له • وبذلك نجا بنفسه •

ولما امتدت شبكة اتصالات المستعمرين فى البلد ، اخذت السلطات الفرنسية فى بناء طرق جديدة تربط بجاية بغيرها من المدن • وبينما كان الجنرال كامو يتولى حماية الاعمال فى الطريق التى يربط دلس وسور الغزلان عن طريق درع الميزان والبويرة ، كان الجنرال ميسيات يقوم بنفس المهمة على الطريق التى تمتد بين بجاية وسطيف وخراطة • وقد حاول يحيى أو يحيى عرقلة هذه الاعمال ، ولكن حملة قامت بقيادة الجنرال بابور فى سنة 1853 ، وضعت حدا لهذه الهجمات •

ولما فرغت المنطقة من العناصر الحية التى قضت عليها الحرب او هاجرت منها الى الخارج ، وقعت غنيمة سهلة تدريجيا فى يد العدو • واذا كان البعض يعتقد بان الوضع الاستعمارى غير قابل للانهيار وان الجزائر قد ضاعت لغير رجعة ، فان البعض الاخر كان يعتقد غير ذلك ، وهم لم ييأسوا قط من ان يعود الحق الى نصابه • وكذلك بقى من يعتقد فى قرارة نفسه ان ظروفا ملائمة ستدفع الشعب حتما فى طريق الثورة •

وفى مايو 1854 ، ظهرت جماعة من الثوار فى منطقة افنايا ثم فى برباشة ، ثم ظهر عدد اكبر فى سفوح جرجرا • وقد قاد الجنرال ماكماهون والجنرال راندون اللذين كلفا بمهمة اعادة السلام بعمليات على راس قوات مهمة ، تؤيدها قوات « قوم » القايد لخضر المقرانى ، قايد مجانة والمسئول عن هذا القطاع • وقد قاوم الثوار تحت ضغط قوة عدد العدو بتصميم ولم يتخلوا عن مواقعهم الا تحت الضرورة القصوى • وقد قتلوا كلهم فيما عدا عدد صغير بقوا مع ابى بغلة الذى قاد هذه العملية وسقط فيها تحت رصاص العدو ، دون أن يعرف أحد بذلك حتى اللحظة الاخيرة من المعركة • وقبل ان ينسحب من هذه المنطقة ، قام الجنرال راندون ببناء ثكنة فى اقبو واخرى فى توريرت ايغيل •

وفى مايو 1857 ، بدات عمليات موحدة تستهدف بسط السيطرة الفرنسية على قبائل مسيد فى جرجرة ـ تلك القبائل التى كانت تتمتع بالاستقلال التام •

وكذلك توغلت فى هذه الجبال قوات خرجت من بجاية ومن تيزى وزو ومن سور الغزلان • ولكن الفرنسيين وجدوا مقاومة عنيفة عند كل شبر من الارض • على أن المعتدين كانوا يملكون موارد متفوقة من حيث عدد الرجال وقوة الاسلحة ولذلك ، فقد اضطر المقاومون الى التخلى عن مواقعهم تدريجيا وبذلك استقر الاستعمار الفرنسى فى مناطق لم يرها فاتح من قبل أو يضع فيها قدمه •

ولما قامت ثورة أولاد سيدى الشيخ فى سنة 1864 فى الجنوب ، تسربت هذه الثـــورة الى منطقة البابور حيث قامت عناصر المقاومة فى عدة مناسبات باعمال تستهدف منع اتمام شـــق الطرق · ومن هناك تسربت حركة المقاومة الى منطقة السواحل الشرقية : الى بنى حسين وبنى مرعى وغير ذلك من مناطق اعموشة · ولما عرف الكلونيل بونفالى خبر هذه الثورة ، جمع جيشا يتكون من 1200 جنديا وضابطا ورتبه على طول الطريق التى تمتد من سطيف ·

وفى 12 ابريل 1865 ، هجم عليهم الثوار واضطروهم الى مغادرة مواقعهم · وبينما كانـوا يطاردونهم فى الوادى قامت قوات «القوم» التابعـة لاورابح واحمد خاطرى بالاحاطة بهم من الوراء وحملوهم على الانسحاب على الهضاب التى تمتد على الضفة اليمنى لوادى جمعة ، وبعد ذلك ببضعة أيام زحف الكلونيل بونفالى الذى كان قـد تلقى تعزيزات من بجايـــة ومن سطيـف على المنطقة ، ووقعت معركة عنيفة بين الطرفين سقط فيها عدد كبير من القتلى والجرحى ، واستمـــر القتال بالسلاح الابيض حتى أسدل الليل ستاره وانسحب الثوار تحت جنحه وتفرقوا فى كل اتجاه·

وفى 2 يونيو ، قاد الجنرال بيريجو حملة للقمـــع وقامت بتنظيف المنطقـة بطريقة منظمة ، فاحرقت القرى ونهبت قطعان المواشى ، واخذت تطلق النار على الرجال والنساء بدون تمييز وقد استمرت هذه العملية ثمانية ايام ·

وفى 7 يوليو 1865 ، قام الامبراطور نابوليون3بزيارة قصيرة لبجاية التى نظمت له استقبالا رائعا · وفى هذا الاحتفال اقيم استعراض للخلفاء للاغاوات والقياد ، ببرانسهم الحمراء المنمقة بالذهب ، راكبين على جياد عربية عصبية المزاج وعلى ظهورها سروج مزركشة بالذهب والفضة ، ووراءهم القوات المساعدة «الافواج» ببرانس بيضاء · وقد أعجب جلالة الامبراطور ، كما يقول فيرو ، بهذه المناظر الرائعة وبثراء هذا البلد الذى لا يمكن مقارنته · وكذلك كرر عدة مرات التعبير عن اغتباطه بان يختتم ببجاية زياته للجزائر ويحمل معه ذكريات غالية ·

وبعد عودة السلام ، كانت المواصلات بين مختلف المناطق عادية ، وكذلك عاد النشاط التجارى الى المدينة ، كما فتح الميناء الذى كان العمل فيــه على وشك الانتهاء ابوابـــــه تدريجيا للبواخر التجارية ·

ونظرا لان المناطق المجاورة تقدم جميع الموارد الضرورية لقيام مدينة مهمة ، ولان السكان مشهورون باجتهادهم ونشاطهم ، لم تلبث المدينة أن شاهـــدت قيام عـــدد من المبانى والوحدات الصناعية وحدائق وجنات غناء ·

بجاية
من خلال بعض الرحالة المسلمين

رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

لعل التعريف بتاريخ بجاية وحضارتها لا يكون كاملا حتى نضيف الى ذلك بعض الوثائق التى كتبها بعض الرحالين او المؤرخين عنهـا فى مختلف عهودها ·

ولذلك رأيت أن أذكر هنا نصوصا كتبها كتاب مختلفون حول بجاية ، وسأوردها حسب ترتيبها الزمنى ليستطيع القارىء من خلال قراءته لها ، واستظهار ما جاء فيها ان يعرف لمحات عن تطور المدينة ، والاستفادة من ملاحظات كل كاتب عنها ·

وقبل أن أذكر هذه النصوص أسجل بعض ملاحظات عنها ·

ومن ذلك ان البكرى فى القرن الخامس ذكر ان بجاية كانت ساحلا لقلعـــة ابى طويـــل ، وبغربها قلعة بنى حماد لانها كانت تسمى بهما معا ·

ويذكر الادريسى (548 هـ) ان بجاية قد ازدهرت حينما صارت عاصمة لبنى حماد بـــدل القلعة فكانت تجارتها مزدهرة وصناعاتها رائجة ·

وعادت قطبا لكثير من مدن المنطقة الشرقية ونجد فيما كتبه ياقوت الحموى (626 هـ) ·

معلومات هامة عن بجاية منها ضبط اسمها ، وتحديد تاريخ تأسيسها بسنـــة 457 هـ على خلاف المشهور من أنها أسست حوالى سنة 460 ·

ومن ذكر اسمها الذى أطلقه الناصر عليها وهو الناصرية وذكر سبب تأسيسها ·

ونجد صاحب الاستبصار الذى عاش في القرن السابع هـ على ما يبدو يذكـر ان بانيها هو المنصور بن بلكين ، وقد انفرد وحده بهذه الرواية مع ان بانيها الحقيقى هو أبوه الناصر بن علناس ويذكر أيضا العمائم التى اختص بها الحماديون ، واهتمامهم بتحسينها وتجويدها ٠

وابو الفداء اسماعيل (732 هـ) يذكر معلومات عن اسـم المدينة وما يقابلها من بلاد الاندلس ويذكر محمد بن ابراهيم الكتبى المتوفى سنة (714 هـ) ٠ معلومات عن طيب هـواء بجاية وفوائد نهرها الفسيح ، وهو الى ذلك يذكر ان الناصـر بن حماد بنى بجاية سنة 457 هـ على خـلاف الرواية التى تذكر سنة أخـرى ٠

ونجد فيما كتبه ابن خلدون معلومات عـن اسم بجاية الذى يعود اصله الى اسم القبيلة التى كانت تسكن المكان ٠ وعن قصر اللؤلؤة الذى بناه الحماديون ، وعن حث الناصر لعمـوم الناس على سكناها ٠

وهو يذكر ان الناصر قد انتقل اليها وسكنها سنة 461 هـ ٠

هذه خلاصة ما كتبه الرحالون والمؤرخون القدماء عن مدينة بجاية وقد الحقنا بها خلاصات لما كتبه بعض الكتاب المعاصرين كالشيخ المهدى ، وصاحـب ارض البطولة ، ودائرة المعـارف الاسـلامية ٠

وبذلك نرجو ان نكون قد قدمنا نصوصا حية تساعد على دراسة تاريخ بجاية وحضارتها ٠

والله الموفق للصـواب ٠

1) ما كتبـه البكرى فى القرن الخامس هـ :

مرسى بجاية هو ساحل قلعة ابى طويل ، وعلى هذا المرسى من تلك الجبائل قبائل كتامة ، وهى شيعية يكرمون من مال الى مذاهبهم ، ويبرون من وافق اعتقادهم وجزيرة جوبة ! قبـل مرسـى بجاية (1) ٠

2) ما كتبه الشريف الادريسى (548 هـ) :

مدينة بجاية فى وقتنا هذا (حوالى سنة 548 هـ) مدينة المغرب الاوسط ٠

وعين بلاد بنى حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة ، والامتعة اليها بـرا وبحرا مجلوبة ، والبضائع نافقة واهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصناع مـا ليس بكثير من البلاد ، وأهلها يجالسون تجار المغـرب الاقصى وتجار الصحراء ، وتجار المشـرق

1) البكرى ابو عبيد (487 هـ) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (وهو جزء من المسالك والممالك نشر دوسلان الجزائر مطبعة الحكومة 1857 م) ص 82 ٠

وبها تحل الشدود ، وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيران ، والتين ، وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والحرابى ، لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة ، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة ، وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة ، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب ، وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ٠

ويحوز سن شاء فى كل موضع منه ٠

ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد ٠٠٠ وأما هى فى ذاتها فانها عمرت بخراب القلعة التى بناها حماد بن بلكين ، وهى التى تنسب دولة بنى حماد اليها (2) ٠

3) ما كتبه ياقوت الرومى (626 هـ) :

بجاية بالكسر وتخفيف الجيم والف وباء وهاء ، مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب كان اول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين فى حدود سنة 457 هـ ، بينها وبين جزيرة بنى مزغناي اربعة ايام ٠ كانت قديما ميناء فقط ثم بنيت المدينة وهى لحق جبل شاهق ، وفى قبلتها جبال ٠ كانت قاعدة ملك بنى حماد ، وتسمى الناصرية ايضا باسم بانيها ، وهى مفترقة الى جميع البلاد لا يخصها من المنافع شىء ٠ انما هى دار مملكة تركب منها السفن وتسافر الى جميع الجهات وبينها وبين ميلة ثلاثة ايام وكان السبب فى اختطاطها أن تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية انفذ الى ابن عمه الناصر بن علناس محمد بن البعبع رسولا لاصلاح حال كانت بينهما فاسدة خمر ابن البعبع بموضع بجاية ، وفيه أبيات من البربر قليلة فتاملها حق التأمل ، فلما قدم على الناصر غدر بصاحبه واستخلى الناصر ودله على عورة تميم ، وقرر بينه وبين الناصر الهرب من تميم والرجوع اليه ، واشار عليه ببناء بجاية ، واستركيه وأراه المصلحة فى ذلك ، والفائدة التى تحصل له من الصناعة بها ، وكيد العدو فامر من وقته بوضع الاساس وبناها ونزلها بعسكره ، ونمى الخبر الى تميم فارصد لابن البعبع العيون فلما أراد الهرب قبض عليه وقتله والحق به عاقبة الغدر (3) ٠

---

2) الشريف الادريسى : بعد سنة 548 هـ ٠ وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ٠ الماخوذ عن نزهة المشتاق ـ نشر هنرى بيريس ٠ الجزائر 1376 هـ ـ 1957 م ، ص 63 ٠

3) ياقوت الرومى 626 هـ معجم البلدان (مصر مطبعة السعادة) ج 2 ، ص 62 ٠

4) ما كتبه صاحب الاستبصار فى عجائب الامصار (1) :

مدينة بجاية هى مدينة عظيمة على ضفة البحر ، والبحر يضرب فى سورها ، وهى محدثـة بناها ملوك صنهاجة اضحاب قلعة ابى طويل ٠

وتعرف بقلعة حماد اليوم ، وكان سبب بنائها ان العرب لما دخلوا افريقية ، وافسدوا القيروان واكثر مدن أفريقية ، وهرب منهم صاحب القيروان الصنهاجى ، وتحصن بمدينة المهدية وكان ابن عمه صاحب القلعة المنصور بن بلكين بن حماد اشد شوكة من صاحب القيروان واكثر جيشا خرج لنصرة ابن عمه ، وجيش جيشا كثيرا ، فلقيته العـــرب بجملتها بفحص سبيبة على مقربة من القيروان ،٠فكان بينهم يوم عظيم حتى هزم المنصور ، وقتل أخوه واكثر صنهاجة ٠٠٠ وكانـــت لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغلون من أثمانها ، تساوى العمامة خمسمائة دينـار وستمائة وازيد ، فكانوا يعصبونها بأتقن صنعـة ، فتأتى كانها تاج ، وكان ببلادهم صناع لذلك ، يأخــذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد ، وكانت لهم قوالب من عود فى حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم فلمانجا المنصور الى القلعة نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا بلاده فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم ، وكان لا يقدر على التصرف فى بلاده فطلب موضعا يبنى فيه مدينة ، ولا يلحقه فيه العرب فدل على موضع بجاية ، وكان مرسى ويقال انه كانت فيه آثار قديمة فيما سلف فبناها المنصور ، وسماها « المنصورية » وانتقل ملكهم من القلعة الى بجاية واتخذوها دار مملكة (4) ٠ ٠٠٠ وهى مدينة عظيمة ، ما بين جبال شامخة قد احاطت بها ، والبحر منها من ثلاث جهات فى الشرق والغرب والجوف ، ولها طريق الى جهة الغرب يسمى بالمطبـق ٠

5) ما كتبه ابو الفداى اسماعيل عماد الدين اسماعيل (732 هـ) :

بجاية هى كما يقول ابى سعيد : بكسر الباء الموحدة ، وفتح الجيم ثم الف وياء مثناة مـــن تحت وهـــاء ٠

« وبجاية هى قاعدة الغرب الاوسط ، ولها نهر على شاطئه البساتين والمناره فى شـرقى بجاية ، ويقابل بجاية من الاندلس طرطوشة وعرض البحـــر بينهما ثلاثة مجار ، وغربى بجاية جزائر بنى مزغنان « الجزائر » وهى فرضة مشهورة من عمل بجاية » (5) .

4) مجهول : كان يعيش فى القرن السادس الهجرى على ما يبدو وعلى الاستبصار فى عجائب الامصار ٠ مخطوط المكتبة الوطنية رقم 2220 ٠ الورقـــة 23 ٠

5) ابو الفدا عماد الدين اسماعيل (732 هـ) تقويم البلدان باريس دار الطباعة السلطانية 1840 م ص 136 – 137 ٠

6) ما كتبه محمد بن ابراهيم الكتبى (714 هـ) :

بجاية مدينة حسنة البناء ، طيبة الفنا ولها نهر فسيح ، تدخله المراكب من البحر الى البلد بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة (457 هـ) وبنا حيتها جبال الرحمن ، وهى جبال تعمرها قبائل البربر كتامة : بها معادن نحاس ولازورد ·(6)

7) ما كتبه ابن خلدون عبد الرحمن (808 هـ) :

يقول ابن خلدون متحدثا على الناصر بن علناس : وفى سنة 460 هـ افتتح جبل بجاية ، وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم ، الا ان الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا بل هى بين الجيم والكاف وهذا القبيل من صنهاجة باقون لهذا العهد اوزاعا فى البربر ، فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها « **الناصرية** » وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهى بجاية ، وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من اعجب قصور الدنيا ، ونقل اليها الناس ، واسقط الخراج عن ساكنيها ، وانتقل اليها سنة احدى وستين (يعنى سنة 461 هـ) ·(7)

8) ما كتبه صديقنا الشيخ محمد المهدى القسنطينى :

خلاصة مقاله : « بجاية من أمهات المدن الافريقية العتيقة ، ويقال انها كانت موجودة قبل العصر القرطاجنى ، وان الفينيقيين قد عرفوها حين قدومهم الى هذه البلاد منذ اكثر من عشرة قرون قبل المسيح ، وازدهرت فى العهد الرومانى ·

وكان كثير من الجغرافيين القدماء يعتبرونها تابعة لاراضى نوميديا ·

موقعها : وتقع بجاية فى سفح جبل قوراية الشامخ الذرى ، وعلى مسافة قريبة من شرقها يوجد وادى الصومام او وادى بو مسعود الذى يصب فى البحر محاذيا لبجاية ·

وكلمة بجاية هى تسمية حديثة لان الرومان كانوا يسمونها صلداى ·

وقد حدثت بها عدة ثورات فى العصر الرومانى افقدتها شيئا مما كان لها من البهجة والعمران وبعد دخول المسيحية لشمال افريقية صارت بجاية قاعدة أخرى لها بعد بونة وفى عهد الواندال (ق 5 ـ 6 م) كانت بجاية تابعة لهم ، واتخذها جنسريق عاصمة له فى أول الامر · وفى عهد بنى زيرى كانت بجاية فى أوج ازدهارها العلمى والاقتصادى ، وكانت من أعظم الموانئ وفى ايام الحفصيين كانت بجاية احدى مراكزهم المعتبرة ، وكانت مزدهرة بالعلوم ومن علمائها

6) محمد بن ابراهيم الكتبى ، مباهج الفكر ومناهج العبر · مخطوط المكتبة الوطنية الورقة 67 ·

7) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر (بيروت · دار الكتاب اللبنانى 1959 ، ج 6 ، ص 357·

الذين القوا بها دروسا بمسجدها الاعظم ابن خلدون ٠ وفى أواخر عهد الحفصيين احتلها الاسبان ثم افتكها منهم الاثراك ، ودامت تحت حكمهم 330 سنة وحكمها منهم 82 باشا ٠ ثم دخلت تحت الحكم الفرنسى فى 29 سبتمبر عام 1833 م ، ووجد الفرنسيون أنفسهم بعد فتحها امام مشكلة حفظ الصحة ، لان هواء بجاية كان منذ القديم غير صحى ، وابن خلدون فارقها الى بسكرة لهذا السبب ! وقد فتكت الامراض بجنود الفرنسيين ، وقد نجح الفرنسيون فى مكافحة هذه الامراض ولا سيما مرض حمى التفوييد ، بردم البرك ، والاكثار من غراسة الاشجار داخل المدينة وخارجها ثم فرضوا رقابة صارمة على اللحوم والفواكه حفظا للصحة العامة ٠

وفى عهد الحكم المدنى فى منتصف القرن التاسع عشر م كانت الامراض قد قلت وحينئذ تصدى الفرنسيون لتحسين المساكن والانهج والاراضى فيها حتى أصبحت عامرة مزدهرة ، وعادت من اجمل الحواضر البحرية فى مناظرها الناضرة ، وشطوطها الزاخرة ، واحيائها العامرة ، وعاد مرساها فى الدرجة الثالثة بعد مرسى عنابة وسكيكدة ٠

وهى الآن من اهم المراكز السياحية حيث يتوجه السواح منها من راس أوقاس لمشاهدة المغارة البديعة La grotte merveilleuse أو يتوجهون منها الى جيجل والقل وسكيكدة وسط الجبال الشاهقة والاحراج الكثيفة ، يرافقهم عجيج البحر على طول المسافة المذكورة » (8) ٠

ما كتبه صاحب ارض البطولة :

خلاصة ما كتبه : « بجاية يطلق الفرنسيون عليها اسم Bougie اى الشمعة ، ولعل هذا الاسم مشتق من شهرة أهلها بتجارة الشمع منذ عهد بعيد ، وهى ميناء هام فى الوقت الحاضر وتابعة لمقاطعة قسنطينة اداريا وتبعد عنها بمسافة 266 كلم ٠

وقد شيدت على شكل مدرجات فوق المنحدرات السفلية بجبل قوراية الذى يبلغ ارتفاعه 660 م ، وتطل على خليج يسمى باسمها ، يحميه عدد كبير من الكتل الصخرية العالية ومناخها معتدل فى الصيف لوقوعها فى الجهة الشمالية الغربية من هذا الخليج ، وفى فصل الشتاء تسقط الامطار غزيرة فى منطقتها مما يعين على وفرة محاصيلها الزراعية وهى غنية بأشجار الزيتون والسرو ، والصفصاف وغيرها » ٠

تاريخها : والمعلومات التى تتصل بها فيما يخص القرون الثلاثة للفتح الاسلامى غير معلومة ! وهى قائمة على مدينة رومانية قديمة اسمها صلداى Saldae

8) الشيخ محمد المهدى : خلاصة مقاله بجاية فى القديم والحديث (الجزائر ٠ مجلة هنا الجزائر عدد 74 سنة 1378 هـ ٠ 1959 م ٠

ويذكر البكرى فى عهده على انها بلدة قديمة يسكنها الاندلسيون ، ولها ميناء جيد ، ومشتى جميل وابن خلدون يقول ان القبيلة التى تسكنها تدعى « بقاية » فسميت المدينة باسمها ٠

وفى عهد بنى حماد بعد ان هاجمهم الهلاليون وضايقوا عاصمتهم « قلعة بنى حماد » فكـــر الناصر بن علناس رابع سلاطينهم فى تأسيس مدينة جديدة ، وتمكن من احتلال بجاية سنة 453 هـ فشيد بها مدينة بجاية ، واقام بها دارا للصناعـــة « ترسانة » لصناعة السفن ، وفى سنة 483 هـ (1091 م) نقل المنصور بن الناصر عاصمته اليها ، ومن ذلك التاريخ صــــــارت من أهــم المدن الجزائرية ٠

وتمتد حولها السهول الخصبة التى تجود بالقمح والشعير والفاكهة بكميات وافـــرة ، وتنتج منطقتها الاخشاب ومادتي الراتينج والقطران الجيد فى عهد الموحدين : وفى عام 546 هـ ، استولى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واحتلها ابن غانية سنة 579 هـ ثم استولى عليها الحفصيون عام 629 هـ وتوالت عليها الانقلابات ثم جعلها الحفصيون قاعدة لولاية مستقلة ، وغزاها بنو زيان حوالى سنة 719 هـ وغزاها المرينيون وحكموها من سنة 748 هـ الى سنة 763 هـ ٠

وظلت كذلك تابعة لحكمهم حتى هاجمها الاسبان بقيادة بدرو **نافارو** فى فبراير سنة 915 هـ — 1509 م فاستولى عليها ، وجدد حصونها ثم خربها ونهبها وفى عام 919 هـ اغار عليها عروج التركى وعجز عن فتحها ٠

وفى سنة 963 هـ (1555 م) غزاها صالــح بكلربك وبعد سنة اجبر حاكم المدينة الفونسو دبى بيرالتا وكان ذلك فى 28 سبتمبرمن العام المذكـــور ٠

وحكمها الاتراك نحو 188 سنة ، ووضعوا بها حاميـــة عسكرية ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يقهروا قبائلها المجاورة لها ، وفى اواخر عهدهم هجر المدينة سكانها حتى لم يبق فيها الا نحـو الف ساكن فى القرن 18 م ٠ كان منهم الحامية التركية التى بلغ عددها 160 جنديا انكشاريا ٠

الاحتلال الفرنسى : واعدت فرنسا حملة فى ميناء طولون وعهدت بقيادتها للقائـد تريزيل فوصلها فى 19 سبتمبر عام 1833 م — 1249 هـ ٠

وبعد قتال عنيف قام به أهل المدينة من 30 سبتمبر الى 12 اكتوبر دخلها الفرنسيون ولـــم يستقروا بها استقرارا حقيقيا الا بعد ان اخضعوا بلاد القبائل فى حملتهم التى استغرقت ما بين سنتى 1264 هـ — 1847 م = 1275 هـ — 1858 م) ٠ أى اكثـر من 11 عاما ٠

وبعد ذلك اخذ الفرنسيون فى استغلال المناجم العديدة بالمنطقة مع انشاء الطرق ، ومد السكك الحديدية التى تربط الميناء بمناطق القبائل او بسهـــــول سطيف المرتفعة ، وبها معاصر الزيـــت والمدابـــغ وغيرها ٠

وسكان بجاية الآن وقبل الاستقلال بقليل نحو 40 الف نسمة .

10) ما كتبه الاستاذ توفيق المدنى :

مدينة بجاية مدينة التاريخ الحافل ، وعاصمة دولة بنى حماد الامجاد ، مرساها من احسن مراسى القطر الجزائرى ، وحركتها للتصدير والتوريد قديمة ، ونهضتها لايستهان بها ، وقد قضى الاحتلال الاسبانى على آثارها الاسلامية (10) .

11) ما كتبته دائرة المعارف الاسلامية :

جاء فيها : بجاية مدينة بالجزائر على شاطىء البحر تابعة لاقليم قسنطينة وهى على خط طول 9 . شرق جرينوتش ، وخط عرض 49 36 شمالا ويبلغ عدد سكانها وفقا لتعداد سنة 1906 م 5528 نسمة .

وقد بنيت هذه المدينة على شكل مدرج فوق المنحدرات السفلية لجبل جوراية (660 م) وهى تطل عن خليج تحميه من الرياح العاصفة عدة كتل عالية من الصخور ومنـاخ هذه المدينة معتدل جدا فى الصيف ويكثر سقوط المطر الغزير فى تلك المنطقة ولهذا تكثر المزروعات مثل اشجـار الزيتون والصفصاف والسنوبر وغير ذلك.

ولا نعرف الا القليل عن تاريخ بجاية خـلال القرون الثلاثـة الاولى التى اعقبت الفتـح الاسلامى بل اننا لا نعرف ايضا العهد الذى اختفت فيه المدينة الرومانية سالداى Saldae — التى كانت تشغل المكان الذى قامت عليه مدينة بجاية الحالية . ويظهر مع ذلك ان الملاحين لم ينقطعوا عن التردد على هذه الفرضة وان ضاحية من الضواحي قد ظلت باقية على سفح جبل جوراية .

ولم يكن لبجاية شان هام فى تاريخ البربر الا فى عهد بنى حماد ، وذلك عندما رأى سلاطين قلعتهم انهم مهددون بغزوات العرب الهلاليين فعزموا على ان يكونوا على مقربة مـن الشاطىء . ففى عام 453 هـ (1063 م) استولى الناصر بن علناس رابع سلاطين بنى حماد على بجاية وابتنى هناك مدينة سماها الناصرية ولكن الاهالي ظلوا يطلقون عليها اسم بجاية . واجتذب اليها عددا كبيرا من السكان اذ كان يعفى جميع السكان الجدد من الضرائب ، وتذهب الروايات كذلك الى أنه كان يجبر الأهالى على بناء المساكن كما كان يفرض على كل من يدخل هذه المدينة ان يجلب معه حجرا أو يدفع قطعة من الذهب .

واستقر هو نفسه فى تلك المدينة عام 461 هـ وابتنى بها قصـرا أسماه اللؤلؤة كما ابتنى رصيفا ممتدا فى البحر ، ودارا لصناعة السفـن ، وقناطر معلقة بجر المياه ، وسـورا حول المدينة به ابراج ، ونقل ولده وخليفته المنصور عاصمة ملكه من القلعة الى بجاية وذلك عام 483 هـ

10) الاستاذ توفيق المدنى : جغرافية الجزائر (الجزائر . 1953 م ص 117) .

1091 م) وشيد هناك قصر اميمون ، وابتنى مسجدا تزينه منارة ارتفاعها ستون قدما وواجهة بها 17 باكية Porticoes كما جلب اليها المياه من جبل توجه بواسطة القناطر المعلقة · وغدت بجاية بذلك من أهم مدن المغرب ، وكانت هذه المدينة مقسمة الى 21 حيا وتضم 72 مسجدا ، وقد أشاد الرحالون بغناها وعظمتها وبناشاطها التجـــــارى ··· » ·

بجاية فى آخر عهدها الاسلامى : « ولما اعتزم الاسبانيون الاستيلاء على بعض الاماكن فكروا فى انتزاع بجاية من ايدى المسلمين فاستولى بدرونافارو = *Pedro Navarro* على هذه المدينة فى شهر فبراير من عام 1509 م وجدد الاسبان حصونها · اما المدينة نفسها فنهبت وخرب قصر بنى حماد الذى كان لا يزال قائما ، واغار عروج على بجايـــة عـــام 1513 ولكن الاسبان افلحوا فى مقاومته واحتفظوا بالمدينة حتى عام 1555 م غير ان سلطانهم فيها كان مزعزعا ·

وظل اهل القبائل يحاصرون هذه المدينة دون انقطاع فى حين ان حاميتها من الاسبان لـــم يزودوا بالمعونة الكافية من الرجال والزاد والذخائر ، وكانت اسوار هذه المدينة قد تخربت عندما جاء بكلربك صالح رئيس وداى الجزائر لمحاصرتها فلم يمض ستة أيام حتى تم له النصـــــر واجبر الفونسو دى بيرالتا حاكم المدينة على التسليم فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1555 م

وعندما رجع هذا الحاكم الى اسبانيا حوكم امام مجلس عسكرى وحكم عليه بالموت فقطعت راسه ·

واحتفظ الترك بسلطانهم فى هذه المدينة مدة 188 سنة ووضعوا هناك حامية ولكنهم لم يتمكنوا قط من استمالة القبائل المجاورة او اعادة تلك المدينة الى سالف مجدها ولم يكن فى هذه المدينة حتى القرن الثامن عشر الا خمسمائة او ستمائـــة نسمة عدا حاميتها ويبلــــغ عددها 160 جنديا من الانكشارية ·

وبعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر « اعدوا حملــــة فى طولون على راسها القائد تريزل tresel فوصلت الى هذه المدينة فى 19 سبتمبر عـــــام 1833 م وبعد قتـــال عنيف فيما بين 30 سبتمبر و 12 اكتوبر استولى تريزل على المدينة ، وظل مركز الفرنسيين فى بجاية متحرجا بسبب مناوشات اهل القبائل حتى انهم فكروا فى مناسبات مختلفة فى التخلى عن هذه المدينة اذ شعروا ان احتلالهم لها غير مجد ولم يستتب لهم الامن فيها الا بعد غزو اهل القبائل عام 1847 م الى عام 1857 م ومنذ ذلك الوقت اخذ الفرنسيون فى تحسين وادى الصـــومام واستغلال المناجم العديدة الموجودة فى ذلك الاقليم وانشاء الطرق ومد السكك الحديدية التى تربط بجاية بأهل القبائل الكبرى من جهة ، وبسهول سطيف المرتفعة ومجانة من جهة أخرى وفى هذه العوامل كلها جعلت المدينة ترفل فى حلل الرخاء كما انها اعطت ميناءها قيمة تجارية هامـــــة (11) ·

11) ايفير ــ مقال حول بجاية ــ دائرة المعـــارف الاسلامية ج 3 ص 250 ــ 252 ·



حصن غـــورايـــة

بجاية

من خلال النصوص الغربية

جمعها وقدم لها وترجمها
اسماعيل العربي
كاتب جزائري

هذه مجموعة من النصوص مقتبسة من كتب ثلاثة من الرحالين الغربيين (عربي واسباني وانجليزي) زاروا بلادنا وتجولوا فيها وسجلوا ملاحظات عن مشاهداتهم خلال رحلاتهم في اعمال تعتبر من اهم مصادر تاريخ افريقية · والمعلومات التي تقدمها لنا ، تعتبر مساهمة قيمة ولن يفوت المؤرخين الذين يعنون ببحث الفترة بين الاحتلال الاسباني لبجاية وتحريرها على يد الاتراك ان يقدروها حق قدرها · واذا كان وصف الرحالتين ، العربي والاسباني ، للحوادث التي رافقت الاحتلال الاسباني يتسم بالقصور ، حيث لا يعتمد الا على الرواية الاسبانية ، وبالتالي فهو في حاجة الى التنقيح والتكميل ، فان ملاحظات « شاهد عيان » التي خلفاها لنا ، ولا سيما ، ما يتعلق منها بالناحية الاقتصادية ، وموارد منطقة بجاية ونمط الحياة اليومية ، وآثار المدينة وتحصيناتها التي كانت لا تزال قائمة في الوقت الذي زار فيه كل منهما المدينة ، تستحق كلها ان ياخذها الباحث بكل ما ينبغي من الجد والاهتمام · وهذا التحديد الاخير ينبثق ايضا على ملاحظات توماس شو ، الذي كان معتمدا من قبل حكومته في بلدنا ·

ونحن نقدم هذه النصوص الى قراء « الاصالة » الغراء ، مساهمة منا وتقديرا للمجهود الذي بذلته لتسليط الاضواء على مدينة الناصرية ، مقتصرين في ذلك على ترجمتها بما ينبغي من الامانة والدقة ، ودون ان نحاول تحليلها او اثراءها بالهوامش والاضافات ، حيث ان ذلك من شانه ان يخرج بالموضوع عن النطاق المتعارف لحجم المقالة · وهذا ، على كل حال ، نوع من المقالة ، وليس برسالة او اطروحة ·

على ان رغبتنا في الابقاء على اصالة هذه النصوص وعلى طابع تركيبها اللغوي القديم واحترام وحدتها العضوية ، لا تمنعنا من تقديم كل واحد من الكتاب الثلاثة الى القارئ العربي بكلمة وجيزة للتعريف بهم وباعمالهم التي اخذت منها هذه النصوص ·

الحسن بن محمد الوزاني الفاسي Léon l'Africain

له عدة اسماء ٠ والاسم الذى اشتهر به فى اروبا ، هو الذى اطلقه عليه البابا ليو العاشر (وهو اسم البابا نفسه) ويأخذ باللاتينية الشكل التالى :Johannes les Africanusوقد خلع عليه البابا اسمه بعد تنصيره ، تقديرا لعمله ومعرفته وخبرته الواسعة ٠

ولد الحسن الوزانى فى غرناطة فى سنة 1494 ــ 1495 ميلادية ٠ ولهذا الاعتبار ، فهو يسمى أيضا الغرناطى ، كما ينسب الى فاس ، حيث تربى وتعلم ٠ واما تسمية الافريقى ، فيشتقها من كتابته على افريقية ورحلاته فى هذه القارة ٠

وبعد مولده بوقت قصير ، انتقلت به عائلته الى فاس حيث تربى وترعرع ، وبعد ما قـــام بمهام ديبلوماسية كلفه بها بنو وطاس ، رحل الى مكــة فى سنة 921 ، ثم الى اسطنبول ، وعند عودته من هذه الرحلة (وهى الثانية) وقع اسيرا فى يد قراصنة من الصقليين ، نقلوه الى روما وقد موه الى البابا يوحناليو ، بعد ما عرفوا انه من رجال العلم ، وقد أكرمه البابا وانزله عنده واحاطه برعايته ، وجعله يعتنق المسيحية على يده٠

وفى روما ، قام الحسن الوزانى بتحرير عدد من الكتب ، لم يصل الينا منها باللغة العــربية سوى معجم عربى ــ عبرى ــ لاتينى الفه فى سنة 930 (توجد نســـخة خطيــة منه فى مكتبـــة الاسكوريال) ٠ واما كتابه ، وصف افريقية الذى نقتبس منه النص التالى ، فقد وضعه باللغــة العربية ، ثم ترجمه الى اللغة الايطالية فى سنــة 1526 م ٠ ولكن النص العربى تلف ٠ وقد نشر راموزيو Romusio النص الايطالى فى سنة 1550 فى البندقية ، ونشر براون R. Browne فى لندن فى سنة 1896 م النص الانجليزى الذى كان قد ترجمه بورى J. Pory فى سنة 1600 م ٠ وفيما يلي نقتبس النص الذى يتعلق بوصف بجاية من النص الانجليزى الذى نشر بعنوان : The History of Africa (الكتاب الخامس ــ ص 699 ــ 702)٠

حينما بوبت تاريخ البربر فى الجزء الاول من كتابى هذا ، قررت ان اكتب عن بجاية باعتبارها مملكة مستقلة ٠ (ولما وصلت اليها) ، عرفت انها كانت منذ سنوات غير بعيدة مملكــة ، ولكنها كانت خاضعة لملوك تونس ٠ وبعد وقوعها خلال بضع سنوات تحت حكم ملك تلمسان ، عادت المدينة الى حكم ملك تونس الذى ولى عليها احــد ابنائه ، وقد اتخذ هذا الاجــراء لضمان هدوء المدينة وأمنها ، من جهة ، ولكي يأمن من قيام نزاع (على الملك) ، بعد وفاته ، من جهة أخرى ٠

خلف ملك تونس ثلاثة اولاد ، اكبرهم سنا يسمى عبد العزيز ٠ وهذا هو الذى ولاه عـلى بجاية ، ويسمى الثانى (ابا عمرو) عثمان Hutmen ، وقد ترك له ابوه مملكة تونس ، والثالث يسمى عمر Hommare ، ولاه على منطقة التمور (الـزاب) ٠

وهذا الولد الاخير ، لم يلبث ان شن حروبا ضد اخيه (ابو عمرو عثمان) الذى غلبـه فى نهاية الامر فى مدينة صفاقس وفقأ عينيه ثم ارسله الى تونس حيث عاش عدة سنوات أعمى ، وقد ظل اخوه عثمان ملكا على تونس اربعين سنة ٠

واما امير بجاية الذى كان محبا لاخيه مراعيا للواجب معه ، فقد ظل على حكم المدينة عدة سنوات عرفت خلالها بجاية فترة من الهدوء والســلام ، وذلك قبل ان يطرده منها الملك فرديناند (ملك اسبانيا) ، بواسطة احد ضباطه ، بيدرو نافارو ٠

وصـــف بجاية :

بنيت هذه المدينــة القديمة التى يعتقد البعض انها شيدت فى عهد الرومان ، على سفـــح جبل مرتفع على مقربة من البحر الابيض المتوسط والمدينة يحيط بها صور عال متهدم يشهد بعظمة بجاية فى العصور الخالية ٠

والقسم المعمور من المدينة حاليا ، يبلغ عدد سكانه نحو 8000 اسرة ٠ ولكن المدينة تتسع ـ لو أعيد بناء منازلها كلها ـ لاكثر من 24 الـف اسرة ، لانها مدينة طويلة جدا ٠

ومبانى المدينة ومعابدها يسودها طابــع من عظمة الفن المعمارى ، وفى بجاية عدد كبير من العلماء الذين يدرس بعضهم علوما تتصل بالقانون ، والبعض الآخر العلوم الطبيعية والفلسفة ٠ وفى المدينة كثير من المساجد والفنادق والمستشفيات ٠ وفيها ايضا اســـــواق واسعة عامرة وطرقها وشوارعها تصعد وتهبط بصورة تجعـــل السير فيها شاقا على السكان الذين يقصدون الى وسطها لممارسة اعمالهم اليومية ٠

وفى اعالى المدينة ، غير بعيد من قمة الجبـــل ، تقف قلعة تمتاز ببنيانها الشامخ والانيق وباسوارها العالية (1) ٠ وفى المدينة نقوش على الفسيفساء (2) وعلى الخشب يعتقد ان تكاليف اعمالها اكبر من تكاليف بناء المدينة نفسها ٠

---

1) ربما كانت هذه القلعة التى بناها الناصر بن علناس وخربها الاسبان ، وكانت تسمى « البرج الاحمـــر » ٠

2) فى الاصـــــل : Plaster - Work

وقد كان سكان المدينة يتمتعون بثراء كبير كما كانت سفنهم الحربية تحمل الخراب الى شواطىء اسبانيا باستمرار · وهذا هو السبب الذى حمل الاسبان على غزو بلدهم حين ارسلوا بيدرو نافارو على رأس اسطول يتكون من 14 سفينة حربية ·

ونظرا لان سكان المدينة كانوا يعكفون على اللذات والمتعة ، وكانوا يرتجفون من الخوف للاشاعات التى تتصل بالحرب ، حيث كانت الحرب لا تثير حماسهم ولم يكونوا متمرنين على اساليبها ، فقد هربوا مع ملكهم عند مقدم بيدرو نافارو ، وتركوا المدينة بكل ما فيها من الكنوز والتحف التى وقعت غنيمة فى يد الاسبان · وقد استولى الاسبان على بجاية سنة 917 هجرية وبعدما استولى بيد رونافارو على المدينة ونهبها ، قام ببناء قلعة منيعة على شاطىء البحر ، كما قام باصلاح قلعة أخرى ظلت مهدمة وقتا طويلا ، ووضع فى القلعتين حاميات من الجنود وزودهما بالذخيرة والمؤن ·

وبعد ذلك بست سنوات ، استولى بربروس الذى كان يريد احتلال المدينة واخذها من المسيحيين ، على القلعة القديمة على رأس ألف جندى ، وقد تمكن ، من ذلك بمساعدة سكان الجبال المجاورة · ولكنه فقد منذ الجولة الاولى فى المعركة مائة من جنوده الذين كان معظمهم من الاتراك كما خسر 400 مقاتل من اتباعه من سكان الجبال الذين جاءوا لمساعدته · وعلى اثر ذلك اضطر باربروس الى الهروب الى قلعة جيجل التى سنذكرها ·(انتهى الاقتباس)·

مارمول : Corvajal Marmol

سائح ومؤرخ اسبانى ، ولد فى غرناطة وعاش فى القرن السادس عشر · اشتغل ضابطا فى جيش الامبراطور شارل كينط واشترك فى الحملة التى شنها الاخير على تونس فى سنة 1536 · وقد وقع اسيرا فى يد العرب وبقى فى شمال افريقية قرابة ثمان سنوات · وفى غضون هذه المدة ، أتيحت له فرصة للسياحة والنزهة فى رفقة اسياده فى مختلف اطراف البلاد · وكذلك استغل وقته لتعلم اللغة العربية التى تمكن بواسطتها من جمع معلومات تاريخية وجغرافية عن هذه البلاد · وبمجرد حصوله على حريته ، قام بتحرير كتاب كبير (معتمدا خصوصا على ملاحظات الحسن الوزانى) · وهذا الكتاب الذى وضعه فى غرناطة فى سنة 1573 بعنوان « وصف عام لافريقية » لا تزال له قيمته ، وهو الذى نقتبس منه النص التالى · وقد قام بترجمته الى اللغة الفرنسية ونشره فى ثلاثة اجزاء ، باروت دالبان كورت P. d'Abancourt فى سنة 1667 م ·

والمعلومات التى يقدمها المؤلف تشمل جميع مناطق افريقية الشمالية حتى النيجر ــ بما فى ذلك الصحراء الكبرى ــ واثيوبيا ومصر ·

والكتاب يشتمل على سرد تاريخى مجمل للمعارك التى وقعت حتى سنة 1574 م ·

وكذلك وضع كتابا تاريخا آخر ضمنه وصفا للثورة التى قام بها المسلمون فى غرناطة فى عصر فليب الثانى وللفضائع التى ارتكبها هذا الملك المسيحى (1) · ورواية المؤلف لهذه الحوادث بوصفه شاهد عيان ، لا تزال تمثل المادة الاساسية والمرجع الاول لهذه الثورة ·

ولايـة بجاية فى مملكة تلمســان :

هذه هى الولاية الاخيرة فى موريطانيا القيصيرية من جهة الشرق · وفى غربها تمتد ولايـة الجزائر حيث تقع مدينة تنس · وعلى شرقها تقع مدينة القل ومنطقتها · ويحد ولاية بجاية من الشمال · البحر الابيض المتوسط ، ومن الجنوب ، نوميديا ، او بلاد الجيطول ، وبعض الكتـــاب يضعون ولاية بجاية ضمن مملكة تونس ، ولكن افضـــل الكتـــاب يسيرون على نهـــج بطليموس ويعتبرونها ضمن مملكة تلمسان التى هى موريطانيا القيصرية ·

من الصحيح ان بجاية كانت تابعة خلال فترة من الزمان لملكة تونس ، بعد ان اخضـــع ملوكها تلمسان ، حيث ان الملك قد نصب لدى عودته من تلمسان احد ابنائه على بجاية وخلع عليه لقب الملك · وهذا الملك التونسى ، خلف ثلاثة اولاد ، منح اكبرهم سناعرش تونس ، ونصب الثانى على ولاية الزاب ، فى نوميديا ، او جيطوليا · ولكن الابن الاخير ثار على اخيه ، عقب وفاة ابيه ملك تونس ، واستولى على عدة مدن فى مملكته ، بمساعدة بعض النوميديين والعرب · ولكن اخاه هزمه فى نهاية الامر ، وخيره بين احد الامرين : القتل ، او فقد بصره · ولما اختار العمى ، افقده اخوه بصره بواسطة صحن محرق من النحاس ، فقد عاش مدة طويلة وهو اعمى ، وفيما بعد ، منح عثمان اخاه الثالث ، عبد العزيز مملكة بجاية ، حيث ظل ، هو وابناؤه ملوكا حتى استولى عليها بيدرو نافارو ، وفى هذه الفترة كانت بجاية مملكة ، ولكنها ضمت الى تونس ·

وبجاية تحيط بها من جميع الجهات جبال مرتفعة تتدفق فيها عيون ثرة · وفى هذه الجبال ، يقطن عدد من القبائل الزواق Azuague والبربر الشجعان الذين يفخرون بنسبهم وكرمهم · وهؤلاء يملكون ثروات من الحيوانات الصغيرة والكبيرة ، ويوجد عدد كبير منهم ممن يحسنون الرماية ومن الفرسان ·

وهذه الجبال ، لا تزال على طبيعتها الاصلية (2) ، وهى ذات مسالك وطرق وعرة ، بحيث ان سكانها يعيشون فى حرية تامة ولا يخضعون للسلطان ولا يعبئون بقوة الملوك ·

(1) Historia del Rebelion Y Castigo de los Morisco del Reymo de Grenada, Malaga, 1600 ; Madrid, 1797, 2 vol.

(2) فى الاصـــل : Sauvages

وفى السهول المجاورة (لبجاية) تعيش جماعات من العرب والزواق الذين يسيرون على نمط واحد من الحياة ويتنقلون بخيامهم فى الارياف ، انهم رجال شجعان ويملكون اسلحـــة ناريــة • ومعظمهم يمارسون مهنة نسج الاقمشة والسجاد المصنوع على الطريقـة العربية ، وغـــذاؤهم يصنعونه من دقيق الشعير ، كما يقتاتون باللحوم والتين والجوز الذى يجففونه ويخزنونه لسنة باكملها •

وفى هذه المنطقة يوجد عدد من مناجم الحديد التى يستخرجون الحديد الخام منها ويصنعون منه قطعا صغيرة يستعملونها نقودا • ولكنهم يملكون ايضا نقودا من الذهب والفضة ، كما يملكون كميات كبيرة من الصوف والقنب الذى يستعملونه لصنـــع الاقمشة •

ونساء هذه المنطقة يتمتعن بكثير من الجمال ورجالهن شديدو الغيرة عليهن • والرجال فى هذه المنطقة اشداء اقوياء السواعد واحرار ، ولكنه ينقصهم النظام• ودابهم محاربة بعضهم البعض الآخر • وهم يحصدون زرعهم فى السهول المجاورة ، ونحن ستعرض الخصائص الاخرى التى تميز هذه المنطقة ، حينما نتعرض لوصف جبال البلد ، بصفة خاصة • واما الآن ، فسنتحدث عن المدن •

بجايــة عاصمة الولايــة :

انها مدينة عظيمة ، كان يسكنها فى ايام عزها اكثر من عشرين الف اسرة •

بنى الرومان بجاية على سفح جبل كبير مشرف على البحر ، على مسافة ثلاثين فرسخا فى شرق الجزائر ، وعلى مسافة اثنى عشر فرسخا من جيجل • وبطليموس يحدد وضـــع بجاية عند درجة 22 درجة طولا ، و 32 درجة و 30 دقيقة عرضا • وقد كانت المدينة محاطة باسوار عالية ولكن الخليفة الشيعى (؟) خربها جزئيا عندما اخضعها • وبعد ذلك ، عاد اليها سكانها ، ولكنها لم تستعد عظمتها وقوتها • والمدينة قائمة على سفح جبل وتمتد حتى قمته ، حيث توجد قلعة مغلقة على نفسها ، وحيث تقف قصور عربية شامخة ، تمتاز بالجمال اكثر مما تمتاز بمتانة البنيان •

ومن جهة البحر ، تقف قلعة اخرى تعلوها ثلاثة ابراج • ومنازل المدينة متينة البنيان • وفى المدينة عدة مساجد وعدد كبير من المدارس التى تدرس فيها مختلف العلوم •

والمدينة تحيط بها غياض واجنة تمتد خصوصا فى الناحية الشرقية ، وبعد ذلك تنشر غابــة كثيفة يعيش فيها عدد كبير من الاسود والقردة ، والبلد لا ينتج القمح بوفرة ، ولكن السكان ، مـــع ذلك فى بحبوحة من العيش ، بسبب النشاط التجارى الذى يمارسونه مع اروبا • ونظرا لان الملك عبد العزيز كان رجلا وديعا مسالما وصديقا للجميع ، فقد عاش سكان المدينة وقتا طويلا فى ظـــل السـلام ، على ان الرغبة فى المزيد من الثروة دفعت السكان الى تسليح سفنهم والانطلاق فى غـزو

الشواطىء المسيحية · ولما رأى الملك فرديناند ما يلحقونه بهذه الشواطىء من الاضرار ، وجـه اليهم بيد رونافارو الذى استولى على المدينة ، كما سنـرى ذلك ·

استيلاء بيد رونافارو على بجايـة :

ففى سنة 1510 م ، ابحر بيد رونافارو عـلى رأس اسطول يتكون من 14 سفينة حربية كبيرة تحمل على متنها جنودا · وعلى الرغم من ان المدينة كان يسكنها اكثر من 8000 اسرة ، وهو عدد يكفى للدفاع عنها ، فان السكان قد هجروا المدينة واعتصموا بالجبال ، بمجرد مالاح لهم الاسطول الاسبانى ، وذلك لاعتقادهم بانه بمجرد ما يقوم هذا الاسطول بنهب المدينة سيجلو عنها ويعـود ادراجه · ولكنه (بدلا من ذلك) ، أمر القائد الاسبانى ببناء قلعة على الشاطىء ، فى المكان الذى يقع فيه مرسى المدينة الحصين·· وبينما كان منهمكا فى العمل على رأس خمسة عشر ألف رجـل لتحصين المدينة ·

وبينما كان القائد الاسبانى يفكر فى القيام بغزوات فى المنطقة ، دخل الى المدينة بكل هدوء فى يوم عيد الفصح امير عربى ، هو ابن اخ الملك الذى هرب الى الجبال والذى كان قد استولى عليها من قبل بطريق الغدر والخيانة · وقد غدر بهذا الامير عمه بالطريقة التى ساصفها :

فقد سار الامير لجباية الضرائب فى قرى ثائرة فى جوار بجاية وولى عمه حاكما على بجاية خلال فترة غيابه · ولكن العم استعان بسكان المدينة وقام بثورة على ملكها · ولما رجع ابن اخيه بعدما انتهى من مهمته ، اعتقله وفقأ عينيه · وقد ظل هذا الأمير فى السجن بعد ذلك ، حتى مجىء بيد رونافارو ·

ولما هرب الملك والسكان من المدينة ، اطلق سراحه وهرب هوايضا · ولكنه بعد بضعة ايام ، سار على رأس عشرة فرسان ومثلهم ومثلهم مـن الرجالة ومعه شيخ من اصدقائه لا يتجاوز عمره ثمانية عشر عاما · (ولما) كان يحمل معه علما ابيض طلبا للامـان فقد استقبله الكونت خـير استقبال ثم عهد به الى احد الجراحين وكلفه بمعالجة عينيه·وقد اكتشف هذا الجراح أن عينىالامير لم تفقئا ، وان كل ما فى الامر هو انهما عندما تعرضتا للنحاس الشديد الحرارة ذابت اللحمـة المحيطة بهما وانغلقتا · وما كان من الجراح الا ان قام بازالة اللحمة · واثر ذلك عاد الى الامير بصره · ولكي يرد الجميل بالجميل ، اخبر الاسبان بان عمه وسكان المدينة قد التجئوا الى مكان يقع بين الجبال وعرض عليهم ان يقوم هو بدور الدليل ليرشدهم الى المكان لمفاجاتهم ·

وعقب ذلك مباشرة ، بعث الكونت الذى سر لهذا الخبر باثنين من رجاله ، وأرفق بهما اثنين من العرب ،للتعرف على المكان الذى التجأ اليه سكان بجاية · ولما عاد هـؤلاء ابلغوا الكونت ان

المكـان لا يبعد عن المدينة الا بسبعة فراسخ ، وان هذا المكان ، عبارة عن مروج واسعة ، الاطراف تمتد بين الجبال ، وان من الممكن الوصول اليها باتباع طريق تعرفوا عليها ٠

واثر ذلك ، سار الكونت ليلا على رأس خمسة عشر الف مقاتل مصطحبا مع الامير وحاشيته ولما اصبح الصباح ، وصلوا الى جوار المروج دون ان يقابلوا احدا فى طريقهم . (ولما اقتربوا من المكان) ، شاهدت الطليعة مجموعة من الاشجار توهمت انها خيام العرب وابلغت الكونت اكتشافها ولكن الكونت الذى ادرك خطاهم ، زحف فى الاتجاه الصحيح على خيام العرب التى كانت تقـع على مسافة نصف فرسخ من موقعه ٠

على ان العرب الذين تنبهوا لزحف الاسبان كانوا قد شرعوا فى الفرار ٠ غير ان الاسبان طاردوهم حتى قمة الجبل وقتلوا واسروا منهم عددا كبيرا اثناء المطاردة ٠ وفى نفس الوقت اشعلوا النار فى مخيم العرب ، بعدما نهبوه وجمعوا كل ما حوله من القطعان ٠ وقد غنمـــوا فى هذه العملية 900 جملا ومثل هذا العدد من البقر وعددا كبيرا من الخيول والبغال ورؤوس الغنم ، كما استولوا على كثير من نقود الذهب والفضة والاقمشة وجميع خيول الملـــك وسروجه واحجاره الكريمـــة ٠

وبعد ذلك ، انسحب الكونت بنظام وعاد ادراجه دون ان يتعرض لهزيمة على يد العـــرب الذين كانوا ، مع ذلك يناوشونه من جميع الجهات اثناء السير ٠ بل انه قتل عددا منهم ولم يفقد جيشه سوى جندى واحد كان قد خرج من الصفوف

ولما اقترب الكونت من المدينة ، استقبله الاسقف الجديد على رأس جميع الكهان الذين رتلوا امامه اناشيد دينية ، ثم اقيمت حفلات سادها السرور والابتهاج ، على الرغم من ان الجنود كانوا متعبين ، فان الجيش ، زيادة عن اجتيازه نهرين كان احدهما فى حالة فيضان غير عادى بســـبب الثلوج التى كانت تذوب حينئذ وتغذيه بالمياه ، فقد واجه قبل ان يقتحم السهل الذى خيم فيه العرب تحصينات وعراقيل وفخاخا عند كل خطوة ٠ وقد ذكر العرب الذين وقعوا فى الاسر ، ان اللاجئين كانوا يعتقدون ان هذه العوائق كانت كافية لوقف زحف المسيحيين ٠

وبعد ذلك ، توالت هجمات العرب على بجاية ، وكانوا ينصبون للقوات الاسبانية كمينا اثر كمين ، وقع فيها عدد من القتلى والجرحى من الجانبين ، ولكنه لم يقع شىء يستحق التسجيل ٠

وفى هذه الاثناء ، انتشر بالمدينة وباء ، لم يلبث ان اتسع نطاقه ، بحيث كان عدد الموتى يبلغ مائة فى اليوم الواحد ٠

واثر ذلك ، غادر الكونت بجاية واتجه الـى طرابلس للهجوم على هذه المدينة ٠

وفى هذا الوقت جاء بربروس وضرب حصارا على بجاية على رأس قوة تتكون من الف مقاتل تركى وعشرين الف مقاتل من سكان الجبال المجاورة ٠ وبعد ما اقتحم احد حصنى المدينة ، هجـم على الحصن الآخر ٠ وفى هذا الهجـوم الاخيـر ، اصيب بطلقة مدفع قطعت ذراعه ٠ وعند ذلك انسحب بربروس ، تاركا وراءه مائة قتيل من الاتراك واكثر من خمسمائة قتيل من العرب ، ومـن هناك رحل الى جيجل ٠

استيلاء الاتـراك على بجاية :

ظلت بجاية 35 سنة (1) تحت حكم الاسبانيين الذيـن كانوا يحتفظون بحامية فى قلعتيها تتكون من 500 رجل ٠ وانطلاقا من المدينة كانـوا يقومون بغارات على المناطق المجاورة ، ولكنهم قلما كانوا يتوغلون بعيدا فى الداخل ، بسبب شدة شوكة السكان وصعوبة هذه الجبال ٠

واخيرا وفى سنة 1555 م ، ضرب صالح الرايس ، حاكم الجزائر حصارا على بجاية من جهة البر ، على رأس قوة يبلغ عدد افرادها اربعين الف مقاتل من الرماة والجنود المسلحين بالبنادق ، ومن جهة البحر بقوة تتكون من عشرين سفينة حربية ٠ وبعدما استولى على حصن الامبراطور الذى كان الاسبان قد تخلوا عنه ، حيث لم يكن فى استطاعتهم الدفاع عنه ، حاصر الحصن الواقع على البحر والذى لم تكن حاميته تتجاوز 40 رجلا ٠ وبعد ما سلط عليه نيران المدافع خمسة ايام كاملة تمكن من الاستيلاء عليه ٠

وعقب ذلك حاصر القصر الاكبر ، حيث كان القائد ، دوم الفونس دوبيرالت متحصنا على رأس بقية قواته ٠ وبعد ضربه مدة 22 يوما ، ورأى القائد انه لم يعد فى امكانه المقاومة ، استسلم لكي يتمكن من انقاذ حياة النساء والاطفال ، واشترط ان يسمح له ولمن معـه بالخروج من المدينة احرارا ووضع سفن تحت تصرفهم لتنقلهم الى اسبانيا ٠

ولكن التركي ، نقض وعده ، واسر جميع من كان في القصر ، ما عدا الدوم الفونس وعشرين من رجاله الذين ترك له حرية اختيارهم ٠ (انتهى الاقتباس عن الجزء الثانى ص 415 ـ 418)

ثومـاس شـو : Thomas Show

عاش ثوماس شو البريطانى عدة سنوات فى الجزائر ، حيث كان معتمدا يمثل بلده فى اوائل القرن الثامن عشر ، وقد تجول فى مختلف اطراف البلد وسـجل ملاحظات بعناية ودقـة عن

(1) الصواب 45 سنة (المتـرجم) ٠

مشاهداته ، فترك لنا وصفا ممتعا ومفيدا للبلد ، تحت العثمانيين ، لا للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فحسب ، بل وايضا للحيوانات والانهار والجبال والمدن الخ · وقد ساعد هذا الرحالة الجامعى فى اداء هذه المهمة ، معرفته باللغة العربية التى قرأ بها بعض كتب التاريخ العـــربية ، والمامه باللغة القبائلية ، وكذلك رجع شو الى وصــــف الحسن الوزانى الذى سبقه بنحو قرنين واستقى منه مادة لتكميل معلوماته واشار الى ذلك بما ينبغى من الامانة العلمية ، والجدير بالذكر ان رحلة شو قد افضت به ايضا الى تونس ومصر وفلسطين وسورية وقد وصف مشاهداته فى هذه البلاد بنفس العناية والدقة والامانة · ونحن نقتبس النص التالى من الطبعة الثانية من الرحلة التى نشرت فى لندن فى سنة 1738 ، تحت عنوان :

Th. Show, Travels and Observations relating to several parts of Barbary and the levant.

وعلى مسافة قصيرة من متزكوب Netse Coube يقــع ميناء بجاية التى يســـميها استرابون Strabon صاردو Sardo اوصالدى Salda · وهذا الميناء اكبر كثيرا من ميناء وهران ومن ميناء ارزيو ، ولكنه يتكون على نفس المنوال من لسان من اليابسة يتوغل فى البحر وكان معظمه فى الازمنة الغابرة مفروشا باحجار منحوتة · ويمتد على هذا اللسان من اليابسة ، انبوب ينقل الماء العذب الى الميناء · ولكن حائط الميناء والانبوب والصهريج الذى يفـــرغ فيه الماء ، كلها اليـــوم مهدمة · بل انه لم يبق فى المنطقة قائما سوى ضريح السيد بوصغرى Busgaree ، احـــد اولياء المدينـــة ·

وبجاية (او Bougia كما يسميها الجغرافيون المحدثون) ، تقوم على انقاض مدينة كبيرة قديمة · وهي مبنية على نفس المنوال وفى موقــع مشابه لموقع مدينة دلس Dellys ولو ان قطرها يبلغ ثلاثة اضعاف دلـــس ·

والى جانب الحصن الذى يقف على قمة الجبل والذى يشرف على المدينة كلها يوجد حصنان آخران فى اسفلها يحرسان الميناء · وفى أســـوار هذا الحصـــن ، يمكن مشاهدة الثغرات التى احدثتها قنابل المدافع التى اطلقها ضدها السير ادوارد اسبراج E. Sprag فى سنة 1671 م · اثناء حملته المشهورة على هذه المدينة (1) ·

وفى بجاية حامية تتكون من ثلاث سرايا من المشاة ، ولكنها ذات فعالية ضئيلة ، حيث انها لا تمنع قبائل جورايا وتوجه المجاورة من ضرب حصار شبه مستمر على المدينة ·

---

1) راجـــع Atlas Géog. Vol. IV, p. 191 (هامش المؤلف)

وفى محل يوم تقام فيه السوق ، تحمل هذه القبائل منتجاتها الى المدينة · وما دامـــت المعاملات جارية ، يسود الهدوء فى السوق · ولكنه فى نهاية المعاملات ، تنقلب الامور رأسا على عقب ولا يكاد ينقضى النهار دون وقوع اضطرابات بين مختلف القبائل ودون حدوث اعمال السرقة·

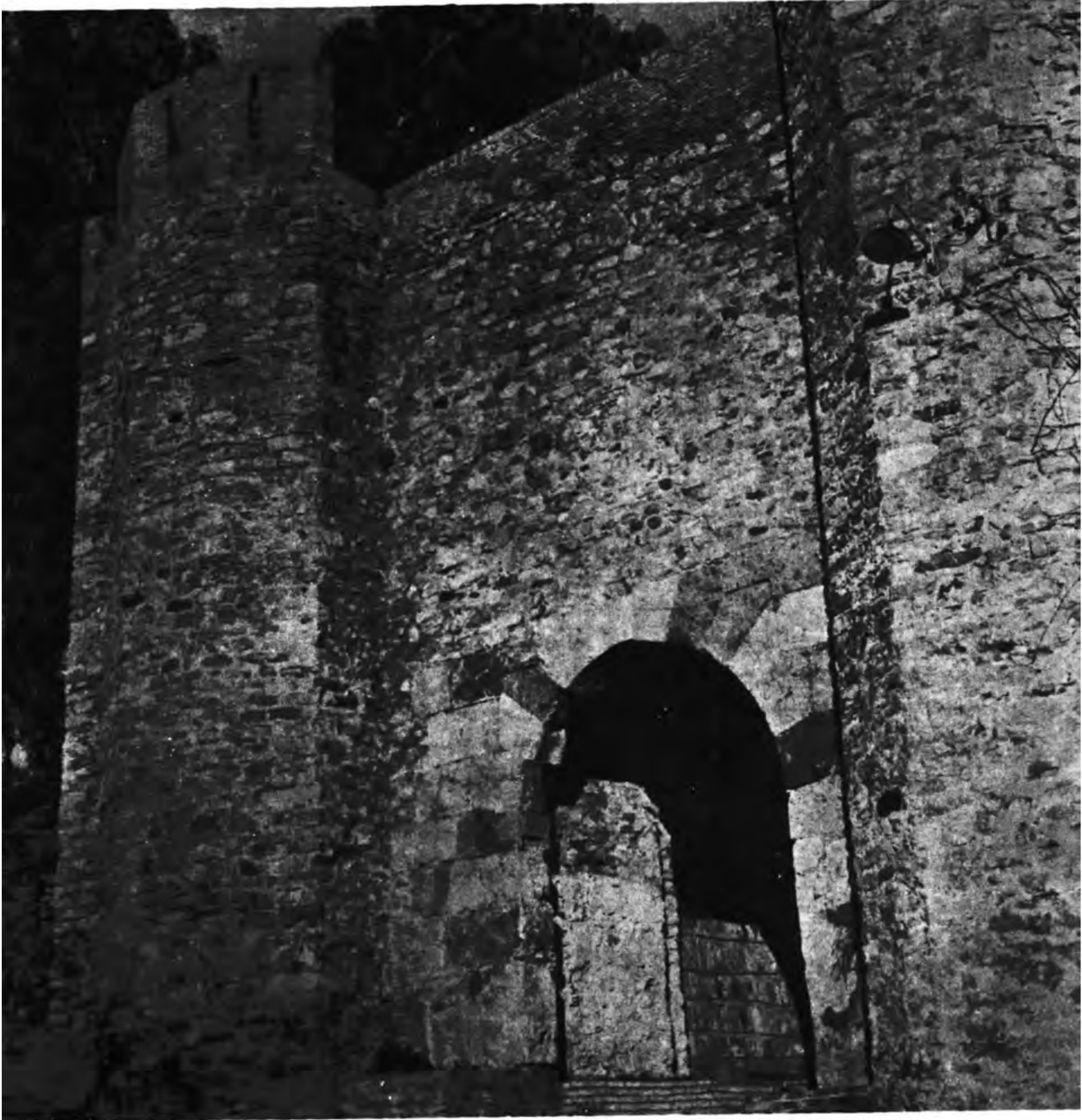
وسكان بجاية يمارسون تجارة واسعة ، خصوصا ، فى المحارث والفؤوس وغير ذلك من الادوات التى تصنع من الحديد الذى يستخرج من المعادن الواقعة فى الجبال المجاورة · وهؤلاء التجار يشترون ايضا كميات كبيرة من الزيت والشمع من القبائل المجاورة ويصدرونها الى اروبا وبلاد المشـــرق ·

وبجاية تقع على مسافة 81 فرسخا رومانيا (34 فرسخا) من مدينة دلس ، او روسكريوم Rusucurum الرومانية · وبجاية لا بد وان تكون هى مدينة صلدى Saladâe التى يضعها بطليموس فى موضع متوغل الى الجنوب ، كما اشرت ، حيث يحدد موقعها عند 32 درجة و 30 دقيقة ، عرض ــ أى حوالى اربع درجات ابعد مما ينبغى الى الجنوب · وابو الفدا اقرب الى الصـــــواب حين يضعها عند درجة 34 ، اذ لا يبعد بها عن موقعها الحقيقى الابدرجتين و 48 دقيقة (1) ·

والحقيقة ان بجاية هى المدينة الوحيدة التى يذكرها ابو الفدا فى هذه المنطقة من بلاد البربر ــ وهو أمر يوحى بالاعتقاد بان مدينة الجزائر لم تكن موجوده (كذا) فى عصره ، او انها كانت مدينة غير ذات بال ·

ونهر بجاية الذى يسميه بطليموس «ناسافا » Nacava ينصـــب فى البحر فى شرقى المدينة · والنهر يتلقى عدة روافد عند مختلف الجهات التى يمر بها ، ولكنه لا يتلقى اية روافد عند المسيلة كما زعم بعض الجغرافيين المحدثين · وهذا النهر طويل · واذا استثنينا (سهول) سطيف وحمزة (البويرة حاليا) ، فان جميع المناطق التى تمر بها فروعه تتكون من ارض جبلية صخرية ، الامـــر الذى ينجم عنه فيضان وسيول ، ولا سيما فى فصـــل الشتاء ، وخسارات فى الارواح والممتلكات لسكان منطقة بجاية · وبنو مسعود الذين يعيشون عند مصـــب نهر بجاية كثيرا ما يتضررون من فيضان النهـــر وعتوه · انتهى الاقتباس ·

1) موقع بجاية الحقيقى هو : 36 درجة و 42 دقيقة ، عرض شمالى ، و 2 درجة و 50 دقيقة طول شـــرقى (المترجم) ·



باب البنود (بجاية)

نظـرة على تاريخ بجـاية

السيدة عالمة

موقـع جميـــل :

تقع بجاية على مسافة 230 كيلو متر من الجزائر ، عند مصب وادى السومام ، عند آخر سفوح جبل جورايا . وقد لعبت بجاية التى كانت عاصمة بنى حماد دورا مهما فى تاريخ بلدنا . والمدينة متحصنة من الرياح بواسطة الجبال الصخرية المحيطة بها . واما الجون الذى تقع على شواطئه فقد استلفت انظار الملاحين الذين يبحثون عن ملجىء مامون منذ اقدم العصور .

العصور القديمة

لا شك وان بجاية كانت مأهولة منذ العصـورالمتوغلة فى القدم وانما كانت مقصودة من الملاحين بسبب الجون الذى تقع عليه · ومنذ العصــورالقديمة استلفتت بجاية نظر البحريين الفنيقيين والقرطجنيين الذين أنشأوا قواعد تجارية على شواطىء البحر الابيض ـ تلك القواعد التى ورثها النوميديون ، فيما بعد · وبعد سقوط قرطجنة ،تحولت هذه القواعد التجارية واصبحت من ضمن المستعمرات التى اسسها الرومان تحت الامبراطورأغستس · وحينئذ أخذت بجاية اسم « صلادى »، او ، حسب النقوش الاثرية التى عثر عليها ونقلتالى باريس حيث حفظت فى متحف « اللوفــر » « صالدانتيوم » Saldontiune وقد كانتصلادى التى عرفت نشاطا تجاريا مهما ، تتمتع بكثير من الرخاء ، ولم تلبث ان اصبحت مقــرأسقفية · والمدينة تحتفظ حتى الآن ببعض الآثار للعصر الرومانى ، ومثلها فى ذلك ، مثل غيرهامن المستعمرات الرومانية فى هذه البلاد ·

على ان هذا البلد الذى كان يتشبث بحريتـهواستقلاله ، لم يكن راضيا عن الحكم الرومانى ٠ وكذلك وقعت عدة ثورات على الرومان واستمرت الاضطرابات حتى وصول الوندال الذين حملوا معهم الخراب والدمار فى كل مكان حلوا فيه ٠

جاء الوندال الى افريقية فى القرن الخـامس الميلادى ٠ وتقول بعض الروايات ان ملكهم جنسيريك قد اختار بجاية عاصمة للـوندال ٠ وقد اتخذت المدينة تحت الوندال اسم جورايـا ، وهى كلمة تعنى « الجبل » بلغة هؤلاء القـوم ٠ وهذا هو الاسم الذى سيحمله فيما بعد ذلك الجبل الذى يشرف على المدينة ٠ وقد استمر احتـلال الوندال لافريقية وقتا طويلا يزيد عن القرن ٠

وبعد الوندال، سقطت بجاية فى يد البيزنطيين الذين واجهوا عدة ثورات قامت بها المدينـة ومنطقتها ٠ وقد استمر حكم البيزنطيين اكثر من قرن ، قبل ان يطردهم منهـا العـرب الـذين استقبلهم البلد باعتبارهم محررين له بكثير من الحماس على ان بجاية لم تقم بأى دور فى بداية العصـر الاســلامى ٠

من صالدى الى بجاية

لقد قضى الاسلام الذى انتشر ببطء فى المغرب ابتداء من القرن السابع الميلادى ، على المسيحيـة والديانة اليهودية التى كان يعتنقها البربـر فى بضعة عقود ٠ واذا كان الدين الاسلامى قـد انتشر من بداية الفتح الاسلامى ، فانه لم يستقر تماما الا فى العصر الحمادى ٠

وقبل ان يغادر الفاطميون المغرب الى مصـر ، حاولوا بث عقائد الشيعة فى الجبـال وفى اقصى الارياف ٠

وبعد رحيل الفاطميين ، حلت محلهم دولتـان صنهاجيتان : الزيريون فى القيروان ، فى المناطق الشرقية من المغرب ، وبنو حماد الذين أنشـأوا مدينة القلعة فى سنة 397 هـ (1007 م) ، فى معظم مناطق المغرب الاوسط ٠ وكانوا فى مبدأ الامـر يدينون بالولاء للفاطميين ، ولكن الزيريين نبذوا طاعتهم فيما بعد ، الامر الذى اثار حنـق الفاطميين وأطلقـوا العنـان لقبائل بنى هـلال ليعيثوا فسادا فى افريقية ٠

ولما شعر بنو حماد بتهديد العربان لعاصمتهم ـ القلعة ـ فكروا فى نقل قاعدة ملكهم الى الشواطىء وانشأوا بجاية ٠ وبجاية ، كما يقول ابن خلدون، هو اسم القبيلة البربرية التى كانت تسكن هذه المنطقة ، والجيم فى بجاية ، فيما يقول هذا المؤرخ، تلفظ بين الجيم والكاف ٠

بجـــاية الحمـادية

فى سنة 460 هـ (1067 ـ 1068 م) احتـــل الناصر بن علناس ، خليفة بولكين بن زيرى ، مؤسس مدينة الجزائر وخليفة حماد ، جبل بجاية حيث بنى مدينة سماها باسمه « الناصريـــة » ولكن المدينة الجديدة سوف لا تعرف فى التاريخ الا باسم بجاية • والاسراع فى بناء المدينة التى قامت فى وقت قصير ، قيل ان الناصر قد الــزم جميع رعاياه بان يقوم كل واحد منهم ببناء منزل ، وكل من دخل اليها بان يحمل معه حجرا للبنـــاء أو يدفع قطعة ذهبية • وقد عمل الناصر عـــلى اعمار المدينة الجديدة بتشجيع الناس للاستقرار فيها ، باعفاء السكان مـن الضرائب • وكذلك بنى فى المدينة قصورا عظيمة يسمى احدهـا « قصر اللؤلؤة » • وقد استقر العاهل الحمادى فى المدينة الجديدة فى سنة 461 (1068 ـ 1069 م) •

توفى الناصر بن علناس فى سنة 481هـ (1088م) وتقول اسطورة محلية انه لما تنبأ الوالى سيدى التواتى بان بجاية ستصبح خرابا ويهجرهـــا سكانها ، اثر ذلك على الناصر كثيرا واصيـــب بالجنون • وقد تخلى عن الملك ـ حسب هـــذه الاسطورة ـ وتنازل على العرش لابنه المنصور ، ثم اختفى بعد ذلك بوقت قصير تحت ستار الليل وقد استمر البحث عنه خلال اربع سنوات دون ان يمكن العثور على اثر له • ولكن قارب صيـــد اقترب ذات يوم من جزيرة صغيرة تسمى حريبة ، فى شمال جبل جورايا • وهناك عثر الصيادون على السلطان السابق فى حالة يرثى لها • وتضيف الاسطورة انه كلما وضع الناصر يده فى المـــاء حضر سمك وتعلق باصابعه ، وبذلك استطاع العيش خلال اربع سنوات على صخور قاحلـــة وهذا الاكتشاف ، سرعان ما بلغ خبره بجاية • وعندئذ قصد المنصور وحاشيته الى الجزيـــرة لاعادة السلطان السابق الى المدينة • ولكن الاخير ، صمم على البقاء فى تلك الجزيرة حيث مات عـلى احدى صخورها •

وكما تنبأت الاسطورة ، فستعرف بجايـــة فترة طويلة من الانحطاط ، ولكن ذلك سيقـــع بعد انهيار دولة بنى حماد •

مدينـــة مـزدهـــرة :

بعد وفاة الناصر ، تخلى ابنه المنصور نهائيـــا على مدينة القلعة وحول عاصمته الى بجاية التى بنا فيها عدة قصور جديدة ومساجـد وزينهـــا بالحدائق • وتقول بعض الروايات ان المدينـــة كانت تشتمل على 21 حيا وعلى 72 مسجدا •

وقد اصبحت العاصمة الجديدة ، مثل القلعة ،مركزا ثقافيا هاما فى الجزائر ، فولد فيهـا أو قصدها عدد كبير من الشعراء والكتاب والعلماءالمتطلعين فى جميع مجالات المعرفة . وفى بجاية أقام العالم الصوفى الاندلسى سيـدى بومـديـنالغوث المدفون فى تلمسان ، وفيها درس العلوم وقتا طويلا . واما ابن تومرت الذى نعـرفميوله الاصلاحية ، فقد اقام فى بجاية ساخطـا على الحالة الاخلاقية السائدة بين سكان المدينـةوقد تهجم على الجمهور ، ولكن تدخله بالعنف فى بعض الاحيان ، كانت له ردود فعل من سلطـاتالمدينة ، الامر الذى اخطر معه الى مغادرة بجاية ، ليستقر فى ملالة تحت حماية القبائل القاطنـةفى المنطقة ، حيث كان يقوم بالتعليـم والوعظ والارشاد ، وهناك التقى بشاب من ندرومة ، اسمهعبد المؤمن ، سيصبح خليفة على امبراطوريـة الموحدين .

وفى المجال الاقتصادى ، عرفت بجاية نشاطاتجاريا وصناعيا مهما . فقد ذكـر الادريسى ان السفن والقوافل تقصد بجاية وان المدينة مستودعكبير للبضائع . واما سكانها،فهم اغنياء ويحذقون كثيرا من الفنون والحرف ، مما ساعد على ازدهارالتجارة فيها . وتجار المدينة على صلة بتجـار الصحراء والمشرق وهم يقومون باستغلال مناجمالحديد الموجودة فى جبالها . وبكلمـة واحـدة ، فان المدينة نشيطة للغاية،وهى مركز للمواصلات.

كانت بجاية ملتقى للفرق التجارية ومركزا لتبادل الافكار فى نفس الوقت . ولكن هذه المدينة الحمادية ، لم يبق منها ، لسوء الحظ أية آثـارتذكـر .

بجاية تحت الموحدين :

وبعد بنى حماد الحقت بجاية بامبراطوريـةالموحدين التى اسسها ابن تومرت فى القـرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى)فبعدما قهر المرابطين فى المغرب الاقصى وفىالمغرب الاوسط ، تمكن عبد المؤمن ، خليفة ابن تومرتمن قهر جيوش بنى حماد الذين حكموا جـزءا من المغرب الاوسط زهاء قرن منالزمن ، واستولتجيوشه على بجاية والقلعة فى سنة 546 (1151 م). وبذلك اصبحت مملكة بنى حماد ولاية من ولاياتدولة الموحدين التى اتسعت رقعتها . وبعد احتلال المدينة ، ولى عليها عبد المؤمن أحد ابنائه ثم أتخذسبيله الى مراكش .

استمرت حالة الرخاء التى كانت تتمتع بهاالمدينة فى عهد الموحدين • وكانت هذه الحالة تعود خصوصا الى النشاط التجارى الذى كان سكان بجاية يمارسونه عن طريق مينائها مع البلدان الاوروبية والبلدان الشرقية • فقد كان التجار الاوروبيون يقصدون بجاية لشراء الصوف والزيت والجلود والرصاص ، وخصوصا ، شمع بجاية المشهور الذى اخذت منه الشمعة اسم بجاية بالفرنسية Bougie • وشمع بجاية ظل عدة قرون أحسن وسائل الاضاءة ، وكانت المدينة تصدر كميات كبيرة منه الى اوروبا لهذه الغاية •

وفى سنة 580 هـ (1184 م) غزا بنو غانية ،وهم من قبيل المرابطين بجاية من جزر البليار • واثر ذلك ، قاموا بتخريب جزء كبير من المغرب الاوسط ، ولكن الموحدين لم يلبثوا ان استعادوا سلطتهم ، على بجاية أولا ، ثم على مختلف مناطق المغرب الاوسط بعد ذلك •

تركة الموحدين :

بعد سقوط دولة الموحدين ، اصبحت بجاية جزءا من مملكة الحفصيين الذين كانت تونس عاصمتهم ولكن بجاية ستنسلخ عن تونس وتصبح عاصمة دولة حفصية مستقلة •

وكذلك لفت ما تتمتع به بجاية من الرخاء انظار بنى عبد الواد حكام تلمسان والمرينيين ملوك فاس ، ولكن جميع محاولات ملوك تلمسان لغزو بجاية باءت بالفشل • ولكى يثبت ارادته وتصميمه على اخضاع بجاية ، قام ابن تاشفين احد عظماء ملوك بنى عبد الواد ، فى سنة 719 هـ (1219 م) ببناء مدينة محصنة ، غير بعيد من بجاية تسمى تامزدكت ، اختفت معالمها اليوم • ولكن المهمة التى لم يسجل فيها بنو عبد الواد سوى الفشل ، سينجح فيها بنو مرين ، ملوك فاس •

وكذلك تمكن ابو الحسن ، بعدما استولى على تلمسان وقضى على دولة بنى عبد الواد مؤقتا من الاستيلاء على بجاية فى سنة 746 والاحتفاظ بها حتى سنة 762 هـ (1261 م) ، حينما استعادها الحفصيون الى ملكهم •

الغزو الاسبانى لبجاية :

بعد سقوط وهران فى القرن العاشر الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) ، وقعت بجاية مع عدد من المدن الشاطئة فى يد الاسبان ، وقد بقيت بجاية التى احتلها بيدرو نافارو ، تحت

سلطة الاسبان من سنة 916 (1510 م) حتى سنة 963 (1555 م) . وفي غضون هذه الفترة التي تمتد على خمس واربعين سنة ، نهب الاسبان المدينة ودمروا قصورها وقضوا على نشاطها التجاري الذي كان قرونا متعاقبة سبب ازدهارها والمورد الرئيسي لدخلها . وهذه الحالة هي التي حملت السلطات التركية في الجزائر على التدخل لطرد الاسبان منها .

فان صالح الرايس ، باشا الجزائر قرر الاستيلاء على بجاية وشد حصارا عليها في سنة 963 هـ (1555 م) . وسلم دون الفونس بيرلطا ، حاكم بجاية الاسباني ، واستسلمت بجاية وأصبحت تشكل منذ ذلك الحين جزءا من مملكة الجزائر التي اسسها الاخوان باربروس .

وعقب احتلال الفرنسيين للجزائر في سنة 1830 ، سقطت بجاية في ايديهم بعد مقاومة عنيفة ولكن سكان بجاية وضواحيها لم يقبلوا الحكم الاستعماري الفرنسي . ولذلك فقد اشتركوا في عدة ثورات متوالية ، ولا سيما ثورة 1871 ـ 1872 ، وبعد ذلك ثورة التحرير الوطني 1954 ـ 1962 ، التي انتهت بطرد الغزاة المحتلين من بجاية ومن جميع التراب الوطني .



مخطوط ينشر لأول مرة

تاريخ بني حمّاد

للسان الدين الخطيب المتوفى سنة 776 هـ

تقديم :
رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

ان هذه النبذة التاريخية حول بنى حماد هى بعض اجزاء القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب ، وهى نبذة ذات اهمية لانها تتناول تاريخ بنى حماد الذى اعرض كثير من المؤرخين عن تدوينه ، وتعتبر هذه النبذة جزءا مكملا لما كتبه ابن خلدون عنها فى كتاب العبر فى المجلد السادس .

وقد نجد فيها معلومات قيمة لا نجدها فى تاريخ ابن خلدون نفسه . ومن هنـا تاتى اهمية هذه النبذة التاريخية . وتتجل قيمتها عندما يبحث المؤرخ تاريخ بنى حماد وحضارتهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

الحمد لله ، بسم الله الرحمن الرحيم وصـلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليما .

ذكر قدم الملوك صنهاجة من ذرية حماد بن بلكين بقلعة حماد وبجاية وما اليها ا هـ .(1)

وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن بلكين الامر لاخيه المنصور ، وان ولده باديس لما صار اليه الامر صرف حماد الى المغرب فخرج مـن القيروان سنة 390 هـ (2) بعد ان اشترط عليه ما شاء وجعل له كل ما يفتحه ، واعفاه مـن الوصول الى افريقية بعد فتعين لحماد بالجهـة الغربية ملك كبير .

1) هذه النبذة من تاريخ بنى حماد اقتطعت من كتاب لابن الخطيب لا نعرف ما هو . وهـو يقع ضمن مخطوطة تحمل رقم 1588 . الورقة 106

2) ابن خلدون كتاب العبر ، ج ، 6 ـ ص 349 . ان ذلك كان سنة 487 هـ . ويذكر انه نبـذ طاعة العبيديين وقتل الرافضة .

1) دولة حماد بن بلكين بن زيرى بن مناد :

وكان حماد نسيج وحده ، وفريد دهره ،وفحل قومه ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا ، وداهية حصيفا ٠ قد قرأ الفقه بالقيروان فنظر فى كتب الجدل واخباره مشهورة، وهو الذى بنى القلعة المنسوبة الى حماد بالحضرة الباقية الاثر على توالى الغير وتسمى غياثا فا تخذ بها القصور العالية والقصاب المنيعة والمساجد الجامعة ، والبساتين الانيقة ، ونقل اليها الناس من سائر البلاد ما بينه وبين باديس بن اخيه وتحرك كل منهما الى لقاء صاحبه فكان جيش حماد الذى خرج به من القلعة آخر سنة 405 هـ ثلاثين ألف فارس

واتيح عليه الظهور لابن أخيه باديس كما تقدم ذكره ونزل الفرج على حماد بوفاته ، واتصلت بعده أيام حماد الى ان توفى فى شهر رجب 429 هـ (2) وولى بعده ولده القائد ابو حماد ٠

2) دولة القائد بن حماد بن بلكين بن زيرى

واستقام الامر للقائد بن حماد لاشتغال المغرب بابن باديس عنه ، لما دهمه من العرب وكان شديد الرأى ، عظيم القدر، وتحرك الى الجربة حمامة بن زيرى المغراوى أمير مدينة فاس وخلع القائد بنى عبيد كما فعل ابن عمه ، ودعا الى بنى العباس الى ان هلك فى ذى القعدة سنة 446 هـ فكان ملكه سبعا وعشرين سنة وولى بعده ولده محسن ٠

دولة محسن بن القائد بن حماد بن بلكين :

وكان القائد أوصى أبنه محسنا ان لا يخرج من القلعة الى تمام ثلاثة سنين فخالف وصيته لما نازعه يوسف بن حماد عمه بالمغرب وخرج اليه فاغتاله أبن عمه بلكين بن محمد بن حماد ، وكان واليا على بلاد اكربون ٠ فقتله وعاد الى القلعة فدخلها ليلا وملكها ٠ وكانت ولاية محسن ثمانية اشهر وثلاثة وعشرين يوما ووفاته فى ربيع الاول سنة 447 هـ ٠

2) عند ابن خلدون : كتاب العبر ج ، 6 ـ ص 332 انه توفى سنة 419 هـ ٠ ولعل هذه الرواية هى الصواب ٠

3) دولة بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين :

وكان شجاعا جريا على العظائم سفاكا للدماء ،وتحرك من القلعة لحرب زناتة فيصفر سنة 454هـ وكان قد بلغه ظهور يوسف بن تاشفين ببلادالمصامدة فتحرك حتى نزل بفاس ففتحها وجاس بلاد المغرب ودوخها ، وبلغ يوسف بن تاشفين خبره فكر راجعا الى الصحرا، خوفا منه الى ان قيض له من الناصر احد بنى عمه ، واقدم عليه اقدام الأسد ففرق بين روحه والجسد .

وله حكاية مشهورة ، قال ابن بسام فى كتاب الذخيرة ما نصه : واذكر هذه القارة الصلعا ، والفتكة الشهيرة الشبرهاء ، اذا الشيء يذكر مع من جانسه ، ويضم الى ما التف به ، ولابسه ما اتفق فى مثلها فى ملك المنادين الغالين الى وقتنا هذا على طرف افريقية الادنى المستقرة رياستهم بقلعتهم المنسوبة الى جدهم حماد ، وذلك انـه لما افضى ملكهم الى بلكين بن محمد آخر جبابرة الاسلام المفتاتين على الايام من رجل كان لا يملأ يده الا من لبدة أسد ، ولا يسرح لحظه الا فى نهاب بلد مضطهد ، ولا يدافع الا وبحر المـوت يلتطم ، ولا يكلم الا حين يبتسم ، قد تجاوز فى شذوذ (لعله شذوذ) امنيته وقهره لرعيته ، والاخافة لاقرانه ، والاستبداد على زمانه غايـة من سلف من جبابرة الارض،وسمع به منفراعنة الابرام والنقض الى شهرة آثاره ، وتطـارح اسفاره ، وما لا يحصى من عجائب اجناده .

حدث انه آب مـرة من بعض غزواته (3) فكأنه ارتاح الى ما يرتاح اليه الناس مـن اراحـة نفسه ، والحلو ولو ساعة يوجه انسه فجلس لذلك مجلسا حشر له شهواته ، وتقدم فى احضار ما يصلح من آلاته وادواته وامر قيمة جـواريه باستحضار عقيلـة اترابها يومئذ جـلالـة سلطان ، وحسن سماع وعيان احدى بنات عمه دنيا لم ير بعد ما زعموا ولا قبلها ابدع ظرفـا ولا اقتل طرفا ، فجاءت تود الثريا لو تكـون نعلها ، والشمس تصور مثلها وقد خطـرت بنفسه احدى هناته ، وتمثلت له بعض غزواته ،فأخذ يدبر ويدبر ، وطفق يورد فيصدر ، قالت قيمته وكان نظره الى الكاس فى يده ، والى أبنة عمه قائمة على رأسه فاعتذر اليها ، واستدناها وسناها ، وقام من حينه فوضع الكاس ملآنا فى طاق ، وطبع عليها ، وامر بالركوب من حينـه فغزا غزوته المشهورة الى غرب العدوة وبلغ فيها مدينة فاس فوطأ الدول ودوخ السهل والجبل .

3) جملة مطموسة بالاصل .

الحمد لله بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

صنهاجة

١٥٨٨

ذكر قسم الملوك صنهاجة من ذرية حماد بن بلكين بقلعة حماد وبجاية وما اليها



وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن
بلكين الامر لاخيه المنصور وان ولده باديس
لما صار اليه امر ابيه صرف حمادا الى الغرب
فخرج من القيروان سنة ٣٩٠ بعد ان
اشترط عليه ما شاء وجعل له كل
ما يفتحه واعطاه من الوصول الوافر
بغية بعثه فتعين لحماد بالجهة
الغربية ملك كبير

دولة حماد بن بلكين بن زيري بن مناد

وكان حماد نسيج وحده وفريد
دهره، وبطل قومه ملكا كبيرا وشجاعا
ثبتا وداهية حصيفا قد قرا الفقه
بالقيروان ونظر في كتب الجدل واخباره
مشهورة وهو الذي بنى القلعة
المنسوبة الى حماد بالحضرة الباقية
الاثر على توالي العمر ونسمي عيانا
فاتخذ بها القصور العالية والقصاب
المنيعة والمساجد الجامعة والبساتين
الانيقة ونقل اليها الناس من ساير
البلاد ما بينه وبين باديس بن اخيه
وتحرك كل منهما الى لقاء صاحبه
فكان جيش حماد الذي خرج به من القلعة
اخر سنة ٤٠٥ ثلاثين الف فارس وانهزم
عليه المنصور لا براخيه باديس كما
تقدم ذكره ونزل الفرج على حماد بوفاته
واتصلت بعده ايام حماد الى ان توفي
في شهر رجب سنة ٤٢٩ وولي بعده ولده

ثم رجع الى ذلك المجلس بعينه ، واستدعى كأسه تلك ، وابنة عمه فخلا بنفسه ، وقضى وطره من لذة نفسه بعد ايام كثيرة وحروب مبيرة ·

ولما تناهى أمره ، وتجاوز السهى ذكره ، وظن ان الناس على حكمه ، وان البـــلاد تحـــت ختمه فى بعض أسفاره ··· (4) ابن عمه الناصر اصغر خلق الله شانا واهونهم عليه سرا (5) وهجم من ضيق المسالك على الموت ، وهو ينظر لم يشاور الا الحسام ولا استصحب الا الاقدام ، وقد كان بعض نصحاء بلكين خوفه منه لكلمة أخذت يومئذ عنه فجعلها بلكين نعلة ركابه وسمر أصحابه وكان قلما يركب الا دارعا خداعا يأخذ به من روع القلوب ، ووتر القريب والبعيد ، وكان مولعا بالادلاج ، اذا ارتحل مؤثرا للانفراد كلما ركب ، ونزل ، فأقسم تلك الليلة الا يدلج الا حاسرا وليلقين الناس اعزل (6) اذا نـــزل ولو كان اسدا خادرا فاعجله عن الامر ولم يبد ضوء الفجر حتى لقيه كأنه يسلم عليه ، ويسير بين يديه ، فما راجعـه الكـلام الا وقد جللـــه الحسام ، واراح منه البلاد والانام ·

ثم قام مقامه ، واستظل أعلامه ، وامر برأسه فرفع على عصا وسير به أمامه ، والناس يظنونه بلكين قد قتل بعض اتباعه المتحنين فهـــــم يتساءلون من قتل ، ويحسنون الظن فيما فعل حتى طلعت الشمس ، وارتفع اللبس ، فأمـــر برفع مضاربه وحشر زعماء دولته وأقاربه فقال انتم تدرون ان بلكـين قتـــل أخي وفجعني فى أكثر حرمي ، وانما شفيت صـــدرى واخذت بوترى لا اننى حدثت نفسى بسلطانكم ، ولا أرى شيئا أهلا للدخول فى شيء من شأنكم فردوا عليه جميلا ، وراموا امهاله قليلا فظنوا انه يجسر على ما فعل الا وله اشياع وحوله حول واتباع وكـل واحد منهم قد ارتاب بمن يليه ، واهمه ما هـــو فيه وامر لحينه بخزائن بلكين فانهبها ديوان العرب وصقورة زناتة واستخلع بذلك عيونهم ، واماله اليه قلوبهم ، ورحل تحت ليلته فطوى المراحل واعتسف المجاهل فسبق الاخبار الى القلعـــة ، فطوى الحريم وكان دخوله القلعة يـــوم الخميس للنصف من شعبان سنة 455 هـ ·

4) هنا نقص فى الاصل وقد جاء فى ابـــن خلدون ما يكمل هذا النقص فقال : وانتهز مـــن الناصر ابن عمه الفرصة فى الثار باخته وما لأهقومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بابعاد الغزو فقتله بتسالة سنة 454 هـ ·

5) جملة مطموسة فى الاصل ·

6) فى الاصل وردت الكلمة مطموسة اصلحناها بما يناسب المقام ·

4) دولة الناصر بن علناس بن حماد :

ولما استقام الامر للناصر بن علناس كـــــرهمجاورة بنى حماد باكناف القلعة المنسوبة اليهم اذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنى عشرألف فارس بنى قريبا منها بالجبل مدينة وقصوراً شامخة مسماة باسماء عديدة واحتفل ببناء (7) الجامع الاعظم المذكور فى تاريخ صنهاجة ، وكان الناصر جريئا على سفك الدماء شديد الغيرة عـلى النساء ، له فى ذلك اخبار مشهورة ، وهو الـذى بنى مدينة بجاية وسماها الناصرية وبنى بهـــا قصر اللؤلؤة واتسعت مملكـة الناصر الى ان بايعه اهل القيروان سنة 460 هـ .

وتوفى الناصر يوم الجمعة السابع من جمادى الاولى عام 481 هـ ، واحتمل الى بجاية فدفن بها وولى بعده المنصور .

5) دولة المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد :

وللمنصور بن الناصر آثار عظيمة ، وقصورشامخة منيعة ، واخبار شهيرة وتحرك الى المغرب ، وقد صارت تلمسان الىملك المرابطين فى جيوش عظيمة اشتملت عشرة محلة فى 494 هـ ، ونازل تلمسان تم اقلع عنها صلحا ، ولما قفل عن تلمسان توفى بعد سبعة اشهر فى شهر ربيع الآخر 498هـ وكان قائما على أمره حميد الخلال ضابطا للاموريكتب ويشعر ويذهب فى أموره مذهب أبى جعفر المنصور من رقع الثياب والحفظ على القليل مـــن الاشياء ، وعليه قدم عز الدولة بن حماد لما فر من المرية أمام المرابطين فاقطعه تدلس (8) ونظرهـــاواسكنه بها حسبما هو معروف وولى بعده الامر باديس بن المنصور بن الناصر .

6) دولة باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس :

يكنى ابا معد ، وكان شديد البأس عظيـــم السطوة سريع البطش فيحكى من جملة فضاضته انه القى رجلا صالحا الى الاسود فبات ليلة معهـــاواصبح لم تعد عليه ، وكانت وفاته ثالث عشر فى ذى القعدة سنة 498 هـ .

---

7) كلمة ساقطة من الاصل زدتها ليستقيم معنى الجملة .

8) فى الاصل كلمة مطموسة واصلحناها بماجاء فى كتاب العبر ، م ، ج ، 6 ـ ص 461 حيث قال ابن خلدون : قدم عليه معز الدولة بن حمادحمن المرية فارا امام المرابطين ، ونزل على المنصور واقطعه تدلس « دلس » الحالية ، وانزله بها » .

ويقال ان أمه سمته لانه كان يهددها ويتوعدها وقد ذكر مثل ذلك في المهدي من بني العباس ، وولي بعده العزيز بن اخيه ٠

7) دولة العزيز بن المنصور بن علناس :

وهو الذي استوطن بجاية ومن بعد ولايتــه شرعت القلعة في الخراب ، وكان حسن الخلـق ، معتدل الطريقة كاتب ملوك زمانه وسالمهم فكانت أيامه اعيادا لحسنها وجمالها ، وله في ملكه آثار عظيمة ومبان رفيعة وكان يعرف باليمون لولايته ليلة وفات أبيه ، ولما توفي (9) ولي بعده ابنــه يحيى ٠

8) دولة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر :

وكان يحيى بن العزيز فاضلا حليما فصيــح اللسان والقلم مليح العبارة بديع الاشارة وكان مولعا بالصيد مغروما به كلفا بالملهين يحضر عنده منهم نحو العشرين بين امرأة (10) من شيــوخ وعجائز وحمقى فكان يستلقي في بيته على الفرش الوثيرة والحشايا ، ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد فيختبر هذا البازي ٠

ويتفقد هذا الكلب وينتهض هذا المضحك في النوع الذي سلكه فيلهيه ويضحكه ، ويجلس ابدا بين يديه اخواته تقسو ـ طلواع ـ ملال وشبلـة في زي العرائيس من الحلي واللباس فلا يــزال كذلك الى ان ينام ثم يهتدي الى الصيد هكـــذا انقضت ايامه الى ان توفي عام 544 هـ ، وكان قد ولي ابنه المنصور عهده فتوفي في حياته وعظــم وجده عليه ولما اضطربت حاله بظهور دولــة لمتونة لحق بقسنطينة ثم نزل عنها للموحديــن مستأمنا لنفسه ٠ وسكن بقصر ابن عشرة من سلا وكانت وفاته بها ٠ (11)

9) كانت وفاته كما يذكر ابن خلدون في كتاب العبر مج ، 6 ـ ص 362 سنة 415 هـ ٠

10) هكذا وردت الجملة مختلفة في الاصل ٠

11) في ابن خلدون : كتاب العبر مج ، 6 ـ ص 364 ان عبد المؤمن بايع له يحيى سنة 547 هـ ٠ ونقله عبد المؤمن الى مراكش فسكنها مـدة ثـم انتقل منها الى سلا سنة 558 هـ ٠ وسكن قصر بني عشيرة (لا عشرة) الى ان هلك في هذه السنة 558 هـ ٠



حجر قبر حمادى (شاهد) من الناصرية :
اجراء الخط العربى الجميل من قبل خطاطى الناصرية
(متحف بجايـــة)

بجاية في حدائق الكتب

نصوص عربية وفرنسية
اختارها وعلق عليها

م. بلحميسي
كلية الآداب
جامعة الجزائر

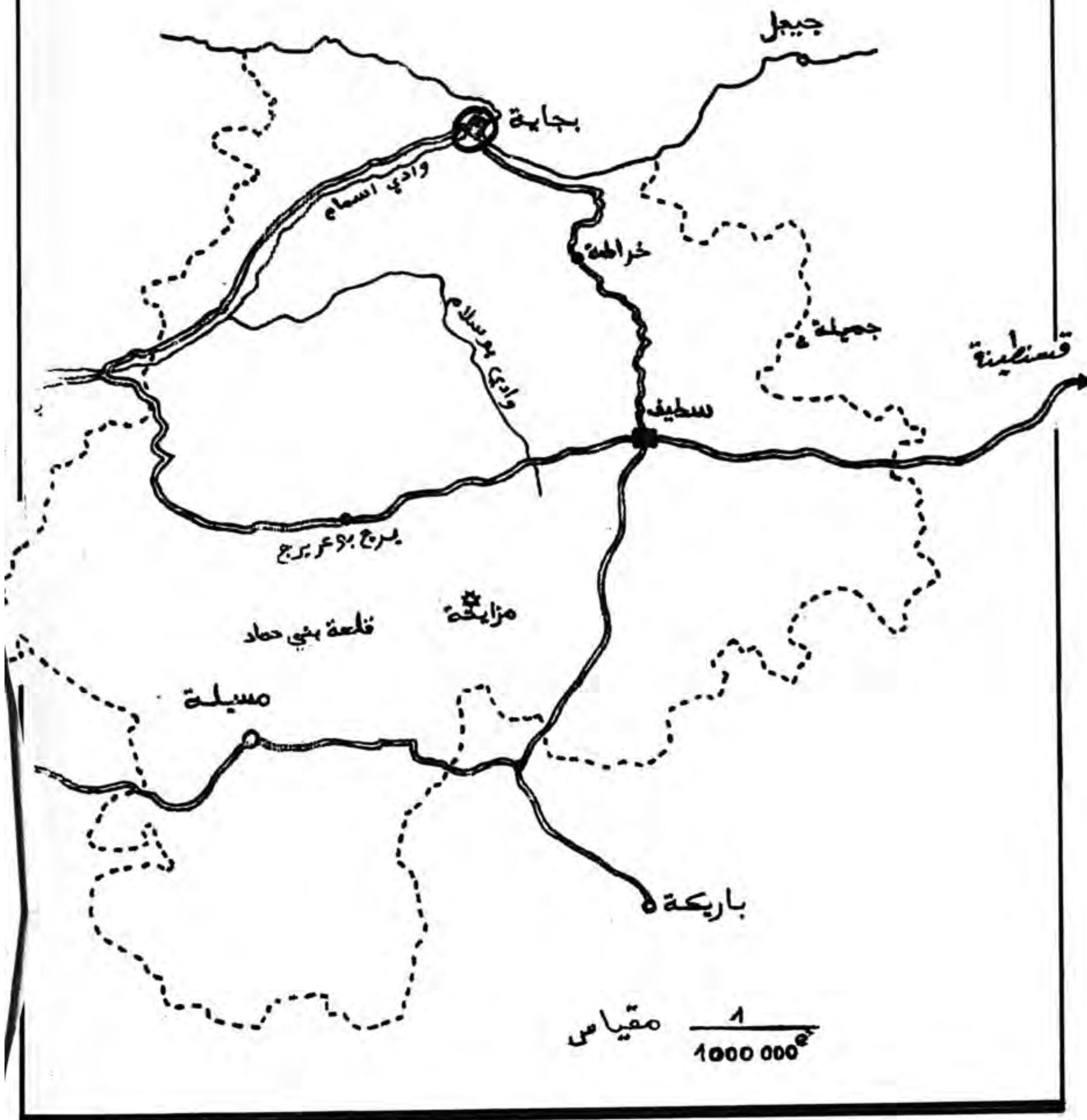
بلدة قدرها خطير　　وذكرها في كل زمن يطير
خطابها من الملوك كثير　　ومحلها من النفوس أثير

(أبو البقاء خالد بن عيسى بن احمد : الرحلة الى بجاية)

باب
الوصف والرحلات

وجئت بجاية فجلت بدورا　　يضيق بوصفها حرف الروى

(ابن الفكون : الرحلة من قسنطينة الى مراكش)



ولاية اسطيف
جيجل
بجاية
وادي اسمام
خراطة
وادي بوسلام
جميلة
قسنطينة
سطيف
برج بوعريرج
مزايطة
قلعة بني حماد
مسيلة
باريكة
1
1000 000
مقياس

• قال ابو عبيـد البـكرى : (من أعلام القرن II م — 5 هـ)

« ··· ثم مرسى مدينـــة بجاية ازلية آهلـة عامرة بأهل الاندلس بشرقيها نهـر كبـير تدخله السفن محمـلة ، وهو مرسى مأمون مشــتى ، وقد خرج عن محاذاة جزيرة الاندلس »
(كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب)

• بجـــايــــة

« مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد ابن زيرى بن مناد فى حدود سنة 457 هـ · بينه وبين جزائر مزغناى اربعة ايام وهو على ساحل البحر · وكان قديما مينا فقط ثم بنيت المدينة وهى فى لحف جبل شاهق وفى قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بنى حماد وتسمى الناصرية ايضا باسم بانيها ، وهى مفترقة الى جميع البلاد لا يخصها من المنافع شىء ، انما هى دار مملكة تركب منها السفن وتسافر الى جميع الجهات ·· »
ياقوت : معجم البلدان

• قال الادريـــــسى

[هو ابو عبد الله محمد بن محمد الشهير بالشريف الادريسى ولد بسبتـة سنة 1099 م وتوفى بصقلية حوالى 1180 م ·]

« ومدينة بجاية على البحر لكنها على حرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمى مسيون وهو جبل سامى العلو صعب المرتقى وفى أكنافه جمل من النبات المنتفع به فى صناعة الطب مثل شجر الحضض والسقولوفندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والافسنتــين وغير ذلك من الحشائش ·

وفي هذا الجبل كثير من العقارب صفر الالوان لكن ضرها قليل ٠

ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة ، واهلها مياسير تجار،وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ٠ ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها ، منها ما يكفي لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابي لان الخشب في اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة ، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة ٠ وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب ٠٠٠ ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد ٠٠٠

واما مدينة بجاية في ذاتها فانها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلقين وهي التي تنسب دولة بني حماد اليها ٠ »

(نزهة المشتاق ٠٠٠ طبعة دوزى ص 90 ـ 92)

● بجاية

هذا النص مقتبس من كتاب الاستبصار ٠٠ لمؤلف مجهول يقال انه من رجال القرن 6 هـ ـ 12 م ٠ اعتنى بنشر الكتاب المستشرق كريمر سنة1852 ثم نقله الى الفرنسية فانيون سنة 1900٠

« هي مدينة عظيمة على ضفة البحر يضرب في سورها وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة اصحاب قلعة أبي طويل ٠٠٠ وكان مرسى ، ويقال انه كانت فيه آثار قديمة وانها كانت مدينة فيما سلف ، فبناها المنصور وسماها المنصورية (1) وانتقل ملكهم من القلعة الى بجاية واتخذوا

1) خطأ : مؤسس بجاية هو الناصر واسم المدينة الاول هو الناصرية ٠

دار مملكتهم ٠ وبينها وبين قلعة بنى حماد مسيرة اربعة ايام ٠ وهى مدينة عظيمة ما بين جبـال شامخة قد احاطت بها والبحر منها فى ثـلاث جهات : فى الشرق والغرب والجنوب ، ولهـا طريـق الى جهـة الغرب يسمى بالمضيق عـلى صفة النهر المسمى بالوادى الكبـير ، والطـريـق الى قلعة بنى حماد على عقاب واوعار ، وكذلك طريقها الى الشرق ٠ وليس لها طريق سهلـة الا من جهة الغرب فلم يكن للعرب اليها سبيل ولا كان يدخل من العرب الا من يبعث الى الملـك لصانعة على بلاد القلعة وغيرها فيدخلها فارس او فارسان دون عسكر ٠ فبقى صاحب بجايـة يضاهى فى ملكه ملك صاحب مصر ، فان بجـاية على نظر كبير وقائد عظيم ٠ وبجاية معلقـة من جبل قد دخل فى البحر يسمى «امسيول» وعليها سور عظيم والبحر يضرب فيه ٠ ولهـا داران لصناعة المراكب وانشاء السفن ومنها تغزا بلاد الروم ، فانها ليس بينها وبين صقلية غير ثلاثة بحار ٠ وهى مرسى عظيمة تحط فيها سفن الروم من الشام وغيرها من اقصى بلاد الروم وسفن المسلمين من الاسكندرية بطـرف بـلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها ٠ ومدينـة بجاية كثيرة الفواكه والاثمار وجميع الخيرات وهى مشرفة نزيهة مطلة على البحر وعلى فحص قد احاطت به جبال دوره نحو عشرة اميال تسقيه انهار وعيون ، وفيها اكثر بساتينهم ، ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين او دونهما وعليـه كثير من جناتهم ، وقد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر ، وله منزه عظيم ٠ وفى بجاية موضـع يعرف باللملولة وهو آنف من الجبل قد خرج فى البحر متصل بالمدينة ، فيه قصور من بنـاء ملوك صنهاجة ، ولم ير الراؤون احسن منهـا بناء ولا أنزه موضعا ، فيها طاقات مشرفة عـلى البحر عليها شبابيك الحديد والابواب المخرمة ٠٠ والمجالس المقرضة المبنية حيطانها بالرخـام الابيض من اعلاها الى اسفلها قد نقشت احسن نقش وانزلت بالذهب والازورد ، وقد كتبـت فيها الكتابات المحسنة ٠٠٠ وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من احسن القصور منزها وجمالا ٠ وهذا الجبل أمسيون الذى فيه بجاية جبل عظيم عال قد ذهب الى الجو وقد خرج فى البحر وفيـه مياه سائحة وعيون كثيرة ٠٠ وهو كثير القردة ويكون فيه الحيوان المشوك المسمى بالذرب ٠ »

(كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ص 19 ـ 20

● مـدينـــة بجـــايـــة

ثم وصلنا الى مدينـــة بجـاية مبدأ الاتفـاق والنهاية · وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة برية بحرية · سنية سرية · وثيقة البنيان عجيبة الاتقان رفيعة المباني ، غريبة المعاني ، موضوعة في اسفل سفح جبل وعر ، مقطوعة بنهر وبحر · مشرفة عليهما اشراف الطليعة متحصنة بهمـــا منيعة · فلا مطمع فيها للمحارب ولا متسع فيها لطاعن وضارب · ولها جامع عجيـب منفرد فـي حسنه غريب · من الجوامع المشهورة الموصفة المذكورة وهو مشرف على برها وبحرها · وموضوع بين سحرها ونحرها · فهو غاية في الفرجـــة والانس · ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس · واهلها يواضبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية · ولهم في القيام به تهمم وعناية · فهو بهم مأهول عامر يتخلل انسه مسلك الارواح ويخامـــر · وهذا البلد بقية قواعد الاسلام ومحل جلة من العلماء الاعلام · وله مع حسن المنظر طيب المخبر · ومع المرأى الرائق المعنى الفائق ·

ومن الحصانة ووثاقة البنيـان ما ازرى بارم وغمدان · ولأهله من حسن الخلق والاخلاق مـا أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والاعراق ·

غير انه اعتراه من الغير ما شمل في هـــذا الاوان البدو والحضر · وقد غاض بحر العلـــم الذي كان به حتى عاد وشالا · وعفا رسمه حتى عاد طلا · وبه آحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على الصحف والدفاتر وسلكوا في ترك تصحيح الرواية طريقا لم يرضها أعلام الاكابر · ولم أر بها من اهل الشيمة الفضلاء والطريقة المثـلى أمثل من الشيخ الفقيه الخطيب الصالح المسنـد الرواية ابي عبد الله محمد بن صالح بن احمد الكتاني حفظه الله ·

محمد العبدري (1) : الرحلة المغربية :

● وقـال القلقشـنـــدي (توفي سنة 821 ـ 1418)

وبجاية ··· مدينة من مدن الغرب الاوسط واقعة في اوائل الاقليم الرابع من الاقاليـــم السبعة · قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة والعرض اربع وثلاثون درجـــة

1) **العبدري** : محمد بن محمد بن علي ·· صاحب الرحلة المغربية ، بدأ رحلته من المغرب الاقصى الى المشرق سنة 688 هـ ـ 1289 م ·

وخمس وخمسون دقيقة · قال فى تقديم البلدان هى قاعدة الغرب الاوسط وهى مقابل طرطوشة من الاندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار ،قال فى مسالك الابصار : وهى مدينة قديمة مسورة أضيف الى جانبها ربض أدير عليه سورضام لنطاق المدينة فصارا كالشىء الواحد ·قال : والربض فى وطاءة ، والمدينة القديمة فى سفح جبل يدخل اليها خور من البحر الرومى تدخل منه المراكب اليها · قال فى « تقويم البلدان » :ولها نهر فى شرقيها على شاطئه البساتين والمنازه قال فى « مسالك الابصار » : وبها عينان من الماء احداهما كبيرة ، ومنها شرب اهلها ، ولها نهر جار على نحو ميلين منها تحف به البساتين والمناظر على ضفتيه ممتدة نحو اثنى عشر ميلا ، متصلا بعضها ببعض لا انفصال بينهما الا ما يسلك عليه الى البساتين الى ان يصب فى بحر الروم · وبضفتيه للسلطان بستانان متقابلان شرقا وغربا ، الشرقى منهما يسمى الربيع ·

صبح الاعشى ·· ج 5 ص 109

● بجاية فى أواخر القرن السادس عشر

هى مرسى حصين فى جون عظيم يمنع من كل ريح له مدخل ضيق فى جبال شاهقة ·· وبجاية مدينة عظيمة فى القديم كانت دار علم وعمل ومستقر العلماء والصالحين منهم الولى الصالح ·· ابو مدين شعيب بن الحسن الانصارى دفين تلمسان (1) ··· كانت دار سكناه فى حياته ···

وكان ببجاية معاصرا لهذا الشيخ العالم ابومحمد عبد الحق بن عبد الرحمن الازدى الاشبيلى مؤلف العاقبة وغيرها وبها توفى وقبره بها يزار وكذلك الشيخ ابو الحسن على الاشبيلى المتوفى بها ··

وبجاية الى الآن خراب هدمها النصارى (2)··لم يبق بها الا ديار قلائل على طرف البحر. وقلعة صغيرة تسمى باللولوة (3) ينزل بها متولى تلك الناحية من الترك يمنع المرسى من العدو ···

1) ولد باشبيلية سنة 520 هـ ـ 27 ـ 1126 م وتوفى بتلمسان سنة 594 هـ ـ 98 ـ 1197 م

2) احتلها الاسبان سنة 1510 م واخرجهم منها صالح رايس سنة 1555 ·

3) قال ابن خلدون : هو قصر جميل بناه الناصر الحمادى سنة 460 هـ ـ 1068 م ·

قال ابن عبد ربه : «مدينة عظيمة مستندة الى الجبال ومبانيها يركب بعضه بعضا وتسمى المقدمات ، وبناؤهم انما هو بالجص وحده لا يبنون بالتراب ... وعلى فرسخ منها الوادى الكبير يركبون فيه في السفن الصغار » .

التمقروتى (4) النفحة المسكية فى السفارة التركية صفحة : 15 ـ 16

• قال الحسين بن محمد الورثلانى (1125 ـ 1193 هـ ـ 1710 ـ 1779)

« ... ذهبت معهم (الاصدقاء) الى زيارة بجاية لانى محب فيها غاية ، وذلك قبل بلوغى . وكنت كل عام اصوم فيها رمضان ناويا للرباط مع تعليمى الطلبة راجيا ان يكون لى حظ وافر منهم ونصيب كامل من عندهم ، حقق الله رجائى بمنه وكرمه .

فلما وصلت بئر السلام متشرفا على المدينة المذكورة توجهت الى زيارة الشيخ سيدى احمد ابن معمر الولى الكامل والليث الفاضل لما كنا نسمعه ان من زار بجاية ولم يزره لم يذهب بشيء منها ...

دخلت بجاية وزرت الشيخ سيدى الصوفى ولم احفظ من امره شيئا ، الا ان اهل بجاية يعظمونه غاية التعظيم ، وانه من اهل التصريف فى بجاية ... وبعده زرت خلوة الشيخ سيدى ابى مدين الغوث وقد زرت قبره ـ والحمد لله ـ فى تلمسان ... ثم بعد زيارة خلوته توجهت لزيارة خلوة الشيخ ابى محمد المرجانى ... ثم توجهت الى خلوة الشيخ عبد القادر وخلوة الشيخ ابى العباس السبتى الكائنين ببرج اللؤلؤة .. وزرت الجامع الاعظم القديم القريب من تلك الخلوة ، ومن البرج المذكور الذى كان فيه تسعون مفتيا ... وبعد ذلك توجهت الى الشيخ

4) التمقروتى : ابو الحسن على ... عاش فى ايام السلطان السعدى مولاى احمد المنصور الذى اوفده الى القسطنطينية حاملا الهدايا لسلطانها وتوفى التمقروتى بمراكش سنة 1003 هـ ـ 1595 . و«النفحة المسكية» : رحلته الى اصطنبول بين 1589 ـ 1591 ، وقد مر بالجزائر وبجاية وبونة .

عبد الحق الاشبيلى ... وهو الذى الف «العاقبة»وقبره خارج باب المرسى القديم فى طريق أبى زكريا الزواوى (1) .. ثم زرت من دفن فى تلك المقبرة ، وانه دفن فيها ايضا قرب السوق الشيخ عبد الحق بن ربيعة ، وقد ذكره صاحب عنوان الدراية بما يحرك قلب الناظر اليه ... ثم توجهت لزيارة الشيخ ابى زكريا يحيى الزواوى وقد كان فى القرن السادس وقبره مشهور » .
(نزهة الانظار فى فضل التاريخ والاخبار طبعة الجزائر 1908)

1) توفى فى رمضان 611 هـ - جانفى 1215

بـــاب
الشعـــر و الأدب

• بجـــاية النـاصريـة

دع العـــراق وبغـــداد وشامهمـــا · فالناصريـــة ما ان مثلهـــا بلـــد
بـــر وبحـــر ومـــوج للعيـــون بـــه · مســـارح بان عنهـــا الهـــم والنكد
حيث الهـــوى والهـــواء الطلـــق مجتمع · حيث الغـــنى والمـــنى والعيشة الرغد
والنهـــر كالصـــل والجنـــات مشرفـــة · والنهـــر والبحـــر كالمـــرآة وهـــويـــد
فحيثمـــا نظرت راقت وكـــل نـــواحى الـــدار للفكـــر للابصـــار ، تتقـــد
ان تنظـــر البـــر فالازهـــار يانعـــة · أو تنظـــر البحـــر فالامـــواج تطـــرد
يا طالبـــا وصفها ان كنت ذا نصف · قل : جنة الخلـــد فيها الاهل والولد

ابو علي الحسن بن الفكون مـــن الادباء الجزائريين البارزين فى القرن السابع الهجـــرى ، نشأ بقسنطينة فى أسرة عريقة فى العلم والمجـــد ،امتاز شعره بالرقة والحسن وخاصة فى وصـــف الطبيعة ، وكان شديد الاعتزاز بوطنه مفتونا به ومن جيد شعره هذه المقطوعة التى يصف بهـــا بجاية الناصرية .

● قال ابو على حسن بن الفكون فى جمال « قصر الربيع »

عشونا الى نار الربيع وانما   عشونا الى نار الندى والمحلق

ركبنا بواديه جياد زوارق   نزلنا اليها عن ضوامر سبق

وخضنا حشاه والاصيل كأنه   بصفحته تبدى مروق زنبق

وسيدنا قد سار فيه لانه   بزورقه انسان مقلة أزرق

فقلت وطرفى يجتلى كل عبرة   وزورقه يهوى به ثم يرتقى

ايا عجبا للبحر عب عبابه   تجمع حتى صار فى بطن زورق

ولما نزلنا ساحة القصر راعنا   بكل جمال مبهج الطرف مرتق

فما شئت من ظل وريف وجدول   وروض متى تلمم به الريح يعبق

وشادى مغانى الحسن فى نغماته   يطارحه هدر الحمام المطوق

فياحسن ذاك القصر لازال آهلا   ويا طيب ريا نشره المتنشق

رتعنا به فى روضة الانس بعدما   هصرنا يه غصن المسرة مورق

ويضحكنا طول الوصال وربما   يمر على الاوهام ذكر التفرق

فتضحى موصونات الدموع هدالة   ونحن على طرف من الدهر أبلق

لمثلها من منزه ونزاهة   يجرر ذيل الذيل كل موفق

فلله ساعات مضين صوالح   عليهن من زى الصبا أى رونق

خلعنا عليها النسك الا أقله   وان عاودت ، نخلع عليها الذى بقى

● قال ابن حمديس الصقلى يصف قصر المنصور الحمادى

واعمر بقصر الملك ناديك الذى   اضحى بجدك بيته معمورا

قصر لوانك قد كحلت بنوره ... أعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه ... فيكاد يحدث بالعصام نشورا
نسى التسبيح مع المليح بذكره ... رسما ففاق خورنقا وسديرا
لو ان بالايوان قوبل حسنه ... ما كان شيئا عنه مذكورا
اعيت مصانه على الفرس الاولى ... رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ... للوكهم شبها له ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين اريتنا ... غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا اعمالهم ... فرجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت ... حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه ... حقر البذور فاطلع المنصورا
ابصرته فرأيت ابدع منظر ... ثم انثنيت بناظرى مسحورا
فظننت انى حالم فى جنة ... لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت أبوابه ... جعلت ترحب بالعفاة صريرا
غضت على حلقاتهن ضراغم ... فغرت بها أفواهها تكبيرا
فانها ابدت لتهصر عندها ... من لم يكن بدخولها مامورا
تجرى الخواطر مطلقات اعنة ... فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب انه ... فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه ... مسكا تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الابصار منه اذا أتى ... صبحا على غسق الظلام منيرا

قال ابن حمديس الصقلي (1) يصف بركة :

1) ابن حمديس الصقلي (توفى سنة 572 هـ — 1133 م) .

هو ابو محمد عبد الجبار بن ابى بكر ... من أعظم شعراء صقلية ، ولد بسرقوسية 446 هـ 1154 م . غادر بلاده والتحق بالاندلس 471 هـ واتصل بابن عباد ثم عاد الى المغرب متنقلا بين بونة وبجاية . واقام ابن حمديس فى بلاط المنصور الحمادى من (431 الى 498) .

وضراغم سكنت عرن رئاسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كان سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارا والسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى ... سحر يؤثر في النهى تاثيرا
قد صوفحت اغصانها فكأنما ... قبضت بهن عن الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها ... ان تستقل بنهضتها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فارسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبرا نظروا ... بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... تلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائل موشية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ... أبصرت روضا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى ... حامت لتبنى في ذراه وكورا
وضعت به صناعها اقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا

وكأنما للشمس فيه ليقة — مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما للازورد مخرم — بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة — تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالك الارض الذي أضحى له — ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت — واستوجبت لقصورك التأخيرا

نصوص تاريخية

● تاسيس بجاية

... ولم يزل هذا دأبهم (الاعراب) حتى لقدهجر الناصر بن علناس سكنى القلعة (1) واختط بالساحل مدينة بجاية (2) ، ونقل اليها ذخيرتهواعدها لنزله ... ونزلها المنصور ابنه بعده فرارا من ضيم هذا الجيل وفسادهم بالضواحيالى منعة الجبال وتوعر مسالكها على رواحلهم واستقروا بها بعد وتركوا القلعة . (ابن خلدون ، كتاب العبر ج 6 ص 43

● ذكر بناء مدينة بجاية

...لما كانت هذه الوقعة (1) بين بنى حماد ،وقويت العرب ، فاهتم تميم بن المعز لذلك ... فبلغ ذلك الناصر وكان له وزير اسمه ابو بكرابن ابى الفتوح ، وكان رجلا جيدا يحب الاتفاق

1) قلعة بنى حماد .

2) سنة 460 هـ — 1067 — 1068

1) وقعة سبيبة بين الناصر بن علناس ومن معهوبين رياح وزغبة وسليم سنة 457 هـ 1065 م . بين القيروان وتبسة .

بينهم ... فقال للناصر ... فانكما لو اتفقتما لأخرجتما العرب (الاعراب) فقال الناصر لقد صدقت ... فأصلح ذات بيننا ، فأرسل الوزير رسولا من عنده الى تميم ... يرغب في الاصلاح فقبل تميم قوله وأرسل الى الناصر محمد بن البعبع ... حتى وصل الى الناصر ... وقال انا اشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها وذكر له عمارة بجاية واشار عليه ان يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد افريقية وقال له : انا انتقل اليك بأهلي وأدبر دولتك ، فأجابه الناصر الى ذلك وارتاب بوزيره (2) وسار مع الرسول الى بجاية(3) وترك الوزير بالقلعة ، فلما وصل الناصر والرسول الى بجاية أراه موضع المنيا والبلد والدار والسلطانية وغير ذلك . فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل ، وسر بذلك وشكره وعاهده على وزارته اذا عاد اليه ورجعا الى القلعة. فقال الناصر لوزيره ان هذا الرسول محب لنا وقد اشار ببناء بجاية ، ويريد الانتقال الينا ...

ابن الاثير : الكامل 8 ص 102 .

● دولة المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد

وللمنصور بن الناصر آثار عظيمة وقصور شامخة منيفة واخبار شهيرة . وتحرك الى المغرب وقد صارت تلمسان الى ملك المرابطين في جيوش عظيمة اشتملت على اثنتي عشرة محلة وفي شوال سنة ست وتسعين واربعمائة ، ونازل تلمسان ثم أقلع عنها صلحا ولما قفل عن تلمسان توفي بعد سبعة اشهر في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة .

وكان قائما على أمره ، حميد الخلال ضابطا للامور يكتب ويشعر ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور من رقع الثياب والتحفظ على القليل من الاشياء . وعليه قدم عن الدولة بن صمادح لما فر من المرية امام المرابطين فاقطعه تدلس (دلس) ونظرها ، واسكنه بها حسبما هو معروف .

وولي بعده الامر باديس ابنه .

لسان الدين بن الخطيب : اعمال الاعلام ص97

2) ابو بكر بن ابى الفتوح .

3) كانت آنذاك «منزلا» تسكنه قبيلة بجاية .

● نهوض يحيى بن العـزيز لمحـاصرة المهـدية

« وفي ايام الحسن قصد صاحب بجاية أخذ المهدية لانه سمع بالامير الحسن انه صالح الملـك رجار الرومي صاحب صقلية ووقعت بينهمـــاالهدنة وكان ذلك لان الحسن ارسل اليه بهديـة وصالحه مخافة من شره فتم الصلح وشرط اللعين عليه شروطا فقبلها فكاتب اهل المهدية يحيى بن العزيز الحمادى صاحب بجاية واطمعوه بتسليم البلد فوثق بهم وبعث اليها جيشا في البر ومراكب في البحر وبعث مقدم الجيش الفقيه مطرفا فنازلها برا وبحرا وجاءته العربان من كل فج ولم يكن له ارب في القتل لاطماع أهل البلد اياه وطال الحصار على أهل المهدية واتصل الخبر برجار صاحب صقلية فبعث اسطولا عظيما لنصرة الحسن وامر المقدم على الاسطول ان يقف عند امر الحسن ونهيه . فلما جاء اسطول اللعين وانتشر حول المهدية طاح ما بيد صاحب بجاية واراد النصراني ان يعكس مراكب أهل بجاية فمنعه الحسن وامره بالكف عن القتال لانه كره سفك دماء المسلمين ... وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة » .

ابن ابي دينار القيرواني : المؤنس ص 92 ـ 93

● أبو زكـريا يحيى بن العـزيز آخر بني حمـاد (1)

هلك العزيز سنة خمس عشرة وأربعمائة فولى من بعده ابنه يحيى وطالت أيامه مستضعفا مغلبا للنساء مولعا بالصيد على حين انقراض الدولـة وذهاب الايام بقبائل صنهاجة .

واستحدث السكة (2) ولم يحدثها أحد مـن قومه أدبا مع خلفائهم العبيديين . ونقل ابـــن حماد (3) ان سكته في الدينار كانت ثلاثة سطوودائرة في كل وجه ، فدائرة الوجه الواحـــد :

1) 515 او 518 الى 547 هـ / 1121 او 1124 الى1152 . وفي النص خطـأ يتعلق بوفاة العزيز . اما يحيى فانه توفي في المنفى بسلا سنة 557 هـ/62 ـ 1161 .

2) وذلك سنة 543 هـ / 1148 .

3) ابن حماد (ابو عبد الله محمد بن على بن حماد) توفي سنة 628 هـ / 1231 م ، صاحب «كتاب النبذ المحتاجة في اخبار ملوك صنهاجة بافريقية وبجاية » .

« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » والسطور : لا اله الا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الامير المنصور • ودائرة الوجه الآخر : بسم الله الرحمان الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفي سطوره : الامام ابو عبد الله المقتفى لامر الله أمير المؤمنين العباسي •

ابن خلدون : العبر ج 6 من 352 ـ 363

● ابتداء أمر محمد بن تومرت وملك عبد المؤمن

« كان محمد بن عبد الله بن تومرت العلوي الحسيني من قبيلة من المصامدة ، من اهل جبل السوس من بلاد المغرب • فرحل ابن تومرت الى بلاد المشرق فى طلب العلم ، واتقن علم الاصول والعربية والفقه والحديث ، واجتمع بالغزالي والكيا الهراسي في العراق واجتمع بأبي بكر الطرطوشي بالاسكندرية ، وقيل انه لم يجتمع بالغزالي • ثم حج ابن تومرت وعاد الى المغرب ، واخذ فى الانكار على الناس ، والزامهم باقامة الصلوات وغير ذلك من احكام الشريعة وتغيير المنكرات • ولما وصل الى قرية اسمها ملالة بالقرب من بجاية اتصل به عبد المؤمن بن علي الكومي ، وتفرس ابن تومرت النجابة في عبد المؤمن المذكور ، وسار معه وتلقب ابن تومرت بالمهدي » •

أبو الفداء : كتاب المختصر فى اخبار البشر ج 4 • ص 152 •

● اللقاء بين ابن تومرت وعبد المؤمن

خشي ابن تومرت العاقبة فغادر بجاية الى ناحية قريبة تسمى ملالة • ونزل في كنف أصحابها وهم من اعيان صنهاجة فآووه واكرموه وطلب اليهم والى بجاية تسليمه اليه فأبوا ولبث بينهم حينا يدرس العلم وكان اذا فرغ يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريبا من ملالة • ففي ذات يوم

وفد اليه كهل وفتى حسن التكوين رائع الجمال ولم يكن هذا الفتى الوسيم سوى عبد المؤمن بن على ٠٠٠ وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان فى طريقه الى المشرق ليطلب العلم ويقضى فريضة الحج ـــ فدعاه الى معاونته فيما هو قائم به من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البـــدع ٠

عبد الله عنان عن ابن خلدون ٠

● استيـلاء ابن غانيـة عـلى بجـــاية

« ومن صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة قدم على بن اسحق بن محمد بن غانية الميروقى من ميروقة فى البحر الى بجاية ومعه اخوته فى اثنتين وثلاثين قطعة فنزلوا بجاية على حين غفلة مـــن واليها حينئذ ابى عبد الله محمد بن عبد المؤمـــن وكان خارجها فى بعض مذاهبه فاستولى عليها »٠

الزركاشى : تاريخ الدولتين ، ص 10 ٠

● بجـــاية والغـزو البحـــرى

« ٠٠٠ وان بجاية كانت بلدة غزاة وكانت غزاة قطعها يدخلون الى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبى الكثير منها ٠ وينزل الناس لشرائه بحومة « المذبح » من جهة ربضها وهناك يخمس ويقع الفصل فيه ٠ ولم يزل الحال عـــلى ذلك وبلغ الحال من كثرة سبى الآدميين ان يباع بيخوان من الروم بسودا. من الوخش ٠

وكانت اجفان اسحاق بن غانية تصل ايضـامن ميروقة كما تصل به اجفان بجاية » .

أبو العباس احمد ... الغبريني : عنوان الدراية ... ص 45 ـ 46 ط . 1969 .

● بجـاية والغــزو البحــرى

« ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة افتقرت طوائف فى أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من امم الفرنجة النصرانيـة واصبحوا دولا متعددة فتنبهت عزائم كثير مــن المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم وشرع فى ذلك أهل بجـاية منذ ثـلاثـين سنـة . فيجمـع النفراء والطائفة من غزاة البحـر ويصنعــون الاسطول ويتخيرون له الابطال والرجال ثـــم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمــون ما يلقون من اساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبى والاسرى حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والاغلال عندمـا ينتشرون فى حاجاتهم ويغالون فى فدائهــم بما يتعذر معه أو يكاد .

فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة ، وعجزوا عن الثار به وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بافرنجة فصم عن سماعها وتطارحوا بثهم وثكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين والاخذ بالثار منهم » .

ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ص 903 .

أهــــم المــراجـــع

المـــراجع العربيـــة

(Bibliographie arabe)

1) **الرحـــلات :**

- ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ·
- البكـــرى : المسالك والممالك ·
- الادريسى : نزهة المشتاق ···
- مجـهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصـــار ·
- العبدرى : الرحلة المغربية ·
- البلوى (خالد بن عيسى) تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ·
- مجهـول : النفحة المسكية فى السفارة التركية ·
- الورثلانى : نزهة الانظار فى فضائل علم التاريخ والاخبار ·

2) **كتب التاريـخ :**

- ابن الاثـير : الكامل فى التاريخ ·
- ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ·
- لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام ·
- الزركشى : تاريخ الدولتين ·
- كتاب غزوات عروج وخير الدين ·
- ابن أبى دينار القيروانى : المؤنس ···

3) **التـراجـم :**

- أبو العباس أحمد الغبرينى : عنوان الدراية···
- الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف ·

المقـــالات
(ARTICLES DE REVUES)

1) Revue africaine

Féraud : occupation espagnole (1858)
période Turque (1859)

Bodin : notes et questions sur sidi Ahmad b. Youcef (1925)

Brandel : Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577. (1928)

2) *B. T. S. G. O.*

Cazenave Pierre Navarro, conquérant de vélez, Oran, Bougie, Tripoli (1925).

3) *B. S. G. A.*

Paul Wintzer : Bougie, place forte Espagnole (1932).

4) *Documents Algériens*

G. Marçais : Bougie (1950).

5) *Encyclopédie de l'Islam*
Bidjàya : T. I - 1240-41 (G. Marçais)
Hafçides : T. III - 68-72 (H. Idriss)
Arrûdj : T. I - 698-699 (R. Letourneau)

6) *Boletin de la Réal académia de la historia*
Cesaero Fernandez Duro ; Perdida de la cindad de Bugia en Africa ano 1555, referida por un clerigo Vizcaino Testigo de Vista - T. XXIX, déc. 1896 - pp. 465-537.

7) *Revue Tunisienne* 1922
L. Bercher : Article sur les réalisations hammadides.

8) *A. I. E. O.* (1955).
G. Marçais : Les villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen-Age - pp. 118-155.

9) *Bulletin de la section de géographie* (1929)
P. Boissonnade : Les relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord au Maghreb du XII[e] au XV[e] siècle - pp. 1-37.

Lapène (Edouard) : Vingt six mois à Bougie ou collection de mémoires sur sa conquête. Paris 1838. XVI - 288 p.

Léon l'Africain : Description de l'Afrique. Edit. Epaulard - T.II - p. 360

Lieussou : Etude sur les ports de l'Algérie. Paris 1850. Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française. Paris 1861. 319 p.

La Primandaie (Elie de) : Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique 1506-1574 ; Alger 1875.

Mélanges G. Marçais : Remarques sur le commerce maritime en Afrique du Nord au XI^e^ - T. II - 51-59.

Marçais (G.) : Les Arabes en Berbérie du XI^e^ au XIV^e^ siècle - Paris 1913.

La Berbérie musulmane et l'orient au Moyen-Age - 1946.

Les Poteries et faïences de Bougie ; Constantine 1916 ; 13 p.

Mas-Latrie : Traîté de paix et de commerce... avec les Arabes de l'Afrique au Moyen-Age. Paris 1866 - suppl. Paris 1872.

Coup d'œil rapide sur Bougie par un administrateur qui a résidé longtemps en Afrique : 1843, 59 p.

المراجــع الغـربية
(BIBLIOGRAPHIE OCCIDENTALE)

١) الكتب المطبوعة
(Ouvrages imprimés)

Berbrugger : Les époques militaires de la Grande-Kabylie. Alger 1857.

Brunschwig (*R*) : La Berbèrie orientale sous les Hafcides. 2 V. Paris 1940-1947.

Boulifa : Le Djurjura à travers l'histoire, depuis l'antiquité jusqu'à 1830. Alger 1935.

Beylié : La Kalaâ des Béni Hammad. Paris 1909. Ch. IV.

Cornulier-Lucinière (gl comte de) : La prise de Bône et de Bougie d'après des documents inédits (1832-1833); Paris 1898. VIII - 377 p.

Dufourq Ch. E) : L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV[e] siècles (Paris 1966). 664 p.

Féraud (Ch) : Histoire des villes de la province de Constantine. Bougie (Constantine 1869).

Galland Ch. A) : Bougie 1895.

Golvin (L.) : Le Maghreb central à l'époque des zirides. Recherches d'Archéologie et d'Histoire. Paris 1957.

Habsburg-Toskana (*Ludwig Salvator Van*) : Bougie, die Perle Nord-Afrikas ; Prague 1889 ; VIII - 123 p.

Haëdo (Fray Diego) : Histoire des rois d'Alger, trad. de Grammont 1880-1881.

Idriss (R. H.) : La Berbèrie orientale sous les zirides X - XIII[e] siècle. 2 T. Paris 1962.

Lambert (Jacques Numa) : Saldae Bougie et le christianisme ; Alger 1958. 28 p.

Depuis quatre heures jusqu'à dix heures du matin, le canon ne cessa de retentir ; on compte qu'il fût tiré plus de deux mille coups.

...Les Coulouglis, les Maures et les Kabaïles s'étaient déjà retirés dans la plaine, sur les collines qui entourent la ville, où se tenaient cachés dans les maisons et dans les rues... Le soir du 29 septembre tous les points principaux de la ville étaient au pouvoir des Français ; néanmoins les jours suivants les Kabaïles attaquèrent avec un acharnement incroyable ; le général Trézel fut blessé le second jour, et il y eut un moment très critique lorsque des masses d'ennemis arrivèrent de toutes parts.

Le 1er octobre, les Kabaïles revinrent avec autant de fureur que la veille... Les attaques des Arabes se renouvelèrent pendant plusieurs mois...

Coup d'œil..., pp. 16-18

PRISE DE BOUGIE EN 1833

Des Maures et des Kabyles parmi lesquels le caïd Boucetta étaient entrés en relation avec les autorités françaises et se faisaient forts de leur livrer Bougie contre de substantiels avantages commerçiaux. Le caïd se rendit à Alger pour solliciter l'intervention de l'armée. Sur ces entrefaites, un incident survenu à un bâteau anglais dans le port fit craindre une intervention britannique. Lamoricière fut chargé, en juin 1833, d'une reconnaissance dans la ville pour s'informer de l'état d'esprit de la population et des ressources militaires. Il en ramena un rapport qui exagérait les facilités d'une occupation. Voirol se montra moins enthousiaste que le fougueux capitaine mais le ministre, qui dirigeait l'affaire de Paris, confia au général Trézel un corps de 2.000 hommes qui s'empara, sans grandes difficultés, de la place (29 septembre 1833). La guerre de rues à laquelle il fallut ensuite se livrer, démentit l'optimisme de Lamoricière et Trézel dut demander des renforts. La ville souffrit beaucoup et ses habitants, loin d'accueillir les Français avec joie, la désertèrent. Duvivier qui n'était encore que chef de bataillon prit le 7 novembre, le commandement supérieur de Bougie et dut faire camper les troupes au milieu des ruines, dans des conditions d'hygiène déplorables, parfois sans ravitaillement et en butte aux attaques des Kabyles.

Ch. A. Julien ; Histoire de l'Algérie contemporaine ; p. 103.

l'est, le Roi Mouléi Abd-Allah ne peut se refuser à l'accepter : le traîté lui laisse le titre de roi et une grande partie de son royaume, ce qui lui permettra de vivre d'une manière convenable. De plus, s'il nous reste fidèle, comme nous comptons qu'il le sera, on pourra l'aider plus tard à agrandir son territoire dans l'intérieur des terres.

Le traîté conclu, vous ferez en sorte que tous les Maures du royaume qui n'habitent pas les villages de la côte soient avertis qu'en se soumettant au dit Roi Mouléi Abd-Allah, ils pourront compter sur notre assistance, et qu'ils seront bien traités et partout accueillis honorablement ; mais qu'on fera la guerre aux autres, ajoutant tout ce que vous croyez utile pour les déterminer à se ranger à l'obéissance du roi. Nous espérons que de cette manière, Mouléi Abd-Allah étant maître de tout le royaume, moins le littoral, et demeurant notre allié fidèle et dévoué, la ville de Bougie se trouvera à l'abri de toute hostilité, et que les autres localités de la côte pourront être occupées et conservées sans beaucoup de peine. Le dit roi, gardant son autorité à part et les intérêts des deux populations n'étant plus confondus, pourra ainsi se maintenir plus facilement parmi les Maures.

J'ai retranché le chapitre du traîté par lequel le roi demandait qu'on lui permit d'avoir une ou deux mosquées dans le faubourg de Bougie. Il n'est pas nécessaire que cette clause y soit insérée, puisqu'il est convenu que les Maaures ne seront tolérés dans le dit faubourg, que jusqu'à ce que le roi puisse résider ailleurs en sûreté.

J'ai entretenu Miguel Cabrero de divers autres objets dont il vous parlera ; vous pouvez lui accorder toute votre confiance.

1833... LA RESISTANCE

Une frégate, *La Victoire*, six navires de moindre conséquence et dix huit bâtiments de commerce formèrent une petite escadre qui tourna le Cap Carbon, à quatre heures du matin le 29 septembre 1833.

Une fois entrée dans le golf de Bougie, la cannonade se fit entendre de toute part ; les navires se divisèrent : la frégate s'embossa devant la Casbah et foudroya cette citadelle, les bricks tirèrent de leur côté sur Bougie et le fort Abdelkader situé à l'est de la ville...

Et dans ce jour où le canon grondait avec tant de fureur, où les Turcs, derniers restes de cette garnison permanente de 60 hommes, la nouba, luttaient en vain contre la valeur française et tiraient du haut des vieux forts les quelques canons qu'ils possédaient, tandis que les Kabaïles, les Maures, les femmes et les enfants faisaient entendre des cris qu'on pourrait comparer aux rugissements des lions du désert, n'était-ce pas un tableau imposant et majestueux à la fois ?

nous maintenir en Afrique, nous devons occuper les villes d'Oran, de Bougie et de Tripoli (au cas qu'on prenne cette dernière et les repeupler entièrement de chrétiens). Autrement, comme les Maures sont maîtres de tout le reste du pays, si nous leurs permettions d'habiter les villes du littoral, il nous serait impossible de conserver longtemps ce que nous avons conquis. Les trois places dont il s'agit devront donc, en attendant mieux, être munies d'une bonne garnison de chrétiens, et aucun Maure ne pourra y être admis.

Pour les mêmes causes, le titre de Bougie se trouvait inscrit, comme à nous appartenant, dans le mémorial de l'église romaine, et ayant été joint à nos autres titres royaux, il nous paraît convenable que le dit Roi Mouléi Abd-Allah ne s'intitule plus roi de Bougie, mais qu'il se nomme, à son choix, roi de quelque autre terre, ville ou province du territoire qui fait partie du dit royaume, à l'exception toutefois de celles qui se trouvent sur le littoral. La ville de Bougie, avec toutes ses dépendances, ses revenus et sa juridiction, ainsi que les autres villes, bourgs et villages situés sur la côte, doivent aussi nous appartenir entièrement, et le Roi Mouléi Abd-Allah ne pourra élever à leur sujet aucune prétention, que leurs habitants soient chrétiens ou maures.

Les dites villes et localités étant reconnues comme notre propriété, nous consentons d'ailleurs à ce que le Roi Mouléi Abd-Allah possède toutes les autres terres du dit royaume, avec leurs revenus et juridictions, nous réservant seulement la haute et supérieure distribution de la justice, apanage inséparable de la suprême couronne royale, et sauf la fidélité qui nous est dûe. En reconnaissance de notre droit de souverain, le roi devra aussi s'obliger à nous payer chaque année un certain tribut, et, comme vous devez savoir ce que rapportent les dites terres qui lui sont laissées, et conséquemment ce qu'il peut raisonnablement payer, vous fixerez vous-même le chiffre de ce tribut. Dans le cas où sa valeur serait telle qu'il n'y eût pas à en faire grand profit, vous demanderez seulement un certain nombre de chevaux chaque année; mais il est bien entendu que, si les revenus de ces terres le permettent, vous exigerez du roi qu'il acquitte le tribut en argent, afin de nous aider à couvrir les dépenses que nécessite l'occupation de Bougie.

La chose principale que vous aurez à observer dans ce traîté ou dans tout autre qui pourrait être conclu avec les Maures, c'est la question des approvisionnements. Il faut que nous puissions largement nous soutenir en Afrique, avec les seules ressources du pays, parce que nous y soutenir plus longtemps, en tirant tout d'Espagne, serait impossible, et que nous perdrions bientôt le fruit de nos efforts actuels. Il importe donc que les choses soient organisées de manière que nous puissions toujours conserver les places que nous avons conquises et nous y maintenir, sans être obligés de les approvisionner du dehors, ainsi que nous l'avons fait jusqu'à ce jour. A l'avenir, nous ne devons pouvoir qu'aux dépenses qui pourraient être nécessitées par des secours en troupes ou en navires, suivant les cas qui se présenteront.

En conformité de ce qui est dit plus haut et d'après d'autres idées qui me sont venues, j'ai cru devoir faire quelques changements au traîté. Je vous le renvoie, avec la présente lettre qui vous fera connaître de quelle manière j'entends qu'il soit exécuté. Dépossédé comme il

Az-Zarkachi (7) affirme que Bougie était administrée par un délégué d'Al 'Aziz... Le Madhi se tenait sur une roche de l'accotement de la route, proche des habitations de Mallâla et que l'on nommait encore de son nom du temps de l'auteur.

D'après Ibn Khaldûn il vit al 'Aziz b. al Mansûr vivant dans le luxe et lui adressa ainsi qu'à ses officiers de sévères remontrances. Ayant un jour été scandalisé par certains actes dont il fut témoin en parcourant les rues de la ville, il brisa les amphores de vin et les instruments de musique. Le Sultan outré, réunit le conseil des ministres. Ibn Tûmart se réfugia à Mallâla où il fut pris sous la protection de la puissante tribu sanhagienne des Banû Uriâgul.

R. H. Idriss : La Berbérie.

LETTRE DU ROI FERDINAND LE CATHOLIQUE, COMTE DON PEDRO NAVARRO SON CAPITAINE GENERAL EN AFRIQUE (1)

MONZON,...mai 1510.

(ARCH. de Simancas. - Estado, costa de Africa, Legojo 461)

Comte Don Pedro Navarro, notre capitaine général et notre conseiller, j'ai lu vos trois lettres du 3 mai que vous m'avez adressées par la voix de Valence, et celle du 5 du même mois que m'a remise Miguel Cabrero, contino (garde du corps) de ma maison.

A l'heure même, je donnai l'ordre d'écrire à Alonzo Sanchez, pour qu'il fît moudre sans délai dans le royaume de Valence, mille sacs de blé qui y ont été apportés, et qu'il eût à vous les envoyer à Bougie. Vous recevrez en même temps du biscuit fabriqué avec une partie de cette farine, pour 15 jours au moins et pour 8.000 hommes. Comme en ce moment, à Valence, les provisions de bouche font défaut, j'ai écrit aussi à Malaga au trésorier Vargas ; en lui recommandant très particulièrement qu'au reçu de ma lettre, et avec la plus grande diligence, il vous expédiat tous les vivres dont il pourrait disposer, afin que vous en soyez pourvu en temps utile et que vous puissiez partir. J'ai prescrit de même au dit trésorier de vous envoyer 10.000 ducats. S'il plait à Dieu, en arrivant en Sicile, la flotte pourra y compléter ses approvisionnements, parce que le vice-roi de ce royaume m'a écrit que tout était prêt.

Quand au traîté qu'il vous paraît convenable de conclure avec le roi Mouléi Abd-Allah, comme dans ces sortes de choses, en doit avant tout penser à ce qui a été acquis, et que pour cela, il importe que le traîté soit stable à perpétuité, et que des deux côtés on puisse l'observer fidèlement, je crois, ainsi que vous me l'avez écrit à diverses reprises, que si nous voulons

(7) Auteur du XV[e], a laissé un livre : Târikh ad-dawla taim.

2) On a plusieurs relations assez différentes du séjour du Mahdi dans la capitale hammadide... celle d'Al Baydaq (2)... celle d'Al Qattan (3).

D'après Al Baydaq, le Mahdi arrivé à Bougie, s'installa à la Mosquée du Myrte (Masjid ar Rayhàna) et se mit à interdire le port des sandales aux lanières dorées, des turbans de l'époque du paganisme ; il défendit aux hommes de se parer à la manière des femmes en revêtant des tuniques dites fatûhiyyat.

Pendant son séjour qui eut lieu en ramadhan (4), un certain nombre de juristes le fréquentèrent. Le jour de la rupture du jeûne il dispersa en bâtonnant les hommes et les femmes qui se mêlaient sur l'esplanade située en dehors de la ville.

Un fils de l'Emir Al 'Aziz (5) le mit en garde contre les réactions du vulgaire, l'imam se rendait alors à Mallâla où les fils d'Al 'Aziz lui construisirent une mosquée et les étudiants d'affluer vers lui de partout. Quand le cours était terminé, il venait s'asseoir à la croisée des chemins, sous le caroubier de la vieille (Kharroube al 'Adjoûz) et remuait les lèvres en récitant le nom d'Allah.

Un jour il entra à Bougie et, arrivé à Bab al Bahr, il répandit à terre le vin qu'en y vendait. Les esclaves de Sab° b. al 'Aziz le fils du Hammadide le frappèrent et il s'en retourna à sa mosquée. La suite du récit d'al Baydaq raconte l'entrevue de 'Abd al Mû'min et du Mahdi que la plupart des sources situent elles aussi à Mallala...

D'après ibn al-Qattân, ibn Tûmart rencontra à Bougie des jeunes gens accoutrées comme des femmes (ils avaient des tresses postiches, *ad dafâ'ir,* des anneaux aux oreilles, des vêtements ornés de soie et des bonnets de soie, *chawâchi al Khazz* et contemplés par des gens dépravés) ; il abolit cette exhibition. Lors d'une fête, il vit des hommes mêlés aux femmes et aux garçons richement vêtus et les paupières enduites de fard d'antimoine ; il les molesta et une bagarre s'ensuivit aux cours de laquelle les femmes furent dépouillées de leurs bijoux. Al 'Aziz ordonna aux *Tolbas* de discuter avec le "Juriste du Sous" qui était la cause de l'incident... ils envoyèrent chercher l'imam à la mosquée qu'il fréquentait. Comme il refusait de répondre à l'invite, ils lui dépéchèrent le secrétaire 'Umar b. Eulgul qui réussit à le fléchir par la douceur et tâcha de le convaincre de renoncer à sa mission de censeur au cours d'une discussion où l'imam l'emporta sur ses contradicteurs.

Quelques témoignages sont encore à signaler :

Al Marrâkuchî (6) dit que les habitants de Bougie acceptèrent les remontrances d'ibn Tûmart mais qu'il fût expulsé par l'émir.

(2) Contemporain d'Ibn Tûmart et de 'Abd al Mûmin ; auteur de "mémoires".
(3) Qàdi de Sidjilmasa ; mort en 628/: 1230 - auteur du livre intitulé : نظم الجمان فى اخبار الزمان
(4) Ramadan de l'année 512/: décembre 1119.
(5) Al-'Aziz ben al Mansûr ben Bâdis, 8e Emir Hammadide - 498-515/: 1105-1121.
(6) 'Abd al Wâhid al Marrâkuchi autour d'un important ouvrage intitulé **al Mu'jib fi talkhisi akbâr al Maghrib.**

« Le Dieu tout puissant qui veut que tous les hommes soient sauvés et qu'aucun ne périsse, n'approuve en effet rien davantage chez nous que l'amour de nos semblables, après l'amour que nous Lui devons, et que l'observation de ce précepte : Faites aux autres ce que vous voudriez qui vous fût fait. Nous devons plus particulièrement que les autres peuples, pratiquer cette vertu de la charité, vous et nous, qui sous les formes différentes, adorons le même Dieu unique, et qui chaque jour louons et vénérons en Lui le Créateur des siècles et le Maître du monde.

« Les nobles de la ville de Rome ayant appris par nous l'acte que Dieu vous a inspiré, admirent l'élévation de votre cœur et publient vos louanges. Deux d'entre eux, nos commensaux les plus habituels, Albéric et Cencius, élevés avec nous dès leur adolescence dans les palais de Rome, désireraient vivement se lier d'amitié et de services réciproques avec vous. Ils seraient heureux de pouvoir vous être agréables en ce pays. Ils vous envoient quelques uns de leurs hommes qui vous diront combien leurs maîtres ont de l'estime pour votre expérience et votre grandeur et combien ils seront satisfaits de vous servir ici. Nous les recommandons à votre magnificence et nous vous demandons pour eux cet amour et ce dévouement que nous aurons toujours pour vous et pour tout ce qui vous concerne. Dieu sait que l'honneur du Dieu tout puissant inspire l'amitié que nous vous avons vouée et combien nous souhaitons votre salut et votre gloire dans cette vie et dans l'autre. Nous le prions du fond du cœur de vous recevoir, après une ,longue vie dans le sein de la béatitude du très Saint Patriarche Abraham ».

Jamais peut-être pontife romain n'a plus affectueusement marqué sa sympathie à un prince musulman, jamais surtout nous n'avons remarqué qu'un pape ait exprimé avec cette effusion intime et ces ménagements la croyance commune des Musulmans et des Chrétiens au même Dieu unique et immortel, servi et honoré par des cultes respectables quoique divers.

Mas-Latrie : Traités p. 23

IBN TUMART A BOUGIE

1) Embarqué à Alméria, Ibn Tumart (1) s'arrêta à Mahdiya vers 501 de l'Hégire : 1108, sous Tamîm. Il y revint en 505 : 1111-1112 sous Yahia. Après avoir passé une dizaine d'années en Orient, il regagna le Maghreb vers 510-511 : 1116-1118.

Son itinéraire paraît avoir été Tripoli, Mahdia, Monastir, Tunis, Constantine, Bougie 512 : 1118-1119). Mallala où il rencontra 'Abd al-Mû'mim et séjourna plusieurs mois avant de rentrer au Maroc en longeant la côte jusqu'à Tlemcen.

(1) Né. d'après Ibn Khaldûn en 484/: 1091. Mort en 524/: 1130.

Pages d'histoire...

LA TOLERANCE RELIGIEUSE DES HAMMADIDES

La bonne entente existant entre ces princes et le Saint Siège donnait une entière sécurité à leurs sujets Chrétiens. Il y eut même pendant longtemps et jusqu'au XIII^{e} siècle, des chrétiens servant dans les armées des princes africains. Des facilités leurs étaient données pour la libre pratique de leur culte au milieu des troupes et des populations musulmanes : l'Eglise et les gouvernements chrétiens en permettaient le recrutement en Europe...

Conformément aux instructions de Grégoire VII, l'archevêque de Carthage et son collègue (de Bône) désignèrent un prêtre nommé Servand. Le roi En-Nâsir agréa ce choix et quand Servand partit pour Rome, il lui remit des lettres et des cadeaux destinés au Pape. Il fit plus : voulant témoigner à Grégoire VII le prix qu'il attachait à son amitié, et l'assurer de ses dispositions favorables pour ceux de ses sujets qui professaient la religion chrétienne, il fit racheter tous les prisonniers que l'on trouva dans ses états et les envoya au souverain pontife.

Ch. Féraud : Bougie pp. 70 - 71.

Lettre du Pape Grégoire VII à l'Emir Hammadide En-Nâsir - 1076.

« Cette lettre d'un caractère plus expansif qu'aucune de celles qui ont été échangées entre les papes et les rois du Maghreb mérite d'être relue ».

Mas-Latrie : Traités de paix et de commerce, introduction p. 22.

«Grégoire, évêque serviteur des serviteurs (de Dieu), à Anzir (En-Nâsir) roi de la Mauritanie et de la province Sitifienne, en Afrique, salut et bénédiction apostolique.

« Votre noblesse nous a écrit cette année pour nous prier de consacrer évêque, suivant les constitutions chrétiennes, le prêtre Servand, ce que nous nous sommes empressé de faire, parce que votre demande était juste. Vous nous avez en même temps envoyé des présents ; vous avez, par déférence pour le bienheureux Pierre, prince des apôtres, et par amour pour nous, racheté les chrétiens qui étaient captifs chez vous et promis de racheter ceux que l'on trouverait encore. Dieu, le créateur de toutes choses, sans lequel nous ne pouvons absolument rien, vous a évidemment inspiré cette bonté et a disposé votre cœur à cet acte généreux.

BOUGIE AU XVIIIe SIECLE

Bougie est bâtie sur les ruines d'une grande ville, de la même manière et dans une position semblable à celle de Dellys à cela près qu'il est trois fois plus grand. Une partie assez considérable de ses anciennes murailles sont encore debout et, comme celles de Dellys, elles suivent les différentes sinuosités de la montagne sur laquelle se trouve la ville.

Outre un château fort qui la domine il y en a deux autres dans la partie basse pour la défense du port. On voit encore sur les murs de l'un de ces châteaux les marques de quelques-uns des boulets de canon Spragg, lors de son expédition, qu'il lança contre cette place.

Bougie a une garnison de trois compagnies d'infanterie ; ce qui n'empêche pas les tribus kabyles de la tenir presque continuellement bloquée. Chaque jour de marché, ces tribus y portent leurs denrées et les choses se passent assez tranquillement tant qu'il dure...

Les habitants font un commerce assez considérable de socs de charrues, de bêches et autres instruments aratoires qu'ils forgent avec du fer provenant des mines environnantes. Ils achètent aussi aux Kabyles une grande quantité d'huile et de cire, que l'on exporte en Europe et dans le Levant.

Shaw : Voyages.



cap ou promontoire d'où ils découvrent la mer de fort loin (1). Il y a un aga et soixante dix janissaires et trente quatre ou trente cinq pièces de canon sur les forteresses qui sont très irrégulières. Il y a bon mouillage et un petit réduit à mettre à couvert de la mer quatre ou cinq moyens vaisseaux ou six galères ...».

Petis de la Croix : Mémoire sur le royaume d'Alger et son étendue et gouvernement, publié par M. Emerit A.I.E.O., 1959, p. 236.

DE LA VILLE DE BOUGIE

Cette ville est située sur le penchant d'une montagne qui est jointe à d'autres beaucoup plus hautes qui l'incommoderaient peu si elles étaient moins éloignées. Elle est presque ruinée. Ses maisons sont petites, basses, mauvaises mal bâties, éparses de côté et d'autre, séparées par des pièces de terres et de petits jardins. En un mot cette ville autrefois si considérable n'est plus qu'un misérable village.

Sa figure est à peu près celle d'une harpe dont l'angle aigu est au plus haut de la montagne et est terminé par une grosse tour. Toutes les murailles sont abattues et ruinées. On ne saurait pas qu'il y en a eu, si on n'en voyait pas quelques pans répandus de côté et d'autre.

On connait aisément qu'elle a été fort grande : ses murailles du côté du Midi sont appuyées par un rocher taillé à plomb, au delà duquel est une plaine qui s'étend plus de deux lieues vers le Midi.

Elle n'est habitée que de cinq à six cents personnes et de 150 soldats qu'on y envoie d'Alger pour garder les châteaux. Ils n'oseraient sortir de leurs postes et sont obligés d'être continuellement sur leurs gardes à cause des Maures de la campagne, qui ne leur font jamais de quartier...

Il y a trois châteaux dans Bougie qui forment un triangle irrégulier. Celui de l'occident est presque au milieu de la ville. Il est nouveau. Ce n'est qu'une grosse maison carrée bâtie par les Turcs... Les deux autres sont sur le bord de la mer. Celui du Nord est bâti sur une langue de rochers qui commande un petit port où l'on peut retirer des bâteaux... Il est ovale fort vieux et fort en désordre. Le troisième est au Midi. C'est le meilleur, le plus grand et le plus en état de défense. Il est carré, tout bâti de briques... C'est sans contredit ce qu'il y a de meilleur et de mieux conservé de toutes les antiquités de cette ville si ancienne et si célèbre.

... la rade est à l'orient, elle est grande, sûre et d'un fond excellent pour l'ancrage.

Chevalier d'Arvieux : Mémoires T. 5, pp. 236 - 240.

(1) Les 2 forts de la Marine sont la Kasba et le fort Abdelkader. Le fort le plus élevé est le fort Moussa (Barral). Il y avait le Bor(j al Ahmar et un autre situé sur le cap Bouak.

comblés de fruits : il existe autour de la ville une infinité de vergers remplis d'arbres fruitiers ; ces jardins sont surtout nombreux du côté de la porte qui donne vers l'Est.

Le pays est plein d'âpres montagnes couvertent de forêts où pillulent les singes et les léopards.

Les Bougiotes sont des hommes agréables. Ils aiment passer joyeusement leur temps : chacun d'eux fait de la musique et fait danser, les seigneurs, en particulier qui n'ont jamais déclaré la guerre à personne. Ils se sont même montrés si peu courageux que, quand le comte Pierre Navarro est venu avec quelques navires de transport (3) toute la population le roi en tête, s'est enfuie dans la montagne, emportant tout ce qu'elle possédait et sans presque dégaîner un seul sabre.

Le comte Pierre s'est emparé de la ville et l'a saccagée, puis a fait immédiatement bâtir une forteresse près de la mer, à un endroit où existe une bonne plage. Il a aussi fortifié une vieille citadelle, également voisine de la mer à côté de l'arsenal (4).

Six ans plus tard (5) le Turc Barberousse voulut enlever la ville des mains des Chrétiens. Il vint camper devant la ville avec mille soldats turcs et attaqua la vieille citadelle, qu'il prit et fortifia. Toutes les tribus des montagnes voisines étaient venues à l'aide de Barberousse, qui entreprit de s'emparer de l'autre forteresse, près de la plage.

Mais à la première attaque cent turcs, parmi les plus vaillants et cent montagnards furent tués, si bien que les troupes ne voulurent plus reprendre le combat et que Barberousse dut s'enfuir au château de Gegel, comme il a été dit plus haut (6).

Léon l'Africain : Description de l'Afrique. T. II, pp. 360 - 361.

BOUGIE AU XVII^{e} SIECLE

«... à douze lieues de Gigeli est la ville de Bougie, place qu'ils (les Turcs) estiment le plus à cause des bois qu'ils y font couper incessamment propres à bâtir des vaisseaux et galères et cinq forteresses qui y sont, desquelles il y en a deux raisonnables qui sont le fort de l'Aga et un autre au-dessus, deux le long de la Marine et un petit fort élevé sur un

(3) 14 navires transportant 8.000 hommes.
(4) Bougie a été prise le samedi 24 ramadan 915 Hégire - 5 janvier 1510.
(5) En rajab 921 / Août 1515.
(6) A la mi-septembre il y eut au surplus des pluies torrentielles et les paysans partirent en hâte labourer.

BOUGIE AU XVᵉ SIECLE

Durant toute la période hafside, Bougie a constitué une sorte de seconde capitale après Tunis ; elle s'est même trouvée parfois à la tête d'un état indépendant.

«... Bougie est capitale du royaume de ce nom que le roi de Tunis a donné à son fils ; Bougie est une très grande ville, très peuplée et entourée d'un bon rempart ...».

Anselne Andorne (1) : Récits de voyage.

(1) Flammand, de Bruges, Andorne entreprit son voyage en 1470.

GRANDE VILLE DE BOUGIE

Bougie est une ville antique (1) bâtie, comme le pensent certains, par les Romains sur la pente d'une très haute montagne au bord de la Méditerranée. Cette ville entourée de hautes et fortes murailles, fait dans les 8.000 feux, j'entends dans sa partie habitée, car si elle était pleine de maisons elle en ferait plus de 24.000. Elle s'étend tellement en largeur sur le flanc de la montagne que c'est chose vraiment incroyable. Toutes ses maisons sont belles. Elle est bien pourvue de temples, de collèges où les étudiants sont nombreux ainsi que les professeurs de droit et de sciences. On y trouve aussi des monastères (2) pour les religieux mahométans, des étuves, des hôtelleries, des hospices, tous beaux édifices bien construits. Ses marchés sont également beaux et bien ordonnés. Il est vrai que la ville est toute en côte, si bien que l'on ne peut faire quelques pas sans être obligé de monter ou de descendre.

A côté de la montagne existe une grande forteresse aux murs solides. Elle est ornée de tant de mosaïques, de plâtres découpés, de bois sculptés rehaussés de merveilleuses peintures bleu-outremer que ces œuvres d'art valent plus que la construction elle-même.

Les Bougiotes ont été très riches. Ils armaient quantité de fustes et de galères qu'ils envoyaient piller les côtes d'Espagne. C'est de là que provint la déchéance de la ville parce que le comte Pierre Navarro y fut envoyé pour s'en emparer. Les gens vivent pauvrement car les terrains de culture sont trop maigres pour produire des céréales, mais ils sont

(1) En berbère, Begait, nom de tribu, en arabe Bejaya, dans l'antiquité Saldae.
(2) Zaouïas.

Enfin si la guerre était déclarée, par exemple avec l'Angleterre, une flotte française pourrait y mouiller avec toute sécurité, et de là, agir au besoin immédiatement sur Alger ou sur Bône et protéger la côte.

Ces raisons ne sont-elles pas assez fortes pour persuader que la conquête de Bougie ne fut très nécessaire si on voulait s'établir solidement sur la côte d'Afrique ?

(Coup d'œil rapide sur Bougie par un administrateur qui a résidé longtemps en Afrique pp. 11 - 12).

LA CAVERNE DE RAYMOND LULLE (1)

Au bout du cap de Bougie, on voit un grand trou ou une voûte qui traverse le cap N-S sous laquelle pourrait passer une galère mâtée et où les brigantins et les bâtiments à rames de Majorque viennent se cacher pour attendre les bâtiments turcs et les prendre. Quelques-uns appellent cette voûte, la caverne de Raymond Lulle, qui, cherchant la pierre philosophale, passa pour magicien. Les autres disent que la caverne de Raymond Lulle est une grotte à un grand quart de lieue de la ville, vers l'endroit où il y a un bon mouillage.

Sous cette voûte il y a une source d'eau et l'on y voit le restant d'une ancienne citerne sur laquelle on a bâti un marabout ou oratoire et ermitage pour un saint turc.

Peysonnel : Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, pp. 469 - 470.

(1) Raymond Lulle, missonnaire franciscain de Majorque, vint, au XIVe siècle, tenter d'implanter le christianisme parmi les populations du Maghreb central et oriental.
Entre deux séjours à Tunis, il débarqua à Bougie, venant de Paris par Montpellier et Majorque en 1307.
Après une prédication sur la place publique, il fut arrêté, jeté en prison puis expulsé.

Le Sîte
L'Importance de la ville

DESCRIPTION DE LA VILLE DE BOUGIE

Qu'on se représente trois contreforts à peu près parallèles, issus de la même chaîne et séparés l'un de l'autre par deux gorges débouchant à la mer. Que l'on applique sur la crête des deux contreforts extrêmes deux hautes murailles en briques, flanquées de tourelles percées de meurtrières, surmontées de clochetons, conformes enfin aux besoins et aux habitudes militaires du moyen-âge.

Que l'on couvre l'espace compris entre ces deux murailles de vingt mille petites habitations à un étage, s'élevant en escaliers sur les pentes de la montagne et ornées d'une galerie couverte, d'où la vue s'étendait sur la mer ; que l'on intercalle dans l'intérieur de ce massif une foule de jardins où dominent l'oranger, le grenadier et la vigne arrondie en berceau ; enfin que l'on répartisse sur ce fond environ cinquante mosquées avec leurs coupoles et leurs minarets blancs ; on aura ainsi une idée de ce qu'à dû être Bougie, la capitale des Béni Hammad et l'une des principales cités berbères du Nord de l'Algérie.

Ch. Féraud : Bougie, p. 13.

IMPORTANCE DE BOUGIE

Quelques personnes ont peut-être trouvé que la prise de cette ville et son occupation ont été des choses de peu d'utilité et qui ne peuvent avoir aucune influence pour l'avenir de la colonie.

Ces personnes se trompent.

En effet Bougie, premièrement était le centre d'une population féroce et redoutable qui sans cesse nous attaquait à l'est d'Alger.

Secondement, entre Alger et Bône, cette ville est un point de relâche sûr pour les navires ; sa rade immense et parfaitement abritée, peut servir de station entre ces deux dernières villes.

Troisièmement, il était utile d'être maître du port de Bougie, afin qu'en cas de guerre, l'ennemi ne s'en emparât pas.

INTRODUCTION

Nous présentons dans ce recueil, un certain nombre de textes en français et en arabe sur Bougie à travers les grandes époques de son histoire.

Notre but est de mettre à la portée des curieux et de ceux qui s'intéressent au passé de cette grande cité un ensemble de textes choisis et peu accessibles parce que, publiés soit dans des revues spécialisées soit dans des ouvrages anciens et rares.

Notre choix est loin d'être exhaustif. Nous avons simplement tenté de faire connaître la variété et l'importance des travaux relatifs à Bidjaya, à sa région et à son rôle dans le Maghreb et la Méditerranée ainsi que tout le profit qu'ils offrent. De nombreux genres littéraires ont consacré une large place à la capitale des Hammadides : la poésie, l'histoire, les relations de voyages, les biographies de savants etc...

On ne saurait reprocher à ce recueil son caractère hétéroclyte car il a pour seul but de montrer l'intérêt que portaient les savants et les princes, les hommes d'affaires ou les simples voyageurs à celle qui fut l'une des capitales du Maghreb central.

M. BELHAMISSI



الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها

المهـدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى – الجزائر

ان مدينة بجاية التى اسست سنة ستين واربعمائة على يد الملك الناصر بن علناس الحمادى وسميت اذ ذاك بالناصرية ، لم يمض عليها ربـــع قرن حتى استحالت الى عاصمة ضاهت عواصم الدنيا الاقتصادية والعلمية وجاوز عدد سكانها مائة الف نسمة وقبل التعرض لصميم الموضوع ، نرجع الى الحديث عن الدولة الحمادية التى ينتمى اليها مؤسس المدينة والظروف التى تكونت فيها قبل تأسيس بجاية بنحو القــرن ·

كلنا نعلم الظروف التى اختار فيها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى نقل عاصمة الدولة الفاطمية الى القاهرة واختياره لعامله بلقين بن زيرى خليفة للدولة الفاطمية بالمغرب العربى الحالى ، كان لبلقين هذا من جملة اولاده حماد ، ولما توفى بلقين حوالى سنة 372 ه · خلفه ولده المنصــور الذى انتقل من العاصمة الثانية اشير – قاعدة بنى زيرى – الى عاصمـة المملكة المركزية القيروان كان من نتيجة هذا الانتقال تآمـر افراد عشيرة بنى زيرى على المنصور وثورتهم عليه ، فحينئذ انتصر حماد لاخيه المنصور وقمـــع الثوار فاعترف له المنصور بمواقفه الحاسمة واقطع له اشير وما احيط بها وعينه عاملا عليها ·

وبعد موت المنصور سنة 385 هـ • خلفه ولده باديس وحينئذ ظهر فى الافق زيرى (1) بن عطية المغراوى فتصدى حماد لمحاربته وكانت الغلبة لزيرى الذى حاصر اشير ، فعندئذ ، عزز حماد ، بل فكر فى تعزيز حصن اشير بحصن آخر ، فكان حصن كيانة الذى استحال الى « قلعة بنى حماد » •

كان ابتداء بناء حصن كيانة (2) الذى استحال الى عاصمة « قلعة بنى حماد » سنة 398 هـ وانتهى بناؤه بعد سنتين اى متمم سنة 400 هـ كان بناء هذا الحصن باعانة باديس ، الا ان العلائق توترت بين باديس وعمه حماد لاسباب كانت من نتائجها خلع حماد طاعة الفاطميين والبراءة من مذهبهم ومبايعة خلفاء بنى العباس ببغداد ومبادلته الهدايا والرسائل معهم ، فحينئذ اعلن عليه باديس الحرب ووقعت بينهما عدة معارك سقطت اثناءها مدينة اشير ، فتحصن حماد بالقلعة ، وكان على وشك الاستسلام لما بلغه نبأ وفاة باديس ، وذلك سنة 406 هـ • خلف باديس ولده المعز ، وكان عمره حين توليته ثمان سنوات ، فاضطربت احوال المملكة ، وكان المعز تحت كفالة والدته التى اعدته لتولية مهام الحكم احسن اعداد ، ولهذا لم يسع حماد وبقية افراد الاسرة المتمردين على والده باديس الا الاستسلام ، توفى حماد سنة 417 هـ • وخلفه ولده القائد الذى جدد الحرب مع المعز ابن باديس وانتهت باستسلام القائد بن حماد وفى تلك الاثناء تعرضت القلعة وسهولها لهجمات بنى هلال ، ثم استانفت الحرب بين القائد ابن حماد والمعز اعقبها صلح نهائى تعهد فيه القائد بالطاعة والولاء للمعز وجدد له المعز الاعتراف بالاقطاع والولاية على اشير والقلعة بل الجانب الغربى من المملكة الزيرية ، فكان هذا الاتفاق مبدأ انقسام دولة بنى زيرى الى دولتين : الدولة الشرقية التى كانت قاعدتها القيروان وكان على رأسها المعز ابن باديس وصارت تحمل اسم « دولة بنى زيرى » والدولة الغربية وقاعدتها « اشير » ورئيسها القائد ابن حماد وصارت تعرف بدولة « بنى حماد » وبمجرد ما اعترف المعز للقائد ابن حماد بولاية اشير والناحية الغربية

---

1) زيرى بن عطية المغراوى من بقايا ملوك مغراوة الذين قضى على دولتهم بلقين سنة 360 هـ وكان ملوك مغراوة يوالون ملوك الاندلس فاقطعوا لزيرى المغرب فقصد زيرى بنى زير لأخذه بالثار وذلك سنة 390 هـ •

2) حصن كيانة ويعرف بجبل عجيسة بنى على انقاض حصن رومانى وقد غلط بعض المؤرخين فسموه حصن كتامة وفى هذا الحصن لقى ابو يزيد الخارجى حتفه وقال ابن خلدون ان فى سفحه كانت تسكن قبيلة عياض العربية ولا زالت هذه القبيلة تسكنه الى زماننا هذا •

3) طبنة مدينة اثرية كانت مقرا للكاهنة ثم اتخذها المسلمون بعد الفتوحات قاعدة الزاب قال بعض الجغرافيين انها اعظم مدينة بين القيروان وسجلماسة وانجبت كثيرا من العلماء عرفت ببنى الطبنى فى الاندلس •

نقل القاعدة من اشير الى « قلعة بنى حماد » التى مصرها والده ونقل اليها سكان طبنة (3) والمسيلة (4) وحمزة (5) ٠

ثم شاءت الاقدار ان تسقط القيروان وصقلية فتستفيد القلعة من ذلك حيث التجأ اليها جل علماء القيروان وتجارها وصناعها ، كما صارت القاعدة التجارية العظمى ، وقد وصفها اول عهدها ابو عبيد البكرى فى تاليفه « المسالك والممالك » فقال « قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة ٠ تمصرت عند خراب القيروان ، انتقل اليها اكثر اهل افريقية وهى اليوم مقصد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب وهى اليوم مستقر مملكة صنهاجة الخ » ٠

هكذا تكونت دولة بنى حماد ، وقد ذكرنا هذه الفقرات توطئة ومدخلا للدراسة التى هى كما يدل عليها عنوانها « الحياة الفكرية ببجاية فى عهد دولتى بنى حفص والاتراك واثارها » ٠

وقد علمنا ايضا ان دولة الموحدين هى التى قضت على دولة بنى حماد ببجاية سنة 542 هـ وخلفتها ، ثم تكونت دولة بنى حفص على انقاض دولة الموحدين ، الا انها فى الميدان العقائدى كانت امتدادا لمذهب المهدى ابن تومرت رغم اعلان الخليفة المامون ابن يعقوب المنصور الذى قال : « ايها الناس لا تدعوه المعصوم وادعوه المذموم الخ » وذلك فى اواخر القرن السادس الهجرى بعاصمة الدولة المركزية بمراكش ولما اعلن ابو زكرياء الحفصى استقلاله بتونس التى كان عاملا عليها من قبل دولة الموحدين الحق بجاية بتونس وعين ولده ـ ولي عهده ـ بها لمكانتها فصارت العاصمة الثانية للدولة الحفصية الناشئة وكثيرا ما تقاسمت تونس قاعدة الحكم ٠

سبق لنا ان بجاية بنيت سنة 460 هـ بناها الناصر بن علناس الملك الرابع لدولة بنى حماد ، ولما توفى الناصر هذا خلفه ولده المنصور ونقل مقر العاصمة من «قلعة بنى حماد» ـ التى توالت عليها هجومات بنى هلال ـ الى بجاية ، ونظرا لموقعها ، امكنها ان تتجنب غارات بنى هلال وتربط صلتها مع الدول التى كانت تتبادل معها التجارة على طريق اسطولها البحرى ، فحافظت على مكانتها الاقتصادية ، وقد وصفها الشريف الادريسى فى « نزهة المشتاق » فقال « ومدينة بجاية فى وقتنا هذا مدينة المغرب الاوسط ، وعين بلاد بنى حماد ، والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، واهلها مياسير تجار ، وبها من

4) المسيلة وتسمى ايضا المحمدية اسسها على ابن حمدون المشهور بالاندلس فى عهد العبديين وبها نشأ المعز لدين الله الفاطمى وبلقين وجعفر بن على بن حمدون ممدوح الشاعر ابن هانى الاندلسى ٠

5) حمزة تعرف الآن بالبويرة بين الجزائر وسطيف اسسها الادارسة فى مدة حكومتهم بتلمسان والمغرب الاقصى ٠

الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود ، وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ، ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيرا ، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابى لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ، وبها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة الخ » .

كما امكنها المحافظة على مركز القلعة الثقافى الممتاز اذ علاوة على علماء القلعة الذين انتقلوا اليها ، وردت عليها نخبة من علماء الاندلس الذين شجعهم المنصور وسهل لهم سبل الاقامة ماديا وادبيا ففى مدة قليلة صار علماء الاندلس يمثلون اغلبية الطبقات المثقفة ببجاية وقد طبعوا الثقافة الاسلامية بطابع خاص سنتحدث عنه فى موضعه . كان علماء الاندلس الذين وردوا على بجاية من بقايا انصار الفقهاء المالكيين وبالطبع كانت وجهتهم السياسية تميل الى دولة المرابطين التى قضى عليها الموحدون ، لم ينس الفقهاء الاندلسيون انهم لم يشاهدوا عهد استقرار وتقدير وتاييد فى كفاحهم الطويل الذى ابتدأ منذ ظهور الدولة الشيعية فى افريقيا ، مثل ما نالوه فى عهد المرابطين ، خصوصا بالاندلس والمغرب ، ولهذا لم يطمئنوا للانقلاب الذى احدثته دولة الموحدين بل عدوه كارثة .

كان من جملة اللاجئين الاندلسيين اساطين من قادة الفكر اذ ذاك ، خصوصا الفلاسفة الذين احدثت تآليفهم وآراؤهم دويا فى العالم لا زال يردد صداه الباحثون والعلماء من مختلف الاجناس والاديان ، ولما ذكرناه كان احتلال الموحدين لبجاية سنة 542 لم يرض العلماء الاندلسين الذين لم يقاسموا السكان استبشارهم وتفاؤلاتهم بالانقلاب ، ولم يكن ذلك راجعا الى ازمة الحماديين من الحكم ببجاية فحسب ، بل كان مرجع ذلك الى القضاء على دولة المرابطين بالاندلس والمغرب ، ولهذا كان رد الفعل مساهمتهم المبكرة فى المؤامرة التى دبروها لبنى غانية ، بقايا دولة المرابطين بجزر ميروقة وسهلوا لهم احتلال بجاية التى كانت منطلق شرارة هذه الثورة التى رغم ما لاقته من مقاومة كانت نتيجتها ، تفكيك عرى دولة الموحدين والاطاحة بها وقلع جذور الفكرة الموحدية من اساسها ، عند ملوكها ، حتى صاروا يتبراون منها ، ويلعنون مؤسسها من اعلى منابر مساجد العاصمة اسوة بما فعله ملوك بنى زيرى مع الفاطميين عندما صرح خطيب مسجد القيروان سنة 433 فى عهد المعز ابن باديس وقال « اللهم العن الفسقة الكفار والمارقين الفجار اعداء الدين وانصار الشيطان » .

اطلنا في هذا التقديم او المدخل الذي فرضه علينا سياق الحديث اذ لم يتمكن التعرض لجوهر الموضوع من دون ذكر هذه التوطئة ، كما ان كثيرا من القراء لم تتح لهم دراسة تاريخ بجاية عبر عصورها حتى نكتفي بالاحالة او الاشارة الى الوقائـــع ٠

هذا ملخص ما شاهدته بجاية العاصمة العلمية التي لعبت ادوارا في تاريخ البلاد الفكرية والسياسية ولنرجع الى موضوع الدراسة اي الحياة الفكرية في العهدين الحفصي والتركي بمزيد من التفصيل ٠

لا شك ان دولة الموحدين لما تفككت اوصالها ، وتنازع ولاتها ، وتقاسموا اعمالها او ولاياتها مما هو مشهور ، كانت مملكة بجاية من نصيب الولاة الحفصيين ، الذين استقلوا عن الخــلافة الموحدية بمراكش في عهد ابي زكرياء الحفصي والي تونس المتمرد على حكومة الموحدين المركزية ٠

كانت قاعدة الدولة الحفصية الاولى مدينة تونس ، والقاعدة الثانية بجاية ، التي تولى عليها ولي عهد الملك ابي زكرياء الحفصي ٠

ثم شاءت الاقدار ان تكون دولة الحفصيين الناشئة هذه بلغت اوج العظمـــة ، وامكنها ان تحظى بمبايعة الاندلسيين والحجازيين ، ونفس مزاحميها في وراثة دولة الموحدين المركزية كبني مرين ملوك المغرب ، وبني زيان ملوك تلمسان ٠

امتازت الدولة الحفصية في أول نشأتها بملوكها الذين كانوا من اكابر العلماء فنالت الثقافة في عهدهم ازدهارا ، وغص بلاط ملوكها بفطاحـل العلماء والمؤلفين ، الذين خلدوا العهد الحفصي وبوؤوه مكانة سجلها له التاريخ ، ولم تحظ بها الا دول قليلة ٠

ففي العهد الحفصي خصوصا في عهد مؤسس الدولة ابي زكرياء وولده المستنصر باللـه ، ظهرت تآليف حازم القرطاجني ، وابن عصفور النحوي ، وابن الابار الاندلسي ، واحمد الغبريني وابن المطرف المخزومي ، كما ظهرت بعدهما تآليف التجاني صاحب الرحلة وابـن قنفذ القسنطيني صاحب الـوفيات ، وديوان العبر لابن خلدون ، وظهرت في ميــدان الفلسفة تآليف ابن سبعين (6) خصوصا رسائله التي احدثت هزة عنيفة في الاوساط العلمية المسيحية الذين كانوا في بلاط الامبراطور فردريك الثاني ملك صقلية ، وتآليـف محي الدين (7) ابـن عــربي الحاتمي

6) عبد الحق ابن سبعين (613 ــ 667 هـ) وقد اختلف فيه كثير من الباحثين فمنهم من كفره ومنهم من جعله في اعالي مراتب الصلاح وقد نشرت رسائله بعـدة لغـات ولا زال الكتاب يخصونه بالتآليف ٠

7) محي الدين بن عربي (560 ــ 638 هـ) له ما يزيد على 150 تاليفا وقد اختلف ايضا فيه معاصروه ومن بعدهم وخصوه بتآليف قيمة منهم السيوطي ٠

والششترى (8) والحرالى وغيرهم اذ لا زالت هذه التآليف محل عناية الكتاب والباحثين الى يومنا هذا ، وان تتبع كل ما ظهر من الآثار الثقافية فى العهد الحفصى يحتاج الى سلسلة مقالات ·

وقد احتفظ لنا التاريخ باهم اثر لذلك العهد وهو كتاب « عنوان الدراية فى ذكر من عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » الذى ترجم فيه مؤلفه لخمسين ومائة عالم وقد كان هذا الكتاب من انفس المصادر وانفعها لتاريخ بجاية الثقافى ، اذ لا يخلو تاليف من تآليف تراجم ذلك العهد من ذكره ، خصوصا تاريخ تراجم علماء الاندلس ، وقد الفت كثير من الكتب الهامة فى جميع فروع المعرفة ضاع الكثير منها ، ونظرا لما يتطلبه بحث كهذا من الاختصار نقتصر فى هذا العرض على ذكر عالم بجائى امكنه ان يحدث ما يسمى فى زمامنا هذا بثورة ثقافية فى ميدان كانت له اهمية فى ذلك العهد الا وهو ميدان الفقه المالكى ، والفقه المالكى اذ ذاك كان هو دعامة الثقافة الاسلامية خصوصا بالاندلس والمغرب العربى حيث كان الفقهاء قادة الفكر ، الا ان كثيرا منهم استغلوا الظروف التى اطلق لهم فيها قيادة وتوجيه الراى العام ، فبالغوا ، واسرفوا ، حتى جر عليهم موقفهم وابلا من النقد ، ومن جملة منتقديهم اذ ذاك ابو بكر ابن العربى الاندلسى الذى قال عنهم فى كتابه « العواصم على القواصم » قال صار التقليد ، دينهم والاقتداء بغيتهم فكلما جاء احدهم بعلم حقروا امره ودفعوا فى صدره ، الخ · هذا العالم البجائى هو ناصر الدين (9) المشذالى الذى اقام مدة فى مصر ونقل الى بجاية ومنها الى المغرب العربى الطريقة التى انتصر فيها اصحابها فى ميدان الفقه المالكى هذه الطريقة التى انتهج فيها الفقه المالكى منهجا جديدا حيث دخل فى مقاييس الاختيار والترجيح مقياس جديد هو مقياس الفتوى والعمل وقد اعتنى اخيرا احد (10) افاضل الباحثين فقال فى الموضوع « كان د رسوا الفقه اذ ذاك يطبقون الاحكام الشرعية على الوقائع بمراعاة فرضت فيه تلك الاحكام من الظروف الزمانية والمكانية فاذا رأوا ان بعض تلك الظروف تبدل مالوا الى العدول عن القول المشهور الى قول غيره اجتهادا منهم واستحسانا واعتبارا للمصالح الشرعية ، وهذا كله ناتج عن الطريقة التى احدثها مختصر ابن

---

8) ابو الحسن الششترى ولد سنة 610 هـ وقد اعتنى به كثير من الكتاب مسلمين واجانب ومن اهم البحوث اطروحة د· سامي النشار استاذ جامعة الاسكندرية ·

9) ناصر الدين المشذالى (631 – 731 هـ) ذكره ابن خلدون اذ هو استاذ استاذه عمران المشذالى وصهره واشاد بعمله وتحقيقه كما اشاد به تلميذه ابن مرزوق الخطيب وغيرهما ·

10) محمد الفاضل ابن عاشور مفتى الجمهورية التونسية سابقا ·

الحاجب الفقهى الذى جمع ستاوستين الف مسئلة وعظم به الاعجاب واقبل عليه دارسو الفقه وهو الذى قال فيه ابن خلدون انه جاء كالبرنامج للمذهب) (II) ·

« كان طريق اتصال مختصر ابن الحاجب ببلاد المغرب العربى على يد ناصر الدين المشذالى الذى تخرج على تلامذة ابن الحاجب ونشره فى تلاميذه ببجاية ومن بجاية انتقل الى عامة اقطار المغرب العربى » هذا ما قاله الفاضل ابن عاشور وقد ايده كثير من مؤرخى الفقه الاسلامى ومنهم محمد الحجوى فى تاليفه « الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى » قال فى الموضوع : « ان ناصر الدين المشدالى البجائى هو اول من ادخل مختصر ابن الحاجب الفقهى للمغرب ورغبهم فيه ·

اقتصرنا على اثر ناصر الدين المشدالى لانه امكنه ان يخفف من وطاة الخلافات داخل صفوف الفقهاء اذ رغم براءة ملوك الموحدين من مذهب امامهم تحت ضغط الراى العام الذى كان يقوده الفقهاء ويوجهونه ، فقد بقيت طبقة تنتصر للظاهرية والموحدية ، الا ان الخلافات حينئذ لم تتعد الاوساط العلمية ، بخلاف ما كانت عليه قبل ، فكان العوام والساسة يتداخلون ، وان ملوك الحفصيين كانوا ينتصرون لمذهب امامهم المهدى ابن تومرت الا انهم وقف الكثير منهم ، ان لم نقل جلهم ، مواقف نزيهة حيادية ، لم يستعملوا وسائل الضغط او الاغراء لنصر مذهبهم كما فعل ذلك الخليفة يعقوب المنصور الذى حرق كتب مذهب مالك ، وفعله قبله الحاجب ابن ابى عامر بالاندلس فحرق كتب الفلسفة فى الشوارع العامة تحت تصفيق الجماهير ترضية للعوام واشباههم الذين كان تدالخهم فى الميدان من الكوارث وعلاوة على التآليف التى خصها اصحابها الى تراجم ملوك الدولة الحفصية وما اظهوره من تشجيع للحركة الفكرية ، ثم كتب تراجم علماء ذلك العهد فاننا نجد بعض الرحالين زاروا بجاية سواء زاروها عابري سبيل ، او طلاب علم ، وقد سجلوا انطباعاتهم عن بجاية فى القرون السابع والثامن والتاسع وذلك مثل العبدرى صاحب الرحلة المغربية (I2) الذى وصف بجاية وصفا دقيقا وذكر من لقيه بها من علمائها – ومنهم ناصر الدين المشدالى – ووصف مسجدها الجامع وموقعها فى اواخر القرن السابع اى حوالى سنة 680 ه ثم اعقبه خالد البلوى الاندلسى الذى زار بجاية حوالى سنة 730 وسجل انطباعاته فى رحلته المشهورة (I3) وذكر كثيرا من علمائها ، وتعرض بالخصوص لمآثرها ، وقصورها ، وقد زارها

II) من مقال قيم للمرحوم محمد الفاضل ابن عاشور مفتى الديار التونسية نشره قبل وفاته باشهر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد 44 رجب 1389 اقتبسه فيما يظهر من « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » للمقرى ·

I2) الرحلة المغربية طبعت منذ سنوات قليلة بتحقيق محمد القاسى وزير الثقافة سابقا بالرباط و د· ابن جدو استاذ بجامعة الجزائر ·

I3) رحلة خالد البلوى لا زالت مخطوطة فى عدة خزائن : الجزائر ، تونس ، الرباط ، الخ ·

عبد الرحمن بن خلدون الذى استقدمه ملكها ابو عبد اللـــه الحفصى وولاه الحجابة التى هى بمثابة (رئاسة الوزراء) فذهب اليها من المرية سنة ست وستين وسبعمائة (766 هـ) ولم يتعـرض ابن خلدون لوصف الحالة الثقافية ببجاية مدة اقامته الا اننا استفدنا منه انه اخذ عن بعض كبار علمائها كاحمد بن ادريس وقد كان فى وقت اضطراب وخلافات بين افراد اسرة ملوك بنى حفص الذين تقاسموا ولايات تونس وبجاية وقسنطينة الا انه تقدم مدة اقامته لخطبة الجمعة بالجامع الاعظم ـ جامع القصبة ـ وفى ذلك قال عن الملك ابى عبد الله الحفصى الذى استقدمه « وقدمنى للخطبة بجامع القصبة لا انفك عن ذلك » .

وقال عن احمد ابن ادريس فى معرض حديثه عن القاهرة التى بهرته اذ ذاك عندما وصلها قال « وسألت شيخنا احمد بن ادريس ابا العباس كبير العلماء ببجاية » الخ .

اقام ابن خلدون ببجاية سنتين اى من سنة 766 الى 768 وغادرها فى ظروف خطيرة اذ تغلب عليها ملك قسنطينة اذا ذاك ، ولولا علائق اسرته مع الحفصيين من عهد جده الذى تولى شبـــه وزارة المال حوالى سنة 727 هـ وتواصلت العلائق الى عهده الى حتفه ، وهذا الجانب هو الذى تعرض اليه ابن خلدون مدة اقامته ببجاية ومن حسن الحظ اننا وجدنا احد طـلاب العلم ورد على بجاية فى نفس المدة التى كان فيها ابن خلدون اى سنة 766 هـ وذكر انطباعاته عن الوســط البجائى وهذا الطالب هو محمد بن عمر الهوارى دفين وهران الشهير (المتوفى سنة 843 هـ) فقد ذكر مترجمه ابن صعد (14) الانصارى الاندلسى ما يلى : « وكان مبدأ قراءته بمدينة بجاية دخلها بعد صومه بسنة ، فقرأ على اعلامها الجلة ، عين منهم الامامين سيدى عبد الرحمـــن الوغليسى وسيدى احمد بن ادريس ، وكلامه ـ اى الهوارى ـ فى منظوماته (15) مليئات بالثناء على اهل بجاية ، وذكـــر محاسنهم فى الايثار والصدقات ، واشتمالهم على الغرباء ، وحبهـم للفقـــراء ومحافظتهم فى معاملتهم على الربا ، وصرح فى كثير من كلامه انه لقى بها جملة من العلماء اهل الصدق والورع اجازوه فى جميع العلوم وفى نظمه المسمى بالتسهيل قولـــه .

لو وصفت لك ما ريــت فى بجاية وهى هيا   بلد الورع والعـــلم وترابى حقيقيـا الخ .

---

(14) ابن صعد الانصارى الاندلسى صاحب « روضة النسرين فى التعريف بالاشياخ الاربعـــة المتاخرين » الفه فى اواخر القرن التاسع لخزانة المتوكل على الله الزيانى ملك تلمسان .

(15) منظومات الهوارى كلها باللغة الدارجة أى الزجل ولهذا ظن كثير من مترجمين انه لا يحسن العربية الفصحى مع انه كان من اكابر العلماء فقد اخذ ببجاية ثم بفاس ثم ختم رحلته العلميـــة بالمشـــــرق .

ثم دخلها كطالب علم ايضا فى تلك المدة ابو عبد الله الشريف التلمسانى ــ احد كبار مشايخ ابن خلدون الذين ترجمهم واشاد بعلمهم وفضلهم فقال عنها : « انه وجد العلم ينبع من صـــدور رجالها كالماء الذى ينبع من حيطانها .

ثم زارها بعدهما طالب ثالث وهو عبد الرحمن ابن مخلوف الثعالبى دفين الجزائر (المتوفى حوالى سنة 875 هـ) فقال فى فهرسته بعد ان عرف بنفسه ومقر ولادته ابتداء رحلتـــه العلمية : « .. ثم تناهت بى الرحلة الى بجاية فدخلتها عام اثنين وثمانمائة فلقيت بها الائمة المقتدى بهم فى علمهم ودينهم وورعهم اصحاب الشيخ الفقيه الزاهد الورع ابى زيد عـــبد الرحمن بن احمد الوغليسى واصحاب الشيخ ابى العباس احمد بن ادريس وهم يومئذ متوافرون اهل ورع ووقوف مع الحدود لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم وسلك اتباعهم وطلبتهم مسلكهم رضى اللـــه عنهم اجمعين » ثم ذكر الثعالبى بعض مشائخه الذين اخذ عنهم ببجاية باسمائهم اذ طالت مدة اقامته بها .

والثعالبى الذى اشاد بالعلماء الذين « كانوا لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم » لا يقصــد مقاطعتهم للامراء بل كانوا قائمين بمأموريتهم : نشر العلم ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكــر والابتعاد كل البعد عن مواقف التهم ، ملتزمين بما تعهدوا بـــه لمشائخهم الذين كان شعـــارهم ــ خصوصا علماء (16) الحديث ــ «اقطعوا الياس مما فى ايدى الناس تعيشوا اعزة » وقد رأينا آثار ما تركته مقاومة الفاطميين ، فان الفقهاء السنيين قاطعوهم مقاطعة شملت من انتصر لهم من العلماء ، فقاطعوا تآليفهم ، ومن جملتهم البراذعى صاحب « تهذيب المدونة » وغيره فالثعالبى الذى وصف تلامذة ابن ادريس والوغليسى بانهم على سننهما « لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم بقصد انهم لم يكونوا دعاة لمذاهبهم ، ولا ابواقا لسياستهم اذ كان من جملة ما تساهلوا فيه سفك الدماء لادنى تهمة ، فالمستنصر بالله ووالده قبله قتلا كثيرا من اساطين العلم ، وبلغ بهم الاستهتار والعتو ان حرقوا تآليف ضحاياهم ــ كابن الابار وقائمة ضحايا العهد الحفصى من العلماء طويلة ولم تحمل مسؤليتها الملوك الحفصيين وحدهم ، وانما يشاركهم فى تحمل اوزارها كثير من العلماء الذين كانوا يستغلون تقربهم الى البلاطات ليوشوا بخصومهم لعدة اسباب ومعظمها يرجع الى الحسد ثم ان كثيرا من العلماء كانوا لا يعطون قيمة لبعض الوزراء المقربين اذهم اعـــرف الناس بقيمهم ويتحققون انهم لم ينالوا مناصبهم باستحقاق وانما كانوا يستعملون طرق التزلف والتقرب والثعالبى الذى حمـــل على المخالطين للامراء كان ينتمى الى اكبر امارة حكمت عاصمة الجزائر وسهول متيجة انتصر افرادها للمهدى ابن تومرت عندما مر عليهم ، اشتهر علماء الدين فى بجاية

(16) كان علماء الحديث عندما يجيزون الرواة عنهم الراغبين فى سلسلة السند يوصونهم كتابـــة ومشافهة « اقطعوا الياس مما فى ايدى الناس تعيشوا اعزة » فصارت شعارا لهـــم .

بالورع والنزاهة من زمان ومترجموهم متفقون على ذلك ، اذ امتازت الثقافة ببجاية من اول عهدها اى ابتداء من القرن السادس بطابع خاص بقيت آثاره ملازمة لها ، الا وهو التصوف ، وكان هذا النوع من التصوف تمثله طبقة لها ميول خاصة للزهد والورع ، لا ما يدعيه محترفو التصـــوف ، ولهذا لما ظهرت طائفة ادعت الزهد والولاية وارادت ان تخلف الائمة الاولين وتتشبه بهم لاغـراض دنيوية محضة تصدى لكشف حقيقتها علماء التصـوف انفسهم ، كما ستظهر ذلك بوضوح فى ختام هذه الدراسة والخلاصة فى هذا الباب انه رغم الاضطرابات السياسية التى تعرضت لها بجاية فى العهد الحفصى فان الحياة الثقافية كانت مزدهـــرة ٠

وفى اواخر العهد الحفصى اى اواخر القرن التاســـع لما ضعفت الدولـــة ، واندلعت عليها ثورات الاعراب ، ورؤساء الاقطاع ، استغل كثير من ملوك اوروبا الوضع فحصلوا لجالياتهم على امتيازات خولت لهم الحرية التامة فى تصرفاتهم ذكر المؤرخ الفرنسى (17) فيرو أن ملك فرنســا لويس الحادى عشر كاتب ملك بجاية سنة 1482 م (حوالى 887 هـ) ليجدد المعاهدة التجارية بين بلديهما ، فتجددت المعاهدة التى التزم فيها ملك بجاية بضمـــان امن الجالية الفرنسية المقيمة فى بجاية ، وحينئذ عقد المؤرخ المذكور فصلا ذكر فيــه بتفصيل حالة الجالية الفرنسية المقيمة ببجاية وبقية الجاليات الاوربية فقال « فالجاليات الاوربيـــة كانت تسكن بفنادق خاصة بها ، فكل جالية يخصص لها فندق يقيم فيه افرادها تحت نظر قنصلها الذى كان يسكن معها ، فالفندق كان مخصصا للسكنى والتجارة ،وكان عبارة عن قرية اذ يشتمل على كنيسة ومقبرة (وكان قسيس الكنيسة تابعا لاسقف جنوة) ٠

كانت شرطة الفندق تحت تصرف القنصل والحراس الذين كانت اكثريتهم من المسلمين وكان لهم الحق ان يمنعوا اى احد كان مسلما او مسيحيا من الدخول الى الفندق ، ان لم يظهر جــوازا للدخـــول ٠

فالضباط المسلمون ممنوعون من اقتحام حرم الفندق اذا دعتهم المصلحة الى تتبع متهم من الجاليات الاجنبية الا باذن القنصل ٠

هذه هى حالة البلاد ابتداء من تدهور الحكم الحفصى فى اواخر القرن التاسع ، وقد وصف حالة بجاية اذا ذاك الفقيه احمد الشريف (18) البجائى الذى وجه سؤالا الى استاذه احمد بن الحاج

---

(17) « تاريخ بجاية » لفيرو الترجمان العسكرى ببجاية اثر الاحتلال الفرنسى والكاتب المشهور٠

(18) نشر صاحب « البستان فى ذكر العلماء ولاولياء بتلمسان » هذا السؤال فى ترجمته التى عقدها لاحمد بن الحاج البيدرى المذكور (ص 140) (المتوفى سنة 930) ٠

اليبدرى التلمساني بعد رجوعه من تلمسان ذلك السؤال الذى ضمنه وصف حالة بجاية قال « ما جوابكم فى موضع كثر فيه الظلم والاشرار وانتشر فيه الباطل والسكر كل انتشار ، وذل فيه المسلمون وعز فيه الكفار ، وارتفع فيه الجور والظلم ، واتضع فيه اهل المعرفة والعلم ، تمكس فيه جل المبيعات على المسلمين ، واشكل الامر على المسترشدين الخ » وهكذا نرى انه رغم ما وصلت اليه بجاية فى اواخر القرن التاسع حيث امكن للجاليات الاجنبية ان تنال امتيازات لرعاياها كان من نتائجها انتشار الفجور والخمور والاباحية مما ادى علماءها الى طرح استفتاءات (داخل البلدة وخارجها) فىحكم الاقامة ببلاد اسلامية انقطع فيها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد هاجر بالفعل البلدة كثير من علمائها ، وانتقلوا الى القرى المجاورة ، ثم الي قسنطينة وتونس ، سنتحدث عنها بتفصيل فى موضعها فى هذه الفترة التى اجتازتها بجاية ، ورد عليها احد كبار علماء المغرب امكنه ان يحدث بحق ثورة فكرية كتب لها الانتشار والخلود طيلة ثلاثة قرون بل لا زالت آثارها الى زماننا هذا .

كان هذا العالم هو ابو العباس احمد زروق البرنسى الفاسى الذى اخذ بتلمسان عن السنوسى وغيره ، ثم عن الثعالبى بالجزائر وكون مدرسة ببجاية كان من ابرز تلامذته فيها احمد بن يوسف دفين مليانة واحمد بن خدة الراشدى – احد اجداد الامير عبد القادر الجزائرى – وصغير بن محمد الاخضرى – والد المؤلف الشهير عبد الرحمن الاخضرى صاحب السلم والجوهر المكنون – ومحمد بن على الخروبى دفين الجزائر.

وقد كان انتشار مذهب زروق على طريق محمد الخروبى وعبد الرحمن الاخضرى .

كان احمد زروق عندما وصل الى بجاية وجد كثيرا من المبتدعين تقمصوا اثواب الصلاح والولاية وكونوا طرقا منحرفة عن تعاليم الدين فتصدى لمحاربتهم ثم رأى انه امام الفوضى التى سادت اذ ذاك وتستر الدجاجلة والمبتدعين بعلم الحقيقة والتصوف والمراءاة الزائفة رأى ان الوضع فى حاجة الى جعل حد لهذه الفوضى فالف كتابه الشهير « قواعد التصوف » ثم اصول الطريقة » ونظم « عيوب النفس » للسلمى فبهذه التآليف ضبط علم التصوف وقلع فكرة ان الحقيقة تخالف الشريعة او تباينها ثم الف كتبا اخرى قيمة فى الحديث والتفسير والفقه وما الى ذلك واذا اوجدنا تلميذه محمد بن على الخروبى نشر جل تآليف استاذه زروق التى تعهدها بالشرح والتعليق كأصول الطريقة « وعيوب النفس » ثم الف « كفاية المريد » و « تفسير القرآن » و « الحكم » وشرحها – وقد ظن بعض مترجميه انها « حكم ابن عطاء الله » والحقيقة انها تآليف له مع شرحه (19) ، انتشرت

(19) وقد احتفظ معهد من معاهد قرى بجاية بهذا التاليف النادر القيم بخط مؤلفه .

تآليف الخروبى وقد وصفها حسن العجيمى استاذ ابى سالم العياشى الرحالة فقال « ومن المعلوم أن تفاصيل السنة يطول ومن انفع الكتب لمن اراد الله له الجرى على هذه المحجة « كفاية المريد « للشيخ الخروبى » .

وذكر محمد بن على السنوسى دفين جغبوب (ليبيا) فى بعض فهارســه ان تآليف الخروبى شبيهة بتآليف الغزالى « فان هذه التاليف لم تجاوز اوساط الخاصة ، اما الذى خلد تعاليم زروق ونشرها عند الخاصة والعامة فهو ولد تلميذه : عبد الرحمن الاخضرى دفين بنطيوس بالــزاب (بسكرة فقد الف منظومة سماها «القدسية (20)» تحتوى على 357 بيتا ضمنها كشف حالة المبتدعة والدجالين والمنحرفين المدعين للصلاح ، وقارن بينهم وبين الصالحين الحقيقيين ، فكان الاقبال على هذه المنظومة التى تناقلها طلبة العلم ، وصار اصحاب المعاهد يلزمون طلبــة معاهدهم بحفظها ، وتحفيظها ، كما اعتنى كثير من العلماء بشرحها ، والتعليق عليها ، قال الاخضرى فى وصـــف المتحرفين الذين ادعوا التصوف فى « القدسية » .

قــد ادعــوا مــراتبا جليلــة	والشـــرع قد تجنبــوا سبيله

الى ان يقول :

قد ملكــت قلوبهـــم اوهـــام	فالقول ابليـــس لهم امـــام
كفـــاك من جميعهـــم خيانـــة	اذ ختلـــوا الدنيا بالديانـة
وهتكــوا محــارم الشــريعة	وسلكــوا مســالك الخديعــة

ثم بين ان المقياس الذى تقاس به اعمال الناس فى هذا الميدان هو اتباع السنة والكتاب وان كل ما خالف تعاليمهما فهو افك وبهتان والى هذا اشار بقوله

من كان فى نيــل الامانى راجيــا	وعن شــريعة الرســول نائيا
فانـــه ملتبـــس مفتـــون	وعقلـــه مختبــل مجنـــون
هذا محـــال لا يصـــح ابـدا	لان سيد الـــورى باب الهدى
وقال بعض الســادة الصـــوفية	مقالـــة جليلـــة صفيـــــة
اذا رايـــت رجـــلا يطيـــر	او فوق ماء البحــر قد يسيـــر
ولم يقـــف عند حدود الشـــرع	فانـــه مســتدرج أو بدعـــى

(20) نشرتها « مجموعة الرسائل المنيرية » (المطبعة المنيرية 1346) الا انها ناقصة .

الى ان يقــول :

والشــرع ميزان الامـور كلها ... وشاهــد لاصــلها وفرعها

ثم يقــول :

وقــال بعض اوليــاء اللـــه ... السالكين لصـــراط اللـــه
فارفضـــه انما الفــتى دجــال ... ولــم يقــف بـادب الجــلال

ثم صرح الاخضرى فى ختام منظومته• القدسية بان اسوته فى منهجه هذا استاذ والــده زروق وفى ذلك يقــول :

ومن يــرد معــرفة بالبــدع ... وما اثبنا عليه اصــل المــدع
ففى كتــاب شيخنا الـــزروق ... عجائــب فائقــة تــروق

وقد كان ذكر مقارنة بين المدعى لرتب الكمال والولاية الصحيحة فقال :

واعــلم بان الــولى الــربانى ... لتابــع السنــة والقـــرآن
والفرق بين الافك والصـــواب ... يعـــرف بالسنـــة والكتــاب

ففى هذه المنظومة وضح الاخضرى بطريقة جلية لالبس فيها ولا غموض •

ثم يقتصر الاخضرى فى منظوماته وفى دروسه على محاربة المبتدعين واشباههم بل اشتغل ايضا بمن سماهم « علماء السوء » وقد كثروا فى ذلك العهد فتراموا على ابواب قصور الامراء ورؤساء الاقطاع الذين صدق عبد الكريم بن الفكون القسنطينى (988 — 1073) حيث كان يسميهم باللصوص فخصهم الاخضرى فى منظومته المشهورة باللامية (تحتـــوى على 250 بيتا) وهذه بعض ابيات منها :

واحذر « علمـاء الســوء » فقد ... خصـــوا بالافــك وبالخطــل
حفظـــوا الاقوال وما عملـــوا ... بالعـــلم فســاء القــوم قــل
مـــا حـــرفتهم الا لعـــــب ... ولحـــوم النـــاس بـلا قلـــل
اربـــاب قلـــوب قاسيـــة ... للطاعـــة اصــلا لـم تمــل
لا نطــق لذكــر اللــه لهــم ... الا باللهـــو وبالهـــزل
لا يكسبــون العلــم ســوى ... لريـــاء النـــاس وللجـــدل

طمـــس الاقـــــوال تملقهـــــم	لـــولا الســـوء دوى الخلـــل
يصـــــــلون دارا كمـــــا وردا	من قبـــل اولى الاوثان قــــل
فاتــــــرك افعالهــــم ابـــدا	وخـــذ الاقـــوال ولا تمـــل
حـــاش « علمــاء الخيـــر » اولـــى	حـــظ فى العلم وفى العمـــل
فعليـك أخـــى ! بمجـــالسهـــم	واظفـــر بمحبتهـم تصـــــل

واذا نظرنا الى العصر الذى عاش فيه الاخضرى اى فى اوائل القرن العاشر الذى سقطت فيه بجاية واحتلها الاسبان ولم يبق من مملكتها الا عنابة التى كان بها والى حفصى وكذلك قسنطينة التى استبد فيها الوالى الحفصى تبعا للملك الحسن الحفصى الذى كان بتونس واستعان بالاسبان وسهل لشار لكان احتلال تونس بعد ان دخلها خير الدين باشا وكان سببا فى تعصب والى قسنطينة الحفصى الذى انقسم سكان بلدة قسنطينة فى عهده الى قسمين تقاسما احياء المدينة طيلة سنــوات وكان قسم الموحدين للوالى شيخ الاسلام عبد المؤمن واتباعه والقسم المؤيد للاتراك عبد الكريم بن الفكون الجد ـ المتوفى سنة 988 اما الزاب مسقط رأس الاخضرى فقد قطعـــت صلتـــه ببجاية وبقسنطينة وتنازعه الثوار ولهذا لم يبالغ الاخضرى عندما وصف عصره فى « نظم الســـلم » بقولـــه :

لا سيمـــا فى عاشـــر القـــرون	ذى الجهـل والفســاد والفتون

كما اشار الى تدهور البلاد والفوضى السائدة اذ ذاك فى عدة قصائد ·

يعد احمد زروق خاتمة العلماء الجامعين بين الحقيقة والشريعة وقد حظى بتراجم قيمة تدل على الثقة التى كان يتمتع بها عند الطائفتين معا ، وقد ادى خدمة جليلة بتأليفه « قواعد التصوف » وبقية تآليفه التى ضبط فيها علم التصوف وغلــق كل المنافذ على المبتدعة وهو لا يقل قيمة عــن « قواعد » محمد المقرى الجد و « قواعد » احمــد ابن يحيى الونشريسى فى الفقه ·

لم يصلنا من شروح « قواعد التصوف » لزروق الا شرح استاذ (21) ليبى ذكر فيه مقدمته عند شرحه لقول زروق فى بيان منهجه فى التأليف وبعد فالقصد بهذا المختصـــر وفصوله تمهيد قواعد التصوف واصوله على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الاصول والفقه بالطريقة قال

21) لم نطلع على اسمه وانما ذكر ان استاذه احمد ابن جابر نزيل مدينة طرابلس امره بشرحه (ترجمه فى « نفحات النسرين والريحان » أحمد النائب الانصارى وتحقيق على مصطفى المصراطى) (مطبعة المكتب التجارى بيروت 1963) ·

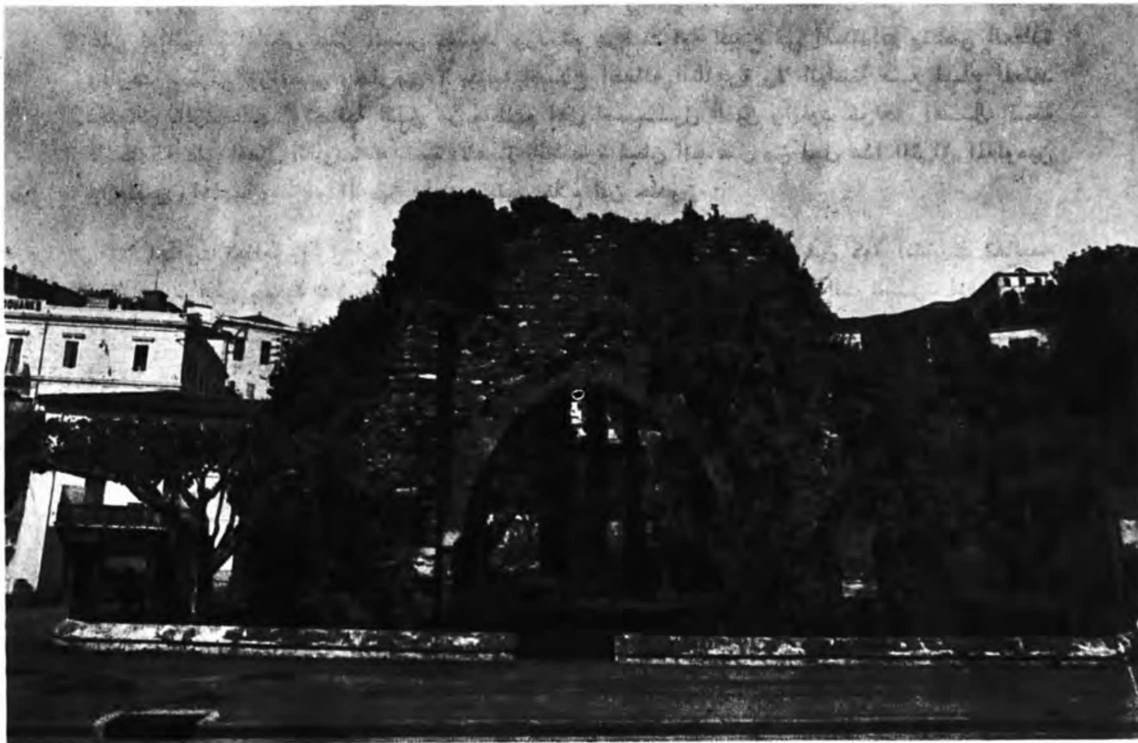
فى الشرح « وسبب التفرقة ما ذكره ابن خلدون انه لما انقضت قرون السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم تباينت الاراء وظهـر الخروج عن طريق الاستقامة واغفل الناس تفقد قلوبهم واشتغل الجمهور باصلاح اعمال ابدانهم من غير اهتمام باصلاح الباطن فاشتغل الفقهاء بما تعم به البلوى من احكام المعاملات والعبادة الظاهرة حسبما طالبهم بذلك منصـب الفتيا وهدايـة الجمهور واختفى ارباب القلوب باسم الزهاد والعباد وطلاب الاخرة منقطعين الى اللـه قابضين على اديانهم كالقابض على الجمر حسبما ورد ثم عرضت آية البدع فى المعتقدات وتدعى العبادة والزهد معتزلى ورافضى وخارجى لا ينفعه اصلاح اعماله الظاهرة ولا الباطنة مـع فساد المعتقد فاشتغل بالرد عليهم وتصفية الحق من باطلهم اهل اصـول الدين وانفرد خواص اهـل السنة بالمحافظة على افعال القلوب مع حفظ الاعمال الظاهرة فيظن الجاه ل من اجل هذا افتراق المعلومين والمعلمين واهلهما وما هو الا دين واحد» انتهى كلام ابن خلدون .

امتازت تعاليم زروق انه صار حجة عند الفقهاء والمحدثين والمتصوفين كما انتشرت تعاليمه وآثاره وحافظت بجاية علاوة على تاليفه بمحافظتها على وظيفته التى لا زالت تسـرد فى مساجد بجاية وقراها هى ووظيفة استاذه يحيى العبدلـى (22) كما لا زالت قرية من قرى بجاية تحتفظ باسمه ، اذ ترك زروق اسرة ببجاية ، توارث افرادها العلم والفضل ، كما توارثوا ـ من تراثه ـ شرحه على الوغليسية فى الفقه بخطه وكان من جملة احفاده المرحوم الهادى الزروقى الذى كان له فضل فى بعث الثقافة الاسلامية ببجاية وناضل نضال الابطال فى نشر الوعى الاسلامى ويبلى فى سبيل مهمته ، والبلوغ الى هدفه واظن ان القرية تسمى « ايزروقى » .

كان فى عهد زروق ببجاية عدة معاهد واصلت التدريس ببجاية ثم بقراها المجاورة خصوصا بعد احتلال الاسبان لبجاية الا ان مدرسة زروق امتازت عنها بان تآليفه التى اعتنى فيها بوضـع قواعد للتصوف واشتغاله بمحاربة البدع التى كثرت فى ذلك العهد كان لها صدى فى الجـزائر كلها وكل من تصدى لأفكـار الدجاجلة والمبتدعين كانت حجته تآليف زروق كما سننهى ذلـك بمزيد من الايضاح فى القسم الثانى لهذه الدراسـة التى نخصها للحياة الفكرية فى العهد التركى وآثـارها .

---

(22) يحيى العيدلى صاحب معهد تمقرا الشهير تخرج من معهده كثير من العلماء واقام بمعهده احمد زروق واخذ عنه والف فى معهده بعض تآليفه له وظيفة حافظ على سردها بعض سكان بجاية الى زماننا هذا .



باب البحر

الفيلسوف ريمون لول[1] في بجاية

سنة 1307م

الشيخ بوعمران

كلية الآداب

جامعة الجزائر

كانت بجاية عاصمة شهيرة سياسيا وثقافيا وقد انتشرت سمعتها غربا وشرقا وتعددت علاقاتها بالمراكز الثقافية العربية والاوروبية ؛ فتردد عليها الرحالة والادباء والمفكرون واعجبوا بحضارتها واجتمعوا بعلمائها ومثقفيها .

ومن جملة الشخصيات الاجنبية التى انتقلت الى بجاية واقامت بها مدة من الزمن نخص بالذكر الفيلسوف الاسبانى ريمون لول (1233 ـ 1316 م) الذى كان يعتبر من الرجال الملهمين ؛ قد اشتغل بالتبشير طيلة حياته محاولا تنصير المسلمين واليهود ولا سيما الذين كانوا يعيشون بجزر الباليار (2) . ولهذا الغرض قام بعدة رحلات الى افريقيا وآسيا وزار خاصة تونس وبجاية قصد ادخال الاهالى المسلمين فى الدين المسيحى .

ولد ريمون لول بجزيرة مايوركا سنة 1233 موكانت اسرته قد قدمت من منطقة كاتالونيا (3) سنة 1231 م وترعرع الشاب هنالك واختلط بالسكان العرب وخطط لنفسه هدفين أساسيين :

أولا معارضة فلسفة ابن رشد والرد عليها بعدما انتشرت الرشدية فى الاوساط المسيحية ولا سيما فى جامعة باريس ، ثم تحويل المسلمين عن دينهم الى النصرانية فى اسبانيا والمغرب ومصر وسوريا (4) .

1) ريمون لول Raymond Lulle: مفكر اسبانى اشتهر برحلاته ومؤلفاته فى الفلسفة والتصوف ، اهتم خاصة بالتبشير فى البلاد الاسلامية فزار المغرب والمشرق وكانت حياته كلها نشاطا ومغامرات ؛ قد اطلق اسمه قديما على احد شوارع الجزائر العاصمة (فى حى القصبة) .

2) جزر الباليار Baléars : خاصة منها مايوركا ومنوركا Majorque et Minorque

3) كاتالونيا Catalogne : منطقة شرقية من اسبانيا ، عاصمتها برشلونة Barcelone

4) اعتمدنا فى هذا البحث على حياة ريمون Autobiographie التى نقلها عنه كاتبه الخاص وترجمها حديثا وعلق عليها السيد لويس صالة ـ مولينس Louis Sala-Molins ونشرها سنة 1967 م بباريس عند Aubier-Montaigne مع مقدمة ومجموعة من النصوص .

ريمون لول والثقافة العربية الاسلامية :

اتصل ريمون لول بالثقافة العربية منذ نشأتهوتعلم اللغة العربية على يد استاذ مسلم بجزيرة مايوركا (5) وكان الغرض من هذا التعلم التبشيرطبعا ــ فأجاد قراءة القرآن الكريم وتعرف على العلوم الاسلامية وعلى الفلسفة العربية ونقل الى لغته **منطق** الغزالى (6) واطلع على آراء الكندى وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وألف بالعربية بعض كتبه منها : **(كتاب الكافر والحكماء الثلاثة)** و (**فن العثور على الحق**) و (**كتاب التأمل**) ...واقترح على حاكم مايوركا مشروعا يرمى الى بناء ديريتكون فيه عدد من المبشرين ويتعلمون اللغةالعربية فرحب الحاكم بالمشروع ووافق عليه البابا ايضا سنة 1276 م ... **وبعد ذلك طلب** ريمون منالكنيسة ان تجعلالعربية مادة للتدريس فى جامعات أوروبا،فتم هذا فىباريس وأوكسفوردوبولونية ورومة وسالامنك (7) ولكن الفيلسوف لم يوفق فى مشروع آخر تقدم به كان يحرض فيهعلى تنظيم حملات جديدة من الحروب الصليبية والسبب فى ذلك يعود الى ان هذه الحروب قدانتهت باستيلاء جنود المسلمين على مدينة عكة سنة 1291 م وكانت هى آخر قلعة من الاراضى الفلسطينية التى احتلها المسيحيون (8) وقدم ريمون لول ملتمسا الى البابا غير انه لم يتلق ردا عليه .

فغير رأيه بعد هذا الفشل وقرر الاعتماد علىمساعيه الفردية ؛ وقام برحلات الى عدة بلدان قصد تحقيق خطته التبشيرية ورأى ان يوحد بينالیهوديةوالاسلام والمسيحية بفضل البراهين الفلسفية فقط (9) وكان يعتقد ان هذا التوحيدلا بد ان يتم فى صالح دينه . وألف كتابا فى هذا الموضوع وهو (**كتاب الكافر والحكماء الثلاثة**) وجعل النقاش يدور فيه بين كافر وعالم يهودى. وعالم مسلم وعالم مسيحى ؛ وتناظر هؤلاء العلماء وحاول كل واحد منهم ان ينتصر لدينه ويفضله على غيره (10) .

5) حياة ريمون لول ــ ص 22 ــ (6) لعله القسم الاول من مقاصد الفلاسفة للغزالى ، قد اشتهر هذا الكتاب فى العصر الوسيط المسيحى ونقل على اللاتينية

7) Paris, Oxford, Bologne, Rome et Salanarque.

8) حياة ريمون لول ــ ص 27

9) لويس صالة ــ مولينس ــ ص 100

10) مقدمة (كتاب الكافرو العلماء الثلاثة) ــ ص 79

واعتمد ريمون لول على خبرته الفلسفية وحاول ان يفتح الحوار مع العلماء المسلمين خاصة ولهذا الغرض اتجه الى المغرب واجرى هناك مناظرات حول مسألة **التثليث** (11) • ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل لان المسلمين لم يتفهموا التثليث ، بل زعموا – على حد قوله – ان النصارى يؤمنون بثلاثة آلهة (12) •

ريمون لول فى تونس وبجاية :

ثم توجه الفيلسوف الى تونس سنة 1294 م والتقى فيها ببعض العلماء ولكنه لم يذكر لنـــا اسماءهم ؛ وصرح لهم بأنه مستعد لاعتناق الاسلام اذا استطاعوا اقناعه بالحجة القاطعة (13) • وكان موضوع المناظرة الصفات الالهية ولم يحصل على أى نتيجة • فواجه معارضة شديدة فى مشروعه التبشيرى وطالب أحد علماء تونس السلطـــة بقتله ، غير ان المستنصر بالله (1284م – 1295 م) لم يوافق على ذلك واكتفى بوضع ريمون لول فى السجن مدة ثم أمر بابعاده ، وعند خروجه مـــن السجن تعرض الفيلسوف المبشر الى الشتـــم والضرب من طرف الجمهور فى الشارع • فأسرع الى مغادرة تونس على متن مركب كان متجها نحو جنوة (14) •

لم ييأس ريمون لول بعد فشله الذريع هذا وعقد العزم على محاولات أخرى للتبشير بدينـه لدى المسلمين (15) • فأبحر من جزيرة مايوركا قاصدا مدينة بجاية فى ربيع سنة 1307 م رغـــم تقدمه فى السن اذ بلغ 74 عاما • ولعله كان قد زارها سابقا غير انه لم يشر الى ذلك فيما لدينا من آثاره وكان الغرض من رحلته هذه لا يختلف عن غرض رحلته الى تونس ولم يتعظ بما حـدث له ولم يحترم شعور الناس • فتوجه الى ساحة فى بجاية وتحدى الجمهور بكيفية مدهشة قائلا بالعربية : « ان شريعة المسلمين غير صحيحـــة وانى مستعد لابرهن على ذلك » ؟ كأنه يريـــد المبارزة • فكان رد الفعل عنيفا وشتم الجمهور هذا الرجل الغريب ونزل عليه بالضرب (16) ؛ وسمع

11) التثليث La Trinité الاقانيم الثلاثة عند المسيحيين وهى الله والدين والروح القدوس .

12) حياة ريمون لول – ص 28

13) المصدر السابق – ص 31 ، ولويس صالة – مولينس – ص 123

14) جنوة Gênes : ميناء معروف بايطاليا

15) شجرة العلم – ص 133

16) حياة ريمون لول – ص 38

مفتي المدينة بالحادث فأمر بعض الاعوان بانقاذهوالاتيان به (17) • وعندما دخل ريمون تعجب المفتي من تصرفه وقال : « ما هذا الحمق الذى أدىبك الى التهجم على شريعة محمد الحقة ؟ الا تعلم ان من يتجرأ على مثل هذا يتعرض للقتل ؟) •فأجاب ريمون بانه لا يخشى الخطر فى سبيل المسيح ؛ وسأله المفتى : « اذ كنت تعتقد ان شريعة المسيح هى الصحيحة • وان شريعة محمد غير صحيحة فبين لنا ذلك بالادلة القاطعة » • فارتضىريمون ذلك واقترح : « لنتفق على نقطة مشتركة (الرحمة الالآهية) ثم سأقدم لك الدليل القاطع »وبعد ما وافق المفتى على هذا الاقتراح تناول ريمون الكلمة وحاول ان يبرهن على صحة التثليثولكن المفتى لم يرض بهذا الموضوع ؟ فرفض المناقشة وامر بوضع ريمون فى السجن ؟ وفىطريقه الى السجن تعرض الفيلسوفالى شتم العامة التى أهانته ••• وبقى هناك ستة اشهر الى انأمر الملك بالافراج عنه وطرده فورا • فارتحل ريمون الى جنوة غير ان مركبه غرق قرب الساحلالايطالى ؛ فنجا هو وبعض المسافرين وضاعت كتبه (18) •

هكذا انتهت رحلة الفيلسوف الاسبانى الى بجاية ولم يقتل فيها كما ردد ذلك بعض المؤلفين وما هذا الزعم الا اسطورة مختلقة ؛ والدليل علىعدم وقوع القتل ان ريمون عاش تسع سنوات بعد رحلته الى بجاية اذ توفى سنة 1316 م بجزيرةمايوركا ودفن هنالك • ولم يترك لنا ريمون لول أى وصف لمدينة بجاية ولم يهتم بازدهارها الحضارى والثقافى ، وانما اعتنى فقط بالتبشير الذى كان شغله الشاغل وفشل فى كل مساعيهلانه لم يراع عقائد الناس فتحداهم واصطدم بهم سواء فى تونس أو فى بجاية • ويجدر بالباحثينان يقارنوا بين رواية ريمون هذه التى اختصرناها وبين ما دونه الرحالة والمؤرخون المسلمون فى هذاالموضوع ذاته ليمكن التعرض على مدى صحة هذه الرواية لاننا لا نستطيع حاليا ان نعتبرهاصادقة فى كل ما ذهب اليه صاحبها •

---

17) اطلق ريمون على المفتى اسم الاسقف évêque ولم يعرفنا عليه من سوء الحظ . انظر حياته – ص 38

18) حياة ريمون لول – ص 40

الحياة العقلية في بجاية

الفلسفة والكلام والتصوف

د. عمار طالبي
كلية الآداب
جامعة الجزائر

تعتبر بجاية مركزا من اهم المراكز الثقافية فى المغرب الاوسط ، اذ هى محط رحال طلاب العلم ، ورجالات الكلام والفلسفة والتصوف ، وعلماء اللغة والآداب ، والطب ، والصناعات المختلفة ، فكان ياوى اليها المشتغلون بعلوم الاوائل ، واصحاب المذاهب الصوفية والعقول المستقلة ، يجدون فيها متعة الاقامة (1) ، وراحة العقل ، وطمانينة القلب ، مما يتيح لهم ان يتاملوا وان يؤلفوا ، وان ينجوا من سطوة بعض الجائرين من السلاطين . وزادها اهمية انها مرسى ، وثغر يمر به الحجاج ، وطلاب العلم ، الذين يقصدون الى المشرق ، ويقيمون بها ، ياخذون عن علمائها ، فتتلاقح فى مواطنها العقول المختلفة .

فقد اخذ بها عن صوفيها الكبير ابى محمد عبد الحق بن الخراط (510 ـ 582 هـ) علماء ومتصوفون ومحدثون كثيرون ، امثال محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله الانصارى (ت 621هـ) الذى سمع عنه واجازه منصرفه الى الحج سنة 567هـ) . ومحمد بن عبد الرحمن بن على التجيبى نزيل تلمسان (2) (ت 610 هـ) ، فأخذ عنه على بن محمد العبدرى ببجاية سنة 576 هـ وسمع منه كتابه « تلقين الوليد » (3) ولقيه على بن احمد بن عبد الله البلنسى (ت 634 هـ) حين رحلته الى المشرق سنة 578 هـ مارا ببجاية ، وتتلمذ له فى بجاية على بن عتيق بن احمد الانصارى (ت 598 هـ) وهو من امهر المتكلمين والفقهاء والاطباء ، له معرفة بالرياضيات ، ونظم

1) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 ، ج 7 ـ ص 241 ، حيث نص ابو مدين على ان الحياة فى بجاية تعين على الحلال .

2) محمد بن محمد المراكشى ابو عبد الله ، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة بيروت (1965) ـ ص 614

3) المرجع نفسه ـ ص 314

فى العقائد (4) ، ورحل الى الشيخ عبد الحق ، تلميذه على بن محمد المعافرى (5) (ت 605 هـ) ، وعلى بن هشام بن حجاج اللخمى (6) (ت 717هـ) ، ومكث عنده خمسة اشهر ٠ وغير هؤلاء كثيرون ذكرهم اصحاب التراجم والفهارس والسير (7) ٠ ونظرا لاهمية هذه الشخصية من الناحيـــة الاخلاقية والعقلية ، فاننا نرغب ان نشير الىمكانتها الممتازة التى احتلتها فى المغرب والمشرق والى اثره فى من جاء بعده من المتصوفين والفقهاء والمحدثين ٠

عبد الحــق البجائى :

هو ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبدالله بن حسين الازدى الاشبيلى ، رحل الى بجاية واقام بها ، معاصرا لابى مدين شعيب (ت594هـ)درس عليه ، وحضر مجالسه كما انه عاصر أبا على المسيلى (ت 580 هـ) الغزالى النزعة ٠ ولد عبد الحق سنة 510 هـ ونزل بجاية بعد سنـــة 550 هـ وتوفى بها سنة 582 هـ بعد محنة نالتــه من السلطة السياسية فى ذلك العهد (8)، وكتب تاريخ وفاته على رخام وضع على قبره ، خـارجباب المرسى (9) ٠

ويذكر ابن فرحون (ت 779 هـ) أن سببهجرته الى بجاية هو ثورة الموحدين على الدولـة المرابطية فى الاندلس قال : « نزل بجاية عنـــدالفتنة الواقعة بالاندلس عند انقراض الدولـــة اللمتونية فنشر بها علمه » (10) وبين انه نهبت منه عدة مؤلفات أثناء ما سماه بالفتنة (11) ٠

له مؤلفات كثيرة لم يصل الينا اغلبها منهـــا كتاب « العاقبة » وكتاب « التهجد » وكتـــاب « الرقائق والانيس » فى المواعظ والامثال والحكموالآداب ، وكتاب « التوبة » ومقالة فى « الفقـر والغنى » وكتاب « الواعى » فى اللغة ، وديوانشعر ، والاحكام الكبرى ، والوسطى ، والصغرى

---

4) المرجع نفسه ـ ص 257
5) المرجع نفسه ـ ص 315
6) المرجع نفسه ـ ص 417

7) تجد ذلك فى مواضع مختلفة من كتاب ابن الابـــار ،المعجم فى اصحاب القاضى الامام ابى على الصدفى ، مجريط ، 1885 م ـ ص 139 ، 167 ، 117 ، وفى كتابه : التكملـــةلكتاب الصلة ، القاهرة ، 1955 ج 1 ـ ص 262 وج 2 ـ ص 585 ، 589 ، 634 ، 635 ، 683 684 ـ 699 ـ 717 ـ 883 ـ 898 ـ 923 ـ 924

8) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، الكويت ، 1960 ج 4ـ ص 143 ـ 144
9) ابو العباس الغبرينى ، عنوان الدراية ، تحقيق عادلنويهض ، بيروت 1969 ـ ص 43 ـ 44
10) إبن فرحون ، الديباج المذهب فى اعيان المذهب ، القاهرة ، (دون تاريخ) ـ ص 176
11) المرجعنفسه ـ ص 177

وكانت بينه وبين محدث الشام ابن عساكر ابى القاسم مراسلات (ت 571 هـ) (12) ، وكـان لمؤلفاته أثر فى المشرق والمغرب ، وبلغت شهرتهاالآفاق ، وعقب بعض المحدثين والفقهاء على كتابه « الاحكام » وردوا عليه كما فعل أبو عبد اللـهعلى بن محمد القطان ، ونقل عنه ابن شاس أبو محمد عبد الله بن محمد (ت 616 هـ) . ولكن ماهو مصدر عبد الحق فى مذهبه ومنهجه وطريقته ، فى كتابه الاحكام ؟ حدثنا ابن الابار (ت659هـ)ان مصدره فى ذلك كتاب احمد بن عبد الملـــك الانصارى (ت 549 هـ) اذ اعتمد (13) عليه ،وجعله مادة لكتابه ، ويعتبر الانصارى هذا فقيها ظاهريا ، ومحدثا على طريقة ابن حزم (ت456هـ)ويسمى كتاب الانصارى « المنتخب المنتقى » جمع فيه ما تفرق فى امهات المستندات مننوازل الشرعقال ابن الابار (ت 658 هـ) : « وعليه بنى كتابه أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى فى الاحكام ، ومنه استفاد (14) وذكر ابن فرحـون ايضا انه سبق الى ذلك ، سبقه أبو العباس بـنأبى مروان الشهير بليلة « سبقه الى مثل ذلـــك أبو العباس بن ابى مروان (...) فحظى هو دونأبى العباس » (15) ، وممن شرح كتاب « الاحكام الصغرى » عبد العزيز بن ابراهيم بن احمد القرشىالمعروف بابن بزيزة (ت 662 هـ) وهو من كبار المتصوفة والمتكلمين ، شرح كتاب « الارشـاد »للجوينى (ت 478 هـ) وألف « شرح الاسمـــاء الحسنى » وكتاب « منهـاج المعـــارف الى روحالعوارف » ومختصرا له اسماه « ايضاح السبيل الى مناهج التأويل » (16) . وانتصر لكتـــاب« الاحكام »احد تلاميذ عبد الحق وهو أبـو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجى (ت 628 هـ) وألفكتابا سماه « الاعلام بفوائد الاحكام » بين فيـــه قيمة كتاب استاذه (17) .

وانما يهمنا من آثاره فى هذا المجال كتاب « العاقبة » لما ترك من تأثير فى المتصوفة الذيـن جاءوا من بعده ، وخاصة الصوفى الجزائرىالذائع الصيت عبد الرحمن بن مخلوف الجزائرى (ت 875 هـ) فى كتابه « العلوم الفاخرة فى النظر فىأمور الآخرة » (18) ، بين فى مقدمته انه اعتمد

---

12) المرجع نفسه ـ ص 176
13) ابن الابار ، التكملة ج 1 ـ ص 58
14) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها
15) ابن فرحون ، الديباج ـ ص 176
16) المصدر نفسه ، ص 178 ، الثعالبى ، العلوم الفاخرةالقاهرة ، 1317 هـ ج 1 ـ ص 131
17) ابن الابار التكملية لكتاب الصلة ، ج 1 ـ ص 628 ،الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 220
18) تولى طبعه السيد احمد بن مراد التركى ، بالمطبعة الحميدية المصرية سنة 1317 هـ بتحقيق العلامة المصلح تلميذ الشيخ محمد عبده الا وهو الشيخ محمد بن مصطفى بن الحوجهالمدرس بجامع سفير ، وساعده فى التحقيق والمقابلة الشيخ قدور الامام الاول بالجامع الاعظم ، وذيله الشيخ مصطفى بكلمةمؤرخة بالجزائر غرة شعبان سنة 1317 هـ ، يقع الكتاب فى جزئين ، فى مجلد واحد ، الاول به 171 ص ، والثانى بـه158 ص .

فى تاليفه على : « تصانيف جليلة ، كأبى حامد الغزالى وابى عبد الله محمد بن احمد القرطبى وابى محمد عبد الحق الاشبيلى والمحاسبى وغيرهم» (19) وبعد ان فحصنا هذا الكتاب وجدنا ان الثعالبى ينقل عنه نصوصا عديدة من كتابه « العاقبة » ، فى مواضع مختلفة من « العلوم الفاخرة » بجزئيه » (20) .

ويبدو ان عبد الحق ينزع منزع الغزالى فى كتابه « الاحياء » ويذهب مذهب اتباعه فى المغرب أمثال ابى الحكم بن برجان (ت 530 هـ) الذى اجتمع به ، وحادثه ، فقد ذكر الثعالبى هذا اللقاء فقال : « قال عبد الحق حدثنى الفقيه ابوالحكم بن برجان وكان من أهل العلم والعمل رحمه الله » (21) واثبت محمد بن محمد مخلوف انه تتلمذ عليه (22) ، ويعتبر ابن برجان من اعمق متصوفة المغرب واشدهم ارتباطا بالمنهج الغزالى وهو متكلم اشعرى ، له تفسير هام وكتاب « شرح اسماء الله الحسنى » (23) ، وثبت ان عبدالحق أخذ عن ابى مدين (ت 594 هـ) وصحب ابا على المسيلى (ت 580 هـ) وهما يذهبان مذهب الطوسى فى التصوف والذوق .

ونود ان نأتى ببعض الفقر من نص كتاب « العاقبة » حتى يتبين للقارىء بعض ملامح منهج عبد الحق ومشربه الصوفى الذى يتصل اتصالا وثيقا بمشرب الغزالى ، فى تصوفه السنى البرىء من الحلول والاتحاد ، ووحدية الوجود ، وما الى ذلك من شطحات المتصوفة ، وطامات تهم ورموزهم وغموض كتاباتهم .

ويبدو لنا كذلك من هذه النصوص اسلوبه الواضح السلس ، الرقيق رقة العواطف العميقة، والفقر المسجوعة ، سجعا خاليا من التكلف والتقعر . قال عبد الحق فى العاقبة « اعلموا رحمكم الله تعالى ان الناس فى ذكر الموت على ضروب، فمنهم المنهمك فى لذاته ، والمضيع فيها ما لا يرجع اليه من اوقاته ، لا يخطر له الموت على بال ، ولا يحدث نفسه بزوال ، قد طرح أخراه ، واكب على دنياه ، واتخذ الهه هواه ، فاصمه ذلك واعماه، ان ذكر له الموت نفر عنه وشرد ، وان وعظ أنف وعند ، قد

19) المصدر نفسه ج 1 ـ ص 2

20) فى ج 1 ـ ص 6 ، 7 ، 15 ، 20 ، 26 ، 29 ـ 30 ـ 47 ، 68 ، 73 ، 88 ، 89 ـ 91 ـ 92 ـ 95 ـ 98 ـ 115 ـ 117 ـ 119 ـ 120 ـ 130 ـ 131 ـ 148 ـ 149 ـ 157 . وفى ج 2 ـ ص 35 ـ 49 ـ 82 ـ 120 ـ 157

21) الثعالبى ، العلوم الفاخرة ج 1 ـ ص 88

22) مخلوف ، شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، القاهرة . 1350 هـ ـ ص 132

23) لدينا منه نسخة مخطوطة .

حاد عن سبيل نهجه ، ونكب عن طريق رشده ،مقبلا على بطنه وفرجه ، فتبت يـــداه ، وخسر مسعاه ، كأنه لم يسمع قول الله عز وجل : كل نفس ذائقة الموت) .

•آخر قلبه معلق بالدنيا ، وهمه فيها ، ونظره مصروف اليها ، وهو مع ذلك من طلابها المحرومين وابنائها المكدودين لم ينل منها حظـا ، ولارقى منها مرقى ، ان ذكر له الموت تصامم عن ذكره ، ولم يمكنه من فكره ، رجاء ان يبلغ ما أمل او يدرك بعض ما تخيل ، فعمره ينقص وحرصه يزيد ، وجسمه يخلق وامله جديد ، وحتفه قريب ، ومطلبه بعيد ، فنعوذ بالله من الحرمان ، ومن شماتـــة العدو الشيطان ، فهذا والذى قبله ، ان لم تكن لهما عناية أزلية ، وسابقة أولية ، فيمسك عليهما الايمان ، ويختم لهما بالاسلام ، والا فقد هلكـا كل الهلاك ، فنعوذ بالله من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، وشماتة الاعداء ، فانظر رحمك اللـــه كيف تقر عين عاقل فى هذه الدار ، مع وجود هذه الاخطار ، ولله در القائل :

وكيف تنـــام العـين وهى قريـــرة ولـــم تـــدر فى أى المنازل تنـزل

ورجل آخر ــ وقليل ما هم ــ ممن ازيل عـن عينه قذاها ، وابصر نفسه وهواها ، وزجرهـــا ونهاها ، فلبى المنادى ، واجاب الداعى ، وشمر لتلافى ما فات ، ونظر فيما هو آت ، وتأهب لحلول الممات ، والانتقال الى محل الاموات ، ومع هذا فانه يكره الموت ان يشاهد وقائعه ، او يـرى طلائعه ، وليس يكره الموت لذاته ، ولا لانـــه هادم لذاته لكنه يخاف ان يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد ، والاكتساب ليوم الحساب ، ويكره ان تطوى صحيفة عمله ، قبل بلوغ أمله وان يبادر باجله قبل اصلاح خلله ، وتدراك زلله ، فهو يريد البقاء فى هذه الدار ، لقضاء هذه الاوطار فهذا ان مات يا لله دره من ميت ، ما افضل حياته واطيب مماته ، واعظم سعادته ، واكـــرم وفادته ، واتم سروره ، واكمل حبوره ، واعلـم ان هذا لا يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم (من كره لقاء الله كره الله لقاه) ، كما قـــد وقع مفسرا فى الحديث •

ورجل آخر ــ وهو من أقل القليل ــ قـــد عرف الله تعالى باسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وشاهد ما شاهد من كمال الربوبية ، وجمـال الحضرة الالهية ، فملأت عينه وقلبه واطـاشت عقله ولبه ، فهو يحن الى ذلك المشهد ، ويستعجل انجاز ذلك الموعد ، وقد علم ان الموت حجاب بينه وبين محبوبه ، وستر مسدول بينه وبين مطلوبه ومقدمات هذا وامثاله ، تدل على ما وراءها ، من الوصال والاتصال ، والانس بذاك الجلال والجمال •

ورجل آخر قد شاهد ما شاهد ذلك ، وربما زاد عليه ، لكنه فوض الامر الى خالقه ، وسلم الحكم لبارئه ، فلم يرض الا ما رضى له ، ولم يرد الا ما اريد به وما اختار الا ما حكم فيه ، ان ابقاه فى هذه الدار ابقاه ، وان اخذه أخذه » (24)

فهذا النص صنف فيه عبد الحق بن الخراط البجائى الناس فى حياتهم الاخلاقية والروحية الى درجات اعلاها درجة الفناء ، فناء الكائن البشرى عن الارادة البشرية ، والاخلاق الانسانية الصادرة عنها ، وفوض أمره كله الى الارادة الالهية ، وتليها درجة العارف ، صاحب الشهود الذى وصل ، وأنس بجلال الله وجماله .

وقال عبد الحق فى فقرة اخرى : « فانظر رحمك الله كيف تقر عين عاقل فى هذه الدار ، وكيف يستقر له فيها قرار ، مع هذه الحال ، وتوقع هذا المثال ، لكن حجاب الغفلة الذى غطى على القلوب كثف ، فلا ترى ما وراءه ، والوقر الذى فى الآذان عظم فلا تسمع من ناصح دعاءه ، وقد بكى أولو الالباب على هذا فاكثروا ، وسهروا من اجله الليالى الطويلة واسهروا ، ورام عاذلوهم كفهم عماهم فيه فلم يقدروا ، وذلك للعلم الذى لاح لهم ، والتأييد الذى شملهم ، والتوفيق الذى يسر لهم ، وربما هبت عليهم نفحات الرجاء فاستبشروا ، وسكنوا من ذلك الهيجان وفتروا ، فلتسلك رحمك الله على منهاج هؤلاء العقلاء ، ولتمش على آثار هؤلاء الفضلاء ، وأدم حسرتك وامزج بدم الفؤاد عبرتك ، وابك على نفسك ثم ابك ، البكاء بالبكاء ، والاسى بالاسى ، حتى تنكشف لك هذه الغاية (...) وقد علمت رحمك الله ان الناس صنفان صنف مقرب مصان ، وآخر مبعد مهان ، صنف نصبت لهم الاسرة والحجال والارائك والكلال ، وجمعت لهم الرغائب والآمال وآخرون اعدت لهم الاراقم والصلال ، والمقامع والاغلال ، وضروب الاهوال والانكال ، وانت لا تعلم من ايهما انت ، ولا فى اى الفريقين كنت :

نزلوا بمكة فى قبائل نوفل	ونزلت بالبيداء ابعد منزل
وتقلبوا فرحين تحت ظلالها	وطرحت بالصحراء غير مظلل
وسقوا من الصافى المعتق ريهم	وسقيت دمعة واله متململ (25)

24) الثعالبى ، العلوم الفاخرة ، ج 1 – ص 6 – 7 نقلا عن « العاقبة » لعبد الحق البجائى

يتشف من هذا النص ومن غيره من الفقرات التى اوردها الثعالبى ، ان عبد الحق قصد من كتابه « العاقبة » وعظ الناس وتذكيرهم ، وترقيق قلوبهم ، فلم يأت كتابه على نمط الحلاج او ابن عربى او ابن سبعين ، وانما هو فى روحه العامة ، وسمات اسلوبه ، ذو نزعة زهدية سنية، لاتشوبها شائبة الرموز والالغاز ، وما الى ذلك من سمات الباطنية او العرفانية الصوفية ، الموغلة فى الرمزية التى يستخدمها أولئك المتصوفون الذين اشرنا اليهم ، ولهذا لما اورد ابن قنفذ القسنطينى (ت 810 هـ) عنوان كتاب « العاقبة » اشار الى سمته ومضمونه وهو : « فى الوعظ والتذكير(26) ويؤيد ماذهبنا اليه ايضا انه محدث ، فهو على طريقة أهل الحديث فى الزهد ، ورقة القلب ، ولزوم السنة .

ومن تلاميذ عبد الحق ، الصوفى المؤرخ صاحب كتاب « النبذ المحتاجة فى اخبار صنهاجة بافريقية وبجاية » ابو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجى (ت628هـ) وهو قلعى درس بالقلعة التى وصفها الغبرينى (ت704هـ) بانها : «كانت حاضرة علم»(27) ووصفها ابن خلدون بانها من المواطن التى : « رحل اليها من الثغور ، والناحية والبلد البعيد، طلاب العلوم ، وارباب الصنائع لنفاق اسواق المعارف ، والحرف ، والصنائع »(28) فيها ثم انتقل من بجاية ودرس فيها على الشيخ ابى مدين (ت 594 هـ) أخذ عنه كتاب الغزالى الموسوم« بالمقصد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى » بمنزله ببجاية سنة 531 هـ ، كما أخذ عن عبد الحق « الموطا » وغيره من المؤلفات ، ودرس على ابى على المسيلى (ت 580 هـ) الملقب بابى حامد الصغير ، وعلى غيره من متصوفة وعلماء القلعة وبجاية والجزائر وتلمسان (29) . كان ذا ضلاعة فى الحديث والاصول وعلوم الرقائق ومن أهم تآليفه كتاب « الاعلام بفوائد الاحكام » وهو كتاب فى خدمة كتاب شيخه ، وفى الابانة عن قيمته فى مجال الحديث والفقه .(30) .

ومن المعاصرين لعبد الحق والنازلين ببجاية ابو بكر محمد بن الحسين بن احمد الانصارى الميورقى تلميذ الطرطوشى (ت 520 هـ) كان ذا نزعة زهدية وظاهرية حرب من سلطان المغرب الاقصى فى عهد المرابطين ، بعد ان حمل اليه هو وابو العباس بن العريف (ت 538 هـ) وابو

26) ابن قنفذ ، الوفيات ، تحقيق هنرى بيريس ، مصر ، (دون تاريخ)
27) الغبرينى ، عنوان الدراية – ص 218
28) ابن خلدون « ديوان المبتدأ والخبر » دار الكتاب اللبنانى ، 1959 ج 6 – ص 350
29) الغبرينى ، عنوان الدراية – ص 219
30) المرجع نفسه – ص 220 . ابن الابار ، التكملية ، ج 1 – ص 628

الحكم بن برجان (ت 530 هـ) وهم جماعة عرفوا بالتصوف ، فخشيت منهم السلطة السياسية المرابطية بتحريض من الفقهاء ، وكانوا الغالبين فى تسيير الاوضاع الاجتماعية والحياة العقلية ، فدعتهم الى عاصمتها لاسباب سياسية وايديولوجية ، ولمعارضة الفقهاء للنزعة الصوفية ولمنهج الغزالى فى تحليله للعلوم الدينية ، ونقده اللاذع للفقهاء وعلومهم ، حدث محمد بن الحسين ببجاية ودرس (31) بها سنة 537 هـ ثم ذهب الى المشرق ، ومن الآخذين عليه فى بجاية عبد الحق البجائى (32) .

ومن الآخذين على عبد الحق تلميذه محمد بن جعفر بن احمد المخزومى الاندلسى (ت 632 هـ) اجازه فى تآليفه ، ونشر كتابه المسمى بكتاب « التهجد » فى بلده (33) وتتلمذ عليه ابن عربى (ت 538 هـ) .

ومن كبار المتصوفة والاصوليين على منهج الغزالى ، ابو الفضل يوسف بن محمد القلعى (ت 513 هـ) الذى ناضل الفقهاء المعارضين للغزالى ، وسخط عليهم احراقهم لكتاب « الاحياء » كان اهتمامه بأصول الدين وبأصول الفقه ، تجول فى المغرب الاقصى ، ثم عاد الى قلعة بنى حماد ، واخذ نفسه بالتقشف ، وهجر اللين من الثياب (34) يميل الى النظر والاجتهاد وله تآليف (35) ، توفى بالقلعة ، وكان قبره بها مشهورا يزار . ومما يؤيد ماذهبنا اليه من انه ذو ذوق غزالى ، ان أبا عبد الله بن على بن حماد قال فيه : « كان ابو الفضل ببلادنا كالغزالى فى العراق علما وعملا » (36) ومن الادلة على انه غزالى المنهج ، انه انتصر للغزالى لما افتى فقهاء قرطبة ، وامر السلطان اللمتونى على بن يوسف بن تاشفين (ت 537 هـ) باحراق كتب الغزالى ، ففى تطريز الديباج انه : « لما افتى الفقهاء بحرق « الاحياء » فاحرق فى صحن مراكش ووصل كتاب سلطان لمتونة بذلك وتحليف الناس بمغلظ الايمان ، ان ليس عندهم « الاحياء » انتصر وكتب للسلطان ، وافتى بعدم لزوم تلك الايمان ، ونسخ الاحياء ثلاثين جزءا يقوم كل يوم فى رمضان بنسخ جزء (37) قائلا :

31) ابن الابار ، التكملية ، ج 1 – ص 440
32) ابن الابار ، المعجم ، مجريط ، 1885 هـ – ص 139
33) ابن الابار التكملية ، ج 2 – ص 634
34) أبو يعقوب يوسف التادلى ابن الزيات ، التشوف الى رجال التصوف ، الرباط ، 1958 – ص 75 – 78
35) ابن فرحون ، الديباج – ص 349
36) المرجع نفسه – ص 350
37) كذا وفى البستان ، لابن مريم ، تحقيق محمد بن شنب ، الجزائر ، 1326 هـ 1908 – ص 301 : « يقرأ منه كل يوم جزءا فى رمضان » ، وهو أصح .

وددت انى لم انظر فى عمرى سواه »(38) وتنسب اليه قصيدة « المنفرجة » ، ولكن شك بعض الكاتبين فى هذا الموضوع ، فى نسبتها اليه ٠

ومن المتصوفة البجائيين الذين تأثروا برسالة القشيرى (ت 465 هـ) ابو عبد الله محمد بن على القصرى : « وكان اذا قرئت عليه رسالة القشيرى يأتى عليها بما لم يسبق اليه ، وربما لو سمعه أبو القاسم القشيرى ، لعلم انه العالم بمعانيها ، المحكم لاصول مبانيها » (39) وله معرفة متمكنة بأصول الدين ، واصول الفقه ، وهو من تلاميذ ابى الحسن الحرالى (ت 637 هـ) ٠

ومن كبار المتصوفة ومعلمى الفلسفة والمؤلفين فيها ببجاية ابو الحسن على بن احمد الحرالى (ت 637) صنف فى علم الاصول ، اصول الدين ، وفى اصول الفقه ، وصنف فى الفلسفة كتابا فى المنطق سماه : « المعقولات الاول » وله معرفة بالطبيعيات والالهيات (40) تأثر بابن سينا (ت 428 هـ) ، لم يكن يدرس الفلسفة فحسب بل كان ينقد الفلاسفة ، قال الغبرينى : « اخبرنى شيخنا ابو محمد عبد الحق رحمه الله قال لى :كنا نقرأ عليه « النجاة » لابى على بن سينا، فكان ينقض عراه نقضا، وذلك بعد ان يوضح منه ما يليق ، ويقرره باحسن طريق ، ثم ينقضه ويوهنه »(41) وكان رياضيا بارعا « واما علم التعاليم فكان اعلم الناس بها » (42) وصرح الغبرينى انه اطلع على مؤلفاته فى اصول الفقه ، وأصول الدين ، والمنطق ، والتصوف ، وعلم الفرائض التى ألف فيها كتابا سماه «بالوافى»(43) وله شعر فى الرقائق وفى التصوف والغزل ٠

اتهم بالكفر وحاولوا قتله ، وكان يقصد مسجد الامام المهدى بن تومرت ، وله حزب يلازمه ، ذكر الغبرينى نصه (44) ، انتقل الى المشرق ، وتوفى بحماه من بلاد الشام سنة 637 هـ ٠ وكان للذهبى (ت 748 هـ) موقف فى ابى الحسن كعادته فى المتصوفين ، اذ انه هاجمه ووصف تفسيره بانه تفسير عجيب ، وان كان شهد له بمعرفة اصيلة بعلم الكلام والمنطق (45) كما كان لابن عبد السلام

38) احمد بابا التنبكتى ، تطريز الديباج ، القاهرة (دون تاريخ) — ص 350 ، ابن مريم ، البستان — ص 300
39) الغبرينى ، عنوان الدراية — ص 186
40) المرجع نفسه ، نفح الطيب ، ج 2 — ص 187 .
41) الغبرينى ، عنوان الدراية — ص 144
42) المرجع نفسه — ص 145
43) المرجع نفسه — ص 147
44) المرجع نفسه — ص 149
45) الذهبى ، العبر ، ج 5 — ص 157 . المقرى ، نفح الطيب تحقيق عبد الحميد محيى الدين ، القاهرة ، 1367 هـ 1949 ج 2 — ص 388 — 389

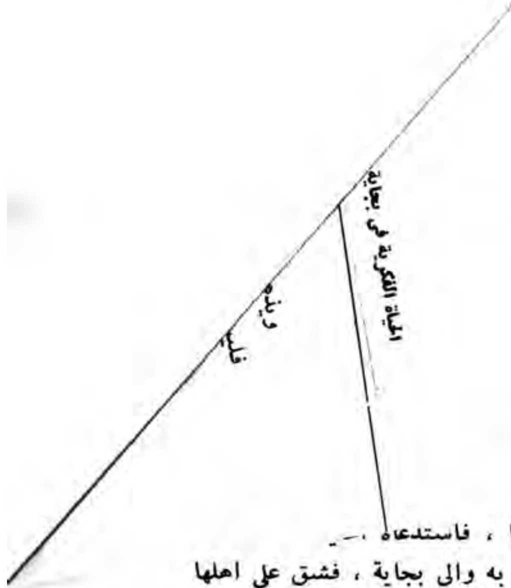
عز الدين (ت 660هـ) موقف حين اطلع عـلى تفسيره الاشارى الصوفى فامر بطرده مـن بـلاده (46) .

ومن المدرسة الغزالية فى بجاية نجد اشهـرمتصوفيها على الاطلاق ، أبا مدين امام الزهـاد والعباد وشيخ الشيوخ . وهو شعيب بن الحسن(ت 594 هـ) تأثر بالغزالى واعجب به ، وبكتابه « الاحياء » ، ومما يدل على ذلك وصفه لكتـاب الاحياء بانه لا نظير له فى التذكير ، قال : «وطالعت كتب التذكير ، فما رأيت مثل كتاب الاحياء »(47)فكان يلازمه ويعكف على قراءته ، وعلى تأمـل مضامينه ، (48) كان معاصرا لابى على المسيـلى(ت 580 هـ) ، ولابى محمد عبد الحق (ت582هـ) كما اشرنا من قبل ، اذ حضرا مجالسه واجتمعا بهواختبراه فى تحققه بالمعرفة ، والحقيقة الصوفية ، فاجابهما باشارة صوفية ، وبرمز يشير الى مكانتهفى التصوف ، وهـو : « بى قل وعلى دل فأنـا الكل » (49) ، فما كان من عبد الحق الا ان اعترفله وقال عنه : « هذا وارث على الحقيقـة » (50) وكانت لابى مدين عناية (51) برسالة القشيرى(ت 465 هـ) مثل القصرى البجائى ، فكـان يشرحها فى مجالس درسه وتذكيره ، كما كانتله عناية بكتاب « الرعاية لحقوق الله » للمحاسبى الحارث بن اسد (ت 243 هـ) (52) درسه على شيخه ابى الحسن بن حرزهم (ت 559 هـ) الغزالى المنهج فى التصوف ، حج ابو مدين وزار المشرقولقى الشيخ عبد القادر الجيلانى (ت 561 هـ) البغدادى بعرفات ، فأخذ عنه الحديث فى الحرم ،وألبسه الخرقة ، وعهد اليه بطريقته (53) ، ومـن شيوخ ابى مدين المباشرين ابو الحسن بن غالب(ت 568 هـ) والدقاق أبو عبد الله ومن معاصره أبو زكرياء يحيى الزواوى (ت 685 هـ) .

ومن اهم شيوخه الذين اخذ عنهم سندهم فىالتصوف ابو يعزى يلنور بن ميمون (ت561هـ) واتصل سنده (54) الى الحسن البصرى (ت 110هـ) وفى السلسلة من أهل التصوف ابو بكر بن

---

46) المقرى ، نفح الطيب ج 2 ـ ص 387
47) الغبرينى عنوان الدراية ـ ص 23
48) أحمد بابا التنبكتى ، تطريز الديباج ، بهامش الديباج، القاهرة (دون تاريخ) ص 127 ، ابن مريم ، البستان ـ 108
49) الغبرينى ، عنوان الدراية ـ ص 25
50) المرجع نفسه ـ ص 42
51) أحمد بابا ، تطريز الديباج ـ ص 128 وعنوان الدرايه ـ ص 26
52) ابن الزيات ، التشوف ـ ص 321 وكان ابن حرزهم من انصار الغزالى انتقده ثم اتبع طريقه ، واتفق مع ابن برجان فى هذه النزعة الغزالية .
53) التنبكتى ، تطريز الديباج ـ ص 127



العربى (ت 543 هـ) والغزالى (ت 505 هـ) وابوالمعالى الجوينى (ت 389 هـ) ، الى أبى القاسم الجنيد (ت297هـ) •

استوطن بجاية وفضلها على كثير من المـــدن ويرى انها ببجاية ، وارتفع شانه فى آفاقها ، بما كان يعقده من مجالس وفودا ، من مختلف الآفاق ، فوشى به بعـــض الفقهاء لد (ت 595 هـ) ، وذكروا له انه يشبه الامام المهدى بن تومرت فى مواطن كثيرة ، وانه اضحى خطرا على الدولة الموحدية سياسيا ، فاستدعاه ... واوصى به ان يحمل الى العاصمة مراكش خير محمل ، فارسل به والى بجاية ، فشق على اهلها فراقه ، وما لبث ان ادركه الموت فى تلمســـــان ،فدفن فى كدية العباد بها، وذلك سنة 594هـ(55) •

ونجد محيى الدين بن عربى (ت 638 هـ)حين يذكر ابا مدين يعبر عنه غالبا « بشيخنا » (56) مما يشير الى اتصاله الروحى به وبمنهجه ، ومماينسب الى ابى مدين من العبارات الصوفية نرى وجه الشبه بينه وبين ابن عربى فى فلسفتـــه الصوفية التى يرى كثير من الباحثين ان من أهم عناصرها الاساسية القول بوحدة الوجود ، ويبدو ذلك من هذه العبارات : بسر حياته ظهـــرت حياتى ، وبنور صفاتـــه استنـــارت صفـــاتى ، وبديمومته دامت مملكتى ، وفى توحيده أقيمـت همتى ، فسر التوحيد فى قوله : لا اله الا أنـــا ، والوجود باسره حرف جاد لمعنى ، وبالمعنى ظهرت الحروف ، وبصفاته اتصف كل موصوف، وباسمه ائتلف كل مألوف ، فمصنوعاته له محكمـــــة ، ومخلوقاته له مسلمة ، لانه خالقها ومظهرهـــا ،ومنه مبدؤها ، واليه مرجعها ، كما اظهرها ذرا فقال : (ألست بربكم ؟ قالوا بلى) (57) ومـــن العبارات التى أوردها كذلك ابن قنفذ القسنطينى (ت 810 هـ) قوله : « ان نظرت بالحقيقة تلاشت الخليقة » فوجود الله معنى وحقيقة، ووجود الاشياء أو الكائنات حروف معبرة عن هذه المعنى «الوجود باسره حرف جـــــاء لمعنى ، فبالمعانى ظهـــرت الحروف » (58) فوجود الموجودات الطبيعية صفة له ، وهى مظاهر لحقيقته التى تتبدى فى كـــــل موجود : (وباتصافه اتصف كل موصوف » •

---

54) المرجع نفسه – ص 128

55) ابن الزيات ، التشوف – ص 316 ، التنبكتى ، تطريز الديباج – ص 129 محمد البهلى النيال ، الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامى ، تونس 1965 – ص 206 ، ابن قنفذ ،أنس الفقير ، ص 102

56) ابن عربى ، الفتوحات المكية ط ـ بولاق ج 3 – ص 51 – 195

57) ابن الزيات ، التشوف – ص 324 . ابن قنفذ أنس الفقير – ص 96 مع اختلاف يسير بينهما .

58) ابن قنفذ ، انس الفقير ، ص 96 وعلق على ذلك بقوله : « اذا تأملت كلامه هذا مع كلامه فى اليقظة ، وجـــدت النفس والمتبع واحدا لا شك فى ذلك » .

ب مذهب الفناء ، فناء صفات العبد وارادته « كل حقيقة لا تمحو اثر العبد ورسمه ست بحقيقة » (59) .

وعندما سئل عن خصائصه في مجال المعرفة والوصول والمقامات قال : « مقامي العبودية ، وعلومي الالهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سري ، وجهري ، واضاء بنوره بري وبحري » (60) اي ظاهره وباطنه . ومن هنا يبدو لنا انه وان كان غزاليا في وجهته العامة الا انه يميل الى هذا اللون من التوحيد أي واحدية الوجود ، فلا وجود على الحقيقة الا لله ومن هنا يأتي وجه الشبه بينه وبين تلميذه ابن عربي .

ترك ابو مدين تلاميذ كثيرين ، واصحابا يعسر حصرهم ، عد منهم ابن قنفذ (ت 807 هـ) جماعة (61) ومن مريديه فاطمة الاندلسية (62) وله اصحاب في تونس ، لقيهم اثناء رحلته الى المشرق ، واجتمع بهم في جامع السكاجين الذي يسمى الى اليوم بمسجد ابي مدين (63) وزاره بعضهم في بجاية ، قصدوا اليه لاستكمال تربيتهم الروحية ، وهؤلاء الجماعة هم : ابو يوسف الدهماني (ت 621 هـ) وعبد العزيز المهداوي (ت 621 هـ) وابو سعيد الباجي (ت 628 هـ) وابو علي النفطي (ت 610 هـ) وابو محمد صالح بن محمد بن عبد الحق التونسي ، والطاهر المزوغي (ت 646 هـ) وابو عبد الله محمد الدباغ وغيرهم (64) ، وكان على رأس هؤلاء الزائرين ابو محمد عبد العزيز بن ابي بكر ، صاحب الخلوة الصوفية في قصر المنستير ، وكان شاعرا ، وجرت بينه وبين ابي مدين مراسلات ، ومما كتب به الى ابي مدين قوله :

شعيب ولي الله سر عباده ... أبو مدين مغني الانام بفخره
فياجنة المأوى ويا علم الهدى ... ويا ناشرا علم الاله بأمره
حضرت ولم تحضر وغبت ولم تغب ... وما كنت في كل بجانب طوره
فنورك نور الله يهدى له وهل ... الى احد في الناس اطفاء نوره (65)

---

59) ابن الزيات ، التشوف ــ ص 324 . الغبريني عنوان الدراية ــ ص 31
60) المقري ، نفح الطيب ، ط . محيي الدين ، ج 9 ــ ص 346
61) في كتابه أنس الفقير وعز الحقير
62) ابن قنفذ ، أنس الفقير ــ ص 91
63) البهلي النيال ، الحقيقة التاريخية ــ ص 206
64) المرجع نفسه ــ ص 206 ، ابن قنفذ أنس الفقير ــ ص 97 . والذين زاروه في بجاية هم : النفطي ، والدهماني والطاهر المزوغي ، وابن هداس ، ومحفوظ بن جعفر ، وسالم التباسي وابو محمد عبد العزيز :
65) ابن قنفذ أنس الفقير ــ ص 99

وكتب اليه ابو مدين رسالة ومما جاء فيها : « اما بعد فانه من اتقى الله سبحانه وقاه ، ومن توكل عليه حق التوكل كفاه ، ومن استعاذ به نجاه ، ومن شكره والاه ، ومن اقرضه جازاه ؛ واجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فانه لا عمل لمن لا نية له ولا اجر لمن لا خشية له »(66) .

ذكر المؤرخون انه تتلمذ عليه وتخرج من مدرسته ما يزيد على ألف شيخ ، ومن هؤلاء كما اشرنا من قبل محيى الدين بن عربى (ت638هـ) قال محمد مخلوف : « وتخرج عليه اكثر من الف شيخ منهم محيى الدين بن عربى (67) دخل محيى الدين بن عربى بجاية فى رمضان (68) سنة 597هـ وكان ابو مدين قد توفى قبل ذلك بثلاث سنين (594 هـ) ويؤكد انه لقيه ما اثبته محمد رجب حلمى فى كتابه « البرهان الازهر » من انه أخذ عنه قال : « واخذ العلوم الباطنة عن حضرة العارف الشيخ أبى مدين المغربى» (69) وذهب الى هذا الرأى ايضا ، واكد انه لقى ابا مدين ، واخذ عنه الباحث الاسبانى (آنخل جنثالث بالنثيا) ، حيث اشار الى ان محيى الدين يبالغ فى وصف رؤى ابى مدين ، وطريقته، وفضائله وكراماته(70) وينقل بعض المؤرخين انه انما درس على بعض تلاميذه رسالة القشيرى ، ولقى اصحابه بتونس(71) .

اما عبد الرحمن بدوى فيذهب الى ترجيح انه لقى ابا مدين فى بجاية (72) حين زار تونس سنة 590 هـ فمر على بجاية ، ولا يعقل ان يكون أبو مدين بهذه المثابة التى كانت له فى ذلك العهد ، ولا يرحل اليه ابن عربى الطلعة ، ومن جهة أخرى فاننا نجده خبيرا باخبار واحوال أبى مدين ذاكرا له فى كتبه بلفظ « شيخنا » غالبا ، كما اشرنا الى ذلك من قبل ، ومن هذه الاخبار انه كان له ابن من امرأة سوداء ، ويرى بدوى ان ابن عربى يعتبر شيخه أبا مدين قد بلغ « غاية الغايات » وانه يقول بالتوحيد أى ان الوجود واحد ، ولا موجود الا الله ، وانه اعترف له بالقطبية واحتفظ له بذكرى أثيرة لديه (73) وبسبب ما ذهب اليه أبو مدين من واحدية

66) المرجع نفسه ـ ص 99

67) محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، ص 164

68) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ج 2 ـ ص 18 عنوان الدراية ـ ص 157

69) محمد رجب حلمى ، البرهان الازهر فى مناقب الشيخ الاكبر ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1326 هـ ـ ص 7 . ابو الوفاء التفتازانى (الطريقة الاكبرية) ، الكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى ، القاهرة ، 1969 ـ ص 300

70) آنخل بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة 1955 ـ ص 373

71) محمد البهلى النيال ، الحقيقة التاريخية ـ ص 372

72) عبد الرحمن بدوى (أبو مدين وابن عربى)، الكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى فى الذكرى المئوية الثامنة لميلاده أشرف عليه وقدم له د . ابراهيم مدكور ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، 1969 ـ ص 121

73) المرجع نفسه ـ ص 126 ـ 128

الوجود رماه الفقهاء بالزندقة (74) فى بجاية ، وحرضوا عليه السلطان ، وسعوا به لديه ، وظاهروه عليه ·

وهذا يدفع ما كان قد ذهب اليه G. MARÇAIS من القول بان ابا مدين ليست له اصالة 75 فى تصوفه وانما هو اتخذ مجرد التصوف المعتدل BRUNSCHVIG الذى ارتضاه الغزالى لنفسه ، فيما يقول فاذا كان الامر كذلك فحسب ، فلماذا يتابعه الموحدون ، وهم يجلون الغزالى وطريقته ، اذ هو شيخ امامهم المهدى بن تومرت وهل G. MARÇAIS أكثر فهما لابى مدين من تلميذه ابن عربى الذى شهد له بالاصالة ؟ وبلوغ القطبية ، وهي ارقى ما يمكن ان يصل اليه صوفى ، لم يبلغ ـ دون شك ـ درجة ابن عربى وابن سبعين في القول بوحدة الوجود الصريح ، والايغال فى الميتافيزيقا الصوفية الكونية ، وانما اتجه اتجاها غزاليا مع أصالة ، وقول بواحدية وجود متعالية ·

أما ابن تيمية (ت 727 هـ) فيرى ان أبا مدين ليس من اصحاب وحدة الوجود (76) ، ولعله انساق الى ذلك بسبب اتصال أبى مدين بعبد القادر الجيلانى ، ولقائه له ، واخذه عنه ، فلا يعقل ان يكون تلميذ السلفى الجيلانى قائلا بوحدة الوجود ، التى يحاربها ابن تيمية حربا لاهوادة فيها ، ويكفر اصحابها كفرا صراحا ، لا ايمان معه ·

ويسير فى هذا الاتجاه ابن سبعين (ت 669هـ) الذى يذهب الى ان أبا مدين مجرد زاهد عابد ، ليس له قدم راسخة فى المعرفة وانما تأصلت قدمه ورسخت فى العمل والتعبد ، فقال : « شعيب عبد عمل ، ونحن عبيد حضرة » · (77)

ولكن من المؤكد ان ابن عربى درس على احد تلاميذ ، واصحاب ابى مدين ، الا وهو ابو محمد عبد الحق بن الخراط ، اذ نص على ذلك نصا لا يحتمل التأويل فقال : « ومن شيوخنا الاندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الاشبيلى ، رحمه الله ، قال : حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث ، وعين لى من اسمائها «تلقين المهتدى » « والاحكام الكبرى ، والوسطى ، والصغرى، وكتاب « التجهد » وكتاب « العاقبة » نظمه ونثره ، وحدثنى بكتب الامام ابى محمد على بن احمد بن حزم عن ابى الحسن شريح بن محمد بن شريح ، عنه » · (78)

74) المرجع نفسه ـ ص 128
75) دائرة المعارف الاسلامية مادة « أبو مدين »
76) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، القاهرة (دون تاريخ) ج 1 ـ ص 179
77) البهلى ، الحقيقة التاريخية ـ ص 385
78) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1968 ، ج 2 ـ ص 168

وعندما نزل محيي الدين بن عربي مصر ، نقدهأهلها ، وكادوا يقتلونه ، لو لا ان شفع له ابـو الحسن بن فتح البجائي (ت 652 هـ) ودافع عنه ،وبذلك انقذه من تلك المحنة في عهد الملك العادل الايوبي ، واعتذر ابن عربي له بعد نجاته وقال :« يا سيدي تلك شطحات في محل سكر ، ولا عتب على سكران » . (79)

لم يؤثر ابو مدين في الصوفية المسلمين فحسببل ان تاثيره بلغ متصوفة النصارى ، ويـذهب عبد الرحمن بدوي الى القـول بان فرشسكـوالاسيزي (1182 ـ 1226 م) وهو صوفي نصراني رحل الى مصر ولقي متصوفيها وعلماءها بقصد المناظرة وكانت شهرة ابي مدين بلغت المشرق ، ومصر وغيرها من بلاد الاسلام ، فلا يبعد ان يكونقد عرف هذا الصوفي النصراني اخبار ابي مدين في حاله وكراماته ، وفضائله ، فقلده فيما ينسباليه من كرامات ، فقد نسب النصارى كرامات الى هذا الصوفي تشبه الى حد بعيد ما نسـبالى ابي مدين ، منها اخضاع الحيوانات ومعاشرتها كما فعل ابو مدين مع الغزال ، ومع الاسد، ومنها انه كانت تحوم حوله في مجالسه طيور تأنس بحديثه ، وتستمع اليه ، وربما مات بعضها حبا ،وشوقا ، فمن اين هذا التشابه ان لم تكن هناك صلة ما من الصلات ، وتأثير ما ؟ .

ومن المتأثرين بتصوف ابن عربي ممن دخـلبجاية رامن للRAMON Lullأو RAYMONDO Lullo: رايمند ولوليو (1235 ـ 1315 م) وهو متصوفنصراني وراهب مسيحي اعتمد عـلى تصـوف المسلمين كل الاعتماد ، وتجول في سواحل المغربالاسلامي ، فاطلع على أحوال ابي مدين ، وعرف ابن سبعين ، والششتري ، والعفيف التلمساني،وتأثر بابن عربي تأثرا واضحا لا مجال للشك فيه ، فقال « بالنورين » وبالمقامات DIGNITATESوباسماء الله الحسنى المائة Les cent noms de Dieu وكان يعرف العربية يكتب بها ويجادل بهـــاالمسلمين ، واخذ معاني ابن عــربي بحرفيتهـا ونصوصها (81) واستخدم الرمز بالحـروف ،وبالاشكال الهندسية ، واستعمل مصطلحات ابن عربي الصوفية وذهب الى الاتحاد ، والى القـول بان الـذوق طريق المعـرفة لا العقـل (82) ، بالاضافة الى تأثره بالغزالي الذي ترجم كتـــابه « تهافت الفلاسفة » Destructio philosophorum

79) الغبريني ، عنوان الدراية ـ ص 158
80) بدوي ، (ابن عربي وابو مدين) الكتاب التذكاري ـ ص 119
81) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ـ ص 547
(82) Julian RIBERA, origines de la philosophia de Raymondo Lulio, in Disertaçiones y opusculos (Madrid, 1928), Tomo I, pp. 169-172.

وعرفه لل ريمون من خلال ترجمة عبرية ، ومن خلال ترجمة « تهافت التهافت » (83) لابن رشد (ت 595 هـ) الذى أورد فيه كلام الغزالى وردعليه • كان ريمون لل قائما بحملة تبشيرية فى الاوساط الاسلامية ، فسافر الى الشرق الاوسط ،والمغرب وخاصة الجهة الشرقية من شمال افريقيا : تونس وبجاية ، فدخل تونس مرتين ، مرة فىسنة 1292 م ولقى بها علماء الاسلام ، واخرى فى أوت سنة 1314 الى ديسمبر من سنة 1315 م ،واصله من جزائر البليار اما بجاية فقد أقام بها من الربيع الى الخريف من سنة 1307 م واعلنفى ساحة عمومية امام ملإ من المسلمين ببجاية قائلا : « ان شريعة النصارى حق ومقدسة ،ومقبولة عند الله ، واما شريعة المسلمين فهى باطلة وخطأ او ضلال ، وانى على استعداد للبرهنة علىهذا » (84) واثر هذا الصنع ثارت عليه العامة ، ولكن مفتى بجاية الذى سماه فى كتابه بـ : HAMAR

ولعله « عمر » أو « عمار » حسب تحريفه لنطق الكلمة تبعا للهجته ، لاطفه ، وانقذه من الجمهور ودعاه للمناظرة ، وقال له : برهن على ما تذهبإليه وانى على استعداد للاستماع اليك،ومناقشتك والجدير بالذكر ان ريمون لل شهد واقر لهذاالمفتى بالمعرفة الفلسفية وبانه ذائع الصيت فيها، ومشهور بها فقال : «Ce Mufti avait une grande réputation de philosophie» (85).

« ان هذا المفتى كانت له شهرة فلسفية ، اوكان مشهورا بالفلسفة » ولعله وصفه بهذا الوصف ليبرهن على انه ذو قدرة فائقة على الجدلمع ذوى الامتياز فى مجال الفلسفة نفسها ، ويحتمل ان يكون هذا الفقيه • مشتغلا بالكلاموالفلسفة حقيقة •(86)

كان « لل » يدعو للثالوث وللدين المسيحىباسلوب فلسفى ، وتذكر المصادر الاجنبية ان الذى طرده هو خالد الاول الذى كان واليا على قسنطينة،فقد أمر باخراجه من البلاد بعد انسجن وكان عمره اذ ذاك 72 عاما • وكان يرى انالانسان فى عهد الانبياء فى حاجة الى المعجزات لكى يؤمن ، أما الآن فقد وجب ان يبين الايمانللناس بأدلة فلسفية •

(83) Gilbert VARET, manuel bibliographique philosophique, presses universitaires de France, Paris, 1956, p. 166.

(84) A. LLINARES, "Le séjour de Raymond Lulle à Bougie" et la "disputatio Raxmundi Christiani et HAMAR Saraceni" (1307), Estudio Lulionos, 1960, Vol. IV, Fasc. I, pp. 63-72
وايضا Raimundi Lulli, opéra latina, Palma de Majorque, 1959, Vol. I, pp. 14, note 31 et Vol. II, pp. 251-280 : opéra Tuniciana.

(85) Ibid, p. 66. نقلا عن مؤلفه ليل نفسه وهو : P. 36 vita coetanea :

86) لم تشر المراجع العربية ـ فيما أعلم الى هذا الحادث ولذلك فاننا لا نعلم لحد الآن عن هذا المفتى شيئا ولكن عرف من البجائيين من رد على النصارى وهو أحمد بن عبدالصمد الخزرجى (ت 582 هـ) فى كتابه : « مقامع الصلبان » (تطريز الديباج للتنبكتى ـ ص 59)

هذا ما يمكن ان نشير اليه فيما يتعلق بتأثير ابن عربى فى من جاء بعده مما يناسب هذا المقال ·

ونود ان نشير الى اصول لفلسفة ابن عربى الصوفية ، استخلصها ابن تيمية (ت 728 هـ) فهو يرجعها الى عنصر جهمى ، ويعتبره من غلاة الجهمية (87) اذ أول من قال بوحدة الوجود فى الاسلام انما هم الجهمية ، وعلى رأسهم جهم بن صفوان (ت 128 هـ) ويرى ابن تيمية ـ الذى تتلمذ فى أول أمره على كتب ابن عربى ثم تبين له غرضه بعد قراءته كتاب « الفصوص » (88) ـ ان ابن عربى لا يفرق بين الوجود العلمى والوجود العينى الخارجى ، تفرقة واضحة ، حيث ذهب الى ان المعدوم شىء ثابت فى العدم (89) ، وهو ما يقول به المعتزلة ، ومن تبعهم من الشيعة ، أما أهل السنة فانهم يفرقون بين الوجود العلمى للاشياء أى وجودها فى علم الله ، وبين الوجود العينى الخارجى ، بين وجود الاشياء قبل كونها ، وبين ثبوتها فى الخارج (90) ·

وتفطن ابن تيمية فى بصارة الى مصادر المتصوفة المتأخرين امثال ابن عربى ، وابن سبعين والقونوى ، والتلمسانى ، وارجعها الى عناصر ثلاثة : الى سلب الجهمية وتعطيلهم ، والى عبارات المتصوفة القدماء الغامضة ، وعبارات الذين تكلموا فى حال غيبوبة ، والى آراء الفلاسفة فى العقول والنفوس ، والوجوب ، والامكان ، والنبوات (91)·

ويرى ابن تيمية ان القول بان المعدوم شىء ثابت فى العدم أدى باصحابه الى الاعتقاد بان الماهيات غير مخلوقة ، وبان الوجود زائد على الماهية ، ففرقوا بين الوجود والماهية ، كما يلزمهم بان اعيان الاشياء قديمة ، وبان مادتها قديمة ، دون صورها (92) · اما اهل السنة فيرون ان الماهيات مجعولة مخلوقة ، ويذهبون الى ان الوجود والماهية شىء واحد ، فماهية كل شىء وجوده ، فالوجود الخارجى هو « الشىء وهو عينه ، ونفسه ، وماهيته ، وحقيقته وليس وجوده وثبوته فى الخارج زائدا على ذلك (93) ·

---

87) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، ج 5 ـ ص 127
88) المرجع نفسه ج 1 ـ ص 171
89) أول من قال بهذا من المعتزلة ابو عثمان الشحام شيخ أبى على الجبائى المعتزلى المرجع نفسه ج 1 ـ ص 6
90) المرجع نفسه ج 1 ـ ص 175
91) المرجع نفسه ج 1 ص 6
92) المرجع نفسه ج 1 ـ ص 6
93) المرجع نفسه ـ ص ج 1 ـ ص 15

ومن المتصوفة الذين أقاموا مدة ببجاية عبدالحق بن سبعين (ت 669هـ) ومن اجل هذا اعتبره الغبريني بجائيا فترجم له من بين 107 علم من أعلام بجاية ، الذين ترجم لهم في كتابه ، حيث نص على ان ابن سبعين « سكن بجاية مدة ، ولقيه من اصحابنا أناس ، واخذوا عنه ، وانتفعوا به ، في فنون خاصة ، له مشاركة في معقول العلوم ومنقولها »(94) كان ابن سبعين ذا معرفة بالفلسفة اليونانية ، ناقدا لها من خلال الفلاسفة الاسلاميين نقدا نفسانيا لماحا ، وعنيفا ، في اغلبه تأثر بابن عربي تأثرا كبير وان كان اكثر منه ميلا الى الفلاسفة • أما ابن عربي فهو أقرب الى المتصوفة القدماء والى الجهمية (95) والاشاعرة ،منه الى الفلاسفة ، ولذلك فضله ابن تيمية على غيره من متأخرة المتصوفة كالعفيف التلمساني ،والصدر الرومي ، والقونوي ، والششتري ، وجعله أقرب الى الحقيقة الاسلامية (96) ، ويلاحظ انه يجعل العفيف التلمساني اعمقهم جميعا ، واكثرهم توغلا في وحدة الوجود ، اذ انه « لا يفرق بين الوجود والثبوت ، كما يفرق ابن عربي ، ولا يفرق بين المطلق والمعين ، كما يفعل الرومي ، ولكن عنده ما ثم غير ولا سوى ، بوجه من الوجوه » • (97)

ذكر المؤرخون ان ابن سبعين اجتمع بتلميذه أبي الحسن علي الششتري (ت 668 هـ) في بجاية عام 648 هـ ، وكان الششتري يقول : « انا غلام ابن سبعين ، فظل ملازما لمجالس ابن سبعين في بجاية ، ولما بدا له يوما ان يتجه الى اصحاب ابي مدين قال له ابن سبعين : « الزم طريقة واحدة ، فان اردت الجنة فعليك بابي مدين ، وان اردت الله فتعال الي » (89) فتبع طريقة شيخه ابن سبعين في المعرفة ولزمها ، وتغنى بوحدة الوجود في موشحاته ، التي ترنم بها المتصوفة في حلقاتهم ومجالسهم ويتغنون بها الى اليوم •

ومن ثم فقد جمعت بجاية بين جنباتها الحلابة ،وجبالها الشامخة الجليلة ، أبا مدين ، وابن عربي وابن سبعين ، والششتري ، وهم أقطاب التصوف في صورتيه : السنية والفلسفية •

---

94) عنوان الدراية – ص 237 ونقل عنه المقري في نفح الطيب ، ج 5 – ص 317
95) ابن تيمية الرسائل والمسائل ، ج 1 – ص 26
96) المرجع نفسه ج 5 – ص 176
97) المرجع نفسه ، ج 5 – ص 177
98) البهلي ، الحقيقة التاريخية – ص 386

والتقى ابو الحسن الششترى بأحد زهاد بجاية وعبادها الا وهو ابو الحسن بن علال فأعجب بطريقة الششترى حين حضر مجالسه مع أهل المعرفة ، فكان فى نظره جيد المحاضرة ، فائقا فى مخاطبة القلوب .

وتنطوى فلسفة الششترى الصوفية على نزعة افلاطونية ، اذ استخدم مصطلحات افلاطون من « المثل » و « الصور » (99) ، بل انه ذكر افلاطون نفسه فقال :

وجرد امثال العوالم كلها وابد افلاطون فى امثل الحسنى (100)

ومن المتصوفة الجزائريين الذين أقاموا ببجاية واخذوا بها عن علمائها ومتصوفيها الشيخ عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبى (ت875هـ) نص فى رحلته على انه اقام ببجاية فقال: «ومما وقع فى بجاية فى عام اربعة وثمانمائة وكنت اذ ذاك بها (101) ولكن بداية دخوله بجاية كانت فى سنة 802 هـ كما ورد فى نص من نصوص رحلته التى نقل عنها صاحب « التطريز » قال الثعالبى : « رحلت فى طلب العلم من ناحية الجزائر فى آخر القرن الثامن ، فدخلت بجاية عام اثنين وثمانمائة ، فلقيت بها الايمة المقتدى بهم فى العلم ، والدين والورع ، اصحاب الفقيه الزاهد الورع عبد الرحمن الوغليسى (ت 786 هـ) واصحاب الشيخ أبى العباس احمد ادريس (ت 789 هـ) متوافرون يومئذ ، اصحاب ورع ، ووقوف مع الحد ، لايعرفون الامراء ولا يخالطونهم ، وسلك اكثر اتباعهم مسلكهم ، كشيخنا ابى الحسن على بن عثمان المكلاتى ، وشيخنا الولى الفقيه المحقق ابى الربيع سليمان بن الحسن ، وابى الحسن على بن محمد البليلتى ، وعلى بن موسى ، والامام العلامة ابى العباس النقاوسى ، حضرت مجالسهم ، وعمدتى على الاولين ، ثم دخلت تونس عام تسعة أوائل عشرة » (102) .

ولعبد الرحمان الثعالبى تآليف وصلنا بعضها، تدل على نزعته الزهدية الغزالية ، على طريقة ابى مدين لا على طريقة ابن سبعين وابن عربى ، من هذه المؤلفات « الانوار المضيئة الجامع بين الحقيقة

99) النشار ، وعباس الشربينى ، (ترجمة فيدون) دار المعارف الاسكندرية ، 1965 — ص 222

100) ديوان الششترى ، تحقيق د . النشار ، الاسكندرية، 1960 — ص 74 — 75

101) الثعالبى ، العلوم الفاخرة ، ج 1 — ص 91

102) التنبكتى ، تطريز الديباج — ص 173

والشريعة » وكتاب « الفائـــق فى الاذكـــاروالدعوات » و « العلوم الفاخرة فى أحوال الآخرة» وكتاب « النصائح » وما الى ذلك من المؤلفات التىأوردها فى فهرسته (103) ٠

ومن متصوفة بجاية فى القرن التاسع الهجرىالشيخ التواتى ، وله مؤلفات ، وشهرة عند أهل بجاية فى عصره ، وكانت فتاواه لا ترد من بجايةالى توزر (104) ومنهم الشيخ يحيى العبـــدلى ، وسعيد العلمى ، ومنهم عبد الرحمن الصباغ ٠

وفى القرن العاشر والحادى عشر محمد امقران(105) ، وفى العصور الاخيرة اصبحت بجايـــة وواديها الاكبر ، وما حوله من جبال بنى وغليسوغيرهم ، مأوى للطرق الصوفية وزواياها، وخاصة الطريقة الرحمانية (106) التى كان من اعلامهـــاالشيخ ابن الحداد ، الذى « ألـف رسـالـة فى التصوف كنا كتبنا عليها فى عدد من هذه المجلةواشرنا الى الحياة الصوفية لعهده ٠

فلا غرو بعد هذا كله ان تكون بجاية مركـزاللثقافة وتربة صالحة ثرية ، لانجاب ذوى الفطرة الفائقة ، والمعرفة ، ولتخريج السالكين سبيـــلالحقيقة ، لذلك كله قال الشريف التلمســـانى (ت 771 هـ) « دخلت بجاية فى القرن الثامنفوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الـذى ينبع من حيطانها (٠٠٠) وقد سمعت ان بجايةفيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة ، واما اللائى يحفظن ابن الحاجب ، فلا يحصى عددهن الا الله » ٠ (107)

وبعد فلسنا بهذا نزعم اننا استوفينا الحديثعن اعلام المنهج الصوفى البجائيين ، فهم كثـــر ، والمقال لا يسمح لنا بأكثر من هذا الذى تعرضناله ، وسنعرض فى قسم تال لهذا ، للذين كانت وجهتهم كلامية أو فلسفيـــة ، او كانت هاتـانالوجهتان عليهم أغلب ، وبهم ألصق ، واوثق ، باذن الكبير المتعال ٠

---

103) المرجع نفسه ـ ص 174

104) الحسين بن محمد الوثيلانى ، نزهة الانظار فى فضل التاريخ والاخبار ، الجزائر 1326 هـ ، 1908 م ـ ص 27

105) الوثيلانى ، الرحلة ـ ص 27

106) تحتاج هذه المرحلة الى دراسة جادة معتمدة على الوثائق والآثار .

107) المرجع نفسه ـ ص 28

أعلام أقاموا بجاية في القرن السابع الهجري

محمد بلغراد
كلية الآداب
جامعة الجزائر

ترجم الغبريني في كتابه عنوان الدراية لطوائف شتى من مشاهير المائة السابعة من علماء بجاية الاصلاء او الوافدين عليها من انحاء الجزائر نفسها او من الاندلس ـ ومن اشهر الاندلسيين الذين جاءوا الى بجاية واقاموا فيها ابن الابار القضاعي الاديب المحدث المؤرخ وابن سبعين الصوفي ومحيي الدين بن عربي المتصوف الذائع الصيت وغيرهم . والحديث عن ابن عربي شهي ممتع ولكنه صعب ومحرج وابن عربي امام كبير من أيمة التصوف والفلسفة الصوفية هو محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن عربي الحاتمي الطائي ولد بمرسية سنة 560 وتعلم القرآن والحديث باشبيلية واقام فيها نحو ثلاثين عاما ثم رحل الى المشرق .

قال صاحب عنوان الدراية : رحل الى العدوة ودخل بجاية في شهر رمضان المعظم سنة سبع وتسعين وخمس مائة (598 هـ) اهـ . ولقي بها ابا مدين شعيب بن الحسن الاشبيلي دفين حي العباد بضاحية تلمسان . اخذ ابن عربي الحديث عن ابن عساكر وابن الجوزي وساح في بغداد والموصل وبلاد الروم . وقد مارس حياة التصوف مع شيوخ كثيرين . واخذ عنهم الكثير من الرياضات الصوفية وكان ياخذ الحكمة حيثما وجدها ولا يبالي أكان صاحبها رجلا ام امراة .

وقد اتفق ان اخذ مرة عن عجوز لزمها خادما ومريدا وشاهد بنفسه ما كان يجري على يدها من ظواهر التنبؤ القريبة .

وذكر حكايتها التي جرت له في اشبيلية قال :وخدمت انا بنفسي امرأة من المخبآت العارفات · يقال لها : فاطمة بنت المثنى القرطبي خدمتها سنتين · وكنت استحي ان انظر الى وجهها وهي في هذه السن من حمرة خديها وحسن نعمتها وجلالها ، وكانت تؤثرني على من كان يخدمها وتقول : « ما رأيت مثل فلان ، اذا دخل علي دخل بكله لا يترك منه خارجا عني شيئا واذا

خرج من عندى خرج بكله ، لا يترك عندى منه شيئا » اهـ . وما زلت اخدمها بنفسى . وبنيت لها بيتا من قصب بيدى على قدر قامتها ، فمازالت فيه حتى درجت . وكانت تقول لى : « انا امـك الالهيـة » .

وفى سنة 598 هـ توجه الى مكة وجاور فيها ، وهناك توثقت علاقته بأسرة امام مقـام ابراهيم وتعلق بابنة له تدعى نظام . واوحى اليه تعلقه بها ديوانه : « ترجمان الاشواق » وهو من ناحية ظاهره مجموعة من شعر العشق الذى قاله فى هذه الفتاة ، أما معانيه فصوفية ، المقصود بهـا الله والملأ الاعلى وحلاوة الفناء فى الخـالق .

وقصد مكة مرة اخرى سنة 610 هـ وكتب فيها « ذخائر الاعلاق » شرحا على ديوانه « ترجمـان الاشواق » ليقضى به على الاراجيف الـتى كـان الفقهاء واهل الدين يذيعونها حوله اذ استعظموا معانى العشق الواردة فى الترجمان وما تتحدث عنه من عاطفة حسية مادية . وقد غابت عنهـم المعانى الصوفية التى أرادها .

وقد ظهرت على يديه كرامات وتسرب الى جمهور الناس قوله بوحدة الوجود . يريد بذلك ان اللـه والعالم شىء واحد يختلفان فى الصورة فقط ولايختلفان فى الحقيقة . وان رؤية الاشياء مختلفـة كمنزل ورجل وشجرة ليس الا امر قضت بـه الضرورة . وليس الا خداعا من الحواس ومطاوعة للعقل الانسانى القاصر . فهو يشبه ما يقـول به الفلاسفة المحدثون من ان كل شىء اساسه الذرة، وانما تختلف الاشياء باختلاف النواة الذرية وكمية شحناتها الكهربائية . والا فالحقيقة فى الكـل واحدة وربما عبر عن هذا بقوله « سبحان من خلق الاشياء وهو عينها » فهناك خـالق ومخلـوق فى الظاهر ولكنها فى الحقيقة شىء واحد ، وهو شىء ـ كما يقول ـ لا يدرك بالعقل بل بالقلب .

وفى ذلك يقول :

يـا خالـق الاشيـاء فى نفسـه ... انـت لمـا تخلقـه جـامـع

تخلـق ما لا ينتـهى كـونـه ... فيـك ، فأنـت الضيـق الواسـع

ومن ناحية الظاهرة والحديث المألوف هنـاك خالق ومخلوق وظاهر وباطن وأول وآخر .

فليس العالم والله شيئين منفصلين وليس الله فى السماء وحدها ولا فى الارض وحدها . بل هو فى كل شىء ، بل هو كل شىء ، وليس هنـاك محب ومحبوب وعاشق ومعشوق بل المحـب

والمحبوب واحد ، يختلفان فى المظاهر والاحوال ويتحدان فى الحقيقة · وكل شيء فى العالم له مظهر فان متغير متقلب وله مخبر دائم باق لا يتغير ونفس الانسان كذلك نفس ناقصة فانية ظاهرة، ونفس كاملة باقية باطنة · والنفس الاولى تشق الطريق لتحقيق نفسها الثانية فتتحد بالحقيقة وتتشربها وتفنى فيها وسمى الصوفى هذا المسلك طريقا وسمى نفسه سالكا وسمى المسافات التى يقطعها فيقف عندها للاستجمام مقامات وسمى الغرض الذى يقصده من سلوكه اتحاد نفسه بالحقيقة ·

وبعبارة أخرى اتحاد ذاته بالله والفناء فى الحق وسموا كل مقام باسم · فهو عند بعضهم مقام التوبة ثم مقام الورع ثم مقام الزهد ثم مقام الفقر ثم مقام الصبر ثم مقام التوكل ثم مقام الرضاء ثم ان السالك يشعر بمشاعر نفسية خاصة سموها احوالا ، فحال الخوف وحال الرجاء وحال الشوق وحال الانس وحال الطمأنينة وحال المشاهدة وحال اليقين ، فتلك مراحل يجب على السالك ان يجتازها حتى يصل فى النهاية الى حالة اتحاده بالعالم وبالله فيستحق بذلك ان يسمى عارضا ، ويحتاج السالك فى هذه الطريق الوعرة الملتوية الى دليل يهديه فى المسالك ويجنبه المهالك · فهذا الدليل هو الشيخ ·

وكان محيى الدين بن عربى مكثرا من التأليف، وكتاباته تتناول كل شيء من علوم وفقه وفلسفة وشرح وفلك وما الى ذلك · ونحن نلمح عنده الاثر الذى خلفه فى مؤلفاته اختلاط المذاهب المتشبعة التى سمع بها اثناء سياحاته الطويلة او حصلت له نتيجة لاتصاله باقوام ذوى عقائد شتى يختلف بعضها عن بعض اختلافا عظيما · وهو يقول فى ذلك انه لا يعرف طريقة من طرق الصوفية او فرقة من الفرق او عقيدة من العقائد لم يلق واحدا من السالكين فيها او ممن يعتنقونها ويمارسون طقوسها قولا وعملا · وان كل ما سطره فى كتبه فمنه ما شاهده ومنه ما نقله من كتب مشهورة رواها سماعا أو قراءة أو كتابة (2) ·

يقول آيس بالاثيوس : ان الاسلام فى عصر ابن عربى كان قد تمثل علوم اليونان جميعا وذلك بفضل الدراسات الفلسفية اللاهوتية التى قام بها ابن سينا والغزالى وابن حزم وابن رشد ··· وظهرت مذاهب ذات طابع نظرى غالب وهى فى أساسها تتجه نحو القول بوحدة الوجود ، وتقوم كلها على محاولة التوفيق بين شتى المذاهب والآراء وهى محاولة متشعبة محيرة اهـ ·

هذا وشيوخ ابن عربي في علوم أهل الباطـــن يعدون بالمئات والكتب التي يبدو انه قرأها وعرف ما فيها في التصوف وغيره لا تحصى ، وهذه الآراء كلها التي تجمعت لديه من مصادر مختلفة قـــد اختمرت في رأسه . وكان ذهنه بطبعه مضطربا بسبب مزاجه الصوفي البالغ القوة .

وقد تأثرت طائفة من الصوفية المسلمين كابن عربي وابن سبعين وغيرهما بمذهب وحدة الوجود الـذي انجر اليهم من الافلاطونية الحديثة وهي مذهب فلسفي ظهر في الاسكندرية وبقي موجودا مـــن القرن الثالث حتى القرن السادس بعد الميلاد . فبعد استيلاء اسكندر الاكبر عـــلى الاسكندرية صارت هذه المدينة ملتقى المدنيات اليونانيـــة والشرقيـــة والتحمت فلسفـــة فيثا غوراس وأرسطاطاليس وافلاطون بعناصر فلسفية هندية وعبرية وصار كل ذلك المزاج يدعى بالافلاطونية الحديثة . وحاول اصحابها ان يجدوا في فلسفة افلاطون ما عسى ان يوحد بين شتى عناصرها ، ومن ثم تسميتها بالافلاطونية الجديدة وكان أفلوطين من اشهر اصحابها . ويذهب هؤلاء الى ان مصدر كل كائن كامن في الوحدة المطلقة . وكـــل شيء يستمد وجوده من الله الاحد بوساطة الفيض ، والكائن الاول الذي استمد وجوده من الفيض هو اللوغوس وهو الكلمة والعقل الاول . واللوغوس عند النصارى هو كلمة الله او المسيح . ثم ان العقل في نظر الافلاطونية الحديثة تستمد الروح وجودها منه ، والروح في زعم هذه الفلسفة هي أصل الحركة والمادة . فالله الاحد والعقل والروح هي الاقانيم الثلاثة التي ترتكز عليها الافلاطونية الجديدة . والكائن المخلوق يتسامى الى الكمـــال بطريقة الفيض وذلك هو الارتداد الى الله ، وكل شيء مصدره الخير وينزع الى الخير . ولا تتحـــد الروح بالمصدر الاول الا اذا جاوزت الفكر وفنيت في الله واتحدت به وفقدت كل وعي بنفسهـــا ، ويقول أفلوطين انه توصل مرتين أو ثلاث مرات في حياته الى هذا الاتحاد بأرقى الاقانيم .

ومذهب وحدة الوجود لم ينبع من فكر الصوفية والمسلمين بل هو مذهب عتيق ظهر أولا في مظهر ديني فخم عند الهنود في فجر التاريخ ، ويدعى عند الافرنج PANTHEISME وهذا اللفـــظ مركب من : ANP ومعناه كل ومن : THEOS ومعناه اله .

ويراد بهذا اللفظ : الحلولية او الاحديـــة أو وحدة الوجود وهو المذهب القائل بان اللـــه والطبيعة شيء واحد وبان الكون المادي والانساني ليسا الا مظاهرا للذات الالهية ، وصارت وحـــدة الوجود مذهبا فلسفيا عند الاغريق وذلـــك في فلسفة زينون الرواقية .

ثم فى الافلاطونية الحديثة التى يعد افلوطين PLOTINE من مؤسسيها – وقد شرح أفلوطين فلسفته فى كتابه التساعيات LES EMEADES وهى فلسفة انصهرت فيها المذاهب الفلسفية القديمة وقد تأثرت الافلاطونية الحديثة بالمسيحية٠

وقد صاغ سبينوزا وحدة الوجود صوغا هندسيا ٠ وهو الذى يقول بان ذات الله هى الذات الوحيدة الفريدة الواجبة الوجود السرمدية اللامتناهية وبان عدد الصفات الالهية لا ينتهى وباننا لا نعرف منها الا اثنتين هما الفكر والامتداد فى الفضاء وملء حيز منه وبان الله لما كان هو الذات الفريدة ينشأ عن ذلك انه لا يكون شىء الا فيه والا به ، وبان الله هو العلة الملازمة لكل شىء اتصف بالوجود ٠ والكائنات ما هى الا اشكال خاصة لصفات الذات الالهية التى تنمو طبقا للقوانين الحتمية لطبيعتها ٠ والحتمية الكونية هى نتيجة لوحدة الوجود هذه ٠

ونجد وحدة الوجود ايضا فى فلسفة التشاؤم عند شوبنهور وفى فلسفة هارتمان ، ولكن الكنيسة المسيحية ترفض وحدة الوجود وتعاديها وتحرم على اتباعها الخوض فيها ٠

وقد وقع اختلاف كبير بين العلماء فى ابن عربى مدحا وقدحا ٠ فقد ورد فى الشذرات ان له مؤلفات لا نهاية لها تدل على سعة باعه وتبحره فى العلوم الظاهرة والباطنة وانه بلغ مبلغ الاجتهاد فى الاختراع والاستنباط وتاسيس القواعد والمقاصد التى لا يحيط بها ولا يدريها الا من طالعها بحقها : وقد لوحظ انه وقع له فى بعض تضاعيف تلك الكتب كلمات كثيرة اشكلت ظواهرها وكانت سببا لاعراض كثيرين لم يحسنوا الظن به ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين والعلماء العاملين والائمة الوارثين ان ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد ٠ وانما المراد أمور اصطلح عليها متأخروأهل الطريق غيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الالفاظ الموهمة خلاف المراد غير مبالين بذلك لانه لا يمكن التعبير عنها بغيرها ٠

وقد استعرض ابن العماد المواقف المختلفة التى وقفها الناس من ابن عربى وذكر انهم تفرقوا فى شأنه شيعا وسلكوا فى أمره طرائق قددا ٠ فذهبت طائفة الى انه زنديق لا صديق وقال قوم انه واسطة عقد الأولياء ورئيس الاصفياء وصار آخرون الى اعتقاد ولايته وتحريم النظر فى كتبه وان جلال الدين السيوطى قال فى مصنفه « تنبيه الغبى بتبرئة ابن عربى » ان القول الفيصل فى

ابن العربى اعتقاد ولايته وتحريم النظر فى كتبهفقد نقل هو عن ابن عربى نفسه انه قال : نحن قوم يحرم النظر في كتبنا .

وقد سئل يوسف الصفدى عن قراءة الناسلكتب ابن عربى فقال : ان هذا العلم المنسوب الى ابن عربى ليس هو بمخترع له . وانما هـو كان ماهرا فيه . وقد ادعى أهله انه لا تمكـن معرفته الا بالكشف . فاذا فهم المريد مرماهـــمفلا فائدة فى تفسيره . لانه ان كان المقرر والمقدر له مطلعين على ذلك فالتقرير تحصيل الحاصل ،وان كان المطلع احدهما فتقريره لا ينفع الآخـر والا فهما يخبطان خبط عشواء . فسبيل العارفعدم البحث عن هذا العلم . وعليه السلوك فيما يوصل الى الكشوف عن الحقائق ، ومتى كشف لهعن شيء علمه .

وكان ممن ناصر ابن عربى الفيروز ابـــادىصاحب القاموس المحيط وشهاب الدين السهـر وردى وفخر الدين الرازى وابن السبكى ـ وكانمن الناقمين عليه ابن الخياط والحافظ الـذهبى وابن تيمية وابن اياس والتفتزانى وغيرهم .

ولما رحل ابن عربى الى المشرق وألف تآليففيها ما فيها نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا فى اراقة دمه فخلصه الله تعالى على يد الشيـخأبى الحسن البجائى . فانه سعى فى خلاصه وتأول كلامه . ولما وصل اليه بعد خلاصه قال له البجائيكيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت ؟ فقال له ابن عربى : يا سيدى تلك شطحات فىمحل سكر . ولا عتب على سكران .

واختلاف الناس فى مثل هذه الظروف أمـــرطبيعى فالناس عادة من طبيعتين مختلفتين ومزاجين متباينين فعلماء النفس يقسمون الناس الى هذين قسمـين .

فقد نشب النزاع دائما بين الحسيين والمعنويينبين أهل الظاهر والباطن . بين من مزاجه ذوقى ومن مزاجه عقلى . بين من يأخذ بالظواهر ومـنلا تقنعه الظواهر . بين أهل الكشف واهل العقل. بين الفقهاء والمتصوفة .

واذا اردنا ان نصل الى اقصى ما يمكن الوصولاليه من حقائق العالم يجب ان نستخدم كـــل ما نستطيع من ملكاتنا وليست ملكات الانســانمقصورة على القوة العقلية . فلديه الشعور ولديه الارادة . فلماذا يستخدم القوة العقلية وحدهاوهى آلة العلم ولا يستخدم الشعور ايضا وهـو وسيلة اخرى من وسائل المعرفة ؟ وقد انصفالمتصوفة فسموا نتيجة استخدام المنطق علمـا

وسموا نتيجة استخدام الشعور والذوق والكشف معرفة وسموا من يعاني الاول عالما والثاني عارفا وقد دلت التجارب على ان الانسان لا يسيره عقله أو علمه فقط • وانما يسيره كذلك شعوره ، فهو يدرك حقائق العالم بعقله وشعوره معا ، والناس مختلفون بحكم فطرتهم فمن قوى رأسه كان أقرب الى المنهج العلمي ومن قوى قلبه كان أقرب الى المنهج الشعوري والديني والفني • فليس من العقل ان يتطلب حقائق العالم بقوة العقل وحده ونشل سائر الملكات ، وانما العقل ان تستعمل كل ملكاتنا في ادراك حقائقه ، فلرجال العلم ان يستكشفوا ما شاءوا من عجلة العالم • والفنانون لهم ان يستكشفوا ما شاءوا من جمال العالم • والانبياء والمتصوفة يبلغون ادراك محرك العالم وقيم معنوياته ما يفوق مستكشفات العلم والهامات الفن •

ثم اعتلت صحة ابن عربي وزاد ما كان يبدو عليه من مظاهر الجذب واضطراب العقل • وفي هذه الحالة من الاعتلال الجسمي والعقلي كتب كتابه « الحكمة الالهامية » وهو رد على الفلاسفة ونقض لآرائهم على طريقة الغزالي في « التهافت » • ثم اختار دمشق مستقرا له ومقاما من سنة 620 حتى وفاته • والف فيها ثلاثة كتب : « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » و « الديوان » •

وقد ادركته منيته ـ رحمه الله ورضي عنه ـ ليلة الجمعة 28 ربيع الثاني 638 ، ودفن بسفح جبل قاسيون خارج دمشق بالتربة الصالحية •

وقد اعطى بلاغة في القول وعمقا في التفكير وسعة في الخيال • وكلما نزل بلدا اتصل بمتصوفيها • له النثر الكثير والشعر الكثير لا يعبأ بمال ولا جاه • وكان كثير الشطح كثير التأويل ، وربما كانت له قصص كثيرة تبين منحاه في القول • فقد قال :

يا من يراني ولا أراه ... كم ذا أراه ولا يراني

فاعترض عليه : كيف لا يراه الله ؟ فقال :

يا من يراني مجرما ... ولا أراه آخذا

كم ذا أراه منعما ... ولا يراني لائذا

وله كلام كثير ظاهره الالحاد وباطنه الاسلام مع التأويل •

وبلغت مؤلفات ابن عربي نحد 200 كتاب ذكر منها بروكلمن 156 وذكر اماكن وجودها • واكثرها في التصوف • وبعضها في الجفر و اسرار الحروف.

من أهمها فصوص الحكم · ألفه سنة 626، والى هذا الكتاب يرجع الفضل فيما يتمتع به ابن عربى من شهرة كبيرة بين الصوفية كمؤلف لكتاب المكاشفات التى ترفع الحجب عما وراء الغيب ، وفيه يعرض مذهبه الغامض المتناقض فى وحدة الوجود ، وقد نقل Titus Burckhardt كتاب فصوص الحكم الى الفرنسية بعنوان La Sagesse des Prophètes

غير ان اعظم كتاب لابن عربى هو الفتوحات المكية ·

ويمكن القول بان المؤلف جمع فيه كل ما ذكره فى مؤلفاته الاخرى ، وضمنه ما فتح الله عليه به اثناء مقامه بمكة · وفى الكتاب ستة اقسام ـ المعارف ـ المعاملات ـ الاحوال ـ المنازل المنازلات ـ المقامات ·

وهو كتاب ضخم يقع فى 4000 صفحة ـ وكانت ضخامته وما فيه من شطح والغاز سببا فى قلة انتشاره ، ويذكر صاحب الشذرات ان الامام الشعرانى اختصر كتاب الفتوحات ، وللفتوحات المكية شروح متعددة ·

مصادر البحث ومراجعه

1) ابن سبعين ـ رسائل ابن سبعين ، القاهرة 1965

2) ابن العماد ـ شذرات الذهب ، بيروت بلا تاريخ

3) ابن قنفذ ـ كتاب الوفيات تحقيق عادل نويهض بيروت 1971

4) أحمد امين ـ ظهر الاسلام الجزء الثالث ، القاهرة 1953

5) أحمد أمين ـ فيض الخاطر الجزء الثالث الطبعة الرابعة ، القاهرة بلا تاريخ

6) أحمد أمين ـ فيض الخاطر الجزء الرابع ، القاهرة 1949

7) افضل فوندالد يالنثيا ـ تاريخ الفكر الاندلسى نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، القاهرة 1955

8) ـ جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثالث تحقيق د · شوقى ضيف ، القاهرة 1957

(بقية مصادر البحث فى صفحة 190)



ابن خلدون فى بجاية

عبد الله عنان
مؤرخ مصرى

لعبت بجاية فى تاريخ افريقية والمغرب الاوسط ادوارا سياسية وثقافية هامة .. فقد كانت حاضرة لعدة ممالك متعاقبة ، وقد لبثت عصورا مركز اشعاع علمى وادبى واسع المدى . وقد اضطلعت فى ظل الدولة الحفصية بادوارها التقليدية ، فكانت غير مرة عاصمة لمملكة مستقلة ، تقوم تحت رياسة بعض امراء الاسرة الحفصية الموحدية ، وكانت بالاخص عقب انهيار شرق الاندلس ، وسقوط قواعده التالدة بلنسية وشاطبة ودانية ومرسية فى أيدى النصارى ، فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى منزل رهط كبير من علماء الاندلس النازحين من القواعد الذاهبة ، وفى مقدمتهم عدة من اقطاب التفكير والآداب الاندلسية ، مثل ابن الابار القضاعى وابن عميرة المخزومى ،وابى عبد الله الجنان ، وابىبكر بن محرز ، وغيرهم هذا عدا النازحين اليها من القواعد الاخرى ، من اشبيليه وغيرها من قواعد الغرب . نزل اولئك العلماء الوافدون ببجاية ، وبثوا بها علومهم وفنونهم بين طوائف زاخرة من الطلاب ، وفدوا الى بجاية من مختلف الحواضر الافريقية والمغربية . وقامت فى بجاية تلك المدرسة الاندلسية الزاهرة التى لبثت حتى اواخر القرن السابع الهجرى ،مركز اشعاع عظيم للعلوم والآداب .

ولنذكر كذلك ، انه ، حتى قبل انهيار شرق الاندلس ، ونزوح علمائه وادبائه الى بجاية ، كانت بجاية دائما محط الانظار ، ومنزل علماء الاندلس الوافدين الى افريقية او الذاهبين الى المشرق لاداء فريضة الحج ، يدرسون على علمائها ، أو يقرئون الطلاب الوافدين عليها . ولنضرب

لذلك مثلا بارزا بولى المغرب الكبير ، ابى مدين شعيب بن الحسين الانصارى الاندلسى ، أعظم علماء الدين والحديث فى عصره فقد وفد من الاندلس الى المغرب ، وتجول فى سبتة ومراكش وفاس يدرس على شيوخها • ثم رحل الى المشرق ، وعاد بعد أداء فريضة الحج ، فنزل فى بجاية يسبقه صيته فى العلم والورع والزهد ، فهرعت اليه الطلاب من كل صوب ، وذاعت شهرته فى كل مكان ، وقصده الناس بالاخص للتبرك بورعه وكراماته ، وكان من صيت ابى مدين ، وذيوع علمه ونفوذه بين الكافة ، أن وشى به بعض شيوخ الموحدين عند الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وحذروه من نفوذ الرجل ، وتاثيره الروحى الواسع المدى • فاهتم المنصور بالامر أيما اهتمام ، وبعث الى والى بجاية فى استقدام ابى مدين اليه ليختبره ، بنفسه ، وأوصى بالاعتناء بشانه ، وأن يعامل خلال رحلته بمنتهى الرفق والرعاية ، فلما علم بذلك أصحاب ابى مدين وتلاميذه شق عليهم ، وأبدوا اعتراضاتهم ، فهدأهم أبو مدين ، وقال لهم انه شيخ كبير ، وانه مريض يشعر بدنو أجله ، وأن الله بعث اليه من يحمله برفق ويسوقه أحسن سوق وأنه لن يرى السلطان ولن يراه • ثم ساروا به حتى وصلوا الى احواز تلمسان • فلما وصل الى وادى يسر القريب ، اشتد به المرض ، وتوفى فى اواخر سنة 594 هـ • فحمله أصحابه الى رابطة العباد ، ودفن بها ، وما زال مزاره هنالك مقصد الزوار من سائر الانحاء •

وقد لبثت بجاية تقوم بعد ذلك بدورها التالد السياسى والعلمى• وقد كان للمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، خلال مختلف ادوار حياته بافريقية صلة وثيقة بمثلث الحواضر الثلاث ، قسنطينة ، وبسكرة ، وبجاية • ففى قلعة سلامة ، من أعمال توجين ، الواقعة بين بسكرة وقسنطينة ، عاش ابن خلدون مدى اربعة اعوام فى عزلة وهدوء ، بعد ان عاف حياة السياسة وفر من أحداثها • وهنالك كتب مقدمته الخالدة ، ومعظم أجزاء تاريخه العظيم ، وقد كانت تربطه بقسنطينة روابط عائلية ، اذ كان أخوال زوجته من قسنطينة ، وهو يقول لنا ، انه حينما اعتزم الرحلة الى الاندلس ، فى سنة 762 هـ ، على أثر خلافه مع الوزير عمر بن عبد الله ، المتغلب على عرش المغرب واستقالته من وظائفه فى بلاط فاس ، بعث بزوجه وأولاده الى أخوالهم بقسنطينة • وانه لما استقر بغرناطه ، وغمره سلطان الاندلس ، محمد الغنى بالله بثقته وعطفه ، واقطاعاته ، استاذن السلطان فى استقدام اسرته من قسنطينة ، فبعث السلطان فى استقدامها ، وعاشت معه حينا فى رغد وطمانينة • واما عن بسكرة فان السلطان ابا العباس ، سلطان قسنطينة وبجاية ، حينما سخط على ابن خلدون ، وكان ابن خلدون من بين وزرائه فر منه الى بسكره ، وقد كان له بها كما سيجىء عهد سابق ، فقبض ابو العباس على أخيه الاصغر يحيى ، واعتقله ببونه ، وفتش بيوتهم وصادر أموالهم ، وكان ذلك سنة 766 هـ •

هذا ، واما عن بجاية ثالثة حواضر هذا المسث التاريخى ، فقد كان لابــن خلدون فى بعض احداثها دور هام ، وينقسم هذا الدور الى مرحلتين ، تمت الاولى منهما فى سنة 753 هـ (1352 م) وقت أن كان ابن خلدون فتى لا يجاوز الحادية والعشرين من عمره ، يخطو خطواته الاولى فى ميدان الحياة العامة · ويجدر بنا قبل ان نقص تلك الاحداث التى خاض ابن خلدون غمارها فى بجاية ، أن نشير بايجاز الى ما كانت عليه أحوال الدول المغربية ، فى تلك الفترة ، أعنى فى منتصف القرن الثامن الهجرى · فقد كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لا تنقطع ، والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والاسر · وكانت تقوم امارات صغيرة متعاقبة فى القواعد والثغور الوسطى · مثل بجاية وقسنطينة وبونة فى الناحية الشرقية ، وتلمسان فى الناحية الغربية ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها · وكان انحلال الدولة الحفصية وتفككها ، هو المسئول عن احداث الناحيـــة الشرقية · وأما تلمسان ، فقد لبثت حينا مســرح الكفاح بين امرائها الاصليين من بنى يغمراسن او بنى عبد الواد ، وبين دولة بنى مرين القوية التى كانت تسير الى تلمسان حملاتها المتوالية · وهكذا كانت عروش المغرب كلها ، تهتز فى يد القدر ، وكانت قصوره مهبط الاطماع والمنافسات ، ومكمن الدسائس والمكايد ، ومطمح انظار المتغلبين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك · وكانت العروش والامارات دائمـــة التقلب والتداول ، والحروب والمعارك الاهلية دائمة الضـــرام بين مختلف الاسر أو فروع الاسرة الواحدة ، ومع ذلك فقد كانت هذه القصـــور المضطربة تسطع فى فترات السلم القليلة ، وتتنافس فى البهاء والبذخ ، وتجتذب اليها رجال التفكير والادب · وكان بنو حفص ، وبنو مرين ، بالاخص ملاذ العلماء والادباء ، يلتفون حولهم ، ويستظلون برعايتهم ، ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة · ونلاحظ فى تاريخ المغرب فى هذه الحقبة ، أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر ، وتتنقل ، طبقا لأحوال الدول وتقلباتها وانها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل وانها لا تكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع الى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال · وكما أن الحركة الفكرية ، كانت يومئذ فى المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل ، فكذا كانت دائمة التـردد بين المغرب والاندلس · وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الاندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وادبائها ، خصوصا عقب الانهيار الذى ترتب عليه سقوط معظم القواعد الاندلسية التالدة ، فى الشرق والغرب · ولذا نرى كثيرا من علماء الاندلس وادبائها ينزحون الى المغـرب باعتباره أوسع آفاقا ، وأوفى طمانينة ، وأيسر رزقا · وقد كان لبجاية ، حسبما قدمنا من هذه الهجرة العلمية الاندلسية أوفر نصيب ·

فى معترك هذه الظروف والاحوال بدأ ابن خلدون حياته العامــة · وكان بنو خلدون ، ينعمون برعاية الدولة الحفصية ، ويتداولون فى ظلها مراتب الجاه والنفوذ · وكان ابن خلدون يتطلع منذ

البداية الى اجتناء تراث اسرته ، وسنحت له أول فرصـــة للنزول الى ميدان الحياة العامة حينما استدعاه أبو محمد بن تافراكين ، المتغلب على الدولة لكتابة العلامة عن محجوره السلطان الفتى أبى اسحق ، وكتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسم الملكية· وكان المؤرخ يومئذ حدثا دون العشرين ·

على ان ابن خلدون لم يكن مع ذلك راضيا عن منصبه المتواضع · وكان ينظر الى ضـــعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والجزع · وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين ، وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطانهم · ولـما غادر السلطان أبو الحســـن المرينى تونس الى المغرب الاقصى ، غادرها فى ركابه معظم المفكرين والادباء من شيوخ ابن خلدون واقرانه ، ايثارا للعيش فى ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحا الى اجتناء الجاه والرزق ، بعد ان نفقت سوقهما فى تونس · وكانت مثل هذه الامنية تجيش بنفس المؤرخ · فلما استدعى لكتابة العلامة ، أخذ يترقب الفرص للنزوح الى المغرب الاقصى ، ليبحث وراء طالعه ليعمل على تحقيق أطماعه حيثما يلوح أفق المغامرة أوسع وأجدى ·

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة· ففى اوائل سنة 753 هـ زحف أمير قسنطينة ابو زيد ، حفيد السلطان أبى يحيى فى قواته على تونس يريد الاستيلاء عليها ، واسترداد تراث اسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين · فســار ابن تافراكين فى جنده الى لقائه · وصحبه ابن خلدون فى ركبه · ووقعت بين الفريقين عدة معارك كانت الدائـرة فيها على جند تونس وعندئذ انسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجيا بنفسه ، واقام حينا فى أبة عند بعض الشيوخ المرابطين ، ثم قصد الى تبسة ، ثم ارتد الى قفصة حيث التقى ببعض فقهاء تونس ، وكان يحاصرها عندئذ امير قسنطينة ، ومن هنالك سار معهم الى بسكرة ، وقضى بها فصل الشتاء ·

*

* * *

وفى ذلك الحين كان السلطان الكبير أبو الحسن المرينى ، ملك المغرب الاقصى ، قد توفى فى شهر ربيع الثانى سنة 752 ، على أثر خروج ولده السلطان أبى عنان عليه ، واستيلائه على فاس حاضرة الملك · وكان أبو عنان اميرا وافر البأس والعزم ، فما كاد يستقر على العرش ، حتى أخذ يهيىء العدة لافتتاح المغرب الاوسط واستعادة تلمسان ، التى افتتحها أبـــوه من يد بنى عبد الواد ، ثم استعادوها لاعوام قلائل · فزحف عليها فى اوائل سنة 753 هـ واستولى عليها ، ثـم استولى على بجاية بدخول صاحبها السلطان ابى عبد الله محمد فى طاعته · وكان ابن خلدون يومئذ فى بسكرة كما قدمنا ، فسعى الى لقاء السلطان ابىعنان اثناء مقامهبتلمسان ويقوللنا المؤرخ

ان السلطان اكرمه بما لم يكن يحتسب ، ورده مع حاجبه ابن أبى عمرو الى بجاية ، حيث شـهد مراسم البيعة والتسليم · فلما عاد الحاجب الى السلطان ، وهرعت معه الوفود الى ركابه ، سار ابن خلدون معهم ، وحظى بلقاء السلطان مرة أخرى · ثم ارتد السلطان الى فـاس عاصمة ملكه · وارتد ابن خلدون مع ابن ابى عمرو الى بجاية واقام هنالك تحت كنفه حتى أواخر سـنة 754 هـ (1353 م) ·

تلك هى المرحلة الاولى من اتصال ابن خلدون باحداث بجاية · وكان قد تعرف خلال هذه الفترة بسلطانها المخلوع ابى عبد الله محمد بن السلطان أبى يحيى اللحيانى · وكان السلطان ابو يحيى حينما تغلب على تونس ، واستقر على عرشها ، قد اقطع الثغور لاولاده ، فتولى امارة بجاية ابنه الامير ابو زكريا ، ولبث فى حكمها حتى وفاته سنة 746 هـ · وخلفه فى حكمها ولده الاكبر الامير ابو عبد الله محمد · ولما زحف السلطان أبو الحسن المرينى على افريقية لافتتاحها ، خلـع الامير محمدا فيمن خلع من امراء الثغور · ونفاه الى المغرب · ولما ثار السلطان ابو عنان عـلى ابيه اثناء غيبته فى حملة افريقية ، رد الامراء المخلوعين ، ومنهم الامير محمد الى ثغورهم ، لكي يعترضوا أباه عند العودة · فاستقر محمد حينا آخر فى حكم بجاية · ولما توفى السلطان ابـو الحسن ، وتم الامر لابى عنان ، عاد فانتزع بجاية من صاحبها وأرغمه على النزول عنها ، ونفاه الى المغرب مرة أخـرى ·

وفى تلك الاثناء كان ابن خلدون يسعى الى الالتحاق ببطانة السلطان أبى عنـان ، حتى ظفر ببغيته · ويقول لنا ابن خلدون ، ان السلطان هو الذى استدعاه ، بعد ان جرى ذكره أمامه فى مجلس عقد لاختيار طلبة العلم ، فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضوا فى مجلسه العلمى ، وكلفه بشهود الصلوات معه ، وما زال يحبوه بعطفه ، حتى عينه ضمن كتابه وموقعيه · على ان ابن خلدون ، يقول لنا انه قبل هذا المنصـب على كره منه ، لانه ليس من المناصب التى شغلها اسلافه ، أو بعبارة اخرى كان دونها اهمية ومقاما · و فى ذلك بما يدل على ما كان يجيش به المؤرخ رغم حداثته من الاطماع الكبيرة على انه استطاع اثناء مقامه بفاس أن يستانف الدرس والقراءة على جماعة من اكابر العلماء الوافدين عليها من الاندلس ، وباقى اقطار المغرب وكانت فرصة طيبة ، استعاد فيها ونمت معارفه نموا كبيرا ·

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية بارزة فى تاريخ الدول المغربية فى هذا العصر ، تاخذ بقسط ملحوظ فى تطورات هذه الدول وتقلباتها · وكان ابن خلدون لا يزال عندئذ فتى فى نحو الثانية والعشرين من عمره ·· ولكن ذكاءه وقـوة نفسه وعزمه ، ووفرة اطماعه واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائما الى طلب المـزيد من الجاه والـرزق · وكانت أحـوال الدول

والقصور المغربية فى ذلك العصر ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم ٠ وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان ابى عنان ، وهو يومئذ اعظـــم سلاطين المغرب ، وانتظامه فى سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مفتح افقه ، وبدء ذلك النشاط الزاخر الذى لبث مدى ثلث قرن يحمله بين دولة ودولة ، وبين قصر وقصر ، وبين الرفعة والسقوط ، والنعم والمحن ، مرارا وتكرارا ٠

بيد انه كان من سوء الطالع أن يبدأ ابن خلدون نشاطه السياسى بمحاولة خطرة ٠ وبالرغم من أن سيده وحاميه السلطان ابا عنان ، لم يدخر باعترافه وسعا فى اكرامه ورعايته ، وبالرغم من أنه ولاه ، على حداثته منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه فانه لم يحجم عن التآمر عليه مع الامير ابى عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ معتقلا فى فاس ، ويروى لنا ابن خلدون فى « التعريف » قصة هذه المؤامرة فى عبارات غامضة ، ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بجاية المعتقل من التفاهم او « المداخلة » وفقا لتعبيره ، وانه خرج فى ذلك التفاهم عن حدود التحفظ ٠ ولكنه يعتذر لنا بانه حمل على ذلك ، بما كان بين اسرته ، وبين بنى حفص الذين ينتمى اليهم الامير المخلوع من الود القديم ٠

وكان السلطان ابو عنان يومئذ مريضا ، فنمى اليه خبر المؤامرة ، وان ابن خلدون يعمـــل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه حجابته ،متى تم له الامر ٠ ويصور لنا ابـــن خلدون هذا الحادث فى عباراته على النحو الاتى :

« ولما قدمت على السلطان أبى عنان سنة خمس وخمسين ، واستخلصنى منه ، نبضت عروق السابق بين سلفى وسلف الامير ابى عبد الله واستدعانى لصحابتــه ، فاسرعت ٠ وكان السلطان ابو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك ٠ ثم كثر المنافسون ، ورفعوا الى السلطان ، وقد طرقه مرض ارجف له الناس ، فرفعوا له ان الامير ابا عبد الله ، اعتزم على الفرار الى بجاية وانى عاقدته على ذلك ، على ان يولينى حجابته » ٠

وكانت النتيجة أمر السلطان أبو عنان بالقبض على ابن خلدون والقاه فى غيابة السجن ٠ ومع انه اطلق أمير بجاية فيما بعد ، فانه ابقى المـــؤرخ على اعتقاله ٠ ونزلت بابن خلدون تلك المحنة ، التى ينسبها الى سعاية خصومه فى اوائل سنة 758 هـ (1357 م) ٠

وقضى ابن خلدون فى ظلام السجن زهاء عامين طويلين ، وتضرع الى السلطان ابـــى عنان مرارا ان يطلقه ٠ ولكن السلطان أعرض فى شانه عن كل تضرع وشفاعة ٠ واخيرا رفع المؤرخ اليه قصيدة طويلة فى نحو مائتى بيت ، يلتمس فيها عطفه وصفحه ٠ ومما جاء فيها :

على اى حـــال لليالى اعاتـــب وای صـــروف للـــزمان اغالـــب
كفى حزنا انى على القـرب نازح وانى على دعـــوى شهودى غالب
وانى على حكـــم الحوادث نـــازل تسالمنى طـــورا وطـورا تحارب

ويقول لنا ابن خلدون ان قصيدته وقعت من السلطان احسن موقع · وكان ابو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالافراج عنه · ولكن المرض اشتد به ، وتوفى قبل تحقيق هذا الوعد فى ذى الحجـة سنة 759 هـ (اواخر سنة 1358 م) ·

فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بامر الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الاخرين ورده الى سابـق وظائفه واغدق عليه عطفه ورعايته ·

*
* * *

لسنا فى حاجة لان نتتبع حياة ابن خلدون فى بلاط فاس ، وما وقـــع خلال ذلك من احداث وتقلبات فى مصاير الملك ونكتفى بالقول بان ابـن خلدون لبث فى بلاط فاس ، يشهد الحوادث خلال حكم السلطان أبى سالم الذى غلب على العرش (سنة 760 هـ) ، وما وقـــع من مصرعه بعد ذلك بعامين ، ثم تغلب الوزير عمر بن عبد الله عـلى الدولة ، وما وقع بينه وبين ابن خلدون مـــن خلاف ، بسبب عدم تحقيقه لآمال المؤرخ ، فى الظفر بوظائف الدولة العليا ، واضطرار المؤرخ أن يغادر فاس ، وأن يعتزم الرحلة الى الاندلس ، بعد ان حظر عليه الوزير ان يسافر فى اتجاه الشرق الى تونس ، خوفا من مشاريعه الخطرة ضده ·

وعبر ابن خلدون البحر فعلا الى الاندلس فى اوائل سنة 764 هـ · ولسنا بحاجة ايضا ، لان نتتبع حياة ابن خلدون فى بلاط غرناطة · وانما نكتفى بالقول بانه لقى من سلطان غرناطة السلطان محمد الغنى بالله ووزيره ابن الخطيب كل ترحاب ورعاية ، واغدق عليه السلطان عطفه وصلاته ، وأوفده سفيرا عنه الى مـلك قشتاله فادى سفارته بنجاح · ثم تطورت الاحوال بعد ذلك ، وشعر ابن خلدون بتغيير السلطان نحوه ، وشعر فى نفس الوقت بأن ذلك يرجع الى سعى الوزير ابـــن الخطيب فى حقه ، فقرر مغادرة الاندلس · ووصلته فى نفس الوقت رسالة من صديقه الامير أبى عبد الله محمد امير بجاية ، بانه استرد ملكه وانه يرغب فى قدومه لكي يوليـــه حجابته ، وفقا لعهوده · وكان قد كتب للمؤرخ بذلك عهدا بخطه · واستاذن ابن خلدون السلطان فى السفر فاذن له وزوده بصلاته ، وشيعه معززا مكرما ، فغادر الاندلس وركب البحر من المرية الى بجاية ، وكان ذلك فى منتصف سنة 766 هـ) 1364 م) ·

وكان الامير ابو عبد الله محمد ، قد سار عقب اطلاق سراحه من معتقل فاس الى بجاية ، وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه (سنة 765 هـ) واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الاصغر وبعث الى ابن خلدون يستدعيه لتولى حجابته ، وفاء منه بعهده ، فاستجاب المؤرخ لدعوته حسبما قدمنا ، ووصل الى بجاية فى منتصف سنة ست وستين · فاستقبله الامير محمد ، وأهل المدينة اجمل استقبال · ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه فى تلك العبارة الرنانة ! « فاحتفل السلطان بقدومى » وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى ويقبلون يدى · وكان يوما مشهودا » ·

وتولى ابن خلدون فى الحال منصب الحجابة لسلطان بجاية ، وقد كانت الحجابة يومئذ فى الدول المغربية حسب تعريفه هى « الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وأهل مملكته ، لا يشاركه فى ذلك أحد » ·

واستبد ابن خلدون بشئون الدولة ، ومضى يدبر الامور بعزم ، ويعالج الفتن القائمة بحزم وذكاء ، ويتجول بين القبائل الجبلية ، يستخلص منها الجباية قسرا بقوة دهائه ونفوذه · ولكن الخصومة ما لبثت ان نشبت بين أمير بجاية ، وبين ابن عمه السلطان ابى العباس صاحب قسنطينة · وكان أبو العباس يتطلع الى امتلاك بجاية ، ويثير على أميرها القبائل والبطون المجاورة · ويقول لنا ابن خلدون أيضا ان الامير محمدا لم يحسن السيرة فى أهل بجاية ، بل كان يرهقهم ، ويشدد الوطأة عليهم ، حتى انحرفوا عنه ، واعتزموا الخروج عن طاعته ، استجابة لتحريض أبى العباس · وفى سنة سبع وستين ، قصد ابو العباس فى جموعه الى بجاية ، والتقى فى ظاهرها بالامير محمد وجموعه وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافرا · وكان ابن خلدون اثناء ذلك يلزم القصر داخل المدينة ، فلما كانت الدائرة على محمد ، خاطبه بعض الزعماء فى تولى الامر ، والدعوة لاحد ابناء السلطان القتيل ، فابى وخرج كعادته الى تحية الظافر ، والانضواء تحت لوائه · وسلم ابن خلدون المدينة الى أبى العباس ، فاكرمه وأقره حينا فى وظيفته · ولكن ابن خلدون ما لبث ان شعر بانحرافه وتغيره ، فانصرف باذنه الى أحد الاحياء القريبة · ثم رأى ابو العباس بعد حين ، ان يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة · فقبض ابو العباس على أخيه الاصغر يحيى ، واعتقله ببونة ، وفتش بيوتهم ، وصادر اموالهم ·

وهكذا اختتمت تلك المغامرة المثيرة التى كان ابن خلدون نفسه مدبرها منذ البداية ، أيام أن كان معتقلا بسجن فاس ، الى جانب صديقه الامير القتيل محمد · وهكذا كانت المرحلة الثانية من صلة ابن خلدون بأحداث بجاية · وقد كانت المغامرة كلها من نفثات أطماعه ، وكانت كسابقتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الاثرة ونكران الصنيعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان

انتهازها ينافى الوفــاء والولاء والعرفان · كان ابن خلدون حسبما تدل تصرفاته ومراحل حياته المتعاقبة ، ينطلق فى خططه واعماله عن احتقار عميق ، للعاطفة والاخلاق المرعية · ويحاول ابــن خلدون ان يعرب لنا عن ندمه واسفه لتطور الحوادث على هذا النحو المؤلم ، فيقول لنا فى مكان آخر فى حديثه عن امير بجاية التعس : « فلما استدعانى هذا الامــير ابو عبد اللــه بادرت الى امتثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيــب لاستكثرت مــن الخير » · ولكن الذى لا ريب فيه ، هو ان ابن خلدون كان يجوز فى حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتنـــاء ثمرة فرصة ترقبها وهياها منذ بعيد · ولا ريب ان مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا ان الظافر قد أنكـــره غير بعيد ، وأدرك بذلك خسران صفقته ·

ولم تكن هذه آخر صلة لابن خلدون بأحداث بجاية · ذلك ان سلطان تلمسان ، الامير أبا حمو موسى بن يوسف ، وقد كان صهرا لامير بجاية المقتول ، متزوجا بابنته ، اعتزم ان يحاول الزحف على بجاية وانتزاعها من يد ابى العباس ، ولكنه بالرغـم من كثرة حشــوده · اخفــق فى محاولته ، فاستدعى اليه ابن خلدون ، وأصدر اليه مرسوما يتولى حجابته ، وطلب اليه ان يعمل لاصطناع اهل بجاية ، بما كان له بينهم من نفوذ ، واستمالتهم الى جانبه ، فقام ابن خلدون بتلــك المهمة واستطاع بسعيه ، وبراعة وسائله ، ان يؤلبهم على السلطان ابى العباس ، وان يحملهــم على الاستجابة الى دعوة سلطان تلمسان · ولكن ابن خلدون لم يستجب مع ذلك الى السلطان أبى حمو فى تولى حجابته ، وبعث اليه أخاه يحيى ، وكان قــد تخلص من الاعتقال ، ليقوم مكانه · ويقول لنا ابن خلدون ، ان نفسه كانت قد سئمت يومئذ مخاطر المغامرة ، وأهوال الوظيفة ، وزهدت فى غواية الرتب واشتاقت الى الدرس ، بعد أن هجرتــه طويلا ، فعــول على استئناف الدرس والقراءة ، والاعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية · بيد انها لم تكن ســوى توبة مؤقتة ، ولم يلبث تيار الحوادث أن حمله على خوض هذه الغمار مرة أخرى ·

بقية مصادر البحث :

9) الزركلي – الاعلام ، القاهرة 1954 – 1959

10) شكيب أرسلان – الحلل السندسية الجزء الثالث ، القاهرة 1939

11) الغبريني – عنوان الدراية تحقيق الاستاذ رابح بونار الجزائر 1970

12) الغبريني – عنوان الدراية تحقيق الاستاذ عادل نويهض بيروت 1969

13) – د · محمد مصطفى – ابن الفارض والحب الالهي ، القاهرة 1971

14) Larousse du XX[e] siècle, Paris 1952.

15) Léon Gauthier : La Pensée Musulmane à travers les âges. Alger, 1957.

16) MUHYI-D-DIN IBN 'ARABI : « La Sagesse des Prophètes », (FUÇUÇ AL-HIKAM) traduction et notes par TITUS BURCKHARDT Ed. Albin Michel, Paris, 1955.

17) Dr SOUHEIL Idriss et Dr JABBOUR Abdel-Nour Al-Manhal, Beyrouth, 1970.



ابن خـــلدون في بجـــاية

عبد الحميد حاجيات
كلية الآداب
جامعة الجزائر

يمكن تقسيم حياة عبد الرحمن بن خلدون الى ثلاث مراحل ، لكـــل منها ميزة خاصة ٠ فالاولى (732 ـ 753 هـ) مرحلة النشـــاة والتكوين ، قضاها فى مسقط رأسه ، تونس والثانية (753 ـ 784 هـ) مرحلة التجول عبر اقطار المغرب الاسلامى ، أما الثالثة (784 ـ 808 هـ) فكانت مرحلة الاستقرار بالمشرق العربى ، فى آخر حياته (1) ٠

ولا ريب أن أخصب هذه المراحل ، بالنسبة لتبلور نظريته حــــول العمران البشرى ، هى الثانية ٠ وذلك أن تنقل ابن خلدون فى مختلف انحاء المغرب ، مكنه من التطلع على اختلاف احوال المعيشة والعمران ، حسب المجتمعات والظروف الطبيعية والاقتصادية ، وغير ذلك ٠

ومن بين مناطق المغرب التى تجول فيها ابن خلدون ، ولاية بجاية ٠ والغرض من حديثنا هذا محاولة تسليط بعض الاضواء على الفترة التى قضاها فى بجاية ، والتطلع على الدور الذى قام به فى تاريخها السياسى ، ثم على ما اكتســب فيها من تجربة فى مجال دراســة المجتمع الانسانى وتطـــوره ٠

* * * *

كانت ولاية بجاية تمثل ، فى مطلع القرن الثامن الهجرى ، القسم الغربى من امارة افريقية ، الخاضعة آنذاك لحكم الدولة الحفصية وكان قد ضعف شأن الحفصيين منذ وفاة المستنصر (675) ،

1) انظر ابراهيم مدكور ، ابن خلدون (مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، 1962) ، ص 568 ٠

نتيجة الاضطرابات السياسية وتهافت الامراء الحفصيين على الحكم ، وما ادى اليه ذلك من حروب أهلية وتخريب وفوضى وقد بلغ الضعف بالملوك الحفصيين ، فى فترات عديدة ، الى حد أن نفوذهم أصبح لا يتجاوز عاصمتهم تونس وبعض المدن التابعة لها · أما نواحى قسنطينة وعنابة وبجاية ، وأراضى الجنوب كلها فكانت تحت سلطة غيرهم من الامراء ورؤساء القبائل ·

فكانت بجاية والنواحى التابعة لها تكون امارة مستقلة ، يحكمها فى أغلب الاحيان أحد الامراء الحفصيين · وكان نفس الوضع سائدا فى قسنطينة ، مماجعل بلاد المغرب تعيش آنذاك فى جــو سياسى يشبه شيئا ما عصر ملوك الطوائف فى الاندلس · واذا كان لهذا التشتت نتائــج وخيمة فى المجال السياسى ، فلا شك أنه ساهم فى ازدهار الحياة الفكرية والادبية ، بما ادى اليه مــن تنافس بين بلاطات الامراء ، فى هذا الميدان ·

وقد سجل التاريخ بعض المحاولات لتوحيد بلاد المغرب وجمع شتا تها تحت سلطة سياسيــة واحدة ، الا أنها باءت بالفشل ، فمن بينها حركة السلطان أبى الحسن المرينى ، الذى استولى على بجاية ، ثم على تونس وسائر مدن افريقية ، سنــة 748 هـ ، فبسط النفوذ المرينى على تلك الاقطار لاول مرة ، وحقق توحيد أجزاء المغرب لمدة وجيزة ، لم تتجاوز سنتين · وذلك انــه لم يوفق فى اخضاع قبائل العرب المتمركزة فى جنوب افريقية ، فمنى بهزيمة شنعاء قرب القيروان ، فى محرم 749 هـ ، ثم لم يجد بدا من مغادرة افريقية بحرا فى شــوال 750 هـ ·

والجدير بالملاحظة أن زحف أبى الحسن المرينى هذا ، كان له أثر هام جدا فى تكوين ابــن خلدون ، وفى حياته السياسية والعلمية ، واتجاهه الفكرى · وذلك أن عددا كبيرا من العلمــــاء والادباء الجلة قدموا مع السلطان أبى الحسن الى تونس ، وأخذوا يبثون العلم فيها ، وكان ابن خلدون من بين الطلبة الذين انتفعوا بتعليمهم انتفاعا كبيرا وتأثروا بآرائهم تأثرا بالغا ، كان لــه نتيجة محمودة فى النهوض بالحياة الفكرية فى افريقية وتوجيه طلبـــة العلم بها نحو التجديد والابــداع ·

ولا يمكن ، فى حديثنا هذا ، أن نتطرق الى موضوع تكوين عبد الرحمن بن خلدون ، ومدى تأثره بعلماء البلاط المرينى ، مثل الآبلى ، والسطى ، وعبد المهيمن الحضرمى ، وأبى عبد اللـه بن الصباغ ، وأبى عبد الله بن عبد النور ، وأبى القاسم بن رضوان ، وأبى العباس بن شعيب ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » (2) ·

2) انظر : عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابـن خلدون ، تحقيق ابن تاويــت الطنجى ، ص 19 ــ 23 ، و 31 ــ 49 ·

ويكفينا ان نشير الى التاثير العميق الذى تركه هؤلاء العلماء فى نفس صاحبنا ، ومـا أدى اليه ذلك من رغبة ملحة فى اللحاق بهم بعد أن عادوا الى المغرب الاقصى ، لينهل من ينابيع علمهم ، وكذلك ليحقق ما كان يصبو اليه من مطامح وآمـــال ٠

ولم يتمكن ابن خلدون من تحقيق هذه الرغبة الا فى سنة 755 هـ ، حيث التحـــق بالبلاط المرينى ، فى عاصمة المغرب الاقصى آنذاك ٠ وكان الذهاب الى فاس يتطلب المرور ببجاية والاقامة بها برهة من الزمان ، فكانت هذه الدوافع أول فرصـــة سنحت لمؤرخنا الشهير للتطلع على مدينة بجاية والتعـرف عليها ٠

اما الظروف التى مهدت له مغادرة تونـــس والتوجه الى بجاية ، فقد أشــــار اليها فى « التعريف » ، وذكر انه كان قد عين قبل ذلك بقليل فى منصب كتابة العلامة للسلطان الحفصى أبى اسحاق ، باستدعاء من الحاجب أبى محمد بن تافراكين ٠

وكانت الاحوال السياسية بافريقية تجتاز آنذاك ازمة خطيرة ، حيث كان العرش الحفصى مهددا من جراء ثورة أمير قسنطينة ، أبى زيد بن محمد ابن السلطان ابى يحيى الحفصى ، الذى حشد العساكر وقصد بها الى تونس ٠ فنهض الحاجب ابن تافراكين والسلطان أبو اســـحاق لمدافعته ، وصحبهما عبد الرحمن بن خلدون ، وكان اللقاء بين الفريقين فى فحص مرماجنة ، أول سنة 753 هـ ، فانهزم الحاجب ابن تافراكين ومن معه ، وتفرق شملهم ٠

اما ابن خلدون فلنه لم يرد البقاء فى خدمة الحاجب المفلول ، وانتهز فرصة بعده عـــن تونس للتوجه نحو الجنوب الغربى من بلاد افريقية ، فنزل تبسة اياما ، ثم انتقل الى قفصــــة حيث استقر مدة ، ليترقب سير الحوادث ٠ وهناك قدم محمد بن منصور بن مزنى بأخبار هامة ، مفادها ان الامير ابا زيد كان قد حاصر تونس ، ولكنه اضطر الى رفع الحصار لظهور خطـــر بنى مرين من الناحية الغربية ، فاقلع عن تونس ، راجعا الى قسنطينة عن طريق الجنوب ٠

وكان أبو عنان المرينى قد أرسل جيشا جرارا الى المغرب الاوسط فاستولى على تلمسان ، فى أواسط 753 هـ ، ثم توغل نحو الشرق الى ناحية بجايـــة ٠ ولم يقو اميرها أبو عبد الله محمد الحفصى على مدافعة المرينيين ، فسلم بجاية لابى عنـــان ٠

فكان من شان هذه الانباء ان اعادت الى ذهن ابن خلدون ذكرى أشياخه الذين عادوا الى المغرب الاقصى ، فصمم على الالتحاق بالبلاط المرينى ، راجيا أن ينال فيه ما كان يصبو اليه مـــن مواصلة الدرس ، والدخول فى سلك رجال العلم ، والحصول على وظيف سام فى البلاط ٠

وكان محمد بن منصور بن مزنى متوجها الى بسكرة ، بقصد الالتحاق بأخيه يوسف ، سيد تلك الناحية • فرافقه ابن خلدون اليها • وكانت بين بنى آل خلدون وبنى مزنى صداقة قديمة ، يرجع عهدها الى جد ابن خلدون •

فاقام ببسكرة بعض الاشهر ، ينتظر أن يحين أوان متابعة سيره نحو المغرب الاقصى • وفى أول سنة 754 هـ ، قصد تلمسان حيث كان السلطان أبو عنان ، ولما بلغ مدينة البطحاء (3) ، لقى الحاجب المرينى أبا عبد الله محمد بن أبى عمرو ، على رأس جيش قوى ، وكان هذا الاخير متوجها الى بجاية لتعزيز النفوذ المرينى بها ، وقطع دابر العناصر المناهضة للسلطة المرينية •

ولم يترك ابن خلدون فرصة الاتصال بشخصية سامية مثل الحاجب ابن أبى عمرو تذهب سدى ، فانضم الى جماعته ، وسار معهم الى بجاية •

الاقامة الاولى فى بجاية (754 – 755 هـ)

تلك هى الظروف التى أدت الى مسيرة ابن خلدون الى بجاية لاول مرة ، والى تعرفه على تلك المدينة التى كانت آنذاك من أعظم أمصار المغرب الاسلامى ، بما امتازت به من ازدهار اقتصادى وفنى وعلمى •

وكانت بجاية من أهم القواعد السياسية فى المغرب ، اذ كانت تشكل بالنسبة لبنى مرين مرحلة حاسمة فى طريق افتتاح بلاد افريقية ، واحتلال تونس • فكان تحقيق مطامح المرينيين ، فى فرض سلطتهم على سائر اقطار المغرب ، يتوقف على تدعيم نفوذهم فى ولاية بجاية ، والقضاء على ما كان فيها من العناصر المعادية •

وفعلا ، فان الاوضاع السياسية فى بجاية لم تكن حسنة آنذاك ، بل كانت الاحوال بها فى غاية الاضطراب والتأزم • وذلك أن الحزب الموالى للحفصيين كان قد أعلن الثورة ضد بنى مرين فى ذى الحجة 753 هـ ، وكان يضم عناصر من قبيلة صنهاجة ، الذين التفوا حول فارح ، حاجب الامير أبى عبد الله الحفصى ، فوثبوا على العامل المرينى ، فى قصر الامارة ، وقتلوه (4) •

وكان المتآمرون يظنون أن الامر سيكون هينا بعد مقتل العامل ، ولكن سرعان ما وجدوا انفسهم فى مازق حرج • وذلك أنهم أعلنوا الطاعة لامير قسنطينة أبى زيد الحفصى ، الا أن هذا الاخير لم يحرك ساكنا وتثاقل عنهم • ولا شك أن موقفه هذا كان يعكس تخوفه من الخطر المرينى وعزمه على اجتناب كل حادث قد تجر غضب السلطان أبى عنان •

3) كانت البطحاء مدينة هامة ، آنذاك ، وكانت تقع على شاطىء نهر مينا ، قرب مدينة غيليزان

4) انظر : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 832 – 833 •

وعندئذ ضعف شان الحزب الحفصى الثائر ببجاية ، ولا سيما ان السالطان المرينى لـــم يتقاعد عن تلافى الموقف ، فامر باعتقال الامير ابى عبد الله محمد ألحفصى الذى كان قد أخـــذه معه الى تلمسان ، كما أمر باعتقال وفد من وجهاء بجايـــة ٠

ولم يدع شيوخ بجاية الامر يتفاقم ، اذ ادركوا ما ينجم حتما عن ذلك من اضرار واخطار ، من جراء بطش بنى مرين ، فاجمعوا رايهم على جعل حد لثورة فارح ورهطه ، قبل أن يرسل اليهم ابو عنان عساكره لقمع الثورة ٠

وسرعان ما نفذوا هذه الخطة ، ولقى فارح مصرعه ، فلجا من سانده فى ثورته الى الفرار فخلا الجو من جديد للنفوذ المرينى ، وبعث وجهاء بجاية بطاعتهم لابى عنان ، الذى بادر بارسال حاجبه ابن أبى عمرو الى بجاية ، مع جيش قوى ، لضبط شؤونها (5) ٠

اما لقاء ابن خلدون بالحاجب المرينى ، بالبطحاء ، فانه يمثـل اول اتصال باحد رجالات الدولة المرينية ، بعد مغادرته لتونس ٠ وقد تحدث فى « التعريف » عن حفاوة الحاجب واكرامه ، ونكر أن ابن أبى عمرو رده معه الى بجاية ٠

وهكذا كان نزول ابن خلدون مدينة بجاية لاول مرة تحت ظل السلطة المرينية ، وبرسم الرغبة فى خدمتها والعمل من أجل تدعيم نفوذها ٠

ومكث فىحاشية الحاجب المرينى حوالى سنة ، تمكن أثناءها من الاطلاع على الاوضــــاع السياسية فى ولاية بجاية وعلى الجهود التى كان يبذلها بنو مرين لتدعيم نفوذهم بها ٠ وبفضل ذلك اقبل الدواودة على الحاجب ، يعربون عن ولائهم للدولة المرينية واستعدادهم لنصرتها ، فنالوا من اكرامه واحسانه ما ارضاهم وزاد فى تعلقهم ، كما وفد عليه يوسف بن مزنى ، صاحب بسكرة فاجزل صلته وبالغ فى حفاوته ٠

والغرض من مصانعة المرينيين للدواودة واضح ، وذلك أن قبائل البدو القاطنة فى المناطـــق الجنوبية كانت تشكل قوة يحسب لها حسابها ، وكانت تساهم فى معظم المعارك التى كانت تدور رحاها فى شتى انحاء المغرب ، حتى أن مصير الملوك أصبح متوقفا على من يهـــب لنصرتهم من العـــرب البدو ٠

وكان عبد الرحمن بن خلدون لا يجهل ذلك ، وانصرافه الى ناحية الجنوب كان راجعا ، بالدرجة الاولى ، الى ادراكه لما كان يتمتع به العرب من نفوذ وسلطة مطلقة ، فى تلك البلاد ، ورغبته فى

5) عن الظروف التى ادت إلى تعيين ابن أبى عمرو للقيام بهذه المهمة ، انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 608 ــ 608 ٠

الابتعاد عن مناطق الفتن والحروب ، وانتظار تحسن الاوضاع السياسية فى بيئة تمتاز بالهدوء والطمانينة • ثم ان استعداده لسلوك السبيل الذى ســـار عليه الدواودة آنذاك فى مشايعة بنى مرين قد ادى الى تمكين عرى الصداقة بينه وبينهم

ولما توجه الحاجب ابن ابى عمرو الى تلمسان ، فى أول جمادى الاولى 754 هـ ، بعـد ان اعتقل جماعة ممن شاركوا فى ثورة فارح ، وسيرهـم الى المغرب الاقصى عن طريق البحر ، كان معه شيوخ الدواودة وبعض وجهاء بجاية ، صحبوه ليعربوا عن تعلقهم بالدولة المرينية ، وولائهم لابى عنان (6) • وكان عبد الرحمن بن خلدون من جملة الوافدين على السلطان المرينى ، وقد أشار الى الاستقبال الحسن الذى خصصه لهم هذا الاخير ، والى ما ناله منه من جائزة سنية ، ووعـــد بتجديد الاقطاعات التى كانت لآل خلدون بافريقية (7) • وكان الرجوع الى بجاية ، مع ابن أبـى عمرو ، فى فاتح شعبان من السنة المذكورة (8) •

وتمادت اقامة ابن خلدون ببجاية شهورا أخرى ، أتيحت له أثناءها الفرصة لحضور المجالس العلمية ، والدرس على علمائها ، وعقد أواصر الصداقة مع أدبائها ووجهائها ، ومع الوافدين عليها من أشياخ العرب الموالين لبنى مرين • فكانت هذه الاقامة أول تجربة أحرز عليها فى مجال دراسة المجتمعات الانسانية والتعرف على تطورها ، بعد مغادرته لمسقط رأســـه •

وابن خلدون من صنف أولئك الرجال الذين لا يكتفون بما يجدونه فى خـزائن الكتب وما يتلقونه من علماء مدينتهم ، بل يرون ضرورة الارتحـــال الى مختلف الاقطار المجاورة لبلدهم أو البعيدة عنه ، بغية التطلع على أحوالها السياسية والاجتماعية والثقافية• وانماء بضاعتهم العلمية والبحث عن وظيف سام يناسب مؤهلاتهم ومطامحهم •

ولذا ، فانه لم يرتض البقاء فى بجايـة أمدا طويلا ، رغم ما ناله فيها من نعمة واحسان ، بل آثر مغادرتها خلال سنة 755 هـ ، والتوجه الى فاس ، عاصمة الدولة المرينية ، وأهم مراكزها الثقافية • وانتهت بذلك اقامة ابن خلدون الاولى فى بجايـــة •

وكان السلطان أبو عنان قد انتقل قبل ذلك ، من تلمسان ، الى عاصمة دولته وقد جاء فى « التعريف » أن السلطان المرينى هو الذى كتب الى الحاجب ابن ابى عمرو يأمره بارسال ابـــن

6) انظر كتاب العبر ، ج 6 ، ص 833 ــ 834 ، و ج 7 ، ص 605 •

7) انظر الاستقصا للناصرى السلاوى ، ج 3 ، ص 168 ، التعريف بابـــن خلدون ، ص 58 ، العبر ، ج 7 ، ص 605 •

8) كذا فى «التعريف» ، ص 58 ، وجاء فى العبر ، ج 6 ، ص 834 ، انه دخل بجاية فى رجب ، وفى ج 7 ، ص 608 ، انه دخلها فى آخر شعبان •

خلدون ، وذلك بعد أن جرى ذكره فى مجلس السلطان ، وأشاد بقيمته العلماء الذين قدمـــوا الى تونس مع أبى الحسن المرينى وكانوا يترددون على منزل آل خلدون ٠

وكان يقيم بفاس أبو عبد الله الحفصى ، أمير بجاية سابقا ، نقله أبو عنان الى المغرب الاقصى بعد أن استولى على امارته ٠ فاتصل به ابن خلدون وكثر تردده عليه ٠

ولما مرض أبو عنان ، فى أواخر سنة 757 هـ ، وجهت التهمة للامير أبى عبد الله بأنه كان يعمل للفرار من فاس ، بقصد الالتحاق ببجاية واحياء امارته بها ، كما اتهم ابن خلدون بمواطأته على ذلك فالقى القبض عليهما فى صفر 758 هـ ، ومكث صاحبنا فى السجن مدة سنتين ، الى وفاة أبى عنان ٠ وكان خروجه من معتقله على يد الوزير الحسن بن عمر ، اثر ذلك بقليل ٠

ثم امتدت اقامة ابن خلدون بفاس الى سنة 754 هـ ، حيث غادرها متوجها الى الاندلس ٠ وليس هنا مجال ذكر أخباره خلال فترة اقامته بفاس ، التى دامت تسع سنوات كما لا يسمح هذا الحديث بالاشارة الى مقامه بالاندلس ، والتطلع على ما لقيه بها لدى أميرها ووزيره لسان الدين بن الخطيب من اكرام وتقدير ٠ والذى يهمنا هو ما حدث بعد ذلك من مغادرة ابن خلدون للاندلس وتوجهه مرة ثانية الى بجاية ، فى منتصف سنة 766 هـ ٠

*

* * *

الاقامة الثانية فى بجايــة (766 ـ 767 هـ)

كانت بجاية آنذاك قد عادت ، من جديد ، الى حكم الاسرة الحفصية ، وكانت تخضع لسلطة الامير أبى عبد الله محمد ، الذى تمكن من مغادرة المغـــرب الاقصى فى شعبان 761 هـ ، بموافقة السلطان أبى سالم المرينى ، وأتجه الى بلده ، الا أنه لم يتمكن من الاستيلاء ، على بجاية الا بعد أربع سنوات ، وبعد أن قام بمحاولات عديدة لاحتلالها ، باءت كلها بالفشـــل ٠

ولم يرافق عبد الرحمن بن خلدون صديقه الامير أبا عبد الله فى حركته هذه لاستعادة امارته وقد ذكر فى « التعريف » أنه اتفق مع الامير الحفصـــى على أن يعينه حاجبا له متى تمكـــن من الاستيلاء على بجاية ، واكتفى بارسال أخيه يحيى معه ، ليكون « حافظا للرسم » (9) ٠

وكان دخول الامير أبى عبد الله بجاية فى رمضان 765 هـ ، استلمها من عمه السلطان أبـــى اسحاق صلحا (10) ٠ فاستقدم عبد الرحمن بـــن خلدون ، وفاء بالاتفاق الذى تعاقدا عليه مـــن

(9) انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 97 ٠

(10) انظر : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 853 ـ 855 ٠

قبل · واستاذن ابن خلدون السلطان ابا عبد الله بن الاحمر فى مغادرة الاندلس ، فلم يسعفه الا بعد اشهــــر ·

وفى منتصف سنة 766 هـ ، ركب البحر من المرية ، وتوجه راسا الى بجاية ، فنزلها بعد سفر دام خمسة ايام · وقد وصف الاستقبال الحار الذى لقيه بها ، فقال :« فاحتفل السلطان صـاحب بجاية لقدومى ، واركب اهل دولته للقائى ، وتهافت اهل البلد على من كل اوب يمسحون اعطافى ، ويقبلون يدى ، وكان يوما مشهودا · ثم وصلت الى السلطان ، فحيا وفدى ، وخلع وحمل ، واصبحت من الغد وقد امر السلطان اهل الدولة بمباكرة بابى ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدى فى سياسة اموره وتدبير سلطانه ، وقدمنى للخطابة بجامع القصبة ، وانامع ذلك عاكف ، بعـــد انصرافى من تدبير الملك غدوة ، الى تدريس العلم اثناء النهار بجامع القصبة لا انفك عن ذلك » (II)

فهذا الاستقبال ، لا محالة ، يشهد على ما ناله عبد الرحمن بن خلدون ، فى بجاية ، من حظوة وجاه ، كما ان المهام التى اسندت اليه ، وهى الحجابة بقصر الامارة ، والخطابة والتدريس بجامع القصبة ، اصدق دليل على سمو منزلته وعلو شانــــه فيها ·

الا ان الاوضاع السياسية التى كانت تســود امارة بجاية عندما حل بها صاحبنا ، للمــرة الثانية ، اي اواسط سنة 766 هـ ،كانت تدعو للقلق والتخوف · وذلك ان الامير ابا عبد الله نهـج ، منذ استيلائه على بجاية ، سياسة توسعية ادت الى قيام صراع عنيف بينه وبين ابن عمـــه ابى العباس امير قسنطينة ·

وكان الامير ابو عبد الله يعتمد على تاييد الدواودة ، فى بلوغ مطامحه الرامية الى توسيـــع حدود امارته · غير ان الاحتفاظ بهذه العناصر الى جانبه كان يقتضـــى ارضاءهم بالكثير مـــن الاقطاعات والاموال · فكان مضطرا الى البحث عن وسائل تمكنه من الحصول على مبالغ ماليـة هامة ، مما دفعه الى انتهاج سياسة الشدة والقهر تجاه اهالى بجاية والقبائل الخاضعة لحكمه ، والزامهم بدفع ما عليهم من الجباية ، وبتقديم الرهائن لارغامهم على الطاعة ·

وقد تحدث عن ذلك عبد الرحمن بن خلدون فقال : « ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطـــان ابى العباس ، صاحب قسنطينة ، فتنة احدثتها المشاحة فى حدود الاعمال من الرعايا والعمـــال ، وشب نار هذه الفتنة عرب اوطانهم من الدواودة من رياح ··· وكانوا فى كل سنة يجمـع بعضهم لبعض ، فالتقوا سنة ست وستين (وسبعمئة) بفرجيوة ، وانقسم العرب عليهما ، وكان يعقـــوب

(II) انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 97 ـ 98

بن على مع السلطان أبى العباس ، فانهزم السلطان أبو عبد الله ، ورجع الى بجاية مفلولا ، بعد أن كنت جمعت له اموالا كثيرة انفق جميعها فى العـــرب » (12) ·

وهنا يمكن لنا ان نتساءل هل كان عبد الرحمن بن خلدون مؤيدا لسياسة الحزم والشـــدة التى سلكها أبو عبد الله الحفصى ، ومقتنعا بنجاعتها وسدادها ، وهل لعب دورا هاما فى الحوادث التى جرت بين اميرى بجاية وقسنطينة ·

والجواب على هذا التساؤل يتوقف ، بالدرجة الاولى ، على تصريحات صاحبنا فى « كتاب العبر » وفى « التعريف » ، حول هذا الموضوع ·

وأول ما يخطر بالبال ، هو الالتفات الى ما كانت تشتمل عليه خطة الحجابة آنذاك من مهام ، وما كانت تخول لصاحبها من ممارسة للشؤون السياسية فى نطاق وظيفته · وقد حدد ابن خلدون نفسه مهمة الحاجب بقوله : « ومعنى الحجابة فى دولنا بالمغرب ، الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل الدولة ، لا يشاركه فى ذلك أحـــد » (13) ·

ويظهر من هذا التحديد ، وان كان يتسم بشىء من المبالغة ، أن الحاجب كان يلعب آنذاك دورا سياسيا هاما ، فى المغرب ، وتاريخ ذلك العصر يتضمن أمثلـة عديدة تثبت أهمية دور الحجاب ، حتى أن بعضهم استطاع أن يستحوذ على الحكم من دون السلطان ، كالحاجب أبى محمد بن تافراكين مثلا · وبصفة عامة ، كانت أهمية دور الحاجب تختلف حســـب الظروف ، ولا شك أن شخصية السلطان كانت عاملا يحسب له حسابه ، فى ذلـك ·

وفى « التعريف » ما يدل على مشاركة ابن خلدون الفعالة فى الاتجاه السياسى الذى سار عليه الامير أبو عبد الله · وذلك انه يقول فيه : « ولما رجع (الامير أبو عبد الله ، من هزيمة فرجيوة) أعوزته النفقة ، فخرجت بنفسى الى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من المغارم منـــذ سنين ، فدخلت بلادهم ، واستبحت حماهم ، وأخذت رهنهم على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجباية ، وكان لنا فى ذلك مدد واعانة » (14) ·

وهذا التصريح ، ان دل على شىء ، فانما يدل على مطاوعة ابن خلدون لمولاه الامــير ، فى سياسته الشديدة ، واقدامه على ما تقتضيه هذه السياسة من عمليات تعسفية ضد الاهالى ، من

12) التعريف بابن خلدون ، ص 97 ·
13) التعريف بابن خلدون ، ص 98 ·
14) التعريف بابن خلدون ، ص 97 ·

أجل جمع الاموال لمواصلة الحرب ضد امير قسنطينة ، مما تتطلبه وظيفته الهامـــة فى جهاز الدولـــة ٠

ولا يستبعد أن يكون ابن خلدون ممن أيد هذا الاتجاه وحث على شن الحرب ضـــد امير قسنطينة ، بغية بسط نفوذ امارة بجاية فى المناطق الشرقية ، وتوسيـــع مساحتها ٠ والراجـــح لدينا أن الصداقة المتينة التى جمعت بينه وبين الامير ابى عبد الله حوالى عشر سنوات ، كانت منبعثة عن تناسب فى مزاج كلا الرجلين ، وبخاصة عن طموح مفرط ، وترام الى اعلى الرتب واسمى الدرجات ٠ والاغلب على الظن ان السياسة التى سلكها امير بجاية وحاجبه كانت أبعادها ترمى الى الاستيلاء على امارة قسنطينة ، ثم امارة تونس ، وبذلك يتسنى للامير ابى عبد الله ان يتقلد مراسم الملك الحفصى ، وينتصب على عرش أجداده الحفصيين ، ويتمكن حاجبه من بلوغ ما كان يصبو اليه من سلطة كبرى وجاه عريض (15) ٠

ولذا ، فلم يتأخر الامير ابو عبد الله عن معاملة رعاياه بفســـارة نادرة ، وتعسف شديد فكان ذلك اقوى عامل على صرف أنظارهم عنه ،وتعليق آمالهم على انتصار ابن عمه ، امير قسنطينة٠ وقد وصف ابن خلدون سياسة الامير أبى عبد الله ، فقال : « وكان شديد الوطأة على أهل بلده ، مرهف الحد لهم بالعقاب الشديد ، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يستكمل سنتين فى ملكه ، فاستحكمت النفرة ، وساءت الملكة ، وأعضل الداء » (16) ٠

الا ان مآل هذه السياسة كان على عكس ما ارتجاه أصحابها ، فانفض الدواودة من حول الامير أبى عبد الله ، وانضموا الى صفوف عدوه ، كما انحرف عنه أهالى بجايـــة ، وواعدوا الامير أبا العباس على تسليم المدينة اليه ٠ ولما نهض امير قسنطينة لغزو امارة بجاية ، فى شعبان 767 هـ ، لم يلقه من أنصار أبى عبد الله الا شر ذمة لا يعتد بها ، وانتهى الامر بمقتل أمير بجاية ، وانحياز أهل بجاية ومعظم رجال الدولة الى جانب الامير أبى العباس (17) ٠ فاضطر عبد الرحمن

(15) ومما يؤكد مثل هذا الطموح عند عبد الرحمن بن خلدون ما حكاه عن نفسه ، حينما شغل منصب كتابة السر لابى عنان المرينى ، وهو أحط من منصـب الحاجب ، فقال : « ثم استعملنى (أبو عنان) فى كتابته ، والتوقيع بين يديه ، على كره مني ، اذ كنت لـم أعهد مثله لسلفى » ٠ انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 59 ٠

(16) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 268 ٠

(17) انظر : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 857 ــ 859٠

بن خلدون ، الذى كان قد اعتصم فى القصبة ، الى تسليم المدينة للعدو المنتصر ، والانضمام الى حاشيته (18) ·

ولم يطمئن على نفسه ، بعد ذلك ، فاستأذن فى مغادرة بجاية · وبعد مدة ، أذن له الامير ابو العباس بالانصراف ، فتوجه نحو الجنوب ، ونزل على شيخ الدواودة يعقوب بن علي ·

ثم بدأ للامير ابى العباس أن يصادر أموال ابن خلدون ومنازله فى بجاية ، وأمر باعتقال أخيه يحيى بعنابة ، فتحول الى بسكرة ، والتجأ عند ابن مزنى ، فأكرم مثواه · وانتهت بذلك صفحة هامة من حياة عبد الرحمن بن خلدون ، الذى حول انظاره ، بعدها ، الى آفاق أخرى ·

*

* * *

خاتمة :

وبعد ، فان اقامة ابن خلدون فى بجاية ، التى حاولنا عرضها بما يسمح به هذا المقام من التفصيل والتدقيق ، تكتسى أهمية كبرى بالنسبة لحياته ولانتاجه الفكرى ·

ويمكن اعتبار سنة 768 هـ بداية مرحلة جديدة فى حياة ابن خلدون فى المغرب ، وتاريخا فاصلا بين عهدين ، أولهما عهد حياة البلاط مع السعى الحثيث وراء المناصب السامية ، والالحاح فى طلبها والتقلب فى عواصم الملوك والامراء ، ومصانعة كبار الشخصيات قصد الوصول الى بغيته ، وثانيهما عهد العدول عن حياة البلاط الى الاقامة فى أحياء الدواودة وغيرهم من عرب رياح وزغبة القاطنين بافريقية والمغرب الاوسط ، الا فترات قصيرة قضاها بتلمسان وفاس وتونس ·

ويظهر ذلك جليا من خلال كتاب « التعريف » ، فيما ورد من أخبار ابن خلدون بعد مغادرته لبجاية ، فمن ذلك أنه لما عرض عليه أبو حمو موسى الزيانى ، سلطان تلمسان ، أن يتولى حجابته فى رجب 769 هـ ، لم يجب داعيه باكثر من حث الدواودة على مشايعته والتخلى عن نصرة الامير أبى العباس الحفصى · وقد تحدث عن ذلك ، فقال : « وكان اخى يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة ، وقدم علي ببسكرة ، فبعثته الى السلطان أبى حمو كالنائب عنى فى الوظيفة ، متفاديا عن تجشم أهوالها ، بما كنت نزعت عن غواية الرتب ، وطال علي اغفال العلم ، فأعرضت عن الخوض فى أحوال الملوك ، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس » (19) ·

(18) لا شك أن انضمام العرب الدواودة الى الامير ابى العباس ، وتخليهم عن أبى عبد الله الحفصى ، كان أكبر عامل لهزيمته ومقتله ، وقد يكون ذلك من جملة أسباب تشدد ابن خلدون تجاه العرب فى بعض فصول «المقدمة» ·

(19) التعريف بابن خلدون ، ص 103 ·

والذى يهمنا ، فى هذا التصريح ، هو التحول العميق الذى جرى فى اتجاه ابن خلدون بعد مغادرته لبجاية ، من ناحية علاقته بالامراء والملوك · انه لا يعرض تماما عن خدمتهم ، ولكن الخدمة التى يرتضيها ويقدم عليها ، هى التى لا تحرمه من حريته ، اذ هى تنحصر غالبا فى الاتصـــال برؤساء قبائل العرب ، ومداخلتهم فى تاييد امير او سلطان دون غيره ، كما كان الامـر ، أيضا ، أيام السلطان عبد العزيز المرينى (20) ·

ثم نراه ، بعد ذلك يغادر تلمسان ، سنة 776 هـ ، برسم السفارة للسلطان ابى حمو موســى الزيانى الى الدواودة ، فى شان استئلافهم وكسب نصرتهم للعرش العبد الوادى ، ولكنه سرعان ما غير اتجاهه ، مؤثرا الانقطاع للعلم والعزلة فى أحياء اولاد عريف من قبيلة سويد ، بقلعة بنى سلامة ، فينصرف هناك الى تاليف مقدمته الخالـــدة (21) ·

وهكذا يتضح لنا ان التجربة السياسية التى حصلت لعبد الرحمن بن خلدون فى بجايـــة ، وما أسفرت عنه من فشل وخيبة ، قد كانت السبب الرئيسى فى اقلاعه عن طلـب الرتب السامية فى بلاطات الامراء ، وعن الحرص الحثيث للحصول عليها ، واقتصاره على حضور المجالس العلمية والتدريس ، والاقامة فى احياء العرب · ولا شك أن هذا الاتجاه كان أسلم له ، اذ كان يحميه من خطر أعدائه ، وسعاية حساده ·

ولا يخفى على أحد ما أدى اليه هذا الاتجاه الجديد من نتائج فى مجال انتاج ابـن خلدون الفكرى · فالتردد على أحياء الدواودة وسويد وغيرهم من العرب البدو ، كان بمثابة نقطة الانطلاق لنظرياته الاجتماعية ، اذ كان يمكنه من الاطلاع عن كثب على المجتمع البدوى ، كما كان يحمل فى طياته عناصر اساسية لدراسة تطور العمران البشـــرى ·

ولذا ، فان كان كثير من الباحثين يرون فى تخلى عبد الرحمن بن خلدون عن خدمة الامراء والملوك ، وانتقاله من بلاط الى آخر ، وعدم استقراره فى منصب من المناصب ، نوعا من قلـــة الوفاء والاخلاص ، فان الالتفات الى الظروف التى تحيط بذلك ، والتى تفسر ما حدث من تغير وتقلب فى اتجاهاته قد يخفف الكثير من هذه الاتهامات ، ويجعلنا لا نلومه على تصرفاته ، ما دمنا نعتقد أنه كان يهدف ، من وراء ذلك ، الخلاص مما كان يهدد امثاله من الاخطار ، والتفرغ لخدمة العلم والاخلاص له ·

---

20) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 276 ـ 277 و 683 ـ 685 ·
21) انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 244 ـ 245 ·

المراجـــع :

1 ـ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج 4 ، ص 145 ـ 147 .

2 ـ المقرى ، نفح الطيب ، ج 8 ، ص 277 ـ 297 .

3 ـ احمد بابا التنبكتى ، نيل الابتهاج ، ص 169 ـ 170 .

4 ـ ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص 263 ـ 265 .

5 ـ ابن القاضى ، درة الحجال ، ج 2 ، ص 357 ـ 358 .

6 ـ الحفناوى ، تعريف الخلف برجال السلـف ، ج 2 ، ص 213 .

7 ـ عبد السلام بن سوده ، دليل مؤرخ المغرب ، ج 1 ، ص 169 ـ 170 .

8 ـ الزركلى ، الاعلام ، ج 4 ، ص 106 ـ 107 .

9 ـ كحالة ، معجم المؤلفين ، ج 5 ، ص 188 ، و ج 13 ، ص 396 .

10 ـ عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثـه الفكرى ، القاهرة ، 1933 .

11 ـ ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، جزآن ، القاهرة ، 1953 .

12 ـ عبد الرحمن بدوى ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، 1962 .

13 ـ محمد الفاسى ، ابن خلدون والسياسة (مهرجان ابن خلدون ، الرباط ، 1962) ص 67 ـ 77 .

14 ـ أحمد توفيق المدنى ، ابن خلدون والجزائر (مهرجان ابن خلدون ، القاهــرة 1962) ص 535 ـ 543 .

15 ـ ابراهيم مدكور ، ابن خلدون (مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، 1962) ص 567 ـ 581 .

16 ـ عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر ، ج 7 ، بيروت ، 1957 .

17 ـ عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، تحقيق ابن تاويت الطنجى ، القاهــرة ، 1951 .

18 - C. Brockelmann, G. A. L., II, pp. 314-17, sup. II, pp. 342-44.

19 - R. Brunschvig et H. Pérès, Ibn Khaldoun, sa vie et son œuvre, dans Bulletin d'Etudes Arabes, 1943, x pp. 55-60 et 145-60.

20 - S. Zmerli, La vie et les œuvres d'Ibn Khaldoun, dans Revue Tunisienne, 1911, pp. 532-36.

21 - Ali Mérad, l'Autobiographie d'Ibn Khaldoun, dans I.B.L.A., 1956, pp. 53-64.

22 - M. Talbi, Art. Ibn Khaldoun, dans E.I. 2, III, pp. 849-53.



مصقل غوراية ، والدرج المؤدى اليه

إقامة إبن خلدون في بجاية وَدَوْرُه فيهـا

د . محمد سعيد رغد
كلية الآداب
جامعة الجزائر

لا يحتاج مؤلفنا الكبير عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون الى تعريف لانه كفى غيره مؤونة هذا العمل فعرف نفسه بنفسه احسن تعريف (1) وكثيرون كتبوا عن حياته من جوانب كثيرة ، فمنهم من جعله فى مقدمة العلماء وبعضهم وضعه فى مكان الصدارة بين المؤرخين اذا لم يكن بين الفلاسفة المتقدمين ، ولا مراء فى كل ذلك فقد جمع ابن خلدون فى كتابه « العبر ، سواء فى مقدمته او فى تاريخه او فى تعريفه جميع ما يحتاجه الكاتب من المواد التى تؤهل مؤلفنا الجليل ، بدون شك ، لان يتبوا اعلى درجات العظماء فى التاريخ .

فاذا اراد الكاتب اجراء دراسة عن شخصية ابن خلدون فسوف لا يجد مشقة فى قراءة ما كتبه هو نفسه فى « التعريف » فتكلم عن نشأته ومشيخته وحاله وعن رحلاته واتصالاته الكثيرة وما جرى له من حوادث وما اطلع ورأى من احداث وقد ذكر ناشر هذا « التعريف » بان ما ذكره عن نفسه هو من أهم « الوان المعرفة وأوكدها » ، اما اذا رغب القارىء فى مطالعة التاريخ فسوف لا يجد(2) أحسن مما كتب ابن خلدون عن تاريخ المغرب فهو أحسن مرجع تاريخي وأوثقه لا سيما فى الفترة التى اقام فيها فى المغرب الاوسط ، فقد وجد فى هذه البلاد متسعا للقيام بدراسات علمية وتاريخية عن كثب فاستطاع ان يصل على ضوء مطالعاته التاريخية وما لاحظه اثناء رحلاته الكثيرة مادة مكنته من وضع كتاب يعتبر حجة فى دراسات المجتمع الانساني وتطوره .

1) التعريف بابن خلدون ـ لمحمد تاويت الطنجى ط . 1370/1950 القاهرة .
2) التعريف بابن خلدون ـ للطنجى ـ التقديم ص هـ .

التعريف ببجاية : تمهيد عام ٠

ومن بين المدن المغربية والاندلسية التى زارها ابن خلدون خلال رحلاتـه الكثيرة فقـد نالت « بجاية » حاضرة المغرب الاوسط بقسط كبـير من اهتمامه واذا جمعت كتاباته عن هذه المدينة فى مناسبات كثيرة وفى مواضيع متفرقة فى كتابه « العبر » فانها تصبح « تعريفا » لا يقل عـن « تعريفه » عن نفسه وهذا مما يدل على ان المغرب الاوسط وحاضرته بجاية ، نال حظوة كبيرة عند مؤلف « العبر » ولم يخصها بهذا القدر مـن الاهتمام الا ولديه اسباب جعلته يدرس تاريـخ هذه المنطقة والادوار الحضارية التى مرت فيهـا وستظهر من خلال هذه الدراسات مدى الاستفادة التى حاز عليها ابن خلدون اثناء اقامته فى بجاية والمنطقة التابعة لها ولاستيفاء هـذا الموضوع حقه من البحث ، والاستقصاء فلا بد من متابعة ذكر المناسبات التاريخية أولا ثم جمع ما كتبـه ابن خلدون فى هذه المواضيع التاريخية الـتى جعلها مادة صنع منها منهاجه « العمرانى » وبنى عليه « نظريته العمرانية » التى كانت الاساس « لعلمه الجديد » علم العمران » ٠

ولا بد ونحن فى مقدمة الحديث عن ابن خلدون ان نتساءل عن الغرض الكبير الذى كان يسعى لتحقيقه من وراء نشاطه الواسع فى مجال الفكر وميدان السياسة فقد اطلع بحكم مركزه كعالـم متبحر فى العلوم المعروفة فى زمانه وكسياسى عرف السياسة حق معرفتها وقضى سنوات طويلة من عمره فى نشاط دائب فى كلا المجالين المذكورين ولا بد ان نتعرف ايضا على الدور الخطير الـذى قام به فى تاريخ المغرب بصورة عامة والمغـرب الاوسط بصورة خاصة ولماذا كان يدعو اليه ، فهل كان يدعو الى مذهب من المذاهب الاجتماعية أو انه كان يريد من وراء نشاطه هـذا احداث حركة سياسية خاصة ولا سيما وان العصر الذى عاش فيه كان مفعما بالاحداث التى غيرت مجرى التاريخ فى العالم ، كل ذلك يحتاج الى تفصيلات لا يتسع لها هذا المقال ، ولا سيما وان ابـن خلدون رغم تعريفه بنفسه وتعريفه بتاريخ ميلاده وعصره فانه لم ينبئنا صراحة عن اغراضه العلمية أو السياسية ، فلا هو وضع عنوانا لكتابه الاول ليستشق الباحث عن مغزى الكتاب ولا هو شرح خلال ابحاثه الكثيرة فى كتابه « العبـر » منهجا محددا فترك للباحثين المجال لمعرفة ذلك من خلال السطور ٠ وفى هذه الحالة وجدنا من الفائـدة الرجوع الى أقوال العلماء الذين درسوا اراء ابـن خلدون بصـورة شاملة وفى مقدمتهم العلمـاء المذكورون فى ادناه لنرى ما توصلوا اليه مـن احكام بالنسبة لهذا الموضوع :

ـ الدكتور على عبد الواحد وافى (1) ٠

ذكر الدكتور وافى فى كتابه القيم من مقدمة ابن خلدون ان « عبقرية ابن خلدون تبدو ٠٠ فى نواحى كثيرة اهمها انه المنشىء الاول لعلم الاجتماع وحجته فى ذلك ان المؤلف عالج فى « المقدمـــة » ما يسمى الآن « بالظاهرات الاجتماعية » ويسميها المؤلف المذكور « بواقعات العمران البشرى أو احوال الاجتماع الانسانى » ٠

ـ الدكتور طـه حسين (1) ٠

وفى جملة الابحاث التى اجراها الدكتـور طه حسين فى « المقدمة » البحث عن طبيعة « علـم العمران » الذى يدعى ابن خلدون انه علم جديد استنبطه من دراساته الطويلة فقال ان هذا العلم ليس بعلم للتاريخ بل هو علم مستقل يتنـاول المجتمع البشرى فى احواله وتطوراته وينكر على ابن خلدون ان يكون منشىء علم الاجتماع وما هو الا عالم «اجتماعى» وعذره فى ذلك ان الابحاث فى كتاب « العبر » لا تصلح ان تكـــون فى جملتها موضوعا خاصا بعلم الاجتماع وهو اضيق من ان يكون دراسة لعلم خاص للاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو أى علم آخر قائم بذاته ويتابـع الدكتور طه حسين مناقشته للموضوع بانه من الخطأ القول ان ابن خلدون عالم اجتماعى بالمعنى الحديث وذلك بسبب انه اتخذ المجتمع موضوعا لبحثه فقد يكون المجتمع احيانا موضوعا للتاريخ أو ان يكون للاخلاق أو للفلسفة (2) وقد اتسعت دراسات المجتمع فى الوقت الحاضر حتى اصبـح موضوعا لعلوم كثيرة ولا يكفى ان يدرس الانسان المجتمع من جهة معينة كعلم ليقال عنـه انـه يدرس علم الاجتماع ، اذ يفقد عندئذ هذا العلم صفته هذه ولا يصلح الا ان يكون بحثا فى العلوم الاجتماعية ولا شك كما يقرر الدكتور طه حسين ان ابن خلدون أورد فى مناسبات كثـــيرة آراء اجتماعية بالغة الصدق والاهمية وعميقة وطريفة واذا قيل ان ابن خلدون ليس بعالم اجتماعى فان

1) الدكتور على عبد الواحد وافى ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق وشرح وتعليق ٠ ط٠القاهرة 1965 ـ ص 227 ٠

1) الدكتور طه حسين ـ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ـ نقد وتحليل ـ ص 65 ترجمة عبد الله عنان ـ ط ٠ القاهرة ٠

2) راجع « محمد مهدى » فى كتابه فلسفة التاريخ فى ابن خلدون كاساس لعلم الثقافة باللغة الانكليزية ٠
Ibn Khaldun in philosophy of history ed. U.S.A. 1964.

هذا لا يعتبر انتقاصا لقدره لانه كان يتلمس حقا مبادىء صحيحة فى علم الاجتماع وعلوم أخرى . ويبدو من قول الدكتور طه حسين وتحليله لاراءابن خلدون فى « مقدمته » انه شعر بحيرة لتبيين طبيعة « علم العمران » وانتهى من مناقشته لهذا الموضوع الى ان من الاهتداء الى تحديد ابتعاد « علم العمران » وماهيته كان منه الا ان اطلق على دراسته لمقدمة ابن خلدون اسم « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ولعله اراد بذلك ان يدع باب المناقشة للموضوع مفتوحا وقد احسن ما فعل .

الكاتب الروسى باشيفا (1) .

يقول الكاتب المذكور ان القصد الاجتماعى أو الغرض الرئيسى الذى كتب ابن خلدون كتابه من اجله عن « طبائع العمران » وهو بحث عن الاجتماع الانسانى « البشرى » لا يزال قيد البحث والكشف عنه فى الدراسات الدائرة حول هذا المؤلف العربى الكبير(I)حتى الآن واردف قائلا فى مقالته ان الفلسفة الماركسية ـ اللينية تفيد فى تحليلها لطبيعة المجتمع البشرى ان هنالك انقسام فى الطبقات ولهذا تبدو الآراء الاجتماعيةفى دراسة هذا المجتمع وكأنها «آراء طبقية حزبية» وعلى هذا الاساس فان نظرية ابن خلدون التاريخية ـ الاجتماعية لا توضح الا من هذه الزاوية ـ أنى دراسة ماهيتها الاجتماعية التاريخية ودورها فى مجال التفكير الطبقى . (2)

ولما كانت الغاية الرئيسية لهذا المقال التعريف بابن خلدون أولا والتعريف بالدور الذى قام به وبذل جهوده لانجازه ثانيا فى مجالى العلم والسياسة وعلى صعيد المغرب متنقلا بين تونس وبجاية والمنطقة المجاورة فى ذلك الاقليم وبالتالى التعريف ثالثا بالاحداث التاريخية التى لابست هذه المنطقة والتى اشترك ابن خلدون فى ملابساتها ومناسباتها واطلع على تاريخها وتتبع اسباب حدوثها وذلك بغية معرفة ما كان يسعى للوصول اليه كهدف رئيسى ؛ فاننا لا نغالى فى القول اذا قررنا بأن البحث فى تاريخ ابن خلدون مجدمن الناحية التاريخية العلميةلانه استطاع ان يقدم لنا علما مستنبطا سماه « علم العمران » وهو علم جديد بناه على اساس الاستقراء من الاحداث

2) المصدر السابق ـ ص I2I .

3) BACIEVA (S.M.) Les bases sociales de la doctrine historio-philosophique d'Ibn Khaldoun, in A. La mémoire de l'Académicien I.J. Kratchkovski. Leningrad, 1958, pp. 192-201 (en russe).

S.M. BATSEVA - translate grom'iche Russian by jan W. Weryho - the Islamic Quarterby vol. XV. N° 283 London April-September 1971.

التاريخية فى المغرب وفى غيره من البلاد وعـين موضع هذا العلم وذكر بعض مسائله وترك للعلماء الذين سيخلفون استكمال دراسة ما بدأ به (3) ٠ وكما قال ابن خلدون فاننا نكتفى بالاشارة الى هذا العلم الذى لـم ينل مـن جانب المختصين بدراسات ابن خلدون ما يحدد ماهيته ويعـين طبيعته ؛ ولعل السبب يرجع الى التعمق بالنسبة لهم فى تقصى جذور العلوم التى اشار اليهـا ابن خلدون بضرورة غلاقتها لعلم العمران ولكنها فى الحقيقة ليست ضرورية لان علم العمران الـذى استنبطه واضح فى تعريفه وبسيط فى شرحـه وتعيين ابعاده واكثر مسائله موضوعة بشكـل سهل موجز ٠

ولما كان هذا الاثر العلمى الفكرى الكبير وهوذلك العلم الجديد « علم العمران » الذى استنبطه على اساس « نظريته العمرانية » الـتى ستسرد تعريفا لها فيما بعد ، لم يكن ليظهر لدى ابـن خلدون الا حين اقام فى بجاية وما حولها مـن الوطن المغربى ، فاصبح لا بد مـن ان نستمر بالتعريف ببجاية والمنطقة التى حولها وما حدث فى ربوعها من الاحداث التاريخية التى عرفها ابن خلدون حق المعرفة وكرس جزءا من تاريخه فى « العبر » لحوادثها لانه هو فى الحقيقة قد عاش فيها وتأثر بها ووعى اسبابها واستقرء نتائجها وربما برزت لنفسه مقدراتها ، وكان لا بد كذلك من ان نتابع ما قام به ابن خلدون من نشاط فى هذه المنطقة المغربية الهامة سواء عـن طـريق السياسة أو عن طريق الدراسة العميقة ، وبهذه الوسيلة يظهر لنا الدور الذى قام به ابن خلدون فى بجاية وما حولها من المغرب الاوسط بأجلى مظاهره فمعظم آرائه وملاحظاته جاءت مستقاة من التاريخ الكبير الذى احتوى كتابه عليه ونابعة من البيئة التى عاش فيها وتابع احداثها وهل يعدل تلك الاحداث بما يماثلها فى التاريخ الوسيط من حيث اهميتها مثلا كسقوط بغداد والحرب الصليبية وبدء نزوح العرب من الاندلس ويقظة أوربا وحركة المدن فى ايطاليا ٠

---

3) ابن خلدون المقدمة ـ ط ٠ بيروت والتجارية ـ ص 558 ٠

« ٠٠٠ وقد كدنا ان نخرج عن الغرض وغرضنا ان بعض الضعاف عن القول فى هذا الكتاب الاول الذى هو طبيعة العمران وما يعرض فيه ٠ وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من ياتى بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم متين يغوص من مسائله على اكثر ٠٠٠ » ٠

مدينـــة بجايـــة

بجاية مدينة بالقطر الجزائرى على شاطىء البحر تابعة لاقليم قسنطينة وهى تقع عــلى خـــط طول 5،9 شرقى جرينوتيش وخط عرض 36،49 شمالا ، فهى واقعة فى المنطقة المعتدلة ومناخها معتدل صيفا وشتاء ساعد على وفرة محاصيل للنطقة الزراعية التى تحيط بها ٠

وقد بنيت فوق منحدرات تطل على البحر وعلى خليج يحميها من الغزو سواء من ناحية البر أو البحر ويجعلها ميناء صالحا لارساء السفن ومعقلا حصينا له موقع استراتيجى عظيم متوسط بـين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ؛ وقد ادرك القرطاجنيون ذلك فانشأوا لتجارتهم مركزا سمى « صلداى » وهو المكان نفسه الذى انشئت عليه مدينة بجاية (1) ، ثم خضعت بجاية للسيطـرة الرومانية والفاندالية والبيزنطية حتى جاء الفتح الاسلامى (2) ، فدخلت تحت الحكم الاســلامى حوالى سنة 708 م بعد ان فتح المسلمون المغــرب ،الا ان المعلومات التاريخية التى تتصل بهذه المدينة فى القرون الثلاثة الاولى للفتح الاسلامى قليلة ،وقد وصفها ابو عبيدة عبد الله البكرى فى كتابه المسالك والممالك فى القرن الخامس الهجرى (3) ،وفى منتصف القرن السادس الهجرى يصف المدينة الشريف الادريسى (4) ، فيقول انها قاعدة بنى حماد اتخذوها حاضرة لسكنهم بدلا من «القلعة» ثم يتابع قوله ان بجاية فى وقته (548 هـ) مدينة المغرب الاوسط وعين بلاد بنى حماد فتأتى اليهــا السفن من الشمال وتحط فيها القوافل فتصبح محطة ومخزنا للامتعة المجلوبة برا وبحرا وبها

1) د ٠ شارل فيرو ـ بجاية ـ ص45 ط 1869 قسنطينة ٠

« ان مطابقة بجاية بصلداى (ثابت بدليل وجود نقش لاتينى محفوظ فى المتحـف الجـزائرى ـ اللوفر ـ باريس ٠

2) الجيلالى عبد الرحمن بن محمد ـ تاريخ الجزائر ، ج 1 ـ ومؤنس (حسين) ـ فتح العـرب للمغرب ـ ط ٠ 1947 ، القاهرة ٠

1) انظر : فيرود (شارل) ـ بجاية ـ ص 12انها ازلية (قديمة) آهلة عامرة باهل الاندلس ومرسى مأمون (هذا يدل على ان كثيرا من التجار الاندلسيين كانوا يسكـنونها عقب تأسيسها كما كانوا يسكنون مدنا ساحلية اخرى بالمغــــرب الاوسط ٠

2) الادريسى ـ وصف افريقية الشماليـــة والصحراوية المأخوذ عن كتاب نزهة المشتاق ـ ط ٠ الجزائر 1957 ـ ص 62 ٠

من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد « واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ... فاصبحت قطبا لكثير من البلاد ولها علاقات واسعة مع أوروبا (5) .

ويذكر ابن خلدون فى تاريخه 1332 – 1404)ان موقع مدينة بجاية كان قرية تسكنها قبيلة بربرية تسمى بجاية أو بقاية (بقاف معقودة)فاطلق هذا الاسم على المدينة وسميت به .

بجاية فى عصر دولة بنى حماد

كانت دولة بنى حماد دولة ملوكية ، يتولى ملوكها الحكم بالوراثة ويتخذون امراء (عاملين) ووزراء وحجاب محاكاة للزيريين بنى عمومتهم للزريين الصنهاجيين الذين كانوا يحكمون افريقة (تونس) والمغرب الاوسط نيابة عن العبيديين الذين كانوا قد نقلوا مقر ملكهم الى مصر .

وكان حماد بن بلكين أول مؤسس لهذه الدولة سنة (405 هـ) وكان ولاؤها السياسى مرة للفاطميين ومرة للعباسيين تبعا لمصالحهم السياسية وكثيرا ما كان الملوك الحماديون يستقلون بأمورهم ولا سيما فى عهد الملك الحمادى الناصر بن علناس(454 – 481 هـ) الذى بنى عاصمة جديدة لملكهم « بجاية » وسماها « الناصرية » نسبة له سنة 460 هـ بدلا من «القلعة» حاضرة البلاد الاولى التى تعرضت لهجمة العرب الهلالية .

وكان حماد وهو مؤسس الدولة يجهد فى تدعيم مملكته (1) .

وهو الذى اختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة 398 هـ (2)، وكان عهده كما قال لسان الدين بن الخطيب عهد بناء وتشييد لاسس الدولة واما الناصر بن علناس (454 – 481 هـ)وهو خامس ملك حمادى فكان اعظمهم ملكا وهو الذى بنى بجاية (3) .

---

3) المصدر السابق .

1) ابن خلدون : العبر ، ج 6 – ص 250 .

1) تاريخ الجزائر للميلى ، ج 2 – ص 196 .

اعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب – نشر الدكتور مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى ص 86 « هو نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه ، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا ، قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل » انظر بونار رابح – المغرب العربى ص 208 .

2) انظر المصدر السابق قسم 2 من اعمال الاعلام لابن الخطيب .

وقال عنه ابن خلدون : « بلغت جنـــوده الىدركلان واخضع بسكرة ونواحيها ، واسس بجاية سنة 460 هـ وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان مـــناعجب قصور الدنيا ، ونقل الناس الى بجايـــة واسقط الخراج عنهم ، ثم قال « وفي ايام الناصرهذا كان استفحال ملكهم وشغـوفه عـــلى ملـك ابن باديس اخوانهم بالمهدية لما اضرع منه الدهربفتنة العرب الهلاليين وبفتنة الزمان حتى اضطرب عليهم امرهم ، وكثر الثوار منهم عليهم ، فاعتز آل حماد هؤلاء ايام الناصر هذا وعظم شأنه ، فبنى المباني الموثقة ، وشيـد المدائن العظيمـــة وردالغزوات الى المغرب ، وتوغل فيه الى ان هلك سنة 481 هـ وكان نفوذه واسعا وحدود مملكته تشملصفاقس وقسنطينة والقيروان وتونس وغيرها»(4)

ولما تخوف الناصر من ثورة الاعراب وهجماتهمالساحقة على عاصمته « القلعة » سعى في اختطاط بجاية وبناها على انقاض «صلدايأو سلداي» الفينقية والرومانية سنة 460هـكما سبقوذكر اذكانت من اهم مدن نوميديا في القديم ، ثم انتقل اليهاحماد واتخذها عاصمة دولته وقصدها الناس من مختلف النواحي ، فلم تلبث ان استبحر عمرانهاوكثر سكانها ، واصبحت مركزا هاما لاوربـا والشرق فاصبحت من ذلك التاريخ من اعظـــممدنالقطر الجزائري وقد ازدهرت المملكة في عهده وفي ايام ابنه المنصور فاعتبر عصره عصرا ذهبيا لكثرة العلوم وانتشار الثقافة وتشييد المساجد والمدارس والمستشفيات والقصور الفاخرة (1) ٠

وعلى ذكر ابن خلدون مؤلف كتاب العبر الذىكرس قسما كبيرا من تاريخه لبلاد المغرب بصورة عامة وقطر الجزائر بصورة خاصة ولا سيما الادوارالتاريخية التي مرت بها حاضرة المغرب الاوسـط بجاية والمنطقة الموجودة حولها ، فاكثر ابن خلدونمن سرد الوقائع واسماء الرجال والقبائل وغيرها من الفئات التي اراد ابن خلدون من وراء تسجيلهااستنتاج عبر تاريخية تكون دعامـة لنظريتـــه العمرانية ، فخص بالذكر الفترات التاريخيـــةالتاليـــة :

1 — 335 هـ/946 م وهو الزمن الذى نشأتفيه الاسرة الزيرية (زيرى بن مناد) الصنهاجية٠

2 — 405هـ وهو الزمن الـذى ظهرت فيـهالدولة الحمادية في عصر حماد بن علناس بصورة خاصة (460هـ/1067م ٠

1) ابن خلدون : العبر ج 6 ٠

2) ابن خلدون ـ العبر ج 2 ـ ص 257 ـ 258والقسم الثالث من اعمال الاعلام للسان الدين الخطيب ـ ص 97 (رابح بونار ـ المغرب العربىص 212) ٠

3 ـ 546هـ/1152م وهى الفترة التى ظهر فيهاعبد المؤمن ، ملك الموحدين الذى استولى على بجاية 546/1152 واسقط فيها الدولة الحمادية ٠

4 ـ ثم يأتى عهـــد الحفصيين 626هـ/1228عندما جـــاء ابو زكريا الاول الحفصى وتأسست الامبراطورية الحفصية واحتفظت بجايـــة اثناءهابمركزها الاول حيث كان ينوب فيها عن الملك ابنه أو ولى عهده ٠

5 ـ ثم جاءت فترة القرن الرابع عشر ميلادىوهى الفترة التى قام ابن خلدون بدوره الرئيسى وبصورة فعلية وفضلا عن تسجيله حوادث هـذاالعصر الذى امتلاء بالمنازعات بين اسر ثلاث ٠

أ) بنى مرين فى فاس ٠

ب) وبنى زيان فى تلمسان ٠

ج) والحفصيين فى تونس ٠

تلك المنازعات التى عاش فيها ابن خلـدونواشترك فى احداثها وكانت نتيجتها وقـــوف التقدم العمرانى فى الاقطار المغربية وكانت بجايةفى هذه الاثناء معرضة لمؤثرات كبيرة تاريخية ولكنها ظلت تحتفظ بمركزها ولـــا هاجمهــاالاسبانيون فى عام 1509 وجدوا فيها مقاومـــة كبـــيرة ٠

وبهذه المناسبة فاننا نجـــد اكثر الرواياتالتاريخية عن هذه الفترة فى تاريخ العبر لابـــن خلدون وقال المؤلف الفرنسى الذى كتب مؤلفا عن« بجاية » ان ذلك العمل القيم الذى قام به ابـــن خلدون بكتابه العبر ليعتبر حقا ذو فائدة ومصدراثمينا لافريقية الشمالية عامة وتاريخ هذه المنطقة بصورة خاصة وانه ليشعر بالاسف ان يقـف تاريخ ابن خلدون بما ضمنه من ملاحظات صغيرة تاريخية عن سنة 1394 م وهو الوقت الذى كان قد ترك فيه المغرب (1384 م) وبـــدأ يسكـــن القاهرة ٠ (1)

ويتبين من ذلك الدور التاريخى الذى قام به هذا المؤلف (ابن خلدون) بمتابعة تسجـــل احداث هذه المنطقة المغربية ولا سيما بجاية وماحولها وقد كتب فيها ابو العباس احمد بن احمد

1) فيرود (شارل) بجاية ـ ط ٠ قسنطينـــة 1869 ـ ص 127 ٠

الغبرينى فى عنوان الدراية وقد جعله فى نطاق تاريخ « من عرف من العلماء فى المائة السابعة بجاية » (2) ولكن يظل تاريخ ابن خلدون المرجع الاول لتاريخ هذه المنطقة المغربية ٠

ومما يجعل لهذا التاريخ اهمية ان كثيرا من الحوادث التى جرت فيه والتى بنى عليها المؤلف الى حد كبير آراءه بالنسبة للعمران هى مستقاة من هذا التاريخ ؛ ومن جملة هذه الاحداث لاحظ ابن خلدون ظاهرة كبيرة ، ربما كانت هى التى دفعته الى كتابة تاريخه الكبير « العبر » وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر وهذه الظاهرة كانت تبدو له كلما تعمق فى دراسة تاريخ هذه الاقوام الثلاثة ، فقد لاحظ حركة « نزوح » سكانية كبيرة من مكان الى آخر تبعا لعوامل كثيرة لا تقع تحت حصر ، ولاجل متابعة ابحاثه لهذه الظاهرة ولظواهر أخرى تابعة لها تساعده على تعقب احداثها فى تاريخ هذه الشعوب المذكورة فى العصور السابقة لعصره والموازنة بينها وبين ما يماثلها من الظواهر الانسانية جميعها والتأمل فى مختلف شؤونها للوقوف على طبائعها ثم الانتهاء من هذه الامور الى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر من قوانين ؛ فان ابن خلدون وضع لنفسه منهاجا قوامه : **أولا** ـ جمع ملاحظاته الحسية والتاريخية لهذه الظواهر وما شاهده فى بطون التاريخ عنها بشكل مواد اولية وهذا ما قام به فى تاريخه للمغرب وغيره وسماه العبر ٠ **ثانيا** ـ والطريقة الثانية فى منهاجه هذا هى عرض جميع القوانين التى كان لها أثر فى تحريك هذه الظاهرة والظواهر بشكل يدخل فى عمليات عقلية يجريها المؤلف على هذه المواد الاولية المجموعة فى تاريخه والتى جعلها اساسا لاستخلاص « علمه الجديد » الذى انشأه ابن خلدون منذ اكثر من خمسة قرون وهو منقطع النظير : يحوم عليه العلماء حوله ، ولكن بدون ان يستطيعوا الاتيان بمثله فى شموله واستيعابه لجميع ظواهر الاجتماع الانسانى ، وسلامة منهجه ودقة اغراضه ووحدة بنيانه » ٠ (1)

تلك الظاهرة فى نزوح أهل الاندلس الى ثغور المغرب وخاصة « بجاية » وما جاورها من ثغور لفتت انظار ابن خلدون وقد كانت شديدة التأثر على عقليته ، اذا استرعت هذه الظاهرة ـ ظاهرة الهجرة انتباهه وايده فى ذلك كثيرون ومن جملتهم المؤرخ الكبير « المقرى » صاحب كتاب نفح الطيب

2) الغبرينى (ابو العباس احمد ابن احمد) ـ عنوان الدراية ـ تحقيق رابح بونار ، ط ٠ الجزائر ٠

1) د ٠ على عبد الواحد وافى ـ تحقيق مقدمة ابن خلدون ج ، 1 ـ ص 264 ـ ط ٠ 1965 ٠

اذ قال : « ان حصر اهل الارتحال لا يمكن بوجهولا حال » وكان ذكر فى كتابه جماعة كبيرة من هاجر الى المغرب والمشرق • وهنالك مؤلف آخرصاحب كتاب « عيون الدراية » الذى ذكر كثيرا من تراجم العلماء ببجاية فى المائة السابعة للهجرةوهم من علماء بجاية الاصلاء أو الوافدين عليهـا وهم كثيرون • (2)

واذا اعدنا هجرة العلماء الاندلسيين الى حواضرالمغرب وافريقية وثغورها وخاصة بجاية لاسباب فمنها التدهور السياسى الـذى اصاب الاندلسعقب سقوط الدولة الاموية (430هـ) وقيام ملوك الطوائف (430 ـ 480 هـ) واستفحال « المد أو الردة المسيحية » الـتى اسماها الاسبانيون بالركونكيزيتا وكانوا يقصدون بهذه الحركـة « استرداد » البلاد ، وهؤلاء العلماء هم أول من يشعر بحافز للهجرة من الاندلس الى المغـرب الاقصى وافريقية وخاصة المغرب الاوسط لقرب ثغوره للهجرة الاندلسية وحسن استقبالها لهـم،وذلك رغبة منهم فى الاستقرار واستئناسا بالوضع السياسى الذى تكون فيه السلطة الاسلامية قوية مهيبـة • (3)

ومن الاسباب التى جعلت كثيرا من اعـلام الاندلس يهاجرون الى حواضر المغرب ولا سيمـا بجاية بالذات هو ما حكـاه صاحب المعجب فىاخبار المغرب عندما قال ان سقوط الاندلس فى يد المرابطين (488 هـ ـ 530 هـ) على يد يوسف بن تاشفين كان فاتحة خير وبركة على النهضة الثقافية والحضارية فى المغرب ، حيث هاجر كثيرمن اعلام الاندلس الى المغرب مقر السلطة الحاكمة ونقلوا معهم حضارتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم (4) •

2) عنوان الدراية ـ لابى العباس احمد بن احمد بن على الغبرينى ـ تحقيق رابح بونار ، ط • الجزائر ، ص 26 ـ 29 •

3) عنوان الدراية ـ تحقيق رابح بونان ـ ص 27 ، انه يروى عن ابن رشيق المسيلى القيروانى انه قال :

ممـا يزهـدنى فى ارض انـدلس	أسمـاء معتصـم فيها ومعتضـد
ألقـاب مملكـة فى غـير موضعهـا	كالهـر يحـكى انتفـاخا صولة الاسد

وهذا يعبر عن راى كثير من علماء الاندلس انفسهم ممن غادروا الاندلس فى هذه الفترة وبعدها•

4) المراكشى عبد الواحد ـ المعجب فى اخبار المغرب ـ ص 864 ، اذ قال : « فانقطع الى امـير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه مـن اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق فى عصر من الاعاصير » فصارت مراكش منـتدى الادبـاء والشعراء •

ولاشك ان بجاية كانت فى ايـــام الدولـــةالحمادية وبعدها تنافس مراكش فى ازدهارهمـــا العلمى والادبى وقد وفد عليها كثيرون من الاندلس والقيروان ولم يكن عهد الموحدين بأقل نصيبا من المرابطين فقد كثر اتصال الاندلسيين بحواضر المغرب وصارت الامبراطورية الموحدية تستهوى وتستقبل اعلام الادب والفلسفة وقد استقر ببجاية وتلمسان وغيرها نخبة من اعلام الفقـــه والادب والتصوف والفلسفة فأفادوا اهلها واستفادوا منهم وعلى سبيل المثال نذكر الصوفى الكبير ابى مدين الذى استقر ببجاية فى منتصف القرن الخامس مدة طويلة ثم انتقل الى تلمسان 591 هـ وكذلك عبد الحق الاشبيلى المحدث الكبير الذى نزل بجاية وتوفى فيها فى آخر القرن السادس للهجـــرة وكثيرون غيرهم حتى ان ابا عـلى المسيلى اشار الى كثيرين منهم (1) جاءوا الى بجاية ٠

واذا تحدثنا عن المرابطين والموحدين اثرهـم فى احتوائهم لهذا التراث المنقول من الاندلس الى المغرب عن طريق الهجرة ، فيجب ان لا نغفـــل عن دور الحفصيين الذين كانوا من اشد الناس التصاقا بعبد المؤمن زعيم الموحدين و « كـان الشيخ ابو حفص كبير هنشاتة زعيم دولتهم وولوه (الموحدون) على اشبيلية وغرب الاندلس مرارا ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها فى ايامهم ، ثـم ابنه زكريا حيث كان لابن خلـــدون باشبيليـــة اتصال بهم » ٠ (2)

ثم يتابع ابن خلدون فى كتابه « التعريف » ان الامير ابو زكريا انتقل الى ولاية افريقية فى سنة 620 هـ ودعا لنفسه وخلع دعوة بنى عبد المؤمن سنة 625 هـ واستبد بافريقية وانتقض حكـــم الموحدين بالاندلس فاضطربت البـــلاد وازداد الضغط المسيحى وقوى مدهم وازدادت الهجرة وكان بنو خلدون من جملة الذين ساءت عاقبتهم مع الطاغية وارتحلوا من اشبيلية الى العدوة ونزلوا سبتة وجاء احد اجداده (الحسن بن محمد) الى ابى زكريا لما كان بين سلفه وبنى خلدون من سوابق فاكرمه وفرض له الارزاق وكان احد السلاطـين الحفصيين (ابى اسحق) جعل ابنه (ابا فارس) نائبا عنه فى بجاية فجعل محمد جد ابن خلدون حاجبا له ؛ وهكذا نشأ ابن خلدون فى المغـــرب حيث ولد فى تونس عام 732 هـ وبينه وبـين آل حفص الحاكمين فى هذه المنطقة من الصلات

1) المغرب العربى تاريخه وثقافته ــ لرابح بونار ــ ص 28 ، فقال : ابو على المسيلى انه « ادركت سبعين أو تسعين مفتيا ما منهم الا وله اطلاع كبير ٠٠٠ ولا شك ان من هؤلاء المفتيين جماعة مـــن الاندلسيين اختاروا بجاية محل اقامة وتعليم » ٠

2) التعريف بابن خلدون ــ ص 9 ٠

الطيبة ما جعله يقوم بنشاط سياسى ملحوظ فى هذه الفترة التى عاشها فى تلك البلاد وكانت سنة 749 هـ وهى التى انتشر فيها الطاعون والـــذى ذهب بوالده وبكثير من مشايخه واساتذته الذين اخذ عنهم العلم ٠

وبقيت الدولة الحفصية منذ 625 هـ ــ 1228م الى915هـ/1510م عندما دخلت العساكر الاسبانية الى بجاية واستولت عليها ٠

تاريخ ابن خلدون فى بجاية وما حولها والـدور الذى قام بـه فى هذه الفترة :

يبدأ تاريخ ابن خلدون بالذات عندما استولى الموحدون (1) ، على الاندلس وملكوها مـن يـد المرابطين ، وكان ملوكهم : عبد المؤمن وبنيه وكان الشيخ ابو حفص زعيم دولتهم وولوه على اشبيلية وغيرها وكان لسلف ابن خلدون باشبيلية اتصال بهم(2) فلما أضطربت الامور فى الاندلس وخشى بنو خلدون كغيرهم سوء العاقبة ارتحلوا من اشبيلية الى العدوة ونزلوا سبته ولما كان لجد ابن خلدون (الحسن بن محمد) سوابق من سلفه عند الامـير ابى زكريا الذى كان انتقل الى ولاية افريقية سنة 620 هـ ودعى لنفسه بها وخلع دعوة بنى عبـــد المؤمن واستبد بافريقية فانه قصده وقدم اليه فاكرم قدومه (3) ٠

وكما يذكر ابن خلدون نفســـه فى كتابـه « التعريف » فانه ولد فى تونس سنة 732 هـ ونشأ فيها ولا يعد الامر غريبا اذا تهيأت له الظـروف كلهـا لتمهد له الطريق ليتعلم ويدرس على اساتذة العلوم العقلية والنقلية وان يأخذ كثـيرا من هذه العلوم وهو فى مقتبل العمر وعن مشائخ اشتهروا بالادب والفقه وعلوم الدين ؛ وحـدث فى زمانه حادثان عاقاه عن متابعة دراسته وكان لهما اثر بليغ الاول حادث الطاعون الذى انتشر سنة 749 هـ والحادث الثانى هلاك والديه فى هذا الوباء وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره وهلاك الكثيرين من اساتذته ٠ ولهذا كان لا بد له

---

1) تبتدىء دولة الموحدين بالمغرب سنة 564 على يد مهدى الموحدين محمد بن تومرت وتنتهى سنة 668 هـ وامتد سلطانها الى الاندلس من سنة 540 هـ ــ 609 هـ ٠

2) ابو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتاتى أول التابعين لمهدى الموحدين من بين قومه ، والمختص بصحابته ، وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ والى هذا تنسب الدولة الحفصية بافريقية انظر (التعريف بابن خلدون ــ ص 9) ٠

3) التعريف بابن خلدون ــ ص 11 ٠

من جراء ذلك ان يتطلع الى تولى الوظائف العامة والاشتراك فى شؤون السياسة ويسير فى الطريق الذى سار فيه اجداده .

غير انه يبدو ان نفسه كانت تواقة الى ركوب الاخطار للوصول الى ما لم يصله أحد قبله ، وكيف الوصول الى ذلك والوسائل غير ميسرة له كلها بتونس لمتابعة دراسته والتبحر فى العلوم ، وكان يتحين الفرص التى كانت تتاح له فى اثناء رحلاته سواء فى تونس أو بجاية أو فاس أو غرناطة ، فاينما سار كان يجد متسعا لاشباع رغباته الكامنة فى نفسه وهى رغبات عميقة امتازت بها شخصيته الحقيقية ، فافاد بها التراث الانسانى ايما فائدة ؛ ولا غرابة فى ذلك فبيته عريق بالحسب والنسب وسبق لجدوده ان تقلدوا أعلى المناصب فى الدول التى هيمنت وسيطرت على مناطق كثيرة وفى ادوار مختلفة سواء فى الاندلس أو فى افريقية .

ليس المقصود فى هذا المقال سرد تفاصيل حياة ابن خلدون لانه ذكر فى أوله انه هو قام بتعريف نفسه والشىء الذى نسعى لايجاده فى حياة ابن خلدون هو الدور الذى قام به فى حياته الحافلة بجميع الاحداث فى تاريخ المغرب وفى فترة خطيرة جدا وغيرت مجرى التاريخ ، فرجل ذو عقلية فائقة ونظره فى الامور حادة ثاقبة وتوفرت له جميع السبل للوصول الى اعلى المراتب ، فلا بد وان يكون له دور فى التاريخ ، والحق يقال ، فانه لم يقصر فى هذا الحقل فقد ترك مأثرة خالدة بكتابة البلاد التى عاش فى احداثها فكان تاريخه الاول والاخير وكثيرون يأسفون لانه لم يطل عمره وقد عاش عمرا مديدا لانه توقف عند حوادث 1394 م فجرت احداث كبيرة بعد ذلك ولكن لم يكن هنالك رجل كابن خلدون يكتب عن تاريخ بجاية والمغرب ودوله واقوامه وما تقلب عليهم من تطورات سواء فى السياسة أو غيرها ،هذا دور سجل فيه ابن خلدون ما جرى على بجاية وشقيقاتها من ثغور المغرب وانه لدور عظيم جدا .

يتوارد السؤال الآتى بصدد الكلام عن ابن خلدون والدور الرئيسى الذى قام به : فهل ترك مأثرة خاصة فى السياسة وهو الذى تقلب فى ادوارها وعرك جميع أحوالها فهى لم يتبوأ ملكا ولا ادار حكومة فيخلف ذكرا خالدا من اصلاحات أو انجاز مشاريع حيوية لبلاده أو انه قام بفتوحات تسجل له فى التاريخ كشأن الملوك والقادة العظماء ؟ ان ابن خلدون قام بعمل لا يستطيع غيره القيام به فما هو هذا العمل ؟

وانه ليفهم من مطالعة ما كتبه ابن خلدون سواءفى النواحى التاريخية أو السياسية أو العلمية انه كان دائما يحمل فى نفسه رغبة ملحة شغلتعليه نفسه طيلة حياته وفى جميع الادوار التى اشترك فى احداثها . ولنفهم ما كانت تنطوىنفسه عليه من رغبات وما يدور فى رأسه من آراء ، فلا بد ان نشير الى الظاهرة الكبيرة التى اشرنا اليها سابقا وهى « حركة نزوح » كبيرة من أرض الى أرض ومن قطر الى قطر ، حركة مستمرةفى التاريخ ، لفتت انظاره فجلس يفكر ويفحص لعله يجد اسبابا حقيقة لهذه الظاهرة الكبيرة ،وهذا واقع مؤثر ترك فى حياته اثرا بالغا فقد رأى ارض اجداده تنهب ويذهب معها المجد ومعه كلشيء ؛ كانت الاندلس جنة نعيم واستدامت النعمة طويلا فأخذت تزول تدريجيا وهو بالطبع أخذيشعر بهذه الحركة وهى تتطور وتنتقل الهجرة الى افريقية والمغرب بطرفيه وقد سار معها فانتقلابن خلدون من مكان الى آخر فى رحلات واسفار كان احيانا يساق اليها سوقا وعاد الى الاندلسوزارها واطلع على آثار سلفه وتحدث مع أناس كثيرين وهو بالطبع اثناء ذلك يعالجالموضوع الكبيرويحاول الجواب على السؤال ، ماذا يجرى فى هذا الجزء من العالم وهل هنالك قانون أو قوانين تسير الكائنات ولماذا لا يجد المجتمع بملوكه وطوائفه وعلمائه مخرجا من ذلك المازق الذى دخل فيه الناس فى الاندلس والمغرب وفى غيرها من البلاد. هذا هو الموضوع الذى كان يقلبه فى ذهنه .وعندما اعتكف السياسة وقد ناهز الاربعين أو اكثر من عمره ورأى فى سبيله فى الحياة عقباتلم يستطع التغلب عليها فانه تفرغ للتاليف فى قلعة « ابن سلامة » فشعر ان الافكار اخذت تأتيهكشآبيب الغيث المنهمر وبقى من سنة 776 هـ الى 780 هـ اتم فيها كتابة « العبر » وانجز وضع ماكان يفكر به من آراء حول العلم الذى استنبطه وهو العمران اشهرا فقط فخرج من بين يديهمؤلف فريد فى بابه .

ولتاييد ما جرى لابن خلدون فى حياته منتصرفات فى ميادين السياسة أو غيرها ، يلزم علينا سرد تاريخ منفصل لاعماله نذكر فيه كلحادثة أو مناسبة جرت له ونعللها ونقلبها من وجوه عديدة ، لا سيما وان المؤلف لم يترك لنا بابا نولجه أو طريقا نسلكه بهذا الشان ؛ فهو لا شك لم يعتزل الحياة العملية السياسية ليتفرغ للكتابة لمجرد ذلك لان الاثر العميق الذى تركته احوال بلاده استأثر عليه كل افكاره واعماله ولميعرف عنه انه سعى لمجد مؤثل أو ثروة طائلة أو صيت ذائع أو الجلوس على ارائك وثيرة لان الاسفارالتى قام بها والمهمات التى اضطلع بها تكاد تؤدى بحياة اشد الناس عزيمة واقواهم جسما ،فهو فى الحقيقة يظل يجهد نفسه وكان يعمل فى

سبيل تحقيق هدف وانجاز عمل يكون من ورائهأثر كبير للعالم وليس هو بالفيلسوف المثالى ولا بالمستبد برائه وقوله وفى تنفيذ قراراته ، مـع العلم انه اينما حل واستقر كان يحتل مركز الاهتمام والاحترام لعلمه ولفضله الجم وهذا ما سجلـــه له التاريخ فى جميع المناسبات وهى كثيرة ومنها :

اعمـــال ابن خلـدون

أولا : انه قبل الوظيفة فى ديوان السلطـــان الفضل بن السلطان يحيى الحفصى واستـــوزر بن تافراكين الذى ولى ابن خلدون فى سنة 750هـ/ 1350م وظيفة «كتابة العلامة» ومع ان هذا لا يقتضى الكثير من العمل ولكن قبول ابن خلدون بهـــذه الوظيفة لاول مرة فتحت له الباب لمجالسة اهـل الدولة والاطلاع على خفايا الامور الادارية وغيرها من شؤون الحياة العامة ، والمعروف ان بـــين آل خلدون والحفصيين من المودة والصلات الطيبة ما جعل المؤلف يقبل هذه الوظيفة وكلهم فى النكبة سـهـــواء ٠

ثانيا : انه اتصل بالسلطان ابن عنان فاكرم وفادته واخذ يظهر ولاءه ، فعينه السلطان عضوا فى مجلسه العلمى بفاس حيث اقام هنالك عام 755 هـ وافسحت له هـذه المناسبـة ليطلع على احوال المغرب الاقصى بعد ان عرف المغرب الادنى والاوسط وفى اثناء ذلك كله لا ينصرف عن الدرس والتدريس ومتابعة قراءة الكتاب ومحادثة العلماء ورجال الدولة ويختلف الى مكتبات فاس التى كانت من اغنى المكتبات الاسلامية فاتسع اطلاعه ٠ وكان لزيارته لفاس اثر طيب فى نفسه اذ قال :

« وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من اهل المغرب واهل الاندلس الوافدين فى غـرض السفارة (أى السفارة بين امرائهم وسلطان المغرب الاقصى) وحصلت من الافادة منهم على البينة »(1) ـويبدو من كلامه انه اثناء هذه الاقامة فى فاس اخذت تتكشف له النظريات التى كانت تشغل باله عن احوال البلاد فى الاندلس والآن فى المغرب الاقصى وقبل ذلك فى المغرب الاوسط ٠

ثالثا : انه بعد اقامته نحـو سنتين فى فاس شعر انه يستطيع التحرك سياسيا ليتمم بغية لم يفصح عنها فقد اتفق مع الامير الحفصى ابو عبد الله محمد الحفصى صاحب بجاية المخلوع ، وكان اسيرا فى فاس وجرى بينهما التفاهم على ان يوليه منصب الحجابة (وهو ارقى منصب فى الدولة) ويسعى

1) التعريف ـ 59

لتحريره واسترداد ملكه (2) . ولم يفعل ابن خلدون ذلك الا وهو يعلم نتائج عمله وبعد ان كتب كتابه الكبير « العبر » يظهر من آرائه هدف بعيد شعر انه قد يتحقق اذا عاد الامير المخلوع الى بجاية وهى المنطقة التى بعث كحاضرة لعالم جديد حتى ان مدينة بجاية اصبحت كعبة الرواد من جميع الاصناف وظهر عليها من العمران ما جعل المؤلف يفكر بأن يضعها محورا لمشروعه العلمى أو بالاحرى « نظرية العمرانية » ويعرف ما بينه وبين الدولة الحفصية من العلاقات الطيبة فاذا نزح العمران عن قرطبة لماذا لا يكون مستقره فى بجاية وفيها جميع اسباب الازدهار والعمران حسبما كان يفكر ابن خلدون بالطرق التى أوجزها فى كتابه الاول من كتاب « العبر » .

رابعا : انه لم يكف عن السعى لتحقيق بقيته وبعد ان رأى مشروعه الاول مع الامبراطورية الحفصية فلماذا لا يجادل مع الدولة المرينية ورأى ان الفرصة كانت تسنح له وذلك ان أبا سالم بن ابى الحسن كان يسعى لاسترداد العرش فعبر من الاندلس حيث كان اخوه ابو عنان قد نفاه الى المغرب وارسل الى ابن خلدون يقوم ببث دعوته والتمهيد لاستلائه على السلطان ومن ثم ينزله اعظم منزلة وجلس ابو سالم على العرش بفضل جهود ابن خلدون سنة 760 هـ وعين ابن خلدون فى كتابة سره وجعله موضع ثقته وعطفه(3) وظل ابن خلدون عامين فى كتابة السر والانشاء والمراسيم للسلطان ابى سالم وقد غير ابن خلدون فى طرق الكتابة ولعله بدأ يخط مشروع كتابه « العبر » ويبنى لنظريته العمرانية الاسس لتطبيقها أو الاعلان عنها شيئا فشيئا ولكن اخيرا قام رجال الدولة واولو الرأى بثورة على السلطان ابى سالم وانتهت الثورة بخلع السلطان وتولية اخيه فخاب أمل ابن خلدون ثانية وقرر الرحيل عن فاس ؛ وكأنه اراد اجراء محاولة ثالثة فى ابن حمو من بنى عبد الواد فى تلمسان والآن وقد فشل مع الحفصيين والمرينيين وهنا أيضا لم تنجح خطته فمنع المرور بطريقه على ابى حمو فى تلمسان وذهب الى غرناطة بالاندلس فى عام 764 هـ بعد ان قضا ابن خلدون بالمغرب الاقصى نحو ثمان سنين وفى غرناطة جرت له سفارة بين ملك غرناطة وملك قشتالة « لطهره بن الهنشة بن أذقونش » . (1)

2) كان ذلك فى سنة 758 هـ واطلع ابو عنان على هذا التدبير فسجن الامير وابن خلدون واطلق سراح الاول وبقى الثانى فى السجن مدة عامين واطلق سراحه بعد وفاة السلطان ابن عنان عام 759 هـ .

1) التعريف ـ 70 .

2) تحقيق المقدمة للدكتور على عبد الواحد وافى ـ ص 78 .

خامسا : لا شك ان ابن خلدون اثناء اقامتـهفى غرناطة وذلك فى سنة 764 هـ كان يكمل مـن كتابه ما كان ينقصه من اطلاع وتثبيت لما شاهدهفى الاندلس ولا سيما فى اشبيلية موطن اجداده ولا يعلمنا المؤلف ماذا كان يدور بين الشيخـين الجليلين ابن خلدون وابن الخطيب وهما يملكان قدرة عقلية فائقة ولا بد انهما تناقشا فى شؤون البلاد كلها ومستقبلها والاخطار التى كانت تحدق بها وهما اعلم ببواطن الامور وفى هذه الاثنـاء وافق وقت وجوده بغرناطة ان ابا عبد الله محمد الحفصى ـ امير بجاية ـ وفيها الحبيب والمحبوبـةلدى قلب ابن خلدون واليهما يستطيع ذلك الفكر المتوقد والعالم المتبحر وزاد العزيمة القعساء التىلا تعرف الوجل والكلل لان الامر هام وخطـير والعمر قصير وكان لابد ان يتحفز ابن خلدونمرة ثانية وقد سنحت له الفرصة فقد عاد ذلـك الرجل الى ملكه واستولى على عرش بجاية مـــنسنة 765 هـ ولم ينس هذا الامـير ابن خلدون ولم ينس الوعد الذى كان قد قطعه معه بان يوليه الحجابة اذا تم له استرداد عرشه .

ولما كتب الامير الحفصى الى ابن خلدون قـــرر السفر فى سنة 766 هـ وركب البحر من المرية الى بجاية فىمنتصف سنة 6 7هـ وقضىفىالاندلس نحوسنتين ونصف سنة ، وهنا فى بجاية بدت الامور تسير حسبما كان يشتهى ويفكر فاستقبله الاميروالناس وولاه الحجابة وصار صاحب السلطة الاولى بعد الامير ويقول ابن خلدون انه رغم قيامـــه بتصريف الامور كان لا ينفك عنالمطالعة والتدريس بجامع القصبة (2) واستفاد من اقامته هنا انـهاتصل بالناس وخالط القبائل وعرف نزعاتهـا واهوائها ولكن الامور تسير على غير ما يهـــواهفتنشب الخصومة بين الامير ابى عبد الله أمـير بجاية وابن عمه السلطان ابى العباس احمـــدصاحب قسنطينة الذى كان يرغب فى امتـلاك بجاية لاهميتها فقام بمساعدة القبائل وهاجـــمالمدينة سنة 767 وقتل ابا عبد الله ؛ اما ابـن خلدون فقد خاطبه الناس لاستلام زمام الامـــروالبيعة لبعض ابناء السلطان الصغار ولكنه رفض مسايرة القوم فى بجاية وفضـــل الخروج الىالسلطان القادم الجديد ابى العباس الذى اقــره فى منصب الحجابة واخيرا وجد ابن خلدون خوفامن بطش السلطان به ان يخرج من بجاية وينزوى فى « بسكرة » وحاول « ابى حمو » فى تلمســاناستمالة ابن خلدون واستخدامه ولكن الاخير علم ان بغيته التى تدور فى نفسه لم تتحقق فعزف عنقبول الوظيفة لدى « ابى حمو » وفضل كتابة

---

(1) التعريف ـ 98 .

ما كان يفكر به فى كتاب يرضى بذلك نفسهواكتفى بالرد على ابن حمو بان اجابة لبث الدعاية بين القبائل من اجل استلائه على بجاية التى اصبحتفى ذلك العصر حضرة المغرب كله لما جاء اليها من العمران وتوافد عليها الناس من الاندلسفعاد ازدهارها الذى شهدته فى ايام الدولة الحمادية واكثر فازدادت صلاتها مع العالم ولا سيماأوربا وازدادت تجارتها فاصبح المغرب الاوسط وكانه اندلسيا ثانية من ناحية العمران والسكانأما ابن خلدون فقد انعكف فى قلعة بنى سلام لتاليف كتابه مرة اربع سنوات واربع اخرى راجع كتابته فى تونس وذلك قبل الرحلة للشرق

التعريف « بعلم العمران »

عرفنا ابن خلدون ببجاية حاضرة المغرب من خلال قراءة تاريخه وسنعرفهما الآن عن طريق معرفة علمه الجديد الذى استبنطه وسماه « علم العمران » وقد اشتهر ابن خلدون بتاريخه الذى لا يقل اهمية بالنسبة للمغرب عن علمه ، ولنعرف الآن ماذا اراد المؤلف بوضع هذا العلم الذى استخرج الاسس الهامة فيه من تاريخه الذىضمنه كتابه المشهور بالعبر فانه يجدر بنا العودة الى موضوع « حركة نزوح » الاندلسيين الى المشرق واستيطانهم فى المغرب وقد لاحظ ابن خلدونهذه الظاهرة العجيبة وتابع تطوراتها وكانت نتيجةدراسته هذه فى « نظرية عمرانية » وضع فيها خلاصة أفكاره وما توصل اليه من آراء تساعده على فهم سيرها لا فى المغرب فقط بل فى العالم كله ٠ فما هى هذه النظرية وما هو هذا العلم ـ علم العمران ـ وما هى اهميته ؟

قال ابن خلدون فى تعريفه للعمران بما يلى :

« انه هو التساكن والتنازل فى مصر أو حلة للامس البشر واقتضاء الحاجات » وسمى هذه العملية « عمرانا » لان الآية الكريمة تقول :

« ٠٠٠ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيرههو انشاكم من الارض واستعمركم فيها » (1) ٠

وانطلاقا من هذا المعنى اخذ ابن خلدون يدرس التاريخ ، تاريخ بلاده أولا وخصه بالاهتمام لانه استطاع ان يطلع على حوادثه ووضع لنفسهمنهاجا لدراسته فاخذ يجمع اثناء رحلاته فى البلاد ملاحظاته الحسية وما شاهده من آثار هذهالظاهرة كمادة أولية ثم اخذ يستخرج منها مسائل

1) القرآن الكريم سورة هود ، 11/61 ٠

كثيرة انتهى من دراستها الى اكتشاف قوانين عامة تتحكم بسير هذه الظاهرة التى بدت له انها ازلية وهى باقية ما بقى فى الوجـود اجتمـاع بشرى ووجد ابن خلدون ان هذه الظاهرة احيانا تأخذ اشكالا مختلفة على حسب البيئة والعصر الـــذى تأخذ سيرها فيه فاحوالها هى احوال البشر فى معاشهم وصناعاتهم واعمالهم الاخرى التى تظل فى جوهرها واحدة وهذا ما دعى بعض المؤرخين ان يقولوا ان التاريخ يعيد نفسه والحقيقـة ان الحركة العمرانية واحدة ولكن العادات والنظم تختلف بحسب الظرف الذى يحيط بها فشبه ابن خلدون ذلك بالاحداث الماضية وهى تماثـل ما يحدث الآن وسيحدث غدا بالماء دائما يشبه الماء وانما يختلف الاناء وما كانت وظيفة التاريـــخ دائما الا انه كالجراب يستوعب ما جرى من حكمة أو عبرة عبر العصور كلها ٠

وعلى ذكر الحركة العمرانية هذه التى لاحظها ابن خلدون فى الاندلس والمغرب وجد انها قـد تكبر وتصغر وتسرع وتبطىء وفقا لظـروف أو صروف الدهر واحواله فالانسان المدنى أو الحضرى أو البدوى سواء فهو سائر فى حركة عمرانيـــة والاختلاف بين الاثنين نسبى تماما فما اندفـــع المسلمون من جزيرتهم العربية الا انهم شعــــروا بحركة خفية تدفعهم وربما كانت الحاجة أو الدعوة الاسلامية التى زادت فى سرعة سير هذه الظاهرة ولكن ابن خلدون يقول بان الحركة العمرانية تسير بدوافع اخرى غير دينية بدليل وجود العمران من الازل ٠ وعلى هذا الاساس فان «نزوح» الاندلسيين امر طبيعى لان القوانين التى تتحكم بالحركـــة العمرانية طبيعية ازلية سماها ابن خـــلدون « بطبائع العمــــران » ٠ وتنازلهم وتساكنهم فى المغرب الاقصى وعلى سواحل المغرب الاوسط وفى غيره من المناطق امر طبيعى وقد ثبت هذا الامـــر بشكل واضح فى ازدهار مدن المغرب الاوســـط وخاصة بجاية التى شاهد ابن خلدون مظاهر هذه الحركة العمرانية باجلى مظاهرها ٠

وعلى سبيل المثال والتأكيد فلم يكن الفتح العربى الا امتداد لحركة عمرانية واسعـــة لان البواعث لها كثيرة وقوية واقوى شىء فيها «الدعوة الاسلامية » وقد تقتصر الحركة العمرانية عـــلى نطاق ضيق فتظهر فى حياة مدينة تظهر وتزدهر ثم تندثر أو كانت احيانا تتباطؤ وتكسل فيقل عمرانها الى ان يأتيها الرفد من السكان وتنصب سياجا لها بتوطيد ملكها فتعود تتحرك وتواكب ركب « الحضارة » والامر بالنسبة لابن خلـدون عبارة عن معرفة وعمل وادراك ما هو حسن واحسن وفاضل وافضل ٠ ونتيجة لهذه النظرية العمرانية فكلما تبحر الانسان فى العمران وقارب الحضارة واصبح عمله لا للعمل خالصا بل للعمل للبذخ والترف كان سيره معاكسا لحركة العمران الفلكية

وهو قد لا يجد نفسه مندحرا متدهورا ولكن يجدنفسه امام كوارث لا يفهمها وهو كان من ناحيته السبب فى وجودها لانه لم يساير ولم يتلاءم معشروط سير هذه الحركة فيجد نفسه فى ارض غير ارضه وحضارة غير حضارته وعصر غير عصره فلايعلم ماذا يفعل ويشعر بنفسه تائهة حائرة وهذا ما حدث لشعوب وحضارات اندثرت وحلت مكانهاشعوب وحضارات جديدة ٠

قلنا قبلا ان ابن خلدون لم يميز العمـــرانالحضرى عن العمران البدوى الا باختلاف طبيعة العمل بالنسبة للمعاش فالبداوة بهـــذا المعنى حضارة ولكنها تختلف فى سيرها بالنسبـــة للحركة العمرانية ولم يكن الفتح العربى للمغرب والاندلس طمعـا بارض أو مال وانمـا تهيـأت الظروف سواء من ناحية بلاده او من ناحية البلادالمفتوحة التى ساعدت عـــلى هذا المد الاسلامى العربى وبعد ثلاثة قرون تقريبا من الفتح أخـــذسكان الاندلس ينعمون بترف زائف ولم يعـــد عمل الناس يصرف من اجل العمل الـــذى هو الضمان الوحيد لحفظ النوع كما هـــو الامر فى الكائنات الاخرى فشعروا بتقاعسهم وتخاذلـــواامام مد جديد من طرف الاسبان فتحركوا نحـــو الناحية الضعيفة بالنسبة لهم ووراءهم « دعوة »أو عصبية كما يسميها ابن خلدون ولم يكن المد الاسبانى موجها للمشرق بل اجتاز البحـــر الىمجاهل افريقيا وامريكا ويقال ان « كورتز » فاتح المكسيك عرض على ملك الاسبان معاودة فتـــحالجزائر بعد ان فشل شارل الخامس فى فتحهـا 1509 هـ على شرط ان يتركوا الحكم له فيها فرفضطلبه ولا نغالى ونحن بصدد هذه الحركة العمرانية اذا قلنا ان المد الجديد فى المغرب وخاصـــة فىالجزائر يشير بمستقبل زاهر لان الهمم اخذت تشحذ لمباشرة العمل المثمر والعمل لاجل العمل الذى هواحدمقوماتالعمران حسبنظرية ابنخلدون العمرانية ولا يبعد بنا الزمن الا ونرى ان البلادالجزائرية بما فيها من مدن وقرى ومؤسسات تسير وفقا لطبائع الحركة العمرانية التى وضع لهـــا ابن خلدون « علم العمران » وهو علم جديد ووضع كل رسالته فيه ٠

ثمـــرات النظرية العمرانية :

وتوصل ابن خلدون الى تحقيق انجاز علـــميبالاضافة الى « علم العمران » الذى استنبطه وكان من ثمرات دراسته لهذا العلم انه اكتشف معنىللتاريخ ارتفع بموجبه الى مرتبة العلوم أو الفنون، اذ ان العمران بمفهوم ابن خلدون لا يتم الا بجمعما توصل اليه الانسان منذ القديم من حصيلـــة

عمرانية سواء كانت بطريقة الجمع أو الاتعاظ بهاعلى سبيل « العبرة » فالعمران بحوادثه هو المبتدأ وما التاريخ الا وهو « الخبر » ٠

وكذلك ظهرت ثمرة ثالثة على هامش « علـم العمران » أخذ يولى العلماء اهتمامهم بها حديثا وهي « الثقافة » وهي مجموعة ما يتوصل اليـهالانسان من نظم ومعرفة واصول وعادات وغيرها فتصبح على مر العصور « حصيلة » لما قام بـــهالانسان منذ القديم فيودعها تاريخه الذى المنا اليه وبهذه الوسيلة وبطريقة العمران يستطيعالانسان ان يتعرف على وضع بلاده في « المسيرة العمرانية » بواسطة اجراء دراسات ثلاثة متلاحمة متلائمة دراسة عمرانه وتاريخ عمرانـــه والثقافة التى تربط بين الاثنين فاذا كانت البلادوالشعوب التى تعيش فيها تسير وفقا لطبائـع العمران العامة فانها ولا بد باقية وخالدة ايضا ٠



دقة ابن خلدون وصرامته

- في شؤون العلم والقضاء
- ومرونته في شؤون السياسة

مظهران لهذه المرونة وفي توليه أمور بجاية، وفي لقائه مع تيمورلنك

د. علي عبد الواحد وافي
كلية الآداب
جامعة محمد الخامس
المغرب

من اهم صفات ابن خلدون انه كان يلبس لكل حال لبوسها اللائق بها ، ويقف حيالها الموقف الموائم لشئونها :

ففي ميادين البحث الاجتماعي كان يجرد نفسه من جميع الافكار المسبقة ، ويدرس الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية ناظرا اليها على انها اشياء ، ويجرى مناهج البحث العلمى على معطياتها للوقوف على حقيقتها ووظائفها وطرائق تطورها وما تخضع له في مختلف اوضاعها من قوانين بالمعنى العلمى لكلمة قانون . فاستحدث بذلك في دراسة هذه الظواهر علما جديدا لم يسبقه اليه احد من الباحثين من قبله وهو ما نسميه الآن علم الاجتماع أو «السوسيولوجيا» لان قوام هذا العلم هو دراسة هذه الظواهر بهذا المنهج ولهذه الاغراض .

وفي هذا يقول هو نفسه : « واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنفة غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أكثر عليه البحث ، وادى اليه الغوص ... وكانه علم مستنبط النشاة ، ولعمرى لم اقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة » (1) .

وكان في بحوثه التاريخية يمحص ما يصل اليه وما يطلع عليه في بطون الكتب من الاخبار تمحيصا دقيقا ، ليميز بين غثها وسمينها وفاسدها وصحيحها ، فيستبعد منها ما تحوم حوله شبهة

1) المقدمة تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، الجزء الاول صفحة 414 .

الكذب المتعمد الذى تدفع اليه عوامل كثيرة منها التزلف والتملق للملوك والرؤساء وذوى الجـاه او شبهة الكذب غير المتعمد الذى يحدث نتيجة للتشيع للاراء والمذاهب ، ويستبعد كذلك ما تحكم قوانين الطبيعة او قوانين علم النفس او قوانين الاجتماع او العادات المألوفة باستحالة وقوعه ، وقد ضرب لذلك كله امثلة كثيرة من مغالط المؤرخين فى فاتحة مقدمته (1) ولا ياخـذ مما يبقى بـعد استعباد هذا كله ما يدعمه تواتر موثوق به او يؤيده سند قــوى ·

*

وفى ميادين القضاء الذى تولى شئونه فى مصر (عين اكثر من مرة قاضيا لقضاة المالكية فى مصر) كان مثلا اعلى فى توخى العدالة فى ادق معانيها ، والحرص على المساواة بين جميع الناس امام القانون ، والعزوف عن طرائق الحيـل والالتواء والمحاباة ، والصرامة فى توقيـــع العقوبات على مستحقيها · وقد شهد له بذلك كله حتى الدخصومه انفسهم ، وكان هذا سببا فى اثارة السخط عليه من كل ناحية ، ولكنه لم يابه لشىء من ذلك ، وسار فى جادته لا يخشى لومة لائـم ولا يلقى بالاطاعى ان يناله من جراء ذلك من اذى ، وقد حلت به بالفعل بسبب هذا المسلك كوارث جمة بدون ان تقوى على زحزحته شروى نقير عن منهجه ، ويصف هو نفسه مواقفه هذه اذ يقول : « فقمت بما دفع السلطان الي (يقصد الظاهر برقوق سلطان مصر حينئذ » من ذلك المقام المحدود (يقصد منصب قاضى قضاة المالكية الذى ولاه السلطان اياه بمصر) ووفيت جهدى بما امننى عليه من احكام الله ، لا تاخذنى فى الحق لومة ، ولا يزعنى عنه جاه ولا سطوة ، مسويا فى ذلك بين الخصمين ، آخذا بحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عــن الشفاعات والوسائل من الجانبين ، جانحا الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ·· وكبحت اعنة اهل الجهل والهوى ، ورددتهم على اعقابهم ··· فارغمهم ذلك منى ، وملاهم حقدا وحسدا على ··· وانطلقوا يدرسون الى السلطان التظلم منى ··· وانا فى ذلك محتسب عند الله ما منيت به من هذا الامر ، ومعرض عن الجاهلين ، وماض على سبيل سواء من الصرامة ، وقوة الشكيمة ، وتحرى المعدلة ، وخلاص الحقوق ، والتنكب عــن خطة الباطل متى دعيت اليها ، وصلابة العـود عن الجاه والاغراض متى غمزنى لامسها ··· ولم يكن ذلك شان من رافقته من القضاة ··· فكثر الشغب على من كل جانب ، واظلم الجوبينى وبين اهل الدولة » (2) ·

---

1) المرجع السابق صفحات 350 — 413 ·

2) انظر : على عبد الواحد وافى : « عبقريات ابن خلدون » صفحات 81 — 84 ، وانظر كتـاب « التعريف بابن خلدون » وهو الكتاب الذى ترجم فيه ابن خلدون عن نفسه ، طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة 1951 ، تحقيق محمد تاويت الطنجى ، صفحات 254 — 260 ·

ولكنه فى ميادين السياسة كان يتقمص شخصية أخرى تختلف كل الاختلاف عـن شخصيته فى ميادين العلم والقضاء · وذلك انه لما كانت السياسة فى عهده ـ بـل لعلها كذلك فى جميع العهود ـ تقتضى المرونة والتلون والالتواء ، فقد لبس لها لبوسها ، فتلون والتوى حينما دعته الى ذلك مقتضياتها ·

وفيما يلي موقفان ليس فى كليهما للسياسة هذا اللبوس : احدهما موقفـه حينما تولى شئون بجاية ، والآخر موقفه فى لقائه مع تيمورلنك ·

اما فيما يتعلق بموضوع بجاية فان اميرها ابو عبد الله محمد الحفصى قد كتب الى ابـن خلدون سنة 766 هـ يستدعيه من غرناطة ، ليشاركه فى أمره ، ويوليه حجابته (وكان منصـب الحجابة حينئذ ارقى منصب فى الدولة بعد منصب السلطان ، ويشبه منصب رئيس الوزراء فى عصرنا الحاضر) ، فبادر ابن خلدون بتلبية هذا العرض الكريم · ولما وصل الى بجاية فى منتصـف سنة 766 استقبله اميرها نفسه واستقبله اهلها استقبالا حفيا يصفه ابن خلدون اذ يقول : « فاحتفل السلطان صاحب بجاية بقدومى ، واركب اهل دولته للقائى ، وتهافت اهـل البلد على من كل اوب يمسحون اعطافى ، ويقبلون يدى ، وكان يوما مشهودا » (1) ويصـف المنصب الذى تولاه فى بجاية وهو منصب الحاجب فيقول انه يمنح صاحبه « الاستقلال فى الدولة والوساطة بين السلطان واهـل دولته ، لا يشاركه فى ذلك احد (2) ، ويمضى ابن خلدون فى وصـف ما قام به فى هذه الفترة فيقول : « فاصبحت من الغد ، وقد امر السلطان اهل الدولـة بمباكرة بابى ، واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدى فى سياسة اموره وتدبير سلطانـه وقدمنى للخطابة بجامـع القصبة ، وانا مع ذلك عاكف ـ بعد انصرافى من تدبير الملك غدوت الى تدريس العلم اثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك » (3) ·

وهكذا جمع ابن خلدون فى هذه الفترة بين ارقى مناصب الدولة وارقى مناصـب العلم ، ومنحت له فرصة طيبة لاشباع مطامعه العلمية العميقة من جهة وارضاء ما كان يطفو على سطحها من تيارات تندفع به نحو السياسة من جهة اخرى · ومضى يدبر الامور بعزم ، ويعالج الفتـن القائمة ، ويتجول بين القبائل البدوية يجنى منها الضرائب بدهائه وصرامته (4) ·

1) التعريف 97 ـ 98 ·
2) التعريف 97 ·
3) التعريف 98 ·
4) التعريف 98 ·

ولكن الخصومة ما لبثت أن نشبت بين الامير ابى عبد الله امير بجاية وابن عمه السلطان ابى العباس احمد صاحب قسنطينة ، وكان ابو العباس يتطلع الى امتلاك بجاية ، فاخذ يثير على اميرها القبائل والبطون المجاورة • وفى سنة 767 هـ قصدها بجموعه فهزم ابا عبد الله وقتله ودخل بجاية ظافـــرا •

وكان ابن خلدون حينئذ يلزم القصر فى بجاية • وقد طلب اليه بعض الزعماء أن يدعو لصبى من ابناء السلطان القتيل ويقوم هو بالامر باســم هذا الصبى ويدافـــع عن البلاد ويرد عنها المعتدين ، وكان الوفاء للسلطان القتيل الذى اسدى اليه اكبر فضل وولاه ارقى وظيفة فى دولته ، والبر بالبلاد التى اكرمته ، كان كل ذلك يقتضيه ان يذعن لما طلبه اليه هؤلاء الزعماء ، ويدافع عن البلاد ويحاول ان يرد عنها الاعتداء ، ويحفظ العرش للاسرة المالكة ، ولكنه لم يذعن لهذه المثـل العليا وما تتطلبه من غلاب وتضحية واقدام ، واذعـــن لمقتضات السياسة والتواءاتها ، فآثـــر العافية ، وأبى ان ينفذ ما اشار به عليه هؤلاء الزعماء ، ولم يتخذ موقفا سلبيا فحسب ، بل خـرج الى تحية الظافر ، والانضواء تحت لوائه ، وسلمه المدينة ، ويصف ابن خلدون هذا الموقف فيقول : « وجاءنى الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره ، وطلب منى جماعة من أهـل البلد القيام بالامر ، والبيعة لبعض الصبيان من ابناء السلطـان ، فتناديت من ذلك ، وخرجـت الى السلطان ابى العباس ، وامكنته من البلد (1) •

فاكرمه ابو العباس فى مبدأ حكمه ، واقـره فى منصب الحجابة حينا ، ثم ما لبث ان ارتاب منه ، فتنكر له ، ورغب عن خدمته ، فتوجس ابـن خلدون خيفة منه ، واستأذن فى الانصراف الى احد الاحياء القريبة ، فأذن له ، ولكن عن له بعد ذلك ان يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة وهكذا كانت نتيجة المرونة والتلون والالتواء •

وأما فيما يتعلق بلقائه مع تيمورلنك فان ابن خلدون نفسه يصفه وصفا رائعا دقيقا اذ يقـــول « فلما وقفت بالباب خرج الاذن باجلاسى فى خيمة هناك تجاور خيمة جلوسه ، ثم زيد فى التعريف باسمى انى القاضى المالكى المغربى (كان ابـن خلدون حينئذ مقيما بمصر وكان قد تولى فيهـــا منصب قاضى قضاة المالكية ، ولكنه وقت لقائـه مـع تيمورلنك لم يكن فى هذا المنصب) فاستدعانى ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئا على مرفقــه ،وصحاف الطعام تمر بين يديه ••• فلمـا دخلت عليه فاتحت بالسلام ، واوميت ايماءة الخضوع فرفع رأسه ومد يده الى فقبلتها ، واشار بالجلوس فجلســـت حيث انتهيت ، ثـــم استدعـى من بطانتـــه الفقيـه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فاقعده يترجم بيننا) •

1) التعريف 99 •

وبعد أن ذكر ابن خلدون ما دار بينهما من حديث يتعلق بتاريخ ابـن خلدون وحياته فى مصر ، وحياة أسرته فى المغرب ، وما استطرد اليه هذا الحديث من الكلام على بلاد المغرب الادنى والاوسط والاقصى ، وســؤال تيمورلنك عــن مواقع هذه البلاد ، قال ان تيمورلنك لم يكتف بما قلته له شفويا وقال له : « احب ان تكتب لي عن بلاد المغرب كلها اقاصيها وادانيها وجباله وانهاره وقراه وامصاره حتى كأنى اشاهده · فقلت يحصل ذلك لسعادتك · وكتبت له بعد انصرافى مــن المجلس ما طلب من ذلك واصبت الغرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر ثنتي عشرة من الكراريس المنصفة (1) » · ويظهر ان تيمورلنك كان يقصد غزو المغرب ، فاراد ان يقف على تفاصيل بــلاده ومواقعها وجغرافيته · **ولم يجد ابن خلدون غضاضة فى ان يعينه على غزو موطنه الاصلى ومسقط راســـه ·**

ويظهر ان ابن خلدون قد عاوده حينئذ داؤه القديم ، وســـاوره الحنين الى المغـــامرات السياسية ، فكان يعلق على صلته بتيمورلنك آمالا كبيرة ، ولعله كان يأمل الانتظام فى بطانة هذا الفاتح والحظوة لديه · ولذلك أخذ يطنب فى مدحه ويذكر له انه كان عظيم الشوق الى لقائه منذ امد طويل ، ويتنبأله فى مستقبله بملك عظيم مستدلا على صحة تنبوءاته بحقائق عــلم الاجتماع واقوال المنجمين والمتنبئين بالغيب ، ويظهر كذلك أن ابن خلدون قد آنس سذاجة فى هذا الفاتـــح وحبا فى المديح ، فأخذ ينفخ فى كبريائه بهذه التنبوءات ، ويروى ابن خلدون ما ذكره لتيمورلنك بدون ان يصرح بما دعاه الى ذلك فيقول : « ففاتحته وقلت له : ايدلك اللــه الى اليوم ثلاثون او اربعون سنة اتمنى لقاءك · فقال لي الترجمان عبد الجبار : وما سبب ذلك ؟ فقلت امران : **الاول انك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما أعتقد انه ظهـــر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك –** ولست ممن يقول فى الامور بالجزاف ، فانى من أهل العلم ··· (ثم أخذ يؤيد قوله بنظريات اجتماعية عن قوة العصبية وأثرها فى الملك) ، وأما الامر الثانى مما يحملنى على تمنى لقائه فهو ما كنت أسمعــه من أهل الحدثان (وهم المنجمون والملهمون بالغيب من حوادث العالم من طوائف المتنبئين) بالمغرب والاولياء » · واختلق له طائفة من أقوال هؤلاء تتنباله بملك عظيم (2) ·

غير ان ابن خلدون لم يوفق الى تحقيق ما كان يأمله من تيمورلنك ، فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق ، واستأذن تيمورلنك فى العودة الى مصر فاذن له ·

---

1) التعريف 370 ·
2) التعريف 372 – 373 ·

وفضلا عن اخفاق ابن خلدون فى الوصول الى ما كان يامله من تيمورلنك فان هذه الرحلة كانت مغرما كبيرا له ، فقد تجشم فى اثنائها هديتين قدمهما لتيمورلنك ، وفقد فى طريق عـــودته منها جميع ما كان معه من مال ومتاع ·

وكانت الهدية الاولى تشتمل على « مصحف رائع حسن فى جزء محذو ، وسجادة أنيقة ، ونسخة من قصيدة البردة الشهيرة للبوصيرى فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم واربع عــلب من حلاوة مصر الفاخرة » (1) ·

ويصف ابن خلدون الهدية الثانية فيقول : « ولما قرب سفرى ، واعتزم على الرحيل من الشام ، دخلت عليه ذات يــوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت الى ، وقال : اعندك بغلة هنا ؟ قلت نعم · قال حسنة ؟ قلت نعم · قال وتبيعها ، فانا اشتريها منك ؟ فقلت ايدك الله ! مثلى لا يبيع من مثلك · انما انا اخدمك بها وبامثالها لو كانت لي ، فقال انما اردت ان اكافئك عنها بالاحسان ، فقلت وهل بقى احسان وراء ما احسنت به : اصطنعتنى واحللتنى من مجلسك محـــــل ضواحك ، وقابلتنى من الكرامة والخير بما أرجو الله ان يقابلك بمثله ، وسكت وسكت ، **وحملت البغلة وانــا معـــه فى المجلس اليه ، ولم أرها بعد** » (2) · وهكذا أراد ان يضحك على تيمورلنك ويغرر به ، فضحك عليه تيمورلنك ، واستلبه اعز ما كان معه ·

ويصف ابن خلدون ما اصابه فى أثناء عودته من ضياع ماله ومتاعه فيقول : « وسافرت فى جمع من أصحابى ، فاعترضتنا جماعة من العشير ، قطعــوا علينا الطريق ، ونهبوا ما معنا ، **ونجونا الى قرية هناك عرايا** » (3) · وهكذا كانت النتيجة لما دعتـــه اليه مقتضيات السياسة وآمالها من مرونة ومداهنة والتواء !

---

1) التعريف 377 ·
2) التعريف 387 ·
3) التعريف 379 ·

إقامة ابن تومرت ببجاية وملالة

د. رشيد بورويبة
كلية الآداب
جامعة الجزائر

بمناسبة اصدار عدد خاص من مجلة الاصالة يتعلق بمدينة بجاية ظهر لنا من المفيد ان نذكر حدثا هاما وقع بعاصمة الحماديين فى عهد العزيز بن المنصور الأمير الحمادى الثامن وهو : اقامة ابن تومرت ببجاية وملالة ، ان ابن تومرت عند رجوعه من المشرق زار بالتوالى طرابلس والمهدية والمنستير وتونس وقسنطينة ثم وصل الى بجاية .

فاختلف المؤرخون فيما يخص تاريخ اقامة ابن تومرت بعاصمة بنى حماد فقال ابن القطان (1) انه وصل اليها سنة 511 /1117 ـ 1118 وذكر ابن خلدون 2 انه زارها فى سنة 1118/512 ـ 1119 واعلمنا البيذق (3) بانه اقام بها فى شهر رمضان وعيد الفطر بدون ان يحدد لنا السنة .

اننا بينا فى مقال صدر فى مجلة « تاريخ وحضارة المغرب (4) ان اصح القول فى نظرنا هو ما جاء فى كتاب ابن القطان .

مهما كان الحال نزل ابن تومرت ، عند وصوله الى بجاية ، مسجد الريحانية وكان اذ ذاك مصحوبا بيوسف الدكالى والحاج عبد الرحمن وابى بكر بن على الصنهاجي المكنى بالبيذق ، صاحب كتاب هام عنوانه « كتاب اخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » . وقام الفقيه السوسى ، كما كانوا يسمونه وقتئذ ، اثناء اقامته ببجاية بالتدريس والامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فيما يخص التدريس ذكر المراكشى (5) انه« اظهر بها تدريس العلم والوعظ ، واجتمع عليه الناس ومالت اليه القلوب » وافادنا البيذق (6) باسماء العلماء الذين كانوا يحضرون الى دروسه : محرز وابراهيم الزبدوى وابراهيم بن محمد الميلى ويوسف بن الجزيرى الجراوى وعبد الرحمن بن الحاج الصنهاجى القاضى .

اما فيما يتعلق بالامر بالمعروف والنهى عـــن المنكر فقال ابن القطان (7) : « لما دخل ابن تومرت بجاية لقى بها الصبيان فى زى النساء بالضفائر والاضراس والزينة وشواشي الخزوالقى الارذال قد فتنوا بذلك وانهمكوا فغير المنكر جده وازال ذلك الزى مستطاعه . ثم حضر عيدا . فراى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكملين ما لا يحل ، فزجرهم وغير ذلك عليهم فوقعت لاجل ذلك نفرة استطال فيها الشــر ،وسلب النساء حليها وقام الهرج » .

وذكر البيذق من جهته (8) : « كان ابن تومرت ينهى الناس عن الاقراق الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحيات للرجال ويقول لا تتزينوا بزى النساء لانه حرام وكان يبيح الطيب للرجــال والنســـاء » .

ولاحظ ابن خلدون (9) اخيرا : « ولما دخل ابن تومرت بجاية وبها يؤمئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من امراء صنهاجة وكان من المترفين فاغلظ له ولاتباعه بالنكير . وتعرض يوما لتغيير بعض المنكرات فى الطــرق فوقعت بسببها هيعة » .

كما تظنونه هذه الهيعة لم ترض الامير العزيز .

فذكر ابن القطان فى هـذا الصــــدد (10) :« فسال العزيز عن سبب ذلك ، فعرف بانـــه لا سبب له الا الفقيه السوسى وكذلك كان – رضى الله تعالى عنه – يعرف بالمشرق – ووجد المشنعون سبيلا الى القول فيه ، فقالوا وأوغروا عليه قلب العزيز ، فامر بجمع الطلبة لمناظرته فى جرأتـه على الملوك . فاجتمعوا فى دار احدهم واحتفلوا فى اعداد المطاعم والمشارب ووجهوا عن الامـام – رضى الله تعالى عنه – الى المسجد الذى كان يحل فيه ، فامتنع من الوصول اليهم ، فوجهوا اليه الكاتب عمر بن فلفول ، فلاصقه واقسم عليه ورغبه وتضرع اليه حتى أسعفه ، فوصل اليهم ، فناظروه وساءلوه ، فاجابهم ما اسكتهم ، ثــم سألهم فما أحاروا جوابا . ولاطفه ابن فلفـول عند ذلك يراوده على ترك ما هو بسبيله مــــن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وقال المراكشي (11) فى نفس الموضــــوع :« فامره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عن عاديته » .

اذن اضطر ابن تومرت الى مغادرة بجاية والى السير الى قرية ملالة التى تقع على نحو 7 كم من العاصمة الحمادية على الطريق التى تـــؤدى الى الجزائر العاصمة .

ولكن ذكر البيذق انه رجع اليها في يوم من الايام وعند وصوله الى باب البحر اهرق الخمر وقال : « المؤمن تمار والكافر خمار فرمى فيه اليد سبع ابن الامير العزيز وقالوا له من امرك بالحسبة . فقال الله ورسوله » (12) ثم رجع الى ملالة واستقر بها .

فوجد بملالة بنى اورياكل وهم على قول ابن خلدون (13) قبيلة صنهاجية ذات « اعتزاز ومنعه. فآووه واجاروه » . فطالبهم الامير العزيز باسلامه اليه ولكنهم «ابوا واسخطوه» ويعلمنا البيذق(14) من جهته « ان ابناء العزيز ، لما رأوا ابن تومرت بملالة قالوا له : « يا فقيه نريد ان نبنى لك مسجدا هنا » . فقال لهم – رضى الله عنه – ان شئتم ! فبنوا له مسجدا بها واقبل الطلبة يصلون اليه من كل مكان » .

اذن نرى ان السبب الاول الذى دفع ابن تومرت الى اختيار قرية ملالة لالقاء دروسه هو انه وجد بها حماية بنى أورياكل واعانة ابناء الامير الحمادى .

هناك سبب ثان وهو ان الفقيه السوسى كان يحدثه قلبه ان ، بملالة يقع حدث يؤثر تأثيرا كبيرا فى حياته . فذكر المراكشى (15) فى هذا الصدد ان ابن تومرت لما نزل ملالة « سمع وهو يقول ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل احرفها ، وذلك لما كان يراه ان أمره يقوم فى موضع فى اسمه ميم ولامان ؛ فكان – كما ذكرنا اذا كررها يقول : ليست هى ! » وقال البيذق من جهته (16) : « فكان الطلبة يقرؤون العلم عليه فاذا فرغوا جلس بين الطرق تحت خروبة العجوز وهو ابدا ينظر للطرق ويحرك شفتيه بالذكر وذلك الموضع يعرف بخروبة العجوز فبينما هو ذات يوم قاعد اذ سمعناه يقول الحمد لله الذى انجز وعده ونصر عبده وانفذ امره واقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر .

وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن انكره » . اما ابن خلكان (17) فذكر ان ابن تومرت « كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم اهل البيت وانه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس ، .وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو الى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه تاى ن م ل ورأى فيه أيضا ان استقامته ذلك الامر واستلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من اصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن »

والحدث الهام الذى كان ينتظره ابن تومرت هواتصال عبد المؤمن به لان جميع المؤرخين ما عدا ابن ابى زرع (18) والمراكشى (19) اتفقوا على انهذا الاتصال وقع بملالة ٠

ولكنهم اتفقوا او كادوا على المكان الذىوقع اتصال عبد المؤمن بابن تومرت فاختلفوا فى السبب الذى دفع عبد المؤمن الى السير الىملالة ٠

فذكر ابن القطان (20) : « ان بعد موت التونسى برباط تلمسان اتفق اصحابه المواظبون لمجلسه ان يجلبوا الى مكانه ابن تومرت ٠ فوجهوااليه عبد المؤمن ٠

ونجد فى « كتاب العبر روايتين عن السببالذى دفع عبد المؤمن الى الاتصال بابن تومرت ان الرواية الاولى ، الموجودة فى تاريخ قبيلةكومية (21) تؤيد رواية ابن القطان ٠ فجاء فيها ان طلبة تلمسان بعد موت شيخهم عبد السلامالتونسى ، بلغهم خبر وصول ابن تومرت ببجاية ٠ فتشوقوا « الى الاخذ عنه وتفاوضوا فى ذلكوندب بعضهم بعضا الى الرحلة اليه لاستجلابه وان يكون له السبق باتحاف القطر بعلومه ٠فانتدب لها عبد المؤمن على مكانه من صغر السن بنشاطه للسفر لبداوته فارتحل الى بجاية للقائهوترغيبه فى نزول تلمسان » ٠

وجاء فى الرواية الثانية التى توجد فى تاريخدولة الموحدين ان عبد المؤمن عند اتصاله بالفقيه السوسى كان حاجا مع عمه (22) ٠

واما المراكشى(23)وصاحب «الحلل الموشية(24)والبيذق (25) فذكروا ان عبد المؤمن كان يريد السفر الى المشرق لطلب العلم ٠ فاتجه نحو بجايةصحبة عمه يعلو ٠ فلما وصل اليها سمع الناس يتحدثون عن ابن تومرت فطلب من عمه ان يأذنله بالاتصال به ٠

هذا فيما يخص الظروف التى وقع فيها لقاءعبد المؤمن لابن تومرت ٠ اما فيما يتعلق بالاتصال نفسه فلنا روايات عديدة ٠

فقال البيذق فى هذا الصدد (26) : « اعلم يا اخى انه لما جد السير نحو الامام اجتمع مع الطلبة فى طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد فرفع المعصوم رضه رأسه فوافقه امامه فقال له ادخل يا شاب فدخل فاراد ان يقعد فىجملة الناس فقال له الامام المعصوم رضه اذن يا شاب فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم يقربهحتى دنا منه فقال له المعصوم ما اسمك يا فتى فقال عبد المؤمن فقال له المعصوم وابوك على فقال نعم فتعجب الناس من ذلك فقال له يا شاب

من أين اقبالك قال له من نظر تلمسان من ساحل كومية فقال له المعصوم تاجرا أم لا فقال له نعم. فزاد الناس تعجبا فقال له المعصوم رضه أيـن تريد يا فتى فقال يا سيدى نحو المشرق التمس فيه العلم فقال له المعصوم رضه العلم الذى تريداقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب فلما انصرف الناس من القراءة اراد الخليفة ان ينصرف فقال له المعصوم رضه تبيت عندنا يا شاب فقال له نعم يا فقيه فبات عندنا فلما جن الليل اخذ الامـام المعصوم بيد الخليفة رضهما وسار فلما نصف الليل نادانى المعصوم يا ابا بكر ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر فدفعته له وقال لى اسرج لنا سراجا فكان يقرأه على الخليفة من بعده وانا يومئذ ماسك السراج اسمعه يقول لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال يا فقيه ما كنت فى شيء من هذا انما انا رجل اريد ما يطهرنى من ذنوبى فقال له المعصوم انما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يدك ٠

ثم دفع له الكتاب وقال طوبى لاقوام كنت انت مقدمهم وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم أكثر من ذكر الله يبارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر » ٠

وجاء فى « الحلل الموشية (27) ان عبد المؤمن الذى كان اراد السفر الى المشرق لطلب العلم مر بملالة واتصل بابن تومرت » وجلس معه فسأله عن اسمه فقال له عبد المؤمن بن على وسأله عـن بلاده فقال له قطر تلمسان فقال تكون من تاجرا قال نعم وانا اريد الرحلة فى طلب العلم لبـلاد الشرق فقال له المهدى العلم الذى تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب الى ان اقرأ عليه المهدى كتابا يقول فيه لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن سراج الموحدين ٠ فبقى معه يقرأ عليه برباط ملالة » ٠

وعلى قول ابن خلدون كان ابن تومرت «يؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك»(28)

وذكر ابن الاثير من جهته ان ابن تومرت سأل عبد المؤمن عن اسمه وقبيلته « فاخبره انه من قيس عيلان ثم من بنى سليم فقال ابن تومرت هـــذا الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم ، حين قال ان الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس فقيل من أى قيس فقال من بنى سليـم فاستبشر بعبد المؤمن وسر بلقائه » ٠

وقال المراكشى اخيرا ان ابن تومرت «استدعى عبد المؤمن وخلا به وسأله عن اسمه واسم ابيـه ونسبه ٠ فتسمى له وانتسب ؛ وسأله عـــن مقصده فاخبره انه راحل فى طلب العلـــم الى

المشرق : فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال وما هو ؟ قال شرف الدنيا والآخرة ، تصحبنى وتعيننى على ما انا بصدده ، من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البدع ، فاجابه عبد المؤمن الى ما أراده » (29) .

هذا ما جاء فى كتب المؤرخين عن اتصال عبدالمؤمن بابن تومرت .

هناك احداث اخرى وقعت اثناء اقامة الفقيهالسوسى ببجاية وملالة .

فذكر ابن القطان (30) ان والد ابن تومرت« لحقه ببجاية قافلا ، فاكد عليه فى القفول شوقا اليه »

واخبرنا البيذق (31) بدوره بحدثين اخرينهامين أولهما هو ان يوما من الايام « اقبل رجلان يريدان المشرق اسم احدهما عبد اللهبن عبد العزيز والآخر عبد الصمد بن عبد الحليم فقال لهما الامام رضه من أين اقبلتما ايها الرجلانقالا من بلاد المغرب ... من درن من تينملل . فسألهما في قولهما ودعا لهما » والحدث الثانىهو ان احد ابناء ملالة اسمه يزرجن بن عمر اخذ عن ابن تومرت واراد ان يصحبه فى رحلته الىالمغرب الاقصى . فدعا الفقيه السوسى « براحل والدة يزرجن بن عمر المكنى بعبد الواحد الشرقيوقال لها يا راحل تتركين ابنك عبد الواحد يسير معنا فقالت له يا فقيه هو معك اذا اراد ان يسيرفقال لها يا أمى أسير معهم »

واعلمنا المراكشى (32) أخيرا ان عبد المؤمنعند رجوعه من فتح افريقية مر ببجاية « فسأل عن بياع بها سماه باسمه : فاخبره أهل السويقةبوفاته فقال : هل خلف عقبا ؟ قالوا : نعم ؛ فامر بشراء جميع الدكاكين التى بتلك السويقةوأوقفها عليهم ، وامر لهم بمال كثير ، ثم التفت الى بعض خواصه وقال له : اتيت الى هذا البياعولى وللامام ــ يعنى ابن تومرت ــ ولجماعة من أصحابنا من الطلبة ايام لم نطعم فيها ، وما معىالا سكين الدواة . فأخذت منه خبزا واداما ، ثم وضعت عنده السكين رهنا على ذلك ، فابى قبولهوقال لى : « انى توسمت فيك الخير ، فمتى اعوزك شىء فهلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك ! فحقهعليك اكثر من هذا » .

هذه هى الاحداث الهامة التى وقعت اثناء اقامةابن تومرت ببجاية وملالة . فغادر الفقيه السوسى هذه القرية الاخيرة بعد ايام على قول ابنخلدون (33) واشهر حسب البيذق (34) والمراكشى (35) . فكانت هذه الاقامة كما قد رأيناه ممتعة الى اقصى حد فقام ابن تومرت اثناءها بالتدريس والامر بالمعروف والنهى عن المنكرواستقبل اباه وشيخين من المغرب الاقصى اتصل

بيزرجن بن عمر المكنى بعبد الواحد الشرقى الذى اصبح من اخلص صحبته وبعبد المؤمن الذى خلفه على رأس الدولة المـــوحدية .

التعـاليق :

1) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 21
2) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 – ص 362
3) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 52
4) ر . بورويبة Chronologie d'Ibn Tumart, Revue d'histoire et civilisation du Maghreb, pp. 39-47.
5) المراكشى ، المعجب – ص 179 – 180
6) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 52
7) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 41
8) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – 52
9) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 – 467
10) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 41 – 42
11) المراكشى ، المعجب – ص 180
12) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 52
13) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 467
14) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 53
15) المراكشى ، المعجب – ص 181
16) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 53
17) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ، 4 – ص 138
18) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص 120 يذكر ان عبد المؤمن اتصل بابن تومرت بتاجرا
19) المراكشى ، المعجب – ص 182 ذكر ان اتصال عبد المؤمن بابن تومرت كان بفنزرة أو بملالة
20) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 22 – 23
21) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 259
22) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 467

23) المراكشي ، المعجب – ص 182
24) الحلل الموشية – ص 86
25) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 53
26) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 55 – 56
27) الحلل الموشية – ص 86
28) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 259 – 260
29) المراكشي ، المعجب – ص 181
30) ابن القطان ، نظم الجمان – ص 35
31) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 57 – 58
32) المراكشي ، المعجب – ص 231
33) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ، 6 – ص 467
34) البيذق ، كتاب اخبار المهدى – ص 54
35) المراكشي ، المعجب – ص 181





عباقرة من رجالنا
تزهى بهم عواصمنا الصنهاجية

احمد حماني
رئيس المجلس الاسلامي
الاعلى ــ الجزائر

كان لصنهاجة بالمغرب الاوسط ــ اثناء امارتهم او ملكهم ــ ثلاث عواصم ، حكموا منها ، واستقر كرسيهم بها ، وازدهرت حضارتهم فيها : الاولى « اشير » عاصمة مؤسس بيت الحكم فيهم زيرى بن مناد بن منقوش ، كانت له عاصمة ولاية ، كما كانت كذلك لابنه بن بعده بلكين بن زيرى الى ان استخلف على افريقيا والمغرب كافة فانتقل الى القيروان وبقيت اشير عاصمة ولاته الى ان اسس حماد القلعة ــ وهى العاصمة الثانية ــ بناها سنة 398 هـ وسكنها سنة 400 لتكون عاصمة ملكه وملك ابنائه من بعده حتى الزحف الهلالى سنة 457 وتشتهر باسم « قلعة بنى حماد » · اما الثالثة فهى الناصرية او بجاية التى اسسها المنصور بن علناس على مقربة من خرائب « صلداى » المرسى الفينيقى ، ليقى عاصمة ملكه مآلا شبيها بمآل القيروان التى اتى عليها الخراب سنة 449 · وكان بناء بجاية سنة 460 وانتقل اليها بعد سنة واحدة · فاصبحت عاصمة ملوك الحماديين ثم ولاة الموحدين على المغرب الاوسط ، ثم ولاة الحفصيين ، الى ان سقطت بيد الاسبانيين سنة 910 هـ ·

وكان لكل هذه العواصم حضارة وعمران ومجد تليد ، وصيت بعيد ، وتاريخ مجيد · وقد عرفت الجزائر فى حكم الحماديين عهدا جديدا لم يسبق ان عرفته من قبل من الامن والرخاء ، وازدهار العمران ، وكثرة من نبغ فيها من فحول العلماء والادباء والشعراء والفنانين ·

واذا كان الصنهاجيون قد امتازوا بشدة الباس فى الحرب ، والخبرة بفنون القتال ، وبالمهارة فى فن السياسة والحكم ـ فقد اشتهروا ـ بجانب ذلك بحبهم العمـــران ، وبنـــاء الحضارة ، وشغفهم بالعلوم والفنون واكرامهم لاهلها ، وسخائهم بالاموال والنفائس من اجلهـــا · فحيثمـا اسسوا ملكا ، او باشروا حكما ، ازدهر العمران ، وارتقت الفنون والصنائع ، وشاعت المعـرفة والثقافة وعم الرخاء والترف · واقوال المؤرخين الثقات ، والآثار الباقيات ، خير شاهد باعمالهم

فقد مصر بلكين بن زيرى ـ بأمر من أبيه ـ مدن مليانة ، ولمدية والجزائر ، وما تزال شاهدة بعزة الاب والابن ، ناطقة بفضل حكمهما · ولما اجتاز الى الاندلس زاوى بن زيرى ـ اخو بلكين ، واسس الامارة الصنهاجية سنة 403 بكورة البيرة مصر مدينة غـــرناطة لتخلف البيرة التى اتى عليها الخراب ، فزهت وازدهر عمرانها ، وشيكا ثم كانت من بعد عاصمة الاندلس قال ابــــن الخطيب : « وانحازت صنهاجة مع رئيسها المذكور الى غرناطـــة فاووا اليها واتخذوها ملجا ، وحماها زاوى واقام بها ملكا واحل بها سلطانا لذويه **فهو اول من مـــدن غرناطة وبناها** وزادها تشييدا ومنعة ، واتصل ملكه بها (1) » وقال عن ابن اخيه وخليفته من بعده حبوس بن ماكسن بن زيرى « وكان رئيسا ييسا ، طاغية جبارا ، شجاعا داهية جلدا شديد الامـــر سديد الـــراى بعيد الهمة ··· ضخمت به الدولة ونبهت الالقاب ، وامنت لحمايته الرعايا ، وطم تحت جناحـه سيف العمران (2) » · ولم تلبث غرناطة ان اصبحت مزدهرة بالعلوم والفنون ، قبلة اعظم الرجال ومنبتهم ، الى أن غربت شمس الاسلام عن الاندلس ، وما تزال آثارها المكتوبة والمروية والقائمة شاهدة بامجاد بنى قومنا ·

وعن حكم الصنهاجيين وعهدهم بافريقيا يقول ابن ابى دينار :

« صنهاجة وان كانوا فى الحقيقة عمالا لبنى عبيد فقد بلغوا درجة الملك وكانت لهم ضخامة وصيت وغالب اهل تونس لا يحققون لهم ولاية ، وانا ـ استغفر الله ـ اقول : ان ايام دولتهم اقوى من دولة بنى حفص ، الا ان بنى حفص خطب لهم بامير المؤمنين ولم يخطب لصنهاجة بهذا الاسم (3) » · ويقول عن عهدهم الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب « هو عصر افريقيا الذهبى فقد بلغت فيه البلاد ذروة حضارتها بالثروة والعلم والفنـــون الجميلة وتبسط السكان فى العيش وركنوا الى البذخ والترف فتدفقت الأموال على طبقات الشعب فمالوا الى اقتناء الكماليات النفسانية وجنحوا الى الآداب الرفيعة فزها الادب وسار الشعر فى مدارج الارتقاء وراجت سوق الافكار ايما رواج

1) الاحاطة ج 1 ص 146 ·
2) الاحاطة ج 1 ص 443 ·
3) المؤنس ص 73 الطبعة الثالثة ·

... ولقد سهل آل بلكى الصنهاجيون ـ وخصوصا المعز بن باديس وأبنـاءه من بعده ـ على العلماء النزوح اليهم فقربوا منزلتهم منهم واجروا الارزاق عليهم وبالغوا فى اكرامهم وعولوا على آرائهم (4) » . وكانت القيروان عاصمة الدولة الصنهاجية الموحدة ، فكان علماؤها يمثلـون انحاء هذه الدولة اذ هى عاصمتهم جميعا قبل ان تنفصل عنها الدولة الحمادية ، وقد « بلغـت القيروان فى العصر الصنهاجى منتهى عمرانها الاسلامى الذى لم تزاحمها فيه أى مدينة من مدن المغرب ... تقاطر الناس عليها افواجا من كل حدب وصوب للارتزاق بالتجارة والصناعة أو العلم والادب او باسباب الملاهى والطرب (5) » .

عبقريان جزائريان فى أعـلام القيروان :

ولم تكن الجزائر خالية من مدن العلم ومعاهـده فقد كان لتيهرت معاهد ورجال وللمحمدية علماء أفذاذ ، ولكن القيروان عاصمة الدولة كانت تمتص العبقريات ، وتجتذب اليهـا أعظـم الكفاءات ، وكان فيمن اجتذبتهم اليها فى هذا العصر فهاجروا اليها واستوطنوها وأنتسبوا الى علمائها عبقريان بلغا القمة فى المجد والشهرة والانتاج ، وهما عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى ، وابو الحسن على بن رشيق ، كلاهما نشأ بالمحمدية (المسيلة) وأخذ عن شيوخها وكان له ذكر قبل ان يهاجر الى القيروان فالمعلوم عن النهشلى ـ وهو استاذ بن رشيق ـ انه نشأ بالمحمدية يقول الدكتور عبد الرحمن باغي « وقد علمنا أن منشاه بالمحمدية (6) » ، « وكان عبد الكريم شاعـرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها ، مؤلفا جليلا (7) » . شهد له عارفوه بالقـوة فى الشعر والخبرة بفنه وباهله وألف فيه كتابا قيما هو « كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله ... وقد ارتاد عبد الكريم بالممتع افقا من آفاق النقد ، وهيأ لغيره السبيل لكي يمضى فيه ويوضـح أساليب النقد ومناحيه (8) » . وسلك سبيله من بعده تلميذه ابن رشيق فى كتابه العمدة واعتمـد عليه ، وانتفع به فقلما يخلو باب من ابواب العمدة من ذكره والنقل عنه وشرح آرائه ومناقشتها . وقد يأخذ برأيه ويدعمه ، وقد يناقشه ويصححه ، وقد يرفضه ويرد عليه . ومع ذلك فقد كان وفيا له ، يحبه ويقدر كفاءته ويدافع عنه ، فقد اشتبك فى خصومة مـع احد فحول شعـراء القيروان وأدبائها ذات يوم لطعنه فى كفاءة عبد الكريم الشعرية وقال فى ترجمته له فى كتابه الا نموذج

4) المنتخب المدرسى من الادب التونسى ص 50 الطبعة الثانية .
5) المنتخب المدرسى من الادب التونسى ص 51 .
6) حياة القيروان 140 .
7) المنتخب من الادب التونسى 55 .
8) حياة القيروان 141 .

« اجتمعت مرة وانا حديث السن ولم اكن قبلها رأيته فاخذ فى ذكر الشعراء ، وغض من عبد الكريم وقال هو مؤلف كلام غير مخترع فاغلظت له فى الجواب فالتفت الى منكرا وقال : وانت ما دخلك بين الشيوخ يا بني ؟ (9) » ٠

واما ابن رشيق فاشهر من ان يعرف ، ولد بالمحمدية (المسيلة) سنة 390 هـ وقيـــل 370 هـ وصحح الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب انه ولد سنة 385 هـ ٠ واجمع مترجموه على انه تادب بالمسيلة ثم ارتحل عنها الى القيروان وان سنة 406 هـ « بعد أن قال الشعر وطلب العلم والادب فاخذه عن علماء بلدته المحمدية ، وحينما آنس من نفسه قدرة على التفوق فى الشعر والادب اثر أن يتوجه الى افق أوسع فتوجه الى القيروان دار العلم والادب فى ذلك الحين (10) » ٠

وهذا يرجح ما صححه الاستاذ حسن حسنى من انه ولد قبل عام 390 مستشهدا بأن ابن رشيق قال وهو يترجم لشاعر أندلسى « اجتمعت به بالمحمدية سنة 401 ٠٠٠ وانه لا يعقل ان تكون سن ابن رشيق اذ ذاك عشرة اعوام وهو يجالس الادباء المشاهير (11) » ٠ وكانت القيروان يوم هاجر اليها غاصة بفحول الرجال من علمــاء الشريعة والادب والتاريخ والرياضيات فكان فيمن اخذ عنهم من علماء الشريعة أبو عمران الفاسى موسى بن عيسى بن ابى الحاج الذى قال فيه ابو بكر الباقلانى يخاطبه « لو اجتمعت فى مدرستى انت وعبد الوهاب بن نصر ـ وكان اذ ذاك بالموصل ـ لاجتمع فيها علم مالك : أنت تحفظه وهو ينصره ولو رآ كما مالك لسر بكما (12) » واخذ اللغـــة والادب عن امام اللغة فى عصره أبى عبد الله محمد بن جعفر التميمى القزاز ، وعن عـبد الكريم النهشلى وغيرهما وتاثر كثيرا بامام الكتابة والانشاء والادب أبى الحسن علي بن ابى الرجال ، وله الـــف كتاب العمدة منوها به بعد المقدمة فى اغلب الابواب راويا أشعاره مبينا محاسنها ٠ عاش ابن رشيق ـ بعد المحمدية ـ بالقيروان طالبا مجدا ٠ ثـم منشئا ، ومؤلفا بارعا مدة 43 سنة عانت القيروان فى السنوات الاخيرة منها مر العذاب اذ حاصرها الاعراب المسلطون عليها من خليفة العبيديين بمصر من 446 الى 449 ثم شرعوا « فى هدم الحصون والقصور وقطـــع الثمار وخربوا الانهار ، واقام المعز بها الى سنة 449 فعندها انتقل الى المهدية فى شعبان (13) » وانتقل معــــه ابن رشيق ، وبكى القيروان وصور محنتها أبلغ تصوير فى قصيدة رائعة شهيرة جاء فيها :

---

9) حياة القيروان 113 ٠
10) حياة القيروان 116 ٠
11) حياة القيروان
12) ترتيب المدارك للقاضى عياض ج 4 ص 704 وتوفى ابو عمران سنة 430 ٠
13) حياة القيروان للدكتور عبد الرحمن باغى ص 160 ٠

والمسلمـــون مقسمـــون تنالهـم — ايـــدى العصـــــاة بذلة وهوان
خرجـــوا حفـاة عائذين بربهـــم — من خوفهـــم ومصـــائب الـوان
هربـــوا بكـــل ولـــيدة وفطيمة — وبكـــل أرملـــة وكـل حصـــان
والمسجد المعمور جامـــع عقبـــة — خـــرب المعاطـــن مظلم الاركان

ولم يستقر بالمهدية اذ وقعت بينه وبين المعز جفوة فغادرها الى صقلية حيث مات ــ رحمه الله بمازرة سنة 456 والا صح انه مات سنة 463 وترك تراثاادبياحافـلا بضعة عشر كتابا او رسالة اعظمها واخلدها كتاب «العمدة» فى صنعة الشعر قال فيه ابن خلدون فى مقدمته « لم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » . وشملت كتبه ورسائله الادب والنقد والتاريخ والفقه والحديث . ذكر صاحب كشف الظنون أن ابن رشيق « ممن شرحوا الموطأ » وروى حسن حسنى ان له مختصر الموطا.

قلعـة حماد تنافس القيروان ثم تخلفهـا :

ولمنافسة القيروان فى أمجادها السياسية والعلمية والعمرانية أسس حماد بن بلكين عاصمته الجديدة : « قلعة أبى طويل » التى اشتهرت فيما بعد بـ « قلعة حماد .. ، انشاها فى مكان يفـوق اشير حربيا واقتصاديا يقيه شر هجمات زناتة ، وباس باديس ان اراده بشر متاثرا بدسائس بلاطه. تم انشاؤها والتحول اليها فى مدة قصيرة (398 ــ400) وسرعان ما « أستبحر عمرانها ورحل اليها اهل البلاد النائية من التجار وارباب الصنائع واهـــــل العلم (14) » وتحولت فى بضع سنين من عاصمة ولاية الى عاصمة دولة وما زالت فى نمو مطرد حتى اصبحت « مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب (15) » . والتجا اليها بعد خـــراب القيروان وانهيار دولتها جموع من اللاجئين ، وغصت بالعلماء ، وكانت فى أوج عزها لما فاجأها زحف اعراب بنى هلال واحتلالهم بسائطها بعد هزيمة ملكها الناصر فى معركة ضدهم بسبيبة سنة 457 فاسس الناصر بجاية سنة 460 فرارا منهم ، وانتقل اليها 461 واخذ الضعف يتسرب الى القلعة وان بقيت عمارتها الى ان حرق جيش الموحدين مساكنها سنة 547 واستولى الاعراب على جبلها فخربـــت .

والى القلعة ينتسب علماء اعلام ، وادباء عظـــام ممـــن انبتتهم تربتها ، او آوتهم واكرمت وفادتهم فاستوطنوها ، او نبت بهم فتغربوا عنها ، وعطروا بمآ ثرهم ذكرها .

14) تاريخ الجزائر للميلى ج 2 ص 203 و 204
15) تاريخ الجزائر ج 2 ص 204 نقلا عن البكرى

من هؤلاء الاعلام ابو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوى ، اصله من توزر ، ولكنه كان ثاويا فى اهلها ، اخذ عن شيوخها ثم بث علومه بها ودفن فى تربتها · شـرق فى طلب العلم فاتصل بامام المالكية علي بن محمد الربعى اللخمى القيروانى نزيل صفاقس فأخذ عنه الفقه وصحيح البخارى ولما جاءه « ساله : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأ نسخ تأليفك التبصرة فقال : انما تريدان تحملنى فى كفك الى اهل المغرب ·· يشير الى ان علمه كله فى هذا الكتاب (16) » واخذ بالقلعة عن شيوخ جلة أعظمهم ابو عبد الله محمد بن الفرج المازرى المعروف بالذكى ، وكان هذا آية من آيات الله ، وأصله من صقلية ولكنه سكن القلعة وبث فيها علومه ، ولقى جلة شيوخ القيروان فشهدوا بحفظه وذكائه · وكان زعيمهم أبو القاسم عبد الحق السيورى يقول عنه : « أبن الفرج أحفظ من رأيت فقيل له : تقول هذا وقد رأيت ابا بكر بن عبد الرحمن وأبا عمران الفاسى ؟ فقال : هو احفظ من رأيت · وكان القاضى ابو عبد الله بن داود يقول : شيخنا الذكى ، افقه من ابى عمران ومن كل مالكي ، حتى فضله على اسماعيل بن اسحاق القاضى » · فهذا النابغة من علمائنا «حمل عنه ادب كثير وعلم جم وألف فى علوم القرآن كتابا كبيرا ··· وله تعليق كبير فى المذهب مستحسن وخرج على انه الف سؤال (17) » فكان نجما ساطعا بالقلعة فلما ارتحل الى المشرق ووصل بغداد وجد مذهب مالك قد درس وقل طالبه فدرس فى النحو وعلم لسان العرب واستصحبه ··· الملك العادل الى اصبهان لتدريس بقية الادب فذهب علمه بالسنــة هنــاك ضياعا ··· وتوفى باصبها بعد الخمس (18) » · وقد كان أبو الفضل ابن النحوى « عارفا باصول الدين والفقه يميل الى النظـر والاجتهاد » حريصا على بـث العلم ونشر الهداية شجاعا لا يهاب أحدا مؤثرا فى اتباعه متقشفا زاهدا فى الدنيا ارتحل الى المغرب الاقصى فدخل سجلماسة ، وفاس ، وكان حيثما حـل يقرئى أصول الفقه وأصول الدين ، ويفسر لطلبته مذهب الاشعريين ، ولم يكن انذاك مقبولا عند الرسميين ففى سجلماسة ، وفى فاس ، كما فى القلعة تعـرض ـ من اجل تدريسه علم الكلام للاذى ، ومنـع فكانت عاقبة منعه خسرا على الاعداء « دخل قاضى الجماعة يوما الجامع وابو الفضل ليقرئى الطلبة علم الكلام فسأل القاضى عن الحلقة فاخبر فامر بابطال الدرس فقال ابو الفضل : اللهم كما تسبب فى امانة مجلسنا او فى اهانة العلم فارنا فيه العلامة · وخرج ، فتبعه ولد القاضى ، وكان له اعتقاد فى ابن الفصل فقال له : أرجع الى والدك لتواريه التراب فرجع الولد فوجد ابــاه قتل صبرا (19) » · وبسجلماسة أقرأ الاصلين « فقال ابن بسام احد رؤساء البلد يريد هذا ان يدخل

16) نيل الابتهاج ص 349 ـ البستان ص 300 ·
17) ترتيب المدارك للقاضى عياض ج 4 ص 796 ·
18) المصدر السابق 793 ·
19) نيل البستان ص 300 ·

علينا علوما لا نعرفها فامر بطرده من المسجد فقال : أمت العلم أماتك الله هنا فجلس ثانى اليوم لعقد نكاح سحرا فقتلته صنهاجة (20) • وجرى له بفاس مع قاضيها ابن دبوس شبيه بهذا فقال : اللهم عليك بابن دبوس ، فإصيب بداء رهيب ومات وشيكا (21) » أيكون موت خصومه قضاء وقدرا ام يكون نتيجة عملية فدائية من مريديه ؟ لا شك أن موت ابن دبوس كان بداء ربانى ، أما مـــوت القاضى وابن بسام فقد يكون نتيجة عملية فدائية قام بها من يغار لدين الله • وقد كان الصراع العقائدى على اشده ببلدنا بين آراء الباطنية ، والسلفية ، والاشعرية • وكانت الدعوة الاشعرية ما تزال تختمر ، وصاحبنا ابو الفضل شديد الاعجـــاب بالغزالى وبكتابه احياء علـــوم الدين ، ينسخه بيده ، ويتحدى ذوى السلطان من أجله ، فلا عجب اذا كونت هذه الدعوة انصارا فدائيين ، ومثل ابى الفضل فى ذكائه وشدة ايمانه لا يخفى عليه أن من ظلمه من أجل عقيدته وبثها فدعا عليه أمام الناس انما قد تلا حكما باعدامه ، فلا عجب اذا رأيناه موقنا بموته •

وقد انتهى ابو الفضل من تجواله بالمغرب وعاد من فاس الى القلعة سنة 394 واخذ نفســـه بالتقشف فترك اللين من اللباس والاكل ، ولبس جبة صوف الى ركبته • وكأن تقشفه ذهـب بحدته وسرعة دعوته على خصومه • بل صار يقابلهم باللين والمسامحة والغفران « كانت جبته الى ركبته فمر يوما بالفقيه ابى عبد الله بن عصمة المفتى فلم يسلم عليه لشغل باله فعظم ذلك عليه فلما رجع ناداه محقرا له : يا يوسف فلباه وجاءه فقال له : يا توزرى صفرت وجهك ورققت ساقيك وصــرت تمر ولا تسلم ؟ فاعتذر له فلم يقبل واغلظ له فى القول فقال : غفر اللـــه لـك يا فقيه يا أبا محمد وأنصرف (22) » • وهكذا نراه عفا عنه ولم يسل عليه سلاحه الرهيب ، وهو الدعاء ، فقد اشتهر انه مجاب الدعوة ، حتى كان يقال نعوذ بالله من دعـــوة ابن النحوى » أكان هذا من اثـــر عهـده الجديد ؟ أم انه كان فى الحالات الاخرى يرى أن الحق اليه فمن تعرض له عوقب ، وفى هذه الحالة الحق حقه الشخصى فلم ير الانتقام لنفسه •

« اخذ عنه جماعة من الائمة الاعلام النظار كالفقيه ابى عبد اللـه محمد بن الرمامة رئيس المفتين بفاس ، والاخوين الفقيهين أبى بكر ومحمد ابنى مخلوف بن خلف الله ، والفقيه ابى عمران موسى بن حماد الصنهاجي (23) » • وتوفى بالقلعة سنة 513 وقال عنه القاضى ابو عبد الله محمد

20) نيل الابتهاج ص 350 •
21) نيل الابتهاج ص 350 – 351 – البستان (ص) 301 •
22) نيل الانتهاج ص 351 البتسان 303 •
23) نيل الابتهاج ص 351 البستان 303 •

بن علي بن حماد هو في بلادنا كالغزالى فى العراق علما وعملا · ترك تاليف ، واشهر انتاج مما بقي له القصيدة المنفرجة ، وما تزال الى اليوم ببلادنا يحفظها الصغار والكبار ، واكثر ما تنشد فى احتفالات المولد النبوى ـ وهى :

اشـــتدى ازمـــة تنفـــرجي	قـــد اذن ليلـــــك بالبلـــج
وظـــلام الليـــل لـــه ســـرج	حتى يغشـــاه ابـــو الســـرج
وسحـــاب الخـــير لها مـــطر	فـــاذا جـــاء الابـــان تجـــى

ومنها

ومعاصـــى اللـــه سماجتهـــا	تـــزدان لـــذى الخلـــق الســـمج
ولطـــاعتـــه وصبـــاحتهـــا	انـــوار صبـــاح منبلـــج

ومنها

وخيـــار الخلـــق هداتهـــم	وســـواهم من همـــج الهمـــج
واذا كنـــت المقـــدام فـــلا	تجـــزع فى الحـــرب من الرهج

وقد أولع الناس بهذه القصيدة ، ورووها بالاسانيد المتصلة ، شرحها كثير ، وخمسها ابو محمد عبد الله بن نعيم الخضرمى القرطبى الناشىء بتونس والمتوفى بقسنطينة سنة 636 قال الغبرينى « وما زالت هذه القصيدة معلومة الافادة ظاهرة الزيادة (24) » ·

بجايـة حاملة مشعل النور لمدة اربعة قرون ونصـــف :

وكانت بجاية امجد عواصم الحماديين ، واخلدهن ذكرا ، واثبتهن على عواصف الـــزمن · فمنذ تاسسها اصبحت عاصمة الدولة القوية المتينة البنيان وانتقلت اليها دواونها ، ورغب الناس فى سكناها ، ونضجت الحركة التى كان للحماديين الفضـــل فى غرسها وتعهدها « وظهر بالجزائر الحمادية العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والاطباء والرياضيون ظهورا لا عهد للجزائر بـــه من قبل (25) » · وساعد على سرعة ازدهار العمران والحضارة الحمادية « فرار الناس من افريقيا الى الحماديين امام الهجوم الهلالى ، ومن صقلية امام استيلاء النرمان ، ومن الاندلس امـــام استيلاء المرابطين (26) » · وهكذا لم يمر على تاسيس بجاية سوى زمن يسير حتى اصبحت موئـــل

24) عنوان الدراية 336 ط بيروت ·
25) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ج 2 ص 195 ·
26) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ج 2 ص 188 ·

حركة علمية ونهضة فكرية يقوم بها افذاذ من العلماء والادباء والكتاب ، واصبحت مدارسها تخرج اعظم الكفاءات لشغل اسمى المناصب العلمية والادارية · يقول الغبريني بعد ان ترجم لعدد يسير من علماء المائة السادسة «وقد بقى خلو كثير من اهل المائة السادسة ممن لهم جـــلال وكمال ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم ، وقد مضى من قول الشيخ ابى علي المسيلى ··· ادركت ببجاية مـــا ينيف على تسعين مفتيا ما منهم من يعرف ابا علي الحسن بن علي المسيلى من يكون ؟ · واذا كان من المفتين تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والادباء وغيرهم ممن تقدم عصره ولم يدركه· كان الناس على اجتهاد وكان الامراء لاهل العلم على ما يليق ويراد (27) ·

والعصر الذى سبق المسيلى حمادى صـرف ، والذى تكلم عنه متصل بالحماديين اذ أن هذا الحشد العظيم من المفتين تخرج من مدارسهم · فهذه الفقرة تبين ما كانت عليه بجاية من وفـرة العلماء ورجال الفكر ، وما كان عليه الامراء والملوك من الاعتناء بهم والاهتمام بحركتهم ·

ولم تكن بجاية خامدة الحركة ، خالية من ارباب الفكر ايام ابى علي المسيلى او ايام الغبرينى فان مشعل النور ما زال يضيء الافاق من بجاية منذ نشأتها ، واستمر ينير السبل للسالكين بعـد سقوط الحماديين فى عهد الموحدين ، ثم فى عهد الحفصيين ، الى ان سقطت فى يد اعـــداء العلم والحضارة من الاسبانييّن اوائل القرن العاشر (910 هـ) ثم اخرجهم منها الاتراك « فضعفت لتوالى الاحداث عليها ولولا اهميتها البحرية لكان سبيلها سبيل القلعـــة (28) »· لقد كانت اثناء هذا العصر الذى تكلم عنه المسيلى مقصد طلاب المعرفـــة من الاوروبيين فبها تعلم المهندس الايطالى والرياضى الشهير ليونارد فبوناتشيو FIBENACCIO

فبها تعلم الحساب والجبر والهندسة ··· ولـــدبمدينة بيزا حوالى 571 (1175 م) وقام باعمـــال رياضية جليلة ، وهو اول من طبق عمليات الجبر على الهندسة (29) » وذكر فى بعض كتبه شيخه الذى لقنه العربية والحساب من علماء بجاية ·

وكانت المرأة تاخذ بنصيبها وقد تتفوق على الرجل فقد ذكر الغبرينى فى ترجمة القاضـى الاديب الشاعر ابى الطاهر عمارة بن يحيى انه كانت لـــه بنت « تسمى عائشه كانت اديبة فصيحة لبيبة وكان لها خط حسن رأيت كتاب الثعالبى بخطها فى ثمانية عشر جزء ··· وهى نسخة عتيقة ما رايت احسن منها ولا اصح وقد رأيت منها نسخا كثيرة منتقدة الا هذه النسخة ولقد يجب أن تكون

27) عنوان الدراية ص 55 ·
28) تاريخ الجزائر ج 2 ص 206 ·
29) تاريخ الجزائر ج 2 ص 206 ·

هذه النسخة أصلا لهذا الكتاب حيث كان ويقع التصحيح منها (30) » ولا يكان الاتقان فى النقل الا لذى ملكة راسخة فيما ينقل وفهم جيد له · ولها طرائف أخبار ومستحسنات اشعار ضن علينا بنقلها الغبرينى لان المقصود من مؤلفه كما قال «التعريف بالرجال (30) » ·

كانت المدرسة البجائية تؤهل متخرجها لشغل أخطر المناصب ، ففى عهد الموحدين مات كاتب سر أمير المؤمنين فدخل عليه فى خلوته أمير من امراء العرب كان معتادا لذلك ، فوجده مغتما ، وقد ظهر التغير فى وجهه فسأله عما به فأخبره أن كاتب سره قد مات وأنه لا يجد من يقيمه مقامه لاحتياجه الى صفات خاصة فقال : « بشراك يا سيدنا يامير المؤمنين ان هذا الرجل ببجاية : أبو الفضل بن محشرة ووصف له من صفاته ما وقع منه موقع القبول (31) » ولم يتردد فى استدعائه الى عاصمة الخلافة مراكش معززا مكرما فلما حضر بين يديه لم يحتج الى اختباره لظهور فضله « فاكرم نزله ورفع منزلته ومحله ولما وقع الاطلاع على ما عنده من فنون العلم علم ان الكتابة التى وقع الاستدعاء بسببها انما هى بعض صفاته واحدى آلاته » وابن محشرة وأبو الفضل بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسى ، من أهل بجاية ، وكان ابوه قاضيها و « له علم متسع المدى ··· كان متمكن المعرفة (31) » أخذ العلم عن شيوخ بجاية وعن الاندلسيين أمثال السهيلى صاحب « الروض الانف » فى شرح السيرة النبوية ، وعبد الحق الاشبيلى ولد سنة 540 وتوفى 598 ·

فقد استدعى ابو الفضل لشغل هذا المنصب الخطير لدى رئيس الدولة امير المؤمنين والدولة فى اعز ايام مجدها وقوتها · ولم يكن طامحا لمثل هذا المنصب متهالكا عليه بل « ارتحل من بجاية وهو كاره لارتحاله مع علمه انه استدعاه (الخليفة) لمنصب يسمو به على امثاله ، ولكن عزة العلم اغنته عن الناس ، وحصلت له من المزية فى الانفس ازيد مما يقاس (32) » ولما باشر اعماله عرف قدره وقدر من يخدمه ونزل كلا منزلته فلما كاد له حساده نجا من المكيدة بفضل اخلاصه وسعة علمه بالسنة وحسن فهمه وتاويله ·

ومن افذاذ علماء بجاية وعظمائهم ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهرى الشهير بالاصولى صديق الفيلسوف العظيم أبى الوليد محمد بن رشد القاضى ورفيقه فى المحنة قال عنه الغبرينى «··· الفقيه الاصولى المتكلم العالم المجتهد النبيل الفاضل الجليل ابو عبد الله ··· من اهل بجاية رحل الى المشرق ولقى العلية والجلة من أهل العلم ، وولي قضاء المدن بجزيرة الاندلس ،

(30) عنوان الدراية 47 ــ 48 ·
(31) عنوان الدراية 54 ·
(32) عنوان الدراية 53 ·

واستخلف بمراكش وولي قضاء بجاية ثلاث مرات وصرف عن اخرها سنة ثمان وستمائة وتوفى ببجاية بين عيد الاضحى والفطر سنة 612 هـ » (33) · واصـــل عائلته مـــن اشبيلية · ولما كان بالاندلس اتصل بينه وبين القاضى ابى الوليد بن رشد حبل المودة وكان بينهما اخاء وصفاء ، وكان يدرس معه علوم الاوائل · ثم كان سبب نجاته فى « لما وقعت الواقعة التى تكلم فيها ابو الوليد فى كتاب الحيوان له حيث قال : « رايت الزرافة عند ملك البربر » وهم امير المؤمنين بالفتك به لم يكن سبب نجاته غيره (34)» وقد جادل عنه بوجهين الاول أنه كان قد جرى بمجلس الخليفة منع العمـل بالشهادة على الخط فلما نزلت هذه القضية هم الخليفة أن يعمل بالشهادة على الخط فقال الاصولى للخليفة : « منعتم الشهادة على الخط فى الدرهم والدينار ، وتجيزونها فى قتل المســلم (35) » · والوجه الثانى أنه قال ان العبارة محرفة وانه « انما الكتب رأيت الزرافة عند ملك البرين ، وانما جاء فيه زيادة ونقص وهذا أحسن (36) » · واذا كان ابن رشد قد نجا بفضل دفاع صديقه فقد نالهما الاذى معا ، واخرجا من قرطبة وكتب فيهما الى الافاق وكانت المحنة سنة 593 ثم عفى عنهما وكرما لم يكن عالمنا هذا يهاب الخليفة ولا غيره فقد كان الخليفة اذا حضر مجلسه ووقعت المذاكـــرة سمحه الحاضرون من الطلبة (العلماء) فى المذاكرة « وكان هو لا يسامحه فى شىء وكان أميـــر المؤمنين يجد منه فى مجلسه ويعرف له مع ذلك فضـــــلا فلا ينقصه شيئا من حقه (36) » · هذه فضيلة فى هذا العالم الربانى ، وفى هذا الخليفة العالم العظيم · وهكذا تكون الحرية مكفولة فى عظماء الرجال أيام عز الامة وسؤددها · اما سيرته فى ولايته القضاء فقد كان « شديدا على ولاة الامر الذين يكونون معه ببلد قضائه لا يسامحهم فى شىء من امورهم ويجاهدهم بما يكرهون فى حق الله وفى حقوق المسلمين ، وقد جرى بينه وبين والى بجاية كلام كانت فيه غلظة فقال له الوالى : والله لقد اصاب سيدنا امير المؤمنين المنصور فيكم فقال له : ان كان اصاب امير المؤمنين المنصور افاخطا فينا امير المؤمنين الناصر ؟ فافحمه ورجع فاسترضاه (36) » ·

وكان المنصور قد كتب فيه وفى ابن رشد الى الآفاق ثم جاء من بعده الناصر فاحسن اليــه وعطف عنه · هذه الشدة على الولاة ، ورباطة الجاش امامهم · ومجادلتهم تفسر لنا كثرة البلدان والمرات التى تولى فيها القضاء ثم صرف عنه · لقد أوتي جدلا · فقد حاول والى بجاية ان يورطه فى القدح فى تصرف لخليفة سابق هو المنصور ، فاذا به يقلب عليه الامر ويلزمه أن يقدح فى تصرف الخليفة الحالى ، فلم يسعه الا الاعتذار والاسترضاء ·

33) عنوان الدراية 208 ·
34) عنوان الدراية 209 ·
35) عنوان الدراية 209 ـ 210 ·
36) عنوان الدراية 210 ـ 211 ·

ومما يدل على شدة ذكائه ، وحسن تصرفه ،وبراعته فى التفتيش ، ما روي أنه احضرت الى مجلس امير المؤمنين لآلئ نفيسة فى طبق وعرضت على الحاضرين فى المجلس فعدت وفقدت منها واحدة فهم امير المؤمنين بتفتيش الحاضرين فاشار عليه بسوق قلة ماء مملوءة ويدخل فيها كـل انسان يده سترا على الفاعل • فسيقت القلة ابتداء من يمين أمير المؤمنين وكان هو على يساره فلما انتهت اليه امتنع من ادخال يده وقال : صبوها فان وجد تم حاجتكم والا فهى عنـدى فصبـوها فوجدوها فخلص من الشك فيه وهذا من نبله وكياسته (37) •

وكان الفهرى عالما بالفقه والخلافيات والجدل وعلوم الاوائل. ، والاصلى ، قد برز فى علم الكلام (اصول الدين) واصول الفقه ، وكان علـم وقته فى هذا الميدان حتى اشتهر بالاصولى • رحل الى الاندلس فتولى فيها القضاء وأقرأ والى مراكش فاستخلف ــ كما تقدم ــ فى القضاء ، ومات فى بجاية سنة 612 وهو مصروف عنه • رحمه اللـه •

ومن أبناء بجاية الذين رفعوا رأس أمتهم عاليا ، وخلدوا لها ذكرا حسنا ابو الروح عيسى بن مسعود ••• بن يونيو المنكلاتى الحميرى الزواوى المالكى ، عاش حياته العلمية خارج وطنـه ، وتولى المناصب العظيمة فزانها ، وألف التآليف القيمة فأتقنها « كان فقيها عالما متفننا تفقه فى بجاية على أبى يوسف يعقوب (38) » وشيخه هذا فقيه • أصولى مشارك فى علم العقائد ، قرأ ببجايـة واقرأ بها ، وتوفى 690 • أما المنكلاتى فانه زواوى الاصل بجائى الطلب ، ارتحل نحو الشـرق وتفقه بالاسكندرية وعاد الى قابس فتولى القضاء بها مدة ثم رجع الى الاسكندرية ، ثم ارتحـل نحو القاهرة فـ « اقام بها يشغل الناس بالعلوم بالجامع الازهر ، وسمع كتب الحديث من شـرف الدين الدمياطى (38) » واشتغل عالما بالقضاء فى دمشق فى القاهرة قبل ان يعتزل المناصـب الادارية ويتخصص للتدريس والتاليف •

« ولي نيابة القضاء بدمشق نحو سنتين ثم رجع الى الديار المصرية فولى نيابة القضاء بها عن قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف ثم من بعده عن قاضى القضاة تقي الدين الاخنائى ، ثم ولي تدريس المالكية بمصر بزاوية المالكية وترك ولاية الحكـم (38) » • والجدير بالذكر أن محنة شيخ الاسلام ابن تيمية ودخوله السجن بمصر وقعت اثناء هذه الفترة فقاضى القضاة زين الدين بـن مخلوف هو الذى وجه اليه التهمة انه « يقول : ان الله فوق عرشه حقيقه وان الله يتكلم بحـرف وصوت ، فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه فقيل له : أجب ولا تخطب ••• فقال من الحاكـم

37) عنوان الدراية 209 ــ 210 •
38) الديباج المذهب لابن فرحون ص 183 •

في ؟ فقيل له القاضي المالكي فقال له : كيف تحكم في وانـــت خصمي فغضب غضبا شديدا وانزعج وحبس الشيخ (39) » كان ذلك سنة 705 وخرج من السجن ثم عادوا لمحاكمته من جديد، ولم يحضر ابن مخلوف ، ومثل القضاء المالكي قاضيان تونسي وجزائري ، هو الزواوي ، وطلب من القضاة ان يحكموا بحبسه لان المصلحة تقتضي ذلك · طلب من التونسي ان يحكم بهذا فقال : ما ثبت عليه شيء ، فطلب هذا من الزواوي ايضا فتوقف فقال ابن تيمية : « انا امضي الى الحبس واتبع ما تقتضيه المصلحة فقال الزواوي يكون في موضع يصلح لمثله » كان هذا في شوال 707 وهكذا نرى ترددا وتوقفا محمودا ، ثم نجد شاهدا من تاريخ قضائنا على الحكم بالسجن السياسي · وهذا ما لم تبلغ اليه اروبا الا حديثا ·

بعد ان ترك المنكلاتي الحكم اشتغل بالتدريس والتاليف ، وكان يملك مقـــدرة فائقة وعلما غزيرا واطلاعا واسعا ، وحذقا ومهارة مما مكنه ان يؤلف في الحديث والفقه والاصول والمساحة والجدل والسير والتاريخ ·

« شرح صحيح مسلم في اثنى عشر مجلدا وسماه اكمال الاكمال جمع فيه اقوال المازري ، والقاضي عياض ، والنووي وأتى فيه بفوائد جليلة من كلام ابن عبد البر والباخي وغيرهما » وشرح مختصر ابن الحاجب في سبع مجلدات وحل الى كتاب الصيد ، واغتصر جامع ابن يونس شـــرح المدونة ، وصنف في الوثائق والمناسك · ورد على ابن تيمية في مسألة الطلاق · وألف في مناقب مالك ، وتاريخا في عشر مجلدات · « وكانت له اليد الطولى في علم الفقه والاصول ، والعـــربية والفرائض (40) » حفظ موطا مالك ، ومختصر ابن الحاجب في مدة يسيرة · مثل هذا الانتـــاج الضخم والنشاط الجم يدل على مكانة سامية بلـــغ اليها هذا الامام من علمائنا ·

وقد « كان اماما في الفقه واليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية » ولد سنة 664 وتوفي بالقاهرة سنة 743 · رحمه الله ورضي عنـــه ·

علماؤنـــا والاجتهـــاد :

ويستطيع ان يلاحظ من يدرس تراجم علمائنا · ويقرا تاريخهم وآثارهم ان يعرف مقدار ما كانوا عليه من استقلال في الرأى ، واستعمال للنظر ، وجرأة وشجاعة في الحق ، واخذ بالاجتهاد

39) ابن تيمية لابى زهرة ص 56 ·
40) الديباج المذهب ص 183 ·

فقد جاء فى ترجمة ابن الفضل ابن النحوى أنه « كان عارفا باصول الدين والفقه يميل الى النظر والاجتهاد (41) » . وجاء فى ترجمة ابى علي حسن بن على المسيلى انه « المحقق المتقن المحصل المجتهد (42) » وفى ترجمة ابى عبد الله محمد ابى ابراهيم الفهرى الاصولى انه « الفقيه الاصولى المتكلم العالم المجتهد النبيل الفاضل الجليل (43) » فالاجتهاد لمن ملك وسائله مشروع الى ذلك الحين فقد علمنا من اخواننا علماء المشرق ان باب الاجتهاد قد اغلق منذ القرن الرابع الهجرى وأنهم يحمدون هذا الاغلاق وينصرون من فعله ويدعمون ذلك بحجج منها الخوف من جناية الطغاة من الملوك والامراء والحكام على الدين ، والخشية من مطاوعة علماء السوء لرغباتهم ، واستجابتهم لنزواتهم بدعوى الاجتهاد . وقد جاء من بعد القرن الرابع غزوات الصليبيين وتغلب التتار . واستبد بالمسلمين كثير من الطغاة ولولا ان باب الاجتهاد كان مغلقا لعمت البلوى ، وربما احلوا الحرام ، وحرموا الحلال وانتهكت أحكام الشريعة بدعوى الاجتهاد فى الدين . ولم نر هذا الاجماع على اغلاق باب الاجتهاد من علمائنا المغاربة ، فما زالوا يتكلمون به ويدللون على بقائه مفتوحا الى يوم الدين ، ويسمون من ملك ادواته بالمجتهد فهذا ابو الفضل ابن النحوى يعلن عنه أنه كان عارفا ... يميل الى النظر والاجتهاد فمعرفته أهلته للاجتهاد وقد توفى فى القرن السادس (513) وعاش المسيلى حتى سنة 580 ، وتوفى الاصولى سنة 612 وقال المقرى عن العالمين الجزائريين العظيمين أبى يزيد عبد الرحمن بن الامام واخيه ابى موسى عيسى « كان ابو يزيد واخوه ابو موسى يذهبان الى الاجتهاد ، ويتركان التقليد لما صار لهما من الصيت بالمشرق (44) » . وقد عاشا حتى نصف المائة الثامنة ولقيا فى رحلتهما شيخ الاسلام ابن تيمية وناظره فى العقائد . وقال الخطيب ابن مرزوق عن شيخه ابى على الزواوى الشهير بناصر الدين المشذالى « ووصل شيخنا ابو علي درجة الاجتهاد سمعته من جماعة من أصحابه (45) » توفى علي سنة 731 .

هذه النزعة الاستقلالية فى البحث والنظر والاجتهاد والتى لا تتطور المعارف الانسانية ارتقاء الا بفضلها ـ انتقلت من الشيوخ امثال ابن النحوى ، والذكي ، والمسيلى ، والاصولى الى تلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم وخلفوهم فى مهمتهم فى بجاية ، وتلمسان ، وشرقوا وغربوا متسمين بها . فهذا ناصر الدين وريث ثقافة اسلافه وشيوخه يتوجه طلبته الى الافاق لتادية الرسالة فقد اخذ عنه

41) البستان ص 300 .
42) عنوان الدراية ص 33 .
43) عنوان الدراية ص 208 .
44) نيل الابتهاج ، والبستان 124 .
45) نيل الابتهاج ص 345 .

فيمن اخذوا ابو علي منصور بن علي نزيل تلمسان واجتاز الى الاندلس فكان من جلـــة علمــاء غرناطة « فلقي رحبا وعرف قدره فتقدم مقرئا بالمدرسة تحت جراية نبيهة وحلق للناس متكلما على الفروع الفقهية والتفسير وتصدر للافتاء وحضرته وصحبته فنلت منه (46) » وكان « له مشاركة حسنة فى كثير من العلوم العقلية والنقلية واطلاع وتقييد ونظر فى الاصول والمنطق ويد طولى فى الحساب والهندسة » • واستمر فى التدريس والافتاء بغرناطة مدة 12 سنة (753 — 765) ثم خرج منها لاصطدامه فى الفتوى بجماعة الفقهاء • وتكفيه شهادة ابن الخطيب انه حضره ونال منه وانه كان ذا تقييد ونظر • وممن أخذ عنه الامام ابو اسحاق الشاطبى (47) صاحب كتـاب «الموافقات» البديع ، وكتاب الاعتصام • كما اخذ الشاطبى أيضا على ابى عبد الله محمد ابن احمد الشريف المعروف بـ «الشريف التلمسانى» • وكان الشريف رحمه اللــه قد « اختص باولاد الامام وتفقه عليهما فى الفقه والاصول والكلام ولزم الابلى وتطلع فى معارفه فاستبحر وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه (48) • وكان عبد الرحمن آبن خلدون المؤرخ الشهير من تلاميذ الشريف ذكره ونوه به • وقال عنه ابن مرزوق الحفيد « هو شيخ شيوخنا » واثنى عليه معاصره ابن مرزوق الخطيب وذكر انه وصل درج الاجتهاد فى المذهب • ولم يكـن علماؤنا ممـن يضيقون حلقــة الاجتهاد ويحصرونها فى لمة قليل عددهم ثم يجعلون كل تلاميذهم ومن اخذوا عنهم مقلدين قال المقرى « شهدت مجلس أبى تاشفين صاحب تلمسان ذكر فيه أبوزيد ابن الامام أن ابن القاسم مقلد لمالك ، ونازعه ابو موسى عمران (بن موسى المشذالى البجائى نزيل تلمسان ، صهر ناصر الدين) المذكور وادعى انه مطلق الاجتهاد واحتج بمخالفته لمالـك فى كثير وذكر منه نظائر ، فلو قلده لم يخالفه • واحتج ابوزيد بتصرف الشـريف التلمسانى (فى جواب له على سؤال من الاندلس فرق فيه بين المجتهد المطلق ومجتهد المذهب) أنه مثل مجتهد المذهـب بابن القاسم فى مذهب مالك ، والمزنى فى مذهب الشافعى ومحمد بن الحسن فى مذهب ابى حنيفة فاجابه عمران بانه مثال ، والمثال لا يلزم صحته » • واستدل ابن عبد السلام شيخ ابن عرفة على اجتهاد ابن القاسم المطلق بنحو ما استدل به عمران بن موسى البجائى « وتعقبه ابن عرفة بانه مزجى البضاعة فى الحديث • ونكت ابن غازى على تعقبه بانه : كيف يثبت الاجتهاد لشيوخه كابن عبد السلام وغيره وينفيه عن شيــخ هداية المالكية بعبارة فظيعة ؟ (49) » • « ••• ولا ريب فى امامة ابن القاسم فى الحديث وناهيك بثنــاء

---

46) البستان 292 — 293 — نيل الابتهاج 345 — 346 — والمتكلم هو ابن الخطيب فى الاحاطة •
47) البستان 294 — نيل الابتهاج 346 •
48) نيل الابتهاج •
49) نيل الابتهاج 216 •

النسائى عليه كما تقدم والعجب من الامام ابن عرفة كيف يثبت الاجتهاد لابن دقيق العيد ونظرائه ثم يقول : وفى المازرى نظر هل لحقه ام لا · ومعلوم أن ابن عبد السلام وابن دقيق العيد لا يبلغان درجة المازرى فى تفقهه وامامته » · والمستفاد من هذه المناقشة أن ابن عرفة قد أسند الاجتهاد المطلق لجماعة من العلماء دون ابن القاسم · وكلهم متأخرون عن القرن الرابع · ولما نفى هذه الدرجة عن ابن القاسم علل ذلك بنقص فى اداة من ادواته ، ولم يسلم ذلك له علماؤنا بل ناقشوه الحساب · وحتى القرن التاسع كان الاجتهاد يدعى ممن يرى نفسه اهلية له ، ويوسم به من يراه العلماء قد بلغ درجته ، ويتواضع عن ادعائه بعض الراسخين فى العلم « فهذا قاسم العقبانى والمسناوى ، والبجائى من اهل المائة التاسعة يصرحون ببلوغ درجة الاجتهاد · والامام الشاطبى ، والحفيد ابن مرزوق ينفون ذلك عن أنفسهما ومعلوم انهما اقوى علما واوسع باعا من الذين ادعوها (50) » · قال القلصادى فى ترجمة العقبانى « شيخنا وبركتنا الفقيه الامام ملحق الاصاغر بالاكابر العديم النظير والاقران مرتقى درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان (51) ··· » مات العقبانى سنة 858 · وقد برهن الشاطبى تلميذ الماشذالى والتلمسانى فى كتابه الموافقات على بقاء باب الاجتهاد المطلق مفتوحا الى يوم الدين ·

وهكذا نرى ان علماءنا لا يقولون ببقاء باب الاجتهاد المطلق مفتوحا امام من استكمل وسائله فحسب ولكنهم يعينون أفرادا بلغوا هذه الدرجة ، ويتجادلون بالحجج الواضحة ، وقد يدعيها من يرى فى نفسه الكفاءة لتسنمها فتسلم له دعواه وقد ينازع ويناقش الحساب ·

وقد كان علماؤنا اوفياء لدينهم قائمين بامر ربهم ، مخلصين له الدين ، لا يرهبون أحدا ولا يخافون فى الله لومة لا ئم فلم يحلوا حراما لاحد ، ولم يحرموا حلالا على احد ، يتحرون فى الفتاوى اشد الملوك قوة ، واعظمهم باسا ، اذا رأوا فى تصرفهم انحرافا · فهذا ابو الفضل ابن النحوى يتحدى اوامر امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، لما افتى الفقهاء باحراق كتاب الاحياء للغزالى فى صحن مراكش ووصل كتاب على بن يوسف اللمتونى بذلك وتحليف الناس بالايمان المغلظة ان ليس عندهم الاحياء فانتصر له « وكتب الى السلطان بذلك وافتى بعدم لزوم تلك الايمان وانتسخ الاحياء فى ثلاثين جزء يقرأ فى كل يوم جزء فى رمضان ، وقال وددت انى لم انظر عمرى سواه (52) » فاى تحد أشد من هذا واصرح ؟ ولما دخل المورقة مدينة بجاية واكرهوا على البيعة اهلها ، قصدوا قاضيها ابا علي المسيلى ليكرهوه على البيعة وكانوا ملثمين على عادتهم

50) نيل الابتهاج 217 ·
51) نيل الانتهاج 223 ـ 224 ·
52) البستان 299 ·

فامتنع من البيعة وقال : لا نبايع من لا نعرف هـل هو رجل ام امرأة فكشف له الميورقى عن وجهه وهذا منتهى ما بلغ توقفه وهو امر كبير عند مطالبته بالبيعة ، ولولا علو منصب الفقيه ابى على ما ساعده عليه (53) » • وارسل اليه والى بجاية ـ وكان الوالى احد ابناء عبد المـؤمن بن علي ـ يستدعيه بتحريض من القاضى ليمنعه من النشاط الثقافى ويامره ان يشتغل بشانه ويقتصر على خاصة امره « فوصله رسوله وهو جالس بالجامع الاعظم بمحل تدريسه منه فاخبره عن حديـث السيد وكان من جملة القراء بين يديه حفيد له فقال له : اقـرأ عليه ولم يامره بما يقرأ فاستفتح متعوذا فقال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن امركـم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون » فانفصـل الرسول وقد انتقع لونه وهو ترتعد فرائصه ولما حصل اثناء الطريق وصله رسول السيد يسترجعه ويقول : لا تحدث الشيخ عن شيء ••• ثم رده اليه ليعتذر له ، ووصله ••• فقبل عذره ورد الصلة (54) » • وقـد تقدمت مجابهة الاصولى للخليفة الموحدى ومجادلته فى أمر ابن رشد •

فمثل هؤلاء الاعلام لا يخشى أن يحرفوا الكلم عن مواضعـه ويؤثروا الحياة الدنيا على الآخرة وفى علماء المشرق ابطال فى هذا الميدان ممن عاصروهم ، مثل العز ابن عبد السلام ، وشيخ الاسلام ابن تيمية وابن دقيق العيد • وقد شهدلهم علماؤنا ببلوغ درجة الاجتهاد • ان ديننا صالح لكل زمان ومكان ، والزمان يتقدم ، والاقضية تحدث ، وعلى علماء الاسلام أن يماشوا به الاحداث ويحلوا المشاكل الجديدة على قواعده ولن يعدموا أصـلا يرجعون اليه • هذه مزية كان يتسم بها علماؤنا ويعملون بمقتضاها وهم اشد الناس اخلاصا ووفاء للاسـلام •

---

53) عنوان الدراية 34 ـ 35 •
54) عنوان الدراية ص 35 •



مصباح حمادي من الآجر ، وعاء للبلسم من الزجاج وآنية من القيشاني ، من عهد بني حماد .

عبدالحق الاشبيلي البجائي



رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

تمهيد : لقد شهد المغرب العربي كله والاندلس في مطلع القرن السادس الهجري ثورة كبيرة في مجال التفكير العلمي ، والبحث النظري على يد المهدي ابن تومرت الذي دعا عقب عودته من المشرق سنة 514 ه الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، وتصحيح بعض مفاهيم الاعتقاد (1) وحارب جمود الفقهاء الذين عكفوا على كتب الفروع ، واهملوا النظر في كتب الحديث والقرآن ·

وساعد على ايجاد جو جديد تنطلق منه الدراسات الفقهية والكلامية ، ومحاولة الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة مباشرة ·

ولعل هذا الاتجاه النقدي الذي عاب جمود الفقهاء والمتكلمين نجده قبل ابن تومرت عند الامام المحدث الكبير ابن عبد البر الذي انتقد الفقهاء في القرن الخامس الهجري ، وعاب عليهم جمودهم وعكوفهم على اقوال فقهاء المالكية مع اغفال طريق الاستدلال وفي ذلك يقول : « يتركون طريق الاستدلال ، والفروع لاحد لها ومن رام ان يحيط باقوال الرجال فقد رام مالا سبيل اليه ، والايام تضطره الى الاستنباط مع جهله بالاصول » (2) ·

وكان منذر بن سعيد البلوطي (ت 335 ه) قبل ابن عبد البر ينتقد جمود الفقهاء باقتصارهم على اقوال الايمة دون العناية بدراسة القرآن والحديث ، ومحاولة الاستنباط منهما فيقول :

عذيري من قوم يقولون كلمات ... طلبت دليلا هكذا قال مالك
فان عدت قالوا هكذا قال اشهب ... وقد كان لا يخفى عليه المسالك
فان زدت قالوا قال سحنون مثله ... ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
فان قلت قال الله ضجوا واكثروا ... وقالوا جميعا انت قرن مما حك
وان قلت قد قال الرسول فقولهم ... اتت مالكا في ترك ذلك المسالك (3)

---

1) المراكشي ، عبد الواحد : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص 278 ـ 280 ·
2) ابن عبد البر ، يوسف : جامع لبيان العلم وفصله ج 2 ص 170 ـ 171 ·
3) المرجع السابق ج 2 ص 172 ·

وإذن فالدعوة التى دعا اليها المهدى ابن تومرت من العودة الى الكتاب والسنة نجد لهـــا سندا عند من سبقه من المحدثين والمتكلمين ، وانما اشتهرت به ، ونســـبت اليه ، لمناصـــرته لها بمؤلفاته ، ودعمها بنفوذه ، ونفوذ خلفائه من بعده وقد كان لهذه الدعوة أثرها الفعال فى توجيه الاذهان الى الدراسات القرآنية ، ودراسات الحديث وعلومه وان لم تحقق الغـــرض الذى كان يستهدفه ابن تومرت وهو القضاء على المذهب المالكي ٠

ونجد من نتائج هذه الدعوة الى الحديث والقرآن نبوغ جماعة كبيرة من المحدثين فى العصر الموحدى وما بعده ، ومن هؤلاء المحدثين الكبـار : ابو محمد عبد الحق الاشبيلى البجائى الذى ولد سنة 510 هـ وقضى نشأته الاولى ، وهو يسمع فى مجالس شيوخه صدى لهذا الاتجاه الجديد فى دراسة الفقه والاحكام من منابعها الاولى ، فاعجب به ، ومال اليه وترك مؤلفات كثيرة فيه ٠

حياته : ولد عبد الحق بن عبد الرحمن بـن عبد الله بن حسين بن سعيد بن ابراهيم الازدى الاشبيلى باشبيليه سنة 510 هـ ونشأ بها ، وأخذ عن شيوخها ، ثم انتقل الى لبلة من مدن الاندلس واخذ بها عن ابى الحسن خليل بن اسماعيل ، وتفقه عليه، واقام بلبلة حتى غمرتها الفتن السياسية فانتقل منها الى بجاية (4) ٠ وهذه الفترة التى قضاها عبد الحق بالاندلس فترة يكتنفها الغموض الشديد ، وقد اشار اليها من ترجموا له بكلمات مقتضبة لا تفيدنا كثيرا فى القاء الضوء على هذه الفترة الهامة من حياة عبد الحق الاشبيلى ونحـن ينبغى لنا أن نقف عند هذه الفترة قليلا لا يضاح بعض الغموض الذى يسودها لانها تساعدنا على دراســـة شخصية عبد الحق وعوامل التحاقه ببجايـــة ٠

أما ولادة عبد الحق الاشبيلى فقد كانت سنة 510 هـ كما ذهب الى ذلك ابو العباس الغبرينى (5) والذهبى فى تذكرة الحفاظ (6) وابن فرحون فى الديباج المذهب (7) ٠

وذهب ابن الزبير فى صلة الصلة الى ان ولادته كانت سنة 514 هـ (8) وهى رواية انفرد بها عن اصحاب التراجم الآخرين ٠

واما مدة اقامة عبد الحق باشبيلية ولبلـة قبل هجرته الى بجاية فقد اشار اليها اصحاب التراجم اشارة غامضة قالوا فيها ان هجرته الى بجاية كانت وقت حدوث الفتنة التى انقرضت فيها الدولة الملتونية (9) ٠

---

4) راجع : ابا جعفر احمد بن الزبير : بغية الملتمس (مجريط مطبعة روخس 1884) ص 378 ـ الذهبى : تذكرة الحفاظ (بيروت : دار احياء التراث) ج 6 ص 1350 ٠
ـ الغبرينى احمد : عنوان الدراية نشر ابن ابى شنب ص 20 ـ 23 ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ص 175 ـ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات (مصـــــر سنة 1951 م) ج 1 ص 518 ـ بروكلمان : تاريخ الاداب العربية ج 1 ص 458 ٠

5) عنوان الدراية ص 20 ـ 23 6) تذكرة الحفاظ ج 4 ص 1350 7) الديباج المذهب ص 175
8) صلة الصلة ص 4 ـ 5 9) راجع : الديباج ص 175 ـ وتذكرة الحفاظ ج 4 ص 1350 وفـوات الوفيات ج 1 ص 518 ٠

وهذه الفتنة التي كانت عاملا من عوامل هجرة عبد الحـــق الشبيلي الى بجاية قد ذكرها المؤرخون ، وفصلوا احداثها ونحن بسوقنا لاحداث اشبيلية ولبلة وما يتصـــل بهما مـن اخبار الاندلس في منتصف القرن السادس الهجري نصل الى تصوير هذه الفتنة العارمة ٠

يذكر الناصرى في الاستقصا : ان الموحدين زحفوا الى لبلة وكان بها من الثوار يوســف بن احمد البطروجي فاطاعهم ، وسلم اليهم المدينة ثـــم زحفوا الى اشبيلية وفتحوها في شعبان سنة 541 هـ ٠ وفر المرابطون الذين كانوا معتصمين بها ، وقتل في جملتهم عبد الله ولد القاضــي ابى بكر بن العربي وهو من شيوخ عبد الحق الاشبيلي وهناك حادث خطير تعرضت له مدينة لبلة وكان ذلك عقب ثورتها على الموحدين ، وزحف اليها هــؤلاء بقيادة يحيى بن يغمور والى قرطبة واشبيلية وفتحوها سنة 599 هـ (10) ٠

وقد ارتكب هذا القائد الموحدى فظائع وحشية بعد ان فتح المدينة (عنوة وقبض على اهلها وخرج بهم الى ظاهرة المدينة وصفهم في صعيد واحد ، ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم الى الفقيه المحدث ابى الحكام بن بسطـــال ٠

والفقيه الصالح ابى عامر بن الجد ، وكان عدد من قتل من اهل لبلـــة في ذلك الحادث ثمانية الآف منهم ، وقتل بأحوازها منهم اربعة الآف ، ثم بيعت نساؤهم وابناؤهم وأمتعتهم واسلابهم ، فعل ذلك افتياتا على عبد المؤمن ، وبلغه الخبر بمراكش فسخطه ٠٠٠ ولم يصرف الى اهل لبلة شيئا مما أخذ لهم ٠٠ (11) ٠

ولا شك ان هذه الحادثة الفظيعة التي شاهدها عبد الحـق الاشبيلي ، ونجا من ويلاتها وشاهد بعض شيوخه يذهبون ضحيتها قد تركت آثارها السيئة في نفسه ، وجعلت ميله الى المرابطين الذين كانوا يعزون شيوخه ويقدرونهم ميلا أصيلا في نفســـه ٠

ولعل هذه الفتنة الحاصدة هي التي دفعته دفعا الى الهجرة من بلاده في اتجاه الاماكـــن المقدسة ، ولم يذكر من ترجموا له تاريخ مغادرته للاندلس بالتحديد ، ولكن ابا العباس الغبريني حاول ان يحدد تاريخ هجرته فقال ان عبد الحـــق غـــادر الاندلس الى بجاية بعد الخمســـين وخمسمائة (550 هـ) بعد ان قام بالاندلس من سنة 510 هـ الى سنة 550 هـ أي بعد ان اقام فيها نحو 40 سنـــــة ٠

10) الناصرى : الاستقصا (الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1954 م) ج 2 ص 117 ٠

11) المرجع السابق ج 2 ص 125 ٠

وهذا التاريخ يوافقه تاريخ الفتنة الاخيرة بلبلة ، وقد وقعت سنة 549 هـ ، ولا يبعد اذن ان يكون عبد الحق قد فارق الاندلس اثناء هذه الفتنة او بعدها بقليل ، واستقر ببجاية حوالى سنة 550 هـ او بعدها بقليل (12) .

وكانت نيته عند مغادرته للاندلس ان يرتحل الى الاماكن المقدسة لاداء فريضة الحج ، ولكنه عندما وصل الى بجاية اقام بها واختارها وطنا له كما يقول الغبرينى .

وقد اقام ببجاية نحو احدى وثلاثين سنة من سنة 550 هـ الى سنة 582 هـ ينعم بالطمانينة والاستقرار ، ومال فى هذه الفترة الطويلة من حياته الى الزهد والتدريس والخطابة فى الجامع الاعظم بها (13) .

ولم يتول القضاء بها الا فى عهد بنى غانية لفترة قليلة وهذا ما لاحظه الغبرينى فى عنوانه (14) .

وكان عبد الحق الاشبيلى يبتعد عن المناصب السياسية بحكم اتجاهه الزهدى ، ولذلك لم يل القضاء الا فى عهد بنى غانية ولمدة قليلة وقد امتنع عنه فى العهد الموحدى تحت حكم السادة من بنى عبد المؤمن واستغرب ذلك منه ، وفى ذلك يقول ابن الزبير : ودعى ببجاية الى خطتى القضاء والخطابة للموحدين فامتنع عن ذلك ، ودعى لذلك حين دخلها الميورقى (ابن غانية) فاجاب (15) .

وقد استطاع عبد الحق ان يتفرغ للعلم والافادة ، وان يراجع ما درسه على اشياخه بالاندلس ، وان يأخذ عن كبار العلماء الذين كانوا يمرون ببجاية ، وان يفيدهم ، ولا غرابة ان ينبغ بعد ذلك فى الحديث وعلومه وفى الآداب ايضا .

وكان عبد الحق يفتخر بالمشيخة التى اخذ عنها بالاندلس وغيرها ، وكانت من رجالات الفقه والحديث والفقه والادب وغيرها ، ومنهم ابو الحسن خليل بن اسماعيل ، وابو الحسن شريح ، وابو بكر عبد العزيز بن خلف ، وابن برجان ، وابو حفص عمر بن ايوب وابو بكر بن مديد ، وابو الحسن طارق ، وطاهر بن عطية وابو بكر ابن العربى الشهير ، واجازه من المشرق ابو القاسم ابن عساكر محدث دمشق وغيره . وهكذا اشتهر عبد الحق الاشبيلى البجائى بالحديث وعلومه ، واعتبره ابن

12) عنوان الدراية ص 23 .

13) الديباج المذهب ص 175 ـ تذكرة الحفاظ للذهبى ج 4 ص 1350 ـ عنوان الدراية ص 21 ـ صلة الصلة ص 5 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 14) عنوان الدراية ص 20 15) صلة الصلة صفحة 5 .

عساكر من اكبر المحدثين المعاصرين له بالمغرب ، ولا غـــرابة ان يكون عبد الحق في هذا المستوى العلمى الذى اشتهر به فى المغرب والمشرق ، فقــد كان كما يقول ابن فرحون وابن شاكر « فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله عارفا بالرجال » (16)

ولم يكن عبد الحق جماعا للحديث لا غيــر ، وانما كان دراسا له ، واعيا لما فيه من احكـــام وآداب ، وقد نبغ فيه ، وترك مؤلفات كثيرة فى مختلف علومه ٠

وكان الى جانب ذلك اديبا واعيا ، وشاعرا مطبوعا « يزاحم فحول الشعراء ، ولم يطلــق عنانه فى نظمه بل اقتصر على باب الزهد وما يرجع اليه » كما يقول ابن الزبير (17) ٠

والواقع ان مؤلفات عبد الحق الاشبيلى تشهد له بهذا التحصيل الواســع ، وبهذه العبقرية الفذة فى دراسة الحديث وعلومه ٠

ومؤلفاته حسبما ذكرها من ترجموا له علــى اختلاف بينهم فى ذلك هى فى الحديث وعلومه ٠

1) الاحكام الكبرى 2) والاحكام الصــغرى 3) وهناك احكام كبرى اعظم من الاولى وذكر الغبرينى انها ضاعت ٠

وهذه الكتب فى الاحكام جرت عادة المؤلفين فيها ان يدونــــوا الاحاديث وآراء الصحابة والآيات القرآنية حسب ابواب الفقه ، حتى يسهل استنباط الاحكام منها ، وقد سبق عبد الحـــق الى هذا النوع من المؤلفات فى الاندلس ابو العباس بن ابى مــــروان الشهيد عند هجوم القائد الموحدى عليها سنة 549 هـ وحظى ما كتبه عبد الحق بالقبول والبقاء دون ما كتبه ابو العباس بن ابى مروان ٠ ويلاحظ الغبرينى ان الاحكام الكبرى والصغرى قد اشتهرتا فى عصره فى مجالس العلم شرقا وغربا وكتبت عليهما شروح ومن ذلك ما كتبه ابن القطان تحت عنوان « الوهم والايهام الواقعان فى كتاب الاحكام وان كان لا يخلو من تعسف » (18) ٠

3) وله كتاب المرشد فى الحديث ، وقد تضمن حديث مسلم وما زاد البخارى على مسلم ، واضاف الى ذلك احاديث حسنة وصحيحة من سنن ابى داوود ، وكتاب النسائى والترمذى ومـــا وقع فى الموطا مما ليس فى مسلم والبخارى ، وهذا الكتاب اكبر من صحيح مسلم ٠

16) الديباج المذهب ص 175 ـ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ٠

17) صلة الصلة ص 5 ٠

18) ابن القطان : نظم الجمان (تطوان المطبعة المهدية) مقدمة الكتاب ، والملاحظ ان مخطوطات الكبرى والصغرى موجودة فى الخزانة العامة بالرباط وغيرها من المكتبات كما يوجد فيها كتــاب العاقبة لعبد الحـــق ايضا ٠

4) وله الجمع بين الصحيحين فى سفر ٠

5) وله كتاب « الجامع الكبير » فى الحديث جمع فيه بين المصنفات الستة مع اضافة مـا جاء فى مسند البزار اليه ، وتكلم فيه على علل الاحاديث ، وقد نهب منه هذا الكتاب عند الهجوم على بجايـــة ٠

6) وكتاب فى المعتل من الحديث ٠

7) وكتاب تلقين الوليد فى الحديث فى سفر صغير ٠

8) ومختصر كفاية الكفاية ، فى علم الروايـــة ٠

9) وكتاب بيان الحديث فى قدر صحيح مسلم ونهب منه ٠

وله مؤلفات فى الزهد والتذكير وهي :

10) كتاب الرقائـــق ٠

11) وكتاب العاقبة فى التذكير ٠

12) وكتاب الزهد وقد ذكره ابن شاكر (19)٠

13) وكتاب فضل الحج والزيارة ٠

14) وكتاب التوبة فى سفرين ٠

15) ومعجزات الرسول (ص) فى سفر ٠

16) ومقالة فى الفقر والغنى ٠

17) وكتاب الصلاة والتهجد فى سفر ٠

18) وكتاب الرقائق فى الامثال والمواعظ والحكم والآداب من كلام النبى (ص) والصالحين ٠

وله فى اللغة والشعر والانساب :

19) كتاب الواعى فى اللغة ، وقد حاكى بـــه كتاب الغبريبين للهروى ، وهو فى نحو 18 سفرا عند الغبرينى ، وفى نحو 25 سفرا عند ابن فرحون

20) ومختصر كتاب الرشاطى فى سفرين فى الانساب والقبائل والبلاد وهو احسن من الأصل كما يقول الغبرينى (20) ٠

---

19) فوات الوفيات ج 1 ص 518 ٠

20) عنوان الدراية ص 22 ـ الديباج ص 175 ٠

21) وديوان شعر في الزهد وشؤون الآخرة اشار اليه الغبريني (21) ·

تلاميذه : اخذ عن المترجم جماعة من المحدثين منهم :

الزاهد ابو الحجاج بن الشيخ البلوى ، والاستاذ ابو ذر الخشنى ، والحافظ ابو محمد بن الحسن القرطبى كتابة ، والقاضيان ابو محمد وابو سليمان ابن حوط الله ، وابو الحسن المعافرى وابو محمد بن عطية وابو الخطاب بن خليل وهو آخر من حدث عنه (22) وغير هؤلاء ·

وقد اشتهر عبد الحق بالسلوك الامثل ، وبالفضائل السامية التى جعلته محبوبا لدى الخاص والعام ، وقد احبه طلابه ، واعجبوا بسلوكه كثيرا ، فكان كما يقول ابن فرحون والذهبى وابن شاكر « موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنة ، والتقلل من الدنيا » (23) ·

وكان شديد الرغبة فى نشر العلم ، وافادة الطلاب · فكان كما يقول ابن الزبير « عاكفا على الاشتغال بالعالم جادا فى نشره واذاعته ، حسن النية فيه ولذلك اشتهر ذكره » (24) ·

ويلاحظ الضبى فى بغية الملتمس ، وقد مر ببجاية وقرأ على عبد الحق ، واجازه كتبه انه « كان لا يدخل احد من الطلبة الا سال عنه ، ومشى اليه ، وآنسه بما يقدر عليه » (25) ·

وقد حدثنا الضبى أن شيخه عبد الحق كان يقسم يومه الى اقسام ، فكان بعد صلاة الصبح يقرىء طلابه الى وقت الضحى ، ثم يصلى نافلته ويذهب الى منزله للتاليف حتى يدخل وقت الظهر فيؤدى صلاة الظهر ، ثم يقرىء الى العصر وبعد ذلك يخرج لقضاء حوائج الناس ·

صداقته لعلماء بجاية : كانت بجاية فى القرن السادس الهجرى تزدان بطائفة من العلماء والادباء نذكر منهم ابا مدين الصوفى الكبير ، وابا على المسيلى المتكلم الفقيه ، وابا الطاهر عمارة بن يحيى وبنته عائشة الشاعرة المشهورة ، وابا عبد الله محمد بن عمر القرشى المشتغل بالمباحث النظرية والعقلية وابا زكرياء الزواوى وغيرهم ممن ذكرهم الغبرينى فى عنوانه (26) ·

وقد حدثنا الغبرينى عن مظاهر الصداقة التى كانت تجمع بين عبد الحق وهؤلاء الاعلام ·

---

21) عنوان الدراية ص 21 ·
22) صلة الصلة ص 6 ·
23) الديباج ص 175 ــ تذكرة الحفاظ : ج 4 ص 1350 ــ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ·
24) صلة الصلة ص 5 ·
25) بغية الملتمس رقم الترجمة 1104 ص 378 ·
26) عنوان الدراية ص 6 ــ 25 ·

ومن ذلك ما حكاه الغبريني من ان عبد الحق كان يجتمع مع صديقه ابى على المسيلى ، وابى عبد الله محمد بن عمر القرشى « بالحانوت الذى هو بطرف حارة المقدسى ، وهو المقابل للطالع للحارة المذكورة ، وكان الحانوت يسمى مدينة العلم لاجتماع هؤلاء الثلاثة فيه ، وكان القرشى هذا من اهل النظر فى المعقولات » (27) ٠

وكان عبد الحق صديقا حميما لابى على المسيلى ، وذكر الغبرينى عنـــه انه كثيرا ما كان يجلس معـــه ٠

ولما اشتهر ابو مدين فى بجاية ، وانتشرت عنه غرائب عزم عبد الحق ، وابو على المسيلى علي الذهاب اليه لاختباره ، وسارا اليه وسالاه فاجابهما عن اسئلتهما ثم خاطبهما باشارة صوفية ملتفتا عن يمينه ويساره قائلا : بى قل ، وعلي دل فانا الكل ، (28) فبهرهما وانصرفا عنه معجبين بـــه مقدرين فضله ، وكان سلوكه مع عائلته سلوكا حسنا يتســـم بالسماحة والكرم ، فكان اذا اتته الوصيفة من المنزل تطلب منه قضاء حاجات لاهله ـ يعطيها اكثر مما تطلب ، ويقول لا اجمع على اهل المنزل ثلاث شينات : شيخ ، واشبيلى ، وشحيح بل يكفى ثنتان ، وهذا من خفة روحه ، وكرم طبعه كما يقول الغبرينى (29) ٠

موقفه من ثورة بنى غانية ببجاية : كان بنو غانية الذين استبدوا بامر جزائر ميورقة ومنورقة ولم يذعنوا لطاعة الموحدين ينتظرون الفرصة ليثوروا على الموحدين ، ويستردوا امـلاك الدولة المرابطية التى انتزعوها منها ، وقد اختاروا الهجوم على بجاية عقب وفاة الخليفة يوســـف وهاجموها يوم الجمعة ، والناس فى صلاتهم ، وكان والى البلد السيد ابو الربيع بن عبد المـــؤمن خارج المدينة ، فدخلوها ، ولم يمانعهم اهلها (30)

وكان ذلك فى صفر سنة 581 هـ على ما ذهب اليه ابن خلدون واعتقل بنو غانية السيد ابـا موسى بن عبد المؤمن الذى كان فى طريقه من افريقية الى مراكش ، واحتلوا مدينة الجـــزائر وما زونة ، ومليانة ، واعجزتهم قسنطينة ٠

وساق ابن ابى زرع خبر احتلال بنى غانية لمدينة بجاية بتفصيل اوسع فقال دخل على بـــن اسحاق مدينة بجاية يوم الجمعة فى 6 شعبان سنة 580 هـ والناس فى صلاة الجمعة فانتظر يحيى

27) عنوان الدراية ص 16 ـ 17 ٠
28) المرجع السابق ص 6 ٠
29) المرجع السابق ص 22 ٠
30) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر ج 6 ص 388 ٠

ابن اسحاق حتى احـــرم الناس بالصلاة ، واقتحم عليهم المدينة ، وعمد الى الجامـــع الاعظـــم وادار عليه فرسانه ورجاله « فمن بايعه خلى سبيله ، ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه » (31) ·

وجاء فى مجموعة رسائل الموحدين ما يشعر بوجود تواطوء بين بعض سكان المدينة ويحيى ابن اسحاق الميورقى ·

واجبر يحيى هذا عامة السكان على بيعتـه وممن اجبره على ذلك ابو على المسيلى الذى لم يقدم بيعته حتى كشف له عن وجهه فبايعه حينئذ (32) ·

ويبدو أن ابا على المسيلى سالم بنى غانية مدة حكمهم لبجاية ، وترك منصـب القضاء الذى كان يشغله من قبل لبنى الخطيب الذين تولوه بعده

اما صديقه عبد الحق الاشبيلى فقد كان على العكس من ذلك يناصر ثورة بنى غانية نفورا من الموحدين الذين نكلوا بشيوخه وأصدقائه فى عهد شبابه ، ويأمل فى اعادة الدولة المرابطية على ايديهم ، وكان الموحدون قبل هجوم بنى غانية على بجاية سنة 581 هـ قد طلبوا منه ان يتولى خطتى القضاء والخطابة فامتنع عن ذلك ، ولما اقبل بنـو غانية ، وطلبوه للقضاء والخطابة اجابهم اليهما وهذا ما جعل معاصريه من الفقهاء يستغربون ذلك منه ، وحكى ذلك ابن الزبير فى صلة الصلة ولكنه اردف ذلك بقوله قال : « ان جهات الاعتذار فى مثله متسعة » (33) ·

واقام عبد الحق فى قضائه طيلة حكم بنى غانية لبجاية وهى كما يذكر ابن ابى زرع سبعـة اشهـــر (34) ·

ونجد بعض علماء بجاية قد انحازوا ــ مثل عبد الحق الاشبيلى ــ الى بنى غانية ، واسبغوا على حكمهم شرعية وتمجيدا ، ومنهم ابو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسنـــى الشاعر ، وقد امتدح بنى غانية بقصائد شعرية (35)

وكان منهم من خطب فى تمجيدهم وقال : الحمد لله الذى أعاد الامر الى نصابه ، وأزاله من أيدى غصابه » (36) ·

31) الناصرى : الاستقصا (الدار البيضاء ، دار الكتاب 1954 م ج 2 ص 159 ·

32) عنوان الدراية ص 16 ·

33) صلة الصلة ص 6 ·

34) الناصرى : الاستقصا ج 2 ص 159

30) عنوان الدراية ص 23 ·

36) المرجع السابق ص 23 ·

وكان ذلك باعثا للموحدين بعد استعادتهم لمدينة بجاية على أن ينكلوا بكل من شايع بنى غانية ومنهم عمارة بن يحيى الشاعر ، وعبد الحق الاشبيلى ، وغيرهما ممن لم يذكـــرهم الغبرينى تفصيلا ، وانما اشار اليهم اشارة مجملة فى قوله : اشتدت وطاتهم « أى الموحدين » على اهـــل العلم ، واعتقلوا أناسا منهم ، وكان فى جملة من اعتقل الشريف ابو الطاهر عمارة » ٠

وكان قد تولى القضاء لبنى غانية « فوجه اليه وجىء به مصفدا فى الحديد ، وبقى معتقـــلا مع اصحابه مدة » (37) ٠

ولا يبعد أن يكون الاعتقال قد شمل عبد الحق ، وصديقه ابا على المسيلى وابا عبد الله محمد بن عمر القرشى وغيرهم واما ابو مدين الصوفى فلعله نجا من الاعتقال ٠

خاتمة عبد الحق الاشبيلى : لما عاد الموحدون الى بجاية تتبعوا انصـــار على بن اسحاق الميورقى بالتنكيل ، ووقع عبد الحق فى الاعتقال ، ولا ندرى هل خرج من معتقله قبل وفاته ام بقى فيه حتى توفى سنة 582 هـ ٠

اما مترجموه فانهم يجمعون على انه توفـى بعد محنة نالتـه من الموحدين على عهد يعقوب المنصـــور (38) ٠

ولكنهم لا يذكرون هل توفى فى المعتقل او بعد خروجه منه كما انهم لم يذكـــروا نوعية هذا الاعتقال ، ولم يتفقوا على تاريخ وفاته ولا تاريخ احتلال بنى غانية لبجاية ٠

فابن خلدون يذكر ان على بن اسحاق دخل بجاية فى صفر سنة 581 هـ ، ويوافقه على ذلك صاحب الاستقصا (39) ٠

وكان ذلك بعد ان توفى ابو يعقوب يوسف ، واتم على بن اسحاق استعداده الحربى ٠

اما ابن ابى زرع فانه يقول ! ان علي بن اسحاق هاجم بجاية ودخلها فى 6 شعبان سنـــة 680 (40) ٠

واخذ بهذه الرواية ابن قنفذ القسنطينى فى الفارسية (41) ٠

37) المرجع السابق ص 23 ــ 24 ٠

38) صلة الصلة ص 6 ــ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ــ تحفة الحفاظ ج 4 ص 1351 ــ الديباج ص 185 ٠

39) ابن خلدون : كتاب العبر ــ ج 6 ص 388 ــ ج 6 ص 507 الناصـــرى : الاستقصا ج 2 ص 159 ــ 160 ٠

40) المرجع السابق ص 165 (41) ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية (الـــدار التونسية للنشر 1968 م) ص 108 ــ وجاء فيها ان المنصور تحرك لمحاربة ابن غانية سنة 683 هـ بعد ان مر على ثورته ثلاث سنوات ٠

واذا اخذنا برواية ابن خلدون فان ابن غانية يكون قد حكم بجاية فى شهور (صفر ، ربيع الاول ، ربيع الآخر ، جمادى الاولى ، جمادى الآخرة ، رجب ، شعبان ، من سنة 581 هـ) وهى كمال سبعة اشهر ، ثم خرج منها ودخلها الموحدون

اما اذا اخذنا برواية ابى زرع فان على بن اسحاق الميورقى يكون قد حكمها من شهر شعبان سنة 580 هـ الى صفر من سنة 581 هـ ٠

وفيما يخص وفاة عبد الحق الاشبيلى نجد فيها اختلافا بين اصحاب التراجم ، فالغبرينى وابن الزبير وابن قنفذ القسنطينى يذهبون الى ان المترجم توفى سنة 582 هـ (42) ٠

وابن فرحون وابن شاكر والذهبى اثبتوا ان وفاته كانت سنة 581 هـ (43) ٠

والرواية التى يمكن ترجيحها هى رواية الغبرينى ، لانه كان قريب عهد بالمترجم ، وقد أخذ تاريخ وفاته عن اشياخه الذين عاصروه ٠

واذا اخذنا بهذه الرواية الراجحة ، واعتبرنا وفاته كانت سنة 582 هـ فان تاريخ دخول بنى غانية يكون فى صفر سنة 581 هـ كما ذهب الى ذلك ابن خلدون والناصرى (44) ٠

وقد اقاموا فى بجاية من صفر سنة 581 هـ الى شعبان من هذه السنة ويكون عبد الحق قد اعتقل بعد دخول الموحدين الى بجاية خلال فترة تمتد من رمضان سنة 581 هـ الى ان **توفى فى** سنة 582 هـ ٠

ولم يذكر ابن الزبير ، ولا الغبرينى الشهر الذى توفى فيه فى سنة 582 هـ ٠ اما ابن فرحون الذى ذكر ان وفاته كانت سنة 581 هـ فقد حدد وفاته بشهر ربيع الاول ٠

ولا يبعد ان يكون عبد الحق قد توفى فى اول سنة 582 هـ بعد محنة الاعتقال والمضايقة التى ابتلى بها من قبل ولاة الموحدين ، وكانت سنه عند وفاته 72 سنة ٠

وقد استطاع عبد الحق ان يجعل من حياته ببجاية فترة نشاط علمى متواصل ، ومرحلة اعتكاف للتدريس والتاليف حتى ادركه اجله راضيا مرضيا ٠

أدبه : كان كثير من علماء المغرب فى العصر الاسلامى الذهبى يجمعون بين علوم الشريعة وعلوم الادب فلم يكن الفقيه يزور عن الدراسات الادبية من نثر وشعر ، ولم يكن يعتبر دراستها

42) عنوان الدراية ص 23 ــ صلة الصلة ص 6 ــ الوفيات ص 45 ٠

43) الديباج ص 175 ــ فوات الوفيات ج 1 ص 518 ــ تذكرة الحفاظ ج 4 ص 1351 ٠

44) العبر ج 6 ص 388 ــ الاستقصا ج 1 ص 165 ٠

لغوا وعبثا بل كان يعدها علوما اساسية تساعده على فهم بلاغة القــرآن والسنة ، وتمكنه من استنباط الاحكام منهما ، ونجد كثيرا من الفقهاء كانوا ادباء منهم القاضى عياض وابن عبد البر ، وابن العربى وغيرهم · ومنهم بالتالى عبد الحق الاشبيلى ، وقد كان عبد الحــق اديبا شاعــرا استطاع ان يزاحم الفحول بشعره كما يقول ابــن الزبير فى دسلة الصلة ، غير انه الزم نفســه بموضوع واحد هو الزهد وما يتصل به (45) ·

وقد جمعت قصائده الزهدية فى ديوان اشار اليه الغبرينى فى عنوانه (46) ·

وتشهد للمترجم المقطوعات التى رواها من ترجموا لـــه او التى ادرجها فى كتابه « كتاب العاقبة » بالفحولة الشعرية ، وبالطبع الموهوب ، ونجد فى قصائده الزهدية قبسا من روح المعرى فى لزومياته ، ومن اسلوب ابى العتاهية فى زهدياته ، ومن ذلك قوله من قصيدة فى الزهد :

واهـــا لدنيـــا ولمغـــرورها ... كم شـــابت الصفـو بتكديرها
اى امـــرىء آمـــن فى ســـربه ... ولم ينلـــه ســـوء مقدورها
وكان فى عافيـــة من جســـمه ... من مــــس بلواها وتغييرها
وعنده بلغـــة يـــوم فقـــد ... حيـــزت اليه بحذافيرها (47)

وروى له الضبى فى بغية الملتمس قصيدة دعا فيها الى القناعـــة والزهد فى طيبات الحياة والاحتراس من مفاجاة الموت قبل التوبة واعداد الزاد ليوم الرحيل :

واكـــلا كـل الذى يشـــتهى ... كانـه فى اكلـــه ثـــور
وناهضا ان يدع داعى الهـوى ... كانـــه من خفـــة طيـــر
ان كؤوس الموت بين الـــورى ... دائـــرة قد حثهـا الســـير
وقـــد تيقـــنت وان ابطـــات ... ان ســـوف ياتيك بها الـدور
ومن يك فى ســـيره جائـــرا ... يالله ما فى سيرها جـور (48)

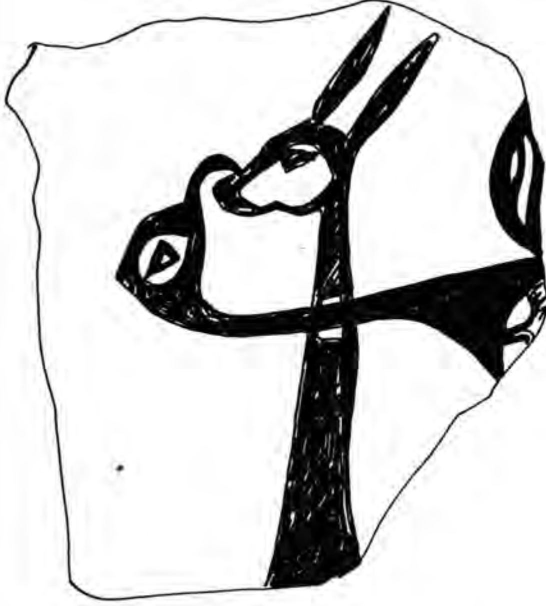
45) صلة الصلة ص 7 ·
46) عنوان الدراسة ص 21 ــ وتوجد منه نسخة مخطوطة بخزانة القرويين بفاس ·
47) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج 6 ص 1351 ·
48) بغية الملتمس ص 378 ·

وروى له ابن الزبير قصيدة حلل فيها الشاعر فلسفته فى الحياة والموت والمصير ، وأبان أن الحياة ظل زائل ، وحلم خادع ، ولذلك ينبغى للانسان ان يكون على حذر من الموت الذى يتربص به ، وان يكون متزودا ليوم رحيله ، وفيها يقول :

يا آمن الساحة لا يذعر	بين يديك الفزع الاكبر
والمرء منصوب له حتفه	لو أنه من عمه يبصر
وهذه النفس لها حاجة	والعمر عن تحصيلها يقصر
وكلما تزجر عن مطلب	كانت به أهيم اذ تزجر
وربما ألقت معاذيرها	لو انها ياويحها تعذر
وناظر لها ناظر	لو انها تنظر اذ ينظر
ورائد الموت له طلعة	يبصرها الاكمه والمبصر
وروعة الموت لها سكرة	ومثلها من روعة يسكر
وبين اطباق الثرى منزل	ينزله الاعظم والاحقر
يترك بهذوالفخر فخره	وصاحب الكبر به يصغر
قد ملأت ارجاءه روعة	نكيره المعروف والمنكر
وبعد ما بعد ؟ واعظم به	من مشهد ما قدره يقدر

وسار عبد الحق الاشبيلى فى قصائده الاخرى على اسلوبه الزهدى هذا مذكرا واعظا ، وموضوع الزهد وان كان موضوعا جافا بالنسبة لمن لم تكن تجربة شعورية فان عبد الحق قد استطاع ان يسبغ على قصائده الزهدية نفحات ادبية ، ونبضات شعورية قوية جعلت منها قصائد خفيفة الروح ، رقافة التعبير ، وهكذا كان عبد الحق شيخا جليلا فى علوم الفقه والحديث ، وكان اديبا مطبوعا يزاحم الشعراء فى مجال الادب والشعر .

صور حيوانات على قيشاني من عهد الحماديين .

















الحركة الأدبيّة في بجاية بني حمّاد

د · رشيد مصطفاى
كلية الآداب
جامعة الجزائر

من يطالع كتاب الغبرينى « عنوان الدراية » يدرك أهمية بجايـــة فى مجالى العلــم والادب ·

ان يكن المؤلف خصص كتابه لمن « عرف من العلماء فى المائة السابعة فان مساهمة عاصمة الحماديين فى نشر الثقافة العربية الاسلامية بدات منذ تاسيسها سنة 460 هـ لانها ورثت من القلعة التى كانت حاضرة بنى حمـاد تقدمها الحضارى اذ كانت محط رحال العلماء وقد التجا اليها كثير من علماء القيروان بعد الحملة الهلالية وقد ذكر الغبرينى عددا من المنتسبين اليها كعبد الله بن محمد بن عمر القلعى وعلى بن شكر بن عمــر القلعى ومحمد بن حسن بن ميمون القلعى ومحمد بن عبد الله بن محمد المعافرى القلعى وغيرهم وقد قال عنها صاحب عنوان الدراية فى معرض كلامه على ابى عبد الله محمد بن على بن حماد بن عيسى بن ابى بكر الصنهاجى : « وهو من أهل قلعة بنى حماد من كبراء الايمة وفضلائهم قرا ببلده بالقلعة وكانت حاضرة علم » · (1)

ولذلك ما حدث فى بجاية من ازدهار حضارى انما هو امتداد لما كانت عليه القلعة يقول ابن خلدون عن المنصور بن الناصر بن علناس : « فاتخذ بجاية هذه معقلا وصيرها دارا للملكه وجدد قصورها وشيد جامعها وكان المنصور هذا جماعة مولعا بالبناء وهو الذى حضر ملك بنى حماد وتانق فى اختطاط المبانى وتشييد المصانع واتخاذ القصور واجراء المياه فى الرياض والبساتين

1) عنوان الدراية ص 128 ط الجزائر سنة 1328 / 1910 ·

فبنى فى القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفى بجاية قصـــر اللؤلؤة وقصـــر أميمون » (2) ·

اما الادريسى الذى زار بجاية فهو يصفها وصفا دقيقا يلخص عظمتها فى العهد الحمادى اذ يقول : « ومدينة بجاية فى وقتنا هذا مدينة الغرب الاوسط وعين بـلاد بنى حماد والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ولها بـــواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها ومنها ما يكفى لكثير من البلاد وبها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابى لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ويجوز من شاء فى كل موضع منه ·

« ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد »

هذا الازدهار الشامل لميادين الحياة كلها يجعل الحماديين وشعبهم يشعرون بفخر واعتزاز صيراهم ينافسون اهل الاندلس واهل المشرق فى ميدان الحضارة المادية والمعنوية حتى تبـــدو بجاية احسن حاضرة عرفها الناس لقد زارها ابـــن حمديس الصقلى الشاعر الكبير فمدح فيها المنصور الحمادى ووصف قصرا من قصوره البديعة وأبدى اعجابا كبيرا بها قال :

واعمر بقصـــر الملك ناديك الذى	**اضحـــى بجـــدك بيتـه معمورا**
اذكرتنا الفردوس حـــين أريتنا	**غرفا رفعـــت بناءها وقصـــورا**

اما ابن لفكون الشاعر القسنطينى المشهور الذى حل بها بعد ابن حمديس فلم يتمالك ان عبر عن اعجابه الكبير بقوله :

دع العـــراق وبغـدادا وشامهما	**فالناصرية مـــا ان مثلها احـــد**

---

2) كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 358 ط دار الكتاب اللبنانى سنة 1968 ·

وختم قصيدتـــه قائـــلا :

يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصف　　　قل جنة الخلد فيها الاهـل والولد

ومن يمعن النظر فى قصيدتى ابن لفكون وابن حمديس يلمس هذه النزعة الى التنافس حيث فضلا بجاية وقصورها على سائر ما بنى الفرس والروم والعـــرب ٠

وكذلك يبدو هذا التنافس جليا فى مجال الادب اذ كان الناس يباهون بادبائهم ادباء المشرق ويفضلونهم عليهم وقد روى لنا الغبرينى شيئا عن هذا الاعجاب عندما ذكر عمارة الشريف قائلا : « كان متقدما فى علم العربية والادب وله تاليف فى علم الفرايض منظـــوم وتواشيحه فى نهاية الحسن وبه يضرب المثل وكثيرا ما يقول الناس عندما يشطط الانسان على الانسان فى الطلـــب فيجاويه واغنى لك موشحا لعماره » ٠

وهذا الاعجاب يشمل مجال العلم كذلك اذ يقول الغبرينى متحدثا عن الامام ابن علي المسيلى الذى كان يسمى ابا حامد : « وله كتاب التفكير فيما يشتمل عليه الســـور والآيات من المبادىء والغايات وهو كتاب جليل سلك فيه مسلك ابى حامد فى كتاب الاحياء وبه سمى ابا حامد الصغير وكلامه فيه احسن من كلام ابى حامد واسلم ودل كلامه فيه على احاطته بعلم المعقول والمنقول وعلم الظاهر والباطن ومن تامل كلامه ادرك ذلك بالعلم اليقين ولم يفتقر فيه الى تبيين وهو كثـــير الوجود بين ايدى الناس وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وايثارهم له » ٠

ان هذين المثلين يدلان على اهتمام الناس بانتاج ادبائهم وعلمائهم وقول الغبرينى : « ومـــن تامل كلامه ادرك ذلك بالعلم اليقين » يرشد الى ان هذا الاعجاب عند اهل بجاية لم يكن مبنيا على الغلو والافراط فى تقدير مؤلفيهم ٠

ولاعجب اذ كانت بجاية من العواصم الثقافية فى العالم العربى والاسلامى وكان يقصـــدها الاجانب من غير المسلمين للتعلم بها وقد تخرج من معاهدها ليونار دو فيبوناتشى العالم الايطالى الرياضى الشهير ٠

بجايـــة والثقـــافة الادبيـــة :

ونحن فى هذه العجالة نقصر القول على الادب فى بجاية اذ كان مزدهرا بها منذ تأسيسها ، ومن مظاهر هذا الازدهار تهنئة الشعراء الناصر الحمادى بعاصمته الجديدة وزيارة ابن حمديس الصقلى الشاعر الكبير لها ومدحه المنصور الحمادى ووصف قصره وصفا بديعا ٠

ثم نجد فى خريدة القصر للعماد الاصفهانى ما نقله عن ابن بشرون من آثار ادبية لجماعة من الشعراء الذين عاشوا فى بجاية فى عهد يحيى بن العزيز الحمادى فمنهم الفقيه ابو حفص عمر بن فلفول الذى كان « كاتب السلطان بتلك البلاد يحيى بن العزيز الحمادى وخالصته وصاحب سره » ومن شعره قوله :

وقالوا نأى عنك الحبيب فما الذى ... تراه اذا بان الحبيب المواصل

فان انت أحببت التصبر بعده ... ولم تستطع صبرا فما انت فاعل

فان الهوى مهما تمكن فى الحشى ... وحل شغاف القلب ليس يزايل

فكم رام أهل الحب قبلك سلوة ... وزادهم عنها هوى متواصل

فقلت الا للصبر مفزع عاشق ... وللصبر أحرى بى وان غال غائل

ساصبر حتى يفتح الله فى الهوى ... بوصل حبيب طال فيه الطوائل

ومنهم على بن الزيتونى الذى يعد « شاعر المغرب الاوسط وأديبه والمعيه وأريبه وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتطليع وقد ساد شعره غناء »

ومن نظمه قوله من قصيدة فى مدح بعض القضاة :

نهاه عن محارمه نهاه ... وقربه لخالقه تقاه

وقال الله ليس سواي رب ... ولا لشريعتى أحد سواه

هو البر العطوف على البرايا ... وبالايتام يرحم من اتاه

وشد به عرى الاسلام حتى ... رأينا النجح وانعقدت عراه

امين عدله غمر البرايا ... فما يخشى على احد قضاه

ومنهم يوسف بن المبارك أحد « موالى بنى حماد وله من مدائحهم من الشعر ما انسحب عليه ذيل حماد ومن قريضه قوله :

هنا كم النصر ونيل النجاح ... فى يومكم هذا بسمر الرماح

فانتم الصيد الكرام الاولى ... شادوا العلى بالنائل المستماح

ما منكم الاهمام حوى ... مناقبا جلى ومجدا صراح

لا ترهبون الدهر اعداءكم ... وتمنعون العرض من ان يباح

وتبذلون الرفد يوم الندى ... وتسعرون الحرب يوم الكفاح

ومنهم ابن ابى المليح الطبيب الماهر والكاتب الشاعر وقد اشتهر بالطب « وله مقطعات جالبة للحب سالبة للب وله من قصيدة عيدية فى الامير عبد الله بن العزيز الحمادى يصف جنائبه وقضاءه حق العيد وواجبه » :

وجالت به جـرد المذاكى كانها ... عـذارى ولكن نطقهـن تحمحم
بصفـراء كالتبر العتيـق صقيلة ... ودهماء يتلوها كميـت وأدهـم
واشقـر لو يجرى وللبرق جهده ... لكان له يـوم الرهـان التقـدم
وقام لواء النصـر يتبع رايـة ... بها العـز معقـود عليها متمم
فلما قضى حـق الصـلاة معظما ... ثنى والهدى فى وجهـه يتوسـم
فـلا زال يقضى نفله وفروضـه ... وبـرد عـلاه بالمدائح معـلم (3)

هؤلاء الشعراء عاشوا فى الدولة الحمادية قبيل سقوطها على يد الموحدين ان تقديم العماد الاصفهانى لهم يدل ـ على قصره ـ على براعتهم فى الشعـر التى لا تقل عن براعة غيرهم من شعراء الاقطار الاسلامية الاخرى فى عصرهم ·

واما فى النثـر الفنى فقد برع فيه زيادة على الشعر ابو حفص عمر بن فلفل الذى « له اليد الطولى فى الانشاء الدال اعجازه فيه على البلاغة الودية بسحره فى نثره » ·

ونذكر كذلك ابا عبد الله محمد الكاتب المعروف بابن دفرير الذى يعد « احد كتاب الدولـة الحمادية المتصرفين فى الكتابة السلطانية » واورد له ابن بشرون رسالة كتبها عن سلطانها يحيى ابن العزيز الحمادى وقد فر من مدينة بجاية امام عسكر عبد المؤمن يستنجد بعض امراء العرب بتلك الولايـة :

« كتابنا ونحن نحمد الله على ما ساء وسر رضى بالقسم وتسليما للقدر وتعـويلا على جزائه الذى يجزى به من شكر ونصلى على النبى محمد خير البشر وعلى آله وصحبه مالاح نجم بسحر وبعد : فانه لما اراد الله أن يقع ما وقع بقبح آثار من خان فى دولتنا وضيع استفز أهـل موالاتنا الشيطان وأغرى من اصطفيناه وأنعمنا عليه الكفران فاتوا من حيث لا يحذرون ورموا من حيث لا ينصرون فكنا فى الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ويفر من صل خبيث الى حية صماء حتى بغت مكرهم وأعجل عن التلاقى امرهم ورد وبال أمرهم اليهم فعنـد ذلك اعتزلنا محلة الفتنة وملنا الى مظنة الامنة وبعثنا فى أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ونستفز من كنا نراه للمهم عدة وانتم فى هذا الامر أول من يليهم الخاطر ويثنى عليه الناصر (4) »

3) الخريدة ص 217 ·
4) الخريدة ص 211 ·

هذه الرسالة تذكرنا برسالة كتبها عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة 132 هـ الى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ومن الطريف أن يقابل بينهما القارىء الكريم ٠

ومن كتاب الدولة الحمادية البارعين ابو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن العالمى له من رسالـة :

« ولما كنت فى مضمار سلفك جاريا ولنا مواليا وفى قضاء طاعتنا متباهيا رأينا أن نثبت مبانيك ونؤكد أواخيك ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك تمييزا لهم عن الاكفاء ومجازاة لهم على محض الصفاء والولاء فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فانت به جدير ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكـور » (5) ٠

انه من العسير اصدار حكم فى هذا الادب لقلة النماذج التى بين أيدينا غير أنها تـدل – على رغم قلتها – على ثقافة ادبية متينة عند أصحابها وأن مستواهم الادبى لا يقل عن مستـوى غيرهم من ادباء الاقطار الاسلامية المعاصرين لهـم ٠

واما الغبرينى فى كتابه « عنوان الدراية » فقد ذكر جملة من العلماء والادباء عاشوا ببجاية فى القرن السابع الهجرى وفى العهد الموحدى فكانت عاصمة الحماديين تزدهر بهم سواء نشـأوا بها أو أتوها من الخارج واستوطنوها او زاروها لمدة ثم ارتحلوا عنها كل ذلك يدل على شهرتها وقيمتها فى مجالى العلم والادب ٠

أما النماذج الشعرية التى اوردها الغبرينى فهى تشمل كل اتجاهات الشعراء فى عصـره فمنها الشعر العادى والشعر الصوفى والمدائح النبـوية ٠

الشعـر العادى :

نذكر من هذا النوع ابا الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشـريف الحسنى الذى « كان متقدما فى علم العربية والادب وله تاليف فى علم الفرائض منظوم وتواشيحه فى نهاية الحسن » ٠

من شعره قوله من قصيدة كتبها للوالى الموحـدى :

سلام كعرف المندل الرطب فى الجمر	والا كماهب النسيم على الزهـر
فلـه در مقلتـين بعبـرة	تعبر فوق الخد عن كامن السـر
وقد راعنى ايماض برق بذى الغضا	كما ابتسم الزنجى عن بهج الثغر
بدالى ان اللـيل أورى زنـاده	ولا نار الا نور بـرق له يسـرى

5) الخريدة ص 212 ٠

ونـــار باكبادى أكـــابد حـــرها ... وقلــب سليم قلـــب فى لظى جمر
وما طائر فوق الغصون مســـرح ... كمن بات مقصوص الجناحين فى وكر
فلم انس توديـــع البنين مصفدا ... واصغرهم يجرى وأدمعه تجـــرى
ايازيـــد انى بالحسين وسيلتـــى ... وجدى شفيع الناس فى موقف الحشر

« وكانت له رحمه الله ابنة تسمى عائشة كانت أديبة » (6) وكانت معاصرة للشاعر القسنطينى ابن لفكون الذى تقدم ذكره والذى زار بجاية ووصفها وصفا شيقا فكانت ابنة عمارة تعـرض عليه شعره وتسأله معارضته (7) وقد عرفه الغبرينى بقوله : « وهو من الفضلاء النبهاء وكان مرفـــع المقدار ومن له الحظوة والاعتبار وكان الادب له من باب الزينة والكمال ولم يكن يحترف به لاقامة اود أو اصلاح حال وأصله من قسنطينة من ذوى بيوتاتها ومن كـــــريم ارومتها وتواشيـــــحه مستحسنة (8) » .

ومن شعره قوله يصف قصر الربيع لبعض سادات بنى عبد المـــؤمن :

ولما نزلنا ساحة القصـــــر راعنا ... بكل جمال مبهج الطـــرف مرتق
فما شئت من ظـــل وريف وجدول ... وروض متى تلمـــم به الريح يعبق
وشادى مغانى الحســن فى نغماته ... يطارحه هـــدر الحمام المطـــوق
فيا حسن ذاك القصر لا زال آهـــلا ... ويا طيـــب ريا نشـــره المتنشق
رتعنا به فى روضة الانـــس بـعـدما ... هصرنا به غصن المسرة مورق (9)

ونذكر كذلك ابا عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن احمد الاريسى المعروف بالجزائرى يقول فيه الغبرينى : « كان من ادباء الكتاب وهو من نظراء شيخنا ابى عبد الله التميمى فى علـــم النظم والقريض ومن أصحابه كان حسن النظم والنثر مليح الكتابة حسن الوراقة فى البطاقة وكان سهل الشعر وكان كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلـــف ولاجل ذلك حسن نظمه وكان مليـــح التواشيح ان طال فى شعره أعرب وان اقتصر واقتصد أعجب وكان شيخ كتبة الديوان ببجاية وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر » (10) .

6) عنوان الدراية ص 25 ط الجزائر .
7) عنوان الدراية ص 26 ط الجزائر .
8) عنوان الدراية ص 202 ط الجزائر .
9) عنوان الدراية ص 203 ط الجزائر .
10) عنوان الدراية ص 205 ط الجزائر

ومن نظمـــه قولـــه :

ادرها فقد هبـــت نسيمـــة داريـــن — ونـم بســر الروض نشــر الرياحين
وقـام خطيب الـــورق يدعـــو هديله — وغنى فاغـــنى عن ضـــروب التلاحين
وذكــر ايـام الصبـــابة والصبــا — ولذة عيـــش كان لي غـــير ممنـــون
فثـــار كمـــين الـــوجد من مستقــره — وبحت بســـر بين جنبى مخـــزون
فيا ساكنى نجـــد أأطـــرق حيكـــم — وارجـــع مغلـــوبا بصفقـة مغبـــون
ويا ساكنى الجـــرعاء ان كان عندكـــم — نصيب من الصـــبر الجميل فواسونى

وقـــــولـه :

ولا انـــس يـــوما للســـرور وبيننا — عتـــاب كبـرد الماء لكنــه الجمـــر
ولا كـــاس الا ما سقـــانى بـــه اللمى — ولا نقــــل الا ما حبـانى به الصـــدر
تقـول وقـــد مالـــت بمعطفها الطـــلا — وخفت لان تخطو فاثقلها الســـكر (11)

وقـــــولـه :

تقـــول والحســـن يطغيهـا فتظلمنى — ولا مـــوازر الا صـــارم ذكـــر
دع الحسام وضـــع حمل السلاح فما — فى كل وقـــت يفيد الحـــزم والحـــذر
مـــا للمهـــند حكـــم فى محلتنـــا — بـــل للمنهد فيهـــا الحكـم والنظر
وللظبـــا فتكـــات بـــين أرحلنـــا — تـرنو وتعنو الظبى المضروبة البتـــر
فـــان طمعـــت بلين فى لواحظنـــا — فنحن اهـــل قلـــوب مثلها الحجـــر
وان حلـــت لـــك الفـــاظ نرددهـــا — ما بيننـــا فهنـاك الصـــاب والصبـــر
انا لنجـــرح مـــن الحـــاظ مبصـــرنا — لكنـــا من ســـواد القلب ننتصـــر
فارحـــم شبابـــك وارحل دون مغلبـــة — واقبل من الحسن ما اعطاكه النظر (11)

ونختم هذا الباب بابى عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام « اصله من تدلس وسكن بجاية ولقى مشايخ وبرع فى الادب وله علم بالتاريخ وله حظ من الفقه ولي القضـــاء ببعض اكـــوار بجاية » يجب ان ينسب الى « الفقهاء ولكن الغالب عليه انما هو الادب » (12) ·

---

11) عنوان الدراية ص 207 ط الجزائر ·
12) عنوان الدراية ص 208 ط الجزائر ·

ومن شعـــــــره :

شمس السعـــادة لاسنى النبراس	حلـــت بافق على بن سيد الناس
وبطائـــر اليمـــن ارتقت لسمائه	تختال بين كواكـــب اخـــراس
من معشر بذل النـــوال شعارهم	وهم الاسود لدى احتـــدام الناس
يذكـــون نيران الوغى باســـنة	ولدى القـــرى يذكون بالاقباس (13)

الشعـــر الصـــوفى :

ومن اصحاب الشعر الصوفى ابو زكرياء بن محجوبة القرشى السطيفى الذى توفى ببجاية عام سبعة وسبعين وستمائة ۰ ومن شعره قوله :

جلت لـــك ليلى مـــن مثنى نقابها	طريقـــا وابدت لمعـــة من جمالها
فطبت بها عيشـــا وتهـــت لذاذة	وفياك الالمـــاع بـــرد ظـــلالها
فكيف ترى ليلى اذا هى اسفـــرت	ضحاء وابـــدت وارفامن دلالهـــا
وكيف بها ان لم يغب عنك شخصها	ولم تخل وقتا من منال وصـــالها
وكيـــف يكون الامر ان انت كنتها	وكانت كتحقيقـــا فحلـــت لحالها

وقـــــوله :

انت واللـــيل ممـــدود الجنـــاح	تعـــود مسهدا رطـــب الجـــراح
فقالت كيـــف انـــت ولاجنـــاح	فقلت العـــود يذهـــب بالجنـــاح
فوا لهفى على الشكـــوى لســـار	وواجـــز على لاعجال الصبـــاح

ومنهم ابو الحسن على بن احمد بن الحسن بن ابراهيم الحرالي التجيبى الذى نزل ببجاية واستوطنها مدة ثم توفى بحماه من بلاد الشام سنة سبـــع وثلاثين وستمائة يقـــول الغبرينى فى معرض كلامه عليه : « له التآليف الحسنة وله الشعر الفائق الرائق غزلا وتصوفا وله فى علـــم الفرائض ما لم يسبق اليه واما علم التصوف فهو فيه الامام » (14) « وكان ابن محجوبة القرشى السطيفى باطنة شيخ شيوخنا الشيخ ابى الحســن الحرالى (ض) واستفاد منه عـــلم الظاهـــر والباطن » ۰

13) عنوان الدراية ص 211 ۰

14) عنوان الدراية ص 62 ط الجزائر ۰

ومن شعره رحمه الله فى التحقيق قوله :

ومــذ عنك غبنـــا ذلك العـــام اننـــا — نزلنا على بحـــــر وساحلـــه معنـــى
وشمس على المعنى تطالـــع افقنا — فمغربها فينـــا ومشـــرقها منـــا
ومست يدانا جوهرا منـــه ركبت — نفـــوس لنا لمـا صفـت فتجوهرنا
فما السر والمعنى وما الشمس قل لنا — وما غايــة البحر الذى عنه عبرنا
حللنا وجودا اسمه عندنا الفضـــا — يضيق بنا وسعا ولحن فمـا ضقنا
تركنا البحار الزاخـــرات وراءنا — فمن اين يدرى الناس اين توجهنا

وقـــوله :

ما لنا منا ســـوى الحال العدم — ولبارينـــا وجـــــود وقـــــدم
نحـن بنيـــان بنتـــه حكمـــة — وخليـــق بالبنـــا ان ينهـــــدم
نحـن كتـــب اللــه ما يقـــراها — غير من يعرف ما معنى القـــلم
احـــرف الكتـــب الذى أبدعـــه — كلما لاحـــت معانيـــه انعجـــم
اشـــرقت انفسنـــا من نـــوره — فوجـــود الكل عـــن فيض الكـــرم
فتـــرقى النفـــس عـــن عالمهـــا — باختباء ليـــس تدنيـــه الهمـــم
ليس يـــدرى من انـــا الا انـــا — ها هنا الفهـــم عن العـــقل انبهم
عجبـا للكـــل فيمـــا يدعـــى — وتـــاتى الكـــل الا ما حكـــم
كلمـــا رمـــت بذاتى وصـــلة — صار لى العقـــل مع العلم جلـــم
يقطعـــانى بخيـــالات الفنـــا — عن وجـــود لم يقـــيد بعـــدم (16)

المدائـــح النبـــوية :

اما المدائح النبوية فقد نظم فيها ابو عبد الله محمد بن الحسن بنعلى بنميمون التميمىالقلعى « من قلعة بنى حماد ــ كان جده ميمون قاضيا بها ــ نشـــا بالجزائر وقرا بها وانتقل الى بجاية مستوطنا وبها قرا وبرع » (17) « وكان يسلك فى شعره على طريق حبيب بن أوس وكان صاحبه

(15) عنوان الدراية ص 96 ط الجزائر .
(16) عنوان الدراية ص 97 ط الجزائر .
(17) عنوان الدراية ص 39 ط الجزائر .

ابو عبد الله الجزائري يسلك في شعره سلوك المتنبي وكانا يتراسلان الاشعار يجاوب كل واحد منهما الآخر على طريقته » (18) ٠

« وهو اكثر الناس شعراً وقد شرع في تدوين شعره في عام ثلاثين وستمائة وهو في كل عام يقول منه ما يكتب في ديوان وعاش بعد شروعه في تدوين شعره ثلاثا وأربعين سنة ولو تم لـــه تدوينه لكان في مجلدات كثيرة ولكن بايدي الناس منه كثير وتواشيحه حسنة جدا وتوفي رحمه الله ببجاية عام ثلاثة وسبعين وستمائة (ض) » ٠

ومن شعره قوله في مدح النبي (صعلم) :

واني لادعو الله دعـــوة مذنب — عسى انظر البيت العتـــيق والثم
فياطول شـــوقي للنبي وصحبه — ويا شـــد ما يلقى الفـــؤاد ويكتم
توهمت من طول الحساب وهو له — وكثـــرة ذنبي كيـف لا اتوهـــم
وقد قلت حقا فاستمـــع لمقالتي — فهل تائب مثلي يصيـــح ويفهـم
وذلك في القـــرآن اوضـــح حجة — وما ثـــم الا جنـــة او جهنـــم
اليك رســـول الله ارفـــع حاجتي — فانـت شفيـــع الخلق والخلق هيم

وقوله من قصيدة اخرى في الزهد :

الخبر أصدق في المـراى من الخبر — فمهد العذر ليس العين كالإثـــر
واعمل لاخرى ولا تبخـــل بمكرمة — فكل شيء على حـــد الى قـــدر
وخل عن زمـــن تخشى عواقبه — ان الزمـــان اذا فكـرت ذو غـير
انظر لمن باد تنظر آيـــة عجبـا — وعبرة لاولي الالبـــاب والعبـــر
اين الالى جنبوا خيـلا مسومـــة — وشيدوا ارمـا خـــوفا من القدر
لم تغنهم خيلهم يوما وان كثـرت — ولم تفـــد ارم للحادث النكـــر
بادوا فعادوا حديثا ان ذا عـــجب — ما اوضح الرشد لولا سيء النظـر
تنافس الناس في الدنيا وقد علموا — ان المقام بها كاللمـــح بالبصـــر
اودى بدارا واودى بابن ذي يزن — وفل غـــرب هرقل انه لحر (19)

---

18) عنوان الدراية ص 43 ط الجزائر ٠
19) عنوان الدراية ص 42 ط الجزائر ٠

قيمـــة هذا الادب :

من يمعن النظر فى هذه النماذج التى عرضناها يجد ان اصحابها ذوو ثقافة أدبية متينـــة وكانوا فى تناول امثلتهم يولون وجوههم شطر الاندلس وشطر المشرق ·

اخذوا عن الاندلس موشحات اهلها فنظموا على منوالها موشحـــات كان معاصـــروهم يستحسنونها ولكن تاسف من خلو عنوان الدرايـــة من نماذج منها تمكننا من تقويمها والمقارنة بينها وبين ما نظم الاندلسيون من الموشح ·

اما الموشح فترجع نشاته الى اوائل القــرن الرابع ولكن ما أخذ ينتشر ويزدهر الا فى القرن الخامس بفضل عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة 422 هـ فراح أهل المغرب والمشرق ينسجون على منواله وبذلك كان شعراء الجزائر أبناء عصرهم ·

وكان شعراؤنا كذلك يتاثرون بفحول الشعراء فى المشـــرق ولا سيما ابى تمام والبحترى والمتنبى والمعرى اما الثلاثة الاولون فقد أصبحت لهم شهرة لاتدانى اذ صاروا المثل الا على فى نظم الشعر. نجد صدى هذه الشهرة عند شعرائنا اذ يرى الغبرينى متحدثا عن ابن ميمون القلعى انه كان يسلك فى شعره طريق ابى تمام وكان صاحبه ابو عبد الله الجزائرى يذهب مذهب المتنبى وانهما يتراسلان الاشعار ويجاوب كل واحد منهما الآخر على طريقته وقد قرأ الغبرينى على ابن ميمون قصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبى·

يقول ابن الاثير الذى كان معاصرا لشعرائنا متحدثا عن شهرة أبى تمام والبحترى والمتنبى : « ان من الشعراء المتأخرين من فاق الاولين والذى أدانى اليه نظر الاجتهاد دون التقليد أن جريرا والفرزدق والاخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية وبينهم وبين اولئك فرق بعيد واذا استفتيت قلت ان ابا تمام والبحترى والمتنبى أشعر من الثلاثة المذكورين وليس عندى اشعر منهم فى جاهلية ولا اســـلام (20) » ·

ويقول صاحب الصبح المنبى عن حيثية المتنبى : « قد أجمع اعلام العلم وفرسان النثر والنظم على أن هؤلاء الثلاثة (يعنى ابا تمام والبحترى والمتنبى) ذللوا جموح الاداب وشموسها واطلعوا أقمارها وشموسها وهم أصول الادب وفروعه ومعدنه وينبوعه والى كلامهم تميل الطباع وعـلى ابياتهم تقـف الخواطر والاسماع وثمرات الادب منهم تجنى وذخائـــر البراعـــة من غرائبهم تقتنـــى » (21) ·

20) الصبح المنبى ص 410 ط دار المعارف بمصر سنة 1963 ·
21) الصبح المنبى ص 177 ·

واذا علمنا ان الشيخ يوسف البديعى صاحب الصبح المنبى توفى فى القرن الحادى عشر الهجرى ادركنا ان شهرة هؤلاء الفحول قد تخطت الازمنة والامكنة اذ نجد اهل الاندلس لا يقلون اعجابا بهم من اهل المشرق يروى لنا فى ذلك لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة قصة شاعر اندلسى كان ناقما على اهل عصره اعجابهم الشديد بهم فقال يوما لجماعة منهم : « تقيمون القيامة بحبيب والبحترى والمتنبى وفى عصركم من يهتدى الى ما لم يهتد اليه المتقدمون ولا المتاخرون فانبرى له شخص له همة واقدام فقال يا ابا جعفر : اين برهان ذلك فما اظنك تعنى الا نفسك فقال ما اعنى الا نفسى ولم لا وانا الذى اقول » ثم يسرد ابياتا لم تعجب الحاضرين فسخروا منه وقال ابن الخطيب : « فلم ينصفوه فى الاستحسان وردوه فى الغيظ كما كان » ·

وهذه القصة يرويها ابن سعيد فى القدح المعلى فاخذها عنه ابن الخطيب والشاعر المعنى هو احمد بن محمد بن طلحة من اهل جزيرة شقر المتوفى فى سنة احدى وثلاثين وستمائة فكان معاصرا لشعراء بجاية فى القرن السابع ورواية ابن الخطيب لهذه القصة تدل ان هذا الاعجاب ممتد الى القرن الثامن ·

غير انه يبدو لنا من مطالعة عنوان الدراية ان شعراءنا يؤثرون ابا تمام على صاحبيه اذ نجد الدارسين للادب فى عصر الغبرينى يعطونه اكبر اهتمامهم وفى قصيدة ابن ميمون التى مطلعها :

الخبر اصدق فى المراى من الخبر — فمهد العذر ليس العين كالاثر

وهذا المطلع يذكرنا بقصيدة مشهورة لابى تمام مطلعها :

السيف اصدق ابناء من الكتب — فى حده الحد بين الجد واللعب

وكان ابن ميمون معاصرا لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى المتوفى فى سنة 596 والمشهور ببردته وهمزيته فى مدح النبى (صعلم) وهذا يدل ان المدائح النبوية كانت شائعة فى هذا العصر شرقا وغربا وهى من ميزاته ·

وكذلك الشعر الصوفى فقد انتشر فى كل الاقطار الاسلامية والجزائر قد ساهمت فيه مساهمة ذات بال ·

وهذا الشعر على نوعين : احدهما زهدى كالذى ورد فى قصيدة ابن ميمون الرائية والثانى صوفى حقا لانه يحتوى على معان فلسفية كالتى اشتهر بها ابن الفارض (576 _ 632) وهو معاصر لشعرائنا ولابن ربيع الانصارى الذى « ولد ببجاية وقرا بها ولقى مشايخ والمتوفى سنة خمس وسبعين وستمائة قصيدة فيها نفحة من نفحات شعر ابن الفارض يقول فيها :

سفرت على وجه الجميل فاسفــرا / وبدا هلال الحســـن منها مقمــرا
ودنت فكاشفت القلوب بســـرها / وسقت شــراب الانس منها كوثرا
ورايتها فى كل شــىء ابصـــرت / عيناي حتى عدت كلى مبصـــرا
وسمعت نطـــق الناطقين فكلهم / بالحمد والتسبيح عنها اخـــبرا
وبهـــا ركبت زواخرا من حبهـــا / ولبست سر الســر ثوبا احمـــرا
وبها فنيت عن الفناء وغصــت فى / ماء الحياة مسرمدا ومدهــرا (22)

وكان شعراؤنا الصوفيون معاصرين كذلك لابن سبعين الاندلسى (613 ـ 669) وتلميذه ابــى الحسن الششترى المتوفى سنة 669 ومحي الدين بن عربى (560 ـ 638) وهؤلاء كلهم زاروا بجايــة واستوطنوها مدة ٠

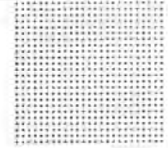
فى الختام كان شعراؤنا يسايرون ادباء عصرهم فى اذواقهم واتجاهاتهم ومذاهبهم واذا تصفحنا المجموعات التى نقلت الينا شعر معاصريهم فى الشرق والاندلس لا نجد فرقا فى المستوى بل نجد عند كثير من شعرائنا ـ رغم قلة نماذج شعرهم ـ اصالة وبراعة تجعلانهم فى مستوى شعراء عصرهم فى كل الاقطار الاسلامية ٠

ولا عجب فى ذلك اذا علمنا ان بجاية كانت تحتضن الفقهاء والادباء والمتصوفة والفلاسفة وهؤلاء كلهم فى وسعهم ان يمكنوا المتثقف بها من ثقافة واســـعـــة عميقة تؤهلهم ان يساهمــوا مساهمة فى بناء صرح الثقافة العربية الاسلامية التى كان اهل الجزائر عامة يعتزون بها ايما اعتــــزاز ٠

(22) عنوان الدراية ص 34 ط الجزائر ٠

جهود الجزائر الفكرية

في موكب الحضارة العربية



يحيى بوعزيز
كلية الآداب
جامعة وهران

عندما طلب منى ان اشارك بمقال عن بجاية انصرف ذهنى الى موضوع عام اعتبره شخصيا هاما وجديرا بالعناية هو : (دور الجزائر الفكرى فى موكب الحضارة العربية) · ذلك أن جهود الجزائر فى هذا الميدان رغم كونها ضخمة الا انها مجهولة ولا يعرف العالم الخارجى عنها ، بل ولا نعرف نحن عنها ايضا ، الا الشيء القليل والنزر اليسير حتى اصبح يكاد يكون من الشائع أن الجزائر لا تراث لها فكرى وحضارى · ويعود ذلك فى نظرى الى أن الجزائر بليت منذ فجر تاريخها بمحن الغزو الاجنبى والاستعمار الدخيل فانصرف شعبها بكل طاقاته الى مقاومة هذا الغزو الاجنبى المادى والمعنوى ، وغطت بطولاته المجيدة فى هذا الميدان عما شارك به من جهد فى الميدان الفكرى زيادة على ان فرنسا فى الفترة المعاصرة بذلت المستحيل لتفصل الجزائر عن ماضيها وامجادها التاريخية والفكرية والحضارية ·

وفى اعتقادى أنه اصبح من اوكد واجباتنا اليوم بعد تحقيق التحرر السياسى أن نزيل هذا الحيف على بلادنا وننكب على احياء وبعث أمجادنا الفكرية والحضارية وابرازها لتكون قاعدة متينة للانطلاقة الفكرية الخلاقة التى ننشد تحقيقها ، وهى صميم الثورة الثقافية التى نطمع ونسعى لتحقيقها · وعملية احياء التراث من اجل التطور تجربة حية قامت بها وطبقتها شعوب أخرى ونجحت فى مسعاها · فشعوب أوروبا التى كانت تعيش فى العصور الوسطى حياة الظلم والاستبداد السياسى ، والجهل والجمود الفكرى ، والتخلف الاخلاقى ، والفقر والمرض الاجتماعى ، بسبب استبداد الملوك وتجبر الاباطرة ، وتحكم الكنيسة ومنع الذهن الاوروبى من

الانعتاق ، وسيطرة الاقطاع على الارض وكل مصادر الثـــروة الاخرى · هذه الشعـــوب عندما استيقظت أوائل العصر الحديث وأخذت طريق النهضة أولت اهتمامها ببعث وإحياء الفكر والتراث الاغريقى الرومانى فيما دعي « بالحركة الانسانية » واستعانت حتى بجهـود المسلمين فى ذلك ، ومنها انطلقت فى نهضتها الكبرى التى تعتبر مفخرة العصر الحديث وانتهت الى تفجير « الثـــورة التجارية » فى القرنين 16 و 17 و « الثورة الصناعية » فى القرنين 18 و 19 و «الثورة التيكنولوجية» فى القرن العشرين التى ما تزال تزحف وتتطور بشكل يثير الاعجاب بالنسبة اليها والخوف والرعب بالنسبة الينا لانها تهددنا بالدمار والخراب بما توصلت اليه من وسائـــــل واختراعات فتاكة · والشعوب العربية عندما استيقظت فى القرن الماضى أولت اهتمامها بحركة الاحياء والبعث للتراث الفكرى والحضارى العربى خاصة فى منطقة بلاد الشام ومصر ، ومنها اخذت تنطلق الى الامــام وتنتشر وتتسع الى جهات أخرى ·

وهكذا رأيت من المناسب ان يكون مقالى فى هذا الموضوع بالذات لاثير الاهتمام على الاقل وأسلط بعض الاضواء بقدر الامكان وحسبما يسمح به الوقت على دور الجزائر وابراز جهـــود شعبها فى العمل الخلاق فى اطار الحضارة العربية التى يمتد تاثيرها من الاندلس غربا الى مشارف الصين شرقا ·

اهمية موقــع الجــزائر عبر التاريخ :

وساخذ القارىء معى فى رحلة طويلة عبر التاريخ لنستعرض معا ونقف على بعض الامثلـــة الحية التى تحدد دور اجدادنا فى هذا الميدان · وسيكون تحديد اهمية موقع بلادنا هو المفتـــاح الذى يساعدنا على اقتحام هذا الطريق الطويل دون خوف ، والوصـــــول عبره الى مناطق تلك الامجاد الفكرية والحضارية وتقويمها ووضعها فى اطارها الصحيح ·

ان الجزائر تحتل موقعا هاما فى شمال قارة افريقيا بصورة عامة وبين اقاليم المغرب العربى بصورة خاصة وهذا الموقع الهام هو الذى اهلها لتلعب تلك الادوار الموجهة على امتداد تاريخها الطويل وتشارك فى بناء صرح الحضارة العربية خاصة والانسانية عامة بجهد هائل وخـــلاق · وقد كانت الجزائر وما تزال صلة الوصل بين اقاليم المشرق العربى وبلدان المغرب الاخرى المطلة على شواطىء الاطلس التى امتد تاثيرها بعد ذلك الى الاندلس او « فردوس المسلمين المغتصب » لمدة تزيد على ثمانية قرون · وهى صلة الوصـــل كذلك بين بلدان البحر المتوسط واوروبا شمـــالا وبلدان ما وراء الصحراء الكبرى جنوبا الى اعماق القارة السوداء التى تعتبر البوابة الحقيقية لها الى عالم البحر المتوسط وأوروبا ·

فهى بهذا عقدة مواصلات هامة ٠ وما تزال طرق القوافل القديمة عبرها حتى اليوم ، تؤكد هذه الاهمية بمراكزها واسواقها التجارية المزدهرة امثال : تيندوف ، وتوات ، وعين صالح ، وتقرت ، وورقلة ، التى تـربط سجلماسة وشنقيط غـربا بقفصة وغدامس والقيروان وطرابلس شرقا الى القاهرة والشام ٠ وهى الاهمية التى استلزمت اليوم تشييد طريـــق الوحدة الافريقية « أو عابر الصحراء » بسواعد شباب الخدمة الوطنية ٠ على أن هذه الاهمية من جهة أخرى هى التى جلبت على الجزائر الاخطار الخارجية وأطمــــاع دول أوروبا التى تكالبت على احتلالها واستعمارها عبر التاريخ كما فعل الرومان والوندال والبيزنطيون قديما ، والاسبان والفرنسيون حديثا ، وذلك لغناها زراعيا حتى اعتبرها الرومان مطمور روما للحبوب والغلال ، ولاهمية موانيها البحرية كقواعد عسكرية للاعتداء والتوسع الاستعمارى ٠

فالرومان تكالبوا على احتلال هذه البلاد وسخروا كل امكانياتهم المادية والبشرية واستعملوا حتى وسائل المكر والخداع لتحقيق اطماعهم والتغلب على كفاح ومقاومة يوغورطه ، وماسينيسه ، ويوبا الثانى ، والقضاء على مملكة سرته ، ويول (شرشال) ٠

والاسبان والفرنسيون فى العصر الحديث والمعاصر فعلوا مثلهم ولنفس الغاية والاهداف ٠ ولكن ابطال الجزائر تصدوا بشجاعة لمقاومة اطماع الرومان قديما بزعامة بيداس وتاكفاريناس وغيرهما واطماع الاسبان والفرنسيين حديثا بزعامة ابطال آخرين أدبوهم جميعا واعطوهم دروسا فى الهزائم لا تنسى نذكر منها على سبيل المثال فقط : هزيمة القرصان أندرى دوريا امام شرشال عام 1531 والامبرطور الاسبانى شارلكان امام الجزائر العاصمة عام 1541 ، ولويس الرابع عشـــر امام جيجل 1664 ــ 1665 ، والجزائر العاصمة 1682 ــ 1683 ، وهزيمــة الاستعمار الفرنسى فى معركة 1954 ــ 1962 ٠ وقد فرضت الجزائر على اوروبا وضعا لا تحسد عليه وارغمتها على شراء السلام بالاموال لاساطيلها البحرية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط مما اضطرها الى عقـــد مؤتمرات دولية فى فينا عام 1815 وايكس لا شابيل عام 1818 لبحث ما اسمته أخطـــار البحرية الجزائرية التى حاولت أن تلصق بها ما دعته « القر صنة البحرية ، زورا وبهتانا لان البحـــرية الجزائرية لم تقم باعمال القرصنة وانما كانت ترد العدوان وتدافع عن البلاد ضـــد « القرصنة الاوروبية » التى كانت حكومات أوروبا « تباركها » خاصة انجلترا ٠

المراكز الحضارية بالجزائر العربية المسلمة :

وعندما ظهر الاسلام بشبه الجزيرة العربية ووصل الى بلاد المغرب آمن به شعب الجزائـر بيسر وسهولة واستقبل مبادئه السمحة بصدر رحب وبفرحة ، ولم تكن معارضة الكاهنة دهيا بالاوراس ، وكسيلة بجبال تيارت والونشريس ٠ تعبر عن راى الاغلبية التى آمنت بالدين الجديد

لانها كانت لاغراض شخصية اكثر منها معارضة للاسلام الوافد ثم ان مبادىء هذا الدين الجديد كانت ثورة حقيقية فى ميدان العقيدة الروحية والتعامل الاجتماعى حيث خلصت الناس من عبادة الاشخاص والظواهر الطبيعية وسوت بينهم فى الحقوق والواجبات واكثر من هذا اعادت للعقل مكانته وسمح ذلك لعامة الناس ان يميزوا بين الضلالة الوثنية والرشد الالهى المستمد من شريعة الاسلام السماوية السمحة ·

ومن الاشياء التى استفاد منها الجزائريون فى ظل الاسلام الجديد هو حصول ذلك التفاعل الكبير بين مختلف طوائف السكان وادى الى بروز شعب متكامل الصفات موحد الاهداف اندفع على التو بكل طاقاته لعمل الخلق والابداع فى اطار الحضارة العربية وعلى طريق التطور الطويل الذى بداه الاجداد من غابر العصور ، ونتج عن ذلك قيام مراكز حضارية هائلة لا تقل ضخامة واهمية عن مثيلاتها فى المشرق العربى مثل : تاهرت الرستمية «تيارت» وصدراته الميزابية ، والقلعة وبجاية الحماديتين ، وتلمسان الزيانية ، وطبنة واشير ·

القلعة وبجاية الحماديتان :

بعد ان انشق الحماديون عن الدولة الصنهاجية التى خلفت الفاطميين فى حكم المغرب العربى من مدينة المهدية بتونس ، قام حماد بن يلكين بن زيرى الصنهاجي بتأسيس مدينة القلعة فى جبال عياض بالحضنة عام 1007 م (398 هـ) واتخذها عاصمة لدولته الجديدة فتحولت بسرعة الى مركز هائل للعلم والثقافة والعمران ، وبرز بها عدد من فطاحل الفكر والادب امثال الطبيب والفيلسوف بن عبد الله محمد بن علي بن الرمامة ، ومحمد بن حماد الصنهاجي · ولم تفقد أهميتها الا بعد ان قام الناصر الحمادى بتأسيس مدينة الناصرية عام 1067 م (460 هـ) قرب ميناء صلداى الفنيقى على ضيعة تدعى « بجاية » وهو الاسم الذى اشتهرت به بجاية بعد ذلك حتى اليوم ·

وقد شهدت بجاية قفزة هائلة فى ميدان العمران والثقافة واصبحت مأوى وملتقى لرجال العلم والادب على غرار عواصم العلم الاخرى بالمشرق الاسلامى والاندلس امثال قرطبة ، واشبيلية والقيروان ، والقاهرة ، وبغداد ، ويكفى العودة الى كتاب : « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » للعلامة الغبرينى للتأكد مما وصلت اليه هذه المدينة من رقى ومكانة فى الثقافة والعمران ، ويكفيها فخرا انها احتضنت مفكر العصر ومفخرته العلامة ابن خلدون الذى ولي بها خطة الكتابة والحجابة للامير أبى عبد الله الحفصى ·

ومن اشعار ابن حمديس الصقلى فى وصف قصر المنصور قولـــه :

قصـــر لو انك قد كحلت بنـــوره	اعمى لعـاد الى المقـام بصيـــرا
واشتق من معنى الحياة نسميــه	فيكاد يحـدث للعظام نشــــورا
نسى الصبيح مع المليــــح بذكره	وسما ففـــاق خورنقا وسديـــرا
اعيت مصانعه على الفرس الاولى	رفعـــوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنو	لملوكهـــم شبهـــا له ونظيـــرا
اذكرتنا الفردوس حين أريتنـــا	غرفا رفعـــت بناءها وقصــورا

اما ابو على الحسن بن الفكون القسنـــــطينى فقد قال فى وصفها :

دع العـــراق وبغـــداد وشاماها	فالناصرية ما ان مثلهـــا بلـــد
بر وبحر ومــــرج للعيـون لـــه	مسارح بان عنها الهـــم والنكـد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع	حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
ان تنظـــر البـــر فالازهار يانعة	أو تنظر البحر فالامـــواج تطرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصـف	قل جنـة الخلد فيها الاهل والولد

تلمســـان الزيانية :

وفى الوقت الذى تالق فيه نجم بجاية بـرز نجم تلمسان كمركز حضارى آخر هام وهائل ٠ فلقد كانت نواة هذه المدينة قرية (أقادير) التى اسسها بنو يفرن الزناتيون فى عصور قديمة عـــن ظهور الاسلام بكثير ونسج السكان حولها اساطير كثيرة يحكونها عبر العصور من ضمنها أنهـا ازلية الوجود وان الجدار الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قصة الخضر مع موســـى عليهما السلام يوجد بالقرب منها ٠ وقد اورد ابن خلدون هذه الاسطورة واستبعدها باستهجان مـؤكدا ان موسى لم يغادر المشرق الى المغرب وان بنى اسرائيل لم يصل نفوذهم الى افريقيا وانما ذلك من قبيل التشيع الذى جبل عليه الناس فى تقديس أوطانهم وبلدانهم وكما تعتبر هذه القصة خيالية فكذالك لا يصدق القول بأن مؤسس أقاديرهم الرومان لانها اقدم منهم بكثير ، وكذلك الامر بالنسبة لمدن وقرى الجزائر الاخرى ، ذلك ان الشائع فى الكتب الاجنبية والفرنسية على الخصوص بـان كل مدن الجزائر من تأسيس الرومان فهل كانت الجزائر قبل قدوم الرومان خالية من السكان حتى لا توجد بها مدن قبلهم ؟ وهل الرومان تواجدوا على هذه البلاد باعداد كبيرة حتى يقوموا بتاسيس مراكز العمران التى تأويهم على هذا الشكل ؟ ان أبسط تفسير لهذا الادعاء هو ان هذه الكتـب

الاجنبية تحاول ان تخدم الفكرة الاستعمارية ، واستهدف الفرنسيون من وراء ذلك تبرير عودتهم الى هذه البلاد واستعمارها ومن المؤسف حقا ان نجد مثل هذه الافكار ما تزال تدرس لاجيالنا فى مدارسنا فقد وقع بيدى كراس لجغرافية الجزائر الاقلمية لطالب فى السنة قبل الاخيرة للباكالوريا من املاء استاذ فرنسى نسب فيه كل قرى ومدن الجزائر الى الرومان القدماء ·

ولقد نما عمران اقادير الزناتية بمرور الزمن وتوسع · وعندما سيطرت الدولة المرابطية على البلاد أسس محمد بن تينعمر المسوفى محلة (تاكرارت) الى جانبها مع فصلها بصور ، ثم بعد مدة من الزمن ازيل هذا الصور وادمجت اقادير وتاكرارت مع بعضهما وتالفت منهما « مدينة تلمسان » الحالية التى اهتم عبد المؤمن الموحدى بأمرها بعد ان تعرضت للتخريب من طرف جيوشه الغازية ، فاستجلب اليها الناس من كل الجهات لترميم ما تصدع منها وتخرب ، وصرف ولاة الموحدين بعده نظرهم واهتماماتهم بشأنها الى تحصينها وتشييد أسوارها وحشد الناس الى تعميرها حتى اصبحت كما قال ابن خلدون « من اعز معاقل المغرب واحصن امصاره خاصة خلال عهد بن زيان الذين اختطوا بها القصور المونقة والمنازل الجميلة واغترسوا الرياض والبساتين ووصل اليَها الناس من القاصية ونفقت بها اسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر الاعلام وضاهت امصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » وتبارى كبار الكتاب والمؤرخين فى وصفها وذكر مفاخرها امثال البكرى ، والعبدرى ، وابن خلدون ، واخيه يحيى ، ولسان الدين بن الخطيب ، مما يدل على الشأو الكبير الذى وصلت اليه · ومن مدح شاعرها الفحل محمد ابن خميس فيها قوله :

تلمسان لو ان الزمان بها يسخو ... منى النفس لا دار سلام ولا الكرخ

ويكفى تصفح كتاب البستان لابن مريم للتعرف على ما وصلت اليه من تطور فى ميدان الفكر والثقافة وما انجبته من رجال العلم الافذاذ وما احتضنته من قادة الفكر الكبار ·

ما شاركت به الجزائر فى اخصاب الفكر العربى :

ان هذه المراكز الحضارية التى اشرنا الى البعض منها ، توضح الدور الهام والبارز الذى لعبته الجزائر فى بناء وتشييد صرح الحضارة العربية والذى لا يقل أهمية عن دور المراكز الحضارية الاخرى فى بلدان المشرق العربى ، والسؤال المطروح الذى يفرض نفسه هنا هو : ما هى جهود الجزائر فى اخصاب الفكر العربى الثقافى والسياسى والاجتماعى وما هو مقدار رصيدها فى هذا الميدان ؟ والجواب على هذا السؤال يتطلب العودة الى الماضى للوقوف على الامثلة المحددة والمقنعة فى نفس الوقت فلقد انجبت الجزائر مفكرين كبارا امتد تاثيرهم الى اصقاع كثيرة من بلدان المشرق والمغرب الاسلاميين ، وانطلقت منها حركات فكرية ودينية وسياسية

لها دور موجه فى هذه الاصقاع وكانت احدى مصادر الالهام للفكـــر والحضارة العربية قديما وحديثـــا ٠

ففى ميدان الشعر والادب : يعتبر الحسن بن رشيق المسيلى مفخرة ادباء المغرب والمشرق فى القرن الحادى عشر الميلادى ٠ وقد ولد فى مدينة « المسيلة » التى كانت تدعى « المحمدية » بجبال الحضنة عام 995 م (385 هـ) وانتقل منذ صدر شبابه الى عاصمة الاغالبة مدينة القيروان على عهد الفاطميين وعاش هناك حتى لقب بالقيروانى وتصدى للتدريس والتاليف حتى صار من اعلام الادباء ومن اشهر مؤلفاته التى تجاوز تاثيرها حدود المغـــرب الى كافة بلدان المشرق والاندلس كتاب : « العمدة » فى صناعة الشعر ونقده وتبيان عيوبه وفنونه الذى قال عنه ابن خلدون انه اول مـــن اهتم بمثل هذه الصناعة الادبية ولشهرة ابن رشيق فى العلم اصطفاه المعز بن باديس ليكون ضمن خاصته وحاشيته من العلماء والادباء فى قصره وكذلك فعل ابنه من بعده وقد بقي ابن رشيق يتصدر مجمع الادباء والشعراء بالقيروان والمغرب حتى حصل زحف عرب بنى هلال على المغرب فانتقل الى صقلية الاسلامية واستوطن مدينة « مازره » حتى توفى بها وخلف لنا من ورائه تراثـــا فكريـــا وتاريخيا هائلا يمثل رصيدا هائلا فى الحضارة العربية ضمنه عددا من الكتب فالى جانب العمـــدة خلف لنا ايضـــا :

- **نمـــوذج الزمان فى شعـــراء القيروان**
- **قراضـــة الذهـــب فى نقـــد اشعـــار العـــرب**
- **الروضـــة الموشية فى شعـــــراء المهديـــة**
- **تاريـــخ القـــــيروان**
- **شـــرح على موطا مـــالك**
- **ديـــوان شعـــــر**

وفى ميدان النحو وقواعد اللغة : برز يحيى ابن عبد المعطى النحوى وهو من قـــــرى جبال جرجرة ، وقد رحل الى المشرق وولاه الملك المعظم شؤون جامع دمشق ثم طلب منه الملـــك الكامل بمصر ليقوم بالتدريس هناك فالتحق بها واعتكف على القاء الدروس وتخرج على يديه عدد من رجال الثقافة ويشتهر بمؤلفاته الكثيرة اشهرهـــا «الفيته فى النحو» وقواعد اللغـــة التى شرحها عدد من العلماء ٠ وله الى جانبها عدد من الكتب والشروح مثل : الفصول والعقود والقوانين فى النحو ، وحواشى على اصول ابن السراج فى النحو ، وشرح على كتاب الجمل للزجاجى فى النحو ، ومنظومات اخرى فى اللغة والعروض والحديث ، كلها تعتبر ذخرا ورصيدا فى التـــراث ٠

الفكرى العربى وقد توفى ابن معطى عام 1231 م (628 هـ) ، وعلى غراره فعل ابن مالـك النحوى الاندلسى تقليدا له فوضع الفية فى النحو • نالت شهرة كبيرة فى هذا الميدان شرقا وغربا واصبح لاغنى لدارسى اللغة من حفظها ودراستها ولا تكفى مبادىء الاجرومية وقطر الندى لمـــن يريد التطلع فى قواعد اللغة وما تزال حتى اليوم مصدرا هاما للدراسة فى المعاهد والجامعات العربية ذات الثقافة التقليدية كالازهر ، والزيتونة ، والقرويين •

وفى ميدان الفقه والحديث : يعتبر ابن مرزوق الخطيب الجد الرئيس ، وابن مرزوق الحفيد على رأس قائمة فقهاء اقليم المغرب الذين طبقت شهرتهما الافاق ورأيهما فى الفقه على مذهب مالك يرجح الكثير من الآراء ، مثل سحنون وابن عرفة فى تونس ، والقاضى عياض بالمغرب ، وقد ولد ابن مرزوق بتلمسان عام 1310 وتجول فى عواصم المشرق والمغرب ودرس فى بجاية ، وفـــاس ، وتونس ، وقام بسفرات عديدة ديبلومسية بين السلطان المرينى ابى عنان بفاس ومـــلك قشتالة البرتغالى باشبيلية كللت بالنجاح وادت الى عقـد الصلح بينهما عام 1347 وتولى الخطبة والامامة فى جامع قرطبة عام 1351 ورحل الى تونس فى مهمة ديبلوماسية قبل ان يرحل الى القاهرة ليتوفى بها عــــام 1379 •

اما ابن مرزوق الحفيد فيشتهر كذلك بجولاته الدراسية فى عواصم المشرق والمغرب وتدريسه بتلمسان ومن شيوخه الاجلاء عبد الرحمن ابـن خلدون بمصر ومن تلاميذه بتونس الشيخ عبد الرحمن الثعالبى الذى يشتهر بتآلفه العديدة وهو الذى تشتهر به مدينة الجزائر حاليا ومنذ عدة قرون مثلما تعتز وهران بالشيخ سيدى الهوارى ، وقد ولد الثعالبى عام 1385 م (787 هـ) فى احدى قرى منطقة يسر قرب تيزى وزو ومدرس ببجاية وتونس ومصر وتوفى عـــام 1470 م (885 هـ) • وتاتى اهمية ابنى مرزوى الخطيب والحفيد فى كونهما زودا مادة الفقه الاسلامى بافكار ونظريات جديدة اخصبت الفكر الفقهى بصورة عامة وامدته بطاقة جديدة ذات اهمية فى حركة التنوير التى بدأها قبلهما الفقيه السوسى محمد ابن تومرت ، وحطم بها ذلك الجمود الذى طغى على فكر الفقهاء خلال عهد المرابطين الذين نعتهم بالمجسمين ، والمبطلين والملثمين •

وفى ميدان علم المنطق : انجبت الجزائر عبد الرحمن الاخضرى 1546 م (953 هـ) صاحـــب التآليف العديدة فى المنطق والبلاغة والحساب والفرائض والتى تعتبر مراجع اساسية للدراسة فى المعاهد الاسلامية شرقا وغربا ومنها : السلم المرونق فى المنطق ، والجوهر المكنون فى البلاغـــة والدرة البيضاء فى علم الحساب والفرائض ، وشرح السراج فى علم الفلك وهى كلها ذخر ورصيد فى الفكر والحضارة العربية •

ولا يمكن ان نغفل فى هذا الميدان ذكر ابى عمران المازونى « 1478 م ـ 883 هـ » صاحب كتاب : « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » والشريف التلمسانى الاديب اللامع لما لهما من دور فى اثراء الثقافة العربية بنشاطاتهما المختلفة وافكارهما وارائهما الفكرية •

اما المقرى التلمسانى « 1632 م ـ 1041 هـ » فهو اشهر من ان يعرف اذا استطاع ان يحكى للمشارقة قصة تاريخ امجاد المغرب والاندلس بطريقة حية فبعد ان تنقل بين تلمسان وفاس ومراكش وتولى خطة الامامة والخطابة بجامع القرويين من طرف احمد المنصور رحل الى المشرق وتولى التدريس بالازهر فى مصر ، وبالمسجد الاقصى فى القدس مدة من الزمن واقترح عليه علماء الشام ان يؤلف لهم كتابا عن الاندلس فلبى رغبتهم ووضع كتاب : « نفح الطيب بغصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » • الذى يعتبر من المؤلفات المشهورة فى التاريخ والادب معا عن هذه المنطقة الغربية من العالم الاسلامى التى كانت عربية أكثر من ثمانية قرون وجاء ذخرا حيا ورصيدا فاخرا فى صرح الحضارة العربية ، وقد بقى المقرى بمصر حتى توفى عام 1662 م وله اكثر من عشرين كتاب فى مختلف العلوم ومن اشعاره فى الشرق والحنين الى بلده الجزائر قوله :

بلد الجزائر ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلى فى حبها عن عاذرى يكفيك منها ماؤها وهواها

ولا ننسى فى هذا الميدان أبا العباس احمد حسين بن علي بن الخطيب ابن القنفد القسنطينى (1339 ـ 1407) الذى عاصر ابن خلدون وشب فى مدينة قسنطينة ودرس العلم على اجلة علمائها امثال حسن بن خلف بن باديس ، وابن عبد الرزاق الجزولى ، والشريف التلمسانى ، وابن مرزوق والغبرينى ، ورحل الى تلمسان وفاس لطلب العلم وخلف لنا وراءه مكتبة هائلة من مؤلفاته القيمة فى مختلف فروع الثقافة بعضها مطبوع وبعضها ما يزال مخطوطا وتزيد مؤلفاته على عشرين كتابا ومن اشهرها :

ـ الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، وارجوزة فى الطب ، وطبقات علماء قسنطينة ، وانس الحبيب عند عجز الطبيب ، وبغية الفارض فى الحساب والفرائض ، والقنفذية فى ابطال الدلالة الفلكية ، وخط التقارب على وجوه اعمال الحساب ، وتسهيل المطالب فى تعديل الكواكب •

وكذلك الحال بالنسبة لابن ابى مريم المليتى صاحب كتاب «البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان» والورتلانى صاحب كتاب « الرحلة الورتلانية » والغبرينى صاحب «عنوان الدراية» الذين خلفوا لنا آثارا فكرية جليلة تمثل رصيدا فى الفكر العربى •

ابن خلدون : وفى قمة هؤلاء جميعا مفخرة العصر ورائد الفكر فى العصرين الوسيط والحديث عبد الرحمن ابن خلدون الذى هو غنى عن التعريف ان ابن خلدون لم يكن جزائرى الاصل ولكن خلاصة افكاره وعبقريته التى احدثت ثورة فى الفكر البشرى كانت انتاجا جزائريا محظا وقصة حياته هو فى هذه البلاد تعتبر من القصص الشيقة والمثيرة حيث تقلب فى احضان الملك وتقلد مناصب رفيعة فى تونس وبجاية وتلمسان وفاس ومصر ·

فلقد هاجر اجداده الاولون من عرب وائل بن حجر بلاد حضرموت باليمن الى بلاد الاندلس فى صدر الفتح الاسلامى واستقروا بعض الوقت فى قرمونة ثم استقروا باشبيلية وشاركوا فى احداث تلك البلاد طوال العهد الاسلامى بالاندلس وفى القرن 12 الميلادى (منتصف السابع الهجرى) انتقل فرع منهم الى سبته ثم الى تونس حيث ولد هناك مؤرخنا عبد الرحمن ابن خلدون عام 1332 (غرة رمضان 732) وشب على التعلم واعتكف على التحصيل بجد على اجلة الشيوخ والعلماء ابرزهم الشيخ ابو عبد الله الآبلى التلمسانى الذى حكي عنه بانه كان يلقب انذاك بعالم الدنيا فى زمانه ·

وقد امتاز ابن خلدون منذ صغره بذكاء العقل وسعة الاطلاع ودقة الملاحظة ، وسمت به همته حتى وصل الى المراتب العليا فعينه ابن تافراكين الوصى على عرش تونس والامير ابو اسحاق ابراهيم فى منصب الكتابة العامة الذى هو بمثابة الامين العام للحكومة وبعد مدة انتقل الى تلمسان عبر قفصة وبسكرة ثم الى فاس حيث عينه السلطان المرينى ابو عنان فى منصب الكتابة والحجابة عام 756 هـ وهو منصب رفيع شرحه هو بقوله : « ومعنى الحجابة فى دولتنا بالمغرب الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته لا يشاركه فى ذلك أحد » مما يدل على رفعة مكانته وبسبب وشاية حساده ادخله السلطان السجن وبقى به حتى توفى ابو عنان فاطلق سراحه السلطان ابو سالم واعاده الى منصبه ككاتب للسر والانشاء وخطة المظالم ثم طلب الاذن وانتقل الى الاندلس أرض اجداده واستقبله سلطان غرناطة أبو عبد الله ابن الاحمر بحفاوة بالغة وتوطدت صلأته بوزيره لسان الدين ابن الخطيب حتى اصبحا مثل الاخوين · واوفده سلطان غرناطة الى ملك قشتاله باشبيلية ليفاوضه فى عقد الصلح وحكى ابن خلدون بحسرة والم كيف شاهد عاصمة اجداه اشبيلية تتحول الى مدينة نصرانية كما ذكر بان ملك قشتالة عرض عليه ان يبقى عنده بصورة دائمة فرفض ·

ومن غرناطة انتقل ابن خلدون الى بجاية عبر سبته ليتولى هناك منصب الحجابة وكتابة السر للامير الحفصى ابي عبد الله بعد ان اظلم الجو بينه وبين صديقه ابى الخطيب الذى على ما يظهر كان يغار منه كثيرا : وشايع السلطان أبا احمد الزيانى بتلمسان بعض الوقت ثم تحول عنه

الى السلطان المرينى عبد العزيز الذى غزا تلمسان وسيطر عليها فانتقل الى فاس وتمركز بها بعض الوقت وعندما كثر الوشاة ضده طلب الاذن بمغادرتها الى الاندلس مرة ثانية ولمدة قصيرة ثم عاد الى تلمسان وعوامل الاسى تحزفى نفسه من جراء الصعاب والعقبات والمحن التى تنكبها واعترضت طموحه فعزم على الانزواء والاعتكاف للدراسة والتأليف ·

واغتنم فرصة قيام السلطان ابى احمد الزيانى بتكليفه بالخروج لاستمالة الزواودة اليه وادخالهم تحت طاعته فتظاهروا بالقبول وغادر تلمسان غير انه عندما وصل الى البطحاء عدل ذات اليمين الى منداس والتحق باحياء اولاد عريف قبيلة جبل كزول واستقبله السكان بحفاوة وتكلفوا باستقدام اهله من تلمسان وبالاعتذار لسلطانها عن عجزه عن اداء ما كلفه به وانزلوه بقلعة سلامة فى قصر منيف من بلاد بنى توجين وانقطع هناك اربع سنوات كاملة متخليا عن الشواغل متفرغا للتاليف وقال هو نفسه « وشرعت فى تاليف هذا الكتاب وانا مقيم بها واكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذى اهتديت اليه فى تلك الخلوة فسالت شابيب المعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتالفت نتائجها » وكان من بعد ذلك الاوبة الى تونس لرغبة المزيد من الاطلاع وهو ما عناه بقوله وعندما فرغت من مقدمته الى اخبار العرب والبربر وزناته وتشوقت الى مطالعة الكتب والدواوين التى لا توجد الا فى الامصار بعد ان امليت الكثير من حفظى واردت التنقيح فحدث عندى ميل الى مراجعة السلطان ابى العباس والرحلة الى تونس حيث قرار آبائى ومساكنهم وآثارهم وقبورهم فبادرت الى خطاب السلطان بالفئة الى طاعته · وهناك انكب حتى اكمل كتابه : « العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » واهدى نسخة منه الى مكتبة السلطان ·

ومثلما تعرض ابن خلدون لحسد وغيرة كبار شخصيات العلماء الكبار فى تلمسان وفاس وغرناطة امثال لسان الدين ابن الخطيب تعرض كذلك بتونس لحسد وغيرة الفقيه ابن عرفة الذى اكثر من السعاية والوشاية ضده لدى السلطان ولذلك طلب مغادرة تونس الى الشرق لاداء فريضة الحج عام 784 هـ فاتجه الى مصر وعينه السلطان الظاهر برقوق المملوكى فى منصب قضاء المالكية بالمدرسة الصالحية وثارت ضده الاحقاد كذلك غيرة وحسدا فطلب من السلطان اعفاءه من ذلك فاعفاه وحج عام 789 هـ ثم تفرغ للتدريس وقام بسفرة الى بلاد الشام كرسول لمفاوضة تيمورلنك المغولى وبقى يتولى منصب القضاء حوالى سبع مرات الى أن توفى عام 1406 م (808 هـ) ·

ان كتاب العبر لابن خلدون يمثل ثروة هائلة فى الفكر العربى يتالف من ثلاثة كتب فى سبع مجلدات وتعتبر المقدمة اعظمها شرح فيها قضية العمران البشرى وضمنها فلسفة التاريخ والاجتماع وتوصل الى حقائق هامة فى هذا الميدان ما تزال حتى اليوم تحتل الصدارة وتعتبر مرجعا لكل المهتمين

والمتخصصين بهذا الميدان شرقا وغربا فقد نقد الذين سبقوه فى تدوين التاريخ وتفسير حقائقه وبين عيوبهم ثم وصف تطور الامم من البداوة الى الحضارة وترقى الشعـــوب فى الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والعلوم والفنون وتكون الدول ونموها وانهيارها وطبائع اهل البدو والحضر · وقد تتلمذ عنه المفكرون المحدثون امثال هربرت سبنسر وكانت · والجزائر تفتخر بانها كانت مصدر هذه الفلسفة الجديدة وهذا الفكر المبدع الخلاق الذى اتى به ابن خلدون فى قلعة سلامة بعد ان شحذ فكره وصقل كل تجاربه ومعارفه فجاء كما قال هو نفسه « على ذلك النحو الغريب بعد ان سالت شآبيب الكلام والمعانى على الفكر وامتخضت زبدتها وتالفت نتائجها » · ولا غرابة ان تكون منطقة قلعة سلامة بفرندة قرب تيارت منبع بهذا الفكر الخلاق لان التحضر لم يكن عنها غريبا فقد كانت مركزا لحضارة عريقة فكرية وعمرانية على عهد الامارة الرستمية فى القرنين 2 و 3 الهجريين ·

ما شاركت به الجزائر فى اخصاب الفكر السياسى والاجتماعى :

ذلك هو الجزء البسيط من العمل الكبير الذى شاركت به الجزائر فى اخصاب الفكر العربى بمختلف فروعه وهو جهد هام وبارز فى بناء تلك الحضارة العربية الشامخة عبر التاريخ · على ان الجزائر لم يقف دورها عند هذا الحد فقد شاركت ايضا فى اخصاب الفكر السياسى والعسكرى لهذه الحضارة بفضل تلكم البطولات التى حققها اجدادنا ، واولئكم الابطال الذين تقترن اسماؤهم بعظماء الرجال فى كل العصور والاجيال والذين امتد تاثيرهم الى اصقاع اخـــرى من الوطن العربى بالمغرب والمشرق والاندلس ·

وللحقيقة والتاريخ فان البطولة العظيمة التى اظهرها شعب الجـزائر فى حـــرب التحرير الاخيرة (1954 ـ 1962) لم تكن بالشىء الجديد والغريب عليه لانه اعتاد تحقيق مثلها عـــبر تاريخه الطويل وقد اشرنا الى الاعمال البطولية التى حققها بيداس وتاكفار يناس ضد الغـــزاة الرومان فى رقعة المغرب ونذكر هنا بان ابطال الجزائر كانوا يكونون نخبـــة الضباط فى جيش اسدروبال وحنبعل اللذين سيطرا على بلاد اسبانيـــة وعبرا جبال الالب فى العصور القديمة ودقا ابواب روما وهدداها بالفناء لولا حدوث تطورات سريعة فى الموقف · وتزخر كتب الرومان فى الحديث عنهم وعن بطولتهم · وفى العصور الوسطى برز جعفر ابن فلاح الكتامى ليلعب دوره الكبير الى جانب جوهر الصقلى فى فتح بلاد مصر وضمها الى الدولة الفاطمية وليقوم وحده بعد ذلك بانتزاع فلسطين والشام من الاخشديين وضمها الى الحكم الفاطمى عـــام 969 م ولو انه قتل على ايدى القرامطة غدرا عام 971 · ومن الصدف ان جعفر وجوهر هما الذان اسسا مدينة القاهرة والازهر الشريف الذين قدر لهما ان يتحولا الى قلعة للحضارة العربية : ومن اقوال الشاعـر الاندلسى ابن هانى فى مدح جعفر ابن فلاح قوله :

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر ابن فلاح اطيب الاثر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني باحسن مما قد راى بصر

ان اعمال هذا الرجل وامثاله تمثل جزءا من تراث البطولات والمفاخر العربية التى تعتبر احدى لبناة صرح الفكر العربى السياسى ·

واذا كان جعفر بن فلاح ومن قبله مغمورين بعض الشيء فان عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى الكومى الزناتى الموحدى اشهر من ان يعرف وهو من ابرز قادة العصور الوسطى فى الحروب والادارة والسياسة ومن مواليد قرية تاجرة قرب مرسى رشكول بمنطقة جبال ندرومة شمال تلمسان عام 1095 م (487 هـ) وتاتى اهميته فى كونه استطاع ان ينجز اعمالا جليلة تمثل ذخرا هائلا فى البطولات العسكرية العربية لا تقل اهمية عن منجزات صلاح الدين الايوبى ، ونور الدين محمود بن زنكى ، بالشرق · فقد قضى على الامارات الاقطاعية التى كانت تمزق وحدة الاقاليم المغربية العربية كالمرابطين بمراكش والحماديين ببجاية وقضى على حكم النورمان بالمهدية فى تونس وقضى على طموح عرب بن هلال الذين زحفوا على المنطقة وافقدوها امنها وهدؤوها وسببوا لها كثيرا من الاضطرابات والفتن واعاد لهذا الاقليم وحدته من طرابلس الى المحيط الاطلسى التى كانت له فى صدر الفتح الاسلامى وافتقدها بعد ذلك ثم تفرغ عبد المؤمن للتصدى لاطماع النصارى الاسبان بالاندلس الذين استاسدوا ضد الامارات العربية الاسلامية التى تشتتت وحدتها وانهكتها الخلافات العصبية فادبهم واوقفهم عند حدهم مثلما قضى صلاح الدين بالشرق على الصليبيين وطهره منهم ·

ولم تتوقف جهود عبد المؤمن وتقتصر على البطولات العسكرية فقط بل انه اضاف الى الفكر العربى خطة المربع الموحدى فى ميدان الخطط العسكرية ، والمسح الجغرافى للمغرب فى ميدان الجغرافيا الاقتصادية والتشريعات العسكرية والمدنية فى ميدان الادارة وهو الذى نقل الينا كتاب « اعز ما يطلب » لشيخه وامامه محمد ابن تومرت الذى احدث ثورة فى ميدان الفكر الفقهى وكان اهم سلاح له فى تحطيم دولة المرابطين الملثمين والمجسمين والمبطلين · وهكذا زود عبد المؤمن التاجرى الندرومى الجزائرى الفكر والحضارة العربية بزاد وذخر هائل يمثل احدى مفاخر الجزائر وامجادها · والى جانب هذين البطلين : جعفر بن فلاح وعبد المؤمن هناك امثلة اخرى لا بد من ذكرها والاشارة اليها لتكتمل الصورة على جهد اجدادنا فى اثراء الحضارة العربية ·

فابو محمد عبد الله الاشيرى : من مدينة آشير الحمادية جنوب جبال التيطرى ـ 1165 م ـ كان فقيها محدثا واديبا كبيرا انتقل الى المشرق وسكن حلب فى عهد نور الدين محمود بن زنكى وكسب شهرة واسعة بسعة علمه وثقافته وتسابق الكتاب والوزراء والاعيان لمجالسه العلمية وهو

الامر الذى دعا الوزير العباسى ابا المظفر عون الدين يحيى ان يستدعيه الى بغداد ليدرس بهـــا الحديث ويدفع بالحركة الفكرية الى الامام هناك ٠

ــ وابو عبد الله محمد بن علي : المشهور بابن الرمامة من مواليد قلعة بنى حماد عام 1085 م تطلع فى دراسة الطب والفلسفة بهذه المدينة ثم رحـــل الى الاندلس ليتتلمذ على الفيلسوف أبى الوليد بن رشد بقرطبة وتولى خطة قاضى الجماعة بفاس عام 1142 م وكان احد الاعلام البارزين وخلف وراءه ثروة هائلة من المؤلفات العلمية منهـــا :

ــ تسهيل المطلب فى تحصيل المذهب ، والتبين فى شـــرح التلقين ، والتقصى فى فـــوائد التقصـــى ٠

ــ ومحمد بن حماد الصنهاجى : من مواليد برج حمزة قرب البويرة ودرس بمدينة قلعة بنى حماد وبجاية وتولى خطة القضاء فى الجزيرة الخضراء عام 1216 م وفى المغرب بعد ذلك حتى توفى عام 1230 م وخلف لنا من وراثه ثروة هائلة من المؤلفات منها : أخبار ملـــوك بنى عبيد ، والديباجة فى اخبار صنهاجة ، وهو الكتاب الذى اعتمده ابن خلدون كثيرا فى كتابه العبر ، واهتم المستشرق ليفى بروفانصال به ٠ ومن شعره فى رثاء قلعة بنى حماد قوله :

ان العروسين لاســـم ولا طلـــل فانظر ترى ليس الا السهل والجبل
وقصر بلارة اودى الزمـان بـــه فأين ما شـــاد منها السادة الاول
قصر الخلافة اين القصر من خرب غير اللجين وفى ارحابها زحـــل
وقد عفى قصر حماد فليس لـــه رســــم ولا اثر باق ولا طلـــل

وهكذا انجبت الجزائر أبطالا شاركوا ببطولاتهم العسكرية وجهودهم الفكرية فى اثـــراء الحضارة العربية ، ولم يقتصر الامر على العصر الوسيط فقط بل ان العصر الحديث شهد بروز ابطال لعبوا نفس الدور وسجلوا صفحات مشرقةفى تاريخ العسكرية الجزائرية وبالتالى العربية ٠ ويكفى العودة الى كتاب هايدو « ملوك الجزائر » وكتاب دوقرامون « الجزائر تحت حكم الاتراك » للاطلاع على مقدار الذخر العسكرى الذى وفرته الجزائر للامجاد العسكرية العربية لا فى أمصار المغرب فقط وانما فى كل حوض البحر المتوسط الغربى والشرقى ٠

ولا تكتمل الصورة الا اذا اشرنا الى الحركة السنوسية الدينية والقومية التى لعبت دورا هاما فى نشر الاسلام وحضارته الى شعوب السودان وافريقيا الســـوداء وتصـدت للاطمـــاع الاستعمارية الايطالية والانجليزية فى ليبيا وصحراء مصر الغربية فى الوقت الذى اشتد فيه تكالب اوربا على الاستعمار والتهام بلدان المغرب والمشرق الاسلاميين ٠

فزعيم ومؤسس الحركة السنوسية محمد بن علي السنوسى من بلـــدة بوقيراط بمستغانم ودرس بالشرق واسس زوايا دينية فى الطائف واحواز المدينة المنورة بالحجاز للاصـــلاح الدينى على غرار الحركة الوهابية ثم انتقل الى المغرب واستقر بليبيا بعد ان منع من الدخول الى الجزائر ، والذى يهمنا هو ان هذه الحركة السنوسية الاصلاحية قدمتها الجزائر كهدية للبلاد الليبية لتدافع عن كيانها وتكافح عن مستقبلها وهو الدور الذى ادته بامان وحالت دون مسح القومية الليبية التى حاول الايطاليون جهدهم لمحوها ، وتعتبر من الروافد الفكرية التى اثرت فى الفكر العربى المعاصر ويكفى تصفح كتاب : السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكرى ، وكتاب : حاضر العالم الاسلامى للسيد ستودار لوثروب وتعليق شكيب ارسلان للتعرف على فضل هذه الحركة فى اثراء الفكر والحضارة العربية بطاقة المقاومة • وقد خلف محمد بن علي السنوسى ما يقرب من عشرين كتابا فى مختلف الفنون ، وحتى البلاد التونسية قدمت لها الجـــزائر المجاهد عبد العزيز الثعالبى ليتزعم حركتها الوطنية كرائد لطليعة التحرير ويثرى الفكر السياسى هناك •

اما دور ثورة نوفمبر 1954 الكبرى ، فى اثراء الفكر الثورى العربى فامر لا يحتاج الى تأكيد او تعريف وهى التى اعادت للعرب الثقة بانفسهم وكانت مصدر الهام للاقلام والافكار وما تـــزال كذلك • وتاثيرها الفكرى اجتاز حدود المنطقة العربية الى افريقيا وآسيـــا وبعض بلدان أوروبا وأمريكا وهو مصدر عظمتها •

هذه لمحة وعجالة بسيطة حسبما سمح به الوقت عن امجاد الجزائر الفكرية وهى تحتل مركزا هائلا فى عالم الفكر والثقافة وفى اثراء واخصاب الحضارة العربية ولكنها تحتاج الى بعث واحياء من جديد بعد ان كاد الغبار يطمسها والنسيان يطويها وهذا البعث والاحياء لتراثنا جـــهد حتمى اذا ما اردنا لانطلاقتنا الحاضرة ان تنجح وترسخ ، وهو صميم الثورة الثقافية التىاصبحت شعار البلاد كلها • اننا نتمتع اليوم بسمعة هائلة من رصيد ثورة نوفمبر الكبـــرى ولكن عندما يتباعد الزمن وتقدم الثورة يتلاشى كل شىء اذا لم نبعث ماضينا ولم ننظفه مما علق به من تحريف ومسخ وتشويه وفى شعبنا طاقة هائلة لتحقيق الامجاد فى ميدان البنـــاء الحضارى كما بينته تجاريب التاريخ •

وقد اعطى الدليل القاطع فى الثورة الصناعية والزراعية اللتين تتقدمان بخطوات عملاقة اثارت اعجاب الاعداء فضلا عن الاصدقاء لما حققتـــاه من تغيير جذرى فى بنية الاقتصاد الوطنى ووجه الريف القديم • اما الثورة الثقافية فما تزال شعائر نتغنى به وسيظل زحفنا يتعثر مالم نهتم باحياء تراث الاجداد وتطهيره من المسخ والتشويه •



برج فى القصبة يهيمن على المدينة وعلى مصب الصومام

عبقرية المشذاليين العلمية في بجاية

على عهدها الإسلامي الزاهر

رابح بونار
باحث بالمكتبة الوطنية

لقد حظيت بجاية بازدهار علمي ملحوظ فى القرن السادس الهجرى ، ولمع فى هذا القرن من اعلام الفكر والادب والعلوم الشرعية والعقلية جماعة كبيرة من اشهرهم عبد الحـق الاشبيلى ، وابو على المسيلى ، والقرشى ، وابو مدين الصوفى وعمارة الشريف ، وابنته عائشة وغيرهم ونشـطت دراسات علوم الحديث والفقه والكلام والتصوف والادب على يد هـؤلاء الاعـلام ٠

اما فى القرن السابع الهجرى فان هذه الدراسات المتنوعة ، قـد اتسعت آفاقها ، وتعددت فروعها ، وكثر النبغاء فيها ، ولكن الظاهرة التى كانت تلاحظ فى اساليب التعليم ومناهجه حينئذ ببجاية وقسنطينة وتلمسان والجـزائر هي عقـم الطـرق التدريسية التى كان ينتهجها الاشياخ فى محاضراتهم ودروسهم على الرغم من ان هذه الفترة كانت تتسم بالحيوية والاقبال على الدراسة ، والرغبـة فى استيعاب العلوم الشرعية والادبية والعقليـة ٠

ولذلك فقد كانت هذه الاساليب التعليمية فى حاجة اكيدة الى ثـورة منهجية تعيد للتفكير الشخصى اعتباره ، وللـروح المنطلقة فى تنـاول المباحث اثرها الايجابى الفعال ٠ وهذا ما قامت به الاسـرة المشذالية فى اواخر القرن السابع الهجرى وما بعده وهو ما تجلت فيه عبقريتهم العلمية رائعـة خلاقـة ٠

وقد حاولنا فى هذه الدراسة ان نعرف بمشاهير هذه الاسـرة ، وبالعبقرية العلمية التى امتاز بها كل واحد منهم ٠

وهؤلاء المشذاليون ينتسبون الى قبيلة مشذالة وهى كما يذكر السخاوى قبيلة من زواوة وقد ضبطها بفتح الميم وتشديد الذال (1) وهى عند التنبكتى بفتح الميم وتشديد الدال المهملة (2) .

والواقع ان هذين الوجهين فى كلمة مشذالة مستعملان معا ، وهذا هو ما نص عليه ابن قنفذ فى الوفيات (3) ومشذالة الآن تندرج فى منطقة ما بين البويرة وبنى منصور ، وهى تقع فى سفح جبل جرجرة من جهته الشرقية الجنوبية ، وتغمرها غابات الزياتين الجميلة التى تسبغ عليها روعة خلابة ، وفى زمن الشتاء تغمر سفوحها الجبلية ، الثلوج البيضاء .

ومن اشهر القرى التى يشملها اسم مشذالة : قرية الشرفاء ، وقرية اولاد ابراهيم ، وقرية بنى وليان ، وقرية بوحرب ، وغيرها من القرى وقد سألت بعض اصدقائى من مشذالة عن قرية ملالة التى ينسب اليها الشيخ الجليل ناصر الدين منصور المشذالى ، والتى زارة فيها الرحالة العبدرى (4) فقال لي ان هذا الاسم غير معروف الآن ، وقرية ملالة تدل على اسم مشتق يطلق على ما فيه بياض . ولعل هذا الاطلاق تنوسى وحل محله اطلاق آخر ، وهل يمكن ان تكون قرية ملالة هي بعض القرى التى ذكرناها من قبل ام هي قرية أخرى عفت ؟ وكلا الاحتمالين لا يمكن الجزم بهما أو باحدهما ، والذى يهمنا هنا هو ان نذكر ان طائفة من العلماء المشاهير فى العصر الاسلامى ببجاية نبغوا فى هذه القبيلة ، واشهر من نبغ منهم فى القرن السابع الهجرى وما بعده :

1 ـ منصور بن احمد بن عبد الحق المشذالى ناصر الدين (731 هـ) .

2 ـ وعمران بن موسى المشذالى نزيل تلمسان وصهر ناصر الدين (توفى سنة 745 هـ) .

3 ـ ومنصور بن علي بن عبد الله المشذالى نزيل تلمسان (توفى بعد سنة 770 هـ) .

4 ـ ومحمد بن ابى القاسم بن عبد الصمد المشذالى (866 هـ)

5 ـ وولده ابو الفضل محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (865 هـ) .

6 ـ واخوه محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (859 هـ) .

وهؤلاء الاعلام المشذاليون قد ساهموا فى الحركة العلمية ، وتطوير اساليب التعليم مساهمة فعالة على اختلاف بينهم فى مدى تاثير كل واحد منهم فى الوسط العلمى الذى عاش فيه ولذلك نرى

---

1) السخاوى محمد : الضوء اللامع (بيروت) منشورات مكتبة (الحياة ج 9 ص 180 .
2) احمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345.
3) ابن قنفذ القسنطينى : الوفيات تصحيح بريس ص 54 .
4) العبدرى محمد : رحلته تحقيق محمد الفاسى (الرباط 1968 م) 277 .

من الضرورى ان نخص كل واحد منهم بترجمة تكشف عن عبقريته فيما برع فيه من علوم ، وتمكن من التعرف على آثاره وقيمته العلمية وبذلك نستطيع ان نلم بمدى المساهمة التى قدمتها هذه الاسرة المشذالية ٠

1) منصور بن احمد بن عبد الحق المشذالى ناصر الدين (731 هـ)

وهو يعد قطب هذه الاسرة المشذالية ، وأول نابغة فيها ، وقد كان نبوغه فيها منطلق حركة علمية مباركة انتشرت بين ابناء هذه القبيلة ٠ والامام منصـــــور المشذالى ترجم له الغبرينى فى عنوانـــه (5) ٠

وابن قنفذ القسنطينى فى وفياته (6) والتنبكتى فى نيل ابتهاجه (7) ٠

وابن خلدون فى مقدمته (8) والعبدرى فى رحلته (9) ٠

والسيوطى فى بغية الوعاة (10) ٠

وقد ولد المترجم فى مشذالة سنة 631 هـ او سنة 632 هـ واخذ عن شيوخ بلده ببجاية وغيرها ثم ارتحل الى المشرق واستكمل تحصيله هناك ثم عاد الى بجاية عالما جليلا كما ذكر التجيبى فى رحلته ونقله التنبكتى عنه (11) ويذكر الغبرينى : ان ناصر الدين المشذالى اخذ بالمشرق عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصدر الدين سليمان الحنفى ، وشـــرف الدين السبكى وشمس الديــن الاصفهانى وغيرهم ٠

وحصل الفقه واصول الدين ، واصول الفقه والمنطق والعربية والتفسير والحديث ، وامتاز بطريقته الجيدة فى التدريس والبحث وبفصاحة اللسان فى الالقاء ، وشغل منصب الشورى والافتاء ببجاية (12) ٠

اما العبدرى فانه يقول فى ترجمته له وقد مر عليه بقريته مـــلالة فى آخر القرن السابـــع الهجرى انه درس الاصول والفروع دراسة تفقه وله منهما حظ وافر ، ولكنــه لا يعتنى بالرواية وليس له حظ فيها (13) ٠

---

5) الغبرينى : عنوان الدراية ص 134 6) ابن قنفذ : الوفيات ص 54 7) التنبكتى : نـــيل الابتهاج ص 345 8) ابن خلدون : المقدمة (مصر : المطبعة البهية) ص 302 9) العبدرى محمد : رحلته ص 277 10) السيوطى ، عبد الرحمن : بغية الوعاة (مصر : مطبعة السعادة (1326 هـ) ص 398 11) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 ٠

12) عنوان الدراية 134 – 135 ٠

13) العبدرى : رحلته ص 277 ٠

اما الرحالة التجيبى الذى مر ببجاية فى هذه الفترة فانه يذكر عن المترجم معلومات قيمـــة فيقول انه رحل مع ابيه صغيرا الى المشرق ، وسمع بالشام ومصر على شيوخهما ، ولازم استاذه العز بن عبد السلام كثيرا ، وانتفع به ، واهتدى بهديه ، واخذ عن الشـــرف المرسى ، والرضى الواسطى المجتهد وغيرهم ، ودامت رحلته العلمية نيفا وعشرين سنة ، ثم عاد الى بلده عالما جليلا واستحق لدى الفقهاء بان يعد آخر رجالات الكمال بافريقية والمغرب الاقصى ممن جمع بين معرفة الفقه واصوله ، واحكم حظا واقرا من العربية ، وحصل المنطق والجدل وغيرها ، وتفوق فى علوم كثيرة (استبحر فيها وتكلم فى انواعها ، وناظر فى جميعها ، وتفنن فى المعارف) (14) ٠

ولا حظ التجيبى دون غيره ممن ترجم له ان الشيخ ناصر الدين المشذالى لم يقتصـــر فى دراسته للفقه على مذهب الامام مالك ، بل درس مذاهب الائمة الآخرين ، واختصر بمذهب مالـــك وتبسيطه وايضاحه ، والدفاع عنه ، مـــع ما كان يمتاز به من جودة الذهن ، وصحة الاستنباط والفهـــم (15) ٠

واما ابن مرزوق الخطيب فانه نقل عن شيوخه من تلامذة المترجم كالمسفر وعمران المشذالى ان المترجم وصل الى درجة الاجتهاد فى الفقه (16) ويذكر الشيخ منصور الزواوى المشاذلى مواطنه أن المترجم كان اماما مجتهدا ، وكان قدوة النظار ، وامـــام الامصار ، ملا اقطار بجاية بالعلوم النظرية ، والفهوم النقلية والعقلية (17) ويشهـــد لما ذكره منصور الزواوى كثرة الشيوخ الذين اخذوا عنه ، وتخرجوا على يده ، ومنهم الشيخ احمد بن عمران البجائى شارح ابن الحاجب فى ثلاثة اسفار (18) وابو موسى عمران المشذالى صهره وكان فقيها علامة (19) والامام منصور بـــن على الزواوى المشذالى (20) وابن المسفر محمد بن يحيى الباهلى البجائى العلامة (21) وغيرهم ٠

والواقع ان شيوخ بجاية الذين ادركوا القرن الثامن كانوا من تلامذته او تلامذة تلامذته وكانوا يتباهون بالدراسة عليه ، والاستفادة منه ، وقد اعجبوا باسلوبه فى التدريس ، وتناول الابحاث الفقهية والاصولية والنحوية والمنطقية وكانـــوا ـ بتاثيره ـ يميلـــون الى الاجتهاد فى الفـــروع مثله ٠

14) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 344 ـ 345 ٠
15) المرجع السابق ص 345 ٠
16) المرجع السابق ص 343 ـ 346 ٠
17) المرجع السابق ص 346 ٠
18) المرجع السابق ص 69 ٠
19) المقرى احمد : نفح الطيب ج 7 ص 148 ٠
20) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 ٠
21) المرجع السابق ص 240 ٠

واذا كان الغبرينى قد أشار الى ما امتاز به ناصـــر الدين المشدالى من طريقة علمية ذات فعالية فى التدريس والبحث باقتضاب فان ابن خلدون رفع من قيمة المترجم من ذلك واعتبره قائدا لثورة فكرية فى أساليب التعليم وطرق التدريس ، وفى ذلك يقول فى الفصـــل الذى عقده للحديث عن التعليم وصناعته : ثم ارتحل من زواوه فى آخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين المشدالى ، وادرك تلاميذ ابى عمر وابن الحاجب ، واخذ عنهم ، ولقن تعليمهم ، وقرأ مع شهاب الدين القرافى فى مجالس واحدة ، وحذق فى العقليات والنقليات ، ورجع الى المغرب بعلم كثير ، وتعليم مفيد ، ونزل بجاية ، واتصل سند تعليمه فى طلبتها ، وربما انتقل الى تلمسان مـــع عمران المشدالى من تلاميذه ، واوطنها ، وبث طريقته فيها (22) ·

والواقع ان ما لاحظه ابن خلدون كان حقا وقد ترك ذلك آثارا فعالة فى دراســـــة العلوم الشرعية ، والعقلية فى بجاية ، واحدث ثورة فى فن التدريس ·

وتمتاز هذه الطريقة التدريسية باعتمادها على الحـــوار والمناقشة ، والتعمـــق فى البحث والتعليل فى اصول الفقه واصول الدين واستغلال الجدل فى البحث والمناظرات ·

وقد انتشرت هذه الطريقة التى تنسب الـــى الفخـــر الرازى فى بجاية ، مزاحمة للطريقة التقليدية التى كانت تنسب لابى المعالى وتزور عن ذلك ، ولكن هذه الطريقة كانت لا تهتـــم كثيرا بالرواية والنقل ، وانما كانت تولى اهتمامها الكبير لجانب الدراية والبحث ومحاولة الاستنباط · وقد انتشرت هذه الطريقة فى تونس على يد ابى عبد الله بن شعيب الدكالى ، وبتلمسان على يدى ابنى الامام ، وتلاميذ ناصر الدين المشدالى ·

ونتج عن انتشارها فى اواخر القرن السابـــع والقرنين الثامن والتاسع (هـ) ان نشطت الابحاث الفقهية النظرية ، والدراسات العقلية المنطقية ، واخذ الفقهاء تحت تاثير هذا الاتجاه يميلون الى الاجتهاد فى الفروع وتخريج المسائل ·

ولعل الفضل الاكبر فى هذه اليقظة الفكريـــــة انما احدثها المترجـــم بعبقريتـــه التدريسية ومناظراته الرائعة ، وبتلاميذه الكثيرين الذين سلكوا نهجه فى الدراسة والتحليل · ومن المناظرات التى اثرت عن ناصر الدين المشدالى ، مناظرته لا بي موسى ابن الامام التلمسانى حول البيـــــع وشرعية دفع الثمن فيه وقد حاول ابو موسى ابن الامام ان يجيب عن الاشكالات التى وجهها اليه ناصـــر الدين (23) ·

22) ابن خلدون : المقدمة : (المطبعة البهية) ص 456 ·

23) المغيلى ، ابو زكرياء يحيى : الدرر المكنونة ، مخطوط المكتبة الوطنية ج I الورقة 47I ·

ـ الونشرسى احمد : المعيار المعرب ط فاس ج 5 ص 290 ·

وهناك فتاوى ومناظرات اخرى تبدو فيهـا عبقرية ناصر الدين المشذالى واهم ما يؤخذ عليه انه كان يتعصب لمختصر ابن الحاجب الفرعى والاصلى ، وقد نقلها الى بجاية واختص بتدريسهما وكان يعجب كثيرا بشرح التوضيح لخليل بن اسحاق على المختصر الفرعى لابن الحاجب ، وكان يقول عند التعارض بين خليل وغيره ، « نحن خليليون ان ضل ضللنا مبالغة منه فى اتباعه » (24) ٠

واما مختصر خليل نفسه فلم تنتشر دراسته فى افريقية والمغرب الاوسط الا فى اواخر القرن الثامن الهجرى بعد وفاة خليل بن اسحاق سنة 776 هـ ٠

مؤلفاتـــه :

ولم يكن ناصر الدين المشذالى يعنى كثيرا بالتاليف بل كان يفرغ جهوده للتدريس والتعليم ٠

ولذلك لم يترك من المؤلفات الا شرحا غير تام على رسالة ابن ابى زيد القيروانى (25) ٠

واذا كان المترجم قد قصر فى ميدان التاليف فانه لم يقصـــــر فى ميدان التدريس وتخريج الفقهاء والباحثين الذين نشروا علمه بعد وفاته ٠

وفاتـــــه :

وقد توفى ناصر الدين ـ باجماع اصحـاب التراجم ـ سنة 731 هـ بعد ان عمـر نحو مائة سنة ، وبعد ان ملأ اقطار بجاية علما ونشاطا فكـــريا (26) ٠

(2) عمران المشذالى (745 هـ) ٠

وهو كما يقول اصحاب التراجم : عمران بن موسى المشذالى البجائى نزيل تلمسان ، وقد ولد المترجم سنة 670 هـ ودرس على ناصر الديـن المشذالى ، وصاهره فى ابنته واخذ عن غيره من علماء بجاية ، ونبغ فى الحديث والفقه والاصلين ، والنحو والمنطق ، والجدل والفرائض « وكان كثير الاتساع فى الفقه والجدل ، مديد الباع فيما ســـواهما » ، (27) كما يقول المقرى الجد ، ويقول التنبكتى فى ترجمته انه كان حافظا علامــة محققا كبيرا (28) وارتحل الى تلمســـان بعد حصار بجاية حوالى سنة 727 هـ ، واستقبله ابـو تاشفين الزيانى احسن استقبال ، واسند اليه التدريس بمدرسته التاشفينية التى اسسها فى هذه الفترة لينافس بها مدرسة ابن الامام « ودرس

24) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 114 ٠
25) المرجع السابق ص 344 ٠
26) المرجع السابق ص 345 ـ الغبرينى : عنوان الدراية ص 135 ـ ا بن قنفذ : الوفيات ص 39٠
27) المقرى احمد : نفح الطيب ج 7 ص 148 ٠
28) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 ٠

بها عمران المشذالى الحديث والفقه والاصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض » (29) وقد اخذ عنه بتلمسان كثير من شيوخها منهم العلامة المقرى الجد وغيره ·

وروى المقرى الجد انه شهد مجلس ابى تاشفين سلطان بنى زيـــان (718 – 737 هـ) الذى عقده لعلماء حضرته ، وكان فيمن حضره ابنا الامام ، وعمران المشذالى ، وابو عبد الله بن عمر والمقرى الجد ، وكان لا يزال فى عهد الطلب ، وذكر ابو زيد ابن الامام ان ابى القاسم مقلد لمــالك ، ولم يصـــل الى درجة الاجتهاد ، وخالفه عمـــران المشذالى فى ذلك ، وادعى انه مطلق الاجتهاد واستدل على ذلك بمخالفته لمالك فى كثير من المسائل (30) واخذ ابو زيد يحاجه فى الموضـــوع ويتلمس الحجج لدعم رأيه ، ووجهة نظره وتــدخل المقـــرى على صغر سنه عن سن شيخيـــه المتناظرين ، وأيد وجهة نظر عمران المشذالى ·

ويلاحظ التنبكتى ان الاجتهاد المذهبى مرتبة واسعة تتفاوت بقوة التمكين وضعفه ، ولذلك يمكن اعتبار ابن القاسم مجتهدا بهذا المعنى وكان ابن عبد السلام التونسى يذهب الى ما ذهب اليه عمران المشذالى من اعتبار ابن القاسم مجتهدا مذهبيا ·

مؤلفاتـــه :

ولم يكن عمران معتنيا بالتاليف مثل شيخه ناصر الدين المشذالى وانما كان متفرغا للتدريس والتعليم والفتوى ، ورويت عنه فتاوى ومناظرات تدل على منزلته العلمية السامية ·

ومن ذلك فتياه التى افتى بها السلطان ابا الحسن المرينى حينما وجه ســؤالا الى علماء فاس وتلمسان عن حكم اتخاذ الركاب من الفضة او الذهب ، وأجاب عمران عن المسالة وكان جوابه هو الفيصل فى الموضوع (31) ·

ودام عمران فى نشاطه التدريسى بتلمسان حتى توفى بها سنة (745 هـ) (32) ·

3) منصور بن على المشذالى ابو على نزيل تلمسان بعد سنة (770)هـ·

وقد ولد بمشذالة حوالى سنة 710 هـ كمــا يقول السراج فى فهرسته (33) وابن مخلــوف فى شجرة النور الزكية (34) ودرس على والده ، وعلى ابن على ناصر الدين المشذالى ، وعلى ابى

29) المقرى احمد نفح الطيب ج 7 ص 198 ·
30) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 ·
31) المغيلى يحيى : الدرر المكنونة مخطوط المكتبة الوطنية ، 12 الورقة 144 ·
32) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 215 ·
33) المرجع السابق ص 345 ·
34) ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج 2 ص 234 ·

عبد الله الزواوى وعبد المهيمن الحضرمى ، وأبى عبد الله المسـفر ، وابن النجار ، ولازم هذا الاخير واجازه ، واخذ عن الشريف السبتى ايضا ، وغيره ، ويقول ابن الخطيب فى الاحاطة : انه درس على منصور المشذالى اوائل ابن الحاجب ، واخذ عن ابى حسين البجائى جملة من كتاب الحاصل ، وكتابى المعالم الدينية ، والايات البينات ، والجمل فى المنطق للخونجى واخذ عن قاضى بجاية أبى عبد الله بن يوسف الزواوى ، وابـى العباس بن عمران ، وانتقل الى تلمسان والمغرب واخذ بهما عن عبد المهيمن الحضرمى ، وابى العباس بن يربوع والقاضى ابن اسحاق بن يحى والشريف السبتى وغيرهم (35) ٠

اما السراج تلميذ المترجم فانه يقول فيه :

الفقيه المدرس الاصولى النحوى ابو على منصور ، كان شيخا فاضلا نظارا مشاركا فى العلوم العقلية والنقلية ، وكان حريصا على الافادة والاستفادة ، وقد وصفه ابن الخطيب باستقامة الخلق وحسن العهد ، والطهارة والعفة والاقتصاد والصراحـة والانقباض عن النـاس والانصاف فى المذاكرة ، والمثابرة على الافادة والتواضع ٠

وقال فى تحصيله العلمى : انه صدر من الصدور له مشاركة حسنة فى كثير من العلوم العقلية والنقلية واطلاع وتقييد ، ونظر فى الاصول والمنطق والكلام ودعوى فى الحساب والهندسة والآلات ٠ وكان اديبا يجيد الكتابة ويقرض الشعر (36)

وقد ذكر ابن الخطيب ان المترجم قدم الاندلس عام 753 هـ ، واستقبل فيها استقبالا حسنا ، واستقر بغرناطة مدرسا بمدرستها تحت جراية نبيهة والقى فيها دروسـا فى الفقه والتفسـير وغيرهما ، وباشر الافتاء ، ونالته محنة حين توقف فى الحكم على عقيدة رجل نال من جانب الله ورسوله ، وكفره الفقهاء وتوقف المترجم عن تكفيره فاتهمه الجماعة ، واضطر الى مغادرة الاندلس سنة 765 هـ ولعله عاد الى المغرب الاسوط ، وتنقل فى حواضره حتى توفاه الله بعد سنة 770 هـ ٠

ومن تلاميذه الذين اخذوا عنه ، واستفادوا من علمه الامام ابراهيم الشاطبى المتوفى سنة 790 هـ ويحى السراج وغيرهما (37) ٠

ومن آرائه الطريفة قولـه ان العالم لا يسمى عالما حتى تتوفر فيه اربعة شروط وهى :

---

35) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 345 ٠
36) المرجع السابق ص 345 ٠
37) ابن خلدون يحيى : بغية الرواد ، ع الفرديل ج I ص 74 ٠
– نيل الابتهاج ص 343 ٠

1) ان يكون عالما بمعرفة اصول ذلك العلم على الكمال .

2) وان يكون قادرا على التعبير عن ذلك العلم .

3) وان يكون عارفا بما يلزم عنه .

4) وان يكون قادرا على رفع الاشكالات الواردة عليه (38) .

ولا يبعد ان يكون المترجم قد حقق هذه الشـــروط فى كل علم كان ينتلحه ويتعدى للتدريس فيــــه .

4) العلامة الفقيه محمد بن ابى القاسم بـن محمد بن عبد الصمد المشذالى البجائى المتوفى سنـــــة 866 هـ .

وقد درس المترجم ببجاية على ابيه ابى القاسم ، وشاركه فى بعض شيوخه ، الى ان بلـــغ درجة كبيرة فى تحصيله للعلوم الشرعية ، وكان كما يقول التنبكتى فيه : فقيـــه بجاية وخطيبها ومفتيها وصالحها ، ومحققها ، وكان علامة محققا نظارا مقدما على اهل عصــــره فى الفقـــه وغيـــره (39) .

وكان المترجم مقيما ببجاية ، وكثير التـردد على تونس ، وقد نال وجاهـــة عند السلطان الحفصى بتونس ، وتولى الخطابة بالجامع الاعظم ببجاية ، ودرس فيه ، وفى غيره من المساجـد ، وتولى الافتاء ببجاية ، واشتهر بين الناس بالتحصيل الواسع حتى كان يضرب به المثل فيقال :

اتريد ان تكون مثل ابى عبد الله المشذالى (40) .

وقد اشتهر المترجم بالتاليف والاجادة فى التصنيف والتحقيق وترك من المؤلفات التى تشهد له بالتحصيل والتحقيق ما يلي :

1) تكملة حاشية ابى مهدى عيسى الوانوغى على المدونة فى مجلد واحد ، وهى كما يقـول التنبكتى = فى غاية الحسن والتحقيق تدل عـلى امامته فى العلوم وقد فرغ من تاليفها سنـــة 836

2 ـ ومختصر البيان لابن رشد ، وقد رتبـه على مسائل ابن الحاجب الفرعى (مختصره) وجعله شرحا له ، بعد ان اسقط منه التكرار ورد كل مسالة الى موضعها من الاحالات فى الكتاب ،

38) نيل الابتهاج ص 345 ـ الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 570 .
39) راجع فى ترجمته : السخاوى : الضوء اللامع ج 1 ص 290 التنبكتى : نيل الابتهاج ص 314 ـ الزركلى : الاعلام ج 7 ص 222 ـ الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 105 .
40) السخاوى : الضوء اللامع ج 8 ص 290 .

فجاء مختصره فى غاية الاتقان والتيسير ، وتـرك من مسائله مالا تعلق له اصلا بكلام ابن الحاجب وهو فى اربعـة اسفار ، وفى نحو 90 كراسا ويقول التنبكتى : انني وقفت على هذه الكراريس ما عدا الثاني منها ٠

3 ـ واختصار ابحاث ابن عرفة من مختصره المتعلقة بكـــلام ابن شاس ، وابن الحاجب وشرحه مع زيادة شيء يسير فى بعض المواضـع لما لم يطلع عليه ابن عرفة ، وهو يقع فى مجلد ٠

4 ـ وفتاوى نقلها صاحب الدرر وصاحب المعيـــار ٠

تلاميذه : اخذ عن المترجم تلاميذ كثيرون منهم والده ابو الفضل واخوه ابو الربيع المسناوى ، وابو مهدى عيسى بن الشاط ، وابن مرزوق الكفيف وغيرهم ٠

وفاته : وتوفى المترجم كما يقول التنبكتى نقلا عن الونشريس فى وفياته سنة (866 هـ) (41) ٠

اما السخاوى فانه لم يحدد تاريخ وفاته بسنـــة معينة بل ذكر انه توفى فى بضع وســـتين وثمانمائة هـ ٠

5 ـ محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى (859 هـ) ٠

وقد ذكر التنبكتى انه درس على ابيه واشتهر بالفقه وتوفى سنة 859 هـ (42) ٠

6 ـ ابو الفضل محمد بن محمد بن ابى القاسم المشذالى العلامة الشهير (865 هـ) ٠

كان المترجم أحد ولدى العلامة الفقيه محمد بن ابى القاسم بن عبد الصمد المشذالى صاحب تكملة حاشية الوانوغى وغيرها من مؤلفاته وقـد سبقت ترجمته ٠

وقد نبغ ابو الفضل ، واكتسب شهرة واسعة فى المشرق والمغرب (43) ٠

والمترجم كما يقول السيوطى : هو احد اذكياء العالم ، وقد درس بالمغرب على والده وغيره ثم ارتحل الى مصر ، وابان عن تفنن فى العلوم فقها واصولا وكلاما ونحوا وغير ذلك واخذ عنـه طلبة العصر (44) ٠

---

41) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 314 ٠
42) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 315 ٠
43) ترجم له السخاوى محمد : الضوء اللامـع ج 9 ص 180 ـ 187 السيوطى ، نظم العقيان ص 160 ـ السيوطى : بغية الوعاة ص 373 ـ التنبكتى : نيل الابتهاج ص 315 ٠
44) السيوطى : بغية الوعاة ص 373 ٠

وترجم له التنبكتى ترجمة متوسطة ذكر فيها خلاصة ما ذكره السيوطى والسخاوى (45) ·

واهم ترجمة له هي ترجمة الضوء اللامــع للسخاوى وهى التى نعتمد عليها للتوســع فى تفصيل اخبار ابى الفضل ، وتحليل عبقريته العلمية وقد جاء فيها ان المترجم يعرف فى المشرق بابى الفضل ، وفى المغرب بابى القاسم (46) ·

وذكر السخاوى انه ولد ليلة النصف من رجب سنة 821 هـ او 822 هـ ببجاية وجــزم ابن ابى عذيبة بانه ولد سنة 820 هـ ونقل السخاوى عن البقاعى ان المترجم بدأ قرائته بقراءة القرآن وعمره خمس سنوات ، وحفظه فى سنتين ونصف وقرأه بالسبع على ابيه ، وعلى ابى عبد الله محمد بــن رفاع ، وحفظ الشاطبيتين ، ورجز الخراز فى الرسم ، والكافية الشافية ، ولامية الافعال لابن مالك ، والتسهيل والالفية فى النحو لابن مالك وابى الحاجب الفرعى ، والرسالة لابن ابى زيد القيروانى وارجوزة التلمسانى فى الفرائض ، ونحو الربــع من مدونة سحنون ، وطوابع الانوار فى اصول الدين للبيضاوى ، ومختصر ابن الحاجب الاصلى ، وجمل الخونجى فى المنطق والخزرجية فى العروض ، وتلخيص ابن البناء فى الحساب ، وتلخيص المفتاح فى البلاغة ودواوين الجاهليين واقبل على الدرس والتحقيق ، ثم ارتحل الى تلمسان اول سنة 840 هـ وعمره لا يتجاوز العشرين ، ودرس بها على الحفيد ابن مرزوق الشهير التفسير والحديث والفقه والاصلين والادب والمنطــق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة ·

واخذ عن ابى القاسم محمد بن سعيد العقبانى الفقه واصول الدين ، واخذ عن ابى الفضــل ابن الامام التفسير والحديث والطب والهندسة والعلوم القديمة والتصوف ، واخذ عن ابى العباس احمد بن زاغو اصول الفقه والمعانى والبيان ، ودرس عليه مختصر ابن الحاجب الاصلى الذى كان مرجع الناس فى دراسة الاصول بتلمسان واخذ عن ابى عبد الله محمد النجار المعروف لشدة معرفته بالقياس بساطور القياس ، واخذ عن ابى يعقوب يوسف بن اسماعيل الحساب والفرائض ·

واخذ عن ابى الحسن على بن قاسم الحساب والجبر والمقابلة والهيئة وجر الاثقال واخــذ عن ابى عبد الله محمد البورى التقاويم والميقات بانواعــه من فنــون الاسطرلاب والصفائح والجيوب والهيئة والارتماطيقى والموسيقى والطلسمات وما شاكلها ، وعــلم المـرايا والمناظرة والاوفاق واخذ عن الطبيب العلامة ابى افشوش الطــب ·

45) التنبكتى : نيل الابتهاج ص 315 ·

46) الضوء اللامع ج 9 ص 180 ·

وانتهى ابو الفضل من دراسته بتلمسان فى أربع سنوات · وعاد الى بجاية سنة 844 هـ وقد برع فى العلوم التى درسها ببجاية سابقا ، وبتلمسان ، وبرز على اقرانه وسامى بعض شيوخه فيها ·

والواقع ان ابا الفضل قد درس دراسة معلمية مما كان يقرأ بتلمسان وبجاية من الدراسات العالية ، وقائمة الكتب التى ذكرناها فى ترجمته تدل على ازدهار دراسات جميع فروع المعرفة من نقلية وعقلية ولذلك لا غرابة ان يصل ابو الفضل الى درجة علمية تثير الاعجاب فى المشرق والمغرب وقد ذكر السخاوى نقلا عن البقاعى الذى حكى عن بعض المغاربة ان الامام العلامة ابى مرزوق الحفيد كان يقول : ما عرفت العلم حتى قدم على هذا الشاب « يعنى ابا الفضل » فقيل له كيف ذلك ، قال لانى كنت اقول فيسلم كلامى ، فلما جاء هذا الشاب شرع ينازعنى فأخذت اتحرز « وانفتحت لي ابواب من المعارف » (47) ·

ونقل القلصادى البسطى — وكان زميلا لابى الفضل فى الدراسة بتلمسان — عن ابى مرزوق انه قال فى المترجم «ان عاش ليكونن عالم المسلمين»

وقد اشتهر ابو الفضل بالمناظرة والجدل مع زملائه من طلبة العلامة ابن مرزوق فى مجلسه وغيره ، وكان ينافسه فى ذلك الشريف احمد بن ابى يحيى ·

وبعد عودته الى بجاية انتصب للتدريس بها مدة ثم رحل عنها مغاضبا لابيه ، وبغير رضاه الى تونس التى اقام بها مدة ثم واصل سيره الى المشرق وسار فى سفينة جنوية ارست به فى قبرص فنزل اليها وناظر اساقفتها وافحمهم ثم انتقل منها الى بيروت ، وطوف فى بلاد الشام وشاع ذكره هناك ·

وحج عام 849 هـ وقصد بعد الحج الى مصر حيث اقام بها ، ونال حظوة عند رجال الدولة فيها ، ودرس فيها عدة فنون فبهر العقول ، وادهش الالباب ·

وكانت طريقة تدريسه كما يصورها السخاوى هي : ان يقرأ القارىء بين يديه ورقة او اكثر ثم يسرد ما تتضمنه من المسائل بأسلوب فصيح وتحقيق تام ، وكان الطلبة يعجزون عن متابعته فى ابحاثه فطلبوا منه ان يتنازل لهم فى بحثه واسلوبه ، فقال لهم لا تنزلوني اليكم ، ودعونى ارقيكم الى·

وبعد مدة (حددها لهم) تصيرون الى فهم كلامي ، وكان الامر كما قال لهم · على ما يذكر السخاوى ، ويذكر البقاعى انه حضر احد دروسه بجامع الازهر فى ذى القعدة من عام 852 هـ

47) المرجع السابق ج 9 ص 182 ·

فاعجب به كثيرا ، وقال في درسه رغم ما فيه من مبالغة : « ان من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ، ولا رأى الناس ولا خرج الى الوجود ، قال ومن سمع كلامه في العلم علم انه يخبر عن مشاهدة ، وأن غيره يخبر عن غيبة ، وليس المخبر عن مشاهدة كالمخبر عن معاينة » ثم يقول : « انني لم ار أعظم تحريكا للهمم من حاله، ولا اشد فعلا للقلوب من مقاله» (45) ·

سلوكه : ورغم ما كان عليه ابو الفضل المشذالي من عبقرية علمية ، وتحصيل فائق فان اخلاقه لم تكن مرضية ولا مناسبة لجلاله العلمي ، فكان كما يذكر بعض مرتجميه : كثير الترفع على اصحابه ، ولا سيما في الملأ عظيم التهاون بهم ، عديم النفع لهم مداهنا لخصومه واعدائه ·

وكانت بينه وبين ابن حجر المحدث الكبير نفرة ، ومرض ابن حجر فعالجه المشذالي وشكره على ذلك ·

وقال ابن الهمام فيه : « هذا الرجل لا ينتفع بكلامه وينبغي أن لا يحضر دروسه الا حذاق العلماء ، وسئل عن النسبة بينه وبين ابي القاسم النويري ، فقال جهد ابي القاسم ان يفهم عنه » (46)

ويذكر ابن الهمام انه ساله مرة عن مسالة في اواخر الاصول فاجابه عنها باجوبة لا يجيب عنها غيره ولو اقام في تحرير جوابها ثلاثة اشهر ·

اما السخاوي فانه رغم عدم تقديره كثيرا لابي الفضل المشذالي نظرا لما كان بينه وبين شيخه ابي حجر من نفرة فانه قال فيه : « كان ابو الفضل غاية في جودة الذهن وسرعة الادراك ، وقوة الحافظة ، الا انه كان سريع النسيان ، قليل الاستحضار ، ولهذا لم يكن يتكلم في المجالس الا نادرا خوفا من الاستظهار عليه بالنقول ، واذا طالع محلا اتى فيه بما يبهر السامع » (47) ·

ومعنى ما ذكره السخاوي ان المترجم كان من علماء الدراية ولم يهتم كثيرا بالرواية وحفظ النصوص ، وهذا الاتجاه الذي سار عليه ابو الفضل هو الذي كان يسير عليه ابو علي ناصر الدين المشذالي شيخ المشذاليين في القرن السابع واول الثامن ·

منهج تدريسه : وهو كما يصفه البقاعي يعتمد على اعمال العقل في فهم النصوص ولم يكن يطالع من الشروح عند اعداد موضوع الدرس شيئا وانما كان يعتمد على قراءة المتن وحده ، ثم يستلقي على قفاه ويستغرق في تأمل عميق فياتي (بصواعق لا ينهض بها غيره وانه كان يفعل ذلك في كل علم يقراه او يقرئه ، لا يزيد على نظر المتن) (48) ·

48) المرجع السابق ج 9 ص 184 ·

وهذا يدل على عبقرية فذة كان يمتاز بها ابو الفضل ، وعلى ذكاء خارق كان يساعده على التحليل العميق ، والاستنباط البديع ، حتى كان معاصروه يصفونه معجبين بانه « نادرة العصر واعجوبة الزمان » .

تلامذته : وقد اخذ عن المترجم طائفة من العلماء منهج احمد بن زكرى بتلمسان وقد كان يأخذ عنه وهو لا يزال طالبا يحضر حلقات العلامة ابن مرزوق الحفيد وغيره .

واخذ عنه بمكة البرهان بن ظهيرة ، وبالشام ابن قاضى عجلون ، وبالقدس الكامل بن ابى شريف وبالقاهرة الشهاب البيجورى والديسطى وابن الغرز وغيرهم .

وفاته : اختلف اصحاب التراجم حول تاريخ وفاة ابى الفضل ، فالسيوطى يقول فى نظم العقيان انه توفى سنة 865 (49) .

ويقول فى بغية الوعاة انه توفى بحلب حوالى سنة 863 هـ (50) .

والسخاوى يذكر ان وفاته كانت فى عينتاب اواخر سنة 864 هـ (51) .

ونقل التنبكتى عن السخاوى انه ولد فى 15 رجب سنة 821 هـ وانه توفى سنة 865 هـ ولعل هذه الرواية نقلها من بعض نسخ الضوء اللامع .

ولا يبعد ان تكون سنة وفاة ابى الفضل المشذالى هى سنة 865 هـ .

مؤلفاته : لم يترك ابو الفضل من المؤلفات الا كتابا واحدا هو شرح جمل الخونجى فى المنطق ، وهذا غريب بالنسبة الى رجل عبقرى مثله ، ولكن ابا الفضل على ما يبدو كان مثل شيخ مشذالة ابى على ناصر الدين لا يميل الى التاليف ، وانما كان يميل الى التدريس ونشر العلم بواسطة التحاضر والالقاء ولهذا لم ينشط للتاليف والتصنيف .

وكان ابو الفضل رغم تفرغه للعلوم الشرعية ، والدراسات العقلية يميل الى الادب ، ويتذوق الشعر وقد رويت له مقطوعة شعرية شكا فيها من الم الفراق ، ووحشة الاهل والاقارب لما كان بتلمسان ، وقد ذكر السخاوى منها بيتين هما :

1) **برق الفراق بدا بافق بعادنا**	**فتضعضعت اركاننا لرعوده**
2) **كيف الفراق وقد تبدد شملنا**	**والبين شق قلوبنا بعموده**

49) المرجع السابق ج 9 ص 185 .
50) المرجع السابق ج 9 ص 188 .
51) المرجع السابق ج 9 ص 185 .
52) نظم العقيان ص 160 .
53) بغية الوعاة ص 373 .
54) الضوء اللامع ج 9 ص 188 .

عبد الجبار بن حمديس الصقلي

شاعر بني حماد

اسماعيل العربى
كاتب جزائرى

ولد ابن حمديس فى سرقوسه التى تقع على الشاطىء الشرقى فى جزيرة صقلية فى سنة 447 هـ (1055 م) من أب عربى ازدى ، وهو أبو بكر بن محمد · وقد مات كل من أبيه وجده فى سرقوسة ·

ومنذ المراحل الاولى من حياته ، رأى ابن حمديس ، بعض اقاربه ، وفى مقدمتهم عمته وابناؤها ، يهاجرون الى الشاطىء الافريقى ـ سفاقس ـ حيث ستنضم اليهم اخته فيما بعد وتتزوج باحد ابناء عمته · واما هو ، فعلى الرغم من الحاح اقاربه المستمر عليه بالالتحاق بهم ، فانه لن يستقر به المقام فى هذه الديار الا فى منتصف حياته ·

ففى سرقوسة ، اذا ، تربى الشاعر وانعم بصره بجمال هذه المدينة الخلاب وتغذى بلبان الثقافات السائدة فيها كما اغترف من مختلف ينابيع المعرفة التى تزخر بها جزيرة صقلية فى عهودها العربية الاخيرة ·

وفى هذه المدينة التى لا تخرج عن النموذج التقليدى الذى نعرفه للمدن الاسلامية المهمة والتى تتعايش فيها جنبا الى جنب الفضيلة فى أسمى معانيها والرذيلة فى أقبح صورها ، وتقف الى جانب المساجد ومعاهد العلم ، الاديره والخمارات ومنازل اللهو ، اغترف ابن حمديس من فطاحل العلماء ، ولكنه لم يبخل على نفسه باللهو واخذ حظ الشباب من اللذات ، فكان يتردد على الاديره التى تاوى عابر السبيل وتقدم للرواد الخمور المفضلة ، وتتيح فرصا ، قلما توجد فى اماكن اخرى لالوان من التسلية البريئة وغير البريئة ·

وفي هذا الجو اختمرت شاعرية ابن حمديس وتفتحت عبقريته ونمــت مواهبــه ، وفي سرقوسة قال قصائده الاولى ·

ولكن ماذا يصنع شاب بموهبة الشعر في مدينة كانت مدينة صقلية الاولى ولكنها طغت عليها بلرم واصبحت مدينة صغيرة ، بل ماذا يصنع في هذه الجزيرة التي تحيط بها من كل جانب أســاطيل الروم ، التي فرضت سيادتها على البحر الابيض ، لم المقام في صقلية التي اصبح مصير العرب فيها مرهونا بتطور المعارك ، في الوقت الذي كانت فيه سوق الادب رائجة في عدد من المــدن الاسلامية في المغرب والمشرق ، وفي مقدمتها اشبيلية والقلعة والمهدية والقاهرة ؟ ·

تلك ، بدون شك ، أسئلة كانت تتردد في ذهن ابن حمديس ، كما كانت تتردد في ذهن زميله أبي العرب الذي سبقه في شد الرحال الى الاندلس ·

ومهما يكن من أمر ، فان الشاعر قرر مغادرة مسقط رأســه وســافر في سنــة 471 هـ ، الى اشبيلية ، قاصدا بلاط المعتمد بن عباد ، ذلـك الشاعر الملك الذي طبق صيته الافاق واصبحت قصوره منتديات للادباء والفنانين ·

ولكن أحلام الشاعر سرعان ما تصطدم بالحقيقة العنيدة في اشبيلية حيـث كان التنافس على مركز الشاعر المقرب من الملك على اشد ما يكون بين حاملي بضاعة الشعر والمتظرفين · ومما يزيد الامر تعقيدا أن ابن عباد نفسه شاعر حساس،وانه يقول شعرا «لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة» على حد تعبير ابن بسام « لكان رائقا معجبا ونادرا مستغربا » ·

واذا ، فقد استقبل شاعرنا في الاوساط الادبية في اشبيلية ببرود يقرب من الاهمال ، ولم ينجح حتى في الدخول في الامتحان العسير الذي سيقرر مصيره : مقابلة المعتمد بن عباد · ولما أوشك شعور الخيبة ان يتحول الى قنوط ، اراد الخروج من الاندلس · ولكنه رأى أن من الملائم ، قبل ان يقدم على هذه الخطوة ، ان يعبر عن شعور الجريح في قصيدة لابد وأن تصـل الى الملك بطريقة أو أخرى · وفي هذه القصيدة يقول :

أأفــــرد بالحرمـــان من كـــل عاطل   تطـــوق من نعمـاك ثـم توشحــا

ويختم القصيدة بقوله : « فوقع ممسكا او مسرحا » ولكن المعتمد اتيح له قبل ذلك ان يدرك منزلة الرجل بين شعرائه ويقيم قريضه ، ولذلك ، فهو لم يتاخر في اجابته بالامساك ، ثم وصلــه بمائة دينار ، لا بدوان الشاعر كان في أشد الحاجة اليها ليصلح اموره ·

والمهم ان هذه كانت نقطة انطلاق في حياة الشاعر لتتفتح عبقريته وتكتمل موهبته الفنية كما كان قرار الملك قاعدة لفتح ابواب المجتمع ، والمجتمع الادبي بصفة خاصة لقبوله · فمنذ الآن

وبعدما وطد قواعد وجوده المادى ، سيغزر انتاجه ويرتفع ابداعه ، وستستغرقه الاندلس بمباهجها وقصورها وادبائها وخماراتها ومراقصها ، وسيستغرق هو فى هذه الحياة الزاخرة بالمتناقضات والتى سيكون شعره مرءاة صادقة تعكس كل جوانبها ·

ان المعتمد بن عباد ، لم يحقق حلم ابن حمديس فى ذيوع الصيت ويفرضه على بلاطه فحسب بل وفر له أيضا اساسا من المال والثروة ومكانة مرموقة فى الاوساط الاريستوقراطية ·

وفى هذه الاثناء ، اخذت الوشائج التى تربطه بصقلية وبمسقط راسه ، سرقوسة التى لـم يفارقه الحنين اليها طيلة المدة التى اقامها بالاندلس ، تنقطع الواحدة تلو الاخرى :

على الصعيد الوطنى ، سقطت سرقوسة نهائيا ، بعد بلرم فى يد النورمان (478 هـ ــ 1085 م) · وهذا معناه الغربة الدائمة للشاعر · وعلى الصعيد العائلى ، فجـــع بموت والده الذى سيبكيه بدموع غزيرة فى شعر مؤثر ، كما اختفى اقاربه واصدقاؤه فى هذه الحرب الضروس ، واحدا بعد واحـــد ·

وكـــم حمـــى التـــرب دونى من ذوى رحمـــى
وَمـــا مقلـــت لبعـــدى منهـــم احـــدا

ولـــم يســـرنى مـــن مثـــواك مـــوت أبـــى
وقـــد يقلـــق مـــــوت الـــوالد الـــولدا

(من قصيده فى مـــدح المعتمد)

وازاء هذا الوضع الذى يشعر فيه بالحرمان من كل أمل فى الرجوع الى وطنه ولقاء أهله واصدقائه ، روض الشاعر نفسه لحملها على قبول اشبيلية مقرا وموطنا ثانيا ، فى ظل هذا الملك العظيم الذى جمع الى احساس الشاعر ابهة الملك وسخاء اليـــد ·

لانـــاى لي بتنـــائي الســـير عن بلـــدى فقـــد رضيـــت بحمـص (1) بعـــده بـــلدا

ولكن هل يكفى قرار شاعر وتصميمه لوقـف عجلة التاريخ التى تدور وتدوس بغير رحمة كل ما تلقاه فى طريقها · ان الرجل يقرر ، والاقدار تدبر !

فبعد سرقوسة ، جاء دور أشبيلية · وبعد ما فقد الشاعر وطنه وأهله ، سيرى حاميه وولـــي نعمته يفقد بدوره ملكه وحريته ·

1) حمص = اشبيلية · وكانت من المدن التى اطلق عليها بنوامية اسماء مدن الشام (ياقوت ، معجم البلدان 2 / 304) ·

وهنا لا بد من فتح قوس لنعرض بايجاز مصير المعتمد بن عباد ونحن نعتمد فى ذلك على رواية بن خلكان (2) ·

فان أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذى عبر المضيق لنجدة المسلمين ، وعلى راسهم المعتمد بن عباد ، ضد المسيحيين ، والذى كان العامل الاول فى النصر التاريخى الذى حققته الجيــوش العربية والبربرية فى موقعة الزلاقة المشهورة (479 هـ ــ 1086 م) ، سيشعر باغراء خــاص ، بعد عودته الى المغرب الاقصى ، نحو ما شاهده من حسن بـــلاد الاندلس وبهجتها ··· وكنوزها ، ويقرر فى السنة التالية العودة اليها ، لمحاصرة حليفه السابق المعتمد بـن عباد فى اشبيلية · وبعد ما استولى على مملكته ، أرسل هذا الملك العاثر الحظ مقيدا بالاغلال الى المغــرب الاقصى حيث اودع السجون فى اغمات حتى مات فيها ، فى سنة 488 هـ (1095 م) · وبذلك فقد ابن حمديس موطنه الجديد كما فقد الملك الذى كان يحظى برعايته ويباد له صداقة ومحبة ·

ولكن المصائب متى حلت لاتاتى فرادى · فان الشاعر عند مغادرته الاندلس ، سافر على متن سفينة فى البحر متجها (على الارجح) الى افريقية · وفى الطريق ، غــرقت السفينة التى تقله ، وغرقت معها جاريته (جوهرة) التى سيرثيها بدموع ساخنة ، وأوشك هو على الغرق ، ولم ينقذ الا فى اللحظة الاخيرة بعد الاستغاثة برفع يده ·

ما هى الشواطىء الافريقية التى نزل فيها ؟ لا نعرف شيئا عن ذلك · وكل ما نعرفه ، هو انه كان ينتقل بين عدد من مدن الشمال الافريقى ، بين سلا وسبتة والمهدية وبجاية (وربما القلعــة ايضا) وبونة وسفاقس ، بـل وبين هذه الشواطىء وجزيرة ميورقة ايضا · وكذلك نعرف انه اقام فى اغمات وقتا من الزمن بجانب المعتمد بن عبـاد الذى سيبادله القريض ويرثيه عند وفاته ·

وفى المغرب ، اتصل ابن حمديس بامراء وملوك هذه البلاد ، ولكنه لم يتصل بالمرابطين (3) الذين كانوا السبب الاول فيما لحق بحياته من الاضطراب ·

متى بدات علاقات ابن حمديس ببنى حماد ؟ وكيف دخل الى بلاط بجاية ؟ ذلك موضــوع لا تسعفنا المصادر التى بين آيدينا لاستجلائه ، ولو اننا نعرف أن صلــــة ابن حمديس بالمنصور (481 هـ ــ 1098 م) بن الناصر بن علناس (4) الذى خلف والده على عرش بجاية ، كانت علاقات وثيقة ، كما تشهد بذلك قصائد الشاعر التى تفيض بالحب والاعجاب بهذا الملك الذى سـار على

2) وفيات الاعيان ، (5 / 28 ــ 29) ·
3) مقدمة الديوان ، ص 13 ·
4) راجع مقالنا فى مكان آخر من هذا العدد عن الناصر بن علناس ·

نهج والده ، ولا سيما فيما يتعلق بتخطيط المرافـق وتشييد المبانى العظيمة والقصور الشامخـة وانشاء الرياض والبساتين (5) ، التى يشيد بها ابن حمديس فى أبيات نادرة المثال فى الشعـر العربى فى بلاغتها ورقتها ودقة وصفها • وقد كان من ضمن المنجزات المعمارية التى انشاها او تممها المنصور والتى استرعت انتباه المؤرخين ، قصر الملك (6) وقصر المنار ، وقصـر الكوكب ، وقصر السلام (7) فى القلعة ، كما بني فى بجاية قصر اميمون ، وقصر اللؤلؤة ، وقصر النجم •

اين تقع قصور بجاية الحمادية ؟ لا نستطيع ان نجزم بشيء فى ذلك أيضا • ولكنه يبـدو أن قصر النجم ، كان يقوم على الربوة التى يتوجها حصـن برال الحالى والذى كان يدعـى حصن موسى • ونحن نعرف ان بيدرو نافارو ، الغازى الاسبانى الذى تخلى عن سـور المدينة الحمادى وضيق رقعتها حتى يتمكن من الدفـاع عنها بقواته الصغيرة نسبيا ، هو الذى اقـام هذا الحصن ، وبالتالى ، فان المرجح ان يكون هو الذى هدم القصر (8) •

وهذا القصر ، على كل حال ، هو الذى يصفه ابـن حمديس الصقلى حين يقـول ، موجها الخطاب للمنصور بن الناصر بن علناس (9) :

اعلـيت بين النجـم والدبران	قصـرا بنـاه من السعادة بان
فضـح الخورنق والسدير بحسنه	وسمـا بقمتـه على الايـوان
فاذا نظـرت الى مـراتب ملكه	وبدت اليك شـواهد البـرهان
أو جبت للمنصـور سابقة العلى	وعدلت عن كسـرى انو شروان
قصـر يقصر ، وهو غير مقصر	عن وصفه فى الحسـن والاحسان
وكانـه مـن درة شفـافـة	تعشـى العيون بشـدة اللمعان
لا يرتقى الـراقى الى شـرفاته	الا بمعـراج مـن اللحظـان
عـرج بارض الناصرية كي ترى	شـرف المكان وقـدرة الامكـان
فى جنـه غنـاء فردوسـية	محفوفـة بالـروح والريحـان
وتوقـدت بالخمـر من نارنجها	فكانمـا خلقـت مـن النيـران

5) العبـر ، 6 / 175 •
6) ليس من شك فى أن هذا القصر هو الذى يسميه بعض المؤرخين ، قصر الخليفة •
7) ورد فى العبر محرفا باسم قصر الشام •
8) راجع مجلة الثقافة ـ « بجاية عاصمة بنى حماد الثانية » ، العدد 18 سنة 1973 ، ص 31 •
9) الديوان ، القصيدة 314 •

وكانهن كـــرات تبـــر أحـــمر ... جعلـت صـــوالجها من القضبان
ان فاخـر الاترج قال لـه : ازدجر ... حتى تحـــوز طبائـــع الايمـان
لى نفحـة المحبـــوب حين يشمنى ... طيبا ، ولـــون الصب حين يرانى
منى !المصبــــغ حين يبســـط كفه ... فبنـــان كـــل خـــريدة كبنـانى
والمـــاء منـــه سبائـك فضـية ... ذابـت على درجـــات شاذوران
وكانما ســـيف هناك مشطـــب ... القته يوم الحـرب كـــف جبان
كـــم شاخص فيه يطيل تعجبـــا ... مـن دوحـــة نبتت من العقيـــان
عجبـــا لها تسقى الرياض ينابعا ... نبعت من الثمـــرات والاغصـــان
خصـــــت بطائـرة على فنن لها ... حسنت فافـــرد حسنها من ثان
قس الطيـور الخاشعات بلاغـــة ... وفصاحة من منطـــق وبيـــان
فاذا اتيـــح لها الكـــلام تكلمت ... بخرير مـــاء دائـــم الهمـــلان
وكان صـــانعها استبد بصنعـــة ... فخـر الجمـاد بها على الحيـوان
اوفـت على حوض لها فكائنهـــا ... منها الى العجـــب العجاب روانى
فكانها ظنـــت حـــلاوة مائها ... شـــهدا فذاقتـــه بكل لســـان
وزرافـة فى الجـــوف من انبوبها ... مـــاء يريـــك الجرى فى الطيران
مركوزة كالرمح حيث تـــرى لـه ... من طعنة الحلق انعطاف سنـــان
وكانها ترمى السمـــاء ببنـــدق ... مستنبـط من لـــؤلـــؤ وجمان
لو عاد ذاك المـاء نفطـا اخرقـت ... فى الجومنـــة قميص كل عنـــان
فى بركـــة قامـــت على حافاتها ... اســـد تـــذل لعـــزه السلطان
نـــزعت الى ظلم النفوس نفوسها ... فلذلك انتـزعـت من الابـــدان
وكان بـــرد المـــاء منها مطفئ ... نارا مضـــرمة من العـــدوان
وكانما الحيات مـــن افـــواهها ... يطرحن انفســـهن فى العـــدران
وكانمـا الحيتان اذ لـم تخشها ... اخـذت من المنصـــور عقد امان
كم مجلس يجرى السرور مسابقا ... منـه خيـــول اللهـو فى ميدان
يجلو دماه على الخـدود مـلاحه ... فكانـه المحـــراب من غمـــدان
فسمـــاؤه فى سمكها علويـــة ... وقبابـــه فلكيـــة البنيـــان

ويقول ابن حمديس فى وصف قصر آخر ، وهو قصر الملك (١٥) ما يلـــي :

---

١٥) الديوان : القصيدة رقـــم 349 .

واعمر بقصر الملك ناديك الذى   أضحى بمجدك بيتة معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره   أعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه   فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي الصبيح مع المليح بذكره   وسما ففاق خورنقا وسديرا
ولو أن بالالوان قوبل حسنه   ما كان شىء عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الاولى   رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا   لملوكهم له شبيها ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين اريتنا   غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم   ورجوا بذلك جنبة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت   حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا أنه   حقر البدور فاطلع المنصورا
ابصرته فرايت ابدع منظر   ثم انثنيت بناظرى محسورا
وظننت أنى حالم فى جنة   لما رايت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت ابوابه   جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقا تهن ضراغم   فغرت بها أفواهها تكشيرا
فكانها لبدت لتصهر عندها   من لم يكن بدخولها مامورا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة   فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه   فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه   مسكا تضوع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه اذا انقضى   صبحا على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة   تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكانما غشى النضار جسومها   واذاب فى أفواهها البلورا
أسد كان سكونها متحرك   فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكانما   أقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها   نارا والسنها اللواحس نورا
فكانما سلت سيوف جداول   ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكانما نسج النسيم لمائه   درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها   عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى   سحر يؤثر فى النهى تاثيرا

قد صولجت اغصانها فكانما ... قنصت لهن من الفضاء طيورا
وكانما تابى لواقع طيرها ... ان تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكانما فى كل غصن فضة ... لانت فارسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه اليك كانما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبرا نظروا ... بالنقش بين شكحوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... فلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ... أبصرت روضا فى السماء نضيرا
وعببت من خطاف عسجده التى ... حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعة أقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا
وكانما للشمس فيه لقية ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكانما للازورد مخرم ... بالخط فى ورق السماء سطور
وكانما وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالك الارض الذى أضحى ... له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت ... واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة ... منها ودمرت العدا تدميرا

ومن أجمل قصائد ابن حمديس ، قصيدة مدح بها المنصور ويذكر فيها خصوصا حلمه وكرمه ويشيد بعظمته وقوته (II) القصيدة طويلة ونكتفى باقتباس الابيات التالية منها :

امدام عن حباب تبتسم ... أم عقيق فوقه در نظم
أعلى الهم بعثنا كاسنا ... أم بنجم الافق شيطان رجم
أظلام لضياء طبق ... أم على الكافور بالمسك ختم
أندى فى الزهر ام ماء الهوى ... حار فى اعين حور لم تنم
أعمود الصبح فى الغيهب أم ... غره الاشقر فى الغيم الاحم

II) الديوان : القصيدة 284 .

وكأن الشمس فى ناجودها ... من سواد القار فى قمص ظلم
فادر للروح اختا والمزرا ... جين (12) بنتا وسرورا النفس أم
فهي مفتاح اللذات لنا ... ويد المنصور مفتاح الكرم
حل قصر المجد منه ملك ... بدىء المجد به ثم ختم
يحتبى فى الدست منه أسد ... وهلال وسحاب وعلم
يترك النقمة فى جانبه ... واذا عاقب فى الله انتقم
واذا قال : نعم ، وهى له ... عادة ، أسبغ بالبذل النعم
واذا ما بخل الغيم سخا ... واذا ما عبس الدهر بسم
تنتخى السادات عزا فاذا ... قربت من عنده صارت خدم
يذعر الجبار منه فعلى ... شفة يمشى اليه لا قدم
فالق الهام اذا كرسطا ... مسعر الحرب اذا هم اعتزم
كلما أوطا حربا سنبكا ... حمي الروح وشب المقتحم
واذا حاول فى طعن الكلى ... صرف اللهذم تصريف القلم
يطأ الهام التى فلقها ... بلهام للأعادى ملتهم
يرجع الليل نهار بالظبا ... ويعيد الظهر بالنقع عتم
وعروس لك أهديتها ... تكلم الحساد منها بالكلم
فى تقاصير من الدر اذا ... حاولوا تحصيلها فهي حكم
يضرب الامثال فيها بكم ... أمم فى المدح من بعد أمم
أسكنت ذكرك حكما خالدا ... أبدا بنيانه لا ينهدم

وكذلك مدح ابن حمديس عددا من بنى حمدون الذين توارثوا الوزارة وقيادة الجيش فى دولة بنى حماد ، وفى مقدمتهم ميمون بن حمدون ومطرف وعلى · والجدير بالذكر أن آخر قصيدة قالها الشاعر كانت فى رثاء على · وهذا قد يتخذ دليلا لترجيح رواية وفاته فى بجاية (13) · وفى هذه القصيدة (14) يقول :

رمى الموت فى عين التصبر بالدم ... وقال لحسن الصبر : بين الحشادم
على القائد الاعلى الذى فل عزمه ... كما فل عن ضرب الطلي حد مخذم
أرى زمن الدنيا ينقل اهلها ... الى دار اخرى من غني ومعدم

12) الزراجين : جمع زرجون وهو قضيب العنب ·
13) هذا احد القولين ، وهو الارجح ، والقول الاخر ، انه مات ودفن فى جزيرة ما يورقة ·
14) الديوان : القصيدة 301 ·

وخان امين الملـــك فيما انطوى له   على حفظ أسرار الجـلال المكتـم
فما دفعـــت عنه جنـــود جنوده   على أنها فى القـرب كاليد للفــم
ولم يغن عنها الضرب من كل مرهف   ولا نافذات الطعـــــن من كل لهذم
بايدى كمـــاة منهـــم كل مقـــدم   باقدام يحمـــى حمـــاه ويحتمى
ويقبـل فى فضفاضة فارسيـــــة   تحـدث عن ابطـــال عاد وجرهم
علي بن حمدون الذى كان حمـده   تـــرفع منه همــــة المتكــلم
حلت منه يـوم الروع كل كتيبـــة   وكم عمرت من بأســـه بالتقـــدم
متى تعبـس الهيجا له فى لقائـــه   رأت منه فى الاقحام ســـن تبسم
تنقل من ســــــرج الكمى يحتفه   الى حفـرة فى جوف لحد مسنـم
فظللت منــــه فى توحـــش غربة   بظل جنـــاح بين غبراء مظلـــم
وأر ضعنى تـــدى المنـــى فكاننى   وليد آتى عمران شـــــيخ التقدم
ومما ابت عن جدواه الا مشيعـــا   بافضال ذى فضـــل وانعام منعم
فيا سيدا زرناه حيـــا وميتـــا   فما زال فى هذا الجناب المعظـــم
نـــردد تسليما عليـــك محبـــة   وان كنت لم تردد ســـلام المسـلم
ومدرســـة ابناؤهـــا فقهاؤهـــا   فمن عـــالم منهم ومن متعـــلم
ضراغم فى الجيش اللهـــام وانما   فوارسهم فى الحرب من كل ضيغم
وان كان فى نصر الشريعة مشرعا   عن الحق ما يشفى به كل مســـلم
ارى قائد القـــواد اعطى مقاده   لحكم قضـاء فى البرايا محكـــم
واسلـــم للحتف المقدر نفســـه   وقد كان لا يـــرقى اليه بســـلم
وانتم سيـــوف للسيوف مواضيا   وايمانكم فيهـــا ذوات تخـــتم
عزّاء جمـــيل فى (المصاب) فانكم   جبال حلوم بل طوالـــع أنجـــم
فـــدام لكم فى العـز شمل منتظم   وشمـــــل الاعادى منه غير منظم

تلك لمحة قصيرة من حياة ابن حمديس الصقلى ونبذة من شعره والتفاتة الى صلته ببنى حماد الذّين عاش فى قصورهم وخالط ملوكهم وصادق وزراءهم وقوادهم ٠ والحديث عن بجاية لاحياء ذكراها وذكرى مؤسسيها ، لا يمكن ان يتم اذا اهملنا الاشارة الى شاعرها الاول ٠ فان شعر ابن حمديس الذى كان ينزل على مسامع الملوك والامراء فى قصورهم ، لا بد وأن تكون جبال الناصرية وهضابها قد رددته اجيالا طويلة بعدهم ٠



من الأرشيف

"بجَــــاية"

شعــر المرحــوم
عبد الكريم العقون

أ ـ حيــاة الشاعــر :

ولد الشاعر عبد الكريم فى 18 مارس عام 1918 ببلدة برج الغدير ، دائـرة بـــرج بوعريريج ولاية سطيف وتوفى فى 13 ماى 1959 بمدينة دويرة .

بدا دراسته الابتدائية فى مسقط راسه حيث تعلم القرآن عن ابيه الحاج المسعود كما اخذ بعض الدروس عن الشيخ موسى الاحمدى ثم انتقل الى قسنطينة وبقى فيها حوالى ثـلاث سنوات (1933 ـ 1936) تتلمذ خلالها عن الشيخ عبد الحميد بن باديس وبعــدها قصــد تونس حيث تعلم فى جامع الزيتونة ، واثر حصوله على شهادة التحصيل عاد الى الجزائـــر (العاصمة) واشتغل معلما مدة 15 سنة ونتيجة لجراته فى الدروس التى كان يلقيهــا عـلى المواطنين فى جامع لاردوت (المرادية حاليا) اراد المستعمرون التخلص منه . فكان ان اخذوه من بيته وساقوه الى السجن ثم قتلوه .

للشاعر المرحوم قصائد عديدة نشر منها عددا لا باس به فى جريدة البصائر الاسبوعية .

مــلاحظـــة :
هذه المعلومات استقيناها من أهله ومن بعض الاساتذة الذين عاصروه .

ب ـ قصيــدة بجــايــة :
نظم هذه القصيدة بمناسبة زيارته لها مع بعض رفاقه واهداها الى الاستاذ الاديب حمزة بوكوشة الذى افتتح فصوله الادبية بما قيل فى وصف بجاية . ونشرها فى العدد 295 السنة السابعة من السلسلة الثانية من جريدة البصائر وصدر هذا العدد بتاريخ يوم الجمعة 7 ربيع الثانى 1374 هـ الموافق لـ 3 ديسمبر 1954 م والقصيدة مقسمة الى ثلاث مقاطع المقطعــان الأولان كل منهما يشتمل على 11 بيتا والاخير على 14 بيتا وبذلك يكون المجموع 36 بيتا .

بجـــايـــة .. !

« بجاية » نبـع العـلا والعظم ! ومثـوى جـدودى هـداة الأمـم
أتيتـك تحـدو بى الذكـريـات لماض مجيـد تحـدى العـدم
أغر جميـل الـرؤى خـالـدا يلـوح لنـا كالسنا فى الظلـم
مآثـر شـاخصـة للعيـان مـدى الدهـر تبقى ولا تنعـدم
تبـدت لعيـنى عـلى افقهـا مـلامـح مـن عزهـا المنصـرم
يعانقها مـن رقيـق الغمـام وشـاح موشى بـه تلتثـم
ويحرسهـا مـن رواسى الجبـال كـل رفيـع الـذرى والقمـم
توسـدت السفـح فى عـزة يطوقهـا كـل طـود اشـم
ومـن بينهـا قـد بـدا ساخرا « قـراية » مـن كـل خطب الـم
« وملالـة » ملتقى الأسـد مـن رجـال العروبـة اهـل النعـم
بها دفـن الثلـج جيش العـدا وذاق صنـوف الـردى والألـم

« بجاية » كـم شاعـر مبـدع تغنى بحسنـك عـذب الكلـم
وهام « بواديـك » مستلهمـا خريرا كترتيـل شعـر نظـم
بـدا هائمـا بـين تلك الربـا يدغـدغ احـراجها مـن امـم
تدفـق لهفـان فى نشـوة طـوى السهـل فى سـيرة المزدحم
عـلى شفتيـه غصـون الكـروم تداعبـه فى حفيـف النسـم
غـدا يتـدافـع فى سـيره حـدتـه الطيـور باحـلى النغم
وقـد انصت الغـاب فى لهفـة يهـدهـده نغـم منسجـم
واسـرع للبحـر فى ركضـه يصافـح منـه العبـاب الخضـم
دنـا نحـوه خـاشعـا مطرقـا ليطفىء شـوقا بـه يضطـرم

بجاية

وعانقه البحر جم الحنان — عناق اخ لأخ قد قدم
فاحبب به منظرا رائعا — يداوى الكلوم ويشفى السقم

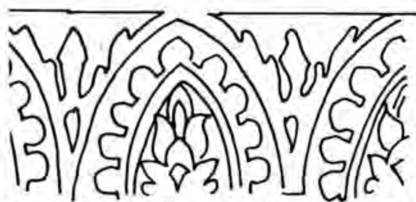
هنا قد ذكرت العهود التى — بها كان « حماد » ليث الاجم
هنا كان « حماد » ذا صولة — بنى مجده بالقنا والقلم
هنا كان « حماد » فى عزة — يدافع عن غيله من ظلم
هنا كان « حماد » يهوى العلا — ويبنى المعاهد مثل العلم
قد اكترع النشء من نبعها — علوما تسح كمزن الديم
« أحماد » عمرت دهرا مضى — وضيئا به كل بدر أتم
فكم من « اساتذة » قد هدوا — قوافل فى غهيب مد لهم
وكانوا مصابيح وهاجة — بهم يهتدى فى ليالى الظلم
وكم من « فتاة » كبدر الدجى — تبث العلوم بها والحكم
بدت آية العصر فى عصرها — تعد « شباب » العلا والشيم
وتمحو الجهالة عن أمة — فكانت لأبنائها خير أم
وقفت بارجائها ساهما — اراجع عهدا مضى كالحلم
فقلت ـ وفى كبدى لوعة — لأدفع هما بصدرى جثم ـ :
فهذى مآثرهم شاهدات — بآى الخلود ومعنى العظم

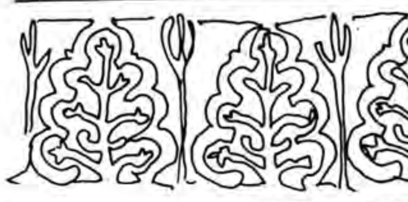
الجزائر

عبد الكريم العقون

عناصر للزخرفة اكتشفت في قلعة بني حماد .









العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر

في عصر بني حماد

اسماعيل العربى
كاتب جزائرى

ما هو الاساس المادى لحضارة بنى حماد ؟ ومن اين جاءت المملكة تلك الموارد التى اتاحت لقصور القلعة التى خلفت القيروان ، ولقصور بجاية التى حلت محل القلعة والمهدية ، ذلك البذخ والترف الذى لم تعرف له مثيلا سوى قصور بغداد وغرناطة ؟ القاعدة المادية لحضارة بنى حماد هى وفرة الانتاج الزراعى وازدهار الصناعة والتجارة ، ولا سيما تجارة القوافل التى تحمل العبيد والذهب ، عبر الصحراء ، من بلاد السودان ٠

1 ـ الزراعة :

تدل المعلومات القليلة المتوفرة لدينا (وهى مستقاة كلها تقريبا من الجغرافيين العرب) على أن اقتصاد مملكة بنى حماد كان يقوم أساسيا على الزراعة ٠ وأما الصناعة والملاحة وصيد السمك فقد كانت قطاعات ثانوية ٠ والانتاج الزراعى الرئسى فى المغرب الاوسط فى عهد بنى حماد ، هو الحبوب وخصوصا القمح والشعير (1) الذى كان يشكل الانتاج الاهم فى المناطق الريفية المختلفة ، حيث يمثل الغذاء الشعبى الاساسى ٠

وقد كانت نجود قسنطينة وسهول المسيلة وسطيف وطبنة ، كما هى الحال الآن ، تمد البلد بكميات كبيرة من انتاج القمح ٠ ولكن زراعة الذرة والحمص والفول والقطن كانت منتشرة أيضا فى ذلك العهد فى هذه المناطق وفى مناطق أخرى ٠

1) راجع (1) G. Marcais, la Berberie Musulmane, P. 177-178

ومنذ أقدم العصور ، كانت غابات النخيل تغطى المناطـــق التى تمتد جنوب قسنطينة حتى بسكرة وطولجة • وكان تمر هذه المنطقة يتمتع بشهرة خاصة ولا سيما النوع الذى كان يعـــرف بالكسبا ، او الصيحانى ، والنوع الذى يسمى بالليارى ، (ابيض المس) • وقد كان عبيد اللـــــه الشيعى يامر عماله بمنع بيعه وبارسال ما تنتجـــه المنطقة منه الى قصوره (2) •

وعلى الرغم من ان منطقة بسكرة قد عرفت ايضا بما فيها من غابات الزيتون ، فان منطقة بلاد القبائل هى التى يصلح فيها الزيتون أكثر من غَيرها • وكان لكل قـرية فيها معاصرها التى تعصر الزيتون وتحوله الى زيتٍ بالطريقة التى ورثتها افريقية عن الرومان ولا تزال متبعة الى الآن •

وقد اشتهرت منطقة بجاية خصوصا بانتاج التين الذى يجفف ويصدر الى الخارج (3) •

والتين هو الانتاج الذى اشتهرت به ايضا منطقة تنس ومرسى الدجاج (4) •

وفى مجال انتاج الفواكه ، حضيت تنس وشرشال والمسيلة بمكانة خاصة ، ولا سيما فيما يتعلق بانتاج السفرجل ، كما اشتهرت نقاوس وتبسة بوفرة ما تنتجه من الجـــوز الطيب الذى يصدر منها الى الخارج •

وكذلك اشتهرت كل من جيجل والمسيلة ومرسى الخرز فى عهد بنى حماد بكثرة ما يتوفر فيهما من السمك وبجودة انواعه • والشريف الادريسى يقدم الينا معلومات قيمـــــة عن السمك الذى يصطاد فى نهر المسيلة (سهر) والذى تباع كميات كبيرة منه فى القلعة (4) •

وكذلك يتحدث ابن حوقل الذى زار مرســى الخرز عن انتاج هذه المدينة من السمك قائـلا انه رأى فيها ما لم ير « اسمن منه ولا امنع جانبا فى أى بلد آخر من بلدان العالم (5) •

ولكن الطريقة المثلى فيما يبدو للتعرف عـلى انتاج مختلف مناطق المملكة هى ان نستعرض مراكز العمران الكبرى المشهورة (فيما عدا العواصم) ونقدم المعلومات التى نقلها الينا الجغرافيون والمؤرخون العرب الذين عاشوا فى عصر بنى حماد ، أوبعده أو قبله بقليل •

ولهذه الغاية نقدم فيما يلى قائمة تشتمل على اثنتى عشـــرة مدينة (ما عدا المراسى التى وضعنا لها قائمة خاصة) كانت أهم مدن بنى حماد الداخلية مـن الناحية العمرانية ، والاقتصادية •

2) البكرى ، ص 52 •
3) الادريسى ، ص 90 •
4) نفس المصدر ، ص 73 • وابن حوقل ص 51 – 52 •
4) نفس المصدر ، ص 98 •
5) ابن حوقل ، ص 50 •

وسنبدأ هذا العرض من سجلماسة التى كانت تابعة لبنى حماد فى العهد الاول من الناحية الشكلية ولو انها كانت تتمتع باستقلال ادارى واسع ، متجهين الى الشرق حتى تبسة التى تقع غير بعيد من حدود المملكة الحقيقية فى الشـــرق ٠

سجلماســـة :

كانت مدينة سجلماسة (تافيلالت حاليا) التى بناها بنو مدرار (104 هـ) مركزا عظيما للتجارة عبر الصحراء ، وتقطن فى المناطق المجاورة لها قبائل مسوفة الرحل ــ من صنهاجة ٠ ولكن هذه المدينة التى كان لها اثنا عشر بابا ، كانت ايضا محاطة بارض زراعية نادرة المثال فى الصحراء اشتهرت بكثرة النخيل والاعناب ومختلف انواع الفواكـــه ٠

وتقع سجلماسة على نهر عظيم وهو نهر زيز الذى ينحدر من موضع يسمى اكلف ، وقد بنيت عليه خزانات وتتفرع عنه قنوات ، مما سمح بتوفير الري لمنطقة واسعة ٠ ويقول ابن حوقل ان هذا النهر يفيض فى الصيف ، كما يفيض نهر النيل فيزرع بمائه حسبما يزرع فلاحو مصر ٠

وقد اشتهرت منطقة سجلماسة خصوصا بنظام غريب لزراعة الحنطة لا نعرف له مثيلا ٠ فان الادريسى يروى أن السكان يزرعون الحنطة سنة ويحصدون تلك البذرة سبع سنوات متوالية ٠ ولكن الحنطة التى تنبت من غير بذر تتغير تدريجيا حتى تتخذ شكلا بين الحنطة والشعير ٠ وهذا الانتاج هو الذى يسمونه بالبربرية « يردن تيزواو »٠ وحب هذه الحنطة صعب المكسر لذيذ الطعم٠

وهذه المظاهرة تعرض لذكرها كل من ابن حوقل والادريسى دون ان يقـــدم أي منهما تعليلا لها ٠ ولكن البكرى الذى يقول ان البذرة الواحدة يحصد منها ثلاثة اعوام (فقط) ، يفســـر ذلك بقوله ان البلد مفرط الحر شديد القيظ ٠ فاذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد وسقط فى شـــقوق الارض ٠ فاذا كان العام الثانى حرث بلا بذر ٠ وكذلك فى العام الثالث ٠

وكانت تمتد فى اراضى سجلماسة غابات كثيفة من النخيل الذى ينتج انواعا مختلفة من التمر وكذلك تنتج ارض المدينة غلات من القطن والكمون والكرويا والحنا التى تصدر من سجلماسة الى مختلف بلاد المغرب وغيرها (6) ٠

---

6) قارن الاستبصار ، ص 202 ــ 204 والبكرى ص 151 ٠ والادريسى ، ص 60 ــ 61 ، ومعجم البلدان 3 / 45 ، ومراصد الاطلاع 2 / 14 ، وابن حوقل ص 65 ، والمقدسى 231 ، وابن سعـــيد المغربى (كتاب الجغرافيا) 124 واليعقوبى (وصف افريقية) ، ص 17 ــ 18 ٠

تلمســــــان :

تلمسان مدينة قديمة وفيها آثار تدل على انها كانت مدينة مهمة فى العصور الغابرة · وتقع المدينة سفح جبل يذكر الكتاب أن اكثر شجره الجوز · وقد وصفها اليعقوبى بـ « المدينة العظيمة » وقال ان عليها سورا من حجارة وخلفه ســور آخر مـ نحجارة ، وفيها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة : وحول هذه المدينة قوم من البربر يقال لهم مكناسة ·

والمدينة فيما يقول صاحب مراصد الاطلاع ، مدينتان احدهما قديمة والاخرى حديثة اختطها الملثمون (المرابطون) ·

وفى جنوب المدينة ، يمر نهر سطفسيف الذى ينصب فى بركة كبيرة من الصخر ثم يخــرج من تلك الصخور فيسقى سهولا ومزارع واسعــــة وينصب فى نهر تافنا ، الذى ينصب بدوره فى البحر الابيض ، عند أرشغول ·

ويقول ابن حوقل فى وصفها « انها مدينة لطيفة قديمة ولها انهار جارية وعليها أرحيه وفواكه كثيرة ، وزرعها سقى وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ·

وقد كانت تلمسان فى عهد بنى حماد واحدة من قواعد المغرب الاوسط الرئسية كما كانت فى معظم الاوقات تمثل اقصى ثغور المملكة فى الغــرب · ولم تــــزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأى على مذهب ملك بن انس رضى الله عنــــه ·

وعلى عكس بجاية والقلعة ، احتفظت تلمسان بمكانتها فى القرن السابع الهجرى ، بـــل وعززتها حينما أصبحت قاعدة بنى عبد الواد من زناتة · وقد تعرض ابن سعيد المغربى لوصف بعض جوانب اقتصاد تلمسان فى هذه الفترة من حياتها ، فقال : « ومنها تحمل ثياب الصــوف المفضلة على جنسها المصنوع فى سائر بلاد المغرب · وتحمل منها الجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك · والاندلسيون يقولون كأنها من مدن الاندلس ، لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها ، وعــلى الرغم من أن الكتاب لا يتعرضون لذكر صناعة الجلد فى تلمسان فى عهد بنى حماد ، فان من الممكن الاعتقاد بان هذه الصناعة كانت معروفة فى ذلك الوقـــت (7) ·

---

7) قازن الاستبصار ، ص 176 ، والبكرى ، ص 76 – 77 ، والادريسى ص 8 ، ومعجم البلدان 1 / 87 ، ومراصد الاطلاع ، 1 / 19 وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ، ص 140 ، واعمال الاعلام ، ص 61 – 62 ·

تيهـــرت (تاهــرت) :

كانت تيهرت عاصمة الدولة الرستمية وقد بناها مؤسس هذه الدولة الذى كان على رأس الاباضية فى منتصف القرن الثانى الهجرى ـ وكانت تعرف بتثيهرت الجديدة ، أو السفلى ، تمييزا لها عن تيهرت القديمة ، أو العليا ، التى تبعد عنها بنحو خمسة اميال ، وقد ازدهرت حضــــارة تيهرت فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وكانت لها شهرة علمية واسعة فى مختلف أطــــراف العالم الاسلامى حتى سميت بعراق المغرب .

وحول هذه المدينة تقع مدينة تيارت الحالية على مسافة نحو 5 كيلو مترات منها .

وقد لعبت تيهرت (كما تسمى ايضا) دورا كبيرا فى عهد بنى حماد حين كانت لها قيمـــــة استراتيجية خاصة ، باعتبارها من الثغور التى تفصل صنهاجة وزناتة . وكذلك كانت هدفا لحملات عسكرية قام بهازيرى بن عطية الذى هزم جيوش القيروان عندها .

والمدينة القديمة تقع على سفح جبل يسمى جزول ، وعلى نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة ونهر آخر يأتى من عيون يسمى تاتش . ومن هذا النهر تروى اراضى تيهرت وبساتينها الكثيــرة التى وصفها البكرى بان فيها جميع الثمار ، وسفرجلها يفوق سفرجل الافاق حسنا وطعما وشمــا وسفرجلها يسمى بالفارس .

ويقول الادريسى ان فى اراضى تيهرت مزارع وضياع جمة اشتهرت بتربية البقر والغنــم وخصوصا بانتاج البرانين والخيل ، ويضيف ان المدينة ومنطقتها وفيرة العسل والسمن (8) .

مليانــــة :

مدينة قديمة تشرف من الشرق والجنوب على وادى شلف بناها الروم وجددها زيرى بــن منـــاد .

وتقع مليانة فى سفح جبل زكار الغربى على ارتفاع 720 مترا فوق سطح البحر . والجبــل تغطيه غابة كثيفة وتنزل منه مياه غزيرة . وقد وصف صاحب الاستبصار منطقة مليانة قائلا انها من أخصب بلاد افريقية وارخصها اسعارا . وهى ذات بساتين تنتج جميع أنــــواع الفواكه . والمدينة تشرف على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة . ويشق تلك الفحوص نهر شلف ، وهو نهر كبير مشهور .

---

8) قارن ، مراصد الاطلاع 1 / 960 ، ومعجم البلدان، 1913 والاستبصار، ص 178 ، والادريسى 87 ، والمقدسى ، ص 238 ، والبكرى ، ص 66 ـ 67 .

وقال البكرى انها مدينة « ذات اشجار وانهار تطحن عليها الارحاء وهى عامرة ٠

ولما تحدث الشريف الادريسى عن مليانة ، قال انها حسنة البقعة كريمة المزارع وتقع على نهر يسقى اكثر مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرجاء على نهرها ٠

ومليانة تقع غير بعيدة من أشير ، وبين المدينتين تقع قرية كزناية ذات المزارع الواسعة ، وقرية ريغة ذات العيون الفياضة والاراضى الزراعية الواسعة والبساتين التى تنتج كثيرا من الفواكه ٠ وهى أيضا سوق كان سكان المنطقة يقصدونها يوم الجمعـــة (9) ٠

المسيلـــة :

تقع المسيلة التىأسست فى عهد أبى القاسم عبيد الله سنة 313 على نهر سهر ٠ وقد تولى بناءها علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور المعروف بابن الاندلسى ٠ والمدينة فى بساط من الارض كان عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة ٠ وكان للمدينة اســـواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة وكانت سهـــول المسيلة مشهورة خصوصا بانتاج القطن والقمح والشعير والفواكه وتربية الحيوانات ، ولا سيما البقر والغنم والخيل ومن هنا كثرة اللحوم فيها ورخص اسعارها فى عهد بنى حماد ٠ ولكن المحمديـــة ، كما تسمى أيضا ، كانت تثير باعجاب زوارها وتفخر خصوصا بنوع من السمك الصغير المزين بخطوط حمراء والذى يقول الادريسى انه لم ير فى بلاد الارض المعمورة سمك على صفته ٠ وهذا السمك الذى لا يتجاوز طوله الشبر ، كان يصطاد بكثرة وينقل الى قلعة بنى حماد حيث كان يزين موائد الملوك والامراء ، والمسيلـــة لا تبعد على القلعة الا بميل واحد (10) ٠

طبنـــــة :

عاصمة كسيلة التى افتتحها موسى بن نصير ومدينة الزاب العظمى (11) كما يسميها اليعقوبى وكانت طبنة فى عهد هذا المؤرخ ماهولة باخلاط من العرب والعجم والروم والبربر ٠ وقد وصفها

---

9) قارن البكرى ، ص 61 ، والادريسى ، ص 85 ، والاستبصار ص 170 ، وابن حوقل ، ص 64 ، ومراصد الاطلاع ، ص 3 / 147 ٠

10) قارن البكرى ، ص 59 ــ 61 وابن حوقل ، ص 60 ، والادريسى ، ص 86 ، وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ، ص 126 ٠

11) الزاب اسم لانهار بالعراق ، منها الزاب الاعلى (بين الموصل واربل) والزاب الاصغـــر ، وكذلك يطلق اسم الزاب على المنطقة التى تقع فيها بسكرة وطولقة وتوزر وقفصة وغيرها كما يطلق اسم الزاب على نهر كان يجرى بين سجلماسة وتلمسان (راجع مراصد الاطلاع ، 2 / 653) ٠

البكرى بانها مدينة عظيمة كثيرة المياه والبساتين والزرع والقطن والحنطة والكتان وغير ذلك من الحبوب . وكذلك كانت بادية طبنة تملك ثروة عظيمة من البقر والغـــنم .

على ان المدينة عرفت عهدا من الانحطاط والضيق فى عهد ابن حوقل فتحولت « عـزتها الى مذلة » واصبح أهلها « مشردين مطرحين بكل واد » وكان ذلك بسبب الفتن والتطاحن بين مختلف سكانهـــا .

ولكن مدينة طبنة استعادت مكانتها السابقة فى عهد بنى حماد وكان بها قصـــر وارباض وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرها ومنه تسقى بساتينها ، حسبما يقول البكري .

وكان بالمدينة اسواق كثيرة ، وليس من القيروان الى سجلماسة مدينة أكبر منها .

وينتسب الى طبنة من العلماء علي بن منصور الطبنى ، الذى روى عن محمد بن مخارق وابو محمد القاسم بن علي بن معاوية بن الوليد الطبنى الشاعر وابو مروان عبد الملك بن زيادة الطبنى الشاعر اللغوى الذى عاش بالاندلس .

والمدينة تقع على نهر اسمه بيطام ، تسقى به جميع بساتينها وفحوصها . وكان يحلو لاهل المدينة أن يرددوا قولهم « بيطام بيت الطعام » لخصب أرضها وجودة زرعها .

وقد استمرت المدينة تقوم بدور عاصمة الزاب وتتمتع برخائها فى عهد الشريف الادريسى الذى يصفها بانها « مدينة عظيمة من جميع النواحـــى » .

وكانت طبنة تتسم بجميـــع الخصائص التى تميز المدن الاسلامية الثانوية ، مركزا تجاريا مهما وتاوى كثيرا من الصناعات المعروفة فى العصور الوسطى .

وفى مجال الزراعة ، اشتهرت طبنة بقسـط واسع من المنتجات ، فى مقدمتها القطن والحنة والشعير والكتان ومختلف انواع الفواكه (12) .

ســطيف :

كانت سطيف مدينة كبيرة حصينة وعامرة متصـــلة محاطة بكثير من قرى كتامـة ، ويصفها البكرى بانها مدينة كبيرة جليلة عامرة جامعة كثيرة الاسواق رخيصة الاسعار وهذا الوصـــف

12) قارن البكرى ، ص 50 ، ومعجم البلدان 3 / 515 . والادريسى ، ص 93 ، والاستبصار ، ص 172 وابن حوقل ، ص 59 ، واليعقوبى ، ص 11 .

يشبه ما ذكره صاحب الاستبصار الذى ينوه بغزارة مياهها وسعة بساتينها ووفرة الفـــواكه والثمار فيها (13) ٠

بسكـــرة (او بسكره) :

مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون ومختلف الثمار ، وكانت فى عهد بنى حماد مســـورة عليها خندق وبها مساجد كثيرة وحمامات وحولها بساتين كثيرة ، وهى فى غابة من النخيل تمتد على ستة اميال وكانت حول بسكرة أرباض تقع خارج الخندق المذكور ، وكانت تقيم حولها قبائـل من البربر من اهلها سدراته وبنو مغراوة الذيـن كان على راسهم بيت بنى خزرون وبنو يزمتى ، ويشق غابة بسكرة نهر كبير ينحدر من جبل أوراس ، يسقى بساتينها ونخيلها ٠

وكذلك يشيد البكرى خصوصا بآبار بسكرة الكثيرة والعذبة المياه (14) ٠

نقـــاوس Nicivibus القديمة :

مدينة جميلة كثيرة الانهار والثمار ٠ وقـد اشتهرت أرضها خصوصا بوفرة ما تنتجه من الجوز واللوز والعنب والقطن والحبوب ٠ وكان جوز نقاوس فى عهد بنى حماد ، يحمل الى القلعة وبجاية حيث يشتد الاقبال عليه فى قصـور الملوك والامـــراء (15) ٠

قسنطينـــــة :

تقع قسنطينة الهواء ، كما يسميها القدماء ، على قمة كتلة صخرية هائلة العلو تشرف من ثـلاث جهات على هاوية وعلى وادى الرمال الذى تبدو مياهه من المدينة وكانها ثعبان يســـير ملتويا ، بينما تتصل جهتها الرابعة بالارض ٠

وقسنطينة مدينة قديمة أسسها الفينيقيون، وكانت تحمل فى البداية اسم سرته (اى المدينة او القـــرية) ٠

وفى عهد الرومان ، تحصن فيها الزعيم الوطنى ماسيناس الذى حـاول الاستقلال بالمغـرب الاوسط ولكنه فشل ٠ وبعد ما خربها البربر فى ثورات دامية ، قام الامبرطور قسطنطين البيزنطى باعادة بنائها اثر احتلال البيزنطيين لها ومنذ ذلك التاريخ والمدينة تحمل اسمه ٠

(13) قارن الاستبصار ، ص 1066 والبكرى 76 ، والادريسى ، ص 98 ، وابن حوقـــل ، ص 68 ، البلدان 3 / 99 ٠

(14) قارن الاستبصار ، ص 173 ، البكرى ص 53 ، معجم البلدان 1 / 625 وابن حوقل ص 68 ، والمقدسى ، ص 230 والادريسى ، ص 94 ٠

(15) قارن الادريسى ، ص 93 والبكرى ، ص 50 والاستبصار ص 72 وابن حوقـــل ، ص 66 والمقدسى ، ص 230 ٠

وفى العصر الحمادى ، كانت قسنطينة تقوم بدور ، عسكرى ولكنها لم تكن لها قيمة سياسية تذكر ٠ وقد وصفها البكرى بانها « ليس يعرف احصن منها » (والمدينة التى تسكنها قبائل متفرعة عن كتامه ، تقع « على ثلاثة انهار عظام تجرى فيها السفن ٠

وكانت فى قسنطينة أسواق عامرة وتجارة رابحة ، وقد وصف الادريسى سكانها بانهم « مياسير ذوى مال وأحوال » ٠

وقد اشتهرت قسنطينة منذ القدم بمطامرها التى كانت تستعمل لادخار الحنطة ، وبعضها منقور فى الصخر وكانت الحنطة تقيم فى هذه المطامر ، حسب ما يذكر الادريسى ، مائة عام ولا تفسد لبرودتها واعتدال هوائها ٠

وفيما يتعلق بالانتاج الزراعى ، اشتهرت قسنطينة خصوصا بوفرة العسل والسمن الذى كان يصدر منها الى مختلف الاقطار (16) ٠

باغايا :

كانت باغايا فى عهد بنى حماد ، وقبلهم ، مدينة مهمة من الناحية العسكرية والسياسية والاقتصادية معا ٠ وهى مدينة قديمة وحصن مبنى بالصخر وربض يحيط به سور تعقد فيه الاسواق ٠ وفى ربضها فنادق المدينة وحماماتها والمدينة تقع على نهر ياتيها من القبلة يزودها بمياه الشرب ويسقى بساتينها وأرضها الزراعية الواسعة التى اشتهرت خصوصا بانتاج الحنطة والشعير ٠

وأما القبائل التى تسكن فحص باغايا ، فاهمها مزاته وضريسة ، وكلتاهما اباظية ٠ وكذلك كان سكان المدينة كلهم فى عهد بنى حماد على مذهب الاباضية ٠

وقد تعرضت باغايا لاهوال الحروب عدة مرات ولكنها كانت دائما تنهض من كبوتها ، حتى وصل اليها بنو هلال الذين قضوا على عمارة بواديها بحيث تضاءلت خيراتها فى عصر الادريسى الذى يقول عنها : « ان كل ما فيها الآن قليل » (17) ٠

16) قارن البكرى ، ص 63 والاستبصار ، ص 165 والادريسى ، ص 64 ومعجم البلدان 4 / 98 ومراصد الاطلاع 2 / 413 وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ، ص 143 ٠

17) قارن الادريسى ص 103 ، والبكرى ص 144 — 145 ومعجم البلدان 1 / 473 مراصد الاطلاع 1 / 154 والمقدسى ص 227 وابن حوقل ص 59 ٠

تبســـه « او تبســـا » :

مدينة قديمة كبيرة مبنية بالصخر وفيها آثار قديمة يقول صاحب الاستبصار انه لا يوجـد فى افريقية أعظم من آثارها باستثناء قرطجنة · ويصف هذا المؤرخ بنيان ملعب فيها بقوله « انـك لو غرست الابرة بين حجرين من احجار البناء ما وجدت لها منفذا » · والجدير بالذكر أن صاحب الاستبصار قد زار تبسة واخذ منها تذكارا (طلســـم)ويعتبر وصفه لاثار تبسة أدق وصف لهذه الاثار التى اندثرت وعفت خلال القرون التالية ·

وفيما يتعلق بالانتاج الزراعى فقد اشتهرت تبســـة ، خصوصا ، بكثرة الفواكه ولا سيما الجوز الذى يضرب المثل بجلالته وكبره وطيبه حسب تعبير البكرى (18) ·

2 ـ الصناعـــة والمعـــادن :

كانت صناعة الغزل والنسيج صناعة قومية متكاملة فى مملكة بنى حماد · وكانت أهـــم المواد المستعملة فى هذه الصناعة التى تمارسها النساء عادة هى الصوف والقطن الذى تنتجه حقول المسيلة ونقاوس وطبنة بكثرة ، والكتان الذى كانت زراعته منتشرة فى منطقة بونه · وكان انتاج صناعة القطن رائجا بحيث اشتق من هذه المادة اسم للتجار الذين يتعاملون فيها (القطان) ·

واما صناعة نسيج الحرير فيبدو أنها كانت تمارس فى نطاق محدود فى المغرب الاوســـط ، حيث أن هذه الصناعة قد تركزت خصوصا فى القيروان وفاس ·

وكانت منسوجات القلعة تتمتع بشهرة خاصة فى المغرب والمشرق ، اشاد بها ياقوت الحموى فى معجم البلدان حين يقول : « وبها الاكسية القلعية الصفيقة النسيج الحسنة المطرزه بالذهب · ولصوفها من النعومة والبصيص ، بحيث ينزل بمنزله الابـرسيم » ·

وقد تعرض صاحب الاستبصار لصناعة العمائم التى اشتهر بها ملوك صنهاجة ، فقال انهـم يطرزونها بالذهب ويغالون فى اثمانها بحيث تساوى العمامة 500 و 600 دينار ، وأزيد · وكانوا يعممونها باتقان وكانها تيجان (19) · بل ان تعميم العمامة انما يقوم به صناع متخصصون فى ذلك ، ويتقاضون على عمامة واحدة دينارين وأزيد · وكانت لهم قوالب من عـــود فى حوانيتهم

18 قارن الاستبصار ، ص 162 ، والبكرى ص 145 والادريسى ص 119 ، وابن حوقل ، ص 58 ومعجم البلدان ، 4 / 502 ، ومراصد الاطلاع 3 / 83 ·
19) معجم البلدان ، 4 / 163 ـ 164 ·
الاستبصار ، ص 127 ·

يسمونها « الرؤس » ويعممون عليها تلك العمائم· والى جانب الصناعات الغذائية التقليدية ، مثل عصر الزيتون وطحن الدقيق ، عرفت مملكة بنى حماد صناعة السفن فى بونه وبجاية ، حيث يتوفر الخشب والصمغ الذى يستعمل للحم الخشب ، وصناعة الجلد والدباغة التى يبدو أنها كانت مزدهرة فى القلعة ·

كانوا يستعملون الجلد المنمق بالذهب ، خصوصا فى صناعة السروج وتجليد الكتب وصناعة التجليد التى كانت معروفة فى افريقية منذ عهد الاغالبة ، بلغت شأوا بعيدا فى أواخر عهد بنى زيرى فى افريقية والمغرب الاوسط ·

ونحن نعرف أن صناعة الورق (الكاغد) الذى كان يصنع من الكتان ، قد انتشرت فى عهد الاغالبة خصوصا فى القيروان وتونس وان هذه الصناعة قد نمت وترعرعت فى عهد الزيريين وانتشرت من افريقية الى صقيلية وايطاليا الجنوبية (20) ويبدو أن من البديهى ان نفترض أنها كانت منتشرة فى ولايات بنى حماد ، ولا سيما فى عهد بجاية ·

وقد عرفت صناعة الفخار والخزف تقدما كبيرا خصوصا فى مدينة القلعة وبجاية ، كما تشهد بذلك القطع التى اكتشفت فى آثار المدينتين والتى يحتفظ بها متحف الجزائر · واللون المتغلب فى زخارف هذه البقايا هو اللون البنى والاخضر · وأما اللون الاصفر فقليل الظهور ، بينما لا يظهر الازرق الا فى القطع التى يعود تاريخها الى فترات متأخرة نسبيا (21) ·

واما المناجم ، فان الجغرافيين العرب يذكرون منها عددا ، وكانت تستخرج منها مختلف المعادن · فقد كانت مجانة تسمى ايضا مجانة المعادن ، حيث كانت أهم مركز لاستخراج الحديد ·

والى جانب معدن الحديد ، يذكر البلاذرى وابن حوقل ، وجود معدن للفضه غير بعيد من مجانة (22) التى تجلب من جهتها ايضا ، احجار المطاحن ·

---

20) ارجع روجى ادريس الذى ينقل عن المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب
La Berberie Orientale sous les Zirides, II/637

21) ارجع تفاصيل فى
G. Marçais et L. Poissot, Objets Kairouanais, Notes et Documents, XI, Fasc. 1, Tunis, 1948.

22) تجدر الاشارة الى أن الادريسى وصاحب الاستبصار ، وكلاهما كان يكتب بعد الغزو الهلالى لا يذكر شيئا عن معادن مجانة ، وانما يقتصر على ذكر احجار المطاحن · وهنا يمكن أن نتساءل عما اذا كانت قبائل بنى هلال قد وضعت حدا لنشاط هذه المناجم ، كما وضعت حدا لمختلف الوان النشاط الاقتصادى فى البلد ·

وبعد هذين الكاتبين ، بقرن من الزمن ، يشير البكرى هو الآخر الى وجود عدد من المعادن في منطقة مجانة اذ يقول : « وبها معادن كثيرة ، منها معدن فضه للواته يسمى الوريطسى ، وتعرف بمجانة المعادن » (23) ·

وكذلك يذكر الادريسى معادن الحديد الموجودة فى عهده فى الاربس ، وبونه ، وبجاية ، والتى كانت بدون شك تستغل فى عهد بنى حماد ، بينما يتعرض البكرى لذكر منجم للحديد والزئبق فى الجبل الذى يقع غير بعيد من أرزاو (ارزيو) · وفيما يتعلق بالذهب ، فقد ذكر كل من اليعقوبى (24) والاصطخرى (25) والمقدسى (26) وجود منجم له قريبا من سجلماسة · ويقول الاصطخرى انه « لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهبا منه ولا أصفى منه » · بل ان المقدسى واليعقوبى ، يتحدثان عن معادن الفضه والذهب ·

على أن البكرى الذى سجل ملاحظات مستفيضة عن سجلماسة لم يذكر وجود أثر لمناجم الذهب والفضة فى منطقتها ·

ولكن هذا الجغرافى الكبير يستغرب من جهة اخرى لكثرة وجود الذهب فى سجلماسة « بحيث يتبايعونه وزنا لاعددا (27) وربما رأى البعض فى هذه الاشارة ذاتها تأكيدا للروايات التى أوردها اسلافه والتى تقول بوجود مناجم الذهب والفضة فى سجلماسة ·

ولكن الشريف الادريسى الذى جاء بعد البكرى ، والذى خصص فقرة مهمة فى كتابه لوصف سجلماسة (28) لا يذكر هو الآخر وجود منجم للفضة او الذهب قرب سجلماسة · وكذلك نجد ان ابن سعيد المغربى الذى كان يكتب بعد الادريسى بحوالى قرن ، لا يشير الى وجود اي معدن فى سجلماسة (29) ·

والفرض الذى يتبادر الى الذهن ، هو أن تكون مناجم المعادن الثمينة فى سجلماسة قد نفدت فى عهد بنى حماد · ولكنه نظرا لانقطاع الطرق الشرقية التى كانت تسلكها القوافل الى المغرب الاوسط ، تحول طريق الذهب الذى يستخرج فى بلاد السودان ، وأصبح يمر بسجلماسة ·

23) البكرى ، ص 145 ·
24) كتاب البلدان ، ص 17 ـ 18 ·
25) الاصطخرى ، ص 39 ·
26) المقدسى ، ص 231 ·
27) البكرى ، ص 151 ·
28) الادريسى ، ص 60 ·
29) ابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ، ص 124 ·

ومن هناك ينقل الى المغرب الاوسط فى ظروف صعبة ، نتيجة لاضطراب الامن ومن هنا وجود الذهب بكثرة فى عهد البكرى ٠ ولكن انفتاح طرق القوافل الشرقية من جديد ، وعودة الاحوال الى مجراها العادى باستقرار البدو الهلاليين فى عهد الادريسى جعل سجلماسة مدينة كغيرها من المدن حيث لم تعد تنتج الذهب ، ولا تقوم بدور الوسيط (الترانزيت) فى مروره ٠

وعلى كل حال ، فان اهمية مناجم سجلماسة نظرية ، حيث أن هذه المدينة انسلخت عن ملك بنى حماد فى وقت مبكر نسبيا ، بعد ما استولى عليها المرابطون فى عهد بولكين بن محمد بن حماد فى سنة 453 ، واصبحت العلاقات التى تربطها بالمغرب الاقصى والاندلس ، اقوى من علاقاتها مع ولايات بنى حماد فى الشرق ٠

التجارة الخارجية :

كانت فى مملكة بنى حماد (أو على الاقل فى الامتداد الذى حددناه لهذه المملكة على الشواطىء) نيف وستة وعشرون مرسى ٠ ومعظم هذه المراسى تقابلها مراسى على ساحل الاندلس ، أو فى جزر البليار ، مما يجعل الملاحة بين الشاطئين تسير فى خط مستقيم ٠ وكثرة المراسى وتقارب المسافات بينهما فى المملكة يدل دلاة واضحة على قوة تيار التبادل التجارى بين المملكة وبر الاندلس ٠ ولكن المملكة كانت تتاجر ايضا مع شواطىء ايطاليا ٠

فعلى الرغم من الغارات التى كانت تقوم بها السفن الحربية من بون والمهدية وبجاية ، على المدن الايطالية وشواطىء بيزنطة فى شرق البحر الابيض المتوسط ، وعلى الرغم من ان كثيرا من المدن الايطالية البحرية مثل البندقية ، وبارى ، وسلرن ، ومالفى ، ونابلى ، كانت تابعة اسميا لسلطان بيزنطة ، فان شيئا من ذلك لم يحل دون قيام علاقات تجارية وثيقة مع هذه المدن والموانى الاسلامية فى المغرب فى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ٠

والى جانب هذين التيارين التجاريين ، كانت مملكة بنى حماد ترتبط بالشرق عن طريق طرابلس ، وبالسودان ، وما نسميه الآن بافريقية الغربية ، عن طريق سجلماسة ، بعدد من طرق القوافل التى تنقل الى المغرب الاوسط منتجات تلك البلدان وتعود محملة بالبضائع التى تنتجها وتصدرها مختلف مدن المملكة ٠ وقد كانت القلعة حتى عهد المنصور بن الناصر بن علناس ، قبل أن يقطع العرب طرق المواصلات اليها ، المركز التجارى الرئيسى الذى تشد اليه الرحال وتقصده القوافل من مختلف انحاء العالم الاسلامى ٠ ولكنه لما تحول بنو حماد عنها واتخذوا بجاية عاصمة لهم ، ركزوا على تنمية التجارة البحرية ، مما سمح للبلد بتجنب الاختناق الاقتصادى ، بعد ما اصبحت طرق القوافل مهجورة ٠

ونحن نجد ملاحظات هنا وهناك ، فيما كتبــه الشريف الادريسى ، والبكرى ، عن تيارات التبادل التجارى فى هذا العصر ، بين تونس وبجاية ومليلة وسبتة وطنجـــة ومـــدن الشواطىء الاروبية ، كما تظهر آثار هذا التبادل فى بعض الوثائق الغربية التى وصلت الينا (30) • وكلها تشير الى انه ، على الرغم من الحروب الداخلية والخارجية التى كانت المملكـــة تخوضها بين الحين والحين ، فان التبادل التجارى مع الخارج ، ولا سيما مع الاندلس كان قويا • ومرجع ذلك ، ان المملكة قد جمعت كثيرا مما نسميه اليوم بالاحتياطى ، ولا سيما من الذهب • وقد كان ذلك نتيجة لما عرفته خلال فترات طويلة من الاستقرار ، وخصوصا لهجرة رؤوس الاموال الى القلعة ، عقب تخريب القيروان وخنق العرب الهلاليين لشرايين الحياة الاقتصادية فى افريقية •

وهذه الظاهرة هى التى اتاحت للملكة فترة جديدة امتازت بحياة البذخ التى عرفتها بجاية وبعض المدن الشاطئية فى وقت يعانى فيه الانتاج الزراعى وطرق المواصلات الداخلية كثيرا من الاضطراب والتخريب •

كانت حاجات المغرب الاوسط بصفة عامة الى مختلف انـــواع الخشب الذى يستعمل لادوات الطبخ والنسيج والبنايات وتأثيث المنازل ولصنــاعة الســـفن حاجات كبيرة • وأما غابات البلد (ونحن لا نعرف منها سوى تلك التى تمتد فى جنوب وهران وغابة الزان التى تقع قريبا من بونة ، وغابة جبال القبائل الصغرى) ، فهى اقل من ان تفى بمختلف الاغراض ، ولا سيما اذا اعتبرنا المسافات البعيدة التى تفصل بينها وبين مراكز العمران • وفى نفس الوقت ، كانت أرض البندقية تغطيها مساحات شاسعة من الغابات • ولذلك كانت البندقية تمد المغرب بالخشب الخام والالواح والخشب المصنـــوع •

---

(30) اعتمدنا فى تحرير هذه الفقرة على الملاحظات التى أوردها كل من البكرى ، والادريسى ، والمقدسى ، وصاحب معجم البلدان ، وعلى الوثائق والمعلومات التى وصلت الينا عن طريق بعض الكتاب الاروبيين ، وفى مقدمتهم : De Mas Latrie

ولنفس المؤلف Aperçus des relations commerciales de l'Italie Septentrionale avec l'Algérie au Moyen-Age

وعلى بعض الملاحظات التى وردت فى كتاب استاذنا العلامة • Traité de paix et de commerce

Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe T. I

والعالم والباحث Maurice Lombard, l'Islam dans sa première grandeur

وكذلك R. H. Idris, la Berberie Orientale sous les Zirides, T. II

L. Golvin et A. Louis, Etude technique et sociale, sur l'artisanat tunisien, Bulletin de l'Institu tdes Belles Lettres Arabes, Tunis, 1946.

وكذلك كانت صناعة الدروع والخوذات والحراب مزدهرة فى اللومبارديا ، وفى المانيا وكان الامراء يعتمدون فى تسليح جيوشهم بهذه الاسلحة ، بل وبالسيوف ايضا ، الى حد كبير ، على هذين البلدين وقد كانت تجارة الاسلحة فى العصور الوسطى بين الغرب والشرق ، كما هى الحال الآن مجالا واسعا للمضاربات • لان ما كان يصل منها الى البلاد الاسلامية كان يصل عن طريق التهريب والتحدى لقرار اباطرة بيزنطة والكنيسة الذى يحرم تصدير المواد الستراتيجية الى هذه البلاد ، التى من بينها المغرب •

واذا استثنينا منجما للذهب وردت الاشارة اليه فى بعض كتب الجغرافيين العرب فى منطقة سجلماسة ، كما اسلفنا ، فنحن لا نعرف منجما للمعادن الثمينـــة فى أراضى مملكة بنى حماد • ولتموين المشتغلين بصناعة الحلى وبيوت ضـــرب سكة الدولة فى بجاية وتونس ، كان لا بد من الاعتماد على ما يرد اليها من اوروبا • وكان ملوك افريقية قد جروا على منـــح تخفيض كبير فى التعرفة الجمركية على المعادن الثمينة تشجيعا لاستيرادها • وكان ما يرد منها الى قصور الامراء لاستهلاكهم الخصوصى ، أو لبيوت ضرب السكة ، يعفى كلية من الضرائب الجمركية •

والى جانب المعادن الخام ، كانت تستجلـــب من ايطاليا اسلاك الحديد والابواق النحاسيـــة والاوانى المصنوعة من مختلف المعادن • وكذلك كانت قصور الملـــوك والطبقة الثرية تستورد من اوروبا الاحجار الكريمة ، والعقيق ، والياقوت ، والمرجان المصنوع ، ومختلف انواع المجوهرات •

واما عقاقير الهند ، مثل جوز الطيب والقرنفل والراوند والزنجبيل والقرفة وغيرها ، فقـــد كانت تصل الى المغرب عن ثلاث طرق مختلفة • اولا ، من الموانىء الاوروبية حيث كانت تـــوجد مستودعات للعقاقير الهندية وتحملها السفن الاوروبية الى موانى المغرب • وثانيا عن طريق الإسكندرية وغيرها من الموانى الشرقية • ومن هناك تحملها الســـفن العـــربية والاوروبية • وثالثا عن طريق الصحراء التى تحملها عبرها القوافل من مصر ، مارة بطرابلس والقيروان ، الى القلعة وتلمسان وغيرهما من المدن الداخلية • وهذه ايضا هى الحالة فيما يتعلـــق بالروائح العطرية والبخور ، مثل اللبان والعود الجاوى والمسك والعنبر وغيرها •

وقد كان المغرب الاوسط اجيالا مركزا لتجارة مرور (الترانزيت) العبيد • فمن جهة ، كانت اروبا الوسطى والشرقية وأرض الصقالية تدفع بالغلمان والجوارى الذين يسوقهم النخاسون مـــن اسبانيا الى المغرب ، حيث يوزعون بضاعتهم البشرية ويحملون قسما منها الى مصر وغيرها من بلاد الشرق ، بينما يبيعون الباقى محليا •

ومن جهة اخرى ، كانت الاراضى التى يطلق عليها بلاد السودان (أى جنوب المغرب) تمد قصور المغرب ومصر بالعبيد السود والخصيان وهذا عدا من يقع فى الاسر فى الحرب وما تسبيه السفن المغيرة على الشواطىء الاوروبية ٠

واما الاتفاقيات التى عقدت بين المغاربة والمسيحيين والتى تنص على منع بيع الاسرى وتوجب اعادتهم الى بلادهم بمجرد ما تعرف جنسياتهم فهى انما عقدت فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) ولم يكن مضمونها معروفا فى عهد بنى حماد ٠

وفى مقابل المنتجات التى يتلقاها المغرب ، كانت هذه البلاد تصدر كثيرا من الخيول العربية والبربرية والسمك القدد والجلود المدبوغة والمصبوغة والمواد التى تستعمل للدباغة ، مثل القشور المعروفة بالقشور البجائية ٠ ونحن نعرف الشهرة الواسعة التى كان يتمتع بها الجلد المغربى المصبوغ فى أروبا فى العصور الوسطى ، وأن أروبا لم تعرف صناعة انواع من الجلد الا فى القرن الرابع عشر الميلادى ٠

وقد كانت صناعة الجلود فى فاس وتلمسان وبجاية وتونس وطرابلس تشمل جلود عدد من الحيوانات ، مثل البقر والغنم والمعز والخيل والجمال وهذا يدل ايضا على وفرة هذه الحيوانات فى المغرب ٠

ووفرة مادة الشمع فى افريقية الشمالية عموما ، والمغرب الاوسط خصوصا شىء معروف منذ العصور القديمة ٠ وقد كانت بلاد المغرب الاقصى والمغرب الاوسط وافريقية ، ولا سيما مدينة بونة ومدينة بجاية ، هى التى تمد أروبا فى العصور الوسطى بكثير من هذه المادة لسد حاجاتها ٠ ويكفى أن نذكر أن بجاية هى التى منحت اسمها الفرنسى لشمعة الاستضاء Bougie لكي ندرك الى اية درجة كانت أروبا تعتمد على هذا البلد للحصول على الشمع للاستضاءة ولغير ذلك من الاغراض ٠

واما زيت الزيتون الذى لا يزال الى اليوم من أهم عناصر الثروة المغربية فقد كان كذلك منذ عهد الرومان ٠ وكان زيت مراكش وبلاد القبائل الصغرى (منطقة بجاية) وتونس وقابس وصفاقس وجزيرة جربة وطرابلس ، يتمتع بشهرة واسعة فى العصور الوسطى كما هى الحال اليوم ٠

وكذلك كانت افريقية الشمالية ، والمغرب الاوسط بصفة خاصة تحتفظ فى العصور الوسطى بالمكانة التى كانت لها فى عهد الرومان حينما كانت تسمى « هرى روما » فيما يتعلق بانتاج القمح والشعير وغيرهما من الحبوب ٠ والوثائق التى بين ايدينا لا تسمح لنا بمعرفة ما كانت

تصدره مملكة بنى حماد الى اوروبا وشواطىء الاندلس من زيت الزيتون والحبوب · ولكن الاتفاقيات التجارية التى عقدت بين حكام المغرب والبندقيين والجنوبيين فى أوائل القرن الثالث عشر ، لا تــدع مجالا للشك فى أهمية التجارة فى هذه المواد بين هذه البلاد وشواطىء اوروبا ·

وكان التمر والفستق واللوز والتين المجفف من أجود ما تنتجه افريقية الشمالية ويحمــل الى اوروبا · والزبيب الجيد الذى كان يحمــل من بجاية وبونة لا يزال يحتفظ باسمه العربى فى اللغة الايطالية الى اليــوم ·

وقد كانت زراعة القطن كثيرة الانتشار فى افريقية الشمالية منذ القرن العاشــر الميلادى · وكانت مناطق المسيلة وبسكرة ومستغانم مشهورة بجودة انواع القطن التى تنتجها · وكذلك كان القطن يزرع فى طبنة وارض الزاب ·

وقد ظل القطن يعتبر من المحصولات الرئسية فى المغرب حتى القرن السادس عشر حينما كان البندقيون يستوردون من بلاد البربر ، ولا سيما من وهـــران ، كميات كبيرة ، وكذلك كانت بجاية وجزيرة جربة تصدر كل منهما كميات كبيرة من الصــوف الى فرنسا وايطاليا مما يدل على أهمية تربية المواشى فى المنطقتين ·

ويذكر ابن حوقل ان الرصاص والحديد كانا يصدران فى القرن العاشر باستمرار الى الشرق العربى من المغرب ·

وكان ريش النعام والمرجان الذى يستخرج من تنس وخصوصا من مرسى الخزر ، مما يحمل الى اوروبا والى شواطىء البحر الاحمر والمحيط الهندى بكميات وافـــرة ·

3 ـ النشــاط البحــرى والمراســي :

كانت الشواطىء المغربية مهملة نسبيا ولا ستخدم الا بصورة عرضية حتى أواخر القـــرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى · فان البربر ، علي عكس سكان بقية شواطىء البحر الابيض المتوسط كانوا متمسكين باليابسة ولا يتحولوا عنها الا عند الضرورة القصوى ·

وهذه الظاهرة تبدو غريبة ، خصوصا اذا تذكرنا أن معظم الغزاة والفاتحين لبلاد البربر انما جاءوا اليها عن طريق البحر · وقد كان المتوقــع أن يتخذ هذا الشعب عدته بتحصين الشواطىء وبناء السفن واكتساب المهارة فى الملاحة البحرية التى تمكنه من حمايـــة هذه الشواطىء ومن الدفاع عن بلده بكفاءة ·

ولكنه بدلا من ذلك ، فقد اختار البربر أسهل الامور ، وفضلوا الابتعاد عن الشواطيء وتركها للغزاة ليعتصموا بالجبال حيث يبنون قرى على قممها لا سبيل للغزاة اليها ولا فائدة من اخضاعها ·

ولما وصل العرب الى المغرب لم يبدوا ميلا اكبر من ميل البربر الى استغلال الامكانيات التى تنطوى عليها شواطيء هذه البلاد ·

وكذلك نجد أن عقبة بن نافـع لما فتح افريقية جعل مقر الولاية فى القيروان وليس فى تونس التى كانت مع ذلك مركزا بحريا فى عهد الفنيقيين · وكذلك ساروا على اهمال الشواطيء لما امتد سلطانهم الى المغرب الاوســط ·

وفى المغرب الاقصى ، فضل الادارسة اقامة عاصمتهم ، فاس فى داخل البلد ، بعيدا عـن المحيط الاطلسى ، ولم تحتل سبتة ومليلة وطنجـة مكانة فى البلاد ، الا لانّها كانت تستقبل السفن الآتية من الاندلس وتقلع منها السفن الموجهة الى تلك البلاد ، عن طريق مضيق جبل طارق ·

وكذلك نرى أن جميع المدن التى ازدهرت وكانت مراكز للعمران والحضارة فى العصــــور الوسطى (قبل بجاية) ، مثل تيهرت ، وسجلماسة ، واشير ، والقلعة ، وتلمسان ، وطبنة ، كانت كلها مدنا داخلية بعيدة عن البحر ، على أن افريقية شهدت اهتماما بالنشاط البحرى منذ عــهد الاغالبة · فان معظم الجزر المقابلة لشواطيء افريقية ، مثل صقلية ، انما فتحت بقوات بحــرية قامــت من هذه الشواطيء ·

ولما استقر الامر للعبيدين فى افريقية ، كان من جملة الاعمال الاساسية التى قاموا بها بناء المهدية التى تقع بعيدا عن القيروان والتى ستصبح من أهم موانيء البحر الابيض المتوسط تحـت خلفاء المهدى وفى عهد بنى زيرى ·

ولكن المعز لدين الله العبيدى ، اصطحب معه ، حينما غادر افريقية الى مصر ، معظم قطـع الاسطول الفاطمى · وهذا الاسطول كان مهما ، حيث قيل أنه يتكون مما يناهز 600 قطعة (31) وقـد زادت اهمية الاسطول الزيرى حينما تركز موقع المهدية البحرى وأصبحت عاصمة افريقية · وكان الاسطول وسيلة لتنمية التجارة ولحماية شواطيء المملكة من القرصنــــة المسيحية ، وخصوصا لمواجهة اسطول النورمانديين الذى كانت خطورته تزداد مع مرور الزمــن ·

ويخبرنا ابن الاثير أن النورمانديين خرجوا فى سنة 416 (1025) فى جمـــع كبير وملكوا قورية Calabre المجاورة لصقلية وشرعوا فى بناء المساكن ينتظرون مراكبهم وجموعهم · ولما بلغ ذلك المعز بن باديس ، جهز اسطولا كبيرا يتكون من اربعمائة قطعة حشــد فيها خلقا كثيرا من

(31) راجع روجى ادريس وراجعة فى المصدر المذكور La Berberie Orientale sous les Zirides, II/536-38.

المتطوعين للجهاد ومن الجنود المرتزقة . فسار الاسطول (فى كانون الثانى) فى اتجاههم ولما اقترب من جزيرة قوصره ، غير بعيد من الشواطىء الافريقية ، هبت على الاسطول الزيرى ريح عاصفة ، فهاج البحر وغرقت اكثر قطع الاسطول ولم ينج الا اليسير منها (32) .

ونحن نعرف أن المسيحيين كانوا يعملون على قدم وساق منذ أواخر القرن التاسع الميلادي لبناء قوات بحرية لتقف فى طريق القوات البحرية الاسلامية التى كانت تقوم بشن غارات جريئة على المدن الواقعة على ساحل البحر الابيض . وكانت لايطاليا فى هذا المجال قصبة السبق حيث كان لها بحارون مدربون على مسالك البحار وكانت صناعة السفن ذات أهمية كبرى فى النشاط الاقتصادي القومى .

ولكن خطر الاساطيل المسيحية استفحل فى القرن الحادى عشر . وبينما كانت دول المغرب منهمكة فى الحروب فيما بينها أو فى قمع الثورات الداخلية ازدادت ثقة الاوروبيين بانفسهم ولم تعد احلامهم تقتصر على اقامة الحصون وبناء الاساطيل لحماية اراضيهم ولمتابعة السفن الاسلامية . لان هدفهم أصبح الآن هو القضاء على سيطرة المسلمين فى المناطق الغربية من البحر الابيض والتهجم على أراضى ومدن افريقية الشمالية .

ومع ذلك ، فان سيطرة الاسطول العربى كانت اكثر من أسمية فى الربع الاول من القرن الحادى عشر . ونحن نجد دليلا على ذلك فيما تذكره الوثائق الغربية من أن أسطول المهدية خرج فى سنة 1020 / 2411 وشن هجوما على ايطاليا الوسطى ونشر فى أصقاعها الخراب والدمار .

وفى سنة 34 هـ (436 م) شن أسطول بيزنطا بتاييد من أسطول جنوه هجوما على مدينة بونة الحمادية التى كانت قاعدة بحرية مهمة فخربها واحتلها مدة قصيرة (34) وكذلك وقعت فى نفس السنة محاولة لنهب سفينة تابعة لاسطول المهدية كانت فى طريقها من الاسكدرية الى افريقية . ولكن سفن صقلية سارعت لنجدتها وخلصتها .

32) الكامل 9 / 245 ـ 246 . وفى سنة 427 (1035 م) ، وجه المعز بن باديس حملة تتكون من ستة آلاف مقاتل من العرب والبربر لحماية ثغور جزيرة صقلية ، ولكن هذه الاجراء أثار سخط الامراء العرب فى الجزيرة حيث رأوا فيه محاولة لضم الجزيرة التى ملك صنهاجة . ولتجنب الوقوع تحت حكم المهدية ، استنجدوا بالنورمانديين الذين استغلوا الفرصة لاحتلال مراكز الجزيرة قبل ان يستولوا على بلرم فى سنة 465 (1072 م).

33) راجع : De Mas Latrie, Relations commerciales de l'Italie Septentrionale المصدر المذكور

34) نفس المصدر .

ولكن هذه العمليات البحرية لا يبدو انها اثـرت على العلاقات الديبلوماسية بين دول هذه المنطقة ، وبصفة خاصة بين المعز بن باديس والامبراطورية البيزنطية • فان ابن عذارى يخبرنا أن المعز تلقى فى هذه السنة نفسها (426) هدية من ملك الروم ولم ير مثلها فى كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخرة وغير ذلك (35) •

وفى سنة 428 هـ (1036 م) تسجل وثائق من جنوه غزوا لمدينة بجاية دون أن تتعرض لسبب هذا العدوان ولا لظروفه• وتقول الرواية ان قوة تتكون من اثنتى عشرة سفينة ، قامت فى هذه السنة من جنوة ، فغزت بجاية وغنمت سفينة كبيرة وأسرت عددا كبيرا من العرب • وقد نالت كـل سفينة من السفن المشتركة فى الحملة أرباحا طائلة من حصيلة بيع السفينة العربية (36) •

وفى سنة 436 هـ (1049 م) بعث المعز اسطولا الىجزر القسطيطينة للغزو فعادت سفنه مثقلة بالاسلاب وفى نفس السنة جدد خليفة القاهرة وامبراطور بيزنطة الهدنة التى كانت قائمة بينهما وتبادلا هدايا فاخـرة •

ونحن نذكر أن هذه السنة شهدت حدة التوتر فى العلاقات بين القاهرة والمهدية نتيجة لقطـع الزيريين الخطبة على المنابر للعبيديين• ولذلك يمكننا أن نتساءل عما اذا كان التطور فى العلاقات بين البيزنطيين والعبيديين حدثا مستقلا ، أم هو يرتبط بالحدثين المشار اليهما •

ويروى ابن الخطيب أن أهل جنوة وبيشة (بيزا ــ Pisa) نازلوا تميم ابن المعز فى ثلاثمائة مركب تحمل ثلاثين الف مقاتل فحاصروا المهدية فى سنة 480 ودخلوا زويلة فاحرقوا الديار وعملوا فى القتل والاسر • وأما تميم ، فقد لجأ الى قصره واعتصم به حتى وقع الصلح بينه وبين الروم على أن يدفع لهم مائة ألف (دينار) من الذهب •

ولما دفع ذلك المبلغ ، وبعضه باوانى الذهب والفضة ، اقلعوا به وباموال الناس وبنسائهم التى نهبـت (37) •

وذكر ابن الاثير ضمن حوادث سنة 481 ان الـروم فتحوا مدينة زويلة بافريقية فى هذه السنة • وبسبب ذلك ، فيما يروى المؤلف ، أن تميما ، اكثر فى غزو بلادهم من البحر فخربها وشتت أهلها ، فاجتمعوا من كل جهة ، واتفقوا على انشاء الموانىء • لغـزو المهدية ، ودخـل معهم الجنويون والبشانيون (البيزنطيون) ، فاقاموا أربع سنوات فى جزيرة قوصرة يجهزون اسطولا

35) البيان 1 / 396 •
36) راجع المصدر المذكور ، De Mas Laterie, Traités de paix et de commerce, P. 35
37) اعمال الاعلام ص 87 •

يتكون من 400 قطعة ، فكتب اهل قوصرة على جناح طائر كتابا يذكرون فيه عددهم ووقت وصولهم وحكمهم على الجزيرة · فاراد تميم ان يسير اليهم عثمان بن سعيد المعروف بالمهـــر مقدم (قائد) اسطوله ليمنعهم من النزول ، فمنعه من ذلك أحـد قواده ، واسمه عبد اللـه بن مكنون ، لعداوة بينه وبين المهر ، فجاءت الروم وأرسوا وطلعوا الى البر ونهبوا واحرقوا ودخلوا زويلة ونهبوها ، وكانت عساكر تميم غائبة فى قتال الخارجين عن طاعته ، ثم صالح تميم الروم على ثلاثين الـف دينار ورد جميع ما أخذوه من السبى (38) وكذلك نـــرى ان التوازن قد اختل بصفة حاسمة فى اواخر عهد تميم بن المعز فى البحر الابيض بين اسطول الزيريين الذى كان يمثل القوة العـــربية الوحيدة فى هذه المنطقة وأساطيل بيزا وجنوه التى كانت تجد تاييدا من أسطول القسنطنيطية ·

وهذه الحالة ستستمر فى التدهور فى عهد ابناء تميم حتى تنتهى بماساة سقوط المهدية فى يد النورمانديين فى سنة 547 (39) ·

واما اسباب ضعف قوة الزيريين البحرية فهى متعددة · وربما كان أهمها تضاءل مـــوارد الدولة نتيجة للفوضى والخراب الذى نشره الهلاليون فى المملكة · هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان خشب بلاد القبائل فى المغرب الاوسط لم يعد يصل الى المهدية بسبب انقطاع طرق المواصلات واضطراب العلاقات التجارية ، الامر الذى أصبح معه من الصعب بناء قطع جديدة لتحل محل قطع الاسطول المستهلكة (40) ·

واما استيراد الخشب من البلدان المسيحية الواقعة على الحوض الشـــرقى للبحر الابيض المتوسط ، فقد كان غير متيسر بسبب الخطر الذى فرضته البندقية فى سنة 971 كمـا اشرنا الى ذلك ، بناء على طلب بيزنطة على تصدير البضائع ذات القيمة الستراتيجية ، مـــثل الاسلحـــة والخشب الذى يستعمل لبناء السفـن الى البلدان الاســـلامية (41) ·

ويضاف الى هذه الاعتبارات كلها ان الدولة كانت تخصص كثيرا من السفن لاستيراد القمح بعد تخريب ثروة البلد الزراعية ، ولا سيما فى سنوات القحط · وهذا معناه تحويل نسبة مهمـــة من السفن الحربية واستخدامها لاغراض مدنيـة ولكنه فى هذه الفترة ، أخذت بجاية ، بـــدار صناعتها وبما يتوفر لديها من الخشب والحديد والزفت ، وبموقعها ايضا ، تحل محـــل المهدية

38) الكامل 10 / 109 ـ 110 ·
39) ارجع تفاصيل غزو النورمانديين للمهدية وحتلالهم لها ·
40) راجع فى الكامل 1 / 82 83 ·
Maurice Lombard, la Carte de Bois dans la Méditerranée Orientale, Annales, Avril 1959, P. 234-254.
41) راجـع · R. H. Idris, la Berberie Orientale sous les Zirides, I/124

تدريجيا وتشغل الفراغ الذى تركته عاصمة بنى زيرى على الشواطىء الجنوبية الغربية للبحر الابيض المتوسط · والدلائل القليلة التى بين ايدينا تشير الى ان نشاط اسطول بنى حماد كان سلميا ، اى تجاريا ، الى حد بعيد ·

ونحن فيما يلي نورد قائمة باسماء المراسى التى كانت موجودة ، الى جانب بجاية فى عصر بنى حماد ، من الغرب الى الشرق ، ابتداء من مرسى ارشغول وذلك طبقا للترتيب الذى أوردها به ابو عبيد الله البكرى الذى كان يكتب فى ذلك العصـــر ·

وسنعزز ما ذكره البكرى (42) بملاحظات الشريف الادريسى الذى جاء بعده ، وبملاحظات ابن حوقل الذى كان يكتب قبله (367 هـ) مع ذكر المرسى المقابل على شواطىء الاندلس لمرســـى بنى حماد ·

ارشغـــــول :

(ارشغول عند ابن حوقل ، ارشغول عند ابن سعيد المغربى) مدينة قديمة فيها آثار للرومان ومرسى : يقع عند مصب نهر تافنا وهو نهر تدخل السفن فيه ·

وارشغول هى مرسى تلمسان وتقابلها مــن البحر جزيرة ارشغول وهى مستطيلة عالية ، ومن بر الاندلس مدينة المرية (43) ·

مــرسى اسلن : (اسلى عند صاحب الاستبصار)

مدينة حصينة لها سور عظيم وفيها مياه وبساتين كثيرة ولها مرسى مامون · واهم مورد فيها هى الماشية (44) ·

مرسى المــاء المدفون :

يقع مرسى الماء المدفون على مسافة 13 ميلا من اسلــن · وحول هذا المرسى منازل وفيــه عيون ثره · ويقابله من بر الاندلس مرسى الراهب (45) وبينهما مجريان وثلث (46) ·

42) راجع البكرى ، ص 81 ـ 83 ·

43) المريه Almeria بالاسبانية · قارن البكرى ، ص 77 ـ 78 والاستبصار ، ص 34 و Fagnan, Extraits inédits, P. 456 وابن حوقل ، ص 53 والانسكلوبيديا الاسلامية ، الطبعة الثانية (الانجليزية) 1 / 661 وابن سعيد المغربى (كتاب الجغرافيا) ص 140 ·

44) قارن البكرى ص 81 ، وابن حوقل ، ص 52 ، و Fagnan, Extraits inédits, P. 45

45) بالاسبانية : Puerto de Los Frayles

مرسى وهران :

مرسى كبير ومشتى مصون من الرياح · يقول ابن حوقل « ما اظن له مثيلا فى جميع نواحى البربر » · ويحيط بالمدينة سور مبنى بالطوب المكوى ·

ويقول الادريسى عنه « وبه ترسو المراكب الكبار والسفن السفرية · وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثيل فى مراسى بلاد البربر · وعلى مقربة من المدينة نهر عليه بساتين وجنات وبها فواكه ، واهلها فى خصب · والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة · والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير · ومراكب الاندلس اليها مختلفة (46) ·

ويقابل وهران من بر الاندلس ، مرسى اشكوبرش (47) ·

مرسى عين فروج :

وهو مرسى شتوى مأمون فيه آبار حوله مساكن ، وبينه وبين وهران فى البر أربعون ميلا · ويقابله من بر الاندلس مرسى اقلة (48) ·

مرسى قصر الفلوس :

وهى مدينة على البحر ومرساها غير مأمون· ويقابلها من بر الاندلس ، مرسى قرطجنة (49)

مرسى مغيلة :

ومرسى مغيلة بنى هاشم · مرسى صيفى معرض للرياح ، وهو يقع على مسافة 35 ميلا من قصر الفلوس (50) ·

46) ارجع ابن حوقل ص 53 ، والادريسى ص 73 وتقويم البلدان ص 124 ومراصد الاطلاع 3 / 299 ، والاستبصار ص 133 ·

47) كذا عند البكرى · ومقابلها عند الادريسى ، مدينة المريه · وفيما يتعلق بالتعرف على اشكوبرش راجع الهامش الذى وضعه دوسلان للترجمة الفرنسية لكتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 163 · هامش رقم 1 ، ص 133 ·

48) البكرى ص 81 · وهذا المرسى يقع على منتصف الطريق بين ارزيو ومستغانم التى ذكرها البكرى ووصفها ضمن المدن الواقعة على الشاطىء ولكنه لم يدرجها ضمن قائمة المراسى التى أوردها ، مما يمكن تفسيره بانها لم تكن تستخدم للحط والاقلاع · على ان ابن سعيد يقول ان مستغانم هى فرصة مغراوة التى تقابلها على ساحل الاندلس دانية (كتاب الجغرافيا ص 142) ومرسى عين فروج غير مرسى الدجاج كما سماه غلطا موسلان ، مترجم البكرى · واما مرسى اقلة فهو Acla las Agustas بالاسبانية ·

49) البكرى ص 81 قرطجنة Carthagène ·

50) البكرى ، ص 81 ·

مرســى مدينة تنــس :

وهو مرسى صيفى وبين المدينة والبحر ميلان · وكانت المدينة فى عهد بنى حماد مســـورة محصنة داخلها قلعة صغيرة ينزل بها الولاة · ويقول ابن حوقل انها من أكبر المدن التى يقصدها الاندلسيون بمراكبهم وهى كثيرة التجارة وينهض منها الى ما ســـواها من المـــدن والموانىء · ويضيف الشريف الادريسى ان بها فواكه وخصب واقلاع وحط وبها الحنطة وسائر الحبـــوب موجودة وتخرج (تصدر) منها الى كل الافاق فى المراكب · وبها من الفواكه كل طريفة ومـــن السفرجل الطيب المنعنق ما يفوق الوصف فى صفته وكبـــره وحسنه ·

ويذكر البكرى ان تنس الحديثة بناها البحريون من اهل الاندلس سنة 262 هـ ·

ولكنه على الرغم من كل ما اشتهر به تنس من الثراء والفواكه والخيرات ، فقد وجد شاعـر ، وهو سعيد بن واشكل التيهرتى ، تضايق منها وخصص لذمها قصيدة ، بعض ابياتها من اقذع ما قيل فى ذم المدن · وفيها يقـــول :

ناى النوم عنى واضمحلت عـرى الصبر … واصبحت عن دار الاحبـــة فى اســـر

واصبحت عن تيهرت فى دار معـــزل … وأسلمنى مـــر القضـــاء الى القـدر

الى تنـــس دار النحـــوس فانهـــا … يســـاق اليها كل منتقض العمـــر

بـــلاد بها البرغوث يحمـــل راجـــلا … ويأوى اليها الذئـــب فى زمر الحشـــر

تـــرى اهلها صـــرعى دوى أم ملـــدم … يروحون فى ســـكر ويغدون فى ســـكر

ويقابل مرسى تنس من بر الاندلس شنت بول (51) ·

مرســى جزيرة وقـــور (52) :

يقع مرسى جزيرة وقور الذى يذكر البكرى على مسافة عشرين ميلا فى شرق تنس والجزيرة قريبة من البر · ويقابلها من بر الاندلس مرســى لقنـــت (53) ·

---

51) راجع الادريسى ص 83 · وابن حوقـل ص 52 والبكرى ص 61 ـ 62 و 81 والاستبصار ص 132 · مراصد الاطلاع 1 / 277 ، و Fagnan, Extraits inédits, P. 45 وابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ص 142 شنت بول Chent Pol بالاسبانية ·

52) لم اتمكن من التعرف على موقع هذا الميناء · ولكن المرجح انه يقـــع غير بعيد من مدينة الاصنـــام ·

53) لقنت Alicante

مرســى شرشــال :

مرسى ومدينة قديمة Cesarée رومانية كانت فى عهد بنى حمـــاد غير ماهوله · ويقول البكرى انه كان لشرشال فى الماضى ميناء ارتدم · ولكن الادريسى يقول انها كانت فى عهـــده « مدينة صغيرة القدر لكنها متحضرة · وبها مياه جارية وابار معينة عذبة وفواكه حسنة كثيـرة وسفرجل كبير الجرم ذو اعناق كاعناق القرع الصغار · وبها كروم وبعض اشجار التين » ويقابل شرشال على ساحل الاندلس مرسى مديره (54) ·

مرســـى البطال :

لم يكن هذا المرسى الذى كان فى غرب جبل شنوة ماهولا فى عهد بنى حماد · ويقابله على ساحل الاندلس، جبل قرون (55) ·

مرســـى هـشُّور :

وهذا المرسى يقع فى المكان المعروف حاليا باسم سيدى فروج غير بعيد من مدينة الجزائر (56)

مرســـى الذبـــان (57) :

وهذا المرسى يقع فى المكان الذى كان يحمل فى عهد الاحتلال الفرنسى اسم La Pointe Pescade

مرســـى جنابية :

وهذا المرسى يقع عند جزيرة فيها آثار قديمة ويقابل هذا المرسى على ساحـــل الاندلس ، مرســـى دانية (58) ·

مرســـى جزائر بنى مزغنــة :

مدينة قديمة كانت تسمى فى عهد الرومان ايقوسيوم Icosium ومرسى مأمون · وقد بنيت الجزائر الحديثة فى عهد زيرى بن حماد (بعد سنة 349 هـ) ويذكر البكرى أن مرســـى الجزائر

54) راجع البكرى ص 81 والادريسى ص 98 ، والاستبصار ص 132 وابـــن حوقـــل ص 52 و Fournel, Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes, I/51.
ومديرة هو الاسم الذى أورده البكرى ، واقترح دوسلان مترجمه قراءته مرير Morira ·

55) البكرى ، ص 72 جبل قرون Cap St. Martin

56) البكرى ، ص 72 ·

57) البكرى ، ص 72 ·

58) البكرى ص 82 · وللتعرف على موقع هذا المرسى الذى اختفت معالمه الان راجع ترجمـــة دوسلان للبكرى ص 166 الهامش 1 ·

مرسى الدجاج تنتج من القمح والشعير والالبان والفواكه ما يزيد عن حاجتها • ومن ثم رخص الاسعار فيها • ولكن انتاجها الرئيسى هو التين الذى يصدر منها الى البلاد النائية • ويقابل مرسى الدجاج فى البحر جزيرة ميورقة (61) •

مرسى تدلس (دلس) :

يبدو ان تدلس التى أهمل البكرى ذكرها ، لم تكن مرسى عاملا فى عهد بنى حماد • ولما ذكرها الادريسى قال انها بلدة حصينة ومنتزهات اشتهرت برخص الفواكه وبجودة الطعام والشراب مما لا يوجد بغيرها مثله ، وبكثرة ما فيها من الغنم والبقر ، ولكنه لم يشر الى أنها مرسى • واما ابن سعيد المغربى فيقول ان تدلس فرضة مشهورة (62) •

مرسى مدينة بجاية :

لم يخصص البكرى الذى كان يكتب قبل بناء الناصر بجاية لهذه المدينة سوى سطرين • وقد ذكر انها مدينة آهلة عامرة بأهل الاندلس وبشرقيها نهر تدخله السفن محملة • وهو مرسى مأمون مشتى قد خرج عن محاذاة جزيرة الاندلس • ولكن مرسى بجاية سيتطور بعد ذلك بفضل موقع المدينة ودار صناعتها وما يتوفر لديها من المواد الاولية ، بحيث يصبح أهم مرسى على هذه الشواطىء •

مرسى جيجل Iglis القديمة :

مدينة رومانية قامت على انقاض مدينة فنيقية • وهو مرسيان مرسى فى جهة الجنوب ، وهو مرسى وعر ويصعب الدخول اليه ما لم تستعين بدليل حاذق • واما مرسى الشمال ، فهو ساكن الحركة كالحوض ، حسن الارساء فيه ولكنه صغير •

وقد كانت المدينة التى على ضفة البحر المدينة الوحيدة • ولكن غارات النورمانديين عليها من ساحل صقلية فى اواخر عهد بنى حماد اضطر السكان الى بناء مدينة حصينة فى الجبل على مسافة ميل من الساحل•واذا كان الفصل شتاء سنكنوا مدينة المرسى المأمون من غائلة اسطول روجر

61) راجع البكرى ، ص 82 والادريسى ، 89 وابن حوقل ، ص 51 ـ 52 وتقويم البلدان ص 126 ، والاستبصار ، ص 126 •

62) قارن الادريسى ، ص 90 وابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ، ص 142 •

63) قارن الادريسى ، ص 98 ، وابن سعيد (كتاب الجغرافيا) ، ص 142 والاستبصار ص 128 • والبكرى ص 64 •

الصقلى · ولكنه متى حل فصل الصيف نقلوا امتعتهم وبضائعهم الى المدينة الحصينة ولا يبقى منهم على الساحل الا عدد صغير من البحارة · وجيجل مدينة قديمة يرجـع تاريخها الى عهـد الفنيقييـن ·

مرســى القــل :

مدينة قديمة ومرسى يبعد عن جيجل بحوالى 70 ميلا · وقد كانت القل مدينة صغيرة فى عهد بنى حمـاد (64) ·

مرســى استورة :

وهو مرسى مدينة تاسقدة القديمة سكده عند ياقوت ـ سكيكدة) (65) ·

مرســى الــروم :

وهو مشتى مامون يقع على مسافة صغيرة من رأس الحديد Cap de Fer (66)

مرســى تكــوش :

وهو مرسى مامون يتصل بقرى كثيرة ويحبل كثيرا الفاكهة (67) ·

مرسى ابن الالبيرى (68) :

وهو مرسى يؤتى اليه عن طريق رأس الحمراء · ويأتى بعد هذا المرسى الى الشرق مرســى الخروبــة ·

مرســى بونــه :

مرسى مدينة تقع فى نشر من الارض منيع · ويقول ابن حوقل انها (فى عهده) ليسـت بالكبيرة ولا بالصغيرة وتمتد على رقعة قريبة من رقعة الاريس · وهى مدينتان احداهما قديمة ، وهى موطن الفيلسوف المسيحى سانت اجستان ، والاخرى حديثة ، ويقول البكرى ان مدينة بونه كانت فى زمنه كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل · ويذكر ابن حوقل ان المدينة ذات اســواق حسنة وتجارة مقصودة ، ولكنها لا تحقق الا ارباحا متوسطة · ويمضى فيقول ان البوادى التى

64) راجع الادريسى ، ص 98 ، وابن سعيد (كتـــاب الجغرافيا) ص 142 ، والبكرى ص 83 والاستبصار ص 128 ·

65) البكرى ، ص 83 وفى مراصد الاطلاع سكدة بالفتح ثم السكون (2 / 722) ·

66) نفس المصدر ، ومعجم البلدان 3 / 106 ·

67) نفس المصـدر ·

68) نفس المصدر ورأس الحمراء هو الذى يمتد فى شمال بونه ·

تحيط ببونه ذات تربة خصبة تنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة . وهذه الوفرة كانت سببا في رخص اسعار تلك المنتجات . وقد ذكر هذا الكاتب ايضا ان في ضواحي بونه معادن كثيرة للحديد وقد كان مرسى بونه القاعدة التي تنطلق منها القرصنة البحرية في عهد بني حماد لشن الغزوات على سواحل البحر الابيض الشرقية والجزر التابعة للنصارى ، مثل سردانية وكرسيكا (69) .

مرسى الخرز :

مدينة ومرسى يحيط بها البحر فيما عدا مسلك واحد ربما قطعه البحر في الشتاء . ويقول البكري انه تبنى فيها السفن والمراكب الحربية التي تغزى بها بلاد الروم . ويمضي فيقول : « والى هذه المدينة يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من جزيرة سردانية وبينهما مجراوين » .

فمرسى الخزر كانت اذا ، في عهد بني حماد ، دارا مهمة لصناعة السفن والمراكب الحربية ، كما كانت قاعدة للقرصنة والغزو . ولكنها كانت مهمة ، خصوصا بسبب ما كان يستخرج منها من المرجان « وهو شجرة في البحر متحجر يخرج ابيض اللون لينا ، فاذا ضربه الهواء احمر وصلب » . ويقول المقدسي في وصف طريقة استخراج المرجان من مرسى الخرز ان العمال يخرجون الى جمعة في قوارب ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئا من الكتان المحلول ، وربطوا في كل صليب حبلين يأخذهما رجلان فيرميان بالصليب ويدير النواتي القارب ، فيتعلق بالقرن ، ثم يجذبونه ، فمنهم من يخرج عشرة الاف (درهم) الى عشرة دراهم ثم يجلى في اسواق لهم ويباع جزافا رخيصا ولا اشراق له قبل جليه ولا لون .

ويقول ابن حوقل الذي زار مرسى الخزر ، ان تجارة المرجان في مرسى الخزر تجارة واسعة يمارسها سماسرة وتستثمر فيها أموال طائلة . وقال انه يعمل في استخراج هذا المعدن في أكثر الاوقات خمسون قاربا أو اكثر ، يعمل في كل منها ما يقارب العشرين رجلا .

ومرسى الخرز مدينة عربية لانه على الرغم من أن الفنيقيين والرومان عرفوا هذه الشواطىء جيدا فهم لم يتركوا اثرا للعمران في هذا الموقع (70) .

69) قارن ابن حوقل ص 51 والبكري ، ص 54 — 55 و 83 ، وابن سعيد المغربي (كتاب الجغرافيا) ص 142 ومراصد الاطلاع 1 / 231 والاستبصار ، ص 127 ومعجم البلدان 1 / 764 والمقدسي ص 226 .

ويجب عدم الخلط بين بونه وبون ، وهي مدينة باليمن قيل انها هي ذات البئر المطلة والقصر المشيد .

70) راجع ابن حوقل ، ص 50 ، وابن سعيد (كتاب الجغرافيا ، ص 143 ، والمقدسي ، ص 239 .

المــراجع العــربية

البكرى (ابو عبيد) ، كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ، تحقيق البارون دوسلان ـ الطبعـــة الثانية ـ باريس 1965 ·

ابن الاثير الكامل فى التاريخ ، نشر وتحقيق طورنبرج ، ليود ، 1876 ـ 1891 ·

ابن حوقل كتاب المسالك والممالك ، طبع دوخوية ، ليـــدن ، 1872 ·

ابن الخطيب (لسان الدين) تاريخ المغرب فى العصر الوسط ، وهو الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام ، تحقيق العبادى وابراهيم الكتانى ، طبع دار الكتب ، الدار البيضاء 1963 ·

الادريسى (الشريف) صفة المغرب وارض السودان ومصـــر والاندلس ، نشر دوزى ودوخوية ، ليـــدن ، 1872 ·

كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، لمؤلف مجهول من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشـــر زغلول عبد الحميد 1958 ·

ابن سعيد المغربى (على بن موسى) كتاب الجغرافيا ، نشر وتحقيق اسماعيل العربى ، بيروت 1970

الاصطخارى كتاب المسالك والممالك ، نشر دوخوية ، ليـــدن 1871 ·

صفى الدين (بن عبد المؤمن) مراصد الاطلاع ، تحقيق محمد ابو النجار ، القاهرة 1954 ·

ابن عذارى البيان المغرب فى اخبار المغرب ـ نشر بيـــروت ، 1950 ·

المقدسى (محمد بن احمد)احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، نشر دوخوية 1872 ·

المؤيد (الملك) تقويم البلدان ، تحقيق دوسلان ، باريس ، 1840 ·

المراجـــع الاجنبية

E. Fagnan, Extraits inédits relatifs au Maghreb Alger, 1924.

H. Fournel, Les Berbères, études sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, en 2 vol. Paris, 1857.

L. Golvin et A Louis, Etude technique sur l'artisanat tunisien, bulletin de l'Institut des Belles Lettres Arabes, Tunis, 1946

R. H. Idris, La Berberie Orientale sous les Zirides en 2 vol. Paris, 1959.

De Mas Laterie, Traités de paix et de commerce concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique du Nord, Paris, 1866.

De Mas Laterie, Aperçus des relations commerciales de l'Italie Septentrionale avec l'Algérie au Moyen-Age Paris, 1845

G. Marçais, La Berberie Musulmane au Moyen Age, Alger, 1946

G. Marçais et Poissot, Objets Kairouanais, notes et documents, XI, Fasc. 1, Tunis, 1948

Maurice Lombard, L'Islam dans sa Première Grandeur, (VII - XI^{e} siècle), Paris, 1971

Maurice Lombard, Une carte de bois dans la Méditerranée Orientale, annales, économie, société, civilisation Avril, 1946

The Ency. of Islam, New Edition.



صندوق قديم في المنطقة





بجاية

تاليف : شارل فيرو
عرض ونقد
اسماعيل العربى

يبدا المؤلف بتحديد وضع بجاية الجغرافى والطبوغرافى ، فيقـــول انها تقع على جون يبلغ عرضه 28 ميلا وعمقه 7 أو 8 اميال ، وتمتد منازلها وشوارعها فى تلال وهضاب مرتفعة وتحيط بها حواجز من الجبال الشاهقة التى تظللها قممها . واهم هذه القمم واعلاها ، قمة «للا (السيدة) قورايا» ، التى تنطلق فى الفضاء وراءها ، وعلى يمينها ، وهى مقبلة على البحر ، قمة توجه ، وفى مقالبها ، محاذيـــة للشاطىء ، جبـــال بوعنداس ذات التضاريس العديدة ، وجبال البابور التى تغطيها طبقات الثلـــوج شهورا عديدة فى السنة . وجميع هذه الجبال تكتسى حللا من الالوان الخلابـــة التى تتغير وتتجدد بتغير الفصول وتجددها .

وعلى مد البصـــر ، ينشر البحر رداءه الازرق الفتان من مياهـــه الصافية التى تعلوها فى الصباح وعند الاصيل طبقة من الضباب الخفيف ، وتضىء اشعة الشمس الذهبية سماءها معظم ساعات النهار .

وتقع بجاية عند درجة اثنتين وخمس واربعين دقيقة على طول خط العرض الشرقى ، ودرجة ست وثلاثين وخمس واربعين دقيقة ، على طول خط العرض الشيمالى . وتتمتع المدينة بجو معتدل تلطف هواءه جبالها ونسمات البحر العليلة . ومع ذلك ، فقد يحدث ان ترتفع درجة الحرارة فى المدينة بحيث تبلغ فى موسم الصيف ما يتراوح بين 30 و 40 درجة سنتجراد . وذلك ، لان جبالها

Charles Ferand : Bougie, Constantine, 1869.

ولا سيما جبل جورايا ، تحجب المدينة تماما وترد عنها الرياح الشمالية فى الوقت الذى تظل فيه عارية وعرضة للرياح الجنوبية ٠

بجاية قبل الاسلام :

المعلومات التى يوردها المؤلف عن بجاية الفنيقية معلومات ذات طابع عام وتنطبق على جميع القواعد والمراسى التجارية التابعة لقرطجنة فى افريقية الشمالية-ووصفه لبجاية يبدا بالتعرف على هذه المدينة فى «صالدى»(Saldae). الرومانية ، ذلك الاسم الذى عثر عليه منقوشا على حجر من آثار المدينة ويوجد حاليا فى متحف اللوفر ، فى باريس ٠ وحتى المعلومات التى يذكرها من هذه الفترة ، انما تتصل فى الحقيقة بوضع بجاية بوصفها قاعدة لفياليق الرومان التى كانت تقوم بعمليات عسكرية باستمرار لاخضاع المناطق المجاورة من بلاد القبائل الواقعة على ضفاف وادى الساحل ٠

واما تاريخ بجاية تحت الوندال ، فهو قصة جميع المدن الافريقية التى كانت مسرحا للخراب والارهاب الذى نشره جينسريك وحشوده المتوحشة فى هذه الديار ٠ ومع ذلك ، فان بجاية فازت - حسب رواية - بحظ لا شك وان غيرها من المدن العاثرة الحظ كانت تحسدها عليه حيث اتخذوها عاصمة لهم ٠ على ان هذه الرواية يرجع اصلها الى جراماى (Gramaye) والتى نقلها المؤرخون من بعده ، لا تقوم على اساس من التواتر ولا تؤيدها دلائل مادية ٠ والكاتب ، على كل حال يميل الى الرأى بان عنابة تقدم مزايا افضل تؤهلها لان تكون عاصمة للوندال الذين احتلوها بعد حصار دام 14 شهرا فى سنة 430 ميلادية ٠

وبوصول جيوش بيزنطة الى الشواطىء الافريقية فى سنة 544 م ٠ ساد شعور لم تلبث الحوادث ان كذبته بان جوستانيان تحدوه رغبة صادقة فى العمل لضمد الجراح ولتعمير ما خربه الوندال ٠ وهذا الشعور اوحت به الاعمال الاولى التى قام بها البيزنطيون فى اعادة بناء بعض المدن واصلاح بعض الموانىء فى البلد ٠ ولكن الشعب ادرك فى فترة لاحقة ان الاستعمار البيزنطى اشد وطأ وان معاملة حكام القسطنطينية اقسى وافضع من معاملة الوندال ٠ ومرة اخرى ، ستسيل الدماء غزيرة فى ثورات شعبية متوالية قامت لمحاولة طرد الغزاة المحتلين ٠

ومهما يكن من شىء ، فان بجاية كانت تحتفظ بعدة آثار للبيزنطيين ، ومن اهمها بعض المعابد والملاعب وسور المدينة الذى يقول المؤلف انه كان من الممكن التعرّف عليه بعد بضع سنوات من نزول الفرنسيين فى المدينة ٠

العصــــور الاسلامية :

خصص المؤلف مكانا بارزا لعرض حوادث الفتح العربى لافريقية (وهى حوادث لا بد من الاعتراف بانها بعيدة عن موضوعه) ، قبل ان يعرض رواية استقاها ـ فيما يقول ـ من بعض سكان بلاد القبائل عن غزو العرب لبجاية ، ثم ينقل ما ذكره ابن خلدون من ان بجاية اسم للمنطقة التى تقطنها قبيلة تحمل نفس الاسم ٠ وبعد هذا مباشرة ، يذكر فى ايجاز مخل ان الناصر ابن علناس بنى بجاية سنة 360 هـ ٠ (1067 ـ 1068 م) ٠

وفى الصفحات التالية ، يعرض المؤلف مقتطفات تاريخية مضطربة تختلط فيها اسماء القائم العبيدى ومناد الصنهاجى ، وابو يزيد الخارجى٠٠٠ وحوادث مهلهلة لا تـــرتبط ببجاية وينقصها الارتباط حتى بالسياق التاريخى ٠

والحق ان هذا المترجم الذى اراد ان يتحول الى مستشرق وباحث ، ليعرض لنا صـــورة يرثى لها وتدعو الى الشفقة عن ربط الحوادث والاخبار التى ينقلها عن ترجمة ابن خلدون الفرنسية فضلا عن محاولة تحقيق النصوص التى يعتمد عليها وتمحيصها ٠

وبعد ذلك ، يستطرد المؤلف ، فى غير مناسبة ظاهرة ـ ويضيع عدة صفحات ليذكر بالدول العربية التى تعاقبت على بجاية حتى نزول الاسبان فيها ، ثم يعـــود الى زيرى بن مناد ويذكرنا بتاسيس القلعة ويشير الى ما عرفته من الازدهار ويكرر للمرة الرابعة ان الناصر قد اسس مدينة بجاية ٠٠٠ دون ان يضيف الى هذا الخبر شيئا سوى قوله انه بنى فيها قصورا ودارا للصناعة ٠

ويمضى فيشير الى مراسلة البابا جريجوار السابع والناصر بن علناس ، ويذكر بما هـــو معروف من وجود اقلية مسيحية معتبرة فى المغرب الاوســـط ، حيث كانت لهم اسقفيه فى بونه واخرى فى القلعـــة ٠

وفى عصر المنصور « الذى يتمتع بمقدرة خلاقة مثل ابيه » ، اصبحت بجاية مركز الامبراطورية وقلب العمران فيها ٠ وفى عهد هذا الملك ، تم بناء مرصد « شوف الرياض » الذى يستعمل لارسال الاشارات بواسطة عدد من المرايا وعدد من القصور التى من بينها قصر « اميمون » وقصر «النجم» وقصر « اللؤلؤة » ٠

ويمضى الكاتب فينقل معلومات عن مخطوط عـربى كان فى حوزة احد البجائيين واوصافا وهمية لبعض قصور بجاية ٠ وهذا المخطوط الذى حاولنا تتبع اثره بدون جدوى ، لا يمكن ان

تأخذ ما ينقله عنه فرو عن العهد الحمادى الا باقصى ما يمكن من التحفظ ، بل والتشكك ، حيث ان المعلومات التى يوردها عن احد مساجد بجاية ، هى نفسها التى اوردها البكرى لمسجد القيروان (I)

وفى سياق ذكر ما كانت تزخر به بجاية من النشاط العلمى والادبى ، يشير فرو الى كتاب الغبرينى عن علماء بجاية فى المائة السابعة (ذلك الكتاب الذى كان شاربونو Charbonneau قد ترجمه الى اللغة الفرنسية قبل ذلك ببضع سنوات) ، ولكنه على عكس ما قد ينتظره منه القارئ فهو لم يستفد من المعلومات التى يزخر بها هذا الكتاب فى قليل ولا كثير ·

وقد تعرض المؤلف لتاريخ بجاية فى عصر المنصور من جديد فى سياق مشوش مضطرب ، واشار الى مختلف الثورات التى قامت فى عهده ونهض لقمعها من بجاية والتى من اهمها ، ثورة عمه بلبار الذى كان قد ولاه على قسنطينة ·

وكذلك خصص فقرة لخلفه المنصور الذى مات فى سنة 498 هـ (4 ـ II05 م) ولاخيه العزيز الذى مات فى سنة 5I2 هـ · (4 ـ II25) ، ولابنه المخنث يحيى الذى كان آخر ملوك بجاية الحماديين ·

وعلى الجملة ، فان المعلومات التى يقدمها المؤلف عن العصر الحمادى ـ مهما كانت الزاوية التى ننظر اليها منها ـ لا تشكل مساهمة علمية ، وذلك حتى لو اخذنا الى الاعتبار التقدم الضئيل الذى سجله الاستشراق وقت كتابة الكتاب · والواقع ان طريقة سرد الحوادث ومحاولة ـ او على الاصح عدم محاولة ـ ربطها ، تدل على ان المؤلف لم يستوعب من تاريخ بجاية الحمادية سوى اسماء بعض الملوك الذين تعاقبوا على عرشها ·

وبعد سقوط تلمسان وفاس وغيرهما من مدن المغرب تحت سيطرة الموحدين ، جاء دور القلعة التى خربوها ثم دخلت بجاية فى سلطان عبد المؤمن الذى ولى عليها احد ابنائه ، ابا محمد ·

وكذلك خلف بنى حماد الموحدون على بجاية التى انحدر وضعها الى قاعدة ولاية ، ثم جاء اليها بنو غانية ومن بعدهم الحفصيون الذين سيستولون على تونس فى عهد ابى زكرياء الاول (625 هـ ـ I328 م) ويعلنون استقلالهم عن احفاد عبد المؤمن · والمؤلف يسرد الحوادث التى

I) راجع ، اسماعيل العربى «بجاية عاصمة بنى حماد الثانى» مجلة الثقافة ، السنة الثالثة ، العدد I8 ، ص 33 · ان تشككي بشان هذا المخطوط انما ينصب على القسم الذى يعالج العصر الحمادى · واما القسم الذى يتناول الاحتلال الاسبانى ، فهو يستحق اهتمامنا ، حيث ان مؤلف المخطوط يسرد حوادث عاشها وشارك فيها ، بينما هو ينقل عن غيره الحوادث التى وقعت فى العصور السابقة (الناقد) ·

وقعت منذ نزول بنى غانية فى بجاية فى سنة (1183 م) ، حتى مقتل ابى فارس فى سنة 680 هـ · (أى فترة قرن كامل) فى عجالة بحيث لا يتجاوز المكان المخصص لها 4 صفحات من الكتاب ·

وفى مقابل ذلك ، عنى الكاتب عناية حسنة بابراز عهد الامير ابى زكرياء الثانى ، اخى ابى فارس ، ولا سيما محاولات ابى حمو وابنه ابى تاشفين الاستيلاء على بجاية وضمها الى مملكة تلمسان ·

ولكن العيب الاساسى فى رواية الحوادث التى وقعت فى هذه الفترة ، وفى غضون القرن التالى ، هو ان المؤلف يقتصر فيها على مصدر واحد ، وهو ابن خلدون الذى يقف بسرده لتاريخ افريقية الشمالية عند سنة 1394 · واذا تذكرنا ان المؤلف يستعمل الترجمة الفرنسية التى وضعها دوسلان لتاريخ البربر والتى وان كانت جيدة الا انها لا تخلو من اغلاط (وهى على كل حال لا تقوم مقام الاصل العربى) ، وعرفنا ان المؤلف المغربى يقع احيانا فى سهو واغلاط ، لا بد للباحث من تصحيحها بمراجع أخرى ، ادركنا بسهولة قلة جدوى هذا العرض ، وبالتالى ضئالة قيمته العلمية ·

وفى مقابل ذلك ، عرف المؤلف كيف يستغل المعلومات التى استقاها من دوماس لا ترى De Mas-Laterie وايلى دولا بريمودى E. la Brimodie وذلك فيما يتعلق بالعلاقات التجارية التى قامت بين بجاية فى عهد الحفصيين وبين جمهورية بيز Pise من جهة ، وفيما يتصل بالمنتجات التى كانت تصدرها بجاية فى هذه الفترة من السلع الى الموانىء الاوروبية ، من جهة أخرى ·

الاحتلال الاسبانى :

تفسر المصادر الاوروبية الغزو الاسبانى للشواطىء الافريقية لا بانه مجرد امتداد واستمرار للحروب الصليبية (الغربية) ، كما هى الحقيقة ولكن بان المسلمين الذين طردهم الملك فرديناند من اسبانيا فى اواخر القرن الرابع عشر والتجئوا الى مختلف المدن الافريقية ، كانوا يحملون شعورا قويا ببعض المسيحيين الذين اخرجوهم من ديارهم ، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت عاجزين عن اخذ الثار وعن تحرير اوطانهم المغتصبة · وقد اخذت رغبتهم فى الانتقام شكل تنظيم قرصنة وهجمات بحرية بقصد تخريب تجارة الاسبان · ولكي تضع اسبانيا حدا لهذه القرصنة . قامت بغزو شواطىء المغرب ، فاستولى الدون فرناند القرطبى فى سنة 1505 م على المرسى الكبير ، ثم استولى الكرد ينال اكسيمنس (Ximenès) على مدينة وهران ، بعد ذلك باربع سنوات (18 مايو 1509) ·

تلك هي الرواية المسيحية التى نقلها ايلى دوبريمودى واعتمدها مؤلفنا ·

ومهما يكن من امر ، فان بجاية التى كانت قد سحبت الامتيازات التى كان التجار القطلانيون يتمتعون بها منذ اكثر من قرن سارعت لانجاد وهران باسطولها وبقوات عسكرية ارسلتها عن طريق البر ، وهذه القوات ، ولا سيما ، الاسطول الذى كان يحمل الخراب والدمار الى الشواطىء الاسبانية سنوات طوال ، ستلعب دورا مهما فى تعزيز مقاومة مدينة وهران ، وكذلك نجد ان المدينة نفسها لم تلبث ان اصبحت هدفا للعدوان الاسبانى ·

فان اكسيمنيس ، بعد ما استولى على وهران ، كلف بيير دونافارو فى سنة 1509 بغـــزو عدد من المدن الشاطئية ومن بينها بجاية التى وصل اليها فى 5 يناير 1510 على رأس 25 سفينة حربية (1) ، وخمسة آلاف من البحريين · وبعد مقاومة عنيفة استمرت حتى 25 مــايو ، استولى الاسبان على المدينة ونهبوا ما فى بيوتها وقصورها ومساجدها من الكنوز والتحف وشحنت هذه الغنائم على متن 30 سفينة · ولكنه بعد خروج هذه السفن من الميناء ، هبت عليها عواصف شديدة فغرق معظمها فى البحــر ·

وبعد ما يستعرض كاتبنا رواية الكتاب الاروبيين ويعقد مقارنة غــير متعمقة بينها وبين الرواية التى نقلها مخطوط البجاوى الذى سبقـت الاشارة اليه ، يورد ترجمة نص رسالة للملـك فرديناند الى بيدرو دونافار تحتــوى على تعليمات من الملك الى قائده بشأن السياسة التى ينتهجها فى المناطق المحتلة ·

ويمضى الكاتب فيعرض تفاصيل وافية للنزاعات التى ظهرت عقب استقرار الاحتلال ، بين بعض الامراء ، وفى مقدمتهم السلطان السابق عبد العزيز واخوه ابو بكر ، امير قسنطينة ، وابن اخيه العباس الذى التجأ الى قلعة ونوغة وراح يساوم الاسبان طمعا فى اعادته الى عـــرش أبيه (عبد العزيز) ومحاولات ابى بكر لاخضاع القلعة وللقبض على العباس ، ثم يذكر حصار ابــى بكر لبجاية على رأس قوة كبيرة ـ ذلك الحصــار الذى دام 51 يوما وتراجعه عن المدينة ليلجأ الى تحصينات بناها غير بعيد من المدينة حيث اقام يناوش الاسبان ويبعث بسراياه التى تبلغ بها الجرأة احيانا ان تتجول فى شوارع المدينة ، بل وأن تستولى فى ليلة من الليالى على حي باب البنود باكمله وتسيطر عليه ·

ولكن الامير ابا بكر تعب فى نهاية الامر من المقاومة وعاد الى قسنطينة تاركا قيادة النضال للامير المــوفق ·

---

1) تقول مصادر اخرى ، ومنها محمد حسن الوزانى ، ان الاسطول الاسبانى الذى غزا بجاية يتكون من 14 سفينة حربية كبيرة (الناقد) ·

وازاء الغارات والهجمات المتوالية التى كانت تتعرض لها الحاميـــة الاسبانية فى بجاية اضطر الاسبان الى التخلى عن سورها القديم الذى بناه بنو حماد والذى يتطلب الدفاع عنه جيشا كبيرا ، وبنوا سورا جديدا ضيقوا به رقعة المدينة ، يمر بحصن باريل (حيث تتعرف على قصـر النجم الحمادى) ويصعد الى باب فوكة حتى يبلغ القصبة ، ويتجه من جهة اخرى من حصن باريل نازلا الى مسجد سيدى عبد الله الشريف ، بين بريجة والعيون الخمس ، مارا بموقع قصر اللؤلؤة (عند الثكنة والمستشفى العسكرى) ثم يستمر نازلا الى البحر عند حصن عبد القادر ٠

وفى سنة 1512 م ، اتصل الامير ابو بكر بعروج وخير الدين ، البحريين ، التركيين الذين اخذ صيتهما يذيع على الشواطىء الافريقية للبحر ودخل معهما فى ترتيبات ليقوما بهجوم بحرى على بجاية ، وفى نفس الوقت اصدر امرا الى الامير الموفق بان يقوم بدوره بهجوم بـرى ، وتقول الرواية التركية ان البحريين قصفا بجاية بالمدافع خلال ثمانية ايام ٠ وفى هذه المعارك ، فقد عروج احد ذراعيه ٠

واثر ذلك ، نزل البطلان الاسطوريان الى البر واحرقا سفنهما ثم اتجها عن طريق البر الى جيجل التى اتخذاها قاعدة لنشاطهما العسكرى البحرى فيما بعـــد ٠

وفى هذه الاثناء اتجه السلطان ابو بكر الى حصن بكر ، على مقربة من بجاية والتجأ اليه ولما علم الاسبان بوجوده هناك ، زحفوا عليه ، ولكن الامير الموفق جمع جيشا من القبائل ، كما قام اخوه ، صالح ، على رأس قوة من المهاجرين الاندلسيين وحملوا على المسيحيين فى معركة انتهت بهزيمتهم وتراجعهم ٠

وبعد الكارثة التى وقعت لاسطول شارل كينط فى مياه الجزائر فى سنة 1541 م ، حيث غرقت معظم قطع هذا الاسطول بمن عليها ، اتجه الامبراطور الى بجاية التى وصل اليها فى اوائل نوفمبر من تلك السنة ، لضمد جراح قواته ، وللاغراق فى صلوات لا طائل وراءها ، خصوصا ، وانهـا جاءت بعد فوات الاوان !

والرواية الاسبانية لا تخبر بما اذا كان الامبراطور قد قام باية عمليات عسكرية ضد العـرب اثناء اقامته فى بجاية ، ولكننا نعرف ، على كـل حال ، ان شارل كينط قد اغتنم فرصة وجوده فى هذه المدينة لتصفية حسابه مع اليهود للمرة الثانية بالتعذيب واحراق كتبهم ومعابدهم ، ثـــم بطردهم جميعا منها ، وذلك بعد ما طردهم فرديناند من الاندلس فى سنة 1492 ، مثل العرب ٠

ونحن نعرف كذلك ان جماعات من نخبة المثقفين اليهود ، كانت قد اختارت للاستيطان بجاية التى زادت حياتها الثقافية والعلمية ثراء ، وقد عاشـــت هذه الجماعات فى أمن ودعة فى المدينة

الحمادية قبل ان يتعقبهم الاسبان ، وكان على رأس الطائفة اليهودية الحاخام ابن يمينة الذى كان يتمتع قبل طرد اليهود من الاندلس بصيت دائع لتضلعه فى العلوم والاداب العربية والعبرية ٠

اين ذهب اليهود ، بعدما طردهم الاسبان من موطنهم الثانى ؟

اندمجوا فى بلاد القبائل التى اوتهم واحسنت اليهم ، وكانوا يسكنون فى مختلف القرى فى الجبال ويمارسون ، خصوصا ، صناعة الصياغة التى اشتهرت بها بعض الاعراش مثل بنى ايراثن ٠

ولكن لنعد الى شارل كينط والى كتابنا ٠

ففى 16 نوفمبر 1541 ، عادت بقايا الاسطول الاسبانى الى وطنها ، يتقدمها الامبراطور العاثر الحظ ، تاركا وراءه فى بجاية نحو 15 الف من الغزاة الاوروبيين ٠

وبعد هذا التاريخ بوقت قصير (1555 م) ، استولى البحرى التركى ، صالح الرايس على بجاية التى استرجعها من الاسبان ، بعد معركة خاضها على رأس 22 سفينة حربية مسلحة بالمدافع

العصر التركي :

كان الاحتلال الاسبانى قد قضى جزئيا على عظمة بجاية الثقافية حيث نهب الاسبان كل ما فيها من التحف والكتب والحقوا بمنازلها وقصورها ومساجدها كثيرا من الخراب ٠ وكذلك تحولت المدينة ، بعد ما فقدت نشاطها البحرى التجارى الذى كانت تمارسه خلال عدة قرون ، الى قرية يسودها الفقر وانقلبت حالة سكانها من يسر الى عسر ٠

وربما كان تدهور وضع بجاية الثقافى والتجارى ، هو الذى جعل الاتراك يفضلون عليها الجزائر لجعلها عاصمة لهم ٠

وقد زاد من تدهور المدينة تضييق الاسبان لرقعتها بالسور الجديد الذى بنوه والذى ترك خارج المدينة احياء كاملة لم يلبث سكانها ان هجروا منها الى الداخل حينما اصبحوا لا يتمتعون بالحماية الضرورية ولا يجدون فيها مجالا للنشاط التجارى والصناعى ٠

وفى اوائل القرن الثامن عشر ، أى بعد مضى نحو قرن ونصف من الاحتلال التركي زاد تدهور الحياة العمرانية فى بجاية بل حدا وصفه معها السائح الفرنسى بيصونيل (Peysonnel) بانها « قد تحولت الى خرائب لان الاتراك لا يصلحون شيئا من مبانيها » ٠

ومع ذلك ، فان بجاية قد احتفظت فى عهد الاتراك بعدد من سفن الشحن (نحو عشرين سفينة) ، كانت تمارس الملاحة الشاطئية وتنقل منتجات بلاد القبائل الى موانىء عنابة وتونس

والجزائر ووهران ، وكانت تشحن بزيت الزيتون والخشب والشمع والتين المجفف والجلود الخ ·· وتعود محملة بالحبوب واوانى الفخار والاقمشة التى توزع من بجاية الى مختلف بلاد القبائل · على ان هذه السفن كانت ممنوعة من حمل الاسلحة والقيـام باعمال القرصنة ــ تلك الاعمال التى كان يحتكرها اسطول الجزائر !

وقد حاول الاتراك مد نفوذهم من بجاية الى داخل بلاد القبائل المجاورة ، ولكن اعتزاز هذه المنطقة بعزلتها واستقلالها كان يشكل عقبة فى طريقهم ، ولذلك اعتمدوا ، واليا لهم عليها منذ اواخر القرن السادس عشر ، وهو سيدى محمد امقران ، جد عائلة المقرانى التى اقامت مملكة فى مدينة قلعة بنى عباس والتى دخلت فى العراك المشهور ضد الفرنسيين فى اوائل النصـــف الثانى من القرن الماضى ·

القســم الرابع :

يقدم المؤلف فى هذا القسم ملاحظات تاريخية عامـــة عن بعض القبائل التى تقيم فى الجبال المحيطة ببجاية ، وهذه القبائل على الضفة اليسرى لنهر الســـومام هى مزاية ــ توجه ــ اولاد مقران ــ بونجدا ــ بنو عمران ــ بنو كسيلة ــ بنو شقفة ــ تسلنت ــ تاردام ــ ابريس ــ ايت احمد غاريت ــ ايت سعيد ــ الشرفة ــ ايت اعمر ــ ايت اومالك ــ بنو حسين ــ افنايا ــ بنو وغليس اوزلاجن ·

وعلى الضفة اليمنى للنهر : بنو مسعود ــ اولاد عبد ــ بنو يمل ــ اولاد تامزالت ــ اولاد عمر او يعقوب ــ زناجة ــ ملاحة ــ بنو جليل مسينسا ــ بنو خطاب برباشه ــ جيفسار ــ بنو عمروس ايت واريت ــ او على ــ بنو محمد ــ بنو حسين ــ بنو سيجوال ·

والملاحظات التى سجلها المؤلف عن هذه القبائل ، ليست ــ مع الاسف ــ ذات قيمة تذكـر حيث انها لا تساعدنا على فهم اصل هؤلاء السكان ولا تضع امامنا معالم عن تطورهم او الادوار التى لعبوها فى التاريخ ، او حتى الدور الذى لعبوه فى مقاومة الاحتلال الفرنسى للمنطقة ·

ويختم المؤلف بعرض تاريخ الاحتلال الفرنسى بايجاز ، منذ استيلائهم على بجايـة فى 29 سبتمبر ، 1833 ، حتى سبتمبر 1863 ، ويورد قائمة باسماء الحكام العسكريين الفرنسيين الذين تعاقبوا على بجاية فى غضون هذه الفترة ·

ولما كانت هذه الفترة ــ فترة الاحتلال الفرنسى ــ قد درست بتوسع وبطريقة او فى ــ وادق ايضا ــ من عدد من المؤرخين الفرنسيين المحدثين ، فان عرض المعلومات التى تتصل بها ليس بذى فائدة ، حيث تجاوزته الاحداث وتضاءلت قيمته العلمية ·

وخلاصة القول ان كتاب بجاية الذى كان المؤلف قد نشر معظم فصـــــوله فى شكل مقالات مسلسلة فى المجلة الافريقية Revue Africaine, T. II P. 458 ابتداء من العدد الثانى من هذه المجلة، فى سنة 1857 م · يمثل نظرة تركيبية للاحداث التاريخية التى تتصل ببجاية من قريب او من بعيد ويقدم فكرة ، لا بد وان تكون مفيدة فى ذلك العهد ، للجمهور الفرنسى الذى كان يجعل كل شــــىء عن تاريخنا · والميزة الاساسية للكاتب هى روح الاعتدال التى تسرى فى صفحاته وعدم محاولة المؤلف تسخير هذا المجهود ــ فى وقت كانت فيه خدمة السياسة هدفا لخدمة العلم ــ لتمجيد الاستعمار ومما يزيد من تقديرنا لقيمة هذا الموقف ان نعـرف ان المؤلف كان مترجما فى الجيش الفرنسى وهى مهنة كثيرا ما افضت بالطموحين ممن يمارسونها الى مراكز النفوذ ، متى عرفوا كيف يستغلون مواهبهم ·

ولكن الكتاب ، مع ذلك ، يقصر دون هدفه الاساسى ، وهو وضع تاريخ لبجاية عبر العصور وهذا القصور مرجعه عدة اسباب :

1 ــ قصور المؤلف وعدم تعمقه فى البحث للرجوع الى المصادر الاجنبية المتوفرة فى شــكل مخطوطات او مطبوعات (ولا سيما الوثائق الاسبانية والتركية) ·

2 ــ عدم استغلاله بطريقة وافية لكثير من المعلومات التى تقدمها المراجع التى التجأ اليها ·

3 ــ ضعف ملكة النقد والتمحيص للنصوص التى ينقلها وعدم مقاربتها بنصوص اخـــرى لاستخلاص افضل الروايات ·

4 ــ ضعف استعمال المؤلف للمخطوطات العربية من كتـــب التاريخ والجغرافيا التى كانت المكتبة الوطنية (الملكية حينئذ) تحتوى على نسخ لكثير منها ·

5 ــ اسلوب فرنسى مهلهل هو السبب ــ بالاضافة الى عدم اعتماد منهج علمى دقيــق ــ فى كثير مما ينطوى عليه سرد الاحداث من التشويش والغموض والتكرار ·

6 ــ عدم إعتماد طريقة منهجية لكتابة الاسماء العربية والبربرية بالحروف اللاتينية ·

كتـــب عـــن بجـــايـــة

بيبليوغـرافيا اعدتهـــا السيـدة عالمـــة

ذكرنا فيما يلي اتماما للفائدة فى هذا العدد الخاص ببجاية ، اهم المصادر والمراجع باللغة العربية وباللغة الفرنسية التى تناولت تاريخ المدينة .

1 ـ المصـادر والمراجـع العربيـة

1) ابن الاثير (محمد) ـ الكامل فى التاريخ ـ بيروت ، 1967 .

2) ابن حوقل (محمد) ـ صورة الارض ـ بيروت ، بدون تاريخ .

3) ابن خلدون (عبد الرحمن) ـ كتاب العبر ـ بيروت ، 1956 ـ 1959 .

4) ابن خلدون (يحى) ـ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ـ الجزائر، 1903 ـ 1913

5) ابن القنفذ القسنطينى (أحمد) ـ الفارسية فى تاريخ الدولة الحفصية ـ تونس، 1968 .

6) الادريسى (محمد الشريف) ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ـ ليدن ، 1866 .

7) الزركشى (محمد اللؤلؤى) ـ تاريخ الدولتين الموحدية ، والحفصية ـ تونس ، 1289 .

8) الغبرينى (أحمد) ـ عنوان الدراية فى تاريخ علماء بجاية ـ الجزائر ، 1389هـ ـ 1970.

9) نويهض (عادل) ـ اعلام الجزائر ـ بيروت ، 1971 .

10) الوزير السراج (محمد) ـ الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ـ تونس، 1970 ـ 1973

2 ـ المصادر والمراجع باللغة الفرنسية :

1) *EL-BEKRI* ('Abd-Allah) : Description de l'Afrique Septentrionale, trad. de Slane. Alger, 1913.

2) *BRAUDEL* (Fernand) : Les Espagnols de l'Afrique du Nord de 1492 à 1577, in Revue Africaine, 1928.

3) *BRUNSCHWIG* (Robert) : La Berbèrie orientale sous les Hafsides. Paris, 1940 - 1947.

4) *CHERBONNEAU* (Auguste) : Notices et extraits du «Unwan ad-Diraya fi tarikh Machaïekh Bidjaïa», in revue algérienne et coloniale, Juin 1859.

5) *DE BEYLIE* (Gal L. de) : La Kala'a des Beni-Hammad. Paris, 1909.

6) *DE GALLAND* (Charles) : Bougie. Alger, 1895.

7) *FERAUD* (L. Charles) : Histoire des villes de la province de Constantine, in Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la province de Constantine, 3me volume de la 2me série, 1869.

8) *GOLVIN* (Lucien) : Le Maghreb central à l'époque des Zirides. Paris, 1957.

9) *IBN AL-ATHIR* (Mohamed) : Annales du Maghreb et de l'Espagne, trad. Fagnan. Alger, 1898.

10) *IBN HAWKAL* (Mohamed) : Configuration de la terre (Kitab Surat al-Ard), trad. J.H. Kramers et G. Wiet. Beyrouth - Paris, 1964.

11) *IBN KHALDOUN* (Abderrahmane) : Histoire des Berbères, trad. de Slane. Paris, 1927.

12) *IBN KHALDOUN* (Yahia) : Histoire des Abdelwadites trad. A. Bel. Alger, 1903 - 1913.

13) *EL-IDRISSI* (Mohamed Ach-Charif) : Description de l'Afrique et de l'Espagne, ed. et trad. Dozy et de Goeje. Leide, 1866.

14) *LAPENE* (Edouard) : Vingt-six mois à Bougie. S.l.n.d.

15) *MARÇAIS* (Georges) : Les Arabes en Berbèrie. Constantine - Paris, 1913.

16) *MARÇAIS* (Georges) : Les poteries et faïences de Bougie. Constantine, 1918.

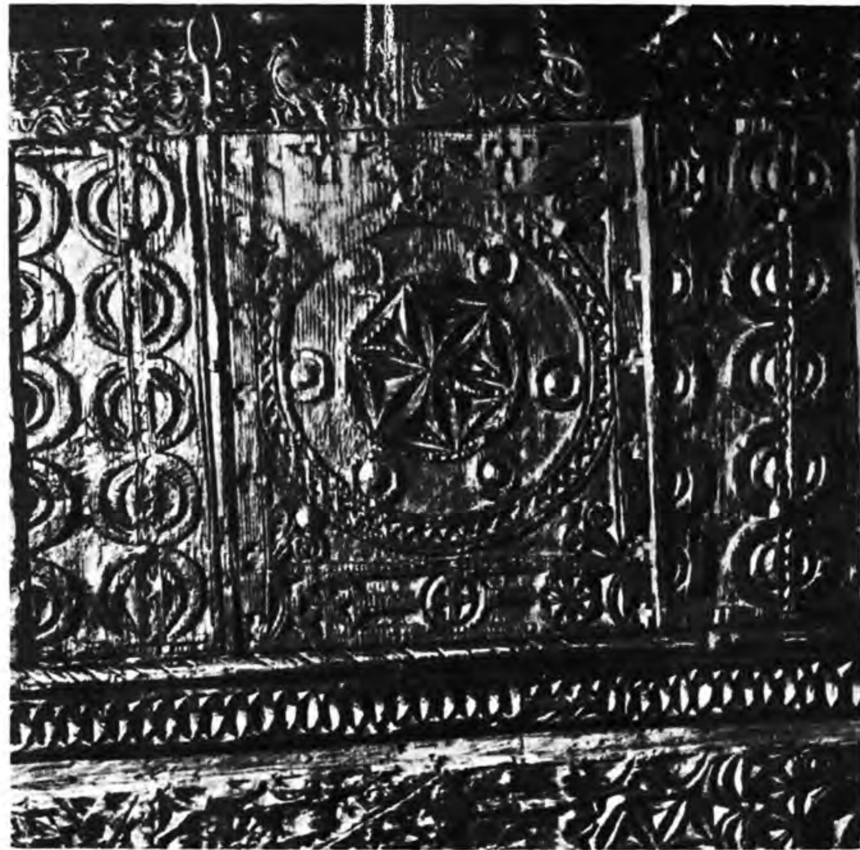
17) *MARÇAIS* (Georges) : Bougie, in Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition. tome I, pp. 1240 - 1241.

18) *MAS LATRIE* (Comte de) : Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Age. Paris, 1866.

19) *NUMA LAMBERT* (Jacques) : Saldae-Bougie et le Christianisme. Alger, 1958.

20) *YVER* (Georges) : Bougie. in Encyclopédie de l'Islam, ancienne édition, tome I, pp. 785 - 786.

21) *ZARKACHI* (Mohamed) : Tarikh ad-Dawlatayn (histoire des Almohades et des Hafsides). Constantine 1895.



مقطع من صندوق خشبى قديم فى المنطقة



منظر لمدينة بجاية

فهـــرس العـــدد

افتتـــاحيـة

محـــاضرات مـــن الملتـقى

ريثما يصدر كتاب الملتقى الثامن للفكر الاسلامى سننشر فى كـل عـدد مـن « الأصالة » كعادتنا فى الملتقيات السابقـة مجموعة من المحاضرات .

والملتقى كما يعلم القارىء ، وكما أشارت صحف عربيـة وأوروبية منبر حر مفتوح للجميع، ومن هنا فالآراء التى عرضت فى الملتقى لا تعبر كلها بالضرورة عن آرائنا .

ومن هنا فالزيادة على المناقشات المفتوحة الطويلة العريضة التى فسح لها المجال فى الملتقى ننتظر من القارىء أن يثرى هذه المناقشات على صفحات هذه المجلة .

هذا وطبقا لما جاء فى الخطة التى اعلناها فى افتتاحية العدد الأول : « . . كما سيكون جزء منها باللغة الفرنسية كما هـــو شأن بعض المجلات فى بلـدان شقيقـة ، لتخاطب بعض الناس لدينا بما يفهمون » والتى سرنا عليها برهة ثم توقفنا لاسباب عديدة ، واستجابة لرغبات ملحة من جزائريين ومسلمين عموما وخاصة من أوروبا ومن غير المسلمين من عدة جهات من العالم ، نستأنف خطتنا المذكورة باصدار جزء من المجلة بالفرنسية أيضا زيادة عن أصله بالعربية أو ترجمته اليها .

« الأصـالـة »

NO 20

كلمة افتتاح

الملتقى الثامن للفكر الإسلامي

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
حضرات الاساتذة الافاضل ،
حضرات السادة والسيدات ،

أود أن أبدأ هذه الكلمة بما أنهيت به كلمة افتتاح الملتقى السابع . وأرحب بكم باسم الرئيس بومدين والجزائر كلها في هذا الجو الطبيعي الرائع ، والاطار التاريخي المجيد ، « في الناصرية ، عاصمة الناصر بن علناس الحمادي ، مدينة النور قبل باريس بقرون . التي جابت البحار بأساطيلها ، وبهرت الانسانية بلالاتها ولآلئها التي كان يجتمع فيها الحكام بالعلماء بحضور الجمهور ، وغمرتها بعلومها وفنونها ، وأضاءت أوروبا والعالم بجامعاتها وشموعها : بجاية ! » .

حضرات الاساتذة .

اخوتى الطلبة والطالبـات ،

نجتمع لأيام وليال لتدارس نقاط خمس نراهافى غاية الأهمية لا بالنسبة للجزائر والعـالم الاسلامى الأوسع فحسب ، بل وللانسانية كلها،وهى التى تمر بأزمة طاغية تهدد القيم ، وتتعرض لعواصف عاتية تنذر باكتساح الحضارة وآثارها!

1) نود ان نستعرض معا ما نالته جاليـات وأقليات من حسن معاملة ، أو عانتـه وتعـانيه اليوم من عنت وعذاب ، فى مختلف انحـا العالم ، ونرى فيما اذا كان يليق بالعلمـا ، والمفكرين عموما ، ورجال الاعلام أن يبقـوا سلبيين ازاءها ، ويكتفوا فى أحسـن الاحـوال بالحوقلة والاستنكار فى النوادى المغلقـة ،أو يجب عليهم أن يصرخوا فى وجه الظلم حيثما وقع ، ويندوا بمختلف أنواع التمييز ، ويفرضوا بسلطتهم المعنوية احترام كرامة الانسان كانسان!

2) كما يبدو لنا من الضرورى أن نتصفـح التاريخ ، ونلقى نظرة فاحصة على عالم اليـوم لنتذكر ونسجل دور المفكر الآن وعلى مر العصورفى أمته وتجاه الانسانية فى كل من قضـايا الساعة وآفاق المستقبل . وهل المفكر الذى وصفه اليونان وينعته عالم اليوم بالنخبة ، وميزه ابـن رشد فى تصنيف الناس الى صفوة ودهما ، أوالجماهير ، كما يقال اليوم ، أقول هل يمتـاز هذا المفكر عن رجل الشارع بالوعى الدقيق بعظـم المسؤولية . وبشمولية النظرة ، وسعـة الصدر ، والتضحية فى العمل على فرض احترام كرامة الإنسان والشعوب . ام ان كل ميزاته هى الشهادات، والوظائف ، والتشريف ، والألقـاب ؟

اذا كان الانسان ، أى انسان ، حيوانا ناطقـا حسب تعريف أرسطو ، فانه لا يمتاز عن بقيـة الحيوانات الا بالنطق ، أى التفكير لنفسه ، وأمته ،والانسانية ، وعلى المفكر بالذات يلقى عب، خاص، وبه تناط مسؤولية استثنائية ، هى اسمـاع نتيجة تفكيره ، والمناداة بصوت ضمـيره !

3) وكيف لا نشير ونحن فى بجاية الى الـدور البارز الذى ساهمت به الـدولة الحمـادية فى بناء الحضـارة والفكـر الاسلاميين ، وبالتالى فى الحضارة العالمية ، ويكفى أن نذكر ، كرمـز الى ما قامت به الدولة الحمادية فى الميدانين الحضارى والفكرى ، ان اسم الشمع المضيء لأوروبا والعالم قبل اكتشاف الكهربا، بقرون مستقى من اسم بجاية ، BOUGIE، وتدل على ذلك بطون التاريخ ،

ويذكر به القاموس الفرنسي لاروس ، وان عبـدالرحمن بن خلدون ، مؤسس علم الاجتماع ، كان يدرس بها بجامع القصبة وهو فيها حاجب ، أي رئيس وزرا. ، وان المهدى بن تومرت كان يدرس بجامعها الريحانة ، وان جامعتها كان يرتـــادهارجال علم وفكر من بقية المغرب ، ومن الاندلس ، والمشرق ، ومن أوروبا الغريقة اذ ذاك في ظلماتقرونها الوسطى ، وان علما من أعلام هذه القرون الوسطى الأوروبية ، وهو ريمون لول ، المسمى بـا «لدكتور الملهم» ومؤلف كتاب «الفن الكبير» في المنطق ، جا. الى بجاية للدرس والمنـاقشة ،وسيحدثنا عن هذا كله بتوسع واختصـــاص الاساتذة الكبار في هذا الملتقى .

4) والحضارة والفكر الاسلاميان اللذان كـانامنطلق أوروبا نحو نهضتها وتقدمها ، يتطلبـــان منا أن ندرس أسباب ازدهارهما وانهيارهمـــا ،وعوامل انبعاثهما ، لأن التاريخ يعيد نفسه ، واذا كانت براقش قد جنت على نفسها ، فنهضتهـــا من كبوتها لا تتوقف الا عليها ان صح العـزم ، وقويت الارادة ، واستخلصت عبر التـــــاريخ ،واستلهمت تجارب الأمم .

ان الحضارة والفكر ارث مشترك ، بقـــدرما هما عمل جماعى ، والتاريخ يسجل لكل امـة لبنتها ، ويؤاخذها على كسلها وتقصيرها ، ومن تهاون هان ، وخسر الرهـــان !

5) وهل صحيح ما يبدو لنا من أن طريـــق الخلاص الوحيد للأمة الاسلامية ، ولأية امـة من الأمم فى وضعها ، هى الكد فى تدارك ما فـات ،والسعى للحاق بركب الناهضين ، مع المحافظـة على روحها وخصائصها ، وتقديم الجـــوهر على الاعراض ، وعدم الاستغناء بالقشور عن اللباب ، وضرورة الاقلاع عن التعلق بسلبيات الحضـــارة الحـديثة للاقتصـار على ايجابيـاتها ، وهذا كلـه هو ما نقصده بالانيـة والأصالة ، مع التفتـــح والعالميـــة .

وهنا أود أن أذكر بما سبق أن أشرت اليـــه بايجاز فى الملتقى السادس ، وهو اننا امـــام فريقين نرى أن كلا منهما مغال وواقـــــع فى الشطط .

أحدهما فريق المتقوقعين ، المتزمتين ، المنزوين ،المنكمشين ، الراكدين ، المنغلقين ، الجـامـدين ، الذين يدعوننا باسم المحافظة على التقاليـــد الى عدم الاكتفاء باقفال الأبواب ، بل يطلبون منـــا أيضا سد النوافذ ، حتى لا يتسرب الينا بصيص من نور ، أو نسمة من هوا. ، ونبقى فى الظلمات ، ونتعرض للاختنـاق !

والفريق الآخر يلحون علينا باسم التقدمية ،والثورية ، والتطور ، والتمدن ، وسعة الأفق ، والتفتح ، والعالمية ، الى عدم الاكتفاء بفتح النوافذ واسعة ، والأبواب على مصاريعها ، بل يصمون آذاننا بالمناداة بضرورة نزع السقوف أيضا ، وهم المغامرون ، السطحيون ، الممسوخون!

ونحن نجيب أولئك وهؤلاء بأننا لا نريد أن نحرم أنفسنا من الاكسجين والضوء اللذين هما اكسير الحياة ، ولا أن نعرض أنفسنا للزوابع الجارفة المطيحة بالابنية المخلخلة للاوتاد ، المهلهلة للعماد !

اننا ندعو الى فتح النوافذ ، بل والأبواب عند اللزوم ، ولكن مع الاحتفاظ بالسقوف والرفوف، ونقف بأقدام ثابتة على أديمنا الراسخ ، لنرنو، مطمئنين ، واثقين بانفسنا ، الى عوالم أخرى نستقى من تجاربها الناجحة ، ونتعظ بأخطائها ،وهو ما يدعونا اليه الاسلام،وما نجح به السلف. أولم يسيروا فى الأرض ، أفلا ينظرون !

اما أن نبقى معلقين فى الهواء ، ونشرئب من خلال السقف المنزوع الى عالم المجهول ، فلن تكون النتيجة الا الوقوع فى الدرك الأسفل والانحدار !

هذا ما قصدناه بالجمع بين الانية والأصالة مع التفتح والعالمية ، الذى يفتح النوافذ والأبواب، ولكنه يحتفظ بالسقوف والرفوف ، والذى يبدولنا المخرج الوحيد للانسانية التى تعانى اليوم أزمة حضارية حادة ، تهدد البناء البشرى بالتصدع والانهيار .

حضرات الاساتذة الافاضل ،

اخوتى الطلبة والطالبات ،

هذه هى المواضيع التى نريد النظر فيها معا ،ونفتح باب مناقشتها واسعا ، ونرجو أن نخرج من ذلك كله بنتائج تكون هى نفسها خطوات تمهيدية فى مسيرة ينبغى أن تستمر لتقى الحضارة ، وتصون كرامة الانسان .

وأخيرا أتمنى لأعمالنا التوفيق والنجاح ،وللاساتذة والطلبة الضيوف طيب المقام فى بجاية والجزائر .

والسلام عليكم ورحمة الله



وضع الأقليات والجاليات عمومًا والإسلاميّة خصوصًا

في كثير من بلدان القارات الخمس
وواجب العلماء والمفكرين، ورجال الإعلام نحوها

الاستاذ فرنسيس منهايم

كاتب ورئيس
الجمعية البلجيكية العربية
بروكسيل ـ بلجيكا

ان عنوان النقطة الاولى لملتقى الفكر الاسلامي الثامن واسع جدا ويسمح بالدخول في مشاكل وحالات متنوعة جدا ـ فالنقطة الاولى اذن المعنونة « وضع الاقليات والجاليات عموما والاسلامية خصوصا في كثير من بلدان القارات الخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال الاعلام نحوها » ٠

ان هذا العنوان يفرض طريقتين : وصف حالة موضوعية وبما انها مسألة « واجب » اصدار اقتراحات نظام اخلاقي ٠

اقترحت في العرض الذي اقدمه لكم ان اصف حالة موضوعية جدا : وهي حالة الاقلية الاسلامية التي تعيش في بلادي بلجيكا وبالاخص اميز عائلة واوحدها : الجالية الجزائرية ٠

اما الواجبات التى تعود الى فئات معينـةمن الاشخاص والتى تواجه المشاكل التى تطرحها هذه الاقليات فانى اقيد نفسى تقييدا فى اطـــارمهنتى ككاتب وصحفى اى كشاهد عيان ·

فهدفنا اذن ان نصـــف المشاكل الاخلاقيةوالثقافية للاقلية الاسلامية فىبلجيكا وخاصـــة فى المجموعة الجزائرية ·

ولكن لتفهـــم هذه المشاكل من الضرورىتحديد هذه الاقلية وهذه المجموعة على المستـوى الديمغرافى والتاريخى والاقتصادى وغيره ·

1 ـ يعيش فى بلجيكة 10 ملايين نسمة مـن المواطنين بينمـــا هناك 700000 اجنبى تقـــريبا يعيشون فى البلد ـ وتجدر الاشارة الى ان هذاالعدد ما هو الا تقريبى لسبب بسيط هو انـــه لم توجد احصائيات كاملة لهؤلاء الاجانــب ـ ان الارقام المعطاة من طرف الشرطة تخص الاشخاص الذين يزيد عمرهم على 12 نسمة ـ اما تلـك التىتعطيها وزارة الشغل والعمل فتخص المستغلين وتلك التى تعطيها الادارة فهى غـــير كاملة ـواخيرا فان العناصر القنصلية هي اقـرب الى الصواب من غيرها ـ وعن هذه المعلومات تعـرفـانه يوجد 5571 جزائرى فيهم 2215 رجل اكثـــر من 21 سنـــة و 573 امراة اكثر من 21 سنـــةو 2783 شابا وشابة ·

ان الجالية الجزائرية قليلة نسبيا بينما نجدالجالية المغربية تفوتها ثمانية اضعاف والجاليـة التركية اربعـــة اضعاف ـ اما التونسيون فانعددهم لايتجاوز الفين ـ وفى المجموع فان الجالية الاســلامية تمثل 10 ٪ من مجموع الاجانـــب ـ(ويجدر بنا أن ننبه ان هذه النسبة لا تحتوى على بعض المائـــات مـــن الالبانيين واليوغسلافيين ومواطنين لبعض بلدان اوربا الشـــرقية الذين يدينون هم ايضا بالدين الاسلامى) ·

2 ـ الهجرة الاسلامية فى بلجيكا حديث عهدنسبيا ـ وعرف هذا البلد الصغير المصنع جـــدا افواجا اخرى من المغتربين : ايطاليون ويونانيونفى بداية القرن ثم بولونيون وتشيكيون وقـــت استغلال الموارد الفحمية بصفة قوية ثم اسبانيونوقت حرب اسبانيا سنة 1936 ـ وما دخل عمـال افريقيا الشمالية الى بلجيكا الا بعد الحرب العالميةوخصوصا بين 1955 و 1967 ـ وتجدر الاشـارة ايضا الى مشاركة بعض الجزائريين كعمال فيالمناجم في معركة الفحم الكبرى التى خاضتهـا بلجيكا غداة استقلالها فى سنة 1944 على أمـل انقاذ اقتصـــاد ارهقه الغازى النـــازى بكيفية خطيـــرة ·

3 ـ وهذا يفســـر ظاهرة ثالثة للجاليةالجزائرية فى بلجيكا ـ بينما هذه الجالية شابـة جدا اذ + 80 ٪ من اعضائها لا يتجاوزون 40 سنةفـان 1/3 الرجال الجزائريين الذين يعيشون في بلجيكا هم عمال مناجم متقاعدون يواصلون مـعذلك نشاطات اخف فى نفس القطاع ·

وخارج هذا القطاع المنجمى نجد اغلبيـةعمال افريقيا الشمالية فى قطاع البناء والحديد ـ ونجد بعضهم فى قطاع المواصلات الذى يفـرمنه الشبان البلجيكيون اكثر فاكثر لانه يحتـوى على اعمال ليلية وفى يـوم الاحـد ٠

وفى الجملة يمكننا القول بأن اغلبية عمال افريقيا الشمالية يشتغلون فى مناصب خطيـرة وسخة وشاقة ـ يتقاضون اجرا حسنا نسبيـاكرفاقهم البلجيكيين ـ وهذا لا يعنى ان وظيفتهم مرغوب فيها وسنرى لماذا ٠

4 ـ ان الوضعية العائلية لعمال افريقيـاالشمالية غالبا ما هى صعبة ـ نصفهم عـزاب وزيادة على ذلك فان نصفهم تقريبا متزوج هاجربدون عائلة واصبح وحيدا ٠

5 ـ يجد عمال افريقيا الشمالية صعوباتجمة فى الحصول على سكن لائق وخاصـة اذا كانوا ذوى عيال ـ وهذا راجع نسبيا الى عنصرية ارباب المنازلوالشقق تلك العنصرية التىسنتحدث عنها ايضا ـ وهو راجع ايضا الى نقصان السكنالاجتماعى الذى تعانى منه بلجيكا ـ ان شركات عديدة تبنى دورا بأثمـان بسيطـة وتخصهاللمواطنين او لمواطنى بلدان المجموعة الاوربية ـ وفى بروكسال بالاخص فان ازمة السكن جـداوآلاف عمال افريقيا الشمالية يعيشون فى اكواخ حقيرة ٠

وبصفة عامة فان اخرب الاحياء (والمعينةللهدم عن قريب) هى الوحيدة التى تسمح بايواء هؤلاء العمـال ٠

6 ـ ان تجمع عمال افريقيا الشمالية الكثيففى بعض الاحياء له نتيجة مباشرة فى المجتمـع الدراسى لهذه الاحياء ـ فى بعض مدارس ضاحيةبروكسال او المنطقـة المنجمية بهينو Hainaut اغلبية التلاميذ هم ابناء عمال افريقيا الشمالية ٠ونظـرا للحالة الحاسمة فان التشريع المدرسى لبلجيكا لا يسمح بمواجهة هذه الحالة الشاذة ٠وهكذا فانه لا توجد وسائل تعليمية تساعد ابناء عمال افريقيا الشمالية بالتكيف بصفة جدية علىالتعليم الاوروبى ٠ كما انه ليس لاولياء الطلبـة ان يفرضوا تعليم الدين الاسلامى لابنائهم وبينمايسمح القانون بذلك لاولياء التلاميذ المسيحيين او البروطسطنين او اليهود ٠

7 ـ وان كانت السلطات البلجيكية تنـددبالمظاهر العنصرية وتريد ان تتبع سياسة ايجابية تجاه البلدان العربية عامة وبلدان افريقيا الشماليةخاصة فان العمال المسلمين ٠ غالبا ما يتعرضون الى المشاكل الادارية او عدم التفهم او معارضةبعض الموظفين البلجيكيين فى الادارات المحليـة او الشـرطة ٠

8 ـ وهذا يؤدينا الى ان نتكلم على آخـرنقطة فى وصفنا : وهو جو اللامفاهمة والعنصرية المتأججة التى غالبا ما تحوط مغتربى افريقيـاالشمالية ٠

واظن انه امـــــام جمعية كهذه لا بد من الشجاعة للصعود الى العناصر والنظر فى المشكل فى افقها التاريخى ·

ان المعارضة الثقافية للعالم الغربى المسيحى تجاه العالم العربى والاسلامى لقديمة منذ ظهور الاسلام · وهى توجد كذلك بصفة مستمرة كتبنا التاريخية والمدرسية · فقد تعلمت دائما ان الديانة الاسلامية ديانة غاصبة لا تسامح وان الحضارة العربية قد اضمحت وتلاشت بعد فترة قليلة من الزمن ـ وقد تعلمها ابى من قبل وجدى قبلـــه وكذلك ابوه وجده من قبل ·

ومن الجدير الا نعمم ولكنه من الطريف الانعترف بهذا الاتجاه السلبى تجاه الاسلام · ومن البديهى ان نعارض الخسائر التى احدثتها ·

كما هو من الخطأ ايضا الا نعترف بأن كتابا كثيرين حاليا من بينهم مسيحيون كثيـرون يتخذون مواقف تاريخية اكثر ملائمة للحقائـــق ويتحدثون عن الاسلام باحترام الشىء الذى كان ينقص الغربيين بكثرة اولائك الذين كانوا يزعمون معرفته ·

ولكن ان كان التاريخ ومن يكتبونه يتحررون اليوم من الحقد الازلى فهذا لا ينـــزع شيئا من المرض الذى وقع وهو عظيم ومختبىء بصفــة عميقة فى العقليات الاوروبية ·

ان هذا المرض لكبير جدا سيما وانه كـان يهيىء العقول بدون شعور الى ان تسيطر عليـه آفـــة اخرى واعنى بذلك الدعايـــة الصهيونية الموجودة فى الغرب منذ جيلين وقد وجـــدت فى بلادى وغيره ابواقا قوية ومضرة · وليست نيتى فى كلامى هذا التحدث عن المشكل الفلسطينى الاليم وانما التحدث عن الاقلية الاسلامية التـى تعيش فى بلجيكا وعن المشاكل التى تواجهها ـ ولا بد لي ان الاحظ ان مواضيع الدعاية الصهيونية التى تشكل حدثا مؤقتا أضيفت الى عدم تفهم اقدم يمكننا ان نقبره تنظيميا من طرف الرأى العـــام الغربى تجاه كل ما هو عربى ومسلم ·

ويضاف الى ذلك ردود الفعـل الانانيـــة للجمهــــور تجاه بعض الاحداث السياســـية والاقتصادية بصورة عامة فان الرأى العام البلجيكى قد تعاطف مع الكفاح الذى خاضته الشعوب المستعمرة بغية انتزاع استقلالها السياسى · الاان الرأى العام هذا نفسه اكثر تحسسا وحقدا حين تحاول هذه الشعوب انتزاع حقوقها الاساسية فى الميدان الاقتصادى ·

وان تصدر الحكومات العربية ـ والحكومة الجزائرية خاصة ـ معركة شعوب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية التى تخوضها الآن لفرض توزيـــع اعـــدل للثروات والموارد العـــالمية ـ ان هذا التصدر اثار ردود فعل عنصرية من نـــوع جديد لاتنجو منها بلادى مع الاسف · ومما لاشك فيه ان البعض يحاول في فرنسا وبلجيكا الانتقام من العمال العرب المغتربين وان جانبا من الـرأى

العام اكثر استعدادا لسماع مثل هذه النداءات بسبب انه لم يحط احاطة كافية باسهام اليد العاملة الاجنبية فى الاقتصاد الغربى الذى لم يكن ليستطيع الاستغناء عنها فى فترة مارس 1945 ـ 1970 على الاقل تلك هى الخطوط الكبرى لوضعية عمال شمال افريقيا فى بلجيكا . وكما قلتم فان اللوحة لايضبط عليها ولكنها تشمل بجانب ظلماتها انوارا ـ واكون ظالما لو لم ابرزها خاصة ان بعض هذه الانوار تبرهن ان شيئا اخذ يتحول فى الغرب وفى بلجيكا بوجه ادق .

اما النقاط الايجابية فسأذكرها مبعثرة فى غير ترتيب منطقى ـ واود قبل كل شىء التأكيد على دور ودادية الجزائريين فى بلجيكا والمصالح القنصلية وسط الجالية الجزائرية .

1 ـ على خلاف رعايا بلدان اخرى (واذكر رعايا المغرب وتركيا) فان العمال الجزائريين فى بلجيكا لايشعرون بعزلة وليسوا معزولين بالفعل وان الرئيس بومدين قد ذكر مرارا فى خطبه ان الجالية الجزائرية جزء لا يتجزأ من الجزائر وانه يتعين بناء على ذلك بذل كل الجهود بغية اعادتها الى البلاد . والاحظ ـ فيما يتعلق ببلجيكا على الاقل ـ ان الودادية تضطلع تماما بدور الوساطة بين الامة الجزائرية وبين الجالية الجزائرية المغتربة سواء نظر الى الودادية باعتبارها ملتقى ومجمعا ، او خلية دفاع او اداة تربية للشباب حيث تنظم دروسا للعربية والدين الاسلامى ومعسكرات صيفية فى ارض الجزائر نفسها ، وكذلك تربية الكهول حيث تحرض العمال على استكمال معلوماتهم المهنية والنظر الى هذا الاستكمال تبعا لحاجات الاقتصاد الجزائرى المستقبلة ، ومعنى هذا بعبارة أخرى تبعا لاعادة انخراط هؤلاء العمال فى هذا الاقتصاد .

2 ـ النقطة الثانية البالغة الايجابية : الروح الجديدة التى تسيطر على جانب من الرأى العام البلجيكى وخاصة وسط الشباب . فهؤلاء الشباب ابعد ما يكونون عن كل فكرة عنصرية ، وان وجود عمال شمال افريقيا بجانبهم قد ايد ايمانهم هذا بالمساواة الاساسية وحرمة وكرامة كل البشر مهما يكن اصلها وماضيها الثقافى ووظيفتها الاجتماعية . وهذا التضامن النشيط بين الشباب البلجيكى وعمال شمال افريقيا يتجلى فى عدة ابنية كالمنظمات النقابية ولجان الاحياء والحركات الجامعية والمبادرات الثقافية بل والرياضية .

وهذا التضامن يسهم فى استبعاد الاجراءات الظالمة التى قد تتخذ ضد العمال العرب من طرف السلطات الرجعية ولكنها تسهر على علاقات مودة اساسها التقدير المتبادل والتعارف .

وعلى قدر نمو التعارف ينمو الاحترام وبقدر ما ينمو الاحترام ينمو التعارف .

3 ـ ان هذا التضامن من صنع المسيحيين وبعض القسيسين ـ ولما كانت الجالية الاسلامية فى بلجيكا تملك بعض المساجد ـ وان كانت غير كافية ـ فقد وضع عدة قسيسين كاتوليكيين ورعاة

بروستانسطى من تلقاء انفسهم كنائسهم تحت تصـــرف العمال المسلمين · ان عـــهد التبشير المسيحى قد ولى الى الابد ·

ان الناس مختلفون ـ وهم متساوون ـ وفىنفس الوقت مختلفون · اليس طبيعيا ان يخاطبوا الله فى لغات وطقوس مختلفة ـ اليس حقا علىمن يصلى لله ان يحترم الآخرين الذين يصلون ·

4 ـ ان السلطات العمومية نفسها ـ لها دورفى بعث هذا التضامن حتى ولو اخذنا عليهـــا حاجتها الى الجرأة فى المبادرات التى تتخذها ـخاصة فى ميدان التقنين لصالح الغرباء ·

وهكذا فان آخر وزير للشـــغل والعمـلارناست قلين وهو احد اصدقائكم منذ امد طويل قد اتخذ عده اجراءات لمنح معتمدات لمن يتكلفونبما يسمى « الكفل » الروحى والثقافى للعمـــال العرب ـ وهذا فان عددا من البلديات التى انشأتمجلسا شوريا للعمال المهاجرين تود ان تشـــارك هؤلاء العمال الى اتخاذ القرارات البلدية بصفـةاكثر مباشرة ·

وهكذا فان عددا من النواب المتزايد عددهميطالبون ان يمارس العمال الاجانب حقوقا سياسية زيادة على الحقوق الاقتصادية بشرط ان تكـــونهذه الحقوق ملائمة وسيادة الدولة ·

5 ـ وآخر نقطة من الاحسن ملاحظتها هناهى : ان رجال السياســـة ورجـــال الكنيسة والجامعيين الذين يعيشون مع مشاكل الهجـــرةقد تراجعوا عن فكرة الاندماج ـ قد مر زمـــن كانت النفوس الطيبة تـريد ان تساعد القادمينالجدد ان يشابهوا قدر الامكان مواطنى البلـــد المضيف ـ ومن الممكن ان تجد هذه الارادة تبريراتحين كانت تستضيف الوافدين من نفس الثقافـة اذ كانت رغبتهم الاستيطان النهائى فى هذا البلدـ وهكذا فان آلافا من الاسبانيين او الايطاليين قد استوطنوا فى بلجيكا دون أمل العودة وجنسوااولادهم بلجيكيين ـ ولكن فكره الاندماج تصبـح سخيفة فيما يخص العمال العرب المسلمين والذينيعيشون هناك آملين فى العودة الى الجزائر او الى المغـــرب يوما ما ـ فان هؤلاء العمال مـنالضرورى ان نحترمهم فى شخصيتهم الحقيقية وفى اختلافهم · وما يطلبون الا اندماجا مؤقتا فىمجموعة اقتصادية فى حاجة اليهم وهم فى حاجة اليهـــا ·

وفكرة الاندماج المؤقت هى التى طغـــتاخيرا ـ اعرف انها تناسب ارادتهم التى عبـــرت عنها مرارا السلطات الجزائرية ـ ومن الممكـــنأن اقول انها تستوحى نهائيا السياسة التى تنوى سلطات بلادى اتباعها تجاه اليد العاملة الوافدة من البلاد الصديقة وبلاد المغرب ـ اود أن اتحدث عن النقطة الاخيرة الموجودة فى الموضوع الاولاشغالكم ـ اعنى واجبات رجال الاعلام وعمـــال مواصلة الجماهير امام الاوضاع التى سردناهاامامكم بايجاز ·

اكلمكم عن المهنة التى أمارسها وهى الصحافة وحسب رايى ، رأى صحافى بلجيكى تجاه هجرة العمال العرب المسلمين الى بلادى ·

كنت دائما اعتبر ان مهنة الصحافة مهنة شاقة متى كانت تحتوى على الشهادة ـ كلمة شهد تحتوى اولا على الاطلاع ثم الادلاء بما نعرف ـ فكلتا الطريقتين تحتوى على عدة عقبات من الصعب جدا تحاشيها ·

كثيرا ما يقال أن الواجب الاول للصحافى ان يكون موضوعيا · وبعد ان مارست هذه المهنة عشرين سنة استطيع ان اقول ان هذا ليس صحيحا كله لسبب بسيط وهو ان الموضوعية تظهر لى مستحيلة ـ ان الصحافى ليس مؤرخا فهو فى الحق منغمس فى التاريخ الحاضر ـ شغله الاول ان يعيش فى الواقع ان يحاذى رجالا احياء ان ينفعل كرجل حي يعيش وضعيات ملموسة ـ ولو اراد ان يكون موضوعيا فهل يستطيع ؟ بالعكس عليه ان يكون نزيها ـ فالنزاهة هى عمله الاول ـ فانه لا يستطيع ان يخدع لا من يتكلم عنهم ولا من يكلم ـ كما انه لا يستطيع ان يخدع نفسه ويسقط فى افخاخ الكتابة ·

واظن ايضا ان هذا الواجب الاساسى اى النزاهة يرافقه حقان : حق الاشمئزاز وحق الابتهاج ـ واظن أننى استعملت هذين الحقين فى مادة تلائمهما ـ فكم فى الاوضاع التى وصفناها من مواضيع الاشمئزاز والابتهاج كم ظلما مسلطا على العمال المهاجرين فى شخصيتهم وهم متقبلون هذه الحياة السقيمة · كما نبتهج حين نرى ذلك التضامن الذى يقوى يوما بعد يوم بين هؤلاء العمال ومواطنى البلد المضيف ·

أظن ان واجبنا كصحافيين يستطيع ان ينحصر فى نقاط محسوسة قابلة لتغيير عقلية الرأى العام تجاه المهاجرين تغييرا جذريا اذ هو الاهم فى النهاية ـ لابد ان نذكر الى الرأى العام هذا أن اقتصادنا الغربى يحتاج الى اليد العاملة الخارجية ـ لم يجد هذا الاقتصاد ما يحتاجه من عمال فى عين المكان لذا اضطر ان يطلبها من اسواق العمل الاخرى وجلب هذه القوى الاضافية التى هو فى حاجة اليها · طبعا فان الفائدتين متلائمتين ان العمال الوافدين عند ما يعملون برضى منهم لانهم وجدوا مزايا مادية ـ ومن الجدير بالذكر فيما يخص هجرة عمال افريقيا الشمالية انها نتيجة مباشرة للاقتصاد الاستعمارى ـ لم تصنع فرنسا الجزائر ابدا لم يهمها ابدا ان توفر العمل للجميع ـ انها حولت اناسا كثيرين وجدوا انفسهم فى مناطق لم يجدوا فيها وسائل العيش كافية ـ من هنا نشأت الهجرة اى من اضطرار الانسان ان يعيش وان يعيش ذويه ـ من الاحسن تذكير هذا للرأى العام ولو لم يكن هو المسؤول ـ كما هو الامر للرأى العام البلجيكى مباشرة ولا حليف السياسة التى طبقت هذا زمنا طويلا ـ ومهما كانت اسباب الهجرة فمن واجبنا

ان نذكر الرأى العام ان العمال الوافدين عدناهمرجال ، رجال ليست عليهم واجبات فقط ولكـــن لهم حقوقا أيضا ـ رجال ليس همهم الوحيد كسب المـــــال ولكن لهم اشتغالات عائلية واجتماعية وثقافية ، رجال ليس همهم الوحيد الحصول على سكن لائق (وقد رأينا انه غالبا ما لايجدونه) ولكن يحتاجون الى محيط بشرى ليساعدهم عـــلى ان يتكونوا على النطاق الخلقى والثقافى ·

لابد ان نكون ذوى شجاعة حتى نقول الى الرأى العام ان العمـــال الجزائريين المقيمين فى بلادنا لهم الحق المطلق فى ان يرددوا مع ابـــن باديس الشعارات الثلاثة : « الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر بلدنا » · وفى نظرى فانه لا يـــوجد اى تناقص بين ارادة تطبيق هذا الشعار وضرورة الاندماج المؤقت فى مجموعة عمل اجنبية ·

ولابد علينا كلما اقتضت الحاجة ان نذكر قيم الحضارة العربية الاسلامية وأن نضع الاسلام فى وجهـــه الحقيقى ـ طبعـــــا فانه ليس على الصحافيين ان يعيدوا كتابة التاريخ ولا نظريات الفلسفة ـ ولكنه فى استطاعتهم ان يدلوا بوضوح ان هذا التاريخ قد كتب جيدا وان هذه النظريات غالبا ما كانت خاطئة ـ اتذكر خاصة مـــا تعلمته عن عقم الاسلام من الناحية العلمية وعن التناقض الموجود بين هذا الدين الوحى وتطور المعرفة · وفهمت بعدئذ انهم ارادوا ايهامى كما خدعـــوا اجيالا من التلاميذ فى الغرب ـ فهمت ان الاسلام يمكنه ان يكون قوة تحريرية وانه ما فتىء كذلك ـ وما فهمت فى استطاعتى افهامه لغيرى اذ لدى فرصة الكتابة وأن مهنتى الشهادة ·

وحين يعلم الرأى العام فى البلد المضيف القيم الثقافية والخلقية للعمال المهاجرين جيدا فانه ستزول عدة افهام سيئة وسيقوى التضامن بين الرجال الذين تحتم عليهم الاوضـــاع الاقتصادية ان يعيشوا معـــا ·

على الصحافيين ايضا وعلى كل من يعمل فى اجهزة الاعلام ان يكشفوا عن اضطهاد العمال المهاجرين سواء من طرف ارباب العمل او مـــن طرف السلطات العامة ـ ان التجربة لتبين ان الاتهامات العامة لهذا الظلم لاجدى ومتى كـــان الرأى العام مجندا فان السلطات المعنية لابد وان تتبـــــع ·

فمثل هذه الحملات يستطيع الصحافى ان يساعد العمال المهاجرين على ان يتغلبوا عـــلى عقدة الخوف التى غالبا ما تشلهم ·

وهكذا سيقطعون الصمت الذى يتخذونـــه امام الاضطهادات وسيرفضون طريقة الاستغلال الذى يحاول ان يطبق عليهم وبكيفية موجـــزة سيطالبون ويفرضــــون كرامتهم الانســـــانية ـ الكرامة ـ اود ان اتم بهذه الكلمـــة ـ ان هذه الكلمة كثيرا ما كانت معدومة فى مفردات الهجرة

ـ لابد من استرجاعها · اعنى كرامة العمـــال المهاجرين وعائلاتهم كما اعنـى ايضا كرامتنا ـ ان كرامة حضارة ما تقاس بمدى ما تفعله للغير ـكرامة مجتمع ما تقاس باحتـــرام من تستقبلهم عندها ـ ان كرامة الانسان تقاس بالصورة التى يسيدها على غيره ـ اعتبر العمال العرب الذين هاجروا الى بلادى كاخوانى كما اعتبر انه من واجبى كصحفى ان اكتبه ـ هذا ما وددت أن اقوله كصحفى ان اكتبه ـ هذا ما وددت ان اقوله بكلبساطـــة ·





برقيـة تعـزيـة

بمناسبة وفاة العالم
الجليل
محمد أبى زهـرة
بعث السيد
مولود قاسم نايت بلقاسم
نص البرقية التالية :

بلغنا بمزيد الاسى والحزن نبـا وفاة الشيـخ أبى زهـرة المعروف باستماتته فيما يراه حقا ، وأحد أساطين الشريعة الاسلامية على مـر العصور ، والذى غادرنا فى الوقت الذى كنا ننتظره والسيدة حرمـه فى الجزائر بنـاء على دعوتنا اياه التى كان قبلها فى آخر الملتقى السابع للفكر الاسلامى الذى شارك فيه فى السنة الماضية فى تيزى وزو .

تغمد الله الفقيد برحمته وأسكنه فسيح جنانه ، ورزقكم وأسرتـه وايانا جميعا الصبـر والسلوان .

مولود قاسم

وضع الأقليات والجاليات عمومًا والإسلامية خصوصًا

في كثير من بلدان القارات الخمس

وواجب العلماء والمفكرين، ورجال الإعلام نحوها

د٠ عبد الكريم سايتو

استاذ الاقتصاد

بجامعة طوكيو ـ اليابان

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

امتداد الاسلام نحو الشرق :

منذ بدء دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ـ دين الله ـ فى ربوع مكة ـ وقد مر على ذلك ألف وأربعمائة سنة تقريبا ـ والاسلام ينتشر فى جميع أنحاء الارض ، بالطبع ، لقد تركزت غالبية المسلمين أولا فى الجزيرة العربية باعتبارها المكان الاصلى للدعوة ، ثم انتشر بعد ذلك فى جميع البلاد العربية ، ثم فى بلاد المغرب وايران والترك والافغانستان والباكستان والهند وبرما وتايلاند وأندونيسيا ومليزيا وسيلان ، تلك البلاد التى تكون العالم الاسلامى ، وكذلك الصين وبلاد السوفييت حيث يوجد عدد كبير من المسلمين ٠

فى آسيا ـ احدى قارات العالم الخمس ـيتكثف جمهور المسلمين فى الغرب ، والقليل منهم فى الشرق ، ثم اقل القليل فى الشرق الاقصى ،وحين أذكر الشرق الاقصى انما أريد مثلا الفلبين والصين بما فى ذلك هنج كنج وفورموزا وكورياواليابان • انه من الاهمية بمكان أن أقــول : أن الاسلام هو دين المساواة بين جميع الطبقـــاتوجميع الاجناس فى العالم • واذن ، لم يكـــن انتشاره وامتداده فى جميع أنحاء الارض بالقوةوالسيف كما يقول أعداء الاسلام ، وانما بالاخاء والسلام والمساواة ، وبخاصة كان لتلك المعـانىأثرها العجيب فى الاجزاء الشرقية من آسيـا • فلم تكن هناك جيوش أرسلت الى الصـــــين أوالروسيا •

هل كانت هناك بعثات حربية أو سياسيــةبغرض دفع الناس الى الاعتقاد فى الاسلام وتفرض على الناس الدخول فيه فى مليزيا أو سومطرة أوجاوة انه من الواضح جدا ـ طبقا لتاريخ العالم الحديث ـ أن التجار العرب فى شواطىء البـلادالعربية مثل حضر موت واليمن وعمان وغيرها قد امتدت تجارتهم ـ تدريجيا ـ فى ســــــلاموإطمئنان وأمان عبر شواطىء البحار الشـرقية حتى وصلوا الى ميناء اتشى ، ثم الى الشمـــالالغربى من سومطرة ، وأنهم استقروا هناك ثـــم تزوجوا من أهالى تلك البـلاد ، وبنوا منازلهم ،وعاشوا مـــع عائلاتهم هناك ، وكان اعتقادهم الراسخ فى الاسلام ومبادئه سببا فى جعـــــلالمواطنين يتأثرون بعقيدتهم ويقلدون طريقتهم فى الحياة •

حينئذ انساخ الاسلام بالتدريج الى كــــل أجزاء الجزيرة ، ثم الى جاوة وسايبس وسولو ثم الى منداناو (الفلبين) وهكذا •

الفصـــــل الثـانى

انتشـار الاســلام فى الشـرق الاقصــى :

I ـ الطريق الشمالى :

بدأ الاسلام فى مكة بدعوة الرسول محمدصلى الله عليه وسلم ، ثم انتشر بعد ذلك فى كـل الانحاء • وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلمبسنوات قليلة وصل الاسلام الى العراق وايران (فارس) وازدهرت بالاسلام فى أيام الدولـــةالاموية والعباسية والساسانية • وقد ذكر أيضا انه قد اعدت بعثة وصلت فى عاصمة الصين فىدولة تانج بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعشرين سنة فقط • وفى سنة 7II وصل محمد بنالقاسم السند (الباكستان) وفى سنة 75I هـــزم مسلمو آسيا الوسطى الجيش الصينى وفتحـــواالطريق الى الصين ، ومن ثم انتشرت التعاليـم والحضارة الاسلامية فى الشرق عن طريق الاجزاءالشمالية من آسيا • وفى القرن التاســع صارت

كل منطقة التركستان دولا اسلامية · وبعد القرن العاشر وجدت كثير من الدول الاسلامية مثـــل الفاطمية والغزنوية (خورازم شـاه الغزنوى)والسلجوقية (سلجوق) والايوبية والسلطـــان محمد الغرفى الافغانستان ، وقطب الدين أيبـــكوكذلك الامبراطورية العثمانية وكثير ، وكذلــك كل المنطقة بين النهرين والاناضول والكردستانوأذربيجان وفارس وخراسان وخارى وكيفـــا وسمرقند وطشقند وفرغانة وكشجر وبلوخستانوافغانستان والهندوس والبنجاب ودكا وبنجالا وكشمير ، وانتشر فى قلب آسيا عبر جبال تنـجشـــان وطريق تكارا (كشجر ويرقند وخوتان) وصحـــــراء جوبى ومنغوليا ومنشوريا ثم الىالعواصم الصينية خاصة ·

2 ـ الطريــق الجنوبى :

فى خلال وقـــت قصير من فجر التاريخالاسلامى انتشر هذا الدين الحنيف فى جميـــع الجزيرة العربية كما ذكر من قبل · ثم ان التجارالمسلمين من الشواطىء العربية مثل اليمن وحضر موت ومسقط وعمان ذهبوا الى ايران وبلوخستانوالسند والشاطىء الغربى لقارة الهند ثـم الى قمة هذه القارة ثم الى سيلان أو جزر مالديف ·ثم استمرت رحلاتهم فيما وراء المحيط الهندى الى برما ومليزيا وسومطرة وجاوة وبورينو وسلبسوسولو ثم الى الفلبين (مندانـاو) وقد ذكر أيضا أنهم وصلوا كانتون (شمال الصين) فى فجـرالتاريخ الاسلامى ·

3 ـ انتشار الاســلام فى الصـــين :

لقد ورد فى تقرير صينى قديم فى عصــــر (دولة تانج) سنة 651 أن أول بعثـة جاءت الى الصين كانت من الدولة الاســـلامية (تاجيك)واستقرت فى المكان الذى هو شمال الافغانستان الآن · ومنذ هذه الزيارة أرسلت الى هناك ســتوثلاثون بعثةمن الدول الاسلامية · وقد حضرت هذه البعثات عن طريق الشمال ، واستقر بعضهمفى العاصمة تشانجن ، وبعضهم استقر فى يوانج تشو وهوانج تنج أو جزيرة هاى تنج ·

وكان عملهم فى الغالب هو التجارة ولـم يكن للتبشير الاسلامى على عكس ما تقوم بـــــه المسيحية المأجورة ·

وفى دولة (سنج) من القرن العاشــر الىالقرن الثالث عشر نشطت حركة المرور والاتصالات بين الصين وبين المسلمين من الشمال والجنـــوبوكان هؤلاء المسلمون من التجار الذين استقروا فى مدن : هوانج تنج وكايفن وهانج تشو ـ الخ تلك المدن التى كانت فى الغالب موانى أو مراكز تجـــارية ·

وقد حافظ هـــؤلاء التجار المسلمون على التبادل التجارى العام بين الشـــرق والغرب ، واتصلوا بالناس فى هذه الاماكن ، وأروهم طرقحياتهم الاسلامية ، وعلموهم الاســـلام ـ ذلك الدين الصالح لكل زمان ومكان :

وفي عصر دولة (يوئن) من القرن الثالثعشر الى القرن الرابع عشر ، غزا المنغوليون كثيرا من الدول الاسلامية في غـــرب آسيا وخربوهاتخريبا عنيفا ، ولكن ـ بدل ذلك ـ اتحدت الحدود والقيود والعادات في امبراطورية واحدة ونتجتمع ذلك حضارة اسلامية عظيمة تحت حكم الدولة المنغولية (يوئن) ، وكان هناك اختـــلاط كثيرواتصال عظيم بينهم ، واستدعى كثير من مسلمي غرب آسيا ورقوا الى مناصب هامة في الصيـــنوفي ميادين التعليم والصناعة والتجارة والرياضة والفلـــك والتكنولوجيا والجغرافيا والطبوغرافيا ـ الخ ، ولا يستثنى من ذلك تعاليم الاسلام وطابع الحياة الاسلامية ، فقد سرت الى الناس من خلالذلك ، حتى انه ـ بعد توالي السنين ـ قد اهتدى الى الاسلام أعداد كثيرة من الصينيين ، وقـــدوجد المسئولون الصينيون أن الاسلام خير مساعد على الادارة والسياسة ، ولذلك لم يضطهدوه ·وقد ظلت كل الاراضي التي احتلها المنغوليون على اسلامها ، بل ان كثيرا من المسلمين انتشـــرواانتشارا واسعا وعميقا في الصين ·

وقد اعتنق الاســـلام الملك انأندا وجنوده ـ وعددهم مائة وخمسة وخمسون الفـا ـ كما صارت محافظات كيانج سي وسو تشوانج وطرفانفي دائرة الحكم الاسلامي ·

ولقد رقى السيد شمس الدين أحد مسلميبخـــاري (1211 ـ 1279) كمؤسس اداري في منصب صيني ملائـــم ، وكان كثير من المهتدينللاســـــلام ـ خاصـــة ـ من محافظات : أنان وسوتشوانج وكيانج سي · وفي عصر عائلـــةمنج (1368 ـ 1643) تغيرت السياسة والادارة ، وعـــاني المسلمون من اضطهاد هذه الحكومة ،وواجهوا كثيرا من الصعوبات ، ولكنهم ظلـــوا محافظين على دينهم تحت ضغط هذه الظروف ·ولقد حرم عليهم التزوج من الجنسيات المختلفة وأجبروا على أن يلبسوا مـــلابس على الطرازالصيني وأن يغيـــــروا أسماءهم على الطريقة الصينية · على الرغم من هذه الفترة العصيبةفانهم لم يغيروا دينهم ولم يتركوا اسلامهم وظلوا محتفظين بتعاليم الاسلام وعقيدته وطريقة حياتهم·ولقد أبعدت حكومـــة منج المسلمين الى سمرقند وهامي وطرفان في الشمال الغربي والى أماكنأخرى وسكنوا غيرهم في أماكنهم التي أخرجوا منها · ولكن المسلمين الذين هم من أصل تركـــيأو ابـــراني أو منغولي اختلطوا مع الطوائف الصينية على الـــــرغم من الصعوبات والعقباتالجنسية واللغوية ، وكونوا طوائف اســــلامية متعاونة تحت فكرة الاسلام ·

وقد أدى هذا الاضطهاد الحكومي الى اتحادالمسلمين وثباتهم ، كما تزوج بعضهم من بعض على اختلاف جنسيتهم حتى من الصينيين ، وكانوايتكلمون اللغة الصينية في حياتهم اليومية ويلبسون الملابس الصينية ولكن كانت طريقة حياتهم اسلاميةمحضة ووجهة نظرهم في الاسلام لم تتغير أبدا · ولما صارت الصين في حكم عائلة (تشنج) 641 ،زادت الطوائف الاسلامية بالتدريج في الصيـــن وانتشرت بالرغم من اختلاف الجنسيات ، ولكنجدت في هذا الوقت مشكلة أخرى هي القتـــال

بين الجماعات الاسلامية وجماعة هان القومية(مؤسسة صينية قومية) ٠ هذا القتال انتشر فى معارك مسلحة ٠ ولقد انتهى حكم عائلة تشنــــج فى 1911 (الامبراطور هسوان) ٠

لقد ورد فى التقريرات أن جمهور المسلمين فى ذاك الوقـــت كـــان 35،400،000 مســـلما ٠ وفى سنة 1961 أعلن التقرير الذى نشر فى ببنـــج تحت عنوان (مجلة القوميات فى الصين) أن جماعة المسلمين يبلغ بيانهم كالآتى :

اســـم الدولة	فى سنة 1953	فى سنة 1957
هوى هوى (صينية)	300 و 559 و 3	335 و 934 و 3
فيجولس	100 و 640 و 3	205 و 901 و 3
كازاكـــس	300 و 509	160 و 533
تونجانـــس	700 و 155	345 و 159
كرغيـــس	900 و 70	862 و 68
سراهـــس	600 و 30	923 و 31
تاجكـــس	499 و 14	014 و 15
أرزبكـــس	600 و 13	557 و 11
بوالــــس	900 و 4	516 و 5
تراتـــارس	900 و 6	371 و 4
المجموع الكلـــى	799 و 005 و 8	288 و 665 و 8

4 ــ انتشار الإســلام فى الفلبين :

كانت هناك موجات اسلامية عن الطريـــق الجنوبى عبر الموانى الساحلية للهند وســـيلان وجزيرة مالديف وسو مطرة ثم مرت بمالكا قاصدة الى الشاطىء الشمالى لبورنيو اومارة خـــلال بحر جاوة وبحر مكاسر الى المستقر الاخيـــــروهو الفلبين فى ذلك الوقت ٠

تتكون الفلبين من كثير من الجزائر ، ولقدنزل الاسلام أول ما نزل فى جزيرة سولو وجزيرة مندانا وثم الى لوزون فى النهاية ثم انتشــر فىتلك المنطقة من الشرق الاقصى ٠ لقد ورد فـــى تقرير ان الشيخ مقدوم ــ وهو من مالكا ــ كـــان عالما مشهورا ومفتيا وقد بذل كثيرا من المجهودات لنشر الاسلام فى مالكا حوالى سنة 1380 ، وكان هؤلاء الذين قاموا بالدور الهام فى نشر الاسلام

فى الفلبين - فى الغالب - تجارا مسلمين مثلهمفى ذلك مثل اخوانهم فى الصين وبخاصة هؤلاء التجار العرب الذين جاءوا من مكان بعيد مـــنحضر موت عن طريق البحر ، وقد تركوا اوطانهم ليستقروا فى هذا المكان يعلمون الاسلام ، ويليهمالحكام الوطنيون فى مناطق بحر الشمال فى شرق آسيا الذين اهتدوا للاسلام مـــع رعيتهم وقومهمجميعا ، ولقد جعلت قوة ارادتهم ذلك أمرا سهلا وسريعا • وثالثا فان العلماء والغيورين عـــلىالاسلام قد حضروا لزيارة هذه الاماكن وقامـــوا بالتبليغ بين الكفار •

ولقد قيل ان بعثات صوفية أيضا أرسلت منايران فى ذلك الوقت • ثم ووجه هذا التقــــدم الاسلامى السالم فى الفلبين بهجوم عنيف اسبانىفى القرن السادس عشر • بعد هذا الهجـــــوم الاسبانى بدأت ثلاثة قرون كلها حرب لحمايـــةالاسلام والامة ضد الاستعمار الاسبانى • وفى أثناء هذه الفترة الطويلة تحمل المسلمون وغيرهمعناء شديدا ولكنهم قاتلوا ببسالة • ولقد هــزم السلطان سليمان فى لوزون بســـرعة فوقعـــتالجزيرة فى أيدى الاعداء ، وأخيرا حدثت معـارك عنيفة لا نهاية لها فى الاجزاء الجنوبية من منداناووسولو ، وكان من بين المقاتلين الذين اشتركوا فى هذا الجهاد السلطان بنجيان سلطـــان سولووالسلطان ديباتيان قدرتى سلطان مـــا جنداناو وداتو اقادير سلطان راناو • وبالرغم من الغاراتالاسبانية اليائسة المتتالية لم يستطيعوا أن يهزموا المسلمين الفلبينيين • وأخيرا واجه الاسبانيونسوء المصير الذى حملهم على التخلى عن طموحهم الوحشى نتيجة لتأثرهم بالهزيمة فى الحـــــرب الاسبانية الامريكية سنة 1898 • انه لم يكن هناك قتال أكثر عنفا وتعاسة فى تاريخ الفلبين من هذهالحرب التى كانت بينهم وبين الاسبانيين ، وحقا أنهم حموا بيضة الاسلام حماية تامة من الاعداء• انه ليس فخرا لهم فحسب ولكنه فخر كل المسلمين فى العالم من غير شك • ان نور الاسلام وحضارتهربما ازدهرت وانتشر عبيرها فى الفلبين لـــو لم تكن هذه الحرب الاسبانية •

لم يكن المسلمون الفلبينيون سعداء ليستقبلواالامريكان بعد الاسبانيين ، ولكنهم كانوا متعبين تماما فى ذلك الوقت • وفى أثناء التسلط الامريكىأبدى المسلمون الفلبينيون مقاومة عنيفـــة لهذا التسلط أيضا ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكسبوابسبب العدد الكثير من الامريكان وبجانب الاسلحة الفائقة الامريكية • وكان القواد الذين ماتوا فىهذه الفترة : داتو على فى سنة 1905 وجيكيرى فى 1909 وداتوا أميئتابا رديد فى 1909 وداتـــوامبوانجوس فى 1911 ونجيب أمـــير فى 1913 وسايبول بونجلوسيف الدين فى 1914 • وحينئـــذأصبح المسلمون تحت الادارة الامريكية والتأثير الكاثوليكى ، ثم فسدت حال المسلمين شيئا فشيئا •وفى سنة 1945 حصل الفلبينيون على الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية فاتصـــل المسلمونالفلبينيون مباشــــرة بمسلمى العالم ، وبدءوا

يستيقظون ، وفى سنة 1950 زار الفلبين جماعةالتبليغ الباكستانيون ثم الشيخ شلتوت شيخ الجامع الازهر وغيرهم ، وجاءتهم المساعدات المالية والروحية من القاهرة ومكة وجاكارتا وليبيا وكوريا وغيرها ، وكذلك ايضا اختلطوا بأندونيسياومليزيا وهنج كنج واليابان وكوريا وغيرها ، وبدا أن مستقبل المسلمين فى الفلبين فى تحسنولكن لسوء الحظ اقول ان هناك فى هذه الايام تصادما مستمرا بين اخواننا المسلمين وبينالجماعات المسيحية المعانين بوساطة الاداريين الحاليين ·

لقد بلغت الضحايا فى تصادم سنة 1971 كماورد فى تقرير حكومة الفلبين اكثر من الف ، وأن ست مدن فى جنوب سان بوانجا أصبحت أشباحمدن فى سنة 1972 ، وأن عدد اللاجئين بلغ 135 و 213 شخصا ، وقد صدر هذا التقرير فىالاسبوعين الاولين من مارس سنة 1973 · وكان سبب هذا التصادم كما جاء فى التقرير هو سوءالمعاملة بما فى ذلك مصادرة الاسلحة أو الارض التى أخذها المسلمون فى المناطق الاسلامية · وقامقطاع الطرق المسيحيون المدعوون (ايراجا) بمهاجمة المسلمين ، وقام المسلمون بتنظيم جماعةمسلحة لحماية أنفسهم · لقد كان تعبئة الجيش والبوليس لاجل هذا الغرض دافعا الى جدية هذاالصدام · ولقد ذكر أن قائد جماعة المسلمين المسلحين هو الاستاذ نور مسوالى من جامعةالفلبين ، وامتدت مناطق القتال فى كوتاباتو وسان بوانجا ولبنجان وباسيلان وهولو ثم بعض الاماكن فى جزيرة سولو ·

ولاجل حالة المسلمين المؤسفة فى الفلبيناهتم مسلمو العالم بهذا الامر · ففى يونيو 1973 أرسلت بعثة الى الفلبين لبحث هذا الامر تضمنتأشخاصا من الافغان والسنجال والصومال ومن السعودية العربية ، ولكن لم يقل الضغط بعد ، ولايزال المسلمون هناك يعانون من اراقة الدماء ما لا يقل عن نظيره فى فلسطين · ولقد أعلن الرئيسماركوس نفسه أن هناك مليونا من اللاجئين المشردين فى هذه المناطق · انه لشىء محزنليس لهم فقط بل لكل جميع اخوانهم من المسلمين ولكل البشرية على هذه الارض · يجب الا نهملهذا الامر ونضعه جانبا ، بل يجب أن نطالب بحق الانسانية لاخواننا المسلمين فى الفلبين · ولاجلذلك نرجو من حكومة الفلبين :

1 ــ أن توقف الاعمال الهجومية التى يقوم بها الجيش والبوليس ·

2 ــ أن تقوم بعمل مهادنة بين الفريقين ·

3 ــ أن تقوم بالغاء الامتيازات التى تميز الآخرين على المسلمين ·

4 ــ أن تنشىء قانونا يبيح للمسلمين حق تملك الارض ·

5 ــ أن تقوم بتحسين النظام التعليمى لابناء المسلمين ·

6 ـ أن تنقذ المتعطلين ومن لا عمل لهم من المسلمين ٠
7 ـ أن تنشىء المستشفيات والعيادات الطبية فى المناطق الاسـلامية ٠
8 ـ أن تبيح لهم الاختلاط باخوانهم فى الخـارج ٠

اننا يجب أن نمد أيدينا الى هؤلاء الاخوة المسلمين الفلبينيين الذين يبلغ عددهم ثلاثة ملايين على وجـه السرعة ٠

5 ـ انتشار الاسـلام فى كوريا :

ان التبشير للاسلام فى كوريا لم يصل فى الوقت الحالى الى الدرجة المطلوبة شانها فى ذلك شان اليابان التى ستذكر فيما بعد ، لا عن الطريق الشمالى ولا عن الطريق الجنوبى ٠ قد يكون من المحتمل أنه قد حدثت اتصالات معينة بواسطة الطرق الشمالية فى زمن دولة يوئن الصينية عندمـا حصل هذا الاختلاط العظيم بين الصين والاقطار الاسلامية ، ولكننا لا نستطيع أن نذكر على وجـه التحديد متى كان ذلك ٠

قبل الآن فى سنة 1950 تبعا لنتيجة الحـرب الكورية قد استقر هناك جنود أتراك من القـوات الدولية للامم المتحدة ، وهؤلاء الجنود كانـوا مسلمين يتصرفون فى حياتهم تصرفا اسلاميا ، فكان ذلك تبليغا للاسلام غير مقصـود ، وكانت هذه فرصة عظيمة ليعرف الكوريون عظمة الاسلام وأن يتاثروا بذلك فيدخلوا الاسلام واحدا بعـد الآخر ٠ وبعد الاتراك جاء كثير من الاخوة المسلمين المسلمين من الباكستان ومليزيا والسعودية العربية وسنغافورة والافغان الى هؤلاء المسلمين ٠ الجدد البالغ عددهم آلاف قليلة فى النصـف الجنوبى لجزيرة كوريا ٠ وسيبقى اسم الحـاج صبرى سوه رئيس اتحاد مسلمى كوريا فى تاريخ انتشار الاسلام فى كوريا كواحد من عظمـاء الرجال ٠ وأول مسجد الآن فى سبيله الى الاكتمال فى سيول ، وهو المسجد الذى فى سبيله بذل داتو ابراهيم السقاف (من سنغافورة) ومولانا السيدجميل (من باكستان) كثيرا من المجهود والوقت ، وما أنيله غرضا مقدسا ، واننا لنتوقع كثيرا من التقدم لجيراننا الجنوبيين فى المستقبل ٠ ليـس عندنا أخبار فى الوقت الحالى عن المسلمين فى النصف الشمالى للجزيرة ٠

6 ـ الاسلام فى هنج كنج (حذف)
7 ـ الاسلام فى فورموزا (حذف) ٠

8 ـ الاسـلام فى اليابان :

ان الاتصال بين اليابان والصين وجد فعلا من عصر (تانج 618 ـ 957) عندما ظهرت أول بعثة اسلامية فى الصين ، ولكن لم يأت شـىء بخصوص الاسلام من الصين الى اليابان ، وكذلك لم يحضر الزائرون المسلمون عبر البحـر الى اليابان ٠

منذ ذلك الوقت الى القرن السادس عشر لم تكن العلاقة بين البلدين متينة بسبب العقبات الطبيعية أو وعورة البحر والتصرف غير الودى من دولة يوئن تجاه المسلمين ·

وفى القرن السادس عشر بدأت رحلة البحارة الاوروبيين الى الشرق ، ولكن سياسة الحكومة اليابانية نحو اغلاق الحدود تماما منذ سنة 1639 الى سنة 1853 أوصدت جميع أبواب البلاد ، ولهذا لم تتهيأ الفرصة لتقدم الاسلام الى هذه البلادولا للاتصال من البلد الى الخارج والعكس · فى سنة 1868 وهو عصر الامبراطور ميجى أزيحت هذه المغاليق وفتحت الابواب على مصراعيها ودخلت الحضارة الغربية البلاد ودخل معهاالاسلام بواسطة الاوروبيين غير المسلمين من خلال كتبهم بالاختصار · وفى سنة 1875 نشركتاب مترجم من الانجليزية الى اليابانية اسمه (سيرة النبى محمد) وربما كان هذا أول كتابفى اليابان حول الاسلام · وفى سنة 1890 زار اليابان بعثة صداقة من الامبراطور العثمانى ،وكان هذا أول اختلاط بقطر اسلامى ·

وفى سنة 1895 بعد الحرب الصينية اليابانية مباشرة اعتنق الاسلام (ب· أريجا) وكان أول مسلم فى اليابان · وفى سنة 1909 حجالبيت الحرام (ك· ياماؤكا) مع الحاج عبد الرشيد ابراهيم التركى ونشر كتاب (الحج الى مكة) · وفى سنة 1917 أدى الحج (ا· تاناكا) وأحضر معه ثلاثة من المسلمين الاتراك · وفىسنة 1909 لجأ الى منشوريا ثم الى اليابان مئات من مسلمى الاتراك الروسيين بعد الثورة ، وقدقبلتهم اليابان كلاجئين وجعلتهم يستقرون فى اليابان · وقد باشروا حياتهم الاسلامية فى اليابانبحرية تامة مؤثرين فى اليابانيين كما استمروا فى حفاظهم على الدين لمدة طويلة ، وقد سجلتكتبهم المنشورة عن الاسلام الى الآن مثل (يانى جابون محمد) ·

وهناك كتب نشرت عن الاسلام باللغةاليابانية مثل (قوة الاسلام) لمؤلفه ياماؤكا ـ و (نشاط المسلمين ومستقبل آسيا) لمؤلفه واتانابو (حياة محمد) ومؤلفه ساكاموتو ، و (تاريخ الاسلام الحديث) ومؤلفه كاواس ، و (دراسةعلى المسلمين فى الصين) ومؤلفه دازاى ···· ولكن لم يهتد الى الاسلام الا القليل جدا لانمؤلفى هذه الكتب المذكورة لم يكونوامن المسلمين فى الغالب · وفى هذا الوقت كان كثير من البلادالاسلامية يرزح تحت نير الاستعمار الاوروبى ، ولكن الترك وايران والافغانستان تبادلو التمثيلالدبلوماسى مع اليابان · وفى سنة 1932 أسست (جمعية التمدن الاسلامى) فى طوكيو ·

وفى سنة 1932 بنى أول مسجد فى كوبىبأيدى التجار المسلمين الاجانب ، كما ذهب بعض الشباب اليابانى للحج (سوزوكى ، هوساكو ،كوورى ، ياماموتو) · وفى سنة 1938 فى 12 مايو افتتح مسجد طوكيو وحضر الافتتاح الامير سيف الاسلام حسين من اليمن وعبد الوهاب داود بك

من مصر والشيخ حافظ وهبه من السعودية العربيةوكثير من الضيوف من العالم العربى والاسلامى ، وأخذ الامام المفتى عبد الرشيد ابراهيم منصبرئيس الشرف فى حفل الافتتاح ٠

وبعد هذا الافتتاح الرسمى بثلاث سنوات وقعت الحرب الامريكية اليابانية فى المحيط الهادى ونتيجة لهذه الحرب استقلت كثير من البلادالاسيوية ، وفى أثناء تلك الحرب اعتنق الاسلام كثير من الجنود والبحارة والمدنيين الذين عملوافى الخارج من اليابانيين حيث اتصلوا بالمسلمين وصاروا حقا مسلمين ، ولكن بعضا منهم كان قداعتنق الاسلام لاسباب حربية أو سياسية ولكنهم اختفوا بعد الحرب ٠ لقد بدأت الحركة الاسلاميةفى اليابان حقا بعد هزيمة الامبراطورية اليابانية مباشرة من غير مساعدة أو تشجيع من أى سلطةاللهم الا من المسلمين ٠ فى سنة 1952 أنشئت جمعية للمسلمين الموجودين فى طوكيو وانتخبالسيد صادق امايزومى كرئيس لها ، وقد أطلق على هذه الجمعية اسم (جمعية مسلمى اليابان)وبعد ذلك سجلت هذه الجمعية فى الحكومة كجمعية قانونية مسجلة فى سنة 1968 ٠

1 ـ مركز الاسلام الحالى فى اليابان (سيشرح فى أثناء الحديث) ٠

2 ـ النشاط الحالى للجمعية (سيشرح فى أثناء الحديث) ٠

3 ـ غرابة الدين بالنسبة لليابانيين (سيشرح فى أثناء الحديث) ٠

الفصل الثالث

انتشار الاسلام فى مناطق الاقليات المسلمةودور المفكرين الاسلاميين :

أريد أن اتحدث عن انتشار الاسلام وتعضيده والاتحاد بين الجماعات الاسلامية فى بلاد الاقليات المسلمة وبخاصة فى اليابان الذى يعتبر بلدا لا أمل لنشر الدعوة الاسلامية فيه ٠

1 ـ موضوع بث الدعوة الاسلامية :

كل مسلم مسئول عن تبليغ الدعوة الاسلاميةفى أى مكان ٠ أستاذ التبليغ هو المسلم نفسه بصرف النظر عن جنسيته وسنه ومركزه ونوعهـ ذكرا أو أنثى ـ وتعليمه وعقله وقدرته المالية الى آخر هذه الاعتبارات ٠ أى انسان يابانى أوغير يابانى يجب أن يخصص وقتا قل أو كثر ، طال أو قصر لهذا الغرض ٠ كل واحد قائدتبليغ ، ويستطيع أن يعمل بنفسه أو مع غيره من الناس فمثلا : اثنان أو جماعة قلت أو كثرتكمنظمة أو جمعية أو اتحاد ، مسلم كشاف رحالة ـ ذكرا أو أنثى ـ ، جماعة النساء ، منظمةالشباب ، اتحاد العمال ، اتحاد المدرسين ، جمعية الطلبة وهكذا وهكذا ـ على أي حال ، فان موضوع الدعوة وتبليغها يجب أن يكون مسئولية كل مسلم أمام الله ٠

2 ـ المبدأ الاسلامى الواضح السهـل الاساسىيجب أن يكون شعار التبليغ للدعوة ، وكل مبلـغ يجب أن يعمل باعتقاد ثابت أنه لاشـــــىء غيرالاسلام يستطيع أن يحل مشاكل العالم وأن ينشر السلام الحقيقى تحت علم (الله اكبـــر) وهوالخالق القادر ، ولا يقرب الامور غير الاساسية بالتفصيل ، ولا اكراه فى الدين ٠ وأن يجعـــلنفسه مثلا صالحا وقدرة حسنة ، وأن يشـــرح الاسلام بالحق والعدل وحب الانسانية ، وأن يكونحريصا فى حديثه وكتابته ، وأن يدرس ويتبـــع طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم فى كـــل أعماله ، وأن ياخذ المثـــل المناسبة من الحديث ويستخدمها فى التبليغ للدعوة الاسلامية بين غير المسلمين ٠

3 ـ غـــرض التبليـــغ :

جمهـــور الناس وبخاصـــة : الفقـــراءوالمحتاجين والمرضى والشباب والتلاميذ والطلبة وبخاصـــة دراسى اللغـــات الشرقية والتاريخوالارامل والاقارب والمعارف الشخصية للداعى ٠

4 ـ طريقـــة التبليـــغ :

أ ـ الحديث والحوار : انه مألوف وموثر ، تستطيع أن تزور من تـــريد تبليغه شخصيا فى بيته أو فى مكان عمله أو فى اى مكان ، وتخاطبهوجها لوجه ويفضل أن يكون الحديث فى مكان هادىء وتستطيع أن تستدعيه الى بيتك لتحدثـــهوتتحاور معـــه ٠

ب ـ محاضرة أو اجتماع للشرح والتفسير : يجب أن تعد مثل هذه الاجتماعات وأن يحضر اليها من يريد التبليغ ويتحدث ويشرح المستمعينويستطيع أن يستدعى الشخص الى مكان معيـن كصالة عامة أو مدرسة أو نادى أو شركة أو مستشفى أو معبد ٠ والمسجد أفضل كل هذه الاماكن ٠

ج ـ الراديو والتلفزيون والسينما ٠

د ـ الطباعة : يطبع المطلوب تبليغه فى كتيبات أو صحف أو مجلات أسبوعية أو منشورات دورية أو كتب أو يدخل ضمن البرامج فى الكتبالمدرسية ٠

هـ ـ الخطابة فى الشوارع ٠

و ـ تعاون الاجانب المسلمين فى اليابان : العلماء الاجانب والدبلوماسيون ورجال الاعمال والطلبة والذين أرسلوا من البلاد الاســـلاميةلمساعدة الحركـة الاسلامية فى اليابان يجب أن يشتركوا فى رحلات فى جماعات لغرض تنشيط حركة التبليغ خلال البلاد ٠

ز ـ ارسال الطلبة المسلمين الى الاقطار الاسلامية ليدرسوا الاسلام : فى الوقت الحـــالى هناك عدد من الطلبة اليابانيين يدرسون فى مصر (الازهر ، جامعة القاهرة ، جامعة عين شمس)

وفى أندونيسيـــا والسعودية العـــربية وليبياوالباكستان وايران ٠ واذا أمكن ففى الجــزائر والمغرب وتونس وفى البلاد الاخرى ، وهذه البلادالاخيرة طلبت فعلا ارسال بعض الطلبة ٠

ح ـ الانتفاع بالطلبة الذين يتخرجون بعد عودتهم من البلاد الاجنبية :

يوجد الآن فعلا مجموعة من الطلبة اليابانيين الشباب المسلمين الذين درسوا فى الاقطـــار الاسلامية ثم رجعوا الى اليابان يعلمون فى حقـل التعليم والاعمال الاخرى ٠ هـــؤلاء نريد أن نرغبهم فى النشاط الكلى أو الجزئى للحركة الاسلامية ٠

ط ـ مبنى للنشاط الاسلامى : انه من الضرورى أن يكون هناك مبنى اسلامى لهذه الحركة ولمباشرة كـل الاعمال الاسلامية بوساطة المسلمين وايضا لاجل أن يساعد على وحدة المسلمين ٠

ى ـ افتتاح مركز اسلامى فى عاصمة اليابان : المركز هو المكان الاساسى لاجتماع المسلمين ويمكن أن يؤدى فيه الصلاة والتبليغ والاصالات المختلفة والاجتماعات والاتفاقيات والنشـــــر والمحاضرة والاطلاع على الكتب فى مكتبته ، ويمكن أن يضم غرفا يستعملها المحليون أو الضيوف الذين يحضرون من مختلف البلاد ، وللخدمات العامة للمسلمين وغير المسلمين جذبا لهم ، ويمكن أن يستقر المسلمون حول هذا المركز ويكونوا دولة اسلامية صغيرة أو مجتمعا اسلاميا تتمثل فيــه وحدتهم وقوتهم ٠

ك ـ افتتاح مصلى : لاجل راحة المصلين واجتماع المسلمين الذين يعيشون بعيدا عن مسجد طوكيو أو كوبى أو المركز الاسلامى المتوقع بناؤهفى بعض الاماكن ، يجب أن تبنى مصليات صغيرة فى أماكن متعددة مثل توكوشيما وسنداى وفكوكا ٠

ل ـ فتح مدرسة : فتح مدرسة يكون من الوسائـــل المريحة لتعليم الدين الاسلامى للاولاد والبنات المسلمين والمسلمات المحليين والاجانبفى اليابان ، وليدرس فيها المسلمون الجدد طريقة الاســـلام دراسة عملية والدروس الضروريةواللغوية والثقافية ٠

م ـ افتتاح قسم اللغة العربية : اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم ، ولهذا فان فتح قســم اللغة العربية مهم جدا ، وليكن فى المركز الاسلامىأو فى المصلى أو فى حجرة لهذا العرض ٠

ن ـ العيادات الطبية الخيرية : وهذا العمل أيضا يجب أن يتصل بالمركز أو فى أى مبنــى آخر ، ويخدم المرضى واليتامى والارامل ٠٠٠ الخ

6 ـ ميزانية نشـر الدعوة :

فى بلاد الاقليات الاسلامية بغير استثناء يواجه المسلمون عجزا كبيرا فى ميزانية الدعوة والمسلمون عادة ليسوا أغنياء فى مثل هذه المواقف ، مع أن اليابان فى درجـة عالية من التقدم الصناعـــى ٠

أ ـ يجب أن نساعد الاشخاص المسلمين أو الشركات الاسلامية لتزيد نشاطها فى ميـدان التجارة والمال ... الخ ،وأن تفتح شركات ومكاتب أعمال فى الخارج ليزداد التقارب وتقـوى العلاقات وليحسن عمل المسلمين ودخلهم ، ومن ثم يمكن بسهولة أن يساهموا فى ميزانية نشـر الدعوة الاسلامية .

ب ـ المساعدات المالية من البلاد الاسلامية .

ج ـ قبول التبرعات الاختيارية من الشركات غير المسلمة اليابانية أو الاشخاص الذين هـم أصدقاء للمسلمين أو يميلون للاسلام بدرجة معقولة فى التعاون .

د ـ أننا نقوم بدور الوساطة بين الشركات العمالية والتجارية اليابانية والاقطار الاسلامية وذلك على أساس العمولة .

7 ـ **الختـــام :**

كما بدأت من قبل ، لقد أغلقت الجزر اليابانية حوالى ثلاثة قرون لتمنع البعثات المسيحية وذلك لان اليابان قد علمت أنذاك أن المسيحيين يخفون غرضا آخر هو الانقلابات السياسية .

ولو أن الاسلام دخل اليابان فى ذلك الوقـت لما منعته اليابان لانهم يعلمون أن الاسـلام ليس له طموح سياسى للتسلط على البلاد ، وتوجد الآن حرية الديـن فى الدستور اليابانى ، ولهذا فليس هناك أى عقبة أو صعوبة فى نشر أى دين ،وبالرغم من ذلك فانه توجد بعض التحيزات ضد الاسلام ، فمثلا (الاسـلام دين الصحارى) أو (المسلمون يتزوجون أربع زوجات) أو (الاسلام يعنى القرآن فى يد والسيف فى اليد الاخرى) ،وربما كانت هذه من عمل بعض الشياطين ذوى المقاصد السيئة للاسلام . ويجب على اخواننـا فى الاقطار الاسلامية أن يكونوا حذرين من هذه الاشاعات ، ويجب أن نعمل جميعا على ازاحـة هذا التحيز من قلوب اليابانيين كما نعرف كيف نصد هجمات الاعداء الجديدة ، ولهذا الغرض يجب أن ينشأ معهد للدراسات الاسلامية بواسطة المسئولين المتخصصين من الاقطار الاسـلامية ومسلمى اليابان وأصدقائهم من العلماء . انـه يلاحظ أن بعض العلماء المسلمين الذين يعلمـون فى الجامعات الاوروبية أو كندا يلقون محاضرات عن الاسلام ليس بغرض نشر الاسلام والدعايـة له حقيقة وانمـا على العكس من ذلك وأما فى اليابان فان العلماء غير المسلمين من علماء التاريخ أو اللغات الشرقية ليس لهم قصد سيء نحـو الاسلام ، ولذلك يجب أن نحافظ على العلاقة بيننا وبين هؤلاء العلماء ، وأن نزيح سوء الفهم ونقدم صورة حقيقية للاسلام ، فان خبرة العقول اليابانية على العموم تدل على أن قبولها للاسلام من الامور السهلة الممكنة أكثر من تقبل العقـول المسيحية الاوروبية لـه .

فاذا حاولنا أن نحل مشاكلهم وعرفنا كيفنوفى بين طرق الحياة الاسلامية وطرق حياتهم فان ذلك يجعلهم يتقبلون فكرة الاسلام بسهولة ،ويصبح من المتوقع زيادة عدد المهتدين الى الاسلام من اليابانيين · اننا لنرجو أن ندعـــو العلماءوالمفكرين غير المسلمين أولا بنشاط وصـــراحة ونجعلهم يفهمون فهما جـــيدا ونثير حماستهمونجعلهم يقفون بجانب الاسلام ويصبحون مسلمين حقيقيين أخيرا ·

أمر هام آخر هو كيف نحافظ على جعل المسلمين ثابتين على عقيدتهم ونزيد هذه العقيدة رسوخا · فى بلاد الاقليات الاسلامية مثل اليابانتكون جماعـــة المسلمين غير قوية والتسهيلات الاسلامية قليلة ، وهم أيضا محاطون بغير المسلمينوهناك كثير من المحرمات فى الشوارع والمنـــازل ولذلك تحت ضغط هذه الظروف كلها فان الحاجةتشتد الى وجود المركز الاسلامى ليحميهم مـــن الحرام وليكون اتحادا قويا من العائلات الاسلاميةحوله ، ويجب أن نحاول جعل كل الافـــراد فى العائلة مسلمين ، وأن نعد نصفا صالحا (زوجا)لكل مسلم مفرد ليكن كل الاطفال شرعيين ولنكسب زيادة المسلمينفى العدد والقوة ·





النقطة الثانية من جدول اعمال الملتقى

دور المفكر اليوم وعلى مر العصور في أمته وتجاه الإنسانية في كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل

د. عزيز الحبابي

(المغرب)

مستشار بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـ الجزائر

أيها الاخوة

السلام عليكم :

1 ـ من يشرب الريح لا تشبعه الشمس

ان خريطة العالم الثالث ، والعالم الاسلامي خاصة ، خريطة اطارها الشمس ، دفئا وضياء . ولكن الضربات الشمسية قد تؤدي الى الموت اذا لم يكن داخل الدماغ سوى الفراغ . الشمس تنعش من يحسن التكيف معها ، وتقضي على الآخرين ، أصحاب الاتكال ، واللامبالاة .

والناس رجلان ، واحد يقنع بضرورة التكيف ويلتزم به ، وثان لا يفقه شيئا ويعيش فى غيبة عن ذلك • ولكنهما معا مسؤلان ، **لان حيـــاةالانسان ، فى أصلها ، مسئولية** • ان الفـــرد يحاسب على افعاله ونتائجها ، أمــام ضميره ،وأمام المجتمع ، وأمام القانون (الشرع) • والفرق بين الافراد ، خلقيا ومجتمعيا ، يرجع الى مقدارالوعي بتلك المسؤلية والاخلاص فى تحملها •

فالعبارة « الخاصة والعامة » تبيان لتلك التفرقة : الجميع مسؤول ، الا أن للخاصة قدرة على فهم المسؤلية وعلى تفهيمها وتنفيذها ، وعلىمراقبة التنفيذ ، وأما العامة فهم مسؤولون ولكن لا قدرة لهم على مراقبة سير المسؤليات وتنفيذهالانهم ليسوا من « أهل الحل والعقد » ، أى أنهم لا يعون الواجبات بكامل الوضوح ، وبالطبـــعلا يستطيعون تحملها على الوجه الاكمل •

يغلب على ظننا أن « مسؤولية » بهذا المعنىهى ما سماه القرآن بـ « أمانة » : « انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال ، فأبينأن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان» (١) •

لولا قبول الانسان تحمل « الامانة » لما استحق خلافة الله فى الارض • فاللــــه قد اجتبى الانسان وجعل الارض تحت حضانته ، مع حــقالتصرف فيها (2) •

« الامانة » عظيمة ، ونتائجها خطيرة • لذاوجب أن يتسلح الانسان لها بكل ممكناته وقدراته•

هنا يتدخل التفكير ليعين على بلورة المعطيات الطبيعية والبشرية ، قصد استثمارها كمــا يجب أن تستثمر • فالتفكير يعطى المعنى والمضمونللمكتسبات • وهى عمليات تاتى على أشكـــال وبمراحــــل •

أولا : يشخص الامراض ويظهر ما فى المكتسبات من مساوىء ، ويتحسس ، **ثانيا** : ما فى الموروث من علامات الشيخوخة ليعلن عن المبادراتاللازمة للتغلب على العوائق • اذن ، مهمة المفكر الاساسية هي أن يوضح المشاكل الموضوعة ويوصــــى بالحلول المستعجلة والخطط الرئيسية لمواجهة أحداث المستقبل • أمـــا الثقافة ، فهىمجموع الوسائل المعرفية والتقنية التى يبنى عليها الاطار الذهنى والاطار التاريخى لكـل مكتسب مجتمعى أو علمى • تقدم الثقافة المعطيات التـى تمكن التفكير من فهم الظروف الانتقالية وتوجيههابحثا عن حلول مؤقتة ، فى انتظار حالات أكثـر التصاقا بالحتمية • فالسابق واللاحق ، ما هـوموجود وما هو فى طور الوقوع ،أو يتوقـــــع حصوله ، كل ذلك أشكال من الحركة فى نموهــاوهى تتغير ، رامية الى الاكتمال • فما هو قــار يكون دائما جــامدا ، والجمود يعادى نواميسالحياة • ان الثقافات تغذى الحضارة الانسانية ،

1) الاحزاب ، 72 •

2) استخلاف الله الانسان على الارض ، انظـر فى القـــرآن : 24 ، 55 _ 2 ، 30 _ 38 ، 26 ، 10 ، 14 _ 69 ، 7 •

والحضارة صيرورة عبر التاريخ ، زاحفة الـى الامام أو متراجعة الى الوراء ، ولكنها أبـــدا لا تعرف الوقوف والاستقرار ۰ وعنصر الصيرورة الاساسى هو التغـــير فى كل مرافـــق الحياة الانتاجية والاستهلاكية ، فى تفاعل مع ما يحصل عن ذلك من تحولات فى أنماط التفكير والسلوك ۰

لذلك ، لا يمكن أن نقول أن لنا ثقافة حقيقية تغذى تفكيرا صينا يتجذر فى ما جريات المجتمع ، من سياسة واقتصاد وأخلاق و۰۰۰ فالثقافـــة حضور حال فى المجتمع ۰ انها مجموع أنـــواع الكفاح الذى يقوم به مجموع الافراد ابتغاء تغيير فى كيفيات الحياة الى أحين ، وابتغاء اذاعـــة المكتسبات العلمية والتقنية والمعنوية بين الجميع ،بالتساوى ۰ فالغاية من الاكتشافات والاختراعات العلمية والتقنية هي تحقيق الكفالة والعـــــدل للجميـــع ۰

استنادا الى هذا المفهوم لـ « ثقافة » يمكـن التاكيد بأن التفكير يعتمد على التاريخ ، ولكنه لا ينقب عن الماضى لذاته ۰ انه يبحث ، فى الماضى عما يعين على ترقية الحاضر۰ أو بعبارة أوضح : يرمى التفكير الى توجيه القدرات والامكانيات ،لدى مجتمع ما نحو مستقبل أفضل ۰ تختلف ثقافة المفكر عن المعرفة التاريخية ، بأنها لا تصرف فى الماضى ، بل فى « المضـــارع » (طبقا لاصطلاح النحويين ، اى فى الحاضر والمستقبل) ، مـــع التاكيد بأن الثقافة والتاريخ للماضى لا يتناقضان۰ فاذا كان التاريخ يبحث عما فى ماضى الامـــة من ثورة للاعتزاز بالامجاد وللتعاظم فان الثقافة الحـــق تبحث عما فى الحاضر والمستقبل من عناصر الثورة فى سبيل تنمية الطاقات البشـــرية واستثمارها للصالح العام ۰ فسواء تقدمـــت الثقافة على تحول مجتمعى وهيأته ، وســـواء صاحبته ونفخت فيه من روحها أو أتـــت بعده لتوضحه ولتبلوره ، فان وجودها ضرورى فى كل الحالات ۰ ان مجتمعا بدون ثقافة مجتمع متجمد ،أى ميت ، أو فى سبيل الموت ۰ وثقافة بدون تفكير يصقلها ويوسع لها الآفاق ، ثقافة تخريف وتخدير أو على الاقل ثقافة تمويـــه ۰

2 ـ « لا » النافية للصـــدق

السـؤال الآن هو :

هل الثقافة بالمفهوم السابق ، تنطبق ، حاضرا ، على الثقافة العربية الاسلامية ؟ اذا نحـــن انصفنا الواقع ، جاء الجواب مجلجلا ، مؤلما : « لا » حقـــا ، لنا مثقفون يعـــون مسؤوليتهم ويتحملونها بصدق ودون جدارة ، ولكنهم قلـــة القليل ومحاصرون بعداء مثقفين آخرين ينصبون لهم الفخاخ ، حسدا وبغضا ۰ وهؤلاء المثقفون المناوئون الحاسدون يتفرعون الى أصناف ثلاثة :

الصنف الاول يتكون من « **حمالي الثقافة** » ، مثلهم كمثـــل حمال الاسفار ۰۰۰ يتكدس فى ذاكرتهم كشكول من المعلومات ، لها أحيانا نكهة أموية أو برمكية أو أندلسية ، ولكنها غريبـــــة

عن القرن العشرين · لها طرافة ، ولكن تنقصهاالفاعلية والمزامنة · فهم كالذى يسير وبصـــره مركز على الخلف متجاهلا الاتجاه الامامى · هذهالفئـــة من المثقفين ، فى تعاليها الارستقراطى المتسلخ عن الزمـــان والمكان ، تذكرنا ببعضالصوفية · يقول أحد هؤلاء ، وهو السهل بن عبد الله : مخالطة الوالى للناس ذل ، وتفرده عنهـمعز ، وقلما رأيت وليا لله عز وجل ، الا منفردا ويحكى عن صوفى آخر ، هو ابراهيم بن اد ، انهكان يغلق بابه من خارج فيجيىء الناس فيجدونه مغلقا فيرجعون على الاعقاب ·

هذا اختيار للعزلة ، مبدأ وتطبيقا ، مع تفضيلها على العمل والعقل والمصلحة العامة · وهو مخالف لما جاء فى القرآن الكريم : « والعصر ، انالانسان لفى خسر ، الا الذين **آمنـــوا وعملوا الصالحات** » ·

فالايمان مصحوب بالعمل ، والصالحات هنا غير مقيدة بتعبد ، بل تشمل كل نشاط يتوســـم فيه خيـــر ·

فلو اختار كل افراد مجتمع ما الانعزال والعزلة ، لتوقف سير الحياة ، فى كل مرافقها ، ولكان أول ضحايا هذا الوضع همالعاطلون المتطفلون ، مهما كثرت ادعيتهم وصلواتهم ، لان « الصـلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، كما يؤكد القرآن (3) · وهل من عمل انكر من التخلى عن الواجبات نحو الذات والاقربين والمجتمع ؟ لقد « فضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما » (4) ·

لم يحتفظ التاريخ باسم مصلح غير مجرى احداث عصره بالتسابيح فى الخلوات ، والتذرع بالدعوات ··· بل على العكس ··· فكما يؤكدهأبو حامد الغزالى ، لو ان الناس زهدوا فى الدنيا : « لبطلت المعايش ، ولو بطلت لهلكوا وهلك الزهادأيضا » (5) ·

الصنف الثانى ، « **المثقفون المرتزقة** » يعيشون من الثقافة ، أو مما يظنون انه ثقافة · مـــن فيهم المدرس ، والناشر ، وخطيب المحافل المتنوعة ، والصحفى المصاب بالاسهال الذى يكتب فى كل شىء ، والمذيع الذى يتحدث فيما يعرف وفيمايجهل ··· اننا نعيش حياة كثر فيها الزيـــف والتزييف ، ومن كثرة ما مارسنا هذا النمط منالسلوك ، صرنا لا نعيه ، فاصبح عادة فينا وتطبعا لا تزيده الايام الا تأصلا · فلا غرابة أن يذهبأستاذ الى قاعة التدريس ليفرغ ما تجمع عنده ، ثم يرجع الى بيته ، مثل ما يفعله بائع الخضر ،والبقـــال ، وغيرهما من المتاجرين فى مـــواد الاستهلاك الاولية · نعم ، تحولت الثقافة الـــىبضاعة ، الا أنها بضاعة لا يقدر على استهلاكها

3) 29 ، 45 ·

4) قرآن : 4 ، 95 ·

5) الاحياء ، كتاب ذم الدنيا ص 1754 ·

الا المحظوظون ماديا . وكثيرا ما تستغل تلك البضاعة لفائدة الانظمة القائمة ، فتجعل من المرتزقة ابواقا تسخرهم وتحتقرهم :

« من يهن ، يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايلام » .

يحتوى صنف « المثقفين المرتزقة » على نماذج كثيرة عرفها أجدادنا . ومن جملة من عدها ووصفها ، محللا ناقدا ، عبد الرحمن بن خلدون وأبو حامد الغزالى . يقول صاحب **احياء علوم الدين :**

« ... وجماعة يلتمسون أقوالا وافعالا ، يتعجب الناس منها ، حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها ، فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال فى حال تعجب ، قد يندم بعد زوال التعجب ، ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتمسخر ، والمحاكاة والشعبذة ، والافعال المضحكة . وقد يكون بالاشعار الغريبة ، والكلام المنثور المسجع ، مع حسن الصوت . والشعر الموزون اشد تاثيرا فى النفس ، لا سيما اذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب ، كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت . أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة ، كصنعة الطبالين فى الاسواق ، وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض ، كبيع التعويذات والحشيش الذى يخيل بائعه أنها ادوية ، فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفال من المنجمين . ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ ، والمكدون على رؤوس المنابر ، اذا لم يكن وراءهم طائل علمى ، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية (...) **وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لاجل المعيشة » (6)**

أما الصنف الثالث فيتكون من « **المثقفين الانانيين** » يجدون فى الثقافة وسائل للتسلية فيلجاون اليها ، عند الحاجة ، مثل ما يلجاون الى السجائر أو الى لعب الورق   ارضاء لنشوة خاصة . فالثقافة عندهم بدون بعد مجتمعى ، نوع من الزخرفة ، مثلها كمثل التوابل التى تضاف الى الغذاء . المثقفون ، من هذا النوع ، طفيليون على المجتمع ، لانهم لا يسهمون فى تغيير أوضاع الشغل وأنماط الحياة ، لا يعايشون وسطهم ولا يتعمقون فى أوضاعه ليعالجوها . هنا أيضا نجد المقارنة بنوع من الصوفية . يقول أحدهم : « من أراد أن يسلم له دينه ويسترح بدنه وقلبه ، فلا يلقى الناس ، فان هذا زمان وحشة ، فالعاقل من اختار فيه العزلة » .

ان لكل الازمنة « وحشة » ، كما لكل زمان انعزاليون لا ينفعون احدا ، ولكن مجموع الشعب ينفعهم . فما كان لحولقاتهم واستغفارهم ولا لوعيدهم ولو عودهم من تاثير على سير الامور .

6) احياء علوم الدين ، كتاب ذم الدنيا .

هل يكفي أن يقال « لا » لـ « وحشة العالم لتنمح ؟

ليست « لا » عصا سحرية · فتفضيل العزلة ، رفضا للعالم يغمس أصحابه في غطيط مستديم

ان محاولة طرد المشاكل من حسباننا ، بتناسيها أو بافكار وجودها جملة وتفصيلا ، لا يصدر الا عن درويش مغفل ، أو عن خداع غبي · وفي كلتا الحالتين ، ينبثق عن رفض العالم ومشاكله تمرد سلبي ويؤكد أن الانعزالي غير كفء للخلافةعلى هذه الارض ، غير قادر على تحمل الامانة ، لانه دون مستوى التضحيات من أجل المسؤولية ·

وبما أن المسؤولية هي أكرم ميزات الانسان ، يمكن أن نتساءل :

ما هو وضع أولائك المنعزلين الرافضين للمسؤولية التي تحدد انسانية الانسان ؟

فلنفرض أن النبي نوح اعتصم بالعزلة وزهد في العالم ، أيام الطوفان · هل يكون عمله الا خيانة كبيرة للامانة العظمى ؟ فلو أن الله أرادلنا العزلة لتركنا في بطون الامهات ، بل لما أوجد أرحاما وأمهات !··

فالى مثل أولئك الزهاد الـ ـ لا ـ منتمين ، يوجه القرآن هذا السؤال :

« افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلـوب يعقلـــــون بها ، أو آذان يسمعون بها ؟ فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التي فيالصدور » (7) ·

تلك هي الاصناف الثلاثة لمثقفينا · اننا لـم نفضل صنفا منها على آخر ، ولم نحاكمها ، وانما حاولنا اقتناص نتائج فاعليتها في المجتمعالعربي الاسلامي ، سلبا وايجابا · ولم نرد رفض هذا الصنف أو الآخر ، فهي موجودة بالفعـــل ،ولها الحرية والحق في الدفاع عن كيانها ، كمـــا لنا الحق والحرية ، نحن الشعوب ، في أن نرفضما نراه توظيفا سيئا للتفكير ولتسيير التفكير · ان الثقافة ارث حي مشترك ، والوقت يسرقنا ، لنينتظر الوقت حتى تخرج « ثقافة الحمالين » مـــن فوضاها ، و « ثقافـــة المرتزقة » من الاستثمارالخاص ، و « ثقافة الطفيليين » من الانانية ·

3 ـ الاسلام ليس استسلاما .

تلك أصناف من مثقفينا ، تتواجد وتتآمر ، عفويا ، على عالمنا العربي الاسلامي ، لانها تمثل وتزكي ، موضوعيا ، الزيف · فلنا جامعات ،ولنا آلاف وآلاف من « العلماء » و « الاساتذة » و « الاطباء » وما لا عد له من الادباء والصحفيينومع ذلك : أين نحن مما يجب أن نكون ؟ ·

7) الحج ، 46 ·

فاما أننا غير واعين ، لا نحسن التفكيـــرفى أوضاعنا واستخلاص العبر مما كنا ومما نحن عليه ، ولا نقدر على مقارنة احوالنا بأحوال أمـمأخرى ، شرقا وغربا ، واما أن الاشغال الفردانية قد الهت المفكرين عن واجباتهم · فالثقافة الملتزمةهى وحدها التى تستطيع أن تغذى التفكير التقدمى أما الثقافات الاخـــــرى فبضاعات للقوت ، أوللتسلية ، او للتباهى ، تخضع لقانون أســـواق العرض والطلب ، كبقية مـــواد الاستهلاك ، فى أنظمة الاقتصاد الحر · فاذا جاز لنا أن نقتبس تشبيها جريئا من أبى حامد الغزالي ، قلنا : انالثقافة الـ ـ لا ـ ملتزمة مثل الطعام : « ولا فرق بين ادخال الطعام فى البطن وبين اخراجه مـــنالبطن ، فى ان كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن همته ما يدخل بطنه (فقط ، وبطنه هو وحدهلا غير) فقيمته ما يخرج منها » (8) ·

من المجازفات أن ندعى أن العالم العربى الاسلامى لا يتوفر على مثقفين واعين · انهـــم موجودون ، ومنهم مثقفون ، حسب العرف ، ممتازون ، **ولكن وجودهم حضور فى حيز مكانى ، دون ثقل زمانى** ، بمعنى أنه وجود لا يتحرك مثل بعضالاوانى الفضية الفريدة التى تعلق فوق الجدار ، لا تصلح للعادة ولا للعبادة ، فالاحتياج اليهـــامنعدم ، بقدر ما انعدمت فيها الحركة التى تمكنها الصلاحية والاستعمال ·

فعلى قلة المثقفين المسلمين (بالنسبة لسبـــع مائة مليون أو يزيد) يختار جلهم الصومعـــة العاجية ، ولسان حالهم يردد الآية القرآنية : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون » ، بل ان فى مواقفهم ما يمكن أن يعبروا عنه بقولهم : « يا شعوبنا ! جاهدوا ، اعملوا ، فاننا لمنتظرون الغنائم لنقاسمكم اياها ، اذا لم نستطع الاستبدادبها كليا » ، وكذلك يفعلون ·

· · ·

الى اى شىء يرجع هذا ؟

ان « المفكر » عندنا تنقصه الشجاعة ، كما تنقصه خصال أخرى ، نود أن نعرضها بايجاز راجيا أن يتسع لها صدركم ·

قلنا ان للانسان ، من بين بقية المخلوقات ، ميزة أولى ، هى المسؤولية ، « الامانة » العظمى ، وكلنا نعلم أن المسؤولية التزام ، ومن يقبل الالتزاميقبل ، ضمنيا ، التضحيات · انها ، مخاطـرة دائبة براحته ومصالحه · وبتعبير اســـلامى : **الثقافة جهاد** ، وكما جاء فى حديث نبوى : « أفضل جهاد كلمة حق عند حاكم ظالم » · من هم المفكرونالمسلمون الملتزمون بمنطق هذا الجهـاد ؟ ··· فبدونه لن تصبح الثقافة نقدا بناء يضىء سبيلالحياة اليومية ، جذورا فى مجتمع الحاضـــر وأغصانا تشق أجواء المستقبل ·

8) **الاحياء** ، كتاب ذم الدنيا ·

المفكر عندنا يخاف أن ينتقد ، مفضلا المجاهلة على المجابهة ، ويخاف أن ينتقد لانه لا يريد أن يرى نفسه كما يراه الغير ، وكما هو فى واقعه ٠اننا أعداء للنقد الذاتى ٠

نقطة الضعف الثانية فى طبيعة مثقفينا كونهم يرتاحون الى الصمت مع الخنوع ، والى الصمت مع الاهانات ، عوضا عن المواقف التى يفرضها عليهم مركزهم فى المجتمع ومواقف التوجيه والتنبيه والتحذير ، دور « الرائد و « المحتسب » ٠

ليس فى امكان كل الناس أن يقوموا بدور الرقيب العام ، بدور المصلح ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ٠ فالدعوة الى المعروف او الى الابتعادعن المنكر فرض عين على كل مسلم ، لكنه فرض تتغير كثافة المسئولية فيه حسب مقدار وضوحوعمق المعرفة بما هو حسن وخير ، وبما هو قبيح وشر ، وبما هو ممكن وبما هو محال ، بماالمنطق والعقل ٠ فالمفكر خاصة ، والمثقف عامة ، هو طبيعى وعقلانى ، وبما هو غير طبيعى ويخالفهو من يحسن التفرقة بين المتناقضات ويصل الى المهارة المنهجية لتغليب جانب الفائدة علىجانب الضرر ٠ ولنا فى الانبياء أسوة حسنة ٠ يثبت تاريخ الاسلام أن بعثة محمد (صلعم) مرتبمراحل ، الاولى أنه تأمل فى معنى الرسالة ، قبل أن يقنع نفسه بوجوب القيام بالدعوة اليها ،المرحلة الثانية أخذ يقنع من حوله بضرورة الالتزام معه على نصرة المبادىء التى وصل الى صحتها ،المرحلة الثالثة ، تجاوز دعوة أهله وعشيرته الاقربين الى كافة الناس أجمعين ، بشيرا ونذيراوسراجا منيرا تجاه الانسانية فى كل قضايا الساعة وآفاق المستقبل ٠ ولم يركن الرسولالكريم الى أن فى الزمان « وحشة » و « جاهلية »٠ فالنبوة لا تنصب على الماضى ٠ انها تنبىء وتنبىءبالحال والمستقبل ، وكأنها نظرية مستقبلية جامعة تشمل كل أنشطة الانسان ، وتخطط لمسيرته الماديةوالمعنوية والفكرية والروحية ٠ ان النبوة التزام كلي يرمى الى استثمار مجموع الامكانيات البشريةلصالح مجموع الناس ، وبما أن « العلماء ورثة الانبياء » ، لزم تحديد مفهوم « عالم مسلمو « مفكر مسلم » ٠ يستحق هذه التسمية أو تلك ، أو هما معا ، من يركز حياته على الالتزام بفهمالاوضاع والناس ، وتقييمهم بميزان العقل وبميزان القسط ٠ فالاصلاح الجيد ينبنى على علموعلى تفكير سديد ينطلق من قيم تنصب على الاعمال ، لا على العنديات ، وتنصب ،بالخصوص ، على ما نفعله بالعنديات ٠ فلا بد للمفكر المصلح الاصيل أن يكون عارفا باوضاعالمجتمع الذى يرمى الى اصلاحه ، وقادرا على بلورة الشروط والطرق التى تخول الافراد وجودا انسانيا ٠ ان الثقافة ، وقد نخلها التفكير ، هى وحدها التى تجعلنا قادرين على التفرقة بين« الحياة النباتية » (حياة تنحصر فى التغذية والنوم والجنس) وبين حياة الاشخاص الخاضعةلقيم ومعايير شمولية ٠ فلكل فرد عمر يعد بالسنوات وعمر يتطور كيفيا ، فان هو أحسن استكمال واستعمال العمر الكيفى ، ساهم فى تغيير نوعية التاريخ البشرى ٠

معنى هذا أن الثقافة تشمل كل أوجه الافعال الانسانية فى السياسة ، والاقتصاد ، والتربية ، والاخبار ، والاخلاق ·

· · ·

4 – « يصلب الانبياء من اجل راى فلماذا لا يصلب الشعراء ؟ » (9) ·

المفكر الملتزم حيوان مجتمعى وسياسى بالطبع ، والالتزام يفرض قبول التضحيات يروى القرآن قصص الانبياء وانهم التزموا باظهار الحقيقة والدفاع عنها ، فعرفوا الاحراق (ابراهيم) والحكم بالصلب والقتل (عيسى) او النفي(موسى) ، والهجرة (محمد) · فلنتأمل التزام ابراهيم :

« واذ قال ابراهيم لابيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين ! وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض ، وليكون من الموقنين · فلما جن عليه الليل ، رأى كوكبا ، قال : هذا ربى ! فلما افل ، قال : لا أحب الآفلين · فلما رأى القمر بازغا ، قال : هذا ربى · فلما افل قال : لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين فلما راى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى ، هذا اكبر · فلما افلت ، قال : ياقوم ، انى برىء مماتشركون ! انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا ، وما انا من المشركين » (10) ·

فلكى يبتعد ابراهيم عن الشرك ، « يوجه » وجهه الى الذى « فطر السماوات والارض » ، الى الله لكونه علة العلل ، اى المبدع للسماوات ، بما فيها من مرئى ومجهول ،خالق الارض ، اى الكون المادى والكائنات الحية ، ومن بينهما الانسان الحيوان المجتمعى بالفطرة · فبعد أن تأمل ابراهيم فيما عليه قومه ، لم يخف أن يصرح لابيه آزر : « انى أراك وقومك فى ضلال مبين » ·

هذا حكم دون محاباة : ابراهيم يحب أباه ، ولكنه يفضل الحقيقة ، فدفعه التزامه نحو الحقيقة الى أن يخاطر براحته ومركزه بين أهله وفى محيطه ، فسفه رأى المنحرفين ، قبل أن يعلن عن موقفه ، وهو موقف ناتج عن فحص وتأمل فى الواقع ·

هكذا يجعل الاسلام العمل مرتبطا دائما بالنية التى هى توتر يجعل وعينا يقظا ، وضميرنا مترقبا لسير العمل ولنتائجه ·

· · ·

ايها الاخوة :

كل ثقافة لا تقدم معها ليست ثقافة ولا فائدة فى أصحابها · « الثقافة للثقافة » انما تجرد الواقع من واقعيته ، وتجعل « التفكير » تخريفا أو تدجيلا · ان الفكر ماطر بتاريخ معين ، فيه

9) نزار قبانى ·

10) قرآن : الانعام ، 174 – 179 ·

تفاعل مع جماعات بشرية فى مسيرة النمو المادىنحو الاكتفاء ، والنمو النفسانى نحو الاكتمال ٠ فالثقافة ، والعلم ، والتفكير ، وسائل لا غايات فى ذاتها ٠ ان التاريخ الانسانى نسيج تأمل متواصل ، بحثا عن وسائل أنسنة الانسان ، كل انسان ٠ ذلك هو المثل الاعلى الذى ينشد تحقيقه كل تفكير سليم يقول القرآن :

« والعصر ، ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنو وعملوا الصالحات ، **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** »٠

فالتواصى بالحق هو تجنيد عام لكل الطاقات البشرية على مختلف مستويات المجتمع ، من أجل المصالح المشتركة ٠ والذى يتواصى بالحق ، أى يلزم به غيره ، لا بد أن يكون على بصيرة من هذه المسئولية ، فيصبر ويصابر ٠ لان الحياة معارك دائمة ، ولا يتغلب عليها الا كل ملتزم ، متزن ، صابر ٠





النقطة الرابعة من جدول اعمال الملتقى

مصنف عصري لطب العين

من القرن السادس الهجري

مرشد الكحالين، لمحمد بن أسلم الغافقي

د. سعيد شيبان

استاذ طب العيون

جامعة الجزائر

– معالى وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية .

– سادتى العلماء ، سيداتى ساداتى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما معناه : (ليس المشاهد كالسامع رحم الله اخي موسى فانه حينما سمع ارتداد قومه غضب ، ولما رأى وشهد – كسر الالواح) . أو كما قال .

وتقول الحكومة الصينية : (ان رسما واحدا بشاهد خير من ألف كلمة تسمع) .

فلربما تاثرت بهذين المثلين ، اذ اخترت موضوعا اقدمه لنتامل فيه معا ـ فى هذه النقطــة الرابعة من هذا الملتقى الكريم ـ دراسة حول مخطوط طبى عربى ·

بفضل الله تعالى حصلت على نسخة كاملة لمخطوط طبى فـــريد من نوعـــه فيما نعلم ، وموضوعه يتعلق بتخصصى فى طب العين ·

وان اغتباطى بتصفحه وبدراسته حملنى على تقديمه لكم ، آملا أن تشاطرونى هذه الفائــدة وهذا الاغتباط ·

سيداتى ساداتى ،

1) لا يمكن أن يكون هذا درسا فى تاريخ الطب وانما هو محاولة للفت أنظار شبيبتنا المتعلمة لهذا الميدان المهم وهو تاريخ العلوم الذى يندرجفى تاريخ الفكر البشرى ·

2) وغنى عن الايضاح أن عنوان هذا الحديث يجب الا يشكل اى التباس ·

3) وليس باطراء لشخصية معينة ، فى تاريخ الطـــب اذ تنقصنا معلومات كثيرة حـــول ما سبقه وما لحقه لكي نعطى تقويما صادقا وموضوعيا لما قدمته هذه الشخصية أو تلك كمجهود خاص للتقدم العلمى فى زمانه ·

4) وبالاحرى لا يمكن أن نقدم هذا الكتاب كنموذج يحتذى فى الممارسة الطبية فى هذا الربع الاخير من القرن الـ 20 ، اى بعد ثمانية قرون من تاليفه ، فان فعلنا هذا نكون غير صالحين لنـــرث هذا التراث ، ففى المقدمة التى كتبها الغافقى يذكر ان السبب الرئيسى فى تاليف كتابه هو اختلافه مع من سبقه · ومن هم سابقوه ؟ انهما ابن سينا ، وأبو القاسم الزهراوى وما أدراك من هما ·

ولم يصدر رأيه عن نظرية مجردة بل عن ملاحظة سريرية أو محاولة تجريبية ·

والجدير بالملاحظة أن الغافقى سمى كتابــه « المرشد فى طب العين » لا المرشد لطبيب العين ، فانه نبراس لدراسة أمراض العين · وهنا نرى من المفيد أن نسوق اليكم وصية الرازى التى ضمنها كتابه المسمى بالفصول حيث ينصح المعنيين بالطب بالتأليف فيقول :

« اذا كنت معنيا بالصناعة واحببت أن لا يفوتك ولا يشذ عليك منها شىء فاكثر جمع الكتب فى الطب ، ثم **اعمل لنفسك كتابا** فيكون كذلك كنزا عظيما وخزانة عامرة » ·

فبهذه الوصية نفسها عمل الغافقى ·

ففى الوقت الحاضر كل كتاب فى الطب يصير قديما بعد 15 سنوات بسبب اختراع طريقـــة جديدة للتشخيص أو للعلاج تصحح خطئا سابقا أو تحل مشكلة كانت عويصة ·

فلماذا اذن استعملنا كلمة مصنف عصرى فى عنوان هذا الحديث ·

1 ـ ذلك أن الثمار التى نعتبرها الآن صحيحة للتجربة البشرية لا تزال عصرية ما دامت غير منقوضة وهذا الكتاب للغافقى يشتمل على عـدد كبير من هذه النتائج ·

أ) طريقة تصنيفية وتعليمية لا زالت ذات قيمة ·

ب) استعراض وتحليل للامراض والاعراض لا زالت منطقية ·

جـ) اخطاء كثيرة ولكنها كلها نتيجة لسير حر للفكر ، وبهذا الجانب يعتبر تقدما ، وهـــو مساهمة من الحضارة الاسلامية للفكر البشرى ·

د) فكر يتصف بالدقة والامانة العلمية ، اذ نرى هذا المؤلف ينتقد تشخيصه وتنبؤه لمصيــر المريض بمناسبة علاج رضيع عمره شهر ، ونرى كذلك كيف يعطى كل التفاصيل اللازمة لصنع آلات الجراحة ولتطبيق الطرق الجراحية تطبيقا ناجحا ·

هـ) يتسم هذا المؤلف بالظاهرة البنائية فهو يبنى على تجربة الاقدمين وافضلهم كأنه يطبق تلك الوصية المهمة من الفيلسوف الرومانى Cicéron الذى كان يطالب بدراسة كل شىء فى افضـــل مراجعه ولدى اكبر مؤلفيه ·

فان المكتبة الطبية لمؤلفنا تشتمل على كتــب ملكية مثل كتاب المسائل العشـــــر لحنين بن اسحاق ، والقانون فى الطب لابن سينا ، وعلى بن عيسى ، وكتب ابى القاسم الزهراوى ·

وهو يدرسها على ضوء تجربته الشخصية وعقله الواعى ·

2) وكفى هذا الكتاب فخرا أن يكون عصريا فى زمانه ، ولقد رأينا سابقا على اى اســاس بني هذا الكتاب بعدما درس مؤلفه احسن ما كان موجودا فى عصره ، وسنرى على الرغــــم من ذلك وليس بعيب فيما نفهم أن مرجعا مهما قد فاته بسبب تشتت المسلمين فى زمانه ، فكتـــب الحسن بن الهيثم يظهر انها لم تكن من مطالعاته ، ويحتمل أن الغافقى كان فى كتابــه ممارسا اكثر منه فيلسوفا حكيما ·

3) وان الذى يضفى الصبغة العصرية لشىء ما بالنسبة لنا هو أن يكون ذلك الشىء مفيدا فى الوقت الذى نعيش فيه · ولنا أن نستفيد استفادة كبيرة من دراســـة هذا الكتاب حيث نجد فيه المصطلح العلمى الاصيل ، الذى يمكننا من النسج على منوالهم من حيث تركوه بعدما انتزعـــت القوة الغاشمة الاقلام من ايديهم ، اذا أردنا فــى السبعينات من القرن الـ 20 أن نؤلف كتابا فى طب العين بالعربية ، فيكون كتاب الغافقى آخـــر مرجع علمى من الطب العربى الاسلامى فيلزم

علينا أن نسد هذا الفراغ وأن نتعرف لنقطة الانطلاق لما نعرفه من اتصال بين دمشق والاندلس ، اذ نرى آخر وأعظم كتاب من الطب العربى القديم فى الاندلس ، وأول كتاب فى الطب العربى الحديث آت من دمشق فليس لنا الا التأثر أمام هذا الجسر العملاقى الذى يبنيه القدر بين طور وطور من حياة الحضارات ٠

فهل يمكن أن نزيد أن الطب الذى يسمى بالطب الشعبى أو الطب العربى فى البلدان الاسلامية فى وقتنا الحاضر لو تمكن من استعمال كتب ذات قيمة مماثلة لقيمة كتاب الغافقى عوض تلك الكتب المتوفرة له كأمزجة من وصايا أغلبها سخيفة وبعيدة عن العقل والمعروفة « بالهارونيات » لكانت صحة المسلمين أحسن بكثير مما هى عليه الآن ٠

هذا فيما يتعلق بالمعانى أو التعاريف التى أردنا أن نعطيها لكلمة « عصرى » فى عنوان حديثنا ٠

فنحن واعون أن دراسة المخطوطات من أعمال مؤرخى العلوم بمشاركة المترجمين واللغويين والفنيين المتخصصين فى المادة المدروسة فى المخطوط ، ولكن لا بد من بداية لكل عمل ، ان ثمار الماضى من الضرورى أن يتذوقها كل جيل لنضمن التسلسل والرقى ، فكل جيل يجب عليه أن يحقق ما ترثه منه الاجيال اللاحقة ٠

ان التحليل لهذا المخطوط يرينا بصفة جلية :

بعض الاسباب فى الازدهار العلمى ، وأسبابا أخرى فى الانحطاط ، ولربما يتبين للدراسين جزء من شروط الانبعاث فى هذا الميدان على الاقل ٠

ـ ان هذا المخطوط الطبى بقى ثمانية قرون مجهولا عند المسلمين ، وله أمثال عديدة تنتظر فى مكتبات العالم من يتجه اليها ويعطى لها حقها من العناية والدرس ٠

فبعد هذه الاعتبارات ٠ وكان لا بد أن نتعرض لها أمام شباب سيكون سنه اربعين سنة فى بداية القرن 21 ٠ والذى يضطر ليستعد له كل يوم ٠

فلنستعرض على التوالى ان أردتم المعطيات حول تاريخ هذا المخطوط ، ثم حول مؤلفه ، ثم تحليلا سريعا للنص من حيث التبويب والمحتوى والاسلوب ، بمقارنة مع ما نعرفه الآن ، ثم نستخرج بعض النتائج العامة من هذا التحليل لكي نجيب عن بعض الاسئلة المطروحة فى النقطة الرابعة ٠ ففى مكتبة المستشفى الجامعى قسم العينين بكلية الطب « بستر اسبورغ » منذ ما يزيد عن 20 سنة ٠ تعرفت لاول مرة باسم الغافقى وبكتابه ، من بين المؤلفات العديدة بالالمانية والانجليزية والفرنسية ، كان هناك كتاب تحيطه هيبة كبيرة وهو ترجمة جزئية للدليل فى طب العين ، قدمها

ذلك الطبيب الشهير مؤرخ الطب العربى ـ ماكس مايرهوف ـ الذى عاش فى القاهرة وطبعت هذا الكتاب معامل صيدلية باسبانيا · فكنت مسرورا بالنظر الى صورة طبق الاصل لصفحة من المخطوط الذى زين به المترجم ترجمته لقد تصفحت هذه الترجمة متعجبا من المصطلحات ومرددا فى نفسى ان شرفنا العربى فى الناحية الحضارية ما يزال بخير وان للغة العربية فى هذه المكتبة ممثلا فليست غائبة · ومرت السنون ···

وفى سنة 1972 م شاركت فى مؤتمر دولى حول تاريخ الطب الاسلامى نظمته بميلانو الجمعية الايطالية لتاريخ الطب · فقضيت عطلتى الصيفية فى اعداد مساهمتى لهذا المؤتمر وقرأت حينئذاك كتاب « ما يرهوف » الذى وجدت نسخة منه فى مكتبة مصلحة العينين بالمستشفى الجامعى بالجزائر ثم القانون فى الطب لابن سينا ، ثم كتاب الجراحة لابى القاسم الزهراوى بترجمة « لوكلر » · ورأيت أنه من المفيد أن اقارن هذه المعلومات بكتب طبية عامية شعبية مثل كتاب الرحمة فى الطب والحكمة والقصيدة الدرعية أما فى التاريخ فتصفحت كتاب «طبقات الاطباء لابن أبى اصيبعة» ، ونفح الطب فى غصن الاندلس الرطيب فى أخبار لسان الدين الخطيب للمقرى · والحلل السندسية للامير شكيب رحمه الله ·

هل تسمحو لي أن اذكر كذلك زيارات لطيفة ومؤثرة قمت بها فى بعض مساجد « جرجرة » و « تاجزيت » باحثا عن مخطوطات عساها تكون مفيدة لهذا الموضوع ـ فقدمت نتيجة عملى فى المؤتمر ، ولقد نشر من طرف مؤسسة « لورانزينى » وعقدت العزم على أن أتم هذه الدراسة ان شاء الله حينما أحصل على المخطوط كله ·

بفضل الله حصلت على صورة شمسية (ميكروفيلم) من هذا المخطوط من مكتبة الاسكريال ، عن طريق المكتبة الجامعية ، فالمخطوط كله لما ينشر بعد ، ورأينا فى سجل المخطوطات المصورة ، الذى دلنا عليه الدكتور عمار طالبى ، ان مخطوطا مصورا موجودا بدار الكتب المصرية بالقاهرة وتنص النبذة التقديمية لهذا المخطوط أنه من سنة 560 هـ ·

فبمناسبة مؤتمر علمى عقد فى شهر فبراير الماضى بالقاهرة ، تمكنا من تصفح المخطوط المصور المشار اليه بمساعدة ابن الشيخ طفيش من غرداية ·

وهذا المخطوط يبدأ من المقالة السادسة · فبعد المقارنة اتضح ان هذه الصورة مماثلة للصورة الشمسية التى حصلنا عليها من مكتبة الاسكريال · ويغلب الظن ان هذه الصورة هى التى قدمها « مايرهوف » لدار الكتب المصرية ·

هذا فيما يتعلق بتاريخ النسخة ، وقد سقته اليكم كمثل لما يحتاجه تاريخ الطب من فرص واهتمام ومساعدة ·

فماذا بالمخطوط نفسه ؟ ان مخطوط الاسكريال هو كتاب مسجل تحت رقم 835 من حجـــم الثمن ، يشمل 292 ورقة ، احرق جزء منها · فان الاوراق الاولى تتضمن كتابة بحروف لاتينيــة تصعب قراءتها ·

وهناك كتابة بالعربية بحروف تختلف عن حروف المصنف ، ويقول ان هذا كتاب جليل القدر

ان الكتابة انيقة جدا فهى تقرا بكل سهولــة ، الا فى المواضيع المحروقة ان تقسيم النص تقسيم منتظم بتوسيعات منسجمة ، فيلاحظ داخــل النص تشطيبات يجدر ذكرها ، فبعد جــل البسملات جملة « وصلى الله على سيدنا محمد » تظهر مشطوبة عليها الا فى حالة واحدة حيث كانت غير ظاهرة للمتصفح المسرع · وهذا مما يشير الى أن هذه التشطيبات لم تكن من دارس وانما من شخص اجنبى عن الدرس ، اما تاجر واما من حاكم متعصب من الكنيسة فى مرحلة الغزو الاسبانى أو كل قارىء نصرانى أو يهودى أو مسلم اجبر على ان يكتم دينه ، ففى الكتــاب كذلك صور عديدة لآلات جراحة العين ·

ان هذا المخطوط قد قدمت خلاصة عنه فى كتاب « لوكلر » عن تاريخ الطب العربى فى 1876 ، وتحدث عنه « هرشبرق » المؤرخ الكبير لطب العين فى المانيا ثم « ماكس مايرهوف » فى 1933 ·

ـ فلننظر الآن ماذا تعرفه عن مؤلف هذا الكتاب ؟

حسب « لوكلر » و « هرشبرق » ، ان احمد بن قسوم بن اسلم الغافقى طبيب متخصص فى طب العين عاش فى القرن الـ 12 الميلادى ·

وتنص النبذة الموجودة فى سجل المخطوطات بدار الكتب المصرية أن المؤلف توفى فى سنة 560 هجرية أى 1180 ميلادية · وأن نسخة منه كتبت فى « مالاقا » · ان المراجـــع التى قدمها الغافقى تظهر أنه مارس طب العين فى وقت ما بقرطبة ، وأنه حرر كتابه لفائدة ولده ، بعد تجربة كبيرة فى الصناعة · ان مايرهوف يلاحظ أن اسم الغافقى منسوب الى غافق ، وهى قلعة بضواحى قرطبة ·

اننا بحثنا فى بعض الكتب المهمة لتاريخ المدينة الاسلامية بالاندلس ، مثل : نفح الطيــب ، الحلل السندسية ، طبقات الاطباء · فلم نجد اثرا لهذا المؤلف ، بالرغم ان عددا كبيرا من العلماء من أصل غافق من ولاية قرطبة ، تتحدث عنهم هذه المؤلفات التاريخية ·

فابن أبى اصيبعة مثلا ، الذى كان هو نفسه طبيبا متخصصا فى طب العين يروي لنا تاريخ حياة احمد الغافقى الذى ترك كتابا حول النبات ·

فبينما يعتبر البعض أحمد الغافقى ابنا لمؤلف المرشـــد فى طب العين فانه من الغريب أن يكون ابن أبى اصيبعة يجهل هذا ، أو لا يتحدث عن مثل هذا الكتاب ، مع أنه زميله فى الاختصاص·

فحينما نقرأ هذا الكتاب نتساءل هل هو النص الاصلى أم نسخـــة منه ؟ بما أنها النسخة الفريدة المعروفة حاليا ، هل أحرقت جميع النســخ الاخرى مثلما كادت تحرق هذه النسخـــة بالذات ؟

فحسب بعض الجمل يغلب الظن أنها نسخة ·

وبقي هذا التاليف مجهولا فى المغرب والمشرق بسبب انقطاع الصـــلة بين الاندلس وباقى العالم الاسلامى حينئذاك ·

فلنفحص الآن النص نفسه ، وقبل كل شيء عناصـره وتصميمه ، ان الكتاب يبدأ بمقدمة غنية غزيرة المعانى ويشتمل على 6 مقالات هى بالتوالى :

الادب الطبى وتعاليم الفاضل ابو قراط ، وهو المرجع اليونانى الوحيد الذى نجده فى هذا الكتاب ، ثم تشريح الراس ، ثم ما نسميه بعلم الغرائز ، ثم بعلم الامراض العام ، ثم بالادويـة · والصيدلة الطبية · ثم تفصيل دقيق وشامل لامراض العين من أعراضها الى تشخيصها الى علاجها بالطب أو باليد والحديد، وهو الذى يسمى بعمل اليد : CHERURGE وكـــل مقالة تفتحها البسملة · والصلاة والسلام على رسول الله المشطوبة فى هذه النسخة فى جل المواضيع مثلما أشرنا اليه ·

ان المقالات الست ، مقسمة بحروف أبجدية سميكة بعيدة عن الالتباس ، ان تصميم الموضوع معلن عنه فى بدء كل مقالة وكل باب ، ان هذا الجانب التعليمى البيداغوجى له قيمـة ثابتة فى عصرنا الحاضر فى أى درجة من درجات التعليم ان التصميم الواضح له اهمية كبيرة ·

ان ماكس مايرهوف فى دراسته لاول كتـاب علمى فى طب العين وهو كتاب حنين ابـــن اسحق العشر مقالات فى العين فى القرن الثانى الهجرى ، عصـــــر المامون · يقول ان المؤلفين اليونانيين والكتاب العرب الاولين يكررون الحديث عن المرض الواحد 3 مرات · المرة فى كتاب التشخيص فى كتاب الاعراض ثم فى كتاب العلاج · اما بعد تلك الفترة فان أساطين الطب العربى الاسلامى توصلوا الى تصميم منطقى أكثر وتعليمى أكثر الا وهو التصميم الحديث لدراسة وتعليم الامراض ككل ، فيدرس بصفة كاملة كل مرض فى مختلف جوانبه · فهذا كان تقدم كبير أحرزه الطب فى المدرسة الطبية العربية الاسلامية · فان الغافقى فى كتابه يدرس كل مرض دراسة تامة ، فالفهم ميسر والحفظ كذلك ·

ففى دراسة الامراض يستعمل الغافقى تصميما تشريحيا عصريا فانه يبدأ بالاجفان ثـــم الملتحمة ثم القرنية ثم البيت الامامى للعين ثم القزحية ثم العدســـة ثم القسم الخلفى ، ثم المادة الزجاجية ثم الشبكية ، ثم العصب البصرى ، ثـم الجهاز الدمعى واخيرا العضلات التابعة للعين·
فهذا تصميم يجده القارىء فى كل المصنفات الحديثة ·

هو تصميم عصرى تماما ، وقد لاحظ المؤرخ الايطالى الحكيم « سارنيلى » فى دائرة المعارف الاسلامية بأنه فى الحكم على الكتاب من وجهتنا الحديثة لا يمكن الا ان نتخيل فى تصميم التـاليف واعداد المادة نوعا من تنبؤ للفكرة الحديثة عن امراض العـين مرتبطة بالجسم كله وتابعة له بالضرورة ·

هذا فيما يتعلق بتصميم الكتاب وعرض المعلومات فماذا بمحتوى الكتاب ؟ فللمقارنة مـع الطب الاوروبى اتخذنا كمرجع كتابى « دولارى » الذى نشر فى باريس سنة 1820 وكتاب « سكاربا » الذى نشر فى « يافيا » بايطاليا فى 1821 ، ولقـد اخترنا نهاية الربع الاول للقرن التاسع عشـر الميلادى لانها المرحلة السابقة لاختراع المنظار العينى ، الذى مكن الطبيب من فحص الاجزاء الخلفية للعين أى الطبقة الشبكية وحليمة العصب البصرى وهذا الاختراع الذى حصـــل على أيدى « هيلمهولتز » بالمانيا احدث ثورة جذرية فى طـب العين بعد سنة 1850 ·

ان مقدمة الكتاب ناقصة ، اذ أحرقت الصفحة أو الصفحات الاولى كما قلنا ذلك مـن قبل فالذى بقي منها له قيمة كبيرة ، ان الكلمات الاولى التى بقيت لنا من حديث الغافقى هى : ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ! ! ويحذر طالب الطب من الغلو فى ابتغاء الاجرة التى تفقد الثناء · فيقول لولده أنه لما بدأ دراسة هذه الصناعة لم يجد كتابا جامعا لما يحتاجه طبيب العين ويتحدث عـن المؤلفين الكبار السابقين معطيا رأيه فى كل واحـد منهم ، بفكر منتقد واضح · فهذه المقدمة تشير الى المراجع العربية الاسلامية وحدها لانها هي التى كانت لها القيمة بعدما هضمت التراث اليونانى والهندى والمصرى والفارسى القديم ولكن الغافقى يعطى مكانة كبيرة لابى قراط فى بـاب الادب الطبى ، ويتحدث عن الفاضل أبى قراط فقوانين الطب التى تفصلها المقالة الاولى بوضوح وبدقـة هو كتمان لسر المريض ، مجانية العلاج للفقراء ، واحترام الاساتذة ، فان التعبير عنها بليغ جدا ، وسيكون لها أثر لا محالة فى تحرير قوانين الطب فى بلداننا ·

ان هذا الكتاب يشرح طريقة معقولة لتكوين طبيب العين اذ يطلب منه معلومات واسعـة فى الطب وامراض العين ·

ان التشريح على ما يظهر فى هذا الكتاب لم يتقدم كثيرا ، فتلاحظ هنا كذلك ثغرة كبيرة ، اذ ما يسمى برسم ابن الهيثم غير موجود فى هذا الكتاب ، وهنا تجدر الاشارة الى أن فى مكتبـة

كلية الطب بالقاهرة يوجد مخطوط مصور فى تشريح العين ، لشمس الدين بن محمد بن الحسن الكحال المعروف « ببورد » ·

ولا أعلم ان كانت هناك دراسة له ، فمشكلة التشريح مشكلة عويصة فى كل البلدان تستلزم دراسة وافية · فهي مشكلة لم تحل بعد فى كثير من بلدان العالم ·

ولكننا نعتبر التشريح كمادة أساسية فى تقدم الطب برغم تقدم الوسائل التعليمية الصناعية ·

أما علم الغرائز فان النظرة للمقالة ترينا أن هناك ثغرة كبيرة فى تطور العلوم فى البلدان الاسلامية ، اذ يتبين أن الغافقى لم يحصل أو لم يستفد بذلك الشرح الذى قدمه مئتا عام قبله العالم الحسن بن الهيثم بالقاهرة ، اذ أوضح أن الرؤية نتيجة للاثر الحسي الذى يتركه النور فى العين · ومعلوم ان اهل العلم قبل ابن الهيثم كانوا يدعون الرؤية لقاء بين روح يخرج من الدماغ ومن العينين متجهة نحو الاشياء ، وبين الاشياء نفسها · فقال ابن الهيثم ان الألم الذى نحس به فى الصباح حينما ننظر الى الشمس لدليل قاطع على أن عملية الابصار تتحقق بدخول الضوء فى العين ·

وكذلك هناك ثغرة ثانية على ما يظهر فى مخطوط الغافقى ، وهو الجزء المتعلق بالنظر بالعينين · اذ اخترع ابن الهيثم جهازا لفحص البصر بالعينين ، وهذا الجهاز يرسمه العالم الكبير جافال فى أحد كتبه فى 1896 ·

انه من المفيد جدا ان نتعرف لاسباب هذه الثغرات ، فاليكم قائمة من الاسباب لذلك :

1 ـ قطع العلاقات العلمية بين مصر والاندلس فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ السلمين·

2 ـ ان ابن الهيثم اضطر ان يتصنع الجنون ، بعدما غضبت عليه السلطة المالكة فى القاهرة ، حسب بعض المؤرخين ، فان صح هذا يكون مفهوما ان تبقى كتبه مهملة ولم تنشر ·

3 ـ عدم الاطلاع من طرف عامة الاطباء على العلوم الاساسية ، مثل الرياضيات والبصريات ويكون الاعتناء بهذا النوع من المؤلفات قاصرا على عدد معين من عباقرة الطب ، الذين كانوا يهتمون بجميع أنواع المعرفة وجميع فنون العلم ·

4 ـ رابعا واخيرا أن تكون هذه المؤلفات قد وصلت للاندلس ، ولكن الاحراق الاجرامى مثل الذى قضى على ما يقرب من 200 الف كتاب فى قرطبة ، لم يترك اثرا لهذه الكتب ·

هذا فيما يتعلق بالمقالة الثالثة ، اما المقالة الرابعة :

ان مفاهيم علم الامراض العام متأثرة بالتعليم الطبى فنجد فيها تلك الشوارع الواسعة لطب الامزجة والطبائع ، وكان هذا التصنيف اليونانى الاصل يسيطر على علاج الامراض التى ليس لها سبب ظاهر حينذاك ٠

اما المقالة الخامسة :

اما الصيدلة فهى متنوعة ، وتشتمل على الادوية والعقاقير التى جربها القدماء مع ملاحظة أن نوعا من التمييز تتصف به قائمة العقاقير التى يقدمها الغافقى ، فلتاريخ الصيدلة ان يظهر هذا التمييز !

أما المقالة السادسة وهى أكبرها فى المخطوط ، فانها ترجمت باكثريتها من طرف « ماكس مايرهوف » ٠ تدرس أمراض بصفة وافية ، سنكتفى فى اطار هذا الحديث على بعض الملاحظات التى تظهر لنا مهمة ٠

ان تفحص هذا الكتاب يرينا أن الغافقى يعطى أهمية خاصة لطب العينين عند الاطفال ، وهذا التخصص لم يقم الا مؤخرا فى العصر الحديث ٠

ان التراخو ما موصوف فى أنواع عدة حسب الظواهر السريرية ، وحسب درجة خطورته ، ان العلاج الذى يوصى به الغافقى هو اشراك الادوية المنقهة مع حك الحبوب بآلة لامسة تسمى « الوردة » ، وهذا علاج مقبول فى الحالات المتطورة ٠

ان التهاب الملتحمة المعروف بالرمد صنف وقسم الى حاد ومزمن ، والحال أن بعد مرور ستة قرون على وصية الغافقى بتقطير الادوية المعقمة فى حالة الرمد يشير أستاذ طب العينين فى باريس بشق الملتحمة ، وهذه طريقة غير ناجحة بل خطيرة ٠

ان الاستاذ « سكاربا SCARPA » من بافى فى 1821 ، ويحتمى بالمؤلفين العرب حسب تعبيره فى التقسيم السريرى لامراض الملتحمة ولعلاجها٠

ان الكتابين الغربيين من فرنسا وايطاليا يتبعان تصنيف الغافقى ، وقائمة الامراض التى وصفها الغافقى ٠

واننا نجد بعض الاخطاء فى العلاج عند المؤلفين ما كان يقوم بها الغافقى ٠

ان « دولارى » كان فى سنة 1820 بباريس يحذر من اجراء عملية على الشعرة الا فى الحالات القصوى ، والمعروف أن العلاج الناجح الوحيد هو عمل اليد أى الجراحة ـ والغافقى يوصى بعمليتين لهذا المرض حسب تطوره مع ارشادات دقيقة ٠

ان علاج الاكياس غير منطقى فى القرن التاسع عشر اذا قارناه بالعلاج الذى يوصى بـه الغافقى الذى يشير الى قطع الجفن من الخارج للاكياس السطحية مع خيط الجرح بخيط حريرى او بشعر امرأة ، وهذا النوع من الخيط الاحيائى يوصى به ويستعمله بعض الجراحين فى العصر الحديث لنعومته ورقته لجراحة القرنية ٠

ان السبل وهو غشاء ذو عروق يغطى القرنية يعتبره الغافقى كمرض معدى والمعروف الآن أن التراخوما الذى يسبب هذا السبل وهو عرض من أعراضه ، معد للغاية ٠

ومحاربة التراخوما ترتكز على الحيلولة بين المرض والعين السليمة ٠

ان علاج الظفر فى العين بنوعيه العادى والنوع الملتحم مشروح بغاية الدقة ، ويميز بين الظفر الحقيقى وشبه الظهر الذى يؤدى علاجه الى خطر ، ان لم يتخذ الجراح بعض الاحتياطات ٠

ويوصى الغافقى بعلاج خاص بعد العملية لكي يمنـع الالتصاق بين الجفن والعين ، هذا الالتصاق الذى يحدث بعد العمليات الحديثة ان لم يراقب المريض بصفة جيدة ٠

ان الغافقى يعطى لنا وعلى ما يظهر لاول مرة بابا كاملا يشمل الرضوض وهي الحـوادث التى تطرأ على العين ، ويعطى لنا وسائل استخراج الاجسام الخارجية التى تاتى الى العين ٠

ان الغافقى يصف بدقة الاعراض لامراض القرنية وتجدر الملاحظة ان هذا الوصف بالعـين المجردة شيء غير سهل وهو يصف بصفة صحيحة العرض الاساسى لاختراق القرنية والذى نعلمه فى العصر الحاضر بنفس الاسلوب وهو اللطخـة السوداء تحيطها ساحة بيضاء مع تغيير شكل الحدقـة ٠

ان تشخيص المرضى المصابين بالساد وهو « الكاتاركت » يعتبـر تقدما كبيرا بالنسبة للتشخيص الذى يشرحه ابن سينا فى القانون ٠

ان التنبؤ بمصير المريض بعد العملية يستنبطه الغافقى من انعكاسات وتفاعل الحدقة للضوء الموجه نحو العين ، ويعتبر عدم تحرك الحدقة عرضا ينبيء بعدم برء المريض ٠

انه يوصى بقدح الساد ، ولكن الطريقة الموضحة والآلات المستعملة تستدعى الاحترام بعـد قرون من عـرضها ٠

ان العلاج ما بعد العملية على الطريقة التى يوصى بها الغافقى تستدعى هذا الاحتـرام والاعجاب اكثر فاكثر ٠

نعم ان الغافقى يطبق ضمدا على العينين ، ويلزم مريضه بالراحة التامة مدة ثلاثة أيام بدون تحرك ، مع استعمال مرهم احيائى وهو صفرة البيض وهو مادة عقيمة بدون جـــراثيم ، حينما تستعمل مباشرة وهي كذلك تحتوى على فيتامينات صالحة لالتحام الجرح « فيتامين أ » ·

من ناحية جراحة الاجفان ، ان هذا فى الكتاب تقدما ملموسا بالنسبة الى أشهر كتاب فى الجراحة فى ذلك العصر ، وهو كتاب ابو القاسم الزهراوى ·

ان استعمال بعض الازهار من نوع « البيلادون » كان معروفا لديه لتوسيع الحدقة وتغيير وقتى للون العين من أزرق الى أسود ·

ان الغافقى يوصى كذلك بوضم العين فى بعض الحالات لكي يتحسن مظهرها ، وهي خطوة فى جراحة التجميل ·

تلك هي بعض العناصر التى اقتبسناها اثناء قراءتنا للمخطوط وبصفة خاصة للجـــزء الاخير منه ، الذى ترجمه ماكس ما يرهوف ، فلا شك أن تحقيق المخطوط كله سياتى بمعلومات اضافية ·

بعدما لاحظنا محتوى هذا النص ، فلننظر الآن الى لغته ووسائل التعبير فيه ، ان اللغويين والادباء يستطيعون بدون شك أن يقولوا اكثر مما اقوله أنا فى هذا الموضوع ، أمـــا فيما يهمنى كطبيب يقوم بمجهود لتحسين لغته العربية ، فـــان الوضوح والبساطة والايجاز ودقة اللفظ هي الصفات التى لاحظتها واعجبت بها · فلغة هذا المخطوط هي لغة علمية بدون التزويقات البيانية ·

ان الطريق الذى سلكته اللغة الطبية العربية من زمان المأمون والمترجمين الاولين طريـــق طويل ، ان دراسة مقارنة لكتاب حنين ابن اسحق ولكتاب الغافقى اللذان تفصلهما أربعـــة قرون لا بد أن تظهر هذا التقدم الذى حصلت عليه اللغة العـــربية فى التعبير العلمى عن التقدم الذى حققته المدارس الطبية العربية فى هذه المدة مـــن الزمن ، وهذا طبيعى جدا ·

ان قائمة المفردات والمصطلحات العلمية مهمة ، فليس فيها تلك المترادفات الضارة للتعبير العلمـــى ·

فى هذا الكتاب مثلما أشرنا اليه يستعمل الرسم كأداة تعليمية بطريقة حسنة ، ويقدم المؤلف التفاصيل اللازمة لصنع الآلات المرسومة رسما مناسبا لحجمها ·

وبعدما عرضنا محتوى هذا الكتاب وبعض امتيازات لغته ، وتعرفنا الى ما هو معروف عن مـــؤلفه ·

فهل يمكن أن نستخلص بعض الافكار لتطرح فى ميدان المناقشة حــول عوامل الازدهار ، وأسباب الانحطاط وشروط النهضة للطب كجـزء من مقومات الحضارة عند العرب والمسلمين ·

أما أسباب الازدهار فانها ملخصة فى الاعتبارات التى حملتنا لتسمية هذا المصنف مصنف عصرى هو الذى نعتبره عصريا فى زمننا ؟ ما الذى يبشر بميلاد الطب الحديث فى هذا المخطوط نرى أولا : التنظيم المنطقى للمعارف ـ ثانيا : التعبير بأسلوب واضح ودقيق ـ ثالثا : دراسـة منتقدة للمراجع العلمية المهمة ـ رابعا : اهتمـام كبير بالملاحظة الدقيقة ـ خامسا : التجـربة الشخصية التى تمكن صاحبها من رفض الخطأ أيا كان منشؤه · وهناك أخيرا تنبؤ بما سـوف يكون فى القرن الـ 21 فى هذا الكرم الذى يتصف به الغافقى ومن معه ، بايصال العلم الى من يليه مع اعطائهم كل التفاصيل الفنية الناجحة التى قلما يعطيها كثير من العلماء فى القرن العشرين ·

ان الطب يتطلب الملاحظة والتطبيق والمثل فالكتب وحدها لا تكفى ، ولابد من شـيخ يريك شخوصها ، ويظهر أن الركود ثم الانحطاط آتيان من هنا ، فبعد هدم المغـول المدارس الطبية العربية الاسلامية فى بغداد وزوال الاندلس بقيت الكتب هي العوامل الوحيدة فى التكوين الطبى فهل للكتب الا أن تكون كتبا أخرى ونسخا ؟ ابتعدت شيئا فشيئا عن حقائق الامراض الى أن وصل الطبيب الى استعمال رسوم سحرية وطلاسيم لكي يعالـج ؟

ففى كتاب الغافقى لاتوجد بالطبيعة أية رسوم أو خطوط من هذا النوع الخرافى · اذ يركز العلاج على الدواء مثلما أوصى به الرسول صلوات الله عليه وسلامه فى حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلا قام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسـول الله اينفع الدواء من القدر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (الدواء من القدر وهو ينفع من يشاء بما يشاء) ·

ولقد سقت هذا الحديث لانه يفند كل الادعاءات حول ما يسمى بالاسباب العقائدية لركـود المسلمين ·

أما السبب الثانى للانحطاط أو عدم النمو هو ما لاحظناه ان هذا الكتاب فى الطب لم يستفد من العلوم المجردة المجاورة له ، مثل البصريات لطـب العين ، فان اعمال ابن الهيثم انتظرت « نيوتن » و « كبلر » لكي تستعمل لفائدة المعرفة البشرية ·

وهنا يجدر أن أؤكد أن أكبر التقدمات فى الطب حصلت بحلف العلوم الاساسية من المعامل والعلوم السريرية من المستشفيات ·

فمثلا فى طب العين النظرات والمنظار العينى حققت تقدما عظيما فى معرفة العين وطبها ·

فاذا أردنا أن نلخص عوامل الانحطاط أو الركود عند المسلمين بصفة عامة على ضـــوء ما وجدناه اثناء هذه الدراسة ، فسنجد سببين أساسين :

السبب الاول : القطع العمودى ، بين الاجيال الذى يحصل بهدم ما بناه الاولون أو جهله ·

وهذا الذى يعلل أن قانون ابن سيناء صـــار منسيا وترك المجال للهارونيات ·

والسبب الثانى : هو القطع الافقى بانعدام التبادل فى جيل واحد ·

وان مثل ما حصل لتراث ابن الهيثم يجمع هذين السببين ، القطع فى الزمان وفى المكان ·

اما عوامل النهضة ، فهناك عوامل معروفـــة مجربة فى تاريـــخ كثير من المدنيات والعامل الأول هو ما قام به العرب فى بغداد بين القرن الاول والثانى للهجرة فى بغداد ثم ما قام به الغرب بعد 3 قرون حيث انتبه كل لما عند غيره من كنوز وأخذ الاسباب لاستيعابها ،والاستفادة منها · ففى النصف الاول من القرن 12 نظم كبير الاساقفة Raymond Jauvetal ورشة للترجمة فى طليطلة ، وفى نفس الوقت اشرف « جيرار دو كريمون » على 86 ترجمة من الكتب العربية ، وطلب Pierre vénérable بترجمة القرآن العظيم ·

ينبغى أن نلاحظ هنا أن الغرب ما فتىء يترجم ويصحح الترجمات جيلا بعد جيل لكي يستفيد من تراث غيره ·

ولربما كان هذا سرا من أسرار نهضته المستمرة ·

ونزيد أن الغربيين قاموا بعمل مشترك ، اذ كان مثلا فى الاندلس علماء مترجمون أتـــوا من البلدان المختلفة الاوروبية ، ولكنهم استفادوا من هذا ، وكانت نهضتهم تسير مع نوع مـــن الانسجام ، اذ استمرت المراسلات بين علمائهم وتبادلوا تجاربهم ، الى وقتنا هذا ، رغم كل مـــا يمكن أن يحدث بينهم من حروب وانقسامات ·

فاذا اهتممنا فى دراسة التاريخ بالبحث عن الاخطاء التى يجب أن لا نقوم بها حاليا فـــان تصوراتنا للقرن 21 هي التى يجب أن تقود تفكيرنا وتوجه عقولنا لانه اذا كان ممكنا أن يحاكى الماضى ، فهل يمكن محاكاة المستقبل ؟

ان المهتمين بالتخطيط وبالنظريات المتعلقـــة بالمستقبل يتحدثون عن مجتمع تنتجه هذه المرحلة الصناعية التى يجتازها العالم ، ويكون هذا المجتمع ما بعد الصناعى حسب أحد هؤلاء العلمـــاء البارزين مجتمعا يكون فيه العامل الاساسى للتقدم هو التنظيم والسيطرة على أنظمة العلم النظرى وتكون فيها المؤسسات الفكرية مركز الهيكل الاجتماعى ·

ومن هنا يتضح أن تقدم العلم وهو شرط النجاة يتطلب من كل جماعة بشرية أن تساهـــم باكبر عدد ممكن فى ترقية العلم ·

وهذه المساهمة تتطلب لغة مشتركة لاكبر عدد ممكن من الناس · وتكون هذه اللغـــة همزة وصل بين الناس عن طريق المترجمين ·

فان المسلمين تتلمذوا بحكم التاريخ فرادى ثم جماعات وجماهير على مدرسة الغرب فى هذا النصف الثانى من القرن 20 ، ولهذه الظاهرة ابعاد استثنائية ، نعم ان المسلمين يجب عليهم فى هذه الظروف أن لا يكتفوا بتتبع الخطوات بل يجب عليهم ان يسيطروا فى كل مرحلة على نقـــل التكنولوجيا ، وتطور المنطق العلمى ·

فيظهر من هذا أن التبادل المستمر والاتصال الدائم بين مسلمى العالم أمر ضرورى لكـــى يكونوا اصحاب انتاج فى الحضارة بدلا مـــن أن يبقوا مستهلكين فقط ·

ومن أجل هذه المبادلات النوعية فان اللغـــة العربية التى هى لغة القرآن التى اثراها علماء المسلمين عبر التاريخ قد اتاحت للشعوب الاسلامية على اختلاف اجناسها أن تتقدم بســـرعة فى العلوم وتبنى بناء علميا وثقافيا جعل البشرية تترقى ·

ان هذه اللغة قادرة ـ بفضل جذورها الروحية ان تسهم فى الحاضر والمستقبل فى تقـــدم الحضارة وتصبح اللغة العربية مرة أخرى وسيلة لسعادة البشـــر ·

هذان العاملان : انفتاح ايجابى نشيط بالترجمة فى الاتجاهين ، والوحدة فى البحث والعمل · هذان العاملان سيضمنان ان شاء الله انبعاثا جديدا للاسلام والمسلمين ·

قبل أن اختم حديثى ، اسمحوالى أن اثير ذكرى غالية منذ 36 ســـنة نظم ابى رحمه اللـــه لفائدتى فى هذه المدينة « بجاية » فى مدرسة حـــرة تابعة لجمعية العلماء بعد أول ســـنة دراسية قضيتها فى ثانوية فرنسية بالجزائر فترة تدريبية فى اللغة العربية وفى التراث الاسلامى · عوض العطلة الصيفية حتى لا يفقدنى التعليم فى المدرسة الغربية أعز رأس مال الانسان الا وهو روحه ·

فشكرا لكم اساتذتى ·

ورحمة الله عليك ياوالدى ، فلقد اديت الامانـــة ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



وفـــاة المجـــاهـد
الاســـلامى
الكبـــير
الأمـــين الحسيـــنى

فقـدت الامة الاسلامية مجاهدا ظل أكثر من نصف قـــرن يعمل من أجـل قضيـة فلسطـين وسـائر قضـايا الاســـلام والمسلمـين . وهو سمـــاحة الاستـاذ محمـد أمـين الحسيـنى مفتى فلسطين ، ورئيس الهيئـة العربية العليـا لفلسطين .

وقد شارك الفقيـد فى كل الحركات الاسلامية فى الوطـن الاسـلامى الكبـير باخـلاص وايمـان .

وقد أجمعت جميـع الاوساط العربية والاسلامية عمـوما وعـلى رأسها الفلسطينية على الاشادة بكفاحه بمناسبة وفاته .

تغمـده الله برحمتـه وأسكنه فسيـح جناتـه .

بين التعصب والإسلامية

أو الإسلام من خلال بعض الشخصيات فى العالم المسيحى

د. ميغال دى ايبالزا

(اسبانيا)

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

- معالى سيادة وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ،
- أيها السادة الافاضل ،
- أيها الزملاء الاعزاء ،

قبل كل شىء أريد أن اعتذر لكم لسوء نطقى فى اللغة العربية . أنا اجنبى وكالبعض منكم انى لا أتكلم جيدا هذه اللغة القيمة . ولربما يوجد هنا من يتكلمون لغتى أحسن كأنها لغتهم . والى هؤلاء جميعا اعتذاراتى ان أسأت الى هذه اللغة ، وأتمنى أن نستطيع التفاهم عند الكلام عن المواضيع التاريخية التى تمس فى آن واحد بلدكم وبلدى .

وبالفعل سوف اتكلم عن فترة من التاريخ المشترك لمدينة بجاية وجزيرة مايورك ، تلك الجزيرة التى تلقيت فيها تربية • وان سألنا سكانها يوما عما يعرفونه عن مدينة بجاية فيجيبوا كلهم أن رامون يول مات هناك • اما المؤرخون فانهم لا يعرفون عنه ان توفى فى مدينة بجاية أم فى البحر • ولكن المايوركيين يظنون أنه مات فى هذه المدينة التى أصبحت مشهورة فى مايوركة ومدينة بجاية قديمة جدا وما زالت قائمة حتى الآن • فالمسافة بين المنطقتين 160 ميـلا ولكن العلاقات التاريخية كثيرة بينهما • فلنذكر أيها السادة البعض منها :

ــ فى العصور القديمة كانت السفن الفنيقية تعبر البحر الابيض المتوسط من بجاية والجزائر متجهة الى اسبانيا فتتوقف بجزر مايورك وابيزة•

ــ عندما استقر الاسلام فى الاندلس توجه عدد كبير من المسلمين الى البقــاع المقدسة لاداء فريضة الحج عن طريق البحر فتوقفوا بمايوركة وبجاية كمثل عصام الجولانى الذى فتـح الجزيرة لامراء قرطبة فى أواخر القرن الثانى للهجرة •

ــ خلال الصراع السياسى الذى نشـب بين فاطمى افريقيا وأمويى الاندلس فى القـــرن الثالث الهجرى ، كانت بجاية ومايوركة مناءين عدوين بعضهما البعض واستعملا للحروب البحرية بين الدولتين •

ــ وبعد وقت طويل أى خلال الحروب التــى نشبت بين المرابطين والموحدين هيأ بنو غانية امراء مايوركة المرابطون جيشا للكفاح ضد الموحدين فى المغرب وقد دخلّ هذا الجيش مدينة بجاية ومنها ابتدأ حربه ضد الموحدين فى كل المغرب الشــرقى •

ــ وبعد وقت مضى عقد ملوك أراغون ومايوركة عهودا واحلافا سياسية وتجارية مـــــع الامراء المغاربة ، تسمح لهم بالتجارة مع هذه البلدان • وقد انشات قنصلية لمايوركة فى بجاية• أما التجارة فقد كانت مزدهرة كما كانت ، عليه منــذ قرون وقرون •

ــ وفى القرن الثامن لجأ الى بجاية يهود مايوركة هربا من اضطهاد المسيحيين لهم ، ومكثوا بها تحت حماية الدين الاسلامى الذى هو ديــــنتسامح •

ــ وخلال القرن التاسع والعاشر حاولت القـــوات الامبريالية لفرناد المسيحى الاراغونى والامبراطور شارل الخامس والمانيا ، اخذ المدينة فارسلوا عدة حملات من مايورك • وقد يعـرف فشل هذه الحملات العسكرية •

ــ خلال العصر الحديث أى ما بين القرن العاشــــر والثانى عشر كان عدد كبير من سكان مايورك فى بجاية منهم المسافرون والاسرى كما وجد عدد كبير من اســـرى ومسافرى بجاية فى

مايورك والجزر المجاورة · وهذه هي الفترة المؤسفة والمؤلمة فى علاقات بلدينا · حيث عرفت بالحرب المستمرة التى دامت ثلاث مائة سنة بين الجزائر واسبانيا ·

ـ اما الآن ومع استرجاع الاستقلال كثر عدد الجزائريين الذين يزورون أو يعبرون مايورك كما أن المايوركيين الذين ياتون لزيارة بلدكم وهذه المدينة الجميلة هم دائما فى ازدياد ملحوظ ·

ـ وأخيرا انى اتكلم لكم اليوم باسم مواطنى مايورك جيرانكم الشماليين مع ذكر السلام والاخوة السائدة بين البلدين المجاورين · هذا السلام الذى يعد آخر رباط لتواريخ عريضة مشتركة والتى تواصل سيرها نحو المستقبل مع اجمل التمانى ·

فلنترك ايها المستمعون الحاضر والمستقبل ونعيد نظرة الى الماضى وبالاحرى الى رامون يول ووقته ونحو رحلاته واقامته فى بجاية حتى وفاته فى البحر بين بجاية ومايورك ـ انها تواريخ الماضى ولكن يجب التعرف عنها لانها جزء من تواريخ تظهر تارة مؤسفة وتارة مسرة ـ وهي تراث مشترك للبلدين الجارين ·

ان رامون يول رجل دينى من مايورك كان فيلسوفا ، رياضيا وشاعرا ويعد من كبار وعظماء الادباء الاسبان فى اللغة الكاتالانية ، وكان رامون يول أول فيلسوف أوروبى لم يكتب باللغة اللاتينية ، ولكنه كتب باللغة الكاتالانية تلك اللغة الشعبية · جال كثيرا فى أوروبا ومصر وتونس وفى كل المغرب ، وتعرف رامون يول باهم الشخصيات لعصره فى أوروبا · وقد يلاحظ تاثر بعض المفكرين الاوروبيين بأفكاره الفلسفية · كان يحسن اللغة العربية ومتاثرا بها فى مؤلفاته · وهكذا أثر رامون يول اكثر من غيره من الفلاسفة الاوروبيين فى التيار الاسلامى للفكر الاوروبى فى القرون الوسطى ·

وقد كان ايضا رجلا دينا تابعا لنظام فرانسسكو · وان مثل حياته الدينية وتبشيره يرينا كيف كان يريد نشر الدين المسيحى فى كل انحاء أوروبا وشمال افريقيا · فقد بشر رامون يول وكتب باللغة اللاتينية والكتالانية فى أوروبا وتعلم العربية من أجل التبشير والكتابة بها فى المغرب وأنشأ فى تلك الفترة فرانسسكودى أسيس النظام التبشيرى من اجل نشر الدين المسيحى فى أوروبا والعالم كله ·

ان رجال الدين المسيحيين فرانسسكانيين نسبة الى فرانسسكو بشروا فى كل أوروبا بزهد وتعبد · ولكنهم كانوا يريدون التبشير وسط المسلمين الذين لم يعرفوا الدين المسيحى · فابتدات هذه الحملة التبشيرية بمشاركة سان فرانسسكو نفسه وقد كان دائما ضد الحروب الصليبية لانه كان يظن انها عسكرية وليست دينية · ولهذا الغرض سافر الى المشرق للابتعاد عن الحروب الصليبية

ومن أجل التبشير هناك · وهكذا فقد استقبل استقبالا حارا من طرف السلطان صلاح الدين الايوبى فى مصر · فاستمع اليه السلطان باهتمام ومراعاة ورجع فرانسسكو الى أوروبا مسرورا بالاهتمام الذى تظاهرت به شخصية كصلاح الدين الايوبى · ولكنه لم يستطع اقناعه وامـا تبشيره فقد كان معتدلا ومحترما بدون مهاجمة رسول الاسلام ولهذا فقد احترمه المسلمون لانهم رأوا فيه رجـلا دينا يؤمن بدينه ومن أولئك الذين يطلب القرآن احترامهم ·

ولكن رجال الدين الفرانسسكانيين لم يكونوا كلهم محترمين كمؤسسهم وفى نفس الوقـت أتت الى المغرب جماعة من رجال الدين ليبشروا بالمسيح ولكنهم هاجموا الرسول والدين الاسلامى ·

ـ فى 1219 انتقلت جماعة تضم 6 من رجال الدين الفرانسسكانيين من ايطاليا الى المغرب لتدعوا الناس الى الايمان بالمسيح · فعبروا ايطاليا وجنوب فرنسا ثم اسبانيا والبرتغال ووصلوا أخيرا الى اشبيلية التى كانت تحت حكم الموحدين · كانت المدينة اسلامية ولكن المسيحيين كثيرون فيها وكان الحاكم يقيم علاقات دبلوماسية حسنة مع مسيحى الشمال وخاصة مع التجار الذين يزورون المدينة ويشاركون فى تنميتها بتجارتهم ·

وعندما سكن هؤلاء ـ رجال الدين الستة ـ عند تاجر مسيحى ، وقفوا أمام باب مسجد وبدأوا التبشير · فلم يرض المسلمون بهذا وأرغموهم على السكوت فلجأوا الى الحاكم وطلب منهم ما هو هدفهم فأجابوا انهم أتوا للتبشير بالايمان وكذلك بطلان الدين الاسلامى فسجنوا فى برج الذهـب بجانب الوادى الكبير وبعد محاكمتهم سألهم الـى أين يريدون أن يطردهم · نحـو الشمال فى البلدان المسيحية أم الى الجنوب · أى الى المغرب فاختاروا الذهاب الى المغرب · وهكذا طردوا الى المغرب كمشوشين وان الحاكم لم يرد تطبيق حكم الاعدام رغم انهم شتموا النبى وذلك لانه ظـن انهم مجانين ولان هذه الحادثة لم يسبق لها مثيل فى الاندلس ·

فى الحقيقة يلزم التكلم عن تعصب هؤلاء رجـال الدين الذين لم يحترموا العقائد المسلمة · فعندما وصلوا الى المغرب خرجوا ثلاث مرات مـن السجن أو مطرودين فرجعـوا الى عاصمة الموحدين للتبشير علانية · وان مسيحى مراكش خاصة منهم دان بيدرو البرتغالى الذى كان يعيش هناك الخليفة المستنصر بالله كانوا يريدون اقناع المسلمين أن المبشرين كانوا سريين فى تبشيرهم ومحترمين للدين الاسلامى · ولكن المسيحيين والسلطات الاسلامية كانت تخشى ثورة الشعـب وأخيرا وفى 16 جانفى من 1220 قطع الخليفة نفسه رؤوس هؤلاء رجال الدين · فجمع دان بيدرو البرتغالى اجسامهم وأخذها الى أوروبا عندما رحل من المغرب ليتم أيامه فى جزيرة مايورك ·

وهنا نرى فى هذه التواريخ المؤسفة نتيجــة عدم احترام هؤلاء الرجال الدينين للاسلام وذلك أنهم كانوا لا يعرفون الدين الاسلامى واللغة العربية · ورغم هذا أرادوا التبشير فى بلد مسلم · فخلقوا اضطرابات وحاصروا المسلمين بمهاجمتهم للاسلام وشتمهم للنبي · كانوا يحملون بايمان ولكن تعصبهم الدينى لم يؤدى الى اية نتيجة ·

ولكن وضعية وحالة رجل دين فرانسسكى آخر تختلف تماما عن وضعية الرجال الســـت الاولين وهو أنسالم تورميدا الذى ذهب الى تونس حوالى 1390 ، ودخل الاسلام تحت اســـم عبد الله الترجمان · ان هذه التواريخ مهمة فى العلاقات بين مايورك والمغرب فى العصور الوسطى .

لقد ولد أنسالم تورميدا فى مدينة مايورك وهو رجل دينى فرنسسكانى أيضا درس فى مايورك وليردا وبولونيا بايطاليا وعند الثلاثينات من عمره اتجه الى تونس ليدخل الاسلام · وكان ذلك أمام السلطان التونسى واخذ منصب ترجمان فــى جمارك ميناء تونس ومنه وصل الى منصف قائد الجمارك وشغل مناصب هامة فى الادارة المالية فى مملكة الحفصيين الذين كانوا فى قمة مجدهم وشهرتهم وقد وصلت فتوحاتهم حتى بجاية ·

ان انسالم تورميدا رجل سياسى ودينى وكذلك كاتب ذو مكانة عظيمة لانه كتب من تونـــس عدة مؤلفات باللغة الكاتالانية وبعثها الى بلاده عن طريق التجــار · وكان لهذه المؤلفات اهتماما كبيرا وأثرا عظيما · ويعتبر فى هذه اللغة كاتبا كلاسيكيا · وفى آخر حياته كتـــب كتابا باللغة العربية وهو « تحفة الاديب فى الرد على أهل الصليب » وفيه يذكر حياته ودخوله الى الاســـلام والامراء التونسيين الذين خدمهم ونقضه العريض للمسيحية على الخصوص هذا الدين الذى كان يعرفه جيدا لانه كان قسيسا ورجلا دينا مسيحيا ·

وكان لهذا الكتاب صدى كبيرا فى العالم العربى والاسلامى · وقــد وجدت أنا 46 مخطوطة يدوية بالعربية والتركية بين الرباط وبغداد وثــلاث منشورات بالعربية وثلاثة أخــرى بالتركية · الاخيرة منها وجدتها سنة 1970 ، أنا أظن انه المؤلف الوحيد الذى كتب بالعربية وبلغة أوروبيـــة واستطاع أن يكون فى الاثنتين · ولهذا فان حيــاة هذا الرجـــل الدينى مهمة · فرنسسكانى من مايورك استسلم وكتب بالعربية ولكنه لم يتراجــع عن ثقافته المايوركية وحافظ على علاقته الاخوية مع شخصيات من جزيرته وكتب بلغته كما كتب بالعربية وعلى نفس المستوى

ان الفترة التى جاء فيها رامون يول الى بجاية تتراوح بين تعصب الفرنسسكانيين المراكشيين واستسلام الفرنسسكانى التونسى ·

ولد رامون يول حوالى 1232 فى مايورك سنتين أو ثلاثة بعد ان أحتلت الجزيرة من طــرف ملك أراغون وقد كان صاحب وســام وملازما باب الملـــك الى ان اهتدى الى الايمان وعمره 33

سنة • فترك عائلته وأشغاله وراح يبذل المجهودات فى نشـــر دينه فى أوروبا بكتابته وتبشيره • وبما أنه عاش وسط المسلمين أراد أيضا ان يدفــع المسلمين الى الايمان بالعقيدة المسيحية • فتعلم العربية وارغم البابا وبعض الامراء المسيحيين على انشاء مدارس تعلم اللغة العربية لكي يتعلمها المبشرون فيتعرفون على الدين الاسلامى والثقافــة العــربية •

ورغم أنه ادعى نشر المسيحية قبل كل شىء فرامون يول هو واحد من الذين أثروا فى الثقافة الاوروبية بقيم عربية من خلال كتابته ومباد هاته التربوية وهكذا ألف كتاب التأمل الذى حــرره بالعربية أولا ثم بالكاتالانية • ودرس فى مختلــف جامعات أوروبا •

ولكنه فكر أيضا فى نشر العقيدة المسيحية بين المسلمين فرحل حوالى 1280 الى المشرق عامة والى الاماكن والبقاع المقدسة المسيحية فى فلسطين • وبعد اثنتى عشرة سنـــة اتجه الى تونس وتحادث أياما وأيام مع العلماء المسلمين متعقلا فى ايمانه أمامهم ومحاولا تفهــم براهنهم • وان تاثره بهذه المحادثات لايستطاع نفيها فى كتبه التى تلـــت المحادثات • فتكلم دائما عن الايمان الاسلامى وصفات الله • ولا مبتدأ بالعقائد المسيحية • كما كان يعمل معلمو اللاهوتية الاوروبيين

وكانت هذه المحادثات خطيرة من جانب آخر لرامون يول • لانه اتهم أمام السلطان أنه أمعن وبالغ فى التكلم عن دينه • ولحسن حضه اقنعــت احدى الشخصيات السامية الملك بأن لا يؤخذ أمر فى شان رامون يول وانما يلزم ارجاعه الــى أرضه وكانت حجته هي التالية : ان قتلنا هذا الرجل الذى جاء هنا للتبشير فان المسيحيين لن يقبلوا المسلمين الذين يريدون نشــــر العقيدة الاسلامية فى أراضيهم • انها حجة غريبة ولكنها كانت فعالة واستطاعت ان تنقذ رامون يول من الهلاك فى تونس ، فرجع الى ايطاليا وحث البابا والشخصيات الكنائسية على الاهتمام بالتبشيــر عامة وبين المسلمين خاصة •

وبعد ان واصل يكتب ويسافر فى كل انحــاء أوروبا اقدم فى الخامسة والسبعين من عمــره على القيام برحلة من جزيرة مايورك الى المغرب والى مدينة بجاية فبدأ تبشيره العلنى ومهاجمته للدين الاسلامى فالقى القاضى الحكم عليه وقال لـه : أى جنون سمـــح لك بمهاجمة ديننا الحنيف علنية ، فسجنه ولكنه انتظر مجىء العلماء المسلمين للتحادث معه واقناعه عن حقيقة الدين الاسلامى فاستجاب له وراح يكتب ليلا ليجمع ثمار هذه المحادثات والافكار وهكذا ألف فى بجايـــة كتاب مجادلة رامون يقول المسيحى مع •••

واخيرا بعثه أمير أو حاكم بجاية فى باخرة متجهة الى مدينة بيزة بايطاليا • وهكذا واصل هذا العجوز الذى لا يخضع لشىء كاتبا ومرتحــلا عبر كل أوروبا وكان جديرا بحقيقة الديـــن المسيحى وكان دائما فى استعداد لنشر هذا الديــن حتى عند البابا والامراء المسيحيين • ولكنه لن

ينسى المسلمين ففى 1314 رجع مرة أخرى الى بجاية وهو فى الثانية والثمانين من عمـره ومنها انتقل الى تونس حيث طلب من ملك اراغون ان يرسل له ترجمانا وكاتبا يساعداه فى أعماله ، ورجع مرة أخرى الى بجاية حيث مات فى السفينة التـى كانت تنقله الى مايورك ٠

وجاء فى بعض الاساطير أن رامون يول اضطهد فى بجاية وفى الحقيقة نحن لا نعلم شيئا عن آخر أيامه التى قضاها فى بجاية ٠ وان سكان مايورك يكنون له احتراما واكراما عظيمين اذ انـه فى يوم الاحتفال بذكرى وفاته توضع صورته على مقدم بلدية بالمة ولقد رأيتها انا عندما كنت ولدا وهكذا نرى بين تعصب بعض من زملائه الفرانسسكانيين ودخول الاسلام من طرف آخرين شخصية رامون يول العظيمة ٠ ورغم انه دافع فى بعض الاحيان عن الحروب الصليبية ككثير من رجـال القرون الوسطى ٠ فقد اشتغل خاصة بالتبشير الدينى بكلامه ومؤلفاته متعلما اللغـة العـربية والحضارة الاسلامية ٠ وهو رجل ركز تبشيره على الحـوار المنظم هكذا ومريدا ان يـؤثر فى المسلمين كان المعلم اللاهوتى المسيحى الذى تأثـر اكثر من غيره من المسلمين ٠ وهذا مثل لتأثير الحضارة العربية الاسلامية فى أوروبا خلال القرون الوسطى كلها ٠

وأنا أظن أن اهتمام رامون يول بالمسلمين وتأثيرهم فيه كان من أسبابها أنه عاش فى جزيرة وسط البحر الابيض المتوسط قابلا جميع تيارات هذا البحر المشترك ٠ ولهذا الغرض نصب تمثـال رامون يول فى ميناء بالمة بمايورك رمز للضيافة والاتزان ولانفتاح العقل لجميع التيارات الفكـرية فى أوقات رامون يول ٠

وفيما يتعلق بانفتاح رامون يول دعونى أيها الاخوة اختم كلامى بهذه الحكاية عن هذا التمثال المشهور لميناء بالما ٠

لقد أقاموه منذ سبعة سنوات وخطر لشخصية مايوركية ان توضع جملة فى كل اللغات كتب بها رامون يول أى باللاتينية والكاتالانية والعربية ٠ هذه اللغات التى كانت لغات ثقافية فى عصره ولاختيار الجملة العربية اتصلوا بى عندما كنت استاذا بجامعة ليون بفرنسا ففكرت أنه من الاحسن ان يختارها عربى مسلم وعلى الخصوص جزائرى لان رامون يول عاش فى الجزائر وتـوفى فى بجاية ٠ ولهذا الغرض عرضت الفكرة على زميلى الاستاذ الدكتور علي مراد الذى كان له اللطف فى اختيار جملة ثمينة لرامون يول وهي « لا محبة بدون ارادة ولا ارادة بدون محبـة » وأرسلها الى مايورك ٠

ولكن الجملة كانت كلها فى سطر واحد افقى أما قاعـدة التمثال كانت عمودية وضحت القاعدة غير كافية لكتابة الجملة فى سطر واحـد فلجأ زملائى المايوركيون الى قطع الجملة من اليسار الى اليمين اي ابتداوها من الاخير فوضعوا أخرها فى السطر الاول ووسطها فى السطـر

الثانى أما أول الجملة فوضعوه فى آخر سطر مــن البلاطة · وهكذا أصبحت الجملة غير مفهومة وغامضة فى أعين الناس ·

أما أنا فقد كنت فى جامعة ليون ولم أطلــع عن هذا الحادث · فاشتكت الناس فى مايورك قائلة أن ما كتب غامض جدا وغير مفهوم · فقــام الشخص وأتى بالفكـــرة بعـــدة مجادلات فى الصحافة قائلا أنه استشار أساتذة جامعات حذيرين بما يعملون وأنه عـــرض البلاطة على بعض العرب وأنهم فهموا المعنى العام للجملة الا أنهــم قالوا أنها تظهر غريبة شيئا ما · واستنتج أننا ترجمنا نص الجملة الى عربية العصور الوسطى ولهذا لم تفهـــم جيدا واستطاع بهذه الوسيلة أن يقضى على احتجاجات الناس ·

وبعد مدة من الزمن مررت بمايورك فرأيــت التمثال وما فعلوه بها · فتلقت الى الســـيد الجليل وقلت له أن هناك غلطة عظيمة ذات أهمية · فتعجب قائلا : أنت كذلك تشكــو الآن بعدما اقنعت الناس جميعا ان الجملة مفهومة · ولكن الغلطة أصلحت ونستطلع اليوم رأى تمثال رامون يول وهو فاتح ذراعيه فى ميناء بالما · ذراعان مفتوحتان الى العالم وموجهة الى بجاية خصيصا هذه الارض التى توفي فيها ·

كل هذه الاحداث هي تواريخ العصور الوسطى ـ أما الآن فقد طرأ تغيير شامل بين بلـدى وبلدكم بين الدين الاسلامى والمسيحى ولكن جملة رامون يول التى اختارها زميلى الجزائرى علي مراد ما زالت صالحة ولها شأن فى علاقات المايوركيين مع جيرانهم سكان بجاية · واختم كلامى أيها الاخوة المستمعون قائلا : « لا محبة بدون ارادة ولا ارادة بدون محبة » ·

والسلام عليكم ·

———— o ————

مراجـــع عـــربية

البكرى (ابو عبيد الله) كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب · طبعة دى ســـلان · باريس 1965 ·

الادريسى (الشريف) كتاب نزهة المشتــاق فى اختراق الافاق · (كتــاب الاستفسار فى عجائب الابصار) · ط دى كريمير فيانا 1852 ·

الغبرينى (أبو العباس أحمد بن أحمد ···)

« عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » طبعة الجزائر 1910 ·

ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر ··· ج 6

الحضارة الإسلامية والنزعة الإنسانية

د. احسان عباس
استاذ الادب العربى
بالجامعة الامريكية
بيروت – لبنان

يذهب هانز هينرش شيدر (1) الى أن التراث اليونانى كان هو العامل الأقوى فى تكييف الحضارة الاسلامية ، وأن قبول ذلك التراث انما تم بدافع المنفعة العملية وحدها أبى ليكون وسيلة للدفاع عن الطابع الدينى لتلك الحضارة ، ومن ثم وقعت الحضارة الاسلامية أسيرة للقالب اليونانى ، ولم تستطع أن تتجه نحو النزعة الانسانية ، تلك النزعة التى كانت سر تطور الحضارة الاوروبية المتأثرة – كالحضارة الاسلامية – بالتراث اليونانى نفسه .

(1) الاشارة الى بحث له بعنوان (الشرق و التراث اليونانى) وقد نشر بالعربية تحت عنوان « روح الحضارة العربية » ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى – بيروت 1949 .

ان هذه الآراء التى تبدو مترابطة معا ترابط السبب والنتيجة ، انما تمثل فى حقيقتها أحكاما مرسلة تعوزها الدراسة الدقيقة المتأنية لطبيعة الحضارة الاسلامية فى وجوهها وظواهرها المتعددة على نحو شمولى لا يسمح بالتعميم الجارف ، ولو رددنا هذه الاحكام الى الفروض الاولى التى منها انبثقت لتبين لنا مقدار الخطأ فيها ٠ فقد افترض الكاتب أول ما افترض أن جميع الاقطار التى انتشر فيها الاسلام كالسند وما وراء النهر وفارس والعراق والشام وشمالى افريقية والاندلس كانت قبل الفتح الاسلامى وبعد حملة الاسكندر قد انتحلت الطابع الهيلينى الحضارى وتخلت عن حضارتها الخاصة ، أو على الاقل أن الثقافة الهيلينية كانتهي العنصر الاقوى السائد فى تلك الاقطار ، وذلك أثر لاتسنده الحقائق التاريخية ٠ ثم ان الكاتب حين تحدث عن الحضارة الاسلامية قصر نظره على جانب صغير من الحياة الفكرية ، أعنى به جانب الدراسات المنطقية والفلسفية ونسى الجوانب الفكرية الاخرى التى قدمت فيها الحضارة الاسلامية صورة نامية من ذاتها وطبيعتها مثل الحديث والتشريع والحقول المعتمدة على التجارب الانسانية كالنبات والجغرافيا ٠٠٠ الخ ، كما نسي الجوانب المادية من الحضارة والتقدم العمرانى ، بل انه لو شاء التخلى عن تعصبه ليونان لوجد فى الفلسفة الاسلامية نفسها سمات فارقة تعد فى حقيقتها مميزة لشخصية الفكر الاسلامى نفسه ٠

ولعل اكبر خطأ يقع فيه المفكر الغربى حين يحكم على الحضارة الاسلامية أنه يحاول رؤيتها من خلال ما ألفه من حضارة ، ويدرسها وهو ما يزال أسير الدائرة الحضارة التى ينتمى اليها ٠ ان الحكم على أية حضارة يجب أن يتم ــ وان كان هذا أمرا صعبا ــ بالتخلى الموضوعى عن أي انتماء حضارى سابق ، والحكم على الحضارة المدروسة حسب ما تقتضيه منطلقاتها وعناصر تكوينها وضروب اسهاماتها ومظاهر قوتها وضعفها فى ذاتها ، قبل القفز الى مقايسها بالحضارة التى ألفها الدارس (2) ٠ وهنا يكمن خطأ آخر من أخطاء شيدر وهو رؤيته للحضارة الاسلامية من خلال الاطار الهيلينى المسيحى وايمانه الراسخ بأن الدين المحدد بنظام دقيق لا يستطيع أن يطور من داخله « نزعة انسانية » ٠

ومع أن تعبير « النزعة الانسانية » يستقطب خصائص تجريدية يصعب تحديدها واخضاعها لمقاييس عقلية واضحة المعالم ، فان أهم ما يميز هذه النزعة انها ترفض أن تقلل من قيمة الانسان

---

(2) كان شيدر على وعي بذلك حين قال : « فكل من نشأ ونشىء فى داخل نطاق الحضارة الغربية لا يستطيع أن يفهم الحضارات الاجنبية الا من وجهة نظره هو الخاصة ، شاء ذلك أو لم يشأ » (روح الحضارة 33 ــ 34) وفى هذا الانصاف يكمن الجور كله لدى الممارسة والحكم ، لان الكاتب لم يحاول أن يبدى أية تحفظات فى أحكامه ٠

ومن قيمة عمله الفردى والجماعى كما ترفض أن ترى الجانـــب الضعيف ـ وحده ـ فى الطبيعة الانسانية ، بل هي تمجد عظمة الفكر الانسانى وقوة ابداعاته فى العلوم والفنون والحياة الاخلاقية وتقود هذه النزعة الى نظرية أخلاقية عن الفعل ، فهي تدفع الانسان الى بذل كل الجهود المتواصلة لتحقيق الكمال الاسمى للعلاقات الانسانية (3) ومن تأمل فى هذه الصورة التى تمثلها هذه النزعة وجدها تتلخص فى أمرين هامين : أ) الاكبار من قيمة الانسان والفعـل الانسانى ٠ ب) اعداده للخلق والابداع ضمن قيم أخلاقية انسانية ٠ وهذان المبدءان يقولان ضمنا : ان الحضارة المبنية على أساس دينى لا تستطيع أن تحققهما ، لان الدين يقيم تعارضا أساسيا بين عجز الانسان وقدرة الله بين الفعل الانسانى والفعل الالهى ، وأنه يضع قيما اخلاقية مستمدة من خارج حركة التطـــور الانسانى ولذلك كله فان مثل هذه الحضارة عاجزة بطبيعتها عن دفع الانسان الى الخلق والابتكار لانها ترده دائما ـ بقوة العامل الدينى ـ الى التمسك بالسنة والتقاليد ، لهذا لا يمكن أن يتم لديه التقدم الروحى الا فى التفسير والتكيف مع الاوضاع الجديدة لا فى التحويل والصياغة من جديد لما ورثه وتلقاه (4) ٠

لا أحد ينكر أن الحضارة الاسلامية قد تأسست وتطورت فى نطاق الدين ، ولكن الى أيى حد كان التعارض بين عجز الانسان وقدرة الله مانعا من اكبار القيمة الانسانية ؟ والى أيى حد كان التعارض بين الفعل الانسانى والفعل الالهى معرقلا للتقدم الحضارى ؟ لا مراء فى أن الكشف عن طبيعة ذلك «التعارض» ضرورى لتحديد الاجابـة الصحيحة عن هذين السؤالين ، فالعجز الانسانى شىء نسبى ، لا وجود له فى طبيعة الانسان نفسه ، ولكنه موجود بالقياس الى صـــورة الكمال المطلق ، الى الله ، وهذا لا يعنى أن الانسان يقـف مكتوف اليدين ازاء ما يجده فى الكون مـن عقبات وصعوبات ، بل هو دائما مدعو الى اظهار قدرة اللـه ـ فكرا وعملا ـ من خلال قدرته ٠ وعلى هذا الاساس يصبح الفعل الانسانى فى الكون صورة للفعل الالهى ، وليس فى هذا أيى تهوين من قيمة الفعل الانسانى ، وانما هنالك حذر مستمر من أن يتعاظم الشعور لدى الانسان بقيمة ما يخلقه ويبدعه حتى ليظن نفسه « الها » فى هذا الكون ، وذلك هو ما أدى اليه الشعور بالقـوة فى الحضارة الاوروبية التى نمت النزعة الانسانية الى أقصاها ، وذلك ما أدى بالتالى الى ظهور فكر يؤمن بتفوق جنس أو عرق على سائر الاجنـاس ، ويتفوق الاوروبى عامة على سائر البشـر ، ان أول ما يوحى به مصطلح « النزعة الانسانية » هو تعميم النظرة التقديرية الى الانسان حيثما

(3) بتصرف يسير عن « تاريخ الحضارة الاوروبية » ص III (تأليف كلود ديلماس وترجمة كوليث حبيب ، دمشق ـ الطبعة الاولى ، دون تاريخ) ٠

(4) روح الحضارة العربية 28 ٠

كان ، والى أيى عرق انتمى ، ودفعه ـ على أساس هذا المبدأ ـ الى الخلق والابداع فى نطـــاق ظروفه وامكاناته ، ومن هذه الزاوية نجد أن النزعة الانسانية التى قامت الحضارة الغربية على أساسها قد استنزفت على نحو لا انسانى ووقعـت ـ ضمن اخلاقيتها ـ عاجزة عن « تحقيق الكمال الاسمى للعلاقات الانسانية » ، اذ أصبحت ، وخاصـــــة بعد الثورة الصناعية ، حضارة المنتج ـ المستغل ـ المتفوق على كل من عداه ـ وليس هذا شجبا للجوانب الايجابية فى منجزات الحضارة الغربية ، وانما هو محاولة لاظهار مدى الخطورة فى اطلاق « النزعة الانسانية » فيها الى نهايتها القصـــوى ٠

ولم يكن ذلك هو شأن الحضارة الاســلامية ، فان مفهوم النـــزعة الانسانية فيها يستمد وجوده قبل كل شيء من المساواة النظرية بين بنى الانسان ، تلك المساواة التى قد تختـل أحيانا على المستوى التطبيقى ، ولكن هذا الاختلال يمكن اصلاحه بالعودة دائما الى المبدأ النظرى ، وفى الكيان الحضارى الكلى كانت تلك المساواة تعنى اتاحة الفرص للاسهام فى البناء الحضارى بنصيب حتى اننا لو نظرنا الى الصورة العامة لهذه الحضارة لوجدناها « تعاونية اسهامية » ـ ان صح التعبير ، تشترك فيها جميع الاجناس كل حسب طاقاته وامكاناته ، فى ظل دين موحد جامع ، دون أن يفضى ذلك الى نوع من التفرقة العرقية أو من الشهوة الى التسلط والاستغلال ٠ وحسبنا هنا لتأكيد متانة الانتماء الدينى وقوته ، من بين جميع روابط العصبية ـ حسب تعبير ابن خلدون ـ أن نورد مثالا واحدا ، ذلك هو ظهور الشعوبية ، فى سياق تلك الحضارة ، فهذه النزعة التى لـــم تعمر طويلا ، حين كانت الحضارة الاسلامية فى طور ازدهارها ، انما وجدت مــن يدينها ويرفض محتواها فى أناس لم يكونوا دائما ممن ينتمون الى العرب ، ولم تستطع الشعوبية ـ رغـــم كل ادعاآتها ـ أن توهن من ذلك التجانس العام فى الكيان الحضارى الاسلامى ، ولكنها حين انبثقت من جديد على أسس جديدة ـ فيما بعد ـ أدت بالحضارة الاسلامية الى نوع من الجمود ، كمـــا سأبين ذلك فى موضعه ٠

ورغم الانقسامات السياسية الكثيرة ، ورغم الاخطار الخارجية المتعددة ، ظلت عناصـــر التوحيد ـ أو التجانس على الاقل ـ فى الحضارة الاسلامية أقوى من عوامل التجزئة ، ولم يكن الدين وحده هو العامل الحاسم فى تلك الوحدة أو ذلك التجانس ، وانما كانت هنالك عـــوامل أخرى كبيرة منها اللغة وحرية التجارة والتفاعل الثقافى المستمر وقيام تشـــريع موحد الأسس ٠ ولست أستطيع أن أفي كل عنصر من هذه العناصر حقه من الشرح والتوضيح وابراز مدى أثـره ـ فى هذا المقام ـ ولكن حسبى أن أقول : ان الشريعة القائمة على أسس كبرى مشتركة قد حفظـت النظام الاجتماعى ثابتا وبذلك أشعرت الفرد بالطمأنينة فى تيـــار التقلبات السياسية الكثيرة ،

وجعلت القضاة فى موقف القوة ان وجدوا حاكما يحاول أن يتغول على حقوق الافراد (5) ٠ أما التفاعل الثقافى فربما كان من أبرز المظاهر الحضارية حينئذ ، وكانت الرحلة فى طلب العلم وهجرة الكتب باستمرار من قطر الى آخر ، مما يؤكد الوحدة الحضارية ويمنحها صبغة ثقافية متميزة ، ولم يكن المثقف يجد أمامه حواجز سياسية أو اقليمية ، بل كان يجد الطمأنينة حيثما ذهب ، فى ظل مجتمع متجانس العادات والتشريعات متوحد الى حد كبير فى لغة التفاهم ٠ ولكن هذه الحركة الدينا ميكية القوية من التفاعل الثقافى لم تستطع أن تحقق أمرين هامين فى الحياة الثقافية حينئذ :

أولهما : ايجاد جسر قوى محكم بين منهجين علميين متباينين ، نعم بذلت محاولات كثيرة للتوفيق بين الشريعة والفلسفة لدى الفلاسفة المسلمين ، وحاول كل من ابن حزم والغزالى استقراء أمثلة المنطق الارسطوطاليسى من الشريعة الاسلامية ، وكثيرا ما كان المثقف يجمع بين علوم الاوائل والعلوم الاسلامية ، (مثل الغزالى وكمال الدين بن يونس وغيرهما) أو يجمع بين علم الحديث وعلم النبات — ومن ثم المعرفة بالعقاقير — لقيام العلمين على الرحلة (مثل ابن الرومية الاندلسى) ولكن ظل هنالك منهجان علميان متباينان لخصهما ابن النفيس الطبيب بقوله : « ليس الا مذهبان : مذهب أهل الحديث أو مذهب الفلاسفة » (6) يعنى المنهج المعتمد على الخبر والمنهج المعتمد على الاستقراء العقلى ومع أن للصراع بين المنهجين نتائج فكرية جديرة بالتقدير ، فان هذا الانفصال بينهما جعل النتائج السلبية أشد ظهورا ، حين تعرضت الحياة الثقافية عامة الى جمود٠

وثانيهما : ردم الهوة القائمة بين المثقفين وجماهير الشعب ، حتى ظهر فى هذه الناحية ما يمكن أن يسمى « الاستقراطية الفكرية » التى يمثلها المثقفون ، ومع أن لفظة « العامة » متعددة الدلالة بحسب القرينة التى تقع فيها ، فانها كانت تطلق أحيانا للتمييز بين المثقفين وسائر جماهير الشعب أو بين فئة معينة من المثقفين — كالمعتزلة مثلا — وبين كل من عداهم ، وهي تحمل معنى من الازدراء يقف فى مقابله نوع من الاستعلاء ، واذا كان هذا الوضع قد عزل العامة عن مجرى التيار الثقافى ، فانه قد جعل الثقافة نفسها فى موضع النائى المنعزل ، وأصبحت صلة العامة بالثقافة — فى العصور الاولى — تتم عن طريق الواعظ أو القصاص ، وكلاهما يزود الجماهير بالتخويف من الموت والعذاب أو بالزاد الاسطورى جملة ، وفى العصور المتاخرة حل محل هذين

---

(5) أنظر W.M. Matt. Islam and the Integration of Society - PP. 206-207 (London, 1961)

(6) اقتبسه ابن تيمية فى درء التعارض بين العقل والنقل ١ : ٢٠٣ ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، (دار الكتب — القاهرة ١٩٧١) ٠

أو انضاف اليهما « الراوى » أو « المنشد » الذى يقيم مجالس الاسمار ويملؤها بقصص البطولة والحب الرومنطيقى ، ولهذا وجدت الجماهير ملجأها فى حلقات الصوفية ، وفى تلك الحلقات وجدت غذاءها الثقافى والروحى معا .

من كل ما تقدم يمكننا الانطلاق الى القول بأن الحضارة الاسلامية كانت جماعية (7) فى مقوماتها وغاياتها ، أعنى أنها كانت فى مجموع منجزاتها تستند الى قاعدة منهجية تنظيمية ، ولهذا كان من الخطأ أن ترصد من زاوية « النزعة الانسانية » التى أعطت للحضارة الغربية صبغتها ، ذلك أن النزعة الانسانية تنمى الروح الفردية الى أقصى الحدود ، أما الحضارة المنهجية التنظيمية فانها اذ تحفز الطاقات الفردية الى الابداع ، لاتسمح لتلك الطاقات أن تبلغ الى حيث تجور على المصلحة العامة ، كما لا تسمح لها أن تحطم العلاقة المنظمة بين الله والانسان ، أيى أنها ـ بعبارة أخرى ـ تبقى ديناميةالخلق والابداع ضمن أطر معينة ، وتلك الاطر تتمثل فى الاستناد الى مفهومات أخلاقية « مسبقة » تحددت فيها المقاييس وتبلورت الى حد كبير ، بقدرة الحكمة الالاهية أو « باللطف » الالاهي ، وتتفاوت القدرة على الابداع تقدما وتراجعا ، انطلاقا وانكماشا ، بحسب التفاوت بين الطمانينة الجماعية والخوف على وحدة الجماعة وتماسكها ، ومع أن الميل الى التشدد فى الاخذ بالمقاييس ، وسيطرة روح المحافظة والركون الى التقليد ، هي التى تسيطر فى الحالة الثانية ، فان الايمان بمبدأ التجدد لا ينعدم جملة ، ولهذا نشأ عند بعض المذاهب الاعتقاد بأن الله يبعث على رأس كل مائة من يجدد هذا الدين ، وتتفاوت الميادين الانسانية المختلفة من حيث مدى اتساعها وضيقها فى تقبل روح الابداع ، اذ تستطيع القوة الابداعية أن تحقق حريتها الكاملة ـ مثلا ـ فى الميادين المادية والتجريبية عامة . كميدان الصناعة والزراعة والفنون المعمارية ، وتستطيع أن تشق طريقها الخاص بها وتنتحل لها سمات فارقة فى فن التصوير والموسيقى والفنون الادبية عامة ، كما تستطيع أن تنطلق حرة فى ميادين الرياضيات والطبيعة والكيمياء والفلك ، حتى اذا بلغت الدائرة المتافيزيقية كان عليها أن تخطو فى حذر ، وأن تظل متنبهة الى أنها لا تستطيع أن تتخطى المقاييس الثابتة ، ولهذا كان مبدأ التوفيق بين الدين والفلسفة هو أقوى منطلق فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، سواء أكانت المحاولة مخفقة أو ناجحة .

وتتحدد علاقة الانسان بهذه المقاييس فى نزعتين ـ بينهما درجات ـ وهما نزعة القبول والنزوع الى التحدى ، وليست منجزات نزعة القبول أقل ابداعا من منجزات النزوع الى التحدى

(7) كل حضارة فهي جماعية لانها فى خدمة المجموع وتطويره ، ولكن ما أريده هنا هو أن المنجزات الحضارية ـ بقوة ارادية أو عفوية ـ كانت فى خدمة التجانس الجماعى ، سواء من حيث التنظيم أو القيم .

كالاستجابة للحث على طلب العلم والضرب فى الارض (التجارة ، والجغرافيا) وابراز قدرة الله فى الكون (علم الحيوان ، النبات ، المعادن ٠٠ الخ) أما التحدى فيجب أن نميز فيه بين وجهتين : وجهة عملية ووجهة نظرية فكرية ، فقد يعد تطوير صناعة النسيج والتفنن فى البناء تحديا لـروح التقوى البسيطة ولكنه تحد لا يلبث أن ينتصر فى نطاق التغير الحضارى الحتمى ، لان مجـال المباح متسع كثيرا ، وقد يكون شرب الخمر تحديا للنهى عنها ، كما أن صرامة منع الربا قد الجأت الناس الى التحيل على هذا المبدأ باللجوء الى العينة وغيرها من صور المراباة ، الى غير ذلك من الامور التى تقع فى دائرة التحريم ، ولكن هذا التحدى كان دائما يعامل على اســـاس فردى ، ويحصر فى نطاقه ، ولا يشكل خطرا كبيرا ما دام بعيدا عن أن يصبح قاعدة للسلوك الجماعى ، وهذا هو معنى الحديث الشريف : « من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله » (8) ٠

أما التحدى الفكرى فقد كان أخطر أنواع التحدى لانه كان ــ فى الغالب ــ يمس ــ أو يحاول أن يمس ــ النواة الصلبة فى تلك المقاييس ، أعنى مبدأ التوحيد والتنزيه ، وذلك ما عبـرت عنه الفرق الغالية حين مالت الى تأليه الفرد ، أو ما عبر عنه المفكرون الذين وصفوا بالالحاد : كابـن الراوندى وأبى عيسى الوراق والرازى الطبيب ٠ ولا ريب فى أن غايات كثيرين من هؤلاء لم تكـن فكرية خالصة ، وانما كانوا مدفوعين الى ذلك بغايات سياسية أو مادية ، وقد نظر اليهم فى نطاق الكيد للجماعة ومحاولة ضربها من الداخل ٠ وحين ننظر الى ضحايا هذا التحدى الفكرى نجدهم قلة ــ على مر الزمن ــ اذ بعد عهد قصير من تعقب الزندقة ومعاقبة أصحابها بالموت ، حل الحوار الفكرى محل أداة العقاب ، مما قد يشير الى أن الصورة عن الاضطهاد الفكرى مبالغ فيها ، كما أننا يجب أن لا نبرىء الذين مارسوا ذلك الاضطهاد من غايات لا عـــلاقة لها أحيانا بحماية الدين والذب عن المقاييس الثابتة ٠

ويجب أن نفرد ظاهرة التصوف هنا بنظر مستقل ، لانها تمثل أنواعا من التحدى ، فهي من حيث طلب النجاة الفردية والعزلة عن المجتمع تحد للعمل من خلال الجماعة والحرص على التجانس الجماعى ، وهي من حيث تجاوز التشريع وسقوط ضروب التكليف تحد للرابطة التنظيمية ، وهي فى معرض الاتحاد والحلول تحد لمبدأ التنزيه المطلق واذا درست مـن حيث التأويل بدت وكأنها تحاول الثورة على المفهومات العامة التى تيسرها اللغة ، وبكل ذلك يعد التصوف أشد أنـواع الانطلاق الفردى الذى يتجاوز الاطر والمقاييس ، متخذا من الاحساس « بالغربة » منطلقه الى تلك الابعاد ٠ وقد يكون الاحساس بالغربة نتيجة أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية ، ولكن لاريب فى أن الوضوح الساطع الذى يتميز به التشريع يقوى من أثر تلك الاوضاع ، ولهذا حلت النشـوة

(8) الموطأ ، باب الحدود : 12 ٠

الصوفية محل ذلك الوضوح ، كما حل الاتصـال المباشر بين اللـه والصوفى لتجاوز العلاقات الاجتماعية جملة ٠ ولكن ادراك المصير الذى انتهى اليه التصوف (خـلا عند أفراد معدودين) خير ما يصور لنا روح الحضارة الاسلامية ، فقد استطاع الغزالى أن يضيق الفجوة القائمة بينه وبين الفقه ، كما أن تنظيم المتصوفة فى طرق أعاد اليهم الانتماء الاجتماعى ، وحين أصبحت تلك الطرق فى العصور المتأخرة صورة من الانتماء النقابى بين أهل الحرف والصناعات ، أو من نظام (الا خي) لا عانة المنقطعين واستقبال الضيوف ، أصبح التصوف ملاذا اجتماعيا ، يعـوض على الناس كثيرا مما سلبتهم اياه التقلبات السياسيـة والاقتصادية ، وبهذه الصور أصبح التصـوف نظاما مقبولا ، لانه أصبح شيئا ذا قيمة فى خلـق التجانس الجماعى ، كما لم يعد غريبا على الرابطة التشريعية التنظيمية ٠

وفى التصوف معنى آخر يستحق أن أشير اليه فى هذا المقام ، ذلك أن الاتصال بالله تعالى ـ فى هذه الحياة ـ يشير الى قهر الموت ، أو على الاقل : الى تخطيه ، والحصول على حال الكمال وعلى السعادة فى هذا الكون ، وهو أمـر يومىء الى أهمية مشكلة الموت فى ذلك المنحى النفسى الفكرى ، ولكنه لا يمثل الا حلا خاصا لتلك المشكلة التى كان لها أثرها القوى فى تكييف الحضارات وتوجيه القدرة الابداعية لدى الانسان ٠ ومن الجلى أن النظرة الاسلامية الخالصة ترى فى الموت معبرا بين عالمين ، ولما كانت الجوانب فى العـالم الثانى ، وعلى رأسها الخلود ، أقـــوى من مغريات هذا العالم فان هذا قد يشجع على الزهد فى هذه الدنيا وعلى الاندفاع الى طلب الشهادة ولما كان الزهد مظهرا يتفاوت بين الاخذ بكل المباحات وقتل النفس جوعا وظمأ (وهو أمر ينكـره الدين) بدا وكان السعى الى الموت ، أو الاستشهاد ، عمل ارادى تجمعت فيه كل تحديات الفـرد المؤمن لمغريات هذه الحياة ولرهبة المـوت ، رجاء ما هو باق خالد ٠ حتى اذا انحسرت موجـــة الاستشهاد بعد انتشار الدين برز الى الوجود اتجاه صوفى يحاول قهر الموت بنـــوع جديد من السعى ، كما كان الاتجاه اللذى المعاصر له وليد الخوف من الموت أيضا ٠ وحين لم تكـن هذه الحلول شافية عاد البعض الى المثل الا على الجاهلى ، وهو ربط الموت بالذكر الحســـــن (أيى الخلود التاريخى) والى هذا المعنى يشير المتنبى حين يجعل الموت مقياسا للفضائـل الانسانية حيث يقـــول :

ولا فضـل فيها للشجاعة والندى   وصـــــبر الفتى لولا لقاء شعوب

عير أن هذه الحلول المقترحة ، وربما غيرها مما لم ات على ذكره ، لم تستطع أن تضعف فى النفوس حب الحياة ، بل زادته قوة ، ومن اللافت للنظر أن يتفق فى التعبير عن مدى ذلك الحـب الزاهد والماجن والحكيم المتفلسف ، فعمران ابن حطان ممثل الزهد المتشدد يقول :

اذا ما تذكرت الحيـــاة وطيبها ... الي جرى دمع من العين غاســق

وابن قزمان الزجال الاندلسى الماجن يقول :

ليـــــس ذى عندك مصــــيبة ... ان نمـــوت والدنيـــا حـــي

(يعنى : اليست هذه مصيبة عندك أن نموت والدنيا ما تزال حية ؟ !)

والمتنبى الحكيم المتفلسف يقــول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفســــه ... حريصا عليها مستهاما بها صبــا

وعندما نحس عمق الحب للحياة فى هذا الادب نستطيع أن نتصور أن الموت ـ وان كان مـــا يزال حسب المفهوم الدينى العام مجازا الى عالم آخر ـ أصبح أيضا خصما رهيبا اما أن يفـــر المرء من وجهه واما أن يقف فى وجهه متحديا ، وفى كلتا الحالتين كان لمشكلة الموت أثر عميق فى الحضارة الاسلامية يمتد من جزئيات المظاهر بحيث يشمل أحيانا كلياتها · فالنشوة فى الموسيقى الشعرية التى تدور على نحو مسترسل كالدوار ملاذ من الموت ، والضياع فى خطوط الرســـم المتشابكة المتفرعة ملاذ آخر ، والدأب فى البحث عن النباتات الطبية وتقدم علم الطب وغيره مـــن العلوم تحد للموت ، وهكذا · ولو اننا عدنا بالنظر الى ما حدث بعد اكتساح المـــوجة التترية للشرق الاسلامى فى القرن السابع ، ثم ما حدث بعد الطاعون الذى اكتسح العالم الاسلامى كله فى منتصف القرن الثانى ، أقول لو عدنا الى ما حدث من ظواهر حضارية كالامعان فى كتابة التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عصر المؤلف ، وحشد المعارف العامـــة فى موسوعات ضخمة ، والاعتناء بجمع كتب تحفل بالتراجم وتتحدث عن الوفيات ، لوجدنا أن الاحتماء الى كنف « التخليد » فرارا من الشعور بالموت الجماعى هو الحافز لذلك كلــه ، ويكفى أن يتذكر المرء هنا مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى وتاريخ الاسلام للذهبى والوافى بالوفيات للصفدى وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ومسالك الابصار للعمرى ، وغيرها من أمثالها كثير ، ان استمرار هذه الحضارة فى قدرتها على العطاء أثناء تلك المحن الكبرى وبعدها ليدل دلالة قاطعة على انها كانت تمنــح الانسان تقديرا كبيرا ، وعلى أن ذلك الانسان المسهم فى تلك الحضارة قد استطاع أن يحقق جانبى تلك المعـادلة الصعبة « اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » دون أن يقع فى تناقض·

عند هذا الحد يمكن للمرء أن يسأل : تـرى لماذا توقفت تلك الحضارة عن العطاء ؟ وأنــا أستعمل هذا التعبير « توقفت عن العطاء » عامدا لا تجنب تعبيرات أخرى مثل لماذا تحللت ؟ أو لماذا انحدرت ؟ أو لماذا أدركها الموت ؟ وأنا أعلـم أن كثيرا من دارسى الحضارة مـثل اشبنجلر وتوينبى يرون الحضارة كائنا عضويا ينمو كالانسان ويمر فى أدوار أو فصــــول ، وأن تحلل

الحضارة وانهيارها امر حتمي لاسباب خارجية وداخلية ٠ ان قولنا « توقفت عن العطاء » لا ينقذها من موت العناصر الحية فيها ولكنه يجعل الشواهد الكبيرة على منجزاتها قائمة غير مندثرة ، ولعل فى الصفحات السابقة ما يوحى ببعض الاسباب التى أدت الى ذلك التوقف ، وفى سبيل استقصاء صورة أشمل عن تلك الاسباب لابد من العودة الى تصور المراحل التى مرت بها تلك الحضارة ، ففى تبيان تلك المراحل ما يؤكد طبيعة العطاء ، وما قد يحدد الاسباب الجوهرية للتوقف عن العطاء

ورغبة فى تحاشى التعقيد الذى قد ينشأ عن التداخل فى الادوار ، يمكن القول ـ على نحو من التبسيط ـ ان تلك الحضارة مرت فى ثلاث مراحل كبيرة :

الاولى : مرحلة تمثل الحضارات المختلفة بعد استيعابها ، وهي مرحلة قد تمــــر بها أي حضارة أخرى ، ولكن مما يميز الحضارة الاسلامية فى هذه المرحلة اتساع افقها لتلقى جميـــع المؤثرات وصهرها فى نطاق منسجم ، وتقبل التفاعل الحضارى بثقة نفسية شديدة ٠ ولتصوير هذه المرحلة لا بأس أن نقتبس ما يقوله فيها أحد من تميزوا فى دراسة تاريخ العلم فى هذا العصــر ، أعنى الاستاذ جورج سارتون « وابتغاء الحصر نقول ان الحضارة الاسلامية الجديدة كانت ثمــرة لتطعيم القلامة العربية ذات العنفوان والقوة مــــع جذع الشجرة الايرانية القديمة ، وهذا من شأنه أن يزودنا لاول وهلة بما يعلل عنفوانها المذهل وصفاتها التطورية ، فى ظــــل هذا الدافع الذى استحدثته تلك القوتان المهولتان ـ الحمية الاسلامية والفضول القارسى ـ وبعناية سلسلة منظومة من خلفاء بنى العباس الذين تملكهم حب المعرفــة ، ومنهم المنصور وهارون الرشيد والمــأمون ، تطورت الحضارة الحديثة بسرعة كبيرة وقدرة فائقة ، لقد ازدوجت جذورها فى أعماق الماضى ، فلقد غذاها النبي بالوحدانية والمعنويات ، كما امدها أهل فارس ومعلموهم بالمورد الذى تنهــل بنهم من ينابيعه السنسكريتية واليونانية ، فمن السند نقلت الحساب والجــبر وحساب المثلثات والكيميا القديمة ، كما نقلت عن اليونان المنطق والهندسة والفلك والطب ٠٠٠ ان القيمة الكبــرى لثقافة الاسلام انما تقوم على حقيقة انها وصلت فــــى النهــــاية بين الينبوعين العقليين العظيمين اللذين ظلا يتدفقان منفصلين فى الازمان القديمــة (9) ٠

غير أن المعجزة الكبرى فى هذه المرحلة هي ما جرى على اللغة العربية نفسها حين استطاعت فى فترة قصيرة أن تتطور وتتسع لكل الثقافات الجديدة المختلفة ان تلك الحيوية الخارقة قــــد استطاعت أن تقف كفؤا لتحدى تلك السيول المتدفقة من انواع الثقافات المادية والفكرية ، على نحو قلما نجد له نظيرا فى تاريخ الحضارات الاخرى ، حتى ان العنفوان الحضارى المذهل الذى تحــدث

(9) جروج سارتون : تاريخ العلم والانسية الجديدة ص 157 ـ 158 (ترجمة وتقديم اسماعيل مظهر ، القاهرة 1961) ٠

عنه سارتون لا يوازيه في نظره الا تلك السيطرة الشاملة للغة العـربية نفسها (10) . ولهذا كان الصراع حول المفهومات الجديدة ـ وخاصة في الحقل المنطقي والفلسفي والكلامي ـ صراعا حول طبيعة ما جرى على اللغة ، فاما الذين كانوا يريدون ابعاد الفكر الديني عما تحمله هذه المصطلحات من معان ، فانهم أنكروها من حيث أنها لم تحمـل تلك الدلالات في الاستعمال العربي الدقيـق ، بينما ذهب خصومهم الى عدم التوقف عند تلك الدلالات ، وقد استمر هذا الصراع قرونا طويلة ، وخير ما يصوره قول بن تيمية « وارباب المقـالات نقلوا عن اسلافهم مقالات بالفاظ لهم ، منها ما كان اعجميا فعربت ، كما عربت الفاظ اليونان والهند والفرس وغيرهم ، وقد يكون المترجم عنهم صحيح الترجمة ، وقد لا يكون صحيح الترجمة ، ومنها ما هو عربي ، ونحن انما نخاطب الامـم بلغتنا العربية فاذا نقلوا عن اسلافهم لفظ الهيولى والصورة والمادة والعقل والنفس والصفـات الذاتية والعرضية والمجرد والتركيب والتاليف والجسم والجوهر والعرض والماهية والجزء ونحـو ذلك ، بين ما تحتمل هذه الالفاظ من المعاني ... فان جميـع هذه الالفاظ فيها اشتراك والتباس واجمال (11) ولست أورد هذا الاقتباس لأقرر أي الفريقين كان على حق وأيهم كان على خطأ ، وانما لأبين ما تعرضت له اللغة من توسع شمولي ، بحيوية يصورها بدقة ذلك الصـراع بين الفريقين .

والثانية : هي مرحلة التوازي في الابداع الفكري والمادي وهي المرحلة التي تمت فيها اكبـر المنجزات الحضارية في العلوم والفنون والحياة الصناعية والزراعية وسائر صور العمران ، وقـد نتصور امتدادها في تفاوت ـ قوة وضعفا ـ حتى منتصف القرن السابع الهجري ، وفي القرنين الاخيرين منها يأخذ الابداع الفكري بالتراجع التدريجي ولكنه يحاول الاستبقاء على بعض حيويته السابقة بقوة التجدد المستمدة من العكوف على المنجزات الفكرية التي تمت في فتـرة الازدهار الفكري ، ورغم الانقسامات السياسية والاخطار الخارجية كان هذا الفكر ينبع من الشعور بوحدة كبرى تمثلها اللغة والشريعة أو كما يقال أحيانا « دار الاسـلام » .

والثالثة : مرحلة عدم التوازي بين الابداع المادي والفكري ، بحيث ظل الاول يتنامى ، بينما ظل الثاني يتردد بين تقدم يسير وتراجع ، اكبر ، وقد بدا لاول وهلة أن الغزو المغولي قد حصر عطاء الحضارة في مصر والشام وأنه قضى على حضارة الشرق الاسلامي ، ولكن بعد فترة مخاض استعادت الحضارة الايرانية حيويتها في ظـل المغول أنفسهم ، وكان هذا ايذانا بانقسام دار الاسلام ، وبدء استقلال الاجناس التي كانت تكون الوحدة اللغوية الكبرى فتنشـأ

(10) المصدر السابق 163 .

(11) درء تعارض العقل والنقل 1 : 299 .

حضارة تركية فى تركستان ، ومغولية فى الهنـد ، ثـم تركية عثمانية فى الاناضول وصفوية تخلف المغول فى فارس ، وقد كانت الظاهرة المشتركة بين هذه القوى الجديدة ترقية الصناعة والتجارة والعلوم ذات القيمة العملية كالطب والفلك والاهتمام بالطرق المعمارية واصلاح المـدن وعمارتها ، وفنون الحرب وخاصة لدى العثمانيين الذين نقلوا استخدام الاسلحة النارية عـن أوروبا وانشأوا اسطولا على الطراز الاوروبى ، يقول بارتولد « ولا ينبغى أن يظـن أن العالم الاسلامى قد مني بعد القرن التاسع الهجرى بانحطاط وأنه لـم يستطع أن يقدم للحضارة شيئا جديدا فتركيا لم تكتف بشهرتها العسكرية فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين بـل صارت استانبول احدى مراكز الحضارة الكبرى للعالم الاسـلامى ··· وأبرز (الاتراك) أسلوبا جديدا فى فن العمارة يخالف العمارة الايرانية ··· وفى ظل الصفويين فى ايران بقيت آثار معمارية فى أصفهان العاصمة ··· وكانت الدولة المغولية فى الهند لا تـزال امبراطورية قوية فى القرن السابع عشر ، وتشكل فن العمارة الايرانية هنا بشكل جديد متأثر بالهند ··· كل هذا يدل على أن القول بأن العالم الاسلامى كان فى نـوم عميق قبل أن يأخذ فى النهوض بتأثير أوروبا فى القرن التاسع عشر مبالغ فيـه كثيرا (12) ويجب أن نتنبه الى أمور مختلفة حدثت فى هذه المرحلة منها انحسار ظلال السيادة الاسلامية نهائيا عن الاندلس واحتـواء الاتراك للمناطق التى كانت ثقافتها عربية اسلامية ، واستقواء الحدود الفاصلة بين مراكز هذه الحضارات « الاسلامية » المتعددة ، ولهذا أصبح الابداع الفكرى غير مشترك بينها جميعا لان وسيلته الاولى وهي اللغة لم تعد موحدة ، كما أن تزايد العناية بالجوانب العمرانية المادية من الحضارة قد جعل الابداع الفكرى التماعات هنا وهناك وطغت « المدرسية » على الفكر عامة ، فاصبح الشغل الشاغل هو اعادة الفكر السابق بأشكال جديدة من الشـرح أو الاختصار وأحيانا الترجمة ·

ان التأمل فى هذه المراحل ينير الطريق للاجابة على ذلك السؤال · « لماذا توقفت تلـك الحضارة عن العطاء » ؟ فقد ظهر جليا أن روح تلك الحضارة القائمة على وحدة أمة اسلامية قد اختلت ، بقيام وحدات سياسية متباعدة ، وكانت رابطة اللغة الموحدة أول العرى انفصاما ، وكان فى مقدور الدين أن يظـل عنصرا هاما فى خلق التجانس الذى حرصـت عليه تلك الحضارة ، ولكن تحول الدين الى غاية طائفيـة (وخاصـة فى الصـراع بين الصفويين والعثمانيين) قد عمق الانفصام بدلا من التجانس · وكان تراجع الابداع الفكرى يصـل

---

(12) ق ـ بارتولد ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص 115 ـ 117 بتصرف يسـير (ترجمة حمزة طاهر ، دار المعارف بمصر 1952 الطبعة الثانية) ·

بالحضارة الى نقطة جمود ، وذلك لانه قد طال على تلك الحضارة اعادة النظر فى تغيير لون القديم الموروث ووضعه فى اشكال جديدة دون تغيير فى طبيعته ودون لون استشراق للانطلاق به الى مرحلة مغايرة ، بحيث أتى عليه حين من الدهر وقد جفت فيه الحيوية الداخلية وأصبحت اعادته فى شكل جديد أمرا غير مستطاع وهكذا اهترأت بعض المؤسسات والنظم الفكرية ـ وبعض المادية ـ ولم تعد تصلح لانبعاث حضارى . ويبدو أن الكيان الحضارى قد أصيب بالشعور بالاكتفاء والرضى عن الذات ، وهو شعور قاتل للقدرة على الاقتباس من الحضارات الاخرى والتمثل لتلك المقتبسات .

وجاء هذا العجز عن الاقتباس والتمثل فى مواجهة حضارة جديدة مغايرة فى روحها ، لاعتمادها الكبير على العلم ، اعنى الحضارة الغربية . ويجب ان نقر هنا بأن هذه الحضارة كانت مؤيدة بالقوة الحربية ، وكان أيى اقتباس منها لا يعنى تمثلا لها بمقدار ما يعنى محاكاة للغالب القوى ،وقد عرفنا فى تاريخنا الحضارى كيف كان التمثل للحضارات الاخرى سهلا فى ظل منطق السيادة الذى كان يتمتع به الاسلام ، على مر الزمن ، فلما تضاءل منطق السيادة وانهارت القوى السياسية التى كانت مسئولة عن حماية التطور الحضارى أصبح اقتباسنا من الحضارة الاوروبية هو اقتباس المغلوب من الغالب وكان الاقتباس يعنى فقدان « الهوية » المميزة تدريجا ، ولم يكن فى الوضع خيار ، ولهذا كان الرد على الذوبان فى التيار الجديد مزيدا من التضخيم للرضى عن الذات والاحتفال بالمنجزات السابقة ، وهو موقف طبيعى وان كانت نتيجته مزيدا من التخلف عن حضارة تبدو كاسحة لا تتوقف . ولم يكن صاحب الحضارة القوى ليرضى عن الاخذ ، والبناء الذاتى القائم على القوة المادية (تجربة محمد على فى مصر) واستطاع أن يجهض جميع الحركات الثورية التى رمت الى تجديد الاسلام والسيادة الاسلامية وأن يفرغ مفهوم الجهاد الاسلامى من محتواه ، وأمعن فى تفتيت دار الاسلام ، الى وحدات صغيرة ، وكاد يقضى فى بعض المناطق على الرابطة اللغوية ، وعمق النزعات الاقليمية لتزداد الهوة اتساعا بين كل اقليم واقليم .

اننا حين نؤرخ للحضارة الاسلامية انما نعتمد منظورا كبيرا يمتد على رقعة واسعة ، ويشمل أسهام أمم كثيرة ، وهذا هو الذى يجعلنا أحيانا نحس أن التخلف هوة سحيقة لاننا ننظر الى حالنا فى صورة اقليميات ضيقة ، ومتى استطاعت هذه الاقليميات أن تتخطى هذا الوجود الضيق الى وحدة فى الميادين المختلفة ، وفى طليعتها وحدة اللغة ، كان لمنطق السيادة حكمه فى التطوير الحضارى ، وقد نبه المفكر الجزائرى مالك بن بنى ـ رحمه الله ـ الى نقطة هامة فى هذا الصدد وهي أن الحضارة لا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها كما أننا من ناحية

الكم لا يمكننا أن نأخذ كل منجزاتها والا انتهينا الى تكديس « حضارة شيئية » دون أن نتمكن من بناء حضارة صحيحة (13) وهذا التكديس يتعارض مع عملية التمثل التى كانت حضارتنا قادرة عليها ، ولكنى أرى أن هذا التكديس لا يمكن أن يتحول الى تمثل الا فى ظل نوع من السيادة يطمئن النفوس الى عدم فقدان الشخصية العامة ، واذا كان العالم الاسلامى لا يزال واقعا تحت وطـأة الانقسامات التى تمت بعد الغزو المغولى (بل زادت الانقسامات كما وكيفا) فما أحـــرى العالم العربى ، فى ضوء امكاناته الكبيرة ، أن يسعى الى بناء حضارى متكامل ، أما كيف يتم ذلك ، وما هي العوامل الدافعة والاخرى المقاومة التى تكشف ذلك كله ، فشىء لا يتسع له هذا البحث الموجز.

(13) مالك بن نبى . شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص 46 (ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوى ، القاهرة 1957) .





النقطة الخامسة من جدول اعمال الملتقى

الآنية والأصالة
مع التفتح والعالمية

السيد عبد الله بن بيه
وزير العدل
فى الجمهورية الاسلامية الموريتانية

بســم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاخ وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية
حضرات السادة المحاضرين
اخوانى الطلبــة
أخــى الوزيــر

يطيب لي بين يدى هذا البحث ان اشكركم على الفرصة التى أتحتموها لي للاشتراك فى هذا الملتقى الهام الذى أصبح بفضل وسع افقكم والمستوى العالى من التنظيم والعناية التى يحاط بها من طرفكم ـ يشكل سندا حقيقيا للثورة الشاملة والفعلية لبلد شقيق نعتز بامجاده فى الماضى ومنجزاته فى الحاضر ونتمنى له اطراد النجاح والنصر تحت قيادته الثورية الحكيمة ٠

لقد أردت ان اتطرق لموضوع مهم من المواضيع المدرجة فى جدول أعمال ملتقانا له علاقة بتوجيه مجتمعاتنا ويمس بصفة مباشرة الجدل الثقافى الدائر فى مختلف نوادينا الفكرية منذ أكثر من قرن وعلى وجه التحديد منذ حلول الاستعمار فى الاراضى العربية الاسلامية وبدأ التساؤل المعروف كيف أصبحوا أقوياء وأصبحنا ضعفاء وكيف استطالوا علينا باساطيلهم وباقلامهم وآرائهم ان ماساتنا ـ وحتى بعد أن رحلوا عنا ماديا وهزمناهم عسكريا فى أجزاء من الارض العربية الاسلامية ، لم نجد الجواب على هذا السؤال او لم نوفق أن نضع الاجوبة والحلول التى تقترح هنا وهناك موضع التنفيذ ٠

اننا بحاجة الى مثل هذا الجواب فى وقت تبدو فيه معالم نهضة سياسية واقتصادية فى الامة العربية والاسلامية والعالم الثالث بصفة عامة تلوح فى الافق بعد الاحداث العسكرية والسياسية والتحفز للاستيلاء على الثورات الطبيعية الذى شهدته هذه المناطق ٠ وما هذه الاحداث فى الحقيقة الا محاولات لاستجلاء الذات والتعرف على القدرة الحقيقية لها ٠

ان هذه النهضة اذا لم يجد سندا ثقافيا وارضية فكرية صلبة تضمن لها البعد الاجتماعى لا يمكن ان تحقق أهدافها ٠

وانطلاقا مما تقدم فانى لا أريد أن أتعرض لهذا الموضوع من زاوية المقولات الفلسفية بعيدا عن الممارسات العملية بمعايير مغرقة فى المنطقة والتجريد ، ولكنى سأحاول فقط أن اعبر عن شعور من يرى ذاته ويحاول تبين ملامح شخصيته بالنسبة لشخصية الغير حتى يكون فى النهاية منسجما مع ذاته لانه وعاها ومع غيره لانه عرفه ٠

ولهذا فساتكلم عن موضوع « الاصالة والعالمية » ٠

ان الاصالة هي كلمة عربية وهي مصدر من اصل الشىء اصالة فهو اصيل اذا كان يرجع الى أصول معروفة ولهذا يقول العرب مال أصيل وفرس اصيل ويقابله مال طريف اى مستحدث والاصالة تشير الى الكرم ، أن الفرس الذى يحرص صاحبه على أصله وبجانبه كل الشوائب عادة يكون كريما وذا خصائص وميزات معينة ويرادفه التليد وهو الذى ولد عند مالكه ٠ الا ان التعريف سيكون صعبا اذا كان الامر يتعلق بانسان او بشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات هل يمكن أن نعتبر شعبا ما أصيلا لثبوته على مجموعة من القيم الحضارية واتصافه بميزات شخصية ردحا من الزمن وتمسكه بها وهل يعتبر أصيلا اذا كان يصدر فى آرائه وتفكيره عن عبقرياته الخاصة ، وهل يمكن فى ميدان الفكر والثقافة أن نعرف ما هو لنا وما هو لغيرنا بصفة محددة او ليست ثقافة مجتمعنا الا مزيجا من الثقافات أصبح فيه لثقافة الغير « الثقافة

الغربية ، نصيب لا يمكن عزله واعتباره سطحيـا واقامة الحواجز بصفة مؤقتة بينه وبين ما نملك أو ما يجب أن يكون لنا ·

وهل لا يبقى فى ثقافتنا الاصيلة اذا وجدنا عازلا يعزلها عن المحيط العصرى للتفكير الاحنين الى الماضى وبكاء على الدين والاطلال · فما هي الدعوات الاصيلة ·

وما هو الاصيل فى تاريخنا العربى الاسلامى

الم يلبس هذا التاريخ ثيابا عديدة وقبعـات مختلفة الم يلبس الطيلسان الفارسى والقبعـة التركية وغيرها واي الدعوات التى برزت فى الافق العربى اصيلة فى القرون الاخيرة فهل نعتبـر حينئذ دعوة الوهابيين أصيلة لانها تطالب بالرجوع الى اصول الدين فى العقيدة والتشريع وهل دعوة القوميين العرب فى القرن التاسع عشر بقيادة اليازجى والكواكبى وغيرهما اصيلة ·

وهل دعوة الاصلاح والمصلحين كجمال الدين الافغانى والشيخ عبده وابـن باديس وغيرهم اصيلـــة ·

وهل ما نقوله نحن انما هو ترديد للاصداء واعادة للتاريخ ·

لعله من الضرورى قبل الوصول الى تعـريف الاصالة ان نجيب على بعض هذه التساؤلات باختصـــار ·

اولا نقول ان كل هذه الدعوات تعتبر كلها محاولة يمكن ان تكون جـــزئية لاستجلاء الذات والروية عن طريقها اذا فهي اصيلة وحقا لقد لبس تاريخنا اصنافا من الثياب وكان مترجما عـن اليونانية الا ان فى ذلك الوقت كان بايدينا صولجان الملك والفكر ·

انه فى رأيى لا يمكن تقديم تعريف شامل لمفهوم الاصالة ما لم نحاول ان نشير الى الوضع الفكرى الذى يقدم الاصالة كحل ممكن لمشكلته واذا لم نقابل مفهوم الاصالة بمفهوم آخر هو مفهوم الاستلاب وكما يقولون بمعرفة الاشياء تتبين اضدادها ·

وبهذا فقط يمكن ان نعرف الاصالة بانها موقف شعورى ايجابى من طرف شعب من الشعوب فقد حريته وسيادته مع ما يرافق ذلك فى عصر تقلصت فيه المسافات واغرقت وسائل الاعـــــلام وما يصاحبها من ضجيج وضباب البشرية ومن الطبيعى ان صوت الغالب كان هو المسموع ـ من سلب القدرة على التفكير والتكيف بصفة مستقلة وشخصية ان تشبث هذا الشعب بذاتيته ومحاولته الروية عن طريقها ورفضه المسبق لفرض اسـلوب معين تفرضه وتستلزمه الاستلاب هو الاصالة اذا فالاصالة هي الحرية والثقة بالنفس فى مواجهة الشخص لذاتـــه وفى مواجهته لغيره وبهذا التحديد يمكن أن تعتبر الاصالة بعدا من ابعاد عدم الانحياز الذى وقع الاتفاق فى مؤتمر الجزائر

73 على تفسيره بالرفض فاذا كان رفض السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية يعتبر المفهوم الجديد الذى يعطى فكرة عدم الانحياز الحيوية الضرورية فان الرفض المسبق للاراء والافكار التى صيغت فى بيئة وطبق اوضاع اخرى هي أوضـــاع الغير يعتبر المفهوم الحقيقى للاصالة ويجنبها الجمود الذى قد طالما اعترض عليها البعض بـــه بصفتها دعوة الى الماضى الى الرجـــوع الى الماضى وفلسفة الماضى التى تعتبر الكون هو ما قد كـــان ·

انها فلسفة الماضى ، الحاضر متجه الى الماضى ليستلهم منه فى بناء المستقبل فى تكيف حيوى تجاه الذات وتجاه الاشياء ·

ان هذا الرفض هو رفض التقليد الاعمى أو ما سماه ابن خلدون فى المقدمة « تقليد المغلوب للغالب » فنحن مدعوون لاتخاذ موقف محدد طبقا لما تمليه شخصيتنا ومصالحنا فى كل قضية ·

فالرفض الذى نتحدث عنه ليس رفضا سلبيا ولكنه رفض ايجابى ولا يعنى « التقوقع » وانما يعنى المساواة بين ابناء البشر الذين يجب أن يفكروا جميعا وان لا تضاع لبعضهم قوالب يجد نفسه عاجزا امامها عن التفكير وذلك هو الاستلاب ولا باس اذا استعرنا من ماركس الذى لم يعـرف مشاكلنا على الحالة التى هي عليها ولم يرصد لها بالضرورة حلولا ـ رأيه فى الاستلاب لا لنوافقه عليه لان هذا لا يعنى موضوعنا ولكن لندلل علـى مفهوم للاستلاب قد يستشف منه ما نحـــــن بصدده بعد عرضه للمظاهر الثلاثة للاستلاب كمـا يراها ، الاستلاب الدينى والسياسى والاقتصادى يصل الى هذا الاخير فيرى ان نشاط العامل مستلب فهو يشعر بان عمله ليس عملا اراديا بل هو عمل ارغامى ، انه حكم عليه بالاشغال الشاقة فهو ليس تلبية لحاجة بل هو وسيلة لتلبية حاجيات خارجية ·

الا يمكن أننلاحظ أن الابنية الفكرية والثقافية للغير تمارس نوعا من الضغط والارغام عـلى شخصيتنا وتوجهنا توجيها لا يلبى حاجاتنا وانما يلبى حاجات خارجية تضغط على زوايا نفوسنا وأرواحنا وتمنعنا من تنسم هوائنا العليل ، تحـت ستار كثيف ومضلـل من دعوى تمدين الشعوب المتوحشة وتحضرها وانهاضها ، وتارة تحت ستار العالمية المزعومة ·

وفى بداية هذا القرن لوح بعض المستشرقين بعدم قدرتنا على الخلق والابداع باعتبار اننا متخلفون او باعتبار أن عقليتنا سامية لا تستطيـــع بازاء العقلية الآرية الا ان تكون آخذة غير معطية ومقلدة غير مجتهدة وتابعة غير رائدة ·

ان التشبث بالانا اذا وملامسة الواقع عـــن طريقه ورفض القوالب المصاغة مسبقا ، والثقة بالشخصية المميزة يمكن أن تعتبر عن عناصر الاصالة ولذلك نجدد دائما هذه العناصر أو بعضها فى أقوال وسلوك المفكرين والقادة السياسيين فى شعوب الامة العربية وشعوب العالم الثالث ·

وساوفر عليكم الوقت بعدم التعرض لآراء الكتاب العرب منذ القرن التاسع عشر ومنذ بدأت الامة العربية يعشى ناظريها شعاع الحضارة الاوروبية الجديدة وبدأت التفسيرات تتباين بين مدارس الاصلاح الاسلامى والمدارس القومية وغيرهما من المدارس ـ المعروفة لديكم وسآخذ أمثلة من العالم الآخر متجنبا الوقوع فى هوة التفرقة بين أولئك الذين كانت لهم ثقافة كلاسيكية وغيرهم ـ لانى اعتبر ان كل الشعوب ذات ثقافة مهما كانت درجة تطورها ومهما كانت بدائيتها ، مبتدئا بالمهاتما غاندى الذى لو بقي وفيا للروح الغربية التى طبعته بها الثقافة الانقليزية ولم يرجع الى أصالته الهندية ويستمد منها وسائل كفاحه لما هزم الامبراطورية البريطانية فى أوج عزها ·

ان الرفض كان واضحا فى سلوكه كما كان واضحا فى شعر ابن باديس ضد سياسة اذابة الشخصية التى تنتهجها السلطة الفرنسية ·

وفى شعوب افريقيا نلاحظ نفس الرفض عند نكرومة عندما يقول فى فلسفة الضميرية : « ان فلسفتنا يجب ان تجد رجالها فى امكنة وظروف حياة الشعب الافريقى »

ويعرف الضميرية بانها مجموعة تنظيم القوى التى تسمح للمجتمع الافريقى أن يهضم العناصر الثقافية الاجنبية عن القارة والتى توجد فيها وتحويلها بطريقة تجعلها تنصهر فى الشخصية الافريقية · انتهى ·

ان محاولة كوامى نيكرومه أن يهضم العناصر الثقافية عن طريق الشخصية الافريقية هي اعتراف بضرورة الرؤية طريق الانا ورفض القوالب المصاغة مسبقا ·

اما سينغور فيذهب الى ابعد من هذا حيث يقول « هناك حساسية افريقية وطريقة افريقية لفهم الاشياء ونظرة افريقية للعالم فهذا هو الافريقية » ·

وهناك على القارة الافريقية تجربة الزائر حيث قام سكان هذا البلد البالغ عددهم 22 مليونا بتغيير كل اسماء المدن والاشخاص التى كانت من آثار الاحتلال الاجنبى الى آخر كل الاصلاحات التى وقعت فى هذا البلد بما فيها الاستيلاء على الثروات الطبيعية باسم الاصالة ومهما يكن من تفاوت فى الوعي بين المتمسكين بهذه الفكرة وهذا التفاوت وارد فعلا بين أولئك الذين تشكل الاصالة بالنسبة لهم رد فعل وبين اولئك الذين أصبحت بالنسبة اليهم اديولوجية ثقافية ثابتة فان القسمات المشتركة بين الجميع هي الرفض والتشبث بالانا ·

والاصالة تدفع هؤلاء واولئك للعمل والابداع اذ أن تحقيق الشخصية من متطلباته الاساسية أن تكون هذه الشخصية قوية ومسلحة بكل أسباب المناعة التى تضمن لها النمو والاستمرار فى وقت يهدد فيه الضعيف بالاضمحلال بصفة تلقائية زيادة على المؤامرات التى تحاك ضد المتخلفين لا بقائهم متخلفين وعدم السماح لهم بمسايرة محتكرى التقدم الصناعى فى موكب التقدم والرقى ·

فالاصالة يمكن أن تعتبر من العوامل التى كانت من وراء الحركة التى قامـــت هنا وهناك للمطالبة بالاستقلال ذلك أن المستعمر بفتح الميم يرفض أن يكون امتدادا لشخصية واراضى المستعمر فهذا ما يرفضه السكان فى المستعمرات البرتغالية فى افريقيا وهذا ما رفضته الجـــزائر والشعوب العربية والافريقية بالامس ، وايا ما كان سبب هذا الرفض الذى يعلله البعض بسوء الاوضـــاع الاقتصادية والاجتماعية وهي فعلا سيئة التى يحكم فى ظلها المستعمر ، وهذا تعليل صحيح الا انه من الصحيح أيضا أن حرص الشعوب المستعمرة على شخصيتها وثقافتها كان مـــن وراء هذا الرفـــض ٠

وهذه الاصالة نفسها تعتبر اليوم عاملا قويا فى الاصرار على الاستقلال الاقتصادى وبنـاء الصناعـــــة ٠

وباختصار فان الاصالة موقف ايجابى مـن الحياة ومبدأ حي له تأثيره فى مسيرتنا اليومية وما هي بالماضى ولا بالحنين على الماضى انها الحاضر والمستقبل الغنيان بتراث الماضى وتجاربه

ان العالمية تعنى أن فكرة ما أو أمر يتعلق بعالم البشرية الكبير وليس بعالم من العوالم الاخرى التى اصطلح على تسميتها بذلك كالعالم العربى مثلا الم يكن العالم فى المصطلح العربى يعنى نوعا من الشمول يزيد فى محتواه على البشرية أو الانسانية وقد كانت ترادف الكون أو حسب تعبير الفلاسفة القدماء كل انواع الجواهر والاعراض ولنترك جانبا مفهـــوم الكلمة من حيث عـــلاقته بالمقولات ولنتعرض لما يتبادر الى ذهن المرء عنـد ما يوصف شىء ما بانه عالمى انه تراث البشرية كلها ولكن كيف يكون الشيء عالميا أن الانسان عالمى مثلا لانه فى كل مكان هو هوله مشاغل ومشاكل متشابهة تلك فطرته التى فطر عليها ولكن هل هناك خصائص لحضارة عالمية انطلاقا من وحـــدة الانسان فى القسمات الاساسية عن طريق الفطـرة واذا كانت الحضارة هي عمل الانسان وابداعه الواعى فكرا وعمرانا وفنا وأدبا الى آخره فهل بالامكان ان نؤكد أن البشرية اجتمعت عن وعـــي على تكوين حضــــارة لها انطـــلاقا من مواصفات ومعايير وقع اختيارها من طرف الجميع ٠

ان هذا ما لم يحصل فى عصرنا الراهن على الرغـم من تقلص المسافات والتحام المصالح ووفرة وسائل التبادل والتفاهم والاعـــلام ٠

انه بالامكان التاكيد على انه فى بعض المجالات المعينة من الحضارة الراهنة يتدرج العـــالم الى سلوك طرق قد تكون متشابهة تتقاطع فى كثير من النقط بدون أن تكون تماما متفقة ، ففى مجال العلم والصناعة مثلا يمكن أن نتحدث عن شبه عالمية الا أن آثار هذا التصنيع لم تحول العالم وحتى المصنع الى مجتمع واحد ٠

فنحن أمام مجتمع تصنيع متشابه فى أوروبا الغربية وامريكا وأمام مجتمعات مصنعة فى أوروبا الشرقية وحتى هذه التى تقوم فلسفتها على أساس أيديولوجى واحد لم تستطع التخلص نهائيا عن خصائصها القومية اي عن اصالتها ٠

ان الآلات متشابهة لان اصول العلم والمعرفة البشرية واحدة الا ان خصائص المجتمعات وعقليتها وفلسفتها فى الحياة ليست بالتأكيد واحدة فاذا كانت الصناعة لا يمكنها أن تكون حضارة عالمية وحيدة فيجب لنا أن نتسائل هل هناك مجال آخر يمكن ادعاء العالمية فيه ٠

ان الترويج للعالمية كان فى وقت من الاوقات وسيلة لحمل الشباب المثقف على ادارة الظهر للقيم والخصائص التى تطبع شخصيته القومية الى قيم « العالمية » المزعومة لاوروبا الغربية التى هي مركز العالم والتى استطاعت أن تبنى حضارة على حد هذا الزعم ـ عقلانية اساسها العلم وقوامها الانسانية حتى ان بعض الكتاب الاوروبيين لا يتحاشى من أن يقول ان الثقافة العالمية الوحيدة كانت من عمل البرجوازية الغربية وما عداها من الثقافات بالنسبة لها هي شبه ثقافات سواء تعلقت بهيئات اجتماعية او مجموعات قومية ٠

وان هذه الثقافة قد انفصلت نهائيا عن الطبقة التى كانت تمثل سندا لها تاريخيا ٠ الا ان أوروبا هذه نفسها بقيت شعوبها متباينة من حيث الخصائص والميزات كل التباين على الرغم من تقارب مستوى المعيشة ويشهد لهذا ما يقوله الكتاب الاوروبيون انفسهم وخصوصا ليفى مترو حيث أوضح التباين الموجود بين الدول الاوروبية وخصوصا تلك المتجاورة وعدم امكانية عالمية تجعل الناس كأعواد الكبريت ٠

وحتى الماركسية رغما من كونها تقوم على التفسير المادى للتاريخ ، وبالتالى ترفض انقسام العالم الى قوميات وانما الى طبقات فقد ورد عن لنين فى تعرضه « للمسألة الوطنية » ٠

ان الماركسية لا تؤيد اطلاقا أية قوميات مستقلة وثابتة وعلى العكس فانها تؤمن فقط بكل ما يؤدى الى انكار الميزات والفروق القومية بما يؤدى الى ازالة الحواجز ٠

الا أن خلفاء لينين وفى مقدمتهم استالين يتجهون اتجاها آخر ، فاستالين يعترف « بان الامة جماعة مستقرة من البشر تكونت تاريخيا على أساس جامعة اللغة والارض والحياة الاقتصادية والخصائص النفسية » ٠

ولقد أصبح معتنقو الماركسية اليوم يكونون عوالم عديدة وانتصرت الاصالة على المبادىء الفلسفية الرسمية ٠

ولذلك فانه يجب البحث عن عالمية جديدة تساهم فيها الشعوب التى كانت بالامس قاصرة ، شعوب العالم الثالث ويكون محتوى هذه العالمية متفق فيه بصفة اختيارية عن طريق الروية الخاصة لكل شعب ·

ان احترام خصائص كل شعب وشخصيته ومساهمته الفعلية فى بناء عالم مبنى على المساواة والحرية تخلص من عقد الاستعلاء الحضارى واستطاع فيه أسير الامس أن يضع قديمه على أرضه ويفكر بعقله ·

هي التى يمكن أن تضمن لاي عالمية أن تقوم على أساس مقبول ·

ان كل حضارة عظيمة سواء كانت مبنية على ديانة سماوية أو على فلسفات انسانية هي ذات نزعة عالمية ، الا ان الحضارة العالمية العظيمة حقا هي تلك التى اعترفت بتلك الخصائص والفوارق وأقامت من فوقها جسورا لمحبة الانسانية والتعارف ايمانا بالعدالة المطلقة وبالاله الواحد وذلك ما اشتملت عليه الاية الكريمة :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » ·

تلك هي العالمية التى تتخذ الاصالة كأساس من أسسها وعنصرا من عناصرها فهي تعتمد على مجهود كل شعب فى مساواة تامة وتعارف ·

خلاصة القول :

ان الاصالة المتكيفة لا تتنافى والعالمية الحقيقية التى لن تكون جديرة بهذا الاسم الا اذا ساهمت فى خلقها أصالة كل الشعوب وأصبحت انعكاسا امينا لملامح وميزات الشخصيات المتباينة فى مساواة وحرية تضمنان لها الانسجام وتجنبانها كل العقد التى تسببها هيمنة القومية المسيطرة وبذلك فقط نصل الى عالمية انسانية وانسانية عالمية ·

التاريخ

كملتقى ممتاز للأصالة والعالمية

د٠ ايفون تورين
استاذة
بجامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

ان موضوع « الهوية والأصالة فى الانفتاح على العالمية » ، وهى النقطة الخامسة من البرنامج المسطر فى اسبوع لقائنا للتعرف على الفكر الاسلامى ، من العلاقة بالتاريخ ما يكاد يحملنا على القول بأنه سابق له ، ونتيجة له ٠

فليس فى الواقع لفكرة الهوية والأصالة من ناحية ، والعالمية من ناحية ثانية ، أى معنى ينطبق على أى مجموعة بشرية الا فى مجتمع يرى لنفسه جدوى ومنفعة فى الوعى التاريخى ، بل ويسند لهذا الوعى المجهز الناضج دورا نشيطا ، ان لم نقل مسؤولية خلاقة فى كثير من الاحيان انه استلهام ناضج ، منتقى ومهيا كذلك ، لا لأنه معاد البناء فحسب ، بل ولان الهوية والأصالة ، بل وحتى العالمية ، ليست فى الواقع سوى مفاهيم نسبية تتحدد وتتعرف بالقياس الى شىء ما ، أو بالمقارنة الى انسان ما ، أى علاقة ما على وجه التحديد ٠

فليس لأحد ان يكون مطابقا لذاته ، أو أصيلافي حد ذاته ، ولكن بالقياس الى شخص آخر وليس لأحد ان يكون عالميا بالمفهوم المطلق لهذهالكلمة ، وانما يكون كذلك فى مقابل شىء ما ، لا يتصف بهذه الصفة ، . وما من مفهوم من هذهالمفاهيم هو قائم بذاته ، وانما تنشط هذه المفاهيم وتغدو فعالة ، حين يبرز تاريخ فيشحنهابالوقائع ، بما يعمد اليه من وصف لهذه المفاهيم، وبما يمنحه اياها من مضمون ۰

يمكن اذن ان نتساءل : الى اى حد يمد التاريخ الأصالة لقاعدة وأساس ؟ وذلك بالتشديد على نقطة الاستفهام هذه وهو ما سيشكل الجزءالاول من عرضنا هذا ، ثم كيف يتطلب تاريخ العالمية كذلك ليكسب بعده الكامل وهو ما سيمثل الجزء الثانى من العرض ، بيد انه ، وقبل الشروع فى هذه الدراسة ذات الوجهين ، نود اننبدى بعض الملاحظات حول استعمال المفاهيم المذكورة والمعنى الذى نعطيه اياها !

افكار حول عبارات : الهوية والأصالة ، من ناحية ، والانفتاح والعالمية من ناحية ثانية

ان المسألة التى تعنينا وهى مطروحة بهذاالشكل تقيم تعارضا بل تكاد تبرز تناقضا بين هاتين الثنائيتين من الكلمات وهى فى نفس الوقت توحى بتجاور وتواز بين عبارات كل من المجموعتين المزدوجتين ، بيد ان هذا التعارضوالتجاور لا يأخذان سبيلهما معا بدون بعض الغموض والابهام ۰

فماذا نعنى فى الواقع بكلمة «أصالة» ان أىلوحة زيتية ، وأى عملة تكونان اصيلتين اذا سلمتا من التزييف ، وأى محاكاة او تقليد هماضد الأصالة ، انهما تزوير ۰ فالأصالة اذن ، هى نقيض التزوير بالتقليد هى الشىء الصحيحبصورة ما انها تشير الى ما لا يقبل المحاكاة والى الشىء غير المقلد فهى اذن تعنى الشىء الخاص والذاتىلكل واحد ۰ لكن ترى ، أفيكون ذلك فرديا أم على مستوى المجموعة ؟ هنا نقطة الاشكال ۰

ان الشىء المطابق لذاته ليتجلى اذن على طرفىنقيض مع الاصيل ، ذلك لانه يثبت التشابه والتماثل ، وبصورة ما ، النسخة المنقولة ، وبالتالى اعادة البناء والانتاج ۰ وهو يعتمد بكليته على التقليد - وفى اتجاه معاكس لفكرة الأصالةالتى تبرز معنى الوحيد او الفريد ، والذى لا يقبل المقارنة ، تميل المطابقة للذات الى التطابق والاندماج فى مجموعة ، بحيث ان ما بين العبارتين من موازاة يستدعى فارقا دقيقا ، وبعض الحيطة ، ويستوجب لدى استعمال العبارتين بعض الدقة ۰

وكذلك ينبغى ان يوضع التعارض المستشف بين كلمتى « الأصالة » و « العالمية » فاذا كان المزور ، كما رأينا ، والعالمى يشكلان معا نقيض الاصيل كما يوهمه النص ، فان ذلك قد يعنى ان المزور والعالمى صنوان رديفان فقد يتحول العالمى ، بهذه الصورة الى عديل للتزوير، وللنسخة عديمة الاصل ، فنحن لا نرى اذن كيف يمكن لهذا المفهوم ان يأمل حتى فى اعادة الاعتبار اليه • اذ كل محاولة للاتصاف بصفة العالمية قد تتهم بتزييف الذات ، ولن تكون الأصالة الا ذلك الانعزال الضرورى الذى يكاد يلتبس بالسجن • وبذلك نكون قد انهينا النقاش قبل الشروع فيه •

أعتقد انه ينبغى مقاومة أثر التعارض هذا ، والاعتراف بأن الأصالة العالمية ليستا فى الواقع طرفين فى جدلية • فالعالمية لا يحاور النسخة المنقولة أو الخطأ ، وانما يحاور فكرة الخاص والاختلاف ، والتاريخ شاهد هنا بملاحظة هذا الحوار •

وبهذا نغلق القوس ونعود الى موضوعنا • غير ان هذا التحليل الوجيز كان مفيدا لتوضيح لغتنا ما وسعنا هذا التوضيح •

دراسة الأصالة والعالمية فى التاريخ

ان التاريخ اذن ليبدو لنا كما لو كان قاعدة للاصالة ، ثم هو ، على قدر ما يكون معروفا ، يتخذ مرجعا ، ويغدو نقطة الاشارة او علامة على (الهوية) • هل هذا الكلام صحيح ؟ وهل للتاريخ ذاته تاريخ ؟ قبل الاجابة على السؤال الاول ، يجدر بنا ان نبحث السؤال الثانى الذى سيعود بنا طبعا الى السؤال الاول •

ان فكرة التاريخ ، وفكرة الأصالة القومية او القارية او غير ذلك مما تجره وراءها ليست بمعطيات مطلقة ، ولا هى بالتالى ذلك الشىء الثابت الذى لا يقبل التغيير • فالتاريخ ومفهوم الماضى التاريخى الممثل بشىء آخر غير سلسلة من الفتوحات الحربية التى ترجع فى قليل او كثير الى الاساطير فى اوروبا ، وبالاغانى والحركات ،هى مفاهيم حديثة واحدث منها ذلك التصور التاريخى الذى ولد تصور الامة الراجع فى الواقع ، بالنسبة لاوروبا ، الى القرن التاسع عشر فهل هذا يعنى ان الحقب المجردة من هذا الغلو فى الحساسية التاريخية كانت محرومة من الاصالة بحكم انها لا ترجع الى اى ماض ؟

انها لتنشد أصالتها فى مكان آخر ٠ انــها ،فقط ، تثبت نفسها بأسلوب آخر ٠

ولنورد بعض الامثلة لتوضيح فكرتنا ، ولبيان كيف ان لمفهوم الاصالة فى حد ذاته تاريخــا٠

ان (لويس) الرابع عشر كان من الاعتزاز والفخر بملكه لفرنسا مما نعت به من أنه (الملك الشمس) كان لا يتراءى له أمرا مبالغا فيه ، لكنأى فرنسا هذه التى يتربع على عرشها ؟ وأى صورة لفرنسا تلك التى تخطر على بال هـــــذاالملك حين يتحدث عنها ؟

انما يحدث عنه (لويس) الرابع عصر ليس فرنسا ، وانما هو مملكة فرنسا ، والذى يؤكــده بذلك ، انما هو بعد اقليمى وملك ، فهو عبارةعن تأكيد المالك ٠ انه لا يقصد على الاطلاق ارضا يقطنها طراز من الناس ، بل واكاد أقول : انــهينطلق من فكرة تقويم للارض ، ويشير الى حيز مكانى يحتويها السجل التوثيقى الذى تمثلــهالمعاهدات المبرمة من قبل اسلافه ، الحيز المكانى الذى عهد اليه بادارته والمحافظة عليه تماما كماخلفه اياه اجداده ، اللهم الا ان يتوسع فيــه ٠ ان فرنسا ، وقد جعل منها مملكة ، كانت بهذهالصورة شيئا غير سداسى الاضلاع تماما لكنه الشىء الذى ليس له ، على كل حال ، الا علاقة ثانوية بالفرنسيــين ٠

فالاهتمام أقل ما يكون بأصل هؤلاء الفرنسيين الذين تتحدد (أصالتهم) بالقياس الى ملــك فرنسا فليس الفرنسى فرنسيا من جهة علاقتهبماض مـا،ولكن حسب شبهه ومطابقته لصاحب العرش ٠ وهذا صحيح ايضا بالنسبة الى الممــالك الاوروبية الاخرى ، وصادق على غيرها مــن الممالك ٠ بحيث ان الفرنسيين الذين لا يقتنعونبمشابهتهم للملك ، كانوا يطردون من المملكــة من فرنسا ، وكانوا يدعون الى الانضواء تحتهذا العرش او ذاك مما يتماشى وأصالتـــــهم الذاتيــــة٠

لكن اما كان الملك ذاته يعتبر نفسه كما لوكان مسجلا فى ماض تاريخى طويل تجب معرفته من اجل اثبات ذاته ؟ فكم من سيد ، وكـم منشعب عمل على جمع هذه الاراضى التى يبســط عليها سلطانه ! ولكن ما من شىء من ذلك قـــدتحقـــق ٠

لنفرض حاجبا سليم الطوية ، يسعى للحصول على بعض الرواتب او السنايا ، يحيى الملــك اذا اصبح وحين يمسى (الحجبة المحظوظون يشهدون نوم وقيام الملك) ، ويبدأ التماسه بالشكل التالى : « مولاى ، ان الاجداد الغاليين لجلالتكـم٠٠٠ الدوق ٠٠٠ او البارون » فان التعيــس

المسكين لا يأمن ان يزج به في السجن لبضعة شهور • فأى جرى. يسمح لنفسه هكذا بأن يسب الامير ويتهمه بالانحدار من قوم هم ضرب من المتوحشين ؟ فأنتم ترون مدى الاختلاف عما صار يجرى بعد ذلك بنحو 200 عام • ذلك لان كل واحد يعلم ان أى كتاب للتاريخ شبه رسمى ، فى عهد الجمهورية الثالثة ، كان يلقن كل طفل فرنسى بأن (الغاليين اجداده) وما ذلك لان الامير قد زال واختفى عن الانظار ، ولكن لان الاجداد قد انبثقوا من التاريخ من اجل ضرب من الحياة الجديدة • أفيكون هذا نوعا من التغير فى التصور التاريخى ؟ كلا ! انما هو اكتشاف للتاريخ •

واذا نحن أمعنا فى المفارقة التى يمثلها هذا التحليل ، استطعنا ان ندرك بأن «الملك الشمس» وقد قبل الملاحظة الواردة فى مثل القول التالى :«مولاى ، ان جدكم الملك «كلوفيس» •

ذلك لان «كلوفيس» جعل من الفرنج القدماء مسيحيين ، او هو على الاقل فتح الباب فى وجه المسيحية ، لكن الذى لا نشك فيه هو ان الحاجب المتبصر الحاذق كان يواجه لويس الرابع عشر بمثل هذا الخطاب : «مولاى ••• ان اجدادكم الرومان ••• والواقع ان ملك فرنسا هذا كان يؤثر الظهور للاجيال اللاحقة راكبا على جواد بالطريقة الرومانية ومتحليا بحلة قيصر المنتصر على هؤلاء الغاليين ، تماما كما يبدو القائد الفاتح على رأس موكب يقود مهزوميه الى السجن • ان ابرع كتاب عصره كانوا يحللون مشاعر «تيتوس» امبراطور الرومان و «بارينيس» قرينته ، ويضربون الامثال لمعاصريهم بشجاعة امثال «هوراس» المدافعين عن روما ، ولكنهم لا يضربون الامثال على الاطلاق بشجاعة «فرسانجيتوريكس» المنافح عن الغال• وقبل ذلك بسنين ، كان كبار السادة المتمردون على ملكهم ، هم الذين يعمدون الى تقليد ابطال «بلوطارك» المقتبسين ايضا من التاريخ القديم • وهكذا نرى ان القرن السابع عشر المعدود كما لو كان فرنسيا بالاصالة ، ومسيحيا كان يترسم لنفسه مثال الرومان الاجانب ومثال الكفرة المشركين • فأنتم تشعرون اذن مدى اختلاف مفهوم الاصالة ، وهو اوثق ارتباطا بماض تاريخى بالنسبة الى هذا العصر ، مما يمكن ان يكونه بالنسبة لفرنسى يعيش فى القرن العشرين ، وكيف ان لهذه الاصالة ذاتها تاريخا •

وكل ذلك يعنى ان «لويس» الرابع عشر ومعاصروه كانوا يتوهمون ان ليس بينهم وبين الرومان احد ، وبديهى ان الامر على خلاف ذلك• غير ان هذا يبين ان الذين صنعوا مملكة فرنسا لم يكونوا يهمونهم فى شىء • هنا يمكن نوع من التصور الماضى التاريخى الذى هو ببساطة ،

ليس ماضينا • ومثال آخر اخذ من الطرف الآخرللعالم ، ومن عهد آخر ، هو عهدنا الحالى ، يكشف عن نفس النسبية ونفس الطابع التاريخى لمفهوم الماضى التاريخى • والامر يتعلق ، فى هــذه المرة بالصين الشعبية • ويشير هـذا المثال ،كسابقه الى اختيار من بين اجزاء الماضى • وهو اختيار واضح هذه المرة ، مراد ، ومدرك تمـامالادراك • وهو ما لم يكن عليه حال المثـــال السابق • فمنذ عام 1915 ، كنا نقرأ فى مجلـة«الشبيبة الجديدة» للحزب الشيوعى الصيـــنى هذه التوصية : «ان رسالة الجيل الجديد ، هـىمحاربة لكونفوشوسية ، السنة القديمة للفضائل والشعائر ، او بعبارة اوضح ، ينبغى تمـــزيقشباك تاريخ الماضى ، وهدم سجن الافـــكار القديمة» (1) بحيث ان تاريخ تصور المـــاضىالتاريخى يؤدى هنا الى تقويض جزئى مقصـود ، ومعدود كما لو كان ضروريا ، لهذا الماضى الذىغـدا هو نفســه عبئـا ثقيلا • وبعد ان اكتشف التاريخ ، صار يمثل كما لو كان « شباكا» او«سجنا» اى كما لو كان حاجزا يعترض سبيـــل الحياة الراهنة • لذلك يجب ان يمحى ويزول •وحين يمزق التاريخ تنغلق الحلقة ، ويعود الشعب الى ما يشبه وضع شعب لا تاريخ له • وكلمـــاينبغى ان نعرفه هو ما اذا كان الامر ما يـــزال اليوم فى حدود الامكان ، او انه ، على الاصــحلا يعدو ان يكون تاريخا معاكسا •

وعلى كل ، فالذى ترمى اليه هذه الامثلة هـوبيان كيف ان مفهوم الماضى التاريخى وما يرتبط به من فكرتى الاصالة او الهوية هو على حســبالازمان ، أكثر تعقيدا وتنوعا ، واشد اختلافـــا مما يمكن ان نتصـــوره مسبقــا •

وفى الوقت ذاته ، أجبنا على السؤال الاولالذى طرحناه فى مطلع القسم الاول من عرضنـــا هذا ، فيما يتعلق باستعمال التاريخ كمرجــع ،واكتشفنا بأن كيفية الرجوع اليه ، لم تتغـــير فحسب ، بل وما تزال فى تغيــير مستمر •

وعلى كل حال ، فان القرن التاسع عشر هـوالذى شهد تفجـر التاريـخ فى حياة النـــــاس بأوروبا ، ثم شيئا فشيئا فى غيرها من الاقاليــمان اطفال المدرسة بالغرب ، لم يوضع بين ايديهم كتاب للتاريخ لا يقتصر على معلومات التـــــاريخالقديم او «التاريخ المقدس» وحده الا قبل ما ينيف قليلا عن مائة عام واذ ذاك فقط ، راح كل واحديكشف أجداده ، محاولا معرفتهم ما امكنته تلك

1) صحيفة لوموند ، مطلع فبراير 1974 •

المعرفة . وساعيا على نحو ما الى بحث حقيقـقي٠وهكذا اخذت تتوالى اقوام وشعوب مثل الصلت والجرمان ، والنوميديين ، والغوط ، والفرنسيس والعرب وغير ذلك على اذهان التلاميذ التى غدت بذلك بمثابة ذاكرة للتاريخ ، وفى نفس الوقت اخذ دور المؤرخ يتعاظم . ومسؤوليته تتضخـم غير ان هذا الموضوع من الاليق ان تتضمنه دراسة أخـرى ٠

بحيث اننا لو طرحنا اليوم السؤال التالى : من هو الانكليزى الاصيل ؟ او الفرنسى الاصيل ؟ او الجزائرى الاصيل ؟ لغدا الجواب اصعب وتجـلى بصورة خاصة اقل بداهة ٠ ولعل السؤال يكون اسهل لو تساءلنا عما هو المسيحى الاصيل ، اوالمسلم الحق ؟ ثم ان الفرد لا يكون مسيحيـا على النحـو نفسه فى القـرن العشرين وفى العصـر الوسيـط ٠

ولعل من قبيل التجربة الهامة ان يطلب الى كل واحد منكم تحرير خمسة او ستة اسطـر فى موضوع الكيفية التى يتصور بها الفرنسى الاصيل ٠ وانا متأكدة ان اى فرنسى يستعلم الكثـير منها ، وسيجد من خلالها انه على خلاف ما كان يتصوره عن نفسه بل وحتى لو سألتمـونى انـا ذاتى عن «أصالتى» لما عرفت كيف أجيب ؟ اللهم الا ان اقول أنا (البنت) الروحية «لديـكارت» ، «ليوسـوى» ، لروبر سبير» ، «لبرودون» ، او«لموراس» اذا ما كنت انظر قريبا منى ٠ ترى من المسيطر من بين آبائى واجدادى ، أهم العقلانيون،أم اللاهوتيون ، ام الثوريون المصممون على الدفاع مهما كان الثمن عن الثورة والوطن الذى يجسمها،أم ترى هو ذلك النظرى الاشتراكى الذى يعارضه المتمذهب المتمسك بوطنية جذرية ، والمنطـوى على ذاتـه ٠

وفيما ذكر بعض التيارات المنبثقة عن الماضى ،غير ان هناك تيارات اخرى ٠ هل الاصالة مقدار ، ام هى على العكس من ذلك اختيار . ام هى بساطة ، وحى والهام ، ام هى مثال استقى لقضيـة أخرى ضرورية ؟ انى أطرح عليكم السؤال ، نحن نعلم الآن ان الاصيل نتاج التاريخ ، اما الصلـة بين التاريخ والعالمى الذى يقود الى الانفتاح ، فلئن كانت ليست اقل عظمة ، الا انها كذلك غـير بديهيـة ٠

لنلاحظ بادىء ذى بدء ، ان التاريخ الآنى لايعرف الا الخاص نقيض العالمى ، العـام ، فليس فى التاريخ الا الذاتى الخاص ، فهو ليس فيـه مثلا مملكة ، ولكن ممالك . ولا يتحدث عن جمهورية بل عن جمهوريات ، ولا حتى عن امة بل امم لاغير ٠٠ وما للقائمة من حد تقف عنده ٠ والامـر صادق كذلك على مفاهيم الحرب والثورة ٠ فليس يعرف التاريخ الا حروبا وثـورات ٠

لكن اذا ما كان التاريخ عاجزا عن السمو الى تصور يسمح بتحديد مفهوم الجمهورية انطلاقا من الجمهوريات ، وبتحديد المعنى المجرد للحرب انطلاقا من الحروب ، فقد كشف على الاقل ، عن ماض ظل غامضا ومبهما • فالمؤرخ يتعين عليه ان يستعمل لدى تفكيره ، الاطار العادى لفعل الذكاء ، لكنه من اجل ممارسة مهنته ، ينشىء صورا جديدة للعلاقة التى باخفائها مسحة من المعقولية والوضوح على التاريخ ، تعمل على زيادة فهمه ، وتقريبه من المدارك ، وبالتالى على تنمية قيمته العالمية • بل نقول : ان المؤرخ يثرى مفهوم العالمى بالنحو الذى يستعمل به السببية ، وفكره الزمان وغير ذلك ، ولنوضح ما نقول :

فالاخبار التاريخية تسرد الاحداث وتعددها ،وكل ما تفعله انها تقص الآنى الراهن ، تماما كما تروى البوابة (الحاجبة) ما شهدته فى الشارع • والتاريخ يبحث عن الروابط والعلاقات ، ويقيم اوجه الشبه والاختلاف • انه ينشىء ويبتكر ،ويستعمل السببية التى لأهميتها ، تكاد تغدو التاريخ ذاته ، اسباب آنية واسباب أخرى بعيدة على وجه الخصوص ، تلبس الاحداث والوقائع رداء يجعلها ذات معنى • وبذلك تنشأ صورة جدارية كبرى فترسم التاريخ العالمى ــ ولولا ذلك لما كان ثمة الا تواريخ صغيرة ــ وتمكن من الوصول بوضوح الى فكرة الانسانية ، وهى نفس المثل الاعلى لمفهوم العالمية • لذلك قيل : انه بما ان التاريخ خاص ، فهو لا يعيد نفسه أبدا ، ولكن بما انه عالمى ، فهو متجدد باستمرار •

غير ان المؤرخ يستخدم فى مهنته ايضا مفاهيم أخرى يشترك فيها الخاص والعام من جديد ، ويعمد الى هذا الاستخدام من اجل ابراز ظواهر كلية ، مثل مفاهيم المدى القصير والطويل • وكمثل ملموس على ذلك : هذه الظاهرة التاريخية الطويلة المدى المتمثلة فى تطور العالم التقليدى الذى تجرفه عجلة التغيير • وضمن هذه الحركة العامة حركات اقصر مدى ، واقل اهمية ، واكثر محدودية ، تتمثل فى نهضة اوروبا وضمن هذه الاخيرة ذاتها ظاهرة النهضة الايطالية مثلا • فكل تطور أقليمى بدلا من ان يتكشف فريدا على الاطلاق ، يجد نفسه ، من وجهة هذا المنظور ، وهو بصدد التكون داخل حركة عامة لا تسلبه أصالته ، ولكن تسمح له بالافلات والخروج من عزلته • وذلك بما تتعرفه لدى الغير حاضرا وماضيا ، من صعوبات ومتاعب مماثلة • فما لا يسع المؤرخ الا ان يقوم به من ترددات على الزمان والمكان هو عينه هو وجه من وجوه اهمية التاريخ •

وفى الطرف الاقصى من هذه العملية يوجـــدالتاريخ المقارن الذى ينتهى احيانا الى تقليـــص النسيج التاريخى ، وحصره فقط فى الاعتبارات العالمية ، كما هو الحال مثلا فى مؤلف «توينبى»(I) فالتاريخ المقارن انتصار للعالمية ٠

ثم ان المؤرخ أخيرا ، ما دمنا بصدد تحليل المناهج الخاصة بالتاريخ ، يرجع ضمنيا وعلى الدوام ، الى مفهوم الانسان الذى هو التعبير ذاته عن العـالمية ٠ ان التاريخ برمته ليقوم على حوار بـــين الذاتى والتطابق مع الذات ، والمختلف او المغاير، بين ذات الشىء وغيره ٠ وهذا فعل يدل عـــلى ثقة اساسية فى وجود علاقة ممكنة بين الـــذاتىوالمغاير ، وبالتالى ، فى الاعتقاد بعالمية السلـوك الانسانى ، وبامكان التفاهم المتبادل ٠ ولا يمـكنلملاقاة الغير ان تحصل دون التأكد من وجـــود حد أدنى من التشابه يسمح به التفاهم ٠ فمـــاالفائدة ، اذا كنت ادنى القرن العشرين ، مـــن الاهتمام بالصين العتيقة اذا ما كنت انظر الـــىالصينى المنتسب الى عصر آخر كما لو كان عديم الشبه اطلاقا ؟ وما الفائدة ، بالنسبة الى افريقى من محاوله استجلاء اوروبا ، اذ لم يكن ثمة صلة او طبيعة مشتركة بين الواحد والآخر ؟ ومـــاالفائدة بالنسبة الى وانا اوروبية ، من التحـدث الى مستمعين ليسوا بأوروبيين ، اذا كنا لا نتفاهمعلى الاطلاق ؟ ٠ ذلك لان الفرق الذى جر اليـــه الزمن ، هو نفس الفرق الذى تخلقه المســـافةوالمدى فى عصر بعينه ٠ على انه ليس من المؤكـد ان اكون اقرب الى فرنسى القرن الثـالث عشر ،بل وحتى الى فرنسى القرن السابع عشر منه الى افريقى اليوم ٠ هكذا نرى ان التاريخ يدعو عـلىالدوام الى اقل قدر مشترك ، ويؤمن بامكانيـــة التبادل ، وبالعلاقات الانسانية ووجود التاريـخفى حد ذاته ينكر الانعزال المطلق الذى يـــذهب البعـض الى اعتبـاره عائقا لا يمكن اجتيـازه ٠(ولست هنا بصدد القيام بتحليل فلسفى ، بـل فقط ، بصدد وصف اسلوب عملى) ٠ ان التـاريخليؤمن بالعالميـــة ٠

لكن التاريخ لا يبلغ ولا يباشر العالمية ، بمنـاهجه فقط ، بل هو الذي يعطيها ، كذلك ، وجها معينا ، ويكف عن ان يجعل منها مجرد تيـــارهوائى ، وهو الذى ، من ناحية ، يعطى هـــذه العموميات محتوى ٠ ومن ناحيـــة ثانية ، فانالتاريخ ، بمكاشفته كل واحد ، بحياة وعوائـــد وكرب الغير ، يكشف لكل انسان عن وجود اشباهونظائر له ٠ بل وربما كشف له عن وجود قريب

I) التوينبى مؤرخ انجليزى معاصر ٠

له ، مهما باعد بينهما الزمن والحيز المكانى • انه يكشف عن تضامنات مجهولة وجديدة فى بعض الاحيان ، ويلقن بأن العالمية التاريخية ليست دائما واحدة ، او بأن عالميات جديدة قد تظهر على كل حال • وهكذا يدعو التاريخ الى الانفتاح • وما من شىء هو اكثر مفاجأة من مؤرخ ليس اهلا للانفتاح ، او حتى ليس متعطشا للاختلاف والتغاير ، انه بذلك ، سيكون كمن ولى ظهره لذاته •

ولنعد الى النقطتين الاخيرتين ، ولنقول بادىء ذى بدء ان العالمى ينشط ويحيا بفضل التاريخ ، ويبرز ويتحشد ، ونحن نستعمل كل يوم عبارات عامة تشير الى اوقات من الزمن ، او الى اجزاء من المكان ، أو الى مؤسسات وألوان من الثقافة •

فها هى ذى تتوارد على الذهن ، بلا نظام :الشعوب البدائية ، النهضة ، الفرس ، القبائل او العشائر ، الكلاسيكية ، الدولة ، المسيحية ،الاوروبيون ، العرب • ان الذى يتشخصه ويتمثله كل واحد منا حين يتلفظ بأى كلمات ، هو رهن على وجه التحديد ، بمعلوماته التاريخية ، وبمقدار ما يغدو التاريخ اكثر دقة ووضوحا بالنسبة للجميع المؤرخ أو غير المؤرخ ، يغدو التشخيص أو التمثيل أكثر حياة واحسن معنى وما اريد ان ابدو كناصحة لكم بتعلم التاريخ لكن ذلك ، وان لم يصرح به ، هو بالضبط لا اريد ان افعله • فليس ثمة وسيلة اخرى للافلات من فراغ كل لغة عامة ، بل واحيانا ، لمعرفة ما نتحدث عنه •

وهذا يقودنا بطبيعة الامر الى نقطتنا الثانية •فالتاريخ باعطائه الكلمات معناها الدقيق والكامل، انما يكشف عن عالمية الحياة • فهو تحت صور واشكال خاصة للغاية ، يروى لنا قصة او واقعة واحدة تتألف من نفس العناصر : فمن تنظيم الجماعات او الزمر الى الاسر ، والقبائل ، الى الدول وتذكر بأن الناس انما عاشوا جميعا فى جماعات ، والا تجردوا من خاصية الانسانية ، وانهم جميعا • كذلك اجتهدوا لنقل معلوماتهم وتبليغها ، وكلهم سعوا الى ان يجيدوا معرفة العالم الذى يعيشون فيه ، وهكذا ، فلكل المجموعات البشرية تاريخ فكرى • لكن درجة نجاحهم تختلف ، فالبعض قد برز فى الهندسة،والبعض الآخر قد برع فى الطباعة ، وقد استفاد البعض مما سبق ان ابتدعه الآخرون • فقد ابتكر الصينيون البارود ، لكن الاوروبيون استخدموه ، واضاف العرب الى علومهم علوم اليونان فاستقى منها الاوروبيون وزادوا عليها ، وأقام باستور الدليل على وجود الجراثيم ، فاستولى العالم اجمع على معلوماته ••• الخ •

ويروى التاريخ ايضا بأن كل الناس، منذ بدء الخليقة ، اجتهدوا لمبادلة منتوجاتهم ، ومن خلال ذلك ، لتحسين الشروط المادية لحياتهم ، ثـم انالناس فى كل زمان ومكان ، تساءلوا عن اصلهم وعن مصيرهم • فكانت الاجابات مختلفة ، لكـن القلق كان عالميا شاملا •

ويكشف التاريخ ايضا ان التضامن بين النـاس كان كبيرا فى السراء والضراء على السواء • فقد عرفت كل المجتمعات الحرب وكل صـــورالتحكم والسيطرة ، وعرفت كلها كذلك كـذب الانسان على اخيه الانسان •

بحيث ان المؤرخ يجيب على كل من يتسـاءل اليوم عما اذا كان الانسان موجودا على الاطلاق ، بانه التقى بكائن كان له فى كل مكان ، وعـــلى الـدوام أدنى حد من السلوك المماثل لسلـــوك الانســـان •

وبديهى ان بعض صور هذا التضامن قد تشتد وتزداد فى بعض الاحيان ، وانها تختلف باختلاف الازمان • والتاريخ يؤكد لنا ، ويعلمنا بـــان الاشياء تتغير . وان ميولا أو اتجاهات جــديدة تظهر ، فالمدينة العتيقة مثلا كانت وحدة قائمـة بذاتها ، اى دولة صغيرة ، منغلقة تماما عـــلى نفسها . واوجه التضامن ضمن هذه المدينة كانت داخلية اولا ، وان العالمية تبدأ هنا بتبادل داخلى، بيد ان المدن الاغريقية ، حين لا تدخل فى حرب بينها . تتجمع فى مباراة ، هى الالعاب الاولمبية • وهذه صورة من صور التضامن تتمثل فى الاعتراف بالقواعد المشتركة ، بقواعد قوانين اللعب ، لكـن سرعان ما تتجلى صور جديدة من التضامن تفجر النواة الرئيسية ، وتتمثل فى تضامن الاغنيـــاء داخل وخارج الحدود . وتضـامن العبيد كذلك • وهو ما نسميه اليوم بالتضامن الطبقى ، ضـــد تضامن الدول • وفى العصر الوسيط نجد نفس اللعبة بين العلاقات الرأسية ، والعلاقات الافقية، فالاقطاعية القوية تحافظ على الروابط الرأسية ,والاقطاعية الضعيفة تقرب البورجوازيين من كثير من طبقات السادة ، او السادة من كثير من الممالك • فالقرن الثامن عشر يجنح الى تفجير الحــــدود ، انه طيب الخاطر ، محب لجميع البلدان ولأهل هذه البلدان • والناس والافكار تتنقل بسهولة فـــى اوروبا على الاقل . وهذه التهوئة تفسر الاختمار الاستثنـائى للفـكر • ففى ذلـك العهد ، كتب «مونتيسكيو» يقول : «انا انسان اولا ، وفرنسى بالصدفة» فهو بذلك يؤكد لنفسه اولوية العالمى على الخصوصى، وفى نفس الوقت . يفكر فى علاقات هاتين العبارتين ، وسرعان ما انتقد اولئك الذين يخلطون خصوصيتهم بالعالمى ، او يعتقـدون ان هذه الخصوصية خصوصيتهم . ستؤول حتمـا الى

العالمي ٠ « فكيف يمكن لأحد ان يكون فارسيا ؟ذلك لانه يوجد فارسيون بالفعل ! ٠٠٠ اى الآخرون» ٠ ان هذا الاسلوب الساخر فى طرح السؤال لينقد السائل بتحويله الى مسخرة ٠

لكن النزعة المجموعية والمتفتحة على جميع البلدان تتفجر من جديد فى القرن التاسع عشر ، وتضرب الامم على نفسها الحواجز ، كما لم تفعل ذلك من قبل ٠ وهنا تتولد تضامنات اخرى تزعزع الحدود مرة ثانية ، او على الاقل ، تنادى بذلك ٠« أيها العمال اتحدوا ٠٠٠» ، «أيها الفلاحون اتحدوا ٠٠٠» ، لكن ما من احد يدعو البورجوازيين الى الاتحاد ، لان المعتقد هو ان الاتحاد او التكتل فيما بينهم قد تم بعد ٠٠

وفى راهن الاحداث ، تتبدى نزعة اخرى ، فهى لا تتهم حدود الدول وحدها وتسعى الى نقضها ، بل حدود المجتمع ايضا ٠ فباسم خصوصية مطلقة هبطت الى مستوى الأنا وحده ، وباسم أصالة مطلقة للأنا لمفرده، يرفض الاطار الاجتماعي، لانشاء تضامن لا اكراه فيه ، يكون آخر الامر ، على ما يعتقد ، كامل الانسانية ، او انسانيا تماما. فالاصالة حينئذ ، لم تفهم الا بالنسبة الى الذات٠

والخلاصة ، ان التاريخ لا وجود له الا بالتقاء الخصوصي والعالمي ، وكذلك الحياة ، ان الخصوصي وحده هو الذى يقود الى العزلة ، والى الانغلاق ، وفى النهاية ، الى الصمت ، فهو وقد اقحم نفسه فى دوامة التكرار ، فى الحوار مع ذاته ، ينطفى٠ انه عالم «سارتر» المنحدر الى لامعقولية التوحد ٠ وانتصار العالمي انتصار فقير كذلك ٠ فالتماثل، بالغاء الحوار والتبادل ، ينجب بدوره عالما ابكم ٠ وحينئذ يصمت التاريخ ، اى صخب الحياة البشرية (1) ٠ بيد ان الناس ، حسب العصور ، فضلوا الالتفات الى انفسهم اولا ، والاعتكاف اوالانغلاق ، على اختلاف نظرة الناس الى هذا الموقف بين محبذ ومنكر ، او هم آثروا ،على العكس من ذلك ، ان تتجه انظارهم الى الآخرين اولا ، وان يوثروا الانفتاح ٠

ويعلمنا التاريخ ايضا انه لا وجود للحياة ولا للنمو الا بفضل الحوار بين الذات والغير ، بين المتطابق مع ذاته ، والعالمي ، ان الانطواء على الذات انما هو منعكس من الخوف : ومن الامثلة على ذلك اسبانيا فى عام 1898 ، فرنسا فى عام 1870 ، والعالم العربى المستعمر ، ان فرنسا القرن

1) اننا لم نعالج مشكل وسائط الاعلام الجماهيرية فهو خليق بمحاضرة على حدة ٠

الثامن عشر ، وانكليترا القرن التاسع عشــر ،وامريكا القرن العشرين لا تبدو ـ وهى واثقــة من نفسها ـ انها تعلمت ما يكفى من غيرها ٠

لكن التاريخ يؤكد كذلك شيئا آخر ، فهــو باعتماده على قوته ، وسخريته من الحســـابـــات البشرية يصرح بجرة قلم واحدة ، ان النقــــللا وجود له ٠ وان الانسان غير قادر على النقــل ، مهما اراد ذلك ، وان الاصيل وحده هو الموجودبالنسبة اليه ، وانه لا وجود الا لاناس اصيليــن أى مشابهين لذواتهم ، فلا وجود لرجلين متماثلينحتى ولو كان احدهما ابا والآخر ابنا له ، واحرى ان يكون ثمة تطابق بين شعبين ٠ ان الانســانليمخر عباب البحر هكذا سيد امره ، وبــصورة لا نهائية ، ضرورية ، مهما كانت النصائح المسداة،او المخاوف المبداة ، بين الخصوصى ، والعالمى ٠



شعارات سادت الملتقى



من تهاون هَان

ومن يهن يسهل الهوان عليه!

بين الأصالة والمعاصرة

د. زكي نجيب محمود
استاذ المنطق الوضعي
جامعة القاهرة (ج م ع)

لست أتردد لحظة حين اقرر بأن أم المشكلات فى هذا المجال بكلمات نحرك بها شفاهنا دون أن عن صيغة لحياتنا الفكرية والعملية ، تجمع لنا فى طيها طرفين ، اذ تحافــــظ لنا على خصائصنا العربية الاصيلة ، وفى الوقت نفســـه تفتح لنا الابواب على مصاريعها ، لنستقبل - فى رحابة صـــدر - أسس الحضارة العصرية كما يحياها اليوم روادها ·

ولن نجنى من الحق شيئا ، اذا نحن اكتفينا فى حياتنا الثقافية الزاهية هي محاولة الكشــف تكون صادرة منا عن اقتناع وايمان ، اذ ما أيسر على المتكلم ان يدعـــى لنفســـه الصفتين معا :

صفة العروبة الاصيلة وصفة التحضر بحضارة العصـــــر ، فاذا ما تناولنا حياته الفعليـــة بالتحليل الموضوعى الدقيق ، ألفيناه واحد من ثلاثة : فاما هو قد خـلا من الاسس الاصيلة فى الثقافة العربية ، مكتفيا فى حياته بعناصر متنافرة جمعها لنفسه من هنا وهناك من ظواهر الثقافة الغربية ، أو هو قد ملأ نفسه بثقافة عربية صرف ، حتى انسدت دونه أبواب العصر فلا يـدرى من أمر هذا العصر شيئا ، أو هو قد أخرج وفاضه خاليا من الثقافتين جميعا ، فلا هو الى أولئك ولا الى هؤلاء ، تلك صور ثلاث أراها تستغد الكثرة الكاثرة من ابناء الامة العربية ، واما الصورة الرابعة التى هي صورة العربى وقد جمع فى كيانه وحدة عضوية متسقة متماسكة ، قوامها أصـول رئيسية من التراث العربى ، وأصول رئيسية أخرى من مقومات عصـــــرنا الحاضر ، فلن تجدها متمثلة الا فى نفر قليل ، تكاد تشير الى افراده فى ارجاء الوطن العربى ، لانهم بهذا الجمـــع الحقيقى بين الثقافين فى حياة واحدة ، قد برزوا عن غمار الناس بروزا لايخطئه البصر ٠

ـ 2 ـ

ان الموقف الحضارى للامة العربية اليـوم ، يتركز فى سؤالين ، لو احسنا الاجابة عنهما ، تبدت لنا حقيقة ذلك الموقف جلية لا يشوبها غموض السؤال الاول هو :

ما هي اهم العناصر التى نعنيها حين نتحدث عن « الشخصية العربية الاصيلة » ؟ وأمـــا السؤال الثانى فهو : ماهي اهم العناصر التى تتالف منها بنية الثقافة العصرية ؟ فبعد الاجابة عن هذين السؤالين ، تكون امامنا صورتان وقد يسهـل علينا بعد ذلك أن نلتمس السبيل الى خلـــق المركب الواحد ، الذى يضم ما يمكن ضمه من أجزاء الصورتين ، دون أن تضيع من أيهما صفـــة جوهرية فينتفى بذلك وجودها ٠

ولنبدأ بسؤالنا الاول : من نحن على الاصالة ؟ ما هي مقوماتنا التى اذا تحققت فى فـــرد أو فى مجموع ، قلنا عنه أنه عربى أصيل من الناحية الثقافية ؟ لست أطمع فى أن تجيء الاجـــابة شاملة لكل هذه المقومات ، بحيث لا يفلت مناشيء منها ، وحسبنا ان نقع على طائفة من المقومات الاساسية فنهتدى فيما نحن بسبيله ٠

وأول ما يرد الى خاطرى من الخصائص المميزة للوقفة العربية ، العقيدة الراسخة بمستويين من الوجود ، بحيث يستحيل علينا استحالة قاطعة ، أن نخلط بينهما فى التصـور : فهنالك الذات الالهية الخالقة ، ثم هنالك عالم الكائنات المخلوقة لتلك الذات ، وبين هذه الكائنات المخلوقة ، كائن اراد له خالقه ان يتميز ليحمل الى الدنيا امانة أؤتمن على حملها ونشرها ، وذلك هو الانسان ، فى هذا الاطار العام ، تتحدد وجهة النظر العـربية الاصيلة ، وعن هذا الاصل الاول تتفرع فروع :

منها ان الانسان كائن خلقى ، بمعنى انه مكلف بأن يحقق فى سلوكه قيما اخلاقية محددة معينة ، امليت عليه ولم تكن من اختياره ، فليس من حقه ان ينسخ بعضها ، أو أن يضيف اليها ما يناقضها ، ولما كان هذا التكليف الاخلاقى لا يكتمل معناه الا اذا كان الفرد الانسانى مسؤلا عما يفعل ، فان هذه المسؤلية الاخلاقية بالنسبة لكل فردعلى حدة ، تصبح امرا لا مفر منه ، فلا يجوز ان يحملها فرد عن فرد آخر ، قد تجد فى الثقافات الاخرى انماطا أخرى ، بل ان فى عصرنا هذا نمطين آخرين لا يلتئمان مع الوقفة العربية التى ذكرناها ، احدهما يقول ان القوانين الاخلاقية كغيرها من القوانين ، هي وليدة الحياة الواقعة ، فما قد ثبت على التاريخ انه نافع جعلناه قانونا خلقيا ننظم به سلوكنا ، وما قد تبين على التاريخ انه ضار ، حذفناه من قائمة الافعال المقبولة ، ولما كان النفع والضرر يتغير ان بتغير الظروف ، وجب علينا أن ننظر الى مبادىء الاخلاق على انها نسبية لا مطلقة ، بحيث نكون على استعداد لان نغير منها ما لابد من تغييره لئلايقف عقبة فى سبيل التقدم مع ما يقتضيه الزمن وحضارته ٠

ذلك أحد النمطين الآخرين ، واما النمط الآخر فيقول اصحابه ان المسألة هنا ليست مرهونة بتقدم أو تأخر فى طريق الحضارة ، ولكنها مسألة الانسان وحريته المطلقة فى أن يتخذ لنفسه ما شاء من قرار ، بشرط ان يكون مسؤلا عن قراره ذاك ، فليس هنالك أحد فوقه أو الى جانبه يملى عليه ما يجب وما يجوز ، بل هو البادىء بقراره بدءا غير مسبوق بمبدأ صاغة سواه ٠

وواضح أن الوقفة العربية الاصيلة مختلفة عن كلا النمطين من حيث المبدأ والاساس ، حتى وان اتفقت معهما فى النتيجة، فهي مختلفة عن النمط الاول الذى يجعل المعول فى السلوك الانسانى الصحيح على التجارب ، على حين أن الوقفة العربية تفترض أسبقية المبدأ الخلقى على التجارب ، فالصواب صواب والخطأ خطأ بغض النظر عن النجاح أو الفشل فى تجارب الحياة العملية ، وليست حدود الصواب والخطأ من صنع الانسان ، ولكنها حدود شاءها الله للانسان ٠

والوقفة العربية مختلفة عن النمط الثانى كذلك ، الذى يجعل القرار الانسانى غير مسبوق بمعيار ، وذلك لانّ وجهة النظر العربية ـ كما ذكرنا ـ تفترض أسبقية المعيار الذى يقاس به القرار فى صوابه أو خطئه ، وسؤالنا ـ فى حدود هذه النقطة الاولى هو : هل يمكن التوفيق بين أن يكون الانسان عربيا يحمل هذه الوجهة من النظر ، وان يكون فى الوقت نفسه معاصرا يتطور مع الزمن وتغيراته السريعة ؟ لست ادعى ها هنا بان مشكلة التوفيق ـ فى هذا الجانب ـ بين الاصالة والمعاصرة هنة هينة ، ولكنها على كل حال مشكلة تستحق منا النظر الطويل والعميق لاننا لو امسكنا بالقيم الثابتة الموضوعة لنا ، تعرضنا لخطر الجمود ، ولو سبحنا احرارا مع تيار التغير تعرضنا لزوال الشخصية وانحلالها ؟ وغاية ما استطيع قوله فى هذا الصدد ، هو أن قيمنا

الاخلاقية الموروثة ، فيها من السعة ما يمكننا من التصرف فى اطارها بدرجة من الحرية تكفى للحركة مع سرعة الايقاع فى عصرنا وليكن الامر فى هذا شبيهابالامر فى تكوين الفاظ اللغة من حروف الابجدية فالحروف محدد معلومة العدد ، ومع ذلك ففى مستطاعنا ان نبنى بها الفاظا تعد بملايين الملايين اذا أردنا ، فلماذا لا نقول ان مبادئنا الخلقية الموروثة هي أسس يمكن ان نبنى عليها ما لا حصر له من ضروب العمل ؟ ان هذه القيم الموروثة ماثلة فى اسماء الله الحسنى لان هذه الاسماء ـ كما يقول الامام الغزالى ـ هي صفات تكون مطلقة بالنسبة لله تعالى ، وهي نفسها تكون نسبية محدودة بالنسبة للانسان ، فاقرأ هذه الاسماء تعلم ماذا يطلب منك أن تكون : يطلب منك ـ مثلا ـ أن تكون عليما ، بصيرا ، سميعا ، قادرا ، صبورا ، الى آخر هذه الصفات العليا ، فما الذى يمنع من مسايرة العصر بهذه الصفات ؟ ما الذى يمنع أن اكون عليما وبصيرا وسميعا بحقائق عصرى وما تتطلبه الحياة فيه ؟ وان أكون قادرا وحكيما وصبورا وقويا وخبيرا ، وكلها صفات من تلك الصفات المطلوبة منى بحكم عقيدتى كل الذى يطلب منى فى هذا المجال ، هو ان افهم من كل صفة جوانبها التى تكون أقرب الى العصر ، فأكون عليما بعلم العصر ، قادرا بقدرة العصر ، وقويا بقوته ، وحكيما بحكمته ، وهلم جرا .

ـ 3 ـ

ومن مميزات الثقافة العربية كذلك ، تلك الرغبة الشديدة عند الانسان فى أن يتسامى على دنيا الحوادث المتغيرة ، ليأخذ بما هو ثابت ودائم ان كل ما فى الارض والسماء فان وزائل ، متغير ابدا متحول ابدا ، ففيم التمسك به هو عاجز عن التماسك بذاته ، اليس ثمة مرفأ بمأمن من أعاصير الفناء والصيرورة والتغير الدائب من حال الى حال ، لنحتمى بمثل هذا المرفأ فنسلم ؟ نعم ، هنالك مثل هذا المرفأ الآمن ، فنستطيع أن نلتمسه ، حتى ونحن لم نزل أحياء فى هذه الحياة الدنيا ، الا وهو الذات الباطنية التى بها تكون هويتنا ، هو « الانا » التى تظل قائمة صامدة مهما حدث التحول لما حولها ، ثم هنالك مثل هذا المرفأ الآمن بمعنى آخر ، وهو مرفأ الحياة الآخرة التى هي غاية منشودة خلال كل نشاط ننشط به فى هذه الحياة الدنيا .

هذا هو العربى فى نظرته ، ينشد الخلود عن طريق الظواهر الزائلة ، يريد أن يقهر الزمن وأن يقهر الموت ، أما الزمن المتقلب بأحداثه ، فهو يقهره بالخروج منه الى ما ليس زمنيا بطبيعته ، فيلجأ الى ذاته التى هي كائن لازمنى ، كما يأمل فى حياة آخرة لا تخضع هي الاخرى لعوامل الزمن ؟ ولو كانت الحقيقة كل الحقيقة هي هذه المتغيرات المتبدلات الفانيات الزائلات ، التى نراها فى الاشياء المحيطة بنا ، لكان الكون ـ من وجهة نظر العربى ـ عبثا فى عبث .

وليست هذه النظرة هي ما يأخذ به عصرنا الحاضر ؟ فتكاد المذاهب الفلسفية المعصارة كلها ، تجمع على تحليل كل شيء الى ظواهره المتغيرة ، دون أن تزعم وجودا لاي كائن ثابت وراء تلك الظواهر ، فهذه المنضدة أمامنا ليست الا مجموعة ظواهرها البادية لحواسنا من بصر ولمس ، وكذلك قل فى كل شيء بما فى ذلك الانسان نفسه ، فالكائن البشرى بدوره ليس الا مجموعة ظواهر يراها فيه الآخرون أو يحسها هو فى باطنه ، دون أن يكون وراء هذه الظواهر المتدفقة « ذات » ثابتة تدوم على الزمن ، بل قل هذا نفسه فى الوجود كله جملة واحدة ، فما هذا الكون الا خضم من ظواهر ، ما تنفك متصلة بعضها ببعض أو منفصلة ، دون أن يكون وراءها شيء ٠

مثل هذه النظرة الى العالم ، انما تجيء ملحقة بالنظرة العلمية الصارمة التى هي من خصائص عصرنا ، فسؤالنا هذه المرة هو هذا : كيف التزم النظرة العملية الصارمة لاساير عصرى ، وأن أظل مع ذلك تواقا الى غيب وراء الشهادة ، يتحقق لى فيه الخلود والدوام ، لاظل محتفظا بهذه السمة العربية فى نظرتى ؟ ومرة أخرى أقول : انني لا أدعي أن مشكلة التوفيق هنا هي من الهنات الهينات ، بل هي كزميلتها السابقة مشكلة تتطلب منا التفكير الطويل والعميق ، وانى لارج أن يكون الحل فى أن نعيش فى عالمين يتكاملان ولا يتعارضان ، بشرط الا نسمح لاحدهما أن يتدخل فى مجال الآخر ، فى أحدهما نعيش حياتنا العلميةبكل ما تقتضيه ، ولكننا بدل أن نقول : ان هذه الحياة العلمية حسبنا فى دنيانا ، يجب أن نقول : ان الى جانب هذه الحياة العلمية ، حياة أخرى فيها الامانى وفيها المثل العليا وفيها المرفأ والملاذ ، فاذا كنت فى الساعات العلمية من حياتى احصر النظر فى الظواهر وحدها ، لا ستخرج قوانينها برغم تغير تلك الظواهر ، فانني فى الساعات الوجدانية من حياتى اخلع عن نفس عباءة العلم ، واسلم نفسى للتمنى والرجاء ، وبغير هذا الفصل الحادبين العالمين ، يستحيل علينا التوفيق بين علمية العصر وصوفيه الاصل الموروث ٠

ولقد أحس الغرب نفسه بمثل هذه المشكلة ، فالتمس مخرجا منها ، بأن أقام حدا فاصلا بين العلم من جهة والفن من جهة أخرى ، فاذا كان محتوما على الانسان فى حياته العملية أن يتقيد بالواقع كما هو واقع ، وبالظواهر كما هي ظاهرة لحواسه ، فله فى الفن متسع يجول فيه ويصول ، لانه فى الفن يستطيع الا يتقيد بواقع ، وأن يخلق لنفسه طبيعة أخرى غير الطبيعة التى تصدمه بظواهرها ، ومن هنا نشأت مدارس الفن الحديث ، التى تتفق كلها على نقطة مشتركة ، هي أن الفنان لا يطلب منه أن يصور الواقع ، من حقه أن يبدع لنفسه ما شاء له خياله أن يبدع ، فهذا التحرر من قيود الواقع الموضوعى ، يعوضه عما فى حياته العلمية من قيود لا تحقق له ما يشبع الامانى والآمال ٠

فقل عن ثقافة أوروبا وأمريكا اليوم ، انها ثقافة يسودها معقول العلم ، تكن على صواب ، أو قل عنها ان الذى يسودها هو لا معقول الادب والفن ، تكن أيضا على صواب ، لان المعقول واللا معقول يتجاوران ليعوض احدهما نقص الآخــــر ، واذا كان هذا هكذا ، فما الذى نتخرج له اذا نحن اخترنا ان نجاور بين معقول العلم والايمــان بالغيب فى حياة واحدة ؟ اننا اذا فعلنا ذلك ، عاصرنا زماننا بالشق الاول ، ووصلنا وشيجة القربى بيننا وبين تراثنا بالشق الثانى ٠

- 4 -

على أن العربى الاصيل فى رغبته أن يتجاوز الواقع المتغير الى ما وراء الواقع فى أبديتــه وخلوده ، يظل مرتبطا بالمكان الارض ارتباطا عجيبا ، فهو مع المكان المحيط به فى حوار لا ينقطع ، هنالك حركة جدلية موصولة ، طرفاها الانسان العـــربى ومكانه الا أنها جدلية لا تنتهى بدمـــج الطرفين فى مركب واحد ، بل هي جدلية تحتفظ للذات الانسانية بالسيطرة على موضوعها ، الطبيعة كلها عند العربى مسرح للفعل والحركة ، هي عنده حلبـــة للقتال والنزال ، هي ميدان لفروسيته وبطولته ، كانت الصحراء حول العربى مصدر روع له وروعة فى آن معا ، فهو يرتـــاع لجهامتها ومجهولاتها ، ولكنه فى الوقت نفسه يكاد يخشــع لهيبتها خشـــــوع العابدين ، ومن ثم كانـــت الصحراء له مسرح قتال ومغامرة ، كما كانت لـــه مصدر حب وشعر وغناء ، انه يتفحص كـــل ما حوله من مكان ـ ارضا وسماء ـ بجميع حواسه ، يتفحصه بالبصر والسمع واللمس والشـم والذوق ، لا يترك منه شيئا ، من جرذان الارض الى انجـــم السمـــاء ، لكنه يتفحص هذا كله ليستخدمه ويسيطر عليه ، لم يكن العربى مستندا فى عمله بالطبيعة من حوله ، الى كتب تركها لــه اسبقون ، بل استند الى كتاب الطبيعة نفسه ، ينظر فى صفحاته ويقرأ ثم يعى ، ولم يكن علـــم العربى بالطبيعة للمتعة وازجاء الفراغ ، بل كـــان مسالة حياة وبقاء ، يقول أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » : ان العرب ليس لها أول تؤمه ، ولا كتاب يدلها ، أهل بلد قفـــرة ووحشة من الانس ، احتاج كل واحد منهم فى وحدته الى فكره ، ونظـــــره وعقله ، وعلموا ان معاشهم من نبات الارض ، فوسموا كل شيء بسمته ، ونسبوه الى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلــك فى رطبه ويابسه ، وأوقاته وازمنته ، وما يصلح منه فى الشاة والبعير ، ثم نظـــروا الى الزمان ، واختلافه ، فجعلوه ربيعيا وصيفيا ، وقيظيا وشتويا ، ثم علموا ان شـــربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الانواء ، وعرفوا تغير الزمان ، فجعلوا لــه منازله من السنة ، واحتاجوا الى الانتشـــار فى الارض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الارض واقطارها ، فسلكوا بها البلاد ، وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم فى الجميل ٠٠ حتى ان الرجل منهم وهو فى فج مـــن الارض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئا ، ويسرف فى ذم المساوىء فلا يقصر ٠٠٠٠

من ذلك نرى صورة للعربى ، جوابا فى ارجاء الارض ، جوالا ببصره فى السماء ، ممسكا خلال ذلك بقيم توجهه نحو الفاضل والجميل ، فأين تتفق هذه الصورة العربية ، وأين تختلف ، اذا ما اصطدمت بوقفة الحضارة العصرية من الطبيعة ومن القيم التى توجه الانسان فى سيره ؟ امـا الاتفاق فهو الاهتمام بالكون وما فيه اهتماما لا يقف عند حدود الكشف عن الحقائق لذاتها ، بـل هو اهتمام يستهدف النفع واجتناب الاذى ، واما الاختلاف العميق فهو فى أن العربى لم يرد من الطبيعة الا ان تكون مسرح فعل وارادة ، على حين ان انسان الحضارة الغربية بصفة عامة يضيف الى ذلك ما قد يكون اهم منه ، وهو أن تكون الطبيعة مجالا لفاعلية العقل تحليلا وتركيبا ، ولذلك لم يكن مصادفة ان وجدنا فى فلسفات الغرب الحديث نظريات للمعرفة (ابتمولوجيا) تحدد العلاقة النظرية بين الانسان العارف والموضوعات المعروفة ، على حين اننا لا نكاد نعثر فى التراث العربى الفلسفى كله على نظرية للمعرفة من هذا القبيـــل ، عنى المفكر العربى بالارادة وتحليلها لانها اداة العمل والحركة ، اكثر جدا مما عنى بالعقل وتحليله لانه رآه اداة لفاعلية ذهنية تتم لصاحبها وهو جالس على مقعده ٠

فماذا نحن صانعون ـ نحن العرب المعاصرون ـ للتوفيق فى هذا المجال بين اصيل موروث وجديد معاصر ؟ احسب ان الطريق امامنا واضح ، وهو طريق تربوى من الاساس ، فما علينا الا أن نربى ناشئتنا على أن يحتفظوا بميراثهم فى تدريب الارادة الماضية ، وفى التطلع والمغامرة ، ثم يضيفون الى ذلك تدريبا آخر على النظر العقلى والبحث النظرى ٠

ان عصرنا هذا ان تميز بسمة تبرزه عن سائر العصور التى سلفت ، فهذه السمة هي ايغاله فى دنيا العقل ـ ودنيا العقل هي نفسها دنيا العلوم على اختلافها ـ ايغالا لم يترك جانبا واحدا من جوانب الحياة ، ولا ركنا واحدا من اركان الارض ـ وكدت أقول : واجواز السماء ـ الا وقـــد تناوله بتاثيره ، على ان العقل العلمى فى زماننـــا لا يكفيه اليوم ما كان يكفيه بالامس ، وهو أن يقف عند الحدود النظرية الرياضية ، بل انه ليصر على أن يتجسد فى أجهزة ، وعلى ان ينتشـــر هذه الاجهزة على بقاع الارض ليبدل حياة النـــاس حالا بعد حال ، فلم يعد لنا مناص من السبح على هذا التيار العلمى التقنى ، فاذا كنا اصحـــاب فعل وحركة وارادة من جهة الاصالة ، فلا بـد من اضافة هذه الصفحة الجديدة الى كياننا ، ولذلك ـ كما قلـت ـ انما يتحقق عن طريق التربية ابتداء ، لنخلق النظرة التى لا تترك الفعل والحركة والارادة سائبة كما اتفق ، بل تلجمها الجاما لتسيرها على الطريق المؤدية الى تكوين علم وعلماء بهذا المعنى العصرى الجديد ٠

ــ 5 ــ

واخيرا ـ وكان ينبغى أن يكون أولا ، لكننى ارجأت ذكره لبدايته ، وهو أن اصالة العـــربى تبدأ من كونه يتكلم لغة عربية ، واذن فلا بديل أمامنا الا أن نرعى هذه اللغـــة على السنة ابنائها

واقلام كتابها ، فهي بطاقة الهوية التى تجعل مـن العربى عـربيا ، هذه بديهية لا اظنها مثيرة لجدال ، لكننى أنتقل الى ما يترتب عليها لانه لايبدو للناس بهذه البداهة كلها ، وهو اننا اذا اردنا الحياة فى عصرنا ، فلا بد من صب هذا العصر بكل ما فيه من علم وأدب فى وعاء اللغة العربية ، اعنى انه لابد من ترجمة العلوم العصرية كلها ، وكذلك ادب العصر وفلسفته ، وبقدر ما نستطيع ان نكسب مادة العصر فى اناننا اللغوى يكون نصيبنا من المعاصرة ٠

ان العصر لا يقتصر على شعب واحد ، ولا على قطر واحد ، فالعصر هو امريكا وانجلترا وفرنسا والمانيا وروسيا واليابان وغيرها مما يسير معها فى شوطها ؟ لكن هذا العصر الواحد يلبس فى كل قطر من هذه الاقطار ثوبا ينسجه له ذلك القطر ليجعله واحدا من اهله ، دون أن يكون تبـدل الاثواب سببا فى تغيير شيء من ملامح العصر ، وما هذه الاثواب المختلفة باختلاف البلدان الممسكة بزمام الحضارة فى عصرنا ، الا اللغات المختلفـة ، فقد صب الفرنسى ـ مثلا ـ نتاج العصر فى لغته الفرنسية فبات الفرنسى بذلك معاصرا لزمانه ، وكذلك فعـل الالمانى والروسى واليابانى وغيـرهم ٠

ومع ذلك فلقد صادفت فى امتنا افرادا تعارض ترجمة العلوم ، على ظن منهم بأن هذه العلوم لا يليق لها الا الثوب الانجليزى أو الفرنسى او غيرهما من لغات الامم المتقدمة ، ولا يسعنى فى هذا الصدد سوى أن اكرر القول بانه على قدرمـا ننقل الى الثوب العربى من نتاج العصر ، يكون نصيبنا من العصر ـ فالاصالة فى هذا المجال هـي اللغة العربية التى هي لغتنا لا لغة احد سوانا ، والتى هي كذلك ميراث تسلمناه من اسلافنا ، وأما المعاصرة فهي أن نصب عصرنا فى وعائها ٠

ان التاريخ العربى هو كالنهر دفاق المياه ، وتظل للنهر هويته منذ الوف السنين ، برغم جريان مائه وتبدله ، يوما بعد يوم ، بل لحظة فى اثـر لحظة ، والذى يحفظ للنهر هويته هو التزامـه مجرى واحدا ، وهكذا نريد لحياتنا أن تكون : نحفظ لها الاطار الاساسى العام ، ووجهة النظـر الرئيسية ، ثم نجدد المضمون الذى يملأ ذلك الاطار ، أو الذى يشغل تلك الوجهة من النظر ، كلما جاءت العصور المتوالية بحضارات متعاقبة ، لكـل حضارة منها مضمونها الجديد ٠

ـ 6 ـ

هذه ـ اذن ـ نقاط أربع ، او ان شئت فقـل انها مجالات اربعة ذكرناها ، فى كل مجال منها موقف لنا اصيل ضارب بجذوره فى اعماق تراثنا ، يقابله موقف مضاد للحضارة التى نعاصرها ولقد حاولنا ان نبين فى كل حالة من الحالات الاربع كيف يمكن أن تحدث المصالحة بين الضدين : فاولا ـ كانت لنا وقفة معينة بازاء الله والكون والانسان ، استتبعت وجهة نظر معينة فى المبادىء الخلقية ، ليست هي وجهة نظر الحضارة القائمة فبينا كيف يمكن أن تسد الفجوة بين الوجهتين ،

وثانيا كانت لنا وقفة بازاء الواقع المادى ، استتبعت منا ان نجاوزه الى غيب وراء ، وليس ذلك مما تاخذ به الحضارة الحاضرة ، فاقترحنا طريقة نخلص بها من هذا التناقض ، وثالثا – كانت لنا سبل معينة فى التعامل مع الطبيعة المكانية من حولنا ، ليست هي السبل المأخوذة بها فى حضارة اليوم ، فالتمسنا لانفسنا وسيلة للتقريب بين الطريقتين ، ورابعا وأخيرا – لنا لغة لا بد من الحفاظ عليها ، وهي التى تحمل ميراثنا فى اوعيتها ، وقلنا انه لا مناص لنا من صب نتاج عصرنا فى تلك الاوعية ليمتزج الجديد بالقديم فى اناء واحد – وهكذا رسمنا ما يشبه الخريطة لما يمكن علمه ، توفيقا بين الاصالة والمعاصرة ٠

فتعالوا معى الآن فى جولة خاطفة ، ننظر خلالها الى ما قد حدث بالفعل فى حياتنا الثقافية ، لنرى الى اي حد اصابنا التوفيق فى هذا الدمج الحضارى المطلوب : فاما بالنسبة للمجال الاول ، الخاص بوجهة نظرنا الى الله والكون والانسان ، فلا اظننا قد ظفرنا بتوفيق كبير فى ان نوسع من معنى قيمنا الاخلاقية بحيث تتطابق مع ما هو مستحدث فى عصرنا ، فقد نرى اصحاب القول والكتابة بين قادة الفكر منا منقسمين قسمين : احدهما يضرب على الوتر القديم وحده ، والثانى يضرب على الوتر الجديد وحده ، وفشلنا حتى الآن فى ان تجىء النغمة المعزوفة شاملة للجديد والقديم معا ، فاذا قلت – مثلا – كلمة « علم » انصرفت اذهان بعضنا الى الفزياء والكيمياء وما اليهما ، وانصرفت اذهان الآخرين الى حفظ المدونات القديمة ، وبقينا فى معسكرين لا يكاد يلتقى احدهما بالآخر ، اللهم الا فى أوجه النشاط التى لا تتصل بالحياة الفكرية من قريب ، وهكذا قل فى كثير جدا من المعانى الرئيسية التى هي محاور الفكر والثقافة ٠

واما بالنسبة الى المجال الثانى ، الخاص بمجاوزة الواقع الى ما وراءه ، فللاسف الشديد : أرانا نحتفظ بهذه السمة ، ولكننا ننحرف بها عما خلقت من اجله ، فقد كان الاصل فيها هو ان ننجو بانفسنا من دنيا الاحداث المتقلبة المتغيرة الزائلة ، لنلوذ بما هو ثابت وخالد ، لكننا جعلنا مجاوزة الواقع الى ما وراءه فى عصرنا هذا ، فرارا من نظرة العلم الى سمادير الخرافة ، فضاع منا الواقع وما وراءه دفعة واحدة ٠

واما بالنسبة الى المجال الثالث ، الذى هو علاقة العربى بالمكان ، وهي علاقة – كما اسلفنا – قوامها الفعل والحركة والبطولة والسيطرة على البيئة بكل تفصيلاتها ، فلقد انطوينا على انفسنا اثر ما ابتلينا به من قهر وهزيمة خلال القرون الثلاثة الاخيرة ،وبهذا الانطواء الذليل ، لا نحن عالجنا الطبيعة كما كان اسلافنا يعالجونها ، ولا نحن تناولناها كما يتناولها ابناء الحضارة الغربية الحديثة ، وتركنا ما تحت اقدامنا من رقعة الارض ، وما فوق رؤوسنا من جو السماء ، للاوروبى وحده أو الامريكى وحده يفعل فيهما ما شاء أن يفعل ، لولا اننا – والحمد لله – قد

اخذتنا آخر الامر يقظة واعية ، نحاول بها النهوض من كبوتنا التى كانت ، والامل معقود بجيل جديد يتناول ارجاء الوطن العربى بنظرة فيها تقليد التراث وفيها تجديد الحضارة معا ٠

واما المجال الرابع والاخير ، من المجالات الاربعة التى جعلناها مدار الحديث ، وهو مجال اللغة ، فلا شك اننا قد مضينا فى شوطاحياتها بمضمون الحضارة العصرية مسافة بعيدة ، ولكننا مع ذلك مازلنا بعيدين بعدا شديدا عن الهدف النهائى ، الذى هو ـ كما أراه ـ أن نكسب كل مقومات العلم والادب والفلسفة الشائعة فى دنيا العصر ، أن نكسبها كلها فى لغة عربية ، ولن يحق لنـا الحديث عن وجودنا فى عصرنا قبل ان نجد هذا العصر قد نطق بلسان عربى مبين ٠



رسالة من د . جرمانوس الى الملتـقى

رغم علمنا بكبر ســـن الاستاذ المستشرق المجرى الكبير الحاج الدكتور عبد الكريم يوليوس جرمانوس استاذ التاريخ الحديث بجامعـــة بودابيست ، فقد دعوناه هذه المرة كما كنا ندعوه منذ الملتقى الرابع ، وكان يعتذر كل مرة ، ويرسل مقالات ننشرها فى الاصالة ·

وهذه المرة ايضا قد اعتذر برسالة ننشرها فيما يلي ، ارفقها بدراسة قيمة بعنوان : « **حماية فلسفة التشريع الاسلامى** »



الى سعادة الوزير للتعليم الاصـــلى والشؤون الدينية
الاستاذ الكريم مولود قاســـم نايت بلقاسم
حفظـــه اللـــه

سيـدى المحتـرم :

بعد تحياتى القلبية واجلالى اخبر سعادتكـم اننى تسلمت بمزيد الشـــكر دعوتكم الموقرة ، للاشتراك بالملتقى الثامن فى الفكر الاسلامى ·

اننى اعتز بالتشريف الذى اكرمتمونى بهذه الدعوة المجيدة ، كما افتخر وأتشكر باستلام مجلة الاصالة الغراء التى اقرأها باستفادة كبيرة ، فاننى لقبلت دعوتكم بسرور وغبطة ، لكن تقدم سنـى الى تسعـة وثمانى عاما ، ومرضى الشديد فى الاشهر الماضية · يمنـع وصولى الى الجـــزائر شخصيا ، وسوف احضر هنا لك روحيا مـــع اعلان افكارى عن **حماية فلسفة التشريع الاسلامى** فاننى كتبـــت هذه الدراسة الصغيرة باعتقادى العميق ، أن الدين الاسلامى ومزاياه الثقافيـــة هى الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم اثنـاء هذه الاوقات الثقيلة من الورطة الفظيعة · اعنى فساد الاخلاق ، الفجور والدعارة فى الحيـــاة الجنسية ، السرقة والدناءة المخيفة · المجمــــع العلمى المجرى ينشر أثناء هذه السنة ، دراستى الطويلة عن الشريعة الاسلامية وفلسفتها المفيدة باللغة الالمانية : داس اسلامشه ريليقيو نسرشت انذارا بالخطر الذى تهدد ثبات المجتمع الانسانى

انى آمل جدا أن افكارى سوف تؤدى حصتها الى تقوية تيقظ المسلمين فى دينهم ويحفظهم من تأثيرات مضرة ·

الحق الى خطابى ترجمتى عن بعض أشعارشعراء فلسطين الدامية ، لايقاظ الناس لضميرهم وواجبهم نحو المظلومين فى الشرق والغرب ·

أرجو سيادتكم أن تتفضلوا بقبول احترامىالفائق واجلالى ، وبقيت مخلصكم دائما ·

الحاج الدكتور عبد الكريم جرمانوس

بودابست المجر 13 مارس 1974

بـــــــرقيــة

الى الحـــاج الدكتور عبد الكريم يوليوس جرمانوس

بودابيســت ـ المجـــر ـ

نشكركم على رسالتكم الاخوية الصادقة التى وصلتنا صباح اليوم ، والتى تلوناها فى احدى الجلسات فتاثر بها الملتقون وتجاوبوا معها تجاوبا عميقا ، كما نشكركم على مقالتكم الممتازة التى تلونا الجزء الاخير منهــا فى نفس الجلسة ، وهلل لها الجميع وننشرهما فى جميع الصحف والمجلات الوطنيـــــة ·

ويتمنى لكم الملتقى تحسن صحتكم وامداد عمركم الخصيب فى سبيل خدمة الاسلام الذى هو دين العلم والرقى والتقدم للبشرية جمعاء ·

والســـــــلام

الملتقى الثامــن للفكــر الاســلامى
بجـــــاية

حماية فلسفة التشريع الإسلامية

د. الحاج عبد الكريم يوليوس جرمانوس
استاذ التاريخ الحديث
جامعة بودابيست ـ المجر

الكثير الاهتمام والانتباه ، والمراقب للاحداث الاجماعية التى تحدث فى ايامنا هذه ، قد يلاحظ أداة الانذار بالخطر ، خطر التفسخ والانحلال الذى يجتاح أوروبا وامريكا . الكذب ، والبهتان ، والسرقة ، والسطو على المنازل الآمنة ليلا ، والقتل العمد والاستمتاع بلذة . المواد المخدرة التى تجتمع وتتحد بالفساد والفسوق الجنسى . وكلها اشياء قوضت مجتمع الشعوب والامم . ان فلسفة التشريع التى ظهرت لتقرر المستقبل فى العالم الاسلامى كالقضاء والقدر ، والتى جاءت لتصون وتحفظ سلامة العقل واستقرار المجتمع الانسانى قد سقطت فى الم وحزن لانها عجزت عن ان تنجز واجباتها . ففى دول كثيرة قادت فكرة تخفيف الا لم بالنسبة لقسوة وعنف الهواية الانسانية ، قادت القانونيين الى نسيان تعاليم القانون الرومانى التى تقول « العقاب ينفذ ليس من اجل الجريمة ، لكنه من اجل الا تقترب جرائم اخرى » .

ان فكرة الانذار والتحذير ، وفكرة الوقايةانما تكمن فى كل شـــريعة وقورة معتدلة · ان تخفيف الاثم والاذى قد احبط رغبة العقول والمفكرين عند القانونيين الغربيين فى ايامنا هذه ·

ان الجريمة والاجرام فى العالم الغربى قد فاقت كل حد ممكن للسلطة · وقد نتعـــرف على السبب بسهولة اذا ربطنا بين علاقة ارتفاع نسبـــة الجريمة والتفسخ والانحلال بصفة عامة بظهور اللادينية المادية او الزندقة الماتريالية ·

قدرة تأملية فكرية قد ابدعت اعاجيب فىحقل الابتكارات التقنية والفنية ، لكنها مـــع ذلك لا تستطيع ان تخالف حدود العقل او الفكر ، كما اثبت ذلك وبرهنه فى حينـــه هربرت سبنسر فى فصل كتابه (فوق معرفة البشر) ·

انه لمن دواعى الاسف ان النتائج المذهلة فى العـــلم الخالص واستعمالاتها وتطبيقاتها فى الحياة العملية قد جردت بطريقة او بأخرى الرجولة من الادراك · وليس هذا فحسب ، بـــل انها عرتها من الاعتراف والتسليم بالحقائق الدينية والروحية للكون والجنس البشرى ، ومن الجوهر الذى يهدى قوة الاخلاق · والاخلاق ــ مرة أخرى ــ لا تستطيع بأية حال من الاحوال ان تنفصل عن الايمان المطوى بأحكام الدين ·

ان الكلمة اللاتينية نفسها تعنى « عبد رقيـــق » ، حيث الانسان ملتصق بأحكام للاعتـــراف بقوة عليا تنظم كل ظاهرة فى الكون · ان المفكرين المسلمين قد بلغوا مرتبة اسمى باعلانهم الشمول الفلسفى وبتعليمهم القدرة الكلية للالوهية ، التى جربت آثارها فى كل عالم من عوالم الكـــون الخلقى · لقد ثبت بالتفكير المنطقى وبالخبرة العملية التقنية ان المجتمع تقوم اساساته على الاخلاق كما علم بذلك الالهام السماوى ·

ان فلسفة التشريع الغربى قد اقامت عقيدتها ومعتقداتها على فكر انسانى متأثر باعتبارات سياسية فقط ، بينما الشريعة الاسلامية قد انبثقت من الايمان والاقتناع بأن الكون ما هو الا خلق منسق منتظم للروحيات الاخلاقية · أساس العقيدة هو الوحى ، وتنفيذها مبنى على أساس قانون استدلالات واستنتاجات منطقية التفكير ، وعلى شرح وتفسير مجتمع دنيوى زائل واحوال مادية ·

وانا كطالب فى **جامع الازهر** الشريف منذ اربعين عاما ، كنت تواقا بتشرب تعلم الشريعة · لقد اندمجت فى الروح المنطقية للتفكير ، وفى التصور الانسانى فى واجبات المرء ، تجاه خالقه ، وفى القدرة الكلية لهذا الكون ، وفى واجبات الانسان نحو اخيه الانسان · كل المظاهر والسيمات قعدت على أساس من الاخلاق · احساس العرفان بالجميل ، واحساس الحب ، واحساس العهـــد والالتزام كاساس اجتماعى · ان التصـــور المادى لحياة الجلبة والصخب من اجـــل **العـــدل**

والانصاف ــ ســـواء استحقت الحياة ذلك ام لم تستحقه ــ فان الرؤية الدينية تقود الى تحقيـــق **الواجبات** • ذلك هو الفــرق الرئيسى الاساسى بين الزهو والخيلاء وبين عقيدة تبجيل وتوقير •

الاسلام ــ كما هو مسجل فى القرآن ــ هــو وحي سماوى ضد فكرة عدم استئناف الوجود • **والحديث** الذى يسلم نظما وقوانين الى الجنــس البشرى للحياة العملية هو دليل كاف واع خلال هذه الحياة ، حتى يكون التصرف على اساس مــن الروحيات الاخلاقية للكون والدنيا •

ان **الشريعة الاسلامية** ترتكز على الاخلاق • ولقد تطورت فى مطـــابقة وانسجام باسبـاب انسانية وخبرات عملية • انها تنظم سلوك الفرد من اسمى وجهة نظر لصون المجتمع ، وحمايتـــه بسلامة العقل والطمانينة والاستقرار ، بدون انتهاك الحرمات عبر الحصول على حقوق شخصيـة ذاتية • انها تنشىء انسجاما تاما بين الحقوق والواجبات عند الفـرد وعلاقته بحكامه ، كلاهما موضوع لدستور اخلاقى • ان شريعة الغرب الحديثة تميل الى تخفيف آلام الاثام والجرائم الى مدى الغاء او ابطال العقاب • بعض مشرعى القانون يذكرون الانجاز الصارم لجــزاء جريمة السرقة ، وعلى سبيل المثال القضاء على اليد الآثمة • اننى فى خبـرتى وتجوالى اثناء حياتى المبكرة فى عدد من الدول الاسلامية لم اقابل احدا ممن قطعت ايديهم ، كما اننى لم اسمع عن حادثة ســرقة ارتكبت فى المتاجر او الاسواق الشرقية • وانــا شاهد عيان فى تركيا ، ومصـــــر وسوريا ، والعراق ، والمغرب ، على ان اصحاب المتاجر والحوانيت تركوا اكشاكهم مفتوحة اثناء اوقـــات تادية فريضة الصلاة ، فقط كانوا يتركون لافتة تقول ان صاحب المتجر غير موجود • ان العقــاب العادل المنصف الذى كان يعلن بواسطة القاضـــى كان كافيا ليحول دون مجرم جديد لجريمة من مثل هذه الاعمال •

ومن وجهة النظر الاخلاقية فان الاحكام فى الشريعة قد قعدت بالنسبة للاذن بتعدد الزوجات لكن هذه الاحكام كانت تكتسب حقها وشريعتها بدقة بالاشتراطات الشرعية التى نظمت الاخلاقيات السائدة ، وبالنسبة للحياة الاسرية فى معقولية اجتماعية • ان امكانية الزواج **بأربع مع التساوى فى الحقوق** ليست رايا فصـــل ، لكنها اعتراف وتسليم بالحقيقة والواقع الناشىء عن الطبيعـــة الانسانية • ان الشريعة بهذا انما تحافظ وتراقب طهارة ونقاء حياة الاسرة ، بينما نجد الاختلاط والاتصال الجنسى غير الشرعى واللامحدود للشهوة الجنسية الآن ينتشر فى وضح النهار فى الدول الغربية ، ويقود الى هلاك المجتمعات •

ان تحريم المخدرات ، من امثال الخمور **وانواع اخرى من وسائــل التخدير والتخبيل ذات** القدرات المؤثرة على العقل والذهن ، يدعو الى الاحترام والتهبيل ، اذ هو تحذير للاخلاقيات التى

تفسد مجتمع الغرب الذى يعتبر نفسه قادرا على حماية نفسـه بنفسـه ضد قطاع الطريق العام واللصوص والقرصنة السياسية الزائفة ·

ان الشريعة ـ اذا ادركت بحق وعدل ، واذا انتفع بها وبتعاليمها ـ فانها تظل المحرك والدليل الذى يقود الى تنظيم سلوك الانسان روحيا وماديا · فاذا ما أخطأنا المـرمى بتجارب خطـرة واسلمناها وعزوناها الى البيئة المسلمة ، فان المسئولية لا تقع على عاتق الشريعة ، بل انها تكون اخطاء هؤلاء المسلمين الذين ارتكبوها ، والذين تخلوا عن الطريق القويم عبر احلامهم بالافتتان والهيام وراء كل شىء عصرى او غربى ، فسقطوا ضحايا لكل الرذائل والنقائص المهلكـة التى تمثل الحياة العصرية ·

اننى اكتب هذه السطور من قلب المدنية الغربية ، محاطا بآلاف الكتب والمجلدات الغـربية والشرقية ، ومزودا بحياة طولها تسعة وثمانـون عاما بين الخبرة الغـربية والشرقية · اننى اتشرب المعلومات والمعرفة المفيدة ، كما اتشرب الاحـداث المؤذية فى الكيان الانسانى فى كرتنا الارضيـة ·

اننى بحكم كونى المجرى المسلم الوحيد والحاج ، احـث بجسارة وشجاعة كل اخوانى المسلمين للحفاظ على الاخلاق ، التى هى عقائدنا الروحية فى ديننا الاسلامى ·



أمجادنا تتكلم

ملحمة تاريخية عن بجاية

ملحمة تاريخية عن بجاية للشاعر مفدى زكريا ، بمناسبة الملتقى الثامن للفكر الاسلامى المنعقد ببجاية من 1 – 12 ربيع الأول 1394 هـ – 25 مارس الى 5 ابريل 1974 .

يا أيها ذا الشاطئ الأخضر ! اسطورة – حوضك ، أم كوثر ؟
أم قصة الأمجاد ... تشدو بها في ثغرك ، الأيام والأعصر ؟
أم موكب التاريخ في محفل روائع الذكرى به تزخر ؟
أم في شفاه الموج ، بلارة (1) ينكسر الموج ، ولا تكسر ؟
أم لجة من سحر هذا الحمى يغرف من الهامها عبقر ؟
أم لوحة أبدع الوانها من حسنه – صانعها الأكبر ؟
أم مهبط الشعر و احلامه ؟ أم معبد النساك ، والمشعر ؟
يا بهجة الدنيا ، و يا جنة يحنو عليها ، (برجها الأحمر (2))

1) بلارة – من المتربعات على الحكم في قلعة بني حماد ، وسيأتي الكلام عنها في تعاليق لاحقة .

2) البرج الاحمر – أحد الابراج الثلاثة التي وضعت لحراسة مدينة بجاية ومنها انطلق بربروس بطرد الاسبان .

و الزورق الولهان ، في نحرها — يتوب للحب ، و يستغفر
و المستحمات ... ولولا النهى — لكنت ـ رغم السن ـ أستهتر
ضواحك ، يسبقن رجع الصدى — فيسكر القيثار و المزهر
عوابث يرتعن في مهجتي — اشكو ، فلا تصغى ، ولا تبصر
يروعها الشلال لا ياتلي — يلعب بالنار ، ولا يشعر
الهينه حبا ، وما ان دوى — أن العذارى عالم مخطر
رفقا (أميمون) (3) لك المشتكى — فانت من يرثى و من يجبر
كتمت مثل السر ـ طول المدى — وفى حشاك ، التبر والجوهر
وفى حنایاك العجاب الذى — يلهج بالمجد ، و لا يفتر
قد بحت بالحب ، فبح بالذى — لازلت في جوف الثرى تستر
وانشر (بباب اللوز) (4) أسراره — تردد الأيام ما ينشر
وقل (لباب البحر) (5) يحك الذي — لا يعرف الحاكون و السمر !
أسطورة حوضك أم كوثر ؟ — يا أيها ذا الشاطئ الأخضر !
(توجة) (6) يا أنشودتي الحالمه — و القرية المسحورة الهائمه
ما نامت الأيام عن روعة الذكرى ، وما ان كنت بالنائمه
ترضعن (يا توجة) طول المدى — شم الذرى نشوانة باسمه
براءة الأطفال في ثغرها — و النظرة الحانية الراحمه
وفالق الأصباح ، أضفى على — أعطافها بسمته الدائمه

---

3 و 4) يعتقد البجائيون ان معظم الاحياء القديمة ولا سيما باب اللوز . وهضبة أميمون عبارة عن متاحف أثرية لا تنتظر الا من يقوم بالكشف عن كنوزها الدفينة .

5) ملامح باب البحر تذكرنا بما عرفته عاصمة بنى حماد من عز وسيادة .

4) توجة تقع على مسافة 25 كيلو متر من بجاية تحتوى على مناظر خلابة مغرية للسواح .

هل كـان (نوريوس) (7) بها هائمـا — ففضحتـــه الأدمــع الســاجمـه ؟
(نوريوس دانوس) غـريب الحـمى — نجــل فيـه النظـــرة العـــالمـه
و خـادم الانســـان مهمــا يـــكن — فـان احســاســاتنـا ســالمـــه
سل (وادى الساحـل) (8) عن قمـة — لمـا تـــزل أمجـــادهـا قـائمــــه
و اسأل (ادكـار) (9) و غـابـاتـه — و الصيـد فى أحــراشــه الجــاهمه
والجـؤذر الملتـــاع ، يطـوى المـدى — يهـزأ من أطيـــاره الهـاغمـــه
يســابـق الشمـس التى لـم تـــزل — سـكرى عـلى أجفـانـه الســاهمه
و الشمـس فى هـذه الحـمى قبلـــة — مـن قبــلات الصـــانـع الحـائمـه
و النسمـــة المعطـــار ، أنفـــاسـه — و الحســـن ، اشـــراقـاتـه العـارمـه
والقمــر المشبـــوب فى أفـقـــها — لمسـتـه العلـــوية النـــاعمـــه
يفـشى (أعقـــود) (10) تباشـــيرها — للـكون ، من آفـاقـــه الغـــائمـه
و الـرمـل فى شطئـــانها كالـــرؤى — أطيـــافـها ذاهبـــة قـــادمـــه
لو عـاش فى داراتــها (صــالح) (11) — مـــا عقـــرت نــاقتـــه الـواجمـــه

---

7) يقال ان المهندس الرومانى «نوريوس دانوس» كان مغرما بها ففجر فيها المياه فى قنوات ومن يشاهد تساقط المياه على هضباتها الساحرة وخصوصا بغابة (اينوجيون) يخال انه يرتع فى جنتـه فوق الارض ·

8) وادى الساحل مهبط الشعر والاحلام فى سفوح جبل اعقود ·

9) أدكار ـ غابة قاهرة فارعة يقصدها هـواةالصيد ·

10) فى أعقواد على مقربة من جبل القرود تتيهالشواطىء الناعمة التى تمتد بين رأس كاربـون وتاملاحت ، وقد كانت السفن فى الماضى تلجأ الىهذه المنطقة للتزود بالماء العذب من منبع لا يـزال فياضا حتى اليوم يلجأ اليها المستحمون فى البحرفى أيام القيظ للاغتراف منه . والاسبان غـــزوا بجاية منها ·

11) صالح الرئيس حاكم الجزائر آنذاك ·

لذ (سيدي‌يحيى) (12) (بتيشي)(13) تجد   عرائس البحر بها عائمه

ان يفش (زغواط) (14) أحاديثها   رمال (سيجلى) (15) لم تزل كاتمه

توجة ، يا أنشودتى الحالمه   و القرية المسحورة الهائمه

(بجاية) المجد ، ونبع الجمال   و منتدى الفكر ، و مهد الجلال

(يا ابن علناس) (16) صنعت البقة   و غصت فى الآباد ، فوق الخيال

قالوا : بناها الروم ••• هبهم بنوا   والروم لا تبنى سوى للزوال

أنت الذى شيدت مالم يزل   يطاول الدنيا . ويغزو المحال

لولا (بوليمات) (17) وما أرجفوا••   عن (التواتى) (18) شدت صرح الكمال

قم (يا ابن حمديس) (19) وساجل بها   شعرى ، فانى مغرم بالسجال

أنت الذى صورت ألواحها   بريشة من كبرياء الجمال

---

12) مرسى سيدى يحيى من أجمل المراسى وقداغلقت الآن وأبدلت (بحرم السائح) •

13) تيشى : ذات الحمامات المعدنية وهى المركزالسياحى الذى يتقاطر عليه الناس من كل الجهات ويمتاز فوق ذا بالبحر والشمس والهوى والشباب

14) زغواط أجمل شاطىء فى ضواحى بجاية •

15) سيجلى منطقة ساحرة يقصدها صيادو السمك ، يقصدها كل عام عدد كبير من المصطافين لمناجاة الطبيعة •

16) ابن علناس (الناصر بن علناس الحمادى) الملك الذى اسس مدينة بجاية سنة 460 هجرية ، وكانت تسمى آنذاك بالناصرية • وكان قد فكر حماد فى تعزيز حصن آشير بحصن آخر فكان قلعة بنى حماد ، وذلك عند ما غلبه زيرى بن عطيةالمغراوى سنة 350 . وزيرى هذا من بقايا ملوك مغراوة الذى غلبهم بلغين •

17) بوليمات : الجزيرة الصغيرة الساحرة التىتقع على مسافة ثلاثمائة مترا من البحر •

18) التواتى : فقيه مشهور بالعرافة وتقول الاسطورة ان الناصر بن علناس قد التجأ اليها فى أواخر أيامه وما فيها كما تنبأ بذلك سيدى التواتى •

19) الشاعر الفحل عبد الجبار بن حمديس الصقلى شاعر بلاط الملك المنصور بن الناصر بن علناس

و صغت من الهامها قصة ... تسمو بذكرى عظماء الرجال

و اهتزت الدنيا لالياذتي (20) ... فلم أدع للاحقين المجال

و يا ابن (خلدون) (21) الست الذي ... جمعت فيها بالجنوب الشمال

(بسكرة) (22) مدت (لسرتا) يدا ... فباركت (بجاية) الاتصال

و كنت في اقدارها (حاجبا) ... مجنح الفكر ، عزيز المثال

لولا (ابن عباس) و أحقاده ... ما كنت في فاس ، رهين اعتقال

ما أهون السجن طموح الذي ... ما انفك يهوى بالجذوع الطوال

لكن سئمت العيش مع معشر ... ثعالب ، و اخترت عيش الحلال

فملت للدرس ، و عفت الورى ... فرعت دنياك ، وما ان تزال

جدد لنا ذكرى (أبي مدين) (23) ... من حجه عاد ، و حط الرحال

فاختطفت بجاية لبه ... و لم تنل من اصغريه النبال

فازداد (يعقوب) به خبرة ... في روعة العلم ، و نبل الخصال

أكرمه (يعقوب) و هو الذي ... يزرى نداه بالسحاب الثقال

(يا قرية العباد) (24) بثي له ... شكواي في ضراعة و ابتهال

---

20) الياذة الجزائر التي تقع في ألف بيت وبيت .

21) ابن خلدون المؤرخ الجزائري المشهور كان اولاه ابو عبد الله محمد الحفصي حجابته وهو أرقى منصب اذ ذاك واشترك في مؤامرة ضده معابي العباس ومن نتائج ذلك سجن بفاس بجانب الامير محمد ومن اراد الزيادة فليراجع كتب التاريخ .

22) ركز ابن خلدون في ايام ازدهاره ببجايةصلة وثيقة بما يسمى (مثلث الحواضر) بسكرة وقسنطينة وبجاية ولعب في تدعيم هذه الوحدةدورا هاما . وحياة ابن خلدون سواء في بجاية أو في غيرها مليئة بالمغامرات وفي آخر المطاف سئمت نفسه اخطار المغامرة ومال الى الدرس معرضا عن الوظيف والسياسة .

23) نزل ابو مدين شعيب بن الحسين بجايةفي طريق عودته من الحج وتعرض لوشاية عند يعقوب بن المنصور خليفة الموحدين ولكن يعقوباختبره فأعجب به وصم أذنه عن الوشايات فيه فأكرمه وقربه واوصى بالاعتناء به .

24) قرية العباد ربوة تشرف على تلمسان بهامسجد وضريح يزار لابي مدين الشاعر المتصوف

بجاية المجد ، و نبع الجمال — و منتدى الفكر و مهد الجلال

(بجاية) يا قصتي الخالده — كفيت شر الأعين الحاسده

ان يفخر الشعب بأمجاده — فأنت فيه الحكمة الرائده

أو كان يحتاج الى شاهد — فأنت (يا بجاية) الشاهده

ألم يكن يبهر منك السنا — أندلسا ، فى النكبة الحاصده

فردوسنا المفقود (25) أفواجه — مل، الحمى ، صادرة واردة

تغترف العرفان من موطن — محافل العلم به حاشده

و حرمة الدين به ذمة — و حلية الفضل به قاعده

و مبدأ الشورى به شرعة — كأنه (بيت بنى ساعده) (26)

يعتز دين الله فى رحبه — بالفتية الراكعة الساجده

و تزخر الخيرات فى أرضه — بالأضلع الكادحة الجاهده

و يطفح اليسر على اهله — بالأنفس الحازمة الحامده

مصدر اشعاع على مغرب — حقق فيه الأمة الواحده

لذ (بالثعالبى) (27) فى خلده — ينبئك عن بجاية الماجده

(و بابن سبعين) (28) ومن جادلوا — فافحموا • بالحجة الراشده

---

25) لعبت بجاية ادوارا هامة فى تاريخ المغرب وكانت مصدر اشعاع علمى وأدبى عدة عصور فكانت غير ما مرة عاصمة لدول مستقلة واضطلعت بأعبائها فى عهد الدولة الحفصية ونزح اليها اقطاب العلم والادب من الاندلس فبثوا علومهم وثقافتهم وكونوا ما يسمى بالمدرسة الاندلسية الزاهرة •

26) اعنى سقيفة بنى ساعدة التى كانت دار شورى للصحابة عند الملمات •

27) عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبى دفين الجزائر ـ المتوفى ـ حوالى سنة 875 • انظر ما قاله فى فهرسته . والثعالبى أشاد بالعلماء الذين كانوا لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم •

28) أحد علماء بجاية الاعلام عبد الحق بن سبعين جادل النصارى فأفحمهم •

(و بابن تومرت) (29) واصـــراره   فى ثـورة جـامحـة صـامـده
يغـزو خـرافـات الألى حـرفـوا   ديـن الهـدى ، بالبـدع الفـاسـده
مـن شـوهـوا الـدين بـأهـوائـهم   و النظـرة الضيقـة الجـامـده
و زهـدوا فى الـدين أتبـاعـه   فـاصبحـت أكبـادهـم شـارده
قـالوا : اجتهـاد العقـل من ضلـة   فـاغلقـوا أبـوابـه القـاصـده
لـولا احتـكام العقل ، ما فى الدنـا   منفعـة تـرجى . ولا فـائـده !
بجـايـة يـا قصـتى الخـالـده   كفـيت شـر الأعـين الحـاسـده
فى كبـريا. القلعـة العـاليـه   أشـدو بـنى حمـاد الحـانيـه
أستـوقف التـاريـخ فى أفـقـها   أسـاله : أين (بنـو غانيـه) ؟ (30)
و أيـن مـن أغـراهـم حسنـهـا   فانحـدروا منـها الـى الهـاويـه
(آشـير) ما زال بهـا شاخصـا   كـأنـها قبلتـه الثـانيـه
(و قصـر بـلارة) لـمـا تـزل   بـلارة ، عـن سحـره حـاكيـه
يحنـو (أميمـون) على (نجمـهـا)   فتـرعش (اللـؤلـؤة) العـاتيـه
قل (لابن حمـديـس) أمـن رقـة البـلار » صـاغ البحـر و القـافيـه ؟
أم مـن دهـاهـا . صـاغ الحـانـه   ألـم تـكن بـلارة ، داهيـه ؟
بجـايـة ، تـكبـر صنهـاجـة   فى لحمـة قـدسيـة سـاميـه

---

(29) المهدى بن تومرت كان يشن حملة ضارية على من غيروا ومسخوا مفاهيم الاسلام بالتأويلات المغرضة ويدعو للرجوع الى جوهر القرآن والسنةمع ترك باب الاجتهاد مفتوحا للضالعين .

(30) من راجع مصادر التاريخ يلم بتفاصيل زحف بنى غانية على بجاية سنة 580 .

تصاهر الحسن بها و الحجى في الوحدة الجبارة الغاليه
واسأل بها (جيطان) (31) هل عمروا أم أخذتهم أخذة رابيه
عن (بربروس) (32) استقص اخبارهم يا ليتها ، قد كانت القاضيه
يا (برجها الاحمر) هل هذه فيك دمانا لم تزل قانيه ؟
تضمخ الأرجا. أنفاسها من عطر (حطين) و (أنطاكيه)؟
و كم لهذا الشعب ، شعب الفدا من مهج صارخة داميه
قل للأساطيل التى أصبحت ، في بحرنا الآمرة الناهيه
من أجبر الدنيا على حبنا فاستسلمت طيعة ، راضيه ؟
و نحن قوم عهدنا ذمة ما لم تخننا الفئة الباغيه
هل ينكر (الحاخام) (33) اكرامنا و صدقنا فى العهد (للجاليه ؟
ليت الألى عاثوا بأقدارنا تذكروا (الفاشيست) و (النازيه) !
فى كبريا. القلعة العاليه أشدو بنى حماد الحانيه

31) خيطان او جيطان الاسبان . وكان الامبراطور كسنيس بعد ان استولى على وهران كلف (بيير دو نافرو) سنة 1502 م بغزو عدد من المدن.الشاطئية ومن بينها بجاية التى وصل اليها فى 5 يناير 1510 واستغل انحلال اهلها لاحتلالها .

32) سنة 1512 اتصل الامير ابو بكر بعروج واخيه بربروس ملكى البحر واتفق معهما على القيام بهجوم طارى. لانقاذ المدينة ففعلا وانتصرا ثم نزلاالى البر وأحرقا سفنهما ثم اتجها عن طريق البر الى جيجل التى اتخذاها قاعدة لنشاطهما العسكرىالبحرى فيما بعد .

33) امبراطور اسبانيا كان قد اغتنم فرصة وجوده فى بجاية لتصفية حسابه مع اليهود للمرة الثانية بالتعذيب واحراق كتبهم ومعابدهم ثم بطردهم جميعا منها وذلك بعد ما طردهم من الاندلس سنة 1432 كما طرد العرب ، وقبل الاسبان كانتجماعات من نخبة المثقفين اليهود اختارت الاستيطان ببجاية لما يسودها من خير وأمن وكانتهذه الجماعة تعيش فى أمن ودعة تحت حماية الحماديين ، وكان على رأس الجالية اليهودية الحاخامابن يمينة الذى كان يتمتع فى الاندلس بصيت ذائع لتضلعه فى الآداب العربية والعبرية ولقدذهب اليهود حين طردهم الاسبان الى بلاد القبائل التى آوتهم وأحسنت اليهم وكانوا مندمجين فىمختلف القرى والجبال ويمارسون خصوصا صناعة الصياغة التي اشتهرت بها بعض الاعراش مثلبنى ينى .

آمنت بالشاعر (34) ، و الشاعره (35) — و الموج و (المغارة الساحره) (36)
و بالألى قد وحدوا مغربا — و دعموا اللحمة و الآصره
و بابن باديس ، و أجداده — من صنعوا (جوهر و القاهره)
بجاية أنت عروس الدنا — و الجنة الفواحة الناظره
منك ، اصطفى العالم ارقامنا — و لم تزل - طول المدى - سائره
(زروق) (37) أسرى فيك للمنتهى — و لم تزل آثاره باهره
و (ناصر الدين) (بمشذالة) — عم حجاه البيد و الحاضره
و (ابن ابى القاسم) من صرحه — لما تزل أنباؤه طائره
(منصور) و (ابن الفضل) لم يعجزا — (عمران) فى أفكاره العامرة
و اذكر (أبا محمد) تنبعث — (أحكامه الكبرى) مع الذاكره
و الشاعر الفحل (أبا طاهر) — و ابنته (عائشة) الماكره
تهجو بليدا أصلعا ، خاطبا — زلت به أقدامه العاثره
دقت على (يافوخه) صفعة — و برقعا للجبهة الصاعره
من خطفت (لؤلؤة) (38) لبها — لم تكترث بالأوجه الباسره
و من رأت فى القصر أقدارها — بات اسمها (عائشة القادره)
قصر اذا ما شئت أوصافه — فلابن حمديس الرؤى النادره (39)

34 - 35) الشاعر ابو الطاهر عماره وابنته عائشة وهجوها المشهور .

36) المغارة الساحرة تقع فى اعكاس وهى محراب الجمال .

37) جميع اسماء الاعلام هنا هم اقطاب الفكروحملة الرسالة . فراجع كتاب عنوان الدراية

38) اللؤلؤة احدى القصور الثلاثة قصر أميمون ، النجم ، اللؤلؤة .

39) الابيات التالية كلها معارضة لقصيدة ابن‌حمديس التى طالعها :
قصر لو أنك قد كحلت بنوره — أعمى لعاد الى المقام بصيرا

لو كحل الأعمى بأنواره ... اجفانه . لأصبحت ناظره
او نفحوا من عطره ميتا ... عادت اليه الوثبة الغائره
لم يصنع الفرس شبيها له ... مهما تكن قصورهم فاخره
(خورنق) يجثو خشوعا على ... أقدامه ، فى ذلة صاغره
مل (السدير) التيه فى كبره ... و تاب من شهرته الكافره
حصباؤه الدر ، ولولا المها ... يفرشنه ، بالأعين الفاتره
ما اشتقت حور العين فى جنتى ... و لم أكن أطمع فى الآخره !
ترابه المسك ، أمن حلقها ... أنفاسه الدافئة العاطره ؟
لو خطرت فيه (رميكية) ... يوما ، لعاشت دهرها شاكره
أو كان فى الفردوس ظل له ... لتبت من اخطائى القاهره
(بجاية) قصرت فى وصفها ... فصغت فيها اللمحة العابره
امجادها كون ، تضيق اللغى ... عن حصرها ، و الهمم الشاعره
وقفت فيها أغمر الملتقى ... مشاعرا ، جياشة هادره
و أكبر الفكر ، و اشعاعه ... (و ملهما) قد قام بالبادره
آمنت بالاسلام ، مهما يكن ... ايماننا أكذوبة سافره
يبرأ منا وبه نختفى ... و كم علينا دارت الدائره
و ثورة الاسلام لا ينطفى ... لهيبها فى الأمة الثائره
و دمنا الفوار لما يزل ... يصرخ فى أكبادنا الفائره
آمنت بالشعب ، و زراعه ... فى الأرض ، أو فى الأنفس الحائره
و الأرض ، مثل العرض ... فى حاجة ... للأعين الكشافة الساهره
اليك يا شعب صدى أضلعى ... يا وطنى ... يا أمتى الثائره ! !

بجاية فى 25 مارس 974

مفدى زكريا



توصيات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي

بسـم الله الرحمن الرحيم

اللجنـة الاولـى

النقطـة الاولـى :

موضوعها : وضـع الاقليات والجاليات عموماوالاسلامية خصوصا فى كثير من بلدان القارات الخمس وواجـب العلماء والمفكرين ، ورجال الاعـلام نحوها ٠

الرئيـس : د٠ ليلـى الصبـاغ

المقـــرر : الاستاذ خليفة المحفوظى

الاعضـاء : د٠ عبد الكريم سايتو

د٠ سلفاتورى بونو

د٠ محمد نجاة الله الصديقى

د٠ محمد هشام سلطان

د٠ محمد على صبـرى

الاستاذ سلفادور غوميز نوغالس

الاستاذ اميليو غاليندو اغيلار

الاستاذ أحمد بـودة

الاستاذ الشاذلى مكـى

الاستاذ موسى بوخريص

الاستاذ رشيد بـن عيسى

الاستاذ احمـد البرقى

التوصيـــــات

ان اللجنة الاولى المنبثقة عن الملتقى الثـامن للفكر الاسلامى ، والمنعقد ببجاية فيما بين فاتح ربيع الاول و 12 منه لعام 1394 هـ الموافق لـ : 25 مارس الى : 5 أبريـــل سنـــة 1974 م ، وبعد الاستماع الى محاضرات الاساتذة : الدكتورة ليلى الصباغ (سوريـا) والدكتور محمد نجـــاة الله الصديقى (الهند) والاستاذ فرنسيس مونهايم (بلجيكا) والدكتور سلفاتورى بونو (ايطاليـا) والدكتور عبد الكريم سايتو (اليابان) والاستمـاع الى المناقشات والتعقيبات والملاحظات واسئلـة الطلبة والرد عليها •

ونظرا لما تبدى من تعرض الجاليات الاسلامية فى المهجر ، لاوضـاع اقتصادية واجتماعية وثقافية سيئة ، وما يمكن أن تؤدى هذه الاوضـاع اليه من عزلة وانفصام عن الوطن ، واندماج فى المجتمعات المقيمة بها •

ونظرا لاشتداد مجابهة أخطار الدعايات المعادية ، نتيجـــة لنشـــاط العنصرية والاستعمار والصهيونية ، كأحداث مارسيليا ، والاغتيالات الموجهة ضد العرب والمسلمين ، وما تتعرض لـــه الاقليات الاسلامية من أخطار العنصرية كما هو الحال فى الفليبين وايرتيريا •

ونظرا لضرورة العمل على حماية حقوقها الانسانية وحرية ممارسة شعائرها الدينية •

وتكملة لما صدر من توصيات عن الملتقى السابع للفكر الاسلامى ، فان الملتقى الثامن فيما يتعلق بالجاليات الاسلامية يوصى بما يلي :

1 ـ ضرورة مواصلة السعي بصورة منسقة على مستوى دول المغرب العربى من أجل استرجاع مسجـد باريس •

2 ـ تهيئة فرص العمل فى البلدان الاسلامية لاعادة المغتربين للاسهام فى تنميتنا الاقتصادية •

3 ـ تنسيق جهود السفارات الاسلامية ، وتوحيد خطـــة عملها لحماية هذه الجاليات مـــن الاضطهادات ، وتوفير المناخ الثقافى الاسلامى للحيلولة دون انسلاخها عـن شخصيتها الاسلامية ، وتعليم أبنائها اللغة العربيـة لفهم الدين الاسلامى •

4 ـ ارسال مرشدين للتوعية الاسلامية فى أوساط اخواننا بالدان المقيمين بها ، وفتح مفتشيات ومراكز للشؤون الدينية لجاليات المغرب الاسلامى •

5 ـ مطالبة الحكومات الاسلامية بتعيين موثقين بسفاراتها لمباشرة قضايا الاحوال الشخصية•

6 ـ ضرورة التعاون بين مختلف الهيئات الاسلامية فى المهجر ، والسعى لتنسيق العمل بينها•

7 ـ الاهتمام بالمخيمات الصيفية الخاصة باستقبال أبناء المغتربين فى الوطن الاصل ، وتوعيتهم بالثقافة الوطنية والاسلامية ٠

8 ـ التعريف بقيم الاسلام وحضارته فى البلاد المقيم بها المغتربون ، تمتينا للعلاقات وحسن التفاهم والاحترام المتبادل ، ونشر اللغة العربية فى هذه البلدان ٠

وفيما يتعلق بالاقليات الاسلامية ، يطالب الملتقى الثامن بما يأتى :

1 ـ أن تحترم حكومات البلاد التى بها أقليات اسلامية ، ميثاق الامم المتحدة ، وميثاق حقوق الانسان ، حماية لشخصية هذه الاقليات الجسمية والمعنوية ٠

2 ـ ويطالب الحكومات الاسلامية بالقيام بواجب الاخـــوة الاســـلامية تجاه هذه الاقليات المستضعفة ٠

3 ـ العمل من طرف الحكومات الاسلامية على انشاء اذاعات موجهة الى الاقليات والجاليـات الاســلامية ٠

وأما الجاليات غير المسلمة المقيمة فى دار الاســـلام ، فان الملتقى الثامن بعد التقرير بأنها تتمتع بحقوقها الكاملة ، يوصى :

ـ بالاستمرار على هذه المعاملة الحسنة التى تمتعت بها هذه الجاليات فى ظل الحكم الاسلامى والتى نصت عليها أحكام الشريعة الاسلامية ٠

بســم الله الرحمن الرحيم

اللجنــة الثانيــة

النقطـــة الثانيــة :

موضوعها : دور المفكر اليوم وعلى مر العصور فى أمته وتجاه الانسانية فى كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل ·

الرئيــس : د· ابراهيم مكى ابراهيم
المقـــرر : د· عمــار طالبى
الاعضــاء : د· صــلاح الصاوى
د· هورست غريكه
د· محمد الزنيبر
د· محمد عزيز الحبابى
د· راشــد الراجح
د· محمد على صبرى
الاستاذ أحمد انور الجندى
الاستاذ عبد الرحمن شيبان
الاستاذ محمد بن عبد الله
الشيخ يوسف اليعلاوى

التـــوصيات

تناولت اللجنة الثانية بالبحث والمناقشة موضوع النقطة الثانية من نقاط الملتقى الثامن للفكر الاسلامى ــ المنعقد ببجاية من 1 ــ 12 ربيع الاول 1394 هـ الموافق لــ 25 مارس 5 افريل 1974 م ــ على ضوء الابحاث والمناقشات التى جرت فى الملتقى وعلى ضوء ما طرحه اعضاء اللجنة من آراء تبين لهم ما يلى :

اعتبارا للدور الاساسى الذى يجب أن يقــوم به الاسلام فى توجيه ثقافتنا ٠

ونظرا لما للصراع الفكرى المعاصر من اثــر بالغ فى توجيه المجتمعات ٠

ونظرا لتكالب الاستعمار الثقافى من جميــع الجهات على الشعوب المتخلفة قصد اخضاعها لتبعية فكرية ، وبالتالى لتبعية سياسية واقتصادية ٠

ونظرا لتقنع كل هذه النيات الاستعمارية المبيتة بقناع العالمية ،والعصرية ، ونشر الحضارة :

يرى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى المنعقد ببجاية من 1 ــ 12 ربيع الاول 1394 هـ الموافق لــــ (25 مارس ــ 5 افريل 1974 م) ما يلى :

1) ان المفكر هو الملتزم بقضايا مجتمعه تحليلا ، ونقدا ، واثراء ، وريادة ، انطلاقا من مفهوم الاسلام الصحيح ٠

2) ضرورة ارتباط المفكر بالمجتمع ومشاكله حتى يتسم تفكيره بالواقعية والالتزام ، وحتى يكون انتاجه ذا اثر فعال فى التقدم المستمر لمجتمعه ٠

ونظرا لما تقدم يوصى الملتقى الثامن للفكــر الاسلامى بما يلى :

1) العمل على تحليل تراثنا الثقافى ، ودراسته ، ونقده ، ونفى الجوانب السلبية عنــــه ، وتوضيح العناصر الحية فى صورة مناسبة للعصر ، مع تنشيط حركة احياء التراث ٠

2) العناية بكتابة تاريخنا كتابة منهجية تحرره من كل الوان التزييف الاستعمارى والتحريف المغرض ، وذلك لتزويد اجيالنا الصاعدة برؤية موضوعية سليمة لتاريخنا فى سائر مجالاته ، ولبناء نهضتنا المستقبلة على بصيرة من ماضينا الذى شوهت بعض معالمه كثير من كتب التاريخ ٠

3) تؤكد توصيات الملتقى السابع للفكر الاسلامى وخاصة وجوب ممارسة الاجتهاد ممــــن توفرت فيه شروطه ٠

4) أن يكون للمفكر المسلم اطلاع دقيق علــى التفكير العالمى المعاصر بروح نقدية حتى يستفيد من العناصر الايجابية منه ، ويرفض كل ما يتنافى ومقوماتنا الاساسية ٠

5) الاستفادة من العلوم والتكنولوجيا ومـن العناصر البناءة فى تجارب الامم الاخـرى تحقيقا لكل ما يمكن مجتمعنا الاسلامى من تقدم حضـارى ، ومقاومة كل ما يتعارض والعقيدة الاسلامية والاخـلاق ٠

6) التزام وسائل الاعلام المختلفة بالسير فى خط متواز مع مبدا الاسلام ، واننا لنؤكد مرة أخرى توصيات الملتقى السابع الخاصة بوسائل الاعلام ، وندعو لمراعاتها ٠

7) نظرا لما للتربية والتعليم من أهمية بالغة فى تكوين المفكر فان الملتقى يوصى بضـرورة وضع فلسفة تربوية ترسم فيها الاهداف الاساسية الصالحة لاعداد المواطن المسلم ٠ وتوضـع بمقتضاها المناهج والبرامج الكفيلة بتحقيق تلـك الاهداف ، ويعقد لهذا الغرض ملتقى خاص ٠

8) العناية بتدريس الثقافة الاسلامية فى جميع المستويات التعليمية ٠

9) احداث جامعة اسلامية نموذجية من حيث التجهيز والاطر فى كل قطر اسلامى لاعطـاء التعليم العالى صبغة اسلامية بالاضافة الى تدريس جميع العلوم والتخصصات ٠

10) التحرر من التبعية الفكرية الاجنبية فى ميدان الدراسات الاجتماعية والانسانية عامة تلك التبعية التى اصطبغت بها الجامعات فى البلاد الاسـلامية ، وتوجيه هذه الدراسات النظرية منها والتطبيقية الى صميم التغيرات الاجتماعية التى يمر بها مجتمعنا اليـوم ٠

11) العمل على كتابة دائرة معارف اسلامية موضوعية عصرية بمشاركة سائر المتخصصين فى مختلف المعارف والفنون ٠

12) مقاومة كل مظهر من مظاهر الجمود ، واقتلاع جذور كل الوان الشعوذة والدجل وكـل رواسب الانحطاط وعوامل التخلف وكل أنواع الانحرافات عن السلفية القويمة ٠

13) العمل على تحقيق التعريب الكامل فى البلاد العربية باعتبار اللغة العربية مقوما أساسيا من مقومات كياننا الوطنى ، والعمل على نشرها فى مختلف البلاد الاسلامية لما لها من صلة وثيقـة بالعقيدة والفكر الاسلاميين ، وتؤكد توصيات الملتقى السابع فيما يتصل بالعناية بالعربية فى البلاد الاسلامية باعتبارها **الاداة الضرورية لفهم الاسلام فهما صحيحا** ٠

14) تشجيع المفكر الجاد الفعال بمكافآت تقديرية ٠ لانتاجه الفكرى ٠

15) العمل على أن يشارك المفكر الاسلامى فى اغناء الفكر الانسانى ببذل الجهد من اجـل تحقيق التفوق فى سائر مجالات الفكر والفن والعلم استمرارا من أن الفكر الاسلامى فى أصـوله فكر عالمى لا يفرق بين بنى البشر الا على أسـاس الخير والعمل الصالح قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ٠

16) تضامن المفكر الاسلامى الفعال مع الشعب الفلسطينى وسائر الشعوب العربية المجابهة للصهيونية لتحرير فلسطين والقدس الاسلامية ٠

17) مساهمة المفكر الاسلامى فى بناء العالم الحاضر بدعم حركات التحرر للشعوب والدعوة لتصفية الاستعمار ومناصرة المضطهدين واقرار السلم والاحترام المتبادل بين سائر الامم ومناصرة كل القضايا العادلة فى العالم ٠

18) اضطلاع المفكر بدوره الطلائعى الفعال فى أمته وعلى مستوى الانسانية كلها كموجه لها ، معزز لاتجاهاتها الصحيحة ، ناقد لاوضاعها الباطلة ، ومشاركته الفعالة فى العمل على النهوض بمجتمعه فى مختلف المجالات العقائدية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والسياسية ، بغية تحقيق العدالة الاجتماعية وتمكين المواطن المسلم من حياة الحرية والكرامة الانسانية ٠

بسـم الله الرحمن الرحيم

اللجنــة الثالثـة

النقطـة الثالثة :

موضوعها : مساهمة بجاية الحمادية فى الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين أسباب وآثــــار انحطاطها ·

الرئيـس : الاستاذ عثمــان الكعــاك

المقــرر : الاستاذ أحمـد حمانى

الاعضــاء : الاستاذ محمد الفاســى

الدكتور رشيد بوروبية

الدكتور محمد سعيد رعد

الدكتور مولاى بلحميسى

الدكتور نبيه عاقـل

الاستاذ المهدى بوعبدلى

الاستاذ اسماعيل العربى

الاستاذ سليمان داود بن يوسف

الاستاذ يحيى بوعزيز

بســم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد النبي الكـريم

التــوصيـات

تناولت اللجنة الثالثة بالبحث والمناقشة موضوع النقطة الثالثة من نقاط الملتقى الثامن للفكر الاسلامى ــ المنعقد ببجاية من 1 ــ 12 ربيــع الاول 1394 هـ الموافق 25 مـــارس 5 أبريل 1974 م ٠ وعلى ضوء الابحاث والمناقشات التى جرت فى الملتقى ٠

ــ وعلى ضوء ما طرحه اعضاء اللجنة مــن آراء تبين لهم ما يلى :

• ان عوامل ازدهار الحضارة ببجاية ومشاركتها فى الفكر الاسلامى والعالمى تعود الى ما يـــاتى :

1) موقعها الجغرافى المتميز وما نجم عنه من آثار فى النهضة الاقتصادية ٠

2) ما يتمتع به السكان من استعداد فطرى حسن ومقدرة على تمثل معطيات الحضارة العالمية ٠

3) ما كان للاسلام من فضل فى توحيد صفهم وتربيتهم وصقـل نفوسهم والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات ٠

4) ما تحقق من انسجام بين السلطة الحاكمة والشعب واتضح من حرص السلطة على احقاق العدالة بين الناس والشواهد على ذلك كثيرة فى التاريخ ٠

5) ما اتصف به نظام الحكم من حرص على تحقيــق التسامح الدينى فى ميدان التعايش ، والثقافة وخير مثال على ذلك وجود المسجد كجامعة علمية للمسلمين وبجانبه « بيت الحكمة » يؤدى نفس المهمة العلمية للمسلمين ولغيرهم ممن كانـوا فى بجاية أو وافدين عليها لطلب العلم والثقافة٠

6) اجتذاب بجـــاية اقطـــاب العـــلم والفكر من الاندلس والمغرب وقيام اكاديميات للبحث والدرس والمناظرة والاستنتاج ٠

7) احتضانها لكبار المفكرين ذوى المبادئ البناءة التى ساعدت على انشـــاء حضارات انسانية ففيها اتفق ابن تومرت مع تلميذه عبد المؤمن بن على على تخطيط ادى الى تأسيس دولة الموحدين التى قامت على انقلاب جذرى ٠

8) المساهمة العارمة من علماء القرى فى منطقة بجاية وما نجـم عنها من مساهمة فعالة فى النهضة الفكرية والحضارية داخلا وخارجا ٠

9) النهضة العمرانية المتمثلة فى الاهتمام بالربى ، والمواصلات من انشاء الطرق وتعبيدها ، وتنظيم القوافل ، وتوفير الامـن لسيرها والانتفاع بها ٠

10) التكامل فى ميدان الانتاج : الزراعة والصناعة والمعادن والتجارة وما تبعه من مركـب بحرى كامل يقوم على ديوان البحر والميناء والاسطول والمعاهدات التجارية والعمليات المصرفية والتجاريـة ٠

11) الاصالة فى الفن المعمارى والزخرفى فى بجاية وانتقاله الى مراكز الحضارة فى حوض البحر الابيض المتوسط الغربى وخصوصا صقيلية وسردانية ٠

• وأما عوامل انحطاطها فقد رأوا انها تعود الى ما يـأتى :

1) ما تعرضت اليه من غزوات نصرانية من النورمان ، والاسبان ،وفرسان مالطة وغيرها من اخوانيات الفرسان ، ومن هجمات الاساطيل لجمهوريات كبيشا ، وجنوة ، والبندقية ، واخيرا هاجمها اسطول شرلكان واحتلها وشرد جند سكانها وخرب معالمها ، وقضى على نشـاطها فى ميدان الفكـر ٠

2) ما أصابها من فتن او حروب ناشبة بين المسلمين ، كهجومات بنى غانية ، وافتكاكها من ايديهم ، ومن قبلهم استيلاء الموحدين عليها واسقاطهم لدولتها واعتبارهم اياها عاصمة ولاية بعد ان كانت عاصمة دولة ٠ ثم هجمات المرينيين ، والحفصيين ، والزيانيين ، وغير ذلك من فتـن الثورات والانقلابات بين الولاة ٠

3) ما تعرضت له من افساد الاعراب وتخريبهم لباديتها وقطع طرق المواصلات ، وافسـاد نظام الربى والقوافل ، وتخريب القرى والمنشـآت الزراعية ٠

4) نقل حكام الترك عاصمة الدولة منها الـى الجزائر ـ فكانت عاقبـة ذلك فقدانها لدورها التاريخى فى الحضارة والاقتصاد والعلم ٠

5) هجرة سكانها واعيان رجالها من علمـاء وتجار واداريين بحلول جيش الاسبان بها منذ سنة 915 هـ ـ 1509 م ٠ وانتقال مركز الحكم والقاومة ودور العلم الى داخل البلاد ٠

6) انهيار الاخلاق وتفشى الفساد والاقبـال على اللهو واللعب والترف يدل على ذلك قيـام ابن تومرت بتحطيم آلات الطرب ، وتكسير اوانى الخمور وخيانة بعض قـادة الجيش والوزراء الذين فتحوا الباب لعبد المومن وانهوا بعملهم دولة الحماديين ٠

ان اللجنة بعد أن عرضت دور بجاية المشرق أيام عزها ، ودواعى انحطاطها وما آلت اليه مستخرجة من التاريخ العبر والعظات تود ان ترى بجاية تعود الى عزها السابق وتلعب دورا فى خدمة الفكر والحضارة حقيقا بسمعتها التاريخية ولهذا فانها توصى بما يأتى :

1) بالعمل على كتابة تاريخ كامل لبجاية فى مختلف عصور تاريخها ٠

2) باعداد « بيبليوغرافيا » أى ثبت مستوعب لمصادر بجاية الحضارية مستمد من الكتب وأوراق الخزائن والآثار وغيرها ٠

3) باعداد ديوان (كربوس) لآثار بجاية من قصور ومساجد وقلاع وشواهد قبور ، ونقوش الخ ٠٠٠

4) باعداد ديوان لرجال بجاية فى شتى الميادين ، وديوان للامكنة الجغرافية يستفاد منه ٠

5) باعداد ديوان للمخطوطات البجائية والبحث عنها ، والكشف عن طلوسها ٠ ما يوجد منها فى مكتبات اوروبا وأمريكا وآسيا ٠

6) تكوين معهد للدراسات البجائية ٠

7) اعداد ديوان (كربوس) عن النقود والصياغة واللباس والاسلحة والفولكلور وايجاد متاحف لذلك ٠

8) ضبط مجموعات الفن التطريزى والرسوم والموسيقى ٠

9) اقامة لوحات تذكارية تعين الاماكن التاريخية وتشرح دورها الماضى التاريخى ٠

10) تنظيم مواسم ثقافية لاحياء ذكرى بعض اعلام بجاية فى ميادين الفكر والجهاد ٠

11) العمل على انشاء كلية علمية تابعة للجامعة الاسلامية فى بجاية احياء للمهمة التى كان يضطلع بها (بيت الحكمة) ٠

بسـم الله الرحمن الرحيم

اللجنـة الرابعـة

النقطـة الرابعة :

موضوعها : مساهمة الحضارة والفكر الاسلاميين فى مختلف مجالات العلوم ، والفنون والتـراث الانسانى على العموم ·

عوامل ازدهارها : اسباب انحطاطهما وشروط انبعاثهما ·

الرئيـس : د· عثمان امين
المقـــرر : د· محمد وصفى ابو مغلى
الاعضــاء : القاضى عبد الله الشماحى
د· الحبر يوسف نور الدايم
د· هشام الصفدى
د· سعيد شيبان
د· احسان عباس
د· مانفريد فلايشهامر
د· ميغال دى ايبالزا
الاستاذ مصطفى عبد الله بعيو
الاستاذ محمد المنتصر الكتانى
الاستاذ محمود منصـور

1 ـ تمهيـــد

بلغت الحضارة الاسلامية مرتبة رفيعة فى التاريخ • وتميزت بالاصالة والرحابة ، ولكـــن اسبابا كثيرة ـ اخلاقية واجتماعية ـ قد اثرت فى هذه الحضارة فادت الى تاخرها ، فى مختلف المجالات • ويرى اعضاء اللجنة أن ذلك التاخر يعود الى عدة اسباب ، اهمها :

2 ـ اسبـاب الانحطاط

1 ـ الابتعاد عن روح الدين ، والقعود عـن الامر بالمعروف والنهيى عن المنكر • والتنكـر للاجتهاد ، والانصراف عن التشريع الاسلامى • ويضاف الى ذلك مجافاة روح العلم والانحراف عنها انحرافا انتج تخاذلا عقليا واخلاقيا ، تلمـس آثاره فى المجتمع الاسلامى المعاصر •

2 ـ فقدان الحرية الفكرية ، وتهافت الـروح المعنوية ، وماصحب ذلك من تفكك فى الوحـدة الاسلامية عـامة •

3 ـ شـروط الانبعـاث

ولبعث الفكر والحضارة الاسلاميين ، تـرى اللجنة أن تتقدم بالتوصيات الآتية :

1 ـ احياء التراث الاسلامى بين أهله ، والعمل على نقله الى غيرهم •

2 ـ وضع فهارس جديدة للمخطوطات الاسلامية الموجودة فى مختلف دور الكتب فى العالم ونشر ما يستطاع نشره من هذا التراث •

3 ـ الحرص على تشجيع نشر الكتب العلمية باللغة العربية ، لغة كبار المفكرين فى الاسلام والقضاء على المعوقات الحالية التى تعرقل انتشارها •

4 ـ العناية بالتربية الاسلامية فى مراحل التعليم المختلفة لتجديد شخصية الانسان المسلـم ، وابراز قيمه الاخلاقية •

5 ـ الحرص على تدريس مادتى « الحضارة الاسلامية » وتاريخ العلوم فى الحضارة العربية الاسلامية فى الجامعات والمدارس الثانوية الاسلامية •

6 ـ العمل على تهيئة الاستقرار النفسى والمادى للمفكرين والعلماء فى العالم الاســلامى ، حتى يفرغوا للانتاج الفكرى ، للقضاء على الاسباب الحقيقية الداعية الى هجرة العقول الاسلامية • مع بذل الجهد لاسترجاع اكبر عدد ممن هجروا ديار الاســـلام •

7 ـ تزكية التعليم العالى فى العالم الاســلامى والعربى ، لكي يستجيب لمطالب النهضة •

8 ـ تنسيق الجهود فى جميع الميادين مع تبـــادل ذوى الكفايات والامكانيات الضرورية لانبعاثهم ومساهمتهم فى موكب الحضارة الانسانية •

ويحيى الملتقى بالتفاؤل بوادر الوعي الجديد الذى بدات تتجلى مظاهره فى العالم الاسلامى •

بســم الله الرحمن الرحيم
اللجنــة الخامســة

النقطة الخامســة :

موضوعها : الانية والاصالة مع التفتح والعالمية · معنى هذه المفاهيم ـ مـــدى امكانية التوفيق بينها ـ درجة أهمية هذا التوفيق فى عالم اليــوم بالنسبة للفــرد ، والمجتمع ، ومصير الانسانية كلهــا ·

الرئيس الشرفى : معالى السيد عبد الله بن بيــه

الرئيــس : د· زكى نجيب محمود
المقـــرر : د· عبد الفتاح الديدى
الاعضاء : د· ابراهيم فخــار
الاستاذ صبرى ابو المجد
الاستاذ عبد القادر ديدى
الاستاذ مفدى زكرياء
الاستاذ رشيد بن عيسى
الاستاذ عبد الوهاب حموده السائحى
الاستاذ النقيب حموده عاشورى

الاستاذ سعيد الحاج عيسى ·
الاستاذ محمد الاخضــر عبد القادر
الاستاذ عبد الرحمن بلعقون
الاستاذ مصطفى عسلاوى
الاستاذ مبروك العوادى

التوصيـــــات

اجتمعت اللجنة الخامسة يوم الاحد 7 ربيــع الاول 1394 هـ الموافق لـ 1974/3/31 م وانتخبت معالى السيد عبد الله بن بيه ، وزير العدل فى الجمهورية الاسلامية الموريتانية ، رئيسا شــريفا ، والدكتور زكى نجيب محمود ، استاذ المنطق الوضعى بجامعة القاهرة ، رئيسا فعليا ٠

وبعد دراسة الموضوع ومناقشته تقرر اللجنة ما يلى :

أولا : تحديد مفاهيم الانية والاصالة والتفتح والعالميـــة ٠

1)**الانية :** هي وعي الذات لنفسها وتوكيدها كذات مسلمة ٠

2) **الاصالة :** هي تنمية الذات بالتزام القيم الاسلامية والتعبير عن هذه القيم فى مختلف مجالات الحيـــاة ٠

3) **التفتح :** هو تبليغ رسالتنا الروحية الى العالم فى ممارسة الاخذ والعطاء ٠ وهي اقتبـــاس كل ما تتاكد الحاجة اليه مما هو لدى غير المسلمين فى حدود الاصالة ٠

4) **العالمية :** بعد التوكيد أن ما يدعى بالمعاصرة هو تعبير عن الحضارة الغربية فى طور سيطرتها وانه لا ينبغى لها ادعاء تمثيل البشرية جمعاء فان اللجنة ترى أن العالمية هى تلــك الجوانب التى تلتقى فيها مجموعة الثقافات على تنوعها ٠

وبناء على هذه التعريفات الاولية ترى اللجنـــة الا تناقض بين هذه المفاهيم التى يمكن أن تتعايش فى حياة اسلامية موحدة ـ وبعبارة جامعة فعلى المسلم أن ينظر الى المعاصرة من منظـار الاسلام ولا ينظر الى الاسلام من منظار المعاصرة٠

ثانيا : التوصيـــات :

ولذلك كله توصى اللجنة بما يلى :

1 ـ فى ميدان التــربية

أ) بأن تبث التعاليم الاسلامية الصحيحة للناشئة فى مراحل التعليم كلها بحيث ينتهى الدارس وهو متمسك بالتعاليم وملتزم بها ٠

ب) توصى اللجنة بتعميم التدريس على جميع مستويات التعليم باللغة العربية حــرصا على تبليغ الاسلام وتعاليمه باللغة الأصلية ، لغة القرآن ٠

ثانيا : في ميدان وسائل الاعلام :

أ) توصي اللجنة بان تعمل وسائل الاعـلام المكتوبة والمصورة والمنطوقة على نشر الثقافة والمفاهيم الاسلامية الصحيحة ٠

ب) كما توصي بمراقبة جميع ما تستورده وسائل الاعـــلام ، في ميدان السينما والتلفزيون وغيرهما للحيلولة دون نشر وانتاج كل ما يتنافى مع الاســلام ٠

ثالثا : في ميدان الفكر والادب والفـن

أ) توصي اللجنة بان يضطلع رجال الفكـــر والادب والفن ـ كل بوسيلته الخاصة ـ بمهمـة ترسيخ صورة الحياة الاسلامية كمـا ينبغي لها أن تكون حتى نضمن للجماهير الاسلامية غـــذاء فكريا وأدبيا وفنيا نابعا من الروح الاسلامية ومعبرا عنها ٠

ب) بدعوة المسؤولين السياسيين ورجال الادب والفن والفكر الى أن يواجهوا خطر الغـــزو الفكري بما يدفعه عن الامة الاسلامية التي يشكـك في مقوماتها ٠

رابعا : في ميدان نقـل العلوم

توصي اللجنة بنقل العلوم الطبيعية والتجريبية والتكنولوجيا الى الشعوب الاسلامية بلغاتها الوطنية للاستفادة منها على أوسع نطاق وليكـون ذلك وسيلة في أيدي المسلمين تمكنهم من التحكم في عصرهم اثباتا لوجودهم ٠



كلمة اختتام

الملتقى الثامن للفكر الإسلامي

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم ،
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ،
حضرات الاساتذة الافاضل ،
حضرات السادة والسيدات ،
اخوتي الطلبة والطالبات .

اذا كان لكل شيء اذا ما تم نقصان ، فان ملتقاكم نهايته بدايته,واسمه كنايته،اذ توصياته تواص بالتطبيق والعمل ، وعدم الاستغنا. عنهما بالتمني والأمل . ومن هنا فاختتامه انطلاقه ، ونتائجه لا يبددها افتراقه .

فنحن على موعد صدق ، يقابل فيه ما حبر في الأوراق بما يقدم في الاطباق ، وتلقى فيه نظرة فاحصة ، ناقدة لا حاقدة ، على مدى الجدية والحرص في وصل القول بالفعل . لتهيئة الافكار ، وخلق المناخ ، والاعداد للتغيرات الجذرية بكل حرص والتزام !

حضرات الاساتذة الافاضل ،

اخوتي الطلبة والطالبات ،

1) لقد تدارستم أوضاعا شاذة ، تعاني منهـا الجاليات وأقليات في كثير من جهات العالم . من تمييز عنصري ، وتعصب ديني ، يتخذان عديدا من الصور والاشكال ، وينعكسان في المجالات الثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، على هذه الضحايا ، ويبلغان أحيانا حد الاغتيال والابادة الجماعية ، وقررتم العمل ومضاعفة الجهود ، والاستعجال فيها ، لتوعية الدول والجماهير بضرورة تصحيح هذه الاوضاع ، وايجاد حلول تضمن كرامة هذه الجاليات والاقليات ، وتحفظ ماء وجه تلك الدول والمجتمعات .

2) واستعرضتم دور المفكر ، أي مفكر ، في أي زمان أو مكان ، نحو أمته وتجاه الانسانية كلها ، في كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل ، ورأيتم انه قد حان الوقت للمفكر ليخرج من برجه العاجي ، وألا يبقى مكتوف اليدين سلبيا ، يوافق دائما ويصفق ، ويتوارى وينمق ، ويمدح ويزوق ، عوض أن يحقق ويدقق ، ويصدع برأيه ويحلق ، ويوجه ويؤثر ، ويفحص قبل أن يؤشر ، ويجاهر ويظاهر ، ويصرح ولا يلمح ، ليؤدي أمانته ، ويبلغ رسالته ، ويضطلع بمسؤولياته كاملة ، وهو الذي ينبغي أن يكون أكثر من غيره على الحق احرص ، وقد روي في الحديث أن الساكت عن الحق شيطان أخرص .

3) وتصفحتم سجل بجاية على مر عصورها ، وخاصة في عهدها الحمادي المجيد ، وما قامت به بعد قلعة بني حماد من دور مشرف عظيم في اثراء الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين ، ودرستم أسباب ازدهار هذه الدولة ، وانحطاطها ، واتضح لنا جميعا انه الى جانب الحملات الصليبية المتوالبة ، والاعمال التخريبية الناشئة عن تصورات بدائية ضيقة لدى أغلب الدول الاسلامية في تلك العصور ، نجد الانقطاع الى حياة الترف والبذخ ، والميل الى الدعة والمتعة ، وشيوع الانحلال الخلقي ، وذوبان المبادئ والقيم ، فتخنث الرجال ، واسترجلت النساء ، فانعكست المفاهيم ، وانقلبت الاوضاع ؛

كل هذا الانحلال قد نجم عنه الاختلال ، ممـا مهد للانهيار والاحتلال ، وتلك كانت حال المرابطين قبلها ، والموحدين بعدها ، كما يفصله لنا ابن خلدون ، وذلك كان مصير الحضارات ،

وتلك كانت سنة الله فى الدول على مر التاريخ ،« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » صدق الله العظيم !

4) وفصلتم النظر والقول فى الحضارة والفكر الاسلاميين ، وما قدماه من مساهمة فاصلة فى مختلف مجالات العلوم ، والفنون ، والتراث الانسانى على العموم . وتناولتم بالدرس عوامل ازدهارهما ، وأسباب انحطاطهما ، وشروط انبعاثهما .

وتبين لنا هنا أيضا أن ما قيل عن بجاية والقلعة ينطبق فى الجملة على الحضارة والفكر الاسلاميين فى مجموعهما ، من قيام فتن . واشتداد منازعات ،واحتدام صراعات خربت بها الامة الاسلامية بيوتها بأيديها ، ومن هجمات وحملات حاقدة استهدفتها،وكانت تروم منذ زمان محوها والقضاء عليها ،وصادف ذلك كله ركود ، وجمود ،وطغيان،وهى كلها آفات نجم عنها الانهيار والخسران .

تلك هى عصارة تجارب الامم منذ ما قبل بابل ويونان ، وفرس ورومان ، وأندلس ونرمان ، فمن راجع نفسه . واستخلص دروس التاريخ ، وتخلص مما به من جمود وركود ، انتعش وأمكنه النهوض ان أسرع وعجل ، أو هدده الموت والاندثار ان سوف وأجل !

على انه اذا كانت معرفة الماضى وما كان من ملك ومن ملك ضرورية لبناء الحاضر وتخطيط المستقبل ، فلن يغنينا اجترار الماضى والامجاد ،ولن يجعلنا التغنى نترك شيئا للاحفاد !

فعلينا ان أردنا اللحاق بالركب ان نتجاوز المراحل عوض الاكتفاء باجتيازها ، وذلك ان الهوة التى تفصلنا عن العالم المتقدم لسحيقة . وجراح تخلفنا وركودنا لواسعة عميقة . والى ما يفصلنا عن ماضينا من هوة وجفوة ، أضفنا فى مسيرتنا الحديثة كم من كبوة وهفوة !

5) وعالجتم بكل من الحماس والموضوعية مشكلة الأصالة والتفتح ، وتساءلتم مع المتسائلين عما اذا كان ينبغى باسم الأصالة والمحافظة على التقاليد اسدال حجاب كثيف على الاعين ، ووضع القطن فى الآذان . واغلاق جميع الابواب والنوافذ ، أم انه ، باسم التطور والتفتح ، يستحسن خرق الحشمة والوقار ، وعدم الاكتفاء بفتح النوافذ والابواب ، بل يلزم نزع السقوف والرفوف ؟

وانتهيتم الى ضرورة الجمع بين مزايا الطرفين النقيضين ، اللذين لا يتمان الا متكاملين ، لضمان الوضع الطبيعى فى الدار ، وقلتم بفتح الابواب والنوافذ . مع الاحتفاظ بالسقوف والرفوف . وأكدتم انه لا بد من الأصالة مع التفتح . وانه يتحتم التوفيق بين الانية والعالمية ، واستعدتم

بالله من كل أعشى غاسق ، من النور والاكسجين آبق ، يسد علينا منافذ الضيا، والهواء ، ناصحا باختيار الظلمة والاختناق ، ومن كل أهوج فاسق ، يدعونا الى هتك الستر ، وما يسميه التحرر والانعتاق ، يريد لأبوابنا الانشقاق ، ولسقوفنا الانفتاق !

وقررتم بعد درس واستقصا، : فاما انيتنا او منيتنا ، وقلتم : أصالتنا هي حصانتنا ، وعملنا شرطه علمنا ، واطلاعنا يقتضيه تطلعنا .

أيها الشباب ، كن علما لتساهم في العالمية ،ولا تكن امعة من قوم تبع فتظلم وتهضم ، او تلفظ وترفض !

كن قطعة بارزة في اللوحة تكن لك ذاتيتك ،وتميز تحفظ لك انيتك،ولا تكن شاحبا باهتا والا انطفات وشطبت ، ولا لينا طيعا والا عصرت او أذبت ، ولا لقمة سائغة والا استمرئت وغرفت ، وعملنا شرطه علمنا ، واطلاعنا يقتضيه تطلعنا !

كن انسان عصرك ، ولكن لا نسخة غيرك ، ايجابيا متفاعلا لا سلبيا منفعلا ، متفتحا لا منفتحا ، متطورا لا مطورا ، ومؤثرا ايضا لا فقط متاثرا ،فالحياة تعامل وتبادل ، والحوار بن اطراف متساوية ، والا كنت مجرد سائل متسول ، ناقصا في نفسك ، عار، على أمتك ، وعالة على الانسانية !

حضرات الاساتذة الافاضل ،

لقد آن لنا أن نشكركم على كل ما بذلتموه من جهد ، وتجشمتموه من تعب ، ولكم فيما استفدتموه بعضكم من بعض ، وفيما افدتم به الطلبة وايانا جميعا من علم ينتفع به دائم الأجر وخير الجزاء .

وأنتم اخوتي الطلبة والطالبات ، فلقد امتثلتم لنظام صارم ، وركزتم الانتباه ، وكانت مساهمتكم بناءة فعالة .

وثناؤنا على سلطات الولاية لما قامت به من عمل دائب ، وبذلته معنا من جهد متواصل منذ شهور ، ولسكانها لما أولوه الملتقى من كرم وترحاب ،وهنيئا لسكان الناصرية بالذات ، زيادة على ذلك كله ، بدوام حرصهم على تتبع المحاضرات والمناقشات ، وما بثوه في الملتقين من روح منافسة وسباق ، وشكرا لجميع من ساهموا في انجازه وتسييره ، من جميع الادارات والمؤسسات ، على مختلف المستويات .

وداعا بجاية ، عرين الناصر والمنصور ، ومدينة النار والنور ، وعاصمة المنظوم والمنثور ، ذات البحر الصامد ، ومصب النهر الخالد ،الصومام ذى المجد الطريف والتالد !

والى اللقاء للجميع فى الملتقى التاسع فى مدينة الورود والشقائق ، والجنان والحدائق ، فى مدينة العيون والفنون ، مثوى العباد والزهاد ،ومعقل بنى عبد الواد ، فى عاصمة ايغدراسن بن زيان ، فى تلمسان !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته !



شعارات سادت الملتقى



التوكل والإهمال قضيا على الفكر والحضارة !

برقيـــة تعـــزيـــة

بعث بها الاخ مولود قاسم
وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية
الى عائلة الاستـاذ علال الفـاسى
ورابطـة علمـاء المغـرب

لقد كان لنبأ وفاة المفكر الاسلامى الكبير الاستاذ علال الفاسى أكبر الوقع فى نفـوسنا ، وبهذه المناسبة الاليمة نتقدم اليكم بكل تعازينا ، سائلين العلى القدير أن يتغمد فقيد العـروبة والاسلام برحمته الواسعة ويسكنه فسيح جنانه . وأن يلهمكم الصبر الجميل فى هذا المصـاب الجلل الذى حل بأسرتكم الكريمة .

ولا يفوتنا فى هذه الظروف الاليمة ان ننوه بالاعمال الجليلة التى قام بها الفقيد طـوال نضاله الحافل بالتضحيات الجسام من أجل الحـرية والاستقلال وتعزيز العروبة والاسلام ، ولا زلنا نتذكر نضاله فى سبيل تحقيق الاهداف النبيلة الشريفة التى اتسمت بها حياته على جميـع المستويات ، نذكر من بينها ، بخشوع ، عملـه القيم فى لجنة تحرير المغرب العربى بالقـاهـرة فى أواخر الاربعينات وبداية الخمسينات ، كما نذكر الدور الفعال الذى قام به خلال الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى انعقد بمدينة وهـران .

وانَّنا لنجدد لكم تعازينا القلبية ونشـاطركم الاحـزان راجـين من الله جل جـلاله أن يرزقكم الصبر والسلوان . رحم الله الاستـاذ الكبير علال الفـاسى .

رد اللجنــــة التنفيــذيــة

معالي السيد مولود قاسم المحترم ، وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية ـ الجزائر ،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته •

وبعد ، تتشرف عائلة المغفور له المجاهد الرئيس علال الفاسي واللجنة التنفيذية لحــزب الاستقلال بأن تتقدم الى معاليكم باصدق تحيــاتها وجزيل شكرها على مشاركتكم لها في المصاب الجلل الذي حل بالشعب المغربي وبشعوب المغرب العربي والامة العربية والاسلامية في فقــد الزعيم الكبير علال الفاسي رحمه الله .

وقد كان لمواساة معاليكم اثر عميق في شعور الشعب المغربي ، بتعاطفكم معه في مأســاته ، وتقديركم لجهاد زعيم تحريره من اجل حرية المغرب الكبير ووحدته ، وفي سبيل اعلاء كلمة اللــه ونصرة الاسلام والمسلمين •

ان تعازيكم المؤثرة الصادقة كانت عونا لنا

على تحمل آثار المأساة • وتفضلوا ـ معاليكــم ـ بقبول فائق احترامنا وتقديرنا •

عن العائلة واللجنة التنفيذية

لحزب الاستقلال

الكاتب العام : **محمد بوستة**

هذا وقد قام بعد الملتقى برحلة دراسية خلال البلاد ، واستقبل خلالها من طرف الرئيس بومدين ، كما ألقى عدة احاديث ومحاضرات فى مختلف المدن ، ونشر بعد رجوعه الى المغرب فى جريدة العلم سلسلة من المقالات عن مشاهداته ·

وقد دعوناه الى المشاركة فى الملتقيات التالية ، ولكن ظروفه الصحية حالت دون ذلك ، وان لم تمنعه من ارسال دراسات الى الملتقى وزعت على الحاضرين وهى بصدد النشر فى كتب الملتقيات ·

وفى حفل الاربعين لوفاته أقامت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية حفل تابين فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة ألقى فيه الاستاذ احمد حمانى رئيس المجلس الاسلامى الاعلى محاضرة بعنوان « الاستاذ علال الفاسى المفكر المجتهد » وذلك يوم السبت 2 جمادى الثانية 1394 هـ الموافق 28 يونيو 1974 م حضرها جمهور غفير من المثقفين ·

الاستاذ العلامة المرحوم علال الفاسى جالسا بسبب عملية جراحية اجريت له قبيل مجيئه الى الجزائر مباشرة للمشاركة فى الملتقى الخامس للفكر الاسلامى فى مدينة وهران سنة 1391 هـ ــ 1971 م ·

ويرى هنا وهو يستمع لشروح مهندس مصنع تمييع الغاز فى ارزيو فى زيارة ادرجت فى برنامج الملتقى · ومن اليمين الى اليسار السادة:

1) د · عبد الرحمن الصابونى ، عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق · 2) محمد بلبشير ، مدير التعليم الاصلى بالمغرب · 3) د · محمود ابراهيم ، استاذ بجامعة عمان · 4) مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية · 5) عبداللطيف مولين ، المستشار الثقافى فى سفارة المغرب فى الجزائر مرافقا للاستاذ علال الفاسى · 6) احمد اسماعيل ، مدير البحوث الإسلامية والملتقيات بالوزارة · 7) الشيخ عبد القادر الزبير ، مفتش الوزارة فى ولاية وهران ·

(الصورة فى ظهر الصفحة)



محمد علال الفاسى المجدد المجتهد

حياته فى سطور ـ 1328 ـ 1394 هـ (1910 ـ 1974 م)

رب يسر وأعن

احمد حمانى (رئيس المجلس الاسلامى الاعلى)

ـ ولد محمد علال بن عبد الواحد الفاسى بمدينة فاس فى يناير 1910 م (محرم 1328 هـ او ذى الحجة 1927 هـ) .

ـ كان ابوه من اكبر علماء القرويين وبيته منتدى للعلماء من مختلف مدن المغرب ، دخل جامعة القرويين وتخرج منها وعمره عشرون سنة (1930) .

ـ شرع يلقى دروسا بالجامعة ويتناول فيها التاريخ فالتف حوله الطلبة .

ـ اعتقل لاول مرة سنة 1930 ثم افرج عنه فتابع نشاطه السياسى ومنع سنة 1933 من نشاطه العلمى فقرر القيام بجولة فى الشمال ، وقبل رجوعه علم بمكيدة دبرت لاعتقاله فدخل اسبانيا ثم فرنسا فسويسرة ، ولا شك انه اجتمع بالامير شكيب ارسلان .

ـ عاد سنة 1934 الى المغرب ونظم النقابات ، واشترك فى تنظيم حركة سياسية سرية .

ـ فى عهد المواجهة الشعبية سنة 1936 اعلن عن حزب « كتلة العمل الوطنى » بزعامته وبعد مر الحرب أسس سنة 1937 الحزب الوطنى . ودبر المستعمرون حوادث دامية بالخميسات ومكناس فى سبتمبر واكتوبر أسفرت عن عشرات من القتلى والجرحى وحملوه مسؤولية جرائمهم فاعتقلوه ونفوه الى الغابون فى نفامبر 1937 ، وبعد هزيمة فرنسا اتصلت به الحركة الديغولية ، والانقليز ونقل الى ابرازفيل ووجدوا منه المطالبة بحق المغرب فى الحرية والاستقلال فابقى فى النفى والاعتقال ، وانتخب رئيسا لحزب الاستقلال وهو ما يزال فى المنفى .

ـ لم يفرج عنه الا سنة 1946 فسافر الى باريس فى شهر اوت واتصل برجال الجامعة العربية والسياسيين العرب ، وبعد اقامة قصيرة فى طنجة سافر الى القاهرة فى 25 مايو 1947 واتصل فيها برجال تونس والجزائر وعملوا فى « لجنة تحرير المغرب » التى تكونت فى ديسامبر 1947 .

ـ كانت هذه الفترة من اخصب فتر حياته القى محاضرات واخرج كتبا منها « حركات الاستقلال فى المغرب » و « النقد الذاتى » و « احاديث المغرب فى المشرق » . وزار عدة بلدان فى آسيا وافريقيا وامريكا وما عاد الى المغرب الا سنة 1956 بعد اعلان الاستقلال اثر نشوب ثورة عارمة فى الريف ، وفى معظم جبال الاطلس متصلة بثورة الجزائر .

ـ فى سنة 1961 عين وزيرا للدولة مكلفا بالشؤون الاسلامية وبقى فى هذا المنصب حتى 1962 فترك الوزارة ورجع الى المعارضة .

ـ انتخب فى البرلمان سنة 1963 ، وتحالف حزبه سنة 1970 مع « الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية » وهو الذى كان قد انشق من حزب الاستقلال ، فكونوا جبهة « الكتلة الوطنية » وانحلت فى يوليو سنة 1972 .

ـ كان الفقيد الى جانب اعماله السياسية يقوم باعمال ثقافية جليلة فقد كان استاذا بجامعة القرويين ، وبكليتى الحقوق بجامعة محمد الخامس بالرباط وفاس . وطبعت له كتب جليلة منها « مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها » و « دفاع عن الشريعة » و « النقد الذاتى » و « الحماية فى مراكش من الوجهة التاريخية والقانونية » و « حماية اسبانيا فى مراكش من الوجهة التاريخية والقانونية » و « كراس عن السياسة البربرية » و « نداء من القاهر » و « الجواب الصحيح » ويتكلم فيه عن الشهور القمرية واثباتها ، زيادة على ما ذكرمن قبل .

ـ انتخب عضوا برابطة العالم الاسلامى بمكة ويعتبر من ابرز وانشط رجالها .

ـ توفى رحمه الله يوم الاثنين 21 ربيع الآخر 1394 الموافق 13 مايو 1974 بمدينة بوخاريست عاصمة رومانيا ونقل جثمانه الى موطنه حيث احتفل بدفنه احتفالا عظيما من طرف الحكومة والشعب .

محمد علال الفاسي المفكر المجتهد (1)

رب يســـــر وأعـــــن

بسم اللـه الرحمن الرحيـم **صلى الله على محمد النبى الكريم**

ايها الاخوة الكرام

الســلام عليكم ورحمة الله

نجتمع هنا هذا المساء بمناسبة الذكرى الاربعين لوفاة احد رجـــال النهضة الاسلامية الحديثـة ، والقومية العربية ، والوطنية المغربية ، أحد الاحرار المناضلين ، والثابتـين الصابرين المصابـرين ، والعلماء المخلصين المجاهدين ، وهو الاستاذ محمدعلال الفاسي رحمه الله الذى أختير الى الرفيـق الاعلى يوم الاثنين 21 مـن ربيع الآخـر 1394 هـالموافق 13 مايو 1974 م فى مدينة بوخاريســت عاصمة جمهورية رومانيا بينما كان فى سفـارة يفاوض رئيس الجمهورية فيما يهم المسلمين .

وان الكلام على حياة الفقيد واستيفاء جميعجوانبها بما يستحق من عناية ، ودراسة لائقـة لما يستغرق الوقت الطويل ، والمجهود الكبـير ،والكفاءة التامة للقيام بها ، وكل ذلك لا يتوفر لى فى هذه العجالة . ولهذا اخترت ان اتنـاولبعض جوانب حياة الفقيد الفكرية والعلمية ، ولم الم بها الا الماما وعسى ان اكون قد قمت بقليلمن الواجب الثقيل علينا نحو هذا الرجل العظيم فان احسنت وحزت رضاكم فذلك توفيق من الله،وان أسأت وقصرت فقد بينت العذر . والتقصير من شأن الانسان .

1) محاضرة القيت بالمركز الثقافى الاسلامى بمناسبة الذكرى الاربعين التى اقامتها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية يوم السبت 2 جمادى الثانية 1394 هـ الموافق 22 يونيو 1974 م

وقبل الدخول فى الموضوع الذى يشير إليه العنوان رأيت ان اذكر جملة مختصرة ، عن عائلته ومولده ونشأته وتكوينه ٠

مولده ـ عائلته :

ولد محمد علال ابن الشيخ عبد الواحد الفاسى بمدينة فاس عاصمة الادارسة المجيدة ، وعاصمة المغرب التاريخية والروحية والثقافية ٠وذلك فى النصف الاول من شهر المحرم 1328 ه أو فى النصف الاخير من ذى الحجة 1327 ه ٠(لانه ولد فى شهر يناير 1910 وابتداء السنة الهجرية لعام 1328 هو 15 يناير 1910) ٠ وينحدر الشيخ علال من عائلة عربية ماجدة قرشية صريحة النسب ، دخلت الاندلس لاول الفتح ثم خرجت منها مع آخر المهاجرين حيث استقرت بمدينة فاس ٠

يقول الامير شكيب ارسلان رحمه الله :« وفي فاس اندلوسيون كثيرون اشهرهم آل الفاسى . وهم من بنى الجد الفهريين الذين كانوا فى قرطبة ثم فى اشبيلية ثم فى مالقة الى ان ارتحلوا الى فاس عندما لم يبق دار اسلام بالاندلس ٠ وفى كل من العدوتين حفظت هذه الاسرة مجدها وسراوتها ورئاستها ومنهم الشاب الناهض السيد علال الفاسى ، والشاب الفاضل محمد الفاسى وفقه الله وهو من نخبة شبان المغاربة وانجم العرب الذين اتموا تحصيلهم فى باريز (1) » ٠

ويقول الاستاذ عمر بهاء الدين الاميرى ـ فى مجلة الشهاب اللبنانية ـ « ذكر لى الفقيد بنفسه ان أصل اسرته من طليطلة وكانت لها فيها امارة (2) » ٠

والفهريون هم القرشيون عند النسابين ،نسبة الى فهر بن غالب بن النضر بن كنانة كما فى لسان العرب « وقريش كلهم ينسبون اليه »ويصدق هذا قول حسان رضى الله عنه فى اجابة الزبرقان ابن بدر شاعر وفد تميم عن المهاجرين واغلبهم من قريش :

ان الذوائب من فهر واخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع

---

1) حاضر العالم الاسلامى . تعليق شكيب ارسلان . المجلد الثانى ـ ص 48 ط القاهرة 1352

2) عدد 24 من السنة السابعة 7 جمادى الاول 1394 ه ـ 1 يونيو 1974

وهو عند ابن هشام « فهر بن مالك بن النضر بن كنانة » وبعض النسابين يجعلون فهرا هو قريش ، والاصح ان قريشا هو جده النضر بـن كنانة «ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي» هذا شيء قد اتفق عليه ابن هشام وصاحب اللسان .ولكن اختص بالنسب الى فهر من القرشيين بنو الحرث بن فهر . واجلهم مكانة واعظمهم درجـــةهو ابو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الامـــة واحد العشرة ، وفاتح الشام ومطهرها من الرومرضيه ابو بكر وعمر خليفة من بعد رســـول الله لو قبل • ومن قادة الفهريين العظام فى الحربوالسلام الضحاك بن قيس الساعد الامين لمعاوية بن ابى سفيان • ومنهم الفاتح العظيم عقبة بـن نافع بن عبد القيس الفهرى ، كان فى اركـــان حرب عمرو بن العاص فى فتوحاته وله المقـــامالمحمود فى غزو افريقيا والتغلغل فى الصحـــراء والسودان قبل ان يكون صاحب الفتح المبـــينلاقطار المغرب كلها حتى وصل الى المحيطالاطلسى ثم كتب له الله الشهادة بارض الزاب من بلادنابتاهودا حيث يثوى الى الآن مع اكثر من ثلاثمائة من كرام الصحابة والتابعين في مدينة « سيدىعقبة » يقول الناصرى : « ولما استشهد بالزاب بقى بنوه به (يعنى بالزاب) فكانت لهم وجاهةمعروفة بين اهله لمكان ابيهم عقبة من جهاد العدو وما فتح الله على يده من الاقطار واختطاطه مدينةالقيروان التى هى كرسى الامارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الاسلام والدين كله فى صحيفتهفنالوا بذلك شرفا خاصا زيادة على شرف القرشية وعز الفهرية فكان يكون لهم الشفوف فى بعض الاحيان على الولاة فضلا عن غيرهم (1) » . على ان الفهريين أول من دخل الاندلس فاتحين فى بعضالروايات ، وكانوا فى آخر من خرج منها . ودانت لهم بالسيادة فى بعض الفترات •

يقول ابن عذارى المراكشى : « اما دخـولالمسلمين اليها فذكر فيها اربعة أقوال احدهما ان الاندلس دخلها عبد الله بن نافع بن عبد القيسوعبد الله بن الحصين الفهريان من جهة البحر فى زمن عثمان رضى الله عنه قال الطبرى اتوها منبرها وبحرها ففتحها الله تعالى على المسلمين هى وافرنجة وازداد فى سلطان المسلمين مثـــــلافريقية (2) » ثم يقول : « وان ذلك كان سنـة 27 من الهجرة الكريمة (2) » .

1) الاستقصا فى اخبار المغرب الاقصى ج 1 – ص 116 ط . الدار البيضاء 1954
2) البيان المغرب ج 2 – ص 5 ط بيروت 1950

ثم ذكر بقية الاقوال . ولعل هذا كان فيغزوات موفقة سبقت فتح موسى بن نصير وطارق بن زياد للاندلس ، وعلى كل فان الفهريين كانواأيضا في الذروة من رجال موسى في الحرب والسياسة يدل على ذلك ما رواه المراكشي عنولاية عبد العزيز بن موسى اذ قال : « واستخلف موسى على الاندلس ابنه عبد العزيز وترك معهحبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع وزيرا له ومعينا ، واقام معهما بالاندلس من ارادسكناها (1) » . فكان حبيب الرجل الثاني بالاندلس . وقد اعتمد عليه الخليفة سليمان بنعبد الملك ليتخلص من عبد العزيز بن موسى بعد ان نكب اباه واخاه والي افريقيا وخشي ان يخلعطاعته ، فقد اتصل بحبيب ورؤساء الجيش وامرهم بقتله بعد ما يقرب من سنتين من ولايته فاطاعواالخليفة وأخذ حبيب رأسه . ولما اشتعلت الفتن بين امراء الامويين بالمشرق ، واذنت شمسدولتهم بالمغيب استقل الفهريون بالحكم في افريقيا والمغرب ، فاستولى عبد الرحمن بنحبيب على كامل ارض المغرب سنة 127 هـ ثم استولى ابنه يوسف بن الفهري على الاندلسودانتله سنة 129 هـ حتى اذا جاءت فلول الامويين لقيت منهما عنتا ومقاومة ولم يعترفوا بحكم العباسيين.وقاوم الامير يوسف الفهري عبد الرحمن الداخل مقاومة شديدة كان الظهور في معاركها للداخلحتى قتل بناحية طليطلة سنة 142 هـ ولكن بنيه لم يسكتوا عن الطلب فكان الامير عبد الرحمنيحارب الثائرين منهم ، وكثيرا ما يعفو عمن ظفر به منهم ففي 169 ثاب محمد بن يوسف بن عبد الرحمن وتحرك من طليطلة وجهة الشرق بالحشود وقتل في السنة التالية وقام بالامر بعده اخوهعبد الرحمن بن يوسف ثم اذ عن بالطاعة (2) .

ولقد ثبت الفهريون في هذه البلاد المغربيةوالاندلسية . التي سقيت ارضها الطيبة بدماء الشهداء من اسلافهم . وكانوا أوفياء للاسلام ،فانهم لم يرتحلوا عن الاندلس الا بعد ان لم يبق دار للاسلام ، يقول الفقيد :

« انني واحد من احد الاسر التي عاشتسبعة قرون في الاندلس المسلمة ، وهاجرنا منها حينما تغلبت النصرانية عليها ، ومنعت اسلافنامن اعلان ديانتهم واقامة شعائرهم (3) - وكما وجدنا اسماء الفهريين في معارك الاندلس الاولىالمشرقة نجد اسماءهم اللامعة في معاركها الاخيرة البئيسة فقد روى الامير شكيب ملخصا عنواشنطون ارثين لفتح غرناطة يذكر فيها بعض هذه المعارك اليائسة التي كانت تدفع حملاتالتنصير وعدوان فرديناند الكاثوليكي قال :

1) البيان المغرب ج 2 - ص30
2) انظر المصدر المذكور
3) دفاع عن الشريعة - ص 47

« اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المغاربة يخربون ويعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال ، وانتشرت الفتنة (الثورة) فى الجبال كلها لكن وسطها كان فى جبل «برميجة» المصاقب للبحر فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند اصدر اوامره بنقل المسلمين الساكنين فى جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الامر سرا بان من يدخل منهم فى النصرانية يبقى فى وطنه ثم رمى الامة بالقائد المشهور « ألونزو دو اغيلار » ومعه جيش وهو الذى قضى معظم شبابه فى قتال المغاربة فما اقترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم الى رندة للدخول فى النصرانية وجهر الباقون تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى الى حيث يتعذر السلوك ... فتلاقى الجمعان وانتشب القتال (1) وكانت الدائرة فى أول الامر على المسلمين ثم « كر عليهم الفهرى بجماعة من ابطاله وعلت الصرخة فارتجت لها جوانب الاودية وذعر الاسبانيون فتداعوا الى الفرار وثبت ألونزو فى مكانه يحرضهم ويضم من شتيت شملهم فصبر معه جماعة وولى الاكثرون ودخل الظلام وخيم الغسق ... وجرح بطرة بن الونزو فامره ابوه بالرجوع فاصر على البقاء بجانب أبيه ... وتحصن الدون بين صخرتين يتقى بهما فبصر به الفهرى فقصده واستحر الصراع وألح الفهرى وطمع فى قرنه وكانا متماثلين فى ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الحلو فصاح ألونزو بخصمه « لا تحسبن نفسك وقعت على صيد هين فانا الدون ألونزو دو اغيلار » فأجابه المغربى : ان كنت أنت الدون ألونزو فاعلم أنى أنا الفهرى ثم كوره صريعا ... واندفع المغاربة ذلك اليل بطوله يطاردون الاسبنيول ... حتى لاح الصباح فأجلى المعترك عن قتل « الدون فرانسيسكو دو راميز » المجريطى الذى كان قائد المدفعية الاكبر (1) » .

وقد لا تكون بين هذا البطل الاسلامى العظيم من آل فهر ، وبين علال صلة نسب ، ولكن الوفاء للاسلام والثبات عليه ، والاستماتة فى الدفاع عنه ، والجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله قد تكون قدرا مشتركا بين الفهريين القدامى منهم والمحدثين ، حتى اذا زال عن الارض وصف دار اسلام ، ولم تبق – فى النظر السديد – متبوا للايمان وأهله ، وجبت منها الهجرة الى دار الاسلام وهذا ما يفسر تدرجهم فى الهجرة من طليطلة الى قرطبة ثم من قرطبة الى اشبيلية ثم من اشبيلية الى مالقة والى الجبال المصاقبة للبحر ثم الى المغرب ويقول الفقيد :

---

1) حاضر العالم الاسلامى م . الثانى – ص 19 – 20

« وها هي ذي قرون أخرى مضت علينـاونحن في المغرب نحس فيها بنوع من الشوق الى ذلك الماضي الزاهر في الاندلس ، ونتمنى بكـلاخلاص لو انقذ الله تلك الديار مما اصابهـا ، ولكنا لا نعتبر الاندلس وطنا لنا وانما نعتبـرالمغرب وطننا كاننا لم ننحدر اليه من غيره لانـه هو الذي حقق لنا مدلول الآية القرآنية « **والذين تبوأوا الدار والايمان** » « ففي المغرب فقط نجد متبوأ لنا في الارض والايمان (1) » . قال هـذاالكلام ردا على من يزعم ان التراب هو الجامع بين المواطنين وليقول : ان الوطن أرض وشعب وعقيدةوشرائع ومناهج للحياة .

نشاته وتكوينـه :

في مدينة فاس ـ حيث ولد ـ توجد اقدمجامعات الدنيا وارثة ثقافة الاندلس والعصـور الاسلامية الزاهرة ، ومنذ عهد المرينيين لم تخل من فطاحـل الرجـال الذين برهنـوا عـلى كفاءة في فهم الشريعة وعلومها وبيان مقاصدها ،وحفظ العربية ونشرها . وقد كان لهم المواقف الرائعة في بيان الحق ونصرة أهله من ذوى الافكارالاصلاحية والدعوة السلفية والامثلة على ذلـك لا تعوز الباحث ، وقد كان أبوه الشيخ عبـدالواحد الفاسي من جلة علماء عصره « ترك مجموعة قيمة من الفتاوى والاحكام تدل على علو كعبه فيهذا الشأن (2) » وكانت داره مجمع نخبة علماء من الاعلام . فشب في بيئة علمية رفيعة ، واخذيتاهب ليكون رائدا من الرواد ، ولما أدرك وتأهل للدراسة العالية انخرط في سلك طلبة جامعـةالقرويين حيث كان بها « نخبة كبيرة من علمـاء الفقه المشار اليهم بالبنان ، والمثنى عليهم بكـلسان ، مثل علامة المغرب سيدي أحمد بن الخياط الذي له المؤلفات الجيدة في العلـوم الاسلامية ,وسيدي احمد بن الجيلالي الامغاري الـذي كانت دروسه الفقهية تمتاز بالتدقيق وشدة الملاحظـةومفتي المغرب سيدي المهدي الوزاني صاحـب المعيار الجديد وغيره من الكتب الفقهية الممتازة ،والسيد عبد الله الفاسي ... وسيدي احمد بن المأمون البلغيثي ، وسيدي أحمد بن المـواز ،وسيدي محمد بن العربي العلوي , وغيرهم كثير كلهم أمتازوا باتقان الدرس واجادة الفتوى والفهمفي القضاء (3) . وكل هؤلاء الذين ذكرهم ـ في معرض التدليل على وجود علماء مقتدرين عـلىصياغة الفقه الاسلامي في مجلة قضائية ـ وشهد

1) دفاع عن الشريعة لعلال الفاسي ـ ص 47
2) دفاع عن الشريعة لعلال الفاسي ـ ص 300
3) نفس المصدر والصفحة

لهم بما علم اتصافهم به ـ يعتبرون من شيوخهالذين سمع منهم ، وانتفع بهم وشاركوا في تكوينه بدروسهم وتآليفهم · وقد اشتهر من بينهم العلامة الامام محمد بن العربي العلوي بنزعته السلفية ، وافكاره الاصلاحية ، واتصاله برجال النهضة الاسلامية وتأثيره في طلابه وكل من اتصل به من شبان المغرب فكان في المغرب بمثابة محمد عبده ورشيد رضا في مصر ، وابن عاشور والنخلي في تونس ، وابن باديس واصحابه في الجزائر · وكان على اتصال بعلماء الجزائر ورجال نهضتها وانتخب عضوا شرفيا بجمعية العلماء.·ولقد كان كثير من علماء المغرب يشاركون في تحرير مجلة الشهاب في مطلع حياتها ويكتبون المقالات الرائعة والابحاث النفيسة ويعلنون الحرب الشعواء على الخرافات والتدجيل والشعبذة والاباطيل ويعملون لتحرير الفكر من الجمود وتصحيح العقائد · وكونت حركة الشهاب ومقالاته تأثيرا عظيما في الاوساط المغربية لانها كانت متنفسا للاحرار والمفكرين وقد شهد الفقيد في تصريح بفضل الشهاب عليه وعلى الحركة في المغرب ، ومن يراجع مجموعة الشهاب يقتنع ان معاول الهدم لاركان الضلال والاستعمار وتحرير الفكر بدأها هؤلاء العلماء الذين كانوا يكتبون مقالاتهم تحت اسماء رمزية · وكان علال آنذاك في مطلع شبابه ، ومع ذلك فانه شارك في هذه النهضة بالنثر والشعر ولما يتجاوز 17 عاما . ولم يكن انتاجه دون مستوى الفحول من حملة الاقلام من حيث الافكار والمبادى ، ففي 13 من شعبان 1345 هـ (17 ـ 2 ـ 1927 م) نشرت مجلة الشهاب له بامضاء «محمد علال الفاسي» قصيدة عنوانها « واحسرتاه » هذا نصها

··· الى كم نعيش بدون حياة	وكم ذا ننام عن الصالحات
فواحسرتاه على حالنا	وماذا استفدنا من الحسرات ؟
عرانا الذهول و يا ليتنا	عرانا الذهول عن المهلكات
أنبقى بلا عمل نافع	و نرضى جميعا بهذا السبات ؟
حنانيك يا وطني ما اعترا	ك ، كم ذا أصابتك من مفجعات
أضاع بنوك عقولهم	وجاءوا الى القوم بالمضحكات
ألا ينظرون الى شعبهم	أما عندهم له أدنى التفات ؟
لقد شغلوا بسفاسفهم	و ليس عليهم اذا قيل مات

و قائلة لم لا تقتفى   سبيلهم ان أردت النجاة ؟
ألست تراهم فعيشتهم   هنى، و هم أرفع الدرجات ؟
أتحزن أنت على حالهم   و هم ينسبون لك الموبقات ؟
فطورا يقولون ذو غرض   و آونة ما له من حصاة
و آنا جهول و كم مرة   يريدون سقيك كأس الموات
لأنك سفهت أحلامهم   و عبت قبولهم المرحفات
فدعهم وشأنهم و اتخذ   لنفسك غير سبيل العظات
فقلت و قد فطرت كبدى   و سالت على خدى العبرات
هو الحر يقتحم المهلكا   ت اما الى العز او للممات
وليست براضية نفسه   مقاما على مثل هذى الحياة
ولو أن نفسى تطاوعى   وأرضى ضميرى رضيت السكات
ولكن نفسى تمنعنى   وذلك شأن نفوس الأباة
أ أرض بذل و منقصة   وعندى لسان من المرهنات
سأجعل لى مسكنا فى السها   فان لم أجده فبين الرفاة
ولى، أمة فقدت مجدها   سأخذمها بسنا الخدمات
وأنفخ فى نفسها نهضة   تروق على سائر النهضات
وألقى على نشاها نظرة   ترقى البنين وتعلى البنات
فتبلغ ما أبتغيه لها   وما يرتجيه جميع الحماة
فلى مبدأ سوف أخدمه   وأبلغه رغم أنف العداة
وليس على اذا غضبوا   وكانوا الوشاة وأردى الوشاة
سيكفينى الله شرهم   وهل مثلهم يبرد العرمات

واني عـــلى مبـــدئي ســائـــر فاما حيـــاة واما ممـــات (1)

والقاء نظرة على هذه القصيدة « الشابة »تقنع قارئها أن الشاعر قد فكر بعد فى شـــأن أمته ، واستنكر ما عليه قومه من رقود وخمول ،وأنكر اهمال شأن الشعب من الطبقات الرفيعـة المترفة • وأعلن أن نفسه ألزمته ان يقتحـم فيسبيل خدمة امته المهلكات فقبل والتزم وعاهد أن يخدمها بسنا الخدمات وان ينهض بها الى مـايبتغي ويرتجيه كل الحماة ويرقى البنين ويعـلى البنات ، وهذا ما قضى فيه حياته حتى الممـاتوبذل فيه كل المجهودات فبلغ أبعد الغايات » وفى 20 رمضان 1345 هـ (1927/3/24) نشرت لـهقصيدة أخرى ، قيل عنها من بعد انها أول انتاجه تحت عنوان « سيعرفنى قومى » :

أبعـد مـــرور الخمس عشرة ألعب	وألهـــو بلـذات الحيـاة وأطـــرب ؟
ولى نظـــر عـــال ونفس أبيــــة	مقامـا عـــلى هـــام المجـرة أطلب
وعندى آمــال أريـــد بلوغهـــا	تضيــع اذا لاعبت دهـرى وتـذهب
ولى أمـــة منكـــودة الحـظ لم تجد	سبيـــلا الى العيش الـذى تتطلب
قضيــت عليهـا زهــو عمـر تحسرا	فما ســاغ لى طعـم ولا لـــذ مشرب
ولا راق لى نـــوم . وان نمت ساعـة	فانى عـــلى جمـــر الفضـا اتقلب
وصرت غريبا بـين أهـــلى ومعشرى	ومـــن كان ذا فكر كفكرى يغـرب
تعـيرنى هنـــد نحـــو لى وما درت	بأنى مـــن فـرط التحسر موصـب

ويقـول فيها :

عذيـــرى من قـوم أتـوا بسفاسف	وجـوههم بـين البـريـــة صلـــب
بذلت لهـم نصحى وقلـت تعلمـــوا	وكـــل ذوى الرأى السقيـم تجنبوا
ولا تركبـــوا متن الغوايـة والـردى	ومتن العـلا والجـد والحزم فاركبـوا

1) الشهاب عدد 84

دعـوتهـــم للصالحـــات فأعـرضوا وقالوا ضـــلالا أنت خبث مكـذب
تحـزب ضـدى كل أهـوج ظالـــم ولو علموا أني الفتى ما تحـزبـوا
وما ساءنى فى القـوم الا عقولهم وظنهـــم أن المعـــالى تـــوهب
وكنت أرى تحت العمائـم حاجـة فما هى الا أن يـــدوم المـــرتب
بلـوت بنى أمي سنـــين عـديـــدة فالفيت ان النشـــأ للخـــير اقـــرب
ولكن : أين النش، فهـــو مـولـــه وأيـن ضمـير النش، فهـــو محجب

ويختـم بقـوله :

سيعـرفنى قـــومى اذا جدجدهـــم كما عرفونى اليـوم اذ قمـت أخطب
فما الفذ الا مـــن يصارح قـومـــه وما الفذ الا مـــن يقول فيعرب (1)

وقد أستحق بمثل قوله فى القصيدة الاولى :«وانى على مبدئى سائر ـ فاما حياة واما ممات» وقوله فى هذه « سيعرفنى قومى اذا جد جدهم »لقب الشاعر الحماسى من الاستاذ ابن باديس رحمه الله . وكان لهذه القصيدة وامثالها دوى فى الجزائر فقد روتالشهابفى عددها 126 قول احد آبائنا « أذكر اننا كنا قرأنا ببسكرة قصيدة تطفـــحعاطفة وشعرا نشرها الشهاب الكريم لاخينا شاعر فاس النابغة العبقرى الشاب السيد محمد علالالفاسى طالعها «أبعد مرور الخمس عشرة ألعب» ؟ فتهادينا بشارة يبشر بعضنا بعضا ، وفرحنابهذا الشاعر الجديد فرحا شديدا » ثم ذكـــر الكاتب أنهم أقاموا حفلة تكريمية رمزية للشاعـرلم يحضرها ، وترأسها الاديب الكاتب الشاعر محمد الامين العمودى رحمه الله » وسبب هـذاالاحتفاء أنهم علموا بوجود شباب ناهض وعصبة مؤمنة وناشئة مباركة زكية تجد فى تحطيـــمالخرافات وتطهر العقائد وتدعو الى سبيل المؤمنين بالحكمة والموعظة الحسنة (2) . كانت هذه الحركةالسلفية بالمغرب مدعمة لحركة الجزائر ، مزلزلة لأركان الجمود، مهدمة لاساطير الاستعمار بالقطرين موحدة لجهود العلماء ، وكان للشهاب ومقالات

1) الشهاب العدد 89
2) صدر فى 20 جمادى الأخيرة 1346 هـ (1927/2/15)

علماء المغرب فيه فضل فى يقظة الرأى العـــامالمغربى وتطلعه وحسن توجيهه وتخلصه من آثار الدجل والخرافة والجمود . وقد أحس المستعمرونبشدة وطأتها وخطرها على مشاريعهم الاستعمارية والتنصيرية وعلى أحبابهم ومصالح عملائهم فمنعوادخولها بقرار من المقيم العام الفرنسى م. ستيق، صدر فى 29 جوان 1927 وقبل هذا المنع كانت ـ كما جاء فى مراسلة من المغرب ـ : «تحت» مراقبة ادارة الاستعلامات التى لا تسوغ تفريقهاوبيعها قبل مطالعة جميع فصولها وبسبب ذلـك صارت ربما تتأخر فى الادارة أياما معدودات .والحامل للسادة الحكام على ذلك هى الحملة الـتى أقامتها بعض الجرائد الفرنسية ضدها وضـــد جريدة البرق متهمـة لهما بضدية الحكومـــة الفرنسية (1) . أما مجلة الشهاب فقد علقت علىهذا المنع بقولها :

« الشهاب خليق به أن يتوقع هذا الضغطعلى الصحافة والمفكرين (2) » ثم يقول :

« والتحجير الخـانق مما يضاعف للشهابالشرف وعلو السمعة وقد تعودنا مثل هـــــذه التشريفات منذ استشهاد المنتقد (2) » ثم يختمتعليقه « وما علينا الا أن نقابل هذه البساطـــة الجاهلية بالعزيمة الفولاذية والثبـــات الراسـخاللذين هما العامل الأقوى فى جميع انتصاراتنا المشهـودة » :

ولسنا عـــلى الأعقـــاب تدمى كلومنا ولكن عـــلى أقدامنـا تقطـــر الـدما
لا يقع الطعـــن الا فى نحـــورهـم وما لهم عن حياض المـوت تهليـــل
لا يفرحـــون اذا نالت رماحهـــــم قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا (3)

وشارك علال ـ فى الشهاب ـ بمقال نثرىأثناء هذه الفترة موضوعه الاخلاق ، بين فيه وجهة نظره وأعرب عن بعض آرائه فى الاصلاح ، هذهالفترة من حياته كانت حافلة بالاحداث الحـافزة للهمم العالية والقاضية على النفوس الخـوارة .لقد فتح عينيه على ثورة وطنية عنيفة وكفـــاح حربى غير متكافى، بين دولتى اسبانيا وفرنسامن جهة ، وطائفة مؤمنة من المغاربة بقيادة الامير

(1) عدد 104 من مجلة الشهاب 1346/1/7 هـ ـ 1927/7/7 م
2 و 3) عدد 106 من مجلة الشهاب 1346/1/21 هـ ـ 1927/7/21 م

عبد الكريم رحمه الله هز هذا الكفاح عـــالم الاسلام هزة عنيفة ، وأذاقه طعم النصر ثم مرارة الهزيمة أمام القوى المتجمعة والتحزب الصليبي الاستعمارى ، ولقد شارك علال فى معارك فكرية لأول مرة فى حياته وبرزت شخصيته فيها يحمل لقب الشاعر الحماسى . والشاب المفكر ثم ها هو الاستعمار يتدخل ويمنعه من ارتياد هذه الساحة وقراءة الشهاب أو الكتابة فيه . لابد لكل هذا ان يترك اثرا فى نفس الطالب الشاب ، وما ان انتهى من دراسته بالقرويين ، وحصل على اجازتها العليا عام 1930 م حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام اكبر تحد للاسلام بالمغرب ، ففى 16 مايـو 1930 م اصدر الفرنسيون الظهير البربرى ليمنعوا البربر من ارتياد المحاكم الشرعية والتحاكم الى القضاء الاسلامى ويجبروهم عـــلى التحاكم الى الاعراف الجاهلية فى بعض احوالهم والى المحاكم والقوانين الفرنسية فى الاغلب تمهيدا لفصلهـم التام عن الاسلام وتنصيرهم ، لقد كان علال آنذاك فى عنفوان سن الرجولة المعتزة بفورة الشباب السكرى بالامجاد : مجد عائلى ، ومجد علمى ، ومجد قومى دينى فصعد الى رتبة الزعامة وقيادة الجماهير وتوجيهها وتأليبها ضد ارادة المستعمر الكائد فتجمعت عشرات الألوف تردد اســـم اللطيف فى المساجد منشدة :

يا لطيف ، الطف بنا فيما جرت به المقادر   ولا تفرق بيننا وبـين اخواننا البرابـر

وهبط البربر من جبالهم الى المساجـــد ينشدون باسم اللطيف مع اخوانهم ويفكرون معهم فى وسائل الخلاص ويدبرون له وبدأ الصراع وفوجئت القوى الاستعمارية بما لم يكن لها فى الحسبان وتنبأ احد الصحافيين الفرنسيين للفقيد أنهم اذا ثبتوا على المقاومة قد يصلون الى الاستقلال ولكنهم لن يتوصلوا الى ان تمحو فرنسا الظهير البربرى . وهذا ما كان ، فقد كان حادث اصدار الظهير البربرى من أكبر عوامل تنظيم المقاومـة العملية التى قادها علال فالقى عليه القبض عام 1930 ثم افرج عنه واخذ يذوق مـرارة الضغط والاضطهاد والمطاردة والاعتقال والنفى ولكـــن كل ذلك لم يصده ولم يثنه عن عزيمته لانه كان مؤمنا ملتزما :

ولى أمـــة فقـــدت مجدهـــــــا	سأخـدمها بسنـــا الخـــدمـــات
وانفـخ فى نفسهـــا نهضـــــــة	تـــروق عـــلى سائـــر النهضـات
والقى عـــــلى نشئتهـــا نظـــــرة	نـــرقى البنـين وتعـــــلى البنـات
فيبلـــغ مـــا ابتغيـــــه لهـــــا	ومـا يـــرتجيـــه جميـــع الحمـاة

فـلي مبـدأ سـوف اخدمـه وابلغـه رغـم أنـف العـداة
واني عـلى مبـدئي سـائـر فاما حيـاة واما ممـات

ونظم العمال في نقابـات ، والشعب في تشكيلات سياسية ، وثورية ، وأنشأ المدارس العصرية ، وعلم فيها بنفسه وعمل للاقتصاد وأبعدعن الوطن معتقلا في أقسى الظروف الزمنية والمكانية ما يربو عن 9 سنوات . وهاجر لخدمةوطنه وجال في انحاء العالم وبلغ شعبه ما يرتجيه من نهضة رائعة ، وطرد المستعمر من البلاد ولمينسخ الظهير الا بعد الاستقلال ، ولم يفتر علال ولكنه بقي يعمل لما يبتغيه لامته الاسلامية من عزواستقلال في جميع مناحي الحياة وارتقاء وظهور حتى مات غريبا وهو يعمل ، رحمه الله .

عـلال المفـكر المجتهـد :

لقد كان علال فريدا في زعماء السياسة ، فذا في رجال الكفاح الوطني ، يتحلى بمجمـوع صفات قل ان اجتمعت في غيره : فهو عالم فقيه ، وكاتب قدير ، وشاعر فحل ، وخطيب مصقع ، ومدرس محاضر مقتدر ، وباحث مدقق ، ومحلـلاجتماعي موفق ، ومؤلف ناجح . هذه الخصـال مجتمعة فيه تدل على كفاءة نادرة ، وعبقريـة ،ونبوغ ، وجودة فكر ودقة فهم ، واذا كان مـع ذلك العزيمة الفولاذية ، والانف الحمي ، والصابرة والمثابرة بلغ صاحبها أعلى مكان .

والتفكير كما صرح به احد حكماء الغرب « هو مبدأ ارتقاء البشر وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه ! » . ولقد كان علال مفكرا ، ولعل أول مـنوسم فقيدنا بلقب « المفكر » هو استاذنا عبـد الحميد بن باديس قدس الله روحه ، وكان ابـنباديس ذا فراسة قل أن تخطىء ، ضنينا بالالقاب على غير اهلها سخيا بها لمن استحقها تشجيعا منهله وتوجيها ، وأخذا بأيدي الشبان وتكوينا لهم . أطلق على الفاسي لقب « الشاب المفكر والشاعـرالحماسي » ولما يبلغ العشرين ، وقد برهن عـلال بعد على صحة فراسته فيه .

والمفكر اسم فاعل من فكر مضعف فكر بمعنىتفكر ، والفكر ـ بالفتح والكسر ـ اعمال الخاطر في الشيء ، والتفكير التأمل والنظر العقـلي ،والتدبر ، هذه أعظم وظائف العقل ، وبالعقل فضل الانسان على جميع انواع الجنس الحي . واذا كانتبعض التقاليد الدينية قد حجرت حرية التفكـير واستقلال العقل على البشر فان الاسلام ابطل هذاالحجر واعتق الانسان من هذا الرق بتمجيـد العقـل والدعـاء الى استعمالـه بالتفكـيرواكتشاف الحقائق والمعارف به . ومن المسلمين

تعلمت أمم الغرب هذه الحرية الفكرية فسعـــدتبرقي المعارف وازدهار الحضارة واستبحار العمران ثم نكس المسلمون على رؤوسهم وحرموها على انفسهم واصبحوا مقلدين في كل شيء حتى في الحرية الفكرية ظنوها بنت الغرب وهي وليدة مبـــادىء الاسلام ٠

ذكر العقل باسمه او افعاله او ما يرادفه كأولي الالباب واولي النهى أكثر من خمسين مـــرة في القرآن الكريم ، وفيه آيات كثيرة تدعو الى النظروالتفكر والتفكير و « من تأملها علم ان اهل هـذا الدين هم اهل النظر والتفكر والعقل والتدبـير ،وان الغافلين الذين يعيشون كالانعام لا حظ لهم منه الا الظواهر التقليدية التي لا تزكي النفسولا تصعد بها الىمعارج الكمال(1) » ومنهذه الآيات قوله تعالى « **قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكـروا** » وقوله «**أولم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السماوات والارض ومـا بينهما الا بالحق وأجل مسمى** » وقوله « **ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهارلآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قيـــاما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماواتوالارض ربنـا ما خلقت هـذا باطـلا** » ذلك ان استعمال العقل بالنظر والتأمل والتفكر هو طريقالفهم الصحيح والفقه الصريح والوصول الى العلم والعرفان ٠ فهو خليق بارتقاء البشر وتفاضلهـمبجودته ٠ وقد صح من سيرة رسول الله صـلى الله عليه وسلم انه كان كثير الصمت قليـــلالكلام وانما يفعل ذلك ليذكر ويتفكر في خلـق السماوات والارض ويعلم أمته فعل ذلك ٠ وجاء عن الامام مالك رحمه الله انه لم يكن يسرع في الجواب اذا سئل بل كان يفكر كثيرا قبل الجوابحتى يصل الى الصواب سئل عن ذلك فقـال : « ربما وردت على المسألة تمنعني الطعام والشراب والنوم (2) » وقال مرة : « ربما وردت عـلى المسألة فافكر فيها ليالي » « وكان اذا سئل عـنالمسألة قال للسائل : «انصرف حتى انظـــر فيها (2) .

وحري بمن يفكر في المشاكل المطروحة ويتوقع المشاكل المحتملة ، ويتمعن في المســائل العارضة متأملا ، متدبرا لها الحلول الصالحـة ،مستنبطا لدفعها الوسائل المعقولة أن يصل الى رأي صحيح ويسعد بنتيجة سارة .

---

1) تفسير المنار ج 11

2) الموافقات لابي اسحاق الشاطبي ج 4 – ص 286

هذا التثبت والتريث في النظر ، والتمهل والتلبث في استنباط الحلول المعقولة للمشاكل الطارئة او المتوقعة هو مذهب علال ، يسلكه ويدعو اليه ، ويستنكر على امته التسرع والارتجال . يدعو الى الثورة على هذا الاسلوب الارتجالي في التفكير والعمل ويقول :

دا. الارتجال :

« ان اخطر الادواء التي يشتكي منها العرب اليوم والتي لها نصيب كبير في فشل كثير من شؤونهم انهم لا يعدون للامر عدته ولا يحتاطون له قبل حينه . ولكنهم يظلون في تغافل وفي تردد ثم يرتجلون الافكار على ضوء الحاضر السريع ويرتجلون بعدها العمل على حسب ما تقتضيه الظروف (1) » . ويتألم من شمول هذا الارتجال حتى عم كتابنا وشعراءنا فيقول

« ان كتابتنا تكاد تكون كلها ارتجالا وفي لغة البرقيات ودون ان تضمن ما كانت تحتوي عليه من الكلم الجوامع في العهد الاول للسان العربي .أما شعراؤنا فانهم لا يجدون من الوقت ما يصلحون به العروض والنحو فضلا عن الاتيان بما يلذ السمع من حكمة وبيان ، وكأن البحار كلها تفيض عليهم دفعة واحدة، فيلتجئون بسرعة الى قافية يعتصمون بها ولو كانت من قصب الشاطىء او من هلاهل التيار . اين نحن من عصر الحضارة العربية يوم كان الجاحظ ينام في دكاكين الوراقين ليستمد مما عندهم . وكان ابن المقفع يسهر على نقل الحكمة القاصية، بينما يقف الباقلاني واضرابه انفسهم على سهر الليالي ذوات العدد رغبة في التوفيق بين العقل والدين ؟ (2) . ولهذا يقول « لنثر على الارتجال ، ولنكن أقدر على الاعداد والتحضير حتى نستطيع ان ندرس في اناة ونعمل في سعة ، وننجح في الآبان » (3) .

وجوب تعليم الشعب التفكر :

وكان من عظيم اهتمام علال بالتفكير وتعميمه ووجوب تعليمه ان بنى على ذلك كتابا كاملا من أهم كتبه : « النقد الذاتي » وجعل مداره كله على التفكير . لقد اقتنع ان التفكير مبدأ ارتقاء

1) النقد الذاتي لعلال الفاسي ط ثانية - تطوان ، ص 23
2) النقد الذاتي لعلال الفاسي ط ثانية - تطوان ، ص 25
3) النقد الذاتي لعلال الفاسي ط ثانية - تطوان ، ص 26

الشعوب ولذا فهو يرى وجوب تعميمه واطلاق الحرية للمفكر ، ويروى عن فولتير قوله : « اذا أردت انهاض شعب فعلمه كيف يفكر ! » ويدعمه ويبرهن على صحته بالنهوض السريع لامم اوروب وامريكا نتيجة تعميمه والحرية فيه ، ويستهجن جناية النازية في الموضوع ويستقبح قول هتلر زعيمها في كتابه « كفاحي » : « يجب ان تنسى الشعوب عادة التفكير ويتركوا للزعماء ورجال الحكم ان يفكروا لهم ، وان خير وسيلة لذلك هي فرض الرقابة على الصحف والمطبوعات (1) » ثم يعلق على قول الزعيم النازي : « وهكذا تكونت الجحيم النازية التي رأينا نتيجتها في استبداد هتلر بقيادة الشعب الالماني نحو مصير بائس ونهاية مؤلمة ! .. » . والحضارة الاسلامية كانت في اوج عزها وازدهارها يوم كانت تعاليم القرآن متبعة في اعطاء الفكر حرية الانطلاق وحرية الاستنتاج والعمل ، ثم آل الامر الى الانهيار يوم انتصر دعاة الجمود وانصار التقليد ومحتكرو الفكر والمعرفة هؤلاء الذين ثارت على جمودهم الحركة السلفية التي يقول فيها

« من الحق ان نعترف بان للحركة السلفية التي علمت فجر نهضتها فضلا عظيما في اراحة كثير من هذه الحجب وفي توجيه العقول الى النظر والبحث وفي الثورة على عديد من الخرافات ورجالها . ولكن ما وصلنا اليه من حب النظر ليس الا جزءا مما يتطلبه الفكر الحر منا (2) » وهذه الحركة السلفية التي اشار اليها هي التي ارتبطت بمدرسة الشهاب واتصل فيها علماء المغرب بعلماء الجزائر وخصوصا اثناء السنوات 25 – 26 – 1927 وكتبت ابحاث شريفة من حلة علماء مصلحين سلفيين وكان من فضلها تكوين شخصية امثال علال من عظماء الرجال .

وعلال المفكر لم يكن – منذ وسم بهذا اللقب – يفكر في مشاكل فرد ، أو عائلة ، أو مسألة خاصة انما كان يحاول في تفكيره معالجة مشاكل أمة جبل على حبها ونشأ على الاخلاص لها، وعاهد الله ان ينقذها من هاويته . ومنذ كان يافعا بدأ يهتم بمشاكلها ويمعن النظر فيها ويحاول ان يشخص ادواءها ليصف ادويتها ويهتدي الى النافع منها . ففي أول مقال نشري نشر له في الشهاب تحت عنوان « حاجتنا الى الاخلاق » بحث عن عوامل النهضة ، واهمية الاخلاق والعلم وصورها بلغه أمته من سوء وانحطاط في الاخلاق من « عهارة وفسق وتباغض وشنئان ، وخداع

1) النقد الذاتي – ص 35

2) النقد الذاتي – ص 37

،كذب وسقوط همة ودناءة نفوس (1) » ويقتنعوان من هذه الاخلاق الفاسدة ما لم يكن فينا ولكنا تسرب الينا من المدنية الغربية التى اندفع الناس فى تقليدها دون تمحيص بين المنافع والمضار ، ثم يصل الى الرأى السديد ويعلن عنه .

« واذا كان من الرأى المصيب ان نقتبس من الغربيين ما لهم من معارف ونأخذ عنهم كل ما يرقينا فى معترك الحياة ويجعلنا فى المصاف الاولية للامم الحية فليس من الحكمة ان نقلدهم تقليدا ونجمد على افكارهم جمودا والا ضيعنا تلك الموهبة العقلية التى وهبناها واصبحنا من الخاسرين (3) » لقد صدر منه هذا النقد لوضعية أمته . والوصف لادوائها وعللها . والنصح لعلاج حالها واصلاح امرها وعمره دون العشرين . وتقدمت به السن ، وذاق المحن والعذاب والسجن ولكن كل ذلك لم يصده عن التفكير فيها والكشف عن أمراضها والوصف لدوائها ، فهو يفكر فيها شابا وكهلا وشيخا ويخدمها فى المنشط والمكره وذلك شأن المجاهدين ، فاستمع اليه وهو يقول :

« يجب ان نسأل انفسنا فى كل صباح ماذا سنفعله اليوم لامتنا ؟ ثم نمضى وكل همنا فى اعمالنا الخاصة والعامة اداء الواجب ... ثم متى عدنا فى الليل الى فراشنا يجب ان نلقى نظرة على ماذا فعلنا مستعرضين اعمالنا اليومية محاسبين انفسنا ... متسائلين ماذا فعلناه اليوم لامتنا ؟ (2) »

ترى لو فكر كل مسلم تفكير علال كيف يكون حال المسلمين ؟

المفكر كالرسام

يرى علال ان القضايا التى يعلنها المفكر لامته ، ويعرضها عليها يجب ان يكون قد عرفها جيدا فهى واضحة لديه ويدريها ويتصورها اكمل تصور وبذلك يحسن تاديتها

« ان لكل قضية صورة كاملة ، وان المفكر بمثابة الرسام الذى يجليها أمام نفسه أولا ثم أمام الجمهور ثانيا ، واذا لم ينجح الرسام فى تمثل الصورة التى يريد تسجيلها تمثلا كاملا بما فيها من نور وما يكتنفها من ظلال فانه لن يستطيع ان يبرز للناس الا رسما ناقصا أو

1) مجلة الشهاب العدد 92 الصادر فى 12 شوال 1345 هـ - 14 ابريل 1927 م
2) التفكير الذاتى - ص 30

اسطوريا لايمت للذات التي يريد ابرازها بصلة·وهكذا شأن المفكر فانه اذا لم يستحضر كـــل اجزاء الموضوع الذى يتناوله بالنظر ولم يحط بكل جوانبه فانه لا يتسنى له الا ان يعرضه للناس مبتورا مشوها (1) » .

الثـورة في التفكـير :

وهو يدعو الى تفكير ثورى يخرج قومه منضيق الافق الــذى كونته طبقة الفانقيـن (2) « يجب ان ناخذ انفسنا على تفكير غير رجعى ، بلتفكير ثورى يخرج بنا من ضيق الافق الذى كونته فى الانسانية طبقة الفانقين (4) » ولا يريـــدـ كما صرح ـ بالثورة الهدم والتخريب والخروج عن العدل والاحسان فذلك من الفوضى » ولكنا نريد الانعتاق من تقاليد البيئة الاجتماعية الـتى جعلتنا لا نحس الا بوجودنا الخاص . ونريد ثورةفى التفكير تغير من عقليتنا ونعمل على تبديـل ذهنيتنا حتى نستطيع ان نعالج مشاكلنا وفقا لمايقتضيه هذا العصر الذى اصبحت فيه المـادة والآلة فى المقام الاول يجب ان نكيف انفسنا بمايقتضيه العدل والاحسان كما يفهمهما الانسانيون فى هذا العصر لا كما فهمهما اسلافنا فى عصرالانحطاط الاخير ، يجب ان نتحرر من ذهنيـــة الطبقة الفانقة (البرجوازية) التى تخشى من كل جديد (3) » .

الانانية الطاغيــة

ومما تعرض له من مسائل الفكر الانانيـةوصعوبة تجرد الانسان منها ، وقد أبرز رذائلها فقال : « ان طغيان الانانية هو الذى يجعل منـافرادا لا يشعرون الا بما يلمس وجودهم الخاص ولا يتجهون بافكارهم الا نحو ما يعود عليهـــمبالنجاح · هذا الطغيان الانانى هو مصدر كل النقائص الاجتماعية التى نحس بها فى وسطناونلمسها فى بلاد غير بلادنا : هو الذى يحمـــل الحاكم على ظلم رعيته رغبة فى اطفاء حاجته للمالمن طريق الرشوة والاستبداد من طريق الشهرة· وهو الذى يمنع العالم من ان يؤدى واجب النصحوالارشاد حرصا عـــلى جاه كاذب يستهويه أو منصب زائف يغويه . هو الذى يمنع الغنى مـنالتفكير فيما يصلح حال اخوانه البائسين أو يعمل

---

1) المصدر السابق ـ ص 18

2) الفانق هو المنعم المترف ، ويرى المؤلف استعمال هذا اللفظ عوض البورجوازى

3) النقد الذاتى ـ ص 9

عـــلى التخفيف من آلامهم ، ويحمـــل الطبيب والمهندس والمحامي على خيانة الامانة التى تحملوها حتى يتمكنوا من تحقيق رغباتهم في الغنى واطفاءنهمهم بالتملق للرؤساء الحاكمين . وهذا الطغيان الاناني هو الذى يملك نفوس الملوك والرؤسـاء حتى يكون في اعماقهم شعورا مخطئا بامتـــياز بلادهم ، أو تفوق عنصرهم فيحملهم ذلك عـــلى الاعتداء على ممتلكات الغير واوطانه ، وهو مصدر كل الحروب الاستعمارية وآثارها (1) » . وهـوبعد هذا التشخيص يرى ان العلاج ان نوجه هذه الانانية فينا التوجيه الصحيح من حب للذات مضر جدا بالآخرين الى حب للـذات يفنيها في صالح المجموع بحيث « تصبح فرديتنا وهى تنشد انانيتها عن طريق الامحاء في المجموع والانغمار في صالحه والامتزاج بحاجياته فلا نحس لعملنا قيمة الا اذا كان من ورائه نفع عام ولا لجهودنا فخرا الا بقدر ما فيه من اثر في جلب الخير للناس ودفع الشر عنهم (2) » وهو مقتنع ان هذه غايـة الرسل من اداء رسالتهم . وما البطولات الـتى شهدتها الاراضى وضحى فيها اصحابها بانفسهم في سبيل الدفاع عن امتهم وقومهم الا من هـذا النوع وقد عبر عن ذلك الشاعر بقوله

« تأخرت أستبقى الحياة فلم اجـــد لنفسى حياة مثـــل ان اتقـــدما (2)

وينتهى الى وجوب العناية بالآخرين والتفكير بالغير . ويسمى هذا « التفكير اجتماعيا » ويقول :

« لا يمكن لامة ان تنهض من وهدة السقوط التى وقعت فيها الا اذا تدربت ان تفكر اجتماعيا وتعودت ان لا ترى في مسائل الافراد أو الطبقات الاخرى شؤونا بعيدة عنها (3) » .

المساواة في الاقل الحيوى :

وقد أعلن انه لا يجوز بحال اهمال شأن المستضعفين والبائسين عراة جياعا مرضى ويكتفى في امرهم بالاحسان اليهم « ان الله الذى خلق الانسان يوم ولادته عاريا وخلق الدنيا يـــوم بروزها كاسية ما زال يخرجنا من بطون امهاتنا متساوين في العرى لكى نتساوى في الاستفادة

1) المصدر السابق - ص 3 و 4
2) المصدر السابق - ص 4
3) المصدر السابق - ص 7

من كساء الارض (1) » – « متى نمسك عن احتقار عرق العامل الذى يكدح لنستريح . والفلاح الذى يجوع لنطعم ؟ والصانع الذى يستيقظ لننام (1) » .

« ليس احد اجدر بالثراء من احد ولا جماعة أولى بالحياة الواطئة من غيرها وان لكل يجب ان يتساوى فى الاقل الحيوى (1) » .

« لنلق نظرة عامة على اخواننا ولنتغلغل بنظرنا الى اعماق البؤس الذى هم فيه ولنشاهد آلاف المسلولين الذين افقدهم الجوع والعرى اغلى شىء فى الوجود هو الصحة ولنعاود النظر فى ملايين المنكوبين الذين لا يجدون مأوى ولا يحسون بالعطف من احد ، ولتألم معهم (2) » .

« ولكن لا ينبغى ان نقف عند مجرد الالم... بل يجب ان نتجاوز الشعور الى التفكير فى الاشياء واسبابها ... واذا فكرنا فلا ينبغى ان نظل محصورين فيما ورثته لنا الاجيال من عاطفة الصدق الاختيارية اليسيرة ... ان واجبنا جميعا ان نبحث لهم عن الوسائل التى يستطيعون بها حياة شريفة يحسون معها انهم يكسبون كما نكسب ويربحون كما نربح ، وانه ليس لاحد عليهم فضل الا فضل التعاون المتبادل والتضامن المشترك (2) » . ثم يوضح ان الثورة هذه لا تعنى الهدم ولكن تعنى معالجة القضايا بروح العصر فى دائرة العدل والاحسان .

ومن هذا التجديد فى التفكير والثورة على القديم ان يكون التفكير شموليا « بحيث نستحضر اثناء اهتمامنا بعمل ما جميع اجزاء البلاد وعناصر الامة وان ننظر الى وطننا ككل لا يقبل التصور الا كاملا . والى النفع كخير لا يمكن تحقيقه الا شاملا ، وان اهتمامنا ينبغى ان لا يخص طبقة دون طبقة بل يجب ان يعمل على اصلاح شامل وتحسين كامل لحال الطبقات الاجتماعية باسرها تحقيقا للتقارب بينها أو القضاء الكلى على ما بينها من فوارق (3) » .

واثناء التفكير فى اصلاح الامة « يجب الاحاطة بكل القضايا الوطنية ... وانه من خطل الرأى ان يطغى علينا جانب منها دون الآخر (3) » ويرى انه يجب ان تتعدد الزعامات

1) المصدر السابق – ص 8
2) المصدر السابق – ص 8 و 9
3) المصدر السابق – ص 14

الوطنية لا وان يكون للوطنيين قادتهم الاجتماعيون والاقتصاديون والروحيون الى جانب قادتهم السياسيين (1) .

ويعلن استهجانه الجمود الفكري وانه لا نجاة الا بالنضج العقلي والتفكير الصحيح :

« اننا نريد ان ننضج العقل المغربي ونعده لما يصبو اليه من حرية واستقلال ، وفي نظري ان ذلك ليس في مجرد تكثير حملة الشهادات الذين يملأون الاطار الحكومي ولكن في تنوير اذهان الامة وتعليمها وسائل النهوض الصحيحة والاخذ بيدها الى شاطىء السلامة المنشودة(2) » .

لقد عرضنا امثلة من افكاره ، ونماذج من آرائه في الاصلاح . وقد كتب كثيرا ، وعالج قضايا الفكر والادارة ، والانظمة الحزبية ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والدين . تعرض للعائلة وما يهددها من آفات ، وتعرض للتربية والتعليم ، وللصحة العام . ولكل شؤون حياة الامة وشخص الداء ووصف الدواء . وبعض آرائه تحتاج الى تمحيص وبعضها الى مناقشة ، واخرى الى رد ورفض ، وقد اعلن رحمه الله في أول كتابه الذي اشتمل على اغلب قضايا الفكر انه يعرض افكاره ولا يفرضها على قرائه او يلزمهم بانتحالها . وانه مستعد لاعادة النظر في كل رأي منها مع اي واحد ممن يهمهم الدرس والبحث عن الحقيقة ، وهذا منه غاية التواضع والفضل والدلالة على كمال الادب وحسن الخلق وسلامة التفكير .

علال الفقيه او المجتهد :

لقد آثرت ان اسمه بالفقيه لان هذا اللقب الشريف هو المعروف لامثاله زمن السلف الصالح من جهة ، ولان المغرب قد حافظ على استعمال هذا اللقب في معناه السلفي ، واحتفظ لاهله بكامل التجلة والاحترام من جهة اخرى .

والفقه ـ في اصل الوضع ـ عبارة عن الفهم والعلم . يقال فقه كعلم وفهم وزنا ومعنى ، وقالوا فيه فقه كضخم وكرم فقاهة اي صار الفقه وصفا له وسجية فيه فهو فقيه . قال الغزالي : « يقال : فلان يفقه الخير والشر أي يعلمه ويفهمه (3) » . ونقل عن الراغب انه « التوصل بعلم

1) المصدر السابق ـ ص 17
2) المصدر السابق ـ ص 21
3) المستصفى للغزالي ج 1 ـ ص 3

شاهد الى علم غائب (1) » . وعن الحكيم الترمذىان « الفقه بالشىء هو معرفة باطنه والوصول الى اعماقه فمن لا يعرف من الامور الا ظواهرهـــا لا يسمى فقيها (2) » . ذكر الفقه ومـادته فى القرآن كثيرا وحقق العلامة محمد رشيد رضا انالمراد منه فى الاعم الاغلب « نوع من دقة الفهـــم والتعمق فى العلم الذى يترتب عليه الانتفـــاع بـه (2) » .

واما الفقه اصطلاحا فقد « صار بعـــرفالعلماء عبارة عن العلم بالاحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة حتى لا يطلق بحكم العادةاسم الفقيه على متكلم وفلسفى ونحوى ومحدث ومفسر ، بل يختص بالعلماء بالاحكام الشرعيةالثابتة للافعال الانسانية كالوجوب والحظـــر والاباحة والندب والكراهة وكون هذا العقـــدصحيحا او فاسدا باطلا وكون العبادة قضـــاء وأداء وامثاله) . وقريب من تعريف الغـزالى هذا قول ابن خلدون : « الفقه معرفة احكام اللـه تعالى فى افعال المكلفين بالوجوب والحظر والندبوالكراهة والاباحة وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الادلة فـــاذااستخرجت الاحكام من تلك الادلة قيل لهـــا فقه (3) » . فالفقيه هو العالم بالاحكام الشرعيةالثابتة لافعال المكلفين المستخرج لها من الكتـاب والسنة وما نصبه الشارع من الادلة ، فهو المفكرالدينى والمستنبط ، والمفتى . وذلك يـــرادف المجتهد فى عرف الاصوليين . فالمفتى له الدرجةالسامية لانه قائـــم مقـــام النبى فى الامـــة مقـــام النبى (4) . لقـوله صـــلى اللـه عليهوسلم : « العلماء ورثة الانبياء » وقوله « بلغـوا عنى » ثم قال « ان المفتى شارع من وجه لان مـايبلغه من الشريعة اما منقول عن صاحبهـا واما مستنبط من المنقول ، فالاول يكون فيه مبلغـا ،والثانى يكون فيه قائما مقامه فى انشاء الاحكام . وانشاء الاحكام انما هو للشارع فاذا كان للمجتهدانشاء الاحكام بحسب نظره واجتهاده فهو من هذا الوجه شارع واجب اتباعه والعمل على وفق ما قالهوهذه هى الخلافة على التحقيق . »

وليست هذه بالمهمة اليسيرة التى يستطيعكل واحد ان يقوم بها بل لا بد لها من وفر خصال منها الذكاء ، وصحة الفهم ، وكمال الخلق والديانةوكثرة العلم . ولم يكن كل الصحابة مجتهـــدين

1) تفسير المنار ج 1 – ص 420
2) تفسير المنار – ص 421
3) مقدمة ابن خلدون الفصل الخاص بعلم الفقه 445
4) الموافقات للشاطبى ج 4 – ص 244 و 245

اصحاب فتوى » وانما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه . ومتشابهه ومحكمه وسائر دلائله بما تلقوه من النبي او ممن سمعه منهم ومن عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب (1) » ثم اتسع الفتح وازدهرت الحضارة الاسلامية و « عظمت أمصار الاسلام وذهبت الامية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه واصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من اسم القراء ، وانقسم الفقه الى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم اهل العراق ، وطريقة أهل الحديث وهم اهل الحجاز (1) » . وعد مقدم أهل الرأي والقياس ابو حنيفة . ومقدم اهل الحديث مالك والشافعي . فكلمة الفقيه – كما نرى – كانت عندهم تفهم المجتهد المستنبط المفتي عند السلف ، اذ لا يكون المجتهد الا فقيها .

والاجتهاد لغة « بذل الجهد واستفراغ الوسع في فعل من الافعال ولا يقال الا فيما فيه كلفة وجهد فيقال اجتهد في حمل حجر الرحا ولا يقال اجتهد في حمل خردلة (2) » ثم خصص العرف فـ « صار في عرف العلماء مخصوصا ببذل المجتهد وسعى في طلب العلم باحكام الشريعة والاجتهاد التام ببذل الوسع في الطلب بحيث يحس من نفسه العجز عن مزيد الطلب (2) » .

وليس كل من أدعى بلوغ درجة الاجتهاد قبل منه ادعاؤه وسلم له في اجتهاداته بل لابد فيه من شرطين « احدهما ان يكون محيطا بمدارك الشرع متمكنا من استثارة الظن بالنظر فيها وتقديم ما يجب تقديمه وتأخير ما يجب تأخيره . والشرط الثاني أن يكون عدلا مجتنبا للمعاصي القادحة في العدالة (2) » . وذكرهما ابو اسحاق الشاطبي بكيفية أخرى « انما تحصل درجة الاجتهاد بوصفين احدهما فهم مقاصد الشريعة على كما لها ، والثاني التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها (3) » . وقد فصل الغزالي ذكر العلوم التي لابد منها للمجتهد وذكر الدرجة الواجب بلوغها فيها وحصرها في ثمانية الكتاب والسنة والاجماع . والقياس ، ومعرفة نصب الادلة وشروطها ، ومعرفة اللغة والنحو ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ . ومعرفة الرواية والحديث ثم قال : « فهذه العلوم الثمانية التي يستفاد بها منصب الاجتهاد ، ومعظم ذلك يشتمل عليه ثلاثة فنون :

---

(1) المقدمة لابن خلدون 446
(2) المستصفى للغزالي ج 2 – ص 101
(3) الموافقات للشاطبي ج 4 – ص 105 – 106

علم الحديث وعلم اللغة ، وعلم أصول الفقه (1) »وختم ذلك بقوله : « اجتماع هذه الثمانية انما يشترك فى حق المجتهد المطلق الــذى يفتى فىجميع الشرع . وليس الاجتهاد عندى منصبا لا يتجزأ بل يجوز ان يقال للعالم بمنصب الاجتهادفى بعض الاحكام دون بعض ··· وليس مــن شرط المفتى ان يجيب عن كل مسألة فقد سئـل مالك رحمه الله عن اربعين مسألة فقال فى ست وثلاثين منها لا ادرى » ، وكم توقف الشافعي ،بل الصحابة فى المسائل . فاذا لا يشترط الا ان يكون على بصيرة فيما يفتى (1) » .

وبلوغ هذه الدرجة ليس بمستحيل فى أىزمان ولا أى مكان ـ بمقتضى هذه الشروط ، وبما هو مبسوط فى كتب الاصول ـ على كل من سمت همته ، ودعته نفسه فبذل كل جهد فى التحصيل وبلغ القمة فى هذه العلوم . ولبس لباس التقوىبهداية من الله ، وعاهده ان يجاهــد فى سبيله بسلاح العلم لنصر دينه والدفاع عنه واعلاء كلمتهوحمايته من هجوم المتربصين ، وكيد الكائدين . ودسائس المفترين وجناية الجامدين · وقد زعمقوم ان باب الاجتهاد قد اغلق منذ الرابع الهجرى وأن تقليد احد الائمة السابقين واجب ولا يجوزلمن جاء بعدهم الا ان يفتى بما افتوا فكان فى هذا القول تحجير على العقول ان تفكر وتتدبر وتستنبطمع ان الزمن يتقدم ، والاقضية تحدث كل يــوم · وعربد آخرون أمام باب الاجتهاد يريــدون انيلجوا منه ـ غير مستكملين ادواته ليهدموا قواعد الشريعة وينسخو احكامهــا ويصرفوا المسلمـينعنها · وفى كلا الجناحين اسراف وفساد ، كان علال وامثاله من السلفيين والمفكرين لهم بالمرصاد·

خسارة المسلمين بالاعراض عن الاجتهاد :

فالفقيد يرى ان ازدهار الحضارة الاسلاميةورقى البحوث الفكرية أول عهدها كونها الاجتهاد وأن الانحطاط والجمود سببه اغلاق بابه » ان الذىيتعمق الثورة العلمية العظيمة التى كونها الاجتهاد فى فهم القرآن والسنة واستنباط الاحكام منهمافى عصر الحضارة الاسلامية الزاهرة ثم ينظر الى الحالة التى وصل اليها المسلمون منذ القرن الخامس حيث اخذوا يمسكون عن الاجتهاد ويلزمــون

1) المستصفى ج 2 ـ ص 103

التقليد يعرف مقدار الخسارة التي تصيب المسلمين كلما اعرضوا عن النظر والدرس وحرموا على انفسهم أعظم مميزاتهم ومميزات دينهم وهي الاجتهاد وعدم التقليد في الدين فاحرى في غيره من الشؤون (1) » .

القبول النهائي للاجتهاد فيما استجد :

ويشرح عملية الاجتهاد وضرورة بقائها فيقول : « نحن نقطع ان كل ما وصل اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي . ومحط نظر العلماء قاطبة هو استعمال ميزان العقل لاستنباط الاحكام من الكتاب والسنة المبينة له وهذا ما سماه علماء المسلمين بالاجتهاد وهو طريق سلوك دائما يتمكن به أهله من تطبيق الكليات القرآنية على جزئيات الاحكام المستجدة . واذا كان الجمود قد قضى زمنا على مبدأ الاجتهاد فأوقف بذلك نمو الفقه الاسلامي فان النهضة الاسلامية الحديثة قد بدأت بقبول نهائي لفكرة الاجتهاد والعمل به لمسايرة العصر ومعرفة احكام القرآن والسنة فيما استجد من أقضيته واحواله (2) » .

ابتكار مدارس فقهية لضمان دوام التسلسل الاجتهادي :

وقد برهن فقيدنا رحمه الله على ان اعداء الاسلام من المستعمرين لا يهاجمون العقيدة والعبادات في الامم التي خضعت لسيطرتهم بقدرما يحاولون محو الشريعة الاسلامية من المحاكم والمعاملات . ومحو الفقه والاحكام من حياة المسلمين ، لان الفقه هو « المادة الوحيدة التي تربط مسلمي العصر بأفكار المسلمين المتسلسلة من عهد النبوة الى اليوم ، ولانه المجموعة التي تؤثر دراستها والعمل بها وتطبيقها بأفكار الناس وسلوكهم ، ويوشك الفقه الاسلامي اذا استمر ان يدفع بدارسيه والمتقاضين لديه والحاكمين به الى ابتكار مدارس فقهية عصرية منبثقة من صميم المصادر الاسلامية وضامنة دوام التسلسل للاجتهاد الفقهي (3) » .

ضرورة وجود المجتهدين واستمراره :

وعلال كفقيه ، وسلفي مصلح يرى ضرورة وجود المجتهدين واستمراره ـ كما هو الحق من مذاهب علماء الاصول ـ لان الشريعة عامة تشمل كل الشعوب والقبائل ، وابدية صالحة لكل

1) مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها ـ ص 81
2) دفاع عن الشريعة ـ ص 162
3) دفاع عن الشريعة ـ ص 96

العصور والاجيال ، وافعال البشر – فى كل الازمنة والامكنة – متنوعة فلم تنزل الشريعة على شكل واحد من التفصيل ، ولكن ارشد الشارع الى كثير من مسائلها على طريق كليات واصول ومقاصد تدل عليها امارات ويدركها المجتهدون :

« ومن هنا يعلم ضرورة وجود المجتهدين الذين يقومون على استنباط الاحكام غير المعلوما(I) ...وضرورة استمرار ذلك الوجود فى كل الازمنة والبقاع ، ويعلم ذلك الضرر الذى يحدثه انقطاع الاجتهاد أو العجز عنه بجحود الفكر وضعف العلم (I) » .

ثورة الجامدين وجنايتهم :

ويؤثم الامة اذا انقطع منها الاجتهاد ورضيت بالتقليد جمودا ، وينعى على هؤلاء الجامدين المقلدين الذين لم يحسنوا خدمة الكتاب والسنة فظنوا ان من الوفاء ترك النظر فيهما وتحريم الاستنباط منهما اكتفاء بما استنبط السلف ،مع تقدم الزمن وتجدد الحياة والاحداث والقضايا . فيذكر موقف هؤلاء ازاء من يجيز بقاء الاجتهاد :« واما من يدعى الاجتهاد ولو فى جزئية ما فهو المارق من الدين السالك غير سبيل المؤمنين وذلك ما فتح الباب لقلب الاحكام الشرعية واظهار الشريعة بمظهر الشريعة التى لا تقبل التطور ولا تصلح لكل العصور (I) » . ثم ذكر ان « من حسن الحظ ان يتنبه بعض العلماء لهذه الفاجعة ويتجرأوا على النظر والاجتهاد فيعيدوا للشرع الشريف اعتباره وللنظر والعلم الصحيح مكانتهما (I) » .

الفرق بين الاجتهاد وبين اتباع الهوى :

والاستاذ علال رحمه الله كعالم مسلم يخشى الله يفرق بين الاجتهاد الشرعى الذى يؤجر فيه المجتهد ، أصاب ام أخطأ وبين اتباع الهوى وتحريف الكلم عن مواضعه بمحاولة نقض احكام القرآن وابطال قواعد الاسلام ، وانكار ما علم من الدين بالضرورة قال :

« لا يعتبر اجتهادا شرعيا ويعتمد فى نتائجه الا اذا صدر من اهله الذين يضطلعون بمعرفة ما يفتقر اليه الاجتهاد . وأما اذا صدر عمن ليس بعارف فلن يعتمد ويعمل بالاحكام التى تستنبط

I) مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها – ص 160

منه لانه يعد من قبيل التشهي والاغراض وخبط في عماية واتباع للهوى ، ومناف لقوله تعالى : « **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** »وقوله « **يا داوود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** (1) » . وقد ذكر من امثلة اتباع الهوى في الفتوى وان سماه الدجالون ممن يحرفون الكلم عن مواضعه اجتهادا :

أ) اسقاط الصيام عن الاغنياء : قال : التفرقة بين الاجتهاد وبين الهوى ضرورية الاعتبار ، خاصة في هذا العصر الذى ظهر فيه دجالون ممن يحرفون الكلم عن مواضعه ، كالذين يريدون اسقاط الصيام على الاغنياء ويبقونه خاصا بالفقراء بدعوى الاستنباط من قوله تعالى :

« **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين (1)** » .

ب) اسقاط الصيام بدعوى اضعافه الانتاج : ومثل هؤلاء - بل شر منهم - الذين يريدون اسقاط الصيام عن العمال : « بدعوى ان الصوم يضعف الانتاج ، ونحن في جهاد ضد التخلف ، قياسا على ما أذن فيه صلى الله عليه وسلم من الافطار زمن الغزو (2) » . وقد رد على هذا الاستنباط السخيف بأن « الافطار في رمضان لسبب شرعي يوجب القضاء في الاشهر الاخرى وأي فرق بين شهر رمضان وغيره في ضرورة الانتاج (2) » ثم قال : « ليس الخير للعملة في حملهم على الافطار في رمضان من غير موجب شرعي . ولكن في القيام بحمايتهم وتحسين حالهم واجورهم وحمايتهم من السهر وتعاطي الخمر والمخدرات التى تقلل الانتاج وتهلك المجتمع (2) » .

ج) منع تعدد الزوجات على الفقراء دون الاغنياء : ومثل هؤلاء في سوء التأويل واتباع الهوى « افتاء بعض المصريين بمنع تعدد الزوجات على غير الاغنياء الذين ثبتت قدرتهم على النفقة على النساء الكثيرات وهذا ما يجعل الشريعة الاسلامية تدين بالطبقات وتعطي لكل طبقة حكمها الخاص بها وهو ما يتنافى مع مقصد الشريعة في المساواة بين الناس في الاحكام (2) »

---

1) مقاصد الشريعة ومكارمها - ص 163

2) المصدر السابق - ص 163 - 164

هل ادعى عـلال الاجتهـاد ؟

لقد كان علال فقيها عالما بالشريعة واحكامهاأصوليا متمكنا عارفا باصول الدين ، وبعلـــوم القرآن والحديث ، خبيرا باللغة وآدابها وفنونها ،عدلا مرضيا . فاهما مقاصد الشريعة ٠ فلو شاء ان يدعى بلوغ درجة الاجتهاد لبرهن على توفـــرشروطه فيه واجتماع أوصافه٠فهل ادعى الاجتهاد ؟

اننا نجده يستهجن التقليد ، ويهجر الجمودالذى أدى الى ابطال الاجتهاد فى استنباط الاحكام من القرآن والسنة ٠ ويذكر ان « من حسن الحظ ان يتنبه بعض العلماء لهذه الفاجعة ويتجرأ عـلى النظر والاجتهاد ولكن ذلـــك بالاسف فى عصرعلى المسلمين فيه الفكر الاجنبى والقانون الاجنبى فعسر على القائمين بدعوة الاسلام النجاح(1)» . ثم يقول : « ان فى قلة الفقهاء المجودين ــ عـــلى قلتهم ــ ضمانا للسير بالفقه الاسلامى الى شاطئ النجاة (2) » ٠

فهل كان علال يعتبر نفسه فى هذه القلةالمجودة الضامنة للسير بالفقه الى شاطئ النجاة ؟ والجواب نعم ، فقد جاء فى كلامه ما يدل على ذلك صراحة . وما يرشد اليه ضمنا ومن ذلك انـه استنبط قاعدة أصلية وتمكن من استنباط احكام بناء على فهمه فيها قال تحت عنوان :

« قاعدة أصلية لم أر من نبه عليها من علماء الاصول :

« ان المتتبع لمناهج القرآن والسنـــة فىعرض الاحكام الشرعية يجدها تسلك طرقا كثيرة لتحقيق اهدافها فتارة بالوجوب أو المنـــــع الصريحين ، وتارة بالتدرج فى التشريع مـــع استكماله فى حياة الرسول ، وتارة بتنفيذ الحكم فى بعض صوره والتسامح فى الصور الاخـــرى مع اعطاء الامر عن طريق الارشاد باستكمالـــه اذا تمت أسباب استكماله الشرعية وهذا ما يمكننا أن نسميه ٠

« أمر الارشاد » وما نعتبره اصلا من أصول التشريع دل عليه بمصدر شرعى ، والمقاصـــد الشرعية كلها دلالات على أصول الاحكام ومسالك عللها . فتحريم الخمر علته الاسكار ، والدلالـة عليها ان الله وصف الخمر والميسر بانهما رجس من عمل الشيطان وقال تعالى : « **انما يريـــد**

1) مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها ــ ص 160
2) المصدر السابق ــ ص 161

الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » فدل هذا على أن قصد الشارع هو الابتعاد عن كل ما يحدث العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة فكل ما تحقق فيه شيء من ذلك فقد دل المقصد الشرعي في عدم وقوعه على تحريمه ، وتحريمه ليس من سبيل القياس فقط ولكنه عن طريق أمر الارشاد (1) ».

وفي تفسير آية من القرآن خالف غيره من المفسرين السابقين وجميع المستنبطين ثم قال : « وقد ذهبنا على ان في الآية أمر ارشاد للمسلمين (2) » . فهذا منه صريح باستنباطه وان له مذهبا في هذا الاستنباط يخالف فيه من تقدمه ، وهذا فعل المجتهدين .

وكثيرا ما فسر آيات من القرآن تفسيرا لم يسبق اليه ، ويصرح بذلك التأويل وانه الاول الذي قال به . ففي كلامه على الحرية التي هي حق كل انسان منذ ميلاده صرح بانها في رأيه : الانعتاق من عبودية التقاليد والطبيعة ومن الخوف من آثار الطبيعة من شجر أو حجر أو انس أو جان فلا عبودية لاحد من المخلوقات على احد من الناس فاذا بلغ الانسان درجة « ان يفعل ما يعتقد انه مكلف به وما فيه الخير لصالح البشر اجمعين وآمن بذلك فقد اختار الحرية (3) » ثم استدل على مذهبه بقوله تعالى : « **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تاتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة** » ثم قال :

« والعجب ان المفسرين قاطبة لم يدركوا قيمة هذه الآية لانهم لم يهتدوا للمراد بالانفكاك فيها ، مع ان اقرب دلالاته اللغوية هي التحرير ، فلم يكن الكفار منفكين أي متحررين مما عبدهم لغير الله الا بعد ان جاءتهم البينة الحجة القاطعة التي هي ليست غير رسول الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة تخاطب العقل وتدعوا الى التفكير وتنادي بالحرية (3) » .

وهذه الحرية التي يصلها الانسان لها ميزتها ولها تكاليفها : « ارتفع الانسان بالتكليف من درجة الحيوان الى ما فوق درجة الملائكة ، لان الانسان في استطاعته ان يفعل الخير والشر وهو مخير بينهما ، ومسؤول عنهما ، وبذلك فهو حر وعلى نفسه بصيرة (3) » . ومن اجتهاده في

1) المصدر السابق – ص 240
2) مقاصد الشريعة – ص 164
3) مقاصد الشريعة – ص 246

التفسير . واستنباطه في التأويل تفسيره للفطرةفي مثل قوله تعالى : « **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطـر الناس عليها** » والحديث :« يولد الولد على الفطرة » والمشتهر « الاسلام دين الفطرة » فقد فسر الفطرة العلامة محمد رشيدرضا بقوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الانسانية الجامعة بين الحياتين الجسمانيةالحيوانية والروحانية الملكية والاستعداد لمعرفة عالم الغيب وعلم الشهادة فيهما ، وما أودع اللهفيهما من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي فوق قوى الكون والسنن والاسباب التي قام بها بظام كل شيء في العالم ، فرب هذا السلطان هو فاطر السماوات والارضوما فيهما ، والمصدر الذاتي للنفع والضرالمحركين لشعور التعبد الفطري(1) » وفسر ابن سينا الفطرةبـ « القوة التي تسمى عقبلا عـلى اساس ان الانسان لو تجرد عن معلوماته ومرئياته ومسموعاته ثم سال نفسه الحكم عن مسالة ما فان وجدشكا فيها فالفطرة لا تشهد بها . وان لم يجد شكـافذلك ما تشهد به الفطرة وتفرضه ، وليس كل ما تفرضه الفطرة بصادق وانما العبرة بفطـرةالعقل (2) » . اما الاستاذ علال فقد فسر كون الاسلام دين الفطرة بـ « انه الدين المتفق مـعما جبل عليه الانسان بصفته انسانا من جملته العقل والاستعداد للحضارة والقدرة على اكتساب المعرفة والمرونة والطاعة والذي يساعده عـلى تنمية معارفه وسد حاجته فيما يخص العادات والعبادات (3) » . ثم يقول : « فاذا قلنا الاسلام دين الفطرة فكاننا نقول ان الاسلام دين الحضارةالتي نشدتها الفطرة الانسانية والتي اهتـدت لبعض مظاهرها ... فلا بد من ان يكون الاسلامفيما جاء به ضامنا لسد الحاجات التي يتوقف عليها الانسان لتكوين مدنيته كانسان ، ولذلكفلن تجد في الشريعة الاسلامية شيئا منافيـا للفطرة الانسانية (4) » .

أمية الشريعة ، والنبي الامي :

ناقش الشاطبي في فهمه لهذه الاميـة ،فقد فهمها ابو اسحاق « باعتبار انها مرسلـة للاميين ، وهم في نظره الذين لا يعرفون القراءةولا كتابتها » يقول الفاسي في هذا التفسير انـه

1) تفسير المنار ج 11 - ص 244 - 245
2) مقاصد الشريعة (نقلا عن كتاب النجاة لابن سينا) - ص 68
3) مقاصد الشريعة - ص 66
4) مقاصد الشريعة - ص 27

« موضع نظر فليس من الضروري ان يكـــون المقصود بالاميين في قوله تعالى « **هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهمويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين** » الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة كما انه ليس من الضروري ان يكون وصف النبي بالامي بهذا المعنى . اما كون النبي، لم يقرأ ولم يكتب فهو معروف وما تدل عليه الآية الكريمـة « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطـــه بيمينك اذا لارتاب المبطلون** » واما النبي، الامي والاميون في الآية السالفة فليست نسبة الى الأمأى الذين ما زالوا على جهالتهم الاولى لم يتعلموا شيئا ، وانما هي نسبة في نظرنا الى الامـــة ،فالاميون هم الامم الذين بعث فيهم رسول اللـه صلى الله عليه وسلم وهو منهم لانه انسان . وهوامي لانه من الامم أي شعبي ، والحكمة في كـون الله اختار النسبة الى الامة ليبين ان الخطـــابالالهي موجه للامم عامة لا تختص بـــه امة دون أخرى (1) » . وقد ساق على فهمه الجديد الذى اجتهد فيه وخالف به غيره ادلة وشواهد مـــن استعمالات القرآن ومن فهم العقاد في كتابـــه« حقائق الاسلام » .

اشتغال المرأة بشؤون الدولة :

استدل على شرعية اشتغال المرأة بسياسةالدولة وما يصون بيضة الامة بقولـه تعـــالى « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليا. بعـــضيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمـــون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسولـهأولئك سيرحمهم الله** » فهذه الآية كما فسرهـــا تدل على رغبة الاسلام في قيام سلام عام يتمتـــعفيه كل واحد من المواطنين بحقوقـه ويقـــوم بواجباته ، وان « هذه الآية تبين مشاركة المرأةللرجل في ولاية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أي حقها في الاشتغال بسياسة الدولة وكل مـايصون بيضة الامة (2) » . ويدلل لصحة الفهـم ما قامت به المرأة في صدر الاسلام من مشاركـةبالفعل والرأى ، وقصة المرأة مع عمر في تحديد المهر مشهورة .

مسؤولية الدولة والمجتمع عن العائلة :

وقد استنبط من قوله تعـالى « **ولا تقتلواأولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم** » وقوله « **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهـمواياكم** » ان الدولة مسؤولة ـ مثل المجتمع في

1) مقاصد الشريعة ـ ص 27

2) مقاصد الشريعة ـ ص 21(?)

حفظ العائلة ووجوب حفظ الحياة ، فالسبب فيقتل بعض العرب ابناءهم خشية الاملاق ، والله قادر ان يرزق كل مخلوق متكفل به فلا يجـوزقتل الاولاد الصغار وباحرى الكبار خوفا مـــن الفقر ، هذا من جهة المبدأ الروحي ، واما مـنجهة المبدأ الشرعي فان الدولة مسؤولة عن تهيئة اسباب المعاش لكل واحد ··· لا يجوز في الاسلامان يبقى جائع لا يطعم أو عار لا يلبس ، أو مريض لا يجد ما يعالج به أو جاهل لا يجد اين يتعلم ·

الوأد والاجهاض وتحديد النسل من أنواع القتـل :

وبهذه الآية يبرهن على ان التدابير الـتيتتخذ ضد نمو الامة وزيادتها غير مشروعة بـل يجب منعها « اذا كان واجبا على الاب والام نحوأولادها (صيانة ابنائهما) وكان الوأد ممنوعا ـومن حق المجتمع بل من واجبه ان يضرب عـلىيد الوالدين ان فعلاه ـ فان الدولة وذوىالسلطة فى الامة ممنوعون من اتخاذ التدابير لقتل افرادالامة خوف الفقر وذلك كوأد الاجنة فى بطـون أمهاتهم حتى لا تنمو الامة فلا تجد بزعمهـــم مايسمونه بالاقل الحيوى أو المجال الحيوى فليس احد أحق بالحياة من الآخر وليس لاحد ان يمنعاحدا من الخروج للوجود أو التمتع بالبقاء فيـه ان خرج ، واعتقد ان الله بما أنزل فى القرآنمن منع الوأد ، وبما بلغه لنا (ص) حينما وصف عزل الرجل ··· بانه الوأد الخفي أرشدنا الى انتقاوم كل ما من شأنه ان يمس بحياة الافـراد والجماعات تحت ستار من الاسباب الاجتماعيـةالمختلفة (1) » ·

وقد ذكر ما أفتى به الفوضويون من قتلكل غير منتج ، أو كل مريض ، وما حاوله هتلر من ابادة الاجناس المتخلفة ثم ختم بمحاولة تحديدالنسل فى أمم الشرق والعرب « ان دعوات جاهلية أخرى تنتشر فى اوساط العالـــم ولا سيما فىالشعوب الكثيرة العدد مثلالصينوالهند وبقلدهما فى ذلك بعض دول العرب المسلمين تحت شعـارالحد من النسل ، وتبيح للافراد بل يشجعهم على اجهاض الجنين بعد تكوينه بدعوى توافق عددالسكان مع مستوى الانتاج والاحتياط من الفقر ومن البطالة ، وهى نفس الدعوى التى تعللت بهاالجاهلية الاولى فى وأد البنات ··· لقد خلق الله لنا عوالم هذه الدنيا وما فوقها وما تحتها ولحدالآن لم يبلغ الانسان فى استنزاف خيراتها الا القليـــل (2) » ·

---

1) مقاصد الشريعة ـ ص 225 ـ 226
2) مقاصد الشريعة ـ ص 226

العمل بالحساب الفلكي في الصوم والافطار :

ومن القضايا التي اجتهد فيها استنباطاً من النصوص الشرعية ، مسألة الاخذ بالحساب الفلكي في دخول الشهر القمري الشرعي والعمل به في الصوم والافطار ، فانه بعد ان بحث الموضوع واستعرض المذاهب الفقهية وذكر ان المشهور في كل مذهب هو القول بعدم العمل بالحساب قال :

الاستنباط من الحديث :

« والذي أعتقده ان الحديث انا أمة امية لا تقرأ ولا تحسب ، خرج مخرج الكلام المعلل وهو أن العرب ــ بل الذين كانوا في عصر النبي، (ص) من أمم العالم لم يكونوا على درجة من العلم يجعل نتائج حساباتهم قطعية بل كانت مقدمات الحساب الفلكي لاثبات الشهر قبل الاسلام والى حياة النبي، (ص) ظنية غير متيقنة الانتاج ، كما تدل على ذلك بقايا نصوص الفلكيين القديمة أما اليوم فقد تطورت حال معرفة المسلمين للفلك ومنذ العصر العباسي وعلماؤنا يتعاطون هذا الفن وانضمت اليه الدراسات العصرية فلم يعد من الممكن القول بان النتائج الحسابية ظنية بل هي قطعية بقدر ما تكون الرياضيات قطعية . وعليه فما دام الحكم قد خرج معللا وما دامت العلة قد انتفت أي اننا لم نعد أمة امية بل اصبحنا نقرأ ونحسب فقد ارشدنا الحديث الى العمل بالحساب طبقا للقاعدة الاصولية التي تقول : « العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما » ثم قال :

« نعم يجب ان نحقق المناط طبقا لما فعله العلامة ابن دقيق العيد فنقول : « الحساب الذي نعتمده هو الذي يدل على ان الهلال قد طلع من الافق على وجه يرى لو لا وجود المانع فهذا يقتضي الوجوب لوجود السبب الشرعي ولا نعتبر حقيقة الرؤية مشروطة (1) » .

وما أشار اليه علال من وجوب تحقيق المناط هو وظيفة المجتهد ، وهو تحقيق العلة المتفق عليها في الفرع واقامة الدليل على وجودها فيه مثل الاتفاق على ان العلة في الربا هي الاقتيات والبحث هل توجد هذه العلة في التين ؟ فهذا النوع من الاجتهاد لا ينقطع قال الشاطبي : « لا يمكن ان ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف وذلك عند قيام الساعة (2) » وقول علال بأن قول

1) الجواب الصحيح والنصح الخالص للمؤلف ــ ص 31 ــ 32

2) الموافقات ج 4 ــ ص 89

النبي (ص) انا امه اميه يعنى العرب وكل امم العالم مشى على ما فسر به الامية من انه نسبـــه الى الأمم لعموم الشريعة سائر الامم كما مر في مناقشة الشـــاطبى ، وليس بنسبـــة الى الام . وقوله : « ارشدنا الحديث الى العمل بالحساب » فيه اشارة الى قاعدته التي أصلها وهي « أمـــر الارشاد ».

تعـــدد الزوجات :

ومما اجتهد فيه على هذه القاعدة الجديـــدة التي لم ير احد من الاصوليين نبه عليها منع تعدد الزوجات بالآية الاولى التي شرعتها اذ يقـــول :« ومن الامثلة لامر الارشاد في نظرنا قوله تعالى في تعدد الزوجات بعد ان حصره في أربع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة » فقد ارشد الشارع الى الاكتفاء بالوحدة عند الخوف من عدم العـــدل، وهو على ما نرى أمر للامة جمعاء ليستكملوا مـــا قصد اليه الشارع من ابطال التعدد مطلقا (1) » وقد اجتهد في البحث عن علة منع التعـــدد والزيادة على الواحدة فوجد قول عائشة رضى الله عنها « انها نزلت في التوصية بحفظ حق يتامى النساء في اموالهن وانفسهن » ، وقول ابن عباس « قصر الرجال على اربع من اجل اموال اليتامى » وفهم ان معنى الآية : « ان خفتم على اموال ايتامكم ان تنفقوها فلا تعدلوا فيها من اجل حاجتـــكم اليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم فلا تتجـــاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء اربعا ، وان خفتـــم ايضا من الاربع ان لا تعدلوا في اموالهن وامـــوال غيرهن بسببهن فاقتصروا على الواحدة او عـــلى ما ملكت ايمانكم (2) (. واستنبط ان النـــص نفسه يمنع التزوج بما فوق الواحدة اذا خيف ان يكون سببا في غصب اموال اليتامى ، بل الواحدة تمنع وينتقل الامر الى ملك اليمـــين . وقد وجـــد ان جميع المذاهب الاسلامية مجمعة على منـــع التعدد مطلقا عند الخوف من الظلم واباحته حـــتى الاربعة عند تيقن العدل لكن الذى مضى عليـــه عمل المسلمين هو ترك هذا الامر لوجدان الرجـــل الذي يحكم على نفسه هل يقدر على العدل أو لا (2) .

ثم اسهب في بيان المفاسد التي تنجر – وهي منجرة فعلا – من التعدد « لم يكن مصـــدرها غير العبث باستعمال الرجال لفكرة التعدد فـــكم عائلات هدمت وكم ورثة حرموا . وكم اولاد منعوا

1) مقاصد الشريعة ومكارمها – ص 241 – 242

2) النقد الذاتي – ص 219

من عطف آبائهم مراعاة للزوجة الثانية ، وكم حوادث قتل وتسميم وقعت ، وكم انواع من الزور ارتكبت لتغلب فئة من الابناء على اخوانهم ،وكم من اولاد ربوا خارج ديار آبائهم (1) » ...
« ان الاغلبية الساحقة من الذين يعددون كلهم من الفقراء والمعوزين وضعفاء الاجسام وان كل سبب من هذه الاسباب يوازى السبب الصريح في القرآن وهو الخوف من اكل اموال اليتامى فاذا كان التعدد ممنوعا خوفا من ان يؤدى لغصب حق اليتيم فأحرى به ان يكون ممنوعا اذا كان يؤدى لغصب أولاد الصلب نفسهم حقهم أو الى ازالة المودة التى وضعها الله رحمة للعائلة ورابطة بين الاب وابنه واقرب الناس اليه ، ولذلك أرى ان تعدد الزوجات يجب ان يمنع فى العصر الحاضر منعا باتا عن طريق الحكومة لان الوجدان وحده لا يكفى اليوم لمنع الناس منه (2) » . وذكر من المبررات ان هذا التعدد اصبح سببا لظلم الاسلام نفسه ، « مدخلا لكثير من اعداء الاسلام يتخذونه حجة على ديننا – بل يتجاوزهم الى داخل الاوساط الاسلامية نفسها فيصبح المسلمون والمسلمات عرضة للتشكك فى سلامة الدين الذى يبيح التعدد فى نظرهم وليس كل الناس فقهاء ... قادرين على ادراك الاصلاح القرآنى فى شأن المرأة نفسها فمصلحة الدعوة الاسلامية تقضى بمنع التعدد فى هذا العصر (3) » .

هذا اجتهاد منه دفعه اليه حرصه على سلامة العائلة الاسلامية ، وسلامة الدين ومصلحته ارجو ان يؤجر عليه . وان كنت لا اشك انه مخطئ فيه لان المسلمين مجمعون على فهم غير ما فهمه ، والمجتهدين مطبقون على ان الآية دلت على هذا التشريع والاباحة ، ولا يمكن ان تأتى آية واحدة تشرع التعدد وتبيحه وفيها فى نفس الوقت « امر الارشاد » لمنعه . وما المانع من اعلان منعه من اول مرة دون تدريج او بتدريج – كما فعل فى الخمر – والمسلمون حينما نزلت الآية لم يكونوا كلهم ذوى زوجات كثيرة ، بل كان القليل منهم من له اكثر من واحدة . واغلبهم ذو واحدة . فلو كان مقصد الشارع منع الزيادة على الواحدة بالنسبة الى كل رجل وفى كل حالة لجاء المنع قاطعا باتا ، وكان الامتثال السريع الصريح من المسلمين فى عصر النبوة . ثم من بعده ، وقد رأيناهم فعلوا ذلك فى الخمر ، وكان الذين يعاقرونها ويحبونها فيهم أكثر بكثير ممن يعددون

1) المصدر السابق ونفس الصفحة
2) نفس المصدر ونفس الصفحة
3) نفس المصدر – ص 220

الزوجات ، كانت احب الى نفوسهم وامكن م ن زوجة ثانية لا يخلو امرها من ازعاج ٠ ثم جاءت الآية الثانية « **ولن تستطيعوا ان تعـدلوا بـين النساء ولو حرصتم فلا تميـلوا كل الميـل** » فبين الميل الذى يؤاخذ عليه ، والذى يرخص فيه ، وقد وضح ذلك علماؤنا ٠

أما المفاسد الخطيرة التى ذكرها الاستـاذ فانها توجد حقا بين اخوة المختلفي الامهـات . ولكنها قد توجد مع الزوجة الواحدة ، كما اذا ماتت الاولى فتزوج الثانية ، او طلق الاولى لتعذر العشرة الزوجية ثم تزوج . وولدت كلتاهما ٠فهل يمنع من التزوج ثانية اذا كان له من الاولى اولاد خوفا من هذه المفاسد ؟ وكم من زوجة انصرفت زوجها عن العطف على صغاره من زوجة سابقة وطاوعها ، وقد توجد هذه المفاسد بين الاشقاء انفسهم ، ومن اب نحو احد ابناء امرأة واحدة ٠ فهل يمنع الزواج احتياطا ؟

صحيح ما قرره الاستاذ من ان خوف عدم العدل بين الزوجات المانع من التعدد موكول الى وجدان الرجل ولكن الجور فى المعاملة والظلم موكول ازالته الى الحاكم . فالحكومة تمنع الجور ، والقـاضى يضرب على يد الزوج الذى لم يعدل وينتصف للمظلوم ويفرض عليه اقامة العدل ، فان جار القاضى دل على فساد فى الحكم لا على فساد فى التشريـع ،فالتعدد قد ابيح فى الاسلام مجرد اباحة فليس بواجب ولا مندوب ، والحكمة واضحة فلا ينازع احد فى وجود مصلحة شرعية فى هذا التعدد قد ترجع الى الزوجة نفسها ، وقد تعود على الاولاد . او على المجتمع ، او على الامة ٠ فلا مانع من ان يـدرس الحاكم قضايا التعدد قبل وقوعها وينظر المصلحة فيأذن او يمنع تنفيذا لما نصت عليه الآية ٠

اما ما يصيب الاسلام من ضرر الدعايات الفاسدة التى تبثها مصالح التبشير . وتؤثر على الناس فتصرفهم عن الاسلام او على ابنائنـا فتشككهم فى سلامته فلا يبرر ذلك ابطال حكم كان وما يزال رحمة لكثير من الناس كما يشهد المصلحون الاجتماعيون من الاوروبيين انفسهـم الذين ينادى بعضهم من الرجال والنساء بالاذن بتعدد الزوجات ـ ولم تحرمه المسيحية وانمـا حرمته الكنيسة ـ رحمة بالنسـاء البائسـات الواقعات فى شرك الرجال المتزوجين ورحمة بالابناء غير الشرعيين الذين هم نتاج هذا الاتصال،وتفريجا لازمة العاملات ، والزوجات الشواب الفـاقدات أزواجهن ٠ وليس غرضى دراسة للموضوع . ولكنى لم أشأ أن أذكره دون ان انبه على الخطأ فى هـذا

الاجتهاد وان كان قد استنبطه ولم يعلن مضادمته للنصوص ورفضه لما صرحت به . وتدخل الحكومات في مثل هذا بالتحريم يفتح باب التحليل والتحريم بالهوى في غيرها من المسائل .

هذه أمثلة قليلة من اجتهاداته ، وفي كتبه امثلة كثيرة تدل على فهم وغيرة على الاسلام واهله . ورحمه الله وغفر له .

والسلام عليكم .

تصحيح خطأ وقع سهواً

في العدد الخاص « بجاية عبر العصور »
وفي المقال المعنون بـ « **عباقرة من رجالنا** »
جاء في صفحة 243 في الكلام عمر ابن رشيق في السطر 13 وابو الحسن علي بن رشيق.
وذلك مجرد سهو . والصواب « **ابو علي الحسن بن رشيق** » .

أحمد حماني



الاسلام نظام شامل و النقص فينا

حوار صريح مع السيد مولود قاسم نايت بلقاسم

وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

أجرى الحوار
عاطف يونس

رأيته لاول مرة فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى ، وازددت معرفة به فى الملتقى الثامن ، الذى انعقد مؤخرا بمدينة بجاية ··· شاب فى أوج الشباب ··· ديناميكى لا يركن الى السكينة ·· يتحدث فى الدين ومسائل الفقه ، فتظنه لا يعرف الا العربية والثقافة الاسلامية ·· ولكنك سرعان ما تفاجأ به يخوض فى شتى مجالات المعرفة العصرية بثلاث لغات ذلكم هو الاخ مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ·

وقبل الدخول فى « سين وجيم » مع الاخ الوزير ·· نعترف بأن الاسئلة التى وجهانا اليه ، لا تخلو من الرغبة فى الاثارة والنرفزة ! ومع ذلك فان شأننا معه لم يكن أفضل من شأن ذلك الشاعر الاعرابى مع الامير اليمنى معن بن زائدة ! فقد استقبلنا الرجل – رغم اطلاعه المسبق على قائمة « المنرفزات » – بعد دقائق قليلة من وصولنا مقر الوزارة ، ببشاشة وترحاب ·

عندما دخلنا المبنى الهادىء النظيف ، الذى جمع الى البساطة سلامة الذوق ودقة التنظيم ٠٠ طالعتنا على جدران الممرات ملصقات ملونة صغيرة ، حملت شعارات اسلامية ، قليلة الالفاظ واسعة المعانى ، دقيقة الانتقاء ٠٠٠ وفى غرفة الانتظار جذبت أنظارنا لوحات فنية ، تصور أحداثا خالدة ، وشخصيات رائدة ، من التاريخ النضالى والحضارى للشعب الجزائرى والامة العربية الاسلامية ٠ وهذه الرسومات المعبرة ، البالغة الاتقان ليست لبعض أعلام هذا الفن ، كما يتوهم الناظر لاول وهلة ٠٠ بل هي من ابداع المواهب الشابة ، التى تعهدها وترعاها وزارة التعليم الاصلى فى معاهدها وثانوياتها !

أما مكتب الوزير ، فأول ما تقع عليه عيناك لدى دخوله ٠٠ مكتب متوسط الحجم ، ينوء تحت حمل ثقيل من الصحف والمجلات العربية والاجنبية ، وعدد من الملفات والاوراق الرسمية ٠٠ وأمامه بالضبط يوجد ركن صغير ، فيه طاولة وبضعة مقاعد جلدية ، تحيط بها اللوحات الزيتية ذات الموضوعات التاريخية ــ كمعركة حطين ــ ورفوف الكتب والمجلات السمينة ٠٠٠ وباختصار فان هذا الركن من مكتب الوزير أشبه ما يكون بمعرض فنى ــ فكرى صغير ! وما كدنا نتخذ جلستنا فيه حتى خيرنا السيد مولود قاسم بين « الزعتر » وماء سعيدة ! وبصعوبة أخفيت دهشتى من هذا العرض ! فكلمة زعتر فى قاموسى المشرقى تدخل ضمن المأكولات الشعبية ، لا المشروبات الوزارية ! وكان طبيعيا أن يدفعنى الفضول الى اكتشاف هذا المشروب « الاصالى » ! أما الزميل تركى زمولى شيخ مصورى المجاهد ، فقد طلب « كازوزة » لكن الوزير أكد أن الاختيار من هذين المشروبين ! فهمس زمولى فى أذنى : لست ضمآنا فأشرب الماء ، ولا مريضا فأجرع الزعتر ! وقد حسم الامر بطلب الاخير الذى اكتشفت انه منعش ولذيذ بالفعل ! وبعد مقدمات قصيرة ، تضمنت حسابا وعتابا على بعض ما كتبناه عن ملتقى بجاية ! سحب القلم وراح يجرى على الورق بسرعة عشرين جملة مولودية فى الدقيقة !

المجاهد : ما هو الانطباع الذى عدتم به من جولتكم الاخيرة مع الرئيس هوارى بومدين فى عدد من الدول الاشتراكية والاسلامية ؟

ــ : بخصوص الدول الاشتراكية أولا ٠٠ بدأنا ــ كما تعلمون ــ بالصين الشعبية ، ثم كوريا ، ثم فيتنام ٠٠٠ والشىء الذى أستطيع أن أقوله بالنسبة للصين وكوريا ٠٠ هو أننى أعجبت ــ وأظنه انطباع الجميع ــ بالانجازات التى تحققت فى ظرف قصير جدا نسبيا ٠٠ وبالحرص والجد فى العمل ، ودرجة الانضباط فى المواعيد ، ودقة التنظيم فى كل شىء ! يضاف الى ذلك ما لاحظناه من أقصى حدود النظافة لا فى الثياب فقط ، بل حتى فى الشوارع والاسطبلات ! وقد

أعجبنا أكثر بحرصهم على تحقيق سياسة الاكتفاء الذاتى ، ونجاحهم فيها كل النجاح فى مختلف القطاعات ، حسب الانطباعات التى سمحت بها زيارتنا القصيرة • ولاحظنا أيضا حماس الشباب وثقته بنفسه ، وتعلقه بأصالة تجربته ، وبمكونات شخصيته وذاتيته ! والى جانب ذلك كله ، فقد لاحظنا ازدهارا اقتصاديا وصناعيا فى شتى المجالات بهذين البلدين العظيمين ، مع وفـــرة جميع المواد • ولا يفوتنا أن نشير الى البشر الذى كـان يطالعنا على الوجوه ، وبصفة أخص فى كوريا الديمقراطية •

أما فيما يتعلق بفيتنام ، فكيف يمكننى أن أصف ما تركته حرب دامت أكثر من ربـــع قرن ، من خراب وبؤس ويتم وترمل ، وكآبة بادية على الوجوه ؟ ! **على أن ما لاحظناه من آثـــار الايدى الهمجية ، لا يعادله الا عزم هذا الشعب واصراره على وضع حد نهائى للامبريالية والاستعمار وكل نفوذ أجنبى** مهما كلفه ذلك من تضحيات ، وهو المعروف بتضحياته الجسام • واننا لمتأكدون كـــل التأكيد من انه سينتصر فى النهاية • ويحقق استقلاله الكامل ، ويسترجع وحدته •

اما بخصوص المؤتمر الاسلامى الثانى ، الذى انعقد فى لاهور ، والذى شاركت فيه قبـــل زيارة البلدان الاشتراكية ، فلا يسعنا الا ان نعبـر عن سرورنا لمجرد انعقاده ، لان انعقاده فى حد ذاته نجاح •• والنتائج لا يمكن أن تكون هامة • وان كنا نستطيع أن نعدد بعضها •• مثل تحسين الجو بين بعض البلدان الشقيقة • بالتلاقى هنـاك على مستوى القمة •• ومثل وضـــع الاسس الحقيقية لحل النزاع ، وتحقيق **التآخى بين باكستان وبنغلاديش** • واكثر من هذا كله الصدى الذى وجدته القضية الفلسطينية ، **والترحاب الذى لقيه وفد فلسطين المناضلة** ، والاتصالات الخصبة التى أجراها مع مختلف الوفود •

واذا اضفنا الى كل هذه الايجابيات ما ننتظره من تحقيق **الفكـــرة التى نادت بها الجزائر هناك ، المتمثلة بضرورة مساعدة الدول الاسلامية الغنية لشقيقاتها الفقيرة** ، لصالح مجموع الامة الاسلامية ، باعطاء التضامن الاسلامى مضمونا حقيقيا •• فان المؤتمر سيكون خطوة عمـلاقة فى حياة الامة الاسلامية فى العصر الحديث ، على طريق استرجاع تماسكها ووحدتها ومجدها ! هذا ما يحضرنى الآن فى الاجابة على هذا السؤال الذى قد نعود اليه فيما بعد •• هات سؤالك الثانى !

المجاهد : أليس غريبا أن تكون مواقف الاصدقاء من قضايانا أكثر ايجابية من مواقف بعض اخوتنا فى الاسلام ؟ !

ـ : هذا غريب فعلا ، وان كان تأييد الاصدقاء أيضا فيه تفاوت ، وفيه ما فيه ! فضلا عـــن كونه نسبيا جدا ! واذا كان بعض الاخوة يخذلون ، أو يقفون موقفا سلبيا على الاقـل •• فكيف

يمكن أن ننتظر من غيرهم ـ مهما كانت صداقتهم لنا ـ أن يكونوا أقرب الينا ، وأكثر تضامنا معنا ومساعدة لنا ، خاصة فى قضية الامة الاسلامية الاولى حاليا ·· فلسطين ؟ ! وقد صدق الشاعـر العربى القديم حيث قال :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ·· الخ ! ولكن ·· لنتفاءل ، ولنستبشر خيرا بمؤتمر لاهور ، ولننتظر منه ـ على الاقل تحسنا ملحوظا فى مواقف بعض الدول الاسلامية نحو قبلتها الاولى ·

المجاهد : هناك من يعتبر تعدد الطوائف والمذاهب ثـــروة للاسلام ·· فما موقفكم من هذه القضية ؟

ـ : هناك عبارة مشهورة فى أوساط الفقهاء تقول : **اختلاف العلماء رحمة !** وأنا شخصيا لا أومن كثيرا بفوائد الاختلاف ، ولكنه حقيقة مستقلة عنا ··· ثم انها ظاهرة لا ينفرد بها الاسلام ، فجميع الاديان تتوفر فيها هذه الاختلافات وانه ليوجد فى بعضها تشعبات وتنوعات وطبقات أكثـر مما يوجد فى الاسلام بما لا يدع مجالا لأية مقارنة !

ومع ذلك فنستطيع أن نقول ـ وقد لاحظتـم معنا ذلك فى الملتقى السابع بتيزى وزو ـ **بأن هناك اتجاها قويا فى أوساط المختصين من بين المسلمين للاستجابة لرغبات الجمهـور ، وادراكا واعيا لضرورة الساعة وحتمية تحقيق الوحدة ·**

وحسبنا أن نذكر **بالروح الصادقة** ، التى برزت فى الملتقى السابع ، من خلال الجو العام الذى ساد الملتقى ، والتوصيات التى أسفر عنها ·· وهو الذى اجتمعت فيه المذاهب الاسـلامية الثمانية المعروفة ، لاول مرة منذ نشوء المذاهب فى القـرن الرابع الهجرى ! وكل هذا يبعث على التفاؤل أيضا ، بشرط استمرارية العمل ، وعدم التواكـل والتآكل ·· وهو ما قررناه معـــا ، وما نحن مصممون على المضى فيه ، على الاقل فيما يخصنا ·

المجاهد : ما رأيكم فى المناهج وطرق التدريس ، المطبقة حاليا ، فيما يخص مادة الدين ؟

ـ : **هذه المناهج غير مرضية** ·· وهناك جهود تبذل من وزارتى التعليم الابتدائى والثانوى ، والتعليم الاصلى ·· كما ان هناك خطة متفقا عليها للتعاون بينهما · وما دمنا حاليا لا نتوفر على أساتذة متخصصين فى هذه المادة بكفاءة وكفاية ·· فالمشكل يبقى معلقا ، اذ ان أغلـــب المعلمين والمدرسين الذين يقومون بتدريس هذه المادة الآن ، فى التعليم الابتدائى والثانوى غير متخصصين فيها · **وطبقا للخطة المشار اليها ، فسيحل المشكل بالتدريج ، عندما تبدا كلية الشريعة والدراسات**

الاسلامية فى قسنطينة ، بتخريج دفعاتها ... وكذلك حين تتم كلية أصـــول الدين التى نعتـــزم انشاءها فى عاصمة الجزائر ان شاء الله .. **فهناك** ـ فضلا عن الحاجة المحلية ـ مطالب ملحـــة علينا من افريقيا الشقيقة فى ارسال هؤلاء الاساتذة الذين لا نتوفر عليهم حاليا ، حتى لاستهلاكنا المحلى ، اذا صح التعبير !

المجاهد : ما هو تصوركم لحماية الشباب مما وصفتموه بالغزو الفكرى ؟

ـ : تصورنا لكيفية حماية الشباب هو **أن يقوم هناك عمل منسق ومتكامل بين الاسرة ومختلف أجهزة الدولة من مؤسسات تربوية وأجهزة اعـلام** . وينبغى أن يساهم فى هذا رجل الشارع وكل مواطن ، عملا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر . وفيما يخص هذه الوزارة فانها ستعمل قدر طاقتها سواء **بالاحاديث** التى تقدمها من خلال الاذاعة والتلفزة ، أو عن طريق **مجلة الاصالة** ، وفى اطار **المحاضرات** التى تنظمها على امتداد السنة ، فى العاصمة ، ومختلف أنحاء القطر .. اضـــافة الى ما يقوم به الائمة فى المساجد لحث الآباء على العناية بأبنائهم .. وبصفة أخص ، فى اطار ملتقيات الفكر الاسلامى التى تنعقد سنويا ، **ومن خـــلال هذا كله نحرص على أن نقدم للشباب امكانية المقارنة بين ثقافتنا ومكونات أصالتنا من جهة والثقافات المستوردة بما فيها من صالح وطالح ، من جهة أخرى ، ونحثه على أن يستخلص النتيجة بنفسه** ، وبذلك نربى فيه ملكـــــة الحكم وروح النقد . وقد رأيتم مثلا فى الملتقيات .. أننا ندعـــو أساتذة من مختلف أنحاء العالم الاســـلامى ، وكذلك من بلدان أوروبية غربية وشــــرقية ، من مسيحيين بمختلف طوائفهم ، وشيوعيين بعديد اتجاهاتهم ، وغيرهم وغيرهم ، من ممثلى التيارات الاخرى ! ولكن هذا كله يشترط أن تتوفر لدى أبنائنا الحصانة الفكرية ، والمناعة الروحية ، ليميزوا ويقارنوا بأنفسهم ، ويكونوا بمنأى عـــن التأثرات السلبية !

المجاهد : كنا ندخر للحديث عن الملتقيات مجالا آخر .. ولكن ما دمتم قد ذكرتموها ، فهـــل الحاجة الى هذه الملتقيات وقف على الجزائر ؟ لماذا لا تتعاقب الدول الاسلامية على استضافتها ، والاقتداء بها ؟

ـ : يكفينى فى هذا أن اقول : ان الملتقى السادس الذى انعقد بالعاصمة سنة 1972 ، قـــد أكد فى احدى توصياته على الاكثار من هذه الملتقيات فى مختلف البلاد الاسلامية ، مـــع ضرورة التنسيق حتى لا تنعقد مؤتمرات عديدة فى نفس الوقـــت !! .. **ذلك أن هذه الملتقيات لا ينبغى أن يستفيد منها الاساتذة والطلبة فقط ، بل عليها أن تنفتح على الجمهور ايضا ، كما نفعل فى ملتقيات**

الجزائر ·· ومن هنا تأتى ضرورة انعقادها فى مختلف البلدان الاسلامية ·· ليتمكن رجل الشارع من الاستفادة منها بالحضور ، أو عن طريق أجهزة الاعـلام ، والكتب التى تجمع ما يدور فى تلك الملتقيات ·

المجاهد : طالبتم غير ما مرة بان يتسلح المسلمون باليقظة والحذر فى التعامل مع الاجانـب ، وذكرتم مرارا بما فعله « ليون روش » الذى استغل طيبة الامير عبد القادر ··· ومع ذلك فان ثمة من يأخذ على بعض الملتقيات عدم الدقة فى انتقاء المدعوين ، ويرى أن بعض هؤلاء ليس فـــوق مستوى الشبهة ·· فما رأيكم ؟ !

ــ : فعلا نؤكد فى كل مناسبة على **ضرورة الحذر واليقظة والحيطة** ، ازاء كل من يريد أن يتبنى ناشئتنا ويتسرب الى صفوفنا ··· وهذا لا يمنـــع اطلاقا من التفتـــح والمناقشة والمقارنة والجدال الحسن (وجادلوا أهل الكتاب بالتى هي أحســـن) ··· أما بخصوص بعض الاساتذة الذين ندعوهم ــ ولا شك **أنكم تقصدون الذين ندعوهم من غير البلاد الاسلامية** ــ فهـم أما اساتذة جامعيون أو كتاب معروفون بمؤلفاتهم ·· ونرى من الاحســـــن ان يتعرف طلبتنا عليهم عن كتب ، فيناقشوهم ويجادلوهم ويتعرفوا على مناهجهم وطرق تفكيرهم ·· ويعرفوهم بمناهجنا وطـــرق تفكيرنا ومواقفنا مما كتبوا ويكتبون ··· **وحيـث أن هذه الملتقيات مفتوحة للجميع ، وتنصـــب على مواضيع حضارية فكرية ، فليس فيها أسرار دول تفشى ، ولا منافذ للتخريب من الداخل !** وقـد ظهرت نتائج هذه اللقاءات فعلا فى تعديل الكثير من مواقفهؤلاء المدعوين ·· فضلا عما يفيدوننا به من طرق ومناهج حديثة ، نحن فى حاجة اليها ، **وخذ العلم من أي كان ، حتى من الشيطان ! مـــع التحصن** بروحانيتك وأصالتك ··· ثم ان هذه الاتصالات متوفرة فى عصرنا عـن طريق الكتاب والصحافة وسائر أجهزة الاعلام ، ومن خلال الاتصال المباشر أيضا ، ســـــــواء فى الثانويات والجامعات ، أو الاسفار ··· فالاحسن ان تكون هذه الاتصالات فى اطار منظم كما هو الشأن فى هذه الملتقيات !

المجاهد : فى نهاية الحديث عن الملتقيات ·· ما هو تقييمكم لملتقى بجاية ؟ وهل هناك تعديلات تنوون ادخالها على الملتقيات مستقبلا ؟

ــ : أظن أن ملتقى بجاية قد نجح ·· وحكمي للملتقى ــ كمشرف عليه ــ يؤخذ طبعا بحيطة وحذر ! لانه ربما قل أو انعدم فيه عنصر الموضوعية !

ولكن اذا ما اخذنا بما قاله الجميع تقريبا من أساتذة الشرق والغرب ــ وأظنهم لـم يكونوا جميعا مجاملين ــ تأكدنا من صحة ما ذهبنا اليه ··· على أن كل شيء طبعا نسبي ، وكل شـــيء

قابل للتحسن ويستدعى المراجعة والتعديل · وهذا أيضا شأن هذه الملتقيات التى تتحسن وتتطور كل سنة ·· ونظن أن هذا سينطبق على الملتقى المقبل ، فالمفروض فى الانسان أن يستخلص الدروس من كل تجربة ، وأن يتدرج دائما من حسن الى احسن · واذا لم يبد لنا شىء من حيث الجوهر ، يستحق التعديل ، فان بعض الجزئيات والتفاصيل سيتناولها التغيير فعلا ·· وسنقولها لكم قبيل ملتقى تلمسان المقبل ، عندما نكون قد جمعنا كل عناصر الموضوع ، وبدانا فى الاعداد الفعلى للملتقى التاسع ·

المجاهد : كيف تنظرون الى المدارس الخاصة ، التابعة للارساليات التبشيرية ، وما هي الاجراءات التى ترونها ضرورية لحماية النشء من خطرها ؟ وفى المقابل ·· ما رايكم فى أن كثيرا من المدارس الخاصة التى تتبع « أسميا » لوزارة التعليم الاصلى ، تستغل ثقة الوزارة لاغراض تجارية ؟ !

ـ : مدارس الارساليات التبشيرية خطر بالفعل ، لانها قلما تلتزم بمجرد التعليم ، وينبغى أن نعترف بأنه يصعب عليها هذا الالتزام ، لان التعليم مرتبط كل الارتباط بالتربية كما نعلم جميعا ·· حتى أن كثيرا من وزارات التربية تسمى « وزارة التربية والتعليم » ··· ثم ان هدفها من رسالتها هو اكتساب عناصر تضمها الى صفوفها ، وهذا شىء مشروع من وجهة نظرها ! ولا نلوم الا انفسنا اذا لم نتسلح باليقظة والحذر ! **وأرى أن الحل الوحيد فى هذا ، هو ان تقتصر مهمة هذه المدارس التبشيرية على ابناء دينها ، وسماحة الاسلام تقبل بذلك ·· أما أن نبعث اليها بابنائنا فلا نلوم فى ذلك الا أنفسنا !** وافضل وسيلة لحماية النشء من خطرها هو الا نعرضهم لهذا الخطر ، مع الحيطة من نشاطها خارج المدارس أيضا ، وذلك بتحصين شبابنا أولا ضد جميع التيارات ، ثانيا باتخاذ **التدابير اللازمة لمنع أي نشاط يحاول استغلال أصول الضيافة !**

ان النشاط التبشيرى اذ يبلبل الشخص ، ببث الفتنة فى الاسرة ، ويخرب الامة بالتالى ، اذا ما استفشى واستشرى ! **وكلنا نتذكر ما كتبه المستشرق المبشر « زويمر » من ان مهمة المبشر ليست اكتساب أبناء المسلمين للمسيحية ، ولكن جعلهم غير مسلمين !** اي يذبذبتهم بحيث يخسرهم الاسلام ولو لم تكتسبهم المسيحية !

أما فيمايخص الشق الثانى من السؤال ، **وهو ما يتعلق بالمدارس الخاصة** الاسلامية ، فانكم تعلمون أن هذه المدارس تحتاج الى رخصة من أحدى وزارتى التعليم ، وهما وزارتا التعليم الابتدائى والثانوى ، والتعليم الاصلى ، والرخص التى تمنحها كلتا الوزارتين ، تتضمن اشرافا معنويا من بعيد وبالمراقبة من حين لآخر · وينبغى أن نعترف بأن بعض هذه المدارس الخاصة تؤدى مهمتها بنزاهة

واخلاص ، وأنها أنقذت كثيرا من الشباب وأوصلتهم الى الباكالوريا ·· على أن بعضها الآخر يستغل هذه المهمة استغلالا فاحشا من الناحية المادية ، فيما تفرضه على الطلبة من مساهمة مالية باهظة ، ترهق الاوساط الفقيرة التى ينتمى اليها كثير من هؤلاء الطلاب · **وقد سحبنا رخصنا من كثير من هذه** المدارس ، بعد الاطلاع على شىء من هذا السلوك السىء ، أو عدم تطبيق البرنامج ··· واصبحنا نتشدد أكثر فى الرخص الجديدة ، مع مراقبة صارمة للمدارس التى اعطيناها رخصا من قبل · أما الجوانب الاخرى كالظروف الصحية لمثل هذه المدارس ، فالحقيقة اننا لا نتشدد كثيرا فى هذا الجانب ونعلم أن كثيرا من اقسامها يفتقر الى الشروط الصحية ، حيث تسود الرطوبة والظلمة ، وسبب تسامحنا هنا هو **اننا نؤثر ان يتلقى الطفل تعليمه ولو فى مثل هذه الظروف الصعبة ، على أن يظل مهملا فى الشارع ·**

المجاهد : وأخيرا ، تميل فئة كثيرة من الشباب المثقف الى الاعتقاد بأن الاسلام لا يملك اجابة كافية على الاسئلة الاجتماعية والاقتصادية ، التى يطرحها العصر ·· فما قولكم ؟

ـ : الاسلام ليس دينا فقط ·· بل هو أيضا نظام اجتماعى وحضارى ، وعلى هذا الاساس فقد عرف مثل غيره عصور الركود والجمود ، بل والانحطاط !

لكن تأخر البلاد الاسلامية ـ كما كتب للملتقى أخيرا المستشرق المجرى المعروف عبد الكريم يوليوس جيرمانوس المسلم الوحيد فى المجر ، والبالغ من العمر تسعين عاما ـ ليس عيبا فى الاسلام بل فى المسلمين ·· ذلك أن الاسلام الذى اعطانا والبشرية بالامس تلك الحضارة المزدهرة ·· تلك النخبة من العلماء الافذاذ ، الذين جعلوا البشرية كلها تقفز من سراديب القرون الوسطى الاوروبية طفرة الى العصر الحديث ·· أمثال الفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، والخوارزمى ، والبيرونى وابن القاسم ، والرازى ، وابن الجزار ، وابن خلدون ، وابو حمزة الجزائرى ، وغيرهم كثيرون ·· هو الذى يستطيع أن يفعل ذلك اليوم وغدا ·

ومن الادلة النظرية الكثيرة على شمولية الاسلام ومنطقيته أن ذكر الدنيا فى القرآن الكريم يتقدم ذكر الآخرة ! وعمليا فان الاسلام هو الذى أوجد أول مؤسسة للضمان الاجتماعى ! فصلاح الدين هو صاحب « قطرة الحليب لكل طفل » ، قبل منديس فرانس بعدة قرون ! وعمر بن الخطاب وهو الذى أنشا الضمان الاجتماعى للعجزة ولو كانوا ذميين ، والمنحة العائلية للاطفال ولو كانوا ابناء سفاح !

وفى عهد عمر بن عبد العزيز عم الرخاء والازدهار حتى لم يجدوا فقراء ياخذون الزكاة ! وحتى الحيوانات الاليفة وجدت لها مؤسسات اجتماعية فى بعض عصور الاسلام ، لتغذيتها ومعالجتها ·

الاسلام اذن نظام كامل شامل ، فهو دين وهو لم يتغير قط ، ولكن المسلمين هم الذين تغيروا ، « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وقد فصل ذلك شكيب ارسلان فى كتاب خاص اسماه « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » ، فلنرجع الى الاســـلام الصحيح الذى هو ضد كل تخلف وضد كل استغلال وكل تمييز ، ففيه حلــول لجميع المشاكل على تغير الزمان والمكان ··· وباب الاجتهاد ما يزال مفتوحا كما قرره كثير من العلماء ، واجمعت عليه المذاهب الثمانية فى الملتقى السابع · لنرجع الى هذا الدين اذا كنا نريد استعادة عزتنا ومكانتنا بين الامم ، فهو التقدم بذاته مع المحافظة على القيم ·

واسمحوا لى هنا ، أن أعود الى كوريا والصين (حاول أن تسرع فى الكتابة أكثر !!) فقد أعجبنى هناك أننا رأينا من البشر بعدد حبات الرمل ، تدب الى العمل فى سير منتظم دبيب النمل ! ولم نشاهد فى شوارعها فى أوقات العمل جموعا تتـزاحم وتتشاتم ، ولا متسكعين ومتسكعات ، ولا فى الليل مترنحين ومترنحات ولا أحلاسا قصيــرة ، ومخيخات لكل سخف اسيرة ، ولا ابتذالا وابتذالا ! وأن كتابها وفنانيها ليسوا مخربشين وغربانا مرضى ، يحومون حول الجيف ، ويدعون الى الكسل ، والانحلال ، والفوضى !

أعجبنى فى الصين وكوريا أن المقياس فيهما للثـــورية والتقدم ، بالمصانع لا بالمقاهى ، وبالمزارع لا بالملاهى ، وبالمطابع لا بالمزاهى ! وان العبرة فيهما بالعلم ، والعمل ، والسيرة ·· لا بالرقص ، والقمار ، والبيرة !

لقد يتحسر البعض ويتساءل : أين شنغــاي القديمة ؟ لقد ذهبت مع الافيون واللفيف ، ولم يبق فيها من ذلك كثير ولا طفيف ·· وأخذت عــن البـــلابل التبكير والزقزقة ، وتركت للضفادع تخبط الليل والنقنقة !

وقد تقول أيها القارئ المسلم الكريم : ولكنهم شيوعيون ! وأجيبك : نعم شيوعيون ، ولكنهم صينيون وكوريون ، ولو شهدوا لكانوا هم المسلمون الحقيقيون ! ومجتمعهم هـــو ذلك المجتمع المثالى ، الذى طالما حلم به الفارابى والفلاسفة الطوباويون !

ايه أيها المسلمون ! حطين أم طين ؟ وعلى كل فهذا هو انطباعى عن كوريا والصين ! وانطباع كل عقل حصين رصين !

مسلـم و مفـكر يابـانى
يتحـدث الى الشـعب

حوار مع الدكتور عبد الكريم سايتو
استاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو (اليابان)

مسلم من مسلمى اليابان ـ وهم فئة قليلة فيتلك البلاد الموجودة فى اقصى شرق المعمورة ـ جاء ليشترك فى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى الذىعقد فى الشهر المنصرم بمدينة بجاية العريقـة وهذا الشخص المتواضع هو الحاج عبد الكريـمسايطو رجل الاقتصاد ومدير الجمعية الاسـلامية اليابانية وهو كذلك استاذ بجامعة تاكو شوكو فى طوكيـو ٠

وجدير بنا ان نلاحظ هنا ان الاستاذ عبـدالكريم قد ألقى محاضرة فى ملتقى بجاية تعرض فيها الى وضع الاقليات والجاليات عموما والاسلاميةخصوصا فى كثير من بلدان القاراتالخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال الاعلام نحوها ٠

وقد خصنا الاستاذ عبد الكريم سايطو قبيلمغادرته أرض الجزائر بحديث استعرض لنا فيه بعض افكاره وفيما يلى نص الحديث :

« اننى انتهز هذه الفرصة لاشكر جـريـدة« الشعب » ، واننى مسرور بهذا اللقاء ، واننى اشكر معالى السيد مولود قاسم وزير التعليـمالاصلى والشؤون الدينية الذى تمكنا بفضل جهوده من القدوم الى الجزائر لحضور الملتقى » ٠

سؤال : سماحة الاستاذ عبد الكريم هل لكم ان تدلوا لنا برايكم عن فكرة عقد مؤتمر سنوى للتعرف على الفكر الاسلامى ؟

جواب : « ان هذا المؤتمر ندوة هامة جدا ليس بالنسبة للجزائر فحسب بل بالنسبة للعالم الاسلامى ، وان مثل هذه المؤتمرات التى تعقد بالجزائر تهم شعوب الامة الاسلامية بأسرها بما فيها الجاليات الاسلامية فى العالم ، وهذا المؤتمر هو بمثابة تشجيع للجاليات الاسلامية وسند لها ، بحيث انها لا تشعر انها مهملة .

ان مثل هذه المؤتمرات ستعجل بوحدة العالم الاسلامى اننى اشكر الحكومة الجزائرية واطلب منها ان تواصل تنظيم ندوات الفكر الاسلامى .

ففى نظرى ينبغى لمثل هذه الملتقيات ان تكون منبرا من منابر الاسلام للتعريف بالديانة المحمدية السمحاء وبمذاهبها ، وذلك خدمة لمستقبل العالم الاسلامى بتمامه وكماله وفى الواقع من اجل توحيد كل البلدان الاسلامية ، وكما قلت آنفا لتشجيع الاقليات الاسلامية فى عدد كبير من البلدان : ففى اليابان على سبيل المثال توجد قلة قليلة من المسلمين اذا قارناها بالعدد الهائل للسكان فى جزيرتنا ، وقد دخل الدين الاسلامى اليابان منذ وقت قصير جدا « فى بداية القرن العشرين » على أيدى بعض العلماء البرزة كالحاج عمر ميتاى «الذى ترجم القرآن الكريم من العربية الى اللغة اليابانية وقد طبعت الترجمة فى المملكة العربية السعودية» والحاج عمر ميتاى من أقدم المسلمين فى اليابان ، وانا ـ اسلمت منذ 17 عاما ، الا ان أملنا وامل المسلمين فى اليابان ان يرفع الشبان مشعل الديانة السمحاء بعدنا نحن ويحافظون على اسلامهم » .

سؤال : استاذ عبد الكريم لقد زرتم خلال اشغال الملتقى الثامن بعض المنجزات الاقتصادية فى منطقة بجاية وسطيف واطلعتم على بعض المشاريع فهل لكم من كلمة تقولونها لنا عن سياسة التنمية الجزائرية ؟

جواب : « اننى زرت الجزائر منذ ثمانى سنوات أول مرة وعندما تنقلنا مؤخرا لزيارة المشاريع الاقتصادية الجزائرية كنت سعيدا بأن لاحظت انه حصل تغيير كبير جدا ، واننى لم أكن من قبل اتوقع مثل هذا التغيير . فلقد كنت سعيدا جدا بملاحظة المشاريع الاقتصادية المنجزة ، ولما قدمت الى الجزائر منذ سنوات لم ألق صناعة تذكر أما الآن فقد سنحت لى فرصة حضور الملتقى الثامن للفكر الاسلامى لرؤية مصانع كبيرة تعمل وعدة مشاريع بصدد الانجاز ، وهذا ان دل على شىء

فانما يدحض الدعاية الفرنسية التي كانت تقول فيما مضى ان الجزائر سوف تؤول الى الزوال عندما تستقل ·

والآن والحمد لله أرادت مشيئة الله ان تنجز مشاريعها وان من حافظ على دينه تقدم لا محالة وباذن الله ، والجزائر بلد غنى فقد كانت تنتج فيعهد الاستعمار 16 مليون طن من البترول . أما الآن فهي تنتج 50 مليون طن ، والجزائر بلاد خيرات يتوفر فيها كل ما يحتاجه الانسان ·

لقد رأيت في أسواق الجزائر كل أنواع الخضر والفواكه وهي قليلا ما تكون متوفرة في اسواق بلدان العالم المصنع وانني لاحظت ان الدنيا كلها خضراء في الجزائر، فالخضرة والزهور تكسو الارض ما بين بجاية والجزائر ·

ان الحكومة الجزائرية تسلك سياسة ينتفع منها الشعب الجزائري كله وليس فئة رأسمالية . وهذا ما يدعو اليه الاسلام ، ان الجزائر تبنى الاشتراكية على أساس اسلامي وهذا هو أحسن السبل الاقتصادية للتقدم والازدهار » ·

سؤال : استاذ عبد الكريم لو سمحتم بسؤال آخر . ان الرئيس بومدين سيشارك في الدورة الطارئة للجمعية العامة للامم المتحدة لدراسة قضايا المواد الاولية ، فما هو رأيكم عن هذا المؤتمر الاقتصادي الذي لم يسبق له مثيل ؟

جواب : « يجب ان تعم الحضارة الانسانية كل بلدان العالم ولا ينبغي ان تقتصر على أمريكا أو أروبا ، ففي الماضي كانت البلدان المصنعة تسيطر بواسطة الشركات البترولية الكبرى على مصادر الطاقة في بلدان العالم الثالث ، ولكن الآن ومن حسن الحظ اصبحت البلدان النامية وخاصة منها المنتجة للبترول تتحكم في قضايا الطاقة في العالم ، فسياسة الرئيس هواري بومدين في هذا المجال هامة جدا لانها ستعجل بحصول عدة تغييرات عما قريب وانني متيقن من ان امريكا ستدرك كل مشاكلنا في هذا الاسبوع . وهذا أمر هام جدا، اما بشأن الاقتراح الامريكي بشأن اقامة مجموعة موحدة للبلدان المستهلكة للطاقة بقصد مواجهة البلدان المنتجة فهو قد يفيد البلدان الصناعية ، ولكن توجد خلافات كبرى احيانا بين هذه البلدان ، ان نيكسون الذي صدر عنه هذا الاقتراح يفكر تفكيرا خاطئا ، وهو بطبيعة الحال يريد افادة مصالحه لا غير . بعكس الرئيس بومدين الذي اعتقد انه يفكر في الجميع ويريد افادة الجميع من أجل تحسين علاقات التبادل بين الدول غنية كانت أم فقيرة، دون تمييز· ان الرئيس بومدين لا يعمل فقط لفائدة الجزائر بل كذلك

لفائدة بلدان العالـــم الثالث ، وانني اتمنى انيتوصل الرئيس بومدين الى حل المشكلات ، ولا أظن ان الرئيس نيكسون سيحلها » .

ونحن على وشك انهاء هذا الحديث انضم اليناالاستاذ الهادى خسرو شاهيان الاستاذ بالجامعة الاسلامية فى قم بايران ورئيس تحرير مجلـــة« الهادى » والحاج الشريف احمد البرقى المغربى مدير المركز الثقافى الاسلامى بمدينة ارهس فىالدانمارك ، فأبى الاستاذ خسرو شاهيان الا ان يقول لنا الكلمة التالية :

« اننى اشكر وزارة التعليم الاصلى والشؤونالدينية على الجهود الجبارة التى بذلتها ولدعوة كل العلماء والمفكرين من كل اقطار العالم للاشتراكفى ندوة عالمية اسلامية ولبحث المشكلات الموجودة فى العالم الاسلامى . وطرق حل الازمات . وهــذاليس ببعيد فى بلد اسلامى كالجزائر التى تمسكت باسلامها منذ القديم كأحسن ما يكون التمسك ،وقد وفت الجزائر بعهدها للاسلام بعد الثـــورة الكبرى لانها تعلم جيدا ان الاسلام كان عمـــادالثورتها ، ونحن نشكر معالى الوزير مولود قاسم الذى قام بنشاط واسع فى هذا السبيل ويقيـمالملتقى الذى يلتقى فيه المسلم الشيعى من ايران ولبنان مع أخيه المسلم السنى فى كل مكان ،ونسأل الله تعالى ان يوفقنا جميعا فى هذا السبيل ان الشعب المسلم فى ايران والجامعة الاسلامية فى« قـم » التى يدرس فيها سبعة آلاف طالب مـن شتى الاقطار الاسلامية لعلى صلة روحية باخوانهمالجزائريين » .

ثم صرح لنا الحاج الشريف احمد البرقى بما يـلى :

« باسم المركز الثقافى الاسلامى اشكر الحكومةوالشعب الجزائرى ووزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية والرئيس هوارى بومدين وهذه أول زيارةأقوم بها للجزائر واننى مسرور جدا لنجاح الملتقى الذى حضرته اننى لاحظت ان للحكومة الجزائرية نظام تخطيط دقيق لم أشهد مثله فى أى بلد عربى آخر والبرنامج الذى أفضله فىالجزائر هو البرنامجالخاص بالقرية النموذجية فى الريف التى تساعد سكان الريف فى أوجه نشاطهم وحياتهم اليوميةوان القرية تخفف عن العاصمة مشاكلها ، واننى انتظر ان ينظر للجاليات الاسلامية فى أوربا .

اننا نطلب المساعدة منالحكومات العربية لانشاءمدرسة ومكتبة عربية ، لا لخدمة جالية معينة ولكن لخدمة كل الجاليات الاسلامية .

وشهد شاهد من غير أهلها

حوار مع الدكتور مانفريد فلايشهامر

نائب رئيس قسم علوم الشرق والعصور القديمة
بجامعة هالة (الجمهورية الديمقراطية الالمانية)

اجرى الحديث : **عاطف يونس**

الدكتور منفريد فلايشهامر مستشرق المانى ،شارك أكثر من مرة فى ملتقيات الفكر الاسلامى التى تعقد سنويا فى الجزائر · وهو من مواليدمدينة ماكدبورغ لعام 1928 · وفيها تلقى علومه الابتدائية والثانوية ، ثم تابع دراسته العالية فىقسم علوم الشرق والعصور القديمة بجامعة هالة (المانيا الديمقراطية) حيث تتلمذ على المستشرقينالمعروفين بروكلمان وجوها نفوك ، وحصل على الماجستير باطروحة حول مخطوط مشاهير علماءالامصار لابن حبان البستى · وقد طبعت أطروحته هذه فى القاهرة عام 1955 · ثم نال الدكتوراهالعليا عام 1966 ، وكان موضوع الاطروحة مصادر كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ·واضافة الى هذين البحثين ، فقد حقق الدكتور مانفريد كتابا حول قواعد اللغة العربية لأستاذ بروكلمان · وله الى جانب ذلك عدة مقالات وتراجم للادب العربى الحديث ، فى المجلاتالعلمية ·

وهو يشغل اليوم منصب نائب رئيس قسم علوم الشرق والعصور القديمة بجامعة هالة ·

وقد اتضح لنا من خلال مشاركته فى ملتقى بجاية أنه متمكن الى حد ما من العربية ، الى جانب اتقانه للانجليزية والفرنسية ·

وفى لقائنا السريع معه أثرنا جملة من المسائل الفكرية ، مما يهم القارىء العربى ، ولم نكن نتوقع أن يكون المستشرق الالمانى الشاب على هذا القدر من الحيطة والتحفظ فى الرد على أسئلة ليست بذات طابع سياسى :

المجاهد : باي دافع اتجهتم الى اللغة العربية ، وما هو تقييمكم لها على ضوء ما تعرفونه من لغات أخرى ؟

ـ : الحقيقة انه لم يكن لدى دافع معين ، وربما كان لقائى بالعربية من باب الصدفة ! وقد بدأت صلتى باللغات السامية بتعلم اللغة العبرية لقراءة التوراة !

مقاطعة : هل أنت مسيحي أم يهودى ؟

ـ : (بشيء من الارتباك) أنا مسيحى ! أما بخصوص العـــربية ، فقد اتجهت اليها بعد الدراسة الثانوية ، وهي لغة غنية بمفرداتها ومعانيها ، ومعلوم أنها كانت فى العصـــور الوسطى لغة علمية ، تعبر عن كل التصورات والافكار العلمية الموجودة فى ذلك الوقت ·· عرفت هذا مــن خلال علاقتى واشتغالى بهذه اللغة ·· أما الآن ، فقد وجدت من خلال الكتب والصحف العربية أن اللغة العربية يمكن أن تكون فى الوقت الحاضر لغة علمية ، تستوعب كل الاحتياجات العلمية والتقنية الحديثة ، ولكنى أعتقد أن هناك بعض المشكلات ، كتوحيد المصطلحات العلمية ، وهذا مطلب واحتياج اساسى فى كل علم ، وأرى ما يراه الكثيرون مـــن علمائكم أن العــــربية تقتضى توحيد وتثبيت الجهاز الاصطلاحى ، لسد الاحتياجات العلمية · فنحن نلاحظ أن اللغات العالمية تتوفر على ثـروة من المصطلحات الموحدة والثابتة · اللغة أداة تفاهم فى الدرجة الاولى ، ومن واجب أصحـــــاب العربية أن يتعاملوا بصورة دقيقة ! وأرى أن العربية قادرة على أن تستعيد مكانتها فى الحضـــارة والعلوم ·

المجاهد : بوصفكم مستشرقا ·· كيف تنظرون الى دور المستشرقين بالنسبة الى التـراث العربى عامة ، والتاريخ بصفة خاصة ؟

ـ : تختلف دوافع العلماء فى الدراسة والبحث فى شتى العلوم ، ومنها العلوم الاجتماعية ، ولا أستطيع أن أتحدث فى هذا الموضوع بصفة عامة ، ولكن فيما يخص أهداف المستشرقين فى بلادنا فهي علمية محضة ·· فنحن نحاول دراسة تـراث العـــرب وتاريخهم لنفهم وضعهم الراهـــن ، ونستشرف معالم مستقبلهم !

المجاهد : وما الذى توصلتم اليه فى هذا السبيــل ؟

ـ : كلما اتيحت لى فرصة زيارة بعض الدول العـــربية ، لمست تقدما فى مختلف مجالات الحياة ، والمس محاولات جادة للنهوض فى كل المجالات العلمية والفنية ، وعلى سبيل المثال ، فقد زرت الجزائر مرتين وكانت الاولى فى بداية الثورة الزراعية ، وها أنا اليوم من خـــــلال المتابعة والمشاهدة ـ ألاحظ أن الشعب الجزائرى يواصل السير بكل جد ونشاط فى هذا الاتجاه ، وأحـــب أن أؤكد لكم أن الشعب فى ألمانيا الديمقراطية ـ لا العلماء وحدهم ـ يتابع ما يحدث فى الجـزائر بكل اهتمام واعجاب ··· وهذا يؤكد ان العـرب يتقدمون حثيثا فى ســـبيل ازدهـــار جديد لحضارتهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ·

المجاهد : شكرا ، وأرجو الا يكون قولكم هذا من باب المجاملة !

ــ : (ضحك) لا ، لا ·· أنا لا أصانعكم ، وما قلته هو ما أعتقده فعلا ·

فالملتقى مثلا ، أكد لنا أن العرب يعرفون مشاكلهم ويرغبون فى حلها ·· وقد لا يأتى الحـل سريعا ، ولكن المهم أنكم تعون مشاكلكم وتستعدون لحلها ·

المجاهد : تعرفون بلا ريب ان مقدارا واسعا من المخطوطات العربية موزع بين متاحـف أوروبا ومكتباتها العامة والخاصة · ــ فما هي نظرتكم الى هذه القضية ؟

ــ : لا نستطيع أن نناقش ما اذا كان من اللازم اعادة هذه الذخائر الموجودة فى مكتبات العالم كله ، علما بأن طرق ووسائل الحصول على هذه المخطوطات مختلفة جدا ·· فبعضها تم عن طريق الشراء أو المبادلة ، وهي فى بعض المكتبات موجودة منذ زمن قديم ، وكان المستشرقون فى أوروبا والعالم يشتغلون بها منذ زمن بعيد ، فيدرسونها ويفهرسونها ويحققونها وينشرونها ، ويعتبر هؤلاء العلماء ان المخطوطات العربية التى فى حوزتهم جزء من ذخائرهم القيمة · وأنـــا لا أرى فى ذلك مشكلة ! فقد جرت العادة على السماح لكل باحث أن يستعين بما شاء من هذه المخطوطات ، كما يسمح أيضا بتصويرها وجمعها عن طريق المكروفيلم · وأذكر لكم على سبيـــل المثال أن مكتبة « جوتا » بالمانيا الديمقراطية ، قد قامت بارسال مصورات للكثير من المخطوطات التى طلب العلماء العرب الاستعانة بها ·

المجاهد : ولكن يا دكتور ·· ما الذى يضمن لنا أن لا تمتد يد التغيير أو التشويه الى هذه المخطوطات ، خاصة وأن مواقف الاوروبيين من العرب ليست فى كل الحالات مطمئنة ؟ !

ــ : لا أستطيع الافتاء فى هذه المشكلة ! ولكن ثقوا بأن لا خطورة على مخطوطاتكم فى بلدى ، أما البلاد الاخرى فالله أعلم !

المجاهد : وأخيرا ·· ما هو الانطباع الذى ستعودون به الى بلادكم ؟

ــ : فيما يخص الملتقى ، فقد اشتركت قبل هذه المرة ، فى الملتقى السادس ، والاحظ أن ملتقى بجاية يمتاز بالانفتاح على مختلف الآراء والاتجاهات الاسلامية وغير الاسلامية ، ولذلك فاننى أرى أن هذه الملتقيات تلعب دورا هاما فى شرح المشكلات المطروحة · أمـا بالنسبة الى الجزائر ، فلقد استقبلنا فى المرتين بكل حفاوة وكرم ، ونحن نشكـر الحكومة الجزائرية على هذا الاستقبال الذى سننقله الى شعبنا بكل اعتزاز ·

الاقليات الاسلامية فى اسبانيا

حوار مع الدكتور ميغال دى ايبالزا (اسبانيا)

قام السيد ميغال دى ايبالزا ببحث مفصل يعتبر بداية ناقوس خطر عن الوضعية الحالية للشغل وطريقة العيش التى يوجد عليها 100·000 مسلم فى اسبانيا ، فتوصل الى نتائج بناءة اذ انه لا يوجد فى اسبانيا غير المسلمين السواح ، بل هناك كذلك العمال اليدويين والطلبة يعيشون فى ظروف تسببت فيها بعض الاوساط الاسبانية ·

دراسة :

يعيش 100·000 مسلم فى اسبانيا ، فما هى وضعيتهم الحالية من حيث الشغل وطريقة العيش؟

الاقليات الاسلامية فى اسبانيا :

كانت وضعية الاقليات الاسلامية من بين النقاط الخمسة لبرنامج الملتقى الثامن للفكر الاسلامى الذى انعقد مؤخرا فى بجاية تحت اشراف وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وكان من بين المختصين والشخصيات المدعوة ثلاثة اسبانيين وهم :

- السيد سالغدور غوميز نوغاليس استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة مادريد ،
- والرئيس الكاتب العام لجمعية الصداقة الاسلامية المسيحية الاسبانية ،
- والسيد ميغيل دو ايبالزا استاذ التاريخ الاسلامى بجامعة الجزائر •

ومن جهة أخرى نشير الى ان السيد مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية قد استدعى بصورة رسمية للمشاركة فى المؤتمر العالمى الاسلامى المسيحى الذى سينعقد فى مدينة قرطبة فى شهر سبتمبر المقبل . وفى هذا الصدد قمنا ببحث قصير عن حالة المسلمين فى اسبانيا •

اربعة انواع من المسلمين :

لا توجد اية علاقة بين المسلمين الذين يسكنون حاليا فى اسبانيا والذين كانوا فى الاندلس اى اسبانيا القديمة المسلمة اذ تعرض هؤلاء فى بداية القرن السابع عشر والقرن الحادى عشر الى الطرد الجماعى والكلى تقريبا • وأما فى يومنا هذا فلا يمكن ان نميز بين حفدة العرب الذين اندمجوا فى الشعب الاسبانى وغيرهم من الاسبان •

ويمكن القول بأن كل المسلمين الذين يعيشون حاليا فى اسبانيا هم من اصل اجنبى باستثناء عدد قليل من الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام او على الاصل ينتمون الى مذاهب او طوائف دينية من اصل اسلامى كالبهائيين والاحمديين مثلا ويمكن تقسيمهم الى اربعة طبقات :

أولا ـ طبقة العمال اليدويين

وهؤلاء تقريبا كلهم من اصل مغربى فلقد استقر بعضهم فى اسبانيا منذ الحماية غير ان أغلبيتهم نزحت فى السنوات الخمسة الاخيرة الى اسبانيا افواجا افواجا •

فالذين عاشوا فى اسبانيا منذ الحماية يعرفون اللغة الاسبانية كما ان لهم معرفة بالحياة الاسبانية •

أما الباقون منهم فبالعكس فهم محرومون من كل سند ثقافى لغوى ، مالى شرعى او نقابى الخ وهم فى حالة يرثى لها ولا يمكن احصاؤهم ٠

ويمكن القول بان عدد المسجلين منهم فـــى القنصلية المغربية وله رخصة اقامة لا يبلغ الواحد فى المائة ٠ ويبلغ مجموعهم على التقريب 70 000 عامل ٠

ويوجد كذلك بعض المآت من الجزائريين فـــى نفس الوضعية وعلى الخصوص فى المناطـــق الشمالية رجعوا بعد ان افصوا الى الحـــدود الفرنسية نظرا لان اوراقهم لم تكن مضبوطـة ٠

الطلبـــة :

وهم فى الغالب طلبة الطب والصيدلة أتـــوا من الشرق الاوسط (فلسطين ـ سوريا ـ الاردن ـ لبنان ـ مصر) الخ ٠ ومن المغرب مع اقليـات من بلدان اخرى منهم الصحراويون (الساقيـــة الحمراء ـ وادى الذهب) ، وهكذا يوجد حـــوالى 7 000 جامعى عربى أغلبيتهم من المسلمين فمنهـم من ياتى لتحضير اطروحة الدكتورا فى التاريـخ او فى اللغة الاسبانية او فى مواضع اسبانيـــة عربية ٠ وهنالك كذلك تقنيون فى السيـــاحة والهندسة والفن او الحفريات) الخ ٠

محترفون ديبلوماسيون أو ذوى حرف حرة :

وهم شخصيات استقرت على مختلف العصور ولاسباب مختلفة فى البلدان التى لها تشريـــع اقتصاد حر لتقبل الاجانب وعلى الاخص اذا كانت لهم اموال لاستثمارها ٠

زوار المـــرور

يوجد من بين الملايين الزوار او السواح الذين يفدون على اسبانيا عدد لا يستهان به من العـرب والمسلمين وواقع زيارتهم الى اسبانيا وخصوصـا المسلمين منهم يقومه غيرهم اذ انهم ياتون لزيارة الاندلس المسلمة ليتنعموا بالمآثر التاريخية للفن الاسبانى العربى ٠

ومن بين زوار المرور يوجد اكثر من مليـــون مغربى وجزائرى يعبرون اسبانيا للرجـوع الى بلادهم ، وعلى هذا الاساس يجعلون من اسبانيا مع البلدان البلقانية احد اوائل البلاد ان لم تكن أول البلدان فى العالم التى تتلقى زوار المدار مع مشاكلهم الخاصة ٠

فالاشخاص الذين لهم وضعية مالية حسنـة والسواح لا يضعون مشاكل كثيرة وانما وضعية العمال اليدويين والطلبة هى التى تحتـاج الـى عناية خاصة ٠

ـ المشاكل المزرية التي يعيش عليها العمال اليدويــون •

يعد مشكل العمال اليدويين بدون ادنى مقارنةاكبر مشاكل الاقليات الاسلامية فى اسبانيــا • فهو مشكل سياسى واجتماعى خطير ، مشــكل انسانى جديد فى اسبانيا لم نستعد له الاستعداد الكافى •

وفى الواقع فان اسبانيا بلد اعتاد منذ سنــة1950 تهجير ابنائه الى امريكا ، ثم بعد ذلك الى اوروبا ، غير ان حاجياته الاقتصادية ومصلحــةالمؤسسات العامة والحاجة للحصول على يد عاملة رخيصة بالنسبة لليد العاملة الوطنية شجعــتفى السنوات الاخيرة استيطان العمال المغاربــة بصورة خفية وفى ظروف مزرية •

فليست لهؤلاء العمال وضعية قانونية لا بــالنسبة للسلطات المغربية ولا اتجاه الاسبـان • فغالبا ما يجهلون اللغة وكتابتهـا كمــا انهــممستغلون من طرف الجميع يستغلهم المغاربــة العابرون لاسبانيا كما يستغلهم الاسبان والمؤسسات التى تشغلهم تسكنهم فى قسمات وتقصيهم عن العمل لأتفه الاسباب كما يدفعون لهم أجورا على حسب هواهم • ويضاف الى كل هذا ان هؤلاء العمال ليست لهم اية وسيلة للدفاع عن حقوقهماو مساندتهم • فان ارتكبوا بعض الاخطاء وكانوا معروفين من طرف البوليس يطردون سريعا مــنالبلاد • فلا يمكن حل هذه الوضعية اللاانسانية الا بابرام معاهدة على مستوى الدولتين ، غير انهرغم العلاقات الحسنة بين النظامين فليس هــناك ما يدل على ترقب حلول لهذا المشكل وبـــاقىالمنازعات الاخرى حاليا ، مثلا تحديد الميـــاه الاقليمية ، الصيد ، نزع ملكية الاراضى الـــتىيمتلكها الاسبان بالمغرب ، مشاكل الاقاليـــم الصحراوية المحتلة من طرف اسبانيا الخ • فما دامت الدبلوماسية الاسبانية لم تستطع الخــروج من هذه المشاكل فانه يصعب التكهن بايجـــاديداية لحل مشكل العمال المغاربة فى اسبانيـا ، غير ان وضعيتهم الخطيرة بدأت تشغل بال عـــددمن الشخصيات والجمعيات على اختلاف انواعهـا وكذلك الادارات المعنية ، كما نلاحظ تدخـــلالصحفيــين فى الامر •

وزيادة على ذلك يخشى حدوث مجابهات خطيرةبين المستوطنين مع الطبقات الشعبية الاسبانية • وبالفعل فان العمال الاسبان يدركون جيدا بانهؤلاء العمال المغاربة يكونون اداة تضــاف الــى الادوات التى تتوفر عليها الطبقة الحاكمة لاستغلالالعمال لتغيير قانون العرض والطلب • ولهـــذا

ترى قيام عنصرية شعبية حقيقية ستكون لهـــا نتائج خطيرة بالنسبة لمستقبل العلاقات الاسبانية المغربية ٠

ـ مشـــاكل الطلبـــة :

للطلبة العرب مسلمين كانوا أم مسيحيــين الآتين من الشرق الاوسط نفس المشاكل وأهمها مشكل اللغة باستثناء المغاربة . ففى بعض الاحيان لا يعرفون اللغة ، ولهذا يصبح من اللازم عليهم معرفة هذه اللغة لكى يمكن لهم متابعة المحاضرات بالجامعة ٠ يضاف الى ذلك مشاكل قبولهم فــى كلية الطب 80 فى المائة منهم يتلقون دروسا فــى الطب او فى الفنون الطبية او المساعدة الطبيـــة مع العلم ان الطلبة يتهافتون على هذه الكليــات بكثرة مما يجعلهم يسابقون الاسبان بصعوبة ٠ وغالبا ما يعيدون السنة بدون منحة متحملــين صعوبات هذه الوضعية وكان بامكانهم التغلــب على هذه الصعوبات بسهولة بالاتصال مـــــع زملائهم الاسبان ، الا انهم ينعزلون ويجتمعـــون بينهم ، وهذا عامل يساعدهم من الناحية العاطفية الا انه لا يحل مشاكلهم اللغوية التى هى المصدر الاساسى لصعوباتهم الاكاديمية ٠ وتجب الاشارة الى ان هناك عددا قليلا من الجماعات والجمعيـــات الاسبانية تحاول بقدر المستطاع مساعدتـــهم فى حل هذا النوع من المشاكل ٠

وبالاضافة الى كل هذا فانهم غالبا ما يتخبطون فى مشاكل اقتصادية وعلى الخصوص منهـــم الاردنيون والفلسطينيون وهم الاكثر عـــددا ،وعلى العموم فانهم لا يجدون صعوبات فى الاسكان٠

غير انهم يشعرون رغم الحفاوة العامة للشعب الاسبانى والترحيب بهم انه يوجد لدى هـــذا الشعب نوع من عدم اللامبالاة بالنسبة لقضيتهم العربية على الخصوص ومشاكل العالم الثـــالث على العموم ، وهذا يتجلى فى جهل وعدم تفهـــم عدد كثير من الاوساط الاسبانية للقضيـــة الفلسطينية الشىء الذى يؤلمهم على الخصـــوص ،ورغم الجو السياسى الذى يسود فيما بينهم فـــان الطلبة يجدون صعوبات مع سلطات بلدهم مـــن حيث طلب الاعفاء الموقت من الخدمة العسكريـة او تجديد جواز السفر الخ ٠ الشىء الذى لا يسهل دخولهم الى البلد ولا يسهل كذلك علاقاتهم مـــع السلطات الاسبانية ٠

ففى غالب الاحيان تكون اقامتهم قصـــيرة وهذا شىء طبيعى فى حياة الطلبة الاجانب٠وعندما يرجعون الى اوطانهم يحتفظون بعلاقات حسنـــة مع اصدقائهم الاسبان ، وبهذا يكونون رابطـــة

متينة بين اوطانهم واسبانيا على المستوى الثقافي والعلاقات الشخصية • فوجودهم فى جامعة اسبانيا يكون بمثابة ثروة للبلد من الناحية الانسانية والثقافية والعقائدية • وهو كذلك اساس التفتح الحقيقى للشعب الاسبانى على ثقافة غير اوروبية وبالتالى يجعل هذا الشعب على معرفة بثقافة العالم الثالث ، ذلك ان عددا كبيرا من الطلبة الوافدين من جنوب امريكا يقتربون اكثر من الاسبان بواسطة اللغة والثقافة لامكانية التفتح • والتجربة التى يحملها هؤلاء تعادل تلك التى يحملها معهم الطلبة المسلمون فى اسبانيا •

بعض المشاكل الدينية :

ان مشاكل الاقليات فى اسبانيا قبل كل شيء ليست بالمشاكل الدينية بل هى صعوبات اجتماعية غالبا ما تكون خطيرة للغاية •

وبالفعل فرغم ان اسبانيا بلد كاتوليكى رسميا فانه يسمح للاقليات الغير الكاتوليكية بالتواجد وليس للمسلمين مشاكل سوى تلك التى تتعلق بأماكن العبادة والزواج المختلط •

ورغم اعتزاز الاسلام بنظام الاقليات بسلطاته وقوانينه فانه يصعب تصوره فى اسبانيا واوروبا ، ولهذا يتكيف المسلمون على العموم مع النظام القانونى الخاص بالاجانب الذى هو نظامهم فى هذه الديار •

والجدير بالملاحظة انه يوجد عدد قليل من المساجد فى اسبانيا غير انه لا توجد معارضة رسمية لبنائها كما هو الحال بالنسبة للديانات غير الكاتوليكية ، ولهذا نجد اماكن العبادة تكثر فى المدن • وهناك اشاعات تقول ببناء مسجد كبير بمدريد غير انه لا توجد مبادرة ولا تمويل لتحقيق هذه الاشاعات •

اما الآن تقوم احدى قاعات معهد الدراسات الاسلامية وهى مؤسسة ثقافية تابعة للحكومة المصرية تقوم بدور مسجد العاصمة •

وتتعدد المعابد فى المدن خصوصا فى شهر رمضان اذ وضع كاردينال برشلونة عدة اماكن بمقاطعته تحت تصرف المسلمين • ويمكن ان تشارك كذلك بعض الجمعيات اذا كان هناك طلب من المسلمين فى هذا الصدد •

ويوجد جدل مستمر يتعلق بتمثال مسجد قرطبة القديم وهو المسجد الذى تحول الى كاتدرالية ، هذا الجدل لا يهتم بالناحية الدينيةوانما ينصب على الناحية التاريخية والفنية والثقافية ، غير انه يجب تحسين كيفية استقبالالمسلمين والاستمرار فى السماح لهم ان ارادوا بالقيام بالصلاة امام المحراب الرائع لهذا المسجد.

اما فيما يتعلق بالزواج المختلط بين المسلمينوالمسيحيين فانه تكاثر . ففى السنوات الخمس الاخيرة يمكن ان نتحدث عن 400 زواج من هذا النوع فى مدريد فقط .

ونلاحظ ان مشاكله بدأت تقل بفضل التدخلالجاد الذى قامت به جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية لدى السلطات الدينية ، الا انه غالبا ما تتعرض الاسر الجديدة الى معارضة الآباء لاسباب دينية واجتماعية . وتتضاعف هذهالصعوبات عند ما تستقر الاسرة فى البلد الاسلامى للزوج حيث المجتمع يختلف عن حياةالاسبان .

ويضاف الى هذه المشاكل الدينية بالنسبةللمسلمين ان الرأى العام لا يحب العرب وهذا ناتج عن جهله وليس عن معارضة واعية منه ،وهذا يضاعف صعوبات التفاهم التى يتلقاها كل اجنبى خارج محيطه وبلده ، داخل المجتمعالذى يعيش فيه .

غير ان هذه الاحكام العامة المسبقة لا تطغىعادة على العلاقات الشخصية الطيبة الموجودة بين هؤلاء والاسبان ، هذه العلاقات السهلةالمنال داخل كل الاوساط مع وجود العامل اللغوى

والجدير بالقول ان هنالك دعايات مختلفةوحركات تسعى جاهدة لتطوير الرأى العام الاسبانى وتفتحه لتفهم اكثر لياقة للحقائقالعربية الاسلامية فى الحاضر والماضى .

ومن الواضح ان النتائج تختلف بالنسبةللاقامة الغير الطويلة للسواح والاستقرار النهائى لبعض المسلمين فهى تختلف بالنسبة للطلبة الذينتطول او تقصر اقامتهم والعمال اليدويين التى تكون اقامتهم غير محددة .

وتجدر الاشارة الى ان مشكل العمال هو الذىيجب ان يؤخذ بعين الاعتبار من طرف الجميع مسلمين كانوا او مسيحيين او رجال لهم ارادةحسنة . نظرا لكونه مشكل انسانى يتميز بخطورته الخاصة .

ولهذا يجب على الكل وبالاخص الاسبانيينان يشعر هؤلاء بانهم المعنيون بالامر قبل غيرهم.

لقاء مع د. عبد الكريم سايتو

استاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو (اليابان)

محمد بليدي

أجرى الحديث

قام الدكتور الياباني عبد الكريم سايتو بصفته مستدعى كمحاضر بالقاء محاضرة فى ملتقى الفكر الاسلامى عنوانها : « وضع الاقليات الاسلامية والطوائف المهاجرة فى اليابان » مكن المحاضرين من تكوين فكرة واضحة على هذه الاقليات بالشرق .

والدكتور عبد الكريم سايتو استاذ مادة الاقتصاد بجامعة تاكوشوكو فى طوكيو هذه الجامعة التى تضم 23 كلية ويشغل كذلك منصب مدير الجامعة الاسلامية اليابانية وهو مسلم مقتنع شارك فى نشر الفكر الاسلامى والتعريف بحضارتنا عن طريق نشر مقالات فى عدة مجلات وجرائد ادبية فى طوكيو .

وفى هذا الصدد قام بنشر عدة بحوث عن الاسلام ومساهمته فى الحضارة العالمية .

والدكتور عبد الكريم سايتو مختص فى الاقتصاد المعاصر .

سؤال :

الدكتور سايتو : لقد القيتم محاضرة تتعلق بمشكل الاقليات الاسلامية فى الشرق ووصفتم حالتهم وأثرتم كذلك دور وواجب المفكرين تجاههم .

هل يمكن ان تتحدثوا لنا عن بعض النقاط التى ربما كنتم ترغبون التوسع فيها .

جـــواب :

نعم ، تكلمت عن هذه الطوائف التى اعرفها حق المعرفة ذلك لاننى مسلم يعيش فى بلاد تمثل فيها طائفتنا الاقلية ، غير اننى اريد ان اوضح بان المسلمين فى اليابان يكونون اقلية بالنسبة للديـــن فقط ، معنى ذلك اننا لم نسجل أى عداء مـــن الطوائف الاخرى (البوذيون والمسيحيون الخ) لطائفتنا . كما ان نظرة الحكومة الينا هى نظـــرة حياد فهم لا يضايقوننا ولا يشجعوننا كذلك . كل ما فى الامر ان هناك نوعا من اللامبالاة خلافا لما هو عليه الحال فى بعض بلدان الشرق الاقصى وعلى الخصوص فى الهند .

قام الاسلام ولا زال يقوم بدور هام فى هذه المناطق واريد ان انبه كذلك الى ان الاسلام لا يماثل الشيوعية ولا الرأسمالية ولا يماثل أية نظريـــة أخرى ، وفى اثناء النقاش طرح على احد التلاميذ سؤالا يتعلق بالعلاقة بين الاسلام وغيره ويظهـــر لى ان هذا السؤال غير صحيح ذلك لانه اذا كانت الشيوعية أو الرأسمالية نظريات مؤقتة فان الاسلام دين خالد . ويجب ان يفهمه العلماء والمفكرون حسب هذا المعنى اذا اردنا ان نصل الى نتيجـــة ايجابية .

ســـؤال :

لقد شاركتم فى أشغال الملتقى وتحضير توصياته النهائية ، هل يمكن لكم ان تتحدثوا لنا عن الحصيلة والاثر الذى لا تخلو من حمله هذه التوصيات للامة الاسلامية .

جـــواب :

« أولى النتائج التى سجلناها وهى نتائج هامة اننا تمكنا من جمع مفكرى عدد كثير من البــــلاد الاسلامية والمسيحية وحتى الشيوعية فى قاعـــة واحدة لمناقشة مشاكل انسانية داخل جو مـــن الصراحة والجدية والنظام واشير كذلك الى الحيوية التى تميز بها الملتقى .

ولقد اثار انتباهى كذلك الكرم والسماحة اللذان سادا اشغال الملتقى اذ اشتركت فى عـــدة لقاءات ومؤتمرات وملتقيات فى انحاء العالم غـــير اننى لم اصادف قط جوا أوفق ولا اهتماما جماعيا أكبر من أجل خلاص الانسان .

والجدير بالملاحظة اننا نجحنا فى تركيز اهتمام الجميع على اشغالنا وتشهد على ذلك الرسائـــل والبرقيات العديدة التى تلقيناها فى هذا الصدد.

ان اشغالنا سيكون لها اثر ليس فقط بالنسبةللصالح الاســـلامي ولكن كذلـــك بالنسبـــة للانسانية جمعا، . هذه هي حصيلة المناقشاتالمثيرة في جو من الموضوعية والصراحة اللذين مكنا من الوصول الى اتفاق جماعي .

وظاهرة اشتراك الشباب الطلاب تدل ـ اذاكنا في-حاجة الى دليل ـ على مدى ادراكه وفهمه الا انه ينبغي له ان يعي تراث الاسلام ، للمحافظةعلى تراثنا الثقافي وتنميته . وانني متيقن مـــن خلال المناقشات التي اجريتها مع الشباب بانالجزائر ستتصل الى مبتغاها ولا يمكن للعــــالم الاسلامي الا مساندتها .

ســـؤال :

الدكتور سايتو . لقد وقعت مناقشات حـــادةبالنسبة للنقطة الخامسة التي تتعلق بالتفتـــح الاسلامي على العالم ، هل يمكن لكم ان تدلوا لنابرأيكم في هذا الموضوع ؟

الاجـــابـة :

قبل الاجابة على سؤالكم اريد قبل كل شيء انارجع الى ما صرحت بهفيهذا الصدد اثناء المناقشات وحتى لا اعيد الكلام ساقول مرة اخرى ان الاسلاملا هو الرأسمالية ولا هو الشيوعية ولا هو دين عرضي بل هو دين خلود وبهذا فهو عالمي ولهـــذايجب أن ينفتح للعالم ولا يبقى منطويا على نفسه .

لقد علمنا التاريخ بان الاسلام تفتح على ثقافاتاخرى . اذ ترجم العرب مؤلفات اليونان والرومان والفرس والهنود والصينيين الخ .

لقد بحثنا في هذا الملتقى كيف فعلوا واشرناالى مشاركتنا في الحضارة العالمية في جميـــــع الميادين العلمية والفنية وفي التراث الانساني .

ورغم ان الاشياء لا تتكرر بنفس الطريقة فانالاسلام دين حيوي دين ثقافة وتقدم لهذا يجـــب ان يسرع في السير ، مع المحافظة على روحه ، ذلكلان قيم الاسلام خالدة .

هذا ما نسميه التفتح على العالم مع المحافظةعلى الاصل .

ويمكن القول باننا وعينا شخصيتنا وقوتنـــامنذ مؤتمر القمة الرابع للدول الغـــير المنحازة والمؤتمر الاسلامي الذي انعقد بلاهور والمهم الآنان نتقدم .

ملتـــقى بجـايـة

استجـواب مع د. ايفـون تـوران

استاذة بجامعة الجزائر

أحمـد البليـدى
أجرى الحديث

شاركت الدكتورة ايفون توران استاذة التاريخ بجامعـــة الجزائـر فى الملتقى الثـامـن للفكـر الاسلامى الذى انعقد بمدينة بجاية ما بين 25 مارس و5 ابريل 1974 بالقاء محاضرة تحت عنوان :

« **التاريخ ، لقاء الاصالة والعالمية** »

ولقد عالجت هذا الموضوع بوصفها مؤرخـة ,فى اطار النقطة الخامسة للبرنامج « الانيـــة والاصالة مع التفتح والعالمية » ٠

« ما هو المقصود بهذه المفاهيـم ؟ هــــل هى متكاملة ؟ » ففى هذا الصدد شرحت المحاضرة على الخصوص بان التاريخ يقوم اليوم بدور الصدارة فى التعريف الحالى لفكرة الاصالة ٠

هذا الموضوع القيم هو الذى طلبنا من الدكتورة ايفون توران وهى صاحبة أطروحة تتعلق بالتاريخ الاسبانى المعاصر متممة بعدة بحوث تتعلق بتاريخ المغرب ان تشرحه لنا بنوع من التفصيل ٠

ومن جهة أخرى فقد نشرت الدكتورة ايفـون توران سنة 1971 (عندما سبيرو) كتابا يحمـل عنـــوان :

« المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة مدارس . طب ، دين 1830 – 1880 » ٠

وتشارك الدكتورة ايفون توران في مجلة الاصالة كما شاركت في الملتقى السادس الذى انعقد بالجزائر العاصمة سنة 1972 م .

سـؤال :

الدكتورة ايفون توران

تحدثت في محاضرتك عن لقاء عبر التاريـخ بين الاصالة والعالمية : هل يمكن لك ان تحددى لنا هذه العلاقة وما هو رأيك فيها ؟

جـواب :

اردت ان اقول على الخصوص بان التاريخ يتكون من حدث خاص يتصف دائما بالاصالة مثـلا اكتشاف علمى أو حدث سياسى فى بلاد ما وفى عصر ما فهو لا يتحول الى علم الا بعد ما يصبح قادرا على النهوض لكى يصل الى مستوى عالمى مثلا نظرية تاريخ العلوم ونظرية التاريخ السياسى.

ويعلمنا التاريخ كذلك بان الحياة ذاتها ـ التى يصفها ـ لا يمكن ان تكون سوى هذا اللقاء ، بمعنى انه اذا توقفنا وانكمشنا على انفسنا واذا مكثنا ذلك الباحث أو تلك المجموعة السياسيـة المنعزلة بدون اية علاقة مع مجموعة الباحثين أو الحياة السياسية فان هذا يمكن ان يقـودنـا الى الصمت والتفتت .

ومن جهة أخرى يعلمنا التاريخ الذى هو المعبر عن نتيجة التجربة الانسانية ان كل فكرة احتاجت لنموها الى الاحتكاك بافكار اخرى كما يعلمنـا كذلك ان البشر لهم تصرف واحد لا ينفى التصرف الخاص بكل شعب بل يؤكد ان هناك امكانيـة التفاهم والتبادل بينهم . ولذلك قلت « ان التاريخ بين منذ بدايته اجتهاد الناس كلهم فى تبـادل منتوجاتهم من أجل تحسين الشروط الماديـة لمعيشتهم » .

ولقد تساءل الناس فى كل زمان ومكان عـن اصلهم ونهايتهم وكانت الاجوبة مختلفة غير ان القلق عـام .

وأكد التاريخ كذلك بان التضامن كان شديدا سواء فى السراء أو الضراء . فلقد عرفت كـل المجتمعات الحرب وكل انواع الرقابة والاستعباد وكل اكاذيب الناس بعضهم على البعض حتى ان

الذين يتساءلون الآن عن وجود «الانسان» يجيبهم التاريخ بانه صادف كائنا في كل مكان يتشابه في تصرفاته بصورة نسبية ·

واضيف وأؤكد بانه لو لم يوجد هذا التشابه لأمكن القول ببساطة بعدم وجود الانسان وبالتالي عدم وجود الانسانية جمعا، · وهذا ما يعبر عنه بعض الفلاسفة حاليا فيشككون في وجود الانسان.

من كل هذا نعلم انه لكي يمكن الكلام عن الانسانية فلا بد من استعمال مفهوم العالمية · ان هذا المفهوم ضروري ولا مناص عنه ·

سـؤال :

الدكتورة ايفون توران

هل يمكن لك ان توضحي لنا تصريحك المتعلق بالاصالة والتي وصفت بأنها نتاج للتاريخ ؟

جـواب :

اذا نظرنا الى الماضي نكتشف باهتمام ان الاقدمين كانوا لا يعيرون أهمية لا لاجدادهم المؤرخين ولا لاصالتهم ·

وفي هذا المعنى نجد لويس الرابع عشر الذي اتيت به كمثال ، لا يقتصر على تجاهل اجداده « الغاليين » كما نقول منذ القرن التاسع عشر ، بل انه ـ لو نسب اليهم ـ لاعتبر ذلك بدون شك اهانة · اذ كان يعتبر انتسابه الى الرومان أشرف مع ان الرومان هم الذين فتحوا بلاد الغال وكانوا ملحدين ·

أرأيتم كيف ان طريقة اصالته تختلف عن طريقتنا ـ اذا امكن تسمية هذين الموقفين بكلمة واحدة طبعا ـ مع ما بينهما من تباين · أما هو فلم يكن يعير الامر أي اهتمام !

لم يظهر مبدأ الاصالة الا في القرن التاسع عشر ، في نفس الوقت الذي بدأ يتقوى فيه مبدأ الجنسية ، وهذه حقيقة حتى ان كلمتي (قومية) و (جنسية) لم تظهرا في القاموس الفرنسي الا نحو سنة 1875 اذ لم تكونا مستعملتين من قبل · وبتقدم علم التاريخ تأكدت نظرية الماضي التاريخي ·

فبتدريس التاريخ انسفت الشعوب وعرفت اجدادها الذين دعوا الى حياة ثانية ، وفي نفس الوقت ان اردتم ارتكز هؤلاء الاجداد في ذاكـرة التلاميذ هذه الذاكرة التي اصبحت نظرا لذلك ذاكرة تاريخية ، الشيء الذي لم يكن من قبـــل نظرا لفقدان المعلومات التاريخية ٠

ســـؤال :

الدكتورة ايفون توران تكلمت عن وجود علاقة بين الشعوب . هل يمكن لك ان ترجعي الى هـذا البحث فلربما تريدين شرحه اكثر ؟

جـــواب :

يوجد بيننا جميعا رصيد مشترك نسميه العالمية وهذا الرصيد يربطنا ، ولقد ابانت التجربـة بانه يمكن تفاهم الناس فيما بينهم واكد التاريخ ذلك كما اعطى الدليل على عكسه ذلك العكس الذي يتجلى في قتال الاخوة ولكن حتى في القتال يجب ان تكون هناك نسبة معينة من التشابه بين المتقاتلين وعلى هذا يجب علينا ان ننمي التبادل وتقوى الحوار ولا ننكمش على انفسنا وخصوصيتنا اذا اردنا ان نشارك في الحياة ونمنحها في نفس الوقت الى الغير ٠

ســـؤال :

الدكتورة ايفون توران

لقد شاركت في أشغال الملتقى هل يمكن لك ان تتحدثي لنا عن انطباعاتك ؟

جـــواب :

لقد شاركت بسرور في هذا الملتقى لتلبية دعوة السيد وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، وشاركت كذلك لان هذا اللقاء بالنسبة الى يعتبر مناسبة للخروج من « خصـوصيتي » ٠ وانهـــا لأوفق فرصة لمثل هذا القول ، فهي تجريب فعلي للعالمية ٠

وبصفتي مؤرخة عندي ذوق لمعرفة واكتشاف ما يسميه التاريخ « الغير » , « المخالف » اما في الزمان أو المكان ٠

لقد كان الملتقى الثامن بالنسبة الى مناسبـــة للتعرف على « الغير » وفي الملتقى السادس كان الامر كذلك ، واتمنى ان تكون مشاركتي قـــد اتاحت الفرصة لمن سمعني ولمن اشتغلت معهم ان يتعرفوا بدورهم على عالم آخر بمعنى ان هذا اللقاء كان بالنسبة للجميع وسيلة لتجربة التفتح مـع المحافظة على الاصالة المتبادلة ٠



جريـدة لمـوند
1974/4/18

موضـوع الاصـالـة والتفتح
يسـود مناقشـات
الملتقى الثامـن للفكـر الاسـلامى

بـول بالطـا
مراسل جريدة « لموند »
فى الجزائـر

لقد اتخذ الملتقى الثامن للفكر الاسلامى الذى نظمه ببجاية السيد مولود قاسم الوزير الجزائرى للتعليم الاصلى والشؤون الدينية حسب رأى عدد كبير من المشاركين منعطفا بالنسبة للملتقيـات السابقـة ·

ذلك ان ملتقى الجزائر العاصمة لسنة 1972 اكتسى صبغة سياسية ، تجلى ذلك فى الدعايـة الواسعة التى خص بها · أما ملتقى تيزى وزو للسنة الماضية فقد نقد بشدة البعثات الدينيـة المسيحية ، كما أنه احيط بنوع من السرية ·

غير أن الملتقى الذى انعقد مؤخرا فى بجايةاتصف بالتفتح والهدوء وبهذا اكتسى صبغـة أكثر علمية . وبنهجه هذا الطريــق ستحظىجلساته بما نتوق اليه من التقدير العالمى .

ولقد نوقشت فى هذا الملتقى خمسة مواضيعحصيلة أربعة وثلاثين بحثا فى مدة 12 يوما مـن طرف ألف تلميذ و200 استاذ من بينهم المؤرخونوعلماء الاجتماع والكتـاب والفلاسفـة العــرب والغربيون واليابانيون .

ممثلون عن مختلف التيارات :

كان احد هذه المواضيع هو « دور المفكر عبرالعصور » ركز بطبيعة الحال عن المسؤوليات التى يتحملها أو لا يتحملها فى ايامنا هذه المفكــــرالمسلم لكى يهيىء مجتمعه الى المعاصرة .

ولقد استوعبنا على الخصوص الحكم الـــــذىاصدره الفيلسوف المغربى محمد عزيز الحبابى على كثير من زملائه المنقسمين الى ثلاثـــة طوائف :« حملة الثقافة » وهم الذين يجمعون المعرفة بدون تمييز . و « تجار الثقافة » و « المثقفون الانانيون »الذين يرفضون كل التزام .

وقد وجه المحاضر لكل من هذه الطوائف اللوملعدم قيامهم بدورهم كما قام به علماء ومفكـرو العصر الذهبى الذين جعلوا من الاسلام واحدة من ألمع الحضارات مدة 5 قرون .

وهكذا طغى على الملتقى كله السؤال الـــذى يشغل العالم الاسلامى والعربى بأكمله بصــورة واخزة وهــو كالآتى : كيف يمكــن الانتقــال الىالمعاصرة مع المحافظة على الأصالة ؟ !

هذا وان أول تناقض لهذا الملتقى كان هـــوالعمل على تعايش ممثلى التيارات الأكثر اختلافا ابتداء من المحافظين « ما قبل التاريخ » على حـدقول السيد الحبابى ، والناظرين الى القرن الواحد والعشرين مارينبالتقليديينوالأحرار والماركسيين.

والتناقض الثانى كان يتجلى فى السماح ، منحين لآخر ، لانعقاد النقاش ، واحلالـه محـــل سلسلة من المناجيات الذاتية . ان هذا النقاشلم يفتأ يجابه « القدامى » و « والمعاصرين » . ومع قلة المعاصرين فانهم استطاعوا رغـم بعضالتدخلات التى يمكن ان نأسف عــلى تفاهتها وصبغتها الديماغوجية أنيوضحوا استحالة تحقيقالنهضة اذا اقتصر الاسلام على مجاورة التقنيـة الحديثة دون ادماجها فى كيان قيمه الأصلية .

ويمكن القول بأنهم استطاعوا اقناع فئة من التقليديين . وهذا حدث له أهميته البالغة ، وبهذا نجد العالم الاسلامى أصبحيتحرك أكثر مما نتصوربعد ركود طويل .



حــوار حــول كتــاب
80 سنــة عــلى الجزائــر العثمانيــة

نظمت امسية بقاعة الموقار بالعاصمة تناولت كتاب 80 سنة على الجزائر العثمانية لمؤلفه الاستاذ احمد توفيق المدني . وذلك بحضوره . وهذا نص ما دار فيها

الاستــاذ
أحمد توفيــق المــدنى

سيداتى سادتى أخوانى اساتذتى الفضلاء اهلا وسهلا بكم فى أول امسية من أماسينا لهــذا الموسم ولنا الشرف العظيم والكبير للحركة الادبية لهذا العام ان يفتتحها شيخ من شيوخنا واستاذ من اساتذتنا واحد بقية الرعيل الصالح الذين علمونا وعودونا على كل فضل وخاصة على العربية السليمة القويمة · طبعا هذا هو شيخنا واستاذنا احمد توفيق المدنى وهو اعرف من ان يعزف ، فاـسب الذين عاشوا الحركة الوطنية فى المغرب العربى يعرفون كاتب القطرين ويعرفون ذلـك الرجل الذى رأى النور فى نهاية القرن التاسع عشر، وجاء الى الجزائر ليبدا نضالا جديدا هو نضال

من اجل الحركة الاصلاحية ومن اجل الثورة على اسسها السليمة ، طبعا قبل ان احيل له الكلمة واعتبر ان تدشينه لامسيتنا الادبية فى هــذا الموسم هو شرف للناشئة الجديدة وللذين سيلحقون به من تلامذته وتلامذة تلامذته الـذين سيتكلمون فوق هذا المنبر : امسيتنا فى هذا العام تأخـذ شكلا جديدا ، باذن الله وبمساعدتكم جميعــا لا تقتصر على الشعر كما كانت فى بدايتها سـوف لن تبقى مجرد امسيات شعرية أو امسيات قصصية كما كنا فى السنة الماضية. ولعل هذه البداية التى يقدمها لنا استاذنا وشيخنا برهان قاطع ودليل محسوس على ما دخل على هذه الامسيــات مـن تجديد ، وهو انها ستتطرق الى انواع المعرفة ، والى مختلف الفنون الادبية. فكما نلتقى اليوم حول أمسية ادبية يتحدث لنا فيها شيخنا عن كتابـه الذى سيصدر بعد اشهر او بعد اسابيع عـن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع كما تعرفـون هذه الشركة لنا معها تاريخ طويل من الصمت والعراقيل وغير ذلك ، لكن بركة شيخنا وقوتـه أكثر من عراقيلها ومشاكلها ، فهى فى الكتاب ، بعد اسابيع قليلة ، هذا الكتاب « هو 80 سنة من تاريخ الجزائر العثمانية . وشيخنا سيتحدث فقط عن هذا الكتاب ، ولكن سيفتح المجال فيما بعد لبعض الاساتذة المختصين باسئلة معينة كما اننا تعودنا ان نفتح الحوار مع اساتذتنا ومع الذين يأتون هنا حتى الذين يأتون فقط لالقاء الشعر ، فلن نتركهم يمرون بسلام بل نتحدث معهـم فى أشياء قد تكون بعيدة عن الشعر ، أعتقد أيضـا انه من واجبى ان اذكر بعض اخوانى واذكــر نفسى على الاقل بالمؤلفات التى يعرفها اشياخنا ويعرفها الرعيل الاول لاستاذنا فأستاذنا له من الكتب ما يزيد عن العشرات ، فله أولا « الحريـة ثمرة الجهاد » الذى صدر عام 1921 وله « تونس وجمعية الامم » صدر فى نفس السنة 1921 . واكثر الذين اعتمدوا الحركة يعرفون الاجـزاء الخمسة من تقويم المنصور الذى ابتدأ يصدر من 1921 الى غاية 1927 . كما يعرفون الكتاب العظيم قرطاجنة » « تاريخ المغرب العربى قبل الاسلام» هذا الكتاب الذى كان حدثنى الآن شيخنا هو بداية المقاومة الجزائرية للرومانية التى تحولت فيمـا بعد الى الجزائر الفرنسية الذى اصبحنا والحمـد لله قد الغينا كل هذه الازديادات واصبحـت الجزائر ، الجزائر فقط بدون اضافات ، نعـــم الجزائر تبقى دائما عربية اسلامية وبدون شـك ، بعد هذا يأتى الكتاب العظيم وهو كتاب الجزائـر 1931 ولعل هذا الكتاب له اهمية ، لانه صادف شيئا عظيما وهو سنة التأسيس لجمعية العلمـاء وشيخنا يعتبر احد المؤسسين لجمعية العلمــاء المسلمين الجزائريين مع الرعيل الاول بن باديس والابراهيمى والميلى وغيرهم رحمهم الله ، كذلـك شيخنا لم يقتصر على هذا الجانب ، فقد كان واجبه فى جمعية العلماء طالما فى الاعبـاء الكبـيرة التى

كانت تفرضها عليه اجرام الصحافية ، فقد كان يهتم بالجوانب التعليمية ولهذا اصدر جغرافية القطر الجزائرى سنة 1945 واصدر فى التاريخ« محمد عثمان باشا وتاريخ الجزائر العثمانية » واصدر اخيرا « حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائرواسبانيا » الكتاب الموجود والذى طبع فى الجزائر قبل هذا كان لشيخنا مجهود جبار اثناء الثورةالمسلحة المظفرة ثورة نوفمبر واعتقد ان اهم عمل رغم كل المجهودات التى قام بها هو كتابه« هذه هى الجزائر » الذى كان تعريفا وكان جوابا لكثير من الاسئلة التى كانت تلقى فى مختلف انحاء العالم ايضا لشيخنا مشاركات في فنون أخرى ، فله حن بعل التمثيلية المعروفة التى كتبها كمأساة تاريخية ثم « القضايا الفرنسية وعملية الجزائر » واخيرا حتى لا أطيل عليكم اترك له الكلمةليتكلم عن الكتاب الاخير وباسمكم جميعا اشكره لانه لبى دعوتنا وقبل ان يفتتح هذه الامسيات ·

سادتى الفضلاء ، اخوتى الكرام ، ابنائى الاعزاء ·

اننى والله لجد مغتبط وسعيد ، حين القاكم اليوم فى هذا الجمع الزاهر ، لاربط معكم من جديد ، حبل اتصال انقطع منذ سبعة اعوام ،بحكم ابتعادى عن الوطن ، سفيرا لبلادى فى العراق ، فى تركيا ، فى ايران ، فى باكستان ،وارجو صادقا ان يكون لهذا اللقاء السعيد ما بعده من لقاء آخر ، فى ميادين العلم والثقافة ·

ثم اننى لاشكر الشكر الجزيل ، السيد الاستاذالفاضل الاديب الكبير الجنيدى خليفة الذى تفضل برعاية وتنظيم هذه الندوات الاسبوعيةالحية ، التى اعادت للجزائر الحديثة الناشئة وجهها الادبى المشرق ، كما اقدم له شكرى على ما تفضل بصوغه من عبارات التمجيد وانه لعقد لم يوضع لهذا الجيد ، فما هذا العجوز الماثل امامكم الآن ،الا ذلك الجندى المجهول الذى لا يريد فى حياته الدنيا الا ان يقوم بواجبه ، وان يرضى عنه ضميره وان يقدم عملا صالحا لامته ودينه ووطنه ·

حديثى معكم الليلة ، ايها السادة ، موضوعه كتاب جديد ، تسلمته منى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، اسمه : مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ، أو 80 سنة من تاريخ الجزائر العثمانية يشمل المدة التى مرت على الجزائر من سنة 1750 الى سنة 1830 · وقبل حديثى عن الكتاب ، اود ان اقدم لذلك الحديث ، بكل اختصار ، نبذة عن سبب الوجود العثمانى بارض الجزائر ، وكيف

اصبحت بلاد المغرب الاوسط دولة ذات حـــــولوصرله تحت اسم « الدولة الجزائرية » منـذ حوالى خمسة قرون خلت ٠

فاذا رجعنا الى التاريخ القديم ، عند نهايـــةالقرون الوسطى ، وبزوغ العصر الحديث ، رأينا عجبا ، رأينا فى الشرق الاسلامى ارتفاع نجـمالدولة العثمانية ، التى رسمت لنفسها خطــة فتح أوروبا الجنوبية ، وجعل البحر المتوسط بحيرةاسلامية لا يشارك الاسلام فيها احد ، وقد بسطت سلطانها على كامل الشرق الادنى ، حتى حدودطرابلس ، وعلى كامل بلاد البلقان والجنوبالشرقى من اوروبا ، وتناول سلطانها سليم الثانى شعارالخلافة من اخر خلفاء بنى العباس بالقاهــــرة وخطب باسمه على منابر العالم الاسلامى ، ثم راينافى الغرب الاوروبى ، فى اسبانيا بالذات ، اشراق ـــس دولة قوية ، عنيفة ، قاسية ، قامت باسمالمسيحية ، وتحت شعار الصليب ، تقوض اركان الحكم الاسلامى الزاهر فى بلاد الاندلس الـــتىهشمته وقضت عليه القضاء الاخير،لا بفضل قوتها فحسب ، بل بفضل ما اصاب المسلمين فى مغرببلاد الاسلام ، من تخاذل وشقاق وتفرق كلمته ٠

لهذا ، كان الناظر الى التاريخ يرى انه لابدلهاتين القوتين الناشئتين ان تتصادما ، وتتقاتلا قتالا عنيفا ، وان يكون ميدان التصادم والصراعهذا المغرب العربى الذى كان ـ ولسوء الحظ ـ ارضا خالية الا من الشعب ، عزلاء الا من سلاحالايمان ، لا هم لملوكها ، وما اكثر ملوكها يومئذ ، الا التقاتل من اجل سلطان مزيف وجاه أجوف ،وعن شر لم تكن له فى الحقيقة قيمة الحصير الحقير٠ كان ملك تونس الحفصى ، يعانى سكرات المـوت ،فى نشوة المحتضر ، وكان ملك بجاية الحفصى ، وملك قسنطينة الحفصى ، يكتفى كل منهما بانله لقب السلطان ، وقصر الحكم ، وكانهما كانا مصداق قول الرصافى :

لنا ملـــك وليس لـــه رعايـا وأوطان وليس لهـــا حـدود ،

اما مملكة تلمسان ، التى اسسها ياغمراســنالعظيم ، والتى سمت سموا لا يدانى بما كان لها من عزة الملك ، وكثرة العلماء ووفرة المخترعـين ،فقد انحطت الى اسوا دركات الانحلال ، واشرفت على الاضمحلال ، بما صوره الجهل والغرور لعائلتهاالمالكة من تقاتل على العرش ، وتفان فى سبيــل السلطة ، حتى كاد التاريخ ان يقف مشدوها ،لا يستطيع ان يسجل الحـــوادث والمؤامــرات والمغامرات الاب ضد ابنه ، والعم ضد ابن اخيهوالابن ضد والده ، فكانوا ويا للاسف ، مصداق قول ابن حمديس الصقلى :

ولـــم ترحـــم الارحام منهم اقارب   تـــروى سيــوفا مــن دمــاء الاقارب

واما مملكة بني مرين بالمغرب الاقصى ، فقـدانحدرت الى مهاوى الهلاك والتفكك ، بعد ضربة بسهم مصيب في النهضة المغربية العظمى ، ونالت رفعة ومجدا واقتدارا ، بناه السلف الصــالح ، ولم يحافظ عليه الخلف الطالح ٠

تلك كانت حالة المغرب العربي عامة ، عند ماوجهت اسبانيا نظرة الشره والطمع ، والتسلط الاستعماري والبغى الصليبي ، الى هذه الاقطار ،لكى تبسط عليها سلطان المسيحية من جهــــة ، ولكي تأمن غائلة رجوعها مددا لبقايا اهل الاندلس من جهة اخرى ٠

ففي سنة 1505 ، فاجأ الاسبانيون بلــــــدة « المرسى الكبير » بحملة كبيرة رهيبة ، جهزها من ماله الخاص ، ومن مال الكنيسة ، الكاردينـــال خيمينيس ، فدوخ المدينة وحطمها ، وجعل اعــزة اهلها اذلة ! ثم قفى على آثار ذلك لمدينة وهــران ،سنة 1509 فارتكبوا مجزرة من افظع مجازر التاريخ وقتلوا باسم المسيح الآلاف من الناس ، وهدموا الديار وخربوا المعالم ، وكان ذلك الراهب الاهوج الذى هو وحش في صورة انسان ، يرى ذلــك ويمتع به ناظره ، الى ان هاله الامر ، وبكــى ، حسبما يروى التاريخ ٠

ثم توجهت انظار الطمع والجشع الى بجايــة العظيمة الزاهرة ، التى لمعت اواخر القـــــرون الوسطى لمعانا غريبا ، اثناء ملك بنى حماد الزاهر وكان لها الاثر العظيم في بث انوار المدنية والعلم والتبادل التجاري مع بلاد البحر المتوسط ، وبلادما وراء الصحراء الافريقية ، فجاءتها العمــــارة الاسبانية ، يركبها أشاوس من الاسبان والالمان يحملون الصليب في اليمين ، ويشهرون السيف باليسار وانحدروا سيلا جارفا على المدينة التى كان شعبها حيا عاملا ، وكان ملكها ميت القلب والضمير ، فيوم غرة جانفي 1510 ، وثبوا عليها ،وحطموا حصونها وقهروا ابطالها ، وقتلوا رجالها ونساءها واطفالها ، وحطموا قصورها ومساجدها وكان فيها من العلماء ، كما يؤكد المؤرخون ، ما يضاهي عدد علماء جامع الزيتونة بتونس ، كان عدد المقتولين يجاوز الاربعة الاف وتشرد الاحياء في الفيافي والقفار ، ولم يبق بتلك المدينة التي كانت غنية زاهرة ، الا نحو الاربعة آلاف مسكين مغلوب على أمره ٠

وما هو الا امد وجيز حتى تمكن الاسبانيون من عنابه ، وجيجل ومستغانم وصخرة مدينة الجزائر وتمكنوا من كامل الساحل الجزائرى ، واخذوا يستعدون للانقضاض على داخل البلاد ·

رأى السلطان ابو بكر الحفصى ، سلطان قسنطينة ، الذى لجأ اليه عدد من بقايا سكان بجاية ، بعد خراب الديار وفضيحة النساء وتحطيم كل وسائل الحياة ، رأى ان لا ملجأ من الله الا اليه وقرر الاستنجاد برجلين عظيمين ، تركيين باسلين جاهدا فى سبيل الله جهادا محمودا ، وانقذوا من مسلمى الاندلس المنكوبين آلافا عديدة ، واتخذا من مرسى « حلق الواد » بتونس مقرا لهما ، هما العملاقان : عروج وشقيقه خير الدين ، وكانا قرصانين من قراصنة الدولة العثمانية ، يصادمان على رأس اسطولهما الاسلامى ، عمارات العدوان الصليبى الاستعمارى ، ويقارعانها القراع العنيف·

وما اسرع الرجلين لتلبية النداء فجاءت العمارة الاسلامية التركية ، وانزلت غزاتها الاشاوس على مقربة من مدينة بجاية ، والتحم معها التحاما عضويا اسلاميا متينا رجال تلك الجهة المنكوبة ، فتألف جند اسلامى عظيم ، من آلاف مؤلفة ، بعد الحصار على بجاية ، وشددوا عليها ، واتلفوا الكثير من حصونها وقلاعها ، وطال عليهم الامد ،وعدوهم ملتصق بالحصون كانه قطعة منها فأرسلوا فأرسلوا للسلطان الحفصى بتونس يستمدونه وبأقصى سرعة كميات من البارود تمكنهم من الانتصار ، لكن صاحب الجلالة ، رأى بسامى حكمته ان انتصار العثمانيين ببجاية ربما اضعف سلطانه ولاشى ملكه ، فلم يمد لهم بشىء مما كان موجودا عنده وهكذا اخفقت عملية انقاذ بجاية بفضل ما اسميته فى كتابى « بداء العرشية » انما اهل الوطن تعرفوا بالاتراك ، وشاهدوا بسالتهم فى القتال ، وحميتهم فى الجهاد ، فانضم الى رجال عروج وخير الدين ، خبرة رجال بجاية ، وزواوة القبائل الكبرى ، وجاءهم الاستنجاد من سالم التومى ، حاكم الجزائر الذى ضيق عليه الاسبانيون الخناق فساروا اليه برا وبحرا ،مجاهدين مسلمين صادقين ، فانقذوا المدينة ، واسترجعوا « صخرة برج الفنار » ، واستقروا بالحضرة الجزائرية ، وأسسوا بها ملكا شامخا ، منظما ، ووضع خير الدين كل عبقريته فى تنظيم ذلك السلطان الجديد ، فلم يتمالك المؤرخ الفرنسى « دو قرامون » ان يقول عنه فى كتابه الشهير ،انه لا يعرف خلال القرن السادس عشر رجلا استطاع ان ينظم دولة ، وان يؤلف شعبا وان يجهز منه جيوشا ، مثلما فعل خير الدين فى الجزائر ·

يومئذ ، ويومئذ فقط ، وجدت اسبانيا من يقاومها في بلاد الجزائر ، من يقاومها ، ومن يسفه احلامها ومن يدفن مطامعها الى الابد مطامع شابت لهولها النواصي ، وسالت فيها غزيرة ، عزيزة دماء الشهداء الابطال . واستبسل فيها الاسبان ،والحق يقال كما استبسل فيها الجزائريون .

ما عتمت اسبانيا حتى ارسلت جيشا لجبا تحمله ثلاثمائة سفينة ، حط اثقاله على ساحل باب الواد قرب الحضرة الجزائرية ، واراد تقويض هذه السلطة الجديدة التى كانت امتدادا للامبراطورية العثمانية ، قبل ان تتوطد ويستقر نظامها ، لكن الجزائريين الصناديد فتحوا ابواب قلاعهم فيما يلي « باب الوادى » فى الساعة المقررة ، واندفعوا فى غمرة اسلامية عارمة اتراكا وعربا ، رجالا وشيوخا ، فشتتوا شمل الاسبان واخذوا سلاحهم ، وغنموا متاعهم ، واسروا اكثر رجالهم ، وحطموا اسطولهم ، وضربت بهذه المعركة الامثال :

عندئذ ، وتحت قيادة العثمانيين ، اظهر الجزائريون ما تنطوى عليه نفوسهم العظيمة من بطولة واخلاص للدين وللوطن ، وتغيرت الوضعية رأسا على عقب ، اصبح الجزائريون مهاجمين ، ثابتين واصبح الاسبانيون مدافعين ، مستبسلين .

وعادت اسبانيا الى الميدان ، تحت قيادة امبراطورها الشهير شارلكان ، فجاء على رأس عمارة ربما لم يشهد البحر المتوسط اعظم واقوى منها ، يحمل جيشا من اكبر رجال المسيحية ، من اسبان ، والمان ، وهولانديين ، وغيرهم ، وقدعقدوا العزم على تحطيم الجزائر ، وتقويض نظامها العثماني ، وتشتت ذلك الشمل الذى وحده الاسلام ، وجمعه الجهاد . انما كانت النتيجة ايها السادة هى ان المجاهدين الابرار . بـرزوا لتلك القوة الطاغية وكان المسلمون يومئذ كمسلمى الثورة الجزائرية الكبرى ، لا يعرفون الا كلمة : لا اله الا الله محمد رسول الله ، ولا تحدوهم الا فكرة الجهاد فى سبيل الله والفداء للوطن ، فمن لبى منهم دعوة أى شهيدا ، خلفه ابوه او اخوه او ابنه فى المعركة ، حتى تحقق اكبر نصر عرفته البلاد . وهزم المؤمنون اكبر قوة غازية ودحروا شارلكان ، وشتتوا جيشه واسطوله .

هكذا تأسست فى مدينة الجزائر ، ايها السادة دولة جديدة قوية عتيدة ، لا تخضع لاى اقطاعية ، ولا تنتمى لقبيلة بنى فلان ، او بنى فلان ، انما هى دولة تمثل وطنا محددا ، يقع بين تونس شرقا ، والمغرب غربا ، والبحر المتوسط شمالا ،والصحراء الكبرى جنوبا ، السلطة العليا فيه

للباشا ممثل دولة الخلافة ، وحوله الوزراء وكبار الجند ، والعلماء والاعيان ، وتحت نظــره باى قسنطينة ، وباى المدية ، وباى مازونة ثم وهران. وتحت هؤلاء البايات كانت الادارة المحليــــة الجزائرية مؤلفة من شيوخ اهل البلاد ، بــين بربر ، وعرب ، فكل جهة تحت نظر شيوخها ، يحكمونها حكما شعبيا صحيحا .

فهل كانت الدولة الجزائرية ، وهذه صورتها دولة خاضعة تمام الخضوع للدولة العثمانية ؟ كلا ، لقد كان القطر الجزائرى ، دولة تامة الاركان ظاهرة المعالم ، تعتبر جزءا ممتازا من الخـــلافة العثمانية ، اشبه شيء بــدول « الكومنوالث » الانكليزية .

كانت مدينة الجزائر ، من يوم اتخاذها عاصمة لهذه الدولة الناشئة ، الى يوم سقوطها الرهيب تحت غائلة الاستعمار الفرنسى ، تدعى رسميا : « الجزائر دار الجهاد » فهذه الدولة اسست عـــلى قاعدة الجهاد ضد المسيحية العاتية المعتدية، وكانت القاعدة القريبة لكل اعمال الجهـــاد الاسلامى ، طيلة ثلاثة قرون ، ثم انها بعد حين ، استرجعت مدينة تونس من يد الغزاة الوحشيين الاسبان ، الذين تسلموها بواسطة سلطانها الحفصى النذل ، الذى اباحها لهم ، لعنه الله واخزاه ، مدة ثلاثة أيام فنهبوها ، واتلفوا ثروتها ، وفضحوا نساءها وابكارها ، وارتكبوا فيها من الموبقات ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وادخلوا تونس ، ولاية ممتازة ، ضمن العائلة الاسلامية العثمانية الموحدة .

فهل جاءنا الاتراك محتلين ؟ هل جاءونا مستعمرين ؟ هل جاءونا مستغلين ؟ كلا ، وهل يمكن لثمانمائة رجل تركى ، ان يحتلوا قطر الجزائـــر الذى لم تستطع فرنسا ان تحافظ عليه بخمسمائة ان التاريخ يشهد ان عدد الاتراك لم يزد فى ان أىألف رجل ، مع كل سلاح الحلف الاطلسى ؟ ثـــم الاف رجل ، فلم تكن الجزائر خاضعة للاتـــراك ، وقت من الاوقات فى القطر الجزائرى ، على ثلاثة انما كانت الجزائر خاضعة للخلافة العثمانيـــة الجامعة ، ايام كان المسلم يخرج من تلمسان الى بغداد ، والى اليمن ، والى بحر القريم ، مـــارا بتونس وطرابلس ومصر ، وهو ينعم بلواء الوحدة الاسلامية التى يرعاها الخليفة فى استانبول وكانت الدولة الجزائرية تحارب الدول، وتعقد المعاهدات وتبرم الصلح ، بغاية الاستقلال يعينها السلطات، وتعين السلطات ، ولها ، تحت رعاية السلطان ، سيادتها الواسعة العريضة فوق اديم أرضها .

فى شهر جوان من سنة 1925 م . حكمت السلطة الفرنسية بابعادى عن تونس العزيزة ، وجئت الجزائر مهد آبائى واجدادى ، من مقاتلى ومن شهداء معارك سيدى فرج واسطاولى ، وكنت اثناء صباى لا اسمع فى احاديث السمر بين رجال عائلتى ، الا ذكر الفظائع والاهوال التى ارتكبها الفرنسيون فى الجزائر والموبقات التى اقدموا عليها ، لكننى ما كنت اعتقد ان ارض الجزائر قد اهينت واستبيحت الى الدرجة التى وجدتها عليها تلك السنة . لقد كنت فى تونس من مؤسسى حزبها الحر الدستورى ، ومن نخبة رجاله المجاهدين ، الا اننى عندما رأيت ما حل بالجزائر سياسيا ، ودينيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، قلت يستحيل ان ارجع لتونس ، فهنا وجب الجهاد وهنا لذ الاستشهاد ، « هنا يموت قاسى وهنا يدفنونى » فاما ان اتمكن من قلع جذور الشجرة الخبيثة الفرنسية من ارض ابائى واجدادى ، واما ان ارقد الى جانبهم شهيدا تحت الثرى ، واستمرت الحرب بينى وبينهم عنيفة قاسية ، وكانت لى فيها والحمد لله مواقف ارجو الله ان يكتبها فى سجل الحسنات .

كان أول ما رأيت فى الجزائر ، ايام محنتها ان الوالى العام يستقبل كبار الزائرين من حكام فرنسا ، عند قصر الامارة البحرية العثمانى ، ويقول هذه الكلمات التقليدية : « فى هذا المكان ، حيث كانت القرصنة تسرق اموالنا وتنتهك بلادنا . هنا حيث كانت الفوضى ، وكان الاستبداد والطغيان ، هنا نستقبلك أيها السيد ، وانت ممثل الدولة العظيمة التى جاءت تحمل لهذه البلاد المدنية والنور والنظام ، الخ . »

عندئذ رجعت الى التاريخ اسأله الحقيقة ، فوجدت التاريخ يخالف ذلك على خط مستقيم . ولم ارجع الى تاريخ عربى او تركى ، لان الفرنسيين اعدموا منذ اوائل الاحتلال كل ما وجدوه من كتب التاريخ ، سرقوه او حرقوه . وساحدثكم بعد لحظة عن آخر سرقاتهم ولقد كان الجزائريون امام ما لاقوه من ظلم وارهاق وتنكيل ، ولصوصية واضحة المعالم ، يرجعون الى ديارهم فيسجلون تلك الاخبار ، تفريجا عن انفسهم ، وطالما وضعت هذه الكتب ، فى خزائن المساجد ، فعدا عليها الفرنسيون سرقة ونهبا واتلافا ، فماذا بقى لنا من مصادر التاريخ ؟ بقيت لدينا الكتب الاستعمارية الفرنسية ، التى تدافع عن الاستعمار وباطله واكاذيبه ، على نسبة 95٪ ومنها ما لا يتجاوز الخمسة بالمائة . فيها انصاف ، أو شىء من الانصاف ، واخذت اقابل بين هاته المصادر المتباينة فاذا بى اخرج بحقيقة ناصعة ، ساطعة ، لا غبار عليها . تلك الحقيقة هى ان تلك الدولة الجزائرية ، كانت

دولة حقيقية ، كاملة النظام ، محكمة الدواوين ،كانت دولة اسلامية حقيقية ، لا اسلاما اسميا مزيفا ، بل اسلام حقيقى ، يحكم الشرع فيما شجر بين الناس من خلاف ، ويصدر القاضى أحكامه وفقا للقرآن والسنة . ولها محاكم شرعية عليا لاعادة النظر فى المشاكل والخصومات ، ثم تمعنت احاديث « القرصان » المجاهدين فى البحر،اولئك الذين يصورونهم وكانهم الشياطين المردة،فوجدت انهم كانوا من اشرف المجاهدين ، واطهر المغامرين فى سبيل الله يدافعون عن راية الاسلام ، وعن حرمة الاسلام ، وعن وطن الاسلام . وجدت ان القرصنة كانت موجودة قبل قيام الدولة العثمانية وقبل تأسيس الدولة الجزائرية ، وبقيت القرصنة موجودة ، والى عهد بعيد ، بعد انهيار الدولة الجزائرية ، وهل اتاكم حديث القرصان الفرنسى سركوف SURCOUF الذى يمجدونه فى تاريخهم هو وامثاله ويضفون عليه صفات البطولة والشهامة والله انه لم يكن الا من لصوص البحر ، بينما يتكلمون عن الرايس حميدو ، والرايس محمد ، والرايس الموالى، كانهم شر الخلق وحثالة اللصوص. كلا ، هذا امر لا يحتمله بشر ، فأخذت قلمى وتوكلت على الله فى كتاب نشرته على الناس ، هو كتاب « محمد عثمان باشا داى الجزائر » لعل بعضكم قد اطلع عليه فى حينه ، وصفت فيه التاريخ العثمانى بالجزائر بانه تاريخ مظلوم ، وامطت فيه اللثام عن الاكاذيب والترهات الفرنسية وفضحتها فضيحة عريضة، وكنت اجابه الفرنسيين الكاذبين ، بأقوال مشاهير كتابهم ومؤرخيهم ، ونوابهم فى البرلمان ، واقحمتهم بحجج لم يستطع الجدال عنها احد — لقد جادلونى كثيرا ، لكنهم لم ينالوا من حقائقى منالا، وقلت لهم فى ختام حديثى: قال نائبكم بمجلس الولاة ، سنة 1831 : اننا قد ارتكبنا فى ارض الجزائر من المظالم ، والمذابح والفضائع خلال ثلاثة اشهر ، اكثر مما نسبناه للاتراك خلال ثلاثمائة سنة . أصدرت ذلك الكتاب بلهجته الصادقة ، ووضعت رأسى فوق كفى حينما قدمته للناس ، ولم اكن ارى ماذا تفعل فرنسا بى ، لكنها لم تفعل شيئا ، ففتحت بذلك الكتاب ثغرة هائلة فى جبهة الاكاذيب الفرنسية ، وقلت للناس من اهل الجزائر : ان تعالوا اقرأوا تاريخكم ولا تصدقوا اكاذيب وترهات الفرنسيين ولقد كنت أجد ، ابنائى واخوانى ، ولسوء الحظ من سنة 1925 الى سنة 1950 ، من يتعصب للتاريخ الفرنسى اكثر من الفرنسيين ، وجدت من يتكلم عن الجزائريين العثمانيين بالصبغة التى يتكلم بها الفرنسيون، وما ذلك الا نتيجة للمدرسة الفرنسية التى علمتهم ان جدتهم الكبرى هى جان دارك ، وان بطلهم القومى هو نابليون ، وان الجزائر بعد سلطة روما ، قد سقطت ، وتلاشت ، وغابت عنها المدنية الى ان جاءها الانقاذ على يد اهل الخير من الفرنسيين .

ثم انني بعد الاستقلال ، اصدرت كتابا صخما هو « حرب الثلاثمائة سنة ، بين اجزائر واسبانيا» بينت فيه مرة أخرى نظرتي للوجود العثماني ،ولا اقول للاحتلال والاستعمار العثماني كما يقول الخراصون على التاريخ ، واكدت فيه بشواهدالتاريخ ، ان الذين قاموا بتلك الحروب الهائلة لم يكونوا اتراكا ، وانما كانوا جزائريين من اهل البلاد ، تحت قيادة تركية ، فالاتراك لم يكونوا اكثر من ثلاثة آلاف رجل ، منهم نحو الف رجل في الحكومة ومختلف الدوائر الحكومية ، في كل مدن الدولة وبقى منهم نحو الفي رجل ، يختلطون بنحو الخمسين الف رجل من كامل سكان الوطن الجزائري فيهم العربي ، والزواوي ، والاوراسي ،والميزابي ، وغيرهم ، اشتركوا كلهم في هذا الكفاح الاسلامي العظيم ، بحمية وايمان وشرف ،لم يكونوا يقولون : هذا تركي ، وهذا عربي، وهذا قبائلي ، لا بل كانوا يقولون : من قال لا اله الا الله محمد رسول الله ، فهو منا ، من جاهد معنا ضد الفرنج فهو منا ، هكذا كانت عقيدة الجزائر ،وبهذاانتصرت طيلة ثلاثمائة وعشرين سنة .

واخيرا ايها السادة ، وبعد هذا التمهيد الذي اردته بسطا ، فطال رغم ارادتي ، احدثكم عن الكتاب الذي قدمته اخيرا للطبع ، وهو موضوع الحديث ، فاقول : لقد قيل لي ، بعيد حلولي بمدينة الجزائر ، انه يوجد مخطوط تاريخي مفيد جدا ،عند نقيب اشرافها الشيخ محمود الشريف كتبه جده المجاهد الابي الشيخ الحاج احمد الشريف الزهار ، وهو يحتفظ به « للبركة » وكان السيد محمود الشريف من اجل رجال الجزائر وجاهة وقامة ، كان شيخا ابيض اللون ، ازرق العينين ، زار فرنسا يوما ببرانسه الجزائرية ، فكان الصبيان يلتفون حوله ويصيحون : بابا نويل بابا نويل ، قلت له يوما ، وكان في ملأ من الناس : هل تعيرني الكتاب الذي كتبه جدك لأطلع عليه ، قال : والله لقد ألح علي في طلبه ميسيو ميرانت ،ووعدني بعد ما ينتهي من مطالعته اعيرك اياه ، وكان ميسيو ميرانت هذا مديرا للامور الاهلية بالولاية العامة ، وكان مستعربا ، حافظا الستين من القرآن ، وقد اشتهر بسرقة البقية الباقية من الكتب الجزائرية ، قلت للشيخ محمد الشريف: ان ميسيو ميرانت رجل كثير الشغل واسع المسؤوليات ، فاذا تناول الكتاب فانه سيقضي اشهرا عديدة في مطالعته ، بينما انا سأطلع عليه وارجعه بعد ايام قليلة ، وايد طلبي جماعة من الفضلاء ، فاستجاب لي ، واتاني بالكتاب ،فاطلعت عليه ، ودرسته ، ووجدت به من المعلومات السياسية والادارية ما لم أره قبل ذلك في كتاب آخر ، وهو يذكر حقبة من التاريخ بصفة صادقة، يقول ما لها ويقول ما عليها ، وعلمت ان ميرانت ان اخذ الكتاب ، فلن يرجعه اصلا ، فأبقيت

الكتاب ، وسكت ، وقال لى الشيخ محمود الشر فيوما وهو يضحك : لقد اعاد على ميرانت طلب الكتاب ، فقلت له انني اعرته للسيد توفيق المدني وسآتيك به عند ما يرجعه ، فقال لي : انك اعطيت الكتاب لتوفيق المدني فلن ترى انت هذا الكتاب ، ولن اراه انا · قلت للشيخ الشريف لعل هذه هي المرة الوحيدة التي صدق فيها ميسيو ميرانت ، فهذا الكتاب امانة مقدسة تركها لك جدك ، فلا تفرط فيه · وانت تعلم ان ميرانت ان اخذ الكتاب فلن يرجعه ، اما انا فأعطيك عهدا امام الله انني سانشره ، وساعلق عليه وسابلغ امانة جدك للشعب الجزائري باسره ، وسأنوه بشأنه ، واذكر جهاده وجهوده ، كما أذكرك انت بخير · فما رأيك ؟ قال وقد هداه الله وتغلب على عقدة نقص الموظفين : ان تعهدت بهذا فابق الكتاب عندك وانشره على الناس · فصفق الحاضرون ، واثنوا عليه الثناء الجزيل ·

اما الحاج احمد الشريف الزهار صاحب الكتاب، فقد كان من ألمع المجاهدين الجزائريين ، وقد ولد سنة 1781 ، وشارك في الدفاع عن مدينة الجزائر مشاركة تذكر فتشكر ، وكان من جملة الذين حملوا القبائل من الجزائر لبرج مولاى الحسن ، ثم عندما تم الاحتلال الخبيث ، نفته فرنسا من مدينة الجزائر ، فأم الحضرة التونسية ، ثم انتقل الى قسنطينة وتولى الكتابة لدى المجاهد الكبير احمد باى ، ثم انحاز الى جانب الامير عبد القادر البطل القومى ، بعد انهيار مقاومة قسنطينة الرائعة ، فتولى الكتابة عنده ، وكان من خاصة الخاصة لديه الى ان قضى الله عن هذه المقاومة الشعبية الخالدة بالانهيار ، فذهب الى بلاد المغرب الاقصى ، وسكن مدينة فاس سنتين ، ثم رجع الى الجزائر بعد ذلك ، وتولى بعدئذ نقابة الاشراف ، المنصب الذى كان لأبيه وجده ·

وكتابه هذا عبارة عن مسودة لم تبيض ، فهو يكتب ويقول : هذه توضع في مكانها عند التخريج · وهذه توضع بعد الحديث الفلاني ، وهكذا · ولهذا الكتاب الذى نشرته الآن ، كتاب آخر قبله ، يتعلق بدخول العثمانيين للجزائر ، ويتتبع اخبارهم الى حكم على باشا بقسيس ، فهذا الجزء من الكتاب اخذه مسيو لوسياني مدير الامور الاهلية قبل ميرانت ، ولا ادرى هل اعدمه ام لا يزال موضوعا في مكتبة خاصة · وقد بحثت عنه سدى · وللكتاب جزء ثالث ، هو أهم الاجزاء لا محالة ، فيه ذكر علماء وادباء وشعراء الجزائر ، وعادات مدينة الجزائر ، واخلاق اهلها ، وخاصة ما فعله الفرنسيون بها الى احتلالهم ، من قتل وانتهاك حرمات ، ولصوصية ، ونبش قبور ، وتحطيم معالم ، وهذا الجزء الثرى قد اختفى ايضا وضاع أثره ، وبحثت طويلا عنه فلم اجد شيئا ·

فالكتاب الذى انشره اليوم فيه سيرة عشرةمن ولاة الجزائر ، ابتداء من سنة 1168 ، الى سنة 1830 ، ويقص علينا الكتاب وقائع غريبه جدا ،ذات اهمية فائقة ، لم ارها فى اى كتاب غيره ، عربيا كان ام فرنسيا ، ولعلها توجد فى بعضخزائن استانبول . مثلا وقائع الحرب بين باشا الجزائر وباى تونس ، وكيف كان الجزائريونيتآمرون كيلا ينال جندهم مثلا من تونس ، ويتحدث باسهاب عن اعمال الرايس القرصانالبحرى حميدو ، ويصف معاركه البحرية الذائعة الصيت ، وكيف استشهد اثناء المعركة ضدأسطول الولايات المتحدة الامريكية أيام عمر باشا . ثم يقص القصص الرائعة عن الحربالاسبانية الاخيرة وكيف رضخت اسبانيا ، وسلمت وهران ، ودفعت للجزائر غرامة حربذات قيمة عالية جدا ، .

ويقول : رأيت بعينى مائة مدفع تركها الاسبانعلى ساحل البحر ، كان المسلمون يحملونها للباشا تباعا ، بينما يقول الاسبان والاروبيونان اسبانيا سحبت جميع قواها واسلحتها ولم تترك شيئا ، واكتفى بهذا ، لانني ان ذكرت لكمكل ما فى الكتاب فاسغنيكم عن قراءته ، لذلك اكتفى بهذا المقدار ، وتالله لوددت ان اتحدثاليكم الساعات الطويلة ، فالى فرصة اخرى ، تكون قريبة بحول الله .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الاستاذ محفوظ قداش :

Nous voulons d'abord rendre hommage au cheikh Tewfik El Madani pour le travail qu'il ait fait parce que la période turque est je crois une période qui n'est pas très connue. Il y a trois siècles d'histoire mais pour lesqu'elles nous n'avons pas beaucoup de sources tout au moins les sources qui existent ne sont pas exploitée. La plupart, la grande majorité des sources étant à Istambul et nous vivons sur un certain nombre d'écrits, d'historiens Français ou d'historiens Espagnols et peu d'écrits, peu de sources arabes qui ont été jusqu'ici exploitées et par conséquent le travail qu'a fait le cheikh Tewfik El Madani en publiant le témoignage de cet historien, je crois à beaucoup de valeur parce qu'il permet d'apporter des sources nouvelles. Maintenant sur la présentation de la période qui a été faite, je fais part d'abord sur certaines appréciations que je crois sont beaucoup plus chez Mr. Tewfik El Madani, des appréciations du militant, beaucoup plus de l'historien que je suis n'oubliez pas.

Quoique dans la première période du 16ᵉ siècle vous avez parlé du contexte que les historiens situaient dans la lutte entre les deux pays, entre les deux mondes, le monde musulman et le monde chrétien, le contexte de croisades, c'est la réalité, c'est le problème fondamental, mais je crois qu'il y a et qu'il faut faire des travaux pour voir également la part des facteurs d'ordre économiques, des facteurs d'ordre politiques également qui ont certainement joué et en ne peut pas, sur une longue période, on ne peut pas je crois négligé ces facteurs d'ordre économiques et ces facteurs d'ordre politiques et même stratégiques.

Une autre remarque lorsque vous parlez des historiens Espagnols, je crois qu'il n'y a pas seulement chez ces derniers, qu'il y a eu chez les notres mais il y y a également d'autres facteurs de renaissance d'unité, de foi également qui ont joué du côté Espagnol, il y a également une période de décadence qui existait chez

les notres au XVe et à la fin du XVe siècle qui explique également le fait que nous avons subi des effets. Une autre remarque en ce qui concerne le gouvernement Algérien, le gouvernement Turc et la question de celles des rapports entre les Turcs et les Algériens.

En ce qui concerne le gouvernement je crois que vous avez été trop catégorique en disant toute la période je crois que cet injugement qui mériterait d'être nuancer. Il y a eu des périodes ou l'Algérie s'est comportée comme une province ottomane et une province ottomane qui était fidèle et beaucoup plus fidèle on peut citer des exemples beaucoup plus fidèles qu'aux intérêts supérieurs de la communauté musulmane et qui est présentée en l'occurence par le gouvernement ottoman qu'à ces intérêts spécifiques à ces intérêts algériens en reconnaissant le fait que la flotte qui s'était préparée pour aller délivrer Oran et bien elle a rebroussé chemin lorsqu'elle a senti que l'empire Turc était en danger.

Il y a une période à partir de laquelle il y a eu une tendance à l'autonomie et une tendance à l'indépendance. Des recherches pourraient la situer, c'était une période de transition, d'une façon plus précise, un autre problème c'est celui des rapports entre les Turcs et les Algériens. Ce n'est pas aussi simple que celà, que de dire puisqu'on était des musulmans il n'y avait aucune différence entre les éléments, les différents éléments de la population.

Je crois que le facteur Islam a joué énormément. C'est le facteur qui a permit, qui a fait appeler les Turcs, qui a permit de les accepter et qui a permit que l'Algérie puisse rester pendant de longues années, cercle, masse commune avec l'empire ottoman. Mais il y a quand même un certain nombre de différences, il y a un certain nombre de privilèges qu'avait le Turc. Il y a un certain nombre de privilèges aussi bien sur le plan du pouvoir donc le privilège politique que des privilèges sur le plan économique et il y a une période qui a une assimilation des familles, d'un certain nombre de familles turques tout au moins à l'échelle des familles qui étaient au pouvoir qu'on peut noter, qui s'est fait bien avant pour la Tunisie mais s'est fait avec plus de retard pour l'Algérie et qu'on peut déceler au 19e siècle dont l'amorce c'était au 18e et au milieu du 19e siècle et qui politiquement également se faisait et c'est un mouvement qui aboutissait à une assimilation totale de cet ennui par le jeu des mariages, des liaisons entre les familles turques et des hauts pouvoirs et un mouvement qui se précipitait et qui par la suite masqué par 1830 et par la tempête d'occupation française.

Par conséquent je crois qu'il y a un certain nombre de nuances à apporter et de recherches à faire pour voir de quelle façon s'est faite l'assimilation, quelle est la différenciation sociale entre Turcs et dans quelle mesure, dans quel domaine ils pouvaient apparaitre comme occupants et dans quel domaine culturel considéré comme étant parfaitement assimilé par l'Algérie.

Et bien c'est un domaine de recherches et il y a des questions, je pose des questions plus que j'en apporte des recherches.

De même en ce qui concerne la course. La course, il y a des périodes où le corsaire a été le capitaine glorieux qui défendait l'Islam. Il y a des périodes où le corsaire a été un pirate, par conséquent le terme corsaire ne peut pas lui, être appliqué, et cela est un fait général non pas seulement pour les musulmans mais pour tout le monde méditerranéen.

Il y a un fait de recherches économiques intéressantes par une équipe d'historiens pour montrer que c'est dans la dernière partie c'est-à-dire la partie où la course a été la moins glorieuse, les Algériens ont été poussés vers une forme de guerre économique plus ou moins voisine de la piraterie, c'est parce que la piraterie européenne leur interdisait de commercer sur les bateaux algériens, il était interdit à la flotte algérienne d'avoir des activités pacifiques, des activités économiques et c'est une des raisons qui a poussé les gens qui avaient des bâteaux, par conséquent à délaisser sur une autre activité et je crois qu'il y a un certain nombre de questions qui se posent encore durant cette période.

C'est une période qui est riche en questions et en possibilité de recherches. Le seul souhait qu'on puisse faire c'est que les historiens puissent avoir à leur disposition les sources et en particulier les immenses sources, les immenses registres qui sont à Istambul pour que je dis à Istambul qui malheureusement ne sont pas encore entièrement inconformés et qui serait une mine pour l'histoire algérienne.

Avec la remarque suivante et qui est intéressante à faire aussi c'est que l'Algérie durant la période turque ce n'est pas uniquement l'Algérie où il y avait les points, les Noubas, comme on disait à l'époque, les garnisons turcs et par conséquent les ports mais il y a tout l'intérieur du pays qui n'est pas étudié et c'est ça la véritable Algérie.

Ce n'est pas tellement le dixième ou le neuvième qui étaient en contact permanent avec l'administration turque parce que l'Algérie réelle et qu'on pourrait dire l'Algérie indépendante à l'époque, c'était la réalité algérienne de l'intérieur.

Voilà quelques remarques que je voulais et je m'excuse d'avoir été trop long.

جـــواب الاستاذ د • توفيق المدني :

شكرا جزيلا للاخ محفوظ قداش للملاحظـــةالقيمة جدا • البعض منها مسلم لا شك ولا ريب فيه • والبعض منه موجود خلاف بيننا • أسالكقبل كل شيء : هل قرأت كتابى حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ؟ ، نعم ، اذن لا شكيا سيدى ولا ريب انك رأيت انني متفق معك فى ان هذه الحرب كانت صليبية قبل كل شي. كمااوافق حضرتك على انها كانت ايضا سياسيـــة وكانت اقتصادية • وكانت استراتيجية ، بينتكل ذلك تفصيلا وذكرتتأسيس الشركات الكبرى الاقتصادية فى اوروبا وما كان لها من تاثير علىالعالم ، ثم كيف نشأ الاستعمار القديم وكيـــف استولى على بلاد الشرق وتطورتمن ذلك الى اناوروبا عندما ايدت المسيحية فى الاستيلاء عـلى الجزائر كانت ، قد ايدت من قبل تلك الحمـــلاتالصليبية الهوجا. عندما وجه بودوان وحوشه على الشرق الاسلامى الزاهر ، لا لاجل انقاذ قبـــرالمسيح ، بل لاجل انقاذ الخزائن التى اخذت تنهار فى اسبانيا وفى فرنسا وفى المانيا وفى غـيرها ،فهذه الظاهرة المسيحية التى يتسترون بها انما هى ظاهرة منافقة يخدعون بها الشعب لجره الى الكفاح.انما الحقيقة التى تستتمر بعد ذلك هى الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ، قلت فى أول حديثي،وقلت فى كتبى الثلاثة محمد عثمان باشا ، كتاب الجزائر ، حرب الثلاثمائة سنة وهذا الكتاب الذىسيصدر ، قلت ان تاريخ الوجود العثمانى فى الجزائر مظلوم ولم يدرس اطلاقا . لـم يـدرسفعلا ، لاننا من سوء حظنا فى الجزائر الى الآن وبعد اثنى عشر سنة من الاستقلال عندنا والحمد لله منيتكلم الانجليزية والفرنسية والإيطالية والاسبانية والكنغولية كمان ، إنما ليس لنا من يتكلم او يقرااللغة التركية ، والحق ان فى تركيا فى خـــزائن اسطنبول ، فى خزائن السلطان الفاتح فى خزائنالباب العالى فى خزائن الخارجية . وثائق عظيمة جدا ، عندى منها وأضعها تحت تصرفكم مادمتمعاملين ، نحو ثلاثمئة وثيقة مصورة وما اخــذت الا الجزء البسيط • الوثائق الجزائرية الموجودة فىتركيا والتى تخدم التاريخ الجزائرى نحو خمس

آلاف وثيقة على أقل تقدير ، فاقترحت على الخارجية الجزائرية واقترح على كل مفكر جزائرى ان يسعوا لانشاء هيئة لدراسة التاريخ الجزائرى ايام الوجودالعثمانى فى البلاد الجزائرية ، وعندئذ نجد حلولا لكل قضية تعترضنا اثناء هذه الدراسة ما رأيك يا اخى لو قلت لك ان عندى وثيقة هنا تبين ان اوروبيين اشتكوا للسلطان وقالوا له :

لنا مركز تجارى اخذه الجزائريون ظلما دون مقابل ، ونحن من بلد متعاهد مع الجزائر ، اتدرى ان المراسلات اخذت تجرى بين الباب العالى حكومة السلطان ، وبين قصر الدايات ، الى ان برهنت بالفعل وبحجج لا تقبل الرفض ، وببيان سلطانى ان القوة التى استولت على تلك البضائع كانت على حق ، وان الدولة التى اخذ لها ذلك المركـــز هى التى ابتدأت الاعتداء ، فالقرصنة يا أخـى العزيز لم تكن لصوصية فى الجزائر ،هذا ما أؤكده وانا خاضع للوثائق ولا يوجد رجل يخضع للوثائق مثل خضوعى ، لاننى اذا رأيت ما يثبت خــلاف فكرى فانا انقاد الى الواقع ولست مـــن الذين يتعصبون لرأيهم اطلاقا ، اننى أوكد اننى الى الآن وقد قضيت نحو خمسين سنة وانا ادرس تاريخ الجزائر العثمانية أؤكد يا أخى انه لم تكن عندنا PIRATERIE كانت عندنا قرصنة منظمـــة الجزائريين ثانيا ان هؤلاء القرصان CORSAIRES لم يكونوا اتراكا ، وهذا تعرفه يا سيدى حـق المعرفة ؛ كانت فيهم ١٥ ٪ من الاتراك كانـــوا جزائريين ، ومن جملة ما يحكى عنهم الحاج احمد الشريف : ان الجزائريين ، عندما تتجهز مراكب القرصان ، يأمرهم الباشا ويقول لهم : دولة مالطة مثلا محاربة لنا فاغزوا سفنها فيخـــرج القرصان يتزاحمون ويتضاربون ، على المراكـب فلا يستطيع الانسان ان يصل الى المـــركب الا بالضرب ، رغبة فى الجهاد ، وقبل ان يهاجـــر المركب ، ماذا كان يقع ؟ يقف المسلمون عـــلى المرسى ، ويصلون على الغزاة الخارجين صـــلاة الجنازة ، يعنى انهم اناس باعوا ارواحهم فى سبيل الله ، خارجين للجهاد ولا يعودون ؛ يصلون عليهم صلاة الجنازة ويقرأون عليهم سورة (يس) ثم تخرج السفن للجهاد ؛ ما كانوا يخرجون للسلب ولا للنهب ولا للسرقة ، كانوا خاضعين لحكـــم المعاهدات ، خاضعين للسلطنة وما قلته هو الحق والجزائر جزء من الخلافة العثمانية ، ثم ان وهران اصبحت قرحة مزمنة فى جسم الجزائـر فخرج الاسطول لكي يضرب وهران اثناء حرب استمرت مدة ثلاثمائة سنة انما جاء أمر من السلطان بان الخلافة فى خطر وان الثوار اليونانيين اغلقـــوا الطريق بين جزر اليونان وبين استامبول واصبح الاسطول العثمانى لا يستطيع ان يمر ؛ فالاسطول الجزائرى غير طريقه ، وبدل ان يخرج الى وهران،

ذهب الى المشرق وكان وحده المنتصر على الثوار اليونان ، لا الاسطول التركي ولا الاسطول المصري ٠ والاسطول الجزائري وحده وعدده خمس مراكب احرق السفن اليونانية واتلفها ، وشتت شملهم واستولى على خيراتهم ، وذهب بها وقدمها هدية للسلطان ومن اجل ذلك والى يومنا هذا ، وكنت حضرتك في تركيا ورأيت ذلك بدون شك ،عندما تقول في تركيا انا جزائري كأنك قلت انا انسان جئت من الآخرة الشهداء الاولين والاتراك خلافا لما يقال لكم يا سادتي من حيث الدين فالشعب التركي فيه 36 مليون رجل ، اقسم بالله لكم ما رأيت اسلاما كاسلامهم ولا رأيت صلاة كصلاتهم ولا رأيت دينا متينا كدينهم ٠ اشهد بها امام الله وامامكم ثم قلت يا أخي العزيز ان الاتراك كانت لهم امتيازات اقتصادية في الجزائر ، هذا لم اعثر عليه اطلاقا ، ولم أره اطلاقا فثلاثة آلاف تركي كانوا بالبلاد الجزائرية ، فمن كان منهم في القصبة او في قصر الجنينة في ساحة الشهداء كما هي الآن ، هؤلاء لهم عوائد يأخذونها من البايات ، كل ما يجيء باي يعمل « دنوسر » يدفع لوكيل الحرج وللاغا ، وللخزناجي وللكتاب ولغيرهم من الموظفين كل موظف له شيء معلوم ، اما الامتيازات الاقتصادية لا اعرف تركيا ملك أرضا في الجزائر ، ان الجند التركي كان يمنع من الزواج في الجزائر لكي يبقى دائما مجاهدا مستعدا لا يتزوج ، فكانت العوائد التي تعطى لهم ، تتجمع لديهم ولا ينفقون الا قليلا ، فكانوا على الاغلب يقدمون ذلك الى الاوقاف ، فاغلب الاوقاف التي كانت بالجزائر ، على نسبة 80 ٪ كانت أوقافا تركية على مكة ، على المدينة ، على الفقراء على المساكين على اليتامى على الارامل ، يوجد حتى وقف صغير على العصافير ، هل سمعتم في حياتكم انسانا يوقف دارا على العصافير ؟ توجد دار وقف موجودة يشترون بريعها حبوبا يضعونها في المقابر لكي تأكل منها العصافير التي تمر في الجزائر وترحم على الواقف ، اما من ناحية اخرى والشعب يا سيدي لم يدرس خلال هذه الفترة ،الشعب اثناء 320 سنة من الوجود العثماني في الجزائر ، كان شعبا مسلما ، متين الاسلام ،شعبا صادقا ، من أصدق الشعوب ومن اكثرها استعدادا لعمل الخير ومن اكثرها استجابة لكل داع الى الخير ، انما كان هذا الشعب المنتشر من الشمال الى الجنوب تحت حكم البايات الثلاثة ،والبايات الثلاثة كانوا يشرفون على الشيوخ وانتم تعرفون هذا ، فشيوخ العرب هم الذين كانوا يحكمون العرب ، كيف كانوا يحكمونهم ؟ هذا لم نره في كتاب اطلاقا ، ربما في كتاب الشيخ بوراس ، وكتاب الشيخ بوراس كتاب فيه ما فيه انما هذه النواحي يا سيدي يجب ان تدرس وهذا وقت دراستها ، ففي السنوات الاولى من الاستقلال

كنا مشتغلين باشياء اخرى كبيرة جدا ومهمـــة جدا انما الآن ، وبعد الآن،وجب علينا ان نخصص انفسنا لمثل هذه البحوث حتى نفحص ذلــك التاريخ ، وحتى نقدمه للناشئة الآتيــة كتاريـخ صحيح موجود، ولعلكم لا تنسون شيئا ولا تجهلونه ايضا : كيف كان الشعب الفرنسى ، فرنســـا التى حكمتنا 13- سنة ، كيف كان شعبها تحت ملوك ما قبل الثورة الفرنسية الكبرى ، قرأتم هذا وقرأتم كثيرا عن الثورة الفرنسية ، كـــان الشعب الفرنسى اتعس شعوب العالم كافـــة . لا يوجد شعب قاسى من الظلم والهول والفضائع والدنس والقمع مثل ما قاسى الشعب الفرنسى قبل 1789 فثورة 1789 غيرت جذريا الاوضــاع فى فرنسا ، وحطمت الملكية ، واصبح الشعـب سائدا حتى فى ايام نابليون ، حتى اثناء حكـــم الطغيان ، ومتى وقعت الثورة الفرنسية ؟ وقعت الثورة الفرنسية اربعين سنة فقط قبل ان تاتى فرنسا الى الجزائر . اذن 280 سنة عاش الشعب الجزائرى قبل الثورة الفرنسية فلو درسنا كيف كان الشعب الجزائرى يعيش لما رأينا البـــون شاسعا جدا بين فرنسا والجزائر تلك الفضائع وتلك الاهوال وتلك المصائب حتى ان احدهم قال : كنت أرى الاشجار مائلة تحت ثقل المشنوقــين تحت اغصانها فهذا التاريخ يا أخوتى وابنائى ، ويا سيدى الفاضل ، يجب ان يدرس بكـــل موضوعية ، بكل تجرد ، الدولة العثمانية طواها التاريخ بما لها وما عليها ، وانا شخصيا أقول ان الدولة العثمانية كانت من اشرف واطهر الدول الاسلامية التى اخرجت للعالم . أقول هذا وأؤكده، ولى عليهم الدلائل والحجج والبراهين القاطعـــة، والى فرصة اخرى ، والى حديث آخر يكون اكثر تركيزا واكثر اتساعا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

سياسة ثقافية فى خدمة السلم (1)

محمد عزيز الحبابى
نقلته الى العربية : **فاطمة الجامعى الحبابى**

لفظة « ثقافة » مشتقة من الفعل « ثقف » ،يقال ثقف الرمح أو العود اذا اسواه وأقام معوجه ثم اتسع هذا المعنى الاصلى ليشمل دلالات ، منهاالتهذيب ، والتربية ، والتعليم ، والحذق والفطنة التى يكتسب بها الفرد أساليب التفكير والعمل بما يلائم الزمان والمكان فى تطورهما ·

فالثقافة ، اذن ، **مجموع الجهود التى تبذلهاجماعة من الناس كى تصل الى توحيد خبراتها وتكييفها مع الوسط الذى تعيش فيه ، بحثا عن الانسجام فى الاعمال** · فهى تشمل كل أنواع الانشطة الغذائية ، والفكرية والروحية ·

وبتعبير آخر : تتكون **ثقافة فرد ، أو جماعة ،من الامكانيات المكتسبة والقدرات وهي تستثمر لتصبح مهارات فكرية ويدوية** ، فى كل أنماطالحياة اليومية ·

من جملة الميادين التى يتجلىفيها هذا الاستثمارالفنون (بما فيها الفنون المنزلية ، وفن الطبخ) كما يتجلى فى المواقف التى يتخذها الافراد منأوضاع الحياة وفى الافكار التى يكونونها عن انفسهم وعن الانسان عامة ، وعن المجتمع ، وعنالطبيعة وعما فوق الطبيعة ، اذ كل ثقافة تعتمد على شبكة من المعتقدات (دينية تاليهية أو وثنية،أو الحادية ···) ·

حسب هذا التحديد التقريبى ، نؤكد انالثقافة مرتبطة دائما بفكرلوجيا (معتقدات وعادات ···) انه التحام يعطى لكل مجتمع ميزاتخاصة · وهذا لا يتعارض فى شىء مع الشمولية ، بل على العكس ، فلا شمولية من غير خصوصيات ،ان ما هو خاص يتجسد فى الثقافة القومية (ثقافة شعب ، أو قبيلة ، ···) ، اما الشمولىفهو التراث المشترك ، أو **الحضارة الانسانية** · فليس هناك انتقال من « ذهنية التقديس الى ذهنيةالتاريخ » (2) ، حسب تعبير عزيز على الاستاذ

1) نص الحديث الذى ألقاه م. ع. ل. فى ندوة نظمها معهد غوته فى 28/1/74 بمشاركة الاستاذ Wern Ruf وقد نشره « المجاهد » فى ملحقه الثقافى 1/2/74 .

(2) Le Passage du Sacral à l'historique.

(جاك بيرك) ٠ يبدو لنا انه ليس هناك الا تعلمن LATCISATION لبعض البنيات المجتمعية ، الشيء الذى يفقدها ، فى بعض الاحوال ، صبغة **القداسة** فالثقافة العربية الاسلامية ، مثلا ، حتى فى فترة ركودها ، لم تكن ابدا خارج التاريخ ، فلا يتصوروجود مجتمع انسانى يستطيع الحياة على هامش التاريخ دون ان يختنق من قلة الروافد المغذية ٠**فكل الشعوب من التاريخ وفى التاريخ** ، رغـــم انها لا تسهم جميعها فى سيره بنفس **الفعاليـــة** فالذى يريد ان يعبر تعبيرا اكثر ملاءمة واكثـر واقعية عن وضع الثقافة بالعالم الثالث ، يمكنـــه ان يؤكد ان ما حصل هو : الانتقال من تاريـــخ فرضته علينا دول الاستعمار ، الى تاريخ نصنعه نحن اليوم ٠

ولكى يزداد مفهوم « ثقافة » دقة ووضوحا ،نقتبس من دراسة لنا قديمة ، التعريف التالى (3) :
« الثقافة مجموع القيم ومجموع اساليب **الحيـــاة** المادية والعقلية والروحية التى يبتكرها وينهجها شعب من الشعوب ، فى غضون تاريخه » ٠

وبما ان التاريخ ، كما هو موجود ، ليـــس تاريخ الشياهم ، بل تاريخ كائنات بشريـــــة مجتمعية بالطبع فالانسان اصلا ، مدفوع الى تأليف مجتمعات فى مناطق تتم فيها مبادلات عاطفيـــة ومبادلات اقتصادية وتبعا لذلك ، يقع امتـــزاج بين الاقوام بالمصاهرات والمشاركة فى القيـــم ، فلا يمكن أى مجتمع بشرى ان يحيا ويساير **مجرى** التاريخ الا بالتفتح على المجتمعات الأخرى ٠ ففى الثقافة تلتقى المعايير الاخلاقية والوسائل المادية لتحقيق اهداف معينة يرجى من ورائها الوصول بالانسان الى مستوى اعلى مما هو عليه ٠ **فالثقافة غائية** ، لأنها ترمى الى هدف ٠

ان كيان كل بيئة فى احتكاكها ببيئات أخرى ،وعن هذا الاحتكاك ، تنتج تارة قوة جاذبـــة ، وطورا ، قوة دافعة ٠ هذه الحركة المزدوجة هى المحور الفعال للحضارة الذى يسير بالانسانيـــة الى الامام حيث يكتشف كل شعب انه داخـــل ذاته ، وفى آن واحد ، انه خارج عنها ٠ بفضـــل احتكاك البيآت البشرية ، كذلك ، يشعر كل شعب ان له كيانا موحدا خاصا به ، وانه أيضا جزء من الكل الذى هو الانسانية ٠

لذا ، كلما ادركت ثقافة قومية أصالتها (أى خاصياتها) شعرت شعورا قويا بضرورة تفتحها على الثقافات الأخرى التى ليست اقل أصـــالة منها ، فمن كثرة الاصناف ونوعية كل صنف ،

3) « من المنغلق الى المنفتح » القاهرة ، الانجلو ، ط ، 2 ، 1973 ،

يدرك المثقف ان ثقافته القومية لا تحيا الا بالتكامل مع الثقافات الاخرى · فكل مراحل التاريخ الانسانى تتطابق تمام التطابق مع تاريخ هذا التكامل · ويحصل مختلف انواع التبادل بين الثقافات فى فترات الحرب ، كما يحصل ابان السلم ·

* * *

لندع الآن ، مستوى الثقافات القومية ، يعنى مستوى الخصوصيات لنواجه المستوى الشمولى ، مستوى الحضارة الانسانية ·

الحضارة تراث انسانى تاريخى مشترك · انها أعظم مغامرة فى تاريخ الانسانية خلال فترات المد والجزر · حقا ان الثقافات تموت اما الحضارة فلايصيبها الموت ·

ان الحضارة تعيش وتنمو بالعناصر المتلائمة وبالعناصر المتضاربة التى تمدها بها الثقافات الحية والميتة . فالحضارة هى المستقبل التاريخى المتمثل فى حياة الانسان المادية والجسمية والاخلاقية والفكرية · اذا كانت الثقافات القومية تعكس ، كل واحدة باشكالها الخاصة، المعطيات المحلية والزمانية التى تفرضها عليها الاوضاع الجغرافية والتاريخية ، فان الحضارة تجسيد للمستقبل التاريخى الشامل لمجموع الشعوب ·

ان ما يبرر ما نبذله ، هنا الآن ، من جهود لتعريف « حضارة » هو ان هذه اللفظة لم تحظ ، حتى اليوم بمفهوم محدود مدقق فلقد جاء فى الموسوعة الفرنسية (4) :

« للفظة حضارة معنى واسع ، ومن الصعب ان نعطيها تحديدا جيدا » ·

بما انه ليس للحضارة أى « تحديد جيد » نسمح لنفسنا ، فاقترح تعريفا آخر يضاف الى لائحة التعاريف السابقة ، فان استسغتموه ، جاز لنا ان نستخلص جميعا النتائج الآتية :

لقد كان تاريخ الانسانية ، وما يزال ، صنعة كل الشعوب ومن ثمة فالحضارة ليست ملكا خاصا لاى شعب ، لانها مجموعة محاصيل ثقافية عبر العصور · انها مزيج المختلفات فى الواحد ، فى حين ان الثقافات هى المختلف المتنوع المتفكك فى توتر نحو الوحدة ·

---

(4) La Grande Encyclopédie (Paris, Ed. Lanir ault, Vol. XI, P. 513).

يقودنا هذا الى فضح بعض الثقافات التى كانت وما زالت تختلقها وتحتضنها القوات المستغلة أى الاستعمار الاجنبى والاحتكاريون فى الداخل·

لقد كان المستعمرون يستخدمون الثقافـــة للسيطرة على الشعوب الاجنبية ، كما جعـــل المحتكرون وما يزالون ، من الثقافة غنيمة محروسة للتعاظم، وبضاعة يعرضونها على ذوى الامتيازات· فباسم الثقافة والتمدين، يبرر الاقوياء استعمارهم لبلادك ايها الضعيف. فيقتلعونك من جذور مجتمعك ومن تقاليدك ، ويغرقون بلادك اعرافا وعـادات واخلاقا واذواقا اجنبية ، ويفككون لغتك ولهجاتك فتصبح مثل حيوان الخرافة الذى كان يتساءل هل هو طائر ام فأر ، ··· يمسخون شخصيتك فـلا أنت أنت ولا أنت الآخر اذاك تكتفى بتقليد قردى للقوى الذى فرض عليك (بالرغم عنك ودون ان يهىء لك الظروف المجتمعية والمادية اللازمـة) فرض عليك ان تستورد من ثقافته وتقنياته القدر الذى يسمح به ووجهه توجيها يطغى فيه السلب على الايجاب ·

مما يلاحظ ، انه حتى القرن الثامن عشر ، كانت كلمة « حضارة » تستعمل فى معنيين خاصين ، همـــا :

- مجموع الميزات المشتركة بين الدول الاروبية (لانها كانت تعد ثقافاتها هى وحدها «الثقافة» ·
- حركة تمدين وتصدير الثقافات الغربيـة للشعوب الاخرى (الشعوب غير المتمدنة) ·

ومن الملاحظ ، أيضا ان ظهور هذين المعنيـين زامن عصر انفجار وامتداد الامبريالية الاروبيـة الحديثـة ·

حقا ، ان الغرب متقدم ، ثقافيا ، عـلى العـالم الثالث · لكن اللعبة سارت ، منذ البداية طبق مخطط منحرف · فلو كان القصد سليما لأمكن الثقافات الغربية ان تقوى وتنمى الثقافات القومية لبلدان « ما وراء البحار » ولأثرى الغرب ثقافاته هو أيضا · لكن ، ويا للاسف ، لم يخطط الغرب قط سياسة ثقافية مجردة عن المتاجرة والمصالح، فبدل ان ينهج سياسة ثقافية اختار ثقافـــة مسيسة ·

والآن ، فى هذا العصر ، عصر التحرر مـــن الاستعمار ، ماذا يفرض الواجب ؟

لابد من خلق جو تسوده الثقة المتبادلة كيما تتعامل الثقافات تعاملا نزيها رغبة فى تحقيـق تعاون انسانى ، دونما اغراض سياسية · وبهذا الشرط ، سيتم التواصل المجـــدى بين مختلف ثقافات العالم ، وينتج من هذا التعاون والتلاقح الحضارة الانسانية والسلم العالمى ·

بعد أن أوضحنا ما نقصده بـ « ثقافة » وبـ« حضارة » ، من منظار الرغبة فى تحقيق **السلم العالمى** ، سيكون من النافع ان نحـــدد بتدقيق معنى ، أو معانى ، « السلم العالمى » ٠

السلم العالمى هو ، قبل كـل شىء ، المساواة بين كل الاشخاص وبين كل الشعوب ، (على كل المستويات وحتى فى « مجلس الامن » الشهير حيث الدول الكبرى ، ذات القنابل الذرية ، تتمتع وحدها ، بأصوات أكثر كثافة وضخامة من أصوات ممثلى شعوب العالم اجمع ! ٠٠٠) ٠

يقصد بـ « السلم العالمى » ، كذلك الانتصار عـــلى الامراض المعدية ، وعـــلى الأميـــة وبالخصوص القضاء على الفقـر بتوزيـع الانتاج العالمى ، توزيعا عادلا محكما ٠ ينطلق « السلـم العالمى » من سلم القلوب ، والسلم بين القلوب ، انه حرب شعواء على مختلف اشكال التخلف ٠

أمن اللائق بالكرامة الانسانية ما نراه مـــن بؤس ينخر عالم اليوم ؟ ففى نفس البلد ، يتواجد عذاب الحصص والحرمان مع البذخ المكشـــوف المتحدى ، وتكتسح المجاعات والاوباء الكثيرين ، فى حين يتوفر لآخرين اكثر مما يستهلكـــون فيضطرون الى « تنظيم » التبذير ٠

فماذا نريد ؟

نريد ثقافات قومية تتعاون دون افكار مسبقة ، ودون آراء خلفية مبطنة ، تتمخض عن تفاعلهـــا وتكاملها ، حضارة أقل ضراوة وجبروت وأوفـر انسانية : حضارة سلم وتسالم ٠

ان السلم المنشود ليس مرادفا لـ« التـواجد السلمى » الذى راج فى السياسة العالمية ، خلال السنوات الاخيرة ، بعد ان صنع وطبخ فى عواصم الدول الكبرى لاستعمالاتها الخاصة ٠ السلـــم الحق ، ان لم يكن عالميا شاملا ، لن يكون شيئا ٠ كذلك السلم الذى يتمخض عن قرارات « جمعية الامم » « ومجلس الامن » ليس إلا سلما أفلاطونيا محضا ٠ انه مجرد متمنيات ان لم يكن مراوغات ديماغوجية ونفاق ، فالذين يصوتون على تلـــك القرارات انفسهم متيقنون ان « سلـــم مجلس الامن » وسلم « جمعية الامم » سلم محكوم عليه ، مسبقا ، بأن يبقى حبرا على ورق

سينبثق السلم الحق عن ارادة الشعوب ، بعد ان تحرض الثقافات القومية وعى الرأى العام على ما ينسج من اخطار حول الانسانية ٠ ان عمليـة التحريض تلك ، هى عظمى مهام المثقفين الملتزمين والالتزام الصادق المجدى هو ما يكون التزاما من أجل تجنيد الشعوب فى سبيل التفاهم والتعاون٠ فعوضا عن « التواجد السلمى » الذى يخـــدم مصالح الدول الاكثر قوة ، ويضمـــن لها دوام

التفوق الاقتصادي والعسكري ، يجب الدعـوةالى مبادىء التواجد التعادلي ، تواجد التساوي ·
وهذا لن يتحقق الا بالاعتراف بان لكل فرد نفس الكرامة ونفس الحقوق التي لاى فرد آخر . وبالتالي تساوي مصالح وحقوق جميع الشعوب ، كبيرهـاوصغيرها انها أهداف تستلزم ، مسبقـا ، ان يتخلص المستضعفون من ربقة استغلال الاقوياء ،حتى يتسنى للجميـع ان يسهمـوا في تحريـر مستقبل الانسانية وفي ضمان السلم العالمي ·

* * *

لكي يصبح مبدأ التساوي شاملا على مستوى العالم . تساويا في الشكل والمضمون لابد مـن تحوير عالم الانتاج الصناعي تحويرا عاما ، ولابدمن القضاء على مركب العظمة والغرور اللامحدود الذي يسود ذهنية الغرب · لقد خارت قوى الرخاء والوفرة · فعالم التصنيع الكبير في حاجة ملحـة الى التحرر مما يعانيه من ازمات مرهقة ، كفائض الانتاج الذي يخنق اجهزته الاقتصادية والنقدية ·

فمتى سيدرك الغرب الغني المترفه ان سلامة اعصابه وهدوء مزاجه المنفعل ابـدا مـن تأثيـر الخوف والعدوانية . متى سيدرك ان ذلك الهدوء وتلك السلامة مرتبطان بالامن العالمي ؟

على الغرب ان يغير أوضاعه وان يغير عاداتـه واعرافه ، خصوصا وقد اصبح للعالم الثـالـث فاعلية وثقل على مسيرة التاريخ العام · فبقدر ماتزداد يقظة الوعي المجتمعي في العالم الثالث بقدر ما يتقوى الالحاح بضرورة تحول الغرب عما هو عليـــه ·

من الأمارات والعوامل المزعجة التي تدفـع بكل استعجال الى هذا التحول الحاسم . يمكن ان نذكر : مؤتمر القمة لدول عدم الانحياز الذي عقد بالجزائر في صيف 1973 ، « وحرب البترول » و « ازمة الطاقة » والاختلال المزعج الذي يعانيـه النقد العالمي (التضخم المالي وتعويم العملات) ·

العالم الثالث لا يدعي ، في اوضاعه الراهنة ،انه « حامل رسالة » ، وانما يقف امام الـدول الغنية وقف الشاهد المتهم · فالنقطة السوداء في التفكير الغربي هي انه تعود على ان يتصامم عن سماع أية شهادة تصدر عـن شهـود ليسواغربيين . ويبذل كل جهد ليتجاهل أية قيمة للغير ولما للغير ·

مصدرا آخر للازمة المعنوية التى يحتازها هذاالعصر هو ان المسؤولين ، ثقافيـــا وسياسيـــا واقتصاديا ، غير قادرين على ان يخلصوا الايمانبأن الاستهلاك النهم ، الجامح لمختلف القـرارات ليس الا انواعا من المهدئات والمخدرات التى لنتعطى ابدا الاطمئنان المنشود ٠

فالثقافة ، أية ثقافة لا تموت تحت وطأة أخطائهاونقائصها ، ولكنها تضمحل عندما تنقصها الجرأة الاخلاقية للاعتراف بتلك الاخطاء والنقائص ، انهاتضمحل لتفضيلها العجرفة والتعاظم على النقــــد الــــذاتى ٠

ان الغرب فى حاجة ملحة الى كثير من الشجاعةليتقبل ما يجب من النظر المشخص الناقد ، ذلك هو الشرط الاول لكل محاولة اصلاح عام شاملتحقيق سلم عالمى صادق ٠

فلا مخرج للحضارة من الورطات ومن تـوالىالخيبات الا بتحقيق السلم العالمى ان انعدام الامل يطيل الانتظار المقلق الحائر ٠

هناك ، أيضا ، عدم القدرة على مصارعة التضخمالعـــام الـــذى يزعزع القيـــم (القيـــم الاخلاقية والقيم النقدية عـــلى السواء) ان ما يقـــدم لنا من وجبات للتغذية المعنويـــة والمجتمعيـــة لا يحتوى الا على النزر القليل من الطراوة . والفن ،ومن دفء الاخوة الانسانية فالدوامة البيروقراطية تثلج الاجهزة المجتمعية وتجعلها تصطك ٠ لقـــداختلط الحيز والحدود وظلت علاقـــات الافـــراد والعلاقات الدولية بلا مشروعية ، لـــم يبق شيءمماثلا لذاته ، لا شيء فى مكانه ! ٠٠٠

فهل تستطيع وعود العلم والتكنولوجيا ان تصلاستقبالا ، الى تغيير الوضعية ؟

نعم تستطيع ذلك شريطة ان يعدل الغـــربافعاله لتصبح مطابقة لاقواله وللمبادىء الـــتى يدعو لها ، فتمسى لها رنة صدق فى ضمير العالم الثالث . وعلى شرط ان يحل فى القلـــوب روح التعاون محل الانانية العمياء ٠

هكذا ، ستجدد الشعوب ارتباطها بالفكـــرالسديد الرصين ، وتصوغ ثقافاتها القومية صياغة متكاملة الاهداف تساعد على انبثاق حضارة جديدةتحقق بها الامنيات المشتركة ٠

بهذا يأتى الجواب واضحا على سؤالنا الاول كيف نكون سياسة ثقافية تخدم السلم العالمى ٠

ان كل سياسة ثقافية ترمى الى خدمة السلـمالعالمى مطالبة بان تتأسس على توفر نفس الشروط التى تهيىء تعادل الفرص امام آمال كل انسان ٠

الاسبــــوع الثقـــافى التــونسى

عرف الاسبوع الثقــافى التونسى الثانى نجاحا كبيرا واقبالا متزايدا من طرف الجمهور الجزائرى الذى نالت اعجابه مختلف الالـــوان الفنية والثقافية التى يقدمها الفنانـــون والمفكرون التونسيون فى أهم المدن الجزائرية ·

وفى اطار الاسبوع الثقافى التونسى الثانىوقع الدكتور أحمد طالب الابراهيمى وزير الاعلام والثقافة الجزائرى اتفاقية للتعاون الثقافى بين الجزائر وتونس ·

وينص الاتفاق المبرم بين البلدين على توسيعالتعاون فى ميدان المسرح وتبادل زيارات الفـرق المسرحية وعقد اجتماع فى شهر أوت المقبل لاعدادبرامج لتنفيذ هذه الاتفاقية ·

وتنص هذه الاتفاقية ايضـــا على تبادلالخبرات فى ميدان الموسيقى والغناء والفـــن الشعبى ويتعاون الجانبان على جمـــع التراث الموسيقى والتعاون على اصدار نشرة سنوية فى هذا المجـــال ومشاركة البلدين فى المهرجاناتوالملتقيات التى تنظم فى البلدين وتشجيع نشاطات الشباب فى ميدان الموسيقى بواسطة هذه الملتقيات

وينص الاتفاق كذلك على مراعاة حقـــوقالمؤلفين والآداب والفنون الجميلة والآثار والمتاحف والسينما وتبادل الافلام وتنظيم أسابيع لهـا فىالبلدين كما اتفق الجانبان على تنسيق الجهـــود لجلب الافلام الاجنبية ومواجهة احتكارات شركاتالتوزيع الاجنبية وضمنت الاتفاقية بتنظيم الاسابيع الثقافية السنوية وانشاء لجنة مشتركة لمواصلـةتنفيذ هذا الاتفاق اما فى مجال الكتب فيعمـــل الطرفان على التعـــريف بالكتاب الجـــزائرىوالتونسى فى الخارج عـــن طريق التظاهرات الثقافية الدولية كالمعارض وغيرها ·

النشر المشتـــرك وتدعيم التحقيق العلمىالمتصل بالتراث المشترك وانتاج كتـــب للاطفال الصغار ابتداء من شهر جويلية 1975 ·

معرض الكتاب العربى

ندوة عن التأليف والتداول والترجمة

محمد امغار

نظمت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع فىاطار معرض الكتاب العربى بالمكتبة الوطنية ندوة متبوعة بمناقشات حول قضية النشر والتوزيعفى البلدان العربية وقد ضمت هذه الندوة ممثلين عن المصالح المركزية بوزارة الاعلام والثقافة والمكتبة الوطنية والشركة الوطنية للنشر والتوزيع واتحاد الكتاب الجزائريين ووزارة التعليمالابتدائى والثانوى ووزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ووزارة التعليم العالى والبحثالعلمى ووزارة المالية (البنوك والجمارك) ووزارة التجارة بالاضافة الى ممثلين عن دورالنشر فى المشرق العربى وتونس والمغرب الخ ..

وقد درس هؤلاء المثلون جميعا بمناسبة هذهالندوة ثلاثة مواضيع هامة باللغة العربية تلتها مناقشات بالعربية والفرنسية وهذه المواضيعالثلاثة هي :

1 ـ صبيحة الجمعة الماضى تداول الكتابالعربى .

2 ـ مساء الجمعة الماضى ضآلة التاليف فى البلدان العربية .

3 ـ صبيحة السبت الماضى الترجمة والتعميم.

وقد استهل هذه الندوة السيد محمود بوعيادمدير المكتبة الوطنية بكلمة القاها بهذه المناسبة قدم فيها شكره وامتنانه للضيوف الوافدين منالبلدان الشقيقة من كتاب وناشرين وكتبيين الذين لبوا دعوة المنظمين فشرفوهم وشرفوا المكتبة الوطنية فى نفس الوقت ، بحضورهم معرض الكتاب العربى بالامس ويشرفوننا اليوم بحضورهم الملتقى كما شكر كل الوزارات وكل الهيئات التى انابت ممثلين عنها وشكر ايضاالشركة الوطنية للنشر والتزيع التى فكرت فى عقد هذا الملتقى ودعت اليه ، وهذا برهان على انها تدرك معنى المسؤولية الملقاة على عاتقها لنشر الكتاب الذى هو أساس كل معرفة وأساس كل ثقافة ، واستطرد يقول وما دعتنا لنتبادل الآراء ونتناقش حول موضوع الكتاب العربى الا لانها أدركت أن هناك مشكلة وهذا مما يشرفها من ناحية ويبشرنا من ناحية أخرى بايجاد الحلولا محالة ، وان نظهر مشاكل فى مسيرة شعب

نحو النمو والرقى وان تصدر انتقادات من هذاالشعب لدليل على حياته ، وان يعترف المسؤولون بوجود تلك المشاكل وأن يدعـو الاختصاصيين وكل من يهمهم الامر لدراستها لدليل على نضجهم ونضج شعبهم ٠

وفى ميدان الكتاب يشتكى اكثرنا من الغيـر أن الكاتب يتشكى من الناشر والناشر يتشكـى من الكاتب المنتج والمستورد من الجمارك أو البنوك والكتبى وأمين المكتبة من المزود وهكذا ـ غيـر أن هناك شخصا واحدا يشتكى من كل السابقين وهو المستهلك ٠

واختتم قائلا : ولهذا أرجو من كل المشاركين فى هذا الملتقى الا ينسوا حينما يتناولون الكلمة ذلك العنصر الذى لولاه لما كان كاتب ولا ناشر ولا موزع ولا أمين مكتبة ذلك العنصر المتعطش الى المعرفة والمتشوق الى توافر الكتب والدوريات لديه حتى يصبح خلية حية من خلايا هذا المجتمـع الجديد الذى نحن بصدد بنائه ٠

ومن جملة المشاكل التى طرحها موضوع تداول الكتاب العربى من حيث اختيار الكتب والذى قدمه السيد محمد الشريف من قسم الكتاب العـربى بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع :

عدم وجود قوائم للمطبوعات تفي بالغـرض الذى وضعت من أجله وعدم وجود عمـل منسق بين مختلف دور النشر العربية والافتقار الى مجلة ترعى شؤون الكتاب بالاضافة الى عـدم احترام بعض دور النشر لحقوق الآخرين فى النشر والتوزيع ٠

وبخصوص استيراد الكتاب هناك مشاكل اختيار الكتاب وشروط تنفيذ الطلبات وعدم احترام بعض دور النشر للاتفاقيات وتماطلها فى تنفيذ الطلبات ، زيادة على عدم وجود وسائل شـحن منتظمة ومشاكل استلام الارساليات وتوزيع الكتـاب ٠

أما فيما يتعلق بتسديد مستحقات الناشرين والموزعين فهناك طـول المدة التى تستغرقها عمليات التحويل فى البنوك وقلة التعامل المباشـر بين البنوك العربية وزد على ذلك كله مشاكـل التعامل بالدولار الحسابى ٠

مشكـل ضآلـة التاليـف :

ومن جملة المشاكل التى طرحها الموضوع الثانى الخاص بضآلة التاليف فى البلدان العـربية والذى قدمه السيد عبد الستار التليلى عدم التنسيق بين المؤلف والناشر والمطبعة والموزع بالاضافة الى طبيعة جمهور القراء هل هو واع أم لا ؟ ونجاعة الوسائل السمعية البصرية ولا ننسى ايضـا

سياسة الحكومات فى مجال الانتاج الادبى وفى العرض الذى قدمه السيد عبد الستار التليلى أشار الى المكونات الاساسية للكتاب من ناحية الشكل ومن ناحية المضمون فمن ناحية الشكل تحدث عن الاوراق والمداد والحروف الرصاصية « الطباعة » وعن مكونات مضمون الكتاب الا وهي العلاقات الناشئة بين الجروف والكلمات من جهة وبين ما يمكن أن نسميه بكنه هذه الحروف والكلمات وجوهرها من جهة أخرى سواء أكانت تقطيعات موسيقية أم فوائد معنوية ولانشاء جميع هذه العلاقات كلها لابد من مؤلف ، وفى محاولته لتعريف الكتاب قسم السيد التليلى مميزات الكتاب الى ناحيتين :

أولا مميزات الكتاب الذى هو عبارة عن شىء أو هو مجرد سلعة · ثانيا : مميزات الكتاب الوظيفى ·

وبخصوص مميزات الكتاب الاول هناك حسب رأى السيد التليلى عدة خصائص يتميز بها هذا النوع من الكتب ·

1 ــ كتاب يشترى على أساس انه تحفة من حيث الطباعة والتقديم ونوعية الورق الخ ·

2 ــ كتاب يشترى على أساس انه سلعة ليس الا ·

3 ــ كتاب يقتنى على أساس كونه رمز مقام اجتماعى معين وهذا النوع أيضا يمتاز بحسن الاخراج وورنق المظهر وجودة الورق الخ ·

أما مميزات الكتاب الوظيفى ·

1 ــ هو كتاب واضح الغاية والهدف ·

2 ــ وهو كتاب يستجيب أولا وقبل كل شىء لغرض تقنى واضح المعالم ·

وكان لابد اذن القيام بمثل هذا العمل من أشتراك عدة عناصر تتعاون على ابراز الكتاب ونستطيع تحديدها كما يلى :

1 ــ المؤلف 2 الطابع 3 البائع 4 الناشر والناشر هو الذى يمثل بطبيعة الحال المكانة الاولى غير ان الناشر والطابع والبائع ياتون تباعا بعد المؤلف الذى يعتبر العنصر الحيوى فى هذه العملية لذا وجب الوقوف عند المؤلف اذ هو المسؤول الاول عن ضآلة التاليف أو كثافته فالاغلبية الساحقة من هذا الصنف تكون مدفوعة الى التأليف اما بحثا عن الارتزاق واما لملء أوقات الفراغ فالمؤلفون اذن لا يتفرغون الى التاليف تفرغا تاما يجعلهم يدققون المادة التى يريدون التاليف فيها بحثا وتنقيبا

وتعقيبا لذلك لا نجد المؤلف الحكيم الذى لاهم له سوى ابلاغ فكرة هادفة والمؤلف المتفرغ وحده لا يكفى لسد فراغ المكتبات بل هناك عوامل أخرى يمكن التحكم فيها وحتى خلقها ان لم توجد وعلى سبيل المثال نذكر :

البيئة التى تخلق المؤلف وهي تلك الكتلة من المثقفين ذات التاثير السياسى والتى تمثل القدرة الشرائية من الوجهة الاقتصادية فان هذه الكتلة لا يمكن تشكيلها الا اذا توافرت عوامل عدة يرد على رأسها النظام السياسى والتركيب الاجتماعى اذ يرتكز عليهما معا فك رباط الجمود الاجتماعى وبعث التطور الفكرى والثقافى ٠

والجمهور ونقصد به الجمهور الواعى الذى لا يمكن تشكيله الا بتوافر الاسباب المالية لتوجيهه الوجهة الصحيحة ومن هذه الاسباب المكتبات سواء كانت عامة أو متخصصة ٠

ثم انه لا يجب ان ننسى ربائب الكتاب من الوسائل الاعلامية الاخرى جرائد ، مجلات اذاعة تلفزة ، سينما ومسرح هذه كلها من الاسباب التى افقدت الكتاب مكانته الاصلية لدى الجمهور ٠

الا ان هذا لم يمنع من وجود كتب كثيرة تتزايد باستمرار أما الكتب الممتازة فهي دائما قليلة ونادرة بالرغم من تنوع المواضيع ومن أسباب ضآلة التاليف ايضا قلة العناية الحكومية وسوء توزيع المساعدات الحكومية وعدم اخضاعها لقوانين والرعاية المفروضة على المؤلف فى البلد الواحد أو بين هذا البلد أو ذلك بصورة تتحكم فيها الاهواء الشخصية والميولات الايديولوجية ٠

قضية الترجمة والتعميم فى الوطن العربى

وكان الموضوع الاخير الذى تطرقت اليه الندوة يتعلق بقضية الترجمة والتعميم فى الوطن العربى وهكذا ناقش الحاضرون هذا الموضوع على ضوء العرض الذى قدمه السيد مصطفى مجدوبة فى البداية الذى بين فيه باختصار وضعية الترجمة والتعميم فى الوطن العربى مذكرا بان الترجمة قد فرضت نفسها بعد ضآلة التاليف كما انها تساعد على استيعاب المفهومات العلمية والتكنولوجية السائدة فى البلدان المتقدمة صناعيا وحضاريا ثم ذكر بدور الترجمة الى العربية « التعريب » عبر التاريخ ولا سيما فى العصر العباسى وفى عصر النهضة ومن ثمة تطرق الى المشاكل التى تعانى منها الترجمة ووسائل النهوض بحركة النقل الى اللغة العربية ومن جملة هذه المشاكل نقص البيانات واعداد المترجم اعدادا يعول عليه عدم وجود تخطيط وتنسيق سواء على النطاق الوطنى المحلى أو على الصعيد القومى العربى زد على ذلك كله نقص المعاجم والمصطلحات العلمية « ان كانت موجودة » بالاضافة الى اختيار الكتب المترجمة « ما هي الكتب

الاجنبية التى يجب ترجمتها الى العربية ؟ » وهناك أيضا مشكلات توزيع الكتب المترجمة بغض النظر عن نشرها زد على ذلك كله وضعية المترجم التى هي وضعية غير قارة فى معظم البلدان العربية وفى هذا الصدد ذكر السيد بهيج عثمان أحد الناشرين اللبنانيين أن الترجمة تتم فى أغلب الاحيان بمجرد الصدفة من ثمة كثرة الترجمة فى الادبيات وندرة الكتب العلمية والتكنولوجية المترجمة والسبب فى ذلك كله يرجع الى عدم وجود لجنة رسمية تخطط فى ميدان الترجمة وتختار الكتب الاجنبية التى يجب ترجمتها كما ذكر أيضا مثال اللجنة الوطنية « اللبنانية » المنبثقة عن اليونسكو المكلفة بترجمة روائع الفكر الانسانى الى العربية والتى ترجمت 23 كتابا غير انها لم تجد ناشرين لانهم يعتقدون انه ليس هناك قراء لمثل هذه الكتب ؟ !

واستطرد السيد بهيج عثمان يقول : وفيما يتعلق بترجمة امهات الكتب وتاليف القواميس والمعاجم فلا بد من تدخل الحكومات لان تاليف القواميس والمعاجم وترجمة الموسوعات وأمهات الكتب تقتضى احيانا سنوات من العمل الجاد ورجالا متخصصين ، أصحاب كفاءة معترف بها عالميا فى ميدانه ·

ومعلوم ان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع قد استوردت ضمن هذا المعرض ستة آلاف عنوان بموجب مائة نسخة لكل عنوان اي ، ستمائة الف كتاب فى المجموع ·

* * *

تأسيس اللجنة الدولية

لتشجيع البحوث التاريخية العربية

نظم « المركز الوطنى للبحث العلمى » (بفرنسا)من 9 الى 11 ابريل 1974 « بكوليج دى فرانس » بباريز ملتقى عن « المحفوظات والمصادر المخطوطةالخاصة بتاريخ البلاد العربية من القرن 16 م الى القرن 20 م » وقد ضم الاجتماع حوالى 40 مؤرخامن الشرق العربى والغرب نذكر منهم على الخصوص السيد محمد الفاسي رئيس جامعات محمدالخامس بالرباط والسيد أحمد عبد السلام أستاذ بجامعة تونس والسيد محمد أنيس استاذ بجامعةالقاهرة والاستاذ محمد خير فارس نائب رئيس جامعة دمشق والاستاذ ماكسيم رودنسون والاستاذ جاك بيرك من فرنسا والاستاذ ايدموند بورك من الولايات المتحدة ·

وقد دارت الابحاث التي قدمت بالملتقى والتعقيبات التي اثارتها حول النقط الثلاث التالية

1) نتائج الابحاث عن المحفوظات والمصـــادرغير المنشورة العربية ، وآفاق المستقبل ٠

2) المشاريع الحالية واساليب البحث للاستفادة من المصادر العربية ٠

3) تاريخ العرب وعلم التاريخ المعاصر ٠

وقد بينت الابحاث التي قدمت والمداولات التي تلتها غنى المحفوظات الخاصة بالبلاد العربية التي لم تفهرس بعد كما ابدت ضرورة تعاون الباحثين فيما بينهم وتعاون الجامعات ومراكز البحث فيما بينها لتشجيع البحوث التاريخية العربية وتقدمهامع مراعاة ارادة العرب في استرجاع تاريخهم من ناحية والاساليب الجديدة لجمع المعلومات والمستندات ولكتابة التاريخ من ناحية ثانية ٠

وقد صادق المشاركون في الملتقى على عدد من الملتمسات ابدوا فيها على الخصوص رغبتهـــم في الحصول على اقصى التسهيلات للاستفادة من الوثائق المحفوظة بالقصور الملكية بالمغرب الاقصى ومـــن المحفوظات الخاصة بالعالم العربي الموجودة بتركيا كما ابدوا سرورهم لتقدم المحادثات الجزائريـــة الفرنسية المتعلقة بارجاع المحفوظات الجزائـرية التي نقلت الى فرنسا قبيل استقلال الجزائر ٠

وكان تأسيس « اللجنة الدولية لتشجيع البحوث التاريخية العربية» اهم قرار اتخذه المشاركون. والهدف من تأسيس هذه اللجنة هو تسهيل اعمال الباحثين واستفادتهم مـــن المحفوظات وتنظيـــم التعاون فيما بينهم وتشجيع كل ما من شأنه ان يقدم بحوث المؤرخين المهتمين بتاريخ العرب ٠

وجعل المشاركون امانة عامة على رأس هـــذه اللجنة الدولية وقد عينوا السيد محمود بوعيـاد مدير المكتبة الوطنية الجزائرية امينا عـامـا كما اسندوا للاستاذ الفاسي الرئاسة الشرفية للجنة وسيكون مركز هذه الامانة العامة بالعاصمة الجزائرية ٠

وتتكون اللجنة التي ربطت بالفرع العربي للمجلس الدولي للمحفوظات من 12 عضوا من مختلف الجنسيات منهم 7 عرب ٠

نوفمبر



مجاهد
الأمس
واليوم

20 أوت : اليوم الوطني للمجاهد

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية



الوثائق الوطنية

رقم 2

جانفي 1974



وزارة
التعليم الأصلي والشؤون الدينية
بجاية
من 1 ـ 12 ربيع الأول 1394 هـ الموافق:
25 مارس ـ 5 أبريل 1974 م

ALLOCUTION
de
Monsieur Mouloud-Kassim NAIT BELKACEM
Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses

à l'ouverture du 8^{me} Séminaire sur la Pensée Islamique

« Au Nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux.

Messieurs les distingués Professeurs,

Mesdames et Messieurs,

Je voudrais que les premières paroles de cette allocution soient celles-là mêmes avec lesquelles j'avais conclu mon discours de clôture du 7^e Séminaire, et vous souhaite donc la bienvenue — au nom du Président Houari BOUMEDIENE et de l'Algérie toute entière —, dans cette atmosphère ravissante et ce cadre historique glorieux, « Annacirya, capitale d'An-Nacir Ibn Illinas le Hammadite, cette cité qui, bien des siècles avant Paris, a été la Ville Lumière, sillonnée les mers avec ses flottes, forcé l'admiration de l'Humanité par ses palais Ballara et Lou' Loua, où se réunissaient rois et savants en présence du peuple, inondé cette Humanité de ses sciences et arts et éclairé l'Europe et le monde grâce à ses Universités et à ses bougies : Bidjaïa ! ».

Messieurs les distingués Professeurs.

Frères et Sœurs Etudiants et Etudiantes,

Nous voilà réunis pour des jours et des nuits, dans le but d'étudier en commun cinq points qui nous semblent d'une extrême importance, non seulement pour l'Algérie et le monde islamique plus vaste, mais aussi pour l'humanité entière, laquelle traverse une crise tyrannique, qui met en danger les valeurs, et s'expose à des tourmentes capables de submerger la civilisation universelle !

1°) Nous voudrions évoquer ensemble tout à la fois l'excellent accueil dont ont bénéficié des communautés d'émigration et des minorités, et les peines et souffrances que d'autres ont endurées et continuent d'endurer à travers les diverses parties du monde, pour voir s'il convient aux savants et penseurs en général, et aux hommes des mass-média, de demeurer passifs devant cet état de choses, en se contentant, dans le meilleur des cas, d'exprimer leur regret et leur réprobation dans les cercles fermés ; ou s'ils doivent, au contraire, clamer leur indignation à la face de l'injustice où qu'elle se produise, de stigmatiser toutes les formes de discrimination et d'imposer partout, grâce à leur autorité morale, le respect de la dignité de l'homme, en tant qu'homme !

2°) Il nous paraît également nécessaire de consulter l'Histoire et de jeter un regard investigateur sur le monde actuel, afin de rappeler et de situer le rôle du penseur aujourd'hui et toujours, dans sa nation et à l'égard de l'humanité, en ce qui concerne aussi bien les grands problèmes de l'heure que les perspectives d'avenir.

Nous aurons à vérifier si le penseur, que les Grecs désignaient et que le monde d'aujourd'hui désigne encore par le qualificatif d'élite, et auquel Ibnou Roschd avait assigné une place à part dans sa classification des gens en groupes " distingués et supérieurs ", d'une part, et en " masses ", d'autre part, pour employer un mot à la mode, si le penseur, dis-je, se différencie de l'homme de la rue par une conscience précise de la grave responsabilité qui lui incombe, par la vision globale, la largeur d'esprit, le sacrifice dans l'action en vue d'imposer le respect de la dignité de l'homme et des peuples, ou bien si toute sa distinction n'est qu'une affaire de diplômes, de fonctions, de titres et d'honneurs ?

Si l'homme, quel qu'il soit, est bien un "zoon politikon", un animal pensant, selon la définition d'Aristote, il ne diffère donc des autres animaux que par la pensée, c'est-à-dire la faculté de réfléchir pour lui-même, pour sa nation et pour l'Humanité. C'est précisément au penseur, nanti ou plutôt chargé d'un fardeau particulier, qu'est dévolue la responsabilité exceptionnelle qui est de faire entendre le résultat de sa réflexion et de clamer la voix de sa conscience !

3°) Comment ne pas évoquer, alors que nous nous trouvons à Bidjaïa, le rôle éminent de l'Etat hammadite dans l'édification de la civilisation et de la pensée islamiques, et, donc, de la civilisation universelle ? Qu'il nous suffise de citer, comme simples symboles de l'apport de l'Etat hammadite dans les domaines de la civilisation et de la pensée,

a) que le mot même de "bougie", dont s'éclairaient l'Europe et le monde bien des siècles avant la découverte de l'électricité, tire son origine du nom de Bougie (Bidjaïa), comme l'atteste l'Histoire et comme le rappelle le dictionnaire français Larousse,

b) que Abderrahmane ibnou Khaldoun, père de la sociologie, y enseignait dans la mosquée de la Casbah, tout en y étant président du Conseil des ministres,

c) qu'Al Mahdi ibnou Toumert donnait des cours dans sa mosquée Ar-Raïhanah et que son Université était le pôle vers où convergeaient les hommes de savoir et de pensée venus du reste du Maghrib, d'Andalousie, d'Orient et d'Europe alors plongée dans l'obscurité de son moyen-âge,

d) qu'un Raymond Llulle, l'un des maîtres à penser de l'époque en Europe, auteur de Ars Magna (Le Grand Art, en logique) et surnommé "le docteur illuminé", y était venu étudier et discuter.

De tout cela, d'éminents professeurs nous entretiendrons pendant ce Séminaire.

4°) La civilisation et la pensée islamiques qui furent le point de départ de l'Europe vers sa renaissance et son progrès requièrent que nous examinions les causes de leur épanouissement et de leur effondrement ainsi que les facteurs de leur renouveau. Car l'histoire se répète, et, si des gens versatiles ont conduit la Nation islamique à la décadence, il demeure que la renaissance de cette civilisation et de cette pensée en sommeil ne dépendent que d'elle-même, à condition que soit authentique la détermination, et forte la volonté, et qu'elle médite les leçons de l'Histoire et s'inspire des expériences des nations.

La civilisation et la pensée sont autant un héritage commun que le fruit d'un effort collectif, et, si l'Histoire enregistre pour chaque peuple la pierre de son apport, elle sanctionne, le cas échéant, sa paresse et sa négligence, tant il est vrai que quiconque se néglige est négligé et perd son pari !

5°) Est-il vrai, comme nous le pensons, que l'unique voie de salut pour la nation islamique et pour toute autre nation dans son cas consiste dans l'effort inlassable pour résorber le retard et pour joindre le concert des peuples avancés, tout en préservant son âme et sa spécificité, dans le fait d'accorder la primauté à l'essence sur les contingences et de ne pas se satisfaire de l'accessoire au détriment de l'essentiel, et de ne pas adopter de la civilisation que ses aspects négatifs, ce que, en d'autres termes, nous entendons par identité et authenticité dans l'ouverture et l'universalité ?

Je rappellerai ici, si vous le voulez bien, ce que j'évoquais brièvement au cours du 6° Séminaire, à savoir que nous nous trouvons devant deux clans qui nous paraissent uniment

ultras et sectaires. Il y a, d'un côté, les conservateurs invétérés, renfermés, repliés sur eux-mêmes, léthargiques, stagnants, qui, au nom de la sauvegarde des traditions, voudraient que l'on ne se contente pas seulement de verrouiller les portes, mais aussi les fenêtres, voulant nous priver ainsi de toute infiltration de lumière, de toute brise d'air, et que nous croupissions dans l'obscurité et nous exposions à l'étouffement.

L'autre parti nous exhorte, au nom du modernisme, de l'émancipation, du progressisme, du révolutionarisme, de la largeur de vue, de l'ouverture sur le monde, de l'universalisme, etc, à ne pas nous contenter d'ouvrir toutes grandes à la fois portes et fenêtres. Il mène un vacarme assourdissant pour que l'on enlève également les toitures par la même occasion : ce sont les aventuriers, les superficiels, les dépersonnalisés.

Nous répondrons aux uns et aux autres que nous ne voulons ni nous priver d'oxygène et de lumière qui sont l'exilir de la vie, ni, non plus, nous offrir aux tourmentes qui ébranlent les fondements et les piliers, avant d'emporter l'édifice.

Nous voulons bien et devons même ouvrir toutes grandes les fenêtres et jusqu'aux portes s'il le faut, mais devons sceller hermétiquement les toitures et garder les pieds sur notre sol ferme. Ainsi, sûrs de nous-mêmes, nous serons en mesure d'avoir une vue sur d'autres mondes, afin de puiser dans leurs expériences concluantes et de tirer la leçon de leurs erreurs, ce à quoi nous invite l'Islam et grâce à quoi se sont illustrés nos devanciers. "Que ne vont-ils pas par (les chemins de) la terre ! Persisteront-ils à ne pas voir ?". (Le Coran incitant à réfléchir, à connaître autrui et à en tirer des leçons).

Quant à demeurer suspendus en l'air et à lorgner, à travers la toiture que nous aurons dégarnie, l'inconnu et à nous livrer à des acrobaties pour l'atteindre, cela ne nous mènera qu'au fond du précipice !

C'est cela que nous entendons par la conjonction harmonieuse entre l'identité et l'authenticité, d'une part, et l'ouverture et l'universalité, d'autre part ; car cette conjonction, tout en nous ouvrant portes et fenêtres, nous conserve les toits et les piliers. Elle nous paraît, en tout cas, comme l'unique voie de sortie pour l'Humanité qui traverse aujourd'hui une crise de civilisation aiguë, menaçant l'édifice humain de fissures et d'effondrement.

Messieurs les distingués Professeurs,

Frères étudiants, Sœurs étudiantes,

Tels sont les questions que nous aurons à examiner ensemble et à propos desquelles nous ouvrirons un large débat.

Il nous reste à espérer que les conclusions qui s'en dégageront soient autant d'étapes préliminaires à franchir dans une marche appelée à se poursuivre, afin de protéger la civilisation et de sauvegarder la dignité de l'homme.

Je souhaite, enfin, à nos travaux à tous, plein succès, et à Messieurs les Professeurs et aux étudiants hôtes un agréable séjour à Bidjaïa et en Algérie.

LA SITUATION DES MINORITES ET DES COMMUNAUTES D'EMIGRATION EN GENERAL ET MUSULMANES EN PARTICULIER DANS LES DIVERS PAYS DES CINQ CONTINENTS ET LE DEVOIR DES SAVANTS, PENSEURS, ET HOMMES DES MASS-MEDIA A LEUR EGARD

Conférence de M. Francis MONHEIM
Ecrivain - Président
de l'Association Arabo-Belge - BRUXELLES

L'intitulé du premier point de ce huitième Séminaire est extrêmement vaste et permet d'aborder des problèmes et des situations très variées. Ce premier point s'intitule en effet, « la situation des minorités et des communautés d'émigration en général et musulmanes en particulier dans les divers pays des cinq continents et le devoir des savants, penseurs et hommes des mass-média à leur égard ».

Cet intitulé appelle une double démarche : la description d'une situation objective et, puisqu'il est question de « devoir », la formulation de propositions d'ordre éthique.

Dans l'exposé que je vais vous présenter, j'ai choisi de vous décrire une situation très concrète : celle de la minorité musulmane qui vit dans mon pays — la Belgique — et, plus particulièrement encore, celle de la famille la plus homogène et la plus unie de cette minorité : la communauté Algérienne.

Quant aux devoirs qui incombent à certaines catégories de personnes, confrontées avec les problèmes que posent ces minorités, je me tiendrai strictement dans le cadre de ma profession : celle d'écrivain et de journaliste c'est-à-dire, celle de témoin.

Notre but est donc de décrire les problèmes moraux et culturels de la minorité musulmane de Belgique et, en particulier, de la communauté algérienne. Mais, pour bien comprendre ces problèmes, il est indispensable de situer cette minorité et cette communauté sur le plan démographique, historique, économique etc...

1. La Belgique compte dix millions de nationaux, tandis que 700.000 étrangers environ vivent sur son territoire. Il faut noter au passage que ce chiffre est approximatif, tout simplement parce qu'il n'existe pas de statistiques complètes sur cette population étrangère. Les chiffres fournis par la police des étrangers ne concernent que les personnes de plus de 12 ans d'âge ; les chiffres fournis par le Ministère de l'Emploi et du Travail ne concernent que la population active et les chiffres fournis par les Administrations Communales sont incomplets. Finalement, les sources consulaires sont encore les plus sûres.

Et c'est par ces sources que nous apprenons qu'il y a, en Belgique, 5.571 Algériens, soit 2.215 hommes de plus de 21 ans, 573 femmes de plus de 21 ans et 2.783 mineurs des deux sexes.

Cette communauté algérienne est relativement peu nombreuse quand on sait qu'il y a, en Belgique, huit fois plus de Marocains que d'Algériens, et quatre fois plus de Turcs. Quant aux Tunisiens, leur nombre n'excède pas 2.000. Au total, la communauté musulmane représente environ 15 % de la totalité de la population étrangère (mais il faut signaler que ne sont pas compris dans ce pourcentage quelques centaines d'Albanais, de Yougoslaves et de ressortissants d'autres pays de l'Europe orientale qui, eux aussi, sont de confession islamique).

2. L'immigration musulmane en Belgique est relativement récente. Avant elle, ce petit pays hautement industrialisé a connu d'autres vagues d'immigrants : italiens et grecs au début de ce siècle, polonais et tchèques au moment de l'exploitation intensive des ressources charbonnières, espagnols lors de la guerre d'Espagne en 1936. Les travailleurs nord-africains ne sont arrivés en Belgique qu'après la deuxième guerre mondiale et, plus particulièrement, entre 1955 et 1967. Il faut signaler cependant que quelques dizaines d'Algériens ont participé, comme mineurs de fond, à la grande bataille du charbon que la Belgique a livrée au lendemain de sa libération en 1944, dans l'espoir de sauver une économie que l'occupation nazie avait gravement affaibli.

3. Ceci explique une troisième caractéristique de la communauté algérienne de Belgique. Alors que cette communauté est très jeune puisque 80 % de ses membres ont moins de 40 ans, un tiers des hommes algériens vivant en Belgique sont des mineurs pensionnés, qui continuent cependant d'exercer à temps partiel des activités plus légères dans le même secteur.

En dehors de ce secteur minier, on retrouve la grande majorité des travailleurs nord-africains de Belgique dans le secteur de la construction ou de la métallurgie. On en retrouve également dans le secteur des transports publics que les jeunes Belges boudent de plus en plus parce qu'il comporte des prestations nocturnes ou dominicales.

Au total, on peut affirmer que la plupart des travailleurs nord-africains occupent des postes de travail dangereux, insalubres ou pénibles. Ils y sont relativement bien payés — au même tarif que leurs camarades belges — mais cela ne signifie nullement que leur statut soit enviable. Nos allons voir pourquoi.

4. La situation familiale des travailleurs nord-africains est souvent difficile. La moitié d'entre eux sont célibataires ; de plus la moitié environ des travailleurs mariés ont émigré sans leur famille, et se retrouvent donc seuls, eux aussi.

5. Les travailleurs nord-africains éprouvent de très grandes difficultés à trouver un logement décent, surtout lorsqu'ils ont plusieurs enfants. Cela tient d'une part au racisme plus ou moins avoué des propriétaires de maisons et d'appartements — racisme dont nous reparlerons — et au manque de logements sociaux dont souffre la Belgique. De nombreuses sociétés construisent des habitations à bon marché réservent d'ailleurs celles-ci aux nationaux ou aux autres ressortissants de la communauté européenne. A Bruxelles surtout, cette crise

de logement se fait cruellement ressentir et des milliers de travailleurs nord-africains y vivent dans de véritables taudis. En général, les quartiers les plus vétustes — promis la plupart du temps à une démolition prochaine — sont seuls accessibles à ces travailleurs.

6. La forte concentration de travailleurs nord-africains dans certains quartiers a une conséquence directe sur la composition de la population scolaire de ces quartiers. Dans certaines écoles de la périphérie bruxelloise ou de la région minière du Hainaut, il y a une majorité d'élèves nord-africains. Or, dans l'état actuel des choses, la législation scolaire de la Belgique ne permet pas de faire face à cette situation d'exception. C'est ainsi qu'il n'existe pas de matériel didactique qui permette aux enfants nord-africains de s'adapter efficacement à l'enseignement européen. De même, les parents musulmans n'ont pas le droit d'exiger que l'Islam soit enseigné à leurs enfants, alors que la loi reconnait explicitement ce droit aux parents de confession catholique, protestante ou hébraïque.

7. Même si les autorités belges condamnent toute manifestation de racisme et entendent mener une politique positive à l'égard des pays arabes en général et des Etats d'Afrique du Nord en particulier, les travailleurs nord-africains se heurtent souvent aux tracasseries administratives, à l'incompréhension et même à l'hostilité de fonctionnaires belges de rang inférieur — appartenant aux administrations locales ou à la police.

8. Et ceci nous amène à aborder le dernier point de notre description : le climat d'incompréhension et de racisme larvé qui entoure souvent les immigrés nord-africains.

Je crois que devant une assemblée comme celle-ci, il faut avoir le courage de remonter aux sources et de voir le problème dans sa perspective historique.

L'hostilité culturelle du monde occidental chrétien à l'égard du monde arabe et islamique est aussi ancienne que l'éclosion de l'Islam elle-même. Cette hostilité se retrouve de manière permanente dans nos livres d'histoire et dans nos manuels scolaires.

On m'a toujours appris que l'Islam était une religion agressive et intolérante et que la civilisation arabe, après un bref et libre essor, avait sombré dans la confusion et la décadence. On avait déjà enseigné la même chose à mon père et à mon grand-père, la même chose aussi au père et au grand-père de mon grand-père.

Sans doute ne faut-il jamais généraliser, mais il serait absurde de nier l'existence de cette tendance négative à l'égard de l'Islam ; il serait absurde de contester les ravages qu'elle fit.

Tout comme il serait absurde de ne pas reconnaître que beaucoup d'auteurs, aujourd'hui, — et parmi eux, il faut le souligner, de nombreux chrétiens — adoptent des perspectives historiques plus conformes aux réalités et abordent l'Islam avec ce qui avait le plus manqué aux Occidentaux qui prétendaient le connaître, je veux dire : avec respect.

Mais que l'histoire — et que ce qui l'écrivent — s'affranchissent aujourd'hui de parti-pris séculaires, cela n'enlève rien au mal qui a été fait. Et qui est énorme. Et qui est enfoui profondément dans les mentalités occidentales.

Ce mal est d'autant plus grand qu'il préparait les cervaux — sans le vouloir, sans doute à subir un autre fléau. je veux parler de la propagande sioniste qui sévit en Occident depuis deux générations et qui a trouvé, dans mon pays comme ailleurs, des porte-paroles aussi puissants qu'insidieux.

Mon propos n'est pas, faut-il le dire, d'aborder ici le douloureux problème palestinien. Mon propos est de parler de la minorité musulmane vivant en Belgique et des problèmes auxquels elle se heurte. Or, il me faut constater que les thèmes exploités par la propagande sioniste qui constituent un phénomène, disons, conjoncturel - sont venus se greffer sur une incompréhension plus ancienne — qu'on pourrait qualifier de structurelle, celle-là — de l'opinion occidentale à l'égard de tout ce qui est arabe et musulman.

A cela, il faut ajouter encore la réactions égoïstes du public à certains évènements politiques ou économiques. De manière générale, l'opinion publique belge a réagi favorablement à la lutte menée par les peuples colonisés en vue d'arracher leur indépendance politique. Par contre, cette opinion publique se montre plus sensible et plus mesquine lorsque ces mêmes peuples entendent défendre leurs droits les plus élémentaires en matière économique.

La présence des gouvernements arabes - et du gouvernement algérien en particulier - à la pointe du combat que les peuples d'Afrique, d'Asie et d'Amérique Latine livrent actuellement pour imposer une répartition plus équitable des richesses et des ressources mondiales, cette présence a suscité des réactions racistes d'un type nouveau auxquelles mon pays hélas, n'échappe pas. Que certains — en Belgique comme en France — veuillent se venger sur les travailleurs arabes immigrés, cela constitue une évidence, écœurante sans doute mais incontestable. Une partie de l'opinion est d'autant plus disposée à entendre les appels de ce genre, qu'elle a toujours été mal informée sur les bienfaits que la main-d'œuvre étrangère a apportés à l'économie occidentale qui, de 1945 à 1970 tout au moins, n'aurait pu se passer d'elle.

Telle est, dans ses grands traits, la situation des travailleurs nord-africains en Belgique. Je vous l'avais dit : ce n'est pas une situation enviable et pourtant, à côté de tant d'ombres, le tableau comporte des lumières. Je m'en voudrais de ne pas les mettre en valeur, d'autant plus que certaines d'entre elles démontrent que, malgré tout, « quelque chose est en train de changer » en occident et, notamment en Belgique.

Ces points positifs, je les citerai pêle-mêle, sans ordre logique. Mais je m'en voudrais de ne pas souligner avant tout, en ce qui concerne la communauté algérienne, le travail remarquable accompli par l'Amicale des Algériens en Belgique et par les services consulaires algériens.

1. Contrairement aux nationaux d'autres pays (et je pense notamment aux émigrés venant de Turquie ou du Maroc), les travailleurs algériens de Belgique ne se sentent pas isolés et ne le sont d'ailleurs pas. Le Président Boumediène a souvent dit, dans ses discours, que l'émigration algérienne n'avait jamais cessé de faire partie de l'Algérie et qu'il fallait tout mettre en œuvre pour qu'elle puisse, un jour, revenir au pays.

Je puis constater — pour ce qui est de la Belgique en tout cas — que ce rôle de lien entre la nation algérienne et l'émigration algérienne est assumé parfaitement par l'Amicale. L'Amicale comme lieu de rencontre, comme cellule de défense mais aussi comme instrument d'éducation ; éducation des jeunes, dans la mesure où l'Amicale organise des cours d'arabe et de religion islamique (qui sont suivis avec beaucoup d'assiduité) ainsi que des camps de vacances en Algérie même ; éducation des adultes, dans la mesure où elle incite les travailleurs à perfectionner leurs connaissances professionnelles et à concevoir ce perfectionnement en fonction des besoins futurs de l'économie algérienne ce qui veut dire, en d'autres mots, en fonction de la réinsertion de ces travailleurs dans cette économie.

2. Deuxième point très positif : l'esprit nouveau qui règne dans une partie de l'opinion belge et, notamment, parmi les jeunes. Ces jeunes sont absolument allergiques à toute idée de racisme et la présence, à leur côté, de travailleurs nord-africains les a confirmés dans cette foi profonde en égalité fondamentale et la respectabilité de toute personne humaine, quelle que soit son origine, son passé culturel, sa fonction sociale.

Cette solidarité active entre jeunes belges et travailleurs nord-africains se manifeste dans les structures les plus diverses : organisations syndicales, comités de quartiers, mouvements universitaires, initiatives, culturelles et même, sportives.

Cette solidarité permet de neutraliser les mesures injustes qui seraient prises contre les travailleurs arabes par des autorités réactionnaires mais, surtout, elle forge des liens d'amitié basés sur une estime réciproque et une connaissance mutuelle. Plus on se connait et plus on se respecte ; plus on se respecte et plus on veut se connaître.

3. Cette solidarité, j'aime à le souligner ici, est le fait — notamment — des chrétiens et de plusieurs prêtres. Si la communauté islamique de Belgique dispose de quelques mosquées — en nombre très insuffisant toutefois — plusieurs prêtres catholiques et plusieurs pasteurs protestants ont mis, spontanément, leurs églises à la disposition des travailleurs musulmans. Le temps du prosélythisme chrétien est définitivement révolu. Puisque les hommes sont différents — égaux, mais différents — n'est-il pas normal qu'ils s'adressent à Dieu dans les langages et selon des rites différents ? Celui qui s'adresse à Dieu par la prière ne doit-il pas de façon absolue, respecter les autres qui prient ?

4. Les autorités publiques elles-mêmes ont leur part dans cette solidarité même si on peut leur reprocher quelques fois un manque de hardiesse, dans les initiatives qu'elles prennent — notamment en matière juridique — au bénéfice des étrangers.

C'est ainsi que le dernier ministre de l'Emploi et du Travail (Ernest Glinne, qui est un de vos amis de longue date) a pris une série de mesures en vue d'attribuer des subsides à ceux qui assument ce qu'il est convenu d'appeler « l'accompagnement » spirituel et culturel des travailleurs arabes.

C'est ainsi que plusieurs communes, qui ont créé déjà un conseil consultatif des travailleurs immigrés, voudraient associer ceux-ci de façon plus directe encore à la prise des décisions communales.

C'est ainsi que des parlementaires, de plus en plus nombreux, demandent qu'en plus des droits économiques, les travailleurs immigrés puissent disposer des droits politiques pour autant, bien entendu, que l'exercice de ceux-ci par des étrangers soit compatible avec la souveraineté des états.

5. Dernier point de lumière, qu'il est bon de souligner ici : les hommes politiques, les hommes d'église, les universitaires qui sont confrontés avec les problèmes de l'immigration semblent avoir renoncé enfin à toute velléité d'assimilation. Il fut un temps où les bonnes âmes voulaient aider les nouveaux venus à ressembler le mieux et le plus possible aux nationaux du pays d'accueil.

Il est possible que cette volonté trouvât des justifications lorsqu'il s'agissait d'accueillir des immigrés d'une même culture et dont le désir était d'ailleurs de se fixer définitivement dans leur pays d'élection. C'est ainsi que des milliers d'Espagnols et d'Italiens se sont établis en Belgique sans espoir de retour et obtinrent d'ailleurs la nationalité belge pour leur enfants.

Mais cette idée d'assimilation devenait absurde dès qu'il s'agissait de travailleurs arabes, pratiquant la religion islamique et vivant dans l'espoir de retourner un jour au Maroc ou en Algérie. Ces travailleurs-là, nous devions les respecter dans leur personnalité propre, dans leur différence ; et ce qu'ils nous demandaient ce n'était rien de plus qu'une intégration temporaire dans une communauté économique qui avait besoin d'eux et dont ils avaient besoin.

C'est, finalement, cette idée d'intégration temporaire qui a prévalu. Elle est conforme, je le sais, à la volonté exprimé maintes fois par les autorités algériennes. Et je crois pouvoir dire qu'elle inspire désormais la politique que les autorités de mon pays comptent mener à l'égard de la main d'œuvre en provenance de pays amis comme les pays du Maghreb.

Je voudrais aborder enfin le dernier point contenu dans l'intitulé de ce premier grand thème de vos travaux. Il s'agit des devoirs qui incombent aux hommes des mass-média, aux artisans des communications de masse, devant les situations que nous venons d'évoquer brièvement.

Je vous parlerai du métier qui est le mien — le journalisme et du point de vue qui est le mien — celui d'un journaliste belge face à l'immigration, dans son pays, de travailleurs arabes musulmans.

J'ai toujours pensé que le journalisme était un métier difficile dans la mesure où il consiste à témoigner ; témoigner, cela implique d'abord de connaître et ensuite d'exprimer ce que l'on connaît. Or, chacune de ces deux démarches implique un certain nombre d'écueils qu'il est souvent difficile d'éviter.

On dit généralement que le premier devoir du journaliste est d'être objectif. Après avoir exercé ce métier pendant vingt ans, je crois pouvoir dire que ce n'est pas tout à fait exact. Tout simplement parce que l'objectivité me parait impossible. Le journaliste n'est pas un historien ; ou plutôt, il est plongé dans l'histoire immédiate ; sa première tâche est de vivre dans le concret ; de côtoyer des hommes vivants ; de réagir en homme vivant à des situations concrètes. Même s'il *Voulait être* objectif, le *pourrait-il ?* Je ne crois pas.

Par contre, il doit être honnête. L'honnêteté, voilà sa première tâche. Il ne peut pas trahir, ni ceux dont il parle, ni ceux auxquels il s'adressent ; il ne peut se trahir lui-même en tombant dans les pièges de l'écriture.

Mais je pense aussi que ce devoir fondamental — celui de l'honnêteté — s'accompagne d'un double droit. Le droit à l'indignation et le droit à l'enthousiasme.

Je crois avoir usé de ce double droit dans une matière qui, par ailleurs, s'y prêtait. Car, que de sujets d'indignation et que de sujets d'enthousiasme dans la situation que nous venons de décrire ; dans les injustices faites aux travailleurs immigrés, dans la dignité avec laquelle ces travailleurs acceptent une vie ingrate, dans cette solidarité qui se renforce de jour en jour entre ces travailleurs et des nationaux du pays que les accueille.

Je crois que notre devoir de journalistes peut et doit porter sur quelques points concrets, susceptibles de modifier profondément la mentalité de l'ensemble de l'opinion à l'égard des immigrés, car, finalement, c'est cela qui compte.

Il faut rappeler à cette opinion que c'est notre économie occidentale qui a ressenti le besoin d'un apport de main-d'œuvre extérieur. Cette économie de croissance n'a pas toujours trouvé, sur place, les travailleurs dont elle avait besoin ; elle s'est donc adressés à d'autres marchés de travail et y a puisé les forces supplémentaires dont elle avait besoin.

Bien entendu, les intérêts coïncidaient ; les travailleurs qui viennent s'installer chez nous le font de plein gré et parce qu'ils y trouvent des avantages matériels.

Encore faut-il préciser à cet égard, lorsqu'il s'agit des pays d'Afrique du Nord, que l'émigration est une conséquence directe de l'économie coloniale. La France n'a jamais industrialisé l'Algérie ; elle ne s'est jamais préoccupée d'y assurer le plein emploi ; elle y est déplacée des populations entières qui se sont retrouvées dans des régions où elles n'avaient plus les moyens de subsister. L'émigration est née de là : de cette nécessité de survivre malgré tout et de faire survivre les siens. Il est bon, sans doute, de rappeler cela

à l'opinion publique, même si —et c'est le cas de l'opinion belge — elle n'est pas directement responsable ni même complice de la politique qui fut menée ici, pendant si longtemps.

Et puis, quels que soient les motifs de l'émigration, nous avons le devoir de rappeler à l'opinion que les travailleurs qui arrivent chez nous sont des *hommes*. Des hommes qui n'ont pas seulement des devoirs mais aussi des droits ; des hommes qui n'ont pas seulement le souci de gagner de l'argent mais qui ont aussi des préoccupations familiales, sociales, intellectuelles ; des hommes qui n'ont pas seulement besoin d'un logement décent (et nous avons vu que la plupart du temps ils ne l'on pas) mais qui ont besoin aussi d'un environnement humain qui leur permet de se réaliser sur le plan moral et culturel.

Il faut que nous ayons le courage de dire à l'opinion que les travailleurs algériens séjournant dans notre pays, ont le droit le plus strict de répéter pour eux-mêmes la triple profession de foi formulé par Ibn Badis : « l'Islam est ma religion, l'arabe est ma langue, l'Algérie est ma patrie ». A mon sens, il ne peut y avoir aucune contradiction, aucune incompatibilité entre la volonté d'appliquer cette profession de foi et la nécesisté de s'intégrer temporairement dans une communauté de travail étrangère.

Il nous faut aussi, chaque fois que nous en avons l'occasion, rappeler les valeurs de la civilisation arabo-islamique, placer l'Islam sous son jour véritable. Bien entendu ce ne sont pas les journalistes qui peuvent faire l'histoire, ni refaire les traités de philosophie. Mais ils peuvent affirmer clairement que cette histoire a été mal écrite et dire ce que ces traités, trop souvent, avaient de fallacieux.

Je me souvient notamment de ce qui me fut enseigné au sujet de la stérilité de l'Islam en matière scientifique ; au sujet de la contradiction qui aurait existé entre cette religion révélée et le progrès de la connaissance ; au sujet de son obscurantisme même. J'ai compris, depuis lors, qu'on avait essayé de me tromper comme on a voulu tromper des générations d'élèves, en Occident. J'ai compris que l'Islam pouvait être une force libératrice et qu'elle n'a d'ailleurs cessé de l'être. Et ce que j'ai compris, je puis le faire comprendre à d'autres puisque j'ai l'occasion d'écrire et que je fais profession de porter témoignage.

Lorsque l'opinion publique du pays d'accueil comprendra mieux les valeurs culturelles et morales des travailleurs immigrés, beaucoup de malentendus auront disparu et la solidarité entre les hommes, que les nécessités économiques forcent à vivre ensemble, sera évidemment renforcée.

Il appartient encore aux journalistes et à tous ceux qui ont accés aux communications de masse, de dénoncer les abus dont les travailleurs immigrés pourraient être les victimes soit de la part de leurs employeurs, soit de la part des autorités publiques. L'expérience démontre que la dénonciation publique de ces abus est toujours efficace et que, l'opinion publique étant mobilisée, les autorités responsables lui emboîtent le pas. C'est d'ailleurs par des campagnes de ce genre que le journaliste peut aider les travailleurs immigrés à vaincre

le complexe de peur qui les paralyse trop souvent, à rompre le silence qu'ils s'imposent devant les injustices subies, à refuser le système d'exploitation qu'on tente de leur imposer, bref à revendiquer et affirmer leur dignité d'hommes.

La dignité. Je voudrais terminer par ce mot. Ce mot fut trop souvent et trop longtemps absent du vocabulaire de l'immigration. Il faut donc que nous l'y rétablissions. Il s'agit de la dignité des travailleurs immigrés et de leurs familles mais il s'agit aussi de notre dignité.

La dignité d'une civilisation se mesure au sort qu'elle réserve aux autres. La dignité d'une société se mesure au respect, dont elle entoure ceux qu'elle accueille en son sein. La dignité de l'homme se mesure à l'image qu'il se fait d'autrui.

Je considère comme mes frères les travailleurs arabes, immigrés dans mon pays ; et je considère qu'il est de mon devoir de journaliste de l'écrire. Voilà, en toute simplicité, ce que je tenais à vous dire.



LA SITUATION DES MINORITES ET DES COMMUNAUTES D'EMIGRATION EN GENERAL ET MUSULMANES EN PARTICULIER DANS LES DIVERS PAYS DES CINQ CONTINENTS ET LE DEVOIR DES SAVANTS, PENSEURS ET HOMMES DES MASS-MEDIA A LEUR EGARD

Conférence du Dr Abdelkrim SAITO
Professeur d'Economie à l'Université
de Tokyo (Japon)

CHAPITRE I

Prolongement de l'Islam à l'Est.

Au Nom de Dieu, Clément et Miséricordieux.

L'Islam n'a pas cessé de se propager à travers le monde depuis sa révélation au Prophète Mohammed que le salut de Dieu soit sur Lui. De la presqu'île arabe qui fut son berceau, il s'étendit à tous les pays arabes, ensuite au Maghreb, Iran, Turquie, Afghanistan, Pakistan, Inde, Birmanie, Thaïlande, Indonésie, Malaisie, Ceylan qui constituent aujourd'hui le monde musulman et enfin en Chine, et en Union Soviétique où il existe un grand nombre de musulmans. En Asie il y a une grande concentration de musulmans à l'ouest, une partie à l'est et une minorité à l'extrême Orient. Il faut entendre par extrême Orient, les Philippines et la Chine y compris Hong Kong, Formose, la Corée et le Japon.

Il n'est pas superflu d'affirmer que l'Islam est la religion de l'égalité entre toutes les classes et toutes les races du monde. Aussi sa propagation et son extension ne se sont pas effectuées partout à travers le monde par la force et l'épée, comme le disent les détracteurs de l'Islam. Au contraire, il a pu rayonner grâce aux principes de fraternité, de paix et d'égalité, qui ont rencontré un écho favorable dans les parties orientales de l'Asie. Il n'y a pas d'armées dépêchées en Chine ou en Russie. Y-a-t-il des missions militaires ou politiques qui ont été envoyées en Malaisie, à Sumatra ou à Java pour contraindre ces pays à embrasser l'Islam ?

Il est clair, que les commerçants arabes des pays côtiers comme Hadramaout, le Yémen, Oman etc... ont étendu progressivement et pacifiquement leur négoce jusqu'au Port « d'Ashi » et au nord-ouest de Sumatra. Ils s'y établirent et prirent épouses du pays. Ils construisirent leurs demeures et vécurent avec leurs familles. Leur attachement profond à l'Islam et à ses principes a fait que les autochtones imitèrent leur exemple et embrassèrent leur religion. Alors, l'Islam s'étendit petit à petit à travers l'île, ensuite à Java, à Saetes, à Solo, à Mandana, aux Philippines etc...

CHAPITRE II

Propagation de l'Islam en extrême Orient :

1°) *La voie Nora.*

Le message du Prophète que le salut de Dieu soit sur Lui, a commencé à La Mecque pour se propager ensuite. Quelques années à peine après la mort du Prophète, l'Islam était parvenu en Irak et en Iran (Perse) qui rayonnèrent sous le règne de la dynastie ommeyade, Abasside et Sassamide. On dit aussi que vingt ans après la mort du Prophète, une mission fut dépêchée à la capitale chinoise. En 711, Mohammed Ibn IBN EL-KASSIM parvint au Smid (Pakistan). En 751 les musulmans d'Asie mineure remportèrent la victoire sur l'armée chinoise et ouvrirent le chemin de la chine. De là, l'Islam et la civilisation musulmane se propagèrent en Orient par le nord Asiatique. Au 9^{me} siècle, toute la région du Turkestan était transformée en états musulmans.

Après le 10^{me} siècle pointèrent de nouveaux états musulmans : Fatimides, Ghaznawides (Khawarezm Shah Ghaznawi) Seldjoukides, Ayoubides, le sultan Mohammed El-Gher, en Afghanistan, Kotb Eddine Aybek, l'empire Ottoman et autres. L'Islam se propagea ensuite dans toute la région de la Macédonie et de l'Anatolie en Kurdistan, Adridjan, Perse, Khourassan, Boukhana, Keïfa, Samarcande, Tachkent, Fargana, « Kashdjer » Bloukhstan, Afghanistan, l'Inde, le Bayed, Dacca, Bengale et Cachemire. Il se propagea dans les profondeurs de l'Asie par les montagnes de Tong Chan, le sahara de Gobi de Mongolie de Mandchourie ensuite aux capitales chinoises.

2°) *La voie Sud.*

En un laps de temps très court l'Islam se répandit dans toute la presqu'île arabe comme nous l'avons déjà signalé. Ensuite les négociants musulmans des côtes arabes comme le Yémen, Hadramaout, Mascate et Oman se rendirent en Iran au Bloukhstan, au

Sind et à la côte occidentale du sous-continent indien puis se dirigèrent au sommet de ce continent c'est-à-dire Ceylan et les îles Maldif. Ensuite leur commerce s'étendit au delà de l'Océan Indien en Birmanie, Malaisie, Sumatra, Java, Bornéo, Salbès, Solo et enfin aux Philippines (Mandanaw) ont dit qu'ils sont parvenus jusqu'au Nord de la Chine (Canton).

3°) ***Propagation** de l'Islam en Chine.*

Il est dit dans un ancien rapport chinois du temps de la dynastie de Tong (651) que la première mission parvenue en Chine est une mission musulmane (Tajik) et s'établit au Nord de l'Afghanistan actuel.

Plus tard, 36 autres missions furent envoyées des pays musulmans. Elles y arrivèrent par le Nord. Certaines se fixèrent à la capitale « Tahanyen » d'autres à Youang Chou, à Haang Tong ou l'île de Hai Tang. Ces missions s'occupaient généralement de commerce et non de la propagation de la religion à l'instar des missions catholiques. Dans l'état de (Sing) la circulation et les contacts prospéraient entre la Chine et les musulmans par le Nord et le Sud et ce du 10^{me} au 13^{me} siècle. Ces musulmans sont les commerçants qui se sont fixés dans les villes suivantes : Haang Tong, « Kayfen » et Hong Chou etc... qui étaient généralement des ports ou des comptoirs. Ces négociants musulmans ont entretenu un échange commercial important entre l'Est et l'Ouest, ils prirent contact avec les gens du pays, leurs montrèrent leur mode de vie et leurs enseignèrent l'Islam, cette religion qui est valable en tous temps et en tous lieux.

Du temps de « Youen » du 13^{me} au 14^{me} siècle les mongols entreprirent plusieurs conquêtes contre les pays musulmans à l'Ouest Asiatique et semèrent la ruine et la désolation. Cependant les conquérants ne tardèrent pas à constituer un empire musulman qui donna lieu à une grande civilisation musulmane. Un grand nombre de musulmans accédèrent aux postes clés en Chine. Avec le temps, un grand nombre de chinois embrassèrent l'Islam. Les gouvernants chinois ont constaté que l'Islam était le moyen privilégié de l'administration et de la politique, c'est la raison pour laquelle, ils adoptèrent à son égard une position tolérante. Toutes les régions occupées par les mongols demeurèrent musulmanes, mieux encore, un grand nombre de musulmans se propagèrent à travers la Chine. Le roi Ananda et ses armées embrassèrent l'Islam (leur nombre était de 155.000 soldats).

Sous la dynastie de Mong (1368 - 1643) l'administration et la politique changèrent. Les musulmans subirent l'oppression de cette dynastie et rencontrèrent beaucoup de difficultés. Ils conservèrent néanmoins leur religion en dépit des pressions et des circonstances. Il leur fut interdit d'épouser les femmes des autres nationalités, et obligés de porter la tenue chinoise et de changer leur nom. Malgré cette période difficile ils gardèrent jalousement leur religion, leur foi et leur mode de vie.

Le gouvernement Mong déporta les musulmans vers Samarcande, Hami et Tarfan dans le nord-ouest et dans d'autres régions et établit d'autres populations à leur place. Les musulmans d'origine Turque, Iranienne ou mongole s'intégrèrent dans les communautés

chinoises en dépit des difficultés raciales et linguistiques et constituèrent des communautés musulmanes coopérant sous la bannière de l'Islam. Cette oppression gouvernementale n'a fait que renforcer l'unité et la détermination des musulmans. Ils épousèrent des femmes d'autres nationalités et même des chinoises, ils parlèrent le chinois dans la vie quotidienne et portèrent l'habit chinois mais leur mode de vie était purement musulman et leur position à l'égard de l'Islam ne changea point.

Quant vint le règne de la dynastie (Tchang - 641) le nombre des communautés mu sulmanes augmenta progressivement. A ce moment surgit un autre problème. Il s'agit de l'affrontement des communautés musulmanes avec la communauté nationaliste Hann (institution nationaliste chinoise) qui dégénera en combats meurtriers. Le règne de la dynastie de Tchang prit fin en 1911 (empereur Hassouan).

Les rapports précisent que le nombre des musulmans atteignait à l'époque 35.400.000.

En 1961 le rapport publie à Babong sous le titre (La revue des communautés en Chine) donne les précisions suivantes sur les communautés musulmanes.

Nom de l'Etat	Année 1953	Année 1957
(Hoï Hoï ? Chinoise)	3.559.300	3.934.335
Vigols ?	3.640.100	3.901.205
Causaques	509.300	533.160
Toungares	155.700	159.345
Corghis	70.900	68.862
Sarahas	30.600	31.923
Tajakes	14.499	15.014
Ouzdeks	13.600	11.557
Pornels	4.900	5.516
Tartares	6.900	4.371
Total	8.005.799	8.665.288

4°) Propagation de l'Islam aux Philippines.

Il y eut des vagues musulmanes passant le Sud via les ports côtiers de l'Inde, de Ceylan, de l'Ile de Maldif et Sumatra passant ensuite par Malka en direction de la rive nord de Bornéo ou par Java pour s'établir enfin aux philippines. Le pays des Philippines est un archipel. L'Islam s'est introduit par l'île de Solo et celle de Mandanao pour se propager finalement dans toute cette région de l'extrême Orient.

Il est dit dans un rapport que Cheikh Makdoum (de Malka) était un savant et un muphti de grande renommée qui a déployé des efforts considérables pour propager l'Islam à Malka aux environs de 1380. Les plus grands artisans de la propagation de l'Islam aux philippines furent généralement les commerçants musulmans à l'instar de leurs frères en Chine, viennent ensuite les gouvernants nationaux dans les régions de la mer du nord à l'Est Asiatique qui ont embrassé l'Islam avec leurs peuples, viennent enfin les savants qui se sont déplacés dans ces lieux pour transmettre le message aux infidèles. Il semble que des missions sophistes y furent également envoyées d'Iran.

Cette progression pacifique de l'Islam aux Philippines s'est heurté aux attaques violentes des espagnols au 16[me] siècle. Ce fut le commencement d'une guerre de trois cents ans contre le colonialisme espagnol et pour la défense de l'Islam. Durant cette longue période, les musulmans et les non-musulmans subirent de lourdes pertes et combattirent avec courage et héroïsme. Le sultan Soleïman fut rapidement défait par les Espagnols et l'île de Losone tomba entre les mains de l'ennemi. Des combats violents et interminables se déroulèrent dans la partie Sud de Mandanao et de Solo auxquels prirent part le sultan de Solo Benjane, le sultan de Majandana. Débatiane Koudrati, et le sultan de Ranao Wedato Akadir.

Malgré leurs assauts successifs les Espagnols ne réussirent pas à défaire les musulmans philippins. Finalement les Espagnols durent renoncer à leurs ambitions après leur défaite dans la guerre espano-américaine en 1898. Il n'y eut pas de guerre plus violente et plus atroce dans l'histoire des Philippines que celle engagée contre les Espagnols. Ces hauts faits ne font pas la gloire du seul peuple Philippin mais celle de tous les musulmans dans le monde. La lumière de l'Islam et de sa civilisation aurait connu des dimensions plus grandes sans cette guerre espagnole.

Les musulmans philippins n'étaient du tout heureux de recevoir les américains après les espagnols, mais ils étaient à bout de force. Pendant la domination américaine les philippins musulmans n'en montrèrent pas une résistance acharnée. Cependant ils durent succomber devant la supériorité numérique et technique des américains. Parmi les chefs qui trouvèrent la mort durant cette période, citons Dato Ali en 1905, Djikiri en 1909, Dato Amita Bardid en 1909, Dato Amboa Najus en 1911, Neguib Emir en 1913 et Saïpol Bengalo Sif en 1914. C'est alors que les musulmans tombèrent sous l'administration américaine et sous l'influence catholique après leur situation se dégrada petit à petit.

En 1945 les Philippins accédèrent à l'indépendance à l'issue de la seconde guerre mondiale. Les musulmans Philippins prirent aussitôt contact avec leurs frères musulmans dans le monde et commencèrent à s'éveiller.

En 1950 un groupe de messagers pakistanais visitèrent les Philippines ainsi que Cheikh Cheltout Cheikh de la Mosquée El-Azhar et bien d'autres. Les Philippins reçurent l'assistance financière et spirituelle du Caire, de La Mecque, de Djakarta, de Libye, de Corée etc... Ils fréquentèrent également l'Indonésie, la Malaisie, Hong Kong, le Japon, la Corée etc... L'avenir des musulmans Philippins s'annonce très bien. Nous assistons malheureusement aujourd'hui à des affrontements sanglants entre nos frères musulmans et les communautés chrétiennes assistées par les autorités administratives actuelles. Le nombre des victimes des affrontements de 1971 s'élève à plus de 1.000 selon le rapport du gouvernement Philippin.

De six villes à l'Est de San Bwanja il ne reste que des décombres. Le nombre des réfugiés a atteint 213.135. Ce rapport a été établi durant les deux premières semaines de mars 1973. La raison de cet affrontement citée dans ce rapport, est le mauvais traitement y compris la saisie des armes et des terres que les musulmans ont prises dans les régions musulmanes. Les bandits chrétiens nommés (Iraja) attaquèrent les musulmans, ces derniers s'organisèrent en groupes d'auto-défense. Les groupes musulmans étaient dirigés par le professeur Nour Meswali de l'Université des Philippines. Les combats s'étendirent à Koutabatou, San Bwanga, Libenjane, Basilane, Hulu, et à d'autres localités de l'île de Solo.

Cette situation dramatique des musulmans Philippins ne manqua pas de soulever la réaction des musulmans dans le monde. En janvier 1973 une mission a été dépêchée aux Philippines composée des représentants de l'Afghanistan, du Bengale, de la Somalie et de l'Arabie Séoudite. Mais la tension et la pression persistent, et les musulmans sont soumis au massacre à l'instar de leurs frères en Palestine. Le président Marcos a reconnu lui-même qu'il y avait plus d'un million de refugiés.

C'est une honte pour l'humanité. C'est là un problème sur lequel nous ne devons pas transiger. Nous devons exiger que soient reconnus les droits humanitaires pour nos frères Philippins.

1°) - Cesse les opérations de l'armée et de la police.

2°) - Instaure le calme entre les deux parties.

3°) - Abolisse les privilèges accordés exclusivement aux non-musulmans.

4°) - Accorde le droit de la propriété de la terre aux musulmans.

5°) - Améliore le système de l'enseignement dispensé aux enfants musulmans.

6°) - Assiste les chômeurs et les sans emploi musulmans.

7°) - Installe des hôpitaux et des dispensaires dans les régions musulmanes.

8°) - Permette aux musulmans Philippins les contacts avec leur frères à l'étranger.

Nous devons tendre la main au plus tôt à nos frères musulmans Philippins qui sont au nombre de trois millions.

5°) *Propagation de l'Islam en Corée.*

La propagation de l'Islam en Corée n'a pas encore atteint le niveau souhaité comme c'est le cas au Japon. Nous ne pouvons dire exactement comment l'Islam s'est-il introduit en Corée. Il est fort possible que le contact eut lieu par les routes du Nord sous la dynastie chinoise de Youen.

En 1950, à la suite de la guerre de Corée, il y eut des soldats turcs des forces des Nations-unies, ces soldats musulmans se comportaient comme tels et ne manquèrent pas d'influencer et d'attirer à l'Islam bon nombre de Coréens. Après les Turcs ce furent, les Pakistanais, les Malaisiens, les Séoudiens, et les Afghans qui vinrent rejoindre les quelques milliers de Coréens nouvellement convertis à l'Islam au Sud de la Corée. Le nom de Hadj Sabri Soa président de l'Union des musulmans Coréens demeura dans l'histoire de la propagation de l'Islam en Corée, comme une illustre figure. Une première mosquée est en voie d'achèvement à Séoul grâce aux efforts de Dato Ibrahim Sakaf (Singapour) et Moulana Seïd Djemil (Pakistan). Nous ne possédons aucune information à l'heure actuelle sur les musulmans de la Corée du Nord.

6°) *L'Islam à Hong Kong* (supprimé).

7°) *L'Islam à Formose* (supprimé).

L'Islam au Japon

La liaison entre le Japon et la Chine a effectivement existé depuis le siècle de (Tang 618 - 957) lorsque apparut la première mission islamique en Chine. Mais aucune introduction de l'Islam au Japon ne s'est faite à partir de la Chine, ni par la mer. Depuis cette époque jusqu'au 16^{me} siècle les relations entre les deux pays n'étaient guère étroites en raison des obstacles naturels et du comportement inamical de la dynastie de Youen à l'égard des musulmans. Au 16^{me} siècle, les navigateurs européens s'orientèrent vers l'Orient. Mais la politique du gouvernement japonais qui a consisté à former les frontières de 1639 à 1853 n'a pas permis à l'Islam de s'introduire dans ce pays.

En 1868 sous le règne de l'empereur Miji, les frontières s'ouvrirent et la civilisation occidentale pénétra le pays et avec l'Islam à travers les œuvres des européens non musulmans. En 1875 fut éditée une œuvre traduite de l'anglais vers le japonais et ayant pour titre : « La vie du Prophète Mohammed ». Ce fut être là la première œuvre parue au Japon sur l'Islam. En 1890 arriva au Japon une délégation d'amitié de l'empire Ottoman. Ce fut là également le premier contact avec un pays musulman. En 1895 après la guerre

sino-japonaise, B. Arija embrassa l'Islam, ce fut le premier musulman japonais. En 1909 K. Yamaoka effectua le pélerinage aux lieux saints avec Hadj Abderrachid Ibrahim Turqui et édita son œuvre : « Le pélerinage à La Mecque ». En 1917 A. Tanaka effectuera le pélerinage et ramena trois musulmans turcs avec lui. En 1909 des milliers de musulmans Turcs de Russie se refugièrent en Mandchourie puis au Japon où ils bénéficièrent du statut de refugiés. Ils exercèrent leur culte en toute liberté. Leurs œuvres sur l'Islam ont été conservées. Des œuvres ont également été publiées en japonais telles que « La force de l'Islam » de Yamaoka et « L'action des musulmans et l'avenir de l'Asie » de Atanab et « La vie de Mohammed » de Sakamoto, « L'histoire de l'Islam contemporain » de Kaoas « Etudes sur les musulmans de Chine » de Dazaî. Mais seule une minorité infime embrassa l'Islam parce que les auteurs de ces œuvres étaient dans la plupart des cas des non musulmans.

Pendant que beaucoup de pays musulmans se trouvaient encore sous le joug colonial européen, des pays comme la Turquie, l'Iran, l'Afghanistan échangeaient la représentation diplomatique avec le Japon. En 1933 fut fondée l'association de la civilisation musulmane à Tokyo. En 1935 fut édifiée la première mosquée à « Konbi » par les commerçants musulmans étrangers. De même que certains jeunes japonais se rendirent en pélerinage.

Le 12 mai 1938 la mosquée de Tokyo fut inaugurée et assistèrent à la cérémonie, l'Emir Seïf El-Islam Hussein du Yémen, Abdelwahab Daoud d'Egypte, Cheikh Wahba de l'Arabie Séoudite et beaucoup d'autres invités du monde arabo-musulman. La présidence honorifique de cette inauguration fut confiée à l'Imam Muphti Abderrachid Ibrahim. Trois ans après cette cérémonie, ce fut la guerre américano-japonaise dans le Pacifique. Suite à cette guerre beaucoup de pays asiatiques accédèrent à l'indépendance. Durant cette guerre un grand nombre de soldats japonais embrassèrent l'Islam de par leurs contacts avec les musulmans. Certains l'ont fait par conviction et sont demeurés musulmans, d'autres l'ont fait pour des raisons militaire ou politique et qui ont disparu après la guerre. Le mouvement islamique a commencé au Japon après la défaite de l'empire nippon sans aide ni encouragement d'aucune autorité sinon par l'action des musulmans eux-mêmes.

En 1952 fut créée l'association des musulmans de Tokyo avec à sa présidence Monsieur Sadek AMAIZOUNI. Cette association est dénommée « Association des Musulmans Japonais ». Le statut légal d'association lui a été reconnu en 1968.

1°) Position actuelle de l'Islam au Japon (sera développé plus loin).

2°) Activités actuelles de l'association (idem).

3°) Les Japonais et leur attitude vis à vis de la religion (idem).

CHAPITRE III

Propagation de l'Islam dans les régions à minorités musulmanes et rôle des penseurs islamistes.

Je voudrais parler de la propension de l'Islam, de son renforcement et de l'Union entre les communautés musulmanes dans les pays à minorités musulmanes et plus particulièrement au Japon ou tout espoir de propagation est exclu.

1) *De la propagation du message islamique :*

Chaque musulman est tenu de communiquer partout le message islamique. Cette communication est le devoir de chaque musulman quelque soit sa nationalité, son âge, sa position, son sexe et sa capacité intellectuelle et financière. Il peut agir seul ou en groupes, par le biais d'associations, d'organisations, d'unions, organisations de femmes, de jeunesse, de travailleurs, d'enseignants, d'étudiants etc...

En un mot chaque musulman est responsable devant Dieu de la communication du message islamique.

2) Le principe islamique doit être la devise de la communication du message. Chaque messager devra œuvrer avec une foi inébranlable en l'Islam qu'est la seule religion capable de résoudre les problèmes de notre monde et d'instaurer la paix véritable. Il doit servir d'exemple dans son comportement et dans ses actes et s'inspirer dans toutes ses actions de la vie du Prophète.

3) *De l'objet de la communication :*

La communication doit s'adresser à tous et spécialement aux pauvres, aux deshérités, aux malades, à la jeunesse, aux élèves, aux étudiants et surtout aux étudiants des langues orientales et de l'histoire, aux veuves, aux proches, aux connaissances personnelles.

4) *Méthodes de communication :*

a) *Par le dialogue :* C'est une méthode familière et influente, on peut rendre visite au récepteur du message, chez lui, ou dans son lieu de travail, comme on peut l'inviter chez soi.

b) *Par les conférences ou les réunions d'explication :* De telles conférences et réunions doivent être organisées et auxquelles seront conviées les personnes pour lesquelles

la communication est destinée. Ces personnes peuvent être invitées dans un salle publique, dans une école, cercle, société, hôpital ou dans un lieu de prière. La mosquée est le lieu le mieux indiqué.

c) *Par la radio, la T.V. et le cinéma.*

d) *Par l'édition :* Edition de livrets, de journaux, de revues hebdomadaires et périodiques ou des manuels scolaires.

e) *Meetings populaires.*

f) *Coopération des musulmans étrangers au Japon :*

Les savants étrangers, les diplomates, les hommes d'affaires, les étudiants, doivent participer à des voyages de groupes pour activer le mouvement de communication à travers le pays.

g) L'envoi d'étudiants musulmans dans les pays musulmans pour étudier l'Islam. Il y a actuellement des étudiants japonais qui étudient en Egypte (El-Azhar - Université du Caire, Université Aïn Chems) en Indonésie, en Arabie Séoudite, en Libye, au Pakistan et en Iran, et peut être prochainement en Algérie, au Maroc et en Tunisie, ce dernier pays a effectivement demandé a recevoir des étudiants japonais.

h) La mise à profit des étudiants qui sortent des universités des pays musulmans. Il existe actuellement un bon nombre de jeunes étudiants japonais musulmans qui ont étudié dans les pays musulmans et après leur retour au Japon travaillent dans l'enseignement et autres secteurs. Ce sont ces jeunes que nous voulons mobiliser partiellement ou totalement dans le mouvement islamique.

i) *Bâtiment pour les activités islamiques* : Il est indispensable de posséder un bâtiment ou un siège pour le mouvement islamique pour y entreprendre ses actions et aider à l'Union des musulmans.

j) *Ouverture d'un centre islamique dans la capitale japonaise :* Le centre est le siège essentiel pour la réunion des musulmans. Il peut également servir pour un lieu de prière et de contacts divers (réunions - conférences - lecture). Il peut même comporter des chambres d'invités. En un mot le siège constituera un état islamique en miniature.

k) *Ouverture d'un lieu de prière* : Pour le repos des fidèles et la réunion des musulmans qui habitent loin de la mosquée de Tokyo, de Kondi ou du centre islamique envisagé. Ces lieux de prière doivent être édifiés un peu partout comme Tokoshima, Sandaï et Fokoka.

l) *Ouverture d'une médersa* : Pour l'enseignement de la religion musulmane et autres disciplines linguistiques et culturelles.

m) *Ouverture d'une classe de langue arabe* : La langue arabe est la langue du Coran, aussi une telle classe est indispensable, qu'elle soit dans le centre, dans le lieu de prière ou dans une autre salle appropriée.

n) *Ouverture d'un dispensaire* : A l'usage des malades, des orphelins et des veuves etc.

o) *Budget de cette entreprise* : Dans les pays à minorités musulmanes, les musulmans connaissent un grand déficit dans le budget consacré à la communication du message islamique. Les musulmans ne sont généralement pas riches, même au Japon qui a atteint un grand progrès industriel.

a) Nous devons aider les musulmans ou les sociétés musulmanes pour accroître leurs activités dans le domaine commercial et financier, et à installer des sociétés et des bureaux d'affaires à l'étranger. De la sorte, elles pourront aisément contribuer au budget.

b) Contribution financière des pays musulmans.

c) Acceptation des dons volontaires provenant des sociétés japonaises non musulmanes ou des personnes sympathisantes.

d) Nous pouvons jouer le rôle d'intermédiaires et de courtiers entre les sociétés commerciales japonaises et les pays musulmans moyennant une commission.

7°) CONCLUSION.

Comme je l'ai signalé plus haut, le Japon avait fermé ses frontières pendant environ 3 siècles pour empêcher les missions catholiques d'y pénétrer, sachant pertinemment que ces missions cachait un autre but celui de provoquer les troubles politiques. Si l'Islam s'était introduit au Japon à l'époque, il aurait été reçu à bras ouvert, car les japonais savent que l'Islam n'a aucune ambition politique ou d'hégémonie. La liberté du culte est reconnue dans la constitution japonaise. Il n'y a donc aucun préjugé à l'égard d'aucune religion. Malgré cela nous constatons un certain parti pris en défaveur de l'Islam que l'on traite comme étant la religion des déserts, ou que les musulmans pratiquent la polygamie. C'est certes là l'œuvre des détracteurs mal intentionnés. Nos frères des pays musulmans doivent faire montre de vigilance à l'égard de ces colomnies. Nous devons œuvrer ensemble pour éliminer ce parti pris des cœurs des japonais, et pour faire face à toutes les attaques dirigées contre l'Islam. A cet effet nous devons créer un institut d'études islamiques avec les spécialistes des pays musulmans et les musulmans japonais.

Certains savants musulmans qui enseignent dans les universités européennes et au Canada donnent des conférences sur l'Islam non dans le but de la répandre ni de lui faire la publicité.

Par contre, au Japon, les professeurs qui enseignent l'histoire ou les langues orientales ne nourrissent aucune mauvaise foi à l'encontre de l'Islam. Aussi devons-nous conserver de bons rapports avec ces savants et ces professeurs. L'esprit japonais est beaucoup réceptif à l'Islam que l'esprit catholique européen.

Si nous tentons de résoudre leurs problèmes, et de concilier entre le mode de vie musulman et leur propre mode de vie, ils admettront facilement l'Islam.

Un autre problème se pose à savoir comment faire pour permettre aux musulmans de demeurer fermement attachés à leurs croyances dans les pays à minorités musulmanes comme le Japon, où la communauté musulmane est faible et ne dispose pas de tous les moyens. De plus, ils vivent dans un milieu non musulman où les interdits sont commis dans la voie publique et dans les foyers. Devant cette pression et dans ces conditions, la nécessité d'un centre islamique se fait sentir avec acuité en vue de préserver les musulmans et de donner une éducation islamique à tous les membres de la famille de façon à préparer des épouses honnêtes et fidèles aux musulmans et afin que leurs enfants soient légitimes. Ainsi les musulmans acquieront le nombre et la force.



ROLE DU PENSEUR A TRAVERS LES AGES, ET PARTICULIEREMENT AUJOURD'HUI, DANS SA NATION ET A L'EGARD DE L'HUMANITE, DE SES PROBLEMES DE L'HEURE ET SES PERSPECTIVES D'AVENIR

Conférence du Dr Mohammed Aziz LAHBABI (*Maroc*)
Philosophe, Conseiller au Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la recherche Scientifique

1. *Qui boit le vent, le soleil ne le rassassie point.*

La carte du Tiers Monde, et en particulier celle du monde arabo-msulman, est une carte encadrée par la luminosité et la douce chaleur du soleil. Mais les coups de soleil peuvent provoquer la mort si le crâne ne protège que le vide. Le soleil vivifie ceux qui savent s'adapter à lui et détruit les autres, les fainéants, les indifférents. Il y a deux sortes d'hommes, le premier est convaincu de la nécessité de s'adapter au monde et, engage tous ses efforts en vue de cette adaptation ; le second, lui, reste hors-jeu et se refuge dans le laisser-aller ; mais les deux sont également responsables, *car la vie de l'homme est, par essence, responsabilité.* L'individu doit rendre compte de ses actes et des résultats de chacun de ses actes, devant sa conscience, devant la société, et devant la loi. La différence entre les individus moralement et socialement vient du niveau de la prise de conscience qu'ils ont de cette responsabilité et du degré de dévouement en l'assumant.

L'expression arabe « al-khâssa wal-âmma » (= l'élite et la masse) explicite bien la différence précédente : tout le monde est responsable, néanmoins l'élite est plus apte à à comprendre la responsabilité, à la faire comprendre et à en assumer et exercer le contrôle des applications. Quant à ceux qui font partie de la masse, ils sont, eux aussi, responsables, mais avec cette restriction : ils ne disposent point de possibilité intellectuelle qui leurs permettraient de contrôler la marche des responsabilités et son exécution, c'est-à-dire qu'ils n'ont pas les moyens nécessaires de prendre conscience, en connaissance de cause, et avec la lucidité requise. Dès lors, ils sont incapables de jouer pleinement le rôle de censeurs et transformateurs, de la société.

Il nous semble que responsabilité ainsi comprise correspond à ce que le Coran appelle « amâna » :

« Nous avons proposé la confiance aux cieux, à la terre et aux montagnes. Ils ont refusé de s'en charger et s'en sont effrayés, alors que l'homme s'en est chargé » (1).

(1) Coran 33, 72.

Si l'homme n'avait pas accepté de porter « al-amâna », il n'aurait pas mérité d'être choisi par Dieu comme son Lieutenant sur cette terre qu'il a soumise à sa tutelle et où il lui a donné le droit de la transformer, de la faire évoluer (2).

Al-amâna est exaltante cependant ses conséquences ne sont de tout repos. C'est pourquoi il est nécessaire que l'homme s'arme de tous les possibles dont il peut disposer et de toute son énergie.

C'est ici qu'intervient le penseur pour aider à illucider les données naturelles et les données humaines en vue de les investir pour en tirer le meilleur rendement. La pensée, c'est ce qui donne sens et contenu aux acquisitions. Ce sont des opérations qui s'accomplissent sous diverses formes et passent par différentes phases. D'abord, le penseur commence par diagnostiquer les situations en mettant en relief les inconvénients que comportent les acquisitions nouvelles ; il se met ensuite à l'écoute de tout ce qui, dans l'héritage nationale et l'héritage humain, sent la vieillesse.

En deuxième phase, le penseur s'efforce à inciter aux initiatives qui s'imposent pour surmonter les obstacles. Aussi, le rôle primordiale du penseur est-il d'«expliquer» les problèmes et d'aider à trouver les solutions urgentes qui s'imposent, participant ainsi de façon effective à préparer l'affrontement des problèmes que pose la construction de l'avenir.

En ce qui concerne la culture, on peut la définir comme étant l'ensemble des moyens scientifiques et techniques par lesquels se forme l'outillage, mental et le cadre historique pour toute acquisition sociale ou toute connaissance. La culture fournit les données qui permettent à la pensée de saisir et d'interpréter des évènements, à comprendre les moments de transitions et à les orienter en s'efforçant de leur trouver des solutions provisoires dans l'attente des états qui adhèrent mieux au déterminisme. Ce qui précède et ce qui suit, ce qui est et ce qui est prévisible, ce qui est entrain de s'effectuer, tout cela, ce sont des formes du mouvement dans son développement et ses changements, visant au perfectionnement. L'immobilité, la stabilité, contrarient les phénomènes de la vie. Les cultures nationales alimentent la civilisation humaine, et celle-ci est le devenir dont se tisse l'histoire dans ses bonds vers l'avant ou ses marches à reculons. En effet, jamais, l'histoire ne connait de position couchée ou assise, voire de stabilité même debout. L'élément vital du devenir, c'est bien le changement dans tous les domaines de la vie, de production et de consommation et leurs influences sur les modalités de la pensée et du comportement des individus et des peuples.

C'est pourquoi nous ne pouvons prétendre avoir une véritable culture que si elle alimente une pensée agissante qui s'enracine dans la vie sociale, autant politique qu'économique ou morale... La culture est une présence qui s'actualise sans cesse dans la société. C'est l'ensemble des différentes luttes qu'engage l'ensemble des personnes en vue de changer en mieux les qualités de la vie, et en vue de diffuser équitablement les acquisitions

(2) En ce qui concerne cette lieutenance de l'homme dans le monde, voir le Coran : 24, 55-2, 30-38, 26-10, 14-69, 70

morales, scientifiques et techniques parmi tous les peuples et toutes les couches sociales. Le but des invasions et des découvertes est de réaliser pour chacun la satisfaction de ses besoins essentielles, de justice, de liberté et de vie matérielle décente.

A partir de « culture » ainsi définie nous pouvons affirmer que la pensée s'appuie sur l'histoire mais le penseur ne fait pas d'investigations dans le passé, pour le passé en soi. Il cherche dans le passé ce qui pourrait aider à promouvoir de nouveaux aspects de la civilisation. En d'autres termes : le penseur cherche à orienter toutes les facultés et les potentialités d'une société vers un meilleur lendemain. C'est pourquoi la culture d'un penseur ne s'identifie pas intégralement à sa connaissance historique.

Le penseur « ne conjugue pas » sa culture dans le « passé » mais dans le « mudâri » (3). Précisons, toutefois, que culture et histoire n'entrent pas en conflit, au contraire. Seulement, si l'histoire cherche les richesses qu'il y a dans le passé d'une nation pour gloire nationale, la vraie culture cherche, elle, les aspects révolutionnaires qu'il y a dans le présent et l'avenir afin de mobiliser toutes les énergies humaines et de les faire fructifier au profit commun. Que la culture précède et prépare une transformation sociale, ou l'accompagne et l'inspire, ou vient après pour l'expliciter et la rendre claire. Dans tous les cas la culture est toujours nécessaire. Une société sans culture est une société figée, morte, ou moribonde ; de même une culture sans pensée pour l'inspirer et lui ouvrir de nouveaux horizons et lui donner de nouveaux souffles, devient culture de mythes, mystifications de toutes sortes de drogues mentales.

2. *Le « Non » qui instaure l'inauthenticité.*

La question qui se pose pour nous maintenant est la suivante :

Est-ce que « culture », dans le sens précédent, s'applique à la culture arabo-musulmane d'aujourd'hui ?

Par respect pour le réel la réponse, bien que douloureuse, est : *Non.*

Certes, nous avons des hommes de grande culture, conscients de leur responsabilité, malheureusement ils ne représentent d'une infime minorité et, malgré leur nombre si réduit, ils se trouvent entourés par l'incompréhension et même par l'hostilité d'autres hommes de culture. Chez certains, cette hostilité se transforme parfois en jalousie et en sournoise agressivité au point de dresser des pièges aux minoritaires.

Ces milieux hostiles sont de trois sortes :

Il y a d'abord ceux qu'on peut appeler les « portefaix de la culture » qui font penser à cet animal auquel fait allusion le Coran (4).

(3) La modalité verbale qui exprime, en grammaire arabe, à la fois le présent et le futur.
(4) Coran, 5, 62.

Ils ont une mémoire surchargé par de cocktails de connaissances variées et mélangées pêle-mêle et ayant parfois une certaine odeur omeyade, ou barmakite ou andalouse... Mais rien n'y rappelle le XX[e] siècle. Ils ne manquent pas d'un certain attrait mais cependant ce qui les caractérise le plus c'est leur inéfficacité et incontemporanéité. Les intellectuels de ce premier genre semblent en ignorer le sens-avant, leur regard est toujours fixé sur l'arrière. Dans l'idée « transcendante » qu'elle se fait d'elle-même, cette caste aristocratique, détachée du temps et du lieu, rappelle la situation de certains soufis (mystiques). L'un d'eux, Assahl Ibn Abdellah affirme : « La fréquentation de l'homme sain aux autres hommes est un déshonneur et son éloignement d'eux est un bien. J'ai rarement vu un Saint qui ne vit pas seul ». On rapporte un autre soufi Ibrahim Ibn Add, fermait sa porte de l'extérieur de manière que personne ne pût lui rendre visite.

C'est là un choix prémédité de la solitude en tant que principe et pratique. Bien entendu, ce choix est fait au détriment de l'action, de la raison, des intérêts publics et de la solidarité sociale, ce qui est contraire à l'esprit coranique : .

« Par l'instant ! Oui l'homme est en perdition, à l'exception de ceux qui croient et accomplissent des œuvres bonnes » (5).

La foi est donc associée intimement à l'action et « les œuvres bonnes », ici n'est pas nécessairement du seul point de vue culturel et rituel, mais englobe toute activité qui vise à l'accomplissement du bien.

Si, dans une société toutes les gens choisissaient l'isolement et la solitude, la vie dans tous les domaines s'arrêterait, et les premières victimes de la situation qui en résulterait, seraient les non-actifs, les parasites sociaux, quelques soient la qualité et la quantité de leurs prières et de leurs invocations. En effet, si comme dit le Coran :

« La prière éloigne l'homme de la turpitude et des actions blâmables» (6). Y-a-t-il acte plus blâmable que de s'abstenir à accomplir les devoirs envers soi, le prochain est la société ? L'histoire n'a gardé le nom d'aucun reformateur qui ait transformé le cours des évènements de son époque en égrainant son chapelet dans la solitude ou par la contemplation à l'ombre des alcôves... Au contraire, si tous les citoyens prenaient la décision de pratiquer l'ascétisme, « La vie pratique cesserait, et par là tout le monde périrait, y compris les ascètes... » (7).

Le deuxième genre d'intellectuels constitue ce qu'on pourrait appeler « *Les mercenaires de la culture* ». Ils vivent de la culture, ou du moins de ce qu'ils croient être une culture. Parmi eux on trouve l'enseignant, l'éditeur, l'orateur des diverses circonstances, le journaliste prodigue qui écrit sur tout, le speaker des radios et télévisions qui parle de qu'il sait mais souvent de ce qu'il ignore...

(5) Coran, 103, 1.
(6) 29, 45.
(7) Abû-Hamid El-Ghazali, Ihyâ.

Nous menons hélas, une vie falsifiée, de mauvaise foi. A force de nous comporter ainsi, nous sommes devenus incapables d'y voir clair en nous, l'inauthentique s'est installé parmi nous comme une nouvelle nature. Il n'est donc point surprenant qu'un professeur entre dans une salle de cours, « décharge » une partie de son bagage « culturel » et rentre chez lui comme un quidam qui se rend au marché exposer ses bottes de navets ou de carottes, ou tous autres produits usuels. D'ailleurs, la culture s'est bien transformée en « marchandise », seulement c'est une marchandise à l'usage des privilégiés matériellement. Souvent cette marchandise est exploitée au profit des groupes de pressions en vigueur, qui font des « mercenaires » de haut-parleurs dont ils se servent et méprisent à la fois.

Dans cette catégorie de mercenaires de la culture, il y a plusieurs modèles que nos âieux ont connus, nombrés et décrits. Parmi ceux qui en ont parlé en termes critiques et lucides, il y a Ibn Khaldoun des *Prolégomènes* et Abou Hamid Al Ghazali dans son *Ihyà*.

Nous en arrivons maintenant à la troisième catégorie des intellectuels. Ils forment ce que nous sommes tentés d'appeler « *les intellectuels égoïstes* ». Ils trouvent dans la culture, des distractions et s'y attachent comme ils s'attachent à leurs cigarettes ou aux jeux de cartes. Pour eux, la culture satisfait un penchant individuel ; elle n'a aucune dimension sociale et ressemble aux épices qu'on ajoute aux aliments. Ces intellectuels-là vivent dans la société en « pique-assiettes », au lieu de participer à la transformation du travail et des modes de vie, de coexister avec leur milieu et d'essayer d'en diagnostiquer les mots pour l'en guérir.

Ici aussi une comparaison avec certains soufis pourrait se faire. Nous lisons chez l'u n d'eux : « Celui qui veut sauver ses croyances et épargner son corps et son cœur ne doit pas fréquenter les gens, car cette époque est une époque d'ennuis et de terreurs. L'homme raisonnable est celui qui choisit la solitude ».

Toutes les époques connaissent des ennuis et des moments terrifiants, elles connaissent aussi des gens qui apprécient mieux l'oisiveté et la solitude que l'action ; ces gens ne sont utiles à personne, mais tout le monde est à leur service.

Suffira-t-il de dire « non » aux ennuis du monde pour qu'ils disparaissent ? Le « non » n'est point une baguette magique ! Préférer la solitude c'est refuser le monde, et ce refus plonge les oisifs dans un ronflement continu.

Vouloir échapper aux problèmes par leur oubli ou en les niant vient toujours d'un derwiche étourdi ou d'un tartuffe, peu doué. Dans les deux cas c'est une révolte négative qui se dégage du refus du monde et de ses problèmes. Cette révolte signifie que le « révolté passif » est inapte d'assumer la « amâna », qu'il n'est pas digne d'être un « khalif » de Dieu, car la dignité s'incarne dans la responsabilité et dans les sacrifices qu'on consent à accepter pour s'acquitter de ses devoirs.

Puisque la responsabilité est la caractéristique foncière de l'homme ; celle qui lui assure la noble dignité parmi les autres êtres, nous nous demandons ce que seront la position

sociale et le statut antologique de ceux qui refusant le monde et ses problèmes ? Si le jour du déluge, Noë s'était réfugié dans la solitude, il aurait été un traître envers les espèces vivantes et envers Dieu qui lui en a confié la charge. De même, si la solitude était normale, Dieu nous aurait laissés dans les ventres des mamans. Il aurait même supprimé les matrices et les mères. C'est à ceux qui prêchent la solitude que le Coran semble s'adresser dans le verset suivant : « Ne parcourent-ils pas la terre ? N'ont-ils pas des cœurs qui comprennent et des oreilles qui entendent ? Non, ce ne sont pas les yeux qui sont aveugles, mais ce sont les cœurs dans les poitrines qui sont aveugles » (8).

Ce sont là trois catégories de nos hommes de culture. Nous ne les jugeons pas, nous cherchons tout simplement, à déduire les résultats, négatifs et positifs, de leurs actions dans la cité arabo-musulmane. Nous n'avons pas refusé l'une ou l'autre catégorie ; elles existent en fait et jouissent du droit et de la liberté de défendre leurs points de vue. Mais nous, les peuples, avons choisi le même droit et la même liberté de réfuter ce qui nous semble un mauvais investissement de la pensée. La culture est un patrimoine vivant, commun, et le temps nous échappe, le temps n'attend pas que la culture des « portefaix » sorte de son anarchie, que la « culture » des mercenaires abandonne son exploitation privée, et la culture des parasites son égocentrisme.

3. *Islam n'est pas fuite du monde.*

Les trois catégories de culture coexistent et conspirent spontanément, inconsciemment contre le monde arabo-musulman, parce qu'elles représentent et quotionnent la falsification du réel. Nous avons des universités, des milliers et milliers de savants, de professeurs, de médecins, nous avons un nombre incalculable d'hommes de lettres et de journalistes... Et, malgré tout cela, où en sommes-nous par rapport à ce que nous aurions dû être ?

Ou bien, nous sommes des inconscients incapables de bien réfléchir et analyser nos situations, de dégager des lignes de force de ce que nous avons été et de ce que nous sommes aujourd'hui, incapables de nous comparer à d'autres nations, d'Orient et d'Occident ; ou bien des préoccupations individualistes distraient nos penseurs de leurs devoirs. Seule une culture engagée peut alimenter utilement une pensée progressiste. Les autres espèces de culture ne sont que des marchandises pour la consommation élémentaire, pour les loisirs (remplir le vide et tuer le temps), ou pour l'ostentation. Ce sont des marchandises soumises à la loi du marché de l'offre et de la demande, comme n'importe qu'elle autre matière de consommation courante dans les régimes de la libre entreprise. S'il nous était permis d'emprunter une comparaison assez audacieuse à Abou Hâmid El-Ghazali, nous dirions : La culture non engagée ressemble à la nourriture : « Il n'y a pas de différence entre l'absorption de la nourriture dans le ventre et le fait de la sortir du ventre. Ce sont deux opérations nécessaires au corps. Celui dont toutes les préoccupations sont centrées sur ce qui entre dans son ventre, sa valeur intrinsèque équivaut à ce qui en sort » (*El-Ibyà*).

(8) Coran, 21, 46.

Il serait exagérément inexact de soutenir que le monde arabo-musulman n'a pas d'intellectuels conscients. Ils existent, et parmi eux, il y a des gens bien cultivés, remarquables. Toutefois, leur existence est une présence dans un réceptacle spatial, sans poids ni consistence temporels. Cela veut dire qu'il s'agit d'une existence sans mouvement, comme certains ustensiles en métal précieux qu'on accroche sur le mur et qui, en dehors de l'intérêt ornomental ne représentent aucun intérêt pratique. L'immobilité engendre l'inusualité. Malgré le nombre restreint de nos intellectuels, par rapport à plus de sept cent millions de musulmans dans le monde, ils choisissent, en majorité, la Tour d'ivoire.

A quoi donc attribuer cette attitude ? Notre intellectuel manque de courage, comme il manque de biens d'autres vertus que nous aimerions bien signaler brièvement ici.

Nous avons déjà vu que ce qui caractérise l'homme parmi les autres créatures c'est, d'abord et avant tout, le sens de la responsabilité, la suprême « amâna ». Et nous savons tous que répondre de ses actes c'est s'engager, et qu'accepter un engagement c'est, implicitement et explicitement, les sacrifices qu'implique. C'est une aventure continue qui met en jeu notre tranquillité et nos intérêts. En un terme islamique, nous dirions que la culture est un «djihâd», c'est-à-dire des efforts orientés vers des buts qui nous dépassent : un combat pour des fins supérieures. Dans un hadith, le Prophète de l'Islam déclare que « le meilleur des djihad c'est de dire la vérité devant un tyran ». Quels sont les penseurs musulmans qui s'engagent aujourd'hui selon la logique d'un tel djihad ?

Sans un tel djihad, la culture ne saurait devenir une critique constructive, éclairant les chemins de la vie quotidienne, les racines dans la société actuelle et les branches tendues vers l'avenir.

L'intellectuel chez nous a peur de faire les critiques préférant la complaisance à l'affrontement ; il a ainsi peur d'être critiqué parce qu'il ne veut se voir comme le voient les autres et comme il est en fait. Nous sommes hostiles à l'auto-critique.

Le deuxième point faible chez nos hommes de culture, c'est qu'ils s'accomodent du silence et de la soumission au lieu de prendre les positions que leur imposent leurs rangs dans la cité, et leur rôle d'orientateurs, de conseillers, de censeurs, de « muhtassib ».

Bien sûr, on ne saurait exiger de tout le monde d'assumer le rôle de réformateur à l'échelle de toute la communauté. Bien sûr tout le monde est tenu d'accomplir « le amr bil-maârouf... » (La commanderie du bien et l'interdiction du mal). C'est un devoir absolu pour chaque musulman ou chaque musulmane, cependant, c'est un devoir dont l'intensité est relative au degré de clarté que chacun de nous s'en fait. Nous ne pouvons pas discerner tous, avec autant de profondeur, entre le bien et le mal, entre le bon et le mauvais, entre ce qui est possible et ce qui est impossible, ce qui est naturel et rationnel et ce qui est contre la nature, la logique et la raison. Le penseur, l'homme de culture en général, est celui qui saisit les contradictions et arrive à les surmonter de façon méthodique, faisant triompher l'utile sur l'inutile, le bon sur le mauvais.

L'Islam nous fournit des modèles exemplaires à suivre. Ce sont les Prophètes. Ainsi, la mission de Mohamed a connu trois étapes. Il a commencé par réfléchir sur le sens du Message avant de militer pour ce Message. La seconde étape a consisté à convaincre son entourage de la nécessité de s'engager avec lui pour le triomphe des principes auxquels il a cru. Enfin, à la troisième étape, il a élargi son rayon d'action en s'efforçant de répandre ces principes à travers le monde, à vouloir transformer le présent de tous en un meilleur avenir humain. Aussi, a-t-il affronté les ennuis, et les problèmes du monde en les supportant avant de les dépasser. La prophétie ne concerne pas le passé ; elle est dévoilement, prévoyance. Elle déblaie le présent pour la construction de l'avenir. Elle est si l'on peut dire, « prospectiviste » et « demainiste » : elle englobe tous les actes de l'homme et lui «programme» les chemins à suivre pour son accomplissement matériel, moral, intellectuel et spirituel.

En Islam, comme l'affirme un hadith, les « Oulamas » (hommes de culture, savants...) « sont les héritiers du Prophète ». Dès lors, nous nous demandons : qu'est-ce qu'un « alam » musulman, un penseur musulman ? Mérite l'une ou l'autre de ces appellations (ou les deux à la fois) celui qui s'efforce à comprendre l'histoire se faisant et les hommes, et évalue la vie et les êtres par la raison et le sens de l'équité. Toute réforme, dans quelque domaine humain que ce soit, ne réussit qui si elle part d'une connaissance claire et d'une pensée lucide. Une pensée généreuse envisage les valeurs en rapport avec l'action qu'avec l'avoir, et surtout en rapport avec ce que nous faisons de nos avoirs. Il est donc nécessaire qu'un penseur réformateur connaisse bien la situation de la société qu'il veut réformer, et qu'il soit capable de définir les conditions et les moyens qui permettent aux personnes d'avoir une existence humaine. Le rôle de la culture est précisément de nous rendre apte à distinguer la « végétative » (vie concentrée dans le manger, le boire, et le commerce charnel), de la vie des personnes soumises à des valeurs et critères universels.

Chaque individu a un âge qui se développe chronologiquement et un autre qui évolue qualitativement. Celui qui réussit à parfaire l'âge qualitatif et à le bien développer et le généraliser parmi les autres, participe effectivement au changement de l'histoire humaine. Cela veut dire que la culture englobe tous les actes humains, politiques, économiques, éducatifs, informatifs et moraux.

4. « *On crucifie les Prophètes pour leurs opinions, pourquoi on ne crucifierait pas des poètes...?* » (9).

Le penseur engagé est un animal social de par sa nature, et l'engagement impose des sacrifices. Le Coran fait les portraits des Prophètes qui se sont engagés pour la vérité au risque de leur vie : Abraham a été condamné à périr par le feu, Moïse à s'exiler, Jésus-Christ à la mort sur une croix et Mohammed à quitter sa ville natale, « Hidjra ». Méditons le cas d'Abraham : Abraham dit à son père Azar : « Prendras-tu des idoles pour divinités ? Je

(9) Le poète Nizim Qablânî.

te vois, toi et ton peuple, dans un égarement manifeste » . Ainsi avons-nous montré à Abraham le royaume des cieux et de la terre pour qu'il soit au nombre de ceux qui croient fermement. Lorsque la nuit l'enveloppa, il vit une étoile et il dit : « Voici mon Seigneur ! » Mais il dit, lorsqu'elle eu disparu : « Je n'aime pas ceux qui disparaissent ». Lorsqu'il vit la lune qui se levait, il dit : « Voici mon Seigneur ! ». Mais il dit, lorsqu'elle eut disparu : « Si mon Seigneur ne me dirige pas, je serai au nombre des égarés » (10).

Ainsi Abraham témoigne pour la vérité, témoignage contre son père e. contre toute la société, mais entre le vrai et le faux, il a choisi le parti le plus difficile : il a combattu le faux.

Ainsi, l'Islam lie intimement l'action à l'intention qui est une tension qui tient notre conscience en éveil et notre sens moral toujours ouvert sur nos actes et sur leurs résultats.

Chers frères,

Toute culture qui ne fait pas progresser n'est pas une vraie culture. "La culture pour la culture" abstrait le réel de sa réalité et fait de la pensée une force de mythisation et du penseur un simple charlatan. La pensée est toujours encadrée dans une histoire précise où co-vivent des groupements humains. La culture, la science de la pensée, sont des moyens et non des fins en elles-mêmes. L'histoire humaine est une réflexion qui se tisse continuellement à la recherche des moyens aptes à mieux humaniser l'homme, tout l'homme. C'est l'idéal vers lequel tend toute pensée. Nous lisons dans le Coran : "Par l'instant ! Oui, l'homme est en perdition, à l'exception de ceux qui croient; de ceux qui accomplissent des œuvres bonnes ; de ceux qui s'encouragent mutuellement à rechercher la Vérité ; de ceux qui s'encouragent mutuellement à la patience". (11).

L'encouragement pour la recherche de la vérité est un appel mutuel à la mobilisation générale de toutes les énergies humaines, à différents niveaux. Celui qui prend un tel engagement et incite les autres à en faire autant, est nécessairement conscient de sa responsabilité, c'est-à-dire de ce qui fait qu'il est être humain.

---

(10) Coran, 6, 74 à 79.
(11) Coran, 103, 1 à 3.

OUVRAGE MODERNE D'OPHTALMOLOGIE DATANT DU VIme SIECLE DE L'HEGIRE (XIIme siècle) : « GUIDE DES OPHTALMOLOGUES » DE MOHAMED IBN ASLAM EL-GHAFIQUI

Par le Dr Saïd Chibane
Professeur d'Ophtalmologie
à l'Université d'Alger

Le Prophète de Dieu que le salut de Dieu soit sur lui a dit que Dieu ait mon frère Moïse en sa miséricorde ; lorsqu'il a appris le changement de son peuple il s'est mis en colère, mais lorsqu'il a constaté de ses yeux, il a brisé les planches.

La sagesse chinoise dit aussi qu'un dessin vaut 1.000 mots. C'est sans doute à cause de ces deux enseignements que j'ai choisi comme thème à vous proposer pour notre réfexion commune sur le point quatre de ce séminaire un manuscrit de médecine arabe.

La grâce de Dieu a voulu que je parvienne à obtenir une copie intégrale d'un manuscrit de médecine arabe, unique au monde - à notre connaissance - et qui a trait à ma spécialité. Comme j'ai eu un grand plaisir à le feuilleter et à l'analyser, ceci m'a poussé à vous le proposer dans l'espoir que vous partagerez cet intérêt.

Cette présentation ne peut être un cours sur l'histoire de la médecine ou de l'une de ses spécialités, c'est beaucoup plus modestement un essai d'attirer l'attention de la jeunesse studieuse vers le domaine important, très utile qu'est l'histoire des Sciences qui s'intègre avec l'histoire de la pensée humaine.

Il est d'autre part bien évident que le titre de ce sujet ne doit pas entraîner un malentendu.

Il ne s'agit pas de faire le panégyrique de telle ou telle personnalité de l'histoire de la médecine étant donné que tous les tenants et les aboutissants nous manquent pour nous permettre une appréciation exacte, objective de l'apport original de chaque auteur et en particulier de celui de notre sujet d'étude.

Il s'agit encore moins de proposer cet ouvrage à la pratique médicale au dernier quart du XX[e] siècle c'est-à-dire à huit siècles d'intervalle. Ce serait démériter de cet illustre prédécesseur lui qui légitime et justifie la rédaction de son ouvrage par le fait que son avis est différent d'ailleurs (Sina et Abulkassim Ezzahraoui) et vous savez de quelles autorités médicales et chirurgicales universelles il s'agit - et son avis n'est pas basé sur une quelconque théorie mais bien sur l'observation clinique et l'essai thérapeutique. Et à ce propos il est utile de rappeler le conseil du grand Errazi que l'on trouve dans son livre El-Fossul dans lequel recommande ce qui suit : Actuellement un ouvrage de médecine cesse d'être moderne tous les 10 ans à peu près et bien entendu pour la simple raison que telle ou telle nouveauté diagnostique et thérapeutique est venue corriger une erreur ou résoudre un problème antérieurement insoluble.

Mais pourquoi alors le terme "Ouvrage moderne" ?

1° - D'abord : les résultats actuellement vrais de l'expérience humaine et de l'esprit humain sont modernes tant qu'ils ne sont pas contredits. Cet ouvrage renferme un grand nombre de ces résultats :

a) une méthode d'exposition, d'enseignement qui peut être considérée comme très valable ;

b) une approche des problèmes cliniques encore tout à fait raisonnable ;

c) des erreurs nombreuses mais qui sont le fruit d'une démarche de l'esprit libre et par cet aspect qui tranche avec le passé relativement à notre auteur il s'agit d'un apport de la civilisation musulmane au progrès humain ;

d) des qualités de rigueur, d'honnêteté scientifique : puisque nous le voyons critiquer son diagnostic à propos d'un nourrisson de 30 jours et nous lisons comment il donne tous les détails nécessaires à la réalisation des instruments, au succès des techniques chirurgicales;

e) des qualités de constructeur puisqu'il bâtit sur l'expérience des Anciens (les meilleurs selon le grand conseil de ciceron qui demandait d'apprendre sur les meilleurs exemplaires des meilleurs auteurs à notre disposition). La bibliothèque médicale de notre auteur ne contient que les livres royaux :

— Hussein Ibn Ishaq

— Ali Ibn Aïssa

— Ibn Sina

— Abulkassim Ezzahraoui

en l'analysant avec l'expérience personnelle et son libre examen.

2° - Il suffit - comme gloire à un ouvrage d'être moderne et à jour en son temps - et on vient de voir comment cet auteur a rédigé son livre en étudiant ce qu'il y avait de mieux dans ce qui était disponible.

Mais on verra que rien n'est parfait et que la conjoncture historique fera qu'il aura manqué une référence par la faute sans doute de la division du monde de l'Islam en son temps déjà. Les livres d'Alhassan Ibn El-Haythèm ne semble pas lui avoir été familiers, mais peut-être était-il plus praticien que philosophe savant.

3° - Ce qui donne le caractère moderne c'est ce qui est encore profitable au moment où l'on vit. Et nous pourrons retirer un grand profit d'étudier cet ouvrage.

- Pour retrouver la terminologie scientifique originale et reprendre le tissage de la toile à l'endroit où les maîtres de la langue arabe scientifique ont eu la plume ou l'outil arraché des mains. Lorsque l'auteur arabo-Islamique de 1970 veut rédiger un ouvrage d'ophtalmologie la dernière référence scientifique authentiquement arabo-islamique est bien l'ouvrage d'El-ghafiqui. Il s'agit de combler le hiatus et donc de reconnaître le point de départ. Il y a sans doute une signification au niveau de la philosophie de l'histoire : le dernier grand fleuron de l'ophtalmologie arabe scientifique est andalous et le premier ouvrage d'ophtalmologie arabe scientifique au 20° siècle est de Damas. L'on ne peut qu'être ému devant ce gigantesque point de l'Histoire puis-je ajouter que si la médecine dite populaire des pays musulmans avait pu utiliser des ouvrages de cette qualité au lieu des compilations de recettes plus ou moins magiques la santé des musulmans serait bien meilleure...

Voilà pour les définitions ou mieux pour les acceptations que nous avons voulu donner ou faire porter par le terme "moderne" associé à l'ouvrage de Elghafiqui.

Ajoutons pour terminer que nous sommes conscients que l'exposé sur un manuscrit devrait être le résultat d'un travail collectif d'historiens des sciences, de linguistes et de spécialistes. Mais peut-être doit-il y avoir un commencement à tout et mon souhait que des vocations naissent pour que les fruits du passé puissent être goûtés par chaque génération qui doit à son tour préparer son propre legs, l'héritage qu'elle laissera aux suivantes.

L'étude de ce texte nous montrera clairement certains facteurs de la grandeur de la civilisation musulmane, certaines causes de sa régression et peut être quelques conditions de sa renaissance dans ce domaine tout au moins.

Le manuscrit est resté ignoré du monde musulman pendant 8 siècles — d'autres le sont encore. Ils entendent des vocations de premiers de cordée.

Ces considérations étant faites et il fallait qu'elles le soient, pour les générations qui auront la quarantaine au 21e siècle en l'an 2000 et qui doivent s'y préparer chaque jour examinons successivement si vous le voulez bien les données relatives à l'histoire du manuscrit, à l'auteur de l'ouvrage original dont le manuscrit semble n'être qu'une copie, à l'analyse rapide du texte :

son plan, son contenu, son expression en la comparant aux données actuelles et en 4e lieu dégager des déductions et commentaires généraux de cette analyse dans le cadre du point quatre du programme de ce séminaire. C'est dans la bibliothèque de la clinique ophtalmologique de la faculté de médecine de Strasbourg voici plus de 20 ans que j'ai fait connaissance avec le nom d'Elghafiqui et de son livre.

Parmi les trésors de cette bibliothèque en français, allemand, anglais, espagnol, il y avait un livre respectueusement conservé une traduction en français d'une partie du guide de l'oculistisque présentée par le grand ophtalmologiste historien de la médecine arabe Max Meyerhoff et édité par les laboratoires du Nord de l'Espagne. J'étais heureux de contempler le fac simile de une page et ai parcouru les feuillets, admiré les termes en me disant « l'honneur est sauf, parmi toute cette science la langue arabe est malgré tout représentée.

En 1972, on m'a demandé de participer à une réunion internationale sur l'histoire de la médecine organisée à Milan par la Société Italienne d'histoire de la médecine. J'ai passé mes vacances de l'été à lire le livre de Meyerhoff que j'ai trouvé à la bibliothèque de la clinique ophtalmologique d'Alger, la partie ophtalmologique du canon d'avicenne, la chirurgie d'Abulkassim Ezzahraoui, dans la tradition, la Rahma fittib et le poème Eddiry Elatiba, Nafh Ettib Ellhouhel Essoundoussia consacré aux maladies oculaires et que m'a gracieusement offert Cheikh Saïd Boudaoud.

J'ai cherchée dans les mosquées de Grande Kabylie vers Tigzirt, Dellys, dans les coins les plus reculés à trouver trace d'autres sources... Cela a été passionnant et m'a permis d'augmenter mon intérêt pour le livre d'Elghafiqui.

J'ai présenté le résultat de cette étude à Milan, étude publiée par la Fondation Giovani Lorenzi et me suis promis de compléter l'étude dès que j'aurais eu accès à tout le manuscrit.

Grace à la bibliothèque universitaire d'Alger j'ai pu acquérir un microfilm de l'ensemble du manuscrit d'Elghafiqui déposé à l'Escurial de Madrid. Grace au Docteur Amer Talbi j'ai su qu'il existait une photocopie d'un manuscrit au Dar Elkoutoub au Caire.

En février dernier lors d'un congrès, j'ai pu obtenir la photographie de dix pages de la photocopie du manuscrit étant donné que pour avoir le microfilm en entier il fallait qu'il y ait échange inter-bibliothèques. C'est le fils du regretté Cheikh Tofaïch illustre savant de Ghardaïa qui m'a aidé dans cette tâche.

J'ai rapporté ces photos que j'ai choisies assez significatives pour les comparer à mon microfilm de l'Escurial. Il s'agit du même manuscrit.

La copie du Dar Elkoutoub est sans doute celle de Meyerhoff. Voilà pour l'histoire de ces copies que je vous rapporte comme petit exemple des besoins de l'histoire de la médecine.

Qu'en est-il du manuscrit lui-même ?

Le manuscrit de l'Escurial est conservé sous le N° 835. Il s'agit d'un volume en octavo de 292 feuilles assez sérieusement endommagé par le feu.

Les première pages contiennent des inscriptions en caractères latins et en langue latine difficilement lisibles, on y lit une date 691. Une autre inscription en arabe mais en caractères différents de ceux du manuscrit nous indique qu'il s'agit d'un ouvrage de grande valeur et indique l'année 991 de l'Hégire.

La typographie du manuscrit est superbe. Elle est d'une très grande lisibilité sauf bien entendu dans les parties des feuilles endommagées par le feu.

La distribution du texte est régulière avec des espacements très harmonieux.

Dans le corps du texte on remarque des ratures assez intéressantes. Après la plupart des invocations au Nom de Dieu le Clément et le Miséricordieux, la phrase que le salut de Dieu soit sur le Prophète est raturée sauf dans un cas qui n'est pas très apparent, ce qui laisse supposer que les ratures n'ont pas été le fait du lecteur mais d'une personne étrangère à l'étude puisqu'elle laisse échapper une formule, soit inquisiteur, soit commerçant, la Reconquista, soit toute autre hypothèse : lecteur chrétien ou israélite, musulman forcé à caché sa foi.

Des illustrations nombreuses représentent des instruments de chirurgie oculaire.

Cet ouvrage a été présenté dans l'histoire de la médecine arabe par Leclerc en 1876 et par Hirschberg dans son histoire de l'ophtalmologie Max Meyerhoff en 1933.

Voyons maintenant ce que nous savons de l'auteur de ce manuscrit.

Selon Leclerc et Hirschberg, Mouhamed Ibn Kassoum Ibn Aslam Elghafiqui a vécu au 12ᵉ siècle de l'ère chrétienne.

La notice du recueil des catalogues de manuscrits de Dar Elkoutoub Elmisria indique que l'auteur serait décédé en 560 de l'hégire soit 1180 de l'ère chrétienne et que la copie a été faite à Malaga.

Les références que donne Elghafiqui montrent qu'il a exercé l'ophtalmologie à un moment à Cordoue, qu'il a rédigé son ouvrage à l'intention de son fils après une grande expérience du métier, Meyerhoff fait remarquer que le nom de Elghafiqui se rapporte à la tour Ghafiq qui se trouverait aux environs de Cordoue.

Nous avons recherché dans certains livres importants de l'histoire de la civilisation musulmane en Andalousie :

1) La partie consacrée au Maghreb et l'Andalousie dans les classes de médecine de Ibn Abi Oussaibia qui date du 6ᵉ siècle de l'Hégire.

2) Le livre de Nafh Ettib ou le Rameau odorant de l'Andalousie du grand écrivain et poète tlemcenien El Maqqary.

3) Les belles parures de Hollal Soundoussia de l'Emir Chekib Arslan dont les livres doivent être étudiés par tout jeune musulman.

Je n'ai pas pu consulter d'autres ouvrages originaux mais, n'ai pas trouvé trace de cet auteur bien que de nombreux savants originaires de Ghafiq soient cités. Par exemple Ibn Abi Oussaïbia qui était lui-même ophtalmologiste nous donne une biographie qui a laissé un ouvrage de Botanique dont j'ai vu une photocopie au Caire.

Certaines considérent Ahmed Elghafiqui comme le fils de l'ophtalmologiste sujet de notre exposé. Il serait étranger que Ibn Abi Oussaïbia ait été ignorant de cela ou qu'il n'en ait pas parlé alors qu'il s'agit d'un collègue de sa spécialité. A la lecture du texte il se pose la question : s'agit-il là du texte original ou d'une copie. Ce livre aurait échappé de justesse au feu.

Il semble d'après le contexte qu'il s'agit d'une copie seule à avoir été conservée.

Elle serait ainsi restée ignorée du Maghreb et de l'Orient parce que la coupure s'est établie entre l'Andalousie et le reste de l'Islam.

Examinons le texte et d'abord sa structure, son plan. L'ouvrage comprend une introduction très riche d'enseignements en 6 livres.

Le 1er concerne la déontologie, avec l'enseignement du vertueux Hippocrate.

Le 2^{me} traite de l'anatomie de la tête.

Le 3^{me} développe la physiologie.

Le 4^{me} expose la pathologie en général.

Le 5^{me} livre est consacré à la pharmacologie.

Le 6^{me} et dernier livre traite en détail des maladies des yeux, de leurs symptômes, du diagnostic, du pronostic et du traitement médical et chirurgical.

Chaque livre est précédé de la Basmalah avec le salut sur le Prophète (raturé la plupart du temps comme nous l'avons indiqué).

Les différents chapitres sont annoncés très clairement et séparés par des lettres de l'alphabet A. BA. DJA. D lettres choisies par leur distinction et leur rapide repérage.

Le plan est annoncé en tête de chaque chapitre.

Cet aspect didactique est valeur toujours sûre en pédagogie. L'importance du plan d'exposition est à souligner comme le fait Max Meyerhoff dans sa magnifique étude du premier traité d'ophtalmologie scientifique au monde.

Les 10 traités de l'œil de Houssein Ibn Ishaq de la fin du 9e siècle de l'Hégire, les auteurs grecs et les premiers auteurs arabes reprennent le même sujet, étudient chaque maladie dans 3 livres différents au livre des diagnostics puis au livre des symptomes enfin au livre des traitements. Mais par la suite les grands médecins arabes et islamiques adopteront un plan beaucoup plus rationnel est plus didactique, le plus moderne d'étude et d'exposition des maladies comme une entité : traiter à fond chaque maladie sous ses différents aspects.

Ceci constitue un progrès considérable à l'école médicale arabo-musulmane :

Le plan de Elghafiqui est un plan tout à fait logique et tout à fait moderne. Il traite chaque maladie à fond sous tous ses aspects. La compréhension en est facilitée et le progrès possible.

Le plan anatomique est suivi dans l'exposé de maladies oculaires et les paupières, la conjonctive, la cornée, l'iris, le cristallin, la vitré, le nerf optique.

C'est un plan moderne. Il est suivi encore dans tous les manuels d'ophtalmologie.

L'historien, oculiste italien Sarnelli a remarqué dans l'Encyclopédie de l'Islam à l'article Elghafiqui :

« En jugeant cet ouvrage du point de vue actuel, on ne peut qu'entrevoir précisement dans le plan de l'œuvre et la disposition de la matière une sorte d'anticipation de la conception moderne de la pathologie oculaire nécessairement liée et suivant un corollaire celle de l'organisme entier ».

Voilà pour le plan de l'ouvrage exposé des connaissances.

Qu'en est-il du contenu du livre, du fond de l'ouvrage ? Et d'abord par rapport à quels éléments de référence avons nous fait cette anaylse.

Pour cette étude du texte nous sommes éclairé par la consultation de l'ophtalmologie du canon de Ibn Sina de la chirurgie d'Abulkassim Ezzahraoui des 10 traités de l'œil de Hussein Ibn Ishaq, d'autre part des ouvrages de médecine populaire et se sont les seules actuellement mis à la disposition des populations de culture exclusivement arabe c'est-à-dire Errahma avec Elhikam fittib du 16e siècle celle d'une palme didactique composée par Eddiri en 1685 enfin pour la partie européenne avec deux manuels d'ophtalmologie publiés en Europe l'un par Delarue en 1820 à Paris le second par Scarpa en 1821 à Pavie en Italie.

Nous avons choisi cette limite puisque ces ouvrages font tous partie de la période préophtalmoscopique. En effet, l'ophtalmoscope inventé par Herman Helmholz révolutionnera l'ophtalmologie à partir de 1850 en ouvrant à l'œil humain la moitié restée cachée de l'œil vivant, sa rétine et la tête du nerf optique.

I - L'introduction est malheureusement incomplète. Il manque la ou les premières feuilles. Ce qu'il en reste est de grande valeur. Les premiers mots sont « la recherche du grain et le nom de la paille des choses » ils forment la mise en garde contre l'appât du gain en médecine puisqu'il fait perdre le respect. Il s'adresse à son fils pour lui dire que lorsqu'il a entrepris l'étude de l'ophtalmologie il n'existait pas de somme suffisante et efficace.

Il cite les grands auteurs en définissant leur apport particulier avec un esprit critique très net. L'introduction renferme les références uniquement arabo-islamiques puisqu'elles sont celles qui comptent. L'apport greco-indou a été assimilé et arabisé pour la simple raison que les arabes et les musulmans sont devenus les continuateurs de la médecine antique. Il y a toutefois référence au vertueux, honorable Hippocrate pour les règles de l'éthique médicale, qui sont dans le premier chapitre très clairement et très précisément énoncées : respect du secret professionnel, gratuité aux pauvres en leur fournissant les remèdes nécessaires, honorer ses maîtres.

La formulation est très élégante et ne manquera pas d'influencer les rédacteurs de Godes de déontologie.

La conception générale des obligations de l'ophtalmologiste et le programme de formation qu'il propose sont encore valables.

Il demande au spécialiste une formation très étendue de médecine et d'ophtalmologie.

II - L'anatomie dans cet ouvrage ne semble avoir fait de progrès. Il n'y a pas de référence au schema d'Ibn Elhaythem. A ce propos il convient de signaler qu'à la bibliothèque de la Faculté de Médecine du Caire existe une photocopie du manuscrit sur l'anatomie de l'œil de Ecchems Eddine Ibn Mohamed Ibn Elhassan l'oculiste connu sous le nom de Baourd. Je ne sais si une étude en a été faite. L'anatomie pour le problème de la discussion. Problème difficile dans tous les pays.

III - Quant à la physiologie, l'étude de l'article nous montre un grand hiatus dans l'évolution de la science en pays d'Islam.

Il apparait en effet, qu'Elghafiqui n'a pas eu connaissance ou n'a pas profité de l'explication apportée 20 ans auparavant par le savant Alhassen Ibn Elhaythem qui a montré que la vision était possible grâce à l'action objective de la lumière sur l'œil.

L'on sait qu'avant Ibn Elhaythem la vision était considérée comme le résultat de la rencontre à travers les nerfs optiques, l'œil et l'air... d'un fluide émanant du cerveau avec

les objets du monde extérieur. Ibn Elhaythem a déclaré que la sensation douloureuse éprouvée au matin en regardant le soleil est la preuve, l'action de voir se réaliser par la pénétration de la lumière dans l'œil.

Il existe également une lacune dans ce chapitre de physiologie c'est celui de la vision binoculaire telle qu'elle était déjà concue par Ibn Elhaythem qui a inventé un appareil pour examiner la vision binoculaire, appareil dont le grand savant Joval rapporte le dessin dans un de ses livres en 1896.

Cette analyse nous impose de réfléchir aux causes qui ont fait ou pu faire que ces lacunes aient existé.

Voici une liste des possibles :

1) Coupures des relations scientifiques entre le Caire et l'Andalousie dans cette période trouble de l'histoire de l'époque où :

2) Ibn Elhaythem a dû simuler la folie pour échapper à la colère du pouvoir du Caire.

3) Ces livres ont pu souffrir de cela et n'avoir pas connu de diffusion.

4) La possibilité que les médecins en général n'avaient pas à étudier les sciences fondamentales comme les mathématiques, l'optique et il est possible que ce genre d'ouvrage était en quelque sorte réservé à un nombre limité de grands savants s'occupant et de la médecine et de toutes les autres branches de sa connaissance.

5) Il est possible que ces livres étaient connus en Andalousie mais les incendies tels que celui des livres de Cordoue (on parle de 200.000 volumes détruits) n'ait pas laissé de trace de ces œuvres.

6) Les notions de pathologie générale se ressentent bien entendu dans l'enseignement d'alors en médecine générale et ce sont les grandes avenues de la médecine humorale et des tempéraments qui semblent classer les affections et donc les indications des maladies à étiologie inconnue alors.

V - La pharmacopie est très variée et comporte l'arsenal des médicaments, drogues, préparations préconisées par les anciens mais un certain ecclectisme est manifeste. L'étude de l'histoire de la pharmacie est à même de percevoir des différences qu'il ne m'a pas été possible de déceler.

VI - Quant au 6[e] livre est certainement la partie la plus importante et qui a pratiquement été traduite entièrement par Max Meyerhoff, il montre selon le plan de description que nous avons indiqué, une très grande richesse dans la description des maladies quelques observations suffiront pour l'esprit de cet exposé.

Elghafiqui accorde une grande importance à l'ophtalmologie spéciale des enfants. C'est une spécialisation qui est toute récente dans les temps modernes, l'ophtalmo-pédiatrie moderne date de quelques dizaines d'années.

Le trachome est décrit en plusieurs formes cliniques et selon le degré de gravité, il préconise le traitement par instillation d'antiseptiques avec la frotte des granulations avec un instrument mousse la « ouerda ». Ce traitement, dans son principe est encore utilisé pour les cas graves. Les conjonctivites sont classées en aigues et chroniques et le fait est que 6 siècles après qu'Elghafiqui ait conseillé d'instiller des collyres antiseptiques, le Professeur d'ophtalmologie à Paris préconisait de couper la *conjonctive* dans le cas de (*conjonctivite*) ce qui n'est pas efficace et est même dangereux.

Scarpe à Pavie en 1821 se réfère nommément aux auteurs arabes dans sa classification des formes des conjonctivites et de leur traitement .

Les deux manuels européens que nous avons signalés utilisent dans ses grandes lignes le plan d'étude, le catalogue des affections oculaires tels qu'on les trouve chez Elghafiqui.

Nous trouvons par contre des erreurs dans le traitement que ne commettait pas l'ophtalmologie arabe en Andalousie au 11ᵉ et 12ᵉ siècle.

Delarue recommandait en 1820 de n'opérer le *trichiasis* que dans les formes extrêmes et de les traiter médicalement, alors que le seul traitement efficace est chirurgical et Elghafiqui, décrit deux techniques différentes accompagnées d'indications précises.

Le traitement des Kystes des paupières n'est pas efficace tel qu'il est indiqué dans les 2 manuels d'Europe au 19ᵉ siècle. Elghafiqui préconise d'opérer par voie externe les gros kystes externes et de suturer la peau de la paupière avec un fin cheveu de femme. Il est curieux de signaler que dans cette 2ᵉ moitié du 20ᵉ siècle qu'un grand ophtalmologiste chirurgien européen réputé a critiqué des sutures de cornée avec des cheveux de femme comme suture biologique résorbable.

Le pannus qui est un voile sur la cornée est décrit comme contagieux et l'on comprendra l'intérêt de cette notion lorsqu'on sait que le pannus est un signe du trachome qui est lui-même une maladie contagieuse. Il recommande d'éviter la contagion en protégeant l'œil sain.

Le traitement du ptérygion est bien codifié avec des améliorations par Cappre aux anciens. Il distingue le vrai ptérygion du faux ptérygion dont le traitement présente un danger — c'est pourquoi il donne des conseils de prudence opératoire valables. Il recommande des soins après l'intervention pour éviter l'adhérence de la paupière au globe oculaire qui continue de se voir encore maintenant lorsque les suites opératoires ne sont pas bien controlées.

Elghafiqui donne et cela semble être le premier, un chapitre de traumatologie oculaire avec les moyens de diagnostic et de traitement des corps étrangers. Ce manuscrit est de traitement des corps étrangers. Ce manuscrit décrit la pathologie de la cornée et décrit avec exactitude le signe de la perforation de la cornée qui est encore enseignée, tâche noire entourée d'une zône blanchâtre avec déformation de la pupille.

L'observation des malades porteurs de cataractes constitue un progrès par rapport à Ibn Sina. Le pronostic opératoire est tiré de l'état des réactions pupillaires à la lumière, la giridité de la pupille étant considérée comme un élément de facheux pronostic l'intervention préconisée est l'abaissement de la cataracte mais de la technique présentée et les instruments utilisés méritent à des siècles de distance d'être respectés. Les soins post-opératoires le méritent encore plus. En effet, Elghafiqui applique un pansement binoculaire et impose le repos total pendant 3 jours comme le commandait déjà Hussein Ibn Ishaq, et fait appliquer une pommade biologique à savoir le jaune d'œuf qui est produit originellement stérile et cicatrisant avec la vitamine A qu'il contient.

Du point de vue de la chirurgie palpébrale cet ouvrage est en progrès sur celui de Abulkassim Ezzahraoui. L'utilisation de certaines plantes à fleurs comme la belladone lui permettait de rendre noir un œil bleu en dilatant la pupille.

Elghafiqui recommandait aussi de tatouer les taies de la cornée à titre d'opération esthétique.

Tels sont quelques éléments recueillis à la lecture de ce manuscrit, principalement pour cette dernière partie dans sa traduction française par Max Meyerhoff. Certainement que la publication de ce manuscrit nous donnera des renseignements complémentaires.

Après avoir analysé sommairement le fond, voyons maintenant comment se caractérise l'expression dans ce manuscrit, examinons sa forme d'expression.

Les linguistes et les hommes de lettres, auront certainement beaucoup mieux à dire. Mais pour ce qui nous concerne comme médecin, la clarté, la simplicité, la concision et le mot juste sont les qualités que j'y remarque. Il s'agit réellement de la langue arabe scientifique sans fioritures.

Le chemin parcouru par la langue arabe médicale depuis les premières traductions de l'époque d'El-Manon est considérable.

Une étude comparée du premier texte de Hussein Ibn Ishaq et de celui d'Elghafiqui séparé par 4 siècles doit relever ces progrès et c'est tout à fait normal. La liste des mots clés et des termes techniques est importante et écarte les synonymes souvent préjudiciables à l'expression scientifique.

Dans ce livre, avons-nous dit, le dessein est utilisé de bonne manière pour les schémas d'instruments avec les précisions nécessaires à leur fabrication. Dans ce traité l'auteur nous donne des précisions détaillées pour la fabrication des instruments.

De cette étude comparée rapide, que retirons-nous en somme ? Qu'est-ce qui est moderne ou mieux qu'est-ce qui ne nous semble pas dépassé dans notre temps, qu'est-ce qui annonce la venue de la médecine moderne et par conséquent à contribué au progrès.

Quant aux causes du progrès, elle nous semblent résumer :

1) Il y a l'organisation des connaissances selon un plan rationnel et logique.

2) l'expression en un style clair et précis ;

3) une bibliographie critique ;

4) le souci de l'observation rigoureuse ;

5) l'expérience personnelle ;

6) la générosité dans la communication, la transmission des détails des techniques qui réussissent.

La médecine nécessite l'observation et l'exercice pour être apprise, il est nécessaire d'avoir un maître qui en montre les caractères, les livres ne peuvent suffire.

7) Le rejet de l'argument d'autorité qui a tant fait de torts au développement des connaissances.

8) Il a en dernier lieu, cette générosité qui qualifie et ses semblables, et qui nous annonce le XXI[e] siècle.

Il semble que le premier facteur de la stagnation puis la décadence vienne de la perte de ce facteur de progrès. Après la destruction ou la perte des écoles de médecine arabo-islamique à Baghdad, en Andalousie les livres ont été les seuls éléments de formation médicale ils n'ont pu produire que des écritures et des copies de plus en plus éloignées des réalités de la clinique et cela a abouti à l'utilisation d'inscriptions magiques pour guérir. Aucune inscription magique n'est préconisée par Mohamed Ibn Kassoum Ibn Aslam Elghafiqui qui accorde la seule importance au médicament selon la tradition du Prophète telle qu'elle ressort du Hadith d'Ibn Abbas. Ibn Abbas rapporte qu'un homme a demandé au Prophète de Dieu que le Salut de Dieu soit sur lui :

« Est-ce que le médicament peut être utile devant ce qui est écrit ? ».

Le Prophète que le Salut de Dieu soit sur lui a dit :

« Le médicament fait partie de ce qui a été décidé par Dieu qui fait bénéficier qui il veut par ce qu'il veut ».

Je vous ai cité ce Hadith comme argument décisif contre ceux qui font croire que ce sont les dogmes de l'Islam qui ont fait stagner les musulmans.

Mais la 2e cause de la décadence ou de la stagnation c'est ce que nous avons remarqué dans ce livre de médecine qui n'a pas bénéficié des sciences fondamentales voisines comme l'optique pour l'ophtalmologie.

Les travaux de Ibn Elhaythèm ont dû attendre Newton et Kepler pour être utilisée au profit du savoir humain.

Il convient ici de souligner que les plus grands progrès en médecine ont été acquis grâce à l'alliance entre les sciences fondamentales de laboratoires, les sciences cliniques des hôpitaux. Par exemple, en ophtalmologie, les lunettes et l'ophtalmoloscope ont permis de faire des progrès considérables à l'étude de l'œil et de ses maladies.

Voici pour le médecin. Pouvons-nous généraliser !

Si nous voulions résumer les facteurs de la décadence ou de la stagnation en général à la lumière de ce que nous avons trouvé au cours de cette étude nous trouvons deux causes principales :

— La première cause est la coupure verticale entre les générations, coupure qui se produit par la destruction de l'acquis des Anciens ou de la méconnaissance ce qui explique que le Canon d'Ibn Sina est resté oublié et a laissé la place aux compendia de Harouniète.

— La deuxième cause est la coupure horizontale par le manque d'échanges dans la même génération.

Ce qui est survenu à l'héritage d'Ibn Elhaythem rassemble ses deux causes, la coupure dans le temps et dans l'espace.

Quant au facteur de renouveau il existe des conditions connues, éprouvées dans l'histoire de nombreuses civilisations.

Le premier est celui qui : a été utilisé par les Arabes à Baghdad entre le 1er et le 2ème siècle de l'Hégire, puis celui utilisé par l'Occident trois siècles plus tard, lorsque chacun s'est intéressé à ce que l'autre avait de trésors scientifiques et a pris les mesures nécessaires pour les assimiler et en profiter.

Dans la première moitié du 12ème siècle de l'ère chrétienne l'archevêque Raymond de Sauvetat a organisé un atelier de traduction à Tolède. Au même moment Gérard de Crémone a dirigé 86 traductions à partir des livres arabes.

Pierre le Vénérable demandait une traduction du Saint Coran. Mais ce que nous devons remarquer ici c'est que l'Occident a continué de traduire et d'améliorer de génération en génération les traductions pour profiter de l'héritage des autres nations. Peut-être est-ce là que réside un secret de son développement continu.

Ajoutons que les occidentaux ont accompli un travail communautaire puisqu'il y avait exemple en Andalousie des savants traducteurs venus de pays différents d'Europe et les relations entre leurs savants se sont développées avec l'échange de leurs expériences jusqu'à nos jours malgré tout ce qui a pu les séparer dans les conflits.

Mais le second est nouveau dans ses applications et ses dimensions. Si dans l'étude de l'histoire, il convient de rechercher les erreurs qu'il nous faut ne pas répéter, il est bien entendu que ce sont les perspectives du 21ème siècle qui doivent guider notre réflexion, et d'orienter nos esprits, car s'il est possible d'imiter le passé est-il possible d'imiter l'avenir ? Ceux qui s'occupent des plans et des prospectives parlent d'une société nouvelle qui sera le résultat de l'époque industrielle que connaît une grande partie du monde et cette société - dite post-industriels sera selon l'un des spécialistes les plus éminents. Une société dans laquelle "le facteur le plus important d'innovation sera l'organisation de la connaissance théorique et où les institutions intellectuelles deviennent le centre de la structure sociale.

Il apparaît ainsi que le progrès de la science, qui est la condition du salut réclame de toute communauté humaine qu'elle participe par le plus grand nombre dans le développement de la science et cette participation demande l'usage d'une langue commune au plus grand nombre d'hommes qui l'utilisent dans leur vie et l'aiment.

Ces langues deviennent le trait d'union entre les différentes grandes communautés par l'intermédiaire des traducteurs savants.

Les musulmans se sont mis par la force des choses, individuellement, puis massivement à l'école de l'occident dans cette 2ème moitié du 20ème siècle.

Ce phénomène est porteur des conséquences exceptionnelles.

Les musulmans ne doivent pas se contenter de suivre les démarches d'autrui ils doivent maîtriser à chaque étape le transfert technologique et le développement de la logique scientifique au bénéfice des masses populaires garantes du progrès.

Il apparaît ainsi que l'échange constant des impératifs pour être capables de produire au lieu de rester seulement des consommateurs.

Pour ces échanges spécifiques la langue arabe, la langue du Coran qui a été enrichie par les savants musulmans de toute l'histoire a permis aux peuples musulmans de différentes races de progresser rapidement dans les sciences, de construire un édifice scientifique et culturel qui a fait avancer l'humanité est capable grâce a ses racines spirituelles de participer dans le présent et l'avenir au progrès de la civilisation.

Comme la science est bien de tous ceux qui s'efforcent de l'assimiler et de la développer, la langue arabe scientifique formée par des générations de savants de tous les pays d'Islam sera une nouvelle fois un moyen pour le bonheur des hommes.

Ces deux facteurs : ouverture active par la traduction dans les deux sens, unité dans l'Etude et l'Action assureront à l'Islam un renouveau.

Avant de terminer mon propos, permettez-moi d'évoquer un souvenir riche de signification. Il y a 36 ans, mon père, que Dieu l'ait en sa miséricorde, a tenu à faire suivre à la fin de l'année scolaire dans cette ville de Béjaïa dans une médersa libre, au petit élève du lycée d'Alger que j'étais devenu, un stage de langue arabe et d'étude islamique à la place de vacances scolaires pour faire en sorte que l'enseignement reçu à l'école française ne me fasse pas perdre le capital le plus précieux celui de mon âme de musulman.

Miséricorde de Dieu sur toi O mon père qui a accompli ta mission et merci renouvelé aux maîtres de cette école dont l'un d'eux et mon cher maître cheikh Ali auquel je demande de pardonner mes fautes de langue arabe, elle ne sont dûes qu'à moi-même.

ENTRE LE FANATISME ET L'ISLAMISATION : L'ATTITUDE DE RAMON LLULL A BIDJAIA

du Dr. Miguel de EPALZA (Espagne)
Professeur de Lettres à l'Université d'Alger

Excellence, chers collègues et amis.

En tout premier lieu, je vous prie de bien vouloir m'excuser de ma mauvaise prononciation en arabe. Je suis étranger et je parle mal votre belle langue. Certains d'entre vous connaissent peut-être mieux la mienne que moi la vôtre. Je vous présente mes excuses. Mais je préfère parler l'arabe avec difficulté que le français avec facilité, car cette langue, ici, m'est seulement une langue étrangère ; c'est aussi la langue de la colonisation culturelle, conséquence de la colonisation politique.

J'espère, néanmoins, que malgré les difficultés linguistiques, nous pourrons nous comprendre, en parlant de ces sujets historiques qui concernent autant votre pays que le mien.

En effet, je vais vous présenter un épisode de l'histoire commune de la ville de Bougie et de l'île de Majorque, où j'ai été élevé : les séjours de mon compatriote Ramon Llull à Bougie.

A Majorque, si vous demandez ce que connaissent les gens sur Bidjaïa, on vous dira : c'est là que Ramon Llull est mort. Les historiens ne savent pas très bien s'il est mort dans la ville elle-même ou en mer, mais les gens le croient ainsi. Bedjaïa est très connue à Majorque à cause de Ramon Llull.

Mais les relations entre l'île de Majorque et la ville de Bedjaïa sont beaucoup plus anciennes et elles se poursuivent jusqu'à nos jours. Il y a entre les deux 160 milles et de très nombreuses relations historiques. Je ne vais citer que quelques-unes :

— dès la plus lointaine antiquité, des navires de toute origine (phéniciens, carthaginois, romains, byzantins..) ont traversé la Méditerranée, à partir de Bedjaïa ou d'Alger, en s'arrêtant à Majorque ou Ibiza.

— Lorsque l'Islam s'est installé à Al-Andalus, de très nombreux musulmans accomplissaient le Pélerinage en bâteau, comme le fameux Isam al-Jawlani, qui a conquis l'île pour les émirs de Cordoue, à la fin du II° siècle de l'Hégire.

— Pendant les luttes politiques du III° siècle entre les Fatimides d'Ifriqiya et les Omé-yades d'Al-Andalus, Majorque et Bidjaïa ont été des ports ennemis, qui servaient pour la guerre maritime des deux états.

— Quant à leurs relations au temps des Hammadites, vous avez écouté la magnifique conférence de mon cher collègue et ami le professeur Moulay Belhamissi. Majorque appartenait alors au souverain de Denia, qui voulait déjà faire un empire commercial et maritime en Méditerranée, avec de nombreuses relations avec les Andalous installés ici.

— Plus tard, pendant les luttes entre almoravides et almohades, ce furent les Banu Ghania, souverains almoravides de Majorque, qui ont débarqué avec leur armée à Bidjaïa. C'est d'ici qu'ils ont commencé à entreprendre leurs attaques contre les almohades, tout au long des côtes et de l'intérieur du Maghreb oriental.

— Plus tard aussi, les rois d'Aragon et de Majorque ont établi des traités et des alliances politiques et commerciales avec les souverains du Maghreb, pour faire du commerce avec ces pays. Il y avait un consulat majorcain à Bidjaïa et le commerce entre les deux pays a été très fructueux, pendant des siècles.

— C'est à Bidjaïa aussi que se sont réfugié, au VIII^{e} siècle, des juifs majorcains, persécutés par les chrétiens. Ils s'y sont installés, protégés par la tolérance musulmane.

— Tout au long du IX^{e} et X^{e} siècles, les efforts impérialistes de Ferdinand le Catholique d'Aragon et de l'Empereur Charles Quint d'Espagne et d'Allemagne, ont voulu s'emparer de la ville. Ils y ont fait diverses expéditions à partir de Majorque. On connaît l'échec de ces expéditions militaires.

— A l'époque moderne (X^{e}-XII^{e} siècles), il y a d'innombrables voyageurs ou prisonniers majorcains à Bidjaïa, comme il y a d'innombrables habitants de Bidjaïa voyageurs ou prisonniers à Majorque et dans ses îles voisines. C'est une période triste des relations entre nos deux pays, cette guerre continuelle de 300 ans entre l'Algérie et l'Espagne.

— Actuellement, avec l'indépendance, les Algériens sont nombreux à passer par Majorque et les Majorcains sont de plus en plus nombreux à visiter votre pays et cette belle ville, leurs voisins du sud.

— Finalement, moi-même, aujourd'hui, j'ai le plaisir de vous parler au nom de mes compatriotes Majorcains, vos voisins du Nord, avec un message de paix et d'amitié, entre nos deux pays voisins. C'est le dernier en date des liens d'une histoire commune très longue, qui regarde vers l'avenir, plein d'espoir.

Mais laissons le présent et le futur, pour tourner les yeux vers le passé, vers Ramon Llull et son temps, vers ses voyages et ses séjours à Bidjaïa ; jusqu'à sa mort en mer, entre Bidjaïa et Majorque. Ce sont des histoires du passé, mais il est utile de les connaître. Cela fait partie d'une histoire commune, parfois triste parfois heureuse, qui est le propre de pays voisins.

Ramon Llull fut un religieux majorcain ; de l'ordre des franciscains. Il était philosophe, mathématicien, poète, théologien, un des plus importants écrivains espagnols en langue catalane. Il a été le premier philosophe européen qui n'a pas écrit en latin, mais en langue populaire, en catalan. Il a voyagé beaucoup, en Europe, en Egypte, à Tunis, à Bidjaïa. Il a connu les principaux personnages de son temps en Europe et son influence philosophique sur de nombreux penseurs européens est remarquable. Il savait l'arabe et on remarque beaucoup l'influence arabe dans ses écrits. Il est le seul philosophe européen au moyen-âge à avoir connu directement l'arabe. Il a influencé ainsi, plus que d'autres philosophes européens, le courant islamique de la pensée européenne médiévale.

Mais il était aussi un homme religieux, qui appartenait à l'ordre des franciscains. Avec l'exemple de sa vie pieuse et la prédication de l'Evangile, il voulait proclamer partout la religion chrétienne, en Europe et en Afrique du Nord. Il prêchait et écrivait en latin et en catalan en Europe et il a apprit l'arabe pour prêcher et écrire en arabe en Afrique du Nord.

Je ne vais pas parler ou juger ici les missionnaires. Ce sujet a été très bien traité à Tizi-Ouzou, dans le cadre du VII[e] Séminaire de la pensée islamique. Comme historien, je me limite à constater ce fait, qui est important pour comprendre l'action de Ramon Llull dans son temps.

En effet, à cette époque, Saint François d'Assise, fondateur de l'ordre des franciscains, l'avait créé pour diffuser la religion chrétienne en Europe et dans le monde entier. Les religieux ; appelés franciscains, prêchaient dans toute l'Europe, en pauvreté et piété. Mais ils voulaient aussi étendre leur croyance auprès des musulmans.

Cette prédication avait commencé avec Saint François lui-même. Il s'était opposé toujours aux croisades. Il pensait que ce n'étaient pas des guerres religieuses, mais plutôt militaires et impérialistes. C'est pour celà qu'il a voulu aller en Orient, pour prêcher les musulmans. C'est ainsi qu'il a été a Damiette, en Egypte, et il a été reçu très respectueusement par le sultan Salah al-Din al-Ayoubi. Le sultan l'écouta très respectueusement et il est revenu très content en Europe, satisfait d'avoir été écouté par une si haute personnalité musulmane, bien que sa prédication ne l'avait évidemment pas convaincu d'embrasser le Christianisme. Il avait été respecté, parce que sa prédication avait été, elle aussi, respectueuse et modérée. C'est pour celà qu'il fut respecté aussi par les musulmans, qui avaient vu en lui un homme pieux, qui croyait en sa religion et que le Coran ordonne de respecter.

Mais tous les religieux franciscains n'étaient pas aussi respectueux que leur fondateur. A la même époque, six religieux franciscains venaient au Maroc, pour prêcher l'Evangile,

mais aussi pour insulter le Prophète et la religion musulmane. A Marrakech, en 1220, ils prêchaient en public, malgré les avertissements des autorités musulmanes et des chrétiens qui habitaient dans la ville, dont le prince Pedro de Portugal. Ils furent mis à mort par le calife, qui craignait un soulèvement populaire. Leurs corps furent emportés en Europe, lorsque le prince Don Pedro de Portugal se retira du Maroc, pour finir ses jours à Majorque.

Une attitude très différente fut celle d'un autre religieux franciscain de Majorque, Anselm Turmeda, qui vint à Tunis vers 1390 et se fit musulman sous le nom d'Abdallah al-Tarjuman. C'est une histoire très curieuse, dans l'ensemble des relations historiques entre Majorque et le Maghreb, au moyen âge.

Anselm Turmeda était né à Majorque, la Cité de Majorque. Religieux franciscain, lui-aussi, il avait fait ses études à Majorque, à Lérida et à Bologne, en Italie. A l'âge de 30 ans, il se dirigea à Tunis pour se faire musulman. Il fit sa profession de foi en présence du sultan de Tunis et il fut nommé traducteur de la douane du port de Tunis. Plus tard, il réussit à être chef de la douane et à occuper divers postes très importants dans l'administration financière du royaume hafside, qui était alors au sommet de sa gloire et dont les possessions arrivaient jusqu'à Bidjaïa.

Anselm Turmeda n'est pas seulement un personnage politique et religieux très important. Il est aussi un écrivain remarquable. A Tunis, il écrivait en langue catalane beaucoup d'ouvrages, qu'il envoyait par des commerçants à son pays natal et qui obtenaient beaucoup de succès. Mais il écrit aussi en arabe, à la fin de sa vie, un livre original : « Le Présent de l'homme lettré contre les partisants de la Croix ». Il y raconte sa vie et sa conversion à l'Islam, l'histoire des souverains tunisiens qu'il avait servi et, surtout, il fait une vaste réfutation du Christianisme, qu'il connaissait assez bien, puisqu'il avait été prêtre et religieux chrétien. Ce livre a eu aussi beaucoup de succès dans le monde arabe et islamique. J'en ai trouvé 46 manuscrits, en arabe et en turc, de Rabat à Bagdad. Il y a eu trois éditions en arabe et trois en turc, dont la dernière en 1970.

Je crois qu'Abdallah al-Tarjuman est le seul écrivain qui ait écrit en arabe et dans une langue européenne et qui ait eu une renommée littéraire dans les deux langues. C'est aussi pour celà que la vie de ce religieux franciscain de Majorque est si intéressante. Il se fait musulman et écrit en arabe, mais il n'oublie pas pour autant sa culture majorcaine et il maintient des relations amicales avec des personnages de son Ile natale et écrit dans sa langue comme en arabe.

Entre le fanatisme des franciscains de Marrakech et l'islamisation du franciscain de Tunis, il faut situer Ramon Llull, lorsqu'il vient à Bougie.

Ramon Llull nait vers 1232 à Majorque, quelques années après la conquête de l'île par le roi d'Aragon. Il fut un chevalier courtisan et galant, jusqu'à sa conversion à la piété ; à 33 ans. Ils se convertit alors, abandonne sa famille et ses occupations, et se consacre entiè-

rement à diffuser la religion dans toute l'Europe, par ses écrits et sa prédication. Comme il avait vécu près des musulmans, il voulait aussi prêcher la foi chrétienne parmi eux. Pour celà il apprend la langue arabe et tâche de convaincre le Pape et les princes chrétiens pour qu'ils fondent des écoles de langue arabe, pour que les prédicateurs puissent connaître la langue, la religion et la culture arabe. Bien qu'il avait surtout un but religieux, la diffusion du Christianisme, Ramon Llull est un de ceux qui ont le plus influencé la culture européenne avec des valeurs arabes, grâce à ses écrits et ses initiatives pédagogiques.

C'est ainsi qu'il a écrit de très nombreux ouvrages, entre autre le « livre de contemplation », qu'il rédige en premier lieu en arabe, puis en catalan. Il enseigne dans diverses universités européennes. Mais il songe aussi à prêcher la foi chrétienne aux musulmans. Vers 1280 il fait un voyage en Orient ; spécialement aux lieux saints des chrétiens, en Palestine. Deux ans plus tard, il va à Tunis et a des entretiens journaliers, avec des savants musulmans, en raisonnant sa foi et en tâchant de comprendre mieux leurs raisons : L'influence des ses longues conversations est décelable dans ses écrits ultérieurs : il raisonne toujours à partir de la foi musulmane et des attributs de Dieu et non pas à partir des dogmes chrétiens, comme les autres théologiens européens.

Il retourna en Italie, en tâchant de convaincre le Pape et les personnages ecclésiastiques qu'il fallait consacrer plus d'efforts à la prédication en général et à celle des musulmans en particulier.

Après, il continue à prêcher et à voyager par toute l'Europe et, à 75 ans, il reprend le chemin du Maghreb, à partir de son île natale. Il vient à Bidjaïa. Il commence à y prêcher et à discuter sur la religion musulmane. Le cadi le fait emprisonner et lui dit : « quelle folie te permet d'attaquer ainsi en public notre sainte religion ? » Il le fit emprisonner, mais il permettait que des ulemas musulmans viennent lui rendre visite, pour discuter avec lui et le persuader de la vérité de la religion musulmane. Il leur répondait et, de nuit, il écrivait le résultat de ces discussions et de ses reflexions faites en commun. C'est ainsi que vît le jour le livre « Discussion de Ramon, chrétien et Hamar sarrazin », écrit à Bidjaïa. Finalement, le souverain ou gouverneur de Bidjaïa l'envoya par un navire à Pise, en Italie.

Il continua ses écrits et ses voyages en Europe, cet indomptable vieillard qui était si persuadé de sa vérité et toujours disposé à prêcher sa religion, même au Pape et aux princes chrétiens. Mais il n'oubliait pas les musulmans et, finalement, vieillard de plus de 82 ans, il retourne encore une fois à Bidjaïa, en 1314. Puis il passe à Tunis, où nous le voyons demander au roi d'Aragon de lui envoyer un interprète et secrétaire, car il n'arrive pas à venir à bout dans son travail d'écrivain.

Il revient de nouveau à Bidjaïa et il meurt sur le bateau qui le ramène à Majorque. La légende veut qu'il ait été maltraité à Bidjaïa, mais en fait on ne sait rien sur ses derniers séjours au Maghreb. Les majorcains le vénèrent beaucoup, jusqu'à nos jours, et le jour de l'anniversaire de sa mort, on met son portrait sur la façade de la Municipalité (l'Hôtel de Ville) de Palma de Majorque. Je l'ai vu moi-même, lorsque j'étais un garçon.

Nous voyons ainsi, entre le fanatisme de certains de ses collègues franciscains et l'acceptation de la religion musulmane par d'autres, cette gigantesque personnalité de Ramon Llull. Bien qu'il a soutenu parfois les croisades militaires, comme de nombreux chrétiens au moyen-âge, il s'est consacré surtout à la prédication religieuse, par ses paroles et ses écrits, en apprenant la langue et la culture arabe et musulmane. C'est un homme qui se base, dans sa prédication, surtout dans le dialogue rationnel. Et c'est ainsi que, en voulant influencer les musulmans, c'est lui le théologien chrétien qui a été le plus influencé par l'Islam.

C'est un exemple de la culture arabo-musulmane en Europe, tout au long du moyen-âge. Il pose aussi un problème curieux d'acculturation : comment l'opposition religieuse n'exclut pas une importante intéraction culturelle, dans le bas moyen-âge, lorsqu'il y a des conditions d'estime et de connaissance, de contact personnel, entre chrétiens et musulmans.

Je crois que si Ramon Llull s'est occupé des musulmans, il s'est intéressé autant à eux et a été si influencé par leur culture, c'est précisément parce qu'il vivait dans une île, au milieu de la Méditerranée, ouverte à tous les courants de cette mer commune. C'est pour çà qu'on a fait récemment une statue de Ramon Llull à l'entrée du port de Majorque, avec les bras ouverts. C'est un symbole de l'hospitalité. C'est aussi un symbole de l'ouverture d'esprit à tous les courants de la pensée de son temps.

A propos de cette ouverture de Ramon Llull, permettez-moi de finir mon intervention avec une anecdote sur cette statue du port de Palma de Mallorca.

On l'a faite il y a 7 ans. Une personnalité majorcaine eut l'idée de mettre à la base de la statut une phrase sculptée extraite d'un texte de Ramon Llull, dans les trois langues qu'avait utilisé l'écrivain : le latin, le catalan et l'arabe, c'est-à-dire, les trois langues de culture de son temps.

Pour choisir la phrase arabe, on m'a demandé de la faire moi-même, et j'étais alors professeur à l'Université de Lyon, en France. J'ai trouvé l'idée excellente mais j'ai pensé qu'il serait mieux que ce soit un musulman, un arabe et, encore mieux, un algérien celui qui aurait à choisir le texte, puisque Ramon Llull avait écrit en arabe pour les musulmans et puisqu'il était mort à Bidjaïa, en Algérie. J'ai donc demandé ce service à mon collègue et ami le Dr Ali Merad, qui a eu la gentillesse de choisir la phrase suivante : « Il n'y a pas d'amour sans volonté efficace, mais il n'y a pas de volonté efficace sans amour ». Puis je l'ai envoyé à Palma de Mallorca.

Mais la phrase était écrite sur une seule ligne horizontale et la base de la colonne était verticale. Il fallait couper la phrase et mes collègues majorcains oublièrent que l'arabe s'écrit de droite à gauche. Ils coupèrent la phrase de gauche à droite, c'est-à-dire, en commençant par la fin. Il mirent donc la fin de la phrase dans la première ligne, le milieu dans la seconde et le début dans la troisième. La phrase devenait alors parfaitement inintelligible.

J'étais à Lyon et je n'ai rien sû de celà, mais à Majorque, il y eut des gens qui protestèrent, en disant que c'était incompréhensible. Le personnage qui avait eu l'idée, fit une polémique dans la presse ; en disant qu'il avait consulté des professeurs d'Université très compétents et qu'il avait montré l'inscription à des arabes, qui avaient compris le sens général, tout en disant que c'était très étrange et que nous avions peut-être écrit en arabe médiéval. Ainsi les gens se tûrent.

Mais au bout d'un certain temps, j'ai visité de nouveau Majorque et j'ai vu la statue et ce qu'on avait fait avec l'inscription en arabe. J'ai téléphoné à l'illustre personnalité et je lui ai dit qu'il y avait une erreur très importante. Il s'est exclamé : « Vous aussi ! Maintenant que je les avait convaincu tous que c'était très bien...» Mais il fit corriger l'erreur et vous pouvez voir maintenant la statue de Ramon Llull, avec les bras ouverts, à l'entrée du port de Palma, les bras ouverts au monde entier, mais curieusement dirigées vers Bidjaïa, la terre où il était mort.

Tout celà, ce sont des histoires du moyen-âge. Maintenant tout a changé entre mon pays et le vôtre, entre la religion musulmane et la religion chrétienne. Mais aujourd'hui aussi, il y a une phrase de Ramon Llull, qui est valable entre voisins de Majorque et de Bidjaïa, celle qui est gravée à la base de la statue de Ramon Llull

« Il n'y a pas d'amour sans volonté efficace, mais il n'y a pas de volonté efficace sans amour ».

LA CIVILISATION MUSULMANE ET LA TENDANCE HUMANISTE

CONTRIBUTION DE LA PENSEE ET DE LA CIVILISATION ISLAMIQUES DANS LES DIVERS DOMAINES DES SCIENCES ET DES ARTS ET DU PATRIMOINE HUMAIN EN GENERAL. FACTEURS DE LEUR EPANOUISSEMENT. CAUSES DE LEUR DECADENCE ET CONDITION DE LEUR RENAISSANCE

Conférence du Dr. Ihsan Abbas (Liban)
Professeur d'Histoire
à l'Université Américaine de Beyrouth

Hans Heinrich Schneider (1) soutient que l'héritage hellénique a été le facteur déterminant dans l'orientation (l'adaptation) de la civilisation musulmane, et que l'adoption de cet héritage a eu pour unique motivation l'intérêt pratique : il devait constituer un moyen de défense du cachet religieux de cette civilisation. De là provient que la civilisation musulmane est demeurée prisonnière du "moule" Grec et qu'elle n'a pas été en mesure de s'orienter vers la tendance humaniste, cette même tendance qui a été le secret du développement de la civilisation européenne influencée pourtant - tout comme la civilisation musulmane - par le même apport hellénique.

Ces opinions qui semblent liées entre elles comme "les causes le sont aux effets", ne sont, en fait, que des jugements gratuits dénués de tout examen tant soit peu approfondi de la nature de la civilisation musulmane, dans ses formes comme dans ses aspects multiples, et de tout étude globale qui n'autorise pas les généralisations hâtives.

Si nous renvoyons ces jugements aux hypothèses premières dont ils sont issus, nous n'aurons aucune peine à démontrer leur erreur : l'écrivain a posé comme première hypothèse que tous les pays où l'Islam s'est implanté, tels le Sind, les pays au delà du fleuve, la Perse, l'Irak, la Syrie, le nord de l'Afrique, l'Andalousie, avaient adopté la civilisation

(1) Allusion à une étude de cet auteur parue sous le titre "L'Orient et l'héritage héllenique", et traduite en arabe sous le titre "L'esprit de la civilisation arabe" par le Dr. Abderrahmane Badaoui - Beyrouth 1939.

hellénique, bien avant la conquête musulmane et à la suite de l'expédition d'Alexandre le Grand. Ils s'étaient donc détournés de leur civilisation propre, ou du moins la culture grecque avait acquis droit de cité dans ces pays...

Cette assertion n'est pas du tout corrolorée par les faits historiques, sans compter que l'écrivain, en évoquant la civilisation musulmane, s'est cantonné dans un domaine restreint de cette civilisation, à savoir les spéculations logiques et philosophiques, et a négligé les autres aspects culturels où la civilisation musulmane a donné une image de sa nature propre et de son authenticité, tels que les hadiths, la législation, les sciences expérimentales (botanique, géographie, etc...). Comme il a « oublié » les aspects matériels de cette civilisation, au nombre desquels le développement de l'urbanisme, par exemple.

Qui plus est, il aurait été loisible à cet auteur — s'il avait pu se libérer de son sectarisme en faveur de l'hellénisme — de découvrir dans la philosophie islamique même, les traits distinctifs de la personnalité de la pensée islamique.

La plus grande erreur dans laquelle puisse tomber le penseur occidental en portant des jugements sur la civilisation musulmane, serait de la regarder à travers le « prisme de la civilisation » à laquelle il est habitué, et de l'étudier alors qu'il est encore sous l'emprise du milieu culturel auquel il appartient. Formuler une opinion sur une civilisation quelle qu'elle soit implique — même si cela est difficile — de faire au préalable — et objectivement — abstraction de toute appartenance culturelle antérieure, et de tenir compte des impératifs, des éléments constitutifs, des formes de contribution, des aspects de force et de faiblesse de cette civilisation, avant d'en arriver à la mettre en parallèle avec celle dont le chercheur est imprégné (2).

Ici réside encore une autre erreur de Schneider, celle qui lui fait voir la civilisation musulmane à travers le cadre helléno-chrétien, et sa conviction intime qu'une religion définie par une organisation minutieuse est incapable de développer, de son intérieur, une « tendance humaniste ».

Malgré que l'expression « tendance humaniste » implique toute une gamme de particularités abstraites qu'il n'est pas aisé de définir et qui demandent à être soumises à des critères pratiques et clairs, nous pouvons dire que ce qui distingue le plus cette tendance, c'est qu'elle refuse de minimiser la valeur de l'homme et l'importance de son travail individuel et collectif, comme elle refuse de considérer le seul « côté faible » de la nature humaine. Elle glorifie, au contraire, la grandeur de la pensée humaine, sa force créatrice

(2) Schneider était conscient de cela lorsqu'il a écrit : "Quiconque est né et a grandi dans le contexte de la civilisation occidentale, est incapable de comprendre les civilisations étrangères autrement qu'à travers une optique particulière, qu'il le veuille ou non". ("Esprit de la civilisation"... 23-24). C'est cette équité qui donne tout son sens à l'injustice dans la pratique et le jugement, car l'auteur n'a fait aucun effort pour observer certaines réserves dans l'énoncé de son opinion.

dans les domaines des sciences, des arts et de la vie morale, et elle tend — de ce fait — vers une théorie morale sur l'action, en incitant l'homme à déployer des efforts continus afin de réaliser la perfection suprême des relations humaines (3).

En examinant de plus près cette forme que revêt la tendance humaniste, l'on se rend compte qu'elle se résume à deux supports essentiels :

1°) L'exaltation de la valeur de l'homme et du travail humain.

2°) Sa préparation pour la création et l'innovation dans le cadre de valeurs morales humaines. Ces deux supports — ou ces deux principes si l'on veut — supposent implicitement que la civilisation fondée sur une base religieuse n'est pas capable de les assurer, du fait que la religion élève un obstacle essentiel entre la faiblesse de l'homme et la puissance de Dieu, entre le travail humain et le travail divin, et qu'elle implique, en outre, des valeurs morales puisées en dehors du mouvement de l'évolution humaine.

C'est pourquoi, une telle civilisation s'avère incapable, par nature, de pousser l'homme à la création et à l'innovation, parce qu'elle le ramène à tout instant, par la force du facteur confessionnel, au respect de la tradition et des coutumes. Aussi n'est-il pas possible qu'elle réalise un progrès spirituel, s'il n'y a pas mutation et adaptation aux situations nouvelles et non pas seulement dans le transfert et la nouvelle formulation de ce qu'elle a hérité et reçu (4).

Il n'est personne pour nier que la civilisation musulmane a été bâtie et s'est développée dans le cadre de la religion. Mais jusqu'à quel point l'opposition entre la faiblesse de l'homme et la puissance de Dieu a été un obstacle dans l'exaltation de la valeur humaine ? Jusqu'à quel point l'action humaine et l'action divine ont constitué un antagonisme empêchant le progrès de la civilisation ? Il ne fait pas de doute que l'éclaircissement de cet « antagonisme » est indispensable pour définir une réponse exacte à ces deux questions.

La faiblesse humaine — ou l'incapacité de l'homme — est une chose relative qui n'existe pas dans la nature même de l'homme, mais seulement en comparaison avec l'image de la perfection absolue, avec Dieu. Cela ne veut pas dire que l'homme demeure les « bras entravés » devant les obstacles et les difficultés qu'il rencontre dans l'Univers. Il est, au contraire constamment appelé à manifester la puissance divine — par la pensée et l'action — à travers sa propre puissance. Sur cette base, l'action humaine au sein de l'Univers, devient une forme de l'action divine. Il n'y a là rien que qui minimise le travail humain, mais il s'agit d'une prudence constante pour que la conscience de la valeur de ce qu'il crée ne prenne pas chez l'homme des proportions telles qu'il se croit « un dieu dans cet univers ».

(3) Extrait avec de légères retouches, de "l'Histoire de la civilisation européenne", p. 111 (de Claude Delmas, traduction de Colette Habib - Damas - 1ère Edition, non datée).

(4) "L'Esprit de la civilisation arabe", p. 28.

C'est effectivement à cela qu'a conduit la sensation de puissance dans la civilisation européenne, laquelle a développé la tendance humaniste à l'extrême, ce qui a engendré, par voie de conséquence, les concepts de supériorité, d'une race ou d'une ethnie sur les autres, et de la suprématie européenne à l'égard du reste du monde. La première recommandation de la dialectique humaniste consiste à généraliser la vision de considération à l'égard de l'homme où qu'il se trouve, à quelque race qu'il appartient, et à inciter celui-ci — sur la base de ce principe — à créer dans le cadre de ses conditions propres et de ses possibilités.

De ce point de vue, nous constatons que la tendance humaniste sur laquelle s'est édifiée la civilisation occidentale s'est épuisée de façon inhumaine et qu'elle a été incapable — par sa morale — de « réaliser la perfection supérieure des rapports humains », puisqu'elle est devenue — surtout à la suite de la révolution industrielle — la civilisation du producteur - exploiteur « supérieur à tous les autres ». Ceci ne veut pas dire que nous condamnons les aspects positifs des réalisations à l'actif de la civilisation occidentale, mais il s'agit d'une tentative pour mettre en relief tout le danger qu'il y a, à accorder — dans cette civilisation — une ampleur sans limites à la « tendance humaniste ».

Tel n'a pas été le cas de la civilisation musulmane. Le concept de «tendance humaniste» qui la caractérise puise, en effet, son existence avant tout de l'égalité théorique entre tous les hommes, égalité qui subit certes, des perturbations, de temps à autre, sur le plan pratique, mais des perturbations auxquelles il est possible de remédier par un retour constant à l'idéal théorique. Dans le contexte universel, cette égalité signifiait la dispense de chances égales de contribution à l'édifice de progrès et de civilisation, au point que si nous recherchions une image générale pour cette civilisation, nous dirions qu'elle est une civilisation « de coopération et de participation », où collaborent toutes les races, chacun selon ses potentialités et ses possibilités, à l'ombre d'une religion unificatrice et universelle, et sans que cela dégénère en quelque discrimination raciale que ce soit ou bien en une soif de domination et d'exploitation.

Il nous suffira ici, pour souligner la solidarité de l'appartenance religieuse et sa force, parmi tous les autres liens de fanatisme — selon l'expression d'Ibn Khaldoun — de citer un seul exemple, celui de l'apparition de la « chouoùbiah » dans le sillage de cette civilisation. Cette tendance qui a eu une existence éphémère à l'époque où la civilisation musulmane avait atteint son apogée, a trouvé pour la stigmatiser et pour refuser son contenu des gens qui n'étaient pas toujours d'appartenance arabe.

Elle n'est pas arrivée — en dépit de toutes ses prétentions — à affaiblir cette interpénétration générale des races dans la structure de la civilisation musulmane. Mais, lorsqu'elle réapparut plus tard sur de nouvelles bases, elle ne manqua pas de conduire la civilisation musulmane à une certaine stagnation, comme je me propose de le montrer en temps voulu.

En dépit des multiples vengeances politiques et des dangers extérieurs, les éléments unificateurs — ou du moins l'interpénétration raciale — sont demeurés plus forts, dans

la civilisation musulmane, que les facteurs de division. La religion n'a pas été le seul facteur capital dans le maintien de cette unité ou de cette interpénétration, mais il y eut aussi d'autres facteurs importants tels que la langue, les libres échanges commerciaux, l'incessante interaction culturelle, l'existence d'une législation aux fondements uniques.

Il ne m'est pas possible d'expliquer et de clarifier chacun de ces facteurs et de mettre en évidence l'étendue de son influence, dans la limite de ce propos, mais je me contenterai de dire ceci : la loi fondée sur de grandes bases communes a préservé l'ordre social et donné à chaque individu un sentiment de sérénité au milieu des bouleversements politiques, elle a placé les magistrats dans une position de force lorsqu'ils avaient affaire à quiconque essayait d'attenter aux libertés individuelles (5).

Quant à l'interaction culturelle, elle a été peut-être parmi les témoignages de civilisation les plus en vue à cette époque. Les déplacements à la recherche du savoir et la circulation des livres entre un pays et un autre se poursuivaient sans arrêt, ce qui confirme, si besoin est, l'unicité de civilisation et lui confère un cachet culturel particulier. L'homme de culture n'affrontait aucune difficulté d'ordre politique ou régional, il était assuré de rencontrer la tranquillité partout où il allait, dans une société aux traditions et aux législations interraciales, une société unifiée dans une très large mesure quant à la langue de compréhension. Toutefois, ce puissant et dynamique mouvement d'interaction culturelle s'est avéré impuissant à assurer deux choses importantes dans la vie culturelle de cette époque, à savoir :

1°) Elever une barrière solide et à toute épreuve entre deux voies scientifiques divergentes. Certes, des tentatives ont été faites, nombreuses, pour concilier loi islamique et philosophie chez les philosophes musulmans. Ibnou Hazm et Al Ghazâli ont essayé d'interroger tous les modèles de la logique aristotélicienne en comparaison avec la législation islamique, et il n'était pas rare que l'homme cultivé réunisse entre les sciences des anciens et le savoir musulman, (comme c'était le cas d'Al Ghazâli et de Kamal ad-Dine Ibn Younès et d'autres), ou bien entre la science des hadiths et la botanique — y compris la connaissance des vertus des plantes et des drogues médicinales — pour la raison que les deux sciences reposaient sur les voyages et les expéditions (ex : Ibnou ar-Roumiyah al Andalousi).

Mais il est demeuré tout de même deux voies scientifiques divergentes auxquelles a fait allusion le médecin Ibnou an-Nafils en disant : « Il n'existe que deux doctrines : celle des « mouhaddithines et celles des philosophes » (6).

Il entendait dire par là le système basé sur l'assertorique et celui fondé sur la spéculation mentale. Malgré le fait que cet affrontement entre les deux systèmes ait eu des

(5) W. PL. Watt : Islam and the Intégration of Society, pp. 206-207 (London 1961).

(6) Clef : Ibnou Timiyah, dans "l'antagonisme entre la raison et la transmission" pp. 203, Tome 1, revu par le Dr. Mohamed Rachad Salem (Maison des Livres - Le Caire 1971).

résultats intellectuels dignes d'être pris en considération, ce clivage a fait pencher la balance du côté des effets négatifs, du fait que la vie culturelle en général s'est trouvée exposée à la stagnation.

2°) Combler le fossé qui existait alors entre les hommes de culture et les masses populaires, à tel point qu'était apparu — dans ce domaine — ce que l'on peut appeler une « aristocratie intellectuelle », représentée par les hommes de culture. Quoique le terme de « masse » ait plusieurs désignations, selon les cas d'emploi, il était utilisé assez souvent pour distinguer les intellectuels des autres couches populaires, ou bien un clan particulier d'intellectuels, tel celui des moâtazilah, par exemple, et tous ceux qui n'étaient pas de leur bord. Le mot contient également un sens péjoratif qui dénote un certain complexe de supériorité.

Si cette situation a écarté les masses du courant culturel, elle a placé la culture elle-même dans une position isolée et lointaine, à telle enseigne que les rapports entre les masses et la culture avaient lieu — durant les premiers siècles — par les biais du prédicateur ou du conteur, les deux entretenant chez les masses la crainte de la mort et de l'enfer et les alimentant en général de légendes. Durant les siècles de décadence ces deux personnages ont été remplacés par le « récitant » et le « chantre » qui animaient les veillées avec des récits épiques et des histoires d'amour romantique. Voilà pourquoi les masses ont cherché refuge auprès des danses extatiques confistes où, du moins, elles satisfaisaient comme elles pouvaient leur besoin de nourritures culturelles autant que spirituelles.

Partant de là, nous pouvons dire que la civilisation musulmane a été une civilisation collective (7), aussi bien dans ses composantes que dans ses objectifs. Elle reposait, en d'autres termes, sur une méthodologie et sur une organisation. Aussi est-il erroné de la regarder à travers la « tendance humaniste » qui a donné à la civilisation occidentale son cachet particulier.

La tendance humaniste développe, en effet, l'individualisme jusqu'à l'extrême, tandis que la civilisation méthodique est organisée incite les énergies individuelles à la création, sans pour autant leur permettre d'atteindre une puissance telle qu'elles deviendraient un danger pour l'intérêt général. Elle ne leur permet également pas de détruire les liens organisés entre Dieu et l'homme, ou bien, en d'autres termes, cette civilisation maintient la dynamique de la création et de l'innovation dans un cadre défini, celui où les critères sont des concepts moraux « préétablis », longuement éprouvés, et où la puissance de créance, son développement et sa régression, son essor et son repli sur elle-même suivent la couche de la sérénité collective ou de la crainte d'un danger menaçant la communauté dans sa cohésion. Malgré le fait que la propension à l'intransigeance en ce qui concerne l'attachement

(7) Chaque civilisation est collective car elle est au service de la collectivité et de son émancipation. Ce que j'ai voulu montrer, c'est que les réalisations enregistrées par la civilisation musulmane - qu'elles soient volontaires ou forcées - ont été aussi bien du point de vue de l'organisation que de la conception, au service de tous.

à ces critères, la tyrannie de l'esprit conservateur et la tendance à l'imitation soient les dominantes dans ce deuxième cas, la croyance à l'idéal de renouvellement ne disparaît pas totalement. De là provient que certaines doctrines professent que « Dieu envoie à la tête de chaque nation un homme qui renouvellera sa religion ».

Les différents domaines humains se caractérisent par une capacité plus ou moins grande de perméabilité à l'esprit d'innovation, puisque la force créatrice peut réaliser sa liberté totale, par exemple, dans les domaines matériels et expérimentaux : tels l'industrie, l'agriculture et le commerce, les arts architecturaux ; elle peut se frayer un chemin particulier et prendre des traits distinctifs dans la peinture et la sculpture décoratives, la musique et les belles-lettres d'une manière générale, comme elle peut prendre son essor en toute liberté dans les domaines des mathématiques, de la physique, de la chimie, de l'astronomie, jusqu'au moment où, ayant atteint la frontière de la métaphysique, il lui est recommandé d'avancer avec prudence et de rester convaincue de son incapacité à formuler des critères fermes dans ce dernier domaine. C'est pourquoi le principe de conciliation entre la religion et la philosophie a été le point de départ le plus constant dans l'histoire de la philosophie islamique, que l'essai ait été concluant ou non.

Les rapports de l'homme avec ces critères se définissent en deux tendances — graduées : — l'acceptation et la propension au défi.

Les réalisations de la tendance réceptive ne sont pas moins innovatrices que celles de la propension au défi, comme c'est le cas pour l'acceptation de l'appel concernant la recherche du savoir et les voyages (commerce, géographie), la mise en relief de la puissance de Dieu dans l'Univers (zoologie, botanique, géologie, etc...).

Pour ce qui est du défi, nous devons distinguer deux points de vue : le point de vue pratique et le point de vue théorique et intellectuel. Il se peut que le développement de l'industrie textile et la technologie dans le bâtiment soient considérés comme un défi à l'esprit de déviation simpliste. Mais c'est un défi qui ne tarde pas à triompher dans le contexte de la mutation civilisatrice inéluctable, car le champ d'application du licite est très vaste. Il se peut que le fait de boire du vin soit également un défi à l'interdiction, comme l'intransigeance dans la prohibition de l'intérêt a conduit les gens à ruser avec ce principe en ayant recours au crédit ou à d'autres modes de rapport de l'argent, comme c'est d'ailleurs le cas pour d'autres prohibitions. Mais ce défi a toujours été traité sur une base individuelle et maintenu dans son cadre restreint, au point qu'il ne représente pas un grand danger tant qu'il n'a pas tendance à devenir une base de comportement collectif. C'est d'ailleurs là le sens du hadith sacré : « Que celui qui aura touché à l'une de ces « saletés » se cache sous le voile de Dieu » (8).

---

8) Al-maouattah, Bab El-Houdoud : 12

Le défi intellectuel, par contre, a été le genre de défi le plus dangereux parce qu'il portait ou tentait de porter atteinte à la substance même de ces critères, c'est-à-dire au principe du monothéisme et de la Distinction absolue de Dieu. C'est ce qui est apparu avec les sectes ultras qui en sont arrivées à diviniser l'individu, ou bien avec les agnostiques qui ont été considérés comme hérétiques, tels que Ibnou ar-Rawandi, Ibnou Aïssa al-Warrâq, le médecin Ar-Razi (Razès).

Il n'est pas douteux que les buts de beaucoup d'entre eux n'étaient pas purement intellectuels, mais politiques et matérialistes et qu'ils ont été considérés sous l'angle du complot contre la communauté, dans le but de la torpiller de l'intérieur. Si l'on jette un coup d'œil sur les victimes de ce défi intellectuel, on constate qu'elles ont été très peu nombreuses à travers les siècles, étant donné qu'après une courte période où les libres-penseurs furent traqués et, condamnés à la peine de mort, le dialogue intellectuel avait pris la place du châtiment, ce qui peut indiquer que la tendance perverse à la répression intellectuelle est une notion exagérée. Comme nous ne devons pas absoudre totalement ceux qui ont appliqué cette répression, car ils poursuivraient parfois des buts qui n'avaient rien à voir avec la sauvegarde de la religion et la préservation des critères.

Il nous faut accorder ici un regard spécial au phénomène plusieurs genres de défis. C'est du point de vue de la recherche du salut individuel, l'isolement par rapport à la société, un défi à l'effort collectif et à l'interpénétration sociale. Du point de vue des dépassements de la loi religieuse et de l'anti-ritualisme c'est également un défi aux liens organisationnels. Il en est de même en ce qui concerne l'indentification ou panthéisme, qui est un défi au principe de la Distinction de Dieu. Si l'on essaie de l'examiner du point de vue de l'interprétation, le çoufisme apparaît comme une tentative de révolution contre les concepts généraux édifiés par la langue.

C'est pour toutes ces raisons que le çoufisme est considéré comme le phototeppe des élans individuels dépassant les cadres et les critères, et s'appuyant sur le sentiments d'être « étranger » pour atteindre les dimensions auxquelles il prétend. Il arrive que ce sentiment d'«étranger» résulte de certaines situations sociales, économiques et politiques. Il est certain cependant, que la clarté lumineuse qui caractérise la loi religieuse accroît l'effet que souvent peut avoir ces situations. Aussi voyons-nous l'extase çoufie s'installer à la place de cette clarté, et le contact direct entre Dieu et le çoufiste transcender les relations sociales dans leur ensemble.

Mais la perception de la destinée à laquelle a atteint le çoufisme (mis à part quelques individualités limitées) nous donne la meilleure image de l'esprit de la civilisation islamique. En effet, Al Ghazâli a pu rétrécir le fossé qui le séparait du droit canon comme le fait pour les çoufistes de s'organiser en confréries, leur a restitué l'appartenance à une collectivité, au point que ces confréries ont été, pendant les siècles de décadence, une sorte d'affiliation syndicale, en plus de ce que le nist « frère » implique d'aide aux personnes en détresse et d'hospitalité.

Le çoufiste était ainsi devenu un refuge social, restituant aux hommes une grande partie de ce dont ils étaient privés du fait des bouleversements politico-économiques. C'est pourquoi le çoufisme était apparu comme un système acceptable, parce qu'il était devenu important au point de vue de l'interpénétration sociale, et qu'il cessa d'être étranger à l'union religieuse organique.

Le çoufisme comporte une autre signification qui mérite d'être signalée ici, à savoir le fait que le contact avec Dieu le très haut — dans cette vie — indique une transcendance de la mort, ou tout au moins son dépassement et l'accession à un état de perfection et au bonheur dans ce monde.

C'est là un aspect du çoufisme qui évoque l'importance du problème de la mort dans cette voie spirituelle et intellectuelle, mais il ne représente qu'une solution particulière à ce problème qui a eu une forte influence sur la détermination des civilisations et l'orientation de la force créatrice chez l'homme.

Il est clair, par ailleurs, que l'opinion de l'Islam à l'égard de la mort est qu'il s'agit d'un passage entre deux mondes. Etant donné que les forces d'attraction de l'autre monde, et en premier lieu l'immortalité, sont plus fortes que les séductions de ce bas-monde, cela constitue un encouragement à l'ascétisme et au renoncement, ainsi qu'un élan vers le martyre.

L'ascétisme étant une attitude qui se situe entre la jouissance de tout ce qui est licite et la domination de l'instinct par la faim et la soif (ce que la religion n'admet pas), il est apparu que la recherche de la mort ou du martyre est un acte volontaire où sont réunis tous les défis du croyant aux séductions de la vie et à la terreur de la mort, dans l'espérance de ce qui est durable et éternel. Lorsque la vague du martyre se sera apaisée une fois la religion répandue, une tendance çoufiste se fera jour qui tentera de transcender la mort par une nouvelle démarche, comme l'hédonisme qui lui était d'ailleurs contemporain, était né aussi de la crainte de la mort. Lorsque ces solutions s'avéraient insuffisantes, certaines retournaient vers l'idéal supérieur de la « djahiha », à savoir le fait de lier la mort à la célébrité, au bon souvenir (c'est-à-dire à l'immortalité historique).

C'est à ce sens que fait allusion Al Moutanebbi lorsqu'il fait de la mort un critère pour les qualités humaines, en disant : «Il n'y a aucun mérite pour le courage, la générosité et l'endurance de l'homme, sans la rencontre des peuples ».

Mais les solutions qui étaient proposées et peut-être d'autres encore que je n'ai pu citer, ont été impuissantes à affaiblir chez les hommes l'amour de la vie ; elles ont eu tendance, au contraire, à l'exciter davantage.

Un fait qui attire l'attention, c'est l'accord réalisé entre l'ascète, le libertin et le sage philosophe en ce qui concerne l'expression de l'étendue de cet amour de la vie. Ainsi Imrân ibnou Hattân, qui représente l'ascétisme dure, déclare : « Quand je me rappelle les douceurs de la vie, je ne puis empêcher mes larmes de couler ».

— De son côté, Ibnou Guzman, le poète du zaojal andalou, dit : « N'est-ce pas un malheur que nous mourrions, alors que le monde est toujours vivant ? ».

— Al Moutanebbi, le sage philosophe, dit pour sa part : « Je pense que chacun de nous aime la vie pour lui-même, et qu'il s'efforce de l'atteindre en l'aimant sans réserve ».

— Lorsque nous connaissons la profondeur de l'amour de la vie dans cette littérature, il nous est possible de nous représenter que la mort, même si elle reste, selon la conception religieuse, un passage pour l'au-delà, est devenue un ennemi redoutable devant lequel il faut fuir, ou qu'il faut au contraire défier, et, dans les deux attitudes, le problème de la mort a eu une profonde influence dans la civilisation musulmane, atteignant souvent non seulement ses détails mais jusqu'à ses généralités : l'ivresse de la musique poétique qui tourne selon un rythme lancinant tel un vertige, est un refuge contre la mort.

L'arabesque, c'est aussi un refuge dans cette fuite de la mort. La poursuite continue des recherches botaniques et physiques, les progrès de la médecine et d'autres sciences, sont également un défi à la mort, etc... Si nous revenons par la pensée à ce qui s'est passé après que la vague tartare eut submergé l'Orient arabe au 7e siècle, puis à ce qui a suivi l'épidémie de peste qui a ravagé l'ensemble du monde musulman au milieu du 8e siècle, si nous examinons donc les nouveaux aspects, de la civilisation d'après ces catastrophes, tels que l'approfondissement de l'écriture de l'histoire depuis la genèse du monde jusqu'à l'époque de l'auteur, la concentration des connaissances générales dans des encyclopédies considérables, la recherche et le regroupement d'ouvrages biographiques et bibliographiques, nous constatons qu'il s'agissait là aussi, de « se mettre sous la protection de l'immortalité » ; en fuyant la mort collective.

— Il n'est que de se rappeler ici « le miroir du temps » de Sabt ibn al Djouzi ; « l'histoire de l'Islam » de Ad-Dhahbi, « Le parfait biographe » d'As-Safdi, « Les yeux des histoires », d'Ibn Chakir al Koutbi, « Les voies des regards » d'Al Amri et d'autres ouvrages biographiques.

En demeurant assez forte pour continuer à « donner » pendant et après ces grandes épreuves, la civilisation musulmane aura administré la preuve qu'elle accordait à l'homme une considération rare, et que cet homme qui participait à cette civilisation avait réussi à réaliser les deux termes de l'équation difficile : « Agis pour la vie comme si tu vivais toujours, et pour l'au-delà comme si tu mourrais demain », sans tomber dans la contradiction.

— Au terme de ce qui précède, il est permis de se demander : « Pour quelle raison cette civilisation s'est arrêtée de « donner » ? ».

J'emploi à dessein l'expression : « s'est arrêtée de donner », afin d'éviter d'autres expressions, comme par exemple : « Pourquoi s'est-elle diluée ? », ou « Pourquoi s'est-elle effondrée ? » ou « Pourquoi s'est-elle éteinte ? » Je sais que beaucoup d'historiens, comme Spengler et Toynbée, considèrent la civilisation comme un être organique qui grandit com

me l'homme, traverse des phases ou des cycles ; que la dilution de la civilisation et son effondrement sont une chose inéluctable pour des raisons externes et internes à la fois.

En disant, pour notre part « s'est arrêtée de donner », nous ne la sauvons pas de ses éléments de vie, de la mort mais nous laissons debout et non effondrés les témoignages de ses réalisations. Les pages que précèdent peuvent nous inspirer certaines des causes qui ont conduit à cet arrêt. Pour en avoir une idée plus globale, il faut passer en revue les étapes de cette civilisation, car en faisant ressortir ces étapes on souligne la nature du « don » et on découvre en même temps les causes essentielles de son arrêt.

— Afin d'éviter la confusion qui peut résulter de l'interférence des rôles, il est possible de dire, avec une certaine simplification, que cette civilisation a traversé trois grandes étapes :

1) Une étape de reproduction des civilisations diverses après les avoir assimilées ; Il s'agit là d'une étape que toute civilisation peut traverser mais ce qui y distingue la civilisation musulmane c'est l'élargissement de ses horizons pour recevoir les influences et les fondre dans un cadre harmonieux, l'acceptation de l'intéraction civilisatrice, d'une âme sereine. Pour donner une image de cette étape, nous pouvons citer l'un des auteurs qui se sont distingués dans l'histoire de la science de cette époque à savoir le professeur Georges Sarton :

« Pour nous résumer nous dirions que la nouvelle civilisation musulmane a été le fruit de la greffe arabe débordante de vitalité et de force sur le vieil arbre vianien, ce qui nous renseigne de prime abord sur les causes de son étonnante fougue et sur les caractéristiques de son développement, sous la poussée de ces deux forces gigantesques. Le « fanatisme » musulman et le sans-gêne persan et grâce à la sollicitude d'une chaine ininterrompue de khalifes abbassides possédés par l'amour de savoir, tels El Mansour Haroun ar-Rachid, Al Ma'moun. La nouvelle civilisation s'est développée avec une grande rapidité et une force supérieure. Ses racines s'étaient dédoublées dans les profondeurs du passé ; puisque le Prophète l'avait dotée du monothéïsme et des valeurs morales, et que les Perses et leurs professeurs lui avaient permis de s'abreuver aux sources sanskritiques et hellénistiques.

Du Sind, en effet, elle a pris l'arithmétique, l'algèbre, la trigonométrie et l'ancienne chimie. Comme elle a pris des grecs la logique, la géométrie, l'astronomie, la médecine... La valeur suprême de la civilisation de l'Islam repose sur le fait qu'elle a en fin de compte relié entre eux les deux grandes sources intellectuelles qui avaient continué à couler pendant toute l'antiquité — chacune de son côté » (9).

— Mais le miracle suprême révélé au cours de cette étape, c'est ce qui est arrivé à la langue arabe elle-même, puisqu'elle a été à même dans un laps de temps de se développer et de s'élargir à toutes les cultures nouvelles.

(9) Georges Sarton : "Histoire de la science et des nouveaux rapports", pp. 157-158 (traduction et présentation d'Ismaïl - Le Caire 1961).

Cette vitalité extraordinaire a pu être un digne partenaire devant le défi de ces torrents qui se déversaient des différentes civilisations matérielles ou intellectuelles, d'une façon telle qu'il est rare d'en trouver des exemples dans l'histoire des autres civilisations. Même cette fougue civilisatrice confondante dont parle Sarton ne peut être comparée, selon lui, qu'à cette supériorité de la langue arabe elle-même (10). C'est pourquoi l'affrontement autour des nouveaux concepts — particulièrement ceux de la logique, de la philosophie et de la théologie — a été aussi un affrontement autour des bouleversements qui avait surgi devant la langue.

Ceux qui voulaient éloigner la pensée religieuse des significations que comportaient ces conventions, ils lui ont dévié la capacité de traduire ces significations dans l'usage arabe précis, tandis que leurs adversaires professaient qu'il ne fallait pas s'arrêter à ces significations. Cet affrontement s'est poursuivi pendant des siècles et la meilleure image qui puisse l'exprimer est celle de Ibn Timiyah lorsqu'il dit : « Les auteurs d'écrits ont copié de leurs devanciers ces mêmes écrits avec un vocabulaire à eux. Il y eut des écrits étrangers traduits, comme ont été traduits les termes grecs, hindous, persans et autres. Il se pouvait que le traducteur rendait le mot juste, comme il se pouvait qu'il ne le fit pas. Il y eut également des écrits et des termes arabes.

De toute façon nous ne nous adressons aux autres nations qu'en notre langue arabe et, lorsqu'ils empruntent aux ancêtres et utilisent des termes de « pendant », « forme », « matière », « intellect », « âme », « attributs personnels ou acquis », « abstrait », « synthèse », « composition », « corps », « substance », « accident », « quiddité », «partie», été les sens de ces mots apparaissent dans le contexte... Même si tous ces mots comportent une association, une confusion et une généralisation qui leur sont commune » (11).

Je ne cite pas cet extrait pour décider lequel des deux parties avait raison et lequel avait tort, mais pour montrer l'élargissement de la langue à tous les concepts nouveaux, avec une vitalité que démontre avec précision cet affrontement entre les deux tendances.

2) L'étape du parallélisme entre les créations intellectuelle et matérielle étape au cours de laquelle furent enregistrées les plus grandes réalisations dans les domaines des sciences, des arts, de l'industrie, de l'agriculture et de toutes les formes d'urbanisme. Nous pouvons imaginer le prolongement de cette civilisation en force et en faiblesse jusqu'au milieu du 7[e] siècle hégirien. Au cours des deux siècles suivants la création intellectuelle commence à régresser progressivement, tout en essayant de conserver une partie de sa vitalité, par la force de renouvellement tirée de l'étude ininterrompue des réalisations intellectuelles enregistrées au cours de l'époque d'épanouissement intellectuel.

---

(10) Précédente source p. 162.

(11) L'opposition entre l'intellect et l'assertonique - T. 1 - p. 299.

En dépit des divisions politiques et des menaces extérieures, cette pensée jaillissait du sentiment d'une unité plus grande représentée par la langue et la loi islamique, ou bien par ce que l'on appelle parfois « Dar al Islam ».

3) L'étape de déséquilibre entre la création matérielle et la création intellectuelle, au cours de laquelle la première a continué à se développer, tandis que la seconde hésitait entre un léger progrès et, un recul plus grand. Il apparut au début que la conquête mongole avait concentré les « dons » de la civilisation en Egypte et en Syrie, et qu'elle avait liquidé la civilisation de l'Orient musulman. Mais après une période de gestation, la civilisation iranienne avait récupéré sa vitalité sous les mongoles eux-mêmes, ce qui annonçait la division de « Dar al Islam » et l'avènement d'une ère d'indépendance pour les races qui constituaient la grande unité linguistique. Et c'est ainsi que naquirent une civilisation turque au Turkestan, mongole en Inde, turco-ottomane en Anatolie, séfivide remplaçant les mongols en Perse.

La particularité commune à ses nouvelles forces était le développement de l'industrie et du commerce, des sciences d'intérêt pratique comme la médecine, l'astronomie, l'architecture, l'urbanisme, les arts de la guerre, surtout chez les Ottomans qui avaient importé l'emploi des armes à feu d'Europe et crée une flotte de guerre sur le modèle européen.

Bartol dit à ce propos : « Il ne faut pas croire que le monde musulman a subi une décadence après le 9e siècle de l'hégire, et qu'il n'a pas été en mesure de faire un nouvel apport à la civilisation. La Turquie, en effet, ne s'était pas contenté de sa réputation militaire aux Xe et XIe siècles hégirien, car Istamboul était devenue l'un des grands centres de la civilisation musulmane.

Les Turcs ont révélé un nouveau style architectural différent du style iranien... Sous les Séfivides, en Perse, des vestiges architecturaux ont été conservés à Ispahan, la capitale... L'Etat mongol en Inde était encore un Empire puissant au 17e siècle et son style architectural avait influencé l'architecture perse.

Ceci démontre que l'assertion selon laquelle le monde musulman était plongé dans un profond sommeil avant de s'éveiller sous l'influence de l'Europe au 19e siècle, est très exagérée » (12).

Il nous faut prêter attention à des évènements qui sont intervenus au cours de cette étape, comme la fin de la souveraineté musulmane en Espagne, l'hégémonie turque sur les zones où la culture était arabo-islamique et le renforcement des frontières séparant les centres de ces multiples civilisations islamiques. C'est pourquoi la création intellectuelle a cessé d'être commune entre ces civilisations parce que son instrument primordial, c'est-à-dire

(12) F. Bartol : "Histoire de la civilisation". pp. 115-117 avec une légère adaptation. (traduction HAMZA Tahir Egypte 1952 (seconde édition).

la langue, n'était plus unifié. De même que l'attention prêtée aux aspects matériels de cette civilisation, tels que l'architecture et l'urbanisme, a fait que la création intellectuelle n'a plus été qu'éclairs sporadiques ici et là.

Ce fut le règne des "écoles intellectuelles" sur la pensée en général où la principale préoccupation était la remise sur pied de la pensée ancienne habillée de nouvelles exégèses, ou bien résumée et souvent traduite.

La méditation sur ces étapes permet de répondre à la question : "Pourquoi cette civilisation s'est arrêtée de "donner" ? Car il est apparu clairement que l'esprit de cette civilisation qui reposait sur l'unité d'une seule nation islamique s'est trouvé perturbé par l'apparition d'unités politiques éloignées les unes des autres. Le bien de la langue unificatrice fut le premier pilier de cette unité à se rompre.

Il était possible à la religion de demeurer un élément important de l'interpénétration raciale que cette civilisation s'était efforcée de réaliser, mais son orientation vers un but sectariste (particulièrement dans l'affrontement entre les Séfivides et les Ottomans) a approfondi au contraire la scission des races. La régression de la création intellectuelle a conduit cette civilisation à un point de stagnation, car elle attendit trop longtemps pour revoir le changement de collaboration donné à l'ancienne civilisation et son habillement d'oripeaux nouveaux sans changer sa nature et sans chercher à brûler au contraire les étapes en propulsant vers une étape nouvelle différente. Un long moment s'écoula donc, pendant lequel la vitalité interne avait tari et il devient impossible de la renouveler sous une autre forme. Et c'est ainsi que se refroidirent certaines institutions et organisations intellectuelles - certaines matérielles - et devinrent incapables d'un renouveau.

Il apparaît que la civilisation elle-même a été atteinte du sentiment d'autosatisfaction et de contentement de soi, sentiment mortel pour la capacité d'emprunter aux autres civilisations et de reproduire ces emprunts.

Cette incapacité d'assimuler et de reproduire est apparue précisèment au moment où il fallait affronter une nouvelle civilisation, diffèrente par son esprit, parce que s'appuyant surtout sur la science, c'est-à-dire la civilisation occidentale.

Il faut reconnaître ici que cette civilisation se fondait sur la force des armes, et tout emprunt ne signifiait pas assimilation et reproduction autant qu'il signifiait imitation du vainqueur. Nous avons vu dans l'histoire de notre civilisation comment l'imprégnation par d'autres civilisations était chose facile sous la logique de souveraineté qui était celle de l'Islam, dans tous les temps. Quand cette logique eut périclité et que se furent effondrées les forces politiques qui protégeaient le développement de la civilisation, notre emprunt à la civilisation européenne est devenu celui du vaincu au vainqueur.

Il a pris une autre signification qui est la perte progressive de l'identité distinctive.

La situation n'offrait pas de choix ; c'est pourquoi la réaction contre l'assimilation par les courants nouveaux a été plutôt un accroissement du sentiment d'autosatisfaction et en même temps qu'une "jubilation" à l'égard des réalisations du passé. C'est là une attitude naturelle, même si son résultat ne peut-être qu'un sous-développement plus grand par rapport à une civilisation qui apparaît comme un flot ininterrompu. Les représentants puissants de cette civilisation ne pouvaient évidemment pas accepter que des emprunts soient faits en vue d'une édification autonome fondée sur la force matérielle. (expérience de Mohammed Ali en Egypte). Ils ont pu essoufler tous les mouvements révolutionnaires qui visaient à renouveler l'Islam et la souveraineté islamique, ils ont vidé le djihad islamique de son contenu, divisé "dar al Islam" en petites unités, et ils ont failli liquider dans certaines zones les liens linguistiques. Ils ont encouragé et approfondi les tendances régionalistes afin d'aggraver le clivage entre les régions.

En traitant de l'histoire de la civilisation musulmane, nous nous appuyons sur un panorama s'étendant sur une large surface de la terre et englobant la participation de nombreuses nations. C'est la raison pour laquelle nous sommes souvent amenés à penser que le sous-développement constitue un profond abîme, parce que nous représentons notre situation à travers l'image d'entités régionales étroites.

Lorsque ces entités régionales seront en mesure de dépasser cette existence étriquée vers une unité dans les différents domaines, et en premier lieu la langue, alors la logique de souveraineté prendra tout son sens dans le développement et le progrès de la civilisation. Le penseur algérien Malek Bennabi, que Dieu ait son âme, a attiré l'attention sur un point important de ce contexte, à savoir que la civilisation ne peut pas nous tendre son âme, ses idées, ses richesses propres et ses goûts, comme nous ne pouvons pas quantitativement prendre tous ses "miracles", sinon ce serait accumuler une "civilisation d'imitation" au lieu de bâtir une civilisation authentique (13). Cette accumulation va à l'encontre de la reproduction dont notre civilisation a été capable. Il me semble pourtant que cette accumulation ne peut se transformer en reproduction que sous l'aide d'une certaine souveraineté qui tranquillise les esprits sur la conservation de la personnalité générale. Si le monde musulman est toujours sous le coup des divisions qui ont vu le jour à la suite de la conquête mongole (ces divisions se sont même accentuées quantitativement et qualitativement depuis), le monde arabe est combien digne grâce à ses grandes potentialités, d'œuvrer pour l'édification d'une civilisation complémentaire et cohérente. Quant à savoir comment cela se fera, et quelles sont les facteurs favorables ou contraires qui encadrent cette entreprise, c'est là un problème que ne permet pas cette brève étude".

(13) Malek Bennabi : "Les conditions de la renaissance et les problèmes de civilisation". p. 46 (traduction Abdessabour Chahine et Omar Meskari - Le Caire 1957).

IDENTITE ET AUTHENTICITE DANS L'OUVERTURE DE L'UNIVERSALITE

de son Excellence Abdallah BEN BIH
Ministre de la Justice
MAURITANIE

Louange à Dieu Clément et Miséricordieux.

Excellence et frère, Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses.

Messieurs les Conférenciers.

Mes frères Etudiants.

Frère Ministre,

Il m'est agréable, avant de commencer cet exposé, de vous remercier, de m'avoir donné l'occasion de participer à cet important Séminaire, devenu, grâce à votre envergure personnelle, à la haute qualité de son organisation et aux soins que vous lui accordez, une référence sûre pour la Révolution générale et effective de ce pays frère dont les hauts faits du passé et les réalisations du présent sont pour nous un sujet de gloire que nous souhaitons se perpétuer à travers d'autres succès et d'autres victoires sous la clairvoyance du commandement de la Révolution.

J'ai choisi de traiter ici, parmi les sujets inscrits au programme de ce séminaire, un sujet important qui touche à l'orientation dans notre société et qui intervient directement dans le débat culturel qui se déroule actuellement dans nos différents cercles intellectuels depuis plus d'un siècle, ou plus précisément depuis l'intervention du colonialisme dans nos territoires arabo-musulmans, et le jour où s'est mis à poser la fameuse question « Comment sont-ils devenus forts et sommes-nous devenus faibles ? Comment nous ont-ils dominés par leurs flottes, par leurs plumes et par leurs idées ?

Notre drame est que, après même qu'ils nous aient quitté physiquement et que nous les ayons battus militairement dans certaines parties du territoire arabo-islamiques, nous n'arrivons pas encore à trouver de réponse à cette question ou que nous n'avons pas réussi à trouver les réponses ou les solutions qu'on proposerait comme bonnes à mettre partout en application.

Nous avons tant besoin d'une réponse de ce genre, surtout à un moment où les signes précurseurs d'une renaissance politique et économique de la nation arabo-islamique et du tiers monde d'une manière générale, commencent à apparaître depuis les évènements militaires et politiques intervenus dans ces régions et que l on a procédé à récupérer avec détermination ses ressources naturelles.

Ces évènements ne sont, en vérité, que des tentatives pour se reconnaître soi-même et reconnaître sa véritable révolution.

Si cette renaissance, n'arrive pas à s'appuyer sur un fonds culturel et ne trouve pas une base intellectuelle solide qui lui donnerait toute sa dimension sociale, elle ne peut réaliser ses objectifs.

Ceci dit, je n'aborderai pas ce sujet par le biais des formulations philosophiques qui ne tiendraient compte d'aucune expérience pratique, ni à partir de critères qui trouveraient leur fondement dans la science de la logique et de l'abstraction. J'essayerai au contraire d'exprimer simplement les sentiments de quelqu'un qui s'observe, qui essaye de reconnaître les indices de soi par rapport à eux des autres afin qu'il puisse être en accord avec ce soi-même dont il est le contenant et avec autrui puisqu'il vient de le reconnaître.

Je parlerai donc de l'authenticité et de l'universalité.

« Al-Açala » (authenticité) est un mot arabe tiré du verbe Açala. On dit açala as-say (être originel, authentique) c'est-à-dire avoir des origines connues. C'est pourquoi les Arabes disent : Mâl-acîl (fortune originelle) Faras acîl (jument de race) par opposition à fortune récente. Et comme al-açala révèle une notion de noblesse, le cheval de race ou noble est celui qui est dans ce cas capable de préserver l'être de celui qui le possède. Dans ce cas en synonyme est talîd (né dans les écuries du propriétaire).

Mais la définition de Açala est beaucoup plus difficile quand il s'agit d'un homme, d'un peuple ou d'une société. En effet, peut-on considérer un peuple comme originel (acîl) dès l'instant qu'il a conservé une certaine norme culturelle ou certaine qualité personnelle en s'y conforment pendant un certain temps ? Ou est-ce que être originel consiste à s'adresser uniquement à son génie personnel quand il s'agit de penser ou de réfléchir ?

Dans le domaine de la pensée et de la culture est-il possible de distinguer ce qui est à soi et ce qui est aux autres d'une manière précise ? La culture de notre société n'est-elle pas un mélange de cultures où la part de l'autre (l'Occident) n'est qu'une partie impossible à dissocier ou à considérer comme marginale pour pouvoir le séparer provisoirement de ce qui nous est propre ou qui devait nous être propre ? N'est-il pas resté de notre culture authentique — si on arrivait un jour à l'isoler de la culture contemporaire qu'une nostalgie pour un passé révolu ? Quelles sont les idéologies qui ont été authentiques ? Quel est l'authentique dans notre histoire arabo-musulmane ? Notre histoire n'a-t-elle pris différents habits ? et différentes coiffures ? N'a-t-elle pas porté la tunique persane et la calotte turque et autres.

Qu'elle est parmi les idéologies parues récemment dans le monde arabe celle qui est authentique ? Peut-on considérer la doctrine Wahabite originelle ? Parce qu'elle réclamait le retour aux sources dans le domaine de la religion et du droit ? Ou est-ce que c'est

la doctrine des nationalistes (qawniyyïn) propagée au XIX[e] siècle par Al-Yâzijī et El-Kawakibi qui est originelle ? Est-ce que le réformisme lancé par les Jamal ed-Dine al-Afgâni, les Mohamed abduh et les Ben Badis est originel ?

Enfin, est-ce que ce que nous disons nous ici n'est pas autre chose qu'une répétition de ce qu'a été déjà dit ?

Ferions-nous peut être mieux avant de définir ce que c'est qu'al-Açala, de répondre brièvement à certaines de ces questions.

Nous dirions alors que toutes ces doctrines sont à considérer comme des tentatives partielles dont le but est de mettre en évidence soi-même et d'avoir une vision par soi-même. Donc elles sont toutes originelles. En effet votre histoire a comme plusieurs formes de civilisation puisqu'elle a été l'interprête de la civilisation grecque, mais à cette époque nous avions en mains le pouvoir temporel et spirituel.

A mon avis, on ne peut donner une définition exhaustive au mot al-açala tant qu'on a pas essayé de décrire l'état intellectuel qui a procédé l'état d'al-açala et qu'on n'a pas comparé le concept al-açala par le concept aliénation. Ainsi en opposant les deux concepts on arrive à les définir. C'est ainsi qu'on peut seulement définir al-açala comme étant une attitude sentimentale et positive d'un peuple qui ayant perdu sa liberté et sa dignité avec tout ce qui s'en suit à une époque où les distances ont retrécies et où les moyens d'information avec ce qu'ils entrainent comme vacarme et aveuglement envahissant tout, ne résiste pas devant un vainqueur qui lui aliène toutes aptitudes de pensée et d'adaptation libres et personnelles. L'attachement d'un peuple à sa personnalité, son désir de voir le monde à travers soi-même et son refus systématique de se soumettre à un style qui lui a été imposé est bien al-açala (authenticité).

Al-Açala donc c'est la liberté, c'est la confiance en soi-même comme étant capable de s'imposer à soi-même et à autrui. Par cette définition, on peut considérer al-açala comme une des dimensions du non alignement tel qu'il a été défini par la conférence d'Alger de 1973, puisque il s'agissait d'un refus systématique devant la domination politique, économique et militaire. Ce qui est considéré comme une nouvelle définition du concept non-alignement et qui lui a donné une vitalité nécessaire à son existence. Refuser au départ les idées et les opinions qu'ont étaient façonnées dans milieu et dans des conditions qui ne sont pas les notres est donc la véritable définition du concept al-açala. Cette définition nous permet d'éviter de tomber dans la stagnation dont on nous accuse souvent et qui est due au fait que l'Açala prêche le retour au passé avec sa philosophie qui défini l'univers comme étant le passé, le présent comme produit du passé et qui s'en inspire pour construire l'avenir.

Le refus est celui qui rejette l'imitation servile ou comme le nomme Ibn Khaldoun : « L'imitation du vainqueur par le vaincu ». Nous sommes appelés à prendre position précise conformément aux impératifs que vous dictent votre personnalité et par nos intérêts.

Le refus que nous désignons ici n'est pas un refus négatif mais un refus positif. Il ne signifie pas sclérose mais égalité entre tous les hommes qui doivent tous avoir la possibilité de penser sans que certains ne soient obligés de suivre les modes de penser que d'autres ont façonné pour eux et qui constitue la véritable aliénation.

Il n'y a aucun mal à emprunter ici à Marx son opinion. Marx qui, d'ailleurs n'a pas connu nos problèmes et leurs particularités pour pouvoir leur envisager des solutions. Nous le citons non pour l'approuver car tel n'est pas notre dessein ici mais pour saisir un des sens du mot aliénation que nous voulons expliquer. En effet après avoir exposé les trois aspects de l'aliénation : l'aliénation religieuse, l'aliénation politique et l'aliénation économique, il aborde l'économique et dit que le travail de l'ouvrier est aliéné car celui-ci sent que son travail n'est pas volontaire mais fait sous la contrainte. Il est condamné aux travaux forcés. Ce travail est accompli non pour satisfaire un besoin mais un moyen pour satisfaire un autre besoin.

Ne peut-on pas voir dans les structures intellectuelles et culturelles des autres exercer sur nous une certaine pression et sur notre personnalité une certaine contrainte, puisqu'elles nous orientent dans des sens qui ne répondent pas à nos besoins mais au contraire elles exercent une pression sur le fond de nos esprits et de nos âmes et nous empêchent de respirer l'air pur, le tout sous le couvert d'une prétendue action civilisatrice destinée à des peuples sauvages, ou bien au nom de l'universalisme.

Au début de ce siècle, certains orientalistes ont répandu l'idée qui consiste à dire que nous étions incapables de créer ou d'inventer parce que nous étions sous-développés ou parce que notre esprit sémitique à côté de l'esprit arien ne peut être que débiteur, ou imitateur.

S'attacher à son Moi, essayer de voir sa réalité à travers soi-même, refuser les clichés préparer à l'avance et avoir confiance à sa personnalité propre, peut constituer des composantes d'al-açala. C'est pour cette raison qu'on les retrouve toutes ou en partie dans les discours et les attitudes des penseurs et des dirigeants politiques des pays arabes et des pays du tiers monde.

Je vous épargne le temps en évitant d'étaler devant vous les opinions des auteurs arabes depuis le XIX[e] siècle et depuis que la nation arabe est ébloui par la lumière de la civilisation européenne et aussi depuis que les écoles du réformisme musulman et du nationalisme arabe ont commencé à diverger. Je prendrai donc des exemples dans le tiers monde essayant de ne pas tomber dans le cercle vicieux qui consiste à distinguer ceux qui possèdent une culture classique des autres. Car nous pensions que tous les peuples possèdent leur culture quelque soit le degré de son évolution et quelque soit son caractère primitif.

Je citerai al-Mahatma Ghandi qui, s'il était resté fidèle à l'âme occidentale tel qu'il a été éduqué par la culture anglaise, et s'il n'était pas retourné à son originalité pour en tirer ce dont il a besoin dans son comportement, n'aurait jamais pu vaincre l'empire britannique qui avait atteint l'apogée.

Le refus était net dans son comportement comme il était net dans le poème d'Ibn Badis face à la politique française qui tendait à l'assimilation.

Chez les peuples africains nous constatons le même refus ainsi Nekrumah disait dans sa philosophie du Moi.

« Notre philosophie doit trouver ses hommes dans le lieu et le temps que vit le peuple africain ».

Il a définit sa philosophie comme étant l'ensemble organisateur des forces qui permettraient à la société africaine d'assimiler les éléments culturels étrangers et autochtones en les transformant de manière à les confondre avec la personnalité africaine.

La méthode de Kwamé Nekrumah qui consiste à assimiler les éléments culturels par le biais de la personnalité africaine est une façon d'insister sur la nécessité de voir à travers le Moi et de refuser les modèles préparés à l'avance.

Quant à Sanghor, il va plus loin quand il dit : « Il existe une sensibilité africaine, une manière africaine de comprendre les choses. La vision qu'ont les africains du monde, c'est ça l'africanité ».

Il y a aussi pour le continent africain l'expérience algérienne (comme exemple). Puisque les habitants de ce pays dont le nombre a atteint 12 millions ont procédé au changement de tous les noms des villes et des personnes que l'occupation étrangère leur a laissés. Il en est de même pour les autres réformes entreprises ici parmi lesquelles nous citons la récupération des richesses naturelles et qui ont été faites au nom d'*al-açala*. Et quelques soient les divergences qui existent entre ceux qui sont attachés à cette idée et dont certains en font même une idéologie culturelle et ceux qui en sont contre et qui la considère comme une attitude réactionnaire. Le dénominateur commun entre ceux-ci et ceux-là reste toujours le refus et l'attachement au Moi.

Al-Açala invite les uns et les autres à travailler et à créer, car réhabiliter sa personnalité exige que cette personnalité soit forte et munie de tous les moyens de protection qui lui assureraient le développement et la continuité, surtout à une époque ou le faible est menacé de disparition systématique sans compter les complots qui se trament contre les sous-développés pour les maintenir dans leur état et les empêcher d'être au même niveau que les détenteurs des monopoles industriels.

Al-Âçala peut être considérée comme un des facteurs qui ont toujours été à l'origine des mouvements de libération qui ont éclaté ici et là. Car le colonisé refuse d'être considéré comme une continuation de la personnalité morale et physique du colonisateur.

C'est ce que refusent les habitants des colonies portugaises en Afrique. C'est ce qu'ont refusé l'Algérie, les Arabes et les Africains hier. Que l'origine de ce refus soient les structures économiques et sociales déplorables — et elles sont réellement déplorables sous la domination. Il n'en demeure pas moins que l'attachement des peuples colonisés à leur personnalité et à leur culture est aussi derrière ce refus.

C'est cette al-açala même qu'on retrouve comme facteur important dans les initiatives de récupération économique et industrielle.

En un mot, al-açala est une attitude positive et un principe vivant, qui influence notre comportement quotidien. Il ne s'agit pas d'un retour au passé, ni d'une nostalgie du passée. Il s'agit du présent et de l'avenir riches du patrimoine et de l'expérience du passé.

L'universalisme signifie qu'une idée ou un fait quelconque se rattachent à l'humanité et non à un monde donné qu'on a convenu d'appeler ainsi, tel que le monde arabe par exemple.

Le terme « monde » en arabe ne signifiait autre chose qu' «universalité et humanité». C'était un synonyme d'univers ou selon les expressions des anciens philosophes toutes sortes de substances et de contingences.

Laissons de côté le sens de ce terme du point de vue conceptuel et voyons ce qu'il nous vient à l'esprit, quand on dit de quelque chose qu'elle est universelle. Il s'agit de ce qui appartient à l'humanité entière mais comment une chose peut-elle appartenir à l'humanité ? L'homme est universel parce qu'il est le même en tout lieu. Il a des problèmes et des préoccupations semblables. Telle est sa nature. Mais existe t-il une civilisation universelle dont les particularités de l'unité de l'homme dans les attributs essentiels de sa nature. Si on considère que la civilisation est tout ce qui est œuvre et création consciente de l'homme, quelles soient intellectuelle, matérielle, artistique ou littéraire, est-il possible pour autant d'affirmer, que l'humanité a convenu consciemment de fonder une civilisation à partir de schémas et de critères librement choisis par tous ce qui n'a pas été réalisé à notre époque, malgré la réduction des distances, l'enchevêtrement des intérêts, l'abondance des moyens d'échange de communications et d'informations.

On peut affirmer que dans certains domaines de la civilisation actuelle, le monde emprunte des voies pouvant être identiques et se répandant en plusieurs points sans pour autant se confondre. Dans le domaine scientifique et technique par exemple, on peut parler d'un quasi universalisme, bien que le résultat de la technologie n'ait pas transformé le monde, même celui industrialisé en un monde unique.

Nous sommes en présence d'une société industrialisée qui se retrouve en Europe Occidentale et en Amérique et de plusieurs sociétés industrialisées en Europe Orientale. Et même ces dernières dont l'idéologie est commune, n'arrivent pas à se détacher de leurs

particularités nationales, c'est dire de leur « Açala » (authenticité) les moyens techniques sont certes identiques, car les sources de la science et de la connaissance humaines sont les mêmes. Néanmoins les spécificités, les mentalités et les philosophies des sociétés ne sont pas nécessairement analogues.

S'il n'est pas possible à la technologie de s'ériger en une civilisation mondiale unique, nous sommes en droit de nous demander, s'il existe un autre domaine où on peut prétendre à l'universalité. La publicité faite autour de l'universalisme a été à un moment donné, un moyen pour amener la jeunesse cultivée à se détourner des valeurs et des traits spécifiques, qui distinguent sa personnalité nationale, en faveur des prétendues valeurs universelles de l'Occident, lequel constituerait le centre de l'univers, et qui a pu fonder une civilisation rationnelle, dont les bases seraient la science et l'humanisme, si bien que certains auteurs européens, ne se gênent pas pour dire que la seule culture universelle est l'œuvre de la bourgeoisie occidentale et qu'en dehors d'elle, il n'y a que de pseudo-cultures qui se rattachent à des organisations sociales ou à des groupements nationaux.

Ils ajoutent que cette culture s'est complètement détachée de la classe pour laquelle elle a été créée. Cependant nous constatons que cette Europe même n'a pas échappé à la règle puisque ses peuples sont restés différents les uns des autres du point de vue particularisme malgré le rapprochement dans le niveau de vie ce qui était pour les dires des auteurs européens eux-mêmes, en particulier Lévi Strauss qui a démontré les divergences qui existent entre les Etats européens surtout voisins et l'impossibilité d'une universalisation qui aligneraient les gens comme jetons.

Cela est applicable même au Marxisme qui est fondé sur l'application matérialiste de l'histoire et qui refuse par conséquent, la division du monde nationaliste. Les classes étant les seules à être prises en considération ici. Lénine en abordant la question des nationalités a déclaré que le Marxisme n'approuve guère le système des nationalités indépendantes par contre il croît simplement à tout ce qui conduit aux particularismes nationaux et aide à briser les obstacles.

Les successeurs de Lénine avec à leur tête Staline ont cependant pris une orientation. Ce dernier reconnait que (la nation est un groupement d'individus stable constitué au cours de l'histoire à partir d'éléments convergents tels que la langue, la terre, la vie économique et les particularités psychiques.

Les adeptes du Marxisme forment aujourd'hui des mondes multiples ; et authenticité a pris le pas sur les principes philosophiques officiels.

Pour tout cela ne faudrait-il pas chercher alors une universalité nouvelle où participeraient les peuples qui étaient mineurs : les peuples du tiers-monde, son contenu sera choisi librement et d'un commun accord en tenant compte de la vision particulière de chaque peuple.

Le respect des particularités et la personnalité de chaque peuple constitue une contribution effective à la construction d'un monde bâti sur l'égalité et la liberté, libère certains du complexe de supériorité et permet au prisonnier d'hier de mettre les pieds sur sa terre et de réfléchir par son propre esprit.

C'est à ces conditions seulement que l'universalisme peut être fondé sur des bases acceptables.

Toute grande civilisation qu'elle soit basée sur la religion ou sur la philosophie tend toujours à l'universalisme. Mais la vraie civilisation universelle est celle qui reconnait l'existence des particularités et des différences et qui les utilisent pour construire le pont sur lequel elle placera l'humanisme et la reconnaissance mutuelle ; tout cela parce qu'elle croît à la justice absolue et au Dieu unique et qui se trouve énoncée dans le saint verset : « O homme ! Nous vous avons créé d'un mâle et d'une femelle. Nous avons faits de vous des peuples et des tribus afin que vous vous reconnaissiez, les plus nobles pour Dieu sont les plus pieux ! ».

Telle est l'universalité qui contient al-açala comme l'une de ses bases et le considère comme l'une de ses sources. Cette universalité là s'appuie sur les efforts de chaque peuple avec une égalité parfaite et une reconnaissance mutuelle.

Conclusion.

L'authenticité adoptable ne se contredit pas avec la vraie universalité qui ne peut être digne de ce nom que si elle est faite avec la participation de tous les peuples et qu'elle reflète fidèlement l'ombre et les caractéristiques des personnes le tout dans un esprit d'égalité et de liberté. Ce qui lui assurera l'armonie et lui évite tous complexes résultant de la pression d'une nationalité dominante.

A ce moment seulement nous atteindrons une universalité humaine et un humanisme universel.

S. E. Abdallah BEN BIH
Ministre de la Justice
MAURITANIE

L'HISTOIRE, RENCONTRE DE L'AUTHENTIQUE ET DE L'UNIVERSEL

Conférence du Dr. Yvonne TURIN
Professeur à la Faculté des Lettres
Université d'Alger

Le cinquième point du programme de la huitième semaine de la Pensée Islamique : « Identité et authenticité dans l'ouverture et l'universalité », a tant de rapports à l'histoire qu'on pourrait presque dire qu'il en procède et qu'il en résulte. Les notions d'identité, d'authenticité d'une part, d'universel d'autre part n'ont, en effet, de sens appliqué à un groupe humain, que dans une société qui a fait sienne l'utilité de la conscience historique et qui confie même à cette inspiration élaborée un rôle actif, pour ne pas dire quelquefois même une responsabilité créatrice. Inspiration élaborée, choisie, préparée peut-on dire, parce qu'elle est reconstruite, mais aussi parce que l'identité, l'authenticité et même l'universel sont des notions relatives, qui se définissent par rapport à quelque chose ou par comparaison à quelqu'un, en tout cas dans une relation. On n'est pas identique ou authentique en soi, mais par rapport à quelqu'un, en n'est pas universel dans l'absolu, mais face à quelque chose qui ne l'est pas. Aucun de ces concepts ne se suffit à lui-même. Ils s'animent dans la mesure où l'histoire apparait et les charge de réalité en les décrivant et en leur fournissant un contenu.

On peut donc se demander : premièrement dans quelle mesure l'histoire fournit une base à l'authentique ? — en insistant sur le point d'interrogation, ce qui sera la première partie de cet exposé, puis comment l'histoire exige aussi l'universel pour acquérir sa dimension plénière. Et ce sera la seconde partie.

Cependant, avant d'entreprendre cette double étude, nous voudrions faire quelques remarques sur l'emploi et le sens des notions qui sont ici proposées à notre réflexion.

I) - *Réflexion sur les mots.*

Identité et authenticité d'un côté, ouverture et universalité de l'autre. Posée ainsi la question qui nous occupe, établit d'abord un contraste et presque une contradiction entre ces deux couples de mots en même temps, elle suggère un voisinage, un parallélisme entre les termes de chacun de ces ensembles. Contraste et voisinage ne vont pas, cependant, sans une certaine ambiguïté.

Qu'appelle-t-on, en effet, authentique ? Un tableau, une monnaie sont authentiques s'ils ne sont pas falsifiés. Une copie, une imitation sont le contraire de l'authenticité. Ils sont des faux. L'authenticité est donc le contraire du faux par imitation : le vrai, d'une certaine manière. Il évoque l'inimitable et l'inimité, donc le particulier et le propre à chacun. Individuellement ? ou en groupe ? Là est le problème.

L'identique apparait alors en contradiction avec l'authentique puisqu'il affirme au contraire la ressemblance, la similitude et d'une certaine manière : la copie, donc la reproduction. Il s'appuie tout entier sur l'imitation. Dans un mouvement inverse de la notion d'authenticité qui met en relief l'unique et l'incomparable, l'identité tend au contraire à la conformité et à la fusion dans un ensemble. De sorte que le parallélisme établit entre les deux termes exige quelques nuances et quelques précautions, et dans l'emploi des termes quelques précisions.

De même, l'opposition suggérée entre l'authentique et l'universel, doit être également éclairée. Si le faux, comme nous venons de le voir, et l'universel sont ensemble le contraire de l'authentique comme le texte le laisse entendre, cela pourrait vouloir dire que faux et universel sont synonymes : l'universel deviendrait, de cette manière, l'équivalent d'une contre-façon et d'une copie sans origine. On ne voit guère, alors, comment il pourrait, ne serait-ce qu'espérer, sa réhabilitation. Toute tentative d'accéder à l'universel pourrait alors être accusée de falsification de soi-même, et l'authentique ne serait plus que l'isolement indispensable se confondrait presque avec la prison. La discussion serait close avant de commencer.

Je crois qu'il faut résister à cet effet de contraste et convenir que l'authentique et l'universel ne sont pas, en fait, des termes dialectiques. L'universel ne dialogue pas avec la copie et l'erreur, mais bien avec la notion de particulier, de différence, et l'histoire est là pour observer cette conversation.

C'est ainsi qu'ayant clos cette parenthèse, nous retrouvons notre sujet. Cette brève analyse était, cependant, utile pour préciser, dans la mesure du possible, notre vocabulaire.

II) - *Etude de l'authenticité et de l'universalité en Histoire.*

L'histoire, donc, me semble apparaître comme la base de l'authentique. Puis, dans la mesure où elle est connue, elle est ensuite appréhendée comme norme de référence et sert

désormais de point de repère à « l'identité ». Cette proposition est-elle vraie ? A-t-elle elle-même une histoire ?

Avant de répondre à la première question, étudions la seconde qui nous ramènera naturellement à la première.

A) La notion d'histoire et celle d'authenticité nationale, continentale ou autre, qu'elle véhicule ne sont pas des données absolues et, pour autant, immuables. L'histoire et la notion de passé historique représenté autrement que comme une série d'exploits guerriers plus ou moins légendaires du genre, en Europe, des chansons de gestes, sont des notions récentes. Plus récent encore le concept historique qui a donné naissance à celui de nation, lequel, en Europe également, appartient, en fait, au XIX[e] siècle. Cela veut-il dire que les époques dépourvues de cette hypersensibilité historique étaient privées du sens de l'authenticité parce qu'elles ne se référaient pas à un passé ? Leur authenticité était ailleurs. Simplement, elles s'affirmaient autrement.

Quelques exemples pour éclairer notre pensée, et montrer comment la notion d'authenticité a, elle-même, une histoire.

Louis XIV se considérait comme si glorieusement roi de France que l'attribut de Roi-Soleil ne lui semblait pas excessif. Mais roi de quelle France ? Quelle pouvait être, dans cet esprit royal, l'image de la France quand il en parlait ?

Eh bien ! tout d'abord, Louis XIV ne parlait pas de la France, mais du royaume de France, et ce qu'il affirmait ainsi, c'était une dimension territoriale, une propriété, une confirmation de propriétaire. Il ne désignait absolument pas un espace habité par une certaine sorte de gens, je dirais presque qu'il se référait à une notion cadastrale, à un espace inscrit sur le registre notarial que représentait les traités signés par ses prédécesseurs, espace qu'il avait été chargé de gérer et de conserver — quitte à l'agrandir — tel qu'il avait été légué par ses ancêtres. La France, faite royaume, était ainsi une chose qui n'était point encore tout à fait hexagonal, mais qui, en tout cas, n'avait qu'un lien secondaire avec les Français.

Aussi se souciait-on peu de l'origine de ces Français dont « l'authenticité » se définissait par rapport au roi de France : on n'était pas Français en fonction de sa relation avec un passé, mais selon sa ressemblance, son identité au souverain du royaume. Cela était vrai de tous les autres royaumes d'Europe et de bien d'autres encore. De sorte que ceux — les Français — dont la ressemblance n'était pas jugée satisfaisante, étaient expulsés de ce royaume — de France, et invités à adhérer à quelques royaumes mieux en conformité avec leur authenticité propre.

Mais le roi lui-même ne considérait-il pas sa personne comme inscrite dans un long passé historique dont la connaissance aurait été indispensable à sa propre affirmation ? Tant de seigneurs et tant de peuples avaient travaillé à rassembler ces terres sur lesquelles ils régnaient ! Il n'en était rien.

Supposons un courtisan bien intentionné, à la recherche de quelques prébendes, saluant le souverain à son petit lever ou à son grand coucher (les courtisans chanceux assistaient au lever et au coucher du roi) et commençant ainsi sa requête : « Sire, les ancêtres gaulois de votre majesté... ». Duc ou baron, le malheureux risquait fort d'en être quitte pour quelques mois de forteresse. Quel audacieux pouvait s'autoriser à insulter le prince et l'accuser de descendre d'une sorte de barbares.

Vous voyez quelle différence avec ce qui se passe 200 ans plus tard. Car chacun sait que, sous la III[e] République un manuel d'histoire presque officiel enseignait alors à chaque petit Français qu'il avait « les gaulois pour ancêtres », et cela non parce que le prince avait disparu mais parce que les ancêtres avaient émergé de l'histoire pour une sorte de seconde vie. Changement de perspective historique ? Non pas, mais découverte de l'histoire.

Si l'on pousse plus loin encore le paradoxe de cette analyse, on peut concevoir le Roi-Soleil acceptant la remarque : « Sire, votre ancêtre le roi Clovis... », car Clovis avait fait des Francs des chrétiens, ou du moins avait ouvert la porte au Christianisme, mais à n'en pas douter le courtisan bien inspiré aurait dit à Louis XIV « Sire, vos ancêtres les romains... ». Et, en effet, ce roi de France choisissait pour passer à la postérité d'apparaître dressé sur un cheval, à la manière romaine, et revêtu du costume de César, vainqueur de ces mêmes gaulois, et tel que le général conquérant figure à la tête du cortège les conduisant en prison.

Les meilleurs écrivains de son temps analysaient les sentiments de Titus, impérator et de Bérénice, et citaient en exemple à leurs contemporains le courage des Horace, défenseurs de Rome, et point du tout celui de Vercingétorix défenseur des gaules. Quelques années auparavant, ce sont les grands seigneurs, en révolte contre leur souverain, qui s'exerçaient à copier les héros de Plutarque, tirés également de l'histoire antique (1).

Ainsi, ce XVII[e] siècle considéré comme si authentiquement français et si chrétien se donnait-il pour modèle à la fois des romains étrangers et des païens... Vous sentez combien la notion d'authenticité, de lien à un passé historique était pour lui différente de ce qu'elle peut être pour un Français du XX[e] siècle, et combien cette authenticité a, elle aussi, une histoire.

Tout cela veut-il dire que Louis XIV et ses contemporains s'imaginaient qu'entre les romains et eux, il n'y avait personne. Evidemment non, mais cela montre que ceux qui, cependant, avait fait le royaume de France, ne les intéressaient pas. C'est là une certaine conception du passé historique qui, simplement, n'est plus la nôtre.

(1) Les "Vies" parallèles de Plutarque sont les vies de héros antiques écrites à titre exemplaire.

Un autre exemple, pris à un autre bout du monde et à une autre extrémité du temps, le nôtre, révèle la même relativité, la même historicité de la notion de passé historique : il s'agit cette fois de la Chine Populaire. Comme le précédent, cet exemple montre un choix parmi les tranches du passé, choix clair et élaboré cette fois, voulu et parfaitement conscient ce qui n'était pas le cas dans l'exemple précédent. Dès 1915, on lit dans la revue « Nouvelle Jeunesse » du Parti Communiste chinois cette recommandation : « La tâche de la nouvelle génération est de combattre le confucianisme, la vieille tradition de vertus et de rites » ou bien plus clairement encore, il faut déchirer le filet de l'histoire passée et détruire la prison des idées anciennes » (2).

De sorte que l'histoire de la conception du passé historique aboutit ici à une destruction partielle, voulue et considérée comme indispensable de ce passé devenu, lui-même, encombrant. Découverte, l'histoire est représentée comme un «filet», comme une «prison», c'est-à-dire comme un obstacle à la vie présente. Elle doit, alors, s'effacer. L'histoire « déchirée », la boucle est en quelque sorte fermée qui retournait à un peuple sans histoire. Le tout est de savoir, si, aujourd'hui, la chose est encore possible. Ou bien s'il ne s'agit pas plutôt. d'une contre histoire.

Ces exemples avaient pour but, en tout cas, de montrer que la notion de passé historique, celles d'authenticité ou d'identité qui s'y rattachent, sont plus complexes, plus variées, plus différentes selon les temps, qu'on aurait pû a priori le penser.

En même temps, nous avons répondu à la première question que nous posions au début de cette première partie de notre exposé : à savoir que l'histoire est bien utilisée comme manière de référence, et nous avons découvert que la façon de s'y référer non seu lement avait changé, mais continu de le faire.

En tout cas, c'est au XIX^e siècle que l'histoire a explosé en quelque sorte dans la vie des hommes, en Europe, mais aussi peu à peu partout ailleurs. C'est, il y a un peu plus de 100 ans que les enfants ont eu, à l'école, entre les mains, en Occident, un livre d'histoire qui ne soit seulement celui de l'antiquité ou bien de « l'histoire sainte ». C'est alors que chacun est allé à la découverte de ses ancêtres, essayant de les connaître le mieux possible, et procédent en quelque sorte à une véritable résurrection. Alors, Celtes, Germains, Numides, Wisigoths, Francs, Arabes etc... ont déferlé dans la mémoire des élèves qui est devenue, par là, une mémoire historique. En même temps, grandissant le rôle, mais aussi la responsabilité, de l'historien. Mais cela serait une toute autre étude.

De sorte que si nous posons maintenant la question : Qu'est-ce qu'un Anglais authentique, un Français authentique, un Algérien authentique, la réponse devient plus difficile et surtout moins évidente. Elle serait peut-être plus commode si nous nous demandions qu'est-ce qu'un chrétien authentique, un musulman authentique. Encore n'est-on pas chrétien de la même façon au XX^e siècle ou au moyen-âge.

(2) Le Monde, début février 1974.

Une expérience très intéressante serait de demander à chacun d'entre vous de rédiger 5 ou 6 lignes sur la façon dont il conçoit le Français authentique. Je suis sûre qu'un Français y apprendrait beaucoup et s'y découvrirait bien différent de ce qu'il s'imagine être lui-même. Mais même si vous m'interrogiez moi-même sur mon « authenticité », que vous répondrais-je ? Suis-je la fille spirituelle de Descartes, de Bossuet ou de Robespierre, de Proudhon ou de Maurras, si je regarde plus près de moi. Parmi mes ascendants est-ce le rationaliste qui domine, le théologien, le révolutionnaire décidé à défendre coûte que coûte la révolution et la patrie qui l'incarne, ou bien le théoricien socialiste auquel s'oppose le doctrinaire d'un nationalisme ombrageux et replié sur lui-même. Ce sont là quelques courants issus du passé, mais il y en a tant d'autres. L'authenticité est-elle un dosage ou bien au contraire un choix, ou simplement, une inspiration, un exemple puisé pour un ailleurs nécessaire ? Je vous pose la question.

B) Nous savons, maintenant, que l'authentique est un produit de l'histoire. Le lien entre l'histoire est l'universel qui conduit à l'ouverture — n'est pas moins grand, mais il n'est pas, non plus, évident.

Constatons, d'abord, que l'histoire immédiate ne connait que le particulier, le contraire de l'universel. Il n'y a, en histoire, que du particulier. Par exemple, il n'y a pas de Monarchie, il n'y a que DES monarchies, pas de République, mais DES républiques et même pas de Nation, mais uniquement DES nations. La liste est indéfinie. De même les notions de guerre, de révolution : l'histoire ne connait que DES guerres et DES révolutions.

Mais, si l'histoire était incapable de s'élever au concept qui à partir des républiques permet de définir la notion de république, à partir des guerres cette abstraction qu'est : la guerre, et ainsi de suite, elle révélerait un passé resté atomisé et sans aucune intelligibilité. L'historien doit, dans sa réflexion, utiliser le cadre habituel du travail de l'intelligence. Mais il crée aussi, pour exercer son métier, des formes nouvelles de relation qui, en accroissant l'intelligiblité de l'histoire en développe la compréhension et par conséquent la valeur universelle. Nous dirons que l'historien enrichit le concept d'universel par la façon dont il utilise la causalité, la notion de temps et d'autres encore. Expliquons-nous.

La Chronique récite des faits, elle énumère, tout au plus raconte-t-elle l'immédiat, comme la concierge raconte sa rue. L'histoire recherche les liens, les rapports, elle établit des ressemblances, des différences : elle crée et elle utilise la notion de cause, si importante que celle-ci devient presque l'histoire elle-même. Causes immédiates, causes lointaines surtout, qui enveloppent les faits d'une trame qui leur donne un sens. Par là, se constitue une grande fresque qui dessine l'histoire universelle — sinon il n'y aurait que de petites histoires — et qui permet d'accéder clairement à la notion d'Humanité, exemple même du concept d'universalité. Ainsi dit-on que dans la mesure où l'histoire n'est que particulière, elle ne se renouvelle jamais, mais que dans la mesure où elle est l'universel, elle est un perpétuel recommencement.

Mais l'historien utilise encore dans son métier d'autres concepts où le particulier et l'universel s'associent à nouveau et toujours avec l'intention de dégager des phénomènes d'ensemble : par exemple les notions de courte et de longue durée ; un exemple concret, un phénomène historique de longue durée : l'évolution des mondes traditionnels hapés par la roue du changement. A l'intérieur de ce mouvement général des mouvements plus courts, plus réduits, plus circonscrits : la Renaissance en Europe, et à l'intérieur même de celle-ci, le phénomène de la Renaissance Italienne par exemple. Dans cette perspective chaque évolution régionale au lieu de se découvrir absolument singulière, s'aperçoit qu'elle s'accomplit à l'intérieur d'un mouvement d'ensemble, lequel ne lui enlève pas son originalité, mais lui permet, en regardant ailleurs, d'échapper à sa solitude en reconnaissant chez d'autres, au présent comme au passé, des difficultés comparables. Ces allées et venues dans le temps et l'espace, que l'historien ne manque pas de faire, sont justement une des formes d'intérêts de l'histoire.

C'est ailleurs, à l'extrémité de ce processus que se situe l'histoire comparée, qui finit même, quelquefois, par réduire la trame historique aux seules considérations universelles, comme c'est le cas, par exemple, dans l'œuvre de Toynbée (3). L'histoire comparée est le triomphe de l'universel.

Enfin, toujours dans cette analyse des méthodes propres à l'histoire, l'historien se réfère implicitement et constamment à la notion d'homme, expression même de l'universalité. L'histoire est toute entière fondée sur un dialogue entre le même et le différent, entre le Même et l'Autre. C'est là un acte de confiance fondamental dans l'existence d'une relation possible entre ce même et cet autre et, donc, dans la croyance en l'universalité du comportement humain, en la possibilité d'une compréhension réciproque.

La rencontre de l'autre ne peut avoir lieu sans la certitude d'un minimum de ressemblance qui permet de se comprendre. A quoi bon, si je suis un allemand du XX^e^ siècle m'intéresser à la Chine antique, si je considère de Chinois d'un autre âge comme absolument dissemblable. A quoi bon, pour un Africain, essayer de déchiffrer l'Europe, s'il n'existe aucun lien, aucune nature commune entre l'un et l'autre. A quoi bon pour moi, européenne, parler devant un auditoire que ne l'est pas, si nous ne devons absolument pas nous comprendre. Car la différence introduite par le temps est de même sorte que celle créée par la distance et l'espace à une même époque.

Il n'est pas sûr d'ailleurs que je sois plus proche d'un Français du XIII^e^ siècle et peut être même du XVII^e^, que d'un Africain d'aujourd'hui. Ainsi, l'histoire fait-elle constamment appelle à un minimum commun, elle croit à des échanges possibles, aux relations humaines, elle nie, par son existence même, l'isolement absolu que certains considèrent comme infranchissable. (Je ne cherche pas ici à présenter une analyse philosophique mais simplement à décrire un procédé). Elle croit à l'universel.

(3) Historien Anglais contemporain.

Mais ce n'est pas seulement par ses méthodes que l'histoire atteint et pratique l'universel. C'est elle, aussi, qui lui donne un visage et qui cesse d'en faire un courant d'air. D'une part, elle donne, à ces généralités, un contenu. D'autre part, en révélant à chacun la vie, les habitudes, les angoisses des autres, l'histoire découvre à chaque homme, l'existence de ses semblables, celle d'un prochain peut-on dire, si éloigné soit-il dans le temps et l'espace. Elle découvre des solidarités ignorées et quelquefois neuves. Elle apprend que l'universalité historique n'est pas toujours la même, ou, en tout cas, que des universalités nouvelles peuvent apparaître. Ainsi appelle-t-elle à l'ouverture. Rien ne serait plus surprenant qu'un historien inapte à s'ouvrir et même qui ne serait pas avide de différence : il aurait l'air de se tourner le dos à lui-même.

Reprenons ces deux derniers points. Et d'abord, grâce à l'histoire l'universel s'anime. Il prend forme et visage. Chaque jour nous employons des termes généraux qui désignent des moments du temps, soit des morceaux de l'espace, soit encore des institutions ou des formes de la culture. Voici pêle-mêle : les peuples primitifs, la Renaissance, les Perses, les tribus, le classicisme, l'état, les chrétiens, les Européens, les Arabes. Ce que chacun de nous se représente en prononçant des mots dépend très exactement de ses connaissances historiques et c'est au fur et à mesure que l'histoire devient plus précise que, pour tous, historien ou non, la représentation en devient plus vivante et plus chargée de sens. Je ne voudrais pas avoir l'air de vous conseiller d'apprendre l'histoire, mais sans le dire, c'est bien ce que je voudrais faire. Il n'y a pas d'autre moyen pour échapper au vide de tout un vocabulaire général, et, quelquefois, pour savoir de quoi l'on parle.

Cela nous conduit tout naturellement à notre second point : en donnant aux mots leur sens exact et leur sens plein, l'histoire révèle l'universalité de la vie. Sous des formes indéfiniment particulières, elle raconte une seule et même histoire, composée des mêmes éléments : organisation des groupes, des familles, des tribus, des états. Elle dit ainsi que tous les hommes ont vécu en société. Si non, ils ne sont point hommes. Tous aussi se sont efforcés de transmettre leurs connaissances, tous ont cherché à mieux connaître le monde qu'ils habitaient.

Ainsi, tous les groupes humains ont une histoire de la pensée. Leur réussite est variable. Les uns ont perfectionné la géométrie et les autres l'imprimerie. Certains ont tiré parti de ce que d'autres avaient déjà découvert : les Chinois ont inventé la poudre, mais les Européens s'en sont servi. Les Arabes ajoutaient à leurs sciences celles des Grecs : les Européens y ont puisé et ont continué. Pasteur a prouvé l'existence des microbes, le monde entier s'est emparé de ses connaissances, etc...

L'histoire dit que tous les hommes, et cela dès le début, se sont efforcés d'échanger leurs produits et, par là, d'améliorer les conditions matérielles de leur vie. Enfin, dans tous les temps et tous les lieux, les hommes se sont posés la question de leur origine et de leur fin : les réponses ont été différentes, mais l'inquiétude universelle.

L'histoire révèle encore que la solidarité a été aussi grande dans le mal que dans le bien : toutes les sociétés ont connu la guerre, toutes les formes de surveillance et de domination, tous les mensonges des hommes à d'autres hommes. De sorte qu'à ceux qui, aujourd'hui, se demandent : l'homme a-t-il jamais existé ? L'historien répond qu'il a rencontré un être qui, partout, a toujours eu un minimum de comportement comparable.

Evidemment, certaines de ces solidarités peuvent être plus accentuées à certains moments et leurs formes variées avec le temps. L'histoire souligne et apprend que les similitudes changent et que de nouvelles convergences apparaissent. Par exemple la cité antique est une unité autarcique, c'est-à-dire un petit état étroitement fermé sur lui-même. Les solidarités y sont internes d'abord. L'universel .commence là par un échange intérieur Cependant, quand elles ne se font pas la guerre, les cités grecques se rassemblent dans la compétition : sc sont les Jeux Olympiques. Ceux-ci sont une forme de solidarité, la reconnaissance de règles communes, celles des lois du jeu. Mais déjà apparaissent des solidarités nouvelles qui font éclater le noyau principal : la solidarité des nantis de part et d'autre des frontières, celle aussi des esclaves. Solidarité de classes, disons-nous aujourd'hui contre la solidarité d'états.

Au moyen-âge, on retrouve ce même jeu entre les relations verticales et horizontales : la féodalité puissante maintient les liens verticaux, la féodalité affaiblie rapproche les bourgeois de plusieurs seigneuries ou les seigneurs de plusieurs royaumes. Le XVIII[e] siècle à tendance à faire éclater les frontières, il est volontier cosmopolite, du moins en Europe.

Les hommes, les idées circulent facilement et cette aération explique la fermentation exceptionnelle de la pensée. C'est alors que Montesquieu écrit « Je suis homme d'abord et Français par hasard ». Il affirme ainsi, pour lui, la priorité de l'universel sur le particulier. Il réfléchit en même temps sur rapport de ces deux termes et, déjà, il critique ceux qui confondent LEUR particulier avec l'universel, ou qui croient que ce particulier là ; le leur, doit nécessairement devenir l'universel. « Comment peut-on être Persan ? » Car, en effet, il y a des Persans !... C'est-à-dire les AUTRES. Cette manière ironique de poser la question critique, en tournant en ridicule, le questionneur.

Mais au XIX[e] siècle la tendance communautaire et cosmopolite éclate a nouveau et les nations se cloisonnent comme, sans doute, elles ne l'avaient jamais été. D'autres solidarités naissent alors : bousculent une fois encore les frontières, ou du moins le proclament : « Travailleurs unissez-vous », « Paysans unissez-vous ». On ne crie pas « Bourgeois unissez-vous » parce qu'on pense que l'union est déjà faite...

Dans l'actualité, une autre tendance apparait. Ce ne sont plus seulement les frontières des états qui sont mises en cause, mais celles de la société. Au nom d'un particulier absolu, réduit au moi unique, au nom d'une authenticité absolue du moi seul, on refuse le cadre social, pour créer une solidarité sans contrainte qui serait, enfin, au-delà, pense-t-on parfaitement humaine. L'authenticité n'est plus alors comprise que par rapport à soi-même.

Je conclus : l'histoire n'existe que par la rencontre du particulier et de l'universel, et de même la vie. Seul, le particulier conduit à l'isolement, au cloisonnement et finalement au silence. Acculé à la répétition, le dialogue avec soi-même s'éteint. C'est le monde de Sartre réduit à l'absurde de la solitude.

La victoire de l'universel est également pauvre : l'uniformité, en supprimant le dialogue et l'échange, engendre, elle aussi, un monde muet. L'histoire alors se tait — c'est à dire le bourdonnement de la vie humaine (4). Cependant, suivant les époques, les hommes ont préféré se tourner, d'abord, vers eux-mêmes, se recueillir ou se fermer selon qu'on prend cette attitude en bonne ou en mauvaise part, ou bien, au contraire, regarder les autres d'abord et donner la préférence à l'ouverture.

L'histoire nous apprend aussi que la vie, la croissance, n'existent que par le dialogue entre le même et l'autre, entre l'identique et l'universel. Le repli sur soi est un réflexe de peur : l'Espagne en 1898, la France en 1870, le monde Arabe colonisé. Sures d'elles mêmes, la France du XVIII[e] siècle, l'Angleterre du XIX[e] siècle, l'Amérique du XX[e] siècle ne semblent jamais avoir assez appris des autres.

Mais l'histoire affirme autre chose encore : se fiant à sa puissance et se moquant des calculs humains, elle déclare tout d'un trait que la copie n'existe pas, que l'homme est incapable de copier, le voudrait-il absolument, et que seul l'authentique existe pour lui, qu'il n'y a que des hommes authentiques, c'est-à-dire ressemblant à eux-mêmes. Deux hommes identiques, fussent-ils père et fils, mais à plus forte deux peuples identiques n'existent pas. L'homme navigue ainsi souverainement, indéfiniment, nécessairement et quels que soient les conseils reçus ou les craintes émises, entre le particulier et l'universel.

Professeur à la Faculté des Lettres
Université d'Alger
Dr Y. TURIN

(4) Nous n'avons pas abordé le problème des mass-media qui aurait pu faire l'objet d'une autre communication.

ENTRE L'AUTHENTICITE ET LA CONTEMPORANEITE

Conférence du Dr Zaki Nadjib Mahmoud
Professeur de logistique (phihlos.)
à l'Université du Caire

Je n'hésite pas un seul instant à décider que le plus important des problèmes dans notre vie culturelle actuelle c'est la tentative de découvrir, pour notre vie spirituelle et pratique, une formule qui unirait entre elles deux parties : elle préserverait nos caractéristiques arabes authentiques et, en même temps, nous ouvrirait les portes grandes ouvertes afin que nous puissions accueillir largement les fondements de la civilisation moderne telle qu'elle est vécue aujourd'hui par ses pionniers.

Nous n'aurons rien gagné de la vérité si nous devons nous contenter, sur ce plan, de prononcer du bout des lèvres, quelques mots qui n'émaneraient pas de nous par conviction et par foi. Il est très facile, en effet, pour celui qui parle, de prétendre réunir les deux qualités à la fois ; l'appartenance à l'arabisme authentique et l'appartenance à la civilisation de l'époque. En procèdant à une analyse objective et précise de sa vie effective, on constate, en ce qui le concerne, trois états : ou il est dépourvu des bases authentiques de la culture arabe se contentant, dans sa vie, d'éléments épars qu'il a réunis deci-delà parmi les formes apparentes de la culture occidentale, ou il s'est imprégné d'une culture arabe pure au point que les portes de l'époque se sont fermées à lui et qu'il ne sait rien de cette époque, ou alors il a présenté un autre vide des deux cultures à la fois, et il n'appartient donc ni à l'une ni à l'autre.

Ces trois aspects qualifient, à mon sens, la grande majorité des fils de la nation arabe. Quant au quatrième aspect qui est celui de l'arabe qui a réuni en son entité une unité organique ordonnée qui se tient dont les composantes sont constituées par des bases essentielles du patrimoine arabe et par d'autres bases essentielles de notre époque actuelle, on ne le rencontre que chez un petit nombre que l'on peut presque compter, dans l'ensemble de la patrie arabe car, en réalisant cette véritable réunion des deux cultures dans une même vie, ils se sont distingués de la masse d'une manière visible.

La position de la nation arabe d'aujourd'hui dans la civilisation se concentre en deux questions qui, si on y répond correctement, font apparaître la réalité de cette position d'une façon nette sans aucune ambiguité.

La première question est la suivante : « Quels sont les éléments les plus importants auxquels nous faisons allusion lorsque nous parlons de la «personnalité arabe authentique ?» Quant à la deuxième question c'est celle-ci : « Quels sont les éléments les plus importants qui composent la structure de la culture moderne ? ».

Après avoir répondu à ces deux questions, nous aurons en face de nous deux situations. Il nous sera aisé par la suite, de rechercher le moyen de former un composé qui réunirait ce qu'il serait possible d'intégrer parmi les éléments des deux situations sans qu'aucune d'elles perde quelque qualité essentielle qui mettrait en cause son existence même.

Commençons par notre première question : Que sommes-nous par rapport à l'authenticité ? Quelles sont nos composantes qui, si elles se concrétisent en un individu ou en un groupe, nous permettent d'affirmer qu'il est authentiquement arabe sur le plan culturel ? Je ne compte pas que la réponse soit exhaussive, concernant ces composantes, de sorte qu'aucune d'elles ne soit oubliée.

Contentons-nous d'une partie seulement des composantes fondamentales et nous aurons pris la bonne voie dans nos recherches.

La première des caractéristiques de l'attitude arabe qui me vient à l'esprit c'est la ferme croyance en deux niveaux de l'existence, de sorte qu'il nous est absolument impossible de les confondre dans nos réflexions : il y a d'une part l'essence divine créatrice et, de l'autre, l'univers des êtres, créatures de cette essence divine, parmi lesquelles il existe un être que son Créateur a décidé de distinguer pour transmettre au monde un message qu'il a été chargé de porter et de répandre. Cet être c'est l'homme.

C'est dans ce cadre général que se définit le point de vue arabe authentique et, de ce principe de base découlent des conséquences.

On peut dire que l'homme est un être moral, c'est-à-dire qu'il est chargé d'affirmer, dans son comportement, des valeurs morales déterminées qui lui ont été dictées et qu'il n'a pas choisies de lui-même. Il n'a pas le droit d'en éliminer une partie ou d'y ajouter quoi que ce soit qui irait à leur encontre.

Etant donné que cette mission morale n'aura sa pleine signification que si l'individu est responsable de ses actes, cette responsabilité morale, par rapport à chaque individu pris séparément devient pour lui une chose obligatoire à laquelle il ne peut échapper et il n'est pas permis à un individu de l'assumer à la place d'un autre.

On peut trouver d'autres systèmes dans les autres cultures. Il y a même, à notre époque, deux autres systèmes qui ne concordent pas avec l'attitude arabe que nous avons indiqués. L'un d'eux affirme que les lois morales, comme les autres, sont engendrées par la vie réelle. Ce qui est confirmé par l'histoire comme étant utile, nous en faisons une loi morale à partir de laquelle nous organisons notre comportement, et ce qui apparait nuisible, nous le rayons de la liste des actes agréés. Mais étant donné que l'utile et le nuisible changent avec les circonstances, nous devons considérer les principes moraux comme étant relatifs et non point absolus de telle sorte que nous soyons prêts à en changer ce qui doit l'être afin qu'il ne fasse pas obstacle à la progression avec les exigences de l'époque et de sa civilisation.

Tel est l'un des deux autres systèmes quant au second, ses adeptes affirment que la question, ici, n'est pas subordonnée à une avance ou à un recul dans la voie de la civilisation mais qu'il s'agit de l'homme et de sa liberté absolue de prendre la décision qu'il veut à condition qu'il soit responsable de cette décision. Personne, ni au-dessus, ni à côté de lui, ne lui dicte ce qui est obligatoire et ce qui est permis. C'est à lui que revient l'initiative de sa décision, initiative non précédée par un principe formulé par un autre que lui.

Il est évident que l'attitude arabe authentique est différente des deux systèmes à la fois sur le plan du principe et de la base ; même si elle s'accorde avec eux sur le résultat, elle diffère du premier système qui met le bon comportement humain sur le compte des expériences cependant que l'attitude arabe affirme la priorité du principe moral sur les expériences. Ce qui est juste est juste et ce qui est faux est faux, compte non tenu du succès ou de l'échec des expériences de la vie pratique. Les limites du juste et du faux ne sont pas l'œuvre de l'homme, se sont celles que Dieu a voulues pour l'homme.

L'attitude arabe est différente aussi du deuxième système qui fait que la décision humaine n'est pas précédée par un critère, car le point de vue arabe — comme nous l'avons déjà dit — affirme la priorité du critère sur lequel est jugée la justesse ou la fausseté de la décision.

Notre question, sur ce premier point, est la suivante : « Peut-on concilier le fait que l'homme soit arabe avec ce point de vue et le fait qu'il soit, en même temps, un contemporain qui évolue avec le temps et ses changements rapides ? « Je ne prétends pas ici que le problème de la conciliation — sur ce plan entre l'authenticité et la contemporanéité est chose aisée, c'est tout de même un problème qui mérite, de notre part, un long et profond examen. Car, si nous nous en tenons aux valeurs fixes établies pour nous, nous nous exposons au danger de la stagnation, et si nous vivons à notre gré avec le courant de mutation nous nous exposons au déclin de la personnalité et à sa déliquescence.

Tout ce que je puis dire à ce sujet, c'est que nos valeurs morales héréditaires sont d'une ampleur telle qu'il nous est permis d'agir dans leur cadre avec un degré de liberté suffisant pour se mouvoir au rythme rapide de notre époque. L'affaire, dans ce domaine,

doit être analogue à celle de la formation des mots avec les lettres de l'alphabet. Les lettres sont déterminées et leur nombre connu. Et pourtant, il nous est possible de construire avec ces lettres des mots par millions de millions si nous le voulons. Pourquoi ne pourrions-nous pas affirmer que nos principes moraux héréditaires sont des bases sur lesquelles nous pouvons édifier un nombre incalculable de façon d'agir ?

Ces valeurs héréditaires se retrouvent dans les noms sublimes de Dieu, car ces noms, comme le dit l'Imam Al-Ghazali, forment des attributs qui sont absolus pour Dieu le Très Haut et qui, par ailleurs, sont relatifs et limités en ce qui concerne l'homme. En lisant ces noms vous saurez ce qu'on exige que vous soyez : on exige par exemple que vous soyez très savant, très clairvoyant, doué d'une bonne ouïe, que vous soyez capable, très patient, que vous possédiez enfin toutes les qualités suprêmes

Qu'est-ce qui peut donc empêcher de suivre son temps avec toutes ces qualités ? Qu'est-ce qui peut m'empêcher d'être au courant, par le savoir, la clairvoyance et l'ouïe, des réalités de mon époque et des exigences de la vie ? d'être capable, sage, patient, fort et bien instruit ? Alors que ces qualités font partie de celles qui sont exigées de moi en vertu de ma foi ? Tout ce qui m'est demandé dans ce domaine c'est de saisir, pour chaque qualité, les sens qui se rapprochent le plus de l'époque aux fins de posséder le savoir de cette époque, sa capacité, sa puissance, sa sagesse ,etc...

Parmi les caractéristiques de la culture arabe, il a aussi ce ferme désir, chez l'homme, de s'élever au-dessus du monde des évènements variables pour recouvrir à ce qui est stable et permanent.

Toute chose sur terre et dans le ciel est éphémère et passagère, en perpétuel changement, en perpétuelle mutation. Pourquoi s'attache-t-on à elle alors qu'elle est incapable de se maintenir par elle-même ? N'y a-t-il donc aucun havre sûr, à l'abri des tempêtes de l'anéantissement, de la transformation et du changement perpétuel d'un état à un autre, pour nous y abriter et avoir le salut ? Si, ce genre de havre sûr existe et nous pouvons le rechercher, tant que nous serons vivants ici-bas ; c'est l'être qui constitue notre identité, c'est le « moi » qui demeure ferme quelque soit la mutation qui s'accomplit autour de lui. Ce havre sûr existe également sous un autre aspect : c'est celui de la vie future qui est le but recherché à travers toute activité que nous exerçons dans ce monde.

Tel est l'arabe qui, à son point de vue, recherche la pérennité par l'intermédiaire des phénomènes passagers et qui veut dompter le temps et dompter la mort. Quant au temps qui varie avec ses évènements, il le dompte en le quittant pour ce qui est intemporel par sa nature et pour recouvrir à son essence qui est intemporelle, de même qu'il espère en une vie future qui n'est pas soumise non plus aux facteurs du temps. Si la réalité, toute la réalité, résidait dans ces choses variables, changeantes, éphémères et passagères que nous voyons dans ce qui nous entoure, l'univers serait — du point de vue de l'arabe — une vanité totale.

Ce point de vue n'est pas celui de notre époque actuelle. Les doctrines philosophiques contemporaines sont presque toutes d'accord pour tout analyser selon les phénomènes variables sans croire à une existence pour aucun être stable au-delà de ces phénomènes. Cette table devant nous n'est qu'un ensemble de phénomènes apparents à nos sens de la vue et du toucher. On peut dire ainsi de toute chose y compris l'homme lui-même.

L'être humain de son côté n'est qu'un ensemble des phénomènes que les autres voient en lui ou que sent lui-même dans son intimité sans qu'il n'y ait au-delà de ces phénomènes abondants une essence stable qui dure avec le temps. On peut même dire ainsi de tout l'univers d'un seul bloc. Cet univers n'est qu'un océan de phénomènes en perpétuelle liaison ou séparation entre eux sans qu'il n'y ait rien au-delà.

Une telle vue du monde vient seulement à la suite de la vue scientifique rigoureuse qui fait partie des caractéristiques de notre époque. Notre question, cette fois, est la suivante : « Comment puis-je admettre la vue scientifique rigoureuse pour suivre mon époque et demeurer en même temps attiré par l'inconnu au-delà de la vision où m'est assurée l'éternité et la pérennité pour garder cette marque arabe à mon point de vue ? » Je dirais encore une fois : Je ne prétends pas que le problème de la conciliation, ici, est chose aisée c'est comme le précédent, un problème qui exige de nous une longue et profonde réflexion.

Je préfère que la solution soit que nous vivions dans deux mondes qui se complètent et ne s'opposent pas à condition de ne pas permettre à l'un d'intervenir dans le domaine de l'autre. Nous vivrions dans l'un d'eux, notre vie scientifique avec tout ce qu'elle implique, mais au lieu de dire que cette vie scientifique nous suffit pour notre monde, nous devons dire qu'à côté de cette vie scientifique, il y en existe une autre où il y a les espérances, les idéaux, le havre et l'abri. Si dans les moments scientifiques de ma vie, je concentre ma vue sur les seuls phénomènes pour en dégager les lois en dépit des variations de ces apparences, je ne manquerais pas, dans les moments spirituels de ma vie, de me débarasser de l'habit de la science pour me consacrer à la jouissance et à l'espérance. Sans cette séparation rigoureuse entre les deux mondes, il nous est impossible de concilier le scientifique de l'époque et le mysticisme de l'origine héritée.

L'occident lui-même a perçu ce genre de problème et y a cherché une issue en dressant une frontière séparant la science d'un côté et l'art de l'autre. Si l'homme est contraint, dans sa vie scientifique, de se lier par la réalité telle qu'elle est par les phénomènes tels qu'ils se présentent à ses sens, il a, dans l'art, un vaste domaine où il lui est loisible d'agir pleinement à son gré, car dans l'art, il peut ne pas se lier par une réalité et se créer une nature autre que celle qui le heurte par ses phénomènes.

C'est à partir de là que sont nées les écoles de l'art moderne qui s'accordent toutes sur un point commun, à savoir qu'il n'est pas demandé à l'artiste de peindre la réalité mais qu'il doit créer pour lui-même ce que son imagination le pousse à créer. Le fait de s'affran-

chir des liens de la réalité objective compensera pour lui, dans sa vie scientifique, les liens qui ne lui assurent pas ce qui doit répondre à ses vœux et à ses espoirs.

En disant de la culture de l'Europe et de l'Amérique actuelle que c'est une culture dominée par le rationnel de la science, vous aurez vu juste et, en disant que ce qui la domine c'est l'irrationnel des belles lettres et de l'art, vous aurez également vu juste. Car le rationnel et l'irrationnel se côtoient pour compenser leurs insuffisances mutuelles. Et si tel est le cas, à quoi aboutirions-nous si nous devions choisir de faire côtoyer le rationnel de la science et la croyance métaphysique dans une même vie ? Nous aurions, ce faisant, suivi notre temps par le premier côté et noué le lien de parenté entre notre patrimoine et nous par le second côté.

Cependant, dans son désir de dépasser le réel variable pour ce qui est au-delà du réel dans son immortalité et son éternité, l'arabe authentique reste étonnamment attaché à l'espace immuable. Il est, avec l'espace environnant, dans un dialogue ininterrompu. Il y a un mouvement dialectique lié dont les deux parties sont l'homme arabe et son espace. Toutefois, c'est une dialectique qui n'aboutit pas à l'intégration des deux parties dans un même composé, c'est au contraire, une dialectique qui maintient à l'être humain la maîtrise de son thème.

Toute la nature, pour l'arabe, est le théâtre de l'action et du mouvement. Elle est pour lui le champ de bataille et de lutte, l'arène de sa chevalerie et de son héroïsme. Le désert qui entourait, l'arabe était pour lui une source de frayeur et de beauté à la fois. Il craint sa sévérité et ses inconnues mais, en même temps il se recueille presque devant sa grandeur avec la ferveur des adorateurs. Et de là, le désert a été pour lui un champ de lutte et d'aventure de même qu'il a été une source d'amour, de poésie et de chant. Il scrute tout ce qui l'entoure comme espace — terre et ciel — avec tous ses sens.

Il le scrute par la vue, par l'ouïe, le toucher, l'odorat et le goût sans rien omettre, depuis les rats de la terre jusqu'aux étoiles du ciel. Mais il scrute tout cela pour s'en servir et le dominer. L'arabe ne se référait pas pour son action dans la nature environnante à des ouvrages légués par des prédécesseurs. Il se référait au contraire au livre même de la nature, parcourant ses pages, lisant puis comprenant. La science de la nature n'était pas faite pour en jouir et remplir les loisirs. C'était une question de vie et pérennité. Abou Hayyan At-Tawhîdy affirme dans son livre « Al-imtaâ oual mou'ânassa ».

« Les arabes n'ont pas de prédécesseurs auxquels ils s'adressent ni de livre qui les guide. Ceux sont des habitants d'une contrée désertique, dépeuplée. Chacun d'eux a eu besoin, dans sa solitude, de son esprit, de sa vue et de sa raison. Ils ont su que leur nourriture devait leur venir des végétaux de la terre. Ils ont donné à chaque chose son signe, l'ont attribué à son espèce et ont appris à connaître l'utilité des plantes vertes et des plantes sèches, leurs périodes et leurs époques et ce qui est utile parmi les ovins et les camelins. Puis ils ont observé le temps et ses variations, et l'ont divisé en printemps, été, automne et hiver.

Ils ont ensuite su que leur boisson venait du ciel. Ils ont donc déterminé les pluies Ils ont connu les variations du temps et ont défini leurs places dans l'année. Ils ont eu besoin d'expansion sur terre et ont fait des étoiles du ciel des signes pour les parties de la terre et ses contrées. Et grâce à elles, ils ont parcouru les territoires et ont établi entre eux une chose par laquelle ils s'abstiennent des actes blamables et qui, par ailleurs, les incite à désirer le beau... De telle sorte que l'un d'eux qui se trouve dans la plus vilaine des terres décrit les vertus sans rien omettre dans les attributs qu'il leur donne et ne lésine pas dans le dénigrement des défauts.

Cela nous dépeint l'arabe parcourant les contrées de la terre et, avec son regard, le ciel, attaché à travers cela, à des valeurs qui l'orientent vers le vertueux et le beau. Où cette image arabe s'accorde-t-elle et où se désaccorde-t-elle au moment où elle se heurte à la position de la civilisation moderne à l'égard de la nature et des valeurs qui orientent l'homme dans sa marche ? L'accord vient de l'intérêt pour l'univers et ce qu'il contient, intérêt qui ne se borne pas aux limites de la découverte des réalités pour elles-mêmes. C'est un intérêt qui vise l'utile et veut éviter le mal. Quant au profond désaccord, c'est que l'arabe ne veut de la nature que le fait d'être un champ d'action et de volonté.

Cependant que l'homme de civilisation occidentale, en général, ajoute à cela ce qui peut être plus important à savoir que la nature soit un domaine pour l'efficience de la raison d'analyse et de synthèse. Ce n'est donc pas un hasard si nous avons trouvé dans les philosophies de l'occident moderne des théories de la connaissance (épistémologie) qui définissent le rapport théorique entre l'homme connaissant et les thèmes connus alors que nous ne trouvons presque pas, dans tout le patrimoine arabe philosophique, de théorie de la connaissance de ce genre. La pensée arabe s'est préoccupée de la volonté et de son analyse parce que c'est un instrument d'action et de mouvement beaucoup plus que de la raison et de son analyse parce qu'il y a vu un moyen d'efficience spirituelle pour l'homme alors qu'il est assis sur son siège.

Que devons-nous faire, nous les arabes contemporains, pour concilier, dans ce domaine, l'authentique hérité et le nouveau contemporain ? Je pense que le chemin, devant nous, est clair ; c'est un chemin éducatif dans son fondement. Nous n'avons qu'à initier nos jeunes à préserver leur héritage dans l'entrainement de la volonté ferme et dans l'ambition et l'aventure pour y ajouter par la suite un autre entrainement au raisonnement et à l'examen théorique.

Si notre époque se distingue des autres époques précédentes par une marque, cette marque de distinction c'est sa pénétration dans le monde du rationnel — lequel constitue le monde des sciences de tous genres — d'une façon qui ne laisse aucun des aspects de la vie ni aucun des coins de la terre — j'allais dire : et des contrées du ciel — sans y apporter son influence, en partant du fait que l'esprit scientifique contemporain ne se contente pas, de nos jours, de ce qui lui était suffisant hier, c'est-à-dire de se cantonner

aux limites de la théorie mathématique. Au contraire, il s'obstine à se concrétiser dans des appareils et à répandre ces derniers dans toutes les contrées de la terre pour transformer la vie des hommes d'un état à un autre.

Nous n'avons plus d'autre issue que de suivre ce courant scientifico-technique. Si nous sommes des gens d'action, de mouvement et de volonté du côté de l'authenticité, nous devons ajouter cette nouvelle page à notre entité. Et, comme je l'ai dit, cela ne peut se réaliser que par la voie de l'éducation d'abord pour que nous puissions créer la vue qui ne laissera pas l'action, le mouvement et la volonté abandonnés au hasard, mais en tiendra fermement les rênes pour les conduire sur la voie qui mène à la formation d'une science et d'hommes de science dans ce sens moderne et nouveau.

En dernier lieu — cela aurait dû être dit en premier lieu, mais je l'ai reporté par suite de son évidence meme — l'authenticité de l'arabe part du fait qu'il parle une langue arabe. Nous n'avons donc pas d'autre alternative que de préserver cette langue par la bouche de ses fils et la plume de ses écrivains. Elle est la carte d'identité qui fait de l'arabe un arabe. C'est une évidence qui, je pense, ne suscite aucune controverse. Mais je passe à ce qui doit s'en suivre car elle n'apparaît pas à tous avec toute cette évidence. C'est-à-dire que si nous devons vivre avec notre époque, nous devons verser cette époque avec tout ce qu'elle renferme de sciences et de belles lettres dans le creuset de la langue arabe. Je veux dire qu'il faut traduire toutes les sciences modernes, de même que la littérature et la philosophie de l'époque. Ainsi, autant nous pouvons jeter de matières de l'époque dans le moule de notre langue, autant nous aurons pris une part de contemporanéité.

L'époque ne se limite ni à un seul peuple ni à un seul territoire. L'époque c'est l'Amérique, c'est l'Angleterre, c'est la France, l'Allemagne, la Russie, le Japon et tous les autres pays qui marchent dans leur sillage. Mais cette même époque revêt dans chacun de ces pays un habit confectionné par ce pays lui-même pour qu'il en fasse un membre sans que le changement de l'habit constitue une raison de modifier quoi que ce soit des signes du temps. Des habits qui diffèrent selon les pays qui tiennent les rênes de la civilisation à notre époque, ne sont que les différentes langues. Le Français par exemple a versé le produit de l'époque dans sa langue française et est devenu par là-même contemporain de son époque. De même ont agi l'Allemand, le Russe, le Japonais etc...

Pourtant, il m'a été donné de trouver dans notre nation des personnes qui s'opposent à la traduction des sciences, croyant que seul convient à ces sciences l'habit anglais, français ou autre parmi les langues des nations développées. Je ne peux, à ce sujet, que répéter qu'autant que nous aurons apporté à l'habit arabe du produit de l'époque, autant sera notre part de la contemporanéité. L'authenticité dans ce domaine c'est la langue arabe qui est la notre et pas celle d'autre que nous et qui est aussi un héritage reçu de nos ancêtres, et la contemporanéité, c'est de jeter notre époque dans son moule.

L'histoire arabe est comme un fleuve abondant, qui conserve son identité depuis des millénaires malgré la course de ses eaux de sa transformation, jour après jour ou plutôt d'un instant à l'autre. Ce qui préserve au fleuve son identité c'est son maintien dans un même cours. Et c'est ainsi que nous voulons que soit notre vie : lui conserver le cadre fondamental général et le point de vue essentiel, puis renouveler le contenu qui remplit ce cadre ou préoccupe ce point de vue toutes les fois que les époques successives amènent des civilisations successives avec, pour chacune, un contenu nouveau.

Ce sont donc quatre points où, si vous le préférez, quatre domaines que nous avons cités. Dans chacun de ces domaines, nous avons une position authentique profondément enraciné dans notre patrimoine et à laquelle s'oppose une position contre la civilisation contemporaine.

Nous avons essayé de montrer comment, dans chacune des quatre situations, la conciliation peut se faire entre deux contraires. Premièrement, nous avions une attitude déterminée à l'égard de Dieu, de l'univers et de l'homme, qui a entrainé un point de vue déterminé sur les principes moraux lequel point de vue n'est pas celui de la civilisation en cours. Nous avons montré comment on peut colmater la brèche entre les deux points de vue. Deuxièmement, nous avions une attitude à l'égard de la réalité matérialiste qui a entrainé de notre part son dépassement vers un inconnu métaphysique et cela n'est pas admis par la civilisation actuelle. Nous avons suggéré une méthode pour sortir de cette contradiction. Troisièmement, nous avions des systèmes déterminés dans nos rapports avec la nature environnante qui ne sont pas les systèmes admis dans notre civilisation d'aujourd'hui

Nous avons cherché pour nous le moyen de rapprocher les deux systèmes. Enfin quatrièmement, nous possédons une langue qu'il faut préserver et qui garde notre patrimoine dans ces moules. Nous avons dit que nous n'avions d'autre issue que de verser le produit de notre époque dans ces moules afin que le nouveau se mélange avec l'ancien dans un même moule. Ainsi nous avons établi une sorte de plan de ce qu'il est possible de faire pour concilier l'authenticité et la contemporanéité.

Faisons à présent, ensemble, un rapide tour d'horizon et voyons ce qui s'est effectivement passé dans notre vie culturelle pour nous rendre compte jusqu'à quel point nous avons réussi dans cette intégration recherchée des civilisations. Dans le premier domaine concernant notre point de vue sur Dieu, l'univers et l'homme je ne pense pas que nous ayons obtenu un grand succès dans l'élargissement du sens de nos valeurs morales pour qu'elles s'adaptent aux innovations de notre époque.

Nous voyons que les parleurs et les écrivains parmi nos directeurs de pensée sont divisés en deux groupes dont l'un se borne à jouer de l'ancienne corde seulement et l'autre de la corde moderne uniquement. Et nous avons échoué jusqu'à présent à obtenir que la mélodie englobe à la fois le moderne et l'ancien.

Si je prononçais par exemple le mot « science », les esprits de certains d'entres nous iraient à la physique, à la chimie, etc... Et les autres à la connaissance des ouvrages et nous demeurerions ainsi dans deux camps presque totalement séparés, sauf dans les champs d'activité qui n'ont pas de lien proche avec la vie spirituelle. Et on peut dire ainsi de beaucoup de notions essentielles qui constituent les axes de la pensée et de la culture.

Dans le deuxième domaine qui concerne le dépassement du réel pour le métaphysique, hélas, je constate que nous gardons cette marque mais nous la faisons dévier de ce pourquoi elle a été créée. L'origine était pour nous de nous délivrer du monde des évènements variables, changeants et éphémères pour avoir recours à ce qui est solide et éternel. Mais nous avons fait du dépassement du réel pour le métaphysique à notre époque si une fuite du point de vue de la science vers les fausses apparences du mythe. Nous avons alors perdu et le réel et le métaphysique d'un seul coup.

Dans le troisième domaine, qui est celui du rapport de l'arabe avec l'espace, rapport dont les composantes sont comme déjà dit — l'action, le mouvement, l'héroïsme et la domination du milieu dans tous ses détails, nous nous sommes repliés sur nous-mêmes par suite des violences et des défaites que nous avons subies au cours des trois derniers siècles. Par ce repli avilissant, nous n'avons traité la nature ni comme le faisaient nos ancêtres ni comme le font les fils de la civilisation occidentale moderne. Nous avons laissé le territoire qui est sous nos pieds et le ciel qui est au-dessus de nos têtes au seul européen et au seul américain pour y faire ce que bon leur semble.

Toutefois, Dieu soit loué, nous avons pris un réveil conscient par lequel nous essayons de nous relever de notre chute. Et l'espoir est placé en une nouvelle génération qui embrasse les contrées de la patrie arabe d'un regard empreint à la fois de la tradition du patrimoine et du renouveau de la civilisation.

Quant au quatrième et dernier des domaines que nous avons pris comme base de discussion, et qui est celui de la langue, il ne fait pas de doute que nous avons déjà accompli un long parcours sur le chemin de sa résurrection avec le contenu de la civilisation moderne. Cependant, nous sommes encore bien loin du but final qui doit être, comme je le crois — de verser toutes les composantes de la science, de la littérature et de la philosophie répandues dans le monde moderne dans la langue arabe. Et nous n'aurons pas le droit de parler de notre existence dans notre époque avant de voir cette époque parler dans une langue arabe claire, éloquente.

« NOS GLOIRES PARLENT »

Poème épique sur Bijaïa par le poète du Grand Maghreb

Moufdi ZAKARIA

à l'occasion du 8ème Séminaire de la Pensée Islamique
tenu à Bijaïa du 25 mars au 5 avril 1974.

Traduction en vers
de
Tahar BOUCHOUCHI

I

Ton lac est-il légende ou fleuve paradisiaque,
rivage de verdure ?

Es-tu chanson de gloire que chante ce rivage
le long des siècles ?

Est-ce ici le cortège glorieux de l'histoire
empli de faits illustres ?

Cependant que se brisent les flots, Bellara,
intacte, entre leurs lèvres, demeure, coupe
de cristal.

Le charme de ces lieux a enchanté les vagues
le djinn Abkar moissonne leurs sortilèges.

Est-ce le Créateur suprême
qui peignit : ce paysage
reflet de sa Beauté ?

Est-ce ici la demeure de la poésie
et des rêves ?

Est-ce le temple des anachorètes
est-ce un lieu sacré ?

O magnificence du monde !
Paradis sur quoi veille le bordj d'Al-Ahmar !

Le bateau amoureux demande, dans ton sein,
pardon d'avoir aimé et dit son repentir.

Mais que dire des baigneuses ?
Car malgré ma raison et nonobstant mon âge,
j'eusse glissé vers la débauche !...

Rieuses elles s'en vont, en devançant l'écho,
plongent dans l'ivresse la guitare et la lyre.

Moqueuses, elles piétinent mon âme,
et lorsque je me plains
elles sont sourdes et aveugles.

Séduites, elles le furent par le torrent.

C'est ainsi qu'inconscient, l'on joue avec le feu !
monde de jeunes filles plein de jeux dangereux !

Doucement, ô colline Amaïmoun, n'es-tu pas
celle qui s'attendrit, celle qui s'apitoie.

Comme moi tu gardas trop longtemps le silence
alors que dans tes profondeurs
dorment de fabuleux trésors.

Il y a, cachées en toi, des choses merveilleuses
qui, inlassablement, magnifient la grandeur.

Moi, j'ai proclamé mon amour.
Révèle donc à ton tour
Ce que tu cèdes dans les entrailles terrestres.

Et répands tes secrets à travers Bab-Ellouz !
pour qu'ensuite le temps en fasse le récit.

Ordonne à Bab el-Bahr de nous faire savoir,
ce que ni narrateurs ni conteurs de veillées,
ne savent !

Ton lac est-il légende ou fleuve paradisiaque,
rivage de verdure ?

II

Toudja, douce chanson du rêve de mon âme,
village de l'amour et de la féérie.

Le temps a conservé ton mémorable charme
et toi, de ton amour, tu ne fus point guérie.

Pure et souriante, ô Toudja, tu offris
de ton sein le doux lait aux cîmes montagneuses
dont le rire exprimait la candeur rieuse,
des enfants te couvrant d'un regard attendri.

Mais voici le matin éclatant qui caresse
d'un sourire éternel, ô Toudja, tes versants.

Norius Datus en fut-il amoureux
au point d'y faire surgir des torrents abondants?

Datus, cet étranger, pour nous, est respectable.
Au service de l'homme, toute œuvre est honorable.

Interroge Oued Saher et son pic où se dresse
l'image impérissable de notre grandeur,

Interroge Adekkar et ses maquis touffus
si propices à la chasse.

Et le petit de la gazelle qui bondit,
amoureux dédaignant les oiseaux qui gazouillent ?

Il court plus rapide que le soleil qui verse,
dans ses yeux alanguis l'ivresse lumineuse.

Le soleil en ces lieux, est un baiser céleste,
que le Créateur donne.

Le zéphyr embaumé est un souffle de Dieu,
la beauté est, ici, rayonnement divin.

La lune incandescente, au ciel, est tendresse
de la main douce et irréelle du Seigneur.

Du haut de ses sommets brumeux le mont A'koud
répand sur l'univers l'annonce du bonheur.

S'il eût vécu ici, Salah n'eût jamais vu
sa craintive chamelle égorgée sous ses yeux !

O Sidi Yahia, vient donc rendre visite
à Tichi, tu verras les nymphes s'y baigner.

Les rives de Zaghouat ont livré leurs secrets,
mais à Sijli les sables sont restés muets.

III

Glorieuse Bijaïa, ô source de beauté,
lieu où souffle l'esprit, berceau de majesté !

Et toi, Ibn Illinas, bâtisseur immortel
d'une gloire impérissable, grande, inconcevable.

On a dit : « Les Romains en sont les fondateurs »
Mais les Romains ont-ils fondé rien de durable ?

C'est toi qui érigeas ce que l'on voit encore
narguant tout l'univers et défiant le sort.

Car n'était Boulimat et bien d'autres rumeurs
sur Touati, tu auras atteint la perfection.

Viens donc, Ibn Hamdis et réplique à mes vers
tant je suis passionné des vers qui se répondent.

Car c'est toi qui peignis de Bijaïa, la grâce
et sus nous en fixer la beauté si profonde.

C'est toi qui, t'inspirant de sa gloire, retrace
la vie de ses grands hommes pour l'éternité.

Quant à moi, j'ai fermé, composant mon Iliade
la route à tous ceux qui prétendaient m'égaler.

Et toi, Ibn Khaldoun, n'as-tu pas sillonné
Jadis, ces provinces du Sud jusqu'au Nord,
unissant de Biskra et de Cirta le sort,
pendant que Bijaïa bénissait l'hyménée ?

Tu fus dans ce destin l'illustre chambellan
exemple rarissime, esprit étincelant.

Car sans Ibn Abbas et son cœur rancunier
tu n'aurais point vécu, à Fez, prisonnier.

Mais le cachot n'a pas freiné ton ambition,
tant tu aimais abattre les arbres géants.

Puis, bientôt tu sentis une grande lassitude
à côtoyer des loups et tu choisis de vivre
une vie exemplaire, consacrée aux livres.

Tu délaissas le monde et le monde ravi
mesura ta grandeur !

Conte-nous donc comment, revenant de la Mecque,
Abou Madiane, un jour, débarquant à Bougie,
fut conquis par cette cité, où tant de flèches
vénimeuses se sont efforcées de l'atteindre.

Mais Yacoub l'honora, Yacoub le magnifique
dont la munificence est plus riche en bienfaits,
que ne le sont les lourds nuages bénéfiques.

O cité d'El Obbad, transmets à Bou Madiane
cet écho de ma plainte en toute humilité !

Glorieuse Bijaïa. ô source de beauté,
lieu où souffle l'esprit, berceau de majesté !

Bijaïa, toi qui es mon récit merveilleux
Dieu éloigne de toi les funestes regards !

Car si le peuple tire orgueil de tant de gloire
c'est en toi que réside l'esprit qui le guide.

Et si un jour il a besoin de témoignage
tu es, ô Bijaïa, témoin de son courage
N'as-tu pas de ton jour, illuminé le ciel
de l'Andalousie, dans les durs jours de malheur
où tant de gens allaient et revenaient sans cesse.
foules innombrables, couvrant ton territoire ?

Ils venaient s'abreuver aux sources du savoir
en un lieu où la science rassemblait les hommes,
unis, solidaires, dans la foi et l'estime,
ayant pour seul principe la concertation
comme au temps où l'Islam jeta ses fondations.

Le religion de Dieu était alors si fière
de voir ces fidèles, unis dans la prière.

La terre, répandant ses biens, à profusion
récompensait l'effort constant de la nation.

Et partout l'on voyait le bonheur et l'aisance
fruit d'un si grand effort et de tant de constance.

Et tu fus le foyer de ce rayonnement
rassemblant le Maghreb en un seul élément.

Mais pour savoir quel fut le rôle de Bougie,
voici Taâlibi, hôte du paradis.

Et Ibn Sab'in qui sut à toute polémique,
opposer fermement l'argument véridique.

Voici Ibnou Toumert dont l'opiniâtreté
affirma la vraie foi contre la fausseté,
contre les faux dévôts et les tristes passions
qui afflubaient la foi de leurs superstitions,
et imposaient les vues de leur esprit étroit
en faisant fuir les fidèles de la vraie foi.

Ils disaient : pas d'effort rationnel à fournir
et condamnaient les gens tentés de réfléchir.

Or, quel avantage, quel bien, en vérité
vaudraient, sans la raison, pour cette humanité ?

Bijaïa, toi qui es mon récit merveilleux,
Dieu éloigne de toi, les regards envieux.

Dans l'enceinte superbe, de la haute Kalaâ
je chante mes chansons pour les Banu Hammad

IV

Car du haut, de la tour, en arrêtant le temps,
j'ai demandé : "Où sont les fils de Ghaniâ

ceux qui t'ont convoitée, ravis par ta beauté
et puis voici Achir, qui regarde, debout,
comme s'il marquait la kibla des prières

et voici Bellara, le palais enchanteur
reflettant la beauté de sa princesse altière,

et le mont "Amaïmoun" qui, penché sur Nedjma
fait frissonner d'amour la fière "Louloua".

Dis-moi, Ibn Hamdis, sont-ce les reflets
de ce pur cristal qui, tes vers, inspirèrent
ou bien de Bellara, un esprit si parfait
revit-il dans tes chants, pareil à sa lumière ?

Bijaïa admirait de Sanhadja le rang
et s'attacha à lui par les hauts liens du sang ;
et ce fut là, l'esprit s'alliant à la beauté,
l'union de la puissance et de la majesté.

Demande aux Espagnols : vécurent-ils longtemps
ou disparurent-ils, bientôt, dans le néant ?

Demande à Barberousse comment il a vaincu
les Gitans ! Plût au Ciel que pour toujours ce fût.

Dis-moi, Bordj el Ahmar, si ces couleurs vermeilles
sont, de notre sang, les traces éternelles ?

Et cet encens, partout, de lutte et de combat
souffle-t-il de Hittîn ou de Antâkia ?

Ah ! Combien de torrents de sang, furent versés
par ce peuple mourant pour la patrie blessée !
Pendant que sur la mer qui est là, notre mer,
viennent nous dominer les flottes étrangères !

Qui a pu, ici-bas, à l'aimer, nous forcer ?
Et quand nous sommes-nous soumis ou abaissé ?

Nous sommes un peuple d'honneur et de foi
tant que notre ennemi n'a pas trahi la loi.
Le grand rabbin a-t-il donc oublié comment
nous avons protégé les Juifs en ce moment ?

On les voit aujourd'hui, brisant notre existence !
Ah ! S'ils se rappelaient naguère leur souffrance
à l'heure du Fascisme ou celle des Nazis !

Dans l'enceinte superbe de la haute Kalaâ
je chante mes chansons pour les Banu Hammad.

V

Je crois en les poètes et en la poésie.

Je crois aux flots ! A la Grotte Merveilleuse.

Je crois en ceux qui ont uni notre Maghreb,
et tissé de leurs mains la trame consanguine !

Je crois en Ibn Badis, en ses aïeux
qui ont produit Jawhar et érigé le Caire.
Mais toi, ô Bijaïa, fiancée de l'univers
tu es le Paradis aux parfums délicieux !
Si le monde a choisi le chiffre numéraire
en toi, ô Bijaïa, c'est toujours par ton chiffre
qu'il continue, depuis, à compter et à vivre.

C'est ici que Zerrouk, jadis, a pris l'essor
et ses œuvres sont là, témoins de sa pensée.

C'est ici que Nasser Eddin, de Mechdella
a conquis l'univers par son intelligence,
émerveillant ainsi campagnes et cités.

C'est ainsi qu'Ibn Abi Kacim a pu atteindre
les degrés les plus hauts de la célébrité.

Ni Mansour, ni Abul Tadl n'ont pu monter
si haut, à ce niveau de la pensée d'Amran.
"Les grandes sentences" de Abou Mohammed
seront toujours gravées, dans toutes les mémoires,
à côté de Abu Tahir, le grand poète,
de sa fille Aïcha, narquoise et caustique,
nous faisant le portrait d'un chauve, esprit simplet
qui vint un jour la demander en mariage.

Sur son crâne, elle vida sa verve satirique
en lui recommandant de voiler son visage.

Le palais Louloua, bien loin de la séduire
la détourna de tous ses courtisans futils.

C'est pourquoi l'on peut dire "Aïcha la subtile"
de cette poétesse aux palais fastueux.

Mais s'il l'on veut décrire "Louloua", il faudrait
emprunter la vision rare d'Ibn Hamdis.

Car si de ce palais l'on captait, la splendeur
pour en soigner les yeux d'un aveugle, il verrait.

Que si l'on parfumait un mort de ses senteurs,
ce dernier brusquement à la vie reviendrait.

Les Perses n'ont en jamais construit d'aussi beaux,
bien que leurs demeures fussent magnifiques.

Le château "Khawarnak" n'est rien à ses côtés
et le "Sadir" renonce à sa célébrité.

Son sol est parsemé de perles, non de pierres,
revêtu par les yeux langoureux des gazelles,
à tel point que mon cœur, pressé de les revoir
aspire au Paradis d'Allah et aux houris.

Sa terre se compose de musc éxalé,
doux parfum des gazelles, tiède et enivrant.

Si la Romeykia visitait ce palais
elle y vivrait, le cœur débordant de louanges.

Ou si, au Paradis, l'on trouvait son pendant,
je prierais le seigneur d'oublier mes péchés.
(afin de me permettre, un jour, de l'habiter).

Bijaïa, tout ce que j'ai dit pour te chanter,
est loin d'être digne de ta grande beauté.

Car ta gloire elle-même est un vaste univers.
Les mots pour la décrire ne peuvent satisfaire.
Me voici exprimant, devant ce séminaire,
des sentiments fougueux que je ne puis freiner,
glorifiant la pensée, les hommes de génie
dont l'action a été d'une action initiale.

Et je crois en l'Islam, bien que dans nos âmes
nous nourrissions une foi qui n'est guère sincère.

Cet Islam nous renie mais nous nous en servons,
pour cacher aux regards notre réalité,
pendant que sur nos fronts tombe l'adversité.

La vraie Révolution de l'Islam est un feu
éternel dans l'âme du peuple valeureux,
et ce sang, notre sang qui coule dans nos veines
ne cesse de crier dans nos âmes en peine.

Oui ! Je crois en ce peuple et en tous les semeurs
qui sèment dans la terre ou sèment dans les cœurs
Car la terre et l'honneur se valent, tous les deux
ils ont besoin de nous, de nos soins, de nos yeux.

Et c'est à toi, ô peuple, que je dédie
l'écho de ma pensée, c'est à toi ma patrie,
à toi, ô ma nation révolutionnaire,
que je dédis mon chant.

Bijaïa, le 1 rabia al awal 1394
Correspondant au 25 mars 1974

LES RECOMMANDATIONS
DU 8[me] SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

RECOMMANDATIONS DE LA 1[re] COMMISSION

« LA SITUATION DES MINORITES ET DES COMMUNAUTES D'EMIGRATION EN GENERAL ET MUSULMANE EN PARTICULIER DANS LES DIVERS PAYS DES CINQ CONTIMENTS ET LE DEVOIR DES SAVANTS, PENSEURS ET HOMMES DES MASS-MEDIA A LEUR EGARD »

COMPOSITION DE LA COMMISSION

1°) Dr Laïla ASSABBAGH	Présidente
2°) Monsieur Khélifa EL-MAHFOUDI	Rapporteur
3°) Dr Abdelkrim SAITO	Membre
4°) Dr Salvatori BONO	»
5°) Dr Mohammed Nadjat Allah ESSEDDIQI	»
6°) Dr Mohamed Hicham SOLTANE	»
7°) Dr Mohammed Ali SABRI	»
8°) Professeur Salvator Gomez NOGALEZ	»
9°) Professeur Emilio Galendo AGUILAR	»
10°) Professeur Rachid BENAISSA	»
11°) Monsieur Ahmed BOUDA	»
12°) Monsieur Chadly MEKKI	»
13°) Monsieur Moussa BOUKHRIS	»
14°) Monsieur Ahmed EL-BORQI	»

La 1re Commission issue du 8me Séminaire de la Pensée Islamique réuni à Bidjaïa du 1er au 12 rabia al awwal 1394 — 25 mars - 5 avril 1974, après avoir entendu les conférences données par les Docteurs : Leïla ASSABBAGH (Syrie) ; Mohammed Nadjat ESSEDDIQI (Inde) ; Mr Françis MONHEIM (Belgique) ; les Docteurs Salvatori BONO (Italie) ; Abdelkrim SAITO (Japon) ; ainsi que les discussions, les remarques et les réponses aux questions posées par les étudiants.

— Considérant la situation économique, sociale, culturelle déplorable dont souffrent les communautés musulmanes émigrées, et les dangers d'isolement et de rupture avec leur pays d'origine et d'intégration dans les sociétés d'accueil.

— Considérant la recrudescence des campagnes hostiles orchestrées par les racistes, les colonialistes et les sionistes, illustrées par les évènements de Marseille, et les agressions dirigées contre les Arabes et les musulmans ; ainsi que les exactions racistes auxquelles sont exposées les minorités musulmanes comme c'est le cas aux Philippines et en Erythrée.

— Considérant la nécessité d'œuvrer en vue de faire respecter leurs droits humains élémentaires et leur droit inaliénable à pratiquer librement leur culte.

— Suite aux résolutions du 7me Séminaire de la Pensée Islamique.

Le 8me Séminaire de la Pensée Islamique recommande :

I) - *Les communautés émigrées :*

1°) La nécessité de poursuivre et de coordonner les démarches entreprises par les pays du Maghreb arabe en vue de récupérer la mosquée de Paris.

2°) La création de nouveaux domaines d'emploi dans les pays musulmans pour assurer le retour des émigrés et les réinsérer dans le processus du développement économique.

3°) La coordination des efforts des Ambassades islamiques, et l'unification de leur plan d'action en vue de protéger ces communautés contre les persécutions dont elles sont l'objet, et la création d'un climat culturel islamique de nature à empêcher leur dépersonnalisation, et ce en inculquant à leurs enfants la langue arabe qui leur permet d'accéder à la compréhension de la religion musulmane.

4°) Envoi de prédicateurs musulmans en vue de sensibiliser nos frères émigrés à l'Islam dans les pays où lis vivent ; ainsi que l'ouverture d'antennes et de centres culturels religieux.

5°) Demande aux gouvernements musulmans l'affectation de juges de statut personnel auprès de leurs camarades en vue de traîter les affaires relatives à ce domaine.

6°) La nécessité de consolider la coopération entre les différentes organisations islamiques qui se trouvent dans les pays d'accueil, et d'œuvrer pour une meilleure coordination de leurs efforts.

7°) La nécessité d'accorder un intérêt particulier aux camps de vacances organisés à l'intention des enfants émigrés en leur dispensant la culture nationale islamique.

8°) Faire connaître les valeurs et la civilisation islamiques et diffuser la langue arabe dans les pays d'accueil en vue de renforcer les relations et instaurer une meilleure entente et un respect mutuel.

II) - *Les minorités islamiques :*

Le 8^me Séminaire de la Pensée Islamique exige :

1°) Des gouvernements des pays dans lesquels vivent des minorités musulmanes le respect de la charte des Nations-Unies, celle des droits de l'homme afin d'assurer aux minorités la protection physique et morale.

2°) Les gouvernements islamiques doivent œuvrer pour la création d'émissions radiophoniques qui s'adressent à ces minorités ainsi qu'aux communautés islamiques émigrées.

Quant aux communautés non-musulmanes qui vivent en terre d'Islam, le 8^me Séminaire de la Pensée Islamique, en prenant acte du fait que ces minorités jouissent de leurs pleins droits nationaux et religieux, recommande :

— de persévérer dans ce bon traitement à leur égard, traitement dont elles jouissaient sous le règne du pouvoir islamique et que nous dicte la législation islamique par ailleurs.

RECOMMANDATIONS DE LA 2me COMMISSION

« ROLE DU PENSEUR A TRAVERS LES AGES, ET PARTICULIEREMENT AUJOURD'HUI, DANS SA NATION ET A L'EGARD DE L'HUMANITE, DE SES PROBLEMES DE L'HEURE ET DE SES PERSPECTIVES D'AVENIR »

COMPOSITION DE LA COMMISSION

1°) Dr Ibrahim MEKKI IBRAHIM	Président
2°) Dr Ammar TALBI	Rapporteur
3°) Dr Salah ASSAOUI	Membre
4°) Dr Horst GERICKE	»
5°) Dr Mohammed ZNIBER	»
6°) Dr Mohammed Aziz LAHBABI	»
7°) Dr Rachid RAJAH	»
8°) Dr Mohammed Ali SABRI	»
9°) Professeur Ahmed Anouar EL-DJOUNDI	»
10°) Professeur Abderrahmane CHIBANE	»
11°) Monsieur Mohammed BEN ABDALLAH	»
12°) Cheikh Youcef EL-YALAOUI	»

Au Nom d'Allah Clément et Miséricordieux.

— Considérant l'importance essentielle du rôle que doit remplir l'Islam dans l'orientation de notre culture.

— Considérant l'influence considérable qu'exerce la lutte idéologique dans l'orientation des sociétés.

— Considérant l'acharnement avec lequel le colonialisme culturel prétend assujettir les peuples à sa pensée, c'est-à-dire à son leader-ship politico-économique.

— Considérant les arrières-pensées colonialistes que masquent les principes de l'universalisme, de la modernité et de la mission civilisatrice.

Le 8me Séminaire sur la Pensée Islamique réuni à Bidjaïa du 1er au 12 rabia al awwal 1394 (25 mars - 5 avril 1974) émet les considérations suivantes :

1°) Le penseur se trouve engagé à l'égard des problèmes que pose sa société tant sur le plan de l'analyse et de la critique que sur celui de l'enrichissement et de l'accroissement, étant bien entendu que le point de départ se trouve dans l'Islam bien compris.

2°) Il est nécessaire que le penseur soit lié à la société et aux problèmes qu'il affronte, afin que son activité spéculative soit réaliste, engagée et que l'influence de son œuvre s'exerce efficacement selon les progrès continus de son milieu social.

Compte tenu de ce qui précède, le 8me Séminaire sur la Pensée Islamique recommande :

1°) L'analyse et l'étude de notre patrimoine culturel, l'élimination de ses aspects négatifs ; la mise en valeur de ses éléments les plus vivants selon une méthode moderne ; l'activation des efforts entrepris pour le faire revivre.

2°) Une mise en œuvre historiographique digne de libérer méthodiquement notre histoire de toutes les falsifications colonialistes, altérations et tendances à la partialité. De tels efforts sont dignes de fournir à nos générations montantes une optique saine et objective des différents aspects de notre existence historique. Ils permettraient notre renaissance future à la lumière de notre vie passée qui, trop souvent, fut retracée d'une manière caricaturale dans les livres d'histoire.

3°) Confirme les recommandations du 7me Séminaire, notamment celles qui ont trait au nécessaire exercice de l'effort personnel(ijtihad), dès lors que les conditions de cet effort sont réunies.

4°) La nécessité, pour un esprit musulman, d'avoir une connaissance précise et critique de la pensée universelle contemporaine, pour être à même de tirer profit des éléments positifs qu'elle recèle et rejeter tout ce qui, en elle, se trouve en contradiction avec nos structures essentielles.

5°) L'utilisation des sciences, de la technologie et de tous les facteurs constructifs dans les expériences des nations étrangères, afin que notre société islamique puisse progresser dans le domaine de la civilisation et combattre les éléments contraires au dogme et à l'éthique islamique.

6°) Engagement des mass-média de suivre une voie parallèle au principe de l'Islam. Nous insistons une nouvelle fois sur les recommandations du 7[me] Séminaire, relatives aux mass-média et nous invitons à leur application.

7°) Etant donné la grande importance de l'éducation et de l'instruction dans la formation du Penseur, le 8[me] Séminaire recommande la nécessité d'établir une philosophie de l'éducation où s'inscriront les objectifs fondamentaux qui seront à la base de la formation du compatriote musulman. A partir de ces objectifs seront conçus les méthodes et les programmes susceptibles de les réaliser, et un séminaire serait réuni pour examiner spécialement ces questions.

8°) Prendre soin d'enseigner la culture islamique à tous les niveaux d'enseignement.

9°) La création d'une université musulmane modèle, tant du point de vue équipement que du point de vue cadres, et ce, dans chaque pays musulman. Une telle initiative ne manquera pas de conférer au cycle supérieur un caractère islamique complémentaire à un enseignement de toutes les disciplines scientifiques et spécialités.

10°) Vis-à-vis de l'étranger, mettre fin à toute dépendance intellectuelle dans le domaine des études sociologiques et sciences humaines en général. Une telle suggestion est devenu l'image de marque des universités appartenant aux pays musulmans. Il convient d'orienter ces études, tant théoriques qu'appliquées, vers les mutations sociologiques que traverse notre milieu contemporain.

11°) De composer une encyclopédie des connaissances islamiques, à la fois objective et moderne, en collaboration avec tous les spécialistes des diverses disciplines intellectuelles et artistiques.

12°) La lutte contre les différentes sortes de sclérose. L'extirpation de tous les germes de charlatanisme, superstition, séquelles de regression, de décadence et toutes sortes de déviations qui détournent de la voie du vrai et premier Islam « Salafyya ».

13°) Réalisation totale de l'arabisation dans les pays arabes en prenant comme base la langue arabe, pilier essentiel sur lequel repose notre entité nationale. Diffusion de cette

langue dans les différents pays musulmans, étant donné le rapport étroit qu'il y a entre elle et le dogme et la pensée islamiques. Confirmation des recommandations du 7[me] Séminaire sur la Pensée Islamique, se rapportant à l'intérêt que l'on doit nécessairement porter à la langue arabe dans les pays musulmans, cette langue étant indispensable à une compréhension correcte de l'Islam.

14°) Encouragements décernés aux penseurs sérieux et efficaces par l'octroi de certaines rétributions destinées à honorer leurs travaux intellectuels.

15°) Faire en sorte que le penseur musulman, s'efforce d'atteindre le niveau le plus haut dans tous les domaines intellectuels, artistiques, scientifiques, et participe ainsi à l'enrichissement de la pensée humaine. Il doit notamment tenir compte du fait que la pensée islamique est, par nature, universelle. Elle n'établit aucune différence entre les hommes, ses seuls critères étant le bien et l'action qui tend vers lui. Dieu, le Très Haut a dit : « Gens, nous vous avons créés à partir d'un homme et d'une femme. Au regard d'Allah, celui qui parmi vous craindra le plus Dieu, celui-là sera le plus généreux ».

16°) Solidarité du penseur musulman efficace avec le peuple palestinien et avec tous les peuples arabes qui combattent pour libérer la Palestine et Jérusalem musulman.

17°) Rôle revendiqué par le penseur efficace, tant sur le plan national que sur celui de l'humanité en général, en tant que guide capable de les orienter vers la bonne voie et en qualité de critique de leurs structures mauvaises.

18°) Participation du penseur à l'œuvre de promotion de la société dans les différents secteurs idéologiques, culturels, politiques et économiques, avec la volonté de réaliser la justice sociale et d'assurer au citoyen musulman la liberté et la dignité humaine.

RECOMMANDATIONS DE LA 3[me] COMMISSION

« LA CONTRIBUTION DE BIDJAIA LA HAMMADITE
A LA CIVILISATION ET A LA PENSEE MUSULMANES ET UNIVERSELLES.
CAUSES ET CONSEQUENCES DE SA DECADENCE »

COMPOSITION DE LA COMMISSION

1°) Othmane AL-KAAK	Président
2°) Ahmed HAMMANI	Secrétaire-rapporteur
3°) El-Mahdi BOUABDALLI	Adjoint
4°) Yahya BOUAZIZ	Membre
5°) Nabih AKIL	»
6°) Souleiman Daoud Ben Youcef	»
7°) Ismaïl ARABI	»
8°) Mohammed EL-FASSI	»
9°) Saïd Mohammed RAAD	»
10°) Moulay BELHEMISSI	»
11°) Rachid BOUROUIBA	»

a procédé à l'étude et à la discussion du troisième point du programme du 8[me] Séminaire sur la Pensée Islamique, tenu à Bidjaïa.

Au nom d'Allah, Clément et Miséricordieux,

Prière et Bénédiction sur Mohammad, le Généreux Prophète,

A la lueur des analyses et des débats qui ont eu lieu pendant les assises du Séminaire et compte tenu des avis émis par les membres de la commission, il est apparu à ces derniers que les facteurs de l'épanouissement de la civilisation à Bidjaïa ainsi que les éléments qui ont déterminé la participation de cette cité à la civilisation et à la pensée islamiques et universelles, peuvent se ramener aux points suivants :

1°) La position géographique de Bidjaïa et tout ce qui en résulta sur la plan de l'essor économique.

2°) Les prédispositions naturelles des habitants ainsi que leur aptitude à saisir les données de la civilisation universelle.

3°) L'Islam qui a eu le mérite de les avoir unis, éduqués et rendus égaux quant aux droits et aux devoirs de chacun.

4°) L'harmonie des relations entre le pouvoir et le peuple, ainsi que le souci du gouvernement à établir la justice. Nombreux sont les exemples tirés de l'histoire qui peuvent corroborer ces faits.

5°) L'esprit de tolérance religieuse animant l'Etat. La meilleure manifestation en est la coexistence de la Mosquée, en tant qu'institut scientifique ouvert aux Musulmans, avec le « Beït Al Hikma » ou « Maison de la Sagesse » jouant le même rôle intellectuel à la fois à l'égard des Musulmans et des non-musulmans résidant à Bidjaïa ou y venant de l'étranger, en quête de savoir et de culture.

6°) L'attirance exercée par Bidjaïa sur les célébrités scientifiques et intellectuelles de l'Andalousie et du Maghreb ainsi que la création d'académies scientifiques qui furent des lieux propices à l'étude, à la confrontation et à l'exercice du raisonnement.

7°) L'accueil réservé par Bidjaïa aux grands penseurs, dont les théories positives contribuèrent à l'édification de civilisations humaines. C'est en effet dans cette capitale qu'Ibn Toumert dressa avec son disciple Abdel Moumen Ibn Ali, un plan dont la réalisation aboutit à la création de la dynastie Almohade et à la destruction des anciennes structures.

8°) La participation vigoureuse des ulémas appartenant aux localités de la région, qui eut pour conséquence l'apport positif de Bidjaïa à la renaissance de la civilisation et de la pensée aussi bien à l'intérieur du pays qu'à l'extérieur.

9°) L'essor constructif symbolisé par l'importance accordée à l'irrigation, aux voies de communication (création de routes, entretien de ces dernières, organisation de convois dans les meilleures conditions de sécurité publique leur permettant de fonctionner et de remplir utilement leur rôle.

10°) La complémentarité des secteurs économiques (agriculture, industrie, mines, commerce) et de l'ensemble du complexe maritime, comprenant l'administration de la mer, du port, de la flotte, ainsi que les conventions commerciales et les opérations commerciales et des finances extérieures.

11°) L'originalité de l'art architectural et décoratif qui, de Bidjaïa, s'est répandu dans les principaux pays de civilisation en méditerranée occidentale, notamment en Sicile et en Sardaigne.

Quant aux causes de décadence, les membres de la commission ont estimé que l'on peut les énumérer comme suit :

1°) Les attaques chrétiennes des Normands, Espagnols, Chevaliers de Malte et autres « ordres de templiers », ainsi que les agressions des flottes pisane, gênoise, vénitienne et en dernier lieu l'attaque de la flotte de Charles Quint occupant Bidjaïa. C'est alors que les soldats espagnols chassèrent les habitants de cette ville, dont ils détruisirent les monuments et palais et abolirent l'activité intellectuelle.

2°) Les guerres civiles et les luttes intestines entre musulmans. C'est ainsi que les Banu Ghania ont envahi Bidjaïa arrachée à ses gouvernants. Avant eux, les Almohades l'avait annexée, après avoir renversé les Hammadites et réduit cette capitale au simple rang de chef-lieu de wilaya. Vinrent ensuite les invasions des Mérénides, des Hafçides, des Zianites, et autres bouleversements et guerres intestines entre gouverneurs de provinces.

3°) Les dégats et déprédations des bédouins qui ont saccagé les campagnes, coupé les routes, perturbé le système d'irrigation et de circulation des convois, détruit les villages et établissements agricoles.

4°) Le transfert du siège du gouvernement de Bidjaïa, à Alger, par les chefs turcs. Il en résulta que cette cité perdit son rôle historique sur le plan de la civilisation, de l'économie et de la science.

5°) L'exode de ses habitants (notables, hommes d'affaires, de science ou d'administration) devant l'arrivée des Espagnols en 910 h = 1509. C'est alors que le siège de la résistance et de l'activité intellectuelle déplaça vers l'intérieur du pays.

6°) Le relâchement des mœurs et l'extension de la débauche ainsi que l'amour des distractions, des raffinements et du luxe.

Citons comme exemple Ibn Toumert brisant les instruments de musique et les flacons de vin. Mentionnons également, parmi ces causes de décadence, la trahison de certains chefs militaires et de certains ministres qui ont ouvert la voie du pouvoir à Abdel Moumen, portant ainsi le coup de grâce aux Hammadites.

La troisième commission, après avoir exposé le rôle éclatant de Bidjaïa à son heure de gloire et les causes de son déclin et du sort qu'elle subit ensuite, s'est efforcée de tirer les enseignements de l'histoire. C'est pourquoi elle souhaite voir Bidjaïa recouvrer sa splendeur passée et jouer un rôle au service de l'esprit et de la civilisation, digne de sa renommée historique. Pour atteindre ce but, la Troisième Commission recommande :

1°) D'écrire une histoire complète de Bidjaïa à travers les différents âges de son existence.

2°) D'établir une bibliographie des sources concernant la civilisation de Bidjaïa d'après les ouvrages, les fonds de bibliothèques, les monuments etc...

3°) De créer un corpus des monuments de Bidjaïa (palais, mosquées, forts, stèles funéraires, inscriptions etc...).

4°) De constituer un recueil mentionnant les personnages de Bidjaïa qui se sont distingué dans les différents domaines et un autre pour les lieux géographiques. Un tel travail serait utile.

5°) D'établir un troisième recueil des manuscrits concernant Bidjaïa, de rechercher ces documents, d'identifier ceux qui existent dans les bibliothèques en Europe, en Amérique et en Asie, enfin de les déchiffrer.

6°) De créer un institut des études consacrées à Bidjaïa.

7°) De rassembler un corpus des monnaies, bijoux, costumes, armes, activités folkloriques ; et d'ouvrir des musées pour tous ces objets d'art.

8°) De recenser les collections de broderies, art figuratif et musique.

9°) De dresser des plaques commémoratives indiquant les lieux historiques, l'importance de leur rôle dans le passé.

10°) D'organiser des festivals culturels pour célébrer le souvenir de certains personnages de Bidjaïa qui se sont illustrés dans le domaine de la pensée ou de la lutte.

11°) D'œuvrer pour instituer une faculté des sciences, rattachée à l'université islamique de Bidjaïa, afin de faire revivre la mission qu'assumait « Beït al Hikma », dans le passé.

RECOMMANDATIONS DE LA 4me COMMISSION

« CONTRIBUTION DE LA CIVILISATION ET DE LA PENSEE ISLAMIQUES
DANS LES DIFFERENTS DOMAINES DES SCIENCES ET DES ARTS
ET DU PATRIMOINE HUMAIN EN GENERAL.
FACTEUR DE LEUR EPANOUISSEMENT.
CAUSES DE LEUR DECADENCE.
CONDITIONS DE LEUR RENAISSANCE »

COMPOSITION DE LA 4me COMMISSION

1°) Dr Osman AMIM	Président
2°) Dr Wasfi ABOU MOUGHLI	Rapporteur
3°) Le Cadi Abdallah CHEMMAHI	Membre
4°) Dr Manfred FLEISCHHAMMER	»
5°) Dr Elhibr Youcef Nour Addayem	»
6°) Dr Hicham ES-SAFADI	»
7°) Dr Miguel de EPALZA	»
8°) Dr Saïd CHIBANE	»
9°) Dr Ihsan ABBAS	»
10°) Professeur Mustapha Abdallah BAAYOU	»
11°) Professeur Mohammed El-Mountasser EL-KETTANI	»
12°) Professeur Mahmoud MANÇOUR	»

A) *Introduction.*

La civilisation islamique a atteint un degré élevé dans l'histoire. Elle se caractérisait par l'originalité et l'ouverture, mais de nombreuses causes, tant morales que sociales ont affecté cette civilisation et ont entraîné sa régression dans les différents domaines.

Les membres de la Commission considèrent que cette régression est imputable, entre autres, a : (le plus important)

1°) L'éloignement par rapport à l'esprit de la religion, l'abandon de l'incitation au bien et de l'interdiction du mal — le refus de l'effort — la méconnaissance du principe — l'éloignement par rapport aux principes de la législation musulmane — la perte de valeur de l'esprit de la science — une déviation par rapport à cet esprit qui a conduit à un effacement de la Raison et de la Morale dont les effets continuent de s'observer dans la Société musulmane moderne.

2°) La perte de la liberté de penser et l'abaissement du moral et ce qui accompagne cela dans le relâchement (de l'Untié) musulman en général.

Les conditions de la renaissance.

Pour le renouveau de la civilisation et de la pensée islamiques, la Commission avance les recommandations suivantes :

Renouveau du patrimoine islamique par les liens et action de le transmettre à autrui.

Etablissement de catalogues mis à jour et unifiés pour les manuscrits islamiqûes se trouvant dans les différentes bibliothèques du monde et leur diffusion le plus possible.

Encourager l'édition et la diffusion du livre scientifique en langue arabe, langue des grands savants et la suppression des nombreux écueils actuels à leur diffusion dans les pays musulmans.

4°) Accorder la grande importance à l'éducation islamique authentique dans les différentes étapes de la formation et renouveler la personnalité de l'homme musulman et per mettre l'émergence de ces grandes valeurs morales.

5°) Enseignement de la civilisation islamique et de l'histoire des sciences arabes dans les lycées et institutions musulmans.

6°) Réaliser les conditions nécessaires à la stabilité tant morale que matérielle des penseurs et savants dans le monde musulman pour se consacrer à la production intellectuelle et mettre fin aux causes de la fuite des cerveaux islamiques, avec une action soutenue pour récupérer le plus grand nombre de ceux qui ont quitté les terres d'Islam.

7°) Développement de l'enseignement scientifique dans le monde musulman pour répondre aux exigences de la renaissance.

8°) Echange des compétences scientifiques entre les pays du monde musulman et coordination des efforts dans tous les domaines de la science. Coordination des efforts entre les pays musulmans dans tous les domaines et échange des compétences et des moyens nécessaires au renouveau et à leur participation au développement de la civilisation musulmane.

Le Séminaire salue avec optimisme les signes évidents de renouveau et la nouvelle prise de conscience dans les pays islamiques dans le cadre du Tiers-monde.

RECOMMANDATIONS DE LA 5me COMMISSION

« IDENTITE ET AUTHENTICITE DANS L'OUVERTURE
ET L'UNIVERSALITE.
QUE SIGNIFIENT CES CONCEPTS ? SONT-ILS CONCILIABLES ?
DEGRE D'IMPORTANCE DE CETTE CONCILIATION
DANS LE MONDE D'AUJOURD'HUI POUR L'INDIVIDU ET LA SOCIETE
ET POUR LE SORT DE L'HUMANITE TOUTE ENTIERE »

COMPOSITION DE LA 5me COMMISSION

1°) Son Excellence, Monsieur Abdallah Ben Bih, Ministre de la Justice (Mauritanie)	Président d'honneur
2°) Dr Zaki Nadjib MAHMOUD (Egypte)	Président effectif
3°) Dr Ibrahim FAKHAR (Algérie)	Rapporteur
4°) Dr Abdelfattah DIDI (Egypte)	Rapporteur
5°) Monsieur Abdelkader DIDI (Mauritanie)	Membre
6°) Monsieur Moufdi ZAKARIA (Poète algérien)	»
7°) Monsieur Abderrahmane BELAGGOUNE (Algérie)	»
8°) Monsieur Mohamed Lakhdar B. Abdelkader ES-SAYHI (Algérie)	»
9°) Monsieur Rachid BENAISSA (Algérie)	»
10°) Monsieur Abdelouahab HAMMOUDA (Algérie)	»
11°) Monsieur Hammouda ACHOURI (Algérie)	»
12°) Dr Abou-Majd SABRI (Egypte)	»
13°) Monsieur Mabrouk AL-AWADI (Algérie)	»
14°) Monsieur Mustapha AL-ASLAOUI (Algérie)	»
15°) Dr Khayr Allah ASSAR (Syrie)	»
16°) Monsieur Al-Hadj AISSA (Algérie)	»

La Commission réunie le dimanche 7-03-1394 H., correspondant au 31-03-1974 a élu comme président d'honneur Son Excellence Monsieur Abdallah Ben Bih, Ministre de la Justice de la République Islamique de Mauritanie, et le Dr Zaki Nadjib MAHMOUD, Professeur de Logistique à l'Université du Caire, comme président effectif.

Après étude et discussion du sujet la Commission a défini les concepts d'identité, authenticité, ouverture et universalité, comme suit :

1°) - L'IDENTITE : C'est la prise de conscience de soi, en tant qu'entité musulmane. Elle répond à la question qui suis-je ?

2°) - L'AUTHENTICITE : Consiste à se réaliser en assumant les valeurs islamiques et en les reproduisant dans tous les domaines de la vie.

3°) - L'OUVERTURE : Consiste à transmettre notre MISSION SPIRITUELLE au monde dans la pratique du donner et du recevoir, et à emprunter aux non-musulmans tout ce qui s'avère être un besoin utile qui ne soit pas incompatible avec notre authenticité.

4°) - L'UNIVERSALITE : Considérant que la modernité constitue l'expression dominante et qu'elle ne peut de ce fait prétendre représenter l'humanité dans son ensemble, la commission définit l'Universalité comme le domaine de convergence de toutes les cultures dans leur diversité.

Sur la base de ces définitions préliminaires, la Commission estime qu'il n'y a pas de contradiction entre ces concepts, et que leur coexistence dans la vie est chose possible.

Il s'agit — en somme — pour le musulman d'envisager la modernité dans la perspective de l'Islam ; et non l'Islam dans la perspective de la modernité pour reprendre une formule heureuse.

LES RECOMMANDATIONS

A cette fin, la Commission recommande :

I) - *Dans le domaine de l'Education :*

a) La diffusion des enseignements authentiques de l'Islam au sein de la Jeunesse, dans tous les cycles de l'enseignement, de sorte que l'étudiant, au terme de ses études, soit un musulman authentique, engagé, et vivant dans la pratique des valeurs de l'Islam.

b) La généralisation de l'enseignement en langue arabe, à tous les niveaux, afin de permettre la transmission du message de l'Islam et ses enseignements dans la langue originelle, la langue du Coran.

II) - *Dans le domaine des mass-média :*

La Commission recommande aux mass-média (Presse écrite et parlée - radio et télévision etc...) d'œuvrer pour la diffusion de la culture et des idées islamiques authentiques.

De même qu'elle recommande le contrôle de tout ce qu'importent les organes d'information, aussi bien dans le domaine du cinéma et de la télévision qu'ailleurs, afin d'empêcher la diffusion et la reproduction de tout ce qui est contraire à l'Islam.

III) - *Dans le domaine de la Pensée, des Lettres et des Arts.*

a) La Commission recommande aux penseurs, artistes et hommes de lettres, chacun avec ses moyens propres, de prendre en charge la mission consistant à former et à ancrer dans les esprits le modèle de vie islamique tel qu'il devrait être, afin de procurer et d'assurer aux masses musulmanes cette nourriture intellectuelle, artistique, littéraire, qui jaillisse de l'âme même de l'Islam et l'exprime.

b) La Commission exhorte les penseurs, artistes et hommes de lettres à faire face aux dangers de l'invasion idéologique pour en prémunir la nation islamique dont elle vise à saper les fondements.

IV) - *Dans le domaine des sciences :*

La Commission recommande la traduction des sciences de la nature, des sciences expérimentales et de la technologie, dans les langues nationales des peuples musulmans afin d'en tirer profit au maximum.

Allocution de clôture du 8ème Séminaire de la Pensée Islamique,

prononcée par Monsieur Mouloud Kassim NAIT BELKACEM

Ministre de l'Enseignement Originel
et des Affaires Religieuses

"Au nom de Dieu, le Clément et le Miséricordieux,

Messieurs les distingués Professeurs,

Mesdames et Messieurs,

Frères étudiants, sœurs étudiantes,

S'il est vrai que toute chose, fut-elle supposée parfaite, reste cependant incomplète, la fin de votre présent Séminaire en est le début, son nom en est la représentation puisque ses recommandations sont une exhortation mutuelle à l'accomplissement et au travail, dont ne sauraient dispenser le souhait et l'espérance. De là provient que sa clôture en est le point de départ et que ses résultats ne disparaîtront pas avec sa séparation.

Nous avons maintenant un rendez-vous avec la sincérité, où sera comparé ce qui aura été couché sur le papier avec ce qui sera déposé dans les paniers, et où sera jeté un regard scrutateur et critique, mais non rancunier, sur l'ampleur du sérieux et l'ardent désir de lier la parole aux actes, dans le but de préparer les esprits, de créer le climat et de s'apprêter aux transformations radicales avec engagement et détermination.

Messieurs les distingués Professeurs,

Frères étudiants, sœurs étudiantes,

1°) Vous avez étudié en commun les situations d'exception dont souffrent des communautés d'émigrés et des minorités dans de nombreuses parties du monde, telles que la discrimination raciale et le fanatisme religieux aux caractères et aux formes multiples, qui se réflètent pour ces victimes sur les plans culturel, social et économique, et vont souvent jusqu'à l'agression et à l'extermination collective, et vous avez décidé d'agir et de redoubler d'effort et de diligence afin de faire prendre conscience aux Etats et aux masses de la nécessité de redresser ces situations et de dégager les solutions susceptibles de sauvegarder la dignité de ces communautés et de ces minorités, tout en sauvant la face de ces Etats et de ces sociétés.

2°) Vous avez évoqué le rôle du penseur, quel qu'il soit, quels que soient le temps et le lieu où il se situe, à l'égard de sa nation et envers l'humanité entière, en ce qui a trait aux problèmes de l'heure comme aux perspectives d'avenir, et vous vous êtes rendu compte qu'il était temps pour lui de quitter sa tour d'ivoire et de ne pas rester les bras croisés, enfermé dans une attitude négative, acquiesçant et applaudissant à l'envie, se dissimulant et polissant, louant et enjôlivant, au lieu de crier son opinion, d'agir, d'orienter et d'infléchir, d'examiner avant d'entériner, de proclamer publiquement, de préférer le dire franc à l'allusion, afin de s'acquitter de la charge dont il est dépositaire, de transmettre son message et d'assumer pleinement ses responsablilités, lui qui devrait être le plus engagé dans la défense du droit : le Prophète ne disait-il pas :"Quiconque garde le silence devant l'injustice n'est qu'un diable muet" ?

3°) Vous avez parcouru les annales de Bidjaïa à travers les siècles, particulièrement pendant sa glorieuse époque hammadite, et vous avez pu voir l'importance et la noblesse du rôle joué par la Kalaâ des Béni Hammad dans l'enrichissement de la civilisation et de la pensée aussi bien islamiques qu'universelles. Vous avez étudié les causes de la splendeur puis de la décadence de cet Etat, et il nous est apparu clairement à tous que, parallèlement aux campagnes successives prolongeant les croisades dont il fut l'objet, à l'entreprise de dégradation née d'une représentation primaire et bornée des choses, en honneur auprès de la plupart des Etats musulmans à cette époque, le fait de s'adonner à une vie de plaisirs et de luxe, de rechercher la tranquillité et la jouissance, a conduit à la dissolution des mœurs et à la dilution des valeurs. Les hommes s'étaient efféminés et les femmes virilisées, renversant les rôles et bouleversant les situations.

Ce relâchement a engendré la perturbation et préparé la voie à l'effondrement et à l'occupation. Telle fut la situation des Mourabitine auparavant et des Mouwahidine plus tard, comme le décrit en détail Ibnou Khaldoun. Telle est la destinée des civilisations, la voie de Dieu à l'égard de Sa création. « Lorsque nous voulons détruire une cité, nous ordonnons aux riches d'entres ses habitants de se livrer à la débauche et nous l'anéantissons implacablement ». Irréversible est la parole de Dieu !

4°) Vous avez tenu des conférences et mené des débats détaillés au sujet de la civilisation et de la pensée islamiques, de leur apport décisif dans les différents domaines des sciences, des arts et du patrimoine humain en général, et vous avez évoqué les facteurs de leur épanouissement, les causes de leur décadence et les conditions de leur renouveau. Il nous est apparu — là aussi — que ce qui a été dit à propos de Bidjaïa et de la Kalaâ s'applique en général à la civilisation et à la pensée islamiques dans leur ensemble, aussi bien les troubles, les luttes pour le pouvoir, les affrontements avec lesquels la nation islamique s'est détruite de ses propres mains, que les attaques et les campagnes haineuses dont elle a été l'objet et qui visaient depuis longtemps son élimination et son anéantissement. Tout cela coïncidant avec la léthargie, la stagnation et la tyrannie qui prévalaient alors, tous maux n'engendrant qu'effondrement et perte.

Telle est la voie de Dieu dans sa Création, bien avant Babylone et les Grecs, les Perses et les Romains, les Andalous et les Normands. Telle est la quintessence de l'expérience des nations. Celui qui se reprend et qui tire les leçons de l'Histoire, qui se délivre de sa stagnation et de son immobilisme, reprend souffle et peut renaître à la vie s'il agit avec promptitude et rapidité, mais il s'expose à la mort et à la disparition totale s'il tarde ou tergiverse.

Si la connaissance du passé, des rois et des royaumes qui furent est nécessaire à l'édification du présent et à la préparation de l'avenir, chanter ce passé et ces gloires ne nous avancera, par contre, à rien à lui seul et ne nous permettra pas de léguer quelque chose à ceux qui nous succèderont.

Pour joindre le cortège, il nous faut « brûler » les étapes au lieu de les traverser, tellement est profond le gouffre qui nous sépare du monde avancé, et tellement sont larges et profondes les blessures qui nous immobilisent. Car au gouffre profond qui nous sépare de notre passé, combien n'avons-nous pas, dans notre démarche moderne, ajouté d'erreurs et de faux pas !

5°) Vous avez enfin traité avec enthousiasme et objectivité le problème de l'authenticité et de l'ouverture sur le monde, et vous vous êtes demandé avec d'autres s'il convient, au nom de l'authenticité et de la préservation des traditions, d'abaisser un voile épais sur les yeux, de se boucher les oreilles et de fermer toutes les portes, voire les fenêtres, ou bien s'il est seyant, au nom de l'émancipation et de l'ouverture, de passer outre à la pudeur et au respect, puis, insatisfait d'ouvrir à la fois portes et fenêtres, d'enlever les toits et les piliers.

Vous avez conclu à la nécessité de réunir tous les avantages et tous les mérites des deux attitudes contradictoires, et vous avez dit qu'il fallait l'authenticité dans l'ouverture, et qu'il était impératif de concilier l'identité et l'universalité. Vous avez repoussé le nyctalope qui, tel un gnome, refuse la lumière du jour et l'oxygène, veut nous priver ainsi de clarté et d'air pur et nous « conseille » de choisir l'obscurité et l'étouffement. Comme vous avez rejeté tout téméraire débauché qui nous invite à l'indécence et à ce qu'il appelle « libération et émancipation », et qui, ne se contentant pas d'ouvrir portes et fenêtres, nous appelle à faire sauter les toitures.

Vous avez décidé, après un examen attentif, que pour nous le choix est clair : il s'agit de préserver notre identité ou de mourir. Et vous avez ajouté : Notre authenticité est notre sauvegarde, notre action est conditionnée par notre savoir, et notre désir de connaître est une exigence de notre ambition.

O jeunesse, illustre-toi pour participer à l'universalité, et ne sois pas simple imitatrice parmi d'autres « suivistes », sinon tu seras brimée et piétinée, ou, dans le meilleur des cas, écartée et repoussée !

Sois un détail en relief dans un tableau, et tu auras ton entité propre, distingue-toi et ton identité te sera conservée. Ne sois pas muette et pâle, sinon tu t'éteindras et échoueras, malléable et flexible, sinon tu seras pressée et fondue. Ne sois pas, enfin, une proie facile, sinon tu seras prise et avalée et prends garde au torrent, sinon tu seras entraînée et érodée !

Sois, ô jeune, l'homme de ton siècle, mais non pas une copie d'autrui : positif et réactif mais non négatif et émotif ; ouvert mais non ouvrable, évolué mais non « évoluable », influençant et pas seulement influencé, car la vie est rapport et échange et le dialogue suppose l'égalité de partenaires, sinon tu ne seras qu'un quémandeur, incomplet en toi-même, honte pour ta nation et charge pour l'humanité !

Messieurs les distingués Professeurs,

Il est temps de vous remercier pour tous les efforts que vous avez déployés et pour toutes les fatigues que vous avez acceptées. Votre meilleure récompense sera ce dont vous aurez profité les uns des autres et fait profiter les étudiants et nous-mêmes.

Quant à vous, sœurs étudiantes et frères étudiants, vous vous êtes prêtés à une discipline rigoureuse, vous avez concentré votre attention et apporté à cette rencontre une contribution constructive.

Nous ne manquerons pas de remercier les autorités de la wilaya pour l'action menée et les efforts accomplis avec nous depuis des mois, et ses habitants pour la générosité et l'hospitalité dont ils nous entourés, et nous félicitons les habitants de Bidjaïa, en plus de tout cela, pour l'assiduité avec laquelle ils ont suivi les conférences et les débats, et pour l'esprit d'émulation qu'ils ont insufflé aux Séminaristes. Nos remerciements vont enfin à tous ceux — des différents organismes et administrations, à tous les niveaux — qui ont contribué à la bonne tenue et au succès de ce Séminaire.

Au revoir Bidjaïa, antre d'En-Nacir et d'El-Mansour, haut-lieu de résistance et Ville-Lumière, capitale des lettres, des arts et des sciences, maîtresse des mers et terme du fleuve éternel, la Soummam, à la gloire ancienne et nouvelle : Bidjaïa !

Et nous donnons rendez-vous à tous au 9^{eme} Séminaire, dans la ville des roses et des coquelicots, la cité des jardins, des sources et des arts, le hâvre des « Eubbad » et des ascètes, la citadelle des Beni Abdelouad, dans la capitale de Yaghmoracen ibn Ziane, dans Tlemcen !

UN ENTRETIEN AVEC LE DOCTEUR ABDUL-KARIM SAITOH

Invité en qualité de conférencier, le Dr Abdul Karim Saitoh (Japon) a fait un exposé sur « la situation des minorités musulmanes et des communautés d'émigration » qui a permis aux séminaristes d'avoir une vue juste de ces minorités en Orient.

Professeur d'économie à l'université de Takushoku à Tokyo où il existe 23 universités, le Dr Abdul Karim Saitoh est directeur de l'association islamique de son pays. Musulman convaincu, il participe activement à la diffusion de la pensée islamique et à la connaissance de notre civilisation, par la publication d'articles dans plusieurs revues et journaux littéraires de Tokyo. A ce titre, il a déjà publié beaucoup d'études sur l'Islam et son apport à la civilisation universelle.

Le Dr Abdul Karim Saitoh est spécialiste en économie contemporaine.

Q. : *Dr Saitoh, vous avez donné une conférence sur le problème des minorités musulmanes en Orient et vous avez décrit leurs situations. Vous avez également évoqué le rôle et le devoir des penseurs à leur égard. Voulez-vous revenir pour nous sur certains points que vous aimeriez, peut-être, développer ?*

R. : « Oui, j'ai parlé de ces minorités que je connais bien puisque je suis moi-même un musulman et que je vis dans un pays où notre communauté constitue une minorité. Seulement, je voudrais préciser qu'au Japon, les musulmans ne sont effectivement une minorité que sur le plan religieux. Autrement dit, nous n'enregistrons aucune hostilité d'autres communautés (bouddhiste, chrétienne, etc...) à notre égard, et l'attitude du gouvernement à notre égard est une position neutre. On ne nous accable pas, et bien sûr on ne nous encourage pas non plus. C'est tout simplement un climat d'indifférence, ce qui n'est pas le cas dans d'autres pays de l'Extrême-Orient, et plus particulièrement en Inde.

« L'Islam a joué et continue de jouer un rôle important dans ces régions. J'aimerais aussi souligner que l'Islam ne peut s'identifier ni au communisme, ni au capitalisme, ni a aucune autre doctrine. Au cours des débats, un étudiant m'a posé la question sur le rapport entre l'Islam et les autres. Il me semble que la question est mal posée, car si le communisme ou le capitalisme sont des doctrines conjoncturelles, par contre l'Islam est éternel. C'est dans ce contexte que les savants et penseurs doivent le comprendre si l'on veut arriver à un résultat positif ».

Q. : *Vous avez participé aux travaux du Séminaire et à l'élaboration des résolutions finales. Voulez-vous nous dire quelques mots sur l'apport et l'impact que ne manqueront pas d'apporter ces résolutions pour la nation islamique ?*

R. : « Les premiers résultats que nous avons enregistrés — et ce sont là des résultats concluants — sont d'avoir réussi à rassembler les penseurs de beaucoup de pays musulmans, chrétiens et même communistes qui se sont réunis dans la même salle pour discuter dans la franchise, le sérieux et l'ordre des problèmes humains. Aussi je signale le dynamisme qui a caractérisé le Séminaire, et une chose m'a frappé : la générosité et la tolérance qui ont animé les travaux. J'ai participé à plusieurs rencontres, congrès et séminaires à travers le monde, et je dois évoquer que je n'ai jamais rencontré un climat aussi favorable ni une préoccupation commune de la sauvegarde de l'homme. Du reste, nous avons réussi à concentrer l'attention de tout le monde sur nos travaux : en témoignent les nombreux messages et télégrammes reçus.

« L'apport de nos travaux sera très positif aussi bien pour le monde musulman que pour le reste de l'humanité. C'est là le résultat des discussions passionnées dans l'objectivité et la sincérité qui nous ont permis de parvenir à des conclusions unanimes. Le caractère spécifique de la participation des jeunes étudiants montre si besoin est que la jeunesse a compris. Il reste à souhaiter que celle-ci prenne conscience de l'héritage de l'Islam pour sauvegarder et enrichir notre patrimoine culturel. Je suis convaincu par les débats que j'ai eus avec votre jeunesse, que l'Algérie obtiendra ce qu'elle recherche, et le monde musulman ne peut que la soutenir ».

Q. : *Dr Saitoh, le 5me point qui concerne « l'ouverture de l'Islam à l'universel » a suscité des débats passionnants. Voulez-vous nous donner votre point de vue sur ce sujet ?*

R. : « Avant de répondre à votre question, je voudrais d'abord revenir sur ce que j'ai déclaré à ce propos au cours des débats. Au risque de me répéter, je redis encore une fois que l'Islam n'est ni le capitalisme ni le communisme. L'Islam n'est pas conjoncturel. Il est éternel. C'est pourquoi il est l'universalité même. A ce titre, il doit s'ouvrir au monde et non pas rester figé sur lui-même. Du reste, l'Histoire nous apprend que l'Islam s'est déjà ouvert à d'autres cultures. Les Arabes ont traduit les ouvrages des Grecs, des Romains, Perses, Indous, Chinois, etc... Nous avons étudié dans ce séminaire comment ils ont procédé, et souligné notre contribution à la civilisation universelle dans les divers domaines des sciences, des arts et du patrimoine humain.

« Bien que les choses ne se répètent pas de la même façon, l'Islam est une religion dynamique, une religion de culture et de progrès. La cadence de sa marche doit être accélérée tout en sauvegardant son essence, car les valeurs de l'Islam sont permanentes.

« C'est ce que j'entends par être ouvert au monde tout en restant soi-même.

« Enfin, je voudrais ajouter que l'Islam a amorcé un renouveau. Nous avons pris conscience de notre identité et de notre force depuis le 4me Sommet des non-alignés et la Conférence Islamique de Lahore. Le tout, c'est maintenant d'avancer ».

LES MINORITES MUSULMANES EN ESPAGNE

100.000 musulmans vivent en Espagne. Quelles sont aujourd'hui leurs conditions de travail et d'existence. M. Miguel de Epalza consacre à ce problème une étude détaillée. Ses conclusions sont édifiantes : il n'y a pas que des touristes. Des musulmans, travailleurs manuels et étudiants, y vivent dans des conditions que mettent en cause certains milieux en Espagne. L'étude de M. de Epalza en constitue un écho.

La situation des minorités musulmanes a été un des cinq points du VIII[e] Séminaire de la Pensée Islamique, qui a eu lieu récemment à Bedjaïa, organisé par le Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses. Parmi les spécialistes et les personnalités invités officiellement, il y avait trois espagnols : le président et le secrétaire général des Amitiés Islamo-Chrétiennes, espagnoles, Salvador Gomez-Nogales, professeur de philosophie musulmane à l'Université de Madrid et Emilio Galindo, directeur d'un centre d'accueil pour étudiants, et Miguel de Epalza, professeur d'histoire espagnole à l'Université d'Alger. Par ailleurs M. Mouloud Kassim, ministre de l'Enseignement Originel, a été invité officiellement à participer au Congrès International Islamo-Chrétien, qui aura lieu à Cordoue en septembre prochain. Dans ce contexte, nous avons fait une petite enquête sur la situation des musulmans en Espagne.

Quatre sortes de musulmans.

Les musulmans qui habitent actuellement en Espagne n'ont rien à voir avec les musulmans d'Al-Andalous, l'ancienne Espagne musulmane. Ceux-ci firent l'objet d'une expulsion massive et presque totale, au début du XVII[e]/XI[e] siècle. Les descendants de ceux qui s'étaient assimilés à la population espagnole ne se distinguent nullement des autres espagnols actuellement. Les musulmans en Espagne sont maintenant tous d'origine étrangère, sauf un très petit nombre d'Espagnols convertis à l'Islam ou plutôt à des religions ou des sectes d'origine islamique (Bahaïs, Ahmadiya...). On peut les classer en quatre groupes, avec leurs problèmes spécifiques :

1°) - *Les travailleurs manuels.*

Ils sont presque tous d'origine marocaine. Certains d'entre eux s'étaient installés en Espagne au temps du protectorat, mais la plupart sont venus en vagues de plus en plus nombreuses, ces dernières années. Les premiers connaissaient l'espagnol et avaient des points de chute. Ces derniers, par contre, se trouvent démunis de tout appui culturel, lin-

guistique, financier, légal, syndical, etc... Leur situation est généralement tragique. Leur nombre est incalculable, car il n'y aurait même pas un pour cent d'inscrit aux consulats du Maroc ou ayant un permis de séjour. On avance le chiffre de 70.000. Quelques centaines d'Algériens se trouvent dans la même situation de clandestinité, surtout dans les régions du Nord, après avoir été refoulés à la frontière française, leurs papiers n'étant pas en règle.

2°) - *Les étudiants.*

Ce sont généralement des étudiants en médecine ou en pharmacie, originaires du Proche-Orient (Palestine, Jordanie, Syrie, Liban, Egypte...) et du Maroc, avec des minorités d'autres pays dont des Sahraouis (Saquiet El-Hamra, Oued El-Dahab). Il y a ainsi environ 7.000 universitaires arabes, pour la plupart des musulmans. Certains viennent préparer des thèses de doctorat en histoire ou langue espagnole ou sur des sujets hispano-arabes. Il y a aussi des techniciens (tourisme, architecture, art ou archéologie, etc...).

3°) - *Des professionnels, diplomates ou autres professions libérales.*

Ce sont des personnes qui, a diverses époques et pour diverses raisons, se sont installés dans le pays, qui a une législation assez libérale pour l'accueil des étrangers, surtout s'ils ont des capitaux à investir.

4°) - *Des visiteurs de passage.*

Parmi les millions de visiteurs ou de touristes qui viennent en Espagne, il y a de nombreux arabes et musulmans. Ces touristes musulmans ont une raison de plus que les autres pour venir en Espagne, Al-Andalous musulmane : admirer les superbes monuments de l'art hispano-arabe (Zaragoza, Tolédo, Granada, Sévilla, Alméria, Malaga, Cordoba, etc...). Mais aussi, parmi ces voyageurs de passage, il y a plus d'un million de Marocains et Algériens d'Europe, qui traversent l'Espagne vers leurs pays. Ils font de l'Espagne, avec les pays balkaniques, un des premiers sinon le premier pays au monde d'une émigration de transit, avec ses problèmes spécifiques.

Les personnes aux situations aisées et les touristes ne posant pas trop de problèmes, c'est la situation des travailleurs manuels et des étudiants qui exige une attention particulière.

Les tragiques problèmes des travailleurs manuels.

C'est, sans la moindre comparaison, le plus gros problème des minorités musulmanes en Espagne. C'est un problème politique et social très grave, un problème humanitaire, qui est tout à fait nouveau en Espagne et pour lequel on est très mal préparé.

En effet, l'Espagne est traditionnellement un pays qui fournit des émigrants (vers l'Amérique, avant 1950 ; vers l'Europe, par la suite). Mais ses besoins économiques et l'intérêt des entreprises publiques et privées d'avoir une main-d'œuvre encore meilleur marché que la main-d'œuvre nationale, ont provoqué, ces dernières années une immigration clandestine des travailleurs maghrébins, dans des conditions épouvantables.

Ils n'ont pas de statut légal, ni auprès des autorités marocaines, ni auprès des Espagnols. Ils ignorent souvent la langue et son écriture et ils sont exploités par tous, depuis les passeurs marocains, aux espagnols jusqu'aux entreprises qui les emploient, qui les logent dans des casemates, les congédient à la moindre difficulté et les payent de la façon la plus arbitraire. Avec cela, aucune possibilité de se défendre ou d'être appuyé : s'ils font problème et sont connus de la police, ils se font immédiatement expulser du pays.

Cette situation inhumaine ne pourrait être solutionnée que par des accords d'Etat à Etat. Or, malgré les bonnes relations entre les deux régimes, rien ne semble indiquer que des solutions soient en vue de ce problème, ainsi que de l'ensemble des litiges actuellement en cours : limites des eaux territoriales, pêches, expropriation des terres des espagnols au Maroc, problèmes des territoires africains occupés par l'Espagne, etc... Tant que la diplomatie espagnole n'aura pas réussi à « s'en sortir » de ces problèmes, on voit mal comment le problème des travailleurs marocains en Espagne trouverait un début de solution.

En attendant, leur situation est particulièrement grave et commence à préoccuper de nombreuses personnalités et associations de toutes sortes, ainsi que des administrations concernées. Des journalistes s'en mêlent, d'autant plus que des affrontements graves entre immigrants et classes populaires espagnoles risquent de se produire. En effet, les ouvriers espagnols savent bien que ces travailleurs corvéables sont un instrument de plus dans les mains de la classe dirigeante pour l'exploitation des travailleurs, en faussant même la loi de l'offre et de la demande — pour une fois en faveur de la main-d'œuvre espagnole — et en augmentant les possibilités de chômage et de licenciement .On voit naître ainsi un authentique racisme populaire, phénomène nouveau en Espagne, mais lourd de conséquences pour l'avenir des relations hispano-arabes.

Les problèmes des étudiants.

Les étudiants arabes, musulmans ou chrétiens du Proche-Orient, ont tous les mêmes problèmes, dont le plus important est celui de la langue : sauf les marocains parfois ; ils ne connaissent pas l'espagnol et doivent donc s'atteler avant tout à maîtriser la langue, pour pouvoir suivre les cours à l'Université.

Ensuite, c'est le problème de leur admission à la faculté de médecine — 80 pour cent suivent des cours de médecine ou de sciences médicales ou para-médicale —. Ce sont des facultés où les effectifs sont déjà surabondants, et la concurrence avec les espagnols ne joue généralement pas en leur faveur. Ils redoublent souvent les cours, avec les incidences

que cela comporte pour les bourses. Ils frayent assez facilement avec leurs compagons espagnols, mais ils ont tendance à se rencontrer entre eux, ce qui les aide du point de vue affectif, mais ne leur facilite pas l'apprentissage de la langue, source principale de leurs difficultés académiques. Quelques groupes ou associations espagnoles, peu nombreuses essayent de leur venir en aide dans ce genre de problème.

En outre, ils ont souvent des problèmes économiques, surtout les Jordano-Palestiniens, de loin les plus nombreux. On ne leur fait pas généralement de difficultés particulières pour le logement. Malgré la gentillesse générale des Espagnols à leur égard, ils ressentent comme un rejet l'incompréhension générale de la société espagnole envers leurs problèmes arabes en particulier et du Tiers-Monde en général. L'ignorance et l'incompréhension de très nombreux secteurs espagnols envers le problème palestinien, auquel les étudiants sont très sensibles, les touchent particulièrement. Très politisés entre eux, ils ont parfois des difficutlés avec les autorités de leurs pays (sursis militaire, renouvellement de passe-port, etc...), ce qui ne facilite pas non plus leur insertion dans le pays ni leurs relations avec les autorités espagnoles.

Leur séjour est plus ou moins bref, comme il est normal dans la vie des étudiants à l'étranger. Une fois revenus dans leurs pays ils gardent généralement d'excellentes relations avec leurs amis espagnols et sont un lien très cordial entre leurs pays et l'Espagne, au niveau de la culture et des relations personnelles. Leur présence à l'université espagnole est un réel enrichissement pour le pays, du point de vue humain, culturel et religieux. C'est en réalité, la principale ouverture de la société espagnole à une culture extra-européenne et du Tiers-Monde, car les très nombreux étudiants Sud-Américains sont trop proches des espagnols par la langue et la culture pour constituer une ouverture ou un dépaysement équivalent à celui que portent avec eux les étudiants musulmans en Espagne.

Quelques problèmes religieux.

Les problèmes des minorités musulmanes en Espagne ne sont pas d'ordre religieux avant tout. Ce sont des difficultés sociales, souvent très graves.

En effet, du point de vue religieux, bien que l'Espagne soit officiellement catholique et ne fait que tolérer les minorités non catholiques, les musulmans n'ont d'autres problèmes religieux concrets que les lieux de prière et les mariages mixtes. Bien que le statut de minorité reconnu, cher à l'Islam, avec ses autorités et ses lois internes, soit difficilement imaginable en Espagne, comme en Europe, les musulmans s'accommodent généralement bien du statut légal d'étrangers, qui est le leur dans le pays.

Il y a très peu de mosquées en Espagne, mais il n'y a pas non plus d'opposition officielle pour en construire, comme pour les autres confessions non-catholiques, donc les lieux de culte pullulent, surtout dans les villes. On parle souvent de construire une grande

mosquée à Madrid, mais aucune initiative — ni aucun financement — ne vient en fait la réaliser. En attendant, une salle de l'Institut d'études islamiques, institution culturelle qui dépend du gouvernement égyptien, fait les fonctions de mosquée de la capitale. Les oratoires musulmans, surtout à l'occasion du mois de Ramadhan, se multiplient dans les villes. Le Cardinal de Barcelone a mis à la disposition des musulmans divers locaux de son diocèse et d'autres associations y collaboreraient s'il y avait une demande de la part des musulmans.

Le statut de l'ancienne mosquée de Cordoue, transformée depuis longtemps en cathédrale, soulève régulièrement des polémiques, pour des raisons qui ne sont pas toujours religieuses, mais historiques, artistiques et culturelles. Néanmoins, il faudrait améliorer l'accueil des musulmans et continuer à leur permettre, s'ils le veulent, de faire leur prière devant le mihrhab magnifique de la mosquée.

Quant aux mariages mixtes entre musulmans et chrétiennes, ils sont de plus en plus nombreux (par exemple, plus de 400 à Madrid, ces cinq dernières années). Ils posent de moins en moins de problèmes juridiques, grâce à l'action efficace des Amitiés islamo-chrétiennes auprès des autorités religieuses. Mais souvent les jeunes couples rencontrent l'opposition de leurs parents, pour des raisons religieuses et sociales. Ces difficultés augmentent lorsque le ménage s'installe dans le pays musulman d'origine du mari, où la société est très différente de l'espagnol.

A ces problèmes religieux concrets, il faut ajouter pour les musulmans une certaine opinion publique qui n'est pas favorable aux Arabes — plus par ignorance que par une opposition systématique — Ceci peut augmenter les difficultés d'adaptation que tout étranger a en dehors de son milieu et de son pays. Mais, parmi les espagnols, les préjugés généraux ne dominent généralement pas les excellentes relations personnelles qui sont très faciles a créer dans tous les milieux, même en tenant compte des problèmes linguistiques. Diverses publications et mouvements tâchent de faire évoluer l'opinion publique espagnole et l'ouvrir à une compréhension plus sympathique des réalités arabo-islamiques du présent et du passé.

Evidemment, les conclusions sont très différentes selon qu'il s'agisse du bref séjour des touristes ou de l'établissement définitif de certains musulmans, en passant par le passage plus ou moins long des étudiants et l'insertion indéterminée des travailleurs manuels.

Il faut dire, néanmoins, que c'est ce dernier problème qui devait faire l'objet de l'intérêt tout particulier de tous, musulmans, chrétiens et hommes de bonne volonté. C'est un problème humain particulièrement grave et où tous, mais les Espagnols en premier lieu, doivent se sentir concernés.

UN ENTRETIEN AVEC LE DOCTEUR YVONNE TURIN

Le Dr Yvonne Turin, professeur d'histoire à l'Université d'Alger, a participé au 8me Séminaire de la Pensée Islamique, lequel s'est déroulé à Bejaïa du 25 mars au 5 avril 1974.

Elle a donné une conférence, intitulée : « L'histoire, rencontre de l'authentique et de l'universel ». En sa qualité d'historienne, elle a traité le sujet dans le cadre du cinquième point de l'ordre du jour : « Identité et authenticité dans l'ouverture et l'universalité. Que signifient ces concepts ? Sont-ils conciliables ? ». A cet effet, la conférencière à surtout démontré que l'histoire joue un rôle de premier plan dans la définition actuelle de la notion d'authenticité, de même qu'elle éveille les hommes à celle d'universalité.

C'est, en particulier, ce thème, fort bien développé, que nous avons demandé au Dr Yvonne Turin — auteur d'une thèse sur l'histoire espagnole moderne, complétée par une série de recherches sur l'histoire du Maghreb — de nous expliciter.

Le Dr Yvonne Turin a, d'autre part, publié, en 1971, chez Maspero, un ouvrage qui a pour titre « Affrontements culturels, dans l'Algérie coloniale, Ecoles, médecines, religions 1830-1880 ». Elle collabore à la revue « Al-Açala » et a déjà participé au VIme Séminaire tenu en 1972, à Alger.

Q. : *Dr Yvonne Turin, vous avez parlé dans votre conférence d'une rencontre à travers l'histoire, entre l'authentique et l'universel. Voulez-vous préciser pour nous ce rapport et nous définir votre pensée en ce sens ?*

R. : « Ce que j'ai voulu dire surtout, c'est que l'histoire est faite d'abord de la connaissance d'un particulier, qui est toujours authentique, par exemple : telle découverte scientifique, tel acte politique, dans tel pays, à telle époque, mais qu'elle ne devient une science qu'à partir du moment où elle est capable de s'élever et d'atteindre une perspective universelle, par exemple : la notion d'histoire des sciences ou celle d'histoire politique.

« L'histoire nous apprend aussi que la vie elle-même — qu'elle reproduit — ne peut être que le résultat de cette rencontre. Autrement dit si on s'arrête et qu'on s'enferme dans le particulier, si l'on reste le chercheur ou le groupe politique isolé, sans aucun lien avec l'ensemble des chercheurs ou de la vie politique, on risque d'aboutir au silence et à l'effritement.

« D'autre part, l'histoire qui exprime le résultat de l'expérience humaine nous apprend que, pour s'enrichir, toute pensée a eu besoin de rencontrer d'autres pensées. Elle nous enseigne, également, qu'il y a un comportement commun à tous les hommes

qui loin de supprimer le comportement particulier de chaque peuple fait qu'il y a une possibilité de compréhension et d'échange entre eux. C'est pourquoi, je disais que « l'histoire montre que tous les hommes, et cela dès le début, se sont efforcés d'échanger leurs produits et, par-là, d'améliorer les conditions matérielles de leur vie ». Dans tous les temps et tous les lieux, les hommes se sont posés la question de leur origine et de leur fin : les réponses ont été différentes, mais l'inquiétude universelle.

« L'histoire révèle encore que la solidarité a été aussi grande dans le mal que dans le bien : toutes les sociétés ont connu la guerre, toutes les formes de surveillance et de domination, tous les mensonges des hommes à d'autres hommes. De sorte qu'à ceux qui, aujourd'hui, se demandent : l'homme a-t-il jamais existé ? L'historien répond qu'il a rencontré un être qui, partout, a toujours eu un minimum de comportement comparable. « J'ajouterai, et je tiens à le souligner, que si ce fond commun n'existait pas, on pourrait tout simplement dire que l'homme lui-même, et par-là l'humanité, n'existent pas. C'est ce que certaines philosophies expriment actuellement en doutant de l'existence de l'homme. C'est dire que pour pouvoir parler d'humanité, il faut absolument utiliser la notion d'universel. Celle-ci nous est donc indispensable ».

Q. : *Dr Yvonne Turin, voulez-vous illustrer pour nous votre déclaration à propos de l'authenticité que vous avez qualifiée de produit de l'histoire ?*

R. : « Si nous regardons vers le passé l'on découvre curieusement que les anciens n'accordaient d'importance ni à leurs ancêtres historiens, ni à leur « authenticité ».

« C'est dans ce contexte que Louis XIV, dont j'ai cité l'exemple, non seulement ignorait « ses ancêtres les gaulois », comme nous disons depuis le XIX^{me} siècle, mais encore qu'il aurait sans doute considéré comme une injure d'être regardé comme leur descendant. Par contre, c'était pour lui un compliment que d'être comparé aux romains, lesquels avaient cependant, conquis la Gaule et qui, de plus, étaient Païens. Vous voyez combien sa manière d'être authentique était différente de la nôtre (si tant est que l'on puisse appeler du même mot des attitudes aussi dissemblables). Il s'en souciait d'ailleurs fort peu.

« Le principe d'authenticité n'est apparu qu'au XIX^{me} siècle en même temps que se renforçait celui de nationalité. C'est tellement vrai que les mots « nationalisme » et « nationalité »ne font leur apparition dans les dictionnaires français que vers 1875. Ces termes n'étaient pas enregistrés avant. C'est avec le développement de la science historique que la notion de passé historique s'est affirmée. Avec l'enseignement de l'histoire, les peuples ont alors découvert et connu leurs ancêtres, appelés à une sorte de seconde vie, à une sorte de résurrection si vous voulez, en même temps qu'ils déferlaient ces ancêtres, dans la mémoire des élèves, devenue de ce fait aussi une mémoire historique, ce qu'elle n'était pas auparavant faute de connaissances historiques.

Q. : *Dr Yvonne Turin, vous avez parlé de l'existence d'une relation entre les peuples. Voulez-vous revenir sur ce thème que vous aimeriez peut-être expliciter ?*

R. : « Il y a, entre nous tous, un fond commun que nous appelons l'universel et qui nous relie. L'expérience montre que les hommes peuvent se comprendre. L'histoire nous en fournit la preuve. Elle nous fournit aussi la preuve du contraire, c'est-à-dire, de la lutte fratricide. Mais même pour se battre, il faut aux combattants un minimum de ressemblance. Nous devons donc développer les échanges, intensifier le dialogue, et ne pas nous enfermer dans notre « particulier », si nous voulons participer à la vie, mais aussi la donner aux autres.

Q. : *Dr Yvonne Turin, vous avez participé aux travaux du Séminaire. Voulez-vous nous dire quelles ont été vos impressions ?*

R. : « J'ai participé avec plaisir à ce Séminaire pour répondre à l'invitation de Monsieur le ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires religieuses, mais aussi parce que cette rencontre est pour moi une occasion de sortir de mon « particulier », c'est bien le cas de le dire, pour expérimenter l'universel.

« En ma qualité d'historienne, j'ai le goût de connaître, de découvrir ce que l'histoire appelle l'autre, le différent, soit dans le temps, soit dans l'espace.

« Le VIII^me^ Séminaire sur la pensée Islamique a été, pour moi, une occasion de cette découverte de l'autre dans le VI^me^ d'ailleurs. J'espère aussi que ma participation a permis à ceux qui m'ont écouté et avec qui j'ai travaillé de prendre contact, de leur côté, avec un monde différent. Autrement dit, cette rencontre a été pour tous un moyen d'expérimenter l'ouverture dans l'authenticité réciproque.

LE DEBAT SUR LA MODERNITE ET L'AUTHENTICITE A DOMINE LE HUITIEME SEMINAIRE SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

par Paul BALTA

Le huitième séminaire sur la pensée islamique, organisé à Bejaïa par M. Mouloud Kassim, ministre algérien de l'enseignement originel et des affaires religieuses, a, de l'avis de plusieurs des participants, marqué un tournant par rapport aux précédentes rencontres.

En 1972, le séminaire d'Alger avait été très politique et avait bénéficié de ce fait d'une large publicité. Celui de Tizi-Ouzou, l'an dernier, fortement critique à l'égard des missions religieuses chrétiennes, avait été, en revanche, entouré de discrétion. Celui qui vient de se tenir à Bejaïa a été à la fois ouvert et serein. Il a, par là même, revêtu un caractère plus scientifique. En poursuivant dans cette voie, ces assises ne manqueront pas d'acquérir l'audience internationale à laquelle elles aspirent.

Douze jours durant, devant un millier d'étudiants, quelques deux cents professeurs, historiens, sociologues, écrivains et philosophes arabes, occidentaux et japonais, ont discuté de cinq thèmes à partir de trente-quatre communications.

Des représentants des courants les plus divers.

L'un de ces thèmes, le « rôle du penseur à travers les âges », a été naturellement axé sur les responsabilités qu'assume ou non de nos jours le penseur musulman pour faire accéder sa société à la modernité. On a retenu, en particulier, le procès que le philosophe marocain Mohamed Aziz Lahbabi a fait de beaucoup de ses pairs, divisés en trois catégories : « les portefaix de la culture », qui accumulent les connaissances sans discernement, « les mercenaires de la culture » et « les intellectuels égoïstes », qui refusent tout engagement.

Il a notamment reproché aux uns et aux autres de ne pas assumer leur époque comme l'avaient pourtant fait les savants et les penseurs de l'âge d'or, qui, pendant cinq siècles, ont fait de l'Islam l'une des plus brillantes civilisations.

Tout le séminaire a été ainsi dominé par l'interrogation qui préoccupe d'une façon lancinante l'ensemble du monde arabe et musulman : comment accéder à la modernité sans perdre son authenticité ? Le premier paradoxe de cette rencontre fut de faire coexister les représentants des courants les plus divers, allant des traditionalistes « préhistoriques », selon le mot de M. Lahbabi, aux visionnaires du vingt et unième siècle, en passant par les conservateurs classiques, les intégristes, les libéraux et les marxistes. Le second paradoxe aura été de permettre, par moment, au dialogue de se nouer et de se substituer à une suite de monologues. Dans ce débat, qui n'a cessé d'opposer les « anciens » et les « modernes », ces derniers, bien que minoritaires, se sont efforcés de montrer, face à certaines interventions dont on pouvait déplorer l'indigence ou le caractère démagogique, que la renaissance ne se fera pas si l'Islam se contente de juxtaposer, sans l'intégrer, la technique moderne aux valeurs traditionnelles. Qu'ils aient réussi à se faire entendre d'une partie des traditionalistes est un signe qu'on aurait tort de négliger. Longtemps figé, le monde musulman est en train de bouger plus qu'on ne l'imagine.

Le Monde 18-04-1974

انتظـــــروا

ستصــــدر قريبـا :

- الطبعــة الفرنسية للملتقى السادس للفكـر الاسلامى المنعقــد بالعاصمة بتاريخ 13 جمادى الثانية الى 1 رجب 1392 هـ الموافق لــ 24 يوليو الى 10 أغسطس 1972 .

- وكتاب الملتقى الثامــن للفكـر الاسلامى بالعربيـــة مؤقتا وكتاب الملتقى الثامن بالعربية والفرنسية .

- والطبعــة المصحوبة برسوم زيتيــة وصــور تاريخية وطبيعية لاليـــاذة الجزائر بالعربية والفرنسية .

N°21

فهـــرس الـعـــدد

هـذا العـدد

توحيد الاعياد والمواسم الدينية
من اهم مظاهر الوحدة الاسلامية

التقويم القمرى الملزم للأمة الاسلامية

هذه مجموعة حافلة من آراء، وتحقيقات، وأبحاث، ومقالات، وتصريحات، وقرارات، كلها متصلة بالحساب الفلكى العلمى الصحيح، وشرعية استعماله والاعتماد عليه فى تحديد أوائل الشهور القمرية وتعيين مواقيت المواسم والأعياد الاسلامية والعبادات ومنها الصيام والافطار، تقدمها مجلة « الأصالة » لقرائها الكرام بكل أمانة، راجية ان يدرسوا ما فيها بكل ما تستحقه من عناية، وتأن، ونزاهة، واهتمام، ففيها أبحاث علمية جليلة من أئمة فى الشريعة، وفتاو شرعية مدعمة بأدلة من الكتاب، والسنة، والقواعد، وتصريحات واضحة جريئة، وقرارات حكيمة حازمة من وزراء، أو من مؤتمرات اسلامية حضرها علماء مختصون. واجوبة قيمة، وآراء سديدة من شخصيات اسلامية تستحق كل تجلة واحترام يمثلون المذاهب الاسلامية جميعا: المالكية، والحنفية، والشافعية، والحنابلة، والامامية، والزيدية، والاباضية، والظاهرية، كل بما كتب وأبدى مؤيدا، أو معارضا.

وقد اتفق الجميع على وجوب الاسراع بوجود حل عاجل يمحو الاختلاف ويسرع بالاتفاق، ورأى اغلبهم ان هذا يحققه العمل بالحساب العلمى اليقينى وذلك لا يعارضه الكتاب ولا السنة، بل يحثان عليه ويفرضانه، ويطابق الشريعة السمحاء ومقاصدها.

« الأصـالـة »

بعد أربعة عشر قرناً من نزول "إقرأ" !

« أمة أمية

لا تكتب ولا تحسب » ! ! !

مولود قاسم

وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

أصحاب المعالى

حضرات السادة

باسم الوفد الجزائرى أشكر الكويت الكريم المضياف أميرا وحكومة وشعبا ، وخاصة صاحب المعالى السيد راشد الفرحان على هذه البادرة الطيبة التى جمعتنا هنا لنتدارس بعض الجوانب التى تهم حياة ومصير الأمة الاسلامية .

فبخصوص تحديد وتوحيد العمل بالشهور وأيام المناسبات الاسلامية أظن أن موقف الجزائر معروف فقد أعلنا عنه عمليا بعد اليأس من اتخاذ أية خطوة ايجابية فاصلة فى هذه المسألة على مستوى الأمة الاسلامية .

نص الكلمة التى القاها السيد مولود قاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية فى مؤتمر وزراء الشؤون الدينية والاسلامية والأوقاف فى البلاد العربية المنعقد بالكويت .

وطبقنا ما دعا اليه الامام رشيد رضاوالاستاذ علال الفاسى ، وما أوصى به مؤتمر ماليزيا وانتهت اليه لجنة الافتاءالجزائرية من ضرورة اتخاذ تقويم قمرى اسلامى على مدار السنة على أساس امكانيةالرؤية بالحساب الفلكى .

وفعلا فقد بدأنا العمل بهذه الطريقةالتى تجمع بين الرؤية وضمان صدق هذه الرؤية ، وهى استعمال الوسائل العلميةالتى تفيد القطع الذى هو من مقاصد الشريعة الاسلامية ، وأصدرنا يومية تبين لنا بدقة ووضوح وتحديد أيام المناسبات الدينية ، وذلك منذ رمضان الماضى حتى عيد الفطر المقبل ، وبها عرفنا متى سيكون اليوم الأول لرمضان المنصرم ، وعيد الفطر وعيد الأضحى اللذين تلياه ، وعرفنا مقدما بشهور ميلاد السنة الهجرية الجديدة ويوم عاشوراء ، وعرفنا متى سيكون اليوم الأول لرمضان المقبل ، ومتى سيكون عيد الفطر وعيد الأضحى لعام 1393 هـ(1973ـ1974م) .
وهذه اليومية ، يومية الجيب والمكتب ، هى الآن لديكم وزعناها هنا على حضراتكم .

طبعا وجدنا أمامنا بعض من ظل أياما يردد ذلك الحديث : «انا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا ، أو هكذا وهكذا وهكذا وعقد ابهامه ، أى 30 أو 29 يوما ! ولكننا ذكرنا لهم ما أفتى به الامام محمد رشيد رضا من جواز العمل بل ضرورة استعمال الحساب الفلكى فى العبادات وبالتالى اتخاذ تقويم قمرى ثابت على الحساب استنادا الى روح الشريعة الاسلامية ومقاصدها التى تدعو الى اليقين الذى يفيده العلم بوسائله الحديثة ، مما يمكننا من التثبت من امكانية رؤية الهلال يوم مولده ، علميا ، سواء رؤى أم لم ير بالعين المجردة حيث ان رؤيته ليست تعبدية وغاية فى ذاتها ، وانما هى وسيلة وأداة فمتى تحققت امكانية رؤيته ثبتت لنا شرعا وصح العمل بها ، بل وجب أى ان الرؤية الحكمية تغنى عن الرؤية الفعلية غير المضمونة .

وأضاف رشيد رضا باننا نعمل به فى الصيام ، وذلك اننا نعلم جميعا ان مؤذنينا وأئمتنا سامحهم الله يؤذنون ويصلون بالاستناد الى ساعات صنعها ، نصارى ،

ويهود ! ومجوس هنا وهناك، ولا يتحققون اطلاقا أو غالبا من غروب الشمس ومن الغسق ولا من تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود !

وذكرناهم أيضا بفتوى أصدرها الاستاذ علال الفاسي وهو من علماء القرويين ومجتهدى هذا العصر اذ قال ان ذلك الحديث « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته ، انا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب ، الشهر هكذا الخ » قد خرج تخريج الكلام المعلل ، وهو جهل العرب اذ ذاك ، أما وقد زال ذلك الجهل فتنطبق عليه القاعدة الأصولية المعروفة القائلة بأن المعلول يدور مع العلة وجودا وعدما » أى أنه ما دامت الأمية قد زالت أى أصبحنا نقرأ ونحسب ، سقط علينا الالزام بالعمل بالرؤية بالعين المجردة ، بل وجب علينا العمل بالوسائل التى تفيد القطع وهى الوسائل العلمية .

واسمحوا لى أن أضيف الى هذا انه من العجب العجاب ـ مهما كانت أسانيد الحديث المذكور ـ أن نظل نتمسك بظاهره بعد أربعة عشر قرنا من نزول « اقرأ » الذى فرض علينا العلم بعدد السنين والحساب ، فى أمة كانت حقا أمية ومن أكثر الأمم أمية وجهلا ، وتأخرا ، ولكنها أصبحت بذلك « اقرأ باسم ربك » معلمة البشرية ، اذ زودتها بالجبر والمثلثات ، وأنجبت جابر بن حيان ، والخوارزمى ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وابن سينا ، والادريسى ، والرازى ، وابن الجزار ، وابا القاسم ، وابن النفيس ، وابا حمزة ، وغيرهم كثيرون !

وانه لمن الأعجب ـ ولكن ليس التناقض الوحيد فى حياتنا ! ـ أقول انه لمن الأعجب أن يستعمل هؤلاء الناس اليوم النظارات ليحققوا مخطوطات الفقه والحديث ، ومكبرات الصوت الكهربائية للآذان أوسماعه ، ويستعملون آلات التصوير لأخذ نسخ من أمهات كتب الشريعة ، ويركنون الى الآذان من الاذاعة ، ويسجلون القرآن أو يستمعون اليه مسجلا فى اسطوانات أو مرسلا من اذاعات ، ويركبون السيارات الى صلاة الجمعة ، والطائرات الى بيت الله الحرام ، بل ويعتمدون على المراصد

والساعات فى تحديد أوقات الصلوات ، بل وحتى فى الصوم يعتمدون على هذه المراصد والساعات فى تحديد الامساك والافطار من بداية اليوم الأول حتى نهاية اليوم الأخير ، أى مدة ثمانية وعشرين أو سبعة وعشرين يوما ، الا فى تحديد ميلاد اليوم الأول وانتهاء اليوم الأخير من رمضان ، فلا يصدقون المراصد والساعات ، هذه الأجهزة الشيطانية الملعونة !

أصحاب المعالى ، حضرات الاخوان

على ضوء هذه المعلومات الحديثة التى ذكرناها ، على أساس مقاصد الشريعة التى وضحها أعلام من علمائنا ومجتهدينا فى العصر الحديث واستنادا الى تجاربنا الخاصة، والضوء الأخضر الذى أمدتنا به لجنة الافتاء، قررت الجزائر العمل بقوله تعالى: «ولتعلموا عدد السنين والحساب» واستغنينا نهائيا عن العمل بالرؤية وبالعين المجردة فى اثبات الهلال ، ووضعنا تقويما قمريا اسلاميا على مدار السنة ، وأصبحت الأعياد الاسلامية والأيام الكبرى مثل بداية رمضان وبقية شهور التقويم الهجرى معروفة مقدما ، يعمل بها ، وتحترم على المستوى الشعبى والرسمى ، وانتهى الأمر الذى كانوا فيه يستفتون ، ويتجادلون ، ويتخاصمون ، ويتسابون ، ويضحكون ، به على أنفسهم وعلينا العالم !

بقى ان هذا الذى تم فى الجزائر ، لايكون له مغزاه كاملا الا اذا تم على مستوى العالم الاسلامى وتوحدت الأعياد والايام الكبرى، وكان هناك تقويم ثابت عام، كماهو الشأن بالنسبة لليهود والمسيحيين فى جميع أنحاء العالم أو أغلبها ، وهذا ما يجب علينا أن نحققه هنا :

والجزائر رغبة منها فى هذا التوحيد مستعدة طبعا لأن تضرب صفحا عن تقويمها هذا اذا تم الاتفاق هنا على تقويم آخر على مدار السنة وبصفة نهائية ، على أساس علمى واضح ثابت ، ايا كان البلد الذى سيكون مرصده هو المرجع والمنطلق لهذا



1) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون »

« صدق الله العظيم »

2) « ... انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ... » ؟

ولكنه قال أيضا : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

« حديث شريف »

التقويم القمرى الاسلامى الموحد ، الشامل لسائر أو أغلب انحاء العالم الاسلامى والمعروف مقدما على مدار السنة .

اذا لم يتم هذا ، فاننا سنبقى عاملين بتقويمنا ، ولن نعمل بأية رؤية بمجرد العين ، كما كان الأمر حتى هذه السنة حيث تتضارب الشهادات ، وتتعارض من بلد الى آخر ، وأغلب الأحيان فى نفس البلد وفى نفس الحى من طرف شهود ثقاة ، تقاة ، يكذب بعضهم بعضا ، وكثيرا مايتبادلون التهم ويتفضل بعضهم على الآخر بغاية السهولة والسخاء والبساطة بكفارة الستين يوما كاملا غير منقوص ، مما يحول أعياد المسلمين من مناسبات أفراح ، وتآلف ، وتآخ ، وتزاور ، ومظهر وحدة واتحاد ، الى تنافر وتبادل تكفير وسباب ، واحن ، وبغضاء ، أو على الأقل الى خلاف وجدال يعرضاننا لسخرية العالم .

حضرات السادة

موضوع المراكز الاسلامية هام جدا فى داخل العالم نفسه حيث يتعرض شبابنا للنشاط الهدام الذى تقوم به مراكز ثقافية ومنظمات عديدة الاتجاهات والألوان من تبشيرية وصهيونية ، والحادية ، وغيرها ، ولكن متشابهة الطرق ، وموحدة الأهداف ، تتمثل طرقها فى الكتب والمجلات ، والنوادى ، والنشرات ، والأفلام التى تعرضها أجهزة بعض الدول الاسلامية مع الأسف ، وأهدافها كلها خلخلة عقيدة شبابنا ، وذبذبة شخصيته ، وزعزعة أصالته الاسلامية وتشكيكه فى أصله وتوجيهه نحو مختلف مظاهر الاختلال والانحلال ، التى تهيىء كلها للاحتلال !

وأهمية هذه المراكز بالنسبة لأبناء الجاليات الاسلامية فى الخارج ليست دون الأولى ، اذ هم معرضون هناك للذوبان ، والاندماج ، والامساخ الذى يعقبه الانسلاخ حيث تركز عليهم عديد من وسائل الاغراء ، وأحيانا حتى التهديد غير المباشر من حيث فرص العمل ، والتوظيف ، والتجارة ، وغيرها من سبل العيش . وحيث تعلن بعض الدول جهارا عن عزمها عن تلك النية وتبدأ فى تطبيقها .

فاذا كانت وسيلتنا الوحيدة لتحصين شبابنا هنا هى احياء جامعاتنا الاسلامية المهلهلة أو المندثرة ، بجعلها جامعات كاملة تشمل الدنيا والدين ، كما يقال ، والاسلام كما نعلم دين ودولة ، وتعزيز هذا التعليم ونشره من رياض الأطفال حتى الابتدائى والثانوى ، فان ملاذنا الوحيد بالنسبة لأبنائنا فى الهجرة (فى الوقت الحاضر على الأقل) هى هذه المراكز الثقافية وما يمكن أن تنشئه من مدارس لتغذية أبنائنا هناك بلبان ثقافتهم ، ودينهم واعطائهم صورا عن تراثهم وعن مجد أمتهم . وواقعها الأليم وآفاقها الباسمة ان أرادت !

وبهذه المناسبة أود أن أخبر الاخوان هنا أن ملتقى للهجرة قد انعقد أخيرا فى الجزائر ، وان موضوع أبناء جالياتنا مع موضوع التبشير بمختلف أنواعه هو احدى نقاط جدول أعمال الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى الذى سينعقد فى الجزائر فى الصيف القادم بين نخبة من الأساتذة من سائر أنحاء العالم الاسلامى وطلبة الجامعات والسنتين النهائيتين من الثانوى ، الذين يبلغ عدد المشاركين منهم أحيانا حوالى الألفين من الجزائر وغيرها

وأخيرا اذ أشكر مرة أخرى الكويت الشقيقة على هذه الخطوة المباركة ، أود أن أقترح عليكم جميعا أن نجعل مؤتمرنا هذا دوريا ، ينعقد كل سنة ، أو كل سنتين . وان نوسعه ليشمل البلدان الاسلامية كلها ، لا العربية وحدها ، وانى لأدعوكم الى عقد المؤتمر القادم فى الجزائر ، وربما كان أحسن الأوقات له بمناسبة احدى هذه الملتقيات التى تنعقد سنويا ، قبيل الافتتاح أو الاختتام مباشرة ليحضره الجميع .

ان مهمة المسؤولين على هذا القطاع الروحى التربوى مهمة شاقة ، فعلينا أن نقوم بها بروح هذه المسؤولية ، ونحن كلنا عابرو سبيل ، بل علينا أن نكون الضمير الواعى لأمتنا الاسلامية ، وان نبصرها بما لها وما عليها ، والا نبقى سلبيين ، خجلين وجلين ، ونكتفى بالاستعاذة والحوقلة فى حالات الاستنكار .

وفقنا الله جميعا الى القيام بالرسالة ،واداء الأمانة ، والسلام عليكم .

فتـــــوى

رأى لجنة الافتــاء
فى
العمل بالحساب الفلــكى
لتعيين مواقيت العبادات
ومنهــا :
الصـــوم
و
الصـــلاة
وفى
اخراج تقد م قمــرى
اســلامى موحــد

ان لجنة الافتاء المركزيـــة المجتمعة مساء الخميس 29 صفر 1392 هـ الموافق ل 13 أبريل 1972 م استجابة لادارة الشؤون الدينية بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، درست – فى جملة ما درست – مسألة الاعتماد على الحساب القطعى فى تحديد مواقيت العبادات ، ومنهـــا الصيام فى ابتداء الشهر ، والافطار فى نهايته . وكان فيمـــا استعرضته مذاهب المجتهـــدين وأقوال العلماء المسلمين قديما وحديثا :

اثبات اول الشهر ونهايته : لقـد أوجب الله صيام شهر رمضان كاملا ، كما أوجب افطار أول يوم من شوال ، قـال سبحانــه : (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منـــكم الشهر فليصمه ...) (1) قال القرطبى : « فرض الله

1) من سورة البقرة من الآية 185

صيام شهر رمضان أى مدة هلاله . ويسمى الهلال الشهر كما جاء فى الحديث : (فان غمى عليكم الشهر) أى الهلال . وقال الشاعر :

واخـــوان من نجـــد على ثقة
والشهر مثـــل قلامـة الظفر
حتى تـكامل فى استدارتـــه
فى أربـــع زادت على عشر (2)

وقال ابن رشد : (ان العلماء أجمعوا على ان الشهر العربى يكون تسعا وعشرين ويكـون ثلاثين) (3) . والاصل فى هذا الاجماع قولـه (ص) فى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما : (انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا ـ وعقد الابهـام فى الثالثة ـ والشهر هكذا وهكذا وهكذا يعنى تمام الثلاثين) وأشار (ص) بعقد الابهام الى أنه يكون تسعة وعشرين يوما .

ويثبت دخول الشهر برؤية الهلال . كمـا يثبت طلوع الفجر وابتداء النهار برؤية الضوء للفجر المستطير من جهة المشرق . وانما أنـــاط الشارع دخول شهر الصوم وانتهاءه بما يسهل العلم به على البـدو والحضر تيسيرا على الامـة ودفعـــا للحرج خصوصا وقد كانت المواصلات عسيرة . وانتقال الاخبار بطيئا . وكل قريـــة تكاد تكون مستقلة فقال (ص) : (لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان أغمى عليكم فاقدروا له) (4) .

2) الجامع لاحكام القرآن ج 2 ص 273
4) متفق عليه واللفظ لمسلم ولمالك فى الموطا عن ابن عمر

وقد أجمع الاولون من العلماء والمجتهـدين على ان العمدة فى اثبات الشهر ـ عنـــد امكان الرؤية وانتفاء المانع ـ هـــو الرؤية ان ثبتت بشروطها . والا أكملت العدة ثلاثين .

واختلفوا ان تعذرت الرؤية لمانع كوجـود سحاب أو قتر (غبار) أو اعتراض جبـل الخ لاختلافهم فى تاويل النص فى الحديث : (فان أغمى عليكم فاقدروا له) فما معنى اقدروا له ؟

يقال عربية ـ كما فى اللسان ـ : (قدرت لامر كذا أقدر قدرا اذا نظرت فيـــه ودبرتـــه وقايسته ... وقدر القوم أمرهـم يقـــدرونه : دبروه . وقدر عليه الشىء يقدره قـــدرا وقدرا ضيقه ... (فظن ان لن نقدر عليه) ان لن نضيق عليه .. (فقدر عليه رزقه) ضيق ويقال : قدرت الشىء أقدره واقدره قدرا من التقدير وفى الحديث فى رؤية الهلال .. (فان غم عليكم فاقدروا له) . وفى حديث آخر (فان غم عليكم فاكملوا العدة) . قوله فاقدروا له : (أى قدروا له عـدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يوما) .

وقد أخذ جمهور العلمـاء والمجتهدين بأن معناه أكملوا العدة ثلاثين يوما . كما جاء مفسرا فى حديث أبى هريرة أن النبى (ص) قال : (صوموا لرؤيته . فان غمى عليكم فاكملوا العدد)(5) وفى رواية (فعدوا ثلاثين)(5) . وعلل ابن رشـــد تأويل الجمهور بأن الحديث الاول فاقدروا لـــه « مجمل » والحديث الثانى فاكملوا العدة مفسر

3) بداية المجتهد ج 1 ص 194
5) متفق عليه واللفظ لمسلم فى الروايتين

(فوجب ان يحمل المجمل على المفسر ، وهى طريقة لا خلاف فيها بين الاصوليين فانه ليس عندهم بين المجمل والمفسر ، تعارض اصلا)(6) .

وحمله بعضهم على التضييق (ضيقوا لـه وقدروه تحت السحاب ، وممن قال بهذا احمد بن حنبل وغيره ممن يجوز صوم يوم ليلة الغيم من رمضان)(7) .وهذا مذهب ابن عمر راوى الحديث فقد ذهب الى تأويل (اقدروا له) « معنى ذلك ان يصبح المرء صائما ... وفيه بعد فى اللفظ »(8) .

الرجوع الى الحساب : وذهب جماعـة من السلف الى ان معناه الرجوع الى السحاب بتقدير منازل القمر قال ابن رشـد : (روى عن بعض السلف انه اذا اغمى الهلال رجـع الى الحساب بمسير القمر والشمس . وهذا مذهب مطرف بن عبدالله بن الشخير وهو من كبار التابعين . وحكى ابن شريح عن الشافعى انه قـال : (من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر ثم تبين له من جهة الاستدلال أن الهلال مردى — وقد غم — فان له ان يعتقد الصوم ويجزيه)(8) .

وحكى النووى فى شرح مسلم هذا المذهب باختصار فقال : (وقال ابن سريج وجماعة منهم مطرف بن عبدالله وابن قتيبة وآخرون معنـاه قدروه بحساب المنازل) . وقد فصل القرطبى هذا النقل فى الجامع لاحكام القرآن فقال : (وقد ذهب مطرف بن عبدالله بن الشخير وهو من كبار التابعين ، وابن قتيبة من اللغويين فقالا : يعول على الحساب عند الغيم بتقدير منـازل القمـر واعتبار حسابها فى صوم رمضان حتى انه لو كان صحو لرؤى لقوله (ص) : (فان غم عليكم فاقدروا له .. أى استدلوا عليه بمنازله وقدروا اتمـام الشهر)(9) وروى عن ابن شريح بنقل ابن العربى — كما أشار اليه الشوكانى — التفرقة بين ذوى العلم بالحساب والعامة ونص كلامه حسبما نقله ابن منظور صاحب اللسان (روى عن ابن شريح انه فسر قوله فاقدروا له أى قدروا له منـازل القمر فانها تدلكم وتبين لكم ان الشهر تسـع وعشرون أو ثلاثون قال وهذا خطاب لمن خصه الله بهذا العلم قال وقوله : فاكملوا العدة .. خطاب العامة التى لا تحسن تقدير المنازل . وهذا نظير النازلة تنزل بالعالم الذى أمر بالاجتهاد فيها ، وألا يقلد العلماء اشكال النازلة به ، حتى يتبين لـه الصواب كما بان لهم ، واما العامة التى لا اجتهاد لها فلها تقليد أهل العلم)(10) وقـد رد ابن العـربى — كما نقـل الشوكانى — قـوله بأنه (يستلزم اختلاف وجوب رمضان فيجب عـلى قوم بحساب الشمس والقمر وعلى آخرين بحساب العدد ، وهذا بعيد عن النبلاء)(11) .

وقال الباجى فى شرح الموطا (ذكر الداودى انه قيل فى معنى قوله (فاقدروا له) أى قدروا المنازل ، وهذا لا نعلم أحـدا قال به الا بعض

6) بداية المجتهد ج 1 ص 194
7) » » »
8) شرح النووى على مسلم ج 7 ص 189

9) الجامع لاحكام القرآن ج 2 ص 273
10) اللسان مادة «قدر»
11) نيل الاوطار ج 4 ص 213

أصحاب الشافعي انه يعتبر في ذلك بقول المنجمين، والاجماع حجة عليه (12) .

وقد تصدى الجمهور للرد على من خالف مذهبهم في تأويل الحديث ، فردوا على الذين حملوه على التضييق وصاموا يوم الشك . ولهم احاديث صحيحة تؤيد مذهبهم في النهى عن صوم يوم الشك . كما شنوا الغارة على القائلين باستعمال الحساب والتنجيم . فقد نقل الباجي في المنتقى . والقرطبي في الاحكام رواية عن مالك « روى ابن نافع عن مالك عن الامام لا يصوم لرؤية الهلال ولا يفطر لرؤيته . وانما يصوم ويفطر على الحساب أنه لا يقتدى به ولا يتبع » (13) . وقال النووي في شرح مسلم — نقلا عن المازري — حمل جمهور الفقهاء قوله (ص) فاقدروا له على أن المراد اكمال العدة ثلاثين كما فسره في حديث آخر قالوا ولا يجوز أن يكون المراد حساب المنجمين لان الناس لو كلفوا به ضاق عليهم لانه لا يعرفه الا أفراد والشرع انما يعرف الناس بما يعرفه جماهيرهم (14) .

ونقل الشوكاني عن أبي عبدالبر انه انكر صحة النقل عن مطرف اذ قال (لا يصح عن مطرف . وأما ابن قتيبة فليس ممن يعرج عليه في مثل هذا)(15) . ونقل صاحب المنار في مجلته عن ابن حجر في شرح الحديث المتفق عليه (انا أمة أمية ...) انه قال « المراد هنا حساب النجوم وتسييرها ولم يكونوا يعرفون من ذلك

12) المنتقى ج 2 ص 38

13) المنتقى ج 2 ص 38 والجامع ج 2 ص 273

ايضا الا النزر اليسير فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لدفع الحرج عنهم في معاناة حساب اليسير واستمر الحكم في الصوم ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك . بل ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلا ويوضحه قوله (ص) في الحديث (فان غم عليكم فاكملوا العدة ثلاثين) ولم يقل فسلوا أهل الحساب ؟ ولم يسلم له هذا الظاهر علامة العصر الشيخ رشيد رضا . بل استظهر العكس . من منطوق الحديث : (انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ..) فالمفهوم منه أنه لو وجد الحاسبون لصح الرجوع اليهم فقوله (ص) انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب بيان لما كانت عليه الامة . وقد جاء (ص) مبعوثا لاخراجها من ظلمات الجهالة (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي دعوة ابراهيم (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ...) .

وهكذا نرى جمهور القدماء من المجتهدين والعلماء يتمسكون باكمال العدة عند تعذر الرؤية تمسكا بتاويلهم للحديث وحملهم المجمل منه على المبين .

لماذا لم يعملوا بالحساب ؟ نقل العلامة محمد رشيد رضا في تفسير المنار (ان الذين لم يبيحوا العمل بالحساب عللوه بأنه ظن وتخمين .

14) شرح مسلم ج 7 ص 179

15) نيل الاوطار ج 4 ص 214

لا يفيد علما ولا ظنا)(16) وقد حملهم على ذلك سوء ظنهم بالمنجمين , وانهم كاذبون ولو صدقوا .

الحساب الفلكي يفيد القطع وهو غير التنجيم :

وليس الحساب المراد هنا حساب التنجيم المبنى على الرجم بالغيب , ولكن المراد هنا الحساب الفلكى الدقيق , حساب البروج , بروج ومنازل القمر , وقد ثبتت شرعيته بصريح آيات القرآن الكريم فى قوله تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) قال القاضى البيضاوى – وهو سنى شافعى – : (يجريان بحساب معلوم مقــدر فى بروجهمـا ومنازلهما وتتسق بذلك أمور الكائنات السفلية , وتختلف الفصـول والاوقـات ويعـلم السنون والحساب) وفى قوله تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) قال البيضاوى (قـدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل , أو للقمر وحده , وتخصيصه بالذكر لسرعـة سيره ومعاينة منازله واناطة أحكام الشرع بـه ولذلك علـله بقـوله : **(لتعلموا عدد السنين والحساب** , حساب الاوقات من الاشهر والايام). وفى قوله سبحانه (وجعلنا الليل والنهـار , آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عـدد السنين والحساب) .

فالقرآن صريح فى اثبات هذا النوع من الحساب وافادته **العلم** بضبط عـدد السنين والشهور , داع المسلمين لتحصيل هـذا العـلم والانتفاع به . ولهذا رأينا بعض علماء السلف من كبار التابعين والعلمـاء المتـأولين يفسرون الحديث (فاقدروا له) بـ « قدروه بحساب المنازل للقمر والشمس » ونسب هذا القول للشافعى ولبعض اصحابه .

ويقول محمد رشيد رضـا : (والحساب المعروف فى عصرنا هذا يفيد العلم القطعى)(17) ويقول : (اذا وجد الحاسبون عمل بقولهم لانه علم يقينى قطعى وان لم يوجدوا أكملت عـدة الشهر ثلاثين بشرطه) .

ولقد مات محمد رشيد رضا رحمـه الله – وقد حكم بأن هذا الحساب قطعى – قبل ان تتم الرحلة البشرية الى القمر وينزل الانسان على سطحه , ويسير فوق اديمه , وقد تم الذهاب اليه والرجوع منه بحساب مضبوط بالدقائق والثوانى فكيف يسوغ لعاقل ان يجعل مثل هذا الحساب من باب التنجيم والرجم بالغيب !

كيفية اثبـات الشهر بالحساب : يقـول العلامة محمد رشيد رضا :

« يثبتون (الحاسبون) وقت ولادة الهلال أى مفارقته للشمس فى آخر الشهر بالساعات والدقائق – ومنه يعلم امكان رؤيته لمعتدلى البصر أو عدم امكانها , فاذا كان من الدقة بحيث لايرى لا يثبتون الشهر بولادته واذا كان بحيث يرى قطعا عند انتفاء المانع من غيم أو نحو ذلك يثبتون الشهر ... ويقال : ان الشهر قد ثبت **رؤيـة**

16) تفسير المنار ج 2 ص 187 ط 2

17) تفسير المنار ج 2 ص 187 ط 2

الهلال حقيقة او حكما فلا يكون اثبات . وجوب الصيام بقول الفلكيين الحاسبين بل بوجود الهلال وانما يبينون للناس متى يرى » .

الصوم كالصلاة والحج : ولقد وضع الشيخ رشيد رضا رحمه الله مسألة تحـــديد مواقيت العبادات ببيان وحجج واضحة فى مثال نشره فى مجلة المنار بالجزء الاول من المجلد الثامن والعشرين ثم نقل خلاصته فى الجزء الثانى من التفسير ، وذلك فى خمس مسائل هذا فحواها :

1) أن اثبات أول رمضان واول شــوال كاثبات أوقات الصلوات الخمس . وقد ناطهـــا الشارع كلها بما يسهل العلم به على البـــدو والحضر . وغرض الشارع العلم بهذه الاوقات لا التعبد برؤية الهلال . ولا بتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر . ولا برؤية ظل الزوال . ورؤية ظل كل شيء مثله . ولا برؤيـــة غــروب الشمس . ولا برؤية مغيب الشفق . اذ غــرض الشارع معرفتها وحصول العلم بها .

وما ذكره صلى الله عليه وسلم من نــوط اثبات الشهر برؤية الهلال أو اكمال العدة بشرطه قد علله بكون الامة كانت أمية فى عهده . ومن مقاصد بعثته اخراجها من الامية لا ابقاؤها فيها . قال تعالى : (هو الذى بعث فى الاميين رســولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وفى معناه دعوة ابراهيم فى سورة البقرة . ويؤخذ من هذا **أن لعلم الكتاب والحكمة حكما غير حـــكم الامية** .

2) من مقاصد الشريعة اتفــاق الامة فى عبادتها ما أمكن الاتفاق وسيلة ومقصدا ، وهذا انما يكون :

أ ـ باتفاقها كلها ـ أو أهل قطر منها ـ على العمل بظواهر الشريعة ونصوصها وعمل النبى (ص) وأصحابه فى الصـــدر الاول من مواقيت الصلاة والصيام والحج . من رؤية الفجر والظل . والغروب والشفق والهـــلال عنـــد الامــكان . وبالتقدير أو رؤية العلامات عند عدم الامكان .

وفى هذه الحالة لا يجوز لمؤذن الفجر ـ فى أى يوم من الايام ـ ان يؤذن الا اذا رأى ضوءه معترضا فى جهة المشرق . وهو يختلف باختلاف الليالى . وباختلاف الصحو والغيم . وهكذا فى بقية الاوقات انما تعتمد الرؤية البصرية فقط .

ب ـ العمل بالحساب والمراصد عند ثبوت افادتها للعلم القطعى بهذه الاوقات التى جــرى عليها العمل فى جميع بلاد الحضارة الاسلامية فى الصلاة « ولو » مع المحافظة على الاستهلال ورؤية الهلال فى حال عدم المانع من رؤيته . للجمع بين ظاهر النص والمراد منه . ومن المعلوم من الدين بالضرورة ان الصلاة عماد الدين فهى افضل من الصوم وأعم . وفى غير حالة الصحو وعدم المانع من رؤية الهلال يكون اثبات الشهر باكمال العدة ثلاثين ظنيا أو دون الظنى . ومن قواعد الشريعة المتفق عليها ان العلم مقدم على الظن . فلا يعمل بالظن مع امكان العلم . فمن امكنه رؤية الكعبة لا يجوز له ان يجتهد فى التوجه اليها ويعمــل

بظنه الذى يؤديه اليه اجتهاده بل يجب ان يتيقن نها أمامه .

3) اذا قيل : افادة الحساب للعلم القطعى بوجود الهلال وامكان رؤيته خاص بالفلكى الحاسب وقد اختلف العلماء في العلم بما ذكرتم . ولا يكون علمهم حجة على غيرهم . قلنا ان الذين لم يبيحوا العمل بالحساب قد عللوه بأنه ظـــن وتخمين لا يفيد علمـــا ولا ظنـــا ... والحساب المعروف فى عصرنا هذا يفيد العلم القطعى كما تقدم . ويمكن لائمة المسلمين وأمرائهم ان يصدروا حكما بالعمل به فيصير حجة على الجمهور . وهذا أصح من الحكم باثبات الشهر باكمال عـــدة شعبان ثلاثين يوما مع عدم رؤية الهلال ليـــلة الثلاثين والسماء صحو ليس فيها قتر ولا سحاب يمنع الرؤية .

4) يؤيد هذا الوجه الاخير القول الثالث للامام أحمد فيما يجب العمل به اذا غم على الناس رؤية الهلال وهو أن يرجعوا الى رأى الامام (أى السلطان ولى الامر الشرعى) فى الصوم والفطر .

5) اذا تقرر لدى أولى الامـــر العمـــل بالتقاويم الفلكية من مواقيت شهرى الصـــيام والحج كمواقيت الصـــلاة وصيام كل يوم من الفجر الى الليل امتنع التفرق والاختلاف بـــين المسلمين فى كل قطر أو فى البلاد التى تتفـق مطالعها . واما التى لا تتفق فيها المطالع فلا ضرر فى الاختلاف فى صيامها كما لا ضرر فى الاختلاف فى الصلوات .

وجملة القول أننا بين أمرين اما ان نعمل بالرؤية فى جميع مواقيت العبادات أخذا بظواهر النصوص وحسبانها تعبدية وحينئذ يجب على كل مؤذن الا يؤذن لاى وقت الا اعتمادا على الرؤية البصرية . واما ان نعمل بالحساب المقطـوع بـه لانه اقرب الى مقاصد الشريعة : وهو العـــلم القطعى بالمواقيت وعدم الاختلاف فيها . وحينئذ يمكن وضع تقويم عام تبين فيه الاوقـــات التى يرى فيها هلال كل شهر فى كل قطر عند عـدم المانع من الرؤية . وتوزع على العالم . فاذا زاد عليها استهلال جماعة فى كل مكان . فان رأوه كان ذلك نورا على نور .

واما هذا الاختلاف وترك النصـــوص فى جميع المواقيت عملا بالحساب ما عدا مسألة الهلال فلا وجه له ولا دليل عليه . ولم يقل به امـــام مجتهد بل هو من قبيل (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)(18) .

مؤتمر علماء ماليزيا : ولقد أيد مؤتمـــر علماء المسلمين المنعقد فى ماليزيا – مبدئيا – الاعتماد على الحساب الفلكى . واثبت الشهر به عند تعذر الرؤيه اذ قال فى توصياته :

يوصى المؤتمر بما يلى :

أ – تتقرر بداية شهرى رمضان وشوال

---

18) انظر تفسير المنار ج 2 اثر تفسير آيات الصيام

اساسا بالرؤية العيانية الحقيقية للهلال .

ب ـ واذا تعذرت الرؤية لسبب من الاسباب في بلد معين وجب ان يتخذ اساسا للتحديد تقريرات للرؤية العيانية الحقيقية في بلد آخر يشترك مع البلد الذي تعذرت فيه الرؤية في الليل نفسه أو في جزء منه .

جـ ـ واذا تعذرت الرؤية للسببين السالفين وكان الحساب الفلكي يثبت امكان رؤية الهلال **يباح الاعتماد على الحساب الفلكي .**

د ـ على حكومات الاقطار الاسلامية المختلفة ان تقيم هيأة من الخبراء لتحديد بداية شهري رمضان وشوال بما يتفق **والمبادىء السابقة .** ويوصي المؤتمر ايضا باقامة جهات خاصة تتألف من علماء الدين وعلماء الكون المختصين تعينهم الحكومات المشاركة في المؤتمر للعمل على اخراج تقويم قمري اسلامي موحد .

وهكذا نرى أن هذا المؤتمر ـ مع كونه يقرر اساسا ـ اثبات الشهر اعتمادا على الرؤية العيانية ـ يبيح الاعتماد على الحساب الفلكي عند تعذرها .

ـ وهذا معناه اعتبار الحساب الفلكي مفيدا للعلم ـ ويدعو الى اقامة جهات خاصة تتألف من علماء الدين وعلماء الكون المختصين للعمل على **اخراج تقويم قمري موحد .**

فهذه التوصيات ـ المؤكدة باقتراح اخراج تقويم موحد ـ ترجيح لمذهب القائلين باعتماد الحساب الفلكي واستعماله عند تعذر الرؤية .

وهكذا اتفق رأيهم ودعوتهم مع رأي ودعوة الشيخ محمد رشيد رضا التي سبقت مؤتمرهم بنحو نصف قرن .

التقويم القمري الاسلامي وعلاقته بالقمر الفلكي : وقد استمعت لجنة الافتاء الى بيانات قيمة مقدمة من ممثل هيئة المرصد الفلكي بـ « أبي زريعة » ثم درست بامعان ما قدمه من (دراسة حول التقويم القمري الاسلامي وعلاقته بالقمر الفلكي) حررها السيد غزلون عبدالكريم .

وخلاصة هذه الدراسة القيمة :

ـ ان الشهر القمري يساوي 29 . 530588 يوما .

ـ وان السنة القمرية تساوي 2/29.530588 = 354 . 367056 يوما . وان الفلكيين المسلمين وجدوا أن هذا الكسر يبلغ في مدة ثلاثين سنة 11 يوما تقريبا أي :

0 . 367056 × 30 = 11 . 01168 يوما .

فاقترحوا أن تكون في كل ثلاثين سنة قمرية 11 سنة كبيسة ـ أي ذات 355 يوما ـ و 19 سنة بسيطة ـ أي ذات 354 يوما ـ وحددوا بداية للدورات الثلاثينية السنة الاولى من الهجرة وبداية لاول شهورها رؤية هلالها الاول في مكة أو المدينة .

والسنوات الكبيسة في كل دورة ثلاثينية هي السنوات :

2 ، 5 . 7 . 10 . 13 . 16 . 18 ، 21 . 24 . 26 . 29 ، والسنوات البسيطة هي ما عداها من السنوات .

ومنذ بداية التاريخ الهجرى تمت 46 دورة ثلاثينية ونحن الآن فى الدورة الـ 47 وبالتدقيق فى السنة 12 منها فسنتنا هذه 1392 سنة بسيطة ذات 354 يوما اما السنة المقبلة 1393 هـ فهى حسب هـذا التقـويم ـ سنة كبيسة اى ذات 355 يوما .

واما باقى الكسر وهو 01168 , 0 من اليوم فى كل ثلاثين سنة . فانه سيكون يوما كاملا بعد مضى 2569 سنة هجرية قمرية ويكفى لعلاجـه اضافة سنة كبيسة ثانية عشرة كلما مضت 85 دورة ثلاثينية تقريبا .

وقد اقترح الفلكيون المسلمون لوضـع التقويم القمرى الاسلامى أن يقسموا شهور السنة القمرية بالتساوى الى قسمين : 6 شهور ذات 30 يوما و 6 شهور ذات 29 يوما بحيث تكـون الشهور الفردية الرتبة ذات 30 يوما . والشهور الزوجية الرتبة ذات 29 يوما مما عدا شهر ذى الحجة فانه يكون فى السنة البسيطة ذات 29 يوما وفى الكبيسة ذا 30 يوما هكذا :

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	
محرم	صفر	ربيع 1	ربيع 2	جمادى 1	جمادى 2	رجب	شعبان	رمضان	شوال	ذى القعدة	ذى الحجة	
30	29	30	29	30	29	30	29	30	29	30	29	30
											فى البسيطة	فى الكبيسة

ولقد ارتاحت اللجنة الى هذا التقويم وتبينت براعة علماء المسلمين الاولين الذين توصلوا الى وضعه منذ قرون وبلغ من تدقيقه أنه لا يحتاج الى زيادة يوم الا بعد أكثر من الفين وخمسمائة قرن .

ولقد توقفت اللجنة عند قوله فى الدراسة :

(اما رؤية الهلال القمرى فانها تتوقف على الموقع الجغرافى الذى يحتله الملاحـظ وبالاخص موقعه العرضى) .

ان هذا الجزء من الدراسة هو ما يهمنا أن يبينه رجال الحساب الفلكى والمراصـد للامـة الاسلامية بحيث يدققون لها أن هذه الرؤيـة ممكنة فى الاحوال العادية فى هذا قطر من الاقطار الاسلامية لذوى الابصار العادية . وفى ذاك أو غير ممكنة . أو تمكن فى بعضها دون بعض .

فحيثما أمكنت الرؤية ـ عادة لو خلت من الموانع ـ يمكن الاعلان فيها عن ثبـوت الشهر بالحساب الفلكى وهى الرؤية **حكما** كما اشار الى ذلك العلامة رشيد رضا . ويكون ثبوت الشهر

بوجود الهلال فعلا ، وقد ايده فى ذلك مؤتمـــر علماء ماليزيا .

أما اذا نص الحاسبون على استحالة ان يرى فى أى قطر من الاقطار فان الشهر لا يثبت لان من القواعد تكذيب خبر قامت البراهين عـــلى استحالة وقوعه .

واما العمل بالقاعدة التى اقترحها الفلكيون المسلمون لوضع التقويم القمرى – والتى تقدم بيانها – فلا يمكن العمل بها فى العبادات دون أى احتراز أو تحفظ ، بحيث تنفذ حسب الجدول السابق للشهور . فالذى تلاحظه اللجنـــة ان التقويم يجعل شهر شعبان دائما ذا 29 يومـــا وشهر رمضان دائما ذا 30 يومـا . وشهر ذى الحجة فى البسيطة ذا 29 يوما وفى الكبيسة ذا 30 يوما .

وهذا يخالف نص الحديث الصحيح الذى خرجه مسلم وغيره عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رمضان فقال : (الشهر تسع وعشرون) وفى رواية (الشهر تسع وعشرون ليلة) .

وقد تقدم انه اخبرهم انه قـــد يكون ذا ثلاثين وقد يكون ذا تسع وعشرين ، بالقـــول والاشارة الحسية وهذا ما أجمع عليه المسلمون منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليوم . فقد كانوا يصومون تارة ثلاثين يوما ، وأخرى تسعة وعشرين . بل ورد ان اغلب صيامهم على عهد رسول الله (ص) كان تسعة وعشرين يوما .

فلا يمكن لنا نسخ هذا بجعل شعبان دائما ذا تسعة وعشرين يوما ورمضان ذا ثلاثين يوما دائما . اذ ان هذا قد يجعل المسلمين يصومون يوم العيد . ويفطرون يوما من رمضان والنسخ لا يقع بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما الناسخ هو الله سبحانه : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) فليكن التقويم مبنيا على الحساب لكل شهر ، فى كـل عام ، أو ليكن تقويم خاص تراعى فيه العبادات بجانبه .

وبناء على جميع ما تقدم فان لجنة الافتاء تعلن رأيها فى هذا الموضوع ، وتذيع ما يأتى :

ان لجنة الافتاء المجتمعة مساء 29 محـــرم 1392 هـ الموافق 13 ابريل 1972 م بعد دراستها للنصوص الشرعية ، واستعراضها لاقوال العلماء المسلمين ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، القائلين باعتبار الحساب الفلكى واستعماله فى اثبـــات دخول الشهر القمرى عند تعذر الرؤية والمعارضين وخصوصا بحث العـــلامة مجتهد العصر السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ، وتوصيات مؤتمر العلماء المسلمين المنعقد بماليزيا فى 21–27 ابريل 1969 .

ترى ان العمل بالحساب الفلكى والمراصد ، جائز يباح الاعتماد عليه فى كل عبادات المسلمين ومنها اثبات شهرى رمضان ، وشوال للصـــوم والفطر . ولاولى الامر من المسلمين ان يتخذوا فى ذلك ما يرونه من **اجراءات موافقة لمقاصد الشريعة ونصوصها** ، وذلك :

لان من مقاصد الشرع اتفـــاق الامة فى عبادتها ما امكن الاتفاق وسيلة ومقصدا ، ولا يحصل هذا الاتفاق الا بالعمل بهذا الحساب .

ولان العمل به اقرب الى مقاصد الشريعة ، وهو العلم القطعى بالمواقيت وعدم الاختلاف فيها فان غرض الشارع من اثبات اوقات العبـادات بالرؤية – تيسيرا على الامة الامية – العلم بهذه الاوقات ومعرفتها وليس التعبد برؤية الهــلال ورؤية غيره من الامارات .

ولان الحساب الفلكى وحساب المراصد ، المعروفة فى عصرنا يفيد العلم القطعى ، وهــذا العلم مطلوب لنا ، وغاية من غايات شريعتنا ، دلنا على انه علم القرآن الكريم اذ قال : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقـدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »(19) « قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل ، أو للقمر وحده وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله واناطة احكام الشرع به ولذلك علله بقوله ولتعلموا عدد السنين والحساب حساب الاوقات من الاشهر والايام »(20) .

وقال « الشمس والقمر بحسبان »(21) : « يجريان بحساب معلوم مقدر فى بروجهمــا ومنازلهما وتتسق بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصـول والاوقـات ويعـلم السنون والحساب »(20) وقال فى آية أخرى ، فى آيـة الليل والنهار : (... لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب)(22) .

19) سورة يونس من الآية 5
20) تفسير البيضاوى

ففى حالة الغيم – مثلا – يحصل للفلكى الحاسب العلم بأن الهلال موجود ورا. السحاب – تمكن رؤيته أو لا تمكن – أو غير موجود . بينما لا يحصل غيره الا على الظن . ومن قواعد الشريعة المتفق عليها ان العلم مقدم على الظن ، وانه لا يعمل بالظن مع امكان العلم . فان قيل بان افادة الحساب العلم القطعى ... خاص بالفلكى الحاسب فقد أجاب السيد محمد رشيد رضا بأنه (يمكن لائمة المسلمين وامرائهم الذين ثبت عندهم أن يصدروا حكما بالعمل به فيصير حجة على الجمهور) وعزز قوله بما نقله من قول ثالث للامام احمد فيما يجب العمل به اذا غم على الناس رؤيــة الهلال « أن يرجعوا الى رأى الامام » (أى السلطان ولى الامر الشرعى) فى الصوم والفطر .

ولان هذا الحساب الفلكى معمــول به فى أوقات الصلوات ، والمسلمين مجمعون على استعماله منذ قرون ، ومعمول به فى الصوم نفسه فانهم يمسكون عليه صباحا ويفطرون عليــه مساء ، والصلاة عماد الدين ، وهى اعم من الصـــوم وافضل منه باجماعهم .

وتوصى اللجنة بما أوصى به السيد محمد رشيد رضا رحمه الله وبما أوصى به مؤتمـــر العلماء المسلمين المنعقـد فى ماليزيا من السعى لوضع تقويم عام تبين فيه الاوقات التى يرى فيها الهلال من كل شهر فى كل قطر عند عدم المانـع من الرؤية وتوزع فى العالم . فاذا زادوا عليها استهلال جماعة فى كل مكان فان رأوه كان ذلك نورا على نور . وبالعمل بهذا التقويم القمـرى الاسلامى الموحد يحصل الاتفاق بـين المسلمين ويمتنع الاختلاف

والله الهادى الى سواء السبيل .

21) سورة الرحمن الآية 5
22) سورة الاسراء من الآية 12

اعتبار التقويم فى ثبوت شهر الصوم
وصحـة العمـل بالحساب الفلكى
فى دخـول الشهـر القمـرى

نشرت مجلة « الهدى الاسلامى » التى تصدرها ادارة الشعائر الدينية بتونس الشقيقة حديثا للفقيد الكبير الشيـخ محمد الطاهر بن عاشور حول العمل بالتقويم القمرى بالاعتمادعلى الحساب الفلكى وقالت الزميلة المذكورة فى تعليقها ان هذا الحديث كان جوابا عن سؤال « وارد عن المجلس الاسلامى الاعلى بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .

ونلاحظ على تعليقها شيئين :

اولا : المجلس الاسلامى الاعلى بالجزائر لم يكن هو الذى وجه هذا السؤال لانه كان بالتعاون مع اللجنة الوطنية للافتاء قد اصدر قبل ذلك بكثير كما سيتاكد القارىء بنفسه من ذلك فى مكان آخر من هذا العدد .

ثانيا : ان الحديث الذى نشرته الزميلة جرى بطلب من مجلة « الأصالة » الى فقيدنا الكبير الشيخ الطاهر بن عاشور وليس بمبادرة من هذا الاخير ، ولا بطلب من الزميلة المذكورة ، كما ان نص هذا الحديث سبق ان وزعه وفد الجزائر فى الإجتماع الذى عقدته لجنة التقويم القمرى المنبثقة عن المؤتمر الاول لوزراء الشؤون الدينية والاسلامية والاوقاف والمنعقد بنفس البلد بتاريخ محرم عام 1393 هـ الموافق شهر فبراير (شباط) عام 1973 م .

آخر حديث لفقيد الاسلام
الاستاذ محمد الطاهر بن عاشور
يخص به « الاصالة »

بســم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وءاله وصحبه

هذا جـــواب عن سؤال من اسئلة ثمانية اوردها الاديب السيد عثمان شبوب موقع الاختيار على اقتصار الجواب عنه دون بقية الاسئلة .

نص السؤال : اتخذت الجزائر فى نطـاق الحرص على وحدة المواسم الدينية فى العـالم الاسلامى الى تقويم قمرى يعتمد الحساب الفلكى. فما هو رأيكم فى ذلك ؟

الجواب : قال الله تعالى « يسالونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس » ٠

هذا تعريف عرف الله به المسلمين ببعض حكمه فى خلق نظام الشمس والقمر ، لذلك صرف الذين سالوا عن السبب لظهور الهلال دقيقا ثـــم اخذ ضوئه فى ـ التزايد حتى يصير بـدرا ، ثم اخذه يتناقض ضوؤه الى المحاق ، وارشدهم الله الى ما هو اولى لهم ان يعرفوه فى حكمة احوال الهلال مما معرفته تنفعهم لانها التى تفيدهم تقدير تحول الهلال الى احوال ، فكان هذا الجـواب جاريا على ما يسمى فى علم البلاغة بالاسلوب الحكيم (وهو اجابة الطالب بغير ما يتطلب تنبيها له على ان ما اجيب به اولى له بالقصد) فالمعنى فى هذه الآية ان الاولى بهم ان يعلموا ان احوال الاهلة مواقيت للناس اي مواقيت لجميع الناس لان جميع الناس يتمكنون من التوقيت بها ، بخلاف ـ احوال الشمس فان حلولها فى بروج السماء غير واضح للابصار ٠ وقد علم ان ـ الاهلة مواقيت للصيام من سابق قوله تعالى : « يايها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام ـ ثم قال ـ شهر رمضان ـ ثم قال ـ فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ٠ فان شهـر رمضان معروف يبتدىء بهلال وينتهى بهلال ٠

وان حق **تقليل الاختلاف بين احوال المسلمين يقضى بان لا يغفل عن تغير الاحـــوال عما كانت عليه فى القرون الماضية** حين كان اتصال اخبار البلدان وتعرفهم لاحوالهم ، بطيئا جـــدا ومعرضا للشك والنسيان لضبط ما فات من ايـام وساعات وذلك يضطرهم الى مبادرة كل بلـد باخذ ما يحصل لديه من ثبوت الشهر الشرعي ٠

ثم ان تبين ان ثبوته فى بعض البلاد سابـق على ثبوته عند اهل بلد آخر فادلة السنة واقوال المذاهب الاربعة جرت على ان لا عبرة باختلاف المطالع أي مطالع الاهلة (اعنى وجود الاستهلال) فلو صام اهل بلد تسعة وعشرين يوما بروية للهلال فى بلدهم وصام اهل بلد آخـــر ثلاثين يوما بالرؤية فان الذين صاموا تسعة وعشرين يوما يجب عليهم قضاء صيام يوم : قال ـ الحنفية هذا قول اكثر المشائخ (I) وقال المالكية هذا هـــو المشهور ٠ وقـــال الشافعية فى المسالة قولان مصححان ، وقال الحنابلة لاخلاف فى ان رؤية اهـــل بلد تلزم بقية البلدان ٠ وبهذا يعلم ان ما ادعاه الحفيد ابن رشد فى كتابه بداية المجتهد ، وابن جزي فى كتابه القوانين الفقهية ، من الاجماع على اعتبار اختلاف المطالع بين البلاد النائية جدا مثل الاندلس من الحجاز ، ادعاء غير صحيح لان الخلاف واقع فى اعتبار المطالع بين البلدان النائية والراجح عدم اعتبار اختلاف المطالع فيها فكيف يدعى الاجماع على اعتبار اختلاف المطالـع بين البلدان النائية جدا ٠

(I) كذا قال الزيلعى فى شرح كنز الدقائق ٠

وبهذا تأصل اصل للنظر فى هذه المسالة فرع عليه قواعد :

احداها النظر فى كيفية ثبوت الشهر

ولاشك ان الصوم عبادة مقصودة لذاتها وان له حكمة عظيمة اطلعنا الله على شيء منها وهو اعلم بما لم نطلع عليه · وجعل الله لهذه العبادة وقتا تقع فيه وهو الشهر المسمى رمضان من الاشهر الشرعية التى قدر الله نظامها يوم خلق السماوات والارض فقال تعالى « يايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون اياما معدودات ـ ثم قال ـ شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن ـ ثم قال ـ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل » فحصل بمجموع ذلك تعيين العبادة المفروضة وتحديدها وتعيين زمانها وبهذا كان شهر رمضان وقتا لان تصام ايامه من مبدا الشهر الى نهايته ، فوجب على الناس تعيين هذا الشهر مبدأ ونهاية وكان الناس يوم نزول القرآن يعرفون الشهر بتجدد ضوء الهلال عقب محاقه ·

وحقيقة الهلال انه حالة انعكاس ضوء الشمس على جانب من كرة القمر وهو الجانب الذى ينعكس عليه ضوء الشمس أي هو الجانب المقابل للكرة الارضية وذلك الانعكاس يسمى عند علماء الفلك تولدا · ويسمونه اقترانا · ويسمى عند عموم العرب محاقا **ولمعرفتنا وجود الهلال عقب المحاق فى علم الله طرق :**

اولها رؤيته بالبصر رؤية لا ريبة تتطرقها وهذا الطريق حسى ضرورى ولا خلاف فى العمل به

وثانيها مرور ثلاثين ليلة فى وقت استهلال الهلال الذى سبقه وهذا الطريق قطعى تجريبى اذ رصد الناس فى جميع الارض وفى كل العصور احوال ظهور الهلال فوجدوه لا يتاخر عن تلك التقدير من الايام وتحقق ذلك لديهم واشتهر فصار قطعيا وهذا لاخلاف فيه بين الايمة ·

وثالثها دلالة الحساب الذى يضبطه المنجمون اعنى العالمين بسير ـ النجوم علما لا يتطرق قواعده شك ، وحسابا تحققت سلامته من الغلط ، وذلك هو ما يسمى بالتقويم · فاذا ضبط الحساب وقت وجود الهلال باليوم ـ والساعة حصل لا محالة العلم بهذا الشهر القمرى اذ جرب التقويم فى حساب السنة الشمسية عند الامم قديما وحديثا فى القرون العديدة فلم يعثر له على غلط واتبعه المسلمون فى اوقات الصلوات وفى اوقات الامساك والافطار فى رمضان ، وجرب عن العرب فى حساب السنة القمرية كذلك · لكن منع **فقهاء المذاهب الاربعة العمل فى اثبات الشهر** الشرعى بحساب المنجمين **واهل التقاويم ·**

وان علم الناس بوجود الهلال لم يكن له طريق فى العصور الماضية سوى الرؤية فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فاقدروا له » ·

وليس فى لفظ الحديث صيغة قصر الصوم على حالة رؤية الهلال · فقياس حساب المنجمين على رؤية الهلال قياس جلي · واذ كانت الرؤية بالعين وحدها لا تمكن الا بعد مضى ساعات من تكون الهلال وبعد خروجه من بقايا شعاع الشمس عند الغروب كان حساب التقويم اولى من الرؤية لان تأخر ظهور الهلال للابصار بعد وجوده بساعات ، حالة طردية لا اثر لها فى اعتبار القياس ، كما ان تفاوت الاعين فى رؤيته لا عبرة بتفاوته فالتفاوت اذا وصف طردى · وقد يتمكن ضعيف البصر من رؤية الهلال بوضع نظارات فيرى الشىء الذى لم يره قبل وضع النظارات ، والنظارات ايضا متفاوتة فى تقريب المرئى ، فشتان ما بين النظارات الاعتيادية التى اعتاد بها اهل الابصار الضعيفة · وبين الناظورالمكبر المسمى (مرءاة الهند) بله الناظور المضخم الذى ترصد به النجوم المسمى (تيلسكوب) · فالتقويم طريق علمى يكسب الظن القريب من القطع بثبوت الهلال · وقد اعتبر الشرع التقويم فى اوقات الصلاة فلا وجه لترك قياس وقت ثبوت شهر الصوم على وقت الصلاة اذ لا فرق بينهما الا باوصاف طردية وهي لا تؤثر فى الاجراء الشرعى ·

وحاول شهاب الدين القرافى التفرقة بينهما فى الفرق الثانى والمائة فلم يات بطائل وءال كلامه الى ان حديث صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته لا يشمل العمل بالحساب · ويرد عليه ان الحديث ليس فيه صيغة حصر كما قدمنا فلا وجه لتعطيل قياس التقويم على الرؤية بجامع تحصيل الظن قياسا جليا فهذا يعضده قول مطرف بن عبد الله بن الشخير من فقهاء التابعين وقول ابن سريج من ايمة الشافعية ونسبه الى الشافعى كما فى الاكمال لعياض · وقد صح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « انا امة امية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا · وهكذا · وهكذا · واشار بيديه مطلقتى الاصابع · ثم اعاد وعقد احد ابهاميه فى المرة الرابعة فكان قوله انا امية الخ من قبيل مسلك الايماء الى علة قياس حساب المنجمين المضبوط على رؤية الهلال بالبصر والحكم يدور مع العلة وجودا وعدما ·

ولنا فى التعويل على منظار المرصد الفلكى فى اشهر بلاد الاسلام مثل البلاد المصرية « غنية » عن اعتبار الحساب النجومى · فعلى قضاة المسلمين والمفتيين والقائمين مقامهم فى الشؤون الدينية من علمائهم ان يرصدوا ـ بانفسهم او بمن يثقون به ظهور الهلال بنظارات المراصد · والذى يثبت عنده منهم ظهور الهلال بذلك يعلم به جميع بلاد الاسلام بواسطة الاذاعة الدولية القاعدة الثانية ويجب التنبه الى ان الاشهر الشرعية قمرية وان الاشهر القمرية تبتدىء بالليالى فابتداء الشهر الشرعى يكون من وقت غروب الشمس فغروب الشمس فى آخر مساء يوم الخميس مثلا يعتبر مبدأ ليلة الجمعة وهلم جرا ، بجيث اذا طلع الفجر لا يعتبر الوقت الذى بعد طلوعه مبدأ لليوم الشرعى ، ولذلك فاذا رؤى الهلال فى جزء من اجزاء الليل فى بلد

اسلامى وجب الصوم على اهل ذلك البلد وكل بلد هو فى حالة ليل فى تلك الساعة · واذا رىء عند طلوع الفجر او عقب طلوع الفجر فى بلد لم يجب على أهل ذلك البلد الصوم · وكذا القول فى الفطر سواء · وحكم تلك الحالة مشمول لقول فقهاء المذاهب الاربعة انه « ان رىء الهلال نهارا فهو لليلة القابلة » بدون تفصيل ·

وفى هذه الحالة يظهر اختلاف بين بعض المسلمين فى الصوم او الفطر وفى اقامة صلاة العيدين وذلك خطب سهل ·

القاعدة الثالثة : مسالة ما اذا خالف التقويم شهادة من يشهدون بانهم رأوا الهلال ، هل تكون مخالفتهم التقويم موجبة استبعاد شهادتهم برؤيته فيجب ردها بالاستبعاد العادى ، فهذا انما يتصور بالنسبة للشهادة برؤية الهلال بمجرد النظر · وقد ذكر فقهاء المالكية ان مخالفة التقويم للشهادة فى غير شهادة رؤية هلال الشهر الشرعى يوجب رد الشهادة وانه لا يجب رد شهادة رؤية هلال الصوم وهلال الفطور ، وللشافعية فيه قولان اختار السبكى قول رد شهادة الرؤية بتلك المخالفة (2) ·

وكلام فقهاء الحنفية غير صريح **ولم اقف على قول الحنابلة** والوجه الشرعى فى نظرى انها ترد بذلك للاستبعاد العادى لان الشهادة ترد لاستبعادها عادة (كما فى مختصر خليل) واصل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا يشهد حضرى على بدوى » ولا شك انه لو ادعى شاهدان انهما **رأيا الهلال فى مكان غم الغيم سماءه** ان تقبل شهادتهما ·

فاما ما يتعلق باثبات شهر الحج فقد ظنها كثير من الناس مسالة معقدة ولكنها عند التامل لا اشكال فيها لان وقت رؤية هلال ذى الحجة بواسطة المرصد يعتبر بحالة مكة وما حولها · فاذا كان حالها ليلا حينئذ فهو ابتداء شهر ذى الحجة · وان كان حالها حينئذ بعد طلوع الفجر فابتداء ذى الحجة فى الليلة المقبلة ، لان أهل الحج كلهم ياتون مكة · والحج عبادة يقوم بها الذين يحلون بمكة فمبدا تلك العبادة هو الشهر الذى كان مبدؤه بمكة على نحو ما قررناه آنفا من ان ابتداء الشهر الشرعي يعتبر بالنسبة الى الليل والنهار ·

---

(2) نقله عنه ابن عابدين ص 141 جزء 2 من كتاب رد المختار محمد الطاهر بن عاشور فى 10 جمادى الثانية سنة 1393 ·

الحساب الهجري على أساس الرؤية العلمية

احمد حماني

رئيس المجلس الاسلامي الأعلى
واستاذ بجامعة الجزائر

مشكلة الاضطراب فى اثبات دخول الشهور القمرية ، وما تسببه من خلل فى حياة الامة الدينية والاجتماعية ، ومن تفرقة فى صفوف المسلمين ـ حتى فى القطر الواحد ـ مشكلة قديمة . وكانت الادارة الاستعمارية المهيمنة على مقدرات بلادنا تنتهزها فرصة لتزيد فى

شدة الخلاف ، وتعميق الهاوية ، وتوليد اسباب الاحن والشقاق . وبعد زوال الكابوس الاستعماري عن بلادنا ، وعن أغلب الاقطار الاسلامية ، التى اصبحت تملك ارادتها - أحس المسلمون - فى جميع أقطارهم ، وعلى اختلاف مذاهبهم - بضرورة معالجة هذا الاضطراب ، وازالة هذا الخلل الذى اصبح يمتد الى حياتهم الادارية ، والسياسية ، والاقتصادية ، بل أصبح يهدد نفس التاريخ الهجرى والتقويم القمرى بزواله والاعراض عن استعماله . ومن أنكر هذا فقد قال : ان الصبح ليل !

لقد أصبحت الحكومات الاسلامية تبدى تساؤلها ، وتلح أن تجد لها مخرجا . واهتم العلماء بالامر ، واخذ كل فى نطاق اختصاصه يحاول ان يشارك فى ايجاد حل للقضية ، وعلاج شاف لهذا الداء .

أما بالنسبة الينا فقد كان الامر يحتاج الى دراسة مقنعة ، وجراءة حازمة ، وخطوة حاسمة . وهذا ما أقدمت عليه وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية .

ولقد كان المسؤولون يعلمون ان ما اتخذوه من اجراء فى الموضوع لا بد ان يثير عواطف بعض الناس، من الذين حسنت نيتهم ، وزكت نفوسهم ، ولكنهم فطروا على التقليد الاعمى ، فهم لا يريدون به بديلا ، او من الذين هم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون ، فمنهم الجاهلون المعذورون ومنهم المعاندون المغرضون المتفننون بالارجاف فى المدينة .

ولقد كان الامر كما احتسب فالجمهور المسلم اقتنع بما أدلى اليه ، ورضى بما عرض عليه ، واطمأن لاجراء اتخذه من حملهم الامانة الثقيلة فحملوها معاهدين الله ان يثبتوا ويصبروا ، وألا يثنيهم عن الخدمة الصادقة للامة المسلمة والدين الحنيف والشريعة المطهرة ارجاف من مرجف فى المدينة ، ولا شتم سفيه ، ولا قذف بذىء ولا خربشة مخربش ، ولا ارعاد مرعد .

لقد ارتاح العلماء والعقلاء لزوال عهد الاضطراب واقبال عهد الثبات والاستقرار ، وهم يرجون أن يعم هذا الامر جميع بلاد المسلمين ويتحدوا فى عباداتهم واعيادهم ، ولعل هذا يكون بداية لوحدة تعم جميع شؤونهم .

أما بعض «المتعالمين» فقد ظن ان هذا القرار خرق لاجماع سابق من علماء المسلمين وبدعة جديدة فى الدين ، وأن من جاء به قد جاء شيئا ادا ، يكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الارض وتخر له الجبال هدا .

ولم يعلم هؤلاء ان القول بالعمل بالحساب الفلكى النجومى واعتماده - اذا غم الهلال - قول قديم معروف ، حكته كتب جميع المذاهب الاسلامية القديمة وذكرته ، ولم تبدع أصحابه ولا كفرتهم ، وغاية ما ذكرته ان المشهور خلافه ، أما العلماء

المحدثون فانهم بحثوا الامر من جديد ، وأتوا فيه حقا بالجديد المفيد . وهذا ما سنعرض اليه في كلمتنا الآتية :

علماء التابعين :

لعل أول من عرف عنه هذا القول واشتهر به مطرف بن عبد الله بن الشخير وهو من كبار التابعين وكل من تكلم في الموضوع أشار الى مذهبه وقوله . وممن نقل قوله من المالكية القرطبي . والقاضي ابن رشد ، وغيرهما ، ومن الشافعية النووي في شرح مسلم . ومن الزيدية الشوكاني . ومن الاباضية الاستاذ الامام ابوطاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي الاباضي في كتابه القواعد اذ قال : «وروى عن مطرف ابن الشجري وكان من التابعين انه اذا غم الهلال اعتبر الحساب بسير الشمس والقمر ومثله روى عن الشافعي ! ..» (1)

الشافعي :

ولقد اشتهر بهذا القول المذهب الشافعي ، لانه أحد الاقوال المنسوبة الى الامام الشافعي نفسه ، وان شهر علماء الشافعية خلافه . ونقل هذا القول عن الشافعي أصحابه واصحاب المذاهب الاخرى . ومن الناقلين له الامام الجيطالي الاباضي في كتابه المذكور آنفا اذ قال عقب نقل مذهب مطرف : «ومثله روى عن الشافعي انه قال : من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر ثم تبين له من قبل ذلك ان الهلال مرئي وقد غم فانه يعتقد الصوم ويجزيه» (1)

وقد اقتبسنا فيما نشر في عدد ماض من الأصالة نقول العلماء الآخرين وتعليقاتهم .

هذا القول من الشافعي ، وان شهر المتاخرون خلافه ، فان فيهم علماء محققين اثباتا لا يتطرق الشك الى ديانتهم وأمانتهم وكفاءتهم العلمية نصروا هذا المذهب ودعموه بالحجج الواضحة .

عند المالكية :

وهو قول موجود في الفقه المالكي ، معروف لعلمائه . حكاه شهاب الدين القرافي – وهو ثقة في روايته وعلمه ، لا يحوم الشك حول أمانته وديانته – وان شهر المالكية خلافه ، قال القرافي في كتابه الجليل « الفروق » :

« الفرق الثاني والمائة بين قاعدة أوقات الصلوات يجوز اثباتها بالحساب والآلات وبين قاعدة الاهلة في الرمضانات لا يجوز اثباتها بالحساب . وفيه قولان عندنا ، وعند الشافعية رحمهم الله تعالى ، والمشهور في المذهبين عدم اعتبار الحساب » (2) .

والشاهد في قوله «فيه قولان عندنا وعند الشافعية» . ولا يقدح في القول عدم شهرته فمن المعلوم ان المشهور ما كثر قائلوه . وقد يكون القول مشهورا ومقابله هو الصحيح . فان الصحيح ما قوى دليله . ولا ندعي ذلك هنا ، وانما ننبه الغافل المنكر لوجود القول بالحساب . اما ما ذكره القرافي من فرق بين القاعدتين فقد أباه الشيخ محمد رشيد رضا

---

1) كتاب القواعد بحاشية الشيخ ابى عبدالله محمد بن عمر بوسنة الورجلاني على كتاب القواعد تاليف الامام الشيخ اسماعيل بن موسى الجيطالي الاباضي وقد طبع سنة 1297 هـ والنقل من نسخة خطية من الهامش ص 312

2) الفروق ج 2 ص 199 – 200 .

اذ جعل ان الرؤية للاهلة كالرؤية لعلامات أوقات الصلوات من رؤية لضوء الصبح . والزوال . وظل القامة ، والغروب للشمس والشفق ، انها كلها وسائل لحصول العلم بدخول الوقت . فالمراد من نصب الشارع لها حصول العلم وليس التعبد بالرؤية .

هل يجوز العمل به ؟

اشتهر ذكر هذا القول في الفقه الشافعي،وبحثوا فيه . ومنهم من اعتمده وصحح العمل به . ومنهم من أباه . وقد بسط مذهبهم القسطلاني في شرح البخاري فقال : «قال الشافعية ولا عبرة بقول المنجم فلا يجب به الصوم ولا يجوز . والمراد بالآية «وبالنجم هم يهتدون» الاهتداء في ادلة القبلة ، ولكن له أن يعمل بحسابه كالصلاة ولظاهر الآية . وقيل ليس له وصحح في المجموع ان له ذلك ولكن لا يجزئه عن فرضه . وصحح في الكفاية انه اذا جاز أجزاه ، ونقله عن الاصحاب . وصوبه الزركشي تبعا للسبكي وصرح به في الروضة » (1) .

وتوضيح هذا الكلام ان الحاسب والمنجم اذا دلهما الحساب على وجود الهلال وامكان رؤيته لهما ان يعملا بعلمهما في انفسهما لظاهر الآية « وبالنجم هم يهتدون » وقياسا على الصلاة . ومن صام منهما برئت ذمته وأجزاه صومه عن الفرض كما صوبه السبكي وتبعه الزركشي . وقيل يصوم ولكن لا تبرأ ذمته ولا يجزئه صومه . واما قوله ولا عبرة بقول المنجم فان مراده في الحكم بايجاب الصوم على العامة واعلان الصوم والافطار لهم .

من هو الحاسب ومن هو المنجم ؟

عرفهما القسطلاني وفرق بينهما فقال : «والحاسب وهو من يعتمد منازل القمر وتقدير سيره في معنى المنجم وهو من يرى اول الشهر طلوع النجم الفلاني وقد صرح بهما في المجموع » (1) .

وانما نفر العلماء من المنجمين لانهم يتهمونهم بالقول بالحدس والتخمين ، ومن قبل كان مذهبهم مرفوضا ممقوتا » قال ابن بزيزة وهو مذهب باطل (يعني الرجوع الى قول المنجمين) فقد نهت الشريعة عن علم النجوم لأنها حدس وتخمين ليس فيها قطع ولا ظن غالب » (2) .

والمحققون من علماء الشريعة يفرقون بين التدجيل بالتنجيم ، وبين علم الفلك والنجوم والحساب ويحكمون ان هذا العلم يفيد القطع واليقين لا الظن والحدس والتخمين . وعلماء أوربا يشهدون أن علماء العرب بلغوا فيه شاوا بعيد .

قال شهاب الدين القرافي :

« ان حساب الأهلة والكسوفات والخسوفات قطعي فان الله أجرى عادته بأن حركات الافلاك وانتقالات الكواكب السبعة السيارة على نظام واحد طول الدهر بتقدير العزيز العليم قال تعالى : «والقمر

1) نقلا عن فتح العلي المالك .. فتاوى الشيخ عليش ج 1 ص 169

2) القسطلاني في فتح الباري بنقل علال الفاسي في كتابه الجواب الصحيح ـ ص 29 .

قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » وقـــال تعالى « الشمس والقمر بحسبان » اى هما ذوا حساب فلا ينخرم ذلك ابدا وكذلك الفصول الاربعة لا ينخرم حسابها والعوائد اذا استمرت أفادت القطع كما اذا رأينا شيخا نجوم بانه لم يولد كذلك بل طفلا لأجل عادة الله بذلك والا فالعقل يجوز ولادته كذلــك . والقطع الحاصل فيه انما هو لأجل العادة واذا حصل القطع بالحساب ينبغى ان يعتمـد عليــه كاوقات الصلوات فانه لا غاية بعد حصول القطع » (1) .

فهذا البيان الساطع مــن شهابالذين يوضح بطلان أتهام علم الفلك وحسابه بانه ظن وتخمين . ولعمرى ان هذا القول من هذا الامام الفحل يزيـن علماءنا ويرفع عنهم وسما نجلهم ان يوسموا بـه ، كما وسم به علماء الكنيسة آنذاك الذيـــن كانوا يحاكمون العلماء الفلكيين ويحكمون عليهم بالاعدام حرقا جزاء بحوثهم واكتشافاتهم العلمية .

وكما ورد ذكر الخلاف فى فى أستعمال الحساب فى كتب المالكية والشافعية ، ورد فى كتب غيرهم فقد جاء فى « النيل » وهو عمـدة المذهب الاباضى قوله « وان غم وتعذرت الرؤية وجب الاكمال وعليه الاكثر (2) » فقوله وعليه الاكثر يفهم ان كثيرا عـلى غيره وفى الجزء الثانى من شرح النيل صفحة 187 ما نصه « وتعذرت الرؤية وجب الاكمال بان يعد للشهر ثلاثون وعليه الاكثر وهو قول اصحابنا » وحكى فى « سلك الدرر فى نظم النيل صفحة 273 ـ 274 هذا القول المخالف بقوله :

وقال بل حسابـــه يعتبـــر
بجريان الشمس حـــين تعبر
وذا هـــو المعروف بالتقويـم
لدى اصطلاح علـــم النجـوم
لابـن سريج الشافعى نقـــلا
ومطرف مـــن علماء من خـلا

وزعم صاحب النظم أنه مذهب الروافض وانهم مجمعون عليه فقال :

وهكـــذا أطبقـت الـروافض
أيضا على الأخـذ به وناقضوا

الى ان يقول :

قالوا فكل من يكـــون حاسبا
فبالحساب الصوم صار واجبا

وقال صاحب « حى على الفلاح حاشية الايضاح » ما نصه :

« ... وما الصوم والافطار بحساب الفلك فخطا وكفر ومخالفة للسنة ... » وفى هذه الكلمة « كفر » من العنف ما تنزهت عنه أقلام الفحول المتقدمـين . وقد مر فى حكاية الجيطالى ما يدل على العلم والادب الجم والدين المتين ، وينبغى أن تموت أمثـال هـذه الكلمة من افواه واقلام الكاتبين . فلقد اجمع جميع الناقلين عـــلى ان القول بالعمل بالحساب النجومى

---

1) الفروق ج 2 ص ـ 200
2) النيل ج 1 ص 165

مذهب مطرف ، ووسموه بانه من كبار التابعين وأجمع النقل على أنه قول للشافعي في رواية عنه سلم صحتها اليه إمثال الشيخ عليش في المتزمتين وامثال ابن رشد في المقدمات فكيف يكفر من أخذ بتأويل صحيح النسبة الى امام مجتهد مثل الشافعي، هذه زلة قلم ينبغي سترها ٠

لقد صرح بجواز العمل بالحساب الفلكي علماء اعلام امثال الزركشي ، وابن السبكي، ولكن اصرحهم قولا ، وابينهم حجة هو ابن دقيق العيد ٠

ابن دقيق العيد :

هذا الامام من اعظم علماء الحديث والسنة والفقه الشافعي ، خدم الاسلام خدمات جليلة ، قال في شرح « عمدة الأحكام » بنقل الاستاذ علال الفاسي :

« والذي اقول به ان الحساب لا يجوز ان يعتمد عليه في الصوم بمفارقة القمر للشمس على ما يراه المنجمون من تقدم الشهر بالحساب على الشهر بالرؤية بيوم أو يومين فان ذلك احداث لسبب لم يشرعه الله تعالى ٠

واما اذا دل الحساب على ان الهلال قد طلع من الافق على وجه يرى لولا وجود المانع كالغيم مثلا فهذا يقتضي الوجوب ، لوجوب السبب الشرعي ، وليس حقيقة الرؤية بمشروطة في اللزوم لان الاتفاق على ان المحبوس في المطمورة اذا علم بالحساب باكمال العدة أو بالاجتهاد بامارات وجب عليه الصوم وان لم ير الهلال ولا اخبره من رآه » (1) ٠

فهذا تصريح واضح بين ان حقيقة الرؤية غير مشروطة في اللزوم ٠ وان الصيام واجب لوجوب السبب الشرعي وهو وجود الهلال الممكن رؤيته في الاحوال العادية ٠

وهذا الفهم الصحيح للنصوص الشرعية، والتأويل البين الصريح للأحاديث الصحيحة **فهمه** وصرح به امثال ابن دقيق العيد في المتقدمين ، ومحمد رشيد رضا وعلال الفاسي في المتأخرين ، وأذاعوا ما علموه بغاية البيان ٠

وبما ان مذهب هؤلاء الثلاثة ــ في الحقيقة ــ مذهب واحد ، فاننا نذكرهم متتابعين وان اختلفت أزمانهم ، وقد تقدم كلام الاول ، وهاكم مذهب الآخرين :

محمد رشيد رضا :

رفض الشيخ رشيد رضا في بحثه الفرق بين اثبات اول الرمضانات ، والشهور بالاهلة ورؤيتها ، وبين اثبات أوقات الصلوات برؤية علامات الفجر والزوال ، والظل والقامة ، والغروب للشمس والشفق ، وجعل غرض الشارع في كلها معرفتها وحصول العلم بها لا التعبد برؤيتها ، وما ذكره (ص) من نوط اثبات الشهر برؤية الهلال او اكمال العدة علله بكون الامة كانت أمية في عهده ، ومن مقاصد شريعته اخراجها من الامية لا ابقاؤها فيها ، « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان

1) الجواب الصحيح ــ ص 30

كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وفى معنـاه دعـوة ابراهيم فى سورة البقرة « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمـة ويزكيهم » ، ويؤخذ من هذا ان لعلم الكتابة والحكمة حكما غير حكم الامية .

ومن مقاصد الشريعة اتفاق الامة فى عبادتهـا ما أمكن الاتفاق وسيلة ومقصدا ، ولا سبيل الى هذا الاتفاق الا بالعمل بالحساب والمراصد عند ثبـوت افادتها للعلم القطعى بهذه الاوقات التى جرى بها العمل فى جميع بلاد الحضارة الاسلامية فى الصلاة و «لو» مع المحافظة على الاستهلال ورؤية الهـلال فى حال عدم المانع من رؤيته للجمع بين ظاهر النص والمراد منه . والصلاة أعم وأعظم من الصوم .

فمذهبه صريح فى الاعتماد على الحساب واستعماله وانه المراد من النص . وقد بين كيفية اثبات الشهر بالحساب بما يوضح كلام ابن دقيق العيد فقال :

كيفية اثبات الشهر بالحساب :

«يثبتون (الحاسبون) وقت ولادة الهـلال ، أى مفارقته للشمس فى آخر الشهر بالساعات والدقائق ومنه يعلم امكان رؤيته لمعتدلى البصر أو عدم امكانها، فاذا كان من الدقة بحيث لا يرى لايثبتون الشهـر بولادته ، واذا كان بحيث يرى قطعا عند انتفـاء المانع من غيم او نحو ذلك يثبتون الشهر .

ويقال «ان الشهر ثبت برؤية الهلال حقيقـة او حكما فلا يكون اثبات وجوب الصوم بقول الفلكيين الحاسبين ، بل يوجد الهلال وانما يبينون للنـاس متى يرى » (1) .

وكلام الشيخ محمد رشيد بيان لكلام ابن دقيق العيد ، وكل منهما يرفض ان يعتمد على المنجمين القائلين بتقديم الشهر بالحساب على الشهر بالرؤية، ولكنه يقبل قول الحاسبين والمنجمين المفيد للقطع بأن الهلال موجود يتخلف مغيبه عن مغيب الشمس تمكن رؤيته في الاحوال العادية لذوى الابصار العـادية او انه يغيب قبلها أو معها او بعدها بقليل بحيث لا تمكن رؤيته . وفى الحالة الاولى يثبت الشهـر ، وفى الحالة الثانية لا يثبت .

الشيخ علال الفـاسى :

وقد ألف العلامة الجليل الاستاذ علال الفاسى فى مسالة طرق الاثباتات الشرعية للاهلة والنظـريات المختلفة لعلماء المذاهب الاسلامية رسالة جليلـة ، أو كتب فتوى تشرح رأى الشريعة الاسـلامية ومـا ينبغى أن يكون العمل بمقتضاه ، وعنوانها «الجواب الصحيح والنصح الخالص عن نازلة فاس وما يتعلق بمبدأ الشهور الاسلامية العربية» . وقد طبعت هذه الرسالة التى تم تاليفها فى رمضان 1385 هـ . برهن السيد الفاسى على علم غـزير ، وفهم دقيـق ورأى صائب ، وشجاعة يتحلى بها الراسخون .

ولما وصل الاستاذ الفاسى الى الجواب عن السؤال: هل يعمل بالحساب قال :

---

1) المنار ج 1 م 28

«ان المشهور في كل مذهب هو القول بعدم العمل بالحساب في الصوم والافطار وغيرهما من المواسم والاعياد . والسبب في انتشار القول بذلك أمور :

1) فهم الحديث ان المقصود به المنع مطلقا من الحساب . وان الرؤية هي الامارة الشرعية الواحدة حتى لو تبدلت الاحوال .

2) التحوف من الوقوع فيما وقع فيه البابليون وقدماء الامم الذين خالطوا التنجيم ، والخلط بين عبادة النجوم والسحر بها ، وبين استعمال الحساب والرصد لفائدة المعرفة وتدقيق السنين والحساب .

3) كون الاغلبية الساحقة في العصور الاولى بل جميع الامم فيما قبل العصر العباسي كانت بعيدة عن اتقان الفلكيات حتى تستفيد منها .

وقد تطورت الاحوال وبقي معظم علمائنا على القول بما قال به الاولون الا فئة يسيرة ممن أعملوا رأيهم من العلماء في كل عصر ومن بينهم العلامة ابن دقيق العيد .. ومن بينهم الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي .. » (1) .

ثم ذكر الاستاذ الفاسي بعض القائلين بالحساب : مطرف . والشافعي في احدى المنقولات عنه ومحمد بن مقاتل الرازي.وبعض المالكية وابن طاووس من الامامية وجماعة منهم (2) والعاملي وابن الحديد وابن ابي الحديد . ومن المتأخرين الشيخ أحمد شاكر ، والشيخ أحمد بن الصديق الغماري من المغاربة ، (والظاهر انه لم يطلع على بحث الشيخ رشيد رضا).

ثم بين الاستاذ الفاسي رأيه الخاص فقال :

والذى أعتقده ان الحديث – انا أمة امية لا تقرأ ولا تحسب – خرج مخرج الكلام المعلل . وهو ان العرب . بل الذين كانوا في عصر النبي (ص) من أمم العالم لم يكونوا على درجة من العلم يجعل نتائج حساباتهم قطعية ، بل كانت مقدمات الحساب الفلكي لاثبات الشهر قبل الاسلام والى حياة النبي (ص) ظنية غير متقنة الانتاج كما تدل على ذلك بقايا نصوص الفلكيين القديمة . اما اليوم فقد تطورت حال معرفة المسلمين للفلك ، ومنذ العصر العباسي وعلماؤنا يتعاطون هذا الفن . وانضمت اليه الدراسات العصرية ، فلم يعد من الممكن القول بأن النتائج الحسابية ظنية بل هي قطعية بقدر ما تكون الرياضيات قطعية . وعليه . فما دام الحكم قد خرج معللا ، وما دامت العلة قد انتفت أى اننا لم نعد امة أمية بل اصبحنا نقرأ ونحسب فقد ارشدنا الحديث الى العمل بالحساب طبقا للقاعدة الاصولية التي تقول : العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما .

ولا عبرة بادعاء ان الحكم يبقى مستمرا حتى بعد تغيير الاحوال لانه لادليل عليه . وايضا فانه (ص) قال في حديث : «فان غم عليكم فاقدروا له» . وقد فسره الشراح بمعنى خذوا له التقدير الحسابي . وقال عليه السلام في الرواية الاخرى : « فاكملوا العدة ثلاثين» فجمع (ص) بين حال من يعرف الحساب

1) الجواب الصحيح – ص 30

2) المشهور عن الامامية انهم ينصرون القول بالحساب الفلكي فهؤلاء السادة من آعلامهم ، وقد رآينا في مجلة ايرانية ثناء على من اهتم بالقضية من الاخوان المغاربة ، ثم بلغنا ان سماحة الامام موسى الصدر امام الشيعة بلبنان عبر عن اغتباطه بالبادرة الجزائرية القاضية بالعمل بالحساب الفلكي – وانها ستكون مثلا يحتذى لجميع البلاد الاسلامية طال الزمن أو قصر

وحال من لا يعرف . فالامة فى حال قصورها العلمى تعتمد الرؤية المحضة تسهيلا على الناس . فاذا كانوا قد تعلموا واصبح فى مقدور المتخصصين منهم أن يهيئوا لهم وسائل التقدير الحسابى فعليهم ان يعملوا بالحساب فى الصوم كما عملوا به فى الصلاة تحقيقا لقوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل . . . لتعلموا عدد السنين والحساب » .

نعم يجب ان نحقق المناط طبقا لما فعله العلامة ابن دقيق العيد فنقول : ان الحساب الذى نعتمده هو الذى يدل على ان الهلال قد طلع من الافق على وجه يرى لولا وجود المانع مثلا فهذا يقتضى الوجوب لوجود السبب الشرعى ولا تعتبر حقيقة الرؤية مشروطة . اما الحساب بمفارقة القمر للشمس على ما يراه المنجمون من تقدم الشهر بالحساب على الشهر بالرؤية بيوم او يومين فهذا ما لا أقول به لانه احداث لسبب شرعى لم يشرعه الله ، فانا متفق تماما مع رأى الامام ابن دقيق العيد رحمه الله» (1) .

وهذا الذى اتفق عليه رأى هؤلاء العلماء الثلاثة هو الذى أخذت به لجنة الفتوى واعتمدته وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى قرارها .

اثناء القرن الماضى :

وقد يظن ان القول بالحساب الفلكى فى اثبات الصوم والافطار والعمل به فعلا – لا قولا فقط – من مبتكرات هذا العصر . ولكن الصحيح ان فى علماء المسلمين من كان يعتقده ويعمل به ، ويعلنه ولا يسره . ويقلد فيه من خواصه واصحابه ولا ينكر عليه .

ولقد روى لنا الشيخ عليش حادثة عالم شافعى معاصر فى سؤال ورد عليه أدرجه فى كتابه «فتح العلى المالك . فى الفتوى على مذهب الامام مالك» ، وأجاب عنه ، ونص السؤال :

«ما قولكم فيما وقع من بعض الشافعية ، مشهورا بالعلم والديانة ، من اعتماده فى ثبوت رمضان وشوال على حسابه سير القمر وعدم اعتباره لرؤية الهلال بالبصر واتفق له مرارا صومه قبل عموم الناس بيوم وفطره قبلهم كذلك . ويظهر ذلك لخواصه واحبابه ويقلدونه فيه ، وربما تعدى الامر لغيرهم فقلده ايضا وكاد ان يتسع هذا الخرق واهل العلم ساكتون عليه » (2) .

والذى يلفت النظر ما جاء من وصفه بالعلم والديانة ، ومن اعتماده على الحساب وعدم اعتباره لرؤية الهلال ، وانه يقلد من احبابه وخواصه ، وان اهل العلم ساكتون عنه .

أما الشيخ عليش – وهو مالكى غير شافعى – فلم يسكت عنه ، بل أثار السؤال أعصابه فاتهمه بهدم الدين ، وبالجهل المركب ، وعدم الديانة ، واختلال العدالة ، ودناءة الهمة ، وعدم المروءة . وما كان ينتظر من الشيخ عليش غير ذلك . فقد كفر بما هو أهون من هذا . كفر محمد بن على السنوسى ، ورفع العصا على الشيخ محمد عبده . ولكن هذه

1) الجواب الصحيح – ص 31 – 32

2) فتح العلى المالك – ص 168

الوثيقة التى لا يتطرق الشك الى صحتها تثبت اصرار بعض اهل العلم من الشافعية على القول بالحساب والعمل به لا فى خاصة انفسهم ، ولكن لهم ولغيرهم . وكان زملاؤهم ومعاصروهم يرون ذلك منهم ولا ينكرونه .

فى هـذا العصر :

أما فى هذا العصر فقد تعالت اصوات المسلمين من كل قطر ومصر تطالب بالخروج من هـذا الاضطراب ، وتلح فى وجوب الوصول الى حل يزيح عن صدور المسلمين هذا الحرج . واهتم بالامر العلماء افرادا وجماعات . وخرجوا بفتاوى او بحوث او توصيات وقرارات . ولم يعالج الموضوع ، فى رأينا، وحسبما اطلعنا عليه بأحسن مما عالجه العلامة السيد محمد رشيد رضا فى مجلة المنار ، والسيد علال الفاسى . وكل منهما أعلن رأيه بصراحة فى انه ينبغى العمل بالحساب الفلكى لانه حساب يفيد القطع . ولان الشارع الحكيم ارشدنا الى العمل به فهو المراد من النص ، اذ علل العمل بالرؤية والاكمال بانا امة أمية لا نقرأ ولا نحسب ، وهذه العلة قد انتفت . وهما يتفقان فى ان ذكر «الامية» فى الحديث علة لنوط اثبات الشهر بالرؤية البصرية او اكمال العدة . وان من مقاصد بعثة محمد (ص) اخراجها من الامية .

ولقد جاء فى توصيات مؤتمر العلماء المسلمين المنعقد بماليزيا :

«اذا تعذرت الرؤية لسبب من الاسباب .. وكان الحساب الفلكى يثبت امكان رؤية الهلال يباح الاعتماد على الحساب الفلكى» .

وجاء فى قرارات المؤتمر السنوى لمجمع البحوث الاسلامية ما نصه :

«4 يعتمد على الحساب فى اثبات دخول الشهر اذا لم تتحقق الرؤية . ولم يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما» .

ولقد جاء فى توصيات مؤتمر ماليزيا :

«ان على الاقطار الاسلامية المختلفة ان تقيم هيئة من الخبراء لتحديد بداية شهرى رمضان وشوال بما يتفق والمبادى السابقة والمطالبة بالعمل على اخراج تقويم قمرى اسلامى موحد» .

ففى توصيات مؤتمر العلماء بماليزيا ، وقرارات مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية ترجيح لمذهب مطرف وقول الشافعى ، ومذهب الذين جاءوا من بعدهم وسلكوا طريقهم . بل فيه شىء جديد وهو ان مطرفا والشافعى ـ فيما نسب لهما ـ يقولان بأن الحاسب يعمل بعلمه فى خاصة نفسه . ولا يلزم غيره . اما التوصيات والقرارات فان مفهومها ان للحكومات ان تعلن ذلك للناس وتلزمهم به . ولقد سبق لنا نشر توصيات مؤتمر العلماء بماليزيا ، واليوم ننشر كامل نص قرارات مجمع البحوث الاسلامية حسبما جاء فى مجلة «منبر الاسلام» برواية فضيلة شيخ الجامع الازهر .

شيخ الازهر يجيب :

سؤال 7 « ورد فى الحديث : صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته الخ » . والرؤية كما يتبادر من الحديث حسية وتقع بالعين المجردة او بواسطة آلات الرصد . فهل يمكن ان تفسر هنا بمعنى تحكم العقل والعلم واستخدام الحساب الفلكى دون الاعتماد على الرؤية البصرية الا فى

حالات الامكان .. ودون ان يكـــون هناك تعارض بين الدين والعلم وذلك حتى يكون فى الامكان توحيد أوائل الشهور العربية ليمكن الاحتفال بالشعـــائر الدينية فى الوطن الاسلامى ؟

« عدد كبير من القراء »

الجـــواب :

«ان موضوع توحيد مبدأ الصيام وبالتالى توحيد العيد فى البلاد الاسلامية موضوع مناقشة الفقهاء فى القرون الاولى ، كما ناقشه علماء مجمع البحوث الاسلامية فى السنوات الاخيرة ، وهم جميعا متفقون على انه لا تعارض بين الدين والعلم ابدا . فالديـن نفسه هو الذى يدعو الى العلم . وفى مسالتنا هـذه علق الحديث الصوم والافطار على رؤية الهـــلال فان لم تمكن الرؤية بالبصر لجأنا الى العلم . ومـا الارشاد الى اكمال شعبان ثلاثين يوما الا توجيـــه لاحترام الحساب الذى هو مظهر من مظاهر العلم.. والراصدون للهلال يستعينون بالمناظير وهى ادوات علمية ، كما يستعينـــون بمصلحة الارصـــاد فى اجهزتها وامكانياتها الاخرى .

وقد ألقى فضيلة الاستـــاذ الشيخ محمـد عـلى السائس عضو مجمـع البحـوث الاسلامية بحثـــا مستفيضا فى هذا الموضوع امام المؤتمر السنـــوى وانتهى المؤتمر الى اصدار القرارات الآتية :

1 ــ ان الرؤية هى الاصل فى معرفة دخول أى شهر قمـرى كما يدل عليه الحـديث الشـريف ، فالرؤية هى الاساس . لكن لا يعتمد عليها اذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا .

2 ــ يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة كما يكون بخبر الواحد ذكرا كان او انثى اذا لـــم تتمكن التهمة فى اخباره بسبب من الاسباب . ومن هذه الاسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثـوق به الصادر ممن يوثق به .

3 ــ خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، اما الزام الكافة فلايكون الا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الاسلامية للنظر فى ذلك .

4 ــ يعتمد على الحساب فى اثبات دخول الشهر اذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

5 ــ يرى المؤتمر انه لا عبرة باختلاف المطالع وان تباعدت الاقاليم متى كانت مشتركة فى جزء مـن ليلة الرؤية وان قل ، ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الاقاليم التى لا تشترك فى جزء من هذه الليلة .

6 ــ يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الاسلامية ان يكون فى كل اقليم اسلامى هيئة اسلامية يناط بها اثبات الشهور القمرية مع مراعاة اتصال بعضها بعضها ببعض والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهـم» (1) .

ومن يتمعن فى هذه القرارات الموفقة جيدا يجد انها تجاوز حقا قول مطرف وابن الشخير . وقـــول الشافعى الى القول بالزام العموم بعلـــم الحساب

---

1) مجلة منبر الاسلام عدد رمضان 1392 هـ

والاعتماد عليه ، ولقد ذهبوا أبعد من ذلك . الى رد الرؤية اذا تمكنت فيها التهمة تمكنا قويا · ومن الاسباب لرد الاخبار مخالفة الحساب الفلكي الموثوق به المصادر ممن يوثق به · . وفي القرار الرابع التصريح بالاعتماد على الحساب فى اثبات دخول الشهر اذا لم تتحقق الرؤية **ولم يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما** ، ومتى لا يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما ؟ الا يكون ذلك اذا قرر العلماء المسلمون المتقون الحاسبون ان الهلال موجود تمكن رؤيته عادة لو زالت الاسباب المانعة ؟ ومتى يتيسر الوصول الى الثلاثين ؟ الا يكون ذلك عندما يقرر علماء الحساب الفلكي أن الهلال يغيب قبل الشمس أو معها أو بعدها بمدة لا تتيسر رؤيته ؟ اليس هذا هو نفس ما قرره ابن دقيق العيد , ومحمد رشيد رضا , وعلال الفاسي بفصيح العبارة وبيان لا لبس فيه ؟

أما أهل الاختصاص من علماء الحساب الفلكي والمراصد من المسلمين الاتقياء الغيورين على شريعتهم العالمين حقا انها صالحة لكل زمان ومكان ، فانهم يحاولون نشر معارفهم المتطورة ، ومبلغ علمهم فى الموضوع لانارة أفكار علماء الشريعة المختصين ، وجمهور المسلمين وذلك فى الكتب المفيدة , أو فى المجالات والنشريات الموثوق بها ·

ومن هؤلاء العلماء السيد محمد أبو العلا البنا استاذ الفلك بكلية الشريعة بالجامعة الازهرية · كتب بحثا قيما في الموضوع ، أقتبس منه فقرات مفيدة الاستاذ علال الفاسي فى كتابه النفيس « الجواب الصحيح ··· » · وقد اقترح الاستاذ ابو العلا على الحكومات الاسلامية ان تجتمع وتختار « المبدأ المكاني» أى الدوران لليوم الشرعى حلا لمشاكلهم الاجتماعية الدينية كما اتفقت الدول حلا لمشاكلهم الاجتماعية المدنية » (1) ·

ثم اقتراح ايضا ·

« ان ينشأ جهاز حسابى فلكي يعمل على ضوء الشريعة الاسلامية لتقوم بحساب جداول عامة بجميع المسلمين فى بقاع الارض لاوقات الصلوات الخمس وضبط احوال رؤية الهلال في جميع البلاد المهمة التى يمكن رؤيته فيها وعمل جداول عامة أيضا لتعيين القبلة . وان تمنع النتائج (اليوميات) التى لم يؤخذ حسابها من هذه الجداول العامة والتى لم تسخر الوضع الهلالى فى حساب أول الشهر القمرى وان تراعى حدود الرؤية لمبدأ الامكان والوجوب فى ابعد حكومة اسلامية نحو الغرب وهى مراكش فى النتائج (اليوميات) التى تنشر حتى تكون هلالية عالمية » (2) ·

رمضان هذه السنة :

ونقلت صحيفة « العلم » المغربية عن مجلة «منبر الاسلام » التى يصدرها المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية بحثا نفيسا فى الموضوع , تعرض بالخصوص لرمضان فى هذه السنة , ونشر قبل الاعلان عن

1) الجواب الصحيح

2) الجواب الصحيح – ص 31

بدايته • وقد كتبه العالمان الجليلان الدكتور زكي عياد والاستاذ احمد حسين احمد ، تحت اشراف الدكتور جمال الدين الفندى •

ولقد قدموا للموضوع بمقدمة هذا نصها :

« ليس من العجيب فى شيء ان يعمد المسلمون الى الاستعانة بالحساب الفلكى فى شأن ضبط التقويم الهجرى . فقد سبقنا الى ذلك الفرنجة ايام قام جريجورى الثالث عشر باصلاح التقويم الميلادى • لهذا نتقدم للعالم الاسلامى بسلسلة من البحوث نشرح فيها وجهة نظر العلم آملين ان يهتم بها علماء المسلمين . . .

. . . ولا بد لكى تقوم بذلك ان نؤمن بالحساب الفلكى قاعدة للوصول الى ما نريد »

وبعد شرح واف لدوران الارض حول الشمس ، والقمر حول الارض وسيره قالوا « ان الحساب الفلكى يتطلب فقط تحديد لحظة انسلاخ القمر عن الشمس **فاذا وقع ذلك قبل غروب الشمس ، وغرب الهلال** بعد غروب الشمس ، بدأ الشهر فى اليوم التالى » .

ثم أعلنوا أنهم قاموا بحساب لمعرفة دخول شهر رمضان لسنة 1392 هـ فى المنطقة التى تقع فيها البلاد الاسلامية •

« من غرب موريطانيا غربا ، حتى شرق اندونيسيا شرقا ، ومن شمال تركيا شمالا حتى جزيرة مدغشقر جنوبا (لا ندرى لماذا جعلوا الحد الشمالى للمنطقة شمال تركيا ، مع أن المسلمين يتوغلون الى ابعد من ذلك فى بلاد روسيا وهم مستوطنون بموسكو ، وبفنلاندا كاستيطانهم مدغشقر وتنزانيا !) وذلك على الحاسب الالكترونى ، وقسمنا هذه المنطقة فى الرسم الى مربعات طول ضلع كل منها خمس درجات ودونا فى بعض اركانها وعلى مواقع المدن الهامة الفترات التى يمكثها الهلال فى الافق الغربى بعد غروب الشمس ، وبذلك انقسمت الخريطة الى ثلاث مناطق مميزة •

1) فى المنطقة السفلى المظللة بخطين متقاطعين يرى الهلال يوم السبت الموافق 7 أكتوبر •

2) وفى المنطقة الوسطى المظللة بخط واحد مائل يرى الهلال فى يوم الاحد الموافق 8 اكتوبر **ولا يمكن رؤيته فى هذه المنطقة فى يوم 7** •

3) اما فى المنطقة العليا غير المظللة فلا يرى الهلال قبل يوم الاثنين الموافق 9 أكتوبر •

وجدير بالذكر ان المنطقة السفلى تضم بعض بلاد المسلمين مثل دار السلام وجزيرة مدغشقر ، وغانا ، وغينيا ، وليبريا • ويمكث الهلال فى تناناريف عاصمة مدغشقر لمدة ثمان دقائق • اما المنطقة الوسطى فهى تضم اغلب بلاد المسلمين بحق . . . » (1) •

فهذا البحث النفيس يدعم رأى علمائنا الفلكيين القاعدين للرصد بمرصد « أبى زريعة » الفلكيين الحاسبين الذين أعلنوا ان هلال رمضان 1392 هـ يستحيل ان يرى فى كامل سماء الجزائر مساء السبت 7 اكتوبر • وانما يرى مساء الاحد ، وهذا ما قرره البحاثون المصريون ، لأن كل بلاد العرب ، واغلب بلاد المسلمين واقعة فى المنطقة الوسطى حسب رسمهم وتقسيمهم وقد قالوا « ولا يمكن رؤيته فى هذه

1) جريدة العلم عدد 8132 فى 24 شعبان 1392 – 3 أكتوبر 1972 م

المنطقة يوم 7 أكتوبر (1) .

واذا كان هذا حكم العلماء المختصين — وقولهم يفيد العلم والقطع — فان كل شهادة برؤيته في الاقطار التي حكموا باستحالة رؤيته فيها متهمة، معرضة لتكذيب العلم .

وقد رأينا ان مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية جعل من اسباب رد الاخبار بالرؤية مخالفة الحساب الفلكي الموثوق به . ولفقهائنا الاقدمين قولان في الموضوع .

سئل الشيخ عليش عن شهادة عدلين برؤية الهلال مع قول أهل الحساب انه لا تمكن رؤيته قطعا فافتى بانه « يعمل بشهادة العدلين ويطرح كلام أهل الحساب (2) » ونقل عن الحطاب قوله « الذي يظهر من كلام اصحابنا انه لا يلتفت لقول أهل الحساب (2) » .

ونقل عن السبكي وغيره من الشافعية « انه لا تقبل الشهادة لأن الحساب أمر قطعي والشهادة ظنية ، والظنى لا يعارض القطع (2) » ونازع في قول ابن السبكي بعض الشافعية ورده المتأخرون منهم . كما نقل عليش .

وقد كانت الشهادة المتهمة — منذ القديم — شهادة سوء كما وسمها مالك بن انس . وسحنون ، وحكم علمائنا الاقدمين عليها حكم صارم كحكم المتأخرين من علماء « مجمع البحوث الاسلامية » .

جاء في « تبصرة الحكام » لابن فرحون في فصل الحكم بالقرائن والامارات ما نصه :

« قال اصحابنا اذا شهد شاهدان في الصحو في المصر الكبير على هلال رمضان ولم يره غيرهما : قال سحنون : هما شاهدا سوء فاذا قبلا فعد ثلاثون يوما فلم ير الهلال والسماء مصحية قال مالك هما شاهدا سوء لأن ذلك قرينة ظاهرة في كذبها (3) .

هذا احتياط علمائنا الاقدمين — في اتهام شهادة الشاهدين يريانه وحدهما في المصر الكبير ، وكانت ظروف تلك الازمنة لا تسمح بنشر الانباء بسرعة اليوم ، ويكاد كل مصر يكون مستقلا ، فكيف لا يتهم اليوم شاهدان يشهدان برؤيته وحدهما دون ان يراه غيرهما لا في قطر واحد أو مصر بل في اقطار واسعة وقد شهد العلم باستحالة رؤيته .

فان كان الذين أعلنوا اثبات رمضان بيوم الاحد 8 اكتوبر قد اعتمدوا رؤية ما ، في بلاد تقع في هذه **المنطقة ، فقد صادموا رأى الفلكيين الحاسبين** المفيد للعلم وان كانوا قد اعتمدوا **رؤية** فعلية في الاقطار الجنوبية ، أو رؤية « حكمية » فيها ، كما قطع به الحاسبون وان الهلال مرئى لا محالة في هذه الاقطار الواقعة في المنطقة الاولى حسب تقسيمهم ، وجعلوها ملزمة للكافة في جميع انحاء بلاد الاسلام — فقد ساروا خطوة واسعة نحو توحيد فعلي للعالم الاسلامي في هذه العبادة ، وانه لحل يلبي رغبة جميع المسلمين ، ويثلج صدورهم . اننا لنأمل ان يكون هذا ما وقع فيكون عالم المسلمين الشرقي قد صام

1) جريدة «العلم» عدد 8132 في 24 شعبان 1392 — 3 أكتوبر 1972 م

2) فتح العلى المالك — ص 170

3) تبصرة الحكام في أصول الاقضية ومناهج الاحكام ج 2 ص 99 المطبعة البهية (القاهرة) سنة 1302

على رؤية واقعة فعلا ، ممكنة علما ، ولا يكون هـذا الا فى المنطقة التى قال العلم عنها ان ذلك ممكـن فيها ، أما ان كان الصيام عن رؤية « فعلية » زعمت فى منطقة قال العلم فيها « لا يمكن ان يرى الهـلال فيها » فان ذلك قد يجرنا لموقف يكون فيه ديننـا عرضة للتهم ، وعلماؤنا عرضة للسخرية · فليقرر علماؤنا ان رؤية مدغشقر أو دار السلام ، أو كوناكرى سواء كانت فعلية أو حكمية ملزمة لجميع المسلـمين المشتركين فى جزء من الليل مع بلد الرؤية تستجب جموع المسلمين ، وتطمئن قلوبهم ، ويقبلوا عـلى عبادتهم أو أعيادهم جادين فرحـين مستبشـــرين

ان اختلاف المطالع ملغى عند فقهاء المالكية ، ومتى ثبت الشهر فى اقليم وجب الصوم على بقية الاقاليم، ما لم يكن بين الاقليمين بعد فاحش ، قالوا كالاندلس وخراسان · واعتبر الشافعية اختلاف المطالع ، وقالوا لكل الاقليم رؤيته · وكاد المتاخرون يجمعون عـلى الغاء اختلاف المطالع واصطلحتمجتمعاتهم ومؤتمراتهم على اعتبار الاشتراك فى ليلة الرؤية ولو بجزء يسير·

وان هذا مما يسهل اجتماع المسلمين وتوحيـــد كلمتهم ، ولكن التوحيد الحقيقى انما يتم يوم تتفق الحكومات الاسلامية على العمـــل بالحساب اليقينى القطعى كما قال السيد محمد رشيد رضا رحمه الله « اذا تقرر لدى أولى الامر العمل بالتقاويم الفلكيـة من مواقيت شهرى الصيام والحج كمواقيت الصلاة وصيام كل يوم من الفجر الى الليل أمتنع التفـرق والاختلاف بين المسلمين فى كل قطر أو فى البـلاد التى تتفق مطالعها » ·



حـوار مـع

الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم

وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

حديث للسيد مولود قاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى التلفزة الجزائرية حول موضوع توحيد الاهلة وما قرره مؤتمر الكويت بخصوص وضع تقويم قمرى موحد على مدار العالم وملزم لسائر الدول الاسلامية ، مع تكذيف حكومة الديار المقدسة بتبليغ القرار الى جميعها .

عثمان شبـوب :

يسرنا أن نستأنف من جديد برنامج « حوار مفتوح » لنعرض بعض المشاكل الثقافية وخاصة فى هذه المرحلة حيث تمثل الثقـــافة أو ينبغى أن تمثـل روح مختلـف النشاطات التى نقـــوم بها فى البـــلاد .

وأول من نستضيفه فى هذا البرنامج هو الاستاذ مولود قاســـــم ، وزير التعليم الاصلى والشـــؤون الدينية ، لنتحدث معـــه حـــول المؤتمر الذى انعقـد أخيـــرا بالكويـــت لوزراء الشؤون الدينية والاسلامية والاوقاف ، وحيث ان هذا المؤتمر عالج البعض من المشاكل التى تهم المجتمع الاسلامى وهي على غاية من الاهمية :

ـ الموضوع الاول هو **توحيد الصوم والاعيـاد والمواسم الدينية** بصفة عامة **فى العالم الاسلامى**

ـ الموضوع الثانى هو تاسيس المراكز الثقافية داخل وخارج العالم ، وخاصـــة فى أوروبا وأمريكا ٠

ـ الموضوع الثالث هو الدعـوة الاسلامية ٠

ونظرا لأهمية هذه الموضوعات فاننا نطلب من الاستاذ مولود قاســم أن يوضح لنا هذه المسائل بقدر الامكان ٠

ســـؤال :

فى المسألة الاولى نريد أن نسأل السيد الوزير ، ماذا تم فى توحيد الصوم والاعياد والمواسم الدينية ؟

جواب للسيد الوزير :

من المعلوم أن قرارات عدة قد اتخذت فى مؤتمرات سابقة ، كمؤتمر ماليزيا ، ومجمع البحوث الاسلامية ، بخصوص توحيد المواسم والاعياد الدينية فى العالم الاسلامى ٠ وكما نعلم جميعا لم يتحقق شيء من هذا فى الميدان العملى ، حيث تختلف مواعيد الاعياد والمواسم من بلد الى آخـــر اختلافا كبيرا ٠ وبالمناسبة أود أن أبدأ بهذه النكتة التى حكاها رئيس الوفد الليبى ٠ فقد قـــال انه فى احدى السنوات سافر من ليبيا متوجها الى المغرب ، يوم 29 رمضان ، وكانت تلك الليلة ليلة عيد الفطر فى ليبيا ، ولما وصل الى المغرب وجدهم يحتفلون بليلة القدر ٠ لماذا كان ذلك ؟ لانه كان هناك فرق زمنى يعد بثلاثة أيام بين ليبيا والمغرب فليبيا تصوم فى يوم وتونس تصوم بعدها بيوم ، والجزائر بعد ليبيا بيومين ، والمغرب بعدها بثلاثة أيام ، وهكذا يصبح الفرق ثلاثة أيام ٠

اننا نعلم جميعا أن هذا قد وقع مرارا ، ويقع كل سنة تقريبا ٠ وان هذا لمن الفضائـــح والمخازى التى يعانى منها العالم الاسلامى ، ومن بقايا عهود الركود والجمود والموت ، وهو أمر ينبغى أن يـــزول ٠

هذا ما قلناه فى مؤتمر الكويت · لقد قلنـا انه ينبغى لنا أن نفكر جديا هذه المرة لنخـرج من هذه المهزلة ، هذه المسخرة ، هذا الخزي وهذا العار ، فالعالم كله يسخر منا ويتفرج علينا · وقد كان أول سؤال وجهه سمو أمير الكويت الى الوزراء المؤتمرين عند استقباله لهـم هو : ماذا قررتم فى موضوع توحيد الاعياد الاسلامية ؟ مضيفا قوله بأننا « نسال دائما فى الغرب عن هذا الموضوع » ·

وفعلا فان الاجانب يقولون عنا بأننا لم نتفـق حتى فى المسائل الشكلية ، فكيف يمكننا الاتفاق فى المسائل الجوهرية ؟

لقد نبهنا الى خطورة هذا الموضوع وأكدنا عليه ، وشرحنا موقف الجزائر من ذلك ، فقلنا ان الجزائر ـ بعد انتظار طويل ـ اضطرت أن تقوم بمبادرة العمـل بالتقويم القمرى القائم على الحساب الفلكى الذى يجمع بين روح الشريعة ومقصدها الذى هـو اليقيـن ، وفى هـذه الحال : بخصوص امكانية رؤية الهلال ، فاذا علم بالحساب بأن الهلال يمكن أن يرى ، كان ذلك معتبرا ولو لم ير الهلال فعلا ·

وقد أصدر الشيخ محمد رشيد رضا فتـوى فى هذا الموضوع ، يقول فيها ان هناك رؤيـا فعلية ورؤيا حكمية ، أما الرؤيا الفعلية فهي عندما نـرى الهلال بالعين المجردة ، وأما الرؤيا الحكمية فهي امكانية رؤية الهلال ولو لم ير فعـلا ، لان رؤية الهلال ـ كما يقول الشيخ رضا ـ قاعدة شرعية وليست تعبدية يعنى اننا لا نرى الهلال من أجل الهلال ، وانما رؤيته علامة فقط على بداية الشهر ·

وقد شرحنا هذا ، وقلنا اننا بدأنا العمل بالتقويم القمرى الذى يجمـع بين روح الشريعة ومقاصدها من جهة ، وتطور العلوم ، من جهة أخرى ·

وطبعا فقد كان البعض يرددون القول بـأن هناك الحديث القائل : « انا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب » ويعنى أننا أمة جاهلة ، ولذا يجب أن نرى الهلال بأعيننا ، أي بالعين المجردة لكـي نصوم أو نفطر ·

وقد قلنا لهم ان هذا لا يصح ، لان الحديـث المذكور ورد فى وقت كانت فيه الامة الاسلامية ـ فعلا ـ جاهلة وأمية لا تكتب ولا تحسب ، وهذا كان منذ أربعة عشر قرنا ، حيث نزلت الآيـة الكريمة التى تدعو الى العلم : « اقرأ باسم ربـك » ··· «الذى علم بالقلم» وهناك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم المشهور الذى يجعل طلب العلم فريضة على المسلمين : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ·

كما جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » فقد جعـل القمر نورا ومنازل لكي نقيس عليه ونحسـب على أساسه ، ونستنير بضوئه ، ليس فقط لرؤية الطريق فى الليل ، ولكن فى حسابنا وفى أعمالنا وفى تاريخ الحوادث كلها ، وفى الاحتفال بأعيادنا ومواسمنا الخ ·· وهذا على مستوى الامـة الاسلامية ، وليس فقط على أساس دولة من الدول ، أو شعب من الشعوب ، أو قرية من القـرى لقد قلنا لا يجوز لنا أبدا أن نستمر فى القول ـ بعد أربعة عشر قرنا من نزول « اقرأ » ـ « انـا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب » هذه الامة التى أعطـت للعـالم علماء كبارا مثل الخوارزمى ، والبيرونى ، والادريسى ، والرازى ، وابن سيناء ، وأمدت العالم بالارقام التى يحسب بها علماء الذرة وعلماء الفلك ويحسب بها العالم أجمـع ، كيف يصح أن يقال فى حقها انها أمة أميـة بعد كل الذى فعلته فى الماضى ؟ وقلنا كذلك اننا نعمل بالتطور العلمى فى مجالات أخرى ، فنحن نسافر الى الحج بالطائرة ، ولم تكن الطائرة موجودة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كان الناس يسافرون على الجمال ، كما اننا نتنقل بالسيارة لصلاة الجمعة ، ولم تكن السيارة هي الاخرى موجودة فى ذلك العصر · ومواقيت الصلاة نفسها تحسـب بالساعة ، وتعرف بجهاز الارسال الاذاعى ، والناس يمسكون ويفطرون على أسـاس المواقيت والاذان الذى يسمعونه فى الاذاعة ، ومن صنع الساعة والجهاز ؟ لقد صنعهما مسيحيون ويهود فى أوروبا وغيرها ·

والذى يقـرأ القرآن فى المصحف ، والحديث فى كتب الحديث ، والذى يحقق مخطوطا مـن أمهات الكتب الاسلامية ، قد لا يستطيع القراءة بدون نظارات ، ومن صـنع النظارات ؟ صنعها أوروبيون ·

كذلك المراصد الفلكية التى بها تعرف مواقيت الصـلاة ، صنعت فى أوروبا ، ومعلوم أن الصلاة هي عماد الدين ·

وفى رمضان ، من المعلوم ، أننا لا نتمسـك برؤية الهلال الا فى اليومين الاول والاخير منه أما فى أثناء شهر رمضان فاننا نعتمد على الساعة وحـدها ·

وهكذا ، فاننا نعتمد على العلم فى هذه المجالات كلها · ونقيد أنفسنا ، ونختلف فيما بيننا فى موضوع رؤية الهلال ·

قد يرى الهلال شخص أعمش ! ! فهل نثـق فى هذه الرؤيا ؟ كفاية من هذه المسخرة · لقد حان الوقت لكي توحد الاعياد فى العالم الاسلامى ، وهذه ضرورة ليست من الشكليات ، بل هي من المسائل الجوهرية ·

لقد قلنا للاخوان فى مؤتمر الكويت اننا اذا وحدنا الحساب ، نكون قد ثبتنا الشهر الهجرى الذى يختلف بين دولة وأخرى ، فباعتماد الحساب الفلكى نعلم اليوم متى يكون رمضان فى العام القادم· اننا الآن نقول ، مثلا ، سنلتقى فى الرباط أو القاهرة أو واشنطن أو بكين فى يوم 13 يناير القادم · فلماذا لا نقول فى يوم 13 شعبان القادم ؟ لماذا لا نعمل بالتاريخ الهجرى ؟ ذلك لان الشهر الهجرى ليس ثابتا عندنا ، وكل دولة تعمل بتاريخ هجرى مختلف وحتى فى هذا المؤتمر لو لم نعتمد على موافقة التاريخ الهجرى للتاريخ الميلادى وهو يوم 23 مارس ، لما اتفقنا على موعد مضبوط ، فلو اعتمدنا الحساب الهجرى وحده لحضر بعضنا فى يوم والبعض الآخر فى اليوم الذى بعده ، كل هذا لان التاريخ الهجرى غير موحد فى البلدان الاسلامية ·

انها لفضيحة أن يجتمع وزراء الشؤون الدينية على أساس التاريخ الميلادى !

ومجمل القول اننا متفائلون جدا ، فقد انتهى المؤتمر الى اتخاذ قرار بهذا الصدد ، وهو اعداد تقويم قمرى موحد من طرف علماء الفلك وعلماء الشريعة فى العالم الاسلامى · وتكونت لجنة من خمس بلدان من بينها الجزائر ، ونتمنى أن يتم هذا فى السنة القادمة باذن الله على مستوى العالم الاسلامى كله ·

سؤال :

ان انصار النظرة التقليدية ـ الرؤية بالعين المجردة ـ يقولون ان العمل بالحساب ، اذا كان هدفه هو توحيد العالم الاسلامى والقضاء على التناقضات داخله ، فانه لم يحقق هذه الوحدة باعتبار أن كلا من الجزائر وتونس تعتمدان الحساب الفلكى ، ولكنهما اختلفتا فى بداية شهر رمضان الاخير · فكيف ترون ذلك ؟

جواب :

صحيح ، يمكن أن يحدث التباس ، لان الجزائر وتونس تعملان بالحساب ، ومع ذلك فهما تختلفان فى يوم · والسبب فى ذلك هو أن طريقة الحساب ذاتها تختلف · فالحساب فى تونس يعتبر دخول الشهر بمجرد ميلاد الهلال ، وهكذا ينطلق الحساب عندهم على هذا الاساس ·

أما عندنا فى الجزائر فنعمل على أساس امكانية رؤية الهلال ، سواء رأيناه أم لم نره ، فنحن اذا نجمع بين مقصد الشريعة الذى هو العلم ، أي اليقين ، ونص الشريعة الذى هو رؤية الهلال · وهذا هو سبب الاختلاف بيننا · والفرق بين الحسابين هو تقريبا بين ست ساعات واثنتى عشرة ساعة ، ويصل حتى الى يوم كامل · ولكن الامل وطيد فى أن نتفق الآن ، خاصة بعد أن يتم

وضــع تقويم قمرى متفق عليه يكون على مستوى العالم الاسلامى ، حيث سيقام مرصــد فلكى واحد فى أحد البلدان الاسلامية ، وهو الذى سيعد لنا هذا التقويم القائم على الحساب الفلكى ، فتأخذ به الامة الاسلامية كلها ، وبهذا يزول الخلاف نهائيا باذن الله ، ويعرف الشــــهر الهجرى مقدما ، ويعمل به ، وبذلك يرجع للتاريخ الهجرى اعتباره وتعود قيمته العملية فى الحياة اليومية والقومية للمسلمين افرادا ، ومجتمعات ، وأمـــة واحــدة ·

ســـؤال :

النقطة الثانية التى كانت فى جدول الاعمال هي مسألة المراكز الثقافية داخل العالم الاســـلامى وخارجه · فكثير من الناس يتساءلون عن دور هذه المراكز ويقولون مثلا لماذا يقام مركز ثقافى فى أمريكا أو فى فرنسا أو فى بريطانيا ؟ وما هو دور هذه المراكز ؟

جــواب :

فى الواقع هذه المراكز ذات أهمية كبرى · وقد ركز الوفـــد الجزائرى على هذه الاهمية ، وهي لا تكمن فحسب فى تعريف العالم بالاسلام بل فى تنوير ابنائنا المغتربين ، وعلى سبيل المثال يوجد فى فرنسا وحدها مايربو عن مليونى مسلم ، من الجزائر وتونس والمغرب والسينغال ومالى وهكذا قل نفس الشيء بالنسبة لبريطانيا · وهذه المراكز عندما تنشأ ستكون منتدى للقاء محتمل بين الثقافة الاسلامية وغيرها من الثقافات وفى نفس الوقت لتعريف أبنائنا المهاجرين ـ أساسا ـ بالثقافة الاسلامية ، وتغذيتهم بها حتى تنقذهم من شـــــر الضيـــاع ، والذوبان ، والاندماج . والانسلاج عن أمتهم ، ودينهم ، ولغتهم ·

ســـؤال :

النقطة الثالثة فى جدول أعمال هذا المؤتمر هي قضية الدعوة الاســـلامية ويوجد فى هذه النقطة التباس من حيث تحديد مفهومها ، فهل المقصود اكتساب مسلمين جدد أم تمكين العقيدة فى نفوس المسلمين الموجودين ؟

جــواب :

توجد نظريتان اثنتان تقول الاولى بوجــوب ادخال غير المسلمين الى الاســـلام مثلا من ألمانيا وانجلترا وافريقيا والصين وغيرها من الامم ·

بينما يقول الآخرون بضرورة التركيز على ابنائنا بالدرجة الاولى داخل الامة الاسلامية وخارجها ، ونحن من هؤلاء ، نطالب بوجوب منافسة التبشير المسيحى فى افريقيا الذى ما انفك يحدث الخلافات والفتن ويدخل لمقاصد استعمارية واستغلالية أيضا ، لكن شريطة أن نركز بالدرجة الاولى على ابنائنا فى الداخل والخارج ، المعرضين لهزات وتيارات مختلفة فلا بد من التركيز على هذا بصورة أكثر ·

ولهذا الغرض ادرجنا موضوع التبشير ماضيا وحاضرا فى الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى وهو موضوع موجود وقد اثاره الكثير فى مؤتمر الكويت وكثيرا ما يثار من مختلف الاتجاهات الاسلامية والمسيحية ·

شبوب :

وحتى فى اسرائيل يثار هذا الموضوع بشكل حاد ، وهناك جمعيات دينية اسرائيلية تقاوم التبشير بالعنف كاحراق الكنائس ومراكز التبشير وما الى ذلك ···

جواب :

نحن لا نستعمل وسائل العنف ولكن نعمد دائما الى وسائل الاقناع ونحاول ان نفهمهم أن أي نشاط تبشيرى ليس فى مصلحتهم ، وأكدنا لرجال الدين المسيحيين الكبار الذين قدموا الى الجزائر من مختلف البلدان ضرورة الاكتفاء بالتركيز على ابنائهم وعدم ادخال البلبلة على العائلات وانه لا فائدة ترجى من ارسال المبشرين ليدقوا أبواب الناس والمدارس ويدخلوا عندهم ·

ووضعنا هذه النقطة فى جدول أشغال الملتقى السابع للفكر الاسلامى فى تيزى وزو لندرسها بكل موضوعية وهدوء ورزانة لانها موجودة فعلا فى مختلف البلدان الاسلامية ويتجلى هذا من الصحف وسمعناه فى الكويت أيضا ، والذى نرجوه هو أن نتوصل الى طريق سوى فى هذا المجال مع رجال الدين المسيحيين الذين يجب أن يعلموا ان الاسلام متسامح ولكنه لا يسمح فى نفسه ، ويرفض ان ينبش فى داره ·

شبوب :

السيد الوزير ، ان الوقت لا يسمح لنا بالتوسع فى هذه النقطة بالذات ، ولكن يوجد لدى سؤال آخر يخص الدعوة الاسلامية أو الفكر الاسلامى فهناك خطر خارجى من المبشرين يتهددهما ولكن هل يقابله ائمتنا بما يدحضه ويرده ؟

جـواب :

فعلا فان الطريقة التى يستعملها المسمون برجال الدين عندنا طريقة جامدة وميتة جـــدا ٠ فيبقون فى الجوامع ويرددون أشياء تقليدية معروفـــة ، ويقتنعون بالمسنين الذين ياتون اليهم الى المسجد ، وقد طلبنا اليهم أن يركزوا نشاطهم على الشباب وان يذهبوا اليه حيثما هو فى المقاهى فى النوادى وفى كل مكان ، وان يستعملوا معه طرقا حديثة وقد امددناهم بكثير من هذه الطـرق الحديثة التى ينبغى أن تقوم على أسس اجتماعية واقتصادية حتى تكافح كل هذه التيارات الاجنبية التى تخرب جسم الامة ، ولكن رجال الدين عندنا فى الجزائر بصفـة خاصة مقصرون فى هذا الميدان ، ولنا أمل فى تغير الوضع عندما تفتح المدرسة العليا لتكوين الاطارات الدينية فى مفتاح من حيث سيمر جميع الائمة ويبداون بالقراءة من الاول ، ونتمنى أن تتغير طرقهم وتكون النتيجة أحسن ، ان شاء الله ٠

شبـوب :

شكـرا السيد الوزير على هذه التوضيحات القيمة وكما قلت فى أول هذه الكلمة ان كل نقطـة من هذه النقط تحتاج الى عدة حصص وليس الى حصة واحدة ولكن لضيـق الوقت نكتفى بهذا القدر ، وقد سمعنا بما فيه الكثير فى هذه النقاط ونشكركم جزيل الشكر ٠ وبهذا أيها السـادة والسيدات ننهى هذه الحصة والسلام عليكم ٠



رأى الاستاذ أحمد حسن الباقورى

بســم الله الرحمن الرحيم

الاخ المفضال الاستاذ ابراهيم مزهودى
سفير الجمهورية الجزائرية

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته · وبعد :

لقد تلقيت اليوم رسالتكم الكريمة الخاصة بالفتوى الشــرعية الصادرة عن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائر ·

وأبادر الى الاعتذار عن التأخر فى الرد ، لاننى كنت غائبا عن القاهرة فلم أتسلم الرسالة الا منذ ثلاثة أيام · فمعذرة وشكرا ·

نص رسالة وجهها الشيخ احمد حسن الباقورى الى سفيرنا بالقاهرة ضمنها رايه فى فتوى لجنة الافتاء المركزية التابعة لوزراة التعليم الاصل والشؤون الدينية حول العمل بالحساب الفلكى .

وأرجو أن يتفضل الاخ السفير المفضال بقبول خالص الشكر لشخصه العزيز من اجـــل جميل ثقته بى وحسن ظنه فى· ضارعا الى الله عز وجل أن يجعل من ابناء وبنات الشعب الجزائرى المجاهد روادا الى الحضارة الاسلامية التى لا ينقصها الا الرواد الصادقون المستنيرون ·

وقد استعرضت فى نظرة سريعة الفتوى المذكورة فاسعدتنى ، وودت من اعماق نفسى لـو أن أمتنا اخذت بها ، حماية لها من شين الفرقة وضلال الجهالة وسوء الظن بقصور الاسلام عـن بلوغ أبعد الغايات فى مجال العلم الحديث · والخص رأى فى مجال هذه الفتوى فيما يلى :

أولا : كنت ــ وانا مدير جامعة الازهر ــ على وشك أن أخرج كتابا فى هذا الموضوع بعينه · كتبه للناس استاذنا الجليل الشيخ أبو العلا البنا رحمه الله · غير اننى تركت الجامعة دون أن أتمكن من تحقيق هذه الامنية التى يحتاج اليها المسلمون اشد احتياج · فحبذا لو سعى الاخ السفير عند الازهر والازهريين للحصول على هذا البحث واخراجه للناس ، فقد كان مؤلفه عالما تقيــا ورعا مالكى المذهب ، وكان يدرس لنا فى القسـم العالى بالازهر على الحصــــير علم « الهيئة والميقات » ومثله فى تقواه وسعة اطلاعه واهتمامه بهذا البحث يجعلنا نؤمن انه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة تتعلق بهذا الموضوع الا احصاها · وقد توفى الشيخ المذكور ودفن فى مكة المكرمة هذا العام · وكان يحمل معه بحثه هذا فى صندوق · كان يؤثر فيما اخبرنى أن يستعين على اخراجــه للناس ، جلالة الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية ·

ثانيا : هنا حديث نبوى شريف يتناوله المسلمون بغير حقه تناولا يناقض القرآن العظــيم ويعارض الرسالة النبوية ، وهو الحديث الشريف : (انا امة امية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا ، وهكذا ، وهكذا ــ وعقد الابهام فى الثالثة ــ) وقد احب كثير من أهل العلم أن يفهـــم الحديث فهما يصف الامة العربية فى حاضرها ومستقبلها بأنها أمة أمية لا تكتب ولا تحســـب ، ومعنى ذلك أنها أمة لم تتعلم ولن تتعلم ، والواقع يكذب هذا الفهم فان أمتنا نقلت حضارة الهنـد والروم وفارس الى بغداد ، وكانت لها مقاييسهــا الخاصة التى تتفق مع مقاييس الدعـــوة وروح الاسلام وحين فتحت امتنا الاندلس ، أخذت أوروبا علومها ومعارفها عن أولئك الفاتحين المساميح ممن رباهم محمد سيد الناس ، كما يشهد بذلك منصفة المستشرقين من اهل أوروبا ، وفى ذروتهم الاستاذ الدكتور جوستاف لوبون الفرنسى والاستاذة الدكتورة سيغريد هونكة الالمانية ·

فالامة التى علمت أوروبا وكان رأى زعماء أوروبا العلميين فيها هذا الراي ، لا يمكن أن تكون هي الامة الامية التى لا تكتب ولا تحسب ·

ثالثا : ان فهم الحديث الشريف على هذا المعنى الشامل للامة العربية المعاصرة للرسالة والتى جاءت بعد عصر الرسالة ، يناقض القرآن فى آيتين من كتاب الله تدعوان الى دراسة النبـــات

والحيوان وطبقات الارض ، (الم تر أن الله أنزل من السماء مـــاء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب ســـود · ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء) فهاتان الآيتان تضمنتا دعـوة الامة العربية التى كانت لا تكتب ولا تحسب الى النظر فى ملكوت السموات والارض بما اشتمل عليه من علم النبات وعلم طبقات الارض وعلم الحيوان ثم ذيلت الآيتين كلمة (انما يخشى اللـــه من عباده العلماء) وهـذا التذييل يعنى أن الذى يخشى الله حق خشيته هو الذى يتجلى لـــه أسرار صنعة الله فى كونه العظيم عن طريق العلـــوم العملية · فاذا جاءت جمهورية الجزائر المعتزة بالاسلام لكي تخرج للناس هذه المعانى وتفسر الحديث الشريف على هذا النحو فى التقويم الذى تفضلتم بارساله الى فان ذلك شرف عظيم تسبق اليه جمهورية الاحرار المجاهدين ·

اننى أؤيد كل التأييد الاعتماد على الحسابات الفلكية فى تحديد أوائل الشهور العـــربية وأواخرها حتى يتاح لامتنا أن تتوحد كلمتها فى احوج شؤونها الدينية الى التوحد وهو الصيام والحـــج ·

والسلام عليكم ورحمة الله ·



دراسة حول تغيرات سرعة دوران الارض حول نفسها

عبد الكريم غـزلون

من الثابت أن دوران الارض حـول نفسهاليس موحدا ، وانه يجب مراعاة تغيرات ثـــلاث تطرأ على هذه الحركة وهي :

1) ابطاء قرنى (كل مائة سنة) ، يترتب عنه تمديد فى مدة اليوم بقدر بـ 0،0164 ، 0 ثانيــة وذلك ناتج عن احتكاك حركات المد والجزر التىتعترى البحور ، وبالاخص البحور الضيقة والقليلة العمق ·

2) تقلبات غير منتظمة ، استعصت لحـــدالآن عن التحليل وبالطبع عن التقديرات المهنية ·

3) تغير فصلى قد يعزى سببه الى اعتباراتطقسية ، وهذا التغير يكاد يكون دوريا بالنسبة للسنة الاستوائية ، سوف لا نراعى فى هذه الدراسة الا تغير سرعة دوران الارض الناتج عــــن الابطاء القرنى ، ومعنى هذا اننا سنهمل التقلبات غير المنتظمة لانها غير ممكنة التقدير المسبق ، وكذلك التغيرات الدورية الحولية لأنها تلغى بعضها بعضا تقريبا ·

ـ ان الدورة الوسطى للقمر حول الارض ـاذا قوبلت مع الامام الموحد (المعيار) للزمــن (وهو زمن التواريخ اليومية او الزمن الذرى) لا تتسم بالتغيرات غير منتظمة التى نلاحظها فى دوران الارض ، بل بالعكس ، فان ترقبات القمر الجارية بواسطة غـــــــرف ماركوفتس ، تستعمل لتحديد ازمنة التواريخ الفلكية T.E التى تعبــر عن زمــن موحد يصلح لتحديد الثانية تحديدا فلكيـــــا ·

ـ أما الزمن العالمى T.U المرتبط بدوران الارض فهو زمن غير موحد ، لانه يتأخــــــر باستمرار بالنسبة الى زمن التواريخ الفلكية T.E

وبمـــا أن التقويمات (الشمسية والقمرية)مرتبطة بالزمن العالمى ، فانه يترتب على هذا بعض التباين بين التقويم ـ التقويم القمرى مثلا ـ وحركة القمر فى مداره ·

لقد لاحظنا فى الدراسة السابقة ، ان التقويم الهجرى يتعرض لتباين قدره 0،01168 يومـــا فى كل ثلاثين سنة قمرية ـ غير أن هذا التباين يعوض نوعــــا ما بالتأخر المستمر الذى يسجله الزمن العالمى بالنسبة لزمن التواريخ الفلكية ·

فلنقدر أن المدة المتوسطة للدورة القمرية تقترب من الاستقدار ، اي تنتسب الى زمن يكـــاد يكون موحدا ، وفيما يلى سنقدر عدد السنين القمرية اللازمة ليترتب عن جمع التباينين المذكورين اعلاه تعديل قدره يوم واحد ·

ا) ان التباين الناتج عن الدورة الثلاثينية يســـاوى 0،0II68 يوما فى كل ثلاثين سنة قمرية ويبلغ هذا التباين بالنسبة لسنة قمرية واحدة :

تباين : 0،0II68 : 30 ــ 6 ــ I0 : 389 يوما لكل سنة قمرية ·

ب) ان التاخر المتراكم لصالح الزمن العالمى يساوى I0 ــ I0 : 380 يوما لكل سنة قمرية ــ وقد ثبت من جهة أخرى ان هذا التاخر يتناسب مع مربع عدد السنوات الفارطة ، وبحسبه فــان التاخر المتراكم فى عدد من السنوات نرمز اليه بحرف ن يكون :

ت ، I0 ــ I0 · 380 · ن 2 ·

ج) ولنفرض المعادلة التالية :

6 ــ I0 · 389 · ن ــ I0 ــ I0 · 380 · ن 2 ــ I يوم

والجذر المربع الاصغر لهذه المعادلة الثانية يعطينا : ن I ــ 2720 سنة قمرية تقريبا ·

مـــلاحظـة :

I) فاتنى أن اراعى فى الدراسة السابقة تغير سرعة دوران الارض ، ووجدت تباينا قـــدره يوم واحد كل 2،500 سنة قمرية تقريبا ــ والواقــع أن هذا العدد يجب ان يعوض بالذى تم حسابه آنفا ، وهكذا فان تباين التقويم الهجرى بالنسبة لحركة القمر المتوسطة هو يوم (I) واحد فى كل 2،720 سنة قمرية تقريبا ·

2) لقد بين الحساب السابق ان التقويم الهجرى يساير عن قرب اكبر حركة القمر المتوسطة بالنسبة للزمن العالمى ، واننا نعتبر أن هذا التقويم سيبقى صالحا على الاقل لمدة 2،500 سنـــة قمرية المقبلة ، دون أن يدخل عليه اي تعديل ·

حرر بالجزائر يوم 1972/4/24

عبد الكريم غــزلون

المرصد الفلكى ببوزريعة ــ الجزائر ــ

تعقيب السيد مولود قاسم نايت بلقاسم

وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

فى الملتــقى السابع بتزى وزو

اخوانى أردت أن أفسر شيئا فى الصباح عندما تكلمت باندفاع عن العمائم وان ما حــدث لاكبــر دليل على مــا قلته ولئن كان لا ينطبـــق على الجميع فعلى الكثير ، اذ منهم الشـــــاب العاقل المتحمس مثل عبد الله الشماحى ، الذى يضم حكمــة الشيوخ المحنكين واندفاع الشباب المجدين وحماسهم وكل ما يتصل بالشباب مـــن ايجابيات ، وهذا لا ينطبق على الكثير جدا مــن الشباب · وعندما تكلمت عن « العمائم » وكثير من أكابر علمائنا هنا الذين تحملوا الصعاب من بعيد حرصا على الافادة كالشيوخ أبى زهـــرة وعبد الله الشماحى ، والامام الصدر ، وبيوض ، والبيصار ، وســراج ، وصالحى ، وبوعبدلى ، انما كان فلتة لسان فقط اذن ما ذكرته عن العمائم·

ولكن ما كنت أود أن أقوله هو أن يبذلوا جهودا أكثر للتقرب من الشباب حتى لا ينفروهم بالمحرمات والموانع فقط ، هذا حرام ، هذا ممنوع ، بأن يحافظوا على الجوهر ولكن أن يجتهدوا فى الجزئيات والتفاصيل التى تكسب لنا الشباب وتجذبه حتى لا ينفر ويبتعد من الاسلام ، وحتى لا يجد هناك منافذ ومنزلقات تجذبهم اليها ، هذا ما كنت أود أن أشير اليه ·

وبخصوص الكلمة الرائعة التى جاءت فى قصيدة « الشيخ عبد الله الشماحى » من الجزائر ··· الى أجدر » · بخصوص بادرة الهلال ، فاقول اننى سبق لى أن قلت كل شىء بكل وضوح بقدر الامكان فى الكلمة التى ألقيتها فى مؤتمر الكويت لان البادرة التى اتخذتها الجزائر مؤقتة وقد وضعت تقويما قمريا يثبت العيد والصوم ··· الخ وضمنت فى هذا التقويم فتوى صادرة عن المجلس الاسلامى الاعلى ولكن هذا من حيث الشكل أما من حيث المبدأ فهذا شىء لا يمكن التراجع عنه اطلاقا ، ومهما كانت الامور فلا يمكن أن ندع الحق وقد قلت لكم ما أرسله الينا فى هذا الباب الشيخ بيوض عن رأى المذهب الاباضى ، كما سمعتم ما ذكره الدكتور جعفر شهيدى وهو من الجعفرية الامامية المشهورين ·

وافيدكم هنا بأن الامام موسى الصدر يؤيد هذه البادرة بكل تأكيد ، من وجهة نظر الامامية الجعفرية ، والمجلس الاسلامى الاعلى الذى أصدر هذه الفتوى كان فيه من الاباضيين والشافعيين ، والحنابلة والمالكية ··· الخ · من المذاهب الاسلامية المعروفة ، وكذا الشيخ مبروك عوادى الجزائرى الظاهرى الوحيد فى العالم الاسلامى ، يؤيد هذا كذلك ، ولا ينقصنا من المذاهب الاسلامية كلها سوى المذهب الزيدى والشيخ عبد الله منه ، وهو يؤيد رأينا تأييدا واضحا كما سمعتوه منذ حين ·

كما قلت أيضا فى مؤتمر الكويت بأن هذه البادرة من الناحية الشرعية واضحة أما من حيث التجارب واتفاقها مع الواقع فقد ظهر أحد الأدلة لذلك فى اتفاق نتائج مرصدى بوزريعة وحلوان فى القاهرة ، كما جاء ذلك واضحا فى مجلة منبر الاسلام التى يصدرها الازهر ، ولقد اردفت قائلا ـ فى مؤتمر الكويت ـ ، ان الجزائر مستعدة لتضع تقويمها هذا القائم على أساس مرصد الجزائر العاصمة جانبا اذا ما اتفق الجميع هنا على مرصد اسلامى أيا كان فليكن فى زينجبار ، أو فى جدة ، أو القاهرة ، أو سوريا ، أو بغداد ، أو تونس ، أو الرباط ، أو أو أو أية عاصمة اسلامية أخرى فيها سلطة اسلامية ، ويكون ملزما للجميع ·

وهذا ما قرره مؤتمر الكويت بوضوح وقال أن هذا التقويم القمرى الذى سيصدره ويعده كما قلت فى الصباح السادة المعينون فى البلاد التى ذكرتها وهي : قطر ، ومصر ، وتونس ، والكويت والجزائر) بمساعدة أو بالعمل المباشر والفعال بل الرئيسى ، لعلماء الفلك ، والمندوب القطرى

شخصية دينية وعـالم فلكى مشهور ، وهو الشيخ عبد اللـه الانصارى ٠ هذا ما تم فى المؤتمر وهو موجود فى عدد من مجلة الاصالة ، وفى نشرة اصدرتها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية فى الكويت وعدة مجلات اسلامية أخرى ٠

والتوصيات تقول بأن هذا التقويم القمـرى الملـزم للعـالم الاسـلامى بعـد أن تخبـرهم بذلك وتعممه عليهم المملكة العربية السعودية بصفتها حامية الحرمين أقول يكون هذا التقويم ملزما وهذا التقويم سيعرض قبل المؤتمر الثانى لوزراء الشؤون الدينية والاسلامية والاوقاف ، الذى سينعقد هنا فى الجزائر وسيكون ذلك قبل رمضان المقبل ان كنا جميعا جادين ، والوفد الجزائرى سجل بالحرف هذه التوصية بتحفظه المؤقت مـع احتفاظه بالتقويم القمرى الذى اصدرته لجنة الافتاء والمجلس الاسلامى الاعلى بالتعاون مـع المرصد ريثما يصدر هذا التقويم القمرى الملزم لجميع البلدان الاسلامية ، عند ذلك نعمل بالتقويم العام للأمة الاسلامية كلها ٠ هذا ما تـم فى الكـويت ٠

ونرجو أن يتم هذا ان شاء الله فعلا قبل المؤتمر المذكور الذى سيكون قبل الملتقى الثامـن مباشرة فى الربيع ٠

لان بعض الاخوان من وزراء الشؤون الدينية والاسلامية ، والاوقاف ، عبروا عن رغبتهم فى المشاركة فى الملتقى ، لذا حاولنا الجمـع بين الاثنين ، فلا يساء التأويل عندما تكلمت عـن العمائم وتعميم المراصد ، فلا بد من مرصد واحد ، والعمائم ندين لها بالكثير ونحترمها ، واكبر دليل على ذلك حرصنا على وجودها معنا ، ولولاها لا ندثر الجزء الاكبر من تراثنا الاسـلامى التشريعى الذى نحن به نحيا وبدونه لا نكون أمـة ٠

وشكـرا ٠



اثبــات شهـــر رمضــان

وبحث العمل فيه وفى غيره بالحساب

الامــام المرحوم
رشــيد رضـــا

ما زلنا منذ بلغنا من الرشد الى أن ادركنا ســــن الشيخوخة نسمع المسلمين يتألمون من الاضطراب والاختلاف الذى يحدث فى اثبات أول شهر رمضان لاجل الصيام الواجب ، واثبات أول شوال لاجل الفطر الواجب فى يوم العيد ، وكــذا هلال ذى الحجة لاجل وقوف عرفة ٠

وقد أطنب الاستاذ محمد رشيد فى هذا البحث الدقيق ، وبين اسباب الاختلافات الواقعة فى ذلك اذ قال : نقرأ فى الجرائد كل عام أن اهــل الشام صاموا يوم كذا ، واهل مصر يوم كذا ، واهل مكة يوم كذا ، وقد يتفقون تارة ، ويختلفون أخرى ٠

---

(1) مجلة المنار الصادرة بالقاهرة الجزء الاول رمضان 1345 هـ 1927 م ـ ثم نقله واوضحه فى تفسير المنار الجزء الثانى ، الطبعة الثانية، فانظره

ثم قال : والشهادة برؤية الهلال اذا انحصرت فى واحد أو اثنين أو ثلاثة لا تفيد الا الظن لكثرة ما يقع فيها من الاشتباه ····

وأتى بحكاية واقعية فى الموضوع وهي :

« قد وقع لى فى بعض السنين وأنا فى سوريا ، أن رأيت الشمس غربت كاسفة فى اليوم التاسع والعشرين شعبان ، ثم شهد شاهدان ذوا عدل بعد غروبها بساعة زمانية انهما رأيا الهلال فحكم القاضى الشرعى باثبات الشهر بالرؤية ، ومن المعلوم باليقين أن رؤية الهلال كانت من المحال ، لانه غرب مع الشمس ، فلا يمكن أن يكون عاد ورأياه ، وأنا اعتقد أن ذينك الشاهدين لم يتعمدا الكذب ، فهما من اهل التقوى والعلم ، ولكنهما تخيلا الهلال تخيلا ·

ولاجل مثل هذا الاشتباه قال المحققون من الفقهاء فى هذه المسألة : ان الشهادة برؤية الهلال فى ايام الصحو لا تثبت الا برؤية جمع كبير ، وينبغى تقييد هذا بما اذا رأى الهلال كثيرون كما هي العادة ، وذلك أن العبرة فى الرؤية معتدل البصر ، لا امثال زرقاء اليمامة فى حدة البصر » ·

ثم قال فى موضع آخر :

« أن حكمة نوط الشارع أوقات العبادة من صلاة وصيام وحج بالرؤية معروفة لا تنكر ، وحسنها لا يجحد ، وذلك أن الاسلام دين عام للبشر ، من بدو وحضر ليس فيه رياسة دينية تقيد العبادات برجالها ، وتخضع الدهماء لارادتهم (أو هو دين ديمقراطى كما يقال فى عرف هذا العصر) ·

وناهيك بانه ظهر أولا فى أمة أمية كما ورد فى الحديث الصحيح ، فمن اليسر والاستقلال الشخصى فيه وعدم الاختلاف أن تكون أوقات العبادات فيه مما يسهل على كل فرد من أهله » ·

ثم انتقل الى صميم الموضوع تحت عنوان :

مباحث العمل بالحساب فى مواقيت العبادة :

قال الحافظ (ولعله ابن حجر) فى شرح الحديث المتفق عليه (انا امة امية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا ···) يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين من فتح البارى ما نصه : والمراد هنا حساب النجوم وتسييرها ، ولم يكونوا يعرفون من ذلك ايضا (أى الكتابة) الا النزر اليسير ، فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لدفع الحرج عنهم فى معاناة حساب التسيير ، واستمر الحكم فى الصوم ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك ، بل ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلا ، ويوضحه قوله صلى الله عليه وسلم (فان غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين) ولم يقل فاسألوا اهل الحساب انتهى » ·

وعلق السيد رشيد رضا على هذا بقوله :

« ان ذكره من حكمة التشريع صحيح الاصل ، فالاتفاق مطلوب شرعا ، وكون اوقـــات العبادة منوطة بما يعرفه كل الناس ، والحساب الفلكى لا يعرفه الا القليل منهـــم صحيح أيضا .
وقوله : ــ أى الحافظ ــ ان ظاهر السياق يشـــعر بنفى تعليق الحكم بالحساب اصلا ... الخ غلط ظاهر ، وما ذكر من توضيحه بالامر من اكمال العدة دون الامر بسؤال اهل الحساب غير واضح بل خلاف المتبادر من منطوق الحديث وهو : ان الامة لا تعرف الحساب ، وهذا بيان لما كانت عليه ، وقد بعث لاخراجها منه ــ اي من ظلمات الجهل ــ بنص القرآن ، فكيف تؤمر بما لا تعرف ؟ .
وكمفهومه الظاهر انه لو وجد الحسابون لصح الرجوع اليهم .

أما الحساب الذى نعنيه فهو حساب البروج والمنازل للشمس والقمر الثابتة باليقين القطعى والمشروع العمل بها لقوله تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) مع قوله : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقوله : (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا اية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عــدد السنين والحساب)فهو صريح فى اثبات هذا النوع من الحساب ، وافادته للعلم بضبط السنين والشهور ، ولهذا قال بعض العلماء فى حديث : فان غم عليكم فاقدروا له) أي فاقدروه بحساب المنازل » .

وزاد قائلا فى هذا الموضوع : « فاذا وجـــد الحسابون عمل بقولهم لانه عام يقينى قطعى وان لم يوجدوا اكملت عدة الشهر ثلاثين بشرطه ، اذ لا يمكن الاتفاق على غيره ...

أما الحساب فيظهر انه لم يكن فى عهد السلف الذين اجمعوا على ما ذكر ، قد وصل الى الدرجة المعهودة عندنا فى هذا العصر من العلم اليقينى ، والصورة التى اجمعوا عليها لا يمكن أن تخالف الحساب ، اعنى لا يمكن أن لا يرى الهلال فى مساء اليوم الذى يثبت الفلكيون الحاسبون امكان رؤيته فيه عند انفاء المانع ، فهم يبينون وقت ولادة الهلال ــ أي مفارقته للشمس فى آخر الشهر بالساعات والدقائق ــ ومنه يعلم امكان رؤيته لمعتدلى البصر أو عدم امكانها .

فاذا كان من الدقة بحيث لا يرى لا يثبتون الشهر الشرعى بولادته ، واذا كان بحيث يـــرى قطعا عند انفاء المانع من غيم أو نحو ذلك يثبتون الشهر ...

فها هنا يقال : ان الشهر قد يثبت برؤية الهلال حقيقة أو حكما ، فلا يكون اثبات وجـــوب الصيام بقول الفلكيين الحاسبين ، بل بوجود الهلال ، وانما يبينون الناس متى يرى .

وقد ظهر باختيار السنين صدقهم لكل من يرى تقاويمهم ، ونحن فى أشد الحاجة الى علمهم فى حال وجود المانع من رؤية الهلال لانه علم يقينى ، كرؤية الهلال أو اكمال عدة الشهر كثيــرا

ما تكون خطأ كما تقدم بيانه ، وهي تبنى فى كـل شهر على رؤية هلاله ، والا كانت مسألة حسابية وقد تمر فى بعض الاقطار التى تكثر فيها الامطار عدة اشهر لا يرى فيها هلال ·

فكيف يمكن العمل فيها باكمال عدة الشهر ثلاثين · ومن المعلوم حسابا وشرعا أن الشهـر يكون تارة ثلاثين وتارة تسعة وعشرين ؟

اذا تمهد هذا فنحن ـ أي السيد رشيد رضا ـ نلخص الكلام فى هذا الموضوع فى مسائل :

الخـــلاصـــة :

1) أن اثبات أول شهر رمضان ، وأول شهر شوال ، هو كاثبات اوقات الصلوات الخمس ، قد ناطها الشارع كلها بما يسهل العلم به على البدو والحضـــر ، كما تقدم من بين حكمة ذلك ، وغرض الشارع من ذلك العلم بهذه الاوقات ، لا التعبد برؤية الهلال ، ولا بتبيين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ـ اى انفصال كل مـــن الآخر برؤية ضوء الفجر المستطير من جهـــة المشرق ـ ولا التعبد برؤية ظل الزوال وقت الظهر ، وصيرورة ظل الشىء مثله وقت العصـــر ، ولا برؤية غروب الشمس وغيبة الشفق لوقتى العشائين ·

فغرض الشارع من مواقيت العبادة معرفتها ، وما ذكر صلى الله عليه وسلم من نوط اثبات الشهر برؤية الهلال أو اكمال العدة بشرطه قد علله بكون الامة فى عهده كانت امية ، ومن مقاصد بعثته اخراجها من الامية لا ابقاؤها فيها ، قال تعالى : (هو الذى بعث فى الاميين رســـــولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ·

2) ان من مقاصد الشارع اتفاق الامة فى عبادتها ما امكن الاتفاق ـ وسيلة ومقصدا ـ فاما ان تتفق كلها أو اهل كل قطر منها على العمل بظواهر نصوص الشرع وعمل النبىء صـــلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الصدر الاول فى مواقيت الصلاة والصيام ، والحج من رؤية الفجر والظل والغروب والشفق والهلال عند الامكان وبالتقدير أو رؤية العلامات عند عدم الامكان ، وفى هذه الحالة لا يجوز لمؤذن الفجر أن يؤذن الا اذا رأى ضوءه معترضا فى جهة الشرق وهو يختلف باختلاف الليالى ··· واما ان تعمل بالحساب والمراصد عند ثبـــوت افادتها العلم القطعى بهذه المواقيت التى جرى عليها العمل فى جميع بلاد الحضارة الاسلامية فى الصلاة ، مع المحافظة على الاستهلال ورؤية الهلال فى حال عدم المانع من رؤيته للجمع بين ظاهر النص والمراد منه ·

ومن المعلوم من الدين بالضرورة ان الصلاة عماد الدين ، فهي افضل من الصوم وأعم ، وفى غير حالة الصحو ، وعدم المانع من رؤية الهلال يكون اثبات الشهر باكمال العدة ثلاثين ظنيا او دون الظنى ·

ومن قواعد الشريعة المتفق عليها أن العلـم مقدم على الظن ، فلا يعمل بالظن مـع امكان العلم ٠

فمن امكنه رؤية الكعبة لا يجوز له أن يجتهد فى التوجه اليها ، ويعمل بظنه الذى يؤديـه اليه الاجتهاد ٠

3) اذا قيل : ان افادة الحساب للعلم القطعى بوجود الهلال وامكان رؤيته خاص بالفلكى الحاسب . وقد اختلف العلماء فى العلم به ٠٠٠ ولا يكون علمهم حجة على غيرهم ٠

قلنا : ان الذين لم يبيحوا العمل بالحسـاب قد عللوه بانه ظن وتخمين ، لا يفيد علما ولا ظنا ـ كما نقلناه عن شرح البخارى للحافظ ابـن حجـر ـ والحساب المعروف فى عصرنا هذا يفيد العلم القطعى كما تقدم ٠٠٠

ويمكن لائمة المسلمين وأمرائهم الذين ثبـت ذلك عندهم أن يصدروا حكما بالعمل به فيصير حجة على الجمهور ٠

4) يؤيد هذا الوجه الاخير قول الامام احمد فيما يجب العمل به اذا غم على الناس رؤية الهلال ، وهو أن يرجعوا الى رأى الامام (أى السلطان ولى الامر الشرعى) فى الصوم والفطر ٠

5) اذا تقرر لدى الامر بالعمل بالتقاويم الفلكية فى مواقيت شهرى الصيام والحج كمواقيت الصلاة والصيام كل يوم من الفجر الى الليل امتنع التفرق والاختلاف بين المسلمين فى كـــل قطر ، أو فى البلاد التى تتفق مطالعها ، وهذه لا ضرر فى الاختلاف فى صيامها ، كما انه لا ضرر فى الاختلاف فى صلواتها » ٠

تلخيص واستنتـــاج :

ينهى العلامة المرحوم رشيد رضا بحثه بقوله : وجملة القول ، اننا بين امرين : اما ان نعمل بالرؤية فى جميع مواقيت العبادة اخذا بظواهر النصوص وحسبانها تعبدية وحينئذ يجب على كل مؤذن أن لا يؤذن حتى يرى نور الفجر الصادق مستطيرا منتشرا فى الافق وحتى يرى الـــزوال والغروب ٠٠٠ الخ واما ان نعمل بالحساب المقطوع به ، لانه اقرب الى مقصد الشارع وهو العلم القطعى بالمواقيت وعدم الاختلاف فيها ، وحينئـذ يمكن وضـع تقويم عام تبين فيه الاوقات التى يرى فيها هلال كل شهر فى كل قطر عند عدم المانـع من الرؤية ، وتوزع فى العالم ، فاذا زادوا عليها استهلال جماعة فى كل مكان ، فان رأوه كان ذلك نورا على نور وأما هذا الاختلاف وتـــرك النصوص فى جميع المواقيت عملا بالحساب ـ ما عدا مسالة الهلال ـ فلا وجه ولا دليل عليه ولم يقل به امام مجتهد ، بل هو نور من قبيل (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) واللـه أعلـم وأحكـم ٠

نصيحة دينية تقدمها جمعية العلماء للامة الجزائرية الاسلامية

أيتهـا الامـــــة :

ان التفرق شر كله ، وشر أنواع التفـرقما كان فى الدين ، وأشنع أنواع التفرق فى الدين ما كان منشؤه الهوى والغرض ، ونتيجته التعادىوالتباغض واثره فى نفوس الاجانب السخرية من الدين والتنقص له واتخاذ أعمال أهليه حجــــة عليه ، وما أعظم جناية المسلم الذى يقيم من أعماله القاسدة حجة على دينه الصحيح ، وما أشنـــعجريمة المسلم الذى يعرض ـ بسوء عمله ـ دينه الطاهر النقي للزراية والاحتقار ·

أيها المسلمون الجزائريون :

فى كل علم تفتنون فى دينكم مرتين ، فتختلفون فى الصـــــوم اختلافا شنيعا وتتفرقون فى الافطار تفرقا أشنع ، وكلما جاء شهر رمضان الذى تصفد فيه الشياطين ـ انطلقـــت من بينكم شياطين تدعوكم الى التفرق فى شعيرة لم تشـرع الا للجمـــع ، وتزين لكم الاختلاف فى الدين باسم الفقه فى الدين ·

ولو كان تفرقكم فى الصوم والافطار مبنيـا على اعتبار صحيح وعلى أسباب ضرورية ـ كعدم العلم بالرؤية مثلا ـ لهان الامر ولكان لكـم بعض العذر ، ولكنه ، فى الاغـلب مبنى على جمود ، وعناد مقصود ، وتمحلات فقهية لا ترجع الى مستند صحيح من نص ، ولا الى برهـــان صريح من علم ، ثم انتهى بكم العناد واللجاج الى شر ما تقع عليه العين من تفرق واختلاف وهو ان البيت الواحد يضم صائمين ومفطرين فضـــلا عن القرية الواحدة ، والصائم يرمى المفطـــر بالموبقات والمفطر يرمى الصائم بالشناعات وبيـن هذين ضاعـــت الحـــرمة الحقيقية والحكمة الحقيقية ، وبين البطون الخماص والبطان تتلاشى المعانى العالية التى طواها الاسلام فيما شـــرع من صوم وشرع من افطار ويضعف احساس الرحمة والاحسان وتنطفئى بشاشة العيد وبهجته واشراقه ، ويجف ما يفيض به على المسلمين منخير وأنس وتسامح وحب فانظروا ـ رحمة الله ـ الى ما يبقى ذلك الخلاف فى نفوسكم من جزازات وعداوات وتقطيع لما أمر الله به أن يوصل من أخوة الاسلام ·

ان التفرق فى الصوم يذهب بجلال الصـــوم وحكمتـــه ٠

وان التفرق فى العيد يذهب بجمال العيـــد وبهجتـــه ٠

وان الله تعلى ما شرع هذه الشعائر عبثـا وانما شرعها لحكمة جليلة اعلاها جمع الامـة على الدين ، لتجتمع فى شؤونها الدنيوية ، وتوحيدها فى عبادة اللـــه ، لتتربى على الاتحاد فى مصالحها العامة المشتركة ٠

يا للعجب أيكون الشهر الذى جعله اللهمقويا للارادات ، ومشددا للعزائم ومطهرا للارواح ومهيا لنفحات الخير والرحمة والمحبة ـ سببا للفطور والضـــــعف ومـؤديا للبغضاء والداوة ؟ أتجعلون من هذا الشهر الذى جعله الله جامعا للقلوب على الاخوة وللارواح على الطهر وللمشاعر على الاحسان ـ وسيلة الى التفريق والتشتيت ؟

أيهـا المسلمـــون :

هذا شهر رمضان على الابواب فأحيوا فى نفوسكم جميـــع معانيه الدينية والاجتماعية وابدؤا لتحقيق ذلك بالاتحاد فى صومه والاتحاد فى الخروج منه وأظهروا فى هذين اليومين بالمظهر المشرف لدينكم ولجماعتكم ، واجتمعوا على السرور بمقدمه وعلى الابتهاج بوداعه ، واعلموا ان للاتحاد هيبة ، وأن فى الاجتماع قوة وسطوة فاستجلوا هذه المعانى فى مظاهر دينكم ، واستغلوا ثمراتها فى ظواهر دنياكم ٠

لا عذر لكم فى الاختلاف فى هذا الزمن الذى قارب بين أجزاء الارض وقرب بين أفـــراد البشر وسهل نقل الاخبار وصحح مقاييس العلم وضبط موازين الاشياء وأحكم الاتصال بين الناس وأعان على فهم الحقائق الدينية ٠

لا تجعلوا الحدود الاقليمية التى وضعها المخلوق ، حدودا فارقة فى الشعائر التى وضعها الخالق ، ولا ترتابوا فى أخبار التيليفون اذا عـرف الصوت وتعدد الناقل ، ولا ترتابوا فى أخبار الاذاعة فانها أمنع من أن يتطرق اليها الخلـــــل فى هذا الباب وأنها لا تذيع الا ما تقدمه لها الهيئات الشرعية ٠

لا تلتفتوا الى شبهة تباعد الاقطار فكثيرا ما يكون يوم عـــــيد الاضحى بمنى هو يوم عيد الاضحى عندنا بشهادة الحجاج منكم وبينكم وبين منى آلاف الاميال صوموا وافطروا على الاخبار التيليفونية من الثقات المعروفين الى الثقات المعروفين من جميع أجزاء الشمال الافريقى ٠

صوموا وافطروا على أخبار اذاعة تونـــس ، فما تونس الا جارة قسنطينة وعلى أخبار اذاعة الرباط فما الرباط الا جار وهران ، وعلى أخبار اذاعة الجزائر فما الجزائر الا قلـب هذا الشمال الاسلامى العربى ٠

لا تتراخوا فى أداء الشهادة برؤية الهـــلال وتعميمها بجميع الوســـائل وأقواها وأسرعها التيليفون ٠

لا تسمعوا كلام الجاهلين الذين يسولون لكم الخـــلاف فى الدين باسم الدين ويطعنون فى رؤية تونس أو فاس أو قسنطينة ويضيقون عليكـم ما وسع الله ، لا تقلدوا بعض الفقهاء الجامدين الذين يريدون أن يحتكروا التصرف فى الصوم والافطار ويفرقوا كلمة الامــــة بجمودهم وجهلهم واعلموا ان الله تعالى لم يكل هذا الامر اليهم فى كتاب ولا سنة ولا ورثوه عن ساف وانما الشان كله لجماعة المسلمين ولكن جماعة المسلمين أضاعوا هذا الحق من أيديهم فتسـ . عليه قوم لـــم يجعل الله لهم الحكم فيه فجعلوا لانفسهم التحكم عليه ٠

ان جمعية العلماء ستقوم بواجبها كالعادة فتتلقى الاخبار وتعممها بما تملك من وسائـل التعميم ، وتتعاون مع جميع الهيئات فى القيام بهذا الواجب ٠



ماذا يجب على (قضاة الاهلة) فى العالم الاسلامى
للشيخ بخيت مفتى الديار المصرية الاسبق

جاء فى كتاب (ارشاد أهل الملة ، الى اثبات الاهلة) لصاحب الفضيلة العلامة الشيخ بخيت مفتى الديار المصرية السابق ما يأتى :

« ... الواجب على القاضى النظر فى حال الشهود بعد تحقق عد التهم وتيقظهم وبراءتهم من الريبة والتهمة ، وسلامة حواسهم وحدة نظرهم ، وسلامة الافق ومحل الهــلال مما يشوش الرؤية ، ومعرفة منزلة الهلال التى يطلع فيها ، **وما يقتضيه الحساب مـن امكان رؤيته وعدمها** (فان المشهود به شرطه الامكان) فاذا دل الحساب على عدم امكان الرؤية وأخبر مخبر برؤيتها ، فالخبر يحتمل الصدق والكذب ، والكذب يحتمــل التعمد والغلط ، ولكل منهما أسباب لا تنحصر .

« فليس من الرشد قبول الخبر المحتمل لذلك ، أو الشهادة به مع عدم الامكان ، لان الشرع لا يأتى بالمستحيلات . وهذه المسألة لم نجدها مسطورة فتفقهنا فيها ورأينا فيها عدم قبول الشهادة ، وانما سكت الفقهاء عنها لانها نادرة الوقوع . ولما وقعت فى هذا الزمان احتجنا الى الكلام فيها ، وقد رأينا من يوثق بفعله ودينه يغلط فى رؤية الهلال كثيرا (وسمعنا عن بعض الجهال) أنه يقصد التدين بالشهادة بذلك ، ويعتقد أن له بذلك أجـر من صام بقوله . (وسمعنا عن بعض السفهاء) أنه يقصد بذلك ترويج تزكيته وثبوت عدالته ، وللناس أغراض مختلفة !

« فاذا سلمت البينة من هذه الامور كلها ، وسلم موضــــع الهلال من الموانع وخاصة بأن أحلناها بدليل قام عندنا ، لم تقبل تلك الشهادة وحملناها على الغلط أو الكـــذب ، ولم نكن بذلك خارجين عن القانون الشرعى ، **لان دلالة الحساب القطعى أو القريب من القطعى على عدم الامكان أقوى من الريبة** ، والريبة موجبة لرد الشهادة ، فاعتقادنا عدم الامكان كذلك أو أقوى ، ومقصودنا بذلك القطع بردها .

« وينبغى للقاضى أن يكون له حظ فى معرفة علم الهيئة أو يقلد من يثــق به فى ذلك ليكون على بصيرة مما يقبل فى ذلك أو يرد ، ولا يتسرع ... » **انتهى كلام العلامة المرحوم الشيخ بخيت مفتى الديار المصرية السابق (1)** .

---

(1) نقلا عن جريدة النهضة التونسية بقلم الشيخ محمد المطيبعى التونسى الازهرى .

رأى المرحوم الاستاذ عــلال الفاسى فى العمــل
بالحساب الفلكى فى الصــوم و الافطــار

يقول الاستاذ علال الفاسى فى كتابه « الجواب الصحيح والنصح الخالص عن نازلة فاس وما يتعلق بمبدا الشهور الاسلامية العربية » :

هل يعمل بالحساب ؟

لا نحب ان نطيل بحكاية آراء فقهائنا فى الموضوع فقد عرف مما ذكره القرافى فى الفروق فى الفرق الثانى بعد المائة ان فى الموضوع قولين عند المالكية وعند الشافعية وان المشهــور فى المذهبين عدم اعتبار الحساب فاذا دل حســاب تسيير الكواكب على خروج الهلال من الشعــاع من جهة علم الهيأة لا يجب الصوم . قال سند من اصحابنــا :

فلو كان الامام يرى الحساب فاثبت الهلال به لم يتبع لاجماع السلف على خلافه مع ان حساب الاهلة والكسوفات والخسوفات قطعي ... والفرق أن الله نصب زوال الشمس سببا لوجوب الظهر وكذلك بقية الاوقات ، ولم ينصب نفس خـــروج الهلال من شعاع الشمس سببا للصوم » .

وقول الشيخ خليل لا بقول منجم وتعليق الشراح عليه . شهير لا نطيل بجلبه . والخلاصــة ان المشهور الاكثر فى كل مذهب مـــن مذاهب الفقهاء هو القول بعدم العمل بالحساب ، وهـــم يستنبطون قولهم هذا من فهمهم للحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم من حديث عبد اللـــه بن عمر رضي اللـــه عنهما « انا امة امية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا » وعقــد الابهام فى الثالثة يعنى تسعا وعشرين يـــوما ، « والشهر هكذا وهكذا وهكذا » . ولم يعقد يعنى تمام الثلاثين » . والمقصود ان الشهر لا يخـرج من هذين الامرين . اما ان يكون تسعة وعشرين واما ان يكون ثلاثين . وليس كما يقول اهـــل الحساب والنجوم لان الشهر دائما عندهم تسعــة وعشرون يوما وكفى . فاذا نحن قسمنا أيام السنة القمرية وهى 354 وخمس يوم وسدسه على عدد الشهور 12 ، كان كل شهر 29 وشيئا وبما ان القمر يجتمع مع الشمس فى كل شهر مرة فاذا فارقها فهو أول الشهر عندهم الى ان ينتهى الى مثل تلك الحالة . وقد يكون ذلك فى اثناء النهار ، وقد يكون فى اثناء الليل . فابطل النبى اعتبار ذلك ، وجعل ما بعد مفارقته الشمس الى تمـــام 29 من الشهر القديم ان رؤى أو الى تمام الثلاثين ان لم ير . قاله تقى الدين السبكى فى العلـــم المنشـــور .

والحديث يقرر حالة واقعة على ان العرب لم تكن فى معظمها تعرف من القراءة والحساب مـــا يؤهلها لاتخاذ نظام مبنى عليهما فى معرفـــــة الاشهر . فآثر الشارع التيسير بان جعل الشهر منوطا بالرؤية واعتبر الفقهاء العمل بمقتضى هذه العلة أى عدم العلم بالحساب حتى لو زالت حالة الامية عن الامة الاسلامية ، قال فى الفتح : « ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضا الا النزر اليسير فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية برفع الحرج عنهم فى معاناة حساب التسيير واستمر الحكـــم فى الصوم ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك بل ظاهر السياق ينفى تعلق الحكم بالحساب أصـــلا يوضحه قوله فى الحديث السابق فان غم عليكم فاكملوا العدة ثلاثين . ولم يقل فسلوا أهـــــل الحساب . والحكمة فيه كون العدد عنـــد الاغمـــاء يستوفيه المكلفون فيرتفع الخلاف والنزاع عنهم ، وقد ذهب قوم الى الرجوع الى أهل التسيير فى ذلك وهم الروافض .

ونقل عن بعض الفقهاء موافقتهم قال الباجي : واجماع السلف الصالح حجة عليهم قال ابن بزيزة وهو مذهب باطل فقد نهت الشريعة عن الخوض في علم النجوم لانها حدس وتخمين ليس فيها قطع ولاظن غالب مع انه لو ارتبط بها الامر لضاق اذلا يعرفها الا القليل » .

النتيجـــة

والنتيجة ان المشهور فى كل مذهب هو القول بعدم العمل بالحساب فى الصوم والافطـــار وغيرهما من المواسم والاعياد . والسبب فى انتشار القول بذلك امور :

1) فهم الحديث على ان المقصود به المنـــع مطلقا من العمل بالحساب فى الصوم ، وان الرؤية هى الامارة الشرعية الواحدة حتى ولـــو تبدلت الاحـــوال .

2) التخوف من الوقوع فيما وقع فيه البابليون وقدماء الامم الذين خالطوا التنجم والخلط بين عبادة النجوم والسحر بها ، وبين استعمال الحساب والرصد لفائدة المعرفة وتدقيق السنين والحســـاب .

3) كون الاغلبية الساحقة فى العصـــور الاولى ، بل جميع الامم فيما قبل العصر العباسى كانت بعيدة عن اتقان الفلكيات . حتى تستفيد منهـــا .

وقد تطورت الاحوال وبقى معظم علمائنـــا على القول بما قاله به الاولون الا فئة يسيرة ممن أعملوا رأيهم من العلماء فى كل عصر ، من بينهم العلامة ابن دقيق العيد فقد قال فى شرح عمدة الاحكام : « والذى اقول به ان الحساب لا يجوز أن يعمد عليه بمفارقة القمر للشمس على ما يراه المنجمون من تقدم الشهر بالحساب على الشهـــر بالرؤية بيوم أو يومين فان ذلك احداث لسبب لم يشرعه الله تعالى ، واما اذا دل الحساب عـــلى ان الهلال قد طلع من الافق على وجه يرى لو لا وجود المانع كالغيم مثلا فهذا يقتضى الوجـــوب لوجود الحساب الشرعى ، وليس حقيقة الرؤية بمشروطة فى اللزوم لان الاتفاق على ان المحبوس فى المطمورة اذا علم بالحساب باكمال العـــدة أو بالاجتهاد بالامارات وجب عليه الصوم وان لم ير الهلال ولا اخبره من رآه » .

ومن بينهم الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى الحاتمى فقد قال فى الفتوحات المكية واختلف العلماء اذا غم الهلال فقال الاكثرون تكمل العدة ثلاثين فان كان الذى غم هلال أول الشهر عـــد الشهر الذى قبله ثلاثين وكان أول رمضان الحادي والثلاثين . وان كان الذى غم هلال آخر الشهر

اعنى شهر رمضان صام الناس ثلاثين يوما . ومن قائل ان كان المغمى هلال أول الشهر صيم اليوم الثانى وهو يوم الشك . ومن قائل ان ذلك يرجع الى الحساب بتسيير القمر والشمس وهو مذهب ابن الشخير ، وبه اقول .

واذن فالقول باعتبار الحساب هو مذهب مطرف بن عبد الله بن الشخير من اعيان التابعين وابن سريج . والشافعى فى احدى المنقولات عنه . ومحمد بن مقاتل الرازى وقال به بعض المالكية . وهو مذهب ابن طاووس من الامامية ، وحكوه عن جماعة منهم كما يؤخذ من كتاب « فرج المهموم فى نهج الحلال والحرام من علم النجوم » لابن طاووس وكذلك العاملى فى الحبل المتين ، واليه مال ابن ابى الحديد فى نهج البلاغة .

وقد رأيت ان ابن عربى الحاتمى نقله عن ابن الشخير وقال به ، ونقح مناطه واختاره العلامة ابن دقيق العيد . وقد ألف من العلماء المتأخرين الاستاذ العلامة المرحوم صديقى الشيخ احمد شاكر رسالة فى اثبات العمل بالحساب مستدلا بنصوص الائمة الذين قالوا به من قبل .

وكتب أحمد بن الصديق الغمارى من المغاربة رسالة سماها « توجيه الانظار لتوحيد المسلمين فى الصوم والافطار » قال فيها بالعمل بالحساب بشرطين :

1) ان يكون المخبر بذلك من أهل الحساب جماعة متعددة يؤمن معهم الخطأ ويحصل العلم أو العقل القوى من اتفاقهم على عدم الخطا فى الحساب .

2) والثانى ان يكون ذلك فى حالة الغيم لا فى حالة الصحو .

واختار السيد ابو العلا البنا ان ينشأ جهاز حسابى فلكى يعمل على ضوء الشريعة الاسلامية لتقوم بحساب جداول عامة لجميع المسلمين فى بقاع الارض لاوقات الصلوات الخمس وضبط احوال رؤية الهلال فى جميع البلاد المهمة التى يمكن رؤيته فيها وعمل جداول عامة ايضا لتعيين القبلة ، وان تمنع النتائج التى لم تأخذ حسابها من هذه الجداول العامة والتى لم تسخر الوضع الهلالى فى حساب أول الشهر القمرى . وان تراعى حدود الرؤية لد أى الامكان والوجوب فى ابعد حكومة اسلامية نحو الغرب وهى مراكش فى النتائج التى تنشر حتى تكون هلالية عالمية بحيث اذا بين الحساب حالة امكان الرؤية وعدم وقوعها يرجى تعيين أول الشهر بيوم الاثنين أو الثلاثاء مثلا ويترك الامر لنفس الرؤية الفعلية وينبه على ذلك فى أول الصفحة الموافقة لاول الشهر من النتيجة .

رايي الخاص

الذى اعتقده ان الحديث « انا امة امية لا تقرأ ولا تحسب » ، خرج مخرج الكلام المعلل وهو ان العرب بل الذين كانوا فى عصر النبى (ص) من أمم العالم لم يكونوا على درجة من العلم يجعل نتائج حساباتهم قطعية بل كانت مقدمات الحساب الفلكى لاثبات الشهر قبل الاسلام والى حياة النبى (ص) ظنية غير متقنة الانتاج كما تدل على ذلك بقايا نصوص الفلكيين القديمة أما اليوم فقد تطورت حال معرفة المسلمين للفلك • ومنذ العصر العباسى وعلماؤنا يتعاطون هذا الفن • وانضمت اليه الدراسات العصرية • فلم يعد من الممكن القول بان النتائج الحسابية ظنية • بل هى قطعية بقدر ما تكون الرياضيات قطعية •

وعليه فما دام الحكم قد خرج معللا . ومادامت العلة قد انتفت أى اننا لم نعد امة امية بل اصبحنا نقرأ ونحسب فقد ارشدنا الحديث الى العمل بالحساب طبقا للقاعدة الاصولية التى تقول : العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما • ولا عبرة بادعاء ان الحكم يبقى مستمرا حتى بعد تغير الاحوال لانه لا دليل عليه • وأيضا فانه (ص) قال فى الحديث « فان غم عليكم فاقدروا له » ، وقد فسره الشراح بمعنى خذوا له التقدير الحسابى • وقال عليه السلام فى الرواية الاخرى « فاكملوا العدة ثلاثين فجمع صلى الله عليه وسلم بين حال من يعرف الحساب وحال من لا يعرف • فالامة فى حال قصورها العلمى تعتمد الرؤية المحض تسهيلا على الناس • فاذا كانوا قد تعلموا واصبح فى مقدور المختصين منهم ان يهيئوا لهم وسائل التقدير الحسابى فعليهم ان يعملوا بالحساب فى الصوم كما عملوا به فى الصلاة تحقيقا لقوله تعالى : « **والقمر قدرناه منازل** » ••• « **لتعلموا عدد السنين والحساب** » •

نعم يجب ان نحقق المناط طبقا لما فعله العلامة ابن دقيق العيد فنقول : « ان الحساب الذى نعتمده هو الذى يدل على ان الهلال قد طلع من الافق على وجه يرى لو لا وجود المانع كالغيم مثلا فهذا يقتضى الوجوب لوجود السبب الشرعى ولا تعتبر حقيقة الرؤية مشروطة اما الحساب بمفارقة القمر للشمس على ما يراه المنجمون من تقدم الشهر بالحساب على الشهر بالرؤية بيوم أو يومين فهذا ما لا اقول به لانه احداث لسبب لم يشرعه الله تعالى فانا متفق تماما مع رأى الامام ابن دقيق العيد رحمه الله •

وقد اثبت البحث الحديث صحة هذه النظرية التى نظرها هذا العالم السلفى رحمه الله لانه بين اختصاص كل قوم أو دولة بنوع من انواع الحساب الفلكى فكان أهل ما وراء النهرين وبعض اليهود ماهرين فى الحساب الفلكى لحركتى الشمس والقمر الظاهرية الحقيقية وهو ما يسمى بالحساب الفلكى للاجتماع الحقيقى . وكان بعض الدول يكتفون بالحساب للاجتماع الوسطى والهلال الوسطى . وكان العرب يكتفون برؤية الهلال نفسه أو مراقبة النجوم دون معرفة أى حساب . وبعضهم كان يعرفه بالحساب الوسطى دون جبر الكسر فيكون الشهر 29 يوما وكسرا دائما من الاجتماع الى الاجتماع دون مبالاة بساعة البدء من ليل أو نهار وبعضهم كان يجبر الكسر ويجعل المحرم 30 يوما وصفر 29 يوما وهكذا . قال الاستاذ البنا : ولما جاء الاسلام أمر النبىء (ص) البدء بالوضع الهلالى الحقيقى وابطل البدء « بالوضع الاجتماعى الحقيقى والوسطى » كما ابطل « البدء بالوضع الهلالى الوسطى » اذ امر اصحابه بالتماس الرؤية وقال « صوموا لرؤيته الحديث » ويكون بذلك أيضا الغى اعتماد معرفة الشهر بمراقبة النجوم لما فيه من التقريب كما الغى معرفته بحساب الاجتماع الحقيقى أو الوسطى لانه يقدم الشهر على الرؤية يوما أو يومين فى الاقل .

قال : « وقوله (ص) انا امة امية لا تكتب ولا تحسب اشارة الى ما ثبت من ان الحساب لوقت الرؤية كان غير معروف فى العالم كله كما دلت الآثار والاحاديث على انه لم يتقن مع تحديد مكان الرؤية وزمانها ومعرفة حالاتها من امكان مع خفاء ، أو مع بيان ووضوح الا فى العصر العباسى » . (1)

---

1) كتاب « الجواب الصحيح من صفحة 28 الى صفحة 33 .

تحديد وتوحيد العمل بالشهور
وأيام المناسبات الاسلامية
مثل أيام الصوم والفطر والحج والاعياد وغيرها

الشيخ حسن خالد
مفتى الجمهورية اللبنانية

انه لما يبعث على الحيرة حقا ان موضــوع « تحديد وتوحيد العمل بالشهور وايام المناسبات الاسلامية مثل ايام الصوم والفطر والحج والاعياد وغيرها » ٠ اصبح موضوعا تقليديا يطــرح فى اغلب المؤتمرات الاسلامية ، ويتناوله الباحثــون الآجلاء بعمق وايمان ، الا انهم لم يستطيعوا منذ عشرات السنين التى مرت على هذه المؤتمرات ان يتوصلوا الى حل بشانه ، يوفقون من خلاله بين رأى الشرع ورأى العلم بهذا الصـــدد ٠ ولعل السبب فى ذلك ان الآراء السديدة حـــول هذا الموضوع تكثر من مؤتمر الى آخر ، فى الوقـــت الذى لا يكون فيه هذا الموضوع هو وحده المدرج على جدول الاعمال ، بل تكون هناك موضوعات كثيرة ، ومع هذه الكثرة فى الموضوعات ، الــى جانب الكثرة فى الآراء ٠

بقي هذا الموضوع عبر سنوات طويلة بلا حل ولا نتيجة ، مما ساعد على الاختلاف ، والتخبط فى تقرير الموقف عند كل مناسبة اسلامية تعتمد على تحديد اوائل الشهور العربية ٠

الا ان الذى يجعلنا نتفاءل بالوصول الى نتيجة نهائية فى هذا المؤتمر بالذات هـو ان هذا المؤتمر الكريم ، لم يدرج على جدول اعماله من الموضوعات الشرعية سوى هذا الموضوع وحده ، اما الموضوعان الآخران فهما موضوعان تنظيميان ، وهذا يشكل فرصـة طيبة لنا للتفرغ لهذا الموضوع وحده ، لنصل فيه الى نتيجة تخرج المسلمين مما يقعون فيه اليوم من حيرة فى مناسباتهم الاسلامية المختلفة ٠

ان منشأ هذه الحيرة هو عدم وضوح قدرتنا على التوفيق بين رأى الشرع فى تحديد اوائل الشهور ورأى العلم بهذا الشأن ٠

ان المسألة ما زالت تطرح بهذا الشكل كـأن هناك انفصالا بين الشريعة والعلم ، كأن هذه القوانين العلمية الثابتة ليست من خلق الله جـل ، وعـلا ٠

أنه لا بد لنا ان نقرر فى مطلع هذه الكلمـة ان كل ما هو شرعى قطعى هو علمى ، وان كـل ما هو علمى قطعى هو شـرعى ٠

اننا كثيرا ما نردد ان الاسلام هو دين العقل ، ولكن او ليس العقـل هو هذه القدرة التى خلقها الله فينا لنطل به على رحاب الحياة فنفيد منها ونفيدها بما نجمعه لانفسنا من معارف ، وبما نصيبه من اساليب وانظمة فكرية وعلمية ٠

ان فى القرآن ادق الدعوات لـلاخذ باسباب العلم ، يقـول تعالى ، « وفى الارض آيات للموقنين ، وفى انفسكم افلا تبصرون » ٠

انها دعوة صريحة من الله سبحانه وتعـالى لناخذ ما فى الارض وما حولها منطلقا لمعرفة يقينية ، ولناخذ من نفوسنا وعقولنا وسيلة نتوسلها لمثل هذا اليقين ٠

وقال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال جل شأنه « وما يستـوى الاعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور » ٠

فاذا كان الله سبحانه وتعالى قد حثنا على العلم فى اماكن كثيرة ، واذا كانت احاديـث العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هي كثيرة ايضا فقد اصبح العلم من صلب الشريعـة الاسلامية الغراء ، لدرجة يخشى معها ان يصبح رفض العلم شكلا من اشكال رفض الشريعة ٠

اننا قبل ان نستطرد فى هذه الناحية نرى لزاما علينا ان نذكر موقف الشرع من تحديد اوائل الشهور تبعا للمذاهب الاسلامية ٠

يرى الاحناف فى ظاهر مذهبهم ان اختـلاف المطالع لا يؤثر ولا يعتبر ، فاذا ثبت فى مصـر لزم الناس جميعا ، وذلك لعموم الخطاب فى قوله صلى الله عليه وسلم ، « صوموا » معلقا بمطلق الرؤية فى قوله « لرؤيته » وبرؤية قوم اياه يصدق اسم الرؤية فيثبت ما تعلق به من عموم الحكم فيعم الوجوب ٠

ويرى كثير من المالكية ايضا ان رؤية الهلال فى بلد من البلدان سبب لوجوب الصوم على جميع اقطار الارض ٠

واما الحنابلة فمذهبهم ان المطالع غير معتبرة ، قال ابن قدامة فى المغنى (ج 3 صفحة 7) « واذا رأى الهلال اهل بلد لزم جميع البلاد الصوم وهو قول الليـث وبعض اصحاب الشافعى كالقاضى ابى الطيب » ٠

وهكذا فان فى المذاهب الاربعة مندوحة للاخذ بهذا الرأي ، وان كان ثـم مخالفون لهـم ٠ وذلك لان المصـلحة الآنية هي فى ان يشترك المسلمون كافة فى جميـع اقطارهم فى عبادة الصوم والحج ، وفى جميع اعيادهم ومواسمهم الدينية نظرا لما يترتب على هذا التوافق من معانى المشاركة ومظاهر التعاون التى يشتد افتقار المسلمين اليها فى هذه الايام العصيبة ٠ يضاف الى ذلك ان العالم كله متفق على وحدة الحساب الشمسى للاشهر رغـم اختلاف مطالع الشمس ومساقطها واختلاف التأقيت اليومى بين كثير مـن البلدان ، والله تعالى قد جمـع بين الشمس والقمر فى الحكم حيث اثبت له ما اثبت لها ، وذلك فى قوله « الشمس والقمر بحسبان » لهذا كله فانا نميل الى الاخذ بالرأى القائل بعدم اعتبار المطالـع ٠

الا ان الاختلاف الاساسى فى تحديد اوائـل الشهور يعود الى الجدل القائم حـول اعتماد الرؤية فى ذلك او اعتماد علم الحساب عوضا عن الرؤية ٠

اقد صرح الاحناف بوجوب التماس الهـلال لليلة الثلاثين من شعبان فان رأوه صاموا ، والا اكملوا العدة ٠ فاعتبروا الرؤية او اكمال العـدة اتباعا للاحاديث الآمرة بذلك دون الحساب ٠ وقد اتفقت عبارات المتون لديهم على قولهم : يثبت رمضان برؤية هـلاله وبعد شعبان ثلاثين ، ومفاهيم الكتب معتبرة ٠ فيفهم منها انه لا يثبت بغير هذين ٠

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته » وقال ، « فان غـم عليكم فاكملوا العدة » وقال : « نحن امة امية لا نكتب ولا نحسب وفى الدر المختار : « ولا عبـرة بقول المؤقتين ولو عدولا ٠ ١ ٠ هـ (رسائل ابـن عابدين ، 244 ـ 246) ومـن الرسائل ايضا 253 « ان المعول عليه والواجب الرجوع اليه فى مذاهب الائمة الاربعة المجتهدين كما هو المحرر فى كتب اتباعهم المعتمدين :

1 ـ ان اثبات هلال رمضان لا يكون الا بالرؤية ليلا او باكمال عـــدة شعبان · وانه لا تعتبر رؤيته فى النهار حق ولو قبل الزوال على المختار ·

2 ـ وان لا يعتمد على ما يخبر به اهل الميقات والحساب والتخجيم لمخالفته شريعة نبينا عليه السـلام ·

3 ـ وانه لا عبرة باختلاف المطالع فى الاقطار الا عند الشافعى ·

ويرى الشافعية ان من عرف منازل القمر لا يلزمه الصوم به فى اصح الوجهين · وقال فى التهذيب لا يجوز تقليد المنجم فى حسابه لا فى الصوم ولا فى الافطار · وذكر ان الجواز اختيار ابن شريح والقفال ·

وقال ابن دقيق العيد : الذى اقوله ان الحساب لا يجوز ان يعتمد عليه فى الصوم لمقارنة القمر للشمس على ما يراد المنجمون ، فانهم قـد يقدمون الشهر بالحساب على الرؤية بيـوم او يومين · وفى اعتبار ذلك احداث شرع لم يأذن به الله · واما اذا دل الحساب على ان الهـلال قد طلع على وجه يرى ، لكن وجد مانع من رؤيته كالغيم ، فهذا يقتضى الوجوب لوجـود السبب الشرعى · قلت لكن يتوقف قبول ذلك على صـدق المخبر به ، ولا نجـزم بصدقه الا لو شاهد · والحال انه لم يشاهد فلا اعتبار بقوله · (الوجيز للغزالى على هـامش المجمـوع ج 6 صفحة 266) ·

وقال السبكى وغيره من الشافعية : لو شهد عدلان برؤيه الهلال وقال اهل الحساب لا يمكن رؤيته مطلقاً لا تقبل الشهادة لان الحساب امر قطعى · والشهادة ظنية · والظن لا يعارض القطع · ونازع فى ذلك بعض الشافعية (الحطاب على مختصر الخليل ج 2 صفحة 387 ـ 388) ·

اما المالكية فلا يلتفتون لقول اهل الحساب فى هذه الصورة وقد روى ابن نافع عن مالك فى الامام الذى يعتمد على الحساب انه لا يقتدى بـه ولا يتبـع (1) ·

ومن ادلتهم ان صاحب الشرع لم ينصب خروج الاهلة من الشعاع سببا للصوم ، وان كان قد نصب زوال الشمس سببا لوجوب الظهر وكذلك بقية الاوقاف لقوله تعالى : (اقم الصـلاة لدلوك الشمس » اى لاجله وكذلك قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ولـه الحمد فى السماوات والارض وعشيا وحين تظهرون » قال المفسرون : هذا خبر معناه الامـر بالصلوات فى هذه الاوقات ·

بل ان صاحب الشرع نصب رؤية الهلال خارجا من شعاع الشمس سببا فاذا لم تحصـل الرؤية ، لم يحصل السبب الشرعى ، فلا يثبت الحكم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « صوموا

1) لقد نقل القرافى ان للمالكية قولين مشهورين كالشافعية وهو ثقة مصدق فيما ينقل .

لرؤيته وافطروا لرؤيته » ولم يقل لخروج الهـلال عن شعاع الشمس · كما قاله تعالى « اقـــم الصلاة لدلوك الشمس » ثم قال : « فان غم عليكم » اي خفيت عليكم رؤيتــه « فاقدروا له » وفى رواية « فاكملوا العدة ثلاثين » · فنصب رؤية الهلال او اكمال العدة ثلاثين · ولم يتعرض لخروج الهلال عن الشعاع واما قوله تعالى « فمن شهد منكم الشـــهر فليصمه » فلا دلالة فيه على هذا المطلـــوب ·

قال ابو على ان (شهد) لها ثلاث معان : « شهد بمعنى حضر او بمعنى علم او بمعنى اخبر وهي هنا فى الآية بمعنى حضر · واذا كان المعنى هذا ، لم يكن فيه دلالة على اعتبار الرؤيـــة ولا على اعتبار الحساب · ولهذا قال الفقهاء : ان كان هذا الحساب غير منضبط فلا عبرة فيه ، وان كان منضبطا لكن لم ينصبه صاحب الشرع سببا فلم يجب به الصوم » ·

واما الحنابلة فقد نقل فى (كشاف القناع على متن الاقناع جـ 2 صفحة 302) عن ابن عقيل « البعد مانع كالغيم فيجب على كل حنبلى يصوم مع الغيم ان يصوم مع البعد لاحتماله · قال ابن قندس « البعد الذى يحول بينه وبين رؤية الهـلال كالمطمور والمسجون ومن بينه وبين المطلع شىء يحول كالجبل ونحوه · وان نواه اى صوم يـوم الثلاثين من شعبان (بلا مستند شـرعى) من رؤية هلاله او اكمال شعبان او حيلوله غيم او قتر او نحوه ، كان صامه لحساب ، وتجوم ولو كثرت اصابتهما او مع صحو فبان منه لم يجزئــه صومه لعدم استناده لما يعول عليه شرعا » ·

الا اننا بالرغم من هذه الآراء الجليلة ينبغى ان نعالج موضوع الاخذ بالحساب على ضوء ما حققه هذا العلم من انجازات رائعة فى عصورنا الحديثة ، انطلاقا مما جاء فى كتاب الله الكريم من آيات بينات فى هذا المعنى ·

يقول تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عـــدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحـق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » ·

لقد قال تعالى « وقدره منازل » ليبين ان هذا التقدير ، انما هو قدر معلوم من الله ، وقياس للزمان يجرى بقوانين خلقها الله ، وما هذه وتلـك الا موضوع للعلم ·

وقال : « لتعلموا عدد السنين والحساب » ليعرفنا بانه بمقدورنا ان نستفيد من هذا التقديـر بالمنازل عدد السنين والحساب مما يشعرنا بان الحساب امر نافـــع وجدير باهتمامنا ، واذا كان الحساب قد اصبح فى عصرنا يمثل ما نقرأ عنـه من الضبط والدقة فلم لا يكون معتمدا لامـــر شرعى ؟ ! ··

واذا اضفنا الى ذلك الحديث الشريف القائل « انا امة امية لا نكتب ولا نحســـب فصوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فاكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » · راينا فى هذا الحديث

الشريف تضمينا للمعنى الذى يقول ان الامة التى تكتب وتحسب يمكنها ان تعتمد الكتابة والحساب فى تحديد اوائل الشهور ·

ان العلم ليس من خلق الانسان ، وان كان الانسان هو الذى يعلم ، ان العلم هو عبارة عن جملة هذه القوانين الثابتة التى خلقها الله فى هذا الكون ، ودور الانسان هو فى اكتشاف هذه القوانين وليس فى خلقها ، ان العلم اذن هو فى هذا التوجه الانسانى ، الى هذه الظواهر الالهية فى هذا الكون للانتفاع بها وتسخيرها لمصلحته ومن هنا قلنا ان كل ما هو علمى هو شرعى وان كل ما هو شرعى هو علمى ·

اننا اذا كنا ناخذ باسباب العلوم الحديثة فى ادق دقائق حياتنا ، فى الطب ، وفى التربية ، وفى الاجتماع ، وفى الاقتصاد وما الى ذلك ، فان هذه العلوم التى نأخذ بها هي اقل دقة من علم الحساب ، ان منطق العلوم يجعل الحساب هو العلم الاكثر دقة بين العلوم جميعا ، وهو العلم الذى تعتمد عليه باقى العلوم ·

ومن المعلوم ان شريعتنا الغراء تقوم فى اكثرها على الحساب ناخذ به كعلم شرعى نعترف به فى عبادتنا ومعاملاتنا ، فاوقات الصلاة نعتمد فى سبيل تحديدها على علم الحساب ، واثبات الميراث وتوزيع الحصص الارثية نعتمد فى سبيل اقرارها على الحساب ·

وبعد فلماذا نفسر الرؤية حتى اليوم على انها رؤية بالعين ، او نفسر كلمة شهد بمعنى حضر ·

لقد قال ابو على كما اشرنا ان (شهد) فى قوله « من شهد منكم الشهر فليصمه » لها ثلاث معان من بينها انها بمعنى علم ··· فلماذا لا يكون العلم هو المعنى الذى نأخذ به طالما هو المعنى الذى يوحد ما بيننا ويجعلنا بحق امة واحدة مصداقا لقوله تعالى « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ·

ان هناك اسبابا كثيرة تلزمنا بان ناخذ بالسبب الذى يجعل موقفنا واحدا فى هذا الموضوع على رأسها يأتى السبب الشرعى الذى يامرنا الله تعالى من خلاله ان نكون امة واحدة ·

ان التفكك الذى وصلنا اليه ، ينبغى ان يدعونا الى كثير من التأمل والتحرك لتخطى هذا الواقع المتخلف ·

اننى اريد ان اقولها صريحة ، اننا فى لبنان نعتمد على الرؤية فى اثبات الهلال الا ان ذلك جعل فئة من المسلمين يبدأون صومهم فى يوم وفئة من مذهب آخر يبدأون صومهم فى يوم آخر ان هذا يحدث فى بلد واحد ، وبين ابناء شعب واحد ولدى اتباع دين واحد ·

واننى اقترح للخروج من هذا الاحراج ان يصار الى انشاء مركز اسلامى علمى تديره جامعة الدول العربية ، وليكن هذا المركز فى مكة المكرمة نظرا لمكانتها الاسلامية الكبرى ، على ان يأخـــذ هذا المركز على عاتقه امر تحديد وتوحيد العمل بالشهور وايام المناسبات الاســـلامية ، بالطرق الشرعية العلمية ، على ان يلتزم بهذا التحديد العالم العربى والاسلامى كله ٠

والله الموفق على كـل حـــال ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠



رأى الامام موسى الصدر رئيس المجلس الشيعى الاعلى بلبنان

«...المحاضرة القيمة النقية الملتزمة أوضحت جانبا مجهولا من جوانب ثلاث كنا بحاجة الى توضيحها ، فبعد أن اتفق المحاضرون جميعا أن واقع الشريعة الاسلامية يختلف عن واقع التشريع اليوم ، وبعد ان اتفق الجميع على امكانية توجيه الاسلام لأوضاعنا المعاصرة وتلبيته حاجاتنا المتزايدة المتطورة ، وبعد ان اتفقوا على ان الحل فى التطوير أو ما يسمى بالاجتهاد ، بقي الاسئلة الثلاثة ، من يجتهد ؟ كيف نجتهد ؟ متى نجتهد ؟

مولانا المحاضر أجاب بوضوح على السؤال الاول فحدد المجتهد بقي سؤالان ، متى ، وكيف ؟ مع العلم اننا نريد بقاء الاسلام فاذا قلنا أن هناك حاجات متزايدة متجددة ليس لها حلولا ضمن الشريعة فخضعنا للمصالح العامة عند ذلك ما الفرق بين التشريع الوضعى وبين الاجتهاد فى الشريعة ، الاجتهاد فى الشريعة أن تحتفظ بغيبية الرسالة وقداسة الحكم ونطور النص حتى يبقى متجددا ملبيا ويبقى محتفظا بقداسته واطلاقه وغيبيته والا فلا دين ، الذين ان يبقى الحكم غيبى الصفة ، ثم ما الفرق بيننا وبين الكنيسة التى تخضع للتطور ، نحن نطور ولا نتطور ، ارجو الانتباه ، التطوير الذى يحصل بمعزل عن القيادة الفكرية الاسلامية ليس الاسلام مسؤولا عنها ، الاسلام عليه — وقد التزم بذلك رب العالمين — أن يلبى حاجات الانسان فى كل زمان ومكان ، أما اذا خط الانسان لنفسه خطا منحرفا فماذا يفرض على الاسلام وعلى المسلمين أن يتراجعوا ويسايروا — كما عبر استاذنا المعلم — فالاسلام تطور لا محالة ، والاسلام لا يتراجع امام الحاجات بل يحتضنها ويطورها بناء على الوسائل العلمية فى ثبوت العيد وثبوت الهلال وثبوت أوائل الشهور بشكل علمى ، وقد اتفق العلماء مؤخرا على جواز اعتماد الثبوت فى منطقة لجميع المناطق فى العالم ، ولذلك العلماء والفقهاء أدوا واجبهم بقي على الفنيين من المسلمين أن يضعوا جداول استرونومية أو مراصد أو وسائل أخرى لتطبيق هذه الفتوى ، فالعلماء افتوا بجواز الاعتماد على الوسائل وبجواز الاعتماد على ثبوت أى نقطة من النقاط فى العالم لذلك ملخص هذه المحاضرات تؤكد امكانية التطبيق وضرورة الاجتهاد وتبين من يجتهد ، فالرجاء من المحاضرين فى الموضوع ومن اللجنة المكلفة بوضع القرارات أن يحدد أيضا متى ؟ ، وكيف نطور ؟ .

وليتأكد الشباب والعائشين فى هذا العصر تلبية الاسلام القيادية لحاجاتهم لا تلبية تراجعية انهزامية ، والسلام عليكم .»

أبدى الامام موسى الصدر هذا الرأى فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى المنعقد بمدينة تيزى وزو خلال احدى الجلسات .

الهــــــلال

رأي الاستاذ القاضى عبد الله الشماحى وزير سابــــق ومستشار بوزارة العــــدل حاليا ـ صنعاء الجمهورية العربية اليمنية ـ وقد صاغه فى ابيات شعرية فى الملتقى السابع للفكر الاسـلامى الذى أنعقد فى تيزى وزو ٠

بســم الله الرحمن الرحيم

اقف وقفة ثانية مع الشعر حتى لا يطلــق علي شاعر وانا لست بشاعر للشعر ، يا ابنـاء عمالقته الذين يشهد هذا الملتقى منهم عمالقة ،كعملاق الثـورة الجزائرية « مفدى زكرياء » ، والآخر الدكتور صالح جودت ، وهناك عمالقـة من الشباب ، سيزاحمون أولئك الاعـلام الذين عرفهم تاريخ الامة العربية من الجانب الشعـرى كالمتنبى ، فى المشرق ، وابن هانى فى المغرب ٠

هنا يا لقوم بالجــزائر مظـهر	بانـا بجــد قد بدانا نفكــر
لانا بدانا نحــو شــرعة احمد	نسير بايمان به سـوف ننصـر
فنرفع للاســلام اعــلام شرعه	ونمضـى أمـامـا ثـم نتقهقـر
فانى أرى فى ذا اللقــاء هــلاله	بما يتمنى المسلمـون سيسـفر
بوحدتنا الكبرى التى الشرع نبعها	فأنعم به من مورد عنه تصـدر
وليـس مجال البحث فيه بتافه	لـه غاية اسمى من البـدر ابدر
فان صغيـرات الامـور روافـد	بها يربـط التاريخ ما هو أكبـر
وما وحـدة الاوقـات الا عناصـر	بها الوحـدة الكبرى تشد وتؤطر
ونحن بها فى الامس تحت قـراعنا	هوى تـاج كسرى وامتطى الغر قيصر
وشاد بها الفاروق للعـدل دولة	سواء فيها سود وبيض واصـفر
لهم نسـب الاسـلام وحد ما بهم	هنـا عـربى أو هنالك بـربـر
فكلهم القـرآن ولـد فكرهم	وكلهـم فى الشـرع اهل ومعشر

تقـــويم اســـلامى موحـــد
يجمـــع بـــين
الحـكم الشـرعى والحسـاب الفلـكى

الاســتاذ مبروك عوادى
خريج دار العلوم فى القاهرة
وعضو لجنة الافتـاء المركزية
بالجزائر

يقول اللـه جـل شانـه : (هو الذى جعل الشمس ضيـاء والقمر نورا ، وقـدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق ، نفصل الآيات لقوم يعلمون) (يونس آيـة 5)

ويقـول عز من قائـل : (وجعلنا الليـل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آيـة النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عـدد السنين والحسـاب ، وكـل شىء فصلنـاه تفصيلا) (الاسراء آية 12)

ويقول سبحانه وتعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) (يس آيات 38 – 39 – 40) •

ويقول عظمت قدرته : (الشمس والقمر بحسبان) (الرحمن آية 5) •

وحيث ان القمر مقدر بمنازل ، وأن الشمس والقمر والليل والنهار من الآيات الكونية ، وأن الشمس والقمر يسبحان فى الفلك ويجريان فى منازلهما بحساب منظم دقيق ، بتقدير العزيز العليم ، وأنه سبحانه ما فصل تلك الآيات الكونية تفصيلا ، وما كان ذلك التفصيل الا لتعليمنا واعلامنا والعمل والاستفادة بما حصل لنا من ذلك التعليم والاعلام • بيد أن التحصيل على ذلك التعليم والوصول الى ذلك العلم لا يتعاطاه كل الناس ولا يزاوله كل الافراد • اذ له طائفة خاصة مختصة به اختصاصية فيه ، كاختصاص غيرها فى غيره من فروع العلم والمعلومات والمعارف •

وعليه فالفرد الذى حصل على ذلك العلم – أو بالاحرى علم الفلك – ومنه حركات القمر وسيره واستهلاله واختفاؤه – هو مكلف شرعا بالبحث فيه والعلم به وبحسابه وتفصيلاته ، لأن العلى القدير الذى احاط بكل شىء علما كلف كل نفس بما فى وسعها، كما نص عليه فى تنزيله « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (البقرة آية 286) – وكلام التنزيل شريعة تتبع ، ومنهاج يسلك – • وهو مكلف أيضا ومأمور بالاعلام به والتبليغ الى غيره ، لأن كاتم العلم يلجم بلجام من نار ، كما ورد فى الخبر : « من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار » – واسناده صحيح – فتح القدير ج 6 ص 212) •

ويجب عليه هو نفسه الصيام ، وعلى من اعلمه اذا ما صدقه ، وعلى من بلغه الخبر اذا ما صدق المخبر •

هذا وأن من الفقهاء من يقبلون شهادة الطبيب فى العيوب والجراحات – وقد قيل هذا قديما قبل ان يصل الطب الى ما وصل اليه الآن – يقبلون شهادة الطبيب ولا يشترطون التعدد ولا حتى الاسلام • ويقبلون رأى الطبيب – ولو كان غير مسلم – فى المريض اذا ما نهاه عن الصوم ومنعه منه لأنه يضر به ، مع ان الطبيب يتردد احيانا فى المرض ولا يكاد يتبينه من اول

وهلة ولا يتحققه من أول مرة ، ثم هم أيضا يقبلون المقوم ، والتقويم مبنى على الحدس والتخمين ، وفى هذين أى فى قبول الطبيب والمقوم مقاطع حقوق بشرية ، وقبوله فى الصوم قبول فى عبادة بل فى ركـن من اركان الاسـلام ، وانما قبـل الفقهاء الطبيب لاختصاصه بعلم وفن الطب ، قبلوه فيما هو من اختصاصه ٠

ثم ان الامام أبا محمد بن حوم يقبل فى اثبات رؤية الهـلال الواحد اذا ما صـدقه ، ولا يشترط التعدد ، ولا الذكورية ، ولا الحـرية ،ولا حتى الاسـلام ، ويرد على من يشترط ذلك ، ويوجـب الصيام عـلى الرائى ، وعلى من أعلمـه الرائى ، وعلى من بلغه الخبر ، اذا ما صدق المعلم الرائى ، والمخبر المخبر ٠

على ان اثبات الهلال من الفلكيين المختصين ، المحققين ، المتثبتين ، الاثبات ، الثقات ، لا ضير فيه ، بل هم مكلفون بذلك كما ذكرنا آنفا ، بـل هذا واجـب عليهم ، وواجـب علينا ان نقلدهـم ـ ولو كان المقلد فردا واحدا ـ اذا ما وثقنا بـه وبعلمه ـ وذلك بناء على ما يقول به أبو محمد بن حزم فى الرؤية ٠

وأيضا فان فى التثبت من استهلال الهلال وانتهائه واثبات ذلك ليس فيه الغاء لرمضان ولا ابطال لهذا الركن ولا تقديمه عن وقته ـ مثلا ـ لشعبان ولا تأخيره عن وقته ـ مثلا ـ لشوال، ولا نقله لفصل من فصول السنة ثم الحكم عليه بالسجن والاقامة فى ذلك الفصل المنقول اليه ، لـم يقـع فيه تقديم ولا تأخـير ، كما كانت تفعله الجاهلية فى الاشهر الحرام اذا ارادت ان تنتهكها بالقتال فيها والعدوان ـ (ذلـك قـولهم بأفواههم) ـ فالاهلة لا تتغير ولا تتحول بأكاذيبهم وافتراءاتهم

ولا يلزم من اثبات الاهلة بالحساب زيادة فى ايامها ولا نقص منها ، فلم يقل احد أن الشهر ثمانية وعشرون كبعض الشهـور العجمية ، ولا واحد وثلاثون كبعض آخر ٠

وما بلغنا ان احدا من الفلكيين قال : ان الشهر ينقص عـن تسـع وعشرين او يـزيد عـلى الثلاثين او يتقدم فى سيره الزمنى او يتأخر ٠

ان كل ما هناك فى اثبات الهلال بالحساب من المختصين الاثبات الثقات ما هو الا بحث عن لحظة وجوده ، واختفائه ، وامكان رؤيته ، واستحالتها ، والتثبت منهما ، والعلم بهما ، والاعلان عنهمـا ٠

ولا يقال فى هذا انهم طوروا حكما شرعيا بل ركنا وقاعدة من قواعد الاسلام ، كما يتردد كثيرا على الافواه (تطور الاسلام ، تطور الدين ٠٠٠ الخ) لأن الشريعة شريعة الله ليست من افكارنا ولا من عقولنا ولا من علومنا ، ولا من صناعتنا ولا من صياغتنا الخ ٠

وغاية ما فى هذا انه تفهم وفهم ، ثم استجلاء واكتشاف لحقيقة ثابتة بتقدير العزيز العليم ، فلا تصرف لاحد فى تلك الحقيقة كائنا من كان ولاتطوير ، ولا هو من قبيل البحث الغيبيات التى استأثر الخالق بها ٠

انه الكشف عن واقع موجود مادى محسوس ، عن كائن فى الطبيعة ٠

ولا حجة لمن يحتج بقول الصادق والذى يمزح ولا يقول فى مزاحه الا حقا : حيث ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « نحن امة امية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا » وفتح اصابعه ومدها فى المرتين وفى الثالثة قبض اصبعا - يعنى - ان الشهر تسع وعشرون - وفى حديث آخر : « الشهر تسع وعشرون وثلاثون »لأن هذا اخبار بالواقع : بواقع امة العرب فى تلك الحقبة من تاريخها ، اذ كانوا كذلك ، ولم يقل صلى الله عليه وسلم ، لا تكتبوا ولا تحسبوا ، بل من المعلوم المشهور انه صلى الله عليه وسلم طلب من اسارى غزوة بدر تعليم الكتابة لصبيان فى مقابل اطلاقهم من الاسر ، وكما كان له كتاب أيضا كما هو ثابت ٠

على انه صلى الله عليه وسلم وهو النبىء الامى : « الذين يتبعون الرسول النبىء الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ٠٠٠ الآية » « فآمنوا بالله ورسوله النبىء الامى ٠٠٠ الآية » (الاعراف آيتى 157 - 158) ،وهو أيضا من امة امية لا تكتب ولا تحسب ولم يكن عالما فلكيا ولا مرصد له ، ثم هو يحدد الشهر بتسع وعشرين لا ينقص ، وبثلاثين لا يزيد ٠ الست ترى ان هذا من دلائل النبوة ومعجزاتها ،فهو اخبر فى اول الحديث بالواقع : واقع الأمة العربية فى تلك الحقبة ، وفى آخر الحديث مع الحديث الاخر بطريق الوحى القاطع الجازم عن عدد أيام الشهر التى لم تنقص عن تسع وعشرين ولم تزد على ثلاثين منذ ان خلق الله الهلال ولن تنقص ولن تزيد الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ٠

توحيد المواسم والاعياد الاسلامية

من أهـم مظاهر الوحدة الاسلامية

للاستاذين :
احمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
عبد الكريم زغلـون
نائب مدير المرصد الفلكى

بســم الله الرحمن الرحيم

المسلمون أمة واحدة بنص القرآن الكريم ، وكل مظاهر الوحدة الفعلية فيهم من دلائل قوتهـم ويقظتهم ، وأهليتهم للحياة · وكل اختلاف بينهم ، وتفكك فى صفوفهم من دلائل ضعفهم وغفلتهم ، وتعرضهم لاخطار الانهيار والمـــوت · واذا كان هذا الافتراق فى الدين ، وفى شعائره وقضاياه ، أصبح نكبة على الاسلام والمسلمين ·

ولاشك أن توحيد أعياد المسلمين ومواسمهم ، وابتداء صومهم وافطارهم ودخول شهور تقويمهم الهجرى وانتهائها · وابتداء سنتهم الهجرية وانتهائها من أهم مظاهر هذه الوحدة وأجملها · وان اختلافهم فى ذلك يعطى عنهم وعن دينهم صورة من اقبح الصور واشدها ايلاما للنفوس المؤمنة · ويدخل الاضطراب والبلبلة على حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والادارية · وهذا ما دفع ذوى العقول النيرة ، والرؤوس المفكرة المدبرة ، والارادة الحازمة منهم للعمل الحثيث المثمر للخروج بهم من مثل هذه الحالة المؤسفة ·

تقويم اسلامى موحد يجمع بين الحكم
الشرعى والحساب الفلكى

هذا ما توصل اليه الباحثون المختصون ، وأجمع على انه الوسيلة الوحيدة المثلى لتحقيق هذا التوحيد فى هذه القضية المفكرون ، والساسة الراشدون ، وعلماء الشريعة الراسخون ، وعلماء الفلك الموثوق بعلمهم وديانتهم المسلمون·وهذا ما قرره مؤتمر وزراء الشؤون الدينية والاسلامية والاوقاف للدول العربية المنعقد بالكويت فى 23 ــ 28 من المحرم 1393 هـ ، (26 فبراير ــ 3 مارس 1973 م) ، ثم اجتمعت من أجل تنفيذه « لجنة التقويم الاسلامى » المنبثقة عن هذا المؤتمر ·

التزام الحكومات الاسلامية بالعمل بالتقويم :

وقد جاء فى قرارات مؤتمر الوزراء المذكور فيما يخص التقويم ما نصه : « وجوب عمل تقويم قمرى بمعرفة لجنة معتمدة من فقهاء الشريعة الاسلامية وعلماء الفلك تلتزم به الحكومات الاسلامية فى صومها وفطرها ، وفى تحديد مواسمها الدينية وفى تاريخها » ·

وقرر المؤتمر أن تشكل هذه اللجنة من ممثلين عن الدول العربية الآتية : الجزائر ، تونس مصر ، الكويت ، قطر · وعينوا لرئاستها الاستاذ عبد الله الانصارى مندوب قطر لكونه فقيها وفلكيا · وقرروا ان تعرض أعمال اللجنة ــ فور انتهائها ــ للمصادقة عليها ــ على مؤتمر الوزراء الثانى الذى تعهدت الجزائر ان تدعو اليه جميع الدول الاسلامية ليعقد فى عاصمتها ·

اجتماع اللجنة بالكويت :

وباستدعاء من السيد راشد عبد الله الفرحان وزير الاوقاف والشؤون الدينية الكويتى اجتمعت هذه اللجنة يومى السبت والاحد 6 ــ 7 ربيع الآخر 1394 الموافق لـ 27 ــ 28 من ابريل 1974 م ، وحضر ممثلون عن جميع الدول المعينة فمثل :

ـ الجزائر : السيدان عبد الكريم غزلون ، نائب مدير المرصـــد الفلكي ، واحمد حمانى رئيس المجلس الاسلامى الاعــلى .

ـ وتونس : الشيخ مصطفى كمال التازرى ، مدير ادارة الشعائر الدينية .

ـ ومصر : الشيخ محمد خاطر مفتى مصر ، والاستاذ عبد الحميد سماحة ، مدير معهـد الارصاد وأستاذ الفلك بعلوم القاهرة سابقا .

ـ والكويت : الشيخ عطية صقر ، مســاعد رئيس قسم الثقافة الاسلامية ، والسيد صالــح العجيرى أستاذ فلكى ، والاستاذ عبد الله العقيــل (ككاتب) .

ـ وقطر : الشيخ عبد الله بن ابراهيم الانصارى ، وهو الذى كان قد عـــين من الوزراء رئيسا لهذه اللجنة .

وقد افتتحت الاعمال بحضور سيادة وزيــر الاوقاف والشؤون الدينية بالوزارة ثم دارت المناقشات ـ بعد مغادرة الوزير ـ تحت اشــراف الرئيس المعين ، وقدم الوفد الجزائرى مشروعا يحتوى على مقترحات كان قد وضع بعناية ، ودرس دراسة عميقة دقيقة مع السيد وزير التعليـم الاصلى والشؤون الدينية ، فنال هذا المشروع استحسان ورضى جميع الممثلين ، ثم قدم كل وفـد مشروعه واقتراحاته .

وبعد دراسة مستفيضة ، ومناقشات مثمــرة مفيدة أجمع الحاضرون على أن تكون الاسس التى يبنى عليها التقويم الاسلامى الذى يجمع بين الحكم الشرعى ، والحساب الفلكى ما يأتى :

أولا : ان يبدأ الشهر من الليلة التالية لاجتماع النيرين (مولد القمر) .

ثانيا : ان لا يقل بعد القمر الزاوى عن الشمس سبع درجات وهو الحد الادنى لامكان رؤية الهـــلال .

ثالثا : ان يكون للقمر مكث بعد غروب الشمس بحيث تمكن رؤيته .

رابعا : ان تكون مكة المكرمة المبدأ المكانى لحساب الهلال الشرعى .

وبعد هذا الاتفاق على هذه الاسس وكل الى السيد صالح العجيرى (فلكى كويتى) وضــع مشروع التقويم المطلوب ، على ان يعرض ـ كما تقدم ذكـــره ـ على المؤتمر الثانى للوزراء المختصين الذى سينعقد بالجزائر للمصالحة عليه .

مرحلــة نهائية :

ان وضع هذا التقويم ـ بالفعل ـ هو المرحلة النهائية ان شاء الله لعهد طويل من الدراسات العميقة ، والاقتراحات المختلفة ، والتوصيات ، والمقررات فمنذ ما يقرب من خمسين سنة أعلـــن

الاستاذ العلامة مجتهد العصر الشيخ محمد رشيد رضا شرعية العمل بالحساب الفلكى فى قصية اثبات دخول الشهر القمرى وجواز استعماله فى الصوم والفطر · واعلن ان الحساب فى عصرنا يفيد العلم القطعى وأنه اذا وجد الحاسبون عمـل بقولهم لانه علم يقينى قطعى · وان العمـــــل بالحساب المقطوع به أقرب الى مقاصد الشــريعة · واقترح وضع تقويم عام تبين فيه الاوقات التى يرى فيها هلال كل شهر فى كل قطر عند عدم المانع ·

ثم قال : « وبالعمل بهذا التقويم القمرى الاسلامى الموحد يحصــــل الاتفاق بين المسلمين ويمتنع الاختلاف » ·

وقد برهن ـ رحمه الله ـ على شرعية استعمال الحساب فى الصوم والافطار كاستعماله فى أوقات الصلوات والامساك والافطار عند المغرب مما اجمع على استعماله المسلمون ولم يكـن معروفا وقت النبي صلى الله عليه وسلم ، ووقــت الســــلف الاولين · وبرهن على نفي وجود مصادمة بين استعمال الحساب والنصوص الشرعية ، اذ لا يمكن ان تصادم شريعتنا قــــواعد العلم وتناقضها · وبمثل هذا أجاب فضيلة الاستاذ الامام الدكتور محمد الفحام عن ســـؤال فى الموضوع ، ونشر جوابه فى مجلة منبر الاســلام الازهرية اذ قــال :

« ان هذا الموضوع ناقشه الفقهاء فى القرون الاولى ، كما ناقشه علماء مجمع البحـــوث الاسلامية فى السنوات الاخيرة ، وهم جميعا متفقون على أنه لا تعارض بين الدين والعلم ابدا · فالدين هو الذى يدعو الى العلم ··· » ·

وقد قرر مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية الذى أشار اليه فضيلته ـ مبدئيا ـ الاعتماد على الحساب فى اثبات دخول الشهر ، وان جعل الرؤية هي الاصل ، ولكنه رفض الرؤية اذا تمكنت منها التهمة ، ومن ذلك ان تخالف الحساب الفلكى الموثوق به ، الصادر ممن يوثق به · وطلب هذا المؤتمر من الحكومات والشعوب الاسلامية ان يكون فى كل منها هيئة يناط بها اثبات الشهور القمرية مع مراعاة اتصال بعضها ببعض والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهم · واخبـــر فضيلته انه بناء على هذه القرارات سار العمل فى مصـــــر على اعلان مبدا الصيام ونهايته بعد الاتصــــال ·

وجاء بعد ذلك مؤتمر العلماء المسلمين المنعقد فى ماليزيا فأصدر توصيات أكد فيها ضرورة اخراج تقويم قمـــــرى اسلامى موحد وطلب من الحكومات الاسلامية ان تؤلف لهذه الغاية هيئة من علماء الدين وعلماء الفلك المختصين ·

وجاء فى تحقيق علمى للاستاذ الامـام محمد الطاهر بن عاشور رحمـه اللـه : « ان حـق تقليل الاختلاف بين أحوال المسلمين يقضى بأن لا يغفـل عن تغيير الاحـوال عما كانت عليه فى القرون الماضية » ·

وقال عن قطعية الحساب الفلكى والتقويم : « ان دلالـة الحساب الذى يضبطه المنجمون ، أعنى العالمين بسير النجوم علما لا يتطرق الى قواعده شك ، وحسابا تحققت سلامته من الغلط وذلك ما يسمى بالتقويم فاذا ضبط الحساب وقـت وجود الهلال باليوم والساعة حصـل العلم لا محالة بهذا الشهر » ·

لماذا وجب وضع هذا التقويم ؟

ان هذه الدعوات المختلفة ، والقرارات والتوصيات ، والدراسات ، والفتاوى تبنـىء عمـا وصلت اليه حالة المسؤولين والمفكرين وجمهور المسلمين من التوتر والحرج من الاختلاف فى هذا الموضوع · فان ما يقع يصورهم ويصور دينهم بصورة فاضحة مؤلمة · ولا مخـرج من ذلك الا بوسيلة علمية قطعية موافقة للحكم الشرعى ، غير مصادمة لنصومه ·

ان الوقائع المؤلمة المحزنة كثيرة . متكررة فى كل سنة ، يتنادر بها العامة ويرويها الثقات ، ويعيشها الملايين من المسلمين ·

بين ليبيا والمغـرب فرق ثلاثة أيام :

هذا ما وقع بالفعل منذ أعوام ، والراوى له هو الاستاذ محمد المهدى طاهر ابو حامـد رئيس وفد ليبيا فى مؤتمر الوزراء بالكويت ونقله عنه الاخ الاستاذ مولود قاسـم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى حديث له قال : « انه فى احدى السنوات سـافر من ليبيا متوجها الى المغرب يوم التاسع والعشرين من رمضان ، وكانت الليلة ليلة عيد الفطر فى ليبيا ، ولما توقف فى مطار تونس وجد انه كان الثامن والعشرين ، أي ليلة التاسع والعشرين ، وتوقف فى مطـار الجزائر فوجدنا فى يومنا السابع والعشرين ، أي ليلة الثامن والعشرين ، فكانت ليلة 28 ولما وصل الى الرباط وجد المغرب يحتفل بليلة القدر ، أي اليوم السادس والعشرين وليلة السابـع والعشرين ! لماذا كان ذلك ؟ لانه كان هناك فـرق زمنى يعد بثلاثة أيام بين ليبيا والمغرب ، فليبيا تصوم فى يوم ، وتونس تصوم بعدها بيوم ، والجزائر بعد ليبيا بيومين ، والمغرب بعدها بثلاثـة أيام ، وهكذا يصبح الفرق ثلاثة أيام · وقد وقـع هذا مرارا ، وأصبح يكاد يقع كل سنة ·

فهل يقر العلم والحساب الصحيح صحة هذا الفرق الزمنى بين جناحى الدين ويرضاه ؟ كلا والله ، بل ان فيه ما يحزن وما يؤلم ، وما يخزى وما يخ

رمضان 27 يوما : ويروى الاستاذ عبد الحميد سماحة ، مدير معهد الارص بعلوم القاهرة ، فى بحث له منشور ، ان هذا ما حـ ث فى المغرب منذ نحو عشرين بالحرف الواحد :

« ملئت السماء بالسحب والغمام وقت التماس هلال رجب فاتموا جمادى وتتابعت الايام وكانت السحب والغيوم تملأ السماء أيضا عند التماس شهر ش فاتموا رجب ثلاثين يوما ، واستمرت السماء ملبدة بالغيوم فاتموا شعبان ، ; يروا هلال رمضان ، وتتابعت أيام رمضان يـوما بعد يوم وما زالت السماء جاء يوم السابع والعشرين من رمضان على حسابهم وكانوا يتهيئون للاحتفال بـ السحب وصفا الجو فرأوا هلال شوال فى اليوم السابع والعشرين فاعتبروا اليـ

أحـد الشهور العربية 31 يـوما :

وروى أيضا فى نفس البحث أن هذا « حـدث أيضا عام 1959 م أن أعلن رؤية الهلال فى أي بلد من البلاد العربية يوم 6 يونيو لان الحساب الدقيق دل ع الهلال فوق أفق أي من آفاقها فى ذلك اليوم اذ يغرب فيها جميعا قبل غـــــرو بالمملكة العربية السعودية تعلن رؤية هلال رمضان فى ذلك اليوم مما أوجب عل مبكرين يوما ، ثم توالت أيام شهر الصيام وقربـت الاستعدادات للاحتفال بعيد المفاجأة عندما أعلنت السعودية رؤية هلال شـوال قبل موعد ولادته بيومين مما شهر شوال فى ذلك العام 31 يوما » هذا نص ما رواه الاستاذ سماحة ٠ ولعله ، شهر يونيو ، والصواب شهر مارس ، لان عيد الاضحى فى ذلك العام كان يـ وبين يوم الاضحى وأول يوم من رمضان ثلاثة أشهر وعشرا ٠ وعلى كل حال تلك السنة تكرر هذا العام فقد أعلن عن رؤية هلال رمضان قبل موعده بيوم ، هلال شوال قبل ميلاده بيومين وصرح بذلك العلماء الموثوق بفقههم للشريعة و ذكر الاستاذ سماحة أن دار الافتاء بالقاهرة كثيرا ما يحدث ان تحدد أول الشه ضوء ما يتجمع لديها من بيانات « ثم نعلم بأن أحد الاقطار العربية قد حدد م آخر ، وفى معظم الاحوال لا يكون هذا الاختلاف للسبب الذى شرحناه آنفا وهو اذ يدل الحساب الدقيق على ان القمر لا يكون فى افق هذا القطر يقينا ٠ وقد السنين الاخيرة اختلاف فى مواسـم العبادات فى بلاد المسلمين ، فبلد صائم

مضح وبلد يصوم أهله يوم عرفة ولم يكن لمعهد الارصاد حيلة فى هذا الشأن اذ ان رأيه كان ولا يزال استشاريا بحتا تأخذ به دار الافتاء او لا تأخذ ، والامثلة على ذلك كثيرة ومحزنة » ٠

ولقد رفضت دار الافتاء ان تأخذ برأي مرصد حلوان فى شأن دخول رمضان لسنة 1393 هـ رغـم اتصالها به ٠

مبادرة الجزائر وأثـرها :

هذه الحالة المحزنة كان لا بد من مبادرة للخروج منها ، وعلاجها العـلاج الصحيح ، وكان للجزائر فضل السبق الى وضع تقويم قمرى اسلامى يجمع بين الحساب الفلكى الموثوق به ، من العلماء الموثوق بهم ، وبين الحكم الشرعى٠ ولم يكن ذلك طفرة ، وانما كان بعد دراســـة دقيقة وتوفيق بين النصوص الشرعية وقواعد ميلاد الهـــلال وامكان رؤيته ، وكان لهذه المبادرة من الجزائر هزة عنيفة أيقظت الكثيرين ، ولفتت انتباههم ، وجعلتهم يهتمـــون بالموضوع ويطرحونه للتنفيذ ٠

صحة حساب الجزائر ودقته :

وقد برهنت الايام والمراصد والحاسبون على دقة حساب الجزائر وصحته منذ أول سنـــة وضعت فيه تقويمها القمرى ، وعملت به فى الصوم والافطار والمواسم والاعياد فقد جاء فى أول تقويم أصدرته أن أول يوم من رمضان لسنة 1392 هـ سيكون يوم الاثنين 9 أكتوبر 1972 م ، لان الهلال لا يمكن أن يرى فى سمائها مساء السبت 7 أكتوبر ، فلا يجوز أن يكون أول رمضان يـوم الاحد 8 أكتوبر ٠ وفى شهر شعبان 1392 هـ نشر ثلاثـــة من أعظم علماء العصـــر المصريين المختصين فى الفلك فى مجلة أزهرية بحثا لهم نقلته جريدة العلم المغربية أعلنوا فيه ما يوافـــق حساب علماء ومرصد الجزائر من أن هلال رمضان لا تمكن رؤيته فى جميع آفاق المنطقة التى يقع فيها معظم بلاد المسلمين ـ بما فى ذلك البلدان العربية ـ مساء يوم السبت 7 أكتوبر ، ويمكن ان يرى فيها مساء يوم الاحد 8 أكتوبر ٠ مثل هذا اطلعت عليه دار الافتاء فى القاهرة بلا شـــك ومـع ذلك فقد أعلنت عن بداية شهر رمضان يوم الاحد 8 أكتوبر بناء على رؤية يحيل الحساب الفلكى الموثوق به صحتها ٠

وفى السنة الماضية أعلن تقويمنا أن بداية شهر رمضـــــان ستكون يوم الجمعة 28 سبتمبر 1393 هـ وأعلن علماؤنا الموثوق بعلمهم وحسابهـم وديانتهم أن الهلال لا يمكن ان يرى مساء يوم الاربعاء 26 سبتمبر 1973 م لانه يغيب قبل مغيب الشمس ، فلا يرى الا مساء الخميس 27 سبتمبر وعليه يكون أول الشهر يوم الجمعة ٠

وفى 20 من سبتمبر نشر مرصد حلوان بالقاهرة ما يصدق هذا فى بلاغ مدقق هذا نصه :

أول رمضان 28 سبتمبر بالحساب الفلكى

تشيــر الحسابات الفلكية فى مرصد حلوان الى أن هلال رمضان سوف يولد فى الساعـة الرابعة والدقيقة 54 من بعد ظهر يوم الاربعاء القادم الموافق لـ 26 سبتمبر ويغـــرب فى جميع البلاد العربية والاسلامية التى تقع شمال خط عرض 20 جنوبا قبل غروب شمس ذلك اليوم بمدد تتراوح بين 5 و 27 دقيقة » • ثم قال : « وفى اليوم التالى الخميس 27 سبتمبر ستغرب الشمس قبل غروب الهلال فى القاهرة بحوالى 15 دقيقة وعلى ذلك يكون أول أيام شهر رمضان يوم الجمعة 28 سبتمبر •

وتشير الحسابات الفلكية الى أنه فى يـوم الاربعاء سيغرب القمر قبل الشمس فى القاهرة بمدة 21 دقيقة وفى مراكش 17 دقيقة وفى طرابلس 20 دقيقة وفى دمشـــق 22 دقيقة وفى بغداد 23 دقيقة وفى مكة 18 دقيقة اما يوم الخميس فان مدة مكوث الهلال بعد غروب الشمس فى القاهرة تبلغ 15 دقيقة وفى طرابلس 15 دقيقة وفى دمشق 12 دقيقة وفى بغداد 10 دقائق وفى الجزائر 11 دقيقة وفى الخرطوم 27 دقيقة • ويقوم مرصد حلوان اليوم بارسال تقرير عن ظروف رؤيه الهـــلال الى فضيلة مفتى الديار المصرية »

ويقول تقرير مرصد الجزائر ان الهلال يمكث فى آفاق الجزائر بعد غروب الشمس مســاء يوم الخميس هكذا : 9 دقائق فى العاصمة ، 12 دقيقة فى بسكرة ، 16 دقيقة فى غرداية وبشـار ، 19 دقيقة فى تيندوف ، 23 دقيقة فى تمنراست • وبمقتضى هذا البيان يكون أول رمضان لعـــام 1393 هـ هو يوم الجمعة 28 سبتمبر 1973 م • واما يوم الاربعاء فلا يمكن ان يرى لانه يغيب قبل الشمس بمدد أقلها 16 دقيقة فى تمنراست ، واطولها فى الجزائر بـ 22 دقيقة • فلا يكون أول رمضان يوم الخميس 27 سبتمبر بحال لاستحالة رؤية الهلال اذا غاب قبل الشمس !

وما توصل اليه العلماء الحاسبون بمرصد حلوان بالقاهرة ، وبمرصـــد ابى زريعـــة بالجزائر هو نفس ما توصل اليه المسلمون المقيمون بامريكا الشمالية المعتمدون على الحســاب اليقينى الدقيق • يقول الدكتور محمد عبد الرؤوف فى مجلة الوعي الاسلامى الكويتية عدد يناير 1974 م ما نصه :

« لقد ورد بالتقويم الذى أعده لنا حاسبـون قديرون على أسس صحيحة وبيانات دقيقة أن أول شهر رمضان 1393 هـ سيكون يوم الجمعة 28 سبتمبر 1973 م وان عيد الفطر سيكون يـــوم الاحد 28 أكتوبر من العام نفسه ، وقد رتب المسلمون امرهم على أســاس هذه المعلومات ••• وفجأة أذاع راديو القاهرة وسمعه بعض المسلمين ان الرؤيـــة ثبتت وان اليـــوم الخميس 27

سبتمبر أول شهر رمضان فضج الكثيرون واضطربوا ، ولم تكد تنقطع المكالمات التيليفونية الواردة من جميع انحاء امريكا استفسارا ... وحدث مثل ذلك واكثر منه لما سمع البعض اعلان رؤيـــة شوال فى مساء الخميس 25 أكتوبر وان العيد يوم الجمعة التالى اي قبل ما حدد بتقويمنا بيومين».

حق لهؤلاء المسلمين المغتربين ـ ولغيرهم وهم فى أرض الاسلام ـ ان يضجوا وأن يضطربوا ويحتجوا ويغضبوا ، فان هذه الرؤية لا يمكن اعتمادها ، ولا التعويل عليها ، لانها قد تمكنت منها التهمة . وقد قرر مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية فى القاهرة ان الرؤية لا تقبل اذا تمكنت منها التهمة ، وان مــن أسباب تمكـن التهمة فى الاخبار بها مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق بــه .

وقد رد العلماء قديما حديثا الرؤية المتهمة ، قال مالـــك ، وسحنون فى الشاهدين يريان وحدهما الهلال بالمصر الكبير فى حالة الصحو ويشهدان بالرؤية : انهما شاهدا سوء ، وحكم ابن السبكى برد الرؤية اذا خالفت الحساب الصحيح ، وقال الاستاذ الامـــام الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية فى كتابه : « ارشاد أهـــل الملة الى اثبات الاهلة » فى أسباب رد الرؤية ما نصه : « اذا دل الحساب على عدم امكان الرؤية واخـــــبر مخبر برؤيته فالخبر يحتمل الصدق والكذب ، والكذب يحتمل التعمد والغلط ولكل منهما أسباب لا تحصر فليس من الرشـــــد قبول الخبر المحتمل لذلك أو الشهادة به مع عـدم الامكان لان الشرع لا يأتى بالمستحيلات ... ».

ومما تقدم يتبين أن حسابنا دقيق موافق للشرع ، وللواقع وأعلن العلامة الاستاذ عبد الله ابن ابراهيم الانصارى رئيس لجنة التقويم الاسلامى ، وهو فقيه ، وفلكى حاسب ان رؤية هـــــلال رمضان لسنة 1393 هـ المزعومة باطلة ، مستحيلة علميا ، غير مقبولة وانه اخبر بذلك المسؤولين ، وأدى ما عليه من أمانة .

وقد لاحظ لنا كثير من المعترضين على استعمال الحساب الفلكى فى الصوم والافطار أن هذا الحساب لم يرفع الخلاف ، ودليل ذلك ان الجزائر وتونس كلتيهما تستعمل الحساب وتعتمده ، ولكن لم يمنع ذلك من وقوع الاختلاف فى موعد الصيام والافطار بينهما .

والجواب على ذلك أن تونس تعتبر الشهر الفلكى وتعتمده ، وهو يبتدىء بمفارقة القمـــــر للشمس ، وهو متقدم على الشهر بالرؤية بيوم أو يومين واعتمدت تونس ذلك بقرار معتمد على استشارة العلماء ، وأخذا بأقوال بعض الفقهاء كماصرح بذلك الاستاذ العلامة مصطفى كمال التارزى وبعد فتوى شرعية صادرة من مفتى الديار التونسية العلامة محمد الفاضل بن عاشور رحمـــه الله ، ومن والده الاستاذ الامام محمد الطاهر بن عاشور . وهذا الامام يقيس العلم بالهـــلال بواسطة الحساب الفلكى القطعى على العلم به بواسطة الرؤيـــة الحسية المتيقنة قياسا جليا ، وفى

بحث علمي له نص على ان العلم بوجود الهلال لــه طـــرق ثلاثة : الرؤية الحسية ، وهي تفيد العلم واتمام العدة ثلاثين يوما اذ لم يحدث ، ولا يمكن ان يحدث ان يزيد الشهر على ثلاثين ، والحساب الفلكى المقطوع به المبنى على قواعد صحيحة • وان الرؤية كانت قديما هي الطريق الوحيد للعلم ولذا قال (ص) (صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته) • فلمــا دل الحساب على علم يقيني بوجوده فلا مانع من قياسه قياسا جليا على الرؤية

اما الجزائر فانها جنحت الى ما حققه ابــن دقيق العيد ومن بعده أمثال الاستاذ الامـــام محمد رشيد رضا ، والمرحوم الاستاذ علال الفاسى من أن الحساب الذى نعتمده هو الذى يــدل على أن الهلال قد طلع من الافق على وجه يرى لولا وجود المانـــع مثلا • ولا نعتبر حقيقة الرؤية مشروطة • وبهذا وقع الجمع بين اعمال النص : (صـــوموا لرؤيتــه وافطروا لرؤيته) والعمل بالحساب القطعى • وفى الحقيقة والواقع لا يمكن بهذه الطريقة ألا يرى اذا ترصـــد للقطـــع بوجوده وامكان رؤيته ، فاذا لم ير فى مكان رىء فى غيره • بخلاف الاعتماد على الرؤية وحدها والاعراض التام عن مراعاة ما يقرره الحساب فانه يوقـــع فى مزالق ، وفضائح ، ومتاهات ، والواقع شاهد بذلك •

فلقد حدثنا فضيلة الشيخ محمد خاطر مفتى مصر اثناء اجتماعنا بالكويت أنه أعلن ابتداء شهر رمضان لسنة 1393 هـ بيوم الخميس 27 سبتمبر 1973 م اعتمادا على رؤيــة فى السعودية ، ورؤية فى الكويت ، ورؤية مستفيضة فى سوريا !ومع هذه الاستفاضة فان مقتضى ما قرره مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية ، وما صرح به فضيلــة الاستاذ الدكتور محمد الفحام شـــيخ الازهر سابقا ألا يعلن ما يخالف العلم قال مؤتمر مجمع البحوث فى القـــرار الاول « ••• فالرؤية هي الأساس لكن لا يعتمد عليها اذا تمكنت فيها التهـم تمكنا قويا » وقال فى القرار الثانى فى أسباب رد الخبر •

« ••• ومن هذه الاسباب مخالفة الحســاب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق به » • وقال الدكتور الفحام : « بناء على هذه القرارات سار العمل فى مصر على اعلان مبدا الصيـــام ونهايته بعد الاتصال » يعنى الاتصال بالمرصد والفلكيين الموثوق بهم كما فى نص القرار السادس من قرارات المؤتمر • ومجمع البحوث يعتبر عند كثير مجمع المجتهدين •

ولقد اتصل مرصد حلوان بدار الافتاء ، كما اعلن بلاغـــه المنشور فى الاهـــرام بتاريخ 1973/9/20 م •

قد يكبر بعض الناس رد الشهادة ، وخصوصا اذا استفاضت • ولكن قبول شهادة دل العلم على كذبها أعظم وأكبر ، كيف اذا شهدت جماعــة بوقوع مستحيل عادى : أنهم رأوا مالا وجود له يقينا ، رأوا فى الافق هلالا قد شبع « نوما ! » وغاب منذ أكثر من نصف ساعة •

الشيخ بخيت مفتى الديار المصرية يبرر ردها :

يقول الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية وأحد أعلام الاسلام : « ان شـــرط المشهود به الامكان ، فاذا دل الحساب على عدم امكان الرؤية واخبر مخبر برؤينها فالخبر يحتمل الصدق والكذب ، والكذب يحتمل التعمد والغلط ولكل منهما أسباب لا تنحصر ، فليس من الرشد قبول الخبر المحتمل لذلك أو الشهادة به مع عـدم الامكان لان الشرع لا ياتى بالمستحيلات وهذه المسألة لم نجدها مسطورة فتفقهنا فيها ورأينا فيها عدم قبول الشهادة · وانما سكت الفقهاء عنها لانها نادرة الوقوع ، ولما وقعت فى هذا الزمان احتجنا الى الكـلام فيها وقد رأينا من يوثق بفعله ودينه يغلط فى رؤية الهلال كثيرا · وسمعنا عـن بعض الجهال انه يقصد التدين بالشهادة بذلك ويعتقد ان له بذلك أجر من صام بقوله · وسمعنا عن بعض السفهاء انه يقصد بذلك ترويج تزكيته وثبوت عدالته ، وللناس اغراض مختلفة · فاذا سلمت البينة من هذه الامور كلها ، وسلم موضـع الهلال من الموانع ، واحلناها بدليل قام عندنا لم تقبل تلك الشهادة ، وحملناها على الغلط أو الكذب ولم نكن خارجين عن القانون الشرعى ، لان دلالة الحساب القطعى أو القريب من القطعى على عدم الامكان أقوى من الريبة ، والريبة موجبة لرد الشهادة · فاعتقادنا لعدم الامكـان كذلك أو أقوى · ومقصودنا القطع بردها » ·

هذا كلام واضح جدا ، صدر من امام عظيم من أئمة المسلمين · رضي عن سيرته وشهـد بنزاهته ، وعلو مكانته العلمية والدينية المتزمتون من الازهريين ، المحافظون والسلفيون المصلحون أمثال محمد عبده ، ورشيد رضا ، وابن باديس وغيرهم ، وقد أعلن أنه لما لم يجدها مسطورة تفقه فيها · ولكن ا .إنا قد تأخرنا بدل ان نتقدم ، وتقهقرنا عوض ان نثب · وزاد اختلافنا بعد ان تأكدت الدواعى لاتحادنا ·

أما الاتفاق على جعل مكة المكرمة هي المبدأ المكانى أي الدوران لليوم الشرعى ـ كما عبر عنه ابو العلا ـ أو للهلال الشرعى كما عبرت عنـه لجنة التقويم فقد راعينا فيه أن مكة تتوسـط البلاد التى أغلب سكانها مسلمون يقول الاستاذ عبد الحميد سماحة فى بحثه : « التقويم الهجرى » ما نصـه :

« ويلاحظ أن البلاد التى يزيد عدد سكانها من المسلمين عن 50 ٪ تقع فى مستطيل يحده خطا عرض 40 شمالا و 20 جنوبا ، وخطا طول 20 درجة غربا و 12 شرقا وتقع مكة فى وسـط هذا المستطيل · ولهذا اقترح البعض أن تقدر ظروف رؤية الهلال لمكة وحدها وتفرض النتائج على بقية الاقطار الاسلامية » ·

ان مكة بتوسطها هذا فى قلب العالم الذى تسكنه اكثرية اسلامية اذا ظهر الهــلال فى أفقها وشاهده من يرصده ورآه من يترقبه فلا بد ان يراه من يقع فى الغرب منها من المسلمين · ومــن النادر أن يرى فى الاقطار الواقعة بالغرب منها دون أن يــرى فيها ، وفى مثل هذه الحالة يمكن للعلماء التنبيه على ذلك لتداركه ·

ثم ان مكة هي أم القرى ، وقبلة المسلمين فى صلاتهم وموطن مناسكهم فى حجهم ، وعن قريب ان شاء الله يكون فيها مرصد فلكى حديث ، مجهز احسن تجهيز ، ويقوم بالحساب والرصد فيه أعظم علماء الحساب والرصد فى العالم الاسلامى · وهذا المرصــــد أمنية المسلمين اجمعين وتحقيق لبعض ما قرروه وأوصوا به من قبل ·

موقــف الجزائر أمــس واليــوم :

لقد كان مؤتمر وزراء الشــؤون الدينية والاسلامية والاوقاف المنعقد بالكويت قد قرر « تعميم المراصد الفلكية فى البلاد العربية والاسلامية توطئه لاعتماد الحســـــاب الفلكى الموثوق به فى تحديد أوائل الشهور القمرية » ·

وقرر « المبادرة الى تأليف اللجنة المشار اليها فى المادة الرابعة بحيث تنتهى من مهمتها قبل انعقاد المؤتمر الثانى للوزراء » ·

وقد أعلنت الجزائر ــ بلسان وزيرها الاخ مولود قاسم أنها ستقوم بتنظيم هذا المؤتمر الثانى على مستوى العالم الاسلامى بحيث تستدعى لحضــــوره وزراء الشــؤون الدينية والاسلامية والاوقاف لجميع الدول الاسلامية ، ويعرض عليهم عمل « لجنة التقويم » للمصادقة عليه ووضعه موضع التنفيذ ·

واننا ــ فى الجزائر ــ مع المسلمين ان اتفقوا على تقويم قمرى موحد قار ملــزم للجميع · وفى هذه الحالة نحن مستعدون لان نترك تقويمنا الخاص ، ونعمل بما اجمع عليه ·

أما اذا بقي الحال على ما هو عليه من فوضى واضطراب وحدف سببه الاعتماد ــ فقط ــ على الرؤية بالعين المجردة ولو خالفت العلم اليقينى ، وصادمت الواقع فاننا سنبقى محافظين على تقويمنا ملتزمين بالعمل به ، معتمدين عليه لانه يجمع بين الحكم الشــــرعى والحساب الفلكى الموثوق به ، وقد برهنت الايام على صدقه ودقته · والله الهادى الى سواء السبيل ·

قرارات وتوصيات المؤتمر الاسلامى العالمى
المنعقد فى كوالا لمبــور ـ ماليزيا ـ
من 21 الى 27 ـ أبريل عام 1969 م

أولا بداية شهرى رمضان وشــوال :

ان المؤتمر اذ يضع فى اعتباره اهمية متابعة العرف الجارى خلال العالم الاسلامى بالنسبة لتحديد بداية شهرى رمضان وشوال ·

واذ يضع تحت بصيرة احكام القرآن والسنة فى هذا الشــأن ·

كما يضع تحت بصره آراء الفقهاء القدامى والمحدثين فى مد جواز استخدام الحســاب الفلكى لاجل تقرير بداية هذين الشهرين ·

يوصى المؤتمر بما يلى :

١ ـ تتقرر بداية شهرى رمضان وشوال اساسا بالرؤية العيانية الحقيقية للهلال ·

ب : واذا تعذرت الرؤية لسبب من الاسباب فى بلد معين وجب أن يتخذ أساسا للتحديد تقريرات للرؤية العيانية الحقيقية فى بلد آخر يشترك مع البلد الذى تعذرت فيه الروية فى الليــل نفسه أو فى جــزء منه ·

ج : اذا تعذرت الرؤية للسببين السالفين وكان الحساب الفلكى يثبت امكان رؤية الهلال يباح الاعتماد على الحساب الفلكى ·

د ـ على حكومات الاقطار الاسلامية المختلفة أن تقيم هيئة من الخبراء لتحديد بداية شهرى رمضان وشوال بما يتفق والمبادىء السابقة ·

ويوصى المؤتمر ايضا باقامة جهات خاصة تتألف من علماء الدين وعلماء الكون المختصين تعينهم الحكومات المشاركة فى المؤتمر ، للعمل على اخراج تقويم قمرى اسلامى موحد ·

من مقررات وتوصيات مؤتمر وزراء الاوقاف والشؤون الاسلامية والدينية فى البلاد العربية حول العمل بالحساب الفلكى

الذى انعقد بتاريخ محرم عام 1393 هـ
الموافق شهر فبراير (شباط) عام 1973 م

4 ــ وجوب عمل تقويم قمرى بمعرفة لجنة معتمدة من الشريعة الاسلامية وعلماء الفلك تلتزم به الحكومات الاسلامية فى صومها وفطرها وفى تحديد مواسمها الدينية وفى تاريخها .



المراصد الفلكية وتحديد اوائل الشهور العربية
وتوحيد مبدا الصيـــام ونهايتــه
والاعيـــاد فى البـــلاد الاسلامية

نشرت مجلة (منبر الاسلام) التى يصدرها المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية فى مصـــــر بعددها الممتاز شهر رمضان 1392 هـ ـ اكتوبـــر1972 م ـ اسئلة متنوعة وجهت الى فضيلة الامام الاكبر الدكتور محمد محمد الفحام شيخ الجامع الازهر ليجيب عنها ، ومن بينها سؤالان فلكيان يتعلق احدهما بتحديد اوائـــل الشهور العربية ،وثانيهما بتوحيد مبدا الصيام والاعياد فى البلاد الاسلامية ، وقد اجاب فضيلته بما يلى :

السؤال الاول : لماذا لا تستطلع مصلحة الارصاد الجوية « الفلكية » هلال كل شهر هجـــرى مثل ما تفعل فى رمضان لان هناك مواسم دينية فى الشهور الاخرى كعاشوراء والمولد النبوى والاسراء ونصف شعبان والعيدين ؟

الطالب عبد المنعم مختار حامد زليخة
من نفيا مركز طنطا

الجواب : فى الشهور ذات المراسم الدينية يصـــــدر اعلان رسمى يحدد أوائل الشهور ‥ وعليك ان تتابع الاطلاع على الصحف لترى هذه الاعلانات ‥‥

السؤال الثانى : ورد فى الحديث (صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته) الخ ‥ والرؤية ـ كما يتبادر من الحديث ـ حسية وتقع بالعين المجردة او بوأسطة آلات الرصد ‥ فهل يمكن ان تفسر الرؤية هنا بمعنى تحكيم العقل والعلم واستخدام الحساب الفلكى دون الاعتماد على الرؤيـــة البصرية الا فى حالات الامكان ‥ ودون ان يكون هناك تعارض بين الدين والعلم وذلك حتى يكون فى الامكان توحيد اوائـــل الشهور العربية ليمكن الاحتفـــــال بالشعائر الدينية فى الــــوطن الاسلامى ؟

جواب الشيخ الازهر السابق د . محمد محمد الفحام نشرته مجلة منبر الاسلام فى عددها الممتاز رمضان 1392 هـ أكتوبر 1972 .

عدد كبير من القــراء ..

الجواب : ان موضوع توحيد مبدا الصيــام وبالتالى توحيد العيد فى البلاد الاســـــلامية موضوع مناقشة الفقهاء فى القرون الاولى ، كما ناقشه علماء مجمع البحوث الاســـــلامية فى السنوات الاخيرة ، وهم جميعا متفقون على انــه لا تعارض بين الدين والعلم ابدا ، فالدين نفسه هو الذى يدعو الى العلم . وفى مسالتنا هذه علق حديث الصــوم والافطار على رؤية الهــلال ، فان لم تمكن الرؤية بالبصر لجأنا الى العلم ، وما الارشاد الى اكمال عدة شعبان ثلاثين يومــا الا توجيه لاحترام الحساب الذى هو مظهر مـــن مظاهر العلم .. والراصدون للهلال يستعينون بمصلحة الارصاد فى اجهزتها وامكانيتها الاخــرى .

وقد القى فضيلة الاستاذ الشيخ محمد على السايس عضو مجمع البحوث الاسلامية بحثا مستفيضا فى هذا الموضوع امام اعضاء المؤتمر السنوى وانتهى المؤتمر الى اصدار القرارات الآتيـــة :

1 ــ ان الرؤية هي الاصل فى معرفة دخول اى شهر قمرى ، كما يدل عليه الحديث الشريف فالرؤية هي الاساس لكن لا يعتمد عليها اذا تمكنت فيها التهم تمكنا قـــويا .

2 ــ يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة كما يكون بخبر الواحد ذكــرا كان او انثى اذا لم تتمكن التهمـــــة فى اخباره بسبب من الاسباب ، ومن هذه الاسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق به .

3 ــ خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، اما الزام الكافة فلا يكون الا بعد ثبوت الرؤيـــة عند من خصصته الدولة الاسلامية للنظر فى ذلك .

4 ــ يعتمد على الحساب فى اثبات دخــول الشهر اذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

5 ــ يرى المؤتمر انه لا عبرة باختلاف المطالع وان تباعدت الاقاليم متى كانت مشتركة فى جزء من هذه الليلة .

6 ــ يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الاسلامية ان يكون فى كل اقليم اســــلامى هيئة اسلامية يناط بها اثبات الشهور القمرية مع مراعاة اتصال بعضها ببعض والاتصال بالمرصـــد والفلكيين الموثوق بهم .

وبناء على هذه القرارات سار العمل فى مصر على اعلان مبدا الصيام ونهايته بعد الاتصال بالدول الاخـــرى .

هذا واود أن يتنبه المسلمون الى ان هناك عوامـــــل اخرى لها اهميتها البالغة ولها اثرها القوى فى وحدة الامة الاسلامية ، من اهمها توحيد التشــــــريع والقضاء والنظـم الدستورية والاقتصادية والثقافية على اساس من الدين الذى يدينون به جميعا ، فان عدم توحيد هذه الامور وغيرها هو الذى باعد بين المسلمين وجعلهم نهبا لغيرهم من الدول وجعـــل رابطتهم مفككة ٠ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البيهقى عنه اذ يقول : (٠٠٠ ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله الا سلط عليهم عدو من غيرهم فأخذ بعض مـــا فى ايديهم ومـــا لم يحكـم ائمتهم بكتاب الله الا جعل بأسهم بينهم) ٠



اول رمضـــــان
28 سبتمبـــر بالحســـاب الفلـــكى

تشير الحسابات الفلكية فى مرصد حلوان الى أن هلال رمضان سوف يولد فى الساعـــة الرابعة والدقيقة 54 من بعد ظهر يوم الاربعاء القادم الموافق 26 سبتمبر ويغرب فى جميع البلاد العربية والاسلامية التى تقع شمال خط عـــرض 20 درجة جنوبا قبل غروب شمس ذلك اليـــوم بمدد تتراوح بين 5 و 27 دقيقة اما البـــلاد التى تقـــع جنـــوب ذلك الخط مثل مدغشقر وجنوب افريقيا فسوف يغرب الهلال بعد غروب الشمس بحوالى 15 دقيقـــة .

وفى اليوم التالى الخميس 27 سبتمبر ـ ستغرب الشمس قبل غروب الهلال فى القاهـــرة بحوالى 15 دقيقة وعلى ذلك يكون أول أيام شهر رمضان هو يوم الجمعة 27 سبتمبر .

وتشير الحسابات الفلكية الى انه فى يـوم الاربعاء سيغرب القمر قبل الشمس فى القاهرة بمدة 21 دقيقة ، وفى مراكش 17 دقيقة ، وفى طرابلس 20 دقيقة ، وفى دمشق 22 دقيقة ، وفى بغداد 23 وفى مكة 18 دقيقة .

أما يوم الخميس فان مدة مكوث القمر بعد غروب الشمس فى القاهرة فتبلغ 15 دقيقة وفى طرابلس 15 دقيقة وفى دمشق 12 دقيقة وفى بغداد 10 دقائق وفى الجزائر 11 دقيقة وفى الخرطوم 27 دقيقة .

ويقوم مرصد حلوان اليوم بارسال تقرير عن ظروف رؤية الهـــلال الى فضيلة مفتى الديار المصـــــرية .

جريدة الاهرام عدد 31695 يوم الخميس 23 شعبان 1393 هـ ـ 1973/7/20

حول توحيد التقويم الهجرى
تحديد بداية شهر رمضان لعام 1392 هـ

بحث لثلاثة من الاساتذة الفلكيين المصريين نشرته مجلة منبر الاسلام الازهرية ونقلته جريدة العلم المغربية فى شعبان 1392 هـ

تقابلنا دائما مشكلة تحديد أوائل الشهور الهجرية وتشتد هذه المشكلة باقتراب شهر رمضان المعظم والاعياد .

والى الآن لم تجتمع كلمة المسلمين على طريقة ثابتة نستطيع على ضوئها توحيد التقويم الهجرى والوصول الى نهاية لذلك الاختلاف غير المقصود فى بداية الشهور العربية .

ولا بد لنا كى نقوم بذلك ان نؤمن بالحساب الفلكى قاعدة للوصول الى ما نريد وان نضع له الشروط الشرعية الواجب اتباعها والتى يجب ان نلتزم بها .

وقد يصر البعض على مجرد المشاهدة بـــالعين اساسا لتحديد بداية الشهر وعندئذ نعتقد ان هذا الاصرار لا توجبه ولا تقره كلمة (رؤية) فالرؤية تتم عن طريق الحواس واحكام العقـــل والعلم . ويكفى ان مجرد الرؤية بالعين لا تـؤدىالى توحيد التقويم بأية حال كما انه يتعذر عمـل اى تقويم فى بداية العام . وهذه مشكلة يـجبان نتغلب عليها فى عصر العلم ما دمنا نســلك طريقا قويما اقره الدين .

ولنا ان نستعين بالمشاهدة للتأكد متى كان ذلك ممكنا . ولكن كثيرا ما لا نستطيع تحقيق الرؤية بالمشاهدة فى الافق الغربى لعدة اسباب .

ولنلق الآن نظرة سريعة حول حركة القمر والارض حتى نتعرف على كيفيـة بدايـة الشهر العربى :

من المعروف ان الارض تدور حول الشمس فى مدار بيضاوى ، وتكمل دورتها فى عـــام ميلادى طوله 2425 ، 365 يوما بينما يدور القمـــرحول الارض مرة كل 32 ، 27 يوما . ولما كـانت الارض تدور حول نفسها مرة كل يوم وتســير فىفلكها حول الشمس فان على القمر ان يدور فترة اضافية تقدر بحوالى 21 , 2 يوما حتى يصل الىفوق نفس المكان من الكرة الارضية . وعـلى ذلك يبلغ طول الشهر القمرى 53 ، 29 يوما . ومعـنىذلك انه اذا اعتبرنا طول الشهر 29 يوما فسوف تتراكم الكسور المتبقية حتى تبلغ يوما كاملا فيكونهناك شهر طوله ثلاثون يوما . . . وهكذا .

ونرى القمر اثناء دورانه حول الارض ، نتيجة لانعكاس ضوء الشمس عليه اى ان رؤيتنـا للقمر ممكنة الا اذا لم يصلنا ضوء الانعكاس امالوقوع القمر فى منطقة ظل الارض كلية فى اثناء الخسوف , او لوجوده بيننا وبين الشمس ، وفـىالوضع الاخير تتجه الاشعة المنعكسة على القمـر الى اتجاه مضاد لاتجاهنا وهذا يحدث فى مرحلةاللحاق ، والزحزحة البسيطة للقمر عن هـــذا الوضع تعرف الانسلاخ او ميلاد القمر وتعتمـدبعد ذلك رؤيتنا للهلال الوليد على عوامل كثيرة أهمها :

1) المسافة الزاوية بين الشمس والقمر عندالارض ، وتلك تحدد مساحة الجزء المضىء من سطح الارض وبالتالى شدة الضوء الذى يصلنا منـــهواطواره المختلفة وتعتمد هذه الزاوية على عمـــر القمر اساسا اى الفترة المنقضية بعد انسلاخـهعن الشمس وقد يصل هذا الزمن الى 24 ساعـة اذا ولد الهلال مباشرة بعد غروب شمس اليـومالسابق وهى عادة أقل من ذلك .

2) الفترة الزمنية التى يمكثها القمر فوق الافق بعد غروب الشمس وتعتمد هذه الفترة على الزاوية بين مدارى القمر والارض والتى يتراجع بين حوالى خمس درجات بالسالب والموجب أى على تاريخ اليوم ، وكذلك تعتمد على خطى عرض وطول مكان المشاهد ·

3) شدة اضاءة الافق الغربى بالنسبة للجزء المضىء من القمر وهذا يعتمد على تاريخ اليوم من السنة الميلادية وعلى خطى عرض وطول مكان المشاهد ·

4) خلو الافق الغربى مما يمنع الرؤية من السحب والشوائب العالقة فى الجو ·

ولعل العامل الاخير وهو عامل السحب ليس اصعبها فمن الممكن هذه الايام باستخدام الطائرات للارتفاع الى ما فوق منطقة السحب ·

تلخص من ذلك الى أن الحساب الفلكى يتطلب فقط تحديد لحظة انسلاخ القمر عن الشمس فاذا وقع ذلك قبل غروب الشمس وغرب الهلال بعد غروب الشمس بدأ الشهر العربى فى اليوم التالى ·

ومن مستلزمات الرصد السليم اكساب القائمين به خبرة معينة من استعمال الآلات وتحديد المواقع وتمييز الهلال حتى يؤدوا عملهم على اتم وجه · ونحن بصدد اجراء بعض البحوث عن الظروف المصاحبة لرؤية الهلال فى جامعة القاهرة حتى يقف فقهاء المسلمين على الحقائق العلمية فى هذا ·

ونظرا لقرب حلول شهر رمضان فقد قمنا بحساب اليوم ، بعد الانسلاخ الذى يغرب فيه القمر بعد غروب الشمس والفرق الزمنى بين غروبيهما وذلك للمنطقة التى تقع فيها البلاد الاسلامية من غرب موريطانيا غربا حتى شرق اندونيسيا شرقا ومن شمال تركيا شمالا حتى جزيرة مدغشقر جنوبا وذلك على الحساب الالكترونى وقسمنا هذه المنطقة فى الرسم الى مربعات طول ضلع كل منها خمس درجات ودونا فى بعض اركانها وعلى مواقع المدن الهامة الفترات التى يمكثها الهلال فى الافق الغربى بعد غروب الشمس · وبذلك انقسمت الخريطة الى ثلاث مناطق مميزة فى المنطقة السفلى المظللة بخطين متقاطعين يرى الهلال يوم السبت 7 أكتوبر وفى المنطقة الوسطى المظللة بخط واحد مائل يرى الهلال فى يوم الاحد الموافق 8 أكتوبر ولا يمكن رؤيته فى هذه المنطقة فى يوم 7 أكتوبر أما فى المنطقة العليا غير المظللة فلا يرى الهلال قبل يوم الاثنين الموافق 9 أكتوبر ·

وجدير بالذكر ان المنطقة السفلى تضم بعض بلاد المسلمين مثل دار السلام وجزيرة مدغشقر وغانا وغينيا وليبيريا ، ويمكث الهلال فى مدينةتاناناريف عاصمة مدغشقر لمدة ثمان دقائق ،

بعد غروب شمس يوم 7 أكتوبر وفى جنوبالجزيرة يمكث عشر دقائق ، اما المنطقة الوسطى فهى تضم أغلب بلاد المسلمين بحق ونظرا لأنـه‌تتساوى بلاد المسلمين فى شان الرؤية فيصبح من المجزوم به أن أول رمضان المكرم هو يوم الاحدالموافق الثامن من أكتوبر ما لم يتفق الفقها، عـلى ضرورة اعتبار بلد معين أو منطقة معينة أو ظروفـزمنية معينة يقتصر عليها الحساب ،

وربما كان اجتماع رأى الفقها، على تحديدمكان أو منطقة معينة أو مواصفات معينة للمشاهد من حيث القوة البصرية مخرجا له وجاهته ودعامته‌من حيث تفادى المشاكل التى تنجم عن التفسيرات المتضاربة عن رؤية الهلال وعن بدايـة رمضانوأيام الاعياد مما سبب مشاكل دينية واقتصادية واجتماعية ما اغنى الاسلام والمسلمين عنها ،



انشاء مرصد فلكى اسلامى بالسعودية

لضبط التوقيت علميا ، واعتماده من الشعوب الاسلامية

اجتماع علماء مختصين لدراسة الموضوع

كان مؤتمر وزراء الاوقاف والشؤون الدينية المنعقد بالكويت فى فترة 23 ـ 28 محرم من هذه السنة (26 فيفرى 3 مارس 1973 م) قد قـــرر « وجوب عمل تقويم قمرى بمعرفة لجنة معتمدة من فقهاء الشـــريعة وعلمـــاء الفلك تلتزم به الحكومات الاسلامية فى صومها وفطرها » ، وأنه « توطئة لاعتماد الحساب الفلكى الموثوق به فى تحديد اوائل الشهور القمرية يقرر المؤتمر تعميم المراصد الفلكية فى البلاد العربية والاسلامية » .

ويظهر ان السعودية ستكون أول دولة اسلامية تنفذ قرار تعميم المراصد فقد دعت رابطة العالم الاسلامى الى عقد اجتماعات بمكة يحضرها علمـــاء الفلـــك من المسلمين وبعض علماء الشريعة من اعضائها بعد ان تلقت من جلالة الملك فيصل موافقة على ملتمسها بـ « السماح لها بالبحث فى امكانية انشاء مرصد اسلامى فى المملكة يتولى ضبط التوقيت علميا ويكون معتمدا من جميع الشعوب الاسلامية بدلا من خط غرنيتش باعتبار أن مكـــة هي رمز التوجيه الروحى للمسلمين وقبلتهم اينما كانوا » ٠

وقد اتصلنا بالدعوة لحضور هذه الاجتماعات اواخر شعبان ، وانعقدت فى الفترة ما بين 24 ـ 27 من رمضان بمقر الامانة العامة للرابطة بمكة ، وحضرها ممثلون عن السعودية (جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، جامعة الرياض ، كلية البترول والمعادن بالظهران) وعن الجزائر ، وعن اندونيسيا ، وعن تركيا (وهذه دول اسلامية تملك مراصد فلكية ٠ واعتذر عن الحضور ممثلـوا جامعة الازهر والقاهرة ، وجامعة دمشق بسبـب ظروف الحـــــرب ٠ كما حضرها من علماء الشريعة اعضاء فى رابطة العالم الاسلامى : وأنتخب لرئاستها الدكتور محمد عبده يمانى مدير جامعة الملك عبد العزيز بمكة وللنيابة الدكتـــوربكر مدير كلية البترول والمعادن بالظهران ٠

والقى تقرير الامانة العامة الاستاذ الشيـخ محمد صالح القزاز ، واعـــرب فيه عن حيرة المسلمين أمام الصعوبات التى ما يزالون يجدونها فى توحيد وتحرير تواريخ مناسباتهم الدينية التى تتوقف عليها ممارسة عباداتهم كالصيام والافطار ٠ وان على العلماء ان يجدوا لذلك حلا ٠ وان الامر يتطلب انشاء مرصد اسلامى يساعد بالوسائل العلمية الحديثة على تحرى رؤية الهلال ٠ وان الرابطة ـ اهتماما منها بذلك ـ استأذنت جلالة الملك ان يسمح لها بانشاء هذا المرصد فاذن ولهذا اتصلنا بعلماء الفلك واهل المراصد المسلمين لنشرع فى التنفيذ ٠٠ واثناء كلمات فضيلـة الاستاذ القزاز ساق آيـات قرآنية تدل بفحواها على اعتماد حساب القمر والشمس كقوله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصـــرة لتعلموا عدد السنين والحساب ٠٠٠ وفى تقرير كلية البترول والمعادن الذى القاه الدكتور اسامة برهن على ان الحاجة ماسة لتوحيد طريق التاريخ القمرى بين الدول الاسلامية فى عصــــرنا ، ٠٠ وحيث ان تقويمنا القمرى يعتمد على حركات الشمس والقمر الظاهرية بالنسبة للارض فانه من السهل استخدام ما هو ثابت ومعروف من القوانين والمعادلات التى تعرف حركات هذه النجوم السماوية » ٠

ثم ذكر ان هذا ليس بجديد على الاسلام والمسلمين فقد استعملوه فى تعيين القبلة ، وتحقيق الزوال واول الاشهر القمرية ٠٠٠ وهكذا كانت تراعـــى فيه الفائدة العلمية المتعلقة بالحياة او بالشؤون الدينية ، من تغيير الوقت او مراعاة السير فى البحار وقطـــع الفيافى ، وأن المسلمين

احتكروا هذا النشاط العلمى لمدة تسعة قرون متواصلة · ولم يشعر المسلمون الاوائل بغضاضة فى استخدام الحسابات الرياضية لتأييد المشاهدات الفلكية لانهم كانوا مهتدين بهدى القرآن الذى من آياته قوله سبحانه « فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » وقولـــه « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلـق الله ذلك الا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون » · ثم ذكر مقدار انصراف المسلمين وتخلفهم اليوم عن الامم المتقدمة من امم القرن فقال : « فى العالم اليوم 360 مرصدا فلكيا عاملا كلها تابعـــة لغير المسلمين ما عدا ستة فقط تتبع دولا اســلامية هي : تركيا ، مصر ، الجزائر ، اندونيسيا ··· فما أحوجنا كمسلمين الى التقدم فى هذا المجال »·

وفى هذا التقرير بين الدكتور أسامة الفـرق بين حساب الهلال الفلكى الجديد ، وبين تحديد الهلال الشرعى تبعا لشروط وجوده فى الافق بعد الغروب وعمره من الناحية الضوئية ·

ثم بين أن انسب الاماكن لعمليات الرصـــد يوجد قرب الطائف لتوفر الشروط وقربها من مكة · واثر الجلسة الاولى شكلت لجنة فنية من المختصين فعقدت اجتماعات وبحثت الموضوع من جميع اطرافه · وانتهت الاجتماعات بقرارات أهمها تشكيل لجنة فنية دائمة لانشاء هذا المرصد الاسلامى بالمملكة يشارك فيها علماء مختصون من اطراف العالم الاســـلامى عرفوا بكفاءتهم ولاختيار مكـــان لاقامته على ضـــوء الدراسات الفنية بالتعاون بين رابطة العالم الاســـلامى وكلية البترول والمعادن ، والدعوة الى ايجاد وتوفير لقاءات مماثلة بين علماء الفلـــك المسلمين لتبادل الخبرات والاستشارات · وشكر رابطة العالم الاســلامى على مجهوداتها فى الموضوع وجلالة الملك فيصل على اذنه ورعايته والسماح لها باقامته ·



رأى الشيخ اسماعيل بن موسى الجيطالى

من حاشية الورجلانى على كتاب « القواعد » للشيخ اسماعيل بن موسى الجيطالى الاباضى

... والمعمول به عند أصحابنا فى يـــومالشك الامساك عن الطعام حتى ينتشـــر الناس وترجع الرعاة فان صح انه من رمضان اتمـــوهوالا افطروا وعلى الجميع الاعادة من افطره ومن صامه لانه صامه على غير نية والله اعلم .

الفصل الاول : فى أحد سببى موجب الصيام وهو الرؤية للهلال لقوله عليه الســـــلام ، « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غـم عليكم فاقدروا له » فاجمع العلماء على ان الشهـــر العربى يكون تسعا وعشرين يوما ويكون ثلاثين لثبـــــوت ذلك فى الحديث . واجمعوا على ان الاعتبار فى تحديد طرفى رمضان انما هو الرؤية للحديث المتقدم وأعنى بالرؤية اول ظهور القمر بعد السرار . واختلفوا فى الحكم اذا غم الشهر ولم تكن الرؤية فى وقتها المعتبر لها فذهـــب جمهور العلماء الى أن الحكم فى ذلك اكمال العدة ثلاثين يوما . فان كان الذى غم هـــلال أول الشهر عد الشهر الذى قبله ثلاثين وكان أول رمضان الحادى والثلاثين . وان كان الذى غـــم هلال آخر الشهر صام الناس ثلاثين يوما . الا ما روي عن ابن عمر انه ذهـــب الى أنه ان كان المغمى هلال أول الشهر صام الناس اليوم المعروف بيوم الشك والله اعلم . وروي عن مطرف بن الشجرى (الصواب بن الشخير) وكان من التابعين انه اذا غم الهلال اعتبر الحساب بســـير الشمس والقمر . ومثلــه روي عن الشافعى انـــه قال : من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر ثم تبين له من قبل ذلك أن الهلال مرئى وقد غم فانه يعتقد الصوم ويجزيه . وسبب الاختلاف الاحتمال الذى فى قوله عليه السلام فان غم عليكم فاقدروا فذهب اكثـر العلماء الى أن تأويله اكمال العدة ثلاثين يوما ، وذهب آخرون الى ان معناه التقدير بالحساب النجومى ، ومنهم من رأى أن معناه ان يصبح المرء صائما وهو مذهـب ابن عمر كما قدمنا فيما روي عنه واللـــــه أعلم . وكان جابر بن زيد والحسن اذا غم اصبحا مفطرين .

الحاجة الى تقويم هجرى موجه
يكون عليه عمل المسلمين فى الارض جميعا (1)

د . محمد عبد الرؤوف

فى اليوم الذى يطل فيه هلال المحرم ، يبشر بميلاد العام الهجرى الجديد ، ندعو البارى تعالى الذى قدر لنا فى شهر رمضان من العام المنصرم انتصارات تاريخية على أخبث عدو عرفه الناس ، أن يبشرنا فى هذا العام الجديد بمزيد من النصر والتأييد والأمـــن والفـــلاح والرخاء ، ونسأله سبحانه أن يبـــارك وحـــدة عروبتنا الاسلاميـــة ويجعلها بداية لمولد دولة اسلامية موحدة يخشى بأسها ويحسب حسابها .

---

1) عن مجلة الوعى الاسلامى ، السنة العاشرة ، العدد 109 ، الصادرة فى محرم 94 هـ — 25 يناير 74 م

أنتهز هذه المناسبة لأشرح لاخواننا فى الشرق الاسلامى عن طريق هذه المجلة المباركة مدى حاجة اخوانهم الذين يعيشون فى العالم العربى لتقويم هجرى موحد ، يعد وينشر لأعوام سابقة كي يرتبوا حياتهم وأعمالهم ونشاطهم الاسلامى على ضوئه دون شك واضطراب ، ودون انتظار حتى آخر لحظة كي يسمعوا بالحكم بثبوت الرؤية فى بلد آخر ـ ثم يقال لهم ان شهر الصوم قد بدأ ، أو أن عيد الفطر يحتفل به بعد سويعات مما لا يتفق مع نظام الحياة فى هذه البلاد التى لا يزال الاسلام فيها غريبا .

تتفضل الادارة العامة للحساب المساحى والارصاد بالقاهرة فتعد التقويم الاسلامى لكل عام وتبعثه للمراكز الاسلامية الكبرى ، وفى مقدمتها المركز الاسلامى بواشنطن ، وذلك على حسب التوقيت الزمنى للمدينة التى يوجد بها المركز الاسلامى ، ويبين فى هذا التقويم التواريخ والأعياد الاسلامية على طول العام بالمقارنة للتواريخ الشمسية ، كما يشتمل على قوائم لمواعيد الصلاة اليومية ، والمسلمون يدينون بالفضل والشكر الجزيل للسيد مدير الادارة المذكورة ومعاونيه الكرام ، فان اعداد هذه القوائم يتطلب عمليات حسابية ومجهودات مضنية ومراجعات دقيقة .

وفور وصول التقويم الينا يقوم المركز بنقل هذه القوائم الى اللغة الانجليزية واعدادها للطبع بكيفية تتناسب مع الحاجة المحلية ثم يطبع آلاف النسخ من التقويم ويوزعها قبل عيد الهجرة على المسلمين فى شتى النواحى بأمريكا الشمالية .

وبوصول التقويم ليد المسلمين ، يقفون على تواريخ أعيادهم ومواسمهم الدينية ، فيقيدونها فى مفكراتهم ، ويرتبون على أساسها مواعيد اجازاتهم ، وقد يتقدم من يحتاج منهم الى رئيس الشركة أو المصلحة التى يعمل بها بطلب اجازة أو اجازات من العمل فى هذه التواريخ ليتيسر لهم ولعائلاتهم الاشتراك فى النشاط الاسلامى فى هذه الايام .

وليس من المستحسن أن ينتظر الموظف فى شك الى آخر لحظة متلقيا الاخبار حتى يسمع فى احدى الامسيات أن شهر رمضان يبدأ الليلة فينوى الصيام . أو أن عيد الفطر سيكون غدا فيتخلف عن عمله فى صباح اليوم التالى ليكون مع اخوانه المسلمين ثم يعتذر لرؤسائه فى العمل فى اليوم الذى يليه ، فمثل هذا يؤثر على علاقته مع الشركة أو المصلحة التى يعمل بها ، وقد يؤدى

الى طرده وحرمانه من مورد رزقه ، كما أنه لا شك أن ذلك ليس فى صالح العمل نفسه • وفوق هذا فقد لا يتيسر لكثير من أعضاء الجالية الاسلامية سماع النشرة من راديو خارجى أو من مدير أو زميل مسلم ، وبالتالى يفوتهم صوم اليوم أو الاشتراك فى يوم العيد •

والعطلات الرسمية هنا فى أمريكا منها ما هو مناسبات دينية مسيحية ومنها ما هو مناسبات وطنية ، وقد نشط اليهود وأصروا على المطالبة بحق اجازاتهم أيام أعيادهم ومواسمهم ، بالاضافة الى العطلات العامة ، دون خصم شىء من رواتبهم ، وقد حصلوا على ذلك ، بل ان بعض الولايات الامريكية مثل ولاية نيويورك تحتفل بالمناسبات الدينية اليهودية وتعطل فيها المصالح ودور الحكومة ، لذلك نشط بعض المسلمين من طلاب وموظفين وطالبوا المسئولين باعفائهم من العمل أو الدراسة أيام المواسم الدينية الاسلامية وقد ظفر بعضهم بهذا الحق ، وبدأت بعض هذه المصالح والجامعات تكتب لنا تطلب قوائم بالمواسم الاسلامية لعدد من السنين مقدما ، وقد طلبت منا جامعة « هارفرد » المشهورة أن أبعث لها بتقويم اسلامى للسنوات العشرة القادمة كما أن عددا من دور النشر التى تعنى بنشر التقاويم لمختلف الأديان طلبت منا تزويدها بهذه التقاويم ، وهذا لديهم شىء مألوف فان للمسيحيين واليهود تقاويم جاهزة لعدد كثير من السنوات المقبلة لا يتطرق لتواريخها الشك ولا تتعرض للاختلاف ، وينظم رجال الاعمال رحلاتهم واجازاتهم على أساس هذه التقاويم فى وقت مبكر ، ويتطلع المسلمون الذين يعيشون فى بلاد الغرب ليتيسر لهم مثل ذلك •

ومما يذكر بهذه المناسبة أيضا ان الكثير من الجمعيات والهيئات الاسلامية ليس لديها مسجد يتسع للعدد الكثير الذى يشترك فى المناسبات الكبرى مثل العيدين ، فلذلك يضطرون لاستئجار قاعات كبرى لهذا الغرض ، ولا يتيسر لهم هذا الاستئجار والتعاقد عليه الا اذا علموا بتواريخ هذه المناسبات مقدما بوقت كاف ، وتجد بعض هذه المؤسسات صعوبات جمة فى الحصول على اتفاق لحجز قاعة مناسبة • نظرا لأن هذه القاعات تحجز لأغراض أخرى فى مواعيد مبكرة جدا ، ومن ناحية أخرى يتغلغل النفوذ الصهيونى بين القائمين على هذه القاعات ففى مدينة نيويورك مثلا يبادر المركز الاسلامى فور وصول التقويم الجديد اليه ويعمل مبكرا على حجز قاعة كبيرة مناسبة ، ويلقى فى سبيل الحصول على ذلك عنتا كبيرا ، ولأضرب على ذلك مثلا ما حدث فى عيد الفطر عام 1388 هـ ، وتصادف أن كان أيضا أول شهر يناير سنة 1968 ، وكان اليهود لا يزالون

فى نشوة الفرح بالنصر الذى أحرزوه فى يونيوعام 1967 ، وبصعوبة شديدة استطعنا أن نوقع العقد لحجز قاعة فى احدى الفنادق الكبرى المعروفة قبل عيد الفطر ببضعة أشهر ، ودفعنا جزءا من الاجر مقدما ، وأبلغنا كالعادة أعضاء الجالية الاسلامية بالمنطقة عن مكان صلاة العيد وموعدها عن طريق آلاف المكاتيب الدورية التى نرسلها من وقت لآخر ، وبطرق أخرى ، ولكن قبل العيد بيومين فقد اتصل المسئول بالفندق تلفونيا بكاتب هذه السطور ليقول أن القاعة تلزمهم لشئ آخر فى اليوم نفسه وانه لذلك سوف لا يمكننا استعمالها فأسقط فى يدى حيث لم يكن يتيسر بحال فى هذا الوقت المتأخر أن نحصل على قاعة أخرى · وحتى لو استطعنا الحصول على مكان آخر ·· وهو أمر بعيد الاحتمال ·· فلم يكن لدينا من الوسائل ما نستطيع به افادة الألوف من أعضاء الجالية عن هذا التغير ، ولو رفعنا الامر الى القضاء ــ وأكثر قضاة المحاكم من العنصر المعادى ــ فلم يكن يحدينا شيئا ، والمحاكمة تستغرق طويلا ولم يبق على العيد الا يومان ! ولا نرى مقتضيا لسرد ما حدث بعد ذلك من تفاصيل مؤلمة ! !

والانتظار حتى يحكم بالرؤية فى بلد آخر فى شأنه أن يثير الخلافات ويؤدى الى الارتباكات ، خذ مثلا على ذلك ما حدث فى شهر رمضان من العام المنصرم 1393 هـ فلقد ورد بالتقويم الذى أعده لنا حاسبون قد يرون على أسس صحيحة ، وبيانات دقيقة ·· أن أول شهر رمضان 1393 سيكون يوم الجمعة 28 سبتمبر 1973 ، وان عيد الفطر سيكون يوم الاحد 28 أكتوبر من العام نفسه ، وقد رتب المسلمون أمرهم على أساس هذه المعلومات حيث وزعنا التقويم عليهم ، ثم ذكرناهم بقرب مقدم الشهر وبعثنا لهم بامساكيات وتأهب الجميع للصوم فى اليوم المذكور ، وفجأة أذاع راديو القاهرة ــ وسمعه بعض المسلمين ــ ان الرؤية تثبت وأن اليوم ــ الخميس 26 سبتمبر أول شهر رمضان ، فضج الكثيرون واضطربوا ولم تكد تنقطع المكالمات التلفونية الواردة من جميع أنحاء أمريكا استفسارا أو لوما أو احتجاجا ، وحدث مثل ذلك وأكثر منه لما سمع البعض اعلان رؤية شوال فى مساء الخميس 25 أكتوبر وان العيد لذلك يوم الجمعة التالى أى قبل ما حدد فى تقويمنا بيومين ؟ فعملت بعض الهيئات الاسلامية بما سمع مؤخرا فغيرت وبدلت · وابقى البعض الآخر على المواعيد السابقة لأسباب يصعب التغلب عليها ، والبعض صام وأفطر على حسب ما سمع من الخارج ، وظل البعض على ما نوى أول الامر ولكن قلوب الجميع غير مطمئنة وبالهم غير مستريح ·

ولما كان عيد الاضحى فى العاشر من ذى الحجة وتاريخه يعرف عند هلال الشهر فقد قررنا منذ عامين ان نؤجل اعلان تاريخ عرفة وعيد الاضحى حتى يرد لنا تاريخهما من المملكة العربية السعودية ليتفق عيدنا مع يوم الاضحية هناك ولايعترض اذا حدث اختلاف بين تقويمنا وما تثبته الرؤية بالبلد الحرام ، وخشية ان نصلى العيد يوم يقف الحجيج بعرفة، فاذا وقفنا على تاريخ يوم العيد أول الشهر يكون لدينا أكثر من اسبوع لابلاغ أعضاء الجاليات الاسلامية وعمل الترتيبات الاخرى من ضرب الخيام وترتيب تدفئتها وتثبيت آلات الصوت بها لتقى المصلين من البرد وأذى الامطار والثلوج المحتملة ، وكتبنا لشخصية اسلامية كبيرة مسئولة فى مكة المكرمة للتفضل بافادتنا – برقيا – فور الحكم بشأن رؤية هلال شوال ايجابا أو نفيا ، فوعدنا خيرا .

وقبيل شهر ذى الحجة اعددنا آلات المكاتيب وأغلقتها ، وأبقينا فراغا سيرا بالمكاتيب لتثبت به اسم يوم العيد وتاريخه فور وصول البرقية الينا ، وكنا قدرنا ان تصلنا فى الثلاثين من ذى القعدة الذى يحتمل ان يكون أول ذى الحجة ، ولكن لم يصلنا شىء لا فى اليوم الاول ولا فى اليوم الثانى أو الثالث ، وظللنا نلتقى الاستفسارات من كل جانب ونحن عاجزون عن الجواب حتى مساء اليوم الرابع !

ونظرا لما سبب لنا هذا من الحرج قررنا فى العام التالى أن نتصل تلفونيا فى مساء التاسع والعشرين من ذى القعدة بالشخصية الاسلامية المسؤولة بمكة المكرمة لنستفسر عما تم بشأن تحديد أول شهر ذى الحجة ، ولما كانت أمريكا تتأخر زمنيا عن مكة بأكثر من سبع ساعات حسبنا اننا لذا اتصلنا بسيادته بعد المغرب هنا سيكون الامر قد بت فيه هناك وعلم أول الشهر ويوم عرفة وعيد الاضحى على التأكيد ، ولكن الاسباب عدة لم يتيسر لنا الاتصال بسيادته الا فى اليوم الثالث من ذى الحجة حسابيا ، وكان سيادته كريما نبيلا بالخير ، ولكن كم كانت دهشتى عندما ذكر انهم لا يزالون فى انتظار الحكم بشأن الرؤية ، وانه بالتالى لا يعلم أول الشهر ولا يوم عرفة ولا يوم العيد ! ولكنه تفضل ووعد بافادتى برقيا عندما يتقرر الامر .

★ ★ ★

أسوق هذا كله لأشرح لك أيها القارىء الكريم مدى الاضطرابات والمتاعب التى يعانيها اخوانك المسلمين فى هذه الديار ، التى لا يزال الاسلام فيها غريبا – من جراء عدم الاتفاق على تقويم اسلامى موحد نخطط على ضوئه نشاطنا وأعمالنا فى أمن واطمئنان ، فهل يرضى السادة

العلماء والمسئولون ـ وهم أدرى النـــاس بالروح الاسلامية ـ أن يكون هذا حال المسلمين بين جيران من أهل الكتاب والصهيونيين والملاحدة ، وفيهم من يتربص بنـا الدوائر للطعن عـــلى ديننا واتهامه بالتأخر وعدم المبالاة بصالح الفرد ونظام الجماعة ؟ من ذى الحجة حسابيا ، وكان سيادته كريما نبيلا وديننا هو دين التوحيد ـ توحيد الاله وتوحيــد الكلمة وتوحيد الامــة ٠٠ ؟

لقد صدرت فى السنوات الاخيرة فتاوى مقتضاها انه اذا حكم بثبوت الرؤية فى بلـد وجب الصوم على من علم بذلك من المسلمين من سائـر الاقطار وهذا اتجاه طيب نحو الوحدة ومتفق مع ما جرى عليه كثير من المذاهب ، لكننى أقول مع جليل التقدير ان هذا لا يكفى ، فان توقف الامـر على حدوث الرؤية الفعلية والحكم بها أو اعلانها لا يدفع عنا الحرج ويحقق ما نرجو من تيسير ولا يعطينا الفرصة للتخطيط والاعداد المبنى على حكم مؤكد سابق لا تردد فيه ، فالتوقف على ثبوت الرؤية يعنى العلم بالحال الا بعد دخول الوقت ويجعـــل المسلم فى حيرة من أمره حتى آخر لحظة ٠

نعم خاطبنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه بأن نصوم لرؤيته ٠ وقد أخذ بهذا حرفية عندما كانت الأمة جماعة تعيش على السليقة والفطرة ولم ترق بعـــد وسائـــل المواصلات اللاسلكية والحسابات الفلكية كما هى عليه فى عصرنا الحاضر عصر الذرة والفضاء ولكـن كلام المصطفى صلوات الله عليه خالد وصالـح للعمل والتطبيق فى كل حال وكل زمان تطبيقا لا يؤدى الى الحرج والمشقة ، ولذلك قد يتساءل سائل فيقول : هل حصر الرسول طريق العلم ببدء الشهر على رؤية الهلال بشاهد أو شاهدين ؟ وهل يمنع ان يكون هناك طرق أخرى يعلم بها دخول الشهر كأن يثبت بالحساب المنضبط ، ان بالامكان رؤية الهلال حيث لا يقرب القمر الا بعد غروب الشمس ببضع دقائق ؟ وهل قوله صلوات الله عليه : « فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » قرانية حتمية عـلى ان الرؤية هى السبيل الشرعى الوحيد للعلم ببداية شهر الصوم ونهايته ؟ أم أن الرسول لما ذكر طريقا من طرق العلم ببدء الشهر وهو الرؤية نصحنا ماذا نصنع اذا كانت هى طريقنا الوحيد فلم ندر شأنها بسبب الحجاب ؟ ألا يجوز أن يكون ذلك مثلا من امثلة العجز عن العلم ببدء الشهر وبيان الحكم وهو اكمال الشهر ثلاثين فى حالات العجز كلها كاحتجـاب القمر وعدم معرفة الحساب ؟ واذا كان هذا حصرا مؤكدا فكيف قال السادة الشافعية قبل عصرنا هذا بقرون طويلة بأن على المنجم ومن صدقه أن يعمل بحسابه ؟ وكيف تتردد فى تصديق الحاسبين المعاصرين وقد تمكنوا من تنظيم رحلات ناجحة الى القمر مبنية على حساباتهم الدقيقة ومعرفتهم التامة

بحركات القمر ومنازله ؟ ولو حدث اى خلل فىعملياتهم الحسابيــة لأودى بحياة رواد الفضاء ولترتب عليها خسائر فادحة ·

ان العالم الذى يحسب ويخطط لرحــلاتالفضاء، ويحسب لأوقات المد والجزر ليرشد السفن التى تسير عبر المحيطات لأيسر ان يحسب ليعلممتى تمكن رؤية الهلال الجديد فى أول كل شهر ، بل لعل حسابه المنضبط أقوى دلالة مـن شهادة ثقة قد تخطىء عينه ، فيحسب السراب مـاء ، والخطأ فى الرؤية محتمل جدا نظرا للبعد الشاسعبين الرائى والمرئى ·

اننا معشر المسئولين عن العمل فى الحقـلالاسلامى بالبلاد الامريكية شعرنا بالحاجة الماسة لعمل تقويم موحد ، وتوعية المسلمين مـن اعضاءالجالية بالحاجة الى هذه الوحدة ، وتمهيد النفوس لعدم الفزع أو الاضطراب اذا ما سمعوا آخــرلحظة أن المسلمين فى قطر ما قد خالفوا لثبــوت الرؤية عندهم على غير ما أعلن فى تقويمنا ، ولذلكولأسباب أخرى هامة منها الحاجــة الى تنسيق الجهود والخدمات الاسلامية ، كونا فى العام الماضىمجلسا يضــم رؤساء المراكز الاســلامية ممن يحملون مؤهلات عاليــة مـن جامعات اســلاميةمعتبرة مثل جامعتى الازهـر والنجف ، وسمينا هذا المجلس : « مجلس الائمة بأمريكا الشمالية »ونأمل أن يحقق هذا المجلس اذا قدر له التوفيق ان شاء الله أعظم الخـدمات لصالح الاســـلاموالمسلمين · وقد عقـد المجلس عدة اجتماعات ، وكان مماّ أتمه بفضل الله تنظيم برامج الحلقاتالدراسية التى تعقد للمسلمين خاصة الناشئـة وحديثى العهد بالاسلام، كما عنى المجلس بدراسةموضوع توحيد التواريخ الاسلامية ، وقد نظـر فيه مرارا وقام باتصالات مع السادة المسئولينبالبلاد الاسلامية بهذا الشأن ، وأخيرا اتخــذ قرار بحـــل مؤقت وذلك بعمـــل تقويم خاصللمسلمين فى أمريكا الشمالية تحدد فيه تواريخ الأعيـاد والمناسبات وبـدء الصوم ونهايته عـلىحسب مطلع أحد البـلاد الامريكية والاسلامية · وذلك حتى يتم عمل تقويم حسابى تجمع عليــهالامة ويكون عليـــه عملها فيما اختلفت مصالح بـــلادهم ·

ولنعد الى موضوع الرؤية : فقد يظهـر أنرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : «صوموا لرؤيته» قد دلنا على النقطة الزمنية يبدأ بهـــاالشهر الاسلامى ، ألا وهى عندما تتأتى رؤيــة الهلال الجديد ، فليست هى منتصف الليل كمـاهو الحال فى بداية اليـــوم الشمسى والشـــهر

الشمسى وليست مطلع الفجر ولا وقت شروق الشمس أو زوالها ، ولكنها اللحظة التى تعقب غروب الشمس فى الليلة التى يتخلف فيها غروب القمر الجديد لاول مرة عن مغيب الشمس ويمكننا معرفة ذلك ، اما برؤية الهلال الجديد فعلا واما بالحساب الصحيح المعتمد ، وعليه هل يمكن أن يحتمل قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « صوموا لرؤيته » وجوب الصوم عند العلم بالحساب الصحيح المؤكد امكان الرؤية مطلقا ؟ ٠

والذى نقترحه ونرجو السادة العلماء المسؤولين النظر فيه هو ما يلى :

أولا : النظر فى امكان اعتبار الحساب الموثوق به لضبطه وأمانته أساسا للتقويم دون انتظار لثبوت الرؤية طالما أكد الحساب المؤكد أن الرؤية ممكنة اذا ارتفعت الموانع لتخلف غروب القمر الجديد عن غروب الشمس ٠

ثانيا : اختيار بلد اسلامى عريق كبلد الله الحرام يكون مطلعه أساسا لهذا التقويم الموحد ٠

ثالثا : العمل على جمع كلمة المسلمين حول هذا التقويم والاخذ به مهما تباعدت ديارهم أو تعددت مصالح أماكنهم ٠

والله على ما نقول وكيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير ٠



تقويم المرصد الفلكي الجزائر

(الجزائر)

المرصد الفلكي الجزائري
(بوزريعة - الجزائر)

تاريخ	ميلاد	استهلال	الجزائر		بسكرة		غرداية		بشار	
			غروب		غروب		غروب		غروب	
سنة 1975	ساعات دقائق	ساعات دقائق	شمس ت . ق	هلال ت . ق	شمس ت . ق	هلال ت . ق	شمس ت . ق	هلال ت . ق	شمس ت . ق	هلال ت . ق
75/01/12	10 و 20	23 و 02	51 ، 16	12 ، 17	45 , 16	05 , 17	59 ، 16	18 , 17	25 ، 17	43 ، 17
75/01/13	—	—	23 ، 16	09 ، 18	46 ، 16	01 ، 18	00 ، 17	13 ، 18	26 , 17	38 ، 18
75/02/11	05 و 17	16 و 16	23 ، 17	55 ، 17	15 ، 17	45 ، 17	26 ، 17	56 ، 17	51 ، 17	20 , 18
75/02/12	—	—	24 , 17	50 , 18	16 ، 17	40 ، 18	27 , 17	49 ، 18	52 ، 17	13 ، 19
75/03/12	23 و 47	—	52 ، 17	40 ، 17	42 ، 17	29 , 17	50 ، 17	38 , 17	15 ، 18	01 ، 18
75/03/13	—	11 و 44	53 ، 17	36 ، 18	43 ، 17	24 ، 18	51 ، 17	32 ، 18	16 , 18	54 ، 18
75/04/11	16 و 39	—	19 ، 18	23 ، 18	06 ، 18	09 ، 18	12 ، 18	16 , 18	35 ، 18	37 , 18
75/04/12	—	06 و 14	20 , 18	21 , 19	07 ، 18	07 ، 19	13 , 18	13 ، 19	36 ، 18	34 ، 19
75/05/11	07 و 05	21 و 12	45 ، 18	11 ، 19	30 , 18	55 , 18	34 ، 18	00 ، 19	56 ، 18	21 ، 19
75/05/12	—	—	46 ، 18	10 ، 20	31 ، 18	54 ، 19	35 ، 18	58 ، 19	57 , 18	18 ، 20
75/06/ 9	18 و 49	—	06 ، 19	56 ، 12	50 ، 18	40 , 18	53 ، 18	44 ، 18	14 ، 19	04 , 19
75/06/10	—	07 و 27	06 ، 19	50 , 19	50 ، 18	35 ، 19	53 ، 18	39 , 19	14 ، 19	59 ، 19
75/07/ 9	04 و 10	14 و 21	10 , 19	19 ، 19	54 ، 18	04 ، 19	57 , 18	09 ، 19	18 ، 19	30 ، 19
75/07/10	—	—	10 , 19	01 , 20	54 , 18	47 ، 19	57 , 18	54 ، 19	18 ، 19	15 ، 20
75/08/ 7	11 و 57	20 و 24	50 ، 18	30 ، 18	35 ، 18	21 ، 18	40 ، 18	28 ، 18	01 ، 19	50 , 18
75/08/ 8	—	—	49 ، 18	13 , 19	34 ، 18	01 , 19	39 ، 18	09 , 19	00 , 19	31 ، 19
75/09/ 5	19 و 19	—	12 ، 18	44 ، 17	00 ، 18	32 ، 17	06 ، 18	41 ، 17	28 ، 18	03 ، 18
75/09/ 6	—	04 و 07	10 , 18	21 ، 18	59 , 17	11 ، 19	05 , 18	21 ، 18	27 ، 18	44 ، 18
75/10/ 5	03 و 23	14 و 09	27 ، 17	31 ، 17	17 ، 17	22 ، 17	26 ، 17	33 ، 17	49 ، 17	58 , 17
75/10/ 6	—	—	25 ، 17	14 , 18	15 ، 17	06 , 18	25 ، 17	18 , 18	48 , 17	43 ، 18
75/11/ 3	13 و 05	—	50 ، 16	47 ، 16	42 ، 16	40 ، 16	54 ، 16	53 ، 16	17 ، 17	18 ، 17
75/11/ 4	—	01 و 19	49 , 16	37 ، 17	41 , 16	30 ، 17	53 , 16	44 ، 17	18 ، 17	09 ، 18
75/12/ 3	00 و 50	13 و 04	32 ، 16	11 ، 17	26 ، 16	05 , 17	40 ، 16	19 ، 17	05 ، 17	44 , 17
75/12/ 4	—	—	31 ، 16	11 , 12	26 ، 16	04 ، 18	40 ، 16	18 , 18	05 ، 17	43 ، 18
76/01/ 1	14 و 40	—	42 ، 16	55 ، 16	36 ، 16	48 ، 16	50 ، 16	02 ، 17	16 , 17	27 ، 17
76/02/ 2	—	01 و 25	43 , 16	56 ، 17	37 ، 16	49 , 17	51 ، 16	02 ، 18	17 ، 17	27 ، 18

ملاحظة : هذه المواقيت محررة بتوقيت ڤرينويتش (G.M.T.)

سنــة 1395 هـ ـ 76 ـ 1975 م

(مكـــــــة)

تينــــدوف غـروب شمس ت . ق	تينــــدوف غـروب هــلال ت . ق	تمنــــراست غـروب شمس ت . ق	تمنــــراست غـروب هــلال ت . ق	مكـة المكرمـة أيام	مكـة المكرمـة أشهر	شروق الشمس	غروب الشمس	غروب الهلال	الشهور العربية وموافقتها للتاريخ الافرنجي وعدد أيام كل شهر لعام 1395 هـ ـ سنة 1975 م		
56 , 17 57 ، 17	14 ، 18 08 ، 19	11 ، 17 12 ، 17	27 ، 17 19 ، 18	12 13	يناير	01 ، 4 01 ، 4	57 ، 14 58 , 14	07 ، 15 58 , 15	أول محرم	29	14 يناير
20 ، 18 21 ، 18	47 , 18 38 ، 19	31 ، 17 32 ، 17	55 ، 17 44 , 18	11 12	فبراير	55 , 3 54 ، 3	16 ، 15 17 ، 15	34 ، 15 23 ، 16	أول صفر	30	12 فبراير
39 , 18 40 ، 18	25 ، 18 16 ، 19	45 ، 17 46 , 17	30 ، 17 19 ، 18	12 13	مارس	33 ، 3 32 ، 3	29 ، 15 30 , 15	07 ، 15 57 , 15	أول ربيع 1	30	14 مارس
55 ، 18 56 , 18	57 , 18 52 ، 19	57 ، 17 58 ، 17	57 ، 17 50 , 18	11 12	ابريل	16 , 3 15 ، 3	39 ، 15 39 ، 15	32 ، 15 25 ، 16	أول ربيع 2	30	13 أبريل
12 ، 19 13 ، 19	37 ، 19 34 ، 20	09 ، 18 10 ، 18	32 ، 18 29 ، 19	11 12	مايو	45 ، 2 44 ، 2	50 ، 15 51 ، 15	07 ، 16 03 , 17	أولجادى 1	29	13 مايــو
28 ، 19 28 ، 19	20 , 19 15 ، 20	22 ، 18 22 ، 18	15 ، 18 10 , 19	9 10	يونيو	39 , 2 38 ، 2	02 , 16 02 , 16	49 ، 15 45 ، 16	أولجادى 2	29	11 يونيو
32 , 19 32 ، 19	47 ، 19 34 ، 20	27 , 18 27 , 18	44 ، 18 33 ، 19	9 10	يوليو	45 ، 2 45 ، 2	07 ، 16 07 ، 16	19 ، 16 09 , 17	أول رجب	30	10 يوليو
18 ، 19 18 ، 19	10 , 19 53 ، 19	16 ، 18 16 ، 18	11 ، 18 56 , 18	7 8	اغسطس	56 ، 2 56 ، 2	57 ، 15 57 ، 15	46 ، 15 34 ، 16	أول شعبان	29	9 أغسطس
50 , 18 49 ، 18	26 ، 18 09 ، 19	52 ، 17 51 ، 17	30 ، 17 15 ، 18	5 6	سبتمبر	05 , 3 05 , 3	35 ، 15 34 , 15	07 ، 15 54 , 15	أول رمضان	29	7 سبتمبر
15 ، 18 14 ، 18	26 , 18 13 ، 19	23 , 17 22 ، 17	35 ، 17 25 , 18	5 6	اكتوبر	14 ، 3 14 ، 3	06 ، 15 05 ، 15	15 ، 15 04 ، 16	أول شوال	30	6 اكتوبر
49 , 17 49 ، 17	48 ، 17 41 ، 18	00 ، 17 59 , 16	01 ، 17 55 ، 17	3 4	نوفمبر	25 ، 3 26 ، 3	44 ، 14 44 ، 14	40 ، 14 34 , 15	1 ذىالقعدة	29	5 نوفمبر
37 ، 17 38 ، 17	16 , 18 15 ، 19	52 ، 16 52 ، 16	31 ، 17 30 , 18	3 4	ديسمبر	43 , 3 44 ، 3	37 , 14 37 , 14	10 ، 15 08 ، 16	1 ذى الحجة	30	4 ديسمبر
48 , 17 49 ، 17	59 ، 17 57 , 18	04 ، 17 05 ، 17	12 ، 17 10 ، 18	1 2	يناير 1976	59 ، 3 59 ، 3	50 ، 14 50 ، 14	52 ، 14 49 , 15	أول محرم 1396		3 ينايــر 1976

من وراء البحار

أفكار ومذاهب

اعداد :
اسماعيل العربى

- اصلاح نظام التعليم في الديمقراطيات الشعبية والديمقراطيات الأخر .
- ثلاث وعشرون دولة فى افريقية السوداء تدرس بمساعدة اليونسكو ، قمر صناعى للتربية والتعليم .
- نافذة على العالم .

اصلاح نظم التعليم فى الديمقراطيات الشعبية والديمقراطيات الأخر

شهد العقد الماضى تطورات كبيرة فى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى الدول الصناعية المتقدمة ، فى أوروبا الغربية وفى البلدان الاشتراكية فى أوروبا الشرقية وآسيا • وهذه التطورات اقتضت اعادة النظر فى برامج التعليم حتى تتكيف مع التقدم الذى طرأ على مختلف المرافق والمؤسسات ، وتستجيب لحاجات البلد ، وبحيث تنتج جيلا ذا شخصية تتفاعل مع محيطها وتندمج فى تيار الحياة القومية العامة • ونحن قد سبق ان شاهدنا ذلك الاصلاح الجذرى الذى ادخلته فرنسا على نظام التعليم فيها ، فى بداية هذا العقد وهو اصلاح لم يمض الوقت الضرورى لكى يأتى بنتائجه ، وبالتالى فمن سبق الاوان محاولة تقييمه •

وفى السطور التالية ، سنستعرض الخطوط الرئيسية بتجربتين مهمتين تعتزم القيام بهما كل من بولندا أو المانيا الغربية •

أ ـ بولندا

قدمت لجنة تتكون من خبراء واساتذة فى مختلف فروع العلم والمعرفة تقريرا الى « الدييت » (البرلمان) اليولندى فى أوائل السنة الماضية وجرت مناقشته فى شهر اكتوبر • وقد وافق البرلمان عقب هذه المناقشة على مبدا ادخال اصلاح شامل لنظام التعليم اليولندى • وفيما يلى الخطوط الرئيسية لهذا التقرير الذى يشتمل على حوالى 500 صفحة :

تأثرت حالة التربية والتعليم كثيرا فى بولندا بالحرب العالمية الثانية التى كان من نتائجها تدمر عدد كبير من المدارس وموت المعلمين أو تشتيتهم • ولكن بولندا اتمكنت فى غضون ربع القرن الماضى من اعادة بناء نظام التعليم القومى ،بل ومن توسيعه بحيث أصبحت نسبة الاطفال الذين يترددون على المدارس ممن هم فى سن الدراسة ، تبلغ 99,5٪ (وهى من اعلى النسب فى العالم ، ونحن ندرك أهمية هذه النسبة ،خصوصا ، اذا عرفنا ان التلامذة يمثلون 25٪ من سكان بولندا •

ولكن هذه النتيجة الرائعة ، ترافقها نواحي نقص خطير ، يشعر به البولنديون شعورا قويا ٠

يبلغ عدد الناخبين في بولندا 3ر22 مليون ناخب (من مجموع 33 مليون نسمة) ٠ وهـذا العدد لا يشتمل الا على 000 670 شخصا ممـن يتمتعون بالتعليم العالى و 000 350 شخصا آخرين يتابعون التعليم العالى حاليا ٠ وهو يشتمل أيضا على 4ر3 ملاين من مستوى التعليم الثانوى و 000 72 تلميذ يواصلون التعليم الثانوى حاليا ٠ وكذلك يضم هذا العدد 8ر9 ملايين من ذوى التكوين الابتدائى أو التكوين المهنى ٠

وهذا معناه **أن 8ر4 ملايين من الناخبين لا يتمتعون حتى بمستوى التعليم الابتدائي٠**

ويعمل في مختلف القطاعات الاقتصادية عمال 38٪ منهم لا يتمتعون بأى تكوين مهنى » ، كما جاء فى التقرير المذكور ٠

ومن جهة أخرى ، يبرز التقرير أن نسبة الخبراء الذين يتمتعون بتكوين عال ، لم يكن يتجاوز 2٪ من مجموع السكان في سنة 1970 ، بينما ترتفع هذه النسبة لتبلغ ما يقرب من 6٪ فى الاتحاد السوفييتى ٠

وكذلك يلاحظ واضعو التقرير أن التلامذة فى سنة 1966 لم يكن يتجاوز 86 فى كل عشرة آلاف من السكان ، بينما تبلغ النسبة 100 فى تشيكوسلوفاكيا و 103 فى بولغاريا و 176 فى الاتحاد السوفييتى ٠ ولكن هذه النسبة البولندية تظهر ضآلتها ، خصوصا ، اذا عرفنا ان مثيلتها فى الولايات المتحدة تبلغ اربعة اضعافها٠

وبالاضافة الى هذه النواحى ، يلاحظ التقرير ظاهره ندعو الى القلق فى مجتمع اشتراكى ، وهى ان نسبة ابناء العمال فى التعليم العالى ، بل وفي التعليم الثانوى أيضا ، تميل الى الانخفاض باستمرار فى غضون السنوات الاخيرة ٠ فان نسبة ابناء العمال فى الجامعات والمعاهد العليا والثانوية فى السنة الدراسية 1970 ـ 1971 ، لم تكن 31٪ ، بينما تبلغ نسبة ابناء الطبقة المثقفة 5ر63٪ ٠ والأسوء من ذلك ان نسبة ابناء سكان الارياف الذين ينقلون التعليم الثانوى لا تتجاوز 20٪ ٠

ولمعالجة هذه المشكلة يقترح التقرير عددا من الاجراءات الفعالة ، وأهمها :

1 ـ الغاء الحواجز بين التعليم **الابتدائي** والتعليم الثانوى وهذا الاجراء سيسمح لنسبة 65٪ من تلامذة المدارس الابتدائية من اتمام الدراسة الثانوية فى سنة 1980 (وذلك فى مقابل 34٪ فقط فى سنة 1970) ٠

2 ـ تنقيح البرامج ٠ فان المقدر ان ربع تلامذة المدارس الابتدائية ، سيمارسون فى المستقبل مهنا غير موجودة حاليا ٠ وبرامج التعليم المحشوة بمعلومات لا فائدة منها ، يجب ان تفرغ مما فيها من الحشو ، وفى مقابل ذلك يركز نظام التعليم على تكوين الشخصية وعلى تعويد التلميذ على القراءة واكتساب العلم بنفسه ٠

3 ـ اصلاح المحيط الاجتماعى الذى يؤثر على عملية التربية والتعليم وعلى شخصية التلميذ ولهذه الغاية يقترح التقرير ، ادخال اصلاحات جذرية على حياة العائلة وعلى وسائل اللهو والتسلية والرياضة والمسرح الخ ، وهى كلها عوامل لها تأثير كبير على شخصية الطفل وتوجيهه ٠

والى جانب هذه الاصلاحات الاساسية ، يقترح التقرير اصلاحات ثانوية كثيرة ، مثل انشاء مدارس فى الارياف يتردد عليها ابناء عدد من القرى ، وتنظم جماعات من التلامذة للدراسة خارج المدرسة ، وخلق فصول للتدريس لمساعدة التلامذة المخلفين للتعويض عما فاتهم ، وتنمية النشاط الثقافى والرياضى ، ومضاعفة الجهود لرفع مستوىتكوين المعلمين الخ ٠

★ ★ ★

ب ـ المانيا الاتحادية

لأول مرة فى تاريخها ، اعتمدت المانيا الغربية « نظاما عاما » للتربية والتعليم ٠ وهذا الاجراء يشكل ثورة حقيقية على تقاليد هذا البلد الثقافيةالعريقة ، حيث كانت شؤون التربية والتعليم دائما من اختصاص الدويلات 

التىتشكل الاتحاد ، ولم يعرف البلد أبدا سياسة موحدة للتعليم ٠

ولادخال هذا التعديل الجذرى فى حياة البلداقتضى الامر ادخال تعديل (فى 16 مايو 1969) على نصوص الدستور ٠ وهذه النصوص الجديدة ،هى التى سمحت للحكومة (بتعاون مع سلطات الدويلات) بوضع نظام قومى للتربية والتعليم

ولكن هذه الخطوة ، اذا كانت هى الاولى ،فقد كانت مع ذلك جبارة ، حيث أنها تنطوى على تخطيط سياسة المانيا الاتحادية فى مجال التعليم من الآن حتى سنة 1985 ، مع توقعات تمتد على أجل قريب وآفاق أجل طويل ، ومع تقدير دقيق للموارد المالية التى يتطلبها تحويل السلطة و67 من الاقاليم وتركيزها فى يد الحكومة الاتحادية ·وهذه العملية ، تترجم الاولوية المطلقة التى توليها حكومة ولى براندت لشؤون التربية والتعليم ·

ومع ذلك ، فان الحكومة الاتحادية لم تنتزع هذه السلطة من الدويلات انتزاعا، حيث ان اللجنة القومية التى عكفت على اصلاح نظام التعليم منذ سنة 1970 ، كانت تضم الى ممثلى الوزارات الاتحادية (التربية والبحث ، والشباب ، والعمل والمالية) ممثلين لحكومات الدويلات أيضا · ثم ان توصيات اللجنة كان من المقرر الا تصبح نهائية الا اذا تم الاتفاق عليها باغلبية الثلثين ، وبعد ما تصدق عليها جميع حكومات الدويلات التى يبلغ عددها احدى عشرة دويلة ·

والاهتمام الاساسى الذى يسود مقترحات لجنة التخطيط التربوية (وهذا هو اسمها) ، هو الرغبة فى تحقيق الديمقراطية فى التعليم فى اطار قومى · وتتلخص بمقتراحات اللجنة التى سيقوم عليها النظام الاتحادى الجديد، فى الخطوط التالية :

1 ـ ضمان دخول جميع الاطفال الذين هم فى سن الخامسة الى المدارس فى سنة 1985 (وقد كانت نسبة هذه الفئة من الاطفال تبلغ 54٪ فى سنة 1970) ، وادخال الاطفال الذين هم فى سن الرابعة والثالثة بنسبة 70٪ (بدلا من 67٪ حاليا) الى المدارس ·

2 ـ تخفيض عدد الاطفال الذين يوكل امرهم الى مدرس واحد ، من 37 تلميذ الى ما يتراوح بين 19 ـ 23 تلميذ ·

3 ـ جعل التعليم فى السنتين الاوليتين من التعليم الثانوى ، توجيهيا (ونظام التعليم الحالى يقوم على اساس 4 سنوات فى المدرسة الابتدائية يتجه التلميذ بعدها ، اما الى المدرسة الابتدائية النهائية Haupt Schule حيث تمتد الدراسة على مرحلة خمس سنوات، واما الى الكوليج Raalschule حيث يواصل الدراسة لمدة ست سنوات ، واما الى المدرسة الثانوية Gymnasium لمدة تسع سنوات) ·

4 ـ العمل لرفع نسبة التلاميذ الذين يلحقون بالتعليم الثانوى من 15 ٪ فى سنة 1970 لتصبح 23 ٪ فى سنة 1985 وزيادة نسبة طلبة المعاهد التقنية الذين يلتحقون بالتعليم العالى من 3٪ فى سنة 1970 ، الى 12٪ فى سنة 1985 .

5 ـ تكوين جميع المعلمين فى المدارس الابتدائية والثانوية فى الجامعات (تكوين المعلمين فى المدارس الابتدائية) يجرى فى الوقت الحاضر فى معاهد المعلمين التى اصبغ عليها القانون صفة معاهد التعليم العالى Pädagogische Hauchschule

6 ـ ترقية مستوى التكوين والتدريب القصير الاجل للمعلمين (3 سنوات) ، ولا سيما فى مجال التقنية والمجال الاقتصادى والمجال الاجتماعى والتربوى .

7 ـ زيادة عدد الطلبة الذين يتلقون التعليم الجامعى من نصف مليون فى سنة 1970 ، الى مليون طالب فى سنة 1985 .

8 ـ توحيد جميع مؤسسات التعليم العالى مثل معاهد التربية والمدارس التقنية العليا فى نظام للتعليم العالى يسمى « الجامعة المندمجة » Casamthoschulen

وكذلك يشتمل مخطط « نظام التعليم العام » على عدد من المقترحات تتعلق بالبحث العلمى والتوجيه والمكتبات العمومية واستمرار التعليم للكبار ، والتحديد فى طرق التعليم .

واما تكاليف هذه الاصلاحات فانها تقدر بـ 57ر2 مليون مارك فى سنة 1975 وحده . وهى تفترض زيادة فى مخصصات الميزانية العمومية لاغراض التربية والتعليم من 16ر9 ٪ فى سنة 1970 لتبلغ 19ر1٪ فى سنة 1975 ثم 12ر1٪ فى سنة 1980 ، واخيرا 22ر6٪ فى سنة 1985 (وهذه النسبة تمثل 4ر8٪ فى سنة 1970 و 7ر6٪ فى سنة 1985 من الناتج القومى الاجمالى فى المانيا الاتحادية) .

ثلاث وعشرون دولة فى افريقية السوداء تدرس بمساعدة اليونسكو مشروع قمر صناعى للتربية والتعليم

قام خبراء فى الاتصالات اللاسلكية وفى شؤون التربية والتعليم والتخطيط يمثلون 23 دولة فى افريقية السوداء ، مؤخرا ، فى أديس ابابا بدراسة مشروع لاستخدام الاقمار الصناعية

لاذاعة برامج تربوية بالتليفيزيون فى البلـدانالواقعة جنوب الصحراء ، وقد تقدم هؤلاء الخبراء الى حكوماتها بعدد من التوصيات التى مـــن بينها اقتراح يقضى « بتشكيل مجالس قومية تعـــنى بالمسائل التى تتعلق باذاعة برامج بواسطـــة الاقمار الصناعية » ٠

ونحن نعرف ان مشروعات مماثلة تجرى دراستها فى مناطق أخرى من العالم منذ بضع سنوات وأقدم هذه المشروعات ، هو الذى يجرى تنفيذه فىالهند ، والذى ينتظر ان يدخل فى حيز قومى يجرى تنفيذه فى البرازيل ، وفى مشروع متعددالقوميات يهم الدول العربية وآخريهم دول امريكا الجنوبية ٠

واهتمام الدول المتطورة فى القارات الثلاث بمشروعات لاطلاق أقمار صناعية ، ليس بمجرد نزوة لاقتناء التكنولوجيا الحديثة ، ولا يمثـــلاتجاها للاشتراك فى سباق الدول الصناعيـــة التى تعمل كل منها للتفوق على غيرها فى السمعةالعلمية ٠ لان اتجاه دول امريكا اللاتينية وافريقية وآسيا الى استغلال الامكانيات التى ينطوى عليها الفضاء ، انما يستجيب لحاجة ولغاية واقعية ٠

فان هذه البلدان تنفق ، فى بعض الحالات ،ما لا يقل عن ثلث الميزانية القومية لنشر التعليـم ومع ذلك ، فهى تجد ان هذا المجهود الضخم غيركاف ، وانه كثيرا ما يقل عدد الاطفال الذيـــن يترددون على المدارس فيها عن نصف الاطفـــالالذين هم فى حسن الدراسة ، واذا اعتبرنا عامل الانفجار الديموغرافى الذى تعانى منـــه هـــذهالبلدان والبطء الذى تنمو به مواردها الاقتصادية فيمكننا ان نتنبأ بأن مرور الزمن من شانه انيأتى بحل لهذه المشكلة العويصة ، بل كل العكس سيزيدها تعقيدا ٠

ومن ثم ، فلا غرو أن تبحث دول العالم الثالث عن طريق أقصر وتستعين بالتقدم الذى سجلته ابحاث الفضاء فى السنوات الاخيرة لمحاولة القضاءعلى واحد من الآفاق الثلاث المعروفة التى تشكـو منها ، ونعنى بذلك الجهل ٠

والمشكلة الاساسية التى واجهتها لجنة الخبراء التى اشرنا اليها ، والتى كانت تعمل تحت رعاية اليونسكو ، تتصل بمكانة الاذاعة والاذاعةالمرئية ، بما تنطوى عليه من الامكانيات ، فى نظام التعليم القومى ٠ وقد اتضح فيما بعد أن الـــدولالافريقية الواقعة جنوب الصحراء تنظر كلها بعين الاعتبار الى منح الاذاعة المرئية مكانا متزايـــدالاهمية فى نظمها التربوية ٠ ولكن الخبراء يوصون

حكوماتهم بمنح أولوية قومية عالية لهذه المسالةوذلك لان نظام التعليم بواسطة الاذاعة المرئيـــة ينطوى ، فى رأيهم ، على مزيتين اساسيتين :

1 ـ يمكن بواسطة توصيل التعليم الى المناطق البعيد عن مراكز العمران والمحرومة مـــن امكانيات الاتصال والتعليم ·

2 ـ يسمح بوضع برامج لعدد من بلدان المنطقة ، الامر الـذى يمكـن معه تخفيض تكاليف الانتاج ·

والواقع أن بعثة أرسلتها اليونسكو فى سنة 1972 الى عدد من البلدان الافريقية الواقعة عبر الصحراء لدرس المشروع ، قد ذكرت فى تقريرهاان من الممكن وضع برامج فى سنة 1990 تغطى مالا يقل عن 25 بلدا فى المنطقة ، وذلك بتكاليفأقل كثيرا من التكاليف التى يتكبدها كل بلـــد لاستعمال وسائل التربية والتعليم التقليديـــة ·

استغلال الطاقة المتولدة من الشمس

يتوقع المشروع النموذجي الذى وضعه خبراء اليونسكو لنظام افريقى للتلفزة بواسطة الاقمار الصناعية ، تحقيق هذا النظام على مراحل · وتقسيم المشروع زمانيا توحى به اعتبارات سياسية اكثر منها اقتصادية ، وتبرره الرغبة فى تحقيقتعاون على مستوى اقليمى بين كتل الدول الافريقية (مثل افريقية الوسطى وافريقية الشرقية وافريقيةالغربية) · وعلى كل حال ، فان جماعة الخبـراء المذكورة ، رفضت ان يقوم المشروع على اسسلغوية (اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية · ومن ثم ، فان التلفزة بواسطة قمر صناعى ذى قـــــوةمتوسطة،سيعطى فى المرحلة الاولى الفرحة لمجموعة البلدان التى تتمكن من تنسيق برامجها وتستفيدمنه بسرعة · ولكن وضع نظام شامل للتلفـــزة بواسطة الاقمار الصناعية لا يمكن ان يتم قبـــلسنة 1990 ·

وتتوقع بعثة اليونسكو أن يقوم هذا النظامعلى اساس محطة مركزية للارسال تكون مزودة بست قنوات لارسال الصور وتعتمد على قمرينصناعيين · ولغاية التلقى ، تنشأ 800ر000 قاعة لاستقبال البرامج الجماعية ، وذلك بالاضافـة الى 700ر000 مدرسة و 100ر000 مركز عمومى للكبار وقاعات الصور المتحركة الموجودة فى هذه المنطقة

وهذا النظام سيسمح بتغطية حاجات مجموع التلامذة والمدرسين (80 مليون شخص) فى سنة 1990 . والمقدر ان يخصص ربع الحصص المتلفزة للمدارس الابتدائية والربع الآخر للمدارس الثانوية والمعاهد العليا ، والثلث للتكوين المهنى للكبار ، والباقى للبرامج الثقافية والرياضية .

وأما الاستثمارات التى يتطلبها تنفيذ المشروع ، فهى تقدر بمليار دولار ، « حوالى 4 مليار دينار جزائرى » ، وينفق عشر هذا المبلغ على بناء الاقمار الصناعية نفسها .

ولكن المشكلة الاساسية فى المشروع ، تتصل بالصيانة التى تتطلب عددا كبيرا من الخبراء وتقدر تأليفها بما لا يقل عن 100 مليون دولار سنويا . ومن جهة أخرى ، فان تزويد هذا النظام بالطاقة لاجهزة الاستقبال فى مناطق بعيدة عن شبكة الطاقة الكهربائية القومية ، يشكل معضلة اقترح الخبراء حلها بالالتجاء الى استخدام الطاقة المتولدة من الشمس . ولكن هذا الحل يبدو خياليا اذا نظرنا اليه على ضوء الابحاث الجارية لايجاد مصادر جديدة للطاقة .

وأما مشكلة تعدد اللغات فى افريقية (يوجد حوالى ألف لغة فى القارة) ، فقد تبدو أقل تعقدا مما يعتقد . فان القمر الصناعى سيسمح بتلفزة البرامج الدراسية بثمان لغات ، والبرامج الموجهة للكبار (الثقافة والرياضة الخ) بأربعين لغة . ونحن ندرك ان من الممكن التغلب جزئيا على هذه المشكلة اذا عرفنا ان بعثة اليونسكو ، قدرت ان نصف السكان فى البلاد الواقعة عبر الصحراء ، يمكن الاتصال بهم بواسطة برامج تستعمل ثمان لغات . فان 125 مليون من سكان هذه المنطقة يتحدثون ، أو يفهمون السواحلى (25 مليون فى افريقية الشرقية) والهوزا (20 مليون فى نيجيريا) ، واليوروبا (15 مليون فى نيجيريا) والبولار (12 مليون فى منطقة الصحراء)، والامهرى (15 مليون فى اثيوبيا) ، والانجيليزية (15 مليون) ، والايبو (16 مليون فى نيجيريا) ، واللينجالى (11 مليون فى حوض الكونغو) .

ولكن نظام التلفزة بالاقمار الصناعية الذى يذيع بثمانية واربعين لغة ، سيمكن من توصيل البرامج الى نحو ثلث سكان القارة .

أين الخريجون من الجامعة الفرنسية ؟

الى اين يتجه خريجو الجامعات فى فرنسا ؟ وما هى الظروف التى يدخلون فيها الى معمعة حياة الاعمال ؟

تلك هى الاسئلة التى طرحها معهد الدراسات والبحوث بشان التعليم والمؤهلات (CREQ) فى فرنسا وأجرى تحقيقا واسع النطاق بشانهاشمل جميع خريجى الجامعات الفرنسية فى سنة 1970 ، وخرج منها باتجاهات ، قد تفيدنا نحن الذين لا يزال نظام التعليم العالى وتوظيف الخريجين عندنا مرتبطا الى حد بعيد ، بحكم الاوضاع التاريخية، بالنظام المتبع فى ذلك البلد ٠

وجه المركز أسئلة الى جميع الخريجين فى سنة 1970، ولكنه لم يرد عن أسئلته سوى نصفهم٠ ويدل هذا التحقيق على ان اكثر من نصف الطلبة يغادرون الجامعة فى المرحلة الدراسية الاولى ، بينما تخرج نسبة 40٪ فى المرحلة الثانية حاملين لشهادات الجامعة ٠ واما المرحلة الثالثة فلا يخرج منها بشهادات سوى نسبة 3٪ ٠

والطلبة الذين ينتمون الى طبقة اجتماعية متواضعة لا يقل مستوى التعليم الذى وصلوا اليه عن زملائهم الذين ينتمون الى طبقة ميسورة ، وذلك لان عملية الفرز تتم قبل الدخول الى الجامعة ، حيث تقل نسبة الطبقة الاولى عن الطبقة الثانية بصورة ملحوظة فى التعليم العالى ٠

وعند التخرج من الجامعة ، يبدأ الطبقة (بنسبة 60 ــ 70٪) فى البحث عن عمل ٠ ولكن نسبة 10٪ من الخريجين لا يدخلون فى الحياة العملية بعد تخرجهم مباشرة ، وذلك اما لانهم يملون لزيادة التحصيل خارج الجامعة ، أو لاسباب عائلية (وهذه خصوصا ، هى حالة الفنيات) ٠ واما النسبة الاخرى (20 ــ 30٪) ، فهم يستمرون على ممارسة عمل كانوا يزاولونه أثناء الدراسة ٠

وعلى كل حال ، فان نسبة 65 ــ 70٪ ، قد انفقت ما لا يقل عن 6 أشهر فى البحث عن عمل ٠ ودرجة التعليم التى وصل اليها الطالب ليس لها تاثير فى تطويل هذه المدة أو تقصيرها ٠

والمجالان الاساسيان اللذان يستوعبان الخريجين : التعليم والبحث (50٪) من جهة ، والادارة الحكومية (20٪) ، من جهة أخرى ٠

وأما قطاعات التجارة والخدمات والبنوك والتأمين ، فهى لا تستوعب سوى نسبة 16٪ ، والصناعة 10٪) ، والزراعة 2٪ من خريجى الجامعات الفرنسية وخريجو كليات الآداب يشكلون

نسبة عالية فى قطاع التعليم (65 – 70٪) ،ولكن هذه النسبة تنخفض بين حاملى شهادات فى علم النفس وعلم الاجتماع (55 – 60٪) ، حيث تجد هذه الفئة من الخريجين فرصا للعمل فى مجالات غير التعليم ، ولا سيما فى قطاع التجارة والخدمات (35 ٪) ، حيث تشغلهم مكاتب الدراسات والبحوث ، أو يعملون بوصفهم مستشارين وخبراء فى المؤسسات الصناعية والاجتماعية

وخريجو كليات الحقوق يجدون الوظائف خصوصا فى الادارة الحكومية (حوالى 30 ٪) ، ولكن ثلاث قطاعات أخرى يستوعب كل منها نسبا معتبرة من الحقوقيين (تتراوح بين 15٪ و 20٪) وهى التجارة والخدمات والبنوك والتأمين ·

وحاملو الشهادات الجامعية فى العلوم الاقتصادية يعملون فى قطاعات التجارة (20٪) والخدمات (15٪) والصناعة (10 – 15٪) ·

واخيرا ، فان خريجى كليات العلوم ، يتجهون – مثل خريجى كليات الآداب اتجاها قويا الى التعليم والبحث العلمى (50٪) ثم الى الادارة الحكومية (15 ٪ – 20 ٪) ، ولا تستوعب منهم الصناعة نسبة 10 ٪ ·

وفيما يتعلق بتصنيف الخريجين الى فئات حسب المرتبات التى يتقاضونها ، فقد دلت نتيجة هذه الدراسة على ان التصنيف يتخذ النمط التالى :

– أقل من 15٪ يتقاضون مرتبات تقل عن 1,000 فرنك جديد شهريا ·

– 15٪ – 20٪ تتراوح مرتباتهم بين 1,000 فرنك (وهذا فيما عدا منطقة باريس ، حيث لا تشكل هذه الفئة سوى 10٪) ·

– 15٪ يتقاضون مرتبات تتراوح بين 1,300 فرنك ·

– 20٪ يتقاضون مرتبات تتراوح بين 1,600 فرنك و 2000 فرنك ·

– 10٪ – 12٪ يتقاضون مرتبات تتراوح بين 2000 فرنك و 1,300 فرنك ·

– 15٪ يتقاضون مرتبات تزيد عن 3,000 فرنك ·

وكذلك تدل هذه الدراسة على ان اكثر من نصف الخريجين فى سنة 1970 ، يتقاضون مرتبات تقل عن 2000 فرنك شهريا ٠

ولكن ثلاثة أرباع الخريجات يتقاضون مرتبات أقل من 2000 فرنك ، ونصفهن لا تزيد مرتباتهن عن 1300 فرنك جديد ٠

نافـذة عـلى العـــالم

بناء مسجـد في مدينـة رومـا

اعداد : ن ٠ شوربجى

سحب الفاتيكان مؤخرا اعتراضه على بناء مسجد فى روما غير انه بالمقابل وضع شروطا عـلى الاربعين ألف مسلم المقيمين فى أيتاليا ٠ وينص الشرط الرئيسى بانه يتوجب على المسلمين عند اختيار موقع مسجدهم أن يأخذوا بعين الاعتبارطابع روما الخاص باعتبارها مركز العقيدة المسيحية الكاثوليكية ، وقد جاء ذلك فى تصريح أدلى بـــهفيدركو المساندرى ، الناطق باسم الفاتيكان ٠ وعلى هذا ينبغى تجنب اقامة المسجد على جبل ماريوالقريب من الفاتيكان ، لان المسجد سيعلو عندئذ فوق قبة كاتيدرائية القديس بطرس ٠ غـــير انالمسلمين لم يعثروا بعد على موقع آخر لمسجدهـم أما اقتراح الحكومة الايتالية بناء المسجد فى الارض الواقعة قرب مطار فيوميسينو ـ أى على مبعدة 20 كيلو مترا من مدينة روما ـ فقد رفضه الملك فيصل أثناء زيارته السنة الفائتـــة للعاصمـة الايتالية ٠ ومع ذلك يمتدح رئيس المركز الثقافىالاسلامى فى رومـــا (الامـــير أمينى) الايرانى الجنسية ـ يمتدح ليونة الفاتيكان : « بأن اقامةمركز اسلامى للعبادة سوف يشجع على فتح الحوار بين الأديان » ٠

علم الاجتماع

معالم الشخصية الجزائرية

يحتل المجتمع الجزائرى السائر بخطى حثيثة فى طريق التنمية والتطور اهتمام المراقبين فى العالم ٠ وفى مقابلة اجراها السيد كامبهاوزن محرر مجلة « افريقيا اليوم الالمانية مع الاستـــاذ

شابو عميد كلية الآداب في جامعة الجزائر ، حرص المحرر على استيضاح عدة نقاط هامة تتعلق بـ « الشخصية الجزائرية » والاسس التي يرتكز عليها هذا المفهوم .

المحرر : كلما دار الحديث حول الثورات الجزائرية الثلاثة : الصناعية والزراعية والثقافية نجد الحديث يتطرق الى « الشخصية الجزائرية » . هل تتكرم استاذ شابو بايضاح ما يتضمنه هذا المفهوم ؟

شابو : تشكل الشخصية الجزائرية بالنسبة لنا مفهوما أساسيا لتطورنا الثقافي ويعني ذلك استعادة اصالتنا بعد تلك الفترة الطويلة من استعمار دام 132 سنة . ولقد حاولت السلطة الاستعمارية جهدها عبثا خلال هذه الفترة لتقتلع جذور شعبنا الثقافية ، وعلى كل اسفرت هذه المحاولات في بعض المناطق ، وخاصة في المدن ، عن ضياع ثقافي ، يفسره البعض تفسيرا ايجابيا . اما بالنسبة لي فأني أقيمه تقيما سلبيا . ولكن لماذا ؟

على سبيل المثال ، تعرضت لغتنا الوطنية الى الخطر ، وهي التي تتكلم بها غالبية شعبنا ، والآن يتركز الاهتمام حول جعل هذه اللغة اداة ـ على كافة المستويات ـ للاستعمال اليومي . واليوم نلاحظ أن اخصائينا وفنينا ، الذين دخلوا المدرسة في العصر الاستعماري ، يستخدمون بناء على ذلك اللغة الفرنسية غالبا . هؤلاء الناس يتوجب عليهم أيضا ان يعودوا من جديد الى الطريق المؤدي الى لغتهم الوطنية ، مثلما يتوجب عليهم ان يحولوها الى اداة للاستعمال اليومي . وذلك لكي تتحكم جميع مؤلفاتنا ، وانجازاتنا من التعبير عن نفسها باللغة الوطنية . وقد يتعرض البعض على أمنيتنا في استعادة لغتنا الوطنية ، لان ذلك قد يعني بالنسبة لهم فقدان اللغة الفرنسية باعتبارها نافذة على العالم ، وان تفقد اللغة الفرنسية مكانتها كلغة مفضلة . وهذه الامكانية الاخيرة يحتمل تحققها تماما ، اذ توجد لغات أخرى ذات اشعاع دولي اكبر ، يمكن ان تحل محل الفرنسية كلغة اجنبية ، وتخدمنا بالمثل كواسطة اتصال مع العالم .

المحرر : ما الذي تعدونه في قطاع التعليم لترقية ودفع عملية التعريب التي تطالبون بها ؟ واذا كان تقيمي للامور صحيحا يلاحظ ان أطر التعليم العالي تميل حاليا الى ابقاء كل شيء على ما كان عليه . الا ينتج عن ذلك نوع من الغربة والتباعد بين الشعب وبين النخبة الفتية وهذا ما اخشاه ؟ .

شابو : فيما يخص التدريس فى كلية الآداب ، تم منذ شهر سبتمبر 1971 تعريب دبلومات التعليم • وهذا أمر بديهى نظرا الى ان هذه الموادتم تدريسها من قبل باللغة الوطنية فى المدارس العليا والمدارس المختصة • وهذا الشىء يشمل مواد دراسية كعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتربية • ونحن نتصدى لعملية تغير جذرية ،تسعى لتعريب كل مواد الدراسة فى كلية الآداب ولهذا لا نخشى خطر الغربة والابتعاد الذين اشرتم اليه فى سؤالكم ، بل على العكس ، نحن نسير على الطريق الصحيح المؤدى الى العثور على شخصيتنا من جديد •

المحرر : ما هى القيم الاخرى الى جانب اللغة العربية التى يشكل مجموعها الشخصية الجزائرية التى تسعون للعثور عليها من جديد ؟

شابو : لا يمكن ان يتكلم عن الشخصية الجزائرية ، دون ان يضع اللغة الوطنية فى نقطة المركز • هنالك قيم أخرى ، ذات طابع غير لغوى ،وكلنا رغم ذلك وثيقة الاتصال باللغة : كالتراث الثقافى العربى الاسلامى • ونحن نهتم بالدرجة الاولى بهذه القيم باعتبارها كلا ، وهى قيم تتمسك بها كلية الآداب وتحرص على ايصالها الى الاجيال التالية • فى الحقيقة نحن نعنى بالدرجة الاولى بكافة القيم الحية لدى شعبنا ، والتى تشكل جزءا من الشخصية الجزائرية : سواء فى الميادين الاجتماعية والاخلاقية أو الثقافية •

المحرر : يجرى الحديث غالبا عن العودة الى « الأصول » ، كيف يمكن تجنيب هذه العودة من التحول الى تقهقر نحو الوراء ، وتوجيهها نحو الامام نحو العصور الحديثة الجديدة ؟

شابو : مشكلة تجابهها كافة الثقافات • وعندما تتكلم عن الثقافة لابد ، بالضرورة من الكلام عن الماضى أيضا • فعندما نتحدث عن العودة الى الاصول ، نستند فى ذلك على تراثنا العربى الاسلامى ، ونحرص على انتقاء قيم أكيدة لتكون أساسا للشخصية الجزائرية • هذا الاختيار ينفتح على المستقبل ، وعلى الثورة الثقافية ، وعلى الطابع العصرى • فالعودة الى التمسك بالماضى والانفتاح على المستقبل ، عمليتان لا تناقض بينهما • وهنالك ثقافات أخرى خطت هذه الخطوات ، وانجزتها بنجاح ، اما بالنسبة للثقافة العربية ككل ، فانه من الضرورى ربط قيم الماضى بقيم الحاضر • ونحن نرى يوميا مدى التأثير الكبير الذى يمارسه العلم والتكنيك على المجتمعات السائرة فى طريق التطور غير اننا نلاحظ مع قيم العلم والتكنيك توغل كافة القرينة الاجنبية Kulturkontext • وعن هذا التسرب ينتج خطر التعزب بالنسبة لنا نحن البلدان المتطورة • فبدلا من تطبيق امكانيات العلم

والتكنيك ، واستعادة واحياء تقاليدنا ، اصبح رأى بعض الناس ان القضية تدور حول ماض ميت مدفون ، ينبغى استبداله كلية « بالحضارة » بكلما لها وما عليها ٠ ويلوح لى ان مثل هذا التصور نتج عن التغرب اذ انه لا يضع القدرة الذاتيـــة الخلاقة هدفا ٠ فى حين اننا نؤكد دوما على طاقتنا الذاتية الخلاقة كلما دار الحديث حول الشخصيـــة الجزائرية ٠ ونحن نريد ان تكون لنا فعاليات خلاقة تنهل من أحدث المعارف العصرية مثلما تنهل من الثقافة الجزائرية الغنية ، فى مجتمعنا حضـــارة تسير فى طريق النشوء ، تتلائم مع قيمنا وماضينا وتدفعنا الى الامـام ، سواء فى الحـــاضر أم فى المستقبل ٠

الصحة والاعمـار :

جـزيـــزة المعمـريـن

تمتلىء وديان القوقاز النائية ، وجبال الأندين ومنطقة كاراكوروم برجال هرمينى يتمتعون ببنية قوية ، وقد قـام البروفسور الكسندر ليف استاذ علم الاعمار Gérontologie فى جامعـــة هارفارد بمقابلة رجل من هؤلاء المعمرين الذين لم يحتاجوا فى حياتهم الطويلة الى طبيب على الاطلاق ويدعى الرجل ميجويل كاربيو ، وله من العمر 123 عاما ، وبذلك يعتبر ثانى اقدم المعمرين فى قرية فيلكامبا الواقعة فى الأكوادور (أمريكا اللاتينية) ٠

ومن ضمن الدراسة التى أجراها العالم ليف ، محاولته ان يتعرف على السبب الذى يجعل هرما آخر من سكان الجبال ، هو سليكا بوتيا ، والبالغ من العمر 121 سنة ، يهرع لمساعدة جاره فى أعمال بناء المنزل ، والمعمر سليكا يسكن قرية جبليـــة فى جمهورية جورجيا السوفياتية ٠ فأجاب قائلا : « لقـــد ساعدتـــه لان بنـــاء المنـــزل لا يمكـــن أن يتـــم بدونى » ! ! وفى أقصـــى الشمال من دولة الباكستان ، عثر الاستاذ ليف على هرم يعيش منفصلا عن زوجته المطلقة ، وهو أصغر المعمرين الذين قابلهم سنا ، فله 95 سنة من العمر ٠ أما المعمر الباكستانى اكبارخان يجمع العشب لقطيعه من منطقة جبلية مرتفعة ٠ ولدهشة الاستاذ ليف ، كان اكبار خان يتسلق سفح الجبل عبر مرتقى يزيد عن ثلاثين درجة ، حاملا حزمـــة كبيرة من العشب على ظهره ، يفح وكأنه ماعـــز جبلى ٠

بالمقابل لاحظ الاستاذ ليف ان غالبية المعمرين القلائل الذين يبقون على قيد الحياة الى ما بعد الثمانين ، ويعيشون فى المدن الكبرى ، فى البلدان الصناعية يتصفون بكونهم ضعافا وسريعى العطب ٠

بينما يتميز أقرانهم معمرو البلاد الجبلية بصحة جيدة وبحيوية كبيرة · ويأمل الباحث ليف ان يتوصل الى نتائج هامة على ضوء الدراسات التي أجراها على المعمرين ممن يتجاوزون المائة من العمر · وذلك للتعرف على مفاتيح جديدة للعوامل الرئيسية التى تتسبب فى تداعى الجسم فى مرحلة مبكرة · ولا بد من التذكير هنا بانه متعسرا على علماء الاعمار ان يتفقوا حول العوامل المسببة للهرم · وقد ظهر الاختلاف مؤخرا ، خلال لقاء تم بين الاطباء الامريكيين فى ولاية كاليفورنيا · فقد رأى بعضهم ان الجهد Stress الحضاري يشكل العامل الرئيسى فى الهرم المبكر ، بينما اتجه الآخرون الى ان تشويشا يطرأ على تركيب البروتين ، أو نقصا فى الانزيمات أو عدم تمثل الجسم للحوامض الدسمة الناتج عن نقص فى الفيتامينات هى المسببات الرئيسية لهرم الجسم البشري ·

لقد سارت حياة أولئك المعمرين دونما حاجة لتناول اقراص الفيتامينات ، وحتى دون الحاجة الى وجود رعاية طبية ، وخلافا لما هو الحال من المجتمعات الغربية الصناعية لم تكن كلمة «الهرم» مقترنة بالضرورة « بالمرض » بين المعمرين ·

لذلك لا توجد لديهم وصفة محددة يتبعونها لضمان حياة طويلة غير ان العالم ليف استطاع ان يستخلص من دراسته فى عين المكان ، ان بيئة المعمرين وطريقتهم فى العيش تنسجم مع بعضها الى حد كبير · ويورد من خلال الملاحظات العديدة التى توصل اليها النقاط التالية :

1 ــ تقع مناطق سكنى المعمرين غالبا على ارتفاع 1500 متر فوق سطح البحر ، أو تزيد فى الارتفاع ، وهى تقوم بين كتل الجبال التى تعزلها عن العالم الخارجي · وهنالك على سبيل المثال قرية فيلكامبا وعدد سكانها 819 مواطنا ، تشمل تسعة معمرين · فى حين لا يتجاوز عدد المعمرين فى الولايات المتحدة الثلاثة أشخاص بين مئة ألف مواطن · وتعزل هذه القرية عن العالم الخارجي جبال الاندين الاكوادورية ، أما غالبية الـ 4500 معمرا ممن تجاوزوا المئة عاما ، والذين تم احصاؤهم عام 1970 فى مناطق جورجيا ، واذربيجان وارمينيا ، فانهم يعيشون فى وديان القوقاز المرتفعة ·

2 ــ يكاد معمرو قرية فيلكامبا ، والهونزانزا (منطقة كاراكوم النائية) يشتركون فى اتباعهم تقنينا صارما فى الاطعمة · فيتناولون من الطعام ما يكفى لسد جوعهم فقط · وتتألف وجبة الطعام اليومية عند أهالى قرية فيلكامبا من 1200 حريرة · وتكاد هذه الوجبة تكون قاعدة متبعة

لدى المعمرين هنا وهنالك · اما مواد البروتينات والدسم فانهم يستمدونها غالبا من مصدر نباتي· ويقتات معمرو القوقاز يوميا بحوالى 1900 حريرة ويأكل نصف نصفهم اللحم يوميا · ومع ذلـــك يلاحظ ان 70٪ من الحريرات التى يقتاتونها يوميا يستمدونها من أغذية نباتية ·

3 ــ لاحظ العالم ليف ان المعمرين فى كل من المناطق الثلاثة التى درسها يعيشون ضمـن عائلات كبيرة ، ويتمتعون باحترام كبير · كمـا يسود بينهم شعور قوى بالترابط · ويكاد معمروا الهونزا يمارسون سلطـــة دكتاتورية فى ادارة شؤون مجتمعهم · وتكاد كلمتهم تكون لها قــوة القانون ·

4 ــ لا يعرف سكان مناطق المعمرين حدا معينا للتقاعد عن العمل · اذ يقوم المعمرون حتى الذين تجاوزوا سنة بممارسة الاعمال العامــة ،طالما وجدوا فى نفسهم القدرة على ذلك ·

فيقطفون أوراق الشاى ، ويطعمون الدواجن، أو يسهرون على تربية ورعاية احفاد احفادهم ·

ومما أدهش العالم ليف اكتشافه ان المعمرين لا يقلون عن زملائهم سكان المناطق المتحضرة فى الاستمتاع بتدخين التبغ · وعلى سبيل المثـال يدخن معمرو قرية الشيلكامبا 40 ــ 60 لفافـــة تبغ يوميا ، ولكنهم يتجنبون ابتلاع الدخـان الى رئتيهم · ويعمدون الى لف التبغ الذى تنتجـــه مزارعهم بورق اكواز الذرة ، ولكنهم يفضلـــون للف التبغ عادة الورق الرقيق المستعمـــل فى المراحيض الحديثة اذا توفر لهم ذلك ·

باستثناء معمرى الهونزا يمكن القول بأن بقية المعمرين الآخرين يتعاطون الخمور بشكل محادى اما معمروا الفيلكامبا فيشربون يوميا ثلاثة الى اربعة فناجين من شراب الروم القوى رغم تجاوزهم سن المئة · كذلك يكاد شرب الكحول يكون محادة بين معمرى منطقة القوقاز · فيشربون كأسين الى ثلاثة كؤوس من الخمر الطازج القوى ، وهى كمية تعتبر النصاب الطبيعى لما يتناوله الهرم يوميـا · كذلك يشربون شراب الفودكا والبراندى المصنوع فى جورجيا · والملاحظ ان كؤوس المعمرين تكون عادة أصغر حجما نوعا ما من كؤوس زملائهـــم الشباب الذين يبلغون السبعين أو الثمانين من العمـــر ·

ومما يدهش الطبيب الذى يحذر مرضاه دوما وأبدا : « بأن سمنة الجسم تسبب كارثـــة الانسان » · ان الطبيب عثر على عدد من الاشخاص البدينين ، وخاصة بين النسوة القوقازيات اللواتى

يتجاوزن المئة من العمر . فالسيدة سونيا البالغة107 سنة من العمر تمتلىء شحما ولحما عقب ولادة طفلها الاخير . وتصرح بأنها اعتبارا من ذلك اليوم اصبحت تشبه البرميل فى بدانتها، الا انها تضيف قائله بأن : « أمها كانت اكثر بدانة منها » . ولـم تتوف والدتها الا قبل سنوات قليلة .

يريد العالم أن يحدد خطوطا عامة لنظريته عن الاسباب التى تجعل المعمرين من المناطق الثلاثة التى شملتها دراسته ، يحافظون بنجاح على قدرةالاستمرار فى الحياة . ويدخل العالم فى حسابـه عامل الابطاء فى الهرم لدى المعمرين ، وهو عامل يتأثر بالوراثة أيضا . كذلك يدخـل فى الاعتبار وضعية المعمرين النفسية المتوازنة عبر مراحـــل الحياة ، والخالية من العصابات Neurosen ، ومـن الرعبـة فى الهـرم . وفى الحقيقة انحدر معظـم المعمرين الذين قام العالم ليف بدراسة أحوالهم ، من ابوين تمتعا بعمر طويل أيضا فبلغا المئة مـــن العمر أو حتى تجاوزاها . وبما أن اسلافهم بدورهم كانوا يعيشون فى عزلة مطلقة فى رحاب الوحدةالسائدة فى المناطـــق الجبلية ، فمـــن الضرورى ـ حسب رى العالم ليـــف ـ أن لا يورث قـــدرالامكان ـ الا عنصر الوراثة الخـاص « بالحيـــاة الطويلة » وهذا الاستنتاج يشمل على الخصـــوص جماعة الهونزا والفيلكامبا حيث مـا زال التزاوج هناك مع جماعات غريبة عنهم أمرا يندر حدوثه .

أما بالنسبة للقوقازيين فان نظرية « وراثـةعنصر الحياة » لا تجد الصدى المرغوب ، لان عناصر السكان القاطنين بين بحر قزوين والبحر الاسودتتألـــف من عناصر بشرية متنوعة كالجورجيين ، والازربيجانين والروس ، واليهود ، والارمن الذين حدث فى صفوفهم منذ مئات السنين اختلاط طقوى فى عناصر الوراثة .

وعلى كل حال يعتبر العالم الجورجى بيشيلورى أن المتزوجين الذين ينجبون الكثير من الاولاد يعيشون على ما يبدو مدة أطول . فى حين ينـــدر تعمير « العزاب » مدة طويلة ، وان حدث ذلك فانه يكون استثناء طفيفا .

وقد بنى العالم المذكور استنتاجاته عن ضوء الاسئلة التى طرحها على حـوالى 15000 انسان تجاوزوا سن الثمانين . فوجد أن كل فرد من بين سبعة من اقرانه قد أنجب سبعة الى تسعة أطفال ، وواحد بين اثنين أنجب أربعة الى ستة أطفال .

ويعتقد القوقازيون بان سن الشباب ينتهي عند انطفاء جذرة « الليبيدو » أى الدافع الجنسى لديهم · وقد تحقق العالم ليف من أن هذا السن يقابل ما أجاب به المعمر جبرائيل شابنجان البالغ 117 سنة من العمر ، وبأن جذوة الدافع الجنسى تستمر حتى الثمانين من العمر · ويتذكر شابنجان أنه كان ما يزال شابا أنذاك · أما جاره فى القرية المسمى كاوادا أيونا سجان البالغ 110 سنة ، فانه يدعى بأن قوة حيويته الجنسية لم تخب الا قبل حوالى اثنى عشر عاما ·

بالاضافة الى قوة المعمرين الجنسية ، تبين الاستاذ ليف بمزيد من العجب ، أن معظم الذين تباحث معهم من المعمرين ، والذين أجرى عليهم فحوصا طبية ، تبين له وجود كل أنواع أمراض القلب المعروفة لديهم · كما تثبت مرارا من اصابة بعضهم سابقا بجلطات قلبية · ويغتر من وجود كل من الاستاذ ليف وزميله العالم السوفياتى دافيد كاكيا شفيلى أن جلطات القلب التى حدثت لهؤلاء المعمرين كانت جلطات من النوع الهادىء التى لا يشعر المصابون بها · ويبدو أن كفاءة جهاز الدورة الدموية لدى المعمرين سكانى الجبال ونظام قلبهم واوعيتهم الدموية مردها الحركة الجسمانية اليومية التى يمارسونها صعودا وهبوطا على منحدرات الجبال ، فتساعدهم على مقاومة الكوارث المميتة التى يتعرض لها زملاؤهم معمرو المدن الكبيرة · أخيرا يأسف العالم ليف اذ أنه لم يتمكن من زيارة شيخ المعمرين المسمى الشيخ على ميسليمون ، الذى يقال بأن عمره يقارب 167 عاما ·

التاريخ :

« من أسرار الحرب العالمية الثانية »

كشف أحد الكتاب الايتاليين مؤخرا ملابسات نهاية موسولينى زعيم الحزب الفاشستى الايتالى · ويزعم الكاتب بان لويجى لونجو L. Longo قام بتنفيذ حكم الاعدام بالزعيم موسولينى · ويصف الكاتب المشهد الاخير من حياة الديكتاتور ، بان لويجى لونجو رفع مسدسه الرشاش وضغط الزناد غير ان الرصاص لم ينهمر ، فأعاد العملية مرة ثانية ، وثالثة ، ولكن دون جدوى لوجود خلل في الجهاز · فبادر لاخراج مسدسه الصغير من جيبه ، غير ان المسدس أيضا لم ينطلق ·

أخيرا انتزع لونجو سلاح مرافقه واطلق عشر رصاصات على الشيخين الذين كانا ينتظر ان نهايتهما قرب أحد الجدران ، وهما موسليني وصديقه كلارابياتستي ٠

منذ الحرب العالمية الثانية كان الوصف التاريخي الشائع للدقائق الاخيرة من حياة موسوليني مغايرا لذلك ٠ اذ يذكر ان كلا الشخصين وضعا يوم 28 ابريل 1945 على الساعة 10 ، 16 أمام بوابة « فيلا بيلمونت » الواقعة قرب بحيرة كومو ، ثم قام الانصار باطلاق النار عليها ٠ ومن الغريب ان أحدا من المؤرخين لم يخامره الشك بعد في فحوى قصة الاعدام هذه ، رغم ما يلابسها من ثغرات غريبة ٠

ومن العجيب ان الفحص الذى أجرى على جدار الفيلا المذكورة حيث تم تنفيذ الاعدام — لم يظهر أى أثر لطلقات رصاص ٠ كما ان الارض التى علقت فوقها الجثتان لم تترك أى أثر لدماء ٠ كذلك يلاحظ اختفاء معظم شهود حادث تنفيذ الاعدام تقريبا ٠

هذه الثغرات فى القصة التاريخية استرعت إنتباه الناشر فرانكو باندينى F. Bandini الذى كان قد نشر كتابين عن موسلينى ٠ ويعتبر خبيرا فى هذا الميدان ، فدفعته لان يتحرى بدقة موضوع الساعات الاخيرة من حياة موسلينى ، فنشر مؤخرا الصادرة فى ميلانو ، نتيجة Epoca فى مجلة التحقيق الذى أجراه ، ومفاده ان مشهد الاعدام الذى جرى امام فيلا بيلمونت لم يكن الا تمثيلية لان الاعدام الحقيقى كان قد تم قبل ذلك بساعات ،وفى مكان آخر ٠

تبدأ القصة من 27 ابريل عام 1945 ، عندما تم القبض على موسيلينى الهارب وذلك من قبل جنود فرقة جاريبالدى التى تضم فئات مختلفة من الاحزاب المعادية للفاشية ، وقد تم القبض عليه فى مدينة دونجو Dongo فنقل موسولينى أولا الى دار بلدية المدينة حيث اعتقل هناك ، وفيما بعد اقتيد الى بيت الفلاح جياكومو دومازيا الواقع فى قرية بونزانيغو Bonzanigo ٠ وسمح لكلارابياتشى ان ترافق موسولينى بناء على رغبتها الخاصة ٠

عندما أعلن نبأ القبض على موسولينى فى ميلانو ليلة 27 أبريل اجتمعت هناك لجنة التحرير وهى هيئة قيادة رجال المقاومة ، وكانت اللجنة قد قررت ، قبل ذلك بيومين ان تنفذ حكم الاعدام فى موسولينى فى حالة القبض عليه ، وكلف مفوض خاص بتنفيذ حكم الاعدام فى عين المكان الذى يعثر فيه على الزعيم الهارب ، وقد وقع الاختيار لتنفيذ هذه المهمة على والتر اوديسيو ٠

المعروف بين أفراد المقاومة باسمه الحركي « النقيب فاليبريو » · وفى باكورة صباح الـ 28 من أفريل سافر فاليريو الى بحيرة كومو ، ولكنـه لاقى صعوبات هددت مهمته بالفشل · وذلـك بان رجال المقاومة كانوا فخورين بصيدهم الثمين فلم يرغبوا بتسليم صيدهم الى رجل مقاومة غريب عند ذلك اعتقد كل من جيدو وريكاردو مرافقـا النقيب فاليريو وغالبا عن المكان فى الفترة الواقعة بين الساعة 9،30 ، 14،20 وحتى الآن لم يعـرف بعد ما الذى فعلاه خلال هذه الفترة· غير أن المؤلف باندينى يزعم الآن أنه توصل لمعرفة ذلك : فقـد انطلق الرجـلان الى المكتـب الاقليمى للحـزب الشيوعى فى كومو والتقوا هناك بأحـد المنفذين من الحزب الذى يعمل فى نفس الوقت عضوا فى هيئة قيادة رجال المقاومة فى ميلانو · هذا الرجل ما زال حتى اليوم يتمتع بمركز مرموق فى مدينـة ميلانو ، ويطلق عليه الكاتب باندينى تحفظا اسم السيد « س » · وقد سافر السيد « س » فى نفس النهار وبدون أن يتصـل بالنقيب فاليريو ـ الى منطقة كومو رفقة كل من ريكاردو وجيدو وعـدد من رجال المقاومة ممن يعرفون المنطقـة ، وقصدوا مباشرة منزل الفلاح دوماريا ، الذى كان موسولينى معتقلا فيـه ·

واخرج موسولينى وصديقته من المنزل ، واقتيدا مسافة 200 متر حيث قام ريكاردو والسيـد « س » باطلاق النار عليهما من مسدسات رشاشة وعاد السيد « س » فورا الى ميلانو · أما الآخرون فسافروا الى مدينة دونجو واعلموا النقيب فاليريو بما تم اجراؤه ·

كان على النقيب فاليريو أن ينفذ الدور المرسوم له حتى النهاية نظرا لان تدخل السيد «س» واعدام كلارا بياتشى الغير مبرر ، لم يكن ينبغى اذاعتهما ، خاصة أن فاليريو فقط يحمـل التفويض الذى يعطى لعملية الاعدام مظهرا ولو سطحيا على الاقل من الشرعية لذلك سافر فاليريو الى منـزل دوماريا ، لكى ينفذ كوميديا فريدة ويروى المؤلف باندينى بأن النقيب فاليريو جعل أحـدى اعضـاء المقاومة المسماه جينا تويسى لكى يظهرا أمام الناس شبيهين بالمعتقلين · وهكذا تـم اقتياد الشخصين المتنكرين أمام الحرس من المنزل الى سيارة النقيب فاليريو · وفى مدينة جيلنيودى ميزجارا التقـوا بسيارة قادمة يركبها النقيب فيرى الذى قام بجلب الجثتين فى سيارته · ثم انزلت الجثتـان أمـام فيلا بيلمونت واسندتا الى الجدار ، ثم قام النقيب فاليريو بتمثيل عملية الاعدام · غير أنه لم يطلـق النار على الجثتين ، بـل فى القضاء · وهذا ما يفسر اختفاء آثار الرصاص فى الجدار الواقع خلفهما · وفيما بعد تم كتمان تفاصيل وآثار العملية ، ولـم يفش تفاصيل ما حدث ، اذ أن كلا مـن النقيب

فيري وعضوة المقاومة حينا توسى وصديقتها انجيلابياتشى واحد حراس موسولينى فى منزل الفـلاح دوماريا لقوا مصرعهم بعد عام 1945 من ظروف مـازالت غامضة

أما السيد « س » الغامض الذى يزعم المـؤلف باندينى مسؤليته عمليـة الاعـــدام ، فيعطى باندينى اشارة هامـــة عـــن شخصيته فى المقال الآنف الذكر المنشور فى مجلة « ايبوكا » فيدعى بأن السيد لويجى لونجو شوهد فى ساعة الظهيرة من يوم 28 أبريل 1945 فى ساحة مدينة دونجو ٠

ولا يشك باندينى فى أن السيد لويجى لونجو هـو الذى قـام باعـدام موسولينى وصديقته فعلا ٠ فيزعم بان ثلاثة قادة من قواد المقاومة انذاك شهودا له بذلك ٠ واذا صحت شكـوك المـؤلف باندينى حول عملية الاعدام الرسمية ، هل يمكن القول بأن موسولينى أعدم مرتين ؟



صــدر اخـيرا :

المجلــة التاريخيــة المغربيــة
عــدد 2 ويضـم الدراسـات التاليـة :

فهــرس المـوضـوعـات

1 – محتــوى القسـم العــربى

البحــوث :

2 ـ محتـــوى القســم الفرنسى والانجليزى

البحــــوث :

الاشتراكات ومراسلات التحرير بالعنوان التالى :

عبد الجليل التميمى 9 ، نهج خـير الدين ـ تونس

المغرب العربى 3 د • ت　　　　العالم العربى 9 دولار

بالنسبة للمواطنين الجزائريين الراغبين فى الاشتراك فى المجلة والحصول عليها ، عليهم مراسلة « قسم الاشتراكات بالشركة الجزائرية للنشر والتوزيع التى عن طريقها يتم تسجيل الاشتراكات « بالمجلة التاريخية المغربية » .

ALLOCUTION PRONONCEE PAR M. MOULOUD KASSIM NAIT BELKACEM

Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses
au Congrès du Koweit
réunissant les Ministres des Affaires Religieuses des pays arabes
(26 février - 3 mars 1973)

QUATORZE SIECLES APRES LA REVELATION DE LA SOURATE « IQRA ! » (LIS !) NOUS DEMEURONS UNE NATION ANALPHABETE, NE SACHANT NI ECRIRE NI COMPTER

Excellences,

Messieurs,

Au nom de la délégation algérienne, j'exprime au généreux Koweït qui nous reçoit, mes remerciements qui s'adressent tant à son Emir qu'aux membres du gouvernement et au peuple koweïtien. Je remercie plus particulièrement son Excellence Rachid Al Farhane qui, en prenant cette heureuse initiative, nous permet de nous réunir ici et d'étudier certains aspects des choses qui intéressent la nation islamique, dans sa vie et dans son devenir.

En ce qui concerne la définition et l'unification d'un calendrier des mois lunaires comportant les dates des festivités islamiques, je pense que la position de l'Algérie est connue. Nous l'avons fait connaître en pratique, après avoir perdu tout espoir de voir apparaître une amorce de solution positive au niveau de la nation islamique.

Nous avons donc appliqué ce qui avait été préconisé par l'Imam Rachid Rida et le professeur Allal Al Fassi, c'est-à-dire ce qui avait été recommandé par le Congrès de Malaisie et ce à quoi avait conclu la Commission algérienne du Ifta, je veux dire l'adoption d'un calendrier islamique de l'année lunaire basé sur la possibilité de la détermination de la lunaison par le calcul astronomique.

Nous avons donc effectivement entrepris d'appliquer cette méthode basée à la fois sur la visibilité de la nouvelle lune et la garantie que cette vue est exacte, en utilisant les moyens scientifiques. Ceux-ci permettent d'arriver à cette certitude qui est l'un des buts de la Loi islamique. Nous avons fait paraître un agenda qui mentionne avec netteté et précision les fêtes religieuses de l'Islam, depuis le dernier Ramadhan jusqu'au prochain 'Id Al Fitr (Id Esseghir). Ainsi savons-nous à l'avance la date du commencement de la nouvelle année hégirienne, celle de l'Achoura, celle du prochain Ramadhan, celles des deux Aïd ('Id Al Fitr et 'Id Al Adha) de l'année 1393 de l'hégire, correspondant à 1973-1974 de l'ère chrétienne.

Ce calendrier présenté sous forme d'agenda de poche ou de bureau, se trouve entre vos mains. Nous l'avons ici distribué à vos excellences. Bien sûr ! nous avons trouvé devant nous des gens qui pendant des jours sont restés à répéter le hadith suivant, plus ou moins apocryphe : « Nous sommes une nation qui ne sait ni écrire ni compter : la lunaison se détermine à l'œil nu, et les débuts et fins des mois se fixent en conséquence de cette vue à l'œil nu », puis d'affirmer, en comptant sur leurs doigts, « tordant ou libérant le pouce, que le mois lunaire était de 30 ou de 29 jours ». Mais nous leur avons cité la fetwa de l'Imam Rachid Rida affirmant qu'il était non seulement permis mais nécessaire d'avoir recours au calcul astronomique dans l'accomplissement des actes de dévotion ('idâdat) et, par voie de conséquence, nécessaire d'adopter un calendrier de l'année lunaire déterminé par le calcul, conformément à la Loi islamique et à ses profondes motivations et ultimes desseins. Car cette dernière appelle les gens *à la certitude et à l'exactitude qui résultent de la science dotée de tous les moyens modernes*. Ceci nous permet d'être sûrs de la possibilité de voir la nouvelle lune, scientifiquement, au jour de sa naissance. Que la vue à l'œil nu ait lieu ou pas, cela ne change rien, puisque la vue elle-même n'est pas acte de dévotion mais seulement moyen et instrument. Dès que nous sommes certains de la possibilité de voir la nouvelle lune, la Loi reconnait cette vue. Elle devient valable, obligatoire.

Cette visibilité a la même valeur juridique que la vue effective, et la première a en plus le mérite d'être fixée bien à l'avance. Ce qui revient à dire que la vue « théorique » dispense de la vue réelle surtout lorsque celle-ci n'est pas assurée, qu'elle est l'objet de témoignages contradictoires prêtant à la confusion et incitant à de violentes controverses et parfois même à des conflits.

Une telle méthode, continue Rachid Rida, nous est déjà familière lorsque nous observons le jeûne. Car nous savons tous que nos muezzins et nos imams (Dieu leur pardonne !) annoncent les prières et les font en se basant sur des montres fabriquées un peu partout par des Chrétiens, des Juifs ou même des athées sinon athéistes. Si ces moyens scientifiques sont valables pour la prière qui est le principal pilier de l'Islam, (ômdat), ils doivent l'être également sinon à fortiori, pour le Ramadhan ou tout autre pilier de l'Islam.

Nous avons rappelé à nos correligionnaires une autre fetwa du professeur 'Allal Al Fassi, un des savants de l'Université Qarawiyyine et penseurs de l'Islam contemporain, à propos du hadith suivant « Observer le jeûne à la vue de la nouvelle lune, rompez le jeûne à la vue de la nouvelle lune. Nous sommes une nation analphabète qui ne sait ni écrire ni compter. La lunaison est ainsi... ».

Ce propos, dit Allal Al Fassi, a été prononcé dans certaines circonstances, c'est-à-dire en l'état d'ignorance où se trouvaient alors les Arabes. Cette ignorance ayant disparu, nous devons appliquer la règle des Usul (sources du droit) qui dit que l'effet (ma'lûl) doit disparaître lorsque la cause ('illa) n'existe plus. Ce qui revient à dire que puisque nous ne sommes plus des analphabètes, puisque désormais nous écrivons et comptons, nous n'avons plus à tenir compte de l'obligation qui nous était faite de voir la nouvelle lune à l'œil nu. Au contraire, *notre devoir est d'adopter les moyens les plus sûrs, c'est-à-dire les moyens scientifiques*

Permettez-moi d'ajouter qu'il est vraiment étrange que nous demeurions attachés à la lettre de ce hadith, quelle que soit son authenticité, quatorze siècles après la révélation de « Iqrâ ! » (impératif de lire), qui est le premier verset du premier chapitre de ce Coran qui fait obligation de « savoir calculer les années et mesurer le temps » à une nation qui était une des plus enfoncées dans l'analphabétisme, l'ignorance et l'arriération. Eh bien ! cette même nation, grâce au verset : « Lis par la grâce de Dieu » est devenue celle qui enseigna le monde, le pourvut des sciences algébriques et trigonométriques et engendra Jabir Ibn Hayyan, Khawarizmi, Ibn Al Haïtham, Al Biruni, Ibn Rochd, Ibn Sina, Al Idrissi, Ar-Razi, Ibn Al Jazzâr, Abulkacim, Ibn An Nafis, Abu Hamza et d'autres plus nombreux et non moins valeureux

Il est encore plus étrange — mais cela n'est pas la seule contradiction dans notre vie — de voir ces gens utiliser les lunettes pour déchiffrer, de nos jours, les manuscrits de droit et de hadith, de les voir utiliser les instruments de photographie pour prendre des copies de nos livres de loi ; se baser sur la radio pour l'appel à la prière ; enregistrer la lecture du Coran ou écouter cette dernière diffusée par les disques ou par la radio ; prendre la voiture automobile pour aller faire la prière du vendredi ou l'avion pour accomplir le pélerinage aux Lieux-Saints ; se fier aux observatoires et aux horloges pour déterminer le moment de la prière et celui même du jeûne (imsak) ou de sa rupture (iftar), depuis le premier jusqu'au dernier jour du mois du Ramadhan, c'est-à-dire pendant 28 ou 27 jours, exception faite de la naissance du premier et de la fin du dernier jour de ce mois, et voilà que, soudain, pour ces deux journées, ils n'ont aucune foi en ces maudites machines diaboliques que sont les observatoires et les horloges ! Haroun Errachid devient Charlemagne ! Que l'histoire de l'Islam est riche de paradoxes par le fait de certains Musulmans !

Excellences, messieurs et chers frères,

A la lumière de ces connaissances récentes que nous venons de mentionner, et nous basant sur les intentions et motivations profondes de notre Loi telles qu'elles ont été clairement exposées par nos savants et penseurs contemporains les plus illustres, puis nous fiant à notre expérience personnelle et compte tenu de feu vert qui nous a été accordé par la Commission algérienne de l'Ifta réunie à notre initiative, l'Algérie a résolu de mettre en pratique le verset suivant d'Allah le Très Haut : « Et que vous sachiez compter le nombre des années et le calcul ».

C'est ainsi que, finalement, nous avons renoncé à nous baser sur la vue à l'œil nu pour déterminer la nouvelle lune (néoménie) ; nous avons établi un calendrier islamique de l'année lunaire. Désormais, nous connaissons *à l'avance* la date des fêtes musulmanes et des solennités religieuses comme le commencement du mois de Ramadhan et des autres mois hégiriens. Ainsi pourrons-nous régler notre vie pratique d'après ces dates, et être à même de leur vouer notre respect populaire et officiel. Ainsi prit fin cette affaire controversée, contestée, où nos cheikhs, imams et autres muphtis ne cessaient de discuter, de s'insulter et de faire rire tout l'univers à leurs dépens et aux nôtres surtout au début de chaque Ramadhan et à sa fin.

Il reste que ce qui a été réalisé en Algérie n'aura atteint sa signification complète que s'il est généralisé sur le plan de l'univers islamique. Il n'aura son vrai sens que lorsque les grandes dates et fêtes seront unifiées, c'est-à-dire si nous établissons un calendrier *fixe et universel,* comme c'est le cas pour les Juifs et les Chrétiens, dans toutes les contrées du monde ou presque. Telle est l'œuvre que nous devons accomplir ici-même.

Naturellement, dans un souci d'unification, l'Algérie est disposée à abondonner son calendrier si l'on tombe d'accord ici sur un autre calendrier annuel et définitif, basé sur la science, quel que soit le pays dont l'observatoire aura servi à l'établissement d'un tel calendrier islamique unifié portant sur l'année lunaire, embrassant toutes les contrées du monde islamiques ou presques toutes et *donnant à l'avance les dates de l'année entière.*

Si nous n'arrivons pas à réaliser cette œuvre, l'Algérie conservera son propre calendrier et ne se fiera jamais plus à la vue à l'œil nu, comme cela s'est passé cette année même, où les témoignages se sont affrontés, se contradisant d'une région à l'autre, et s'opposant dans la même ville, dans le même quartier. L'on a vu alors des témoins sûrs, pieux et vertueux se traitant les uns les autres de menteurs, s'accusant réciproquement des pires forfaits et infligeant parfois, les uns aux autres, en toute simplicité et « générosité », des jeûnes expiatoires de soixante jours (kaffara). C'est ainsi que les fêtes musulmanes, au lieu de demeurer des occasions de se réjouir, de fraterniser, de communier, de se rendre visite et d'offrir un aspect d'union et de solidarité, dégénèrent en manifestations de mépris, d'offense, d'anathème, de rancœur et de rancune, ou, pour le moins, en actes de division et de conflit qui font de nous la risée du monde !

Messieurs,

Un autre sujet important mériterait que l'on s'y arrêtât : il s'agit des centres islamiques à l'intérieur même du monde musulman. En effet, notre jeunesse se trouve exposé à l'influence néfaste des centres culturels et autres organismes dont les tendances et les aspects sont multiples (progagande religieuse, sioniste ou athée etc...) mais dont les méthodes et les objectifs sont les mêmes. Nous pouvons déceler leur façon d'agir dans les livres, revues, cercles de réunion, publications, films (qui, hélas ! sont projetés par les appareils de certains Etats musulmans). Quant à leurs objectifs, ils visent à ébranler la foi de notre jeunesse, à jeter le trouble dans sa personnalité, à perturber ses sentiments d'authenticité islamique, en sorte que nos jeunes se mettent à douter de leur origine et deviennent une proie au désiquilibre mental et à la corruption morale qui, tous deux, ouvrent la voie à l'occupant étranger.

Lorsque nous considérons le cas des Musulmans qui vivent à l'étranger, nous constatons que le rôle joué par ces centres que nous préconisons de créer à leur intention n'est guère moins important. En effet, nos frères à l'étranger sont exposés à la dissolution et à l'assimilation. Leur personnalité risque d'y être défigurée et ce, à cause de leur éloignement. Nous les voyons subir toutes sortes de pressions, depuis la corruption jusqu'au chantage à la suppression de l'emploi, du poste administratif, du commerce et autres moyens d'existence. Certains Etats ont même proclamé ces intentions et sont passés à l'action.

Certes, à l'intérieur de nos frontières, (des pays musulmans), notre meilleur moyen de conforter notre jeunesse c'est de faire revivre nos universités islamiques chancelantes ou disparues, en en faisant des établissements parfaits embrassant à la fois le temporel et le spirituel (l'Islam n'est-il pas est à la fois religion et Etat ?) et en développant cet enseignement depuis l'école maternelle jusqu'à la fin des études universitaires.

Mais en ce qui concerne nos enfants émigrés, notre seul recours, du moins à l'heure actuelle, ce sont ces centres culturels et toutes les écoles que nous pourrons créer pour leur apporter les aliments de leur culture et de leur religion. Ainsi pourront-ils avoir une idée de leur glorieux passé, prendre conscience de la situation douleureuse où se trouve leur nation et de l'avenir heureux qui l'attend, si elle en a la volonté...

A cette occasion, je voudrais faire savoir aux frères ici présents, qu'un congrès de l'émigration s'est tenu récemment à Alger. Je voudrais leur dire également que la situation de nos enfants vivant à l'étranger, ainsi que la question du prosélytisme « missionnaire » sous toutes ses formes, figurent parmi les points inscrits à l'ordre du jour du 7^{me} Séminaire pour la Connaissance de la Pensée Islamique, dont les assises se tiendront en Algérie, l'été prochain. Un certain nombre de professeurs d'élite appartenant à tous les pays du monde musulman et environ deux mille élèves et étudiants d'origine algérienne ou étrangère, participeront à ce symposium.

Enfin, avant de renouveller au Koweït, pays frère qui nous permet de faire ce nouveau pas, mes sincères remerciements, je suggère que la tenue de notre congrès devienne périodique et qu'il puisse se réunir tous les ans ou tous les deux ans ; qu'il soit ouvert à tous les pays musulmans et non pas seulement aux pays arabes. Je vous invite à tenir la prochaine réunion à Alger. Le moment le plus favorable serait peut-être celui de la tenue du Séminaire sur la Pensée Islamique, avant son ouverture ou avant sa clôture, afin qu'il soit permis à tous d'y assister, comme certains en ont exprimé le désir.

Certes, la tâche de ceux qui veillent à la formation des êtres et à leur éducation est une des plus ingrates. Nous devons donc l'accomplir en ayant pleine conscience de notre responsabilité. Nous tous, nous ne faisons que passer notre chemin. Mais il est de notre devoir de demeurer la conscience vigilante de notre nation islamique, de lui montrer quels sont ses droits et quelles sont ses obligations. Nous ne devons jamais faire preuve d'esprit négatif, de timidité ou de faiblesse. Nous ne devons jamais nous contenter d'invoquer Dieu ou de maudire Satan dans les cas où il faut crier notre réprobation.

Puisse Dieu nous assister dans l'accomplissement de notre mission et que le Salut soit sur vous.

L'UNIFICATION DU CALENDRIER CONCERNANT LES SOLENNITES ET FETES RELIGIEUSES CONSTITUE L'UN DES ASPECTS LES PLUS IMPORTANTS ET LES PLUS NOBLES DE L'UNITE ISLAMIQUE

TEXTE DES PROFESSEURS : Ahmed **HAMMANI,**
PRESIDENT DU CONSEIL SUPERIEUR ISLAMIQUE,
et Abdelkrim GHAZLOUN,
SOUS-DIRECTEUR DE L'OBSERVATOIRE

Comme l'atteste le Coran, les musulmans forment une seule et même nation. Toutes les composantes de leur unité effective sont autant de témoignages de leur force, de leur vigilance et de leur droit à la vie. Tout désaccord entre eux, toute dispersion dans leurs rangs indiquent leur faiblesse et leur négligence et les exposent aux dangers d'effondrement et de mort. Si cette désunion porte sur la religion, sur ces pratiques et sur les causes qui s'y rapportent, elle devient une catastrophe pour l'Islam et les musulmans.

Il est donc certain que l'unification des époques au cours desquelles sont célébrées les fêtes et les solennités religieuses des musulmans, l'uniformisation des dates marquant le commencement et la rupture de leur jeûne (ramadhan), ainsi que le début et la fin des mois et des années de leur calendrier hégirien, constituent des aspects parmi les plus importants et les plus beaux de cette unité. Comme il n'est pas douteux que leur mésentente à ce sujet donne d'eux-mêmes et de leur religion une image combien déplaisante et pénible pour les croyants, en même temps qu'elle introduit la perturbation et la perplexité dans leur vie religieuse, politique, sociale et administrative. C'est ce qui a incité des esprits éclairés, réfléchis et volontaires à œuvrer efficacement et sans tarder en vue de les affranchir de cette situation déplorable.

CALENDRIER ISLAMIQUE UNIQUE, REPONDANT A LA FOIS A LA REGLE RELIGIEUSE ET AU CALCUL ASTRONOMIQUE

C'est là le résultat auquel sont parvenus es chercheurs compétents, et dont les penseurs, les dirigeants lucides, les savants versés dans a loi musulmane, les astronomes musulmans dont le savoir aussi bien que la loi offrent toutes les garanties de crédibilité, sont unanimes à reconnaître qu'il constitue le seul moyen idéal de réaliser l'unité dans ce domaine. C'est également ce qui a été décidé par la conférence des Ministres des Affaires religieuses, islamiques et des Wakfs des Etats arabes, qui s'est tenue à Koweit du 23 au 28 mouharram 1393 h. (26 février - 3 mars 1974), et qui a fait l'objet de la réunion aux fins d'exécution, de la "commission du calendrier islamique" issue de la dite conférence.

Engagement des gouvernements islamiques à mettre en pratique ce calendrier

Les résolutions de la conférence ministérielle déjà citée portent notamment : "obligation d'élaboration d'un calendrier lunaire par une commission désignée à cet effet et comprenant des docteurs de la loi islamique et des astronomes, et engagement des gouvernements islamiques à s'y conformer dans leur jeûne et dans sa rupture (ramadhan), ainsi que dans la fixation de leurs fêtes solonnelles et dans leur datation".

La conférence a de même décidé que cette commission soit composée de représentants des Etats arabes suivants : Algérie, Tunisie, Egypte, Koweit et Katar. Le professeur Abdallah AL-ANSARI, délégué du Koweit, a été désigné à sa présidence parce que jurisconsulte et astronome en même temps. Il a été convenu que dès leur achèvement, les travaux de la commission ad hoc seront soumis pour approbation à la seconde conférence ministérielle que l'Algérie s'est engagée à organiser dans sa capitale en y invitant tous les Etats musulmans.

Réunion de la commission ad hoc à Koweit

Sur invitation de Mr Rachid Abdallah AL-FARHAN, ministre des Wakfs et des Affaires Religieuses de Koweit, la commission ad hoc s'est réunie à Koweit les samedi et dimanche 6 7 rabia 2 1394 h., correspondant aux 27 - 28 avril 1974, en présence des délégués de tous les Etats concernés. Ont représenté :

L'Algérie : M.M. Abdelkrim GHAZLOUN, Sous-Directeur de l'Observatoire, Ahmed HAMMANI, Président du Conseil Supérieur Islamique.

La Tunisie : Cheikh Mustapha Kamel AL-TARZI, Directeur des Affaires Religieuses.

L'Egypte : Cheikh Mohammed KHATIR, Muphti d'Egypte, Professeur Abdelhamid SAMAHA, Directeur de l'Institut d'observations astronomiques et ancien professeur d'astronomie à Dar al oulou du Caire.

Le Koweit : Cheikh Atiah SAKR, vice-président du département de la culture islamique, Mr. Salah AL-OUDJEIRI, professeur d'astronomie, Professeur Abdellah AL-OKEIL, écrivain et directeur des affaires religieuses.

Katar : Cheikh Abdellah Ibnou Ibrahim AL-ANSARI, désigné par la conférence ministérielle à la présidence de la commission.

Les travaux ont été ouverts en présence de Monsieur le ministre des Wakfs et des affaires religieuses et ont eu pour cadre le siège du ministère koweïtien. Après le départ du Ministre, les débats ont commencé sous la direction du président désigné. La délégation algérienne a présenté un projet comprenant un ensemble de suggestions qui avaient fait l'objet d'une étude approfondie et minutieuse avec Monsieur le Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses. Ce projet a été apprécié et agréé par tous les délégués présents. Chaque délégation a présenté ensuite ses projets et suggestions.

Après une ample étude et des débats utiles et fructueux, les délégués ont convenu à l'unanimité que les bases devant servir à l'élaboration du calendrier islamique qui réponde à la règle religieuse et au calcul astronomique doivent être les suivantes :

1°) Le mois doit commencer à partir de la nuit qui suit la conjonction des astres du jour et de la nuit (naissance de la nouvelle lune).

2°) La distance angulaire de la lune par rapport au soleil ne doit pas être inférieur à sept (7) degrés, qui est la limite minimum pour qu'il y ait possibilité d'observer la nouvelle lune.

3°) La nouvelle lune doit avoir un stationnement suffisant, après le coucher du soleil, pour être visible à l'œil nu.

4°) La Mecque doit être le point géocentrique pour le calcul de la lune légale. L'accord étant réalisé sur ces points, Mr. Salah AL OUDJEIRI (astronome koweitien) fut chargé de mettre au point le projet de calendrier demandé, qui doit être soumis comme indiqué précédemment à l'approbation de la seconde conférence ministérielle dont la tenue est prévue à Alger.

PHASE FINALE :

L'élaboration de ce calendrier représente effectivement - s'il plait à Dieu - la phase finale d'une longue période d'études approfondies, de suggestions diverses, de recommandations et de résolutions. Car il y a environ cinquante ans que le savant professeur et "moudjtahid" du siècle, le cheikh Mohammed Rachid Ridha a proclamé la légalité de la mise en pratique du calcul astronomique en ce qui concerne la certification de la naissance de la nouvelle lune, et la faculté de son utilisation pour la détermination du début et de la fin du jeûne de ramadhan. Il a également énoncé que le calcul astronomique est utile à notre époque aux sciences exactes, ajoutant qu'il convenait de prendre en considération les résultats des astronomes, lorsqu'ils existent, car ils représentent une science exacte et sûre, et parce que l'application du calcul exact est plus proche des desseins de la religion. Il a également préconisé l'établissement d'un calendrier général où seront dressés les temps au cours desquels sera visible la nouvelle lune de chaque mois, dans chaque pays, à moins d'empêchement.

Le cheikh Rachid Ridha a dit encore à ce propos : "Grâce à la mise en pratique de ce calendrier lunaire islamique unifié, la concorde sera réalisée entre les musulmans et le désaccord leur sera épargné".

Il a de même prouvé, que Dieu ait son âme, la légalité de l'utilisation du calcul astronomique dans le jeûne et sa rupture, étant donné qu'il détermine aussi bien les horaires de la prière, de l'abstinence et de la rupture du carême au coucher du soleil, ce qui fait d'ailleurs l'unanimité des musulmans, sans pour autant qu'il ait été d'usage à l'époque du Prophète, - que le salut et la Bénédiction de Dieu soient sur lui, — ni à celle des premiers "salafs". Le cheikh Rachid Ridha a prouvé la négation d'une contradiction entre l'utilisation du calcul et les textes religieux, étant donné qu'il n'est pas possible que notre religion soit en confrontation avec les bases scientifiques ou les contredise. C'est également la réponse qui a été donnée par l'Imam Docteur Mohamed AL FAHAM à une question sur ce sujet, réponse qui a été publiée dans la "Revue d'Al-Azhar" et que nous citons :

"Cette question a été débattue par les jurisconsultes des premiers siècles, comme elle l'a été par l'Académie des recherches islamiques au cours des dernières années. Tous sont d'accord pour affirmer qu'il n'y a point contradiction entre la religion et la science, car c'est la religion elle-même qui invite au savoir...".

Le congrès de l'Académie des recherches islamiques auquel fait allusion le cheikh AL FAHHAM avait retenu le principe de la prise en considération du calcul astronomique pour la détermination de la nouvelle lune, même s'il a fait de l'observation oculaire la base de cet-

te détermination, en la rejetant toutefois si elle était entâchée de doute. C'est le cas, par exemple, lorsque l'observation visuelle contredit le calcul astronomique sûr, émanant de spécialistes dignes de foi.

Ce congrès a demandé aux gouvernements et aux peuples islamiques de désigner chacun un comité qui aura la charge de déterminer les mois lunaires, en liaison inter-comités d'une part, et avec les observatoires et les astronomes de confiance, d'autre part. Le cheik Al Fahham a enfin annoncé que c'est en vertu de ces décisions, et après contact, qu'à lieu en Egypte la pratique de la fixation du commencement et de la fin du jeûne de ramadhan.

Il y eut ensuite le congrès des savants musulmans tenu en Malaisie, lequel a adopté des recommandations soulignant la nécessité de mettre au point un calendrier lunaire islamique unifié, et demandant aux gouvernements islamiques de constituer à cette fin un organisme qui sera composé de savants dans les sciences religieuses et d'astronomes. Dans une déclaration du regretté cheikh Tahar ben Achour, que Dieu ait son âme, nous relevons ce qui suit : "Le droit de réduire le désaccord dans les affaires des musulmans exige de ne pas négliger de changer les situations par rapport à ce qu'elles étaient dans les siècles passés".

A propos de la certitude relative au calcul astronomique et au calendrier, le cheikh Tahar ben Achour a ajouté :

"Il faut entendre par calendrier les résultats des calculs opérés par les astronomes c'est-à-dire ceux qui ont une connaissance astronomique dont les fondements ne donnent aucune prise au doute et dont les évaluations excluent avec certitude tout risque d'erreur. Si le calcul précise le moment de la présence de la nouvelle lune, jour et heure, il y a sans aucun doute connaissance certaine du mois".

Pourquoi est-il impérieux d'établir ce calendrier ?

Ces multiples réunions, ces résolutions et recommandations, ces études et fetwas donnent une idée de l'état de tension et d'embarras auquel leur mésentente à ce sujet a conduit les responsables, les penseurs et les masses musulmanes. Cet état de choses offre, en effet, d'eux-mêmes et de leur religion, une image indigne et affligeante, et il n'y a pas d'autre issue à cela que la voie scientifique exacte qui soit conforme au principe religieux et ne contredise par ses textes.

Les faits douloureux et tristes sont là, nombreux : ils se répètent d'année en année, commentés malicieusement par l'humour populaire, rapportés par des témoins irréprochables et vécus par des millions de musulmans.

Entre la Libye et le Maroc, un écart de trois jours.

C'est ce qui est arrivé effectivement il y a quelques années. Le témoin qui rapporte ce fait est le professeur Mohammed al Mahdi Tahar Abou Hâmid, chef de la délégation libyenne à la conférence ministérielle de Koweit et il a été cité, dans l'une de ses conférences, par Monsieur Mouloud KASSIM, Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses, qui a noté à ce propos :

"Au cours de l'une des années passées, il (le professeur Mohammed al Mahdi) a quitté la Libye pour se rendre au Maroc, le 29e jour de ramadhan, donc la veille de l'Aïd al Fitr en Libye. Au cours de son escale à l'aéroport de Tunis, il constata qu'en Tunisie, c'était le 28e jour, c'est-à-dire la veille du 29e jour de ramadhan — A l'aéroport d'Alger il apprit que nous en étions au 27e jour, autrement dit la veille du 28e jour. Arrivée à Rabat, il trouva les Marocains célèbrant la "Nuit du Destin", car ils étaient, eux au 26e jour et à la veille du 27e Pourquoi cela ? Parce qu'il y avait un décalage de temps de 3 jours entre la Libye et le Maroc, la Libye commençant le jeûne un tel jour, la Tunisie un jour plus tard, l'Algérie deux jours plus tard et le Maroc trois jours. Ceci s'est répété assez souvent et il se répète quasiment tous les ans.

Est-ce que la science et le calcul astronomique admettent un pareil décalage entre les deux ailes du Maghreb ? La religion l'accepte-t-elle ? Certainement pas. Bien au contraire : il y a là de quoi être triste, malade, honteux, deshonoré.

Un ramadhan de 27 jours

Le professeur Abdelhamid Samaha, Directeur de l'Institut d'observation astronomique et professeur d'astronomie à Dar el ouloum du Caire signale dans une étude publiée par la presse que ce fait a véritablement eu lieu au Maroc il y a à peu près vingt ans. Il note textuellement : "Les nuages et le brouillard couvraient le ciel lorsqu'ils voulurent observer la nouvelle lune de radjeb, et ils terminèrent le mois de djoumada 2 à trente jours pleins. Les jours se suivirent et le ciel était toujours couvert quand il leur fallut observer la nouvelle lune de chaâbane : ils ne purent la voir et complétèrent donc radjeb à trente jours pleins également.

Le temps demeura stationnaire et ils n'eurent d'autre ressource que de compter de même trente jours pour chaâbane, faute d'avoir pu observer le croissant de ramadhan. Les journées de ramadhan se suivirent, alors que le ciel était toujours couvert, et ils atteignirent ainsi la journée du 27 ramadhan, selon leur décompte. Ils se préparaient à célébrer la "Nuit du Destin", et voilà que les nuages disparaissent, que le ciel s'éclaircit, et c'est ainsi qu'ils virent la nouvelle lune de chouwâl le 27 de ramadhan et qu'ils considérèrent le jour suivant comme le 1er de l'Aïd Al Fitr".

L'un des mois arabes comporte 31 jours

Le professeur Samaha rapporte dans la même étude : "Il est arrivé encore en 1959, que l'observatoire annonce l'impossibilité d'observer la nouvelle lune dans n'importe quel pays arabe le 6 juin, étant donné que le calcul précis atteste l'inexistence du croissant à l'horizon de ces pays, au cours de cette journée, puisqu'il se couche avant le coucher du soleil. C'est alors que le royaume d'Arabie Séoudite annonce l'observation de la nouvelle lune de ramadhan le même jour, ce qui oblige les musulmans à commencer le jeûne le lendemain.

Puis les jours de ramadhan se suivirent et 'es préparatifs de l'Aïd Al Fitr s'aprpochèrent. La surprise vint encore de l'Arabie Séoudite lorsqu'elle signala la vision de la nouvelle lune de chawâl, deux jours avant la date prévue pour sa naissance, d'où il résultat que le mois de

chawâl eut cette année là 31 jours". Ceci est la version du professeur Samaha. Il a sans doute cité le mois de juin par erreur, car il s'agit en réalité du mois de mars puisque l'Aïd Al Adha a été célébré cette année là le 16 juin, et que le décalage entre cette fête et le premier ramadhan est de 3 mois et 10 jours.

Quoi qu'il en soit, le fait qu'il a relaté pour l'année 1959, s'est répété cette année, puisque la nouvelle lune de ramadhan a été annoncée un jour avant sa naissance, et celle de chawâl deux jours avant. C'est ce qu'il ressort des déclarations faites par des savants dignes de foi en ce qui concerne aussi bien leur connaissance de la loi islamique que leur savoir astronomique. Le Professeur Samaha cite encore que "Dar al Iftâ" du Caire fixe souvent les débuts de mois essentiels à la lumière des rapports qui lui parviennent. Il ajoute :

"Nous apprendrons par la suite que l'un des pays arabes a fixé à un autre jour le début du même mois. Dans la plupart des cas, le désaccord n'a pas pour origine les raisons que nous avons exposées précédemment, c'est-à-dire la non-concordance dans l'apparition du croissant, étant donné que le calcul minutieux prouve l'inexistence formelle de la nouvelle lune à l'horizon de ce pays.

Il est résulté de tout cela, au cours des dernières années, une absence d'harmonisation dans la célébration des fêtes et solennités religieuses dans les pays musulmans : l'un observait encore le jeûne, tandis que l'autre l'avait déjà rompu, un pays célébrait le rite du sacrifice, alors qu'un autre jeûnait le jour de Arafât. L'institut d'observation astronomique était impuissant devant cet état de choses, car les avis qu'il émettait étaient et sont encore purement consultatifs, "Dar al Iftâ étant libre de les prendre ou non en considération. Les exemples, dans ce domaine, sont nombreux et attristants".

Dar al Iftâ a, entre autres refusé de suivre l'avis de l'observatoire de Halouan concernant le début de ramadhan pour l'année 1393, malgré les contacts entretenus par les deux organismes.

L'initiative algérienne et son effet

Il était devenu impérieux de prendre une initiative tendant à mettre fin à cette déplorable situation, et à lui dégager la solution authentique.

L'Algérie a eu le mérite d'avoir réalisé, la première, un calendrier lunaire islamique réunissant à la fois le calcul astronomique digne de foi et la règle religieuse. Ce ne fut pas, de sa part, le résultat d'une action précipitée, mais bien d'une étude approfondie, d'une conciliation entre les textes légaux et les règles de la naissance de la nouvelle lune, et les possibilités prévisibles de son observation. Cette initiative algérienne a exercé une forte secousse qui a reveillé nombre de gens et attiré leur attention, au point qu'ils se sont préoccupé de la question et l'ont soumise à exécution.

Justesse et précision du calcul algérien

Au fil des jours, les observatoires et les calculateurs ont démontré la précision du calcul de l'Algérie et sa justesse depuis la première année où notre pays a établi son calendrier lunaire et l'a mis en pratique en ce qui concerne le commencement et la fin du jeûne, les fêtes et les solennités religieuses.

Le premier calendrier élaboré par l'Algérie a précisé que le premier ramadhan 1392 h. tombera le lundi 9 octobre 1972, étant donné que la nouvelle lune ne serait pas visible dans son ciel le soir du 7 octobre. Le premier jour de ramadhan ne pouvait donc être le dimanche 8 octobre.

Au mois de chaâbane 1392 h (la même année donc), trois spécialistes égyptiens en astronomie, parmi les plus réputés, ont publié dans la revue d'Al Azhar une étude reproduite par le journal marocain "Al Alam", d'où il ressortait, en concordance avec le calcul des astronomes de l'observatoire d'Alger, que la nouvelle lune de ramadhan ne pouvait être observée le soir du 7 octobre dans le ciel de l'ensemble de la zone où se situent la plupart des pays musulmans, y compris les pays arabes. Il était possible, par contre, de l'observer le soir du dimanche 8 octobre. Une pareille prévision rigoureuse a été portée certainement à la connaissance de "Dar al Iftâ" du Caire, et celle-ci n'a pas hésité à annoncer le début de ramadhan pour le dimanche 8 octobre, en se fondant sur une "observation" que le calcul astronomique digne de foi certifie impossible.

Notre calendrier avait indiqué, l'année dernière, que le commencement de ramadhan aurait lieu le vendredi 28 septembre 1973, et nos savants dont le savoir, autant que la foi, sont "fiables", avaient déclaré de leur côté que la nouvelle lune ne pouvait être observée le mercredi 26 septembre 1973 parce qu'elle secouchait avant le coucher du soleil. Elle n'était donc visible que le soir du jeudi 27 septembre, ce qui impliquait que le début du mois serait le lendemain, soit le vendredi 28.

Le 20 septembre, l'observatoire du Caire publiait la confirmation de ce résultat dans un communiqué dont voici le texte : "Le 1er ramadhan sera le 28 septembre, selon le calcul astronomique'.

"Les calculs astronomiques faits par l'observatoire de Halouân indiquent que la nouvelle lune de ramadhan naîtra à 16 h. 54 mndans l'après-midi de mercredi prochain, correspondant au 26 septembre, et qu'elle se couchera dans tous les pays arabes et islamiques situés au nord de 20 degrés de latitude sud, avant le coucher du soleil, dans un temps allant de 5 à 27 minutes, selon les pays".

Le communiqué de l'observatoire du Caire indiquait ensuite : "Le jour qui suivra, soit le jeudi 27 septembre, le soleil se couchera au Caire environ 15 minutes avant le coucher de la nouvelle lune ; en conséquence, le 1er ramadhan sera le vendredi 28 septembre.

"Les calculs astronomiques prévoient également que le mercredi, la lune se couchera au Caire, 21 minutes avant le soleil, à Marrakech 17 minutes, à Tripoli 20 minutes, à Damas

22 minutes, à Baghdad 23 minutes, à la Mecque 18 minutes. Quant à la journée du jeudi, le temps de stationnement du croissant après le coucher du soleil sera de 15 mn au Caire, de 15 minutes à Tripoli, de 12 minutes à Damas, de 10 minutes à Baghdad, de 11 minutes à Alger et de 27 minutes à Khartoum. L'observatoire de Halouân envoie ce jour un rapport sur les conditions de visibilité de la nouvelle lune à son Eminence le Muphti d'Egypte".

Le rapport de l'observatoire d'Alger annnonçait, pour sa part, que la nouvelle lune resterait visible dans le ciel algérien après le coucher du soleil jeudi soir, selon le tableau suivant : 9 minutes à Alger, 12 à Biskra, 16 à Ghardaïa et Béchar, 19 à Tindouf, 23 à Tamanrasset. En conséquence, le commencement de ramadhan 1393 h., sera le vendredi 28 septembre. Quant à la journée du mercredi, il sera impossible d'y observer la nouvelle lune, car elle disparaîtra avant le soleil dans des temps allant de 16 minutes minimum à Tamanrasset, à 22 minutes maximum à Alger. Ce qui fait que le début de ramadhan ne peut absolument pas être le jeudi 27 septembre, étant donné l'impossibilité d'observer le croissant s'il se couche avant le soleil !

Les résultats auxquels étaient parvenus les astronomes de Halouân au Caire et de Bouzaréah à Alger étaient d'ailleurs identiques à ceux des Musulmans résidant en Amérique du Nord, lesquels s'appuient sur le calcul exact et précis. Le Dr Mohammed Abdou ar-Raoûf écrit, en effet, dans la revue "Al Ouaï al Islami" de Koweit, numéro de janvier 1974, ce qui suit :

"Il avait été établi, grâce aux calculs effectués par des astronomes compétents, sur des bases sûres et des rapports précis, que le 1er ramadhan 1393 h. coinciderait avec le vendredi 28 septembre 1973, et que la fête de l'Aïd al Fitr serait le dimanche 28 octobre suivant. Les Musulmans avaient donc prit leurs dispositions sur la base de ces données..., quand la radio du Caire annonça subitement — et fut entendue par quelques musulmans — que l'observation de la nouvelle lune avait été confirmée et que le jeudi 27 septembre serait le début de ramadhan. Le tumulte et l'agitation furent à leur comble, il y eut d'interminables communications téléphoniques de toutes les régions d'Amérique, demandant des précisions... La même situation, en plus pire, se répéta lorsqu'on apprit l'observation de la nouvelle lune de chouwâl le soir du 25 octobre, et l'annonce que l'Aïd al Fitr commencerait le vendredi suivant, c'est-à-dire deux jours avant la date déterminée par nos astronomes".

Il est permis à ces musulmans émigrés et à d'autres se trouvant en terre d'Islam, de s'agiter et de marquer leur réprobation et leur mécontentement, car cette "observation" n'était pas digne d'être prise en considération et de constituer en fondement, étant donné qu'elle était entâchée de doute. Le Congrès de l'Académie des recherches islamiques du Caire n'avait-il pas décidé que l' "observation serait inacceptable si elle était entâchée de doute, et que l'une des raisons qui font naître le doute dans la déclaration d'observation et dans son annonce au public était précisément le fait d'être en contradiction avec le calcul astronomique digne de foi, émanant de personnes dignes de foi ?

De tout temps, les savants ont rejeté l'observation douteuse. Malik et Sahnoun déclarent à propos de deux témoins observant seuls la nouvelle lune, dans une vaste contrée, par

temps clair et témoignant de cette observation : "Ce sont deux faux témoins". Ibnou as Sabki considère pour sa part que l'observation doit être rejetée si elle contredit le calcul exact.

L'Imam Cheikh Mohamed Dakhit al Moutiî, mufti d'Egypte écrit dans son livre intitulé : "Irchad ahlal millah ilâ itbbât al hillal", dans le contexte du rejet de l'observation, ce qui suit : "Si le calcul indique l'impossibilité de l'observation de la nouvelle lune et si un informateur annonce l'avoir observée, cette information admet la sincérité et le mensonge. Le mensonge admet la préméditation et l'erreur, l'une et l'autre pouvant avoir d'innombrables motifs Il n'est donc pas judicieux d'accepter l'information admettant cela ni d'en porter témoignage alors que cela est impossible, car la loi (islamique) n'apporte point d'impossibilité...".

Il résulte de ce qui précède que notre calcul est judicieux et qu'il correspond à la fois à la religion et à la réalité. Le grand savant Abdullah Ibnou Ibrahîm al Ansâri, président de la commission du calendrier musulman, qui est en même temps jurisconsulte et astronome, a déclaré que la soit disant observation de la nouvelle lune de ramadhan 1393 h était sans fondement, impossible scientifiquement et inacceptable. Il a ajouté qu'il avait informé de cela les responsables et qu'il avait, en conséquence, rempli sa mission.

Beaucoup de ceux qui s'opposent à l'utilisation du calcul astronomique en ce qui concerne le jeûne et sa rupture, nous ont fait remarquer que cette méthode n'a pas pour autant éliminé le désaccord, puisque l'Algérie comme la Tunisie se basent sur le calcul, ce qui n'empêche pas les divergences entre elles en ce qui concerne le début et la fin du jeûne.

La réponse à cette remarque, c'est que la Tunisie se fonde sur le mois astronomique, lequel commence lorsque la lune se sépare du soleil et ce mois est en avance d'un ou de deux jours sur le mois déterminé par l'observation.

La Tunisie a adopté cette méthode en vertu d'une décision basée sur la consultation de savants et sur les opinions de certains jurisconsultes, ainsi que le déclare le grand professeur Kamal at Tarzi, décision qui a été prise à la suite d'une fetwa légale émanant du grand muphti de Tunisie, le regretté savant Mohammed Fadhel Ben Achour, et de son père, l'imam Mohammed Tahar Ben Achour. Celui-ci compare clairement la connaissance de l'existence de la nouvelle lune par le moyen du calcul astronomique exact, à la connaissance par le moyen de l'observation sensorielle certaine. Il remarque dans l'une de ses déclarations que la connaissance de la présence de la nouvelle lune peut se réaliser à partir de l'une des trois voies suivantes : la vision sensorielle qui est utile à la science ; le complètement du décompte du mois (de chaâbane) à trente jours pleins si elle (la vision) n'a pas lieu, (et il n'est pas possible que le mois puisse dépasser 30 jours) ; et enfin le calcul astronomique certain, basé sur des données authentiques. La vision était jadis la voie unique, et c'est la raison pour laquelle le Prophète a dit : "Jeûnez à son observation (la nouvelle lune) et rompez le jeûne à son observation également". Lorsque le calcul fondé sur une science exacte atteste cette présence, il n'y a pas d'empêchement à son assimilation, de façon claire, à l'observation".

L'Algérie, quant à elle, a adopté la voie confirmée par Ibn Dakik al Aîd et les savants qui sont venus après lui, tels l'imam Mohammed Rachid Ridha, que Dieu l'ait en sa miséri-

corde, et le professeur Allal al Fassi. Cette méthode adoptée par notre pays repose sur le calcul indiquant que la nouvelle lune s'est levée dans le ciel de façon telle qu'elle est visible s'il n'y a pas, par exemple, empêchement. Nous ne considérons pas comme une condition formelle la vision réelle. Ainsi se trouvent conciliés l'application du texte (Jeûnez à son observation et rompez le jeûne à son observation également) et la mise en pratique du calcul exact.

En réalite et dans la pratique, il n'est pas possible que la nouvelle lune ne soit pas observée, selon cette méthode, si elle est attendue et guettée dans le but de confirmer son existence et la possibilité de son apparition. Si elle l'est pas observée dans un endroit, elle l'est dans un autre, contrairement à la méthode basée uniquement sur la vision et faisant fi des résultats obtenus par le calcul astronomique. Cette dernière conduit à des erreurs et à des scandales, comme en témoignent les faits vécus.

Le cheikh Mohammed khâtir, grand muphti d'Egypte, nous disait lors de notre réunion à Koweit qu'il avait annoncé le début de ramadhan 1393 h, pour le jeudi 27 septembre 1973, en se basant sur une observation effectuée en Arabie Séoudite, sur une autre enregistrée au Koweit et enfin sur une observation "largement répandue" en Syrie ! Malgré cette "observation large", le contenu de la décision qui a été prise par le congrès de l'Académie des recherches islamiques et la déclaration du docteur Mohammed al Fahham, précédemment doyen d'Al Azhar, impliquent l'interdiction d'annoncer ce qui contredit la science. Le congrès de l'Académie des recherches islamiques déclare en effet : "L'observation constitue la base, mais elle n'est pas considérée si elle est fortement entâchée de doute". Il déclare aussi dans la seconde décision concernant les causes de rejet d'une information annonçant l'observation : "... Parmi ces causes, il y a le fait d'être en contradiction avec le calcul astronomique digne de foi, émanant de personnes dignes de foi également". Le Dr Al Fahham dit à ce propos : "C'est sur la base de ces décisions qu'a lieu en Egypte la pratique de la proclamation du commencement et de la fin du jeûne, après contact", c'est-à-dire après contact avec l'observatoire et les astronomes dignes de confiance, comme le stipule la sixième décision adoptée par le Congrès. Il est à noter que l'Académie des recherches est considérée par beaucoup comme l'Académie des "moudjtahidines".

Il est donc établi que l'observatoire de Halouân a pris contact avec "Dar al Iftâ", comme en témoigne son communiqué publié par "Al Ahram" en date du 20-9-1973.

Il se peut que certains trouvent "énorme "le fait de prétendre rejeter un témoignage, particulièrement s'il est "largement répandu". mais l'acceptation d'un témoignage dont la science atteste le caractère mensonger est plus "énorme encore, si l'on considère que cela revient à dire qu'un groupe témoigne avoir vu ce qui est habituellement impossible, ce qui n'a, de manière absolument formelle, aucune existence, que ce groupe a donc vu dans le ciel un croissant lunaire disparu depuis plus d'une demi-heure !

Le cheikh Bakhit, muphti d'Egypte, justifie le rejet d'un tel témoignage

Le cheikh Mohammed Bakhit al Moutiî, muphti d'Egypte et l'un des éminents savants de l'Islam déclare : "La condition qui s'attache à l'objet d'un témoignage est la possibilité

(d'existence). Si le calcul prouve l'impossibilité d'observation et qu'un informateur annonce l'avoir observée (la nouvelle lune), son information peut être vraie ou mensongère, le mensonge peut être voulu ou découler d'une erreur, les deux cas pouvant avoir des causes sans nombre. Il n'est donc pas sage d'accepter l'information admettant cela ou en témoignant, tout en sachant qu'il y a impossibilité d'observation, car la religion n'apporte pas ce qui est impossible. C'est là une question que nous n'avons pas trouvée écrite, mais à propos de laquelle nous avons fait un effort de réflexion approfondie dont la conclusion est l'inacceptation d'un tel témoignage. Si les jurisconsultes se sont tus sur cette question, c'est parce qu'il est rare qu'elle se produise, et, puisqu'elle s'est produite de notre temps, nous avons eu besoin d'en parler. Il nous est arrivé de constater que des personnes dont les actes et la religion sont dignes de confiance, commettent souvent des erreurs.

Comme nous avons entendu certains ignorants déclarer qu'ils avaient en vue — par de tels témoignages — la piété, et croire qu'ils avaient droit, ainsi, à la récompense dûe à ceux qui jeûnent en se basant sur leurs dires. Nous avons même appris que certaines personnes sans moralité ambitionnaient, en témoignant (avoir observé la nouvelle lune), d'acquérir de la considération et d'accréditer leur moralité. Les gens ont des desseins tellement variés !

Même dans le cas où le témoignage se trouve dégagé de tous ces aspects et où la position du croissant ne souffre aucun empêchement, mais où cependant, l'existence de la nouvelle lune est prouvée impossible, nous rejetons ce témoignage et nous le portons sur le compte de l'erreur ou du mensonge, sans pour cela enfreindre la loi religieuse. Car la preuve administrée par le calcul exact ou presque exact, est plus forte que le doute, étant entendu que le doute fait obligation de rejeter le témoignage. Notre conviction en ce qui concerne l'impossibilité d'existence (de la nouvelle lune) est identique sinon plus forte, et nous sommes, en conséquence, pour le rejet catégorique d'un tel témoignage".

C'est là un langage très clair, prononcé par l'un des plus illustres imams de l'Islam, dont la conduite est au dessus de tout éloge, et dont le désintéressement, la position scientifique et religieuse éminente sont reconnus aussi bien par les Azhariens les plus conservateurs que par les salafites réformateurs tels Mohammed Abdouh, Rachid Ridha, Ibnou Badis et autres. Il précise bien que, n'ayant pas trouvé pareille question écrite, il s'est efforcé de lui trouver une solution par la réflexion et l'adaptation. Aurions-nous régressé au lieu de progresser et battu en retraite au lieu de demeurer fermes ?

Notre désaccord s'est-il accru alors que les motifs de notre unité se sont au contraire confirmés ?

Pour ce qui est de l'accord intervenu à propos du choix de la Mecque en tant que point géocentrique du "jour légal", pour reprendre une expression d'Abou al Oulâ, ou du "croissant légal", selon l'expression de la Commission du calendrier, il a été considéré que la Mecque se situe au centre des pays dont la majeure partie de la population est musulmane. Le professeur Abdoul Hamid Samaha écrit dans son étude intitulée "le calendrier hégirien", ce qui suit :

"Il est à remarquer que les pays dont la proportion de la popluation musulmane dépasse 50 % se situent dans un rectangle délimité par les deux latitudes, nord 40° et sud 20°, et par les deux longitudes, 20° ouest et 12° est, la Mecque étant au centre de ce rectangle. C'est pourquoi certains ont proposé que soient calculées les conditions d'apparition de la nouvelle lune pour la Mecque seule, et que les résultats soient imposés au reste des pays musulmans".

Il est de fait que, située au cœur du monde habité par une majorité de population musulmane, la Mecque est à ce point "centrale" que lorsque la nouvelle lune apparaît dans son ciel et lorsqu'elle est observée par ceux qui guettent et attendent son apparition, celle-ci est obligatoirement visible pour ceux des Musulmans qui se trouvent à l'ouest de ce point géographique. Il est rare que la nouvelle lune soit observée dans les pays situés à l'ouest de la Mecque sans qu'elle le soit dans cette cité également. Dans pareil cas, les savants peuvent attirer l'attention sur cette "anomalie" afin d'en prévenir les conséquences.

Il y a aussi le fait que La Mecque est la "mère des cités", la "Kibla" des Musulmans dans leur prière, le lieu de leur rituel du pélerinage. Ajoutons à cela que cette métropole sera dotée bientôt d'un observatoire ultra moderne qui bénéficiera d'un équipement perfectionné et où travailleront les plus grands mathématiciens et astronomes musulmans. Cet observatoire comblera les espoirs de tous les Musulmans, en ce sens qu'il aura les moyens de réaliser certaines de leurs décisions et recommandations antérieures.

Position de l'Algérie, hier et aujourd'hui

La conférence des Ministres des Affaires Religieuses, Islamiques et des Wakfs tenue à Koweit a décidé "la généralisation de l'installation des observatoires astronomiques dans les pays arabes et musulmans, en tant que préliminaire à l'adoption du calcul astrnomique digne de foi pour la détermination des commencements des mois lunaires".

Elle a décidé également "la constitution, dans les meilleurs délais, de la commission citée dans l'article quatre, de sorte que cette commission ait terminée sa tâche avant la réunion de la seconde conférence ministérielle".

L'Algérie — par la voix de son Ministre, le frère Mouloud KASSIM — a annoncé qu'elle se chargeait d'organiser ces secondes assises au niveau du monde musulman, en y invitant les Ministres des Affaires Religieuses, Islamiques et des Wakfs de tous les Etats islamiques, auxquels sera soumis le travail de la commission, aux fins d'approbation et d'exécution.

Nous sommes — en Algérie — avec les Musulmans s'ils sont d'accord sur un calendrier lunaire unifié et stable, engageant tout le monde. Dans ce cas, nous sommes disposés à délaisser notre calendrier propre et à mettre en pratique ce que le consensus aura décidé.

Dans le cas où la situation resterait dans l'état de confusion et de perturbation engendré par la prise en considération — uniquement — de l'observation à l'œil nu, même si celle-ci contredit la science exacte et va à l'encontre des faits, nous conserverons notre calendrier et continuerons à le mettre en pratique, parce qu'il répond à la fois à la règle religieuse et au calcul astronomique digne de foi, sans compter que le temps a démontré sa "fiabilité" et sa précision. Puisse Dieu nous guider vers le droit chemin.



No 22

فهـــرس العـــــدد

للأمم أيامها

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي
والشؤون الدينية

لحقب التاريخ آلامها وآمالها ، وللامم فيها ايامها ولياليها ، هي المناسبات والاعياد الكبرى التي تحتفي بها وتحياها ، وينعكس فيها كما في المرآة محياها ، تستعرض فيها ماضيها ، وتشاهد مجسما حاضرها ، وتتصور ماثلا فيها مستقبلها !

واذ تحتفل الجزائر بالذكرى العشرين لبدء المرحلة الأخيرة من كفاحها التحريري ، الذي استعادت به استقلالها وسيادتها بين الأمم ، فانما تتصفح سجل مقاومتها عبر العصور ، تلك المقاومة التي شملتها كلها ، وتجاوزت في المرحلة الأخيرة هذه عبر البحار حدودها ، وامتدت الى قلب العاصمة التي كانت خصمها ولدودها ، وخرقت أخدودها وسدودها !

تحيات صادقة الى تلك المقاهى الندية والفنادق المعتمة ، فى تلك الازقـــة الضيقة والكهوف المغتمة ، التى كانت المنطلق الفعلى لحركتنا التحررية فى مرحلتها الفاصلة القاصمة ، شاءت قوى الشر فى تلك الازقة ذلك أم كانت الواصمة ، ومهما رأت تلك القوى فى ذلك بداية حتفها ، فما أظنها الا فخورة به رغم انفها ، وما اخالها الا معجبة بما تفجر عن عماها وسخفها !

سلام عليك ايتها الهجرة الحديثة فى الخالدين ، وما أشبهك بهجرة الامس البعيد ! وما اشبه دورك فى كفاحنا التحريرى بذلك النور الذى ارتد من تضاريس الحبشة الى بطحاء أم القرى ، دار الاسلام ! أم لم يطلع « النجم » من غربك ؟ والم يجد « الشعب » متنفسا فى اعماقك ؟ والم ينطلق « الانتصار » معك ؟ والم تتوسع « الجبهــة » لديك وتزودى الثورة بالعون المديد والنفس الجديد ؟ والم تكن زمجرة 17 اكتوبر الصدى القريب لذلك النداء المجيد ؟ عــودى بقايا الهجرة والعــود احمد ، وظلم الاستعمار والعنصرية أخمد ، والبحر بعد عودتك اكثر ما يكون أجمد !

وايه نفامبر ، لقد غطيت على يوليو واكتوبر ! فبوركت من شهر أهل ، اذ بك الشعب حريته استأهل ، وفيك وجد لعودة حياته المنطلق والمنهل !

وايه مناضلى وجنود المقاومة والتحرير من أحياء الدارين ، ذكروا فى كل فاتـــح نفامبر الاسلاف بأن بلادهم قد وضعت حدا لاستعبادها واستغلالها ، باستعادة حـــريتها واستقـــلالها ، واسترجاع مكانتها بين الأمم وسيادتها ، وحرية التصرف فى شـؤونها وقيادتها ! ودووا بجهورى صوتكم فى المحافل الدولية بعد أن كنتم تعقدون اجتماعاتكم ســـرا وفى الزنازن ، وفى اعمـــاق المخابىء وكهوف المخازن ، جاهروا بها واخبروا عن استقلال الجزائر بالجزم بعد ان تم وذهـــب عليه الخوف ، واستعملوا قد وذروا السين وسوف !

وانتم شباب اليوم ، ممن لم يعاصر تلك الأيام معاصرة معاناة ودراية ، ولم يسمع عنها الا حكاية ورواية – وما اقصرن تلك الروايات عما تستحقه المرويات من كل اهتمام وعناية ! ، حاولوا أن تتشبعوا بروح تلك الايام ، وتستخلصوا منها ما به الدوام والقيام ، وبدون أن تفتحوا قلوبكـم للاحن ، فلا تنسوا الآلام والمحن ، وكونوا جيلا يعفو ولا يغفو ، يسمح ولا يمسح ، يتسلح حتى لا يتحلس ، ويصدع بالحق لئلا يدلس ، ويغار على الشرف من ان يدنس ، وعلى الحقيقة من أن تخنس ، ويحمى نفسه حتى لا يحتاج الى حماة ، ويرى فى الحصانة والأصالة أصعب قناة وانفذ رماة !

ابنوا وحققوا الأهداف ، وميزوا بين الجواهر والأصداف ، وبهذا تفون لانفسكم وللشهداء بالعهد ، وتكونون مع التاريخ والعصر على وعـد ، ويرتقى انجازكم الى المستـــوى ، دوامـــا ، وشكـــلا ، ومحتوى !

بعض دروس ثورة
فاتح نوفمبر

عثمان شبوب

هناك احداث وايام تبقى مواقيت معلومة خالدة في حياة الامم والشعوب ، تسجل فترات حاسمة في تاريخها ، كيوم الهجرة الذى اصبح بداية التقويم الاسلامى ، وعام 1453 الذى يؤرخ سقوط الامبراطورية الرومانية وانتهاء العصر القديم .

ويوم الفاتح من نوفمبر 1954 فى الجزائر يمثل احد الاحداث البارزة فى تاريخ كفاحنا التحريرى المتواصل عبر العصور ، يجب تقييمه وتحليل طبيعته ، واستخلاص نتائجه ورصد آفاق مستقبله .

ومقالات هذا العدد فيها الكثير من الضوء على ابعاد هذه الثورة . وكلمتى هذه عنها ليست موضوعا محددا بقدر ما هى انطباعات أو موضوع انطباعى عن بعض دروسها الكثيرة ، الغنية مستوحى من بعض ما يقال، او يكتب، او يتردد .

القدرة على استشفاف المستقبل

كانت الظروف الداخلية والخارجية التى سبقت اعلان الكفاح المسلح واستمرت اثناءه ، ـ موضوعيا ـ عوامل ملائمة . فداخليا شهدت فترة ما قبل 1954 نموا ملحوظا فى العمل التنظيمى والوعى السياسى ، واستفحال التناقضات بين الشعب وبين الاستعماريين مما جعل اعلان الكفاح المسلح تفجيرا لا بد منه لذلك الغليان الشعبى الكامن . وخارجيا شهدت نفس الفترة ـ وخاصة بعد هزيمة ديان بيان فو ـ بداية انهيار القلاع الاستعمارية فى عدد من بلدان العالم والنمو المتعاظم للعسكر الاشتراكى .

بالرغم من توفر هذه العوامل ، فقد وجد فى صفوف الوطنيين ، وفى بعض قطاعات الشعب من اتهم عملية الثورة بالخيال ، والمغامرة ، واحيانا بالجنون ! كيف نفسر هذا الموقف ؟

ان هذا الموقف يكشف عن ظاهرة نفسية وفكرية واجتماعية عرفتها كل الحركات الثورية وهى الاختلاف فى القدرة على رؤية المستقبل واستشفافه من خلال ظواهر الحاضر المعاش .

ويترتب على ادراك هذه الظاهرة ـ التى هي كما قلت ، لا تشكل اكتشافا جديدا ـ ان احداث التاريخ ، ليست جثثا محنطة ، ولا مواقف معلبة وبالتالى فانه لا يمكن الاستغناء عن الخيال فى صناعة المستقبل · الثورة حلم ، قبل ان تكون واقعا يعيشه الناس ·

اذن ، ليس فى التاريخ ما هو ثابت · والتاريخ يتقدم ، ولكن ليس بآلية ذاتية ، وانما بدفع من خارجه · صحيح ان تقـدم التاريخ لا يسير فى خط بيانى غير متعرج · خط التاريخ تصاعدى يقفز طورا ، وينحدر طورا ، ولكنه يصعد دائما ·

وهذا ما لم تدركه تلك العناصر ، ولا اليوم أيضا ·

من هو جيل الثورة ؟

الانطباع الثانى بهذه المناسبة ما يتردد حول ما يسمى بجيل الثورة : البعض من الشباب يريد ان يزيل بجرة قلم فترة كاملة من حيــاة الامة هى فترة ما قبل 1954 ، وبالتالى يرى فى رجالها كائنات اثرية يجب ان تتقاعــد الآن · والبعض الآخر يرى ان ما قبل 1954 هو الثورة فى اخلاصها ونزاهتها وان رجال تلك الفتـــرة هم المؤهلون قبل غيرهم لتولى مسؤولية الثـــورة فيما يأتى من مراحلها ·

ورأيى الخاص ، ان جيل الثورة ليس فقط ذلك الذى تفتـــح فى ظـــل الثورة ، بقيمها ، ومفاهيمها ، واهدافها ·

وجيل ما قبل الثورة ، ليس بالضبط ذلك الذى نما ، وعمل ، وادى دوره فى ظروف ما قبل الثورة ، فهناك من اكتمل نضجه قبل هذه الفترة ولكن احتفظ بشبابه النفسى ، وحيويته الفكرية حتى بعد الثورة ·

فجيل الثورة بهذا المعنى هو ذلك الذى اسيقظ وعيه ، وعاش الثورة بعقله ووجدانه بكل ابعادها ، قبل ان يراها واقعا حيا يتجســـد ، وساهم اثناءها وبعدها بنفس الـــروح وبنفس الحماس ، مهما حققت من احلامه ، أو خيبت منها · فهو يعتز بهذه الفترات جميعهـــا ، وتعيش فى نفسه ، ويراها متصلة الحلقات ، متطورة متجددة باستمرار ·

الاحتكار الاديولوجى للثورة :

اثبت التجربة الثورية الجزائرية ، انه لا يوجد احتكار مذهبى للكفاح · فالثورة ليست ملكا لمذهب سياسى ، أو اجتماعى واحد · فكل الثورات الحقيقية اتت باسلوب خاص فى الكفاح يتماشى وظروفها الاجتماعية والفكرية والاقتصادية ·

ولعل من افدح اخطاء بعض المهتمين بتاريخ الثورات · فى العالم العربى ، محاولتهم استخدام القياس كوسيلة للفهم التاريخى ، وللنقد الثورى·

فالثورة الفيتنامية التى يحلو لاخواننا دائماًاتخاذها كمقياس ، لم تطبق التجارب الثــورية الصينية ، او السوفياتية ــ وان استفادت منهامع مراعاة واقع بلادها الخاص ·

فالثورة الجزائرية ــ وهذا من ابرز ما يستخلص منها من دروس ــ لم تنقل هذه التجربة الثورية أو تلك من التجارب الثورية العالميــة ،وتحاول غرسها فى قلب الواقع الجزائرى ، بالرغم من وجود سمات مشتركة بين جميع ثورات العالم ·

اعتمدت الثورة الجزائرية أولا على عناصر منها :

التركيز على القوة الذاتية كعامل رئيسى فىتحقيق النصر ، ويتمثل هذا فى تنظيم قــوى الثورة واستغلال امكانياتها مهما بدت بسيطــة ·لانها تؤمن **بانه لا توجد قوة** تكنولوجية تستطيع هدم الانسان · الا اذا فرط هذا الانســـان فىمعتقده ، وتنظيمه ، وعزمه على الكفاح ·

وفى مقابل التقنية المضادة ، تقنية الجيشالفرنسى والحلف الاطلسى · استطاعت الثــورة الجزائرية ان تطور اسلوبا فى الكفاح ، وتخلق تكنولوجية من نوع جديد ، تعتمد اساسا عـــلى الانسان · فالوسائل البسيطة التى استعملهـاالمجاهدون فى الثورة ، لمقارعة الجيش الفرنسى المزود باحدث الاسلحة واتت بنتائج ايجابيـــةينبغى ان تدرس لذاتها اولا كأحد دروس الثورة ولاستخلاص العبر منها لعملية البناء · فهــذه التكنولوجيا البسيطة استطاع الفلاح الجزائــرى ان يكفيها بمرونة مدهشة خلال كفاحه لانها نابعةمن داخله ، وليست مفروضة آليا عليه مـــن الخــارج ·

درو الدين فى الثــورة :

هذا العنصر ، يمثل فى الواقع ، تكنولوجيا ــ ان صح التعبير ــ الثورة الجزائرية الاساسى عبر تاريخها الطويل ، فهو روح ومحرك مختلفمراحل الكفاح الوطنى ، ومفجر قوى الشعب ·

ولذلك كان رجال الثورة يسمون بالمجاهدين ، وجريدتهم تسمى بالمجاهد · وكلمة «الجهاد» لدى الشعب · لها رنين خاص وطابع تعبــوى ــكما يقال ــ وهذا ما يفسر استبدال كلمة مقاومة بكلمة : جهاد ·

وقد كانت جريدة الثورة فى السنوات الاولى تسمى « المقاومة الجزائرية » ثم استبـــدلت بــ : «المجاهد»·وهذا التعبير له دلالة روحية وفكرية فى رأيى · فكلمة « المقاومة » توحى بالضعف ، ويقابلها كلمة القوة · وبدون الدخول فى التحليلات اللفظية للكلمة ومقابلها أقول : ان المقاومــة ايا كان نوعها لا تمثل فعلا من الافعال ، بل هىمجرد رد فعل · فالمقاوم بهذا المعنى يقوم فقــط بصد الفعل ·

اما كلمة «الجهاد» فتعنى باختصار ، الهجوم، والفعل • والمستعمر هو الذى يقاوم ، ويـرد الهجوم • وشتان ما بين المعنيين فى التحليل وفى الاثر النفسى • وعن طريـق هذا اللقـــاء العنيف بين الجهاد والمقاومة المضادة ، تتـــولد شحنة ذات طبيعة روحية تعطى لحـركات الثورة صلابة ، ونفسا جديدا •

هل الثورة الجزائرية خالية من الاخطاء ؟

لم يسبق ابدا ان وجدت حركة ثورية خالية من الاخطاء ونقاط الضعف • ولا اظـن ان الثورة الجزائرية مستثناة من هذا القانون العـام للثـــورات •

ومع اقرارنا جميعا بهذا المبدا ، فـــان« التابو » لم ينحسر بعد عن البحث فى تاريـخ الثورة ، وكأن قدسية القضية قد انسحبت كذلكعلى اخطائها • فباتت الاخطاء كذلك مقـدسة ، لا تجرؤ عين الناقد على كشفها • وان كشفها عجزلسانه عن ترددها وتسجيلها •

ولست أدعى ، ان نقد الثورة الجزائريـةهو بالامر الهين ، لكن مع ذلك لا بد من التصدى لدراستها ـ بما امكن ـ من الموضوعية ، حـــتىلا تبقى قضية تعبدية لا يجوز الخوض فيهـــا ، ولأن بناء المستقبل ، يتوقف على فهم الماضى ،اذ كثير من ظواهر اليوم هى امتداد متطـــور لظواهر نمت خلال حرب التحرير •

تحويل الثورة الى نظام :

اكد الرئيس بومديـن فى تصريح لمجلـة « الطليعة » المصرية ـ ان بناء الثـورة مـــن فوق عملية فاشلة من اساسها •

والثورة الجزائرية حافلة بعديد الشواهدالمؤكدة لهذا القول • فتعبئة الجماهير وتوعيتها اثناء الثورة جعلت كل واحد من المواطنين داخـلا فى «النظام» اى الثورة • واصبح يقوم بواجبه فى عملية الامداد ، والتموين والاخلاء والاسعاف ، والاستخبارات : بجميع المعلومات عن العدو، ونقلها الى المجاهدين • وتطبيق المبدا الثـورى : « لم اسمع ، لم اشاهد ، لا اعرف » •

هذا البناء القاعدى السليم هو الذى حمىالثورة من الفشل ، رغم المشاكل التى حـدثت فى بعض الفترات ورغم استشهاد العديد مـــنقادة الثـــورة •

وبلادنا اليوم قد اقبلت على مجموعة منالتدابير الثورية ، ووضعت الكثير من شعـارات الثورة موضع التنفيذ ، وضمان كل ذلك ، هوالاستفادة من ذلك الدرس التاريخى الذى علمتنا اياه الثورة وهو : النظـام •• تحويل الثـورةالى نظام • يزول الاشخاص ، وتبـقى الثـورة مستمـــرة •

أحداث مهدت
لفــاتح نوفمبــر 1954

عبد الحميــد مهرى
الامين العام لوزارة
التعليم الابتدائى والثانوى

ان الكتابة عن أحداث مر عليها اكثر من 20 عاما مهمة دقيقة وغير مامونة العواقب اذا اعتمدت فقط على مـا بقي عالقــا بالذاكرة ، وان مجرد الشهادة يتطلــب مراجعــة للاحداث وتسلسلها وبحثا دؤوبا عــن المعلومات اللازمة لاستكمال الصور وربط الاحداث • وأود ان أعترف فى بدء هذا المقال بانني لم اوفق لبذل هذا الجهد بالقدر الذى أرضاه وأطمئــن اليه فقد حالت دون ذلك صعاب جمة : قلة الوثائــق المكتوبة او انعدامها بالمرة ، وصعوبة الاتصــال بالاشخاص القليلين الذين عاصروا هذه الاحداث ، والتردد الكبير فى تناول أحداث فترة زاخرة بالدروس ولكنها محفوفة بالمزالق الموضوعية والذاتية ، ومثقلة بالاحكـام المسبقة ، ومحاطة بكثير من الغموض والتستر •

وهـذه الفترة التى اعنيها هي الفترة التيسبقـت أول نوفمبر 1954 وخاصـة السنتـان الاخيرتان منها · واختيارى لهذه الفترة بالذاتهو رد فعل لقراءة متانية قريبة لبعض الكتب التى صدرت فى فرنسا عن فترة الكفاح المسلـح فىالجزائر ولاقت رواجا لا يفسره الا الاهتمام الذى تحظى به الجزائر وثورتها لدى جمهور غفير من القراء فى الخارج · وقد راجت معها مع الاسـف صورة ناقصة ومشوهة لفترة هامة من فترات الكفاح التحريرى ·

اننا لا يمكن أن نؤاخذ الكتاب الاجانب بجهل بعض الاحداث أو الحقائق التى كانت وما زالت محاطة بالكتمان ولا يمكن أن نطالبهم بأن ينظروا الى احداث تاريخنا القريب بنفس نظرتنا ، ولكن تعمدهم لكتابة تاريخ منقوص للاحداث هو ما نؤاخذهم عليه بل انهم استغلوا هذا النقص استغلالا سيئا مقصودا ادى بهم الى أن « يتخيلوا » احداثا و « يصطنعوا » اجواء للربط بين الوقائع الثابتة المعروفة وبالتالى تشويهها بطريقة تروج بسهولـة حتى على القارىء الذكي · واخطر ما فى هذه الكتب هي انها تشوه جيلا كاملا من المناضلين لان القارىء يخرج منها بانطباع قوى بأن الدوافـع الذاتية ، والمناورات الوضيعة والافكار الضيقة ، والمطامع المختلفة كانت هي المحرك القوى ان لم يكن المحرك الوحيد لكل هذا الجيل من المناضلين ، كل المناضلين · فليس هناك ايمان بقضية وليس هناك فكر سياسى وليس هناك سمو نضالى ، وليس هناك حتى اخطـاء سياسية هامة تبعث على التفكير · ليس هناك باختصار ماض يبعث على الفخر ولا تجربة قاسية وجديرة بالدرس والتمحيص·

واعتقادى أن التاريخ الجزائرى المعاصر سيظل عرضـة للتشويه اذا لم يبادر الجزائريون انفسهم بازالة الغموض الذى يكتنف أحداثه ، وان الحملة القائمة الآن لجمع الوثائق والآثار التى تتصل بهذا التاريخ يجب أن تعزز بجمع الشهادات عـن بعض الفتـرات التى فقدت كثيرا مـن الحساسيات المتصلة بها واصبح من الممكن نظرا للاستقرار الذى تتمتـع به البلاد والعمق الذى اصبحت تتسم به مفاهيم الثورة الجزائرية ـ مناقشتها مناقشة موضوعية هادئة · لان الشهادات بطبيعتها ناقصة وصورة الاحداث لا تكتمل الا بتعددها ومناقشتها ومقارنتها ببعضها ·

أعود بعد هذا الى موضوع هذا المقال بمحاولة تبين العوامل التى ساعدت على الغموض الذى يكتنف الفترة ألتى اشرت اليها ، هذا الغموض الذى أصبح عند الاجيال الناشئة جهـلا ، أو شيئا قريبا من الجهل ، لاحداث هذه الفترة كلها وأهم هذه العوامل فى نظرى هي :

أولا ـ الاعتقاد بان هذه الفترة هي فترة ركود عام وانه لم يحدث فيها شىء يستحق الاهتمام مما يرتبط بفترة الكفاح المسلح الى ان حدث الانقسام المعروف فى صفوف حزب الشعب الجزائرى الذى كان يسمى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ، الامر الذى جعـل الكثيرين ممن حاولوا

الكتابة عن فترة الكفاح المسلح يقفون طويلا عند الاحداث التى واكبت هذا الانقسام او جاءت لاحقة به ولكنهم لم يحاولوا الربط بين هذه الاحداث وبين الماضى القريب الذى كان يحملها فى طياته ، ولا شك أن السرية التى اكتنفت كثيرا من الاحداث حالت دون تقديرها وتبين تسلسلها والعلاقات التى تربطها ببعضها وليس هذا صحيحا فقط بالنسبة لمن حاولوا التعرف على هذه الاحداث من الخارج بل حتى الذين واكبوا هذه الاحداث من الداخل تختلف معرفتهم لها باختلاف موقعهم فى سلم المسؤولية وموقعهم من زمن الحادث ومكانه ·

ثانيا ـ الخطا المنهجى الذى وقع فيه كثير من المناضلين الجزائريين الذين كتبوا عن فترة الكفاح المسلح بالانطلاق من شعار ثورى سليم رفع **بعد فاتح نوفمبر** (ضرورة اشتراك جميع الجزائريين ضمن جبهة واحدة فى الكفاح المسلح من أجل الاستقلال) لمحاولة تفسير الفاتح من نوفمبر نفسه والتاريخ للفترة التى سبقته ومهدت له · وقد ادى هذا الخطا فى كثير من الاحيان الى اعطاء صورة غامضة او مشوهة عن الحقيقة التاريخية · فالقول مثلا بان مرحلة الكفاح المسلح جاءت نتيجة لجهود جميع الهيئات والاحزاب الجزائرية غير صحيح · لان بعض هذه الهيئات والاحزاب لم يعمل لتهيئة الكفاح المسلح ولم يكن يؤمن بامكانيته أصلا · والصحيح ان الوعي السياسى هو الذى جاء نتيجة لجهود جميع الهيئات ، اما قضية الكفاح المسلح فلم تطرح فى مستوى النظرية والتطبيق الا داخل حزب الشعب الجزائرى الذى مهد للفكرة وحاول تطبيقها وسط صعوبات وازمات ونجاحات واخطاء يطول تفصيلها · وليس هذا القول مفاضلة بين احزاب وهيئات اصبحت الآن كلها فى حكم التاريخ ولكنه تحديد لابد منه لمجال البحث التاريخى الذى نرجو ان تضطلع باعبائه الاجيال الناشئة ·

ثالثا ـ التزام كل المسؤولين والمناضلين الواعين فى صفوف جبهة التحرير الوطنى بعدم الخوض فى احداث هذه الفترة تجنبا لتغذية الحساسيات التى كانت ما تزال حية بين مختلف التيارات التى ضمتها الجبهة وحتى بين مناضلى الحزب الواحد · يضاف الى هذا ان حدث الفاتح من نوفمبر ككل الاحداث الضخمة فى التاريخ قد تهيا فى اكثر من فكر وكيف مخاضه سلوك مجموعات متعددة من المناضلين الذين هياوا له أسباب النجاح وكان بمثابة السيل العرم الذى تتجمع فيه كثير من السواقى ، وقد جرت محاولات تحديد دور الافراد والجماعات فى تهيئة فاتح نوفمبر الى منشا الفكرة الخاطئة التى بدات تدعو فى بعض فترات الكفاح المسلح لتقييم المناضلين والمسؤولين على أساس تاريخى وجعلت بعض المناضلين لقلة وعيهم بحقائق التاريخ يتوهمون ، عندما التقوا بالحدث الكبير ، انهم هم الذين صنعوه ، وأن هذا يبرر تصنيفهم تصنيفا خاصا فى سلك المناضلين · وكرد فعل سليم على هذا الانحراف ، القريب من فكرة السلطة الوراثية ، احجم

كثير من المناضلين عن الخوض فى هذا الموضوع وذكر ما يعرفونه عن احداث فترة جديرة باهتمام المؤرخين والمناضلين على السواء • ولكن الى متى يجوز التزام الصمت دون ان يساعد ذلك كل الذين يحاولون تشويه تاريخ ثورتنا المجيدة ودون أن نـزيد الصعوبات التى يلقاها الباحثون فى تاريخ الجزائر وفى فتراته الحاسمة بالذات ؟

ان كثيرا من الوقائع والاحداث فى فترات الكفاح السرى لم تدون ولم تسجل وبقيت محفوظة فى صدور المناضلين الذين يرحلون عن هذه الحياة الواحـد بعد الآخـر حاملين معهم اسرارهم وذكرياتهم فتقبر معهم أجزاء من تاريخ هذا الشعب الذى تعرض لاكثر من محاولة لطمس تاريخه القريب والبعيد •

ومن هذه الاحداث التى عشتها عن قرب والتى أعتقد ان لها بعض الاهمية لفهم الفاتح مـن نوفمبر وربطه بالاحداث التى سبقته ، الخطوات الاولى للتنظيم الذى كان نــواة لجبهـة التحرير الوطنى والمبادرة الاولى على ما أعلم التى مكنت حركة التحرير الوطنى فى الجـزائر من الانطلاق نحو آفاق جديدة •

واننى لا أستطيع مع الاسف أن احدد بالضبط التاريخ الذى تقرر فيه اقامة هذا التنظيم من طرف مجموعة صغيرة من مناضلى حـزب الشعب ومن أعضـاء منظمته المسلحة على وجـه الخصوص ، ولكننى أذكر جيدا تفاصيل الظروف التى ساعدت على ابرازه ومن ثم الترجيح بـان ذلك كان فى ربيع سنة 1952 حيث كانت المناقشات بين مجموعات المناضلين تدور حول بوادر الكفاح المسلح التى بدأت تظهر فى تونس الشقيقة ومحاولة فهمها وتقييمها والتنبؤ بما قد يكون لها مـن تأثيرات على تطور الكفاح التحريرى فى المغرب العربى كله •

كنت قد رجعت من تونس الى الجزائر فى مستهـل تلك السنـة 1952 وكنت كثيرا ما أسأل عن الاحداث الجارية فى تونس وما أعرفها عنها • وكنت احمل اذ ذاك صورة متفائلة نسبيا عـن امكانيات تطور كفـاح الشعب التونسى ، فالرئيس بورقيبه كان اعد قبـل اشتداد الازمة مـع سلطات الحماية بعض التشكيلات الصغيرة وهيأها للقيام بتنفيذ برنامج محدود من أعمال التخريب والمقاومة المسلحة ولكنه كان ينظر الى الكفاح المسلح كعنصر مساعد فى عملية يحتل فيها العمـل السياسى المكانة الاولى ، وكان يعتقد أن ثلاثة اشهر من هذا النشاط « التخريبى » تكفى لاخـراج القضية التونسية من النطاق الثنائى الفرنسى ـ التونسى الى نطاق أوسع تتدخل فيه عناصر وقوى خارجية أخرى ترجح ميزان المعركة لفائدة الشعب التونسى ولكنه كان يوجد بجانب هذا الاستعداد تشكيلات أخرى من الشباب التونسى كانت قد استعدت للعمل المسلح متأثرة ببعض أفكار الامير عبد الكريم الخطابى ولكن دون أن تخرج نهائيا عن الدائـرة الواسعة التى كان يبسط عليها حـزب

الدستور تاثيره السياسى وكانت افكار هذه الفئة عن الكفـــاح المسلح اكثر جذرية والصـــق بما تقتضيه بلورة استراتيجية موحدة للكفاح التحريرى فى مستوى المغرب العربى كله، وهذه التشكيلة هي التى بدأت ـ فى حدود معلوماتى ـ المقاومة المسلحة منذ شهر ديسمبر 1951 · ولكنها لم تلبث ان التقت مع التشكيلات الرسمية للحزب فى صعيد واحـد ·

كان من بين نقاط الاستفهام التى اثارتها هذه المناقشات نقطـــة أساسية بالنسبة للمناضلين الجزائريين ، ما الذى ينبغى عمله حتى يرقى الكفاح التحريرى فى الجزائر الى مستوى الاحداث التى اخذت تتجمع وتبشر بتطورات حاسمة فى هذا الصراع ؟ · ولم يكن بالطبع من السهل الاجابة على هذا السؤال فالتحليل الموضوعى للحالة السياسية العامة اذ ذاك كان يكشف عن لوحة قاتمة الظلال ولكنها ـ عند التامل ـ تنطوى على مصادر خافتة من النـــور يمكن أن تتســـع لميلاد فجر جـــديد ·

كان هذا التحليل يتلخص فى النقاط التاليــة :

1 ـ ابتداء المعركة الحاسمة مـــع الاستعمار الفرنسى فى المغرب العربى دون أن تستطيــع الاحزاب الوطنية الثلاثة (الاستقلال والدستور وحزب الشعب) ـ رغـــم وجود ميثــاق سبتمبر 1945 ـ اقامة جبهة موحدة حقيقية فيما بينها ، بل ان تسلسل الاحداث يظهر بما لا يدع مجـالا للشك بان اختلافا أساسيا فى تصور المعركة مـــع الاستعمار الفرنسى كان قائما بين هذه الاحزاب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فبينما كان حزب الاستقلال وحزب الدستور يعتمدان أساسا على العمل السياسى فى الداخل والخارج وخاصة باتجاه الراي العام الفرنسى ويميلان الى صيغـــة مرنة من الوحدة بين الاحزاب الوطنية فى المغرب العربى تتجلى فى مستـــوى الاهداف البعيدة اكثر مما تتجلى فى مجال الاستراتيجية العامة للمعركة ، كان حـــزب الشعب الجـــزائرى يخطط للكفاح المسلح باعتباره العمود الفقرى فى معركة التحرير ويسعى لاقناع الحزبين الشقيقين بهذه النظرة ويحاول اقامة جبهة بين الاحزاب المغربية تتعدى وحدة الاهداف الى التزام التنسيق فيمـا بينها فى جميع مراحل المعركة · وقد فشل حزب الشعب الجزائرى فى اقناع بقية الاحزاب المغربية بوجهة نظره، هذه بل أن مساعيه المتكررة قد تكون غذت بعض الشىء نوعا من الحذر تجاه الحزب ومشاريعه ، وهذا الفشل وضع الحزب فى موقف حرج وحكم عليه بنوع من الجمود والانتظار لانه بني كل استراتيجيته على هذا الاساس ولم يهيء بديلا لهذه الاستراتيجية · وانقلب هذا الجمود بعد اكتشاف المنظمة العسكرية سنة 1950 الى عجز تام عن استغلال الفرص التى كانت قد تسنح من خلال تطور الكفاح فى تونس والمغرب لتطبيق الاستراتيجية التى كان يدعو اليها ·

2 ــ عجز الحزب عن مواجهة الحالة التى نشات فى داخله عن موجات القمع التى تعرض لها وتورطه فى سياسة الاشتراك فى الانتخابات وقصر نشاطـه على ميادين هامشية كانت لها اهميـة نسبية عندما كانت تشكل غطاء وسترا للعمل الرئيسى وهو التهيئة للكفاح المسلح فاحدث كل هذا بلبلة فى صفوف المناضلين الذين كانوا يشعرون بزيف هذه الوضعية وبدات العـلاقات تتوتر بين القاعدة والقيادة واخذت تظهر على السطح كثير من السلبيات التى اخفتها سنوات الحماس ·

3 ــ عجز الحزب عن استغلال فشل سياسة الحلـول الجزئية والاصلاحية وعدم قيامه فى الوقت المناسب بمبادرات تحمل دعاة هذه الحلول لاستخلاص نتائج هذا الفشـل وتفتح البـاب لتجمع جماهيرى حول شعارات تكون فى مستوى الاحداث وتشكل قاعدة لتوحيد جميع القوى لخوض معركة التحرير ·

لكن هذا الجانب القاتم من الصورة كان ملطفا بجانب آخر مشـرق لمن يعـرف كيف يتبين مصادر النور فى الليالى الدهماء · وكانت النقاط التى تبعث على التفاؤل تتلخص فيما يلى :

1 ــ ان جمهرة المناضلين والجماهير القريبة من النضـال كانت تتطلع الى خوض معـارك جديدة وتنادى بالانتقال الى مستوى أعلى من الكفاح · وقد كانت أصـداء هذا الغليان تاتى من جميع انحاء البلاد بحيث لم يكن أبدا من التبصر اهمالها او عدم اقامة وزن لها ·

2 ــ ان الظروف كانت مهياة لبعث حركة جماهيرية واسعة بعد ان ساعد النظام الاستعمارى نفسه على التعجيل بفشل السياسات الاصلاحية واقامة الحجة على بطلانها ·

3 ــ كانت هناك امكانيات هامة لاقامة جبهة مغربية من خـلال تطور الكفاح على مستوى المغرب العربى كله · خاصة وان الاستعمار الفرنسى كان يواجه حربا منهكـة فى الهند الصينية تشغل قسما كبيرا من قواه العسكرية ·

كانت هذه هي النقاط الاساسية لهذا التحليل الذى استمر عـدة أسابيع فى لقاءات عفوية ومتكررة بين عدد محدود من المناضلين وهي ملخصة ــ طبعا ــ مما بقي عالقا فى ذهنى عن هذه المناقشات مما اطمئن اليه اطمئنانا كاملا ·

اما الاستنتاجات العملية التى أفضى اليها هذا التحليل فيمكن أن ألخصها فى النقاط التالية :

1 ــ اعادة تشكيل المنظمة المسلحة فى الحال فى سرية كاملة وبمعزل عن تشكيلات الحـزب وقيادته ، وذلك كسبا للوقت وحرصا على تأمين قاعدة محدودة للعمل المسلح ولكنها قابلة للتوسع متى دعت الحاجة الى ذلك ·

4 ـ تتحمل المنظمة مسؤولية الشروع فى الكفاح المسلح فى حالة تطور الاحداث فى الجزائر والمغرب العربى وعجز الحزب عن مواجهة مسؤوليته التاريخية ٠

3 ـ القيام بحملة منظمة وهادئة لاقناع المناضلين وخاصة الاعضـــاء السابقين فى المنظمة المسلحة بضرورة الكف عن المواقف الفردية السلبية والعمل على تقوية الحزب والنضال داخـــل المنظمات الرسمية لتحقيق الاهداف التالية ٠

ا ـ اتخاذ قرار رسمى من طرف السلطات العليا باعادة تشكيل المنظمة العسكرية ٠

ب ـ الكف عن سياسة المشاركة فى الانتخابات ٠

جـ ـ القيام بمبادرة جدية لتحقيق اتحاد بين الاحزاب يمكن من تجنيد الجماهير الواسعـــة لمجابهة الاحداث ٠

5 ـ السعي لربط الاتصال مع المقاومة المسلحةفى تونس ومع العناصر التى يمكن أن تتجاوب مع المقاومة المسلحة فى المغرب ٠

6 ـ الاتصال بالاعضاء السابقين فى المنظمة المسلحة على مراحل ومجموعات حسب تطـور العمل داخل التنظيم وحسب تطور الاحداث ٠

وقد تولى مصطفى بن بو العيد العمل على تنشيط المنظمة العسكرية فى الاوراس والاتصـال عندما يحين الوقت بباقى أعضاء المنظمة العسكرية فى عمالة قسنطينة وكان عدد منهم مقيما فى منطقة الاوراس ٠

وتولى مراد ديدوش نفس المهام فى عمالة الجزائر ٠

وكلف عبد المالك بن رمضان بنفس المهام بالنسبة لعمالة وهران ٠

وكان محمد بوضياف يتولى عمليا التنسيق بين مختلف الجهات وأعتقد انه تولى الاتصـال بأعضاء المنظمة فى بلاد القبائل لانه كان دائم البحث على طريقة تمكنه مـن هذا الاتصال دون أن يشعر المسؤولون فى الحزب بذلك ٠ وأظن انه لم يوفـــق الى ذلك الا بعد ظهـــور الانقسام فى صفوف الحـــزب ٠

كما كلف مصطفى بن بو العيد بمهمة تشكيل وحدة لصنع القنابل المحلية وخـــزن الاسلحة والمتفجرات التى يقع جمعها لتوزع فى وقت لاحـق على مختلف جهات القطـر ٠ كما كلف بربط الاتصال برجال المقاومة المسلحة فى تونس والقيام برحلة استطلاعية الى طرابلس لدرس امكانيات شراء الاسلحة المختلفة ٠ وقد قام بالفعل بهذه الرحلة فى تاريخ لا أستطيع تحديده ٠

وفى المجال السياسى تركز اهتمام هؤلاء المناضلين فى الاشهر الاولى من سنة 1953 حول حدثين يختلفان من حيث الاهمية ولكنهما شكلا معا أرضية للعمل على بلورة بعض الافكار الاساسية ٠

أول هذين الحدثين هو الاستفتاء الذى نظمته جريدة « المنار » حول قضية الاتحاد والذى وقع تشجيعه بصفة غير مباشرة وكان له صدى كبير فى جميع الاوساط ٠ وعندما نرجع الآن الى الآراء التى طرحت أثناء هذا الاستفتاء نلمح بوضوح بعض الخطوط التى كيفت النظرة الى قضية الاتحاد وساعدت على ميلاد وتقبل الصيغة التى برزت فيها جبهة التحرير الوطنى ٠

وثانى هذين الحدثين هو مؤتمر الحزب الذى انعقد فى شهر أفريل 1953 ٠ فقد كان تحضيره وانعقاده فرصة هامة للعمل على تجسيد بعض المواقف السياسية ودفع الحزب لتبنيها بصفة رسمية ٠ وقد أرسلت التعليمات للاتصال بالمناضلين الذين يعينون لحضور المؤتمر لتنسيق مواقفهم وتركيز مطالبهم حول النقاط الآتية :

1 ـ اتخاذ قرار باعادة تشكيل المنظمة المسلحة ٠

2 ـ وضع حد لسياسة المشاركة فى الانتخابات ٠

3 ـ وضع حد لسياسة الجمود والانتظار واتخاذ مبادرات جدية لتدويل القضية الجزائرية ٠

وقبيل انعقاد المؤتمر جمعنى الاخ محمد بوضياف مع الاخوين مصطفى بن بولعيد وعبد المالك بن رمضان وطلب منا تنسيق الحملة داخل المؤتمر الذى لم يدع لحضوره الاعضاء السابقون فى المنظمة المسلحة الذين كانوا ملاحقين من طرف السلطات الفرنسية ٠

وقد لاقت الافكار الاساسية التى اتفق على الدعوة لها صدى كبيرا فى المؤتمر لا تفسره فقط الجهود التى بذلت لنشرها بل انها كانت فى الواقع تترجم على الآراء التى كانت تتبناها جمهرة المناضلين ٠ وانتهى هذا المؤتمر باتخاذ جملة من القرارات السليمة كان اهمها القرار الخاص « بالبركة » وهو الاسم الاصطلاحى الذى أطلق على المنظمة المسلحة فى جدول الاعمال وكان هذا القرار يدعو قيادة الحزب لاعادة تشكيلها فى أقرب وقت ممكن ٠ والقرار الذى اتخذ بتوجيه الدعوة الى مؤتمر وطنى عام للاحزاب والهيئات الجزائرية ٠ واريد أن اشير هنا الى أن الاستفتاء الذى نظمته جريدة « المنار » جاء من باب الصدفة سابقا لهذه الدعوة التى لم يكن يعلم أحد من أسرة الجريدة ولا من بقية المناضلين أي شىء عنها ٠ وقد فهم بعض الناس اذ ذاك أن الاستفتاء كان مدبرا من طرف الحزب للتهيئة للمؤتمر الذى دعا اليه ٠

وفوجئت بعد ايام من انتهاء المؤتمر بتعييني عضوا فى اللجنة المركزية فترددت أول الامر فى القبول ثم قبلت هذه المهمة بعد استشارة بعض الاخوان ومنهم الاخ محمد بوضياف • ومنذ ذلك الوقت وجدت نفسى مع الاخ مصطفى بن بو العيد الذى كان هو عضوا فى اللجنة المركزية قبلى فى وضع يمكننا من الدفاع عن بعض المواقف وربط بعض الصلات ولكنه كان وضعا محرجا لا يمكننا من شرح كل مواقفنا لبعض اخواننا المناضلين وخاصة بعد تطور الخلاف بين مصالى واللجنة المركزية •

وتركز العمل بعد المؤتمر على تكوين مخزون القنابل والمتفجرات فى منطقة الاوراس ولكن جمع المواد الاولية كان يجرى فى جهات مختلفة وكان بوضياف كثيرا ما يحدثنى على الصعوبات التى يلاقيها فى تامين بعض هذه المواد وارسالها لمصطفى بن بو العيد • ثم بدأت الصعوبات المالية تشتد مع تطور المصاريف اللازمة للاعداد ، فقرر محمد بوضياف وديدوش مراد الاستقرار بفرنسا لتنظيم جمع الاموال من الجالية الجزائرية بالتواطؤ مع بعض المناضلين الذين كانوا يعملون فى صفوف الحزب هناك • وطلب من المسؤولين فى الحزب نقلهما للعمل بجامعة فرنسا فقبل طلبهما وقبل سفرهما بقليل فى آخر شهر ماي أو أوائل جوان طلبا منى أن اتولى تنظيم الاتصال بينهما وبين بقية الجماعة فقدم لى محمد بوضياف عبد المالك بن رمضان بصفته المسؤول عن القطاع الوهرانى وقدم لى مراد ديدوش الزبير بوعجاج على أنه المسؤول عن القطاع الجزائرى أما مصطفى بن بو العيد فقد كنت على اتصال سابق معه •

وقبل هذه الفترة بقليل ـ واعتقد أن هذا كان خلال شهر ماي ـ اتصل بى فى يوم من الايام شابان مغربيان قدما من تونس عن طريق السلسلة التى كان يستعملها الحزب فى اتصالاته وكانت مهمتهما الظاهرة انهما يريدان الذهاب الى المغرب مسقط رأسهما ، للقيام ببعض المهام الوطنية •

ولكنهما جاءا فى الواقع يطلبان منى أن امكنهما من الاتصال باحمد مزغنة لتنظيم حركة للمقاومة المسلحة فى الجزائر والاسهام فى تنسيق حركة مسلحة فى المغرب العربى كله ، ولم يكن معهما من علامات التعارف الا علامة واحدة كانت خاصة بينى وبين الاخ الطاهر قيقه الذى أرسلهما الي •

وبعد الحديث معهما تعرفت الى حقيقة هويتهما • كان هذان الشابان هما الهاشمى الطود وحمادى الريفى (الذى وقع بعد اندلاع الثورة فى أسر القوات الفرنسية بالولاية الثالثة سنة 1955 على ما اذكر) وفهمت منهما انهما على اتصال وثيق بجهات ثلاث : الامير عبد الكريم الخطابى من جهة ومصالح المخابرات المصرية من جهة ثانية وبعض ممثلى حزب الشعب فى مكتب

المغرب العربى من جهة ثالثة وانهما اتصلا بعدد من المسؤولين فى الديوان السياسى بتونس قبل مجيئهما الى الجزائر، وينويان القيام بسلسلة اخرى من الاتصالات فى المغرب لنفس الغرض ·

فبدات بتامين اقامتهما وقدمتهما لبعض المسؤولين بمهمتهما الظاهرة حتى يتولى جهاز الحزب تسهيل سفرهما الى المغرب ورجوعهما منه ، وتشاورت مع ضياف فى شانهما واتفقنا على ان اجمعهما به اذا وافقاهما على ذلك · واخيراسالتهما عما يهمهما بالذات هل هو اللقاء مع احمد مزغنه أم الاتصال بمن يستطيع القيام بمسؤولية الكفاح السلح ؟ فاجابا بدون تردد بأن الشخص لا يهمهما بمقدار ما تهمهما المهمة ذاتها فجمعتهما حينئذ بمحمد بوضياف واتفقنا معهما على استكمال البحث بعد رجوعهما من المغرب واعطائنا صورة عن الوضع هناك للاتفاق نهائيا على خطة تضمن تنسيق الكفاح فى المغرب العربى · وقد تم هذا فعلا بعد رجوعهما وأعتقد انهما حملا معهما صورة مشجعة عن الوضع فى الجزائر وكان سفرهما نقطة انطلاق للاتصال بعدة جهات كما كانت الانباء التى حملاها الينا من العوامل التى جعلت الاخوان يضاعفون الجهود للاستعداد لخريف 1953 الذى كنا ننتظر فيه احداثا هامة ·

سافر بوضياف وديدوش مراد الى فرنسا وتركا لبقية الاخوان مهمة اساسية هي صنع الكمية الكافية من القنابل وتوزيعها على مختلف الجهات استعدادا لجميع الاحتمالات وأنجز مصطفى بن بو العيد ما أوكل اليه من هذه المهمة مع مناضلى جهة الاوراس · وفى أواخر شهر جويلت جاء مصطفى بن بو العيد الى العاصمة عن غير موعد سابق وبعد لقائنا بقليل أخرج من جيبه قصاصة صغيرة من جريدة « لاديبيش » التى كانت تصدر بقسنطينة وسلمها الي والابتسامة لا تفارق وجهه الذى كان مع هذا لا يخلو من تاثر ممزوج بطمانينة غريبة ! ·

وقرات القصاصة فصعقت ! لقد انفجر عدد من القنابل فى متجر بباتنة وهي فى طريقها الى التوزيع على بقية المناطق واحدث هذا الانفجار دويا هائلا فى المدينة وهرعت جميع السلط الى مكان الحادث واجرت عدة اعتقالات وفتح التحقيق ··· الى آخره ·

وقفزت الى ذهنى فى الحين صورة الكارثة التى وقعت للمنظمة سنة 1950 وتصورت أن الآمال الواسعة العريضة قد انهارت مرة أخرى ·

وسالت مصطفى بن بو العيد « والآن ما العمل ؟ » فقال ببساطة حسبتها مزاحا فى أول الامر : « لقد رأيت أن أقدم بعض الهدايا الثمنية لبعض المسؤولين الفرنسيين الذين يستطيعون على الاقل الحد من الخسائر » ·

قلت : « هل انت تمزح » قال : « اننى لا أمزح وقد جئـت لاطلـــب من المسؤولين فى الحزب بعض المال أضيفه لما عندى لتغطية النفقات » قلـت : « لكن كيف تبرر أمامهـــم هذا الانفجار ؟ » قال : لقد فكرت فى الامر وساقول لهم انها مخزونات قديمة من المنظمة المسلحة القديمة » ٠

فاتفقنا على هذا الامر وذهب بن بو العيد الى الاخ يوسف بن خده وقص عليه الرواية المغلوطة وأخذ منه المال الــلازم لتقديم الهدايا ٠ ووضعت أنا القصاصة نفسها فى ظرف وارسلتها لـــلاخ محمد بوضياف فى فرنسا فجاء بعد أيام لمعرفةتفاصيل القضية ٠

ومرت الايام ثقالا ونحن ننتظر العواقب الوخيمة لهذه الحادثـة فاذا الايام و « الهدايا » تطويها رويدا الى أن تصبح خبرا صغيرا مطويا فى صفحات لادبيش الداخلية ٠ ويتعب الذين يزعمون أنهم يعرفون الكثير عن الثورة الجزائرية ويتصدون للكتابة عنها ـ انفسهم ومخيلاتهم فى البحثعن ارهاصات فاتح نوفمبر 1954 ٠

لكن انفجارا آخر كان له اثر اكبر فى توجيه الاحداث وجهة غير متوقعة وهو الخــلاف الذى نشب بين مصالى واللجنة المركزية وأدى الى انقسام حزب الشعب وما نجم عنه من بلبلة وما أفرزه من سلبيات كادت تؤدى الى كارثة محققة ٠ وأعتقد أن هذا فصل آخر قد لا يتســع له هذا المقال وقد لا يكون الوقت قد حان للخوض فى تفاصيله ٠ لكن من الواضح أن كثيرا من الاحداث التى واكبت هذا الانقسام أو جاءت لاحقة به قد فســـرت تفسيرا خاطئا لعدم ربطها بالاحداث التى سبقتها ، وان تاسيس لجنة « لجنة الوحدة والعمل » لم يكن أبدا هو المنطلق الاول للاعداد للعمل المسلح ولكنه كان مرحلة من مراحل التوسع فى هذا الاعداد ٠

الثـــورة والأصالـة الـواعيـة

العقيد ، محمد الصالح يحياوى
عضو مجلس الثورة
ومدير الكلية العسكرية بشرشال

تحت ضغط الحاح مشكور وهادف فى نفس الوقت من أسرة تحرير مجلة الأصالة بأن أسهم بكلمة فى العدد الخاص بالذكرى العشرين لانطلاق ثورة نوفمبر الخالدة • ورغم اعتقادى أن المساهمة مهما كانت متواضعة فى تسجيل كلمة لمجلـــة الأصالة الغراء يشعرنى بالاعتزاز والشرف لكن المناسبة وروعتها تجعل مهمتى صعبة ومستعصية لان من قدر له مثلى أن يعيش الثورة بكل مراحلها ويعاصر تطوراتها ويسهم بالقدر المتاح والممكن له فيها ، فان مجرد ذكرى الثورة يغمره بسيل

من الخواطر التى لا تستطيع كلمة في مجلــةمهما طالت أن تسجلها كلها وتعطيها طابع الثورة المستوفاة والكاملة عن الثورة مما يجعل تسجيل كل هذه الخواطر فى كلمة لمجلة أكثر من متعذر ومستحيل • وقد اهتديت في النهاية الى مخرج فاذا لم يظفر برضاء القراء وأسرة المجلة فانه خير من الاحجام الكلي • وانطلاقا من المناسبة ومن اهتمامات مجلة الأصالة نفسها خيرت أن يكون موضوع كلمتي : « الثورة والأصالة الواعية » •مع تأكيدى سلفا بان مساهمتي لا تتعدى مجرد اثارة هذا الموضوع والاشارة اليه وهو موضوع العلاقة والترابط بين آصالة وقيم شعبنا وتقاليده النبيلة السامية ؛

والثورة الجزائرية الكبرى ، وهو موضوع يحتاج لاهميته الى دراسة وافية منسقة تجعـل المتفرقات كلها متصلة العناصر ، مرتبطة الحلقات مما يساعد على ادراك هذه العلاقة بشيء من العمق والوضوح معا لان الموضوع لازال يشمل بـين جوانبه الكثير من المسائل التى يكتنفها الغموض على الاقل بالنسبة للاجيال التى لم يقدر لها ان تعيش الثورة بكل ظروفها وملابساتها فى مرحلة النضال المسلح والدموى • كما ان الغموض نفسه لازال يكتنف لدى البعض مفهوم الاصالة نفسها ، بحيث لازال هذا المفهوم لم يتحدد لدى الجميـع بالدقة المطلوبة والقدر الامثل • بهذه الاعتبارات وغيرها أرى ان مساهمتي فى طرح الموضوع قـدلا تتعدى معالجة بعض نواحيه من زاوية أو مـن اخرى مع رجائي الحار بأن يظفر هذا الموضوع نفسه اليوم وغدا من رجال الفكر والقلم عندنا بشيء من العناية حتى ينال دراسة تستوفيه حقه بشيء من العمق والشمول لنضمن لاجيال الغد فهما كاملا متناسقا للثورة فى كل مراحلها وأروع انتصاراتها •

وهذا دين للشهداء علينا وتأديته بأمان من صميم الحفاظ على أصالتنا الحقة وتراثنا النضالى الثمـين •

وهكذا اذا نحن حصرنا مهمة كلمتنا هذه من مجرد الاشارة والتذكير ببعض جوانـب هـــذا الموضوع الهام واذا نحن انطلقنا من اعتبار ان الذين يشهدون هذه السنة الذكرى العشريـن للثورة قد عاصر معظمهم تطوراتها من قرب أو عاش فى خضم هذه التطورات ذاتها ، فان هؤلاء جميعا ليس من المستعصى عليهم والمتعذر ابدا تلمس العلاقة الوطيدة والترابط المستمر والمتين بين القيم الاصيلة لشعبنا بجوهرها وروحها وبين الثورة من خلال مسيرة 20 سنة التى مضت ومـن خلال دروب النضال الصعبة التى سلكتها ، ومن خلال القضايا التى تصدرت اهتماماتها طـوال

هذه المدة كلها ٠ وهي اهتمامات ومطامح لم تفتأ تتحول كل يوم الى واقـــع معاش والى انجازات تتحقق أو هي في طريق التحقيق العملي ٠ ومـن نافلة القول التذكير بأن وجود وزارة للتعليـــم الاصلي والشؤون الدينية من جزائر الثورة والمهام الكبيرة التي أسندت لها والتي تحقق الكثير منها لهي الدلائل العملية والحقائق المعاشة التي تبرهن عمليا عن اهتمام الثورة باستمرار على الحفـاظ على التراث وصيانة القيم والمثل الاصيلة لشعبنا والسعي الى ترسيخ وتعميق هـــذه الاصالـة باعطائها المفهوم الامثل والانسب والبعد الاعمق والاكثر استجابة لمتطلبات التطور ومواكبة ركب الحضارة الزاحف ٠ بحيث ان هذه الدلائل كلها تمكن من تلمس العلاقة بين الثورة والقيم النبيلة والتقاليد السامية لشعبنا لا بالعودة لماضي الثورة فقط بل تجد هذه العلاقـــة دلائلها في واقعنا اليومي واهتمامات ومعارك الثورة الحالية ومن كل الانجازات التي تحققت. فالثورة الثقافية والتعريب وحملة جمع الوثائق الوطنية هي من صلب وصميم الاصالة وربط الماضي بالحاضر ، وجعل ماضينا في خدمة حاضرنا ومستقبلنا وأساس الانطلاقة فيه ؛ انطلاقة واعية تقدر الاعتبار للماضي النضالي لهذا الشعب وتقدر بدرجة أولى وأساسية آفاق المستقبل بآماله واهتماماته ومطامحه الكبـرى التي كانت ثورة التحرير الكبرى تهدف اليهـا وتسعى من أول طلقة في أول نوفمبر 1954 الى تحقيقها ٠

اذا كانت المناسبة تفرض علينا التذكير والاشارة واستلهام ما يمكن استلهامه منها في رسم آفاق المستقبل الجديد وتأكيد حقائـــق لا يقوى الشك أو يتسرب النسيان اليها فان أول ما يلزم ان نضعه نصب اعيننا ونحن نعيش هذه المناسبة من عمر الثورة ؛ ان هذه الثورة المباركة كانت تعبيرا حيا وعمليا عن الاعتزاز القـــوي والتمسك الكبير لشعبنا بقيمه الاصيلة واعتزازه اللامحدود بها وكانت الثورة بعد سلسلة طويلة من محاولات المسخ والادماج التي قام بها المستعمر ورصد لها كل الامكانيات واستخدم لتحقيقها شتى الوسائل من ترغيب واغراء وترهيب ؛ كانت الثورة بعد كل هذا قد أكدت افلاس كل هـــذه المحاولات وبرهنت على أن ايمان الشعب بنفسه وقيمه ومثله السامية ايمان قوي ، أقوى من كل المحاولات والدسائس ووسائل الارهاب ، وكانت أهداف الثورة واضحة منذ البداية من خـــلال رفضها للوضع السيء الذي كانت تعيش فيه البلاد قبيل اندلاع الثورة وما بلغه من تردي بالغ لقيم أجنبية دخيلة ، بحيث كان واضحا ان اهداف الثورة تتمثل في الحفاظ على القيم والمثل والمقومات الاساسيـــة لشخصيتنا والسعي الحثيث الى ان

يكون لنا دورنا واسهامنا فى مسيرة التطـــورالحضارى بعد ان نكون سادة انفسنا وســـادة أرضنا وما فيها وسادة المصير الذى نصنعــه بأيدينا ويقرأ فى اعتباره مقوماتنا والاهـــداف والمطامح النبيلة التى نتوق اليها ونسعى جاهدين لتحقيقها بكل الوسائل ـ والاحتفال بذكرى أول نوفمبر من كل سنة له مغزى بعيد وغاية نبيلــة يلزم ان تتحقق فى كل احتفال وتتبلور أكثـــر عملا وسلوكا وانجازا • فهى مناسبة نقف فيهاوقفة ذكرى وتأمل وتدبر ، وقفة ذكرى نسترجع فيها تضحيات شعبنا العظيم وقافلــة الشهداءالذين سقوا بدمائهم أرض الوطن ، وانتـزعـوا بالدماء والارواح الحرية والاستقـــلال فى أقسىالظروف واستحقوا بهذه التضحيـــة المثاليـــة والنضال الرائع اعتزاز وتمجيد الوطن واعترافابنائه ، وهذا لا يعمق لدينا مفهوم النضال الحق، ويؤكد لنا ان الشعوب لا تنس وتستمر تعترفوتقدس كل من أسهم فى بناء هذا الوطن ورفع شأنه ومكانته ، وان الحرية التى انتزعها الشعببشهدائه كانت باهضة التكاليف ، وان الوفــاء للشهداء ليس فى الترحم عليهم فقط بـــل ان نستلهم منهم النذر الاكبر من الروح النضاليـــة المثالية ، وان نحافظ على الاستقلال الذى انتزعوهوندعمه بكل جديد ، وان نضيف الى ما بنوا بناء جديدا حتى يتشامخ البناء ويقوى وتعجز كـــل العواصف اصابته بأذى بحيث يكون الاعتـزاز بالشهداء بصياغة امجاد جديدة تضاف الى الامجادالاسطورية التى صاغوها لان باستمرار العطـاء والابداع وصنع الامجاد ـ تستمر الجزائر مستقلةوقوية وذات شأن ومكانة لان من دلائل حيوية الامة وقدرتها على الاستمرار والبقاء والتطـــورامتلاكها قدرة وقابلية العطاء والابتكار والابداع باستمرار بحيث ان الحفاظ على الاصالة ليس فىالاكتفاء والاقناع والنوم على امجاد الماضى مـــن التى صنعها الاجداد ونظل فى كل مناسبة نفتخرونتفاخر بها ، بل يجب ان نحدد من وحى تلـك الامجاد ومن وحى ظروفنا الموضوعية وواقعنـــا المعاشى وواقع العالم الذى نعيش فيه ونطمح ان نكون جماعة بشرية معتبرة فيه ، ان نحدد مكاننا الحقيقى فى المسيرة الحضارية الكبرى حتى تـكون انطلاقتنا واعية وواقعية وبناءة بحيث لا نسهـم باستهلاك المنجزات الحضارية لغيرنا بل ان نسهم بالانجاز العملى والابتكار الخلاق حتى نكون خـــير خلف لخير سلف وحتى تكون الاصالة التى ننشدها واعية خلاقة تحتفظ وتتمسك بالتراث المـــاضى ساعية باستمرار الى تنميته والاستزادة مـــن الابتكار عليه والتجديد فيه مثل ما كان للعـــرب فى ايام الحضارة العربية الزاهية حيث قال عنهم (وليم اوسلى) : لئن اشعل العرب سراجـهم من القناديل اليونانية فانهم ما لبثوا ان اصبحـوا

شعلة وهاجة استضاء بنورها اهل الارض جميعا· ويقول عالم آخر وهو سارطون : انه لعمل عظيم جدا ان ينقل العرب علوم اليونان وفلسفتهم وان يزيدوا عليها حتى اوصلوها الى درجة مرموقة من النمو والارتقاء · وهكذا لما توقف العرب عن التجديد والعطاء والابتكار واكتفوا باجترار امجاد الماضي والتفاخر بما صنع الاوائل ، فلم نجم حضارتهم وفقدوا الاعتبار والمكانة التى كانت لهم · والثورة الجزائرية الرائدة منذ انطلاقها لم تكتف بتحقيق معجزة الاستقلال السياسي وتصنع امجادا في ميدان البطولة النادرة والفداء ، بل كانت ثورة رائدة لانها حاولت الاستفادة من امجاد الماضي والاحتفاظ بتراث الآباء وقيم الاجداد دون ان تقف عند الافتخار بذلك وتجتر امجاد الماضي ؛ بل انطلقت من رؤيا واضحة ونظرة بعيدة فسعت في مرحلة البناء الى ترسيخ القيم النضالية والمثل السامية وتعميق مفهوم الاصالة والوطنية اللتان ليستا مجرد انتساب للوطن بل هما تضحية مستمرة من اجله وبذل دائم في سبيل رفعته وقوته · والثورة في ذكراها العشرين تحتفل لتخليد الشهداء الابرار الذين كانوا مثالا للالتزام والوفاء ومثالا أيضا للبذل والعطاء والتضحية وبالاحتفال بالذكرى نخلد هذه الخصال ونعمقها ونرسخها في اذهان اجيال اليوم والغد لتكون السلاح والزاد الثمين الذى يتزودون في دنيا اليوم والغد ·

والذكرى من جهة أخرى تمثل وقفة تأمل وتدبر نحاسب فيها انفسنا على ما اضفناه من جديد وما انجزناه خلال هذه الفترة من عمر الثورة وخير تعبير عن الوفاء والالتزام لمبادىء الشهداء وخير تعميق للاصالة التى ضحى من اجلها شهداؤنا الابرار ان نقدم لها انجازاتنا في مجالات البناء وفي ميادين الحياة المختلفة · فالثورة الزراعية والصناعية والنهضة الثقافية وما تم في هذه الميادين وغيرها لخير دليل تقدمه الثورة الجزائرية في الذكرى العشرين لقوافل الشهداء وخير تشريف وتكريم لهم في مثل هذه السنة مع التعهد بالاستزادة من الابتكار والابداع والخلق وبناء كل جديد ·

وفي الختام اشكر اسرة مجلة الاصالة الغراء على هذه الفرصة التى اتاحتها لى لا لأعالج موضوع الاصالة والثورة بالقدر الذى يستحقه من التفصيل والعمق ، وانما لاسجل خواطر عابرة عن هذا الموضوع الهام الذى يلزم ان ينال منا ومن كل رجال الفكر العناية التى يستحق في هذه المناسبة وبعدها حتى تكون أصالتنا واعية وهادفة، ويكون تقييمنا للثورة الجزائرية سديدا وموضوعيا ينطلق من الاهتمام بالماضي من اجل المستقبل انطلاقة وهدفا ·



الجهاد الجزائري في الخارج

احمد توفيق المدنى

كنت امينا عاما لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ وكان المجلس منعقدا فى مدينة قسنطينة المكافحة يوم غرة نوفمبر 1954 ، حينما هتفت البشائر بانبثاق نور الثورة واندلاع نارها الموقدة ، فلبينا دعوة النور ؛ واصطلينا بحرارة النار ؛ واعلنا منذ الساعة الاولى اننا نكون من ركب التحرير فى الطليعة ، وأمرنا كل من انتمى الينا فى كل جهات الوطن ، بأن يضع فى ميدان الثورة روحه ودمه وجهده وعمله ، واشعرنا بذلك يومئذ من كنا نعرف من قادة الجبهة المقدسة وابطالها .

وكان الكفاح البطولى ، وكان النضال المريروقام الشعب كاعصار فيه نار ، يصب على الظالمين المستعمرين ما تراكم فوق فؤاده من حمم الحقــدوالضغينة التى تولدت خــلال ماية وعشرين عاما كلها آلام ، وكلها جراح ، وكلها مصائب وآثام وكلها لصوصية ونهب ، وانتهاك حرمات ، واهدار كرامة ، واجتمعت فى صفوف الثورة المقدسة كلما يملكه شعب ابى ، قام مستجيبا لدعــوة الجهاد والتحرير ، فاجتمعت فى جهاده الاقانيم الخمســةالتى تكونت منها الحرية ، ورفعت راية الاستقلال عالية رفيعة : دم الشهيد ، وجهود الفدائى ، ومداد الكاتب ، وكلمة الخطيب ، ومال المقتدر ·

طوبى للمجاهدين ، وحسن مآب

وانى لبالبصائر ذات يوم ، وانا احرر اقسامها الرئيسية الاربعـــة ، تحت اشراف خفى من الجبهة ، ورقابة صارمة من الجهاز الادارى : الافتتاحية ، وامضيها : البصائر ، ومنبر السياسة العامة وامضيه : أبو محمد ، وقسم العـــلم والاختراعوامضيه : اتم ، ويوميات الازمــة (1) الجزائرية ، اذ بامر ياتينا من قيادة جبهة التحرير ، بوجوبذهابى الى القاهرة ، كى انضم الى الوفد الخارجى الموجود هناك ·

لبيت دون تردد ، وتركت البلاد ، والتحقــت بالقاهرة فى حديث طويل ربما عدت الى شرحه فى فرصة أخرى ، وتلقانى الاخوة هنالك بجذل وبحبور ، واندمجت فى الوفد منذ اللحظــة الاولى اندماجا عضــــويا ، وقدمونى للسلطة المصريـــةكمسؤول كبير · وتوالت الحـــوادث ، وتشعبت المهمات ، وطالت الاسفار خلال ستة اعوام ، فبلغمجموعها خمس مرات دائــــرة الكــرة الارضية · والفت الجو اكثر مما الفــت الارض ، حتى لقبنىبعض الاخوان المصريين بالسندباد الجوى ، واناط بى اخوانى ، بعد حادث الطائرة الشهير ،مهمــــةرئاسة مكتب الوفد بالقاهرة · وانى لذاكرهنا ، استجابة لرغبة « الاصالة » الفاضلة ، شيئا يسيرا مما رأيته ومما اضطلعت به من مهمات خلال تلك الفترة من الكفاح الرهيب ·

1 ــ حظنا من تاميم القنــال :

كان يوما من اغرب واسعد ايام الحياة ، يــوم القى الرئيس جمــال عبد النــاصر فى مدينــة الاسكندرية خطابه الشهير ، فى شهر يوليو مــنسنة 1956 ، معلنا تاميم قنات السويس · كانت

(1) وضعت عنوانها : يوميات الثورة الجزائرية · الا ان الرقابة الادارية اجبرتنا على حذف كلمة الثــورة ·

فرحة شعبية عارمة ، ما رأيت مثلها الا فرحة شعب المغرب الشقيق ، يوم عودة ملكه ، واعلان استقلاله ، وما سمعت بمثلها الا يوم اعلان استقلال الجزائر • واجتمعنا بشارع عبد الخالق ثروت ، وقررنا ان نقدم للرئيس تهاني الشعب الجزائري المجاهد ، فقدمنا الطلب ، وتعين الموعد ، وجاءنا الرئيس الى دائرة المخابرات ، فاحطنا به من كل جانب ، والقيت باسم الوفد ، حسب الاتفاق ، خطابا حماسيا ، تهللت له اسارير الرئيس ، ضمنته التهنئة والرجاء ، وعرضت فيه بحاجة الجزائر الملحة للمال وللسلاح ، وقلت ان لا انتصار للعروبة الا بانتصار الجزائر ، فان هي تحررت واستقلت ، تالق النجم وسما الى السماك وان كانت الاخرى ، لا ــ قدر الله ــ فان كل ما نبنيه اليوم ، سيذهب ادراج الرياح •

واجاب الرئيس في جذل وفي شعور بالمسؤلية كان يلوح على كل قسمات وجهه ، فاشاد بالكفاح الجزائري ، واعلن وحدة النضال العربي ،وحث على وجوب التضامن في معركة الحرية ، وقال ختاما : واستجابة لرغبة الوفد ، واظهارا لهذا التضامن ، فاني اعلن لكم انني اقرر الآن تخصيص المداخيل الاولى من ترعة السويس ، لغاية ثلاثة ملايين جنيه (1) ، للكفاح الجزائري • فشكرنا ، وخرجنا جذلين متفائلين •

2 ــ ليلا وسرا :

حوالى الساعة الرابعة ، من احدى عشايا شهر رمضان ، وانا بمركز جمعية العلماء بشارع شريف ، بالقاهرة ، جاءني نداء هاتفي من طرف الاخ المجاهد المصري النبيل ، العقيد عزت سليمان ، وكان مكلفا من قبل الاخ الرئيس عبد الناصر ،بالقيام بمهمات الكفاح الجزائري ، يقول لي : تهيأ ، فسآخذك الآن بالسيارة ، لجهة مجهولة ولأمر خطير ، قلت : انا مستعد ، وما هي الا دقائق معدودة ، حتى كانت السيارة عند الباب ، ومررنا على اخ فاضل كريم من رجال الوفد ، لا اذكر هنا اسمه ، لانني لا ادري ان كان يود ان يذكر اسمه الآن ، وذهبنا آمين شطر الصحراء الغربية ، تتعثر سيارتنا بين رمالها وحجارتها ، وطال بنا المسير وطال ، والعقيد عزت يسوق وهو يتصبب عرقا ، حتى كانت الساعة السابعة ، ونسينا ان نأخذ معنا شيئا لا فطارنا ، فحل موعد الافطار ، ولم نجد لدينا من زاد الا التعب ، والجوع والعطش • وانا كذلك ، والليلة مقمرة ، واذا بنا نرى في الافق

(1) ثلاثة ملايير من الفرنكات القديمة •

طائفة كبيرة من سيارات النقل الضخمة ، وحولهاجماعة من الرجال اجتمعوا على نار · ومن جهـة أخـرى رأينا قطـارا بخاريا قادمـا من الشرق ،فعرفنا موقعنا اجمالا : كنا على الخط الصحراوى الذى يصل القاهرة بالسلوم · فاما القطار ، فقدكان مؤلفا من تسع مزجيات ، وكان يحمل صناديق السلاح والعتاد ، المختلفة الانـواع والاحجام ،مما وقع ابتياعه للجزائر ، بمال الجزائر · وامـا السيارات الضخمـة الناقلة ، فكانت سيارات الشهم النبيل محمد العابد السنوسى ، واما الرجال فكانوا من كرام المناضلين الليبيين ، جاءوا على قدر مـع المخابرات المصرية ، لنقل كامل تلـك الاسلحة ، تحت ستار الليل ، خفيـة الى الارض الليبية ، حيث تأخـذ طريقها الى « المـزرعة » الجزائرية ، قرب طرابلس الغرب ·

نسينا الجوع ، ونسينا الظما ، ونسينا التعب ، وانهمك الرجال ، سواء الذين وفدوا مـع القطر ، أو الذين كانوا ينتظرون فى انزال الصناديق ، وحملها الى السيارات الضخمة ، وكنا نحن الثلاثة ، نسجل ارقام الصناديق ، ومحتوياتها ،ونصحبها من الرتل الى السيارات ، ودام العمل متواصلا ، مستمرا نحـو من خمس ساعـات ،وودعنا كل الرجال ، سواء الذين قدموا مع الرتل الحديدى ، وكانوا كلهم من الجيش ، أو الذين اتوامع السيارات الى ان قفل الرتل راجعا الى مركزه والى ان سارت الناقلات الضخمة تحمل للجزائـر ما كانت فى مسيس الحاجة اليه ، وقفلنا عندئذ راجعين ، فوصلنا القاهرة مـع الفجـر ، قبيل الامساك بقليل ، ولم نتناول الا الماء ·

3 ـ مـع الملـك ادريس :

ليقل القائلون ما شاءوا فى الملك ادريس السنوسى ، وليقولوا ما ارادوا عن سوء ادارتـه وفساد بطانته ، وتحكم الرشـوة وخـراب الذمة فى دواليب حكومته · تلك امور لاتهم الا اخوتنا الابرار فى ليبيا ، بلـد النخـوة والهمة والكفاح المرير · اما نحن ، فلا نهتم الا بما يتعلق بالكفاح الجزائرى ، واشهـد ان موقف ليبيا ، شعـبا ،وحكومـة ، وملكـا ، كان موقف بطولة وشهامـة وتضحية ، تأبى علينا المروءة والكرامة ان نستهين به ، او ان ننساه ·

وقفنا موقفا جد حرج اثر العدوان الغادر الباغى عـلى مصر ، سنة 1956 · الذى كان كفاح الجزائر من اهم اسبابه ، حسب تصريح كى مولى رئيس وزراء فرنسا فى خطابه امام مجلس الامـة الفرنسى ، خلال شهر جانفى من السنة الموالية ·فكانت حكومة ليبيا التى ساءت علاقاتها مع مصر ،

قد قررت انها لا تقبل السلاح المخصص للجزائر ،والقادم من مصر ، الا اذا جاء عن طريق البحر ، من الاسكندرية الى طرابلس • واشعرني بذلك رسميا السيد المنتصر ، سفير ليبيا بالقاهرة • بينما قررت الادارة المصرية ، ان ذلك السلاح لا يمكن ان يسير الابرا ، والا فان حادث السفينة آتوس (I) سيتجدد • وقال الجزائريون ، سواء الذين بالداخل أو الذين بالخارج :

ما بين معترك الاحداق والمهج   انا القتيل بلا اثم ولا حرج

وتوالى الاستصراخ من ميادين الجهاد ، اين السلاح ؟

لم تجدنا نفعا مساعينا السياسية ، فكل من القاهرة وطرابلس قد اتخذت موقفها وتصلبت فيه ، وابتأسنا ، وضاقت علينا الارض بما رحبت فقلت للجماعة : سأذهب الى طبرق ، وسأحاول التأثير على الملك ، فان نجحت ، فازت الجزائر بسلاحها ، وان اخفقت ،فنكون عندئذ قد قمنا بكل واجبنا • وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء •

سافرت ، وكانت المواصلات مقطوعة ، والطريق صعبة ، فقطعت المسافة بين القاهرة وطبرق مقر الملك ، فى أربعة ايام ، ذكرتني بالاثر القائل :السفر قطعة من العذاب • وكدت اقول : العذاب قطعة من السفر ••ووصلت طبرق على كل حال ،وانا على قيد الحياة • وطلبت مقابلة الملك ، فتعين الموعد ليوم الغد •

ذهبت وانا متوتر الاعصاب ، متجهم ، عابس ، وقد فارقني فى تلك المناسبة ما كان مشتهرا عني من تفاؤل ومن ابتسام يكاد يكون تقليديا ،وادخلوني على الملك فى غرفة صغيرة ، بسيطة بلغت الحد الاقصى من البساطة ، ووقف لى الملك كعادته مرحبا ، فما كاد بصري يقع عليه ، حتى تشنجت ، وسالت دموعي مدرارا وما كنت قبل ذلك اعرف البكاء ، اطلاقا •

قال لى الملك مندهشا : يا لطيف ! ماذا جرى ؟ ما سبب هذه النوبة العاصفة ؟

قلت ، وصوتي متهدج لا يكاد يبين : ابكي على هذه اللحية البيضاء التى شابت فى الاسلام والجهاد ، وستساق الى جهنم مجرمة آثمة • ابكي على هذا الجهاد الطويل الذى كان مآله الانهيار

(I) سفينة كانت تحمل كميات ضخمة من السلاح الجزائرى ، علمت بأمرها الحكومة الفرنسية فضبطتها سنة 1956 على مقربة من وهران •

والاستخذاء · ابكى وانا ارى المجاهدين والمجاهدات فى الجزائر الدامية ، يمسكون بتلابيبك يوم القيامة ، يقولون : ربنا ، هذا هو الذى اسلمناللقتل ، هذا هو سبب ما قاسينا من موت وخراب وانتهاك حرمات ، هذا هو الذى منع عنا سلاحنا ،فمكن العدو منا ، فنكبنا بعد عز ، واجهز علينا بعد نصر مبين هذا ·· وما تركنى الملك استمر ،بل تقدم خطوة ، واخذنى من يدى ، واجلسنى الى جانبه ، واصفر لونه ، فوق اصفراره الطبيعىحتى اصبح كليمونة صيف ، وقال وصوته الضعيف لا يكاد يسمع : ان الذى قلته فظيع ·فظيع جدا · فبين لى الامر ، وان كنت انا قد اسات عن غير علم ، فانا مستعد لاصلاح ما افسدت ،واستغفر الله العظيم ·

هدأ روعى شيئا ، وشرحت له فداحة الامر الذى اصدره بمنع ورود السلاح الجزائرى من مصر الى ليبيا الا بحرا · وفرنسا تتبعنا بجواسيسها فى كل مكان · وقصصت عليه قصة السفينة آتوس ، وكان على علم منها · وقلت وانا اتعمدالمبالغة : ان لم يدخل السلاح الجزائرى ليبيا ، فورا ، حالا ، فان الجهاد الجزائرى يوشك ان يكونمآله الاندحار والانهيار · والمسؤولية عليك انت وحدك ·

قال : لا حول ولا قوة الا بالله ! وفكر قليلا، ثم دق جرسا فجاءنا احد الرجال بقهوة طيبة ، فتناولناها ونحن سكوت · وقال : ان اخواننا المصريين ، وخاصة ملحقهم العسكرى اسماعيل صادق ، قد فقدوا اتزانهم عندما وقع العدوانالثلاثى ، وحاولوا احداث فتنة نكراء بالبلاد الليبية ، ودفعوا بالعامة المتحمسة الى احراقبعض المحلات ، ووزعوا عليهم شيئا من السلاح الجزائرى ، فاضطررنا لاصدار امر بان لا يدخل ذلك السلاح الا بحرا ، حتى تتسلمه الأيدى الجزائرية ، دون واسطة ، بمرفأ طرابلس · هذافقط ما وقع · ولم يخطر لى اصلا ان ذلك سيكون بلاء على الكرام المجاهدين · لكننا سنصلح الامرحالا · ثم القى بيده على الجرس فدقه مرتين ، او اكثر · فاذا بقائد عسكرى ذى رتبة رفيعة يقف على الباب ويحيى التحية العسكرية ، ويقول فى حزم : سيدى ! قال له الملك : اعط الامر حالالقيادة الحدود الشرقية بان تفتح الطريق امام السلاح الجزائرى ، وان تسهل له اسباب المرور !فاندهش القائد العسكرى ، وظهرت على وجهه علائم الحيرة ، وظل واقفا · قال له بحزم : نفذ ماامرتك حالا ، حالا دون تردد · فالقى القائد التحية العسكرية ، بقوة ، ضاربا برجله الارض ، وماكاد يرجع ادراجه حتى قال له الملك : اسمع !

اذا ما نحن خسرنا استقـلال ليبيـــا ، وكسبنا استقلال الجزائر ، فنحن الرابحون ! وذهب القائد وقلت للملك ، وقد شرح اللـه صـدرى ، وازال لوعتى : هنيئا لك يا سيدى ، قال فى شبه ابتسامة بل هنيئا للكرام المجاهدين فى الجزائر ، فاذا مـا انتصر الاســلام يـوما ، وسينتصر لا محالة ، فالفضل لله اولا ، ولهم اخيرا ، ثم ودعته بعـــد حديث قصير ٠

فى صبيحة الغد ، وانا على مقربة من طبرق ، رايت سيارات النقل الضخمة ، تسير باقصى سرعتها ، تحمل سلاح الجزائر الى الاحرار الابرار الذين بيضوا وجه الجزائر يوم الكفاح ، ورفعوا ذكرها اعلى عليين ، بعد الاستقلال ٠

4 ـ العـراق ، والمد المنظم :

جئت بغداد ، سنة 1957 ، ايام وزارة على جودت الايوبى ، وما كانت فى الحقيقة وزارة ، ولا كان رئيسها رئيسا ، بل كانت حكومـة انتقال ، تدير شؤون البلاد ، ريثما يعود الرئيس سيئى الذكر ٠ نورى السعيد ، من اجازته فى لندن ٠ وقابلت على جودت الايوبى ، وتحادثنا ، فقال لى همسا : لا تنتظروا الكثير من النظـــام الحاضر ، فهو غير حر ، ولا يعبر شيئا عن راى العـــراق ٠ ولربما تغيرت الحالة ، وعندئذ ترون حقيقة شعب العراق ، وروح العراق ، وسخاء العراق ورجعنا بكلمات فاترة لا لون ولا طعم لها ، من الملــــك فيصل ، والنافخ فى روحه عبد الاله ٠

وقام شعب العراق ماردا جبارا ، كما تقوم الشعوب القوية الاصيلة ، فحطم الظلم ، وكسر ظهر الطغيان ، وانتقم من عملاء الاجنبى وسماسرة الســـوء شر انتقـــام ، فتلاشت لحومهم وسالت دماؤهم ، واصبحوا لا تـرى الا مساكنهم ٠ كان ذلك يوم 14 يوليو الخالد ، سنة 1958 ٠

وفى شهر سبتامبر ، أى بعد ذلك بنحو الشهرين ، اعلنا نحن فى القاهرة الحكومة المؤقتة الجزائرية ، فكنت فيها وزيرا للشؤون الثقافية ، وما كدت انتهى يومئذ من قراءة النص العربى لاعلان الحكومة الجزائرية ، ومنهاجها ، حتى تقدم سفير العراق ، المحامى فائق السامرائى ، الثائر الفائر ، فاعلن اعتراف العراق بالحكومة الجديدة ، ووعد العراق بالاعانة الكاملة ، والتاييد المطلق ٠ وبعد ذلك بأمد ، سرنا فى وفد قوى الى العراق ، عراق الثورة تحت رئاسة رئيس الحكومة المؤقتة ، الاستاذ فرحات عباس (29 افريل سنـة 1959)

خرج لاستقبالنا بحر من البشر • بحر هائج مائج • احتل الطرق والساحات ، واحتل المطار واحتل نفس مجال الطيران ، فاضطرت الطائرة المقلة لنا ، لاختراق الصفوف المتراصة ، وهى تسير سير الغيلم ، خشية احداث مجزرة بشرية •

بعد نصف ساعة على الاقل ، اسكتت الطائرة محركاتها ، ونزلنا ، فتلقفتنا ايدى الجماهير ، وبعد لأى وعناء تمكن الرئيس عبد الكريم قاسم من اللحاق بنا ، بينما كانت اكف نحو المائة الف رجل تتلقف اعضاء بقية الوفد وتسير بهم ،حسبما تسمح به حركة الجماهير ، ذات اليمين وذات الشمال • وسقط احدنا اثناء الزحام ،فداسته اقدام الجماهير ، وسال دمه من جراحاته • وبعد ساعة او اكثر من ساعة ، التحق بنا فيغرفة المطار بقية رجال الوفد ، وكانت المظاهرة الصاخبة قد احيت آمالهم ، وانعشت ارواحهم ،وكادت فى نفس الوقت تقضى على اجسامهم • وقال عباس فرحات ، بلسان عربى قلما نطق به :هؤلاء احبونا ففعلوا بنا ما فعلوا ، فماذا كانوا يفعلون لو انهم يكرهوننا •

بعد ثلاثة ايام ، عقد عبد الكريم قاسم مجلس الوزراء ، ودعانا الى حضوره ، فى بناية وزارة الحربية • فرحب بنا ترحيبا حارا ، بليغا ، وكانتبه شبه لكنة تخالف ما اتصف به اهل العراق قاطبة من فصاحة اللسان ، وجزالة القول ،وضخامة الالفاظ • واناط بى الاستاذ فرحات عباس مهمة الافصاح عن رغائب الجزائر ، ووضعيةكفاحها ، وحاجتها الملحة الى المدد السريع الفعال• فشكرت العراق شعبا وحكومة على ما ابداه من روحثورية عالية ، ونددت بما كانت ابدته حكومة قبل الثورة من تقاعس عن المدد ، لا يتجانس مع روحالعراق ولا يتفق مع عاطفته الملتهبة نحو الجزائر وجهادها ، وقلت بعد ان شرحت الموقف الحربيفوق المصور الجغرافى : الآن جاءت الساعة الحاسمة ساعة بعدها النصر ، أو بعدها الفناء ، المال ! والسلاح ! هذا ما نطلب من العراق ، نريد المال الجزيل ، والسلاح الوافر ، فالعرب كلهم تقدموافيما مضى بما يستطيعون ، والآن جاء دوركم ، فانظروا ماذا انتم فاعلون •

قال عبد الكريم قاسم : كفاح الجزائر امر اساسى فى كفاح العرب العام • ولن ينجح العرب اصلا فى مستقبل ايامهم ، ما لم تفز الجزائرباستقلالها • كلنا للجزائر • اما السلاح ، فسنعطيكم سريعا مما لدينا ، ومن اجود الانواع •واما المال فهو الآن قليل بين ايدينا ، لكننا لا نبخل

عليكم بشيء . وسنتحمل فـــوق ما نستطيع .قلت : المال بالنسبة لنا اليوم ، كالسلاح . وقد تطورت المعركة سياسيا كما تطورت حـــربيا ،فالسلاح للتطور الحربى ، والمال للتطور السياسى.

نطق السيد حديد وزير المالية ، فقال : لا نجد بـــين ايدينا اليوم شيئا من المـــال : فكيف نستطيع ان نعطى من خزانة خاوية على عروشها ؟فاجابه قاسم ، بلهجة شديدة : سواء أكان لدينا المال او لم يكن عندنا منه شيء ، فواجبنا امـــدادالجزائر حالا . اخر دفع مرتبات الموظفين . اخر انجاز المشروعات التى لديك . اخـر كل شيء ،الا الجزائر ، يجب ان تغاث حالا .

ودخلنا فى جدال ، من اجل تعيين مقدار المال . طلبت ستة مليارات من الفرنكات القديمة ، فصرخ السيد حديد ، وكاد يلطم وجهه ، لا نستطيعاطلاقا ، ابدا ، ونحن على حالنا الآن ، ان نجد اكثر من مليارين ، على ان ينالنا منها ضيـــق شديد .قال قاسم ، وبقية الوزراء لا يقولون كلمـــة : ان الستة التى طلبها الاخ توفيق غير ممكنـــة الآن .وان المليارين اللذين قال عنهما حديد لا يكفيان . فانا اقترح ان يكون المقدار ثلاثة مليارات ، نتعهدبدفعها سنويا . ما دام الكفاح الجزائرى مستمرا الى ان يتم الاستقلال . قلت : فلـــو زدت عليهامليارا ؟ قال : غير ممكن ، وارجو الاخذ باقتراحى فسكت الجميـــع . وتلك عـــلامة المصادقة قلـــت ،مغتنما الفرصـــة : اما وقـــد تقـــرر هذا ، ونحن شاكرون ، فلنعين اجال الدفع ! قال حديد : انناندفع حسب الامكان . قلت : ابدا . ان تكاليفنا كثيرة ، ويجب ان نعرف مداخيلنا بصفة مضبوطةفما رأيكم لو قسمناها اربعة اقساط ، يكون كل قسط 750 مليونا ، تدفع فى اجال محددة كل 15يناير ، و 15 أفريل ، و 15 يوليو ، و 15 اكتوبر ؟ اراد السيد حديدان يتكلم ، فقاطعه الرئيس قاسمقائلا : انا قبلت هذا الاقتراح . فسجـــل عندك آجال الدفع ، واريد ان لا يتأخر الدفع اصـــلا .اطلاقا . وهكذا كان والله . فمنذ تلك الساعة ، الى يوم استقلال الجزائر ، لم يتأخر قسط عـــنموعده المحدد . فحيا الله همة العراق . وحيا الله شعب العراق . ورحم الله عبد الكريم قاســـم ، رغم سياسته الهوجاء المنكرة فى العراق .

5 ـ وقصـــة الســلاح :

اتفقنا مع السلطة العسكرية العراقية ، ان تسلم الاسلحـــة المخصصة للجـــزائر ، الى مركزنا العسكرى بطرابلس . فقالوا لى : مهدوا الامـــر مع الحكومة الليبية ، وعلينا اتمام الباقى .

ولم يكن من الصعب التفاهم مع حكومة ليبيا ، الحسنة الاستعداد ، فليلة واحدة قضيتها بعد ذلك بطرابلس ، كفتني للاتفاق مع رئيس الحكومةالسيد مصطفى بن حليم ، على تعيين المكان الذى تنزل به الطائرات العراقية حاملة السلاح ، حيثيكون ممثلنا العسكرى حاضرا لتسلمها • قال : قدم لنا شخصيا المكلف العراقى بنقل السلاح وعلينا الباقى •

اخبرت السفير العراقى بالقاهرة ، السيد فائق السامرائى بذلك ، واتصل بحكومته فاحاطها خبرا • وانى بمكتبى فى وزارة الشؤون الثقافيةاذ دخل على السفير العراقى ، يتحمل عبء 120 كيلو من اللحم والشحم ، وقال بعد السلام ،ومسح العرق المتصبب : هل عندك صورة شمسية ؟ قلت اى نعم ، هذه هى ، فتأملها وقال :اقطعها عموديا قطعا غير متوازى الاركان • فاخذت مقصا ، وقطعت الصورة كما طلب ، دون ان افهممن الامر شيئا • قال : ناولنى احد النصفين ، فتناوله ، ووضعه فى محفظة اوراقه • وقال :السلام عليكم • قلت ايه يا اخ فائق ؟ انا لم افهم شيئا ! قال : ولا انا • انما نفذت طلبا جاءنى منالسلطة العسكرية ببغداد •

بعد نحو اسبوع ، خاطبنى فائق السامرائى ، طالبا منى القدوم اليه • قال لى : تطلب اليك الحكومة ان تكون فى طرابلس يوم كذا •••••• وان تمتطى طائرة صباح الاحد ، قلت سأفعل • وفعلت •

قدمت جواز سفرى للضابط المصرى بالمطار ، وكان يعرفنى لكثرة اسفارى ، فختمه قائلا فى ابتسام : مع السلامة • وما كدت اخطو خطوتين حتى سمعت من ورائى صوتا يقول لى همسا : اجلس فى الطائرة الى جانبى ، ثم اسرع يتخطىالصفوف ، فاذا به رجل طويل القامة ، عريض الكتفين ، ثابت القدم • ودخلت الطائرة فجلستحيث انتهى بى المجلس ، وحلقت فى الهواء ، واتخذت مجراها ، فقمت افتش عن الرجل المجهول ورأيته فى المؤخرة ، فذهبت اليه ، وجلست صامتا • أما هو ، فقد اخترقنى بنظرة فاحصة ،ثم مد يده الى جيبه ، فاخرج من محفظة اوراقه نصف صورتى التى سلمتها للاخ السامرائى ،وقال لى فى جد : ضع امامها النصف الآخر • فوضعته مطمئنا ، واذا بالصورة كاملة • وارتاحكل منا لصاحبه ، فقال : انا المقدم يوسف عزيز من سلاح الطيران العراقى ، وانا المكلف بنقل سلاح الجزائر ، وانت المكلف بتقديمى للسلطة الليبية المختصة • قلت : اود ان اعرف قبل كلشىء ، كيف عرفت اننى انا ؟ قال : اولا ، ان نصف الصورة ينم عن نصفها الثانى ، ثم اننىكنت اعرف انك ستاخذ هذه الطائرة ، فوقفت

خلف صف المسافرين· وانا طويل القامة، حاد البصر، فكنت ارى جوازات السفر عندما تقدم للضابط وهكذا عرفتك ، وكلمتك ، قلت لـه : الى اللقـاء غدا ، الساعة التاسعة فى بيت رئيس الوزراء · وليذهب كل من ناحيته · وهكذا تم الاجتماع بعدان اتصلت بالرئيس ، وانتهت المهمة على احسن حـال ، واخـذت الاسلحة العراقية مـع ذخيرتها تتدفق على مركزنا بطرابلس ·

قابلت بعد الاستقلال ، عندما عينت سفيرا بالعراق ، السيـد الاخ يوسف عزيز ، فاعلمنى انه قام بسفرات عدة متقاربة ناقلا السلاح مـن العراق الى ليبيا ، وانه كان كل مرة يخترق ممرا فى المجال الجوى الاسرائيلى ، جريا وراء السرعـة واقتصادا للوقـــود ، قلت مندهشا : وماذا لـو اعترض الاسرائيليون طريقك ؟ قال : لقد كـان ذلك مستحيلا عليهم ، لاننى اختـرق مجالهم فى ثوان قليلة ، نظرا لضيق ارضهم ، فلا يكادون يشعرون بى ، الا بعد ان اكون فى سمـاء البحر المتوسط ، وانا اسير باقصى مالدى من السرعة · ثم انى لا اكـــون عراقيا ، ان لم افعـــل ذلك ! وضحكنا معـــا ·

6 ـ السلاح التركى اعانة للجزائر :

هذه قصة شيقة يجهلها الشعب التركى ، كما يجهلها الشعب الجزائرى ، اميط اللثام عنها بمناسبة العيد العشرين ، لذكرى اعلان الجهاد المقدس بالجزائر ·

علمنا ونحن بالقاهرة، ان وفدا تركيا ضخما يرأسه عدنان مندريس ، رئيس الحكومة التركية ، سيحل عما قريب بليبيا ، استجابة لدعوة ملكها ، وحكومتها ، فقرر الاخوة ان اذهب الى طرابلس صحبة اخوين كريمين ، كى نتتبع الحـوادث عن كثب ، ونستطلع ما وراء تلك الزيارة من اسرار ؛ ونحاول الافادة منها على قدر المستطاع ·

كانت سياسة تركيا ـ الرسمية ـ سياسة منكرة بالنسبة لنا، فبينما كان الشعب التركى، المجاهد العملاق ، يقف موقف المؤيد الصلب للثـــورة الجزائرية ، يؤازرها فى صحفه وفى منتدياتـه ، كانت حكومة عدنان مندريس ، التى تعتمد على الاتجاه الاسلامى الدافق فى البلاد التركيـــة ، تصادم الثورة الجزائرية ، وتدلى بصوتها فى هياة الامم المتحدة الى جانب فرنسا ، أو تحاول ان تقف موقفا حياديا ، هو لفائدة فرنسا أولا واخيرا ·

وجاء اليوم المحدد ، وحل ركاب عدنان مندريس بطرابلس ، فوجد رجال الحكومة يرحبون به • ولكم كانت دهشة مندريس ، ودهشة مستقبليه الرسميين عظيمة ، عندما رأوا المطار خاليا من الناس • خاليا تماما ، وركبوا السيارات ، فلميكن فى الطرقات احد • اى احد • كانت المدينة خالية بصفة مطلقة ، لا ترى فيها رجلا ولا امرأةولا شيخا ولا صبيا ، هكذا دفعت النخوة والشهامة اخواننا فى طرابلس ، حياهم الله وبياهم ، لاعلانغضبهم على تركيا ، واستنكارهم لسياستها تجاه الجزائر المجاهدة ، فاغلقوا قاطبة ابواب ديارهموحوانيت تجارتهم ، واضربوا على العمل الادارى فى دواوين الحكومة ، فكاد عدنان مندريس ومـنمعه يصعقون وقال لمن حوله من الرسميين : اهكذا يقابل الليبيون وفد الحكومة التركية ، ونحـــناصدقاؤكم واخوانكم منذ قرون ، وسالت دماؤنا معا فى شتى المعارك الاسلامية ، ونصرانكم فى كلازمة حلت بكم • فما هى هذه المقاطعة الشعبية ، وما هى اسبابها العميقة ؟

قال له رئيس الحكومة : نحن أيضا لا علملنا بهذا ، ولم نشعر بوجود هذا الاضراب الشعبى الا هذه الساعة • اما الاسباب فهى بلا شك ولاريب ، موقفكم من الثورة الجزائرية ، وانتصاركم لفرنسا على الجزائريين وهم يخوضون معركـــةالحياة والموت ، ويقومون بجهاد قاس مرير ، من اجل استرجاع حريتهم السليبة ، واستقلالهـــمالضائع ، وكرامتهم التى امتهنت شر امتهان •

قال لى مصطفى بن حليم : ما كدت اقول لههذا حتى غص بريقه ، واختلجت عضلات وجهـه ، وقال بصوت متهدج : انكم لا تفهمون ولا يفهم اخواننا الجزائريونحقيقة موقفنا اليوم• نحن عاطفيا وقلبيا مع الجزائر فى نضالها الحر الشريف • لكننا من جهة أخرى، لنا ارتباطات مع فرنسا ، ولنا فى الوقت الحاضر مصالح اقتصادية كثيرة معها ،وهى تعيننا ، فلا نستطيع ان نتنكر لها جهارا • قال مصطفى بن حليم : فاجبته : اذن تستطيعونان تتنكروا لمبادئكم ، ولضمائركم ، ولعواطف شعبكم ، ولا تستطيعون ان تتنكروا لمصالحكـــمالاقتصادية ؟ قال لى : كل شىء يمكن تقويمـــه واصلاحه ، فى عالم السياسة • فما هو فى رأيكمالعمل الذى يرضى اخواننا الجزائريين والليبيين ، ويصلح الموقف معهم ؟ قلت : ومع كل العـربلان العرب كافة ، مـــن اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، قد اعلنوا تضامنهم الفعال ، مع الثورةالجزائرية ، فكل عمل ضد الجزائر انما هو فى الحقيقة ضد العرب عموما ، اما ما يجب عملـــه ،فساخبرك به غدا ، بعد استشارة ممثل جبهـة التحرير • وهو الآن هنا •

قلت له وقد خلوت به في منزله صباحا ،حول الشاى الشهى : لا نريد من تركيا الا امرين لا ثالث لهما ، ان تقلع عن اعانة فرنسا ضـــد الجزائر ، وان تنصر ، كغيرها ، مبادىء العـدل والانصاف • وان ترسل للجزائر مددا من الاسلحةالحديثة الموجودة لديها ؛ وبذلك نطوى صفحـــة الحاضر ، ونفتح صفحة جديدة ، تصل المستقبلبالماضى •

قال له مصطفى بن حليم هذا ، فاجابه : اما تغيير مسلكنا السياسى ، فسنقوم به تدريجيا ، حتى نلتقى بعد حين مع اخواننا الجزائريين والعربفى موقف واحد • واما السلاح ، فنحن مستعدون لامداد اخواننا الجزائريين بنصيبوافر منه• وانماكيف السبيل لايصاله • قال له ابن حليم : ارسلوه هدية من الشعب التركى الى الشعب الليبى ، ونحننسلمه للجزائريين • قال عدنان : اتفقنا ، انما الامر موكول بمصادقة رئيس الجمهورية جـــلالبايار ، وساخبرك بصفة سرية ، عندما تتم هذه المصادقة ، واخبرت الحكومة الليبية الملك ادريسبهذا ، فقال لعدنان اثناء استقباله له : انا مسرور جدا بوعدكم الذى قطعتموه للحكومة باعانة الجزائرالمجاهدة ، وارجو ان يتحقق الوعد قريبا • فابلغوا رجائى هذا للسيد الرئيس جلال بايار •

وانى لبمكتبى بشارع مديرية التحرير، بالقاهرة ، اذ جاءنى السيد سفير ليبيا ، موفدا من قبل رئيس الوزراء ، يقول : ان الرئيس اتصلمن تركيا بما يفيد مصادقة رئيس الجمهورية عـلى الاتفاق • وان الامانة فى الطريق • فشكرته ،وطلبت اليه تبليغ شكرى للسيد رئيس الحكومة ريثما اقوم بذلك شفويا • وابلغت اخواننا الامر ،فكان سرورنا عظيما • وبعد نحو الشهرين ، تسلم مركزنا العسكرى بطرابلس ، هذه الاسلحة :

1 ــ 1000 بندقية عيار 3ر3 مع ذخيرتها وقطع تجديدها •

2 ــ 100 رشاش انكليزى من نوع Brean عيار 3ر3 ، مع ذخيرتها ، وقطع تجديدها •

3 ــ 18 مدفع هاون (مورتى) عيار 81 ميلمتر • فوقها رسم العلم التركى • ومع كل مدفع مائة قذيفة • وقطع التجديد •

4 ــ 25 مدفع كبير فوق العجلات ، مع كلما يلزمها ، (ويقول ممثلنا العسكرى بطرابلس اننا تركناها للجيش الليبى ، لاننا لا نستطيعاستعمالها) •

ثم اخذت تركيا بعد ذلك تغير سياستها الرسمية نحو الجزائر ؛ الى ان وقفت فى المستوى المامول، وسمحت بفتح مكتب ناشط لجبهة التحرير بالعاصمة انقرة ٠

هذه قطرات من بحر خضم ، لولا ضيق المجال ، وخوف الاطالة ،لسكبنا منها مئات القطرات فوق هذه الصفحات ٠ ولعل فرصة أخرى تسنحلنا ، فنعود الى الحديث عن اعمال المجاهدين فى الخارج ، اثناء معركة التحرير ، بينمــــا رجالنا وشبابنا ، يقدمون المهج والارواح ، بسخاء فى ميادين الكفاح ، امام اضخم جيش استعماري جردته يد الجور والارهاب ، لارضاخ شعب انف الرضوخ ، واذلال شعب طلق الذل والهوان الى الابد ٠ وصوت الشعب ، هو صوت الله ٠

فرحم الله الشهداء الابرار ٠

وخلد الله ذكر المجاهدين الاشراف ٠



دراسة مقارنة
للتيارات الفكرية قبل الثورة وأثناءها

د • عبد الله ركيبى
كلية الآداب
جامعة الجزائر

يحتفل شعبنا هذه الايام بالذكرى العشرين لثورة أول نوفمبر العظيمة واحتفاله بهذه الذكرى ليس فقط للتعبير عن نشوة الانتصار او الابتهاج بهذه المناسبة التاريخية التى اعادت للانسان الجزائرى كرامته وحققت له ـ على أرضه ـ حريته ومصيره ، ولكن ايضا لان هذه الثورة نقلت الشعب من مرحلة الى اخرى وحددت له طريقه الصحيح : ومن ثمة فان الحديث عن الثورة ، مجرد الحديث عن شعاراتها وانتصاراتها لا يكفى ولا يفيد كثيرا وانما ينبغى ـ فى تقديرى الخاص ـ ان نقارن بين عهد الثورة والعهود السابقة عليها ثم ـ وهذا هو الاهم ـ ان نستخلص العبرة من الاحداث التى مر بها شعبنا سواء قبل الثورة او اثناءها

ومن الاهمية بمكان ان نعيد النظر في بعض القضايا التي عاشها شعبنا في ماضيه القريب والتي ما زال يعيشها حتى الآن وان اختلفت الظروف ، خاصة تلك التي ترتبط بحياة المجتمع ارتباطا عضويا ، فهي متجددة دائما وان اتخذت لها مسارات خاصة أو تلونت بأصباغ وظلال معينة ؛ فمما لا شك فيه ان بعض القضايا أو بعض الافكار لا تذوب أو تجمد ولا تتوقف لانها تحدد هوية الشعب وتصور واقعه وتطبعه بطابعها الخاص كما انها أيضا ترسم له مستقبله ·

وقضية الثقافة القومية او الفكر القومي ومايتصل بهما من قريب أو بعيد تاتي في مقدمة هذه القضايا التي تحتاج دائما الى الحديث او الحوار لأنها تكون ذوق الفرد وتحدد شخصية المجتمع ·

على ان الحديث عن الثقافة او الفكر يقتضينا ان نعرض للتغير الذي حدث بعد الثورة في هذا الجانب ونقارن بين فترة الثورة وما قبلها ، ومثل هذه المقارنة تتيح لنا ان نعرف مدى التطور الذي حدث وساعد على تقدم الافكار او نضجها ، وان نطلع على دور هذه الثقافة وهذا الفكر في حقبة من الحقب بحيث ينعكس اثر ذلك كله في تفكير المجتمع وقناعاته على اختلاف فئاته واتجاهاته وتطلعاته ·

وسواء كان مفهوم الثقافة هو التعبير عن موقف أو وجهة نظر تجاه الكون والحياة والانسان أو انها نشاط انساني ابداعي أو تجريبي وسواء أيضا كانت تعبيرا عن معارف معينة تظهر في أشكال مختلفة ، في الفن والادب والعلوم أو كانت تعبيرا عن حركة المجتمع في تطوره الفكري عبر مراحل تاريخية معينة ، وسواء كانت الثقافة ـ كما يذهب البعض ـ هي ما يبقى للفرد بعد ان يستوعب المعارف الانسانية وبعد ان يتكون ذوقه ووعيه بالحياة وتجاربها المختلفة ، أو انها مجموعة قواعد للسلوك والتفكير ·· أيا كان مفهوم الثقافة اذن فان المهم هو في الحلول التي تتوصل اليها ، أي مدى ما تقدمه للانسان من وعي بواقعه واستبصار بمستقبله ، وبتعبير آخر ان وظيفة الثقافة هي التي تحدد نفعها واهميتها ، وهذا مايفسر اختلاف وجهات النظر حولها وحول مفهومها ، فهناك فرق مثلا بين مفهوم الثقافة البورجوازي ومفهومها الاشتراكي ·

والواقع ان مجرى الثقافة مهما استمد قوته من روافد انما يتحدد بمصبه ، بالهدف الذي يرسم نقطة النهاية فيه وهو ما اطلقنا عليه «وظيفة» الثقافة التي تحقق الوعي للفرد والمجتمع ، هذا الوعي الذي يسهم في تطور الفكر البشري ويسهم في انتصار الخير في الانسان ، كما يحقق له العزة وكرامة العيش · لذلك نحتاج باستمرار الى العودة الى منابع الفكر والثقافة والى الاتجاهات

التى ظهرت فى فترة ما ثم اختفت أو تلاشت فىفترة ثانية أو تجمدت فى فترة ثالثة لظروف خاصة مر بها المجتمع حتى تجد فرصة العودة والظهورمن جديد .

والملاحظة التى نسجلها فى هذا المضمار انالاجيال ياخذ بعضها عن بعض ويؤثر السابق منها فى اللاحق نوعا ما ، فهناك تأثير خفى متبادلبين جيل وجيل، ويحدث هذا التواصل فى الفترات المتقاربة وان بدأ احيانا أن هناك انقطاعا بينالاجيال المتتالية ، ولكنه انقطاع فى الظاهر نتيجة معطيات جديدة فرضها تطور المجتمع فى مرحلة منالمراحل بحيث يبدو الامر للبعض وكأن جيلا خلق بدون مؤثرات أو افكار سابقة على افكاره ، وهذاالتصور هو الذى دفع فئة من الناس عندنا الى رفض الفكر السابق على الثورة بل وعزلها عنالمؤثرات والعوامل التى لعبت دورا اساسيا فى تكوينها ، وكانهم قد اكتشفوا الشعب الجزائرىفقط بعد ثورة نوفمبر دون ان يتمعنوا فى تاريخه الطويل العريق الضارب فى أعماق الزمن !

ان هذه النظرة « الانفعالية » قد ترضى العاطفة الوطنية فى مرحلة «التفجر » ولكنها لا ترضى الحقيقة ، لان الواقع يؤكد ان حلقات التاريخمترابطة وان الشعب الجزائرى لم يولد بين عشية وضحاها ، وان جذور النضال فيه ممتدة وان كاننضال ثورة نوفمبر اسطع واقوى لانه حقق الانتصار العظيم ، وما كان له ان يحققه لو لا انهارتكز على فكر وعلى تراث نضالى وتجارب ثورية عريقة .

وحتى لا أخرج عن الموضوع الذى نحن بصددالحديث فيه ، أريد أن اشير الى نقطة أراها جديرة بالتنويه وهى أننى فى هذا المقال ، اهتم بالفكربمفهومه العام الذى يشمل الثقافة ويشمل أى نشاط فكرى وابداعى ، فاذا كان الفكر هومجموعة قواعد ومعتقدات نظرية كونتها مناهج معينة ؛ فان الثقافة تجسيد هذا الفكر فى اشكالمن التعبير تختلف اساليبها ولكنها تسعى الى خدمة الانسان وتكوين تفكيره وذوقه وشعوره .

كذلك فاننى لا اعرض للادوات أو للوسائلالتى استخدمت لبث الفكر والثقافة او للاشكال التعبيرية التى استخدمها الكتابوالادباء والمفكرونفلهذا مجال آخر ، وانما الذى يهمنى هنا هو رصد التيارات والاتجاهات الفكرية التى سادت فترة ما قبل الثورة ، هذه الاتجاهات هى التى انعكست من انتاج الكتاب والمفكرين والسياسيينونشرتها الوسائل الثقافية بين الناس ، كالصحافة والكتاب والخطابة والمنشوراتوالبيانات السياسيةالى جانب اشكال التعبير الاخرى .. ولكن المهم هو

تأثير هذه الافكار من جهة ثم مدى الحلول التي قدمتها لمشاكل الشعب ومدى ما حققته من نجاح أو فشل ، ثم ، وهذا هو الاهم ، النتائج التي نستخلصها منها وكيف نظرت الثورة اليها .

واذا حاولنا ان نرصد الاتجاهات الفكرية والثقافية في فترة ما قبل الثورة ، وهي اتجاهات تمثل مجموعة افكار سياسية أو عقائدية أيديولوجية وان صح القول - ظهرت في مجرى الثقافة فيما مضى ؛ اذا حاولنا ذلك لا بد ان نصطدم بالحساسية أولا ؛ لان جلينا قد عاش تلك المرحلة وارتبط بافكارها أو ببعضها على الاقل ، وربما ما زال بيننا من يحن لها ويتعاطف معها نتيجة تكوينه وارتباطه بالماضي ، والانسان مجبول على حب ماضيه ولا يسلم فيه بسهولة .

وثانيا : ان تقويم فترة من الفترات يحتاج الى أدلة وشواهد وأسانيد ونصوص تعضد رأى من يسعى الى ذلك وهذا ما لا يساعد عليه المجال.

ومن هنا فانني اعتبر ما اسجله في هذا الحديث ان هو الا راى خاص كونته من المعايشة ومما قرأته ، فالذي يراجع النصوص التي ظهرت بظهور الطباعة في الجزائر منذ بداية هذا القرن ويراجع الآثار الادبية والانتاج الفكري والثقافي بوجه عام سيلحظ ان ابرز الاتجاهات الفكرية التي امتدت قرابة نصف قرن تتمثل في الفكر الرجعي المحافظ والفكر الاصلاحي والفكر الليبرالي ثم الفكر الاشتراكي .

ولا شك ان **الفكر الرجعي المحافظ** هو أقدم هذه الاتجاهات واكثرها ارتباطا بالتقديم ، وساعد على تكوينه وبقائه واستمراريته حتى قيام الثورة جملة عوامل ، منها عصور الانحطاط التي بذرته وسحبها التي خيمت ليس فقط على بيئتنا ولكن على البيئة العربية كلها بعد ان تقلص ظل الحضارة الاسلامية وبعد ان تجمدت الثقافة العربية ولم يبق منها سوى قشور براقة ليس لها امتداد وليس فيها عمق ولا أثر للتطور فيها . والى **جانب ذلك هناك عامل قوى لعب دورا قويا في استمرار هذا الاتجاه ، ونعني به وجود الاستعمار في بلادنا حقبة طويلة من الزمن ؛ فالمحتل شجع هذا الآتجاه ووجد فيه سندا له ولمصالحه بل ساعد على تكوين طبقة تتعصب لهذا الفكر الرجعي والاستعماري معا وهي طبقة لاذت بالماضي ورات فيه حلا لمشاكل الحاضر ، واعتنقت فكرة القدرية وترك مقاومة الاستعمار الى قدرة غيبية وما يتصل بها من سبيل من تحجر في الفكر بسبب التربية او التكوين أو تلقين افكار لا تستند الى منطق او عقل او خبرة حية بحيث نتج عن ذلك استسلام وتواكل فانتشر الفكر الخرافي الذي كاد يشل في الشعب قوة الخيال والابداع والفكر الخلاق .**

وهذا الاتجاه الرجعي المحافظ الغى التفكيرالعقلانى بل الغى العقل كلية ورفض الاجتهاد الذى يمثل احدى الاسس المضيئة فى الحضارةالعربية الاسلامية ، وبدل ان تعمل هذه الطبقة على تنمية الثقافة العربية كما بزغت فى العصورالذهبية ، راحت تردد نصوصا كتبها اصحابها لواقعهم المتخلف ولظروفهم الخاصة ولعصرهم المظلم · وعلى هذا اصبح كل من يدعو لفكرة جديدة أو لفهم جديد ـ فى نظر هذه الطبقة ـ ملحدا أو كافرا ، بل ان فكر هذه الطبقة رفض كل فكر لا يسانده وشن حربا على الاتجاهات الاخرى وكان موقفه عقبة امام تطور المجتمع وامام تطور الثقافة الاصيلة فى بلادنا فهو حين رفض العقل رفض أيضا التجربة الحية لانه فى الواقع الغى ارادة الانسان وحريته ومصيره فى الحياة ·

ان الذى يقف على تفكير هذه الطبقة ويطلع على ما كانت تكتب من افكار ساذجة جامدة ، يدرك مدى التدهور الذى قد يصيب الفكر والثقافة وينعكس على الانسان فيتصرف تصرفات تبدو لغيره مضحكة ولكنها تبدو له سليمة مقنعة ، وهذا ما يفسر كيف انتشرت الافكار العجيبة فى بيئتنا واتخذت لها مظاهر مؤلمة محزنة ، بصرف النظر عن أداة الثقافة ومظهرها ووسائلها ؛ فكما يوجد الرجعى فى من ثقف ثقافة عربية يوجد أيضا فى من ثقف ثقافة غربية وان اختلفت التفاصيل ، انه فكر ضد الثورة أصلا من أى نوع كان ·

أما الاتجاه الثانى فهو **الاتجاه الاصلاحى** ، وهو فكر متقدم متطور بالقياس الى الاتجاه الاول بل هو ثورة عليه ، فالفكر الاصلاحى خطا بالفكر الجزائرى خطوة هائلة قد لا يبدو اثرها لنا اليوم، ولكنه فى الفترة السابقة على الثورة كان وثبة الى الامام بالنسبة للفكر والثقافة ·

والسمة الاولى لهذا الفكر أنه احدث نوعا من التوازن بين الماضى والحاضر وأوجد جسرا بينهما فهو يختار من الماضى الملم فتراته ، فيضرب بها المثل ويستمد منها القدرة على الاستمرار ويستوحيها فيما يقول ويفعل ، فيما يكتب او يهدف ، ولكن فى الوقت نفسه لا يرفض التطور ولا يرفض الحياة ـ كما يفعل الفكر السابق عليه ـ وانما يسعى الى الملاءمة بين الحضارة العربية الاسلامية وبين الحضارة الغربية الغازية التى لا يرى فيها شرا كما يرى فيها اصحاب الفكر الآنف الذكر · فالفكر الاصلاحى بطبيعته فكر وسطى ، فكر توفيقى ،فهو يأخذ من الحضارة الغربية بقدر ما تساعده على فهم الواقع وتأصيل فكره فلا يتخذ منها مثلا أو أطروحة لفكره يمكن بها ان يحل مشاكل المجتمع

وانما الذى يحل مشاكل المجتمع هو الحفاظ على الجذور أو ما يسمى بالاصالة والاستفادة من العصر بالقدر الذى لا يطغى على المعتقدات السليمة في الحضارة العربية الاسلامية ٠

وهذا الاتجاه هو الذى خلق ثقافة وطنية قومية لأنه تبنى اسسها ومكن لها فى الوطن وغذاها بافكاره ونشرها بين الجماهير على نطاق واسع وكرس لها وسائل مختلفة وركز على فكرة «الاحياء» احياء اللغة ، احياء التراث ، وصقل العقيدة كما بدات فى عصر الانبعاث ٠

أما السمة الثانية ، فهى الملاءمة بين العقل والدين ، وهذه الملاءمة تندرج ضمن منطق الاصلاح وموقفه من قضايا العصر ومن مشاكل المجتمع ٠وهذه النظرة قديمة فى الفكر الاسلامى، وهو الفكر المجدد الذى يؤمن بالاجتهاد وباعمال النظر فى القضايا التى تجد بسبب التطور فى عصور تختلف أوضاع الناس فيها اختلافا بينا عن اولئك الذين عاشوا ظروفا أخرى لها معطياتها ومشاكلها ٠

والسمة الثالثة لهذا الفكر انه قرن القول بالفعل ، لذلك اعتمد على مناهج خاصة فى بلورة أفكاره وتعرض لضغط من آلادارة الاستعمارية الفرنسية وحورب مثلما حورب الفكر الوطنى الذى نادى بالانفصال عن الحكم الاجنبى ٠ ومع ان هذا الفكر يمتاز بالنظرة الجديدة للحياة والانسان وهى نظرة نسبية الا انه يبقى فكرا اصلاحيا سواء فى الدين أو فى السياسة ، فالعبرة ليست فى اعتماده على نوع الثقافة أو صبغتها وانما العبرة بموقفه من الحياة والمشاكل الاقتصادية والفكرية والسياسية ؛ لذلك نجد هذا الفكر فى طبقة معينة سواء ثقفت ثقافة عربية أو فرنسية ٠

ولا شك ان هذا الفكر – عكس السابق عليه – قد ساعد على ايجاد المناخ المناسب للثورة ؛ لأنه غرس فى اصحابه واتباعه حب الوطن والاعتزاز بتاريخ الاجداد ٠ كذلك لا يمكن ان نعمم حكمنا فى هذا الاتجاه على ممثليه جميعا لاننا نجد داخل هذا التيار من يؤمن بالثورة وبالعمل لها ، وانما حكمنا ينصب على الطابع العام له ، ولو اردنا ان نقارن بين هذا الفكر وبين السابق عليه لوجدنا الفرق الواضح يكمن فى ان الفكر الاصلاحى فكر « حركى » أى ان له نظرة جديدة للتاريخ تمتاز بفهم « دينامى » للمجتمع ، بينما الفكر الرجعى الجامد لا يعترف بحركة التاريخ ولا يعمل من اجل التقدم بأى نوع من انواع العمل ٠ فبقدر ما نجد هذا الفكر سلبيا نجد الفكر الاصلاحى ايجابيا فى مجمله ٠ وقد لعب هذا الاتجاه دورا كبيرا فى الحياة الفكرية والثقافية والسياسية ، بل وكان له الفضل فى تحطيم الفكر السابق عليه ٠

وهناك تيار ثالث لعب أيضا دورا بارزا فيفترة ما قبل الثورة خاصة في الفكـــر السياسي واعني به **الاتجاه «الليبرالي»** الذي يرفض الماضيرفضا كليا ويرى فيه عائقا دون التقدم ويؤمـــن بالعقل وحده ، فهو اتجاه عقلاني صرف ، ولا شكان هذا الاتجاه هو ثمرة الثقافة الغربية والفرنسية بوجه خاص وهو اتجاه يدعو الى الحرية الفرديةويتبنى التفكير « البورجوازي » الطبقي الـــذي استمد مقوماته ونظرياته من الفلسفة الغربية ومنالفكر الفردي ، وقد تأثر بالمذاهب السياسية التي دعت الى تكوين الاحزاب وقيام البرلمانات ودعا الىالديمقراطية الممثلة في الانتخابات وحرية التعبير والاجتماعات وما الى ذلك من الافكار التي بهرتفئـة الجزائريين فاعتنقوها ورأوا فيهـا حـــلا للمشكلات المادية والفكرية للشعب الجزائري بلاعتبروا هذا الفكر هو الدواء الذي لا دواء غـيره لما يتخبط فيه المجتمع من تخلف وجمود وعبودية ٠

على ان هذا الاتجاه يتراوح بين من ينادي «بالادماج» في المجتمع المتفوق الذي غزا البلاد، وبين من ينادي بالاستقلال وبالانفصال عن الدولة الحاكمةويرفض الاندماج كلية وتحت أي مظهر أو شعار ٠ وبين هذين الطرفين داخل هذا التيار الكبير نجد من يربط بين الاستقلال وبين القضايا الاجتماعية أو ينظر للاستقلال هدفا في حد ذاته دون اعتبارللناحية الاجتماعية والاقتصادية وهو في ذلـــك يجاري الفكر الليبرالي الذي يؤمن ببقاء الطبقيــةوبالربح المادي الذي يعتمد على الكفاح الفردي وقانون العرض والطلب ٠

غير ان الجناح القوي في هذا الاتجاه هو الذي طالب بالانفصال عن الدولة المستعمرة وناضل من اجل الاستقلال والحرية ، واسهم بفعالية فيتثبيت الفكر الوطني الثوري ، ومهد للثـــورة بالوسائل المتاحة له في ذلك الوقت بل وكافح مناجل التحرر من سيطرة الاستعمار الفرنسي وبرهن على تمسكه بالتضحية الجسيمة وتعرض للتعذيبوالتشريد والقهر الاستعماري لأنه رفض الحلول الوسطى وآمن بالكفاح المسلح ٠

وبالرغم من ان هذا الاتجاه اتخذ هذا الخط ،فانه لم يستطع ان يبلور نظرية متكاملة يحطم بها الفكر الاستعماري وتقليعه من جذوره ؛ ذلك لانهعني في عمله بمحاربة الاستعمار السياسيالعسكري ولم يهتم أو يحاول القضاء على أفكاره وثقافتـــهالعدوانية ٠ **بعبارة اخرى : عني بالقضاء عـــلى الجانب الظاهر من هذا الاستعمار وترك الجانبالخفي الخطير الذي تغلغل بواسطة الثقافة ٠ ويرجع**

السبب فى ذلك ـ كما اشرت ـ الى ان البعض من اصحابه خلبتهم الثقافة الفرنسية والحضارة الغربية ولم يستطع ان يتحرر من مثلها وصورها وايحاءاتها ٠

ومع هذا كله فان هذا الاتجاه وضع الاسس للفكر الثورى ولا اقول التقدمى الاشتراكى ، وأسهم فعلا فى تفجير الثورة ، خاصة منه تلك الطليعة التى لم تلوث بالصراعات الحزبية والتسابق على الشهرة أو الزعامة ، وهى طليعة مهدت للفكر الثورى التقدمى الذى ظهر بعد قيام الثورة بصورة قوية واصبح هو التيار العام فى فكر ثورة نوفمبر كما تمثل فى مواقف وافكار المثقفين سواء من ثقف منهم ثقافة قومية عربية أو ثقافة اجنبية ٠

ويبقى الاتجاه الرابع والاخير ، وهو الاتجاه الى الاشتراكية وهو اتجاه يبدأ من مفهوم الدين للاشتراكية ـ كما ظهر فى بعض النصوص الادبية وغيرها ، الى مفهوم الماركسية لها ، مرورا بمفهوم العدالة والمساواة بين جميع أفراد الشعب ٠

والواقع أن هذا الاتجاه يمزج بين افكار كثيرة حول الاشتراكية ولم يتبلور فى طبقة معنية الا فى فترة متأخرة جدا ؛ فقد اقتصر فى بادىء الامر على أفراد لم يؤثروا فى مجرى الحياة الفكرية والسياسية تأثيرا واضحا وان اسهموا فى وجود هذا التيار الذى اتضحت معالمه فيما بعد ٠

واذا كان الاتجاه الليبرالى الوطنى رأى فى الاستقلال حلا لمشاكل الشعب فى التحرر من السيطرة الفرنسية سبيلا للنهوض والتقدم بصرف النظر عن المنهج الفكرى أو الايديولوجية ، فان الاتجاه الى الاشتراكية نظر الى الواقع نظرة مختلفة ، نظرة تربط بين الفكر والمادة ، بين الحرية السياسية والحرية الاجتماعية ، بين الاقتصاد والاستقلال السياسى ٠ لذلك حورب هذا الاتجاه من الاستعمار كما حاربه اصحاب الاتجاه السابق ، وان كان ما نال الاتجاه الوطنى الليبرالى من اضطهاد اضعاف ما نال الاتجاهات الاخرى ٠ وما يصدق على المثقفين من الاتجاهات السابقة يصدق على هذا الاتجاه فلا فرق بين من ثقف ثقافة عربية أو اجنبية ٠

كذلك فان تأثير الاتجاه الى الاشتراكية يبدو اضعف واقل فى اوساط الجماهير من تأثير بقية الاتجاهات لظروف كثيرة ولعوامل اجتماعية وفكرية وثقافية مختلفة لا يتسع المجال لمناقشتها ٠

اذن ، فالفكر الاشتراكى فى نشأته الاولى يمثل تيارا فى الثقافة الوطنية ولكن ضعيف بالقياس الى التيارات الاخرى ، وقد اشتد بعد قيام الثورة وان اختلفت ملامحه باختلاف مفاهيم اصحابه وتعدد آرائهم حول الفكر الاشتراكى ومفهوم الاشتراكية ٠

هذه ـ في تصوري ـ هي الملامح العامة للفكر والثقافة في بلادنا قبل قيام ثورة نوفمبر ، فما هي ملامح هذا الفكر وهذه الثقافة بعد قيام الثورة ؟ ؟

اذا كان من الصعب في مقال كهذا أن نتتبع بالتفصيل ملامح هذا الفكر اثناء الثورة فلا أقل من أن نرسم صورة لخطه العام الذى سيستمر بعد الثورة بل سيتبلور بعد الاستقلال . والمؤكد ان الثورة حين اندلعت في فاتح نوفمبر 1954 كانت قد رسمت لنفسها طريقا واضحا بين هذه التيارات الفكرية ، فقد شبت وسط أمواج من الافكار في بيئة كانت تغلي بنظريات سياسية ومبادىء فكرية ومعتقدات شبه ايديولوجية . ذلك ان البيئة الجزائرية كانت مشحونة بافكار متشابهة واخرى متضاربة ، بعضها تجاور وتعايش وبعضها تضارب وتعارض نظرا لتعارض المبادىء والاهداف ولعبت الصراعات على الزعامة دورا كبيرا في هذا الجو المضطرب المؤلم .

ولا حاجة بنا الى ان نعيد الى الاذهان مرة أخرى موقف الاستعمار من هذه الصراعات وهذه الاتجاهات فقد أشرنا الى انه حارب الفكر الذى عارض وجوده ومصالحه بينما أيد الفكر الذى سانده وسلم بوجوده وبقائه في وطننا ، ومن هنا رأينا كيف كان يغذى الخلافات الفكرية والحزبية وكيف كان يبذر الشقاق بين زعماء الحركة الوطنية وينشر الفتنة والطائفية بين فئات المجتمع وكان يظن انه استراح من « المشاغبين » بعد ان رأى التشتت والتمزق والتناحر يجتاح صفوف المناضلين والقادة بوجه خاص ! !

ومن الحقائق التاريخية ان الفكر الاستعماري أصيب بهزة شديدة وباضطراب وهلع حين فوجىء بالثورة ، وليس الاستعمار وحده هو الذى اصيب بذلك ، بل فوجىء بالثورة كثير من زعماء تلك الفترة . وقد كان الناس يتساءلون عن هذا البركان الذى تفجر في حين ان السطح كان هادئا تماما يشير الى عكس ذلك ، وكثيرا ما تخطىء الاحكام التي تكتفي بالمظهر ولا تغوص الى الاعماق وقد اخطأت احكام كثير من الناس على الشعب الجزائرى ان في الداخل أو في الخارج ، وفوجىء هؤلاء واولئك بهذا الشعب الذى قيل عنه انه « تفرنس » نهائيا ، فوجئوا بثورته يشعلها منذ اللحظة الاولى بعنف ربما لم يسبق له مثيل في تاريخ الشعوب المستعمرة حديثا .

وكان على الثورة ان تنظر الى الماضي وتستمد منه العبرة وان تبحث في غمار الاحداث عن السلبيات والعيوب التي عاقت المجتمع عن الانطلاق قبل هذا التاريخ ، ووجدت ان عليها لكي تنتصر بل لكي ينتصر فكرها الجديد ان تعيد النظر في هذا الفكر وفي الثقافة ايضا . فاذا كان العهد

الماضى قبلها قد تميز بالتشتت فى الفكر والثقافةوبالتمزق فى المواقفوالسياسة ، واتسم بالغموض والبلبلة والاضطراب ، اذا كان هذا كله هــوالعلامة المميزة للمرحلة السابقة على الثورة فان قيامها ينبغى ان يستند على افكار جديدة ومواقفجديدة وانه لا بد مــن مؤشر جديد يقضى عــلى الفوضى التى سيطرت على الفكر الوطنى زمنـــاطويـــلا ٠

ومن هنا اعتمدت الثورة على الدعوة الى وحدةالفكر ، على الاتجاه الواحد للفكــر الثــورى ، فنصوص الثورة منذ قيامها تركز على شعار «الثورةوالاتحاد والعمل » وتدعو الجزائريين جميعــا الى الانضواء تحت لواء جبهة التحرير الوطنى » بصرف النظر عن الماضى وعن المعتقدات المختلفة بشرط ان يعتنقوا هذا المبدأ ، وان يندمجوا فى منظومةواحدة هى الوحدة الفكرية ٠

وقد رفضت الثورة الفكر الذى يتشبث بالماضى أو يتعصب لافكار قديمة لا تخدم الفكر الجديد فلكى تنجح الثورة لا بد ان يقضى عــلى التشرذموالتمزق والتناحر ٠ وليس هناك مبدأ يسند وحدة الفكر سوى العمل المجرد النزيه ، انه المقياس‌السليم الذى يظهر به المفكر والمثقف والمناضــل تعاطفه وايمانه بالثورة وبالشعب ٠ وهذا ما يميزالثورى عن غيره ، ويميز الوطنى الحقيقى عن مدعى الوطنية ٠ وقد ادى هذا الفكر الثورى الجديـــدالى وحدة شاملة سواء فيما يتعلق بالنضـــال أو الهدف أو بالرؤية للاحداث وتطوراتها ٠

والذى يتتبع النصوص التى سجلت الفكرالسياسى لهذه الفترة أو الــــتى صاغت أفكـــار الثورة فى أشكال للتعبير مختلفة أو فى مجـــال الاعلام والدعاية ، ان الذى يتتبع ذلــك سيجد هذا الخط واضحا فى فكر الثورة ، اذ انــه مــن غير المقبول فى فترة الكفاح الوطنى ان تسمح الثورة بالاجتهادات الفردية فى الفكــر والسياسةخاصة ابان المعركة ، وان تعطى الفرصة للافكار المخربة كى تغزو البيئة وتبذر التفرقة بين صفوف‌الجماهير التى التفت حول الثورة وضحت بمــا لديها من غال ونفيس ، وقد كان هذا من بــين‌العوامل التى ساعدت على انتصارها دون شك ٠

صحيح ان الافكار السابقة على الثورة لــم‌تمت بعد قيامها لان الافكار لا تموت بين عشيــة وضحاها ولكنها على الاقل فى مرحلة الكفاح المسلح‌قد توارت واختفت وافسحت المجـــال للفكـــر «الوحدوى » ان صح التعبير ٠

على ان هذا الفكر الجديد لا يتمثل فيما قلنافقط بل يتمثل ايضا فى ان الثـــورة اعطته لونا خاصا وبعدا اجتماعيا بدل مفهومه المجرد فى القديم‌فالثورة لم تقم لتحرير الانسان فوق هذه الارض

من السيطرة الاستعمارية فحسب ولكنها قامت الى جانب ذلك لتحريره اجتماعيا واقتصاديا ولتجعله سيدا فى هذه الارض وعلى ما فيها من خيرات ، لا لمصلحة طبقة معينة ولكن لكل افراد الشعب ، الامر الذى يجعل وصف هذا الفكر « بالتقدمى » وصفا حقيقيا وتاريخيا أيضا ٠

حقيقة ان هذا الفهم أو هذا الفكر التقدمى لم يكن محدد المعنى مضبوط المصطلح ، ولكن على كل حال كان يرمز الى شىء جديد فى فكر الثورة لانها تبنته فى مواثيقها ونصوصها ٠ فاذا كان مصطلح « الاشتراكية » لم يظهر فى بداية الامر بهذا اللفظ ، فان بديله وهو مصطلح «الاجتماعية» قد ظهر حين تتعرض النصوص الى قيام الدولة الجزائرية ومنهجها فى الحكم والسياسة ؛ فعندما تتعرض النصوص الى الناحية الاقتصادية والاجتماعية والى العدالة والمساواة فانها تستخدم تعابير تؤيد الفكر الاشتراكى وان عبرت عنه بمصطلحات شتى ٠

غير ان فكر الثورة لا يتم تحديده بهذين « الحدين » ، الوحدة والاشتراكية كما يقول المناطقة اذا لم يوضع فى قالب خاص لانه حينئذ يصبح مضمونا بلا صورة ، وحتى تكتمل صورة هذا الفكر وضعت الثورة حدا للبلبلة التى سادت الفترة السابقة عليها بان اكدت انتماء هذه الثورة الثقافى والحضارى ، هذا الانتماء الذى لولاه لما تحددت هوية الشعب ولما وضحت معالم شخصيته الخاصة ٠ انها اكدت انتماءه الى الامة العربية والى الحضارة الاسلامية بالرغم من ان هذا الانتماء كان قد تحدد منذ زمن طويل حين قاوم الشعب الاحتلال الفرنسى ورفض الاندماج ، فانه قد تجسم بعد قيام الثورة بقوة الفعل وبفرض الواقع بواسطة البارود والقوة بدل المطالب والشعارات التى رفعها الوطنيون الثوريون والمصلحون القوميون منذ بداية هذا القرن ٠

هذه هى الخطوط العامة لفكر الثورة تتفرع عنها فروع أخرى وتتدفق اليها روافد كثيرة تسهم كلها فى رسم الصورة الجديدة لفكر الثورة وثقافتها ٠ وتحقيق هذه الافكار لم يأت بسهولة بل تحققت بفضل النضال الدؤوب وبفضل ارادة المناضلين الثوريين ٠

وقد خاضت الثورة صراعات طويلة حتى تجسد هذه الافكار ، خاضت صراعا ضد الاقطاعيين وضد الوصوليين والانتهازيين والمستفيدين من بقاء الجزائر تحت السيطرة الفرنسية ، واعتمدت الثورة فى تحقيق أهدافها على أمرين :

الاول : الحسم ، فلا تردد امام قضية المصير ولا تساهل فى المبادىء والاهداف ، واستخدمت شعارها « الثورة فوق الجميع » خاصة تجاه المتعصبين المغرضين ٠

اما الثاني : فهو الاقناع تجاه بعض الخصوم، وبذلك برهنت على ان فكرها مفتوح وليس فكرا متعصبا مغلقا كما انها لم ترفض النقد والمناقشةفلم ترغم الناس على الالتحاق بصفوفها وتركتهم يقتنعون بها بعد ان اعطت المثل وقدم ممثلوهـــا البرهان على نكرانهم للذات وتضحيتهم من اجل الشعب .

وقد استجاب لهذا الفكر الجديد المثقفون والكتاب وعبروا عنه في المسرح والقصة ، في المقال الادبي والسياسي ، في الخطب واجهزة الاعـــلام وعموما في الانتاج الذي ظهر اثناء الثـــورة وان تعددت اساليبه واشكاله . ومع هذا فان فكـــر الثورة باتساعه وشموله لم يتح له حتى الآن ان يدرس بموضوعية وبتفصيل ولم تستخلص منـــه النتائج وما زال في حاجة الى من يكشف عن قيمه ومثله ومساربه الكثيرة ، ما زال في حاجـــة الى غربلته ومعرفة العناصر الايجابية فيه والسلبية ومعرفة الدور الحقيقي الذي لعبه المثقفون اثنـــاء الثورة .

وبعد ... فهذا حديث سقته في فترة تحتدم بالافكار والآراء ونحن نتلمس فيها الطريق نحو ثورة ثقافية حقيقية ، وهي تحتاج الى ان يقـــول المثقف الملتزم رايه فيما يتصل بحياتنا الثقافيـــة والاجتماعية والاقتصادية في جراة ونزاهة ، وقد نختلف في التفسير او وجهة النظر ولكن لا خلاف في ان ما ذكرته قد عاشه شعبنا وهو يثير فينا التساؤل باستمرار ، كما يشير الى قضايا عاشها جيل من شعبنا ومازلنا نعيش بعضها حتى الآن ،وهي قضايا تمس جوهر وجودنا ومصيرنا كما تمس مصير الاجيال التي ستاتي بعدنا ، بل ان الجيل الجديد قد لا يعرف عنها الشيء الكثير وربما حتى القليل أيضا .

وأعتقد ان الذي يحدد الاشياء تحديدا سليما هو أسلوب الحوار والمناقشة والوضوح في الراى والرؤية معا حتى نحدد موقفنا من القضايا التي اشرت اليها ونقارن بين الحلول التي قدمها مـــن سبقنا والحلول التي نراها نحن ملائمة .

اما دراسة هذا الفكر اثناء الثورة بتوسع وامتداده بعد الاستقلال وهـــل ما زال يعيش في بيئتنا بصورة او باخرى فهذا ما يتطلب جهـــودا اخرى كثيرة ممن يهتمون بحياتنا الفكرية والثقافية والادبيـــة .

البُعد الريفي في الثورة الجزائرية

محمد ابراهيمي الميلي
مدير
وكالة الانباء الوطنية

تحتل الثورة الجزائرية مكانة خاصة بين ثورات القرن العشرين · وقد احتلت هذه المكانة بفضل مجموعة من الخصائص ، لم تدرس كلها كما يجب ، ولا شك أن احدى هذه الخصائص البارزة تتمثل في البعد الريفي : فقد انتشرت الثورة المسلحة في المناطق الريفية اساسا ، وكان الريف الجزائري هو حضن الثورة المسلحة وملجاها ، في حين كان الريف في بلدان اخرى هو مقبرة المحاولات الثورية المسلحة ومدفنها ·

وبعد سنوات الاستقلال الاولى ، وارتفاع شعار العودة الى الاصل ، وجد الريف الجزائري عناية خاصة ، ظهرت باقرار سياسة التوازن الجهوي والبرامج الخاصة ، وانتهاء بالثورة الزراعية · في حين نجد الريف ، في تجارب اكثر من بلد استقل حديثا ، ياتي في آخر القائمة لاهتمامات المسؤولين ، بينما تستحوذ المدينة وفئاتها المترفة على معظم مكاسب الكفاح الوطني·

واذا كنا نحن هنا فى الجزائر ، وخاصة منا الذين يعيشون فى المدن ، لا نلقى اهتماما لائقا بالمجهودات الضخمة التى تبذل بالريف ، وفى اتجاه الفآت الاشد فقرا وحرمانا ، واذا كان سكان المدن عندنا يميلون غالبا الى اجراء مقارنات شكلية بين « وفرة المواد الاستهلاكية » خلال العهد الاستعمارى ، ومشاكل « المواد الاستهلاكية » التى اصبحت « اقل جودة » « واشد ندرة » الآن ، فان ذلك يعكس العادات الاستهلاكية فى المدن ، من جهة ، كما يكشف عن عدم اهتمام بالتغييرات العميقة التى تمت فى اتجاه الارياف وفى اتجاه الفآت المحرومة بصفة عامة ٠

فى حين ان الملاحظين الاجانب الذين يزورون الجزائر ، يندهشون لضخامة المشاريع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى انجزت فى الريف ، ويسجلون أن هذا المجهود يشكل حالة ليس من المبالغة فى شىء أن يقال عنها انها فذة بين تجارب العالم الثالث ٠

واذا كانت هذه الظاهرة تستحق الاهتمام والتسجيل والمتابعة ، فان المطلوب أيضا ، هو الكشف عن بعض الاصول التاريخية التى تفسر مسار الثورة الجزائرية فى هذا الاتجاه ، وتساعد على فهم البعد الريفى فيها ٠

والواقع ان مثل هذه المحاولة تتطلب دراسة مطولة ومستوعبة ، لا يتسع لها مقال ، لذلك سوف نقتصر على تقديم بعض العناصر ، بصفة اجمالية ، من شانها ان تساعد على فهم جذور البعد الريفى فى الثورة الجزائرية ٠

عوامل الوزن الاجتماعى والاقتصادى للريف فى العهد العثمانى

كان الريف الجزائرى ، فى العهد العثمانى أو التركى ، يلعب دورا مزدوجا : سياسيا واقتصاديا ، عن طريق القرى التى كانت بمثابة همزة وصل بين أعماق الريف ، وبين المدن ، حيث يوجد ممثلو السلطة المركزية ٠ فقد كانت القرى الزراعية ذات نشاط اقتصادى يسمح لها بسد احتياجاتها من جهة ، ويمكنها من ان يكون لها وزنها الخاص من الناحية الاجتماعية والسياسية ٠ اي ان القرى فى نفس الوقت الذى كانت تلعب فيه دور همزة الوصل بين المدن وبين الريف ، كانت فى ذات الوقت ذات اشعاع اقتصادى وثقافى لعب دورا كبيرا فى التمهيد لبلورة الشعور بالانتماء الى وحدة ترابية محددة ، زيادة عن شعور الانتماء الى وحدة معنوية حضارية أوسع ذات طابع عربى ــ اسلامى ٠

وهذا ما يفسر أن المعارك الكبرى التى خاضتها الجزائر ضد الاحتلال الاجنبى ومحاولات الغزو الخارجى خلال العهد التركى ، لم تكن من صنع الفئة الحاكمة فقط ، بل لقد ساهم فيها الشعب مساهمة واسعة ٠

والواقع ، أننا لا نجد ، على امتداد التاريخ المعروف ، منذ العهود القديمة الى العهد العثمانى قيام عواصم كبرى استاثرت بكل النشاط الاقتصادى والسياسى والثقافى ، دون أن تكون الى جنبها مدن وقرى متوسطة ، تاخذ منها وتعطى لها ٠

ويبدو أن التضريس الجغرافى للجزائر لـم يكن أجنبيا عن هذه الوضعية ، لان قيام ونشأة حكم مركزى قوى فى العصور القديمة ، كان يعتمد أساسا على تجميع مصادر الثـــورة بواسطة التحكم فى الثورة الزراعية عن طريق امتلاك المعارف العلمية والفنية المتصلة بتصريف واستثمار الثروات المائية ، كما حدث فى وادى النيل وفيما بين النهرين ٠ ففى هذه الحالة تتجمـــع مصادر الثروة والسلطة بين أيدى حكم مركزى قوى يجمع بين السلطة الدينية والدنيوية ، شأن الفراعنة فى مصر ، والقيمين على اقتصاد المعبد فى بـــلاد الرافدين ، أما فى الجزائر فان تضريس الطبيعة والمناخ قد حال دون نشأة حكم قوى شديد المركزية ، ونتج عن ذلك أن العاصمة أو المدن لم تكـن تحتكر السلطة الاقتصادية ٠

ولم تشذ الجزائر عن هذه القاعدة فى العهد الاسلامى ، ولا فى مطلع العصر الحديث الذى يمكن أن نؤرخ له ، فى المنطقة ، بالعهد العثمانى ٠ فقد كانت هناك مراكز عديدة للثقافة ، كما أن السلطة السياسية كانت تشاطر فيها الاقاليم ، حـسب نظام يتكيف حسـب النظـام الاقتصادى ـ الاجتماعى ، أي أنه كان يختلف بين العواصم ، وبين امتداداتها الريفية ، ذات الطابع العشائرى ، وفعلا فمهما قيل عن تخلف الجزائر ، عشية الاحتـــلال الفرنسى ، فالذى لا شك فيه أن الجزائر كانت ، بصفة عامة ، تتمتع بامكانيات اقتصادية واجتماعية ، تجعلها مؤهلة لان تتطـور اقتصاديا وسياسيا فى اتجاه التقدم والرقى ، وذلك بفضـل التضـــامن والانسجام الاجتماعى الذى كان موجودا بين الريف والمدن عبر القرى الهامة ٠ لكن الاستعمار الفرنسى أجهض امكانيات التطـور تلـك ، وليس فقط بالاحتلال العسكرى ، ولكن أيضا بواسطة مجموعـة من الاجراءات والتدابير استهدفت أساسا بنية الجزائر الريفية وتنظيمها وتضامنها الاقتصادى والاجتماعى ٠

محاولات تفتيت هياكل الريف فى العهد الاستعمارى

ان طبيعة التنظيم الاقتصادى والاجتماعى الذى عرفـــه الريـــف الجزائرى ، قبل الاحتلال الفرنسى ، تشكل أحد العوامل الرئيسية ـ الى جانب عوامل أساسية أخرى ـ التى ساهمت فى دفع الريف الى مقاومة المحتلين واحتضانه للمقاومة ، بعد سقوط دولة الداي فى 5 جويلية 1830 ٠ فقد كان الريف هو الذى شهد أول محاولة لبناء دولة جزائرية حديثة ، وهو الذى ظل يغذى المقاومة بعد سقوط دولة الامير عبد القادر وبعد فشل المقاومـــة التى قادها أحمد باي ٠ وقد أدرك مخططو الاستعمار الفرنسى أهمية الدور الذى يلعبه الريف ، بواسطـــة هياكله الاقتصادية والاجتماعية

والثقافية ، والذى شرع منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى اتخاذ سلسلة من الاجراءات تهدف الى تفتيت الهياكل الاقتصادية والاجتماعية للريف الجزائرى ، والى ادخال تغيير جذرى على بنيته العقارية ، بما يفيد نظام الاحتلال ٠

ويكفى لتصور الروح التى توجه التدابير المشار اليها ، أن نسوق ما قاله فى هذا الصدد احد مستشارى الامير نابليون ، وهو « كليمون دوفيرنوا » Climent duvernois الذى كتب فى 1858 يدعو الى « تحطيم الهياكل التقليدية للمجتمع العربى » وقال فى هذا الصدد على الاخص :

« يجب أن ننتزع الشعب العربى من الارض بواسطة ادخال نظام الملكية الفردية » ٠ وهو يقصد بذلك الى القضاء على نظام الملكية الجماعية للارض الذى كان احد التنظيمات المحلية التى اصطدمت بها ارادة الاحتلال ، والذى حال دون تطور الاستعمار حسب شهوة المعمرين ٠

وقد حدد دوفيرنوا الاطار السياسى للتدابير العقارية التى يستلزمها مثل هذا التوجيه ، اذ قال بعد ذلك :

« لم يعد هناك شعب عربى ، لكن هناك رجال يتحدثون لغة اخرى غير لغتنا » ليضيف لذلك :

« لا يجوز أن نسمح ، من الآن فصاعدا ، بفتح مدارس عربية ، ولا يجوز أن نأذن لقاض ما بان يستعمل عقاب السجن ضد من لم يمتثل للقوانين الاسلامية ٠٠٠ ان العرب لا يملكون حق المواطنة الا اذا قبلوا بالقانون الفرنسى ٠٠٠ منذ أن وطئت اقدام الجيش الفرنسى التراب الجزائرى تم القضاء على العرب بوصفهم قومية » ٠٠٠ ثم يوضح أن المقصود من ذلك هو القضاء على كل خصائص هذه القومية ، اذ يشتشهد ببعض مظاهرها التى يجب التخلص منها فورا عندما يؤكد :

« ان التشكل القبلى ، والاقطاع العربى ، وتعدد الزوجات ، تمثل آخر مظاهر هذه القومية ، وهي تشكل عقبات يتعين تحطيمها » ٠

وقد كتبت صحيفة « الجزائر الجديدة » l'Algérie Nouvelle فى 1860 تقول :

« ٠٠ لو أن الحكومة استشارت غدا الجزائريين (بقصد أروبى الجزائر) فسوف يجد على جميع بطاقات الانتخاب كلمات : اندماج سياسى ، حكومة مدنية ، بيع الاراضى ، تجميع العرب » ٠

وكتب «روبيو دى لا تريهونى» (Robion de la Trehonnais) فى نهاية 1871 ، ـ وهو معمر ومهندس زراعى ـ يهاجم « ٠٠٠ هذا للجنس المتوحش من الشياطين » ويقصد بذلك الشعب الجزائرى الذى لا يغفر له التمسك بالارض اذ يقول فى وصفه : «٠٠٠ انه يتعلق بالارض بكيفية تدل على الاحتجاج ضد احتلالنا » ليعقب بعد ذلك قائلا :

« ··· ان العربى يجب أن يلقى مصير المهزوم : فيجب أن يذوب فى حضارتنا أو ينقرض ·· ان الحضارة الاوربية لا ترحم الحياة المتوحشة · ان قانون القوة يدفــع الحضارة الاوربية لان تمتص كل ما تستطيع هضمه · وتسحق كل ما يشكل عقبة فى طريقها ·· »

وقد ترتب على تطبيق التدابير التى ولدها مثل هذا التوجيه ، أن تخلخلت الهياكل الاقتصادية والاجتماعية فى الريف ، بكيفية جعلتها تشكل أحد عوامل المجاعة الكبرى التى عرفتها الجزائر فى 1867 و 1868 ، حسبما يؤكد روبير اجرون نفسه · ويكفى أن نعرف أن عدد ضحايا هذه المجاعة بلغ نصف مليون نسمة ·

وقد حاول المعمرون أن يستغلوا هذه المجاعة ، فى اتجاهين : التخلص من أعداد غفيرة مــن الجزائريين ، وفى نفس الوقت تحميل نظام الملكية الجماعية للارض المعمول به فى أرياف الجزائر ، مسؤولية هذا العدد الضخم من الضحايا · فقد كتبت صحافة المعمرين تقول : ان العرب قد ماتوا جوعا لان النظام العقارى عندهم كان يمنعهم من أن يبيعوا أراضيهم أو يرهنوها للمعمرين ، وهو « ما كان يسمح بانقاذ الشعب العربى الذى ترجــع مأساته الى الشيوعية » (والمقصود بالشيوعية هنا هو الملكية المشاعة للارض) · وهنا تواجهنا قضية على جانب كبير من الخطورة ، لا نستطيع أن نغفلها ، فواضح من كتابات الصحافة الفرنسية آنذاك ، أن مخازن المعمرين كانت تتـــوفر على التموين الذى كان فى استطاعته أن ينقذ حياة مآت الاف من الجزائريين · وليس المهم هو أن تعرف على أي مستوى تتحدد مسؤولية موت (ان لم نقل قتل) هذه الانفس بواسطة المجاعة ، ولكن الذى يهم هو التأكد من وجود نية الابادة عند الاستعماريين ، لانه لا شىء يفسر موت ذلك العدد الضخم من الجزائريين ، مع توفر المواد التموينية فى مخازن المعمرين ·

وسواء كانت نية الابادة موجودة أم لا ، فالذى لاشك فيه أن المعمرين كانـــوا يعلقون آمالا كبيرة على انقراض العنصر العربى من الجزائر ، بل وكانوا يعتقدون أن انقراضهم نتيجة حتمية · فقد كتب فيرديناند كومبون Ferdinand Cambon يقول : « ان المجتمع العربى غير قابــل للحياة ، ان مجتمعاً يقوم نظامه العضوى على القدر الاعمــى لا يمكن الا أن يكون مصيره الانحلال » وقـــد تعزز هذا الاعتقاد عند المعمرين ، فى القرن الماضى ، بفعل نتائج الاحصائيات التى تمت فى عام 1861 ,وفى عام 1872 ، فقد كشفت تلك الاحصائيات ، عن أن السكان الجزائريين قد انخفض عددهم فى تلك الفترة بستمائة الف نسمة · وقد ظل هذا الاعتقاد راسخا عند المعمرين الى عـــام 1880 حيث نجد اخصائيا فى الدراسات الديموغرافية يؤكد أن «السكان الاهالى مهددون بانقراض حتمى» وكان يتردد بين الاوروبيين الى غاية 1881 ، الحديث عن القانون الطبيعى « الذى يقضى بانقراض الشعوب المتخلفة » ·

وهذا الاعتقاد الشائع عند اروبى ذلك العهد ، حول « الانقراض الحتمى للعنصر العربى » تفسره وقائع واحداث هي نتيجة طبيعية فى الواقع ، لسياسة الابادة ·

وتجدر الاشارة فى هذا المجال الى المسألة التى اثارها حمدان خوجـــة ، عن العدد الحقيقى لسكان الجزائر فى عام 1830 · وحمدان خوجة هذا كان موظفا ساميا فى حكومة الداي ، وقد اثار هذا الموضوع فى كتاب المرآة ، واستعمل طرائق الاحصاء التى كانت معروفة آنذاك وتوصـل الى نتيجة مفادها أن عدد سكان الجزائر ، كان قبل الاحتلال الفرنسى نحو عشرة ملايين نسمة ·

واذا نحن قمنا بدراسات مقارنة واعتمدنا على الارقام التى اعطاها فرنسيون رسميون عـن سكان هذه المنطقة او تلك من مناطق الجزائر منسوبـة الى مجمـوع ذلك ، فاننا نعثر على أدلة ثبوتية تدل على صحة الفرضيات التى قدمها حمدان خوجة · وفعلا فان امكانيات الجزائر ، فى القرن التاسع عشر ، كانت تسمح نظريا بوجود مثل هذا العدد أو قريب منه ، من السكان · ويؤكد ذلك بصفة غير مباشرة أن « لوبلان دى بريبوا Le blanc de Prebois» كان قد طالب فى 1875 بتوجيه ما بين ستة وسبعة ملايين معمر الى الجزائر ، يستقرون بها فوق أراضى تغتصب من الجزائريين ·

ان تلك المساعى لاستقدام ملايين من الاوروبيين الى الجزائر ، تساعد على اعطائنا صورة عن امكانيات الجزائر فى فترة الاحتلال بل وعن امكانياتها قبل 1830 ·

والخلاصة العملية التى نخرج بها من كل ذلك ، هي أن الريف هو الذى دفع هذا الثمن الباهظ من حياة ابنائه ، نتيجة لسياسة ابادية فى تطبيقاتها وامتداداتها العملية ، بقطع النظر عن نيـة واضعيها ·

دور الريف فى الصمود الثقافى

ان الاساليب الابادية التى اعتمدها الاستعمار الفرنسى ولدت عند الشعب الجزائرى ردود فعل متعددة الاشكال ، تمتد من المقاومة المسلحة الى الصمود المعنوى · وقد أسفر هذا الكفاح المتعدد الاشكال ضد المحتل ، والذى تواصل دون انقطاع طيلة فترة الاحتلال ، ايديولوجية نضالية لـم تكن مجرد حالة شعورية او فكرية ، تظهر فى أوساط محدودة ، ولكنها تبلورت فى سلـوك عملى وجماعى كان الريف هو مهده الاساسى ·

وقد ساعد على تبلور هذه الايديولوجية النضالية ، وجود هياكل ثقافية فى الريف : فمعروف أن المدارس القرآنية والمعاهد الدينية ، قبل الاحتلال واثره ، لم تكن قاصرة على المدن والعواصم الكبرى ، بل كانت منبثة فى أرياف الجزائر كلها · ومهما قيل عن المستوى الثقافى والمحدود للمعاهد الدينية والزوايا فى القرن التاسع عشر ، فقد كانت هذه تشكل حلقة هامة فى سلسلة الهياكـل

الثقافية ـ الاجتماعية التى كانت تتحكم فى الريف الجزائرى وتوجه ردود فعله ضد المحتل بـل وفى توحيدها ٠

أي ان الريف كان يعتمد على المدارس القرآنية والمعاهـد الدينية والزوايا ، كما كان يعتمد على المساجد والاسواق المحلية ، لتمرير شعارات الكفاح وايجاد منابر التوجيه ، وتعبئة القواعد الشعبية ضد المحتل ٠ لقد كانت كل تلك المواقع موضع اجتماعات ولقاءات شبه منظمة ، تلتئم فيها الجماعات الريفية ، تبادل الافكار والاخبار والمعلومات بما يعـزز الضمير الوطنى ٠ وقـد كان الفرنسيون انفسهم يندهشون للسرعة التى تنتقـل بها الاخبار من مكان لآخر من ارجاء الجـزائر الواسعة لانهم لم يدركوا فى الابان طبيعة الدور الذى تلعبـه تلك الهيـاكل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ٠

وهذا هو ما يفسر ، الى حد كبير ، السرعـة التى كانت تنتشر بها الثورات ضـد المحتلين الفرنسيين ٠ فقد كان يكفى ، ان يدعو للجهاد شخص ما ، فى منطقة ما من الوطن ، حتى تتداعى لتاييده جموع غفيرة تستجيب له من خارج منطقته ومن داخلها ، لان تلك الهياكل التى كانت تنتظم الريف ، كانت تتحرك بصفة شبه تلقائية لتلبى داعى الكفاح ٠

على ان دور الهياكل الثقافية والاجتماعية للريف الجزائرى لم يكن يقتصر فقط على التعبئـة من اجل الكفاح المسلح : بل كان يتمثل ، زيادة على ذلك ، فى صنع الصمود المعنوى بوجه محاولات المسخ والتشويه التى استهدفت القضاء على الشعب الجزائرى ككيان قومى ، فقد سجل جنـرال فرنسى ، عام 1854 أن الكتاتيب القرآنية ليست لها الا مهمة واحدة وهي «تغذية الحقد ضد الفرنسى» بل ان وزير الحربية « لو كنت فايان » (Le Comte Vaillant) طالب بعدم الترخيص فى تعليم القرآن ، الا للمعلمين الذين يقع التاكد من ولائهم لفرنسا سياسيا وعقائديا ٠ وصدور مثل هذا الطلب عـن وزارة الحربية الفرنسية يؤكد بان المسالة تدخـل فى نطاق الحرب المعلنة من الاستعمار ضـد الشعب الجزائرى ٠

وفعلا فان رجال الاحتلال الفرنسى فى القرن التاسع عشر يسجلون ان فشل المقاومة التـى قادها الامير عبد القادر لم يضع حدا للحرب ، ولكنه ادى الى تغيير طبيعتها ٠ فبعد ان كانت الحرب بين الجزائر والاستعمار ذات طابع عسكرى مسلح ، تتضح فيه الجبهات وتتحدد فيه مواقع الصدام أصبحت الحرب معنوية ، وفى نفس الوقت أصبحت اكثر شمولا ٠ واذا كان الفرنسيون قد سجلوا انتصارات (مؤقتة) فى المجالات العسكرية ، فقد منوا بخيبات مريرة فى المجال المعنوى بفضـل الهياكل الثقافية ـ الاجتماعية للريف ٠

والواقع ان تقاليد الريف الجزائرى فى اقامة هذه الهياكل الثقافية واستغلالها ترجع الى عاملين اثنين :

العامل الاول هو ان التعليم وكل ما يتصل بالثقافة ، كان مرتبطا فى القرن الماضى ، بالدين ، اي كانت له مسحة من تقديس تجعل لتلك الهياكل مكانة خاصة بين جماهير الريف ، المعروفة بتدينها الشديد ·

العامل الثانى هو ان الادارة العثمانية قبل الاحتلال الفرنسى لم تكن تضطلع بعبء التعليم والثقافة · كان الشعب هو الذى يقوم بهذا الدور عن طريق الاوقاف التى كان يخصص ريعها للمعاهد الدينية والمساجد والزوايا · وهذا ما يفسر انتشار الهياكل الثقافية فى الريف من جهة ، واستمرارها بعد سقوط الدولة الجزائرية ، وحتى بعد سقوط دولة الامير عبد القادر ·

وقد اسفر هذا الصمود الثقافى عن رفض «الشرعية الفرنسية» وخاصة فى الريف الجزائرى· وكان رفض الفرنسة ، فى الريف ، قد بلغ درجة رفض تعلم اللغة الفرنسية التى كان يعتبرها « لغة الكفار » ، مما دفع الادارة الاستعمارية الى انتهاج اساليب عديدة لتحطيم هذا الصمود بالقوة حينا وبالحيلة حينا آخر ·

وقد ساعد هذا الرفض للشرعية الفرنسية ، على تجنيب الريف لاخطار التلوث الاستعمارى وتشويهاته ، وبالتالى ظل الريف محتفظا باهليته واستعداده لاحتضان اية محاولة ثورية جدية ·

الاصول الريفية للمثقفين

بعد استقرار الاستعمار ، وانتهاء مرحلة الكفاح المسلح التى استمرت حتى الحرب العالمية الاولى ، وتحول الكفاح الى الميدان السياسى ، ماذا كانت خريطة الكوادر والاطارات الجزائرية ، المفروض فيها ان تضطلع بهذه المعركة ؟

لابد من التذكير اولا ، بان دور العاصمة قبل الاحتلال الفرنسى فى تكوين الكوادر والاطارات لم يكن كبيرا مثلما كان فى تونس والمغرب ، فمدينة الجزائر اذا كانت عاصمة سياسية ، فانها لم تكن عاصمة علمية مثل تونس او فاس · وكانت هناك مدن صغيرة ، لها امكانيات علمية ، وان تكن محدودة ، وقد كانت الامكانيات المحدودة لهذه المدن الصغيرة ، ذات اثر فى توجيه ما يمكن ان يسمى بالنخبة ، اذ ادى ذلك الى تكوين هذه النخبة فى اتجاهين :

اولا : اتجاه الريف · فوقوع هذه المدن الصغيرة او الزوايا فى قلب الريف او على هوامشه كان مركز جذب للريفيين المتطلعين الى المعرفة ·

ثانيا : اتجاه الانتشار والكثرة ، نظرا لمستوى التعليم الذى كان يسمح باستيعاب عدد من الطلاب اكبر مما كان سيسمح به مستوى ارقى واكثر تعقيدا ٠

ونتيجة لهذين الاتجاهين كانت الخاصية الاساسية لمن يمكن تسميتهم بالمثقفين آنذاك ـ اي فيما بين 1871 و 1918 ـ تتمثل فى اصولهم الريفية من جهة ، وفى الطابع الدينى للتعليم من جهة ثانية ٠

وقد راينا فيما سبق ، كيف ان الصمود الثقافى للريف الجزائرى فى وجه الاحتلال ، كانت الثقافة الدينية قد لعبت فيه دورا كبيرا ٠

الا ان الاستعمار الفرنسى ، كان قد نجح ، بعد ذلك فى استمالة عدد من مشائخ الزوايا والطرق الصوفية الى صفه ، واستطاع هؤلاء ان يفعلوا ذلك بواسطة تبريرات وفتاوى تصدر للمناسبة ٠

لكن استمالة مشائخ الزوايا والطرق الصوفية ، لا يعنى تلويث كل طلاب وخريجى الزوايا والمعاهد الدينية ٠ فقد كانت جمهرة هؤلاء تشكل قاعدة سليمة فى اساسها ، وانما تحتاج لهزة تكشف عن طبيعة قيادات الزوايا التى انحرفت ، كي تتمزق الغشاوة ، ويصبح طلاب المعاهد الدينية مهيئين لاستجابة داعى الكفاح ٠ وهذا هو ما تم بالفعل ٠ فحركة الاصلاح الديني قد نمت وتطورت بالجزائر بفعل الهزة التى احدثتها فى مجال التوجيه الدينى ، مما سمح باطلاق قوى وطاقات كانت مقيدة بقيود الجمود والانغلاق التى كان يجسمها شعار الزوايا والطرق الصوفية « اعتقد ولا تنتقد » ٠

وتؤكد الانتماءات الريفية للمثقفين الجزائريين ، ظاهرة اخرى هي كون الريفيين يشكلون الغالبية الساحقة من السكان ، وهذا ما يفسر كون القيادات التى عرفتها الثورات المسلحة بالجزائر منذ 1830 الى 1954 كانت عناصر ريفية ٠

هذا بالنسبة للعناصر المثقفة بالعربية ٠

اما بالنسبة لفئة المثقفين بالفرنسية ، التى تكونت بعد الاحتلال ، فيجب التذكير بان المعمرين الفرنسيين بالجزائر ، ظلوا فترة طويلة يعارضون فى تعمم التعليم الفرنسى ، زيادة عن نفور الجزائريين منه كما اسلفنا ٠ ومن هنا فقد كان عدد « النخبة » المثقفة بالفرنسية فى اعقاب الحرب العالمية الاولى محدودا ٠ على ان اول حركة سياسية ظهرت على ايدى مثقفين بالفرنسية او محتكين بالحضارة الغربية ، ظهرت بفرنسا ، ممثلة فى حركة نجم شمال افريقيا ٠ وهي حركة ظهرت فى

اوساط العمال الجزائريين فى المهجر • ومعروف ان اغلبية العمال الجزائريين فى المهجر كانت من اصول ريفية •

ولا شك ان دراسة تطور النخبة الجزائرية ، فيما بين الحرب العالمية الاولى والثانية ، سوف يكشف لنا عن استمرار هذا الوزن الكبير الذى يحتله الريف فى توجيه الاحداث •

لكننا سوف نقتصر على هذا القدر ، فى الكشف عن بعض الاسباب التى تفسر البعد الريفى فى الثورة الجزائرية ، رغم ان هذه المحاولة تظل ناقصة ما لم تكمل بمحاولة اخرى تتناول اصول فآت المثقفين والسياسيين الذى اضطلعوا بعبء التوجيه السياسى والثقافى منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى الى تحقيق الاستقلال فى 1962 • فعسى ان تتاح الفرصة لكتابة هذا القسم الضرورى لاستكمال عناصر الرؤية والوضوح فى هذا الموضوع •

مراجـــع البحـث :

ايفون تورين : المواجهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة •

روبير آجرون : المسلمون الجزائريون وفرنسا •

برادى وآخرون : تكوين النخبة السياسية المغربية •

مجموعة « المجاهد » الاسبوعى •

الثــورة الثقــافية :

كيف ولمـــا ذا ؟

عبد المجيد مقرانى

هناك احساس لدى العناصر الحية من الشعب الجزائرى ، بل وعى لدى هذه العناصر بأن الثورة الثقافية ستكون اصعب واعقد معارك الثــورة الجزائرية ، ورغم ان الترتيب الجارى كثيرا مـا يضعها بعد الثورتين الصناعية والزراعية ، فان عددا من القرائن والعوامل يدل على ان الضرورة ستحتم علينا الدخول فى مراحل الثورة الثقافية خلال مدة قريبة ، أى أنها ستلتحق بالثــورتــين الصناعية والزراعية فى منتصف الطريق ٠ فيكون اتساع جبهة المعركة هكذا احد عناصر تعقيدها ٠٠ وهو ليس باقلها خطورة ٠

والشيء الذى يبعث على القلق حقا ، هو انهذا الجانب الاساسى من الثورة الجزائرية لا يزال محاطا بكثير من الضباب والغموض ومليئا بالمجاهيل : فلم يحدث حتى الآن ، فيما نعلم ، ان تقدم انسان برؤيا شاملة وواضحة فى هذا الموضوع ،واذا كان هنالك من يملك هذه الرؤيا ولم ينشرها فهى فى حكم الغير موجودة ، لان الفكرة تعيشبالنشر والتداول لا فى ادراج مكتب ما ... أو ادراج دماغ ما .

هناك لبس من الاولى ان نزيله منذ البداية ،وهو شائع بكل اسف فى اوساط كثيرة ، ومن بينها تلك الاوساط التى تهمنا بالدرجة الاولى ،والتى اطلقنا عليها فى أول جملة من هذا المقال وصف « العناصر الحية » ، وهى لا تعنى بالضرورةما اصطلحنا على تسميتهم بالمثقفين ، ويتلخص هذا اللبس فى اعتقاد البعض بأن نشر التعليموتكوين الاطارات هما الثورة الثقافية . سوف لن نقف كثيرا عند تفنيد هذا الاعتقاد ونكتفى بالقولبان الثورة الثقافية اوسع بكثير من مجرد نشر التعليم وتكوين الاطارات . وقد تكون للمسافة بين الامرين هى نفس المسافة بين الحروف الهجائية وبين كتاب مثل « المقدمة » لابن خلدون أو « نقدالعقل الخالص » للفيلسوف كانت . وليأخذ من يريد قياس هذه المسافة كل وقته لذلك . ثمهناك شيء آخر : وهو ان بلدانا كثيرة قطعت شوطا بعيدا فى ميدان نشر التعليم ، ومع ذلكفان مشكل الثورة الثقافية لا يزال مطروحا برمته بالنسبة اليها ، وذلك مثل بعض بلدان امريكااللاتينية ، أو بعض البلدان العربية ، ان هذا التمييز لا يقصد به التنقيص من قيمة الجهد الذىيبذل فى ميدان التعليم ، أو قيمة النتائج التى حصلنا عليها او نسعى الآن لتحقيقها . وانمافقط نريد بذلك ازالة الخلط الذى كثيرا ما يقع بين النهضة التعليمية والثورة الثقافية .

بعد القول بأن الثورة الثقافية أمر اوسعواعمق من النهضة التعليمية ، نجد انفسنا امام انواع أخرى منالخلط والغموض ناتجة عن محاولاتتهدف الى مواجهة معضلة الثورة الثقافية . ولكنها تنتهى ـ رغم حسن نية اغلبيتها ـ الى وضع عراقيل جديدة فى طريق فهم المشكل والبحث عن حلول حقيقية له . والفائدة الوحيدة التى لا يمكنانكارها على هذه المحاولات ، هى انها دلت خلال سنوات طويلة على وجود شعور بضرورة الثورةالثقافية فى هذا البلد ، ونقلت هذا الشعور الى عدد كبير من الناس . فما هى بصفة عامة هذهالمحاولات ؟

بامكاننا تلخيصها في اتجاهات ثلاثة ، برزت في اغلب الاحيان على شكل تيارات متناقضة ومتصارعة ، يعتقد كل واحد منها انه يحتكر الحقيقة ويمسك بمفتاح كل المشاكل الثقافية . فلننظر اليها عن قرب ونحاول تحليلها بكل موضوعية ، أى بدون أية عاطفة أو حكم سبق، (سوى عاطفة واحدة ، وهى الرغبة الصادقة فى رؤية شعبنا يحتل مكانه بين الشعوب الراقية القوية وحكم مسبق واحد ، وهو ان كل فكرة لا تساعد على تحقيق هذا الهدف باطلة فى نظرنا مهما كان عدد البشر الذين يؤمنون بصحتها) .

ا (**التيار الأول** : هو التيار الذى ينادى بضرورة رجوعنا الى حضارتنا العربية الاسلامية ، ويطالب باحياء هذه الحضارة بكل ابعادها . وهو يهدف بطبيعة الحال من وراء الرجوع الى هذه الحضارة ومن احيائها ، الى بناء وجودنا الثقافى ،فى الحاضر والمستقبل ، على اسسها وعناصرها .

ليس هناك من يستطيع ان ينكر باننا – كشعب – مرتبطين ارتباطا لا يمكن ان ينفصم بهذه الحضارة ، وليس هناك ايضا من يستطيع ان ينكر بأنها قد امدتنا فى احلك فترات تاريخنا بأهم الطاقات الروحية التى مكنتنا من المحافظة على كياننا . ونستطيع ان نتحدث آلاف الصفحات عن ايادى الحضارة العربية الاسلامية على الاجيال المتعاقبة من امتنا . ونتحدث نفس الشىء عن قيمتها الذاتية مكانتها بين الحضارات الانسانية ،كل هذا أمر مفروغ منه .

ولكن هناك سؤال يبقى مطروحا امامنا ،وهو سؤال منهجى ، يفقد تفكيرنا كل معنى اذا اهملنا الاجابة عليه . : هل سيكون رجوعنا الى حضارتنا العربية الاسلامية كافيا لحل كل مشاكلنا الثقافية ؟ أو بعبارة أكثر تطابقا مع موضوعنا ، هل سيكون ذلك الرجوع فى حد ذاته ثورة ثقافية ؟

من الواضح ان الجواب على هذا السؤال بالايجاب أو النفى ليس امرا بسيطا ، وعدم البساطة ناتج عن ارتباط شخصيتنا بهذه الحضارة . واذا بحثنا عن نقاط الارتباط الحقيقية نجدها متمثلة فى اللغة والعقيدة الدينية . هذا امر واضح لا يحتاج الى براهين وادلة معقدة ليفهمه كل الناس .

اذا نظرنا الى هذين العنصرين ، أى اللغة والعقيدة الدينية ، نجدهما يحتلان مرتبة التقديس لدى شعبنا ، سواء عند ما كان تحت نير الاستعمار أو فى ظل الثورة والاستقلال فالعربية والاسلام

ليسا مهددين بأى خطر فى الجزائر • واذا كانت هناك عقبات في طريق نشر معرفة واستعمال اللغة العربية ، فهى عقبات ناتجة عن مخلفات الاستعمار وستزول حتما بزوال هذه المخلفات •

اما التراث الفكرى والتاريخى الذى انتجته الحضارة العربية الاسلامية ، فان دراسته تتسع فى الجزائر المستقلة يوما بعد يوم ، وستزداد دراسته اتساعا وعمقا مع مرور الزمن وتزايد الوسائل والادمغة القادرة على ذلك • ومهما يكن من أمر فان هذه المهمة ستستمر اجيالا متتالية ، ثم انها سوف لن تقتصر على الحضارة العربية الاسلامية ، بل ستشمل كل الحضارات الانسانية •

اذا تأملنا الاسطر السابقة بكل موضوعية ، نتوصل الى نتيجة قد تصدم البعض وتثير البعض الآخر ، رغم ان قصدنا بعيد عن الصدم أو الاثارة • وهذه النتيجة هى ان الدعوة الى احداث ثورة ثقافية فى الجزائر عن طريق الرجوع الى الحضارة العربية الاسلامية دعوة مغلوطة من اساسها ، وهى ترمى ، حسب المناسبات الى تغطية اهداف هى ابعد ما تكون عن الثورة الثقافية • ونحن لسنا البلد الوحيد الذى يمر بهذه التجربة ، وفى هذا جواب على السؤال الذى طرحناه منذ حين • ففكرة خوض ثورة ثقافية اعتمادا على بعث الحضارة العربية الاسلامية ، زيادة على كونها لا تحل المشكل ، تحتوى على مخاطر لا يمكن حسابها أو السيطرة عليها • ولكن ذلك لا يعنى التنكر الى حضارتنا العربية ، كما اشرنا الى ذلك •

ب) الاتجاه الثانى : أكثر غرابة من الاتجاه الاول ، ولكنه فى وقت واحد ، اشد منه مراسا واخطر عواقب ، لان قواعده اكثر ارتباطا بالحياة اليومية لشعبنا واكثر تشابكا مع المحيط العالمى الذى نعيش فى اطاره ، بما فيه من قوى جبارة نحن مجبرون على التعامل معها احببنا ذلك ام كرهنا ، فاذا كان التيار الاول يظهر فى الغالب كعملية هروب من هذه القوى الخارجية ، فان التيار الثانى ليس سوى استسلاما مقنعا أو سافرا لهذه القوى وارتماء فى احضانها طلبا لنجاة وهمية ، انه تيار تبنى الثقافة الغربية ، دون قيد أو شرط • ادانتنا لهذا التيار ليست مبنية على فكرة مسبقة أو عن عداء تعصبى ما ، بل عن اقناع ويقين بأن العملية عقيمة وخطيرة فى آن واحد •

هناك اولا : ان بعض الحمقى يتصورون اننا نحن الذين سنتبنى الثقافة الغربية ، والحقيقة هى ان الثقافة الغربية هى التى ستتبنانا اذا سرنا فى هذا الطريق ، فالقوى يتبنى الضعيف وليس

العكس · والثقافة الغربية ليست شيئا قـــارالشكل والمضمون ، بل هي كيان حي متطـور ، يتحرك عبر الزمان والمكان ، ومترابط البنيــة ،وهي عندما « تتبنانا » سوف تدمجنا في هـــذه البنية · ولكي تفعل ذلك سوف تلغي من كياننا وشخصيتنا كثيرا من الاشياء التي لا تتماشى مع كيانها وشخصيتها، وستظل تلغي وتلغي وتلغي الى ان يتبقى منا العظم فقط ، ثم تلغي العظم وتضعه في سلة مهملات التاريخ · لقد خرجنا من عصورالتخلف الطويلة ومن العهد الاستعماري مجـرد هيكل عظمى وبعض الاعصاب الحية ، ونحـــن نريد كساء من العضلات والاعصاب لا دخـــول سلة المهملات ، هذه صورة كاريكاتورية عـــنالموقف ، قد لا ترضي بعض المثقفين ، ولكنهـــا تصور حقائق لا يمكن انكارها ·

هناك ثانيا : ان دعاة الارتماء في احضانالثقافة الغربية ، يتصورون ، عن جهل أو تجاهل ان الثقافة الغربية شيء ، والغربيون شيء آخر ،وفي هذا تجاوز يكذبه الواقـــع تـــكذيبا قاطعا : فحيثما تسربت الثقافة الغربية تسرب النفـــوذالغربي ؛ وما التسابق الحالي من طرف الــــدول الغربية في ميدان تثبيت ونشر ثقافتها بــــينشعوب العالم الثالث سوى تزاحم من اجل تثبيت ونشر نفوذها في هذه البلدان · فالاستســـلامللثقافة الغربية هو في الحقيقة الخطوة الاولى فـــي طريق الاستسلام للغربيين ، وهذا يعني كثـــيرامن الاشياء بالنسبة لمستقبلنا ، بل لوجـــودنا نفســـه ·

ان احد الاهداف الرئيسية للثورة الثقافية، الى جانب اهداف أخرى ، هو وضع حــــد نهائي لكل انواع النفوذ الاجنبي في بـــلادنـــا ،وهي لهذا لا يمكن ان تتم بواسطة طريق ينتهي بنا الى الاستسلام لهذا النفوذ · فـــفي هـــذاالمستوى من العمل هناك ترابط عضوي بـــين الوسيلة والغاية ، الى حد يصعب معه احيـــاناالتمييز بينهما بحد فاصل واضح ·

هناك ثالثا : وهي مسالة ذات اهمية كبرى ،ان الاشخاص الذين تمكنت الثقافة الغربية من السيطرة على تفكيرهم سيطرة تامة ، معرضون فياغلب الحالات ، اذا لم يكن في كل الحـــالات ، الى ارتكاب اخطاء فادحة في ادراك المعطيات الحقيقيةوالعميقة للشعب الجزائري – أو أي شعب عربي آخر – وذلك لان هذه الثقافة الغربية تقوم عنـــدما تتمكن من هذه السيطرة التامة ، بدور العازل بين فكر المثقف والجوانب العميقة لحياة شعبه ·فوراء مظاهر وعلامــــات الثقافة العاليـــة الـــتي تشاهدها لدى الاغلبية الساحقة من اصحاب هذاالنوع من التكوين ، ووراء ستار الاعتزاز والثقة

بالنفس المستمد من الانتماء الى ثقافة عالمية قوية غالبا ما نجد واقعا بائسا وشخصية مهشمة وعيوبا كثيرة تسلب صاحبها كل فعالية عند مواجهة المشاكل فى اطار وظروف شعبه . وما ظاهرة هجرة المثقفين من الجزائر ، ومن غيرها من بلدان العالم الثالث الى البلدان الغربية الا عينة ، فى اغلبيتها الساحقة ، من عيوب هذا النوع من التكوين الثقافى . واذا كانت هناك اقلية استطاعت ان تنجو من الكارثة . فهى شاذة .. والشاذ يؤكد القاعدة كما يقولون .

فالدعوة الى بعث ثورة ثقافية فى الجزائر على اساس الارتماء فى احضان الثقافة الغربية ، هى اذن دعوة خطيرة ، اذا لم نقل مؤامرة شنيعة ضد كل آمالنا ومطامحنا ، وبصفة خاصة منها الاهداف الاستراتيجية ذات الامد الطويل ، وماتلك الاحلام والمغريات التى يرفع شعاراتها المبشرون بهذا الطريق السهل ، الا سرابات لاتلبث ان تختفى وتترك مكانها لواقع من المهانة التاريخية والفشل الساحق .

ج) **الاتجاه الثالث** : الذى تجرى فى ظله محاولات لحل مشكل الثورة الثقافية ، هو الاتجاه الماركسى ، ومن حوله بعض الاتجاهات الفوضاوية المختلفة التى تستمد منه جذورها ، بل وحتى مصطلحاتها وهو اتجاه لا تنقصه التحليلات والمخططات الجاهزة مسبقا لحل أى مشكل ، ولكننا لا نملك فى هذه الصفحات مجالا كافيا للرد عليها ولذا سنكتفى ببعض الحقائق التاريخية الغريبة ، التى تحولت الى بديهيات يمكن لكل انسان ادراكها بمجرد التفكير السليم ، ودون التعقيدات النظرية الملتوية .

اهم هذه الحقائق التاريخية نستمدها من تاريخنا القريب : لقد اخطأ التفكير الماركسى فى فهم الظاهرة الاستعمارية ، فادى سوء الفهم هذا الى انحراف خطير فى مواقف الماركسيين من الحركات الوطنية التى قامت فى البلدان المستعمرة (بفتح الميم) ، وقد استمر هذا الانحراف فى الجزائر حتى فى ظل الحرب التحريرية ، والذين يتذكرون التحركات السياسية ايام الثورة وقبلها ، يتذكرون بأن الاوساط الماركسية ، ليس فقط لم تكن من بين روافد الثورة ، بل انها حاولت باقصى ما تستطيع من جهد جر اكبر عدد من الجزائريين خارجها لقد كان الماركسيون دائما يحاولون طى الواقع الوطنى لشعوب العالم الثالث واخضاعه لتحليلاتهم وتصوراتهم وحلولهم ولم ينتج عن ذلك سوى عرقلة مسيرة كثير من الشعوب اكثر مما ادى الى مساعدتها على التقدم نحو اهدافها ، وكمثال عابر عن هذه الظاهرة ، نشير الى دور الاحزاب الشيوعية فى بلدان

امريكا اللاتينية ، التى نراها تقف فى كثير من الاحيان ، الى جانب القوى الرجعية العميلة ضد حركات وطنية تقدمية اصيلة ، وذلك نتيجة لتعصبها الاعمى لتصورها الخاص للثورة وايمانا بانها كل طريق للثورة غير طريقها هو انحراف يجب مكافحته وابادته ، اذا كان ذلك يقع فى اطار مجتمعات غربية تنتمي الى نفس الحضارة التي انتجت الماركسية ، فكيف يكون الامر فى مجتمع مثل مجتمعنا (نعرف ان اسم كوبا موجود بعد على لسان القارىء • ولكن الظاهرة الكوبية معقدة : فلا يخفى على احد ان الثورة الكوبية لم تقم على كاهل أو بقيادة أى حزب شيوعى كوبى ثم ان القيادة الكوبية التى تبنت المذهب الماركسى بعد الانتصار على باتيستا ، قد حاولت تكييف هذا المذهب حسب الواقع السياسى والاجتماعى فى كوبا وفى امريكا اللاتينية بصفة عامة ، ولكن صوتها قد اخمد ، واضطرت الى « اغلاق باب الاجتهاد » تحت ضغوط من طرف بلدان شيوعية أخرى ، لا تترك امام كوبا أى مجال للاختيار نظرا لموقعها الجغرافى وامكانياتها الاقتصادية والتهديدات الخطيرة المحدقة بها) •

فموقفنا المعارض لوضع ثورتنا الثقافية داخل التيار الماركسى ، ليس مبنيا اذن على أى عداء للفكر الماركسى أو أى مركب من المركبات النفسية ، بل هو ناتج عن يقيننا بأن التفكير الماركسى بقواعده وطرقه فى التحليل ، ليس وسيلة مأمونة لفهم الواقع الجزائرى ، وهو نتيجة لذلك لا يمكن أن يعتمد كقاعدة لثورة ثقافية فى هذه البلاد •

ملاحظات منهجية : قد يكون من المفيد الاشارة ، منذ الآن ، الى بعض النقاط التى تتصل بموقفنا من هذه التيارات الثلاثة ، وأولى هذه النقاط منهجية بحتة ، أى تتعلق بطريقة تفكيرنا فى هذه الاشياء •

نحن لم نلجأ فى نقدنا لكل واحد من هذه الاتجاهات ، الى تلك « اللعبة الفكرية » المتمثلة فى استعمال اسلحة الاتجاه الثانى لتحطيم الاتجاه الاول ، ثم استعمال اسلحة الاتجاه الاول لتحطيم الاتجاه الثانى ••• وهكذا • فالناس كثيرا ما يلجؤون الى هذه الوسيلة لنقد مذهب أو اتجاه فكرى ، فيستعملون فى هذا النقد منطق واسلحة الاتجاه المعارض له ، وهى طريقة لو استعملناها لوقعنا فى خطأ فادح ، اذ أن الذى يستعمل تحاليل وحجج مذهب او اتجاه مفكرى ما ، يكون ـ ولو لم يشعر بذلك ـ قد تبنى ذلك الاتجاه •ولو سلكنا هذه الطريقة فى نقدنا السابق لكنا وقعنا فى حلقة مفرغة تجعلنا ندور حول انفسنا ولا نتقدم خطوة واحدة فى توضيح موقفنا ومعالجته

بطريقة جديدة متحررة من كل التأثيرات المسبقةولا تخضع سوى لمعطيات المشاكل والاهداف التى نسعى لتحقيقها ، والذى يقول طريقة جديـــدةوموقف جديد ، لايعنى بالضرورة معادات الطرق والمواقف الاخرى، وسنوضح هذه النقطة فى محلهامن البحث ٠

الملاحظة الثانية : تنطبق على التيارات الثلاثة المذكورة سابقا ، وهى وان لم تتعلق بصلـب اتجاهاتها ، وانما بطريقة معالجتها للشكل ، فانهامع ذلك لا تقل تأثيرا على اهمية النتائج الـــتى يمكنها التوصل اليها ، بل نستطيع القول بانهاالسبب فى جعل كثير من الجهود تنتهى الى طريق مسدود ٠ وهذه الملاحظة هى ان التيارات الثلاثةالمذكورة تشترك كلها فى انها تتصور حل المشكل بطريقة « الاخذ » ، فاما الاخذ من التراث العربىالاسلامى ، أو الاخذ من الثقافة الغربية المعاصرة أو من تيارات أخرى معادية لهما معا ٠ بينمـــاالمسالة الثقافية المطروحة اكثر فى الحقيقة واعقد من مجرد « فراغ » يجب علينا ان نأخذ من مكانما لنملاه ٠ لقد حان الوقت لكى نكف عن العيش عالة على تراثنا الثقافى القديم أو على تراث الآخرين وما كلمات مثل «الرجوع» الى تراثنا أو «احياء» تراثنا ، أو « بعث » حضارتنا سوى علامات مغبرةوضعت بجانبطرق لا تؤدىسوىالى التيه والموت البطىء ، فالتاريخ يشهد بأن الحضارات القديمةكلها قد عاشت مرة واحدة ، فبامكان اى شعب من الشعوب ان يعتز بحضارته القديمة ومـــااضافته للتراث الانسانى ، فذلك عنصر مدعـــم لمعنوياته ولكن عليه أيضا ، اذا كان يريد ان ينجو بوجوده وبكيانه واذا كان على درجة كافية من الذكاء تمكنه من ذلك ان يشق طريقه نحو قممجديدة ٠٠٠ لها مساربها ومنعرجاتها ومخاطرها وارتفاعاتها التى تختلف حتما عن القمـــم التىتحداها اسلافه ، وما الماضى سوى تجربة توسع دائرة الادراك وتسلح الارادة لدى الانســـان اوالشعب الحى فى كفاحه المتعدد ٠ ولكنه يتحول لدى الانسان الخامل الى مجرد اغنية بلهاء ٠

الملاحظة الثالثة : التى تشترك فيها التيارات السابقة كلها ، هى ظاهرة التعصب المذهبى ، أو بعبارة اكثر دقة الانغلاق المذهبى ، ولا نقصدبذلك انغلاق كل تيار تجاه التيارات الاخـــرى ، فذلك قد يظهر طبيعيا ، ولكن نعنى به انغلاقكل تيار تجاه ما يمكن ان نطلق عليه قسمـــة « قضية مصير الشعب » ٠ ولا نقصد بذلك قضيةمعينة ومستقلة بذاتها ، وانما مجموع القضايـا المتشابكة التى يتوقف على حلها جميعـــا فـــوزالشعب فى التحدى المصيرى الذى يخوضه ، ويظهر هذا الانغلاق فى نفسية وتصرفات دعاة هــــذهالاتجاهات : فهم يوجهون حماسهم ونشاطهم وكل

تفكيرهم الى الدفاع عن مذهبهم اكثر مما يوجهونهما نحو مجهود حقيقى لحل المشاكل الهامة التى اشرنا اليها ٠

قد يكون هذا الكلام غامضا الى حد ما ، ولكن المثال الثانى يجعله دون شك اكثر وضوحا : لقد شاهدنا « مناضلين » من مختلف هذه الاتجاهات يبذلون كل جهدهم ، عندما يبرز خلال نقاش أو دراسة ما تناقض بين اتجاههم الفكرى وجانب من الواقع الجزائرى ، قلنا يبذلون كل جهدهم فى طى ذلك الواقع للرأى الذى يحملونه مسبقا لا العكس أى طى الفكرة للواقع وتعديلها حسب مقتضياته ، لقد ادى هذا الموقف النفسى الى تحريف الواقع الاجتماعى الجزائرى بل ونكرانه فى كثير من الحالات ٠ ان الموقف السليم والفعل يفرض ان يكون المذهب أو الخطة الثورية التى تهدف الى تحرير طاقات الشعب ودفعه الى الامام نابعة من واقع الشعب ومتزاوجة مع واقع ذلك الشعب ومدخله فى اعتباراتها كل جوانب ذلك الواقع ٠ ولكن الاتجاهات القائمة لا تعترف بهذه الحقيقة ، وذلك هو السر فى بقائها دون أية قدرة على التفاعل مع المجتمع تفاعلا حقيقيا والتأثير عليه تأثيرا ايجابيا أى بتجنيده فى حركة واحدة قوية ومنسجمة فى اتجاه حل مشاكله واختصار مراحل الطريق نحو القوة ، بالسرعة التى يتطلبها الظرف الزمنى الذى نعيش فيه ، والاخطار الماحقة التى تحدق بكل شعب يتخلف عن الركب : تلك هى الثورة الثقافية ، وهى باختصار خلق انسان ومجتمع جديدين قادرين على مواجهة هذا التحدى التاريخى الخطير ٠ فالرهان ليس هينا ، والجهد المطلوب فى مستوى الرهان ٠

« القسم الثانى »

اللحظة الاستثنائية :

يعيش شعبنا الآن فترة استثنائية لم يعرف مثلها فى تاريخه الاجتماعى والسياسى الطويل ، أى انها فترة فريدة ، ذات خصائص متميزة عن كل الفترات التى سبقتها ٠ وسيكون لما يجرى خلال هذه الفترة تأثير على الفترات التى ستليها لمدة اجيال عديدة : هذا امر يدركه اغلبية الناس ٠ ولكن الامر الذى لا تدركه الاغلبية أو تختلف حوله هو ان هذه الفترات الاستثنائية تتطلب نظرة جديدة للاشياء وحلولا جديدة للمشاكل ، ولا يمكن ابدا مواجهتها بالنظرة والحلول « التقليديين » ٠

ان التغيير الذى يجب ان يحدث فى كيان شعب ما لكى يرفعه الى مستوى هذه النظرة الجديدة للاشياء ، والى تفكير وتصرف جديدين تجاه المشاكل التى يفرضها عليه تحد تاريخى حاسم ، هو

بالضبط ما نسميه نحن بالثورة الثقافية ، ان هذا الطابع الاستثنائى والفريد للفترة التى يعيشها شعبنا حاليا هو الذى يفسر لنا فشل التيارات السابقة فى فرض نفسها كوسائل « صالحة وكافية » لتحرير كل الطاقات الكامنة فى هذا الشعب كأفراد ، وكجموع والتى هى ضرورية لخلق دولة قوية ومجتمع متجانس البنية وشعب قادر على فرض نفسه بواسطة عبقريته وابداعه فى كل المجالات ··· وهى كلها ليست مجرد مثل عليا واهدافها فى حد ذاتها ، بل شروطا أولية لاستمرار البقاء ، ونحن عندما نؤكد بأن تلك التيارات الثلاثة الكبرى غير قادرة على اعطاء شعبنا منطلقا صالحا نحو هذه الاهداف وهذه الشروط لا نقول بأن العيب موجود فى تلك التيارات نفسها ، فالذى يريد اثبات ذلك لا يمكنه سوى تضييع وقت ثمين ، بل نرى ان العيب كله موجود فى عدم فهم طبيعة « الفترة الاستثنائية » واكتشاف القوانين الحتمية التى تتحكم فى تطور الشعوب خلال هذه الفترات من تاريخها والتى لا يمكن دون مراعاتها، بل والاستعانة بها، على حل مشاكل مصيرية مثل مشكل الثورة الثقافية ·ولكى نفهمها كظاهرة تاريخية متميزة ، وندرسها على هذا الاساس ، وهذا ما سنحاوله فى الصفحات التالية ·

الملاحظة التاريخية :

التاريخ حركة متواصلة وتفاعل مستمر ، ونحن لا يهمنا اذا ما كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيدها ، بل يهمنا فقط ان تطور المجتمعات عبر التاريخ يخضع ، ككل الاشياء فى الكون الى قوانين عامة وثابتة ادركت الانسانية بعضها ولاتزال تبذل الجهد لاكتشاف المزيد منها ، ومهما كان النقد الذى يوجه لهذا العلم (الذى لا يعترف به البعض كعلم) فان التاريخ لا يزال حتى الآن المرجع الوحيد لمحاولة فهم بعض الظواهر المتعلقة بمسيرة المجتمعات والتحولات الكبرى التى تطرأ عليها · والشىء الذى يلاحظه الانسان عند تأمل التاريخ ، هو ان فتراته الزمنية ليست متساوية الاهمية : فهناك فى التاريخ فترات حاسمة ومنعرجات يكون لما يحدث خلالها تأثير حاسم على الفترات التى تليها ، وقد يمتد هذا التأثير لحقب طويلة جدا ، لا يتناسب طولها قليلا او كثيرا مع قصر تلك الفترات التى قلنا عنها بأنها حاسمة وبأنها منعرجات خطيرة ، على سبيل المثال نذكر بعض الفترات مثل ظهور الاسلام وظهور الثورة الليبيرالية فى الغرب وظهور الثورة الشيوعية الحديثة · ونذكر هذه الامثلة دون غيرها لانها اقرب الى ذهن الفرد الجزائرى اكثر من غيرها · ولكن ما ينطبق عليها ينطبق على غيرها من الثورات التاريخية الكبرى · وهى تمثل

نماذج متنوعة ومختلفة من الثورات . نحن لا نضع الاسلام فى مستوى الثورتين الاخيرتين ، ولكننا لنا الآن فى مجال المفاضلة .

نرجع الى هذه الثورات الثلاث ، فنجدها قد درست من كل جوانبها على مر القرون والسنين ولكن النتيجة التى تلفت انتباهنا فى مجال اهتمام هذا البحث هى ان كل ثورة من هذه الثورات قد اتبعت نموذجا معينا من الانسان ، يختلف اختلافا تاما عن غيره من النماذج . ومتميزا عنها بدوافعه الاخلاقية وبنظرته للمجتمع وللانسانية بل وحتى للكون بصفة عامة، من يستطيع ان يخطىء فى تمييز نموذج الفرد الذى انتجته الثورة الاسلامية ونموذج انسان الثورة الليبيرالية ، والنموذج الشيوعى ؟ اننا لا نستطيع ذلك حتى لو اردناه . نستطيع ان نضيف الى هذه النماذج سلسلة من النماذج الاخرى مساوية لعدد الثورات التاريخية التى نعرفها .

نلاحظ ان هذا النموذج الانسانى الذى تخلقه كل ثورة ، هو أول انتاج انتجته وأول انتصار تحرز عليه ، اما بقية نتائجها الاخرى مثل النتائج الاقتصادية والسياسية والعسكرية والفكرية ، فما هى فى الحقيقة الا من صنع هذا الانسان الجديد والفريد من نوعه الذى خلقته تلك الثورة ، فالثورة تخلق نموذجا جديدا من البشر ، ثم يقوم هذا الانسان الجديد يصنع حضارة ونلاحظ بأن هذه الحضارة تعيش ما دام هذا النموذج قائما ، ثم لا تلبث ان تتلاشى عند ما يختفى النموذج الذى صنعها ، فالتاريخ لا يحتوى على حضارة استطاعت أن تبقى وتعيش بعد اختفاء النموذج البشرى الذى كونها .

هذه النظرة للتاريخ لا تتناقض مع نظرية ابن خلدون حول الدورة الحضارية ونلاحظ ان هذا النموذج الانسانى الجديد هو ليس فقط أول شىء يظهر عند وقوع اية ثورة تاريخية ، بل انه أيضا اول شىء يختفى قبل انهيار الحضارة التى انتجتها تلك الثورة .

نلاحظ أيضا ان هذه النظرة للتاريخ لا تجعل من الانسان مجرد آلة فى يد الظروف المادية والاقتصادية ، تصوغه كما تشاء وتصنع به ما تريد كما يفعل ذلك التحليل المادى للتاريخ (التحليل الماركسى) ، بل تجعل من الانسان سيد مصيره ومتمتعا بحظه كاملا من الارادة والمسؤولية والقدرة الفردية والجماعية على الخلق والابداع .

نعرف وان هذه الملاحظة الاخيرة هامشية وعابرة ، ولذا يجب الا تلهينا عن اشياء اهم ، والشىء الاكثر اهمية فى هذه المرحلة من التفكير هو الاجابة على السؤال التالى : كيف تخلق كل ثورة نموذجها البشرى الخاص بها ؟

قد يتوقع منا القارىء الكريم ان ندخل فىميدان الوصف المدقق أو العام لتلك « الفترات الاستثنائية » أو تلك الثورات الكبرى ، والحقيقةان الاغرا، بهذا الوصف التاريخى شديد خاصة وان كتبا لا تحصى توفر مادة لا يمكن استنادها فىهذا الميدان وقد استطاع اصحاب المذاهب الكثيرة والمتناقضة ان يجدوا فى هذه المادة التاريخيـــةالخام ادلة وبراهين لمساندة وتدعيم مذاهبهم دون أن يجدوا ابدا اية صعوبة فى تطويع هذه المـادةوضعوه مسبقا من افكار وتغيرات ٠ ولكننا تمكنا ، رغم هذه الاعتذارات ، وبكل نزاهة وموضوعية ،ان نتوصل الى فرضية عامة ، تحاول بكل تواضع الاجابة على السؤال الكبير الذى طرحناه سابقا ،وهو : كيف تخلق كل ثـــورة نموذجها البشرى الخاص بها ؟ وسنورد الخطوط العريضة لهـــذه الفرضية بكل اختصار ، تاركـين التوسـع فى التحليل وايراد الامثلة والدلائل التاريخيـــة الىمجال اوسع من هذه الدراسة، ثم ان القارىء المطلع على تاريخ التيارات الكبرى للتاريـــخ لا بد وانيستحضر بنفسه صور الاحداث البعيدة وهو يتابع تسلسل نقاط هذه الفرضية ٠

ان الثورات التاريخية الكبرى قد برزت كلهاخلال فترات تتميز بعدم الاستقرار وبأزمات يكون خلالها الشعب الذى تظهر فيه الثورة مهددا فى وجوده وكيانه ومستقبله ، فالثورة لا تظهر الا عند الحاجة للثورة ، وبعبارة اخرى فان الشعوب غيرمستعدة للتخلى عن مجموع العناصر والاشياء التى تتكون منها حياتها ، وعلى رأسها البنيات الفكريةوالروحية ، الا اذا شعرت بأن الاستمرار على ذلك النمط من الحياة يهدد وجودها ومستقبلها ٠ فالثقلالوحيد الذى يمكنه ترجيح كفة الميزان لفائـــدة الثورة والتغيير الشامل هو تحرك غريزة البقاء لدىذلك الشعب ، والذى يتصفح التاريخ يدرك مدى قدرة الشعوب على تحمل و « هضم » الوان مـــنالبؤس والمهانة وتحويلها الى اشياء عادية ٠ وهذا السبب الذى يجعل الثورة ــ كل ثورة ــ تظهــردائما وكأنها شيء متناقض مع الطبيعة ، وظاهرة « خارقة للعادة » ولهذا الاعتقاد ما يبرره ٠

ان ظروفالثورة تخلق اذن عند ما يجد شعبما نفسه تحت تهديد مسلط على حياته واستمرار وجوده ، ويجد نفسه عاجزا عن ازالة ذلك التهديدوالتغلب عليه ، ونحن لا نحدد هنا نوع التهديد ، لانه يختلف حسب الفترات التاريخية وحسبالشعوب ، بل وحتى حسب مواقعها الجغرافية ، ولذا نجده يختلف من ثورة الى أخـرى : فهـــوبالنسبة للبعض يتمثل فى قوة خارجية مادية ويبرز على شكل هزيمة عسكرية مثلا ، ويكون بالنسبـةلثورات اخرى تهديدا داخليا بحتا ومتمثـــلا فى

بلوغ بعض التناقضات درجة يستعصى حلها ، تهددبقاء وحياة المجتمع كله · وقد نجد هذين النوعين من التهديد معا فى حالة بعض الثورات الاخرى ·

القاعدة العامة الاولى التى نستخلصها اذنهى ان كل الثورات الحقيقية قد حدثت بعد ان وجدت شعوبها نفسها امام تهديد هى عاجزة عنصده والتغلب عليه · تلك هى المرحلة الاولى ان ادراك ذلك الشعب لعجزه عن ازالة التهديد المسلط عليه ، هو بمثابة « صدمة » تكون نقطة انطلاق لتفاعل متسلسل لا يستطيع العقل تصوره وحصر تأثيراته عبر الزمان وعبر المكان ـ حسب التعبير الذى يروق كثيرا لهواة الفلسفة ـ ولكنالتأثير الاولهذه الصدمة يحدثفىمجال هوربما اكثر تجريدا واكثر عمقا ، وهو ما نستطيع تسميتهبالضمير الجماعى لذلك الشعب : فقوة الصدمة تتجه الى ابعد اعماق هذا الضمير الجماعى · · ·وهناك يتم تأثيرها الحاسم ·

يحدث اولا انهيار ثقة ذلك الشعب بنفسه ،وتسرب الشك حول كل شىء يملكه · · كل شىء خاص به ، وبذلك يفتح الباب واسعا لجميع انواعالانحلال والتفكك ثم التلاشى : على مستوى البنيات الاجتماعية والاخلاقية والثقافية وغيرها · وليسمن الضرورى ان يحدث ذلك دفعة واحدة وبصورة مدوية · · بل انه قد يحدث خلال فترات زمنيةطويلة جدا وبصورة تدريجية قد لا تحس احيانا فينحدر مستوى الانتاج الفكرى نحو الضحالةوتظهر الامراض السياسية على صورة الانشقاقات وتفتت القيادات ، مما يؤدى الى التآكل الداخلوانعدام الفعالية ، ويظهر كذلك التفسخ الاخلاقى والاستخفاف بالقيم · ولكن هذا لا يمنع ظهور بعض العبقريات الشاذة أو بعض الانتصارات العابرة الموقتة ، وتلك كلها تشبه التشنجات الاخيرة لقلب محتضر قبل استسلامه للسكون ، فى تلك الفترات يتحول الايمان الى طقوس رتيبةوتحل حكايات الماضى محل مشاريع المستقبل · وباختصار نجد انفسنا امام احلك الفصول فىتاريخ الشعوب ، بما فيها من مآسى ومهازل وتفاهة وضعف ، ومن بطولات ايضا تتحدى عجلة التاريخبشجاعة اليأس ، وضراوة الاسد الجريح ، ولكن عجلة التاريخ قد انتهت فى اغلب الاحيان الىسحق تلك البطولات فى بركة من الدماء واليأس ·

لقد كان لكل شعب نصيبه من تلك الايامالحالكة · وقد اكتشف كل شعب خلالها ان لا منجد له سوىعبقريته الخاصة وارادته التى تغذيها غريزةالبقاء ·

والذى يقول عبقرية الشعب يقول ضميرهالجماعى ، الذى لا يكون الشعب بدونه شعبا ولا الامة امة ·

وسط ذلك الحطام واكداس الخراب والبؤس يظل الضمير الجماعي يعمل بصمت يبحث عن المخرج الحقيقي من الازمة ، ومهمته في هذه الفترةبالذات اوسع واعقد من ان يحتويها عقل أي فرد ، فهي مهمة ابداع وخلق تتحرك فيها كل عبقريةذلك الشعب ٠

لقد قلنا بأن التفكك والانحلال يكون قد اصاب كل البنيات التي تكون شخصية الشعب وشخصية الافراد الذين يتكون منهم ، لهذا فانمهمة الضمير الجماعي في تلك الازمة هي بناء شخصية جديدة للفرد ، وبالتالي شخصية جديدةللشعب كله ، تلك هي المعجزة ، وبما ان الفرد القديم أو الحالي عاجز عن تجاوز الازمة القائمةوالتهديد المسلط على شعبه ـ وذاك هو مصدر الداء ـ فان الفرد الجديد يجب ان يكون متمتعابقدرات في مستوى التحدي المطروح بل واكثر من ذلك : يجب ان يكون عملاقا في عالم من الاقزام ، بل من الحطام البشري احيانا ٠ يبدو الضمير الجماعي في صنع نموذجه الجديد منذ اللحظة التييتلقى فيها « الصدمة » ٠ أي منذ ان يدرك الشعب بانه عاجز عن ازالة التهديد المسلط عليه ، وهوبصنعه ذرة ذرة وخلية خلية في عوالمه الخفية ، وقد تطولّ مدة صنعه اجيالا عديدة فتطول هكذاايام انتظار الشعوب لموعد خلاصها ٠ بداية الثورة هي بداية مرور نموذج الانسان الجديد من الضميرالجماعي للشعب الى ضمير الافراد الذين يتكون منهم ذلك الشعب ، وبداية ذلك المرور تكون صفحة قديمة من التاريخ قد طويت وحلت محلها صفحة جديدة مليئة بالامكانيات والآمال والانتصارات التي كان مجرد التفكير فيها قبل بروز الانسان الجديد مجرد هذيان واحلام مستحيلة٠ تلكهي الثورة ، وهي غالبا ما تحدث بصورة مفاجئة ، كالانفجار أو كالسيل الجارف الذي يحدث عند ماينفجر سد عظيم ، وهي لذلك غالبا ما تدهش اعداء ذلك الشعب واصدقاءه معا ، بل وتدهشالشعب الذي تحدث فيه الثورة نفسه ٠

ان ملاحظة التاريخ عن بعد ، أي تصور الخطوط العريضة لحركاته وظواهره ، أمر ضروري لهم كثير من جوانب المشاكل الكبرى مثل مشكلالثورة الثقافية الى جانب مشاكل أخرى غيرها ، ولنا في هذه النقطة ملاحظة ، وهي انه اذا امكنلكثير من الناس أو المجموعات تزييف بعض الجزئيات التاريخية ، فانه لا يمكن ابدا تزييفالتيارات الكبرى للتاريخ ٠ فهذه الاخيرة يمكن فقط ارتكاب اخطاء في تأويلها وتفسيرها احياناواكبر مصدر لهذه الاخطاء يتمثل في عدم القدرة على تصور هذه الظواهر الكبرى في حالة حركة ٠مما يؤدي الى تقنيتها وعدم اكتشاف القواعد العامة الثابتة التي تتحرك حسبها تلك الظواهر ٠

ولكن اذا كانت تلك النظرة العامة الشاملةضرورية ، فان بعض الامور الاقل عمومية ، اذا لم نقل جزئية ، لا تقل اهمية فى بعض الاحيان لفهمتلك القوانين العامة التى نحن فى حاجة اليها ٠

تماشيا مع هذه الفكرة سنحاول الاقتراببدرجة اكثر من تلك الظاهرة التى اطلقنا عليها تسمية «الانسان الجديد» ٠ لقد استطعنا حتى الآنرسم الظروفوالاطار العامين اللذين يتم داخلهما بروزه على سطح الاحداث التاريخية لشعبه ، ولكنذلك لا يعتبر اجابة وافية على السؤال الــذى طرحناه فى بداية هذا الفصل ، وهو : كيف تصنعكل ثورة نموذجها البشرى الخاص بها ؟ ٠

لنحاول اتمام الجواب على هذا السؤال عنطريق فهم ادق واوضح لهذا الانسان الجديـد :

قد يتصور البعض ان هذا « الانسان الجديد » هو بالضرورة بشر من لحم ودم ٠ ولكن الحقيقة انه اولا وقبل كل شيء فكـــرة فى عقول الناسوضمائرهم ٠٠٠ انه نموذج معـين من البشر ذو شخصية متميزة يتصوره كل أو اغلبية افـرادشعب ما ، ويحاولون الارتفاع الى مستواه وتقمصه وتمثل نظرته للاشياء وللكون ولعلاقات الناسوالمجموعات بعضها مع بعض ٠٠٠ الى آخر عناصر ومقتضيات تلك الشخصية النموذجية ، لقد قلنا ان الانسان الجديد مـــن صنع الضمير الجماعى للشعب ، وما الضمير الجماعى سوى مجموع ضمائرالافراد الذين يتكون منهم ذلك الشعب ، والنموذج الانسانى هو حصيلة التجارب الـتى لا تحصى والتفكير المتواصل لاجيال من ذلك الشعـب ٠٠ تجارب يتوارثها كل جيل عن الجيل الذى سبقهخلال تلك الفترة المرة من تاريخه ، أى الفتـــرة التى تبدو من الصدمة الى لحظة انفجار الثورة ٠

والنقاط الاساسية التى يجب ان نشير اليهاولو بايجاز هى :

اولا : ان خلق الضمير الجماعى للنموذج الانسانى الجديد ليس عملية ارتجال يتصرف فيهـــا الضمير الجماعى حسب اهواء وميول افـــراد أوجماعات معينة ، بل انه يصوغه بدقة لا منفذ فيها للخطا أو التسامح ٠ لا يراعى فى صياغته سوىالعوامل الدائمة التى تحرك مجموع القـــوى الموجودة فى ميدان حقبته التاريخية ، بحيث يكونالنموذج الجديد متلاحما مع حقبته مما يجعله قادرا على تحطيم صعوباتها وتجاوزها ٠

ثانيا : ان المحور الذى يقوم عليه بناء الشخصية الجديدة هو فى الحقيقة شيء متناهى الدقـــة رغم ان دوره حاسم اكثر من شيء آخر ٠ بل انهذا العنصر يمكن اعتباره جوهر هذه الشخصية

ومحركها الدائم : **انه المفاهيم التي تعطيها لبعض القيم الانسانية الاساسية** • فمن هذه المفاهيم تستعد الشخصية الجديدة اهدافها وتماسكها ،والمعايير التي تتعامل على اساسها مع الحضارات والتيارات الفكرية والسياسية وغيرها ، سواء منها تلك التي اصبحت تنتمي الى الماضي أو التي تتعايش معها في زمن واحد •

كمثال على هذه النقطة نذكر ان « الحرية » وهي من القيم الانسانية الاساسية ، تاخذ في كل ثورة مفهوما خاصا يختلف عن مفهومها بالنسبة لثورة أخرى ، وعندما نرجع الى الامثلة الثلاثة التي ذكرناها ، نجد ان هذه القيمة يختلف مفهومها بالنسبة للانسان المسلم والليبيرالي والشيوعي • ان حقيقة كون هذه المفاهيم الخاصة للقيم هي محور الشخصية المميزة لكل ثورة أو حضارة ، هي السبب في ان كل من يسعى مهاجمة ثورة أوحضارة ما يسعى أولا وقبل كل شيء لتحطيم مفاهيمها الخاصة للقيم •• لانه يعرف عن وعي أوبالغريزة ان في تحطيم تلك المفاهيم تحطيم للمحور الذي تقوم عليه شخصية وكيان تلك الثورة •

ان تحديد كل ثورة لمفاهيمها الخاصة التي تعطيها لتلك القيم الانسانية لا يتم بالصدفة او التقليد ، بل ان ادراك تلك المفاهيم الجديدة للقيم امر لا يتم في البداية سوى لنخبة قليلة جدا من الآباء الشرعيين للثورة ــ أي ثورة ــ والذين تستضيء ضمائرهم وعقولهم مباشرة من الضمير الجماعي للشعب ، وهذا هو الذي يجعل التصور الاول لهذه المفاهيم دائما مسالة حدس قبل ان يتحول ذلك الحدس الى منطق يفهمه كل الناس ،ويعبرون عنه بتصرفات يومية ، ان هذه النقطة جوهرية جدا ، بقدرما هي معقدة ، ولكننا نكتفي فيها بهذه الاشارات الموجزة الآن •

ثالثا : النقطة الثالثة هي ان النموذج الانساني الجديد الذي تخلفه كل ثورة ، ليس معناه ــ كما قد يظن البعض ــ حصول قطيعة مع التراث الذي ورثه ذلك الشعب عن ماضيه ، او مجموع معتقداته وتقاليده ، او قطيعة ايضا مع التيارات الحضارية الاخرى للشعوب التي تعاصره ، بل ان الامر بالعكس من ذلك تماما : ان النموذج الجديد هو الوسيلة الوحيدة لربط اتصال خصب وفعال مع تراث شعبه ومع العالم الخارجي بكل ما فيه من قوى حية ونشطة ، ان هذا الامر قد يبدو غريبا بالنسبة للبعض ، ولكن الواقع يثبت بأنه لا يمكن لاى انسان ينتمي الى شعب بدأ ثورته التاريخية ان يتفاعل بصورة ايجابية ومنتجة مع اى تراث حضاري ــ حاضرا كان او ماضيا ــ اذا لم يكن قد

انصهر داخل نموذج الشخصية الجديدة ، لانــه بدون هذه الشخصية لا يملك اية قاعدة للتعامل مع اية فكرة أو أى موقف كان ٠

الانتاج الفكرى والثورة : ان الاشارة السابقة تزداد وضوحا بتأمل مسالة الانتاج الفكرى وما يتعرض له من خمول ونشاط ٠٠ مــن ابداع أو تقليد ، فالانتاج الفكرى بصفة عامة مرتبط فى رأينــا بظاهرة الثـــورة الثقافية ارتباطا عضويا ومباشرا ، لقد نظم فى الجزائر منذ سنوات قليلة ملتقى لمعالجة مشكل الركود الثقافى ، ولكن التجربة قد اظهرت بأن معالجة مشكل الركود الثقافى خارج اطار الثورة الثقافية امــر مستحيل ومجردعبث ٠ فلكى يصبح الانسان منتجا فكــريا ـ فى أى ميدان من الفكر ـ يجب ان تتوفر فيه شروط ضرورية ، وهذه الشروط لا يمكــن ان يستمدها سوى عن طريق انصهاره فى شخصية الانســان الجديد الذى هو وحده قادر على ربطه بضمير شعبه فى المرحلة التاريخية التى ينتمى اليها الشخص المنتج فكريا ، ونحن نؤكد على تخصيص المرحلة التاريخية عمدا حتى نقطع الطريق امام كل الذين يعتقدون بأن ضمير الشعب شىء قار وثابت عبــر الزمن ، بينما الحقيقة ، كما اوضحنا ذلك ، ان هذا الضمير يتغير بصورة جذرية عند حدوث كل ثورة ، وباختصار شديد نستطيع ان نقول بأن الانسان المنتج فكريا يستمد من الشخصية الجديدة عــدة اشياء منها :

1 ـ يستمد منها مفاهيم واضحة ودقيقة للقيم الاساسية كمفهومه للحـــرية او العدالة او حتى مفاهيم اوسع مثل الخير والشر ، فما هو خير بالنسبة لثـــورة ما فى شعب ما قد يعتبر شرا بالنسبة لثورة اخرى فى شعب آخــر ، وكذلك نفـــس الشىء بالنسبة للقيم الاخرى ، ومـــن المعروف ان الانسان لا يستطيع ان يكون كاتبا او شاعرا او مفكرا بصفة عامة اذا لم تكن لـــه مفاهيم واضحة ودقيقة لهذه القيم ، لانها هى التى تمكنه من تحديد موقفـــه مــن الناس والاشياء والتصرفات والاعمال ٠٠٠ الى آخره ، عندما اقول مثـــلا بأنى ضد تصرف ما ، فانى اعنى بذلك أن التصرف الذى أنا ضده متناقض مع مفهومى لقيمة من القـــيم الانسانية ، ونستطيع ان نقلـــب الموقف : عندما يقول انسان ما بأن عملا مـــن الاعمال متناقض مع الحرية ، نقول له : ولكن اية حرية ؟ عندما يقول انسان آخر عن عمـــل من الاعمال بانه مناف للعدالة ، نستطيع ان نسأله : ولكن اية عدالة ؟ ٠ نـــدرك هكذا بأن الانسان لا يمكن ان يكون منتجا فكريا اذا لم تكن لديــه مفاهيم واضحة للقيم الاساسية ، وهى مفاهيم لا يمكن ان تكون شخصية لان الانسان لا ينتـــج

لشخصه ، بل ينتج من اجل مجتمعه ، وحتى عندما يتوجه للانسانية قاطبة ، فمن خلال ذلك المجتمع : عندما لا تكون هناك مفاهيم واضحة للقيم لدى شعب ما ، تنعدم قدرته على الانتاج الفكرى ، ويحل محله الغموض والتقليد و « الصناعة اللفظية » وهى كلها ليست انتاجا فكريا ·

2 ـ الشىء الثانى هو ان الشخصية الجديدة ترفع الانتاج والنشاط الفكريين الى مستوى المشاكل الحقيقية المطروحة على شعبه ، وتحميه من الوقوع فى الجمود او الصراعات والجهود الهامشية العقيمة التى تبدد الطاقات الفكرية للشعب وتفقدها كل فعالية وكل قيمة ·

3 ـ الشىء الثالث ، هو ان انصهار المنتج الفكرى فى الشخصية الجديدة التى تخلقها ثورة شعبه ، يعطى انتاجه عنصرا هو فى الحقيقة العمود الفقرى الذى ترتكز عليه قيمة كل انتاج فكرى ، وهو تاديته لرسالة ·· هى رسالة شعبه فى حقبة زمنية معينة ، ولكنها تكون فى آن واحد رسالة الكاتب او المفكر بصفة عامة ، لانها تكون نابعة من اعماق ضميره ·

هذه بصورة موجزة جدا بعض الاشياء التى يستمدها الانتاج الفكرى من الشخصية الجديدة ، ويمكن تلخيص المسالة فى جمل قليلة ،وهى ان الخروج من عصور الانحطاط لا يمكن ان يتم سوى على يد انسان جديد يخلقه الشعب بثورة تقع اول ما تقع فى ضمير ذلك الشعب ·

على اساس هذه النظرة التى عرضناها فى الصفحات السابقة ، نستطيع ان نجد القاعدة الحقيقية لبعض القضايا الثقافية الكبرى ، مثل قضية الالتزام وقضية الاصالة : فالالتزام ليس عملية حجز لحرية الكاتب او الشاعر وفرض افكار او مشاعر معينة عليه ·· بل ان الالتزام الحقيقى ياتى عن طريق انصهار ذلك الكاتب أو الشاعر او غيرهما فى اطار شخصية الانسان الجديد الذى تخلقه الثورة ، فيصبح ضميره انعكاسا صادقا لضمير شعبه فى تلك المرحلة ، وبذلك يمكنه التمتع بكامل حريته دون ان يخرج عن دائرة الالتزام ، تلك هى الصورة الوحيدة الحقيقية للالتزام التى يقبلها المنطق اما فرض اشكال وانماط وشعارات معينة على الاديب والمفكر والفنان بصفة عامة ، فذلك الزام عقيم وليس التزاما ، اما الاصالة فتصبح بعيدة عن التقوقع والانغلاق وتظهر بمفهومها الحقيقى الذى هو مدى مطابقة الانتاج الفكرى والفنى لخصائص ومميزات النموذج الانسانى الجديد الذى تخلقه الثورة ·· الذى هو تركيز لخصائص ومميزات الشعب فى مرحلة انطلاقه نحو القوة ··· لا فى مرحلة انحداره نحو الضعف والتفكك ·

ولكن ، يجب الا يتسرب الى اذهاننا ان الثورة الثقافية مسالة طبقة او نخبة معينة من المجتمع كما توحي بذلك كلمة ثقافة فى بعض الاوساط ··· التى تريد احتكار الثقافة بوسائل او باخرى، بل هى مسالة الشعب كله ، لانها لا تتعلق بكمية المعلومات التى فى دمـاغ الانسان ، بـل ببناء شخصيته الذى يتكامل ويتواصل كل حياته فى المنـاخ الاجتماعى الذى يعيش فيه · ولسنا فى حاجة الى التاكيد على ان اسبق الناس للانصهار فى نموذج او « قالب » الانسان الجديد الذى تخلقه كل ثورة ، هم ليسـوا دائما من اصحاب الادمغة المليئة بالعلوم والفنون ، بل ان هناك دواعى كثيرة تجعلنا نعتقد بضرورة مراجعة كثير من المفـاهيم الجارية ، مثل مفهم «طليعة» ، فى اطار ثورة ثقافية حقيقية وتحديده بدقة ، مستفيدين فى ذلك من التجارب التاريخية الكثيرة ···

ان ثورة 1954 العظيمة ، التى برهنت للعالم اجمـع عـلى انها اكثر من مجرد حرب تحريرية عادية ، بل هى ثورة نابعة من ضمير الشعب الجزائرى كله ، وتعبير عن ارادته فى تفجير وتحرير كل الطاقات الكامنة فيه ، قلنا ان هذه الثورة العظيمة تشتمل على كل العناصر الضرورية لبعث ثـورة ثقافية تخلق الفرد والمجتمع الجزائريين خلقا جديدا · ان نموذج الانسان الجزائرى الجـديد الذى خلقته الثورة موجود ، وقد كسب الجولة الاولى من المعركة ، سيبرز بكـل ابعاده ومفاهيمه وطابعه الحضارى خلال الثورة الثقافية ، ليأتى على الامراض ويفجر العبقريات ويهد الرموس رمسا برمس ·

ان الدراسة الحالية ما هى الا محاولة متواضعة للحصول على وسائل عمل نظرية تمكننا مـن تصور ثورتنا الثقافية تصورا صحيحا ونابعا من تفكيرنا الخاص · فاذا كان موعد الثـورة الثقافية لم يحن بعد ، فان ذلك لا يمنعنا مـن التفكير فيها منذ الآن ··· بل ان ذلك شرط ضرورى لنجاحها·

كيف ستكون معالم الثورة الثقافية الجزائرية ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه فى الدراسة القادمة ·

جان سرفيه وثورة أول نوفمبر 1954

د. ابو عمران الشيخ
كليـة الآداب
جامعـة الجزائر

بمناسبة الذكرى العشرينية لثـــورة اول نوفمبر 1954 راينا من المفيد ان نلقى نظرة سريعة على موقف احـد العلماء الفرنسيين وهو جان سرفيه (Jean servier) المتخصص فى علـم الايتنولوجيا (2) وكان هذا العالم يتردد على جبـال الاوراس منذ سنوات ليدرس عادات مجموعة من السكان هناك . ومـن خلال سلوكه ازاء الثورة تتبين لنا مواقف الكثيرين من امثاله الذين كانوا مقيمين بالجزائر وقد اعتنـــوا بالعلوم التاريخية والاجتماعية والادبيـــة وغيرها ... ولكنهم لـم يتفهموا فى الغالب قضايانا الوطنية رغم خبرتهم الواسعة ومعرفتهم للبلاد بل كانوا يساندون السياسة الاستعمارية ويدعمونها ببحوثهم وأرائهم ومقالاتهم . انهم عاشـوا الظلم الذى كان المواطنون يعانون منه ولم يقفوا فى وجـــه الظالم الا نادرا ولاحظوا أن الاقليـة الاوروبية كانت تتمتع بجميع الحقوق والامتيازات فى حين ان الاغلبية من السكان الشرعيين كان حظهـم الاضطهاد والبطالة والحرمان ... ولهذا فاجاتهم ثـــورة أول نوفمبر كما سنرى ذلك فى هذا المقال .

---

(1) اعتمدنا فى هذا البحث على كتاب « حرب الجزائر » ج 2 لايف كوربير طبعة باريس سنة 1968 عند الناشر فايارد (Fayard) وسنشير الى صفحاته .

(2) الايتنولوجيا (Ethnologie) علم استعمارى بالدرجة الاولى لانـه يدرس احـــوال الشعوب البدائية التى ليس لها تاريخ .

ولم يكن (سرفيه) غريبا عن الجزائر اذ عاش فى قسنطينة حيث أنهى دراسته الثانوية ثـــم تخصص بعد ذلك فى علم الايتنولوجيا والتحق بالمـــركز الاهلى للبحث العلمـــى بباريس ، الـــذي ساعده فيما بعد على السفر الى الاوراس من أجـل الدرس والبحث· فتعلم العربية واللهجة البربرية المحلية واقام بقرية ثنية العبد قرب مدينة أريس واشتغل هناك عدة سنوات فتعرف على السكان وكان له بعض الاصدقاء من قبيلة أولاد عبدى (3) ·

وقبل اندلاع الثورة بقليل كان يقيم بالقرية المذكورة آنفا الا أن صديقه معلم القرآن والمسؤول الادارى (القائد) قد أشارا عليه أن يلتحق بمدينة اريس لانهما لم يطمئنا على وجوده فى القرية · فعمل بالنصيحة بدون أن يعلم بالحقيقة وبعد وصوله الى اريس انتشرت أخبار الثورة وسمـــع بأن رجالا مسلحين قد هاجموا حافلة « مشونش » وقتلـــوا فيها « القائد » وجرح أثناء الهجوم معلم فرنسي وزوجته · وعلم جان سرفيه بأن هذين الاخيرين قد تركا على الطريق · وبما انه كان يعرف المنطقة معرفة جيدة اقترح على حاكم أريس أن يذهب لانقـــاذ الجريحين فأجابه الحاكم الى ذلك ، وتسلح (سرفيه) وبعض أعوانه وأسرعوا الى مكان الحادث راكبين سيارة عسكرية (4) · وهكذا شارك العالم لاول وهلة فى محاربة الثوار ولم يتردد لحظة فى ذلك ·

وقد استعان فى هذه العملية بأصدقاء له من قبيلة أولاد عبدى لانه كان يثق بهم مع انهم لــم يدرك خطورة الوضع ـ فى بداية الامر ـ الا سائق السيارة العسكرية الذى حاول أن يمتنع عـــن نقل المعلم الفرنسى وزوجته · فهدده سرفيه بسلاحه وأرغمه على مواصلة السير (5) ·

وفى برج أريس بالذات تولى سرفيه قيادة الدفاع وأصبح ضابطا يأمر بأوامره (6) · وعندما لاحظ أن الحاكم قد سلح الاوروبيين المدنيين دون الاهالى قرر سرفيه أن يجمع بينهم فى فرقة مسلحة واحدة ولكنه لم يستطع تجنيد الجزائريين الا بمشقة · فاستعمل خبرته « العلمية » لتحقيق غرضـــه وتذكر الخلاف القديم القائم بين قبيلتين أولاد عبدى والتوابة (7) · واعتمد على سياسة التفرقة · فاقنع « قائد » القبيلة الاولى وأفرادا منها بأن الثوار كلهم من القبيلة الثانية ولهذا كان لابد مـــن

(3) كتاب حرب الجزائر ، ج 2 ، ص 282 ·
(4) المصدر السابق ض 345 ·
(5) المصدر السابق ص 346 ·
(6) المصدر السابق ص 348 ·
7) المصدر السابق ص 360 ـ كان الشهيد مصطفى بن بوالعيد ينتمى الى التوابة ·

محاربة هؤلاء « الصعاليك » ! وهكذا شكل سرفيه الفرقة الاولى من « الحركية » المرتزقة ودربهم على محاربة اخوانهم (8) ·

غير أن النجاح لم يكتب لهذه السياسة الاستعمارية التى لم تخش أن تفرق المواطنين لصالحها فبمجرد ما اطلع عليها قائد جيش التحرير المرحوممصطفى بن بوالعيد اتخذ الاجراءات اللازمة لاخفاقها · وكانت النتيجة تفكك الفرقة وفرار « أصدقاء » سرفيه من أولاد عبدى الذين استجابوا لواجبهم الوطنى · فباءت خطة « العالم » سرفيه بالفشل الذريع ·

والغريب فى الامر أن هذا العالم الخبير فى شؤون الاوراس لم يقتنع اطلاقا بان الثورة المسلحة كانت من صنع الجزائريين فقط وانما ذهب الى ان دولة أجنبية معادية لفرنسا دبرتها وسيرتها كما دلت على ذلك اذاعة « صوت العرب » بالقاهرة ! (9) ولم يخطر على باله فى يوم من الايام أن المواطنين يقدرون على اعداد مقاومة مسلحة وعلى قيادتها مع أن الصحافة الاستعمارية نشرت أخبار العمليات التى قام بها الثوار فى القطر باكمله غربا وشرقا وبينت هذه الصحافة أن الخطة نفذت فى وقت واحد بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة ليلا ، الامر الذى لم يترك مجالا للشك فى انها مسيرة تسييرا محكما ·

وكانت جبهة التحرير الوطنى قد وزعت تصريحها التاريخى وشرحت فيه أسباب الثورة المسلحة واهدافها · وهكذا اتضح للجميع وخاصةللحكام الفرنسيين أن الحركة ليست مقتصرة على جهة معينة كما كان شان الثورات السابقة التى بقيت معزولة فى ناحية من انحاء القطر فاستطاع النظام الاستعمارى القضاء عليها بعد مدة قصيرة·

ولكن جان سرفيه أصر على رأيه وفى بداية سنة 1955 نشر مقالات فى جريدة « لوموند » البارسية تناول فيها الوضع فى الاوراس وفسر الثورة المسلحة بانها وليدة التعصب الدينى الذى زرعه العلماء المسلمون فى الاهالى ! فكانت محاولة سرفيه فاشلة لان الاحداث فندت هذا التفسير الغريب الذى يدل على ضعف رأي صاحبه رغم خبرته فى علم الاثنولوجيا ومعرفته بالاوراس وسكانها ··· وبرزت الحقيقة التى لم يكن أحد لينكرها مهما كانت قدرته على التلبيس والتزييف · واعترف جميع الناس بان الثورة كانت من صميم الواقع الجزائرى تحت قيادة جبهة التحرير وجيش التحرير الوطنى · ففرضت نفسها على العدو والصديق وفى النهاية كان النصر حليفها ·

(8) المصدر السابق ص 368 ·

(9) المصدر السابق ص 369 ·

الجانب الروحي لثورة فاتح نوفمبر

يوسف يعلاوي
عضو
الامانة الوطنية للمجاهدين

اذا كان بعض الكتاب او بعض السياسيين يتحاشون في دراساتهم وابحاثهم ـ ذكر كلمة الاسلام ـ كعنصر من عناصر الشخصية الجزائرية ويأنفون من اسناد عوامل انتصار الثورة الى شدة تمسك الشعب بمبادئ الاسلام وتفانيه في تطبيق تعاليمه تطبيقا عمليا ـ فان المجاهدين المخلصين لجهادهم والثائرين المخلصين لثورتهم ـ يعتزون كل الاعتزاز بهذه النسبة للعقيدة ـ والشريعة الاسلاميتين ، ويؤكدون ان الثورة التحريرية لم تنتصر بدهاء الثوار او بثقافتهم او بعددهم وعدتهم فقط ، ولكنها انتصرت ـ زيادة على الوحدة الوطنية

والاساليب التنظيمية والمناخ السليم ـ انتصرت بارتفاع معنويات اغلب المجاهدين والمنخرطين في صفوف الثورة ، والجماهير الشعبية المؤمنين كلهم بالمبدا القائل : « ما ترك قوم الجهاد الا ذلوا » وبالحكمة القائلة : « ما ضاع حق وراءه طالب » وبالنصوص القرآنية التي منها : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » « واوفوا بعهدي أوف بعهدكم » « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم » (الآية) .

منطلق الثورة وارضيتها : نعم لقد كان المنطلق الاساسي للثورة روحيا بالدرجة الاولى وسياسيا بالدرجة الثانية ، واجتماعيا في الاخيرة ، لذا كان منطلقا ذات ارضية صحيحة واهداف نبيلة ، فالمجاهد عندما يهم بالقيام باعماله اليومية الخطيرة يملأ قلبه عزيمة وايمانا بالله وبعدالة قضيته ، ثم ينطلق متوكلا على الله لا يثنيه عن تحقيق هدفه أي عارض مهما كان خطيرا ولا يفل من عزيمته أي عامل من عوامل الفشل والتثبيط مهما كان مصدره وكيفما كان نوعه ، حتى يحقق ما كان مسطرا في برنامجه اليومي أو الاسبوعي أو الشهري ، وهو في ذلك يواجه كل الحوادث الطارئة المتوقعة برباطة جأش وبالحكمة والايمان .

وكلمتي في هذه المناسبة العظيمة ـ مناسبة الذكرى العشرين لاندلاع ثورتنا التحريرية ، ثورة المبادىء الانسانية من حرية وعدالة وسلام وغيرها ـ كلمتنا هذه ليس المقصود منها الاسف على موقف أولئك الخجلين من بعض ركائز ثورتهم ومن انفسهم احيانا ، وليس الغرض مناقشتهم على خجلهم ذاك وسلبيتهم ، ولكن الذي يهمنا في هذه الفرصة الثمينة هو ابراز العناصر الحقيقية الدافعة للثورة ، وابراز بعض الطاقات الروحية المتمكنة في نفوس ابناء الشعب المجاهدين ولولا تلك الطاقات الروحية لما انبلج في افق الجزائر نور النصر العظيم ، ولا اشرقت شمس الحرية على ربوعها ، فاعمت كل خفافيش الاستعمار ، ولا عرفت الثورة طريقها المستقيم نحو تحقيق الاهداف ونيل الاوطار .

بمن انطلقت هذه الثورة ؟ لقد بدأت ثورة نوفمبر ـ كما هو معروف لدى الخاص والعام ـ بطائفة قليلة مؤمنة، قليلة في عددها وفي عدتها، ولكنها كثيرة باعتدادها واستعدادها النفسي والروحي، اذ تحركت بارادة الله وبعونه، وسارت متمثلة بقوله تعالى : « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين** » فكان اسلوب البداية عنيفا في مظهره ، شديدا في تأثيره على العدو واعوانه ، اسلوب تقتضيه الحكمة الثورية وطبيعة الاستعمار والوضع السائد في البلاد لم يفاجأ

الاستعمار باندلاع الثورة فقط ، ولكن دهشتـهوهلع اعوانه واذنابه كان فى الكيفية التى وقع بها تفجيرها ، والمنهج الـذى اختاره صانعوهـا ومفجروها ، منهج لم يكن معروفا لدى الاستعمار منذ وطئت اقدامه القذرة أرض الجزائـر ولا هومعتاد فى الثورات المتعددة السابقة حيث لم يكن ليصدق ان أى مخطط مهما كان محكما يستطيعان يزعزع كيانه الذى يزعم انه اقوى من كل كيان ولم يساوره شك فى صحة بنائه الذى يتوهم انهاعظم من كل بناء ، لكن امورا كثيرة جعلته بعد ذلك يدرك الفرق الكبير والبون الشاسع بـينثورات الماضى وثورة اليوم .

من عناصر نجاح الثورة : ذلك ان ثورة نوفمبر العارمة قد امتازت بعناصر هامة اهلتها للنجاح منهـا :

1 ـ ان مخططها كان محكما قبل ظهورها للوجود .

2 ـ انه لم يكشف العدو سر ذلك المخطط وان بذل كل مجهوداته .

3 ـ صدمة المفاجأة العجيبة التى لم تكن متوقعة ...

4 ـ اتخاذ الثورة طابع الشمول والانتشار .

5 ـ احترام الوقت المحدد لاطلاق النار فىاكثر من سبعين نقطة فى كافة انحاء الوطن .

6 ـ وحدة القيادة الجماعية ، ونبذ روح التفرقة السياسية وزوح السلطة الفردية ، والاعلان عن ان الثورة تحت لواء وقيادة جبهة التحريـرالوطنى ، وهى تهدف الى تحرير البلاد من كـل انواع السيطرة الاجنبية ، وتكوين مجتمع جزائرىيسترجع اصالته وكل مقومات شخصيته .

7 ـ التزام الصراحة ورفع كل التباس منشانه ان ينشر الغموض ، وذلك لاقناع الشعب والمناضلين بنشر برنامج محدد محكم واضح بعد اشعال الشرارة الاولى بوقت قصير ، وهو البيان الاول الذى اصدرته الثورة ثم الشروع فى تطبيقهوالسهر على تنفيذ ما جاء فيه .

واريد فى هذه الكلمة ان اطرق هذا الجانبالروحى الهام من جوانب الثورة الكثيرة المتنوعة التى لا يستطيع كاتب أو كتاب مهما كانت كفاءتهموكيفما كانت تضحيتهم ان يحيطوا بكل ما لثورة نوفمبر من اسرار وكنوز ، واحداث وعبر . لذافانى لا ادعى الاحاطة بجميع عناصر الموضوع لانه

ـ على اهميته ـ يحتاج الى مزيد من الوقت ، والى مزيد من المناسبات ، والى توفر الوثائق التى لها علاقة بالموضوع ، وهى طبعا موجودة لدى بعض المجاهدين الاحيا. ولدى ابناء الشعب المتشبثين بكل شيء له صلة بالثورة على العموم وبموضوعنا على الخصوص ، وللحصول على تلك الوثائق ينبغى الاتصال باصحابها والبحث عنهم اينما كانوا ٠

ان الشعب الجزائرى ـ زيادة على فرحــه بميلاد ثورة فى بلاده ـ كان فرحه بما جــاء فى البيان الاول للثورة والذى اعلن عن اتجاهــه الاسلامى والعربى ـ كان فرحه بذلك اشد واعمق ، مما جعله يثق بالثورة ويؤمن بها ايمانا قويـا ،كما يؤمن ان تحرير الوطن وانتصار المعركة الفاصلة لن يتحقق الا بتغيير المفاهيم الاستعمارية الخاطئة وتغيير ما حاول غرسه فى نفوس الجزائريين من انحراف في الاخلاق وفى العقيدة ، وانحراف في التفكير والسياسة ٠٠ الخ وذلك ما يؤدى الى احداث ثورة شاملة عامة : سياسيا وفكريا واخلاقيــا ،عملا بقوله تعالى : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » فكانت ثــورة ضامنــة لمبدأ الوحدة الوطنية والسياسية لانها تحت لـــواء جبهــة التحرير الوطنى ، وكانت ثــورة مؤكــدة لوحدة الاتجاه الروحى ، لانهــا تحمــل شعــار الجهاد والمجاهدين فأظهر الشعب ثقتــه المطلقــة فى ثــواره ، واستبشر بالخلاص مــن القيــود والاستغلال ، بعد تحققه من سلامــة الاتجــاه والاهداف ونبل الاختيارات ، لان بيان الثــورة الاول كان صريحا فى بسطه لبرنامــج العمــل والخطوط العريضة لسياسة الثورة ، واقراره مبدأ الرجوع الى الاصل ، واحترامه لشعائر الاسلام الصحيحة ومقدساته مع محاولة احيائه للتراث الوطنى دينا ولغة وتاريخا ٠

وقد بذل الاستعمار كل المحاولات طيلة جثومه على الوطن فى سبيل تمزيق شخصية الجزائرى أو تذويبها بل اقتلاعها من نفوس المواطنــين ،لكن الشعب لم يرض ابدا بمســخ شخصيتــه والارتداد عن دينه ولغته بل ابى الا أن يحتفظ بهمامهما كانت التضحيات جسيمــة وكيفما كانــت الصعوبات التى يتعرض لها فى حياته الاجتماعية ٠

تحديات الشعب هى سلاحه : ولا يعــد خروجا عن الموضوع ـ اذا استعرضــت بعــض اساليب التحديات التى كان يستعملها الآبـا والامهات المسلمون للحفاظ على اصالة ابنائهــم وبناتهم ، خوفا عليهم من التأثر بالاغــراءات والترغيبات التى كان الاستعمار ـ بطوابير من المبشرين ومن الفيالق العسكرية ومن قوافــل المثقفين من ابنائه ـ كان يحاول بالوسائل السباقة

وبغيرها ان يصرف ابناء الشعب الجزائرى عـن عقيدتهم ولغتهم يبعدهم عن واقعهم ، وينسيهـم تاريخهم البطولى ، لكن الشعب ادرك ان العـدوالذى احتل بلاده بالقوة لا يرجى منه خـير ، ولا ينتظر منه الا تخريب كيانهم وتقويض اركـان سيادتهم وتشتيت شملهم ، وتفتيت الروابط التى تجمعهم فهو وان فقد سيادته السياسية وسلطتهالموجهة واسلحته المادية ، فمازال يحتفظ بكرامته وسلطته المعنوية واسلحته الروحية التى يجـباستعمالها فى كفاحه المستمر وجهاده الذى لا يعرف التوقف ولا الملل والتخاذل ، عملا بقوله صلى اللهعليه وسلم : « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان** » وكان ابرز سلاح استعمله هو سلاح المقاطعة وسلاح النفور ، مقاطعة كل ما يدعو اليه الاستعمار ، والنفور منكل مظاهره الاغرائية ، فكان الاب المسلم والام المسلمة يمنعانابناءهما من تعلم اللغة الفرنسية معتقدين ان ذلك طريق الى الفكر والالحاد ، وقد أدى بهم هـذاالشعور الى مغادرة الوطن ، وخاصة بعد صدور قانون اجبارية التعليم بالمدارس الرسمية ، وكانوايمنعون ابناءهم من اللباس الاوروبى ، لانهم يرون فى ذلك تشبها بعادات الاعداء ، كما يمنعونهم منالتلفظ بالفاظ من لغتهم او الميل الى عادة مـن عاداتهم ٠

وكم كان غضب المسلمين شديدا وحزنهـمعظيما حين اصدر الاستعمار قرار التجنيد الاجبارى على ابناء الجزائر فى اوائل هذا القرن ، وكذلـكحين فتح ابواب الهجرة الى فرنسا فى وجه العمال الجزائريين ، فكانت الاسرة المسلمة حين يفارقهـاابنها ذاهبا الى التجنيد او الى العمل بفرنسا كانت الاسرة تقيم مأتما لمدة طويلة حيث كان يدعو ذلكالى قدوم الاقارب والجيران لتقديم التعازى ، وادخال نوع من الاطمئنان على الاسرة والتخفيف عليهـامن حزنها الشديد وهذا بعد عجزهم عن منـع ابنائهم الالتحاق بصفوفجيش العدو وبعد عجزهمعن اقناع ابنائهم عن تحقيق رغباتهم فى الذهـاب الى فرنسا ، فهم يفضلون بقاءهم معهم على الفقـروشظف العيش خير لهم من ان يفارقوهم ليعملوا بأجور مرتفعة تجعلهم فى استطاعتهم ان يرفهوا عن انفسهم وعن اسرهم ، لكن خوف الاسرة على ولدها من ان ينهمك فى المغريات فتذوب شخصيتهويفقد شرفه ودينه ، وذلك وحده هو الذى جعلها تعيش فى اسف وحزن وقلق ٠

نعم ان شعبا يتملكه هذا الشعور ويعيشحياته بهذه المواقف الشجاعة لهو شعب عظيم فى شخصيته ، وعظيم فى ثباته ، وصلابته ، والمحافظةعلى كرامته ، والاعتزاز باصالته ، وعادات اجداده

وانه لاحل لان يستأنف معركته الطويلة مع الاستعمار ، على ان تكون معركة اول نوفمبر هي المعركة الاخيرة التي يجب ان يوفر لها شروط النجاح حتى يضمن لها الصمود والهيبة ثم الغلبة والنصر .

طريق الثورة ومنطقها السليم : وهكذا كانت ارادة ثورة اول نوفمبر ، وبهذا الشعور الديني والوطني سارت قوافلها في طريقها الثوري المستقيم ، تجاهد بايمان ، وثقة ، لتكون كلمة الحق هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ، فكانت كلمة « السر » او « الرمز » كما يطلق عليها آنئذ والتي اعطيت لاول تحرك في الساعة الاولى ــ كانت الكلمة هي : (خالد، عقبة) كدليل آخر على ان الثورة لا تحمل غير اتجاه سليم معين ، وعقيدة معروفة واضحة ، ومنهاج قويم ، هو اتجاه وعقيدة ومنهاج خالد بن الوليد وعقبة بن نافع رضى الله عنهما في شجاعتهما وتمسكهما بالمبادىء الحقة ، وايمانهما بالاهداف المثلى ، والاختيارات العليا ، والتزامهما بالعمل حسب التعليمات ، والوصايا التي جاء بها ولا ادل على ذلك من تعليمات القيادة العليا لجيش التحرير الوطني التي تاتي في غالبها بما تاتي به من حيث المجاهدين على المحافظة على أداء الصلاة واحترام شعائر الاسلام وآدابه ، وحث الشعب كذلك على الرجوع الى الفضيلة والبعد كل البعد عن الرذيلة ، حتى ان المخالفة في الامور الاخلاقية الخطيرة والتي تصدر من الشعب أو من افراد جيش التحرير يعتبر اصحابها كالخونة تعاقبهم الثورة بنفس عقوبة الخيانة السياسية التي هي بطبيعة الحال : الاعدام فيما اذا اثبت البحث جريمة المتهم ولولا الخوف من الاطالة لا ستعرضت بعض النماذج من تلك الحوادث الجديرة بالتسجيل والتدوين ، ولعل الفرصة تسنح للعمل على جمعها وابرازها لتكون عبرة للذين يزعمون ان انتصار الثورة التحريرية انما تحقق بتوفر العوامل السياسية والعسكرية فقط ، وهذا من الجهل بطبيعة العمران وبتاريخ الامم والاقوام في عزها وذلها وفي حياتها وقوتها ، وكيف يدرك هذا من لم يتدبر معنى قوله تعالى : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » زيادة على جهل أو تجاهل لاستراتيجية وعناصر الثورة الاساسية .

سلوك المجاهدين وتعاطف الشعب معهم : على ان الذي يستعرض حياة اغلب المجاهدين في الجبال او يسال عن اعمالهم واقوالهم ومعاملاتهم مع بعضهم او مع الشعب ــ يدرك السر الذي جعلهم يكسبون ثقة المواطنين وعطفهم ، ويتمتعون بالمهابة والاحترام والتأييد والطاعة فيما يأمرون به لمصلحة الثورة . ولنستعرض نموذجا واحدا من المجاهدين الاحرار ، ولنختر في هذه المناسبة التاريخية

ـ مناسبة الذكرى العشرين لثورة المليون والنصف مليون شهيد ـ نختار احد المجاهدين المدعـو : الشايب موسى الذى وقف بين افراد فوجه الصغير المحاصر من طرف قوات العدو العديدة فى معركة « عين الحيان » بجبل بوعريف قرب (باتنة) يوم 3 مارس 1955 وقف هذا البطل يطلق النار من بندقية صيد ، ويرفع صوته بكلمة (الله اكبر) وقد شوهد جنود العدو من المظليين الذين لم يكن بينهم وبينه الا مسافة قصيرة جدا شوهد هؤلاء ينزعجون ويترددون ثم يتوقفون ، ظنا منهـم ان المجاهدين عددهم كثير، وقد امر (الشايب موسى) بلزوم الصمت لان المقام يقتضى ذلك ، ولان المعركة حاسمة ، خاصة انها وقعت فى مكان غير صالح وبعدد قليل لا يتجاوز العشرة ببنادق الصيـد والمسدسات الصغيرة ، فاجاب ـ رحمه الله ـ ارغب اليوم فقط فى الاستشهاد ، وارجو ان تكون كلمة الله العليا شاهدة على اخلاصى فى جهادى ، وقد كان له ما اراد فنال شرف الشهادة مع ثلاثة من رفاقه ، ونجا الباقون بمعجزة بعد انتصار الفئة القليلة المؤمنة ، وهزيمة جيوش العدو الكثيرة .

طابع الثورة وشعاراتها لهـا دلالاتهـا :

وباختصار ، حيث لا يمكن التطويل ، فان طابع ثورة أول نوفمبر يتضح أولا فى (كلمات السر) المتداولة بين الثوار ، والتى لم تخرج عن مدلولات : الاسـلام الوطن ، الثورة ، العلم وغالبا ما تستعمل الكلمات الآتية كرموز للاتصال والتفاهـم : الديـن والعمـل ، الحـق العدل ، الله اكبر ، الله محمد ، الاسلام ديننا ، العربية لغتنا ، النظام والعمل ، خالد عقبة ، الجهاد والاخلاص محمد على، العلم والعمل، السيف والقلم الحرب والنصر ، وغيرها من الكلمات الاخرى ، كما يبرز طابعها فى افتتاح اغلب الجلسات التى تعقد باسم الله والحمد لله ، ثم باسـم جيش وجبهـة التحرير ، ويتضح أيضا طابعها فى انشاء مصلحة قضائية دينية تابعة لجيش التحرير فى اغلـب الولايات وعلى كل المستويات تحمـل تارة اسـم مصلحة الاوقاف والحبس وتارة مصلحة القضاء ، وهى تقوم بحل المشاكل الدينية والاجتماعية فى اوساط الشعب ، وبتنظيم التعليم العربى ورقابته وبالوعظ والارشاد والتوجيه الثورى وهنا ندرك منطلق الثورة الاساسى ووازع الثـوار الحقيقى وعامل الانتصار الاول والآثار الحسنة التى تركها سلـوك الثـورة والثـوار فى نفوس المواطنين تلـك الآثـار التى صـيرت اغلـب الشعـب يعيشون طيلة سبع سنوات ونصف وحدة متماسكة متعاونين متآخين ومتراحمين اعفاء نزهاء سائرين وراء ثورتهم وفى حمايـة ابنائهـم المجاهدين ،

يفخرون بجيش وجبهة التحرير وثورتهم المظفرة ،ويعملون ليل نهار في سبيل انجاحها لدفع شأن الوطن بعزيمة فائقة وصبـــر ومصابرة وبخطى ثابتة .

بناء مجتمع بتعاون الثـوار والشعـــب :

وفي الوقت نفسه يسعى الشعب كل السعي على ضوء تعليمات وتوجيهات الجيش ويتعاون مـــع مصالحه العسكرية والمدنية في بناء مجتمع مسلم عربي ، ومحاربة الامراض التي غرسها الاستعمار في نفوس ابنائه من جهل وفقر وفساد خلق والحاد وفرنسة وعنصرية ، ومركبات نقص ، لقد شجـع جيش التحرير التعليم العربي في المدارس الحرة وفي الكتاتيب القرآنية الموجودة ، واسس مدارس جديدة حتى في المناطق المحرمة ، وجعل التعليم مجانا ، وقرر مبدأ العلاج المجاني ، فالمعلمون وائمة المساجد لاسيما بالارياف يتقاضون اجورهم من الثورة ، وممرض وطبيب الجيش يعالجان الجنـود والشعب معا ، ويوزعان الادوية عليهم مجانا ،ولعل الفرصة تسنح ايضا لتخصيص دراسات حول هذه المواضيع الهامة التي تتطلب مزيدا من الشرح والايضاح وبالاضافة لذلـــك فان الثورة - رغم احتياجاتها المادية ورغم صعوباتها - فقد قامت بتموين الشعب الذي بذل الاستعمار مجهودا كبيرا لقطع المسؤولية والمواد الغذائية عنه وخاصة في الارياف وصدرت اوامر تقضي بمساعدة كل محتاج زيادة على مساعدة عائـلات المجاهديـــن والمساجين ، وكـــم من مركز للجيش يشتـــرك المجاهدون والشعب في الاكل به ، او اخذ المواد الغذائية ، وكم من قناطر واطنـــان من الملابس تشترى تارة او تهدى او يتصدق بها - توزع على فقراء الشعب ، وهذا كله ان دل على شيء فانما يدل دلالة واضحة على مدى عناية الثورة بالجانب الروحي والاجتماعي، واعتبار هذا الجانب من اهم الجوانب التي تخلق في المجتمع الجزائري تغييرا جذريا في المفاهيم والسلوك والاتجاه،وتجعله على الدوام جندا مخلصا نزيها ملتزما لا يحوم حوله ملل وفشـــل ولا ضعف أو خذلان لانه يؤمن بمبادئه النضالية ومقتنع بان الانتصار الحقيقي لا يكون بوفرة العدد والعدة فحسب بل يكون بصفاء الضمير واخلاص النية وبذل المزيد من التضحيـــة والرجـــوع الى الاصالة .

لنحاسب انفسنا ولنكن يقظين مخلصين ونحن اليوم نحتفل بالذكرى العشرين لانـــدلاع ثـورة التحرير - وقد استقلت بلادنا منذ ثلاث عشرة سنة ، واطلقت شعارات (الثورة مستمرة ، الجهاد ليس له نهاية - من الجهاد الاصغـر الى الجهـــاد الاكبر - الثورة من الشعب والى الشعب) فهـــل

بقينا أوفياء لمبادىء الثــورة وللجهــاد المقدس ،وللعهود المعطاة للشهداء الابرار وللشعب المجاهد ؟ فليسأل كل مواطن نفسه هذا السؤال ولينظر الى اى مدى بلغ وفاؤه للثورة ومدى تحقيق الآمال العريضة التى كنا نامل تحقيقها ؟ وعلى الاجابة عن هذا السؤال يترتب ما يجب عمله وما يلزم تغييره او تصحيحه فى مسيرتنا الثورية الطويلة نحـو تحقيق الاهداف ولنتذكر قبل ذلك وبعده قولـــه تعالى : « عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون » ·



طرح القضية الجزائرية

على المسرح الدولي

علي بلحاتم

ان استخلاص العبرة من الماضي والاستعداد للمستقبل كانا من أهم الاسباب التي جعلت الجزائر تنتصر هذه المرة على عدو استطاع ان يخمد قبل ثورة نوفمبر ثورات عديدة آخرها حركة ماي 1945 . ذلك ان طرح القضية الجزائرية على الصعيد الدولي لم يكن وليد الصدفة ولا نتيجة توافق ظروف معينة ولكنه كان بارادة المسؤولين عن الثورة الجزائرية الذين عزموا منذ الساعة الاولى للثورة على خوض المعركة على جبهتين وفي آن واحد : الجبهة الداخلية والجبهة الخارجية حتى تتفادى البلاد مغبة السقوط في حلقة الانعزال ، الذي يعد بلا منازع اخطر سلاح ظل الاستعمار يستعمله فيتقن استعماله طول تاريخه الحافل بالمآسي .

ومتى ادركنا هذه الحقيقة سهل علينا ان ندرك تعنت الاستعمار فى التصدى لنشـــاط الثورة فى الخارج،وكيف ان فرنسا راحت تحاربه باقصى ما يمكن من الشدة والعنف الى درجة انها اعلنت الحرب على دول اخرى املا فى الحد من سعة النشاط الدبلوماسى والسياسى الذى قامت بـه جبهة التحرير الوطنى على الصعيد العالمى • ومن خلال العمل الدبلوماسى الذى كان محوره تسجيل او عدم تسجيل القضية الجزائرية فى الـــدورة العاشرة للجمعية العامة للامم المتحدة ادرك العالم سعة المعركة واحتدامها ، بحيث كانت هـــذه المواجهة الاولى قرينة قاطعة على خطورة النتائـج التى ستترتب على هذه القضية على الفـور او فى السنوات اللاحقة •

وقد كان كل من الطرفين ، فى غمرة ذلك الصراع ، يخشى موقف المجموعة الدولية لاسباب تختلف باختلاف وجهة نظر كل طرف • وحـتى يتيسر لنا ان نقف على سر السلاح الذى كـــان يستعمله كل من الطرفين ، جبهة التحرير الوطنى وفرنسا ، فلا بد لنا من التعويض للسياستــين المتعارضتين المطروحتين على بساط الامم المتحدة•

اولا : صواب سياسة جبهة التحرير الوطنى

ان كل حركة ثورية تهدف ، منذ نشأتها الى توفير الظروف المناسبة سواء على الصعيـــد الداخلى أو الصعيد الخارجى لتحقيق ما تسعى اليه • ومما لا شك فيه ان القيادة الثورية قـــد فكرت طويلا ، قبل تفجير ثورة أول نوفمبر 1954فى الاوضاع العامة التى كانت قائمة فى الجزائر وفى سياق الاحداث الدولية وتوازن قوى عالمنا الحاضر الذى لم يعد يخضع لمعاهدة 1856 أو معاهدة 1899 أو غيرها من معاهدات القرن التاسع عشر التى ظلت تشكل مبادىء القانون الدولى العـام كما تصوره المشرعون فى الدول الاستعماريـة الكبرى •

ذلك ما نستخلصه من البيان الاول للثورة الجزائرية الموجه الى « الشعب الجزائرى والمناضلين فى سبيل القضية الجزائرية » الذى تضمن مبدأين أساسيين هما : « تدويل القضية الجزائرية وتأييد الحلفاء الطبيعيين » لهذه القضية • لماذا جاء تدويل القضية الجزائرية مقرونا باختيـــار الاشخاص الذين يدافعون عنها فى المحافل الدولية ؟ اذا كان الجزائريون قد استخلصوا كل العبر من مقاومة الشعوب وادركوا أسباب الثـورات السابقـــة(المقرانى بنى ورتلان ، الزعاتشة ، حركة 1945 الخ •••) فوفروا كل اسباب النجاح فى الداخل فانهم لم يسقطوا من حسبانهم الاخطار والتبعات

المحتملة التى قد يؤدى اليها تدويل القضيــةالجزائرية • فكان يكفيهم ما آلت اليه القضيــة الكورية التى لا تزال تعانى من ويلات التدخــلالاجنبى تحت ستار الامم المتحدة •

هكذا رسمت جبهة التحرير الوطنى سيرتهامنذ انطلاقة الرصاصة الاولى • فكان عليها ان لا تضع أية فرصة تسنح لها لعرض وجهة نظرهافى المحافل الدولية ودحض الحجــج القانونيــة المزعومة التى يختفى وراءها الاستعمار لتبريرأعماله فى الجزائر وتعزيز موقفه الدولى • وقــد كان مؤتمر باندونغ الذى انعقد فى شهر أفريل1955 ، أى بعد اشهر قلائل من اندلاع الثــورة ، أول فرصة لطرح القضية الجزائرية على المسرحالدولى واثارة هِمم الشعوب المشاركة فى هــذا المؤتمر والتى كانت فى معظمها حديثة العهـــدبالاستقلال • ومن ابرز ما يسجله الباحث فى هذا الصدد هو ان نشاط وفد جبهة التحريــرالوطنى ، الذى شارك فى المؤتمر بصفة ملاحظ ، كان على قدر ضخامة وتعقيد القضية التى كلفبالدفاع عنها • فقد كان على الوفد الجزائرى ، شأنه شأن المجاهد فى جبال الاوراس أو جرجرةأن يصمد ويستميت وان يقنــع المشاركين فى المؤتمر فردا فردا بعدالة القضية التىيدافع عنها•وهكذا لم تذهب جهود وفد جبهة التحرير الوطنى سدى وانما كللت بنجاح كانت له ابعاد دوليــةمعتبرة وكان بداية صراع لا هوادة فيه بين جبهة التحرير الوطنى وفرنسا على الصعيد الدولى •لقد صادق مؤتمر باندونغ ، بخصوص كفـــاح شعوب المغرب العربى ، على لائحة جاء فيهـــابالخصوص : « ان مؤتمر الدول الافرو ـ آسيوية يؤيد حقوق شعوب الجزائر والمغـــرب الاقصىوتونس فى تقرير مصــــيرها بنفسها ونيــــل استقلالها » • وعلاوة على هذا التأييد الذى أثارحفيظة الاوساط الاستعمارية ، فقد اشارت هذه اللائحة الى ان الدول المساهمة فى المؤتمر « تلتزمبتقديم مساعدتها المحسوسة الى الشعوب المكافحة من أجل استقلالها » (1) •

وبالفعل فقد تجلت « المساعدة المحسوسة »التى وعد بها المؤتمر فى الخطاب الذى تسلمــه الامين العام من اربعة عشرة دولة افريقية ـ آسيوية ، بعد ثلاثة أشهر من انعقاد المؤتمــــر ، أى بتاريخ 26 يوليو 1955 تطالبه فيه بادراج القضيةالجزائرية فى جدول أعمــــال الـــدورة العاشرة للجمعية العامة •

---

(1) المجاهد لسان حال الثورة الجزائرية رقم 15 أول جانفى 1958 •

أول تأييد للقضية الجزائرية على الصعيد الدولي :

مذكرة الاربعة عشرة دولة او الاسس الرئيسية لتدويل القضية الجزائرية .

ان المادة 20 من النظام الداخلي للجمعيــــة العامة للامم المتحدة تنص على ان « كل قضيــة تعرض على التسجيل في جدول الاعمال يجــب أن تكون مصحوبة بمذكرة أيضاحية ، وفي حدود الامكان ، بوثائق رئيسية أو مشروع قرار » .وبالفعل فقد كان طلب ادراج القضية الجزائرية في جدول اعمال الجمعية العامة مصحوبا بمذكرة أيضاحية . وقد كانت هذه المذكرة ، التي تحتمل ان تكون مبادىء جبهة التحرير الوطني الخارجية وهذه المبادىء هي :

1) **حق الشعوب في تقرير مصيرها .**

مما لا نزاع فيه على الاطلاق ان الحقوق الدولية على وجه العموم لم يكن لها ، منذ بدايـــة القرن العشرين حتى الآن ما كان لحق الشعـــوب في تقرير مصيرها من ترداد وتأكيد . صحيــح ان هذا الحق ، ككل الحقوق الهامة التي تتعارض بشأنها المصالح ، لم يسلم من التأويلات المتناقضة بل كثيرا ما كان سببا في النزاعات المسلحـــة ،ولكن الشيء الاكيد هو ان اثباته في ميثاق الامم المتحدة والغلبة التي أحرزها منذ نهاية الحـرب العالمية الثانية وتزايد الدول التي خرجت مـن قبضة الاستعمار كل ذلك جعل من هذا الحـــق واقعا لا يقبل الجدال .

ان فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرها ليست جديدة في حد ذاتها ، فقد نشأت مـــع المحاولات الاوربية في تسوية مشاكل القوميات عقب الحرب الثلاثينية بين الدول الكاثوليكيـــة والدول البروتيستانية في منتصف القرن السابع عشر . غير ان التغييرات الجذرية التي حـدثت بعد الحرب العالمية الثانية قد اكسبته قوة ومناعة لم يعرفهما من ذي قبل وخاصة بعد ان تبنته الامم المتحدة في ميثاقها كمبدأ من مبادئها الاساسية كما ورد ذلك في المادة الاولى من الميثاق .

اذن ، ليس من الغريب ان نرى الدول التي تكفلت بعرض القضية الجزائرية على منبر الامـم المتحدة تلح على حق الشعوب في تقرير مصيرهـــا وتصدر به خطابها الى الامين العام . فقد كـان استقلال عدة شعوب في العشر سنـــوات من حياة المنظمة الدولية من احد العوامل المشجعـة التي دفعت انصار الثورة الجزائرية الى ابراز حق الشعوب في تقرير المصير في المذكرة الايضاحية ومناشدة المنظمة الاممية ان تثبت امام الضغوط وان تقبل تسجيل القضية الجزائرية في جدول

اعمالها تطبيقا لمبادئها الاساسية ولنص القراررقم 637 الذى اصدرته الجمعية العامة بشـــأن حق تقرير المصير وممارسة الحريات الاساسية ·

وبالاضافة الى هذا المبدأ الاول من المبادىءالتى تعتمد عليها المذكرة الآنفة الذكر ، نلاحـظ ان محررى هذه المذكرة قد حذروا المنظمة الدوليةمن مغبة « رفض حق الشعوب فى تقرير مصيرها او تأخير ممارسة هذا الحق بدون وجه مشـروع،مما يشكل مصدرا للمنازعات الدولية » · ولعـل هذا الانذار اهم عنصر فى هذا النداء الموجه الـىمنظمة الامم المتحدة باعتبار ان سبب وجـودها يكمن اساسا فى الحفاظ على الامن والســـلامالدوليـين ·

2) تهديد السلام والامن الدوليـين

كان لزاما على انصار القضية الجزائرية ، وقد عللوا مذكرتهم الايضاحية بتهديد الســلام والامن الدوليين ، ان يبرروا ما ذهبوا اليه · وافضل دليل كان فى ايديهم آنذاك « حشـــد الجيوش الكبيرة ونقلها الى الجزائر ، بما فى ذلكالوحدات العسكرية الفرنسية التابعة لمنظمــة الحلف الاطلسى » · وهكذا نرى ان فرنسا ، عندما اقدمت على استعمال قواتها العسكرية المعـدة لنوع آخر من الدفاع ، وبالتالى استخدام اسلحةاجنبية لقمع الثورة ، قد اعترفتمن حيث لا تدرى بخطورة الاوضاع فى الجزائر · ومع ذلك استمرتفى مغالطة الرأى العام الدولى وايهامه بان القضية الجزائرية مسألة داخلية ليس من حق الامم المتحدةان تتدخل فيها · غير ان هذا الزعم لم يقنـــع الشعوب المدافعة عن القضايا العادلة ، لا سيمـاان نطاق الحرب فى الجزائر قد توسع وان حشد القوات الاطلسية بمعداتها الحربية لم يعد سرامقصورا على القادة الفرنسيين وانما اصبح امرا مشاعا بين الخاص والعام · وذلك ما لم يغب على جبهة التحرير الوطنى عند تحرير المذكرة الموجهة الى الامين العام اذ انها اشارت الى ان الوضع فىالجزائر « ما انفك يتدهور يوما بعد يوم واصبح مصدرا للقلق والحيرة الى درجة ان السلام فـــىحوض البحر الابيض المتوسط اضحى معـــرضا للخطر » · ولئن الحت مجموعة الدول التى اخذتعلى نفسها عرض القضية الجزائرية على الامـــم المتحدة على المظهر الخارجى لـمأساة الشعـــبالجزائرى فلان الدول ـ وهى حقيقة مرة لا نزال نلمسها حتى فى العصر الحديث ـ لا يتحرك لهـاساكن الا اذا كانت المآسى تدور بجوارها او فى اية جهة اخرى من العالم تهدد امنها او تعـرضمصالحها للخطر،وهو ما نعتبره المظهر الخـــارجى

لكل قضية وطنية . بيد ان الخطورة الحقيقية فيالقضية الجزائرية بالذات كانت تكمن في الآلام والمحن التى ظل يعيشها الشعب الجزائرى فـيارضه مدة 130 سنة من الاحتلال .

3) الحقـوق الاساسيـة للانسـان :

ان الحرب بصفة عامة ، مهما كان زمانهـاومكانها ، تهدر الحقوق الاساسية للانسان . واذا علمنا ان الاستعمار فى حد ذاته يعد انكار للحقوقالانسانية ونفيا للحرية والديمقراطية فان كـل حديث عن الحقوق الاساسية للانسان فى المستعمرات لا يعدو ان يكون ضربا من الهذيان لا سيما فى حالة تحرك الشعوب المغلوبة على امرها ضدالهيمنة والاستغلال . وقد أثبت لنا التاريـخ ، بصرف النظر عن كل ذلك ، ان كل حرب استعمارية تكون مصحوبة بحملات القمـع والارهاب واختفاء كل وجه من أوجه الحق والعدل . وذلكما اشار اليه محررو المذكرة السالفة الذكر حيث أكدوا من غير لبس أو غموض « ما يجـرى فيالجزائر من اعتقالات جماعية وهـدر للحقـوق الانسانية وحظر الاحزاب السياسية وفـرضالرقابة المشددة على الصحافة ومنع صدور الجرائد المعروفة بنزعتها الى قول الحق ، وبالتالى هـدرمبدا حرية التعبير واحتلال الجيوش الفرنسيـة للمنازل والمدارس وغيرها من الاعمال التى تعد انكارا صارخا للحقوق المشروعة للشعب الجزائرى» .

هكذا تعرضت هذه المذكرة الى حصر أسبابالقلق والحيرة اللذين أثارتهما الحرب الاستعمارية فى الجزائر . غير ان هذه المذكرة لم تتضمن أىقصد فى وضع فرنسا فى قصفالاتهام او التنديد بها فى المحافل الدولية . وغاية ما فى الامر انها أشارت الى العواقب التى أدت اليها السياسـة الفرنسية فى الجزائر والى تنبيه المجتمع الدولىالى خطورة الوضع فى هذه الربوع حتى يتمكن من دراسة القضية المعروضة عليه وهو على بينـةمن أمـره .

ثانيا) وجهة نظر فرنسا او عدم اختصاص الامم المتحدة :

اذا كان تدويل القضية الجزائرية ، بالنسبة الى جبهة التحرير الوطنى ، هدفا من جملـة اهدافها السياسية على الصعيد الدولى بالرغم مايتضمنه من احتمالات قد تكون لها نتائج عكسية، فان هذا التدويل كان يشكل ، بالنسبة الى فرنساخطرا جسيما على كيانها الاستعمارى وهذا ما جعلها تضع كل ثقلها فى المعركة لابقاء القضيـةالجزائرية داخل الاطار الاستعمارى ومعالجتهـا وكانها مسالة داخلية بحتة . فالوسائل الـتىكانت جبهة التحرير الوطنى تستعملها لانـارة

الرأى العام الدولى وكسب الاصدقاء الــذين يؤازرون الثورة الجزائرية ، كانت بالنسبة الى فرنسا مصدر قلق واضطراب • فكلمـا ازداد أنصار جبهة التحرير الوطنى فى الخارج وتدعمت الثورة المسلحة فى الداخل كلما تفاقم تأثـــر فرنسا نفسانيا وعسكريا وسياسيا الى ان فقدت السيطرة على أعصابها وراح مندوبوها لدى الهيئت الدولية يتصرفون وكأنهم لم يمارسوا العمـل الديبلوماسى ولم يعرفوا نشاط الكواليس •

ان التحجر الذى أصاب القادة الفرنسيين، السياسيين منهم والعسكريين على السواء قد حال دونهم ودون الرؤية الواضحة • ولا تحال أحدا يشك فى أن الانضواء تحت القوانين الجامدة التى اصبحت متناقضة مع الحقائق الدولية والتمادى فى الاعتقاد الزائف فى ان الجزائر أرض فرنسية والتمسك بوجهة نظر لا تعتمد على أساس قانونى كل ذلك قد ساهم الى حد كبير فى تثبيت أنصار فرنسا الذين انفضوا من حولها فى نهاية المطاف •

ولادراك وجهة النظر الفرنسية ، فلا بد لنا من دراسة الاسس القانونية التى كانت تستند اليهـــا •

1) الجزائـر ارض فرنسيـــة

ان هذه اللازمة الكلامية التى لم يغفلها القادة الفرنسيون ولو مرة واحدة فى المناقشات والتصريحات والمؤتمرات الدولية وغيرها من المناسبات ليس لها من وجهة النظـــر القانونية اى أساس الا اذا اعتبرنا تلك الصفة التى ألحقتهـا فرنسا بالجزائر عقب احتلال المدن الساحليـــة فى سنة 1834 وجها قانونيا • فقد كانت هـــذه النظرية تشكل حجر الزاوية للسياسة الفرنسية على الصعيدين الداخلى والخارجى • ومن غير شك ان الاصرار على هذه السياسة وان كانت خاطئة من أساسها قد ساعد الحكومة الفرنسية فى كسب الوقت وتجاوز الكثير من العقبات ، غـــير أن المجموعة الدولية التى تغيرت موازين قواها بانضمام عدد من الدول الحديثة العهد بالاستقلال لم تقتنع بنظرية لا تعتمد على القانون الدولى • ومع ذلك فان فرنسا لم تغير من موقفها المتعنت وظلت تزعم ، دون اقتناع منها، أن الجزائر أرض فرنسية وان سكانها قد أصبحوا فرنسيين بموجب الامر الصادر بتاريخ 22 يوليو سنـــة 1834 والتشريع المؤرخ فى 14 يوليو 1865 •

لقد أصر الساسة الفرنسيون ، وتمادوا فى اصرارهم ، على أن هذه النصوص القانونيـــة هى أساس ميلاد الجزائر الفرنسية • والسؤال الذى يخطر ببال كل واحد هو الآتى : كيف كانت

الجزائر قبل صدور هذه القوانين ؟ والرد المنطقي الذى يعترف به حتى القـــادة الفرنسيون ولو احجموا عن الافصاح به ، هو ان الجزائر كانت قبل الغزو الفرنسي وحتى فى غمرة الحروب التى شنها الامير عبد القادر تشتمل على العناصر الثلاثة التى يشترطها القانون الدولى العام فى تكويـن الدولة وهى عنصر الاقليم وعنصر السكان وعنصر السلطة ٠ وهذا ما لا يمكن انكاره أو تحويله الى عدم بمقتضى قرار داخلى يتخذه الجانب الاقوى ٠

ان تحليل طبيعة النصوص التى حددت النظام الاساسى للجزائر خلال فترة الاحتلال ليس موضوع هذه الدراسة ويكفينا بهذا الصدد أن نورد ما قاله المؤرخ الفرنسى شارل اندرى جوليان فى كتابه الجزائر المعاصرة : « ان الامر الصادر بتاريخ 22 يوليو 1834 قد سن نظام المستعمرات الفرنسية فى افريقيا الشمالية فى شكل مستعمرات عسكرية ملحقة بوزارة الحربية ويشرف عليها الوالى العام المكلف بالقيادة العسكرية والادارة ، الذى يمارس سلطاته بتفويض من الملك » ٠

لكن هل استطاع الساسة الفرنسيون أن يكبحوا جمـــاح أنانيتهم ويعترفوا باخطائهـم التاريخية ؟ كلا ! لقد تعلق مندوبو الحكومــة الفرنسية المتعاقبون على منبر الامم المتحدة بتلك الحجج الواهية وبترداد تلك النغمة الرتيبـــة ؟ نغمة الجزائر الفرنسية واعتبارها جزءا لا يتجزأ من فرنسا « مثلها مثل جزيرة كورسيكا أو مقاطعة الرون » (1) ٠ ومع ذلك فان كل رجل سياسى يتسم بأدنى حد من التفكير المنطقى يعترف بان كل بناء قانونى ، مهما كان دقيقا ومحكما لا يمكن أن يكون سدا منيعا اذا كانت الحقيقة التى يحاول اخفاءها تتناقض مع عناصره الاساسية ٠

من هنا تأتى الحجة الاخرى التى ما فتئت فرنسا تتشبث بها ، والتى مؤداها ان الجزائريين يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون ٠

2) مساواة المواطنين فى الحقوق

تعد فرنسا فى نظر الكثير من المؤلفين موطن حقوق الانسان ووطن رجل 1789 ٠ ومما لا شك فيه أن فرنسا قد استغلت هذا الماضى لرد الكثير من العتاب واللوم ، ولئن كانت بعض الوفود فى الامم المتحدة تجامل فرنسا كلما تعـــرضت الجمعية العامة لاثارة مبدأ حقوق الانسان فلانها كانت تأخذ بعين ذلك الماضى الفرنسى السحيــق الذى لم تلتزم به فرنسا ذاتها ٠ ومع ذلك فان

(1) مداولات مكتب الجمعية العامة ، الدورة العاشرة 22 سبتمبر 1955 ٠

الوفد الفرنسى لم يجن فائدة كبيرة من الوضع الممتاز الذى تتمتع به فرنسا بشأن هذه النقطة بالذات ٠

وكثيرا ما فقد المسؤولون الفرنسيون السيطرة على الاعصاب ورباطة الجأش ليدخلوا فى نقاش حاد مع وفود الدول الاخرى كما حدث أن توجه المندوب الفرنسى الى مندوب العربية السعودية فى عبارات تنم على الانهيار العصبى وقلة الحكمة اذ قال :

« انكم قلما تهتمون بهذه الحقوق فى بلادكم » ٠ وبالرغم من اللهجة الشديدة والتهديد بالانسحاب فان المسؤولين الفرنسيين لم يستطيعوا اقناع الكثير من الوفود ، لان مجرد ملاحظة ما يجرى فى الجزائر آنذاك كان كافيا لدحض الحجج الفرنسية المتداعية ٠

من الذى كان يستطيع أن يشاطر المندوب الفرنسى نظريته عندما أكد : « ان كل جزائرى مسلما كان أو مسيحيا ، يعد مواطنا فرنسيا يتمتع بكافة الحقوق الدستورية ٠ وأن المقاطعات الجزائرية ممثلة فى الجمعية الوطنية مثل كافة مقاطعات فرنسا القارية » ٠ وحتى السيد «بينى» الذى كان آنذاك وزيرا للشؤون الخارجية ورئيس الوفد الفرنسى فى الدورة العاشرة للجمعية العامة لم يستطع ان يتخلص من الجمود الذى أصاب القادة الفرنسيين ٠ اذ أكد بدوره من على منبر الامم المتحدة : « اذا كنتم تتساءلون عن حرية السكان المسلمين فى الجزائر فانى هنا لارد على تساؤلاتكم ٠ أليسوا ممثلين فى الجمعيات المحلية والجمعية الجزائرية وكل الجمعيات الوطنية ؟ ان المسلمين فى الجزائر يمارسون نفس الحقوق التى يمارسها بقية المواطنين الفرنسيين » ٠

تلك هى الحجج « القانونية » التى كانت تستند اليها وجهة النظر الفرنسية أو بعبارة أخرى سياسة فرنسا الخارجية بخصوص القضية الجزائرية ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أنه بقدر ما كانت سياسة جبهة التحرير الوطنى تعتمد على أسس قانونية مرنة تبنتها المجموعة الدولية، بما فى ذلك فرنسا ، كهدف من أهدافها الاساسية وهى : (حق الشعوب فى تقرير المصير ، الحفاظ على الامن والسلام الدوليين ، والحقوق الاساسية للانسان) ، بقدر ما كانت سياسة فرنسا متصلبة لا تعتمد على أساس قانونى سوى تلك القوانين التى سنها الغزو وزكتها عقليات القرن التاسع عشر ٠

وبصرف النظر على أن الافكار الفقهية والقانونية المعاصرة تتنافى تماما مع فكـــرة كسب الاقاليم عن طريق الغزو ، فان القواعد الاخلاقيةوالقضائية فى اواسط القرن التاسع عشر كانت تفرض قيودا كبيرة على ما كان يسمى بالحـــقالتقديرى للحرب(Droit Discrétionnaire de la guerre) ومن ثمة فان الاحتلال الفرنسى للجزائر لم يكنسوى نتيجة انتهاك صارخ لحق الشعوب، والتاريخ يشهد أن هذا الاحتلال لم يتم بصورة سلميـــةوانما بعد سنوات طويلة من المقاومة والتضحيات والخراب والدمار ، مما يدل على عزم الجزائرى علىرفض التبعية وانتهاك سيادته • وحتى لو فرضنا أن الساسة الفرنسيين كانوا يعتمدون فى تقديرهم للوضع الجزائرى على تلك النظرية الاستعمارية التى وضعها الفقهاء الانجليز لتبرير احتـــلال الشعوب ، ونعنى بها كسب الاقاليم بالتقادم ، فان رأيهم لا يستقيم ،لان التقادم فى هذه الحالةيشترط فيه ان لا ينقطع لمدة زمنية معينة وأن يكون مصحوبا بنوع من الرضاء الضمنى ، وهــذاما لم يحصل فىتاريخ الاحتلال الفرنسى للجزائر •

اذن ، فالمحاولات التى قام بها المسؤولون الفرنسيون خلال حرب التحرير لارساء وجهـــة نظرهم على أساس قانونى ليست سوى مـواقفسياسية دفعتهم اليها المصالح الاستعمارية وان الوجود الفرنسى فى الجزائر لا يستند الى أساسمشروع كما اثبت ذلك السيد بجاوى فى كتابه « الثورة الجزائرية والقانون » •

اخضـــاع القانون للمصالح الاستعمارية

يبدو من تقصى الاحداث الدولية والتقلباتالتى تصيب هذه الجهة أو تلك ان الدول ، بحكم المصالح التى تدافع عنها ، لا تتقيد بحرفية النصالقانونى الدولى ، ولو ساهمت فى تحريره ، اذا كان يضايقها فى هذا العمل أو ذاك ، وانما تحاولأن تجعله يتمطط ويلتوى حتى تتمكن من تأويله بما يتفق ورغائبها • وهكذا نرى ان فرنسا ، وهى من بين الدول المؤسسة لمنظمة الامم المتحدة قد رفضت اختصاص المنظمة الدولية فى مناقشةالقضية الجزائرية بحجة ان ذلك يعد تدخلا فى شؤونها الداخلية ، مما يتعارض حسب زعمهـــامع المادة 2 الفقرة 7 من الميثاق •

وهذا موقف متطرف يتناقض مع المنطـــقالسليم • فالمندوب الفرنسى ، اذ يعتصم بالدفع بعدم الاختصاص ، انما يستند من وجهة النظرالقانونية الى مبادىء نشأت من الاحتلال ، وهى مبادىء أجمع فقهاء العصر الحديث على رفضهـــاكوسيلة لضم الاقاليم ، لان الغزو لم يعد مخالفا

للمبادىء التي يستند اليها السلوك الدولي فحسب ولكنه أصبح يشكل مصدرا خطير للنزاعات الدولية • ومع ذلك فقد زعم المندوب الفرنسي في الدورة العاشرة للجمعية العامة « ان احتلال فرنسا للجزائر لا يمكن اتخاذه حجة على الدولة الفرنسية لتبرير تدخل الامم المتحدة في شؤونها الداخلية» ثم قال : « ان الامر لا يختلف عنه بالنسبة الى مقاطعات فلاندر وبورجون وأتيكان وروسيون » وهي مقاطعات ضمت الى فرنسا في القرنين السادس والسابع عشر بعد حروب مع الدول الاوربية المجاورة •

وقد عرف المندوب الفرنسي في هذه الدورة كيف يشتغل بمهارة ولباقة الاهداف النبيلة للامم المتحدة ويؤولها بما يتناسب والاغراض الاستعمارية (حق أريد به باطل) حيث قال : « يدعي البعض ان الاستقلال لا يتحقق الا بالتقسيم (يعني به فصل الجزائر عن فرنسا) وهل من المعقول ان يقال هذا بين احضان هذه المنظمة التي تكونت من أجل محو كل تمييز يعتمد على العرق أو اللغة أو الدين ؟ أيريد البعض ان يساند نظرية العنصر والتعصب الديني ؟ » •

ولئن دل هذا التحريف لمقاصد الامم المتحدة على شيء فانما يدل على ارادة المندوب الفرنسي في اخضاع القانون الدولي الى المصالح الاستعمارية والاهواء السياسية وعلى مهارته في الاتيان بهذه الصورة التي توهم بانه صادق في قوله •غير انه لم يقف عند هذا الحد في تأويل أهداف الامم المتحدة ، اذ انه أكد ان « نص الفقرة الثانية المادة الاولى من الميثاق لا يخول المنظمة الدولية أي اختصاص سوى في مجال تنمية العلاقات الودية بين الامم • أما المساواة بين الشعوب وحق الشعوب في تقرير مصيرها فلم يرد على وجه الالزام » •

هكذا حاولت فرنسا عن طريق مندوبها في الامم المتحدة ، وبدوافع استعمارية بحتة ، افراغ ميثاق سان فرانسيسكو من احد اهدافه الاساسية المتمثلة في المساواة بين الشعوب وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وهذا تأويل خاطىء ومقصود ، والا كيف يمكن لاي رجل يتمتع بأدنى حد من الاطلاع على القوانين الدولية أن يدعي أنما ورد في هذه المادة المذكورة انما هو مجرد قول من الدرجة الثانية • ومهما يكن من أمر فان رجل القانون لا يمكنه ان يأخذ ما يحلو له من الفقرات وينبذ ما يضايقه • وانكار حق الشعوب في المساواة وفي تقرير المصير من قبل المندوب الفرنسي أو التقليل من هذا الحق واعتباره مجرد أسلوب في الكتابة ليس بالطريقة المثلى للدفاع عن الحق اذا اعتبرنا ما كانت تدافع عنه فرنسا حقا •

تسجيل القضية الجزائرية في جدول اعمال الجمعية العامة ٠

او الانتصار الاول للشعب الجزائرى على الصعيد الدولى ٠

بعد المداولات الطويلة الملتوية ، وبالرغم من ان هذه هى المرة الاولى التى تعرض فيها القضية الجزائرية على الامم المتحدة قررت الجمعية العامةادراجها فى جدول أعمالها ٠ والنتائج السياسية الاولى ، وبالتالى الآفاق القانونية ، التى ترتبت عنهذا الانتصار الجزائرى على الصعيد الدولى والتى يمكن استخلاصها تدل علىأن المشاكل الاستعماريةالتى ظلت حتى ذلك العهد بعيدة نوعا ما عـن دوائر الامم المتحدة ستكون فى المستقبل عاملاهاما فى الحرب الباردة بين الشرق والغـرب ٠ فالقضية الجزائرية ، بحكم أبعادها التاريخيـةوالاقتصادية والجغرافية ، لم تكن غريبة عـن المحادثات الخفية أو العلنية بين الدول الكبرى ٠ ومن هذه الزاوية بالذات تكون قضية الجزائـر قـد فتحت الطريق الدولى أمام كافة المعضلاتالاستعمارية المطروحة آنذاك أو التى طرحت أو تطرح فيما بعد ، ولو انها ، اى القضية الجزائريةلم تعرض على بساط البحث فى هذه الـدورة العاشرة بالذات لاسباب يطول البحث فيها ٠

هكذا كان الشعب الجزائرى رائدا فى معركة الكفاح المسلح ، وهكذا كان رائدا أيضا فى معركة الاجراءات القانونية فرسم طريق الحريةمن حيث مشروعية الكفاح المسلح داخل الوطـن ومن حيث عدالة واقرار مبدأ حق الشعوب فىتقرير مصيرها بصورة لم تعد تقبل الجدال ٠

ملحمة منتصف الليل

عثمان الكعاك (تونس)

يـــوم عـــــريض في الفخـــار طـــويـــل لا تنقـــضي غـــــرر لـــه وحجـــــول

هكذا قال شاعر المسيلة محمد بن هاني متنبي المغرب ، في هذا اليوم قبل احد عشر قرنا من حدوثه وكان ينظر بعين الغيب

ذلك هو يوم فاتح نوفمبر 1954

يـــوم محجـــل اغـــر

ويـــوم سمـــح أبـــر

ويـــوم عظيـــم الأثـــر

انطلقت فيه كل حرة وحر ، لازالة الشر ، ورفع الضر ، من أقصى البر ، الى أقصى البر

★ ★ ★

يـــوم كسر الأغـــلال

ومســـح الاذلال

وحقـــق الآمـــال

وانجـــز الاستقـــلال

هبت فيه النساء والرجـــال

الى منبسطات السهول وأعالي الجبـــال

شيـــوخ وأطفـــال

★ ★ ★

ملــوا الهـــوان
وكافة أساليب الامتهان
والامتحان اشر الامتحان
فى كـــل آن
وأساليب اخـوان الشيطان
الذين ما عرفوا ولن يعرفوا رحمة ولا شفقة ولا حنان
امتلكـوا الأوطـــان
وأخذوا الاطيـــان
وكل عزيــز ذي شــأن
فما بقى للوطنى شأن
الا الحرب والميــدان
بحور الدموع من ملايين الاعيان
كونت طوفــان
اقتلع الاستعمار فى أقل زمان
طوفان وأى طوفــان
طوفان من دموع أرامل قتل رجالهن عباد الصلبان
طوفان من دموع شيخ هرم اهين فى أعز مقدساته الشيخ الوقور عبد الرحمان
طوفان من ملايين الاطفال مات آباؤهم وأمهاتهم فبقوا كالخرفان فى قطيع السرحان
طوفان من الفتيات الجميلات المجاهدات الوطنيات القين بانفسهن من حالق جبل مستــاوة وصرخـــن :
يأكلنا التراب ، ولا تأكلنا الكلاب
وتحملن صنوف العذاب
وهن فى شرخ الشباب
طوفان من ملايين العجائز قتل الاستعمار أزواجهن ثمأبناءهن ثم بناتهن فاشتد بهن البكاء والانتحاب
وزرن القبـــور

ونادين بالويل والثبور
من الظلم والجور
بنفس تثور
وعين بالدمع تفور

★ ★ ★

طوفان من دموع مآت الآلاف من الرعاة
قتلوا في الغاب
بعد أن مزقتهم الكلاب
وقتلهم الشمبيط (1) بدون أسباب ، ولا حساب
بمجرد أن شاة أكلت ملء فمها من الأعشاب
طوفان من دموع رجال صناديد سلبت املاكهم وانتزعت اراضيهم وصودرت أموالهم
وافتك نوالهم
وساءت أحوالهم
وما سمعت اقوالهم
طوفان من دموع شعب بكى طوال قرن وثلث قرن لاضطهاد العربية
لغة القرآن السنية
اللغة الفصيحة البهية
ام اللغات السامية
وسيدة اللغات الأدبية والفنية والتقنية
اللغة السامية واسمية
الغربية والشرقية
لغة القرآن وما ادراك ما هيه
لغة العلوم والاداب والفنون والمعمار والتقنية
ازيلت كتاتيبها

(1) الشمبيط حارس الحقول من الفرنسية garde - champêtre

وتنوسيت أساليبها
واضيعت تراتيبهـا
ولم يعد لها من عروج
مع هؤلاء العلوج
طوفان دموع من شعب أذل
وأهمـــل
وجرد من أملاكه فاستقل
وما استقـــل
فهب للضربة البكر بدون خوف ولا وجل
بايمان راسخ رسوخ الجبال
نارى يأتى بالمحـــال
وبروح اسلامية تحكى روح صدر الملة
ثارت فيه حماسة المجاهدين الأولين
والمغاورين الميامين
الذين عاهدوا الله بدون مين
وقد حـان الحـين
وازف الحـين
فتبـا لاخوان الشياطين
وتعســا للظالمـين

★ ★ ★

منتصف الليـــل
يا للـويـل
فما هـذا الليـل ؟
البوم تنعق فى اشجار الغاب
وفـوق الخـراب

فعلى راس مـن ؟
والمرأة الجزائرية تزغرد فى الجبال والتلال
والسهــــول
فلــرأس مــن ؟

★ ★ ★

منتصف الليــل فى الأوراس
شديــدة المــراس
زكيــة الانفــاس
وأنس الجـــلاس
عظيمــة البــاس
كان المسلــم يقظا
بندقيته بيده واصبعه على الاقراص
متهلل الوجه كأنه فى أعراس
ويا لها من أعراس
اعراس شعب ذى حماس
متحـــد متــراص
متهــدج الأنفاس
انطلقت الحبة الأولى ذات أزيــز
حبة شعب أبى عزيز
انطلقت فى الآن نفس حبة بخنشلة الجميلة
البلــدة الأصيلــة
والمدينة الأبية الشريفة الاثيله
فانتبه السو بريفى وسقط
فقد أصيب بنفط
وسقط معه الاستعمار بتلك الديار

فكأنه ما كان ولا صار
ولا دام الأدهار
فسبحان الله الواحد القهار

★ ★ ★

انطلقت في نفس الآن حبة ببلاد القبائل
في برج ام نائل
وكل برج هائل
في جبل لالا خديجة المرابطة المجاهرة
وبني يني المجاهدة
وعين الحمام
وآيت ن هاشم
من أشراف بني هاشم
فيا للغضب
ولثورة البربر والعرب
التي ما لسورتها سورة
ولا تضاهي ثورتها ثورة

★ ★ ★

انطلقت في الآن نفس حبة في العاصمة
فكانت القاصمة
والضربة البكر الحاسمة
اشتدى أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج
. . . . . . فاذا جاء الابان تجي
وانطلقت حبة في جبال اسرسو ومدينة تيارت
فأردى المجاهدون في وادي مينا

وعلق المشانيق الابطال الشبان فى شجرة من ميدان المدينة
ولكنه شنق وارداء للاحتلال
وابادة للاذلال
ورفع للابطال

علو فى الحياة وفى الممات لحقا تلك احدى المعجزات

فطهر جامع بنى رستم
وحولت الكنيسة الى جامع
وارتفع الاسر عن مغارة ابن خلدون فى قرية تغزوت

وحررت مزارات الامير عبد القادر من قيطنه مسقط رأسه الى ام العسكر مدينته الجهادية التى بها جامع البيعة والثكنة الكبرى الى مدينة سعيدة ذات القلعة المنيعة والمخيم العتيد الى مدينة المدية التى بها قصره العظيم والتى كل شارع منها يحمل اسم عائلة مجاهدة مستشهدة الى مليانة ذات العزة والمكان التى بها معامل الحرب والمنشآت العسكرية • ونقل رفات الامير المنتصر دينا وآخرة الى أفخر ميدان من عاصمة الجزائر • فطوبى لهذا اليوم الأغر الذى استشهد من أجله مليونان وابلت اجميلات الثلاث البلاء الحسن واستشهدت مليحة الفتاة المدرسية التلمسانية واستشهدت مآت امثالها ليعيش شعب كامل •

الجند للموت يحيى وللحياة يموت

يا له من حقل متارج الانفاس
جميل الازهار من قرنفل واقحوان وبنفسج واقاح وآس

من حقل جهادى فيه آلاف الملاحم التى ليس لها امثال الا غزوات الاسلام الاولى وحروب آل عثمان لتخليص المسلمين وجهاد أبناء الاندلس •

فالكتاب يستطيعون وجود آلاف المواضيع لكتابة رواياتهم ومسرحياتهم وأخبار البطولة وتراجم عظماء الابطال والبطلات والقرى والمدن والشعراء ، يستطيعون نظم قصائدهم الدرية التى ليس لها مثيل • والمؤرخون يجدون ثروة دسمة من تحرير الصحف الذهبية • والرسامون

البارعون لهم ميدان ليس مثله ميدان • والموسيقيون يستطيعون تلحين أبدع الالحان ، والنحاتون يفتح لهم بـــاب النحت العظيم الشان • وارباب‌الأفلام يجدون حلبة الكميت لكل شريط خـــلاب جامع لكل طرفة وغريبة واعجاب •

وجازى الله جهاد الجزائريين خيرا ومسح دموعهم بينابيع النفط التى كانت بردا وسـلاما على ابراهيم ، وبرد حر جهادهم بمياه الصحراء التى‌صارت غذاء أوروبا المصنعة وشتاء ابنائها مـــن تلطخ الجو ودوى المدن المؤرث لاغشاء الوتيز empartus du miscarde وانعم عليها بأعظم نسبة من البترول ومن الغاز الذى ليس من GAZ الفرنسية ولكن من غزا يغزو فهو غاز ، ولكنه غـــزو عمرانى وحضرى واقتصادى • وبالمـواد الغذائية‌التى تحتاج اليها البلدان المصنعـة ، وبالارصدة الذهبية التى يرنو اليها رجال الاعمال فى الغرب‌وأميركا •

فالشاش قد انتصر على القبعة
وصار لها صديق ، فى أحرج أيام الضيق
رجعتم من الجهاد الاصغر
الى الجهـاد الاكبـــر
فسبحان الله والله أكبـر
فثـلاث عشرة سنـة
من التشييد والبنيـان
والفلاحة والتجارة والصناعة والعمران
والثقـافة والعرفان
كانت مائة اضعاف ما قام به الفرنسيس لأنفسهم
فانتفع به المسلمون ـ اذا انتفعوا ـ خـــلال 130 عـام !
الطرقات العصرية الجميلة الظليلة الطويلة الجليلة فى كل مكان من التـــل الى الواحات فى اتجاهها الى قلب الصحراء •
والى جانبها طرقات متواضعة هى التى بهـا الاستعمـار
فسبحان الله الواحد القهار
لقد اصبح الصنع العربى هو الجليل

وغـيره المتواضــع !

الحقول جميلة الزروع خضراء الدمن ذهبية الحصائد تمشى من القاله الى لالا مغنية بين الحقول وبستان واحد من الاشجار المثمرة على اختلافهاخضراء زمردية كالقباب التركية مزدهرة كالمروج فى الربيع فواحة كاسواق العطارين ونـــــوادىالسيدات والفتيات جميلة جليلة كالغادة الحسنانة غصونها راقصة كالفتيات المائسة ، تغنى على نغمات الطيـــور التى تهـزج فوق غصنها الاملود ، أنشودة المجد والفخر والخلود ٠

تمتد الحقول فى السهول
بين الجبـــال والتـــلال
تخترق سلسلة من القرى قد انتظمت
انتظام الجـــواهر والـلآل
عصـــرية جميلـــة
وقديمـــة جليلـــة
ترتفع صوامعها بالأذان
لقـــوة الايمـــان
بعد قرقعة الصلبان
فتبارك الله تعالى عظيم الشـــان
الواحد الفريد ، الفعال لما يريـــد
والعاصمة عروس البحر والتـــل
وبهجـــة قرية الجبـــل
عظيمـــة الامـــل
وام واحة الصحراء التى ارضها من تبر وذهـــب
ونخيلها من زمرد وتمرها من ياقـوت
وزهرها من عنبر ومســك ونـــد

★ ★ ★

جهاد بايمـــان واتحـــاد
اورث الامجــــــاد
منطلق من يوم اختص بالانفراد
يـــوم عريض فى الفخـــار طـــويل   لا تنــقضى غـــــرر لـــه وحجـــول



مقاومة الفلاحين لعملية الاستيلاء على الأرض

خلال حرب التحرير

- كيف اصبح المالك الجزائرى عاملا عند الفرنسى الذى اغتصب منه أرضه ·
- هذا التحول الاجتماعى قد تم بعد انقلاب نفسى بالغ الآثار ·
- تعاون السلطة الاستعمارية والمستعمرين على اجبار الفلاح الجزائرى على العمل فى حقله الذى اخذ منه ·
- الاغتصاب ولد البؤس والبؤس ولد الغضب والغضب ولد الثورة ·

يظـــن بعض الجزائريين ان ما يقـال عن استمرار الثورة الجزائرية منذ عهد الاحتلال الى الآن ما هو الا حديث دعاية تواضعا منه او جهلا · لكن التاريخ لا يتجاهل ولا يتواضع ، وانما يضع الاشياء في اماكنها ، وتكفي ان تتـوفر النزاهة حتى تتكشف اماكن الحقيقة · وفي هذه الحلقة الاخيرة من بعض ما كتبه (ميشال لوني) يستطيع القارىء ان يقـــف على بعض الحقائق التي هي ليست حديث دعاية ، وسيدرك ان ثورة اول نوفمبر 1954 ليست سوى امتداد لثورة الفلاحين المسلوبين الذين رفضـــوا عملية السلـــب التي ارتكبتها السلطات الاستعمارية · وانهـا بالتالي ثـــورة الفلاحين حقـا ·

ان حدود المشروع وغير المشروع كانت غير دقيقة في عهد الاستعمار ، واذا ما ارتفعنا الى المستوى الاخلاقي الذي هو منبع الحقوق فاننا لانستطيع ان نعرف وجه المشروعية في نقل الملكية ، ان ذكرى الماضي تفيدنا قبل كل شيء في التعرف على ما يجيش بصدر الفلاح الجزائري وما يدور بخلده عندما ينظر الى الاراضي التي لم تعد في ملكيته ، وتساعدنا على اعطاء الملكية الاستعمارية حقها من الاحترام الذي تستمده من اصولها الاولى وعندئذ يتسع المجال للتفكير في المستقبل وفي المشكلة الوحيدة الهامة وهي توفير الشغل والخبز لجميع الرجال والنساء في الجزائر وللاجيال المتزايدة العدد من دون انقطاع ·

فهل يمكن أن يصدق احد ان بعض المستعمرين كانوا يقضمون أراضي المسلمين حتى اثناء « حرب التحرير الاخيرة » ففي وادي السبع امام مركز (الساس) تقريبا كان احد المزارعين الاوربيين يضيف الى اراضيه (خطا) كل سنة على حساب جاره المسلم ، وبالقرب من هذا المكان كان هناك مستعمر اشترى من فلاح مسلم قسمة من الارث ولم يكتف هذا المعمر ببذر القطعة التي اشتراها بل راح يبذر قطعة الوارث الآخر على الجانب الآخر من الطريق ، وتدخل ضابط «الساس» وقدم المستعمر وعودا واقترح على الفلاح المسلم اقتسام الغلة ، لكن الفلاح المسلم رفض رفضا باتا ، ورحل الضابط لانتهاء مدة خدمته العسكرية ، وكيف ينتهي حل المشكلة ؟

الثورة الكامنة : ان البؤس الذي نتج عـن عمليات ســلب الاراضي يتخذ لدى الفـــلاح الجزائري اوجها ثلاثة ، واول اشكال هذا البؤس هو الرضوخ الى العمل لدى المستعمرين ، وينبغي ان ندرك معنى نشأة هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة ذلك ان العـــرب قبل مجيء الفرنسيين كانوا يندرجون في ثلاث طبقات اجتماعية : المالكون الاقطاعيون الكبار و « الخماسة » والفلاحون الذين يخدمون اراضيهم ·

ولكي يقبل العربي الذى كان خماسا أو فلاحا انتزعت منه اراضيه او سليل عائلة صودرت املاكها ، أن يؤجر يديه للذى احتل أراضيه ذلك الكافر اللص ، يجب أن يكون قد حدث فى نفسه انقلاب نفسى يجب أن نحاول التعرف على اعماقها .

وترجع المحاولات الاولى لتشغيل اليد العاملة الاهلية فى مقاطعة وهران الى سنة 1855 وعندئذ نشأ صراع بين ضباط (المكاتب العربية) الذين يريدون (حماية) الاهالى وبين كبار المستعمرين الذين لم تعد اليد العاملة الانسانية تكفيهم لخدمة اراضيهم التي ما فتئت تتسع ، وان ذلك ثارت شفقة المستعمرين على « الخماسة المساكين الذين تستغلهم الارستقراطية الاهلية » ، وعلى مر الزمان نشأت علاقات التسلط بين المستعمر وعماله الى درجة أن انخدع المستعمرون انفسهم لذلك التسلط ، ولقد عرفوا مبلغ وهمهم عندما رأوا « احسن عمالهم » يحطمون الكروم ويقطعون اشجار الزيتون فى ماى 1956 ويرشدون « عصابات الثوار » الى المزارع ليحرقوها .

وكان يطيب دائما لسكان تموشنت أن يذكروا الجنود الذين اتوا من فرنسا بأن المنطقة قد قاومت طويلا قبل الاستسلام بينما كان الاوربيون يؤكدون لى « أن المنطقة كانت اهدأ المناطق فى الجزائر » وأي الفريقين أصدق ؟

وقد تعبت كثيرا للعثور على آثار الانتفاضات التى يسببها الجوع والبؤس ، ولكي اقتنع من وجود تلك الانتفاضات كان لزاما على أن اكتشف وثائق محفوظة فى سجلات الحوز القديم ، « ان موقف بعض الاقوام من أولاد زائر عندما هاجم أولاد بلاغ وبنو مطار فى قرية سيدى على بن اليوب » يعطينا فكرة عن مخيلة هؤلاء السكان ويشير الى درجة الثقة التى يجب أن نضعها فيهم فى صورة ما اذا حدثت اضطرابات فى التل ، ولقد انتشر الخبر بأن (سى لالا) على رأس جموع غفيرة ـ قد يكون الناس مبالغين فى عددها ـ تتجه الآن نحو الشمال ناويا نصب خيامه على جبال تاسالة ، وأخذت هذه الشائعات تتبلور لانها اخذت بالباب الناس الذين يميلون دائما الى الاعتقاد بأن عهد الهيمنة الفرنسية قد بلغ اجله ، والى جانب الحوادث المتنوعة نشير الى أن الخيط الكهربائى بين سيدى بلعباس وتلمسان والذى يمر بقسم من مواطن أولاد زائر قد قطع فى مكانين » .

ان هذه الحوادث التى وقعت فى سنة 1864 كانت صدى لثورة اولاد سيدى الشيخ فى جنوب مقاطعة وهران ، وقبل الاحتلال الفرنسى كان بدو الجنوب قد انتقلوا الى هذه المنطقة وانشأوا علاقات دينية واقتصادية مع عشائر التل أي اولاد زائر واولاد خلفة اللذين تشملهما قبيلة بنى عامر ، ومنذ ذلك نشأ تدرج تاريخى نجده يظهر مرة اخرى بعد تسعين سنة فيما بعد ، ومثلما أن حروب الاحتلال قد تمت على ثلاث مراحل (الجزائر فى 1830 ، ووهران فى 1832 ،

والجنوب فى 1848 ، كذلك نجد ان شرق الجزائر الذى تحمل عبء الثورة منذ 1854 قد عززته فى 1955 مقاطعة وهران والجنوب الجزائرى فى 1958 ، والذين يختتمون هذه الملاحظة لاستنتاج فقدان الوحدة بين أجزاء الجزائر يجهلون آثار ردود الفعل بين منطقة وأخرى فى الجزائر ٠

ذلك أن أولاد سيدى الشيخ عندما ثاروا مرة اخرى سنة 1871 قد تبعهم المقـــرانى فى جبال جرجرة ، ولم تتحرك منطقة عين تموشنت ، لكن عندما ثار أولاد سيدى الشيخ من جديد سنة 1881 فانهم قد وجدوا صدى فى عين تموشنت وقد بقى الفلاحـــون البراقشة يذكرون تلك الحوادث حتى سنة 1960 ، ولم استطع أن اتعرف على المكانة التى لا يزال يحتفظ بها بوعمامة بعد ثمانين سنـــة الا بفضل الاقاصيص التى استطعت ان استلها من افواه بعض الفلاحين الكبار ٠



نشأة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين وَدورُه في معركة التحرير

حسن السعيد
مدير الزميلة
« الثورة والعمل »

نتناول فى هذا البحث موضوعا يعتبر من اهم المواضيع الحيوية لكونه يتعرض لدور النخبة المثقفة من الشباب الجزائرى ومساهمتها فى التحرير الوطنى التى خاضها الشعب الجزائرى تحت لواء الحزب الطلائعى حزب جبهة التحرير الوطنى الذى استطاع ان ينظم ويجمع كل الطاقات الحية للبلاد فى ظروف عويصة ويجندها فى صفوفه طيلة سنوات من التضحيات والبطولات لاسترجاع التراب الوطنى واستعادة كرامة وحرية الشعب الجزائرى الذى بقى يكافح ويخوض ثورات متواصلة ضد الاحتلال الفرنسى منذ ثورة الامير عبد القادر الجزائرى .

ان صعوبة هذا البحث تكمن فى امتزاج والتفاف كل فئات الشعب وراء الاهداف التى حددتها ثورة نوفمبر الخالدة وصعوبة تحديد دور الفئات الشعبية رغم تنظيمها داخل منظمات جماهيرية . اذ ان استراتيجية الثورة والاهداف التى كانت ترمى لتحقيقها، وعلى رأسها الاستقلال الوطنى كانت تقتضى ان يتحول الطالب فى بعض الحالات الى جندى يحمل السلاح أو مناضل سياسى يوجه ويساعد على حل مشاكل الجماهير الشعبية التى وقفت كرجل واحد لتعبر فى احلك ظروف القمع والارهاب الاستعمارى على انها مجندة وراء حزبها ومصممة على استرجاع سيادتها بأى ثمن ومهما كلفتها التضحيات .

وهناك صعوبة أخرى يلاقيها الباحث فى مثل هذه المواضيع الحديثة والتى تعمل بلادنا اليوم على معالجتها عن طريق الحملة الوطنية لجمع وثائق الثورة الجزائرية التى افتتحها الأخ الرئيس (هوارى بومدين) بمناسبة احدى الذكريات الخالدة فى تاريخ نضال الشعب الجزائرى يوم 8 ماى 1973 وتتمثل هذه الصعوبة فى تشتت وثائق الثورة وقلة الدراسات الجدية باقلام وطنية دلالة على اتساع الرقعة الارضية التى سالت فوقها الدماء الجزائرية .

ان قلة المراجع والوثائق وخصوصا من المراجع المكتوبة أو المخطوطة باللغة العربية حملتنا مشقة البحث الامر الذى اضطرنا الى الاستعانة بالمصادر الاجنبية رغم قلتها .

وان الوثائق التى عدنا اليها هى فى حد ذاتها تحتاج الى تمحيص وغربلة مما يجعل الباحث يبذل مجهودا مضاعفا فى استخلاص صورة حقيقية وشاملة للموضوع الذى نحن بصدد البحث فيه . ويشمل المجهود الاول فى مراعاة ما ورد فى كل مرجع أو وثيقة وفقا لسير الثورة فى مختلف الجوانب وخاصة منها الجانب الثقافى، والمجهود الثانى هو الانتباه أو اليقظة المبصرة للافطار التى تشتمل عليها المراجع ، رفقا للاتجاهات العامة التى كانت تسير عليها ثورتنا المقدسة وهى بطبيعة الحال صعوبة منهجية تعترض كل باحث فى مثل هذه القضايا الحاسة .

والصعوبة الخامسة تكمن فى حصولنا على نوعية المراجع فمجمل ما حصلنا عليه فى الوثائق لا تعدو كونها مصادر هى فى غالب الاحيان عبارة على نشرات أو مقالات صحفية تعبر عن ميولات واتجاهات معينة .

ومن بين المصاعب الاخرى التى اعترضتناهى الخروج بتعدد الصعوبات نفسها فى الموضوع نظرا لقلة الدراسات العلمية التى تناولت هـذاالبحث خصوصا وانه يندمج ضمن مسالة تاريخ الثورة الجزائرية فى ظروف لا يزال معظم المشاركين فى الثورة التحريرية على قيد الحياة وهنـا تتجسد صعوبة الموضوعية فى معالجة مثل هذاالموضوع ، وقبل الدخول فى صميم الموضوع أريد ان أحدد باختصار الادوار السياسية للمنظمات الطلابية السائدة حاليا بوجه عام فى عالمنـا المعاصر •

ما هـو الـدور السياسى

للمنظمـات الطلابيـة

ان السؤال الحيوى الذى يتجدد طرحه علىالمستوى الطلابى هو : ما هو الدور السياسى الذى يمكن أن يلعبه الطلبة ، كمجموعة واعيـة فىالمجتمع وهو السؤال الذى يضع الى حد ما نطاق تطور المنظمة عبر السنين •

وباختصار فان هناك مفهومين اساسيين حولالدور الذى يمكن ان يلعبه الطلبة فى الحيـاة السياسية وكلا من المفهومين يريا بان الطلبة منحقهم الاهتمام بالمسائل السياسية •

المفهـوم الاول :

ان اصحاب هذا المفهوم يعتقدون بأن الطلبة يجب أن يكونوا احرارا داخـل الجامعـة ، وبامكانهم المناقشة أو الحديث فى المسائل السياسية ، لانهم على المدى القريبسيتخذون القرارات السياسية ويحتلون مناصب هامة فى مختلفأجهزة الدولة •

هذا الاتجاه يرى بأن دور الطالب فى المجال السياسى يتوقف عندما يمكـن للقـرارات السياسية التى يتخذها الطلبة أن تتحـول الىاجراءات سياسية فعلية ، وهذا المفهوم يـرى بأن أهمية دور الطالب فى المجال السياسى لا يجبابدا أن يصل الى اشراك المنظمات الطلابية فى الحياة السياسية للبلاد •

المفهـوم الثـانى :

ان المفهوم الثانى يرى بانه من واجب الطلبة تجسيد القرارات السياسية التى يناقشونها ويعتقدون بها وان رفض تحقيق المعتقدات السياسية للطلبة يعتبر مشكلة اهمال للمسؤوليات

بالنسبة للمنظمات الطلابية وعندما تتخذ القرارات لا بد عن الطلبة ان يبذلوا كل الوسائل التى يملكونها لتحقيقها ، وعلى المنظمات الطلابية ان تهتم بصفة خاصة لتكليف الرجال الذين يجسدون تلك القرارات .

ووفقا لهذا المفهوم الثانى للدور السياسى للمنظمات الطلابية ، تصبح المنظمات الطلابية عاملا هاما يعتمد المجتمع عليها عند اتخاذ القرارات .

نشـــاة الاتحـــاد

الاجتماعات التمهيدية لنشاة الاتحاد :

قبل الحديث عن نشاة الاتحاد والمراحل التاريخية التى مر بها والمساعى التى بذلت الى ان خرج فى شكل منظمة ثقافية وسياسية تخدم مصالح الثورة يجدر بنا الاشارة بادى ذى بدء الى الاجتماعات التمهيدية التى سبقت المؤتمر السياسى ، والى الظرف الذى ظهرت فيها فكرة نشاة الاتحاد ... والى الوضع السياسى والاجتماعى آن ذاك .

فمنذ فترة زمنية طويلة لم يكن للحركة الطلابية الجزائرية استقلالا ذاتيا بل كانت مندمجة فى تجمع طلابى اكثر شمولا مثل (جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا) A. E. M. N. A. (1) .

وتكمن اهمية مثل هذه التنظيمات فى كونها لا تشكل بالنسبة لطلاب المغرب العربى اطارا للكفاح النقابى فحسب بل وكذلك للنضال السياسى .

لقد نشأت جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا عام 1912 بالجزائر واستطاعت هذه المنظمة ان تتعدى اهدافها النقابية بسرعة لتصبح المستوعب الذى يجيش بالوعى الوطنى لدى جميع طلاب المغرب العربى ، ولكن مضايقات الاستعمار الفرنسى لها ارغمتها على تغيير مقرها بحيث امتد نشاطها الى فرنسا واتخذت لها مقرا بشارع سان ميشال فى باريس عام 1927 .

وتم فى شهر جويلية من عام 1952 لقاء للمسؤولين على مختلف فروع جمعية الطلبة المسلمين بافريقيا الشمالية فتقرر اثره توجيه نداء لبعث تأسيس اتحاد المسلمين للطلبة المغاربة U. M. E. M. الذى يجمع على (2) المستوى التنظيمى ثلاث فيدراليات وطنية الا ان سرعة مسيرة التحرر

1) Association des Etudiants Musulmans Nord Africains.
1) Union Musulmane des Etudiants Maghrebins.

الوطنى التى برزت فى قيام ثورات مسلحة قـدارفعت كل منظمة طلابية على اتباع طريقة خاصة لخوض معركتها .

وبذلك ظهر الاتحاد العام للطلبة التونسيين عام 1953 م بعد ان عقد مؤتمره الوطنى الاول فى شهر جويلية فى نفس العام وقام الطلبة الجزائريون من جهتهم بتنظيم الاتحاد المحلى طـوال السنة الدراسية لعام 1953 ـ 1954 وخلال اجتماع لجمعية الطلبـة المسلمين لافـريقيا الشمالية بالجزائر يوم 26 فبراير 1955 صـادق الطلبـة على لائحة تطلب من الطلبة الجزائريين تكوين اتحادهم .

وخلال السنوات الممتدة ما بين 1953 ـ 1955 م اهتم الطلبـة المسلمين الجزائريين بانشاء الفروع المحلية لتنظيم الطلبة داخل اطار يضم الطلبة الجزائريين الا انه يجدر بنا ان نشير الى ان النواة الاولى لمنظمة طلابية فى شكل اتحاد تحتاج الى الايمان بقاعدة متينة تكون معبرة تعبـيرا صادقا عن كلمة (اتحاد) فلماذا اجمع الطلبـةالمسلمين الجزائريين على كلمـة (اتحاد) دون مفاهيم تنظيمية أخرى ؟

غنى عن التعريف ما توصلت الى اقراره المنظمة الطلابية الاسلامية لشمال افريقيا فى شهر فبراير فى عام 1955 م فقد كان اهم حدث تـم الاتفاق عليه من طرف المنظمة المذكورة المصادقة على لائحة تطالب بانشاء الاتحاد الوطنى للطلبةالجزائريين.U. N. E. A (1ففى اجتماعات تحضيرية تمت بين الفترة المحصورة ما بين 69 فبراير و 7افريل 1955 اعلن الطلبة الجزائريون بأن تاسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين هو خيرمثال واكبر دليل على اعطاء اسم يوافق ويتلائم مع المسمى فالاتحاد يعنى بكل بساطة وحدة الطلبةوتوحيدهم بالشعب المكافح ذلك الشعب الجزائرى الذى يرفض التخلى عن شخصيته والتنازل عنكرامته وكل ما يمت لماضيه وحضارته وقد ادت جهود توحيد الحركة الطلابية الجزائرية الى عقدالمؤتمر التاسيسى للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين يوم 8 جويلية 1955 بقصر الميتياليتى MUTUALITE

النشـاة والتسميـة :

ان ضرورة الاتفاق على تكوين هيكل لمنظمةمعبرة عن طموح الجماهير الشعبية فكـرة كانت تخالج جميع العناصر المثقفـة التى شاركت فىالمؤتمر التاسيسى لميلاد الاتحاد ، فمن خلال جهود

1) Union Nationale des Etudiants Algériens.

الحركة الطلابية التى اشرنا اليها سابقا استقر الرأى على تكوين الاتحاد كأساس مبدئى لابد من اقراره والمصادقة عليه بالاجماع ... يبقى بعدذلك تحديد نشاط ودور الاتحاد هذا يأتى بعد الموافقة على التسمية فلم اختير اسـم الجمعيةالطلابية الاسلامية ؟ ان من بين المسائل الاساسية التى طرحت على بساط المناقشة عند التحضيرات الاولى للمؤتمر التأسيسى للاتحاد مسالة التسمية او الاسم الذى يطلق على المنظمة فهـل يسمىبالاتحاد العام للطلبة الجزائريين ؟ ام بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ؟ ان الاجابـةالمقنعة التى صدرتعن اللجنة التحضيرية والمتمثلة فى ان بلادنا تعرف وضعية خاصة تميزها عـن بعض البلدان الاخرى هى التى كانت السبب فى اقرار التسمية الثانية ، فقد كان مجمل ما جاءفى اجابتها عن السؤال المذكور هو انه اذا كانت بلادنا تحتـل بقعـة من افريقيا وكان القطرينالشقيقين (تونس والمغرب) احتفظا بسيادتها كما هو معروف تاريخيا فى اطار اسلامى محضفبالنسبة للجزائر الذى يحاول الاستعمار فسخها عـن حضارتها واصـالتها باساليب استعماريةمعروفة لابد لها امـام هذه العمليات التشبث بالاطار الاسلامى الذى يعتبر ــ وتاريخ الاشقاءشاهـد على ذلك ــ خير اطـار للمحافظة على الشخصية الجزائرية والتمسك بأصالتها وثقافتها

والجدير بالملاحظة فى هذا الصدد الى ان كلمة مسلم فى الاتحاد لا ترمى الى تأكيد الطابـع الدينى فحسب بل وللتعبير عن ارادة الطلبة فىالمحافظة على الاصالة والحضارة الجزائرية ، وعليه فان الندوة التحضيرية بأغلبية ساحقة وافقت انالاتحاد سيكون مسلما .

اهميـة انشـاء الاتحـاد :

ان انشاء مثل هذا الاتحاد فى الظروف المأسوية التى كانت تعيشها بلادنا انذاك جعلتـه طابعا خاصا ومغزا هاما . فالاهمية التى يمكـن استخلاصها بكل بساطـة فى انشـاء الاتحـاد المذكور هى انه كان الدليل الواضح والمعبر عنمدى التحام الطلبة بالشعب الذى رفض التنازل عن شخصيته والانفصام عن ماضيه وحضارته وخيانة تاريخه ، وكل هذه الامور ذكرتها تندرج فى اطار عربى اسلامى مما يؤكد موافقه الاسم للمسمى .

ان تكوين الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين كان منذ تاريخ طويل يشكل مرحلـة حاسمة فى تطور الحركة الطلابية الجزائرية ، ولعلمن الاهمية بمكان احدى الدلائل الملموسة التى تعبر عن حصـول وعى لدى الطلبة الجزائريينافرارهم الدفاع عن مصالحهم الماديـة وتعلقهم

الشديد بتراثهم الروحى والثقافى وهناك اهميةاخرى لابد من الاشارة اليها لانها ذات مغـزى لا يستهان به وهى أن ميلاد الاتحاد نتج عنه تركفكـــرة انشاء الاتحاد المغربى وتحقيق الوحدة الطلابية المغربية الى ما بعد شهر جانفى 1958 محيث انشئت منظمة طلابية على مستوى طـلاب المغرب العربى أطلق عليها (كنفدرالية شمـال‌افريقيا للطلبة).CF. N. A. E (1)تغيير اسمها فى ما بعـد ·

وقد رأى طلاب شمال افريقيا انه من الضرورى خلق الهياكل وتركيزها للقيـام بتنسيق العمل لضمان الامن والامكانيات قصد توسيـعالنشاط وامتداده على مستوى بلدان المغـرب العربى كلها ·

الناحيـة التنظيمية :

كان الطلبة الجزائريين ينخرطون فى الاتحاد العام للطلبة عن طريق الفروع المحلية ويقـوم الاعضاء فى المنظمة بانتخاب ممثيلهم فى المؤتمر ،وفى المؤتمر يتم انتخاب اللجنة المديرة تتكون من 17 عضوا فى المؤتمرات الثلاثة الاولى فقفز عدد الاعضاء الى 21 عضوا فى المؤتمر الرابع عام 1960 م اما من حيث نشاط اللجنة المديرة فقد كانت تجتمع ثلاث مرات على الاقل فى السنـة ، وكـان يخول لها أن تنتخب اللجنة التنفيذية المكونة من5 الى 7 أعضاء ·

وعندما اصدرت الحكومة الفرنسية قرار حل الاتحاد اللجنـــة المديرة فى كـــل من ليزان LAUSANNE لسويسرا وتونس وتم تنظيم فروعفىمختلف البلـــدان الاجنبيـــة التى يتوجه اليها الجزائريون ·

اهـــداف الاتحـــاد :

حدد المؤتمر التأسيسى للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين فى قوانينه وتوصيـاته أربعة أهداف رئيسية :

1 ــ الدفاع عن المصالح المادية والاخلاقية والثقافة ، وتعيين شروط معيشـــة الطلبـة ، وتشجيع التبادل الثقافى مع طلبة وشباب جميعالدول ·

2 ــ القيام بمكافحة الامية ، والنضال منأجل تعلم الاطفال الجزائريين وضبط منـــاهـج تعليمية لحقائق الواقع الجزائرى ·

1) Comme Fédération Nord Africaine des Etudiants.

3 ـ الدفاع على اللغة العربية وتطوير الثقافة الوطنية ، وهذا الهدف لن يتحقق الا بجعل حد للقانون الاستعماري الذى كان يهدف القضاءعلى اللغة الوطنية وذوبان ما تحمله من اوجـــه ثقافية وحضارية ٠

4 ـ العمل على تحقيق الاستقلال الوطنى ، وقد أصبح هذا الهدف الرابع مع تطور الاحداث الهدف الاول أو بالاحرى الهدف الاساسى الذى يدور حوله نشاط الاتحاد ٠

ومع ان المؤتمر يعتبر المنظمة كنقابة وطنية مكلفة بحماية المصالح المادية والمعنوية للطلبة ، فان الاتحاد العام للطلبة الجزائريين قد وصف نشاطه الاساسى فى اطار سيـــاسى فكثـــيرا ـ والوضع محرج ـ ما نرد باعمال القمع والتقتيل والابادة التى مارسها الاستعمار الفرنسى ضـد الشعب الجزائرى فى مدينة سكيكدة وغيرهـا ،وكثيرا ما طلب الاتحاد بانهاء الحرب وفتح مفاوضات مع جبهة التحرير الوطنى ٠

وفى مواصلة نضاله ونشاطه السياسى قررالاتحاد يوم 20 فبراير 1956 القيـــام باضراب انذارى عن الدروس والطعام من اجل ايقاف عمليات القمع كما قرر فى 19 مـاى 1956 اضراب عن الدروس والامتحانات بالنسبة لجميع الطلبة والتلاميذ الجزائريين حتى يتم التحرير الكامـل للوطن ، وقد كانت هذه المواقف دليل واضـح على مدى تمسك الاتحاد بأهدافه المذكورة ٠

الاتحاد والوضعية الطلابية :

ان الحرب لا تستهدف من الناحية التاريخية الى تخريب جسدى لشعب من طرف شعب آخر فحسب ، بل تخلف وراءها بصمات معنويـــة وروحية لا يمكن ان تمحى الا بارادة قوية ٠

والثورة الجزائرية احدى الامثلة الحية على هذه الحقيقة المرة ، لان المآت من الالآف الجزائريين الذين اضلعوا من ديارهم ، ورفعوا من اوساط عائلاتهم واصدقائهم ، والذين افلتوا مـــن هذه الاعمال الاجرامية نجدهم مهددين فى اصالتهـم وثقافتهم ومهد هذه المآسات هى نتيجة الحـرب الاستعمارية التى قامت بها فرنسا ضد الشعب الجزائرى ، والطلبة الجزائريون الذين هم جزء من الشعب الذى تحرك ليلة فاتح نوفمبر لاسترجاع حريته وكرامته ، هاجروا وطنهم طلبا فى التعليم

نظام التعلم فى الجزائر والهجرة فى طلب العلـم ٠

وقد تميز النظام التعليمى فى الجزائر قبل ثورة فاتح نوفمبر بنظامين أديا مع مرور الايام الى وجود فئتين من الطلبة الجزائريين ·

التعليـم العـربى :

الفئـــة الطـــلابية الـــتى تعلمـت باللغـــة الوطنية وفقـا لنظـــام تقليدى عتيـــق فى أغلب الحالات لان المدارس التى كانت تنشأ معرضة من حين الى آخر لغلق ابوابها والقاء القبض على رجالها مثل مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى يعتبر عبد الحميـــد بن باديس أول مؤسس لها فى هـذا الوطن الذى كانت لغته وثقافته وحضارتـه مهددة بالمسخ والزوال ، لم تجد هاته الفئة من ابناء الشعب الا الهجرة للاقطار العربية الشقيقة طلبا للعلم والمعرفة فقد هاجر الكثير من الشباب الجزائرى الى الخارج قبل بدايةمعركة التحرر الوطنى عام 1954 بسبب فقدان امكانيات تعلم اللغة الوطنية وبسبب التفاوتالكبير فى مناهج التعليم العصرى واهدافه وطرقه العتيقة ليتعلم اللغة الوطنية فى الكتاتيب وهىطريقة خالية من جميع مناهج التعليم العصرى مما ادى بالطلبة الجزائريين الى مغادرة الوطن فى اتجاه المدارس والجامعات فى البلدان الشقيقة

ان مشكلة طرق تعلم اللغة الوطنية كانتتطرح نفسها بصورة حادة وخطيرة لانه بامكاننا ان نتساءل عن كيفية وقيمة تكوين الذى يعطىللطلبة لتكوين اطارات جزائر الغد فهو بقـدر ما كان مركزا على الجانب الادبى والدين نجده خاليامن الجانب الفنى والبيداغوجى وفى هذه الحالـــة فاذا كانت اهمية التعليم العربى تكمن فى كونهيلقن دروسا تستهدف احترام الثقافة العربيـــة والعادات الاسلامية فهى فى نفس الوقت لا تستجيب لمتطلبات المجتمع الذى يطمح نحو التقدم ·

التعليـــم الفرنسى :

اما الفئة الطلابية الثانية فهى الفئة التى تعلمت الفرنسية سواء فى الجزائر او فى فرنسا وهاته الفئة من ابناء الجزائر التى تلقت تعليمهاوفقا لنظام المدرسة الفرنسية رأت من المفيد لها أن تبحث على مركز تعليمى خارج المركز الفرنسىخصوصا بعد ان يصبح بأمكانها بعد سنوات من الدراسة الثانوية مواصلة التكوين بلغات اجنبيةأخرى مثل الانجليزية ، والالمانية التى كانـــت تدرس كلغة ثانية بعد اللغة الفرنسية فى الجزائروفرنسا ·

ومن دون شك فان انصراف الطلبة الجزائريون عن المدرسة الفرنسية كمؤسسة تربويـــة وتعليمية يرجع الى ردود فعل ابناء الجزائر لمـــا يتلقونه من متاعب وعراقيل سواء من حيث نظام

الامتحانات أو المعاملات ولا مجال للحديث عن الفرص المفتوحة امام الطلاب المتفرجين لان القبول في الوظيف العمومي يشترط التنازل عن الشخصية الوطنية التي هي اغلا كنز لا يمكن للجزائري ان يتنازل عليه ·

ومن هنا جابهت المنظمة الطلابية وهي في بداية نشاتها مشكلاخطيرا هو مشكل الطلاب اللاجئين خصوصا بعد ان حرمت عليها الاقامة في فرنساوانتقال مركزها الرئيسي الى تونس وتوزيع الطلاب على اكثر من 25 دولة في أروبا ·

وهناك مشكلتان اساسيتان على الاتحاد ان يقوم بايجاد حلول لهما ·

تتمثل المشكلة الاولى بالنسبة لطلابنا في – سويسرا – بلجيكا – المانيا الغربية – على وجه الخصوص في تدهور الوضعية المادية والاقتصادية للطلبة الممنوحين بسبب ارتفاع المعيشة باستمرار وعدم اكتفاء المنحة من ناحية وعدم تاقلم الطلبة مع الجو لشدة البرد الذى لم يتعود على مثله قبل الهجرة ·

التوجيه التربوى :

في مجال التوجيه التربوى ان الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين قد اعطى المسالة توجيه الطالب نحو احتياجات جزائر الغد اهمية كبرى وحدد سياسة تستجيب لحاجيات البلاد اذ اجريت دراسة احصائية عام 1960 على حوالى 426 طالبا موزعين في مختلف بلدان أوروبا ، وتونس وهاته الاحصائية تصور لنا مدى تفهم المنظمة الطلابية للاطارات التي تحتاجها البلاد عند نيل استقلالها ·

جدول توزيع الطلاب حسب الفروع

الفرع	العدد		النسبة
– مدارس الهندسة	112	طالب	27 ٪
– العلوم	73	طالب	18 ٪
– الحقوق الاقتصادية التجارية	105	طالب	24 ٪
– الطب والصيدلية	91	طالب	22 ٪
– الادب	45	طالب	9 ٪

وكل ما يمكن قوله بعد هذا الجدول هو ان المنظمة الطلابية كانت دائما تحدد الخطوط العريضة لسياسة التخصصات حسب الحاجيات الاساسية للجزائر المستقلة فهى بهذا الهدف كانت تعمل على توفير ذخيرة متينة لمعركة البناء والتشييد بتهيئتها للاطارات التى بامكانها ان تستلم مقالد تسيير شؤون البلاد بعد الاستقلال .

الاتحاد والثورة الجزائرية

منذ أن ظهر الاتحاد العام للطلبة الجزائريين الى الوجود رأى من أن يدمج نضاله السياسى لصالح استقلال الجزائر .

فقد كان يعرى بان مجمل المشاكل الثقافية أو الاقتصادية والاجتماعية التى يتخبط فيها الشعب الجزائرى لا يمكن حلها الا بطلاق نهائى مع النظام الاستعمارى بالجزائر ولا يمكن للشعب الجزائرى ان يعرف ازدهارا أو تحررا الا بالتخلص من الاستعمار الاجنبى .

فى المجال السياسى : فحول هذا الهدف كل النشاطات للمنظمة الطلابية ، فهو فى علاقات مع الاتحادات الطلابية يعمل من أجل الحصول على التأييد الطلابى وحسن المساعدة للقضية الجزائرية .

وكان الاتحاد العام يعتبر نفسه جزء امتراعا فى الثورة الجزائرية ومتضامنا مع كل الذين يكافحون من أجل استقلالها .

جبهة التحرير وجيش التحرير : وبطبيعة الامر فان شكل المشاركة تتخذ ميزة خاصة بمنظمة طلابية تبرز لنا على الصعيد الخارجي : فى التعريف بالقضية الجزائرية وحسب تأييد الرأى العالمى

– تكوين الاطارات التى تكون فى خدمة جزائر الغد .

– اجراء دراسات حول المشاكل الكبرى فى الجزائر ، ونشر اللغة العربية وفى تحقيقه لاهدافه السياسية ، ولممنوحات من اهدافه ثورة نوفمبر 1954 ، نرد المؤتمر التأسيسى للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، بالاعمال التى قام بها الاستعمار الفرنسى عند مطلع الثورة ضد الشعب الجزائرى انتقاما من العمليات العسكرية التى كان يقوم بها جيش التحرير الوطنى ضد القوات العسكرية الفرنسية .

فطالب المؤتمر الوطني الاول بتوقيت اطلاقه النار قرارا ، في مفاوضات مع الثوار حـــول استقلال الجزائر ٠

وشرعت المنظمة الطلابية في نشر الوعي بالثورة واهدافها في اوساط تلاميذ الثانويـــات والتكميليات بالجزائر وخارجها ٠

وفي اطار مواصلة نضاله السياسي قرر الاتحاد يوم 20 جانفي 1956 القيام باضراب عـــن الطعام وتوقف الطلبة الجزائريون عن الدروس طوال يوم كامل ، كانذار للسلطات الفرنسيـــة بقصد توقيف عمليات القمع والارهاب التي يقوم بها الاستعمار الفرنسي ضد الجزائري ٠

(ضمن الامن والسلم في البلاد) كما طالب باطلاق المساجين السياسيين من السجون الفرنسية ومن المهم الاشارة الى أن الاسبوع الاخير من شهر جانفي 1957 الذي عرف بنصف شهر التضامن مع الاخوان في السجون ساهمت فيها بعض العناصر المتطرفة والرجعية من الطلبة الفرنسيين ضد الجزائريين ، بلغت هذه المضايقات درجـة خطيرة في جامعة مونبولي وعلى اثرها بـــرزت تناقضات في صفوف (الاتحاد الوطني لطلاب فرنسا) واستنكار بعض الاوساط الفرنسيـــة التقدمية لمثل هذه الاعمال وقد استطاع الطلبـة الجزائريون اجتياز هذه الازمة بكل وعي ، وذلك عندما واجه الاستغلالية بكل برودة ، هونهـــا العبث تدبرته لضرب المنظمة الطلابية واعضائها ٠

المؤتمر الثاني (مارس 1955) وبعد الحوادث التي وقعت بمدينة سكيكدة يوم 20 أوت 1955 والتي خلع فيها الاستعمار 4000 جزائري مـــن أوساط عائلاتهم ، وجمعهـــم بالملعب البلـــدي للمدينة حيث تم اعدامهم على يـــدى البوليس الاجرامي والقوات العسكرية الفرنسية المتوحشة

الا انه رغم مرور شهور قليلة من نشـــاة المنظمة وانعقاد مؤتمرها الثاني بالعاصمـــة الفرنسية من (24 الى 28) مارس 1956 فقـــد اتخذت خلاله موقفا بطوليا وواضحا من الثورة ٠

فبعد ان حيا المؤتمر الثاني الارواح البريئة التي سقطت لتعيش الجزائر حرة مستقلة ونـــدد بكل شدة بمختلف اعمال الاضطهاد والابـادة المتكررة ضد الشعب الجزائري منذ مجازر ماي 1945 حيث اعدمت السلطات الاستعمارية بالقطاع القسنطيني وحده ما يزيد عن 45000 جزائري ٠

كما حدد المؤتمر الوطني الثاني الذي حضرته منظمات طلابية ودولية وشارك في اشغاله 31 فرعا للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذين جددوا ثقتهم الكاملة في اتحادهم الوطني

الذى اعطاهم فرصة التنظيم لتمكينهم بواجبهم كطلبة ولكن كجزائريين قبل كل شىء وقد رفع المؤتمر كل الالتباسات عندما أكد بصفة علنية فى لائحة صادق عليها باجماع عن نضاله من اجل استقلال الجزائر وتدعيمه للنداء الخاص بدخول فرنسا فى مفاوضات مباشرة مع حزب جبهة التحرير الوطنى كما اعلن رسميا عن انظمام الاتحاد وتبنيه الكامل لسياسة حزب جبهة التحرير الوطنى ومن هنا قرر فرع الجزائر للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بالاجماع فى اجتماع عام عقده يوم 16 ماى 1956 القيام باضراب عام لطلبة الثانويات والجامعات ورفضهم لحضور الدروس وامتناعهم عن المشاركة فى الامتحانات وحدد يوم الاضراب بيوم 19 ماى 1956 الذى نحتفل به سنويا واصبح يعرف (بيوم الطالب) ، ففى النداء التاريخى الذى وجهه فرع الجزائر اعلن فيه عن رفض الطلبة لمتابعة الدروس سواء فى الجامعات أو الثانويات ودعاهم فيه جماعيا الى الالتحاق بصفوف حزب وجيش التحرير الوطنى .

من أجل المساهمة الفعلية فى الكفاح المسلح الى جانب اخوانهم العمال والفلاحين وقد استجاب الطلبة الجزائريون سواء فى الجزائر أو فى المغرب وتونس وفرنسا لهذا النداء التاريخى فتركوا مقاعد الجامعات وطاولات الثانويات والتحق بعضهم بصفوف الثورة معلنين عن حبهم وتضحيتهم من اجل القضية الوطنية ولتعيش الجزائر حرة مستقلة .

« ونغتنم هذا اللقاء للترحم على أرواح الذين سقطوا فى ساحة الشرف واقفين اجلالا وتكبيرا على أرواح هؤلاء الابطال الذين ضربوا اروع الامثلة فى التضحية من اجل ان تحيى الجزائر ، واتعهد باسمكم جميعا على اننا سنواصل كل التضحيات من اجل بلوغ الاهداف المقدسة التى حبذتها ثورة فاتح نوفمبر ».

والتزم الطلبة الجزائريون الذين لم تتح لهم الفرصة او مناسبة الالتحاق بالثورة بالاضراب طوال ما يقرب من سنتين (19 ماى 1956 الى مام 1957) .

حتى قرر المؤتمر الثالث للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين المنعقد فى باريس فى الفترة ما بين 23/26 ديسمبر 1957 فى ظروف شبه سرية وطلب من الطلاب العودة الى مدرجات الجامعات نظرا لوعى الثورة باهمية الاطار وحاجتها اليه عند استقلال البلاد .

ونشير الى ان عدد الطلبة المسجلين فى جامعة الجزائر اصبح لا يتجاوز مجموعة قليلة من الافراد فضلا على ان اغلب المدارس قد اغلقت ابوابها منذ اضراب عام 1956 وتشتت تلامذتها

بسبب تضاعف عمليات القمع والملاحقة ضـــدالطلبة الجزائريين سواء في الجزائر أو في فرنسا. الا ان المؤتمـــر الوطنى الثالث رغم الظـــروف العويصة التى انعقد فيها فقد اكد مرة اخـــرى الارادة الصارمة للطلبة الجزائريين فى مواصلة نشاطهم للحصـــول على الحقوق المادية وقضيتهم الوطنيـــة وذلـــك عـــن طريق مضاعفة مختلف نشاطاتهم ، ومنذ ميلاد الحكومة المؤقتة الجزائرية عام 1958 عبرت المنظمة عن ابتهاجها بهذا الحدث واعتبارها كحكـــومة شرعيـــة وحيدة للجزائر . وبالتالى فهى تعتبر نفسها تسير وفقا لقراراتها .

والسؤال الذى طرحته آن ذاك بعض المنظمات الاجنبية العلمية وخصوصا منها الاتحـــاد الوطنى لطلبة فرنسا U. N. E. F. هل يمكن القول بان المنظمة الطلابية الجزائرية تابعة لحزب جبهة التحرير الوطنى ؟

ومع الايام تاكدت بانها جزء منه لان اختيارات الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين هى فيما يتعلق فى المستقبل نفس الاختيارات والاهداف التى حـــددتها ثورة نوفمبر فى مـــؤتمر الصومام 1956 والتى كانت المنظمة الطلابية احدالاطراف المدعوة للمشاركة فيه ، ولم يحد عن هذا الهدف خلال السنين الطويلة والمريرة من كفـاح الشعب الجزائرى .

فالمؤتمر الرابع للاتحاد المنعقد بتونس (بئر الباى) من 26 جويلية الى 1 اوت 1960 وهـو المؤتمر الاخير الذى يعقد ابان معركة الكفاح المسلح يحدد اهدافه السياسية فيما يلى .

– تأكيد ارادة الشعب الجزائرى فى الاستقلال ، والتنديد الشديد بالحرب التى تقـوم بها فرنسا فى الجزائر .

– القبول بمبدأ تقرير المصير كوسيلة لحل المشكل الجزائرى .

– ضرورة دخول فرنسا فى مفاوضات مـع الحكومة الجزائرية المؤقتة من اجل تقرير مصـير وسلم حقيقى بالجزائر ومما جاء فى الائحة السياسية العامة للمؤتمر الرابع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين .

– ودائما وفاء منهم لطريقة اسلافنا الذين ضحـــوا بحياتهم من أجـــل القضية الوطنية ، وادراكا منهم اليوم أكثر من قبل بالمسؤلية ودورهذه المرحلة القاسية التى تمر بها الثورة مـــع اهمال الحرب – فان الجزائريين المجتمعين فى مؤتمرهم الوطنى الرابع من (26 جويلية الى 1 اوت)

ببنزر الباى (تونس) بدون توقف وبأى ثمن الكفاح أو التحرير ، ويضاعفون مشاركتهم المباشرة فى المعركة ، ويعتبرون أنفسهم دائما مجندين فى خدمة الثورة ، وهم على استعداد للانقطاع من جديد عن دراستهم من أجل الاستجابة لاى نداء توجهه الثورة •

ونستخلص من كل ما يبق ذكره ، ان المنظمة الطلابية ، وكل ما قدمته من تضحيات تمثل فى استشهاد العديد من اعضائها فى ساحة القتال من أجل استعادة التراب الوطنى ، وتركو المدرجات الجامعية ليعيشوا فوق سفوح الجبال مسؤولين وجنود فى صفوف ثورة (تعرف بدايتها ولا يمكن تحديد نهايتها) لهى أقل من خدمة يقدمها الانسان لمجتمعه يمكن أن تلعبها منظمة طلابية للثورة خصوصا وأنها لم تنصرف عن الاهداف التى رسمتها لنفسها داخل ثورة الشعب الجزائرى •

الاتحاد وضروب القمع

ان السلطات الفرنسية قد ضاعفت من أعمالها القمعية ضد الطلبة الجزائريين يوما بعد يوم لكون ان الحكومة الفرنسية بدلا من اتخاذ وسيلة لسياسة التفاوض والوصول الى سلام حقيقى ، جابهت موقف الشعب الجزائرى كله بطريقة قمعية بواسطة السلطات الخاصة التى سلمها البرلمان الفرنسى يوم 16 مارس 1956 للنظام الاستعمارى بالجزائر الذى كان قد تجاوز •

ومنذ افريل 1956 عاش الطلبة الجزائريون فى الاحياء الجامعية مضايقات شديدة ، وحملة من الاعتقالات سواء فى فرنسا أو فى الجزائر ، بل ان بعض الطلبة الفرنسيين اصبحوا يقومون باثارة حزازات ضد الطلبة الجزائريين منذ 1956 •

لطخ بعض الاساتذة الاستعماريين خصوصا فى الجزائر ايديهم فى دماء الابرياء ، عندما طالبت (لجنة العمل الجامعية) C. A. U. وطلبوا بتجنيد عام للطلبة الفرنسيين ، بل ذهبوا الى حد المطالبة بانشاء فرقة من المقاتلين لمضاعفة حرب الاسادة ضد الشعب الجزائرى وعرف الاتحاد الوطنى للطلبة المسلمين الجزائريين خلال الفترة الممتدة ما بين عام 1955 وجانفى 1959 حملة من الاعتقالات فى صفوف الطلبة وفقدان بعض العناصر القيادية ومصادرة مقر الاتحاد بباريس والقاء القبض على المسؤولين فى الاتحاد مع قتل بعضهم وسجن البعض •

وتعتبر سنة 1956 من أخطر المراحل التى مرت بها المنظمة تمثلت فى عمليات القمع والاعدام والقيام بعمليات الطرد بحيث بلغ عدد الطلبـةالمحكوم عليهم حوالى 40 طالبا وقد تمثلت عملية القمع حتى بعض المحامين من الذين تطوعوا للدفاععن الطلبة الجزائريين عشية المحاكمة ومثل هذه الاعمال الاجرامية تغنينا عن الحديث عن اعمـالالبطش والتعذيب التى كان الطلبـــة الجزائريين يتلقونها داخل السجون الفرنسية .

ان قرار حل الاتحاد من طرف الحكومة الفرنسية لا يعنى فى نظر اعضاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين نهاية المنظمة بل لقد حـدثعكس ما كان متوقعا لـدى الحكومة الفرنسية ، فقد نتج على قرار الحل خروج اجهزة التسيير الىالمنظمة من فرنسا وقرار عدد كبير من الطلبـــة الجزائريين مما ساعد فى التطور الطارىء للسياسةالدولية للاتحاد العــــام وأكتسب الاتحاد بذلك صبغة هامة تمثلت فى تأثيره على الحركات الطلابيةالعالمية فزاد النشاط النقابى والتنظيمى للاتحاد الذى يشرف على اعضـاء المنـــع وتسيير بعضالمصالح وتحسينالشروط المادية للطلبة الجزائريين الموزعين على 25 دولة .

واثر الاعلان عن قرار الحكومة الفرنسية المتعلق بحـــل الاتحاد العـــام للطلبـة المسلمين الجزائريين فى 28 جانفى 1958 تم اعتقال 50 طالباجزائريا واذا كان من الطبيعى ان يتلقى الطلبة الجزائريين ضربات قاسية على يد السلطات الفرنسية داخل فرنسا فان عملية القتل وملاحقـــة البوليس الفرنسى لاعضاء الاتحاد تجاوزت حدودالسيـــادة الفرنسية ، فقد تعـــرض الطلبـــة الجزائريين لعمليات الابادة والقتل واساليب الاضطهاد والارهاب والقمع فى عدد بلدان أوروبـا الغربية وفى الوطن الام .

وهذه قائمة نموذجية لبعض الضحايا الذين سقطوا فداء من اجل القضية .

قائمـة الضحايا واسعـــة

المرحوم : محمد خميستى :

تم يوم 12 نوفمبر 1957 القاء القبض على المرحوم محمد خميستى الامين العام للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، فى الوقت الذى كانمسجلا كطالب بجامعة مون بوليى وبعد اسابيع تحت تعذيب الشرطة الفرنسية تم نقله الى سجنبربروس ثم حول الى سجنالجزائر Maison Carrée بالجزائر .

وكانت (التهمة التى وجهت للمرحوم) هى قيامه بنشاطات سياسية للمس بالامن العام الفرنسى بالجزائر وبعد أيام كانت السلطات الفرنسية فى غفلة مقصودة ، ومتجاهلة بان الامين العام للاتحاد لم يدخل الجزائر منذ أكتوبر عام 1953 .

تقرر يوم 23 ماى 1959 تقديم 15 طالبا جزائريا القى القبض عليهم بدعوة اعادة تأسيس الاتحاد العام بعد حله مع مطلع 1958 من طرف الحكومة الفرنسية .

وكان من المقرر أن يمثل الطلبة أمام المحكمة (17) بباريس ولكنه تم اغتيال المرحوم امقران ولد عوابدية المحامى وهو أحد المحامين المطلعين بالدفاع عن الطلبة عشية (المحاكمة) بباريس فى شهر ماى 1959 .

وهذا الحادث الاجرامى يذكر بحادث المحامى قونوفى الذى سقط ضحية عمليات القمع الفرنسية .

طالب عبد الرحمن :

وتم اعدام الشهيد « طالب عبد الرحمن » الذى كان يزاول تعليمه بكلية العلوم بجامعة الجزائر يوم 24 أفريل عام 1958 بالجزائر وكانت التهمة هى على يد الزمرة العسكرية بالجزائر .

ويحمل اليوم نادى الطلبة اسم هذا الطالب الشهيد الذى ضرب أروع مثل فى التضحية البطولية والفداء .

آخر ضربة استعمارية :

وقد كانت آخر ضربة استعمارية موجهة ضد الطلبة الجزائريين بصفة خاصة والثقافة بصورة عامة هى حرق (المكتبة) الجامعية آخر توقيف اطلاق النار عشية الاستفتاء الشعبى لشهر جويلية عام 1962 . هو قد تسبب هذا التخريب فى الحاق اضرار على يد الارهابية بالمؤسسة الثقافية فيما الفروع الحقوق والعلوم والطب 500000 كتاب من كتب المكتبة الوطنية وهذا الحادث الرهيب الذى استهدف هدم الثقافة فى الجزائر فى اطار سياسة (الارض المحرقة) قد دبرت بعد توقيف اطلاق النار ، وهى دليل على أن عملية القتل والملاحقة الطلابية وتخريب المؤسسات التربوية قد تواصلت حتى بعد اتفاقيات افيان بهدف ابقاء الشعب الجزائرى فى بحر من ظلام الجهل والتخلف الفكرى .

دور الاتحاد على الصعيد السياسى الخارجى

ان النشاط الحيوى الذى تميز بها النشاط السياسى للمنظمة الطلابية الجزائرية ابان معركة الكفاح المسلح قد جعلت العالم بكامله يجعل من قضية التحرر الجزائرية فى مقدمة القضايا العادلة وذلك فى جميع المظاهرات التى تنظم فى العدد من المناسبات ,فبفضل الاعمال الجادة والعلاقات الودية التى اقامتها المنظمـــة الطلابية الجزائرية اصبحت على الاتحاد الطـلابية التقدمية تتجاوز التأييد المعنوى مثل برقيات الاحتجاج ضد اعمال القمع التى تقوم بها السلطات الفرنسية ضـــد الشعب الجزائرى ، بل تقوم بتقديم مساعدات مادية مثل المنـــح وشرح القضية الجزائرية فى الاوساط الشعبية منها والطلابية وتنظم حملات لجمع التبرعات والحديث عن القضية الجزائرية سواء فى الصحف أو عن طريق المناشير والعرائض خلال التظاهرات وأخذ الكلمات حول القضية الجزائرية اثناء المهرجانات الطلابية بل ذهبت بعض الاتحاد الطـــلابية الى تقديـم المنح والادوية والماهمات المالية لفائدة الطلبـة الجزائريين لمساعداتهم فى اداء واجبهـم الوطـنى . ومواصلـــة تقلمهـم ليكونوا لخبرة الشون فى معركة البناء والتشييـــد فعلى الصعيد الدولى مثلا استطاع الاتحاد الوطنى للطلبة المسلمين الجزائريين، رغم ملاحقة السلطات الفرنسية لاعضائه ، وقرار حله ان ينظم الندوات الدولية بلندن (بريطانيا) فى الفترة ما بين (17 18 افريل 1958) حقق منها انتصارا دوليا هاما نظرا لكونها خصصت لمناقشة قضية حل الاتحاد والتعريف بالقضية الجزائرية على الصعيد الدولى والحصول على تأييد 32 منظمة طلابية من بل ان المنظمات الطـــلابية المشاركة فى الندوة التزمت بشرح القضية ومطالبتها باستقلال الجزائـر .

ومن ناحية أخرى سمحت للاتحاد أن يجتاز بعض العقبات المادية لمواجهة ازمة الحل والملاحقة لضمان حياة الطلبة المشتتين فى انحاء المعمورة . ولتجنب الاطالة والوقوف كثيرا حـول النشاط السياسى الدولى للاتحاد ، نقول بكل اختصارات المنظمة كانت تشارك مشاركة فعليـة بهـــدف التعليق بالقضية الجزائرية فى كـــل المناسبات الدولية او الجهوية الهامة سواء كانت منها ندوات عالمية للشباب أو مؤتمرات طلابها منذ تاسيسها الى استقلال البـــلاد .

وقام الاتحاد ايضا بتنظيم مهرجانات ، وجولات عبر عدد من بلدان العالم فى الفترة ما بين (1957 ـ 1960) ، كما شارك اعضاء الاتحاد فى تربصات وملتقيات دولية .

المغرب العربي :

وعلى صعيد بلدان المغرب العربي، لعب الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين دورا فعالا فى تكوين (كونفدرالية) شمال افريقيا للطلبة التى تكونت مع مطلع سنة 1958 وتضم الاتحادات الوطنية الثلاث لبلدان المغرب العربى الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، الاتحاد العام للطلبة التونسيين ، والاتحاد الوطنى للطلبة المغاربة .

وكان الهدف الاول الذى انشئت من أجله هذه الكنفدرالية هو تحديد وتطبيق سياسة خارجية مشتركة للاتحادات الطلابية للمغرب العربى فى كل القضايا المشتركة والمصيرية ، وتأتى قضية استقلال الشعب الجزائرى فى طليعة القضايا التى يحمل على تحقيقها ابناء شمال افريقيا .

وفى فرنسا :

انه بالرغم من أن قوانين الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين تنص على تحسين العلاقات مع جميع طلاب العالم ، وامام الظروف العويصة التى كانت تمر بها الثورة والمنظمة الطلابية فى فرنسا .

كان الاتحاد ، يتنازل او يسكن عن الاهداف التى ترمى الى تحقيقها الثورة الجزائرية وفى مقدمتها آنذاك الاستقلال الوطنى وعليه صادقت اللجنة الادارية يوم 10 ديسمبر 1956 على لائحة تعبر فيها عن اسفها العميق للتحفظات التى يبديها الاتحاد الوطنى لطلبة فرنسا وتطالبه (بالخروج من التباس وذلك بتحديده بصفة واضحة موقفه من السياسة الاستعمارية بالجزائر والمطامح الوطنية للشعب الجزائرى) .

وتسبب رفض مكتب اتحاد طلاب فرنسا فى تحديد موقف واحد فى قطع العلاقات بين الاتحادين .

العلاقات مع الاتحاد الوطنى لطلاب فرنسا :

وبعد انقطاع كل العلاقات لمدة ما يقرب من اربع سنوات بين الاتحاد العام للطلبة الجزائريين والاتحاد الوطنى لطلبة فرنسا بسبب عدم وضوح مواقف الاتحاد الفرنسى من القضية الجزائرية ، تجددت العلاقات مرة أخرى عام 1960 على اثر انعقاد مؤتمره الوطنى فى شهر افريل وحدد

مواقفه من القضية الجزائرية بكل وضوح وكان هذا الموقف الاخير الذى يؤيد استقلال الجزائر ، قد سبقه حدثا هاما وبما كان له من التأييد على مؤتمر الطلبة الفرنسيين ، ففى 21 من شهر سبتمبر 1959 أمضى 121 مثقفا فرنسيا (بيانا يطلبون فيه باحلال السلام بالجزائر والدفاع عن حق الشبيبة الفرنسية فى رفض المشاركة فى العمليات العسكرية التى تقوم بها القوات الفرنسية ضد الشعب الجزائرى ٠

وقد حظى هذا البيان باشهار كبير فى الصحافة العالمية ، وردت الحكومة الفرنسية على هذا البيان بسلسلة من القاء القبض والعقوبات ضد الذين امضوا هذا البيان ٠

وعلى اثر تجديد العلاقات مع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين قررت الحكومة الفرنسية قطع المساعدة المالية التى كانت تقدمها للاتحاد الوطنى لطلاب فرنسا فى شهر جوان ٠ وهذه المساعدة المالية التى تقدر بـ 70٠000 فرنك جديد وتمثل 25٪ من ميزانية الاتحاد العلاقات بين المنظمتين قام الاتحاد الفرنسى فى مطلع شهر أكتوبر 1961 بنشر بلاغ يطلب فيه من الطلبة والشباب والعمال وكل العناصر الديمقراطية التعبير عن مطالبتهم لدخول فرنسا فى مفاوضات سلام مع الجزائر ، وبالحصل عام صغره حوالى 150000 شخص عبروا بحضورهم لهذا المهرجان عن المطالبة بالسلام فى الجزائر رغم تدخل البوليس الباريسى ومحاومة الحكومة منع عقدها لانها كما ترى يمثل خطرا على الامن العام٠

ومن دون شك ، فان مثل هذا المهرجان معتبرا مكسبا كبيرا للقضية الجزائرية وتحقق بفضل الدور السياسى العميق للمنظمة الطلابية الجزائرية ٠

وكانت المبادىء الاساسية التى تقوم عليها سياسة الاتحاد فى مجال التعاون الدولى هى رفض انشاء العلاقات مع اية منظمة طلابية ليست لها مواقف واضحة من الحق الطبيعى لجميع الشعوب فى الاستقلال الوطنى تمشيا مع ميثاق الامم المتحدة ٠

والمبدأ الثانى هو التمتع باستقلالها السياسى ازاء اتجاهات التقسيم فى العالم فهى لا تسمح لنفسها على العمل من أجل خلق المعسكرات أو التكتلات على اختلاف انواعها فمواقف الاتحاد كانت تمدها مبادىء الثورة الجزائرية والمصالح الحقيقية لشعوب افريقيا التى كانت تكافح من أجل استقلالها وتحمل بهدف تحرر بلدانها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ٠

واصدق ما نقول عن النشاط السياسى الخارجى للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين هو ما جاء فى وثيقة للاتحاد الوطنى لطلاب فرنسا نشرت فى شهر جانفى عام 1961 حيث جاء فيها ما يلى : (وان التطور الهائـــل فى السياسة الـدولية للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين قـــد جعلته من احدى الاتحادات ذات الوزن الكبـيرواكثرهم تاثيرا عن الحركة الطلابية العالمية •

والحقيقة انه اذا كان لجيل الثورة الشرف الكبير فى مغادرة مقاعده الجامعات وحمل السلاح لتعيش الجزائر حرة مستقلة فان ما يقوم به الطلبة اليوم من واجبات وطنية مثل الخدمة الوطنية والاعمال التطوعية لفائدة الثورة الزراعية لبرهان على سلامة شبيبتنا وصدق المثل القائل انه لخير خلف لخير سلف •



مكانة ثورة أول نوفمبر 1954



بين الثورات العالمية

ودورها في تحرير الجزائر وإفريقيا

يحيى بوعزيز
وهـــران

تقاس الاحداث التاريخية بمدى ما تحدثـه من تاثير في الاوضـــاع الداخلية والعالمية • وفي التاريخ الحديث والمعاصر عدد من الثورات تعتبر عالمية لما لها من دور في تغيير اوضاع البلدان التي انطلقت منها ، وفي اوضاع البلدان الاخرى خارج حدودها • ومن ضـــمن هذه الثورات : الثـورة الامريكية ، والفرنسية ، والروسية ، والمصرية ، وثورة أول نوفمبر 1954 الجزائرية من هذا النوع رغم تاخرها زمنيا ، مـع ميزات اخرى لها تميزها عن غيرها كما سنوضح •

فالثورة الامريكية عام 1776 تأتي أهميتها في كونها استطاعت ان تحرر الثلاثة عشرة ولاية على الشاطىء الاطلسى من الاستعمار الانجليزى وان تعلن حقوق الانسان . ولكن هذه الثورة سرعان ما انزلقت بعد ذلك الى الحرب الاهلية بين ولايات الشمال والجنوب بسبب مشكلة العبيد الافارقة والاسترقاق التى ما تزال حتى اليوم تمثل وصمة عار فى جبين المجتمع الامريكى الذى يطبق السياسة العنصرية البغيضة ضد السود الافارقة والهنود الحمر . ثم ان الثورة الامريكية قهرت الانسان الامريكى الاصيل ، ووسخت دمه النقى بدماء الاوروبيين اللقطاء وفرضت سيطرة الاوروبى الذى ذهب الى هناك غازيا ومستعمرا . ومن هنا فهذه الثورة بقدر ما كانت رحمة وبركة على الاوروبى الغازى فهى لعنة ونقمة على الامريكى الاصيل .

والثورة الفرنسية عام 1789 عظيمة الاثر لكونها حطمت أعظم ملكية مستبدة جائرة فى أوروبا وأعادت للشعب الفرنسى كرامته وحريته بعد ان ألغت نظام الاقطاع وامتيازاته التى كانت تقسم الشعب الفرنسى الموحد الى طبقات اجتماعية لا أساس لها اطلاقا فى سنن التشريع والعدالة . وكان كابوسها ثقيلا على المجتمع الفرنسى لعدة قرون خلت . ثم ان هذه الثورة استطاعت أن تقوض عروش أوروبا الاخرى ، وتبعث فى شعوبها روح الامل فى التحرر والانعتاق من رجس الاقطاع وجبروته وذلك بفضل المبادىء والمثل التى جاءت بها ونادت بتطبيقها . وكان لها الفضل بعد ذلك فى اندلاع الثورات الدستورية التى حصلت بأوروبا فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وادت الى سقوط الملكيات المستبدة وقيام حكومات دستورية عادلة .

ولكن الثورة الفرنسية رغم هذا كانت ثورة حمراء سالت فيها انهار من الدماء وقطعت المقصلة رؤوس حوالى خمسة عشر ألف شخص فى ظرف شهر ونصف معظمهم من الابرياء . ثم ان هذه الثورة سرعان ما تحولت عن اهدافها التحررية . وانساقت وراء سياسة التوسع والاستعمار داخل أوروبا وخارجها بزعامة نابليون بونابرت الذى غزا ايطاليا والنمسا ، والمانيا ، ومصر فى الشرق ، وسوريا ، وهدد الجزائر بنفس الوضع لو لم تعاجله المشاكل الداخلية وتحالف أوروبا ضده .

والثورة الروسية عام 1917 كانت رحمة وبركة على الشعب الروسى حررته من ظلم وجبروت القياصرة المستبدين ، وتحكم الاقطاع الفلاحى ،وساعدت الشعب الروسى على تحقيق معجزاته الكبرى فى ميدان الاقتصاد والتيكنولوجيا مما سمح له ان يقتحم الفضاء الخارجي ويكتشف اسرار

الذرة . وهذا النمو والتطور فى الميدان الحضارى هو الذى ساعدها على التأثير فى الاقطار المجاورة لها بشرق أوروبا ، وفى الصين بآسيا .

ولكن هذه الثورة الروسية لا تستطيع أن تبرىء نفسها من التحكم والسيطرة التى يفرضها الشعب الروسى حاليا على شعوب غير روسية خاصة الشعوب الاسلامية فى القوقاز والتركستان وكازخستان بآسيا الوسطى .

والثورة المصرية عام 1952 لا ينكر فضلها فى تغيير أوضاع مصر الداخلية حيث حررت الشعب المصرى من الملكية الفاسدة ، والاقلية الاقطاعية المتجبرة التى كانت تتعاون مع الاستعمار الانجليزى . وساعدته على اقتحام معارك البناء الاقتصادى والحضارى ، وكان من ابرز مكاسبها : استعادة القناة الى الشعب المصرى ، وطرد الاستعمار الانجليزى ، وتحرير الشعب من الاذلال الذى كان يعيش فيه منذ قرون وقرون ، وتمكينه من ادارة دفة البلاد بنفسه فاصبح يشعر لاول مرة بنعمة الحرية والاستقلال .

ولكن الثورة المصرية يعيقها عن السير والتقدم ، الاقطاع الداخلى الذى ما زال لم يصف بعد بصورة نهائية . والرجعية العربية بالمنطقة التى ترى فيها خطرا محدقا بها ، وتسعى جهدها لتصفيتها مستعينة بالقوى الخارجية التى تشاطرها الرأى ، لان الثورة المصرية كانت السبب فى كل الانتفاضات التى حصلت بالشرق العربى خاصة بالعراق واليمن ، وامارات الخليج ، وسوريا ولبنان وغيرها .

أما ثورة أول نوفمبر 1954 الجزائرية فزيادة عن كونها ـ عالمية ـ فهى أعظم تأثيرا ، وأبلغ اهمية ، سواء فى الميدان الداخلى أو الخارجى ،وذلك لكونها كانت ثورة ضد سلطة استعمارية شرسة حكمت البلاد بصورة مباشرة طوال قرن وربع القرن ، وضد روح التشكك التى زرعتها هذه السلطة الاستعمارية خلال هذه الفترة .وجعلت الشعب الجزائرى يرى تاريخه الطويل الزاخر بالامجاد والبطولات ، شبحا وخيالا أو بمثابة سراب . ولكى نبعد عن الخيال والاساطير ، لابد من ايراد الدلائل والبراهين المادية من واقع البلاد وتاريخ الشعب . ولنبدأ بالميدان الداخلى .

ثورة أول نوفمبر 1954 اعادت الثقة للجزائرى بنفسه :

لقد خضعت الجزائر للاحتلال الفرنسى طوال قرن وربع قرن ، وعمل المحتل الفرنسى كل ما يقدر عليه من أجل أن ينسى الشعب الجزائرى أصله وتاريخه ، ويشطب بجرة قلم على أمجاده

الحضارية التى تمتد الى غابر الازمان · وعانى الشعب الجزائرى الشيء الكثير من الضيم والجور والقسوة والحرمان · وكان اخطر ما عاناه فوق هذا كله ، حالة التشكك فى أصله ، وتاريخه ، وفى شخصيته القومية لدرجة أن بعض الجزائريين تجرأوا على القول بأن ليس هناك بلد اسمه الجزائر ، ولا شعبا اسمه الشعب الجزائرى العربى المسلم ، ودعوا الى دمج هذه البلاد وشعبها فى المجتمع الفرنسى الاوروبى المسيحى ·

وثورة نوفمبر 1954 هى التى اعادت الثقة للمجتمع الجزائرى فى نفسه ، وأكدت له اصالته التاريخية التى تمتد الى أعماق التاريخ القديم ·وعودة الثقة هذه هى الدعامة الاساسية للكفاح البطولى الذى خاضه شعب الجزائر طوال سبع سنوات ونصف · وقد تبدو للبعض هذه « الثقة العائدة » بسيطة او ساذجة ، ولكن اهميتها فى الحقيقة بالغة ، ولولاها لما تحمل شعبنا تلك الاهوال التى تعجز الجبال عن تحملها ، وهناك أمثلة حية اليوم لشعوب فقدت الثقة بنفسها ولم تستطع ان تفعل شيئا · ومن ضمنها شعب جنوب افريقيا ، والهنود الحمر بامريكا ، وسكان أوستراليا الذين مسختهم مجتمعات أوروبا الغازية المستعمرة ، واذابتها ولم تبق على البعض منها الا من أجل الاستغلال السياحى والدراسات البشرية كما يجرى الحال فى اوستراليا مثلا ·

لقد كافح شعب الجزائر ، قبل ثورة نوفمبر 1954 ، سبعين عاما بالسلاح ، ونصف قرن بالسياسة ، فلم يحصل على طائل ، وكنا نسمع دائما بأن الجزائر قلب ميت وطائر مكسر أعاق الجناحين عن الحركة والسير · سمعنا هذا من بعض اخواننا التونسيين والمغاربة فى مطلع الخمسينات عندما بدأوا يحاولون الانتفاضة · وهم محقون فى هذا ظاهريا لكونهم لم يكونوا يعلمون بواطن الامور كما ندركها نحن ، كما لم يكونوا يحسون بثقل الكابوس الذى كنا نحن نرزح تحته ·

ان ثورة نوفمبر هى التى دفعت هذه الشبهة ، ونزعت هذا التشكك ، واثبتت ان الجزائر لم تكن قلبا ميتا ولا طائرا مكسر الجناحين ، بل هى قلب شاب ينبض بالحياة والحيوية والنشاط ، وصقر لا تناله السهام والنبال ، ولا تفلت منه فريسته مهما كانت طاغية أو شرسة ·

ان ثورة نوفمبر من هذه الناحية هى : « البعث » الجديد للجزائر الجديدة والحديثة بكل ابعادها ومفاهيمها انها وعت كل الدروس التى مضت واستخلصت العبر من اخفاق كل الثورات السابقة لها من عبد القادر ، وأحمد باى ، وبومعزة ، وبوزيان ، وبوبغلة ، وبوحمارة ،

والحاج عمر ، وبوختناش ، وسى الصادق وفاطمة الى اولاد سيدى الشيخ ، والمقرانى ، والحداد ، والعمرى ، والاوراس ، وبوعمامة وغيرهم الذين لم يكونوا يخططون لعملهم ولا يعتمدون على القاعدة الشعبية كجبهة ، وانما كانوا زعماء جهويين لثورات اقليمية متباعدة الزمن ، معزولة عن الامكانيات التى توصلها الى أهدافها النبيلة ·

وقد فهمت ثورة نوفمبر جيدا أن ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بها ، وأن الحرية تؤخذ وتنتزع ، ولا تهدى وتعطى أبدا · كما أنها درست التجارب الماضية لها وهى حصيلة سبعين عاما من الكفاح المسلح ، وخمسين عاما من الكفاح السياسى ،وأصرت على أن لا تدخل المعركة الا بجبهة قوية تمثل كل فئات وطوائف الشعب ، تحميها من الاخفاق والمهالك ، وبقيادة جماعية مخططة تجنبها المزالق الشخصية التى وقع فيها أجدادنا فى القرن الماضى وتضمن لها النصر والنجاح ·

وليس من السهل توحيد الشعب فى جبهة واحدة فى بلد عشش فيه الاستعمار ، وكبش بانيابه ومخالبه عليه وعلى مقدراته طيلة قرن وربع القرن· وأصبح الكثير من زعمائه السياسيين يدعون النبوة والرسالة ، وتباينت آراؤهم حول المطالب الوطنية الواضحة للشعب الجزائرى تباينا خطيرا وعميقا · فالبعض يدعون الى التجنيس والفرنسة والذوبان فى المجتمع الفرنسى الاوروبى المسيحى · والبعض يدعون الى تحقيق اصلاحات اجتماعية بسيطة لا تتعدى الشؤون الدينية والاقتصادية · والبعض رضوا ، نتيجة للتطور التاريخى ، ببروز شخصية جزائرية ولكن فى اطار الكيان الفرنسى وتحت علمه · ولم يكن هناك الا تيار واحد استقلالى برز مع ظهور هيئة « نجم شمال افريقيا » ، فى بداية العشرينات من القرن الحالى ، وتدرج فى اطار « حزب الشعب الجزائرى » قبل الحرب العالمية الثانية ، وحزب « حركة الانتصار للحريات الديموقراطية » بعدها · ولكن هذا التيار كان محاربا من الجميع : الاستعمار الفرنسى ، واذنابه من الجزائريين ·

وقد وصلت الخصومة بين هذه التيارات السياسية الى درجة العفونة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وفى مطلع الخمسينات بصورة أخص · وتسربت هذه العفونة حتى الى داخل التيار الاستقلالى نفسه : حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الذى انشق على نفسه ودخل فى دوامة من الصراع والسباب بين زعيمه الهرم ،والاكثرية من شبابه المناضلين · جعلت الاستعمار يطمئن للوضع ، ويتفرج من بعيد على ساحة المعركة ·

وكان فضل ثورة نوفمبر 1954 في توحيد هذا الشتات « مكسبا وطنيا » هائلا ، وفي منتهى القداسة ، بحيث أذابت الجميع في « جبهة التحرير الوطني » الاغلبية عن ايمان واقتناع ، والاقلية « بالموسى » والخنجر ، والشاقور . وكان هذا انجازا عظيما لثورة نوفمبر 1954 .

الصعاب الداخلية التي واجهتها الثورة :

لقد كانت الجزائر في نظر التشريعات الفرنسية قطعة من التراب الفرنسي رغم وجود تسعمائة كليو مترا من مياه البحر المتوسط فاصلا بينهما ، ورغم الاختلاف والتباين في التاريخ والعادات والجنس واللغة والعقيدة ، بل وحتى في الجغرافية والمناخ . وتمشيا مع هذه النظرة الخاطئة استماتت فرنسا في مقاومة الثورة الجزائرية واستعملت كل الوسائل التي فاقت امكانياتها وطاقاتها المادية والبشرية ، فجندت ما يزيد عن مليون ونصف من الجنود ، وسلحت قرابة المليون معمر أوروبي القاطنين بالجزائر ، واستعانت بخبرة الحلف الاطلسي وامكانياته العسكرية والنفسية ، وجندت طابورا من «الحركة» و «القوم» الجزائريين الذين باعوا ذممهم ووطنيتهم وضمائرهم . واقامت معسكرات الاحتشاد والتجمع التي ساقت اليها مئات الآلاف من أفراد الشعب كمحاولة لفصل الثورة عن الشعب . واقامت مناطق محرمة في شرق البلاد وغربها . عززتها بخطوط الاسلاك الشائكة المكهربة والطرق الملغمة ، والمراكز العسكرية . وذلك من اجل عزل الجزائر تماما عن العالم الخارجي ومنع وصول المؤن والنجدات الى الثورة والمجاهدين . وجهزت من طائرات الاستكشاف والقنبلة لمراكز الثوار زاد معدل قذفها الشهري عن عشرة آلاف عملية . وعززت ذلك بفرق من الجيش الفرنسي الخفيفة للتنقل بسرعة وراء الثوار . وشنت عمليات عسكرية ضخمة ودورية اكتسحت الجزائر شبرا بشبر . وشعبة بشعبة من أجل افناء كل اثر لجنود جيش التحرير الوطني وكان من ابرز هذه العمليات ،عمليات : المجهر ، وشال ، وماراثون ، والضباب وغيرها من جبال تلمسان ، والونشريس ، الجرجرة ، وحوضى الصومام ، والبيبان ، وبوطالب والاوراس ، والشمال القسنطيني . ومن سمات هذه العمليات : الضخامة في العدة والعدد ، والدوام في المدة طويلا ثلاثة اشهر وزيادة ، بل ان عملية المجهر في القبائل الصغرى دامت اكثر من خمسة أشهر ، انتشر فيها جنود الجيش الفرنسي في كل كدية وشعبة واستعملوا ادوات المجهر لاكتشاف الجنود الى جانب اجهزة الارسال والاتصال والقذف وكانوا يقنبلون حتى الدجاج

اذا رأوه في مكان ما • وتـــم انجاز معظـم هذه العمليات في عهد دوغول • ولشدة هولها وقساوتها فانه حتى الاحمرة عندما تسمع أزيز الطائرات تسعى للاختفاء والاحتماء بالاشجار كما أكد لنا ذلك أكثر من مجاهد •

وزيادة على هذه العمليات العسكرية الضخمة ، مارست القـوات الفرنسيه عمليات التعذيب الجهنمية بمختلف الاساليب والاشكال ، كقلـــع الاظافر بالكلاليب ، وتسليط الكهرباء على اجزاء الجسم الحساسة ، مثل الذكر ، والفرج ، والنهود ، وبقر بطون الحوامل ، وتعليق الاشخاص بصورة مقلوبة ، وغطس الرؤوس في أحواض المياه الحارة أو الباردة ، ووضـــع حنفيات المياه في افـواه الاشخاص وفتحها حتى تمتلىء البطون ثـم ترفس بالارجل لتخرج المياه على الدبر ، واكراه الناس على شرب مياه الصابون ، وتـرك آخرين للعطش مع وجود المياه بقربهم ، وتسليط الكلاب عليهـم لتنهشهم ، وسحب البعض احياء بالخيول والحيوانات ، وجرح الجسم بامواس الحلاقة وايداع البعض في بيوت مظلمة أياما واسابيع على الاسمنت البارد وارغام البعض على المشي على المسامير ، وما الى ذلك من فنون التعذيب الجهنمية ، كل ذلك من اجـــل الحصـــول عـلى معلومات عن الثـورة وجنودها • وارغام الناس على التنكر لرجال الجيش والجبهـة وتواصلت هذه العمليات طوال سنوات الثورة ، ولكن الثورة لم تفشـــل ، والشعب لم يتردد في تدعيمها ، وامدادها بكل ما تحتاج اليه من مـؤن وذخائر وعون •

منجزات الثـورة داخليا :

ان كل الوسائل التي استعملتها فرنسا ضد الثـــورة لم تفدها ، بـــل ان الكثير منها عاد وبالا عليها هي • أما الثورة فقد واصلت مسيرتها بتدرج وتطور منطقي • فبعد انطلاقتها الاولى في نوفمبر 1954 لم يمض عشرة شهـــور عليها حتى انطلقت انطلاقتها الثانية في أحداث عشرين أوت 1955 التي عمت كل الشمال القسنطيني • لتسفه احـلام واكاذيب الدعاية الفرنسية التي كانـت تدعي ان متزعمي الحوادث « فلاقة » وقطاع طرق ، مدفوعون من الخارج ، وليسوا ثوارا ذوي اهداف وطنية • ثم اكتمل شمول الثورة في أكتوبر من نفس العام عندما فتحت جبهة وهران الغربية أو الولاية الخامسة • وفي مؤتمر الصومام ابتداء من 20 أوت 1956 حققت الثورة شخصيتها السياسية والعسكرية • فوضع اطار لجيش التحرير الوطني مكنه من أن يصبح جيشا نظاميا في مستوى جيش

العدو ، بل واقوى منه في الاساليب • وبرزتشخصية جبهة التحرير الوطني باهدافها الواضحة ومطالبها العادلة التي اعترف بشرعيتها كل العالم المتحرر واصبحت لجنة التنسيق والتنفيذ ، والمجلس الوطني للثورة الجزائرية ، يلعبان دورابارزا في مقاومة اساليب جيش الاحتلال في الداخل ، وألاعيب الديبلوماسية الفرنسية فيالخارج • وكان ميلاد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958 خطوة هامة لكسبالاعتراف الدولي بالدولة الجزائرية الجديدة ، وارغم دوغول على الاعتراف بحق تقرير المصيرللجزائر في نوفمبر 1959 • ثم جاءت مظاهرات ديسمبر 1960 لتفضح كل اكاذيب وادعاآتالضباط الفرنسيين بان الثورة الجزائرية قد ماتت وانتهت ، وان الشعب الجزائري ضد الجبهةومع فرنسا • وكانت صيحة المتظاهرين بشعارات « تحيا الجزائر . وجبهة التحرير » و « وتسقطفرنسا والاستعمار » في عين تيموشنت ، والجزائر العاصمة ، ووهران والبليدة وعنابة ، أخطر انذارواجهه دوغول وجعله يقطع رحلته ويعود الى فرنسا بسرعة ليكشف التقارير المزورة التي كان يوجهاليه ضباط الشؤون النفسية والبسيكولوجية بالجزائر ، •ليشرع على التو في مخاطبة الجبهة كممثل وحيد للشعب الجزائري ، والتفاوض معها من أجل الاستقلال الوطني •

لقد حطمت الثورة الجزائرية سبعة حكومات فرنسية هي : حكومة مانديس فرانس ، وقي مولي ، وبورجيس مونوري ، وادقار فور ،وفيليكس قايار ، ومولي الثانية ، وفليملان • وقوضت أركان الجمهورية الرابعة الفرنسية ،وزرعت الفشل في الجيش الفرنسي والحقت به هزائم تاريخية رغم الدعم الكبير الذي كان يتلقاهمن الحلف الاطلنطي • وجعلته يتردى في تمردات داخلية كما حصل في 13 ماي 1958 ، وأبريل1960 وجانفي 1961 • واستطاعت الثورة أن تعزل فرنسا دوليا طوال سنوات الثورة السبع ، وأنتصيب الاقتصاد الفرنسي بضربة قاضية فتدهور وتضعضع • وامتد التفسخ والانحلال الى أوساطالشعب الفرنسي الذي انقسم على نفسه بين مؤيد للحرب الاستعمارية التي تشنها بلاده ضد الشعبالجزائري ، ومعارض لها ، وباختصار فان فرنسا اورثتها ثورة نوفمبر الجزائرية افلاسا اقتصاديا ،وعزلة سياسية دولية ، وتفسخا اجتماعيا ، وهزائم عسكرية كبيرة • واضطرت في النهايةأن تعترف بالواقع المر وتتأكد من أن ما يجرى في الجزائر ثورة وليس تمردا ، ووراء هذه الثورةقيادة كفؤة ، وتخطيط محكم ، واهداف وطنية سامية • واكرهت في النهاية أن تذهب الى طاولةالمفاوضات في مولان ، وايفيان ، ولوقران ،

لتجلس مــع الذين كانت تزعم انهم « فــلاقة »ولصوص مدفوعون من الخارج • وتعترف بهــم كممثلين وحيدين للشعب الجزائرى • وتنفاوض معهم على قاعدة الاستقلال التام •

ولم تفلح فرنسا فى خلق التلاعبات واثارة العقبات فى طريق الاستقلال • ففشلت فى خلق « القوى الثالثة » من العملاء والخونة لتنافس بهم جبهــة التحرير الوطنى رغــم الرحلات العديدة والطويلة التى كان يقــوم بها لويس جوكس أوكيسنجر فرنسا انذاك وفشلت فى فصل الصحراء عن اجزاء الوطن الاخرى ، كما فشلت فى اثــارة الــدول المجاورة لها فيما دعته قضية الحــدود • وكانت ديبلوماسية جبهة التحرير اقوى وأبلــغ منها فى الاقناع والتوضيح حتى لدى من كانــت تظن انهم سيكون سدا وجدارا فى وجه الثــورة الجزائرية مثل تونس والمغرب الاقصى •

دور ثورة نوفمبر فى تحرير افريقيا :

ان دور ثورة نوفمبر الجزائرية فى تحرير افريقيا عظيم جدا • والتاريخ هو الذى سينصفها عندما يتقادم الزمن وتبعد الحوادث • والمنصفون من الساسة الافارقة اعترفوا فعلا بهذا الدور • لان ثورة نوفمبر هى التى حطمت حقيقة الامبراطورية الفرنسية ما وراء البحار ، وكانت آخر حلقة فى سلسلة الهزايم التى توالت على فرنسا طوال قرن ونصف قرن من الزمن •

فلقد فشل الامبراطور نابليون الاول فى غزو روسيا عام 1812 وفقد فى مغامرته الطائشــة معظم قواته التى كانت تقدر بنصف مليون جندى ولم يعد الا بحوالى مائة ألف رجل فقط • وتحامت ضــــده دول أوروبا وارغمته على العيش منفيا فى جزيرة سانت هيلانة الى أن مات لتحمل بعد ذلك عظامه الى متحف لى زانفاليه : بباريس •

وفى عام 1870 هزم حفيده الامبراطور نابليون الثالث أمام قوات بروسيا الشابة التى اعتقلته واعتقلت معه مائة ألف من جنوده بعد هزائم ميتزوسيــدان ، واحتــل الالمــان باريس وتوجـوا امبراطورهم غليوم على دولة المانيا الموحـــدة فى احــدى قاعات قصر فيرساى بضواحى باريس • وكانت نكبة كبيرة ما تزال آثارها ماثلة فى اذهان الفرنسيين حتى اليوم •

وفى الحرب العالمية الاولى 1914 ــ 1918 تعرضت فرنسا لهزيمة ثالثة ولم ينقذها مــن تحت أقدام الالمان ســوى الانجليز والامريكان الذين تعرضت مصالحهم للخطر كذلك ، ولكن الالمــان

جددوا الكرة ضـــدها فى الحـرب العالمية الثانيةوهزموها واحتلوا فرنسا كلها تقريبا ، وارغموا الماريشال بيتان على العمالة لهم • ولم ينقذ فرنساالا نجدة الامريكان والانجليز مرة أخرى ، وتحالف روسيا معهم ، وسواعد الافارقة وامكانياتهم المادية

ولم تنته مشاكل الحرب العالمية الثانية واهوالها حتى دخلت فرنسا فى حرب استعمارية ضد الشعب الفيتنامى بالهند الصينية وكان تصيبهامنها الفشل والهزيمة النكراء خاصة فى معركـة ديـان بيـان فـو عـام 1954 التى اعتقل فيهـاالفيتناميون اكثر من عشرة آلاف جندى وضابط فرنسى وأرغموا الحكـــومة الفرنسية على الذهابصاغرة الى طاولـــة المفاوضات بجنيف فى نفس العام ، لتمضى على صك الرحيل والانسحاب مذلولة •

ومن سوء حظها عندما انسحبت من الهند الصينية أن الثورة الجزائرية على الابواب ولم يبق سوى بضعة اسابيع لتنفجر وتندلع وتصبح أخطرقضية تواجهها فى عقد الخمسينات • لقد كانـت ثورة نوفمبر 1954 ، بالنسبة للجيش الفرنسى ، رهانا لـه على كسب الانتصار ونزعه مهمـا كان الثمن الذى تدفعه فرنسا حتى يعوض عن هزائمهالسابقة عبر قرن ونصف من الزمن • فما هـى حيله ووسائله يا ترى ؟

انها التخلى عن كل المستعمرات الفرنسية فى افريقيا •

فبعد امضاء اتفاقية جنيف حول الهند الصينيـة عـام 1954 طار رئيس الحكومـة الفرنسية مانديس فرانس الى تونس بمعية المارشال الهرمجوان ذو التجارب الفاشلة فى المغـرب الاقصى ، وذلك ليمنح تونس استقلالا ذاتيا داخليا على انتبقى الشرطة والامن الداخلى والشؤون الخارجيـة والدفاع فى يد فرنسا لمدة عشرين عاما • ولكن الشعب التونسى لم يرض بذلك ، وتدعم كفاحه بقيام الثورة فى المغرب الاقصى والجزائر ، خاصةبعد احـداث 20 أوت 1955 فى الشرق الجزائرى تضامنا مع الشعب المغربى • واضطرت فرنسا انتعترف بالاستقلال التام للمغرب الاقصى ، وعـاد محمد الخامس من منفاه مرفوع الراس فى حين اضطر القلاوى صنيعة الاستعمار ان يذهب راكعا الى فرنسا لمقابلة محمد الخامس والاستغفار والاعتذارله عما بدر منه مـــن خيانة ، كما اضطر الملـك الصورى محمد بن عرفة أن ينسحب الى طانجة ثمالى منفاه خارج المغرب •

وكانت احداث المغرب الاقصى المزحومة والهائلة حافزا لبورقيبة ليشد الرحال عـلى التـو الى باريس وينتزع من قى مولى رئيس الحكومة الفرنسية الاستقلال التام لبلاده تونس اسوة بالمغرب

الاقصى . ولم يكن بد من ذلك لان فرنسا غارقةالى الاذقان فى ثورة الجزائر المظفرة ، والجيش الفرنسى فى رهان محموم من اجل الحصول على الانتصار ضدها .

وعندما انتصر الاشتراكيون فى انتخابات مطلع 1956 ، كان المراقبون يظنون أن فرنسا ستنصف ثورة الجزائر . وكنا نحن نعرف انهاسوف لن تفعل شيئا لان الاشتراكية لقب زائف فى فرنسا خاصة بالنسبة للجزائر . والاشتراكيينهياكل بدون محتوى ، وصدق حدسنا بسرعة لان قى مولى الامين العام للحزب الاشتراكى الفرنسىورئيس الحكومة الجديد تراجع بسرعة عن افكاره بعد ضربة الطماطم التى تلقاها من أوروبى الجزائرغداة زيارته لها يوم 6 فيفرى 1956 ، فقبل استقالة الجنرال كاترو الذى لم يلتحق بمنصبه اصلا ،وعوضه بالاشتراكى السفاح لاكوست الذى طلع على العالم بخبر « ربع الساعة الاخير » الذى بقىمن عمر الثورة الجزائرية لتموت وتندثر ، ولم يكن يدرى ان ذلك الربع هو « ربعه الاخير هو »ليسقط ويهوى ، ويتلوه الى نفس المصير ، الفيلسوف العبقرى « سوستيل » الذى هوى هوالآخر فى ادخال ثورة الجزائر المظفرة الكبيرة التى بقيت شابة وقوية تدوس باقدامها كل هؤلاءالادعياء ، وتسقط كل الحكومات الفرنسية المتوالية وتطيح بالجمهورية الرابعة بأكملها .

وامتد التعفن السياسى فى فرنسا الىالجيشنفسه الذى اصبح يشعر بالمرارة من الهزائم النكراء التى تتوالى عليه تباعا وبدون شفقة ،وظن ان التمرد والتحدى ضد فرنسا سينقذه من الفشل فتمرد بالجزائر غداة 13 ماى 1958 وجاءبالجنرال دوغول الى الحكم من قريته المعزولة بكولومبى ، كمنقذ لما دعاه « الجزائر الفرنسية »ولم يكن هذا الرجل أقل عنادا من سابقيه تجاه الجزائر ، ولكنه يمتاز عنهم بنظرته البعيدة لمصالح فرنسا الداخلية والدولية . فاكثر من التردد على الجزائر ليطلع على الامور عن كثبومن المواقع ، فى اطار « رحلات الموائد العسكرية » التى كان ينظمها له ضباط جيشه ، ورغم انهاكتشف خطورة الثورة وصعوبة ادغالها الا انه اصر هو الآخر على العناد والتحدى : « كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد » فأخذ يدعم جيشه بالعدة والعدد ، ودعا الثوار الجزائريين الىالاستسلام ورفع العلم الابيض فيما دعاه : « سلم الابطال » . وكمحاولة لتحدى الثورة الجزائريةوالتفرغ لمواجهتها التفت الى مشاكل المستعمرات الفرنسية الأخرى فى افريقيا . وكانت شعوبهذه المستعمرات قبل ثورة نوفمبر الجزائرية شبه نائمة تغط فى سبات الغفلة والنسيان . فايقظتهاهذه الثورة بضجيجها وهديرها ، وتساءلت عما

يجرى فى شمال قارتها ، وعندما علمت بالحقيقة، وبخطورة نومها وغفلتها سلكت نفس الطريق على غرار قول الشاعر العربى :

ولما رأيت الناس شـــدوا رحالهـــم　　الى بحـــرك الطامى اتيـــت بجـــرتى

وكانت صيحة « لا » التى اعلنها شعب غينيا بدايـة لمسيرتها نحـو التحـرر واضطر دوغول الى الاعتراف بالواقع والتسليم باستقلال شعبغينيا ، ولكنه حاول ان يقتله بقطع كل مساعـدة له كان شريان الحياة لا ينبع الا من باريس · غيران الشعب الغينى واصل مسيرته وبقى حيا يرزق وما يزال يتابع طريقة بنجاح ·

وبعد تجربة غينيا الناجحة اخذت باقى الشعوب الافريقية الاخرى تعلن صيحتها واضطـرت فرنسا ان تسلـــم باستقلالها ، وامـضى رئيسوزرائها ميشيل دوبرى فى يوم واحد عام 1960 على استقلال اثنى عشر بلدا افريقيا بعد استقلالموريطانيا فى نفس العام ، ولم يكن هذا الاعتراف سخاء وكرما من فرنسا ، وانما بفضـل ضغـط الثورة الجزائرية التى كانت بمثابة اليعبع لهـا تناطحها وتصفعها وتشبعها وكلا ورفسا من كلجانب ·

وكانت فرنسا تتصور ان التخلص من مشاكل مستعمراتها الاخرى يتيح لها الفرصة والقوة لكى تطعن ثورة الجزائر وتقضى عليها وعلى خطرها·ولكن ثورة الجزائر كانت « مسمـــار جحا » فى جسمها الهرم ، وجاءت الفائدة مزدوجة فتحررتافريقيا كلها مـــن رجس الاستعمـــار الفرنسى والبريطانى ، والبلجيكى ، وتحررت الجزائر بعدهاوكانت خير رائد لقافلة التحرر الافريقية ·

ثورة نوفمبر مفخرة للعرب وافريقيا : ومعركة الجزائر الكبرى ·

ان انتصار ثورة نوفمبر 1954 الجزائر، يعد مفخرة للعرب جيعا، لانها رفعت رأسهم عاليا ، واعطت درسا لا ينسى للبلدان الاستعمارية بانالعرب قادرون على تحقيق انتصارات خارقة ، بل وفذة فى التاريخ · وفى نفس الوقت فان هـذهالثورة مفخرة لافريقيا أيضا لانها هى التى اعادت اليها الحياة والحيوية ، وحفزتها على مسح غبـــارالغفلة والتخلف ، ودفعتها الى العمل من اجـل التحـــرر الوطنى وطـــرد المستعمرين الدخـــلاءالمستغلين ·

اما الجزائر فان ثورة أول نوفمبر هى : « معركتها الكبرى » بلا جدال ولا نزاع ، ذلك لان الجزائر وان عاشت تاريخا مجيدا عبر مسيرتهـاالطويلة الا ان المجتمع الجزائرى كان باستمرار

شبه معزول عن الحياة الحقيقية ، ويعيش على هامش الاحداث والتطورات التى هو صانعها وخالقها ٠ نظرا لتحكم الاسر والعائلات الاقطاعية فى مصيره٠ وهذه الظاهرة وان كانت قدرا مشتركا بين شعوب الارض خلال العصر الوسيط وجزء كبير من العصر الحديث ٠ الا ان الجزائر كان لها وضـــع خاص ميزها عن غيرها ٠ فقد بليت بالغزوات الاستعمارية منذ فجر تاريخها ، وعندما تمتعت بالاستقلال فى بعض العهود الاسلامية ، كان ذلك فى اطار الاسر والعائلات الاوروستقراطية الاقطاعية ٠

ولم يتنفس شعب الجزائر الصعداء الا بعد اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954 التى طـــردت الاستعمار ، وطردت معه بقايا هذه الاسر الطاغية ولأول مرة فى التاريخ يمسك شعب الجزائر مصيره بيده، وينعم بالاستقلال والحرية الحقيقية ، ويشارك بجميع فئاته فى ادارة بلاده ، وفى استغــلال خيراته ٠ كما انه لاول مرة فى تاريخه يشارك بجميع فئاته فى ثورة تحريرية جماعية لتحرير بلاده وطرد المحتل الغاصب بالقوة والعنف ، وذلــك مصدر انتصاره وعظمته ٠

وهكذا فان ثورة أول نوفمبر 1954 ، مــن الاحداث الكبرى العالمية فى الحقبة المعاصـرة ، ولاهميتها هذه تولى السلطة الثورية أهمية خاصة لجمع وثائقها حتى لا تضيع كما ضاعت وثائـق ووقائع الثورات السابقة لها ٠ وتتمنى مخلصين ان تدون وقائع هذه الثورة واحداثها بامانـة لتكون عبرة لاجيالنا الصاعدة والمقبلة على مر الدهر لان الثمن الذى دفعته هذه الثورة غال وغال جدا من ضمنه مليون ونصف مليون شهيد ٠

على أن الاهتمام بوثائق هذه الثورة لا يعنى اهمال وثائق تاريخنا خلال القرن الماضى وبداية الحالى ، والا فستكون الفجوة كبيرة جدا ٠ ووثائق هذه الحقبة مكدسة فى الارشيفات الفرنسية بايكس أن بروف نس ، وباريس وينبغى استعادتها بأية وسيلة كانت ومنها التصوير ، ومساعدة الدارسين والباحثين الجزائريين على دراستها وتحقيقها قبل ان تاكلها الارضة ويطمسها الغبار ، وهى معركة أخرى جديدة يتحمل تبعتها الجيل المثقف ، وتدخل فى اطار الثورة الثقافية التى هى ضرورية لمواكبة الثورتين : الصناعية والزراعية ٠



مساهمة المرأة فى صنع النصر

بقلم: زهور ونيسى

● ان التطور الذى يريده المجتمع للمراة· انما ذاك الذى يعتمد الاصالة والتفتح معا ·

● ان النساء فى كل بلد يقدر بنصف سكانه على الاقل ، ويقاؤهن فى الجهل والسلبية والتواكل حرمان من الانتفاع باعمال نصف المجتمع · وفيه من الهزيمة لعمل ونضال الرجل نفسه نسبة كبيرة ·

● كانت تظاهرو تقول للمستعمر ان الجزائرية لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر ، ولكنها تخلعه فى ساحة القتال ، او فى وطن حر ·

● لقد اثرت المراة فعلا حقائقنا التاريخية بالمضامين والمفاهيم البعيدة ، عندما عملت بفعالية من اجل الحفاظ على مقوماتنا واصالتنا· فشاركت بذلك فى صنع النصر مرتين ·

ان الحرية شيء لا بديل لـه لتقدم العقـلوالروح ·· ان العقل يمكن ان ينتحـر · والروح تصاب بالشلل بسبب غياب الحرية ـ واى تقـدمللبشر والانسانية مرهون بالحرية والعدالة ·

والحرية شيء لا بديل له لانه ليس كالاشياءالاخرى ·· التى تكتسب بالبيع والشراء·· وحتى بالمزادات وانما هى شيء لا يرضى بغير الارواحوالدماء واليتم والعذاب والحرمان ثمنا ·· شيء لا يمكن شراؤه ولا بيعه ولا التفاوض على كسبه·· لانه لا يرضى بغير الانتزاع والاخذ ، بالقوة والصمود والاخلاص ·· والتفانى ·

جالت هذه الخاطرة فى ذهنى وكـل شيءفى الجزائر المناضلـة يستعد للاحتلال بذكـرى النصر ·· ذكرى الحرية المنتزعة بملايين الشهداءرجالا ونساء عبر خمسة اجيال كاملة من السنين ··حفلت بمختلف البطولات واروع الامثلة فـىالفداء والنضال واسترخاص الارواح والابنـاء والاحباب ·· واعطت للشعوب مثالا حيا لا ينتهىعـن صمود الشعوب وارادتها عندما تـريد ·· والجزائر وهى تحتفل اليوم بعيدها عاشت طيلةخمسة اجيال كاملة هذه الارادة ·· التى تجسمت فى الثورات المستمرة المتتابعة والكفاح الطويـلالمرير ·· ضد الاحتلال الاستيطانى الذى سلبها الحرية · عاشت هذه الارادة لانها لا ترضى بشللالـروح وانتحار العقـل ·· وهى الجـزائر ذات التاريخ الحافل المجيد ·

ونحن عندما نقول الجزائـر انمـا نقـولالشعب الجزائرى·· وعندما نقول الشعب فانما نعنى كل افراد وقطاعات الشعب رجاله ونسائـهشيوخه وشبابه واطفاله ثـم نحـاول بعد ذلك ان ناخذ الجانب الذى يهمنا من قطاعات هذا الشعب،ونحن هنا وكما هى العادة ، نحاول ان لا نخرج عن نطاق نصف هذا الشعب · المـراة الجزائريةوضعية المراة فى مختلف ظروف الجزائر :

ـ كيف كان وضع المراة قبل اندلاع الثورةالظافـــرة ؟

ـ كيف كان وضعها خلال هذه الثورة ؟

ـ وكيف هى الآن بعـد انتصـار الثـــورةالمسلحة ، والدخول فى ثـورة البنـاء والتنمية ؟
وللاجابة على هذه الاسئلة الثلاثة بصدق المناضلوامانة الكاتب الموضوعى ، فانه لا بد من تقسيم الموضوع الى ثلاثة اقسام حسب الاسئلة .

ـ وضع المراة قبل الثـورة :

ان وضع المراة قبل اندلاع الثورة التحريريةجزء لا يتجزأ من الوضع العام الذى كانت عليـه الجزائر ككل من جهة ، ووضع الانسان الجزائرىمن جهة اخـرى ·

انه لا بد من التطلع لصورة المرأة في هذا الوضع بدءا من فترة تاريخية معينة ، مضطرين الى ذلك ، لنسير نحو معرفة هذه المرأة ووضعها ،دون اهمال أى جانب ، وحتى نخرج فى الاخير بصورة متكاملة الجوانب ، واضحة الملامح ،بارزة الشكل والمضمون ، ولو كانت مختصرة ٠

لا بد من الرجوع الى الخلفية حيث نقطة زمنية معينة تعد البداية للتاريخ الجزائرى المؤرخ٠

لقد تميز المجتمع الجزائرى بكل خصائص الشعوب المميزة ، توافرت عليه وتظافرت عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية فصاغته فى قالب جمع بين مقومات الانسانية كلها ، قالب فيه مرونة الانسان البدائى وبساطته المدفوعة بالفطرة الى التطور والتجديد والاندفاع ، وبالتالى فان انسانه يملك طاقة الحياة للتفاعل والتجاوب ويتطور دوما نحو الكمال ٠٠ كأى انسان سوى مجتمع غنى بارضه وتاريخه وقيمه ،يقظ على كل ذلك ، متفان فى حمايتها من الدخلاء والطامعين ٠٠

فى هذا المجتمع كانت المرأة تتمتع بالاحترام والتقدير وتحظى بالرعاية ٠ محترمة الجانب ، مسموعة الكلمة قوية الشخصية ، ولعل كل ذلك ،أى تمتعها بالحقوق والاحترام فى المجتمع القديم ، هو الذى جعلها قاعدة قوية للاسرة ٠

فى هذا المجتمع الذى يسوده جو القيم العالية ٠٠ وتبرز فيه سمة تعشق الحرية كانت المرأة تعيش وتلد الحياة ، وتشارك فى كل صغيرة وكبيرة ، فكان ركوبها للخيل ومشاركتها فى الزراعة والحرب امرا طبيعيا مثله مثل عنايتها بطفلها ٠

ولتكون الصورة التى اعطاها التاريخ على يد المؤرخ «غوستاف لوبون» ، أوضح ، عن وضع المرأة وقتها ، يجدربنا ان نأتى بنموذج للمرأة ٠٠«الكاهنة» التى جلست على عرش الجزائر دون كل الرجال وقد يمكن ان يكون – فى سرد سيرة هذا النوع من النساء فى فترة تاريخية معينة دليلا على قوة حيوية المرأة الجزائرية القديمة وقدرتها وكفاءتها ، ولكنه دليل آخر على الوضع السليم الذى كانت تحظى به من طرف مجتمعها حتى انه ملكها عليه ، وحكمها فى الوطن والرقاب والاموال ٠ ولم تكن لهذه المرأة القائدة ميزة الشجاعة والبطولة فحسب ، بل كانت تعمل فكرها الثاقب متى يلزم ذلك ٠٠ فقد حدث ان نصحها رجالها بالتسليم للمسلمين عند فتحهم للجزائر بعد ان رأوا منها اقتناعا بالاسلام وعدالته ٠فاجابتهم قائلة بعد ان اختارت لولدين لها ، صفوف المسلمين ، آمرة اياهما بالدخول فى الاسلام ، اجابت رجالها قائلة : «انما الملكة من تعرف كيف تموت» ٠ وماتت ككل قائد مغوار فى ساحة القتال ٠

ودون ذكر جميــع الثورات الشعبية ضــدالاستعمار الفرنسى الذى جثم على صدر الجزائر فاخذ كل شىء منها وترك الباقى مشوها مشلولاعام ١٨٣٠ ، ونظرا لاننا نحاول توضيح صــورة حقيقية للمراة فاننا نذكــر مثــالا واحدا لثــورةونضال المراة ضد المستعمر والتى تتمثل فى احدى بطلات الجزائر «لالا فاطمة نسومر» والتى قــادتالمجاهدين «والمسبلين» الجزائريين فى ثورة عارمة عام ١٨٥٧ ضد جنرالات الجيش الفرنسى لتزيدفى موكب الشهيدات رقما ليس جديدا فحسب بل رقما مميزا ·· استشهاد المراة المؤمنة القــائدةمن اجل الحرية والدين وحق الشعب فى الكرامة والعــــدالة ·

ومع التركيز على ذكر وضع المراة فى مجالالميدان السياسى ـ بسبب المناسبة ـ فاننا نــلاحظ ان هذه المــــراة بالنسبــة للمجــالات الثقــافيةوالاجتماعية والاقتصادية قبــل الغــزو الفرنسى المخطط ، كانت تحتل المكانة اللائقــة بها كعضوايجابى فى كيان الاسرة بدايــة والمجتمع ككــل · فكانت تشــارك فى جميع الاعمــال الشاقة والتىكانت تتلخص فى الفلاحة والزراعة · وكانت فى المدن تتبوا مكــان الصدارة فى مجالات الثقافــةوالفكر والادب وتعمــل بذلك على رفــع المستوى الاجتماعى للوطن ومن اولئك النساء عتيقة بنتعبد الرحمــن ، ووالدة الامــير عبد القــــادر ، والشاعرة عائشة بنت أبى الطاهر التى عاصرتالاديب ابــن الفقــون القسنطينى وساجلتــه ·· وغيرهن·· من المفكرات الاجتماعيات اللائى كانلهن نصيب فى خدمة المجتمع الجزائرى فى هذا المجــــال ·

ويأتى المستعمر بشكله البغيض ومخططاتهالجهنمية لتعيش الجزائر وانسان الجزائر فتــرة تاريخية مظلمة وذلك لانه لم يكن استعمارا ماديافحسب بقدر ما كان استعمارا روحيا ، واستيطانيا بشعا ، كاد ان يقضى على حقيقــة هذا الشعب ،تاريخا ولغــة وتقاليد وعقيدة ، لولا مــا سبــق وذكرناه ، من تعشق الانسان الجزائرى لشخصيتهوكيانه ودفاعه عنهما دون توقف او استسلام ·

لقــد استعمــل المستعمــر ضــد الجزائــروالجزائريين مختلف اساليب الظلــم والتوحش وحاول تجريدهم من المقومات والمبادىء ، وعمــلعلى فصلهم عــن الجزائر الاجتماعية والثقافيــة والاقتصادية فابدل من علمهم بلغتهم ودينهم جهلاوشعوذة ، ومــن غنــاهم فقــرا وحرمانا ومــن حضارتهم وتطورهم تخلفا وانحطاطا ، ثم بعد انتم له ذلك بدأ يوهمهم انه الكريم صاحب الغــاية الحضاريــة الساميــة وصــار يعطيهم جرعاتــهالمتوالية والمستمرة من فكره ولغته وتقاليده طمعا فى الوصول الى عملية فرنسة عــامة ·

فهل تم له ذلك بالنسبة للمجتمع ككل والمراةبصفة خاصــة ؟

انـه بالنسبة للمجتمع لـم يقدرسوى علىتشويه السطح والمظهر امـا المضمون والـروح فبقيت نقيـة اصيلة ·· وكانت يـوم ثورته اهـمعـوامل انتصاره ·

واما المراة فنجدها رغـم جهلهـا وحـالةالتخلف والجمود التى تجرعت منها اكثر من اخيها الرجل بسبب وضعها داخل البيت ، ينقسم كفاحهاضـد عمليات القمـع والتشويه الاستعمارية الى نوعين اثنين :

اولهما : كفاح ظاهـر مباشر ويتمـيز فىالمظاهـرات والتنظيمات والنشاطـات الحزبيـة والاصلاحية ·

وثانيهما : كفاح غير مباشر وغير ظاهـروهو ذلك الموقف الايجابى الذى وقفته كمسؤولة عن مقومات الاسرة وعاداتها وتقاليدها الروحيـةوالحضاريـة وبالتـالى موقفهـا ازاء مقومـات وخصائص المجتمع ككل حيث ـ اشاحت بوجههاعن كل ما هـو اجنبى واستعمارى بمـا فى ذلك الثقافة والتعليم ·· متفطنة لدور الاغراء والاثارةالذى يمثله المستعمر معها قصد كسب ثقتها ، لانها على راس خلايا المجتمع لقد راى انـه لا طـريقاحسن واضمن للوصول الى تدمـير شخصيـة واصالة ومميزات هذا الشعب الا بالاستيلاء علىعقل المراة لتكون بعد ذلك اداة لتحويل الاسـرة وبالتالى المجتمع عن هذه الاصـالة ·

لقد تعمدت ـ اكثـر ـ التمسك «بالحجاب»واستماتت اكثر فى التمسك بالعادات والتقـاليد دونما تمييز بين حسنها وسيئها ، فقط حتى تثيراعصاب هذا «الدخيل» الذى تراه دون أن يراها ، ولا تستسلم ولا تهادن ·

المـراة اثنـاء الثـورة

وهنا نقول ليس صدفة ان ترتبط الدعـوةالى تحرير المراة بالدعوة الى تحرير الوطن وذلك فى جهاد المثقفين والمفكرين والمصلحين بـل انـهمن المفارقات ان الرواد الاوائـل الذيـن تصدوا للدفاع عن المراة كان معظمهم من المدركين بثاقب فكـرهم مدى الحاجة الى تحرير المراة كضرورة اجتماعية وحضارية من اجل اللحاق بالمجتمعاتالانسانية المتقدمـة ·

وهكذا فانه عند اندلاع الثورة التحريريةكان المناخ الاجتماعى الذى تعيشه المراة متشبعا بالاستعداد للتفاعل والحركة والعطاء ·· مثلهـامثل الجماهير الجزائرية ككـل ، لتعيش اخصب الفترات فى تاريخ الجزائر الحديث · ارهاصاتقوية توشك على الانفجار ، ووجدت المتنفس لهـا فى ثورة نوفمبر ١٩٥٤ ·

ان النساء فى كل بلد يقدر بنصف سكانـه على الاقل ، وبقاؤهن فى الجهل والسلبية والتواكل حرمان من الانتفاع باعمال نصف المجتمع ، وفيه من الهزيمة لعمل ونضال الرجل نفسه ، نسبـة كبـيرة ·

بهذا المفهوم المنطقى والثورى فى ان واحد استقبل الرجل الجزائرى مناضل ومجاهد ثـورة اول نوفمبر ١٩٥٤ اخته ، وامه ، وزوجته ، وابنته ملقيا عليها اعباء كثيرة من مسئوليات الكفـاح المسلـح ، وكانت عند حسن الظـن بهـا ·· فقد اشتركت جندية ، وممرضة ومسئولة عن التموين والسلاح ومسئولة عن الاتصالات السرية فى جميع جبال الولايات الست زيادة على دورها المعروف فى المدينة كفدائية ومسبلة ·

وكان ما كان ·· مما يقابل الكفاح والفداء من معاملات استعمارية ضد كل الثوار · فعذبت المراة اشنع انواع التعذيب ، ولفظت روحا سعيدة مع انفاسها ، لانها لم تعترف على مواقع اخوانها ، واستعملت معها ابشع عمليات الاهانة والوحشية فى التعذيب بالسجون والمعتقلات وحكـم عليهـا بالاعدام ، ورغم ذلك بقيت صامدة حتى النصر··

وقد كانت (صحوة الموت) بالنسبة للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هى : ثورة المستوطنين فى ١٣ ماى ١٩٦١ واسقاط الجمهورية الرابعة فـى فرنسا ·· واستيلاء دوغول على الحكم ·

يومها فتش الاستعمار فى دفاتره القديمة عن كل سلاح يحاول تجربته لآخر مرة ومن بينها سلاح السفور وتحرير المراة الجزائرية ·

وعقد سوستيل اجتماعات «شعبية» سيـق اليها الناس بالقوة ، وخطب داعيـا الى تحريـر المراة ، وتحت ضغط السلاح اكرهت بعض النساء على خلع الحجاب وحرقه فى حركة مسرحية امام الجماهير بعد انتهاء الخطاب فى ساحة افريقيـا بالعاصمة (الفروم سابقا)

وكان هذا الحادث كله كانه الاشارة السرية ، ففى اليوم التالى لم تظهر امراة جزائرية واحـدة فى الطريق سافرة حتى اللواتى كن قد اسفرن عن وجوههن قبـل الحادث عـدن الى الحجـاب ·· كانت تظاهـرة تقـول للمستعمر ان الجزائريـة لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر ولكنها تخلعه فى ساحة القتال ·· او فى وطن مستقل حر ··

لقد برهنت المراة ايام الثورة انها عضـو كفء لتحمل اصعب المسؤوليات وتطبيق اخطـر المشاريع الفدائية والنضاليـة على العمـوم ·· وسجل لها التـاريخ ذلك بحروف لا تمحى عـلى مدى الايام واصبحت قدوة يقتدى بهـا ومثـالا تحتذى به كل النساء فى الشعوب المكافحة مـن اجل التحرر والكرامة ، فقامت بواجبها احسـن قيام وشغلت مكانها بـارزا فى سجـل الشهداء والخالدين من ابناء الـوطن ·

وكانت نتيجة كل ذلك النصر الذى احــرزه الشعب الجزائرى غداة الاستقلال ، عندما توقفت مرحلة من الكفاح لتبدأ اخرى أشد تعقدا واكثــر قسوة · لنجد المرأة قد نزلت الى الميدان لتسهــم من جديد فى خوض المعركة الثانية ، معركة البناء والتشييد ، وبناء المجتمع الجديد · وتدفع مــــن ذاتها ما يترتب عليها من واجبات نحو الاســرة والمجتمع والوطن ، وقد حاولت اثبات وجودها ، رغم اصطدامها مباشرة بالعادات البالية وبكثيرمن الافكار السلبية والاستعمارية التى استيقظت من جديد بعد ان اخفاهــا وهج نيــران الثــورة ومبادئها · وفى ذلك يقول ميثاق مؤتمر الصومام، الوثيقة السياسية الاولى للثورة الجزائرية عــام ١٩٥٦ ·

«توجد فى هذا المجال امكانيات هائلة ترى تزايدا مطردا ·

واننا نحيى بتأثر واعجاب الشجاعة الثورية المتحمسة التى عبرت عنهــا الفتيــات والنســاء والزوجات والامهات وجميع اخواتنا المجاهدات اللاتى تشاركــن فعليــا وبالسلاح احيانــا ، فى النضال المقدس لتحرير الوطن ·

وكل واحد يعرف ان الجزائريات قد اشتركن عمليا عدة مرات فى الانتفاضات العديدة والمتكررة التى جعلت الجزائر تنتصب منذ سنة ١٨٣٠ ضد الاحتلال الفرنسى ·

والانفجارات الهامــة التى قــام بها سنــة ١٨٦٤ اولاد سيدى الشيخ بجنوب وهران ، والتى وقعت سنة ١٨٧١ بمنطقة القبائل ، وسنة ١٩١٦ بالاوراس ، وبمنطقــة معسكر ، انفجارات خلدت الى الابد تلك الوطنيــة الملتهبة الحافــزة لاقصى التضحيات التى عبرت عنهــا المرأة الجزائرية · والمــرأة الجزائريــة الــيوم مقتنعة ان الثــورة الحــاليــة ستــؤدى حتميــا الــى تحقيـــق الاستقلال · ومثال الفتــاة القبائلية التى رفضت حديثا طلبا للزواج على اعتباره انــه لم يصــدر عن مقاوم هو مثال يجسد بصورة عظيمة الاخلاق السامية التى تحرك الجزائريات » النص

المــرأة فى الاستقلال :

رغم كل هذه العوامل وغيرها وجدنا المرأة غداة الاستقلال تنطلق مــن جديد فى استمرارية ملتزمــة ، لاثبــات قدراتها على تدعيــم النظــام الاشتراكى والحكم الشعبى الذى آمنت به يــوم ان تبنت أول نوفمبر ١٩٥٤ ·

ودعمها فى نضالها الجديد ما سطره لهـامشروع برنامـج طرابلس حيث جـاء فيـه : «ان مساهمة المراة الجزائرية في الكفاح التحريرى ،قد كونت ظروفا حسنة ، لتحطيم الاغلال، وتقويض الاثقال التى تعوقها ، ولتشركها بكيفية تامة فىتسيير الشؤون العامة ، وتطوير البلاد٠٠» النص

لقد اثـرت المـراة فعلا حقائقنـا التاريخيةبالمضامين والمفاهيم البعيدة ٠ عندمـا شـاركت بفعالية فى صنع النصر وافتكاك الحريـة اولا ،وعندما حاولت الاستمرار فى البناء بعد الاستقلال ثـانيا ٠

ولكننا اليوم ــ ونحن نحتفل بعيد استقلالنا ــفى اطار الكفاح من أجل انجاح ثوراتنا المظفـرة الزراعية والصناعية والثقافية ليس لنا سوى انتسجل ان هناك مشاكل ٠ قد تبدو لفئة من الناس شديدة التعقيد ، وقد تبدو لفئـة اخرى بسيطـةوسهلة الحل ٠ ومن تباين هاتين النظرتين تلتمس كل فئة منها حلولا تاخذ فى الشكل الاول طـابعالهروب الى الامـام ، وتاخذ فى الشكل الثـانى مجابهة عبقرية نافذة ٠ باعتبار ان هذه المشاكـلعلى غموضها استفحلت وزادها الزمن تعسـرا وابهاما ، ثم يتواضع الناس بعدئذ ، على اعتبارهامشاكل مزمنة يدورون فيها ٠ ولا يخرجون منها٠ ومن اشد هذه القضايا تعقيدا فى عالمنا العـربىالاسلامى بصفة عامة والجزائرى خاصة قضيـة المراة والمجتمع وحتمية التطور ٠

وفى اعتقادنا ان هذه القضية لـم تعد مـنالقضايا المستعصية الحل فى مجتمعنا كما كـان شانها فى الماضى فليست هذه القضايا فى جوهرهاسوى ثمرة حتمية لمجتمعات الاستغلال٠المجتمعات التى كان طابعها الاساسى هو التحكـم المطلق ،واستغلال الانسان لاخيـه الانسان ــ رجـلا كان أو امـراة ــ ٠

واذا كان مجتمعنا قد تجاوز هذه المـرحلةوانتقل الى مرحلة أخرى ، تذوب فيهـا الفوارق بين الطبقات وتتداعى اسس الاستغلال، فان القيودالتى وضعت على حركـة المراة نحو التطور قـد اخذت تذوب وتفسـح لهـا طريق الحرية لتـاخذمكانها كعامل منتج ومواطن صالح فى البيت او الحياة العامة ٠ ولكن ليس معنى هذا الحكـم انتقف المـراة من حركـة التطور التى يجيش بهـا المجتمـع ، موقف المتفرج المبهور ٠ بـل يجب انتشارك كما سبق وشاركت فى هذا التطور ، ولذلك فان السؤال الذى نريد طرحه اليوم ليس مطالبةالمراة بالتطور ، اى تطور ، وانما بتوضيح كامل لمعنى التطور فى مجتمعنـا العـربى الاسلامى ٠وكيفية تطبيقه مـع عـدم المساس بمبادى الديـن الصحيحة والافكار التى يعتز بها المجتمع ، والتىلا تمنعه ابدا من التطور الايجابى الناضج ٠

والمسالة ليست بالبساطة التى نتصورهـاغير أننا نعتقد ان الثـورة انمـا هى تلك القـوة العظيمة والاصيلـة المنبثقـة مـن الشعب والتىلا تقبلا بغير القوى العظيم والاصيل الصادق من أبنائها ان ينتمى اليها أو يعمل فى اطارها أو حتىيدافع عنهـا • لانهـا من القـوة بحيث لا تقبـل الا بالاقوياء ، ومن الاصالة بحيث لا تقبل بغيـرالاصلاء • ومـن الصمود بحيث لا تقبـل بغـير المجاهدين الصامدين رغم كل الظروف والازمات•

ولذلك نجد كثيـرا مـن نسائنا المناضلاتوالواعيات والمجاهدات صامدات فى الدفاع عن مبادىء وقيم هذه الثورة يحملن شعاراتها سلوكاوتصرفا وعمـلا بصمت وباخلاص وبهـن فعـلا سيحقق المجتمع الجزائرى آماله الكبرى فى خلقالمجتمع الافضل بايجاد الاسرة الفضلى •

وما نرى ذلك الا محققا عن قريب ان شـاءالله • حيث ان ثورتنا كانت دائما ولا تزال العامل الاول فى صالح المرأة صانعة الاجيال ، والدافعالاسـاسى لتقدمهـا ووعيهابل وخلقها جديـدة خالية من الرواسب الخرافية والتحجر الفكرى •متطلعة الى حياة تعتمد الاصالة والتفتح •



دور الشبيبة الجزائرية في
معركة التحرير

احمد بن نعمان
منظمة العمل العربية
القاهرة

اذا كانت أيام الشباب لدى الكائن الانساني تمثل اقوى واحسن وأعز أيام عمره المديد .. حيث ان بها وفيها يتقرر مصيره ، وعليها يتوقف نجاح او فشل حياته المستقبلة ، فان الشبيبة من الأمة ليست الا كفترة الشباب بالنسبة لحياة الفرد. فهي عصبها الحساس وطاقتها المحركة ، والدافعة الى تحقيق الاهداف المامولة بكل عزم وفاعلية .

ولا يبالغ المرء اذا قرر في اعتقاد بأن الشبيبة من أبرز المؤشرات التي يمكن ان يقرأ بها مستقبل مشروع خطير تعتزم الأمة انجازه في مختلف مجالات حياتها .

والجزائر اذا امتازت وتميزت في القرن الحالى بانجاز أخطر وأعظم نقلها من شبه اللاوجود الى راس قائمة البلدان الثورية الحرة فى العالم • فانهاتلك الثورة التحريرية الخالدة ، التى ماتزال جراحها نازفة فى الاجسام ، وصورها ماثلة فى الاذهان ، لا تفتقر الا لوسيلة التعبير التى تنقلها لجيل ما بعد الثورة • وما أعجز هذه الوسيلة ـ مهماأوتيت من البراعة والبلاغة ـ ان تنقل الصور الحقيقية المطابقة للوقائع ، وما اصعب فى الوقتذاته ان يصدق هذا الجيل بأن تلك الحقائق وقعت فى عالم الشهادة !

ولا أدل على ذلك من تلك التعاليق التى كنانسمعها حول بعض الافلام الثورية « كمعركة الجزائر ، ريح الاوراس ، الليل يخشى الشمس ،العصا والافيون » والتى كانت تتهم بأنها مغرقة فى الخيال والمبالغة و (الوسترنية) فى الوقتالذى لم تكن تعبر فى عرضها وجوهرها الا على جزء سطحى وبسيط جدا من حقائق الثورة وعمقها !

ولكن لا نعجب كثيرا عندما نعرف هذه الحقائق قد اذهلت العالم وغيرت الكثير من مفاهيم علمائه ومفكريه وسياسييه وأذهلت المستعمر الفرنسى ذاته ، وفاقت جميع تصوراته وتخطيطاته بالرغم مما كان عليه من علم وذكاء وحنكة وجبروت !

واذن فان انجازا عملاقا كهذا لا بد ان تكونللشبيبة به علاقة ، ولا بد ان يكون لها فيه دور ، فما هى هذه العلاقة وما هو الدور ؟

بدون أن نتعرض الى التفاصيل التاريخيةالتى اكتنفت قبيل وبعيد اندلاع الثورة التحريرية تحاشيا الولوج فى بعض الاستطرادات والتشعبات التى لا تفيدنا فيما نستهدفه من جوهر الموضوع •

فنقول : اذا كان من الثابت ان أول منتلقف مبادىء الثورة وتبناها باخلاص ولا تتردد هى الطبقات المحرومة فان اكثر من فى هذه الطبقات تحمسا للثورة وتفاعلا معها هو شبابها ومن هنا يمكن القول ان علاقة الشباب الجزائرىبالثورة كانت علاقة جدلية أى علاقة تأثير وتأثر وأخذ وعطاء •

فلقد اقبلت الثورة على الشباب الجزائرىبمبادئها وأهدافها وقيمها ونظامها وهو فى حالة من الفراغ المادى والذهنى مدمرين صيراه ينظر الىالحاضر نظرة ملل ورفض ، والى المستقبل نظرة تخوف ويأس ، متفرقا بين مغامر ، ومهاجر ،وصابر منتظر • فكانت الثورة خير موئل لهؤلاء فانجذبوا اليها بقوة فصهرتهم وخلقتهم(بتشديد اللام) ، وصنعت منهم ثوارا واصلوا المسيرة الى النهاية • فكانوا أقوى الامدادات المتجددة لها على طول امتدادها •

وهكذا حصل تفاعل المبادىء السامية مع الارادة القومية فتحقق الانجاز الاعظم ٠

غير أن هذه العلاقة الجدلية القوية الحاصلة ما كانت لتحدث بنفس الكيفية لولا وجود بعض العوامل الذاتية والموضوعية التى تكاملت فصيرتها على تلك الدرجة من الفعالية والقوة ٠

وسنحاول فيما يلي أن نتعرض لاهم هذه العوامل التى تنحصر حسب رأينا فى الاتى :

- عامل نفسى
- عامل دينى
- عامل وطنى
- عامل اخلاقى
- عامل اجتماعى

العامل النفسى :

ان من المسلم به فى العلوم السيكولوجية أن فترة الشباب هى أخطر الفترات التى يحدث فيها تغير جذرى فى تكوين الفرد (جسما وعقلا) ينقله من سن الطفولة والمراهقة الى سن الرجولة والاكتهال ، ومن طور المعول الى طور العائل المسؤول ٠ ومن الاحلام والآمال الى مجابهة أعباء الحياة الفعلية الثقيلة ٠

وهنا كثيرا ما تتحطم آماله أمام الواقع المغاير لطموحه فتبعثه الثقة بالنفس الى تجاوزه بالرفض والتمرد ، فيكون الشاب بذلك أكثر فئات الشعب انصياعا لاى جديد ليتخذ منه متنفسا يتخطى به الواقع المفروض والمرفوض ، وأميلها أيضا الى التحرك سلبا أو ايجابا ٠٠ وسلبية أو ايجابية هذه الحركة تتوقف على نوعية المبادىء والافكار التى يتشربها ويقتنع بها ٠ ويرجع هذا الميل الشديد والسريع فى الاقتناع بالافكار والتحمس لها ، الى خلو ذهن الشبان وفقر تجربتهم الحياتية التى قد تدفعهم الى التردد فى اتخاذ المبادرات الخطيرة ، الى جانب ما يأنسون فى انفسهم من قوة جسدية وحيوية تبعث على الاعتداد بالنفس وركوب المخاطر وخوض المغامرات ٠

وهكذا اجتمعت هذه العوامل النفسية وتكاملت مع ما فطر عليه الشباب الجزائرى من خصال طبيعية خلاقة ، فكانت من أقوى العوامل التى ساعدت على تكوين شباب الثورة التحريرية ٠

واذا وضعنا العامل النفسي في المرتبة الاولى فذلك لاعتقادنا انه أمر مهم جدا بالنسبة للشباب ·

ولئن ظن البعض أن العامل الاقتصادي هو الأهم في الثورة والتفاف الجماهير من حولها · فان ذلك ان صدق على الفلاحين والعمال ، فانه لا يصدق بالضرورة على الشباب · ولا أدل على ذلك من أن معظم الثورات والانتفاضات المعاصرة التي خاضها الشباب في العالم لم تكن أسبابها اقتصادية اكثر مما كانت رفضا جريئا للاوضاع السياسية والاجتماعية ·· سعيا وراء تغييرها وتجديدها ببنيات يراها أفضل ··

ولناخذ مثال فرنسا ، واليونان ، وتركيا ، ولبنان ، ومصر ·· بل لنأخذ الشبان الجزائريين أنفسهم الذين تركوا المدارس ، والجامعات ، والمعامل ، والمزارع ، وكفاف الرزق فيها ، والتحقوا بالبرد والجوع والعذاب في الجبال والسجون فهل كان ينقصهم الخبز ؟ !

ولنفرض أن عامل الخبز هذا كان جوهريا في الموضوع فلماذا لم يتجند الشباب في الجيش الفرنسي الذي كان يقدم له كل الاغراءات المادية والمعنوية ! ؟ بل كنا نراه يفر من صفوف الخدمة الاجبارية في الجيش الفرنسي الى صفوف الثورة التحريرية !

ونكتفي بطرح هذا السؤال الذي سنورد الاجابة عنه فيما نستقبله من تحليلات للعوامل المتبقية ·

العامل الديني :

لقد كانت المبادىء الاسلامية السامية التي انطلقت منها الثورة التحريرية واعتمدت عليها طيلة قيامها ، من الاسباب القوية التي اقنعت الشباب ورغبته في تبنيها ومن عظمة الاسلام ان مبادئه قد تقنع الجاهل والعالم والامي والمتعلم والصغير والكبير فوجد جل الشبان ضالتهم في الثورة فتحمسوا لها وازدادوا تشبثا بها لما كان يتجسد فيها من مطابقة الاقوال للافعال ومسايرة المبادىء للتطبيق فكانت المحرمات محرمة ، والمنكرات تغير باليد قبل اللسان والقلب ·· والوعود تنجز والعهود توفى والواجبات تؤدى انطوعا أو كرها ، وكانت العدالة والنزاهة في ذلك تسود كل سلوك (ما عدا بعض الاستثناءات التي لها حيثياتها الخاصة) فكانت الثورة بذلك متجاوبة مع توقانات الشباب الدينية منها والدنيوية ، فمحاربة المستعمر لديه ذات طابعين متداخلين :

طابع دينى يتمثل فى جهاد الكفار ، وطابع وطنى يتمثل فى تحرير البلد واسترجاع الشخصية الوطنية وكلا المبدأين جمعهما الاسلام فى معـــنى (**النصر او الاستشهاد**) • و (**حب الوطن من الايمان**) فكان الانضمام الى صفوف الثورة هو أحسن مراهنة رابحة بالنسبة للشبيبة الجزائرية حيث لا تخرج نتائجها عن احدى الحسنيين :

مستقبل مضمون فى الحرية والاستقلال ، أو خلود موعود فى الجنة والنعيم •

هكذا أثرت الثورة بمبادئها الدينية فى نفوس الشبان فنقلتهم من رعاة وطلاب ومشرديـــن ومهاجرين الى أبطال أشداء مؤمنين أقوياء • فما أشد حماسة وشجاعة الشاب الذى يتطوع لذبح أبيه الذى حكمت عليه الثورة بالخيانة ! !

وما أقوى ايمان الشاب الذى يودع رفاقه للقيام بعملية فدائية لا تؤمل العودة منها وهمــه الأوحد ساعتها هو اصابة الهدف واللحاق بعالـم الوعود والخلود !

بمثل هذه الوقائع الحية نتبين كيف كان الدين من أقوى العوامل التى دفعـــت بالشباب الى العبور الى الحياة فوق الموت والعذاب • وقد ساعدت على ذلك وحدة الدين فى الجزائر وانتشاره بـين كافة الاوساط الوطنية ، ووحدة المذهب الاشعرى الذى يؤثر الفصل والاجراء على العقل والجدل ، فكان الشباب المؤمن مخلص الاعتقاد سريع التنفيذ قليل التذبذب والتردد فى التصميم على بلوغ الهدف الذى يقتنع بشرعيته •

فاقتنع فعلا وصمم فاستشهد وتحرر وكان للعقيدة الاسلامية فى ذلك دور لا ينكـــره حتى اعداؤها الوزهاء !

اذكر ان احد قدماء المجاهدين قال لى مرة : اننى كنت قبل الثورة التحريرية شيوعيا اعتقد ان الدين أفيون الشعوب ! ولكن عندما التحقت بصفوفها (وكان ذلك بدافع الوطنيـــة فقط) تعرفت على حقيقتها وآمنت ان الدين بالنسبـــة للثورة الجزائرية – على الاقل – كان محررا للشعوب ومنبها لها ولم يكن أبدا أفيونا !

هذا شاهد واحد وان الامثلة على فاعليـــة الدين فى تحريك الجماهير الشعبية المؤمنة عموما والشباب على وجه الخصوص نحو الثورة والانعتاق لهى أوسع من أن تحصر وأشهر من أن تذكر •• على أن هذا العامل وان كان هاما فليس هو الوحيد فى ثورة الشباب بل تكاملت معه عوامل أخرى •

العامـــل الوطني :

بقطع النظر عما يوجد بين الدين والوطنيةمن علاقة متينة ـ كما ذكرنا ـ فان مفهوم الوطنية الذى كان يعتبر الدين عنصرا مستغرقا فى فئتهالمركبة من العناصر الثلاثـة (الوطن ـ الديـن ـ اللغة) التي عبر عنها الامام عبد الحميد بن باديسق شعاره الخالد (الجزائر وطننا ـ الاسلام ديننا ـ العربية لغتنا) والذى كان من الشعارات البارزةفى الثورة التحريرية ٠ دفعت لشعب الى البحث عن انيته وادراك ذاتيته ، وشخصيته التى كانتأبسط نظرة واعية الى المستعمر الاستيطانى فى الجزائر تثبت أنها شخصية متميزة تميزا جوهريافى المعتقد ، واللغة ، والعادات ، والتقاليـــد ، والقيم ، وحتى فى الصفات الفزيولوجية ! فضلاعن الفوارق الشاسعة واللامعقولة فى المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى كانـــتتفصل ابناء الوطن عن اولئك المستعمرين الذين أقل ما يمكن وصفهم به أنهم مغتصبون للشخصيةالوطنية الجزائرية جسدا وعقلا ولغة ومعتقدا ! فصيروا المواطن غريبا فى وطنه ، لغة ، ودينا ،وتاريخا ، وحقوقا اجتماعية وسياسية ! ! ممـا صير كلمة عربى (مواطن أصلى) تاتى مقابـــلكلمة فاورى أى (اجنبى دخيل) وكلمة عـــربى فى المفهوم الدارج لدينا تعنى الجنس ، واللغـــة ،والدين ٠ ولا أدل على ذلك من أن مجتمعنا الى الآن لا يفرق بين مفهوم عربى ومسلم ! فعنده المسلمعربى ، والعربى لا يكون الا مسلما !

ان هذا الخلط الذى نتج أصلا عن ارتباطالمواطن الجزائرى الشديد بالاسلام دينا والعروبة لغة وثقافة لفهم معانى القرآن ٠٠ قد قوى اكثـرمن ضغينة النخبة الوطنية على الاستعمـــار ، وضاعف من روح وطنيتها ، ودفعها اكثر الى أنتدرك بالقوة وبالفعل ذاتيتها المتميزة لتلـــك ، وتحبط كل مناورة سياسية استعمارية ، او حزبيةوطنية ، بما فى ذلك سياسة الادماج ، الـــتى أجمعت النخبة الوطنية والاستعمار على رفضهـــابدوافع مختلفة ! !

واعتقد ان من الاخطاء الكبيرة التى وقع فيها الاستعمار هو عدم تشجيعه لسياسة الادماج التى نادت بها بعض الاتجاهات الحزبية التى قد لا نشك كثيرا فى وطنيتها ، ودوافع اجتهادهـا وحسن نيتها ٠٠ ولو وجدت تشجيعا من طرفالمستعمر فيما كانت تصبو اليه لتفادى هذا الاخير الكثير من العواقب الوخيمة التى لم يكن بد من أنتعود عليه بالخسارة الفادحة والعاجلة وانطبقعليه المثل العربى القائل (الصيف ضيعت اللبن) ٠

علما بأننا لو فرضنا ان المستعمر قد نجح في ذلك المخطط الادماجي قد يتمكن من تأجيل موعد اندلاع الثورة التحريرية الى بعد حين ولكن لا بد من حتميتها في النهاية لان الشعب غير الشعب ، والدين غير الدين واللغة غير اللغة .

ورحم الله من كان يعبر على لسان الشعب الجزائري قائلا :

شعب الجزائر مسلم	والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله	او قال مات فقد كذب
أو رام ادماجا له	رام المحال من الطلب

ففي غمرة هذا الصراع العنيف الذي خلقوا من الشعور بحالة الانسان المعلق (اذا صح ان نستعير تشبيه ابن سينا) الذي لم يحصل لاعلى حقوق اجتماعية وسياسية على غرار رعاة ايطاليا واسبانيا الذين استوطنوا بلده وشرفتهم فرنسا بمنحهم جنسيتها وجميع الحقوق ! ولا على شخصيته واستقلاله السياسي الذي يخول له تقرير مصيره والعيش الكريم تحت راية وطنه .

فكان هذا الشعور بالظلم قويا في نفوس الافراد ثم سرعان ما عممته وعمقته ثورة نوفمبر فوجد التجاوب الكامل ، وخلف الاثر البليغ في نفوس الشعب عموما والشباب خصوصا لما كان عليه هذا الاخير — بحكم السن — من موقف اللامنتمي — من الاحزاب السياسية ذات النزعات والمشارب المختلفة والتي أقل ما يقال عنها انها لم تكن تؤمن بالكفاح المسلح وسيلة وحيدة وآتية لاسترجاع الهوية الجزائرية .

فكان الشباب أول من رقص بلا تردد على انغام رصاص نوفمبر الذي صحح فيها بعد المفاهيم الخاطئة لكل تلك الاحزاب فكان منها الذي اعترف ورجع الى الطريق الصحيح والذي تعصب فاندحر !

العامل الاخلاقي :

قد يتبادر الى الاذهان لأول وهلة أن الدين والاخلاق شيء واحد والحقيقة انهما مختلفان بالرغم من وجود ترابط شديد بين الاثنين .

والدليل على ذلك اننا قد نجد أناسا متخلقين جدا وهم غير متدينين كما نجد أناسا متدينين وهم أقل تخلقا ، وبعبارة منطقية نقول : اذا كان كل متدين متخلقا فليس كل متخلق متدينا (مع اعتبار كل ما في معاني الاخلاق من نسبية في الزمان والمكان) .

ومن هنا أردنا أن نبرز هذا العامل كعنصرمستقل له تاثيره الواضح في انجذاب الشباب الى الثورة وتحمسه لها ٠

فما من شك أن جل القيم الاخلاقية المتأصلةفي المجتمع الجزائرى ترجع الى العقيدة الاسلامية الا ان هناك بعض الصفات التطبعية والطبيعية فيالمجتمع ساعدت على التمسك بها وتقديسها اكثر من بعض الشعائر الدينية ذاتها ٠ وتتمثل هـذه القيم عـلى الخصوص فى : (الوفـاء ، الابـاء ، الاعتداد بالنفس ، الجد ، الصراحة ، الانفة المرؤة٠٠ الخ) ٠

والدليل على أن هذه القيم ليست متمشيةبالضرورة مع الظواهر الدينية هو عدم وجودهـا بنفس الكيفية فى مجتمعات عربية أخرى بالرغممن انتشار الظواهر الدينية فيها بكيفية قد تكون اكثف من انتشارها فى الجزائر !

فكم نعرف من أشخاص يرتكبون معاص كبيرة من الوجهة الدينية ولكن لا يجرؤون على نقض عهد ، أو خلف وعد ، أو الاعتداء على الغير ، أوخيانة مبدا !

لقد تبنى مجتمعنا هذه القيم واتخذ منها معايير لتقييم الافراد ٠ فيقال فلان كريم ، فـــلان شجاع فلان حليم ، فلان وطنى ٠٠ ويكفى للشخصان يكتسب اكبر قدر من هذه الصفات الحميدة كي يكون محبوبا ومحترما لدى المجتمع ٠

وعندما جاءت الثورة مجسدة لاسمى صورهذه القيم الاخلاقية التى كانت بحق اسمى صور المثل الاعلى الاخلاقى الذى يمكـــن أن يتحقق فيمجتمع انسانى معاصر !

فكان لهذا العامل قوة جذب شديدة لالتفافالشبان حول الثورة التى كان الالتحاق بصفوفها عنوان شرف ينسخ كل ما يمكن ان يكون للشخصمن عيوب قبلية ٠ فكانت الثورة للبعض عمليـــة اكتمال اخلاقى وتتويج للشخصية ، وللبعض الآخرعملية تعويض وتغطية لما كان يشوب سلوكهـــم الاخلاقى والاجتماعى من نقائص ٠٠ وفى جميعالاحوال فقد كانت الثورة اكبر مصنع لانتـاج الرجال والابطال والقادة ، والشهداء ، وأدق محكلاختبار العزائم ، ومكارم الاخلاق السائدة ٠

العامـــل الاجتماعى :

ان الظروف الاجتماعية الصعبة التى كان يعيشها الشباب الجزائرى بين حرمان وفقـر وأميه وجهل جعلت الحياة امامه رتيبة بدون معنى لا يجدفيها ما يتجاوب مع طموحاته الماديـة والمعنوية ،

التى قد تصرف اهتمامه عن الواقع الثورى فكانت كل النشاطات الاجتماعية التى يهتم بها الشباب ويفجر فيها توتراته معدومة فى الارياف وقليلة فى المدن وهى ان وجدت تتطلب امكانيات مادية لا تقدر عليها الا النخبة القليلة من أبناء الموسرين ٠

فكان عدم انشغال الشباب بنشاطات اجتماعية مختلفة مدعاة لتركيز الاهتمام على الثورة التحريرية التى دخلت كل قرية ، ومدينة وفتحت ذراعيها لكل شاب وطنى ، دون أى شرط سوى الايمان بالمبدأ والاخلاص فى العمل ، فحلت بذلك فى نفوس الشباب محل النوادى الثقافية والرياضية والترفيهية وقد ساعد على ذلك عدم التزام الشبان بالمسؤولية العائلية حيث أن جلهم غير متزوج ٠ ولا تترتب على انظمامهم الى النشاط الثورى ، أية نتائج عاطفية على أنفسهم ، أو عبئية على الثورة بالتكفل بابنائهم أو ازواجهم كما ان حياة البؤس والشقاء التى كان يعيشها معظم هؤلاء الشبان وخاصة فى الارياف لم تكن تختلف بكثير عما قد يعانونه فى صفوف الجهاد ، فكان الالتحاق بالثورة بالنسبة للكثير ، هو عملية انتقال من حال حرمان وعذاب مفروض الى حرمان وعذاب هادف يؤمنون بضرورته ، وحتميته ، فكانوا بذلك مهيئين تطبعيا واجتماعيا ، الى تحمل مشاق الثورة وحرمانها ، وأخطارها الفائقة ، فاقبلوا على صفوفها بكل استعداد وعزيمة ٠ فكانوا أقوى دعم ومدد لها على مر استمرارها ، ويذكر التاريخ ان نسبة الشبان فى النشاط الثورى كانت تفوق الثلثين ٠

وكم اذكر تلك العبارة التى كان يرددها بعض شبان جيش التحرير الوطنى عندما تتراءى لهم أضواء العاصمة من اعالى جبال جرجرة الخالدة« أحبيك أيتها الجزائر التى أكافح عنك دون أن أعرفك » وكم استشهد من هؤلاء دون ان ترى عيناه عاصمة الجزائر البيضاء !

واعترف أننى لا اذكر اطلاقا مثالا لاى أب اعتزم الالتحاق بالثورة فوجد معارضة من ابنائه ان لم يجد تشجيعا ودعما ٠٠ فى حين اذكر عشرات الامثلة عن شبان التحقوا بالجهاد عصيانا وتمردا على طاعة الوالدين !

وكم يدفعنى هذا الى اكبار امامنا عبد الحميد بن باديس على تلك النظرة النافذة الى الشباب الجزائرى حيث قال :

يا نـــشء انـــت رجـــاؤنـــا وبـــك الصبـــاح قـــد اقتـــرب
خـــذ للحيـــاة ســـلاحهـــا وخـــض الخطـــوب ولا تهـــب

فقد كان رجاؤه فى الخلاص من الاستعمارمنصبا على الشباب فكان الشباب عند حســـن رجائــه ٠

ولعلنا بهذا نكون قد أبرزنا بعض العوامل التى جعلت من الشباب الجزائرى أقوى دعـــم للثورة التحريرية ٠٠ ونعتقد اننا لم نف الا بالقليل الكمى والبسيط الكيفى مما يتطلبه ابراز دور الشباب فى الثورة الجزائرية ، لان هذا الـدورأعمق من أن يحلل وأوسع مـــن أن يحطاط فى صفحات كهذه ، ولكن حسبنا ان ذكرنا شباب الاستقلال بما قدمه شباب الثورة فرب من مذكر ، ومصدق ، ومعتبر ٠



تطور الإستعمار في الجزائر وفي سائر المستعمرات

عبد الحميد بن ابى زيان
ابن شنهـو
مدير الجريدة الرسمية

كل شيء في الدنيا يتطور ويتغير في ممـر الازمان ، تلك عادة الله في خلقه • حتى الاستعمار الفرنسي الذي خيم في الجزائر مدة قرن وثلث قد تطور عبر السنين من تاريخ مد سيطرته عـلى بلادنا الى ان خرج منها •

استعمار قسي ـ نعم كان أساسه في البداية الهجوم العسكري والغزو والحرب والقتل حـتى ركز حكمه على القوة والقهر والتعدي ودام حكمه القسي مدة قرن الا ربع حتى بعد الحرب العظمى الاولى •

كان المعمرون يعدون انفسهم اسياد البلادوذوى النفوذ العسكرى والسيطرة بفضل تفوقهم المبنى على القوة والتقدم فى الاقتصاد والعلـــموابقاء الأهالى فى حالة الجهل والفقر وما زالـــوا يظهرون سلطتهم منذ الاحتلال مع استعمال الظلم والعنف ، وكان مخطط الاستعمار منذ البدايـــة افقار الشعب الجزائرى واخذ اراضيه ومنحهـــاللمعمرين الاروبيين الذين وفدوا افواجا من سائر انحاء اوروبا من فرنسا واسبانيا والمانيا وايطالياومالطا واليونان والبرتغال .

لم يكن هؤلاء فى الحقيقة من النخبة الاوروبيةبل كانوا من سفلة القوم ومن الطبقة الحقيرة وحتى من اللصوص والمجرمين الذين أخرجتهم الحكومةالفرنسية من غياهب السجون وعفت عنهم وجلبتهم الى الجزائر ليعمروها ولذلك لاحظ المؤرخـــونان الافواج الاولى من المعمرين كانت لا مبدأ لها ولا ضمير الا حب المال والمعاملات الفاسدة والنهبوالرفاهية ، فصاروا يعاملون الاهالى معاملـــة اللصوصية والمخادعة .

ان الحكام الاولين مثل كلوزيل وبيجو وغيرهما قصدوا فى الحقيقة من اقامة هؤلاء المغامرين انشاء جالية قسية ومتجلدة لتواجه الاهالى الذينلم يذعنوا للحكم الاجنبى . وقال المريشال بيجو فى هذا الصدد : « نحن امام شعب شديد العزموقوى . فلكى نخضعه ونقهره يجب علينا ان نقيم امامه وفى جانبه وفى وسطه شعبا أقسى وأشد منه » .

أتى هؤلاء المغامرون الى الجزائر ليعمروها ويستغلوا اراضيها وثرواتها وافقـــار أهلهـــا واضطهادهم وقتلهم مثلما فعل الاوروبيون بامريكابالنسبة للهنود الحمر ، أتوا الى الجزائر حاملـــين جرائمهم واعمالهم المنحرفة ومصممين العزم عـلى ابادة الجزائريين واحـلال محلهم الاجانب حتى تصبح البلاد يوما قطعة من فرنسا أغلب سكانهاالاوروبيون حاملين الجنسية الفرنسيـــة ليحلـــوا مشكل أكثرية المسلمين . هكذا بدأ الاستعمار .

الثـــورات المتواليـــة

فثار الجزائريون على المحتل الغاصب، غيرما مرة وهذا أمر معلوم ومعروف عند المؤرخين فاثاروا ثورات عديدة منهم لالا فاطمة نسومر وأولاد سيدىالشيخ والمقرانى والشيخ الحداد وبومعزة فضلا عن الكفاح البطولى الذى خاضه الامير عبد القادر مدة17 سنة . فاخمد الاستعمار نيران تلك الثورات وتعاقبت الاغتصابات ومصادرة الاراضى الجماعيةوالفردية التى تعد مساحاتها بالملايين من الهكتارات

من الارض الخصبة وقتل الملايين من المجاهدين اثر تلك الثورات وترك العدد العديد مـــن اليتامى الذين نصروا • ويقول مشال آبـــار فى كتابـه« تاريخ ناكث عهد » ان عدد السكان بالجزائر كان فى سنة 1830 تسعة ملايين فصار بعد اخماد ثورةالمقرانى والاضطهاداتالاخرى الى سنة 1871، ثلاثة ملايين •

تحول الاستعمار بعد 1919 • الحرب الروحية

أخذ عدد من الفرنسيين الاحرار منذ بدايةالاستعمار يستنكرون تلك الاعمال الوحشية وما زالوا يفضحون تصرفات الحكام المستعمرين عـــلىمنبر مجلسى النوابوالشيوخبفرنسا وفى الصحف ويشنعون أفعالهم اللاانسانية التى طالما ارتكبها منذ الاحتلال • فهبت شبه ريح الانسانية خصوصا بعد الحرب العالمية الاولى بعد ما اظهر الجنـــودالجزائريون بطولتهم فى الحرب وهلك منهم العدد العديد فى المعارك العنيفة التى دارت رحاها بينجيوش الحلفاء وجيوش الامبراطور الالمانى •

بدأ الاستعمار يخفف من وطاته ومن العنففانخفضت الشدة شيئا ما لكنه بدل العنف باطلاق السموم فى الدسم فشن حربا باردة وهى حربروحية • فهاجم الدين والفكر الاسلامى والتقاليد والعوائد العائلية الاسلامية واللغة • فسطـــربرنامجا علميا دقيقا يؤدى فى آخر انجازه الى تحطيم الشخصية الجزائرية وازالة الروح الدينيةوالعقائدية وتهديم التقاليد الاسلاميـــة واخـيرا محو الدين واغلاق الكتاتيب القرآنية حتى يضرب الجهل والامية اطنابها فى الوسط الجزائرى •

وفعلا بينما كان الجزائريون عند الاحتلال مثقفين ، كلهم يكتبون ويقـــرأون ويحفظـون ما تيسر من القرآن ومن الامهات ، ؛اصبحوا بعد عشر سنوات من الاحتلال اميين قليلا ما تجد فى وسطهم من يحسن العلوم البسيطة فضلا عـــن العلوم العصرية الا من رحم ربك •

لكن من جهة أخرى فتح الاستعمار باب المدارس لابناء الاعيان « أولاد الخيام الكبرى » كمـا كانوا يسمونهم ، كانوا يعينون من بينهم القضاةوالقواد والمفتيين والكتاب والخوجوات والمترجمـين الذين أصبحوا مناصرين للاستعمار أو أعوانا لهوحتى عملاء استعملهم الاستعمار كصلة وصل بين سواد الشعب الجاهل الفقير والمنحط اجتماعيـــاواقتصاديا والادارة الفرنسية • وكان هؤلاء فى أول الامر يعملون فى المكاتب العربية (bureaux arabes) مع ضباط الشؤون الاهلية •

برز من بين هؤلاء والحق يقال ، رجال احرار ووطنيون كثيرا ما كانوا يقفون حجرة عثرة امام الادارة الفرنسية مستنكرين ظلمهـا وتعديهـا وتصرفاتها بكلام حق أريد به باطل .

ثـم ظهـرت في الفتـرة المتراوحة بين 1919 و 1939 جماعات مـن القانونيين الفرنسيين الـذين أخـذوا يكتبـون عن الاستعمـار ومـزاياه ازاء « الـوطن الام والاهـالي » ، مبـررين هـذه المؤسسـة بحجج واهية قانونية . فركزوا ادعاءاتهم على ان الجزائر كانت بلادا منحطة ومتأخرة في المدنيـة وكانت القرصنة ظاربة أطنابها على السواحل الجزائرية وقالوا ان الجزائر كانت ترتزق فقطمن نهب أموال أوروبا وأخذ الاسرى الذين كانت تبيعهم في أسواقها (babistan) اذ كان يدر لها الرق أرباحا فادحة . فاستوجب تنقية البحر الابيض المتوسط والسواحل البربارِيسك (côtes barbaresques) من هؤلاء اللصوص البحريين (pirates) الذين عمروا العالم الاوروبي المتمدن ظلما وجورا . فرأت أوروبا على زعمهم من الواجب عليها ان تنتقم من اعمال الجزائر الاجرامية فتولت فرنسا النيابة عنها وقامت مقام البلاد الاوروبية التي اهتزت فرحا لغزو الجيوش الفرنسية الجزائر .

تلك كانت أقوال المؤلفين الاولين الذين أخفوا حقيقة الاستعمار ومقاصده . ولكنها كانت مجرد اقاويل وعلل ومبررات للاحتلال . انما الاسباب الحقيقية للهجوم على القطر الجزائري هي كسب المستعمرات لاغراض اقتصادية .

الاكتشافات والاختراعات العلمية

المحرك البخاري والكهربائي والنفطي

ذلك انه اكتشفت في القرن الثامن عشر الطاقة البخارية التي يسرت خدمة الحديد والمعادن الصلبة . فشيد الاوروبيون والامريكيون بفضل الاختراعات والاكتشافات العلمية المعامل والمصانع الضخمة التي اخذوا يصنعون فيها المنتوجـات المختلفة من النسيج والحرير والخزف والنحـاس والحديد والفضة والذهب والقصديـر والزجاج والبلور والاواني المعدنية وغير ذلك من الامـور المنزلية . فصاروا في نفس الوقت يستعملـون اليد العاملة الكثيرة . وازدادت الحركة الصناعية ضخامة عند اكتشاف الكهرباء التي سخرت لصالح الانسان وتضاعف الانتاج اكثر فاكثر لما اكتشفوا خصائل الوقود السائل والغازي واستعملـوه لمحركاتهم بفضل سهولة استعماله وقلة تكليفـه بينما كانت الطاقة البخارية تستلزم استعمـال ادوات ومحركات وخزانات الماء الضخمة مع كثرة

تجديدها واصلاحها . فكثر الانتاج بفضل المعامل الجديدة التي كانت تحرك بالوقود والكهرباء الا أن المصنوعات لـم يستطع أصحـــاب المعامل أن يروجوها كلها حتى تراكمــت فى المخـــازن . فانخفضت أسعارها بسبب المنافسات وكثـــرة المعامل التى شيدت فى أوروبا وامريكا دون غيرها. فاثير مشكل جديد ألا وهو مشكل البطالة وايقاف العمـــل .

الراسمالية : ان تلك الحركات العظيمة الصناعية والاقتصادية خلقت طبقة من الرأسماليـــين الذين امتازوا فى الامم الراقية المذكورة بجمـــع الاموال الطائلة بكل الوسائل من الكذب والخديعة والمعاملات الربوية والتصرفات غـير الشرعية . فصارت بسبب ذلك تتدفق عليهم الاموال الطائلة من المعامل والتجارة والعقود الاقتصادية العظيمة لكن أخذ التنافس الذى أشرنا اليه يعترى هؤلاء الراسماليين الذين خشوا الكساد وايقاف حركة البيع وتراكم السلع واثارة الفوضى من طـــرف العمال فانخفضت الاسعار وتحسنت جـــــودة المنتوجات ، الامر الذى أدى بالكثير من أصحـاب المعامل فى القرن الماضى الى أغلاق ابوابها لعـــدم استطاعتهم مواجهة تيار الانتاج وقلة الاستهلاك كما هدد الكثير منهم بالافلاس أو أفلسوا فعليـــا لعدم كفاية السوق الداخلية الوطنيـــة اذ كان العرض أكثر من الطلب .

ففكر عندئذ الكثير من اصحاب المعامـــــل اكتساب اسواق فى الخارج وفى البلاد التى لـم تدركها حركة التصنيع وخصوصا منها البـــلاد الافريقية والآسوية حيث كان يمنع بيع المواكن اليها اذ أن الاوروبى لم يستعمل اليـد العاملة الاجنبية والا كان يعد خائنا لبلده ويحاكم محاكمة الجواسيس والخونة ، فكم من مواطنين أنكليـــز وهولانديين أجرى عليهم الحكم القسى بسبـــب اطلاعهم الغير على سر المعامل .

ففتح اذ ذاك عصر التجول عبر البحار والبلاد البعيدة لايجاد الاسواق (comptoirs) فى افريقيا وآسيا (1) . فنصبوا المتاجر وعقـــدوا العقود بها وابرموا الاتفاقات مع ملوك تلك الاقطار ليقيموا معهم المعاملات التجارية حتى يصدروا اليها منتوجات معاملهم ويستوردوا فى نفس الوقت المواد الاولية اللازمة لمعاملهم لكنهم تقوت تلـــك الشركات بفضل الاموال التى صارت تتدفـــق عليها . فاخذت تحل وتعقد فى البلاد التى كانت مقيمة بها وطمعت فى احتكار تلك الاسواق حتى

---

(1) كانت تلك المراكز تسمى سلالم المشرق   Scala   échelles d'Orient

تكون حرة لا يزاحمها احد فيها • فرضخ اهاليهالارادتها التى فرضتها عليهم وعلى ملوكهم بالقوة وحاربت الملوك وقهرتهم وتغلبت عليهم واسقطت الممالك واحلت محلها الحكم الاوروبى •

المشكــل الجزائــرى
مهمــة رجــال القانــون

اذ كانت الجزائر بلادا واقعة قرب فرنسالا يحجزهما الا البحر الابيض المتوسط ، عزمت فرنسا بايعاز من راسمالييها على احتلال الجزائر التى تكون سوقا اقتصادية هامة ومخزنا هائــلا للمنتوجات الفلاحية والمواد الاولية •

نعم لم تكن اللطمة بالمروحة فى الحقيقة الاسببا رسميا لتبرر فرنسا الهجوم عــلى بلدنا (casus belli) كما يقول المفكرون الاستعماريون ـ كانت فى الحقيقة مهمة رجال القانــون الاوروبى أزاء مشكل الاستعمار قلب الحقيقة باطلاوالعكس بالعكس • ترى البعض منهم يقول «جئنا لنمدن الاهالى ونخرجهم من حالة الوحشية والبؤس التى كانوا يتخبطون فيها » •

كانوا يتكلمون كما رأينا سابقا فى أول الامر عن حق القوى على المغلوب لكن لم يعر احــد اهمية لهذا القول الواهى وقال بعضهم أيضا انالاستعمار صار حقا مبررا بوجوب تطور المستعمر (فتحا) اذ صار الاستعمار يعمل فى صالح هذا المستضعف ويتولى الدفاع عنه كالوصى عن حقوق محجورة واصبح المستعمر (كسرا) متشبعا بفكرةالاستعمار وبوجوبه كالهواء للتنفس وكالماء لحياة السمك او كحق وهبه الله له • وقال هانوطو وزيرخارجية فرنسا سابقا ما مضمنه : « ان الاستعمار حق لكل جماعة بشرية ، فانه يكون أحد المتطلبات الطبيعية للاجيال الصاعدة التى توجه نظرها الى الآفاق لتطير بعيدا (2) •

وقال دانيال سوران الشيخ الفرنسى لعمالةوهران من جهته ما معربه :

« ان الملك العقارى هو الوسيلة الوحيــدةالفعالة فى نهاية الامر للاستعمار الذى تريــده نهائيا • والتوسع الاستعمارى يصير الآن حتميالا يستطيع أحــد تجنبــه اذا أراد ان يعيش •

(2) يعنى البشرية الاوروبية • عاش هانوطو من 1853 الى 1944 وكان عضــوا فى الاكاديمية الفرنسية وألف كتبا كثيرة عن التاريخ خصوصامنها الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية •

والمدنيات الفياضة تريد أن تثبت في موضع ماالتفلت من الضغط الجماعي الذي تقتفيه ومـــن التخمير الخطير للنشاطات والمصالح التي اصبحتفي ضيق باوروبا حيث تكدس فيها البشر .

فاننا نهرب الى الخارج لنتنفس وأيضا لتلانتباغض اذ كان العدو وفي القديم هو الاجنبي فاصبح الآن هو الجار لانه صار ينافسنا في الرقعةالارضية التي ضاقت بنا اكثر فاكثر وشللـــت حركاتنا .

فاخرجت الحركة الاستعمارية الثورة الاجتماعية ولذلك يجب تشجيعها ومساعدتها وتنظيمها من طرف هؤلاء الذين يتشبثون بدون جـــدوى بالماضي المتدهور . والاستعمار ييسر للسيل العرم الذي يفور والحياة المتأججة التي لا يملكها صبـــروالتي صارت تنهار ، منفذا واسعا ليمكن لـــه الفرار والتوسع والانتشار .

ان مستعمرات المستقبل وحتى الماضي لا تبدو الا متاجر فانية ان لم تفتح للتعمير والاسكان والضيافة .السهلة والمرحة التي نجدها نحـــنالسائحين في الارض نحن الكثير العدد الذيـــن سيتضاعف عددهم اكثر فاكثر عندما تغص أوروبابالبشر رغم أنك تراها الآن عامرة جدا » (3) .

كما قال الملك الايطالي فيكتور أمانويل الثالث ما معربه :

« نحن بحاجة الى الهواء للتنفس والارض للانتشار والفحم والبترولالتدفئتنا وتسخينمواكيننا والافاق والمياه الفياضة لبطولتنا وللشعر » .

وتخرج من عنصرنا (notre race) الآن كمية عظيمة من القوة المادية بحيث أنه يصبح حقها في الانتشار في العالم حقا لا يقبل جدالا كحقسيول الوديان في الوثوب نحو البحر » .

العقـــد الاستعماري (lepacte colonial) – ان النظام الاستعماري المبنى في أول أمره على القوة القاسية والقتل والفتك قد مهد لهرجال القانون حججا أعطوها صبغة حق فاصبحت حقا أريد به باطل كما يقول الفقهاء . كما دعـاالمستعمر القانونيين والعلماء في العلوم الاجتماعية ليفكروا في الامر . فرأوا في الهجوم عقدا مزدوجاأبرم ضمنيا بين المستعمر والمستعمر(contrat colonial) فاتى عن رأيهم المستعمر الى البلاد المتخلفة ليعلمأهلها وسائل استغلالها ويدربه ويخرجه من حالة تخلفه ووحشيته . فكانه رضى المستعمر (فتحا)ضمنيا بقدوم المستعمر الى بلده وقبل الامر الواقع

(3) دانيال سوران . النظام العقاري بالمغرب ص 4

رغم دفاعه عن تراب وطنه • فاذن ، رضخ لحكمـــه اذ تيقن في آخر الامر أنه اتى الاجنبي ساعيا وراء مصلحته وتمدينه وتثقيفه وتحريضه على استغلال ثروات بلده التي كانت راكدة لا يستفيد منها أحد فمن الظلم والعدوان ان تبقى تلك الثروات مخزونة في الارض والبشر متوقف عليها • فباستغلالهـــا يستفيد المتخلف هو الآخر ولذلك اضطر لقبول الاجنبي كوصي عليه •

وذهب القانونيون والاقتصاديون أن البلاد المتخلفة ذات الثروات الواسعة من المواد الاولية الغير المستغلة من طرف الاهالي لعجزهـــم عـلى استثمارها والانتفاع بها يتحتم الاستيلاء عليهـــا شرعا اذ أن ثرواتها ملك للبشرية ، فلا يحق لاي قوم أن يستبقيها راكدة والعالم في حاجة أكيدة اليها فحلت على المستعمر باسم البشرية وبعنوان احتياج الامم المحرومة منها بحيث كان الهجـــوم لاكتسابها شرعيا فاستولى عليها باسم البشريـــة ((au nom de l'humanité)) اذ هي ملك جماعي ((bien commun)) حتى أصبح على قول هؤلاء الاستعماريين عملا انسانيا واجتماعيا وعدالة بشرية حتى يقام الانسجام والتعادل بين ثروات العالم والمستغلين سواء أكانوا مستعمرين أو مستعمرين •

وقال جريمال في هذا الصدد :

« لكن أكثر من ارادة القوة او أبهة الرايـــة فان المعطيات الاقتصادية للعالم العصري هي التي تجعل المؤسسات من وراء البحـــار ضرورية ، والنظام الصناعي الاوربي والعدد الضخم للسكان الذين أصبح وجودهم تابعا لحسن سيرة تحرص بان تستغل ثروات العالم كله • والحال أن الثروات المخزونة من المواد الاولية توجد فعليا في الاراضي خارج اوربا لا يستغلها سكانها • وهذه الثروات ليست ملكا للشعوب الافريقية والآسيوية فحسب بل هي « كنز جماعي للبشرية » ، بحيـث أخـــذ الاستعمار على عبئه استغلاله وروجان منتوجات تلك الشعوب المستضعفة (populations débiles) التي كانت تملكها « لا هي تستغلها ولا ينتفع منها غيرها لا بموجب حق القوى بل بموجب حق القوى في اعانة الضعيف » •

ليس هناك غصب في نظر هؤلاء المفكرين اذ ان المستعمر (كسرا) له واجب في اخذ تلك الشعوب المستضعفة على عاتقه واستغلال ثرواتها ومن واجبه أيضا ان يثقفها ماديا وروحيـا وان يقيها من البؤس الذى طالما احاط بها قبل دخول المستعمر الى بلادها ، وحاصل الامر ان يصـير

مشاركا لها فى التسيير والاستغلال واقتســـامالارباح ويكون ذلك المقابل الشكلى للاستيلاء الامر الذى يزيل لعمله كل صبغة اغتصابية » (4) ·

تلك كانت الفكرة الاخيرة التى تشبع بها الاستعمار الذى تطور كما بيناه بوضوح منذ حلوله فى أراضى الغير الى ان خرج مطرودا منها لاسبابعديدة منها :

1 ـ استمرار كفاح الشعوب « المستضعفة » ·

2 ـ حركة اسقاط الاستعمار التى خلقتهاالحربان الاولى والثانية ·

3 ـ تجنب المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى خلقها تنافر الطبقات بسبب حلول الافكار الاشتراكية فى العالم أجمع سواء فى البلاد المستعمرة الرأسمالية أو البلاد المستعمرة ·

فاجتمعت تلك التيارات كلها وساعدت علىمحاولة محاربة الاستعمار فى العالم ومحــوه لان الافكار التقدمية اصبحت تفرض نفسها حتى فىالبلاد المتغلغلة فى الاستعمار مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وأسبانيا وهولاندا واخيرا البرتغال ·

الاستعمار الجديد والامبريالية

لكن اذا تقهقر الاستعمار وقهر وغلب ، فليس معناه انه وضع السلاح ومات بدون رجعــة بل لا زال حيا ولا زال يفرض ارادته وسيطرتهونفوذه اذ كان تقهقره مجرد تأخــــر استراتيجى ليرجع الكرة مهمى سنحت له الفرصة متقنعا بقناعالاستعمار الجديد والامبريالية ·

ولما وضعت الحرب الثانية أوزارها قرر ميثاق سان فرنسيسكو والميثاق الاطلنطى ووضعت قرارات منظمة الامم المتحدة ففكر الاستعمار فىالتحويلات اللازمة عندما يوضع أمام الامر الواقع لئلا يخسر مكتسباته المحصل عليها منذ قرون ·فأجرى تلك التحويلات/(reconversion - mutation) مثل قائد الجيش الذى يضطر للرجوع الى وراء ميدانالحرب ليتمم تنظيم جيشه ·

فسطر الاستعمار برامج عديدة ترمى الى ابقاء احتكاره لثروات البلاد المستعمرة التى سوف تستقل وابقاء امتيازاته وفرض الاثمان والتغلبعلى البلاد المستقلة حديثا ماليا واقتصاديا وفكريا

---

(4) جريمال هنرى · اسقاط الاستعمار 1919 ـ 1963 ص 28 · ان هذا الرأى ليس رأيه انما أتى به ليعبر عن رأى الكتاب المتشبعين بفكرة الاستعمار · أما أفكاره فهى تقدمية اذ نراه متشبعا بالمذهب الماركسى ·

وعلميا و « اطاريا » بحيث تبقى تابعة له على الدوام ويبقى النفع هو هو بل ربما يخرج غانما سالما لانه سيتجرد من المسؤولية السياسية والعسكرية وحتى المالية التى كان يتحملها· فسمى هذا النظام الاستعمار الجديد الذى تحالف مع الامبريالية العالمية التى هى مشابهة له ·

وما هذا النظام الا نظام استغلال ثروات البلاد المستقلة اخيرا والمتخلفة اقتصاديا ووضع اليد على مقاودها فى خفاء ونظامها الاقتصادى وعلى عملتها ومؤسساتها الصناعية والتسيطر على مسيريها الذين اصبحوا آلة وعملاء مسخرين بيدالمستعمر القديم الذى خرج من البلاد فعليا لكنه بقى مسيطرا عليها مسيرا من بعيد سياساتها بدون ان يتحمل مشقة الحكم المباشر واقامة القوة العسكرية التى كانت تكلفه نفقات باهظة وتضحيات بشرية خطيرة · فحسبه يحرك عملاءه ويعينهم على فرض نفوذهم على اخوانهم واقامة الحكم الليبرالى بالبلاد واعطاء السلطة لشرذمة من المسؤولين الخونة والمتمولين بفضل أسيادهم ·أما الثروات فلا يزال المستعمرون القدماء يستغلونها لفائدتهم وفائدة الشركات الرأسمالية التى تقوم على جماعات رأسمالية دولية trusts et cartels التى اصبحت سيدة البلاد المتخلفة تتصرف فى سياستها وربما تقلب الحكم فيها ان اقتضت مصلحتها · ان هذه الشركات التى تكون فى الحقيقة دولة فى قلب دولة تحميها دولة وطنها باوروبا وامريكا · لكن نرى كثيرا من الدول النامية اخذت تتجرد شيئا فشيئا من تلك الربقة وتتملص من التبعية بتأميم ثرواتها والاستفادة منها بوحدها · فقرر الكثير منها مثل الجزائر وغينيا والكونغو واليمن الشعبية وطنزانيا وسوريا وغيرها استغلال ثرواتها بدون مشاركة اية دولة او شركة أخرى · حقا ، كان قرارها خطيرا لانها كانت تخشى رد فعل الدول الامبريالية لكن ظهر تيار آخر دافع عن تلك الدول الشجاعة ·

نحن نظن على كل حال ان الاستعمار الجديد والامبريالية ايامهما محسوبة لاسباب شتى منها :

أولا ــ وعى شعوب البلاد المستعمرة قديما التى لا زالت تجرى عليها سيطرتها الاقتصادية والسياسية ·

ثانيا ــ نشر الافكار التقدمية فى الشعوب المستضعفة التى أخذ حكامها المخلصون يحسب لهم حساب ، فانهم أخذوا زمام الحكم بقبضة من حديد ·

ثالثا ــ تكتل الدول النامية ومحاربة الامبريالية ، تلك الدول التى تسمى الآن العالم الثالث فأنها اجمعت على أن تستغل ثرواتها بنفسها ،فامم الكثير منها ثرواتها كما بيناه ·

رابعا ــ تكتلت تلك الدول في الميدان السياسي وكونت منظمة مرصوصة البنيان وانعزلت عن تصرفات الدول الراسمالية المسيطرة اقتصاديا على العالم ، فكونت كتلة دول عـــدم الانحياز التي تحاول الآن الخروج عن محيط الدول المثرية مثل أمريكا والاتحـــاد السوفياتي واليابان والمانيـا الفيدرالية وفرنسا وايطاليا وانجلترا وبلجيكا وهولاندا وغيرها، فوحدت دول عدم الانحياز صفوفها لتجابه الدول الراسمالية المذكورة وتفرض عليها اقتسام الثروات العالمية وبيع موادها الاوليـة بأثمان تسعرها هي ، نظرا للظروف الاقتصادية حتى تغير الوضعية القديمة حيث كانت الـدول الرأسمالية تشترى المواد المذكورة باسعار عالمية بخسة وتبيع المنتوجات للدول النامية باثمـــان باهظة وتجوعها وتفقرها بينما تزداد هي غناء ٠

ان هذا الوعي قد خلق حركة فكرية واقتصادية وتضامنا في العالم المتخلف الذى أصبح يفرض هو الآخر ارادته على الدول المتقدمة ٠

فشعرت هاته بالخطر ٠ فصارت تستعمل وسائل العنف والتهديد والوعد والوعيد وتفقر وتحتكر المواد الضرورية وتشترى الضمائر وتثير الحرب الباردة كعادتها لكنا نظن ان محاولاتها باءت بالفشل ٠ فنراها الآن في سكرات الموت وسيطرتها على العالم هي في طريق الذوبان والاضمحلال تلك هي آخر مرحلة الاستعمار العصرى الـــذى طالما ظلم الشعوب الضعيفة وقتلها تقتيلا وجوعها وحاول محوها لكن « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » والحق يعلو ولا يعلا عليه ٠

اذ أتينا ببعض المعطيات الخاصة بالاستعمار الجديد والامبريالية في هذه الدراسة الخاصـــة بالجزائر فلان بلادنا تدور في محيط عالمي تتأثر بتياراته فتحس بالآلام التي « تعترى » العالـــم الثالث وتتمتع بالراحة التي يتمتع بها ٠

من وحي ذكرى الثورة :

المجنــدون ضد أنفســهم

محمد فضيل عمرو

ان التجـربة الثــورية فى خطها العريض قفزت بشعبنا الى القمة وكانت (مخاطرة) انسانية معززة بالايمان العميق وهي مخاطرة لا يمكــن تكرارها بسهولة او فى كل لحظة من اجل ذلك فهي تجربة هيات الفرصة الكافية للافراد جميعا لكي يخلقوا من انفسهم معجزات كما كانت هي معجزة العصر ، لقد ثبت بالتجربة ان ثقة شعبنا بنفســه طوال عهد الكفــاح الدامى اثمرت ما هو كــاف ـ واكثر ـ للتمسك بذاتيته فى اصرار ، ومع ذلك فنحن نــرى ونسمــع من يدعو لما يشبه عملية

« انتحار » جماعية تتخذ شكلا جديدا هو أن تتقمص ذاتنا ذاتا اخرى أيا كانت تلك الذات الجديدة لتموت الى الابد ، تلك نفوس ام تطق حياةالقمم فاستهوتها ضفاف المستنقعات فى الوهاد المظلمة وعادت اليها لتهنأ بالحياة العفنة وتواصلتزييف القيم وطمس الكفاح المجيد ، وكانها كانت تسكن خلف أسوار المجتمع وترقب المعركة الثوريةمن بعيد لترى ماذا عسى أن تكون الخاتمة ، وهي فى كلتا الحالتين معزولة الروح عن قلب التجربةوليست هذه تصورات مفرطة فى التجريد ولكنها صورة حقيقية « لجثث » تحيا فى المجتمع الذىنعتقد انه مجتمع ثورى بكل ما فى الكلمة من معانى البناء والتجديد والتطور والايمان الصادق بكرامةالوطن وشخصية المجتمع · والذى نبارك خطواته الجريئة فى عملية اكتشاف شخصيته واثباتهاباسلوب عنيف صارم لا مساومة فيه ولا غدر ولا تشويه ولا تردد ··· جثث تجادلك وتقذف فىوجهك الحجة فيما تدعيه ·· ثم تتعرى امامك بدون خجل مؤمنة بانها تنشد الكمال للمجتمع ،بما تقوم به من تقمص للذات الغربية عنها والفرار من ذاتها ، فى حين انها « مجندة ضد نفسها » ·

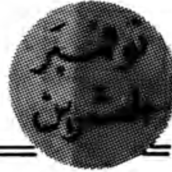
الا ان الذات المستعارة لن تعطى للفرد قيمة ·· ولن تبنى له مجتمعا لان « القيمة المنصرفة » هي تلك التى تملك رصيدا فى أعماق الذات نفسها ·· رصيدا غير مزيف اكتسبناه بفضل النضال الشاق ، والتحدى العنيف ، والمجتمع الذى ينشد القمة يفتقر الى افراد يؤمنون بانفسهم وتلتقى كلمتهم على أن معنى الفرد أن يكون هو من هو وأن يبذل الجهد المشكور فى تعزيز وجوده بتوجيه حريته لتعمل جنبا لجنب مع حرية الغير حتى يتحقق للجميع مثلهم الاعلى فى الحياة ، كما يفتقر ـ أيضا ـ الى خطة واضحة تقود النضال الى الهدف المنشود ، لاننا اذا لم نتخذ قرارا مشتركا فى شأن مطالبنا افترقنا قبل أن نبلغ من سعينا شيئا ، والقرار الذى ينبغى أن يصادق عليه افراد المجتمع الذين يحترمون انفسهم ، هو الالتزام الصادق بتقدير ذاتيتهم والايمان بها وبالتالى تقديرهم للذات الكبرى ··· ذات المجتمع ·· ولان كل عزم يعقد بعد ذلك لممارسة النشاط فى أي وجه من وجوه الحياة الاجتماعية سيظل نجاحه مشروطا بالقيمة التى حددت للذات سلفا ، والذين يدعون فى الخفاء لهذه الهجرة الروحية يضعون اقدامهم على حافة العدم وجفونهم مسدلة ويرفضون ـ بلؤم ـ صميم وجودهم وكيانهم ، بحثا عمن يتبناهم من مجتمعات « جاهزة » متنورة وليس هذا هو طريق التطور ، وليست هذه هي نوايا الوطنيين وليست هذه هي طريق العمالقة ان الطريق الواضحة أن نلقى بانفسنا ـ كاملة غير ممزقة ـ الى قلب المجتمع الذى وجدنا فيه والذى خلقته المعركة لنقوم بدورنا فى عملية التحريك والتطوير والخلق من جديد ، ونلقى بكل طاقاتنا فى المعركة لنكمل النقص ونشارك أصحاب السواعد الكادحة الذين لم يكفروا يوما بشخصية وطنهم ، ولم يفهموا ان الحرية اعلام ـ فقط ـ تملأ سماء البلاد ·

واذا كان وجه مجتمعنا يبدو لاعين هؤلاء الفارين من ذواتهم وجها « دميما » منفرا فمن الغدر وضعة النفس أن نسلمه لدمامته ونتخلى عنه أو نشترى له من « ســـوق الاقنعة » قناعا وسيما ، نقول للتاريخ هذا وجه مجتمعنا لا ٠٠ ان رسالتنا تدفعنا الى حشـــد كل ما فى وسعنا من جـــهد باكسابه عناصر الجمال ، وعوامل القوة ، ففى ذلك التخلى اعـــدام شنيع لانفسنا بلا رحمـــة ولا تبرير ، وفرار نذل لعين يقضى أن نعيش ربائب غير مكرمين ٠

ورغم هذا الاسى الذى يعتصر قلوب المؤمنين بشخصية مجتمعهم لوجود تلك «الجثث البشرية» الطافية فوق سطح المجتمع فان الفهم المستقيم لطبيعة المجتمع ، وحركة التطور من شانه أن يبدد المخاوف ويؤكد الضمان فى أن القافلة ستظل تسير فى طريقها السليم وأن عملية النمو الاجتماعية ستقوم بوظيفتها على مدى الايام باستيعاب العناصر القابلة للتكيف واضافتها الى الكيان المتكامـــل وبعزل العناصــــر المشوهة تلك التى تعد ورما فى جسم المجتمع ٠٠ تماما كما يفعل الجسم الحي حين يطرد الطفيليات الغريبة حتى لا تعوق النمو السليم فى الانسجة ٠

فى كل مجتمع ذوات سلبية وقد تستميت فى نضالها الفاشل ٠ لتقنع الناس بضرورة تحويل سلبيتها الى ايجابية فعالة يتغذى بها نظام الامة فى الحياة ولكن للمجتمع أيضا « حصانة طبيعية » ضد من يعتسف به وبثقافته طريقا محفوفا بالخطر والذين لم تستطع تجربتنا الثورية أن تبلغ بهم ذروة ، وتبعث فيهم عنصرا اصيلا ، سنقول لهؤلاء : ان بين الله وشعبه صفاء ومودة ووعدا صادقا على أن يرعى كل تحرك نحو خير الجميع ، وسوف لن يحرم الشعب من أبناء أوفياء يغذون أملـــه فى البقاء والازدهار ، وسوف لن ينجح كل من يحاول تجميد الثورة وتعطيل العزم المعقود عـــلى بعث الشخصية الوطنية فى الجزائر قوية متكاملة واغتيال روح المجتمع بأسلحة المزيفين ، فحركة التشكيك غدر يقضى بنفسه على المجندين فى هذه الجبهة ضد ذواتهم ٠





المنطلق لتحرر متجدد ودائم

د · خير الله عصار
كلية الآداب
جامعة الجزائر

ان فحصا دقيقا شاملا لثورة نوفمبر يظهر انها ترمي الى تحرير الانسان من كافة القيود · الانسان دائما وابدا يبقى منطلقها الاول ومرجعها الاخير · انها ترمي الى تحريره من القيود التي تمنع تفتح انسانيته وتعرقل تساميه ·

★ ★ ★

ان الانسان كائن من نوع خاص · انه يملك القدرات بالقوة وبالفعل على أن يجعل من وجوده كائنا علويا كالملائكة ، وعلى ان يجعل من هذا الوجود كائنا سفليا كالبهيم · ان تفتح هذه القدرات ونموها الى اقصى الحدود قد يتعرقل بسبب ظروف مجتمعية وطبيعية ودولية · لذلك لا بد من ثورة تلغي هذه الظروف من جهة ، وتخلق ظروفا اخرى افضل منها تسهل نمو الانسان وتسهل عملية تساميه ·

ان ثورة نوفمبر يوم اندلعت كانت ترمي الى تخليص الجزائر من شروط الحياة الاستعمارية التي فرضتها فرنسا على البلاد ، هذه الشروط التي كانت تعرقل دائما وتمنع دائما نمو الانسان الجزائري وتفتحه من أجل تحقيق انسانيته • وبالطبع فتخليص الجزائر من هذه الشروط يتطلب الثورة المسلحة والشخص المحارب الذي يتخلى عن ارتكازه الذاتي ومصالحه في سبيل ازالة تلك الظروف ، أي تحرير بلاده منها •

والآن ، حوالي اثنتي عشر سنة مرت منذ ان ارتفع الهلال والنجمة في سماء الجزائر ، أي منذ أن تطهرت البلاد من شروط الحياة الاستعمارية والاحتلال • فالسؤال الذي أمامنا : هل الشروط التي تركها الاستعمار والظروف الحياتية والمجتمعية التي وجدناها في جويلية 1962 كفيلة بتسهيل نمو الشخص الجزائري وتحقيق كرامته وانسانيته ؟

★ ★ ★

لا أجد أفضل من كلمات رسول الله عليه السلام ، عندما وصف الحرب ومعاركها بالجهاد الأصغر ، والحياة بعد الحرب بالجهاد الأكبر ! لماذا ؟ الحرب تضع اختيارا واحدا امام الانسان : العنف • أما الحياة بعدها فتضع اختيارات عديدة • ان التحرر هنا اكثر تعقيدا ، والشروط التي تساهم في تحرير الانسان تتداخل فيها النواحي المادية والمعنوية ، الماضي مع الحاضر •

ان بعض الاختيارات المطروحة بعد الاستقلال هي : كيف يمكن القضاء على الجهل والمرض والفقر ؟ كيف نعالج تركة المستعمر الثقافية ؟ ما هو موقفنا من روح العصر الذي نعيش فيه ومن روح ماضينا الذي يطل علينا عبر الاجيال ؟

يمكن ان نلخص الخطوط العامة للثورة بعد الاستقلال بمحاولة جدية من أجل ازالة الفوارق الطبقية المجتمعية التي تقسم المجتمع الى اقلية مستغلة وأكثرية مستغلة • وهذا يعني بالدرجة الاولى رفع مستوى الاكثرية من السكان الريفيين والفقراء ، وبكلمة أخرى تحسين الظروف المعاشية لهم بواسطة دعمهم ماديا ، واعطائهم قطعة من الارض ليخدموها ، وبناء قرى نموذجية تليق بهم •

لقد خطت الثورة خطوات جبارة في هذا المضمار ، ذلك لانها عرفت بكل تأكيد ان أية فلسفة أو ثورة تهمل الشروط المادية وتأثيرها على تكوين الجسد ، وتضع هذا في مرتبة ثانوية أو ثالثة في

حسابها ، هي فلسفة أو ثورة مكتوب لها الفناء ۰ان الجانب المادى من الحياة، والجانب الجسدى من الشخص يشكل البوتقة التي تعيش فيها النفس، انه كالاصيص بالنسبة لوردة غرست في ترابه ، يقدم لها الغذاء والماء ويضم جذورها بين جوانبه ،التى تلتحم به وبترابه التحاما عضويا تاما ۰

★ ★ ★

اذا كانت ثورة نوفمبر هي الجذر ، فالثورات الثلاث هي زهورها ، التي بدأت تعطى أكلها لتحرير الانسان يوما بعد يوم ۰

★ ★ ★

ان المعرفة العلمية والقوانين العلمية والصناعة والتكنولوجيا حيادية بمعنى انها تتبع قوانينا خاصة من وجودها ، ولا تأثير لرغبات الانسان واهوائه عليها ۰ بيد أن التعبير عن القانون والمعرفة الصناعية والتكنولوجية يتم في لغة معينة ، ولذلك تبدأ هذه الجوانب العلمية الحيادية ، تبدأ بالخروج عن حيادها وتنصب في روح أمة ما ، عندما تنصب في لغتها ۰ لذلك كان لا بد من التعريب ، من أجل تحرير الجزائر من التركة الثقافية العلمية واللاعلمية ، الادبية واللاادبية من صبغة المستعمر وتلوينها بصبغة عربية أصيلة ۰

لسنا في مكان يسمح بتقويم الخطوات التي تمت في هذا المضمار ، لكن يمكن القول بكل تأكيد أن التعريب يسير بانتظام على قدم وساق وقد بدأ يعطى أكله ۰

★ ★ ★

ان التحرر من الاحتلال يتم بسرعة : خلال ثمان سنوات ۰ لكن التحرر من تركة الاستعمار يأخذ وقتا أطول بكثير ۰ انه جهاد أكبر ، دائم ، ثابت ، ويحتاج لحصافة عقلية أكثر تعقيدا من تلك التي تحتاجها الثورة لتحرير البلاد من المستعمر المحتل ۰ لذلك لا بد من التقويم الدائم المستمر لكل خطوة تنفذ ، ولا بد من برنامج دقيق ينفذ بدقة ۰ وقد اعتبر عام 1985 العام الذى فيه يتم تعريب الحياة في الجزائر كاملة ۰

★ ★ ★

ما هي خصائص ماضينا التي يجب ان نتحرر منها ؟ ما هي خصائص روح العصر التي يجب أن نتحرر منها ؟

قبل هذين السؤالين يجب أن نسأل : ما هي الخصائص فى الماضى والحاضر التى يجب تبنيها وتنميتها ؟

ـ ان ماضينا يمدنا بتراث كبير من المعرفة والعلم والادب ٠

ـ ان ماضينا يمدنا بأروع رسالة اخلاقية عرفتها البشرية ، ترتبط بدين أصيل حنيف ٠

ان فى تراثنا كما ذكرنا الكثير من المعرفة ، لكن معرفة العصر تجاوزته ٠ ان معرفة الانسان عام 1980 ستتجاوز معرفته الحاضرة ، فكيف اذن لا تتجاوز معرفة حضارة توقف عطاؤها منذ ثلاثة قرون ! ان المعرفة فى تراثنا تعتبر فقط جزءا من محاولات الانسان التاريخية فى بحثه الدؤوب عن المعرفة ٠

اذا صح هذا القول على المعرفة ، فهو لا يصح ابدا على رسالتنا الاخلاقية ٠ ان كل ما أتى به العصر الحديث من مثل اخلاقية سواء تجلت فى فلسفته أو فى منظماته الدولية أو الانسانية ، يقصر أو على الاقل لا يتجاوز رسالة ديننا الاخلاقية التى تتميز : بتفضيل بنى آدم ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، ومن احيا نفسا فكأنه احيا الناس جميعا ، كلكم من آدم وآدم من تراب ، « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » الخ ٠٠٠

اما العصر فيبهرنا باتساع معارفه وبنمو الفكر العلمى فيه ، ونمو التكنولوجيا والصناعة ٠ كل هذا لا يمكن التهاون به ٠ وما على الثورة الا ان تتوسع فى مجالات التنمية العلمية والصناعية والتكنولوجية الى أبعد الحدود

اننا لم نتخلص من التخلف العلمى بعد ٠ ان المقياس الذى نستعمله لمعرفة تحررنا من التخلف العلمى ـ الصناعى ـ التكنولوجى هو :هل ننقل كل شىء ؟ أم اننا ننقل ونبدع ؟

انى اجد اننا مازلنا ننقل جل العلم والصناعة والتكنولوجيا ٠ لذلك فتحررنا لم يتم بعد ٠

عندما تطالعنا الصحف والاذاعات عن انجازات تقنية وصناعية وعلمية نبتت هنا على أرض الجزائر وأخذت من رحيقها فاعطت زهورا جديدة، يمكن القول أن تحررنا من التخلف العلمى قد تم ٠ ترى كم عاما نحتاج حتى نصل الى هذه المرحلة ؟

★ ★ ★

ان النفس الانسانية تملك القدرة على النقل والتقليد والمحاكاة ٠ لقد نقلنا علوما كثيرة وموضوعات كثيرة ، وقلدنا الكثير من أساليب الحياة فى الغرب ، وحاول بعضنا أن يحاكى طراز

التانق واللباس والتعبيرات اللغوية ٠ وقد ادت عملية النقل والتقليد والمحاكاة الى تغيرات شبه جذرية في مجموع حياتنا ٠

والنفس الانسانية تملك القدرة على الابداع من اجل تجاوز ما اتى به الآخرون من علوم وموضوعات وأساليب العيش المختلفة ٠ بيدأن هذه القدرة لم تطلق من عقالها بعد ، مازالت سجينة لم تتحرك نحو النمو ، لذلك مازال في مسيرتنا بعض بذور التطفل على الثقافة والحضارة التى نستوردها من وراء الأفق البعيد ٠

ان الملاحظة تظهر أن مشكلة النقل فى حقل العلوم لا تشكل أى افتحار (من كلمة افتحر (PRADOX)) ٠ لكن عملية تحرر المرأة ، والحرية النسبية التى يتمتع بها شباب اليوم ، تشكل حقلا واسعا للصراع بين تزمت المتزمتين وتحرر الفوضويين ٠

يقال ان المرأة فى تحررها الجديد ، هدمت صرح كيان اجتماعى تقليدى أصيل ٠ انها فى طريقها الى تهديم ما بقى ، وليس امامنا الا ان نعود بها الى الجدران الاربعة والسقف اذا أردنا المحافظة على الأصالة والتفتح القويم ٠

هل كان فعلا صرحنا الاجتماعى الذى عاشت فيه أمهاتنا وجداتنا اصيلا موافقا لمبادىء الاسلام الحقيقية حسب القرآن والسنة وموافقا لمبدأ الكرامة الانسانية ؟

ـ بادىء ذى بدء ، الله تعالى أمر بضرب الزانى والزانية ثمانين جلدة ، لكن المرأة فى مجتمعنا التقليدى اذا زنت تذبح ، اما الرجل فلا يحاسب ٠

ـ يمكن للرجل ان يركب الخيل ، يسوق السيارة ، يذهب ويجىء حيثما يريد ، لكن هل المرأة (فتاة كانت ام سيدة) تتمتع بنصف هذه الحرية ؟

ـ الزوج يحاسب زوجته على خروجها دون اذنه من بيته ، لكن من يحاسب الزوج عندما يبغى ؟

« **لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى** » لكن هل كان الرجل فى مجتمعنا التقليدى أكثر تقوى من المرأة حتى يتمتع بتلك الحقوق التى لا حد لها ؟

يقولون ان المرأة العصرية بتحررها قد مرقت من الدين ، لكنى أرى ان الكثير من الرجال مرق من الدين قبلها فى مجتمعنا التقليدى العتيد ؟

★ ★ ★

في بحث علمي عن وضع المرأة في الجزائر ،وجد الباحث ان سكان المدن اكثر تسامحا مع بناتهن من سكان الريف : انهم يتسامحون معها اذا خرجت لوحدها ، اذا ذهبت الى السينما لوحدها ، اذا ذهبت الى المكتبة ، أو تاخرت بعدغروب الشمس كانت النتيجة الطبيعية غير المباشرة لهذا البحث ان الاسرة في المدن تمرق من الدين شيئا فشيئا ٠

أجل الابوان في المدينة مبتعدان عن الدين بحسب هذه المفاهيم، لكن يا ترى، الا يمكن ان يكون الآباء في الريف مبتعدين عن الدين بحسب مفاهيم أخرى ؟ وان المجتمع القديم لم يكن في جوهره أكثر أصالة واسلامية من المجتمع الحديث ؟

هناك بعض الزيف في نظرتنا الى المرأة خاصة وفي ابحاثنا عنها ٠ نشرت مجلة فرنسية ذات مرة ان 47٪ من النساء المتزوجات في فرنسا يخن ازواجهن ، ترى كم نسبة الرجال الذين يخونون زوجاتهم ؟ ربما تتجاوز التسعين بالمائة ٠

ألا يمكن ان نضيف الى ذلك البحث العلمي الجزائري بحثا آخر نسأل فيه الأبوين لماذا وكيف يفضلان الولد على البنت ؟ أنا لا أدعو الى الفوضوية في معاملة المرأة والتسامح معها اذا اخلت بشروط الاخلاق ، لكن ادعو الى معاملة متساوية بين الذكر والانثى وان قبلنا ان الرجال قوامون على النساء في بعض المجالات التي حددها الله العظيم الرحيم ٠

★ ★ ★

في الحقيقة أرى ان مجتمعنا التقليدي هو مجتمع الرجال فقط ٠ والآن هو في طريقه حتى يصبح مجتمعا تشارك فيه المرأة بقدر مشاركة الرجل ٠ وبالطبع هذا سوف ينقص من سيطرة الرجل وعنجهيته وتغريبه وتشريقه ، لذلك لن يسر من هذا ٠ بيد أن الجانب العجيب الغريب في القضية أن يعتبر الرجل وضعه في المجتمع التقليدي بالنسبة لعلاقته مع المرأة ، يمثل روح الاسلام الحقيقية ٠

★ ★ ★

ان مجتمعنا التقليدي مجتمع غير متحرر ،وهو مقيد ٠ انه مجتمع سيطري كما أثبتت الدراسات العلمية ، ويتصف بوجود الشخصية السيطرية التي تتميز بالتوجه من الخارج ٠

وهذا المجتمع الآن يتغير · المرأة فيه تتحرروالجيل الجديد يتحرر من السلطة ومن التسلط الرجالى ·

ـ انه ينتقل تدريجيا من مجتمع توجد السلطة فيه خارج نفس صاحبها ، الى مجتمع تصبح السلطة فيه نابعة من الداخل ، أى موجهة ذاتيا ·

ـ انه ينتقل تدريجيا من الشخصية السيطرية الى الشخصية المبدئية الموجهة بحسب مبادىء وخطوط عريضة ذاتيا ·

لكن التقليديين يظنون انه ينتقل من النظام السليم الى الفوضى المرضية ، من التوجيه الى اللاتوجيه ، من الشخصية الانضباطية الى الشخصية الفوضوية ، لذلك نراهم دائما يتشاءمون ·

على الرغم من عجر وبجر الجيل الجديد ، فهو فى رأيى أفضل من عجر وبجر الجيل الذى عاش قبل قرن من الزمان : الجيل الجديد يقدم لنا مهندسين واطباء ومحامين ومعلمين ، يقرأ أكثر ، ويسافر أكثر ، وجسمه أليق رياضيا وعنده معرفة ذاتية افضل ، وخوفه أقل ، وخدماته للمجتمع الجديد افضل ، يتطوع ويساعد الفلاح ، ويعمل فى المصنع ، وبكلمة أخرى انه يبنى الجزائر الناهضة ·

الجيل قبل خمسين عاما ، كان اميا على الاغلب ، كان خاليا من الاطباء والمهندسين والمحامين والمعلمين ، كان منزويا على نفسه فى دهاليز التكايا والكتاتيب · كان يعرف شيئا عن تراثه من شيخه ، لكنه كان جاهلا فى العديد من المجالات العلمية والتقنية والمعلومات الانسانية ·

★ ★ ★

هل يجب علينا ان نكون راضين عن انجازاتنا فى العيد العشرين للثورة ؟

اعتقد انه يجب أن نكون راضين عن الطريق الذى نسير فيه ، لكن غير راضين عن السرعة ·

العالم كله يتغير بسرعة هائلة ، فالقمر لوذهبنا اليه بسيارة لاستغرقت المرحلة عدة اعوام ، لكن الصاروخ وصلها فى بضع أيام

العالم يتغير بسرعة الصاروخ ونحن نتغير بسرعة الحصان فى مجالات وبسرعة السيارة فى مجالات أخرى ·

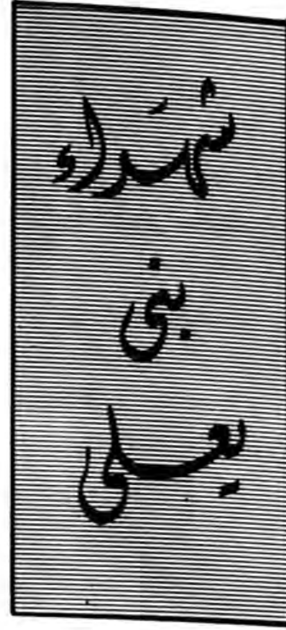
هل يمكن لنا ان نزيد من سرعة تحررنا ؟

لا اعتقد انه باستطاعتى الاجابة على هـــذا السؤال فى هذا المقال ٠

فى رأيى أن تحررنا من المستعمر عسكرياتم بسرعة الصاروخ ٠ اما تحررنا الثقافى فمازال يتلكأ ويسير بسرعة يمكن لنـا ان نزيدها اذا صممنا ٠

العيد العشرون لثورة نوفمبر المجيدة يشهدعلى انجازات عديدة هائلة ، تسر القلب وتبهـج النفس ٠ لكن القناعة فى مسيرة الامة ليست كنزا لا يفنى وانما فقرا لا يفنى ، وعليه يجب أن لا نقنع بسرعة مسيرتنا لان القناعة معناها التوقفعن الطموح وبالتالى عدم تنمية القوة الدافقـــة الهائلة التى اطلقت العرب قبل ثلاثة عشر قرنا ،واطلقت شعب الجزائر نحو ثورة نوفمبر قبـل عشرين عاما ٠





شهداء بني يعلى



د. ع. مصطفاى
كلية الآداب
جامعة الجزائر

بنى يعلى قفوا ان الرجا ما
لعمرى قد حوت همما عظاما

حوت جثثا لابطال كرام
لقد رفعوا لنا فى الناس هاما

يحق لنا بمسعاهم فخار
وصبح النصر قد دحر الظلاما

ورايات الجزائر خافقات
على الاوطان ترتاد الغماما

فيالك من نفوس آبيات
تخيرت الجبال لها مقاما

فنعم جبالنا الشماء مأوى
لاحرار تريد بها اعتصاما

فكم بذل الاعادى من جهود
لقهرهم فما نالوا المراما

لعمرى خاب مسعاهم وطاشت
سهام كلما مطروا سهاما

فقدما كان موطننا عرينا
لآساد تحامى أن تضاما

هم الانجال قد كرموا جدودا
فما اعتنقوا الردى الا كراما
هم الابطال أن يلقوا قتـــالا
يبيدوا الخصم أو يلقوا حماما
فلم توهن عزائمهم خطــوب
تجر على مواطننا الظلامـــا
لقد سهروا وضحوا فى عــلانا
فما تعطى العلا قوما نيامـــا
أباة لم يطيقوا العيش هــونا
يــرون العيش فى ذل حــراما
هنيئا يا بنى يعلــى قبـــور
بها كنزات قد عظمت مقامــا
فياكنـــزات طبت لهم مقـــرا
ونلت من العلا ما لا يسامــى
ضممت ببطنك الشهداء حبــا
كضم الام أبنــاء كــرامـــا
بذلت العون فى الهيجاء حــتى
رأيت النصر يبتسم ابتسامــا
وذقت من الشدائد كل لـــون
فما خنت العهود ولا الذماما
فقدما كنت يا وطنى المفـــدى
منار ثقافــة يهدى الانامـــا

* * *

ألا يــاأيهــا الشهداء انـــا
نكابد من فراقكم غرامــا
فكم أم اذا نــاحت ريـــاح
غدت تحكى لذكركم الحمامـــا
وكم طفــل يعلــل بالتلاقــى
وليس بصابـــر الا لمامـــا
ألا يا قــوم رفقــا بالثكالــى
ألا يا قــوم رفقــا باليتامــى
ألا استوصوا بهم خيرا وأدوا
حقوقا واحفظوا لهم الذمامــا
فتلك أمانــة الشهداء فارعــوا
ألم يعلــوا لشأنكم مقامـــا
ألم يقضوا ليحيا الشعب حــرا
ويلقى فى الشعوب له احترامــا
اذا ما سار شعب فى سناهــم
فلا يخشى انتقاصا واهتضامــا
فقد سنوا التعاضد والتآخــى
وقد سنوا المحبة والــوئامــا
ألا أعظم بها سننــا لقـــوم
يريدون الكــرامة والسلامــا

دور المسرح فى الثورة :

المسرح الحديث بدأ مع جيش التحرير

جروه علاوة وهبى

ان انعدام المراجع والوثائق هي المشكلة الرئيسية التى يواجهها الباحث فى الجزائر ، خاصة من كان يهتم بتاريخ الحياة الفنية والمسرحية قبل القرن العشرين . ولم تنشر حتى الآن اية دراسة حول هذا الموضوع ، باستثناء المذكرات التى كتبها الفنان محي الدين باش طرزى . وهي مذكرات ذاتية أكثر منها دراسة أو تاريخ . وقد اقتصر حديث صاحبها على التجربة المسرحية فى الجزائر العاصمة دون التطرق للحديث عن النشاط المسرحى فى بقية مدن القطر كقسنطينة ووهران ، وهما من عواصم الفن المسرحى فى الجزائر . والشيء الوحيد المؤكد والثابت هو ان النشاط المسرحى قد طمس فى الجزائر مع بداية الفتح الاسلامى ، وخلال فترة الحكم العثمانى . وذلك لاسباب عديدة ، ونحاول التعرف على بعضها فيما يلي .

زيارة جـــورج ابيض
وبداية المســرح الجزائرى

كانت فترة الاحتلال الفرنسى الاولى للجزائر من سنة 1830 حتى سنة 1888 ، عبارة عن فترة قحط فني . فالفرق المسرحية الفرنسية التى كانت تقدم عروضا مسرحية فى ذلك الوقـــت كانت تقتصر على تقديمها فى الثكنات العسكرية فقط ، ولم تكن تستخدم المسارح الرومانية فى عروضها. اما هذه البنايات المسرحية التى نجدها فى الجزائر العاصمة ، وقسنطينـــة ، ووهــــران ، وسيدى بلعباس ، وبجاية ، وسوق اهراس ، وسكيكدة ، وغيرها من المدن الجزائرية ، وهي من طراز البناء الايطالى ، فانها لم تكن موجودة قبل سنة 1888 . فاغلبها بني بعد هذا التاريخ اي بعد مضى مـــا يقرب من 58 سنة على الاحتلال . وحتى بعد هذا التاريخ فان العروض المسرحية كانت تقدم على ركح المسرح للجمهور الفرنسى فقط من ابناء المستعمرين ، وكان يمنع ابناء الجزائر المسلمين من ارتياد هذه الدور الفنية .

ومهما يقال عن فترة الاحتلال الفرنسى لشمال افريقيا فاننا لا يمكن أن ننكر بانه جاء الينا بشيء جديد ، وهو المسرح . المهم هو انه بعد سنة 1888 تكونت فى الجزائر عدة فرق مسرحية ، كونها الفرنسيون ، وهذه الفرق دفعت بابناء الجزائر الى التفكير فى انشاء فرق مسرحية خاصـــة بهم . الا أن الحظ لم يسعفهم فى ذلك حتى مطلـــع القرن العشرين وبعد زيارة كل من فرقة القرداحى وجورج ابيض وفاطمة رشدى الى دول شمال افريقيا .

ومن هنا يكون تاريخ بداية الحركة المسرحية العربية فى الجزائر هو اواخر القرن التاســـع عشـــر ، بالاضافة الى ارتباطه بزيارة القرداحى وجورج ابيض وفاطمة رشدى . ومنذ هذه البداية الجديدة للمسرح فى الجزائر ، نجد أنه قد مر بمراحل ست ، اختلفت فيها درجات الوعـــي الفنى والسياسى ، وتنوعت الاعمال المسرحية التى قدمت ، وبما اننا نقوم بمحاولة رصـــد للحركـــة المسرحية فى الجزائر ، فاننا سوف نحاول استعراض المعالم الاساسية التى قام ويقوم عليها حاليا المسرح الجزائرى ، وحتى نعرف ما قدمه وما بقي عليه ان يقدمه فى المرحلة الراهنة .

المحتـــال ... والمغامـــر
« رشيـــد القسنطيـــنى »

منذ سنة 1926 وحتى سنة 1962 مر المسرح فى الجزائر بخمس مراحل متباينة . ثم من سنـــة 1962 وحتى الوقت الراهن مر بمرحلة واحدة .

المرحلة الاولى فى تاريخ المسرح بالجزائر تبدأ من سنة 1926 وهي السنة التى تعتبر بدايـــة رسمية للمسرح العربى هنا • هذه المرحلة تمتد حتى سنة 1934 اي على مدى ثمانى سنوات • ولقد امتازت العروض المسرحية فى هذه المرحلة القصيرة جدا ، بشىء من الواقعية والاهتمام بقضايا ومشاكل الشعب اليومية ، بحيث اقتصرت عروضها على انواع معينة من المسرحيات ذات الطابع الهزلى أو ما يعرف فى الجزائر « بسكاتش » وكذلك المسرحية الارتجالية او « الكوميديا دى لارتى » وهي المسرحية التى تعتمد دائما على شخصيات معينة وثابتة ، كالاب والبنت والعاشـــق • الا ان رواد المسرح الاوائل فى الجزائر قد حوروا أو غيروا فى الشخصيات المتعارف عليها فى هذا النوع من المسرح الارتجالى ، وجعلوا المحور الاساسى فيها هو رجل الدين المتزمت ، أو ابن القرية الذى يكتشف المدينة لاول مرة ، وما يحدث له من الغرائب والمواقف المضحكة •

هذا الى جانب شخصية ــ المحتال ــ وهي الشخصية الماهرة التى تعرف كل شيء ولا تعرف شيئا ، ويمكن أن نقابل هذه الشخصية أو نقارنها بشخصية ــ ارلكان ــ فى الكوميدية « دي لارتى » ومن أشهر رجال المسرح فى هذه المرحلة « علالو » و « رحمون » ، اللذان كرسا جهودهما لاقامـــة الركائز الاولى للمسرح الجزائرى الا ان هناك شخصية أخرى كان الفضل كل الفضل لها فى احداث التاثير الكبير على الحياة المسرحية وقتها فى الجزائر ، وربما قلبت المفاهيم السائدة والمعمول بها يوم ذاك رأسا على عقب ، واقصد بذلك شخصية « المغامر » الذى جاب أطراف الدنيا على ظهـر السفن ، لانه كان يعمل بحارا فى أول الامر ، وقبل أن يصبح فنان الشعب الاول ، وهو « رشيـــد القسنطينى » الذى تعلق به جمهور المسرح العربى فى الجزائر تعلقا كبيرا • وما استطاع نسيانه حتى يومنا هذا • فهو ما زال موجودا بيننا • وكلما دار الحديث بين جماعة عن المسرح ذكر اسم رشيد القسنطينى كرائد أول • والمؤسس الفعلى للمسرح العربى فى الجـــزائر ، أو بعبارة أدق مؤسس المسرح الشعبى • حتى أن البعض يطلق على هذه المرحلة ، اسم «مرحلة المسرح الشعبى» • والحقيقة أن رشيد القسنطينى هو أبو المسرح فى الجزائر بلا منازع ، تلك هي بعض ملامح المرحلة الاولى من تاريخ المسرح العربى فى الجزائر ، وهي وان كانت قصيرة بالقياس الى المراحل الاخرى الا انها استطاعت كما استطاع رجالها تثبيت ركيزة المســـرح ، وجعلـــه مطلبا جماهيريا وشيئا اساسيا ، وعاملا من عوامل الثقافة •

الاحتيال على رقابـة الاحتلال

تبدأ المرحلة الثانية من سنة 1934 حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية • واذا كانت المرحلة الاولى عبارة عن تمهيد الارضية لميلاد مسرح عربى جزائرى ، وكان من روادها علالو ورحمون ث

انضم اليهما رشيد القسنطيني الذى زود الحركة المسرحية بالخفة والسخرية التى كان يتمتع بهما فى حياته الخاصة ، واذا كان رشيد القسنطيني فى تلك المرحلة الاولى قد اكتفى بالتمثيل فقط ، فانه فى المرحلة الثانية راح يساهم بالتاليف وبكتابة المسرحيات فزود الفرقة التى كان يعمل بها بعـــدة مسرحيات ساخرة طعمها بما عرف به من خفة الدم وسرعة البديهة ، فلقيت مسرحياته اقبالا منقطع النظير وتجاوبا كبيرا من الجمهور الذى كان ياتى الى قاعة المسرح يتفرج على الشخصيات البارزة التى كان قلم رشيد يتناولها بالنقد والسخرية ، ويجعل منها اضحوكة ومهزلة امام العامة · لقـد كان لمسرحياته وخاصة « جحا » و « فاقوا » و « بنى وىوى » ، صدى كبيرا لا مثيل له فى تاريخ المسرح العربى فى الجزائر ·

ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل ، لان اعضاء الفرقة لجـــاوا بدورهم الى استخدام الحيلة مع لجنة الرقابة ، فكانوا يعرضون عليها نصا ، وفى ليلة العرض يقدمون نصا آخر غيـر الذى تمت مراقبته · بعد كل هذا طلبت الادارة الفرنسية من أعضاء الفرقة العمـل تحت أشرافها على أن تقوم هي باختيار المسرحيات التى يجب عرضها ، وعلى أن تكون مختارة من التراث المسرحى الفرنسى · ولكن اقتراح الادارة الفرنسية قوبل بالرفض من طرف عناصر الفرقة كما رفض من طرف العاملين بالفرق المسرحية الاخرى · وقد ادى ذلك الى توقف النشاط المسرحى للمرة الثالثة ولفترة قصيرة جدا هذه المرة ، عادت بعده الفـرق الى العمـــل بعناصر جديدة وبتنظيم جديد · وكان ذلك مع اندلاع الحرب الكونية الثانية ·

مســرح لخدمــة الحلفــاء

تبدا المرحلة الثالثة من تاريخ المسرح العربى فى الجزائر فى نهاية المرحلة الثانية ، وتشمـل سنوات الحرب العالمية الثانية ، اي انها تبدا فى سنة 1939 وتنتهى سنة 1945 · وتعتبر المرحلـة الثالثة اقل اهمية من المرحلتين الاولى والثانية ·

وتعود الاسباب فى هذا الى عدم التفاهم بين الادارة الاستعمارية وبين العاملين فى الفرق المسرحية التى كانت قائمة يوم ذاك · وانعكس عدم التفاهم هذا على نشاط الفرق المسرحية ، التى راح البعض منها يقدم مسرحيات اقل ما يقال عنها انها لم تكن تخص الشعب فى شىء ، ولا عالجت قضاياه ومشاكله العديدة التى كان يتخبط فيها · كما أن المسرحيات التى عرضت فى هذه المرحلة لم تساهم ولو بالجزء اليسير فى توعية الشعب من الناحية السياسية ، بعكس مسرحيات المرحلة الاولى · واذا كانت المرحلة الاولى ، قد شهدت مسرحيات ذات مضمون سياسى ، مثل « فاقـوا » و « بنى وىوى » ، فان المرحلة الثالثة لم تشاهد الا مسرحيات بعيدة كـــل البعد عن الصـــراع

السياسى الذى كان قائما فى الجزائر يوم ذاك ، بين الادارة الاستعمارية وبين مختلف المنظمات والاحزاب السياسية الوطنية • بل ان اغلب مسرحيات تلك المرحلة كانت مسرحيات مهزوزة المضمون ، ومن تلك المسرحيات نذكر « العودة للارض » و « السعادة » و « العائلة » وغيرها •

كما نلاحظ فى هذه المرحلة ظهور حركة جديدة لم يعرفها المسرح العربى فى الجزائر من قبل ، وهي حركة الترجمة والاقتباس • اذ اتجهت بعض الفرق المسرحية الى ترجمة مسرحيات من التراث الفرنسى ، وقدمتها امام جمهور جزائرى • وكانت مسرحيات لا صلة لها بمشاكل الشعب • كما ظهر فى هذه المرحلة ، جيل جديد من كتاب المسرح ، مثل محمد التورى من البليدة ، ومصطفى بديع ومصطفى كزدرلى ، وكاتب مصطفى • كذلك نلاحظ فى هذه المرحلة ان الصراع الذى بدا فى المرحلة السالفة بين ادارة المسارح الفرنسية وبين الفرق المسرحية العربية ، قد زادت حدته • وبلغ الامر بالادارة الفرنسية ان طلبت من الفرق المسرحية العمل لفائدتها هي ، وان لا تقدم الا المسرحيات التى تخدم مصالح الحكومة الفرنسية والحلفاء • اي ان الادارة المذكورة ارادت ان تجعل من الفرق المسرحية ابواقا وجهاز دعاية للحلفاء •

الا ان المسؤولين عن تلك الفرق وقفوا فى وجه هذا الطلب موقفا مشرفا • وكان جوابهم الرفض والتوقف عن النشاط • ومن ثم لجات الادارة الاستعمارية الى انشاء فرق مسرحية اغلب عناصرها من الجزائريين او الاذناب الذين رضعوا من فرنسا حليب الخبث والخيانة • وهذه الفرق اطلق على احداها اسم « فرقة بلدية العاصمة » وكانت تعمل حسب التوجيهات الاستعمارية ، ولا تقدم الا المسرحيات التى تختارها لها الادارة الاستعمارية • ولكن هذه الوضعية لم تستمر ، بل طرا عليها تغيير ، وخاصة مع بداية الخمسينات ، ونهاية الحرب العالمية الثانية ، وحوادث الثامن من مايو ــ ايار سنة 1945 ، وتلك كانت المرحلة الرابعة •

المسرح يدخل حرب التحرير

المرحلة الرابعة من تاريخ المسرح العربى فى الجزائر تبدا من سنة 1945 ، وهي السنة التى انتصر فيها الحلفاء وهزمت النازية • لذلك كان لهذه المرحلة رد فعل كبير على جميع المستويات • الا انها لم تكن مرحلة طويلة ، فقد توقفت فى سنة 1954 اي مع اندلاع الثورة التحريرية الكبرى ، لتعود للظهور من جديد فى حوالى سنة 1956 •

لقد كان لهذه المرحلة تاثير قوى على الحركة المسرحية • فقد لعبت فيها الفرق المسرحية دورا كبيرا فى ميدان التوعية السياسية ، بالنسبة للجماهير الشعبية • وذلك لان سنة 1945 هي السنة التى بدا فيها الوعي السياسى عند الطبقات الشعبية فى الجزائر يظهر بشكل اكثر وضوحا من

السنوات السابقة . فسنة 1945 هي السنة التى دفعت فيها الجزائر 45 الفا من خيرة أبنائها فداء للحرية والسلام ، فى كل من مدينة سطيف وخراطة وقالمة . لذلك كانت اغلب المسرحيات التى عرضت فى هذه المرحلة ذات مضمون ثورى ، سواء أكانت مقصودة أو عن غير قصد . ففى مدينة قسنطينة وحدها بلغ عدد الفرق المسرحية حوالى 12 فرقة هاوية . بالاضافة للفرق التابعة للمدارس . هذا عدا الفرق الاخرى فى كل من العاصمة وهران والتى يبقى تاريخها مجهولا عندنا ، نظرا لقلة المصادر التى تتحدث عن الحركة المسرحية فى الجزائر ، حتى فى المكتبة الوطنية ، ما عدا كتاب واحد هو مذكرات محي الدين باشاطرزى ، الذى سبق وأشرنا اليه .

ولكن الجميع ، وكل من حاول التحدث عن مراحل المسرح الجزائرى العربى ، أكدوا أن هذه المرحلة كانت من أخصب المراحل وأخطرها . ونذكر فيما يلى عناوين بعض المسرحيات التى قدمت خلال هذه المرحلة . وما نذكره ليس من باب الحصر ، ولكن اعتمادا على ما وصلنا من أخبار ، وعلى ما رواه لنا من عايشوا تلك المرحلة . ومن جملة هذه المسرحيات : « بلال » ، وهي مسرحية شعرية للشاعر الجزائرى الكبير محمد العيد ال خليفة ، و « حنبعل » للاستاذ توفيق المدنى ، و « بطل الشعب » مقتبسة عن نص اغريقى . وقد اقتبسها للمسرح الجزائرى الشريف شعيب . كما ظهر جيل آخر من كتاب المسرح بالاضافة الى الكتاب السالفين

من هنا يمكننا القول أن ما بعد سنة 1945 ، كان هو البداية الفعلية لحركة المسرح العربى فى الجزائر ، ذلك لان المراحل السابقة ، لم تكن الا عبارة عن تمهيد وتعبيد الارضية لقيام المسرح .أما بعد تلك السنة ، فقد جاءت مرحلة التوعية السياسية ، استعدادا لخوض المعركة التحريرية الكبرى .

المسرح يلتحق بجيش التحرير فى الجبال

المرحلة الخامسة هي آخر مرحلة فى تاريخ المسرح العربى فى الجزائر قبل مرحلة الاستقلال . وتنطلق هذه المرحلة من سنة 1956 وتمتد حتى سنة 1962 . وهي لم تكن مثل المراحل السابقة لها ، حيث كانت المسرحيات تعالج بعض القضايا ذات الصلة الوثيقة بالحياة اليومية وباهتمامات الشعب كمسالة الاستعمار ، وكيف يمكن التخلص منه ، وكذلك مسالة استغلال « الكولون » لطاقات الفلاح الجزائرى ، ودور الملاك الجزائريين الكبار من الطبقة المتبرجزة .

ومع اندلاع الثورة التحريرية ، بدأ ضغط الاستعمار يزداد على رجال الفن فى الجزائر . فقد أصبح يرى أن وجود فرقة مسرحية خطر يتهدد وجوده . كما رأى فى ذلك علامة من علامات

الانذار بانتهاء حكمه · لذلك جند كل طاقاته الجهنمية لمحاربة الفنانين · ولكن هـؤلاء التحقوا بصفوف الثورة والجيش فى الجبال ، بعد توقـف نشاطهم الفنى فى المدن · وهناك فى الجبال تكونت فرقـــة جيش التحرير الوطنى للفنون الدرامية ، وسلمت ادارة الفرقة الى السيد مصطفى كاتب · وبذلك أصبحت هذه الفرقة المسرحية هي السفير الاول للثورة الجزائرية فى دول العالم العربى والغربى · وقد نالت الفرقة نجاحا كبيرا فى كل الدول التى قدمت فيها عروضا مسرحية وكانت مهمة هذه الفرقة مقتصرة على تعريف الـــرأي العام العالمى بحق الشعب الجزائرى فى تحرير بلاده وتقرير مصيره بيده · ومع هذه الفرقة التابعة للجيش الوطنى ، كان ميـــلاد جيل جديد من كتاب المسرح ، الذين جندوا ، كل طاقاتهم الابداعية لخدمـــة الثورة بالكتابة والكلمة الثائرة والملتزمة · ونذكر منهم على سبيل المثال عبد الحليم رايس ، الذى قدم للفرقة مسرحية « أولاد القصبة » ، وقد أحرزت بها الفرقة نجاحا باهرا فى كل المدن التى عرضت فيها · وهي مسرحية ثورية تحدثت عن الوحشية التى يعانى منها أفراد الشعب الجزائرى · والعذاب الذى يتعرضون له على يد زبانية الاستعمار · كما ابرزت الجانـــب الفدائى عند أفـــراد الشعـب ، والتصميم على انتزاع الاستقلال من بين مخالب الاستعمار ، مهما كلف ذلك من التضحيات · كما ظهر فى تلك المرحلة ، كاتب ياسين الذى نشر أول عمل مسرحى له فى سنة 1956 ، وقدم فيما بعد للمسرح عددا من المسرحيات الثورية ، مثل « الجثـــة المطوقة » ، و « المرأة المتوحشة » ، و « مسحوق الذكاء » و « الاسلاف يضاعفون ضراوتهم » · وفى المدة الاخيرة أي بعد الاستقلال « رجل نعل المطاط » ، و « محمد خذ حقيبتك » ، و « صوت النساء » و « أفكار موح زيتون » ·

اذن فى هذه المرحلة الخامسة ، خرج المسرح العربى فى الجزائر من المدينة ، والتحق هو الآخر بالجبال لخدمة الثورة ، وخدمة القضية الوطنيـة والتعـــريف بها فى الاوساط العالمية ، السياسية منها والثقافية وشارك الفنان الجزائرى ورجل المسرح فى المعركة التحريرية من أجل استعادة السيادة الوطنية ، وتحرير البلاد من سيطرة الاستعمار الفرنسى ·

مع الاستقـلال : مســارح شعبية وثورية ·· ومســارح للشبـــاب

استمرت المرحلة الخامسة من تاريخ المسرح العربى فى الجزائر حتى سنة 1962 ، حينمـا حصلت البلاد على استقلالها ، بعد سبع سنـوات ونصف مــن الكفاح المـــرير ضد الاستعمار البغيض · ومع سنة 1962 تبـدأ مرحلة جديدة من تاريخ المســـرح الجزائرى ، وهي المـــرحلة السادسة والاخيرة ، والتى ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا · ومـــع حصول الجـزائر على استقلالها الذى سقته دماء مليون ونصف من الشهداء ، تعود الفرق المسرحية الى الظهور من جديد فى مختلف مدن القطر ، وبشكل اكثر من السابق · ففى مدينة قسنطينة التى عدد سكانها

حوالى 350 الف نسمة بلغ عدد الفرق المسرحية فيها غداة الاستقلال اكثر من 15 فرقة · كما شهدت السنوات الاولى من الاستقلال ميلاد الفرقة المسرحية الوطنية التى اعادت الى القلوب العاشقة لهذا النوع من الفنون ، الامل الذى كاد أن يموت من قبل · فلقد تم انشاء فرقة المسرح الوطنى الجزائرى فى سنة 1963 · وهي نفس السنة التى تم فيها تأميم قاعات المسارح فى كل من قسنطينة ، وعنابة ، والجزائر العاصمة ، وسيدى بلعباس ، ووهران ·· وبذلك عادت اغلب العناصر المسرحية الى النشاط وانخرطت فى الفرقة الوطنية لتعمل الى جانب العناصر الاخرى التى كانت تناضل من قبل فى صفوف فرقة جيش التحرير خلال الثورة · لا يمكننا الآن الحديث عن هذه المرحلة السادسة ، بشيء من التحليل والاسهاب ، لانها ما زالت مستمرة ، وما زالت معالمها لم تتضح بعد · الا انه يمكننا أن نتبين فيها ثلاثة اتجاهات متباينة :

1 ـ المسرح الشعبى ، ويمثله افضل تمثيل الكاتب والممثل « رويشد » الذى يريد لمسرحه أن يكون امتدادا طبيعيا لمسرح رشيد القسنطينى · ولقد أدرك الكاتب رويشد متطلبات المرحلة الراهنة · فنراه يجاريها محاولا أن لا يكون متخلفا عما يحدث فى عالم المسرح من تطور ، رغم انه من الكتاب التقليديين فى المسرح · ولقد قدم هذا الكاتب ، لفرقة المسرح الوطنى عدة مسرحيات ، حصل معظمها على جوائز فى مهرجانات مسرحية مختلفة مثل « حسن الطيرو » ، و « الغولة » ، و البوابون » · وبالاضافة الى رويشد ظهر فى هذه المرحلة كذلك كتاب من الشباب يمثلون الاتجاهين الثانى والثالث ·

2 ـ مسرح الاصالة والتراث · وخير من يمثل هذا الاتجاه هو الكاتب ولد عبد الرحمن كاكى ، الذى ينهل من التراث الشعبى والخرافات كما هو الحال مع الطيب الصديقى فى المغرب الاقصى · فاغلب مسرحيات كاكى مستوحاة من القصص الشعبى القديم والمحفوظ فى الذاكرة الشعبية · ومن المسرحيات التى قدمها هذا الكاتب نذكر « اقراب والصالحين » و « كل واحد وحكمه » و « القراقوز » و « مائة واثنان وثلاثون سنة » و « افريقيا قلب واحد » ··

3 ـ مسرح الواقعية الثورية ، وخير من يمثل هذا الاتجاه الثالث والاخير هو الكاتب والمخرج الشاب عبد القادر علولة ، ومن المسرحيات التى قدمها نذكر « العلق » ، و « الخبزة » و « حمق سليم » المأخوذة عن مذكرات أحمق لغرغول · كما ظهرت فى هذه المرحلة الى جانب الفرقة الوطنية ، فرق مسرحية هاوية أو شابة · وأشهر هذه الفرق على الاطلاق هي فرقة «كراك» أو « المركز الجهوى للتنشيط الثقافى فى قسنطينة » ، التى قدمت منذ ظهورها فى سنة 1925 مسرحيات عديدة نذكر منها « الحياة والشباب » لكاتب هذه السطور ، وقد أحرزت الجائزة

الاولى فى مسابقة مهرجان الشباب سنة 1965 · و « مدرسة الكذابين » لكاتب هذه السطور ايضا ·

وقد اعتمدت هذه المسرحية على شخصية « جحا » ونوادره · كما قدمت الفرقة مسرحية « شرارة فى القصب » عن نص صينى · وقدمت كذلك ثلاثية كاتب ياسين « الجثة المطوقة » و « الاسلاف يضاعفون ضراوتهم » و « مسحوق الذكاء » · كما قدمت « أوديب ملكا » لسوفوكل و « أورفى الزنجي » لبوكمان · وقد نالت هذه الفرقة الجائزة الاولى فى مهرجان مسرح الهواة بمدينة مستغانم لمدة ثلاث سنوات متوالية · وهذا المهرجان سنوى يقام فى شهر أب من كل سنة بالمدينة المذكورة · والى جانب هذه الفرقة هناك فرقة أخرى فى مدينة وهران ، وهي فرقة « سبعون » التى قدمت بنجاح كبير مسرحية « ثمن الحرية فى السوق السوداء » ، وكذلك مسرحية « العجيبة » عن نص لاوجين يونسكو · أما فى العاصمة فان أشهر فرق المسرح الشاب هناك هي فرقة مسرح وثقافة وقد قدمت « الشعب للشعب » و « حرية المراة » · ويضاف اليها فرقة « مسرح البحر » التى قدمت « جسدى ، صوتك ، وفكرة » و « محمد خذ حقيبتك » ·

ولقد شاركت هذه الفرق الشابة وما زالت تشارك فى تغذية واثراء الحركة المسرحية فى الجزائر · ولقد وصل الامر بالبعض من نقاد المسرح عندنا الى مقارنة أعمال هذه الفرق الشابة بأعمال الفرقة الوطنية · وكانت نتائج المقارنة فى صالح فرق المسرح الشاب ، التى ما زالت عناصرها لم تتلوث بعد بمركبات الغرور والعظمة أو « النجومية » ، وهناك فرق عديدة لم نذكرها · وان كان فى نيتنا مواصلة هذه الدراسة بدراسات أخرى فى المستقبل حتى نستكمل الصورة ، صورة المسرح العربى فى الجزائر ·

إليـــاذة الجــزائر

مفدي زكــرياء

لا نجد أبلغ تعبـير عن الكفــاح التحريرى الــوطنى من هــذه القطــع الخــالدة لشــاعر النضال السياسى الثورى والـكفاح التحريرى المسلح الاستاذ مفــدى زكــريا التى نظمهــا خصيصــا بطلب من وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينية ، وألقاها في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى بتاريخ 13 جمادى الثانية ـ 1 ـ رجب 1392 هـ الموافق 24 يوليو ـ 10 ـ اغسطس 1972 م . ونشرت مرة أخرى فى كتاب الملتقى السادس . ونعيد نشر هــذه القطع منها هنا للمنــاسبة .

وجاءت فرنسا ... فكنا كراما   وكنا الألى يطعمون الطعاما !

فابطرهم قمحنا الذهبي (1) ، وكم تبطر الصدقات اللئاما

وباعت فرنسا ضمير اليهود ، فباع ضمير اليهود الذماما

وما كان بوشناق الا ابن آوى   وما كان بو خريص الا طغاما (2)

وخرب شارل المريض فرنسا   فثار بها الشعب يغلى انتقاما

وضاق الفرنسيس بالعاطلين ، وما ذاق شارل المريض المناما

وأوحى له قمحنا غزونا   فأطلق هذى القموح سهاما

وصب النفايات ، فى أرضنا   وخان المسيح ، وأغرى السواما (3)

ومروحة الداى لم تك الا   كما يستبيح اللصوص الحراما (4)

ابوتان) ... هل سيدى فرج   وان طال ليل ... أقر النظاما ؟؟

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

نسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) قصة الديون المترتبة عل فرنسا « ناجل تسديد ثمن القمح معروفة ، فضلا عن ديون اخرى نقدا

(2) اشتركت خزينة الدولة مع بعض التجار كاليهوديين بوشناق وبوخريص فى تموين تلك العملية الانقاذية وكان اليهوديان عميلين لفرنسا

(3) وقف شارل العاشر ملك فرنسا يقول فى خطاب العرش يوم 2 مارس 1830 م ما نصه : «ان العمل الذى سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون باعانة الله القدير لفائدة المسيحية جمعاء »

(4) حديث المروحة معروف

(5) بوتان الجاسوس الفرنسى الذى رسم خطة الهجوم من ثغر سيدى فرج بأمر من نابليون بونابارت فى يوليو 1808 وقد انتفع الجيش الفرنسى بتلك الرسوم عند حملته عل الجزائر سنة 1830

بلى ... يا فرنسيس ، هذا الحمى — صنعنا سيادته بالدما

بلونا السنين الطوال جهادا — تباركنا معجزات السما

مضت مائة وثلاثون عاما — نذود ، ونأنف أن نهزما

صعدنا ، نقاوم ، شرقا وغربا — ونجعل أرواحنا سلما

غزا لاموريسيير أحمد باشا — فقمنا بسرتا نصون الحمى [1]

وثرنا ، نقاوم : بيتا فبيتا — وشبرا فشبرا ، ونسبى الدمى

ولولا تخاذل بعض الكسالى الرعاديد ! ، لم نفلت المجرما !!

معسكر فجر عرم الشباب . — فطاول عملاقها الانجما

وبويع ، شاعرها الهاشمى — فكان بها القائد الملهما [2]

يصوغ النظام ، ويبرى الحسام ، فيقطر ذاك ، وهذا .. دما

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) اتخذت المقاومة الجزائرية بعد الاحتلال شكلين ، سياسى رسمى ، وشعبى • فاما السياسى فقد تولى زمام امره الحاج احمد ، باى قسنطينة (وكان من عائلة المقرانى الذى سيثور سنة 1871) فالتفت حوله الامة من جزائريين ومن بقايا اتراك ، وكان احتلال لاموريسيير لمدينة قسنطينة سنة 1838 م انذارا بنهاية المقاومة الحكومية المنظمة فانتهى ظاهرا وبقيت النار تحت الرماد وقد سجلت مدينة قسنطينة بدفاعها المجيد صفحة خالدة من صفحات البطولة اذ اضطر الفرنسيون لاحتلال المدينة حارة فحارة ودارا فدارا ، ودام حصارها سبع سنين كاملة

(2) المقاومة الشعبية فى سنة 1832 جمع وجوه القوم ورؤسا، القبائل امرهم فى مؤتمر عقدوه بمسجد مدينة معسكر وبايعوا بالامارة بطلا شابا فى الرابعة والعشرين من عمره ، عرف بينهم بالشهامة وقوة الشكيمة والرأى الحصين هو الامير عبدالقادر بن الشيخ محيى الدين الهاشمى على ان يؤسس دولة جزائرية اسلامية تصون الامن وتوطد العدل وتتصدى للمعتدى ، والامير عبدالقادر الى جانب بطولته الحربية شاعر ملهم تفيض معانيه بالمشاعر النبيلة والحماس والتغنى بام البنين التى كانت مصدرا من مصادر الهامه

آيا عبد قادر ... كنت القديرا وكان النضال طويلا عسيرا
شرعت الجهاد ، فلباك شعب وناجاك رب ، فكان النصيرا
ونظمت جيشا ، وسست بلادا فكنت الامير الخبير الخطيرا
وألهبت في القابعين الحنايا وأيقظت في الخانعين الضميرا
وحملت ماريان (1) ما لا تطيق وجرعت بيجو (2) العذاب المريرا
ثمان وعشرا (3) ... تخوض المنايا وتزجي السرايا ، وتبني المصيرا
وتدمغ بالعلم من جادلو ك ، فكنت الضليع، وكانوا الحميرا (4)
وكم رام اغراءك العابثو ن ، فلم تك غمرا صبيا غريرا (5)
وكم عاهدوك (6) ... وكم أخلفوا ، وكنت بما يضمرون بصيرا ..
وعبدت للشعب ، درب الفدآ وما خست ، مذ خطفوك أسيرا

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) ماريان هي فرنسا

(2) وقائع الامير مع (بيجو) مشهورة (راجع تحفة الزائر)

(3) دامت مقاومة الامير 18 سنة من 1830 الى 1848 م

(4) المجادلات العلمية التعجيزية بين الامير وجنرالات فرنسا وخصوصا بيجو ، معروفة ويوجد لها تفصيل ضاف في - تحفة الزائر -

(5) من جملة الاساليب المفضوحة الفرنسية محاولة شراء الضمائر وكم حاول الفرنسيون ذلك مع الامير فابى واستعصم بايمانه

(6) تخللت مدة الحرب عدة معاهدات عقدتها فرنسا مع الامير واعترفت له فيها بالسيادة والاستقلال على البلاد لكنها كانت معاهدات غش وخداع لا تعقدها الا متى رات الخطر وارادت ان تستعد لضربة قاسية ، اما الامير فكان يعقد تلك المعاهدات مع علمه بما تنطوي عليه من خداع ، ليستريح قليلا ويستعد لتسديد الضربات وتلقيها

تلقف رايتـــك ابن الجـزائـر   وعند ابن زيـان تبلى السرائر [1]

وهب الـــزعاطشة الثـائرو   ن . فهب لنصرتهـم كـل ثـائر

تحـدى ابن زيـان سخف اللئــــام . فمـات الشهيد . فـداء الجزائر

وهل يخفض ابن الجـزائر هامـا   ويحنى جبينا أمـام الصراصر ؟

لتشـــهد بســكرة اصرارنـا   وصـدق ندانا أمام المجـازر ...

وترو النخيـل لعقبــة عنـا   وتحك الرمـــال صمود القساور

ويذكـر أبو معـــزة للجبـا [2]   ل صراع أبى بغـلة فى المغـــاور

وتحفـــظ سطيف لأبطالهـا   وابطـال سرتا جليـل المفـاخر

ودام الصراع . ولم تخب يومـا   شعاليله . فى القـرى والحواضر

وكانوا البغـاة . فكنـا المنـايـا   وكانوا البغاث . فكنا الكواسر [3]

شغلنا الورى . وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) قاد الثورة العارمة فى واحة الزعاطشة قرب بسكرة الزعيم الشهيد عبد الرحمن بن زيان سنة 1846 م وقد ذكرت تفصيلاتها باسهاب (مجلة العالمين) (La revue des deux Mondes) وصـورة الواقعـة هى الآتية : عقد الزعيم عبد الرحمن بن زيان معاهدة مع قيادة الجيش الفرنسى على ان لا يهاجموا الزعاطشة ويتولى هو امدادهم بما يحتاجونه . وكان ذلك منه حيلة جريئة لربح الوقت والاستعداد لحملة هجوم . الا ان قبطانا فرنسيا تفطن للحيلة ومال للاستفزاز والتحدى قائلا : «هل يوجد جزائرى لا يسجد امام قدمى ؟؟» فقيل له : نعم . عبدالرحمن بن زيان . شيخ الزعاطشة . فامر بجلبه فامتنع عن المجئ اليه وارسل اليه جيشا فاباده عبد الرحمن وجيشا ثانيا فاباده . وثالثا فحطمه فدامت الحرب سنوات وكانت المقاومة فى كل شبر من الارض . نخلة نخلة حتى استصفت مليون نخلة ومليون شهيد ثم وصل الفرنسيون السور فوقفوا امامه شهرا يموتون دونه بدون طائل الى ان فتحوا فيه ثغرة فكانت موتاهم التى من احجار السور . ثم دخلوا المدينة فكانت الحرب شارعا بشارع وبيتا ببيت الى ان وصلوا بيت الزعيم عبدالرحمن فكان يدافع حتى خلعوا الباب فجلس يصلى واولاده واهل بيته يقاومون غرفة بغرفة وسقيفة بسقيفة وهو يصلى بصحن البيت فجاء القائد الفرنسى وسال : هل يوجد جزائرى لا يسجد امام قدمى ؟ فقال له عبد الرحمن : «انا عبد الرحمن بن زيان» فقـال القائد : « ان خضعت عاملتك معاملة حسنة » فقال : كلا انى مجاهد فى سبيل الله وافضل ان اموت مجاهدا من ان اعيش خائنا لوطنى » فقطع راسه فاخرجه الى جنوده بلحيته البيضاء المضرجة بدم الاستشهاد وقال لجنوده : «قد مضى عليكم زمن طويل لم تلعبوا كرة القدم وقد احضرت لكم اعظم كرة فالعبوا بها » ثم ادخل اجناده على الحريم وقام اهل البيت من الرجال والمقاومين يدافعون عن الشرف فاحتز رؤوسهم واخرجهـا للاعبين » فقال احد المجاهدين قولته الخالدة وهو يموت : «سوف تاتى احفادنا وتخرجكم من بلادنا» وصدقت المعجزة فخرجوا بعد مائة واربع سنوات !!

(2) ثورة ابى معزة وابى بغلة وما وقع فيها من معارك بطولية فى كل من سطيف وقسنطينة

(3) بغات الطير :.الطيور المهيضة الجناح ـ والكواسر جمع كاسر : اى النسور الكاسره

وتذكر ثورتنا العــــارمــه   بطولات ، سـيدتى فاطمــه [1]

يفجـر بركانهــا جـرجـرا   فترجف باريس والعاصمــه !

وخــلد باسـم امهــا ذكــره   فزكى قـداسته الدائمـــه [2]

وفــارت دمـــاء بـــنى راتن   تفـدى قــرارتــه الحاسمه

نسومـــر مـــذ نسبوك لتـاكلا   رفضت التواكـل يا فاطمـــه !!

وألهبت نـــارا ، تذيب الشــلو   ج ، وتعصف بالفئـــة الظالمـــه

بجنــد ، يبــاع ويشرى كمـــا   تبــاع ، وتستأجر السائمـه [3]

وأرعفت رانـــدون فى كـــبره   ودست عـــلى أنفـــه الراغمـه

وصــعرت للجنرالات خـــدا   فخـابت نوايـاهـم الآثمـــه

أتنسى الجـــزائر حـــواءهـــا ؟   وأمجـادها لـــم تـزل قائمـه ؟

شغلنا الورى ، وملأنــا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

(1ـ2ـ3) للافاطمة نسومر ابنة سيدى محمد بن عيسى شيخ الطريقة الرحمانية والدتها للاخديجة التى تسمى باسمها قمة جرجرة ، وزوجها سيدى الحاج عمر من قرية تاكلا ، آيت ايراثن ، كانت تسير الثورة فى جبال جرجرة اولا مع زوجها ثم لمفردها وهى التى صرعت الباشاغا سى الجودى عميل فرنسا ، وصمدت فى مقاومتها من 1856 الى 1857 م على رأس المجاهدين المسلمين ضد ستة جنرالات فرنسيين : قاستنى وبينولت ويوسف وماكماهون ومشيل ودبلمى كلهم تحت القيادة المباشرة للماريشال راندون الذى تراس العمليات فى نفس الحين الذى كان فيه واليا على الجزائر
للافاطمة كانت تسير جيشا يضم سبعة آلاف مجاهد ضد جيش الماريشال راندون الذى كان يضم خمسا واربعين الف مقاتل متوفر على جميع المعدات الحربية الحديثة . وشملت ساحة العمليات كل جبال جرجرة الى قمة للاخديجة ، والموقعة الحاسمة كانت فى معمعة اشريضن فى 24 جوان 1857 م ، اعتقلت للافاطمــة فى قرية تاكلا يوم 11 جويلية 1857 مع اتباعها اخوان الرحمانية

بنو سيدى الشيخ (1) قادوا النضالا فهـــزوا الثرى . واذابوا الجبالا

ســـليمان حمـــزة آلى يمينـــا فبر . وأصـــلى المغـــير الوبالا

سلــوا بوبــريت العقيــد المسجى وحمــزة يغرس فيـــه النبـــالا

ويستل من صـــدره روحـــه بيمنــاه . يبكى عليــه الثـكالى

ووهــران تصرخ فيهـــا الدمـاء بساح الفـــدا . تستفز الرجـالا

وصحراؤنا وابن شـهرة فيهـــا يهيـل عـلى الغاصـبين الرمـالا

وجيش أبى شـوشة المستميـــت بصحرائنـــا ، ينسف الاحتـلالا

وصـوت ابن حـــداد دوى دويا ينادى : البدار ، ويدعو : القتالا

ومن آل مقـــران فى الشاهقـــا ت ، نسور بواشق ، تهوى النزالا

وقال بومزراق حـــان الجهـــا د ، فحقق بالمعجـــزات ، المحالا

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) اولاد سيد الشيخ بقيادة الباشاغا سليمان بن حمزه بن بوبكر سنة 1864 م والتف حوله قبائل اولاد سي دىالشيخ وهزموا الفرنسيين شر هزيمة واعادوا الكرة تحت قيادة الكولونيل بوبريتر وكانت نهاية المعركة التى دامت طويلا موت سائر رجال فرق العدو ، بما فيهاالكولونيل قائدها ، وقد تمكن البطل سليمان بن حمزه من قتله بيده اثناء المعركة ، ثم استشهد بعد ذلك خلال المعركة وكان من بين الفرق المعتدية القوم اى الجند الجزائرى المتطوع مع فرنسا وما كادت المعركة تلتهب حتى اخذت الحمية الاسلامية جماعة القوم فانقضوا على الفرنسيين وانضموا للمجاهدين ، وقام بالصحراء ، جنوب الاغواط ، بوشوشة وفى نفس الصحراء ثار معه المجاهد ناصر بن شهرة وذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه بومزراق والمقرانى ينظمان المقاومة فى الشمال ، والشيخ عزيز بن الشيخ الحداد يوجه النداءات الصارخة الى كل مناطق الجزائر يستنفر الناس للقتال ويقول ان الوقت حان وان فرنسا فريسة الضعف فيجب انتهاز الفرصة ، وذلك فى آخر سنة 1870 ، وكان الاتصال وثيقا آنذاك بين المقرانى والشيخ الحداد ، اذ زار المقرانى الشيخ الحـــداد يوم 8 يناير 1871 م ، سرا فى صدوق ، وتبادل معه النظر فى ضرورة اعلان الجهاد ، والتأمت عائلة المقرانى كلها فى مجانة . وفى ليلة 14 مارس 1871 م اعلن المقرانى الجهاد رسميا بناء على سياسة الاسلام فى عدم مباغتة العدو ، وكذلك حسب مبادىء الامم المتحدة الآن ، وقد ارسل المقرانى الى الجنرال الفرنسى فى العاصمة يقول له : «اعلموا اننا فى هذا اليوم قد اعلنا الجهاد عليكم وضدكم وغدا نبتدىء الجهاد» . وبعث كذلك باستقالته من وظيفة باش آغا ، ورد المحاولة التى بعثتها له فرنسا ، يوم 15 هاجم برج بوعريريج واحتلها ، ومن هناك انطلقت الثورة عارمـــة لا تبقى ولا تـــذر

فيـا آل مقـران أسد الكفـاح   ونبـع الندى ، والهدى والصلاح

نهدتم ، تشقون درب الخـلو   د ، فعبدتمـوا نهجـه بالسلاح

وحـداد فى السوق ألقى عصـاه   وأعلنها فى الذرى والبطـاح (1)

« كمثل عصاى .. سألقى الفرنسيـس فى البحـر ، آركلهم بالرمـاح »

سـلام مقـرانى يمضى شـهيدا   بسوفلات رمز الفـدآ والكفاح (2)

ولابن الثمانين ، يغـدو أسـيرا   وما كبـل القيد فيـه الطماح (3)

ومـرحى لمـالك يطفى بشر   شـال بركانـه بالأمانى القساح

وعاشـت منـاصر راحت تنـا   جى بوذريس شيخا وريف الجناح (5)

فـردد رجـع صـداه أبـو   عمامة يدنى حظوظ النجـاح (6)

وهقـار تزهـو بآمودهـا   يـذود عن الشرف المستباح (7)

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـله كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) يوم 8 افريل 1872 م اعلن الشيخ الحداد الحرب وهو يتجاوز الثمانين من عمره ، وذلك فى سـوق صدوق والقى عصاه بعد صلاة الجمعة فى السوق وسط الجمهور وقال : سنرمى الفرنسيين الى البحر كما رمت انا هذه العصا الى الارض

(2) استشهد محمد المقرانى يوم 5 مايو 1871 م بسوفلات ، قرب عين بسام

(3) بعد معارك عنيفة طاحنة شاملة القى القبض على الشيخ الحداد قرب بجاية وقد تجاوز الثمانين ، وكان مشلولا ومحمولا على نعش ، وذلك يوم 13 من يوليو 1871

(4) مالك البركانى ابن اخ عيسى البركانى احد خلفاء الامير عبدالقادر ، أعلن الحرب يوم 13 يوليو 1871 م فى سوق الاحد بنواحى شرشال وجبال مناصر فى ولاية الاصنام ، بنفس الطريقة التى اعلنها بها قبله الشيخ الحـداد

(5) فى الحين الذى كان يدير فيه الحرب مالك البركانى فى جبال بنى مناصر والظهرة ، كانت هناك حروب يقودها فى الشمال امثال الشيخ الصدقاوى فى جبال جرجرة وكان شيخا فى زاوية وذريـس

(6) كان اولاد سيدى الشيخ فى الصحراء الوهرانية يواصلون الكفاح الذى بـداوه سنة 1860 م . واستد وطيسه عام 1881 م تحت قيادة بوعمامة من اولاد سيدى الشيخ واصل الكفاح مدة طويلة ووصلت جيوشـه حتى المدية وضواحى العاصمة

(7) لما خمدت ثورة اولاد سيدى الشيخ وثورة توات وعين صالح سنة 1900 م واصل الطوارق الكفاح فى الهقار وفى نواح اخرى من الجزائر تحت قيادة الشيخ آمود حتى سنة 1912 م ، وكلمة آمود باللغة الامازيغية معناها السارية او العرصة

جــزائر . أبـدعها ذو الجـلال وصـور طينتهـا من نضـال
بـلاد تمـازح عشاقهـا وتمنـع عنهـم لذيـذ الوصـال
فما انكفأت ثـورة فى السهـو ل . ولا انطفأت ثورة فى الجبال
ولـم يحن أوراس هامتـه ولا هـدأت عاصفات الرمـال (1)
ولا استسلمت جـرجـرا للمغير . ولا اوهن العـزم طـول النـكال
سلوا ساحـة الشهـداء أمـا بهـا قرر البدوى (2) المثـال ؟؟
ودوى بشرشـال صـوت النفـير . وان كان يبـدو بعيـد المنـال !
وراود صـدق الضـمير الأمـير (3) فقـام يلاحق طيف الخيـال
ويعـدو بفرسـاى خلف الوعـود . يناشـد ولسون فـرض المحـال !
تجـاريب خـالد مهمـا تكن ... فـلم نك نغمط قدر الرجال !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا
بشعر نرتـلـه كالصـلاة
تسابيحه من حنـايا الجـزائر

(1) لم تخضع اوراس ولا جرجره ولو مرة واحده للعدو طوال ايام المقاومة .

(2) فى مدينة الجزائر والجهات المتعددة غربها الى مدينة شرشال قامت الثورة كذلك فى تلك الآونة الا انها لم تكن عنفة قاسية اذ اعلن احد رجال العاصمة الغيورين السيد محمد البدوى فى (ساحة الحكومة) آنذاك استقلال البلاد واخذ ومن معه محاولة تنظيم الادارة المستقلة الجديده ، لكن الحركة اخفقت وارسل الفرنسيون السيد البدوى للسجن المضيق يقضى به سبعة اعوام .

(3) الامير خالد بن محى الدين ابن الامير عبدالقادر الجزائرى ، كان يطالب فرنسا بانجاز عهودها الكاذبة للجزائريين اثناء الحرب العظمى وكان يطالب بالغاء القوانين الاستثنائية « الاندجينا » وبوجوب تطبيق الاصلاح المتمثل فى تسوية الجزائريين بالفرنسيين فى الحقوق والواجبات ، ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسى ، وبمجرد ان وضعت الحرب اوزارها شكل وفدا أم ساحة فرساى حيث ان الامريكى (ولسون) يحاول عبثا فرض بنوده التى نادى بها ايام الحرب ، ومنها حرية سائر الشعوب فى تقرير مصيرها .

لئن بـــح صوت الـسيوف الصقال وأغفى صرير الرمـــاح العـوالى

فحــرب الـيراع أعـــاد الصرا ع . يقود سراياه نجم الشمال (1)

بأرض فرنــا . يــــدك فرنسا وينـــذر ساستها بالوبــــال

معــاميد تــــزخر فيهـم حنــايا بروح الفــدآ ، والأمــانى الغوالى

تبـــاركهـم صرخات الضمـــــير ، وتلهمهم ذكريـات النضـــال

وقال الرعــاديـد : قـوم زعــاع مجانين . تجـرى وراء الخيـــال

وقــال المناجيـد : قـوم كـــرام صناديـد ، من عظمـــاء الرجال

وقــال الفرنسيس : بئس المصير ، اذا القـوم لـم يمحقــوا بالنكـال

وقــــال الألى ناصروا حزبنـــا سنقضى عـلى لعنـة الاحتـــلال

وقــال الذى خـــلدوا شـعره فداء الجزائر ، روحى ومالى (2)

شغلنا الورى . وملأنــا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنــايا الجـزائر

---

(1) حزب نجمة افريقيا الشمالية ، وتعمدت عدم ذكر مؤسسيه لحكمة تقتضيها الظروف .

(2) نشيد الانطلاقة الاولى لمفدى زكريا. " وكان نشيد حزب الشعب الجزائرى ويسمى اذ ذاك النشيد الوطنى وبقى كذلك حتى خلفه فى المجال الرسمى نشيد: " قسما " لنفس المؤلف

وفى الـدار جمعيـة العلمـــاء تغـذى العقـــول بوحى السماء

وتهـدى النفوس الصراط السوى وتغرس فيهـا معـانى الابـاء

تواكب نجــم الشمال اندفاعـا وتغمـــر أكوانـــه بالسناء

ويعضـــد باديس فيهـــا البشـــر فتزخـــر بالغلص الأصفيـــاء

وتغـزو الضـلالات فى التائهين ، مع الوهـم ، فى موكب الأغبيـــاء

وترسى جـذور الأصـالة فى الشعب ، تمحـو بهـــا وصـمة الدخـــلاء

وتبنى المـدارس عـرض البـلاد فيعلى ابن باديس صرح البنـــاء

ويرتـــاع مستعمـر مستبد وتخشى الخفافيش نبـــع الضياء

ويرهب ظـــل الأسـود ابن آوى ويـؤذى المنـافق صـدق النـداء

كـذا عبـــد العلمـاء الثنـــايا بوحـى السماء ، ووحى الدمـاء

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتــــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

جزى الله عنا الشدائد خيرا ... وذكرى احتلال الجزائر [1] شكرا

وان ننس ... هلا نسينا الجرا ... ح . وما ان تزال الجراحات حمرا ؟

وان آلمونا بماية عام ... حفلنا بعيد الجزائر دهرا

وان رقصوا فوق أشلائنا ... واحيوا على مذبح الشعب ذكرى

رقصنا على نغمات الرصا ... ص . ورحنا نبث المقادير مرا

وان خنقوا نجم هذا الشما [2] ... ل فللشعب حزب مضى مستمرا

ضمائر أخلص فيها البقا ... ء على العهد .. ما ان تباع وتشرى

اذا ما فيوليت [3] ضلل قوما ... وغر ضعاف العقول وأغرى !

وخدر قوما بمؤتمرات [4] ... فظنت سراب المتاهات نهرا !

فللشعب حزب يصون المبادىء ... وشعب الجزائر بالناس أدرى !

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) العيد المئوى المشؤوم .
(2) حل حزب نجمة افريقيا الشمالية .
(3) مشروع بلوم فيوليت .
(4) المؤتمر الاسلامى عام 1936 م .

أفـاق من الوهـم حزب البيـان فاسـلم للمخلصـين العنـان [1]

وزايـله الشـك فى أصـله فمـدت لحـزب البيـان اليدان

وأوحى اندمـاج فـرنسا اندما جا لغزبـين مرماهمـا توأمان [2]

فبـارك باديس ، جمـع الصفـوف ، ودشن باديس عهـد الأمـان

ويوليـوز والملعب البـلد ى وأحمـد يعلن فيـه الأذان [3]

ويصعق فيـه بصـوت جـديـد فيصعق منه العتـل الجبـان

ولاذت فـرنسا بأصنامهـا تحـاول بالدس كسب الرهـان

فتغتال كحـول [4] تلقى دمـا ه على الطيب الواسع الصولجان [4]

لئن خاننـا الدهـر فى طيب وأصغى مصـالى لغـدر الزمـان

فلن يجحـد الفضـل تاريخنـا وهذى الدنـا للرجـال امتحان

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـله كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) اشارة لاقلاع فرحات عباس عن تساؤلاته اعترافابالحق والرجوع الى الحق فضيله

(2) اى ان المطالبة بالاندماج اوحت لحزب البيان بعدالاصطدام بالواقع بفكرة اندماج الحزبين ، حزب البيان وحزب الشعب بعد اعتناق البيان لمبادىء حزب الشعبوالتوبة من خرافة الوحدة الفرنسية

(3) اسارة للمفاجاة المدهشة التى قام بها احمد مصالىالحاج جهارا لاولمرة بالجزائر فى المطالبة بالاستقلال خلال الخطاب التاريخى يوم 17 يوليوز 1936 م بالملعب البلدى بعاصمة الجزائر

(4) الشيخ الطيب العقبى والشيخ كحول

وان وزع الـراى حزبـا عتيـدا ففي القصد ، ماانفك حزباوحيدا(1)

وتأبى الزعـامات كبـح الطمـوح ، فتصنع للخلف شـكلا جديـدا

وتغرى الكراسى ضعاف العقـول ، كنار جهنم ، ترجـو المزيـدا

وتغزو السياسة فـكر الزعـيم ، فيصبح فـكر الزعيم بليـدا

كأن الزعامـة اعصار جـان ولم ار للجـان عقـلا رشـيدا

وما الانتصـار (2) دخـول انتخاب وضرب الموائد ، ضربا شديدا !!

ولا كلمـات عـلى جـدران هل الحبر فى الحرب كان مفيدا ؟؟

ولا بالهتـافات عاش ... ويحيى فمـا حـرر القول يوما عبيدا !!

ولا بالوفـود ... وسـمع فرنسا أهـال عليه الغرور الصديدا ...

ولن يغسل العـار الا الدمـا وعاش الحديد .. يفل الحديدا ..

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـله كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) انقسام حزب الشعب

(2) الانتصار للحريات الديمقراطية

ولـم ننس في أربعـين وخمس ... ضحايا المذابح في يوم نحس [1]

طربنا مع الحلفاء اغترارا ... وقمنا نصفق في غير عرس

فكانوا مع الغدر ، عونا علينا ... ودرسا لقادتنا أي درس !

وكانت مجازرهم بسطيف ... وقالمة للشعب ، دقات جرس

وهز ايسترا د شعبا تواني ... وايقظ في العمق ميت حس [2]

وعلمنا آشياري الثنايا ... فبدد لون الدما كل لبس [3]

وكانت تلاحق أقلامنا ... سراب الضياع فباءت ببخس

وكانت تكافح أحزابنا ... مع الوهم ، بين صراخ وهمس

فعطل صوت الرصاص اللغى ... وأنطق ألسنة غير خرس

فقامت تعبد أكبادنا ... طريق التخلص من كل رجس

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) مجزرة سنة 1945 م في سطيف ، وخراطة ، وعين الكبيرة ، وقالمة الخ

(2) الجلاد ايستراد كاربونيل طاغية قسنطينة .

(3) اشياري جلاد قالمة .

وطالت خرافـات حرب الكـــلام وما بلـغ الشعب فيـــه المـــرام

فـآمن بالنـــار من عرفوهـــــا ومن كاشفتهم بسر النظــام (1)

الى أربعـــين وتسـع ســلامى وقد بلغ الشعب فيهـــا الفطام

فكانت شرارة حـــــرب الخـــلا ص ، وان أختفوها بلغـو الكلام

رعى الله عيمش (2) فى الخالــد ين ، وكحال(3) فى السابقين الكرام

ورابـــح (4) تعبـــق أنفـــاسه وغرافـة (5) الوطنى الهمـــــام

وعسلة (6) ينـــديه طالب (7) فيلحقه ، بعـــد مـــر السقام

ودوار (8) يستقبل الشهـــــــداء ، ومن أخلصـوا للوفـا والذمام

هـــم الثائـــرون الألى ولـــدوا نفمبر من صلبهم ، فاستقـــام !

متى نـــزلت ثـورة من ســـماء نزول المسيح ... عليه السلام ؟؟؟

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) اشارة الى المنظمه السرية (OS) عام (1949) التى افتضح امرها بتبسة

(2) على عميش ، مؤسس حزب نجمة افريقيا الشمالية

(3) ارزقى كحال ، من الابطال الذين خاضوا معركة النضال بحماس نادر فى صف نجمه افريقيا الشماليه

(4) رابح موساوى ، من مؤسسى نجمه افريقيا الشماليه ومن ابرز مناضليها

(5) الشهيد ابراهيم غرافه من طلائع الرعيل الاول فى النضال الوطنى ومن الافذاذ العلائل الذين ذابوا فى حركة التحرير

(6) حسين عسله من اسجع وانشط ابطال حزب لشعب

(7) محمد طالب من مفاخر حزب النجمه وحزب الشعب

(8) محمد دوار من ابطال حزب الشعب والانتصار كان نائبا واغتيل بيد الاستعمار الاثم

واغتيل بيد الاستعمار الاثم

ويضيق المقام عن ذكر سائر الابطال السامين الاموات منهم والاحيا. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا

تأذن ربــك ليــــلة قـــدر   وألقى الستار عــلى ألف شــهر
وقال لــه الشعب : أمرك ربى !   وقال له الرب : أمرك أمــرى !!
ودان القصاص فرنسا العجـــوز ، بما اجترحت من خداع ومكــر
ولعلع صوت الرصاص يــدوى   فعــاف اليراع خرافــات حــبر !!
وتأبى المـدافع صــوغ الكـــلا   م ، اذا لم يكن من شواظ وجمر !
وتأبى القنابل طبـــع الحـــرو   ف ، اذا لم تكن من سبائك حمر !
وتأبى الصفائح نشر الصحــــائف ، ما لم تكن بالقرارات تسرى !
ويأبى الحـديد استمـاع الحـــديث ، اذا لم يكن من روائع شعرى !
نفمبر .. غيرت مجــرى الحيـــاة ، وكنت ـ نفمبر ـ مطلع فجر !
وذكرتنا ـ فى الجـزائر ـ بدرا   فقمنا نضـــاهى صحـابة بـدر

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا
بشعر نرتـــله كالصـــلاة
تسابيحه من حنــايا الجـزائر

نفمبر ـ جـــل جـلالك فينـــا	ألست الذى بث فينــا اليقينا ؟
ســـبحنا على لجـــج من دمانـــا	وللنصر رحنـــا نســوق السفينا
وثرنــا . نفجر نارا ونـــــورا	ونصنع من صلبنا الثائرينـــا !!
ونلهـــم ثورتنـــا مبتغـــانا	فتلهـــم ثورتنـــا العــــالمينا
وتسخر جبهتنـــا بالبــــلايا	فنسخـــر بالظـــلم والظالمينـا
وتعنــو السياسة . طوعا وكرها	لشعب أراد .. فأعلى الجبينا ..!!
جمعنا لحرب الخلاص شبـــتاتـــا	سلكنــا بـه المنهـج المستبينـــا
ولولا التحـــام الصفوف وقانـــا	لكنــا سماسرة مجرمينــــــا !!!
فليت فلسطين ... تقفـــو خطانا	وتطوى ـ كما قد طوينا ـ السنينا!!
وبالقـــدس تهتم .. لا بالكراسى	تميــل يسارا بهــا ويمينا ..!!

شغلنا الورى ، وملأنــا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنــايا الجـزائر

أتى أمرنـــا صارخـا فانطلقنـا ولـذنـا بوحـدتنا . فانعتقنـا

وفاوضنا القـــوم فى أمـــرنـا وأمـــر سيادتنا ....فرفضـــنا

وقالوا : سنجرى عليها اقتراعـا بلا . ونعم ـ خدعة ـ فاعترضنا(1)

فرنسا ... تناسيت ما ليس ينسى أما فى نفمبر ... كنـا اقترعنـا

وأجرى علينا الرصاص انتخـابا وخضب أوراقنا .. فانتخبنـا ؟؟

وقلنا ... وقالت لنـا الكائنــا ت : خذوا حذركم واثبتوا .. فثبتنا

فلم نك نرضى بنصف الحـــــلول ، ولا بالدومنيون نحن انخدعنا (2)

وديغـــول ألقـــى بيـــادقه فطاولهـــا رخنـــا فانتصرنا (3)

وخاف الحواجز تحمى الغـــــلاة ، وتبكى فرنسا لها .. فضحكنا(4) ..

وفـــكر ديغـــول فى حمقهـــم وفي صدقنا .. ثم قال .. فهمنا(5) !!

شغلنا الورى . وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) غى موليه وحكاية الاستفتاء السخيف .

(2) خدعة الاستقلال الداخلى والتبعية لفرنسا

(3) البيادق : والرخ من قطع الشطرنج .

(4) الحواجز التى اقامها غلاة المعمرين بشوارع العاصمه سنه 1958م مع عصـابة لافايارد وفى هذا اقول من قصيد منشور فى اللهب المقدس :

وترى الغـــلاة على السدود جواثمـــا تحمى النساء عـلى السدود ـ رجالهـــا !!

(5) مفاوضات ايفيان التى انبثق عنها الاستقلال .

فرضـــنا ارادتنـا الفارعـــة ولم تخب ، نيرانـنـــا الدالعـــه

وصغنا مصائرنا ، بالرصـــــا ص ، وبالرأى ، والحجة القاطعه

وتمت بهـــا كلمـــات الالـــــه ، التى وقعت باسمها الواقعــــه

ولاح الخلاص ، بحـلم الليـــــــالى ، ترفرف أعلامـه اللامعــــــه

ودوى نشيد الجزائر يغـزو الــــدنا قسما بالدمــآ الناصــــعه (1)

وجلجـل صـوت نشيد اللــــــــواء ، فعنوا الرؤوس له خاشعه (2)

وجيش يردد : هـذى دمـــانا الــــغوالى دوافقهـــا دافعــــــه (3)

ويصـــدح طلابنـــا بالنشيــــــد ، وعمالنـــا ، واليد الزارعـــه (4)

وبنت الجزائر تتلو نشيد الـــــــــعذارى ، فتصغى الدنـا راكعـه (5)

وقمنـــا نشيد صرح البــــلا د ، ونبنى سيادتنـــا الطالعـــه

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنــا

بشعر نرتـــــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) نشيد الثورة : قسما بالنازلات ، لمفدى زكريا، منشور فى اللهب المقدس

(2) نشيد العلم : علم الجزائر ، عشت يا علم ، لمفدى زكريا، منشور فى اللهب المقدس

(3) نشيد جيش التحرير : هذى دمانا الغالية دفاقه ، بلغة الشعب لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس

(4) نشيد طلاب الجزائر : نحن طلاب الجزائر ، نحن للمجد بناة ، لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس ونشيد العمال الجزائريين لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس : نحن جند الاتحاد والعمل

(5) نشيد لبنت الجزائر : انا بنت الجزائر ، لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس

وكل هذه الاناشيد مع نشيد بربروس ونشيد الشهدا، وغيرها نظمت فى بربروس ايام الثورة الكبرى

وقالت جزائرنا الغاليه هو الصدق ، حقق آماليه

ومن دم شعبي ، وأكباده الى النصر ، قدمت قربانيه

وجندت من خالد بن الوليد وسعد بن وقاص أبطاليه

وجددت حطين في موطني وخلدت أمجاد أنطاكيه

وجل الفدا بالملايين شرفت ، الخلد ، في رفرف العاليه (1)

وفي كل شبر لنا قصة مشاهدها المهج القانيه

تلقن وحدة أدوارها فتحفظ بنزرت والساقيه

فيا مغرب مازجته الدما وأجمع ، في الصرصر العاتيه

وزلساه أطلسنا في القرو ن ، فرحنا ندين بوحدانيه

دعوا المغرب الوحدوي يقرر ويفرض مصائرنا الباقيه !!

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) العالية : مقبرة الشهداء في ضواحي عاصمة الجزائر .

وأفلت بعض زمـــام التـأنى !! وحمى الكراسى ... كاعصـــار جن
ودنيـا المطامع ، تبـــدى الخفايا وتدفـع عشاقهـــا للتجـــنى
فهب رجـــال لضــــمد الجـــرا ح ، وان قلب البعض ظهـر المجن
وتطـوى الحماقات ، طى الكتـا ب . وعن كنه أسرارها .. لاتسلنى !!
وخــــل غوامضهـــا للـــز مان . فان الزمان لأفصـح منى !
وطالعنـــا بالبشائر يونيـــو فأنعش ، كالعـــارض المرجحـن
فقمنـا نشيد اقتصـــاد البـــلا د ، ونعلى المصـــانع فيهـا ونبنى
ورحنـــا نوفـر للكادحـــــــين . الرغيف الشريف ، بعـلم وفن
ويزرع فلاحنـــا أرضــــه ... بـــذوب الشرايين ، لا بالتمنى !
ونصـنع من صلب واقعنـــا مذاهبنـــا .. رافضين التبنى !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا
بشعر نرتـــله كالصــــلاة
تسابيحه من حنـايا الجـزائر

N° 23

فهــــرس العـــــدد

ثقــافــة و سيـــاســة

عثمــان شبــوب

انعقدت فى عدد من البلدان العربية فى الاعوام الاخيرة وخاصة منذ اعقاب هزيمة 1967 وحركـة 6 اكتوبر 1974 ، عدة مؤتمرات فكرية بدءا من ندوة الاشتراكيين العرب وملتقيات التعرف على الفكر الاسلامى فى الجزائر ، الى نـــدوة المفكـرين فى بنغازى ، والخرطوم ، وندوة ازمة التطور الحضارى فى الوطن العربى فى الكويت ، وسواها مـــن المؤتمرات فى العالم العربى .

ويمكن ان ندرج هذه المؤتمرات فى اطار «عودةالوعى» بما للفكر من دور فى بناء النهضة الحضارية. والالتفات الى اهمية تحقيق التفاعل بين العمـــلالسياسى والعمل الفكرى .

ولعل اهم الدوافع الثاوية وراء الالحاح والتأكيدعلى ضرورة تواجد هـــذين العنصرين متفاعلين ، ما اتسمت به حياتنا السياسية والثقافية العربيةفى بعض الفترات من نظرات جزئية قاصرة تطرح العمل الفكرى كنقيض للعمل السياسى أو العملالسياسى كنقيض للعمل الفكرى أو الثقافى عامة .

والواقع ان طرح هذه العلاقة بهذه الكيفيـــةهو نوع من الثنائية . وهذا غير صحيح . لان القول بالثنائية بينهما هو حكم مقارن بين شيئين مختلفينوليس تقييما لاى منهما . فالذى يرفض الفكر باسم السياسة لا يقيم ثنائية بينهمـا ، وانمـا يسعىلفرض السياسة على الثقافة والفكر ، والذى يرفض السياسة باسم الثقافة أو الفكر لا يقيم ثنائيـــةبينهما كذلك ، وانما يسعى لافراغ السياسة مـن

بعد هام من ابعادها وهو الفكر . والمقارنة كما قلتهى التى تصنع هذه الثنائية بين السياسة والفكر حيث لا ثنائية بينهما . وليس هناك موقف مـن السياسة لا يتضمن موقفا من الفكر . وليس هناك موقف من الفكر والثقافة لا يتضمن موقفا مـــن السياسة فهناك علاقة عضوية جدلية بينهما .

فالتمييز القاطع اذن . بين الفكر والعمل لا يستقيم فى الحياة السياسية . وليس ثمة مستوى من الحياة الفعالة النشيطة يمكن اغفال الفكر فيــه .الا مستوى التنفيذ الآلى للاوامر . وليس ثمة نوع من التفكير يمكن ان يكون عديم التأثير فى العمل .

وليس هذا فقط . فتماسك المجتمع وانتظام عقده مرهون بمتانة الاتصال فى المجالات المختلفـة بين العقول السياسية من جهة . والعلمية والتقنيةوالفنية والفلسفية والدينية من جهة أخرى . ولا نتصور ان يتم هذا الاتصال أو التكامل أو التفاعل بجمع ممثلى الانماط المختلفة من المعرفة والخبـــرة فى لجان ودعوة كل نمط الى طرح آرائه للنمـــط الآخر . ان العلاقة يجب ان تكون اعمق من هذه . انها اقرب ما تكون الى التكوين العضوى .

فالعمل السياسى لكى ينطلق لابد له من نظريةفكرية واضحة أو شبه واضحة . وان تكون هذه النظرية ممتدة الجذور فى الواقع تعبر عنه وتتجاوزهفى نفس الوقت ومن خلال تفاعلها مع هذا الواقع تتحدد الخطط السياسية المعدة للتطبيق .

فلا بد اذن للعمل السياسى من بعد فكرى يغذيهويضىء طريقه . ونفس الامر يقال بالنسبة للثقافة او النظريات الفكرية . فهى بدون القوة السياسيةتظل مجرد تيارات تندرج فى اطار نهضة ولكنها ليست هى النهضة ذاتها مهما بلغت من الاشراقوالنصاعة . فالنهضة العربية الاسلامية الاولى لم تزدهر الا بعد تشييد دولة الاسلام فى عصرهـــا الذهبى . والنهضة الاوروبية لم تكن نهضـــة الا لكونها قوة سياسية واقعية قوية دون اقتصارهاعلى الجانب الثقافى او الادبى، او الفكرى، او الفنى.

ولم يشهد العالم فى أية فترة من تاريخه نهضات من هذا القبيل أى نهضات ثقافية دون ان تمتزج وان تقترن بشكل عضوى بالقوة السياسية الفعالة.

اذن لابد من بعد سياسى للثقافة لكى تكـــون فعالة . ولابد للعمل السياسى من بعد فكرى وثقافى لكى يؤدى الى قيام نهضة حضارية حقيقية .

ولعل الامور فى بعض البلدان العربية اليـوم تسير فى هذا الطريق ، فثورات التحرر السياسى وثورات التغيير الاجتماعى الجذرى تقترن بيقظـة فكرية وثقافية عارمة ، مقترنة بالعمل الجدى لبناء قوة مادية فعالة .

وعلينا جميعا مسؤولية ازالة تلك الظاهرة التى اشرت اليها آنفا والمتمثلة فى سلبية علاقة الثقافة بالسياسة ، اذ القطاع الثقافى بوجه عام ما زال ضعيفا من حيث فاعليته فى مجال الحكم الوطنى .

وعندى أنه يجب للاجابة عن التساؤل القلق الحائر عن السبيل المثلى **للربط بين الفكر والعمل ، بين الثقافة والسلطة، ان يخلق مناخ ثقافى وسياسى جديد يتيح لاجهزة الحكم فى الدول العربيـــة ان تتغذى بمزيد من طلائع المثقفين المخلصين الاكفاء الذين يلعبون دور « المثقفين العضويين » على حد تعبير غرامشى ،** والذى بدونهم لا تستطيع نهضتنا الحضارية ان تواصل تقدمها بالسرعة والفاعليـة المنشودتين .

وهكذا ، فاذا كان طريق المعرفة هو اختيارنا ،فان المعرفة هى أول طريق العمل .



تعريب الأمخاخ والقلوب

مولود قاسم نايت بلقاسم

المعروف ان اللغة ليست غاية فى ذاتها وانما هى مجرد أداة للتعبير عما يتمخض عنه التفكير المنطقى أو تتدفق به الاحسسات والعواطف ، أو بعبارة أخرى ان اللسان ليس الا الصورة الخارجية للمخ والقلب ، منبعى الافكار والعواطف .

ونعرف أيضا ان الاستعمار الفرنسى قد ترك وراءه سمومه التى حـــاول بها اجتثاث عناصر شخصيتنا وعمل كل ما فى وسعه لاستئصـــالروحنا ومسخ واذابة ذاتيتنا .

وتجدر بنا الصراحة هنا والاعتراف بأن هــذاالاستعمار قد نجح ، مع الاسف ، الى حد كبـير فى هذا لدى طائفة من مواطنينا فان لم يكن فىالميدان السياسى فعلى الاقل فى المجالين العقـــلى والروحى ، فى .مسخ العقول ، وغزو القلوب .

بمناسبة تجدد النشاط او انطلاقه فى هذه الايام لوضع اللغة القومية مكانها ، نعيد نشر هـذه الـكلمات الاربع للسيد مولود قاسم وقد سبق ان نشرتها مجلة المجاهد الاسبوعية فى اربعة اعداد لها فيما بين 15 نوفمبر ، و 6 ديسمبر 1962

واذا ما اعدنا نشرها اليوم بعد اثنتى عشرة سنة فليس فقط للتاريخ ، بل ايضا لانها فى كثير من النقاط التى اشارت اليها من الناحية النفسية لا تزال صحيحة ومعبرة عن الواقـع . « الأصالة »

(1) نشرت فى العدد 136 من المجاهد الاسبوعى بتاريخ 15 نفامبر 1962 .

هذه هي المشكلة التي امامنا حلها قبل كل شيءعند ما نتكلم عن شخصيتنا . فاذا اردنا التعريب فعلينا قبل كل شيء البدء بتطهير الادمغة وتصفيةالقلوب لدى هذه الطائفة من مواطنينا ، من اخواننا في كل شيء الا في هذا الامساخ . فقبل استئصال هذه الزائدة الدودية لدى هذه الطائفة . أي قبل تعريب الامخاخ والقلوب ، لايمكن لنا النجاح في تعريب الالسنة . وذلك ان كل العراقيل من هذه الطائفة وهي مع الاسف- على الاقل من الآن ولا تزال - الماسكة بالزمام في أغلب دوائرنا الحكومية . هذا الوضع خلقه الاستعمار واراده عن ترو وقصد وعلينا الآن معالجته معالجة ناجعة ان لم تكن جذرية فعلى الاقل تدريجية ولكن لنفهم هذه الطائفة ان عليها الارعواء والتدارك .

هذه الطائفة الامية في لغتها - وفي مفهوم بقية الشعوب تعتبر جاهلة على الاطلاق - عوض ان تخجل وتحاول التدارك أو على الاقل تعترف بهذا النقص نجدها تجسر على احتقار العربية وكل ما هو عربي وتبالغ في وقاحتها هذه الى حد الهزء علانية ليميزوا انفسهم عن « الرجعيين المتأخرين » . وهناك من هذه الطائفة نوع يكن هذا الاحتقار في نفسه ويكتفي بالعمل في دائرة وسعه . وفي احسن الظروف نجد هذا المركب يرسب في الاعماق ويبرز احيانا في الميدان العملي بغير قصد سوء من المصابين به ، والنتيجة على كل واحدة هي المسخ .

لدينا الآن ثلاثة انواع من هؤلاء الممسوخين عقليا أو روحيا أو كليهما :

فمن النوع الاول أولئك الذين حكى لي عنهم احد موظفي وزارتنا الخارجية ممن كانوا في القاهرة انهم عندما يرون الآلات الكاتبة العربية يقهقهون ويشبهون الحروف العربية بـ«البرمسيل» أو رؤوس الذباب ، لانها في نظرهم اشكال متشابكة متشابهة لا يمكن ان تكون لها دلالة ما - وهؤلاء لا يكتفون بهذا - فهم مع جهلهم بلغتهم يقعون في الجهل المركب اذ يحكمون على هذه اللغة بالجمود والموت والوقوف لدى حدود القرون الوسطى وانها ليست - وعندما يتكرمون عليها يقولون انها لم تعد - لغة علمية وانها عاجزة عن التعبير عن دقيق الاصطلاحات الحديثة وانها لم تعد صالحة الا للمساجد - كاللاتينية للكنائس - وفي احسن الاحوال للخطب الرنانة الجوفاء .

هذا موضوع بذاته نعود اليه في مقال خاص .وانما نريد فقط ان نقول هنا مقدما ونحن بصدد الكلام عن المسخ ان هذا احد اشكال الامساخ لاالروحي فحسب بل والمنطقي العقلي أيضا اذ ان كلام شخص عن موضوع يجهله يسمى لدى العرب جهلا مركبا وفي الغرب ادعاء فهؤلاء الانصاف

مثقفين اسميهم يتامى الثقافة فهم لا شرقيون ولا غربيون ولا جامعون بين فضائل هؤلاء واولئك ، وانما مذبذبون ممسوخون تجب علينا معالجتهم .

ومن النوع الثانى اولئك الذين ينظرون نظرةالشك الى العربية ومكانتها بين اللغات العلمية الكبرى . فهم بدون ان يهاجموها أو يسخروامنها علانية يحترمونها اكثر من الاولين ويكتفون بسوء معاملتها ووضعها جانبا بنوع من نظر الشفقة على ذويها والاستعلاء عنهم واشعارهم احيانا بانهم فى الحقيقة مساكين يرثى لحالهموقد ينجحون فعلا فى اقناع بعضهم بنقص فيهم . فقد قال لى فى هذه الايام الاخيرة أخوان انهماجرحا فى كرامتهما اكثر من مرة لجهلهما بلغة المستعمر ــ وهذا فى عهد الاستقلال ــ وانهما يفكران اما فى الهجرة الى احدى البلاد العربية الاخرى أو الذهاب الى باريس لدراسة الفرنسيةوالعودة بعد ذلك الى الجزائر .

والنوع الثالث وهو الاحسن نسبيا ... فهمالذين رسبت فى اعماقهم بذور المستعمر وتاثروا بها ويبرز ذلك فى سلوكهم بدون شعور ولا نية سيئة منهم . وهؤلاء نجدهم حتى من بين احسن عناصرنا الوطنية . فهم يستعملون منطق المستعمرومصطلحاته رغم معاكستها لجميع اركان كياننا وتقاليدنا وذاتيتنا ، وحتى بعد ان الغى عهدالاستقلال بصفة رسمية أو منطقية صيغة هذه **الاصطلاحات** أو الاستعمالات تجدهم مستمرين فى استعمالها وغير مبالين بقيمة هذا التغير ولا مدركين لمغزاه ، والا فكيف تفسير الامثلة الآتية التى قد تبدو لكثير من هؤلاء واشباههم ثانوية وبدون أية دلالة ؟

I ــ منذ ثلاثة اسابيع تقريبا نشرت احدىجريدتينا الصادرتينبالفرنسية كلمة تحتالعنوان الآتى : « جمعية الادباء والفنانين والموسيقاريينتعلن الخ » فاندهشت مسرورا لعدم سماعى حتى ذلك اليوم بوجود مثل هذه الجمعية لدينا وسرعانما خاب املى بعد ان قرأت ما تحت العنوان ... اى صلب الخبر ... فقد جاء فيه ان هذا الاجتماع سيقع فى قاعة بلييل .. أى فى باريس .. اى انها جمعية فرنسية مقرها باريس . لم لا يضيفالمحرر للخبر كلمة الى العنوان يفهم منها القارىء الجزائرى بدون قراءة الكل ان النبأ يتعلق بجمعية فرنسية وفى فرنسا ؟ ان المسألة مسألة منطق تلقائى مباشر . فهذا العنوان يناسب منطق الفرنسى الذى ينصرف ذهنه بديهيا الى باريس بمجرد قراءة العنوان ولا يحتاج الى قراءة الخبر كله . أىانه منطق « الماضى الفرنسى » ونحن الآن مستقلون وجزائريون ويفصلنا البحر الابيض عن « الام سابقا » . فقد كان هذا منطق بعض الجزائريين

ايضافي الماضي اذ كانوا يقولون « المتربـول »« الوطن الام » ويعنون بذلك فرنسا مقلديـن الفرنسيين المحتاجين الى هذا الاسم للتمييز بين فرنسا نفسها وما كانوا يسمونه « فرنسا ما وراء البحار » . ونفس هؤلاء الجزائريين ، حتى من بين الوطنيين ، كانوا يقولون : الجيش ، البرلمان ، الخ .. ويقصـدون الجيش الفرنسي والبرلمان الفرنسي ، فلما لا يضيفون الوصف « الفرنسي » على الاقل في حديثهم مع مواطنيهم ؟ ان الفرنسي اذ يقول الجيش يقصد بديهيا الفرنسي ولا يحتاج الى الوصف ، ومنطق الجزائري ينبغي – وكان ينبغي – ان يكون آخر أي جزائريا .

2 – في نفس جريدتنا المشـار اليها جاءت أيضا كلمة « المتمردين » وصفا للهنود الصينيين الشماليين الاصدقاء ، الذين تبادلنا معهم التمثيل الديبلوماسي ونحن في صميم كفاحنا التحريري .

3 – عن وزير صيني شعبي انه « غير معروف في الغرب » كما لو كان هذا مهما لنا كجزائريين وكما لوكنا جزءا من هذا الغرب ! لهذا معنى في صحيفة غربية . اما نحن فمالنا وذلك ؟ ما هذا المنطـق ؟

4 – لا تزال الاذاعة والصحافة بل والادارة وبالتالي العامة – تستعمل احيانا الاسماء الفرنسية للشوارع التي بدلنا اسماءها (1) .

5 – لماذا قلبت بلدية العاصمة « أو مندوبيتها الخاصة » – وتتبعها في ذلك الاذاعة والجرائد – – حتى المجاهد بالعربية في بعضها – وضـع اسماء ابطالنا الشهداء فبدأت بالاسم العائـلي واعقبت بالاسم الشخصي ، عبان رمضان ، ديدوش مراد ، زيروت يوسف ، ان هذا النظام لا هـو غربي ولا هو شرقي ، لا عربي ولا فرنسي ، وانما آثار العهد الفرنسي ، وهو وضع مفروض علينـا وغير مطبق في فرنسا نفسها ولا في واق واق ،ففي فرنسا وبقية العالم يبدأ بالاسم الشخصي ويتلوه العائلي ، فلا يقال ابن الخطاب عمر ولا قاسم عبد الكريم ولا عبد الناصر جمال كما لا يقـال ديغول شارل ولا هيجو فيكتور . وفي مقال في « الشعب » جاء ما يلي :

بيطاط رابح ، زيروت يوسف ، سعدي ياسف طالب عبد الرحمان ، عبـان رمضان ، عيسات ايدير ، كلها معكوسة والاسمان الوحيدان اللذان وضعـا منسقين هما هنـري علاق وروبير لاكوست !..

(1) هذا لا تزال مظاهر منه حتى اليوم بعد اثنتي عشرة سنة من استعادة الاستقلال !

والامثلة على هذا الوضع المعكوس كثـــيرة فيجرائدنا ووسائل نشرنا الاخرى ، وفى الافواه أيضا . ولكن اذا كانت وسائل التوجيه ... اذا كان رب الدار بالطبل ...

6 ـ واجملها كلها : الايقول كثير وكثير جدامن موظفى وزاراتنا وزائريهم حتى اليوم «ج.ج» ترجمة صوتية لـ G.G. ويعنون بذلك مقر حكومة الجزائر المستقلة ؟ بل وقد سمعت مرة احـد وزرائنا يقول لصديق له « زرنى فى «ج.ج» (1) . أى مقر الولاية العامة ... عوض ان يقـول : « زرنى فى مكتبى أو فى مقر الحكومة (2) » اذا كان يريد التواضع ؟

7 ـ هل صحيح ان اغلب المدارس العربيـــةالحرة فى وادى الصومام هجرت هذه الايام مـن معلميها بعد ان لم يتلقوا أى شيء منـــذ شهـرسبتمبر ؟ فلا ثالثة الولايات تتولى امرهم كذى قبل ولا صاحبة المعارف اعترفت بهم بعد . وهكذااهملوا من كل الاولياء والعارفين !

وليست المسألة هنا مسألة منطقية (بكسر الميم وفتح الطاء) وانما منطقية (بعكس التـرتيب السابق) وهى ان هذه الناحية اكثر احتياجا منغيرها ثم ان احدى هذه المدارس . وهى مدرسـة قلعة بنى عباس، هى اذا لم تخنى الذاكرة أول مدرسة وضع حجرها الاساسى ابن باديس فى قرية من قرى الجزائر من نخيلها الى زيتونها . فاذا كانت المسألة مادية فما على الحكومة الا ان تأخذ مـن رواتب موظفى بعض الوزارات الاخرى لفائدة المعارف التى بدونها لن تسير ولا وزارة (وصاحـب هذه الاحرف من الخارجية وليس معلما) .

8 ـ واخيرا وليس آخرا : هل صحيح ان احدى وزاراتنا بعثت منذ ايام برسالة الى اليمن ب... الفرنسيـــة ؟

هل بثورة الاخ السلال تسللت رسمية الفرنسية الى ربوع اليمن السعيد (3) ؟ ام وعدنا فرنسا على ضفاف ايفيان وفى نطاق التعاون المبرم بيننا بفرض لغتها على الدوائر العربية ؟ مـن المعروف ان المراسلات بين الدول تكون بلغة المرسل . وعنسبيل المبالغة فى المجاملة قد تكون بلغة المرسل اليه . والفرنسية فى الحالة المذكورة (وارجو ان تكون مجرد اشاعة) ليست لغة اليمن ولا لغة الجزائـــر !

(1) G.G. = Gouvernement Général
(2) ويسمى المبنى الآن قصر الحكومة .
(3) نذكر ان المقال كتب ونشر فى نفامبر 1962 .

سنعود مرتين على الاقل الى الموضوع للكلام عن تعريب الالسنة ـ بعد الكلام عن تعريب الامخاخ والقلوب ـ ولنرفع عن يتامى الثقافة المتفرنسين المرضى الشك فى علمية العربية وقدرتها على التطور والتكيف والتعبير عن مختلف ميادين النشاط الانسانى ونبين كيف ينظر الغربيون سادتهم الى الكنوز الانسانية التى كانت الضادطيلة اكثر من سبعة قرون المعبر عنها ومنها بل والمتكلم بها فى قصور المانيا وجامعات فرنسا وايطاليا ... وما تركته حتى الآن من الآثار العميقة فى ثقافة أوربا هذه .

لتخرج خشائش الارض ـ كما يقول ابن المقفع ـ من كهوف جهلها التى القى بها فيها النظام الاستعمارى الصليبى وليراجعوا مواقفهم روحيا وعقليا كما راجعه البعض سياسيا بكل تواضع واعتراف بالخطا فاذا كانوا يحرصون على الاصغاء . الى الاوربيين حتى فى الحكم على ثقافتهم وكيانهم فليستمعوا على الاقل الى النزهاء المنصفين منهم وهم كثيرون فى أوربا بل وفى فرنسا نفسها .





دراسات تاريخية

أضــواء على
مذكــرات الأمــير عبــد القـــادر
التى أشرف على تسجيلها بقصر أمبواز

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
بالجزائر

اننى اخترت سمرنا هذه الليلة كما يـــدل عليــه عنوانه : « أضــواء على مـذكرات الامـير عبد القادر التى اشرف على تسجيلها بقصـــر امبــواز » .

ان هذه المذكرات لم يكشف عنها الغطـاء الا منذ سنوات قليلة ، وبالضبط منذ ثمان سنـوات وقبل ان اتناول الموضوع ، اسمحوا لى ان اتعرض للحديث عن الظروف التى اكتشفت فيها هـــذه‌المذكرات ، اذ كانت قبل هذا الاكتشاف مجهولـة تماما ، سواء فى المصادر العربية ، واهمها كتــاب« تحفة الزائر » او المصادر الاجنبية التى تعــد بالمئـــات .

غادر الامير الجزائر لآخر مرة ، بعد ما وضعت‌حربه مع الفرنسيين اوزارها ، وظن انه يقــاد الى بلاد المشرق ، وفاءا بما تعهد له به ولى عهد ملك فرنســا الــذى ابرم معه عقد الصلح عند ما قابلـه بمرسى الغزوات،ولهذا فوجىء عند ما الزم بالاقامةالاجبارية فى قصر أمبواز ، كما نتحدث عن ذلك فى موضعه من هذه الدراسة ، وفى مدة اعتقــاله‌بالقصر المذكور ، وردت عليه رسالة من اســقف فرنسى ، يطلب منه الجواب عن سبعة اسئلـــة اوثمانية ، فاجاب الامير عليها ، وكلف قريبه ورفيقه فى الاسر ، العالم الاديب ، الشيخ مصطفى ابـن‌التهامى ، ان يتولى تحرير فصولها ، وهذا الجواب هو ما اطلقنا عليه اسم المذكرات ، وقد علمنا انهاكانت مجهولة عند المؤرخين ، اللهم الا ما عرف على سبيل الاجمال ، من ان الامــير عندما كان بقصرامبواز ، كان يقصده كثير من الكتاب والمفكرين ،

محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة .

والهواة . فيتبادل معهم الرسائل بواسطة الضباط الذين كانوا يتداولون على حراسته ، وأهمهم الجنرالان ، دومان وبواصوني Boissonet اللذان حررا بدورهما مذكرات خاصة ، سجلا فيها انطباعاتهم عن اقامة الامير بقصر امبوز .

اكتشف هذه المذكرات لاول مرة ، الاستاذ هنري تيسي Henri Teissier اسقف مدينة وهران الحالي ، واختار محتواها اطروحة قدمها لنيل شهادة الدكتورة في الآداب العربية ، اكتشف الاسقف المذكور هذه المذكرات عند صهره ،جاك شوفلي Jacques Chevalier شيخ بلدية مدينة الجزائر سابقا ، وبعدما نال منها وطره ، قدمها شيخ البلدية المذكور هدية الى وزارة قدماء المجاهدين ، وهي الآن في المكتبة الوطنية .

هذا مجمل ما يتعلق بهذه المذكرات وبالظروف التي اكتشفت فيها ، وسنتعرض لبعض التفاصيل عنها في صلب الموضوع .

كان السؤال الموجه الى الامير ، ينحصر كما ذكرنا في سبع نقط : الاولى السؤال عن نشأة الامير وترجمة والده ، ثم ذهاب الامير رفقة والده الى الحج قبل توليته بقليل ، ثم الظروف التي تولى فيها الحكم ، وما اتخذه من تراتيب مدنية وعسكرية في دولته الناشئة ، ثم الاتفاقات والاختلافات التي وقعت له مع قادة الجيش الفرنسي في حالتي السلم والحرب ، ثم انطباعاته عند مقابلته لولي عهد ملك فرنسا في مرسى الغزوات بعد انهاء الحرب ، ثم ما هي انطباعاته عن محاسن ومساوى الفرنسيين ، وما هي الطرق التي يراها صالحة لحل المشاكل لو قدر له ، او جعل نفسه مكان الفرنسيين خصوصا فيما يتعلق برعاياه المسلمين الذين اختاروا الاقامة بالجزائر ، محافظين على دينهم ، ورفضوا هجرة الوطن ، واخيرا موقف ملك المغرب عبد الرحمن العلوي معه اهـ .

هذه هي الاسئلة التي قال عنها كاتب المذكرات مصطفى بن التهامي بعد ان نشر الرسالة التي اختصرناها بنصها قال : « فلما قرأ مولانا ايده الله مكتوبه ، واستوعب معانيه كلها ، كلفني أعلى الله مقامه واعاد علينا وعليه عوائد بره بصلاح الحال والمال ، بان اجمع ذلك على ما طلب كاتب المكتوب ، فأجبته بالموافقة ، واثقا باعانة المالك ،وسالكا صحة المسالك ، ومرتجيا نفعا دنيويا ، مآله الصلاح الديني بحول الله وقوته» اهـ تعليق مصطفى بن التهامي الذي كلفه الامير بتحرير هذه الاجوبة ، كما يدل على ذلك ما كتب في أول ورقة من المخطوط بالفرنسية : « تاريخ الامير عبد القادر ونقل مخطوط السيد الحاج مصطفى بن التهامي كتب بعضه بخط الامير سنة 1849 »

وهذا النص الاصلي بالفرنسية :

« Histoire de l'Emir Abdelkader. Copie du manuscrit de Sid El-Hadj Mustapha Ben Thami faîte en partie de la main de l'Emir, 1849 »

وقبل ان ندخل فى تفاصيل موضوع المذكرات أي اجوبة الامير على اسئلة الاسقف نرجع الى الحديث عن مفاجأة الامير بتصرفات السلطات الفرنسية ، التى داست الشروط ، التى تعهد بها ولى عهد ملك فرنسا، كان لهذه المفاجأة اسباب «فى مقدمتها انقلاب الـرأى العام الفرنسى اثر حادث قتل الاسرى الفرنسيين الذين كان عددهم يجاوز 300 اسيرا . اثر واقعة الكركور المشهورة عند المؤرخين الفرنسيين بواقعة «سيدى ابراهيم» التى وقعت سنة 1846 قرب مدينة مغنية ، اى قبل انهاء حرب الامير بسنة واحدة ، وقد اتهم الرأى العام الفرنسى الامير عبد القادر بتواطئه مع قادة جيشه ، خصوصا مع قريبه مصطفى بن التهامي قائد المنطقة الغربية حينئذ ، على قتل الاسرى ، وذلك اثر الحملة المسعورة التى شنها الماريشال بيجو ، وقد خصصت هذه الواقعة بعدة تآليف لا يسع المقام لتتبعها وانما نشير الى ان بعض هذه التآليف ، خصصها اصحابها لهذه الواقعة بعد مرور قرن عليها ، اى سنة 1946 ، وحكموا فيها ببراءة الامير من دم الاسرى ، بل ذهب واحد من اصحاب هذه التآليف وهو الجنرال أزان Azan الفرنسى فاثبت زيادة على براءة الامير ، اثبت ان جل المسؤولين الفرنسيين كانوا على علم من براءته وانما تعمدوا كتمان ذلك لتضليل الراى العام الفرنسى والعالمى ، حتى يجدوا مبررا لنقض شروط الصلح وادانة الامير استجابة لرغبة الماريشال بيجو لحبر يطول .

ذكرنا هذه التوطئة ، لان الامير فى اجوبته هذه يظهر عليه الحذر حيث صاغها كلها فى قوالب لا تثير حقد خصومه ، وركزها كلها على ان تصرفاته كانت تصرفات ملك ، بايعه قومه لينفذ فيهم احكام الشريعة الاسلامية ، كما يظهر من هذه الاجوبة ، ان الامير كان يتحقق انها لا تهم اسقفا عاديا ، بل اتخذت السلطات الاسقف واسطة لاستقصائه الخبر ، حتى يمكنهم من تفنيد مزاعم شانئيه ، من كتاب وصحافيين الذين ايدوا بحملتهم ، وجهة نظر غلاة المعمرين الذين كان على رأسهم بيجو وغيره من الموتورين . ونجد رسالة الاسقف صريحة فى ذلك ، حيث ختمها بقوله : « واعلم انك اذا قبلت كلامى ، وفعلت بمزيتى ، تنفع ان شاء الله ، وتبطل جميع كذب الكذابين الذين كذبوا عليك وعلى حوادثك فى القوازط ــ اى الجرائد ــ وفى المكاتب ويصفى القول والقال

من تكثير كذب الكذابين عليك ولك الاجـر التام من الملك العلام والله يوفقنا للخير بجاه اهل الخير خامس عشر جمادى الاخيرة سنـة اربع وستـين ومائتين والف ». بهذا الاغراء وهذا الالحاح ختم الاسقف كتابه . وقد فهم الامير مقصوده . ولهذا عقب عليه مصطفى بن التهامي وختم تعقيبه بقوله « ومرتجيا نفعا دنيويا مآله الصلاح الديني بحول الله وقوته »

وقد صور لنا ولده في تحفة الزائر هذا الجو المختنق بقوله يصف حالة والده وحالة رفقائـه بقصر امبواز حيث قال « وداوم الامـير في تلـك المدة على تدريس العلم . وافادة الطلبة من جماعته ثم سلك اخوه محمد السعيد . واخـوه السيد مصطفى . وخليفته السيد مصطفى بـن التهامي جادته . وافادوا الطلبـة افادته واجتمعوا لقراءة البخاري على نية تفريج كربهم الخ »

كما اكتشف اثر آخـر . لا يقل قيمة عـن المذكرات ـ وهو مجهـول ايضا عند المؤرخين ـ وهذا الاثر يعزز المذكرات ويصـور لنا حيـاة المعتقلين بقصر امبـواز . وانهم بالفعل كانـوا يتوجسون خيفة من سجانيهم . وهذا الاثر الذي اكتشف منذ سنوات قليلة . هو استغاثة مصطفى ابن التهامي محـرر المذكرات . وهي تربـو على الخمسمائة بيت . وقد مهد لها بقوله « ومما قلته مع الرضى والتسليم للقدر والقضاء . متوسلا .متضرعا . معترفا . متبرعا . مفصلا في الوسائل تارة ومرة مجملا . راجيا النفع له . ولكل من دعا بها متبذلا ومؤملا حصول كشف الكرب . والفرج . ورفع الشدة عن الداعي الخ

وابتدأ الاستغاثة بقوله :

لمـا جـرى القـدر بالخـلاف	ووقـع الخـلف بالائتـلاف
ووجـب الوحش بقفـر اليـم	والحـق النقص ببـدر التـم
واقتنص الصقـر عـدو صـائد	وللنعـام في القـرى وصـائد
وابتعـدت عـن العقـول جيل	واقتعـدت بالاعتـراف جيـل
لم يبـق الا الابتهـال والسكـن	للقاهـر المالـك كـل ما سكـن

وبعـد استغاثته بالانبياء والصحابة والتابعين على عادة المستغيثين قال :

هـذا الذي قدمـته نجـواي	في رفـع ضيمي وبـلا بـلواي
فامنن علينـا بصـلاح الحـال	وانقـذن مـن شـدة المحـال

مولاى يا ذا المن والافضال / داوى سقام دائنا العضال
نفسى مع الرفقة والافذاذ / من ربقة الاسر الى اللواذ
بمنزل رحب الجناب والسعة / ومسجد جماعة وجمعة

ولم يستقل مصطفى بن التهامى بهذه الاستغاثةبل شاركه فيها رفقاؤه وعلى راسهم الامير والى ذلك اشار بقوله :

يا غوث وقتنا اليك يشكو / أميرنا ومعشر فيبكوا
يا صاحب التصريف فى الامور / وكافلا بشانك المأثور
الى جنابك السنى اشفع / باوليـاء الله ثم ارفع

الخ

هذا كل ما يتعلق بمناخ الفترة التى قضاهاالامير بقصر امبواز ، وأشرف فيها على تسجيل ما سميناه بالمذكرات ، وانه لا يمكننى ان اتعرض فىمجال هذه الدراسة المحدودة ، للفصول السبعة التى انحصر فيها الجواب فاقتصرت على الفصلينالاولين ، وهما اللذان ركزت عليهما هذه الدراسة اى نشأة الامير فى حجر والده ، متبوعة بفصلمسهب عن الحياة الثقافية اذ ذاك ، ثم رحلته مع والده الى الديار الشرقية ، وهذان الفصلان ،مفيدان جدا،اذ يشتملان على جوانب هامة من تاريخ حياة الامير لا زالت مجهولة بتفاصيلها ، خصوصاالحياة الثقافية فى عهده ، التى ركز جوابه عنها بذكر السند اذ ذاك ، حيث كان علماء العهودالماضية ، يعطونه اهمية كبرى ، لا فيما يخص السند فى علم الحديث فقط ، بل حتى السند فىبقية فروع المعرفة ، التى تربط الحاضر بالماضى ، وتوحد بين علماء الاقطار المختلفة جيلا بعد جيل ،وتمتن الصلة بين العلماء الذين كانوا يتبادلون هذه الاجازات والتآليف ، تارة بتبادل الزياراتوالاتصالات وتارة اخرى بالمراسلة ، وهذا الفصل الذى خصصه الامير للسند مجهول اكثره عندالعلماء المتخصصين لجمع هذه الاسانيد فى فهارسهم (واقصد سند علماء الجزائر) .

اما رحلته الى الحجاز صحبة والده التى اجابعنها بتفصيل ، فانها ايضا مجهولة ، بتفاصيلها ، ولو ذكرها عرضا صاحب تحفة الزائر ، وخصصلها بعض السطور ، وقال انهما غابا مدة سنتين ، زارا اثناءهما دار السلام بغداد ولقيا المشائخ ،وجددا العهد القادرى الخ . اما الامير فانه ذكر فى جوابه الناحية الجغرافية التى كانت تمر عليهاقوافل الحجاج برا ، ولم يسبق لغيره ذكرها حيث

انها تختلف على الطريق المعهود الذى كان يمـرعليه المسافر وخصوصا بين وهران وتونس ، كما افادنا ان والده ذهب رفقة الوفد الرسمى بحـرامن وهران الى الاسكندرية بعد اجتماعـه بهـم فى تونس ، ثم تعرض بتفصيل للبلاد التى زاروهاوللعلماء الذين اجتمعوا بهم فى مختلف العواصم، ويؤيد ما قاله عن الرحلة الى الحج ما اكتشف اخيراأى بعد الاستقلال وبالضبط ، عند نقل رفـاة الامير الى الجزائر ، وهى رسالة كتبها والد الاميرعند رجوعه من الحج ، ومروره على جزيرة قبرص ، سنتحدث عنها فى موضعها ايضا من هـــذهالدراسـة .

ولنرجع الى الحديث عن الاجوبة ، فالجـــوابالاول كان عن نشأة الامير وترجمة والده فاجاب عنه الامير مبتدئا بذكر التعريف بنسب الاسرة ،مما هو معروف ومتفق عليه ، ثم واصل حديثـه عن الامير فقال « نشأ رضى الله عنه بطرف غريس،من الجهة الغربية على مرحلة من ام معسكر بمستقر ابيه ، فى قرية اختطها والد والده ، على راس المائةمن القرن الثالث عشر ، اشتهر اسمها بالقيطنة ، مشتقة من القطن ، ضد الضعن ، لان أهله قاطنونليسوا باهل عمود ، على مشارع وادى الحمـام ، وهو وادى اكبر الاودية ، ينسب الوادى الى مزار،قبره معترض بين الحمام وبين القبلة ، اسمه محمد ابن الحنفية الخ ، وبعد ان ذكر وفاة مؤسس القريةالشيخ مصطفى بن المختار قال انه ورثه ولـــده محيى الدين الذى كان له تلاميذ ومريدون يبلـغعددهم (600) ستمائة فرد ، تسعهم سبع حلقات لدراسة العلم ، ثم تعرض لمسجد القرية فقــال :انه بناه احد بايات وهران ، كما ان بايا آخـر ، بنى رحى ، وآخر بنى المسكن الخ .

وهنا بين قوسين ننبه المستعمين على ان تاريخاختطاط القيطنة الذى اشتهر عند الخاص والعام ، بانه كان سنة 1206 هـ ، مصدره الوحيد فيمـــااظن ، صاحب تحفـة الزائـر ، وهو خطأ وغلط ، يخالف الواقع ، اذ نجد المؤرخابا راس الناصرى،اول من وصف قرية القيطنة فى عهد مؤسسهـا قال فى رحلته « وقد ذهبت للقيطنة ذات يــوماسال فى البيوت ما ياكل الطلبة ووقفت ببـــاب الجامع ، فاذا هو نوالة كبيرة بمحرابها ، وعـــنيمينه بيت الشيخ المشرفى ، فرايت الشيـــــخ مصطفى بن المختار ، احد تلامذة الشيخ المذكور ،يدرس فى الاول من المختصر ، ثم رجعت فى ساعة فرايت الشيخ مصطفى البطيرى يدرس فى الثانى،ولم يبال بى احد » الخ . اهـ . وقد كان المشرفى هذا هو الامام عبد القادر بن عبد الله المشرفىصاحب التاليف الذى طبع اخيرا بالجزائر واسمه «بهجة الناظر فى اخبار الداخلية تحت ولايـــةالاسبانية بوهـران من الاعراب كبنى عامـــر »

وهو استاذ جد الامير مصطفى ابن المختار مؤسس قرية القيطنة ، كما هو استاذ المؤرخ ابى راس ، وقد توفى المشرفى هذا سنة 1192 هـ وكان يدرس بالمسجد المؤسس بقرية القيطنة . فكيف يعقل ان المسجد أسس سنة 1206 أى بعد وفاة من درس فيه باربع عشرة سنة وكذلك القرية ، فاننا نجد ابا رأس عندما زار قرية القيطنة ووصف مسجدها ، كان ذلك قبل هجره لطلب العلم بمازونة وقد ذكر فى رحلته انه ذهب الى مازونة بعد صومه بسنة . واذا عرفنا ان ابا رأس من مواليد سنة 1165هـ ندرك ان ما قدمه صاحب تحفة الزائر من ان القرية اسست سنة 1206 غير صحيح وانما يمكن ان المسجد وقع تجديده سنة 1206 اذ ان الباى محمد بن عثمان فاتح وهران أسس عدة مساجد ومدارس بعد فتحه لوهران وكان الباى محمد بن عثمان من تلامذة مصطفى ابن المختار مؤسس القرية المذكورة ونفس صاحب المذكرات قال عن تاريخ اختطاط القرية : « اختطها والد والده على رأس المائة » .

ولنرجع الى اجوبة الامير التى واصل فيها صاحبها حديثه « وبقى محيى الدين الى ان تولى ولده عبد القادر فمات بعد سنة من توليته » ثم تعرض للحياة الثقافية فى بلاد غريس اذ ذاك فقال : « ان جد الامير مصطفى ابن المختار أخذ عن عبد القادر بن عبد الله المشرفى وهو أخذ عن المنور التلمسانى ثم ذكر العلماء الذين أخذ عنهم أو كانوا فى عهده وذكر مختلف اسانيدهم المتصلة بعلماء الجزائر وفاس وتونس والازهر كل ذلك بتفصيل ودقة لم نجدهما فى غير هذه المذكرات . كان علماء ذلك العهد يعطون أهمية كبرى للسند والاجازة ، نجد فى كتب التراجم خصوصا فى بلاد المغرب العربى عندما كانت تتوتر العلائق بين ولاة الجزائر تارة مع ولاة المغرب وتارة مع ولاة تونس ، ويقصد علماء المغرب أو علماء تونس مكلفين بالسفارة يقصدون المساجد حيث يتصلون مع علماء البلاد الجزائرية ويتبادلون معهم الاجازات والتآليف وكذلك العكس عندما يذهب العالم الجزائرى فى نفس المهمة الى المغرب أو تونس يتصل بعلماء البلاد الموفد اليها ويتبادل معهم الاجازات والتآليف ، والادباء والشعراء منهم يمدحون بعضهم بعضا بالقصائد البليغة لا زال الكثير منها محفوظا بحمد الله ، كما كان فضل هذه الاتصالات كثيرا ما يذلل العقبات ويسهل على السفير بلوغ امنيته . ولما انهى صاحب المذكرات حديثه عن اسانيد العلماء الذين أخذ عنهم جد الامير ، عقب على ذلك بقوله : « هذا ما تيسر بحسب الوقت من طريقنا العلمية ولا يذهب الوهم بمن وقف على هذه الاسانيد فيعتقد اننا لم نأخذ العلم الا من بعيد ، بل وطننا الغريسى

محط علم ومحل تعلم وتعليم ، فهاهو الجوزى فى« عقد الجمان » لما تكلم على بعض الاجداد المذكورين فى النسب قال « ومنهم ... ابو محمد السيد عبدالقادر بن احمد بن محمد من ابناء عبد القـوى المعروف بابن خدة مرضعته ، وبهذه الاوصاف حلاه الشيخ عبد الله الونشريسى فى كتـاب البستان فى ذكر العلماء والاعيان ، وتفقه عليـه كثير من الناس منهم شيخنا السيد عبد الرحمن ابن زرقة وسيدى ومولاى على الشريف الخ .

ثم استانف صاحب المذكرات حديثه فقال :« وقد كان الغدامسى يعظم نقلـه ، ويعبر عنـه بشيخ شيوخنا فى غير ما مرة فى شرحه عـلى الصغرى ، ولما صنف خطيب الجزائر ومفتيهـا سيدى قدورة فى التوحيد قال هذا جعلته كالتكميل لتقييد شيخنا السيد عبد القادر بن خده فلا بد من الجمع بينهما على ان الجوزى ذكر ان فى غريس كان ما يزيد على مائة قرية ، قال شيخنا السيـد ابن عبد الله ابن الشيخ المشرفى (وهنا بـين قوسين) يقصد مصطفى ابن التهامى شيخه ابن عبد الله المشرفى ، حفيد عبد القادر ابن عبد الله المشرفى ، الذى سبق الحديث عنه ، اذ كثـيرا ما يشتبه الحفيد يسميه الجد ، وابن عبد الله شيخ مصطفى ابن التهامى حافظ مشهور ، له فهرس ، وقد تولى القضاء فى العهد التركى والتدريس بام عسكر ، ثم تولى الخلافة فى عهد الامير عبد القادر وأوفده فى سفارة الى ملك المغرب ، حيـث لقى حتفه ، ودفن بمكناس ـ قيل مات مسموما ـ قال صاحب المذكرات « قال شيخنا السيد ابن عبـدالله ابن الشيخ المشرفى رأيت كتابا وقفت على تمامه ، فوجدت الكاتب لما كتب اسمه قال ، كتبته بقرية أولاد على ابن صناج ، وفى القرية ما يزيد على ثلاثمائة مؤلف ، والقرية هى اليوم خربـة ، تسمى القواير ، وبقربها روضة سيدى عثمان بن عمر ، تحت ام عسكر ، عند انجدار واديها الى الارض المستوية البطاح ، ثم قال وناهيك بوطن خرج منه العلامة شيخ الاسلاف محمد المصطفى الرماحي ومن حاكاه من تلامذته ، وذكر عددا وافرا من علماء الراشدية وختم قائمة العلماء بذكر بعض علماء وهران وتلمسان . ثم تعرض الى الحديث عن الفقرة الثانية من الرسالة أى الرحلة الى الحج ،وقبل ان اتعرض لهذه الفقرة التى استوعبت رحلة الامير صحبة والده الى الحج ، نرجع الى الحديث عن الحياة الثقافية بالراشدية تعليقا على ما ذكره صاحب المذكرات ، اذ نجده اطال النفس فى ذلك،وتاييدا لما ذكره وتتميما للفائدة نذكر ان مراكز الثقافة بالجزائر فى العهد التركى انتقل جلها من المدن الى القرى والجبال كما وقع لبجاية بعـد احتلال الاسبان لها ، فان المراكز الثقافية بهـا انتقلت الى واديها ، والى قمم جبالها ، وصار طلبة

المدن يلتحقون بها ، ومنهم سكان مدينة قسنطينة نفسها ، التى لم تصب بمكروه ، بفضل موقعها ، ومع هذا ، نجد كثيرا من علمائها ، قصدوا معاهد وادى بجاية للعلم ، وللقراءات ، كما ذكر ذلك وترجم لكثير من هؤلاء الاعلام ، عبد الكريم ابن الفكون فى تاليفه الذى خصه لتراجم علماء قسنطينة ما بين القرن العاشر والحادى عشر ، وكذلك وقع لنفس طلبة العلم بمدينة الجزائر ، التى رغم استحالتها فى العهد التركى ، الى عاصمة ، ومع هذا نجد نخبة علمائها ، انتقلوا الى معاهد قرومة ، ومجاجة ، وقد تخرج من معهد مجاجة ، العالم الشهير الشيخ سعيد قدورة ، واستاذه ابو القاسم المطماطى ، اللذان توليا الافتاء المالكى بالعاصمة الواحد بعد الآخر ، اما القطاع الغربى ، الذى له صلة بموضوع بحثنا ، فانه اشتهر ابتداء من اوائل القرن العاشر ، وامتاز بانه من اعظم المراكز العلمية ، التى تخصصت فى دراسة الفقه ، والتوحيد ، وصار طلبة العلم ، يردون على الراشدية ، من مختلف بلاد المشرق والمغرب ، رغم وجود عاصمة العلم القديمة تلمسان ، وكان المتخرجون من معاهد الراشدية ، يثبتون فى اجازاتهم وتآليفهم – عند حديثهم عن اسانيدهم فى الفقه أو التوحيد – يقولون مثل ما قاله احمد المقرى التلمسانى فى حاشيته على صغرى الامام السنوسى عند ما كان يريد ان يدعم نظرية تتعلق بفن التوحيد « انه اخذه عن مشائخه بتلمسان ، وغيرهم من علماء الراشدية العارفين بهذا الشان » وما قاله ابو مهدى عيسى السكتانى قاضى مراكش « هكذا تلقيناه من اشياخ علماء الراشدية » وغيرهم ، ثم ان دراسة علم التوحيد كانت لها اهمية اذ ذاك ، كما نجد الراشدية من المراكز الممتازة لدراسة الفقه ، واشتهر فقهاؤها بمقاطعة عدة تآليف فقهية مشهورة ومعتمدة فى البلاد الاسلامية والمغرب العربى بالخصوص ، ومن ذلك ما قاله صاحب « تسهيل المطالب لبغية الطالب » فى معرض حديثه عن الراشدية فقال فى التعريف بها : « وهى التى عناها الشيخ مصطفى الرماصى محشى التتائى فى بعض اجوبته بقوله وأراك أيها السائل تحتفل بكلام عبد الباقى وذلك بمعزل عن التحقيق ، لان شرحه وشرح الخرشى لا نكترث بهما فى بلادنا الراشدية ، لعدم تحقيقهما ، وعمدتهما كلام الاجهورى ، وهو كثير الخطأ ومما يؤيد هذا ، وجود تأليف للفقيه مصطفى الرماصى المذكور ، احصى فيه غلطات الخرشى فى شرحه على مختصر خليل ، كان الرماصى هذا الذى أشاد به صاحب المذكرات من كبار ائمة المذهب ، ومن حفاظه ، ولم تكن شهرته مختصرة على بلاد الجزائر والمغرب العربى فقط ، بل جاوزتها الى بلاد المشرق ، وبالخصوص فى مصر ، وقد روى الامام

محمد بن علي السنوسي دفين ليبيا في فهرسته ان شيخه محمد ابن القندوز المستغانمي تلميذ الدردير اخبره ان شيخه الدردير عندما كان بصدد تأليف شرحه على مختصر خليل ، كان يعتمد على حاشية الرماصي على التتائي ، ويقول ان صاحبها من المحققين ، فهي تغنيني عن غيرها ، وهذا ما يؤيده الشيخ محمد الحجوي الذي قال في كتابه « الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي » عند ترجمته لخليل ، مؤلف المختصر قال « فمختصر خليل اكثر المؤلفات الفقهية صوابا رغما عن كون مؤلفه انما خرجه الى النكاح كما سبق ، وقد وقع للزرقاني اغلاط في النقل وغيره فاعتنى المغاربة بتصحيحه ، ووضعوا عليه حواشي مستمدة من حواشي الشيخ مصطفى الرماصي على التتائي وغيرها منهم الشيخ محمد بن الحسن بناني » الخ .

كما اشاد كثير من علماء المشرق والمغرب بالرماصي ، منهم عبد الرحمن الجامعي الفاسي في رحلته المسماة « التاج المشرق ، الجامع ليواقيت المغرب والمشرق » قال « كنت وفدت على العالم الرواية النقاد ، منهل العلم الاصفى ، ابي عبد الله سيدي محمد المصطفى الرماصي ، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل يأوي اليهم ليلا ، ويظل بالنهار في داره ومسجده يطالع كتبه ، ويقرىء طلبته ، فسألته عن ذلك ، فقال كنا على هذه الحالة ، على عهد الاسبانيين خوفا منهم ، فاننا كنا لا نأمن في الدور من ان يصكونا ليلا فخرجنا لبيوت الشعر ، ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل اهـ » .

كانت هذه الزيارة حوالي سنة 1120 هـ وكتابة ، بجودة الابحاث ، لتفتح اقفال المشكلات والذين ترجموا للرماحي واشادوا به وبعلومه كثيرون ، وقد ذكر هو نفسه ما يؤيد ذلك في معرض توبيخ لاحد تلامذته الذي خالفه في قضية فقهية ، قال له في آخر كتاب طويل قيم ارسله اليه « لكن استغنيت بنفسك ، واستقللت بفهمك ، على عادتك ، اذ انت قد احللت نفسك للفتوى ، لم تسالني عن مسألة ، ولم تباحثني في قضية ، والائمة ترد على اسئلتهم من تلمسان ، ومن المغرب الاقصى ، ومن الجزائر ، والاخوان عن يمينك وشمالك ، تباحثني ، مكاتبة ومشافهة ، وتلك طريقة اهل العلم الخ اهـ » .

هذه فقرات علقت بها على النقطة الاولى المتعلقة بالحياة الثقافية بالراشدية التي تعرض لها صاحب المذكرات بمزيد من الضبط والتفصيل .

ولنواصل حديثنا عن الفقرة الثانية من المذكرات التي خصصها لرحلة الامير صحبة والده الى الحج ، وبعد ان ذكر ان السيد محيي الدين سافر من وهران يوم السبت 2 شعبان سنة آخر ثلاثين ومائتين وألف (أي سنة 1240) مع الوفد الرسمي ، بين أي منطلق رحلة الامير مع قافلة الحجاج كان من مدينة سيق وفي ذلك يقول « وصف انطلاق رحلات وطننا المعروفة ، المبنية آثارها المرسومة ، هو وادي سيق ، الى وادي سيدي المقداد الى جديوية ، الى مجاجة ، الى العطاف الى جندل ، الى المدية ، ثم منها الى اربعاء بني سليمان الى برج حمزة الى قرية بني منصور في مبتدأ

البيبان الى سيدى مبارك الى سطيف الى وكدةالبار (؟) الى قسنطينة ثم منها الى الصومعة الىوادى الشارف ... الى ان وصلوا تونس فقال « ووافقدخولنا المدينة الخضراء تونس المؤنسة ، أول يوم من رمضان 27 يوما من يوم مسيرنا فاعجبنا تأنقها.وبعد اطلاعنا على مساجدها البهية ، واسواقها الشهية ، قلنا والله انها لهية ، فلقى أهلها الوالدبالتعظيم ، والتبجيل ، خصوصا علماء التدريس، والتحجيل فكانت أهلا لحسن المقيل .

لتونس تؤنس من جاءها	وتودعه لوعة حيث سار
فيغدو ولو حل أرض العراق	يحن اليها حنين الوجار
ويأمل عودا ويشتاقه	اشتياق الفرزدق عود النوار

فأقمنا فيها احد عشر يوما مكرمين عند علمائهاوارباب دولتها ، خصوصا الفقيه العلامة السيد أحمد المحرزى ، سلالة الشيخ الطاهر ، حائزرياسة العلم والعمل بافريقية ، ولقينا وكيل أوقاف المغاربة الحاج احمد الحريشى باكرام ، وأىاكرام ، وأخذ ما عندنا خيلا ، وبغالا وجمالا بأثمانها متضاعفة ، ثم بعد ما ذكر اكرام الوكيل المذكورلوالده ورفقائه ، واثنى عليه قال انه هيأ لهم سفينة ، يظهر ان قائدها ايطالي ، ثم قال انهلا يستحضر اسمه غير انه يثبت ان عنده صغيرين اديبين ، حاذقين اسم احدهما كوكو ، واسمالآخر اندرى ، وسافرنا ستة ايام عارضتنا الريح النكباء ، وما قدرنا الا على التولى للمرسى، ولما رأىالرئيس صاحب المركب الذى ركب فيه أهل مخزن وهران ، سافر ، ومركبه باق ، اغتاض لذلكوقال هذا مركب انجليز، ونحن ادق منهم صنعة ، وأقوى منهم على المسائل العملية ، وهاهى سبقتنيوشد حينئذ قلاعه ، ووافقت الرياح ، فبقينا فى البحر بين ايام الرجوع الصعبة والتيسير ، تسعةعشر يوما ، فوافق نزولنا لمرسى مقصد المغاربة ، والمشارقة ، مدينة الاسكندرية ، آخر يوم منرمضان ، واجتمع لنا بذلك عيدان عيد الفطر وعيد السرور بالخلاص من البحر ... ثم قال

« ثم سافرنا فى وادى النيل بالمتاع ،وسافر الوالد من موضع يقال له كافور الزيات ، لزيارة ولى الله سيدى احمد البدوى ،وفى اليوم السادس وصلنا قاهرة مصر ، فلقينا خارجها ولى الله البركة ، المقتدى فى السكونوالحركة ، السيد محمد السعيد الغاندى وجدناه بعيدا من المدينة ينتظرنا منذ سمع خبر الوالد ،وهو ولد سيدنا ومولانا محيى الدين ، فمشى بنا الى داره ، مكثنا بها اثنى عشر يوما ، ونحن وجميعالرفقة طعامنا من داره ، غذاء وعشاء ، واخبيتنا بموضع يقال له « بركة الفيل » ، ورأينا بدارهرضى الله تعالى عنه ، من اجتماع العلماء ورؤساء الدولة عنده فى كل وقت ، ما فيه معلوم لمن يجهلقدره ، ومغنم « لمن يأمل اجره ، وشاهدنا من برهم بالوالد وادبهم معه ، وتعظيمه ما يزهىالناظر ، ومشى معنا لزيارة الحسنين عليهما السلام والامام الشافعى ، واهل القرافة الكبرى والصغرىوالجامع الازهر ، ما بهر وازهر ، ثم بعد ، زرنا علماءها المحققين ، كالشيخ على الميلى ، والشيخفراج ، والشيخ محمد ابن الامير وامثالهم ، ثم

سافرنا يومين وليلة الى مرسى بحـــر سويس ،فلقينا ضابط مدينتها باكرام وتبجيل ، وعين لنا مركبا مع رفقتنا ، رئيسه اسمه الرئيس سعيـديمان ، وخليفته اسمه بخيت ، وركبنا باذن الله وعونه ، بعد صلاة الجمعة ، وفي اكثر ايامهـــا نمشي بالنهار ، ونرسي بالليل ، لما في البحر من كثرة الحجر ، التي تهلك الفلك ، فارسينا عـلى ينبوع البحر في تاسع يوم من سفرنا ، ثم ذكـر وصولهم الى جدة بعد ما وقفوا برابغ ، حيث احرموا واوضيفهم الرئيس سعيد بمنزله في جدة ، وبعـد ان نوه بالضيافة ، وقال انها اشتملت على الاكرام المعجوز عنه من كثير من الناس ، واصل حديثه بقوله « وسرنا منها ليلتين ويوما بالتلبية والتهليل الى ان دخلنا بلاد الله الحرام ، قبل الفجر بمقدام ساعة ، وبعد اداء المناسك ، ووصف وفود الحجاج قال ، وقد فرغنا من مناسكنا حينئذ ، فجملـــة اقامتنا لمناسك الحج ، والعمرة ، ستة واربعـين يوما ، ثم سافرنا مع الركب الشامي قاصديـــن الروضة الغناء الشريفـــة ، فاقمنا بها ، أيـــام عاشوراء ، مقدار ما صلينا جمعتين بملازمة المسجد النبوي ، وتلاوة قرآن ، ودعاء ، وابتهال ، الا ان نخرج لزيارة أهل البقيع ، من زوجاته ، وبناته ، ومن به من الصحابة والتابعين ، أو لزيارة أحد ،وقبـر عمه حمزة ، أو زيارة مسجد قبـا ، ثـــم خرجنا ، مودعين صاحب الروضة ، زائرين مدينة السلام بغداد ، على طريق الشام لوجود اللصوص قطاع الطريق ، الذين لا ينالهم حكم سلطان ، ولاخوف الله » اهـ ملخص محتـوى النقطتين اللتين اجاب عنهما الامير أو بعبارة اصح ، أشرف عـلى الجواب عليهما .

وقبل ان يواصل حديثه على بقية رحلته الى دار السلام ذكر انه عند ماكان في الحج بلغتهم بعض اخبار البلاد ، من جملتها ثورة ابن الشيخ التجاني على باي وهران حسن ، والسبب فيها ، ثم قال ان هذا الثائر هو اخو الشيخ الحالي ، الذي وقعت له معه حروب في عهده ، دعته الى محاصرة عين ماضي ثم انتهى هذا الحصار ، باستسلام الشيخ واذعانه بعد تمرده ومخالفته الجماعة ، وسنتعرض له في فرصة أخرى ، كما سنتعرض للرسالة التي كتبها والده من جزيرة قبرص الى اخيه وأهله بالقيطنة وهذه الرسالة كانت مجهولة ، واكتشفت منـــذ سنوات قليلة وقد كتبها بعد ما قضى سنتين في المشرق ، وهي تختلف عن رسالة الامير حيث أن والده اقتصر في رسالته على الاهوال اللاتي لاقوها في مصر ، بسبب الحرب بين محمد علي والمماليك وفي الحجاز بسبب الحرب بين امير مكة والوهابيين، ويظهر انه كتبها في طريق رجوعه من جزيـــرة قبرص ، وبعد ان وصف الجزيرة ذكر انه بعث امتعته مع رفقائه على موعد اللقاء بالاسكندريـــة حيث عزم على الرجوع برا ، لزيارة قبر والـــده دفين برقة (ليبيا) ولم يذكر ولده الامـــير في رسالته ، مع انه ذكر جـل رفقائه الذين كانـوا من جهات مختلفة بالقطاع الغربي ، كما ذكر في رسالته انه ترك واحدا منهم مريضا بامعان (شرق الاردن) واكترى له مسكنا بطلبه ، واعترف انـه لم يجد ما يدفع به كراء هذا المسكن ، حتى باع كساءه . وتعرض في رسالته هذه الى ذكر المسافة التي قطعوها بين مصر وجدة ، وهي رسالة قيمة ، بالنسبة لتاريخ حياة الامير وتاريخ الجزائــر ،نتمنى ان يهتم بهما اي بالرسالة والمذكرات ، بعض الباحثين ، اذ تشتملان على صفحات من تاريـخ البلاد تصحح كثيرا من الاغلاط والاخطاء .

موقف بايات تونس
من ثورة الأمير عبد القادر

يحيى بوعـزيـز

ان تاريخ الجزائر يجب ان تعاد كتابتـه وصياغته من جديد من واقع الوثائق الجزائرية الاصيلة التى لم تر النور بعد حتى الآن ، والتى تتكدس فى دور المخطوطات والوثائق الاجنبية ما وراء البحر ، وفى البلدان المجاورة للجزائـــر خاصـــة تونس والمغـــرب الاقصى ، وفى دور المحفوظات التركية ٠

ولقد سبق لمجلة « الأصالة » ان قامت ،مشكورة ، بمبادرة طيبة فى هذا الميدان ، فاصدرت عددا حافلا بالدراسات القيمة حـــول موقـف المؤرخين الاجانب من كتابة تاريخ الجـــزائر ، وطريقتهم فى ذلك ، وهذه الفكرة هامة وضرورية ،لان المؤرخين الاجانب ، والفرنسيين على الاخص ، كانوا يصوغون الحقائق التاريخية من وجهـــة نظر خاصة تستهدف أساسا تبرير الغـــزو الفرنسى للجزائر وتدعيم وجوده وبقائه بهـا ٠ ويؤرخون لاحداث الجزائر بالتبعية فقط لتاريخ فرنسا التى يحلو لهم ان يعبروا عنها بالبلد الام ،كان الجـزائر يتيمة لا أب لها ولا أم الا فرنسا ، ولا تراث لها الا تراثها ٠

ثم ان جهل هؤلاء المؤرخين الفرنسيين للغةالعربية جعلهم لا يستطيعون استيعـــاب ما فى الوثائق العربية من حقائق واحداث صحيحة ،ويكتفون بتخليص بعض افكارها بصورة مشوهة لتدعيم وجهة نظرهم المتحيزة ٠

ويمكن ان نضيف الى هذا الهم ، بحكم الاحتقار والاستخفاف الذى يكونه للعنصر الاهلى لم يكونوا يعطون الاهمية لافكار الجزائريين التى يسجلونها فى رسائلهم ووثائقهم ويعتبرونها من قبيل التمائم والخرافات ، اللهم من كان فى نظرهم خطيرا على السيطرة الفرنسية ، فتراهم يتتبعون كل حركاته وآثاره لتبرير الاحكام التى سيصدرونها ضده ٠

وفى اطار عملى لاستكمال المعلومات حول دراستى الجامعية التى اقوم بانجازها واعدادها منذ عدة سنوات حول : «دور المقرانى والحداد فى ثورة 1871 » أتيح لى ان اطلع واكتشف المزيد من الرسائل والوثائق الجزائرية حول ثورات الجزائرفى القرن التاسع عشر بدور الوثائق فى باريس ووزارة الحرب ، وايكس ان بروفانس ، وفى قسنطينة ، وتونس ٠

وبينما أنا انقب وابحث فى دار الوثائق للحكومة التونسية اواخر شهر ديسمبر 1973 اكتشفت عددا كبيرا من الرسائل لعدد من زعماء ثورات الجزائر فى القرن الماضى امثال : بن ناصر بن شهرة ، والشيخ محمد الكبلوتى ، والشيخ الحسناوى ، والامير عبد القادر ، وابنه محمد ، والحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن وغيرهم ، ورسائل أخرى لشخصيات رسمية تونسية وعثمانية حول احداث ثورات هؤلاء الزعماء وغيرهم سأحاول نشرها بحول الله فى مستقبل الايام ٠

والشىء الذى استلفت نظرى فى هذه الرسائل هو ان كثيرا من الاحداث التاريخية الشائعة فى تاريخنا ينبغى تصحيحها من واقع هذه الوثائق الجزائرية التى لم تر النور حتى اليوم ٠ كما ان الثغرات الكبيرة التى تتخلل كفاحنا الوطنى خلال الفترة الاستعمارية لا يمكن ان تسد الا بالعودة الى هذه الوثائق نفسها ٠

فالذى يكتب اليوم عن ثورة أولاد سيدى الشيخ لا غنى له من البحث فى دور المحفوظات المغربية ، ولا ينبغى الاطمئنان ابدا لما كتبه ونشره الفرنسيون حولها ، وكذلك الحال بالنسبة للذى يكتب عن ثورة المقرانى والحداد ، والزعاطشة ، والامير عبد القادر ، لا بد له من العودة الى دور المحفوظات فى تونس والمغرب ، واصطنبول وغيرها للغرض نفسه ٠

فلقد كان شائعا مثلا من الكتابات الفرنسية ان الامير عبد القادر كان ضد ثورة المقرانى والحداد عام 1871 ، وذلك استنادا الى الضجة التى آثارها ضد ابنه محى الدين الذى التحق

بالثوار في منطقة الحدود الشرقية للجزائـــر ،فتبرأ منه ، وكتب رسائل استنكار الى الحكومة الفرنسية ببوردو والى وزراء تونس ، وقناصـــل فرنسا في دمشق وطرابلس الغرب ، والى قاضي معسكر بالجزائر • (1)

ولكن اكتشفت في دار المحفوظات التونسية رسائل للامير عبد القـــادر وجههـــا للرسميين التونسيين يحثهم عـــلى تقديم المساعدات لاولادمقران ومن معهم من اللاجئين ومما قاله في رسالته الى مصطفى خزندار : « انه بلغنا دخول الفئة المقرانية وأولاد يلس في دائرة دولتكم السامية لائذين بحماها المنيع مستعطفين جنابها الرفيـع مشهرين الفرصة في دفع ما حل بهم من عظيم الغصة ••• فالمأمول من الجناب السامي تصديق ظنهم والاعتناء بشأنهم وان يلاحظهم بعين الرحمة ويساعدهم بيد النعمة (2) وأكد نفس الامر في رسالة أخرى الى الوزير خير الدين التونسي . بعد ان اشاد بخصاله وخصال السلطات التونسية (3) .

فلو كان الامير عبد القادر ضد ثورة أولاد مقران لما طلب من الدولة التونسية تقديم المساعدة لهم بعد التجائهم الى هناك ، وهذا يؤكد ان معارضته لابنه محي الدين لا تعني معارضـــة باقي الثوار الجزائريين داخل **الجزائر** •

وكان شائعا أيضا ان الامير عبد القادر لم يكن يهتم كثيرا بالمنطقة الشرقية من الجـــزائر لبعـــدها عـــن مركزه . ومعـــارضة الحـــاج احمـــد بـــاي له ، ووجـــود الفـــرنسيين في الوسط عقبـــة في طريـــق مد نفـــوذه الى هناك . ولكـــنى عثـــرت على رســـائل للامـــير ولخلفائه بالمسيلة ، ومنطقة بسكرة ، توضح بجلاء عنايته بالمنطقة الشرقية لم تكن اقل من عنايته بمركزه في الغرب . وسانشر هذا بحـــول الله في دراسة خاصة مستقبلا ، واشير فقط هنا الى ان الامير مثلا كتب رسالة الى السيد علي بن سالم يطلب منه فيها ان يستعلم له على المنطقة الشرقية حتى طرابلس ، وقال له : « ثم انه لا بد منك ان تبذل جهدك في استقصاء اخبار الشرق مـــن

1) Louis Rinn : *Histoire de l'insurrection de* 1871 *en Algérie.* (Alger 1871) pp. 105-110.

2) ارشيف الحكومة التونسية ، صندوق 78 • ملف 929 ، وثيقة رقم 64 بتاريخ 25 ربيع الثاني 1289) 2 جويلية 1872) •

3) المصدر السابق • وثيقة رقم 65 بتاريخ غرة ربيع الثاني 1289 (8 جوان 1872) •

طرابلس اليكم وتعرفنا بها على ما هى وتبين لنا صحيحها من غيره مفصلة بحيث لا نحتـــاج الى سؤال غيرك » • (4)

وكتب الى الشيخ الحسناوى الحناشى الثائر بالاوراس يحثه على الجهاد ويقول له : « وبعـــد ايها الفارس المجاهد الصابر المكابد اسمع اسمعك الله خيرا ووقاك بلطفه خيرا ان الجهاد شعـــار الانبياء وحرفة المؤمنين الاتقياء فاحمد الله الذى ارشدك اليه وسله ان يثبتك ويعينك عليه » • (5)

وراسل باى تونس احمد باشا ووجه اليه هدية عشر خيول وبعض التحف وذلك من اجل ربط الصلة معه ومما قاله فى رسالته الى محمدبن حسن باى الوزير التونسى : « فانا قد بعثنا اليكم من يقوم مقامنا فى التهنئة وعقد المحبـــة بيننا وبينكم وحسن الجوار معكم • فاستوصوا بالحاملين خيرا وقفوا معهم موقف الكرام عنـــدالمعظم السيد احمد باشا » • (6)

ولم يتوقف الامر عند محاولات الامير عبدالقادر نفسه فقد بذل خلفاؤه ونوابه نفس الجهود مع سلطات تونس من اجل تدعيم جبهة الكفاح ، ومما قاله الحسن بن عزوز حاكم المسيلة الى حمودة باشا باى : « فان ظهر لك ان نكون وصلة بينك وبينه (أى الامير عبد القادر) فى المعرفة لتزول لامور المختلفة وتجتمع الكلمة الشريفة وندخـل فى قوله تعالى : « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » • وفى قوله : « **تعاونوا على البر والتقـــوى ...** » فنحن بذلك بعثاء وباثباتها حفلاء » ولم يكتف بهذا فحذره من مغبة صداقته للفرنسيين وقال له : « نعم وانت كن فطنا لبيبا عاقلا وانظر عاقبة الامور من جانب الكفرة ولا تظـــنودهم من جانب الحب بل من جانب المكر والخديعة لا غير وما شغلهم عنكم الا نحن ولولا نحن لرجعوا اليكم وما نحـــن مشغولون الا بهم وانــت منا والينا والحب بيننا سابق ولا حق لا ينفـــك ابدا والسلام معاد عليكم » • (7)

---

4) المصدر السابق • وثيقة رقم 40 بتاريخ 6 ربيع الثانى 1263 (مارس 1847) •
5) المصدر السابق • وثيقة رقم 41 تحمل نفس التاريخ السابق •
6) المصدر السابق • وثيقة رقم 42 ووثيقة 35 ووثيقة 36 •
7) المصدر السابق . وثيقة رقم 33 لا تاريخ لها •

واكد هذا في رسالة أخرى لنفس الشخص وقال : « ومن جملة ما ذكرناه للسيد أحمد باشا على ان يشتموا (كذا) ان تكونوا انتم والسلطان السيد الحاج عبد القادر على رأى واحد ليقـر الدين وتجتمع كلمة المسلمين » . (8)

ان كل هذه الجهود من طرف الامير عبد القادر وخلفائه توضح الاهمية التي كان يوليها للجبهة الشرقية ، ولدور تونس فيهـا سلبا وايجابا وخطورة الموقف الذى ستتخذه على مستقبل كفاح الجزائر .

ولكن بايات تونس كان لهم موقف آخـر معارض ومضاد . فقد كانوا ضد ثورته وعارضوا توابهم ووكلاءهم في تقديم اية مساعدة لـه . والرسائل الثلاثة التي ستستعرضها في هـذه الدراسة هي موضوع هذه النقطة بالذات . وقبل استعراضها لابد من تسجيل الملاحظتين التاليتين :

أولا : ان الامير عبد القادر لم يكن غافلا عن المصادر التي يمكن ان يحصل بواسطتها وعـن طريقها ، على السلاح من الخارج ومنها جبل طارق الذى يسيطر عليه الانجليز والذى يعتبر بوابة هامة لقادة المقاومة لكي يربطوا صلاتهم بعـدة جهات من أوروبا التي تتوفر فيها الاسلحـة الضرورية للكفاح والمقاومة ، وقد كانت صلات الامير عبد القادر بالحكومة الانجليزية عن طريق مسؤوليها بجبل طارق ، وكشف الدكتور التميمي اخيرا عن عدد من هذه الرسائل . (9)

ثانيا : ان معارضة بايات تونس لثـورة الامير عبد القادر من خلال معارضتهم لوكيلهـ طارق الذى قدم مساعدة للامير عبد القادر ، يؤكد موقفهم السابق من تأييد الاحتـلال الفرنسي للجزائـر . (10)

المدخل الى الوثائق الثلاثـة :

لقد كان لبايات تونس وكيل مقيم بجبل طارق بمثابة قنصل لمملكتهم يدعى زاكي كرطوزي على غرار الوكلاء الاخرين في بلدان ومدن أخرى بالمغرب العربي وأوروبا .

8) المصدر السابق . وثيقة رقم 34 لا تاريخ لها .

9) الدكتور عبد الجليل التميمي : **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي** 1816 ـ 1871 (الدار التونسية للنشر ـ مارس 1972) . ص 197 ـ 229

10) الدكتور ابو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال** . (معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة 1970 ص 132 ـ 133 وما يليها .

وخلال تردد رسل الامير على جبل طارق للاتصال بالسلطات الانجليزية للحصول على تأييد منها له وعلى ما يمكن من الاسلحة ، اتصل هؤلاء الرسل بوكيل تونس واحكموا الصلة بينه وبين الامير عبد القادر ، فاصبح يساعدهم على جمع بعض الاسلحة وادوات الحرب وعلى تنظيم الاتصالات مع الغير ٠

وبما ان علاقات البايات بالامير غير حسنة وليست وثيقة . وتوقع زاكى كرطوزو ان يقوم بعض الوشاة بابلاغ البايات بتونس أخبار مساعدته للامير فانه أراد ان يسبقهم ويبلغ الباى بخبر عمله مع تبرير ذلك فكتب اليه رسالة قال له فيها : « والمنهى لسيادتكم انه كتب لنا المجاهد سيدى الحاج عبد القادر بن سيدى محى الدين ان اقف مع وكيله فى قضاء مآربه بجبل طارق وشراء آلة الحرب الذى يحتاج اليه لما يعلم اننى خديمكم ونعلم انه محب لجنابكم فاقفنا (كذا) مع وكيله خفية حتى قضى المآرب وتوجه الى تطاون فاذا بلغ سيدنا خبر عن ذلك فقد انهيناه اليه قبل ان يصل حضرتكم الشريفة » ٠ وبما انه كان يتوقع ان يكاتبه الامير عبد القادر مرة أخرى ليطلب المساعدة فقد استدرك الى الباى قائلا : « فان اذن لنا سيدنا بقضاء ما يحتاج امتثلنا امرك ولا تأخرت ولا نتعدى امرك ان شاء الله »(11)

كان هذا حوالى عام 1841 ٠ وبعد عدة سنوات ، قام زاكى كرطوزو بتسليم جوازات سفر تونسية الى بعض المواطنين المغاربة غير التونسيين فكتب اليه الباى رسالة وبخه على ذلك ، واغتنم الفرصة وذكر له بأنه علم بكونه يقدم اعانة ومساعدة للامير عبد القادر وعنفه على ذلك مدعيا ان علاقة تونس مع فرنسا حسنة ولا يمكن ان يعين من يثور عليها ، ومما ذكره فى هذا المعنى قوله : « اما بعد فانه بلغنا أنك كتبت بصبرتات (جوازات) لاناس من غير ايالتنا القائمين على حكام الدولة المفخمة دولة المعظم سلطان الفرنسيس وكذلك بلغنا ان عندك خلطة مع عبد القادر باعانته فى بعض مهماته فتغيرنا من سماع ذلك لان دولتنا مع دولة فرنسا فى غاية المحبة والصفا لا نعين القائم عليها بوجه مثل غيرها من احبابنا الدول » ٠ (12)

وقد رد عليه كرطوزو برسولة طويلة يررقيها قضية الجوازات بكون : « الذى اعطيناهم الباصابورات ناس مساكين واغراب (كذا) وهما من دولة المغرب ولم قدروا (كذا) على خلاص

---

(11) ارشيف الدولة التونسية . صندوق 78 ملف 229 وثيقة رقم 4 ٠
(12) المصدر السابق ٠ وثيقة رقم 5 ٠

الباصابور من قلة ما بايديهم » يعني من مال ، وبرر صلاته بالامير عبد القادر بقوله : « ولى عليه مقدار ستة ذا ألف (كذا) ريال ترتبت لى عليهمن المقضيات الذى كنا كنقضى (كذا) له » وأوضح بانه اذا قطع صلاته معه « ربما يضيعوا ذاك (كذا) الدراهم » ٠

وأعلن له في الاخير بانه مع ذلك هو مستعدلقطع العلاقات مع عبد القادر، وختم رسالة باعلانه بان سلطان المغرب الاقصى يتصل به كذلك ليقضىله مآربه (13) وذلك ليظهر له مركزه الكبـــير ويزيل بعض الشكوك التى اصبحت تساوره نحوه

ان هذه الوثائق الثلاثة تكشف بوضـــوح ضعف بايات تونس وعدم قدرتهم على مواجهة ضغط الفرنسيين مما جعلهم يقلبون ظهر المجن للامير عبد القادر ولكثير من زعماء ثورات الجزائر في القرن الماضى ٠

غير ان هذا الموقف لم يكن نابعا عن عقيدةوايمان منهم والدليل على ذلك ان بلاد تونس كانت على الدوام ملجألا حرار الجزائر المكافحين الذين ترغمهم الظروف على اللجوء الى هناك ٠ كما ان الشخصيات الرسمية التونسية من غير البايات كالوزراء والولاة والاغاوات فى العاصمة والاقاليم كانت لهم مواقف مشرفة تكشف عنها الرسائل التى يزخر بها ارشيف تونس الوطنى ، وهـذا الموقف المشرف بقى حتى ثورة 1954 حيث كانت تونس قاعدة هامة لثورة التحرير الكبرى ، وعانى الشعب التونسى بنفس القدر الذى عاناه الشعب الجزائرى من المحن وهو ما يؤكد وحدة الشعبين عبر التاريخ ٠

نص الوثائق الثلاثـة :

الوثيقة الاولى :

الحمد لله وحده (14) ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى ٠

مولانا الامير المجاهد ابو العباس سيدى احمد ابن المنعم المقدس المطهر سيدى مصطفى باشا باى محروسة تونس وسلطان افريقية نصره اللهواعطاه ما يحب ويشاء والسلام على على (كذا) مقام مولانا ورحمت (كذا) الله وبركاته نسأل الله رضاكم موجبه والمنهى لسيادتكم انه كتـب

---

13) المصدر السابق ٠ وثيقة رقم 6 ٠

14) ارشيف الدولة التونسية ، صندوق78 ملف 929 وثيقة رقم 4 ٠ فى نهاية الرسالة طابع صاحبها الدائرى وكتب داخله : عبده 1257زاكى كرطوزو وكيل وجق تونس بجبل طارق ٠

الحمد لله وحده

وما دول والانفولان ١١ بسم الله تعالى



مولانا الامير المجاهد ابو العباس سيدي احمد ابن المنعم المقدس المكرم سيدي مصطفى باشا باي مرد ستر تونس وسلطان
امير يفيد نصره الله واعطاه ما يحب ويرضا والسلام على مقام مولانا ورحمة الله وبركاته نسئل الله رضاكم موجبه
والمنهى لعلمكم انه كتب لنا المجاهد سيدي الحاج عبد القادر بن سيدي محي الدين ان افد مع وكيله في قضاء مئارب
بجبل طارق وشراء الذي الذي يحتاج له ايعلم انني خديمكم ونعلم انه يحب لجنابكم ما فعلنا مع وكيله شعبيز حتى قضى الكارب
وتوجه على تطاوين واذا ابلغ سيدنا خبر ذلك بقدر انه ينال اليه قبل ان يصل حضرتكم العلية وليامرنا بامر المطاع ربما
يعود الكتب الينا المجاهد في قضاء ما يحتاج من امور الحرب وان اذن لنا سيدنا بقضاء ما يحتاج امتثلنا امره والا ما نشتغل
ولا نشتغلوا امره ان شاء الله والواصل اليكم الى بر خديمكم سيدي محمود كاهية عطا كركران وانما قلة المكاتبة لم ولكنه
هو رعيتنا لا اله وان كان لسيدنا غرض نعلمه وما خير الاحترام سيدنا والسلام في ٥ محرم الحرام عام ١٢٥٧

كتب عن اذن خديمكم راجي الطواير وكيلكم بجبل الكارب



لنا المجاهد سيدى الحاج عبد القادر بن سيدى محى الدين ان اقف مع وكيله فى قضاء مآربه بجبل طارق وشاء آلة الحرب الذى يحتاج لما يعلم اننى خديمكم ونعلم انه محب لجنابكم فاقفنا (كذا) مع وكيله خفية حتى قضى المآرب وتوجه على تطاون (كذا) فاذا بلغ سيدنا خبر عن ذلك فقد انهيناه اليه قبل ان يصل حضرتكم الشريفة وليامرنا بامره المطاع ربما يعود الكتب (كذا) الينا المجاهد فى قضاء ما يحتاج من امور الحرب فان اذن لنا سيدنا بقضاء ما يحتاج امتثلنا امرك والا تاخرت ولا نتعدى امرك ان شاء الله : والواصل اليكم على يد خديمكم سيدى محمود كاهية عسكر كدان (كذا) واما قلة المكاتبة لمولينا (كذا) هى رعيا للادب (كذا) فان كان لسيدنا غرض شرفنا بقضائه وما نحن الا خدام سيدنا والسلام فى 5 محرم الحرام عام فاتح 1257 (15) كتب عن اذن خديمكم زاكى كرطوزو وكيلكم بجبل طارق .

الوثيقة الثانية :

الحمد لله وحده (16) .

المحترم بخدمتنا المنسوب لدولتنا الكوالير (كذا) كرطوزو وكيلنا بجبل الطارق (كذا) اما بعد فانه بلغنا انك كتبت بصبرتات (17) لاناس من غير ايالتنا القائمين (كذا) على حكام الدولة المفخمة دولة المعظم سلطان الفرنسيس وكذلك بلغنا ان عندك خلطة مع عبد القادر باعانته فى بعض مهماته فتغيرنا من سماع ذلك لان دولتنا مع دولة فرانسا فى غاية المحبة والصفا (كذا) لا نعين القائم عليها بوجه مثل غيرها من احبابنا الدول لا نعين القائم عليهم بوجه بمقتضى المحبة وشروط الوفاء وانت من اتباع دولتنا فالواجب ان لا تفعل ذلك ولا تقرب حماه بحيث لا يتطرق اليك وهم فى امثال هذه النوازل التى لا نرضاها ولا نمضيها ولا بد ان تحرر لنا مكتوبا فى هذه النازلة صدر هذا من الفقير الى ربه تعلى (كذا) عبده المشير احمد باشا باى صاحب المملكة التونسية 30 جمادى الاولى من سنة 1263 (18) .

---

15) الموافق 27 فيفرى 1841 .

16) ارشيف الدولة التونسية . صندوق 87 ملف 929 وثيقة رقم 5 . ولا يوجد عليها طابع الباى .

17) أى جوازات السفر من الكلمة الفرنسية :

18) الموافق ماى 1847 .

الحمد لله وحده



المحترم بخدمتنا المنسوب لدولتنا الكونسير كمبوز وكيلنا بجميل [...] ر
اما بعد فانه بلغنا انك كتبت بصبه نلت لمناسن عسى ابانها الفلاجيي
مع حكام الدولة المجيدة دولة المعظم سلطان البرنسيس وكذلك بلغنا
ان عندك خلطة مع عبد القادر باعانته في بعض مهماته بتغيير نل
من سلام خلطان دولتنا مع دولة برانسة في غاية المحبة والصحبة
لا نعير الفايت عليها بوجه مثل غيرهم كان من احبابنا الدول لا نعيس
الفايت عليهم بوجه بمقتضى المحبة وشروط الوفا وانت من اتباع
دولتنا فالواجب ان لا تفعل ذلك ولا تقرب حماه تحسينا لا تشطرف الدولة
وهم في امثال كثرة النوازل لله لا نضط كعادة لا نضيها ولا بد ان تحرر لنا
مكتوبا في كثرة النازلة صدر كذا ان نعض [...] نعط عبد الحشيم
من احمد باشا باي صاحب المملكة التونسية في [...] وجمادى الاولى
سنة ١٢٥٣

الحمد لله وحده [illegible]

أسعد الله وجود المؤيد بالله [illegible] السلطان [illegible]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فبلغنا [illegible] بتاريخ [illegible]

الأولى عام 1263 [illegible]

[illegible]

والسلام

في 17 جمادى الثانية عام 1263

[illegible]

الوثيقة الثالثـــة :

الحمد لله وحده (19) ولا يدوم الا ملكه .

اسعد الله وجود المؤيد بالله سيدنا احمدباشا سلطان فريقية (كذا) السلام عليك ورحمت (كذا) الله وبركاته اما بعد قبضنا الاعز كتابك تاريخه جمادى الاولى عام 1263 وقرأناه وفهمنا مضمنه (كذا) وخطابه وسفدنا (كذا) منه صحتكم وعافيتكم لله الحمد ابقاكم الله حرزا منيعا وما ذكرت لنا سيدنا على مسبة البصابورات (كذا) الذى اعطينا للناس اللذى لم هما (كذا) من دولة سيادتك تعلم سيدى ان الـــذى اعيطنا لهـــم البصابورات ناس مساكين واغراب (كذا) وهما (كذا) من دولة المغرب واستحرموا بجانبنا وشفقنا من حالهم واعطيناه لهم لله خالصا واعناهم بما اطلق الله به على ايدينا وهذا عندك فيه الخض (كذا) الجزيل من الثواب ومن الآن ان شاء الله لما قبضنا الوردى (كذا) من سيادتك لم باقى (كذا) نعطيه اكثر للذى لم هو من دولتنا وما ذكرت لنا سيدنا على اننا كنعينوا (كذا) (20) سيدى الحاج عبد القادر محى الدين تعلم سيدى ان ذلك صحيح تراه صاحبنا من القديم مدة من سنين ونحـــن كنكاتبوا مع بعظنا (كذا) وكل ما كيكتب لنا عليه كنقضيه له ولى عليه مقدار ستة ذا ألف (كذا) ريال ترتبت لى عليه من المقضيات اللذى كنا كنقضيه له ولى عليه مقدار ستة ذا ألف (كذا) ريال ترتبت لى عليه من المقضيات اللذى كنا كنقضى له ونحتاج لما يكتب لى نجاوبه لانه فى مكاتبه كيذكر لى يبعث لى الدراهم واذ (كذا) انقطع عليه الجواب ربما يضيعوا ذاك الدراهم (كذا) والآن لما اشتكوا لك بنا وانت طلبتنا فى ترك اعانته وكتابته ودخلوا فى صار (كذا) سيادتك فانت طلبتنا فى ذلك نترك كتابته على الرأس والعين وتحقيق لما نفعل ذلك يضيع لنا المال الضيع المذكور ولكن عـلى وجهك من بعدها يكون اكثر من ذلك لم يضرنا من فضل الله وسيادتكم وسيدى ج (كذا) عبد القادر المذكور تعرفوا بالتحقيق انه لم عنـــده (كذا) هنا فى جبل الطريق (كذا) ولا فى بلدان الروم من يثيق (كذا) به يفش له سره ما عدا نحن لاجل هذا لما نقطعوا عليه يضيع (كذا) لنا ما ذكر اعلاه وكذلك الشريف العلوى المنصور باللـــه مولانا عبد الرحمن سلطان المغرب حتى هو كيكتب لنا على سره ومصالح خـــبر (كذا) كنجاوبه وكيعنا (كذا) بأمر فالله الحمد واذا خصكم ما يقضا (كذا) نحن على الخدمة والطاعة والمولى يحفظكم ويرعاكم بمنه آمين والسلام فى 17 جمادى الثانية 1263 (21) خديمكم زاكى كرطوزو .

---

19) ارشيف للدولة التونسية . صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 6 ليس عليها طابع صاحبها .

20) يلاحظ على صاحب الرسالة انه يكتب بالعامية المغربية بحيث يدخل حرف الكاف على الافعال .

21) الموافق جوان 1847 .

الأخلاقيات القتالية عند الأمير عبد القادر

1

د . علي عيسى
كلية الآداب – جامعة الجزائر

من كتاب مدونات العمليات العسكرية ضد القبائل (والمقصود بكلمة القبائل البربر والعرب معا) في الجزائر ، المتضمن تقريرا عن مهمة مسيو سوشيه مساعد أسقف الجزائر العاصمة لـدى الامير عبد القادر ، المتعلقة بتبادل الاسرى (باللغة الانجليزية) . تأليف دوسون بورير الـزميل

NARRATIVE OF A CAMPAIGN
Against the
KABAILES OF ALGERIA
With
THE MISSION OF M. SUCHET
To the
EMIR ABD-EL-KADER
For an exchange of prisoners.
By
DAWSON BORRER, F.R.G.S.,
Membre correspondant de la société orientale à Paris,
Author of
« A journey from Naples to Jerusalem ».
LONDON :
Longman, Brown, Green, and Longmans,
Paternoster-Row
1848.

بالجمعية الجغرافية الملكية بلندن (لندن : لونجمان1948) أمكننا ان نستخلص بيانات ذات قيمة تاريخية وسياسية بالنسبة للجزائر عن أوضاع البلاد فى مواجهة الغزو الفرنسى لها أثناء السنوات الاولى من الاحتلال ٠

ويسرنى ان اقدم هذه البيانات لمجلة الاصالة لعددها الخاص بمناسبة الذكرى العشرين لاندلاع الثورة الجزائرية ٠ وعن هذا الكتاب ،أذكر أنه من المكتبة الخاصة لـ سير ويليام مولسوورث عثرت عليه فى محل لبيع الكتب القديمة فى أحد احياء اليهود فى لندن عام 1950 . ومن حسن الحظ ان لدى الانجليز عادة بيع كتبهم الخاصة لمحبى القراءة وهم كثيرون لكى تعم فائدتها – وهى لاتباع الا لمحال بيع الكتب ويندر جدا ان تباع لغيرهم ممن قد يستخدمونها للف السلع بها فى المحال التجارية كما تفعل الشعوب التى لا تقرأ ٠ ولو لم تكن هذه العادة لديهم لما كان فى استطاعتى أن أوفق فى العثور على هذا الكتاب الذى ما ان وقع عليه نظرى حتى قررت ألا ادعه يفلت من يدى لاهمية القضية الجزائرية فى ذلك الحين ٠ والسطور التالية – بما تحتويه من نصوص وتلخيصات – مستمدة كلها من هذا الكتاب ٠

2

قام الفرنسيون بحملة كبرى ضد القبائل فى السابع من ماى 1848 بعد مضى ثمانية عشر عام على بدء الاحتلال الفرنسى للجزائر ٠ وكان الباعث على ذلك حاجتهم لتقوية مركزهم ازاء اشتداد المقاومة من طرف الامير عبد القادر وعدم خضوع القبائل للغزاة ٠ وقد سمحت اخلاقيات المستعمر لكى تبرر هذه الحملة العسكرية بأن تنشر الاكاذيب عن القبائل البربرية والعربية ، مثل الادعاء بأن البربر كانوا يشوون من يقع فى أيديهم من الفرنسيين المحاربين ومثل أن العرب متوحشون وماكرون ٠ ولكن الدافع الحقيقى انه حتى سنة 1848 لم تكن فرنسا قد افادت كثيرا من الغزو وذلك لان هذه الحرب كلفت خزانتها الكثير من الاموال : حوالى 1,000,000,000 فرنك فرنسى فى الوقت الذى لم تحصل فيه من مدخول الضرائب على الشعب الجزائرى اكثر من 625 ، 773 ، 24 فرنك . فضلا عن ان الفرنسيين كانوا يفرضون الضرائب ويستولون على الاراضى والمحاصل الزراعية من الشعب والسيوف على رقابه ٠ وكان يغيظ المستعمر ان الجزائريين كانوا يدفعون للامير عبد القادر بانتظام وبتحمس وفى ظروف الحرب العسيرة كل ما فرضه عليهم من ضرائب ، وكانت تبلغ 1/10 المحاصيل من كل قبيلة يضاف اليها ضرائب على المال والقطعان وعلى التجارة والصناعة

مع غرامات على المخالفين القلائل وضرائب استثنائية حسب متطلبات الجهاد • وازاء المقاومة العنيفة من الامير عبد القادر وجيشه قرر الفرنسيون شن حملة 1848 سالفة الذكر ، رغم الاعتراضات التي قوبلت بها فرنسا والنصائح التي قدمت لحكومتها من داخل البلاد وخارجها بان الجزائريين شديدو المراس وان محاربتهم لغرض اخضاع بلادهم اخضاعا كليا ستكلف فرنسا خسارة فادحة في الاموال والارواح والعتاد •

ان الجزائريين كما هو ثابت في تاريخ كفاحهم حاربوا حرب مسلمين ضد كفار مغتصبين – هكذا كان تصور الجزائريين للغزاة ، ولم يمنعهم هذا التصور وهم في أشد اطوار المقاومة من احترام السلطات المسيحية المحلية المسالمة كما سنرى فيما يلي :

3

من خلال وقائع هذه المعارك في عام 1848 ترامى الى علم الفرنسيين أن لدى الامير عبد القادر عددا من الاسرى احتجزهم في تلمسان عاصمة الاراضي التي كانت ما تزال تحت سيطرته ، ولم تعرف اخبارهم الا عن طريق قائد الحملة العسكرية الفرنسية في السادس من جوان يوم اعلان استيلائه على مسكره ، اذ عثر الفرنسيون عند دخولهم هذا الموقع على اسماء ستة وخمسين من الاسرى الفرنسيين ، منقوشة على جدران احدى القلاع وفي اعلاها الصليب • وكان مكتوبا تحت اسمائهم الكلمات الآتية :

« نحن لا نعرف الى أين المصير ••• اننا في حراسة الله ! » وعلق الاب سوشيه نائب أسقف الجزائر العاصمة على هذا الانباء بقوله : « يا للهول ! ان قلوبنا لتتمزق لهذه الانباء المؤثرة ؟ » ثم قال : « لقد توجهت في الحال الى الاسقف مخاطبا اياه : لو عهدت الى » بالبحث عن هؤلاء الاسرى المساكين فلن أعود بدونهم حتى لو اضطررت «للذهاب الى تلمسان لطلبهم من الامير عبد القادر نفسه»

وعلم سوشيه بعد ذلك ان الامير وعد بتسليم جميع من كانوا لديه من الاسرى الفرنسيين مقابل الافراج عن بعض كبار مساعديه والمحتجزين في سجون العاصمة وتسليمهم اليه شخصيا •

ويروي بورير ان الاسقف التمس من الحاكم الفرنسي آنذاك تحرير ثمانية من رجال الامير – هذا كان عددهم – وان فرنسا بدأت تعد الهدايا لترسلها الى الامير عبد القادر تقديرا منها

لموقفه النبيل • ولم يمض يوم واحد حتى جاءت الهدايا والموافقة على تبادل الاسرى • وهنا يحدثنا سوشيه قائلا :

« فى نفس الليلة حملت هذا النبأ السار الى أحد كبار العرب المحتجزين وكان نزيـــل مستشفى حسين داى • وهو الخوجه (السكرتير السابق) لـ بن سالم • فعانقنى وبدت عليه علامات الصحة من الفرحة • وأطلعته على قرار أخلاء سبيله ورافقته الى دار الاسقف حيث قضى الليل •.كما ابلغت السبعة الآخرين السجناء •• بأنهم سيكونون احرارا فى اليوم التالى • واننى سأقودهم الى مقار قبائلهم وعائلاتهم وانطلقنا جميعا فى الصباح ويصحبتنا مترجم وسائس يجر الدابة التى تحمل هدايا عائلات الاسرى المرسلة من فرنسا الى الامير عبد القادر ••• وفى بوفاريك كان ينتظرنا مبعوث من قبل نائب الامير ، الـذى طلبت منه ان يبلغ القوات الجزائرية المحاربـة اننى سأحضر بسرعة مع ثمانية من الشخصيات العربية كانوا أسرى وأفرج عنهم • وفى اليـــوم التالى جاء الرد بالامان وارسال مرشد ليدلنا على القبائل التى ينتسب اليها هؤلاء الاسرى ومكانها• وما ان خطوت داخل المناطق العربية حتى وجدت نفسى تحت نفوذ المجاهدين ••• وقد تعــرضت لحادث أفزعنى عندما فاجأتنى كتيبة منهم بالحراب والبنادق موجهة الى صدرى ••• وبعد ذلك علموا بمهمتى وتسلموا أسراهم واحضروا لهم الخيول ليركبوها ليقصدوا قبائلهم » •

ويروى سوشيه بعد ذلك كيف كان يلقى الاحترام والاستقبال الرسمى الحافل من المجاهدين تقديرا لاغراضيه الانسانية وهو فى طريقـــه للقاء الامير عبد القادر ليسلمـه رسالة اسقـف الجزائر العاصمة • ويقول انه فى بعض الاحيان لم يكن يمنح حرية الحركة ولا استكشاف الاماكن التى بها كنائس فى الطريق ، حفاظا على اسرار جيش الامير عبد القادر وكان يقال له بصراحـة ان الجيوش الفرنسية تغزو البلاد ومن حق المجاهدين تقييد تحركاته • وكان يردد دائما انه يحمل رسالة الى الامير عبد القادر ولا بد ان يسلمهـا اليه شخصيا فى يديه• وبوصوله الى سهل شليف خلف مرشده وصل الى بعض الفرق النظاميـــة لجيش الامير بقيادة نائبه وهذه الفرق كانـــت تسمى الفرسان الحمر تمييزا لها عن الفــرق العربية المتطوعة غير النظامية ، وكان عدد الفرسان الحمر يتراوح بين ثمنمائة وتسعمائة مقاتل موزعين على المرتفعات القريبة لمراقبة تحركات العدو وقد أكرمه نائب الامير وقائد جيش المنطقة الذى كان قد التقى به ذات مرة فى عملية تبادل أســرى سابقة • وعرف سوشيه ان عليه ان يقطع مسيرة خمسة عشر يوم أخرى من هذا المكان حتى يمكنه

مقابلة الامير • وابدى استعداده لذلك لكي يعود بالاسرى أو يبقى معهم فى حالة رفض الافـــراج عنهم • وقيل له انه فى الغالب يكون الامير قـد اتخذ له مقرا جديدا فى تقدميت بعد سقـــوط مسكرة • وكان طوال الطريق موضع احتـــرام واكرام من القوات الجزائرية والسكان • واعجبه جدا من الاطفال الجزائريين احاطتهم به فى كـل مكان حل به يسألونه عن الزى الذى يرتديه وعن مهمته وديانته اثناء اجتيازه مناطق قبائل بنى عطاف (!) وبنى سنخير وأولاد عباس .

4

ويذكر سوشيه ان ظروف القتال والتكتم جعلته يكاد يفقد الأمل فى معرفة أين يوجد الاسرى وأين مقر الامير عبد القادر • والحقيقة ان الامير كان مشغولا بعض الوقت عن لقاء سوشيـــه ، لابلاغ أوامره وتعليماته للقبائل بالابتعاد عـــن طريق الغزاة ومسرح العمليات العسكرية حتى لا يتعرضوا للاخطار . وبعد جهد جهيد أخبر شيخان طاعنان فى السن سوشيه ان يذهب صحبتهمـا الى سهل غريس – وبعد مرورهم بواد موسى أعلنا أن الامير موجود وسط حديقة كرموز وبرتقال • ثم جاء ضباط عظام من طـرف الامير لاستقباله وقادوه الى الامـــير الذى كان يجلس على الارض بلا فراش فى ملابس بسيطة كأى جزائرى مـــن عامة الشعب ، قوامها حائك عادى مـع برنوس أبيض اللون • ولم يكن يحمل سلاحا البتة فى هذه المقابلة • ويذكر سوشية انه عندما وقـــع نظره على الامـــير تراجع لينظم ملابسه ويسلـم رسالة الاسقف ويطلب الاذن بالمقابلة • وبعـــد دقيقتين أذن له الامير فى الدخول عليه .

ويصف سوشية الامير بقوله : عمره حوالى الخامسة والثلاثين ذو قامة متوسطة ، على محياه مظاهر العظمة بتواضع . وجهه بيضاوى . ذو لحية كستنائية وبشرته بيضاء مائلة الى الشحوب رغم ان الشمس قد أكسبتها اللون البرونزى • وحينما يصمت يبدو عليه التفكـير والاحتشام • ولكن عندما يتكلم تتحول حدقتاه بالتدريج الى أن تصل الى بريق أخاذ • وحينما يتناول الحديـث الدين يطرق قليلا ثم يرفع عينيه للسماء كأنـــه يتلقى الوحى • انه رجل بسيط فى أحـواله • واذا كان هناك موجب للضحك فقد كان يضحك بلا تزمت ملء شدقيه • وكان يبـدو ان منظرى بالزى المسيحى قد لفت نظره • وقال انه كـان سعيدا لان يرى قسيسا كاثوليكيا لاول مـرة • وبعد تـــلاوة المترجم لخطاب الاسقف كان الامير مسرورا وبدت عليه علائم الرضى التام – ورد على سوشيه قائـلا :

« اننى معجب كما تعجب أنت نفسك تماما بروح العطف والاحسان التى لدى الاسقف • اننى أعرف كل شيء (ثم بتحمس استطرد) اننى أعرف كل ما فعله من أجل الجزائر وانه لموضع تبجيل كبير منى » •

وأجاب سوشية بأنه يطلب الاذن باطلاق سراح الخمسة والستين أسيرا فرنسيا الموجودين لدى الامير • ويرد الامير بوعيه السياسى الفائق بقوله :

« اننى لا أستطيع اجابة رغبات الاسقف حيث أن الفرنسيين لم يعيدوا الينا جميع العرب الاسرى لديهم بلا استثناء »

ولكن عندما أبلغه سوشية بان شروط تبادل هؤلاء الاسرى الذين جاء من اجلهم لم تتضمن الافراج عن كل الاسرى العرب وانه سلم الثمانيةالكبار الى قبائلهم وان الاسقف لا دخل له فى السياسة ، اقتنع الامير واحترم الشروط • ثم قال على الفور :

« ان أسراكم سيطلق سراحهم على الفور ••• اليوم . وسنحضرهم من وهران حيث احتجزناهم .

ويروى سوشية حديثا ممتعا فى الدين بينه وبين الامير • ومما جاء فيه قول الامير :

« اذا كان دينكم (الكاثوليكى المسيحى) على هذه الدرجة من الجمال والعطف والاحسان فلماذا لا يرعى كل الفرنسيين دينهم ؟ »

وأجاب سوشية بأن الامر لا يختلف فى كل الديانات وانه ربما كان بين المسلمين أصحاب الدين الاسلامى الرائع من لا يتبعون قواعد دينهم ـ فأقتنع الامير بهذا الجواب بلا أدنى تعصب •

وبخصوص الهدايا التى حملها سوشية قال الامير :

« اننى أتقبلها فقط لانها من الاسقف • وما كنت لاقبلها من أى فرنسى آخر ، كنت سأرفضها » •

وحينما طلب سوشيه اذن الامير بان يرسل الاسقف احد القساوسة لاى مجموعة فرنسية تقع فى الاسر لكى يرعاهم سمح الامير بذلك • ثم حمل سوشية ردا مكتوبا منه الى الاسقف انطوان فى العاصمة بتاريخ صباح يوم الجمعة الموافق 29ربيع الثانى عام 1257 هـ يفيض أخلاقا عالية

واحتراما لكل عمل انسانى ويمنع فيه حبه لهذاالاسقف • هذا الخطاب يدل على أن ظروف الجهاد ضد الغزاة لم تمنع الامير عبد القادر من التمسك بالاخلاقيات القتالية الفاضلة التى تعتبر نموذجا للسلوك الحربى لم تبلغه بعض الدول المحاربــةفى هذا النصف الاخير من القرن العشرين • ولا ننسى أن نسجل أن الامير منذ قرن وربع قــرنأخـــذ بمبدأ الحوار بــين المتخاصمين وأبــدى استعداده للتفاهم والتعايش مع عقلاء المسيحيين لو كانوا من نوع الاسقف الجزائرى . وبذلك يعد رائدا للسياسة الحديثة فى عصرنا الحاضر •



نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر

للمرحوم
رابـح بونـــار

ان الامير عبد القادر الجزائرى الذى ولد فى القيطنة من نواحي معسكر سنة 1807 ومات بدمشق سنة 1883 م قد سجل صفحات لامعة فى تاريخ الجهاد بالجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لها سنة 1830 وقد لفت جهاده المرير انظار السياسيين الاوربيين اليه وانظار المسلمين التى كانت تتابع باهتمام جميع انتصاراته الحربية فى مختلف معاركه مع جيوش الاحتلال الفرنسي ٠

ودامت حروبه للمستعمرين الفرنسيين من سنة 1832 الى سنة 1847 م حيث اضطر الى التسليم لاسباب مختلفة ٠ بعضها يعود الى كثرة الجيوش الفرنسية التى كانت تحاربه والى تدهور الاوضاع الاقتصادية للمنطقة الوهرانية التى خلفتها الحرب ونتج عنها ضعف الفلاحين وحدوث المجاعات وقلة تموين الجيش الشعبى وبعضها الآخر يعود الى أسباب أخرى ٠

فجعت الجزائر يوم الجمعة 25 اكتوبر 1974 بوفاة احد رجالها العاملين المخلصين فى الميدان الثقافى وهو الاستاذ رابـح بـــونار .

وكان الاستاذ الفقيد من كتاب « الاصالة » منذ نشاتها حتى وفاته . وهذه الدراسة عن نظام الحكم فى امارة عبد القادر آخر ما خص به « الاصالة » .

رحـم الله الفقيد رحمة واسعة « الاصالة »

ونقل الامير بعد تسليمه الى فرنسا وسجن بها الى أن اطلق سراحه سنة 1852 م ثم انتقل منها الى الاستانة التى أقام بها مدة ثم غادرها الى دمشق حيث أمضى فيها بقية حياته ٠

اننا ذكرنا هذه اللمحة لنمهد بها الحديث عن نظام الحكم فى امارة الامير عبد القادر .

وهذا الجانب من نشاط الامير عبد القادر قد لا يعيره كثير من الباحثين السياسيين ما يستحقه من عناية وتقدير على ما فيه من عبقرية ادارية ونشاط اجتماعى خلاق ولكن الباحث الاجتماعى والقانونى قد يقف عنده كثيرا ونحن هنا نريد ان نذكر صورة موجزة عن هذا النظام الذى تعوزنا مراجع كثيرة للحديث عن اجهزته المختلفة مكتفين ببعضها مما امكننا الاستفادة منه مثل تحفة الزائر (1) وطرس الاخبار (2) وكتاب الجزائر (3) وتاريخ افريقية الشمالية لا ندرى جوليان وغيرها ٠

ولما كان نظام الامير عبد القادر الجزائرى يقوم على نظام البيعة الاسلامى فينبغى ان نذكر اجراءات بيعته والجو الذى وقعت فيه وصك هذه البيعة ٠

بيعة الامير : بويع الامير عبد القادر بيعتين كانت الاولى منهما سنة 1832 م وقد بايعه فيها بمعسكر قبائل غريس واعراب المنطقة كلها وذكر لنا صاحب التحفة ان الناس بايعوا الامير البيعة الاولى وجاء فى صك هذه البيعة . ان الله يحمى بالسلطان ما لا يحمى بالقرآن وان الوطن فى حاجة الى الدفاع عن حماه وان أهل الحل والعقد وزعماء القبائل والاعيان والعلماء والصالحين قد توجهوا الى الامير وقالوا ان قبول الولاية قد تعين عليك وقد توفرت فيك شروطها من عدل وشجاعة وعزم وعصبية من غير طلب منك لها . فرضى بالترشيح لها وبايعوه على ان ينصروه فى السراء والضراء ٠

ولما تمت هذه البيعة أرسل علماء غريس منشورات الى القبائل يدعونهم فيها الى طاعة الامير وبيعه (4) ٠

---

1) محمد عبد القادر الجزائرى : تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر تعليق ممدوح حقى (بيروت دار اليقظ العربية) ص 155 ٠

2) المرقى محمد : طرس الاخبار ـ مخطوط الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 5496 ص 21

3) توفيق المدنى : كتاب الجزائر ٠

4) اندرى جوليان : تاريخ افريقية الشمالية بدون تاريخ ص 597 ٠

البيعــة الثانيــة :

ثم وقعت البيعة الثانية ـ وكانت اعم من الاولى سنة 1833 م وجاء فيها ان بيعة الامـير تستوجب لزوم الطاعة له في القول والفعل لاقامة العدل وجمع الشمل ومحاربة العدو وتمت في 13 رمضان سنة 1248 هـ (4 فبراير سنة 1833 م) وهكذا تمت بيعة الامير نهائيا وقد برزت بهـا دولة شعبية تحكم باسم الشعب ولفائدة الشعب فكانت دولة ديمقراطية بحق فترة كان فيه قيام الدول الديمقراطية في العالم العربي قليـلا أو منعدما .

وقد حقق الامير في فترته القليلة ما التزم به أمام الشعب فكان اميرا عادلا في احكامه وكان قائدا حربيا مجليا في جهاده وكان شعبيا في جميع تصرفاته .

وقد حدثنا كاتب الماني زار الجزائر في ايام حروبه سنة 1837 م فقال فيه (6) كان الامـير يسوس رعيته بالعدل ولم تقل عمليات الاعدام مثلما قلت في ايامه والجدير بالذكر انه لم تقع محاولة لاغتياله حتى في أيام محنته وهزيمته . في حين ان اغلب الدايات كانت لهم نهاية دموية .

تشكيل حكومتــه :

قامت حكومة الامير عبد القادر بمدينة معسكر على انتخاب عام له كرئيس أعلى للدولة ولـم ينتخب الناس معه من سيكونون اعوانه في الحكم وهذا اهم فارق يفرق بين حكومة الامير والحكومات العصرية ، بل تركوا أمر تعيينهم له وقد اختار اعضاء حكومته من رجالات القبائل وذوي العصبية فيهم لتولي مسؤوليات الحكم كما اختار العلماء أيضا .

واذا حاولنا ان نميز بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية في جهاز امارة الامير فاننا نجد بعض الصعوبة لايجاد معالـم واضحة لكل سلطة على حدة .

---

5) طرس الاخبار ص 21 .

6) مورتير ماغنر : الامير عبد القادر ترجمة ابن العيد دودو بالمجاهد الاسبوعي العدد 509 ـ 24 ماي سنة 1970 ص 30 ـ 31 .

السلطـــة التنفيذيـــة :

تعتبر السلطة التنفيذية هى أهم السلطات ونجد قمتها الامير عبد القادر الذى كان رئيس الحكومة الاعلى والقائد الحربى ثم يليه جملة من الوزراء وهم (7) ·

1 ـ الوزير الاول وهو محمد بن العربى ومعه كاتبان هما احمد بن على بن ابى طالب ، والحاج مصطفى بن الهاشمى ·

وكان ينوب الامير فى كثير من المهام المدنية والعسكرية ·

2 ـ وصاحب الامير وهو محمد بن على الرحاوى وكان يقوم بدور الوساطة بين الامـــير والموظفين والرعية والاجانب ·

3 ـ وناظر الخزينة أو وزير المال هو الحاج الجيلالى بن فريحة ·

4 ـ وناظر الخزينة الخاصة بالامير والمقتصد الخاص بالامير وهو محمد بن فاخة ·

5 ـ ناظر الاوقاف وهو الحاج الطاهر ابوزيد وهو يتولى العناية بكل ما يتصل بالاوقاف والمساجد والتعليم على ما يبدو ·

6 ـ ناظر الاعشار والزكوات وهو الحاج الجيلالى العلوى وكان كمدير للجبابة ·

7 ـ وناظر الخارجية الحاج بن الميلود بن عراش وكان ـ كوزير الخارجية ـ

ان هذه التشكيلة هى التى تتكون منها السلطة التنفيذية للامير ·

السلطة التشريعية والقضائية :

اما السلطة التشريعية والقضائية فان كليهما لم تكن معالمهما فى امارة الامير ودولته واضحة السمات ولا متمايزة الصلاحيات ، بل اننا نجد هاتين السلطتين متداخلتين فى كثير من اعمالهما .

فالسلطة التشريعية لم يكن تشريعها مطلقا فى كل الامور بـــل كان خاصا ببعض اللوائح الادارية أو ببعض القوانين الادارية وما يلحق بهما من كل ما له صلة بالسياسة الشرعية التى يذكرها فقهاء القانون الاسلامى وكان دستـــور الدولة هو القرآن الكريم والسنة النبوية وكانت

---

7) تحفة الزائر ص 162 ·

المدونة الفقهية التى يعتمدها الفقهاء هى مدونة الامام مالك وما تفرع عنها من كتب المذهب المالكى كمختصر خليل وغيره ٠

وقد تالف مجلس السلطة التشريعية للامير من مجلس سماه « مجلس الشورى » (8) وهو يتكون من احد عشر عضوا من جلة العلماء ورئيسه هو احمد بن الهاشمى المراحى وهو الى جانب رئاسته للمجلس كان قاضى القضاة ٠ وهذا مايوضح لنا تداخل السلطتين معا فى حكومة الامير٠

واهم ما قام به المجلس من نشاط هو نشره لمدونة عسكرية فيها قوانين واجراءات عسكرية وغيرها كتبها عبد القادر بن رويلة فى كتاب سماه« وشائح الكتائب » واورد صاحب التحفة فصولا منـــه ٠

وقام المجلس أيضا بارسال المناشر الى القبائل وكان يتعقبا القضايا والنوازل التى تصدرها المحاكم الاولية ويفصل فيها كما تفصل المحاكم العليا فى الدول الحديثة فى مثل هذه القضايا ٠

وكان مقر المجلس بحاضره معسكر وله مجالس أخرى فرعية فى انحاء القطر تتبعه وتقع تحت اشرافه وكانت هذه المجالس الشورية الفرعيـة تتولى أيضا معالجة الامور التى تقع بين الرعيـــة وتفصل فى الاحداث التى تقع فى المقاطعة وكان تعيين اعضائها يقع على يد خلفـــاء الامـير فى المقاطعات ٠

وكانت كل قضية يقع فيها الفصل تكتب فى سجل ويوقع عليه رجال الشورى واذ وردت نازلة خطيرة على مجلس فرعى صرفها رئيسه الى المجلس الاعلى بالحاضرة معسكر ويستدعى الامير بحضور جلسات المجلس وينعقد تحت رئاسته ثم يقع البت فيها .

السلطة القضائية :

ان قاضى القضاة ـ كما قلنا ـ هو رئيس مجلس الشورى الاعـلى بمعسكـر وأما القضاة الفرعيون فهم ينقسمون الى قضاة الجند والى القضاة المدنيين . وهؤلاء القضاة المدنيون كـانوا منبثين فى مختلف المقاطعات الادارية ففى كل مقاطعـة قاض (9) يفصل فى النوازل الشرعية على مذهب

8) تحفة الزائر ـ ص 162 ٠

9) التحفة ـ ص 309 ٠

الامام مالك • وكان الامير يشرط في القاضي ان يكون عالما نزيها متحريا للحق وجعل لكل قاض كاتبين أكبرهما يقوم بدور المفتي حيث يتولى مطالعة الفتاوى ودراستها على مقتضى ما جاء في المذهب المالكي ثم يقدمها الى القاضي ليحكم بها اذا كان موضوعها يتعلق بنازلة من النوازل الصغيرة •

اما النوازل الكبيرة فكانت تحال على المجلس الكبير بالحضارة (معسكر) .

ادارة الامير :

أما ادارة الامير ونعني بها سير حكومته في شتى مجالاتها فقد كانت ادارة محكمة تبدأ من رئيس الدولة وهو الامير الى آخر موظف في أجهزتها المختلفة .

وكان تعيين الحكام والخلفاء والقواد يتم بمراسيم يقررها كاتب الديوان الخاص ويختم على كل سطر منها بخاتم الامارة وهو خاتم كبير الحجم نقش على دائرته بيت للبوصيري وهو قوله : (ومن تكن برسول الله نصرته – ان تلقه الاسد في آجامها تجم) وتعثر على جوانبه (الله – محمد ابوبكر – عمر – عثمان – علي)ونقش في وسط الدائرة : الواثق بالقوى المتين ، ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين بتاريخ سنة 1248 ه وكان عامل الناحية ويدعى الخليفة ايضا يتم تعيينه داخل ديوان الامير وعند تسليمه لمرسوم التقليد يعطى له خاتم عليه اسمه ولقبه، ويخلع عليه برنس جوخ على حسب رتبته ثم يحلف على صحيح البخاري على ان يحسن السيرة والعدل في أعماله وأحكامه واذا مات العامل رجع الخاتم الى دار الامارة بمعسكر – ولم يكن الامير يكتفي بسلوك عماله الظاهري بل كان يستعلم عن جميع اعمالهم وسلوكهم حتى لا يقع منهم جور . مقتديا بفعل عمر ابن الخطاب وكان لتشدده في اقامة العدل لا يستعمل موظفي الدولة التركية « لما اشتهروا به من ظلم وسوء سياسة » (10) .

التقسيم الاداري لامارته :

وقسم الامير امارته الى مقاطعات وكان عددها في أول حكمه قليلا حيث كان لا يتجاوز مقاطعتي تلمسان ومعسكر ثم زاد عددها فصارت تشمل مقاطعات تلمسان ومعسكر وتيطري ومليانة وبرج حمزة ومجانة وغيرها . وكان على رأس كل مقاطعة عامل وخليفة • ثم قسم الامير المقاطعة الى

---

10) التحفة – ص 307 •

دوائر ووضع فى كل دائرة آغا وهو رجل عسكرى يحكم تلك الدائرة وكان فى كل دائرة قبائل تشتمل على بطون وعشائر ٠ وقد جعل على كل قبيلة قائدا وعلى كل بطن وعشيرة شيخا .

وكانت الاوامر الاميرية اذا صدرت من معسكر توجه الى العمال والخلفاء ثم تنتقل منهم الى الاغوات فالقواد فالمشايخ .

واذا نزلت أحداث هامة فى الدوائر فان المشايخ يرفعونها الى القواد وهؤلاء الى الاغوات واولئك يبلغونها الى الخلفاء ليعرضوها على حضرة الامير بمعسكر فيفصل فيها بالعدل اما اذا كانت النوازل ثانوية فان خليفة الناحية يكفى للفصل فيها كما ذكرنا سابقا ٠ وهنا نلاحظ ان الامير قد استعمل النظام الادارى التركى ثم حاول ان يزيد عليه ويحسنه .

انشاء المستشفيات :

وانشا مستشفيات لجنوده فى كل مقاطعة لما تقتضيه وضعيته الحربية التى كان يخوضها مع الجنود الفرنسيين من انشاء مستشفيات لعلاج جنوده ومرضى شعبه وقد عين عليها أربعة اطباء يرجع امرهم الى طبيب حضرته وهو ابو عبد الله الرزوالى ٠ (II)

بناء الحصون ومعامل السلاح وغيرها :

وعنى الامير أيضا ببناء حصون كثيرة ليستعين بها على مواقعة الجنود الفرنسيين فانشأ حصونا سعيدة وسبدو وتاقدامت وكان حصن تاقامت اعظمها ، وقد استعان على بنائها بعمال من اسبانيا وغيرهم ٠

كما عنى ببناء مصانع للسلاح ليصنع فيها البارود والسيوف والبنادق والرصاص ، وكانت مصانعه منتشرة بمعسكر ومليانة وغيرها ٠

وكان عند اللزوم يشترى السلاح من تونس ومراكش كما يشترى الملح والكبريت من البحارة الفرنسيين واما المدافع فكانت تصنع بمعامل تلمسان تحت اشراف مهندس اسبانى وكان صناعها من يسمون قرداحية وبعضهم كان يرافق الجيش لاصلاح اسلحته عند اللزم ٠ كما كان يرافقه صناع السروج والخياطون ٠

II) التحفة ـ ص 3I3 ٠ I2) المصدر السابق 3I5 ٠

جيش الامير وحرسه :

لم يكن جيش الامير الذى كان يحارب به الفرنسيين كبيرا بل كان عدده لا يتجاوز 15 الف وثلثمائة جندى وكان ينقسم الى 12 الف جندى من المشاة والفين وخمسمائة خيالة ومائة وخمسين جنديا مدفعيا كانوا يديرون عشرين مدفعا فى السفر .

وكان للامير جيش خاص به يحرسه وهو يتألف من خمسمائة عبد تحت رئاسة سالم آغا الزنجى .

وأما لباس الجنود فكان ـ غالبا ـ من الجوخ وسلاحهم كان محلى بالذهب ومرصعا بالمرجان وهكذا كان الامير يعتنى بجنوده عناية بالغة وقد دربهم على الحرب وعودهم لقاء الشدائد حتى كان يضرب بهم المثل فى شجاعتهم وضرهم على ميثاق الحرب وفى اقدامهم على منازلة الاعداء فى ميادين الوغى لم تشغل الحروب العنيفة الامير عن العناية بالتعليم بل كان يوليه عناية كبيرة .

التعليم :

وكان يعده اساسا للنهضة الوطنية وهذا ما جعله يرتب المعلمين فى سائر المدن لتدريس فنون العلم المختلفة وقد عين لهم مرتبات مختلفة على حسب درجاتهم العملية . وحثا الناس على طلب العلم واحترام أهله واتخذ اجراء شديدا ازاء الطلبة فاعفاهم من المطالب الاميرية وكان اذا حضر لديه طالب علم امتحنه فى مادته فاذا وجده محصلا لها وناجحا فيها اكرمه والا اعرض عنه وقد نتج عن ذلك نتائج فعالة فى انتشار الحركة العلمية ولاحظ صاحب التحفة انه « انتشر العلم فى جميع المقاطعات واقبل الناس على تعليم أولادهم الامور الابتدائية فكثرت بذلك الفائدة واجتهد الامير فى حفظ الكتب فى كل جهة وأمر جنوده أن يأتوه بكل كتاب يعثرون عليه وتشدد فى حيازة الكتب التى كانت بين أيدى الطلبة أيام حكمه وعزم على تأسيس مكتبة عامة فى تاقدمت . ثم اضطرته الظروف الحربية ان يجعل هذه المكتبة متنقلة بتنقل الزمالة ولما وقعت حادثة طاكين بهجوم الدوك على الزمالة تبعثرت تلك الكتب واستولى عليها الفرنسيون .

العناية بالاخلاق والمواسم الاسلامية :

لم يكن يعنى الامير بالتعليم وحده بل كان يعنى كثيرا بتربية الشعب وتهذيب اخلاقه حتى يكون شعبا قويا صالحا للحياة ·

فكان يمنع أفراد الشعب من معاقرة الخمور وتعاطى القمار ، وخصوصا جنوده وكان يحظر على الناس استعمال التبغ لانه كان يعـــده اسرافا والاسراف يحرمه الشرع وكان يحظر على الرجال ان يستعملوا الذهب والفضة للزينـــة الا فى الاسلحة · عملا بما تقتضيه الشريعة الاسلامية من تحريم استعمال الذهب الا فى دائرة محدودة ·

وكان يلزم الناس بحضور الصلوات الخمس فى المساجد والرجل التاجر كان اذا بقى فى دكانه وقت الصلاة اخذته الشرطة وجلدته حتى لا يعود الى تركها واهمالها واما النساء فانه كان يمنعهن من دخول المساجد وقد وضع حراسا على ابوابها يحولوا بينهن وبين دخول المساجد نظرا لحيـــاة الجد التى كانت وضعيته الحربية تتطلبها وكـــان أيضا يعنى بالاحتفال بيوم المولد النبوى الشريف ويعده يوما رسميا يخرج فيه بخاصته الى أرض واسعة ويجـــرى تمارين عسكرية احتفالا بـــه ، واكراما لجلاله ان هذه الصورة التى أوردناها للامير – على ايجازها – تطلعنا على شخصية عبقرية بحق فى سلوكها السياسى وفى سلوكها الحربى وفى روحها الشعبية ·

كما تطلعنا على عبقرية الامير الادارية والنظامية وعلى سمو فكره السياسى والعلمى أيضا ·

وقد صدق الامير فيما انشده مفتخرا بأعماله اذ قال مخاطبا .

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهرى   فليس يريك الرسم صورتنا العظمى

فثـم وراء الرســـم شخص محجب   لـــه همـــة تعلو باخمصها النجمـــا

ثورة سنة 1871 ونتائجها

مولـود قايـــد

يحتاج تاريخ هذه الفترة من المقاومـــــة الجزائرية لدراسة خاصة ، ونحن سوف لا نعالجها الا فى نطاق المنطقة التى تهمنا • ولكى نضع هذه الثورة فى اطارها الزمنى ونفهم أسبابها ونتائجها نضع أمام القارىء الملاحظات التالية :

لم يطرأ تغيير يذكر على مطامـــح فرنسا الاستعمارية ، منذ عهد شارل العاشر «المتطرف» ولوى فليب « البورجوازى » ونابوليون «الصغير» والجمهورية الثالثة «الامبيريالية » • ولكن عصر التصنيع فى فرنسا جاء بتغييرات جذريـــة فى النظريات السياسية والنظام الادارى وفى ظروف الحياة الاجتماعية • فقد اصبح الفرد يتمتع بحقوق اتاحت له المساهمة فى أعمال الدولة • وهـــذه الحقوق التى انتزعها المواطنون فى فرنسا نفسها أخذ المستوطنون وراء البحار يمارسونها ، هـم أيضا ، تدريجيا وكذلك استولى المدنيـــون عـــلى مقاليد الحكم التى كانت فى ايدى الجيش ووقـع بذلك تحول خطير الشأن فى الحياة الاداريـــة والسياسية والاجتماعية فى الجزائر •

ونتيجة لهذا التطور ، وجدت الادارة نفسها مضطرة الى الحد من سلطان الاقطاعيين الاهالى ومن ممتلكاتهم ممن ساهموا فى اقامة دعائم الامبراطورية ، وذلك لارضاء الفرنسيين الغيورين على وضع « المواطن » الذى يتيح لهم المساواة فى الحقـوق ، من جهة ولترضية الجيل الجديد ممن يخدمـــون فرنسا ، من جهة أخرى •

وهذا التحول نجم عنه اختفاء الاريستوقراطية القديمة التى حلت محلها اريستوقراطية أخرى هى أقل سلطانا ونفوذا من الاولى ، ولكنها اكبر عددا واكثر خنوعا • واما أولئك الذين مسهم هذا التحول ، فقد كان بعضهم يتلقون الضربات صامتين بينما تلقاها البعض الآخر بالاحتجاج • وهؤلاء كان من الممكن ترضيتهم دائما بمنحهم القابا فخرية ونياشين •

واذا حصرنا الحديث فى منطقة بجاية ، فسنجد ان أولاد أورابح كانوا راضين عن وضعهم بعد تمزيق منطقتهم ، حيث وجدوا ان ذلك لا يغير شيئا من حالهم بسبب تعيين اعضاء من أسرتهم ومن حلفائهم قيادا على بعض الدواور • بل ان تعيين بعض الاجانب فى المنطقة لم يكن يضايقهم حيث ضمنوا لانفسهم السيطرة • وكذلك عرف ابن على شريف وابن المهوب نفس الرضا • وفى مقابل ذلك ، نجد ان أسرة المقرانى قد ابدت امتعاضا نتيجة لدخول عناصر اجنبية الى منطقة نفوذها ، ولا سيما تلك العناصر التى كانت تنافسهم • (I)

---

(١) بعد معاهدة تافنا فى سنة 1837 عين الامير عبد القادر عبد السلام المقرانى خليفة على مجانة ، وبدافع الغيرة ، قام ابن عمه احمد المقرانى فى يولبو 1838 يعرض خدماته على الجنرال جالو قائد منطقة قسنطينة وقد عينه فى 24 اكتوبر من نفس السنة المارشال فالى ، خليفة على مجانة التى تمتد اراضيها من منطقة فرجيوة فى الشرق ، الى منطقة بسكرة فى ... نفسها فى معسكر غير معسكر الاخرى دخلتا فى معارك الجنوب واراضى تيترى فى الغرب ، ولما وجدت كل من الاسرة دموية لم تكن فى صالح أى منهما ، وبعد انتصار فرنسا ، استولى الفرنسيون على اراضى عبد السلام واتباعه بينما قطعوا أوصال خلافة احمد المقرانى وسحبوا منه الحضنة التى عينوا عليها بوضياف فى سنة 1841 ، ولكن الذى حز فى نفس أحمد بصفة خاصة هو ان الادارة الفرنسية اعادت الى ابناء عمومته عبد السلام وبورنان وقندوز اراضيها ، عقب استسلامهم فى سنة 1844 وهذا الاجراء حرمه من دخل معتبر فى الوقت الذى اثر فيه على سمعته وقام فى وجهه منافسون أقوياء .

وقد استمرت رقعة خلافة احمد تتقلص تدريجيا كلما توغل النفوذ الفرنسى فى الداخل وانتشر نظام اللامركزية الادارية وكذلك اصبح الخليفة فى سنة 1845 ، مجرد موظف عادى . وفى غضون هذه السنة ايضا ، الحقت منطقة جنوب الحضنة بدائرة بسكرة كما الحقت بوسعادة بدائرة أومال . وفى سنة 1847 ، وضعت البويرة ومنطقتها تحت ابن سالم خليفة الامير سابقا ، وبعد موت بوبغلة ، انشىء فى تازمالت مركز عسكرى فى منطقة اصبحت محايدة ومستقلة عن خلافة المقرانى .

ولما مات احمد المقرانى فى سنة 1853 ، لم يمنح ابنه محمد سوى لقب الباشاغا لان لقب الخليفة كان قد الغى حينئذ .

وفى سنة 1859 ، اخذت من المقرانى مساحة واسعة من الارض التى منحت للفرنسيين الذين أقاموا مركزا استعماريا فى برج بوعريريج •

وفى سنة 1861 ، انقص عدد « القوم » الذين وضعتهم الادارة الفرنسية تحت اوامر الباشاغوات . وفى سنة 1864 ، مزقت اراضى المقرانى وقسمت اداريا الى 4 قيادات عين عليها اخوته •

والى جانب هذه الاجراءات التى تحد من امتداد اراضى الخلافة ، اتخذ اجراء آخر فى سنة 1858 يخضع بموجبه الاقطاعيون لدفع الضرائب ، فى الوقت الذى منعوا فيه من التصرف فى العوائد التى يحصلونها من الخاضعين لاداراتهم ، كما حرموا من حق اصدار احكام قضائية الخ .

ومن جهة أخرى ، فقد اصبح دور الخليفة الذى كان يحكم اراضى شاسعة ويخضع للقيادة العسكرية العليا ، تحت وطأة الاستعمار وضغط المعمرين والتطور السياسى والاجتماعى مجرد موظف لا سلطة له ، وقد جردوه من الامتيازات التى كان يتمتع بها آباؤه واصبح يخضع لموظفين اداريين ثانويين ويتجاهلون قواعد الاحترام واللياقة ٠

وهذه الظروف التى اعتبرت مشينة هى التى حملت الباشاغا المقرانى على التصريح امام عدد من كبار الضباط بقوله : « ان ما تصنعونه عادل أمام الله ، لاننا جميعا ابناء آدم وسيعتبره التاريخ من الحسنات ولكنكم قد ضحيتم بنا نحن الذين ساعدناكم ولا نزال نساعدكم لفرض النظام فى البلد ٠ وتبعا لذلك ، فعلى الرغم من جميع الجهود التى بذلناها والدماء التى ارقناها فسوف لا يتمتع ابناؤنا بذلك التقدير والاحترام الذى ورثناه نحن عن آبائنا » ٠ (2)

وهذه هى لهجة التذمر التى نسمعها من الاغا سى سليمان بن حمزة من أولاد سيدى الشيخ الذى كان يشكو من انه تعرض لامتحان مهين وانه بدلا من احترام سلطته تعمل الادارة الفرنسية جاهدة للقضاء عليها فى الوقت الذى تتشكك فى ولائه وتفرض عليه مراقبة » ٠

وهذا القلق الذى يسود فى القمة الاجتماعية فى ذلك الوقت كان له تأثير على الاشخاص الذين يحيطون بالباشاغوات ٠ وكانت كل حادثة تقع لهم تصبح موضع تعليق وتنتشر بسرعة بين السكان الذين كانوا يبحثون عن الوقائع ليتخذوا من كل منها قضية مثالية ، وكذلك كان الناس يعجبون باقوال الدعاة الذين ينادون بان احتلال المسيحيين انما هو عقاب من الله الذى سيبعث « مولى الساعة » لطرد الغزاة ويعيد النظام والعدل الى نصابه ٠ ولما كان الجميع مقتنعين بصحة هذه الدعوى ، فقد كان كل واحد منهم ينتظر بفارغ الصبر حلول الساعة لكى يستعيد اراضيه ويعود الى الاستقلال التام الذى كان يتمتع به ٠

وفى غضون سنة 1870 جرت اتصالات عديدة بين رجال الزوايا الجزائريين ورجال الطرق فى البلدان الاخرى ، فى موسم الحج ٠

وقد شهدت زاوية صدوق فى هذه السنة اقبال الناس عليها ، خصوصا بسبب المواعظ التى تلقى فيها وتبشر بقرب مقدم « مولى الساعة » ٠ وهذه البشرى كانت تنتقل من فم الى فم وتبعث

(2) راجع Rim, l'Histoire de l'Insurrection de 1871

فى النفوس السلوى والعزاء فى مختلف اطراف المنطقة ٠ وكذلك اصبحت النفوس مستعـــدة للثورة ولم تكن تنتظر الا شرارة لكى تندلـــع نيرانها ٠

وهذه الروح كانت تسود فى جميع الطبقات الاجتماعية ٠ ولكن التنافس بين الشخصيات والزعماء الذين كان كل واحد منهم حريصا على امتيازاته وعلى نعرته القبلية ، حالت دون تحقيق الوحدة التى ينتظرها الشعب ٠ على ان الباشاغا الذى فهم هذا الوضع ، عمل ما فى وسعه لتحطيم الحواجز التى تعوق الوحدة فى منطقته ٠

فبعد ما تصالح مع ابن عمه ، عبد السلام المقرانى سعى للتقرب من ابن على الشريف والشيخ بن حداد الذى كانت علاقاته به سيئة منذ وقت طويل . وقد تم التصالح بين هذه الاطراف وحل الوئام بينها محل الخصام فى 5 يناير 1870 .

وعندما انتشرت أخبار الحوادث التى وقعت فى سوق اهراس وفى تبســة والميلة فى يناير وفى فبراير فى المنطقة ، ساد الاعتقاد بان الساعة قد اقتربت ٠ ولكنه بعدما أخمدت هذه الثــورة بالحديد والنار وسالت الدماء غزيرة . اقتنع الناس ان « مـــولى الساعة » لم يأت بـــعد ؛ ونظرا لان الدعاة لم يفتر نشاطهم السرى بين الجماهير فقد كان اثر هذه الحوادث غير محسوس ، بل ان بعض المناطق انبعث فيها الامل وزاد كرهها للعدو المحتل بقدر ما زادت رغبتها قوة فى القيام بعمل مباشر ٠

وكذلك جعلت هذه الحوادث كل عربى مشبوها فيه فى نظر الاوروبيين ٠ وبعد اغتيال اربعة أوروبيين كانوا يعملون فى مضيق البيبان فى 18 فبراير سنة 1871 ، قام الفرنسيون فى بـــرج بوعرريج باقامة المتاريس والتحصينـــات حـــول المدينة ٠ وهذه الاجراءات اعتبرها المقرانى عملا يدل على عدم الثقة فيه ، وخصوصا وان الرأى العام المحلى كان يرى فيه الموعز باغتيال العمال الاربعة ٠ وقد صرح المقرانى أمام القبطان دوفال بقوله : « ان هذا الموقف يحرجنى بقسوة ، انهم مخطئون فى هذا التصرف لاننى سأقوم ، متى رغبت فى ذلك بالاستيلاء على المدينة على الرغم من تحصيناتهم ٠ قولوا لهم فى البـــرج بوعرريج باننى قليل الميل الى الثورة ، بدرجة اننى قمت باعادة قطيع الغنم الذى يتكون من 150 رأس والذى سرق من السيد كورنو واننى سأبعث بهـــذا القطيع الى البرج مع فرسانى » ٠

وبالفعل ، فان الباشاغا لم يكن يعتقد فيهذه المرحلة فى فائدة قيام ثورة مسلحة • ولكن تصرف الفرنسيين أغاضه بقدر ما تعرض لضغط المحيطين به وتأثر بانفعال الرأى العام ، ولذلك فقد وجه استقالته الى الوالى العام ماكماهون ، فيشهر مارس واستعد للعمل •

وفى 16 مارس ، قام فرسانه بهجوم على برج بوعرريج ولكن القبطان أوليفى والكومندان بوشيرون اللذين احاطهما القاضى حسن بن حلة بتحركات المقرانى فى الليلة السابقة ، تمكنا من صده •

ولم تقم الثورة بعد هذه الحوادث مباشرة • فهل كان المقرانى ينوى حصر هذه العملية فى ارهاب سكان البرج الاوروبيين اكثر مما كان يقصد تحدى السلطات العليا ؟ أم انه ادرك خطأه فى تقدير قوة العدو ، فاراد جمع الحلفاء والانصار ؟ ومهما يكن من أمر فان المقرانى لم يحط هؤلاء علما بنياته • وكذلك ظل ابن على الشريف فى ضيعته ، كما بقى الشيخ ابن الحداد فى خلوته مستغرقا فى صلواته وتأملاته فى صدوق •

وفى مقابل ذلك ، وجه اعلانا الى « ذوى الخيم الكبيرة » يطلب اليهم فيه رفع علم الثورة أو ان يمدوه بتعزيزات ، على ان هؤلاء لم يردوا على ندائه • واما سكان جبال جرجرا والحضنة وتيترى الذين كانوا مؤيدين له ، فانهم لم يفهموا موقفه وكذلك أرسلوا عددا من الوفود اليه والى الشيخ الحداد لتطلب منهما توضيحات عن الموقف وعندئذ ، لم يتردد المقرانى فى ان يعلن الاهمية التى يعلقها على ثورته وخصوصا حينما رأى حامية برج بوعرريج تتلقى كل يوم تعزيزات جديدة •

وتحت ضغط « الاخوان » خرج الشيخ بن الحداد من تحفظه ومن عزلته ليعلن الجهاد • واثر ذلك ، حمل السكان السلاح وهجموا على السهول حيث زحفوا على ضياع المعمرين وحاصروا المراكز الاستعمارية وقضوا على حامية تازمالت وحامية أقبوا •

وقد قامت القوات الفرنسية من بجاية بزحف مضاد واضطرت المحاصرين الى فك حصارهم ، واما المقرانى فقد اضطر فى 29 مارس الى السير فى اتجاه معاكس لاتجاه نهر السومام ، نحو الشمال الغربى تاركا وادى الساحل لجماعات من الفدائيين كلفهم بمناوشة مؤخرة العدو •

وفى هذه الاثناء كانت معارك ضارية تجرى فى القل وبجاية ودلس وعين الحمام وتيزى وزو ودرع الميزان • بل ان متيجة نفسها التى هى قريبة من الجزائر وخاضعة لحراسة مشددة لم تفلت من الاضطراب الناجم عن اعمال الفدائيين •

وفى 16 ابريل وصلت قوات من الحضنــةوزمورة والبيبان ودخلت فى معارك انتصرت فيها ضد قوات الجنرال سوسيى ٠

ومن وادى الساحل ، اتجه الباشاغا الى سور الغزلان ٠ وفى 5 مايو كانت المعارك على اشدها ضد قوات الجنرال جيرز ، ولما حان وقت الظهــرأدى الباشاغا الصلاة ثم ركب فرسه وسار لمتابعة المعركة عن كثب ٠ وفى المعركة ، اصابته رصاصة فى العنق أردته قتيلا لتوه وسقط من سرجه ووقع ووجهـــه الى الارض بعد ما تلفظ بالشهادتين . كان المرافقون له يعتقدون انه خر فى سجدة ٠ ولكنهم رأوا ان السجدة طالت ولما لم يرفع رأسه هرعوا اليه لرفعه ٠ وفى هذه العملية قتل ثلاثة من اتباعه الذين كانوا هادئين ولا أثر للخوف فى نفوسهم ٠ ولما توقف اطلاق النار لحظة رفعـــوا جثمانه دون ان يشعر العدو أو المقاتلون المسلمون بهذا الحادث ٠ وكذلك دفن الباشاغا فى قلعـــة بنى عباس التى كانت مقر أجداده ٠

وبعد ما انتشر خبر وفاته ، ساد الحـزن والالم فى جميع الانحاء ورثيه الشعراء بقصائـد من الشعر القبائلى أصبحت تنشده النساء بالالم والحسرة فى المناسبات . وفيما يلى نموذج من هذا الشعر الذى عثر عليه فى بنى يعلى وأيث ورتلان :

أجَبِيغْ فى الطاق إِعْلاَيْن	ـ نظرت من النافـــذة
أفيغ ذا الباشاغا أيَبِّرذن	ـ فرايتهم يغسلون الباشاغا
أكَسْنَاس ابيذِيَـــنْ	ـ وقد خلعـــوا عنه برانسه
ذلْكَفَن أمـــلاَّل ايسعـــان	ـ ووضعوه فى كفن أبيض
مَطْلَنْتَ أق عَبَـــّاسَــــن	ـ ثم دفنوه فى بنى عباس
فرْحَتْ القُيَاَذْ فَرحَت الكُفَّار	ـ ليتهنا القياد وليتهنا الكفار
ايزْمنَاغْ ايرُوحْ فرْحْتَ الكُفار	ـ لقد ذهب أسدنا ، فليسعد الكفار
الحرية أو قفَاسْن نَـــغْ	ـ الحرية فى أيدينـــا
اِلكُــنْ ذاَ الشُجْعَان ايرْقَازَنْ النـّـــغْ	ـ فلتكونوا شجعانا يا رجالنا

* * *

لم يكن لموت الباشاغا أثر يذكر فى اعمال المواطنين ، فان الرجال والنساء من جميع الاعمار استمروا فى النضال فى حماس منقطع النظير • وبقطع النظر عن الزعيم والجماعة، فقد كان الهدف الوحيد هو اطلاق النار وقتل الاعداء •

كانت المعارك تجرى فى وادى السومام وفى السهول العليا وفى كل مكان وبدون نظام وبدون قيام اتصال بين الجماعات المقاتلة • وهذا التشتت هو الذى سمح للقوات الفرنسية التى تتمتع بالنظام بصد هجمات المقاومين واثبات تفوقها • وقد حاول بومزراق شقيق الباشاغا الذى خلفه تكميل هذا النقص • وقد اضطرت بعض القبائل التى فقدت كثيرا من رجالها ولم تعد تملك الذخيرة الى الانسحاب من المعركة وكان من نتائج ذلك هزيمة جديدة للمقاومة فى ثلا ايفاسن وفى ثلا أوزراز وتاكيتونت وبنى ورتلان الخ •

وكذلك قرر الشيخ اعزيز واخوه محمد أوحداد تسليم انفسهم للعدو المنتصر فى 30 يونيو 1871 • (3)

ولما تركت المعركة كل من ايلمايـن وأيث وذرار ،وأيث هلا اثناء الاشتباك الذى وقع فى 30 يوليو فى تخراط كاد بومزراق ان يفقد حياته • كان فرسه متعبا ولا يصعد الا بمشقة فى الطرق المؤدية الى بنى يعلى • ولما علم به الناس هرعوا ليغطوا تراجعه الى بنى ورتلان • وهناك رتب بومزراق صفوفه ودخل فى معركة عنيفة جدا ضد العدو فى تانسوت • وفى هذه المعركة التى تغنى بها الشعراء ، سقط عدد كبير من القتلى والجرحى •

وعلى الرغم من هذه التطورات ، فقد استمرت المعركة فى جميع انحاء البلد • وكذلك فقدت القوات الفرنسية التى كانت تتلقى تعزيزات باستمرار ، كثيرا من رجالها • وقد استعمل الجنرال لالماند وسوسيى وجبريز كل ما لديهم من وسائل الضغط والقوة ضد السكان ، لكى يحتفظوا بمواقعهم أو لكسب مواقع جديدة • وكان الجنود الفرنسيون يطلقون الرصاص على الاهالى بدون تمييز كما لو كانوا يمارسون رياضة الصيد •

---

(3) استسلم عزيز فى جرجرا للجنرال لالماندة وكذلك قرر اخوه الاستسلام لما بلغه هذا الخبر لنفس الجنرال وقصد الى بجاية لهذه الغاية . ولما كان على مسافة قصيرة منها التقى سى محمد بسعيد أورابح وقد نزل كلاهما من على فرسه وتعانقا . وفى هذه اللحظة طعنه أورابح طعنة غادرة ثم أمر رجاله بشد وثاقه ليسلمه أسيرا الى الفرنسيين . ولما اطلق من عقاله ، قدم للسلطات الفرنسية رسالة من أخيه ينصحه فيها بالاستسلام . وعند ذلك أحرج أورابح ولكنه منح مع ذلك ، لقب القايد الذى حمله مع أخويه اللذين تطوعا فى صفوف العدو .

وهذه السياسة التى تقوم على القتل وتخريب الزرع ، كان من نتائجها ضعف روح المقاومة مع مرور الايام وتخلى القبائل واحدة بعد واحدةعن المعركة ٠

قصائد واغانى شعبية جمعت فى بنى يعلىوبنى ورتلان :

أَيَتْ وذرار ذَيْثْ الْمَايَن
عوُسَنْ بُومَــزْرَاق
أثفكنْ ايَعْــذَاوَنْ
إِعَيَطْ أو عياط ثشخرَّاط
يُليد بومزراق فى ثُرَار
ايحوَّمْ أُفَلــك فى ذُرَارْ
أزْلَنْدَ قَيْثْ يَعْلَىَ أكورجانا
احزن احزن ، اثلى مجانة

- كان بنو أذرار وبنو الماين
- يترقبون بومزراق
- ليسلموه الى الاعـــداء
- وقد ارتفع صوت مناد فى خراط
- صعد بومزراق فى نرار
- انه يحوم كالصقر حول الجبال
- تسارع الناس من بنى يعلى الى كرجانة
- احزنى ، احزنى يا ينابيع مجانة

* * *

أمْلَاَلَغْ بومزراق قمطلاون
ايثدو غَرْ ايث وَرْثِلان
ڤثلَماً سْتْ إِفَرْسَان
اَبَرْنُوسْ ذَامَلَّالْ أعُذيْو ذَابَركان
أُذَمْ أحزَن ثِطْ سِمَطَّاوَن
أتْرُومت ، أتْرومَتْ أسُوتَوَرْتِلَان
الباز خذعنت الغمـــان
احزن ، احزن أثلي مجانة

* * *

– قابلت بومزراق في قمطاون
– في طريقه الى بني ورتلان
– بين كوكبة من الفرســان
– بوجه حزين وعيون باكية
– الا تبكين بانساء بني ورتلان
– فقد خانت العصافير العقاب
– احزني ، احزني يا ينابيع مجانة

أق ثُدْرين يِكر أو بَنْدِير أُوزار

– دقت الدفوف في القرى واشتد الفرح في العرس

أق ننسّاوت يُشْعَلْ أو شعّال	ـ وفي ننساوت كانت تتقد شعلة قوية
أرعُوذْ لَبْرَاق نَكَرْ الدونيث	ـ هدر الرعد وانطلق البرق كأن نهايـــة العالم حانت
أبَشْطوُل إعَمَرْ ثَهوْدْ ثَرْبَعْثْ	ـ عبئت البنادق . وهرع الناس من كـل صوب
زَغْرْثَمْتْ زَغْرْثَمْت	ـ زغردن يا نساء ، زغردن !
أسُو ثيعلى ثوطَدْ الحُرِّيَّه	ـ يا نساء بنى يعلى ان عهد الحرية قـــد أقبل !
نسُسَمْ المدْفع نحْبَسْ البارُود	ـ لقد سكتت المدافع
نفُوكْ ارُومى نفوك الطرّاذ	ـ لم يبق فى البلد نصرانى واحد وانتهت المعارك
مُوثن ارقازن موثن ذشهادى	ـ سقط رجال شهداء
أتَكْسَتْ اركاسن أَلَاَّ نفنـــة	ـ لا تخلعوا انعالكمْ حتى النهاية
زغرثمت زغرثمت	ـ زغردن يا نساء ، زغردن !
أسُو ثيعلى ثَوْطَدْ الحرِّية	ـ يا نساء بنى يعلى ان عهد الحرية أقبل !

* * *

إيعَيَطْ بومزراق نَجْمَاعَنْد أم فَرْعِيَاش	ـ أصدر بومزراق أمره والتف الجميع حوله
كل يون ايط أمَكَانِشْ	ـ واخذ كل واحد مقعده
ثْبعن أرُومى ألمّ ذا الغَارِش	ـ ثم طاردوا الرومى حتى غيرانه
إيفْغَد أمْ أوشَنْ ايمينس	ـ التى خرج منها كالذئب المستوحش
زَغْرثَمْتْ ، زَغْرثَمْتْ	ـ زغردن يانساء ، زغردن !

اسُو رِثيعْلَ ثَوْطَدَ الحرِّية
– يا نساء بنى يعلى ، ان عهد الحرية قـــد أقبـــل !

* * *

أَرِبِّى أفْكَاتَعْذ اصْبَرْ ذَلْقُوَّةَ
– يا الاهى هبنا من لدنك الصبر والقوة

ايث لَوْلِيى إِحْبَبْنَ البَرَكَة
– وانتم أيها الاولياء ، امنحونا بركتكم

اِقْ أكَالْ نَجْدُودْنَغْ حَدْ أغنِتْيَال
– ليس على أرض أجدادنا حق لاحد

ڤَالمَعِيشَة نَغْ حَدْ أرِيتَيَالْ
– وطريقتنا فى الحياة لا تعنى أحدا

زغرثمت ، زغرثمت
– زغردن يا نساء ، زغردن !

أَسُو رِثيَعْلَ ثَوْطَدْ الحرِّية
– يا نساء بنى يعلى ، ان عهد الحرية قـــد أقبـــل !

* * *

لما رأى بومزراق أن اكبر أنصاره قد ماتوا ورأى الخيانة تتعقبه من كل جانب من أشخاص لا هم لهم الا الجاه والمال ، غادر وادى الساحل فى 2 اكتوبر 1871 • وبعد ما استولى العدو على زمالة بومزراق فى 8 اكتوبر ، عند قلعة بنى حماد توغل الى الجنوب فى اتجاه الصحراء • اقام مدة قصيرة فى ورقلة ثم اتجه هو واتباعه الى تونس هاربين من قوات الجنـرال لاكروا التى كانـت تتعقبهم (5 يناير 1872) •

ولكن بومزراق الذى انهكه التعب والجوع وقع أسيرا فى يد العدو فى 20 يناير عند قصـر رويسه • ولما نقل الى معسكر العدو وضمـدوا جراحه ، عاد الى وعيه وتعرفوا عليه واثر ذلك اعتقل وأصدرت عليه محكمة جنائية الحكم بالاعدام خفف الى الحكم بالنفى الى جزيرة كاليدونيا الجديدة •

وأما المناطق التى قامت بالثورة ، فقد قررت الحكومة الفرنسية معاقبتها كما يلى :

1 – غرامة قدرها 27 مليون ونصف مليون فرنك – أى مجموع موارد ميزانية الجزائر وتكاليف الجيش ، تدفع على قسطـين فى ظـرف سنتين (1871 – 1872) • وبذلك أصبح المسلمون تحت رحمـة المرابين ، حيث كانت الموارد المالية التى يملكونها غير كافية لتسديد الغرامة •

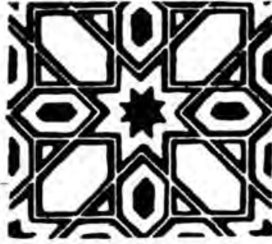
2 ـ حجز جميع الاراضى الجماعية فى المناطق الثائرة (وبذلك قام ابن على الشريف وأورباح باستغلال الامتيازات التى يتمتعون بها للمضاربة فى العقار على حساب صغار الفلاحين لتوسيع ضياعهما ٠

وكذلك وقع الاستيلاء على عدد كبير من العمارات التى اعتبرت «أملاكا شاغرة» ، وعلى 446 406 هكتارات من الارض التى هرب ملاكها الى داخل البلاد أو الى الجبال المجاورة ٠ وبعد ذلك ، ببضعة أشهر، اعطى الوالى العام نفسه الحق فى نزع ملكية عدد من القبائل من أجل ما سمى « بالمصلحة العمومية » وأقام فيها مراكز للمعمرين الذين استحضرهم من فرنسا ٠ (1)

وكذلك كان من نتائج فشل هذه الثورة ، قيام اقتصاد رأسمالى ووضع سياسة جديدة للاهالى ٠ وهذه السياسة ادخلت عليها تعديلات فى ظروف تاريخية مختلفة ٠ وأما الحركات الوطنية المتتالية ، فقد كيفت نفسها للظروف الجديدة التى توغل فيها الاستعمار والعناصر الاروبية فى كل مكان ٠ ولكن اتخاذ الوطنية شكلا حديثا استغرق وقتا طويلا ، وكان نتيجة لتطور المجتمع ووسائل النضال ٠ وقد كانت نجمة شمال افريقية ، وحزب الشعب الجزائرى ، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية واحباب البيان وجمعية العلماء ، هى الهيئات التى ساعدت على هذا التطور ، وذلك بالاضافة الى الافكار الجديدة التى ظهرت فى اوربا والنضال الذى قامت به الشعوب المستعمرة ، ونضال العمال الخ ٠ ، واما تنظيم الجماهير فلم يصبح حقيقة الا بعد ذلك ٠

وفى غضون حوادث سنة 1945 كانت منطقة بجاية المسرح الرئيسى لعمليات القمع (عموشة، خراطة ، سطيف بوقاعة الخ ٠) وقد تحملت قرى هذه المنطقة كل ضغط الاضطهاد، فدمرت واحرقت كما اطلق عنان حشود المدنيين الفرنسيين الذين كان يحدوهم البغض ، لاعمال القتل والتعذيب ٠ ولكن الشعب انتقم لنفسه لهذه الاعمال ، حينما رفع السلاح فى اول نوفمبر 1954 ٠

(1) معظمهم ممن أدانتهم المحاكم الجنائية أو ممن نقلوا من الالزاس الخ ٠



وثائـــق

رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541

د. عبد الجليل التميمي
كلية الآداب ــ جامعة تـونس

عرف النصف الاول من القرن السادس عشر احداثا سياسية هامة ، حددت مستقبل المغـرب السياسي،وشكلت علاقاته مع كل من الامبراطورية العثمانية والدول الاوروبية فيما بعد وقد ساهمت الاحداث الداخلية في اسبانيا ، في هاته الفترة ، بقسم كبير في بلورة هذه الاحداث ، ذلك انه بعد سقوط غرناطة سنة 1492 اتبعت اسبانيا المسيحية تجاه مسلمي الاندلس سياسة تهدف للقضـــاء تدريجيا وبصورة جذرية على كل مظاهر الاسلام ،ذلك ان نخوة النصر التي اجتاحت اسبانيا قـد ألهبت العواطف وطغت على منطق العقل ، منطق جديد احاطه رجال الكنيسة بقدسية سماويـــة تحكمت في كل القرارات التي اتخذها رجـــال الدولة السياسيين • واصبحت اسبانيا تؤمن بان عليها واجب تطهير ارضها من المسلمين والاســلام والتي اصبحت تخشى منه ومـــن شبحــه (1) ، خصوصا بعد نجاح التوسع العثماني السريع في أوروبا وافريقيا وآسيا •

اندفعت اسبانيا في محاولة لتصفية المسلمين فارضة اقسى الاجراءات عليهم وتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين (2) وقد اعترف ملوك اسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار في

* اتصلنا من الدكتور عبد الجليل التميمي بالنص المعرب للمحاضرة التي القاها باللغة الفرنسية في المؤتمر العالمي الاول عن الدولة العثمانية المنعقد بالمعهد الجامعي للدراسات الشرقية بنابولي (ايطاليا) ما بين 24 و 26 سبتمبر 1974 .

(1) John Lynch, Spain under the Habsburgs, p. 205, 2e édition, London, 1965.
(2) P. Chaunu, l'Espagne de Charles Quint, p. 37, Paris, 1973.

تطبيق هذا القانون ، وبذلك خيرت الاقلية الاسلامية الاسبانية التى عرفت شتى ظروف التتبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة (3) ، وصودرت املاكهم وحرم عليهم التكلم باللغة العربية ، وارتداء الالبسة الوطنية ، والتردد على الحمامات ، وفتح ابواب منازلهم ايام الحفلات والجمعة والسبت (4) واقامة الشعائر الدينية وعدم التسمية باسماء عربية ، كما حولت جميع المساجد الى كنائيس (5) ، ومنع المسلمين من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش فى أحياء خاصة وارتداء البسة معينة وان يحملوا اشارة زرقاء على القبعة اذا ما بقوا على دينهم ، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والاحجار الكريمة ، وامروا ان يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الاحبار (6)، وسلطت عليهم أقصى انواع العقوبات اذا لوحظ عليهم بعض الولاء الى ماضيهم أو التعلق بدينهم فى ابسط مظاهره وعاداته . على ان تشكيلهم وحدة اجتماعية وسيطرتهم على الاقتصاد بفضل نشاطهم وذكائهم وخبرتهم فى تصريف شؤون التجارة والزراعة وازدهارها على ايديهم (7) قد اثار نجاحهم هذا ،حقد الشعب عليهم الذى اتهمهم بالتآمر ضد أمن الدولة خصوصا وهم « الحلفاء الطبيعيون لاخوانهم قراصنة « شمال افريقيا » (8) كما كانوا يعتبرونهم آنذاك .

ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف ان يلتجىء المورسكيون الى الثورات والانتفاضات فى أغلب المدن التى بها اقلية اسلامية وخاصة فى غرناطة وبلنسية وقد اقمعت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة ، واتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد على هذه الطائفة ، ومن جهة أخرى كان من

(3) Tulio Halperin Donghi, « Recouvrements de civilisations : les morisques du royaume de Valence au XVIe siècle », p. 169, in, Annales E.S.C, 1956.

يذكر أنه بعد الحرب ، امتلات بيوت الطبقات البورجوازية بعدد من العبيد الذين أسروا فى غرناطة .

(4) محمد عبد الله عنان ، **نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، ص 354 – 355 ، الطبعة الثالثة ، القاهرة 1966 .

(5) المصدر نفسه ، ص 351 .

(6) المصدر نفسه ، ص 353 – 354 .

(7) Lynch, op. cit., p. 211.

راجع أيضا :

F. Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen, T. II, p. 1[illegible] 2e édition, Paris, 1966.

(8) Joseph Pérez, L'Espagne du XVIe siècle, p. 108, Paris, 1973.

الطبيعي ان يتلجىء الموريسكيون الى الملوك المسلمين في المشرق والمغرب لاستنجادهم وان تتكرر دعواتهم ووفودهم ورسائلهم اليهم للعمل على انقاذهم مما يعانونه من الظلم وخاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذى عاث فسادا واحل لنفسه كل انواع العقوبات وتسليطها عليهم .

وقد ارسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477 سفارة الى استانبول ملفتين نظر السلطان العثمانى محمد الفاتح الى حالة المسلمين بالاندلس طالبين تدخله لانقاذهم (9) ، كذلك السفارة التى وصلت الى سلطان مصر الملك الاشرف فى اواخر القرن الخامس عشر ، مستنجدة اياه فى التدخل لانقاذهم من الملوك النصارى ، وقد بعث الملك الاشرف بوفود الى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بان النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات ، فى حين ان ابناء دينه فى مدن اسبانيا يعانون اشد انواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه المسيحيين اذا لم يكف ملك قشتالة واراقون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن اراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من اراضيهم (10) ·

أما السلطان بايزيد الثانى فقد اتصل بقصيدة من احد الموريسكيون يصور له فيها مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وانقاذهم (11) ·

اما نداءاتهم لملوك المغرب فقد تعددت مع مرور الايام غير ان الاوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع بنى وطاس لاسبانيا وعقد معاهدة 1538 معهم وازدياد النفوذ الاسباني - البرتغالى على السواحل المغربية قد جعل من المستحيل القيام برد فعل حازم وفعال ·

على النجاح السريع الذى عرفته الامبراطورية العثمانية فى كل من اوروبا وافريقيا ومدى الانتصارات الحربية التى حققها السلطان سليم وسليمان القانونى على الجيوش الاوروبية الحليفة آنذاك ، وسقوط عدد من العواصم الاوروبية ، قد اعطى ابعادا اخرى لهذا الصراع الذى واجهته الامبراطوريتان العثمانية والاسبانية والذى اتخذ شكل محاربة دين كل منهما للآخر · على ان

---

(9) Aziz Samih Ilter, Simali Afrikada Türkler, t. I, p. 52, Istambul, 1937.
(الاتراك فى شمال افريقيا)

(10) ابن اياس فى **تاريخ مصر** ، ج 3 ، ص 246 ، مذكور فى : عنان ، **نفس المصدر** ، ص 221 .

(11) المقرى ، **ازهار الرياض فى اخبار عياض** ، ج 1 ، ص 109 - 115 ، القاهرة ، 1939 .

الانتصارات التى حققها العثمانيون والاهمية التى اصبحت عليها استانبول بعد الفتح ، قد شجع عددا من المهاجرين المسلمين واليهود على الاستقرار بالعاصمة العثمانية • (12)

كان الموريسكيون يتتبعون باهتمام مدى النجاح الذى حققه العثمانيون ، وكيف دانت لهم كل من سوريا ومصر ، وخاصة الجزائر التى اصبحت حصنا منيعا يلتجىء اليه المهاجرون الاندلسيون • ان وجود خير الدين بيلر باى الجزائر فى العقد الثالث والرابع من القرن السادس عشر ومدى النجاح الذى حققه فى ملاحقة الاسبان بالولاية ثم تدميره حصن البينون (Penon) سنة 1529 بالجزائر وتشجيعه حركة انقاذ مسلمى الاندلس قد جعل الاسبانيين يصرون على ملاحقة المسلمين اينما كانوا ، وتشديد الحملات عليهم ، واقامة القلاع الحصينة على أرض افريقيا الشمالية ، ومراقبة الحركة البحرية العثمانية ، وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التى ما فتىء البحارة المغاربة يقومون بها بنجاح لانقاذ الموريسكيين من الارض الاسبانية ، كما كان هؤلاء يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ، ويمدونهم سرا بالمعلومات اللازمة للقيام بهجماتهم بنجاح (13)

وقد اظهر قادة اسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين ، فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك ، الى انشاء « ميليشيا » لرد هجمات المغاربة الخطيرة (14) لانقاذ الاقليات الاسلامية المبثوثة فى عدد من الولايات الاسبانية ، وبالفعل كان نشاط خير الدين فى هذا المضمار حاسما وفعالا ، وهو الذى عرف ببعد نظره وحيويته الفائقة (15) والاصول الحربية التى اشتهر بها فضلا عن شخصيته القوية وما تمتعت به من ارادة ، وهذا اكسبه احترام اعدائه وخوفهم منه • ان نجاح حركة خير الدين البحرية وهجماته الموفقة على السواحل الاسبانية جعل الموريسكيين يستنجدونه لانقاذهم كاهل بلنسية (16) وغرناطة وغيرها وكثيرا ما قام قواده امثال صالح رايس (17) وايدين رايس وطبقة رايس بهذه المهمة • ويذكر لنا المؤرخ كاتب

(12) W.E.D. Allen, Problems of Turkish power in the sixteenth century, p. 12, London, 1963.
(13) محمد خير فارس ، **تاريخ الجزائر الحديث ، من الفتح العثمانى حتى الاحتلال الفرنسى** ، ص 17 ، دمشق 1969 .
(14) Chaunu, op. cit., t. I, p. 242.
(15) Fray Diego de Haedo, Histoire des Rois d'Alger, traduit par Grammont, p. 38.
(16) محمد عبد الله عنان ، **نفس المصدر** ، ص 386 .
(17) Haedo, op. cit., p. 38.

سلبى ان خير الدين تمكن خلال سبع سفرات انيوجه 36 بارجة الى السواحل الاسبانية لنقـــل سبعين ألف مورسكى (18) خـــلال سنة 1529 ،ويدل هذا على مدى الدور الفعال الذى قام بـــه خير الدين لانقـــاذ آلاف من مسلمى الاندلس الىالسواحل المغربية (19) .

ان نجاح خير الدين فى خلق هيكل دولة قوية بالجزائر ، ثم المساندة المعنوية والعسكرية التى كان يلقاها لدى السلطان سليمان القانونى قـدحثه على الاستمرار فى جعل المغرب قاعدة عثمانية لصد الهجوم الاسبانى ، بل ان السياسة العثمانيةكانت تهدف الى اشغال جيـــوش شارل الخامس فى حوض الابيض المتوسط الغربى ، وهـذا مايفسر اقدام خير الدين اثناء رجوعه من استانبول منذ 1534 لاحتلال تونس واعلانها ولاية تابعـــةللامبراطورية العثمانية .

ادخل هذا الانتصار الحيرة لدى البابا ، وخاصة الامبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلـك تهديدا مباشرا للمسيحية ولخطـوط مواصـلاته البحرية مع اطراف مملكته ، فضلا عن تغذيـة وتشجيع البحارة المغاربة للهجوم على النسواحـلالاسبانية ، ونجدة مسلميها ، وبالفعل نجـــح شارل الخامس فى الاستيلاء على تونس وابعاد خيرالدين عنها ، غير ان الخطة التى كان يحلم بتحقيقها ليست الاستيلاء على تونس حيث كانت أوضاعهاالداخلية ، واستنجاد مولاى حسن الحفصى بشارل الخامس ، قد ساهمت بشكل كبير فى انجاح الحملةانما هى ضرب مدينة الجزائر والاستيلاء عليهـــا خصوصا وان الشخصية القوية خير الدين قددعيت الى استانبول ليصبح قبطان دريا أى وزير البحر العثمانى ، ولم يبق للامبراطورية العثمانيةعلى الساحل المغربى الا الجزائر .

وعليه كان شارل الخامس يخطط للقيام بحملة على الجزائر التى أصبحت قاعدة قوية وحصينة للسلطان سليمان القانونى تجاه السواحل الاسبانية خصوصا بعد الانباء الحزينة التى وصلته من

---

(18) كاتب شلبى ، **تحفة الكبار فى اسفار البحار** ، ص 40 ، استنابول ، 1911 .

(19) Charles-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie - Algérie - Maroc de la conquête arabe à 1830, 2[e] édition, revue par Roger Le Tourneau, p. 254, Paris, 1964.

اما **بيسون** فى مقاله : **المورسكيون** ، دائرة المعارف الاسلامية (باللغة التركية) ج 8 ، استنابول ، 1968 ، يذكـــر أن الامبراطورية العثمانية قد ساعدت المورسكيين عندما طلبت من كليج باشا تقديم الاسلحة والمهمات الحربية اليهم .

اوروبا أثر نجاح جيوش السلطان سليمان في الاستيلاء على مدينة بود (Bude) (20) وتحويل أكبر كنائسها الى مسجد كان هذا الحدث بمثابة اهانة وتهديد للتكتلات المسيحية الاوروبية (21)· أصر شارل الخامس اذن على التوجه بأضخم أسطول قام على اشرافه واحضاره ، ويبدو أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة التي ظهرت في القرن السادس عشر (22) ، وكان البحارة والجيش خليطا من مختلف أصقاع الامبراطورية الاسبانية ، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر ، واجتثاث العثمانيين من البحر الابيض المتوسط ، وعزل فرنسا وقطع طريق النجدة اليها عن طريق حلفائها العثمانيين (23) ، وكان الاسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم انشاء مملكة على السواحل المغربية (24) ،وهم بذلك يقطعون الطريق على رسل المورسكيين الى استنبول لطلب النجدة ، ومما لا شك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على اسبانيا قد أثيرت في بلاط مدريد (25) ·

ان اصرار شارل الخامس الشخصي في اختيار زمن الهجوم وتجمع كلمة الجزائريين وراء حسن اغا ، ثم نزول الامطار بكثرة وهبوب عواصف مبكرة ، ألحقت بجيش شارل الخامس أكبر هزيمة حربية وبحرية مني بها في حياته ، وكان ذلك في أواخر شهر اكتوبر 1541 · على أن نتيجة هاته الحملة كانت بعيدة المدى وذات نتائج محسوسة حيث أصبحت الجزائر « كالعروس تختال في حليها وحليها من رخاء الاسعار ، وأمان الاقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه ، وشاعت هذه القضية في مشارق الارض ومغاربها ، وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة » (26) ·

(20) C. Brandi, Charles Quint et son temps (1500 - 1558), p. 454,, Paris 1951.

(21) Colonel Lamouche, Histoire de la Turquie, p. 99, Paris, 1953.

راجع أيضا :

Halil Inalcik, « The Heyday and decline of the Ottoman Empire », t. I, p. 328, in, The Cambridge History of Islam, Çambridge, 1970.

(22) مولاى بلحميسى ، « غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر بين المصادر الاسلامية والمصادر الغربية » ، ص 42 ، المنشورة في ، **مجلة تاريخ وحضارة المغرب** ، عدد 6 و 7 ، الجزائر ، 1969 .

(23) E. Ravenet, « Un épisode de l'expédition de 1541 contre Alger », p. 320, in, Revue Africaine, 3e et 4e trim. 1939.

(24) L. Guin, « Quelques notes sur les entreprises des Espagnols, pendant la première occupation d'Oran », p. 313, in, Revue Africaine, n° 178, Juillet-Août, 1886.

(25) Lynch, op. cit., p. 214.

(26) سليم بابا عمر ، « الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين غارت عليها جنود الكفرة » ص 19 ، المنشورة في : **مجلة تاريخ وحضارة المغرب** ، عدد 3 ، الجزائر ، 1967 .

وقد ترددت انباء هاته الهزيمة فى اسبانياوكان وقعها شديدا على القادة ورجال الدين ، الا ان صداها لدى المورسكيين كان مؤثرا وبالغا حيث جعلتهم يتطلعون الى النجــدة من السلطان العثمانى : وبالفعل ففى أقل من شهر فقط مــنهزيمة شارل الخامس امام الجزائريين بعث مسلمو الاندلس برسالة الى السلطان سليمان القانونى ،وعلى الـرغم من تعــدد رسائل المورسكيين الى السلاطين العثمانيين ، حسب مختلف الرواياتالتركية والعربية والاوروبية ، الا انه لاول مرة نعثر على نص من هذا القبيل ، ويسرنا ان نقدمهاليوم الى الباحثين ٠

لا يوفر لنا هذا النص الاسم أو الاسماء التى قامت بتحرير هاتــه الرسالة ، ويفسر ذلك بخشية وقوعها فى يــد السلطة الاسبانية التىكانت تحرص دوما على بــث العيون والجواسيس للعثور على مثل هذه الرسائل والمعلومات ، وانهالتكشف عن معلومات ذات أهمية تاريخية ، كعدد المورسكيين الموجودين بالاندلس ، واعطاء صورةحيــة مؤلمة لـما يلقونه من السلطة الاسبانية المسيحية آنذاك ، ومدى الحيرة التى تمكنت منهم ،ثم التأكيد على نشاط خير الدين وما قام بــه لانقاذهم ، ومطالبة السلطان سليمان القانــونىباعادة تعيينه بيلر باى الجزائر لانه الشخصيــة الوحيدة القادرة على انقاذهم مــن الهجــوماتالاسبانية ٠

فبخصوص عدد المورسكيين بالاندلس تضاربت الاحصائيات تضاربا كبيرا خــلال القــرن السادس عشر وبالنسبة للمدن الكبرى كغرناطةآخر معقل للمسلمين وبلنسية وقشتيلة واراقون وغيرها ، وقد جاء فى رسالتنا هاته ما يلى : « انعبيدك الفقرا (كذا) الغربا (كذا) المنقطعين بجزيرة الاندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسايهم بغرناطة خمسون وغيرها بجزيرة الاندلس والباقى من عامة المسلمين » (27) يتبين لنا ان ذكر هذا الرقم لا يدل قطعا عــلى اعطاء رقم اعتباطى اجمالى ، بل ان ذكر الاربعةآلاف بعد الستين ألف توحى بمدى حرص محرر الرسالة وبلا شك اطلاعه على عدد المورسكيــينعلى اننا اذا اخذنا بعين الاعتبار احصائية سكان اسبانيا البالغ عددهم ستة ملايين (28) سنة(I54I)وهى السنة التى حررت فيها رسالتنا لا نستغرب الرقم الذى قدمته هاته الوثيقة ، ومما يساعد علىتقريب هذا العدد ما قدمه المؤرخ محمد عبد الله

(27) راجع نص هاته الرسالة فى آخر هاته الدراسة

(28) P. Chaunu, op. cit., t. I, p. 90.

عنان من ان سكان غرناطة وحدها بلغ 400 ألف(29) فى اوائل القرن السادس عشر والمؤرخ شونو (Chaunu) 500 ألـــف (30) وانطونيـــو بلستيرو (A. Pallestros) 700 ألف (31) ٠

ومن جهة أخرى يذكر المؤرخ هنرى لا بير (H. Lepeyre) ان المسلمين القاطنين سنة 1609 باسبانيا بلغ 296٫000 أى حوالى 300 ألف (32)وان الذين غادروا اسبانيا بلغ عددهم 275 ألف ٠ ولا بد ان نأخذ بالاعتبار الهجرات المتكررة مـن اسبانيا الى المغرب لنلمس تأثير ذلك على عـــدد السكان خلال 68 سنة الفاصلة بين هذين التاريخين يتبين لنا اذن ان رقم 364 ألف الذى قدمته هاته الوثيقة يمكن الاعتماد عليه ، كما انه يندرج ضمن عديد الاحصائيات المتضاربة الـــتى نملكها ، ولا شك انه اليوم اقربها الى الصواب والواقع ٠

ترسم الوثيقة بعد ذلك صورة مؤلمة وحية لما قاساه المورسكيون فى عهد محاكم التحقيـــق والقرارات الجائرة التى سلطت عليهم ، ولا ادل على ذلك من قراءة نص الرسالة نفسه ليعكس لنا هذا النداء الاليم والمفجع الذى أصطبغت بـــــه الكتابات النادرة من الجانب العربى والتى وصلت الينا عن هذا الموضوع ٠ وقد تعددت منهم نداءات النجدة لملوك المغرب الاقصى ، الا ان التحديات والحملات التى ما فتئت السفن الاسبانية والبرتغالية تشنها على الساحل المغربى لم تـــدع مجالا لاتخاذ موقف اكثر فعالية ونجاعة فى نظر المورسكيين على ان ذلك لم يمنع المهاجرين الاندلسيين المرابطين على السواحل المغربية من العمل عــــلى نجدة اخوانهم الاندلسيين ٠

على ان الذى يلفت انتباهنا فى هاته الرسالة هو اطلاع المورسكيين الدقيق على احداث البحر الابيض المتوسط وتتبعهم لما يجرى فى المنطقة من احداث وحروب ونتائج وسرعة وصول الاخبـــار اليهم ، اذ بعد اقل من شهر لهزيمة شارل الخامس وعلى الرغم من تحويل بقايا جيشه الى ايطاليا بدل اسبانيا ، وصل الى علم المورسكيين خبر فداحة هزيمة عدوهم شارل الخامس امـــام الجزائريين ، واعتبروا ذلك نصرا من عند الله ، وقوى املهـــم وهذا ما يفسر تلقائيا تحريرهم هاته الرسالة الى

(29) عنان ، **نفس المصدر** ، ص 232 .

(30) P. Chaunu, op. cit., t. I, p. 165.

(31) Ibid.

(32) Jean Pignon, « Une géographie de l'Espagne morisque ». p. 73, in, Etudes sur les morisco andalous en Tunisie, Madrid-Tunis, 1973.

السلطان سليمان القانونى واستنجادهم به وتذكيره ما قام به خير الدين الذى انجدهم عند ما كان بيلرباى الجزائر .

ان هزيمة شارل الخامس امام الجزائريين قد أضفت على هاته المدينة مغزى كبيرا ورمـــزا للجهاد والدفاع عن المسلمين باعتبارها : « سياج لاهل الاسلام وعذاب لاهل الكفر والطغيان ... واصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة والرعيـــة المؤتلفة بها مؤتلفة اليفة ... » (33) .

اعتبر محررو هاته الرسالة ان المدد المرسل الى الجزائر هو تعزيز لشوكة المسلمين ولذا طالبوا السلطان باعادة تعيين خير الدين باشا على الجزائر ليعمل من جديد على صد العـــدوان الاسبانى ، وانقاذ مسلمى الاندلس ، وهذا ما يؤكد مـــدى السمعة والشعبية التى كان يتمتع بها خير الدين فى الربع الثانى من القرن السادس عشر .

تساهم هاته الوثيقة بما وفرته من معلومات ذات اهمية تاريخية على القاء اضواء جديدة عـــلى قضية المورسكيين (34) هاته القضية التى لا نعلم عنها الا ما نقلته الينا الوثائق الاسبانية المشبعة بروح التحزب الدينى والكره والحقد على المسلمين اما الوثائق العربية أو التركية فهى ضنينة جدا ولا تستجيب حقا لتساؤلات المؤرخ العديدة .

نـــص الرســـالـــة (35)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آلـه وصحبه يقبل مواطى الاقدام الشريفة التى ثراها ، اذا مر بالعيون الرمدة أبراها ، ورحاب الاكف

---

(33) راجع نص الرسالة ص 43 – 46 .

(34) من الغريب ان يخصص احد مشاهير الاستشراق الفرنسيين لوفى بروفنسال (Lévi Provençal) بعض الاسطـــر لقضية المورسكيين فى دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الاولى ، ونحن نامل ان يسد هذا النقص والحيف العلمى بالنسبة للطبعة الجديدة بدراسة أعمق وأشمل لجوانب هاته المسالة التاريخية والتى تكتسى أهمية خاصة فى نظر المؤرخين العرب والاوروبيين على حد سواء .

(35) عثرنا على هاته الوثيقة بارشيف متحف طوب كابى (Top/Kapi) باستنابول تحت رقم T.K.A. 3154، وهـى بخط مغربى أندلسى سهل القراءة جيده . أما الوثيقة فـذات حجم 44،5 طولا على 24،5 سنتم عرضا ، راجع الشكـل رقم I ، ص 44 .

الشكل رقم 1 . رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان
سليمان القانوني سنة 1541 .
ارشيف متحف طوبي كابي رقم 3154 T. K. A.

الكريمة اللتى (كذا) عطاها (كذا) ، اذا مر بالارض المحلة اثراها ، اقدام شانها السعى فى الخيرات والقربات ، وأكف شانها فعل الخيرات والمكرمات ، ادام الله ايامها ونصر اعلامها ، وأوطاء (كذا) ركابها اعناق الملحدين والمتمردين ، وانعشه فى كل وقت بنصر وفتح مبين ، نسئل (كذا) الله تعالى ان يجعله اركابا لم يزل ممتطيا مطايا السعد محفوفا بالسعود ، قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود ، وان يجعله دايما باقيا راقيا فى درجات العز والملك الى اخر الدهر ، مصونا فى حرز كنف الله الحريز ، وان يخرق له العادة بطول بقايه وما ذلك على الله بعزيز ، ركاب حضرة الجود ، ورواق العز الممدود ، ومعدن الرافة والحنان ، ومامن الخايف اللهفان ، ومظمن ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، حضرة فخر ملوك البسيطة ، ودرة تلك السلوك الوسيطة ، كبير سلاطين الزمان ، منيل افانين الامانى والامان ، الملاذ الاعظم والثمال الاعصم . ذى العروة اللتى (كذا) لا تفصم . والحجة اللتى (كذا) لا يخصم ، الذى يعترف له القاصى والدانى بالفضل على الاطلاق ، يبوءه رتبة الاصالة والجلالة بالاستحقاق ولم لا وهو نسيم الخلافة العلية فى منصب الوراثة ، وحايز الفضيلة السنية من خدمة المساجد الثلاثة ، وله ملك مصر وانهارها . والشام وديارها ، والحجاز وشرف مقدارها . والى حضرته مجتمع الرفاق من الافاق . واليها تحجج الاجسام بالرحلة والافئدة بالاشواق ، وعلى جمع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا . انعقد الاجماع والاصفاق (كذا) ، مولانا السلطان الملك الاشرف الاضخم الارفع الاعرف الاعلم الاحلم الارحم الارف (كذا) . الاجود الاكرم الاسمح الاعطف ، قامع الملحدين وقاطع دابرة الطغات (كذا) والبغات (كذا) والمردة والمفسدين . ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة ، الفايز بشرف الدين والدنيا من الجهاد فى سبيل الله والسقاية فى المسجد الحرام والعمارة . مطهر البسيطة من درن فسادها ، ومظهر آيات الرافة والرحمة فى بلادها . سلطان الاسلام والمسلمين ، عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة اجمعين السلطان **بن السلطان بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان** ، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله . وضاعف لديه مواهب اكرامه وافضاله ، وادام نجم سعده المنير باهر الاشراق ، وجعل سهم ضده الحقير لازم الاخفاق . وحفظ بشهب اولياء مجده من مردة النفاق . جميع الاقطار والآفاق ، فهو الامام الهمام ، والاسد الباسل الضرغام . الذى مهد الله تعالى بدولته البلاد ، وامن ببركة ايالته فى مسالكها وممالكها العباد . ومزق به ثوب الفساد . وقطع بسيفه وسنانه وبادرتى قلمه الاعلى ولسانه

دابر اهل العناد ، فسعد الاسلام بدولته ، واعتز دين الله العزيز فى مدته ، وخمدت نيران البغى بسعادته ، وامتدت الامانى وشمل الامان بحسن سياسته ، نسئل (كذا) الله تعالى ان يصل لسيدنا ومولانا عادت (كذا) نصره وتمكينه ، ويريه قرةالعين فى دنياه ودينه وبعـد : فان عبيدك الفقرا (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الاندلس وجملةعدتهم ثلثمائة ألف واربعة وستون ألف منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقى مـــن عامة المسلمين ، رافعين شكواهم ، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولاناالسلطان دام عزه ونصره لما اصابهم من اعـــداء الدين وطغاة المشركين ، وما هم فيه من مكابـدةالكفـار ، ومقاسات (كذا) التضييق والاضرار ، وجور اهــل الشرك اناء الليل واطراف النهار ،وتحريقهم ايانا بالنار (36) قد تكالب العدو علينا ومدد السوء والضرر الينا ، واحاطت بنا الاعداءمن كل جانب ، ورمونا عن قوس واحد بسهـــم صايب ، وطالت بنا الايام ، وعاشت فينا يد النكاية والايلام ، وخذلنا جيراننا واخواننا ببلاد المغرب من اهل الايمان ، **وقد كان بجوارنا الوزير المكرم ،المجاهد فى سبيل الله خير الـدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين ، علم باحوالنا ، ومـــانجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر** ، واجتمعت اهل الاســلام على اطاعة مولانا ومحبته بالخواطروالظماير (كذا) ، وانتظم العدل والشرع والامان فى البادى والحاضر ، **فاستغثنا به فاغاثنا وكانسببا فى خلاص كثير من المسلمين ، من ايــدى الكفرة المتمردين ، ونقلهم الى ارض الاســـلام** ،وتحت ايالة طاعة مولانا السلطان **ولعمارة مدينة برشك (37) وشرشال ونواحى تلمسان** ، فلمـــاسمع الكافر اللعـــين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والاهانة والحرق بالنيران ، علم انــااخترنا المصيبة فى الاموال والابدان ، واثرنا ديننا

(36) من المسلم به تاريخيا أن محاكم التحقيق كانت كثيرا ما استعملت الحرق تنكيلا بالاعداء واتهامهم بالمروق والزيغ وخاصة بالثوار المسلمين ، راجع : عنان ، **نفس المصدر** ، ص 341 .

(37) فى النص الاصلى توجد هاته الكلمة على الشكل التالى : برشل ، وعلى الرغم من تحرياتنا لم نتمكن من معرفتها وتحديد مكانها ، لكن بالرجوع الى كتاب الترنفس المصدر ، ج 1 ، ص 59 ، يذكر ان الاندلسيين استقروا فى عدد مـن المدن الساحلية ومنها مدينة برسك (Prisk) ونتساءل هـل هو تحريف لكلمة برشل ؟ وحتى برســـك لم نعثر على تحديد لها .

ملاحظة : انظر تحقيق التسمية فى آخر هذه الوثيقة للاستاذ عبد الرحمن الجيلالى .

على ساير الاديان . فلما صدقت الضماير ، وبلغت القلوب الحناجر ، خـــاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا اموالنا واوطاننا وهجرتنا وفرارناالى بلاد الاسلام لسلامة ديننا . تحاير فى امره ، وجمع اليه اهل تدبيره **وحزبه . فدبروا ومكروا وهل يحيق المكـر السيء الا باهله ؟ واتفق رايهم المعكوس ، وتدبيرهم المنكوس ، على قتال الجزائر** ،ليـــلا يبقى ببلاد المغرب لاهل الاســلام ناصر ، فعاقبهم الله بعقاب اصحاب الفيل . وجعل كيدهمفى تضليل ، وارسل عليهم ريح عاصف ومـوج قاصف (كذا) ، فجعلهم بسواحل البحر ما بـينـاسير وقتيل . ولا نجا منهم من الغـــرق قليل ، والآن اشتد غضبهم على اهل الاسلام ، وهـــميتوسلون بالرهبان والاصنام ، ونحن نتوســـل بسيد الانام الى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال والاكرام . **وهم عازمين (كذا) على الجزائر** ، والله تعـالى هلكهم وينصر دينه وهو نعـم الناصر . يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصر كم الله ، **المدد المدد لنصرة الجزائر لانها سياج لاهل الاسلاموعـذاب وشغل لاهـــل الكفر والطغيان** . وهى موسومة باسمكم الشريف ، وتحت ايالة مقامكمالمنيف ، **وقـــد اصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة ، والرعية المختلفة بها مؤتلفة اليفـــة** ،وطـــراز رونقها المجاهد فى سبيل الله عبـدكم الوزير الاجل **خير الدين** . المتثل لاوامر مولانا . ونتاج عز الدنيا والدين . فانه احيا هذا الوطن ، وجميع النواحى والسكن ، **وارعب قلوب الكفار** ،وخرب ديار المردة والفجار . واظهر نظام السلطنة العثمانية واحكام مولانا نصره الله حتى تزينـتبها الديار والامصار ، فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما **يراه من ارساله لهذا الوطن ان رءا** (كذا) مولانا صلاح (كذا) فى ذلك فيكون ذلـك غاية الاحسان لجميع اهل الاسلام وقهر ونكايـةلحزب الشيطان ، وقد اتفق جمعنا من المسلمـين المذكورين على رفـــع الشكوا (كذا) الى مـولانا السلطان الاعظم سلطان الاســلام لا زال بالعـز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفـوف (كذا) **بان يغيثنا بارسال المجاهد خير الدين باشه (كذا) الى الجزائر . فانه لهذا الوطن نعم ناصر وجميعاهل الشرك منه خايف وحاير** (كذا) ، والسلام التام على المقام الشريف العالى ورحمة الله بتاريخاوايل شهـــر شعبان احد شهور سنة ثمانيـة واربعين وتسعمائة (38) .

(38) ما بين 19 و 29 نوفمبر 1541 .

تحقيق موقع مدينة
« برشك »

عبد الرحمن الجيلالى

اتصلنا بمؤرخنا الكبير وطلبنا منه تحقيق موقع مدينة « برشك » التى جاءت فى هذه الدراسة ، فافادنا بما يلى مشكورا :

« برشك » بفتح الباء وكسر الراء وسكون الشين هو اسم لاحدى الموانى الغربية من بلاد الجزائر الساحلية التى اشتهرت على الخصوص ايام دولة بنى عبد الواد الزيانية ، وتكلم عنها ابن خلدون فى تاريخه والادريسى فى جغرافيته ؛ فنرى ابن خلدون يقول عندما ترجم للاخوين العالمين ابى زيد عبد الرحمن واخيه ابى موسى عيسى المشهورين بولدى الامام : انهما (من اهل « برشك » من اعمال تلمسان) ج 7 ص 388 ط بولاق 1284 هـ ؛ ولما ساق خبر زيرم بن حماد المكلاتى فى حوادثه مع بنى زيان (683 هـ / 1284 م) قال عنه بانه كان من مشيخة هذا القصر ـ يعنى برشك ـ كما سماه بالثغر ايضا (ص 99) وهناك اورد خبرا آخر عن ابى زيد عبد الرحمن بن محمد ابن الامام فقال : كان ابوه من اهل « برشك » ج 7 ص 100 ، وذكر بان عبد الرحمن هذا سافر من تلمسان الى «برشك» سنة 708 هـ / 1308 ـ 9 م فى مهمة للسلطان ابى حمو كانت هى السبب فى القضاء على زيرم ومشيخته وزعامته على تلك النواحى والجهات وصار امر « برشك » الى السلطان أبى حمو ، ج 7 ص 100 ، ولقد اعتنى ابن خلدون ايضا بضبط اسم هذا البلد بالحركات ، فضبط الباء بالفتحة وكسر الراء وجعل فوق الشين المعجمة علامة السكون كما جاء ذلك موضحا فى « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » ص 441 ط لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1951 م تحقيق محمد بن تاويت الطنجى .

وترانى ارجع فى تحديد موقع هذه البلدة الى ما هو مذكور فى كتب الجغرافية القديمة ـ والاسلامية منها على الخصوص ـ فبعد البحث والتدقيق فى التفتيش عنها فى كتب اهل الفن وجدتها مذكورة عند الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وذكرها فيه ثلاث مرات ؛ فاوردها اولا فى معرض ذكر بعض بلاد المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ فذكر منها تنس و « برشك » ، وجزائر بنى مزغنا ، وبجاية ، وجيجل ... (ص 56) ط ليدى 1864 م ، ثم وصفها فى مكان آخر من كتابه هذا (ص 88) فقال : « ومدينة « برشك » مدينة صغيرة على تل وعليها سور تراب ، وهى على صفة البحر وشرب اهلها من عيون وماؤها عذب ، وافتتحها الملك المعظم رجار فى سنة 5 وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير ، ومنها الى شرشال ـ وهى معروفة ـ 20 ميلا ويصل بينهما جبل منيع يسكنه قبيلة من البربر تسمى « ربيعة » ... واعاد ذكرها فى صفحة 101 فقال : « وبين برشك وشرشال على البحر يتصل بينهما جبل كبير منيع يسكنه قوم من البربر يسمون ربيعة » .

فمن هذا عرفنا اولا ان « برشك » هى من بلاد الساحل الجزائرى الغربى ، وان موقعها جاء ما بين المدينتين : شرشال وتنس ، وانها تبعد عن مدينة شرشال غربا بعشرين ميلا يصل بينهما جبل منيع ...

ومما يسهل لنا الوقوع على هذه المدينة بالضبط هو ان ننظر نظرة خاطفة الى الخريطة الحالية للساحل الغربى من القطر الجزائرى حيث نجد مدينة شرشال ، ثم المكان المسمى « نوفى «NOVI» ثم عين الجينى Fontaîne de génie

ثم فورايا ، ثـم فيلبورق Villebourg ثم دوبليكس Duplix ثم فرانسيس فارنيي Francis Garnier ثم تنس ؛ ويبلغ طول هذا الساحل 576 كم وبلا شك ان مدينة « برشـــك » تكون ضمن احدى هذه الامكنـة المذكورة فيما بين شرشال وتنس .

وبما ان الادريسى جـــعل المساحة التى بـين شرشال و « برشك » هى عشرون ميلا ، والميل هو عبارة عـن ثلاثة او اربعة آلاف ذراع على الخـــلاف فى ذلك ـ وهذا الخلاف لفظى فقط ـ كانت الجملة تبلـــغ ما يعادل 40 كيلو ميترا ، وهذا ينطبق تماما على المكان المسمى اليوم « فيليبـــورق » Villebourg ؛ فبرشـــك اذن هـــى « فيليبورق » او مـــا قـــرب منها مثـــل دوبليكس او فرانسيس فارنيى ؟.. وعلى كل فلا تخرج « برشـــك » عن هذا الخط ، فانظر الخريطة .





ضمير الأمة في كتابها

د. زكي نجيب محمود
استاذ الفلسفة بجامعة القاهــرة

ان يختلفوا فى كثير جدا من شـؤون الحياة الجارية ، دون ان يكــون للضمير دخـل فى هذا الاختلاف » وبالتالي، دون ان يكون للكاتب الحق فى دور مطلوب فلهم ــ مثلا ــ ان يختلفوا فى افضل الطرق لتنظيم المرور ماذا تكون ؟.. هل تســير السيارات فى هذا الشارع او ذاك فى اتجاه واحد أو فى اتجاهين ؟..

وكيف نخفف حدة الزحام فى ساعات الذهاب الى العمل والانصراف منــه ؟ بـل ان للنــاس ان يختلفوا فيما هو أخطر من ذلك شأنا، كأن يختلفوا فى خير نظام لتقسيم المراحل التعليمية وفى أنفع المناهج الدراسية وهكذا ، لهم ان يختلفوا فى نظام الفصل الدراسى الواحد فى الجامعة أو نظام الفصلين ، وهكذا قل فى أمثلة أخرى كثيرة من نظم الحياة الاجتماعية ، فليس كل اختــلاف بـين الناس محركا للضمائر ، واذن فليس كل اختلاف بين الناس فى شؤون الحياة الجارية مما يستدعى بالضرورة ان يكتب الكاتب « الاديــب » ، لان أمثال هذه الامور متروكة لمن يعنون بتقصى الوقائع واحصائها ومعالجتها على النحو الافضل ، بدءا من التقارير الصحفية وانتهاء الى البحوث العلمية ، لكنها أمور ــ كما قلت ــ لا دخل لضمائر الناس فيها ، والفيصل فيها انما يكون للعلم وللتجربة .

الدكتور زكي نجيب محمود من ابرز المشاركين فى ملتــقى الفكر الاســلامى الثامن فى مدينة بجايــة . ويسرنا ان ننشر له هذا المقال الهام كباكورة مساهمته فى « الأصالة » .

لكن هناك ضروبا أخرى من المواقف ، ما ان يختلف فى شأنها الناس حتى تتأرق الضمائر فى الصدور ، حافزة أصحابها الى الجهر بالرأى الذى يرونه صوابا ، ثم الوقوف دون هذا الرأى مهما تطلب ذلك من كفاح وجهاد وتضحية بالراحة أو بالمال أو حتى بالحياة نفسها ، وتلك هى المواقف التى تمس انسانية الانسان ، كالحرية والعدل والمساواة وما اليها من قيم عليا تحدد للانسان أهدافه البعيدة ، وتخطط له طريق السير نحو تلك الاهداف • فمن حق الانسان العاقل أن يبدى رأيه المشروع ، بالقول أو بالفعل دون أن يكون لكائن من كان أن يحرمه من هذا الحق بحجة أنه أعلم منه بالطريق الاسلم ، فالفرق الاساسى بين الحر والعبد هو فى أن الحر يقرر لنفسه القرار ليكون مسؤولا عنه ، على حين أن العبد يقرر له سيده ولذلك يكون سيده هذا مسؤولا عن عبده أمام القضاة ، فاذا اعتدى معتد على حق الناس فى حرية التعبير عن وجهات أنظارهم ، لم يكن ذلك من قبيل الاختلاف على طرق المواصلات ومراحل التعلم ورسوم الجمارك وجباية الضرائب ، لا بل هو من صنف آخر ، يثور من أجله « الضمير » ويكتب « الاديب » ، أو — على الاقل — ذلك هو ما ينبغى ان يكون •

انه لمن عجب ان الناس جميعا ، فى كل بقعة من بقاع الارض ، وفى كل عصر من عصور التاريخ قد اتفقوا على مجموعة من القيم العليا ، لا يحول بينهم وبينها الا ان يتدخل سلطان ذو بطش ، يرى أن مصلحته تقتضى ألا يمارس الناس حياتهم فى ظل تلك القيم ، وحتى فى هذه الحالة فان ذلك السلطان الباطش لا يجرؤ على نسخ قيمة من تلك القيم ، انه لا يقول للناس مثلا : اننى جئت اليكم داعيا الى الظلم والكبت ، بل تراه — بكل سلطانه وقوة بطشه — يراوغ زاعما أنه يريد العدل كما يريده كل انسان ، ويريد الحرية وهكذا الا انه يرى العدل متحققا فى كذا وكيت ، ويرى الحرية متمثلة فى هذا وفى ذاك ، انه لا ينفى « القيمة » العليا المعينة ، لكنه يتستر وراء اسمها بما شاء لنفسه من تأويل وتفسير •

لقد وقفت لحظة افكر ، عندما كنت أقرأ قصة « دون كيخوته » ، وطالعت الموقف الذى جمع طائفة من اللصوص من قطاع الطرق ، بعد ان نهبوا ما نهبوه ذات يوم وجلسوا ليقتسموه ، فحدث بينهم خلاف على طريقة التقسيم ، وبدأت بينهم المعركة ، فجاء رئيس العصابة يستفسر الامر فقالوا له : اننا نريد « العدل » فى قسمة الغنائم ! اللصوص يريدون العدل فيما بينهم ! وهكذا ترى القيم الانسانية العليا أمرا لا خلاف عليه بين الابرياء وبين المجرمين على حد سواء •

ولو كان الامر مقتصرا على فرد واحد ، لوجد هذا الفرد من ضميره ما يهديه الى الصواب ، وحتى اذا خانته ارادته وارتكب الخطأ ، فانه عندئذ يعلم من وحى ضميره أنه أنما فعل ما لم يكن يجوز له أن يفعله لو أتيحت له الارادة القادرة ·

ولكن الامر يختلف بالنسبة الى الجماعة من الناس ، فها هنا اذا ما اعتدى المعتدون على القيم الانسانية العليا ، فقد لا يتحرك الضمير بالقوة الكافية فى هذا الفرد أو ذلك الفرد من عامة الناس وعندئذ ينوب عنهم الكاتب الاديب، انه لم يتعرض لظلم أفدح من سواه ، ولا لطغيان أكثر مما تعرض له الآخرون ، لكنه بحكم تكوينه الذى جعله شاعرا أو أديب قصة ومسرحية أو غير ذلك من صنوف الصياغة « الادبية » ، أقول انه بحكم تكوينه ذلك يكون أعنف ثورة فى ضميره ، فيعلن الرأى أو يصوغ حقيقة الموقف ، أعلانا وصياغة تخرجان ما كان مضمرا غائما فى نفوس الآخرين ، أى أن ضمير الكاتب اذ يتحرك لنفسه ، فهو كذلك يتحرك نيابة عن سائر الناس ·

هذا هو ابو العلاء المعرى فى زمانه . يعانى ما يعانيه الجمهور كله من اضطراب السياسة وفساد الساسة ، لكن الجمهور من طبيعته الصمت الذى لايبين . والاديب بينهم هو وحده الذى ينطق بلسانه عما كانت تود السنتهم أن تنطق به لو استطاعت ، فيقول أبو العلاء فيما أحسه مع الناس كلاما كثيرا . بالشعر مرة وبالنثر الفنى مرة أخرى فيكون بذلك بمثابة ضمير خاص لنفسه ، وعام يشمل الناس أجمعين ، فتراه يقول ما معناه بلغتنا الدارجة : ان الناس تسوسهم هذه الايام شياطين مسلطة عليهم . هم الولاة الذين يتولون اورهم الامصار جميعا ، فهؤلاء الولاة لا يعنيهم أن يجوع الناس حتى الموت ، ما دامت موائدهم مثقلة بالطعام والشراب ، وان الامير من الامراء لم ينل امارته الا عن طريق العربدة ، وحتى أولئك الذين يظهرون الورع والتقوى، فانما ورعهم ذاك وتقواهم مصائد يصيدون بها المناصب والمكاسب ، الا أنى قد مللت العيش فى هذه الامة ــ هكذا يقول أبو العلاء بعد ترجمة لغته الادبية الى لغتنا الدارجة ــ مللت العيش فى هذه الامة لاننى ارى أمراءها وكأنهم مكلفون بخرابها لا بصلاحها . فلقد ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ، وجاوزوا مصالحها مع أنهم أجراء هذه الرعية يأخذون رواتبهم من كدحها ، أنك اذا قلت الحق اضطررت الى ان تقوله مهموسا وأما اذا نطقت لغوا وباطلا ، أقاموا لك المنابر عالية :

« اذا قلت المحال رفعت صوتى   وان قلت اليقين أطلت همسى »

لقد قامت معركة صفين بين على ومعاويه على الخلافة وسالت الدماء غزيرة على ارض المعركة فتحركت « الضمائر » تسأل : من المسئول عن هذه الدماء ؟ انه محال ان يكون الفريقان معا على صواب ، والا لما اقتتلا ، بل لابد أن يكون أحد الفريقين على الاقل مخطئا وبغض النظر عن أى الفريقين هو المخطىء فالسؤال الذى تحركت له الضمائر عندئذ هو : ماحكم المخطىء الذى كان سببا فى قتل مئات المسلمين أيظل مسلما أم يكون قد خرج على اسلامه ؟ وبهذا السؤال الذى انبثق من أرض المعركة . بدأت البذرة الاولى لاقوى حركة فكرية فى تراثنا الاسلامى . وهى حركة المعتزلة . ان الضمائر التى أقلقها الوضع القائم وافصحت على قلقها ذاك . لم تكن ضمائر الافراد المتحاربين واحدا واحدا على السواء بل كانت ضمائر قلة قليلة . هى التى استطاعت التعبير عما كان يتردد فى الصدور . أى أن ضمائر الفئة القليلة القادرة على الصياغة التى توضح جوهر القضية المطروحة . كانت تتأرق أصالة عن نفسها ونيابة عن سواها .

ولابد لى ان أذكر فى هذا السياق أن هذا السؤال الخاص بالحكم على من اقترف ذنبا كبيرا من المسلمين ، لم يكد يطرح حتى أخذت الاراء تتشعب وتتعدد ، فتكونت بذلك فرق (بكسر الفاء وفتح الراء) كثيرة ، هى بمثابة « الاحزاب » الكثيرة التى تعددت ، لا تكلفا واصطناعا بل تكونت بطريقة تلقائية طبيعية اقتضتها ضرورة الموقف : فهنالك سؤال خطير مطروح ، والاجابات عليه كثيرة متضاربة ، فماذا يحدث عندئذ سوى أن يتجمع أصحاب الرأى الواحد فى جماعة واحدة لتناضل آراء الجماعات الاخرى الى ان يتبين الحق فيما هو مطروح أمام الفكر ليجيب ؟ .

وفى دنيا الادب والفكر أمثلة لا حصر لها . توضح لنا كيف يتصدى الكاتب للخطأ الذى يمس انسانية الانسان ليصححه ، معربا فى ذلك عن ضميره القلق أولا ، ومعبرا عن ضمائر الاخرين ثانيا ؟ ولاختر مثلا واحدا من كاتبة أمريكية نشرت قصة لها فى منتصف القرن الماضى ، عن قضية الزنوج فى الولايات التى لم تكن متحدة بصورة كاملة عندئذ ، ولقد أطلقت على قصتها عنوان « كوخ العم توما » ، فما كادت تظهر حتى شدت اليها الابصار والاسماع فى أمريكا وانجلترا ، ثم ترجمت فور ظهورها الى عدة لغات اوروبية أخرى .

كانت قضية الزنوج عندئذ مكتومة فى الافئدة أو كالمكتومة ، يقرها الناس أو لا يقرونها لكنها على كل حال لم تجد من يفصح عنها بالكتابة جهرا وعلانية ، حتى تصدت لها « هارييت ستو » فى قصتها تلك ، وحسبك ان تعلم كم كان عميقا أثر كتابها ، اذا علمت ان حربا أهلية بين شمال البلاد

وجنوبها نشبت ، لترغم أهل الجنوب على عتق ما يملكونه من رقيق ، وانتصر لنكولن قائد الشمال وذهبت اليه الكاتبة فى معسكره تحييه ، ولم يكن القائد قد رآها من قبل ، فلما رآها مقبلة عليه بجسمها القصير النحيل ، قال لاصحابه : « أهذه هى السيدة النحيلة التى أثارت هذه الحرب الضروس ؟ » .. هكذا ترى كيف تحرك ضمير انسانة واحدة فأحدث ما أحدثه ، فلا يحق لنا ان نقول ان الكاتبة الواحدة هذه قد عبرت عن قلق ضمير واحد بل الاصوب ان يقال : ان ضمير امتها كان كامنا فى ضميرها ، وسأكتفى بنقل مشهد واحد قصير، من قصة « كوخ العم توما » ليرى القارىء قبسا من هذا العمل الادبى العظيم ، وهو المشهد الذى تحدى فيه العامل الزنجى «العم توما » سيده «سيمون لجرى » :

أخذ العاملون من الرقيق يتقاطرون الى الغرفة التى جلس فيها سيدهم ليراجع موازين السلال التى جاءوا يحملونها مليئة بالحصاد ، أخذوا يتقاطرون واحدا أو واحدة فى أثر واحد ، بأجسام أنهكها المرض والضعف حتى لم تكد تستقيم ، جاء دور العم توما ، فوضع سلته على الميزان وأجيز ، فدخل ليقف مع من سبقوه الى قاع الغرفة ينتظر الاخرين ، لكن العم توما قد أخذ يترقب بلمحات من عينيه قلقة الوميض ، خوفا على امرأة زميله ، يعلم ن سيدهم يتربص بها ، وجاء دور هذه المرأة التى أوشك جسدها ن يكون حطاما ، فاقبلت بسلتها مرتعشة ترتجف جوارحها من الفزع ووضعت سلتها على الميزان ، وكانت كاملة الوزن كما رأى السيد نفسه ورأى من وقف لينظر ، لكن السيد الدعى الغضب ، وصاح فى المرأة قائلا : ما هذا أيتها البهيمة الكسول ؟ امرأة اخرى تأتين الى بسلة منقوصة الميزان ؟ .. تعال يا توما واضرب هذه البهيمة بالسوط لتعلمها كيف تمتلىء السلال

قال العم توما : عفوا سيدى اننى لا أستطيع ذلك ، فهو مالم اتعوده وما لست أقوى عليه ! فنزع السيد « لجرى » حزامه وأخذ يجلد به توما جزاء عصيانه ، ثم أوقف الضرب لحظة ليسأل فيها قائلا : اتجرؤ بعد الان ان تقول انك لا تقوى على فعل ما آمرك بفعله ؟

قال العم توما : نعم ياسيدى ، **قالها وقد رفع يده ليمسح دمه السائل على صدغيه ، ثم مضى ليقول لسيده : اننى لاعمل طوال ليل ونهارى اذا شئت ذلك يا سيدى ، نعم اننى لاعمل ما بقيت فى جسدى حياة ، اما هذا الذى تامرنى به فلست أراه مما يجوز فعله ، ولذلك فلن أقدم عليه أبدا ، أبدا .**

هنا سرت فى الحضور دهشة مما قاله العم توما لسيدهم ، وأخذوا ينضرون بعضهم الى بعض نظرات تساءل : أية **زوبعة على وشك ان تعصف بنا جميعا ؟ !**

أما السيد « لجرى» فقد تملكته الحقير الذاهلة فتردد قليلا قبل ان يزار قائلا : ماذا أنت ايتها البهيمة النجسة السوداء ؟ ! أتقول لسيدك أنه لا يجوز لك ان تفعل ما أمرتك بفعله ؟ ماذا تعرفون أنتم أيتها الماشية الملعونة عن الصواب الذى يجوز أو الخطأ الذى ألا يجوز ؟ أضننت ياسيد توما انك قد انقلبت من عبد الى سيد فى لحظة واحدة ؟ أأنت الذى تهدى سيدك الى الخطأ والصواب أتزعم لى أن ضرب هذه المرأة بالسوط عمل لا يجوز ؟

أجابه توما : نعم ياسيدى ، هذا هو فى الحق ما أزعمه ، ان المرأة المسكينة مريضة وضعيفة ، ولو ضربت با لسوط لكان ذلك قسوة بالغة المدى، وهو ما لن أفعله أبدا ، أبدا ، سيدى اذا أردت قتلى ، فدونك فاقتل ، أما ان أرفع يدى بالسوط على أى واحد من هؤلاء ، فذلك ما يستحيل على ان أفعله أبدا ، أبدا ٠

تحدث توما بصوت رزين هادىء ، لكنــه مشحون بعزيمة لا يخطئها أحد ، وبرقت عيناه الخضروان بريقا مخيفا ، ثــم انقض على فريستــه كالحيوان الكاسر ، صارخا بقوله : أنظروا ، هذا كلب ورع وجدناه بيننا نحن الاثمين ! هذا هــو قديس ــ هو سيد ولا أقل من ذلــك ــ جــاء فى الانجيل : أيها الخدم أطيعوا سادتكم ؟ ألست سيدك الذى اشتراك بماله ؟ لقد اشتريتك بكل ما فيك بكل ما تحتوى عليه هذه الحارة الملعونة السوداء ! لقد أصبحت ملكى جسدا وروحا ، أليس كذلك ؟ ــ ورفس بحذائه الثقيل العم توما ، قائلا له :أجبنى !

ومن أعماق الالم الذى نال هذا المسكين فى جسده ، وبرغم ما أخذ به جسده يتلوى وينحنى ويستقيم من وطاة ما أصابه ، فان قول السيد له بأنه قد بات ملكا له جسدا وروحا : بث فيه نشوة روحية عجيبة ، تالق بها وكأنه قد أصاب نصرا ، وفجاة استخام بجسدم وشخص ببصره الى السماء وقال فى صرخة عالية ، وقد اختلط على وجهــه الدمع والدم :

لا ! لا ! لا ليست روحى ملكا لك يا سيدى انك لم تشترها اذ اشتريت ، كلا ، ولا كان فى وسعك ان تشتريها ، لقد سبق لها ان اشتراها خالقها ودفع ثمنها ، اشتراها ودفع ثمنها من فى

وسعه ان يصونها ، افعل أيها السيد بجسدى ماتشاء ، وأما روحى فلن يكون فى وسعك قط ان تلحق بها الاذى ..

تلك لمحة مما أملاه حى على كاتبة أديبة فى قضية رآتها ماسة بانسانية الانسان فى صميمها ان ضعاف النفوس قد يقترفون الاثم الذى يصيب جمهور الناس فى أعز ما يملكون ، وأعنى أنه قد يصيبهم فى آدميتهم نفسها ، وعندئذ تقع تبعة البيان على من فى وسعه ان يفصح عن حقيقة الموقف ببيانه ، فاذا لم يفعل ، فقل عنه : انه ضمير مات .



تأملات
عن الفوارق وهل ينبغي تشجيعها

د . ايفون تورين
كلية الآداب جامعة الجزائر

هل يمكن ان نطمئن الى فكرة « الفوارق » دون ان يؤدى ذلك الى تمجيدها ؟

ولكن ما هي الفوارق التى نتحدث عنها ؟

ان التأملات التى نسطرها هنا , نتيجة لتوافق بين ملاحظتين . وردت احداهما فى الصحف السيارة . وخصوصا فى صحيفة « لوموند » التى رددت صدى نظريات قديمة نوعا ما فى علم الاجتماع وعمدت الى الاشهار بالافكار التى يتضمنها هذا المصطلح . وقد كان ذلك بمناسبة النقاش الذى كان يدور حول تجدد النزعات العنصرية فى فرنسا والبحث عن الطرق الملائمة لعلاجها (1) . واستخلصنا الملاحظة الاخرى ، من العدد الذى خصصته مجلة الاصالة فى الصيف الماضى لتاريخ الاستعمار تحت عنوان : « تاريخ الجزائر والمؤرخون الاجانب »

وهذه الملاحظة التى وجدت تدعيما فى ملاحظات أوحت بها دراسات شخصية أسهمنا بها حول هذا التاريخ نفسه ، دفعتنا الى البحث ، بمعزل عن الجانب الوصفى لحالة تاريخية واضحة . عما قد يكون جوهر الحالة الاستعمارية نفسها ، وعما يحدو بالبعض الى اقامة فاصل ايديولوجى نوعاما ، بين التاريخ العام والتاريخ الاستعمارى ، مما يوحى بان الحوادث تقع فى النوع الاول من

---

(1) راجع عدد 11 اكتوبر 1973 ، الـذى يحتوى على عرض لكتاب .
Juliette Mince : Les travailleurs étrangers en France, Ed. Seuil.

التاريخ بطريقة مغايرة للطريقة التى تقع بها فى الثانى ـ كما لو كان الاشخاص الذين يؤلفون التاريخ العام لا يتشابهون الاشخاص الذين يؤلفون التاريخ الاستعمارى . بل هم يختلفون عنهم . وفى تلك المناسبة . قلنا ان التاريخ المناهض للاستعمار ، قد أصبح اتجاها قديما فقد قيمته « لانه يبقى على ما كان أساسا للمبدأ المتغلب على الوضع نفسه . وهو عزل المستعمر وحالته التى تقضى بان يظل منفصلا عن غيره ، بحكم طبيعته • وبذلك يصبح من الصعب الحديث عن المستعمر والتعامل معه أو درسه ، الا على أساس اعتباره مختلفا عن غيره من الناس • وكذلك نجح أولئك الذين يستغلون النزعة المضادة للاستعمار فى عملية صبغة تحت ستار النقد ، وبشىء من النفاق فى بعض الاحيان، فى الابقاء على فجوة الفوارق وفى تسليط الاضواء على الانسان المستعمر وتعريضه للفضوليين ، بدلا من وضعه فى مكانه الطبيعى فى المجتمع البشرى فى العالم (1) وهكذا يلتقى نوعان من الاهتمام ،أحدهما يتصل بالاحداث اليومية. والآخر ذو علاقة بالتفكير والتأمل •

الفجوة ؟ الفوارق ؟ انعدام التشابه ؟ نريد ان نخصص السطور التالية لالقاء الضوء على هذه الكلمات لتبيين معناها ، ولهذه الغاية ، يجدر بنا ان نعيد الى الاذهان بعض عناصر تاريخها السياسى. فان هذه المصطلحات قد دخلت فى قاموس التعابير الديموقراطية ، ولكنها من جهة أخرى ترد كثيرا (وهذا تناقض يطرح علينا مشكلة) فى الآثار التى خلفها دعاة العنصرية ، مثل شارل مورا وجوبينو (فى كتابه ، رسالة عن عدم التساوى بين الاجناس) • وكذلك أوحت المعانى التى تنطوى عليها هذه الكلمات بتيار من التأمل بين عدد من المفكرين الالمان الذين لا تكاد تربطهم صلة بالديموقراطية ، مثل فيخت وهيجل • ومن ثم ،فان من المفيد ، عند استخدام هذه المصطلحات ، معرفة السياق الذى تستعمل فيه والشخص الذى نوجه اليه الخطاب •

قلنا ان علم الاجتماع قد أعطى لمصطلح « الفوارق » معنى يتسم بالجدة •

وضع الكاتب لوفيفر (H. LEFEVRE)فى سنة 1970 ، كتابا صغيرا يحتوى على نظرة معجلة تحت عنوان مثير ، وهو : « بيان عن نزعة الفوارق » (3) • وكذلك ظهرت نزعة

---

(2) راجع الاصالة ، العدد الخاص ، النص الفرنسى ، ص 20 .

(3) H. Lefèvre : Le Manifeste Différencialiste, Gallimar, N.R.F. Col. Idées.

جديدة فى علم الاجناس ، ولكن هذه النزعة تتسم خصوصا بالتعبير عن ارادة الرفض • فان عنوان الكتاب يوحى بان المؤلف يريد اقامة مجابهة مع **البيان الشيوعى** الذى وضعه كارل ماركس، والذى أعيد النظر فيه ، خصوصا فى عهد استالين • فان الشكل واحد ، بينما تقف كلمة « الفوارق » فى مقابل الجماعة ، أو « الشيوعية » •

وتثبيت نظرية « الفوارق » فى ذهن مخترعها ، معناه المساهمة فى عمل يستهدف القضاء على الروح الديكتاتورية والحقيقة السياسية التى تمثلها الشيوعية • ومعنى هذه النظرية اقامة عقيدة الفوارق ، بحيث تواجه النظام الذى يتسع لجميع الخلافات منها وحدة متجانسة • وكذلك تلح النظرية ، كما يقول المؤلف على ان « المختلف (أو المتميز) يتسم بطابع يبعده عن كل ما عداه » وعند هذه النقطة تجد النظرية فى التحليل النفسى وفى فصل الفوارق الفردية فى علم النفس ، دعامة قوية • ومن البديهى ان «الشاذ» سيظل طفيليا وغير ناضج » • (4)

وكذلك تبدو نظرية « الفوارق » التى ارتفعت الى مرتبة نظام ، فى اصلها ، وكانها محاولة للرد أو لانتقاد نظام آخر يعرفه (لوفيفر) معرفة جيدة باعتبار أحد اتباعه وواضعى أسسه النظرية

وهذه الملاحظة مهمة ، لان الفوارق لا توجد فى حد ذاتها ، وانما يوجد « الفارق » والاختلاف بالقياس الى شىء ما ، أو الى انسان ما • ومن ثم ، فان التفريق لا يعتبر عملا حسنا أو رديئا فى حد ذاته ، بل هو كذلك باعتبار من ينصب عليهم التفريق •

وهكذا يتضح ان اعتماد عقيدة « الفوارق » معناه الوقوف ضد عقيدة الديكتاتورية الشاملة ، وهى عقيدة ذات ابعاد سياسية معروفة بالدقة • وكما يقول المؤلف . فان نظرية الفوارق ليست نظاما .. وانما هى طريقة فى الحياة . وهى ليست طريقة للتفكير ، بل هى وسيلة للوجود بطريقة تختلف عن طريقة الغير » • (5)

---

(4) نفس المصدر ، 67 •

(5) نفس المصدر ، ص 186 •

وهذه الطريقة فى التمييز ، يمكن التقريب بينها وبين الديمقراطية . فان سير التفكير فى القرن الثامن عشر الذى شهد تعميق البحث فى النظريات السياسية ، كان يقوم على اساس مماثل فان فلاسفة القرن الثامن عشر الذين يواجهون مجتمعا ونظما سياسية مختلفة يطلق عليها مصطلح « النظام القديم » (وهو يقوم فى جوهر على أساس متحجر من الذاتية والتشابه » ، كانوا ينادون بحق الفرد فى التميز والاختلاف عن غيره بل بما يسمونه « الحرية » ، والامران مختلفان فى الظاهر ، ولكنهما فى الحقيقة شىء واحد حيث ان الحرية فى نهاية التحليل ، معناها الحق فى التميز والاختلاف عن النموذج الشائع ، أى « الوجود بطريقة تختلف عن طريقة الغير » ، حسب تعبير توفيفر . وكذلك قام الفلاسفة بتحليل جميع اشكال الحرية الفردية ، والمدنية ، والسياسية والاقتصادية .

وهذا البحث والتحليل كان من نتائجه انهيار المجتمع الذى كان يقوم على أسس متجانسة نسبيا ، ليحل محله مجتمع « انقسامى » بمعنى انه ينطوى على عناصر متضادة ، ولكنه أيضا جماعى ، باعتبار انه يشمل فئات متنوعة .

وهذه النيات والمقتضيات ، هى التى تشير اليها المقالات التى نشرتها صحيفة « لوموند » التى اشرنا اليها فى مستهل هذا المقال ، وغيرها من المقالات التى ظهرت فى الصحف اليسارية الفرنسية التى عالجت حقوق المهاجرين . ولكن النية الحسنة لا يمكن ان تعتبر تيارا فكريا ، بل وربما أدت الى احياء الاسطورة التى تخشى ظهورها وامدت اعداءها بذلك بالحجج القوية التى تستعمل ضدها .

وتدل بعض الملاحظات التى نستخلصها من أوضاع تاريخية محددة ، على ان صياغة المشكلة بهذا الاسلوب عرض ناقص ينطوى على كثير من التبسيط . ولربما أدى الى حل ناقص ، اذا لم يكن حلا خطيرا .

فنحن نلاحظ ، مثلا ، ان الكاثوليك فى المجتمع الانجليزى كانوا « متميزين » (والانجليز يدينون بالمذهب البروتيستانتى) ولكنهم كانوا متميزين الى حد انتهى بهم الامر برفضهم . وكذلك كان اليهود فى مملكة فرانسا « متميزين » ، فكانوا يعيشون على هامش المجتمع . والمسيحيون فى العالم العربى ، كانوا هم أيضا يتمتعون بحق « التميز » ، ولكن هل يمكن ان نغبطهم على وضعهم ؟

وقد كان العرب فى « الجزائر الفرنسية » متميزين كذلك ...

فجميع هذه الاوضاع غير المريحة ، توحي بفكرة الانفصال والعزلة ، وبـــان الجماعـــات الرئيسية ، تضع الاقليات والجماعات الصغيرة على هامش المجتمع . وهذه نقطة ينبغى الالحاح عليهــــا .

وهذه الاوضاع التاريخية التى تمثل حالات عاشتها مجتمعات بشرية **حقيقة** ، لا يمكن محوها باعتبارها خطأ فى التفكير ، بقولنا : «كان الافضل أن يقع كذا وكذا ... » .

فاذا كانت صياغة الفكرة على أساس المعطيات الديمقراطية كما هى فى كتاب « بيان نـــزعة الفوارق » غير وافية ، فينبغى ان نحاول تعميق مفاهيم هذه المصطلحات .

لنحاول اذا ان ننظر الى الموضوع نظـرة غير منطقية ولنأخذ المشكلة من الزاوية المقابلة ، على الاقل ، على المستوى السياسى . فان ملاحظة ذات مغزى تثير اهتمامنا ، بل وقلقنـــا . فـــان « الفوارق » تشكل أيضا الاساس الذى تقوم عليه العقيدة التى تنادى بعدم تساوى الاجنـــاس . والنظريات العنصرية المختلفة انما تقوم على أساس هذه العقيدة ، وتستمد منها مبرراتها . والتحليل التاريخى والنية السياسية التى تعطى لهذه النظريات قوتها ، من شأنها ان تدفع بنا فى طريق الادراك والتمييز الضرورى .

ان هدف النظم السياسية التى تنطوى على مبدأ « الفوارق » هو، بصفة عامة، تبرير العنصرية فان النظم التى سادت فى القرن التاسع عشر ،وهى التى تهمنا هنا كانت تستهدف تحطيم تيار الفكر الثورى (ثورة 1889) ، أو القضاء عليه . وقد كان البغض والحقد على المجتمع الذى تبلور عن الثورة الفرنسية ، هو الذى يثير عواطف المفكرين الالمان والانجليز، بل والمفكرين الفرنسيين أيضا . وأما الوحش الذى اتجهت الجهود للقضاء عليه ،فهو المجتمع الفرنسى الذى انعدم فيه التمييز بين ما يسمى بالطبقات العليا والطبقات السفلى ، أو الذى يتجه الى تحقيق هذا المثل الاعلى ، وقد رسخ فى نفوس هؤلاء المفكرين ان العيب والخلل الذى يجب اصلاحه هو فى المجتمع الذى يجرؤ عـلى التفكير فى محو الفوارق ، والحقيقـة التى يجـب اعادة الاعتبار اليها ، هى التى تؤكد الفجوة التى تفصل بين الطبقة الاريستوقراطية ، بمختلـف اشكالها ، والطبقات الشعبية الفقيرة المختلفة . لنقرأ هذا النص الذى كتبه مورا ، بامعان : « لو كانت الديموقراطية ، كما قيل مرارا ،

ظاهرة اقتصادية ، ولو وجدت حالة الديموقراطية حقيقية فى المجتمع . لاعترفت بها الملكية ، ولاعترف بها العلم واعتبرها بما ينبغى من الامانة. ولكن الديمقراطية ليست الا وهما وكذبا. والذى عرفته فرنسا **منذ اعلان حقوق الانسان** ـ ذلك الاعلان الوبيل ـ انما هو حالة نفسية للديمقراطية وهذه الروح الديمقراطية كانت سببا فى وقوع أخطاء فاحشة . كما كانت المؤسسات الديمقراطية مهلكة كما سبق ان لاحظ بورجيه . وهذه المؤسسات ، ظلت تعمل منذ قرن من الزمن لاضعاف الرباط العائلى الذى لم تستطع القضاء عليه ، وروح التجمع والخلايا الريفية، وبالاختصار كل ما يجد فيه الفرد العون والقوة . ومن هذا الوضع ظهرت أهمية اليهود بيننا . ومن هنا أيضا الاهمية التى اكتسبتها الجماعة البروتستانية ، وأهمية الاجانب . ان هذا النظام السياسى هو العدو ... والديموقراطية ، هى الشر والموت ... (6)

وهذا النص يوضح لنا كيف يتطور التفكير المعادى للديموقراطية الى تفكير عنصرى يتناول التمييز فى المجال السياسى والاجتماعى معا . والتمييز معناه التفرقة التى تتحول الى عامل وراثى أى نهائى ، يتخذ شكل الاريستوقراطية . وهذا التحليل ـ تحليل مورا ـ قد أدى بفيخت وهيجل فى المانيا ، قبل ذلك بثلاثة ارباع القرن ، الى استخلاص نتائج مماثلة . ومن هنا ، يمكن ربط تفكير مورا بتيار التفكير الذى ساد فى المانيا قبله . وهو يحيى هذا التيار بالحاحه على الفضيحة التى يمثلها اختلاط الاجناس وبالتالى على الغاء الفوارق التى لا تنظمها حواجز من المؤسسات .

وأما فيخت وهيجل ، فقد طبقا نظرية الفوارق . لا على الطبقات الاجتماعية . بل على الشعوب بحيث استطاع هذان المفكران اقامة دعائم نظرية تقتضى بوجود أمم رفيعة واخرى منحطة . بل انهما وضعا أسسا لعنصرية تتجاوز الحدود وتعزو الى الشعب الالمانى حقا طبيعيا فى التفوت النهائى ، وهو الوضع الذى تكون فيه الفوارق نهائية .

وعلى ضوء ما تقدم ، يمكننا ان نتساءل ، كيف استطاع المثال الديمقراطى والمثال المناقض له ان يعبرا عن نفس المطالب ويستخدما نظرية واحدة ليستخلصا منها نتائج متناقضة ؟

لكى نحاول استكشاف عناصر حل للمشكلة نرى القيام بالمزيد من التحديد باقتباسات تتعلق بالشكل الذى يتخذه الفارق « الرجعى » ، حيث يتحتم علينا ان نميزه الآن عن الفارق

(6) Enquête sur la monarchie. Ed. Fayard, p. 119.

« الديمقراطى » ، وطبيعة الحجج المستعملة قـد ترشدنا وتضىء الطريق امامنا للتعرف على نواحى النقص فى وضع نزعة الفوارق التى حللناها آنفا والتى أصبحت تمثل الى حد ما المضمون الشائع للمصطلحات المذكورة فى الوقت الحاضر ·

ففى كتاب شارل مورا الذى اقتبسنا منه النص السابق، يرد هذا الكاتب على بول بورجيه · والكتاب عبارة عن تحقيق يحتوى على رسائل لبعض القراء سئلوا ابداء رأيهم فى الخصائص المميزة للنظام الملكى · وفى هذا التحقيق تبـدو آراء مورا وبورجيه متطابقة · ولكن تفكير مورا الحاد والمتعمق ، قد حول تأملات بورجيه الى نوع من التعليق الفلسفى على طبيعة العلاقات الـتى يمكنها ان تجمع بين فكرة النظام وفكرة الفوارق فى مجتمع يستحق هذا الاسم · وفيما يـلى ما قاله امورا : « ان السيد بورجيه يعرف جيدا ان « الديمقراطية » مثال أعلى مزيف ، ليس فى تفاصيله وعوارضه فحسب ، بل وايضـا فى مبدئه وجوهره · فان الديمقراطيـة بالضرورة خالية من الشكل وتؤدى الى التفتيت ، والا ، فهى ليست ديمقراطية · والديمقراطية لا يمكـن تنظيمها · وذلك لان فكرة التنظيم بدرجة مـا ، تستبعد فكرة المساواة باية درجة ، فالتنظيم ، معناه التفرقة والتمييز وبالتالى ،وضع سلم من القيم بحيث تكون شكلا هرميا · وعلى هـذا الاساس لا يمكن ان تسود المساواة فى أى تنظيم اذا استثنيا التنظيم الحديث المتواضع للحيـاة السياسية والمجتمعات التى منيت بالفقر الشديد والحرمان والتى تخلو حياتها من كل تعقيد » ·

ومحور هذا النص ، ليس هو النقد الاضافى للديمقراطية ، بل هو فى التناقض الذى يكشف عنه والذى يؤكده بين فكرة المساواة وفكـرة ،التنظيم · وفى رأى مورا ، ان مبدأ المساواة لا يمكن ان يؤدى تطبيقه الى اقامة مجتمع منظم ·وبالتالى ، فان المساواة ، معناها الفوضى · واما التفرقة والتمييز فينجم عنها حتما قيام نظـام هرمى الشكل من القيم الاجتماعية وغيرهـا · والتنظيم الهرمى للمجتمع ، أى التفرقة وعـدم المساواة ضرورى لانه شرط أساسى لحياة المجتمع وبعبارة اخرى فاذا فقدنا شرط عدم المساواة والتفرقة فقدنا التنظيم وبالتالى فقدنا المجتمع نفسه .

ومن جهة أخرى فان درجة التنظيم وعـدم المساواة ، تعكس درجة الحضارة التى تصل اليها جماعة بشرية . ومـن ثم . فان الذين ينـادون بالمساواة ، انما ينادون فى نفس الوقت بالعودة الى الوحشية .

ونحن نجد ملاحظة مماثلة في كتاب لوفيفرحين يقول ان « عدم التميز » ، يفترض اتحادا وتجانسا ، بحيث يقترب من « غير المنظم » عندمورا (7) ، أى انه توجد علاقة بين عدم التمييز وعدم التنظيم عند مورا .

ولكن نص مورا ، الذى يحتوى على اشارةواضحة الى عدم المساواة ، يجعلنا نلمح العناصر التى نبحث عنها لحل المشكلة ، ويبدو ان هـذاالحل ، يقع فى العلاقة الموجودة أو غير الموجودة بين الفارق وعدم التساوى . فالتفرقة العنصرية مثلا ، تنطوى على عدم المساواة .

ولكن لنستمر فى الاقتباس على امل القاء ضوء أقوى على الموضوع ، فان مورا يضيف الى ما تقدم قوله :

« انه يتحتم ان يتمتع كل واحد باكثر مايمكن من الحقوق فى بلد غنى معقد مثل بلدنا . ولكنه ليس من شأن أحد ضمان التساوى فى هذهالحقوق حينما تنطبق على أوضاع غير متساوية بطبيعتها . والقانون يكذب ، والحقائق اليومية تلقى ضوءا ساطعا على هذا الكذب وتنزع من نفس المواطن الاحترام للنظام السياسى القائم فى بلده ، حين يتلقى باستمرار تصيحة باحداث الفوضى وبالقيام بالثورة » . (8)

« أوضاع غير متساوية بطبيعتها » ؟ انه يتحتم لتوضيح هذه العبارة التى خطها مورا ، ان نستعرض كل ما فى فكرة هيجل عن حالة الضرورة التى تسير العالم . واذا توجد حالات من عدم المساواة ، أو بعبارة أخرى ، من الفوارق النهائيةالتى يعتبر زوالها مخالفا للطبيعة، وبالتالى ، يؤدى بالضرورة الى الفوضى . والانسان الـذى يتجه بارادته الى مقاومة هذه الحالات التى وجدت بحكم الامر الواقع ، يثبت بذلك انه قد فقـد صوابه . تماما مثـل الشخص يحاول مقاومة القوانين السماوية .

ولكن الطبيعة (أو الحالة الطبيعية) تتضاعف بالوارثة . وهنا نجد امامنا تعريفا آخر للتفرقة العنصرية وللتفرقة الاجتماعية معا . وهذاالتعريف ، يتطابق تماما مع تعريف طبقة المنبوذين .

---

(7) لوفيفر المصدر المذكور ، ص 145
(8) المصدر المذكور ، ص 119 .

ونتيجة لما تقدم ، ندرك أهمية تجنب الخلط حينما نتحدث عن مبدا الفوارق ، بحيث لا نقع في الاضطراب والتناقض · وفلاسفة القرن الثامن عشر ، كانوا متيقضين لهذا الخطر ، ولذلك فقد حللوا بوضوح الاخطار التى تنجم عن الاستعمال غير المفيد للفوارق التى يطبقونها على الحرية · فهؤلاء أيضا ، يرون ان ترك الفوارق تلعب دورها بدون مقابل وبدون تقييد ، ينطوى على خطر الفوضى · ولكنهم ، بدلا من البحث عن علاج لهذه المشكلة فى الابقاء على نظام عدم المساواة ، أى حرية الفوارق التى استقرت نهائيا . وجد روسو هذا الحل فى الاستعمال المعتدل للمساواة · فهو يقـــول :

« اذا بحثنا لنعرف مما يتكون الخير الاعظم بالنسبة الى الجميع ، الخير الذى يكون النهاية التى يجب ان تستهدفها جميع النظم القانونيـــة ،فسنجد ان ذلك ينحصر فى مبدأين : الحريـــة والمساواة · والحرية مهمة ، لان كل تبعية خاصة تمثل قوة تجرد منها الدولة · والمساواة ، مبدأ مهم لان الحرية لا يمكن ان تدوم بدونها (علامة الاهتمام فى النص الفرنسى) ·

انهم يقولون ان المساواة وهم من أوهـام الخياليين ولايمكن وجودها عمليا · ولكنه اذا كان من غير الممكن تجنب الافراط ، فهل يعنى ذلك انه لاينبغى العمل على الاقل لضبطه ؟

انه نظرا لان قوة الاشياء ومنطقها تميل بها دائما الى القضاء على المساواة . يجب أن تتجـه قوة التشريع دائما الى الابقاء عليها » · (9)

وبالاختصار ، فان روسو ومورا ، متفقان فى هذه المرة ، حين يعتقد كل منهما أن الحياة فى عدم المساواة أســـهل من الحياة فى المساواة . وتبعا لذلك ، يوجد اتجاه طبيعى يدفع بالمجتمع فى طريق عدم المساواة . والتطور الطبيعى ، يدفع نحـو خلـــق نظام اجتماعى هـرمى الشكل . والرضاء بالنفس الاجتماعى والقومى ، ينجم عنه التفريق والتمييز ، والنضال على الصعيد القومى وعلى الصعيد الدولى ·

وأما الاتجاه المعاكس ، أى اقامة مجتمع على اساس المساواة . فهو يكون نتيجة لانتشار الوعى ولبذل مجهود بعيد النظر ولا يفتر أبدا . وأى مجتمع ســار فى الطريق الذى تـرافق فيه الحـرية العدالة ، وصل الى أهدافه ؟

(9) Rousseau : Le contrat social, œuvre complète, Gallimard, Ed. la Pléade, T. III, p. 39

وهكذا ، وفى نهاية هذه الجولة من التأمل نتساءل ، هل يجب تشجيع الفوارق ؟ الجواب عن هذا التساءل بالايجاب والسلب ، بالسلب ، اذا لم نعمل على تحديد طبيعة الفوارق ، واذا كنا نجهل أن هذا التعبير يكاد **يحمل فى طياته** بالضرورة **عدم المساواة** . وبالايجاب ، اذا أدركنا ان الفوارق ، لا تخلو من الاخطار الا متى رافقتها المساواة .

والامثلة التى سقناها فى السطور السابقة بالغة الدلالة ، وتؤكد تحليلنا : فان الكاثوليك فى بريطانيا يتمتعون بحق الاحتفاظ بالفوارق والتميز ، ولكنهم لا يتمتعون بالمساواة مع بقية رعايا الملكة . والمسيحيون فى العالم العربى ، تمكنوا من الاحتفاظ بفوارقهم ، ولكنهم يعيشون فى عزلة . واليهود فى اوروبا الغربية كذلك ... الخ .

واذا لم ترافقها المساواة ، فان الفوارق تحمل دائما فى طياتها جرثومة العزلة والانفصال .

وينبغى أن نلاحظ من جهة أخرى ، ان الحل الذى تنطوى عليه الفوارق ، اذا اقتصرنا عليها ، هو الحل السهل بالنسبة الى كل أغلبية لمشكلة أقلياتها ، مهما كانت . فهذا الحل يعفى الجماعة من فتح مجتمعها للاجنبى ومن تقبل ما لم تتعود عليه ، ومن اريحية الكرم ، بل ومن التفكير والخيال (10) .

---

(10) سلطت الاضواء فى الندوة التى عقدت فى بازل (13) اغسطس – 3 سبتمبر 1971) والتى نظمتها شركة لانتاج العقاقير الطبية تحت شعار التقدم العلمى – سلطت الاضواء خصوصا ، على اتجاه المجتمعات الحديثة الى حل مشاكلها الداخلية بالتفرقة بدلا من البحث عن حلول بناءة جدية لها . وقد وصف أحد المشتركين فى الندوة الحالة التى نجمت عن التطور العلمى فى العبارات التالية : « ولقد أدت أنانية جماعة الدول المتقدمة الى قيام مجتمعات تدين بالتفرقة والتمييز ، وهى تركة اجتماعية متولدة عن مذهب داروين فى النشوء والارتقاء . وكل مكان عرف التوتر والنضال اليوم فى العالم انما استعاد السلام الى ربوعه لا بالتصالح والوئام بل بالانفصال والابتعاد والتقسيم والتمييز العنصرى . وحتى لو تغاضينا عن النضال الذى يقوم على اعتبارات الجنس والطبقة فسنجد عزلا وابعادا يقوم على اعتبارات اجتماعية مثل الشيوخ الطاعنين فى السن فى مأواهم والمرضى فى مستشفياتهم ، والمصابين بالامراض النفسية فى ملاجئهم الخ . وهكذا فان الناجحين والاقوياء ، يستطيعون ان يتقاسموا فيما بينهم اسلاب الناتج الاجتماعى » وهكذا فان التزاوج بين الفوارق والمساوات ، امر صعب ، ولكنه اذا تم ، فستنجم عنه حالة مثالية . ولكن ، من الذى اتيح له ان يشهد هذه الحالة ؟

الجزائر والعالم الثالث

د. العربي الزبيري
كلية الآداب جامعة الجزائر

تسمية العالم الثالث حديثة جدا بالنسبة لتكوينه وهى عبارة ترجع فقط الى ما بعد الحرب العالمية الثانية وصاحبها هو السيد آلفرادسول . اما تكوين هذا العالم فانه يرجع حسب اتفاق المؤرخين الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، اى الى مستهل ما يسمى فى التاريخ بالعصور الحديثة .

ولقد اختلف الدارسون فى تحديد العالم الثالث اختلافا كبيرا ولكننا . وعلى الرغم من ذلك نستطيع القول بانه هو الوعاء الحاوى للثورة العارمة التى ستغير وجه الدنيا ، كما انه فى آن واحد ، عالم الماضى وعالم المستقبل . فهو عالم الماضى لان البلدان التى تكونه كانت مهدا لاقدم الحضارات ، وهو عالم المستقبل لانه يحوى طاقات جبارة وثروات هائلة فى المجالات البشرية والمادية .

ولئن كان من الصعب جدا ان نجد عبارة واحدة تمكننا من تعريف العالم الثالث سياسيا وجغرافيا ، فاننا نستطيع القول بان العالم الثالث وهو جميع البلدان التى تتوفر فيها صفات مشتركة اهمها التخلف والمصير الواحد .
لتعريف التخلف وهناك مقاييس كثيرة ولكن اشهرها ذلك الذى يجعل البلد المتخلف هو الذى يقل مردود الفرد السنوى فيه عن مائة دولار ، اى حوالى خمسمائة دينار جزائرى ، لان البلدان المصنعة يزيد الدخل الفردى فيها عن الالف دولار فى السنة .

وحسب هذا المقياس الاول نجد ان معظم البلدان فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية متخلفة فى حين ان اغلبية بلدان اوروبا وامريكا الشمالية استراليا وزيلانده الجديدة متقدمة .

ولكن الدارس سرعان ما يكتشف انه لا يمكن الاعتماد على الدخل السنوى لتحديد التخلف لان الاحصائيات الاساسية التى لا يمكن بدونها ابراز هذا المقياس غير متوفرة فى كثير من البلدان لان السلطات المحلية ما زالت لا تعير اهتماما كبيرا لعلم الاحصاء نظرا لعجزها عن السيطرة الفعلية على مجتمعاتها المتفككة .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الواقع قد اثبت بان ضعف المردود السنوى لا يمثل سوى مظهر واحد من مظاهر التخلف . فهناك بلدان الارجانتين وليبيا والكويت مثلا يصل الدخل الفردى فيها الى اربعمائة دولار او يزيد ، ومع ذلك فهى متخلفة او نامية كما يقال فى حين ان هناك بلدانا كاليابان مثلا ، لا يصل الدخل الفردى فيها الى اربعمائة دولار ومع ذلك فهى متقدمة ومصنعة .

اما القياس الثانى فى تحديد التخلف فيتمثل حسب بعضهم فى نسبة الزيادة فى الدخول السنوى للفرد .

ان هذا الدخول قار فى البلدان المتخلفة ، ولا يتغير الا نادرا لان مصادره ثابتة ، وهى فى معظمها فلاحية او من الصناعة التقليدية او من المواد الاولية التى تصدر الى الخارج لتموين الصناعات الاجنبية . وقد يتقهقر الدخول الفردى ، احيانا ، فى بعض هذه البلدان نتيجة الانفجار السكانى او نفاذ المواد الخام على مختلف انواعها كما انه قد يتصاعد بكيفية خارقة لاكتشاف معادن جديدة او لارتفاع اسعار المواد المصدرة . ومع ذلك فان هذه البلدان تبقى من جملة بلدان العالم الثالث المتخلفة لان ما تجمعه من اموال لا يستثمر فى صالح التنمية كما نرى ذلك اليوم فى العديد من البلدان .

اما فى البلدان المصنعة ، فان نسبة الزيادة اوتوماتيكية ثابتة ومتواصلة بكيفية منتظمة وذلك ناتج عن كونها قطعت اشواطا بعيدة فى التنمية مكنتها من تدعيم هياكلها الاقتصادية التى تضمن لها الزيادة المذكورة .

وبالنسبة للمصير ، فان بلدان العالم الثالث كلها تقريبا قد تعرضت للسيطرة الاجنبية واول احتلال تعرضت له هذه البلدان هو الاحتلال الاوربى وما يمتاز به من ظلم وتعسف واضطهاد . والحديث عن الاستعمار يقودنا حتما الى الكلام عن حركات التحرير والتحرر وكذا مختلف التيارات المتناقضة التى تعمل ، فى غالب الاحيان ، على تفتيت قوى هذه البلدان التى اصبحنا نسميها نامية ، وعرقلة مساعيها نحو التصنع والتخلص مما يسمى بالتخلف وفى الواقع ، فان هذه التيارات مصطنعة ، وهى من وحى الامبريالية التى لا يمكن اخراج العالم الثالث من التخلف بدون القضاء عليها .

ولكى نتعرف على العالم الثالث حق المعرفة لا بد من الاهتمام بملاحظتين اساسيتين :

1) ضرورة وضع العالم الثالث فى المحيط الصحيح ، الحقيقى الذى يتطور فيه ، وينمو داخله . وبعبارة اخرى حتمية الاخذ بعين الاعتبار للعلاقات المتنوعة التى تربط بلدان العالم الثالث بالبلدان المصنعة . ونحن اذ نضع بلدان العالم الثالث فى هذا المحيط ، يجب علينا ان ناخذ بعين الاعتبار ، ايضا ، الوضع التاريخى الذى قاد الى ايجاد هذا الكيان الغريب . ذلك ان العالم الثالث اليوم ، مرتبط ، فعليا اشد الارتباط بالبلدان المصنعة والراسمالية منها على وجه الخصوص . وهذا يرجع الى ان رؤوس الاموال المتوفرة فى البنوك الامبريالية قد خلقت نوعا من الاحتكار بالنسبة لحركة التصدير والتوريد جعل اقتصاد البلدان المتخلفة يكون مدمجا بالقوة فى النظام الراسمالى يوجهه كيفما شاء ومتى شاء ، وذلك بالاضافة الى الرابطة التاريخية بين الكيانين .

2) طبيعة السيطرة الاجنبية نفسها : فهذه السيطرة تظهر جلية فى ميادين ثلاثة هى على التوالى :

أ ـ الميدان السياسى لانها تؤثر مباشرة على مراكز التسيير والتقرير فى البلدان المسيطرة عليها .

ب ـ الميدان الاقتصادى لانها تؤثر على الهياكل والمنشآت الاقتصادية فى البلدان المسيطرة عليها . ومن المؤكد ان البلدان المستعمرة تحاول دائما المحافظة على الاوضاع الاقتصادية الجامدة فى البلدان المستعمرة والى جانب ذلك تنشىء قطاعا يسمى عادة بالقطاع العصرى ، ويكون مسايرا للنظام الاقتصادى فى البلد المسيطر ويستعمل كوسيلة لاستنزاف الثروات الطبيعية التى تتوفر عليها البلدان المسيطر عليها .

ج ـ الميدان الثقافى ، لانها تصبح متحكمة فى الانتاج الثقافى فتفرض على المجتمع المستعمر انماط الحياة السائدة فى البلدان المستعمرة ، وكذلك طريقة العمل والاسلوب فى معالجة الامور والعقلانية الى غير ذلك من مكونات الشخصية .

الوضع التاريخى الذى قاد الى تكوين العالم الثالث

عندما يرجع الباحث الى القرنين 15 و 16 لان تلكم هى التى تعتبر الفترة الفاصلة بين مجموعة البلدان الاوروبية

التى ستعرف التقدم التكنولوجى ابتداء من القرنين 18 و19 من جهة ، وبين البلدان التى ظلت متحجرة متمسكة بهياكلها الجامدة وهى البلدان التى نسميها العالم الثالث من جهة اخرى .

عندما نرجع الى هذه الفترة لا نستطيع ان نجد فرقا كبيرا بين المجموعتين ، بل لا نستطيع ان نجد فرقا على الاطلاق يمكن ان يساعد مجموعة من البلدان على السيطرة على مجموعة اخرى من البلدان . انما الفرق بين المجموعتين بدا يظهر لا كما قد يتصور البعض فى المجالات المادية وانما ظهر الفرق اولا فى اندلاع ثورة اجتماعية جعلت المجتمعات الاوروبية تدرك بانه من الضرورى التخلص من الهياكل الاقتصادية التى كانت تسود العالم انذاك والمتمثلة فى النظم الاقطاعية والقبلية للتمكن من الانطلاقة السليمة نحو الرقى والتقدم .

ففى حين ادركت هذه المجتمعات الاوروبية ضرورة الاهتمام بهذه الثورة ، التى هى فى الواقع ثورة ثقافية ، وفى حين استطاع الاوروبيون ان يحققوا تنمية فى المجالات الاجتماعية المختلفة نجد ان البلدان التى نسميها اليوم (العالم الثالث) لم تتمكن من ان تعتق نفسها وتكسر الحواجز التى كانت تحجب عنها نور التقدم ، فظلت تعيش فى الظلام الذى سيتسرب الاستعمار من خلاله .

ومع هذه النهضة الاجتماعية والثقافية فى البلاد الاوروبية ومع انتشار الوعى والادراك فى اوساط الجماهير الشعبية الاوروبية التى رحبت بالنظام البرجوازى الذى كسر قيود الاقطاعية والذى سيكون مقدمة للراسمالية صاحبة الاستعمار الاوروبية الامبريالية ، نرى ان البلدان المتخلفة لم تتمكن بسبب جمود هياكلها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا من التكيف مع المعرج التاريخى : فظلت تعيش فى اطار الاقطاعية والقبلية عاجزة عن فهم وادراك معطيات التحول التاريخى .

وكذا فان الفارق فى مجال الوعى والادراك هو الذى سيسمح للمجموعة الاولى من البلدان ان تسيطر على المجموعة الثانية ولقد بدا هذا الفارق يتبلور ويتضح فى الفترة ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وهكذا ، اذن ، ففى مطلع القرنين المذكورين ، وقعت اهم القارات تحت سيطرة اوروبا الاستعمارية . والواقع ان اوروبا بدات تقسيم العالم منذ معاهدة Tordesillas التى وقعت بتاريخ 7 جوان 1494 . وتنص هذه المعاهدة على تجزئة العالم الى مناطق نفوذ ، وهى معاهدة سرية بين الدول الاوروبية ، تحدد لكل دولة المنطقة التى يمكن لها ان تتوسع فيها وان تقيم فيها مستعمرات . ولقد تم ذلك حسب مقياس اساسى مفاده ان الرؤيا وحدها تكفى لاثبات الحقية فى الاستعمار ومن ثمة صارت الكشوفات والرحلات العلمية عمليات استعمارية تجر الاذلال والاهانات الى شعوب العالم .

ومع تقدم الزمن سوف نرى ان هذا القياس يعدل ، فيضاف الى قضية الاكتشاف مسالة الحماية اى انه لا يكفى البلد ان يكتشف منطقة لتصبح من مستعمراته ، وانما يتحتم عليه ان يعلن حمايته لها وان يكون قادرا على ذلك .

ولقد بدا الاستعمار بطريقة بسيطة جدا ، بداها عن طريق التجارة ، فتاسست شركات تجارية متعددة مثل شركة فرجينيا الانكليزية فى سنة 1606 ، والشركة الهندية ـ الانكليزية ايضا فى سنة 1600 م ويعود الفضل الاكبر لهاتين الشركتين فى انشاء المستعمرات البريطانية فى امريكا الشمالية . ثم هناك الشركة الملكية الافريقية الفرنسية ، التى ستكون سببا من اسباب الاحتلال الفرنسى للشمال الافريقى . ثم شركة الشرق الفرنسية . وهناك ايضا شركات اخرى لها دور فعال فى خلق الاستعمار وتدعيمه .

ومع ظهور هذه الشركات التجارية ، اساسا ، ظهر التنافس بين الدول صاحبة الامتيازات ، ثم استفحل التنافس التجارى وتطور الى ان اصبح صراعا ، تنجر عنه فى كثير من المناسبات احلاف وحروب وتكتلات ، تنتهى فى

معظم الاحيان بمعاهدات لها تأثير كبير على مصير البلدان المستعمرة . ومن اهم هذه المعاهدات : معاهدة مدريد سنة 1670 التى تعترف فيها اسبانيا بشرعية الاحتلال الانكليزى فى منطقة الكرايب . وقبل ذلك استطاعت انكلترا ان تطرد الهولنديين من كثير من المناطق ، ومن جملتها (نيو امستردام) التى صارت تسمى بعد الاحتلال الانكليزى (نيويورك) . ووقع ذلك سنة 1664 .

والمعاهدة الثانية التى تستحق الذكر هى معاهدة باريس التى ابرمت سنة 1763 والتى تضع حدا لحرب السبع سنوات بين انكلترا وفرنسا . وبمقتضى هذه المعاهدة تتنازل فرنسا لانكلترا على كندا وجزر الانتيل ومناطق الهند الصينية الفرنسية والسينيغال فى حين يسمح لفرنسا بمقتضى هذه المعاهدة ان تستولى وتستعمر غوادلوب الواقعة فى امريكا الوسطى .

وهكذا بدا الاستعمار ينتشر فى مختلف انحاء هذا الذى نسميه الآن « العالم الثالث » . وكلما ازداد انتشاره كان يوجه الاقتصاد فى هذه البلدان بحيث يتركه تابعا وخاضعا للاقتصاد فى الوطن الام . لاجل ذلك جعل اقتصاد المستعمرات يركز اساسا على التصدير

ولم تكن اوروبا قادرة على استغلال الاراضى الشاسعة التى سيطرت عليها فى مختلف القارات وخاصة القارة الامريكية ، لذلك لجات الى عمل توحشى دنىء يتمثل فى نقل الافارقة كعبيد لخدمة المغارس وتنمية سائر القطاعات الاقتصادية فى المستعمرات الجديدة ، وبذلك خلقت ذلك المشكل الذى ما زال العالم يعانى منه وهو مشكل التمييز العنصرى ، فقد يقال ان رؤساء وملوك هذه الدول الافريقية هم المسؤولون عن تجارة العبيد لان ذلك كان يتم بموافقتهم . ولكن الواقع ان الدول الاوروبية هى صاحبة المسؤولية الاولى ، لانها فى كثير من الاحيان كانت تضطر اولئك الرؤساء تسليم يد عاملة كانوا ياخذونها بارخص الاثمان واذا كانت هذه التصرفات الاوروبية قد تسببت فى خلق مشكل التمييز العنصرى فى بعض المناطق ، فانها قد تسببت فى اضعاف افريقيا ، لان معظم الذين يؤخذون عبيدا ، انما كانوا يختارون من بين النخبة التى قد تشكل خطرا على الحكام فى ذلك الحين والتى يستحسن ابعادها للتخلص منها . وتذكر المصادر ان اوروبا نقلت من افريقيا فى الفترة ما بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر حوالى 100 مليون نسمة ، قد يقال ايضا اين ذهب هذا العدد الهائل ؟ - والجواب بسيط ، فان معظمهم كان يموت تحت السوط والتعذيب وهو يخدم المغارس او يبنى المصانع ، وبهذه الطريقة صارت اوروبا المستعمرة قادرة على السيطرة على باقى الشعوب التى وقعت فى قبضتها ، وراحت تستخدم ثرواتها الهائلة لخدمة اقتصادها وتنمية هياكلها وتثبيتها بحيث تصبح قادرة على ضمان المردود القار والمتزايد باضطراد ، لان هذا الوضع هو الذى يخلق الفارق بين الدول المسيطرة والدول المسيطر عليها ، وهذا الفارق هو الذى سوف يمكن المجموعة الاولى من ان تتصنع على حساب دول المجموعة الثانية ، وهكذا ينشا العالم الثالث .

وحيثما حل ، فان الاستعمار قد مر بمراحل ثلاث تكاد تكون متشابهة فى جميع انحاء العالم . وبما اننا لا نستطيع التعرض لهذه المراحل وتطورها فى كل بلد على حدة ، فاننا نركز دراستنا على مثل الجزائر الذى هو نموذج حى فى نظرنا .

اما المرحلة الاولى ، فانها تبدا ، عادة ، بالاتصال المباشر مهما كان نوعه ، وتتسم خاصة بالسيطرة العسكرية والسياسية .

وفى الجزائر ، بدات هذه المرحلة سنة 1830 ؛ وكانت فى اساسها تحد اجنبى استهدف سيادة البلاد بحجة الثار للكرامة فى حين ان الاسباب معروفة وهى كثيرة لا علاقة لها بالشتم والاهانة كما يدعون . وقوبل التحدى بالتحدى المتمثل فى تلك المقاومة المسلحة المستمرة التى لم تهدا طوال الثلثين الاخرين من القرن التاسع عشر .

واهداف هذه المرحلة فى الجزائر كما هو الشان فى جميع البلدان المسيطر عليها واضحة نستطيع حصرها فيما يلى :

1) القضاء على السيادة ، وهو امر كثيرا ما لا يتم الا بالتدخل العسكرى .

2) العمل على ابقاء القطاع التقليدى وتدعيمه فى المجال الاقتصادى ، او قد كان ذلك بواسطة تشجيع عقلية الاهالى الجامدة التى ترفض جميع انواع التطور ، ويتمثل هذا التشجيع فى ارهاب الاهالى وصدهم عن مسايرة الرقى الذى يتم فى مختلف انحاء العالم . وعلى سبيل المثال نذكر ان الفرنسيين كانوا يحذرون سكان الريف من شراء المعدات الحديثة ويساعدون على ان تنشر فى اوساطهم اساطير وخرافات تنفرهم من ذلك .

3) خلق قطاع يسمى ظلما بالقطاع العصرى ، يهدف الى ايجاد مصادر ثابتة لتزويد الاقتصاد فى الوطن الام بالمواد الاولية الضرورية لمختلف منشاته ، ولتسيير هياكله وتدعيمها من جهة والايجاد لسوق مربحة لترويج المصنوعات الاستعمارية من جهة اخرى .

وللحفاظ على هذا القطاع الحيوى بالنسبة للمصالح الاستعمارية ، فان هذه الاخيرة تعمل دائبة على تكوين يد عاملة من الاهالى قادرة على فهم جزء من التطور التكنولوجى الذى يتم فى الوطن الام . وهى بهذه العملية تضرب عصفورين بحجر واحد . فمن جهة توهم السكان بانها مهتمة بترقيتهم وخدمة مصالحهم ، ومن جهة اخرى تعيد استثمار المنشآت الاقتصادية المتجاوزة لتظل فى خدمة الاقتصاد بالوطن الام .

ويترتب عن هذه المرحلة الاولى من الاستثمار نتائج اساسية اربع هى :

1) اتساع الهوة بالنسبة للفارق التاريخى بين الكيانين المستعمر والمستعمر ، وقد كان يكاد يكون غير موجود فيما يتعلق بالجزائر . ودليلنا على ذلك كتب التاريخ التى تثبت فى معظمها بان الجنوب الفرنسى ، كان قبل الاحتلال يعيش عالة على الشرق الجزائرى .

2) التصاعد الديمغرافى او الانفجار السكانى فى البلد المستعمر ، ذلك ان هذه المرحلة تمتاز بمقدم مجموعات هائلة من المستعمرين يتطلب استيطانها توفير اسباب الحياة والرفاه ؛ ومن جملة هذه الاسباب بناء المستشفيات والمستوصفات لتحسين الوضع الصحى .

وعلى الرغم من ان هذه المنشآت الصحية لم تعد لا بناء الوطن ، فانهم قد استفادوا منها بالضرورة ، وساعد ذلك على ان يتضاعف عددهم ، وعلى ان يظهر داء جديد لم يكن معروفا من قبل ، ويتمثل فى الهجرة على مختلف انواعها .

3) الصراع بين حضارة المسيطر والمسيطر عليه ، وهو صراع ينتهى دائما بالقضاء على حضارة البلد المستعمر او تشويهها تشويها قريبا من المسخ على اقل تقدير .

4) الوعى والادراك : ذلك ان النتيجة السابقة تساعد الاهالى على ادراك بعض الامور التى كانت عقولهم عاجزة عن فهمها من قبل ، ولقد ادى هذا الادراك فى الجزائر الى ميلاد ما يسمى بالحركات الوطنية التى هى فى الواقع تعبير عن رفض الاهالى الذى يقسم عادة الى نوعين :

ا – نوع ياتى فى شكل الحركات السلفية او حركات الاصلاح ، وهو خاص برفض العادات والتقاليد البالية باعتبارها اساس الجمود والشرور ، وكذلك رفض انماط الحياة الاستعمارية المستوردة .

ب – وهو النوع الذى يتجاوز الاصلاح الى المطالبة باسترجاع السيادة .

ولقد كان الاستعمار يهتم كثيرا بهذه النتيجة الرابعة ويتابع تطورها ويدرسه عن كثب بحثا عن الحلول التى تمكنه من ايقاف التيار الجارف . واحسن حل توصل اليه هو التكيف او ما نسميه اليوم بالاستعمار الحديث .

والمرحلة الثانية او الاستعمار الجديد لان ذلك هو المقصود ، فانها تبدا عادة عندما يحصل البلد المستعمر على استقلاله السياسى ، وتتميز بظواهر ثلاث :

1) تتعلق الظاهرة الاولى بضعف الهياكل الاقتصادية الموروثة ، وانهيار الاوضاع بسبب ما يلى :

ا ـ عدم توفر الاموال والاطارات الوطنية ، وقيام رؤوس الاموال والاطارات المصدرة من البلد المستعمر قديما قيامها : الامر الذى يجعل الاقتصاد خاضعا فى كليته وينحصر فى المواد الاولية المعدنية والفلاحية التى ليس لها مخرج غير السوق الاجنبية .

ب ـ فقر الشعب وعدم قدرته على استهلاك منتوجاته .

ج ـ وجود تعليم لا يتلاءم مع الواقع المحلى ، بل على العكس ، فان التعليم فى اى بلد مستقل حديثا ، كما رأينا فى الجزائر ، تعليم شديد الاتصال بوضع التعليم فى البلد المستعمر سابقا ، مع فارق واحد يتمثل فى كون التعليم الثانى شامل يستفيد منه جميع ابناء الشعب ، فى حين ان الاول لا يفيد سوى فئة قليلة من المواطنين وهى الفئة التى لها استعداد لان تقدم خدمات فى اشكال متعددة للمسيطر السابق ، ولان تقبل انماط الحياة المستوردة والمفروضة على البلدان المسيطر عليه سابقا .

د ـ التصاعد الديموغرافى الذى يطرح مشاكل خطيرة كالبطالة والجهل والمرض الخ ..

هـ ـ الصراع حول انجع الطرق لتقويم الوضع وتدعيم الهياكل الاقتصادية : أيعتمد على الطبقة الجديدة التى كونها الاستعمار وعجنها من طينته وهو ما وقع فى كثير من البلدان العالم الثالث ، ام هل ينبغى اللجوء الى الطبقة الشعبية والتنظيم الاشتراكى .

2) وتتعلق الظاهرة الثانية بحصر التبعية فى المجالات التجارية والمالية والثقافية والتقنية ، وهو النفس الجديد للاستعمار .

فبالنسبة للمجال الاول ، ان الدول الاستعمارية تلجأ بعد الاستقلال الى انشاء شركات كبرى احتكارية لاستغلال الثروات الطبيعية فى بلدان العالم الثالث ولتزويد السوق المحلية . وفى غالب الاحيان يعظم شأن هذه الشركات بحيث تصبح قادرة على التدخل فى شؤون البلد الذى توجد فيه .

وفى المجال المالى يلجأ الاستعمار الى منح مساعدات ومبالغ معتبرة للاستثمار فى الميادين الخاصة والعامة ، ولكنه يعمل على ان يبقى البلد المسيطر عليه سابقا دائما فى حاجة الى المعونة وخاضعا للتبعية بالنسبة للاقتصاد فى الوطن الام .

وفى مجال التربية والثقافية ، تقدم الدول المسيطرة سابقا اطاراتها وثقافتها لتاطير وتنشيط حركة التعليم والتكوين فى البلدان المستعمرة قديما . وفى هذا الصدد تحاول ان تبين بان اللغة الاجنبية هى التى تستطيع وحدها ان تساير التقدم التقنى ، لان اللغة الوطنية عاجزة عن استيعاب العلوم .

ولانجاح هذه المرحلة الثانية يعتمد الاستعمار اساسا ، على فئتين اثنتين :

1) فئة البورجوازيين صاحبة الامتيازات التى الفت الراحة بدون عناء ، ولم يعد لها شعور بالانتماء الى الوطن انما همها الوحيد خدمة المصالح الشخصية .

2) فئة المثقفين ثقافة استعمارية والمتشبعين بالعقليات الاجنبية بعيدا عن الواقع الوطنى . ان معظم هذه الفئة من الاطارات التى كونها الاستعمار ثم عودها على انماط حياته بحيث ابتعدت فكريا عن اهلها وذويها وصارت تعتبر من الطبيعى خدمة المصالح الاستعمارية .

وامام تطور هذه المرحلة الثانية ظهر موقفان اساسيان فى البلدان المستقلة حديثا :

1) موقف القبول ويمتاز بالتكيف مع الاستعمار الجديد وتكييف مخططات التنمية الوطنية مع المخطط الاجنبى . ذلك ان الحكم عند الاستقلال لم ينتقل الى ايد وطنية مخلصة ، وانما ظل فى ايدى طبقات لها ارتباط متين بالمصالح الاستعمارية فى الوطن الام سابقا .

ومن مميزات موقف القبول التركيز على السياحة للاستجابة الى حاجيات سكان البلدان المصنعة ، وفسح المجال للثقافة واللغة الاجنبيتين وكذا لاستيراد المزيد من

انماط الحياة والقيم الامبريالية والتشجيع على خلـــق الطبقات وتدعيمها .

2) موقف الرفض ، ويأتي هذا الموقف نتيجة تفطـــن القيادة الى ان الاستعمار الجديد بمختلف وسائله يشكل كابحا يعوق سير التنمية الاقتصادية . اما اهدافه فهي :

ا ـ الغاء اشكال التبعية مهما كان نوعها .

ـ العمـــل على ايجـــاد استراتيجية مستقلة للتنمية الاقتصادية ، وهذا يتطلب :

ـ الغاء العلاقات التجارية والمالية والنقدية التي كانت تربط البلد المتخلف بالوطن الام سابقا .

ـ العـــمل على تأميم المؤســسات الاجنبية في جمـــيع القطاعات ، وتحديد اسعار المواد الاولية مع رفع نسبـة الرسوم على الاستثمارات غير الوطنية .

ـ العمل على الاستغناء عن المساعدة التقنية والثقافية ، والقضاء على نزعات التسلل السيكلوجي وذلك بواسطة السيطرة على مختلف انواع التعليم ، واعادة تقييم اللغة الوطنية في اطار التنمية وتكوين الجماهير .

ـ رفض سياسة التنمية الاقتصادية الامبريالية التي تريد ان تجعل من العالم الثالث متخصصا في انتاج المواد الاولية .

ـ الاستفادة من جميع الفرص ، واستغلال الخلاف بـين الدول العظمى .

ـ انشاء جبهة موحدة ضـــد جميع انواع الاستغلال الاجنبي .

وفي داخل البــــلد المستقل حديثا تصحب كل هذه التدابير بثورات ثلاث : زراعية وصناعية وثقافية .

وامام موقف الرفض هذا تستسلم القوى الامبريالية ، وتروح تعمل على ايجاد احسن الوسائل للتكيف مـــع الوضع الجديد . واسباب الاستسلام واضحة يمكن حصرها في الآتي :

1) ان مطالب بلـــدان العالم الثالث الرافضة صارت تشكل خطرا ما حقا بسبب ظهور الجبهات الموحدة .

2) ان الوضع في البلدان الامبريالية نفسها قد تغير .

ومن ابهر الامثلة في قضية الاستسلام والتكيف هذه مثال الجزائر من 1954 الى 1971 .

وسواء كان الرفض او القبول ، فان التحولات في العالم تدفع البلدان المصنعة الى ايجاد نوع جديد من السيطرة ، وهي التي بدات في مستهل هذا العقد ، وهي ما نسميه بالمرحلة الثالثة .

واذا كانت المرحلة الاولى تعمل على التوسع الاستعماري والمرحلة الثانية على التكيف فان المرحلة الثالثة تلجـــا الى الحزلة للحفاظ على امتيازات الامبريالية والسماح لها بمواصلة امتصاص خيرات العالم الثالث وذلك بطـــرق مختلفة اهمها : التعاون والمساعدات الاقتصادية .

وامام هذه العلاقات الجديدة يتحتم على العالم الثالث القيام بتحدي التحدي وهو امر يستحيل الا على المجتمعات التي تغير هياكلها الداخلية ، وتفهم المرحلة التاريخية التي يجتازها عالم اليوم فتفرض على البلدان المسيطـرة ما يمكن فرضـــه ، ثم تتكيف مـــع السيطرة الجديدة ، لا لقبولها ولكن للتمكن من القضاء عليها ، وهذا لا يكون الا اذا وجد رجـــال يفهمون ضرورة ربـط استراتيجية الاقتصاد الوطني المستقل والثورة الاجتماعية الدائمـــة بالواقع الذي يمليه الاقتصاد العالمي .

وفي الخلاصـــة ، فان العالم الثالث موجود ما وجـــد التخلف الاقتصادي ، ولا يمكن ان يكون هناك تحـــرر اقتصادي ما لم يقض على البنيات الاجتماعية والهياكـــل الاقتصادية القديمة ، وما لم تنشا ، في مستوى البلدان النامية مجموعات اقتصادية كبـــرى على غرار الســـوق الاوربية المشتركة والمجموعة الاقتصادية الاوربية .

على هامش ملتقى «الضمير الإسلامي والضمير المسيحي»

من الذهب الاسود الى الحجر الاسود

د. هشام بوقمرة
أستاذ مساعد بمركز الابحاث
والدراسات الاقتصادية والاجتماعية ـ تونس

انتظم فى تونس بين 11 و 17 نوفمبر 1974 ملتقى دوليا ، تحت عنوان « الملتقى الاسلامى والمسيحى » ، وكان موضوعه : « الضمير المسيحى والضمير الاسلامى فى مواجهتهما لتحديات النمو » وقد شاركت فيه ثلة من الباحثين والاساتذة المختصين ، بعضهم من تونس والبعض الآخر من بلاد اجنبية ، نذكر منها المغرب ، ومصر ولبنان وفرنسا ، وهولندا وسويسرا ، وغيرها ، واشرف على سيره والاعداد له « مركز الدراسات والابحاث الاجتماعية والاقتصادية » فى تونس ، بتعاون مع « المركز الثقافى الدولى » بالحمامات .

وقد يبدو مبدئيا للبعيد عن هذه المشاغل ان هذا الملتقى كان لتصفية الحساب ، بين ديانتين اصطدمتا كثيرا وحمل ضمير كل واحدة منهما للاخر الاظغان والاحقاد ، ولكن حسن التنظيم والانتقاء والاشراف الممتاز الذى اضطلع به مدير مركز الابحاث الدكتور عبد الوهاب بوحديبة ومستوى الدراسات التى قدمت . جعلت المؤتمرين يتجاهلون « الحساب » ويطوون الصفحة البالية ، لينظروا معا الى المستقبل الى الازمة الموحدة التى يواجهها التفكير الدينى ، والى الطريق المتداخلة المازق التى تترامى فيها القيم الروحية السماوية ، اى الى واقع اليوم ، بتحدياته وماديته وعنفه وضلاله الروحى . وما يحمله المستقبل من ضغط الحركة الالية ، وتراكم المنجزات ، وتسارع السباق نحو المنافع الآتية ، وتكدس المطامع فى الذى ياتى !

وان نظرة عجلى الى عناوين بعض المحاضرات التى القيت وهى ليست بالطبع اهمها ، تكفى لتحسس المشاغل المشتركة التى تطبع الضميرين الباحثين اليوم معا عن طريق نجدة واحدة :

ـ رسالة الاديان فى العصر الحديث لعبد الوهاب بوحديبة

ـ دور الاسلام فى بناء الانسان المعاصر لعبد العزيز كامل .

ـ الاسلام والعنف لعبد المجيد الشرفى .

ـ المذهبية فى الاسلام للحبيب الفقيه .

ـ الايمان فى الاسلام لمحمد قشيش .

ـ المعرفة ، قيمتها وحدودها فى نظر علماء العرب لمحمد السويسى .

ـ فكرة التقدم عند المفكرين الاسلاميين القدامى لسعد غراب .

ـ الاسلام والتاريخية والتقدم لمحمد اركون .

هذا بالنسبة للجانب الاسلامى ، فاما بالنسبة للجانب المسيحى فاننا نجد من بين المواضيع المطروحة :

ـ حصيلة وءافاق الدراسات التوراتية للسيدة سميت فلورنتان .

ـ المسيحية امام التاريخ والتقدم للاستاذ ارنالداز .

ـ نظرات مسيحية فى التكنولوجيا لجون تايلور .

ـ نظرات مسيحية فى تعدد الثقافات فى العالم المعاصر للويس غاردى .

ـ نظرات مسيحية فى التزايد الديموغرافى المعاصر لفانسان كسماو .

وليس فى نيتى ان اتعرض فى هذا الحديث ، الى هذه المحاضرات ، بالعرض او بالنقد ، فمادتها وفيرة جـــدا . واختصاصاتها متشعبة ، والطرق التى عالجت بها مواضيعها تتراوح بين الاتباعية التقليدية المفرطة والعلمية الاكاديمية المتعقلنة ، والمستقبلية الجريئة ! ولكنى اود ان اصـــور الانطباعات العجلى لمثقف تونسى واكب كل اعمال هذا المؤتمر وحاول من خلالها اما الاغتناء او الاستغناء ، ولكنه كان فى كل الحالات حساسا لهذا التلمس الجماعى الذى يعكس فى الحقيقة احدى المعطيات الكبرى للضمير المعاصر .

مـؤتمرات سابقـــة

ليست هذه اول مرة ، وهذا امر يجب ان يقال ، يلتقى فيها علماء مسلمون ومسيحيون فى مثل هذا المستـوى ، فلقد بدات المحاولات منذ اكثر من عشرين سنة ، عندما تكون فى القاهرة بين 1948 و 1952 فريق « اخوان الصفا » وهذا المنطلق التاريخى كالمؤشر الاحمر فى العلاقة المعاصرة بين الفرقتين المسيحية والاسلامية ، اذ انه فى الوقت الذى انقضت فيه الهمجية الصهيونية على فلسطين ، بدا السعى المسيحى الاسلامى للتقارب ، ليس الامر اذن من بـــاب الصدفة . وستبقى القضية الفلسطينية الخلفيـة الحقيقية التى تحرك الجانبين ، والموجـــة التى تحمل اتجاهاتهما ، صعودا وهبوطا ، نحو البحث عن تجاوز نظرى ممكن ، الى آفاق قد لا تغشيها السياسة .

هكذا اذن سنرى انه بعد حرب الستة ايام . ينعقـد مؤتمران كبيران ، فى نفس المستوى ، الاول فى عجلون سنة 1970 والثانى فى برمانا بلبنان سنة 1972 .

ثم جاءت الجـــولة الرابعة ، فى مقابلة مصير منطقـــة الحضارات ، فالتقت الجيوش العربية مرة اخرى بالجيوش الاسرائيلية فى اكتوبر 1973 ، وضرب الحظر على البترول ، واهتزت الاعصاب الحية فى الحضارة الصناعية الاوروبية ، وارتعدت فرائص الغرب ، فى الوقت الذى ظهر فيه العرب للمرة الاولى فى مركز قـوة !

هذه المرة ستتسارع الحركة بشكل مذهل ، وتكاد تصبح اللقاءات شهرية خلال سنة 1974 :

1 ـ فى ماى لقاء فى كولومبو حول « الروحانيات فى الاديان » .

2 ـ فى جويلية لقاء فى اكرا بجامعة غانة ، دعا اليه المجمع المسكونى للكنائس وكان موضوعه « وحدانية الله فى المجتمع الافريقى » وكان هدفه تحقيق التعاون بـين المسلمين والمسيحيين فى افريقيا .

3 ـ فى اوت لقاء فى لوفان ببلجيكا نظمته « الندوة العالمية للاديان والسلام » .

4 ـ فى سبتمبر لقاء كبير فى قرطبة ـ عاصمة الاسلام الماضية فى اوروبا ـ نظمته جمعية « الصداقة الاســلامية المسيحية فى اسبانيا » وكان هدفه تعميق التفاهم المتبادل بين المسلمين والمسيحيين .

فى نفس هذا الوقت ، وللمرة الاولى ، يقوم وفد مـن علماء المملكة العربية السعودية بزيارة واسعة فى اوروبا ويستقبل من طرف السلط الرسمية والعلمية ، ثم ينتهى به المطاف امام البابا راس الكنيسة ومسجد جراح السيد المسيح ! !

قبل عشر سنوات فقط ، لم تكن هذه الاحداث تخطـر فى الخيال ، وكان الاسلام شيئا نظريا فى صدور المشتغلين

بالاديان يلقون ما يعرفونه عنه فى قاعة درس مغلقة ، ويسلمون فى قضاياه دبلومات وشهادات للتصدير !

فما الذى حدث ؟

اهى حقا ، فقط ، الاستفاقة الواعية للضمير الدينى فى كل انحاء الارض يحاول ان يقتلع رقبته من تحت مقصلة التكنولوجيا المهددة بالاكتساح ؟

الامر فى رايى يتطلب قسطا من الصراحة ، اى حسن المشى على الارض ، بعد ترك العمائم على المشاجب وتعليق معاطف الضمائر المتحيرة ، المتحيرة وراء الباب !

الذهب الاسود والحجر الاسود

قد يتسابق الكثيرون الى القول : هى ذى المسيحية جاءت تستغفر ، وتكفر ، وتتوب ! الصليبيون ، والبعثات التبشيرية ، والمؤتمر الافخارستى ، عاد اليهم الرشد ! اقبلوا يتوضؤون بالبترول ويتيممون على القسطاط ، ويؤمون الكعبة ـ الذهب الاسود والحجر الاسود ، فى نهاية المطاف !

لا ! قصة الاسلام مع المسيحية معروفة ، هذا صحيح ، ولكنها ايضا معروفة عن طريق الذاكرة الخائنة ، السريعة ، الناسية ، او المتناسية ! اليست قصة عدوان متبادل ؟ يشتد باشتداد القوة وتنازع المصالح ، لقد جاء الاسلام متمما لكل الاديان الاخرى ولكنه ايضا ناسخ لها ، فهو اذن نفى لها ـ بدء القصة اذن اننا نفى منذ المنطلق وجود الطرف الاخر ، اى النصرانية ، كطرف مستقل ومتميز . نفينا ، ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكننا نفيناه ايضا بالسيف فى الرقاب ، وبالجزية يدفعها اهل الذمة . لا يعنى هذا ان الاسلام يمنع وجود النصرانية الفعلى فى دار الاسلام ، وانما انه ينفيها كوجود روحانى .

عادت المسيحية بعد ذلك على الاسلام تحمل الــهوية النصرانية الصليبية ، فى محاولة من اوروبا الجاهلة الجائعة ان تلوح للكادحين الثائرين بالخبز فى بيت المقدس وبالخمر يقطر من جراح يسوع : انا رفض الاله المعصوم السماوى ان يخرج من فلسطين ، فلتنتقل اليه اقتاعه الجائعة العطشى ! مع الحروب الصليبية اذن ، يتحد تاثير العامل الاقتصادى الذى كان موجودا ايضا فى عملية الفتح الاسلامى ، وهكذا فان الجيوش الاسلامية ستخرج مرة اخرى من ارض الشمس ، لتبحث هذه المرة ، مع الاتراك ، عن مكان لها تحت الضباب والعتم الاوروبى .

وعندما اصيب العملاق التركى بالتضخم وسوء الهضم واصابته السمنة ، فمرض وتهالك ، عادت النصرانية من جديد ـ تحملها بعثات التبشير الى بلاد الاسلام ، لتكون طلائع الاستعمار وفرقه الاستكشافية الاولى ، ثم « حليفه الموضوعى » .

ان هذا الكلام قد يزعج بعض اصحابنا من ذوى الضمائر المسيحية الطيبة او التى تداعت اليوم الى الطيبة ، ولكنه ـ ان لم يكن الحقيقة التاريخية كلها ، فهو جانب منها ، ويبقى ان الجانب الاخر ان لم يكن استعماريا سياسيا فهو منافسة مباشرة للاسلام تستهدف اما طرده او استقطاب بعض جموعه ، لان الحركات التبشيرية ، فى اتقى حالاتها ، هى حركات منافسة ، فهى اذن عدوانية بوجه من الوجوه .

هذا كلام الماضى ، قد تقولون ! ولكن هذا الماضى القريب لا يزال حتى اليوم يؤثر بشكل فعل وحاسم فى تحركات الحاضر ، وايضا فى ملامح المستقبل . هذه قيما يلى بعض المؤشرات التى يحسن ان توضع تحتها اسطر غليظة :

تحديد النسل

قال البعض خلال الملتقى الاخير بان لكثير من الاباء النصرانيين اهدافا محددة مقصودة فى الدعوة الى تحديد النسل ، وتهويل هذه الدعوة ، ونشرها بشكل واسع بين المثقفين المسلمين ، وهم يستجيبون بذلك الى العديد من الدعوات التوراتية المعروفة ــ بصورة اوضح ، انهم يسعون الى الحد من الكم الاسلامى ، لان ازدياده يهدد بالطبع المسيحية ــ الكلام فيه شيء من المبالغة ــ لا شك ، ولكنه

يبحث على الحيرة . لماذا ؟ اولا لان القضيــة الديموغرافية هى اساسا قضية اوروبية ، تعانى منها المجتمعات الغربية المتضخمة ولا يوجد اطلاقا اى مجتمع اسلامى بلغت فيـه كثافة السكان النسبة الخطيرة التى بلغتها فى هولندا مثلا ، ولذلك فالدعوة الى تحديد النسل فى البلدان الاســلامية امر سابق لاوانه ، وغاية ما فى الامر انه يمكن ان يدعى الى تنظيم العائلة وفقا لامكانيات النمو فى كل بلـــد ، وطاقاته وموارده ، دون ان يكون ذلك عن طريق فرض حكـــومى مخطط ، وانما بالتوعية وبـــث الثقافة وروح المسؤولية وفقا للمبادىء الاسلامية ذاتها التى تحث على ذلك

لتقييم هذا الموقف ، يجب ان لا ننظر فقط الى واقـــع مجتمعاتنا فى تونس او مصر مثلا ، وانما ان ننظـــر الى افريقيا حيث نجد ان طرح المشكلة السكانية سابـــق بالفعل لاوانه !

التسابـق
فى افــريقيا

فى افريقيا بالذات ، وعندما نبتعــد عن المجاســلات النظرية ، نجد ان الاســـلام والمسيحية ، يتسابقون فى صمت ، ولكن بشكل يكاد يشبه معركة السلاح الابيض ! القارة الافريقية السوداء غنية بالموارد الطبيعية المختلفة ، وفقيرة فى امكانياتها البشرية والحضارية والاسلام متغلغل فيها بشكل اوسع واقــــدم من النصرانية المـــرتبطة فيها بالحركة الاستعمارية ، اى التى تعانى طبعا من تساقطات حركات التحرير المختلفة ، وهو امر لا يعانى منه الاسلام ، بل قد يؤدى التقييم الموضوعى الى القــول بان رصيـــد الاسلام فى افريقيا انظف ، وحظوظه فى تحسين موقفـه الحضارى ونفوذه الروحى اكبر من حظوظ المسيحية .

اذن شئنا ام ابينا ، لا بد من طرح السؤال ، عنـــدما يتعلق الامر بستراتيجية العمل الاســـلامى فى افريقيا : من المستفيد ؟

الســم فى الــدسم

قد يشيح البعض بوجهه عن مثل هذه الحسابات طلادية، ويقول : تماما ان هذه المساعى تهـــدف الى الخروج من المنافسة الى المؤالفـــة ، من التصارع الى التناغـــم ، من السلاح الابيض الى الايادى البيضاء ! لا ، لست موافقا ، لاسباب عديدة ، اهمها ان الغرب قد عودنا على « الســـم فى الدسم » وثانيها اننى لا اركن الى النظريات مهما كان رونقها ، لاننى اولا اؤمن بواقع كل يـــوم ، بمركباته ، وعقــــده ، ومخلفاته واصطداماته ، وثالثها ان التاريخ ملىء ـ بل قد لا يكون التاريخ غير هذا ـ برجال الــدين والفكر والتامل البريئين الذين كانوا منطلــق ـ واحيانا لعبة الصانعين الحقيقيين للتاريخ : رجال السياسة ، ورجال المال ، والاقتصاد ، والمؤسسات المستقلة !

ثم ما هو الهدف من كـــل هذه « الحركة التوفيقية » حتى على المستوى النظرى ؟ اهو الخروج بنظرية ثالثة ، اى بدين جديد ؟

ان بين المسيحية والاسلام فرق جـــوهرى ، وهو ان المسيحية دين روحانى ، بينما يجمع الاسلام الدين والدنيا الاسلام ذو ابعادات عريضة تنهض لها المسيحية يومـــا ، فهو بالاضافة الى العلاقة بين العبد وربه ، ينظم العلاقات بين الافراد داخل مجتمع ذى قوانين مضبوطة موضوعـــة وسلوك متميز ، فالمساعى التوفيقية لا يكون لها الا احد هدفين ، نذكرهما لاننا لمسنا بعض آثارهما ، فاما تعميق الروحانيات فى الاسلام ، اى تقليص تدخله فى مستوى الواقع ، اى مسخه ، واما تطعيم النصرانية بالدنيوى ، وهو امر لا سبيل اليه ، لان المجتمعات المسيحية المعاصرة قد انهـــت تنظيمها عـــلى اسس من العلمانية والشرعية الانسانية لا الالهية ! ثم ان تلك المجتمعات قد خاضـــت حروبا ضروسا للتخلص من الكنيسة ورقابة الكهنوت !

الاســلام ، أى اســلام ؟

ونحن نتحدث عن الاسلام ، بالمناسبة ، اى اســـلام ؟ اليوم ، واكثر من اى وقت مضى ، لم يعد الجواب فرضـــا

اوليا ، اى مسلمة من مسلمات البحث . لقد كان هنالك الاسلام الشيعى والاسلام السنى ، والخارجى ، واليوم يوجد ما قد يسمى بالاسلام « الحضارى » : اسلام اولئك الذين يقولون انهم مسلمون لانهم ينتمون الى المحيط الحضارى الذى فعل ويفعل فيه الاسلام . هؤلاء ، منهم الماركسيون ومنهم الفلاسفة المتلاحدون ! وفيهم الذين وان كانوا لم ينبذوا الايمان – بمفهومه الاسلامى – فهم يجردونه اقصى التجريد ، متجاوزين « من عرف سر العبادة سقطت عنه العبادة » الى الاكتفاء بنظرية مقنعة غاية الاقناع مبسطة غاية التبسيط ، تدل فى نهاية الامر على انبتاتهم فى مستوى التراث الموروث ، لعدم قدرتهم على التاقلم معه وعلى عجزهم عن تخطيه ، لانهم تحت تاثيره لا يستطيعون النهوض بانفسهم نحو الالحاد المطلق !

ودون اولئك وهؤلاء ، يوجد اسلام الناس جميعا اسلام يجر وراءه مخلفات قرون طويلة من الضلالة والجهل ، يكاد يكون وثنيا احيانا ، طمست معالمه الشعوذة والطريقة والدجل المستصلح لمنافع طبقة ترتزق باسم الماضى ، ولا تزال تطمسه الوصوليات السياسية المتزلفة الى عواطف الرعايا بالله تارة وبماركس تارة اخرى . هذا الاسلام اسلام كل يوم اسلام علماء الاجتماع وذلك الاسلام الاخر يخطئان فى رايى ، لان الاول يقتل الواقع باسم تجريد النظرية بينما يمسخ الثانى النظرية باسم عبادة الراهن .

ازمة الاسلام

الازمة التى يعانيها الاسلام ازمة واضحة محدودة وهى ليست ازمة روح بقدر ما هى ازمة دنياه الازمة فى رايى ان الاسلام يدعى تنظيم الحياة كلها ، دنياها واخرتها ، وهو اليوم لا يكاد ينظم شيئا ! .و على الاقل لا ينظم الا القليل فى مجتمعات قليلة ، لقد ظل الاسلام على المستوى التجريدى متماسكا ، بل يمكن القول من هذه الناحية انه اكثر اديان الارض تماسكا ، لاعتماده على نصوص بينة محددة الحصيلة ولكنه على مستوى الدولة والمجتمع قد تفكك وانفرط عقده ، فالدول « الاسلامية » المعاصرة منظمة كلها – ما عدا السعودية فى مستوى الادعاء السياسى لا الواقعى – على النمط الدستورى والتشريعى الحديث المستنبط من القوانين الموضوعية والشرعية الانتخابية ، والمجتمعات الاسلامية كذلك قائمة على علاقات علمانية تستوحى قواعدها من الموضوعات الغربية ، صحيح ان الاسلام هو مصدر تشريع فى كل البلدان الاسلامية ، ولكنه فقد وحدانيته التى بنت حضارته السابقة ، لانه اصبح مجرد احد مصادر التشريع ، وصحيح ان المشرعين فى اغلب البلدان الاسلامية يراعون ان تكون مقتبساتهم القانونية موافقة للشريعة الاسلامية ، ولكن الفرق هنا دقيق ، فهم يقيسون اثوابا مستوردة على الاسلام يحاولون ان يلبسوه اياها ، فلم يعد هو المنطلق ولا دائرة الاستنباط ، وانما اصبح وسيلة لتبرير مجموعة من الافكار والمعاملات التى تولد وتوضع خارجه ، بهذه الطريقة المعتمدة على الالحاق ، يمكن ان يوجد فى الاسلام كل شىء ما اتى وما سياتى !

الاسلام اذن ، اسلام المعاملات خاصة ، هو فى غربة فى دار الاسلام ، ضربت عليه الايديولوجيات الحديثة الجزية ! هل يعنى هذا ان الاسلام نفسه يتجه فى نهاية الامر الى التجريد النظرى ، فيكون فى ذلك احد العناصر النفسية فى هذا التلاقى مع المسيحية ؟

المسيحية هى المبادرة

ولكن المسيحية اليوم هى التى اتت تسعى الى الاسلام . هذه نقطة لابد من ابرازها . ان النصرانية هى التى تخطب ود محمد ، فالملتقيات التى ذكرتها فى اول الحديث جاءت المبادرة بها من الجانب المسيحى ، ولم يبادر الجانب الاسلامى الا بالدعوة الى تنظيم الملتقى الاخير الذى انتظم ببلادنا ، واذا كانت المسيحية قد سعت الى الاسلام بهذا الشكل اليوم ، فلانها تلقت الاشارة المذهبية من الفاتيكان الذى اصدر « توجيهات » بخصوص فتح الحوار

مع المسلمين ، بعد أن كان منذ سنتين برأ ذمة اليهود من دم المسيح المتخلد فيها ! بدون فديه !

مرة اخرى نعود الى القضية الفلسطينية !

ان الكنيسة هى التى كانت منعزلة عن الاسلام ترفض رؤية وجوده ، كما كانت فى كل صلاة تبلل اظافرها بدم يسوع ، ابن اليهود ، وصليب اليهود ! ولكن العمل الدائب الذى قامت به الصهيونية لرفع اللعنة ، مستعملة لذلك كل أنواع النفوذ المالى والكهنوتى ادى الى تبرير ساحة اليهود فى ساحة القديس بطرس ! غير ان الجرح كان ثخينا مميتا فى صدر السيد المسيح ، ولذلك لم تغفل الكنائس المسيحية الشرقية ، فى البلاد العربية خاصة ، عن ربط القضية الدينية بالقضية السياسية فعدل الفاتيكان اتجاهه بعد سنة من ذلك .

ولكن هذا التعديل فى الاتجاه ، نحو الاسلام ، قد جاء نتيجة لعامل آخر اكثر حساسية وتاثيرا ، اذ ليس من باب الصدفة اذ تاتى المساعى المسيحية فى اعقاب حركة تصفية الاستعمار فى افريقيا ، وان تزداد اتساعا وشمولا بعد ان انصاع البرتغال لحتمية التاريخ ! فقد تخلصت المسيحية بذلك من العائق الاكبر الذى كان يمنع نموها وتحركها نحو شعوب العالم الثالث . بانتهاء الاستعمار ، استعادت الكنيسة بكارتها واصبحت تستطيع ان تخطب الود من جديد !

ولكن انتهاء الاستعمار ، وهذا يقودنا الى عامل ثالث قد ابرز فى العالم قوى جديدة منافسة على المستوى الحضارى والاقتصادى ، تحاول ان تجعل من الاستقلال السياسى منطلقا لمركز كونى جديد . فى الوقت الذى تتداعى فيه القوة والحضارة فى اوروبا ! وهذه القوى اكثرها اسلامية او يغلب عليها الاسلام ! فالشرق باحتياطيه الضخم من النفط ، مسلم . وشعوب كثيرة فى افريقيا ، ذات الثورة والعدد مسلمة ، ومصير العالم المستقبل سيتحدد حتما بمصير النمو فى هذه المناطق ، ايعنى هذا ان الكنيسة دخلت التسابق على النفوذ المتجدد بوجه آخر ؟ قد يكون !

لكنى اظن ، وتجربتى الطويلة فى فرنسا تدفع نحو هذا الظن ، ان المجتمعات الغربية حائرة بالفعل مريضة بالفعل ، مهددة بالفعل ، ولكن هذه العلات التى تصيبها اليوم ناشئة بشكل ما ، ليس فقط عن حضارة التقنية ، ونمو « الاخلاقية الصناعية » التى ارتبطت بالراسمالية المستغلة ، وانما ناشئة ايضا عن استسلام الكنيسة وانسحابها ، وبالتالى عن اختفاء الروحى امام المادى .

ان هذه الامراض نفسها قد صدرتها لنا المجتمعات الاوروبية معلبة ومصبرة ، فبدات تتفشى فى مجتمعاتنا ولكن بشكل طفيف وهامشى ، دون تعمق او توسع ، لسبب بسيط ، وهو ان المجتمعات الاسلامية لا تزال تقوم فيها بعض المظاهر القوية للدين ، حتى وان كانت منحطة عن روحه الحقيقة ، وهى لذلك تقوم مقام اللقاح او بقايا المصل العنيد ، وما ذلك الا لان الاسلام مرتبط بالتنظيم اليومى لحياة الفرد والجماعة وهو ما لم تحققه الكنيسة فى المجتمعات الغربية .

هذه مجموعة من الخواطر العجل اردت ان اسوقها ساخنة كما هى فى اثر هذا الملتقى الذى احتضنته بلادنا والذى تميز عن سابقيه بتنوع الدراسات ووفرة المناقشات وتعدد الجنسيات المشاركة وان كان غياب المسلمين السود ، وغياب الشيعة ، قد حسره الى نوع من الالتقاء بين الاسلام السنى والمسيحية ، الا ان هذا الغياب المادي ، قد عوضته وفرة الاختصاصات بين الحاضرين وتعدد خبراتهم فى كل المذاهب والبلاد الاسلامية .

ولا يفوتنى ان الاحظ ان منحنى المؤتمر فى مجموعه كان فى اتجاه تعميق الدراسة الاسلامية ، والقاء اضواء جديدة ورائعة احيانا على القضايا الحضارية الاسلامية الكبرى ، وهذا اذا كان يساهم بقسط وافر جدا فى حيوية البحوث الاسلامية واغنائها فانه جعل الاسلام يبدو احيانا فى موقف المتهم ، والعكس هو الصحيح !

هذا بالاضافة الى ان المؤتمرين بحكم اختصاصاتهم ومهنهم كانوا يتجهون كثيرا الى ممارسة التجريد النظرى اما فى مستوى المعنى او فى مستوى اللفظ الشعرى

الهروبى او فى مستوى تهويمات المستقبل ولذلك كانت تدخلات الاخ بوحديبة تاتى كالتنبيهات من ان لآخر . عند ذلك تتبدى بعض الحقائق ، ما الذى نستطيع ان نفعله معا ؟ كيف ؟ واين ؟ وفى اى اطار ؟ كيف يمكن مخاطبة الشباب بلغة الروح التى تحمل الامس وهم يعيشون واقعا مشحونا بالتناقضات ؟ ثم ايضا وبصراحة ، بعد تـرك المجاملة ، لا بد من تصفية الحساب ! ماذا تعرفون عنا ؟ وماذا نعرف عنكم ؟ تعالوا اذن الى كلمة سواء ! المسلم بطبيعة اسلامه يحمل فى ضميره المسيحية ، لانها جزء من اسلامه ، لذلك فان العداءات التاريخية لم ترتبط عنده بالدين المسيحى ، وانما بالنصارى ! المسلـــم منذ قرون طويلة فرق بـــين المسيحى ودينه ، لانه لا يستطيع ان يحطم جزءا من ايمانه ولذلك فان اصطدامات الماضى القريب تقترن فى ضمائـر الناس باعمال « الرومى » دون ان تمس فى شىء عقيـدة هذا الرومى ، بـــل كانى بالجماهير الشعبية فى عملية التفريق هذه بين الدين وحامله ، قد تناســت تماما ان يكون الرومى يحمل « المسيحية » تناست تماما ان يكون له دين ، لتحافظ فى ضمائرها على طهارة مـريم العذراء وابنها الرســـول ، وكيف لا ، وهى تردد فى صلـــواتها وتهجدها وتراويحها « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » ! وكم من رجل حى بيتنا ردد هذه الاية فى صلاته ، ثم خرج حاملا رشاشة ليعترض طريق رجل آخر يعبـــد من كان هو يصلى باسمه ! !

وماذا فى الجانب المقابل ؟ كتب لا تزال حتى اليوم فى المدارس الثانوية والعالية ، لا تخصنا الا ببعض الصفحات الهـزيلة المحشـــوة بالمغالطات والموضوعات الاستعمارية والتقولات المشبوهة ! ان بعضنا او بعض ابنائنا قـــد نشأوا على هذه الكتب وتربوا بها ويعلمون ما فيها !

اذن امام المسيحيين هنا مسؤولية تنتظرهم وتضعهـــم تحت الاختبار ! ان مساعيهم الجدية فى مثل هذا الباب ستكون المحك الحقيقى لمعرفة الافكار الخلفية التى يجرونها وراءهم عندما ياتون الى مثل هذه اللقاءات !

المسؤولية كبيرة فى الجانب المقابل ! اذا كنا نعانى فى بلداننا الاسلامية من مشاكل النمو الصناعى ، فلاننـــا استوردنا ادوات النمو وكذلك مشاكله ! والمسؤولية كبيرة اذن فى جانبنا ايضا ، نحن الذين بهرنا بالمنجزات الصناعية الضخمة فتهافتنا عليها تهافت الفراش على النار ، تماما كما يتهافت الاعمى فى دوامة انفجار ذرى .

« الانسانية اليوم تتطلع الى نهاية هذا القرن بشديد القلق وعظيم الارتباك والديانات الكبرى بقيت الى زمن ليس ببعيد خارجة عن كبريات مشاكل العصر ، وشبابنا المتعطش للرقى والنمو لا يلـجا الا قليلا الى الاديـــان ليذهب منها زادا يغذى به روحه ويخفف حيرته ويحـــل الرموز ويتغلب على مصاعب الدهـــر ، هكـذا قال الاخ بوحديبة فى تقديم اعمال الملتقى ، واذا كانت هذه الازمة الضميرية لم تبد بنفس الحدة لدى رجل كصبحى الصالح ، متمكن الايمان ، ممتلىء الوطاب ، فان صوتا متفائلا عند لدكتور عبد العزيز كامل يرى فى الايمان والاخاء الانسانى والقانون الاخلاقى احدى الركائز التى يمكن ان تستعمل فى التنمية الشاملة مع المحافظة على النور الروحى للاسلام.

الضمـــير المسيحى والضمير الاســـلامى فى مواجهتهما لتحديات النمو ؟ الطريق طويلة ، ولكن اله الآلة الذى انتصب منذ قرنين قد بدا يهشم راسه بنفسه لكثـــرة ما اشتد به الصداع ! ولذلك فان هذه المحاولة رائـــدة ، ومتفائلـــة !

همسة اخيرة ، من داخل الضمير ، وخارج الموضوع . لقد لوحظ « الحضور النسبى » للجامعة التونسية ، واكثر اهلها رجال اختصاص ، ثم لماذا — باسم الشيطان — يصر الذى حضر منهم على الكلام باللغة الفرنسية ، الا واحـــدا ، بينما حرص احد المستشرقين — مجاملة — على قول كلمة بالعربية فى بدء النقاش الان العربية عاجزة عن التعبير فى مجال الفقه والتاريخ ؟

لانى اعرف ، كما يعرف الناس جميعا ، العلاقة المادية والوجدانية ، بين الاسلام واللغة العربية ، فانى اجـــد فى هذا السلوك قضية ضميريـــة ، تضاف الى قائمـــة قضايا الملتقى ، فى باب : قضايا محلية !

العالم العربي يبحث عن وحدته

كلـود جانـو
Claude Jannoud
ترجمة فتيحة بغاى

أثارت أزمة البترول مشكل العلاقات بين العالم العربى والغرب بشكل درامى . وانه لمن الصدفة ان توجد اكثر الذخائر الذهبية السوداء فى البلدان الاسلامية ولهذه الصدفة مفعول واحد وهو اعطاء حجم آخر لظاهرة بدأت تبرز مع ظهور ما اتفق على تسميته « بداية العهد الاستعمارى » .

وأمام التحدى الغربى ، سارعت الشعوب الاسلامية فورا فى تبنى موقفا متناقضا تتنازعه من جهة سلطة القيم الاجنبية ومن جهة أخرى ارادة وحشية للحفظ على القيم القديمة .

حقا ان مشكل كل الشعوب والثقافات التى كانت تخضع للسلطة الغربية يقل ويكبر غير انه نظرا لقوة الوحدة الثقافية الاسلامية فان الصراع بين القيم الذاتية القديمة وبين القيم الجديدة اخذ يتسع بصفة رائعة .

ويعرف Gustave Von Grunebaum المستشرق النمساوى ماهية الثقافة بقوله : « انها نظام مغلق يحتوى على اسئلة واجوبة تتعلق بالعالم وبالسلوك الانسانى فى كل مناسبة يتبنى فيها المجتمع معيارا ضروريا جديدا . ويقول Jacques Berque فى مقدمته : ان مثل هذا التعريف يجنبنا الوقوع فى الخطأ الذى يجعلنا نمزج بالثقافة ماديتها ولغاتها بحيث نكون من كلمة ثقافة مرادفا لكلمة مجتمع . اما Von Grunebaum فهو يعرف الوحدة الثقافية الاسلامية بكونها نوع من فقدان الشهية نحو المحسوس .

والمسلمون يؤمنون ايمانا كليا بدليل اعظم ويفسرون الواقع تفسيرا ما ورائيا • وهنا نتساءل هل ان الاسلام هو الذى حدد هذا الموقف أم ان هذا الاتجاه هو الذى جعل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تؤول بهذه الطريقة المحدودة ؟

ونحن نعرف ان المسيحيين الغربيين ساهموا فى تفسير ما وراء العقول غير ان ذلك لم يمنعهم من احترام العلوم العصرية وتنمية سيكولوجية الأنا •

تبقى ان الثقافة الاسلامية العربية (باستثناء الاتراك والايرانيين) تواجه التحدى الغربى بما لديها من خاصيات سبق ان ذكرناها ، ولم يكن هذا التحدى هو الاول من نوعه ، ولكننا نعلم ان اسلام عصر الخلافة العباسية ادخل عدة احداث من الحضارات الخارجية بيد أن الفرق بين التحدى الاول والتحدى الثانى حسب Grunebaum وكما يلخصه Jacques Berque هو أن الاول قام بهذا التحدى وهو واثق بسيادته بينما يسير التحدى المعاصر بشكل اقطاعى ، قلق يريد المحافظة على كيانه •

الوحدة الثقافية الاسلامية

ان هذه الوحدة سجلت صفحات هامة جدا تروى كيف يعيش العرب مع الغرب هذه العلاقات التى يفرضها الغرب نفسه عليهم وكيف ان المسلمين حسب Grunebaum يتبنون الاسلوب الاوروبى دون ان يتبنوا النظرية التى يقوم عليها هذا الاسلوب ، انهم يقبلون الغرب دون اقتناع بقبوله ويتعلمون منه دون محاولة فهمه ــ وهنا ترجع مسؤولية شرح وتفسير حقيقة الغرب الى المستشرقين الغربيين حتى لا يتعرض سلوك العرب الى مواقف متناقضة بحيث نراهم يستجلبون الثقافة الغربية ثم يحطون من مستواها •

واصبحت الامبريالية مصدرا لكل الاضرار ولكل الاخطاء ، كما ان الغرب نفسه يساهم بقسط وافر فى هذا الاتجاه حيث ان المفهوم الجديد الذى تكون لدى الغرب عن التساوى بين جميع الناس وعن التعديل Equivalence **الذى** يوجد بين الثقافات وبالاضافة الى ما بلغت اليه سلطته من انحطاط كل ذلك يحثه على اتخاذ اتجاهات مازوخية •

فكيف لا يستغل هؤلاء الذين سيواجهون التحدى التقنى الغربى هذا الموقف للمطالبة بحقوقهم الشرعية التى تقتضيها قضيتهم •

ويرى Grunebaum أن سلوك العرب الحالى يسوده نوع من « الخداع النفسى » ٠

يوجد العرب فى وضعية ممزقة بين مشكلةاثبات كيانهم وبين ميلهم الى الغرب ، وبالتالى فان قدرتهم على الخلق والابداع والتحرر تذوب فى تقليدهم للغرب ٠

وكل البيانات التى أتى بها Grunebaum تقوم على معلومات قيمة ترجع كلها الى مسلمة واحدة الا وهى تفوق الثقافة الغربية أو بالاحرى تفوق كيانها الذى لا يقهر ، وهذا هو الخط الذى رفضه Jacques Berque لانه يرى ان تجربة السنين الاخيرة دليل واضح على ان حظ خلود الذاتية فى المجال العالمى كبير ٠

وكل ثقافة تتغير بالنسبة لذاتها كما تتغير بالنسبة لغيرها من الثقافات الاخرى انها تؤكد ذاتها ثم تصبح موضع شك ، وهكذا يحدث للثقافة الغربية تماما ٠ غير ان هذه الضرورة التى تتمثل فى المحافظة على الهوية الذاتية مع قبول قوانين التقدم المادى الضرورى لا تسير بدون قلق ٠ أما عبد الله العروى ، فهو يرى ان اغلبية هؤلاء المثقفين عبيد التقاليد بينما تنزع الاقلية الى التنوع والانتقاء ٠ وكلا الاتجاهين يلتقيان فى نقطة واحدة وهى ان كلا منهما يفر من الواقع ، فكيف يمكن لنا العثور عن هذا الواقع وجعله مطابقا لقوانين العقل ٠

أما اذا اعتبرنا اجوبة عبد الله العروى على اسئلته غير صحيحة فهذا لا يعنى أننا ننكر عمله ٠ كلا انه هو الاول الذى اكد ان حظوظ العودة الى الواقع مشكوك فيها ٠

واخيرا فان الصراع مع اسرائيل لم يساهم الا فى مضاعفة هذه النزعات التقليدية بحيث سهل تسلط البورجوازية الصغيرة بما فيها العسكرية والمدنية ٠

وقد كان هذا الصراع موضوع دراسة على حالة الفلسطينيين والازمة العربية الاسرائيلية والتى تقدم لنا بالدرجة الاولى ملفا شاملا عن هذا الصراع كما تعرض علينا تعاليق قيمة خاصة بأصله وتطوره ٠

وان العالم العربى ، رفض الاعتراف بوجود الدولة الاسرائيلية رفضا تاما من أول يوم وهو حدث مدهش فى عهد كانت فيه تحولات الشعوب وتفكيك الاراضى عملية عادية ٠ اما Jacques Berque فهو يرى فى هذا الرفض الشامل تعبيرا عن حاجة العرب للمحافظة على كيانهم ٠ كما ان المشكل الفلسطينى يكشف القناع عما تحتويه العروبة من تناقضات ، هذه العروبة التى يراها

Jacques Berque امرا محسوسا ، لا يرجـــع الى نظام الامم . لانها بلغت درجة من النضج الحقيقى فى حين بدأت القوة السياسيـــة والعسكريـــة الغربية تضعف ·

ومن الآن فصاعدا ، فان العالم العربى سيتكون من ذوات عديدة لها مصالح خاصة ومتباعدة فى كثير من الاحيان ، الامر الذى تجعل اتجاهاتهـم ملتبسة ومتناقضة أمـام المشكـــل الفلسطينى ويخلق اختلافات بين ما يتخذه القادة من قرارات وبين ما يجرى من افكار ومشاعر لدى الجماهـير الكادحة ·

حقا ان هذا الكتاب القيم ، كتب قبل حرب Kipour وأزمة البترول ، اما اليوم فلم تبـــق الوحدة العربية مجرد وهم ولكن هل سيكون لهذا المفهوم الجديد دور فى حل الصراع مع اسرائيل ؟

يجيب Maxime Rodinson انه رغم تفاؤله وأمله فى حل هذه القضية فهو لا يخفى شكوكه فى امكانيات ايجاد الحلول المرجوة لهذا المشكل ·

ومع ذلك ، فهو لا زال يحلم ولا زلنا نحلم معه بفلسطين حيـث يشتــرك الاسرائليـــون والمواطنون الاصليون فى بعث دولة مـــن نمط جديد ومثالى ، لم يسبق لمثلها من قبل ، وان ما يمر اليوم من احداث فى هذا الشأن ويبدو لنا فى شكل وهم قد يصبح يوما ما حقيقة الغد ·

تعليـــق

رغم بعض الحقائق الواردة فى هذا المقال فانه لا يخلو من نزعة عنصرية ومن بعض التناقضات ومن نوع من الاحتقار لمواقف العرب وعلاقاتهـم مع الغرب وعلاقاتهم مـع بعضهـم واتجاهاتهـم المتباعدة والمتضاربة ·

ومن هذه الحقائق اعترافه بان العصر العباسى واجه التحدى الاجنبى بأكثر مرونة مما يواجه بها الآن المسلمون التحدى العلمى والتقنى الغربى اننا نلاحظ حركة رجعية تحد من تفتح الاقلية ، التقدمية نحو الثقافة والعلوم الاجنبيـــة وتغطى قصورها العلمى وتفكيرها الماورائى وشعـــوذة طائفة منها بنوع من الجهالة الخبيثة وتضع هـــذه الحركة تحت شعار التمسك بالتقاليد والاصالــة والاسلام حتى تبرر تأخرها وتزمتها وقصر نظرتها وضيق آفاقها المدنية ·

ونحن نعلم ان الاسلام لا يعنى الجمود أو مقاومة العلوم والحركات الثقافية الحرة ·

اما قول Von Grunebaum بان الوحدة الثقافية الاسلامية نوعا منفقدان الشهية نحوالمحسوس ففى هذا الرأى شىء من الصحة لاننا نلاحظ ان من بين المثقفين العرب المعاصرين من لا زال يميل الى الدراسات والبحوث النظرية المجردة والى العودةالى تاريخ الاحداث وتاريخ الاشخاص وتاريـــخ الوقائع وسيرة الملوك والسلاطين وكأن الواقـــع المحسوس لا يزخر بالمشاكل العاجلة التى تستحق الاعتبار والدراسة والبحث العلمى . مع ان ذلكلا يمنعنا من حين لاخر من القاء لفتة اعتزاز الى تراث الاجداد لنتخذه منطلقا لدراسة تحليلية ،ارتقائية لها هدف جديد ومنهج حديث .

كما ورد فى هذه المقالة بعض التناقضات ولعلها راجعة الىمواقفالمثقفين الغربيين المتناقضة من الثقافة الاسلامية . فمنهم من يقول ان العرب يقلدون الغرب تقليدا اعمى ولكنهـــم فى نفس الوقت يحاولون المحافظة على كيانهم .

ويصرح Grunebaum بأن العرب فى وضعية ممزقة بين اثبات الذات وتقليد الغرب ، حتى ضعف ميلهم الى الخلق والتحرر وذات فى تقليـــد الغرب . ولعل رأى عبد الله العروى ارجـــح وأصوب فيما يتعلق بأزمة الثقافة العربية الاسلامية وانهى الكاتب موضوعه بذكر تناقض آخـــر وهو قوله : كلنا نحلم بفلسطين يشترك فيهـــا **المواطنون الاصليون** والاسرائليون لبعث دولـــة من طراز جديد ومثالى تقوم على أرض فلسطـــين ونحن نتساءل هنا كيف انه يعترف بمواطنـــين أصليين لارض فلسطين ويتمنى لهم شريكا دخيلا يهوديا . وعلى أى أساس يقع هذا التعايش وهـــذا التعاون ؟ لماذا لا يتحقق هذا الحلم على ارض احدى البلدان الغربية أو بأرض امريكا انه حل خيالى يرفضه المنطق والعقل والتاريخ والمبادىء الانسانيـــة .

المراجع التى اعتمد عليها Claude Jannoud
لتقديم هذا الموضوع هى :

1 ــ الوحدة الثقافية فى الاسلام
تاليف Gustave Von Grunebaum مكتبة التاريـــخ

2 ــ أزمة المثقفين العرب
كتاب التقليدية أو التاريخية
تاليف عبد الله العروى

3 ــ الفلسطينيون والازمة الاسرائلية ــ العربيـــة

تـــأليـــف :

Jacques Couland
Jacqueline Hadamard
Maxime Rodinson

Jacques Berque
Louis Jean Duclos
Jacques Berque



دراسات لغوية

من فصيح العربيّة في العامية الجزائريّة

يشرع الاستاذ محمد الصالح رمضان ابتداء من هذا العدد فى كتابة سلسلة من التحقيقات حول الفاظ تبدو عامية وهى فصيحة .

محمد الصالح رمضان

ألفاظ تستعملها العامة فى حديثها (وقد يكون مثل ذلك أو بعضه فى المغرب وفى تونس أو فى غيرهما) نحسبها دارجة أو دخيلة أو لقيطة لا أصل لها فى العربية مع انها أصلية أو تمت الى الاصالة بسبب ٠ ولكن عفى عليها طول الامد وعدم الاستعمال فى ألسنة وأقلام المثقفين من اساتذةوطلاب، نحققها رجاء ان تستعمل لتعود اليها الحياة من جديد ، وتحقيقنا لها لا يخلو من فوائد أدبيةأو لغوية أو تاريخية ٠

1) ـ **استاهل يستاهل :** استحق يستحق ، نقول (فلان يستاهل كذا) أى يستحقه أو يستوجبه ٠ ومن أمثالنا فيه :

(رأس بلا كيف يستاهل ضربة بسيف) والكيف ما يعتاده الانسان ويحبه من الشهوات كالشاى والقهوة والدخان الخ ٠٠٠ عربى فصيح من قولهم : **استأهل** الشىء استوجبه واستحقه اهـ المعجم الوسيط . ويقال (هو أهل لكذا) أى مستحق له : (وهم أهل لذلك) : مستحقون له المفرد والجمع فيه سواء ٠ وتقول : فلان اهل لكذاولا تقل مستأهل والعامة تقوله اهـ مختار الصحاح ٠ أقول : وآهلهو أهله للامر : جعله أهلاله أو رآه صالحا له ٠

والاهلية : الصلاحية والاستحقاق ومنه (شهادةالاهلية) التى كانت تعطى من الجامعة الزيتونية ، وهى تساوى شهادة الاعدادى او التكميلي اى شهادة التعليم المتوسط ومنه **المؤهلات** أى الصلاحيات التى تؤهل الانسان لعمل من الاعمال ·

2) **استنى يستنى** اى انتظر ينتظر وبعضنا يحذف التاء اختصارا او ادغاما فيقول اسنى يسنى (بتضعيف السين والنون) نقول : فلان يستنى فى او يستنانى اى ينتظرنى ومن امثالنا فيه : (ناكل القوت ونستنى الموت) ·

قال شاعرنا الشعبى :

خل الدرسة فى التبن ملمومة   واستن حتى يهب الريح

عربى فصيح مع بعض التصرف فى اللفظ سنشير اليه من بعد

والاصل : **استانى يستانى** اى تأنى يتأنى . يقال **استانى فى الامر واستانى فلانا** : تأناه أى أمهله وترفق به · قال الزمخشرى فى الاساس **تانى** فى الامر **واسانى** يقال : تأن فى امرك واتئد قال حارثة بن بدر :

استأن تظفر فى امورك كلها   واذا عزمت على الهوى فتوكل

واستانى فى الطعام : انتظر ادراكه **واستانيت**فلانا : لم اعجله **واستانى** به : رفق اهـ فالمسألة اذن مسألة تسهيل الهمزة لا غير فى لهجتنا وهى لهجة عربية معروفة وبها قراءة ورش التى نقرأ بها القرآن فى المغرب العربى كله ·

هذا المزيد . أما المجرد فهو : **انى يانى أنيا**و**انى** : تمهل وترفق **وأنى** ايضا : تأخر وأبطأ فهو **انى** اهـ من المعجم ·

أقول ومنه : **الاناة :** الانتظار والتمهل .

والتانى : التمهل والتربص ومنه المثل او الحكمة(فى التأ نى السلامة وفى العجلة الندامة) ·

3) **البدلة** (بالدال) المهملة) او **التبديلة** :ما يلبسه الانسان من انواع اللباس مطلق لباس، ولعل الكلمة فى لغة العامة مأخوذة من التبديل والتغيير بمعنى ابدال لباس بلباس آخر · نقول : لفلان **بدلتان** أو ثلاث **بدلات** بعضها للعمل والبعض للراحة أو للزينة فى الاعياد والاعراس ونحوها ·

ولعل اصلها العربى بالذال المعجمة **بذلة** والعامة **وخصوصا فى الحواضر ينطقون الذال المعجمة دالا** مهملة . **والبدلة** فى الفصحى : الثوب الــذى يبتذل ولا يصان كثوب العمل أو ثياب الذيــن لا عمل لهم ويلبسون ثيابا عادية كالبطالين والناس العاديين فثيابهم فى الغـــالب مبتـــذلة . ففى المصبـــاح :

البذلة : ما يمتهن من الثياب فى الخدمة اهـ وعلى هذا فلا يحسن ان نطلق البذلة على اللباس الجديد أو الالبسة المحترمة المصانة وكذا الالبسة الرسمية لانواع الموظفين كالشرطة والجند ورجـــال الدرك وغيرهم فكلها ألبسة ذات بال وهى **الحلل** فى فصيح العربية واحدها **حلة وهى** كل ثوب جديد أو محترم تلبسه لتتحلى به فى أعين الناس .

وقد لا تكون الحلة الا من ثوبين أو أكثر مـــن جنس واحد وفى لسان العرب : **البذلة (بكسر** الباء) والمبذلة من الثياب : ما يلبس ويمتهن ولا يصان اهـ **والبدلة** عندنا (بفتح الباء بعدها دال مهملة) فتأمل .

3) – **بسل** فلان : سمج وفســد أو سخف وثقل فى نظر الغير فهو **باسل** أى سامط ركيــك أو سخيف ثقيل ، هذا معناه عند العامة نقــول : فلان **يبسل** (بتضعيف السين) أى يأتى بأشياء لا يقبلها الناس و (بركى ما **تبسل** علينا : كذلك أى حسبك ما تأتى به **فالبساطة** عندنا : السماجة والركاكة والسخف ومثلها السماطة . **والبسالة** فى العربية : الشجاعة والبطولة . وقد **بسل** فلان **يبسل بسالة فهو باسل :** أى هو بطل شجـــاع **وبسل يبسل بسولا** الرجل : عبس من غضب أو شجاعة . **الباسل** . : الاسد لكراهة منظره . ولم أجد للمعنى الدارج عندنا ما يقاربه فى العربيــة من هذا اللفظ سوى : **بسل** اللحم أو خم ، وخم اللحم وأخم بمعنى نتن أى فسد وتغيرت رائحته **وبسل اللبن :** فسد . **ولبن باسل :** كريه الطعم حامض ، وكذلك الخل اذا فسد طعمه وتغـــير ، والنبيذ ايضا اذا اشتد وحمض ، **وبسل الشىء**(بتضعيف السين) كرهه . **والبسيـــل** الكريه الوجه . راجع لسان العرب فى ذلك .

5) **بقشيش :** ما يقدم من فلوس أو هبـــات لقضاء الحاجات من غير الاجرة للمساومة والرشوة على حد قولنا فى الامثال السائرة : (دهن السير يسير) و (اطعم الفم تستح العين) الخ وعلى حد قول الشاعر :

احسن الى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الانســان احسان

وقد لا يعنى الشاعر بقوله هـــذا المساومـةوالرشوة المنهى عنهما شرعا وذوقا فيكون معناه انسانيا عاليا . وهو الاحسان الذى لا يـراد منورائه شىء **والبقشيش** غير ذلك وهو ما يقدمـــه الاجانب والمسافرون من علاوات للناس ليرعوهمويهتموا بهم أو ما يرشى به القاضى والصانـــع والموظف • والكلمة من الدخيل جاءتنا فى العهدالتركى ولعلها من اصـــل فارسى (بخشيش) راجع دائرة المعارف الاسلامية • عربيها **الحلـوان**(بضم الاول وسكون الثانى) كالغفران والعنوان : وهو من التحلية أى الحلاوة ضد المرارة . نقـولفى امثالنا (حلى باش تولى) أى ذق الحلاوة لكى تعود • وقال الشاعر :

فلو كنت تعطى حين تسأل سامحت   لك النفس واحلولاك كـــل خليــــل

اى حـلا لك

والحلوان عند العرب : ان يأخذ الرجل من مهرابنته لنفسه وهو عار وشنار منهى عنه شرعـا • قالت امرأة تمدح بعلها :

(لا يأخذ الحلوان من بناتنا)

6 ـ **البسيسة :** طحين يخلط بالسمن أو بالزيت مع العسل أو السكر ويؤكل من غير ان يقلى أو يطبخ . وخبز **مبسس** وكسرة **مبسسة** أى فيهـــاسمن أو زبد أو زيت يجعلها سهلة **التبســـس** أى التفتت عربى فصيح فى لفظه ومعناه • مــن**بس** السويق والدقيق ونهوهما **يبسه بسا** : اذا خلطه بسمن أو زيت وهى **البسيسة** قال اللحيانى هى التى تلت بسمن أو زيت ولا تبل . **والبس** اتخاذ **البسيسة** قال الراجز :

(لا تخبزا خبزا وبسا بسا)

وفى القرآن الكريم : « **وبست الجبال بســا** »أى فتتت تفتيتا يوم القيامة فصارت ترابا كالدقيق تذوره الرياح . ويقول فيها تعالى فى آية أخـرى« **ينسفها ربى نسفــا** » الخ • **وبس الشىء** : اذا فتتــه •

7 ـ **البوس** : التقبيل لفظ فارسى معرب وقدشاع وذاع استعماله عندنا بدلا من التقبيل نقول **باسه يبوسه** بوسا : اذا قبله ، وقد ننطق بسينهصادا فى بعض الجهـــات • قال الزمخشرى فى

أساس البلاغة : **باس** له الارض **بوسا** (يقصــدقبلها خضوعا له) . وتقول : بساطك اليــــوم **مبوس** (اسم مفعول) وغدا انت محبوس . وتقول ايها **البائس** (أى المقبل اسم فاعــل) ما انت الا البائس (أى البئيس) اهـ .

8 ــ **البخنوق** نوع من الثياب غير مخيط يوضع على رؤوس النساء ويمسك تحت الحنك اقل من الملاءة لا يتجـاوز الحزام عادة . يكـون مطـرزاومزركشا احيانا ، قال الشاعر الشعبي التونسى :

بخنوق بنت المحاميد عيشـــة ريشة بريشة (أى خيط بخيط)

وعامين ما يكملوش النقيشة (أى نقشه) يعنى ان بخنوق عائشة هذه مطرز طرزا متقنــا لا يكفى فيه وقت . عربى فصيح فى لفظه ومعناه مع بعض التحريف فى اللفظ . والاصل **البخنق** بضم الباء والنون من غير مد . قال المتنبى :

يقتل العاجز الجبـــان وقد يعــــجز عن قطـع بخنــق المولـــود

قال ابن برى قال ابن خالويه : البخنق اصل عنق الجرادة . وبخنق الجرادة : الجلباب الــذى على اصل عنقها وجمعه بخانق اهـ .

9 ــ **البرواق** : نبات لا يصلح لشىء الا للوقيد عند ما ييبس له حب صغير اسود فى حجم الحمص يزهر فى الربيع ويثمر فى الصيف لا ترعـــاه الحيوانات الا فى الضرورة القصوى رائحته كريهة يعرف فى الفرنسية بـ ASPHODELE واليــه تنسب بلدة (البرواقية) عندنا فى ولاية التيطرى بالهضاب العليا ، وحى حديث كبير فى ابن عكنون من ضواحى العاصمة . ولكن اســـم هذا الـحى بالفرنسية les Aphodèles بالجمع . عربيـــة **البروق** من غير مد للواو واحده **بروقة** .

قال ابن منظور فى لسان العرب : أخبر أعرابى قال : البروق نبت ضعيف ريان له خطرة دقــاق فى رؤوسها قماعيل صغار (كذا) مثــل الحمص فيها حب اسود ولا يرعاها شىء ولا تؤكل وحدها لانها تورث التهييج (يقصد الانتفاخ) .. الى ان يقول : وتقول العرب : (هو اشكر من بروق) ، وذلك لانــه يعيش بأدنى ندى يقع من السماء ، وقيل لانه يخضر اذا رأى السحاب . وبرقت الابل والغنم بكسر الراء تبرق برقا (بفتحها) اذا اشتكت بطونها من اكل البروق . ويقال ايضا (اضعف من بروقة) قال جرير :

كأن سيوف التيم عيــدان بروق اذا نضبت عنها لحرب جفــونها



مقابلات

الأستاذ محمود المسعدى

فى حديث خاص مع



- النهضة العربية ومعالمها .
- الحلول الملائمة للمشاكل الثقافية فى المجتمعات المتخلفة .
- المفكر العربى وهل هو فى مستوى التحولات الاجتماعية والسياسية فى بلاده .
- الثورة الحقيقية تجديد واصالة كيف نفسر هذا ثقافيا ؟

اجرى الحديث :
عثمان شبوب

س ـ منذ حوالى قرن والناس يتحدثون عن النهضة العربية فهل قامت فعلا هذه النهضة وما هى معالمها ؟

الاستاذ محمود المسعودى وزير الثقافة فى تونس غنى عن التعريف فهو من ابرز رجال الثقافة والفكر فى المغرب العربى والعالم العربى الذين قدموا للثقافة العربية الاسلامية خدمات كبيرة سواء بانتاجهم الغزير والمتنوع او بنشاطهم من موقع المسؤولية ، وقد اغتنمنا فرصة وجوده بالجزائر بمناسبة الاسبوع الثقافى التونسى لنجرى معه هذا الحديث .

ج : من المعلوم ان الحضارة العربية ظلتطوال عصور الانحطاط منطوية على ذاتها معزولة عن العالم الخارجي لا تتفاعل مع الحضارات الاخرى تاثرا وتاثيرا بل انها كانت مقطوعة حتى عن ذاتها وعن ماضيها الى أن أفاقت الامة العربية في دهشة من سباتها الطويل بمفعول صدمة الاحتكاك بالغرب غداة حملة نابليون على مصر ، فقامت بذلك « نهضة » بالمفهوم الاشتقاقي للكلمة تميزت بالتطلع الى الجديد من خلال اتصالها المأسوي بالغرب · ولكن طبيعة العلاقات الاستعمارية التي كان الغرب يتحفز لفرضها على العالم العربي لم تساعد على ارساء قواعد تفتح ايجابي على الحضارات الزاحفة وفي غمار هذه الازمة ظهرت حركة سلفية شملت الدين والسياسة والأدب هدفها تلمس طرق النجاة والتقدم ، بالعودة الى الاصول في نقائها الاول وباحياء التراث بحثا عن الحلقات المفقودة لربط الحاضر بماض مجيد وتركيز انتساب الانسان العربي الى حضارة عرفت كيف تفرض وجودها وقيمتها · ·

ولكن النهضة في مفهومها الحضاري المطلق لم تبدأ الا في أعقاب الحرب العالمية الثانية بظهور الحركات السياسية المناضلة من أجل الاستقلال واسترجاع السيادة وبظهور تيارات فنية وفكرية خلعت عن الادب العربي عباءات التقليد باكتشاف أنماط جديدة من التعبير قادرة على تجسيم الحيرة المصيرية التي أخذت تهز المجتمع العربي هزا عنيفا .

ثم دخلت النهضة العربية مرحلتها الحاسمة بعد الظفر بالاستقلال والثورة على الاقطاع وعلى الانظمة البالية · وبدخول الامة العربية معركة الخروج من التخلف في مختلف القطاعات أصبح بالامكان أن نتحدث عن نهضة عربية حقيقية واضحة المعالم ، صادرة عن تصور عصري لمفهوم الثقافة والتقدم ·

س ـ من المؤكد أن المجتمعات المتخلفة لها مشاكلها النوعية فهل من الممكن مواجهة هذه المشاكل التي ظهرت في اوروبا من خلال بعض المذاهب الفكرية والاجتماعية مثل الوجودية والوضعية المنطقية والشخصانية والماركسية وغيرها بنفس الطرق التي استعملت في الغرب أم هل يمكن البحث عن حلول بطرق جديدة ؟

ج : يواجه المجتمع العربي في الحرب التي يشنها على التخلف من المشاكل ما لم يواجهه أي مجتمع آخر تنوعا وتعددا ، ولئن اتجه العالم العربي لحل مشاكله الاقتصادية نحو ابرام عقود تنمية مع العالم المصنع ونحو استيراد الآلات والمعدات اللازمة لاقامة المصانع أو لسد الحاجيات الاساسية فانه لا يجوز له ولا يستطيع ، على الصعيد الفكري ان يستورد حلولا قائمة على هذا المذهب أو ذلك .

عليه اذن أن يستمد من أصالته وعبقريته ورؤيته الكونية الخاصة ما يساعده على مواجهة صعوباته وتذليل عقباته ، ولكن بما ان العالم العربى جزء من مجموعة عالمية تشكل فى نهاية الامر كلا أصبح يخضع أكثر من أى وقت مضى لقانون التفاعل والتبادل بحكم تضاؤل المسافات وانتشار وسائل الاتصال والتبليغ وتوثيق العلاقات وترابط المشاكل ، فانه لم يعد بامكاننا طرح مشاكلنا فى اطار مغلق وكأنها لا تهم سوانا . ان مشاكلنا التربوية والفلسفية والاجتماعية مثلا تتطلب منا يقضة وانتباها متزايدين لما يجرى فى العالم من محاولات وتجارب ، ولذا يتحتم علينا الاطلاع على كل التيارات الثقافية وتكييفها حسب معطياتنا ومقتضياتنا وبما لا يتضارب مع اخلاقنا وقيمنا الاساسية ، قصد ايجاد حلول علمية لمشاكلنا تضمن لنا الانسجام مع روح العصر وتقينا عثرات الطريق .

س – يتهم الفكر العربى بالسلبية فهل هذا صحيح وكيف تفسرون هذا ؟

ج : لا يخلو اتهام من اجحاف ، وعلى كل ، فلعل المقصود هنا هو الاديب العربى ، فالفكر السياسى العربى قد حقق جملة من الاهداف . واذا اعتبرنا أن انتاج الادباء فى الغرب قد شكل فى أغلب الاحيان أرضية الثورات السياسية والاجتماعية فانه يعسر أن نجد من بين الادباء العرب من مهد لمثل هذه الثورات ، وقد يرجع ذلك الى انهماك الكتاب العرب فى تعديل أقلامهم وتمرينها على استعمال لغة جديدة تتماشى ومتطلبات الظرف التاريخى الجديد والى رواسب أشكال ادبية اهمها «عقدة المديح» فقد ظل الكاتب العربى فى الكثير من الاحيان مداحا يتغنى بمناقب السلطة ويتملق النفوذ ، بل انه حتى عندما يتعرض الى الثورة يقتصر على امتداحها عوض أن يتناولها بالتحليل لتثبيت جذورها وتعميق الوعى بها فى صفوف الشعب ، وفوق ذلك كله فقد اعوزت معظم أدبائنا القدرة على امتلاك حرية التعبير فهم مكبوتون يخضعون أقلامهم وقرائحهم للرقابة الذاتية وهى أخطر أنواع الرقابة على الخلق والابداع ولكنه من المجحف حقا أن نتجاهل عددا من الكتاب العرب قدموا للامة العربية خلال كفاحها المرير دعما فكريا لا ينكر ، وأناروا أمام الاجيال سبل الحقيقة والتحرر والتجدد ، ونذكر من بين هؤلاء على سبيل المثال ، طه حسين والعقاد والحكيم ونجيب محفوظ وميخائيل نعيمة .

س – هل كان الفكر العربى المعاصر على مستوى التحولات الاجتماعية والسياسية ؟

ج : استنادا الى جوابنا المتقدم يجوز ان نقول ان الفكر العربى عامة لم يكن دائما فى مستوى هذه التحولات ، الا انه يمكن التأكيد بأن هزيمة جوان 1967 كان لها أعمق الاثر فى الادب العربى

وقد شاهدنا من خلال هذا الادب سواء في ميدان الشعر أو المسرح أو القصة ، تحولا جذريا على صعيدى الشكل والمضمون فقد أصبح الادباء العرب ضمير الامة العربية بحق وقد انكبوا على مراجعة مأسوية خلاقة لكل القيم المتعارفة في عالمنا المنهار . وليس من المبالغة في شيء ان نقول ان التعبئة الجبارة التي حققت النصر للاقطار العربية خلال حرب أكتوبر الاخيرة قد شارك في التمهيد لها الادب العربي الحديث بشعرائه وكتابه ونقاده ولا يفوتنا ان نذكر في هذا المجال ، وعلى سبيل المثال ، الدور العظيم الذى اضطلع به الادباء الفلسطينيون داخل الارض المحتلة وخارجها للمحافظة على الروح المعنوية للشعب الفلسطيني ولابقاء النار الثورية متقدة في القلوب . ان النبض الذى يشهد على حياة الامة واستمرارها نلمسه قبل كل شيء في كلمات أدبائها الواعية الدافعة .

س ـ هناك ثورات في عصرنا الحاضر تعطي اهمية بالغة للطابع الوطني كانطلاق للتجديد ويقال ان الثورة الحقيقية تجديد واصالة ، كيف نفسر هذا من الوجهة الثقافية ؟

ج : ان الاستعمار بنوعيه القديم والجديد يعمل دائما على طمس معالم الشخصية وتقويض أركان القومية في البلدان التي يبسط عليها سلطانه ، فمن الطبيعي ان يكون للثورة والتمرد عليه طابع وطني واضح ، ولكن الثورة لا تستطيع أن تنطوى على ذاتها فهي في حاجة الى التضامن مع كل الثورات في العالم ، لان قضايا الكفاح من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية واحدة ، وان التجديد الذى تتحدثون عنه والذى هو غاية كل ثورة لا يتحقق الا من خلال هذا التضامن وهذا التعاطف ، أما الاصالة فانها تكمن في الانطلاق من الواقع القومي لكل ثورة ، ومن البديهي ان الثورة مهما كانت وسائلها وغاياتها فلا بد لها من قاعدة ثقافية تكون منطلقا لبث الوعي وتعبئة الطاقات الخلاقة وتغيير العقليات وتهيئة الفرد للمشاركة وتحمل المسؤولية ، وعلى هذا الاساس ينبغي لنا ان نتصور الحركة الثقافية ثورة مستمرة هي مبتدأ الفعل الانساني وتتويجه الحتمي .

س ـ ماذا يستطيع ان يقدمه التراث لفكرنا المعاصر ، أى ما يمكن ان يشارك به في تحديد رؤيتنا الاستراتيجية ؟

ج : ان احياء التراث عمل ضرورى يجب ان يتواصل ولكن لا ينبغي بحال من الاحوال ان يشغلنا عن الخلق والاهتمام بتقييم الانتاج المعاصر وتعهده بالنقد والتحليل لذا يجدر بنا ان نجدد

نظرتنا الى التراث وان نراجع طرق البحث وان نرسم لعملنا هذا أهدافا اوضح وابعد . فاحياء التراث ليس غاية فى ذاته . وليس مجرد تدارك ما أهملته المطابع أو ما كتب قبل اختراع المطبعة «ماذا يستطيع ان يقدمه التراث لفكرنا المعاصر ؟ هذا هو السؤال الذى ينبغى لكل باحث أو محقق ان يطرحه على نفسه • ان لكل أثر قديم قيمة تاريخية لا تثير اهتمامنا بالضرورة فالذى ننشده فى الاثر القديم هو ما يتضمنه من حقائق وقيم دائمة تجعله رغم تقادم العهد معاصرا بالمعنى الفلسفى للكلمة ، يجد فيه القارىء جوابا عن بعض تساؤلاته الوجودية • ان ما نطلبه من التراث هو ان يكون قاعدة فكرية ثابتة ينطلق منها تفكيرنا المتأصل المتميز ، وأرضية حضارية ترسخ فيها جذور انتسابنا الى ماض خصب لعبت الامة العربية فيه دورها القيادى العظيم •

س ـ هناك من يقول بان للفكر المغربى خاصية مميزة فما هو رايكم فى هذا القول ؟

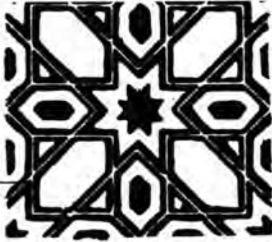
ج : للمكان والزمان وما يجرى فيهما من احداث وتطورات، حتميات لها أثرها البين فى تكوين العقليات ، فلا ريب اذن ان تكون للفكر المغربى خاصية مميزة علينا أن نلتمس أسبابها وسر تركيبها من جغرافية هذه الارض التى حرثها التاريخ فأينعت فيها حضارات اتخذها الفكر المغربى غذاء أحسن هضمه فتميز بالنزوع الى الشمول والتسامح والتفتح .

ـ ما رايكم فى الوضع الثقافى الراهن فى المغرب العربى من حيث المؤسسات والاجهزة والبرامج الرسمية والشعبية ؟

ج : لقد كانت الثقافة فى أقطارنا الى عهد غير بعيد ترفا فكريا لا يتوفر الا لبعض المحظوظين ممن تمكنوا من دخول المدرسة وبلغوا من التعليم مستوى معينا . أما اليوم وقد تحققت ديمقراطية التعليم فقد اشتدت الحاجة الى الثقافة وتزايد الطلب فكان لا بد من اعادة النظر فى تصور الثقافة بوصفها عاملا اساسيا من عوامل التنمية والنهوض بالانسان وكان لا بد من تخطيط سياسة هدفها تحقيق ديمقراطية الثقافة على أساس اللامركزية وذلك بالمساعدة على بعث الفرق المسرحية والموسيقية وغيرها وبمد شبكة من المؤسسات والخلايا الثقافية تشمل المدن والقرى قصد تمكين المواطنين حيثما كانوا . من حقهم فى الغذاء الفكرى والفنى ومن ممارسة النشاطات التى تتفق ومواهبهم وميولهم • ان ايصال الثقافة بمختلف عناصرها الى الجماهير هو اذن شغلنا الشاغل حاليا ولا يخفى ما يتطلب هذا المشروع الضخم من اعتمادات لبناء دور الثقافة وتمويل

النشاطات الثقافية بأنواعها ، وفي وجود وزارات للشؤون الثقافية بأقطار المغرب العربي خير دليل على ادراك المسؤولين للجدلية التي تربط التنمية الشاملة بالتنمية الثقافية · وقد تم الى حد الآن انجاز مخططات ثقافية هامة شملت البناء والتجهيز والتنشيط ، ولكن الطريــق طويلة وعــرة ، والامكانيات المادية والبشرية محدودة ، فعلينا أن نثابر وأن نعوض النقص بالحماس وان نعالــج الضعف بالعزم الصادق ·





دراسات قانونية

جريمة الرشوة

ومسؤولية المرتشي في قانون العقوبات الجزائري

د . أحمد مطاطلة
كلية الحقوق ـ الجزائر

الرشوة جريمة ذات خطر اجتماعي يظهر اثرها في المتاجرة بالوظيفة العمومية مقابل منفعة مادية ينالها الموظف جزاء عمل من اعمال وظيفته يقوم به لصالح الراشي ، وهي محرمة في الدين ممنوعة في القانون فقد جاء في الحديث الشريف « لعن الله الراشي والمرتشي والماشي بينهما » وجاء في المادة 126 من قانون العقوبات الجزائري الصادر في 8 جوان 1966 بانه « يعد مرتشيا ويعاقب بالحبس من سنتين الى عشر سنوات وبغرامة من 500 الى 5،000 دينار كل من يطلب او يقبل عطية او وعدا او يطلب او يتلقى هبة او هدية او اية منافع اخرى الخ ... » .

وتعتبر جريمة الرشوة من اخطر الجرائم التي تقع من موظفي المصالح العمومية وضررها يظهر في كونها تقع من اشخاص يمثلون السلطة الحكومية في البلاد وبالتالي ينوبونها فيما او كل المجتمع للدولة من أمور تصريف شؤون البلاد وتسيير ادارتها وحماية مصالحها ومصالح المواطنين من أي اعتداء كان . وتتصور هذه الخطورة بالخصوص في مصدر الاجرام الذي يأتي من الداخل اي من نفس اولئك الذين عينوا في وظائف ليكونوا حماة لها ، ويسهروا على وقايتها من الخطر . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان انتشار عملية الارتشاء بين الموظفين يسبب بلبلة في النفوس ويوهي بسمعة الدولة والثقة في اعضائها كما يمس بشرف ونزاهة الوظيفة العمومية أضف الى ذلك الخلل الذي يصاب به جهاز الدولة فتصبح المصالح تباع وتشترى وتضيع حقوق

الموطنين ممن لا يستطيعون الايفاء بمطالب المرتشين من أجل هذا كانت الرشوة من ابشع جرائم الموظفين وقد عاقبت عليها القوانين بقسوة في مختلف الازمنة والعصور ولا تزال الى الآن محل عقاب شديد وخاصة في البلدان التي أخذت بالنظم الاجتماعية التي تجعل جماعة المصالح العمومية التي يستفيد منها جميع المواطنين فوق كل اعتبار وذلك ان جريمة الارتشاء قد خلقتها في الواقع ظروف اجتماعية خاصة ظهرت في نظم سياسية معينة ساد فيها الاستغلال والانحلال كالنظم الاستعمارية والتي تقوم على اساس استغلال الانسان للانسان ، وقد عرفت بلادنا من ويلات الاستعمار ما عرفت وما زالت تعاني من مخلفاته الكثير ، ومن مخلفاته جرائم الرشوة هذه التي كانت منتشرة في الجهاز الاستعماري الذي كان موجها لامتصاص دماء الشعب ، فكانت مصالح شعبنا وحقوقه تستغل في ابشع الصور من طرف القايد والباشاغا ورجال الجندرمة وحراس الحقول والغابات ، والاجهزة ، القضائية والادارية بانواعها من الدوار الى الولاية العامة ، حيث كانت تباع اعراض الناس وكرامتهم كما تباع البضائع الرخيصة في الاسواق ، هذه هي مظاهر الرشوة في الماضي ، وبالنسبة للجزائر اليوم ، **فان افعال الرشوة هذه تعد منافية لاخلاق النظام الجديد الذي يقوم على اساس ثوري ويسير حسب اختيار معين هو الاختيار الاشتراكي الذي تبناه الشعب والسلطة الثورية في البلاد** ، ذلك ان ظهور هذا النوع من السلوك الاجرامي في البلاد لا يعود في حقيقته الى النظام السياسي الاشتراكي للبلاد ولكن لانعدام الضمير الوطني لدى بعض من لاتزال تسيطر على نفسياتهم العقلية الاستعمارية ولهذا يجب ان يكونوا مراقبين لا من طرف رجال الامن العمومي فحسب بل من طرف جميع أفراد الشعب حتى تتمكن البلاد من تطهير آثارهم لانهم يستطيعون أن يبيعوا اغلى مصالح البلاد مقابل رشوة زائفة يتلقونها من جواسيس الاستعمار الجديد وصنائعه .

هذه اذن بعض مضار الرشوة ، اما تعريفها في الاصطلاح القانوني فهو مشتق من معناها الغائي **وهو إلا تجار بالوظيفة العمومية او استغلالها للحصول على منفعة غير مشروعة ، فهي بهذا لا تقع الا من موظف عام** وقد نصت المادة (126) من قانون العقوبات على ذلك بما يأتي : « يعد مرتشيا ويعاقب بالحبس من سنتين الى عشر سنوات وبغرامة من 500 الى 5000 دج كل من يطلب أو يقبل عطية أو وعدا أو يطلب أو يتلقى هبة أو هدية أو اية منافع اخرى وذلك :

1 ـ ليقوم بصفته قاضيا أو موظفا عموميا أو ذا ولاية نيابية بأداء عمل من اعمال وظيفته غير مقرر له أجر سواء كان خارجا عن اختصاصاته الشخصية الا أن من شأن وظيفته ان تسهل له اداءه أو كان من الممكن أن تسهله له .

2 ـ ليقوم بصفته محكما أو خبيرا معينـا من السلطة الادارية أو القضائية أو من الاطراف باصدار قرار أو ابداء رأى لمصلحة شخص أو ضـده .

3 ـ ليقوم بصفته قاضيا أو عضوا محلفا أو عضوا فى جهة قضائية باتخاذ قرار سواء لصالح أحد الاطراف أو ضده

4 ـ ليقوم بصفته طبيبا او جراحا أو طبيب أسنان أو قابلة بالتقرير كذبا بوجـود أو باخفاء وجود مرض أوعاهة أو عن سبب الوفاة »

فانطلاقا من تعريف هذه المادة للرشـوة نستنتج ان جريمة الرشوة تتطلب لقيامها توافر أركان ثلاثة أساسية هى :

1) صفة خاصة فى الجانى ·

2) ركن مادى الى الفعل الذى تتم به جريمة الرشوة ·

3) قصد جنائى ·

صفة الجانى : ان صفة الجانى فى جرائـم الرشوة تأخذ اصلها من فكرة المتاجرة بالوظيفـة العمومية التى نصت عليها المادة 126 قائلة : « ليقـوم بصفته قاضيا أو موظفا عمـوميا ... » فلا يمكن بهذا الاعتبار ان يرتكب جريمة الرشوة الا موظف عمومى ويراد به كل شخص يعمـل بصفة دائمة أو مؤقتة فى ادارة أو مصلحة عامة ،سواء كانت تابعة مباشرة للحكومـة المركزية أو لاحدى السلطات أو الهيئات الادارية اللامركزية كالولايات والمدن والقرى والمؤسسات العامـة ، ويشترط فى اكتساب هذه الصفة للموظف ان يكون قرار التعيين فى الوظيفة صحيحا بصدوره من السلطة القائمة التى تسلمه طبقا للاوضاع التى يحددها القانون لان بطلان القرار الصادر بتعيين الموظف يحول دون تطبيق أحكام الرشوة عليـه متى أخذ أو قبل أو طلب منفعة أو عطية مقابـل عمل من اعمال الوظيفة أو الامتناع عنه ، كمـا يشترط ان تثبت هذه الصفة للموظف وقت العمل فلو كان ذلك قبل تولية الوظيفة او بعد عزله أو انصرافه عنها فان احكام الرشوة لا تنطبق عليه وانما تنطبق عليه احكام أخرى كأحكام النصـب مثلا ، والواقع ان اطلاق اسم المـوظف العمومى هو من باب التغليب لان المنع هنا يشمل جميـع المستخدمين فى الادارة والمندوبين بأجر والمحكمين

والخبراء . كما ان الفقرة الرابعة من المادة (126) عقوبات قد سوت الاطباء والجراحين واطباء الاسنان والقابلات في الرشوة بالموظفين حيث جاء فيها : « ليقوم بصفته طبيبا او جراحا او طبيب اسنان او قابلة بالتقرير كذبا بوجود او باخفاء وجودمرض او عاهة او حمل او باعطاء بيانات كاذبة عن مصدر مرض او عاهة او عن سبب الوفاة » . فدل هذا على ان احكام هذه الفقرة تنطبق على كل من ذكر من الاطباء بشرط ان يكون العمل المطلوب منهم مقابل الرشوة التي يتسلمونها لاعطاء شهادة او بيان مزور ، كما يشترط في البيان او الشهادة ان يكون متعلقا بمرض او حمل او عاهة او وفاة ، اما اذا كانت الشهادة او البيان المطلوب صحيحا في اصله او تعلق بامر آخر خارج عن مشمولات الفقرة الرابعة من المادة المذكورة فلا تسرى عليه احكام الرشوة .

الركن المادى : يتحقق الركن المادى في جريمة الرشوة بطلب او قبول عطية او وعد او تلقى هبة او هدية او اية منافع أخرى مقابل ادائه اوامتناعه عن عمل من اعمال وظيفته لصالح الراشي ونظرا الى سعة هذه النشاطات التي ذكرت . فان الفقهاء يحصرون الركن المادى عادة في بعض منها كالاخذ والقبول والطلب ، وتفصيلها كما يلي :

الاخذ : ويتمثل في الدفع المعجل الذى يدل على حصول الموظف فعلا على مطلبه ولا يشترط في هذا اية وسيلة معينة وانما تكفي في ذلك البينة والقرائن .

القبول : وحكمه ان الراشي يتقدم بوعد بعطية فيقبله الموظف المرتشي فتتم الجريمة بمجرد هذا القبول سواء او في الراشي بوعده او لم يوف به ، ولا يشترط في القبول صيغة معينة فكما يمكن ان يكون بالقول يصح ان يقع بالكتابة او ما دل على معنى القبول كالايماء . بل احيانا يتم ذلك بمجرد قيام الموظف بالعمل المخالف للقانون لصالح الراشي لما في ذلك من قرينة كما يشترط في القبول ان يكون بصيغة جدية فلا يعتد بمن يظهر ذلك بقصد الايقاع بالراشي .

الطلب : هذا النوع من النشاط يعد اخطر صور الركن المادى لانه يدل على اصرار الجاني على وضع وظيفته موضع السلعة للمتاجرة بها فلا يتورع عن المطالبة بالعطاء شانه في ذلك شأن التاجر المحترف بحيث لا يبقى شك في اجرامه فتتم جريمته بمجرد ابداء الطلب ولا تتوقف على استجابة صاحب الحاجة لتوافر شروط الجريمة في فعله .

موضوع الرشوة : المقصود بموضوع الرشوة هو حصول المنفعة او العطية وهى التى ينصب عليها فعل الاخذ أى الطلب ولا عبرة بنوعها أو بقيمتها أو الشكل الذى تقدم فيه وانما يكفى ان تكون المنفعة شيئا ماديا نقودا مجوهرات ملابس ، او مآكل ، بل يصح ان تتمثل فى خدمة يؤديها المرتشى لصالح الراشى كأن يعمل على ترقيته او نقله من مكان الى آخر وسواء فى ذلك ان يكون المستفيد من المنفعة المطلوبة هو المرتشى نفسه او شخص آخر يتم الاتفاق عليه ، اذ قد تسلم الاشياء المطلوبة الى المرتشى او الى شخص يدعى بالمستفيد من الرشوة كطلب الموظف تعيين مقابل عمله صديقه فى وظيفة او ان يسعى له فى ذلك واذا سلمت الرشوة الى زوجة الموظف او بنه دون علم منه فلا يكون مرتشيا ولا يسأل عن ذلك الا بعد ان يعلم بها ويوافق عليها ، والا فلا رشوة .

مقابل الرشوة : حكمه ان الرشوة لا تتم بمجرد القبول والاخذ للمنفعة فقط. بل لابد من وجود مقابل معين وهو ان يقوم الموظف بعمل او يمتنع عن اداء عمل من اعمال وظيفته لصالح الراشى ، كما اذا قبل القاضى من متهم ـ فى قضية مطروحة امامه هدية مقابل اصدار حكم ببراءته حيث تكون الادانة واجبة • غير ان هذا لا يؤخذ به كشرط حتمى اى من يكون العمل داخلا فى اختصاص الموظف او تحت صلاحياته • بل يكفى فى ذلك ان تكون وظيفته مما يسهل له اداء العمل او الامتناع عنه لصالح الراشى او تمكنه من تسهيله له • (الفقرة الاولى من المادة 126 ع) •

الوقت : المراد بالوقت هنا الزمن الذى تتم فيه الرشوة بأخذ او قبول العطية وله صورتان :

الاولى : وتتمثل فى ان يكون الاخذ او الطلب او القبول المنصب على منفعته او وعد بها سابقا لزمن تنفيذ العمل او الامتناع الذى من أجله تبذل هذه المنفعة وهذا هو المفروض للرشوة فى صورتها المألوفة •

الثانية : وتتمثل فى ان طلب او اخذ او قبول المنفعة او الوعد بها يتم بعد ان يكون الموظف قد قام باداء عمله او امتنع عنه بناء على تفاهم سابق بينه وبين صاحب الحاجة ولكن دون اتفاق على تقديم منفعة او وعد بها وهذا ما يسمى فى الفقه عادة بالرشوة اللاحقة ، ويشترط فيها ان لا تتحقق الا اذا كان هذا العمل او ذلك الامتناع مخالفا لواجبات الوظيفة وهو ما يعنى

قيام الموظف بتنفيذ ذلك فى دائرة اختصاصه فقط بخلاف الرشوة فى صورتها الاعتيادية فانها تفترض ان يكون الموظف مختصا بالعمل المطلوب منه كما تفترض ان يكون خارجا عن اختصاصاته.

القصد الجنائى : يتمثل هذا فى ان الرشوة جريمة عمدية تقوم على غرض نفعى يتطلب من الجانى العلم بخطورة الجريمة وادراك عواقبها .ويشترط لتوافر القصد الجنائى فيها ان تنصرف ارادة الموظف الى اخذ العطية او المنفعة او طلبها او قبول الوعد بها عالما بالغرض الذى تبذل من أجله كثمن للعمل الذى يؤديه او يمتنع عنه ، فاذا تجرد عمله من هذا العلم بان اعتقد بان المال الذى يبذل له انما يستوفى به دينا عليه مثلا او لا يعدو ان يكون هدية بريئة فانه لا يكون مسؤولا عن ارتكاب جريمة الرشوة ·

العقوبات المقررة لجريمة الرشوة : حددت العقوبات المقررة لافعال الرشوة فى المادة 126 من قانون العقوبات بالحبس من سنتين الى عشر سنوات وغرامة من 500 الى 5,000 دينار , للقضاة والموظفين العموميين والمحكمين و الخبراء والقضاة او الاعضاء المحلفين او اعضاء الهيئات القضائية والاطباء والجراحين واطباء الاسنان والقابلات ·

اما العمال والمستخدمون والمندوبون باجر او مرتب (م 127) والمستغلون للنفوذ (م 128 ع) الذين يرتكبون جريمة الرشوة فقد قررت لهم عقوبة الحبس من سنة الى خمس سنوات مع غرامة من 500 الى 5،000 دينار , ويعاقب الوسطاء بنفس العقوبات · وتصادر مواد الرشوة لصالح الخزانة العامة , كما يمكن ان يحكم على الجناة بالحرمان من حق أو أكثر من الحقوق الواردة فى المادة 14 من قانون العقوبات لمدة سنة على الاقل وخمس سنوات على الاكثر ·



ندوات

ندوة الأصالة في تونس

من مشاكل الثقافة العربيّة المعَاصِرة

ادار الندوة :
عثمـان شبوب

اغتنمت فرصة حضوری مؤتمر المؤرخين المغاربة لاجـرى هذا الحوار مع نخبـة من رجال الفكـر والثقافـة فى تونس الشقيقة .
وقد تاخر نشر هذه النـدوة بسبب الاعداد الخاصة التى اصدرناها .
« الاصالة »

محمد العروسى المطوى

فى هذه الجلسة المباركة يسعدنا ان نلتقى بالاخ عثمان شبوب رئيس تحرير مجلة « الاصالة » الجزائرية فى النادى الثقافى (ابو القاسم الشابى) حـول موضوع حساس عندنا جميعا : موضوع مشاكل « الثقافة العربية المعاصرة » ٠

هنالك عدة اسئلة مطروحة علينا ٠ ويمكن ان تكون طريقة العمل ان نبدأ بالسؤال ٠ وان يعطى كل واحد منا رأيه فى السؤال بالتداول بدون ان يناقش بعضنا بعضا ٠ ثم عندما ننتهى من السؤال الاول ننتقل الى السؤال الثانى ٠ ثم الى ما بعده ٠

السؤال الاول هو : هناك من يرى بان قضية الحرية تمثل حجر الزاوية فى ازدهار الثقافة العربية المعاصرة أو جمودها . كيف تتصورون هذه المسألة ؟

الدكتور المنجى الكعبى

قضية الحرية هذه ، قضية توضع امام كل مشكلة . ليس فقط مشكلة الثقافة العربية بل وفى السياسة ايضا وفى الاقتصاد وفى غيرهما ٠ انما فى الثقافة العربية ، اذا تحدثنا عن الحرية ، فمعنى ذلك ان نتحدث عن التقييد أو الالتزام أو ما هو فى معنى هاتين الكلمتين ، على كل حال عندما لا نقول الحرية فالمفروض ان نتصور الطرف المقابل الذى يتأثر بهذه الحرية . اعنى الثقافــة العربية والمثقفين العرب او الثقافة العربية ككل



جانب من الحاضرين فى ندوة « الاصالة »
يرى فى الصورة الاساتذة : عثمان شبوب وعلى يمينه د. المحبى الكعبى .
ومحمد العروسى المطوى ، ود. الحبيب الجنحانى ، والمحجوب بن ميلاد .
وعلى اليسار الاساتذة : محمد اليعلاوى ، حمادى الساحلى ومختار جنات .

كتراث ، وموقف المثقفين العرب وكيفيه تناولهم لهذه الثقافة وتنميتهم لها • فيبدو لى ان الحرية فى هذا المجال اى مجال الثقافة العربية لا ينبغى ان تترك هكذا غير مقيدة ، فلا بد لها من تعريف بمعنى لابد لها من تحديد • فالتحديد هذا راجع الى الظروف المرحلية التى تمر بها الثقافة العربية • وبطبيعة الحال قد يكون لبعض الزملاء الحاضرين صورة لهذا التحديد الذى لابد منه أما فى نظرى. فليس هناك اطلاق حرية للثقافة العربية فى هذه المرحلة من حياة امتنا على الاقل كما هو الشأن فى الحالات السياسية والاقتصادية لاننا شعب عربى ناهض يريد ان يسترد وجوده ويدعم كيانه ، فاطلاق الحرية فى مجال الثقافة العامة لعله ان يكون فيه تهديد لمقومات ثقافتنا العربية •

د • الحبيب الجنحانى
استاذ
بكلية الآداب
جامعة ـ تونس

اعتقد شخصيا ان قضية الحرية فى البلاد النامية عامة ، وفى العالم العربى خاصة ، وهو يهمنا بالدرجة الأولى ما دمنا نتحدث عن الثقافة العربية قضية مطروحة وحساسة، وهى ـ الحقيقة ـ ليست جديدة ، وانما برزت هذه القضية خاصة بعد أن تخلصت الشعوب العربية من مظاهر الاستعمار الكلاسيكى ووجدت نفسها ، أو على الأقل البعض منها وجد نفسه فى مفترق الطرق : ما هو الطريق الذى ستسلكه هذه البلدان للخروج من التخلف الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ؟

اعتقد شخصيا ان اختيار هذا الطريق مرتبط وثيق الارتباط بقضية الحرية وأوافق هنا على ما ذكر قبل قليل ، فلا يمكن ان نفهم كلمة الحرية بالمفهوم الكلاسيكى المعروف ، وهنا يقول البعض : ان لها مفهوما واضحا ، وأنا شخصيا ارى ان مفهوم الحرية المرتبط بالوضع الاقتصادى والاجتماعى ، وبمرور المجتمع بمرحلة تاريخية معينة مميزات خاصة •

فالحرية فى النظام الرأسمالى يختلف مفهومها عن الحرية فى النظام الاشتراكى ، ويختلف هذان المفهومان عن مفهوم الحرية فى البلدان النامية التى تقطع مرحلة تاريخية معينة ، لكن دون ان نتعمق ربما فى المفاهيم المجردة أريد أن اربط قضية الحرية بالثقافة العربية المعاصرة ، وهو السؤال الملقى علينا فى هذا النقاش حول ميكرفون مجلة « الاصالة » •

اعتقد ان من اكبر المشاكل التى تعترض الثقافة العربية المعاصرة هو تحديد هذه الحريات فى بعض بلدان العالم العربى ، وانعدامها تقريبا فى بعض البلدان الاخرى وهذا ما يجعل الثقافة

العربية المعاصرة والمثقف العربي الذى يمثل هذه الثقافة العربية المعاصرة فى وضع غريب ، شاذ ، فموقفه اما ان يكون غريبا متناقضا مذبذبا واما انه يكون نزيها صادقا مع نفسه يؤمن بمبادئه ، فينعزل ، ويصبح دوره فى المجتمع هامشيا ، واما ان يسلك طريق الانتهازية، محاولا تبرير انتهازيته هذه فيما يكتب ويقول، وبكل هذه الاوضاع الشاذة ليست فى خدمة الثقافة العربية المعاصرة، وطبعا ان تحديد هذه الحرية بالنسبة للمثقف العربى له انعكاسات مباشرة على الثقافة العربية المعاصرة وما نشعر به احيانا من عدم تفاعلها مع أوضاع مجتمعات العالم العربى لتكون هذه الثقافة متفاعلة ومعبرة ومرآة عاكسة يجب ان يتوفر على الاقل حد أدنى من الحرية ليستطيع المثقف ان يعبر عن هذا الواقع ، وان يعكسه فى انتاجه مثلا ، ومن هنا اعتقد شخصيا ان موضوع الحرية فى الثقافة العربية المعاصرة موضوع ما يزال ينتظر الحل . ان المثقف العربى يقوم فى اغلب البلدان العربية بدور هامشى وهذا تناقض غريب فى جهة المثقف العربى يمثل النخبة النيرة التى تستطيع ان تنظر الى هذ المشاكل نظرة موضوعية ودقيقة ، وهى كفاءة للتسيير الناجع ، وهو من جهة اخرى منعزل عن مباشرة هذه القضايا يؤدى دورا هامشيا فى بلاده ، واعتقد ان السبب فى هذا الدور الهامشى الذى يقوم به المثقف العربى هو طبعا قضية الحرية وامكانية التعبير عن الرأى ، والنقد البناء .

تدخل السيد عثمان شبوب

السؤال المطروح عن قضية الحرية ليس فقط بالنسبة للثقافة العربية المعاصرة ولا حتى بالنسبة للثقافة العربية القديمة . ويرى البعض ان عدم وجود توفر هذا العنصر ، عنصر الحرية هو الذى كبل الثقافة العربية وعاقها عن التفتح والخلق ، نريد من الاساتذة الافاضل عندما يتحدثون عن هذا الموضوع أن يدعموا آراءهم بامثلة عن نضال المثقف العربى فى سبيل هذه الحرية .

الاستاذ محجوب بن ميلاد

استاذ بكلية الآداب جامعة ـ تونس

ان قضية الحرية من القضايا التى ما انفكت ـ منذ عديد السنوات ـ شغل الشاغل . فالانسان ـ ان نحن اجملنا القول اجمالا ـ ليس يمكن ان يكون « انسانا » ـ وله حرمة الانسانية ـ الا بالحرية . فالحرية ـ بالضبط ـ هى « جو » تنفسه العقلى والروحى . وبالاضافة الى هذا الجو ـ وحده ـ يمكن لك ان تفهم جميع اسرار مسؤولياته ، وجميع اسرار خلقه ، وجميع أسرار اثماره وجميع أسرار فتوحاته على تنوعها .

وان نحن خصصنا الحديث فاردنا انْ نكتشف عن « صلة الادب بالحرية » أكدنا لك جازمين ــ فى نطاق ذلك الاصل الشامل ــ ان لا أدب الا بالحرية وفى جو الحرية ! ..

أليس فى أدب الاديب تطالعك أسرار مسؤولياته واسرار خلقه ، واسرار اثماره ، واسرار فتوحاته ؟

الا انه يجب علينا ان نعترف بانه ان كان « يسهل » علينا ان نجزم بهذا على وجه الاجمال أو الاطلاق فما اصعب ان نفصله تفصيلا ، وما أصعب ان نحرره تحريرا دقيقا مقنعا ! ..

وانما كان الامر كذلك لان « الحرية » نسيجها ألطف نسيج ... ألم نقل انه نسيج « الحرمة الانسانية » نفسها ؟

وليس يمكن ان تطمع فى تخصيصه ــ تخصيص الحق ــ من دون ان تستعرض « شروط الحرية » شرطا شرطا ... وهو أمر يجرك حتما الى ان تثير من المشاكل ادقها ، واغمضها ، واشدها تعقيدا : ناهيك ان تلك المشاكل هى مشاكل « المنزلة الانسانية » فى الوجود .. وهى مشاكل تحف بها صنوف من اللبس حيرت المفكرين طيلة القرون المتتالية ...

فما مكانة الانسان فى الطبيعة ؟ وما مكانة الطبيعة فى الانسان ؟ وما صلة الحرية بالعوامل البيولوجية ، وبالعوامل النفسية ، وبالعوامل الاجتماعية ؟ وما أثر الحرية فى تلك العوامل نفسها ؟ وما شأن الحرية من التقاليد الثقافية الموروثة وما موقف تلك التقاليد من الحرية ؟ وما جنس العوامل التى تزكى الحرية ؟ وما جنس العوامل التى تطمسها ؟ .. الى ما هنالك من القضايا العديدة التى تجرك حتما الى أن تحرر فلسفة جاهزة شاملة تكون فلسفة الحرية .

وانه ليكفى أن تذهل عن سر من أسرار الحرية أو عن شرط من شروطها لتنتهى الى طمس حقيقتها فى الاذهان فتنقلب الحرية الى ضدها .

والعجيب فى أمر من يطمسون « ملامح الحرية » ــ لذهولهم عن سر من اسرارها ــ انهم يطالعونك بملامح متنوعة . فهم حينا الجور ، وهم حينا الصلف ، وهم حينا الاباحية ، وهم حينا الفوضوية ... وجميعهم يتحدون فى ذهولهم عن أن « الحرية الحق » بناء لا هدم ، ونظام لا نزق ، وخلق لا اجهاض !

فالحرية ـ مهما كان الميدان الذى تتجلى فيه آياتها ـ « نظام خلاق » ولا تنتهى الى اى صنف من صنوف خلقها الا على أساس « دستورها الباطن » أو « ناموسها الحق » !

وان هذا ليبدو لك اوضح ما يكون ، واسطع ما يكون فى ميدان الأدب الرفيع والفن الأصيل ٠

ولعل ابلغ عبارة عن هذا ما قاله الأديب الفرنسى جيد (gide) اذ قال معرفا الفن ومقتضياته الصارمة : «L'art vit de contraintes, et donc il les choisit très fortes»

فبالرغم من أن الأديب الفرنسى اتهم بما اتهم به من تزعم حركة الاباحية الخلقية فهو ـ كما ترى ـ يتشدد كل التشدد فيما يخص التقيد بمبادئ الفن ، وبأصول الفن بل تنتهى به الصرامة فى هذا الميدان الى أن يطالب « الفن الرفيع » بأن « يلتزم » بألزم لوازمه !

ولا غرابة !

فالأديب الفرنسى « جيد » يعرف ـ مثلما يعرف كل فنان شاعر بمقتضيات الفن ـ أن فى التزام الفن بألزم لوازمه « التجسيم الحق » لما يمكن أن نسميه « الهيكل الأصولى » الذى يجعل من الفن « النظام » الخلاق !

وفى الحق ، فان الأديب الفرنسى لم يشرط هذا الشرط ـ أساسا ـ فى « الفن الرفيع » الا ليكون الاثر الفنى ـ سواء أكان قصيدا أو رواية أو مسرحية أو تمثالا منحوتا أو انغاما مؤلفة أو الوانا مزوقة ـ المرآة التى تتجلى فيها ـ بحق ـ « حرية الفنان » من حيث هى « النظام الباطن » لاشواقه الاصيلة فيضحى فى امكانك أن « تراها » مجسمة فى الأثر الفنى عينه ٠

ـ والذى يجدر بنا ان ننتبه اليه من وراء كل هذا انما هو أمر الغاية التى يرمى اليها الفنان من اشتراطه هذا الشرط الصارم فى شؤون الفن الرفيع ٠ فهو يعرف أن « الأثر الفنى » الجديد الذى يعرضه على الناس سيكون أثرا طريفا ينضم الى آثار تالدة ويجب أن « يحتل » مكانته بينها ٠ وهى آثار « تقاليد ثقافية » سينهض بينها اما كأداة وصل ، واما كأداة فصل ، واما كأداة وصل وفصل فى عين الحين !

وليكن لنا من هذا الأمر العجيب « جنس » ما سميناه « صنوف اللبس » التى تحف بشؤون قضايا « منزلة الانسان » فى الوجود ـ عامة ـ وبشؤون الثقافة والأدب بين الناس خاصة !

فقد يكون « أداة وصل » باعتبار انه ـ فى نطاق تقاليد فنية حية ـ سيكون حلقة جديدة تنضم الى حلقات سلسلة ثقافية تتغدى ـ فى كنف عين الاسلوب ـ بقيم واحدة . ومبادئى فنية واحدة وأشواق بشرية واحدة ، وآفاق «للرماية الفنية» واحدة !

وقد يكون « أداة فصل » باعتبار أنه « تجديد » للأسلوب وللقيم وللمبادئى الفنية وللاشواق البشرية ولآفاق رمايتها فيفتح « عهدا جديدا » ينفصل عن عهدها القديم ان قليلا أو كثيرا .

وقد يكون « أداة وصل وفصل » فى عين الحين ان هو كان أثرا من آثار « عهد ثقافى » جديد يتصل بالعهد القديم من نواح ، وينفصل عنه من نواح بفضل ما يمتاز به من خصائص ترمى لا الى مجرد الوفاء لفضـائل العهد الثقافى القـديم فحسب بل ترمى أيضا ـ بل ترمى بالخصوص ـ الى اشباع حاجات الغد ومقتضيات حياة الغد .

وسواء أكان الأثر الفنى الجديد « امتدادا » لعهد قديم أو لذوق قديم أو لأسلوب فنى قديـم ، أو « احياء » لبعض خصائصه , أو « تجديدا » لبعض رسومه ، أو « قلبا » لبعض أسسه وأصولـه ـ فالأمر الجزم هو من المحال أن يكتب له البقاء فيحظى بتغذية العقول والقلوب والأذواق ما لم يكن أثرا من آثار « حرية خلاقة » تشهد بأصالة صاحبها .

وأصالة صاحبها انما تتجسم لك فيما تضطرم به نفسه من الحرص الزكى على « ألزم لوازم » فنه من حيث ان فنه ليس يعرب عن اشواقه الفردية فحسب . بل يطمع فيما يطمع فيه كل فنـان أصيل : أن يكون على « تخوم مجهول » وأن يغازل « فتحا مبينا » ليس يخدم فنه . وليس يخـدم الحياة وليس يخدم التقاليد الفنية التى ينتمى اليها فحسب ـ بل يخدم ما للفن وما للحياة وما للتقاليد الفنية التى ينتمى اليها من « الشوق المبرح » الى ما فيه مجد العقول ومجد القلوب ومجد الأذواق .

وبد هى ان شيئا من ذلك لا يتم ما لم يكن الفنان يعرف كيف يقيد وثباته بقيود ألزم لوازم فنيه ... وهو أمر يبدو لك أوضح ما يكون ، وأسطع ما يكون عندما ينجم الفنان فى بيئة وفى فترة زمنية يجد فيهما «التقاليد الثقافية» متهافتة أو مطموسة المعالم , أو بائرة القيم ... مثلما يجد فيهما العقول والقلوب والاذواق تتيه تيها عظيما ولا تستشعر بما يتطلب منها الفن ان تستشعر به من عزة المبادئى والقيم الفنية .

ففى مثل هذه البيئة وفى مثل هذه الظروف الزمنية تكتسى « حرية الفنان » بقداسة ليس من المبالغة فى شىء أن تقول انها « قداسة خلاقة » انحظى الفنان بأن يدرك جنى «المسؤولية المزدوجة» التى هى مسؤوليته بحكم الوضع الذى هو وضعه • ذلك انه ليس مطالبا بأن ينقطع الى طقوس فنه فحسب بل هو مطالب بتحريك العقول وتحريك القلوب وتحريك الاذواق الى جنب تحريكه شؤون الفن !

والى هذا يعزى أن كان فنه الجديد — فى مثل هذه الظروف «أداة فصل» قبل أن يكـون أداة وصل » بين تقاليد الأمس — فى الميدان الفنى — والتقاليد الجديدة التى يريد أن يمهد لها سبلا جديدة فيضحى لها ما يضحى من السلطان على النفوس ... فكأنه مطالب بأن يتخذ من خلقـــه الفنى الجديد أداة ساحرة لخلق« حساسية جديدة » تستشعر — من جديد — بما يجب أن تستشعربه من عزة المبادىء والقيم الفنية الجديدة .

وهو أمر ليس أصعب منه ولا أدق ولا أعز منالا • ويرتطم به الفنان — مثلمايرتطم به كل الرواد المصلحين فى أى ميدان شئت من ميادين الخلق سواء أدبيا او خلقيا أو سياسيا أو اجتماعيا أو دينيا ! — نظرا الى الشقة السحيقة التى تفصل بين مقاييس الفنان الرائد — أو المصلحين الرائدين وجمهور المستهلكين !

هى — بالضبط — ساعة « الحرية الخلاقة » !

وهى حرية تنفى ما حولها من شؤون بقدرما تنفيها تلك الشؤون عينها !

وفى هذا « النفى المتبادل » يمكن سر « الكفاح » الذى هو كفـــاح الرواد كلما ارادوا حقا ان يغرسوا جديهم غرسا أصيلا يمهد السبل «لنظام عقلى » جديد ، أو « لنظام فنى » جديد ، أو « لنظام انسانى »جديد فى نطاق « بعث ثقافى » حقيقى !

ومحال ان يتم ذلك الكفاح الذى يرمى الى« تحوير جذرى » فى النفوس على أساس اندفاعات ضمير غير منغم الأشواق ، أو أنظار عقل متهافت ,أو نزوات طبع فوضوى •

وهل عنى الاديب الفرنسى جيد gide غير هذا عندما اشترط على الفنان ان يلتزم بالزم لوازم فنه ؟

وهل عنى الشاعر التونسى ابو القاسم الشابى عندما طالب الفنـــان بأن « يسوس » فنـــه « فكرة عبقرية » ؟

محمد المختار جنـات

كلية الآداب
جامعة تونس

اذا أعطينا للثقافة العربية المعاصرة مفهوما واسعا يشمل بالاضافـة لفـروع المعرفة العامة كل ما يتعلق بالأدب ، والفكر ، والفن فى ميدان المسرح والسينما والتلفزة . فان الحرية يغدو لها ـ هى أيضا ـ مفهوما اوسع وأرحب من حيث التعبير ومواجهة المشاكل الدقيقة التى تهم حياة الانسان العربى الجديد ٠ فهذا الانسان (العربى الجديد) اعاد النضال المرير تكوينه النفسى ، وصهر عقله وقلبه فى ميدان المعركة التى كافح فيها المستعمر ووقف فيها أعزل من السلاح يتحدى بارادته الجبارة الرصاص وصنوف العذاب والتنكيل ٠

أجل ، تمكن الانسان العربى بقوة ثباته من انتزاع حريته من براثن المستعمر واصبح يعتز بذاتيته وكيانه ، وقد أصبح يرى فى الحرية نفسها تأكيدا يضاعف من وزنه ويعزز ذاتيته ووجوده . وكان من الطبيعى ان يجد الانسان العربى نفســه فوق أرضية سياسية تفرض عليه تغيير نظرته للحرية ومو قفه مما ينجم ـ يوميا ـ من صراع لا يقل حدة ومرارة عن الصراع الاول للتغلب على مظاهر التخلف والوقوف أمام تيار الامبريالية التى فتحت واجهة استعمارية ثانية تمارسها فى غزو الشعوب العربية بطرق خفية ومدمرة ٠

وكان على المثقف ـ بصفة خاصة ـ أن يحدد موقفه من هذه الارضية ليعطى للحـــرية مفهوما مغايرا للمفهوم الاول يساير نهضة الامة ، ويصون وحدتها ، ويتماشى مع مواقفها السياسية فى الداخل والخارج ويتفاعل مع كافة المستويات والنزعات والميول السارية فى طبقات الشعب ٠

ولم يعد باستطاعة المثقف ـ على هذا الاعتبار ـ أن يتنكر من خلال تمسكه بحرية التعبير لواقع امته وطنيا وقوميا ، كما لم يعد فى امكانه ـ أيضا ـ السكوت عن كل ما يمس حرية الافراد والجماعات وينال منها ارهابيا ٠ ولكى لا يزيف المثقف موقفه من الحرية ويعرب بكل اخلاص وصدق عن وجهة

نظره فى كل ما يحدث أمام سمعه وبصره كان للجرأة واليقظة الوعى تأثيرها فى نفسه ، وهو ما جعله يتساءل علانية : كيف تتسنى له السيطرة على حرية التعبير ؟ هل بالعمل على اكتساب نفوذ سياسى فى هيكل الدولة يدعم به موقفه ؟ أم بتساندہ مع المثقفين العرب داخل بلاده وخارجها فى اتحادات لها صبغة التنظيم النقابى ؟ أم بتحريضه للجماهير على الوقوف معه فى وجه كل من يحاول النيل من الحرية التى خلصها الشعب من براثن المستعمر ؟ ثم اية حرية يمارسها المثقف فى العبير عن موقفه من قضايا أمته ومشاكل المجتمع الذى يعيش فيه ؟ وماهى حدودها ومفاهيمها ومعطياتها ؟

ان منطق الاحداث التى تندلع يوميا شكل مفاجىء ، يضطر المثقف - أحيانا - للخروج عن دائرة التروى وضبط زمام النفس ؛ وبذلك تفد وحرية التعبير عن موقف المثقف العربى سلاحا ذاحدين يقطع أولا بمجاهرة المثقف - بصفة شخصية - برأيه فى الاحداث التى يعيشها بطريقة حاسمة وصريحة ، وسيتهدف مع ذلك موقف من بيده زمام السيطرة على هذه الاحداث سواء كان قوة حكومية ، أم شعبية ، أم دولية : شقيقة أو صديقة أو منحازة أو محايدة .

هذا فيما يخص الحرية التى يواجهها المثقف أما فى خصوص الحرية التى تواجهها الثقافة العربية المعاصرة ، فهى كتعبير انسانى تتأصل فيه المعاناة تستلزم الوقوف فى واجهتين :

الوجهة الاولى: حرية تعميم الثقافة العربية وتدويلها بين طبقات الشعب والامة العربية وعدم حصرها فى المتعلمين وتقييدها ببرامج دراسية تنطلق من المدرسة الابتدائية وتنتهى فى صفوف الجامعة .

الواجهة الثانية : اذابة الحواجز المفروضة من الداخل والخارج على الثقافة العربية وتحريرها من خطر الغزو الثقافى الاجنبى ، ومن خطر اللهجات العامية المغلقة والجهل والأمية ، ومشاغل الحرف والمهن الآلية واليدوية التى تصرف الاغلبية الساحقة من طبقات الشعب عن الاهتمام بالثقافة العربية والتفاعل معها لغويا وفكريا على مستوى التخاطب والتعامل مع الافراد والمؤسسات ٠

الاستاذ حمادى الساحل
كلية الآداب
جامعة تونس

ان الحرية فى نظرى هى حجر الزاوية بالنسبة الى الثقافية العربية المعاصرة ، وقضية ازدهار تلك الثقافة ترجع أولا وقبل شىء الى حرية الكاتب والمفكر ٠ فينبغى كما قال الاستاذ محجوب بن ميلاد توفير جميع الحريات للكاتب العربى حتى يتمكن من الانتاج الصحيح لا المزيف وان يقوم بدوره الفعال فى المجتمع العربى المعاصر ٠ ذلك ان قضية الحرية هى أولا وبالذات قضية كرامة الانسان

العربى · فان لم يتمكن الكاتب من الادلاء برأيه الصريح حول كـل ما يهم المجتمع الذى يعيش فيه . اصبح يشعر بانه محروم من التمتع بحريته كغيره من المفكرين فى جميع انحاء العالم المتمدن ، وعند ذلك يصيب ثقافتنا العربية الاسلامية مانشاهده اليوم من ركود وضعف فى الانتاج ·

ومجمل القول ان حرية المفكر العربى تعتبرمن أهم العوامل لتفتيح القرائح فى شتى مجالات الخلق والانتاج من مسرح وقصة وشعر وفنون ·فاذا لم تضمن الدولة للمثقف وبالتالى كرامته فان الثقافة العربية سوف تبقى منعزلة عن حيـــاةالمجتمع وعن تطور العصر ولا يتسنى لها الانتشار والاشعاع فى كافة اصقاع العالم كغيرها مـــنالثقافات الانسانية ·

الاستاذ عبد المجيد الذويب

« هناك نظرية تقول بان قضية الحرية تمثل حجر الزاوية للثقافة العربيـــة المعاصرة » ·

نعم لا ثقافة بدون حرية · فالثقافة فى كل العصور وفى كل الامصار لا تنمو ولا تزدهر الا فى الحرية فهى كتلك السمكة الشهيرة تحيا وتسبح فى ماء الحرية شريطة الا يكون الماء عكرا · فان تلوث الماء مات وهلكت معه السمكة ·

فضرورة الحرية اذن لا جدال فيها مع انهاحرية نسبية تكون فردية فتحدها حريات أخرى فردية وجماعية تجاورها وتتعايش معها وقد تكونجماعة قوامها الصالح العام فتحترم الفرد وتحترم كرامته ·

الا أن هذه الحرية التى حاولنا تصويرها بايجاز وتقصير فهل كانت توجد عندنا معشر العرب والمسلمين ؟

لو استثنينا فى تاريخنا بعض العصور الزاهرة لرأينا ان هذه الحرية كانت مفقودة · انها كانت تقتل فى براعمها فلا تزهو ولا تزدهر ·فهذا لسان الدين بن الخطيب يعدد العلماء والادباء والفقهاء الذين امتحنوا الذين قتلوا لانهم عبروا عن آراء تخالف غيرهم فرموا بالزندقة او المروق او الدهرية او الالحاد او الكفر او غيرها من المفاهيمالتى صنعت لكبت الرأى الحر · وهذا الامير عبد الله بن زيرى يقول فى كتاب التبيان متحدثا عنشعبه : « واما الرعية فبخ ذلك ما كانت تبغى

طمعا منها فى الحرية ، فهو لا يستطيع ان تتصــور الشعب حرا • وهذا الامام مالك تعرفون انه امتحن لافتائه بسقوط يمين الاكراه • فحتى الامام مالك زعيم المنقول وخصم المعقول ترون انه عذب بسبب ابدائه رأيا كان يخالف اهواء الولاة •

ان الحرية فى القديم كانت محدودة جدا • فكان المثقف فى علوم الدين مقلدا يخشى التجديد ويعده بدعة كما كان الاديب مداحا يمدح الخليفة او الامير ولا يفتخر ولا يعتز الا نادرا بما نسميــه الآن قومية وما كان يطلق عليه سابقا لقب الشعوبية • فحتى ابن خلدون مؤرخ البربر انما قسر على مدح السلطان ابى العباس الحفصى فى تونس : يقول صاحب كتاب العبر : « وكان مما يغرون به السلطان على قعودى عن امتداحه فانى كنت قد أهملت الشعر وتفرغت للعلم فقط فكانــوا يقولون له : انما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه الملوك قبلك . وتنسمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانتهم فلما رفعت له الكتاب وتوجهت باسمه انشدته ذلك اليوم هذه القصيدة امتدحه واذكر سيره وفتاحاته واعتذر عن انتحال الشعر واستعطفه بهدية الكتاب اليه وهى هذه :

هــــل غــــير بابك للغريب مؤمــــل

أو عــــن جنابـك للامــانى معـــدل

أما فى الوقت الحاضر فما زال المثقفون مــن قلة الحرية فى البلدان ذات الصبغة الاشتراكيــة لاصطدامهم بارادة الدولة او الحزب او من كثرتها وتلوث مائها فى البلدان ذات الصبغة الليبيرالية لاصطدامهم بجدار الفضة واصحاب رؤوس الاموال ••• فما العمل ؟ انا اعتقد ان المثقف يستطيع فى كل النظم السياسية التى تحظى بالقدر الادنى من رضا الجماهير ان يقول كل شىء على شرط ان يكون صادقا نزيها مخلصا متفتحا قابلا للجدال متواضعا متحكما فى تفكيره غير متعصب لرأيه عندما يبين الجدال ان رأيه غير مصيب اعتقد ان المثقف يقرأ ويسمع ويقتدى به عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر •

فالتظلم من قلة الحرية او كثرتها كثيرا ما يكون علة يتستر وراءها العجز أولئك الذين أصيبوا بعقم فراموا اخفاء اخفاقهم وسخافة تفكيرهم وراء دخان العراقيل الوهمية •

فعلى المثقف الواعي المقتدر ان ينتج في ميدان اختصاصه ـ عليه ان يفعل ما يراه صحيحا سالما لئلا يحل محله ويتكلم باسمه اولئك الاقزام الانتهازيون المارقون عن الثقافة .

الجواب عن السؤال الاول : الثقافة والحرية ·

محمد اليعلاوي
كلية الآداب
جامعة تونس

يمكن ان نصوغ الجواب على النحو التالي : هل وجدت حرية ثقافية في العصور الاسلامية القديمة ؟ الجواب : نعم ، كانت توجد حرية كبيرة في اكثر العصور . ولا سيما في العصور العباسية · وبالرغم من ان الثقافة في القديم كانت دينية أولا وبالذات ، فان الدين لم يكن كابوسا على الفكر ، ولم يقيد حرية المفكرين · وتطالعنا كتب التاريخ والادب باخبار كثير من المفكرين الذين كانوا يسخطون علانية على اوضاع سياسية او اجتماعية سيئة · ويكفي ان نسوق مثال المعتزلة ، زعماء التحرر في القرنين الثاني والثالث . ومثال زعمائهم كعمرو بن عبيد الذي ما كان يتوانى في توبيخ الخليفة العباسي المنصور ، على صلابته وقسوته · وفي الجانب المقابل ، كان اهل السنة أيضا منتصرين لافكارهم ، معبرين عنها بكل بسالة فلنذكر موقف مالك بن أنس من طلاق الاكراه ، وموقف الامام أحمد من قضية الجبر والاختيار وقضية خلق القرآن ، فلئن أفرط الخليفة المأمون في حمل الناس على اعتناق مبادىء الاعتزال ، فليس الذنب في نظرنا ذنب المعتزلة ، وانما ذنب السلطان الذي فهم مبدأ الوحدة العقائدية فهما خاطئا ·

فالحرية ليست حرية الثقافة فحسب . بل هي أيضا حرية سياسية واجتماعية ، اعني حرية في ابداء الرأي والانتصار له في الحقلين السياسي والاجتماعي · ولا حرية في نظام سياسي لا يقر حرية كل فرد في التفكير وفي التعبير عن افكاره وفي نشرها . قد يجيب صاحب السلطان بان الحرية ان اطلقت قد تؤدي الى فوضى ، وانخرام في النظام ، وهو اعتراض كثيرا ما يتعلل به خانقو الحرية . والجواب ان هناك ذخيرة كبيرة من القوانين التي يمكن سنها وتطبيقها لمقاومة الفوضى، واشعار المتساكنين في مجتمع ما بان حريتهم محدودة بحرية الآخرين، ومقيدة بمتطلبات الحياة الاجتماعية ضمن مجموعات بشرية منتظمة ·

حينئذ يمكن تقييد الحرية ، في صورة تهديدها لكيان المجتمع ، بحدود قانونية متفق عليها لدى المشرع والرأى العام • اما ان تقيد الحرية مبدئيا ،اما ان يحكم على الناس بالصمت وبالسير مع الرأى السائد بدعوى انهم قد يهددون النظام اذا تركوااحرارا ، فذاك ما لا يقره الاسلام • بل الاسلام يتفهم ظاهرة المحاسبة والانتقاد عند كل محكوم تجاه حاكمه ، تلك الظاهرة التى يعبر عنها ابو حيان التوحيدى بهذه الجملة : « وحنق المملوك على المالك معروف » • وحتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يسلم من النقد ، عنـد تقسيمه الارزاق مثلا ، وما علمنا انـه زج بالمعارض فى السجن او ضرب عنقه •

فلا بد من الحرية فى النقد وفى الانتقاد وفى التوجيه والاصلاح ، ولقد ساءنا ما سمعناه مـن بعض حكامنا فى العالم العربى ، من ان الحرية لابدان تقيد فى العالم الثالث ، عالم الشعوب النامية• فهل يعنى هذا الحكم انه ينبغى اطلاق أيـــدى السلطان فى النفوس والاعراض والاموال ، ما دمنا فى تخلف عن ركب الحضارة التقنية الغربية ؟أليس هذا تقهقرا بالنسبة الى العصـــور الاولى للاسلام، حين كان الخليفة والامير والوالى يتعرضون للنقد والتهجم بسبب سلوكهم او سياسيتهم ؟ أليس هذا تقهقرا حتى بالنسبة الى الثلاثينيات ،حين ظهر كتاب توفيق الحكيم : « يوميات نائب فى الارياف » ، وفيه ما فيه من نقد لاذع للاوضاع السياسية والعدلية فى مصر ؟ وهل يمكـن ان يظهر اليوم بمصر ـ أو بأى بلد عربى آخـر ـ كتاب مثل اليوميات او حتى مثل حديث عيسى بن هشام للمويلحى ؟

انه من اللغو ان نتحدث عن الحرية الثقافية بمعزل عن الحريات الاساسية فى الحياة السياسية والاجتماعية •

الجيـلانى بن الحاج يحيى

لقد اتى معظم الاخوان على أهم جوانب قضية الحرية فى الثقافـــة المعاصرة ، وأحاطوا بها ، ووفوها حقها من الدرس والتمحيص • وسوف لا أزيد عـــلى ما نالته فى هذه الندوة ، وانما أريد فقط أن أشير الى أن الثقافة العربيـــة المعاصرة ، هل تحتل مكانة مرموقة وسط الثقافات المعاصرة الاخرى ؟ وان نعم فما هى درجة هـذه المكانة ؟ وهل انها احتلتها عن جدارة ؟ وان كان النفى فما هو العائق دون تقدمها وازدهارها ؟

ان الشيء الذى يتبادر الى الذهن ، هـو ان المثقف العربى المعاصر يعيش وسط مجموعة مـن المتناقضات فى مجتمعه ، وان قضية الامية وانتشارها الواسع فى المجتمعات العربيـــة المعاصرة يلعبان دورا هاما فى حجر زاوية الثقافة ..واكثر بكثير فى قضية الحرية ·

فتوجيه العناية الى هذه المشكلة الخطيرة ،هو ـ فى نظرى ـ أجدى بالبحث واشد مساسا به . اذ لو وجد له حل ، وسويت مشكلته فـان جميع الحلول وامكانياتها تسهل فى معالجة القضايا الاخرى ·

محمد العروسى المطوى

ان الحديث عن الحرية من اهم مشاغل الانسان خاصة فيما يتعلق بالثقافة واذا تحدثنا عن الحرية فى المجتمع العربى ـ حتى فى عهوده السابقة ـ وجدنا ان الكبت بالمفهوم الذى ظهر فى مجتمعات اخرى لم يعرف بأتم معناه فى البـلاد العربية ابان تطورها ونموها الدينى والاجتماعى والسياسى · ونذكر فى هذا المجال حركة الاعتزال أو الجدل « الشعوبى » وما دار حولهما من نقاش يصل احيانا الى درجة العنف مما يمكن جعله يعود الى الامزجة اكثر مما يعود الى « العقائد » فبينما نجد ابا العلاء المعرى ينقد المجتمع فى مختلـف اوضاعه السياسية والدينية دون ان يناله الارهاق أو الكبت فى مفهومه السياسى نجد فى المغـرب الاسلامى ـ فى عهد المرابطين ـ تصدر الاوامر باعتبار كتب ابى حامد الغزالى مما يجب حرقه وان اكتسابها يعتبر جريمة يعاقب عليها · وفى العصر الحديث نجد بعض الكتب التى تؤلف او الآراء التى تطرح قد لا يصل العنف مع اصحابها الى الدرجة التى يمكن ان نجعلها فى اطار « الكبت » وخنق حرية التعبير · وفى هذا الصدد نذكر مثال طه حسين ونظريته فى الادب الجاهلى ، والطاهـــر الحداد فى كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع »·

ومعنى هذا كله ان الباحث يجـــد مجالا للقول عن قضية حرية الفكر والتعبير فى مختلف عهود الحضارة العربية ·

لكننا اذا اردنا ان نتحدث عن الحرية كشيء اساسى فى أى مجتمع من المجتمعات ـ وخاصـة فى الخلق الفنى والادبى ـ فانه من المتأكد القول بانها ضرورة حتمية لكن على اساس الا يكـــون

هدفها تهديم مقومات الامة ومميزاتها الشخصية لان الحرية تصبح خطرا مهددا وعلى الامة ان تقف موقفا جماعيا ضد ذلك وهذا لا اعتبره كبتا ولا تقييدا • وموقف لا يكون سليما ايضا الا اذا كانت لها قابلية للنقد البناء النزيه • والنقد لايمكن ان يزدهر الا في مجال حرية التعبير لانه بدون نقد لا يمكن ان ننهض وان نتحول الى ما هو احسن • وانني – اذ أؤكد على حرية التعبير والنقد – أؤكد ايضا على ضرورة الحفاظ على اصالتنا ، وان يكون هدفنا من الحرية هو ان نتنافس في الابتكار والخلق الذي يعود بالنفع على المجتمع وعلى الانسانية بصفة عامة •

عثمان شبوب

لقد اخذت هذه النقطة بعض ما تستحق من التوضيح ، ولننتقل الآن الى الاجابة عن سؤال يتردد لدى البعض ومفادها ان قضية الحرية اذا اثيرت في القديم فلان لها مبررا من الواقع : هناك قيود على الفكر ، وهناك نضال من بعض رجال الثقافة والفكر لازالة تلك القيود •

اما في عصرنا هذا فالحرية مكفولة ، والدليل على ذلك انه لا يوجد في العالم العربي ضحايا القمع الثقافي ، ولم نسمع بشخصية ثقافية تحدت وجوبهت من طرف السلطات ، اذن ، وتماشيا مع هذا المنطق فطرح قضية الحرية لا معنى لها هنا ؟

الدكتور المنجي الكعبي

أود من جديد الكلام في هذه النقطة لأبين ، تعقيبا على كلمة الاخ عثمان شبوب في ان الحرية مشكل مطروح في جميع العصور ، في الثقافة وفي غيرها كما قلت قبل قليل • والحرية هي عبارة عن صراع مع الحالة الاستقرارية التي يميل اليها المجتمع ، فهناك اجتماعيا وسياسيا ميل عند الاغلبية للمحافظة والاستقرار ، وهناك نخبة او نسميهم قلة وهم المثقفون ، هذه النخبة تريد ان تغير فهي في صراع من اجل حريتها في التغيير ، وعنصر التغيير هام جدا لتطوير المجتمع . وعليه لا اتصور هناك مثقفا بمعنى الكلمة ، في القديم وفي الحديث ، لا يعيش في صراع مرير بينه ككائن حر وبين الاوضاع الاستقرارية المحافظة التي

يميـــل المجموع الى الابقاء عليها والى مواصلتها .ولذلك يمكن ان اربط هذا الســؤال بالســؤال الموالى الذى يتعلق بالتراث .

التراث ايضا يثير مشكلة ، مشكلة الحرية بازاء التراث • فبعضهم يرى من مفهوم حريتــه ان يتجرد من هذا التراث ، ويريد ان يوصـــل ثقافة عربية جديدة لا تنتمى الى تراثها القديـم ، فترون معى انه حتى فى ايامنا هذه نجد ثقافتنا العربية المعاصرة تعانى من هذه القضية ، قضة الحرية. الكل يتصورها بمفهومه الخاص • السياسى له حريته الخاصة والاقتصادى له حريته الخاصة الخ • انما المثقف ليس فى رأيى الشخصى الذى تمنح له الحرية او يطالب بها ليجد الظل الوفـير ليكتب بحرية ، فان اعطيت له اعتبر نفسه قـــد كتب وهو حر والا يعتبران ليس هناك حريـــة ، ويبقى فى تشك دائم لانتقادها • انما المثقف الحق هو الذى اذا لم يجد نفسه طرفا فى هذا الصراع فليعتبر نفسه انه ليس فى حرية ، حتى وان وجد كتاباته تنشر وكل ما يقال مسموع ويعمل به • فليعتقد ان هناك تزييف لا محالة فى حقيقة حريته وانه لا يرى بوضوح الامر • اذ فى رأيى : الحرية مشكل قائم بين المثقف وبين عصره فى كل وقت •

الاستـــاذ الحبيـــب الجنحانى

اريد اولا ان اقول ملاحظة حول السؤال الذى طرحه السيد رئيس تحريـــر مجلة « الاصالة » الاستاذ عثمان شبوب قبل ان انتقل الى ملاحظة ثانية موجزة عن السؤال الثانى . قضية التراث •

هنالك رأى يقول فى الحقيقة قضية الحرية فى الثقافة العربية المعاصرة هى قضية زائفة نطرحها من باب الترف الفكرى، قضية ليست موجودة والدليل على ذلك انها وجدت مشاكل قبل استقلال الشعوب العربية وظهرت اسماء وأثارت ضجة وزوبعة ولكن اليوم لا نجد ما يشبه ذلك والمثقفون الآن يعيشون بسلام اعتقد ان مثل هذا الرأى معناه انكار لواقع موجود . وهناك ملاحظة أولية وهى انه لابد ان نفرّق بين بلد عربى وبلد عربى آخر، وفى نفس البلدان العربية لابد ان نفرق من فترة زمنية معينة الى فترة أخرى وهذه ظاهرة سرته فى العالم العربى . انه يمر بظروف زمنيه تتغير ، وتقلبات سريعة جدا بحيث ما يمكن ان يصح الحكم عليه بالنسبة لفترة الستينات ربما لا يصح

اليوم هذه الملاحظة الاولى . لكن بصفة عامة لـو نقوم بعملية تحليل للوضع السياسى ولنظم الحكم الى غير ذلك بصفة عامة ، فاننا نجد نفس النتيجة أى أن المثقفين العرب بصفة عامة يعيشون كما قلت فى الأول خلف الجبهة أعنى جبهة نضـال الشعوب العربية فهم ليسوا فى الطليعة ، لا يساهمون رغم حاجة العالم العربى الى الفكر المجدد الى الفكر الثورى، الى الفكر الدقيق، والى الموضوعية الى الصراحة ، الى الجراءة ، تجد هؤلاء المفكرين الذين يجب منطقيا أن يكونوا فى الطليعة نجدهم من الوراء ونجد أناسا آخرين هم الذين يشرفون على مصير الشعوب العربية ، هذا الوضع الذى يوجد على الاقل فى اكثر البلدان العربية يكفى أن يكون جوابا على من يريد ان يتجاهل هذه القضية ويقـول أن القضية ليست مطروحة ، لاننا لم نتعمق فى التحليل ونسأل : ما هى الاسباب التى جعلت هؤلاء ينكمشون وينزوون •

تدخل الاستاذ عثمان شبوب

بالنسبة للسياسيين متهمون بأنهم لم يخلقوا الظروف المناسبة ليلعب المثقف دوره فى الحياة الاجتماعية والثقافية ولكن السياسيين يقولون بأن المثقفين انعزاليون يعيشون فى ابراج عالية وهم لم يساهموا فى خلق مجتمع عربى واع باتم معنى الكلمة ، اذن فالمشكلة ليست مشكلة بين السلطة وبين المثقف وانما المشكلة بين المثقف والمجتمع ؟

الاستاذ الحبيب الجنحانى

هل نحن سمحنا للمثقف واعطيناه الحرية ليعبر أو يرد عن مثل هذه التهم مثلا ، اذا كانت هذه التهم موجودة ؟

أولا يجب أن نفسح له المجال ليعبر عن آرائه حول هذه القضايا •

ثانيا هناك نقطة اساسية ، وهى مأساة المثقفين . فلا بد أن نعترف بأن المثقفين العرب على الاقل فى بعض البلدان العربية وهى موجودة فى المغرب العربى وهى من العراقيل التى تجعل المثقفين فى بعض الاحيان لا يلعبون هذا الدور الاساسى أعنى تلك الفروق الكثيرة وربما اختلاف اتجاهاتهم وانقساماتهم حول قضايا مصيرية . هذا الى جانب بعض العوامل السياسية

لكن حتى هذا العامل يجعلهم لا يقومون بالـدور الاساسى وانهم فيما بينهم غير متفقين حول قضايا مصيرية اساسية ·

الاستـــاذ محجـوب بن ميـــلاد

قضية « التراث » في الأقطار الاسلامية من أشد القضايا تعقيدا ومن أعظمهـا خطرا · وفى التوفيق فى علاجها توفيق فى علاج غير ما قضية مـن القضايـا الحيوية التى هى قضايا « الاخلاص للذات » والاخلاص لما تريده الذات لنفسها من البعث الحقيقى على اساس « البصر الدقيق » بنواميس الاشياء ·

ولئن كانت الاقطار الاسلامية فى اشدالحاجةالى تعزيز جوانبها المادية بما شئت من شؤون العدة التكنلوجية والأدوات العلمية العصرية فى جميع ميادينها الاقتصادية والعمرانية ، فهى فى عـين الحاجة الى أن « تصفى حسابها المعنوى » ـ فيما يخص « التراث » وفى نطاق عين الصرامة الفنية ! الا أن الامر الجوهرى الذى يجب ان ننتبه اليـه ـ قبل كل شيء ـ هو أن علاج قضية التراث يتطلب منا آن نميز بين عناصر هذه القضية أو بين جوانبها ـ اذ لها عناصر متعددة ، وجوانب مختلفة ـ حتى يمكن لنا أن نوضح جنس « المواقف » التى يجب أن نتخذها من تلك العناصر ـ عنصرا عنصرا ـ أو من تلك الجوانب جانبا جانبا ·

ومن أمارات التوفيق فى علاج تلك القضيـة أن ندرك أن موقفنا من هذا العنصر قد لا يجب أن يكون ـ مبدئيا ـ عين موقفنا من سائر العناصر أو أن موقفنا من هذا الجانب ليس يجب ـ حتما ـ أن يجانس موقفنا من سائر الجوانب ·

وانما اعنى ـ من وراء هذا ـ أنه من الباطل أن نغالى مغالاة البعض ـ فنقدس التراث « جملة » وعلى الاطلاق مثلما أنه من الباطل ـ كذلك ـ أن نتطرف تطرف آخرين « فنرفض » ذلك التراث على اساس عين « الجملة » وعين الاطلاق !

فتراثنا ـ كتراث كل امـة لها تقاليدهـا الثقافية العريقة فى القدم ـساير القرون وتشعب تشعب النشاط العقلى والروحى ، وتعمق تعمـق الشوق للكشف عن اسرار الحياة ، وتنوع تنوع العقليات التى غذته بما شاءت همهـا ، وشاءت مقاصدها ، وشاءت اهواؤها ، وشـاءت ظروف

تجاربها السياسية ، والاجتماعية والخلقية والنفسية والعمرانية والتاريخية ان تغديه به فأضحى بين أيدينا هذا التراث الذى نعرف انه من أضخم ما عرفته التقاليد الثقافية بين الأمم المتحضرة ذات الماضى السحيق ـ من ألوان التراث ـ ناهيك أنه تراث شعوب جمعت بينها الرابطة الاسلامية العربية من المحيط الهندى الى المحيط الأطلسى وانتجت ما أنتجت من صنوف الانتاج فى نطاق ما عرف تاريخها من مد وجزر ، ومن حرب وسلم ، ومن صراع وتعاون ، ومن شقاق ووئام ، ومن رقى وتدهور ، ومن توحيد وتمزيق شمل .

ولئن شاءت ظروف الانحطاط أن تنقطع « الصلة الحية » بيننا وبين هذا التراث ، أو أن تضعف الى حد بعيد فتضحى أحيانا واهية كخيط العنكبوت ، فقد شاءت « النهضة الحديثة » أن تربط ما انفصم أو ما وهى من الروابط بيننا وبين تراثنا وأصبحت العقول تنتبه ـ فى نطاق وعى أعمق فأعمق ، وأشمل فأشمل ـ الى ضرورة « احياء التراث » تمهيدا لمستقبل نريده قويا ، ونريده يكتسى بما يجب أن يكتسى به من « عزة الذات » حتى تنهض « الذات » مستقيمة الطلعة لمجابهة مشاكل حاضرها والمستقبل

لكن !

الاتنتبه ان القضية ـ جوهرا ـ من قضايا « الحرية الخلاقة » ؟ الاتنتبه الى انها «عملية» ليس أدق منها ويعترضها من الصعوبات ما لا يضحى ؟

الاتنتبه الى انها تتطلب من «الاختصاصيين الفنيين» ان يفنوا اعمارا فى الكشف عن «اسرارها» وعن « شروطها الفنية » : وهى اسرار وهى ـروط من الطف الاسرار ومن اعز الشروط ناهيك انها « تبدو » متناقضة ! وتبدو لك « لطائفها « دقائقها » فى اعظم سؤال انت حرى بان تطرحه وهو هذا « السؤال المزدوج :

ما جنس اتصالنا بالتراث ؟ وما جنس انفصالنا عنه ؟

ومحال ان تطمع فى التوفيق فى معالجة « قضية التراث » ما لم « تتبين » على ضوء « الشروط الفنية » التى هى شروطها هذا « الشأن العجيب » الذى هو شأننا من التراث !

ولئن اكدت لك سالفا انه من الباطل ـ جزما ـ ان نغالى مغالاة البعض فنقدس التراث تقديسا ـ بالجملة وعلى الاطلاق ، او ان نرفضه ـ رفض بعضهم له ـ بالجملة كذلك وعلى الاطلاق

فلأن كلا الطرفين يتحدان ـ من دون شعور منهم ـ في عين الذهول عن «جانب جوهري» من القضية : فذهل الحزب الاول عن ضرورة الفصل وذهل الحزب الثاني عن ضرورة الوصل ـ بيننا وبين التراث !

وكلاهما يتحدان ـ من وجه ثان ـ في عين « الشطحة » التي يعوزها التدبر والفكر الرشيد في اعتبار اسرار الحياة في فتوحاتها المبينة • فكان الاول مكتوبا عليه ـ اراد ام لم يرد ـ ان « يغرق » في الماضي لاعتباره التراث « حقيقة مقدسة » نقصد لذاتها ؟ وكان الثاني مكتوبا عليه ـ شعر بذلك ام لم يشعر ـ ان يكون « منبتا » لتقريره ما قرر : ان يحرم ذاته الحية من بعض منابع حيويتها المتأصلة في تربة تقاليده الثقافية ؟

وهل يوجد مجتمع حري بالبقاء ما لم يسهر على تغذية عقول ابنائه بصنوف « القيم » التي هي قيم تراثه حتى يمكن لتلك العقول ـ مزكاة ـ ان تزكي بدورها تقاليدها بما تثريها به من كنوز فتوحاتها ؟

وهل التقاليد الثقافية الحية الا « سلم ذهبي » لا تنفك الهمم تتسلق درجاته ولا تنفك تضيف الى تالد درجاته طريف الدرجات فتشرف ـ بفضل ذلك ـ على آفاق اوسع فاوسع . فتمكن « الحياة » من وثبات جديدة في حلبة كل خلق تكون ـ دائما ـ مجدا للعقول ، ومجدا للقلوب . ومجدا للاذواق !

وهل « الحرية الخلاقة » تبغي غير هذا ؟

وان نحن اعتبرنا كل هذا أفليس يبدو من الواضح الجلي ان مشكلة « احياء التراث » ـ وهي مشكلة حديثة بالاقطار الاسلامية ـ ليس يمكن ان تنحصر ـ مثلما يظن البعض ـ في مجرد اعادة نشر امهات الكتب القديمة على نحو ما كان من النشر للتآليف العديدة التي عثر عليها من تآليف المعتزلة ، او الشيعة ، او اهل السنة •

فنشر هذه التآليف ووضعها بين ايدي الباحثين امر ضروري • ولكنه لا يتجاوز ان يكون « خطوة » يجب ان تعقبها « خطى » أخرى ترمي الى العطف عليها بالبحث والتحليل والدراسة والنقد رجاء الغوص على اسرار «الروح الحي» الذي أوحى بها فكان « بارزا » في مختلف اجزائها وفصولها مثلما كان « مبرزا » لما يحدو مؤلفيها من الشواغل الجوهرية والمطامح الاصيلة التي ترمي

الى « التعمق » ـ اكثر فأكثر ـ على اسرار « النظرة الحق » لشؤون منزلة الانسان فى الوجود ـ على ضوء ما انكشف لهم من اسرار التنزيل الـذى اتخذوه دستور انفاسهم العقلية والروحية خلال ما كان لهم من « التجارب الوجودية » ٠

واذا ما اعتبرنا ان « العقلية » التى هى عقليتنا اليوم فى هذا القرن العشرين ليست هى « العقليات » المتباينة التى نجمت خلال قـرون التاريخ الاسلامى ، وان الظـروف النفسيـة ، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلميـة التى عاش وسطها العباقرة الذين اضطلعوا بامداد التراث بانفاسهم ليست هى الظروف التى نحن فيها ـ افليس يتضح لنا جليا ان العطف عـلى التراث بالبحث والتحليل لاجلاء جوانبه الجوهرية يجب ان يجرى على « أصول » معينة تضمن لنا الاقتدار على هضم ما يصلح للهضم من هذا التراث فيتسنى لنا ـ فى نطاق الاخلاص الحى للذات الحية ـ ان نوفر لانفسنا ـ وللتراث ـ أسبـاب « البعث الحق » وسط عالم نواميسه ليس اشـد منها صرامة ٠٠٠ والا طرحنا ـ وطرح التراث ـ مثلما طرحت الحضارة الاسلامية فى طى العدم ٠

واهم تلك الاصول التى يجب ان تحدونا عند عطفنا على التراث بالدراسة والتحليل والنقد فأهمها ـ عندى ـ ان نميز فيه بين أمرين اثنين ليس لهما عين الحرمة ٠

1 ـ اما العنصر الاول فهو « العنصر العلمى » اعنى ما انتهى اليه « العقل الاسلامى » من فتوحات فى ميدان العلوم على اختلافها ٠

وبدهى ان هذا العنصر ـ مهما دل عـلى عظمة الفاتحين فيه ومهما كان لهم من الفضل فى عهودهم فى حلبة التنقيب على حقائقه ـ عنصر « موقوت » اعنى انه « رهين وقته » وينظر اليه بالاضافة لما كانت عليه العلوم قبلهم وما انتهت اليه اليوم بعدهم ٠

وشأنهم هنا شؤون !

ففى ميدان الهندسة ـ مثلا ـ فهندستهم ورثوها عن اقليدس اليونانى : هضموها ولـم يضيفوا اليها شيئا ٠ وهى هندسة ما زالت صالحة ليومنا هذا فى مستواها الخاص . بالرغم من ان علماء العصر اضافوا اليها « هندسات » أخـرى تصلح فى مستويات غير مستوى هندسة اقليدس وتعتبر لا دحضا لها بل توسيعا للآفاق الهندسية البشرية ٠

وقل مثل ذلك فى الجبر وفيما انتهى اليـه الجبر عند المحدثين من تطبيقات مدهشة فى ميدان العلوم الموضوعية – اعنى فى ميادين الفيزيـاء والكيمياء وعلم الحيل مما لم يحلم به قط العلماء القدامى ٠

اما ما كان لهم من الانظار فى ميدان علم الهيئة فهو لا ينظر اليه الا من الناحية التاريخية البحت على نحو نظرنا لمنحى استاذهم بطليموس فى تصوره قضايا علم الهيئة وقضايا افلاكها ان نحن قسنا هذه الانظار بالانقلابات المدهشة التى تمت فى العصور الحديثة على ايدى كوبرنيك ، ونيوتن واينشنتين وغيرهم من علما الهيئة ٠

2 – واما العنصر الثانى – فى التراث – فهو لا يخص « التقدم العلمى » عند القدامى وانما يخص « تقدما » من جنس آخر أعنى « التقدم » الذى انتهى اليه « الضمير الاسلامى » فى حلبة الكشف عن « الاسرار الروحية » – « اسرار القلوب » – من وراء تجاربهم المتنوعة فى الميادين الاعتقادية والفلسفية والخلقية ٠

وهو عنصر اطلق عليه – قديما – اسماء مختلفة : فسمى حينا بالتدبر ، وحينا بالاعتبـار والازدجار ، وحينا بالفكر . وهى اسمـاء مرادفة لاسم « العنصر الروحى » عندنا اليوم ٠

ومهما يكن الاسم الذى تطلقه على هذا العنصر فهو العنصر الاهم فى التراث اذ به كان التراث « اسلاميا » ٠

هو – بالضبط – عنصر « توحيد الذات » فى صعيد الافراد وفى صعيد الجماعات ٠

هو عنصر « تفجير ينابيع » « صدق الذات » و « اخلاص الذات للذات » فى صعيد الافـراد وصعيد الجماعات ٠

هو عنصر « تحريك الذات » فى ميادين حريتها الخلاقة !

وهو هو – لا أكثر ولا أقل – العنصر الذى كان به « التنزيل » هدى ورحمة للعباد ٠

وهل يمكن ان يكون لنا – من وراء « احياء التراث » غنم اعظم من هذا الغنم : ان نستلهمه فيما حظى بتصيده من أسرار اقتدار الذات على مجابهة « قضايا المصير » وسط ما يكتنف «المنزلة الانسانية » فى هذا الوجود من الاقدار والصروف على اختلافها فى الشكل والجنس ؟

ولئن كان أولئك الذين يقدسون التراث تقديسا واولئك الذين يرفضون التراث رفضا من المبطلين فلان كلا الحزبين يتحدان في عـــين « الكسل العقلي » فلا يبحثان عن الغوص عـــلى اسرار الذات في نور خلقها ولاهما ينتبهان الى ان التراث ان كان في حاجة الى « الاحياء » فلانه في حاجة الى ان نهبه من لهب نفوسنا وتـــورعقولنا حتى يهبنا ــ هو ــ ما كمن فيه من آيات عزم يوحي بالعزم ومن آيات نور توحي بالتنوير فتنتظم فتوحاتنا في حلقات سلسلة التالـــد والطريف وفي كنف « البعث المستأنف » ...

وهو أمر ليس يمكن ان يتم ما لم تصبـــح نفوسنا عند عطفها على التراث « مخابر حية » ــ حقيقة لا مجازا ــ فتسخر نقدها ، وتحليلها ، وبحثها وتجاربها الوجودية المضطرمة على اختلافها ــ لتصفية الحساب المعنوي للتراث . وعلى ضوء « مقاييس » نقدها ، وتحليلها ، وتجاربها الوجودية المضطرمة يصبح لها الحق ــ كل الحق ــ في ان ترفض التراث ــ كله أو بعضه ــ او في ان تقبل التراث ــ كله أو بعضه ــ باعتبار ما ناله العباقرة الذين اضطلعوا ببناء صرحه لبنة لبنة على ممر القرون من « الانصبة » المتفاوتة و « الحظوظ » المتباينة : توفيقا وخذلانا ، وعجزا واقتدارا ، واهتداء وضلالا في حلبة تصيدهم « الأسرار » أو « الأصول » التي يتم في كنف مراعاتها أو على أساسها تفجير « ينابيع » صدق الذات واخلاص الذات للذات في صعيد الافراد وفي صعيـــد الجماعات .

ومما يزيد قضية موقفنا من « التراث » ومن « احياء التراث » صعوبة ودقة واستعصاء امران اثنان :

1 ــ اما الامر الاول فضرورة تحررنا مـــن موروث الاوهام والانظار الناشئة عما كان القدامى لا ينفكون يتقاذفون به من أحكام التكفير والتبديع والتشنيع خلال ما احتدم ــ على ممر القرون ــ من الخصومات المذهبية بين الشيعة والمعتزلة وأهـــل السنة . فجعل ذلك ما جعل من «الحجب الكثيفة» دوننا ودون حقيقة أمرهم حزبا حزبا ، دونـنـــا ودون حقيقة ما كان يحفزهم من المبادىء والمقاصد والمخاوف والنوايا ، دوننا ودون ما انتهى كل فريق منهم الى تقريره أو الكشف عنه من عناصر « تحريك الذات » وتحريك عميق أشواقها .

وهو تحرر ضروري يجب ان يحرص عليه الباحث فينا ــ مهما يكن منزعه ، ومهما يكـــن منحاه المذهبي ، ومهما يكن من أمر اشواقه الخاصة ــ ان كان يطمع ــ حقا ــ في ان ينظر بعين الانصاف

لجنس اسهام الشيعة ، وجنس اسهام المعتزلة وجنس اسهام أهل السنة فى ميادين كفاح كان حقا كفاح « الضمير الاسلامى » خلال القرون فى سبل ألوان صدقه ، واخلاقه للذات وفى نطاق ما عرف من مختلف الآفاق ـ سعة أو ضيقا ـ وعلى أساس ما حفزه من أصول « التنفس » العقلى أو الروحى .

والذى يمكن لى الجزم به ـ بعد بحوث استغرقت نيفا وثلاثة عقود من السنين ـ هو ان هنالك جانبا من الحقائق يمكن اعتبارها « جزءا مشتركا بينهم مثلما ان هنالك « فتوحات » خاصة انفرد بها كل حزب من تلك الاحزاب الثلاثة ولاغناء لنااليوم عن اعتبار وجاهتها وان انكرها بعضهم على بعض لعوامل متعددة قد نقر منها البعض وقد لا نقر منها البعض الآخر .

وهى جميعها ـ بالاضافة للباحث النزيه فى هذا العصر ـ « كنوز من الاعتبار » أو من الفكر ، يشهد على ما كان لها من الاقتدار على تفجير « صدق الذات » والهاب « لهب الذات » ما كان لهؤلاء البانين لصرح التراث من آيات الاخلاص للمبدا أو للعقيدة والصبر على طقوسه الجهمة وسط « مجتمع اسلامى » قلاقله ، وفتنه ، وهزات عنفه وفورات غليانه لم تكن ـ دائما ـ مما يسمح لذى الفكر أو لذى العقيدة ان يخلص للفكر أو للعقيدة . فكان فكرهم أو كانت عقيدتهم « اعجب نسيج » ناهيك ان لحمته وسداه لم يكونا لحمة ضمائرهم وسداها على ممر القرون .

2 ـ واما الامر الثانى فينحصر فى يقينى الذى لا يزلزل بان اولئك المفكرين الاسلاميين القدامى ـ بلغوا ما بلغوا فى حلبة الاخلاص للفكر ولقضايا منزلة الانسان فى الوجود ـ لم ينتبهوا لكل أسرار صدق الذات ولا لكل أسرار « تحريك الذات » على نحو ما جاء تقنين أمرها فى كنف « التنزيل » !

وقد ينتهى بى الامر ـ فى هذا المضمار ـ الى الجزم ـ بأنهم ان غاصوا على الكثير من أسرار التنزيل فانهم لم ينتبهوا الى الكشف عما يمكن ان نسميه « مفتاح » تلك الاسرار جميعها !

وليس من أقل البحوث شأنا ولا من أقلها اعتبارا ان نهتم ـ نحن ابناء القرن العشرين ! ـ بالكشف عن مختلف العوامل الفلسفية والسياسية والعمرانية التى حالت دون عباقرة الفكر الاسلامى بالامس ودون اجلائهم أمر ذلك « المفتاح » لأسرار التنزيل !

وهو مفتاح كان يمكنهم ـ لو انتبهوا اليه ـ من ادراك « الامر الجديـــد » الذى به امتـــاز « التنزيل القرآنى » عن سالف الكتب المنزلة :أعنى ما اشتمل عليه من « أصول » هى أصـول « دستور جاهز » يرمى الى الكشف عن أسرار « غرس » كل مثل أعلى جديد فى هذا العالـم العصى العنود ! ..

وان انت « استعظمت » هذا الامر الذى أذهب اليه فى هذا الميدان فأبيت ان تعتبر أولئك المفكرين العظام من المقصرين فى حلبة التفسـيروالتاويل لاسرار التنزيل فالامر الذى لا شك فيه هو انهم لم يتعرضوا اليه بالشرح على نحو ما كانمنهم اذ « ضنوا » بالكثير مما اكتشفوه مـــن الحقائق على « غير أهله » !

ومهما يكن من امرهم فالامر اليقين هو ان هناك «مناطق» من مناطق اسرار التنزيل تنتظـر منا ـ ابناء القرن العشرين ـ ان نعطيها حقها من البحث والكشف والتحليل « استئنافا » لتلك « الحركة الخصبة » التى غذت « اعظم العقـــول »خلال التاريخ الاسلامى اعنى « حركة تدبر أسرار التنزيل » ـ فمكنتهم مثلما هى حرية بان تمكننامن «الهيمنة» على صروف الزمن وغلاب صعوباته على اختلافها !

وهو « استئناف » لا مناص لنا منه ان نحنأردنا ـ حقا ـ « احياء التراث » واردنا لانفسنا « البعث الحق » الذى يضمن للذات الحية « عزما »به يكون « غلاب » صروف هذا « الزمن العاتى » ... وغلاب صعوباته على اختلافها ! ..

ذلك ان « احياء التراث » والاقبال على « تصفية حسابه المعنون » والفوز بتجاوز ما انتهى اليه القدامى من المذاهب والانظار ليس يمكن ان يتمـ على اساس الجد وعلى أساس الرشد العقلى ـ الا فى نطاق الغوص على ما فاتهم مـــن أسرارالتنزيل أو ... ضنوا به على غير أهله !

ويقينى الذى لا يزلزل هو انه فى امكانكأن تكون من أشد ابناء هذا العصر حرصا عـــلى علومه وعلى تقنياته وعلى صرامة معادلاته الجبريةمع اقبالك على تدبر أسرار التنزيـــل فى كنف الشوق الاصيل لتفجير ينابيـــع صدق الـذات واخلاص الذات للذات !

وانى لاذهب الى ابعد من هذا فاؤكد لك انمن كان حقا من ابناء هذا العصر وعرف ـ معرفة الدقـة ! ـ ما انتهت اليه العقول المعاصرة مـــنمدهش الاكتشافات فى الميادين العلميـة عـــلى

اختلافها ، وما حظيت به الفلاسفة من التوفيق في التعمق في مختلف جوانب « منزلة الانسان » في هذا الوجود ـ كان « أقوى » على فهم أسرار التنزيل من اى عبقرى من عباقرة الفلاسفة القدامى على الاطلاق ـ ومهما كان منزعهم والمشرب ! ـ لانه أضحى في امكانه ان يسخر تلك العلوم وتلك الفلسفات وفتوحاتها لفهم اسرار التنزيل والتعمق في فهمها على نحو لم يحلم به أولئك العباقرة الاسلاميون نظرا الى انهم لم يتمتعوا بما نتمتع به اليوم من ثمار جبار العقول لا في علوم المادة فحسب بل فيما يسمى اليوم بالعلوم الانسانية ان هي حظيت بان تكون علوما تخدم ـ حقا ـ حرمة الانسان ونبله ! ٢

ولو انى اردت ان اترك هذه الاجواء الفلسفية وقمم شواهقها الى ميادين اقرب منالا ، وابرز للعيان ، وألصق بشواغلنا اليومية وبما نعانيه من مختلف المشاكل لقلت ان « احياء التراث » وتصفية حسابه المعنوى من الامور الضرورية لا بالنسبة « للمؤمن » المخلص لتراثه العربى الاسلامى الغيور على بعثه ـ فحسب ـ بل أيضا بالاضافة لمن يرفضون التراث ويريدون الاخلاص لمقتضيات هذا الزمن الصارم الذى لا يعرف الادستور حديده والنار !

وان هذا ليبدو اسطع ما يكون واوضح مايكون فى الميدان التربوى .

ففى الميدان التربوى تبدو قضية احياء التراث « عارية » ان صح هذا التعبير : لا هى مسربلة بسربال المتطرفين تطرف أقصى اليمين اولئك الذين يقدسون التراث تقديسا فى غير ما انتباه منهم لحقيقة « المشاكل الفنية » التى يثيرها أمر احياء التراث ، ولا هى مسربلة بسربال أولئك الذين يرفضون التراث فى غير ما انتباه منهم لما ينتهى اليه هذا الرفض من العواقب .

أو ان شئت فقل ـ وهذا ادق ـ ان قضية التراث فى الميدان التربوى هى « المحك » الذى يمكن لك اتخاذه « حكماً » نزيها بين الحزبين اذ فى هذا الميدان يبدو لك ـ بالتدقيق الفنى ! ـ جنس وجاهة الموقعين وجنس غلوهما فى عين الحين .

ذلك ان القضية ليست « قضية أهواء » وانما هى قضية « حق » لا بد لك من اجلائه اجلاء الوضوح على أساس « أصول فنية » لا مناص منها !

ولا غـرو .

ففى الميدان التربوى تلمس « بالاصابع »جنس الاخطار المتجسمة فى انحيازنا لهذا الشق أو لذاك انحيازا غير بصير ... بذات الرهـان المطلوب من وراء التراث ومن احيائه ... ذلك ان « الوضع التربوى » يحملك ـ حمل العنف ـ على ان تطرح على نفسك أسئلة هى أخطر الاسئلة واعظمها شأنا :

فما حقيقة التراث ؟ وما وظيفته ـ أو وظائفه ـ فى نطاق « ثقافية انسانية » ـ مهما تكن هذه الثقافة ـ وما الاهداف البعيدة والقريبـة الـتى تستهدف من وراء ذلك التراث حتى تحرص عليه حرص « الغيرة الصادقة البصيرة » ان كنت تعتقد ـ محقا فى اعتقادك ! ـ انه « يضمن » لك بلوغها فى نطاق كل اطمئنان ، أو تتنكـــر لهـ محقا فى تنكرك له ! ـ ان تبين لك انه لا يضمن لك بلوغ تلك الاهداف ؟

وفى حالة ما تبين لك ان ذلك التراث حرى بان « تتنكر » له ـ لانه لا يضمن لك بلوغ تلك الاهداف جميعها أو بعضها ـ فما جنس المواقف التى أنت حرى باتخاذها لمجابها الامر وعلاجـه حتى يصبح التراث قادرا ـ من جديد ـ على اداء ما أنت حرى بان تطالبه باداثـــه من حيـــوى الوظائف ؟

ولو انك وقفت امام هذه الاسئلة الخطيرة وقفة التدبر والاعتبار لامكن لك ان « تقيس » ـ قيس الدقة ! ـ جنس الخطى الشاسعة التى تم قطعها من بداية « النهضة الحديثة » الى يومنا هنا فى ميدان « الوعى » بحقيقة « مشاكل التراث »وبحقيقة ما ينتظر منه ان يؤديه فى حياتنا اليومية

ففى غضون الثلث الاول من هذا القرن كان معظم الادباء يكتفون بطرح هذا السؤال : « هـل يكفى الادب العربى ـ وحده ـ لتكوين ثقافـــة الاديب المعاصر » ؟ لشعورهم ـ اذ ذاك ـ بالفروق المدهشة بين اجواء الآداب الغربية المعاصرة وصنوف اغذية موادها واصولهـا ومقاييس نقدهـــا وفلسفاتها الجمالية ـ وبين اجواء الادب العربى القديم .

وهو سؤال ان دل على شيء فانما يدل على ان الادباء ـ اذ ذاك ـ لم يكونـوا لينتبهوا الى « خطورة » وضع التراث العربى الاسلامى وخطورة المشاكل التى يدعونا الى ان نعطف عليها بالبحث والتحليل والعلاج فى نطاق اشمل آفاقه ـ وفى حد ذاته ـ بل نظروا اليه من زاوية ضيقة تخص

« الادب » وحده من حيث هو عبارة فنية تخص جانبا من جوانب الذات العربية المعاصرة وبالمقارنة مع العبارة الادبية الغربية ٠

وفى الحق فان اديبا كالعقاد سرعان ما انتبه الى ان اصلاح هذا الادب هو فى الحقيقة عملية أوسع نطاقا واعمق جذورا مما كان الادباء يظنون فأكد هذه « الحقيقة الجوهرية » : وهى ان اصلاح أدب أمة هو اصلاح احساسها « جوهرا » ، وان اصلاح مقاييس هذا الادب هو اصلاح مقاييسها فى ميدان احساسها بالحياة وبشؤون الحياة على اختلافها ٠٠٠ فكان ما كان منه من النشاط الادبى الذى اتسع نطاقه شيئا فشيئا فتجاوز النقد الادبى الى ضرورة العطف على الذات الاسلامية من وراء ابراز خصائص « عبقرياتها » وابراز بعض « الحقائق الجوهرية » التى تخص النظرة الاسلامية للوجود ٠٠٠ فكان بذلك رائدا من الرواد الذين سعوا ــ حقا ــ «لترميم» الذات الاسلامية ٠

وبالرغم من انا نعترف بالمجهود الخصب الجبار الذى بذله العقاد فى هذا الميدان فلا بد لنا من استئناف عمله على « اسس فنية أصولية » أعوزته لكونه عالج القضية معالجة الاديب لا معالجة الفيلسوف الاختصاصى ٠

وليس من شك عندى فى ان « الاديب العربى » الذى عنى بامر « الذات الشرقية » وبتفجير ينابيع صدق الذات الشرقية على نحو فريد شامل انما هو ميخائيل نعيمة ٠

فقد عمد الى المشكل « مجابهة » ــ على حد اصطلاح العسكريين ــ عن طريق معالجة « مشكل بناء ذاته » لاعتباره ــ محقا فى اعتباره ــ ان قضايا « الذات الجماعية » لا تعالج الا اذا اتخذت « الذات الفردية » من نفسها « مخبرا حيا » تصهر فيه «صوارم» أوامر البعث فى نطاق الاخلاص المضطرم لجوهرى الاشواق ٠٠٠ فتكون « الذات الفردية » ــ اذ ذاك ــ « النموذج الجديد » أو « المثال الحى » الذى يقتدى لكونه دل ــ بتوفيقه ــ على الطريق الجديد للعصر الجديد فى نشدانه شروط كل بناء جديد فى سبل كل بعث !

وليس من شك عندى ــ فى ان ما حظى به ميخائيل نعيمة من الاشراف على قمم « ثقافة الذات » فحظى بان يهضم ــ من وراء دراساته ,وتأملاته , وتجاربه الوجودية ــ « حقائق جوهرية» استمدها من أزكى الينابيع الشرقية والغربية ــ هو هو الذى مكنه من تفجير ينابيع صدق ذاته

فعرض علينا ما عرض من الآثار الحرية بان تكون« أزكى غذاء » لقلوب تريد لنفسها الاخـــلاص للذات ــ فى « عبارة عربية » كان ميخائيل نعيماحريصا عــلى صفائها ، ونقاوتها ، ونظافتها عن حرصه على صفاء القلوب ، ونقاوة النوايا ، ونظافةالأنفاس !

الا أننا اذا ما اعتبرنا أن ما حظىبه ميخائيل نعيمة وأضرابه من أنصبة التوفيق فى بناء الذات وسط « ادغال » موروث الانظار ــ انما فازوا بهعن طريق عبقرى الجهود وعن طريق الاشراف على مغامرات جبار العقول الغربية ــ كان لزاما عليناأن ندرك أن قضية التراث فى « الح الحاجة » الى أن نسرع بعلاجها على أساس أوسع نظـرة حتى« نيسر » لمدرستنا أمر اضطلاعها بوظائفها الحيوية فى حلبة « بناء العقول » البناء القوى السالـم !

وهل يمكن أن تضطلع« مدرستنا » بوظائفهاالحيوية فى هذا الميدان ان هى كانت تقدم لعقول الناشئة « بضائع » منها « بضائع قديمة » و بضائع حديثة » وبينها ما بينها من التنافر الشديد ، والتناقض العميق ؟

بن جنات المختار

فى اعتقادى ان قضية التراث تحتل مكانتين تثيران الاسف والحسرة ·
المكانة الاولى : نفاسة المظهر التى اقتصرت على ابقاء التراث فى كتب مطبوعة أو مخطوطة انحصرت العناية بها فى التجليد الفاخر وكتابة العناوين بمـــاء الذهب وادراجها وراء الزجاج فى خزانات مـــنالخشب الرفيع ·

المكانة الثانية : التحنيط الذى تمثل فىتمجيد التراث وعدم استثماره ·· ففى ميدان الادب على وجه التخصيص بقيت القصة والشعرمحفوظة فى كتب مخطوطة او مطبوعة لم ينفض عنها الغبار ، ولم تتناولها الاقلام بالبحثوالتجديدلتدخل عالم المسرح الحديث والسينما والتلفـزة والاسطوانة · وبالرغم من ضآلة التجارب فى هذاالصدد فان الاغلبية الساحقة من نظارة التلفزة ــ على سبيل المثال ــ انفعلت بمقامات « بديـــعالزمان الهمذانى » حين اخرجتها التلفزة اللبنانية فى حلقات تمثيلية كما ان الجماهير ــ فى كافــةالاقطار العربية ــ طربت للقصائد العربية العتيقة التى ترنمت بها السيدة « أم كلثوم » ·

وأرى شخصيا ان استخدام الوسائل السمعية والبصرية تعيد للتراث العربى مكانته وتجعله يتجاوب مع روح العصر ,ويأخذ مكانته فى حياتنا •

ماذا يقصد بوصف الغزو الثقافى بانه سلاح ذو حدين ؟

لقد تصورت من هذا المعنى ان للغزو الثقافى خطرين :

الخطر الاول : التأثير المبطن بالمقاصد الفكرية والعاطفية الهدامة التى تبرز بصفة خاصة فى الانتاج الثقافى المقروء او المسموع او المرئى التى تحرص الاجهزة الثقافية الغربية على استيحائه من تاريخ العرب مواصلة منها لنفس السياسة التى كان يسلكها الموظفون والمربون من اساتذة ومعلمين ورهبان فى المدارس فى أيام العهد الاستعمارى البغيض, وقد تجلى هذا بصفة واضحة فى الاشرطة السينمائية •• (مثلا : لورانس العرب) •

الخطر الثانى : فى التأثير الناجم ـ تلقائيا ـ عن معطيات الثقافة الغربية التى لا تتلاءم جلها مع البناء النفسى والاجتماعى لشبابنا ، خاصة وان التقاليد والعادات التى توارثناها جيلا بعد جيل تضع كثيرا من الفوارق الحادة بين مجتمعنا والمجتمع الغربى فى مجال العلاقات الاجتماعية والجنسية ـ بصفة أخص ـ واخشى ما يؤخذ من هذا الخطر « الجذب الغريزى » الذى يدفع الشباب الى تقليد ومحاكاة المجتمع الغربى فى التفكير والاخلاق والمعاملات البشرية •

وفى اعتقادى اننا اذا تدبرنا العلل الكامنة وراء هذين الخطرين سهل علينا الحد من شرور الغزو الثقافى , وتمكنا من السيطرة على وسائل الاعلام التى تتسرب منها كافة الاخطار التى تهدد ثقافتنا العربية , وتستهدف فى الدرجة الاولى النيل من سلامة امتنا وتقويض الروح المعنوية لشبابنا •

وبواسطة المراقبة اليقظة والمستمرة من طرف اختصاصيين يتوفر فيهم الاطلاع الواسع على ضروب الثقافة وتاريخها وما تحدثه من تأثير نفسى يقع الحد من خطر الغزو الثقافى , وتخضع الكتب والمجلات والمنشورات والاشرطة السينمائية والتلفزية وكافة وسائل الاعلام الثقافى لما يتماشى مع مصالح المجتمع العربى وينمى ذاتيته ويغذى أصالته , ويغرس فيه روح الاعتزاز بقوميته .

واعتقد , ان مراعاة الخط المباشر الذى ينتهجه الغزو الثقافى ويستخدم له احدث الوسائل واقوى ألاجهزة اكيد وضرورى واشد فاعلية من الرقابة , وذلك لحصر طرق مقاومة تأثر هذا الغزو

خاصة وان هذا الغزو سبق ان مارسه المستعمرون بين ظهرانينا فى زمن مبكر ، وجعلوا السواد الاعظم من امتنا تخضع له تحت تأثير كوابيس الارهاب الفكرى والجهل والاستنقاص والشعور بالذل والمهانة والتخلف الذهنى , وقد وجدت الجماهير مدفوعة الى اكتشاف تخلفها الحضارى وهو ما اثار فيها ـ بطريقة تلقائية ـ الدهشة والاعجاب بالثقافة الغربية .. هذا بالاضافة الى ردود الفعل الخفية ـ والمتعددة ـ التى نالت من سلامة النفوس وقلبت المفاهيم والقيم ورجت الاذهان , بل وقلبت حتى النظرة العابرة للامور .

اذا اعتبرنا كل ذلك واكدنا على مراعاة الفواصل الذهنية التى باعدت ـ زمنيا ـ بين طبقات المجتمع العربى وجعلته يتباين من حيث المناخ المحدود جغرافيا وسياسيا فان ادراكنا لخطر الغزو الثقافى والقضاء عليه يصبح ميسورا فى مستوى الفهم والادراك والعمل الايجابى .

الاستاذ حمادى الساحلى

أظن انه لم يبق الآن اختلاف بين المثقفين حول اهمية التراث الذى يعتبر من المقومات الاساسية للثقافة التى لا يمكن ان تبنى من العدم . فالثقافة العصرية ـ فى نظرى ـ يجب ان تعتمد أولا وبالذات على التراث القديم للمساهمة فى تشييد حضارة انسانية اصيلة . وهذه من الامور التى اصبح يؤمن بها كل المثقفين بما فى ذلك الشبان .

وعلى هذا الاساس فاننا نلاحظ فى العالم العربى وخاصة فى اقطار المغرب العربى التى هى حديثة عهد بالاستقلال ، اهتمام كبير باحياء التراث القديم سواء منه ما يتعلق بالآداب او التاريخ او الفنون الشعبية . والجدير بالملاحظة فى هذا الصدد ان هذا التراث مشترك بيننا جميعا فى غالب الاحيان . فالاجدر ان تتظافر جميع الجهود حتى نتجنب تشتيت الطاقات ولا يبقى كل منا يعمل على انفراد فى هذا الميدان الذى يهم الثقافة العربية الاسلامية برمتها .

الاستاذ عبد المجيد اللويب

قال بعض الزملاء : هناك تراث تراكم عليه الغبار وهناك تراث آخر يمكن ان يفيدنا . يذكرنى هذا الرأى بقسطنطين زريق الذى قال فى كتابه « نحن والتاريخ » للتاريخ أثران متناقضان بل فقل ان التاريخ تاريخان : التاريخ العبء والتاريخ الحافز . فثمة تاريخ يثقل كاهل صاحبه ـ فردا كان أو أمة ـ

ويشمل حيويته ويضعف همته ويجعل انتاجه هزيلا سقيما وثمة تاريخ آخر يحفز وينشط ويبعث ويدفع الى الابداع والتقدم · آراء قيمة تبعث على الارتياح · لكن كيف يمكن ان نميز بين التراث الثقيل الذى لا يجدى والتراث الحافز الباعث على النشاط ؟ لو كانت توجد عصا سحرية تفصل بينهما لاستعملها مؤرخوالامم الغربية واستخلصوامن تراثهم أثمنه كما يستخلص الذهب من أخباث معدنه · وامام هذه الصعوبة المادية فانى اعتقدان تراثنا كله جدير بالعناية سواء كان علميا أو دينيا أو أدبيا ·

على شرط ان تكون الدراسة موجهة دائما الى الرفع من مستوانا الثقافى · على شرط ان يبتكر الباحث شيئا جديدا طريفا يساهم به لافى تقدم الثقافة المحلية فحسب بل فى تقدم الثقافة الانسانية ·

والاهتمام بتراثنا وابراز ما يوجد فيه من حلو ومر يعيننا ايضا على شيئين اثنين : المحافظة على استقلالنا وشخصيتنا واصالتنا من جهة والمساهمة فى بناء مستقبل افضل من جهة أخرى ·

لان الامة التى تعرف تجربة آبائها انما هى أمة واقعية واعية لا تفرط ولا تفرط فى تقييم امكانياتها وهى أمة تريد دوما ان تعتمد الماضى لا لتقليده بل لتجاوزه ·

الموضوع الثانى : نحن والتراث ·

الاهتمام بتراثنا ضرورى ، ولا سيما بالتراث المغربى بعد ان افتكت شعوب المغرب العربى استقلالها فصار لزاما على المغاربة ان يحيوا تراثهم وينشروه ويعرفوا به اخوانهم فى المشرق ، كما فعل المشارقة فى بعث التراث العراقى او الشامى أو المصرى · ولسنا ، حين نلح على ضرورة الاهتمام بآثارنا المغربية ، لسنا نصدر عن روح اقليمية ضيقة ، فلا معنى للاقليمية فى الحديث عن التراث الذى يشترك فيه كافة العرب والمسلمين وان ما كتبه « الشامى » ابو العلاء أو « الايرانى » الغزالى ، أو « المصرى » الشافعى أو « الاسبانى » ابن حزم ، لمفخرة « للعرب قاطبة وللمسلمين بل وللانسانية · ولكن ، والحق يقال ، ليس من حرج فى ان يهتم اليوم بمفكرى المغرب وأدبائه وفنانيه ، اقرب الناس الى المغرب ، أى المغاربة نفسهم ·

وبأى نوع من التراث نعلق همتنا ؟ الجواب : بكل انواع التراث ، الفكـــرى ، والادبى والمعمارى ، والفنى والعقائدى والاجتماعى ، أى بكل الجوانب التى كانت فى القديم تكون الشخصية المغربية وتربطها بالحظيرة العربية الاسلامية ، ثم بالبشرية عامة ٠

على انه ، ان كان لا بد من تعيين الاولويات يحسن فى نظرى ان نحيى التراث الفكـــرى والعقائدى قبل غيره ، ولا اعنى بالتراث العقائدى شروحا اخرى على موطأ مالك أو حواشى مجهولـة عن الاربعين النووية ، بل اعنى الكتب والرسائل والمصنفات التى تبرهن على الروح التقدميـــة التحررية فى الاسلام ، وتبين ان كبرى القضايا الانسانية لم تكن غريبة عن العرب وعن المسلمين فى ايام عزهم ، وتبعث فى ابناء العروبة والاسلام اليوم ، لا الشعور بالفخـار البارد ، والاعتـزاز العقيم بامجاد ماضية ، بل تغذى فى نفوسهم الثقة بالمستقبل ، والايمان بان ما قدر عليه الاجداد قد يستطيعه الاحفاد ، وربما يزيدون عليه ٠ فـــلا يشغلنا اذن اهتمامنا بالتراث ، عن تحصيل علوم العصر وتقنياته ، ولا يحجبن افتخارنا بعبقرية « ابن الشباط » فى تقسيم المياه السقوية بالجريد التونسى ، حاجتنا اليوم الى تشييد السدود وايجاد حلول عصرية ناجعة لمشاكل الجفاف فى مناخنا وأقاليمنا ، ذاك هو مستقبل الايام الذى أشار اليه الرصافى حين حذرنا من الوقوف عند امجـــاد الماضى دون تجاوز لهم :

أرى مستقبـــل الايـــــام أولى
بمطمـع مـــن يحـاول ان يســودا

الموضوع الثالث : الغزو الثقافى ٠

دعونا فى جوابنا الاول الى التحرر والى اقرار مبدأ حرية الفكر والتعبير والنشر ، وقلنا : لا حرية ثقافية فى بلاد فقدت منها هذه الحريات الاساسية ٠ وان طالبنا بالحرية فى نشر افكارنا ، فمن البديهى ان لا نمنع الغير من نشر افكاره ، حتى ان كان هذا الغير خصما لنا فى العقيدة أو الاقتصاد أو السياسة ٠ خصوصا وان هذا الغير تقدم علينا اشواطا وفاتنا ركبه فتخلفنا عنه وصرنا فى حاجة الى الاخذ من علمه ومن صناعته ، ومن فكره ، ومن عوائده وتقاليده ، حتى نسد بعض نقصنا وننقص الفارق الذى يفصله عنا ٠ ولكن الاخذ بالعلوم الصحيحة من الغرب ، والاخذ بالتقنيات المفيدة والفنيات الضرورية قد يستتبعه ، بكل الاسف ، التأثر بعوائد وعقليات وقيم قد تظهر لنا ، فى حالنا

الراهنة ، سيئة فاسدة قبيحة . فما العمل ؟ هل نغلق أبوابنا تماما ، أمام الصالح والطالح من تأثير الغرب ، كما فعلت الصين واليابان طيلة قرون . ونرضى بتخلفنا ؟ واذا قبلنا هذا الحل القاطع ، فمعناه انه يجب قطع كل الصلات السلكية واللاسلكية ، وغلق موانئنا البرية والجوية فى وجه سفنهم وطائراتهم ، واحراق كتبهم وافلامهم ، ومطاردة لغتهم الخ .

والرأى عندى أنه لا بد من تسليح ناشئتنا بثقافة اصيلة صحيحة ، وبفكر واع قويم ، قادر على التمييز بين الضرورى المستحب من ثقافة الغرب والفضولى الكريه منها . وكما توجه قوانين لحماية المجموعة من تصرفات الفرد المفرط فى فرديته ، فهناك قوانين تحمى الاخلاق العامة من تفشى الجنسيات الرخيصة التى تنقلها الينا الافلام الغربية او المجلات او الكتب ، كما تحمى ناشئتنا من تسرب عدوى العنف والعبث بالقيم كما نراها ونسمعها فى بعض منتوجات الغرب .

ولكن أخشى ما أخشاه هو ان يتعلل السلطان بهذا الخطر الاخلاقى ، فيمنع كذلك الكتابات او الافلام التى تنقل أفكارا جديدة تقدمية او ثورية فيجمع الصالح مع الفاسد فى رده وتحجيزه عملا بالقولة العامية = ريح الغرب ما تفرح القلب .

والغزو الحقيقى ليس آتيا من السفارات الاجنبية فى بلادنا ، بل هو نابع من أنفسنا ، اذ نشاهد ناشئتنا منصرفة عن لغتنا نابذة تقاليدنا مولية عن حضارتنا ، متطوعة للمسخ والانسلاخ ، دون أن يكون لها بلغة الغرب صحيح المعرفة ، ولا بتقاليده كافى الدراية ولا بحضارته علم . وهنا نقول = **لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** ، والسلام .

الجيلانى بن الحاج يحيى

التراث الذى تحدث عنه معظم الاخوان والذى يقع احياؤه لحد اليوم حسب تعبير الاستاذ محجوب بن ميلاد فى العالم العربى لا يساوى عشر ما يوجد من كنوز فى خزائن المخطوطات سواء فى المكتبات العامة منها او الخاصة وبصرف النظر عن كيفية احياء هذا التراث بشكل علمى وبشكل عصرى ، فان نشره والتعريف به هو من أوكد الواجبات الملقاة على عاتق المثقفين فى البلاد العربية ، وقبل هذه المرحلة ، اعتقد ان التراث يجب قبل كل شيء احصاؤه والتعريف به فالمخطوطات لا زالت للاسف الشديد فى العالم

العربى وفى المغرب العربى على الخصوص مبعثرة ومشتتة سواء لدى المكتبات العامة كما أسلفت او لدى المكتبات الخاصة ، فكثيرا ما نجد من أمهات الكتب جزءا أو اثنين فى تونس والسابع أو الثامن فى المغرب وبقية الاجزاء ربما فى الجزائر او فى ليبيا او فى موريطانيا او فى غيرها من البلدان . فحتى المؤسسة العربية التى تهتم اهتماما جديا بهذا التراث وباحصائه فى حاجة الى مزيد من الامكانيات المادية والفنية لتتمكن من أداء رسالتها على الوجه المطلوب . تلك المؤسسة المتمثلة فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية والذى بدأ أخيرا بتصوير ما يمكن تصويره من بعض المكتبات العامة وجعله فى متناول الباحثين ففى نظرى يجب قبل كل شيء على دول المغرب العربى بالخصوص ان تحصى هذا التراث وتنشره فى قائمات للتعريف به ولفت النظر الى وجوب العناية به واحيائه ثم تأتى مسألة المؤسسات التى انبثقت فى عهد الاستقلال سواء فى الجزائر او فى المغرب او فى تونس فهى لا زالت لحد الآن لم توف بالغرض الذى انشئت من أجله، ففى تونس مثلا أنشئت مؤسسة هى الدار التونسية للنشر وكان من أهدافها انها تتولى هذا التراث . مع الملاحظة بان احياء التراث يتطلب مجهودات مادية بالاضافة الى المجهودات الفكرية كالباحثين والعلماء فهذه المؤسسة الحديثة تحتاج الى عناية خاصة وبذل كثير من الاموال اذ انها تصدر كتبا غير رابحة تجاريا فى الغالب الامر الذى جعلها لا تروج كثير الا لدى العلماء والباحثين . فمن واجب الدولة ان تهتم بهذا القطاع وتصرف جهودها فى سبيل الاعانة على نشره واحيائه على نطاق واسع .

محمد العروسى المطوى

ان ما اثاره الاخ عثمان شبوب بشأن الادلة التى نفهم منها ان هنالك تضييقا على الفكر فى المجتمع العربى يدعو الى ملاحظة ان مناخ الحرية لم يوجد بعد . وهذا يقتضى حرية التعبير ، حرية التفكير ، حرية اصدار الصحف ، حرية نشر الكتب . وهذا اذا صارحنا انفسنا لا نجده متوفرا فى كل الاقطار العربية . وفى مؤتمر ادباء العرب الذى انعقد فى دمشق اثيرت عدة قضايا تدل على ان هنالك عددا من رجال الفكر سلطت عليهم الاحكام ونالهم التشريد . وان ركود الماء لا يدل على سلامته . ولعل السؤال الذى يرد هنا : كيف تمنح هذه الحرية ؟ ألا تستدعى نضالا حقيقيا حتى تكتسب . وكيف تمارس هذه الحرية

اما بخصوص احياء التراث فانى اعتقد ان احياء التراث هو – مبدئيا – استمرار لاصالتنا وشعور بعزة كياننا . لهذا كان من الضرورى العودة اليه واحياؤه . والحرية المتعلقة بالتراث

هي في تناول احيائه · هل نحيي منه كل شيء مهما كان غثا أو سمينا حتى ذلك الادب الخليع الذي قد نتحرج بصدور مثله اليوم في صحفنا ومجلاتنا · فهل ننشره على علاته بدعوى الامانة أم نحترس من نشره أو نهذبه على الاقل ·

ان قضية تناول التراث ذكرتني الآن بالمسلسل التلفزي « عروس اليمامة » الذي يمثل مواقف من حرب الردة والعداء للدعوة الاسلامية والنيل من اصحابها · ما هو الموقف من تناول تلك القضايا ـ وهي من التراث ؟ ـ لعل هذا لم يكن يسمح به في الزمن الماضي · ولكن الكثير منا اصبح يعتبره دليلا على حرية التناول لتراثنا ·

ومهما يكن فان احياءنا لتراثنا ينبغي ان يخضع لعدة مقاييس ، فلا يؤخذ على علاته بدعوى الحرية فيه ، ولا يؤخذ لمجرد التبريك او بعث الاعتزاز بل ينبغي ان ينظر الى جوانبه الايجابية التي ساهمت في النهوض بالانسان والتقدم بالفكر البشري · ومن هنا ـ وامام ضخامة ذلك التراث ـ يصبح من الضروري ان يحسب للاهمية حسابها عندما نتناول ذلك التراث بالاحياء ·

تدخل الاستاذ عثمان شبوب

اظن ان للاستاذين العروسي المطوي ومحمد اليعلاوي ، اهتماما بمسألة احياء التراث ولذلك اتوجه اليهما خاصة بهذا السؤال : هناك من ينتقد العمل السائد في هذا الاطار اطار احياء التراث بانه يأخذ كل الانتاج وينشره بدون ان يكون هناك مقياس للاختيار . فهل هذه الجهود المبذولة في نطاق المغرب العربي وفي نطاق العالم العربي في مسألة التراث هل هي تسير في نطاق المستقبل والتجديد ؟

الدكتور المنجي الكعبي

لعل اسراعي في الاجابة عن هذا السؤال الذي هو للاستاذ اليعلاوي ، ومن طرق هذا المشكل ، يرجع الى انه كان لدي كلام أريد ان اقوله في موضوع التراث فلعله ان يكون جوابا صالحا في الموضوع ، وابدأ مباشرة بالاجابة عن سؤالكم في كون الكتاب الذي اريد ان احييه ماذا يفيدني ؟ واذكر هنا كلمة كان قالها العقاد في بعض مقالاته انتقادا على قول قديم وهو : يقولون لك اقرأ ما ينفعك قال العقاد وكيف ذلك ، لا

يمكن هذا بحال انما هو الاصوب ان يقال لك انتفع بما تقرأ ٠ فنحن كذلك ، اذا كانت لدينا فكرة مسبقة عن الكتاب الذى نريد ان نحييه وعما يمكن ان يستفيد منه صاحبه الذى احياه أو عما يمكن ان تستفيد منه الطبقة الموجه اليها الكتاب خاصة الخ ٠٠ فهذا فى رأيى ما لا ينبغى ان يكون على الاقل على المدى البعيد هو موقفنا من التراث بما فيه كتب وآثـار . التراث هو ملك جماعى للامة والتراث فى نظرى كائن له حياته المستقلة فى صميم الامة وهو نفسه يستطيع ان يحافظ على نفسه ، حتى اذا لم يحافظ عليــه أفراد تلك الامـة فى عصر من عصورها او فى مكان من امكنتها . ربما شيء عجيب ان اقــول التراث كائن حى ٠ انما على كل حال لدى احساس بان التراث له قوة ذاتية يدافع بها عن نفســه ليبقى ويخلد رغم العوادى ٠ فحتى الكتب التى حرقت وحتى الآثار التى هدمت لا بد ان يأتى زمان تكتشف فيه ويعتنى بها ويرد لها الاهتمام الذى فقدته مع الايام لاسباب عنصرية او مذهبية او غيرها . اريد ان اقول ان الثقافة فى حد ذاتها تراث ٠ انما هى فى الحقيقة تراث مع اضافــة الجديد اليه وهذه الاضافة الجديدة تكون مـــن المعاصرة او من التفاعل العصرى الذى ينشأ للامة مع جيرانها او تفاعلها فى داخلها ككائن حى . على كل التراث ايضا هو وجدان الامة وفيه ما فيه ٠ولكن لا بد عند احيائه من ان لا نراعى المسائل العصبية او المذهبيات ٠ والمعاصرة هى أيضـا ستصبح عندما تدخل فى التراث محل اخذ ورد٠ وعلى خدمة التراث والمحبين له ان يتجردوا من كثير من هذه الامور غير الموضوعية ، ويحييوا التراث لمجرد احيائه دون ان يمنع هذا اعتبار الحاجـة والاولوية وعلى الدارسين ان يحيؤوه بالـــذوق العصرى . بذوق المعاصرة – اذا صح هذا التعبير – حتى يكون له اهميته . فى خدمة اهداف الامة ، فى خدمة أهدافها فى حاضرها وفى المستقبل .

هناك بعض النقط . او بعض المشاكل بالاحرى ، ما دمنا بصدد الحديث عن التراث ويمكن ان نشير اليها . وهى ما رأيناه فى بداية النهضة من اهتمام بعض المستشرقين باحياء نوع مـــن التراث وذلك فيما نرى . لاسباب اعتقادية ، أو مذهبية . أو سياسية ، ونرى ذلك من العرب انفسهم . وعندنا مثلا من يحيى تراث شعرائنـا على اساس ان يصنفهم الى شعراء النصرانية فى الجاهلية وشعراء النصرانية فى الاسلام ٠ هـــذا نوع من الاحياء الموجه ، لسنا لا نقره لاسبـاب دينية فقط وانما لانه يجافى كثـــيرا من شروط الضبط والدقة على ما يقتضيه العلم ٠ وهناك من يعميه اختصاصه فاذا كان من المتفلسفة فلا يحيى التراث الا لانقاذ ما فيه مـــن الآثار الفلسفيـة

والبقية في النار ! وهذا ايضا نوع من الاحيـاءغير مبنى على الاحترام ودون مراعاة للاسلــوب العلمي المتبع في احياء التراث •

أما أهمية المحاولات التي ذكرتم انها تجرى في بعض الدول العربية لاحياء التراث فلا بأس بها في نظرى • هناك معهد لاحياء التراث تابع لجامعة الدول العربية وهناك محاولات في نطاق المغرب العربي بين وزارات الثقافة في سبيـل احياء التراث بشكل منظم وبشكل فيه تعاون جماعي بين هذه البلدان لانها تنتسب الى تراث مشترك • ونرجو ان يكون الوعي بقيمة التراث اعمق واعم وان يكون التشجيع المادى على احيائه اوفـــر •

وشكـرا •

محمد العروسي المطـوى

احاول ان اضيف الى ما قلته سابقا عن التراث واحيائه •• هل نحيي التراث بصفة عامة ام نحاول ان نقوم أولا بعملية تقييم ؟ اعتقد شخصيا ان العالـــم العربي اليوم هو في وضع يوجب عليه التفريق بين الاهم والمهم • كما اعتقد ان عملية احياء التراث هي عملية كبيرة تحتاج الى مجهودات ومجهودات • وان المرحلة التي تعيشها الامة العربية مرحلة حساسة ودقيقة تتعرض فيها الاجيال العربيـة الصاعـــدة الى التمـــزق أو الازدواجية في الشخصية • انى اساند الرأى الذى يقول بان احياء التراث ينبغي ان يكون احياء هادفا بأن نحيى من التراث كل ما ينير ويسلط الاضواء على الفكر العربي الاسلامي المجدد والمبتكر في مختلف المجالات : الفكر الذى خلق وابتكر في عصر كانت الانسانية فيـه تعيش في عصر جهالة وجمود • وهذا من شأنه ان يكون حماية أو مصلا واقيا من التلاشي النفسي أمام ما يعبر عنه بـ « الغزو الثقافي » •

تدخل الاستاذ عثمان شبوب

نقصد باثارة موضوع الغزو الثقافي التصدى لمناقشة الاتجاهات المتعددة حول تحديد مفهومه وطبيعته :

هناك من يرفع شعار الغزو الثقافي ، من الانعزاليين ، المغلقين ويريدون كما قال الاخ مولود قاسم في مرات ، غلق الابواب والنوافذ في وجه كل ثقافة غير الثقافة العربيـة الاسلامية • وهناك من يقصد بالغـــزو الثقافي الفكر الاشتراكي الماركسي بالخصوص ويتجاهـل

الغزو الثقافى الآتى من الفكر الليبيرالى الفكـــر الرأسمالى ؟ وهناك من يقصد بالغزو الثقافى ، الاستعمار الثقافى الذى يهدف الى قتل الشخصية الوطنية للشعوب النامية بشكل عام وتشويه هذه الشخصية ، وابعاد هذه الشعوب عن الاهتمام بهذه المواضيع وغير ذلك من التفاصيل والجزئيات التى تفرع عن هذه الاتجاهات فنريد أولا تحديد مفهوم كلمة الغزو الثقافى تناقش هذه المفاهيم التى ذكرت واذا رأيتم ان تعطونا امثلة حســية من الواقع ، مثل تلك المراكز والمؤسسات التى تلعب دورا خطيرا فى المجتمعات العربية فى اطار تمثيل هذا المخطط الاستعمارى لتشويه الثقافة العربية وتهديم الشخصية الوطنية والتمهيـــد للسيطرة الامبريالية فاكون لكم من الشاكرين ٠

الاستـــاذ الحبيـــب الجنحـــانى

مفهوم الغزو الثقافى ، اعتقد بادىء ذى بدء ان نفرق فى تحليل هذه القضية وفى النظرة اليها بين بلدان المغرب العربى وبلدان المشرق العربى فى أهمية وخطورة هذه القضية وخاصة نقصد من بلدان المغرب العربى البلدان الــتى كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى ، وليست لهاسياسة ثقافية واضحة للتحرر من التبعية الثقافية الامر الذى أريد ان افهمه وان اتحدث عنه هو ما أسميه بكل وضوح مظاهر الاستعمار الثقافى لان كلمة الغزو الثقافى كلمة عامة ويمكـــن ان تشمل مفاهيم هى بعيدة عن الخطر الواضح الذى يمكن ان نوضحه بسهولة لما نقول مظاهر الاستعمار الثقافى ومظاهر الاستعمار الثقافى طبعا هى آتية من البلدان التى استعمرت بالامس القريب البلدان العربية وخاصة كما قلنا بلدان المغرب العربى ، بقى طبعا ، اعتقد لا نحتاج الى الـــردعلى من يرى فى التفاعل والاستفادة من الثقافات العالمية بانواعها ، من يرى فى ذلك خطرا وغزوا ثقافيا ، هذا الاتجاه الانعزالى ، ان وجد هـــذا الاتجاه ، فهو ضعيف ولا يلعب دورا كبـيرا ،اعتقد شخصيا وخاصة بالنسبة للاجيال الصاعدة واخشى ما اخشاه ان تقع المبالغة فى وجود هــذا الاتجاه وفى خطره وفى رجعيته من طرف يتجه الى النقيض محاولا بذلك ايهام الذائدين عن الاصالة ومعالم الشخصية الوطنية بانهم يناصرون فئــة رجعية محافظة ! وقد سمعت هذا الكلام كثـيرا ،لكن لو بحثنا وخاصة بالنسبة للاجيال الصاعدة لوجدنا هذا التيار ضعيفا جدا قد بقى فى فئات قليلة وربما الكثير منها عن حسن نية دون ان

يكون ذلك عن وعى وعن سياسة ثقافية . وانما الذى نخشاه مثل ما قلت ان تقع المبالغة فيـه لاظهار ذلك الخطر وللذهاب الى الطرف المقابل وهو ما يسمى بالتفتح أو كما قيل « بالانفتاح » ، هناك قضيه أيضا لا بد ان نجابهها بكل جراة وصراحه وهى قضية الفكر اليسارى وفى طليعة الفكر اليسارى الفكر الماركسى العربى . هـــذا التيار موجود فى العالم العربى ولا يمكن تجاهله وطبعا يجب ان نوضح : كيف سيكون موقف الثقافة العربية المعاصرة من هذا الفكر اليسارى هنا طبعا يجب أيضا أن لا نقع فى الخطأ وان نبالغ وان نقف مواقف عاطفية تفرق الصفوف، وتضعف القوى الوطنية فما دمنا قد اتفقنا انه يجب على الثقافة العربية المعاصرة ان تكون مرتبطة بالواقع السياسى والاجتماعى للشعوب العربية وان تكون متفاعلة مع الثقافات الاجنبية ولكن يجب ان يكون هذا التفاعل منسجما مع معطيات هذا الواقـــع السياسى والاجتماعى ومع قيم المجتمع العـربى الاسلامى الذى نريد ان نبنيه . ما هى قيم هـذا المجتمع العربى الاسلامى لانه بناء على ذلـــك نعرف ايضا . وفى نفس الوقت انطلاقا من ثقافتنا وشخصيتنا من أى نوع من هذا الفكر يمكن ان نستفيد وما هى الثقافة التى نتفاعل معها واعتقد شخصيا قبل ان نقف امام هذا التيار للفكـــر اليسارى ونحاول طبعا ان نحدد موقفنا منـــه ونرفض كل ما هو لا يتماشى مع واقع الامـــة العربية ، يجب أيضا ان نكون صرحاء وان نلقى على انفسنا سؤالا واضحا : ما هى الاسبـــاب يا ترى التى تركت هذا الفكر اليسارى ينتشر فى العالم العربى بسهولة وينتشر خاصة بـين الاجيال الصاعدة ·

تدخل الاستاذ عثمان شبوب

عندما نصدر بعض الاحكام نريد امثلة على ذلك عندما يقال بأن الفكر اليسارى يشكل خطرا على مجتمعاتنا من المفيد ان لا يكون ذلك على مستوى العموميات . نريد ان نعطى أمثلة عن هذا الخطر وما هى أوجه التفاعل وامكانياته مع هذا الفكر الذى هو فكر انسانى قبل كل شىء .

محجـــوب بن ميـــلاد

أنا شخصيا ما جرى حديث عن الثقافة الا ارتعدت فرائصى · ذلك ان كلمـة « الثقافة » مشحونة بالفخاخ ··· وهى كلمة تطلق على حقيقة معقـدة ذات جوانب متعددة · وليس يمكن ان تعالجها من جانب مـــن دون ان يخال الى

محاورك فى شأنها انك انكرت جوانبها الاخـرى فيحل بينك وبينه من سوء الفهم اشكال ٠

ان اعتبرنا الثقافة نظرة عامة شاملة للحياة ولجميع جوانب الحياة كان كل انتاج يجرى فى نطاق هذه النظرة وعلى أساس مقاييسها « أمرا ثقافيا » .

هناك ثقافة علمية ٠ هناك ثقافة فلسفية ٠هناك ثقافة سياسية ٠ هناك ثقافة دينية ٠ هناك ثقافة فلاحية ٠٠ هناك ثقافات ٠٠ حتى فى ميدان الزى واللباس والاكل والشرب والسكنى ٠٠٠ فى نطاق الحضارة الواحدة ٠

فانت تتحدث عن الحضارة الهندية وعن تقاليدها الثقافية عن الحضارة اليونانية وعن تقاليدها الثقافية ؛ عن الحضارة الغربية وعن تقاليدهـا الثقافية ؛ عن الحضارة الاسلامية وعن تقاليدهـا الثقافية ٠ وهلم جرا ٠٠٠

ولو انك اتخذت حضارة من هذه الحضارات لتبين لك ـ خلال تاريخها ـ ان تقاليدها الثقافية ابدا « تتحرك » ٠ فتعرف ما تعرف من المراحـل الحاسمة أو من المنعرجات , وتعرض عليـك ما تعرض من « عجيب » الوصل والفصل بين حلقاتها نظرا الى ان « العقلية » أو « الحساسية » تتغير مقاييسها بفضل ما تشرف عليه مـن الفتوحات الجديدة والآفاق الجديدة ٠

أردت مرة ان ألوح الى « الانقلابات » البعيدة الغور التى طرأت على الحساسية الاسلامية وعـلى « العدة العقلية » الاسلامية ـ أثناء زحف تاريخها فقلت انها : « تحدثت مع المحدثين ، فتكلمت مع المتكلمين , فتفلسفت مع المتفلسفين , فتصوفت مع المتصوفين فتحنطت مع المحنطين فهل تبعث مع المبعوثين ؟ » ٠

فما عنيت من وراء هذا ؟

عنيت ان الثقافة الاسلامية فى مراحلهـا الحاسمة عرفت « اثراء » فى عدتها العقليـة فنحتت لنفسها « مفاهيم عقلية » جديدة عالجت على أساسها جميع قضاياها : اعتقادية كانت أو فقهية ، أو فلسفية أو فنية , أو اقتصادية أو اجتماعيـة ٠٠٠

وان ذلك ليبرز لك ـ على أوضح ما يكون ـ عندما اشرفت العقول الاسلامية على فلسفـة يونان , ومنطق يونان فكان ما كان من « غزو » العقل اليونانى للعقول الاسلامية فتلقحت بلقاحه فأضحت تنظر لتراثها على ضوء فتحها الجديـد فكانت ـ فى عين الحين ـ مخلصة لذاتها اخلاصها للحياة فى تفتح آفاقها واخلاصها للفكر فى وثباته ٠٠٠

ولو اننا نظرنا للثقافة العربية الاسلامية فى ذات « حركة » نموها وازدهارها وتقلص ظلها لادركنا انا اليوم فى « منعرج » حاسم من منعرجات « تطور الذات » وان ما نبغيه لانفسنا ـ فى هذا العصر ـ من البعث الحق ـ والخروج مـــن التخلف ـ يحتم علينا ان نبذل من « الجهـــود العقلية » ما يكفل لنا ـ حقا ـ غلاب هذا العصر ، وغلاب مشاكله فى نطاق « البصر الحق » بنواميس تطور الثقافات واثراء فتوحاتها ...

وهو « عمل خلق » أو « عمل رشد عقلي » بأتم معنى الكلمة .

فالحيـــاة تجـــرى !

والحياة لا تنتظر اصحاب الونى !

وما دامت الثقافة ـ فى مدلولها الشامل ـ انما ترمى الى ان تبنى العقول فى نطاق العـدة التى هى عدة العصر فلا بد لنا من أن نقبل على بناء العقول على اساس ما شئت مـــن اللغـات الاجنبية التى تفتح لنا نوافذ على « آفاق العصر » وتمكننا من « عدة العصر » فى كل الميادين الفنية التى ليس يمكن البقاء ـ فى هذا العصر ـ مـن دونها : ولا نتحدث عن « غزو ثقافى » ولا عـن « استعمار ثقافى » . ففى مثل هذه العبارات أخطر خطر علينا ان نحن لم نتبصر فى حقائـق الأمـور !

اما غيرتنا الحق على قوة الذات ، وزكـاة الذات وعزم الذات فانما تحصر فى ان نعطف عـلى التراث ـ فى نطاق كل عمل صادق ـ حتى نجعل منه أزكى غذاء للعقول فى غير ما منافاة بينه وبين حاجات الحياة فى زحفها القوى فى نطاق كل حق !

وهو عمل فنى صرامة أصول لا تقل عن صرامة اصول التكنلوجيا العصرية !

الاستـــاذ حمادى الساحلي

سوف اتناول هذا الموضوع من الجانب الذى اعرفه أكثر من غيره ألا وهـــو الجانب التربوى . ففى البلاد التونسية كما هو الشأن بالنسبة الى الجزائـر والمغرب حسب ما اعتقد ليس هناك غزو ثقافى بل ان الامـــر يتعلق ببعض مظاهر من الاستعمار الثقافى الذى هو فى نظرى من اخطر انواع الاستعمار . ذلك ان الاستعمار السياسى أو الاستعمار الاقتصادى او العسكرى يمكن التخلص منه . اما الاستعمار الثقافى فان

رواسبه تبقى عالقة بالاذهان على امد طويل لانه غير مفروض بالقوة حيث ان اهل البلد المعنى بالامر هم الذين يتشبثون بأهدابه بمحض ارادتهم وهذا ناتج عن الوضع الاستعمارى الذى عاشته اقطارنا المغربية الثلاثة • ذلك ان جانبا كبيرا من جيل ما قبل الاستقلال تزود بثقافة مزدوجه تغلب عليها النزعة الفرنسية أو هو مثقف ثقافة فرنسية بحتة وحتى التونسيين من ذوى الثقافة العربية الصميمة فقد كانوا يشعرون بشيء من مركب النقص لجهلهم للفرنسية • فلما تحصلت تونس على استقلالها بقيت الحالة على ما كانت عليه رغم الجهود المبذولة لاعطاء الثقافة العربية المكانة اللائقة بها • من ذلك ان كثيرا من المسؤولين مازالوا ينظرون الى الامور بالمقياس الفرنسى البحث ففى الجامعة التونسية بقى المسؤولون مدة طويلة بعد الاستقلال مرتبطين اشد الارتباط بالنظام المعمول به بالجامعات الفرنسية فاذا ما شغر منصب بقسم اللغة الانكليزية مثلا لا يمكن ان يحتله من التونسيين الا المتحصلين على شهادات جامعية فرنسية ويا حبذا لو كانت من « الصوربون » ! والجدير بالملاحظة ان هذه الحالة أخذت تتغير شيئا فشيئا الآن • ولكن الاخطر من ذلك فى نظرى ان جيل ما بعد الاستقلال قد شب على العقلية التى اشرنا اليها آنفا . فهو يرى مثلا ان العلوم الصحيحة من فيزياء وكيمياء ورياضيات لا يمكن ان تصدر الا عن فرنسا • وذلك لان اغلب اساتذته من الفرنسيين • وحتى فيما يخص التاريخ فاذا كان الامر يهم التاريخ الاسلامى عهد به الى الاساتذة التونسيين اما اذا اصبح الامر يتعلق بالتاريخ العام وتاريخ الحضارات الانسانية والتقدم التكنلوجى بالعالم فهو من نصيب الاساتذة الفرنسيين ومن ذلك ينشأ عند التلميذ التونسى مركب نقص يبدو من الصعب التغلب عليه •

اننا لا ننكر فضل التفتح على الثقافات والحضارات الاجنبية ولكن على شرط ان يكون هذا التفتح يشمل جميع انحاء العالم وان يمكننا من الاخذ باسباب التقدم فى مجال العلم والمعرفة والتكنلوجيا • وهذا لا يتحقق الا اذا اقدمنا على تحوير نظامنا التربوى على أسس سليمة واذا ما بلغنا فى أقرب الآجال درجة الاكتفاء الذاتى فى مجالات التربية والتعليم •

الاستاذ عبد المجيد اللويب

غزو ثقافى ؟ هل يوجد غزو ثقافى ؟ ومتى كانت الثقافة غازية ؟ انا اعرف ان الثقافة كالعلم تطلب من المهد الى اللحد ، تطلب ولو فى الصين • فكيف نكصت هذه الثقافة فى مفهومها على عقبها واصبحت غازية مخيفة الى حد ان

الشعوب أخذت تتحرز منها وتبتكر الاجهـــزة لحجزها ؟

كلا . انا لا اعتقد ان الثقافة فى معناها السليم غازية . انها فاتحة . تفتح العقول وتنير البصائر فالافضل ان نتناقش فى موضوع الفتح الثقافى وهذا الفتح لا ننسى اننا نرصد الاموال الطائلة لننعم بأثره . لكن لعل الزملاء يشيرون الى تلك الكتب وتلك المجلات وتلك الافلام التى تأتينا من الخارج فيجد شبابنا فيها ضالتهم ويوثرونها على انتاجنا . الامر الذى قد يؤديهم الى عـــدم الاعتزاز ببلادنا وحضارتها . فاذا كانت المسألة مطروحة على هذا النحو فيجب عند ذلك الا نتحدث عن الغزو أو الفتح الثقافى انما يجب ان نتعرض للرقابة .

ان الامة اذا كانت تخاف على كيانها من عواصف التيارات الخارجية فمعنى ذلك انها متخلفة لما تلتحق بركب الحضارة المعاصرة يجب ان نقـر ذلك بدون اى مركب نعم شعوبنا ما زالت متخلفة. ونحن نبذل الجهود العظيمة لنخرجها من تخلفها .

ولكى نضمن لمسيرتنا كل اسباب النجاح يجب ان نراقب كل الواردات الينا . فعلى الحدود توجـد مؤسسات يـراقب موظفوها المسافرين والبضائع . فعملية مراقبة جواز سفر أو محتوى شاحنة لا يختلف عن عملية مراقبة كتاب أو شريط سنمائى . وكما ان الام فى بيتها تراقب الطبيخ والمواد الغذائية سعيا منها على حفظ صحة افراد أسرتها وسلامتهم فكذلك رب البيت تراه يراقب ما يقراه وما يسمعه وما يـراه أبناؤه . فهناك أنواع من الكتب وانواع من الحصص التلفزية لا نسمح لابنائنا ان يشاهدوها نظرا لصغر سنهم . فاذا كنا قد قبلنا مبدأ الرقابة فى بيوتنا فلا جرم ان راقبت الدولة انتاجا تخاف من أثره عـــلى شعبهـا .

لكن يجب ان تكون اجهزة الرقابة عندنا فى المستوى المطلوب . فلا يكفى ان نراقب الانتاج الخارجى انما يجب ايضا ان نحرص كل الحرص على مراقبة وتهذيب انتاجنا الداخلى مع عـــدم الافراط أو التفريط . عرضت فى قاعاتنا افـلام قامت من اجلها ضجة . من بينها فلم « لورانص دار ابى » بطولة عمر الشريف ضجة واستنكار وسخط . سخط بعض المثقفين لان الشريط كان بصورة فترة غير زاهية من فترات تاريخ الشرق العربى ـ أو لان لورانص ـ كان يهوديا . مـع انه كان يعرض فى نفس الوقت وفى قاعة اخرى من قاعات مدينة تونس شريط آخر كنت ترى فيه التحدى والاستهزاء وشتم الدين الاسلامى مجسما فى بشاعته ولم يحتج احد ضد ذلـــك

الشريط ٠ وهل يجب ان اذكر الشريط التلفزي المصرى الذى اختفى بطلـــه الضابط فى ارض العدو وقد كنت عند بداية رؤيته اترقب رواية بطولته رائعة فلم تمر بعض دقائق حتى وجدت نفسى امام رواية غرامية ركيكة سافلة . ولعلكم تذكرون أيضا مسلسلنا التلفزى ونجميه الآفلين : الممثلة التى لا تسر ورفيقتها السيارة وما جرى لهما فى بلادنا التى اصبحت يوحى المنتج مسرحا للسماجة والرذائل ٠

ان الرقابة الايجابية الواعية شيء ضرورى مع انى افضل عليها النقد ، النقد النزيه المستقيم فنحن الى حد الآن لا نزال نستهلك الانتاجيـن الداخلى والخارجي دون ان نتعرف ولو بصـــورة تقريبية على محتوايبهما قبل العرض أو القراءة ففى تونس تباع كتب عربية واجنبية كثـــيرة ومتنوعة من بينها القيمة المفيدة ومن بينها أيضا الهزيلة السقيمة ٠ هناك كتب تمدح العرب أو المسلمين أو النظام السياسى واخرى تنقدهم ٠ وقد تجد الكتاب ونقضيه جنبا الى جنب فى مكتبة واحدة وهذا شيء حسن تعتز به تونس لكن هذا لا يكفى انما يجب ان يعرف الناقد بمحتوى كل كتاب حتى يعرف القارىء ما هو فى حاجة اليـه ويكون بذلك قد ربح وقتا ثمينا واقبل عـــلى شراء ما ينفعـه

محمد العروسى المطـوى

قلت فى تدخل سابق « الغزو الثقافى » فلماذا افضل هذا الاستعمار ؟ ان هنالك معطيات تاريخية لا يمكن تجاهلها . نحن كنا مغزوين عسكريا وماديا . ولقد تخلصنا من هذا التسيطر المادى : خرج الجندى , وخرج المعمر ، وخرج القسيس ٠٠ خرج هذا الثالوث ـ كما عبر عنه المرحوم الطيب المهيرى ـ ولكن هل بقيت لذلك الثالوث مخلفات ؟ أذكر اننى قرأت مرة للمرحوم احمد حسن الزيات ـ وهو يتحدث عن بلاده ـ أذكر انه قال : لقد ذهبت الاشبـــاح وبقيـت الارواح ٠ وهو نفس المعنى الذى يحمله هــــذا السؤال : هل الغزو الذى كان ماديا ملموسا تخلصنا منه ومن آثاره نهائية ؟ الواقع اننا ما زلنا تحت كابوس ذلك الغزو ٠ ولهذا أرى ان « الغزو الثقافى » ما هو الا استمرار لغـزو استعمارى سابق زالت ظواهره وبقيت بواطنه ٠

ان الغزو الثقافي أو السيطرة الثقافية ـ حسب الذى أفهم ـ هو ان يبقى الانسان تابعا لمن كان غالبا له او لمن هو غالب الآن ولو كان خارجاعنه • يتبعه فكريا ووجدانيا • وذلك أخطـــر انواع التبعية •

اننى لا اريد ان اعرج على النقطة التى أثارها الاخ محجوب بن ميلاد نقطة التفتح او هضم اللغة العربية لمختلف الثقافات الاخـــرى ، لان العربية عرفت ذلك منذ قرون • وكان انبعاث النهضة فيهامبنيا على الاخذ والعطاء ، والشمول تبعا للرسالة العالمية التى تقمصتها . ولهذا يصبح من نافلة القول ومن المفروغ منه موضوع التفتح وهضم الثقافات انما هو الموضوع هو الحصانـــة المطلوب توفرها عند المثقف العربى حتى لا يخشى الذوبان ولا يطمسه الانسلاخ • وقد كانت هـذه الحصانة متوفرة فى الماضى عند ما كان المجتمـع العربى يشعر بالعزة والتفوق . ولكن المشكلـة التى يعانيها المجتمع العربى اليوم هى اننا ما زلنا مغلوبين • وهنا مكمن الخطر سواء اكان واردا من الشرق أو الغرب • فما هو موقفنا مـــن تلـك المستوردات الذهنية . وما هى صلتها وتأثيرها فيما نعتبره من مقوماتنا الذاتية ؟ انه بلا شك اذا كان فيه خطر على تلك المقومات فهو نـــوع من الغزو مهما اختلفت التسمية من تفتح الى هضم الى تقليد • ولهذا لا نذكر التفتح دون ان نذكر الاصالة معه لانه بدون ان يكون محصنا بالاصالة فانه يصبح تبعية •

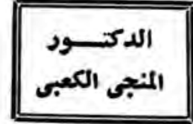
واذا كان من الضرورى ان نذكر نماذج من التبعية الثقافية وكيفية موقفنا منه فانى سأكتفى ببعض الامثلة فقط الاستعمار الفرنسى يطلق عبارة شمال افريقيا ويريد تركيزها فى الاذهان لمقصد واضح هو الاشعار بانفصال هذه الاقطار مـــن العالم العربى • ولكن المناضلين المغاربة قاوموا تلك العبارة بعبارة « المغربى العربى » لتؤكـــد الاتصال وتبعد الافصال .

ومثال آخر هو اللغة البربرية والحضارة البربرية • لقد كان دعوة المستشرقين لذلك مبطنـة بغاية استعمارية هى ايجاد الانقسام فى الشعب الواحد • فاذا نحن تناولنا ذلك هل نتناول فى ذلك الاطار أم نتناوله فى اطـار البحث المجـرد ودراسة العوامل الاجتماعية المختلفة التى كان لها وجود فى ماضينا القريب أو البعيد •

وهذه الترديدات المكررة من ان العربية ليست لغة علوم أو حضارة • يقتنع بها الكثير من الشباب والاساتذة • انها اصداء لما كان يردد فى الخارج من الغالبين والمستعمرين حتى يتكون مركب النقص ولا نحاول النهوض من الكبوة •

ان التفتح على اللغات والحضارات وجد منذ انبعاث الدولة الاسلامية من عهد الرسول عليه السلام . وان تعلم اللغات الاجنبية يقصد منه اكتساب آلة الرفع ومرآة الاطلاع عند الامم التى تريد بحق ان تنهض . فالعربى مفروض فيه ان يطلب العلم حيثما كان ، وان يتقن اللسان الذى يأخذ به ذلك العلم سواء فى امريكا أو روسيا أو غيرهما على اساس ان يعود الى وطنه الام ليصبه فى لغته وبلغته حتى تصبح هى كذلك لغة العلم والتقنية . والتقدم . والامثلة كثيرة على نجاعة هذا المنهج الذى اتبعته — الى حد قريب — بعض الدول المتقدمة والتى كانت متخلفة .

المشكل اذن هو مشكل مركب النقص وداء الشعور بالحقارة الذى يسيطر على الكثير من العقول . وهو المشكل الذى اذا لم نتغلب عليه يبقى الغزو الثقافى قائم الذات لا تفيد فيه الشكوى ولا يقضى عليه التأوه والتمنيات .


الدكتور المنجى الكعبى

فيما يتعلق بالغزو الثقافى ، وربما الكلمة هذه تكون هى الاخيرة فى الندوة فالغزو الثقافى لامة من الامم لا ينبغى ان نفهم منه كونه غلبة من جانب الغازى المتغلب عليها لانه قد يكون غزو ثقافى من المغلوب للغالب . وهذا وقع فى الدولة الاسلامية الاولى ، فقد كان هناك تخوف من تراث الفرس الذين غلبهم العرب لنشر الدين الاسلامى . وكان للعرب بعض المواقف من ذلك التراث يمكن ان نسميها أسباب منعة وحصانة ، لحياة العالم الاسلامى الجديد من التراث الثقافى الموجود لدى هذه الامم التى غلبت على امرها ودخلت فى الاسلام . ولذا فمسألة ما نسميه بالتفتح أو الغزو هو أمر واقع . وكل ثقافة عرضة له . ومسألة وجود العالم العربى الاسلامى فى مهب تيارات ثقافية غازية تتمثل فى المعسكرين : المعسكر الشيوعى والمعسكر الرأسمالى ، ليس فيه خطر كبير علينا . لانه فى الحقيقة من الممكن ان تستفيد الثقافة العربية الاسلامية من هذا الصراع بين المعسكرين فيما بينهم وتنكشف لنا المقومات الزائفة فى هاتين الثقافتين أو هذين الغزوين فيمكن للمثقف العربى أو للثقافة العربية ان تستفيد من الغزو الاشتراكى الشيوعى وتستفيد أيضا من الغزو الرأسمالى الليبرالى .

وفيما يتعلق بالوسائل التى يمكن ان ندافع بها عن ثقافتنا . ففى رأيى ان المسألة تقتصر فقط على بث الوعى بأننا ينبغى ان نبقى امة لها أصالتها لها شخصيتها وسط هذه الثقافات التى

تهب عليها من كل جانب وسبيل الاحتفاظ بثقافتها الخاصة هو ان تأخذ وان تعطى فى الوقت نفسه ، ولكن لها الحق اذا كانت تخشى من الضياع أو عدم التوازن ان تتخذ ما تراه صالحا من وسائل الحصانة ضد بعض الطعوم الفاسدة والمسمومة التى تريد ان تتسرب اليها فى اطار التبـــادل الثقافى القائم فى نطاق التعاون الدولى عن طريق الوسائل السمعية البصرية ٠ فاذا تحققت الامة من حصانتها بالقدر الكافى فيمكن لها ان تأخذ كما اعطت هى قديما وأخذ غيرها بدون عقد ٠

وشكـــرا



الخصوصية والأصالة

الدكتور انور عبد الملك
استاذ الابحاث فى المركز القومى
للبحث العلمى فى فرنسا

على راس القضايا التى يواجهها الفكر والمفكر العربى اذ يتعرض لقضية النهضة بوجه عام والنهضة الحضارية بوجه خاص ، ذلك التناقض الذى يستشعره المثقف العربى بين مفهومى الـ « اصالة » والـ « عصرية » . ومرد ذلك الى ان الفكر العربى والمفكر العربى الذى يعى ذلك الفكر ويعبر عنه ويطوره انما يتحرك فى اطار الفكر الاجتماعى والفلسفى الحديث ، وبالتالى لا يملك ان يخرج عليه ما دام انه قابلا للمفاهيم والنظريات والمناهج المكونة لذلك الفكر الحديث وفى هذا يكمن الخطر كل الخطر .

بدعوة من جامعة الكويت ومن جمعية الخريجين الكويتية ، عقدت بالكويت ندوة فكرية هامة بين السابع والثانى عشر من ابريل الماضى ، حول « أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى » .

وقد ضمت الندوة التى عقدت جلساتها فى فندق هيلتون ، نيفا واربعين مفكرا عربيا بالاضافة الى الذين شاركوا فيها من الكويت (وقد أربى عددهم على الخمسين) .

وقد دعى للمشاركة فى هذه الندوة رئيس تحرير مجلة الاصالة . وسننشر ابتداء من هذا العدد بحثين فى اطار اطلاع القراء على مختلف الندوات التى تعقد ، دون ان تكون هذه الابحاث تعبر بالضرورة عن آرائنا . « الأصالة »

ان الفكر الاجتماعى والفلسفى الحديث يتكون من مجموعة من المفاهيم والنظريات ، والمناهج التى وجدت صورتها الحالية فى المغرب ـ فى أوربا أولا ثم فى امريكا الشمالية بعد حين ، فى الفترة التى تتراوح بين القرن الخامس عشر والقـــرن العشرين ـ وهذه الفترة بالتدقيق انما هى مرحلة صعود الغرب الاوربى الى مكانة الهيمنة على مصائر ومفاتيح العالم ، بعد بداية الاكتشافات البحرية الكبرى ، وتكون البورجوازيات التجارية الوطنية فى أوربا وتكون الفلسفة الانسانية ، العقلانية ، الليبرالية ، العلمية على اختــلاف مدارسها فى أوربا ٠ ومعنى هذا ان ما نطلق عليه الفكـــر الاجتماعى الفلسفى لم يتكون كنتيجة للدراســة المقارنــة للمجتمعات القومية والمنـــاطق الثقافية والبيئات الحضارية المختلفة التى فيها يتكون العالم تلك الدراسة التى وحدها يمكن ان تكون ارضية صالحة لاقامة الاحكام والتحليلات والقضايا النظرية العامة وانما يمثل ، كمـــا بينا مرارا وتكرارا بالتفصيل ، الرصيد الفكرى المرحلى لمرحلة هيمنة الغرب ، وهو بالتالى يمكن اعتباره على احســن الفروض مجموعة من القضايا والافكار السابقة على المرحلـــة العلمية والتى يمكن ان تستعـــمل كافتراضات علمية فقط لا غير ٠

ومن بين هذه الافتراضات ان عملية التطور الاجتماعى ليس فقط عملية لا نهائية وانما هى أيضا عملية تتكون فى الاساس من ارجاع جميع المجتمعات القومية والمناطق الثقافية والبيئـــات الحضارية بالقوة ـ القوة السياسية بمعناها الشامل ، وفى قلبها تلك العلاقة الجذرية من السلطة السياسية والهيمنة الفكرية ـ الى نمط تكـــون وتطور المجتمعات الغربية المتقدمة من هنا ، من هنا بالضبط ، بدأ ذلك التناقض الذى قلناه بين الاصالة والعصرية ٠ فالعالم العربى ، حول مصر يكون احدى دائرتين فى الحضارة الشرقية بوجه عام الى جانب دائرة آسيا حول الصين ٠ والعالم العربى ، حول مصر ، يستشعر تماما فى اعماقه انه فقد الصدارة منذ القرن الخامس عشر بالضبط عندما « اصبحت بلاد مصر خيرها لغيرها » ، أى عندما اصبحت ديار الاسلام والامة العربية محلا لموجات متتالية من الغزو الصليبى والاستعمـــار التقليدى ثم الامبريالية والصهيونية ٠

وعلى هذا الاساس فان اشكالية حركة التحرر فى العالم العربى ليست اشكالية الانتقال من مرحلة الاحتلال والتبعية والرجعية الى مرحلـــة الاستقلال والتحرر والثورة الاجتماعية ، كما هو الحال مثلا فى امريكا اللاتينية أو بعض القطاعات فى افريقيا السوداء ، وانما هى على وجه التدقيق

ثورة من اجل الانتقال من التدهور الحضارى الى النهضة الحضارية وجدير بالذكر هنا ان تعبير النهضة كان ولا يزال التعبير المركزى للمصطلح السياسى لنهضة مصر والعالم العربى منذ مطلع القرن التاسع عشر ، كما كان تماما فى اليابان والصين وفيتنام وقطاعات من الهند . ان النهضة الحضارية هى وجهة ذلك النسيج المتشعب من الحركات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والوجدانية والدينية التى منها يتشكل معدن التحرك العربى المعاصر كله •

من هنا اذن , كما بينا ، اصبحت الاشكالية الاساسية للتحرك العربى هى المحاولة على تبين الاجوبة الصالحة لتساؤلين : لماذا الانحطاط وكيف تتحقق النهضة •

فريق ذهب الى تأكيد الاصالة ،, ووجد وجهته الفسلفية فيما اطلقنا عليه الاصولية الاسلامية• وفريق ثان وجد وجهته الفلسفية فيما اطلقنا عليه العصرية الليبرالية • وقد بينا ان تأزم الامبريالية , وماصاحبه من عجز البورجوازية المحلية فى انجاز مهام الثورة الوطنية التحريرية حول الثلاثينيات من هذا القرن , ترتب عليها تفرع كل من هذين الاتجاهين الرئيسيين الى شعبتين ، شعبة محافظة , وشعبة راديكالية جذرية . فانقسم الاتجاه العصرى الليبرالى الى شعبة محافظة تتكون من احزاب وايدولوجيات البورجوازية المحلية , وشعبة راديكالية جذرية انجهت نحو الاشتراكية بوجه عام والماركسية الوطنية بوجه خاص وانقسم اتجاه الاصولية الاسلامية الى شعبة محافظة اتخذت وجه السلفية وايدولوجية الاخوان المسلمين , وشعبة راديكالية جذرية اتخذت فى الاساس وجه التنظيمات والايدولوجيات القومية العربية بوجه عام وما أطلق عليه الناصرية بوجه خاص •

ومن هنا تبرز صعوبة الاحتفاظ بالتناقض الذى ورثه العقل العربى من اطاره الغربى . لم تعد الاصالة حكرا على اتجاه او مدرسة وانما اصبحت القاسم المشترك لاهتمامات القطاع الاكبر من المدارس الفكرية والقوة السياسية المتحركة فى عالمنا العربى اليوم • ولم تعد العصرية أو المعاصرة حكرا على قطاع معين ، وانما اصبحت فى الصف الاول من اهتمامات عن هذه المدارس الفكرية والقوى السياسية • حقيقة حاول الاتجاه السلفى ان يصبغ فكرة الاصالة بمضمون رجعى متخلف وكأنه فى تناقض مع التحرك العصرى ومقتضياته . كما ان الجناح المرتمى بين احضان الامبريالية الغربية ــ جناح العملاء الحضاريين يتشبث باطروحة براقة ساذجة مؤداها ان العصرية تدير ظهرها الى الاصالة وكأنهما فى تناقض تام •

لكن الارضية الاجتماعية والسياسية والفكرية فى العالم العربى تبدلت جوهريا وفى الاساس وبوجه شامل كما قلنا وبينا مرارا · وليست موجة التحركات التى اعادت ولا زالت تعيــد تشكيل المجتمعات العربية اليـــوم ، وليست السويس و 6 أكتوبر ، الا دليلا ساطعا على ذلك ·

اذن يجدر بنا ان نتساءل : ما هى العلاقة بين الاصالة والعصرية واذا كـان هناك تناقض لا يزال قائما سواء بشكل صريح او ضمنى فى العقل العربى ، فكيف يمكن الربط بين الاصالة والعصرية أو بعبارة أخرى كيف يمكن تحقيـق العصرية الاصيلة فى عالمنا العربى اليوم ·

يمكن البحث عن الاصـــالة بعد الاعتراف بان العالم يتكون من وحدات قومية ومناطق ثقافية وبيئات حضارية متمايزة، على مستوى او فى صعيد الروح المجردة أى فى مستوى مثالى . وهذا تماما ما فعله ويفعله المستشرقون ومن حولهم ذلك الحشد الهزيل من العملاء الحضاريين العرب . فالاصالة عندهم اقرب ما تكون الى متحف للمخلفات والرواسب فكل ما هو متخلف وصالح لوقــف التقــدم ـ والذى تتكون منه العقلية الاسطورية على وجه التدقيق ، يطلق عليه أنه اصيل ، وتسلط عليــه الاضواء وينكب عليه الدارسون والمنظرون باسم المحافظة على الشخصية القومية وجذور الماضى ·· الخ

ومن ناحية اخرى جاء ماكس فيبر ، عميد الفكر الاجتماعى فى الغرب المناهض لماركس ، يؤكد ان كل قومية تتشكل حول نمط مثالى Idéaltypus وأن ذلك النمط المثالى هو معطى مجرد ، لم يتشكل وبالتالى لا يمكن اعادة تشكيله وفقا للتطور التاريخى المتميز لمجتمعات قومية لبشريــة متميزة . هكذا باختصار تم الالتقاء بين المستشرقين السلفيين والفكر الاجتماعى المثالى في وقتنا هذا

ولا يخفى عن الاذهان ما فى هذه النزعـة من ضرب الوحدة القومية والجبهة الوطنية المتحدة وتقسيمها بشكل مفتعــل بين انصار الاصالــة ـ بهذا المعنى المسمم المحدود ـ واخوانهم فى الوطن · فهناك مثلا فى افريقيا الشمالية على وجه التحديد ما يسمى « تعليم اصولى » وهو التعليــم باللغــة العربية حسب المناهج الازهرية ، الى جانب التعليم العصرى، وكأن الوطن يجمع بين قوميتين متميزتين حوله وكأن التراث العربى الاسلامى يمثل الردة ووجهته الماضى ، وكأن تقليد الغرب هو وحــده الجدير بأن ينعت بالعصرية · هكذا تنقسم الطبقة السياسية عــلى بعضها فى عملية انتحاريــة لا يستفيد منها الا الاستعمار .

وعلى هذا الاساس ، رأينا ان نركز جهودنا الميدانية ومحاولاتنا النظرية حول اعادة تشكيل النظرية الاجتماعية عامة على اساس تفاعل المجتمعات فى الشرق والغرب . وقد اقتضى هذا المجهود التركيز بشكل اساسى على مفتاح نظرى قادر على الربط بين المجتمعات والمعطيات من ناحية ومستوى التعميم النظرى من ناحية اخرى ، وكان هذا المفتاح هو : تصور الخصوصية ٠

وقد عبرنا عنه بشكل محدد عام 1970 ، على اساس العمل القائم المنشور تباعا من عام 1962٠

ان تصور الخصوصية يتشكل من مستويات ثلاث :

1) المستوى الاول يعنى بالتركيب الداخلى لتصور الخصوصية ٠ وعندنا ان هذا التركيب الداخلى يهدف الى تبين النمط المتميز للاستمرارية الاجتماعية لمجتمع قومى معين ٠ وهذا النمط انما هو على وجه التحديد نمط العلاقة المتبادلة والتاليف بين اربع عوامل محورية تكوينية لكل مجتمع أى لكل استمرارية اجتماعية :

أ ــ عامل انتاج الحياة المادية لمجتمع معين فى اطاره الجغرافى والايكولوجى (وهذا ما يطلق عليه اسلوب الانتاج) ٠

ب ــ اعادة انتاج الحياة (وهذا هو بعد الحياة الجنسية البيولوجية على وجه التحديد) .

جـ ــ النظام الاجتماعى (السلطة والدولة) ٠

د ــ العلاقات مع البعد الزمنى (نهائية الحياة الانسانية ، الاديان والفلسفيات) ٠

ان تطبيق هذا المربع التكوينى على المعطيات الاقتصادية الاولية سوف يثرى تحليلنا للمجتمعات البشرية الى درجة كبيرة جدا ٠

2) المستوى الثانى يعنى بتحريك هذا المربع التكوينى عبر التطور التاريخى فى اطـــاره الجغرافى المحدد :

أ ــ التطور التاريخى يضع فى المقام الاول عنصر الزمان ٠ ومن هنا الاهمية المركزية لمفهوم ما اطلقنا عليه (عمق المجال التاريخى) .

البعد كلما امكن ان ندقق فى ادراكنا لكيفية تحرك المربع التكوينى للاستمرارية الاجتماعية٠ ومن حسن الحظ ان الغالبية الكبرى للمجتمعات البشرية تتكون من مجتمعات قومية تتراوح بـين أقدم القوميات فى العالم (مصر أم الدنيا) وبين المجتمعات القومية الحديثة فى أوربا الغربية مثلا .

ب ـ أما عنصر « المكان » الذى عنى به بطريقة مبدعة خلاقة الدكتور جمال حمدان حديثا ـ فانه يعنى على وجه التحديد ان كل مجتمع بشرى يحيا ويتطور فى مجال جغرافى محدد بالنسبة للمجالات الجغرافية الاخرى وهذا ما تعنى به الجغرافيا السياسية Geopolitical كما انه يمارس وجوده وتطوره التاريخى فى مجال جغرافى له تركيب داخلى محدد وهذا ما تعنى به الايكولوجيا التى ترصد الامكانيات والطاقات البشرية والحيوية معا ٠

3) المستوى الثالث هو مستوى التفاعل الجدلى بين عوامل الاستمرارية وعوامل التغير ٠ وعلى وجه التحديد : ان تحريك المربع التكوينى على مدى التطور التاريخى فى اطاره الجغرافى سوف يشكل العلاقات المتبادلة ، وبالتالى الاهمية النسبية ، لكل عناصر من العناصر التكوينية الاربعة بطريقة محددة ، مما يؤدى ، على مر الاجيال ، الى تشكيل خصوصية كل مجتمع قومى محدد ، مثلا : دور الدولة والجيش فى الحياة المصرية ، اهمية مستوى الثقافة الوطنية فى ايطاليا والمانيا ، ايدولوجية اقتحام الحدود واللاقومية فى المجتمع الامريكى، النزعة التجريبية الموضوعية فى المجتمع الانجليزى ، استيعاب التناقضات فى دائرة الشخصية القومية فى المجتمع الصينى ٠٠٠ الخ ٠

وجملة القول ، وهذه الصفحات القلائل ، مجرد لفت نظر الى أهمية الموضوع ، ان تصور الخصوصية الذى نقدمه فى اعمالنا يهدف الى تسليح الفكر المعاصر وخاصة الفكر القومى العقلى التقدمى ، باداة علمية ، مبنية على التحليل التاريخى الموضوعى الدقيق ، لتبين ما هو اصيل حقيقة فى الاستمرارية التاريخية لمجتمع قومى معين ، وما هو بالتالى ، القالب القومى المتميز الذى يمكن ويجب اثرائه بعدد من المعطيات والتجارب العصرية دون غيرها كما أنه ، وقد يكون هذا أهم بكثير ، يمنح الفكر المعاصر ورجاله الوسيلة الفعالة للتعجيل بعملية تطوير المجتمعات القومية بحيث تصبح عصرية قومية على أساس اصالتها الموضوعية التاريخية ، ومن خلال هذه الاصالة الموضوعية التاريخية وبتعميق تلك الاصالة الموضوعية التاريخية ـ دون تقليد الغرب المتأزم حضاريا كما يبشر بذلك عملاؤه الحضاريون بين صفوفنا ٠ وعلى وجه التخصيص فان تبين الفروق النوعية يمكننا من تبين سبل التحرك الاكثر فعالية وتجنب مناطق التأزم المزمنة. أى أنه يمكننا من التحرك مع حركة الجدلية الاجتماعية لمجتمعاتنا القومية فى طورها المعاصر أى ان نواكب ونمارس عملية

الصيرورة التاريخية من الداخل – من الداخل ، كعقول واعية صاحبة سيادة، لا كعقول عملية لقوى الهيمنة الخارجية التي لا تهدف الا الى الاحتفاظ بعالمنا العربى فى مكانة التبعية ، بينما وجهتنا هى النهضة الحضارية .

ولنحاول الآن ان نطبق عمليا مفهوم الخصوصية ، علنا نتبين فعاليته فى ادراك اباد التحرك السياسى للمجتمعات المعاصرة ٠

١) ولنبدأ مثلا بتطبيق مفهوم الخصوصية على المجتمع المصرى . والغرض هنا بطبيعة الامر ليس هو التدليل على ان مصر بلد يمتاز بالخصوصية – ما دام كل مجتمع متأصل فى التاريخ له خصوصيته المتميزة ، وانما هو تحديد نوعية الخصوصية المصرية كما ترددت عبر التاريخ وكما تتدرج أمامنا اليوم ٠

ان المجتمع المصرى ، بوصفه مجتمعا ثابتا ، تواجد على أرض مصر كما هى الآن منذ نحو سبعة آلاف عام، ومن قبلها ما يقرب من عشرة آلاف اعوام على شكل مجتمعات محلية غير موحدة فى شمال وادى النيل ٠ المجتمع المصرى الثابت أى المجتمع المصرى القومى أو « القومية المصرية » عاش فى سهل ضيق حول ضفتى النيل وهو محاصر بالصحارى ، وهذا كله فى منطقة جغرافية مسطحة من الشلالات الى البحر الابيض ٠ ومعنى هذا أنه لا سبيل الى استعمال مياه النهر للزراعة ، أى لانتاج الغذاء الضرورى لحياة المجتمع البشرى الا بواسطة السيطرة على مجرى النيل من الشلالات حتى مصبه فى البحر الابيض . وهذا العمل لا سبيل الى تحقيقه الا بواسطة تنظيم مركزى موحد يستطيع أن يدبر المياه ويحفر القنوات ويبنى السدود والجسور وينظم الرى والصرف والملاحة النهرية – على أساس ان موارد الامطار محدودة تكاد لا تذكر فى مناخ مصر . ومن ناحية فان موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب تاريخيا وفى العصر الحالى أيضا وبين القارات الثلاث التى تحركت فيها الانسانية بشكل أساسى حتى القرن الثامن عشر – جعل منها مطقة العبور التجارى والاقتصادى والانسانى والعسكرى وبالتالى جعل منها أرض الغزو المرموقة – وهذا ما تم بالضبط منذ الهكسوس حتى الدولة الصهيونية والاسطول السادس ٠

وقد فرضت هذه الظروف القاسية على مصر ومجتمعها عبر سبعة آلاف سنة من التاريخ أن تحيا حياة موحدة الى أبعد درجة ، على أن تكون سلطة الدولة المركزية الموحدة هى مفتاح الوجود القومى

كله : فى مجال الانتاج عن طريق الرى والزراعة والتجارة ثم الصناعة . فى مجال الوجود القومى وصيانة مصر كمجتمع قومى ثابت بواسطة الجيش الوطنى وهو محور جهاز الدولة المصرى عبر عشرات الاجيال من احمس الى محمد على وجمال عبد الناصر • وقد فرضت ايضا أن تتحقق هذه الوحدة فى صعيد الفكر والوجدان . وهذا ما تم بالفعل : فقد تتالت حضارات ثلاث على أرض مصر الفرعونية ثم القبطية ، ثم الاسلامية العربية ،وثلاثتهما تتسم بسمة التوحيدية الفلسفية والدينية مما يتفق فى الاساس مع حاجة مصر التاريخية الى تحقيق اكبر قدر من الكثافة الموحدة المركزة للحفاظ على وجودها والاستمرار فى أداء رسالتها .

هذا اذن هو باختصار كبير التشكيل التاريخى لنمط الاستمرارية الاجتماعية للمجتمع القومى المصرى • ولا يغيب عن الباحث لحظة واحدة ما فى هذا التحديد من قسوة على انماط التحرك السياسى والاجتماعى والفكرى الواردة من بيئات وقارات لم تمارس استمراريتها الاجتماعية كما مارستها مصر بالذات •

وعلى وجه التحديد ، فان هذا النمط من الخصوصية يجعل لزاما على من يتصدى لتطوير الجدلية الاجتماعية فى مصر ان يدرك جيدا ذلك الرباط الجذرى الذى لا يمكن فصمه بين شعب مصر ودولته بين جيش مصر وشعبها . بين وحدة الوجدان والضمير والتفكير وطبقاتها الاجتماعية ومدارسها الفكرية والسياسية المختلفة • ان تطوير المجتمع المصرى لا يهدف الى احلال طبقة اجتماعية مكان طبقة أخرى . كما فى بوليفيا مثلا أو جزر المالديف . وانما يهدف احلال جبهة من الطبقات والفئات الاجتماعية والمدارس والتيارات الفكرية والفلسفية المختلفة محل جبهة أخرى قد تتفق عناصرها الى حد ما مع جبهة القوى الجديدة وانما تختلف عنها تماما فيما يتعلق بكيفية علاج العروة الوثقى فى قلب المجتمع المصرى لتحقيق مهام الحفاظ على المجتمع وتأمين استمراريته ، وتمكينه من التقدم لانجاز المهام التاريخية التى يحددها لنفسه فى كل مرحلة من مراحل التاريخ •

2) ولو طبقنا مفهوم الخصوصية على اليابان لادركنا مدى فعاليته •

ان مجموعة الجزر التى تتكون منها اليابان هى مجموعة جزر صخرية . ضحلة لا تكاد تعرف الانتاج الزراعى . وهى محاصرة بوحشية شديدة بالمحيط الهادى مما جعل منها منطقة على منأى من موجات الغزو الاجنبية حتى منتصف القرن التاسع عشر • وفى العصر الحديث وبعد الفتح

الاجنبي وبعد ثورة ميجى الصناعية التجديديــةالتى قامت فى اليابان بعد نصف قرن من محمد على وعلى نمط تجربته العظيمة ، ادرك اليابان انه أيضا لا يملك المواد الاولية ولا مصادر الطاقة التى هو فى حاجة ماسة اليها فى عصر التصنيع.

وقد ترتب على هذين العاملين الاساسيين ان المجتمع اليابانى وجد نفسه مضطرا للتواجد كمجتمع وللاستمرار كمجتمــع ان يفرض بــين صفوفه نظاما عسكريا شديد الاحكام تسيطر عليه مجموعة صغيرة الحجم من قادة السلاح واصحاب الامر فى تدبير انتاج ما تيسر وتوزيع محاصيلــه القليلة بشكل محصور لا رحمة فيه . والحق ان دراسة المجتمع اليابانى المعاصر اليوم تبرهــــن بشكل ساطع على ان هذا النظام الاقطاعى العسكرى ، وفى قلبه شخصية الامبراطور بوصفه رمزا للامة لا رئيسا للدولة ، وما زال قائما وراء سراب المداخن والمصانع ونوادى الليل المتآمركة .

ان هذا النمط من الخصوصية اليابانية هو بالضبط ذلك الذى يجعل اليابان قادرا عـــلى التحرك بسرعة خارقة فى أى مجال قومى يختاره ، سواء أكان الصناعة الالكترونية أو الحرب ، سواء أكان الانفتاح الدبلوماسى أو فرض اقسى صور التقشف لمواجهة ازمة البترول مثلا . وهو نفس النمط الذى يجعل الغرب فى تشكك دائم وسخط دائم على اليابان .

ومن بين الظواهر الاخرى التى لا بد ان يدرسها العقل العربى على اساس مفهوم الخصوصية الذى قدمناه منذ 1962 : الامة العربية ، النهضة العربية أوربا ، الغرب الصين روسيا ، امريكا اللاتينية ، الخ .. وبطبيعة الامر لا يمكـــن ان نتناول هذه القضايا هنا ، وانما وجب التنبيــه اليها بغية القيام بعمل جماعى تنقيبى دقيق هو الآن من مقتضيات نهضتنا .

واذا اردنا ايجاز الموضوع لقلنا : ان خصوصية مصر مثلا ، ليست فى حانات خان الخليلى وتجمعات الطريقة الشاذلية ، وان كانت من عناصرها وانما فى دور الجيش والشعب معا فى الوجدان القومى كما ظهر ذلك بشكل ساطع يومى 9 و 10 يونيو 1967 ويوم جنازة الرئيس جمال عبـــد الناصر ــ ويوم 6 أكتوبر 1973 وما تلاه من تحرك تاريخى هز اركان ميزان القوى فى العالم اجمع .

ونقول ايضا للايجاز والتوضيح ان نهضة العالم العربى اليوم ، من محمد عـــلى ورفاعــة الطهطاوى والافغانى حتى حرب الجزائر والسويس وفلسطين و 6 أكتوبر وما سيجىء حتما ، وهو آت

لا تكمن فى تحقيق محاولات اوفر للاستثمارات الغربية ولا فى جذب الملايين من السيـــاح الى شواطئنا وانما تعمل على كسر الهيمنة الغربية المتنكرة لحضارات الشرق على مصائر العالـــم المعاصر . واشراق الشرق الناهض بشكل فعـالوقيادى فى تخطيط مجرى مصائر العالم خـــلال عشرات الاجيال القادمة ·

ومن هنا كانت اهمية مفهوم الخصوصية والنظرية الاجتماعية القائمة على اساسه ·

القاهرة ـ باريس فبراير 1974

المـــراجـــع :

1) بدأ عملنا من اجل تحديد مقصود الخصوصية ثم اعادة تشكيل النظرية الاجتماعيـــة والسياسية على اساس هذا التصور . على مرحلتين :

1 ـ كانت المرحلة الاولى تتكون من دراسات ميدانية عن مصر والعالم العربى كما يلى :

Egypte, société militaire, Paris, 1962 : « Introduction à la Pensée Arabe contemporaine » *Civilisation,* VX (1965) n° 1, 45-72.

دراسات فى الثقافة الوطنية ، بيروت 1967

Idéologie et Renaissance nationale : L'Egypte moderne, Paris, 1969 ; A. Abdel-Malek, A.A. Belal, H. Hanafi (eds) :

La Renaissance du Monde Arabe, Louvain, 1972.

الفكر العربى فى معركة النهضة ، تحت الطبع ، بيروت 1974

« **من اجـــل استراتيجية عامـة للنهضة** العربية ، ابريل 1973 ـ 131 ، 116 ·

ب ـ ثـم كانت محاولة ثانية ، من الدراسات المقارنة ، مجتمعة النظرية العامة منذ 1962 ، وقد جمعت المحاولات النظرية المعدة من 1962 ـ 1972 فى كتاب هو أول مجلة لسلسلة باســـم « الجدلية الاجتماعية » ·

La Dialectique Sociale, Paris, 1972.

وأيضــا :

« Pour une sociologie de l'impérialisme » *L'Homme et la Société*, x n° 20 et 21 (1971), 37-54 ; 279-98 ; *Spécificité et Théorie Sociale*

تحت الطبع 1974

الجيش والحركة الوطنية ، بيروت 1974 ·

2) وفى المجال العالمى ، الاستاذ العالم فى مجال دراسة الحضارات المقارنة الجانب

هو ولا شك :

Joseph Needham ; *Science & Civilization in China*, (vol. 1-7..) Cambrig, 1954

Clarks and Craftsmen in China and the West, *Within four seas*, *The grand Titration*, 1970.

احسن عرض لاعماله هـو :

Henry Horolenshaw « The making of an honorary Taoist in M. Teich & R. Young, eds., *Changing perspectives in the history of science : essays in honour of Joseph Needham*, London, 1973 1-20.

ومن اهم الدراسات التى تستعمل فكــرة الخصوصية بوجه عام ، دور التصدى نفسه ·

Raghavan Iyer : *The Glass Curtain Between Asia and Europe*. London, 1965.

Fernand Braudel : *La Méditerranée au temps de Philippe II*. Paris, 1949.

Niyazi Berkes : *The Rise of Secularism in Modern Turkey*, Montreal, 1964 ; Barrington Moore, *Social Origins of Dictatorship and Democracy*, 1966.

الدراسة النظرية الوحيدة التى تحاول تصور الخصوصية بشكل أولى هى :

C. Wright Mills : *The Sociological Imagination*, New York, 1959.

الأبعاد التاريخية لأزمة التطور الحضاري العربي

د. شاكر مصطفى
استاذ بجامعة الكويت

لماذا تطلب وفاق العرب مع العصر كل هذا الوقت الطويل ، ودون كبير جدوى ؟ هذا السؤال المصيرى النازف كالجرح فى ضمير كل عربى ملتزم اذا كان ما يزال ياخذ يوما بعد يوم أبعادا مأسوية متزايدة فلأنه قد مضت على ارتطام هذه الامة بالحضارة الحديثة وبمعطياتها وآلائها سنون بعيدة بعيدة • كتلة الاقاليم العربية مضت عليها الفترة الزمنية الكافية لتكون فى مستوى العصر وتكنولوجيته وفيضه الحضارى • معظمها ، على الأقل انطلق قبل الصين التى بدأت منذ ربع قرن، بعضها قبل روسيا التى بدأت منذ سبعين سنة ،وبعض قبل اليابان التى بدأت منذ مائة سنة •

ومع ذلك فهذه الأمم وصلت • كلها وصلت • بينما لم يصل أى اقليم عربى طليعى الى شىء بعد • مأسوية السؤال انما تنبع من احتمالات الاجوبة عليه : فهل وصلت الأمة حقا مرحلة الشيخوخة فهى الى الادبار والعقم الحضـارى ؟ أم اضاعـت الطريق ؟ وأنى الطريق ؟ أم ثمـة من الامراض المقعدة فى تكوينها العام ما يشل المفاصل أن تسير السير الذى يقتضيه ايقاع العصر ؟.» تلك هى المسـألة » .

واذا كانت أبعاد التحليل لهذا التخلـف تحتمل من السعة والتشعب ما تنساح معه عـلى آفاق الحياة كلها من فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية •• فان الباحث فى هذه الآفاق ما ان يحاول تلمس الجذور حتى يجد نفسه فجأة فى رحاب التاريخ •• وبالمقابل فان الباحث عن الابعاد التاريخية لهذا التخلف ، ما ان يحاول الاستقصاء والشمول حتى يجد نفسه فجأة بدوره

فى عدوان مستمر على حقول هذه الابحاث الاخرى التى تتناول تلك الآفاق بالدراسة ·· ولا مناص من هذا العدوان ما دامت البنى البشرية تسير عامة فى مراحل حياتها فى عملية ديالكتيكية الحدود · التنافى والتواصل هما الحدان اللذان يحكمان معا المسيرة . ففى الوقت الذى تفرز فيه مرحلة تاريخية معينة عناصر المرحلة التالية فان هذه المرحلة بدورها تنفى سابقتها وتناقضها ولكنها وهى تنفيها وتنقضها تكون محكومة بها وبحدودها برابطة من البنوة تكاد من الحميمية أن تكون نوعا من الارث « البيولوجى » · وهكذا فالحاضر العربى وهو ركيزة الغد ومنطلقه ، هو بالرغم منه ، وفى جانب الاصالة والهوية من جوانبه ، حصيلة تلك البقايا الحية والرواسب الميتة ، المرة والحلوة على السواء ، التى أفرزها ذلك الماضى الطويل الذى تجره الأمة العربية وراءها كالقطار الطويل ·

ان أهمية البحث فى الابعاد التاريخية لأزمة التطور الحضارى العربى انما تأتى من أن اللاتاريخية فى الفكر تعنى العمى عن ادراك أبعاد الواقع فى ألوانه وخطوطه ومحركاته ، تعنى رؤية مسطحة ذات بعدين لواقع موضوعى ذى أبعاد فى المكان والزمان والانسان والحياة لا تكاد تدرك كثرة وتعقيدا ·

ولعلنا قبل أن نطلق الشراع للغوص ملزمون برسم بعض الحدود ونقاط الاحتياط والملاحضات :

1 ـ فنحن لا نفهم التاريخ فى هذا البحث على أنه الأدب التاريخى وكتابة التاريخ أى كتقنية من تقنيات المعرفة ، ولا ننظر اليه فى الوقت نفسه على أنه مجموع احداث الماضى الذى انقضى والحروب والعقائد والجماجم التى سفحت ولكن ننظر اليه كجذور للواقع العربى القائم وكجزء حى من هذا الواقع · وما نذهب فى تحليله ـ ان ذهبنا ـ مع الزمن أو مع المكان أو مع الأفكار ، الا كوسيلة لكشف الأبعاد العميقة فى الحاضر العربى ·

واذا اختلطت كلمة تاريخ مع كلمة التراث أحيانا فانما نعنى بالتراث مرتسم ذلك التاريخ فى الحياة والحصيلة (المادية أو الفكرية) المؤثرة منه فى مسيرة المجتمع العربى ·

2 ـ ليس التخلف سمة خاصة بالمجتمع العربى · ثلاثة ارباع شعوب الارض تشاركه ذلك · لكن العناصر التاريخية لهذا التخلف قد تكون مختلفة لدى العرب عنها لدى الشعوب النامية الأخرى · ومن هنا تاخذ الدراسة لهذه العناصر اهميتها الخاصة لأنها كشف عن الميزات الخاصة للتطور الحضارى العربى بما فيه من أرض موات ومن امكان عطاء . انها ملية نبش فى الجذور

كل الجذور · هى رحلة فى النعميات والجراح معامن الماضى · ارث التاريخ ليس كله فى كفة المساوىء ومن دنيا التخلف . على أننا ملزمون بكشف جانب الجراح منها فقط ، جانب السلب واثقال الرصاص التى تمسك بالعجلات الى الأرض ··· وبالرغم من أن التأكيد على ذلك اشبه بدفع ابواب مفتحه على مصاريعها الا أننا نضعه بين المعطيات الأولى ونضيف اليه :

3 ـ أنه ليس ثمة ما يمنع بعدا من أبعاد التخلف التاريخية أن يتحول بمعاناة جديدة له أو بفهم جديد الى بعد حضارى من أبعاد الغد ··· ان التخلف لا يستند الى عناصر مطلقة . الى لعنات أبدية ، متصلة بنقائص أزلية · وانما هى عوامل شلل ولعنات نسبية دوما فى اطار العصر التى توجد فيه ومن خلال الدور المعطى لها فى الناس ، وبمستوى المعاناة الانسانية التى تتعرض لها · واذا لم يكن ثمة من عنصر فى التاريخ هو عنصر تخلف مطلق أو ثابت ، فانا لن ننظر الى العناصر التاريخية فى التخلف الا من خلال منظور متكامل للمستقبل ، الا من خلال المنظور الذى يقابلها للتطور الحضارى . ليس من بعد يمكن أن يعتبر عامل تخلف الا بمقدار ما يعمل ضد عوامل التطور المستقبلية وبمقدار ما ينعكس منه على الغد من قيود حجرية ·

4 ـ ويتفاوت أثر هذه الابعاد التاريخية التفاوت الواسع فى الزمان وفى المكان · فبعضها قديم قدم هذه الامة لارتباطه بقدرها الجغرافى أو التكوينى ، وبعض حديث طارىء من صنع بعض العصور والاحداث المتأخرة وبعضها يظهر فترة ثم يغيب أو يختلف حدة وضعفا حسب الأجيال والمعطيات الحيائية الاخرى ··· كما أنها تتفاوت حسب أقاليم الوطن العربى الأوسع وظروف تاريخها واتصالها بالحضارات الاخرى فمرتسمات التخلف التاريخى فى أقليم هى غيرها فى الاقليم الآخر وألوان بعضها فى هذه البطاح غيرها فى تلك الجبال أو الصحارى أو الخلائط البشرية ·

5 ـ وعلى المستوى نفسه فان عناصر التخلف ، ان كانت قديمة وتاريخية ومتفاوتة فان ذلك لا يعنى انها ميتة · ولكن يعنى أنها تعمل بشكل قديم · لا يعنى انها غير حية الحياة الواسعة ولكن يعنى أن هذه الحياة تجرى فيها ضمن القواقع المتكلة والارضية المتحجرة والمعطيات الموروثة . وأنها تدافع عن نفسها ، بل وتهاجم احيانا ، من وراء قشرة سميكة أشبه بأسوار القلاع الوسيطة، حجارتها الجهل والتقليد والامثال والاعتياد الاجتماعى والقوالب الفكرية الجاهزة وظلال التقديس وموروث الاحترام للقيم ·

6 ـ ونحن لا ننكر أبدا ولا يجوز أن ننسى ان العديد من هذه العناصر التاريخية فى التخلف قد اخذ يتحول تحت ضربات الحياة الحديثة وايقاعها الحار . بعضها يموت مرغما على هون وبعض يقف على بقايا الارض القديمة التى ما تنفك تؤكل باستمرار وبعض يتطور بدوره ايضا . يحاول ان يأخذ من العصر ويعطيه . ولكن هذا الاخــذوالعطاء يسيران ببطء لا يتفق مع تواتر العصـر نفسه وسرعته ومنطقه ... وتضـاف عقابيـل التلاؤم القاصر الى عناصر التخلف نفسها لتزيدها تعقيدا فى الفكر والاجتماع والسياسة والدين على السواء .

7 ـ ثم ان عناصر التخلف فى التاريخ أعقد بكثير من أن تكون ذات بعد واحد . انهـا مشتبكة الحدود ، متعددة الصور ... خطوطها تتقاطع . تعوج . تلهث . تصطدم . تذهب فى كل اتجاه وفى لا اتجاه لأنها نتيجة عوامل بالعشرات وظروف تاريخية شتى فى فترات زمنية متعددة وأماكن ليست اقل شتاتا . وادراكها على هـذا الاساس يكشف مدى المجازفـة فى محـاولات التبسيط والتعميم التى قد نلجأ اليها مكرهين بغية الاقتصار على التيارات العامة .

8 ـ وعلى المستوى نفسه اخيرا يظهر مدى المجازفة عند الوقوع « التجزيئية » . ان تجزئـة تلك العناصر التخلفية ، وهى مجرد عملية منهجية يجب ان لا تحجب عنا أنها فى واقعها الاجتماعى ـ التاريخى وحدة . انها كل . وانها كيان واحد حـــى متفاعل . تشكل اجزاؤه وحدة تاريخية التكوين ان تخلف عناصرها عن عصور شتى فقد تعانقت هذه العناصر فى تفاعلات اجتماعية ـ فكرية طويلة لينسجم بعضها مع بعض ويعمل بعضها من خلال بعض .

ولعلنا بعد هذه الملاحظات نستطيع لملمـة الأبعاد التاريخية فى التخلف العربى فى الملامح التالية التى لا نعتبرها على أى حال اكثر مـن محاولة أولية .

ولعل الملاحظة الاولى يجب ان تتعلق بعلاقات الانسان العربى بالزمان . واذا كان صعبا ملاحقة هذه العلاقات من خلال الفلسفة والايديولوجيات الفكرية فلعل الاسهل والاقرب لموضوعنـا ان ندرسها من خلال دراسة شأن « التاريخ » نفسه ، ودوره فى الايديولوجية العربية المعاصرة أو فى تكوين ما نسميه بالثقافة القومية والشخصيـة العربية والتأهيل للغد . ان ارتباط العرب بهذا الذى يسمونه تارة بالماضى وتارة بالتاريخ وثالثة بالتراث أو السلف ليس كارتباط أى أمة أخرى به ... وان دراسة الابعاد التاريخية للتخلف العربى لتأخذ معنى خاصا ، وأساسيا ومصيريا من خلال هذا المنظور لقيمة ودور التاريخ فى كيان العرب وفى ايديولوجياتهم المعاصرة .

ان بنى المجتمع العربى ــ ولعل لحضارته الزراعية أثرها فى ذلك ــ هى فى مجموعها بنى تاريخية التكوين . تاريخية حتى النخاع الشوكى تاريخية بامتياز وبعمق مع كل ما يحمل التاريخ من جلال واهتراء وغبار خانق • اننـا لا نعيش زمنين معا : الحاضر والماضى فقط ولكنا ، نعيش فى الواقع أيضا أزمنة شتى من هذا الماضى نفسه • واذا كان التاريخ والتراث والماضى والسلف ••• وما يتصل بهذا وذاك منها ذات ضغط خاص على الشخصية العربية وبالتالى فى الفكر الايديولوجى العربى المعاصر فلأنها تحتل فى التكوين الثقافى القومى مكانا خاصا ندر أن عرفته شعوب أخرى ••• مكانا ليس بالنادر أن يصل فى بعض حدوده ، عالم التقديس والمناطق الحرام .

ان الحضارة العربية (والتى كان الاسلام أروع أطوارها واكمل تلك الأطوار) تختلف عن الحضارة الغربية فى مفهومها للزمن ومن ثم فى مفهومها للصيرورة التاريخية • وانها (وهى فى هذا تشبه حضارات الشرق فى اليابان والصين والهند) نتاج مجتمعات قومية مكثفة العلاقة بأقدم عصور التاريخ (1) •

وقد اعتادت هذه المجتمعات أن تحيا مـع تاريخها دوما • أن تحيا حياة اجتماعية شديدة التماسك مع الماضى . تركيبية البنية ، وحلوية الزمان • يندمج فيها الماضى بالحاضر كل الاندماج وتبتلع . ضمن معركة الاستمرار المادى ، وجدلية الوجود التاريخى . كل التناقضات التى تخلفها العصور المتتالية • انها ترفض تفتيت الزمن الى وحدات كمية أو النظـر اليه كامتداد بعيد هـو بالنسبة اليها حضور مستمر . الصيرورة التاريخية بالنسبة الى العـــرب عملية مركبة جدلية اذا امتدت عبر الاجيال فاللاحق فيها جزء من السابق متمم له .. واذا ظهر الاسلام مثلا فى القـــرن السابع فأعلن لاقناع العرب أنه « ملـــة ابيكم ابراهيم » ووصل الناس بهذا الشكل سواء بالنسب البيولوجى أو بالرباط الروحى بما قبل خمسة وعشريـن قرنا منهم واذا كرر مـرات انه جـاء « مصدقا لما بين يديه من التورات والانجيل » (2) ثم اذا حملت راية السنة والامامة فى هذه الأمـة كمنطلقات للايمان واذا ظهر فيها ما يزيد عن عشرة آلاف حافظ معروف وأربعة آلاف مؤرخ خـلال

(1) عبر الاستاذ انور عبد الملك عن جانب من هذه الفكرة فى حديثه مع مجلة (الثقافـــة العربية ــ ابريل 1973) .

(2) تكرر ذكر ذلك فى القرآن ثلاث عشرة مـرة •

عشرة قرون وما يزيد عن تسعة آلاف كتاب فيالتاريخ وهو ما لم تنتجه امة اخرى من قبل أبدا فان لذلك كله دون شك معناه البعيد في التكوينوالنسج الفكرية وفي اقامة التركيب الوحدوي الفكري لنحضارة العربية ٠

ولم يكن غريبا ، في النهضة العربية منذاواخر القرن الماضي ، أن ينطلق العرب في البحث عن « الأنا » الضائعة الى التاريخ ان « الاصالة »رغم معانيها العديدة المتصلة بالابتكار والخلق الجديد والارض التى لم يمسسها بشر من قبل انما ترتبط عند العربي بالتاريخ والتراثية خاصة . الجانب التراثي منالذات العربية يكاد يطغى أحياناكثيرة ، وفي كثير من اللحظات على الجانب الحي ، الحاضر ، الدارج على الأرض ٠

واذا كان التاريخ (أو التراث) يتحول الىقضية والى قطب اهتمام خاص في الازمات الكبرى وفي فترات التحدي والحاجة الى الاتصال العميقبالذات فانه في المجتمعات التاريخيـة العتيقـة التكوين ، وذات العلاقة الخاصة بالفكر التاريخييأخذ أوسعابعاده ٠ ولقد رأينا بالنسبة الى العرب تيارا من الاندفاع وراء التاريخ العربي يتوازيمع حركة النهضة العربية ما بين اواخر القـرن الماضي واعقود الأربعة الاولى من هذا القرن ٠ وقد أخذ هذا الاندفاع تارة الشكل الديني لدى الجموع المتدينة التي تريد احياء عصور بعينها ورجـالمعنيين ضمن اطار معين واخذ تارة اخرى الشكل الرومانسيالعاطفي أو شكل التوفيقيلدى التيارات القومية التي تنظر الى التراث من خلال البلـور الملون والغنائية أو تحاول أن توفق ما بين قيمهوالعصر ٠٠ ولو بالرغم منه ٠ كما اخذ اخيرا شكل الرفض الكامل لدى « المغتربين » فكل هذا التراثعندهم يجب أن يلقى الى النار (3) ٠٠ انه مضاد للثورة ٠ مضاد للفهم والتكنولوجيا اليوم ومضادللغد ٠٠ ولكن هذا لا يمنع انه بالنسبة اليهـم يشكل قضية من قضايا الصدام مع الواقع ٠

وقد دخل العرب منذ 1948 عصر الهزائم(4) التي لمتقتصر في الواقععلى المستوىالعسكري والسياسي ولكنها أخذت أيضا أبعادا حضاريـةونفسية تجلب في الاعتراف « بالتخلف » التقني

---

(3) ليس هذا التوزيع سوى محاولة لتبسيط المواقف المختلفة من التراث ٠ والواقع انها مواقف متداخلة كل التداخل وانه ثمة بين المتدينين من يحاول الموقف التـــوفيقي أو الموقـــف الاعتذاري عن بعض القضايا (الرق والحجاب وان بين القوميين من يقف الموقف الرفضي ٠٠٠ الخ ٠

(4) لا نقصد بها فقط الهزائم العسكرية أمام الصهيونية في اسرائيل ولكن أيضا الهزائم أمام الغرب الامبريالي الذي يسحقنا دون انقطاعبتفـــوقه التكنولـــوجي وانتاجـــه الاستهلاكي واستثماراته للثورة العربية حتى البشرية منها .

والثورى والتنظيمى والاجتماعى والعلمى وفى تلك القصائد الماسوشية التى جلدنا بها أنفسنا جلدا. واذا كان عصر الهزائم هذا يقابل من قبل الجماعة العربية بالرفض وبما يمكن أن نسميه بحركة النهضة الثانية التى عبرت عن نفسها بالثورات ومشاريع التنمية والتوسع التعليمى والاتجاهات الاشتراكية ·· فقد رافق هذه الحركة بدورها ردة موازية الى التراث والى تجديد الموقف العربى منه ·

وهكذا عاد التراث فى الصراع الحالى القائم بين الايديولوجيات فى الوطن العربى كله ليحتل مكانه الواضح فى المستويات الاشكالية الاولى ·

على أنه من المؤسف أن النظرة العربية للتاريخ ما تزال نظرة سكونية رجعية الاجاه ··· فنحن لا ننظر اليه على أنه نقاط انطلاق ولكن حدود انتهاء · ولا على أنه نسخ فقط ولكن على أنه جذوع جاهزة للتعلق والأرجحة · ولا ننظر اليه على أنه كان يحمل الف امكان ولكن على أنه ذو بعد أحادى هو الشكل الذى تحقق منه ··· التاريخ عندنا ، رغم زمانيته المتطورة الطويلة لا يعترف بالزمان لأنه يتراكم كله فى لحظة وفى مستوى مسطح واحد ··· انه عندنا فى صورته المستقبلية محاولة لاسقاط الماضى كاملا على المستقبل، لا محاولة التجاوز الكامل له · ومن هنا تتحدد مجموعة من الذيول والنتائج ·

ـ من هنا مثلا كان التاريخ قارب نجاة للكثيرين · مهربا من الواقع المسكين أو كان غربة عن العصر بدل أن يكون اندماجا متزايدا فيه ·

ـ ومن هنا أيضا تحل الاستمرارية التاريخية محل الاصالة أو تتوحدان فى مفاهيمنا الايديولوجية يحل الامتداد الوحيد الاتجاه محل الانطلاق المتفجر مع كل الآفاق وتلتوى « الاصالة » لتصبح تقليدا وعودة ذليلة الى الأرض الاولى كما تعود الاشجار الاستوائية لتجعل من أغصانها جذورا بدلا من أن تصبح فروعا للزهر والثمر ·

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » ؟

ـ ومن هنا أيضا وأيضا تقف مشكلة « التراث » عند العرب ، فى مركز مشاكل الجدل · كل الطرق تؤدى الى « روما التراث » عند بحث الثورات ، أو التقدم والتخلف أو الايديولوجيات أو التخطيط ودنيا الغد · تقف كقاطعى الطرق على مفترق الطرق لتقسم الناس الى يمين ويسار وتقدميين ورجعيين وتقليديين وعصريين ... ولتثلم السيوف وتزرع الجهود فى الصحراء ···

واذا لم تجد هذه المشكلة حلا نهائيا بعد ، اذا لم يتفق الفرقاء بعد على موقف شبه واحد منها فلأنها ليست فى الأصل « بمشكلة » ولا من المستوى الاشكالى ولكنها جزء من الهوية العربية ، جانب من الكيان نفسه ، يناقش وينظر اليه من خلال ايديولوجيات معينة فترمى عليه المعانى الدينية تارة أو القومية تارة أو يجرى اسقاطه هو نفسه على المستقبل بهذه المعانى ، تارة ثالثة ··· بينما الوضع الطبيعى، من خلال معطيات الحضارة العربية أن تستوعب المتناقضات · ان توائم الروح العربية بين معطيات الفكر الحديث والعلوم والتكنولوجيا وبين الحفاظ على أخص ما فى التراث ضمن التركيب الوحدوى القومى أو التاريخى · قد لا يكون منطق الفكـــر الغربى (وهو منطق ثنوى فى جـوهره يقوم على التضاد المطلق بين الوضع ونقيضــه) قابلا لمثل هذه العملية الاستعمارية الصعبة التى تقوم على منطق آخر هو المنطق الجدلى التركيبى الذى يصل من الوضع ونقيضه الى النقيض والى معادلة تركيبية جديدة . ولكن تجربة اليابان ثم تجربة الصين فى ثورتها الثقافية الاخيرة قد توحى عند الدراسة بالكثير · (5)

ـ ومن هنا ايضا وايضا يستمر فى العقلية العربية ذلك الجناح الغيبى الممدود . ويحـــل (ما وراء الطبيعة) الميتافيزيك فى نواح عديدة مكان الطبيعة (الفيزيك) ولا تؤخذ وتنتشر من الدين الا القيم الاستسلامية ، وشعارات الطاعة والقناعة والفناء وعجز الانسان وسيطرة القـدر دون القيم الايجابية الديناميكية كمبادىء العمل والمسؤولية والحرية والتعاون والعدل والتفكـــير فى مظاهر الطبيعة وطلب العلم ·· النظرة الى التاريخ من الزاوية السلبية السكونية هى التى تمنع هذه القيم من أخذ كافة ابعادها فى حركية المجتمع العربى ·

ـ ومن هنا الى كل اولئك كانت تلك الانفصامية التى تعيش بين عصر نصطدم كل لحظة بحدوده وفكره وآلته وبين « تاريخ » فرتبط به فى الغالب بشكل رومانسى لمقابلة عقد النقص ، ونريده على ان يلبس ثياب هذا الواقع سواء كانت فضفاضة ، أم ضيقة ! ان ما يعطى تلك الانفصامية

---

(5) لسنا هنا فى صدد بحث مشكلة التراث والدين والتاريخ وامكان أو تعذر اعتبارها ركائز للمستقبل ولكنها خاطرة عابرة اقتضاها ايضاح الفكرة . ولعلنا نضيف اننا لا نقصد بالحفاظ على التراث : السلفية والرجعى ولكن نقصد ما نستطيع تسميته بالتراثية التى يقترب معناها كـــل الاقتراب عندنا من مفهوم الاصالة والارتكاز العميق فى الارض لتمتد الفروع بعيدة فى السماء ·

حدودها المأســـوية هى أننا فى الوقـــت الذى نقنـــع فيه بفكـــرنا التاريخى السكونى الرجعى الآحـــادى نواجـــه بالـــرغم منـــا حضـــارة أخرى ساحقة القوة تنظر الى التاريخ نظرة مختلفة حتى فى الجذور تقوم على ايجابية الحدث التاريخى وعلى تغيره المستمر ومسؤولية الانسان المباشر فيه ٠

وننتقل بعد هذا من مستوى الفكر التاريخى وعلاقة الانسان العربى بالزمان الى مستوى الحياة العربية نفسها لنجد ــ وضمن اطار الملاحظات التى فرطت فى مطلع البحث ــ ان « الاستمرار الاجتماعى » الذى تعيشه الشعوب العربية انما تحكمه عناصر عديدة تشكل فى مجموعها التركيب العربى القائم .. وان لامتدادات التاريخ فى هذه العناصر المكان الواسع ان لم يكن الاول ٠ واذا تركنا جانبا اطار البيئة الطبيعية وآثارهـا فى الانسان العربى ، عبر الايكولوجيا والجيوبوليتيك استطعنا ان نقف من العناصر الاساسية الباقية عند اربع جوانب :

أ ــ طريق الانتاج المادى : كيفية ونوعية العمل الاقتصادى وماذا يحمل من ثقل التاريخ ٠

ب ــ تكوين نظام السلطة , تاريخية التكوين السياسى القائم ونوع العلاقات بينه وبـــين الشعـــب ٠

ج ــ طبيعة العلاقات الاجتماعية : أسس التكوين الاجتماعى ٠ الجنس والمرأة ٠ الولاءات العائلية والعشائرية والطائفية ٠ القيم الخلقية ٠

د ــ قيم الفكر التراثية (الايديولوجية الفكرية ٠ اللغة والتعبير) ٠

وليست التجزئة التى اصطنعناها فى تقسيم هذه الجوانب سوى تكتيك دراسى فانها سواء فى تطورها التاريخى أو فيما انتهت اليه مـــن تكوين الواقع العربى القائم انما تشكل كلاً , تشكل وحدة متكاملة ٠ تتمم المفاهيم الاجتماعية والدينية فيها المفاهيم السياسية وتغطى الافكار والاوهام البؤس الاقتصادى كما يترك الطابـــع الانتاجى الزراعى والبدوى ميسمه الواضح فى الحياة السياسية والاجتماعية على السواء ويبرر أو يفسر الوضع الفكرى والسلطة وقوى المجتمع ٠٠ وايديولوجيات الناس ٠

واذا كانت هذه الجوانب تكاد تجمع نواحى الحياة كافة فلأن تراث الماضى المتغلغل فى الحياة العربية حتى الصميم والمؤثر فيها حتى الصميم يضطرنا لان نلاحق هذا التراث حيث نثقف ٠ بل

ويضطرنا لان نلاحق منه خاصة الجانب السلبي المعوق . على ان المشكلة ها هنا مزدوجة . الصعوبة وصعوبتها ليست فقط في اختيار الملامح التي نتصور انها هي السبب في التعويق والتخلف ، وقد نتهم في هذا الاختيار بالتعسف أو الوهم أو الجزئية ولكنها في أمر اشد خطرا هو اننا لكي نختار الابعاد التاريخية في التخلف لابد ان نصطنع مسبقا في الفكرة ابعادا مستقبلية محددة للتقدم . في الخلفية الفكرية لابد ان يكون ثمة مفاهيم قياسية معينة يكون التخلف تخلفا بالقياس اليها بعدا أو تقصيرا ، أو مغايرة .

على اننا تفاديا لهذه وتلك سنحاول ان نكون في الجانب الوصفي ، لانه الاقرب الى الموضوعية والى الارض المشتركة ، دون جانب التقييم الذي ينفسح ميدانه لكل الاهواء . وسنحاول ان يكون المعيار في حدود روح العصر ومعطياته وحاجاته لان أساس الازمة كلها انما تكمن في الغربة عن العصر .

1 ـ طريق الانتاج المادي وجانب التراث فيه :

برغم أنوف المصانع التي تتصاعد بدخانها الى السماء في أكثر من موقع الوطن العربي وبرغم الثروات الضخمة التي تندفق ومشاريع التخطيط والانماء والخبراء فان الطابع الاوضح في المجتمع العربي المعاصر هو طابع الانتاج التقليدي . علاقات الانتاج وطرقة ومفاهيمه لم تتغير الا في القليل القليل عما كانت منذ قرون قد تزيد احيانا على العشرين والثلاثين .

لقد ورثنا في مختلف مناطق الوطن العربي حياة انتاجية تقوم أساسا على الزراعة ، وقد لا يكون في هذا كبير أمر لولا ان هذه الانتاجية الزراعية حافظت ايضا على الوسائل والطرق التقليدية . واذا كان الفلاح فيها متوحدا مع الارض في الصلة والعلاقة حتى كأنه جزء منها ، فان من الطبيعي عند هذا الفلاح أن لا يكون الانتاج له ولكن للآخر مالك الارض (سواء كان شخصا اقطاعيا أو حكومة مسيطرة) وان تتحكم في كمية الانتاج لا جهود الانسان ولكن القوى الاخرى الغيبية دوما وفي الاسعار لا قيمة الجهد والعمل ولكن القوى غير المنظورة التي لا حول للمرء أمامها ولا قوة ، لانها من عالم المتسلطين ...

وقد كانت هذه الحضارة الزراعية خلال القرون السابقة ، مبررة ومقبولة ضمن الاطار التاريخي لها ومنسجمة مع ما تفرزه وما يتصل بها في الوقت نفسه من تنظيم اقتصادي اجتماعي

وسياسى ايضا ومن علاقات استغلال ولكن معطيات الحضارة الحالية ، مع الانفجار السكانى العربى يجعل هذا الطريق الانتاجى اليوم مسدودا ٠ انه لا يؤدى فقط الى تزايد الفقر والبؤس الشديد والجوع وسوء التغذية ولكن ايضا الى الصاق الطبقات الفلاحية بالتراب وبطبقة السوائم التى تعيش معها وهذا يعنى عبودية وتعطيل ثلثى قوى الانتاج فى الوطن العربى ٠ انسانية الفلاح هذا الركن الاساسى فى الانتاج المادى ، تنتهى أمام اشباح الجوع والسيطرة الراكضة وراءه . وامام علاقات الاستغلال الاخطبوطية التى تغل يديه والقدمين ٠٠ بل لقد حاولت قوانين الاصلاح الزراعى والثورات أن تغير من ذلك الوضع الانتاجى التقليدى ولكن سوء التطبيق مع بعض العوامل الاخرى كان يشل مفعولها الثورى ، ان لم يؤد فى معظم الاحيان الى تحول الكثير من أراضى الزراعة العربية . الى أرض موات ٠٠٠

واذا كانت البداوة وما يتصل بها من انتاج رعوى من موروثات الماضى العربى ايضا باعتبارها من لوازم الارض العربية التى تملأ البوادى والصحارى قلبها كله فى المشرق الاسيوى واقسامها الجنوبية فى افريقيا وباعتبارها تحتجز 15 ٪ تقريبا من الكتلة السكانية العربية وما تزال تحتجزها . فان المناطق الحضارية من الوطن العربى بحكم جوارها المتصل دوما مع البادية كانت دوما معرضة للاجتياح البدوى لا من الناحية الديمغرافية فحسب ولكن من ناحية القيم ايضا ٠ آخر مد بدوى اصابها انما كان فى العهد العثمانى خاصة فقد تقلصت الارض الزراعية وسيطر الغزو على اطراف الريف وقامت العصبيات القبلية وتسللت حتى الى المدن ليستمسك بها الناس بدل السلطة التى كانت غائبة ٠٠٠

ومما يتصل بالعقلية البدوية أمران ما نزال نلمس آثارهما الواضحة فى المجتمع العربى :

أولهما : الرغبة عن العمل والاعتماد على موارد أخرى للحياة : فاذا لم يكن غزو حلبنا الابل او انتقلنا الى مرعى آخر اكثر امراعا ٠ ومن الصدف الغريبة أن البترول ظهر فى المناطق الصحراوية العربية ، كناوع من المرعى الجديد المجانى دون عمل ٠٠٠ وبدل حليب النوق فنحن نحلب اليوم الارض ٠٠٠

الثانى : امتهان الحرف والنظرة « الدونية » التى ينظر بها العرب الى الاعمال المهنية . واذا قال الفرزدق القديم فى هجائه المرير لصاحبه جرير :

هو القين وابن القين والقين جـده   ولا خـير فى قـين تحدر من قـين

فما تزال هذه « الأنفة » من العمل المهنى قائمة فى تكويننا النفسى . التفضيل فى العمـل ينصب على الوظيفة الرسمية والاعمال ذات السلطة أو لا فعلى التجارة واعمال الوساطة وفى أسوا الاحوال على العمل الزراعى والتعامل مع الارض··· اما الحرف فكانت خلال القرون الاسلامية عامة متروكة لمن لا سطان لهم من قـوة عسكريةأو قوة من مال أو فضلة من ارض ··

ولم يستطع العصر الحديث ان يخلص العرب من هذا الموقف « البـدوى » البدائى بعد · وتحتاج النفسية العربية الى نوع من اعادة التكوين والتأهيل فى هذه الناحية لتخلق نـوعا من الانسجام بينها وبين العصر يقبل لا الحرف والمهـن ، كعمل نبيل ولكن « الصناعة » والتكنولوجيا كقدر حضارى لا بد منه ···

ولقد كانت للتجارة دوما فى العرب مهمة النبل بين الاعمال · الموقع الجغرافى العربى هـو الذى جعل من التجارة لا العمـل العربى المتـاح والمربـح فقط ولكن العمل الممـدوح « المبارك » ايضا وقد كان التاجر رمز الحضارة العربية الاسـلامية وخاصة فى عصـورها الذهبية · ولكن التجارة العربية الواسعة التى سمحت بتكـدس الثروات والتفوق الحضارى والسياسى العـربى انتهت منذ القرن السادس عشر ، مع عصر الاكتشافات الجغرافية . القرون الثلاثة التى تلت ذلك كان فترة ركود لا فى العطاء الحضارى فقط ولكن ايضا فى علاقات العرب العالمية . انكمشت صلاتهم مـع الدنيا والناس · عزلوا عن العالم كلـه بعمليتين متقابلتين فقد انغلقوا على العالم ضمـن أسوار الامبراطورية العثمانية من جهة كمـا تضاءلت علاقات العالم الغربى المتقدم ، خاصـة معهم من جهة اخـرى ، الا ما يكون من محاولات الكسب والنهب الحربى أو التجارى ، وبينما اصبح الوطن العربى كله قوقعة كبيرة ، انكفأت العملية التجارية الى الداخل وافتقرت بالاستهلاك الداخلى المحدود والجمود العام الاجتماعى والفكرى · واذا اعاد العصر الحديث للموقع العربى منذ قرن عـلى الاقل ، شانه وأهميته العالمية فانه لم يعد اليـه « التجارة الدولية » · ظـل الغـرب هـو الذى يحتكرها ويستغـل المواقـع العـربية نفسها بالاستعمار والقـوة العسكرية والتفوق السياسى والمـالى والحضارى · واستمرت بالمقابل تجـارة العرب برية داخلية من جهة ومحدودة المردود من جهة اخرى · ولم يستفد العرب من ثورة وسائل الاتصال والنقـل الحديثة لانهم فى الـواقع ،

لا يملكونها • كما انهم بابتعادهم عن طبيعة العلاقات التجارية المعقدة فى الحضارة الحديثة خسروا الامكان والعلم والقدرة على معاودة السيطرة على هذه التجارة التى غادرتهم • وفى الظروف الحالية على الاقل ، الى الابد •

وضعف الانتاجية العربية الذى مضى عليه الآن أربعة قرون أو تزيد ترك بلاد العرب فى وضع من الفقر المتجمد ومن اقتصاد الكفاف المتمادى السكونى فى الوقت الذى كانت فيه « انتاجية » المناطق المقابلة جغرافيا للعرب على البحر المتوسط والتى نسميها « الغرب » ترتفع بشكل هائل حتى ظهرت الرأسمالية وما يتصل بها هناك ، وتطور مفهوم حديث للمال وقدراته وطرق استخدامه غريب كل الغربة عن المفهوم التقليدى العربى الموروث •

لقد اعتبر العرب – من خلال مراحل التاريخ – وما يزالون يعتبرون المال قيمة ثابتة لاحركية • وذا بعدين فقط سواء فى حركته من بيع وشراء أو فى مادته من نقد وعقار • عشرات الابعاد التى فتحتها له الحضارة الحديثة فى الشبكة العالمية المالية المعقدة ، وما تزال غريبة على المجتمع العربى الذى يحتقر – وربما بسبب فقره نفسه – المادة • وينظر اليها كأمر ثانوى غير رئيسى فى دورة الحياة الكبرى • وما يزال يناقش مشكلة « الربا » كقضية حيوية ، ويجد العزاء الجميل عن فاقته فى مصير اولئك الذين « يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون •• » ولقد يتكشف هذا الموقف السكونى والسلبى من المال حين ننظر الى حيرة العرب اليوم بهذا الدفق الهائل من الارصدة العربية المجمدة الذى هبط عليهم فجأة ، وعلى غير استعداد وانتظار ، فهم لا يدرون ما به يفعلون •

وعى أى حال فان هذه الاوضاع الاقتصادية السكونية فى الوطن العربى قد اصيبت بالرغم منها بعدد من الهزات منذ اصطدامها بالاقتصاد الاستعمارى الغربى وبنمو الاستهلاكية المحلية وارتفاع مستوى المعيشة ولا سيما فى المناطق الاكثر صلة واحتكاكا بالغرب وفى عقد الاتصال معه •

لم يصب الريف من ذلك الاصطدام الكبير انقلاب يغير مصائره ، فيما عدا تحول مصر الى مزارع قطن لمصانع مانشستر فى مطالع هذا القرن وتحول كروم الجزائر الى خمور فى الاقبية الفرنسية ، فان الريف العربى ظل على أدواته القديمة وعلى وتيرة انتاجه التقليدى وان دخلته

الاله والسدود فى بعض المواضع فان انتاجيته العامة ظلت تقصر باطراد عن مدى الحاجة المعيشية للسكان المتزايدين ٠٠ ولكن المراكز المدنية هى التى توسعت فيها طبقة البورجوازية الصغيرة التوسع الكبير الذى سيطرت معه على الاقتصاد من جهة وعلى الحكم بواسطة الجيوش التى أفرزتها من جهة اخرى وعلى ما بين هذين القطبين من ثقافة وايديولوجية ٠

أفرز التطور الاقتصادى والاجتماعى اذن خلال القرن العشرين طبقة وارثة جديدة فى الوطن العربى كله ألغت ـ الى حد ما ـ وفى بعض المناطق خاصة الطبقات (الاقطاعية ـ التجارية العلمية) التقليدية وحلت الى حد كبير محلها فى وظائفها نفسها ولكن تحت شهارات جديدة : هى الاقتصاد القومى (الاقليمى) والدولة القومية ٠ ولكن طرق الانتاج لم تتغير كثيرا فى سوى التصنيع المحدود وسوى ظهور طبقة عمالية متزايدة السعة أيضا فى المدن العربية ولم تتركز الفعالية الاقتصادية العربية فى هذه البورجوازية الناشئة فقط ولكن الفعالية الثقافية والسياسية أيضا للدرجة التى أضحت معها حاجاتها وآمالها هى حاجات وآمال المجتمع العربى نفسه ٠ بعد ان فرضت نفسها كطليعة له . لا سيما أن القطاع الريفى ما يزال على عطالته السلبية فى الشؤون العامة ٠ ولما لم يكن للبورجوازية العربية الناشئة من طموح واضح حتى الآن أبعد من الرقى الاقتصادى وذلك تحت تأثير قصورها الفكرى وفيضان السلع الاستهلاكية من العالم المتقدم ، وكانت تعيش تناقض الازدواجية الحياتية بين موروثات الماضى الصلبة وتطلعات المستقبل غير الواضحة ، وكانت تفتقر حتى الآن ايضا الى فلسفة فكرية واضحة تحدد لها الطريق فانها تتخبط ويتخبط معها الوطن العربى ـ فى ما يمكن ان نسميه بالمنزلة بين المنزلتين أو مرحلة الضياع والحيرة وفى مختلف ألوان النشاطات والقطاعات ٠ فهى فى الانتاج بين الطرائق القديمة والمرحلة الرأسمالية . وفى الفكر بين التراثية السلفية والعصرية الكاملة . وفى السياسة بين دولة القرون الماضية والليبرالية والدولة الاشتراكية ، وفى المجتمع بين أقسى التقاليد التى ضاعت مبرراتها القديمة وبين الانفتاح الاجتماعى الحديث الذى لم تتبلور القيم الجديدة ٠٠٠ وأخطر شأنها انها استطاعت بعد ان ناضلت اقسام منها للتحرر الوطنى أن توجد لنفسها القوة الضاربة ، حين أضحى ضباط الجيوش العربية من ابنائها ٠٠٠ وحين استطاعت ان تحقق سلسلة من الانقلابات العسكرية سيطرت بها ـ دون وضوح كامل فى الرؤية المستقبلة أو استعداد فى الخبرات . على معظم اجزاء الوطن العربى ٠٠٠ ان التناقضات داخل هذه الطبقة هى التى انعكست قلقا وعدم

استقرار فى كافة هذه الاجزاء ··· كما انعكست استبدادا وخنقا للحريات وحقدا أعمى عن من يقف فى طريقها أو يرفع شعار الوعى العقلانى ..

2 ـ تكوين نظام السلطة مع التاريخ

لو شاء باحث ان يلخص فى سطرين قمة النظام السياسى الذى ساد البلاد العربية فى القرون العشرة الاخيرة (ان لم نشأ ان نذهب الى ماوراءها ثلاثة او اربعة قرون أخرى) لوجد انها ليست اكثر من تحالف مصلحى ثلاثى الاطراف قائم ما بين طبقة عسكرية غريبة دوما ولكن لها الرئاسة وطبقة من الاسر المحلية (الاقطاعية أوالتجارية) ثم طبقة تعيش على أطراف هاتين الطبقتين من رجال « العلم » الدينى ··· ثم تأتى الطبقات الشعبية التحتية وتشمل حرفيى المدن وفلاحى القرى · وهى الرعية الطيعة وموضع الاستغلال الدائم والانتاج للآخرين سواء كانت من الاحرار ام من العبيد ·

فأما الطبقة العسكرية فانها وان غيرت الاسماء من اتراك أوائل الى بويهيين الى سلاجقة واتابكة وايوبيين ثم الى مماليك ومغول (ايلخانية وجلايرية) وتركمان (قره قونيلو وآق قونيلو) وصفويين ثم عثمانيين (6) ، فقد كانت فى الغالب من الاتراك كما كانت من المماليك الذين برزوا عن طريق الجيش وهذا ما كان يفرض على المنطقة العربية الشرقية خاصة الحكم العسكرى القائم على قوة السلاح · الرئاسة السياسية كانت دوما للقواد فى الجيش · وطريق الجند كان أقرب الطرق الى السلطة · السيف والسياسة متلازمان فان تحولت الرئاسة الى وراثة أسرية كما فى العهد العثمانى فان الولايات المختلفة والاعمال كانت من حولها وعلى الدوام للقادة العسكريين الذين كانوا يحملون تارة لقب نائب وتارة لقب باشا ... حتى طبقة المماليك وهم متعددو الاجناس . لم يكن تجمعهم الا عصبية السلاح والاشتراك فى استغلال الرعية الكادحة · وكثيرا ما كانوا أشبه بعصابات من اللصوص تشحذ الرعية منهم العطف شحاذة وتستجير أحيانا على الطرقات لتخفيف المغارم والضرائب والعدوان على الناس ·

(6) لا بد هنا من استثناء منطقة المغرب الاقصى خاصة من هذا التعميم غير انها وان كان لها تطورها الخاص بالنسبة للاسر الحاكمة وخاصة العلوية والاخيرة الا انها تندرج من حيث النتيجة ومن حيث التقاء هذه الاسرة الحاكمة مع الطبقات الاقطاعية والتجارية والعلمية خلال القرون الماضية ، ضمن هذا التحليل نفسه ·

أما طبقة الاسر المحلية فانما نسميها كذلك تجوزا لانها خليط متنوع من بقايا الطبقات الوافدة فى الغالب : العسكرية والتجارية المتنقلة والموظفين الدين اغتنوا أو المتمولين والاشراف ٠٠ ومراكز هذه الاسر انما كانت فى المدن حيث يقوم مركز الثقل السياسى ٠ وكانت تجد فى تحالفها مع الطبقة العسكرية سلاح الحماية لمصالحها فى الاقطاع الزراعى والرعوى الواسع أو فى حماية التجارات والاموال والعقار ٠ وبالرغم من انها كانت احيانا تنكب او تنهب من قبل الطبقة العسكرية الا انها كانت تجد فى الخضوع لها عن رغبة أو رهبة سبيل ضمان العيش الغنى الهادىء وتجد فى الحصول على « الامن » تعويضا كافيا عن ترك السياسة لاربابها ٠٠

وأما طبقة « رجال » العلم « الدينى فهم مجموعة تمتد من القضاة والمفتين الى خطباء الجوامع بما فى ذلك رجال الطرق الصوفية على اختلافها وكانت وظيفتهم افراز القيم والافكار التى تخدر الطبقات المستغلة وتعطى التغطية الكافية للطبقات الحاكمة (بشكلها العسكرى والاقطاعى التجارى) أفكار القناعة ــ والتسليم ــ والرضى بالمقسوم ــ واطيعوا ٠٠ أولى الامر منكم ٠ « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » ونرفع درجات من نشاء ،ويرزق من يشاء بغير حساب » ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء » هى وحدها دون غيرها القيم والشعارات التى اختيرت من اوامر الدين ونواهيه ٠ ويتبع ذلك تلك الامثال والتعليمات الاجتماعية التى سربت الى الناس : اليد التى لا تقدر عليها ٠ قبلها وادع عليها بالكسر وأى من اخذ امى صار عمى ٠٠ نوم الظلام رحمة ٠ يوم الحكومة بسنة وسنتها لا تتدبر ٠ ظلم بالسوية عدل بالرعية ٠٠ انها التراث السياسى الذى ما يزال قائما فى النفوس كأساس للعلاقة بين الحاكم العربى و « الرعية » وكما كان الحكم وراثيا والتجارة والاقطاع على الوارثة كذلك تحولت فى القرون الاخيرة مجموعة رجال العلم الى أسر تتوارث المناصب الدينية فى شبه احتكار وتنهب بدورها موارد الاوقاف الكثيرة ٠

وأساليب الحكم انما كان نتيجة هذا الوضع التسلطى الاستغلالى المنظم فلما كان الهدف الاساسى للحاكم هو البقاء فى الحكم اطول مدة يستطيعها فقد كان الاسلوبان الوحيدان المواتيان والمكملان لمثل هذه الاوضاع هما : الاستبداد والسلطة المطلقة من جهة وسياسة القمع بالقوة والقهر من جهة اخرى الحرية الوحيدة المتاحة هى حرية الحاكم وأعوانه فى التصرف لا بأموال الناس وبالحقوق والفكر وتفسير الدين ولكن بالحياة نفسها ايضا ٠ الحكم نفسه كان فرديا ، ولئن كان يحمل الصفة الاسلامية ، الا انه لم يكن يصدر عن مبادىء الاسلام فى الشورى والعدل ولكن عن

اهواء المتسلطين . والعلاقات فى هرم السلطـــة كانت مع من هم أعلى ، عـــلاقة الرشوة والنفاق والزلفى ومع من هم أدنى علاقة استعباد وابتزاز .وما هذه بالضبط الا تتمة تلك فى علاقات الصعود والنــــزول .

وربما استطعنا أن نلحق بالطبقات الحاكمة « ذيلا » تابعا لها هو الطبقة البوروقراطية التى كانت أشبه بكاتمة أسرار الحكم بيديها الاتصال بالكبراء والحكام وبيديها أسرار ومراسلات الدولة وسجلاتها وجـــداول الضرائب وأحكام القضاة والمفتين . ميزتها التى تكسب بها الخبز والرزق انها تقرأ وجمهرة الناس أميون وأنها تشكل طبقة حاكمة وسيطة والنـــــاس كل الناس على الرهبة والرجاء من الحكام . « التحصلدار » و « اليازجى » هما مع العسكرى نجوم المجتمع الادنى والوجـــه المباشر لحكامه .

واما الشعب المحكوم فكانت علاقاته مع الطبقات الحاكمة علاقات انفصام وانكماش ذاتى . نوع من القطيعة الكاملة كانت قائمة بين الطرفين فيها الحذر (مقابل النهب) والكره (مقابل الاحتقار) والتدبر الفردى (مقابل الاهمال) . توطدت لدى الطبقات التحتية مع الايام عقد من المشاعر المستقرة اعطتها الظروف وتقلب الحكام وحكم السيف ألف مبرر منها . الشعور بالعجز والخنوع والهـرب من المسؤولية . ورفض التعاون مـع الحكومة . وتحليل سرقتها : اموال « الميرى حلال » والهرب من دفع الضرائب . التى كثير ما كانت تسمى . « مظالمات » حتى المجرمون كان من العيب اخبار الحكومة عنهم وفى بعض البقاع الريفية كان مـن العيب دفع الضريبة طوعا دون ان يسبقها «قتلة» تبرر الدفع ... « ابن الحكومة » كانت لا تختلف صورته عن أى عدو . المواقف منه تتسم بكافة ردود الفعل التى تبدر تجاه الاعداء . وكان من شأن الظلم المستمر اكثر من ألف عام ان ترك فى قرارات النفوس نوعا من التناثر . فتت مشاعر الانتماء والترابط القومى والـــولاء وحولها الى مشاعر انانية انكماشية ذاتية . الانسحاق تحت وطأة الظلم المتمادى حول الشعوب العربية رغم عوامل الاندماج والتقارب فيها الى ذرات من الرمل . واذا كان هذا الحال هو الذى لم يسمح لها ان تكون كتلة من القوة الصخرية المتماسكة فانه هو نفسه الذى سمح للولاءات القبلية والطائفيـــة والمذهبية والمحلية ان تنمو . وسمح للوجاهات الفردية المحدودة ان تبرز . كان كل ذلك شكلا من اشكال الدفاع عن الذات . حتى عصبيـــات السلاح ما بين انكشارية مثلا وسباهية وخاصكية كانت نامية متحركة وحتى رابطة الحى الواحـد كانت قائمة . واما الوجاهات فكانت اشبه بخشبة

النجاة ٠٠٠ أى اصطدام من السلطـــة كانت الوجاهات هى الوسيط لحله لا القانون ولا مبادىء العدل والدين ٠

واذا نحن اهملنا الضربات الاستعمارية الغربية الاولى للعرب ايام الاسبان والبرتغاليـين ومطالع التغلغل الانجليزى والتى لم يكن مـــن شانها سوى عزل المنطقة العربية عن العالم ، فقد فاجأ الاستعمار الحديث بلاد العرب منذ مطالـع القرن التاسع عشر بالهجوم الاحتلالى ثم ابتلعها قطعة قطعة حتى مطالع القرن الحالى فلم يبق خارج سلطته سوى الكتلة الوسطى من الجزيرة العربية٠

وكان من نتائج الوجود الاستعمارى وعمله فيما يتعلق بالتكوين السياسى العربى امران :

الاول : استغلال الاوضاع القائمة لمصلحته وهكذا فانه بعد ان حل محل الطبقة العسكرية الحاكمة واضعا بدلا منها « طاقماً » من عسكريته تحالف مع الطبقات المستغلة الاخرى (مـــن اقطاعية وتجارية ودينية) ٠ واذا ولد من هـــذا التحالف بنتيجة الاحتكاك مع الغرب والاخـــذ بمبادئه السياسية طبقة بورجوازية فى البـــلاد العربية بدأ يظهر وجودها واثرها منذ أواخـر القرن الماضى ثم ما لبثت ان حمل قسم منها راية العمل ضد الاستعمار حتى تحقـق جـــلاؤه فى الخمسينات والستينات فان هـذه الطبقة الــتى كثيرا ما تحولت (كما فى مصر والمغرب) الى طبقة رأسمالية لم تولد ولادة مثيلتها الغربية ولكنهـا كانت الشكل الجديد لتلك الطبقات المستغلـــة القديمة ٠ صراع التناقضات وحلها فى المجتمعات العربية الحديثة انما تم بالتدخل المباشر مـــن القوى الاجنبية الخارجيـــة الاستعمارية وتحـت رعايتها مما حفظ لدى الحكـــام اساليب خنـق الحريات والاستبداد والاستغلال القديمة من جهة وحفظ فى الوقت نفسه ردود الفعل الانفصاميـة الرافضة لدى طبقات الشعب من الجهة الاخرى ومن هنا ذلك الازدواج المتنافـــر ما بـــين مبـادىء الديمقراطية والحكم البرلمانى وبين تطبيقاتها فى البلاد العربية ومن هنا ايضا ذلك الفهم الازور لحقوق المواطن دون واجباته ومطالبـــة الشعـب للحكومة بكل شىء دون التعاون معها ٠

الثانى : ادخال التجزئية الاقليمية والمنطق الاقليمى الى بلاد العرب ٠ الحدود بين اقاليم العرب انما الاستعمار هو الذى وضعها جميعا ٠ مضيفا بذلك مشكلة جديدة الى التكوين السياسى ٠ ما من حد فى بلاد العرب على الاطلاق ، سواء فيما بين بعضها بعضا او فيما بينها وبين البلاد المجاورة

وضعه عربي أو اشترك فيه عربي (7) . حتى الاستعمار الواحد فرض التجزئية السياسية على الاقاليم التي دخلها فجعلها وحدات شتى (كما جرى في سورية ولبنان والمغرب بالنسبة لفرنسا وفي العراق وفلسطين والاردن ومصر والسودان بالنسبة لانكلترا) . واذا كان السبب المباشر في ذلك مقاومة فكرة الوحدة العربية التي بدأت تظهر في بلاد العرب فقد كان من نتائجه المباشرة ايضا ان تحولت هذه الحدود الى مسلمات بديهية لدى الشعوب العربية . بعد ان مضى حتى الآن ما بين قرن الى خمسين سنة . وظهرت على اساس ذلك مصالح اقليمية متنافرة . ومنطق اقليمي مبرر وكيانات اقليمية بقيت بعد ذهاب الاستعمار نفسه قائمة .. ولئن استند بعضها الى الاثريات والتاريخ الاقدم أو الى اللغات المحلية المندثرة او حتى اللهجات العامة فان ما ثبت اسسها هو تلك المصالح الاقتصادية الطبقية التي ربطت بها والتي سميت احيانا كثيرة بالاقتصاد الوطني . وقد توطدت هذه الحدود الاستعمارية للدرجة التي وجدنا حروبا (كما بين الجزائر والمغرب) وشكاوى الى مجلس الامن (كما بين مصر والسودان) وتعديات عسكرية (كما بين الاردن وسورية أو بين اليمن الشمالي والجنوبي) متبادلة تتم بين البلاد العربية الواحدة ولا تستنكف الآن اية دولة عن الاحتماء وراء المصالح الاقليمية في مباحثاتها مع الدول الشقيقة سواء تعلق الامر بمشروع مياه (كسد الفرات وقصته بين سورية والعراق) أو تعلق بتحديد نقاط الحدود (كما بين الكويت والعراق ، أو اليمنين) أو بتثمير مالي (كما بين السعودية وسورية) أو هجرة عمال (كما بين سورية ولبنان أو بين مصر وليبيا) ... ان بعض دول العرب (كما في الخليج) مغلقة على ابناء البلاد العربية حتى للزيارة .

فاذا كانت الظاهرات الاساسية في الحكم بالبلاد العربية ، منذ بدء الاستقلالات في ختام الحرب العالمية الثانية الى اليوم هي تناقص قيمة الانسان العربي باستمرار كانسان وانهزام القانون وسيطرة السلاح والعسكريين على السلطة حتى باسم الثورية وكان الاسلوب السائد في كل مكان هو الاستبداد ودروس الحريات وتوحيد مفهومي السلطة والوطنية بحيث تكون « معارضة السلطة » تعني الخيانة الوطنية ، وكانت الحرية الوحيدة المعقولة هي حرية الحاكم في املاء رأيه والخيار الوحيد المتاح هو بين الخنوع أو السجن أو الرحيل وكانت ثمة قطيعة شبه كاملة بين فئات

---

(7) لا يشذ عن هذا الا الحدود التي وضعت بين السعودية واليمن بعد حرب 1934 .

الحكام والطبقات المستغلة المتحالفة معها وبين الشعوب التى تتخذ الاكثرية الصامتة فيها الموقف السلبى او تنساق قطاعات منها مع النفاق السياسى فى التصفيق لكل حاكم جديد وشتيمة كل حاكم سابق . اذا كانت الظاهرات الاساسية هى هذه وكانت الاشتراكية التى دخلت على بعض الدول والتى تقوم فى الاساس على التخطيط والعلم وحب الانسان والعطاء والعمل المضاعف انما أقيمت عمليا على الارتجال والجهل والحقد والسلب واهمال العمل . وكانت الخطوات نحو الوحدة تتراجع وتنتكس بدلا من أن تنمو وتتوطد وكانت قوى الشعوب العربية بنتيجة ذلك كله تتناقص والثورات فيها تفشل والاستعمار يجد الركائز . اذا كان كل اولئك فلأن ثمة بين عواملها الكثيرة ورغم كونها ظاهرة من ظواهر التخلف فى العالم الثالث ، ثمة خلفية تاريخية واسعة من المعطيات الموروثة هى التى تعطى هذه الامور مرتكزاتها والتربة الصالحة لقيامها ... أليست لتربة فيما يقول الزراعيون « تقلب » بذور الاشجار المثمرة وتعيدها الى اصلها الردىء ... واذا كان نجاح الاستعمار انما يكون أولا بوجود استعداد لدى الشعوب المقلوبة له فان نجاح الديمقراطية والاشتراكية ومبادىء العصر السياسية لا يمكن ان يتم بدون وجود حد أدنى من الاستعداد لها . ان هذا الاستعداد يهبط هبة من السماء ولا يأتى بنقل النظريات والشعارات عفوا وتقليدا ولكن تكسبه الشعوب بالنضال الطويل وتدفع غالبا ثمنه فى تاريخها نفسه .

ولعلنا مضطرون قبل طى هذه النقطة من البحث ان نشير الى اشكاله سياسية ذات جذور عريقة فى التاريخ السياسى العربى هى التصاق الدولة بالدين والدين بالدولة منذ ظهور الدولة الاسلامية الاولى فى عهد الرسالة . لا فصل بين الطرفين فى المفهوم الاسلامى لان الاسلام دين ودنيا واذا كانت الفرق الدينية المتناحرة حول الخلافة وغيرها فى التاريخ الاسلامى انما تمثل احزابا سياسية ، وكانت هذه الفرق ــ الاحزاب فى بعض الاحيان اساس نشوء عدد من الدول ، كالادارسة والفاطمية والرستمية وامامة عمان وقرمطية البحرين وزيدية اليمن فان هذه الظاهرة ما تزال قائمة الى اليوم وقد كان من نتائجها فى العصر الحديث مثلا ظهور الدولة السعودية على اساس الحركة الوهابية والمملكة الليبية على أساس الحركة الادريسية وقيام بعض الحركات الاسلامية السياسية فى اطار الاهداف ذاتها (كحركة الاخوان المسلمين ، وحزب التحرير الاسلامى .. الخ) .

وبعيدا عن ان يكون الهدف من هذه الملاحظة شجب أو تأييد لقاء الدين بالدولة فان هـــذا التراث التاريخى الطـــويل من اللقاء والتوحـد قد ترك امام الدولة العربية الحديثة ثغرة لا بد من ردمها بمحاولات توفيقية قد تنجح أو تفشل لا على المستوى التشريعى القانونى فحسب ولكن عـلى مستوى الممارسة السياسية ايضا وأقام ألوانامن العقبات والازمات فى وجه عوامل التحديث السياسى ·

3 ـ تاريخية العلاقات الاجتماعية :

ولعل التاريخ لا يمكن ويتجذر فى شيء قدركمونه وتجذره فى العلاقات الاجتماعية · المجتمع فى العميق العميق من الطوايا هو الذى يحتضن اكثر من غيره رواسب التاريخ وتأثيراته الباقية وجروحه ··· ومن هنا كانت المقاومة الاجتماعية للتغير أشرس المقاومات واقساها واكثرها تعقيدا· ولعلنا فى نوع من التبسيط ولملمة الملامـح ، نستطيع ان نرى الابعاد التاريخية فى التخلف الاجتماعى العربى ، من خلال ثلاث زوايا تكـون بدورها وحدة متكاملة :

1 ـ علاقات الاسرة : النظام الابوى · الجنس والمرأة ·

2 ـ التركيب الاجتماعى واطارات الانتماء : العائلة والعشائرية والطائفية ·

3 ـ القيم الاجتماعية : نظام القيم السلبى (الممنوع) · الاسس السكونية (القمع والعجز) مفهوم الشرف الجسدى · عقدة النقص امام الغرب ·

1 ـ الاسرة والنظام الابوى والجنس :

اذا كان التكوين البنيوى للمجتمع العربى يقوم كما فى الكثير من المجتمعات الاخرى عـــلى الاسرة ، الحجيرة الاولى · فان هذه الاسرة تتعرض اليوم الى ما نستطيع ان نسميه بالانسحاق أو التفتت بعد وضع من التكلس دام اكثر من اثنى عشر قرنا على الاقل · ان تاريخ الاسرة فى المجتمع العربى · وان كان يرقى الى ما قبل الاسلام بكثير فانها انما اخذت ملامحها المحدودة ، منذ العصر العباسى الثانى بعد ان توطدت خليطة المجتمـع الاسلامى واستقرت مختلف المفاهيم الطبقيـــة والدينية والاقتصادية والفكرية فيه وبعد ان ثبت نظام القيم ···

ان الآلام التى تتسم بها علاقات الجيل الجديد بالجيل السابق اليوم انما تنجم لا عن ذلك التباين فى النظرة الى الحياة والوجود والقيـــم فقط ولكن ايضا عن قسوة القشرة التاريخية التى

تفوقعت داخلها تلك العلاقات فى القرون السابقة. واذا جاز لنا ان نعطى هذه العلاقات فى القديم اسم النظام الابوى فيجب ان نسرع الى القول ان هذا الشكل منها انما هو جزء متمم ومتساوق مع النظام الاجتماعى ـ السياسى العام الذى يقوم بدوره على الاستبداد ٠ ويمثل الاب فى البيت صورة مصغرة عن الحاكم السياسى الاستبدادى ويمهد له اذ يخضع الطفل فى نظام التربيـة التقليدى الذى ما زال شائعا حتى فى المدن العربية المتطورة لسلسلة من قوى « الاخضاع » المستمرة ، ادواتها العقاب الجسدى و « العيب » والاستهزاء من الناحية النفسية والتلقين والتعليم التقليدى من الناحية الفكرية ٠ النموذج الاجتماعى الاعلى الذى ظل مطلوبا ومطبقا عدة قرون هـو نموذج Conformist الذى ينشأ لا على صورة ابيه الجسدية فقط ولكن على صورته الفكرية ايضا وعلى وظيفته الاجتماعية الاقتصادية ٠٠ المجتمع قرر ان يكرر نفسه لانه اقتنع خلال العصور السابقة الطويلة بانه بعد ان وصل الى معرفة المثل الاعلى للانسان المسلم فى عصر الرسول والصحابة ، لم تبق له الا ممارسة ذلك المثل بالتقليد والتكرار ... وقد ربط ذلك بالمفاهيم الدينية وبالجزاء الاخـروى زيادة فى توطيد التقليد وفى احاطته بالتقدمية والتسليم ٠٠ فبلاد الاسلام كلها تحولت من بعد جغرافى ، فى وجدان المسلمين ، الى بعد مقدس ٠كل صور الحياة فيها فانما هى بارادة المجتمـع نموذج واحد مكرر ٠٠ ونتيجة لذلك فقد ثبتت وتوطدت العادات والتقاليـد الاجتماعيـة حتى الأسن والتعفن ٠٠٠ اضحت نوعا من الطبيعـة الثانية للناس ٠ وصار من الصعب التخلى بسهولة عنها أو المساس بها واضحت جريرة التخلى عـن بعضها اشبه فى العرف العام بالخرق لامر دينى ٠

ولازم هذا النوع من التربية التقليدية القاء حجاب كشف على الحياة الجنسية ردها الى خلفيات الشعور والى دنيا المحرمات ٠ اخضعها بدورها للقهر والقمع حتى اضحت نوعا مـن الاسرار وعوامل الخجل ٠ الكبت الجنسى حالة شائعة لها ألف صورة وألف جريمة وألف عقدة وعقدة فى المجتمعات التى نعيش ٠ ولما كان الجنس مرتبطا بالمرأة فقد دفعت هذه بدورها الى المرتبة الانسانية الثانية وقرونا طويلة ولئن فرض عليها الحجاب فقد كان الحجاب اخف اثقالها فى الواقع لان نوع العلاقة التى كان يربط البنت بابيها أو باخيها أو بزوجها أو بابنها كانت دوما تقوم على أساس التبعية المطلقة ان لم نقل العبودية ٠ والمجتمع العربى رغم ما اصابه من عوامـل التغير ، فى العلاقة مع المراة بالذات ، وفى مفهـوم الجنس ما يزال ، تحت وطاة هذا التاريخ الطويل ، يضع نصفه المؤنث خارج نطاق المجتمع والحياة والانتاج باستثناء بعض المدن ٠٠٠ تخلف المراة العربية

لم يأتها من عقمها الاقتصادى خلال التاريخ فلقدكان اقتصاد البيت والعمل فى الحقل دوما من اعمالها بل لعلها ـ لو لا الغزو ـ هى المنتج الاقتصادى الوحيد فى الحياة البدوية ولكن انما جاء تخلفها من ضعفها الجسدى امام القوة • ومن ارتباطها بالجنس • حولها الضعف الى خادم وحولها الجنس الى أداة متعة • نموذج « الجارية » بمعنى الخدمة والمتعة كان النموذج الذى يصور المرأة العربية عبر القرون الاخيرة . ألسنا نرى الى هذا النموذج الموروث من التاريخ الوسيط ما يزال يسعى بيننا فى منازلنا العربية ••• وان شئت ان تراه أوضح ما تراه فانظر المرأة فى الريف وانظر الى وظيفتها فى بعض البقاع العربية البادئة فى التطور •••

2 ـ التركيب الاجتماعى واطارات الانتماء التقليدية :

غياب السلطة السياسية كنظام أمن وقانون وخدمة ، وتسلط القوة العسكرية الغربية على الناس واستمرار الاستبداد والظلم والبؤس الاجتماعى قرونا بعد قرون بحيث أصبح المثل الاعلى للحاكم هو الحاكم العادل . كل اولئك أسهم فى انكماش الفرد العربى ضمن قوقعته الذاتية أشعره بعزلته أمام مصيره وبأنه أعزل امام القهر الحياتى الذى يكاد ـ لاندماجه مع مفهوم القدر الدينى ـ يصبح بديهية مقبولة وقدرا مقدورا لا مفر منه وهذا ما أوجد فيه نزعتين متناقضتين ولكنهما رغم التناقض الظاهرى فيهما متساوقتان لانهما تنبعان مع منبع واحد هو غريزة الدفاع عن النفس • وقد جعلها الاستمرار التاريخى نوعا من الطبائع الاجتماعية المستقرة :

ـ فردية عمياء هدفها توكيد الذات لعدم الثقة بها وقد تصل الانسانية فيها درجة الاهمال الكامل لمصلحة الآخرين وللمصلحة العامة كما تصل درجة النفاق والرياء المخزى أمام القوى المسيطرة ، والانحناء للعواطف التماسا للخلاص •

ـ نزعة جماعة دفاعية بدورها أوجدت ووطدت ضمن المجتمع العربى التقليدى خلال القرون السابقة تجمعات يهرب اليها الفرد العربى لاجئا فى الازمات ومراكز قوة يستند اليها فى الدفاع عن ذاته وفى الانتصار على مصيره الا عزل وطبيعى أن تكون الاسرة . وهى الحجرة ـ الركيزة فى المجتمع هى الملجأ الاول لا سيما حين تكبر لتصبح عشيرة واسعة . ولم تكن الاسرة فى بعض الاحيان بالكافية فى الدفاع . فكان الفرد يضيف اليها الالتفاف حول المذهب الدينى أو الاحتماء وراء أسوار الطائفة المذهبية ، أو حتى الجماعة الحرفية أو القرية أو الحى فى المدينة .

وهكذا بينما كانت النزعة الفردية تفتت المجتمع العربى، وتحوله الى اكوام من الرمل البشرى المبعثر كانت الحاجة الملحة الى الأمن والاطمئنان تعود فتجمعه على ألوان من التجمع المحلى والاناني . وكما ظهر النظام الاقطاعى الاوروبى منذ القرنين التاسع والعاشر كنوع من الدفاع السياسى والاجتماعى أمام هجمات الفايكنغ الشماليين كذلك فان رد الفعل فى المجتمع العربى الاسلامى تجاه الضعف السياسى والتمزق المتمادى انما كان (بسبب ظروفه الديدنية والجغرافية وحضارته المادية وافكرية وتكوينه التاريخى) بظهور وابراز خشبتى نجاة يلجأ اليهما الفرد هما : العشائرية والطائفية . واذا كان المد البدوى الذى عاود السيطرة على المناطق الزراعية فى بلاد العرب أيام العثمانيين هو الذى أعاد العشائرية كنظام اجتماعى وعقلية سياسية الى النمو والسيطرة فى الريف فان الطائفية بدورها والعائلية الواسعة (الشبيهة بالعشائرية وان كانت نواتها وكانت أضيق منها) هما اللتان سيطرتا بالمقابل فى المراكز المدنيه . ومقابل (اخوة السلاح ـ الخشداشية) عند الطبقة الحاكمة العسكرية نمت العائلية الواسعة لدى الطبقات المستغلة (الاقطاعية والتجارية والعلمية) ونمت الرابطة المذهبية أيضا (فى اطار المذاهب الاسلامية أو فرق التصوف كالمولوية والبكتاشية والسنوسية .. أما لدى الفرق الاسلامية أو الفرق من الديانات الاخرى (المسيحية واليهودية) فقد اضحت رابطة الطائفة الدينية مؤسسة جماعية كبرى وأساسية بجانب كونها علاقة دينية ، وهذه الطائفة التى كانت تسمح خاصة للطبقات الشعبية المسحوقة ان ترتبط بمراكز القوة والحماية كانت فى الوقت نفسه تضع هذه الطبقات تحت تصرف وقيد استغلال الرؤساء الدينيين على اختلافهم ، نوع مما نستطيع ان نسميه تبادل المصالح والتساند فى الدفاع . وقد لعبت التدخلات الاوروبية خاصة دورها الكبير خلال الحكم العثمانى فى دعم ما يسمى بروح الجماعة Esprit de corps ضمن الطوائف الدينية المسيحية خاصة ولدى بعض الطوائف المسلمة أيضا .

وقد كانت ثمة تجمعات دفاعية اخرى محدودة السعة من حرفية تربط بين أبناء الحرفة الواحدة أو عصبية بين أبناء الحى الواحد فى المدن أو ابناء القرية ضد القرى الاخرى لكنها كانت تجمعات أقل فاعلية وأثرا فى العملية الاجتماعية الدفاعية لان من السهل زوالها بتغيير الحرفة أو بتغيير مكان السكن وكثيرا ما كانت تعود فتنطبق على القطبين الاولين : العشائرى والطائفى مما نستطيع معه القول بصورة عامة ان الانتماء الاجتماعى وان الولاء انما أخذا ضمن الجماعة العربية ، خلال

عدة قرون ، وحتى مطالع القرن الحالى شكلتين محورين لا علاقة لهما لا بالارض ولا بالجماعة الواسعة : ولكنهما تساوقا فى الوجود التاريخى ووجدا فى وقت معا :

ـ عصبية القربى والنسب والرابطة الدموية المتمثلة فى القبائل والعشائر (الحمولات) فى البادية والريف والعائلة الكبيرة فى المدن ·

ـ عصبية الدين والطائفية المتمثلة فى المذهب الدينى الضيق بالنسبة للاقليات الدينية خاصة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة ·

بأما الرابطة التى تربط هذه المجموعات بعضها مع بعض ضمن الاطار الاوسع وتجعل منها المجتمع العربى الاسلامى (المملوكى أوالعثمانى) فلم تكن أكثر من رابطة المساكنة أو الاشتراك فى سكنى منطقة أو مدينة واحدة وكانت رابطة سكونية لا تسمح بأى تفاعل لا مع الارض ولا مع البشر الذين عليها · المجتمع نفسه بسبب من انغلاقه السياسى والاقتصادى كان قد تحول فى علاقاته الى الهمود والركود فلم يسمح بقيام علاقه بين المجتمع ككل وبين الارض (وطنية) من جهة ولا بين المجموعات البشرية فيه بعضها مع بعض (قومية) لتندمج فى كتلة اجتماعية ايجابية من جهة أخرى ·

وحين هبت رياح القومية من اوروبا أواخر القرن الماضى على بلاد العرب حاول رجال النهضة العربية القفز من العشائرية والقبلية أو التوسع بهما واغراقهما فى القومية الواسعة وظهر مفهوم الامة العربية والعروبة · وبالرغم من أن هذا المفهوم قد حاول فى المشرق العربى أن ينفصل عن مفهوم الاسلام بسبب من تواقته فى الظهور مع القومية الطورانية التركية المسلمة وقيام العداء بين القوميتين ، الا أنه لم يجد مثل هذا التحدى فى المغرب العربى لان المستعمر كان مسيحيا فلم ينفصل المفهومان هناك أحدهما عن الآخر فالعروبة هناك هى الوجه الآخر الحديث للاسلام . هما وجهان لعملة واحدة ·

أما مصر بين الطرفين فقد كانت بسبب عراقة تاريخها الخاص وتفردها بالسبق فى النهضة تدفع الولاء الاجتماعى فيها فى اطار تطورها الذاتى فهو مصرى اقليمى فان توسع شمل وادى النيل ·

وعلى أى حال فان هذه المفاهيم ذات الطابع السياسى لم تستطع أن تأخذ أبعادها الديناميكية فى اليقضة القومية لانها لم تجد فى الخلفية السيكو ـ اجتماعية للشعوب العربية قاعدة اجتماعية

موحدة صلبة تستند اليها · تنزلت في المشرق العربى فوق قاعدة مقسمة الولاء بين العشائرية والطائفية واصطبغت أحيانا كثيرة بصبغتها وقاست من عقابيلها بينما تنزلت في المغرب العربى فوق قاعدة إسلامية تقليدية فحملت بصورة آلية كل ارث الماضى ورواسبه الميتة · وضلت في مصر بين هذا وذاك فلا هى هضمت القومية العربية كمنطق ديناميكى (اجتماعى سياسى) للنهضة ولا أعطت الاسلام منطلقا جديدا ولا تجاوزت الاقليمية الى أفق أوسع · وبالمقابل فان الافكار الحديثة في الديمقراطية والتحرر والمساواة وحقوق الانسان لم تستطع أن تستقر وتتوطد وتعطى ثمارها فى اعادة التكوين الاجتماعى لان مفهوم القانون نفسه ظل قلقا يصطدم بالولاءات الاجتماعية الموروثة ويصطرع معها وقد يتراجع أمام الانتماءات العشائرية والطائفية ·

ثم ان علاقتنا بالغرب صاحب هذه الافكار كانت على الدوام علاقة مأسوية · واذا كان هدفه على الدوام قهرنا فقد أورثنا هذا القهر الكثير من العقد السيكو ـ اجتماعية : كالتقزم أمام قوته ومركبات النقص والهرب للماضى والتمسك الاعمى بالتراث أو بالعكس أو التقليد الاعمى للغرب فى الوقت الذى كان فيه هذا الغرب الاستعمارى يستغل باستمرار الانقسامات الطائفية ويغذى الولاءات العشائرية ويقيم على هذه وتلك استراتيجيته فى البقاء ويتعمد بشكل مواز للتقسيم السياسى ايجاد نزعات اقليمية محلية (فينيقية فرعونية قومية سورية ـ بربرية ···) يصرف الى مساربها الضيقة ذلك الولاء القومى العربى الاوسع الذى أخذ ينمو باطراد · كما يغذى ويوقد الصراع بين مفهومى العروبة والاسلام ··· وهكذا بينما كانت الخلفيات الاجتماعية التاريخية تلعب دورها السلبى باستمرار فى عرقلة قيام تكوين اجتماعى عربى معاصر واضح الولاء والانتماء الى الارض (الوطنية) أو الى الجماعة (القومية) واضح العلاقة والصلة الوطيدة بين العروبة والاسلام كانت العملية الاستعمارية بالمقابل تسعى للحفاظ على الواقع الاجتماعى القديم وعلى انتماءاته التقليدية لاستغلالها الكامل ··· وليس من الاسرار أن المجتمع العربى اليوم يعانى فى العديد من بقاعه كلبنان مثلا وسورية ومصر من المشكلة الطائفية كما يعانى فى العراق مثلا والجزيرة العربية والمغرب العربى من المشكلة القبلية ـ العشائرية ويعانى هنا وهناك على السواء من مشكلة مصطنعة هى الانتماء الدينى (للاسلام) أو القومى (للعروبة) أو من مشكلة التخلص والتجاوز لما لحق الاسلام من رواسب اجتماعية جمدت على جباه اصحابه كل قدرة خلاقة ·

3 ـ القيم الاجتماعية :

اذا انتهى المجتمع العربى الاسلامى خلال عدة قرون الى ان يتحول الى مجتمع راكد , المحافظة هى همه الاول ، فمن سمات المجتمعات المحافظة ان نظام القيم فيها انما يقوم على أساسين :

الأول : انه نظام خارجى , أو قبلى لا تنبع القيم فيه من الذات الداخلية, من حاجتها وقناعاتها وآلامها ولكن تتحدر من عل وقد تتصل بأوامر الدين ونواهيه • انها اذن ليست أرضية ـ وان كان اهل الارض هم الذين صاغوا معظم قوالبها وحدودها ـ ولكنها علوية غيبية الحكمة , وليست ذاتية المنطلق ولكنها خارجية مفروضة من عالم الغيب على عالم الشهادة •

الثانى : ان المنطلق الرئيسى فيها هو « الممنوع » لا المسموح • تقوم على أساس قاعدة السلب لا الايجاب • ال « لا » هى المنطلق فيها وقد تتقدس ال « لا » وتكبر لتدخل منطقة الدين و « الحرام » فهى عند ذلك أمر مقدس , تكرسه الجماعة جزءا من متممات الدين , وان تكن أسسه فى بعض الاحيان اجتماعية بحتة • انهم لا يعدمون الوسيلة لربطه بالنظام الدينى حفاظا على سكونية المجتمع ••• ان جذور هذه ال « لا » انما نبعت من جدلية الصراع الطويل الذى قام بين الفرد العربى والمجتمع فاذا كان طول عهود الضغط والظلم السياسى والقهر الاجتماعى والكبت الجنسى والقيود والروابط خلال القرون المتتالية قد جعلت الفرد العربى ذا طبيعة كلبية ابيقورية ومكيافيلية فى وقت معا , أنمت الانا فيه حتى ملأت كل الاطار أمام عينيه فهو لا يرى غير ذاته ومصلحته الضيقة وريبيته الحذرة , فان الجماعة بالمقابل عرفت كيف تضغط هذه « الانا » المتورمة المتضخمة التضخم المرضى، وتعيدها الى قمقم العجز والصغار عن طريق نظم القيم القمعى الحرمانى • وجدلية الصراع بين الطرفين فهى نفسها التى شكلت بعد هذا أسس القيم الاجتماعية العربية عبر السنين وهى أسس سكونية كلها أخذت شكل الامثال والحكم الدارجة وقد تستعين بآى القرآن ويمكن أن نرى ملامحها فى عدة وجوه •

ـ القناعة المادية والرضى : فالقناعة كنز لا يفنى والرزق مقسوم ولا تتطلع لأعلى منك تتعب •

ـ التسليم بالواقع : ويدخلون ها هنا ارادة الله ليعطوا التسليم شكل الايمان الدينى • وهكذا يصبح الفقر من أمر الله , والظلم فى الارض عقوبة الهية على الفساد , والتقليد الاجتماعى قمة الكمال وأقصى التطلع الدينى •

ـ الشعور بالعجز : فالعين لا تقاوم المخرز وصغر الانسان امام الله يسحبونه على الصغر أمام الحاكم ٠

ـ الهرب من المسؤولية على طريقة لا تنم بين القبور ولا تر المنامات الوحشية ٠ ألسنا نلقى بكل أوزارنا الخلقية على الشيطان وبكل أسباب تخلفنا وهزائمنا على الاستعمار ؟

ـ الاتكالية : فرزقكم ياتيكم وما توعدون ٠ولا تفكرفالله يدبر ٠ والناس ليس بيدهاشيء ٠٠٠ ويستنتجون من ذلك أن لا ضرورة للعمل ٠

ـ والنفاق الاجتماعى فمن يأكل من خبزالسلطان يضرب بسيفه ٠

ـ الشرف الجسدى وقد تحول مفهوم الشرف من القيم المعنوية الى الاطار الجسدى ٠ ليكون حارسا للكبت الجنسى ٠٠٠ وبالاضافة الى الوازع الدينى فقد ربط الشرف ، وهو القيمة الاجتماعية الكبرى ، بأدنى ما فى الجسد ليكون أحد عوامل القمع الاجتماعى من جهة وليكون فى الوقت نفسه عاملا من عوامل الحفاظ على الانقسام الاجتماعى الدموى القبلى ٠

وبالرغم من أن هذه القيم المخيلفة كانت فى الاصل حاجة حياتية لاقامة التوازن فى الحياة العربية الناشطة المتفجرة ، كانت نوعا من الصبر على الشدائد ومن الترضية الايمانية ومن المعونة الخلقية السامية ومن الحفاظ على النبل يوم كانت قيم العمل والفكر والابداع فاعلة ، ديناميكية ، حية ٠ الا انها انحطت مع فقد هذه القيم وغيابها عن الحياة العربية فى عصور الركود ، فبقيت اشبه بالقوالب الفارغة وصار الصبر استسلاما والرضى الايمانى جبرية خانعة والاستعانة بقوى الروح اتكالية وقصورا ذاتيا والنقاء الدموى عشائرية عمياء وقيما حيوانية ٠

ولقد نستطيع أن نضيف الى هذه القيم المتدهورة قيما أخرى من مثلها ولكنها عى أى حال لم تكن جميعا لتقوم بذاتها وتستمر فى البقاء لولا الركود الحياتى المكرور ولولا أن نصب بجانبها سلم من العقوبات الاجتماعية القمعية يبدأ من الاستهزاء والتخجيل وقد ينتهى بالموت (كما فى حالات خرق القيم الجنسية خاصة) ، نظام كامل من الارهاب الاجتماعى يسهر عليها وكل فرد فيه خفير ، وكل عين رقيب هذا بجانب العصا الدينية الغليظة المرفوعة بالثواب والعقاب الدينويين والاخرويين من وراء كل ذلك ٠٠٠ ان عصورا كاملة ، منذ العهود التركية الاولى الى المملوكية ثم الى العثمانية كلها أسهمت فى توطيد هذه المسلمات الاجتماعية عصرا بعد عصر نتيجة القناعة العامة

بأن المجتمع العربى الاسلامى قد عرف ذات مرة فى صدر الاسلام قمة الكمال فليس له اذن الا أن يكررها . وليس له الا أن يضع لها التفاصيل ويحيطها بالسياج المتين ·

وحين اصطدمت هذه القيم بالحضارة الغربية العدوانية كانت المفارقة من العنف بحيث أوجدت نوعا من الانفصام فى الفرد العربى · القيم التى كانت منسجمة مع معطيات عصورها اضحت متناقضة مع حاجات العصر وحفرت فى الذات العربية نوعا من المأساة قوامها التمزق بين كل ذلك التراث الاجتماعى المتكامل وبين ضرورات التفتح والتمرد الحديث ·· على الآفاق الجديدة ·

واذا كان الاستعمار الغربى قد استغل هذه القيم التقليدية جميعا فى مكيافيليته الاستثمارية ، استغل حتى معطيات الدين . فان أهم ما أضافه اليها هو عقد النقص ومشاعر الفخر أمام تحديه الحضارى واذا اختفت حدة هذه العقد والمشاعر بنجاح ثورة الجزائر فقد عادت وانكشفت جميعا اثر هزيمة العرب أمام اسرائيل 1967 حتى استردوا الثقة بأنفسهم مرة أخرى اثر حرب اكتوبر 1973 .

4 ــ المعطيات التراثية فى الفكر العربى

(الايديولوجية الفكرية ــ التعليم والتعبير اللغوى)

التساؤل الاخير هو عما فى الميدان الثقافى العربى من بضاعة تاريخية سواء فى الاسس أو فى أدوات الفكر ·

أولا : فأما فى الاسس فان منظومة الافكار التى يدور الفكر العربى فى فلكها وتشكل اسسه ومنطلقاته ليست هذا العصر بالطبع . رغم ما فيها منه وما تحمّل من طابعه · الامم لا تغير افكارها بالسرعة التى يغير بها المرء ملابسه · انها تراث من « العادات » الفكرية والطرائق تعشش فيها وتكون مع القيم الاجتماعية وطرق الانتاج ومبادىء السياسة وحدة متكاملة ·

ولعلنا نستطيع دون كبير ابتعاد عن الواقع ان ترد النسيج الاولى لمعطياتنا الفكرية التراثية الى ما بين أواخر العصر الاموى ومطالع العصر العباسى الثانى · تلك الفترة الممتدة ما بين مطالع القرن الثانى وأواخر القرن الثالث هى فترة الربيع فى العطاء الفكرى الاسلامى · فترة التفتح الآخذ المعطى · ما كان بعدها فانما كان بيادر الصيف ومواسم الثمر الناجح لقرن أو قرنين ثم كان الذبول

البطيء المتمادى عدة قـرون • العلـم الاسلامى بمختلف اسسه وطرائقه وفروعه انما فى تلك الفترة الخصبة فنحن عيال عليه الى اليوم • وعلوم الاوائل انما تعربت ، اصبحت قطعة من الثقافة العربية الاسلامية واخـذت اقصى ابعادهـا فى الفلسفة والطب والفلك والكيمياء فى تلك الفترة أيضا فلم تضف اليها القرون التالية بعد النضج من جديد •

كل ذلك التفتح الابداعى الاول ذبل بعد ذلك.لم تنقطع الحضارة ولكن ضمر الجانب الابداعى الخلاق فى الفكر.تحول الزهر ثمرا ولكن المواسم لم تأت بزهر جديد . معاناة القرآن اقتصرت على القراءات والتفسير.الحديث اقتصر على التلقين والترداد الحرفى. حتى الفقه أغلق باب الاجتهاد فيه . والفرق الدينية التى ابقت على الاجتهاد مفتوح الابواب لم تستطع أن تبدع فيه الجديد بعد أن قيدت نفسها بدورها بالقمم الاولى • النحو جمد عند مدرستى البصرة والكوفة • اللغـة ، ظـل علماؤها على ما روى • الاصمعى وأبو عبيدة عند الطبرى ظل أبا التواريخ فالباقون ذيول له واتباع • الجغرافيون كرروا ما قاله السابقون حرفا بحرف . دنيا الفلسفة وهى دنيا الفكر الحر بعد ان حاولت النفوذ من باب علم الكلام والاعتزال الى الفكرى الارحب وقعت اسيرة منطق أرسطو وحـوارية سقراط ، ثم سحقتها محاولة التوفيق بين العقل والدين . بين المعقول والمنقول • الكيمياء دارت حول حجر الفلاسفة تفتش عبثا عنه • ورثـت المشكلة عن الاغريق فلم تتنازل عنها • بطلميوس كان الامام وصاحب القول الفصل فى الفلك وان كان كثيرا ما يكذب أو ينقض • حتى الانجازات الرائعة التى قدمها العرب فى علوم الفزياء والرياضيات والفلك والنبات والطب ظلت فى حدود الحاجات العملية أول الامر ثم ما لبثت أن طمست بالاهمال والتقليد التلقينى(8) وحتى تلك العقول التى اتخذت منطلقات فكرية مباينة للاعتقاد العام كاخـوان الصفا ومفكرى المذاهب الباطنية أغرقوا انفسهم وجهودهم فى التصورات اللاهوتية التى حولتهم الى « فرق تعليمية » تصب الفكر فى القوالب والاطر الصورة والتأملية . وفكر « الجماعة » وفكر الشيعة كلاهما دخلا اطارات التلقين والاشكـال المحدودة ... وبهذا الشـكل جاءت العصـور البويهية ثم السلجوقية ثم المملوكية ــ المغولية

(8) ليس المراد من هذه الكلمات على الاطلاق انكار المساهمة الهامة التى أضافها العرب الى تراث الانسانية الفكرى خلال الحضارة العربيـة الاسلامية ولكن الاشارة فقط الى ان هـذه المساهمة لم تستمر وتتطور الى مجالات علميـة وفكرية أوسع وأعمق وان غلبة الفكر التلقينى خنقتها وقتلت المكان الذى كانت تعد به .

ثم العثمانية على ايقاع ثقافى واحد لا يتغير · كان العقل خلالها اداة ترداد لا أداة تحليل ونقد خلاق ··· ووسيلة من وسائل توطيد الواقع الفكرى و « تجذيره » لا نقده وتجاوزه الى ما وراءه الحفاظ · الفقهاء · اللغويون · الشعراء · النحويون · الكيميائيون علماء الفلك والرياضة اصحاب الفلسفة · الاطباء كلهم كانوا يعيشون على التراث السابق ويرددونه ويكررون · جعلوا همهم فى حفظ وتسجيل « سير رجال » العلم لا فى تطوير العلم · نفسه · عبثا تفتش بعد القرن الخامس عن انتاج « ابداعى » جديد , عن خلق علمى · قصارى الجهود الفكرية انما كانت فى المجتمع والتلخيص والشرح والتذييل · والاضافة ونظم المنثور · فى اعمال الاجترار · وحين جاء العصر الحديث كان صقيع العقم قد اصاب كل البراعم ···

ولسنا فى صدد تدبيج قصيدة هجاء لتلك العصور ولكنا فقط فى الوصف الموضوعى لمساراتها الفكرية التى كانت تشكل منظومة من الاسس أو ايديولوجية فكرية هى فى الوقت نفسه السبب والنتيجة معا فى التخلف الحضارى العربى وملامح هذه الايديولوجية ما تزال حية تسعى بين ظهرانينا الى اليوم وقد كانت تشكل من قبل وحدة متكاملة متساندة بعضها مع بعض من جهة ومع المواصفات الحياتية الاخرى السائدة من جهة ثانية ولقد نستطيع بيان تلك الملامح فى النقاط التالية :

١ ـ الغيبية : ان غلبة التقى على الفكر وغلبة قيم التسليم على القيم الدينية الاخرى نقلت الفكر السببى التعليلى من الارض الى السماء · ابرزت جانب الله فى الفعاليات الحياتية على حساب الانسان · وبهذا الشكل اعطت الفكر العربى , خلال التاريخ ، فرصة واسعة للكسل والعطالة ما دام بالامكان تعليل كل شيء « بعلة العلل » , القادر على كل شيء · وبدلا من التفكير فى الشيء صار يكفى التفكير الاقرب والاسهل فى ما وراء الشيء وقد انحط هذا التفكير الماورائى بالتدريج حتى اضحى باسم التقى وعمق الايمان يقبل أمورا شتى منها :

ـ ان تعطل قوانين الطبيعة بالكرامات وان يستطيع نفر من ذوى القربى الى الله ان يلعبوا بها كما يشاؤون · صارت المعجزة والخوارق ما تقبله العقلية العلمية وتسلم به ·

ـ ان تتدخل فى قوانين الطبيعة قوى غير منظورة فتحرفها أو تخرقها وان يكون بالامكان عن طريق « كلمة » سحرية تسخير هذه القوى فى ذلك · السحر والاحجبة والتمائم والتعاوذ أخذت مكانها من مسلمات الناس الفكرية فلا العقل يرفضها ولا المنطق يقف لها او يدينها ·

ـ ان تقبل الاسطورة فيكون لمكان معين اويوم محدد او شجرة او حيوان او انسان قديسات خاصة او قدرات غير محدودة • وقد خلق هـذا نوعا من الذهنية الاستلابية اشتركت فى تكريس الاوضاع الاستغلالية والسياسية التى سادت تلك العصور • وما اكثر ما انسحب التسابق الاسطورى على المواقف السياسية والاجتماعية وعلى ألوان الظلم فخدرها او علقها بمنقذ منتظر او قدرة منتقمة فوقية ••• حتى اذا انهار الظالم لسبب او لآخر او قتل المجرم كان ذلك جزاء وفاقا •

ونسرع هنا الى تسجيل ملاحظة احتياطية هامة هي، ان الفكر العربى التراثى لم يكن غيبيا كله • كان جانب العقل والفكر العلمى فى العصور الاولى ناميا وقويا ومنتجا بدوره ، ولكن الجانب الغيبى هو الذى بقى وسيطر منذ القرن الخامس خاصه • وظهر فى الجماعة الاسلامية من الصوفيين والمدنيين الغيبيين اضعاف اضعاف ما ظهر فيها من رجال العقل والبحث العلمى الذين اندثر خبرهم بالتدريج منذ العصر السلجوقى •

2 ـ التلقينية : ونقصد بها اقتصار العقل على التلقين والترديد • ان اساس هذه الخاصة انما يكمن فى التسليم للسابقين بالافضلية المطلقة وفى سيطرة الموتى على الاحياء • ان توقف الاجتهاد الفقهى مثلا لم يكن سببا فى جمود الفكر العربى الاسلامى ولكن كان نتيجة الاوضاع الفكرية العامة التى آمنت بدونية الاحياء وتفوق السلف التفوق النهائى • اعتبار عصر مضى احسن عصر ، واخلاقية سابقة اسمى اخلاق ، وفكر مضى أروع فكر ••• هذه العقلية السلفية من بديهياتها رفض التجاوز والاقتصار على التكرار والترديد والتقزم الفكرى المتمادى ••

واذا عدنا الى التاريخ وجدنا ان المعارضة السياسية الدينية هى التى بدأت رحلة التلقين والتعلم • عصمة الامام ، وعلمه بالعلم كله وضرورة اخذ هذا العلم عنه اوجدت خطا فكريا « تعليميا » بلغ اوجه يوم انشأ الفاطميون الازهر ونظموا اجهازهم الدعائى الفاطمى ادق التنظيم وسلحوه عبر الكتب والدرجات والدعاة ، بأكمل الاسلحة • وقد تنبه السلاجقة الى فاعلية هذا الجهاز الحركى والى خطره السياسى على سلطانهم السنى فقابلوه بجهاز مماثل ••• وهكذا ظهرت سلسلة المدارس التى عرفت بالنظامية والتى ما لبثت ان عمت العالم الاسلامى السنى فى كل مكان ورصدت لها الاساتذة والاوقاف لتخرج اجيالا بعد اجيال من العلماء الرسميين الذين سرعان ما تسلموا الوظائف الدينية والمدنية ايضا فى الدول الاسلامية المتتالية • ولكنهم جميعا انما كانوا يصاغون

ضمن قالب معين وتدريس مكرور محدد ٠٠٠ واذا تراجع التنظيم الدعائى الفاطمى بعــد انهيــار الفاطميين او انعزل الى بعض الانحاء البعيدة بينماسيطر خريجو المدارس السنية عبر العصور فقد انتهى هؤلاء واولئك معا الى مواقع فكرية واحدة هى مواقع المحافظة والتلقين والوقوف عند النص المسطور وما وراءه الشيخ السابق لتلميذه اللاحق

3 ـ السكونية : وقد نستطيع ان نسميها اللاتاريخية ايضا ذلك ان الفكر العربى الاسلامى بعد مرور العصور الاولى اعتبر وظل يعتبر انمرور التاريخ والزمن ليس بذى قيمة وان بالامكان اعادة الحياة الى عصر سابق فى جيل لاحق ٠٠٠مقولة الصلاح لكل زمان ومكان استقرت كمقولة اساسية من مقولات الفكر والحياة ٠ القيم التراثيةالاولى اخذت دوما صفة القيم المطلقة والماضى اضحى دائم الحضور والضغط على الحاضر٠ وبرغم معطيات التغير الملموسة ومن معايشة العلماء لها وتطويرهم حتى اللباس والقيم الاجتماعية والسياسية معها فانهم ظلوا يعتبرون تغيرهم ابتعادا نحو الاسوا عن العصر المثالى الذى يجب ان يعــاش : عصرالرسالة والصحابة ٠ تقديس ذلك العصر سطح النظرة الفكرية والغى عامل الزمن ... جعله حيا اكثر من الواقع الحى وان كان هذا الواقع بعيدا كل البعد عنه ٠٠٠ صار نوعا من القالب الاسمى تجهد العصور التالية للدخول فى اطاراته لا عن طريق المعاناة من جديد ولكن عن طريق التقليدالبحث والببغائى ايضا ، عــن طريــق الموقف السكونى ٠

ما من شك فى ان فهم التقى والايمان على النحو التسليمى هو الذى لعب الدور الاول فى هذا المجال ولكن العصور التى يسمونها بعصـــورالانحطاط منذ السلجوقى حتى المملوكى والعثمانى كانت تجد فى التعلق بذلك العصر المثالى وفىتقديسه نوعا من التعويض والتغطية على مفاسدها وانحطاطها وعقمها الفكرى والحضارى ومن امثلة ذلك انه حكم على عمر بن عبد العزيز من خــلال شبهه بعدل عمر بن الخطاب ، وارتفعت قيمة نورالدين كمحاولة عمرية ثانية ووجد بعــد عصره بقرنين من يكتب سيرته كنموذج للحاكم المسلم ٠وظلت الخلافات السياسية التى ترجع الى العصر الاسلامى الاول حية فى نفوس الناس تشعــلالخلاف بينهم عبر القرون (فرق الشيعة والسنة) وفضل الناس اعتماد حديث غير صحيح على التدبر العقلى وهكذا سكن الفكر كله عند منعطف تاريخى محدد ، عند مرحلة واحدة من الزمن ، وعندمــا يتعلق بها من علم وفكر وقيم ٠ او لنقل انــه ، بدل السكون ، كان يتحرك ولكن فى حلقة مفرغة تبتدىء من النص لتنتهى فى النص ايضا ٠٠٠

وهكذا اخذ الماضي (أو التراث) حجما غير طبيعي وغير مبرر ضمن الحاضر حتى ابتلعه والغاه وسد منافذ الابداع والتجاوز له ·· ان سيرة الفكر منذ أوائل العصر المملوكي حتى آخر العهد العثماني لم تضف كلمة الى الفكر العربي الاسلامي كانت سيرة التأسن السكوني، واجترار السابقتين ودوار الفراغ · العلم نفسه صار من جهة «وظيفة» سياسية اجتماعية وراثية ذات عائدات مادية محددة باهواء السلاطين او بشروط الواقفين وصار من جهة اخرى نوعا من الزخرف والزينة · لقد بلغ من سكون الفكر ان كانت الطاقات المبدعة تشغل نفسها احيانا كثيرة بالوان شتى من التجميع أو من التطريز في التاليف · الموسوعات الكبرى التي تعلم (صبح الاعشى نهاية ، الارب ، مسالك الابصار ، تاريخ الاسلام ·· الخ) ليست الا هربا واشغالا للفاعلية المبدعة · وتلك المحاولات التلخيصية من الالفيات والتذاكر والشروح والهوامش هي هرب من نوع آخر · بل لقد نرى احيانا بعض المؤلفات العجيبة من مثل رجل جعل مؤلفه على شكل اثنى عشر جدولا متجاورا لاثنى عشر علما نستطيع ان نقرأها طولانيا فاذا هي علم النحو او العروض او الاصول · وتستطيع ان تقرأ الجداول المتجاورة عرضانيا فاذا هي علوم أخرى ومباحث في الفقه والتصوف والفرق والتاريخ ·· الخ ·

4 ـ الارهاب الفكري الجماعي وهو الصورة الاخرى المكملة للكبت الجنسي والضغط الاجتماعي والاستبداد السياسي · مواقف كلها تنبع من موقف واحد هو قتل التمرد على النظام الحياتي العام ، والاخضاع للمواضعات الموروثة . ولقد كان في التاريخ العربي الاسلامي الاول مشاهد من الارهاب الفكري · كان منه ما نعرف مثلا ضد أبي ذر أو زمن الحجاج أو هشام بن عبد الملك او ايام محنة ابن حنبل من قبل المامون والمعتصم او قصة مصرع الحلاج او السهروردي ولكن لسنا الى هذا النوع من الارهاب الفكري نقصد · هذا الاضطهاد وانما كان صراعا فكريا بين مذاهب حية ويستعين فريق منها بقوة الحكم على الآخر · ولكن المضطهد والمضطهد ينطلقان فيها من عقيدة ذاتية توصلا اليها فهما يصطرعان على مستوى واحد من الايمان لاقرارها · ولقد يكون في ذلك عدوان على الحرية الفكرية ولكنه ايجابي ديناميكي حي · وانما نقصد الى الارهاب الآخر : الارهاب الذي يستهدف فرض الخنوع العام والعمل على استمرار المؤسسات الفكرية بالتسليم الجماعي على شكلها الموروث · مؤرخ تحت الحكم الفاطمي ذكر الامويين ببعض الخير فخسر مركزه ومحي تاليفه وآخر في الاندلس تجرأ ان يناقش امية الرسول صلى الله عليه وسلم فاجبر على الهرب

من البلاد وثالث (هو احمد الغزالى شقيق حجة الاسلام) خطر له ان يقدر موقف ابليس من وحدانية الله فرمى بالفكر والحجارة ، ورابع وجدت فى منزله كتب الفلسفة فاحرقت فى السوق بعد ان استتابه الخليفة وخامس انتقد موقف بعض الصحابة من الرسول (وهو موقف خيانة) فهجره الناس حتى اضطر ان يلزم بيته شهرا الا يغادره ٠٠ وسادس كابن الخطيب نبش من قبره مرتين للتمثيل بجثته وسابع كابن رشد أحرقت مؤلفاته أمام الناس ٠٠

ولسنا نعنى من هذه الامثلة الدفاع عن مواقف اصحابها وهى مواقف تحتمل الجدل الكثير ولكنا نقدمها كنماذج متطرفة تكشف عن الموقف الفكرى العام المؤيد من قبل السلطة ومن جمهرة العلماء والرافض لاى منها شذوذ عليه ٠ انه رعب التغير والرغبة فى « سعادة التوافق » وفى انسجام المجتمع الكامل بعضه مع بعض دون أى نغم نشاز والا كان الثمن باهظا ٠٠ « الانتماء » بلغ صورته النموذجية المرعبة فى تلك العصور للدرجة التى لم يعد فيها أى عالم سوى نسخة ثانية من الآخر ٠٠ وكما ربطت القيم الاجتماعية « بالتابو » الدينى ربطت كذلك قيم الفكر فى كابوس واحد من الضغط الجماعى ٠ ومن شأن هذا النوع من المناخ المغلق أن يخنق كل البراعم ضمن ما يمكن ان نسميه « الذات العليا الجماعية Superego collectif المشبعة بكل محظورات «التابو» ٠

ولسنا هنا فى صدد البحث عن العوامل والعلل التى ادت بالموقف الفكرى الى هذا الخور والانحلال وهى عوامل قد تتصل بمنابع اقتصادية وسياسية معقدة شتى وقد نجد لها مبررات دينية ونفسية دفاعية ولكنا نكتفى بالجانب الوصفى لها كواقع حياتى وكظواهر فى هذا الواقع. ونضيف ان امما اخرى فى مراحل حضارية مماثلة عرفت هذا النوع من الارهاب الفكرى الجماعى (وما غاليله واصحابه بالامثلة البعيدة) ولكن التفتح الحضارى انما كان رهنا بالتمرد على ذلك الارهاب ، بالرفض المتكرر والمتزايد له وهو ما لم يحدث فى العصور العربية الاسلامية المتأخرة وقد حدث بالضبط عكسه اذ ازداد الضغط احكاما وتسلطا بتحول العلم فى العصرين المملوكى والعثمانى الى مؤسسة حكومية وموارد خبز ورزق ، يبيعه اصحابه من حكام (مماليك ٠ سلاطين ٠ باشوات ٠ اغوات قواد عسكريين اسر ٠ اقطاعية ومالية) كلهم جديد الدخول على الحضارة العربية الاسلامية ، عنيف الحرص على بقاء السلطة فى يده أطول فترة ممكنة, شديد الغيرة على مصالحه واستغلالاته للشعب وعلى زيادتها باستمرار ٠٠ ونستطيع ان نقول دون أن نقصد من ذلك معنى الاهانة اطلاقا أن العلماء تركوا دور الريادة والخلق الفكرى تماما ليأخذوا دور كلاب الحراسة لدى الطبقات الحاكمة ٠

ثانيا : واما أدوات الفكر فقد اعانت بدورها على مسيرة الانغلاق الفكرى وعلى التقزم وكانت بدورها أيضا فى جدلية الحياة السبب والنتيجة معا فى التخلف الفكرى لا سيما مع ثباتها الطويل وتمادى القرون عليها قرنا بعد قرن ٠ وتقتصر هنا على ثلاث مشاكل منها : الامية والمدرسة واللغة ٠

فالامية ازدادت بدل أن تنقص فى المجتمع العربى الاسلامى ٠ حركة التعلم والتعليم لو أنها استمرت فى هذا المجتمع على الوتيرة التى بدأت بها فى القرون الثلاثة الاولى من الحضارة الاسلامية لكان الأرجح أن يختلف مصير المسيرة الفكرية كلها ٠ صحيح أن المساجد كانت وظلت باستمرار مراكز التعليم والتحرير من الامية ولكن العلم نفسه اضحى بالتدريج نوعا من « الصنعة » ، نوعا من العمل ٠ وكما يذهب الاجير الى تعلم الحرفة لدى معلمها ، وينشأ الفلاح الصغير على محراث ابيه ليتابع بعده كذلك صار الذين يقصدون المسجد انما يقصدونه ليكون العلم صنعة لهم ومورد رزق ٠ وكما ان الاسكاف أو مثقف الاسلحة أو البناء لم يكن يهتم بتعلم صنعة غيره كذلك لم يكن الحرفيون والفلاحون ليهتموا بتعلم صنعة « القراءة والكتابة » . ثم ان ذلك كان ضربا من الترف لا يحتاجونه ويكلفهم الوقت الطويل والمال الجزيل بالانقطاع والرحلة . ولذلك احتكرته بالتدريج أيضا الطبقات الميسورة . واذا كان المعتصم هو ابن هارون الرشيد قد نشأ اميا لان أباه لم يكن ينتظر له ولاية الخلافة فلم يأبه بتربيته فقد كان أحرى أن تكون الطبقات الشعبية على مثل ذلك الزهد فى التعلم ولا سيما بعد ذلك العصر ٠٠ وهكذا يبدو ان الامية ازدادت انتشارا فى العصور التالية كما يبدو أن انشاء « نظام » المدارس النظامية فى القرن الخامس بجانب دوفعه السياسية والمذهبية كرد فعل على الدعاية الفاطمية الشيعية ، انما ظهر أيضا بسبب الحاجة الى المتعلمين ولهذا السبب انشئت « المدارس » المنفصلة عن المساجد وعين لها المدرسون ورصدت لها – وهذا هو الأهم – الاوقاف للاساتذة والطلبة كذلك ٠٠ غير أن النكبات السياسية والعسكرية لم تهادن الحضارة العربية الاسلامية ابدا ٠ وبعد اكتساح السلاجقة ثم الصليبيين للمشرق العربى جاء المغول ثم التتر ٠ ودمرت القوى الايطالية (من نورمند وغيرهم) صقلية وافريقيا واستنفدت الحروب الطويلة المتصلة التى انتهت بخروج العرب من الأندلس ، كل قوى المغرب والأندلس ٠ وكان طبيعيا فى مثل هذه الاحوال أن تهتم الجماهير الشعبية بمطالب الحياة المباشرة, بالخبز اليومى ٠٠٠ ليصبح « التعلم » ترفا ومطلبا ثانويا ٠ وحين جاء العهد العثمانى وضعفت السلطة السياسية جاء

« المد » البدوى الذى أصاب الوطن العربى فى مختلف الاماكن بالضربة القاضية . فصار الريف كله أميا ، وقطاعات واسعة من أهل المدن (أرباب الحرف والجند والتجار ،لعاديين والباعة) أميين أمية كاملة ٠٠ حتى كان بعض الناس يحجون مع الحجيج ليرتزقوا من كتابة الرسائل للناس وكانت الرسالة تصل الحى أو القرية فيدور أهلها على القارىء الوحيد لديهم أو فى الجوار لقرأها ٠٠ و « العلماء » أنفسهم ، حين صار العلم حكرا لهم ومورد رزق فى العهد العثمانى صاروا يشجعون على ذلك الاحتكار ويعملون عليه ٠ يروى محمد كرد على أنه حين بدأ يتعلم ، وهو من عائلة تجارية، جاء العلماء الى أبيه ينهونه وينصحونه بالكف ،ويهددونه ٠٠ فلكل انسان « حرفته » الموروثة وفيم التعدى على الآخرين ؟ وهكذا تحولت الأمية مع القرون والتفشى الى مؤسسة اجتماعية موحدة ما تزال واضحة العقابيل فى الحياة العربية اليومية اليوم ، أغريب أن تكون أحد الأسباب والنتائج فى التخلف الفكرى العربى ؟ ٠

ثم ان المدرسة ارتبطت بالسلطة : الذين كانوا يتخرجون من المدارس لا سيما بعد انتشارها منذ القرن الخامس ، كانوا لا يشكلون طبقة من « العلماء » ولكن من « الموظفين » .

المؤسسة التعليمية أضحت ذيلا من ذيول السلطة : تبدأ منها بالبناء والتعيين واوقاف (وكلها من صنع الطبقات الحاكمة والغنية) وتنهى اليها : بالخدمات والخلع والتعيين لخطابة الجوامع والامامة والقضاة والافتاء والكتابة فى الدواوين لم تعد ذات وظيفة علمية ولكن وظيفة عملية هدفها تسيير أمور المجتمع وتأمين جانب الأعمال والاحكام الدينية فيه وجانب الشؤون الحياتية من كتابة وعقود وسجل ضرائب ٠

ولما كان التعليم نفسه فى تلك المدارس محدودا بشرط الواقف من جهة وبحاجات السلطة من جهة أخرى وبالأيديولوجية الفكرية العامة من جهة ثالثة لذلك مشت المدرسة « كمؤسسة » تعليمية الى الانحطاط والجمود بدل المسيرة نحو التوسع والازدهار ٠٠ حتى المدارس التى كانت كثيرة العدد فى العهد المملوكى تضاءلت اعدادها وماتت أوقافها وأقفرت من الطلبة وصارت فى مطالع القرن العشرين خرائب مهدمة القباب والشبابيك ٠٠ تابعة لمديريات الآثار ٠

واذا كانت هذه قصة « التعليم العالى » فى العصور السابقة فان قصة التعليم البدائى كانت أشد قتاما وظلمة ٠ الآباء الذين كانوا يرجون لابنائهم بعض القراءة والكتابة كانوا يجدون

« الكتاتيب »حيث يتكون المنهاج من حفظ القرآن خاصة وتعلـم بعض الكتابـة وبعض الحسـاب (الهندى) ••• « العصا » كانتهى السيد الأكبر فى الكتاب ••• هذا كله انما ينتهى فى ما بـين السابعة الى العاشرة من العمر ••• حين ينتقل من« عصا » الشيخ (أو الخواجة أو الملا) الى عصا الحاكم ومن التلقين الاول الى التلقين الاجتماعى ـ الفكرى الأوسع ••• ولا يشكل هذا التعليم بالطبع أى مادة من مواد الحياة الفكرية •

وأخيرا تأتى اللغة والتعبير : واذاكانـت اللغة أداة الفكر بامتياز ولا تفكير الا بالكلمـات فقد عرفت اللغة العربية بدورها عصر تصلـب الشرايين والقوالب الجامدة بعد القرون الثلاثة أو الاربعة الاولى • لم يكن انتشار السجع المتكلف سوى صورة لفراغ الكلمة من المعنى والمحتوى ، وبالتالى تأكيدا لفراغ الفكر نفسه من الجديـد • صاروا يهتمون بالاصداف بدل الاهتمام بالكائنات الحية فى داخلها • ثم ان تلك الصور الجاهليـة فى الشعر والادب من تشبيهات بالسيف والقمر وأنواع أدبية فى الفخر والهجاء والغزل والتى امتدت على الحياة الادبية فى القرون الاولى استمرت هى نفسها بعد ذلك • أغرقت الادب فى « اللفظية » المطلقة للدرجة التى أضحى مصطلح « عصـور الانحطاط » لاصقا بستة أو سبعة قرون على الاقل من الانتاج الادبى الغث •

وهكذا فان اللغة ، كمستودع لتجارب الماضى أعانت الفكر على توطيد السلفية بقوالبها التى تجمدت كما أعانها الفكر المتجمد على استمرار بقائها قوالب جاهزة • وجاء التعبير الادبى (من نثر وشعر) فكرس هذا التجمد بالانفصال عن الواقع الحياتى للناس ومتابعة الشكل التعبيرى القديم ذاته ••• وهكذا حدث نوع من الانفصام ضمن الذات العربية . ما بين الفكر وأداته التعبيرية (اللذين اغتربا تمام الغربة عن العصر المعاش) وما بين الواقع الحياتى الذى يحياه الانسان العربى بالفعل ••• وكما لم يعد الفكر منتميا الى آلام الناس وأحوالهم كانت اللغة أمرا غريبا على الناس وكان الادب مجرد لعب فى فراغ الالفاظ وعمليات تطريز وفسيفساء ... أما الكلمة فصارت نوعا من « السحر » لا تعنى مدلولها ولكن مجرد ترنيمة سحرية . أليس هذا هـو الذى يا تـرى قعقعة القوافى التقليدية فى عشرات الالوف من القصائد الحديثة ـ القديمة . ويفسر عدم رفض الجموع اليوم لتناقض كلام الحكام مع الواقع وايمان الناس بأن الكلمة يمكن أن تقوم مقام الفعل وتحل محـلـه اشتقاقا من الايمان بمفعول « الآتية » السحرى ؟



وبعدهذا كله فقد أطل علينا القرن العشرون بمعادلة صعبة أشبه بتدوير المربع فى المنطــق الشكلى ... كان على العرب فيها أن يتخلوا مرة واحدة عن ايديولوجية فكرية تعتمد الى جانب ركائزها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ,لى أسس متناقضة كل التناقض مع معطيات الفكر الذى تعززه الحضارة الغربية وتفرضه ، بمختلف الوسائل والقوى . على العالم ٠٠ كما تصطنع وسيلة فى التعبير مغتربة كل الغربة عنهم من جهة وعن عصرهم نفسه من جهة أخرى بالاضافة الى أن كتلة العرب الكبرى كانت على الامية والجهل المعتق ٠٠٠ لا عتق النبيذ ولكن عتق الفاســد المملوء بالدود ٠

ان البنية الفكرية للمجتمع العربى اليوم . ان تعقدت كل التعقد ، بعد خضوعها قرابة القرن الاخير أو يزيد لصدمات الحضارة الحديثة وللتفاعل معها واذا ازدوجت العلمية والغيبية فيها فنحن نجدهما يتعايشان معا فى عقول الكثيرين واذا اختلط معنى « العلم » التقليدى بمعنى ال Science الحديث للدرجة التى نسمى فيها بعض هيئاتنا العلمية الكبرى بالمجمع العلمى وهو ليس أكثر من مجمع لغوى أدبى فقهى نحوى ٠٠٠ واذا انسحب الارهاب الفكرى الجماعى على العصر وبقيت لــه بكل مكان أكثر من عصا غليضة وعشرات أو مئات الجماعات والمراكز واذا أضحى العرب غرباء عــن العصر بسبب حاجز « اللغة » المزدوج غربتهم عن لغتهم التى لا تمثل عصرهم عن اللغات الاجنبية التى تتكلمها الحضارة الغربية الحديثة ٠٠٠ اذا كان اولئك فلأن المنطلقات التى تقوم عليها هذه الحضارة لم تجد بعد ركائزها فى الذات العــربية التى ما تزال تحت وطأة القرون السابقة ٠ انها تحاول كسر قوالب الغيبية والتلقين والسكـــون أمام مقاومة داخلية عنيفة تحتمى أحيانا كثيرة وراء أسوار الدين ٠ كمــا تحــاول فهم أو اللحــاق بأيديولوجية الحركة والمنفعة والتحرر والبراغماتية والعمل التى يقوم عليها العصر الحاضر وبمعطياته فى الاحساس بقيمة الانسان وبالزمن والالتزام بالتخــطيط وبالعـــلم والتكنولوجيا وبالعـــدالة التوزيعية وبأن العمل الانسانى هو القيمة الاولى ٠

وبعد هذا فان التاريخ القديم ما يزال برغمنا فينا : انه جزء منا ٠ ولقد يكون فى جانب منــه عنصر الاصالة فى الذات العربية ٠ ولكن هــذا التراث الثقيل يضع العرب امام اشكالية مزدوجة : اشكالية الغربة عن التراث نفسه بحكم الانقطاع الطويل عنه والاكتفاء بالجانب السكونى منه دون الجوانب الديناميكية الاخرى واشكالية الغــربة عن العصر الذى نقف أمامه , مع الامية وجهل الاسس الفكرية , وقفة الابكم المبهور امام الآلة المعقدة ٠٠٠ وقد خلقت لنا هذه الاشكالية المزدوجة

تحديا مزدوج الوجه أيضا : تكييف ذلك التكوين التاريخي الطويل تكييفا بنيويا داخليا من جهة واللحاق بالعصر من جهة اخرى ولكن بسرعة مثلثة تعوض احداها عن التخلف والثانية عن الكتلة العربية الواسعة والثالثة عن السرعة المتزايدة لتقدم الحضارة نفسها ٠٠ لسنا مطالبين وليس بامكاننا — ولو حرصنا — ان نخرج من اهاب التاريخ اللصيق بالعظام ولكن المعادلة الصعبة هي توظيف هذا التاريخ كقوة دفع من خلال معطياته ذاتها ٠ كسر حالة الحصار التي يعيشها الانسان العربي منذ عشرة قرون على الاقل وذلك بالفكر التاريخي اى بآلة التاريخ نفسها وبمنطقه ذاته ٠ نقل الانظار والفكر واللغة والعمل من الماضي الى الغد من « الفردوس المفقود » الى « الفردوس الموعود » ولكن بالمعنى الجدلي الديالكتيكي لا الاستمراري ، وبالمعنى الذى يلتزم بالماضي والحاضر والمستقبل معا لانه يعتبر الانسان وحدة كاملة ٠

على ان التاريخ ، مع الاسف ، رغم انه المحور فى معركة بناء الذات ليس كل مأساة الانسان العربى المعاصر ٠ الابعاد الاخرى التى عليه ان يجاهدها لتجاوز أزمته الحضارية القائمة قد تكون أشد ضراوة ٠ ولكن عليه ان يجاهدها كلها معا وعلى جميع المستويات ٠ اهو المطلب الصعب ؟ ليكن ذلك ٠ ولكن عدم الاستجابة له يلقينا على المركب الاصعب : خسارة معركة البقاء ٠

مراجع مختارة :

لا نكاد نعثر على مرجع واحد تناول بالذات موضوع الابعاد التاريخية للتخلف الحضارى العربى لكن معظم الابحاث التى تناولت أزمة العصر الحضارية الحالية لامست عرضا بعض الجوانب منه ٠ ومن ذلك كتب كثيرة ودوريات عديدة نجتزىء منها بالقائمة التالية :

— تحديث العقل العربى — الدكتور حسن صعب (دار العلم للملايين — بيروت 1969) ٠

وهو دراسة حول الثورة الثقافية اللازمة للتقدم العربى فى العصر الحديث تنطلق من الايمان بامكان هذا التقدم ويطالب الكتاب بالتحول من صناعة الكلمات الى صناعة الاشياء وبالتحديث القيمى ، والقيادى والبنيوى ، والتربوى والاعلامى عن طريق « ثورة » تعمل على التحديث ٠

— تجديد الفكر العربى — الدكتور زكى نجيب محمود (دار الشروق — بيروت 1971) ٠

وهو تحليل فكرى لمشكلة التوفيق ما بين التراث وبين عصرنة الفكر العربى ٠ ولضرورة التحول من فكر قديم الى فكر جديد ينتقى من التراث نفسه بعض مبادئه وهو يؤكد انه من

اللغة تبدأ ثورة التجديد للانتقال من حضارة اللفظ الى حضارة الرأى · ويقترح فلسفة عربية تستند الى قيم باقية من تراثنا ·

ـ معنى النكبة ـ الدكتور قسطنطين زريق ـ (بيروت 1948) ·

وقد اصدره فى اعقاب نكبة فلسطين 1948 لتحليلها ولخص النكبة بانها انهيار فى القيم وشك من العرب فى قياداتهم وفى انفسهم كامة · واكد ان النصر يكون على مراحل طويلة وانه يكمن فى التغير الموضوعى لحالة العرب ونوع التفكير وانماط التصرف والسلوك وبعد ان يتحدث عن الاسباب القريبة والبعيدة للنكبة يرى ان دخول العرب الى العصر الحديث ومشاركتهم فيه تقتضى : اقتباس الآلة وفصل الدولة عن التنظيم الدينى وتدريب العقل العربى على العلوم ·· وفتح الصدر لاكتساب ما فى الحضارة الانسانية من قيم عقلية وروحية ·

ـ معنى النكبة مجددا ـ الدكتور قسطنطين زريق ـ (بيروت 1967) ·

عودة اخرى الى الموضوع نفسه بعد نكبة عام 1967 يقول فيه انه يجب الاقرار بأن المجتمع العربى ينتمى حضاريا الى مرحلة مختلفة عن تلك التى ينتمى اليها المجتمع الاسرائيلى وان العلم الحديث هو مصدر القوة التى يجب ان يصطنعها العرب كاسلوب فكر ونظام حياة · وطريق التحول بالمجتمع العربى من مجتمع انفعالى توهمى ميثولوجى شعرى الى مجتمع فعلى تحقيقى عقلانى علمى انما يكون بالاخذ بالحضارة الحديثة وخاصة فى مجالات العلم والعقلانية والانتاج وبالتخطيط والبحث وحشد الكفايات البشرية والمادية .

ـ أزمة الفكر العربى ـ اسحق موسى الحسينى ـ (دار بيروت للطباعة ـ بيروت 1954) ·

وهو تحليل لازمة الفكر العربى يعتبرها أمرا طبيعيا جاء نتيجة فترة الانتقال من حياة قديمة الى حياة حديثة والسبب فيها هو انتشار التعليم وتصارع الآراء والمذاهب الحديثة نتيجة الاحتكاك بالغرب مما أدى الى وجود ازمة فكرية وروحية والى الاحساس بالتخلف المادى ·

ـ بعد النكبة ـ قدرى حافظ طوقان (دار العلم للملايين ـ بيروت 1950) ·

وهو كتاب آخر من الكتب التى اعقبت النكبة آكد على ضرورة تبنى الاسلوب العلمى منهجا للحياة واتباع الفلسفة الليبرالية لان العلم وحده هو سيد الكون » ولن يقدر للعرب تقدم الا اذا

تولى أمورهم عقليات علمية تعرف معنى العلم والتنظيم والارقام ··) لان التحدى الصهيوني علمي ولا يهزم الا بالعلم · ويؤكد على دور التربية، التعليم باعتبارهما أساس تنشئة الجيل الجديد ·

ـ وللمؤلف كتاب آخر اصدرته الدار نفسها بعد ثلاثة سنوات من الكتاب السابق بعنوان (وعى المستقبل ـ بيروت 1953) عرض فيه للافكار نفسها ·

ـ أزمة التمدن العربى ـ محمد وهبى ـ (دار العلم للملايين ـ بيروت 1956) ·

وهو يرى من خلال سبره لاغوار النفسية العربية ومشاكلها على مستوى العقل والشخصية ان قضية العرب قضية تمدن لان الحياة العربية رغم كل القرائن الكاذبة تقف وراء العالم المتحضر فى العلم والاخلاق والقيم : هناك جهل بمعنى التقدم ، وجهل المظاهر الفساد الحقيقى فى المجتمع وانفعالية فى الجماهير البعيدة عن مثالياتها ورسالتها · ويركز المؤلف الانتباه حول « أزمة القيم » ومظاهرها النزعة الغيبية ، وسيادة الخرافة والجهل، والمفاهيم البدائية لمعنى الشرف. وتقديس التقاليد ، ولما كانت عظمة الحضارة الغربية انما هى أفى « قوة الخلق » التى هى الفكر العلمى ، فالتمدن ليس الاخذ بنتاج الحضارة الغربية ولكن بقوة الخلق هذه فيها ·

ـ أزمة المجتمع العربى المعاصر ـ مدثر عبد الرحمن الطيب (دار الطليعة ـ بيروت 1961) ·

يشير فيه الى ان هذه الازمة الحادة العنيفة ليست مجرد ازمة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية ولكنها أزمة حضارية شاملة استحكمت خلال المائة والخمسين عاما الاخيرة نتيجة الكوارث والمحن التى نزلت بالعرب ونتيجة الصدام بين مثلنا وتقاليدنا الموروثة التى فقدت حيويتها وبين المثل الجديدة الوافدة التى لها جذور لدينا والعلاج ان نجدد انفسنا من الداخل · وان نحدث ثورة خلقية ثقافية حضارية شاملة فى تفكيرنا وفى نظرتنا الى العالم والى انفسنا غايتها تحديد موقفنا من تراثنا القديم ومن القيم الحديثة الوافدة وتغيير نظرتنا واساليبنا فى الحياة ·

ـ الاقليمية الجديدة ـ عبد الله محمد الريماوى (دار الطليعة ـ بيروت 1970) وقد كتبه المؤلف « من وحى النكستين » ليدرس البعد النظرى للاقليمية فى الوطن العربى ثم البعد التاريخى ثم البعد الحركى · وهكذا بعد ان حلل مضمون الاقليمية يبحث معالم الواقع العربى الذى اصطنعت فيه وسياسة الاستعمار فى اصطناعها وصورها التى ظهرت فيها وينتهى بكشف الاقليمية الجديدة وتقييمها خاتما بحثه بالقول : ان تخطى الاقليمية الجديدة بمختلف نظمها وفى جميع

ابعادها الايديولوجية والمنهجية والتنظيمية والاستراتيجية هو السبيل الوحيد لمواجهة النكسة مواجهة منتصرة ولصنع المستقبل العربي صنعا تقديما ..

– العرب تاريخ ومستقبل – تاليف جاك بيرك (تعريب علي سعد – بيروت/دون تاريخ) ٠

– العرب من الامس الى الغد – تعريب آخر عن الانكليزية للكتاب السابق بقلم خيرى حماد (القاهرة 1971) ٠

قراءة الكتاب بالفرنسية يعطيه آفاقه الفكرية الواسعة ٠ ومؤلفه انما حاول ان يقدم فيه صورة ديناميكية حية عن الواقع العربى المتغيرمن الامس الى الغد : من زوايا تحول الانسان نفسه والنظام الاقتصادى وظهور التقنية الجديدةوالقواعد الشعبية ودخول المرأة فى الحياة ، ومن زوايا الفنون والقيم السياسية ٠٠ انه صورةلتجاوز الشرق العربى لنفسه ما بين مطالع القرن والستينات ٠

– الايديولوجية العربية المعاصرة – عبد الله العروى (دار الحقيقة – بيروت 1970) ٠

وهو كتاب آخر كتب بالفرنسية (وترجمهمحمد عيتانى) بقلم عربى عميق التحليل يدرس بالشكل المنهجى . والاستناد الى ثقافة فكريةدسمة . وعى الشعب العربى لذاته وعيا فكريا وعمليا عن طريق تحليله تاريخيا وفكريا وروحيا بالامس وتحليله فكريا وايديولوجيا فى الحاضر من خلال الصور الثلاث للعربى المعاصر : صورةالشيخ ، والليبرالى والماركسى دان ان يهمل فى النهاية مشكلة التعبير ٠

– العرب والفكر التاريخي – عبد اللهالعروى – (دار الحقيقة– بيروت 1973) وهو كتاب يكاد يكون شرحا لبعض نواحى الكتاب الاول ناقش فيه المؤلف : منطق الايديولوجية العربية وموقف العرب من التدوين التاريخى والمضمون القومى للثقافة وبعد أن ناقش الماركسية تجاه الايديولوجية الاسلامية وتجاه مثقف العالم الثالثختم الكتاب بفصل عن أزمة المثقف وأزمة المجتمع وعن ارتباط الاولى بالثانية ٠

– مشروع رؤية جديد للفكر العربى فىالعصر الوسيط – طيب تيزينى (دار دمشق – دمشق 1971)

القسم الاول والثانى من الكتاب دراسة نظرية للجذور التاريخية والمعرفية للفكر الفلسفى المادى والمثالى عامة ولدى اليونان خاصة · اما القسم الثالث فهو الذى يهمنا فهو محاولة لالقاء نظرة جديدة ، ماركسية المنطق ، على الفكر العربى الاسلامى منذ تكوينه الاسلامى الاول حتى شكله المتطور بعد تمازج الثقافات مع تطبيق ذلك على كبار الفلاسفة الذين اطلعهم هذا الفكر ·

ـ الاقتصاد والمجتمع ـ الدكتور محمد ربيع (وكالة المطبوعات الكويت 1973)

ـ وفى الكتاب ، بجانب القسم النظرى الاقتصادى ـ الاجتماعى ، بعض الفصول المتعلقة بتطور المجتمع العربى ، والتطور الاقتصادى فى البلاد العربية وتحوى بين نقاطها دراسة الدين فى المجتمع وكلها مما يتصل ببحث العوامل التاريخية فى التخلف العربى ·

ـ النقد الذاتى بعد الهزيمة ـ جلال صادق العظم (دار الطليعة ـ بيروت 1968) ·

وهو دراسة ، من منظور ماركسى ، لهزيمة العرب عام 1967 وهو يشير خاصة الى أمراض الشخصية العربية من مثل الاستهانة بالعصاب ثم الانهيار عند أول مشكلة والسطحية والهرب من المسؤولية ·· وربط كل ذلك بالبنيان التقليدى للمجتمع العربى · كما اشار الى اخطاء التطبيق الاشتراكى فى الاقطار العربية التى انتهجت الاشتراكية وناقشها على المستويين النظرى والتطبيقى وآثار قضايا العلم والتكنولوجيا ، والتخطيط ومساواة الجنسين ...

ـ الفعالية الثورية فى النكسة ـ نديم البيطار (دار الاتحاد ـ بيروت 1965) ·

ـ من النكسة الى الثورة ـ نديم البيطار (دار الطليعة ـ بيروت 1968) ·

والكتابان تطبيق وتوسعة للافكار الاساسية التى عرضها المؤلف فى كتابه الاساسى الايديولوجية الانقلابية الذى حاول فيه دراسة الاسس النظرية والفلسفية والدينية لتلك الايديولوجية ومضمونها الثورى · وهو فى هذين الكتابين يرى ن النكسة هى النتيجة الطبيعية لاوضاع عربية معينة وان الحل يكمن فى تدمير تلك الاوضاع ويدين الانحرافات فى الثورات العربية من فكرية وذاتية واستراتيجية ويدعو الى ان تتجاوز النظم الثورية ذاتها ··

أما الدوريات فكثير منها نشر مقالات عديدةأو عقد ندوات لبحث جوانب من التخلف العربى ونشير بخاصة الى :

ـ مجلة الآداب (بيروت) فى مجموعتها منذ عام 1967 الى اليوم ·

ـ مجلة المعرفة (دمشق) فى مجموعتها فى السنوات ذاتها وفى الندوة التى عقدتها ما بين 4 ـ 8 تشرين الثانى عام 1967 لدراسة هزيمة 1967 ·

ـ مجلة الكتاب (بغداد) فى مجموعتها وفى الحوار الذى عقدته للموضوع فى شهرى آذار ـ نيسان 1968 ·

ـ بعض المقالات والابحاث التى نشرت فىمجلة المصور (القاهرة) بقلم احمد بهاء الدين ، وفى جريدة الاهرام ·

ـ العدد الخاص من مجلة الثقافة العربية (نيسان 1973) حول : الانسان العربى بين تراثه وثقافة الاستعمار (ومن كتابه أنور عبدالملك · احسان عباس · صادق جلال العظم ، منح الصلح ، هادى العلوى ، وليد خدورى ···الخ) ·





مؤتمرات

اللقــــاء الاســلامى المسيحـــى
بقـــــرطبــة

انعقد بمدينة قرطبة باسبانيا بتاريخ 23 ـ 28 شعبان 1394 هـ الموافق 10 ـ 15 سبتمبر 1974 م ملتقى اسلامى مسيحى نظمته جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية التى يوجد مقرها بمدريد .

وشاركت فى هذا الملتقى اغلب الدول العربية فيــه بوفود رسمية وغير رسمية بالاضافة الى ممثلى الاقليــات المسيحية بها .

كما يوجد ممثل لمجمع الكنائس العالمى ورجال الصحافة الاسبانية والعربية والعالمية .

ومثل الجزائر فى هذا الملتقى السيدان عثمان شبوب المستشار بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ورئيس تحرير مجلة الاصالة . والعمرى منطوش نائب مديــر الملتقيات بالوزارة المذكورة .

والملاحظ ان البلدان الاسلامية غير العربية لم تــدع للمشاركة فى هذا اللقاء .

جـدول اعمـال الملتقى :

ركز الملتقى اعماله على النقاط التالية :

1) تقديم مسيحى للديانة الاسلامية فى صورة تمكن المسلم من رؤية نفسه فيها .

2) تقديم اسلامى للديانة المسيحية فى صورة تمكن المسيحى من رؤية نفسه فيها .

3) الترابط بين التوسيع السياسى والدينى .

4) المشاكل الانسانية والاخلاقية فى الاسلام والمسيحية.

وكانت تتبع محاضرات كل نقطة من جدول الاعمــال مناقشة حرة من طرف الوفود الرسمية .

على ان اهم نقطة أثير حولها الجدل واحيانا الاستنكار العلنى ، من طرف الجانب المسيحى هى تلك التى تناولت دور التبشير والمبشرين فى تركيز اقدام الاستعمار وخاصة دور التبشير والمبشرين فى تركيز اقدام الاستعمار ومحاولة تفكيك أواصــر المجتمعات حاليا فى عــدد مـن البلدان الاسلامية ، وليس فى الجزائر فقط كما كتب احد الصحفيين فى مجلة « الشهاب » اللبنانية والتى ركز عليها الوفـد الجزائرى (انظر كلمة الوفد) وصديقنا الدكتور عبد الجليل التميمى فى محاضرته القيمة عن دور التبشير فى تـونس وسننشرها فى عددنا القادم .

وفيما يلى كلمة الوفد الجزائرى فى هذا الملتقى :

كلمة الوفد الجزائرى
فى ملتقى قرطبة

السيد الرئيس :

حضرة السادة والسيدات :

باسم الجزائر اشكر جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية التى نظمت هذا اللقاء الهام وابلغكم تحيات واعتذار السيد مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية الذى كان حريصا كل الحرص على الحضور بنفسه لو لا اعمال طارئه جدت فى آخر لحظة .

ان هذا الملتقى الكبير ، والملتقيات التى تمت فى الجزائر ، بمناسبة انعقاد ملتقيات الفكر الاسلامى كل سنة ـ بين رجال الديانتين يمثلون اغلب بلدان العالم الاسلامى والمسيحى وبين شخصيات ثقافية من مختلف الاتجاهات الاديولوجية وامام آلفين من الطلبة والطالبات من الاقسام النهائية والجامعية . أقول ان هذا الملتقى وتلك الملتقيات لتمثل خطوة الى الامام فى طريق العمل المشترك لمواجهة أخطار موجة الألحاد والانحلال والاخلاقى التى تهدد مستقبل الحضارة الانسانية .

ايها السادة والسيدات .

اننا ونحن نتدارس قضايا التعاون بين الاسلام والمسيحية يجدر بنا ان نهتم غاية الاهتمام ، بظاهرة بارزة فى عصرنا وهى ظاهرة بروز ما يسمى بالعالم الثالث ، وفى طليعته الشعوب العربية والاسلامية . وقد ظل هذا العالم يتحمل بنفسه اعباء مصيره ويجابه بامكانياته المتواضعة المشاكل الناجمة عن عهود تخلفه ، وعهود السيطرة الاستعمارية ، ونعتقد ان المسيحية يمكنها ان تقوم بدور فعال فى هذه المرحلة : مرحلة تصفية الاستعمار ، وان تتعاون مع الاسلام خاصة لايقاف وتجاوز ظاهرة التمزق الروحى والمجتمعى ، اذا تخلصت من سلبيات الماضى الاليم .. ماضى قيام رجال الدين المسيحى وباسم المسيحية بالعمل على تثبيت اقدام الاستعمار فى كثير من بقاع هذا العالم الثالث .

وهناك مجموعة حقائق ينبغى عرضها الآن بصراحة وموضوعية اذا اردنا ان نقيم هذا اللقاء وغيره من اللقاءات القادمة ، على أسس صحيحة ، سليمة .

* * *

عندما كان احد المحاضرين فى جلسة أول أمس ، يسرد بعض الحقائق فقط عن التبشير هب البعض بالاحتجاج ، بشكل أو بأخر ، على ان هذا نبش لماض ينبغى نسيانه ونحن فى عهد الانفتاح المشترك ، وكنت اتمنى لو كان هذا هو الواقع . لكن ما جريات الوقائع والاحداث تثبت عكس هذا .

ان الماضى يتكرر نفسه اليوم ، وان كان باساليب مختلفة : فحركة التبشير ما تزال متواصلة عبر العالم الاسلامى ومنها الجزائر وتركز بصفة خاصة على الشباب فى المدارس وبطرق الابواب احيانا فى المدن والريف ، وبالمناشير ، والرسائل ومعى مجموعة من الوثائق المثبتة لهذا آتية من اسبانية ومن بيروت ، ومن رومة ، وفرنسا ، وغير ذلك ، يمكن لاى واحد منكم الاطلاع عليها) . وقد اتصل بالوزارة فى الجزائر اهالى واولياء هؤلاء الشباب ، والحوا عليها لاتخاذ اللازم .

كما اتصلت بالجزائر كثير من البلدان الاسلامية ، وطلبت منها التدخل لدى المنظمات المسيحية لايقاف هذه الحركة وذلك لان فى الجزائر شخصية دينية ممتازة تمثل قداسة البابا ويتمتع بسمعة طيبة ، وتقدره الجزائر خاصة لموقفه الشجاع فى كفاحنا التحريرى وهو الكاردينال دوفال . ونظرا لعلاقتنا الطيبة مع كثير من المنظمات البروتستانية ، خاصة فى أوروبا اثناء كفاحنا التحريرى التى عبرت عن تأييدها لنا فى كفاحنا

التحريرى ، اقول طلبت كثير من البلدان العربية الاسلامية التدخل حتى مع هذه لوقف نشاطها التبشيرى . ونؤكد ان هذا النشاط يقوم به الكاثوليك والبرتستانت ما عدا الارثوذوكس .

ومن جهتنا لا نقول لكم كيف نعامل المسيحيين فى بلادنا والكاردينال دوفال والاسقف تيسى موجودان هنا وهما يتوليان هذا الامر عنا .

نرجو ان الامور تتحسن فى المستقبل وبودنا ان يزول هذا التنافس بين الاديان وان يقع التركيز على التعاون فى ميدان مواجهة الانحلال‌والالحاد ومحاضرة الاب ابلشاميكال عن الازمة الدينية فى الغرب من شأنها ان توجه التبشير نحو هذه المجتمعات التى تعانى من الانهيار الدينى والاخلاقى وان تركز عليها .

وهناك نقطة اخرى ينبغى ان يتم فيها هذا التعاون وتخص الجاليات والاقليات الاسلامية فى العالم المسيحى سواء منها عمالنا وطلابنا فى أوروبا الغربية مثلا أو الاقليات الاسلامية فى الفيليبين .

ان الكنيسة عليها ان تقوم بواجبها لدى السلطات المعنية فى هذا الشأن ، وان تواصل ذلك النشاط المشكور الذى قامت به بعض المنظمات والشخصيات المسيحية تجاه قضية فلسطين .

وأما قضية الازمة الدينية فنحن ليس لنا أزمة دينية : شبابنا كله مؤمن .

صحيح ان فيه استثناءات من بعض الشباب وخاصة وسط الطلاب المتاثرين ببعض الشكليات والشعارات ، سواء بحكم الاحتكاك المباشر فى الجزائر نفسها أو فى الخارج ، أو بواسطة اجهزة الاعلام . واذا كان هذا العدد قليل جدا لا يكاد يذكر فان هذا لا يمنع من الحذر بالنسبة المستقبل ، وكما يقول الشعار السياسى الالمانى المعروف : (حذار من البداية) .

قضيـــة الحـــوار :

واسمحوا لى الآن : ان أقدم مقترحات فيما يخص قضية الحوار بين الاسلام والمسيحية .

1 ـ ليس هناك من حوار دون تعارف وتبادل للاحترام بين الجانبين .

2 ـ يتعذر قيام أى حـــوار بين اتباع الديانتين اذا بقيت لدى طرف من الاطراف الرغبة فى فرض معتقده على الآخر ، يقول السيد بيشون (وكان فى الجزائر فى عهد الاستعمار) فليس للمسيحى ان يلجأ الى الحوار « الا باعتباره ذريعة الى التنصير » .

3 ـ تجنب النقاش فى المسائل الاعتقادية الاساسية ، حيث توجد تباينات فى المنطلقات ، وعدم الالتجـــاء الى النزعة التوفيقية الساذجة الغير واقعية .

4 ـ التركيز على الحوار فى الميدان الثقافى والحضارى والتاريخ قد سجل لنا مآثر لهذا التعاون الاســـلامى المسيحى فى عهود ازدهار الحضارة الاسلامية ، حيث كـان النساطرة والمسلمون فى بغداد يتعاونون على كشف خبايا فلسفة افلاطون وارسطو . وفى طليطلة التى كان يقصدها المسيحيون من فرنسا وايطاليا وغيرها لتعلم العربيـــة واغناء رصيدهم الثقافى .

فى هذه الميادين الثقافية اتت الاتصالات بين الاسلام والمسيحية ثمرات طيبة ، وبهذه النظرة للحوار نفتح آفاقا جديدة فى وجه التعاون الاسلامى المسيحى ، ونعطى للقاء اليوم ذلك البعد الانسانى الواسع ، كملتقى ممتاز للاخذ والعطاء لا بين الديانتين فقط بل وبينهما وبين التيارات الفكرية الانسانية الاخرى .

وشكـرا

الـدورة الثـالثة
للجنـة المـرأة العـربية

ايمانا بالمراة العربية واهمية دورها فى المجتمع .. وتحقيقا لمهمتها الاولى وتمكينها من اداء رسالتها ، ودراكا بأن تحقيق الاصلاح الشامل لمشكلات المجتمع العربى الاجتماعية والاقتصادية رهن بأن تسهم المراةبدورها الطبيعى فى تحمل مسؤولياتها من هذا الشان .. انطلاقا من هذا المفهوم ، عقدت لجنة لمراة العربية دورتها الثالثة : بجامعة الدول العربية ، وذلك لدراسة شؤون المراة وحقائقها ، ووضع خطط النهوض بها ، وتعزيز مركزها ، مع الاسترشاد بالسبل التى سلكتها لجنة مركز المراة فى الامم المتحدة فى هذا المجال .

من أهم الموضوعات المطروحة للمناقشة فى الدورة :

اولا : أمثل الطرق لتحقيق تمتع المراة العاملة بحقوقها، فامام زحف المراة الى ميادين العمل والانتاج رات اللجنة ضرورة اعطاء أولوية خاصة بمشاكل المراة العاملة .

وقد تبين ان التشريعات العربية تحقق للمراة العاملة حماية كافية ومع ذلك فان هذه الحماية غير معمول بها فى كثير من البلاد .

ثانيا : استهدف تخصيص عام 1975 ليكون عاما دوليا للمراة لتكثيف الجهود من أجل ابراز دور المراة فى البناء الوطنى بصفة عامة . وعلى ذلك فسوف يعتبر عام المراة فرصة لتقييم صدى التقدم الذى تم احرازه فى هذه المجالات منذ صدور ميثاق الامم المتحدة عام 1945 . كما ستناقش فيه مبادىء جديدة حول تحقيق المساواة الشاملة أمام القانون فى جميع المجالات التى لم يتحقق فيها ذلك بعد . وخلق الوعى والاقرار بان للرجل والمراة حقوقا ومسؤوليات متساوية تجاه انفسهم كافراد ، وتجاه اطفالهم كآباء وامهات ،

وفى هذا المجال أيضا يجرى بحث تحسين حال الحياة الريفية وحال المراة فى الريف . وتوفير شبكة من الخدمات الصحية لحماية الامومة وصحة الام والطفل . والعمل على تحسين وضع النساء فى السجون وفى أماكن الاعتقال الاخرى .

ثانيا : المراة والسلام ، طرح هذا الموضوع للمناقشة فى اكثر من جلسة من جلسات لجنة المراة العربية . واستحوذ على أهمية كبيرة من الاعضاء وتقدمت اكثر من عضوة باقتراحات شاملة لهذا الموضوع بحيث توضع المراة لاول مرة فى مركز فعال لتحقيق السلام العالمى .

وقد كان من أهم التوصيات التى صدرت :

— تحسين مستوى ادراك النساء فى الدول النامية عن طريق المعلومات والتعليم ، وتعميم عمليات مكافحة الامية ، وتصعيد جهود التنظيمات النسائية الاقليمية والدولية من اجل السلام الشريف وتشجيع جميع الجهود باسم نساء العالم — من اجل ازالة التوتر واقرار السلام العالمى . والاعتراف بقيمة التقدم والتنمية الشاملة التى يمكن ان تحققها المراة بالاسهام فى الثقافة العربية .

كما اوصت اللجنة بعقد حلقة دراسية بمناسبة عام المراة حول كفاح المراة الفلسطينية من أجل التحرر الوطنى فى الارض المحتلة .

ترأست اشغال هذه اللجنة بجامعة الدول العربية الدكتورة عائشة راتب وزيرة الشؤون الاجتماعية بمصر وحضرها وفد نسائى من بلادنا بدراسة قيمة .

زهور ونيسى

بيان قرطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

انطلاقاً من الإيمان بالله ، والقيم الدينية والأخلاقية ، التى يدعو إليها الإسلام ، وتدعو إليها المسيحية .

ورغبة فى التعاون من أجل العمل المشترك ، لتعميق الإيمان بالله ، لإسعاد المسلمين والمسيحيين ، والبشرية جمعاء .

وأملا فى تنقيـة العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، مما شابها فى بعض فترات التاريخ من شوائب أو سوء فهم ؛

دعت « جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية فى إسبانيا » لعقد مؤتمر إسلامى مسيحى ، فلبى الدعوة وفود وأشخاص ينتمون إلى ثلاث وعشرين دولة إسلامية ومسيحية ، وعقد هذا المؤتمر فى مدينة قرطبة من العاشر إلى الخامس عشر ، من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٤ م (من الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين من شهر شعبان سنة ١٣٩٤ هـ) وكانت الموضوعات التى طرحت للبحث هى :

١ — تقديم مسيحى للديانة الإسلاميـة فى صورة تمكن المسلم من رؤية نفسه فيها .

٢ — تقديم إسلامى للديانة المسيحية فى صورة تمكن المسيحى من رؤية نفسه فيها .

٣ — الترابط بين الدين والتوسع السياسى .

٤ — أزمة العقيدة ، والتجارب التربوية فى كل من الإسلام والمسيحية .

٥ — ميادين العمل المشترك التى يمكن أن يتعاون فيها المسلمون والمسيحيون .

وفى جلسة الافتتاح تليت رسالة تحية وتأييد من الرئيس محمد أنور السادات ، رئيس جمهورية مصر العربية ، كما وردت رسائل وبرقيات إلى المؤتمر من الرئيس أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية العراقية ، والسيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ومن نيافة الكردينال بنيدولى ، رئيس أمانة العلاقات مع غير المسيحيين بالفاتيكان ، والأستاذ خوسيه لويس مسيا المدير العام للعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية الإسبانية . . وقد أبرقت أمانة المؤتمر إلى حضراتهم بالشكر والتقدير .

ثم ألقيت بحوث متعددة فى كل من الموضوعات السابقة ، وأعقبها حوار اشترك فيه أعضاء المؤتمر ، واتسمت البحوث والحوار ، بالانفتاح والعمق والمودة . وسوف تقوم « جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية » باسبانيا بنشر هذه البحوث وإذاعتها ، لتمكين أكبر عدد من المسلمين والمسيحيين ، من التعرف على جو المؤتمر ، وما دار فيه .

وفى ختام هذا اللقاء التاريخى ، يسر المؤتمر أن يتقدم إلى العالمين الإسلامي والمسيحى وكل محبى السلام ، بالتوصيات التالية التى وافق عليها المؤتمر :

١ — إقامة تعاون إسلامي مسيحى ، لتأكيد الإيمان بالله ، وتعميق القيم الدينية والإنسانية ، وقصر دراسة الخلافات العقائدية على مجالات التخصصين ، مع الاحترام المتبادل بين الجانبين .

٢ — الدعوة إلى تأليف فى حقل العقيدة ، يتعاون فيه متخصصون من المسلمين والمسيحيين ، لنشر الحقائق الداعية إلى الإيمان .

٣ — تيسير تبادل سبل البحث العلمى ، والتعاون بصفة خاصة فى مجال الوثائق والمخطوطات الإسلامية والمسيحية .

٤ — تنقية المناهج والكتب الدراسية فى العالمين المسيحى والإسلامى ، من الأخطاء التى تسىء إلى أى من الدينين .

٥ — تشجيع تبادل الزيارات ، والإكثار من اللقاءات ، وتوسيع دائرتها بين المسلمين والمسيحيين ، لمواصلة الحوار فى الموضوعات المشتركة .

٦ — عقد المؤتمر المقبل بقرطبة بعد عامين ، لمواصلة دراسة الموضوعات التى تهم المجموعتين ، ولمتابعة إنجازات اللقاء الحالى .

٧ — الدعوة إلى إقامة مؤتمرات مماثلة فى البلاد الإسلامية والمسيحية الأخرى ؛ للتعاون على تحقيق الأهداف التى دعا إليها هذا المؤتمر .

٨ — مناشدة المسلمين والمسيحيين بأن يعنى كل منهم بنشر عقائده بين أتباعه ، والإهابة بالهيئات الدينية الإسلامية والمسيحية ، أن ترعى الوسائل الإعلامية والتعليمية والثقافية والفنية ؛ حتى لا يتسرب منها إلى المجموعتين ما يفسد خططها وأهدافها ، من تعميق الروح الدينى وتمكينه .

٩ — التعاون بين المسلمين والمسيحيين على منع ما تلاقيه الأقليات الدينية فى أى جزء من العالم ، من اعتداء واضطهاد ، والعمل على وضع حد حاسم لذلك ، إقراراً للعدل والسلام .

١٠— تأكيد الحقوق الوطنية والإنسانية للشعب الفلسطينى ، مع اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد لهذا الشعب . وتأكيد عروبة القدس ، ورفض مشروعات التهويد ، والتقسيم ، والتدويل . وإدانة الاعتداءات التى تقوم بها سلطات الاحتلال الاسرائيلى ، على الشعوب ، وعلى القدسات الاسلامية والمسيحية ، وبخاصة المسجد الأقصى . والمطالبة بإطلاق سراح جميع المعتقلين ، لا سيما رجال الدين الإسلامى والمسيحى . وتأييد النضال العادل للشعب الفلسطينى . والمطالبة بتحرير جميع الأراضى العربية المحتلة .

١١— اعتبار الآثار الإسلامية والمسيحية فى العالم ، تراثاً إنسانياً ينبغى الحفاظ عليه ، والإشادة بالمنجزات التى قامت بها إسبانيا فى هذا المجـــال ، والمأمول أن تواصل العمل لتحقيق مزيد من النتائج .

١٢— تأليف لجنة مشتركة دائمة لمتابعة تنفيذ توصيات المؤتمر .

ومن الحق فى ختام هذا اللقاء ، أن يتقدم المشتركون فيه ، بعميق الشكر والعرفان بالجميل ، لكل من يسر إقامته ، ويخصون بالذكر جميع المسئولين فى إسبانيا ، وفى قرطبة بصفة خاصة ، دينيين ومدنيين ، مع الإشادة بالروح الطيبة التى فتحت مسجد قرطبـــة الكبير للمسلمين لأداء الصلاة .

قرطبة { ٢٨ من شهر شعبان سنة ١٣٩٤ هـ
١٥ من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٤ م

المـؤتمر السابـع للمستشرقين
المختصين بالدراسات العربية الاسـلامية
بـالمـانيا الاتحـادية

د • اصان عباس
جوتنجن ـ المانيا الاتحادية

عقد المؤتمر السابع للمستشرقين المختصين بالدراسات العربية والاسلامية فى مدينة غوتنغن بالمانيا الاتحادية ، بتاريخ 15 ـ 22 أوت 1974 ، حيـث القيـت المحاضرات فى احـدى القاعات التابعة لجامعة غوتنغن . وقد دعـى الى المـؤتمر عدد كبير من العلماء يناهز المائة والعشرين ، قام من بينهم سبعة واربعون عالما بالقاء ابحاث أعدوها وكان الموضوع الرئيسى هو « نقل علوم الاوائل الى الحضارة الاسلامية » •

وقد خصصت الجلسات الصباحية للابحاث التى تدور حول هذا الموضـــوع الرئيسى ، اما الجلسات المسائية فالقيت فيها دراسات مختلفة تقع خارج نطاق الموضوع المذكور • وكان المؤتمر دقيق التنظيم ، والبحوث فيه ـ على وجه الاجمال ـ ذات مستوى جيد • ولكن المناقشات التى كانت تدور عقب كل محاضرة كانت جزئية موجـــزة لا تتعدى احيانا بعض التعليقات الهامشية ، ولعل السبب فى ذلك تباين حقـول التخصص وتباعدها .

ولما كان الموضوع الرئيسي للمؤتمر انما يمثل أثر الثقافة الكلاسيكية في تاريخ الفكر الاسلامي فقد كثرت البحوث التي تتناول الفلسفة والطب والحيوان والفلك ، ومن امثلة ذلك بحث عن « ما رد به نصير الدين الطوسي على الشهرستاني في نقده لابن سينا » للاستاذ ولفرد مادلونج من جامعة شيكاغو . وبحث عن « أثر الفكر السياسي الفارسي في مسالة الخلافة » للاستاذ شبولر من جامعة همبورغ • كذلك القى الاستاذ مرتوك من جامعة غلاسكو بحثا عن مختصر لكتاب في الحيوان منسوب الى ثمسطيوس مقارنا بينه وبين نص ارسطوطاليس في الموضوع نفسه . وتناول الاستاذ المان من جامعة غوتنغن كتاب تاريخ الامراض لروفوس الافسوسي •

اما بحوث الجلسات المسائية فقد تعددت موضوعاتها وتباعدت ولكن من اللافت للنظر كثرة المحاضرات التي تناولت موضوع الدين بعامة والتصوف الاسلامي بخاصة ؛ فكان هناك بحثان في الجهاد وبحث في « الارجاء » ورابع في تطور لفظة « الغلاة » ودلالتها . وخامس في مكانة « القراء » في صدر الاسلام • وقد تناول الاستاذ حامد ألغار من جامعة بركلي الحديث عن « الذكر الجهري والذكر الخفي » في الطريقة النقشبندية ، وتحدث الاستاذ باليون من جامعة ليدن بهولندة عن النظرات الاخلاقية لدى شاه ولي الله دهلوي والقى الاستاذ نظيف خوجا من جامعة همبروغ بحثا عن « كتاب مشرب الارواح » لروزبهان البقلي وقدم الاستاذ دي يونغ من ليدن بحثا عن «المشايخ البكرية وتحول سلطانهم في مصر الحديثة » •

فاذا تجاوزنا البحوث المتصلة بالدين وجدنا دراسات اخرى في اللغة والتاريخ والآثار • وتجدر الاشارة هنا الى ان اليوم الاخير من ايام المؤتمر كان مخصصا في الاكثر للدراسات المتصلة بالادب الحديث؛ وكان من ابرزها واكثرها امتاعا بحث القاه الاستاذ بيير كاكيا من جامعة ادنبره حول « القصة الشعرية في الادب الشعبي المصري » وقد رافق المحاضرة تسجيلات صوتية لنماذج من تلك القصص • وقد لفت الاستاذ استيفان فلد من جامعة امستردام اهتمام الجمهور بموضوعه الجديد الجريء في مثل هذه المؤتمرات وهو « الانسان الفلسطيني في آثار غسان كنفاني الادبية » • وقد خلص الاستاذ فلد في بحثه هذا الى ان صورة الفلسطيني في قصص غسان سارت في خط تطوري مواز لتطور القضية الفلسطينية نفسها • ففي المرحلة الاولى يتخذ الفلسطيني صورة البريء الذي يقتل رغم براءته . بينما يمثل الاسرائيلي تجسيدا للرعب الرهيب . ومما يمثل هذه المرحلة قصة « ورقة من الرملة » و « رجال في الشمس » • وفي المرحلة الثانية التي تمثلها

قصة « ما تبقى لكم » يجد الفلسطيني والاسرائيلي ان كلا منهما يتحدث بلغة لا يفهمها الآخر ، وان لا سبيل الى أى تفاهم ، وتجيء مرحلة ثالثة تمثلها قصة « ام سعد » و « عائد الى حيفا » ، وفى هذه المرحلة يتم الحديث عن الفلسطينيين من زاويـة شبه طبقية تفرق بين الاغنياء والفقراء ، كما ان الاسرائيلي فى القصة الاخيرة يصبح نوعا ما ذاوجه انسانى ٠

وقد كانت البحوث والمناقشات تلقى باللغة الالمانية أو الانجليزية أو الفرنسية ٠ ولاحظ كثير من الحاضرين قلة عدد العناصر التى دعيت لحضور المؤتمر من بين العلماء العرب ، وهذه مسألة طرحت للمناقشة فتباينت حولها الآراء ولم يتخذ فيها قرار حاسم ٠ والحق انها ظاهرة تستحق مزيـدا من العناية ، اذ لا بد من ان يكون هناك تعاون وثيق بـين الباحثين الشرقيين والمستشرقين فى موضوعات تهم الفئتين ، لتتضافر الجهود فى خدمة الدراسات العربية والاسلامية ٠

مؤتمر السكان العالمى
بوخارست

شهد العـالم هـذه السنة ثلاث مؤتمرات دولية مختلفة فى اتجاهاتها واهدافها وانقسم فيها العالم الى فريقين متصارعين ، الدول النامية ومعها الدول التقدمية والاشتراكية والدول الصناعيـة الرأسمالية ومن هم فى فلكها وفى مقدمتهـا الولايات المتحدة الامريكية ٠ وكان أول هـذه المؤتمرات مؤتمر الامم المتحدة الذى عقد فى ابريل (نيسان) الماضى لبحث موضوع المواد الاوليـة ، وعلاقات الدول النامية مع الدول المتقدمة صناعيا واعادة النظر فى النظام الاقتصادى الـدولى ، والثانى مؤتمر الامم المتحدة لقانون البحار الذى عقد فى كراكاس لبحث موضوع الثروات المائية وقضية المياه الاقليمية للدول وحقوق الدول غير الساحلية فى البحار ٠

والثالث هو مؤتمر السكان الذى عقد فى بوخاريست من 19 الى 30 اغسطس الماضى • ولقد جسدت المؤتمرات الثلاث حقيقة الصراع بين المستغلين (بالفتحة) والمستغلين (بالكسرة) فى هذا العالم المتصارع •

وقد جاء مؤتمر السكان العالمى فى بوخارست اكثر جدية فى المواجهة بين النظريتين المتعارضتين لمستقبل البشرية • وقد حضر المؤتمر كل من افغانستان ـ الجزائر ـ الارجنتين ـ استراليا ـ النمسا ـ البحرين ـ بربادوس ـ بلجيكا ـ بوتان ـ بوليفيا ـ بوتسوانا ـ البرازيل بلغاريا ـ بورما ـ بوروندى ـ الاتحاد السوفياتى ـ الكاميرون ـ كندا ـ افريقيا الوسطى ـ تشاد تشيلى ـ الصين ـ كولومبيا ـ الكونغو ـ كوستاريكا ـ كوبا ـ قبرص ـ تشيكوسلوفاكيا ـ داهومى كوريا الديمقراطية الشعبية ـ اليمن الديمقراطية ـ الدانمارك ـ الدومينيكان ـ الاكوادور ـ مصر السلفادور ـ غويانا ـ اثيوبيا ـ فلندا ـ فرنسا ـ الغابون ـ المانيا الديمقراطية ـ المانيا الاتحادية غانا ـ غواتيمالا ـ غينيا ـ غينيا بيساو ـ هايتى ـ هندوراس ـ هنغاريا ـ الهند ـ اندونيسيا ايران ـ العراق ـ ايرلندة ـ اسرائيل ـ ايطاليا ـ جمايكا ـ اليابان ـ الاردن ـ كينيا ـ جمهورية الخمير ـ الكويت ـ لبنان ـ ليسوتو ـ ليبريا ـ ليبيا ـ لو كسمبرغ ـ مدغشقر ـ مالاوى ماليزيا ـ مكسيكو ـ موناكو ـ منغوليا ـ المغرب ـ نيوزيدنده ـ باكستان ـ بنما ـ بيرو ـ باراجواى ـ الفليبين ـ بولندا ـ نزرلاند ـ البرتغال ـ قطر ـ الجمهورية الكورية ـ جمهورية فييتنام ـ رومانيا ـ السنغال ـ سيراليون ـ سنغافورة ـ الصومال ـ جنوب افريقيا ـ سيريلانكا ـ السودان ـ السويد ـ سويسرا ـ سوريا ـ تونس ـ تركيا ـ اوغندا ـ اوكرانيا ـ الامارات العربية ـ تانزانيا ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ بريطانيا ـ الاورجواى ـ يوغوسلافيا ... بالاضافة الى عدد كبير من المنظمات الدولية وحركات التحرير العالمية .

اهداف المؤتمر

حددت الامم المتحدة سنة 1974 كسنة السكان العالمية وتتلخص اهداف هذه السنة فى الآتى :

أ ـ زيادة المعرفة والمعلومات عن الحقائق المتعلقة باتجاهات السكان ومخططاتها المستقبلة والعوامل المرتبطة بهذا الموضوع •

ب ـ رفع درجة الوعى والتقدير فيما يتعلق بمشاكل السكان وما يرتبط بها عن طريق الحكومات والهيئات غير الحكومية والمؤسسات العالمية ووسائل الاعلام ٠

ج ـ توفير المواد التعليمية الفعالة عن السكان ، حياة الاسرة والوظائف الانجابية عن طريق الاجهزة الرسمية والاجهزة التعليمية الاخرى ٠

د ـ تشجيع المناقشة والتفكير فيما يتعلق بالسياسات البديلة واذكاء الاختبارات الديمغرافية فى تخطيط التنمية ، وكذلك تنمية السياسات والبرامج فى المجال السكانى مما قد ترغب الحكومات فى ممارسته ٠

هـ ـ توسيع نطاق التعاون الدولى المجالات السكانية وتوفير المعونات الفنية المتزايدة والمناسبة للدول الراغبة فيها وطبقا لاحتياجاتها ٠

ولهذا فقد تقدمت الامم المتحدة بمشروع خطة عمل عالمية للسكان تتضمن المبادىء والارشادات من أجل السياسات والنشاطات السكانية ، وقد اهتمت هذه الخطة بشكل رئيسى بالسياسات والاجراءات التى تؤثر على المتغيرات السكانية ,كالتوالد وانشاء الاسرة ، والامراض والوفيات والتوزيع السكانى والهجرة والبنيان السكانى ٠الا ان جدول اعمال المؤتمر كان اوسع من هذه الخطة بحيث شمل البحث اتجاهات السكان الحالية وتطورها فى المستقبل ، والعلاقة بين التغير السكانى والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ،والعلاقات بين السكان والموارد والبيئة ، والسكان والعائلة ، والسكان وحقوق الانسان ٠

دوافع المؤتمر

تعود الدوافع الحقيقية لهذا المؤتمر من التخوفات التى نشأت منذ عام 1800 عندما رفع مالتوس الحجاب عن نظريته الديمغرافية المشهورة والحلول التى نصح بها لايجاد التوازن النافع بين الزيادة السكانية والموارد الغذائية ٠ وهى النظرية التى تقول بزيادة السكان حسب المتوالية الهندسية 1 ـ 2 ـ 4 ـ 8 ـ 16 الخ ، بينما تتم الزيادة فى الموارد الغذائية حسب المتوالية الحسابية : 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 6 الخ ٠٠ الامر الذى ينتج عنه الفارق الضخم بين عظم تكاثر السكان امام الثروة الغذائية المحدودة وما يتبع هذا الاختلال من فقر وجوع ومرض وحروب ٠ ولقد دعى مالتوس آنذاك الى الحد من التوالد عن طريق التأخر فى سن الزواج وعملية العزل عند

المتزوجين وشن الحروب الى جانب ما تقوم بـــه الطبيعة من مساعدة في هذا الشان بما تصدره للبشرية من اوبئة وامراض فتاكة ٠

ولقد لاقت هذه النظرية صدى واسعا لدى الدوائر والانظمة الاستعمارية الامبريالية فيمـــا بعد ، ومبررا للتشديد من قبضتها على مناطـق استعمارها واستغلالها على نطاق العالم ٠ ومما لا شك فيه فقد تصدت لهذه النظرية النظريـــات التقدمية فى التحليل العلمى لاسبـــاب الفقـر والجهل والمرض على النطاق الدولى وعرضت بطريقة موضوعية الاسباب الحقيقية لتمسك المعسكـر الامبريالى بهذه النظرية والدفاع عنها واعـادت الكرة المالتوسية الى مصدرها ، وابرزت ان العالم لم يعان من نقص الخيرات لابناء البشرية ، والارض العنصر الاساسى للانتاج لم تستغل استغلالا كاملا لصالح بنى الانسان ، بل ان الاجزاء التى جرى استغلالها حتى الآن لم تتم وفق حاجات ومتطلبات ابنائها الشرعيين ٠ فالاستغلال تقوم به قوى اجنبية تعمل بوحى من مصالح خارجية على حساب اصحاب هذه البقعة او تلك من الارض ٠ ومـن هنا بالتحديد يكمن السبب الحقيقى فى الفقر والجوع الذى يتذرع بعلاجه الآن اعداء الشعوب مـــن امبرياليين واستعماريين ورأسماليين فى هـــذا العـالم ٠

حقيقة الصراع داخل المؤتمر

حذر الدكتور كورت فالدهايم السكرتير العام للامم المتحدة فى كلمته التى افتتح فيها اعمال المؤتمر ، حذر من قرارات سياسية تطغى عـــلى اعمال المؤتمر ، الامر الذى يحرف المؤتمر عـــن اهدافه الاساسية ٠ ولقد رافق هذا التحذير جو من التخوف فى مستهل اعمال المؤتمر من انقسام يقع بين الدول النامية والدول المصنعة ٠

والدكتور فالدهايم والمتخوفون معه هم من الفئة التى تملك القدرة على الادراك بأن مشكلة السكان وطرق معالجتها على الصعيد العالمى فى ضوء حدود الاستغلال للمواد الغذائية والثروات المتاحة لا يمكن فصلها عن اصولها الاقتصاديـــة وخضوعها للنظام الاقتصادى الـدولى الراهـــن الذى تلعب الاحتكارات الرأسمالية والاستغـلال الامبريالى الدور الاساسى فيه ، ومن هنا جـــاء التحذير والتخوف مما قد وقع فعلا فى المؤتمر ٠

فقد تقدمت الامم المتحدة بمسودة خطة ترمى فيما ترمى الى تنظيم الاسرة وتحديد النسل وتخفيض معدل النمو السكانى ضمن جدول زمني يطبق بشكل كامل خلال عام 1985 . وقد أيدت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية والعديد من دول غرب اوروبا هذه الخطة بشدة الامر الذى حمل كل من الاتحاد السوفييتي والصين الى التصدى لهذه الخطة بعنف . حيث اعلن المندوب السوفييتى فى الجلسة يوم 8/20 ان المشكلة هى الامبريالية وهى المسؤولة عن الفقر فى العالم الثالث ، وليست مشكلة السكان. واكد ان الوضع السكانى يحتاج الى اصلاحات اقتصادية واجتماعية دولية . كما هاجم المندوب الصينى بشدة كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى لاثارتهما المخاوف حول انفجار السكان فى العالم . وقال ان الحل للمشكلة السكانية فى العالم يكمن فى مكافحة العدوان والنهب الذى يمارسه على شعوب العالم النامى كل من الاتحاد السوفييتى والامبريالية الامريكية وان الادعاء بأن المشكلة تكمن فى زيادة السكان الهائلة وكيفية الحد منها هو ادعاء مجانب للحقيقة وينطوى على محاولات مفضوحة للتستر على حقيقة المشكلة التى تكمن بالعدوان والنهب الامبريالى .

ان الصين التى بلغت زيادة السكان فيها بنسبة 60٪ خلال العشرين سنة الماضية قد تجاوزت هذه النسبة فى الزيادة الاقتصادية والتحسن الاجتماعى . وهذا ما يفند ويعرى النظريات الراسمالية الامبريالية حيال مشكلة السكان فى العالم . كما اعرب الكثير من وفود العالم الثالث فى المؤتمر عن نفس المشاعر التى تقدم بها مندوب الصين الشعبية .

القضية الفلسطينية فى المؤتمر

دعا رئيس الوفد الفلسطينى فى المؤتمر الدول المشاركة فيه الى وضع حد للارهاب والتوسع والعدوان الصهيونى الموجه ضد الشعب الفلسطينى .

وقال : ان الوجود الصهيونى فى المنطقة العربية اعاق التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى المنطقة . الامر الذى جعل تحقيق التنمية أمرا مستحيلا . واشار الى سياسة التجهيل والتمييز والارهاب التى تمارسها سلطات الاحتلال الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى وتماثلها مع سياسة التمييز العنصرى التى تمارسها حكومة جنوب افريقيا وروديسيا العنصرية ضد المواطنين الافارقة وان هذه السياسة فرضت التخلف فى مجالات التعليم والزراعة والصناعة على شعب فلسطين

بل انها امتدت بآثارها السيئة الى باقى الاراضى العربية الاخرى • واكد ان الحل الوحيد للمشكلة الفلسطينية هو الحل الديمقراطى وبناء الدولة الديمقراطية الفلسطينية التى تتعايش فيها جميع الاديان والاجناس بحقوق متساوية وبدون تمييز ومن هنا فان المشكلة الانسانية فى منطقتها العربية اصبحت مشكلة الكائن الانسانى وحقوق الانسان

ولقد كان لهذه الكلمة وقع كبير داخل المؤتمر الامر الذى حمله على التأكيد بأن كل حل للقضية الفلسطينية يهدف الى القضاء على حركة المقاومة الفلسطينية ولا يعترف بحقوق الشعب الفلسطينى الشرعية يجب ان يشجب •

وقال فى بيان اصدره فى نهاية اعماله بشأن القضية الفلسطينية ان القضية الفلسطينية هى مسألة أرض وليست مسألة لاجئين ويجب الاعتراف بالشعب الفلسطينى ودعم نضاله من أجل تحرير وطنه •

المؤتمر والمشكلة الاساسية

نظرا لانقسام العالم الى ثلاثة اقسام داخل المؤتمر بين مؤيد للمشروع الذى تقدمت به الامم المتحدة وبين معارض وبين مطالب بالتعديل، ونظرا للقاسم المشترك الذى يجمع بين هذه الاطراف الثلاثة فى ان أى محاولة لتخفيض معدل النمو السكانى دون ايجاد الوسائل الكفيلة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية هى محاولة عديمة الجدوى فقد جزم المؤتمر بقرار يقضى بترك كل دولة تعالج قضاياها حسب ما ترتأيه من وسائل تحقق لنفسها معها افضل النتائج على ان يعقد مؤتمر آخر لنفس الغاية يحدد موعده فيما بعد . وهكذا انتهى مؤتمر السكان العالمى فى بوخاريست كما انتهى مؤتمر قانون البحار فى كاركاس ومن قبله مؤتمر الامم المتحدة لبحث موضوع المواد الاولية وعلاقة الدول الفقيرة مع الدول المصنعة بلا نتائج لقضاياها المطروحة وارجاء البحث فيها فى دورات قادمة •

فهـــرس الـعـــدد

قيمة اللغة
في نظر بعض الأمم (1)

السيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

في مقال سابق « تعريب الامخاخ والقلوب » قلنا ان الاستعمار قد نجح لدينا الى حد كبير في المجالين العقلي والعاطفي ، وان علينا ، قبل تعريب الالسنة ، تعريب الامخاخ والقلوب . فلدينا عناصر لا تكتفي بالحكم على العربية ـ ومنتهى الحقارة احتقار الانسان للغته ـ ، بل نجدها تتجاوز هذا الى حد الرغبة في فرض عالمية الفرنسية ورسميتها على بقية اجزاء العالم . فلقد رغب مثلا طلبة جزائريون جاءوا الى المانيا للدراسة في ان يمتحنوا في الاخير ـ أي بعد سنوات من الدراسة والاقامة هناك ـ بالفرنسية !... ورفض الالمان ذلك طبعا .

وقد سمعت كثيرا من اخواننا ـ حتى من بين عناصرنا الوطنية ـ يستغربون من

(1) هذا المقال نشر في جريدة المجاهد الاسبوعية بتاريخ 1962/11/22 .

ان الالمان ، أو النمساويين ، أو غيرهم من الاوروبيين لا يفهمون الفرنسية ، ويقولون عنهم « ما اجهلهم ، كلمتهم بالفرنسية فلم يفهموا . ماذا يفقهون فى هذا البلد ؟ » . هـــذه العناصر نجدها حتى من بين أولئك الذين أقاموا فى هذا البلد أو ذاك سنوات بـدون ان يتعلموا لغتة . فهم يذكروننى ـ مع الفارق الكبير ـ بذلك الاسبانى الذى بعـد ان أقام فى كوبنهاغن سنين طوالا ولم يتعلم الدانماركية اجاب بما يأتى عن اسبانى آخـر سأله عن رأيه فى الدانماركيين : «انهم يا صاحبى كلهم أحمرة • انى فى عاصمتهم منذ عشرين سنة ولم يتعلموا منى التكلم بالاسبانية بعد ! » .

هذه الطائفة تريد « جزائر حديثة .. ذات لغة حديثة تلائم العصر » ... وبعبـارة اخرى يريدون ان يجعلونا على مستوى واحد ـ فى هذه النقطة ـ مع تلك البـلاد الـتى يسمونها « افريقيا المتكلمة بالفرنسية » مثـل ...

فاذا كانت هذه الطائفة ستتغلب فأقول ما أحلى ذلك العهد ... (1) اذ كانت مدارس حزب الشعب ومدارس جمعية العلماء منتشرة خلال القطر كله رغم جميع الصعوبات ، وكانت المطالبة باللغة القومية مقرونة بالصراع من أجل مجلس تأسيسى ذى سيـــادة ، من أجل الاستقلال التام بجميع عناصره ، وكان هناك اجماع على ذلك .

وقلنا أيضا فى المقال السابق أن اللغة ليست الا الصورة الخارجية للتفكير والاحساس. الواقع انها أكثر من هذا . فهى تلك الصورة التى تعطى محتـواها لـونا ، وشـــكلا ، وقواما . فهى ذلك التيار الذى يبعث الروح فى جميع اركان الكيان الوطنى ، وذلـــك الاسمنت الذى يضمن وحدة البنيان القومى والذى بدون تلاحمه لا يمكن أن يكـــون أى كيان لامة من الامـــم .

والاسلام نفسه يعترف بهذه القيمة الجوهرية للغة • فلأن العرب كانت أمة تعتـز بلغتها وتفتخر بها • انزل القرآن بصفة اعجازية لهم ، وكان احدى معجزات الاســلام واحدى اسلحة الرسول فى التغلب على عنجهية الجاهلية .

وفى التاريخ الحديث نجد ان اللغة لعبت دورا رئيسيا فى تكوين أو انبعاث دول أو دويلات • فمعروف تعصب الفلاميين فى بلجيكا للغتهم ، وحرصهم على خلـق فروق

(1) «Que la République était belle sous l'Empire !» كما كان يقول الفرنسيون !

بينها والهولاندية الام وذلك لنسيان عهد الاحتلال . وكلنا نعرف الدور الذى كان للغة فى انبعاث الامة التشيكوسلوفاكية • فقد حاول كل من النمسويين والالمان احتقـار التشيكية واعتبارها « لهجة افضاض » . وذلك لنفى كل ماض ثقافى قومى عن هـذه الامة . وبالتالى نفى وجودها . ولا يزال النورويجيون حتى اليوم فى صراعهم مع آثـار الاحتلالين الدانماركى والسويدى فى لغتهم . فمع التآخى الكامل فى أغلب الميادين مع هذين البلدين ، ورغم القرابة الوثيقة فى اللغة الى حد التفاهم بدون دراسة أحـد منهم للغة الآخر ، نجد الاولين حريصين جد الحرص على محو الآثار اللغوية التى تذكرهم بعهد « الاتحاد » مع هذين البلدين ، بقصد اثبـات ان هناك امـة نورويجية لها لغتها ، ومميزاتها ، وذاتيتها • بل وحتى فى فرنسا نفسها نجد نوعا من هذا : الا تقاوم جريدة لوموند فى مقالات متسلسلة منذ سنين تسرب كلمات أجنبية (اوروبية) الى الفرنسية ؟ الا تنادى بالويل والثبور لمستقبل اللغة، وبالتالى للامة الفرنسية، اذا استمر هذا الوضع؟

وفى المانيا : ألم يستبدل الالمان فى عهد النازية (كاتب هذه الكلمة ليس مـن انصار النازية ولا الشيوعية) كلمات المانية خالصة بالمركبات اليونانية اللاتينيـة ؟ (الباء تدخل دائما على المتروك) • ألم يعتبر الفيلسوف الالمانى الكبير فيخته ، تلميذ كنط . اللغة – بجانب المقاومة المسلحة – عاملا ضروريا على استقلال المـانيا واعـادة وحدتها ؟ ففى كتابه « خطاب الى الامة الالمانية » . الذى هو مجموع محاضرات القاها فى جامعة برلين قبل التحاقه بالجبهة . أخذ فيخته يبرز جمال اللغة الالمانية وغناها وما لها من روعة . وكيف أن كثيرا من لغات أوروبا ما هى الا لهجات متفرعة عنها . ويبـين ما لهذه اللغة من قوة على اعادة شمل الامة الالمانية المشتتة اذ ذاك الى أكثر من ثلاثـين دويلة وولاية ، وبعث مجدها ، واثارة الشعب الالمانى فى وجه الجيوش المحتلة ، جيوش نابليون • فقد كان اعتقاد فيخته فى قدرة اللغة على رفع معنويات الامة ، واعادة وحدتها ، وتوطيد أركانها من القوة بحيث ظن أنه أدى رسالته وغادر الجامعة بمجرد انتهائه من القاء مضمون كتابه المذكور . جارا وراءه أغلب طلبته من جامعة برلين رأسا الى جبهـة القتـال .

ففى هذا الوقت رجع الصدى من بون . صدى الموسيقى الثائرة فى وجه نابليون ، موسيقى بيتهوفن الذى كان يرى أن الموسيقى أروع وأقوى تعبير . وخلد بألحانه بعض

قصائد صديقه ، شاعر الحرية والثورة شيللر ، وكانت نيته الاولى بدء سيمفونيته التاسعة بقوله : « هكذا قال شييلرنا الخالد » . هكذا يتلاقى الفيلسوف فيخته والموسيقار بيتهوفن مع الشاعر شيللر للثورة ، وتمجيد اللغة ، وحفظ كيان الامة !

نعم ان الفرنسية جميلة وجميلة جدا ، وقد تكون ضرورية لنا لمدة ، ولكنها تاتى بعد لغتنا التى ، فضلا عن انها جميلة ، وغنية جدا ، وذات تقاليد علمية ، ويعتبرها الفرنسيون أنفسهم من كبريات اللغات – فهى لغتنا • ثم ان هناك لغات أخرى لا تقل جمالا عن الفرنسية ، ونحن – فى هذه النقطة (1) ، من انصار تعدد الزوجات مثنى ، وثلاث ، ورباع ، وأكثر !

وأتوجه الآن الى حكومتنا وبعض مؤسساتنا الثقافية والشعب كله :

1 – فمن الحكومة نريد البدء بالرأس ، أى ضرب المثل من فوق : فبجانب ايجاد المدارس والمعلمين وبقية المشاريع نريد الآتى :

أ – اجراء المناقشات فى مجلس الوزراء بالعربية (اذا لم يكن الحال كذلك الآن) .

ب – تعريب الدوائر الحكومية (من الكتابة على الابواب والاوراق الرسمية الى الخطب والقرارات والبيانات الخ) (2) •

ج – تنظيم دروس عربية لمن لا يعرفها من الوزراء والموظفين . فمع كثرة أشغالهم يستطيعون أن يكرسوا جزءا من أوقاتهم لتعلم لغتهم القومية • ان سعد زغلول ، مع مسؤولياته، تعلم الالمانية وهو فى السبعين• كما ان بن غوريون البولونى المولد تعلم العبرية بعد وصوله الى فلسطين ، ومع أشغاله وكبر سنه يتعلم الآن اليونانية القديمة • وديغول تعلم الالمانية فى أسابيع – أو حاول تذكر ما تعلمه منها ونسيه منذ أكثر من خمسين سنة – ليلقى خطبه فى ألمانيا بالالمانية .

2 – من مجلس النواب زيادة استعمال العربية . فعلى من لا يعرفها منهم تعلمها بسرعة ، وعلى من يستطيع التكلم بالفصحى ملازمة ذلك • فما دام هناك مترجم فلم لا تستعمل الفصحى « وبالتنوين » ، كما يقول البعض سخرية ؟ والكلام بالفصحى – لمن يستطيع ذلك – أحسن درس عملى فى العربية لاغلب النواب وبقية المستمعين ، فسيكون عدوى مفيدة تعم الجميع • فالمسألة كلها تمرن وتعود •

(1) وفى نقاط اخرى غيرها....(2) تحقق شيء كثير من هذا ، وفى تحسن مطرد الآن .

3 ـ من الاخ وزير الدفاع منع استعمال الالفاظ الفرنسية للرتب العسكرية منعا صارما ، فتنتزع مثلا كلمة « الكولونيل » من لافتات الشوارع ، ومن الامخاخ ، ويستعمل مقابلها العربى (1) ·

4 ـ أ ـ من الاذاعة عدم استعمال بعض أسماء أعلام فرنسية لامكنة جزائرية مثل « ميزون بلانش » ، روشى نوار » الخ ، اذ أنها تؤدى الأذن بورودها فى نص عربى. لنترجم «ميزون بلانش» بالدار البيضاء (2) و «روشى نوار» (3) «بالصخرة السوداء» أو « الحجر الاسود » ، أو كما نريد ، وانما لنستعمل أسماء عربية عوضها ·

ب ـ من الاذاعة أيضا وغيرها من مؤسساتنا التخلى عن الترجمة الحرفية القاموسية من الفرنسية الى ترجمة المعنى طبقا لروح اللغة المترجم اليها . فجملة « وكان الاخ ديدوش مراد أول رئيس ولاية أن يسقط ··· » (4) تستحسن ترجمتها هكذا ! « والاخ مراد ديدوش أول رئيس ولاية استشهد » أو : « أول من استشهد من رؤساء الولايات» ، لان استعمال «أن يسقط» ترجمة حرفية غير عربية ، وكان ينبغى استعمال « سقط » (أى الماضى) ، هذا من ناحية النحو والتركيب ، فضلا عن قلة الذوق فى كلمة سقط ويسقط !

ج ـ استعمال القائم بأعمال ·· » (5) التى جرى بها الاستعمال فى جميع البلاد العربية عوض « المكلف بالمهمات » (6) التى تستعمل فى سياق آخر وبمعنى آخر · (7)

---

(1) هذا كله تم .

(2) سمى فعلا : « الدار البيضاء » .

(3) سمى « أبو مرداس » .

(4) à tomber.

(5) chargé d'affaires.

(6) chargé de mission.

(7) وامثال هذه الترجمات الحرفية ، المحرفة ، المشوهة ، المعوجة ، تسميها مدرسة B. Russel « ترجمة قاموسية » ، اى عكس الترجمة التى تحترم عبقرية اللغات le génie des langues . على انه لا ينكر احد ان الترجمة من اصعب الامور ، والالمان هم الذين يقولون ان الترجمة كالمرأة : فاما ان تكون جميلة وليست وفية ، واما ان تكون وفية وليست جميلة ! أما وفية وجميلة ... فعصفور نادر !

د ـ ترك الواو فى « الديمقراطية والشعبية » اذ أنهما بدل ، كلمتان مترادفتان لا تحتاجان الى واو العطف الذى هو ترجمة حرف العطف الفرنسى (8) ، وهو خطأ فادح فى الفرنسية ، وأفدح فى العربية .

ر ـ ترك التكرار فى « الاذاعة الجزائرية للراديو والتلفزيون » ، واستعمال « محطة الجزائر للاذاعة والتلفزة » أو « اذاعة الجمهورية الجزائرية ... » ، اذ الاذاعة هى ... الراديو ! (9)

5 ـ من فرقتنا المسرحية التمثيل بالفصحى لا بالعامية . فنظرا لاهمية دور المسرح الثقيفية وطرب شعبنا لسماع الفصحى فلنمثل بالفصحى وبها فقط ، ولنترك القشتالية (وهى ذلك المزيج العربى الاسبانى لدى الاندلسيين قبل سقوطهم) .

على أن المسؤولية الكبرى فى مسألة التعريب هذه تلقى قبل كل شىء على عاتق المثقفين بالعربية ، والعبء على الشعب كله لا على الحكومة ، ومجلس النواب ، والمؤسسات الثقافية فحسب ، وسنعود الى الموضوع .

---

(8) فكلمة « ديمقراطية » من الكلمتين اليونانيتين « ديموس » و « كراتين » أى حكم الشعب ، و «الشعبية» فى هذا الوصف تكرار له ، أى أن « الديمقراطية الشعبية » لفظ واحد مكرر معناه « الشعبية الشعبية » . واذا ما جاز هذا التكرار السمج فى اللغات الاوروبية نفسها ، التى تفرق بين اللفظتين المكررتين بحرف العطف ، واضطررنا ان نجاريهم فى هذا التكرار ، فليكن ، ولكن بدون حرف العطف فى العربية . طبعا قد يبدو هذا كله من التفاصيل ، والجزئيات ، والسطحيات ، والسفاسف ، فى نظر البعض ، ولكن ما اسخفنهم عندما يصرون على : « الجمهورية الديمقراطية والشعبية » !

بل وان لفظ الديمقراطية نفسه ، فضلا عن امشعبية ، تكرار ، لانه متضمن فى الاسم « الجمهورية » ، الذى معناه حكم الجمهور ، أو الاغلبية ، أو الشعب ، وهذا يسميه المناطقة عندنا «من باب تحصيل الحاصل» ، ويسميه الاوروبيون "Tautologie"

(9) هذا أيضا تم .



لمحة عن تاريخ العلوم عند العرب

الدكتور محمد سويسي
كلية الآداب – جامعة الجزائر

يقول الفرنسي André Servier في كتابه «الاسلام ونفسية العلم» الذى اصدره فى حدود الاربعينيات من هذا القرن : « ان المدنية الاسلامية اقل من ان يعتنى بدراستها اذ هى تقليد مشوه لمدنيتى اليونان والرومان، سقط العرب على مادتها فى الكتب السريانية فاقتبسوها دون ان يعرضوا لها بما يستحق الذكر من النقد ، لأن العربى قد اثبت ان لا طاقة له على استقصاء البحث بصورة جدية ولا قدرة له البتة على ابداع شيء من عنده ولم يتقن العرب من العلوم الا التى لا تحتاج الى عناء فى التفكير أو مشقة فى البحث وكانت سبيلها ميسورة كالتاريخ والجغرافية وما اليهما ... »

هكذا يقول وهذا ما نطالع نحن ، فنقف حيارى لانكاد نفقه امرا وتختلط السبل امامنا فما هى حقيقة الواقع ؟

اننا اذ نطالع الكتب الغربية فى شتى ميادين المعرفة نجد فيها عشرات أو قل مئات من المصطلحات العربية الدخيلة على لغاتها المتداولة بين أهل الذكر من علمائها . ففى الرياضيات نجد الالفاظ zéro المحرف عن اللاتينية zéphirum المنقول عن العربية : الصفر . و tare (تحريف الطرح) و algorithme او algorisme (من الخوارزمى) و algèbre (الجبر والمقابلة) و losange من (اللوزينج الفارسية) وفى الموسيقى gamme (من الجمع) وفى الكيميا. élixir الاكسير و alambic (الانبيق) و alcool (الكحول) و alcali القلى ونقل الى اللاتينية فى صورة Kallium واختزل فى صورة الحرف K واستعمل رمزا لاحدى القليات : البوتاس وفى الفلك alidade العضادة zénith azimut (السمت) واسماء النجوم ومجموعاتها مثل Dénébola « ذنب الاسد و Algol الغول و Aldébaran الدبران Algédi, Bételgeuse, Kokab, Algenib Véga النسر الواقع و Rigel رجل الجبار و Fomalhaut فم الحوت و Mercab مركب وفى حساب المعاملات والرياضيات التجارية chèque (صك) و aval (حوالة) و gabelle (قبالة) و douane (ديوان) الخ الخ .

نقتصر على هذا العدد القليل من المفردات ونقول : هل البعرة تدل على البعير ؟ وهل يدل أثر السير على المسير ؟ وهل يدل اللفظ العلمى على العالم القدير ؟ فيجيبنا أشهر مشاهير الاعلام فى الغرب نفسه , لا النكرات غير الموصوفة . وهذا العالم الهندسى لفرنسى Chasles صاحب النظرية الشهيرة , يذكر كتاب الجبر والمقابلة فيقول : « ان كتابا ألفه محمد بن موسى قصد المبتدئين كان معلمنا الاوحد فى الحساب والجبر طيلة عدة قرون » . وفى شأن ابى الوفاء الوزجانى يقول الفلكى Delambre « هو راصد متقن وحساب ذكى » « ويقول Chasles هو من عيون الحسابين » ويقول Arago و Mathieu فى تقرير قدماه لجامعة العلوم بباريس فى العاشرة من ديسمبر 1838 : « لقد وقف العرب على الاختلاف الثالث لحركة القمر . وقد أثبته ابو الوفاء ببغداد ستة قرون قبل أن يتسنى الى Tycho Brahé التحقق منه » . وهذا الفلكى الفذ Lalande يحشر البتانى . بطليموس العرب . ضمن من بلغ القمة فى ميدان العلم وحلقوا فى الفضاء الاعلى . ولا يتجاوز عددهم

فى نظره العشرين من الشخصيات العلمية ، وهـذا اسـم ابن سينا ينقش على بوابـه كلية الطب بباريس بجوار اسماء العلماء الاعلام من العصور القديمة والحديثة .

فمن ذا الذى سنقلـد اذن السيد Servier أم هـؤلاء الذين ذكـرنا ؟ على اننـا ، وان كان التواتر يفيد عادة القطع ، نرى أن نصرف الاهتمام الى محتوى هذا الرأى بغاية الامكان ونخلص العناية به ونتأمله ونوقع الحد والبحث عن حقيقته ونستأنف النظر فى مبادئه ، ونبتدىء فى البحث باستقراء ما بقى لدينا من آثار العلماء العرب مع العـلم ان ما بقى ما هو الا قطر من بحر وغيض من فيض ــ ومع الاشارة أيضا الى انه لا يمكننا أن نستعرض كل ما أتى به العرب من جديد فى ميادين العلم وانه من المتعذر أن يحاط به ولو احاطة اجمالية فى حديث كهذا بل وحتى فى عدة احاديث .

فسنكتفى اذن فيما يلى بلمحة خاطفـة من بعض ما وقفنا عليه من آثـار العـرب فى ميادين خاصة مـن العلوم ، ميادين الفيزياء والكيمياء وعلوم طبيعية .

آثـار العـرب فى الفيـزياء :

اشتغل العرب بالفيزياء اما مباشرة معتبرين اياها علما مستقلا لـه طرقه الخاصـة ونظرياته الذاتية واما عرضا كوسيلة لصنع الآلات الـتى يحتاجون اليها فى الرصـد الفلكى أو فى الطـب وغـيره ومن أهم هذه الآلات الاسطرلابات والارباع والموازيـن والمزاول المريا .

فنقلوا عـن اليونان مبادىء علم الحيل وتأثروا عـلى الخصوص بفلسفة ارصطوفى الطبيعيات وبرسائـل ارشميدس فى علـم التوازن ، كما وقفوا عـلى نقد يحيى النحوى لفلسفة ارسطو ، ولا سيما عنـد ذكر حركة القصـر فى القذائـف فكـان ارسطويرى ان الوسط الـذى تتحرك فيـه القذيفة انما يدفعها بواسطة قوة كامنة فيه بينمـا يصرح يحيى أن آلة القذف طاقة تختزن فى القذيفة نفسها ، وكان يقـول أيضا ان سرعـة الجسم الساقط فى الفراغ تتناهى الى سرعة قارة مناسبـة للقوة المحركة وان هذه السرعة تنخفض فى الهواء متأثرة بمقاومة لوسط ، فنقل ابن سينا هـذه النظريات وحللهـا واضاف اليها آراء طريفة .

وفى القرن الثـانى عشر الميـلادى أكـد ابو البركات البغـدادى ــ خـلافا لرأى القدماء ــ ان الفراغ موجود ، وحاول أن يفسر فكـرة يقارب مدلولها ما نسمى اليـوم

بالتسارع ـ ويذكر يوشكفيتش أن البيرونى وقف على معنى السرعة الآنية والتسارع والحركة غير المنتظمة .

ونقل العرب أيضا ما جاء فى كتب ايرن الاسكندرى من تطبيقات لرفع الاثقال ولتحويل وجهة الحركات ولصنع الآلات المتحركة تحركا تلقائيا .

ونبغ ابو الريحان البيرونى فى الرياضيات والفلك والفيزياء وعلم الحيل ونقتصر على ذكر التجارب التى قام بها بحساب الوزن النوعى لثمانية عشر عنصرا من الجواهر المعادن مستنبطا لذلك جهازا مازال يستعمل لهذا الغرض حتى اليوم ووصفه سعد الدين التفتزانى فى كتابه « شرح المقاصد » .

ويشتمل هذا الجهاز على وعاء فى شكل مخروط ناقص مصبه متجه الى اسفل فيزن البيرونى الجسم بالهواء ثم بالماء ويتمكن هكذا من معرفة حجم الماء المزاح أى حجم الجسم نفسه .

« ويجعل ، حسب قوله ، قطب الاعتبار فى الجواهر مائه من الياقوت الاكهب ، وكذلك فى الفلزات مائة من الذهب الابريز المخلص مرارا » فيجد أن وزن الزئبق المساوى لحجمه أحد وسبعون من القطب وان نسبة حجم الحديد الى حجم الذهب المتساويين فى الوزن نسبة مائة واحد وخمسون الى ثلاثة وستين » .

وانى أعدت حسابات البيرونى وقارنت بينها وبين النتائج المتعارفة اليوم فوجدت الجدول الآتى :

الجسم	الوزن النوعى بالنسبة الى الماء	الوزن النوعى المتواضع عليه اليوم
الذهب	19	19ر3
الفضة	10ر38	10ر5
النحاس	8ر68	8ر9
الاسراب	11ر44	11ر30
العفر	8ر86	
الزئبق	13ر5	13ر595
الحديد	7ر92	7ر9
اللازورد	3ر91	3ر9
العقيق	2ر50	الخ

وهذه الاعداد نفسها ودقتها تكفينا مؤونة الحكم على عمل البيرونى فى هذا النطاق العلـــمى .

وفى القرن الثالث برز الحسن بن الهيثم فى علم المناظر ، وكان هذا العلم يشمل ما يعرف اليوم بالبصريات فى مظاهرها الهندسية والطبيعية والمزاجية والنفسانيـــة ، كما يشمل عديدا من مشاكل الظواهر الجوية والفلك والفيزياء العامة .

وقصد ابن الهيثم من مصنفاته فى هذا العلم ثلاثة اغراض نقلها عنه ابن أبى اصيبعة فى « عيون الانباء » فيقول : « وأنا ـ ما مدت لى الحياة ـ باذل جهدى ومستفرغ قوتى فى مثل ذلكمتوخيا منه امورا ثلاثة ، احدها افادة من يطلب الحق ويؤثره ، فى حياتى وبعد مماتى ، والآخر انى جعلت ذلك ارتياضا لى بهذه الامور فى اثبات ما تصوره واتقنه فكرى من تلك العلوم ، والثالث انى صيرته ذخيرة وعـــدة لزمان الشيخوخة وأوان الهـــرم » .

ولعل احسن ما يمكن ان نتقدم به فى هذه البسطة الوجيزة عن اعمال ابن الهيثم ان نجعله هو نفسه ، فى مقدمة كتاب المناظر ، يعرض علينا طريقته فى البحث العلمى فيقـــول :

« ونبتدئ فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس .

ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ فى النتائج، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الاراء ...

فلعلنا ننتهى بهذا الطريق الى الحق الذى به يثلج الصدر ، ونصـــل بالتدريـــج والتلطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة الـــتى يـــزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات ...

وما نحن مع جميع ذلك برآء مما هو فى طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكنـــا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد المعونة فى جميع الامور » .

أولا : يخيل لك انك تتلو صحيفة من النثر العلمي المعاصر ؟

ثانيا : تجد شبها قويا بالطريقة التي رسمها بيكن ونيوطن للعلوم التجريبية ؟ الا تحس في بعض مقالات كلود برنارد صدى لافكار ابن الهيثم وترجيع وترديد لما كان يخالج خلده وقت البحث أو عند عملية الخلق والابداع ؟

فبهذه الطريقة تمكن ابن الهيثم من اتخاذ الموقف العلمي الصحيح من خلاف ذي أهمية أساسية كان قائما بين الفلاسفة وعلماء المناظر الاقدمين في تصور كيفية الابصار أهو بخروج شعاع من البصر الى المبصر أم هو بورود خيال المبصر الى البصر . فيقول في شأن هذا الخلاف : « ولما كان ذلك كذلك ، وكانت حقيقة هذا المعنى مع اطراد الخلاف بين أهل النظر المتحققين بالبحث عنه على طول الدهر ، ملتبسة وكيفية الابصار غير متيقنة رأينا ان نصرف الاهتمام الى هذا المعنى بغاية الامكان ، ونخلص العناية به ونتأمله ، ونوقع الجد في البحث عن حقيقته ، ونستأنف النظر في مبادئه ومقدماته » ثم توالت الاسئلة مزدحمة على فكره : هل الاضواء جميعا سواء منها المشرق من الاجسام المضيئة بذاتها أو المشرق من الاجسام المستضيئة بغيرها تمتد في الجسم المشف الواحد على السموت المستقيمة ؟

وان قيل ان الابصار يكون بورود الضوء من المبصر الى البصر فان هذا الضوء يرد من كل نقطة من المبصر الى جميع سطح البصر ، فكيف يتسنى للبصر ان يدرك المبصر باجزائه المختلفة والوانه وتخطيطاته كما هو عليه في الواقع دون ان يختلط كل ذلك بعضه ببعض ؟ وكيف يدرك البصر المبصر في مكانه خارج البصر ؟ وكيف يتسنى له ان يدرك بعده وعظمه وشكله ؟ وكيف يتسنى ان يدرك المبصر واحدا بالنظر اليه بالعينين الاثنتين ؟

وأيضا هل الاضواء جميعا تنعكس على صفة واحدة ؟ وان كان الامر كذلك فما هي الصفة العامة التي تنعكس عليها الاضواء جميعا ؟ واين يكون الخيال المشاهد وما هي صفاته ؟

هذه هي الأسئلة العديدة التي تواردت على فكر ابن الهيثم فحلها وكانت حلوله موفقة ، والهم في غالب الاحيان الى حقيقة الواقع .

ونحن نرى ابن الهيثم يعيد النظر فيما عرف من علم النور مبتدئا من البداية كان لم يسبقه فيه احد ، ناقدا المبادى ، ومتحفظا محترزا غير مندفع ولا متسرع الى تسجيل النتائج ، بل يكرر التجارب فى ظروف مختلفة ، ويتتبع الواقع بنفسه ويربط الصلة بين مظاهره وينسق نتائجه تنسيقا ، وبهذا العمل المتواصل المستمر قد انشأ ابـن الهيثم علم النور والمبصريات .

نعـم ان اقليدس قد بحـث قبله فى مظـاهر الانعكاس ، وتناول بطليموس درس الانكسار ونظـــر ارشميدس فى المـــرايا المحرقة .. الا انها كانت معـارف مشتتة ، وارشادات متفرقة لا تضمها الوحدة التى منها يتكون الهيكل العلمى ، بل ان النـــور نفسه لم يثبت وجوده كظاهرة طبيعية لها ميزاتها وخصائصها التى يكون فى الامكان قياسها وتقديرها تقديرا رياضيا ، فقد كان أصحاب التعاليم متفقين فى ان الابصـار هو بخروج شعار من البصر الى المبصر ، اى انه من الصفات الوظائفية للعين ، منها يمتد شىء حتى يلمس المبصر وذلك يتم الاحساس فيكون شأنه شأن ما يسميه علماء الاحياء فى الحشرات « قرون الاستشعار » ، بل ان ديكارت بعد ابن الهيثم بستة قرون يشبه الانسان وهو يبصر المبصرات بعينيه الاثنتين بالكفيف الذى يتحسس المحسوسات من حوله بعصوين يمسكهما فى يديه .

فكانت مزية ابن الهيثم ان اقر وجود ظاهرة النور فى ذاتها ، فالنور كائن طبيعى متميز عن سائر الكائنات قابل للدرس ، وبذلك بالفعل قد انشىء علم النـور او كمـا يسميه ابن الهيثم علم المناظر .

ثم ان ابن الهيثم لم شعث المظاهر العديدة واظهر الصلة بينها وتـدرج من ذلك الى القوانين العامة .

ومن النظريات التى اختص بها ابن الهيثم تفسيره لظاهرتى الانعكاس والانكسار ـ او الانعطاف حسب تعبـيره ـ تفسيرا حيليا ، (وهو يشبـه النور بحبات كالكـرة الساقطة على سطح مستوفهى ترجع فى الفضاء مكونة مع السطح زاوية مساوية لزاوية السقوط ، ثم يستند الى ملاحظة هى « ان الحركة على العمود اسهل واقوى وان ما كان من المائلة اقرب الى العمود كان الحركة عليه اسهل مما بعد ، فالضوء اذا صادف جسمـا

مشفا اغلظى فانه بغلظه بمانعه من النفوذ من جهة حركته ، وليست المانعة فى غاية القوة فليس يعود فى الجهة التى تتحرك منها » افليس هذا اساس نظريات فرما وهو يقنس الخاصة « بالمسافة النورية » ؟ ويقرر ابن الهيثم « ان كان جسم الضوء الطف من المخالف كان انعطاف الضوء عن استقامته الى جهة العمود ، وان كان اغلظ فالى خلاف جهته » ثم يضيف : « لنتوهم من موقع الضوء على سطح المخالف عمودا عليه فى المخالف وسطحا مستويا مارا بنقطتى مبدا الضوء وموقعه قائما على سطح المخالف يعنى على السطح المستوى المماس لسطح المخالف على موقع الضوء فيكون العمود المذكور فيه وكذا الخط الذى عليه ينعطف الضوء فى المخالف » .

أفليس ذلك هو نص قانوني من قوانين ديكارت الضابطة لظاهرة الانكسار ؟ ويعدد ابن الهيثم التجارب على المرايا الكروية أو المجسمة المكافئة ، ويدرس انكسار الاشعة على طبقات الجو ويفسر تضخم قرص الشمس قرب الافق ، ويسجل ان الشفق يبدأ وينتهى اذ كونت الشمس تحت الافق زاوية تساوى 19 درجة .

آثار العرب فى الكيمياء :

استند العرب فى البداية على ماورثوه عن اليونان من فكرة العناصر الاربعة : النار والهواء والماء والارض ، والطبائع الاربع : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وان من الاشياء ما تكون فيه هذه الطبائع بالقوة ولا تكون بالفعل فيمكن تفصيلها ومعالجتها وتدبيرها حتى تخرج من القوة الى الفعل وصار عمل الكيمياء يقصد منه البحث عن أجسام تمكن من تغيير بعض هذه الطبائع وتحويلها واظهار غيرها .

فيصف ابن خلدون هذا العمل ذاكرا ان الباحثين يتصفحون المكونات لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك ثم يشرح الاعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام الى اجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وامهاء الصلب بالقهر ؟ وفى زعمهم انه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعى يسمونه الاكسير وانه يلقى منه على الجسم المعدنى المستعد لقبول صورة الذهب والفضة مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد ان يحمى بالنار .

وكل الباحثين فى الكيمياء عالة على ابى موسى جابر بن حيان الصوفى ، وهو يذهب الى ان مواد الكون كله انما تتالف فى الاصـل من عنصر واحد ، واما سبب اختلاف المعادن بالكيفيات والالوان فهو ناشىء عن التفاوت فى مقدارى الكبريت والزئبق فيها ..

وينسب برتلوجل ابتكارات العرب فى الكيمياء الى جابر ، ولذا عرفت الكيمياء باسم علم جابر وقد ثبت ان العرب استحضروا كثيرا من المركبات التى تعد من اركان علم الكيمياء فى العصر الحديث ؟ فهم استحضروا ماء الفضة (الحامض الازوتيك) وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) وماء الذهب (حامض النيتر وهيد روكلوريك) والصود الكاوى والبوتاس (القلى ومنه جاء الرمز الكيماوى K) وروح النشادر وحجر جهنم (نيترات الفضة) والسليمانى (كلورور الزائبق) وملح البارود (نيزات البوتاس) والزاج الاخضر (سلفاط الحديد) ، ولاحظ جابـر ما يحدث من رأسب كلورور الفضة عند اضافة محلول ملح الطعام الى محلول حجر جهنم واعلن ان مركبات النحاس تكسب اللهب لونا ازرق .

آثار العرب فى العلوم الطبيعية :

واما فى ميدان العلوم الطبيعية حيث بلغ العرب شأوا فسيحا فنحن سنترك الحديث عن الطب وما يتعلق به ، اذ علو شأنهم فيه اشهر من ان يذكر ، فلنترك اذن ابا بكر الرازى وكتابه الحاوى والشيخ الرئيس ابن سينا وقانونه وابن رشد وكلياته وأبا القاسم الزهراوى وكتبه فى الجراحة والتشريح ، وابن زهر وكتابه « التسيير فى المداواة والتدبير » وابن الجزار وكتابه زاد المسافر وابن نفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى وغيرهم وغيرهم .

ويكفى ان نذكر ان العرب هم أول من اجرى التجارب الطبية على الحيوانات قبل اجرائها على الانسان للتأكد من نجاحها ، فأبو بكر الرازى هو أول من جرب مرهم الزئبق فى القرود ، واستخدم غيره القرود فى تجارب اخرى سواء فى مجال الجراحة او العلاج – وكانوا يسجلون تطورات المرض فى مشاهداتهم السريرية بكل دقة وكل صدق ومن ذلك ان Meyeppof نشر 33 مشاهدة سريرية للرازى ودرسها موضحا ما تقدم به الطب بواسطة هذه التجارب وهذه الملاحظات الشخصية ووصف الرازى عملية القدح عند الانتشار فى العين *catarac*

واهتم إبن سينا بوصف التهاب السحايا الحاد وخراج الكبد وفرق ما بينه وبين التهاب الرئة رغم قرب مواضع الا لم فيهما وجعل لكل منهما علامات تعرف به : كما انه اول من اكتشف « الطفيلية الموجودة في الانسان المسماة بالانكلستوما . وكذلك المرض الناشيء عنها المسمىٰ بالرهقان » وقد سمى ابن سينا هذه الطفيلية بالدودة المستديرة . ووصف ابن سينا داء الفيل Iasis وهو مرض يصيب الرجلين فتتضخمان .

ونذكر أيضا أبا القاسم الزهراوى (ولد فى ضواحى قرطبة حوالى سنة 403 هـ ـ 1013 م) وبرع فى التشريح . فيتعرض للتوليد والآلات اللازمة لاستخراج الجنين الميت من الرحم وكانت اخت الحفيد ابن بكر بن زهر وبنتها متخصصتين فى الامراض النسائية والولادة .

وكان الزهراوى ماهرا فى بتر الاعضاء وفى اجراء العمليات الجراحية فى البلعوم والمرى، واخترع لهذه الغاية آلة تساعده على اجراء هذه العمليات وكان بارعا فى خياطة مشفار الجراحات فى الأمعاء .

وفى القرن السابع الهجرى (XIII الميلادى) برع علاء الدين بن أبى حزم المعروف بابن النفيس فائر عملياته الجراحية فى الرئة ومراقبته لعمل القلب قد وقف على الدورة الدموية الصغرى ويمكن ان يعتبر ابن النفيس اول من عرف ميكانيكية الدورة الدموية قبل Sepvet بثلاثة قرون وقبل Colombo, Hapvey

نحن تكتفى بهذه اللمحة الموجزة المقتضبة عن آثار العرب في الطب ...

ونحن نقتصر . فى هذا الميدان . على تلاوة صحيفة حفظها لنا موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (المتوفى سنة 629 هـ / 1231 م) فى كتابه « الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر » وهذه الصفحة تدل على وضوح الفكر وزكاء الروح العلمية الحق التى جعلت اطباء العرب لا يتقيدون بالتقليد مهما كانت مكانة الطبيب المقتدى به . بل هم جعلوا همهم فى التجربة والبحث والنظر وكان ذلك سر نجاحهم واساس اكتشافاتهم . فاستفاد البغدادى من وجود جثث الموتى فى المجاعات بمصر زمن الحروب الصليبية فقام بتشريحها ووصل الى اكتشافات ذات بال لا سيما فيما يخص المفاصل وكيفية اتصالها وتناسبها واوضاعها .

وهذه الصفحة من انفس صفحات النثر العلمى ، جمعت بين الايجـــاز والدقـــة والوضوح ، يقول البغدادى : « ومن عجيب ما شهدنا ان جماعة ممن ينتمون للطـــب وصلوا الى كتاب التشريح لجالينوس فكان يعسر على افهامهم تصور القول عن العيـــان فاخبرنا ان بالمقس قريب القاهرة تل عليه رمم كثيرة ، فخرجنا اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكـاد يكون ترابه اقـل من الموتى به يحدس من يظهر منهم للعيـان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده ، فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها واوضاعها ما افادنا علما لا تستفيده من الكتـب أما انها سكتت عنها ، او لايفى لفظها بالدلالة عليه ، او يكون ما شهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس اقوى دليلا من السمع ، فان جالينوس ، وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه فان الحس اصدق منه ... فمن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل قد اطبقوا على انه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، والذى شاهدنا من حال هذا العضو انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز اصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات فى اشخاص كثيرة تزيد على الفي جمجمة باصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه ، ثم اننا استمعنا لجمـــاعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه «فلنقتصر اذن على التلميح لبعض شعب العلوم التابعة للطب العاملة على تمكينه من وسائل العلاج ، ومن اهم تلك الشعب علم النبات الذى اقتبست بواسطته الادوية المفردة من البرارى والجزائر والبحار .

ومن أشهر من كتب فى الموضوع ابن البيطار المالقى فى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى ، فوضع كتابه « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » .

ومقدمة كتاب الجامع هذا غزيرة المعنى ، متينة التركيب ، جليلة القيمة من ناحيـة التفكير العلمى ، نعدها انموذجا فذا من نماذج النثر العلمى العربى ، واليك نصهـــا وتفصيلها :

(الغرض الاول) بهذا الكتاب استيعاب القول فى الادوية المفردة والاغذية المستعملة على الدوام والاستمرار ، عند الاحتياج اليها فى ليل كان او نهار ، مضافا الى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار ، واستوعبت فيه جميع ما فى الخمس مقالات مـن كتاب الافضل ديوسقوريدس بنصه ، وكذلك فعلت ايضا بجميع ما اورده الفاضـــل

جالينوس فى الست مقالات من مفرداته بفصه ، ثم الحقت بقولهما من اقوال المحدثين فى الادوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه ، ووصفت فيها عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه ، واسندت فى جميع ذلك الاقوال الى قائلها ، وعــرفت طرق النقل فيها بذكرنا قلها ، واختصصت بما تم لى به الاستبداد وصح لى القول فيه ووضح عندى عليه الاعتماد .

(الغرض الثانى) صحة النقل فيما اذكره عن الاقدمين واحرره عن المتأخرين فمـا صح عندى بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبرة لا الخبر ، ادخرته كنزا سريا ، وعددت نفسى عن الاستعانة بغيرى فيه سوى الله غنيا ، وما كان مخالفا فى القـوى والكيفية ، والمشاهدة الحسية ، فى المنفعة والماهية ، للصواب والتحقيق ، وان ناقله وقائله عـدلا فيه عن سواء الطريق ،نبذته ظهريا وهجرته مليا ، وقلت لنا قله او قائله لقد جئت شيئا فريا ، ولم احاب فى ذلك قديما لسبقه ولا محدثا اعتمد غيرى على صدقه .

(الغرض الثالث) ترك التكرار حسب الامكان الا فيما تمس الحاجة اليه لزيادة معنى وتبيان .

(الغرض الرابع) تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عناء ولا تعب .

(الغرض الخامس) التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم او غلط لمتقدم او متأخر لاعتداد اكثرهم على الصحف والنقل ، واعتمادى على التجربة والمشاهرة حسب ما ذكرت قبل .

وبلغ علم النبات الاوج فى القرن السادس عشر على يـد القاسم بن محمد الوزير الغسانى ، طبيب السلطان المغربى السعدى احمد المنصور ، وبقى لنا منه كتاب مخطوط « حذيقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار » امتاز بمحـاولة لتصنيف النباتات كانت الاولى من نوعها .

فهو يقسم النباتات تقسيما ابتدائيا يسميه الجنس ويفرعه حسب الصفات العامة الجوهرية او العرضية للعشب ، ثم تقسيما ثانويا يسميه النوع واحيانا تقسيما ثالثـا هوالصنف .

فحسب التقسيم الاول هو يعتبر جنس الشجـر وجنس الشجـر الصغير وجنس التمناس ويعرفه بانه ليس من الشجر ولا من البقل بل يلحق الشجر الصغير كالياسمين

والنسرين . ثم ينتقل لجنس البقــل ويقول فيه « انه يتـــولد عن حبته » ويعرفه بانه « المستأنف فى كل سنـــة » ثم يفصل الغسانى الصفات العريضة التابعة للســاق والورق والثمـر .

فبالنسبة للاولى هو يميز بين جنس اليقطين « وهو نبت يفترش الارض ولا ساق له » وجنس اللبلاب المعــرش وجنس القصب وجنس الديس وجنس الكلوخ . وبالنسبة للثانية يميز بـين جنس الهدبات ، وهو مالـه اوراق مستطيلـة قليلة العرض وجنس المرتسمات ، ذات الاوراق المستديرة ، وجنس الالسن كلسان الحمل ولسان الثـور وجنس الكفوف كالخروع وجنس السيوف كسيف الذئب وبالنسبة للثالثة يميـــز بين جنس الحبوب وجنس القطانى ـ ومن الاستعمالات الطريفة فى لغة العلم ما استعمله الغسانى من صيغة الجموع فى تصنيفه للنبات ، كالشيحات والكلوخ والسعاتر والاقاحى وتلك خطوة اولى نحو فكرة الفصيلة التى جمع فيها ما تشابهت صفاته من النباتات .

ونلاحظ ان اول تأليف فى تصنيف النبات ظهر باروبا هو كتاب Deplantis الذى وضعه Andrea الايطالى حوالى سنة 1524 وطبع بفلورنسة سنة 1563

الخاتمة : فلسفة البحث العلمى عند العرب :

هذا بعض ما قدمته العربية فى سبيل العلوم وفى سبيل تقدم الفكـر البشرى ، وما الذى ذكرنا الا غيض من فيض وقطر من بحر .

على ان قيمة الانتاج العلمى عند الامم التى تنتمى للعربية والاسلام لا تنحصر فحسب فيما عسى ان وقفوا عليه من جـديد ومـا استنبطوا من اجهزة وآلات ومـا سجلوا من مشاهدات وارصاد وأماطوا عنه اللثام من اسرار الطبيعة .

بل لعل اجعل ما يجتنى من هذا الانتاج هو ما اتسم به البحث العلمى عند المسلمين من فلسفة اصيلة ونظرة عميقة للواقع ونزعة انسانية شاملة .

وفى الامكان ان نلخص هذه الفلسفة فى بعض من المبادىء الاساسية هى :

1 ـ لا يكون الحق الا ما املت التجربة انه حق :

وعلى هذا الاساس نشاهد ان العلم العربى منذ البداية ينبذ التقليد نبذا ، ولنـا فيما اوردنا من اقوال بعض العلماء شاهد واضح لامراء فيه على هذا ، فالكاشى يعلـن :

« واختصرت الطـــرق اختصارا ، مهتديا بنور الخاطر ، لا مقتديا بمسطور الدفاتر ؟ » ويصرح ابن البيطار : « فما صح عندى بالمشاهدة والنظر ، وثبت لدى بالخبرة لا الخبر ، ادخرته كنزا سريا ، وعددت نفسى عن الاستعانة بغيرى فيه سوى الله غنيا » ويضيف : « ولم احاب فى ذلك قديما لسبقه ولا محدثا اعتمد غيرى على صدقه » ، ويقول البغدادى : « ان جالينوس ، وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فان الحس اصدق منه » .

ورغم ما كان لبطليموس من صيت فى العصر القديم ، ورغم ما كان لاقليدس مـن شهرة ولنظرياته من طغيان على الهندسة اليونانية ، فان العرب لم يتتلمذوا لهما مجرد تتلمذ بل هم عرضوا جميع ما نقلوه عنهما على محك العقل وناقشوه وجربوه ــ فرصدوا وساروا فى الارض يقيسون ويحسبون ، وجمعوا نتائجهم فى « ازيـــاج لهم ممتحنة » واصلحوا المجسطى وحوروا مصادرات اقليدس جاعلين فى الشك اولى خطوات البحث العلمى او كما قال بيكن هم « جعلوا الشك بين قدمى الحقيقة » .

وان نفس قلدفنسى ما ذكره نصير الدين الطوسى والابهرى من شكوك حول مصادرة اقليدس الشهيرة الخاصة بوحدانية المستقيم الموازى لمستقيم مفروض من نقطة مفروضة خارجة عنه ــ ونحن نعلم ان هذه الشكوك هى التى ادت فى القرن التاسع عشر الى بعث الهندسات الحديثة اللا أقليدية ولا ننسى ايضا ما قام به الطوسى وابن الهيثم من تحرير لكتاب المناظر لاقليدس .

2 ــ انه لا علم الا بالعدد :

فلذا اجريت القياسات المدققة وضبطت الازياج وسجلت القيم فكانت تلك غنيمة رائعـــة لعصر النهضـــة الاوروبية وعصر غليلو وطيكوبراهه وتم تتويجها بقوانـين كبلا رونيوطن ، ويكفى ان نذكر ان فكرة المدارات الاهليلجية التى هى اهم ما بنيـت عليه قوانين كبلار ، قد سبقه اليها نـــور الدين البيتروجى بالاندلس حيث نبـذ آراء بطليموس فى صورة العالم واعرض عن مداراته الدائرية وما كان يثقلها مـن خارجات المراكز ومن افلاك التداوير ...

وهذا المبدأ هو الذى حدا ايضا بالعرب الى انشاء حساب المثلثات كعلم مستقل والى وضع ازياج الجيوب وجيوب التمام والظلال ، كما بعثهم على تصنيف المعادلات وحملهم على حلها الى نهاية الدرجة الرابعة فاستعملوا لهذا الغرض القطوع المخروطية .

3 ـ انه لا يكون العلم الا بالعمل المستمر وبالمثابرة :

ويمكن ان نتمثل لسلوك علماء العرب بصحيفة التلاوة الاسماعيلية : « وانما مثل العلم بلا عمل كمثل الشجرة بلا ثمر ، ومثل العلم بلا عمل كمثل الرعد والبرق بلا مطر ومثل العلم بلا عمل كمثل القوس بلا وتر » .

ويعلل البيرونى هذا العمل المتواصل ـ فى الفلك على الخصوص ـ بقوله : « وتلك هى عظمة هذا العلم السماوى ، وذلك هو جلاله بحيث لا يمكن ايا كان ان يلم بـه بأجمعه » .

ويقول بهاء الدين العاملى فى هذا المعنى : « قد وقع للحكماء الراسخين فى هـذا الفن مسائل صرفوا فى حلها افكارهم ، ووجهـوا الى استخراجها انظارهم ، وتوصلوا الى كشف نقابها بكل حيلة ، وتوسلوا الى رفع حجابها بكل وسيلة ، فما استطاعوا اليها سبيلا ، ولا وجدوا عليها مرشدا ودليلا ، فهى باقية على عدم الانحلال من قديم الزمان ، مستعصية على سائر الاذهان الى هذا الآن .. »

والى هذا المبدأ ترمى مقالة نيوطن اذ سئل عن الطريقة التى تم لـه بها اكتشاف قانون الجاذبية العام فاجاب : « فكرت فيه على الدوام » .

4 ـ الحكمة ضالة المؤمن انى وجدها اخذها :

فهذا الرسول الكريم صلعم يقول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وفى حديث آخر : « استعينوا على كل صناعة بصالح اهلها » ولذا تهافت علماء العرب على نقل كتـب الاقدمين مهما كان جنسهم ومهما كانت نحلتهم الدينية فنقلوا كتب اليونان وكتـب الهنود وكتب الصابئة وكتب النبط .

وهذه صفة العالم الحق ، فهو دائما متفتح قابل لمختلف الاراء قصد نقدها فما كان ذهبا ابريزا ابقاه وما كان زائفا القاه .

عند نقل المادة العلمية ، كلما امكن النقل اللغوى الاشتقاق من الاصول العـربية لا يترك العمل بهما ولا يستعاض عنهما باستعارة المصطلحات الاعجمية .

فهذا عبد الرحمن الناصر يأمر بتصحيح التعريب لكتاب ديو سقوريدس وهذا ثابت بن قرة يصلح ما ترجمه الرعيل الاول من النقلة وينبذ من تراجمهم ما كان يداخلها من الالفاظ اليونانية .

وهذا أبو الريحان البيرونى يقرر فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » ، « ان كان الاسم المنقول مشتقا يمكن تحويله فى العربية الى معناه لم امل عنه الى غيره الا ان يكون بالهندية اخف فى الاستعمال ، فنستعمله بعد غاية التوثقة منه فى الكتبة ، وان كان له اسم عندنا مشهور فقد سهل الامر فيه » .

وبهذه الطريقة تمكنت العربية تدريجيا من تأدية عامة المفاهيم العلمية ونحن ذكرنا فيما سبق بعض الصحف من النثر العلمى العربى واشرنا الى وضوح معانيها ودقـة التعبير فيها وما اتسم به من ايجاز غير مخل وربط منطقى بدون تعقيد .

اعتذر فى النهاية ان انا اطلت او مللت ، الا انى آمل ان السيد سرفييى قد لقـى جوابه وما كان عليه ان يكون عقوقا ، بل ان يرى للعرب مزيتهم على الغرب وان يعترف لهم بالجميل ولكن :

ومن يجعل المعروف فى غير أهلـه ★ يفره ومن لا يتقى الشتـم يشتم

« هذا ومن الكلمات الباهرة والحكم الدائرة والامثال السائرة ان العلوم تغور ثـم تفور فى زمان بمنزلة النبات او عيون المياه وتنتقل من قوم الى قوم ومن صقع الى صقع » افما آن لبنى العروبة ان يتناولوا المشعل من جديد ؟

ولكن الامر ليس رهين الترجيات والمنى ، « فمن لم يحتمل الم التعلم لم يذق لذة العلوم ، ومن لم يكدح لم يفلح »

عودة الأشباح المشبوهة

د. هشام بوقمرة

طلعت علينا مجلة الصدى فى عددها المؤرخ فى 26 ـ 8 ـ 1974 بمقال تحت عنوان « اللغة العربية من أصل اغريقى لاتينى » ، وهو حديث مشوش لاطروحة خطيرة قدمها السيد صالح (او صلاح) العترى امام جامعة السوربون بتاريخ 24 نوفمبر 1973 ، ثم تلقفت بعض الصحف التونسية الاخرى (1) هذا المؤلف فى تهافت غير معهود ، ربما لان اقواله صادفت هوى ، او لان ملابساتها ومراميها تنسكب بسهولة فى مجاري أخرى ، غير مجارى العلم .

ويبنى الاستاذ العترى ادعاءه على وجود « علاقة عضوية عائلية بين اللغة العربية من جهة واللغات اللاتينية والاغريقية من جهة اخرى » (2) وهو يخلص من تحليله الى التأكيد بأن « اللغة العربية وليدة اللغات القديمة من لاتينية واغريقية حسب المقاييس

الاصولية والمعنمية المعروفة الآن في ميدان الالسنة الحديثة » ثم يرى في هذه النظرية « دعوة الى محو المركبات » (؟!) عن طـريق انتماء اللغـة العربية الى مجموعة اللغات الهند واوروبية ، ويردف هذا بتقديم نفسه بطريقة لا تترك مجالا لتشكك في مراميه : « ان الناس يقولون لي انني عربي وتونسي في نفس الوقت ، والحق ان هذين المفهومين يبدو ان لي متباعدين ان لم اقل متناقضين ! بالنسبة لي ، اعتقد ان مفهوم عربي خصص للتدليل على ساكن الجزيرة العربية واصيلها (؟!) ، واما مفهوم تونسي فخلاف ذلـك تماما ، التونسي هو مجموع كل هذه الحضارات واللغات التي توالت عليه واثرت فيه ، لذلك لا يمكن ان اكون تونسيا دون ان اجرد نفسي من رواسبي العربية » ويزيد هـذا الموقف الاستفزازي حدة حين يؤكد من جديد في صحيفة لاكسيون (عدد 4 — 9) بان كلمة تونسي تنفي كلمة عربي وبأن دعاة التراث الروماني والفينيقي في تونس هم أقرب الى الحق من المتمسكين بالماضي العربي ، وان علينا ان نتـرك الشعب يتكلم لغته (؟) — اي العامية طبعا — ويعبر بها عن احلامه وآماله !

ومن المفيد قطعا ، للتعرف على المؤلف ، ان نذكر هنا ما اورده في كتابه (ص 2) من اعتزازه بأنه اشرب الثقافة اللاتينية واستوعب اللغة الفرنسية ، وافتخاره بانبناء شخصيته على جانبين ، الجانب التقليدي السلفي الذي جاءه ، من انتمائه الى العرب من جهة امه ، والجانب الرافض المنازع الذي اتاه من نسبه اللاتيني (؟) من جهة ابيه ، وهو بهذا يضع نفسه منذ البدء في موقع المنازعة والمايزة بالنسبة لذوي النسب الصريح الذين هم من ام واب عربيين .

واني اذ اطرح جانبا ما جاء في العرض الذي قدمته « الصدى » على لسان المـؤلف من افكار سطحية تارة ، ومغرضة ضيقة المنطلق تارة اخرى ، كالمعنى المتعمد الذي ينتقيه المؤلف لتفسير المفسرين لكون القرآن « كلام الله » او كالخبط الواضح في قوله بـأن « اللغة العربية اختصت بها قبيلة قريش » « او كالخلط الشنيع في قوله بأنه » بعـد نقاش طويل توصل اللغويون العرب (؟) الى الايمان بهـذه القاعدة الموضوعية التي تفرض نفسها والمتلخصة في انه هنالك لغات اخذت من نفس النبع ولها بالتالي اصل واحد اطلق عليه اصطلاحا مجموعة اللغات الكاميتو — ساميه (I) او كالافك الواضح في قوله : « اتفق اللغويون العرب (؟) على ان لغتهم لم تتعامل ابـدا مع اللغات اللاتينية والاغريقية » .

انى اذا طرحت هذا جانبا ، فاننى اجد ان الاستنتاجات الخطيرة التى يريد الاستاذ العترى ان يروجها والدعاوى العريضة التى يسعى لالباسها ثوب العلم والمواقف الحرجة التى يصبها اليوم فى بوق الدعاية ، تتطلب جميعها وقفة علمية جدية متانية .

ان الهدف الذى يسعى اليه الاستاذ العترى يتجاوز حدود العلم اللغوى ويتصل اساسا بغايات حضارية وسياسية مشبوهة عمل المستشرقون كثيرا ، والاستعمار اكثر ، لترويجها فما افلحوا .

ـ هو يريد ان يخرج اللغة العربية من اطارها الطبيعى الذى نشأت فيه بميزاتها وخصائصها ومناخها الفكرى الاصيل .

ـ وهو يريد ان يخرج الشعب العربى من انتمائه الاصيل ومن حضارته المتميزة لالحاقه بالارضية الحضارية اللاتينية الاغريقية .

ـ وهو ايضا يريد ان يشوه ويمسخ كل التراث الاسلامى وان يشكك فى اصل الاسلام ذاته ، حيث يصرح فى صفاقة غريبة بأن اثبات الاصل الاغريقى اللاتينى للغة العربية سيسمح «بارجاع الافكار الاسلامية الكبرى الى اصلها الطبيعى الذى يعود لها» !

لقد خاض المستشرقون طويلا فى هذا الامر وكان فيهم السليم النيــة كبلاشير والحقود المتحامل كلوزى ونولارس وكان هدفهم فقط ان يثبتوا وجود تسربات اغريقية الى القرآن ولكنهم لم يفلحوا جميعا فى العثور على المجارى التى سلكتها هذه التسربات المفترضة ، فأين هم من هذه الدعوى الاحادية التحطمية الجديدة !

ـ وهو اخيرا يوجه الى الشعب التونسى سبة حضارية حين يدعوه الى « التعرى » من كل رواسبة العــربية ! ليلقى به فى صحراء تيــه البحث عن اصوله الرومانية والفينيقية ، متناسيا هذه القاعدة الاجتماعية البسيطة ، وهى ان الماضى ليس له قيمة وجودية الا بمقدار تأثيره فى الحاضر المعاش وتسلله الى تكييف ملامح المستقبل .

لان العلم هو العلم ، ولانه لا يبنى الا على المعطيات الواقعية الملموسة ، كما يقــول المؤلف ، ولان قبول اطروحة دكتوراه من قبل هيئة تحكيم السوربون ـ او اية جامعة أخرى ـ لا يعنى ابدا اقتناع اعضاء تلك الهيئة بالافكار الواردة فيها وتكريسهم لها .

على عكس ما يقوله المؤلف ، فانى سأحاول مناقشة بعض مواقف المؤلف العلمية والاخلاقية ، انطلاقا من كتابه بالذات ، ومن الاستنتاجات الصريحة التى تقدم بها .

وانى لاعترف منذ الآن بالتقصير الذى قد يحوم حول الجهل ! فكتاب الاستاذ العترى ليس كتاب القارىء العادى ، بل ليس كتاب صاحب الاختصاص ! انه يعتمد فى كتابه على اكثر من خمس لغات ، واذا استثنينا منها العربية التى كتبها تارة بحروفها وتارة بالحرف اللاتينى فان اللغات الاخرى مكتوبة بهجائها الاصلى ، ولذلك فان على القارىء ان يعرف ــ على الاقل ــ الاغريقية واللاتينية والسريانية والعبرانية فضلا عن اللغات الحية الحديثة ، ليستطيع متابعة ادغال الاستشهادات التى يعج بها الكتاب .

ثم ان الكتاب ليست له اية خاتمة واضحة يجد فيها القارىء زبدة آراء المؤلف ونظرياته ، على غير ما هو معهود فى الرسائل الجامعية ، وانما على القارىء ان يطلبها هنا وهناك متناثرة متشتتة ، الامر الذى يحد من امكانية الاستفادة من هذه الاطروحة ، ويجعله يجد الالتجاء الى ما نشرته الصحافة اوفق واجدى .

ومع ذلك فان القارىء ، ما ان يتجاوز الصفحات الاولى من الكتاب ، حتى يرى بجلاء ان مفتاح عقلية المؤلف يعتمد على مغالطتين ، اولاهما التعميم المطلق على اساس جزئيات غير مسلم بها ، وثانيهما انتقاء الموقف الذى يجده اصلح لجدله والصمت المطبق عن المواقف العلمية الاخرى التى لا تخدم مراميه . واصلح مثال نأخذه على هذا ، قبل ان ننتقل الى غيره من المواقف العلمية ، هو تناوله لتقييم اعمال السلف فى هذا المضمار .

تقييم أعمال السلف :

انى لا ادعى للسلف العصمة ! ولكن الخدمات العلمية التى قدموها يجب ان تدرس فى اطارها الصحيح ومعطياتها الموضوعية ، فلا يركب الخلف الغرور ، وينسب الى الاولين جميعا ما هو الا رأى طائفة أو فرد ، وبما ان العرف العلمى يقتضى من الدارس ان يستعرض آراء سابقيه ، فان الاستاذ العترى يخصص بعض الصفحات فى أول كتابه، لطرح القضية التى يريد درسها وتقييم أعمال اللغويون العرب ، مؤكدا وبالحصر على علماء اللغة من السلف ، متجاهلا الدراسات الحديثة المتعددة التى صدرت فى هذا الميدان ، وهكذا يجد المؤلف (كتابه ص I ــ 4) :

أ ـ ان اللغة العربية لم تدرس فى الماضى الا من جهة نظر داخلية ، اغفلت الظروف الخارجية التى عملت على نشأتها وحددت تطورها ، فكان من ذلك ان جعل العلماء من اللغة العربية شجرة تستقر عروقها فى السماء وتخفق اغصانها على الارض • وتعود مسؤولية هذه الوضعية الشاذة الى علماء اللغة العرب والى المستشرقين الذين رأوا فى اللغة العربية لغة الهية ذات اصل سماوى ومنشأ غيبى « فبما ان القرآن كلام الله ، فلا يمكن ان يكون فيه لفظ اجنبى ـ السيوطى ـ كتاب الاتقان » .

ب ـ ان العلماء العرب لم يدرسوا المعرب والدخيل الا بالقياس الى اللغات المجاورة ، وقل ان تعرضوا الى الاغريقية واللاتينية ، كما لو ان الشعوب الناطقة باللغة العربية لم تعرف ابدا لغة أخرى غير العربية (!) أو انها لم تكن تعرف ابدا مركز ثقافة غير ثقافة الاسلام ، هذا والحال ان المناطق التى تتكلم فيها العربية اليوم قد كانت فيها اللغة اللاتينية واللغة الاغريقية ليست لغة ثقافة فحسب وانما أيضا لغتين اداريتين ورسميتين .

هكذا يعرض المؤلف مسؤولية علماء اللغة العرب ، أى جهود أحدى عشر قرنا من البحث اللغوى ، فى « الوضع الشاذ » الذى بقيت فيه دراسات اللغة العربية ، ليبرز مقابل ذلك ، فى جريدة لاكسيون ، شجاعته فى الانقضاض على هذه « المسلمات المعصومة المقدسة » ! والواقع العلمى ليس بهذا فى شىء •

ان القضية الاولى التى يشير اليها المؤلف معروفة فى الاثار العربية بأنها قضية اللغة ـ لا اللغة العربية بالذات ـ أهى وحى وتوفيق من الله ، أم اصطلاح وتواطؤ بين الناس ؟ وقد خصص لها السيوطى فى كتابه « المزهر » فصلا طويلا جمع فيه أغلب آراء المنادمين .

ـ فمن القائلين بالوحى ـ أى الاصل الغيبى للغة ـ المحدث والمفسر ابن عباس الذى استند الى قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » . وقد شرح رأيه ابن فارس وجمع من المفسرين والمحدثين ، واورد السيوطى احتجاجات اصحاب التوقف المختلفة .

اما الاصوليون فقد طرحوا الموضوع بجد ليتهم المنطقية المعروفة ، ولخص الامام فخر الدين الرازى آراءهم فى كتابه « المحصول » على الشكل التالى : « الالفاظ اما ان

تدل على المعانى بذواتها أو بوضع الله اياها أو بوضع الناس أو بكون البعض بوضع الله والباقى بوضع الناس » . وقال الرازى : « ان المحاقين متوقفون فى الكل » الا فى المذهب الاول القائل بأن الالفاظ تدل على المعانى بذواتها ، فانهم يرفضونه لانه ينفى بعضه بعضها .

اما اللغوى الشهير ، ابن جنى ، فقد قال فى كتابه : « الخصائص » بأن « أكثر أهل النظر على ان اصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح ، لاوحى وتوقيف » .

بل ان ابن جنى يذهب فى تصوره لكيفية وقوع هذا الاصطلاح بين الناس الى ما يقارب النظريات اللغوية الحديثة المسلمة ، حين يقول : « هو من الاصوات المسموعات ـ أى محاكاة المحيط ـ وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

اذن :

ـ لم يتناول علماء اللغة وحدهم هذه القضية بل تناولها الاصوليون والمفسرون لارتباطها بالقضايا الكلامية المتصلة بالقرآن .

ـ ان القول بالاصل الغيبى السماوى للغة هو قول طائفة قليلة من المفسرين الظاهريين .

ـ ان الاغلبية الساحقة من علماء اللغة ، ومن أهل الاصول أيضا ، يقولون بأن اللغة اصطلاح ، اى من وضع الناس ، وليس لها أى منشأ غيبى .

ـ ان القضية أساسا تتصل باصل اللغة كوسيلة للتعامل ، وليس باصل اللغة العربية أو لغة قريش ، كما يريده الاستاذ العترى !

واريد ان اسجل هنا الحيرة التى يتخبط فيها العلماء القائلون بالمصدر الغيبى للغة ، فهم يتساءلون فى أول الامر عن اصل اللغة من حيث هى وسيلة تعبير واتصال ، الا عن اصل اللغة العربية أهى غيبية أم اصطلاحية ، وهم يعلمون انهم فى نهاية المطاف سينتهون الى منطلقهم من ان القرآن « كلام الله » نزل باللغة العربية ، وهى نهاية مضنية على العقل ، لا يتحملها الا التصور السلفى الظاهرى ، ولذلك تراهم يلوكون حججهم لوكا ويبتسرونها ابتسارا ، فى غير ما قناعة عقلانية ، بل انهم لا يؤكدون بأن

لغة القرآن ، أى لهجة قريش هى التى وقع عليها التوقيف بالوحى (انظر مثلا تحليلا طويلا للزركشى فى المزهر ج 1 ص 27 وما بعدها) .

بعد كل هذا يمكن لباحث نزيـــه ان يواصل بنـــاء الصروح النظرية على مثـــل هذه الانتقاءات المبتورة والتبسيطات الاستشراقية التى لا نعبأ بها فى كتب ذوى المعرفة المحدودة باللغة العربية أو الاغراض الاستفزازية ؟ ان نظرية الاصل الغيبى للغـــة العرسية هى من أوهى النظريات واقلها رواجا بين العلماء العرب ، وهى أيضا مـــن المواقف التى دخلت بصورة نهائية فى متحف النسيان لدى المشتغلين بهذا العلـم ! لكن الاستاذ المعترى حريص على ان ينفض عنها غبار النسيان ، وان يجعل منها حصيلة الفكر اللغوى العربى ويبنى على ذلك وضعا شاذا (وضع من ؟) .

اننى لم أعرف من قبل رجلا افلح فى تتبع هنات المستشرقين ومن لف لفهم ، وانتقاء سقطاتهم واشاراتهم المبطنة واستنتاجاتهم الملتوية ، ثم حشوها فى كتاب ليجعل منها معطايات علمية ومسلمات منطقية !

التعامل مع السلف ، أى مع التراث أى مع الجذور الحضارية للواقع المعاش يتطلب نوعا من الأخلاقية العلمية التى تفترض :

ـ ان لا نزيف مواقف السلف سواءا بالسلخ أو بالبتر أو بالمسخ أو بالتعظيـم والقدسيـــة .

ـ ان نضعها فى اطارها الحضارى فلا نسلط عليها من المقاييس ما لا تطيقه ، ثـم عند تقييمها لنا الحق فى ان نحكم على بعضها بأنه اثرى لارتباطه بمعطيات موضوعيـــة اندثرت ، وأن نستبقى منها الرصيد الوعائى الذى يمكن ان يخـدم الاستمـــرار فى نظرتنا الفلسفية والحضارية للمستقبل .

ـ وعلى أية حال يتطلب العلم فى كل موضع ان لا ننتقى من النظريات تلك التى تبدو اسهل امتطاء ، لبلوغ هدف محدد سلفا .

وهذا ما لم يفعله الدكتور العترى .

الموسيقى الكاملة

السيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

نقدم اليوم للقراء ، وخاصة للطلبة ، هذا الكتيب عن تعليم المبادىء الاولية للموسيقى الكلاسيكية العالمية للدكتور حكيم بن عطية ، مدير المعهد الموسيقى البلدى للعاصمة ، بالعربية والفرنسية ، وهى أول محاولة فى الجزائر فيما نعلم .

وقد حان الوقت لنا أن نعلم هذه الموسيقى لشبابنا فى المدارس بلغتهم • وبدأنا فعلا بتدريسها فى بعض ثانويات التعليم الاصلى • وتعميمه على جميع المدارس متوقف فقط على وجود الاساتذة بكفاءة وكفاية .

(I) مقدمة لكتاب عن الموسيقى للدكتور حكيم بن عطية ، مدير المعهد الموسيقى للجزائر ورئيس الغرفة السيمفونية الجزائرية ، سيصدر قريبا تحت عنوان : مبادىء أولية فى النظرية الموسيقية .

ونظن ان هذا الكتيب سيساعد الى حد كبير على تعميم هذا التعليم وادائه الدور المنتظر منه فى تربية الذوق ، وشحذ الحس ، بل والخلق أيضا .

وذلك ان هذه الموسيقى ، اذ تمتع العقل والروح معا ، ترهف الحس ، وتربى الذوق ، بل وتعالج الجسم أيضا ، حيث اصبحت اليوم تستعمل أكثر فأكثر فى مستشفيات وعيادات البلدان المتقدمة لا فى العلاج النفسانى فحسب ، بل وفى العلاج الجسمانى أيضا ، طبقا للنظرية الطبية القائلة بأن كثيرا من الامراض التى كان يظن حتى الآن (1) انها جسمانية بحتة هى فى الواقع ذات طابع مزدوج ، نفسانى ـ جسمانى (psychosomatique) ، تعالج ككل بهذه الموسيقى فى عدة بلدان أوروبية ، منها على الخصوص جمهورية ألمانيا الاتحادية ، والنمسا ، والجمهورية الديمقراطية الالمانية . (2)

ثم ان هذه الموسيقى ليست من ذلك النوع المخدر للاعصاب والنفوس ، أو المهيج لها ، ولا من ذلك النوع الذى يبعث على الانحلال الخلقى ، كتلك الدندنة التى تتغنى بالخمر ، والغلمان ، وتذهب فى غلامياتها الى وصف « قده » ، و « خده » و « ثغره » ، الخ ٠٠ الخ ٠٠ من كلام أقذع من هذا بكثير وأفظع ، من تلك السخافات التى عجلت بفقدان الاندلس ، وتمييع الأوساط التى تسمى بـ « العليا » فى نظر بعض السذج والقوم التبع !

فالموسيقى الكلاسيكية العالمية فى أغلبها ولدى أساطينها هى موسيقى تهذيب النفس ، والسمو بالروح والعقل ، وترسيخ القيم الخلقية العليا على كل من المستويين الفردى والوطنى ، بل والعالمى .

ويكفى أن نذكر بعض الامثلة فى هذا المجال .

ففى أسود لحظات مقاومة الروس فى ستالينغراد للحصار الخانق الذى احاطت به الجيوش الالمانية المدينة ، كانت الفرقة الفيلهارمونيكية الروسية فى هذه المدينة تعزف السيمفونية التاسعة لبيتهوفن الالمانى ... التى يتغنى فيها العبقرى الخالد بقدرة الانسان على الخروج من أضيق المسالك ، ويشيد فيها بانسانية الانسان !

واذا ما تذكرنا ان الموسيقار الخالد كتب فى مذكراته ، وهو يؤلف سيمفونيته الخالدة هذه بتأثير صديقه الشاعر الثورى المعروف شيللر ، ما يلى : « **آه ، يا لها من**

(1) وان كان ابن سينا والرازى خاصة قد نبها الى هذه الطبيعة المزدوجة للمرض منذ اكثر من الف سنة !

(2) W.J. Revers, G. Harrer, W.C.M. Simon : « Neue Wege der Musiktherapie. Grundzuege einer alten und neuen Heilmethode ».

تعاسة ! انى لاتضور جوعا ، ولم اذق طعم الخبز منذ ستة أيام ! » أدركنا القمة الروحية التى كان عليها ، وهو ينظر من أعلى بكل سخرية واحتقار الى المتاعب المادية العارضة التى لا ينبغى أن تجر الى منزلقاتها وحضيضها النفس الابية الشماء ، المتعالية على المادة العمياء الصماء !

أليس هو الذى كتب مرة يقول : « **ان الموسيقى هى وحى أعلى من كل فلسفة ، واعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى يتحرر من كل المحن التى تثقل كواهل الآخرين !** » ؟ (1) .

وهو نفس بيتهوفن الذى ظل يردد تلك العبارة المشهورة لاستاذه الروحى الفيلسوف كنط : « **هناك شيئان هما أعظم ما فى الوجود : السماء المتلئلئة بنجومها فوقى ، والقانون الاخلاقى فى ضميرى !** « der bestirnte Himmel ueber mir und das moralische Gesetz in mir ! ».

وهو نفس بيتهوفن الثورى الذى قال فى سياق من السياقات التاريخية عن نابليون الذى كان جاثما على مسقط رأسه ، بون : « **انما أنت دكتاتور مثل الآخرين ، تدوس حريات الشعوب !** » وترك لنا بهذه المناسبة رائعة من الروائع الخالدة فى تمجيد الحرية سماها البطلة : « Eroica » ، **وهى زمجرة ضد الاحتلال ، ونداء الى الكفاح التحريرى ، بعد أن كان يود اهداءها الى نابوليون !**

وهو الذى رفض وظائف عديدة عرضها عليه جيروم بونابرت ، اخو الامبراطور وملك كاسل ، وملك بروسيا ، وامبراطور النمسا ، وآخرون ، وهو فى صميم الفقر والبؤس ، مرددا عنهم جميعا : «أمراء ، وملوك، وأباطرة، وقياصرة ... وجدوا، يوجدون، وسيوجدون ، أما بيتهوفن فليس هناك الا واحد ! » .

وكان يردد فى هذا السياق شعاره المعروف : « **أحب الحرية فوق كل شىء ، ولا تنكر الحقيقة حتى أمام التيجان !** »

وهو نفس بيتهوفن الاخلاقى الذى رفض أن يساير تيار عصره ويؤلف فى أسلوب الأوبرا السائد اذ ذاك ، ولم يؤلف الا واحدا فى هذا القطاع وفى موضوع هام جدا

(1) « Musik ist hoekere Offenbarung als alle Weisheit und Philosophie ; Wem meine Musik sich verstaendlich macht, der muss frei werden von allem Elend, womit sich die Andern schleppen ».

a) Kurt Pahlen : "Musikgeschichte der Welt".
b) Romain Rolland : Beethoven.
c) Beethovenfest : Bonn - 1927.

في نظره ، وهو الوفاء الزوجي ، وسماه « فيديليو » « Fidelio » في عصر فشت فيه أوبرات تبث الانحلال والاختلال ، وطغت فيه موسيقى خفيفة مسفة تدعو الى اللهـــو ، والمجون ، والاستهانة بقيم الانسان ، في موجة عارمة شملت أوروبا ، وخاصة فيينـا التي بدأت تسودها موسيقى جميلة حقا ، ولكن في غاية الخفة والاسفاف في نظر بيتهوفن الجدي الصارم ، من نـــوع موسيقى عائلـة شتراوس (ومعنـاه بالالمانية النعامـة !) ولانر (Lanner) وخاصة روسيني ، (رأس البومة ، كما سماه بيتهوفن !) .

لقد كانت موسيقى بيتهوفن في خدمة القيم الاخلاقية العليا للانسان ، في الدفاع عن حرية الانسان ، وكرامة الشعوب ، وضد الدكتاتورية ، والاستعباد • وقل كثيرا من ذلك عن موسيقى اعلام آخرين مثل **موسورغسكي في روسيـــا ، وسميتانا ودفورجاك** Dvořak **في تشيكوسلوفاكيا ، وخوبين** Chopin **في بولونيا ، وزلطان كودالي في المجر ، وغريغ** Grieg **في النرويج ، وسيبيلوس في فنلنـــدا ، وفيـلا لوبوس** Villa-Lobos **في البرازيل ، وجورج يونسكو** Jonesco **في رومـانيا ، وآخـــرين كثيرين ،** ممن عبروا **بموسيقاهم عن كفاح شعوبهم من أجـــل الحـرية والكرامة ، وعن روحها ، وشخصيتها ، وانيتها ، وأصالتها ، على أساس موسيقاهم الشعبية ، وباستلهام تاريخهم ، من افراح واتراح ، وكان تعبيرهم في نفس الوقت روائع من الفن العالمي الخالد الذي أصبح تراثا مشتركا للانسانية كلها •**

فلندرس هذه الموسيقى اذن بعناية وجد ، وليتخرج من شبابنا مـــن يعزفونهـا ويؤلفون فيها آثارا تكون لوحـات عن كفـــاح وآلام هذا الشعب ، وآماله ومطامحه ! وليشمل ذلك الامة الاسلامية كلها ، بل والانسانية جمعاء • ولتكـن تلك اللوحات في نفس الوقت روائع فنية للتمتع والامتاع ! وليصوغوا لنا ألحانا ملائكية تعبر عن الخلـق والمبدأ ، وعن جمال البـلاد وجلالها ، ألحـانا تختلف عن الدندنة والدربكة الخليعتـين والسائدتين حاليا عندنا فيما نسميه بالموسيقى الكلاسيكية (الاندلسية) ، التي نحب ألحانها حقا ، ولكن نسخط على كلماتها ! •

وليأخذ شبابنا من كنوزنا الفنية الشعبية ، وليعطوا ألحاننا الشعبية هذه ذلك الطابع الفنى العالمى الرائع ، كما فعل الخمسة الروس (I) فى القرن الماضى ، وكما فعل بعض الذين ذكرنا فى هذه المقدمة ، وآخرون كثيرون ، وكما أخذ يفعل عندنا العصفور النادر الوحيد ، المرحوم محمد ايقربوشن ، وبدأ يواصل على دربه الدكتور حكيم ابن عطية ، مشيدين بأممهم ، وأوطانهم ، وتاريخها ، وقيمها ، وآلامها ، وآمالها ، وممتعين فى نفس الوقت للانسانية كلها !

لقد أطلت فى هذه المقدمة ، وكم كنت أود أن أطيل أكثر ، خاصة فيما يتصل ببيتهوفن الخالد ، عن قصد ، ومدفوعا فى نفس الوقت برغبة جامحة .

ولأختم ندائى هذا لشبابنا فى المدارس باعادة تلك الكلمة المأثورة التى سجلها وطبقها بيتهوفن الخالد : « ان الموسيقى هى وحى أعلى من كل فلسفة ، وأعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى يتحرر من كل بؤس يثقل كواهل الآخرين ! » .

(I) ريمسكى كورساكوف ، موسورغسكى ، بوردين ، قيصر كوى (Caesar Cui) وميلى بلاكيريف (Mili Balakirev) ، مؤسس الجماعة .

نهضة الأدب العربي

الدكتور الحاج يوليوس
عبد الكريم جرمانوس
استاذ التاريخ الحديث
بجامعة بودابيست



ان نهضة الادب العربى الحديث ، بما يتميز به من اتجاهات تختلف تماما عما كانت عليه الاعمال الادبية فى القرون الطويلة الماضية ، تعتبر خاصة ظاهرة مدهشة ولكنها تساير الوعى الوطنى والعقلى للشعوب الاسلامية بوجه عام . فبعد ان خلق الاسلام علماء خلال القرون الوسطى ، انقذ ثقافة القدماء من النسيان ،

ونقلها الى الشعوب الاوروبية التى تنبعث وشيكا من عالم الهمجية . وبهذا قدم الاسلام ولغته العربية خدمة جليلة للانسانية . ولا يعرف التاريخ نظيرا للانطلاق الفجائى والمستوى الرفيع الذى بلغه المسلمون فى العلم والادب والفن . ولكن الظروف الجغرافية والاجتماعية والسياسية والفكرية اوقفت هذا التطور الفذ فاقتصرت اللغة العربية طوال قرون على مجرد التعليقات والشروح . ولا أريد أن أتحدث عن اسباب تدهور الشعوب الاسلامية لانى سبق أن وضعت كتابا فى هذا الموضوع نشرته فى لاهور باللغة الانجليزية عام 1953 .

فعندما أضاعت الشعوب الاسلامية استقلالها السياسى ، قنعت بموقفها الى أن يقظتها حملة نابليون من سباتها العميق • وفى خلال بضع عشرات من السنين قامت اللغة العربية ، ملكة اللغات السامية والتى كانت قد اوشكت ان تموت ، فبعثت من جديد بكل امجاد ماضيها ، مزينة بكل ما حققته المدنية الحديثة ، واستطاعت ان تواجه أعداءها القدامى بكل فخار .

وقد أتيحت لى الفرصة ان اكون على اتصال وثيق بحركة التجديد والنهضة التى شملت الشرق الاسلامى . ففى فجر شبابى التحقت بكلية الحقوق فى استانبول قبل 55 عاما ، وقذفت بنفسى وقتئذ فى معارك النضال الاجتماعى للدولة العثمانية . وعاصرت البيئة الخانقة لحكم السلطان عبد الحميد ، وشاهدت الفرح الغامر بعد خلعه عن عرشه . ثم شاهدت الآلام التى كانت تعانيها الشعوب خلال الحرب العالمية الاولى ثم مولد الجمهورية التركية الجديدة ، وهى الجمهورية الوليدة التى قطعت جميع ارتباطاتها القديمة بالعالم العربى وبقية المسلمين عندما أعلنت المادية •

لقد شهد القرن العشرون تغيرات بعيدة المدى فى الحياة السياسية للشعوب جعلتها تختلف اختلافا بينا عما كانت عليه طوال القرون . تحولت ألمانيا والنمسا وروسيا وتركيا الى جمهوريات ، وحتى الصين البعيدة قد ألقت عن كاهلها عرش ابن السماء ... كل هذه الاحداث كان لها أثرها العميق فى آداب الاتراك والعرب .

ان الادب هو التعبير عن افكار الشعب ومشاعره ، وهو يصور الحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعب . وهو يتأثر تأثرا عميقا بالاتجاهات السياسية للعصر ، ويؤثر

بدوره فى اتجاه السياسة . وصورة أدب ما ، مجردة عن بيئتها الاجتماعية والسياسية هى صورة باهتة مضطربة .

وقد كان الاساس الاجتماعى والسياسى للادب العربى الحديث ، حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، يرجع الى بيئة الدولة العثمانية ، التى كانت مكونة من متعدد القوميات والديانات والعناصر والمستويات الثقافية ، والتى كان كل عنصر فيها يحقد على العناصر الاخرى . وقد كان المسيحيون من رعايا السلطان من العرب والبلغاريين واليونانيين والارمن والمارونيين يتطلعون على الدوام الى حماية حكومات أجنبية . وكانت حكومة تركيا تلجأ بين الحين والحين الى اتخاذ اجراءات عنيفة ضد الخارجين عليها من القوميات الثورية .

ولو كانت الدولة العثمانية ، التى يحكمها أمير مسلم ، قد طبقت الشريعة الاسلامية التى تفرض عليها أن تمنح الحقوق المدنية الكاملة لغير المسلمين من رعاياها ، لكانت أول دولة تطبق مبدأ اللاعنصرية • وكان فى الامكان أن تطبق هذا المبدأ دول أخرى بالمثل • ولكن الروح الغربية ، الداعية الى التعصب العرقى ، طغت على امكانية تطبيق مبدأ اللاعنصرية وجعلت كل قومية تتعصب لعرقها وتعادى القوميات الاخرى . ولكن الاعتبارات النظرية والافكار الاجتماعية ، مهما اوتيت من منطق ، فلم تكن لها القوة الحاسمة التى تستطيع أن تغير المشاعر والافكار السائدة فى ذلك العصر وهى التى كانت تدفع تلك الشعوب دون هوادة للعمل على تحقيق احلامها مهما كانت وعورة الطريق الذى تسلكه ...

وقد حاول الحكم الاستبدادى للسلطان عبد الحميد ، بكل جبروته وأساليبه الارهابية أن يقف فى وجه التيار الفكرى لتلك الحقبة من الزمن ، ومن ثم سعى ذلك الحكم الى اقامة امبراطورية لا عنصرية مؤسسة على المبادىء السياسية للاسلام ، حتى أنها قد وسعت دائرتها الدينية الى المستعمرات الهولندية والبريطانية والفرنسية التى استطاع المسلمون فيها أن يؤلفوا عنصرا متفوقا . ونستطيع ان نقول — دون أن نتفق مع حكومة عبد الحميد فى اساليبها البغيضة التى اتبعتها لتحقيق أهدافها — نستطيع ان نقول أنها كانت تبذل جهدا أخيرا لا يستهان به — فى وجه مصاعب مروعة — فى سبيل اقامة « دار الاسلام » المثالية فى العصر الحديث .

وقد كان المنتسبون الى حزب تركيا الفتاة ، وكذلك أنصار الفكر الوطنى فى مصر ينبعون من الطبقة المتوسطة القليلة العدد ، وهى الطبقة التى كانت ترغب فى تنفيذ مطالبها الثقافية والاقتصادية عن طريق اكتسابها للحرية .

لم تكن فى الدولة العثمانية أية صناعة آلية ، ولم تستطع هذه العناصر التقدمية ذات الأفكار التحررية أن تكتسب تأييد الجماهير الزراعية الواسعة من الفلاحين أو جماهير المدقعين . ولذا انحصرت الاتجاهات الثورية فى مثقفى المدن . وكانت نتيجة الضغط الذى جاء من أعلا ظهور رد فعل ثقافى ، وهو الذى نطق أدبا وطنيا • وقد خلقت مجلة « ثروتى فنون » التركية كثيرا من الادباء الذين تطوروا بالرواية التركية حتى أصبحت تناقش المشاكل الاجتماعية بلغة سهلة يفهمها القارىء المتوسط الثقافة .

وعلى أى حال فان الحكم الاستبدادى للسلطان عبد الحميد لم يقتصر على الهام الشعراء والكتاب الاتراك للتعبير عن احاسيسهم الوطنية فحسب ، بل وامتد هذا الالهام أيضا الى أتباع السلطان من الناطقين بالضاد الباقين على ولائهم للخليفة ، والذين لم يستطيعوا أن يحبسوا دموعهم لمرأى الحالة الذليلة التى أصبحت عليها البلاد • وكانت مصر تتمتع بحرية نسبية لانها لم تكن تحت حكم السلطان بطريقة مباشرة ، ولذا وجد فيها عدد من الكتاب الاتراك المضطهدين ملجئا على ضفاف النيل . وقد كان استبداد عبد الحميد هو الذى أوجد ذلك الطراز الجديد من الشعر الذى يختلف تماما عن القصائد التقليدية القديمة .

وكان من بين الضحايا العديدة لحكم السلطان عبد الحميد ، ولى الدين يكن المولود بالقسطنطينية والذى كان يفخر بجنسيته المصرية • فقد ثار ضد الطغيان قائلا :

يبكى بنوك ويضحك الزمان	ماذا أصابك أيها الوطن
ما أوشكت أن تنتهى محن	الا وجاءت بعدها محن
أما الرسوم فانها درست	أما الرجال فانهم دفنوا
الحصر راجت سوق باطله	فالحق فيه ماله ثمن
يا قوم هبوا من مضاجعكم	طال المدى حتام ذا الوسن

وقد كان الشعور بالاضطهاد ، الذى أثار ولى الدين يكن فى أستانبول ، هو نفس الشعور الذى عبر عنه جميل الزهاوى فى العراق فى قوله :

نحـــن فى غفلـــة نيام وعنـا نائبـــات الزمـان غـير نيـــام
نحـــن فى دولـــة تداركها الله تبيـــح المحظـــور للحكــــــام
وعـدها بالاصـــلاح جـــم ولكن لا يجـــوز الاصـــلاح حـد الكلام
نحـــن قـــوم ارادة شخـــص واحـــد أن نعيـــش كالأنعـــام

وقد اقتطع طمع الحكومات الغربية ولاية بعد أخرى من جسم الدولة العلية ، اليونان ورومانيا وبلغاريا وكريت وقبرص . ولم تبد أى ولاية رغبة ما فى العودة الى الحكـم العثمانى حيث ينتظرها فيض من الاضطهاد والتقتيل . وما أكثر الحزن الـذى ألـهم الأبيـات الآتية :

رعى الله شعبـــا أهملتـه رعاته وملكـا كبـيرا ركنـه تزعـــزع
تقطـــع منــــه كـل يـوم مدينة ومـا الكف الا اسبـع ثـم اصبع

وقـد نـفى ولى الدين يكن الى مدينة سواس بالأناضول ، حيث بقى ينظر بقلـب كسير الى المصير لمواطنيه . وكان اليأس يغلبه أحيانا فى أشعاره الـتى منها قوله :

يقـــــول أحبـــتى صبـــــرا وهــــل فى النـــار يصطبــر
ونحـــن أمـامنـــا وطـــــن تــــراه اليـــوم يحـتضر
فمــــن يجـــزع فمعــــــذور ولكــــن قــل مــــن عــذروا
فيا أفـــق التهـــب حـزنـا وجـــد بالـدمـــع يا مطـــر

ولكن الآمال المحطمة تحققت آخر الامر . فقد سار الجيش التركى تحت قيادة نيازى وأنور نحو العاصمة فى عام 1908 ، وأرغم عبد الحميد على اعلان الدستور . وهنا عانـق الاتراك والعرب والأكراد والشراكسة ، المسلمون منهم والمسيحيون ، بعضهم البعـض ، وظهر أن شعبا متحدا جديدا قد نشأ من الاشلاء الممزقة التى كانت من قبل . وبلـغ الفرح أطراف أمريكا البعيدة حيث هاجر الكثيرون من العرب الشرفاء .

واقيمت الأعياد والأفراح فى شتى انحاء الدولة ، وظهر الشعراء كما تظهر الزهور البـرية .

ففى سوريا ولبنان ظهر عبد الله البستانى ، ومحى الدين الخياط ، وشكيب ارسلان، واياس فياض وشبلى ملاط . وفى مصر التى اهتمت بالانقلاب الجديد بطريقة غـــير

مباشرة ظهر أسعد رستم ، وسعيد شقير وغيرهما . وفى العراق ظهر الزهاوى والرصافى، والدجيلى والعبادى ، والهنداوى . الذين مجدوا قدوم نسيم الحرية . وقد وصف الزهاوى شعور بغداد فى ذلك الوقت قائـلا :

وقفـت والعـين تبكى عن مسرتها   امام شعب من الافراح عجـاج
أمام بحر مـن الافكار مضطرب   أمام جيش من الاصوات دحراج
ان الشعوب اذا هاجـت عـواطفها   كالبحر يضرب أمواجا بأمـواج

أما مصر التى كانت بعيدة عن الاضطهاد الذى مارسته الحكومة العثمانية فكانـت لا تزال مرتبطة بتقاليد الخلافة . فنرى أحمد شوقى الشاعر الشهير فى قصيدته الـتى كتبها بمناسبة اعلان الدستور يمتدح حكم السلطان عبد الحميد قائـلا :

أسدى الينا أمير المؤمنين يـدا   جلت كما جل فى الاملاك مسديها
بيضاء ما شابهـا للابريـاء دم   ولا تكدر بالايـام صاقيبـا
وليس مستعظما فضـل ولا كرم   من صاحب السكة الكبرىومنشيها

ولكن الشاعر المتملق لا ينسى مطلقا شعوره الوطنى الغريزى فيقـول :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب   حياك من يبعث الموتى ويحييهـا
صبرت للحق حين النفس جازعة   والله بالصبر عند الحق موصيها
نلت الذى لم ينله بالقنا أحـد   فاهتف لانورها واحمد نيازيهـا

وقد عبر الشاعر الكبير المعاصر حافظ ابراهيم عن حسن نية السلطان عبد الحميد فامتـدح كـرم أخلاقـه :

أثنى الحجيج عليـك والحرمـان   واجل عيـد جلوسـك الثقـلان
أرضيت ربـك اذ جعلت طريقـه   أمنـا وفـزت بنعمـة الرضوان
وجمعت بالدستور حولـك أمـة   شتى المذاهب جمـة الاضغـان

أما سعيد شقير فيقارن سعادة الحاضر وآلام الماضى فى أبياته الآتيه :

اليوم نمرح أحـرارا بفضلكـم   نغدو ونمسى ولا هـم ولا نصـب
قد اطلق الحر من السجن أهين به   وعاد للوطن المحبـوب مغتـرب
فلا جواسيس تخشى من وشايتهم   ولا جرائـد تأتينـا فـفرتعـب

ننام في الليل لا الاحلام تقلقنـا ونـنهض الصبـح لا خوف ولا رعب
كم بين حال أتتنا كلهـا طـرب وبين حال عدتنا كلهـا رهـب

ولكن هيهات ، فلم يبق الفرح طويلا . اذ عاد عبد الحميد فقبض على السلطة من جديد ، وألغى الدستور ، واستأصل حزب تركيا الفتاة من البلاد . ولكن محمود شكت باشا الذي ينحدر من أسرة الخليفة عمر ، قاد الجيش مرة أخرى الى استانبول ، وبعد قتال عنيف هزم القوات الموالية للسلطان ، وخلع عبد الحميد عن عرشه .

وقد صادف خلعه ارتياح جميع العالم الاسلامى ، الذى شهد سلسلة من الاشعار حول هذا الامر . وقد سبه فارس الخورى فى قصيدة لـه فقـال :

شادوا لك العزة القعساء من قدم فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة وفى زمانك لا سيـف ولا قلـم
حصدت ما زرعوا فرقت ما جمعوا هدمت ما رفعوا بعثرت ما نظموا

وأعلن معروف الرصافى الشاعر العراقى فى افتخار :

انما نحن أمة تدرأ الضيـم ولا تستكـين لـسـؤال
أمـة سـادت الانام وطابـت عنصـرا مـن أواخـر وأوال
فاذا ما علا الغشـوم نهضنـا فقذفناه ساقـلا مـن عـال
نحن مـن شعلـة الجحيم خلقنا لاولى الجـور لا مـن الصلصـال

ونقرأ علامات التهديد فى الأبيات الآتيـة :

يا ملوك الانـام هـلا اعتبرتم بملوك تجـور فى الافعـال
فاتركوا النـاس مطلقـين والا عشتـم موثقـين بالأوحـال

لقد فتح الشعراء السوريون والعراقيون قلوبهم وتركوا مشاعرهم فى انطلاق ولكن مصر ـ للاسباب التى ذكرها ـ استقبلت سقوط عبد الحميد بمشاعر متضاربة . وقد ظهر لبعض الكتاب أن الاحتلال الاجنبى أكثر ضررا من حكم السلطان عبد الحميد لانه كان على أى حال أمير المؤمنـين .

وقد طلع القرن العشرون على الشعوب الشرقية وهى مصابة بمركب النقص . وقد ذقت بنفسي مرارة هذا الشعور الذى كان يعانيه اخوتي في الاسلام . وقد كان انتصار

اليابانيين فى منشوريا على الروس عام 1905 أول تشجيع أحيا شعور جميع الشرقيين . وتواترت الانباء وقتئذ بأن اليابان ستعقد مؤتمرا اسلاميا فى طوكيو مما ألهب شعور الشعوب الشرقية .

وقد أدخلت الامتيازات الاجنبية التى فرضت على المسلمين ، والمدارس التبشيرية الاجنبية ، فى روع الشرقيين المستغلين الفكرة الزائفة من أن كل أوروبى هو ضرب من السوبرمان أى الانسان الممتاز .

كفى الغرب فخرا أنه متقدم	وان له مالا به يتنعم
وان له فى البر جيشا عرمرما	يماثله فى البحر جيش عرمرم
ترقى فلما اشتد ساعده عتا	وبات يغيظ الشرق والشرق يكضم
يطيل على أجحافه بحقوقه	سكونا كأن الشرق ليس له فم
فيا أيها الغرب المدل بنفسه	رويدك ما هذا الغرور المذمم
أتزعم ان الشرق يلبث صاغرا	أمامك مغصوبا وأنت المكرم
وتبقى عليه هكذا متسيطرا	تمص دم الاموال منه وتهضم

وقد أيقظ سليم البستانى الوعى الوطنى فى قلوب مواطنيه السوريين ، كما كتب الزهاوى فى العراق الأبيات الآتية لتعوض مركب النقص :

وشمل الوعى الوطنى جميع المسلمين الذين عاشوا تحت الحكم العثمانى .

حتى المسيحيين فى لبنان قد شعروا أيضا بشعور الجنسية العثمانية بعد اعلان الدستور . وقد دعى خليل زينية المسيحى الى عقد اجتماع بالاسكندرية قال فيه « فلتسعدوا أيها العثمانيون لأنكم اكتسبتم الدستور . فقد جاء اليوم أخيرا الذى يستطيع فيه جميع الاتباع أن يتحدوا فى عناق أخوى . فبواسطة الدستور أصبحنا عثمانيين ونحن نفتخر بوصفنا عثمانيين . اننا عثمانيون قبل كل شىء الى آخر عمرنا . وشعارنا الحرية والوطنية ، وفخرنا رأية الهلال ، وملجؤنا الدولة العلية .

وتغلغل هذا التحمس طوال سنتين فى كل شعوب الدولة ، من اتراك وشراكسة وأكراد وعرب ، مسيحيين ومسلمين ، كما لو كانوا قد اتحدوا ضد الاتجاهات الاستغلالية

للغرب . وسعوا الى خلق دولة متحدة مستقلة . وقد خلد الادب العربى المعاصر هـذا الشعور فى كثير من آثار الشعر والنشر .

ولكن الفرح العظيم سرعان ما تبعته هموم ثقيلة . فان الغرب الطامع لم يقابل هذه الاشعار بأشعار مثلها ولكنه أطبق بقبضته على أجزاء جديدة من جسم الرجل العريض. فضمت النمسا أول الامر ولاية البوسنة . فيئس الرأى العام العثمانى وقاطع البضائع النمسوية . وينتحب شبلى الملاط اللبنانى بمرارة فى هذه الأبيات :

الا من يبلغ النمسا كلاما	نسجله ونورثه البنينا
بأن عهودها كانت سرابا	وكان ودادها بلفا مبينا
فلا تجد السنون الى التصافى	سبيلا ما تعاقبت السنونا
أو النمسا تكفر عن ذنوب	جنتها فاعتقدت عارا وهونا
أتحب جارة الدانوب أنا	نذل لمثلها أبدا جبينا

واستولت بعد ذلك ايطاليا على طرابلس الغرب . واليونان على كريت . وانطلق أمين ناصر الدين اللبنانى فى سخط يقول :

أظن بنوا اليونان أن سيوفنا	تثلمن أم أختر علينا التأخر
ألم يذكروا بالامس ما كان بيننا	على حين خضنا الموت والموت يزخر

لقد هزم الجيش العثمانى تحت قيادة أدهم باشا فى عام 1897 الجيش اليونانى هزيمة منكرة . وكان ذلك تحت الحكم غير الشعبى للسلطان عبد الحميد . فما كان أحرى الدولة بأن تكون أقوى وهى متمتعة بحريتها الوطنية :

وخلتم توالى الظلم أورث شعبنا	خمولا وأصبحنا على الهوان نصبر
قهرناكم والملك قد كان ذاويا	فكيف وروض الملك فينا أخضر

أما الرصافى العراقى فانه يصم ايطاليا بالعار عندما اجتاحت طرابلس الغرب ونغمة قصيدته اسلامية وعثمانية معا :

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحرب	وقبل غرار السيف واسل هوى الكتب
ولا تغترر ان قيل عصر تمدن	فان الذى قاله من أكذب الكذب

ألست تــراهم بــين مصر وتونس أباحــوا حمى الاسـلام بالقتل والنهب
وما يؤخذ الطليـان بالذنـب وحدهـم ولكن جميع الغرب يـؤخـذ بالذنــب

أما شعراء العراق الآخرون ، مثل رضا الشبيبى ، وحبيب العبيدى، وخيرى الهنداوى وعزيز الجواهرى فقد أيدوا السلطان الجديد وحفزوه على درء العدوان . وفى حلقــة الادب العربى باستانبول القى حبيب العبيدى قصيدته ذات الخمسمائة مقطع الــتى تضمنت تاريخ الاسلام كله والتى تستثير الشعور الوطنى الاسلامى ، وربما كانــت بعض سطورها كأنموذج :

كيــف ترضى يا شرق أن يمشى الغرب أماما وأنــت تمشى وراء
أفلم يأن أن تجــدد عهــدا شهــد الصبـح فضلـه والمساء
اتسام الهــوان دون المنـايــا انما المـوت والهــوان ســواء

وذكر حافظ ابراهيم فى مصر الهجوم الغادر على طرابلس الغرب فى قصيدة طويلة . وقد قربت التقاليد التاريخية وكذا الدين الاسلامى بين أعضاء الطبقـة المتوسطـة . أما الطبقة العاملة وأصحاب الحرف والفلاحون فلم يكونوا قد تيقظوا الى الوعى الاجتماعى، فتبعوا كالعميان الاتجاهات الفكرية للمثقفين . كان هناك حلم حول قيام التعاون الوطنى تحت حكم آل عثمان الذى تقوده الشريعة . ولكن هذا الحلم تمزق شر ممزق تحت وطأة نظرية الطورانية . وهى النظرية التى كانت تعمل لضمان الــدور القيــادى للجنس التركى وحده ، لا الاتراك العثمانيون فحسب ، بل وكل الشعوب التى تتحدث باللغـة التركية التتارية سواء فى سيبيريا أم فى غيرها .

كانت نظرية الطورانية نظرية وطنية عرقية تعمل على الاضرار فى دولة مكونة مــن عروق مختلفة . وكان رنين الطورانية يحكى نذير الموت للدولة العثمانية الدستوريـة الجـديدة .

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى ، كان أعضاء حزب تركيا الفتاة يحاولون أن يربطوا بين قوتين متعارضتين فى سبيل المحافظة على الكيان الكلى . فقد أعلنــت الحكومة الجهاد المقدس الذى كان فريضة واجبة على كل مسلم ، وكانت تعمل فى ضمان مؤازرة مسلمى الهند وفى أن يهب المسلمون فى افريقيا ضد الفرنسيين ، ولكنهــا حاولت فى نفس الوقت أن تضمن للطبقة الحاكمة التركية القيادة المطلقة .

ولكن اتجاه أتباع الباب العالى من غير الاتراك كان مقسما : كان الفريق المتحدث باللغة العربية يؤمن بانتصار الحلفاء ، اذ لم تكن ألمانيا قد ظهرت على مسرح السياسة العثمانية الا حديثا . أما الفريق الآخر فكان يتألف من تلك العناصر التى كانت تظاهر حزب تركيا الفتاة لاسباب شخصية .

ولم تستطع أحكام الاعدام التى أوقعها جمال باشا على الوطنيين السوريين أن تطفىء اللهيب الذى امتد مع الوقت الى الجزيرة العربية أيضا . وقد سقط عدد كبير جدا من الشهداء الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل الحرية . وقد قامت القومية العربية ، قوية وكأنها قد طعمت بدماء أولئك الشهداء الشرفاء . وقد ندب خير الدين الزركلى الشهداء فى أبيات تمس أوتار القلب فقال :

نعى نادب العرب شبانها	فجدد بالنعى أحزانها
بكى كل ذى عزة تربه	فهاج نزارا وعدنانا
فمن المدامع أن لها	تفيض وترسل كالسيل هتانا
فجائع هن حديث	القلوب وهيهات تستطيع سلوانا

الا ان نهاية الحرب أتت على حزب تركيا الفتاة . ورفرف العلم العربى لجديد على تلك البقاع التى كانت تقام فيها المشانق قبل سنتين . وقد حيا الادب العربى التغير الجديد بحماسة بالغة . وعبر مصطفى الغلايينى عن آمال المستقبل السعيد بهذه الابيات :

راية العرب راية المدنية	راية المجد راية الحرية
أنت مهوى آمالنا الوطنية	ومنار يهدى السبيل السوية
بك نحمى الحمى المفدى ونجنى	دمت فينا مدى الزمان علية
ونرجى الحياة فى روض آمن	ثمرات تحيى القلوب وتغنى
فى حمى دولة العلى العربية	وارف ظله خصيب أغن

ولكن هذا الحلم المقدس تبعثر بقسوة تحت وطأة الاطماع الانانية . فقد روع هذا النجاح حكومات الحلفاء ، وتغلبت الروح الاستعمارية فتنكر الحلفاء لوعودهم التى بذلوها أثناء شدتهم . واقتسموا تلك المساحات الشاسعة فيما بينهم كغنائم حرب

على مذبح مصالحهم . فصارت سوريا وفلسطين تحت الانتداب . أما الاردن ومصر والعراق فبقيت تحت الحماية البريطانية .

وكانت خيبة آمال الرأى العام العربى غاية فى المرارة . فقد اثبتت الايام أن المبادىء الاربعة عشر للرئيس ولسون لم تكن الا خداعا . فقد أطبق اخطبوط الرأسمالية الطامعة على ذوى النيات الحسنة وداسهم بالاقدام .

وقد احتج خير الدين الزركلى والغلايينى فى سوريا ، وحتى شعراء المهجر من وراء البحار ، مثل جورج صوايا والياس فرحات فى البرازيل ضد الغصب الاجنبى . وهاجم الغلايينى فى جرأة خداع المستعمرين وقحتهم فى السطور التالية عام 1960 ، قال :

هبوا فامتكم على خطر	جارت عليها الاعادى جور منتقم
حتى تسيل ربوع الشام مفعمة	دما يسيل الردى فى سيلة العرم
وذمة العرب والايام شاهدة	لنضر من الوفى فى السهل والظلم
حتى يخلوا بلاد العرب أجمعها	من ساحل الروم حتى ساحل العجم

لقد كان الشعراء فى كل مكان أبواقا للثورة العامة . وقد أبقى الادب العربى الوعى القومى حيا ثم قاد القضية العربية أخيرا فى طريق النصر . والآن ونحن فى دولة حرة لانزال فى حاجة الى الكفاح . فلسنا نستطيع أن نلقى سلاحنا وهو القلم . اذ علينا أن ندافع عن حرية الشعب ضد الاستغلال ، وأن نحرر الفقراء من همومهم . وأن نرفع الجماهير الى مستوى الحياة السعيدة .

بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانئ الأندلسي

الدكتور محمد اليعلاوى
عميد كلية الآداب ــ تونس

تاسيس المسيلة :

لقد اسس الخليفة الفاطمى الثانى ، القائم بامر الله ، مدينة المسيلة بالزاب فى سنة 315/927 ، وكان آنذاك ولى عهد أبيه المهدى الفاطمى عبيد الله . وسميت المسيلة أولا باسمه : المحمدية ، اذ اسمه هو : أبو محمد . وقد اختار لها موقعا فى مقاطعة الزاب ، (أو المغرب الاوسط كما كانوا يقولون،) وسطا بين سهول الحضنة فى الجنوب وجبال المعاضيد فى الشمال ، على الطريق الرابطة بين افريقية والمغرب ، بين طبنة شرقا وأشير غربا ، ليسهل له أمر مراقبة القبائل البربرية التى طال تمردها على السلطة الفاطمية الدخيلة ، دخيلة من نواح : فهم أصحاب بدعة فى مذهبهم ، يقدسون أئمتهم ويدعون لهم العصمة والهداية ، دخلاء اذن على جمهور المغاربة الذين تعلقوا اما بالمالكية ، أو ، اذا خرجوا عن الجماعة ، فالى المذهب الخارجى الذى يسوى

بين المؤمنين ولا يجعل للعربى فضلا على الاعجمى ولا على البربرى . فلذلك كان الخوارج من أكبر أعداء الدولة الفاطمية ، فكانت قبائل زناتة ، وبخاصة بطون مغراوة وبرزال ، تقود الثورة تلو الثورة ضد هؤلاء « المشارقة » المبتدعين الذين بلغ بهم الزيغ الى تأليه أئمتهم . ثم كانت الثورة الكبرى التى قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد فكادت تؤدى بملكهم ، ولم يستقر أمرهم بشمال افريقية بعد مقتل صاحب الحمار الا مدة وجيزة ، ثم عادت الثورات والتن ، يقودها خاصة بنو خزر من مغراوة .

فلا بدع ، ازاء هذه الحال من عدم الاستقرار ، أن يفكر الخلفاء الفاطميون فى تأسيس القلاع والحصون ، استعدادا للطوارى : ولهذا الغرض انشئت المسيلة فكانت ، كما لاحظ ابن خلدون « ... ميرة للعساكر عند محاصرة المنصور لابى يزيد بجبل كيانة » (تاريخ بيروت ج 4 ص 175)

بنو حمدون وقد أسسها مع القائم قائد من قواد الفاطميين يدعى « على بن حمدون ابن الاندلسى » ، فأصبح واليا عليها وعلى كامل اقليم الزاب الذى كان يمتد جنوبا الى الواحات وغربا الى حدود صنهاجة بأشير وشرقا الى قسم من الاوراس . وعلى بن حمدون هذا ، كان مع أخيه محمد وأبيهما حمدون من قواد الدولة الفاطمية ودعاتها ، خصوصا حمدون مؤسس الاسرة فهو عبد الحميد بن سماك الجذامى الاندلسى ، قدم من البيرة بالاندلس الى منطقة بجاية والقبائل الصغرى حيث انتصب دعاة الشيعة الاسماعيلية باكجان وغيرها . وعبد الحميد من أصل يمنى (جذام) عاش طويلا باسبانيا ، فانقلب اسمه مصغرا الى « حمدون » . ولعله عمل بالاندلس أيضا على نشر الدعوة الشيعية ، فكم من فتنة اثارها اليمنيون على الدولة الاموية ، بالبيرة وباشبيلية . ولا شىء يمنع من افتراض ان حمدون قدم الى الاندلس مع الاجناد الشامية التى استقرت باسبانيا ، كجند حمص أو دمشق أو قنسرين ، كما لا يستبعد أن تكون له صلة بمراكز الدعوة الاسماعيلية باليمن أو بسلمية فى سوريا .

ولئن غمض دور حمدون ، فدور ابنيه فى نشر الدعوة وتوطيد أمر الدولة واضح فمحمد هو الذى صحب الداعى الحلوانى الا بلاد كتامة . أما على ، فقد صحب المهدى عبيد الله من سجلماسة الى رقادة ، وخدم الدولة الناشئة الى أن تم على يديه تأسيس المسيلة فانتصب أميرا عليها .

وأنجب على بن حمدون أبنين : جعفر ويحيى ، نشأ ببلاط القائم مع أولاد الخلفاء ، فكان حاجب المنصور ، الاستاذ جوذر ، يسهر على تربيتهما كما يسهر على تربية أمـــراء الاسرة المالكة . وكانت أم المعز لدين الله أرضعت جعفرا ، فصارا أخوين بالرضاع ، وان كانا متفاوتين فى السن ، جعفر يكبر المعز بحوالى عشر سنوات .

ولما مات على بن حمدون ـ فى معركة ضـــد أبى أيوب ابن صاحب الحمـار ـ سنة 945/334 ، ولى ابنه جعفر أعمال المسيلة والزاب ، فكان له من عطف المعز الدائم مشجع على أن يتصرف فى امارته بصفة تكاد تكون مستقلة ، فلا يصرف الى مركز الخـلافة الا الجزء القليل من أموال الجباية ، « واستجد دولة وسلطانا ، وبنى القصـور والمتنزهات وقصده العلماء والشعراء » (ابن خلدون عبر ج 4 ص 175) ، فكانت هذه الثروة ، وهذه الاناقة ، وهذا السلطان المستقل محل اتهامات كثيرة من حساد جعفر . ولقد بلغ صيت أمير الزاب الى الشرق ، فمن الغريب أن تصله من الشاعر الحلبى الصنوبرى مـدحة يقول فيها موريا بلفظ جعفر (النهر)

« جعفر ، روحى لـك الفـداء أبا أحمد ، مـا كـل جعفـر جعفـر

مـا الـزاب الا عـدن لانـك فى الـزاب ، وما مـاوه سـوى الكـوثر »

ولا يوجه مثلها الى سيده ومولاه ، الخليفة المنصور أو المعز ، ولا يمكن أن يحتج علينا بالفارق المذهبى بين الصنوبرى وحكام افريقية . فمعلوم أن بلاط سيف الدولة كـان يتشيع ، ومعلوم كذلك ان جعفرا يفرض فيه انه شيعى ، لانه يخدم الدولة الفاطمية .

لكن ولاء جعفر بن حمدون للخلفاء الفاطميين لم يكن صافيا ولا ثابتا . فلقد تمرد فى آخر أمره على المعز وقطع صلته به والتحق بخصمه الاموى بقرطبة . والسبب فى هذه القطيعة هو التنافس الشديد الذى كان يوجد بين بنى حمـدون من جهة ، والاميرين الصنهاجيين زيرى بن مناد وبلقين من جهة أخرى . تنافس على الرياسة فى الـدولة ، وتنافس على خلافة المعز حين أعلن عن عزمه على الانتقال بالخلافة الى القاهـرة العاصمة الجديدة . والعداوة بين الاندلسيين والصنهاجيين ، هى نفسها صورة للعداوة القديمة بين صنهاجة المستقرة ، وزناتة البدوية المتنقلة الثائرة . وكان جعفر يدارى قبائـل زناته ، وربما أعانهم خفية على خصمهم ، فلما قتل زيرى بن مناد القائد المغراوى ابـن

خزر (971/360) وحمل رأسه الى المعز ، ساعد جعفر الزناتيين على قتل زيرى ، وأرسل رأسه مع أخيه يحيى الى بلاط الحكم الاموى بقرطبة . فقطع المعز منه الرجاء ، وكان فكر فى تكليفه بولاية كامل افريقية والمغرب عوضا عنه ، فلما بان عداوه ، صرف الامارة الى بلقين بن زيرى وسماه أبا الفتوح يوسف ، فكان بدء الدولة الصنهاجية الزيرية .

وكان من أمر ابنى حمدون ان خدما مدة الدولة الاموية بالاندلس ، ثم ان جعفرا تنافس مع الحاجب ابن أبى عامر فاحتال المنصور على قتله سنة 984/373 . أما يحيى بن حمدون ، فقد رجع الى ولاء الفاطميين فى مدة العزيز بمصر فمات هناك سنة 992/381 م .

محمد بن هانى :

هذا أمر المسيلة وبنى حمدون كما يعرف من كتب التاريخ ، فما علاقة ابن هانى بهما ؟ ومن هو هذا الشاعر ؟

أبو القاسم محمد بن هانى الازدى الالبيرى ، ولد سنة 931/320 اما باشبيلية واما بالبيرة قرب غرناطة ونفضل البيرة ، لاسباب : 1) لقبه الالبيرى ، ولم يقولوا الاشبيلى . 2) ثم ان أباه هانى ، وهو رجل غامض الاطوار ، كان قد انتقل من المهدية الى الاندلس ، فعاش مدة باشبيلية ثم استقر بالبيرة ، على مقربة من غرناطة الحالية . ولا يستغرب أن يكون هو الآخر داعيا شيعيا ، تعلم مبادىء الدعوة وأساليب الدعاية بالمهدية أو القيروان ثم انتقل الى البيرة حيث كان سبقه جد امراء الزاب ، حمدون الجذامى . ولا بدع فى استقرارهما بالبيرة ، ما دامت هذه المدينة مركزا هاما للعصبية اليمنية ، وكلا الرجلين يمنى ، حمدون جذامى ، وهانىء أزدى ، وبهذا النسب الازدى اليمنى افتخر الشاعر كثيرا فيقول مثلا فى أول مدح لجعفر مفاخرا بشعره :

ق 31 ، ب 60 ـ يمانية فى نجرها أزدية   أفصلها نظما وأحكمها رصفا (1)

فصارت العصبية اليمنية هى التى دفعت بالشاعر الى بلاط المسيلة ، ولعله كان فى نيته أن يقصد الاميرين منذ أطرد من الاندلس . هذا ما نفهمه من عبارة وردت فى « مطمح » ابن خاقان : « ... وازعجته الاندلس ، فخرج على غير اختيار ... الى ان وصل الزاب واتصل بجعفر ابن الاندلسية ، **مأوى تلك الجنسية** » فكان أمراء المسيلة كانوا بمثابة القناصل الاندلسيين بالمغرب ، اليهم يتوجه الوافد من الاندلس ، وبحماهم يلوذ المطرود كابن هانىء ، ولا سيما اذا كان يمت أيضا بالمحتد اليمنى وبالاصل الالبيرى .

ولد ابن هانىء بالبيرة وترعرع باشبيلية ونطق بالشعر فى واليها من قبل الناصر الاموى ، وعاشره مدة ، ولكن أهل المدينة ـ أو الاقليم ـ نقموا عليه مجونه أو عبثه بالقيم كما اليوم ، فأطردوه من بلادهم ، فانتقل الى العدوة ، فتعرف على القائد الفاطمى جوهر الصقلي ، ومدحه ، وكان يحاصر آخر الادارسة بفاس . كان ذلك سنة 347/958 ، وسن الشاعر أنذاك 27 سنة . لم ترضه صلة القائد ، فنصحوه بالتوجه الى «الجعفرين» ، ولا نخالهما الا جعفرا وأخاه يحيى ، سميا « الجعفران » على طريقة العرب فى تخفيف الاسمين بتثنية أحدهما الحسنان ، الخالديان ، العمران الخ ... ولا نظن انه كان غير ذى علم بالجعفرين فيرشد اليهما فاذا بلغت شهرتهما حلب ، فبأولى أن تبلغ الاندلس ، انما الخبر يفهم منه أنهما كانا فى جيش جوهر ، فنصحه الناس بالتقدم اليهما دون انتظار وصوله الى المسيلة .

ومهما يكن من أمر ، فقد بدأ ابن هانىء حياته بالزاب سنة 348 على الاكثر . وكان قبل ذلك قد مجن واستهتر بالاندلس كما يقولون ، الا ان الاستهتار المنسوب اليه قد لا يعدو التجاهر بعقيدته الشيعية فى وسط سنى محافظ أو الشروع فى بث الدعوة الفاطمية على غرار حمدون أو هانىء أبيه ، ذلك انه حين نزل بالمغرب ، كان متشبعا بالمعتقدات الاسماعيلية ، كما تشهد به قصيدته فى مدح جوهر ، وهى أول قصيدة نظمت بالارض الافريقية ، وهى أول شعر لابن هانىء اذا ما اعتبرنا أن شعر الفترة الاندلسية قد ضاع تماما ، يقول فى هذه المدحة ، مقرا بخلافة الائمة الفاطميين ووضوح حقهم فى ارث أمر المؤمنين :

ق 10 ، ب 18 ـ أريك به نهج الخلافة مهيعا يبين ، وأعلام الخلافة وضحا

ولقد اعترف هو بتشيعه القديم الذى سبب له نقمة الامويين ، فقال مفتخرا بولائه للائمة :

ق 37 ، ب 49 ـ وما نقموا الا قديم تشيعى فنجى هزيرا شده المتدارك

وبقى بالمسيلة خمس سنوات على الاقل ـ فأول قصيدة ينظمها بالقيروان/المنصورية قد تورخ بسنة 353/964 ، على أنه من الممكن أن يكون قد نظم قصائد فى مدح المعز وهو لا يزال بالمسيلة ، كما أرسل مدائح الى جعفر وهو ملازم للخليفة ببلاط القيروان . وانه يصعب فى هذا الشأن ، أن نجزم بفكرة أو بأخرى ـ فشعر الشاعر بعيد عن الدقة التاريخية او المكانية الزمانية ، ولا علم لنا قط بأسرته ، ولا بحياته الخاصة ، ولا حتى

بمقر اقامته الدائم أكان بالقيروان ؟ أم بالمسيلة ؟ وانما نضطر ، فى هذا الشأن وفى غيره ، الى التأويل . كأن نقول مثلا ، استنتاجا من هذا البيت الذى قاله حين فارق المعز على أبواب مصر، وعده باللحاق به سريعا .

ق 47 ، ب 186 ـ « ولولا قطين فى قصى   من النوى لما كان لى فى الزاب من متلوم »

انه ربما كان له مقر دائم بالزاب ، وبه تقطن أسرته ، فلذلك ، حين فارق الخليفة لـم يعد الى القيروان بل عاد الى الزاب ليستقدم أهله ويجمع امتعته . ولا غرابة أن يكـون والشاعر قد استوطن الزاب نهائيا ، فكثيرا ما تغنى بجماله ، وحياة الرفاه فيه ، وبجو الامن والطمأنينة الذى خلقته سياسة جعفر فى ولايته :

ق 45 ، ب 102 ـ فتركت أرض الزاب   لا يأسى أب لابن ، ولا تبكى البعول حلائل

ورقت حواشى الدهر بالمسيلة وطاب العيش وعرف الناس عوائد الرفاه والاناقة حتى صاروا يستخشنون النسيم العليل لفرط حساسيتهم :

ق 36 ، ب 54 ـ تبغدد منه الزاب حتى   رأيته يهب نسيم الروض فيه فيستجفى

ق 6 ، ب 36 ـ أرضـــا وطئت الـدر   رضراضا بها والمسك تربا والرياض جنابا

وربما كان يبقى بالمسيلة الى سنة 2 973/3 على الاقل ، وهى سنة انتقال المعـز الى القاهرة ، لولا خيانة جعفر والتحاقه بالامويين .

ولكنه ، بمجرد وصوله الى القيروان ، أصبح الشاعر الرسمى للـدولة الفاطمية ، والبوق الرنان للدعوة الاسماعيلية ، يعلى مناقب الائمـــة ، ويدحض حجج خصومهم ، ويحتج لاحقيتهم بالخلافة بل بالسلطة على الارض من عليها فيقـــول فى الخليفة المعـز لدين الله :

ق 55 ، ب 17 ـ وكفى بمن ميراثه الدنيا   ومن خلقـت لـــه ، وعبيده الثقـــلان

ق 1 ، ب 31 ـ هو علة الدنيا ومن خلقت   لـــه ولعلـــة ما ، كانـت الاشيـــاء

فلا مندوحة له اذن عن مصاحبة الخليفة الى مصر ، وقد أزمع ان يكابر به شعراء المشرق فيقوى بشعره جانب الدعوة الاسماعيلية . وفعلا صاحب ابن هانى الخليفة فى مسيرته الى الشرق ، فوصل معه الى برقة ، وهى قديما قرية تقع على مائة ميل من بنغازى الحالية ،

فودعه هناك واعتزم كما قلنا الرجوع الى الزاب لاخذ عياله . ولكن يد المنون سبقـــت فقتل ببرقة ليلة 23 رجب من سنة 2 3/294 أبريل 973 ، ولا يعرف بالتدقيق سبب قتله أو موته : انتقام سياسى ؟ أم حسد أدبى ؟ أم عداوة عاطفية ؟ أم حادث طارىء ، أم موت مفاجىء دون اعتداء ؟

وهكذا نكون قد عرفنا بالشاعر وبممدوحيه بالمسيلة . بقى ان نلتمس من شعـره فيهما ما قد يساعد على زيادة التعريف بهذه الدويلة التى انتصبت بالزاب مدة يزيد على 40 عاما ، وزيادة التعرف على حضارتها وعلى دوافع الاخوين السياسية وحقيقة علاقتهما بالقوى المتنازعة فى الشمال الافريقى آنذاك . وهى لعمرى نواح هامة ومعلومات مفيدة ، الا ان الشاعر قلما يوضح اشاراته ، فلا بد اذن من أن تكون استنتاجاتنا كما قلنا تأويلا وتخمينا .

البـــلاط الحمـــدونى

ان ممدوحى ابن هانى بالمسيلة لم يكونوا اثنين ، بل ثلاثة ــ فالى الاخوين جعفـر ويحيى ، يضاف ابراهيم ابن جعفر . واذا اعتبرنا ان الرثاء هو ضرب من المدح ، أضفنا الى شعره فيهم رثاءه لحفيد جعفر ، ورثاءه لام الاميرين . وهكذا يكون الشاعر قد شارك أصحاب المسيلة فى اتراحهم وأفراحهم ، مما يدل على أن العلاقة بينه وبينهم تجاوزت علاقة الخدمة والتزلف بالمديح الكاذب طلبا للرفد ، وصارت علاقة صداقة ومودة ووفاء يشهد بها شعر الشاعر كما تشهد بها حياته . ولكن ، لا يمكننا أن ندقق كلام الشاعر فنجعله مصدرا تاريخيا ، فهو شاعر لا مؤرخ ، ومهمة الشاعر تتمثل فى الاحياء بالمعانى الطريفة القويمة فى القالب الفنى الجميل ، لا فى السرد التاريخى المضبوط المنظم . وابن هانى ، من هذه الناحية ، شاعر بالمعنى التام ــ فانه لا يكاد يذكر المكـــان ولا الزمان ولا مسرح الحوادث ولا أبطالها ، فيصير المؤرخ ، أى الدارس لديوانه من الوجهة التاريخية مضطرا الى التأويل والتخمين ، وربما اضطر الى ان يتأول الشاعر كما يتأول كلامه .

بـلاط واحد أم ثـلاثة ؟

من ذلك اننا قد نتوهم من قراءة شعره أن كلا من جعفر ويحيى وابراهيم له بلاطه الذى يقصده الشعراء وأصحاب الحاجات والبلاط الاول هو بلاط جعفر بالطبع ، لانـــه

هو الامير ، بل هو الملك ، وان كانت عبارة الملك لا تعني أكثر من مدلول عبارة « أمير » أو « وال » ثم ان يحيى هو الآخر يدعى « ملكا »

ق 52 ب 15 ــ وتغدو على يحيى الوفـود   ببابه كما ابتدرت أم الحطـيم المواسم

وهو لا يرى الا في صورتين ــ صورة الملك الذي يدبر سياسة رعيته ، وصورة القائد الذي يتجهز للقتال ــ

ق 8 ب 20 ــ ولم تر يوما غير عاقد حبوة   لتـدبير ملـك ، أو كميـا مـدججا

ولكن لا ندري هل كان ليحيى مركز امارة خاص بمدينة من مدن الزاب ، أم كان يشارك أخاه في تدبير شؤون البـلاد بالمسيلة نفسها ، كما توهم به عبارة المؤرخين ، فهـم يقولون : أميرا الزاب من قبل المعز . وكذلك لا نعرف مقدار السلطة التي يتمتع بها ابراهيم بن جعفر : أكان عاملا لابيه على بعض الجهات ؟ أم كان فقط قائد حملات حربية ضد القبائـل ؟

استقـلال المسيلة عن الخـلافة :

وربما استنتجنا ، من كثرة ورود عبارة « الملك » في شعر ابن هاني ، ان امراء بني حمدون كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال الاداري في امارتهم . وان الشاعر ، اذا ما ذكر العلاقة بينهم وبين الخليفة ، يصدرها كعلاقة مؤازرة ومساعدة ، أكثر منها عـلاقة خضـوع وتبعية :

ق 63 ب 3 ــ ويا ملـك الزاب الرفيـع   عماده بقيت لجمـع المجد ، وهو فـريق

ب 60 ــ وكنت يـد المنصـور منصـور   هاشم لذا البطش اذ أيدي الفوارس سوق

وهذه المؤازرة من بني حمدون للخلفـاء الفاطميين ، يجسمها الشاعر في هذه المقارنة بالنبي (صلعم) والانصار : كما نصر أهل يثرب ــ وهم يمنيون أيضا ــ جد المعز ، أي الرسول (صلعم) بالامس ، فانّ بني حمدون (اليمينيين) أنصار الحفيد اليوم :

ق 6 ب 40 ــ سد الامام بك الثغور وقبله   هـزم النبـي بقومـك الاحـزابا

ويتخلص من تهمة الافراط في مدح اليمينيين ، في حـين ان الخلفاء هاشميون ، أي شماليون عدنانيون ، بأن يشبه بني حمدون بالسيوف اليمنية التي يحتاج اليها كـل مقاتل :

ق 50 ب 14 ـ رأيتك سيف بنى هاشم   وخـــير السيـوف اليمـانى الحـــذم

العمـران بالـزاب القصور :

ومن مظاهر الاستقلال ، تشييد جعفر للقصور والمنتزهات كما قال ابن خلدون . وهذا شاعرنا يكثر فى تمجيد القصر الذى بناه جعفر لابنه ابراهيم ، دون أن نعـــرف بالضبط موقعــه :

62 ، 26 ـ ألكنى الى القصر المشيد تحية   فقد حـــدث الركبان عنـــه فأكثروا

ويعود الى وصفه غير ما مرة ، فيقارنه بقصور الاكاسرة فى العراق البعيد ، ويفضلـــه عليها ، وان كان يستعمل له كلمة « ايوان » الفارسية :

57 ، 4 ـ ايوان ملـــك ، لو رأته فارس   ذعـــرت وخـــر لسمكـــه ايـوانها

5 سجدت الى النيران أعصرها ،   ولو بصرت بـــه ، سجـــدت لـــه نيرانها

وقد رأينا سابقا تشبيه الزاب بالعراق والمسيلة ببغداد ، ويحسن بنا أن نتوقف هنيهة عند هذه الظاهرة التى طبعت أدب المغاربة ، وهى مركب النقص ازاء المشرق الذى كانت منه حضارتهم ، فجعلوه معيار الذوق الرفيع والفن الانيق والادب العالى الخ ... وهى ظاهرة انقلبت فيما بعد الى ظاهرة دفاع عن خصوصية المغرب والاندلس ، وعن طرافـة الحضارة المغربية مثلما ظهر عند ابن حزم او الشقندى فى الدفاع عن الاندلس واظهار فضائلها ، وربما انقلب مركب النقص الى مركب تفوق وغرور ، كما تشعر به ملحة ابن الخطيب حين فضل نهر « الشنيل » الغرناطى على نهر النيل الشرقى ، فقال ، مستخدما حساب الجمل ، ان الشنيل ـ ألف نيل : « ... وما لمصر تفخر بنيلها ، والالف منه فى شنيلها ؟ »

وابن هانى كمعظم أدباء الاندلس والمغرب ، يخضع لهذه الظاهرة ، حتى وان فضل قصر المسيلة على ايوان كسرى . فمن غريب العادات عنده أو عند غيره ، انه اذا أراد التشبيه بجبل شامخ مثلا ، فانه يقصد الى جبال الشرق ، ولا يلتفت الى جبال بـــلاده .

فهذا تشبيه سفن المعز الحربية بالعلو والصلابة ، فيتبادر الى ذهنه علو الجبـــل ، فيختار جبل « كبكب » وهو جبل بالحجاز :

13 ، 39 ـ وليس بأعـــلى كبكب ، وهو   شاهق وليس من الصفاح ، وهو صلود

واذا شبه قلعة بعلو البهمة ، والمناعة ، فانه يعود الى محفوظاته الادبية فيقارنهـا بحصن السموأل :

I,I =بلى ، هذه تيماء والابلق الفرد   فسل أجمات الاسد ما فعل الاسد

الحياة الانيقة بالزاب :

ولعل من مظاهر الاستقلال بالزاب أيضا ، هذا النوع من الحياة الانيقة اللطيفـة السعيدة الذى تشعر به أبيات ابن هانى ، حياة لهو ومجالس أنس وسمر أدبى ، بعيدة عن التقشف الذى ينسب الى بلاط الخلفاء (انظر مقابلة المعز لشيوخ كتامة فى اتعـاظ الحنفاء) ، وعن البساطة التى عرف بها البربر ، فهى حياة بظرف الاندلس ، ولعـل انتساب الاميرين الى اصل أندلسى كان عاملا قويا على احلال العوائـد الاندلسيـة بالمسيلة . ثم ان العلاقة بين المسيلة والاندلس ، على الصعيد الحضارى على الاقل ، لم تنقطع ، فكما التجأ ابن هانى الى المسيلة ، قصد كثير من الاندلسيين بلاط الاخوين ، منهم من اعتبر المؤرخون جاسوسا لبنى أمية متواطئا مع جعفر ، كالشخص الذى تشير اليه سيرة الاستاد جوذر ، عثمان بن أمين ، وغيره . هذه « الحلاوة » فى العيش بالمسيلة تتمثل فى المجالس التى يعقدها الاميان فيشاركان فيها الشاعر ، وفى الافراح التى تتبع الحملات الحربية الناجحة ، فينصح الشاعر الامير باتخاذ شىء من «راحة المقاتل» .

ق 40,I8 : فبالسعى للعليا يشاد بناؤها   وفى اللهو أيضـا راحـة النفس والفكر

ب 0044 ولا خـير فى الدنيا اذا لم يفز بها   مليك مفدى فى اقتبـال مـن العمـر

ب 45 ألا انعـم بايـام ألـذ مـن المنى   تحلت بآداب أرق مـن السحـر

وتتمثل أيضا فى الهدايا التى يتعاطاها الاخـوان ، فهذه جارية أهداها جعفـر الى يحيى :

ق 00=5I,I8 وان التى زارتك فى الخدر موهنا   أحق المها بالخنزوانـة والكبر

فيقابلها يحيى بهدية خيل عتيقة . وان نسبة الشعر الخرمى فى قصائد المسيلـة أكثر منها فى قصائد القيروان ، فعلل هذا دليل على حياة اللهو هناك وحيـاة الجد فى بلاط المعز ، وهذا على سبيل المثال بيت من مقدمة خمرية فى مدحة لجعفر :

ق 14،61 : وقهوة مزة معتقـــة   مـن عهـــد نوح أو عهد أرفخشد
ب 17 تسمـع في دنهـا اذا هدرت   قـــراة قش ، صليبـه هجـــد

حـــروب الاخـوين :

ولكن الشاعر يخصص قسما كبيرا من شعره بالمسيلة ، لوصـف حروب أمـــراء بني حمدون ضد القبائل الثائرة . ولعلنا نستغرب كثرة هذه الوقائع في شعره وتعظيمها له ، مع سكوت المؤرخين عنها . والجواب أن دور الشاعر المداح هو ان يعظم الانتصارات ويخفف الهزائم ، ويفخم التحركات ، فيجعل من الحملات البسيطـــة حربـا ضروسا ويصور الرعايا المتلذذين عن دفع الضرائب في صورة أعداء كماة مدججين بالسلاح ، ومن دوره أيضا ان يسبغ على هذه الحملات هالة من البطولة الملحمية ، فلذلك يبتعـــد عن التدقيق ، فلا يذكر التواريخ ولا الامكنة ولا الاشخاص وولا الخصوم . فهـــذا مثلا يحيى بن حمدوْن ، ينسب اليه الشاعر انتصـــارات في المغرب الاقصى ، ولكن أيـــن بالضبط ؟ ومتى ؟ وضد من ؟ ذاك ما لا جواب عنه ، لا عند الشاعر ولا عند المؤرخين :

30،8 : نحا المغرب الاقصى بسطوة بأسه   فغادره رهوا ، وقد كان مرتجا

وهذا الامير ابراهيم أيضا خاض حروبا بالمغرب الاقصى ضد الحروريين . وهو الاسم الذى يطلقه الفاطميون على الخوارج عادة :

ق 43،32 : وأعين الحروريين متقـد النهى   مظاهـر عقـــد الحـزم بالحـزم موثقـه
ب 53 وبالمغـرب الاقصى قـريـع كتائب   تخب بمسراه ، فـــيرجـف مشرقـــــه

ومن هذه الحروب ما يشكل لغزا في شعر الشاعر ، مثلا : القلعة التى شبهها بحصن الابلق . لقد خصص قصيدة كاملة لوصف مناعتها والتغنى بظفر جعفر بها بعد حصارها، ونسبها الى المذهب الحرورى والى مخلد بن كيداد ، ولكن مخلد بن كيداد كان قد قتل بجبال كيانة في عام 336 ، أى قبل تاريخ القصيدة بـ 34 عاما ، فيتساءل المرء ما وجـه ذكره اليوم ؟

ق 8،16 : حرورية ، ما كبر الله خاطب   عليها ، ولا حـــين بها مالكـــا وفـــد
9 وكانت هي العجمـاء حتى احتبى بها   ملوك بنى قحطان ، والشعر والمجـــد
25 وكانت شجا للملك ستـين حجـــة   وما طيب وصـــل لم يكن قبله صد ؟

26 بها النار نار الكفر شب ضرامهـــا — ولو حججت فى الزند لأحترق الزنـــد
28 فمن جمرة قـــد اطفئت مخلديـــة — وأخرى لها بالزاب مـذ زمـن وقـــد
20 ولما تجـــلى جعفر صعقـت لـــه — وأقبل منها طـــور سينـاء ينهـــد

فنفهم بالحدس والتخمين ان هذه القلعة انما هى معقل جبلى اعتصم به بعض بقايا الثورة المخلدية ، فى جبال المعاضيد ، وربما فى جبل كيانة بالذات ، ونفهم بالخصوص من عبارة « ستين حجة » ان الامن لم يستتب قط للفاطميين فى المغرب الاوسط طيلـة مقام الفاطميين بافريقية . ونفهم أيضا ان جعفرا بعد ان اخذها وأسر زعيمها ، عفـــا عنه : فلعلهم كانوا من الثوار الزناتيين الذين كان يحركهم بنو أمية عن بعد ، وكان جعفر يقاومهم بمقدار .

ونقف أيضا عند عبارة « العجماء » التى وصف بها القلعة قبل احتلالها من جعفر : كانت ناطقة بغير العربية ، فبمجرد استيلاء جعفر عليها ، حلت فصاحة الاعراب وأدب العرب . وانه يصعب ان لا نرى فى هذا الكلام صورة من تحقير الحكام العرب لاهـــل البلاد البرابرة ، فابن هانى المتشبع بالحضارة العربية الموروثة عن الشرق ، كما يعمد فى تشابيهه الى جبال الشرق أو انهاره ، لا يحاول كذلك ان يتفهم لغة القوم ولا عقائدهم ولا خصائصهم التى بها يتميزون عن العرب الاصليين : فالمذهب الحرورى كفر فى نظره ، بالرغم من انتشاره بالمغرب ، ولغتهم ، عجمة ورطانة ، ولعل الرطانة هى التى جـــرت الى الكفر فى نظره .

غير ان الامر أعمق من نزعة التكبر على العنصر البربرى : فلعل هذه العقلية صورة من العداوة الدفينة التى كانت واقعة ظاهرة بين الحكام الفاطميين ومحكوميهم البرابرة. ومعلوم ان بعض المؤرخين قد عزوا الى هذه العداوة انتقال الفاطميين عن المغـــرب الى الشرق فاعتبروا تخلى المعز عن الحكم بالمغرب وافريقية نوعا من الهروب واعترافا بعجزه عن الانسجام مع البربر ، وهذه نظرة جورج مارسى ، وحسين مؤنس (هى مقدمة تحقيقه لرياض النفوس) .

وما قد يؤيد هذا التحليل لموقف ابن هانى اراء البربر عامة ، سكوته الغريب عن جماعة الصنهاجيين فانه لم يذكر زيرى بن مناد ولا بلقين ، لا بخير ولا بشر ، ولم يمدحهما

ولو ببيت ، ولا مدح أى قائد بربرى : حتى البيتان اللذان مدح بهما جعفر بن فلاح الكتامى فانهما غير ثابتين .

أهذه عنصرية عربية ضد الـ « عجمة » البربرية ؟ نعتقد ان السبب فى اهماله للزعماء الصنهاجيين هو ولاؤه لبنى حمدون خصوم الصنهاجيين ، وقد سبق ان قلنا ان هذه العداوة بين بنى حمدون من جهة والصنهاجيين من جهة أخرى ، هى التى حملت جعفرا فى نهاية أمره على الخروج عن طاعة المعز ، وحملت هذا الاخير على اسناد ولاية كامل شمال افريقيا الى بنى زيرى ، بعد ان فكر مدة فى اسنادها الى جعفر ، ثم الى ولى عهده ابنه عبد الله .

المنافسة بين الاخوين :

تطالعنا قصائد ابن هانى فى الاخوين بصدى لمنافسة بين جعفر ويحيى ، فنرى الشاعر يدعوهما الى المحافظة على الوئام ، ولا سيما بعد وفاة والدتهما . وانه على عادته يوضح أسباب هذه الازمة : أكان ضيقا من يحيى بسيطرة جعفر على الحكم ؟ أكان تبرما بتقديم ابن أخيه ابراهيم عليه هو أو على أبنائه ؟ لا ندرى ، ولكن المؤكد هو ان المنافسة بينهما قد كادت تبلغ حد القطيعة ، وقد بلغتها فعلا بعد خروجهما الى الاندلس : فانا نعلم ان يحيى لم يرض بالخيانة وعاد بعد مدة وجيزة الى ولاء الفاطميين بالقاهرة . والشاعر ، والحق يقال ، لئن كان شديد المحبة للاخوين ، فانه ما كان ليرضى عن خيانتهما للدولة الفاطمية والعقيدة الشيعية وقد كان حذر جعفرا من مغبة الأصغاء الى مغريات كاتب له يدعى الوهرانى ، وكان الوهرانى هذا ، كعثمان بن أمين ، داعية للامويين بالاندلس يبث الدسائس فى بلاط الحمدونيين حتى يفصلهم عن ولاء الشيعة ، وقد نجحت مساعيه فعلا . ولعل يحيى لم يكن راضيا كل الرضى عن نفاق أخيه الاكبر ، وربما فكر فى الانقطاع وحده الى خدمة الدولة الفاطمية ؛ ذاك ما قد نفهمه من القصيدة 15 التى مدح بها ابن هانىء أخوى المعز ظاهرا والحسين ، وانما مدح فى الحقيقة يحيى بن حمدون فدعاهما ، ودعا من ورائهما الخليفة ، الى اختبار ساعده وتجنيده فى خدمة الدولة .

ومهما يكن من أمر موقف يحيى ، فان الشاعر يلح كثيرا على وجوب الوفاق بينهما ويبين لجعفر ان أخاه مؤازر له ومؤيد كما أيد الله موسى بهارون :

ق 64,18 : لعمرى لقد أيدت يوم الوغى به   كما أيـــدت لقـــاك بالانمـــل العشر
ب 65 لذلـــك ناجى الله موسى نبيــــه   فنادى أن اشرح ما يضيق به صدرى
ب 66 وهب لى وزيرا من أخى أستعن به   وشد بـه أزرى وأشركـه فى أمـــرى

فهل أشرك جعفر أخاه فى أمره ؟ لعل نصيبه من الحكم لم يكن وافرا ، مما أوغـر صدره ، أو أوغر صدر جعفر عليه اذا ما طالبه بالقسمة العادلة . فلذلك يعود الشاعر الى مطالبتهما بالوئام والوفاق ، بعد وفاة والدتهما ، وكأنه خشى عليهما أن تذهـــب ريحهما بعد فقدان هذه اللحمة التى كانت توحد بينهما :

ق 80,59 : فلولا الضريح لنادتكمـــا   تعيذكما مـــن شمـــات العــــدى
ب 82 ، فقد يضحك الحى سن الفقيد   فتهتـــز أعظمـــه فى الثــــرى
ب 84 وانت اليمين ، فصل بالشمال   فما بيـــد عـــن يـــد مـــن غنى

ولا نترك هذه القصيدة دون أن ننبه الى أبيات عصماء منها مدح فيهـا ابن هانىء الامهات بصدق لا مثيل له ، وبمعان مؤثرة لم نر مثلها فى الشعر العربى :

ق 69,59 : لاماتنا نصف أنسابنا   ا ا الملـــك القيـــل منا انتـــمى
70 دعائـم أيامنـــا فى الفخـــار   وأكفـاء آبـائنـــا فى العـــلى
71 ألـــم تـــرهن يبارينـــا   فيمرقننــــا وينلـــن المـــدى ؟
72 كفلـــن لنا بظـــلال الخيـام   وأكفلننــــا بظـــلال القنـــا
73 وتغـــدو فمنهـــن أسماعنـا   وأبصـــارنا فى حجــــال المها
74 فلو جـــاز حكمى فى الغابرين   وعدلت أقســـام هـــذا الــورى
75 لسميــت بعض النسا الرجال   وسميت بعض الرجــــال النساء

تلوث البيئة

الدكتور عبد القادر حليمى
كلية الآداب - جامعة الجزائر

1 مفهوم التلوث 2 مصادر التلوث 3 أثر التلوث

مفهوم التلوث :

في السنوات الاخيرة كثرت الدعاية وازدادت الاحاديث حول موضوع التلوث الذى اصبح الشغل الشاغل لدى الكثير من المؤسسات البشرية فى الدول المتقدمة والصناعية بالخصوص . وان كان هذا التلوث البيئى أقدم من هذه الدعاية وانه يعد مشكلا عالميا ظهر تدريجيا واشتد وقعه على المظاهر الحيوية والاقتصادية فى السنوات الاخيرة بسبب زيادة الاختراعات والتجارب النووية والحروب بالغازات السامة ، ، واحتلال المصانع لمساحات كبيرة من سطح الارض واحلال المحركات ذات القوة البخارية محل اليد العاملة والقوة العضلية .

ولكن ما معنى التلوث البيئي ؟

نقول ان هذه البيئة متلوثة اذا اختل توازن مركباتها ، اذ الاصـــل فى البيئـــة التوازن فى المركبين العضوى وغير العضوى ، ونعنى بالاتزان الانسجام والنظـــافة ، فالطبيعة البكر تتسم بالاعتدال والملأمة للانواع المختلفة من الحياة ، وهى على هـــذه الحالة ما دامت بعيدة عن يد الانسان التى ان تخللت هذه الطبيعة غيرت وجهها ، وقــد يكون هذا التغيير فى اتجاه معاكس لاتزان الحياة فيحدث التلوث . ويعرف البعـض هذا التلوث على انه عدم كفاءة أو قدرة النظام الطبيعى على تقبل المواد أو العنـــاصر التى جلبت له ، وبالتالى تبقى هذه المواد أو العناصر المجلوبة ، فى شكل رواسب ، أو بقايا متراكمة أو مفسدة بطول الزمن للنظام الطبيعى نفسه . وقد عرف التلوث المؤتمر للمجلس الاوربى المنعقد فى 144 سبتمبر 1967 فى الآتى : يكون الهواء متلوثا اذ وجدت به مواد غريبة أو احدثت فيه تغيرات مهمة لنسبة مركباته بحيث تؤدى الى آثار مضرة .

ولمعرفة متى يكون الهواء متلوثا يجب معرفة مركبات الهواء النقى أى الهواء العادى الذى لم تدخل عليه تغيرات . والجدول الآتى يبين نسب احجام أهم العناصر الغازيـة التى يتركب منها الهواء النقى منسوبة الى مائه :

الازوت	78٫09 ٪
الاوكسجين	20٫95
الهيدروجين	0٫00005
الارقون	0٫93
ثانى أكسيد الكاربون	0٫33
النيـــون	0٫00182
الهيليـوم	0٫0005
الميطـــان	0٫0002
الكريبتـون	0٫000114
الاوزون	0٫000001

وهذه الغازات المذكورة بعيدة جدا عن التمييع ، وتوجد بنفس النسب حتى ارتفاع 25 كلم تقريبا مختلطة ببعضها ما عدا القليل منها مثل الاوزون ، ويعد غـاز الازوت

عماد الحياة على سطح الارض وفائدته الاساسية انه عنصر ملطف للخيط الغازى . واليه يرجع الجانب الاكبر من الضغط الجوى ومن قوة التيارات الهوائية . وانحراف اشعة الشمس . ويكون رداءا واقيا للكرة الارضية من شدة التقلبات الحرارية . كما تحتاج النباتات فى نموها الى غاز الآزوت . أما غاز الأكسجين فهو ضرورى للحياة ولعملية التمثيل الاخضرارى بالنسبة للنباتات بصفة خاصة . ولا يمكن للكائن الحى أن يعيش بدونه . على عكس غاز الاوزون الذى يرتكز بالخصوص فى الطبقة الهوائية التى تبعد بحوالى 25 كلم عن سطح الارض وهو غير صالح للحياة مثله مثل الآزوت وثانى أكسيد الكاربون وأهم دور يقوم به غاز الاوزون فى الغلاف الغازى أنه يحمى سطح الارض من وصول الأشعة الشمسية البنفسجية القصيرة جدا والمضرة بالاحياء . ذلك أن غاز الاوزون له قدرة فائقة على امتصاص هذه الاشعة .

وهكذا نجد أن لكل غاز من غازات الهواء المذكورة دورا فى تنظيم الحياة على سطح الارض . واذا ما اختلست تلك النسب المذكورة للغازات فى الجو حدث التلوث للهواء وكذلك اذا ما ادخل غاز آخر غريب عن تلك الغازات أو اذا اختلطت مواد أخرى صلبة أو سائلة بالهواء العادى حدث تلوث للهواء .

لكن يجب أن نلاحظ ان ظاهرة التلوث لا تحدث للهواء فقط بل كذلك للمياه ولما هـ على وجه الارض فاذا اختلط الماء بمواد كيماوية سامة تعفن وتحول الى ماء فاسد ومضر بالنباتات والحيوانات وكل من وما يستعمله . فمياه الاودية المتلوثة قد تشكل خطرا بالنسبة للاحياء التى تعيش فيها مثل الاسماك التى لا تستطيع أن تعيش فى المياه المتلوثة . لان المياه اذا كانت مختلطة بالوحل مثلا تحول دون استخلاص الاسماك للأكسجين من الماء . وقد يلزق الوحل فى منافذ تنفسها ويكون غشاء يعوقها على امتصاص الاوكسجين فيحدث لها تسمم ثم تموت . وكذلك اذا كانت المياه مليئة بالمواد العضوية ومتشبعة جدا بالبقايا الحيوانية والنباتية فان البيكتريا الموجودة بهذه المياه تستهلك فى نشاطها كمية كبيرة من الاكسجين تستمدها من هذه المياه وبالتالى تتحول هذه المياه الى مياه فقيرة جدا فى الاكسجين بحيث لآتسد حاجيات الاحياء المائية التى يحدث لها اختناق فتموت .

فالفضلات الصناعية والكيماوية الملقاة بالمياه تضر الاسماك والحيوانات المائية بصفة عامة وحتى الانسان وبالخصوص هواة السباحة . ويمكن تفادى هذا الخطر بتشريعات بناءة أو قوانين صارمة كتحريم القاء البقايا الصناعة فى المجارى المائية قبل تصفيتها وتوجيه المواطنين نحو عدم القاء القاذورات الا فى الاماكن المخصصة لها .

ويجب أن نشير فى هذا الصدد الى أن خطر التلوث المائى قد امتد فى القرن الحالى الى المياه البحرية لما تفرغه بها السفن من زيوت ومواد سامة . وبالخصوص مياه الموانىء حيث أصبحت أغلب الموانىء فى العالم مليئة بالفضالات والزيوت . وهذا التلوث للمياه البحرية قد ينتشر فى مسافات بعيدة بسبب الامواج والتيارات البحرية وبالتالى يتحول الى خطر يهدد الاحياء البحرية ، بل والاحياء على وجه الارض بصفة عامة ، لما للاحياء البرية من علاقة مع الاحياء المائية ، فهناك حيوانات مائية أو بحرية نجدها ميتة على السواحل بسبب التلوث المائى .

وتلوث الهواء أشد خطرا من تلوث المياه لانه ليس من السهل التحكم أو التخلص من الاوساخ الهوائية ثم لسرعة انتشار هذا التلوث بسبب شدة تحرك الهواء فى شكل رياح ولان الهواء يعمر كل الفراغات البينية ، وهو عماد الحياة للانسان والاحياء التى تتنفسه وتستمد منه الطاقة والقدرة على الحياة بصفة عامة . والاوساخ الهوائية قد تنتقل الى الاحياء بطرق عدة منها التنفس واللمس والتغذية .

2 ـ مصادر التلوث

ان مصادر التلوث عديدة ويمكن تصنيفها الى مصادر طبيعية ومصادر غير طبيعية فالطبيعة قد تكون من :

أ ـ أصل بحرى
ب ـ أصل كونى
ج ـ نباتى
د ـ أصل ميكروبى

وغير طبيعية قد تكون من أصل بشرى أى راجعة الى نشاطاته

أصـل بحـري :

فالرياح الهابة فوق المسطحات البحرية نحو اليابسة كثيرا ماحملت بين طياتهـا البلورات الملحية (كلورير السوديوم) ونثرتها فى الاجواء أو على سطح الارض لهـذا كانت النباتات الشاطئية فى الغالب من النباتات التى تتلاءم وهذه الاجواء المحليـة واذا ادخلت في هذه الشواطىء نباتات غير محلية فانها لاتستطيع على الحياة . وقـد قدرت الاحصائيات ان الرياح البحرية تحمل الى البحر ما يقرب من مليارين طن من الملح سنويا. ولو فرضنا أن هذه البلورات المحلية وزعت على مساحة لامتدت حتى 300 كلـم عـن الشواطىء . ويظهر خطر تلوث الهواء بالاملاح فى ارتفاع قدرته على الحت وتآكل المعادن التى يصيبها هذا الهواء , وخدشه لجدران المبانى التى يمر بها .

أصـل كـونـي

من المعروف ان الغلاف الغازى المحيط بكرتنا الارضية قد تنـزل به فى بعـض الاحيان بعض البقايا الكونية كما انه كثيرا ما تعرض للشهب التى تتحول الى غبار كونى بعد احتراقها وتختلط بالهواء وقد تبقى عالقة به لمدة من الزمن قبل ا نتصل الى سطح الارض ثم تترسب على سطح الارض . وقد دلت الاحصائيات أن وجه الارض يترسب به يوميا ما يقرب من ألف طن من الغبار الكونى . وهذا الغبار عبارة عن جزيئات دقيقـة يتراوح قطرها ما بين بعض السنتمترات الى بعض الميكرونات . وقد يعـود أصلها الى الشمس وقد يعود أصلها الى نجوم أخرى . تتركب كيماويا من الحديد والاليمينيـوم والآزوت ومعادنٌ أخرى بنسب مختلفة . ودور هذا الغبار الكونى امتصاص جزء مـن الطاقة الشمسية أو عكسها فى الغلاف الغازي .

أصـل نبـاتـي

نميز فيها غبار اللقاح الذى تتراوح أقطار جزيئاته ما بين 10 و 50 ميكرون تلفظه النباتات في بعض الفترات . ثم العفيرات وبعض الفطريات التى يشتد وجودها بالهـواء من الجزيئات الغريبة المعفنة سواء اكانت من أصل معدنى أو عضوى . فالقطيرات المائية فى الهواء تتجمع أول ما تتجمع حول هذه الجزيئات التى تعرف أيضا بأنواع التكاثـف ثم تسقط على الارض وتقدر هذه الجزيئات بحوالى 15 طن سنويا فى الكيلومتر المربع .

وتختلف النباتات عن بعضها فيما ترسله فى الهواء من غبيرات ، وكذلك فيما ترسله من غاز ثانى أكسيد الكاربون عن طريق التنفس اثناء الليل بالخصوص .

اصل ميكروبى

ان التخمر يؤدى الى افراز الميكروبات التى تتوالد وتتكاثر وقد تتطاير فى الهواء ولهذا نشم الرائحة القوية بالقرب من أماكن التخمير مثل المنابيذ وأماكن صناعة الجاعة الخ ... وكذلك تكثر الميكروبات فى الاجواء التى يكثر بها الناس مثل بعض المحلات العمومية كالدكاكين وقاعات الاحتفالات الى آخره .

مصادر غير طبيعية

واعنى بها الانسان ونشاطاته الصناعية وغير الصناعية . وهذا التلوث الناتج عن مصادر غير طبيعية هو المشكل الذى يعاني منه الاحياء على وجه الارض أكثر من التلوث الطبيعي ، اذ أنه أشد خطرا على مستقبل الانسان ، ولأن الانسان بما أوتى من قوة عقلية بامكانه أن يغير وجه الطبيعة وأن يكون وقعه عليها أشد وأخطر ، فالقنابل الذرية مثلا بامكانها أن تغير بسرعة المركب الهوائى وادخال المواد المشعة حيث أن مادة السترانيوم 90 المشعة والناتجة عن التجارب النووية اذا نزلت على الارض امتصتها النباتات التى تأكلها الحيوانات وهذه يستهلكها لانسان الذى بذلك يدخل الى جسمه تلك المادة المشعة التى تتسرب فى عظامه ثم تأخذ باشعاعها فى اتلاف نسيجه اللحمى والعظمى وبامكانها ان تحدثله مرض السرطان الذى ينتهى به الى الموت ، فدرجة نقاوة جونا الذى وهبه له الاله يجب المحافظة عليه . وقبل التعرض الى آثار التلوث الجوى بسبب الانسان يحسن بنا أن نشير الى ان أصل هذا التلوث قد يكون ناتجا عن المحروقات وقد يكون مصدره الصناعة .

التلوث البيئى الناتج عن المحروقات :

ان الاحتراق الناقص للمحروقات سواء اكانت صلبة أم غازية يشكل منبعا أساسيا للتلوث البيئى والتلوث الجوى بالخصوص ، وهو أشد خطرا على صحة الانسان من التلوث الطبيعي وقد يكون الاحتراق الناقص ناتج عن وسائل النقل الحديثة أو التدفئة فى المنازل أو المراكز الحرارية أو احتراق فضلات المدن . وهذا الاحتراق لناقص قد

تتولد عنه غازات سامة مثل أكسيد الكبريت وأكسيد الآزوت تختلط بالهواء الذى يتنفس منه الانسان فتدخل بذلك هذه الغازات السامة الى جسم الانسان وتحدث له اختلالا فى التوازن ، وامراضا فتاكة . وتعد السيارات التى هى من ضرورية وسائل النقل الحديثة من أهم مصادر التلوث الجوى لما تلقيه يوميا من غازات سامة مثل أكسيد الكاربون وثانى أكسيد الكاربون ورصاص وكلور وكبريتات فى الاجواء ، وأجواء المدن بالخصوص . وقد دلت التجارب والملاحظات على أن محركات السيارات ترسل فى الهواء عن طريق مداخنها بالخصوص كميات كبيرة من تلك الغازات السامة اذا كانت تسير ببطىء أو اثناء قيامها أو اثناء تغيير سرعتها ، وان أجواء المدن مليئة بالاملاح الرص التى ان نزلت على الارض امتصتها النباتات ومنها تنتقل الى الانسان وربما انتقلت اليه مباشرة مع بقية الغازات السامة عن طريق الازقة والانهج الضيقة والملتوية والانفاق وكذلك أماكن الوقوف كاماكن الاشارات الحمراء هى التى ترفع بها نسبة التلوث . ولأخذ فكرة بسيطة عن مدى مساهمة السيارات فى تلوث الأجواء نذكر هذه الاحصائية عن البلاد الاوروبية : بلجكا لسنة 1966 .

عدد السيارات	المستهلك من المحروقات	وزن التلوث بالاطنان
1 . 672 . 254	2 . 192 . 342 طنا	808 . 379

واذا أضفنا الى هذه الارقام التلوث الناتج عن النقل بالسكة الحديدية والملاحة البحرية والجوية تبين لنا مدى شدة خطر النقل على التلوث الجوى . وكذلك التدفئة المنزلية وبالخصوص اذا كانت بالفحم الحجرى الذى يحوى كمية كبيرة من الكبريتات يرسلها فى الهواء اثناء الاحتراق .

التلوث البيئى الناتج عن الصناعة :

ان التلوث البيئى الناتج عن الصناعة يشتد فى البلدان الصناعية ومن أجوائها قد ينتقل بواسطة الرياح الى أجواء البلدان المجاورة سواء كانت صناعية أو غير صناعية ومعنى هذا ان هناك بلدانا تتنعم بالصناعة وأخرى تشقى بدخانها ، اذ ان هذا التلوث قد ينقل الى مسافات بعيدة قد تبلغ مئات الكيلومترات خارج حدود البلدان الصناعية . وأنواع التلوث والاوساخ الناتجة عن الصناعة كثيرة ومتنوعة حسب تنوع الصناعة نذكر منها :

التلـوث الناتج عـن الصناعات الحديدية : ويتمثـل فى جزئيات دقيقـة مختلفة الاقطار اذ قد تتراوح أقطارها ما بين 10 و 100 ميكرون تتطاير فى الهواء لمدة من الزمن ثم تسقط على الارض . ويتمثل أيضا فى الدخان الاصهب (مائل الى الحمرة) مـــن جزئيات دقيقة لاكسيد الحديد ، والغبار ، والغازات السامة من ثانى أكسيد الكبريت وحمض النيترات ، وثانى أكسيد الكاربون وبايجاز فان كل المراحل التى تمر بهـــا صناعة الحديد تساهم بارسال نسبة من الاوساخ سرعان ما تنتشر فى الاجواء . وقـــد قدرت الاحصائيات ان انتاج الطن الواحد من الحديد يؤدى الى تلوث الجو بحوالى 1ر2 كلغ من أكسيدات الكبريت .

التلوث الناتج عن صناعة الاسمنت : ويتجلى جيدا فى الدخان الكثيف والغبـــار المتطاير فى الطبقة الجوية المخيمة على مصانع الاسمنت ، وكذلك المنازل المجاورة لمصانع الاسمنت تظهر مكسوة بطبقة من غبار المصانع .

وهذه الاوساخ قدتلصق بأى جسم لامسته سواء أكان لانسان أم لحيوان أم لنبات.

التلوث الناتج عن الصناعات الكيماوية : وهذا أخطر التلوث لانه لا يظهر للعيـان بحكم أنه عبارة عن غاز سام يكون مختلطا بالهواء ثم لسهولة انتشاره الى مسافـــات بعيـــــدة .

والصناعات الكيماوية كثيرة ومتنوعة منها صناعة الحامض الكبريتى التى تـــؤدى الى تلوث الجو بأكسيد الآزوت والكريت . وصناعة حمض النيترات ، وصناعة الكلور ، وصناعة المخصبات مثل الاسمدة الازوتية والفوسفاتية ، وصناعة الورق التى تتولد عنها الروائح الكريهة ، والصناعات البترولية التى تنطلق منها الا بخرة البترولية والدخان والغبار ، واكسيدات الكبريت الخ ...

وحسب الاحصائيات التى أجرتها مصلحة الكهرباء فى فرنسا يتجلى لنا فى الجدول الآتى مدى مساهمة مختلف مصادر التلوث بفرنسا فى تزويد أجوائها بالغبار والاوساخ غير الغازية .

المصـدر	الغبار ألف طن سنويا	النسبة المئوية
مراكز التعدين	240	18
معامل الكوك	150	12
المصانع	370	28
القطارات	140	11
المنازل	330	25
المراكز الحرارية	80	6
المجموع	1.310	100

ويلاحظ على هذا الجدول أن أهم مصادر التلوث فى فرنسا هى المصانع تليها التدفئة المنزلية ، وأن الاجواء الفرنسية تتلقى سنويا ما يقرب 1ر3 مليون طنا من الغبار يضاف لها كمية أخرى من الغازات السامة وبالخصوص غاز ثانى أكسيد الكبريت وثانى أكسيد الكاربون .

أثـــر التلـــوث :

لما كان التلوث يظهر فى شكل جزئيات دقيقة وغازات سامة متطايرة فى الهـواء أو مختلطة به وكنها غريبة عنه أو تدخل فيه بنسب تؤدى الى فساده وعدم اتزانه فان الانسان باستنشاقه لهذا الهواء يجلب الى جسمه عن طريق الرئتين فى أغلب الاحيان كمية كبيرة من الاوساخ التى تتسرب فى خلاياه أو تلزق بجسمه أو يستهلكها فيما يستهلكه مما يؤدى به الى الموت أو الى الامراض ، أو الى الموت البطىء حيث يتولد فى كثير من الاحيان عن تلوث الهواء أمراض الرئتين مثل الالتهاب والسعال والاختنـاق ، وأمراض القلب والتهاب العيون الخ ... وقد دلت الاحصائيات فى بريطانيا ان مـن بين مائة ألف وفات 82 كان سببهم الالتهاب الرئوى الناتج عن التلوث الغازى ، وانـه فى سنة 1952 قد ماتت أربعة آلاف نسمة من جراء تلوث الهواء بثانى أكسيد الكبريت. والملاحظ على نسبة الوفيات من التسمم الجوى مرتفعة فى المدن عنها فى الريف ذلك ان أجواء المدن أكثر تعفنا من أجواء الريف حيث سجلت نفس الاحصائيات في بريطانيا أن نسبة الريفيين الذين يموتون سنويا بسبب التلوث الجوى لا تزيد عن 0042ر0 ٪ كما

دلت نفس الاحصائيات أن من بين مائة* الف وفات ، سجلت 125 بسبب السرطان الرئوى من التلوث الغازى . هذا فى المدن الصناعية ذات الكثافة الصناعية والبشرية المرتفعة ، اما فى الريف فتنخفض هذه النسبة بكثير اذ تصل الى أقل من 64 فى المائة ألف . وهكذا فان نسبة المصابين بمرض السرطان الرئوى مرتفعة بالضعف فى المدن عنها فى الريف .

وأشد الغازات السامة بالانسان هى غاز اكسيدات الكبريت وثانى أكسيد الكاربون وأكسيدات الآزوت وكذلك أملاح الرصاص . فارتفاع نسبة هذه الغازات السامة تؤدى الى فساد الدم وتلوثه ، ومثال لذلك ان ارتفاع نسبة أكسيد الكاربون تؤدى الى الاختناق ، حيث أن الدم فى العادة يحوى ما يقرب من 0,4 ٪ من ثانى أكسيد الكاربون فان زادت هذه النسبة فى الدم مال الانسان نحو الاختناق والتسمم ، وكذلك الرصاص يحدث آثارا فعالة على الشبكة الحمارية فى الخلايا البشرية وبالخصوص فى الكريات الحمر والمجارى البولية والجهاز العصبى . والرصاص مثله الاملاح السامة حيث يؤدى بالمعدة الى افراز الاحماض المضرة . ويصل الرصاص الى المعدة عن طريق المواد الغذائية المتلوثة بالرصاص . وقد دلت التجارب ان ابتلاع غرام واحد من الرصاص مرة واحدة يؤدى الى الهلاك ان لم يكن مصحوبا بقيء ، كما دلت الابحاث فى الولايات المتحدة ان نسبة الرصاص بدماء الحضر أكثر منها بدماء الريفيين ذلك بسبب تلوث أجواء المدن والنقاوة بالنسبة لاجواء الريف .

فأجواء المدن مليئة بالغبار والاوساخ وبالخصوص غاز ثانى أكسيد الكاربون الذى يلفظه السكان يوميا وكذلك الدخان الناتج عن تدخين التبغ . وقد دلت الاحصائيات أن 5 ملايين نسمة يلفظون يوميا عن طريق التنفس ما لا يقل عن ملونين متر مكعب من ثانى أكسيد الكاربون وحوالى ستة آلاف طنا من الاوساخ السائلة ، وهذه كمية كبيرة تعود الى جسم الانسان مرة أخرى فى شكل سموم ان لم يتخذ الاحتياطات اللازمة ليدرأ عن نفسه خطر التلوث .

أما بالنسبة للتبغ وهو من أشد الاخطار والعادات الفاسدة التى أصبح يعانى منها مجتمعنا الحالى فانه باتفاق عدد كبير من العلماء والباحثين يشكل داء عضالا لا يمكن

التخلص منه بسهولة ، لانه مرتبط بالحالة النفسية للانسان ، وما اخطـــر الامـــراض النفســـية !

وقد دلت الابحاث ان مرض السرطان الرئوى الناتج عن التلوث الجوى لسبب غير التدخين يمثل نسبة ضعيفة اذا ما قورن بمرض السرطان الرئوى الناتج عن التدخين حيث ان من بين 100 وفات بسبب السرطان الرئوى سجلت 75 ٪ بسبب التدخين و 25 ٪ بسبب التلوث الجوى . والجدول الآتى يبين نسبة الوفيات بمرض السرطان الرئوى فى بريطانيا لكل مائة ألف نسمة بسبب التلوث والتدخين فى الوسطين الريفى والمدنى .

السبب	الوسط	النوع	عدد الوفيات
التلوث الجوى			125
	مدن يزيد سكانها عن مائة ألف نسمة		112
	مدن يتراوح سكانها ما بين 50 و 100 ألف		93
	مدن أقل من 50 ألف		84
	مناطق ريفية		64
التدخين للذين تتراوح أعمارهم بين 45 و 75 سنة .	المدن	استعمال الغليون	143
		استعمال السيجار خفيفا	297
		استعمال السيجار متوسطا	287
		استعمال السيجار كثيرا	394
	الريف	استعمال الغليون	41
		استعمال السيجار خفيفا	87
		استعمال السيجار متوسطا	183
		استعمال السيجار كثيرا	363

ويوضح هذا الجدول معامل الارتباط الشديد بين التدخين ومرض السرطان الرئوى وان هذا المعامل يختلف شدة باختلاف البيئة وباختلاف النوع للتدخين حيث نلاحظ ان خطر التدخين اشد على سكان المدن من سكان الريف ، لان اجواء سكان المدن مشبعة

بالتلوث ويضاف لها تلوث التدخين على عكس اجواء الريفيين النقية نسبيا . ثم ان خطر التدخين اشد منه اذا كان باستعمال السيجار لان الدخان فى هذه الحالة يدخل الى رئة المدخن دون تصفية وعلى العكس فى حالة استعمال الغليون الذى يلطف من حدة مادة النيكوتين ومن كمية الدخان الداخلة الى جوف المدخن .

فالتدخين رغم انه ينشط الاعصاب ويحركها أو ينبهها من حين لآخر الا ان تنشيطه مؤقت للغاية ثم أن الامراض المنجرة عن استعماله تفوق بكثير هذا التنشيط حيث يقلل من العمر ويؤدى الى اختصار الحياة وينشط أمراضا عديدة من بينها كما ذكرنا السرطان الرئوى ثم أنه يقلل من الشهية ويفسد الدم ويغير المزاج الطبيعى الخ ...

وخلاصة الحديث ان الانسان الحديث بآلاته الحديثة وعاداته الفاسدة كثيرا ما أدى الى تعفن جوه وجلب الداء لنفسه ، ولا شك ، ان لم يصلح أحواله بالمحافظة على عدم تلوث بيئته ، فانه سيصل الى مرحلة فيها سيقضى على الحياة على سطح الارض وبالتالى سيحل الخراب محل العمران عندما تتشبع الارض وجوها بالتلوث لان هذا التلوث لا يؤثر على الانسان فقط بل كذلك على الحيوانات والنباتات وعلى المظاهر الاقتصادية بصفة عامة حيث يؤدى الى انخفاض المردود الحيوانى والنباتى والصناعى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في الذكرى الخامسة والثلاثين لوفاة ابن باديس

ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر

د. تركي رابح
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

هناك جانب هام فى حيـــاة الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يتناوله الباحثون حتى الآن بما يستحقه من عناية واهتمام ألا وهو دوره فى نشأة الحركة الاصلاحية السلفية فى الجزائر .

وهذه الدراسة تحاول ـ فى اختصار ـ القاء الضوء على هذا الجانب الهام .

والمعروف أن الشيخ عبد الحميد ينتمى الى مدرسة التجديد الاسلامى أو المدرسة الاصلاحية السلفية التى ظهرت فى العالم الاسلامى خلال القرن الثامن عشر الميلادى على يد السيد محمد بن عبد الوهاب (1696 ـ 1791) والامام محمد عبد الله الشوكانى (1758 ـ 1834) ثم جمال الدين الافغـــانى (1838 ـ 1897) ومحمد عبـــده (1849 ـ 1950) ورشـــيد رضـا

(1865 ـ 1935) وعبد الرحمن الكواكبي (1848 ـ 1902) في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وقد عملت هذه المدرسة منذ البداية في ثلاثة ميادين هي :

أولا : ـ احياء جذوة الدين الاسلامي في نفوس المسلمين حتى يعود الدين كما كان في عصور الاسلام الاولى قوة دافعة للنهضة ، والبذل ، والتضحية ، والعمل على اجراء روحه والكشف عن حقائقه ، باعتبار أن الاسلام دين ودولة ـ أو نظام روحي واجتماعي في وقت واحد . ولذلك عمل اتباع هذه المدرسة على محاولة التوفيق بين الاسلام من ناحية ، ومقتضيات المدينة الحديثة من ناحية أخرى . كما يظهر ذلك في كتابات الامام محمد عبده ورشيد رضا ، وطنطاوي جوهري الذي حاول في تفسيره للقرآن الكريم أن يوفق بين النصوص القرآنية ، وبين أكثر الآراء العلمية تقدما في العصر الحديث .

ثانيا : ـ تطوير اللغة العربية وحمايتها باعتبارها لغة القرآن الكريم ، وأداة الدين ووعاءه وذلك لأن المستعمرين الاروبيين قد حاولوا عن طريق الاحتلال ، والغزو الفكري والثقافي للعالم العربي والاسلامي كما حاول المبشرون ورجال الاستشراق القضاء على اللغة العربية ، واحلال لغاتهم محلها ان أمكن أو احلال اللهجات المحلية في كل قطر عربي محلها فيّ الادارة والتعليم وفي سائر مجالات الحياة الحديثة كما يتضح ذلك فيما قامت به فرنسا في الجزائر ، وتونس ، والمغرب وما قامت به ايطاليا في ليبيا وبريطانيا في مصر وفلسطين والعراق ، وذلك بقصد تمزيق وحدة العالم العربي والقضاء على لغة القرآن تمهيدا للقضاء على الاسلام نفسه ، كدين ونظام اجتماعي شامل .

ثالثا : ـ مكافحة الخرافات والبدع والافكار الشاذة الغريبة عن الدين التي ألصقها رجال التصوف وعامة المسلمين المقتدين بهم بالدين الاسلامي في عصور الجهل والجمود والانحطاط ، والعودة بالدين الى أيام النبي (ص) وخلفائه وصحابته ومعنى ذلك هو تنقية الدين من كل لون من ألوان الشرك سواء كان علنيا أو خفيا كاشراك الاولياء والاضرحة مع الله سبحانه وتعالى في طلب المنافع أو دفع المضار .

---

(1) انظر ابن تيمية (اعلام العرب) للدكتور محمد يوسف موسى ص 121 ـ 165 القاهرة ، بدون تاريخ وانظر كذلك (زعماء الاصلاح في العصر الحديث) للاستاذ أحمد امين ط 1949 ص 5 ـ 10 مكتبة النهضة المصرية

أن الدعوة السلفية المعاصرة أو مدرسة التجديد الاسلامى كما يطلق عليها فى بعض الاحيان ليست وليدة العصر الحديث فحسب وانما هى تضرب بجذورها فى اغوار الماضى الاسلامى البعيد فهى ترجع الى تراث الامام أبى العباس أحمد بن تيمية، وتلميذه ابن القيم الجوزية اللذين عاشا فى أواخر القرن السابع والنصف الاول من القرن الثامن الهجريين . فقد كانت دعوة ابن تيمية ومدرسته كما تعلمون ترتكز على عدة دعائم أساسية هى :

1 ـ الرجوع الى الكتاب والسنة فى كل شأن من شؤون الحياة ، واتباع سبيل السلف الصالح من صحابة النبى وأتباعه فى فهم الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية المتصلة بالمسائل الفلسفية وخاصة فى مسألة الصفات الآلهية .

2 ـ الدعوة (1) الى ترك طريق الفلاسفة والمتكلمين ورجال التصوف حيث انها لا تتفق ـ فى نظره ـ مع روح الدعوة الاسلامية ولعل هذا هو الذى أعطى لهذه الحركة اسم « الحركة السلفية » .

3 ـ محاربة البدع والمنكرات ولا سيما ما اتخذت منها مظهر الشرك بالله كالتمسح بالقبور ، والصلاة عندها ، وطلب الحاجة منها . والاستعانة أو الاستغاثة بغير الله كالأولياء ، والاضرحة ، والتبرك بالاشجار والاحجار .

4 ـ فتح باب الاجتهاد على مصراعيه واعلان الحرب على المقلدين والمتعصبين للمذاهب والآراء (2) .

هذه هى مبادىء المدرسة السلفية أو مدرسة التجديد الاسلامى عند ابن تيمية وعند المصلحين المعاصرين وهذه هى أسسها وجذورها التاريخية والملاحظ أن هذه المدرسة تدعو الى الجمع فى الاصلاح للمسلمين بين الاصلاح الدينى والمدنى ، باعتبار أن الاسلام دين ودولة ، حتى يسير التجديد الدينى والتجديد المدنى فيها جنبا الى جنب ، ولا يتخلف أحدهما عن الآخر لان هذا النوع من التجديد هو الذى ينهض بالمسلمين فى العصر الحاضر حيث لا يمكنهم النهوض بأحدهما دون الآخر (3) .

(1) انظر دكتور على سامى النشار « تراث الانسانية » عدد 2 مجلد 4 ص 105

(2) الاجتماع الدينى ص 328 وانظر أيضا ابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى المرجع السابق

(3) المجددون فى الاسلام ص 528 .

والسؤال الذى ينبغى الاجابة عنه هنا هو ... هل كان ابن باديس نبتا من زرع المدرسة الاصلاحية السلفية فى الجزائر ، أم هو الذى بذر بذورها وغرس غرسهـــا فى التربة الجزائرية ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال الهام تقتضينا الرجوع الى الوراء قليلا لنبحث عـن نشأة هذه الحركة فى الجزائر حتى نعرف مدى تأثر ابن باديس بها ، ومدى أثـــره فى نشـــأتها .

... اذا بحثنا فى المحاولات الاصلاحية التى ظهرت فى بعض نواحى الجزائر فى بداية هذا القرن قبل ظهور ابن باديس على المسرح الجزائرى فى عام 1913 فاننا نجدهـا لا تعدو أن تكون محاولات فردية محدودة النطاق ومحدودة المفعول أيضا قام بها أفـراد قلائـل ممن تأثروا قليلا أو كثيرا بدعوة الامام محمد عبده الاصلاحية التى كانت تنقلها لهـم مجلة « المنار » للسيد رشيد رضا ، أو ممن وقعت فى أيديهم أعداد من مجلة « العـروة الوثقى » للسيدين جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ، أو ممن كانوا على صلة بالجرائد والمجلات العربية التى تصدر فى الشرق العربى .

ويمكن أن نذكر من هؤلاء الافراد الشيخ عبد القادر المجاوى المتوفى سنة 1913 الذى باشر التعليم فى المدارس الفرنسية الاسلامية مدة طويلة وترك لنا عدة مـؤلفات تدور حول اللغـــة العربية وشرحا « لمنظومة اللمع فى انكار البدع (1) » وهى منظمة طويلة نظمها تلميذه المولود بن الموهوب (2) ، وحمـــل فيها حملـــة شعواء عـلى البدع والطرقية .

كما ينبغى أن نشير الى محاولات الشيخ مصطفى بن الخـــوجة المشهور بالكمـال المتوفى سنة 1915 وقد كان شغوفا بمحبة الامام محمد عبده وهو الذى كما يقول المرحوم عمر راسم (3) ـ أدخل مذهبه الى الجزائر وعرف الناس به وبجمال الـدين الافغـانى وأصحابهما كما ينبغى أن نشير الى محاولات المـــولود بن الموهوب التى تجلـــت فى المحاضرات التى كان يلقيها قبل الحرب العالمية الاولى فى نادى صالح باى بقسنطينة ـ

(1) محمد على دبوز « نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة » ص 104

(2) المرجع السابق ص 141

(3) سعد الدين بن أبى شنب مجلة آداب الجزائر العدد الاول السنة الاولى ص 52

ومحاولات الشيخ عبد الحليم بن سماية المتوفى سنة 1931 الذى كان يدرس (4) « رسالة التوحيد » للامام محمد عبده فى المدرسة الثعالبية وقد كان من المعجبين به وبطريقته فى الاصلاح .

كذلك ينبغى أن نشير الى المرحوم عمر راسم ونشاطه الاصلاحى فقد كان هو الآخر متأثرا بالامام محمد عبده حتى انه جعله المدير الدينى لجريدة (5) « ذو الفقار » التى كان يصدرها فى الجزائر قبل الحرب العالمية الاولى بقليل .

ويذكر الشيخ رشيد رضا فى كتابه « تاريخ الامام محمد عبده » (ح ص 871 ـ 872) أن الامام محمد عبده عندما زار الجزائر وتونس فى صيف عام 1903 وجد له حزبا دينيا كونته مجلة « المنار » فقال « ومن خيار العلماء الشيخ محمد بن الخوجة صاحب المصنفات والشيخ عبد الحليم بن سماية . وقد عهد هؤلاء الفضلاء الى الشيخ محمد عبده أن يوصى صاحب المنار بألا يذكر دولة فرنسا بما يسوؤها لئلا تمنع « المنار » من الجزائر وقالوا له « اننا نعده مدد الحياة لنا فاذا انقطع انقطعت الحياة » ثم يضيف الشيخ رشيد رضا الى ذلك قوله « وقد وجد له فى تونس والجزائر حزبا دينيا ينتمى اليه من حيث لم يكن يعلم وانما الصلة بينهم وبينه مجلة « المنار » .

من الملاحظ أن هذه المحاولات التى أشرنا اليها منذ قليل قد قام بها أفراد يعملون باستثناء الفنان الرسام السيد عمر راسم موظفين عند ادارة الاحتلال الفرنسى .

فالشيخ عبد القادر المجاوى كان مدرسا رسميا فى المدارس الفرنسية الاسلامية والشيخ المولود بن الموهوب كان مفتيا واماما رسميا . وكذلك الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة والشيخ عبد الحليم بن سماية .

والوظيفة عند دولة الاحتلال تقف عائقا كبيرا فى وجه المصلحين والمناضلين تعوقهم عن أداء واجبهم الوطنى على الوجه المطلوب .

(4) انظر رسالة الشيخ عمر راسم المعروفة بـ «تراجم بعض علماء الجزائر» مخطوطة نقلا عن محمد على دبوز .
(5) سعد الدين بن أبى شنب المرجع السابق ص 63

ولعل هذا هو السبب الذى جعل مدرسة التجديد الاسلامى قبل ظهور ابن باديس تبقى محدودة الانتشار في الجزائر الا فى نطاق أفراد قلائل ولم تنتشر انتشارا واسعا الا بعد أن ظهر الشيخ ابن باديس على المسرح الجزائرى فى عام 1913 .

ولذلك فان الشيخ ابن باديس فى نظرنا هو الذى أرسى دعائم المدرسة الاصلاحية السلفية فى الجزائر ، وهو الذى شرح معالمها ، وأوضح مقاصدها للجزائريين وهو الذى مهد لها التربة ، ورعاها وتعهدها حتى أصبحت قوية الجذور ، راسخة البنيان واسعة الانتشار لا فى قسنطينة وحدها ولكن فى الجزائر كلها من أدناها الى أقصاها .

ومن هنا يمكن القول بكل اطمئنان بأن الشيخ عبد الحميد بن باديس يعتبر من أهم المصلحين المعاصرين الذين بذروا بذرة الاصلاح فى الجزائر ، واليه يعود الفضل فى نشأة هذه الحركة السلفية فى بلادنا . وهنا نتساءل ما هى المؤثرات التى وجهت ابن باديس الى اعتناق الفكرة الاصلاحية السلفية ؟ ومن أين أخذها ؟ هل من أساتذته فى مدينة قسنطينة ؟ أم من أساتذته فى جامع الزيتونة بتونس ؟

والجواب هو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد تأثر أول ما تأثر بالفكرة السلفية عن طريق أساتذته فى جامع الزيتونة فى تونس لا من أساتذته فى قسنطينة لانهم كانوا طرقيين وذلك بعد سفره الى تونس فى عام 1908 لاتمام دراسته فى جامع الزيتونة فهؤلاء الاساتذة هم الذين بثوا فيه فكرة الاصلاح والسلفية صحيح أن الامام محمد عبده رائد هذه المدرسة كان قد زار الجزائر العاصمة وقسنطينة فى صيف عام 1903 قبل أن يسافر ابن باديس الى تونس وألقى سلسلة من المحاضرات التوجيهية على من اجتمعوا به فى كل من العاصمة وقسنطينة ، ولكن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان فى هذا التاريخ لا يزال غلاما يافعا لم يتجاوز عمره الرابعة عشر بعد ولذلك لا نعتقد أنه اجتمع بالامام محمد عبده فى مدينة قسنطينة وحتى اذا ما كان قد اجتمع به أو حضر دروسه فلا يمكنه أن يستوعب أفكاره الاصلاحية وهو فى هذا العمر المبكر ، وفى مثل هذا الوقت القصير من الزمن الذى لا يتجاوز بضعة أيام فقط .

ومن المعروف تاريخيا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يأخذ الفكرة الاصلاحية عن كل مشائخه الذين درس عليهم فى جامع الزيتونة ، وانما أخذ عن اثنين فقط

وهما الشيخ محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة 1924 ، والشيخ محمد الطاهر بـــن عاشور أما بقية مشائخه فقد كانوا تقليديين جامدين يناهضون فكرة الامام محمد عبده الاصلاحية ويحاربونها بين تلاميذهم في جامع الزيتونة .

وقد أشار الشيخ عبد الحميد بن باديس نفسه الى تأثير هذين الاستاذين عليه في مقال له نشره في جريدة البصائر في عام 1936 فقال : « عرفت الاستاذ الطاهر بن عاشور في جامع الزيتونة ، وهو ثاني الرجلين اللذين يشـــار اليهما بالرسوخ في العلـم ، والتحقيق في النظر ، والسمو والاتساع في التفكير ، أولهما العلامة الاستاذ محمـد النخلي القيرواني رحمه الله ، وثانيهما الاستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور ، وكانا كمـا يشار اليهما بالصفات التي ذكرناها يشار اليهما بالضلال والبدعة ، وما هـو أكثر من ذلك لانهما كانا يحبذان آراء الاستاذ محمد عبده في الاصلاح ، ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقرأ عليهما ، وكان هذا مما استطاع بـه الوسط الزيتوني أن يصرفني منهما ، وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة ، واتصلت بهما حتى حصلت على شهادة « العالمية » ووجدت لنفسي الاختيار فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما في حياتي العلمية أعظم الاثر على أن الاستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيدا لاتصالي الوثيق بالاستاذ النخلي » . (1)

اذن فقد تعرف ابن باديس على مدرسة التجديد الاسلامي لاول مرة في حياته عن طريق أساتذته في جامع الزيتونة عندما كان طالب علم هناك في الفترة ما بين عام 1908 وعام 1912 وازداد ايمانه بها قوة وصلابة واقتناعه بجدواها لتخليص الاسلام والجزائر مما يتخبطان فيه من جهل وبدع ، وخرافات ، بعد سفره الطويل الى المشرق العـــربي في عام 1913 وهو السفر الذي أدى فيه فريضة الحج واجتمع خلاله بعدد كبير من رجالات الفكر والاصلاح في العالم العربي من بينهم الشيخ بخيت المطيعي شيخ جامع الازهـر السابق وأحد أنصار الامام محمد عبده ، والشيخ حمدان لونيسي شيخ ابـن باديس السابق ، والشيخ حسين الهندي العالم السلفي المجاور الذي نصحه بوجوب العـودة الى الجزائر لاحتياجها الشديد الى علمه وتفكـــيره . ومنهم الشيخ البشير الابراهيمي الذي تعرف عليه ابن باديس لاول مرة في حياته في المدينة المنورة حيث كان قد هاجر اليها في حدود عام 1910 ومنذ ذلك الحين ارتبطا بصداقـــة متينة كانت من أبـــرك

(1) البصائر عدد 16 السنة الاولى 24 ابريل 1936

الصداقات على الجزائر والحركة الاصلاحية السلفية التى برزت فيما بعد فى حـــركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

« العوامل التى ساعدت على نشأة الحركة الاصلاحية فى الجزائر »

هناك جملة من العوامل ساعدت على نشأة الحركة الاصلاحية السلفية فى الجـزائر يمكن تصنيفها تحت قسمين رئيسيين :

القسم الاول ويشمل العوامل الجزائرية الداخلية التى يمكن حصرها فى العوامل التاليـــة :

I ـ محاولة الاستعمار الفرنسى القضاء على الثقافة العربية الاسلامية فى الجزائر .

2 ـ نشاط حركات التبشير المسيحى المحمية من طرف الاستعمار فى العمل على تنصير أبناء وبنات الجزائر .

3 ـ سياسة الفرنسة والتجنيس التى أرادت دولة الاحتلال فرضها على الجزائريين .

4 ـ المحافظة على الشخصية الجـــزائرية التى أصبحت مهددة بالخطر من طـــرف الاستعمار وعملائه من دعاة الفرنسة والاندماج والتغريب .

5 ـ انحراف معظم الطرق الصوفية فى الجزائر عن جادة الاحلام القويمة حيـــث اكثروا من البدع فى الدين بل وتعاون معظمهم مع الادارة الاستعمارية ضد مصالـح بلادهم العليا (I) .

6 ـ تأثير دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس التى كان يلقيها لعدة سنـوات فى الجامع الاخضر بقسنطينة فى الدعوة الى الاصلاح ، وننذ البـــدع ، ومقاومة الخرافات والجمود ، وتحرير الفكر الجزائرى من سيطرتها .

أما القسم الثانى : فيشمل العوامل الخارجية وهى عوامل اسلامية وعالمية يمكـن حصرها فى العوامل التالية :

(I) انظر كمثال على ذلك « مجلة الفتح » للسيد محب الدين الخطيب العدد 257 السنة السادسة القاهرة I350 هـ حيث عدد فيها خيانة الطرق الصوفية ومنها الطريقة التيجانية للقضية الوطنية الجزائرية لتعاونها مع دولة الاحتلال .

1 ـ اليقظة العامة التى دبت فى أرجاء العالم الاسلامى والعربى (ومن بينه الجزائر) نتيجة احتكاكه بأوروبا ثقافيا وسياسيا وعسكريا ، ابتداء من النصف الثانى للقرن التاسع عشر .

2 ـ المجلات والجرائد العربية الشرقية التى كانت تتسرب الى الجزائر حاملة معها الدعوة الاصلاحية السلفية التى ينادى بها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وأتباعهما مثل « العروة الوثقى » ومجلة « المنار » وجريدة « المؤيد » وجريدة « اللواء » وغيرها من المجلات والجرائد التى تهتم بفكرة التجديد الاسلامى .

3 ـ عودة الجزائريين الذين درسوا فى الشرق العربى الى الجزائر أمثـال الشيخ البشير الابراهيمى ـ والطيب العقبى ـ والعربى التبسى ـ وكلهم عادوا الى الجزائر بعد الحرب العالمية الاولى .

4 ـ اليقظة العامة التى دبت فى الشعب الجزائرى نتيجة للحـرب العالمية الاولى ، وتطلع الجزائريين الى الاصلاح الشامل الذى ينهض بهـم دينيا واجتماعيا وثقـافيا ، وسياسيا من الوضعية السيئة التى كانوا عليها قبل هذه الحرب .

هذه جملة من العوامل تظافرت على نشأة الحركة الاصلاحية السلفية فى الجـزائر بعد الحرب العالمية الاولى . ويحدثنا الشيخ البشير الابراهيمى عن الاتجاهات الرئيسية التى توزعت المصلحين فى أتباع المدرسة السلفية فى الجزائر قبل تكوين جمعية العلماء فى عام 1931 ويذكر لنا اتجاهين كانا يسودان تلك الاوساط :

أحدهما : اتجاه اصلاحى بطىء كان اصحابه يرون أن السبيل الى الاصلاح المثمر انما يكون عن طريق التربية والتعليم من أجـل تكوين جيل قائد يعمل على احـداث النهضة التى تقود الشعب الى الحضارة .

والثانى : اتجـاه ثورى متحمس كان أصحابه يرون أن السبيل الى الاصـلاح والتغيير انما يكون عن طريق القيام بثورة فكرية واجتماعية ودينية تزلزل قواعد البدع والخرافات من الاساس وتعجل بالقضاء على الطرقية تمهيدا للقضاء على الاستعمار الذى يقوم بحمايهم .

يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « كان المصلحون اذ ذاك يلتقون على فكـــرة ولا يلتقون على نظام ولا فى جمعية ، لان جمعية العلماء لم تؤسس بعـد ، فكانت الاوساط الاصلاحية فى ذلك العهد يتجاذبها رأيان يلتقيان فى المقصد ، ويختلفان فى المظهر العملى للاصلاح وكيف يكون .

أحدها ـ صرف القوة كلها وتوجيه الجهود متظافرة الى التعليم المثمر ، وتكويـــن طائفة جديدة منسجمة التعليم ، مطبوعة بالطابع الاصلاحى علما وعملا مسلحة بالادلة مدربة على أساليب الدعوة الاصلاحية ، والخطابة العربية حتى اذا كثر سواد هـــذه الطائفة وكان منها الخطيب ومنها الكاتب ومنها الشاعر ومنها الواعظ ، ومنهـا الـراعى المتجول استخدمت فى الحملة على الباطل والبدع على ثقة بالفوز (وقد كان الابراهيمى من أنصار هذا الرأى) .

(أما الرأى الثانى فيتمثـل) فى أخـــذ المبطلين ، والهجـــوم عليهـــم وهـــم غارون ، واسماع العامة المغرورة صوت الحق فصيحا ، غير مجمجم (ويرتكز هذا الرأى) على ان هذ البدع والمنكرات التى يريد الاصلاح ان يكون حربا عليها هى أمور قد طال عليها الامد وشاب عليها الوالد ، وشب عليها الولد ، (وقد كان الشيخ ابن باديس من أنصار هذا الرأى) وقد رجح الرأى الثانى لمقتضيات لله من ورائها حكمة » . (1)

وهكذا نشأت جريدة « المنتقد » للشيخ ابن باديس سنة 1925 كى تشن هـــذا الهجوم على الفساد والطرقية غير أنها لم تعمر طويلا حـين أوقفتها فرنسا بعد صدور 18 عددا فقط منها ، فخلفتها جريدة « الشهاب » للشيخ ابن باديس كذلك فى نفس العام لكى تواصل نفس الهجوم .

ولعلنا نلاحظ أن اصحاب الاتجاه الاول كانوا متأثرين بالامام محمد عبده الـذى كان ينادي بعد وقف جريدة العروة الوثقى سنة 1884 ببناء الاصلاح فى العالم الاسلامى على التربية والتعليم من أجل اعداد القادة ـ وأن أصحاب الاتجاه الثـانى : كـــانوا متأثرين بالسيد جمال الدين الافغانى الذى كان ينادى بتحقيق الاصلاح فى العالــم الاسلامى عن طريق الثورة السياسية والاجتماعية والثقافية التى تزلزل أركان الجمود

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 42 .

والاستبداد السياسى ، والفساد الاجتماعى من الاساس لا على أساس التربية والتعليم لانها تتطلب وقتا طويلا وهو رجل ثورى يريد تحقيق النهضة فى أسرع وقت ممكن .

ولسنا نزعم بأن الفضل يعود للشيخ ابن باديس وحده فى نشر مدرسة ابن تيمية الاصلاحية السلفية فى الجزائر هذه المدرسة التى تطورت تطورا كبيرا على يد المصلحين المعاصرين غير أن الشىء المؤكد علميا وتاريخيا « حتى الآن » هو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان أول مصلح سلفى قاد مدرسة التجديد الاسلامى فى الجزائر بوعى وصبر وثبات طيلة سبعة وعشرين عاما ، وأعطاها نفسا قويا من روحه الثائرة . وعلمه الغزير وقلمه البليغ ، ونشاطه المتواصل ، حيث عمل على غرسها فى طلابه الكثيرين فى الجامع الاخضر بقسنطينة ، وعلى رواد دروسه فى التفسير والحديث والحضارة الاسلامية من جماهير سكان مدينة قسنطينة وضواحيها ، لمدة حوالى سبعة وعشرين عاما وهو الذى أذاعها فى كامل أنحاء الوطن الجزائرى بواسطة تلامذته أولا ثم بواسطة جريدتى « المنتقد » و « الشهاب » اللذين أصدرهما فى عام 1925 على التوالى بعد ذلك ـ حتى أصبح حزب الاصلاح السلفى فى الجزائر ابتداء من تاريخ تكوين جمعية العلماء فى عام 1931 من أقوى الاحزاب الاصلاحية فى العالم الاسلامى .

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس فى هذا الصدد :

« لم تقم فى أمة اسلامية هيئة علمية منظمة تعلن الدعوة اعلانا عاما ، وتصمد للمقاومة غير مبالية بما يؤيد البدع من سلطان دينى وسلطان دنيوى ، غير الامة الجزائرية فكان من علمائها الاحرار المستقلين الذين لا يعيشون على الوظيفة ، أولئك الذين نهضوا بالدعوة الإصلاحية ، منذ بضع عشر سنة وجاهدوا فيها لله ، وصابروا وأسسوا لها مؤسسة دينية « جمعية العلماء والمسلمين الجزائريين » حتى أصبحت الدعوة الاصلاحية ـ والفضل لله والحمد ـ ثابتة الاركان ، مشيدة البنيان ، باسقة الافنان ، دانية الثمار وارفة الظلال ، لا على الجزائر وحدها بل على الشمال الافريقى كله » . (1)

عندما نهض ابن باديس بمهمة الاصلاح الدينى والاجتماعى للمجتمع الجزائرى ابتداء من عام 1913 كان أول ما وجه اليه عنايته هو نقد الاوضاع الفاسدة فى هذا المجتمع

(1) الشهاب ج 12 م 11 ص 646 ـ 647 عدد مارس 1936 م

ومهاجمة ما خلفته من آثار وخيمة فى الأفكار ، والاخلاق ، والعقائد ، والسلوك الاجتماعى العـــام .

وللشيخ عبد الحميد بن باديس ميزة هامة يمتاز بها على أضرابه من الشيوخ والعلماء وهى أنه كان رجلا يحافظ مثلهم على زى الشيوخ ووقارهم وسمتهم العام ولكنه كان فى نفس الوقت يختلف عنهم اختلافا كبيرا ـ فقد كان يحمل بين جنبيه قلب الشبـاب ، وعزيمة الشباب ، وارادة الشباب ، وطموح الشباب ، بل وثورة الشباب . وقد عـرف كيف يجمع فى براعة وذكاء بين القديم الصالح من ثقافة وتراث وتقاليد عريقة ، وبين الجديد المفيد فى العلوم والافكار العصرية فى تلاؤم وانسجام كاملين .

وكان يعيش لامته ووطنه أكثر مما يعيش لنفسه أو لأسرته • ولذلـك كان مـن أقدر رجـال الجـزائر المعاصرين على تحـرير عقـول الجزائريين وأذهانهم ومعتقداتهم من الآراء الباطلة ، والمعتقدات الفاسدة • ومن هنا استطاع أن يطبع فى نفوس تلامذته وأنصاره الكثيرين أعمق الآثار ، ويوجههم التوجيه الصالح المفيد الذى جعل منهم دعامة متجسمين للافكار التى ينادى بها ويناضل من أجلها ، لان الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وقف من المجتمع الجزائرى الراكد المتخلف ـ فكريا وحضاريا فى سائر الميادين موقف الناقد الحصين والمرشد المخلص ، الى الطريق السليم الذى يؤدى الى التحرر مـن سيطرة الخرافات والبدع ، وسيطرة الاستعمار فى وقت واحد ، لم يقف منه مـوقف المداهن أو المرائى الذى لا يهمه فى الحياة سوى تحقيق منافعه الخاصة فقط كما يفعـل الكثيرون من السياسيين المحترفين ومن هنا استطاع ابن باديس ـ بما قدمه لبلاده مـن جلائل الاعمال وبما أظهره من تجرد واخلاص أن يكون مصدر الهام ، وقدوة صالحـة لرجال الدين ، ورجال السياسة ، ولقادة الحركة الوطنية فى البلاد طيلة سبعة وعشرين عاما . وأن يوجههم جميعا فى الطريق الذى يؤدى الى تحرير الجزائر الكامل من الاحتلال فى نطاق حضارتها العربية الاسلامية ورغم أن حياته كانت قصيرة نسبيا حيث لم يعش سوى واحد وخمسين سنة فقط فقد ترك بصماته وتأثيره على كامل الحياة الوطنيـة والقومية فى البلاد ، من تربية ، ودين ، وأخلاق وسياسة واجتماع وصحافة وأدب الى غير ذلك وهذا يعود بالدرجة الاولى الى اخلاصه وتفانيه فى العمل ، وتجرده من المنافع

الشخصية فى سبيل المصلحة العامة للوطن وهل هذا ما جعل الشعب الجزائرى يحتفل بذكراه الخالدة كل عام بكل اجلال واكبار منذ وفاته فى عام 1940 .

« ميادين الاصلاح التى عمل فيها ابن باديس» .

اذا بحثنا عن أهم ميادين الاصلاح التى عمل فيها الشيخ ابن باديس وأثر فيها تأثيرا كبيرا فاننا نجده قد عمل بصفة أساسية على اصلاح ثلاثة أمور جوهرية لنهضة الشعب الجزائرى هى :

1 : اصلاح عقلية الجزائريين .

2 : اصلاح عقيدة الجزائريين .

3 : اصلاح أخلاق الجزائريين .

أولا : ـ اصلاح عقلية الجزائريين .

لقد اخذت قضية اصلاح عقلية الجزائريين عناية كبيرة من عمل ابن باديس ومجهوداته ، ذلك ان اصلاح العقول كما نعلم أيها السادة هو المقدمة الطبيعية لكل اصلاح ناجح فى المجتمع . ولعل هذا ما يوضح لنا اهتمام ابن باديس البالغ بأمور التربية والتعليم من أجل تكوين جيل أو اجيال قائدة فى الجزائر تعمل على بعث نهضة شاملة فى البلاد تخرج بها من حالة الجمود والركود الى الحوية والنشاط ومن ثم تندفع الى مزاحمة الشعوب فى ميادين الرقى والحضارة ، وبالتالى تنهض متكاتفة الى كسر قيود الاحتلال الغاصب الذى بسط سيطرته عليها ردحا طويلا من الزمن نظرا لتخلف الجزائريين الفكرى والعلمى والحضارى . ويظهر هذا من الكتب التى كان يدرسها لتلامذته فى الجامع الاخضر حيث كان يدرس لهم مقدمة ابن خلدون وموطا الامام مالك والمراجع الاساسية فى الادب العربى وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وكان يرى ان تحقيق هذه النهضة المنشودة يتوقف بالدرجة الاولى على تكوين الفرد الجزائرى من الناحية الفكرية والنفسية تكوينا عربيا اسلاميا متينا من ناحية ، ثم العمل على ربط كافة الجزائريين بشبكة واسعة النطاق من التنظيمات الاجتماعية أو السياسية أو الوطنية ، للدفاع عن كيان الوطن المهدد بالخطر من ناحية أخرى . حتى يعملوا متكاتفين متحدين على تحرير الجزائر من الاحتلال فى دائرة حضارتها العربية الاسلامية لا فى دائرة

اللائكية أو الاندماج ـ أو التجنيس كما كان البعض من الجزائريين المتأثرين بالثاقفة العربية ينادون خلال العشرينات والثلاثينيات من هذا القرن .

ويلاحظ أن ابن باديس كان يؤمن ايمانا لا حدود له بدور القرآن الكريم فى تكوين هذا الجيل المنشود على غرار الجيل الذى كونه القرآن فى العصور الاولى للاسلام يقول ابن باديس فى مجلة الشهاب : « فاننا نربى ـ والحمد لله ـ تلامذتنا عـلى القـرآن ، ونوجه نفوسهم الى القرآن من أول يوم وفى كل يوم ، وغايتنا التى ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم ، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الامة آمالها وفى سبيل تكوينهم تلتقى جهودنا وجهودها » . (1)

اما كيفية تثقيف هذا الجيل القائد فيشرحها لنا الشيخ البشير الابريهمى بقوله : « كانت الطريقة التى اتفقنا عليها أنا وابن باديس فى اجتماعنا بالمدينة المنورة سنة 1913 فى تربية النشء هى الا نتوسع له فى العلم ، وانما نربيه على فكرة صحيحة ولو مـع علم قليل فتمت لنا هذه التجربة فى الجيش الذى اعددناه من تلامذتنا » . (2)

اذن فابن باديس كان يهدف من عمله التربوى والاصلاحى العظيمين الى تكوين جيل أو اجيال مسلحة بعقيدة سليمة ، وفكر نير ، ووطنية صحيحة كى تعمل عـلى بعث النهضة فى المجتمع الجزائرى لان هدفه البعيد هو تغيير الواقع الجزائرى بكل خمولـه وسلبيته كما ذكرنا . والطريق الى ذلك هو تحرير عقول الجزائريين من الجمود والخرافات والجهـل .

ثانيا : ـ اصلاح عقيدة الجزائريين .

كما شغلت قضية اصلاح عقلية الجزائريين فكر ابن باديس ونشاطه التربوى الهام كذلك شغلت قضية اصلاح عقيدة الجزائريين فكره ونشاطه الاصلاحى الهام .

وقد كانت مدرسة التجديد الاسلامى التى يحمل ابن باديس لواءها فى الجزائـر تركز عملها بصفة عامة على مقاومة الخرافات والبدع (3) التى شوهت عقيدة المسلمـين

(1) الشهاب ج 4 ـ 5 م 14 ص 112 عدد جوان وجويلية 1938

(2) مجلة « مجمع اللغة العربية » عدد 21 ص 143 ـ 1964 .

(3) انظر كتابنا « الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم » ص 272 ـ 273

كما أشرنا الى ذلك من قبل . ولذلك كان من أهداف نشاطه التربوى والاصلاحى تطهير عقيدة الجزائريين من البدع وكل مظاهر الشرك سواء العلنى منها أو الخفى .

ويرى الشيخ عبد الحميد بن باديس أن الذين تسببوا فى جمود الفكر الاسلامى وأكثروا من البدع فى الدين ، انما هم رجال الطرق الصوفية ولذلك أعلن فى مجلة « الشهاب » « بأن الاوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ، ومبناها كلها على الغلو فى الشيخ ، والتحيز لاتباع الشيخ ، وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ الى ما هنالك من استغلال واذلال واهانة لاجل الاذلال والاستغلال ، ومن تجميد للعقول واماتة للهمم وغير ذلك من تلك الشرور » (4) ومن هنا عمل بكل همة على تطهير عقيدة الجزائريين من هذه الاوضاع الطرقية الفاسدة التى روجوها بين العامة على أنها من الدين والدين برىء منها ، حتى يعود الدين فى العصر الحديث كما كان فى القرون الاسلامية الاولى طاهرا نقيا من تلك البدع وبذلك يصبح قوة دافعة لنهضة الجزائريين بدلا من أن يكون عاملا عائقا لهم عن التطور والتقدم ، وهذا ما يفسر لنا سر الحرب العنيفة التى شنها ابن باديس على الطرقية فى الجزائر سواء فى دروسه الخاصة أو فى محاضراته العامة ، أو فى مقالاته الصحفية النارية التى كان ينشرها فى المنتقد ، ثم الشهاب ، والسنة الشريفة والصراط ثم جريدة البصائر . حتى انه اعتبر معركته ضدهم لها الاولوية على المعركة ضد الاستعمار الذى اصبحوا ــ حتى ولو لم يشعروا ــ ألعوبة فى يديه يسخرهم لتحقيق مآربه ضد مصالح الوطن العليا .

ثالثا : ــ اصلاح أخلاق الجزائريين .

وهذا ميدان آخر ناضل فيه ابن باديس أيها السادة نضالا مشهودا وأعنى به ميدان اصلاح أخلاق الجزائريين التى تدهورت تدهورا كبيرا نتيجةً لفساد العقول ، وفساد العقيدة الدينية ، ولذلك وجه عنايته الى اصلاح هذا الجانب الهام فى المجتمع الجزائرى باعتبار أن الامم أخلاق ، فاذا صلحت اخلاقهم صلحوا ، واذا فسدت اخلاقهم فسدوا ، وابن باديس يذهب الى أن الاخلاق انما تنبع من داخل الفرد وبالتالى يجب العناية باصلاح هذا الداخل قبل كل شىء آخر ، والوسيلة لذلك هى تطهير القلوب ،

(4) الشهاب ج 4 م 13 ص 176 ــ 179 عدد جوان 1937

وتهذيب النفوس واصلاح العقائد حتى يعمل الفرد على تغيير ما بنفسه كى يغير الله ما به من سوء وانحطاط طبقا لقوله تعالى : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » والظواهر عند ابن باديس دلائل على البواطن . فاذا كان باطن الفرد صالحا ومستقيما كان ظاهره كذلك وليس العكس . ومن هنا ركز عمله فى التربية والاصلاح الدينى والاجتماعى على محاولة اصلاح ضمير الجزائريين ونفوسهم حتى تكتمل الشخصية الانسانية لديهم فى جوانبها الاخلاقية أولا ــ ثم بعد ذلك فى بقية الجوانب الاخرى ــ يقول ابن باديس : « ان الذى نوجه اليه الاهتمام الاعظم فى تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد . وتقويم الاخلاق . فالباطن أساس الظاهر وفى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت (1) فسد الجسد كله » .

ولذلك كان ابن باديس يرى ان التربية الاخلاقية الفاضلة فى الاسرة ثم المدرسة والمجتمع هى العاصم للفتى والفتاة من الانحرافات الخلقية والوطنية معا . لان الشخص الذى لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه وشهواته فى سبيل مرضاة ربه أو مصلحة وطنه لا يمكن ائتمانه على مصالح الامر والوطن . ومن هنا يتضح لنا لماذا كان ابن باديس يعمل على المحافظة على التراث العربى الاسلامى فى الجزائر ويعمل بكل امكانياته على نشره بين أبناء وبنات الجزائر حتى لا تنحرف أخلاقهم عن الجادة القويمة لان المحافظة على هذا التراث هو الذى يحفظ الشخصية الجزائرية من الانهيار . يقول ابن باديس فى معرض الرد على بعض الجزائريين المحترفين بسبب تعليمهم فى معاهد أجنبية « نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا فى غير أحضاننا ينكرون ــ وربما عن غير سوء قصد ــ تاريخنا ومقاوماتنا ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا فى غيرنا . وكنا نرد عليهم كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة » . (2)

هذه باختصار شديد هى أهم الميادين التربوية والاصلاحية التى عمل فيها ابن باديس وحقق فيها نجاحا عظيما .

(1) التفسير ص 196 ــ 197

(2) الشهاب ج 9 م 13 ص 403 ــ 408 عدد نوفمبر 1937 .

ظهور جميعية العلماء على رأس مائة عام من الاحتلال :

ان الحديث عن نشاط ابن باديس الاصلاحى يجرنا الى الحديث عن جمعية العلماء التى كونها بمساعدة نخبة من رجال الفكر والأصلاح فى الجزائر لكى تحمل راية الفكرة الاصلاحية السلفية فى البلاد على مستوى الوطن كله :

ففى عام 1930 احتفلت فرنسا احتفالات صاخبة بمناسبة مرور قرن على احتلالها لعاصمة الجزائر فى عام 1830 (1)

وقد اصطبغت هذه الاحتفالات الجارحة لكرامة الجزائريين وشرفهم الوطنى بصبغة مسيحية استفزازية أظهرت مدى مشاعر الحقد والكراهية والبغضاء التى يكنها رجال الاحتلال ضد عروبة الجزائر واسلامها .

وقد عملت هذه الاحتفالات بضم صفوف المصلحين من رجال مدرسة التجديد الاسلامى السلفية فى الجزائر ، وجمع شتاتهم فى منظمة واحدة . وبذلك ظهرت « جمعية العلماء الجزائريين » الى الوجود فى الخامس من شهر ماى سنة 1931 وقد تولى رئاستها منذ البداية الشيخ عبد الحميد بن باديس باعتباره رائد الحركة الاصلاحية السلفية فى الجزائر ، واستمر يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى عام 1940 ويذكر الشيخ البشير الابراهيمى نائب رئيس جمعية العلماء أنه « لو تأخر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة لما وجدنا فى الجزائر من يسمع صوتنا . (2)

وقد قامت جمعية العلماء بقيادة ابن باديس على رأس مائة عام من الاحتلال الفرنسى للجزائر عنوانا عن الثبات في المقاومة والكفاح ودليلا على الصمود فى الجهاد ، وبرهانا على اصرار الجزائريين فى الاحتفاظ بطابعهم العربى الاسلامى الذى لا يمكن القضاء عليه كما كان المستعمرون والمبشرون يحلمون فى ذلك الوقت .

وقد عملت جمعية العلماء منذ ظهورها للوجود على نشر رسالة ابن باديس الاصلاحية والتربوية التي بدأها قبل ذلك بنحو ثمانية عشر عاما ،والتى تتلخص فى احياء اللغة

(1) انظر كتاب « الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفة وجهوده فى التربية والتعليم » ص 66 ـ 67

(2) مجلة « مجمع اللغة العربية » بالقاهرة العدد 21 ص 151 ـ 1964 م .

العربية والثقافة الاسلامية فى البلاد ، وتقويه الشعور بالشخصية الجزائرية ، والدفاع عنها وتطهير الدين من الخرافات والبدع ، والمحافظة على التراث العربى الاسلامى فى الجزائر ، والعمل على تحريرها من سيطرة الاحتلال الاجنبى :

ويمكن القول باجمال بأن جمعية العلماء تعتبر حركة اصلاحية سلفية من ناحية كما تعتبر حركة قومية وطنية من ناحية أخرى : فهى حركة اصلاحية سلفية باعتبارها كانت تعمل على مكافحة البدع المنافية للدين ودعوة الجزائريين الى العودة الى الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى كل ما يتصل بأمور الدين .

وهى حركة قومية باعتبارها كانت تقاوم بدون هوادة سياسة ادماج الجزائر فى فرنسا أو التجنيس بجنسيتها ، وتطالب للجزائر بالمحافظة على طابعها القومى العام كما كانت تناضل بدون هوادة من أجل تربية الشعب وتنظيمه فى منظمات وطنية كى ينهض لمقاومة الاستعمار فى سبيل تحرير الجزائروضمها الى الاسرة العربية الكبرى التى أراد الاستعمار عزلها عنها فترة طويلة من الزمن .

« نضال ابن باديس عن الشخصية الجزائرية »

ولن تكتمل لنا الصورة عن دور ابن باديس فى « نشأة الحركة الاصلاحية السلفية فى الجزائر » وعن دوره ودور هذه الحركة فى نضالها الوطنى الحديث دون التحدث عن دوره فى المحافظة على الشخصية الوطنية ونضاله التاريخى فى سبيل تدعيم مقوماتها الاساسية التى هى : الاسلام ـ والعروبة ـ والوطنية الجزائرية كما يحددها ابن باديس .

والواقع أن كفاح الشيخ ابن باديس عن الشخصية الجزائرية سيبقى خالدا فى التاريخ تذكره الاجيال القادمة بكل فخر واعتزاز .

فقد بدأ هذا النضال قبل الحرب العالمية الاولى وواصله بدون كلل ولا ملل حتى آخر لحظة فى حياته .

وكان لا يتسامح مطلقا مع أى انسان مهما كان مركزه فى المساس بأحد مقوم من مقومات هذه الشخصية .

كتب فى عام 1937 مقالا طويلا فى مجلة الشهاب (1) تحت عنوان « الجنسية القومية والجنسية السياسية » ختمه كما يلي : « وبعد . وقد دلت تجارب الزمان والاحوال على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية . وأننا ما زدنا على الزمان الا قوة وتشبثا بأهدافها . وأنه من المستحيل اضعافنا فيها فضلا من ادماجنا أو محونا» ـ وعندما أنكر أحد الجزائريين المفتونين بالثقافة الفرنسية فى عام 1936 وجود الامة الجزائرية في التاريخ . ونادى بربط مصير الجزائر ربطا نهائيا بمصير فرنسا رد عليه ابن باديس فى الشهاب (2) ردا قويا مفحما أصبح مثلا سائرا عند كافة الجزائريين منذ ذلك الحين وقد جاء فيه قوله : « اننا نحن فتشنا فى صحف التاريخ . وفتشنا فى الحالة الحاضرة . فوجدنا الامة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا . ولهذه الامة تاريخها الحافل بجلائل الاعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية . ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها . بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة فى الدنيا . ثم ان هذه الامة الجزائرية المسلمة ليست هى فرنسا . ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا . ولو أرادت . بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها وفى أخلاقها وفى عنصرها وفى دينها . لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائرى بحدوده الحالية المعروفة ..

أما دفاع ابن باديس عن الدين الاسلامى واللغة العربية وهما الركنان الآخران فى الشخصية الجزائرية حسب مفهومه فالحديث عنه طويل جدا ويكفى ان نشير اليه اشارة فقط لان المجال لا يسمح بالتطويل .

فى عام 1938 ختم ابن باديس تفسير القرآن كله خلال ربع قرن من الزمان وأقيمت احتفالات كبيرة فى قسنطينة بهذه المناسبة التاريخية العظيمة وقد خطب ابن باديس فى جماهير المحتفلين خطبة بليغة ومركزة ختمها بالعهد التالى :

فقال « اننى أعاهدكم على أننى أقضى بياضى على العربية والاسلام . كما قضيت سوادى عليها . وانها لواجبات .. وانى سأقصر حياتى على الاسلام والقرآن . ولغة الاسلام والقرآن . هذا عهدى لكم . وأطلب منكم شيئا واحدا وهو أن تموتوا على

(1) ج 12 م 12 ص 505 عدد فبراير 1937

(2) ج 1 م 12 قسنطينة ص 45 ـ 50 عدد ابريل 1936

الاسلام والقرآن ، ولغة الاسلام والقرآن .. وقد وفى الشيخ عبد الحميد بـن باديس رحمه الله . بعهده هذا حتى فارق الحياة فى 16 ابريل سنة 1940 .

وفى الواقع فان ابن باديس أصبح بهذه الاعمال العظيمة التى قام بها من أجـل وطنه عنوانا عن النضال المستميت من أجل الشخصية الجزائرية فى العصر الحـديث ، ولاشك أن الذى ساعده على تحقيق كل ما حققه من أعمال جليلة فى سبيل الشخصيـة الجزائرية ومستقبل الجزائر من تربية وتعليم ـ ونمط وارشـاد ـ وتفسـير القـرآن والحديث ـ وتكوين المدارس والنوادى والمساجد ، وانشاء الجمعيات القومية كجمعيـة التربية والتعليم ، وجمعية العلماء ـ وتكوين لصحافة العربية الحديثة ـ والذود عـن التراث العربى الاسلامى للشعب الجزائرى ـ لا شك أن الذى ساعده على تحقيق هذه الاعمال كلها فى هذا الوقت القصير من الزمن نسبيا انما هو الايمان الذى لا حدود لـه بالمبدأ الذى كرس له حياته ، وسخر له جميع مجهوداته ألا وهو خدمة الاسـلام ـ واللغة العربية والوطنية الجزائرية ، فالايمان هو الذى جعله يتغلب على كل العراقيل ـ وما أكثرها ـ التى وقفت فى وجهه سواء كانت من صنع الاستعمار وعملائه ، أو كانت من صنع الجامدين والحاقدين .

والايمان هو الذى ساعده على النجاح فى عمله ، حتى استطاع أن يهزم خصـوم القضية الوطنية ، وخصـوم اللغـة العربية ، وخصـوم الاسـلام فى الجزائر ويزيحهم جميعا واحدا بعد آخر وبذلك خرجت الشخصية الجزائريـة بكـل مقوماتها الدينيـة واللغوية ، والوطنية ظافرة منتصرة على أعدائها وسارت الجزائر نحو تحقيق هدفها الكبير فى الحرية والاستقلال حتى قامت ثورة الفاتح من نوفمبـر سنة1954 الـتى حققت الاستقلال للجزائر فى نطاق حضارتها العربية الاسلامية كما نادى وعمل ابن باديس طيلة حياتـه .

ولم يغادر ابن باديس هذه الحياة فى 16 من شهر ابريل سنة 1940 حتى كانـت الجزائر كلها تموج بنهضة عربية اسلامية واسعة النطاق .

والشعب الجزائرى كله يردد نشيد ابن باديس الخالـد .

شعـب الجـزائـر مسلـم   والى العـروبـة ينتسـب

من قال حاد عن أصله   أو قال مات فقد كذب

أو رام ادماجا له   رام المحال من الطلب

رحم الله ابن باديس رحمة واسعة ورحم سائر الشهداء الابرار الذين سقطوا في ميدان الجهاد في سبيل الشخصية الوطنية وتحرير الوطن ، وبذلوا أرواحهم رخيصة لكي تعيش الجزائر حرة مستقلة .



لمحات من حياة
الشيخ ابن باديس

علي مرحوم



« ان الأمة الجزائرية لم تزل حية »
« طالما أنها محافظة على دينها ولغتها »
«عبد الحميد بن باديس »

« ليس فى العالم أمة عزيزة الجانب تقدم لغة غيرها على لغة نفسها » .
« مصطفى صادق الرافعى »

هذه لمحات من حياة استاذنا المبرور ، عبد الحميد بن باديس ، اسجلها اليوم ، بعد مضى خمس وثلاثين سنة على التحاقه بربه ، راضيا مرضيا عليه من الله والناس ...

ولم أعتمد فى هذه اللمحات على ما سبق نشره الا فى النادر القليل ، بل هى من مروياتى المباشرة عنه سماعا ومشاهدة . باستثناء لمحة واحدة رويتها عن أحد قدماء تلامذته ...

وسأحاول أن أرتبها ترتيبا تاريخيا ، بقدر ما تسعفنى الذاكرة ، مع مراعاة الموضوع بقدر الامكان ...

* * *

يرجع عهدى بالشيخ الى سنة 1932 . وهى السنة التى يسر الله لى فيها الالتحاق بدروسه العلمية ، فى الجامع الأخضر ، وسيدى قموش بقسنطينة . وكان صدى هذه الدروس قد سار فى أرجاء القطر . وازداد اقبال الطلاب عليها من العمالات الثلاث :

ويعزى السبب فى هذا الاقبال غالبا ، الى طلبة الشيخ الذين أصبحوا منتشرين فى طول البلاد وعرضها . وما منهم من أحد الا وهو يحمل بين جنبيه شحنة من الحيوية والنشاط ، وشعلة من الحماس والتأثر ، التى استولت على روحه منذ الايام الاولى التى جلس فيها أمام هذا الرجل الموهوب ،واستمع الى دروسه .

* * *

درس التفسير :

بصرف النظر عن مختلف الدروس العلمية المقررة للتلاميذ ، فقد كان على رأسها جميعا درس التفسير ، وهو درس عام ، يحضره الى جانب الطلبة جمهور كبير ويقع يوميا بعد صلاة العشاء فى الجامع الاخضر ما عدا يوم العطلة الاسبوعية .

تدوم حصة الدرس ساعة واحدة فى الغالب ، أو تقل عنها تارة ، وسمعت أول درس فى التفسير بدءا من سورة الاحزاب . ولم يكن يتاح الدوام على حضور هذا الدرس القيم ، الا للقلة من المتفرغين ، ولعل من أولهم شيخا مسنا كان يتولى منصب قاض فتخلى عنه أو أحيل على التقاعد . يقال له الشيخ أحمد البوعونى ، وهو من أفاضل الرجال ،

علما وورعا وتقوى . ولم أذكر أبدا أنى حضرت درس التفسير ، دون أن أرى هذا الشيخ جالسا الى جانب الاستاذ ، الذى كان يجلس على كرسى خشبى متواضع .

ومن الطرائف أن هذا الشيخ ، قد سمع دروسا على الشيخين عبد القادر المجاوى وحمدان الونيسى . « والاخير من أساتذة ابن باديس » .

ونظم فى تهنئتهما بختام دروسهما قصائد شعرية . مثلما فعل فى ختم الشيخ لدرس التفسير . وجاء فى قصيدة قوله :

« وان الشعر ممن عاش قرنا لكالهذيان فى الطفل الصغير »

« ولو عاد الشباب لقمت فيها مقامات الفرزدق أو جرير » (1)

ـ كان الشيخ ابن باديس يستهل درس التفسير بما كان يستهل به النبى (ص) خطبه . « أما بعد فان أحسن الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ... الخ » ثم يأخذ فى تلاوة الآيات التى يريد تفسيرها من حفظه ، وبعد ذلك يشرع فى التفسير بلغة عربية فصيحة ، وبأسلوب غاية فى الوضوح . يركز فيه على استجلاء المقاصد والعبر وكثيرا ما ينزل معانى الآيى على ما تنطبق عليه من أحوال المجتمعات الاسلامية ، أو البشرية ، فى العصر الراهن ويجرى المقارنة الملائمة بين الماضى والحاضر . مع الاشارة الى أسباب النزول عند الاقتضاء . وتلك هى الطريقة السلفية ، التى وصف بها الشيخ الابراهيمى رحمه الله طريقة ابن باديس فى درس التفسير . (2)

يسود عادة أثناء هذا الدرس فى المسجد ، جو من الخشوع والوقار ، حتى لكأن على رؤوس الحاضرين الطير ... اجلالا لكتاب الله ، وتأثرا بما كان يبدو عليه الشيخ المفسر ، من مظهر روحانى يأخذ بالألباب ، ويملأ النفوس سكينة واطمئنانا .

* * *

افتتاح الدروس العلمية :

حين بداية الدروس ، أول السنة الدراسية ، يجمع الاستاذ تلاميذه فى اجتماع عام ليزودهم بنصائحه الغالية ، ويحضهم على الجد والاجتهاد . وتحاشى مواطن الشبهات

(1) شهاب الختم فى يونيو 1938 (2) نفس المرجع

التى تعوق عن الانقطاع للدراسة ، وتمس بالكرامة وشرف النفس ، ومكانة العلم مؤكدا على التحلى بكل خلق كريم ، وتجافى كل عمل ذميم ...

كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يأخذ تلاميذه بالتوجيه الجدى ، والتربية الحازمة . ويعطى لهم من نفسه الاسوة الحسنة . وانى لأراه يحضر من منزله الى مسجد سيدى قموش ، قبل صلاة الفجر ، ليتأكد من استيقاظ التلاميذ لاداء الصلاة والاستعداد للشروع فى الدراسة . مع العلم بأنه يبقى فى العمل أحيانا بمقصورته فى الجامع الأخضر ، الى ما بعد الساعة العاشرة ليلا . وكنت أرافقه فى ذهابه الى المنزل تارة ، حينما يبقى الى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

وقد حضرت عليه دروسا فى مختصر الشيخ خليل فى الفقه ويشرع فيها اثر صلاة الصبح مباشرة . وكان لا يعتمد فى الدرس الا على المتن وحده . يعمد الى تحليل الموضوع منه تحليلا دقيقا واضحا ، فلا ينتهى الا وقد ألم التلاميذ بمضمون الدرس الماما كافيا .

ويقضى الشيخ بياض نهاره ، وزلفا من الليل ، فى ألقاء الدروس واحدا تلو الآخر . وختامها درس التفسير كما أشرت آنفا . وقد يرتفع عددها الى ثلاثة عشر (13) درسا أحيانا في اليوم الواحد .

* * *

وخلال شهر رمضان يزداد الشيخ حيوية ونشاطا أكثر من ذى قبل ، فيضيف الى دروسه المألوفة ، درسا فى شرح متن صحيح البخارى ، قبيل صلاة الظهر حرصا على افادة جمهور المصلين هذا الدرس فى الحديث النبوى ، ما رأيت مثله فى الايجاز مع الافادة والتأثير .

وانى لأتذكر الى الآن وقع كلماته المؤثرة على الاسماع ، وفعلها فى النفوس والارواح ، فلا تبرح موضعها الا وقد ازدادت يقظة ووعيا ، وارادة فى الخير .. يتيح لها هذا الخير والنفع ، ما تكون عليه من طهارة وصفاء فى شهر الصيام .

* * *

الخطابة والكتابـة :

الى جانب الدروس المعهودة ، كان الشيخ يدرب تلامذته على الخطابة والكتابة ، وينشر ما ينتجه بعضهم ، تشجيعا لهم ، ففى ليلة يوم العطلة يجتمع الطلبة ليتباروا فى القاء الاشعار والكلمات المكتوبة والمرتجلة ، وكل يريد أن يتفوق فيما يأتى به من قـول ، نثرا أو شعرا • وقد برز بعضهم فعلا فى هذا المضمار ، وظهر منهم الكاتب المبـــدع ، والشاعر المجيد والخطيب البليغ • مع ما كانوا عليه من المستوى العلمى المتين ، الـذى أهلهم للنهوض بأعباء المسؤولية ، التى أنيطت بعهدتهم فى حقل العمـــل الـــدينى والثقافى ، والاجتماعى والوطنى •

ولذلك فان أفضل ما كان يعتز به أستاذنا من جهاده فى ميادين متنوعة ، ومجالات كثيرة ، هو هذه الدروس ، التى كان يبنى بها الرجال المتحلين بأكرم الصفات من شجاعة واخلاص ، وتضحية فى سبيل الله والوطن ••

ولعله لو انصرف الى تأليف الكتب ، بدلا من بث العلم فى صدور الرجال ، ما كان لينفع بذلك أمته وبلاده ـ حسب رأيى ـ مثلما نفع وأحيا هذه الامة ، بما بذل مـــن جهود فى سبيل نشر العلم والتعليم • وقد كون الرجال الذين ضربوا بسهم وافر ، فى العلم والعمل • ملتزمين بالامتناع عن قبول الوظيف الاستعمارى ـ عملا بتوصية ـ لان الوظيف ما هو الا قيد فى عنق صاحبه ••

* * *

مؤسسات ومشاريع :

انتصب الشيخ للتدريس بالجامع الاخضر ، وسيدى قموش ، فى سنة 1332 هـ • و 1912 م • (1) وكانت دروسه هى حجر الزاوية فى اقامة صرح النهضة • ولكن هذه الدروس ، لم تصرفه عن العمل فى ميادين أخرى لا تقل أهمية ، فى طليعتها : تأسيس المدارس ، والنوادى ، وبناء المساجد الحرة هذا الثالوث الحيوى الذى تكاملت به جوانب النهضة الجزائرية ••

(1) شهاب ختم التفسير 1938

فالمدارس للناشئة ، تتلقى فيها دروس الدين والاخلاق ، وقواعد اللغة العربية والتاريخ الوطني ..

والاندية للشباب ، تجمع شتاته ، وتقيه شر الضياع وترجع له ثقته بنفسه وبدينه وقومه . بما يسمعه من المحاضرات في التربية والتوجيه الديني والقومي ..

والمساجد لجمهور المصلين ، المتعطشين لسماع دورس اليقظة والحياة ، المستوحاة من روح الاسلام النقي من الخرافة والجمود والتعصب ..

ويمتد نشاط الشيخ الى مجالات أخرى ، تستكمل بها عناصر النهضة . فيدعو الى تكوين الجمعيات الخيرية . والفرق الكشفية والرياضية والفنية ، ويشجع على تأسيس جمعية التجار المسلمين وأخرى لذوي الاسر الكبيرة بقسنطينة ..

وكل هذه المشروعات والمنظمات ، التي كان له فضل السعي في انشائها ، قد أتت أكلها باذن ربها ، وأعطت ثمراتها اليانعة في خدمة المجتمع الاسلامي الجزائري ..

لقد كان الشيخ ـ كما رأينا ـ يقوم بأعمال ، تنوء بحملها الجبال ، في أكثر من مجال لانجاز المنشآت المتنوعة الاغراض والغايات . وكلها ترمي في جوهرها وحقيقة امرها الى احياء الدين واللغة والتاريخ ، والحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية بصفة عامة .

ونورد على سبيل المثال أن مما تضمنه القانون الاساسي لجمعية التربية والتعليم ، الذي حرره بنفسه سنة 1349 هـ ـ 1930 م .

أ ـ « تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية اسلامية ، بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم » . (2)

ب ـ « وان للجمعية ان تكون فروعا في البلدان التي ترغب ان تكون فرعا منها . كما أنها تدعو المسلمين أن ينهضوا لذلك نهضة حقيقية ، ويسعوا له السعي الجدي المتواصل . فانهم لا بقاء لهم الا بالاسلام ، ولا بقاء للاسلام الا بالتربية والتعليم ، والله مع الصادقين » .

* * *

(2) نشرة جمعية التربية والتعليم سنة 1354 هـ 1936 م

لننتقل الآن ـ مع الشيخ ـ الى ميدان آخر من ميادين جهاده ، وأعنى به ميـــدان الطباعة والصحافة ٠

والحقيقة التى يجب ألا نغفل عنها هى ان نجاح جميع المشاريع الآنفة الذكر ، يرجـع الى وجود « المطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة » التى وفق الله الشيخ لتأسيسها ٠ وكان لها دور أساسى فعال ، منذ بداية ظهور النهضة ، لانها يسرت للشيخ سبيـــل النشر الذى هو أخطر الوسائل فى بناء النهضات الوطنية ٠

ولعل القاء نظرة على قائمة الصحف والمجلات ، التى كانت تصدر عن هذه المطبعة ، ترينا مدى اهميتها القصوى فى بناء النهضة بجميع جوانبها ٠

1 ـ جريدة المنتقد ـ صدرت سنة 1343هـ ٠ 1925م ـ وكان شعارها : الحق فوق كل أحد ٠ والوطن قبل كل شيء ٠

وقد عطلتها السلطة الاستعمارية بعد بروز 18 عـــددا منها ، خشية من أثرهـا وتأثيرها ، والتفاف النخبة المثقفة حولها ، ولانها كانت تنشر أنباء انتصارات ثـــورة الريف فى شمال المغرب ضد الاسبان بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابى ، رحمه الله ٠ ودامت هذه الثورة من سنة 21 الى 1926 ٠ (1)

2 ـ جريدة الشهاب الاسبوعى ـ صدرت على اثر تعطيل المنتقد ـ 25 ـ 1929 م ٠

3 ـ مجلة الشهاب الشهرية ، صدرت فى سنة 1929 ، وقد امتد بها العمر الى أن توقفت فى شهر سبتمبر 1939 م ، بعيد اندلاع الحرب العالمية الثانية ٠

4 ـ صحف جمعية العلماء ، وهى على التوالى فى الصدور :

السنة النبوية ـ الشريعة ـ الصراط السوى ٠

صدرت هذه الصحف الثلاث ، خلال سنة 1933 ٠ وعطلتها الحكومة بقرارات جائرة، فى نفس السنة ٠

5 ـ البصائر ـ لسان حال جمعية العلماء ، طبعت لاول ما ظهرت فى العاصمـة ٠ ثم نقلت فى اوائل شهر سبتمبر 1937 م الى المطبعة الجزائـرية بقسنطينة ٠ واستمـــر صدورها الى أن توقفت هى الاخرى ، على اثر اعلان الحرب فى سبتمبر 1939 ٠

(1) كتاب الفكر والثقافة المعاصرة لانور الجندى

ـ وصدرت عن نفس المطبعة صحف أخرى ٠ تنتمى بالولاء لجمعية العلماء ، وليست تابعة لها رسميا ، وهى بالترتيب :

1 الجحيم : جريدة انتقادية دفاعية ظهرت فى سنة 1933 م ، شعارها :

« ان الابرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم » ومبدؤها قول الله :
« **ولمن انتصر بعد ظلمه فاولـئك ما عليهم من سبيـل** » ٠ (2)

2) أبو العجائب : جريدة أدبية فكاهية انتقادية ٠ ظهرت حوالى سنة 1935 ٠ وكان يتولى تحريرها ، الكاتب ـ الشاعر : الشيخ محمد العابد الجلالى ، رحمه الله ٠

3) الشعلة : جريدة أدبية انتقادية، صدرت سنة 1950، وكان يشرف على تحريرها : الكاتب الشهيد أحمد رضا حوحو ٠

يضاف الى ما تقوم ذكره من أنواع الصحف ، ما قامت بطبعه هذه المطبعة من الكتب ٠ وما أخرجته من النشريات والمنشورات الكثيرة ٠٠٠ تحت اشراف الشيخ فى حياته ٠٠٠ وادارة الشهيد أحمد بوشمال ، رحمهما الله تعالى ٠

والحق أن هذه المطبعة قد أسهمت بحظ موفور ، فى احياء اللغة العربية ، والثقافة الاسلامية ، وأدت خدمات جليلة فى دعم النهضة الحديثة فى الجزائر ، منذ تم تاسيسها سنة 1925 م ، الى أن آذن عهد الاستعمار بالزوال ٠

* * *

محـاولـة دنيئـــة :

كان طبيعيا ـ فى منطق الاستعمار ـ على الاقل ـ ألا يغض الطرف على هذه الاعمال الضخمة ، التى كان ينهض بها الشيخ بمعاضدة اخوانه ، من كبار أعضاء الجمعية ٠٠٠ ولذلك فانه ما انفك يدبر المكائد ، ويحيك المؤامرات ، للقضاء على شيخنا واعضاده ٠

وكانت أخطر هذه المؤامرات هى المحاولة الدنيئة ، التى سخر لها أحد اتباع الطريقة العليوية ، لاغتيال الشيخ وذلك سنة 1926 بقسنطينة ٠

(2) سورة الشورى 41

فقد كمن له الجانى فى ممر مظلم ، بمدخل منزله وهاجمه اثر عودته من درس التفسير ليلا ·· ولكن عناية الله بالشيخ أبطلت كيد الكائدين · ونجاه الله من الاغتيال المدبر ، وحفظه لهذه الامة ودينها ··

وأبى الشيخ الا أن يمنع الناس من الفتك بالجانى ، وأن يعفو عنه ، بعد أن أصبح فى قبضة العدالة ·

وفى ذلك يقول شاعر الجزائر الاكبر : محمد العيد من قصيدة :

« حمتك يد المولى وكنت بها أولى   فيالك من شيخ حمته يد المولى »

« وحفت بروح القدس شخصك فانثنت   مصيبتك الجلى كرامتك المثلى »

« وان أنس لا أنسى الذين تظافروا   على الفتك بالجانى فقلت لهم مهلا »

* * *

وقد آن لى ــ أيها القارىء ــ أن أروى لك فى هذه اللمحات ، بعض ما رأيت وما سمعت من أستاذنا · وعسى أن تستبين منها بعض السجايا والخلال الكريمة ، التى خصه الله بها ·· وكم هى كثيرة تلك الخاصيات التى لم تكتشفها الى الآن أقلام الكتاب فى حياة هذه الشخصية الخالدة ·

١ ــ الاعتماد على النفس ، فى التقرب الى الله ·

فى درس العقائد الاسلامية الخاص بالطلاب ، تطرق الشيخ الى توضيح رأيه فى حقيقة التوسل والوسيلة · مؤكدا أنه لا يجوز الاعتماد على غير ما يقوم به الانسان من عمل صالح ، ينتفع به فى دنياه ، ويتقرب به الى الله فى آخراه ·

أما ما يتوسل به الجهلة بحقائق الاسلام ، ويخدعهم باسمه ، أو يضلهم به بعض المشعوذين فلا عبرة به فى نظر الاسلام الصحيح ·

ثم ساق لنا حديث النفر الثلاثة ، أصحاب الغار ، المروى فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

ثم ذكر فى الحديث ما قدم كل منهم من صالح العمل ، وقالوا فى دعائهم :

« اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه » فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون .. »

وهكذا استجاب الله دعاءهم ، لانهم توسلوا اليه بعملهم الصالح .

* * *

2 ـ شكو شكوى الامام الزمخشرى من الدهر :

فى درس من دروس اللغة ، شرح الشيخ معنى الافلح والاعلم فى اللغة ، وهو مشقوق الشفتين الذى يعجز عن النطق بحرف الميم ، مستشهدا على ذلك ببيتى شعر للزمخشرى ، ونصهما :

« وأخرنى دهرى وقدم معشرا   على أنهم لا يعلمون وأعلم »

« ومذ أفلح الجهال أيقنت أننى   أنا الميم والايام أفلح أعلم »

وعلق الشيخ على البيتين بقوله :

ما كان ينبغى للزمخشرى ـ على فضله وعلمه ، واقتداء الناس به ـ أن يتضجر من الدهر ، وبهذه الطريقة التى لا تجيزها آداب الاسلام .. وقد قال الله تبارك وتعالى :

« **ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضكم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ..**» (1) تلك سنة فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

* * *

3 ـ بين الام والضرة :

فى درس ما ، جلس أحد التلاميذ فى الصف الاول أمام الشيخ ، وقد لبس برنوسا جديدا من ثياب الملف فتأمله الشيخ جيدا ثم قال : ـ والابتسامة تعلو محياه ـ أنا

(1) سورة الزخرف 32

ـ والله ـ أفضل أن ألبس البرنوس الذى تحيكه أمى ، وليس الذى تنسجه ضرتها •
ويعنى بذلك تقديم البضاعة الوطنية على الاجنبية •

* * *

4 ـ فى احتفال بالمولد النبوى ، سنة 1937 م :

فى كلية الشعب بقسنطينة ،وفى حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم ، وبعد أن أدى التلاميذ والتلميذات أدوارهم فى الخطابة والحوار والتمثيل ، بلسان عربى مبين ، تحت اشراف معلميهم • تأثر الشيخ أيما تأثر ، وانى لآراه جالسا فى الصف الاول مأخوذا بالمشاهد التى تجرى أمامه •

وفى ختام الحفل ، صعد الى المنصة ، وألقى قصيدته الشهيرة « شعب الجزائر مسلم » والتى تناقلتها الاجيال منذ شهر ربيع الاول 1356 هـ الى الآن ، والى ماشاء الله• ومطلعها :

« حييت يا جمع الادب ورقيت سامية الرتب »

ومنها :

« أحييت مولد من به حيى الانام على الحقب »
« بالعلم والآداب والأ خلاق فى نشء عجب »

ومنها :

« نشء بحب محمد غذاه أشياخ نجب »
« فبه اقتدى فى سيره واليه بالحق انتسب »

ويواصل مخاطبا التلاميذ :

« يا نشء يا ذخر الجزا ئر فى الشدائد والكرب »
« صدحت بلابلك الفصاح فعم مجمعنا الطرب »
« واذقتنا طعما من الـ فصحى ألذ من الضرب » (1)

(1) ش ج 4 ـ م 13 يونيو 1937

ـ ويبدو ان هذه القصيدة ، كانت بنت وقتها ، ولم تعد مسبقا وعـدد أبياتها أربعون . وكلها من فرائد الشعر الاستنهاضي الثائر ، وكانت يومئذ بمثابة الـرد الحاسم ، على دعاة الفرنسة والاندماج .

* * *

5 ـ وفي مناسبة حفل مدرسي آخر ، ارتجل الشيخ هذا النشيد ، من وحي الساعة ومطلعه :

« اشهـدي يـا سمـا	واكتبـن يـا وجـود »
« أننـا للحـمى	سنكـون الجنـود »
« فنـزيـح البـلا	و نـفـك القيـود »
« ونـنيـل الـرضى	مـن وفي بالعهـود » الخ

وعدد ابيات هذا النشيد اثنا عشر . وقد اتخذته المدارس والفرق الكشفية من جملة اناشيدها الوطنية ، التي سار ذكرها ، والتغنى بها بين تلاميذها واشبالها وفتيانها في طول البلاد وعرضها .

* * *

6 ـ تكريم المتخرجين من جامع الزيتونة :

في أواخر يوليو 1939 م ، أقامت جمعية التربية والتعليم بقسنطينة ، حفلة تكريم للطلبة الجزائريين المتخرجين من جامع الزيتونة في ذلك العام ، تحت اشراف الشيخ بصفته رئيسا للجمعية ، وتولى تقديم الخطباء الذين أعدوا كلمات للمناسبة . وفي كلمة افتتاح الحفل قال مخاطبا المحتفل بهم :

« انكم رجعتم الى وطنكم تحملون شهادات علمية ، ومن أجل ذلك كنتم جديرين بهذا التكريم . ولكن لا تظنوا أنكم ستجدون مصاعب الحياة قد أزيلت من طريقكم . يجب ان تعلموا ـ يا أبنائي ـ انكم مقبلون على خوض معركة شديدة ، من أجل خدمة أمتكم ووطنكم ، بما أحرزتم عليه من علم .

واذا كان أبناء الشقيقة تونس ، يدرسون العلم فى الزيتونة ليصبحوا موظفين فى بلادهم ، فان فضلكم الوحيد هو أنكم تقرأون العلم للعلم ، وليس للوظيف • وهو فضل كبير فكونوا عند حسن ظن أمتكم بكم ، كونوا على استعداد لاداء واجبكم نحو وطنكم ••»

* * *

7 ـ القلب الفارغ من الايمان :

كنا ثلاثة مع الشيخ فى زيارة تفقدية لشعبة من شعب جمعية العلماء ، فى دائرة جيجل ، وفى أثناء الطريق قص علينا القصة التالية قال :

« كنت يوما راجعا من سفر ، فى سيارة عامة ، ولحق بنا فى الطريق الطبيب الفرنسى فلان •• بسيارته الخاصة • وما أن لمحنى داخل السيارة العامة ، حتى استوقفها ، وطلب منى أن انتقل الى سيارته ••

وبينما نحن فى طريقنا ، اذا به يصطدم بسيارة أخرى ••

قال الشيخ : ومع أن الصدمة لم تكن خطيرة ، الا أن الطبيب صرخ صرخة ـ حين الاصطدام ـ ظننت أن روحه قد خرجت معها ••

وعلل الشيخ ذلك بفراغ قلبه من الايمان بالله ، لان الايمان يحفظ على المؤمن ، ثباته واطمئنانه ، عندما تحل به الملمات ، وتفاجئه الصدمات مهما كانت عظيمة • وهذا ما شعر به هو حينئذ ••

ومن عادة الشيخ أن يستجلى العبر من أحداث الحياة ، كبيرها وصغيرها ، ويربط العلة بالمعلول ، والسبب بالمسبب ، فى بداهة وعفوية تأخذان بالألباب ••

* * *

والآن يحسن بنا ان نعيش مع شيخنا ، فى بعض مواقفه السياسية ، التى برهن بها على أنه وحيد زمانه فى الشجاعة وعلو الهمة ، والتضحية فى سبيل المبادئ السامية ••

وهذه لمحات من تلك الصفات :

1 ـ بعيد تأسيس جمعية العلماء فى شهر ماى 1931 م طار صيتها فى ارجاء الوطن بسرعة البرق ٠ وبلغ صدى أعمالها ومساعيها ، فى بعث الامة من جديد ، على أساس تعاليم الاسلام ، البعيد عن كل جمود أو جحود ٠٠ بلغ ذلك الى أسماع دوائر الاستعمار ففكرت فى الطريقة التى تحبط بها مساعى الجمعية ٠ وقدر السيد « ميرانت » مدير الشؤون الاهلية بالولاية العامة يومئذ ، أنه ربما استطاع أن يصل الى ذلك بوسائل الاغراء والترغيب ٠

وهكذا سعى الى احضار الشيخ ووالده فى مكتبه ٠ وهو يأمل ـ ولا شك ـ أنه سينجح فى ابعاد الشيخ عن رئاسة جمعية العلماء ، بالوسيلة التى اختارها ٠٠ ولذلك فقد عرض على الشيخ أن يختار لنفسه أية وظيفة يرغب فيها : « مفتى أكبر ٠٠ أو قاضى قضاة » مثلا ٠٠ على شرط واحد هو : أن يتخلى عن رئاسة جمعية العلماء ٠٠ مع اضافة مساعدة مالية تمنحها الحكومة لوالده ، قصد تحسين أوضاعه الفلاحية والاقتصادية ٠٠

فماذا كان موقف الشيخ ازاء هذا العرض المغرى يا ترى ٠؟ لقد طلب الشيخ مهلة للتفكير قبل الجواب ٠٠ وما كان الشيخ ـ فى الواقع ـ فى حاجة الى أى تفكير ٠٠ ولكنه طلب هذه المهلة من باب الكياسة ٠٠ وخرج من مكتب السيد ميرانت ، ليجيبه كتابة بالرفض لما عرضه عليه ٠٠

وهكذا تكون عزة النفس ٠٠ وكرامة العلم فى ذويه ٠٠ ان التاريخ الاسلامى يحمل طى صفحاته الكثير من مثل هذه المواقف الخالدة للعلماء ، الذين آثروا العزة والكرامة ، ـ حتى مع شظف العيش ـ على بيع ضمائرهم وكرامتهم ، للملوك والامراء والحكام ، بالثمن البخس ٠ ويكونوا بذلك أسوأ قدوة فى الدين والدنيا ، لابناء أمتهم ٠٠

وصدق الشاعر الذى قال فى هذا الموقف :

« عفت الوظيف فما خلقت لذلة   كان الوظيف على الابيى عصيبا »

« وبقيت موفور الكرامة لم يصب   خبز الدخيل ولم يرده نصيبا» (1)

* * *

---

(1) توفيق شاهين ـ مجلة القبس فى 16 ـ 4 ـ 74

2 ـ في يوم خامس غشت سنة 1935 ، وقعت حوادث دموية خطيرة بين المسلمين واليهود في قسنطينة ، قتل فيها اثنان وعشرون من اليهود ، واثنان من المسلمين ٠ وقع هذا بعد ما ذأب اليهود على استفزاز المسلمين ، بتوجيه الشتائم والاهانات الى الدين الاسلامي ، في يومين سابقين ٠٠ وفي الوقت الذي كان الوضع ينذر بالانفجار الخطير بين الطرفين ، خرج الشيخ بنفسه يجوب الشوارع ، مع بعض النواب المسلمين قصد التهدئة وتجنب الكارثة ٠ وبقى كذلك الى ما بعد منتصف الليل ٠٠

موقف بطولي ـ ولا شك ـ لم يخش فيه الشيخ رصاص اليهود ، من أجل أن يمنع عن المسلمين ما كان يخشاه من غدر وعدوان ، لا من اليهود ، بل من تدخل الجيش الفرنسي ضد المسلمين ٠٠

وحين وقعت الواقعة ٠٠ وتحركت السلطات الاستعمارية ، لتأخذ بثار اليهود من المسلمين دعا الشيخ جميع النواب والاعيان المسلمين ، الى جمع الصف وتوحيد الكلمة ، بغية الظهور بمظهر القوى ازاء السلطة ٠ وحضر الوالي العام الى قسنطينة ٠ وكان الشيخ على رأس الوفد الذي قابله في دار العمالة ٠ وتكلم الشيخ في قوة المؤمن ، وشجاعة القوى بقوة الله ، مثبتا حق المسلمين في الدفاع عن أنفسهم ودينهم ، ضد العدوان المتكرر من اليهود عليهم ٠ وتحول الموقف لصالح المسلمين بعد ما كانوا مهددين وهذا بفضل الموقف الشجاع لشيخنا ، وبفضل ما حققه من تكتل النواب والاعيان المسلمين في المدينة ٠٠

وعند الصباح يحمد القوم السرى ٠٠

* * *

3 ـ وحلت الذكرى المشؤومة ، ذكرى مرور مائة عام ، على احتلال قسنطينة في شهر سبتمبر 1937 ٠ وآن للمستعمرين أن يقيموا الحفلات الصاخبة بهذه المناسبة ، دون مبالاة بجرح عواطف المسلمين ، وآن للشيخ أن يوجه ضربة من ضرباته القوية المعهودة ، الى الدوائر الاستعمارية ٠٠ فجمع اربع عشرة جمعية اسلامية في المدينة وبعد شرح واف لموضوع الاجتماع من طرف الشيخ ، طلب من الجميع أن يوافقوا على اعلان مقاطعة الحفلات المائوية الاستعمارية ٠

ووقعت الموافقة ، واصدر الشيخ منشورا مؤرخا فى 1937/9/28 م ، يدعو فيه السكان المسلمين جميعا الى المقاطعة مستخفا ـ كعادته ـ بأى خطر يلحقه من الاستعمار . على هذا التحدى الجرىء • ووزع المنشور بصفة واسعة بين الناس • وأحبطت بذلك مساعى المستعمرين ، وسقطت فى أيديهم •

ومما جاء فى المنشور :

« فى مثل هذه الايام ، منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون المدافعون ، والفرنسيون المهاجمون ، فى ميدان البطولة والشرف » •

ويضيف :

« لكن قوما من الانانيين ، الذين يأبون الا أن يكونوا سادة متفوقين ، والا أن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين ، ارادوا ان يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة ، تثير العواطف وتمس كرامة الاحياء منا والاموات ، وتنافى مبادىء الاخوة والرحمة التى ندعو اليها » •

« يحتفلون احتفالاتهم ، ومطالب الشعب الجزائرى ، بعرقلتهم معطلة، وحقوقه بسعيهم مهملة، وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره فى كل يوم » الخ ••

« فقاطعوا هذه الاحتفالات ولا تشاركوا فيها •• »

* * *

4 ـ فى سبتمبر 1938 ، قامت أزمة سياسية حادة ، بين دول الحلفاء والمانيا الهتلرية وظهرت نذر الحرب مهددة بخطر جارف وأسرعت بعض الهيآت الجزائرية ، التى تدين بالطاعة العمياء لفرنسا وتعيش على عطفها والتماس رضاها ••

أسرعت بارسال برقيات الولاء وشواهد الاخلاص للحكومة الفرنسية ، والحق أن فرنسا ما كان يهمها ولاء تلك الهيآت واخلاصها ، لانها واثقة منهما سلفا •• ولكن الذى كان يهمها بل ويقض مضجعها ، فى مثل هذه الظروف العصيبة هو موقف جمعية العلماء •• فهل ينطق أبو الهول بما يرضى ساسة فرنسا ؟ •

والجواب هو ما يروى فيما يلى :

أوعزت دوائر الحكومة الى من يعد نص برقية الولاء ، ويتقدم بها الى الجمعية وهى فى اجتماعها السنوى العام بنادى الترقى · عسى أن توافق على ارسالها ··

وبعد أن دافع أنصار البرقية عن وجهة نظرهم ، ملحين على ابراز الفوائد الجمة التى تجنيها الجمعية من ارسال هذه البرقية لفرنسا ··

وبعد آن ناقش الاعضاء هذه القضية ـ رفض ارسال البرقية بأغلبية ساحقة ··

ولم يقتنع مؤيدو البرقية بالنتيجة ، وطلبوا عرض الموضوع على الاجتماع العام ·· وكان ذلك ·· ووقف أحدهم ـ رحمه الله ـ ويمتهن مهنة محام ـ ليدافع بكل قواه عن رأيه ورأى أصحابه ·· ولكن بدون جدوى ·· ووقف عضو آخر له وزنه فى قوة الاقناع ، وبلاغة التعبير ·· وفصاحة اللسان ، ولكن حظه لم يكن أحسن من حظ سابقه·

وانى لأرى بجنبى فى القاعة أحد الشيوخ المعممين ، يرفع صوته مستنكرا قول المتكلم : « عار عليك يا شيخ » عدة مرات ··

ووقف شيخنا أخيرا ، ليدلى بكلمة الفصل فى القضية ·· فقال :

« اننى لا أوافق على ارسال هذه البرقية أبدا ، ولو قطعوا رأسى ـ وأشار بيده الى عنقه ـ لان ذلك يعتبر قبولا منى بتجنيد أبناء هذه الامة فى الحرب · وكيف أوافق وآلوان الاضطهاد ما تزال تنصب على الامة ، وتنال من دينها ولغتها ، وقوميتها · وأنا لا أنتظر الا احدى الحسنيين : فاما حياة السعادة ، واما الفوز بالشهادة ··

وضجت القاعة بتصفيق الاستحسان والتأييد ··

ووقف بعد الشيخ ، العضو المتكلم قبله ، ليقول لهُ بالحرف الواحد :

« اذا كنت تحب تروح للسجن ·· الناس عندهم وليدات ·· »

ويجيب الشيخ بالحرف الواحد :

« اذا كان أنت عندك أولاد ·· فأنا أعتبر أن أولاد الامة كلهم أولادى ·· »

وانى لأسجل هذا ، للحقيقة والتاريخ ·· سائلا الله الرحمة للمصيب والمخطىء معا·

* * *

5 ـ روى لى أحد تلامذة الشيخ وخواصه هذه القصة ، التى وقعت بمحضره ، وجاء فيهـــا :

أن موظفا فرنسيا كبيرا فى الاستعمالات ، قام بزيارة للشهيد الشيخ العربى التبسى ـ رحمه الله ـ محاولا بذلك أن يستدرجه الى بعض التصريحات التى قد تفيد منها فرنسا سياسيا ، فلم يحصل منه على طائل وأحاله على الشيخ ابن باديس ، رئيس الجمعية ..

قال الراوى : وكنا جماعة من الخواص مع الشيخ الرئيس ، بمكتبه فى دار جمعيـة التربية والتعليم ، حينما جاء الزائر الفرنسى . وبعد التعارف المعتاد ، أراد هذا الفرنسى ـ وكان مستعربا ـ أن يمهد للموضوع بالحديث عن حضارة العـرب والاسـلام فى الاندلس ، وكأنه أراد بذلك أن يكتسب ثقة الشيخ به .. وقد جاراه فى قوله ، وشجعه على تنويهه بهذه الحضارة .. بيد أنه لم يدع الفرصة تمر دون أن يلاحظ لمحدثه أخيرا ، قائلا له : بأن هذه اللغة التى حفظت هذا التراث الانسانى ، وعبرت عن هذه الحضارة ، ونقلتها الى أوروبا فاستنارت بها فى عهودها المظلمة ، قد أصبحت الآن مضطهدة من طرف الادارة الفرنسية فى هذه البلاد . وغدا أهلها يلاقون الضغط والارهاق ألـوانا وأشكـالا .

وبهت الموظف الفرنسى .. لانه ما توقع أن يسمع مثل هذه الصراحة .. وحاول أن يخفى تأثير وقع هذه الملاحظة على نفسه بتغيير مجرى الكلام ، فطلب من الشيخ أن ينفرد به لحظة ، لان لديه أمرا هاما يريد أن يلقى به اليه . فما كان من الشيخ الا أن اعتذر عن تلبية طلبه ، مبينا له أن الجالسين معه من خواصه الذين لم يتعود أن يخفى عليهم أى أمر يهم مصلحة الامة ، وانه لا يعمل واياهم الا فى وضح النهار . فاذا كان لديه أى أمـر من هذا القبيل ، فليدل به أمامهم ..

فقام الفرنسى الكبير ، متهالكا على نفسه ، فودع وخرج يجر أذيال الخيبة والفشل ..

* * *

6 ـ وقص علينا الشيخ قصته ـ والبشر يفيض على محياه ـ يوم أوبته من تونس ، حاملا شهادة العالمية ، قال :

حينما ولجت باب الدار، أسرع الى أبى فعانقني، وقال لامي ـ فى سرور وابتهاج ـ :
« ها هو قد جاءك عالما ٠٠ فانطلقت من فيها زغرودة ٠٠ ما زلت أتذكرها ، ولن انساها، وشعرت من أعماقى منذ ذلك اليوم بمدى عبء المسؤولية التى أحملها على عاتقى بصفتى عالما ٠ وبما أثرت به فى نفسى تلك المناسبة الباقية فى ذاكرتى ما دمت حيا ٠٠

7 ـ والآن وجب ـ من باب الاعتراف بالفضل لذويه ـ أن نأتى بلمحة وجيزة عن والد الشيخ ، السيد مصطفى بن باديس ، طبقا لما اعرف عنه شخصيا من كريم الاخلاق٠

فقد كان ـ رحمه الله ـ من ذوى الفضل والمروءة ، والحفاظ على شعائر الديـــن ، والغيرة عليه ٠ كان يحفظ القرآن ويتعبد بتلاوته ، وخاصة فى شهر رمضان ٠ وقـــد أمضى ليالى شهر الصيام كلها ، سنة 1351هـ ، يقيم صلاة التراويح فى مسجد سيدى قموش ، الذى بناه على نفقته ٠ وحيث كلفت من طرف الشيخ ، بامامة المصلين فى صلاة التراويح أثناء ذلك الشهر ٠٠

كما أنه خصص معلما لتعليم القرآن الكريم فى ذلك المسجد ، على نفقتـه ٠ وليس صحيحا ما قيل عنه ، أنه كان غير راض عن نشاط ابنه العلمى والدينى ٠ ودليل ذلك أنه هو الذى سعى لدى الحكومة ، من أجل الاذن له بالتدريس فى الجامع الاخضر ، بعد أن سعى المفتى ابن الموهوب لمنعه من التدريس فى الجامع الكبير ٠٠ (1)

لقد وجه والد الشيخ ابنه ـ وهو بكره ـ الى قراءة كتاب الله ، منذ أول طفولتـه ، ونعومة أظفاره ٠ ولم يوله شطر المدرسة الفرنسية ، التى لم يغب عنه ما كان يمكـن أن تؤهله له من مناصب عالية ، مثل أقرانه من أبناء الاسر القسنطينية ٠

وقد أثنى الشيخ على أبيـه عاطر الثناء ، فى كلمته التى أجـاب بها على كلمات الخطباء ، وقصائد الشعراء ، فى حفل التكريم الذى أقيـم له بمناسبة ختمـه درس التفسير ، حينما كان يذكر بالخير والفضل ، جميع الذين أثروا فى حياته وعملوا عـلى تكوينه ٠ والذين آزروه فى جهاده من اخوانه العلماء ٠٠ وقال بخصوص والده :

« ان الفضل الاول يرجع الى والدى الذى ربانى تربية صالحة ، ووجهنى وجهـة رشيدة ، ورضى لى العلم طريقة أتبعها ، ومشربا أرده وقاتنى وأعاشنى وبرانى كالسهم

(1) ش ج 4 ـ م 14/1357 هـ

وراشنى ، وحمانى من المكاره صغيرا وكبيرا • فلأشكرنه بلسانى ولسانكم ، ولأكل ما عجزت عنه لله الذى لا يضيع أجر العاملين •• » (2)

والحقيقة التى يجب أن تقال هى : أن شيخنا عبد الحميد ما هو الا نفسة ربانية نفح الله بها هذا الوالد الطيب الذكر • فوهبها لهذه الامة المسلمة ، ليحيى تراثها المجيد ، وحضارتها الاسلامية العظيمة ••

فلو أنه وجه فى بداية تعلمه فى اتجاه المدرسة الفرنسية ـ لا قدر الله ـ لضاع على بلاد العروبة والاسلام خير كثير ••

* * *

والآن ما بقى على الا أن أختم هذه اللمحات بالاشارة الى ما كان يتصف به الشيخ من زهد وتقشف ، وعزوف عن زخرف الحياة ومتاعها •• لينقطع لخدمة العلم والدين والوطن •

فقد كان يكتفى من الطعام بالقليل ، الذى يمسك عليه حشاشة الروح • وكثيرا ما تكون وجبة غدائه الخبز واللبن ، اللذين آتيه بهما اليه من السوق• أو يؤتى له أحيانا بقدر من الكسكس مع اللبن من دار أبيه • وفى عدة مناسبات ، كنا ندعى معه من طرف بعض محبيه وأنصاره • وحين توضع المائدة أمامنا ، يسأل صاحب الدعوة عما اذا كان يوجد كسكس • فاذا كان موجودا فلا يزيد عليه • واذا لم يوجد فلا يتناول الا من طعام واحد ، دون تعدد ••

وكان فى فصل الشتاء يتخذ كل لباسه من الصوف ، ما عدا القميص ، وهو حريص على استعمال كل ما هو من انتاج وطنى فى جميع شؤون حياته •• ليكون قدوة حسنة لغيره ••

رضى الله عن هذا الامام المجاهد بعلمه وعمله •

---

(2) ش ج 4 ـ م 14/1357 هـ

فقد كان شجاعا لا يخشى فى الحق لومـة لائم ٠

وكان معلما ومربيا ، كون الرجـال ، وصنـع الابطـال ٠

وكان عابدا متنسكا ٠ عزف عن دنياه ، ورغب فيما عند الله ٠

« وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٠٠ »





دراسات تاريخية

تأسيس شركة بكري وبوجناح

ودورها في عهد الدايين حسن ومصطفى باشا

د . العربي الزبيري

كلية الآداب - جامعة الجزائر

ان المصادر لا تتفق حول تاريخ انشاء هذه الشركة ولكننا نرجح ان تكون قد تأسست رسميا سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وألف عندما طلبت منهم فرنسا أن يزودوها بالحبوب لمدة خمس سنوات متتالية. (1) ولنا على ما نقول حجة فيما أورده السيدان روزي وكارات من أن حكومة الادارة حصلت في سنة أربع وتسعين وسبعمائة وألف على قرض من الجزائر قدره خمسة ملايين من الفرنكات ، وقد تم لها ذلك بواسطة شركة يهودية كان يسيرها الاخوان بكري ، وبوجناح . (2)

(1) - Pelissier, *Aperçu historique...*, p. 299

(2) - Rozet et Carette - p. 253

وعندما أنشئت ، كان الراى حسن قد تولى الحكم فى الايالة (3) وترى بعض المصادر أنه قد عين الى جانبه نفتالى مستشارا يحظى لديه بكل سطوة وسلطان . (4) وعرف هذا الاخير كيف يستفيد من منصبه المؤثر ليضع للشركة الجديدة أسسا متينة فى مختلف أنحاء البلاد وفى خارجها . ومن جملة ما قام به فى هذا الصدد شفاعته فى مصطفى الوزناجى باى التيطرى ، وصيانته من الموت سنة أثنتين وتسعين وسبعمائة وألف ، ثم تقديم يد المساعدة له واقراضه مبلغا كبيرا من المال حينما كان الجميع يعتقدون بأن الموت هو مصيره الحتمى . وبعد ذلك قدمه الى الداى فى صورة جديدة والتمس له العفو فحصل عليه ، وعينه فى العام التالى قائدا على ناحية سيباو (5) . وفى سنة أربع وتسعين وسبعمائة وألف استطاع أن يرفعه من جديد الى رتبة الباى على رأس مقاطعة ألشرق الجزائرى خلفا لحسين بوحنر (1) . وبديهى أن الوزناجى بعد هذه الخدمات كلها ، أصبح يدين بالولاء المطلق لولى نعمته بوجناح . وعليه ، فبمجرد ما وصل الى عاصمته الجديدة بدأ يسىء الى المؤسسات الفرنسية ، وفتح جميع الابواب للشركة اليهودية الى درجة أنها استحوذت ، فى تلك السنة على جميع كميات الحبوب والجلود والاصواف والشموع التى دخلت الى أسواق شرق الايالة (2) .

وأمثال الوزناجى كثيرون من الضباط والاعيان الذين كان بوجناح يعينهم أو يوحى بتعينهم فى مناصب حساسة تجعله يتصرف فى جميع أنواع التجارة لا يخشى فى ذلك منافسا (3) .

أما خارج الايالة ، فان الشركة قد فرضت نفسها فى كثير من البلدان الاوربية ، وعينت ممثلين لصالحها فى أهم موانى البحر الابيض المتوسط . وانما توصلت الى ذلك بفضل ما كان لبوجناح من تأثير كبير على الداى وأعوانه . فلقد كان يتفاوض باسم الجزائر ، مع ممثلى تلك الدول : يسالم من شاء ويعلن الحرب ضد من أراد محاربة نفوذه التجارى (4) . كما انه كان يتعامل مباشرة مع جميع قناصل البلدان الاجنبية ويفى دائما بما يعد (5) . والى جانب ذلك استطاع (1) أن يرتشوا شخصيات فرنسية

(3) انظر الفصل المدخل

(4) - Esquer, *La prise d'Alger,* p. 19

(5) - Mercier, *Histoire de l'Afrique Septentrionnale,* T. III, p. 440

(5) - Dupuy, *Américains et Barbaresques* - 1176-1824, Paris 1910, p. 85
Plantet, *Correspondance des Deys d'Alger,* T. II, p. 453

(1) - Emerit, Essai d'une marine"..., p. 369

كبيرة من جملتها وزير الخارجية السيد تاليران وعددا من المسؤولين عن الموافق التجارية فى باريس (2) الامر الذى جعلل الشركة تسيطر على أهم اسواق الجمهورية فى ذلك الحين . وفى نفس الوقت دفع البريطانيين الى العمل على التقرب مو هذه القوة الجديدة لعلهم يستطيعون استعمالها لتحقيق ما عجزوا عن التوصل اليه بوسائل أخرى ، أى الى اخراج فرنسا من شمال افريقيا ، وأخذ الامتيازات لانفسهم . ولاجل ذلك فتحوا مضيق جبل طارق الى السفن اليهودية التى تريد الدخول الى المحيط الاطلسى (3) .

وللمحافظة على هذه السلطة التى لم يسبق لاحد ، فى تاريخ الجزائر ، أن حصل عليها ولابقاء التجارة فى حوض البحر الابيض المتوسط خاضعة لها ، كانت الشركة تقدم للديوان خدمات جليلة فى ميدان المخابرات ، وذلك بفضل ما يرسله ممثلوها فى الخارج من معلومات لها مساس بسؤون الايالة أو غيرها من البلدان الاسلامية (4) .

وبهذه الكيفية أصبحت التجارة فى عهد هذين الدايين أكثر من أى وقت مضى بين أيدى اليهود وفى خدمة مصالحهم بالدرجة الاولى ، والسبب فى ذلك أنهم عرفوا كيف يستفيدون من الخلافات الدولية ، واستطاعوا أن يكسبوا الى جانبهم عددا من الشخصيات ذات الوزن الثقيل سواء بواسطة الرشوة أو بتقديم مختلف الخدمات . وبالاضافة الى ذلك ، فانهم كانوا ماهرين فى تسويق أسوء البضائع ومخادعة رجال الجمارك مهما كانت يقظتهم على عكس المسلمين الذين كانوا مشهورين بصدقهم وأمانتهم فى ميدان التجارة (1) .

وعلى أية حال ، فان الشركة قد بدأت تصدر منتوجات البرق الجزائرى الى ميناء مرسيليا سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وألف مستعملة فى ذلك مينائى عنابة وستورة على الرغم من احتجاجات مديرية الشركة الملكية الافريقية (2) التى كانت تملك الامتيازات آنذاك .

ومما ساعد هذه الشركة الجديدة على النجاح فى عملياتها الاولى مع فرنسا ، وبلاضافة الى ما أسلفنا من أسباب عامة ، أن اليهود كانوا يجيدون اللغة العربية

---

(2) - Masson, *Marseille depuis* 1789 - p. 539 (3) Degrammont - p. 351

(2) - Fillias *"L'Algérie ancienne et moderne"* - p. 48

ويعرفون كما ينبغي عادات الجزائريين وأخلاقهم . وعليه كانوا يخرجون بأنفسهم الى مختلف انحاء المقاطعة ويشترون ما يريدون ثم يحملون بضائعهم على متن سفن أجنبية يحمونها بالراية الجزائرية بينما كان ممثلوا الشركة الفرنسية لا يغادرون مؤسساتهم خوفا من التعرض لهجومات السكان . كما أنهم كانوا ينقلون حمولاتهم على متن السفن الفرنسية التى كثيرا ماكانت تتعرض لحجز البريطانيين والاسبانيين أو المهاجرين الفرنسيين كما سبق أن أشرنا الى ذلك . وفى بعض الاحيان كان الفرنسيون يلجأون الى بكرى وبوجناح يوصلون لهم بضائعهم الى الموانى الايطالية . ومنها تحمل برا الى فرنسا .

وعلى الرغم من أن المصادر تذكر بأن الشركة صدرت الى فرنسا فى تلك السنة وحدها ما تزيد قيمته عن مليونين من الفرنكات (1) . فان سنة أربع وتسعين وسبعمائة وألف هى التى تمكن فيها اليهود من الحصول على جميع الاحتكارات التجارية فى الشرق الجزائرى . والاسباب فى ذلك هى :

ـ ان مجلس ادارة الشركة الملكية الافريقية أعلن يوم 17 / 1 / 1794 أنه يحل الهيأة التى يشرف عليها ويتنازل للامة عن جميع الامتيازات . وعلى اثر هذا القرار ظل الميدان خاليا لبوجناح وشركائه . خاصة وأن الوكالة التى خلفت الشركة لم تشرع فى العمل الا بعد التاريخ المذكور بشهرين كاملين . وقد وجدت نفسها . منذ البداية أمام صعوبات وعراقيل كثيرة أهمها عدم توفر رؤوس الاموال . وانعدام وسائل النقل مما جعل حكومة الجمهورية الخاوية خزائنها تطلب من السيد كيبار حاكم القالة . فى ذلك الحين . أن يتعامل معهم فيما يتعلق بشراء الحبوب أو نقلها الى مرسيليا . ووجدت الشركة اليهودية فى النقل وسيلة أخرى لتحقيق الآرباح فصارت تستأجر السفن الاجنبية . وتزودها بجوازات سفر جزائرية ثم تكتريها للفرنسيين . (2)

ـ ان ممثل الشركة اليهودية فى مرسيليا عرف كيف يتصل بالمسؤولين الفرنسيين ويكسب ثقتهم الى درجة أنهم صاروا يتجهون اليه بدلا من وكالتهم الرسمية لاستيراد معظم ما يحتاجونه من مواد غذائية أو صناعية .

(1) - Masson "Concessions...", p. 59
(2) - AOMA, S/S 3 B n° 1044

ـ ان الوزناجي الذى عين على رأس البايلك فى تلك السنة كان قد اتخذ من بوجناح مستشاره الاول ، لا يعمل شيئا الا بأمره • ومعلوم أن أمره لا يكون فى غير صالح الشركة .

وعلى هذا الاساس ، تضاعف نشاط الشركة وامتد تحت رعاية سلطات الجمهورية وحمايتها وصار هؤلاء اليهود ، من جهة أخرى ، يرسلون شحنات متعددة من الحبوب خاصة الى كل من ما هون وليفرنة أو مالطة .

وفى سنة خمس وتسعين وسبعمائة وألف أبرمت مصالح التموين فى باريس اتفاقية مع ممثلى بكرى وبوجناح لتزويدها بمائتى ألف حمولة من القمح نصفها على سعر مائة فرنك للحمولة الواحدة ، ونصفها الآخر على سعر مائة وعشرين وينص الاتفاق على أن يكون دفع الثمن نقد (1) . والغريب فى الامر أن الوكالة الافريقية كانت فى تلك الاثناء ، ترسل كميات من نفس القمح تشتريها بخمس وعشرين فرنكا للقنطار الواحد (1) ، أى بحوالى ثلاثين فرنكا للحمولة .

وأمام هذه الانتصارات الباهرة التى أحرزتها شركة بكرى وبوجناح فى شرق الايالة وفى فرنسا نفسها ، اضطرت الوكالة الافريقية الى التنازل عن حقوقها والانسحاب من مينائى جيجل والقل فى شهر أكتوبر سنة خمس وتسعين وسبعمائة وألف (3) . ثم اعترفت رسميا باليهود وصارت بدورها تلجأ اليهم فى القيام بسائر أنواع نشاطها وخاصة كراء السفن الاجنبية ومرافقتها الى مقاصدها لكى لا تتعرض للحجز .

ولم يرض يعقوب بهذه النتيجة ، فذهب الى باريس حيث تفاهم مع تاليران على ارسال أكبر كمية ممكنة من الحبوب الى جيوش بونبرت فى ايطاليا . وبهذا الصدد يذكر روزى وكارات أن اليهود « عندما انتهوا من عملية التزويد سنة ست وتسعين وسبعمائة وألف ، طالبوا بدفع الاثمان ، ولكن الخزينة كانت خاوية ولذلك أعطى لهم بيان رسمى يحدد المبالغ المترتبة فى ذمة الدولة الفرنسية» (1) ثم حاول المسؤولون الفرنسيون أن يسحبوا البيان بحجة أن هؤلاء اليهود كانوا ، فى نفس الوقت ، يزودون الحامية الانكليزية المرابطة فى جبل طارق والتى تعتبر خطرا كبيرا بالنسبة لنفوذ بلادهم فى

(1) - Masson "Concessions..." - p. 57
(1) - Rozet et Carette - p. 253

(2) نفس المصدر ص : 58
(3) أنظر الفصل الخاص بالمؤسسات الادبية

حوض البحر الابيض المتوسط . غير أن الداى تدخل مرة أخرى وكتب الى حكومة الادارة رسالة حملها سمون بوفية . فند فيها جميع الاتهامات . وأكد اخلاص اليهوديين للامة الفرنسية (2) .

وعندما قام بونبرت بحملة على مصر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف . طلب وزير خارجيته السيد تاليران من بكرى أن يزود الجيش الفرنسى بكميات كبيرة من القمح . تحمل فى مراكب جزائرية لئلا تتعرض لهجومات الانكليز (3)

وأكثر من ذلك . فان الشركة اليهودية تعهدت ووفت بارسال شحنات من العتاد الحربى الى نفس الجيش . كما أنها حملت الى مصر . بطلب من قائد الحملة ذاته . مليونى زجاجة خمر وكميات من الاقمشة والادوية والزيوت وغيرها من المواد التى يحتاج لها الأجناد عادة أثناء الحروب (1) .

وما من شك أن هذه العمليات الاخيرة قد تجاوزت كل اطار تجارى ولاجل ذلك طلبت أنكلترا من الباب العالى أن يأمر بطرد جميع اليهود من ممتلكاته (2) ولكن مصطفى باشا الذى تولى الحكم على اثر وفاة بابا احسن يوم 9 ماى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف . كان صديقا لبوجناح . تربط بينهما مصالح شخصية متعدد . ولذلك أغمض عينيه ولم يعط للامر اهتماما (3) .

وأكثر من ذلك أنه عندما انتزع المؤسسات من الفرنسيين . وضعها تحت تصرف الشركة اليهودية تستغلها كيفما شاءت بدون مقابل اللهم الا اذا كانت هناك اتفاقات سرية بين الداي وأصحاب الشركة . وفى سنة ثماني مائة وألف أصدر الداى قرارا يقضى بتعيين نفتالي رئيسا للحالية اليهودية بدلا من براهم بوشارة (4) .

واذا كانت القطيعة بين الجزائر وفرنسا . قد سمحت لشركة بكري وبوجباح بأن تستحوذ بكل سهولة على التجارة الخارجية فى شرق الايالة على حساب الوكالة . وان تضاعف نشاطها بحيث أنها صدرت أكبر كمية من الحبوب والمواد الاخرى . فان خزينة

(2) - Genty "De l'Etablissement des Français dans la Régence"
(1) - Julien "Marseille et la question d'Alger"

(3) ايرتبث ، المجلة الافريقية ص 375
(2) ايرتبث ، نفس المصدر
(3) دوكزمون ، ص 355
(4) ايرتبث نفس المصدر ص 374

الدولة الفرنسية لم تتحسن ، ولم يكن فى قدرة السلطات المختصة أن تدفع ، نقـدا ، قيمة كل ما وصل الى ميناء مرسيليا . ولاجل ذلك تجمع عند ادارة الشركة اليهوديـة عدد من السندات تمثل أكبر من 000 . 151 . 8 فرنك (1) .

ولجمع هذه الديون كلها ، فكر نفتالى فى ضرورة العمل على تحقيق السلـم بـين البلدين وذلك ليتسنى له أن يستعمل الداى فى المطالبة بحقوق الشركة . ولقد توصل الى ذلك ، وحصل على ما يريد عندما وقع الجانبان يوم 17 أكتوبر سنة 1801 على معاهدة صلح جاء فى بندها الثالث عشر أن المواطن دوبو تانفيل يتعهد باسم الحكومة الفرنسية بدفع المبالغ التى يطالب بها الرعايا الجزائريون بصفة شرعية . ولكن الفرنسيين لـم يكونوا يعتبرون الديون كلها قانونية لان الشحنات الاخيرة التى وصلت « كانت مـن القمح الفاسد الذى لا يمكن استهلاكه » (2) ومع ذلك قرر بونبرت عدم اثارة سخـط اليهوديين ، والاستمرار فى مماطلتهما للتمكن من استعمالهما خاصة وأن الوكالة ألغيت نهائيا بقرار صدر فى السابع عشر من شهر جانفى سنة 1801 (3) . وأن المسـؤولـين القدماء عن الشركة الملكية الافريقية رفضوا الاستجابة للقنصل الاول الذى دعاهـم الى استئناف نشاطهم فى موانى الشرق الجزائرى. ولقد سبق أن رأينا أسباب هذا الرفض الذى كان ضربة قاضية بالنسبة للامتيازات الفرنسية (4) وفرصة أخرى اغتنمها الاخوان بكرى وبوجناح لمواصلة احتكار العمليات التجارية هناك وتحقيق مزيدا من الارباح .

وعلى الرغم من أن السلطات الفرنسية حاولت تنظيم المؤسسات الافريقية فانهـا لم تنجح فى انشاء شركة جديدة تقضى على الفوضى ، وتعيد الحيوية للعلاقات التجاريـة بين شرق الايالة ومرسيليا . ومما لا ريب فيه أن السبب الرئيسى فى ذلك يعـود الى مناورات اليهود الذين استطاعوا أن يستولوا فعليا على المؤسسات مضيفين الى نشاطها الاساسى المتمثل فى تجارة الحبوب والصوف والشموع والجلود والزيوت ، نشاطا آخر

(1) ايسكر ، ص 58

(3) انظر الجزء الخاص بفترة الغموض الاولى من فصل الهيئات الاجنبية

(4) نفس المصدر

(2) - Fillias "L'Algérie ancienne et moderne" - p. 48

يتعلق باستغلال غابات الكرستة فى نواحى بجاية ، حصلوا عليه من الداى مصطفى مقابل ضريبة مرتفعة جدا (1) . ويستخرج من هذه الغابات جميع أنواع الاخشاب الضرورية لصناعة السفن الحربية والتجارية .

وفى سنة خمس وثمانمائة وألف وقعت مجاعة كبرى فى البلاد . وبدلا من أن تقوم شركة بكرى وبوجناح بمساعدة السلطات لتوفير الاغذية للسكان ، كانت تجلب الحبوب من مختلف أنحاء الايالة ثم ترسلها الى فرنسا مما أثار غضب الميليشيا التى كانت متذمرة من تصرفات هؤلاء اليهود الذين أكثروا من التدخل فيما لا يعنيهم ، ومن استغلال نفوذهم الذى لا يعرف حدودا للاساءة الى كل من يرفض التعاون معهم . وتجسم هذا الغضب فى مبادرة قام بها أحد الميليشيين يدعى يحى عند ما خرج الى نهج باب الوادى وأطلق رصاص بندقيتها على نفتالى فأرداه قتيلا صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر جوان من نفس السنة على الساعة السابعة (2) .

ويعتبر اعدام نفتالى هذا أولى ضربة قاسية توجه للشركة اليهودية ، ذلك أن الميليشيا كلها والسكان وقفوا الى جانب القاتل وضيقوا الخناق على مصطفى باشا الذى وعد بطرد جميع اليهود من الجزائر للتخفيف من حدة التوتر .

وعلى الرغم من الشروع فى انجاز الوعد بترحيل حوالى ثلاثمائة أسرة الى كل من تونس وليفرنة (1) ، وحجز سائر ممتلكات بوجناح الذى كان مدينا للخزينة الايالة بمبلغ قدره مليونين من الفرنكات ، فان الميليشيا قد ألقت القبض على الداى مصطفى وقتلته ثم جاءت فى مكانه بأحمد بن على (2) فى اليوم الاخير من شهر أوت سنة 1805 .

---

(1) ايزنبث ، نفس المصدر

(2) هو احمد خوجة الذى جابه تمرد ابن الاحرش وأحمد تمردات اخرى فى تلمسان وتيارت كما انه حارب أيالة تونس ومات فى احدى المعارك سنة 1806

(1) - Feraud, Histoire des villes de la province de Constantine Bougie, Constantine 1869, p.210

(2) - Degrament, p. 361 et Essenbeth, "Les Juifs en Algérie" - p. 17

رحالة مصري
يزور الجزائر في القرن التاسع

محمـود بوعيـاد
مدير المكتبة الوطنية

من المعروف ان الرحلات من الانواع الادبية الـتى اختص بها الادب العربى القديم . وقد اشتهر المغاربـة والاندلسيون من بين العرب بالعدد الضخم من الرحلات التى خلفوها وكذلك بجودة أكثرها وقيمتها التوثيقية فى ميادين مختلفة • وقد كثر عدد الرحالين المغاربة نحـو الشرق لانهم كانوا يرحلون الى المشرق الاسلامى لقضاء فريضة الحج قبل كل شىء وللاستقاء من منابع العلوم الدينية والعلوم المختلفة الاخرى والآداب وذلـك فى البقاع المقـدسة والعواصم والمراكز الثقافية التى احتضنت اشهر الفـلاسفة والعلماء وابلغ الكتاب والادباء •

غير ان القرن التاسع فاجانا برحالة مصرى أخذ الوجهة المعاكسة لرحالة المغرب والاندلس فتوجه نحو غرب العالم الاسلامى، وروى لنا بشكل شيق ما جرى له فى اثناء سفره •

صاحب الرحلـــة

ولد عبد الباسط بن خليل بملطية بالشام حيث نشأ وقد أخذ العلم بادىء ذي بدء بدمشق وحلب على علماء اجلاء ، ثم ارتحل الى القاهرة حيث واصل دراسته وشمـــل تكوينه العلمي علوما شتى من فقه ، ولغة ، وبيان ، ومنطق ، وحكمة الخ ··· وقد اشتهر من بين علماء عصره باطلاعه الواسع في الفقه الحنفي ، والآداب ، وقد كان طلب الطـب حافزه الى مغادرة مصر وطنه الجديد والرحيل الى المغرب يطوف في أقطاره ، وكان أطباء المغرب يتمتعون آنذاك بشهرة كبيرة في المشرق الاسلامي .

وجاب عبد الباسط القطر التونسي الحالي والجزائر الحاليـــة والاندلس أو عـــلى الاصح ، ما بقي من الجزيرة في أيدي المسلمين على عهد المؤلف ، طالبا للعلم وتاجـــرا أيضا وذلك مدة اربع سنوات فيما بين سنة 866 هـ/1462 م · وسنة 871 هـ/1466 م · وعلق السخاوي على هذه الرحلة الطويلة فقال :

« ودخل المغرب فأخذ دروسا في النحو والكلام والطب بل اتقنه بخصوصه مـــع جماعـــة » (1) ·

ولم يكتف عبد الباسط بالتجارة وطلب الطب بل اتصـــل حيثما حـــل بمعاصريه من العلماء والادباء والموظفين ، واحيانا بأمراء الاقطار التي زارها ·

ويقول كراتشوفسكي عن باقي حياة عبد الباسط :

« قد عمر عبد الباسط طويلا وتوفي قبل وقت قصير من فتح العثمانيـين لمصر ، وذلك في عام 920 هـ/1514 م · متمتعا بتقدير الجميع له ، كفقيه من فقهـاء الحنفية ، وبسمعة واسعة كخبير في الطب » (2) ·

وخلف عبد الباسط آثارا فكرية عديدة ، قال السخاوي عنها :

« وألف ونظم ونثر واقبل على التاريخ ، واستمد فيه مني كثـيرا » (3) · ومـــن مؤلفاته : ـ الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » ، وهو تاريخه الكبير ولم يبق

(1) الضوء اللامع ، ج 4 ص 27
(2) تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ص 447 ·
(3) الضوء اللامع ، ج 4 ، ص 27 .

منه الا قسمان ما يزالان مخطوطين الا ما نشر منه المستشرق الايطالي ليفي ديلا فيدا(4) والمستشرق الفرنسي روبيرت برانشفيك (5) ٠

ـ « نيل الامل في ذيل الدول » ٠

جعله ذيلا لكتاب دول الاسلام للذهبي وهو مخطوط ٠

ـ « الجمع المفنن بالمعجم المعنون » وهو كتاب في التراجم ، مخطوط ٠

ـ « غاية السؤل في سيرة الرسول » ٠

وقد ذكر الزركلي في الاعلام أنه مطبوع (6) ٠

ـ « نزهة الاساطين فيمن ولي مصر من السلاطين » وهو مخطوط ٠

ـ « والقول المأنوس في تحرير ما في القاموس » ، وهو مخطوط 0

وكتب أخرى منها شروح في فقه الحنفية حسبما ذكر الزركلي (6) ٠

وقال عبد الباسط الشعر ، وقد روى بعض نتاجه في الروض الباسم ٠ ومن جملة ما ذكر بيتان من قصيدة مدح بها الملك الزياني محمد المتوكل (7) الذي زار في عهده المغرب الاوسط ٠

محتـــوى الكتـــاب :

كتاب « الروض الباسم » كتاب تاريخي ، ذكر فيه عبد الباسط احداث العـــالم الاسلامي وعلى الخصوص احداث مصر والشام ، مدونة على ترتيب السنين المعروف عند قدماء المؤرخين ٠ وقد نهج في كتابه منهج كتاب « انباء الغمر في ابناء العمـــر » لابن حجر العسقلاني وكتاب «السلوك في معرفة دول الملوك» للمقريزي ، وهدف عبد الباسط الى ان يجعل من الروض الباسم ذيلا لهذين الكتابين اذ شرع حسبما ذكر ليفي ديلافيدا في تسجيل الاحداث في الفترة التي توقف عندها المقريزي (8) وابن حجر عن التدوين٠

(6) الاعلام ، ج 4 ، ص 43 .

(7) براشفيك ، ص 49 . والمتوكل هو محمد بن ابي ثابت المتوكل على الله ملك من ملوك بني زيان في تلمسان ، تولى الحكم من سنة 866 هـ/1461 م الى سنة 873 هـ/1468 م .

(8) تنتهي « اخبار السلوك في معرفة دول الملوك » في سنة 840 هـ/1436 م .

وواصل سرد الاخبار الى سنة 874 هـ/1369 م · حسب ما انتهى الينا من الكتاب ، واضاف الى أحداث كل سنة وفيات أشهر العلماء والشخصيات التى وقعت فى اثنائها ·

وضمن الكتاب حديث رحلته الى المغرب التى دامت كما ذكرنا قبل قليل ، أربع سنوات · وقد نزل عبد الباسط بتونس يوم 22 من ذى القعدة سنة 866 هـ/1462 م · ثم زار تباعا مدينة قابس ، فالقيروان ، فباجة ، فعنابة ، فقسنطينة ، فبجاية ، فالجزائر فمازونة ، ودخل تلمسان فى ذى القعدة من سنة 868 هـ/1363 م ، بعد سنتين من نزوله بتونس ، وأقام بمملكة بنى عبد الواد عاما كاملا قضى اكثره بتلمسان ، والباقى بوهران ، ولم تمكنه الاضطرابات الواقعة حينذاك بالمغرب الاقصى من زيارة مملكة بنى مرين غير ان ذلك لم يمنعه من ذكر الاحداث الجارية فى ذلك القطر بالتفصيل ·

وبعد هذه الاقامة الطويلة بمملكة بنى عبد الواد ، غادر عبد الباسط المغرب الاوسط متوجها الى الاندلس، فركب البحر من وهران فى 15 من ربيع الثانى سنة 870 هـ/1465 م وزار في مدة شهرين ونصف غرناطة ، فمالقة ثم قفل راجعا الى وهران ، فأقام بها مدة ثمانية شهور ، من أول رجب 870 هـ/1466 م · الى 15 ربيع الاول 871 هـ/1466 م · وهو تاريخ ركوبه البحر ليعود الى بلاده مارا ببجاية ، وتونس ، وطرابلس الغرب ·

ولم يدون المؤلف أخبار رحلته المغربية على حدة فى « الروض الباسم » بل ذكرها مع غيرها من الاحداث التاريخية الجارية بالمشرق والمغرب فى السنة التى وقعت فيها ، غير أنه من الممكن ان تجعل من مجموع مشاهداته ، كتابا مستقلا بل رحلة متسلسلة لو فصلناها عن باقى الاحداث المذكورة بالروض ، وهذا ما فعله أولا المستشرق الايطالى « ليفى ديلافيدا » بالقسم الخاص بالاندلس ، وحذا حذوه زميله الفرنسى « روبيرت برانشفيك » بالقسم الخاص بشمال افريقيا ما عدا طرابلس ، وألف ما اقتطفه برانشفيك رحلة تامة الى اقطار المغرب الاسلامى ، وتمتاز هذه الرحلة بكونها تختلف عن بعض نظيراتها من الرحلات التى اقتصر فيها أصحابها على وصف البلدان التى زاروها ، وذكر الرجال الذين اجتمعوا بهم وهكذا ، بل ان عبد الباسط قد عنى عناية خاصة بالاحداث السياسية الجارية فى البلدان التى أقام بها فى اثناء رحلته ، وبعلاقات الدول المغربية بعضها ببعض ، فأول حادث ذكره عن القطر التونسى فور حلوله به خبر سياسى ، فقال

« ووجدنا صاحب تونس وسلطانها المتوكل على الله عثمان خارجا عنها آخـــذا الخ ٠٠٠»)9(٠ وقد اعتنى المؤلف طوال رحلته بجمع مثل هذه الاخبار ، وأعار اهتماما خاصا للعلاقات بين الدولة الحفصية والدولة الزيانية ، واهتم أيضا كما اشرنا سابقـا بالاحداث الجارية بالمغرب الاقصى ابان اقامته بمملكة بنى زيان ، وروى بالتدقيق قصة أفول نجم دولة بنى مرين وثورة أبناء عمومتهم من بنى وطاس ، واعتلائهم عرش فاس والمغرب الاقصى مكانهم ٠

وبطبيعة الحال لم يكتف عبد الباسط بسرد الوقائع السياسية بل وصف أيضـــا المدن التى مر بها مثلما يفعل الرحالة ، غير انه لم يصفها كلهـا ، كما وصـف أيضـــا منتزهات وولائم دعى اليها ، وذكر من لقى من علماء ، وأدباء ، وأمراء وموظفين فى المدن التى زارها ، وذكر مؤلف « الروض » احداثا يومية حدثت اثناء مقامه بالقرى والبلدان ، سجلها كما يسجلها محرر اليوميات ٠ ومن جملتها احداث وقعت له كولادة بنت لـه ، او اصابته بمرض ، أو دخول سارق عليه ببيته وهكذا ، كما اضاف لكل ذلـك ، بعض النوادر والطرائف التى وقعت بالبلدان التى أقام بها ، وروى بين الحين والآخر بعـض الابيات الشعرية قالها فى مناسبات مختلفة ٠

والكتاب كله مكتوب بأسلوب بسيط لا زخرفة فيه ولا تنميق ٠

ولم يبلغنا مـن الروض الباسم الا قسمان ما يـزالان مخطوطين محفوظين بمكتبـة الفاتيكان بايطاليا ، ولم تنشر منهما الامقتطفات نشرها كما سبق لنا ذكره ، المستشرق الايطالى ليفى ديلافيدا و المستشرق الفرنسى روبيرت برانشفيك ، وذكر هذان الباحثان ، وذكر بعدهما الاستاذ عبد الله عنان (10) ، ان المخطـوط رقـم 728 يصـل الى سنـــة 850هـ/1466 فقط ٠ أما الثانى فيشمل الاحداث الجارية فيما بين سنة 865هـ/1460 ــ 61م وسنة 871 هـ/1466 م ٠ وذكر برانشفيك ان عبد البـاسط قد دون اخبـــار رحلتـه عبد الباسط الى المغرب التى جرت كما ذكرنا سابقا ، فيما بين سنة 866 هـ ــ 1462 م ٠ و سنة 871 هـ ــ 1466 ٠ وذكر برانشفيك ان عبد الباسط قـد دون أخبار رحلتـــه

(9) برانشفيك ، ص 17 .

(10) عنان (محمد عبد اللہ) ــ رواية مصرية عن المغرب والاندلس . فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، 1970 ، ص ص 95 ــ 111 .

المغربية فى كتابه الآخر « نيل الامل فى ذيل الدول » . وتمكن المستشرق الفرنسى من مطالعة الكتاب المخطوط المحفوظ بمكتبة البودليان بأوكسفورد ببريطانيا . وقال ان اخبار المغرب كباقى الاخبار قد اختصرت اختصارا كبيرا « بالنيل » الذى الفه عبد الباسط بعد « الروض الباسم » وقد أحال المؤلف فى « النيل » على « الروض » من أراد المزيد من المعلومات سواء الاحداث المشرقية أو الاحداث المغربية (11) .

عبد الباسط فى الجزائر :

ان أول مدينة زارها المؤرخ المصرى بعد مغادرته أراضى تونس الحالية حيث نزل هى قسنطينة ، وقد دخلها فى شوال من سنة 868هـ فقال عنها :

« رأيت مدينة عجيبة الموضوع ، حسنة المجموع ، على جبل عال ، وتحتها واد عظيم كثير الخصب والاجنة والبساتين ذات الاشجار ذوى الثمار المتنوعة ، وبها النعم والخيرات والرخاء الغالب ، وأعجبتنى الى الغاية ورأيت ابنيتها وهى جيدة فائقة وأقمنا بها ثلاث أيام ثم سرنا فى رابعها الى جهة تلمسان » . (12)

ثم دخل الرحالة المصرى بجاية حيث اجتمع بالعالم ابى القاسم محمد المشدالى وبعدها الى الجزائر ومما قال عنها :

« وتبركت بسيدنا الشيخ الولى العالم العلامة الشهير الخطير الكبير سيدى عبد الرحمان الثعالبى وسمعنا شيئا من فوائده وسألته بعض أسئلة كانت تشكل على فأفادنيها على أحسن وجه وأتمه ورأيت تفسيره ... » (13) .

وبعد قيامه من الجزائر قال : « اجتزنا فى طريقنا الى تلمسان بمدينة مازونة ، وقلعة هوارة ، والبطحاء ودخلنا تلمسان فى أواخره » أى أواخر عام 868هـ (13) .

ومن البديهى أن يطيل عبد الباسط اقامته بتلمسان اذ كانت عاصمة المملكة كما كانت مركزا علميا بلغت شهرته الشرق الاسلامى . فأكثر من ذكر ما وقع بها وبالمغرب الاقصى المجاور من احداث اثناء مقامه بها ، وأطال فى الحديث عمن لقى من علماء وفى ذكر ما جرى له من احداث ومغامرات ومن الغريب انه لم يصف المدينة .

---

(11) برانشفيك ، ص 12 .
(12) المصدر نفسه ، ص 40
(13) المصدر نفسه ، ص 41

واول ما لفت نظره طريقة الاحتفال بعيد الاضحى فى عاصمة بنى زيان فمما قال :

« خرجنا للمصلى بظاهرها ، وحضر محمد بن ابى ثابت صاحب تلمسان صلاة العيد فِى هذا اليوم ، بعد أن خرج فى موكب حافل ، حين تعالى النهار جدا ، ثم صلى ونحر أضحيته كبشا أملح فى المصلى بعد فراغه من الصلاة وشهر هذا الكبش محمولا على بغل مع رجل يعد لذلك ، فشق به المدينة لاجل أن يتيقن بتضحية الامام على قاعدة مذهب مالك رضى الله عنه • وكان هذا الرجل لما سار بهذه الذبيحة الاضحية مجدا ببغله فيها محثا فى ذلك ، ولم أكن أعرف ذلك قبل هذا التاريخ فسألت بعض أصحابى عن ذلك فأجابنى بأن ذلك من عادة ملوك هذه البلاد وأصل ذلك ما لحظته أنا من اعلام الناس بأن الامام ذبح ثم عاد محمد بن أبى ثابت المذكور الى المدينة فى موكبه الحافل ••• » (14) •

ومن الاخبار والاحداث السياسية التى وقعت وعبد الباسط بتلمسان ـ وقد انفرد بذكر بعضها ـ خبر تهديد السلطان التونسى من بنى حفص بالهجوم على تلمسان ، وقد تحدث فى عدة مناسبات عن هذا التهديد ، وذكر ما قام به السلطان الزيانى محمد بن أبى ثابت المتوكل من تفقد للاسوار وتحصين لعاصمته ومما انفرد بذكره أيضا محاولة انقلاب وقعت فى شوال من سنة 870هـ ذهب ضحيتها وزير من وزراء الملك وهو عبد الله النجار الذى كان عبد الباسط قد نزل عنده ، وتوثقت علاقات المودة بينهما ، كما تحدث عن الهجومات التى كان يشنها قراصنة النصارى على شواطىء البلاد الاسلامية فيخطفون الناس لايقاعهم فى الاسر فى البلاد المسيحية وقد بلغه خبر هجوم اربعة مراكب بساحل بجاية نجم عنه اسر الكثير من المسلمين وقد اخفقت فى اثناء مقام عبد الباسط بمملكة بنى زيان ، مساعى مركب آخر نزل ناحية هنين وهو ميناء تلمسان ، فقال :

« فى هذه الايام أحضر الى مدينة تلمسان ونحن بها أحد عشر نفرا من الفرنج أسروا من ساحل هنين وكانوا وردوا اليها بمركب لتخطف المسلمين والاغارة عليهم بالطرقات ونحوها فأخذوا وجهزوا الى تلمسان للسلطان بها حتى يرى فيهم رأيه ، وكان لما فطن المسلمون بهم ثاروا عليهم فهرب منهم الكثير وأخذ من ذكرنا ، وتقلع الباقون بمركبهم الى البحر ووسعوا • ولما أحضر المأخوذون الى صاحب تلمسان أمر بستة منهم فعلقوا مشنوقين من رقابهم على بعض أبواب تلمسان الى أن ماتوا وأبقى منهم خمسة يذكر انهم من ذوى اليسار ففادوا عن انفسهم بالمال » (15) •

(14) المصدر نفسه ، ص ص 41 ـ 42

(15) المصدر نفسه ، ص 43 •

ومن العلماء الذين لقيهم عبد الباسط بتلمسان ، عبد الله محمد بن العباس ، وقاضي الجماعة محمد العقباني وأخوه ابو سالم ابراهيم خطيب جامع تلمسان الاعظم وامامه ، والشيخ محمد بن مرزوق · وكان من أهداف رحلة هذا العالم طلب علم الطب كما ذكرنا آنفا ، فأورد لنا دلائل على تدريس الطب بتلمسان زمان رحلته ، بل على تفوق اطبائها · وقد أخذ هذا العلم عن « محمد بن علي بن فشوش أحد اطباء تلمسان » وقد كان يزاول الطب ويدرسه في الوقت نفسه · ومن الذين لازمهم عبد الباسط طبيب اسرائيلي اسمه موشى بن سمويل بن يهودا الاسرائيلي وقال عنه : « لم اسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة » (16) ·

ومن مدينة وهران التى لم يذكر عنها الا اخبارا ثانوية ، بقى عبد الباسط يتتبع أخبار تلمسان والعلاقات بينها وبين تونس وكذلك أخبار المغرب الاقصى ، ومن وهران ركب البحر كما ذكرنا سابقا ، لزيارة مملكة غرناطة ، ولم يتحفنا بأخبار ذات قيمة عن المغرب الاوسط في طريق عودته لبلاده الا ما لاحظ من ذعر سكان ساحل بجاية من هجومات القراصنة المسيحيين عليهم لاختطاف الناس ·

قيمة الكتاب :

ليس في متناول الباحث الدارس لتاريخ المغرب الاوسط في عهد بني زيان بعد انقطاع يحيى بن خلدون صاحب « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد » (17) واخيه عبد الرحمن عن سرد أخبار البلاد الا كتاب « نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان » لمحمد التنسي وهو كتاب ما زال مخطوطا غير اننا ننوى اصداره في الشهور القادمة ان شاء الله ، بعد الفراغ من تحقيق نصه والتعليق عليه · واما بعد انقطاع أخبار التنسي سنة 868هـ/1463م (18) ، فان الباحث الدارس لتاريخ بني زيان يجد نفسه أمام فراغ كبير اذ ليس هناك كتاب واحد متسلسل الاخبار عن تاريخ بني عبد الواد بعد « نظم الدر والعقيان » ، فيضطر الباحث الى اللجوء الى التقاط أخبار ومعلومات متفرقة عنهم في كتب مختلفة متفاوتة القيمة ، كالرحلات وكتب التراجم ، وكتب وضعت

---

(16) المصدر نفسه ، ص 45 .

(17) راجع مقالنا « من آثارنا المغمورة » ، بغية الرواد في اخبار بني عبد الواد ليحيى بن خلدون ، في الاصالة عدد 13 ، 1973 ص ص 213 ــ 222 .

(18) حل عبد الباسط بتلمسان في سنة 868 هـ/1463 م وهي السنة نفسها التى انهى فيها التنسي سرده للاخبار .

دعا السلطان الحفصى الى مصالحة الملك الزيانى محمد بن ابى ثابت المحاصر بتلمسان ، فذكر صاحب « تاريخ الدولتين » ان ابا عمر عثمان صالح ملك تلمسان لان بعض العلماء خرجوا من المدينة المحاصرة « وتراموا على السلطان فى الكف عن البلد على أن يلتزموا بالبيعة عن صاحبها ويدخل تحت طاعته ونظره . فقبل انابتهم ولم يحرم اجابتهم » (23) . بينما نرى عبد الباسط الذى ذكر كذلك توسط علماء تلمسان وشفاعتهم يزيد قائلا : « وكان قد وقع فى عسكر عثمان الغلاء الكبير والقال والقيل وبعض خلف بينهم وكان هو قد عزم على العود وبقى يود مندوحة لذلك وحجة من يحتج بها على رجوعه ... » (24) . ونستبعد أن يجهل الزركشى مؤرخ الدولة الحفصية هذا الخبر بينما أطلع مؤرخ مصرى يقوم بجولة فى البلاد . على هذه الفتن التى وقعت داخل المعسكر الحفصى والتى كانت الحافز الحقيقى لانسحاب الجيش الحفصى عن تلمسان .

وسبق لنا أن ذكرنا ان عبد الباسط قد انفرد بذكر أخبار سياسية ذات أهمية كبرى وقد ذكرنا احداها على سبيل المثال وهى محاولة الانقلاب التى وقعت فى البلاط الزيانى .

ومن أهم الاخبار التى أتى بها خبر يوضح لنا بعض الايضاح . الضعف الداخلى للدولة الزيانية . والفائدة التاريخية مستنتجة من حكاية يرويها عبد الباسط . وذلك ان المؤلف سمع عجوزا تدعو للملك الزيانى عند مروره بأزقة تلمسان فى يوم الاحتفال بعيد الاضحى . فمن جملة ما دعت له به ان « يسخر الله تعالى له سليمان بن موسى » . فقال عبد الباسط « فعجبت من ذلك وكان سليمان هذا من كبار أمراء عرب تلك البلاد » (25) . فالمتأمل لتاريخ الدولة يستنتج من هذه الحكاية ومن سير الاحداث اذا ما رجع اليها . ان مصير الدولة التى اسسها يغمراسن كان متعلقا أولا بقوة الدولتين الحفصية والمرينية المجاورتين لمملكة تلمسان وبقوة الاعراب من بنى هلال وسليم ثانيا . فكان هؤلاء البدو يعززون موقف الملوك من بنى عبد الواد اذا ما آزروهم ويضعفون مركزهم حتى التلاشى . اذا ما انقلبوا عليهم وخذلوهم . كما ان التطاحن

(23) الزركشى ، ص 137 .

(24) برانشفيك ، ص 17 .

(25) المصدر نفسه ، ص 42 .

لتاريخ دول أخرى وبقاع أخرى ، منها على سبيل المثال : تاريخ الدولتين الموحديه والحفصية لمحمد الزركشى (19) · وبه معلومات عن العلاقات الحفصية الزيانية ، أو «نفح الطيب» ، لاحمد المقرى و « أزهار الرياض فى أخبار عياض » للكاتب نفسه ، ولا يجد الباحث فى هذين الكتابين الا أخبارا قليلة عن الدولة الزيانية أغلبها خاص بالحياة الادبية فى عهد تلك الدولة بتلمسان · ومن كتب التراجم نذكر « البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان » (20) لمحمد بن مريم، ويدخل « الروض الباسم » لعبد الباسط ابن خليل ضمن هذه المصادر التى يحتاجها الباحث لمواصلة تاريخ بنى زيان ، بعد نهاية حديث اساطين تاريخ الدولة الثلاثة وهم يحيى وأخوه عبد الرحمن بن خلدون ومحمد التنسى والمؤلف المجهول « لزهر البستان فى دولة بنى زيان » (21) ·

ان عبد الباسط مؤرخ وهو رغم اسلوب الرحلة الذى اختاره لسرد الاحداث قد اولى الاخبار التاريخية اهتماما كبيرا وقد سبق لنا أن أشرنا الى أن أول شىء قيده عند نزوله بتونس هو خبر سياسى · ونلاحظ عنده الاهتمام نفسه عندما وقف وقفة قصيرة بتونس لم تزد على أربعة أيام وهذا فى طريق العودة الى بلاده · فذكر ان سلطان تووس المتوكل على الله خرج فى اوائل ربيع الاول سنة 871 هـ/1466 م بعساكره الى جهة تلمسان الخ ···» (22) ·

وقد استنتجنا فيما يتعلق بهذه الاخبار التاريخية البحتة المذكورة بالروض الباسم من مقارنة بين ما أورد المؤلف من أخبار عن العلاقات بين تونس وتلمسان ، وبين الاحداث نفسها المروية فى كتب التاريخ الخاصة بالحفصيين ، ان عبد الباسط مؤرخ جمع بين الدقة والامانة ، فى سرد الاخبار فانه لم يظهر انحيازا لأى دولة من الدولتين

فعلى سبيل المثال نلقى عبد الباسط أكثر تفصيلا وأكثر نزاهة أيضا من الزركشى صاحب تاريخ الدولتين عند حديثهما عن حملة السلطان الحفصى ابى عمر عثمان على تلمسان سنة 866هـ/1462 فان الزركشى أهمل ذكر خبر مهم يتعلق بالسبب الذى

(19) الزركشى (محمد بن ابراهيم اللولوى المعروف بالزركشى) ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ـ تونس ، 1289 هـ .

(20) نشر بتحقيق محمد بن أبى شنب ـ الجزائر ، 1366 هـ/1908 ،

(21) راجع مقالنا « مخطوطات لم تكتشف ، زهر البستان فى دولة بنى زيان » فى الثقافة ، عدد 13 ، 1973 ، ص ص 55 ـ 66 .

(22) برانشفيك ، ص 68 .

بين أفراد الاسرة المالكة كان عاملا آخر لضعف بنى عبد الواد وسببا فى حدوث عـــدة أزمات عرفتها دولتهم ·

ورغم ان عبد الباسط قد أهتم أهتماما كبيرا بتاريخ بنى عبد الواد حينما أقـــام بمملكتهم ورغم انفراده بذكر بعض الاحداث التاريخية ، فنحن لا يمكننا ان نقيس كتابه بالاركان الرئيسية لتاريخ بنى عبد الواد التى مر ذكرها · وذلك ان عبد الباسط لـم يضع كتابا فى تاريخ قطر من أقطار المغرب أو دولة من دولة ، وانما أرخ لكافة العـالم الاسلامى وعلى الخصوص مصر وسوريا كما سبقت الاشارة الى ذلك ، ويشمل هـــذا التاريخ العام أخبار المغرب التى كانت نتيجة مشاهداته الخاصة ونتيجة تحقيقه ، الا ان الاخبار التى اعتبرناها قليلة بالنسبة للاخبار الموجودة فى كتب أساطين التاريـــخ الزيانى قد امتازت بكونها روايات شاهد عيان أو على الاقل راو تثبت كل القرائـن نزاهتـــه ·

ولا تنحصر قيمة « الروض الباسم » فى مضمونه التاريخى البحت بل ان من أهم ما نجده بالكتاب المعلومات عن الاشخاص وعن العادات والتقاليد وعما يسمى اليـــوم بالاحداث اليومية والاحداث العامة ، فبالاضافة الى طرافتها أحيانا فان أكثر الاخبـار المروية ، وثائق مهمة عن الحياة الاجتماعية وعن سير الادارة وعن التجارة والاقتصـــاد بالمغرب الاوسط فى عهد بنى زيان ، وقد ذكرنا سابقا ان عبد الباسط رجل ذكى وعالم وأديب ، له فكر نقاد ، وله رغبة واضحة فى الاطـلاع على أحوال البلدان التى يزورها وعلى البلدان التى تجاورها أيضا ، كما ان له رغبة فى التعرف على رجالاتها مـن علماء وتجار وموظفين ، وحرصا على ايراد ما يجرى بها من احداث عامة يسردها بأسلوبـــه البسيط ، وعدم وجود مثل هذه المعلومات فى كتب التاريخ الاخرى الخاصة ببنى عبـد الواد أو التى خصصت قسما كبيرا لتدوين اخبارهم لا يزيد « الروض الباســـم فى حوادث العمر والتراجم » لعبد الباسط بن خليل ، الا قيمة وأهمية ·

مصـــادر البحـــث :

(1) المصـــادر العربيـــة

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) · ـ كتاب العبر · ـ بيروت ، 1956 ـ 1959 ·

ـ ابن خلدون (يحيى) • ـ بغية الرواد فى أخبار الملوك من بنى عبد الواد
ـ الجزائر ، 1903 ـ 1913 م •

ـ ابن مريم (محمد) • ـ البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان • ـ الجزائر ، 1326 هـ/1908 م •

ـ بوعياد (محمود) ـ مخطوطات لم تكتشف ، زهر البستان فى دولة بنى زيان فى فى الثقافة ، عدد 13 ، 1973 ، ص ص 55 ـ 66 •

ـ بوعياد (محمود) • ـ من آثارنا المغمورة ، بغية الرواد فى اخبار بنى عبد الـواد ليحيى بن خلدون ، فى الاصالة ، عدد 13 ، 1973 ، ص ص 213 ـ 222 •

ـ التنسى (محمد بن عبد الله) • ـ نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان • ـ (مخطوط) •

ـ الزركشى (عبد الله) • ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصيـــة • ـ تونس ، 1289 هـ •

ـ الزركلى (خير الدين) • ـ الاعلام • ـ من دون ذكر مكان النشر ولا التاريخ •

ـ زهر البستان فى دولة بنى زيان لمؤلف مجهول • ـ (مخطوط) •

ـ السخاوى (محمد) • ـ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع • ـ بيروت ، من دون تاريـــخ •

ـ عنان (محمد عبد الله) • ـ رواية مصرية عن المغرب والاندلس فى « مجلـــة معهد الدراسات الاسلامية » بمدريد ، 1970 ، ص ص 95 ـ 111 •

ـ كراتشكوفسكى (اغناطيوس) • ـ تاريخ الادب الجغرافى العربى • ـ القاهرة 1957 •

(2) المراجـــع الاجنبيـــة

Brunschvig (Robert). - Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle... - Paris, 1936.

Al-Andalus, 1933, pp. 307-334

الوزير الزياني في الجزائر العاصمة
ووصفه للجامع الجديد

تقديم : م • **بالحميسي**
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

دخل أبو القاسم بن أحمد الزياني (1) المغرب الاوسط بعد فشل مهمة بوجدة كلفه بها السلطان العلوى سليمان فاقام بوهران لدى الباى محمد الكبير وذلك غداة تحرير المدينة من الاحتلال الاسبانى (1792) ثم انتقل الى تلمسان حيث مكث 8 اشهرا ثم شرع فى الرحلة الثانية الى اصطنبول على حسابه الخاص سنة 1793 • وفى الذهاب مر الوزير بالعاصمة واصفا اقامته القصيرة قائلا :

من أخبار المدينة

« ولما بلغنا لمدينة الجزائر وجدنا الوباء بها خفيفا (3) فنزلت خارجها وبنيت

مضاربي ووجهت من حاشيتي من يأتيني باللوازم من لحم وحطب وعلف دواب فما رجع الا وأنا مصاب بالحمى ...

ولما كان يوم الجمعة لم أجد بدا من الدخول الى صلاتها فركبت الى المسجد فصليتها وانحدرت الى المرسى لرؤية المراكب وآلتها وتحقيق خبرها بالمشاهدة فجاءني بعض الاحبة من أهل فاس والزموني بالنزول عندهم فامتنعت ... ومن الغد جاءوني وفي جملتهم قاضي البلد الفقيه السيد محمد مالك ... فخرجت لملاقاته وجلس معنا وأنس وحشتنا وطلب منا النزول عنده فلم يمكنني ذلك ... (ثم) توجهت معه لداره وبتنا عنده وحضر معنا بعض اصدقائه من أهل الباشا كاتبه وحاجبه وصهره وتذاكرنا أحوال الدنيا وهمومها وما يؤول اليه حالها . وأقمت بالجزائر أربعة وعشرين يوما ... الى ان تهيأ لنا السفر فجاء الكاتب والحاجب والصهر والقاضي لوداعنا ومعهم صلة من حسن باشا (4) بواسطتهم دون شعوري وعلمي ومعهم تحف وحلاوات من دورهم للزاد وقالوا ان مولانا يقرأك السلام ويطلب منك الدعاء في الحرمين الشريفين ... وتوجهنا من الجزائر لقسنطينة ... (5) ثم واصل الزياني سفره الى المشرق ، فمن تركيا الى الشام الى الحجاز الى مصر . وفي طريق العودة مر على تونس ثم قسنطينة وانتهى به التجوال الى الجزائر العاصمة « بلا زاد ولا مال لا يملك درهما » واستقر بها رغم ذلك سبعة اشهر وهو ضيف على القاضي ابي عبد الله بن مالك . (6) مكرما معظما يقدم عليه صاحب القاضي « بمؤونة خناشي دقيق وأنىسمنا ومثلها خليعا وفحما » وكان القاضي كلما استقبله « حيى وبش وسأل عن الحال الذى يجده الانسان من عناء السفر وجاء بكيس فيه أربعين سلطانيا » دورو » ... فأقسم لتقبضها فاني أعرف أمور السفر خصوصا وانت فارغ اليد من أجل مالك في المركب الذى فيه رزقك » (7) .

الجامع الجديد

« وفي يوم الجمعة توجهت مع أصحاب لي حملوني على الصلاة في المسجد الجديد الذى أسسه حسن باشا . (8) بعد سفرنا للحجاز (9) واقام به الجمعة فدخلته وشاهدته وصلينا الجمعة وأخبروني بما انفق عليه من الاموال وما جلب له من أصناف الرخام

وماالمرمر وما اوقف عليه الرباع والضياع ما لا تسمح نفس أحد بانفاقه الا من وفقه الله » ٠

زيارة الوزير للجامع

« ومن الغد رجعت اليه منفردا وتأملته موضعا موضعا وميزت ما فيه من انواع الصنع واختلاف الاشكال ومناسبة الموضوعات من كل نوع الى أن أحصيت جميع اوضاعه وكأنه نصب عينى فى الغيبة وأنشأت فيه رسالة ولفقت أبياتا على قدر وسعى فى مدحه ومدح بانيه وتجزيته الخير على ما قام به من رسم معالم الدين واتباع سنن المهتدين وتطهير تلك البقعة التى كانت قبل ذلك « تبرنة » يباع بها الخمر ويجتمع بها الاشرار (١٥) وصيرها معبدا للمسلمين جلها الله فى ميزان حسناته وبلغه غاية أمنياته لا رب غيره ٠

رسالة فى مدح الباشا والمسجد

الحمد لله الذى خلق الانسان وعلمه البيان وألهم من أحب من الملوك فى الحديث والقديم الى سلوك السبيل القويم وحبب لهم أفعال الخير ليبلغوا بذلك الى القرار فى جنات النعيم ٠

وبعد ، فلما أراد الله جلت قدرته ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، رجعونا من الحرم الشريف ودخلونا لثغر الجزائر الشهير عن التعرف ، واقامتنا به للمانع الذى حصل ، والعذر الذى بسببه بعد عنا ما كان بأيدينا وانفصل ، كنت اجتمع مع أفراد من الاخيار ، وجماعة من العلماء الابرار ، وأتفاوض معهم فى سيرة سلطانهم الأعظم ، الماجد الأكرم ، حامى بيضة الاسلام وناصر سنة سيد الانام ، الذى قمع أهل الفكر وقادتهم بلارسن المنصور المؤيد السلطان حسن ، فذكروا لنا من أوصافه السنية ، وسيرته المرضية السنية ، ما ملأ منا الاسماع ، وقام عندنا مقام الاجماع ، أبقاه الله لحياطة هذه الامة وزاده غزا وحفظه من كل ءافة ونقمة ٠

فأردت أن أثبت ما سمعت من فضئله وان كنت لا أحصيها على التمام ، المشهورة عند الخاص والعام ، وأجعلها فى قرطاس طلبا للأجر والثواب ، واذا أحب الله عبدا ألهمه الى الصواب ، لترسم فى دفاتره وتوضع فى جملة ذخائره ، فانه حفظه الله من

أمراء العدل ، ومن أهل المروءة والفضل ، لما جلس على كرسى « الخلافة » السعيد سوى بين القريب والبعيد ، وانتصف للمظلوم من الظالم ، وأعز المسكين والشريف والعالم ، وقمع أهل الزيغ (12) والفساد ، وكف عاديتهم فى كل بلاد ، وأجرى أحكامه على القانون الشرعى، والمذهب الحنفى الموعى ، وأجرى الصدقات على الفقراء والايتام ، والمعونة لاهل الحرمين فى كل عام ، فشمل عدله الرعايا سهلا وجبلا ، وشاعت مكارمه أفرادا وجملا ، ثم حصن ثغور المسلمين بالصقائل والابراج ، وعمره ابالمدافع والمهازر على طبقات تحاكى الادراج وملأ خزائن الثغور بالبارود « والكور » « والبحب » والسلاح، من المكاحل والسيوف والاسنة والرماح ، وأكثر من الجوارى المنشآت فى البحر كالاعلام (13) ، وشحنها بكل عساكر الاسلام ، للتضييق على أعداء الدين برا وبحرا ، زاده الله عزا ونصرا ، الى أن صير أجناسهم تحت الغلبة والفقر ، ووفدوا على اعتابه صاغرين من كل قطر يطلبون مهادنته (14) على ما يطلب من الاموال ، والكون عند أمره فى الاقوال والافعال ، فوظف على كل جنس منهم ضريبة يؤديها فى كل عام كالجزية ، ولا يسرح أسراهم الا بضعاف المسلمين فى الفدية ، وفى كل سنة يأتونه بالهدايا (15) والوظائف ، ابقاه الله محفوظا ، وبعين عنايته ملحوظا ، ثم صرف همته لجهاد مدينة وهران واخلائها من عبدة الصليب أهل الضلال والخسران ، ووجه لها عساكره رجالا وركبانا ، وأمدهم بالقبائل عجما وعبانا ، ووجه معهم والمهازر وآلة الحرب ، وبكل ما ينفع والضرب ونزلت عليهم العسكر من كل جانب ، وكلهم للشهادة طالب راغب ، وحاربوهم حرب المهاجرين والانصار ، ووقع بالفكرة ما لم يوقع بمصر من الامصار ، الى أن صار البلد عليهم دكا ، وحديث خلاصهم افكا ، فطلبوا الامان لانفسهم على أن يسلموا البلاد ، ولا يحملون الا نساءهم والاولاد ، فأنعم لهم بذلك ووفى ، وقرأ عليهم حسبى الله وكفى ، فأما عظم هذا الفتح الذى لم يحصل لملك من الملوك ، وحصل به السرور للغنى والصعلوك وشاع فى بلاد الكفر والاسلام وتحدث به أهل اليمن والعراق وخراسان ومصر والشام ، ورفع له المسلمون أيديهم فى المشرق والمغرب يدعون له بالعز كل أعجمى ومعرب فالله يطيل سعادته ، ويديم مجادته (16) · ثم وجه نظره فى فكاك أسرى المسلمين من جميع ايالة الكفار والبحث عنهم فى القرى والامصار ، قاصدا بذلك وجه الله وابتغاء مرضاته، عملا بقول نبينا عليه من الله أفضل صلواته « من فك أسيرا من يدى الكفار حرم الله

جسده من النار » وجازاه الله في الآخرة بالحور العين وأسكنه في الغرف التي في أعلا العليين .

عزم الباشا على بناء المسجد :

ثم ألهمه الى تطهير بقعة كانت بقرب دار الخلافة مجمعا للاشرار ، ويباع بها الخمر للكفار . فاشتراها وما حواليها بمال مأتبر ، وصير عاليها سافلها وما تأتي في ذلك صبر ، صيرها مسجدا جامعا للاسلام ، ومعبدا لاهل الخير والدين والعلماء الاعلام ، وانفق عليه من الاموال مالا تسمح نفس بانفاقه ، وعمره بالحلال الذى هو من خالص أرزاقه .

وصف المسجد :

ورتب فيه أهل الهندسة و « الفلسفة » من كل صنعة واتقنوا بناءه سعة ورفعة وجعل أسفل هذا المسجد دكاكين وقهاوى وأوقفها على هذا المسجد المذكور ، الذى ادخره ليوم البعث والنشر ، وحقق قبلة هذا المسجد أهل العلم والفتوى ، وأوقف على عماراته من لا شك أنه من أهل الخير والتقوى ، وجمع له أنواع المرمر والرخام ، من بلاد الاتراك والاروام ، من كل قائم ومبسوط ، ومربع ومخروط ، ومدرج ومشجر ومنقوش ومسطر وخدود وقدود وقيام وقعود ، وأعتاب وأبواب ، وخصص ومحراب ، وفي وسطه قبة عظيمة مرتفعة في الفلك يفزع من لمعان أنوارها في البحر المسك قائمة على سوارى كالصدارى مجردات عوارى كالجوارى ، يحاكين في بياض اللون ، البرد النازل من الكون ، كأنهن في القيام حور مقصورات في الخيام ، وجعل لهذه القبة سراجيب بأنواع البلور الذى لم ير في عصر من العصور يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ودار بهذه القبة قبب على شكل منمق ، كأنهن جدول موفق ، من ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي وسداسي وسباعي ومقربص ومشجر وقاطع ومقطوع ومسطر ، وداخل وخارج وبخاريات ، وقصاعي وانصاف ترنجيات وفوق ذلك من الاسباغ كل لون غريب ، بتدبير أهل الحل والعقد والتجريب ، وكتبوا أسماء الله وآياته ، وانبيائه وخلفائه ، تعظيما بالذهب الابريز الصيان وليس الخبر كالعيان ، وأدار بهذه القبة « شدورانا » من العود مموه بأنواع الاطلية الفائقة بالالوان ، يصلي فيه الامراء والاجناد وأعيان الديوان عليه « اوداع »

وازهار وأغصان وثمار واطيار ، وأمامه كشـــك يجلس به المؤذنون وأهل الالحـــان والقراءات ، ومن له وظيف بالمسجد كالموقت والراوى لحديث الانصات ، وجعل لهـذا المسجد منبرا من الرخـــام الشفاف ، مؤلف من سبعـــة أصناف ، من مرمر وجزع ، وزبرجد وودع ، وفيروزج وفاروز ، كأنه اللواء المشروز أبدع فيه كل خارط صنعة الخرط وكل ناقش زاد على الشرط ، وكل مسطر حقق ما سطر ، وكل مشجر أبدع فيما شجر ، فهو كالامير والتاج على رأسه والكل في خدمته وأنسه ، وكسا جدرانه بالزليج والقرفرى والصينى ، وفوقه الجبص الفائق المعدنى ، وجأل فى كل جهة رواشن تسطع منها الانوار مضيئات ، وسلاسل مموهة للقنادل والثريات ، وجعل تحت كل روشن ساعة على كرسى كالعروس ، يطرب لسماعها جوامح النفوس ، فجاز بلطافة شكله ضخامة المساجـــد والمدارس وجاز برقة صنعته أنوار الزارع والفارس ، فلو رأته السليمانية بالقسنطينية لسلبها ، ولو كلمته « اية صوفية » ما أجابها ، ولو قابله الجامع الازهر ، لتعجب مـــن حسنة وانبهر ، ولو ناظرته مساجد الشام وحلب ، لاعترفوا بفضله وأقـروا بالغلب ، ولو سمعت بتشييده بيعة الاشبونة لتهدمت ولو شاهدته كنيسة رومة العظمى لا سلمت فنزهت طرفى فى رياض أزهاره وأنواره واستعملت فكرى فى معارف شموسه وأقماره وتحققت بسيادة بانيه وتيقنت ان السعادة والكرامة تحف به وتدانيه ، وداخلنى مـــن القشعريرة والحسية ما أنطلقنى الله بما يتقبله من الادعية ، وعلمت ان معمره ممـــن أصلحهم الله وسرهم ، وان لله رجالا لو اقسموا على الله لابرهم فأجابنى المسجد بلسان الحال وأنشد وقال :

طهـر ثيابـك وأحســن الوضــوء ولا	تنس التحيــة ان شاهـدت أسرارى
وامعـن قبتى واقصــد الى قبلتـــى	وسرح الطـرف فى ريـاض وأزهـارى
واحرم وقف واركعن واسجد لرب الورى	وادع لمـــن صـــاننى وحـــط أوزارى
وابـرزنى لوجـود العـز من عـــدم	فهـو روحـى ومسمعـى وابصـــارى
صـــيرنى مسجـــدا للـــه عمـــرنى	بالـــذكر ذاك الذى عمـر مقـــدارى
امهـــر مـــولاى اكياسا بـلا عـــدد	فى زينـة لـــيرى حسنـى وانـوارى
اقام فى خدمتى حـــورا عـلى ســـراد	هن شمـوسى وان أمسى فاقمـــارى

أنسني بخوان مطربات فما — ينمن من شغفي يرصدن أنذاري
طوقني بسياج العز مبتهجا — بكل نوع من الازهار معطاري
توجني التاج والاكليل منتظما — من اليواقيت أقراطي وأزراري
وكل حليي واكؤس منضدة — وكل فرشي وما تحتي وأستاري
وزاد في المهر أملاكا معينة — لمن يقوم بخدمتي وأوطاري
فمن يجود بما سطرت محتسبا — الا التقي الزكي الاسد الضاري
حامي لواء الرسول المصطفى ، حسن — فخر الملوك رعاه مولانا الباري

1 ـ هو أبو القاسم بن أحمد بن على المعروف بالزيانى . وهو وزير ومؤرخ ورحاله ، ونه بفاس سنه 1147 هـ/1734 م . ودرس بها ثم تقلب بين أسفار خارج المغرب وبين المناصب العليا أيام السلطان المولى عبد الله وابنه محمد وحفيده سليمان الى ان توفى فى رجب 1249 / نوفمبر 1833 .

ومن بين مؤلفاته العديدة « الترجمانة الكبرى التى جمعت اخبار مدن العالم برا وبحرا » ومنها نقتبس هذه الصفحات .

2 ـ كان السلطان محمد بن عبد الله قد كلفه بحمل رسائل وهدايا الى السلطان العثمانى عبد الحميد (1725 ـ 1789) وكانت الرحلة الاولى فى حدود 1200 هـ/1786 م /

3 ـ لم نعثر قط على ما يشير الى أى وباء بالجزائر العاصمة فى تلك السنة ولم يذكره :

H. De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination Turque.

Venture de Paradis, Alger au XVIII[e]

4 ـ حسن باشا داى الجزائر من جوليت 1791 الى مايو 1798 ثم خلفه داى مصطفى .

5 ـ « الترجمانة الكبرى » تحقيق عبد الكريم الفيلالى 1967 ص 151 .

6 ـ تذكر بعض المصادر أن محمد ابن مالك هذا مفتى مالكى لاقاض وتولى الافتاء من سنة 1210 الى 1214 هـ/1795 الى 1800 م .

الحفناوى : « تعريف الخلف برجال السلف » ج 11 ص 474 .

J. Gonzalez : Essai chronologique sur les musulmans célèbres de la ville d'Alger. Alger 1887 - pp. 63-64.

A. Devoulx : Les édifices religieux de l'ancien Alger. Alger 1870 - p. 118.

7 ـ الترجمانة الكبرى ص 374 ـ 375 .

8 ـ هذا خطا لان المسجد الجديد بنى سنة 1660/1070 وأشرفت الميليشيا التركية على تشييده من أموال المؤسسة المعروفة « بسبل الخيرات » وكانت لصالح الحنفيين .

واما المسجد الذى بناه حسن باشا سنة 1794/1209 فهو جامع كتشاوة ولم يبن غيره طيلة وجـوده عـلى راس الايـالة .

ر ا جـــــع :

A. Devoulx : Les Edifices religieux de l'ancien Alger. Alger 1870 - pp. 132-149.

H. Klein ; Feuillets d'El-Djezair. Alger S.D. pp. 153-154.

G. Marçais ; Manuel d'art musulman, Tome II - pp. 789-792.

9 ـ سنة 1793/1208 م .

10 ـ المعروف ان الجامع الجديد أسس مكان المدرسة « البوعنانية » مما يؤكد مرة ثانية ان الزيانى يقصد جامع كتشـاوى ...

11 ـ ساحتـــه .

12 ـ الميل عن الحـق .

13 ـ اقتباس من سورة الرحمن ، آية 24 .

14 ـ الجدير بالذكر ان محاصرة وهران من طرف الباى محمد الكبير دفعت بملك اسبانيا شارل الرابـــع الى الدخول فى مفاوضات مع الداى حسن من اجل مغادرة المدينة وابرام معاهدة (سبتمبر 1791)

وعندما اندلعت الحرب بين فرنسا وانكلترا حاول الانكليز الحصول على تأييد من الداى لصالحهم .

15 ـ نذكر من بينها ما قدمته « وكالة افريقية » L'Agence d'Afrique الفرنسية .

16 ـ وعن تحرير وهران على يد الباى محمد الكبير سنة 1791 وما جـــرى بها من الحوادث قبيل طـــرد الاسبان المحتلين يراجع القارىء الكريم دراستنا بمجلة تاريخ المغرب وحضارته عدد 11 .

عبد الملك بن مروان

أصالة عربية إسلامية في قيادة الدولة

د. ليلى الصباغ
كلية الآداب - جامعة دمشق

يعيش العالم العربي اليوم حركية فعالة لاعادة خلق ذاتـه والاسهام ايجابيا في بنى الحضارة الانسانية . ومهما كانت تجارب الحاضر غنية بقوى الابداع فانها لابد لها من ان تتغذى من نسـغ الماضي وترتبط بمقومات اصالته الخلاقية : فلا شيء يعين الحاضر على دفع خطواته باقدام وروى واضحة وثبات نحو المستقبل بقدر ما يفعل تمثل الماضي وتجسده في الذات ، ومن هنا كانت القيمة الكبرى للتاريخ في ميـدان البناء الايجابي والمتواصل للامـة .

وصفحة التاريخ التى سنستعرضها اليوم معا بعيدة عنا بما يقارب ثلاثة عشر قرنا وربع ، ومع ذلك فهى لا تبد وباهتة وانما نابضة بالحياة والحركة : فلقد أحياها الواقع الذى نعيش فيه وأخرجها من بعدها (الورقى) المحـدود الذى سطـرت فيه احرفا وكلمات ، ليعطيها أبعادها الكاملة ويعيد اليها تحركها الخصيب والمتفاعل مـع أحداث

الحاضر . وبذلك بدت ضاغطة بكل الوانها على الذات العربية وكانها حدث اليوم لا واقعة الامس . واذا ما أريد اعطاء تلك الصفحة التاريخية عنوانا يلخص ما ورد فيها لكان ذلك العنوان : (دعم بناء الدولة العربية الاسلامية الواحدة لتصبح قادرة على متابعة حمل الرسالة الانسانية التى أتى بها النبى العربى بكل اصالتها وبكامل قيمها) .

والصورة التى تبرزها الصفحة التاريخية هذه ليست صورة عمر بن الخطاب أو عهد الخلفاء الراشدين أو معاوية بن ابى سفيان كما قد يتبادر الى الذهن : ان من المعروف ان كلا من هؤلاء قد أرسى حجرا ضخما فى بناء الدولة العربية الاسلامية . وانما الصورة هى لعهد عبد الملك بن مروان . وللتفاعل الخصب الذى تم بين الشعب العربى المسلم وامانيه وبين السلطة الحاكمة . وربما تبدو الصورة فى بعض تفصيلات احداثها غير منسجمة تماما مع عديد من المثل الانسانية التى ترضى النفس المسلمة الفردية الخيرة . اذ ان بعض الخطوط فيها قاسية . وبعض الالوان صارخة . ولكن مهما قيل فيها فهى لوحة واقعية حية وجميلة لبناء دولة قومية بناء واقعيا وثوريا عقلانيا – بتعبير الحاضر – بكل ما فى هذا الواقع من تناقضات القبح والجمال .

ان عبد الملك بن مروان هو الخليفة الخامس فى التعداد العام لخلفاء بنى أمية . وهو الثانى من السلالة المروانية . وقد استلم الحكم بعد أبيه مروان بن الحكم فى عام 65 هـ / 684 م . واستقام على الملك واحدا وعشرين عاما اى ما يقارب ربع قرن من الزمن . ولقد عجت باخبار خلافته الطويلة وأعماله العديدة كتب التاريخ الاسلامى . ما دون منها فى العصور السالفة او ما ألف حديثا . وعلى الرغم من اختلاف بعضها فى تقويم بعض تصرفاته فانها كلها متفقة فى الافاضة بعلم هذا الخليفة وثقافته . وفقهه . وأدبه وشعره . حتى أنه كان يعد رابع ثلاثة فقهاء فحول فى المدينة هم سعيد بن المسيب . وعروة بن الزبير . وقبيصة بن ذويب . ولقد قال عنه الشعبى : (ما جالست احدا الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك . فانى ما ذاكرته حديثا الا زادنى فيه ولا شعرا الا زادنى فيه) . كما ان كتب التاريخ قد اجمعت على عزمه وحزمه فى تطبيق ما يؤمن به . وعلى معرفته بطبائع البشر وانحرافات خلقهم . ووقوفه مقوما بشدة ما يراه منها . فقد روى عنه المسعودى ان بعض جلسائه طلب الخلوة اليه يوما فأجابه الى طلبه قائلا :

« بشرط ثلاث خصال ، لا تطر نفسي عندى فانا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندى احدا فلست اسمع منك ، ولا تكذ بني فلا رأى لمكذب ... » فاستاذن الجليس منه وانصرف .

ومما لاشك فيه ان ثقافته الواسعة ، وتفهمه لاحكام الدين الاسلامي واعماق قيمه ، قد ساعداه على توسيع ساحة رؤياه ، وايضاح معالم الطريق الذى عليه ان يسلكه فى استكمال بناء الدولة العربية الاسلامية ، كما أملى عليه عقلـه المنظم ورؤاه الواضحة مخطط عمل جلى الخطوط لم يسبقه اليه أحد فى تكامله . فلقد رسم عبد الملك فى هذا المخطط بثاقب فكر حكيم وبعد نظر غريب ثلاثة أبعاد رئيسية ترتكز عليها الـدولة العربية الاسلامية ولا تقوم متماسكة الا بها : أولها بعد سياسى حربى دعامته الجيش الذى كان عليه ان يتحرك بحسب ما تمليه سياسة الدولة : أى للحفاظ على كيان الامة ووحدتها ، ولحفظ الرسالة الاسلامية ونشرها ، ولتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها . كما كان عليه أنّ يتحرك بالسرعة التى تقتضيها الظروف وتلك السياسة ، وبالكم العددى الملائم والاستعدادات الكاملة . فلهذا الغرض فرض الخدمة الاجبارية على ابناء العـرب المسلمين . واستعان بقادة لهذا الجيش حازمين وقادرين على تعبئتـه بسرعة وتوجيهه كالصاعقة الى الهدف المنشود . ولقد استشارت تحركات الجيش العربى المسلم هـذه المؤرخين العرب فاستفاضوا فى وصف معاركها وأحداثها كعادة مؤرخى ذاك الـزمن الذين كانت تهزهم أحداث الحرب والطعان أكثر من غيرها .

واذا كان هذا البعد الحربى ـ السياسى بمعظم الدوائر التى تفرعت عنه قد سبـق عبد الملك اليه الخلفاء قبله ولم يفعـل هو سوى أنه أضـاف بعض الجديد فان البعدين الآخرين كانا بعدين جديدين كل الجدة فى التمكين للدولة العربية الاسلامية : وأحدهما البعد الثقافى العربى ، وثانيهما البعـد الاقتصادى العربى . وهنا نـرى ان حديث المؤرخين المسلمين قد جاء احيانا مقتضبا ولا سيما فى البعد الثقافى ، وكأننى ببعضهم لم يدرك مداه وعمق نتائجه لانه عاش فيه واقعا فقصر فى التعبير عنه اذ رآه بعدا طبيعيا ولقد وازن عبدُ الملك بين الابعاد الثلاثة فجعلها تتعاون فيما بينها وتتفاعل ، ويخـدم كل واحد منها الآخر ويدعمه ، حتى بدت الدولة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . واعتمد عبد الملك ، فى تنفيذ هذا المخطط الشامل على حيوية الشعب العـربى التـى بعثتها الرسالة الاسلامية دفاقة كالشلال المعطاه ·

أما منجزات البعد الحربى ، فكل مهتم بشؤون الحرب يدرسها بــدقة وامعان لان فيها من الكر والفر وحسن تصريف الامور العسكرية الشىء الكثير ، لا كعمليات حربية تفصيلية وترتيب نزال فحسب وانما كتوجيه للتحركات الحربية يثبت قدرة وبراعة فى التكتيك . ولن ندخل فى اطارها تفصيلا ولكن نمر على خطوطها الكبـــرى ومنجزاتها سريعا لتفاعلها مع الوجه السياسى والثقافى الاقتصادى ، ومع المفهوم الشامل العام الذى كونه عبد الملك عن الدولة العربية الاسلامية الواحدة ومقوماتها .

فقد وصل عبد الملك بن مروان الى الخلافة وقد عادت العصبية القبلية التى دأب الرسول الكريم عليه السلام على اخمادها ، تنبر بقرنها وتمزق وحدة الامـة العربية ، والمطامع الشخصية التى استغلت الخلافات المذهبية والعواطف الشعبية تكتل المسلمين فئات واحزابا متنافرة تطالب كلها بالحكم والخلافة ، لانها أحق على زعمها من الامويين بها : فهناك شيعة على بن أبى طالب وكانت ثلاث فئات التوابين والسبئية ثم جماعة المختار ابن أبى عبيد الثقفى (التى سينجم عنها الكيسانية) ، وهناك الموالون لعبد الله ابن الزبير الذى ثار فى الحجاز ومد سلطانه الى العراق وبقاع أخرى ، وأخيرا الخوارج ، هذا بالاضافة الى تمردات فردية ومحلية عديدة .

والى جانب هذا الانقسام الداخلى المروع كان (الروم) فى شمالى بلاد الشام وفى شمالى افريقيا ، يتسللون بدسائسهم الى صفوف السكان ويثيرون نفـــوس الطامحين منهم ويحرضونهم على الثورة ، لتعود السيطرة لهم بعد ان كانت البلاد قد حررت مـن عبوديتهم وسلطانهم ، مستغلين فى ذلك الاوضاع الداخلية المرتبكة .

ويصور المؤرخ المسعودى فى كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) النذر المهددة للامة العربية الاسلامية عند استلام عبد الملك بن مروان الحكـم تصويرا يوضح – وان كان لا يدقق تاريخيا – ثقل الاحداث وضغوطها على الخليفة الجديد فيقول : « ان عبـد الملك سار فى عام 66 هـ – أى بعد عام من قبضه على السلطة – على رأس الجنود الشامية لقتال المختار بن أبى عبيد الثقفى بالكوفة – وكان متـــزعم الشيعة – وبينما هو فى الطريق أتاه فى احدى الليالى خبر مقتل قائده الذى سبقه لقتال المختار وهو عبيـد الله بن زياد ، وانهزام جنده • وأتاه فى تلك الليلة أيضا نبـأ مقتل القائد الذى كـان قد سيره لحرب عبد الله بن الزبير بالمدينة ، ثم جاء خبر دخول الموالين لابن الزبير أرض

فلسطين ولحاق أخيه مصعب بهم ، ثم جاءه خبر مسير امبراطور الروم ونزوله (المصيصة) – وهي على حدود بلاد الشام الشمالية – في طريقه الى الشام ، ثم جاءه ان عبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها وأن المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه ، وان خيل الاعراب أغارب على حمص وبعلبك وغيرهما الى ما هنالك من أخبار السوء التي تذهب بعقل الحليم تبعث فى النفس اليأس والقنوط » .

ولكن عبد الملك لم تربكه تلك الاحداث الجسام ، فالبعد السياسى الحربى للدولة واضح فى ذهنه ، فقد كان يدرك ان عبد الله بن الزبير سيحاول بوساطة أخيه مصعب ان يستعيد نفوذه فى العراق من المختار ، ولذا ترك الامر له ليصفيه . وفعلا فان مصعب تمكن من قتل المختار واعادة سلطان أخيه على العراق ، وبذلك ابتلع ثائر ثائرا وعبد الملك يراقب . وعندما خرج بنفسه ليقضى على حركة ابن الزبير فى العراق ثار عليه فى دمشق عاصمة ملكه عمرو بن سعيد وكان مرشحا لولاية العهد ، وأخذ البيعة لنفسه من الاهالى . فارتد عبد الملك على اعقابه واتبع هذه المرة سياسة الملاينة والمحاورة حتى سلمه عمرو بن سعيد نفسه ، الا ان عبد الملك لم يمهله طويلا اذ دبر قتله . وكما اتبع سلاح السياسة مع هذا الخصم فانه طبقه مع أهل الأراق ، واستطاع بالحرب والسياسة معا ان يفض الناس من حول مصعب بن الزبير وان يقضى عليه على الرغم من افانين البطولة والشجاعة التى أظهرها هذا الاخير .

وبعد ان استتب الامر لعبد الملك فى العراق وجه بصره الى الحجاز ، وامره مع عبد الله بن الزبير أو بالاحرى أمر قائده (الحجاج بن يوسف الثقفى) فى اخماد ثورة الحجاز معروف ومشهور لما أصاب الكعبة الشريفة من ضربات منجنيقه وما عاناه اهل مكة من حصاره ... وانتهى الامر بمقتل عبد الله بن الزبير ورضوخ الحجاز لخلافة عبد الملك .

واستفاد من هذا الصراع الداخلى القائم الخوارج فادلوا هم الآخرون بدلوهم فيه وشرعوا يشنون حملات متفرقة على جنوب فارس والعراق وفى الجزيرة الا أنه كانت تنقصهم وحدة الكلمة فسلط عبد الملك عليهم سيفه الحجاج فاستطاع هذا الاخيران يستعين عليهم (بالمهلب بن أبى صفره) ويفتت شملهم ويقضى على تجمعاتهم .

واذا كان عبد الملك بن مروان قد تمكن بمقدرته وتجاوب الشعب معـــه ، وبمهارة قواده ان يقبض على زمام الموقف وان يخمد تلك التحركات الداخلية الخطيرة لا على ملكه وملك بنى أمية فحسب وانما على وحدة الامة العربية الاسلامية وكيان الدولة الواحدة كله ، فانه استطاع كذلك ان يجعـل الدولة تقف وحدة متراصة وكالطود الشامخ فى وجه الحركات الخارجية التى استغلت انشغالاته العديدة وتوزع قواه لتمارس ضغوطها الحربية على الحدود الشمالية والغربية للدولة العربية الاسلامية . والذى يلفت النظـر فى سياسة عبد الملك سرعة الحركة وشمولها : فهو لا ينتظر اخماد حركة ليقضى عـلى أخرى وانما يحاول ان يحرك الخيوط كلها معا ، بعضها حركة مداعبة وأخرى حركـــة اهتزاز وثالثها حركة عنيفة . فالفتنة مشتعلة فى بلاد الشام بينه وبين عمرو بن سعيد ، وملتهبة فى الحجاز والعراق بينه وبين ابن الزبير ، اذا بالقوم الذين يسمون بالجراجمة او المردة ــ وهم قوم من نصارى بلاد الشام كانوا يقيمون قرب انطاكية ويمتدون حتى الجنوب ــ يقومون بتحرك مسلح مدعم من امبراطور الروم ، وينزلون سهل البقـــاع ويغزون جبال لبنان الشرقية ، ويشنون حملاتهم على الحجيج ويفسدون فى الارض . ولما كان عبد الملك فى محنة حقيقية فانه اتخذ حركة خيط لينة ، وقبل المفاوضة مع امبراطور الروم لايقاف تلك الغزوات بل وجدد الهدنة معه على أن يدفع له مالا ويكف الجراجمة عن أعمالهم العدوانية ... الا انه عندما صفاله الجو بعث اليهم بجيشه ففتك بهم .

ومثلما أثار امبراطور الروم الجراجمة فى بلاد الشام ، فانه فعل مع بعض سكان شمالى افريقية من الامازيغ : فقبل وصول عبد الملك الى الخلافة تزعم (كسيلة) حركة تمرد منهم ضد العرب المسلمين وفتك بجيش عقبة بن نافع وأرداه قتيلا ، وزحف على القيروان وسيطر عليها ، وبدا وكأن حكم العرب والاسلام فى افريقيا قد انتهى . ولكن لما تم الامر لعبد الملك ، وكان قد اشترك يوما فى فتوح العواصم فى شمالى افريقيا ، فانه أمد أميره فى برقة زهير بن قيس البلوى ــ وكان من قواد عقبة المجربين بجيش لجب ، وقد تمكن هذا الاخير بعد معارك مظفرة من القضاء على كسيلة ومن دخـــول القيروان ، وبعث بفرق من جيشه الى مختلف البقاع المجاورة ليعيدها الى الحكم الاسلامى . فانتهز الروم فرصة تبعثر الجيش هذا ونزلوا على الساحل الافريقى عند قرطاجنة ، واستولوا على برقة وطرابلس وسقط زهير شهيدا فى المعركة .

ومع ان عبد الملك لم يكن قد انتهى بعد من ثورة ابن الزبير وذيولها نهائيا فانه شعر بان انتصار الروم فى شمالى افريقيا مع بعض أعوانهم من سكان البلاد خطر ضخم على الدولة العربية الاسلامية ولذا فانه بعث بقائده (حسان بن النعمان) عام 73 هـ مع جيش كبير ، فدخل بعزم قرطاجنة واستولى على القيروان ثانية ، وهزم الروم واحلافهم ، ووطد للدولة الاسلامية فى افريقيا ، وقضى على تمرد (الكاهنة) فى جبال الاوراس ، واستقبله الاهالى استقبال المنقذ ، واندفعوا لاعتناق الدين الاسلامى ، بل وانخرطوا منذ ذاك الوقت فى جيش المسلمين ليحاربوا الى جوارهم الروم فى بقية انحاء شمالى افريقيا وليفتحوا معا اسبانيا ، وليلتحموا فى جهاد تحريرى مقدس تنتشر فيه القيم الاسلامية ومبادىء الرسالة فى العدل والحرية والمساواة .

فعبد الملك بن مروان فى صراعاته الحربية تلك التى كانت اداته فيها جيش العرب المسلمين المتماسك ، وفى منحى الحزم بل الشدة والقسوة احيانا فى قمع تلك التمزقات فى كيان الامة الواحدة والدولة الواحدة ، والتى ترسم فى لوحة دعم الدولة الاسلامية تلك الخطوط العنيفة الدامية وبعض الظلال المعتمة ، كان يؤمن دون مواربة ان الاسلام رسالة تنشد الوحدة السياسة وتعمل على تكوين مثل وقيم موحدة راسخة ، وأنها لتشع على العالم مثلا اجتماعية بناءة وخلاقة لابد لها من دولة واحدة محكمة البناء وذات أصالة مرتبطة بأصالة الرسالة ذاتها . ويبدو ان الجيش الذى سيره لتحقيق تلك الوحدة أو بتعبير آخر الشعب العربى المسلم ممثلا عسكريا ـ قد تجاوب معه تجاوبا كاملا ، لان العاملين فيه كانوا يؤمنون بما آمن به عبد الملك ، أى بضرورة الابقاء على تلك الوحدة التى هى الثمرة الكبرى من ثمرات الاسلام ، بأى ثمن .

ولم يكتف عبد الملك فى الواقع عبر الجيش ان يلم شمل الامة الميمزق وان يراب صدوعها فحسب وانما وضع للجيش الاسلامى مهمة أخرى وهى تحرير الشعوب المغلوبة وبث القيم الاجتماعية المثالية الجديدة التى أتى بها الاسلام وترسيخها فعليا وعمليا . ولهذا أعاد لحركة الفتوحات التى تلكات قليلا حيويتها الاولى : فامتد شرقا فى سجستان وتوغل المسلمون فى المنطقة القريبة من كابل فى افغانستان الحالية ، وبدأ مدا دفاقا فى شمالى افريقيا سيتابعه خليفته الوليد بحركة وثابة . وهو اذ أعاد للفتوحات الاسلامية اندفاعتها الاولى كان يعتقد أنها تعبير حى عن وحدة الامة الاسلامية ومجال

لتفتيق طاقاتها : فالفتوحات رصت الصفوف فى مجهود مشترك واسع لتحقيق هدف سام ، واشعرت الشعب العربى بمسؤوليته العالمية الانسانية ومن ثم بذاته الحاملة لرسالة سماوية خلاقة . ومن المعروف ان الفتوحات الاسلامية ـ مهما تقول المؤرخون والمستشرقون حول دوافعها ـ لم تتخذ لها يوما ديدنا فرض العقيدة الدينية بالقوة والعنف ، بل حملت تلك العقيدة وقيمها الى الشعوب عملا خيرا ، وحكما عادلا وتسامحا وحبا ، وتركت لها بعد ذلك ان تختار العقيدة التى ترتضيها . وهذه الحرية الدينية التى كفلها الاسلام للشعوب هى التى جذبتها اليه فاعتنقته طائعة ، واتخذت لغته العربية لغة لها باختيارها الحر البحث بل واندمجت مع العرب المسلمين كليا ، وزودت المد العربى الاسلامى بطاقة جديدة متفجرة كانت لا تخبو الا لتعاود الاشتعال وتضى بالاسلام وللاسلام أرضا جديدة وأناسا آخرين .

الا ان عبد الملك بشمول نظرته فى بناء الدولة العربية الاسلامية الواحدة رأى ان البعد الحربى بكل أهدافه لا يكفى وحده لترسيخ قدم هذه الدولة بل يجب ان يدعم ذلك البعد ببعد يشد أزره ويحميه ويعمق أثره وهو البعد الثقافى . ويعنى هذا البعد فى خطوطه العريضة اشعاع الرسالة الاسلامية بأصالتها العربية ، ولسانها العربى أى كما أوحيت للرسول عليه السلام صافية « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . وهذا الاشعاع لن يتم عبر الفتوحات فقط وانما يجب ان ترافقها حركة تعريب شاملة تسود فيها اللغة العربية مرافق الحياة كلها حتى تدرك الرسالة الاسلامية بكل أعماقها ومفهوماتها ، وتصل الى جميع الناس بأصالتها دون تحريف الاعاجم أو عوج اللفظ . وهذا هو العمل الابداعى الحق الذى اختطه عبد الملك ونفذه وتابعه خلفاؤه من بعده . وكأنى بابن خلدون وهو يتكلم فى مقدمته عن أصحاب السيف والقلم وقيمتهم فى الدول كان يحكم على مخطط عبد الملك هذا . فقد قال ابن خلدون : (اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره ، الا ان الحاجة فى أول الدولة الى السيف ما دام أهلها فى تمهيد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم ... وكذلك فى آخر الدولة ... وأما فى وسط الدولة فيستغنى صاحبها بعض الشىء عن السيف لانه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا فى تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام ، والقلم هو المعين له فى ذلك ...) ولعل بن خلدون سها عن القول

بان ذاك القلم يجب ان يكتب بلغة صاحبه حتى يكون المبنى أصلب . وهكذا ابتدأ عبد الملك حركته الشهيرة فى التاريخ باسم « تعريب الدواوين » .

والدواوين أو ادارات الدولة المختلفة يرجع انشاء بعضها الى عهد عمر بن الخطاب ولابد ان ديوان الجند وكان أول الدواوين التى استحدثت ، قد كتب بالعـــربية لان القائمين عليه كانوا من العرب المسلمين . أما ديوان الخراج والجبايات فقد بقيت لغـة تدوينه على ما كانت عليه قبل الاسلام . أى الرومية فى بلاد الشام والفارسية فى العراق والرومية والقبطية فى مصر ، كما كان القائمون على هذه الدواوين من أهل الذمة من الفرس والروم . ويبدو الوضع فى الواقع منحرفا وغير متوائم البتة مع المنطق السليم : فالدولة عربية اسلامية ، ولغة الوحى والرسالة فيها العربية ، ولغة الحاكم عـــربية ، ودواوين الخراج والطراز والطومار رومية اللغة او فارسيتها . فمن الطبيعى أن يلاحظ عبد الملك وهو الخليفة العربى العالم والمتفقه فى الدين والادب ، ذاك التناقض وتلـك الازدواجية الممزقة لوحدة ثقافة الامة ، والمشتتة لابداعها والمركبة لنشاطها لا المـالى والادارى فحسب ــ كما يمكن أن يظن ــ وانما الفكرى والعملى بعامة ، لان الادارة ترتبط بحياة كل الناس ارتباطا وثيقا . وفى الوقت ذاته أحس عبد الملك بنشاط الحـــركة الثقافية العربية الاسلامية المنصرفة الى دراسة علوم اللغة والدين فرأى دعمها وافساح مجالات الانتشار والاخصاب أمامها بغرسها فى المؤسسات الحكومية . فتعريب الدواوين يعنى نشر اللغة العربية والثقافة العربية على أوسع نطاق وتحويلها من لغة القـرآن والمسجد فحسب الى لغة للحياة اليومية تمتزج فيها كلمات الدين بتفاعلات الحياة ، وبذلك تستعمق العقيدة الدينية فى النفوس لتفاعلها الخصب مع العيش . لقد كان تعـريب الدواوين اذا مظهر حى لنمو الفكر العربى الاسلامى وانفتاحه على من حوله ، وبالتالى لتمكن العرب فى الميدان الحضارى وقدرتهم على لتحرك الفعال فى الاطار المدنى . والى هذا المعنى يشير ابن خلدون عندما يعلل تعريب عبد الملك للدواوين فيقول : « لما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القـــوم ــ اى العـرب ــ من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حـذق الكتابة ، وظهر فى العـــرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان ، أمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الاردن لعهده ان ينقل ديوان الشام الى العربية » .

وبالاضافة الى ذاك الدافع الرئيسى الذى حدا بعبد الملك للقيام بعمله الثورى هذا فانه لابد أنه أدرك أن تسلم الفرس والروم لديوان الخراج وهو ديوان المال وعصب حياة الدولة ، أمر له أخطاره الجمة فكأنه يسلم بناء الدولة العربية الاسلامية ولما يكتمل الى الاعداء المقهورين الذين ما انفكوا عن كيدهم ودسهم . فالكتاب من الروم والفرس كانوا لابد يشعرون أنهم بعيدون مبدئيا عن مراقبة السلطات العليا للدولة لانهم يدونون بلغة لا تجيدها فالمرتع أمامهم اذا خصيب للتلاعب والتزوير ولعلهم كانوا يحسون ألاغنى للحاكمين الجدد عن خدماتهم ، فمهما تحكموا واستبدوا ورفعـــوا رؤوسهم عاليا ، أو اهملوا عملهم وتقاعسوا فيه فان مقاماتهم لن تدك . والى هذه الناحية بالذات تشـــير روايات معظم المؤرخين عند كلامها عن الاسباب التى دفعـــت عبد الملك الى تعـــريب الدواوين . ففى واحدة من الروايات « ان (سرجون بن منصور النصرانى) الذى كان يتقلد ديوان الشام أمره عبد الملك يوما بشىء تثاقل عنه وتوانى فعاد لطلبه وحثه فرأى منه تفريطا وتقصيرا فقال عبد الملـــك (لسليمان بن سعد) وكان يتقلد له ديـــوان الرسائل : أما ترى ادلال سرجون علينا وأحسبه قد رأى ضرورتنا اليه والى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال لو كسئتت لحولت الحساب الى العربية ، قال فافعل ... فـولاه عبد الملك خراج الاردن لسنة فلم تنقض حتى فرغ من نقله » .

والرواية التى ذكرت عن تعريب الحجاج لديوان العراق تشبه فى اطارها العـام وبالتحدى الموجه الى قدرات العرب فيها ما ذكر عن تعريب ديوان الشام . فقد كان على رأس ديوان العراق (زادان فروخ بن بيرى) ، وكان الى جانبه فى عمله (صالح عبد الرحمن) مولى بنى تميم ، وكان يكتب بالعربية والفارسية . وأحس صالح عبـد الرحمن ان (الحجاج) يقربه اليه ، فقال مرة لزادان « لقد استخفنى الامير ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال له زادان : لا تظن ذلك فهو أحوج الى منه اليك لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال له صالح : والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته . فقال له زادان : حول منه شطرا حتى أرى ، ففعل . ولما قتل زادان فى حرب ابن الاشعث خلفه صالح وترجم الديوان الى العربية .

ولا يقل خطورة وأهمية عن تعـريب ديوان الخراج تعريب الطراز والطومار . أمـا الطراز فكما عرفه ابن خلدون هو أن ترسم اسماء الملوك والسلاطين أو علامات تختص

بهم فى طراز أثوابهم المصنوعة من الحرير أو الديباج . والطومار هو الصحيفة الرسمية التى تكتب عليها الرسائل السلطانية والوثائق الدولية . وقد كان الطراز أو ثيـــاب الخلفاء ، والطوامير تصنع فى مصر ويقوم على صناعتها رجال من الاقباط ويكتبون عليها أو فى رأسها بالرومية ما معناه (باسم الاب والابن والروح القدس) فلما علم بذلك عبد الملك بن مروان أكبر الامر وقال : ما أغلظ هذا فى امر الدين والاسلام . وكتب الى أخيه عبد العزيز وكان واليا على مصر وأمره باستبدال عبارة (قل هو الله أحد) بما كان يكتب . ولا بد من التنويه هنا بأن الطراز والطومار كانا يرسلان من مصـــر الى بلاد الروم وبالمقابل كانت الدنانير الذهبية تضرب فى بـــلاد الروم وترســل الى بلاد الاســلام .

لقد كان تعريب ديوان الخراج والطومار والطراز تحديا عنيفا لنفوذ الروم والفرس على حد سواء وزلزلة لوجودهم لا تقل عن زلزلة الفتوحات لسيادتهم . فقد فهموا منه ـ كما يجب أن يفهم ـ أنه تكامل لبناء الدولة العربية الاسلامية ، وترسيخ لدعـائم العرب فيها ، وتمكن لمفهومات الحضارة منهم واستغناؤهم عن خدماتهم ، وتحرر الدولة من ضغوطهم : فزمام الامر انفلت اذن نهائيا من بين ايديهم ولا أدل على ذلك من شعور المرارة الذى أحس به الكتاب الروم والفرس ، فبعد ان عرب (سليمان بن سعد) ديوان الشام دعا (عبد الملك بن مروان) (سرجون بن منصور) اليه وعرض عليه ما فعلـــه سليمان فغمه ذلك وخرج مهموما فلما سأله قومه عما به أجابهم : (اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم) أما (زادان فروخ) فعندما رأى قدرة صالح عبد الرحمن على تعريب جزء من ديوان الخراج فى العراق فانه بذل له على ما تذكر الرواية مائة ألف درهم كى يظهر العجز عن نقل الديوان الى العربية . ويشير ابن خلدون ان هذا الامر اى التعريب قد رغم منه كتاب الفرس اى كرهوه وتضايقوا منه .

ولم يقتصر الامر على ردود فعل فردية ملونة بالمرارة والا لم فحسب بل ان القضية أخذت مدارها فى العلاقات السياسية بين الدولة العربية الاسلامية والدولة البيزنطية . فقد حاولت هذه الاخيرة منع ما حدث واشرعت تهدد وتضغط بأن ارسل امبراطورها رسالة استنكار الى الخليفة عبد الملك اثر وصول الطراز والطومار اليه بكلمات (قـــل هو الله أحد) و (لا اله الا الله محمد رسول الله) بدلا من كلمات (باسم الاب والابن

والروح القدس) وضمنها قوله : (ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطـــرز هناك للروم ... ولم يطرز الآن بطرازهم ... فان كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقـــد أخطأت ، وان كنت قد أصبت فقد أخطأوا ، فاختر احدى الحالتين) وبعث كتابه هـــذا مع هدية يسترضيه بها ويدعوه للرجوع عما بدأ به ، فرد عليه عبد الملك هديته وأخبر الرسول بأنه لا جواب لديه على الرسالة . فكرر الامبراطور رسائله وتمادى عبد الملك فى صمته فاستشاط قيصر الروم غيظا وبعـــث اليه بتهديده الاقتصادى ــ الدعاوى المعروف وهو انه سيدون على الدنانير المسكوكة لديه سبا بالرسول الكريم عليه السلام (انكم أحدثتم فى قراطيسكم ما نكرهه فان تركتموه والا أتاكم من الدنانير من ذكـــر نبيكم ما تكرهونه) .

واذا تابعنا رواية المؤرخين الى مداها فانه يستنتج منها ان عبد الملك قد شعر بالحرج من هذا التهديد اذ ان اقتصاد الدولة يعتمد على النقد الذهبى البيزنطى الذى كان وحده التعامل التجارى الرئيسية فى أنحاء الدولة العربية الاسلامية بل وفى مغظم العالـــم المعروف آنذاك ، حتى ان الفرس انفسهم كانوا لا يسكون سوى العملة الفضيعـــة . فمكانة الدينار البيزنطى فى الاقتصاد العالمى كانت مكينة ومتينة . والتهديد فى الحقيقة ــ اذا ما نفذ ــ خطير ومؤذ بل ومهين للدولة العربية الاسلامية : فالنقود بتداولها الواسع مجال دعاوى قوى وذو أثر . واذا منع دخول تلك النقود فان اقتصاد البلاد يهدد بأزمة عنيفة لان الدولة لا تملك بديلا عنها . ولم يرد عبد الملك ان يقطع بالامر وحده ــ على ما تذكر الرواية ــ فاستشار خالد بن يزيد فاشار هذا عليه بتحريم دخول الدنانير الرومية الى البلاد الاسلامية ، وبسك عملة عربية اسلامية ذهبية تحل محل الدينار البيزنطى .. ولم يتردد عبد الملك وأوجد النقد العربى الذهبى للدولة العربية الاسلامية .

وبذلك ارتسم البعد الاقتصادى بكل عمقه فى تكامل بناء الدولة العربية الاسلامية ذلك البعد الذى حررها اقتصاديا من كل ضغط اجنبى أو تلاعب بمقدراتها . فتبـــنى الدولة لنقد خاص بها هو أساس أول من أسس بنائها الذاتى الاقتصادى ، اذ ان السماح للنقد الاجنبى بالتحول حرا على أرضها مع عدم وجود قوة نقدية خاصة توازنه أو تقاومه، وباغراق أسواقها عندما يحلو للدول الاجنبية ان تفعل ذلك ، وبادخاله مزيفا أحيـانا ،

يعنى جعل تلك الدولة فى مهب الريح وتعريضها لازمات اقتصادية تزعزع كيانهـــا وبنيانها بشكل مستمر ٠

وربما يقول قائل ان عمر بن الخطاب كان أول من ضرب الدراهم الفضية على النمط الفارسى وزاد على بعضها عبارة (الحمد لله) وعلى بعضها الآخر (محمد رسول الله) ، وان معاوية حاول هو الآخر ان يضرب بعض الدراهم والدنانير وكذلك فعل بعض عماله فى العراق ٠ بل ان هناك رواية ان مصعب بن الزبير كان أول من ضرب الدنانير والدراهم بأمر من أخيه عبد الله وكتب على أحد الوجهين (بركة الله) وعلى الثانى اسم (الله) ٠ ولكن هذه العمليات كلها اذا اثبتت صحة الرواية كانت محلية ومحدودة وتنصب عـلى النقد الفضى بخاصة ٠ والدليل على ذلك ان الدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية بقيت سائدة فى النظام النقدى للدولة العربية الاسلامية حتى عهد عبد الملك بن مروان وهـذا ما اجمع عليه معظم المؤرخين ٠ ومهما قالت الروايات فى الدوافع التى حـدت بعبـد الملك الى سك العملة العربية الاسلامية فان عمله لم يكن فى الحقيقة رد فعل لتحد أو لضغط آنى وانما كان ضمن المخطط الشامل الذى رسمه فى ذهنه لترسيخ دعائم الدولة العربية الاسلامية على قاعدة ثانية من الذاتية العربية الاسلامية الحرة والخلاقة ٠ بل ان سك العملة العربية الاسلامية قد تم كما ثبت من الدراسات الحديثة بين عامى 74 – 75 هـ أى قد تكون اسبق زمنا من عملية تعريب الدواوين وما ولدته من تحديات شتى ٠ وقد أدرك ابن خلدون بحسه التاريخى النقدى هذا الامر فعزا عمل عبد الملك الى سبب نابع من متطلبات تكوين الدولة ذوته فقال : « ان السكة – وهى الطابع الذى يوضع عـلى الذهب والفضة لاثبات صحة وزنهما – هى وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند العملات ويتقون فى سلامتها الغش بختـم السلطان عليها بنقوش معروفة ٠٠ ولما جاء الاسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبـداوة العرب الا انه تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك ، فأمر عبـد الملك الحجاج بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وكتب عليها (الله أحد اللـه الصمد) ٠

وقد أنشأ عبد الملك دارا لضرب النقود فى دمشق ، وابقى وزن الدينار العـربى على وزن الدينار الرومى وكذلك الدرهم على وزن الدرهم الفارسى ، ووضع الصنجـات لوزن النقد وضبطه ٠

ومن هذا الاستعراض السريع لصفحة التاريخ العربى الاسلامى يتضح بجلاء ان مفهومات الدولة الواحدة الاسلامية بكل أطرها ومقوماتها لم تكن خافية على العرب المسلمين فى ذاك الوقت بل كانوا مدركين وبعمق لكل بعد من أبعادها وعاملين على التمكين له حتى فى أعنف الازمات • فحركة التعريب الكبرى التى أعطاها عبد الملك بن مروان زخما ودفعا قويين ، لم تكن لتاصيل عروبة الدولة الاسلامية بقدر ما كانت لتوطيد أصالة اسلامها ووحدتها ونشر رسالتها : فبالتعريب وحد عبد الملك لغة الادارة مع لغة الرسالة الاسلامية التى تستند تلك الادارة اليها ، وبذلك أزال التناقض المؤدى للعقل والواقع ، كما أزال ذاك التباين فى النظم التى ورثها العرب المسلمون فى الامصار المفتوحة ودمجها كلها فى وحدة عربية سلامية واحدة ، وأبعد النفوذ الاجنبى بكل أشكاله عن التسلل الى شؤون الدولة ، وأفسح المجال للعناصر العربية الاسلامية الكفية كى تمارس الاعمال الادارية الجديدة ، فبث الثقة (الحضارية) فى نفسها مما فتق لديها قوى الابتكار والابداع حتى أن الكاتب (عبد الحميد بن يحيى) كان يقول دائما : (لله در صالح ـ ويقصد به صالح عبد الرحمن ـ ما أعظم منته على الكتاب) •

وبالاضافة الى كل ذلك فان حركة التعريب مكنت لغة ارلقرآن من التحرك فى أوسع ميدان ، ومن بث مبادىء الدين مباشرة بين الناس ودون وسيط : فقد اضطرت العناصر غير العربية الى تعلم العربية واتقانها ومن ثم تفهم الوحيى والاعتناق العقلانىللدين ، وتبنى الثقافة العربية الاسلامية قلبا وقالبا ، والاسهام فيها واغناؤها بفكر جديد بل واخصاب اللغة العربية ذاتها بمعان ومصطلحات لم تكن فيها • ان الحركة العربية الاسلامية لعهد عبد الملك بن مروان بكل أبعادها المذكورة آنفا كانت فى الواقع رفعا لحرارة التفاعل الفكرى المثمر بين الشعب العربى والشعوب الاخرى التى تعايشه فى نطاق الدولة الاسلامية الواحدة ، واسراعا فيه • كما كانت بداية غنية للاتجاه نحو الافادة من الثقآفات الاخرى وصهرها فى بوتقة الاصالة الاسلامية ، ذلك الصهر الذى ستتولد منه البلورة الماسية للحضارة العربية الاسلامية • فحركة التعريب اذن لم تكن أبدا حركة تقوقع عربى وتعصب عنصرى قومى ـ كما يحاول بعض المستشرقين وصفها ـ وانما هى على العكس من ذلك دفع للعرب المسلمين للانفتاح على الحضارات الاخرى والتوغل

فى الاطار الحضارى الانسانى والاخذ والعطاء فيه عن طريق تحميل الشعوب الاخرى أداة الحوار معهـــم ٠

واذا ما عدنا ثانية الى الحاضر فان صفحة التاريخ تلك تجعلنا أكثر ادراكا لهـــذا الحاضر وتطلعاته ، وأعمق تفهما لمضمونات الوحدة العربية وآفاق تنفيدها ان فى الميدان الثقافى أو الاقتصادى أو العسكرى أو السياسى ٠ كما تدعنا تلك اللوحة من التاريـخ أقوى ايمانا بأن تكامل بناء الدولة وتطويره ـ ونحن نعيش هذا فى حاضرنا ـ يجب أن يتم فى كل الابعاد وفى آن واحد ودون تلكؤ وانتظار ، وأن الازمات مهما قست عاجـــزة عن اعاقة عملية البناء أو ايقافها اذا توافرت الارادة الصلبة والفكر النير المبدع لـــدى العاملين عليها وفيها ٠

وأخيرا تؤكد لنا هذه الصفحة من التاريخ أن عروبة اللسان والثقافة لنا نحن أبناء الوطن العربى كله ليست أصالة قومية فحسب قد تثير بعض العنعنات الفئوية ـ كما يحاول بعض المغرضين أن يدسوا عليها ـ وانما هى اصالة انصهرت وذابت فيهـــا كـل الانقسامات والتصدعات الاجتماعية والسياسية فغدت اصالة حضارية غنية بكل قيـم الفكر الانسانى ٠ كما ان هذه العروبة فى اللسان والثقافة اصالة عقائديـة بالنسبـــة للشعوب الاسلامية لا يمكن اتراك أسس الدين وتمثل قيمه والتعرف على الهوية الذاتية لفكرها نفسه دونها ٠

البتر والبرانس والمظهر الاجتماعي
لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام

د . لقبال موسى
كلية الآداب – جامعة الجزائر

لم يعن الحكام الذين تواردوا على شمال افريقية ، قبل الاسلام ، بالمنطقة ، ولا بسكانها الا بقدر ما يحفظ الامن الداخلي ، ويجعل الجباية مستمرة ، وطرق التموين البرى والبحرى آمنة غير مخوفة ، لا فرق فى هـــذه الناحية ، بين الفنيقيين ، وبين الرومان والوندال والروم والبيزنطيين ، فكلهم أو معظمهم كانوا غرباء عن مجتمع شمال افريقية قبل الاسلام .

وغربتهم انعكست آثارها فى عدم مخالطتهم للسكان ثم فى بقائهم يجهلون أنماط حياتهم الاجتماعية والثقافية لمدى طويل ، يضاف الى ذلك أن أغلب هؤلاء الحكام كانت حامياتهم العسكرية تكتفى بالحياة داخل مراكزها الساحلية والداخلية ، على نحو يتعذر معه تسرب شيء ذى بال الى محيط السكان الاهلين ، هـــذا

بينما تعرضت هذه المراكز لضغط شديد من طرف السكان ، مظهره تلك الاغارات المستمرة للهدم والنهب ، ولاشاعة جو الخوف والقلق وعدم الاستقرار .

ونتيجة لذلك بقي الحاجز قويا وتبادل التأثير ضعيفا نسبيا ، بين سكان البلاد وبين من فرضوا أنفسهم حكاما مستغلين .

ويبدو أن جهل الحكام الاجانب بأساليب الحياة القبلية لبعدهم عن البدواة وانماطها، وعدم توغلهم في دواخل البلاد الا الى مدى محدود،ثم ترفعهم عن السكان استعلاء واعتبارهم بربرا من بين أهم العوامل التي قضت على الحكم الاجنبي بالفشل ، لان دواعي النفرة عند السكان تكاثرت فوحدت بين أشتاتهم ، وصيرتهم في الجملة البا ضد من عداهم ، وبالاحرى أكثر استعدادا للنضال لتغيير القديم ، ولتبني كل نهج جديد ، يحقق لهم ذاتيتهم ويرضي رغباتهم ويعالج جو الارتباك والحيرة الدينية الذي خيم عليهم فترة طويلة .

وكان الاسلام هو ذلك النهج الجديد الذي ملأ الفراغ السياسي والحضاري في المنطقة ، بعد أن تبناه السكان أثر فترة تميزت بالصراع لتأكيد الذات ، أو لارساء قواعد الاتجاه الجديد ، وعلى رغم ما حفلت به الفترة من أحداث شاقة فلم تكن خلوا من الفائدة التي انعكست آثارها على السكان ، ثم على دعاة الحركة الاسلامية أيضا ، ويبدو واضحا ان دعاة الحركة الاسلامية رغم قلة امكانياتهم المادية وبعدهم عن مراكز انطلاقهم ، كانوا أكثر استغلالا للثغرات ، ولنقط الضعف في النظام القديم ، كما كانوا أكثر استفادة من اخطاء سابقيهم ، ومخلفاتهم المادية في المنطقة ، ثم من الطاقات الحربية والتجارب التي اكتسبها السكان الذين سيصبحون ، بعد فترة قصيرة عدة للمسلمين جنودا للحركة الاسلامية ووقودا لها ينفذ بلهيبه وباشعاعه لا في مجال بلاد المغرب فحسب وانما في مجالات أخرى في البر وفي البحر .

ويبدو ان نجاح دعاة الحركة الاسلامية في مهمتهم في بلاد المغرب ، لا يعزى فقط الى بساطة العقيدة الاسلامية ودعاتها ، أو الى ظاهرة الاستعداد النفسي عند السكان وانما يضاف الى ذلك عدة عوامل من أهمها :

ـ ألف العرب المسلمين لانماط الحيـــاة الاجتماعية : البدوية والحضرية فى شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وهذا أمر يسر عليهم فهم نوع الحياة التى كان يحياها السكان فى المنطقة ٠

ـ وقد توغل العرب المسلمون ودعاة الاسلام بنفوذهم السياسى والروحى منـــذ فترة مبكرة الى مناطق العزلة النائية حتى فى مجاهل الصحراء ٠

ـ وعلى أساس من احترام للتقاليد غير الوثنية للسكان ، وفهم حياتهم الخاصـة تمكن العرب المسلمون الذين لم يأنفوا من مخالطة السكان ، عن طريق الخدمة العسكرية، والمصاهرة ، والولاء ، ثم الحلف ، من الاشراف على ميلاد مجتمع جديد على نهج جديـــد ابرز ما يميزه : الاخوة فى الدين وفى السلاح ثم الاشتراك فى المغانم وفى التضحيات ٠

ـ ولان اهداف العرب المسلمين لم تكن مادية صرفة ، ومبادئهم لم تكن معقـــدة ارجعوا الى البلاد تكاملها ، ونظروا اليها نظرة جديدة قوامها الوحدة ٠ فهجروا أغلب المصطلحات القديمة ، ومحوا التقسيمات ومظاهر التجزئة التى شاعت فى العهـــود الوثنية ، وأوجدوا بديلا لذلك فى المصطلحات الجديدة التى لم يراع فيها غير اعتبـــار قرب المنطقة أو بعدها عن مهد الحركة الاسلامية ، ومركز الفتوح الاسلامية فى الفسطاط أو فى دمشق ، وبغداد ، وهكذا ظهرت الى الوجود مصطلحات المغرب الادنى ، والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى على انقاض المصطلحات الكثيرة التى تميز بها العهد القديم ، كما ظهر لاول مرة فى فترة تالية ، فى كتب النسابة المسلمين تقسيم جديد لسكان البلاد ذلك هـو تقسيمهم الى مجموعتين كبيرتين تسمى احداهما : مجموعة البرانس وتسمى الاخرى مجموعة البتر ٠

ولمعرفة كنه هذا التقسيم ، ولتوضيح الاسس والاعتبارات التى لوحظت فى هذا التمييز بين مجموعتين تبدو الاعتبارات الاجتماعية من جهة ، ثم الاعتبارات الثقافيـة والاصول النسبية من جهة أخرى ٠

ولتوضيح ذلك نلاحظ أن أغلب قبائل مجموعة البتـر كانت تعيش وفـق انمـاط الحيـــاة البـــدوية من النجعـــة ، وسكنى الخيـام ، وكسب الانعـــام والميـــل الى قطع السابلة والاغارة على مراكز العمران ، والاعتصام بالاماكن المنعزلة والبعيدة عـن متناول السلطة السياسية فكلمة البتر بهذا المفهوم تكاد تكون مرادفة للكلمة «النوميد» التى ترجع الى فترة ما قبل الاسلام ٠

أما اغلب قبائل مجموعة البرانس فهم مستقرون للزراعة وللغراسة ، وبحكم استقرارهم هم قريبون من مركز السلطة أو مشمولون بانظارها ، كما أنهم كانوا أكثر من غيرهم تأثرا بما طرأ على البلاد من هجرات بشرية ، وحروب ، وثقافات سامية أو آرية • وبهذا المعنى تبدو كلمة البرانس وكأنها فى مدلولها ترادف كلمة « المور » سكان منطقة أو ولاية « موريطانيا » والكلمة يعود ظهورها أيضا الى فترة ما قبل الاسلام فى شمال افريقية •

وهنا يجب أن نؤكد على ظاهرة هامة هى ان سمة البداوة كما تبدو السمة الوحيدة بالنسبة لبعض فروع البتر ، مثل بنى توجين وبنى خزر من مغراوة ، كذلك سمة الاستقرار بالنسبة لبعض فروع البرانس ، مثل كتامة وزواوة ، وصنهاجة الشمال ، فلم يحدث ان استقر بنو توجين أو بعض فروع زناتة الآخرين فى غير مجاهل الصحراء وعندما تمكن بعضهم مثل بنى مرين وبنى عبد الواد من تأسيس ملك وراثى حول قاعدة مستقرة • ظلت صفات البداوة غالبة على حياتهم ، وظلت بيئة الصحراء تجذبهم ومواشيهم وانعامهم هى عنوان غناهم وخير ما يملكون • ولم تسعفنا المصادر التاريخية بما يشير الى أن فرعا ما من بين فروع كتامة أو زواوة قد سلك سبيل البدو ، أو عرف بالحياة البدوية فى فترة ما من تاريخ هاتين القبيلتين الكبيرتين اللتين تنتسبان الى مجموعة البرانس •

ومما له علاقة بالاعتبار الاجتماعى ما لاحظه بعض الباحثين من أن السبب فى تسمية البرانس بهذا الاسم انما هو المظهر الخارجى للباسهم الذى كان يشتمل على غطاء للرأس مازال يستعمل حتى اليوم فى اللباس المحلى المعروف بالبرنس والقشابة والجلابة •

وعرف البتر بهذا الاسم نظرا لان لباسهم الخارجى لم يكن يشتمل على هذه الوقاية الخاصة بالرأس مثل اللباس المعروف بالكدرون الذى يبدو بالقياس الى البرنس أو القشابة ، ناقصا أو ابتر ، ومن ثم ميزات هذه المجموعة عن غيرها بهذا الاسم الاصطلاحى كما ميزت الاعمال التى لا يذكر فى بدايتها اسم الله ، ومن ذلك خطبة زياد بن ابيه التى عرفت بالبتراء •

ورغم ما فى ملاحظة الاعتبارات الاجتماعية من أهمية ووجاهة فى مثل هذه الحالات فان ما يرد على ذلك جملة مآخذ من أهمها ·

ـ ان النسابة والمؤرخين المسلمين ، لم تجر عادتهم فى مثل هذه الحالات ، بملاحظة الاسس الاجتماعية لانها قضية حاصلة · بينما قضية الاصل الواحد تلعب دورا رئيسيا فى الانساب العربية ·

ـ وظاهرتا البداوة والاستقرار بالنسبة لمجموع سكان شمال افريقية المحليين مسألة نسبية قد تقوى هنا وتضعف هناك ·

ـ لقد اشتهرت بعض قبائل فرع البتر بنوع من الحياة المستقرة ، مثل قبيلة كومية التى تعرف أيضا بصطفورة ، وكانت تضرب مختلف فروعها فى جبال ترارة ، وارشقول وعلى ساحل هنين · ومن هذه القبية عبد المؤمن بن على المؤسس الحقيقى لدولة الموحدين وأبو الخلفاء الموحدين أيضا ، ثم هانىء بن مصدور النسابة والمؤرخ المشهور ، ومثل قبيلة كومية ، قبيلة جراوة ، وهى القبيلة التى أسست نظاما اقطاعيا ، بزعامة الكاهنة فى منطقة أوراس ، ثم قبيلة نفوسة البترية ، التى كانت تضرب فى الجبل المعروف باسمها « جبل نفوسة » جنوب مدينة طرابلس الغرب ·

وبالنسبة لفرع البرانس المستقرين ، نلاحظ أن بعض فروعهم ، اشتهروا لفترة طويلة ، بمظاهر الحياة البدوية النقية · ومن ذلك فروع صنهاجة الجنوب وهم الملثمون، ومنهم جدالة ومسوفة ، وجزولة ولمتونة والاخيرة هى عصبية دولة المرابطين والقبيلة المؤسسة لها فى القرن الخامس للهجرة ، على انقاض الامارات الزناتية فى المغربين الاقصى والاوسط ·

ـ وقبائل الملثمين ، هم من فرع البرانس قطعا ، ومع ذلك لم يكونوا يلبسون البرنس ولم يثبت انهم لبسوه فى فترة ما ثم هجروه الى غيره · ويصعب ايجاد علاقة ما بين غطاء الرأس فى البرنس ، وبين اللثام عند قبائل صنهاجة الجنوب ·

ـ والبرنس فى هذا الوقت ، سمة للأبهة والفروسية ، وهو لباس الفرسان ، ويبدو أن أغلب الذين يهتمون بالخيل ، وباجود السلالات منها وأغلب الذين يتخذونها للركوب وللزينة ، انما هم فى الجملة ، من بقايا فرع البتر وزناتة ·

وليس من المستبعد أن يكون الاعتبار الذى لوحظ فى التمييز بين البتر والبرانس لغويا ثقافيا على اعتبار أن البرانس بحكم استقرارهم كانوا أكثر تأثرا من غيرهم بالمؤثرات الاجنبية ، وبالحضارات والثقافات السامية والآرية التى عرفها سكان شمال افريقية منذ فجر التاريخ ، وكل ذلك له انعكاساته على الوضع اللغوى ، حيث نلاحظ تميز البرانس بلهجات خاصة متميزة عن غيرها • وهذا يخالف البتر الذين بقوا بحكم البداوة والعزلة وتجافى سكنى المدن والامصار ، والاختلاط مع الغير بمنأى عن المؤثرات الاجنبية الطارئة ولذلك احتفظت لهجاتهم باصالتها ونقائها مثلما بقيت انسابهم خالصة لم ينفذ اليها دخيل •

أما ابن خلدون وهو عماد المدرسة المغربية ، فيفهم من كلامه عن مجموعات السكان وانماط حياتهم ان الفارق بين البتر والبرانس سلالى وعرقى ، وليس اجتماعيا أو ثقافيا ، وأساس هذا الاتجاه ان ابن خلدون عبر بالجذم ، وهو الاصل النسبى كما اطلق مصطلح الشعوب بازاء كل جذم ، واخيرا حكى اتفاق النسابة على نسبة السكان المحليين الى جذمين عظيمين هما البتر وهم سلالة ما دغيس الابتر ، والبرانس وهم سلالة برنس •

ومما يؤيد فكرة التمايز النسبى بين المجموعتين عدة اعتبارات من اهمها :

أ ـ اعتقاد النسابة المحليين ، وهم اعرف باحوال بلادهم ، ان البرانس هم ابناء مازيغ بن كنعان ، وأن البتر هم عرب مضريون ينتمون الى قبيلة قيس عيلان الشمالية •

ب ـ وقد مال بعض النسابة والمؤرخين المسلمين الى القول بأن بعض قبائل بلاد المغرب من عرب الجنوب أى من حمير أو من كندة •

ج ـ وقد لاحظ الرحالة المغاربة ان بعض مجموعات السكان وأهمهم قبائل زناتة هم عرب صريحو النسب ، فى أصلهم ، وانما شاعت بينهم اللهجة الزناتية وتبربروا بسبب طول الجيرة للسكان المحليين ، كذلك نلاحظ ان النسب الحميرى ، كان يتغنى به ملوك صنهاجة من بنى زيرى وبنى حماد ، ومن المرابطين أيضا ، مثلما يفخر أهل زواوة والطوارق بهذا النسب حتى الآن •

د ـ وادعاء بعض القوم الاصالة فى المنطقة ، مثل ادعاء بعضهم الشرافة ، وانعكاس ذلك ، مع اختلاف اللهجات المحلية ووجوه الكسب ، ظواهر تؤيد وجود فكرة التمايز العميق بين مجموعتى البتر والبرانس كما عبرت عنها كتب الانساب العربية والمحلية ٠

هـ ـ ويلاحظ أن النسابة العرب والمسلمين فى تقسيمهم للعرب الى جذمى عدنان وقحطان لم يلاحظوا غير الفارق النسبى ، فكيف يمكن تصور غير ذلك بالنسبة لتقسيمهم للسكان المحليين فى شمال افريقية الى بتر وبرانس ؟

هذا مع ملاحظة أن أغلب قبائل قحطان ، مثل معظم قبائل البرانس ، مستقرة ومتحضرة وبيئتها متفتحة على المؤثرات الخارجية ٠ وتفصلها عن مجموعة فرع عدنان اللغة واللهجات المتفرعة عنها ، مثلما تتمايز مجموعة البتر عن مجموعة البرانس فى اللهجات أيضا ٠

وليس بمستعبد ـ ان وضعنا فى الاعتبار قضية الهجرات المستمرة من المشرق ثم الروايات المحلية بخصوص انتماء بعض سكان المنطقة الى مضر ، أو الى حمير ، أن يكون معظم البرانس فى بلاد المغرب ، من أصل عربى جنوبى أى امتدادا لفرع قحطان الذى تفرعت عنه شعوب كثيرة هاجر بعضها الى الخارج على فترات متباعدة من التاريخ ، كما ان معظم البتر يكونون على هذا الافتراض من ارومة شمالية مضرية ، أى امتدادا لفرع عدنان الذى تنتمى اليه عشائر كثيرة ، بعضها هاجر الى مناطق مختلفة فى المشرق والمغرب وأسس انظمه سياسية ٠

وفى ضوء ما سبق تتضح امامنا حقائق هامة أولاهما تتعلق ببقاء مجموع البتر فى بيئة المغرب ، على تقاليدهم البدوية العريقة التى الفوها فى بيئتهم الاصيلة ، وبقاء أغلب البرانس على الانماط الاجتماعية المتطورة التى امتازت بها بيئة جنوب الجزيرة العربية ٠

وثانيها تتعلق ببقاء ظاهرة الاختلاف فى اللهجات المحلية بين بقايا البتر ، وبقايا البرانس ، مثلما يلاحظ ذلك بالنسبة للهجات المحلية السائدة فى شمال وجنوب الجزيرة العربية ٠

وأهم هذه الحقائق : سرعة انتشار الاسلام فى المنطقة ، واقبال البتر ثم البرانس على اعتناقه ، وتبنى نشره مع اخوانهم دعاة الحركة الاسلامية فى الآفاق القريبة والبعيدة ٠

وموقفهم الايجابى من أقربائهم دعاة الاسلام ، ثم اقتناعهم بالدين الجديد كعنصر فعال لبعث الوحدة القومية ، فى مظهر جديد ، اضاف الى المنطقة ، والى الحضارة الاسلامية فيها ، آفاقا جديدة ، كما عمل على جمع شمل الاقرباء بعد طول الافتراق ٠



عبد الرحمن الجامعي الفاسي

حامل راية الأدب على مستوى المغرب الكبير

محمد المنوني
المغرب

عرفت المائة الهجرية الحادية عشرة مجموعة من الادباء المغاربة ، وكان بينهم أديب لم يستمر فى اقامته بالمغرب، وانتقل لبث معارفه بالجزائر فتونس ، وهذا هو عبد الرحمن بن عبد الله الجامعي الفاسي • ونتبين من نسبته انه ينتمي الى فريق أولاد جامع : القبيلة العربية النازلة شمال فاس (1) ، حيث ينتقل أوزاع منهم للسكنى داخل نفس المدينة ، وبالضبط قد يكون ذلك بفاس الجديد ، التى يبدو وأنها كانت مستقر أسرة المترجم ومكان ولادته عام 1087 هـ/1676 ـ 72 م ، غير أن المصدر المعني بالامر (2) يكتفى بالاشارة الى ولادته ودراسته بفاس دون تحديد •

وحسب المتعارف آنذاك فقد تناولت دراسة المترجم على أساتذته ـ القرآن الكريم ،

وعلوم اللغة العربية ، والفقه ، والحديث والتفسير ، وكان تفوقه أكثر فى المواد اللسانية والمعارف الادبية .

والى هنا : ستقف معلوماتنا عن حياة المترجم بفاس والمغرب ، وسنلتقى به ـ بعد هذا ـ بالجزائر ، دون أن نعرف ـ بالتحديد ـ تاريخ انتقاله الى المغرب الاوسط ، غير انه نفسه يشير الى اقامته بتلمسان أو ان الفتح الاول لمدينة وهران ، وقد وقع أوائل عام 1119 هـ / 1707 م . (3)

ولا ندرى ـ على وجه التحقيق ـ سبب انتقال صاحبنا عن المغرب ، وقد تشير لذلك فقرة وردت فى مكتوب خاطب به الداى الجزائرى : محمد بكداش ، وهو يقول فيه : « وجدير بمن شحذت سبيكته الذهبية المحن الزمانية فخلصت من الشوب ، وأذابت كورته التركيبية فأبرزت نصارها من لباب الذوب ، أن يستعمل تدبيره فى انقاذ عبد مازال فرارا من نار المحن وهى تحله وتعقده ، ومطارق النكبات تنتظر قبضه وترصده » . (4)

ويبدو ان حرفة الادب لاحقت الاديب الجامعى وهو فى مهجره الاول ، فما كان يطيب له المعيش بالجزائر حتى ينتقل عنها الى تونس أواخر عام 1122هـ ـ 1711 م ، (5) ولا شك أن هذا الارتحال ناشىء عن حادث مقتل الداى بكداش فى نفس العام (6) ، بعد ما صار المترجم يعيش فى كنف رعايته .

وفى تونس ينتهى المطاف بالرحال المغربى ، وقد صار من المؤكد أنه اتخذ منها دار قرار ، ومن الاشارات فى هذا الصدد أنه فى عام 1126هـ نظم بيتين من الشعر ليؤرخ بهما تمام المدرسة الحسينية الكبرى (7) ، وهذه من مشيدات مدينة تونس ، يضاف لهذا سياق ترجمته فى « ذيل بشائر أهل الايمان » ـ وسنعرضها من بعد ـ حيث يتبين أن النزيل المغربى حين كتابة الترجمة كان لا يزال بقيد الحياة ، مع ملاحظة أن هذا المصدر انما فرغ منه مؤلفه عام 1137 هـ (8) وبعد هذا يبدو أن وفاة الجامعى وقعت فى نفس الحاضرة التونسية ، وهو ما يمكن أن نستفيده من رثائه من جهة أديب تونسى بقصيدة على روى العين من بحر الكامل (9) .



والآن ـ بعد هذا العرض ـ فان المصادر المغربية المعروفة أهملت ـ بالمرة ـ ذكر المترجم ، ولا يستثنى من هذا سوى اشارات قليلة وردت فى مؤلف للجامعى نفسه ، ولحسن الحظ فان بعض المصادر الجزائرية والتونسية تلقى أضواء على ثقافة صاحبنا ، وبالخصوص عن نشاطه الادبى فى مهجره بالمغربين : الاوسط والادنى ، بعد ما كان لمصادرهما فضل الكشف عن جوانب أخرى من حياة أديبنا المغربى ٠

وهكذا : فان المترجم اشتغل فى تلمسان ، بتدريس مادتى النحو والبيان (10) ، وفى مدينة الجزائر كتب شرحا على ارجوزة الحلفاوى فى فتح مدينة وهران ، كما صدر عنه الشعر الرائع ، والترسيل البليغ ، بمناسبة هذا الفتح ، أو فى مطارحته مع أديب الجزائر : محمد بن محمد الشهير « بابن على » (11) القلغلى ، المفتى الحنفى ٠

ومن العلماء والادباء الآخرين الذين عرفهم بمدينة الجزائر أو غيرها : محمد بن أحمد الحلفاوى التلمسانى مفتيها ، وهو ناظم ارجوزة فتح مدينة وهران ، ويحليه بشيخنا ٠ (12)

ثم الشيخ محمد مصطفى الرماحى القلعى ، حامل راية الفقه المالكى فى عصره ومصره ٠ (13)

ومحمد بن ميمون الزواوى ثم الجزائرى (14) ، مؤلف « التحفة المرضية فى الدولة البكداشية » ٠

ورابعا : ابو العباس أحمد بن قاسم البونى عرف بابن ساسى ، زاره بمدينة بونة : (عنابة) ، واستجازه فأجازه ٠ (15)

وسوى هذا فان ثقافة المترجم الادبية بهرت المعنيين بالامر فى الجزائر وهو ما يشهد به مؤلف « التحفة المرضية » (16 ، فى فقرة مطولة نقتطف منها ما يلى :

« ٠٠٠ الكاتب اللوذغى ، العالم الالمعى ، أبو زيد : السيد عبد الرحمن ابن عبد الله الجامعى نسبا ، الفاسى منشئا ، الجزائرى دارا ، وهو رجل وحيد الدهر بل فريد العصر لا أعلم أنى لقيت مثله فى طريق الآداب ، ولا أشد كاهلا منه فى الانتحاب ٠٠٠ صدر عنه الشعر المعجب ان لم نقل المعجز ، والنظم الذى هو لوعد صدق براعته منجز » ٠

وحينما انتقل المترجم الى تونس اشتهرت معارفه أكثر ، وصار له درس حفيل بجامع الزيتونة ، وألف ـ فى الفترة نفسها ـ « نظم الدرر المديحية فى محاسن الدولة الحسينية » : دولة الباى حسين بن على بن تركى ، كما وضع شرحا على خطبة شرح تلخيص القزوينى لسعد الدين التفتازانى ، ومن أدباء ، الحاضرة ، الذين اتصل بهم : محمد بن محمد الاندلسى الوزير السراج ، مؤلف « الحلل السندسية ، فى الاخبار التونسية » . (17)

وقد عقد له المؤرخ التونسى حسين خوجة الحنفى ترجمة (18) كشفت عن جوانب من حياته بفاس ثم بتونس ، وسنثبت معظمها فيما يلى :

« ... العالم العارف ، جامع العلوم والمعارف ، الاديب اللبيب ، الوجيه صاحب العقل الرجيح ، الشيخ سيدى عبد الرحمن بن عبد الله الشهير بالجامعى ، تزايد بمدينة فاس سنة 1087 ، وحفظ بها القرآن العظيم .

ونشأ فى طلب العلم عن والده ، وعن غيره من مشايخ العصر ، وحصل على علوم شتى .

وأخذ النحو عن الشيخ عبد الرحمن بن على بن عمران الفاسى . (19)

ولازم الشيخ احمد العراقى . (20)

وسمع من الشيخ محمد الكماد القسنطينى (21) ، وأخذ عنه أبوابا من مختصر الشيخ خليل ، ومجالس من صحيح البخارى ، والتفسير مع كبار من مشايخه تطفلا وخدمة بين أيديهم .

وقرأ مختصر الشيخ خليل ـ ملازمة ومراجعة ـ على فقيه العصر والأوان ، منذ سنة 1100 الى الآن : الحافظ أبى على الحسن بن رحال (22) ، فسح الله فى عمره آمين. وسمع عنه التفسير .

وأخذ صحيح البخارى عن الشيخ محمد بن سلمان الاندلسى (23) : على رواية أبى ذر الهروى .

ودراية عن خاتمة امناء العلماء : الشيخ عبد السلام بن الطيب القادرى ، وعنه ـ أيضا ـ شمائل الترمذى .

وسمع مجالس صالحة من صحيح البخاري على الشيخ محمد بن محمد الفلالى (25) امام جامع المولى ادريس، من سنة 1105 الى سنة 1108 ·

وأخذ شفاء القاضى عياض ـ رواية ودراية من أوله الى آخره الا مجالس قليلة ـ على لسان العرب أبى عـمان سعيد بن أحمد العميرى التادلى (26) ، وغيرهم ·



وقدم الى مدينة تونس ، وتصدر للتدريس بالجامع الاعظم : جامع الزيتونة ، وكان له درس عظيم ، ومحفل جسيم ، ومدحته العلماء وشكرته الطلبة وأثنوا عليه ·

له معرفة واطلاع على الكتب الغريبة واستخراج النكث العجيبة ، وله معرفة بارعة فى اللغة ، وعلم التاريخ ، وأخبار الناس ·

وله ولوع بالمقامات الحريرية وقلائد العقيان · وديوان الشعراء الستة ، بالاخذ عن مشايخ : اجلهم خاتمة الادباء : الشيخ محمد بن قاسم ابن زاكور وغيره ·

صاحب قريحة جيدة فى نظم الشعر البليغ لا يضاهى ، فريد عصره فيه فى زماننا هذا ، له مهارة فى جميع الفنون ·

قليل الكلام ليس بمهذار ، لا يتكلم الا بمقدار ، اذا سئل أجاب ، واذا قال أصاب وتكلم بفصل الخطاب ، حسن القامة ، جميل الصورة ، له ميل الى الانقطاع والخلـوات صبور لا يتأسف على ما فات ، حمول لتكدرات الدهر وتقلبات الزمان ··· » ·

هذه ترجمة الجامعى فى كتاب « ذيل بشائر أهل الايمان » ، وهى نفسها صـارت موضوع تحليل لبعض جوانبها من جهة محمد الشاذلى النيفر (38) ، وكان ذلك بمناسبة استعراض المؤرخ التونسى للبارزين من أعلام البعثات التلقائية ، الوافدين من جامع القرويين بفاس ، الى جامع الزيتونة بتونس ، حيث كانت مساهمة المترجع كبـيرة فى بعث المدرسة الادبية بالقطر الشقيق ، وهكذا يعقب مؤرخ الخضراء ويقول :

« ... وفى مقدمة رجال هذه المدرسة الشيخ عبد الرحمن الجامعى ، الوافد عـلى تونس فى ثلث القرن الثانى عشر ، بعد تمتـين معارفه ودراسته على جلـة من علماء القرويين ... »

واعتنى بالأدب عناية خاصة ، وأخذه عن شيخ الأدب فى المغرب : محمد بن قاسم ابن زاكور ، محيى الطريقة الأدبية القومية ، وباعث الكتب الأدبية الدسمة بعد الاندثار والاهمال ، حتى أخذ الأدب العربى الصحيح مكانه من أصـــوله المعتمدة فى الدراسة الأدبية فى القرويين ، وبذلك تمثلت دراسة عصور الأدب فى مختلف بعض عصوره .

وكان هذا البعث من الشيخ ابن زاكور باعتنائه باصول الأدب ، ان شرح ديوان الحماسة ، وسماه : « عنوان النفاسة » ، كما شرح قلائد العقيان ، وسماه : « مقبـاس الفوائد ، بشرح ما خفى من القلائد » .

ونقـــل هذه الطريقة الى تونس الشيخ عبد الرحمن الجامعى ، فاعتنى – مـزيد الاعتناء – بثلاثة كتب هى من أمهات الادب العربى ، وهى : « ديوان الشعراء الستة » و « المقامات الحريرية » و « قلائد العقيان » ...

والمنتقى لهذه الاشعار للشعراء الستة هو الاعلم الشنتمرى ... والمدرسة الشنتمرية تنوسيت ، فجدد العهد بها باحياء هذا الكتاب فى تونس الشيخ الجامعى ... »

وتبعا لثقافة المترجم الادبية يبدو أنه ثافن الادب الزجـــلى ان لم يكن نظم عـلى قوافيه ، كما يظهر أنه يعرف قواعد الشعر الملحون ، ويقـدر قيمته وبالخصوص مـن الوجهة التاريخية ، وسنكتشف هذا من اشارات وردت خلال شرحه لارجوزة الحلفاوى فى فتح وهران ، فهو يلاحظ عند تقديم قصيدة زجلية أنها على طريق كلام المشارقة (29) بينما يميز أخرى بأنها قصيدة عروبية من الملحون (30) . وعن قيمة شعر الزجل يقول أثناء كلام : «... كما ننقل – ان شاء الله – من النظم الملحـــون الذى قيل فى هذا المعنى ما تدعو الضرورة اليه ، وما فى ذلك من باس ، فانه فى هذا القطـر (الجـزائر) سان الكثير من الناس ، وقد عاب الحافظ ابن خلدون على كـير من مؤرخين عرب افريقية المستعجمة ، حيث تركوا رواية أشعارهم لمادخلها من اللحن والعجمة ، فكان فى ذلك تضييع أنسابهم وأيامهم ، وطمس أخبارهم وأعلامهم » (31) .



والآن نعرض مؤلفات المترجم فى شىء من التفصيل ، مع تخمين ترتيبها حسب التسلسل التاريخى لوضعها .

ونذكر ـ أولا ـ « شرح ارجوزة الحلفاوى فى فتح مدينة وهران » ، وقد جاءت هذه المنظومة المشروحة من 72 بيتا تتفرع الى خمسة فصول :

فى ذكر دولة الداى الجزائرى محمد بكداش .

وأنظمته العسكرية .

مع وصف حصار وهران .

وذكر مصير المعركة .

وخامسا : فصل ختامى : فى الثناء على المنعم الاعظم ، والصلاة على النبى المكرم ، وذكر اسم الناظم .

وتبرز أهمية هذا الشرح فى التعاليق التى تحلل الفصول الثلاثة الاولى وهى تستوعب معظم الكتاب ، مما جعل هذا القسم مصدرا هاما لسيرة الداى بكداش وفتح مدينة وهران عام 1119 هـ ، مع افادات اخرى عن حياة المؤلف ، وعن اسماء ادبية عاصرها بالقطر الشقيق . وقد جاء التنويه بهذا الشرح فى « التحفة المرضية » (32) ، ثم فى ذيل « بشائر أهل الايمان » (33) ، وكان من أوائل الذين اعتمدوه محمد أبو راس الناصرى المعسكرى (34) .

لا يزال هذا الشرح مخطوطا : فى نسختين بالمغرب والجزائر ، ونسخة ثالثة فى المكتبة العبدلية بتونس رقم 4454 ، ويذكر أنه مترجم الى الفرنسية . أما الموضوع الثانى للمترجم فهو رحلته التى تحمل اسم « التاج المشرق ، الجامع ليوافيت المغرب والمشرق » ، ولا تعرف الامن خلال اشارة المترجم لها فى موضوعه الذى يأتى ثالث هذه اللائحة .

وهو : « نظم الدرر المديحية فى محاسن الدولة الحسينية » : دولة الباى التونسى : حسين بن على بن تركى (35) . ولحد الآن لا يعرف هذا الكتاب بكامله ، والموجود شذرات منه اختلطت مع مختارات من ديوان الأديب الجزائرى : محمد بن محمد

المعروف بابن علي ، ومن غيره ، وتشتمل على الجميع قطعة ضمن مجموع ، ج. ع. ك. 1387 ، ص 66 ـ 134 .

وقد صدرت هكذا : « ومن رحلة الاديب ... عبد الرحمن الجامعي المغربي التي ترجمها بنظم الدرر المديحية في محاسن الدولة الحسينية » . ولاول مرة يبدو أن القطعة كلها مقتبسة من الرحلة الجامعية ، وبعد قراءة النص وتتبعه يتبين أن أكثره جنبي عن نظم الدرر المديحية ، والذى منها هو أقله ، وهنا رجعت الى الموجود من رحلة أحمد بن عمار الجزائرى ، وهى ـ بدورها ـ تقتبس بعض محتويات النص المشار له دون أن تحدد المصدر فى أغلب الحالات ، ومرة واحدة ينقل ابن عمار شذرات واردة ـ بعينها ـ فى هذه القطعة ، ويعزوها الى تاليفه : « لواء النصر ، فى فضلاء العصر » (36) ومن هنا قد نتبين أن القطعة المتكررة الذكر ، ماخوذة ـ بأجمعها ـ من كتاب ابن عمار ، وبهذا يترجح أن هذه العملية قد أدت الى معرفة قسم مهم من كتاب لواء النصر ، بعدما كان يعتبر مفقودا فيها أظن .

ومن الجدير بالذكر أن القطعة المعنية بالامر ، يوجد ببعض هوامشها تعاليق قصيرة بامضاء ابن عمار نفسه (37) .

والى هنا سنصل الى الموضوع الرابع والاخير للمترجم ، وهو الذى يقول عنه خوجة الحنفى (38) أواخر الترجمة الجامعية : « وله شرح على خطبة السعد البياتى » ، وواضح من هذا التعبير أنه يشير لشرح سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للقزوينى ، غير أن هذا ألف شرحين على التلخيص : مطول ومختصر ، وهذا ما لم يوضحه المصدر المشار له ،ويوجد فى فهرس مخطوطات المكتبة الاحمدية بتونس (39) ، ذكر شرح خطبة المطول على تلخيص القزوينى دون تسمية المؤلف ، فهل يكون هذا هو شرح المترجم المشار له ؟ .



وبعد هذا سنذيل هذه الدراسة بتقديم نماذج من أدب المترجم ، ونذكر ـ أولا ـ قصيدته فى غرض التهنئة بفتح وهران عام 1119 هـ :

تلت رسل البشائر يوم عيد ... علينا سورة الفتح السعيد

فأحيت من رسوم البشر رسما ... عفا بالشرك مذ زمن مديد

وأصبح وجه دين الله طلقا ... ووجه الكفر فى حزن الفقيد

ويا ربما تبسم ذا ازدراء ... بنا ويسومنا سوم العبيد

وقد نفذ الوعيد فكان عيدا ... لأهل الحق تنفيذ الوعيد

فيا حادى الرسائل مسفرات ... بفتح الثغر مستحلى الورود

بحقك ان وردت عليه قبل ... مباسمه عن الصب البعيد

وقل «وهران» يهنيك افتكاك ... وانفاذ من الأسر الشديد

لك البشرى وللاسلام أخرى ... بمنعك من يد الكفر العنيد

تذكر حيث كنت مناخ شرك ... فعدت مقام شكر للحميد

وكنت مقام تثليث فأضحى ... يقرر فيك توحيد المجيد

وبدلت النواقس فى الزوايا ... بآذان وذكر من مجيد

جزى جيش «الجزائر» كل خير ... اله الخلق ذو الملك العتيد

هم المستنقذوك وقد أحاطت ... بك الأعداء تطمع فى المزيد

وها أنت المجار فلست تخشى ... عداة الدين اخوان القرود

فقد ذهبوا وما يرجون عودا ... اليك فعش هنيئا فى خلود

وكيف وقد غدوا والرعب يجرى ... بهم بين الطريدة والطريد

ولولا الليل جنهم لاضحوا ... نهارا فى مغلغلة القيود

ولولا أنهم شردوا بليل ... لكان القتل أجدر بالشريد

وقد ظنوا بأن لهم نجاة ... بمربس الثغر من بعد الشرود

وهيهات النجاة لمن أحاطت ... به نار وبحر فى صعيد

ولو أغنى التحصن عن قتيل ... وحال السور من قدر المريد

بما فتحت بروجهم وهدت ... معاقلهم بصاعقة الرعود
ولو عقلوا لما لجأوا لشيء ... سوى دين التحية والسجود
وان لم يسجدوا لله طوعا ... لقد سجدوا بمصلتة الهنود
وان فروا ستدركهم قريبا ... بأندلس جنود من أسود
أسودغا بها السمر العوالى ... وموردها دماء ذوى الجحود
اذ اغرسوا الرماح جنوا سريعا ... ثمار النصر من ورق الحديد
عليهم من شدى الازهار أذكى ... سلام لا يعقب بالنفود
ختام (نده يهدى) الغوالى ... مؤرخ ذلك الفتح السعيد (40)

ويقرب من هذه الخريدة قصيدة أخرى للمترجم نقتطف منها ما يلى :

«لقد فتكت بالقلب فتك البواتر ... عيون الظباء الآنسات الجئاذر
وخذت بقد السمهرى حشاشتى ... ففاضت عيونى بالدما ومحاجرى
رعى الله ظبيا قد رعى حب مهجتى ... ولم يرع فى نجد عرارا وحاجر
وما زلت أرعاه ويحسب أننى ... أخون له عهدا فيصبح هاجرى
ويظهر احسانى اليها اساءة ... وبالعكس ما يبديه يبدو لناظرى
بذا حكم الحسن البديع له ولى ... وما حاكم الحسن البديع بجائر
وانى وان أبذلت عذرى فى الهوى ... فما عاذلى فيما أروم بعاذرى
أيحسن عذل فى ظباء عيونها ... ظبى شرعت فتك الأسود الخوادر
تهز قدودا فى دعوص (41) كأنها ... بنود تثنت فى جنود «الجزائر»
جنود بها الاسلام عزمنا له ... على كل جبار عنيد منافر
حموا بالصفاح البيض من كل عابث ... حماه فلم يعبث به كف فاجر
فكم كسروا ثغرا به كانت العدا ... تبسم فى وجه من الدين كاشر
فيا حادى الأظعان حث براكب ... يؤم حماهم رغبة فى الذخائر

وسربي الى ذاك الرباط فانه   ذخيرة ساع للجهاد وزائر
وانك مهما جئته جئت روضة   مؤرجة أرجاؤها بالازاهر :
ديار بني عثمان ـ حيث تألفت   ضباب ونور (42) ـ مستقر المسافر
بلاد برأس الغرب تاج مكلل   وخلخال سوق الشرق غير ضوامر
بدت بمنصات الزمان كأنها   عروس تجلت فى أعالى المنابر
وقد قلدت من بحرها بموشح   وصيغت لها الأمواج خلخال حاسر
ولاح بها باب الجزيرة مثلما   تبسم ثغر فى وجوه البشائر
كأن مجاز البحر معصم غادة   تحلى سوارا واكتسى بجواهر
ولله أبراج بشاطىء بحرها   تحاكى النجوم الزهر فى عين خازر
كأن الرياض الخضر محدقة بها   ذوائب أصداغ الوجوه النواضر
غصون وأنهار وتلك لهذه   تجن فتحنو لاستلام الغزائر
فتبدو وقد حاك النسيم برودها   نصال رماح فى زرود مشاجر
ولله ما ضمته من كل منظر   حلاوته ما مر تلفى بخاطر
فدعنى من غرناطة وربوعها   وشنيل فالحسن انتهى للجزائر
فما تفضل الحمراء بيضاء غادة   مقرطفة (43) بالبدر ذات غدائر
ومن لربوع بالجمال وقد غدت   كخط زبور فى قديم الدفاتر
وهذه ربوع حاطها باحاطة   مؤلفة من ستره خير ساتر (44) »

وبعد القصيدتين الوهرانيتين ، ها هى مختارات من رحلة : «نظم الدرر المديحية ... »

« ... فأما مدينة فاس عمرها الله بدوام ذكره ، وأمنها من مكره ، وان كانت الدخائر اليها ترفع وتجلب : فالعلم ـ خصوصا الادب ـ كنز من غير أساس جدارها لا يخرج ولا يطلب ، وقد كنت ألفت بها عيون أعيان ممن يشار اليهم فى البيان بالبنان ، ألمنا بذكر بعضهم فى رحلتنا المسماة « بالتاج المشرق ، الجامع ليوافيت المغرب والمشرق » كمل الله ترصيع تاجها بلثا الحرمين ، وجمع فيها ما تفرق فى البرين والبحرين .

وأما مدينة الجزائر ، فأول بلد لقيت بها مثل من فارقته من أدباء بلدى ، وبهـا تذكرت بعض ما كان نسيه خلدى ، لاجتماعى بها بالأديب الماهر ، الدال وجوده على صحة القول بوجود الجوهر الفرد فى سائر الجواهر ، أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، محيى طريقة لسان الدين ابن الخطيب ، الامام الخطيب ، بن الامام الخطيب ، بن الامام الخطيب ، ذى القدر العلى ، أبى عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن على (45) ، أبقى الله وجوده بالألطاف محفوفا ، وبالنفحات الأدبية منفوحا متحوفا .

رأيته أول ما لقيته وأنا لا أعرف مسماه ، فرأيت صـورة تدل على حقيقة الأدب ومعناه ، فبادرنى بسلام يوذن بعرفان سابق ، ويشهد بحب لاحق ، فشاهدت منه لطافة لو تجسدت لكانت ماء زلالا ، وعاينت فيه ظرافة لو تعللت لـود النسيم أن يكون لهـا اعتلالا ، فتصافحنا مصافحة الاغصان والانهار ، وافترقنا وقد تحاتت ذنوبنا تحـات ورق الاشجار ، ثم انشد بعدما بنفسه عرفنى :

رقـة الجسـم واهتزار القضيب	خبـرا منـك عن أغـر نجيب
أدب بيننـا تـأكـد منـه	نسـب والأديـب صنـو الأديـب

والبيتان انشرهما الشهاب القاضى الافاندى عند لقاء شيخ شيوخنا أبى العباس المقيلدى ، بالقاف المعقودة بالكاف (46) ، فحضرنى – بعد انشاءه ما ذكر – فى الحـال قول من قال ، وأظنه من مقولاتى ، لا من منقولاتى .

واذا الاديب مـع الاديب تزاكرا	كـانـا مـن الاداب فى بستـان

ثم افترقنا بعد الـدعاء والفاتحة ، على أن لا تكون خاتمـة – ان شاء الله – لهذه الفاتحة ، ثم بعث لى بعدما فارقنى قصيدة له ، نسجت على منوال رائية ابن زمرك التى مطلعهـا :

نفسى الفداء لشادن مهما خطر (47)

تخيرها من حر كلامه ، وبعثها الى لأقف على محلة من البلاغة ، وأعرف قـدره بين أرباب البراعة ، اذ كرها هنا ليعرف الواقف عليها أن بالسويداء رجالا ، وأن بالزوايا خبايا ، وهى هذه :

بأبي غز الاسيف مقلته شهر — قاسيت فيه من الصبابة ما اشتهر
خنث الكلام ولا تخنث غادة — قمرية الاوصاف خامرها الخفر
بعث الصدود الى المنية باعثا — فاذا على قضى تنصل واعتذر
يدنو وينأى مثل ما ألف الرشا — حذرا فان رمت الوثوب به نفر
طعن الفؤاد بسمهرى قوامه — وبصارم الالحاظ صال ولا مفر
عجباله رشأ تحكم فى الهوى — خفقت له الأحشاء واصل أو هجر
ما لاح ينتهب القلوب جماله — الا وقال الناس ما هذا بشر
فضح الغزالة واللثالىء والنفا (48) — مهما تطلع أو تبسم أو خطر
من لى به قمرا قضى قمر السما — بالحسن ـ مقتصرا ـ لطلعته وقر
يبدو مرصع خده كز برجد — قد سال فى صفحات هاتيك الدرر
عاصيت فيه عواذلى وأحلت ما — ألقاه من حكم الغرام على القدر
وأنا الذى جهل الحقيقة أولا — فأجال بادرة اللحاظ وما شعر
فارقت فيه نفائستا وجنيت من — به وساوسا ورويت عن طرق الفكر
والعشق ربتما يلذ به الفتى — وهو الجهول بما سينتجه النظر
حتى اذا عكفت عليه رياحه — ولى وقد ألف الكثابة والسهر
يا روضة ما كنت أحسب ظلها — يضحى ودمعى فى جوانبها نهر
مسح ـ فديتك ـ ماء جفنى انه — مهما استمر على منابته أضر
ولقد علمت بأن حبك قاتلى — لكن اذا نفذ القضا عمى البصر
فأرحم عزيزا مات فيك صبابة — وغنى قوم للخصوم قد افتقر

وكنت بعدها ما نصه : فليطالعها مولانا بعين الشفقة الادبية فانها من حر الكلام ، الذى اتبعت فيه الخواطر ، والسلام .

قلت : لو حكمت فى قوله : للخضوع ، لقلت بر له : للسؤال ، للمناسبة اللفظية والمعنوية (49) .

ولما راقتني بدائع هذه القصيدة ، خاطبته عنها بقولي ، وان كان دون طوله مرماي وطولي .

اخمائل الازهار هبت في سمر	أم نفثة من شاذن عقلي سحر
ام نفحة سحرية من نشرها	نشر النسيم عن الهوى طي الخبر
بل غادة ضربت عبير خمارها	بمقطر الهندي في ماء الزهر
وغدت تجر ذيولها حول الحمى	فتارجت دارين من ذاك المجر (50)
اكرم بها من غادة لؤانها	لم يكسها انسان عاشقها الخفر
خطرت وبين وصالها وغريمها	بحر الهوى فركبت فيه على خطر
ورمت لنا عن وجه صبح مسفر	ليل الخمار فقلت ما هذا بشر
بل دوحة مطلولة بل قطعة	شعرية ماء البديع بها انهمر
وافت تذكرني الصبا فأجبتها	اني وحقك لي بعيش قد غبر
ما شمت بارقه لرشف عذيبه	الا وكان عقيق دمعي لي مطر
وأتت تعاطيني حديثا دره	نشر القضا من لبقي فيما نثر
ايه فديتك هاته وكأنه	كاس العقار متى تلذ به عقر
ومتى يصخ سمعي اليك فغنه	بأبي غزالا سيف مقلته شهر
هذا الذي ارضى وحقك في الهوى	نظما يشرف في النحور على الدور
ما كل من نظم القريض موفيا	لحقوقه في عين من عرف النظر
ودليله انشاد ذاك وقوله	نفسي الفداء لشادن مهما خطر (51)

ومن هذه الرحلة الجامعية بعد كلام كثير ما نصه : وقد اعتقدت السفر اعتقادا جازما ، والغيث من العوامل ما كان لفعله جازما ، الا أني لم ازل أقدم في ركوب البحر رجلا واوخر أخرى ، حتى رأيته ــ لقصور النفقة ــ بي أولى وأحرى ، فاستبدلت الفجاج والعجاج ، بالتجاج العجاج ، واقتحمت امتطاء مطى كافر (52) جامح للسلامة غير جانح ، ونسيت ما قال فيه ناعته ، لا يستغرب من البحر الا سلامته ، لا جرم أن الدرلا

يلتقط دون غوص البحار ، ومن استسهل الصعب ادرك المنى ، ودون اجتناء العسل ما جنت نحله ، ولا يقطف الرطب الا من شاكه نخله ، فركبنا من مرسى الجزائر حرسها الله على بلقاء حاتمه الجؤجو والاضلاع ، ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يلعب بها الريح فتطاوعه مطاوعة لاراكة للنسيم ، ويسقم بها الصحيح فلا يتمكن من التسقيم ، كأنها حبشية (53) تصارع من عباب البحر ثعبانا ، وكان شراعها شيب فوديها مما أذا قهاعتوا وطغيانا ، فأمهلتنا ريثما قرأنا آية نوح ، وطفق من أحرقته من الاحباب لوعة البين ينوح ثم مدت أجنحتها للدبور الهبوب ، وطارت بالاجساد وخلفت القلوب ، فبقيت بأيدى المودعين خافقة الجوانح ، كما انتفضت الطرائد فى مخالب الجوارح ، فانشدت فى ذلك أقول ، وهو فى معناه من بديع المقول :

أعان على البين والبين قاتل	غراب ولكن بالشراع يطير
من الزنج بيض السوابق سابق	لا غربة الاعراب حيث يسير
لعمرك ما مد النوى وأطالها	سوى الفلك فى نج البحار تخور
وليس غراب البين الا غرابها	ولا ذنب عند العيس حين تثور
فكم بين مرجو اللحاق وسابح	يسير فلا يرجو لقاه مغير

فلم يزل الهوى يحفضنا تارة وتارة يرفعنا ، ويدفعنا طورا الى الهلاك ومنه حينا يمنعنا ، حتى هيج من البحر عبابه ، وقد أقام الليل عمود بيته الاسود وأرخى اطنابه ، فبتنا بين محوقل وداع ، ورافع صوته بالاستحلال والوداع ، حتى انقض بازى الصباح وكسر من غراب الليل القوادم والجناح ، فصار البحر يسكن بنا تارة وتارة يموج ، وطورا يميل بنا الى حيث يميل الانس ويعوج ، حتى امتد من نوع شمس أصيل اليوم الثاني مرءى بهيج ، وكأن ماء البحر ذائب فضة سال فيه من النضار خليج (55) ، فاطللنا على اطلال بونة ، ثم رأينا بيوتا انتظمت ذات محاسن غير منهوكة ولا مخبونة ، أوجدنا الله برؤيتها من العدم ثانيا ، وخرجنا من البحر اليها خروج الجنين من الرحم وانيا ، قد خلتها ، اما دار الشيخ الربانى ، العالم العرفانى الذى ينيت فى هذه الرحلة المباركة على قواعد بركته أساسى ، أبى العباس احمد بن الولى الصالح ، البر الناجح ، أبى عبد الله قاسم ، ابن الولى الصالح ، أبى عبد الله محمد المعروف ساسى ، رحم الله

عددهم ، وقوى مددهم ، فتيسر فى الحال لقاؤه ، ودل على فرحه بعلاقاتى مبالاته واعتناؤه فحيى ، طلق المحيا ، وانزلنى بمنزل لاكرم أضيافه عليه مهيا ، فأقمت عنده ينزهنى كل يوم فى رياض تآليفه الحديثية وغيرهما ، وينثر على كل ساعة من فرائد فوائره ما تبخل به على الغائصين قعور بحرها ، وكنت أحضر اثناء تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه ، مع مشايخ بلده وولديه ، ومما رويت عنه فسح الله فى أجله وأسهب ، أن تآليفه بلغت ما ينيف على المائة ما بين مختصر ومسهب ، ولما وقفت منه فى علم الحديث على البحر العباب ، والعجب العجاب ، سألته الاجازة فيما وقفت عليه وغيره من تآليفه (56) ، بقصيدة مستشير اله فيها مع ذلك فى شأن هذه الرحلة المباركة لهذا الامير المبارك وجب على ذكرها هنا لذلك فقلت :

عن حديث العزول سمعى عدول	وشهود الغرام فيك عدول
مرسل الدمع واصطبار ضعيف	وفؤاد مقسم وعليل
لم أزل لك يا عزيز ذليلا	وقبيح جفاك عندى جميل
صل ولا تهجر المحب والا	طاب لى لسواك عنك الرحيل

واذا ما عضلت انى لداطب لداء العضال منك نزيل

شيخ بونة أحمد الحبر ذى الفهم الذى يرتقى اليه النهيل

وأرخى البزل والتفضل والجو	د على من به يضيف السبيل

ان تشا الصدق فيه : بونة مصر وبحر نداه والعلم نيل

ذو تآليف ذات نظم ونثر	وسناد علا ونقل يصول
برعت اذ سعت لاحياء دين	بأحاديث صححتها الفحول

سيرة المصطفى وأصحابه الغر عليه الصلاة ما قيل قيل

وعلوم بها الى الله يدرى	طرف الرشد من مناه الوصول

ببراهين كالسيوف على الاعداء وهى لطالبيها الاصول

يا اماما به أعالها الله علموما بها يطاع الرسول

لك خضت العباب مقتبا من	نور علمك والزمان بخيل
فامسحن باجازة بعد سرد	للنهاية اذ سواها يطول
وأعمل الفكر بعد ذا في شئوني	فهي شيء له تطيش العقول
ولتشر بالذي بدالك فيها	فعلى لما نشير القبول
وعليكا السلام ما قال صب	عن حديث العزول سمعي عدول

ومن نفس المرحلة عن مدينة تونس : فلم أزل أسير في عمارة متصلة المسارح والمزارع ، مأمونة المراتع والمرابع ، الى أن أشرفنا على منازل الخضراء في اليوم الرابع ، فرأينا مرئى تقف دون وصفه الاقلام والالسن ، فيه ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين : أبراج لها في سماء الحسن طلوع وشروق ، محفوفة ببساتين يطيب فيها الصبوح ويحمد لها الغبوق ، في أرض كأن ترابها مسك وزعفران ، نشر الربيع عليها مطارف خزه وكلل على رؤوس هضابها التيجان ، ذات دواليب تثير أفلاكها من تخوم الارض عذبا زلالا ، وتنثر جواهره فتستحيل في مجاريها صلالا ، فلما سرحت طرف طرفي في ميادين هذه الربوع الرابعة ، وأجلته في مجال أبراجها الشاسعة الواسعة ، رأيت برجا ملأ الفضاء ارتفاعا وامتدادا ، وزاحمه قبة الجوزاء فكان لها عمادا ، فعلمت أنه منزل صاحب السعادة الابدية ، ودار أمير الحضرة العلية ، فكبرت اجلالا وتمجيدا ، وانشدت مخاطبا لنفسي تبشيرا وتجريدا (57) :

خليلي هذي تونس وديارها	دنت بعدما قد شط عنك مزارها
وهذي ربوع طالعا كنت تشتهي	تواصلها بانت فبان نفارها
سريت لها هل تحمد اليوم عندها	سراها وهل يثني عليك قرارها
وخضت لها بحرا عميقا ومن يغشا	الجواهر لم تعظم عليه بحارها
وخاطرت في أخطار بيداء لومشت	بها الغول يوما أفزعتها فقارها

وسنجتزي بهذه المطالع من القصيدة التونسية ، لنختتم مقتبسات الرحلة الجامعية بفقرة عن الاديب التونسي محمد الوزير السراج ، وهي تبتدىء هكذا :

« ... وفى اليوم المذكور ؟ جمع الله بينى وبين ناظم الحضرة وناثرها ، أديبهـا الذى أحيا الله به من رياض الادب مواتها ، وأجرى بها من بلاغته نيل محاسنها وفراتها وشد له سروج الالفاظ على متون جياد المعانى فركبها ، وبسط به جواهر بدائع المحسنات فى صدور الطروس وركبها ، الاديب الشهير، أبى عبد الله محمد بن محمد الملقب بالوزير المعروف بالسراج ، أدام الله بوجوده الابتهاج ، فوقعت بيننا ـ بعد التعاون ـ مذاكرة قامت لها سوق الادب على سوقها ، وتبايعنا فيها مبايعة لا نزال ـ ان شاء الله ـ قائمين بحقوقها ، فكنت بعد ذلك أزوره بدكانه ، لاتنزه فى بيانه وبنانه فلم يزل يونس وحشتى ويسلى غربتى ، حتى قدم الامير ـ نصره الله ـ من غيبته ، واستهل هلال طلعته فى سماء حضرته ، وكان ذلك أوائل محرم سنة 1123 ... » .

التعـــاليـــق

1) انظر عن هذا القبيل وتفرغاته : مخطوطة (ارجوزة الافنوم) للفاسى ، عند باب : العرب المستعجمـة من بادية زماننا .

2) (ذيل بشائر أهل الايمان فى فتوحات آل عثمان) ، للمؤرخ التونسى : حسين خوجه الحنفى ، المطبعة الرسمية بتونس ، عام 1326 هـ/1908 م ـ ص 165 ـ 166 ، مع الرجوع الى مخطوطة نفس المصدر ، بالمكتبة رقم 9153 .

3) (شرح المترجم لارجوزة الحلفاوى فى فتح مدينة وهران) ، وهو مخطوط سنتحدث عنه من بعـد : نسخة خاصة ـ ص 115 مع ص 85 .

4) ورد النص الكامل لهذا المكتوب فى : (التحفة المرضية ، فى الدولة البكداشية) ، تاليف محمد بن ميمون الجزائرى ، وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم ، نشر دار الثقافة ببيروت ـ ص 196 ـ 198 .

5) هذا التاريخ يستفاد من رحلة المترجم المعنونة « بنظم الدرر المديحية » ، وسيرد التعريف بها ، مـع عرض مقتطفات منها فى ذيل هذه الدراسة .

6) انظر عن هذا الحادث : مقدمة (التحية المرضية) ـ ص 31 .

7) (ذيل بشائر أهل الايمان) ـ ص 66 .

8) المصدر الاخير ـ ص 246 .

9) وردت الاشارة الى مطلع هذه المرثية : فى « فهرس مخطوطات المكتبة الاحمرية بتونس » نشر دار الفتح ببيروت – ص 60 .

10) (شرح المترجم لارجوزة الحلفاوى) : نسخة خاصة – ص 115 .

11) سيرد فى ذيل هذه الدراسة طائفة من مختارات أدب المترجم الذى صدر عنه وهو بمدينة الجزائر ، وانظر عن مصادر ترجمة ابن علي : التعليق رقم 45 .

12 (شرح المترجم لارجوزة المذكور) : المخطوطة المتكررة الذكر – ص 3 .

13) (المصدر الاخير) – ص 53 ، وانظر عن ترجمته « شجرة النور الزكية » – ص 334 .

14) نفس المصدر ، ص 44

15) (نظم الدرر المديحية) للمترجم ، فى فقرة سيرد نصها بذيل هذه الدراسة ، وقد نقـل بعضها فى « فهرس الفهارس » بمناسبة ترجمة البونى – ج 1 – ص 169 – 172 ، وانظر عن ترجمته – أيضا – (شجرة النور الزكية) ، ص 329 – 330 .

16) ص 184 – 187 .

17) انظر المقتطفات الواردة بذيل هذه الدراسة من نظم الدرر المديحية للمترجم ، مع ذيل بشائر أهـل الايمان – ص 167 ، وانظر عن ترجمة الوزير السراج ومصادرها مقدمة الطبعة الجديدة لتاريخه : (الحلـل السندسية) ، الدار التونسية للنشر ، الجزء الاول القسم الاول – ص 36 – 124 ، ويحسن أن يضاف لهذه الترجمة ما جاء عن الوزير السراج ، فى المعروف عن نظم الدرر المديحية للمترجم .

18) ذيل بشائر أهل الايمان – ص 165 – 167 .

19) ترجمته فى « سلوة الانفاس » ج 1 – ص 372 – 373 ، حيث يرد اسمه هكذا : عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الرحمن بن عمران السلاسى .

20) يظهر انه يشير لمحمد – بفتح أوله – بن ادريس العراقى الحسينى الذى توجد ترجمته ومراجعها فى سلوة الانفاس ج 2 – ص 28 – 29 .

21) ترجمته فى المصدر الاخير – ج 2 ص 30 – 31 .

22) ترجمته فى « نشر المثانى » – ج 2 ص 134 – 135 .

23) الصواب احمد بدل محمد ، وهو ابن العربى بن سليمان الغرناطى ثم الفاسى ، حيث توجد ترجمتـه ومرجعها فى « سلوة الانفاس » – ج 1 ص 291 – 292 .

24) « نفس المصدر » – ج 2 ص 348 – 350 .

25) هكذا ورد نسبه – بالفاء – فى مخطوط المكتبة الملكية من هذا المصدر ، وفى المطبـوع ورد الهـلالى بالهاء ، والغالب ان الكل تصحيف عن الدلائى ، وهنا نتساءل ، هل المعنى بالامر هو محمد بن محمد الشاذلى الدلائى ؟ وقد اثبت الكتانى ان مدفنه بفاس حسب سلوة الانفاس – ج 2 ص 89 .

26) ترجمتـه فى نشر المثـانى – ج 2 ص 117 .

27) ترجمته ومراجعها فى « سلوة الانفاس » – ج 3 ص 180 .

28) « الكتاب الذهبى لجامعة القرويين بمناسبة ذكراها المائة بعد الالف » – ص 222 – 223 .

29) شرح ارجـوزة الحلفاوى : المخطوطة المتكررة الذكر – ص 41 .

30) المصدر الاخير – ص 120 . 31) نفس المصدر – ص 8 . 32) ص 259 . 33) ص 167 .

34) « الخبر المعرب عن الامر المغرب ، الحال بالاندلس وثغور المغرب » ، عند اوائله .

35) انظر عن دولته : اتحاف أهل الزمان لابن ابى الضياف المطبعة الرسمية بتونس – ج 2 ص 85 – 116 .

36) « نحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب » ، مطبعة فونتانة فى الجزائر ، عام 1323هـ/1904م – ص 40

37) انظر ص 93 ، 95 ، 99 من القطعة المشار لها .

38) ذيل بشائر أهل الايمان ـ ص 167 .

39) ص 196 ـ 197 .

40) التحفة المرضية ـ ص 260 ـ 261 .

41) في القاموس : « الدعص بالكسر ، وبهاء : قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب منه المجتمع ، أو الصغير » .

42) قد يكون ما هنا تصحيف عن تالقت قباب بالقاف في الكلمتين .

43) يبدو ان الحيراء في هذا البيت تصحيف عن الحمراء بالميم ، والقرطفة القطيفة التي لها خمل .

44) التحفة المرضية ـ ص 187 ـ 192 .

45) الى جانب مستفادات هذه القطعة التي نعلق عليها ، انظر عن ترجمة ابن علي : « رحلة ابن عمار » المطبعة الآنفة الذكر ـ ص 35 ـ 85 ، مع مقتبسات يسيرة منها : في كتاب « تعريف الخلف برجال السلف » ، تاليف ابي القاسم محمد الحفناوي ، مطبعة فونتانة بالجزائر ـ القسم الثاني منها ـ ص 86 ـ 87 .

ومقتبسات أخرى من نفس الرحلة مع اضافات جديدة : في كتاب « صفحات في تاريخ مدينة الجزائر » تاليف نور الدين عبد القادر ، مطبعة البعث بقسنطينة ـ ص 196 ـ 198 و ص 200 ـ 203 .

46) القاضي الافاندي : هو قاضي القضاة شهاب الدين الخفاجي المصري أحمد بن محمد بن عمر الحنفي ، حسب ترجمته في « خلاصة الأثر » ـ ج 1 ـ ص 331 ـ 343 ، اما ابو العباس المقيلدي : فهو أحمد بن سعيد قاضي فاس الجديدة وغيرها ، انظر عن ترجمته ومراجعها : (سلوة الانفاس) ـ ج 3 ص 206 .

47) قصيدة ابن زمرك ـ المشار لها : أثبتها ابن عمار في رحلة ص 86 ـ 87 ، وقبله ذكرها المقري في كل من ازهار الرياض ج 2 ص 122 ـ 125 ، مع نفح الطيب المطبعة الازهرية المصرية ـ ج 4 ص 325 ـ 327 .

48) النفا بفتح أوله مقصورا : الكثيب من الرمل المجتمع الأبيض .

49) بعد هذه الفقرة بالذات تنتقل القطعة التي نعلق عليها الى موضوعات أدبية أجنبية عن الرحلة الجامعية، وبعد فصل كثير تاتي قصيدة المترجم في الرد على زميله الجزائري ، وقد أثبتت هنا اثر الاولى اعتبارا بالاتصال الواضح بين موضوعي القصيدتين .

50) دارين اسم لموضعين : بالشام ، وبالبحرين ، والمراد ان نشر ذيولها يفوح الى الجهات البعيدة .

51) ابتداء من قول هذه القطعة واما مدينة الجزائر ، الى هنا : كله ورد عند ابن عمار منسوبا الى رحلة الجامعي ، حسب نحلة اللبيب ص 81 ـ 85 ، ومن الجدير بالذكر ان هذه القصيدة الاخيرة والتي قبلها ، وردتا في هذا المصدر متصلتين دون فاصل اجنبي بينهما .

52) الكافر من اسماء البحر .

53) في القاموس : والحبشية من الابل الشديدة السواد .

54) يقصد بذكر الزنج ان معظم المركب كان لونه السواد ، وقوله سابق لأغربة الاعراب : اشارة الى ان هذا المركب كان للافرنج .

55) تلميح الى لقبين عروضين : فالبيت المنهوك هو الذي ذهب ثلثاه ، والخبن : حذف ثاني الجزء ساكنا .

56) من قول هذه القطعة : فدخلتها آما دار الشيخ ، الى هنا ، ورد نقله ببعض تصرف ـ في « فهرس الفهارس » ج 1 ص 169 ، غير ان هذا المصدر يجمع في نسبة هذه الفقرة بين رحلتي المترجم : (نظم الدرر المديحية) و (التاج المشرق) ، فهل وقف مؤلف فهرس الفهارس على رحلة التاج المشرق ؟

57) تلميح الى التجريد ، من المحسنات البديعية المعنوية ، ويتمثل هنا حيث جرد الشاعر من نفسه شخصا يعيش في مثل وضعيته ، وصار يخاطبه .

صلة إسرائيل بأرض فلسطين

صلة قوم تابعين وعالة غيرهم طول حياتهم

د . محمود دياب

لم يكن لليهود كيان مستقل فى أى عصر من عصور التاريخ لهم الامر فى فلسطين كلها فى أزهى عصورهم وهو عصر داود وسليمان وكان الفلسطنيون وهى التى تسمى فلسطين باسمهم نزحوا كشعب يعرف بهذا الاسم الى هذه الارض بعد مجىء الكنعانيين اليها من جزيرة كريت وسكنوا الساحل الجنوبى الغربى من فلسطين وهو المنطقة المحصورة بين غزة ويافا وكان الكرمل يفصل بينهم ، وبين الفينيقيين فى الشمال .

وفلسطين قد سكنها منذ 2500 ق . م لميلاد قبائل سامية نزحت من جزيرة العرب عرفت باسم الكنعانيين وسميت أرض كنعان ولانها أراض واطئة .

وسميت كذلك للتفرقة بينها وبين جزء آخر من هذه القبائل سكن لبنان وسمى بالفينيقين . وفى هذا الوقت نزح ساميون آخرون الى العراق وكونوا البابليين ونزح آخرون الى الشام وهم الأموريين .

وبالنظر لوقوع الاموريين فى الشام .. والكنعانيين فى فلسطين بين دول عظيمة فى وادى الرافدين (البابليين والأشوريين) فى جهة الشرق وبين مصر من جهة الغرب .

بالاضافة الى وجود الحبشيين فى الشمال فكانت هذه الدول تتحارب مع بعضها فى ميدان كان هو فلسطين والشام ولذلك لم يتسن للاموريين والكنعانيين الوقوف امام دول كبيرة وانما اقاموا دويلات غرار دول المدن الكبرى .

علاقة اليهود بفلسطين :

يحدثنا التاريخ ان ابراهيم عليه السلام هاجر ونفر من قبيلته من أور الكلدانية فى جنوب العراق الى أرض كنعان حوالى 1800 ق . م واقام خيامه فى وادى .. الاردن ثم اجريت الارض وهاجر الى مصر ولا داعى لترداد ما جرى له من فرعون الذى اكتفى باهدائه هاجر كهدية له مع هدايا أخرى من ابل وخلافه وولد له منها اسماعيل الذى ذهب به الى مكة وهناك بنى البيت العتيق .

وولد له اسحق ويعقوب الذى ولد له 12 ولدا . كان احدهم يوسف الذى وصل الى منصب كبير لدى فرعون وهاجرا اسرائيل (يعقوب) الى مصر التى انزلتهم منزلا رحبا حتى عضوا اليد التى اطعمتهم من جوع وكانوا جواسيس للهكسوس على المصريين .

فلما اتاح الله لمصر الاستقلال وثبتت خيانة اليهود لهم اضطر المصريون لمساءلتهم عما جنته يداهم ، وخرجوا من مصر على يد موسى عليه السلام .

ولم يدخل موسى أرض فلسطين وانما دخلها يوشع ابن نون .

ويقدر اليهود الذين خرجوا من مصر بحوالى ستة آلاف الى سبعة آلاف (فيلب حتى تاريخ بوريه الاكليزية) جى 179 وطه باقر مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ج 2 ص 285 .

ولما مات يوشع ابن نون تولى امر اسرائيل رؤساء فرفوا بالقضاة (1130 ـ 1020 قبل الميلاد) .

وكان عهدهم عهد حروب مع جيرانهم من الفلسطينيين والكنعانيين وتولى أمرهم شارول (طالوت) الذى هزمه جالوت وقتل طالوت وتولى مكانه حامل ذرعه داود (1000 ـ 960 ق . م) واستولى على القدس (بيرس) وسكن حولها سبطان من اليهود هما (يهوذا بنبامن) والعشرة الاسباط الاخرى سكنت الشمال .

وتولى سليمان الملك (960 – 935 ق . م) وهو الذى ينىفى القدس هيكلا لاقامة الطقوس الدينية وبناه على طراز كنعانى وامده بالخشب المستعمل فيه حيرام ملك صور الفينيقى .

وتولى ابنه حيعام الملك بعده ورفض الاستجابة لتخفيف الضرائب عن شعبه فاستغل الاسباط القسرة وكونوا مملكة فى الشمال تسمى اسرائيل مستعينين فى ذلك بملك مصر وجعلوا عاصمتها نابلس .

وهنا قامت دولة يهوذا فى الجنوب واستمرت الحروب بينهما فى منطقة نابلس والقدس .

وقامت الامبراطورية الاشورية فخضعت الدولتان ودفعتا الجزية .

ولقد رفض ملك اسرائيل هوشع دفع الجزية بعد ذلك للاشوريين بتحريض من مصر فهاجمه شلمقر الخامس وحاصر السامرة (وكانت قد اصبحت عاصمة بعد نابلس (شكيم) وفتحها خليفته سرجون (721) ق . م وأسر سكان زهاء 280 وأخذ أسرى واحل محلهم قوم آخرون .

وهكذا انتهت مملكة اسرائيل فى الشمال .

اما مملكة يهوذا فقد عاشت بعد زوال مملكة اسرائيل 135 سنة ودفنت الجزية للاشوريين .

ولما ضعف لاشوريون كانت تحت رعاية مصر .

وعين ملك مصر (نيمو) ملكا ليهوذا وانحـاز الاخـير الى مصر اثناء حربهـا مـع البابليين فأزال بيوخذا نصر دولة يهوذا من الوجود وأخذ اليهود اسرى الى بابل · (586) قبل الميـلاد ·

وهذا ولم تقم دولة داود وسليمان (وهى أوسع ما وصل اليه اليهود) فى أى وقت من الاوقات كل فلسطين ولم يشغلوا سوى منطقة التلال الداخلية وبقى الفلسطنيـون يسكنون الساحل الجنوبى الغربى من غزة الى يافا وكان يشغل الجزء الشرقى (الادوميون ـ الامويون ـ المؤبيون) ·

وهذا ثابت فى الخريطة التى رسمها (سمث) لمملكة داود والتى نشرها فى كتابـه (الله والانسان فى يد اسرائيل) صفحة 87 تبين المنطقة التى تكشف لها مملكة داود على الوجه · وجاء بالتحديد فى كتاب (ويلز) لا يستطيع أحد أن يقول ان أرض الميعاد كانت يوما فى قبضة العبوانيين تماما ·

ولقد اضاف اليهود مبالغات فى وصف ملكهم ومملكتهم ايام داود وسليمان بقصـد الدعاية وبقصد اثبات حقوق لم تكن لهم ولن تكون لهم يوما باذن الله ·

وهذه الدويلة اذا شئنا التسامح واسميناها دويلة لم تكن مستقلة يوما من الايام ولم تكن فى الواقع الا تابعا لاحدى الدول الكبيرة المحيطة بها فمرة تتبع اشور وبابـل ومرة تتبع مصر حتى صور وسورية

وكان داود بحكم فى اول أمره بصفته تابعا للفلسطينيين قبل أن يتمكن من احـراز الاستقـلال ·

وحتى فى عهد الاستقلال الاسمى ·· يقول ويلز (ان داود وضع نفسه فى حمايـة حيرام ملك صور فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه) واما سليمان ابنه فلم يتجـاوز منزلة المعاون للملك التاجر حـيرام ·

(كتاب تاريخ معالم الانسانية جـ 2 ص 249 ، 252) ·

وجاء أيضا فى كتاب ويلز (موجز تاريخ العالم) ترجمة عبد العزيز توفيق جـاد من سلسلة الالف كتاب صفحة 93 ·

ان سليمان لم يكن وهو فى اوج مجده الا ملكا صغيرا تابعا بحكم مدينة صغـــيرة وكانت دلة من الهزال وسرعة الزوال بحيث انه لم تنقض بضعة اعوام على وفاته حــتى استولى شنق ملك مصر اول فراعنه الاسرة الثانية والعشرين على اورشليم ٠

ولم يخلف بنو اسرائيل أى اثار حضارية ٠ وليس هناك أى ثـراء فى التاريـــخ العبــــرى ٠

والهيكل الذى بنى فى عهد سليمان فانه على ضآلة لو اخذنا اطواله لامكن وضعــه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى (موجز تاريخ العالم ص 93) وبناه عمـــال فينيقيون واخشاب الارز من لبنان ٠

وبنى على طراز كنعان حتى اسم هيكل مأخوذ من كنعان ٠ ولقد اعاد ملك الفــرس اليهود الى القدس عام 528 ق ٠ م ٠ لانهم عملوا كجواسيس له واستمروا تابعين حتى ازالتهم تينوس الرومانى فى سنة 70 ميلادية ٠

اما صلة العرب بفلسطين فهى دائمة ٠

ان جميع القبائل التى نزلت أو مرت بها سواء كانت كنعانية أو فينيقية فو بابلية أو شورية أو كلدانية أو مصرية هى عربية سامية ٠

ولقد عشنا طول عمرنا فى هذه الارض ٠ واذا كانت الصهيونية العالمية تريد ان تفرق بيننا وبين اليهود الاصليين فهم ليسوا منها ٠ فاليهود الاصليون ابناء عمومتنـــا أما اليهود الحاليون الذين يدينون للصهيونية العالمية بالولاء فليس لهم صلة بنا ولا باليهود القدامى ٠ فلقد كان اليهود القدامى يعيشون فى كنف مصر طالما هى قوية فاذا زالت قوتها زال من الوجود الكيان اليهودى كله ٠

ولما كان العرب فى قوتهم كان لليهود وجود فى كل مكان حل به العرب واباحـــوا لهم ما لانفسهم باعتبارهم اهل ذمة واهل كتاب ولما تقلب الاسبان على المسلمـــين فى الاندلس رحلوا الى مراكش مع باقى المسلمين ٠

أردت فقط بكل ذلك ان ادلل ان داود وسليمان عليهما السلام لم يتعد منطقــة القدس ونابلس ولم يستمر حكمها غير 70 عاما وفى هذه المدة كانا تحت حماية حيرام ٠

وبذلك يمكن القول بان فلسطين لم تخلص لليهود القدامى فى يوم من الايـــام ولم تخلص لليهود الصهيونيون الآن فانهم قوم تابعون يشتغلون بالجاسوسية لاقـــوى أمة حتى تهيء لهم مكانا بينها فعلوا ذلك مع فرنسا أيام نابليون .. ومع المانيا أيـــام غليوم وفعلوا ذلك مع بريطانيا حتى اخذوا وعد بلفور واقاموا بأسرائيـــل سنة1949 ، بمساعدة بريطانيا ومندوبها المسامين الذين كانوا خدما للصهيونية العالمية .

ويفعلون ذلك مع أمريكا وهم يصرخون كل يوم طالبين العون والمساعـــدة منهـــا بطائرات الفانتوم واسكاى هوك .

فهم قوم تابعون وسيعيشون طول عمرهم عالة على غيرهم وعلى العالم حتى يأتى أمر الله بزوالهم وهذا اليوم نراه قريبا باذن الله .

اما ملكيتنا لهذه الارض فهى قبل اليهود كانت ملكا للعرب .

واثناء وجود اليهود القدامى كانت ملكا للعرب ولم يكونا مستغلين بها يوما واحدا وكنا نعتبرهم ابناء عمومتنا .

وأما ما أتى على هذه الارض من استعمار الاسكندر والرومان فلم يغير انها عربيـــة وأتى لها عمر ابن الخطاب فاخرج منها الغزاة واصبحت خالصا لابنائها العرب .

واستمر كذلك حتى الانتداب البريطانى الذى لم يجرؤ ان يقول انها يهودية وحتى صك بلفور ووعده الخائن لم يقل بغير ذلك وجاء فيه المحافظة على حقوق أهل فلسطين الموجودين بها مع وجود وطن قومى لليهود .

من محاضرات ملتقى بجاية



جدلية الإنحطاط الإقتصادي
في الحضارة الإسلامية

عبد المجيد مزيان
كلية الآداب - جامعة الجزائر

انه لمن العسير عل الباحث أن يجمع المعلومات المشتة في كتب التاريخ ليكون منها سندا لبحث اجتماعي اقتصادي تركيبي يأخذ به صورة واقعية عن فترة من الفترات الحاسمة في حياة حضارة ضخمة ومتشعبة مثل الحضارة الاسلامية .

ولا يمكن ان يقال بان الاحاطة بمثل هذا الموضوع ستصبح ممكنة عند الباحث الواحد مهما تكدست لديه المعلومات ومهما تنوعت ، ذلك لاننا نعرف ان كتابة التاريخ لم تكن في القديم الا سردا للاحداث السياسية قلما تتخللها ملاحظات عن الحياة الاقتصادية . ومهما كانت الصلة قوية بين هذه الاحداث السياسية والاحوال الاقتصادية . فانه من الصعب أن تستخرج هذه الاحوال الاقتصادية بكل وضوح جملة المعلومات التي حفظها لنا التاريخ .

ولكن هذه الصعوبات لا يمكن ان تبقى سدا مانعا يجعلنا نتردد أبد الدهر عن فهم مجتمعنا من خلال تاريخه الاجتماعى والاقتصادى بالاضافة الى التحليل السياسى العلمى الذى لم يكتف بسرد الاحداث • وانه لمن اللائق بنا أن نكون جماعات من الباحثين تتعاون على جمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها بالمنهج العلمى الذى تقتضيه الدراسات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة وذلك للوصول الى المعرفة العلمية الحقة فى كل ما يتعلق بالحضارة الاسلامية والمجتمعات التى رسخت فيها هذه الحضارة •

غير أن المجهودات الفردية لا يمكن ان يستهان بها فى مثل هذا الميدان مهما كانت الصعوبات التى تواجهها ، ورغم انحصارها فى جوانب جزئية من البحث عن الواقع الاقتصادى والاجتماعى لحضارتنا • ولكن من المؤكد ان ليس فى الامكان الاحاطة بموضوع متشعب مثل موضوع الحضارات والمجتمعات من طرف الباحث الواحد وان عظمت ثقافته التاريخية ومعارفه الاجتماعية وليست التأملات عن الحضارات وخصوصا منها تلك التأملات التى عودنا عليها فلاسفة التاريخ بمغنية شيئا ، لانها قليلة الارتباط بالمعرفة العلمية الدقيقة •

واننا لنخشى كلما أسرفنا فى الوصف التركيبى السريع للظواهر الاجتماعية العامة مثل ظاهرة الانحطاط التى تهمنا هنا ، أن لا نأخذ الا صورة خيالية عن الواقع ، ومن أجل هذا نحذر انفسنا قبل الشروع فى التحليل ، ونقر مسبقا بانه تحليل جزئى ومحدود •

اننا هنا فى مجمع ملتزم شديد الحماس لتراثه ، وحق له أن يلتزم ويتحمس لتراثه بعد أن حرم منه فى ظلام الاستعمار ، وانه لمن المحرج بالنسبة لمن يتعرض لموضوع شائك كموضوع الانحطاط الحضارى فى مثل هذا المجمع الوقور ، أن يكشف عن بعض المظاهر المؤلمة من واقعنا المجتمعى فيما سلف من العصور •

وما دام للعاطفة حقها فى مثل هذه الاحوال فاننا كثيرا ما نقول تسلية لانفسنا بان حضارات العالم كلها خاضعة لقانون الازدهار والانحطاط ونعتمد فى ذلك على التفلسف التاريخى الذى يقول مع ابن خلدون بنشوء الحضارات الانسانية وموتها ومنا من يعتمد حتى على العقيدة الاسلامية ويستشهد بالكتاب العزيز مرددا تلك الايام نداولها بين الناس « ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » • نعم يجوز أن نعتقد بموت الحضارات

وباختلال بنياتها فى بعض الظروف ، ولكن يجوز أن لا نقول بموت الشعوب الخالقة لهذه الحضارات ، واذا كانت الحضارة الغربية قد ارتفعت الى مستوى السيطرة العالمية اليوم وهى بنت الحضارة اليونانية والرومانيه المنقرضة كما يقولون ، فان ذلك راجع لارادة الاجيال المتوالية منذ ستة قرون ولا شك أن عزم الشعوب الإسلاميه على النهوض والارتفاع الى مستوى حضارى عالمى منذ بداية هذا القرن سيؤتى نتائجه ان تأكد هذا العزم عبر الاجيال ·

لكن النهضة ثورة ، ولعلها ثورة اليمة فى كثير من الوجوه ، لانها ترفض الاحداث المسلطة على الشعوب من الخارج كما ترفض التناقضات التى تعانيها المجتمعات فى داخها لقد عشنا فى القرن العشرين تسلطات استعمارية كلها ذل وبؤس ، ولكننا عشنا مع ذلك امتدادا لوضعيات انحطاطية جاءتنا من صميم حضارتنا ومن زمن بعيد · واذا كنا لا نقول بفكرة قابلية بعض الشعوب للاستعمار دون البعض الآخر فاننا لا ننفى مع هذا ان الصراع بين الحضارات لا يعرف الرحمة خصوصا اذا تكافأت قوى الاعداء لمدة ما وأحس أحدهما أن فى حياة الآخر خطرا على كيانه ·

فاذا قلنا ان حضارة ما أصيبت بالانحطاط فليس معنى هذا أنها تقلصت من تلقاء نفسها وهرمت لكى تشرف على الموت ، كما هو الشأن بالنسبة للكائنات الحية · بل الواقع أن للانحطاط جدلية · وكل جدلية تحتوى على تناقضات وصراعات داخلية وخارجية معا ·

فالاستعمار كظاهرة لتوسع الحضارة الغربية نتيجة جدلية وصراع عالمى واسع وانحطاط الحضارات المختلفة نتيجة أيضا لمثل هذا الصراع ·

لقد بدأنا نحس مثلا بضعف الحضارة التكنولوجية حينما ظهرت حرب الطاقة منذ شهور ، ولو قدرنا أن الصراع سيشتد بين المجتمعات المنتجة لمواد الطاقة والمجتمعات التكنولوجية فان الامرسيؤول فى افتراض اول الى انتصار زائد للتكنولوجيين اما بتسلط عسكرى أو سياسى جديد واما بالعدول عن المواد التقليدية للطاقة لخلق مصادر لازدهار تكنولوجى جديد ، أو سيؤول الامر فى افتراض آخر الى انهيار كامل للحضارة التكنولوجية الغربية ، وظهور حضارة جديدة تحل محلها ، وتدعى هى الاخرى الشمولية والعالمية وتتعرض لصراعات من نوع جديد · نعم ان الحضارات لا تتطور على وتيرة واحدة وحسب

اتجاه يمكن معرفته مسبقا ، ولكننا لا زلنا والعالم مشتت الى مجتمعات وحضارات ووطنيات وعقائد مختلفة ، تعيش الصراع المستمر بين الطوائف البشرية وتخضع لهذا النوع من التطور الذى يتلخص فى التناقضات والتفككات وتجديد البناء ٠

نقول تحديدا لموضوعنا ان انحطاط الاقتصاد فى الحضارة الاسلامية كان متصلا بالصراعات العالمية ، وصار أمرا محتوما منذ تفوق الحضارة الغربية ابتداء من القرن السادس عشر ولنبدا بتحليل هذا المظهر العالمى ، يعد الطابع التجارى أهم مظهر من مظاهر الحياة الاقتصادية عند المسلمين ومن ميزات هذه التجارة التى توسعت بكيفية تصاعدية منذ القرن الثامن وبدأت تتقلص بكيفية سريعة ابتداء من القرن السادس عشر ، أنها تجارة عبر القارات ٠ ومعنى هذا أن الحضارة الاسلامية فرضت على العالم طول هذه المدة نظمها التجارية وتقاليدها فى المعاملات ، وتقنياتها المالية ، ومعاييرها فى تقييم البضائع والمنتوجات المتنوعة ٠

ولا يمكن لتجارة عبر القارات أعنى القارات الثلاث التى هى آسيا وافريقيا وأوروبا ، أن تعيش اذالم تكن الطرق التقليدية فى البحار طوع يديها ٠ وطرق البحر هذه فى الشرايين الحقيقية لحياة الحضارات ذات الطابع التجارى ٠ وتقول بعض الملاحظات أن القوافل البرية والملاحة المنحصرة فى الشواطىء الافريقية من البحر المتوسط هى أهم ما تتميز به تجارة العالم الاسلامى وليس هذا بالصحيح ٠ بل كانت الملاحة عبر المحيط الهندى ، وخصوصا فى عصر ازدهار بغداد لا تقل اهمية عن الملاحة فى البحر المتوسط ٠ ولم تكن الشواطىء الاوروبية هى الاخرى خارجة عن نطاق التبادل العربى ٠ أما القوافل البرية فقد كانت رغم أهميتها وتعدد طرقها بمثابة الشرايين الجزئية لهذا النشاط ٠

وليس من الممكن أن نتصور الظواهر الاقتصادية منعزلة عن الاحداث السياسية أو نعطى أسبقية للاقتصاد على الاحداث العسكرية الكبرى ٠ بل يجب أن نعد المركب الحضارى مركبا واحدا متشعبا ، ونلاحظ أن الفتوحات العسكرية الاسلامية التى وقعت على حساب الحضارتين الفارسية والبيزنطية أدت الى تمهيد سبل الخلق والاستقرار الاقتصادى برا وبحرا ٠ ولم تزدهر التجارة الاسلامية إلآ بعد أن أصبح البحر المتوسط بحرا عربيا « لا تسبح فيه لغيرهم ألواح » على تعبير ابن خلدون ٠ وليس من الممكن أن

تصور التجارة العربية شبه تجارة بدائية منحصرة فى القوافل المتباطئة عبر الصحارى ، بينما الاساطيل العربية مستولية كليا على جميع البحار المعروفة اذ ذاك ٠

واذا أردنا أن نأخذ نظرة عن هذه الظاهرة فلنستشهد بكلام صاحب المقدمة اذ يقول بالحرف فى الفصل الخاص بمراتب الملك :

(كان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن لأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطس وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج ٠ وكان أبو القاسم الشيعى وابناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى أساطيله سنة خمس وأربعمائة ، وارتجعها النصارى لوقتها ٠ والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ٠ وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته ، وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا ، واختلفت فى طرقه سلما وحربا ٠ فلم تسبح للنصرانية فيه الواح » ٠

ان طرق السلم ، التى هى طرق التجارة ، وطرق الحرب فى البحار يصاحب بعضها البعض ولا تمهيد الى المبادلات السلمية وفرض النظام الاقتصادى العربى عبر النواحى القريبة فى القارت الثلاث ، الا بسيطرة الاساطيل العسكرية ٠

ومن الملاحظ أن جدلية الازدهار الاقتصادى للحضارة الاسلامية هى جدلية داخلية وخارجية معا ٠ ولا يمكننا أن نفهم الجانب الخارجى الا بالتصارع مع الحضارات المجاورة ٠

ولا نفوذ ولا ازدهار الا بتعبيد طرق البحار الضامنة لتضخيم المبادلات وجلب الارباح الكبيرة ٠ ومهما كانت المصاريف التى تبتلع فى الحروب مقللة لهذه الارباح فان المصاريف العسكرية كانت عملية رابحة اذ انها كانت تضمن المبادلات الضخمة ، وكان كل من التجارة والحرب سببا ومسببا فى نفس الوقت ٠ فى تتابع مستمر : الحرب توطيد للتجارة والتجارة توطيد للحرب الى أجل ٠

وأما جدلية الانحطاط اذ أخذت من الوجهة الخارجية فلا يمكن أن تفهم هى الاخرى الا بتتبع الاحداث العسكرية الحاسمة وخصوصا تلك الاحداث التى كانت تضعف من القوة البحرية للمسلمين وتضيق آفاق المبادلات عبر البحار وسوف نلاحظ أن التقلص التدريجى للسلطان الاسلامى فى الميدان العسكرى كان متبوعا بطبيعة الحال بتقلص التجارة العربية عبر القارات ٠

ولقد توهم كثير من المؤرخين الغربيين الذين شاهدوا ما كان عليه الاقتصاد الاسلامى ابتداء من القرن السابع عشر من تحول أهمية المبادلات وأسبقية التجارة البرية على التجارة البحرية عند العرب ، توهموا أن هذه الحالة هى نفس الحالة التى كانوا عليها قديما ٠ ولم يخطر ببالهم أن الاحوال الاقتصادية قد تدهورت وتقهقرت ابتداء من أواخر القرن السادس عشر الى درجة الرجوع الى الوراء والخروج من الصبغة العالمية الى الصبغة المحلية أو الاقليمية للمبادلات ولا يمكن أن نتناسى الضربات العسكرية الكبرى التى لقيتها الاساطيل الاسلامية فى الجانب الغربى من البحر المتوسط ، ثم الضربة الكبرى التى وقعت فى ليبانتا سنة 1571 حيث استعادت الاساطيل الاوروبية قوتها ونفوذها حتى على الجزء الشرقى من البحر المتوسط ابتداء من ذلك الوقت ٠ ومهما كانت القيمة السياسية لهذه الاحداث كأحداث منفردة ، فان الأهم هو أن نلاحظ توالى الضربات العسكرية على المسلمين فى البحر المتوسط ابتداء من القرن الرابع عشر وهو عصر بداية انحطاط الحضارة الاسلامية بتقلص نفوذها العسكرى والاقتصادى فى نفس الوقت ٠

ولا يمكن أن نعتبر القرصنة النشيطة التى ظهرت فى القرون التالية لمعركة ليبانتا بمثابة تعبيد حقيقى لطرق البحر ولم تكن قط انتصاراتها حاسمة ، وليس لها التوابع الاقتصادية المجددة للكيان الحضارى الاسلامى ٠

ونقول بالتالى انه لا يمكن أن نفهم الازدهار الاقتصادى للحضارة الغربية الا بهذه الاحداث نفسها وبادراك حركية التطور الحضارى من الوجهة العالمية الشمولية بتفاعل وتصارع الحضارتين المتنازعتين على الطرق البحرية للتبادل عبر القارات ·

ولقد تضخمت المبادلات الرابحة عند الغربيين حينما تقلصت المبادلات عند المسلمين وكانت الظاهرتان مرتبطتين بالاحداث العسكرية كما رأينا ·

فليس مرجع الامر اذا الى تفوق طبيعة حضارة ما على طبيعة حضارة أخرى ، اذ الحضارتان من طبيعة اقتصادية واحدة فى نظرها وهذا على الاقل فيما يخص الأسس التجارية وبعض الأسس الرأسمالية العالمية التى تسبب الاقتصاد الاسلامى فى زرع بذورها حول البحر المتوسط فى فترات ازدهاره · وما لبث الاقتصاد الغربى أن تسلط وتسلط طرق معاملاته وتقاليده الجديدة ، وتقييماته ، وتقنياته على جميع بقاع العالم ابتداء من القرن السادس عشر ، بعد زوال نفوذ الخصم المنازع ، وبعد الاخذ بكثير من عاداته التجارية وتقاليده ·

اننا حينما ندعى أن البناء الاقتصادى الذى شيدت على أسسه الحضارة الاسلامية ، هو من نفس النوع الذى شيدت عليه الحضارة الغربية ، فلا نعنى أنهما متشابهان فى جميع المظاهر ، وانما نعنى أن الطابع التجارى هو المتغلب عليهما معا ·

لكن تضخم المبادلات على يد الاوروبيين كان أوسع بكثير وهذا مما أدى الى خلق حضارة جديدة بدأت تعرف تطورا جديدا ابتداء من القرن الثامن عشر ، أما الطرق البحرية فقد خرجت عن تقاليدها الاقليمية المنحصرة فى البحر المتوسط ، وصارت الملاحة العسكرية ثم التجارية تتجه الى الآفاق البعيدة عبر القارات الجديدة وعبر المحيطات · ويمكن أن نؤكد بان اكتشاف امريكا والملاحة فى تجاه الهند عن طريق جنوب افريقيا كان عبارة عن اقلاع حضارى جديد نقل المبادلات التجارية من مستوى الخطوات الاولى للعالمية الى مستوى العالمية الحقيقة الواسعة · ويعد هذا الاقلاع بمثابة ضربة أخرى قاضية بالنسبة للحضارة الاسلامية لانه أكسب الاقتصاد الغربى قوة متضاعفة وزاد فى تثبيت وتوسيع الفوارق بين مستوى الحضارتين سواء من الوجهة العسكرية أو الاقتصادية ·

واذا دققنا الملاحظة فاننا سنجد الانحطاط الاقتصادى للحضارة الاسلامية داخلا فى خضم هذه الاحداث • فلقد بدأ تقلصا مع التقلص العسكرى ، ثم تقهقرا بعد الانعزال عن طرق البحر ، ثم انهيارا كاملا بعد توسيع الملاحة الاروبية الى القارات البعيدة •

واذا أردنا ان نثبت شيئا من خلال هذه الملاحظة فليس أهم من الاقتناع بأن انحطاط الحضارة الاسلامية كان نتيجة صراع عالمى واسع ، ولم يكن أمرا ذاتيا مرجعه الى الطبيعة الخاصة بالحضارة الاسلامية • فالتفسرات المثالية التى تنحصر فى اتهام الثقافة العربية الاسلامية بالجمود وتحملها مسؤولية تخدير الافكار وعدم القدرة على الخلق والكبت عن الاندفاع الى رأسمالية أوسع والى حضارة صناعية لا يمكن ان يعتد بها أصلا فى تفسير ظاهرة الانحطاط • وليس من الصعب ان نقتنع بأن الجانب الفكرى لحضارة ما يزدهر بازدهار المركب الحضارى الواسع ويتقهقر بتقهقره مع انه من الواجب ألا نقلل من شأن التأثير الثقافى فى الابداع الحضارى ولكن لا يمكن أن يعتبر بمثابة المحرك الاول فى جميع الظروف •

ولا يبدو مطلقا أن ضعف التفكير أو فتور العقيدة هو الذى كان السبب الرئيسى فى الانحطاط الحضارى عند المسلمين ابتداء من القرن الخامس عشر ، ولا يبدو أن هذه الحضارة قد هرمت لطول مدتها واستنفذت قواها ، كما يتصور ذلك المثاليون أو المفكرون المتأثرون بقوانين التطور المأخوذة من علم الاحياء • ولم تكن الحضارة الغربية المنتصرة ثم المبتلعة للحضارة الاسلامية بأقوى ولا أغنى من الحضارة الاسلامية فى الميدان الثقافى طوال القرن الخامس عشر ، ولم تكن بأقل شيخوخة منها اذا ربطناها بجذورها البيزنطية والرومانية •

ان القضية اذا قضية صراع عالمى وليس الجانب العسكرى فيها بأقل أهمية من الجانب الاقتصادى ، ومن الطبيعى أن يكون للعقيدة والثقافة دورها وأهميتها فى هذا الصراع • هذا هو الجانب الاول من جدلية الانحطاط الاقتصادى للحضارة الاسلامية • وبقى علينا أن نعرف جانبا ثانيا من هذه الجدلية وهو جانب الصراع الداخلى الذى كانت تسفر عنه تناقضات المجتمع الاسلامى نفسه • ويجب قبل الشروع فى عرض هذا الجزء من المسألة أن ننتبه الى فساد المنهج الذى يقول بضم المشاكل الداخلية الى المشاكل

الخارجية لتصور عدد المشاكل الاجمالية التى أطاحت بالكيان الحضارى عند المسلمين ٠ بل القضية قضية حركية واسعة وتسلسل سريع بين الاحداث والظواهر ٠ ولا يمكننا ، حسب معلوماتنا التاريخية ، وحسب الموضوعية النسبية التى وصلت اليها العلـــوم الانسانية ، أن ندرك الا الظواهر الاكثر بروزا منها ، ولا يمكـــن أن نعرف حركيـــة الاحداث بالدقة اللازمة ، بل ليس فى وسعنا أن ندركهـــا الا مجـــزأة ومـــن بعـض جوانبها فقط ٠

فما هى أهم المظاهر الداخلية لجدلية الانحطاط فى اقتصاد الحضـــارة الاسلاميـــة اذن ؟ ٠ نقول ان الانظمة الاجتماعية والاقتصادية فى العالم الاسلامى كانت تناقضـــا وصراعا مستمرا بين البناءات الاقطاعية التى كانت تفرضها الدول والامارات التقليدية المبينة على العصبية كما وصفها بن خلدون ، وبين القوى الشعبية الدائمة التطلـــع الى انشاء جماعة اسلامية مبنية على روح العدالة والمساواة التى لقنتها الثـورة الاسلامية للشعوب ٠ ولا يمكننا أن نفهم الدورية التاريخية التى يصفها صاحب المقدمة كقانـون سياسى عام الا بادراك هذا النوع من الجدلية المبينة على تصارع الطرفين المتناقضين ٠ وهما الشعوب المطالبة بالعدالة الاجتماعية الاسلامية من جهة ومن جهة أخرى الاقطاعيات السياسية والاقتصادية الفارضة سيطرتها الطاحنة بالعنف المطلق ، حسب تقاليـــد سياسة ما قبل الاسلام ٠ ولا يمكن مع هذه الملاحظة ان نجدد القضية فى جدلية سطحية ينحصر تفسيرها فى الصراع بين البدو والحضر ، كما يوهمنا ذلك ابن خلدون وكما يوهمنا كثير من الباحثين فى تاريخ المجتمعات الاسلامية من ابناء عصرنا ٠

وعلينا أن ندرك كيف يقع هذا التناقض بين الطرفين ٠ ولا يخفى على أى مؤرخ أن العقيدة الاسلامية بدأت ثائرة على الطغيان المادى لتجار القرى وما لبثت أن توسعت الى مهاجمة الاقطاعيتين الرومانية والفارسية ، داعية الشعوب الضعيفة الى تقويض دعائـم هذه القوة المتسلطة على العالم المتحضر فى ذلك العهد ، ولا حاجة بنا الى سرد النصوص وذكر الاحداث التى تثبت هذه الصبغة الثورية للعقيدة الاسلامية الاولى لانها نصوص وأحداث كثيرة ومتنوعة ثم انه لا حاجة الى سرد الاحداث التى أدت الى انحراف الثـورة الاسلامية فى الميدان السياسى والاجتماعى على الخصوص اذ أسهب المؤرخون فى وصفها، ولا زالت العقيدة الاسلامية السنية على الخصوص تلخص هذا الانحراف فى المعتقد الذى

يؤكد بأن الخلافة الاسلامية الشرعية لم تدم أكثر من أربعين سنة وأصبحت ملكا عضوضا بعد هذه المدة القصيرة • ولا يمكن أن نغمس الطرف فى دراستنا لهذا التطور الانحرافى عن أهمية الاحداث السياسية فى اخماد التطلعات الشعبية التى كانت تدعو الى المساواة بين المسلمين •

وما لبثت الدول أن تحولت الى مملكات وامارات محافظة نسجت انظمتها على المنوال الرومانى أو الفارسى وانتصبت فيها الاقليات المسـيرة والعصبيات المتسلطة فى شكل نظم اقطاعية مستغلة •

ولو نظرنا بدقة الى نظام الارض فى عهد هذه المملكات والامارات لوجـدناه امتدادا للنظام الاقطاعى الرومانى والفارسى فى كثير من الوجوه • أما تقسيم الاراضى الى أراضى زكاة وأراضى خراج وأراضى صلح واخضاع كل نوع الى قانون خاص ، فلم يكن معمولا به فى جميع الظروف • ونظير فـالى هذا أن الاراضى التى كانت فى دول ما قبل الاسـلام ملكا للاقطاعيات المملكات السابقة قد أخذتها الاقطاعية الاموية منذ عهد يزيد • ولدينا أكثر من مثال على ن الامارات الجهوية كانت أكثر تطرفا من الدول العامة فى خلق عصبيات اقطاعية والتسلط على أراضى السكان غصبا بدعوى تغلبهم على البلاد جهادا ، كما كانوا يدعـــون •

هذا ولم يكن الطغيان الاقطاعى الذى يصفه لنا مؤرخو الاسلام مقتصرا على استغلال الاراضى واسترقاق أهلها بل كان يمتد الى النشاطات الاقتصادية الاخرى مثل الاحتكارات التجارية ، والاستيلاء على بعض الصناعات الكثيرة الارباح • ولا عجبٌ فى مثل هذه الاحوال أن تحتاج مثل هذه الاقليات الى الدفاع عن مصالحها بحد السيف ولا عجب أن تكـــون فوائدها مبنية على حساب الشعوب ، ولا غرابة أيضا أن يؤدى أسرافها فى الاستغـــلال القهر الى حقد الشعوب وثوراتها كلما استطاعت الى الثورة سبيـــلا •

هذه هى معطيات الجدلية الداخلية التى كان يصفها لنا ابن خلدون بأنها دوريـــة سياسية مقتصرة على ميدان نشوء الدول وانحطاطها ، ومنحصرة فى الصراع بين البـــدو والحضر والشقفون والامويون على السواء دورهم الحركى فى هذا الميدان ، وان كان دور البدو وأكثر وضوحا فى الميدان العسكرى ، لحكم طبيعة النظام القبيلى • لكن لا ننسى فى

هذه الدورية أن الاقليات الحاكمة كانت دائما تفقد صفتها الشعبية حينما تستولى على الحكم تتناسى أهدافها الاخلاقية بعد فترات قليلة • وهذا السقوط الدورى فى نفس الاوضاع راجع الى الجدلية العالمية التى كانت تمشى عليها الاحداث اذ ذاك •

وملخصها أن العصبية العسكرية التى تتزعم الثورة وتطالب بالرجوع الى المشروعية الاسلامية تضطر الى اتقان نظمها العسكرية أكثر فأكثر من أجل الفتوحات الداخلية ومجابهة العدو فى الخارج • وتطغى هذه الاهتمامات على تحقيق أهداف العدالة الاجتماعية بعد مرور الجيل الاول بقليل قد يتحول ابناء الفاتحين الى اقطاعيات سياسية ثم اقتصادية وتبرز من جديد حركة الصراع الداخلى والخارجى • أما فى الميدان الاقتصادى المحرر ، ولسنا نعزل الميدان الاقتصادى منا الا لغرض منهجى ، فانه يمكن تصور الجدلية الانحطاطية كما يلى •

ان الاقلية الاقطاعية فى دول القرون الوسطى تسرف فى احتكار وسائل الثروة بين يديها وتصرف أموالها فى غرضين رئيسيين : تقوية وسائل الدفاع عن مصالحها ، من تجنيد للمرتزقة والقبائل الحامية ومن انعام على دعاة من جميع الانواع (شعراء ، ومثقفون وأولو نعمة) هذا من جهة ، وفى وسائل الرفاهية والمتعة من قصور وجوارى وكنوز من جهة اخرى •

والتنافر فى مثل هذا السلوك الاستهلاكى الذى يجهل توسيع الانتاج ، انه سلوك لا ينبنى الا على تفقير الشعوب والزيادة فى خلق الفوارق الطبقية فيكون الغنى فى مثل هذه الانظمة مسرفا فى الغنى ، والفقير مسرفا فى الفقر • ولا سبيل الى الخروج من هذه الدوامة مادامت الثورة تحتاج الى تدعيم الطبقة المثرية بشتى المصاريف ، ومادامت هذه المصاريف تحتاج الى البحث عن الموارد والحاجيات اينما وجدت وهذا دائما على حساب الشعوب •

ونتساءل أين تكمن فى هذه الظروف روح الجماعة الاسلامية وعقلية المساواة والعفة الاقتصادية التى يدعو اليها الاسلام • انه لا يمكن أن يقال بأن العقيدة الاسلامية ترفض الاعتراف بالواقع الطبقى ولا تحكم على المستغلين لاخوانهم بالزيغ عن الاخلاق الاسلامية • بل الترف والفسوق صفتان متلازمتان فى منظر هذه الاخلاق • ولا يمكن من جهة أخرى

أن ندعي بأن الحقد والصراع بين الاقطاعيات والشعوب ظاهرة مفقـودة في المجتمـع الاسلامي ، اذ لو ادعينا هذا لا دعينا أيضا أن عنف الاصطدامات والثورات وتطاحـن الفيئات المتحاربة اوائل القرون الوسطى لم يكن الا من أجل كراسي الحكـم وانه لجهـل بالمحركات السياسية الحقيقية أن ندعي بأن ملايين لبشر كانت تموت في الحروب الداخلية لتناصر أصحاب العصبيات حتى يحرزوا على شرف السلطان • ونتساءل أيضا لماذا كانت آمال الشعوب معقودة أبدا بكل ثورة تلوح في الافق ؟ ولماذا كانت قضية مشروعيـة السلطة تطرح في كل جهة وفي كل جيل بكل الحاح ؟ مرجع الامر كله فيما يبدو لنـا مرتبط بالعقيدة والاقتصاد بقدر ما هو مربوط بالاحوال السياسية والاجتماعية ولا نعتقد أن للسياسة مكانة ممتازة لتفسير هذه الظواهر •

ان روح الجماعة الاسلامية وروح العدالة الاجتماعية كانت تلجأ دائما الى الشعـوب ، وكانت الجماعات المحلية على الخصوص ، سواء منها الحضرية أو البدوية وهي التي تحتضن الاخلاق الاقتصادية وعقيدة المساواة التي كانت تجعل مثاليتها في سيرة عمر ونزاهـة علي بن أبي طالب •

والسبب في ذلك أن الشعوب كانت عرضة للاستغلال الاقطاعي ، وعرضة في بعض الاحيان للثورات المزيفة وكانت في كل مرة ضحية الاستغلال • ومن أجل هذا كانـت تنبع من صميمها المقاومات العديدة والمتنوعة ضد السلطان الاقطاعي الذي كان سائـدا طوال القرون الوسطى •

واننا لم استقصينا البحث عن هذا الصراع بين الاقطاعيات والشعوب لوجدنا انـه الظاهرة الاكثر بروزا وافشل الحضاري الذي مني بن المجتمع الاسلامي ابتداء من القرن الربع عشر • ولسبب في ذلك أن الشعوب كانت تستنفذ حماسها باستمرار في مقاومة السلطان الاقطاعي ، وكان هذا السلطان يسقط باستمرار تحت ضربات هذه المقاومات الشعبية • ونظن أن الضعف العسكري والسياسي الذي وصلت اليه دول الاسـلام ابتداء من ذلك الوقت مرجعه كما يقول المؤرخون الى التطاحن والفوضى الداخلية •

ولكن تفسـير هذا التطاحن وهذه الفوضى لا يمكـن أن يتناسى الجانبين الاقتصادي والاجتماعي ليقتصر على الجانبين السياسي والعسكري • ومن أجل هذه الجدلية الداخلية المستنفذة للقوى ، الدائمة التناقض والصراع ، كان مآل الجدلية الخارجية لفائدة العالم

العربى ، وتم انحطاط الحضارة الاسلامية ما بين القرن الرابع عشر والقرن العشرين ٠
هذه محاولة مختصرة وعاجلة حاولنا أن نعرض فيها بكيفية عامة الوجهين الداخلى والعالمى لجدلية الانحطاط الاقتصادى فى الحضارة الاسلامية ٠ ولسنا ندعى انضباط الاشيــاء الاجتماعية بين يدينا فنقول بان هذا التفسير يحتوى على كل الوقائع ويرفض أنــواعا أخرى من التحليل ٠ بل كان غرضنا من هذه المحــاولة هو ألفات النظر الى المحــرك الحضارى الكبير الذى هو الصراع ، وأهميته فى شرح مآل الحضارات منذ ظهورها حتى الآن وأؤكد مرة ثانية بانها محاولة جزئية ومحدودة لادراك جزء من الــواقع المتشعب للحضارة الاسلامة ٠



دور الشمال الإفريقي في الحضارة والفكر الإسلاميين

د • مصطفى عبد الله بعيو
طرابلس ـ ليبيا

افاض العلماء فى دراسة الحضارة الاسلامية وتبيين دورها الهام فى التراث الانسانى وتطويره فى مختلف الميادين • وكان للفكر الاسلامى من مكـــانة خاصة فى الدراسات التى قام بها هؤلاء العلماء ، وليس هنا مجال الكلام عن هذه الدراسات التى قام بها هـؤلاء العلماء للكشف عن الدور الذى ساهمت به الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى فى هذا الخصوص فالوقت لا يتســـع لتناول هذا الموضوع الا بالشـــكل العام الذى يتمشى والوقت المخصص لمثل هذا الحديث ، ولكن هذا لا يمنع من اللقاء نظرة عابرة على الدور الهام الذى قامت به حضارة بلاد الشمال الافريقى الاسلامية فى مختلف العلوم والفنون وفى التراث الإنسانى بصفة خاصة •

فمنذ مجيء الاسلام الى بلاد الشمال الافريقى فى القرن السابع الميلادى والبلاد تسهم باستمرار ففى تنمية الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى وان اختلفت هذه المساهمة من عصر الى عصر حسب ظهور مراكز الاشعاع الثقافى فيها والتى انتشرت بطول البلاد وعرضها . وكان للموقع الفريد الذى اختص الله به بلاد الشمال الافريقى ما ساعد أهلها على القيام بهذه المهمة فهى بوقوعها على البحر المتوسط وعلى ساحل المحيط الاطلسى استطاعت أن تعطى الفرصة لاهلها ليؤثروا فى حضارة البحر المتوسط ويتأثروا بها . وعن طريق بلاد الشمال الافريقى انتقلت الحضارة الاسلامية الى اسبانيا ومنها الى أوروبا . وعنها أيضا انتقلت هذه الحضارة الى صقلية وبقية الجزر الغربية فى البحر المتوسط ومنها الى ايطاليا وفرنسا ومن هناك الى بقية الدول الاوروبية . واذا كان علماء الحضارة الاسلامية قد حددوا طرقا رئيسية ثلاثة لانتقالها من العالم الاسلامى الى أوروبا فان بلاد الشمال الافريقى كان من نصيبها هذان الطريقان الهامان واللذان سبق الاشارة اليهما .

ولم يكن دور أهالى الشمال الافريقى قاصرا على نقل الحضارة الاسلامية الى أوروبا فقط بل انهم استطاعوا الوقوف أمام ما تعرضت له بلادهم من هجمات واغارات شنها الاوروبيون على سواحل بلادهم بعد أن تم طرد المسلمين من اسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ونجحت بلاد الشمال الافريقى فى اثبات وجودها فى ذلك الصراع البحرى الذى ساد مياه البحر المتوسط طيلة القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر . واستطاعت بحرية بلاد الشمال الافريقى أن تحتفظ لنفسها بمركز التفوق على بحرية الدول الاوروبية بفضل تماسك بلاد الشمال الافريقى واتحاد أهلها فى مجابهة العدوان الاوروبى حتى اذا نجحت فرنسا فى الاستيلاء على الجزائر فى 1830 م بدأ التفكك يأخذ طريقه بين دول الشمال الافريقى فى الوقت الذى أخذت فيه الدول الاوروبية تضم صفوفها وتوحد كلمتها ضد نشاط بحرية بلاد الشمال الافريقى بعد مؤتمر فينا 1815 الذى عقد بعد نهاية حروب نابليون بونابارت . وكان الاحتلال الفرنسى للجزائر بداية النهاية لبحرية الشمال الافريقى وبداية وقوع هذه البلاد باقطارها المختلفة فى قبضة الاستعمار الاوروبى فكان الاحتلال الفرنسى لتونس فى 1881 والاحتلال الايطالى لليبيا فى أواخر 1911 والاحتلال الفرنسى للمغرب فى 1912 .

وهكذا كان على أهالى الشمال الافريقى أن يعطوا كل جهودهم طيلة فترة الصراع البحرى الى مقاومة لمحاولات التى بذلتها أوروبا للسيطرة عليهم مما استنزف طاقتهم وحول جزءا كبيرا منها الى ميدان الحرب وعطل مسيرتهم الحضارية والفكرية حتى اذا كان القرن لتاسع عشر شاهدت البلاد توقفا تاما فى المسيرة الحضارية وقد بدأ الاستعمار الاوروبى يغزو البلاد ويستنزف قوى أهلها ويتحكم فى توجيهها ٠

ولا شك أن السيادة البحرية لبلاد الشمال الافريقى فى البحر المتوسط قد اقترنت بتفوق أهلها فى الملاحة البحرية وعلومها وصناعة السفن وتطويرها واجهزة الملاحة البحرية كالبوصلة Compass التى جاء ذكرها لاول مرة فى أوروبا حوالى سنة 1190 م عندما ذكرها الشاعر الفرنسى جوبودى بروفان فى قصيدة له (1) . ويعطى المؤرخ الانجليزى ستانلى لين بول Gutot de Provins فى كتابه (2) عن حركة الجهاد البحرى لبلاد الشمال الافريقى والتى اعتبرها مع غيره من الاوروبيين قرصنة بحرية الكثير من المعلومات عن التقدم الذى وصل اليه أهل شمالى افريقية فى علوم البحر ووسائل المواصلات والآلات البحرية الفنية كالبرضلة والاسطرلاب ٠ وما زالت بعض المصطلحات البحرية الاسلامية مستعملة فى اللغات الاوروبية حتى وقتنا الحالى كدار الصناعة Arsenal والحبل Cable والامير ال Admiral وغيرها ٠

ومع أن نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر قد شاهدت أفول السيادة البحرية لبلاد الشمال الافريقى فى البحر المتوسط الا أن ما حدث فى تلك الفترة يكفى للكشف عن الدور العظيم الذى ساهمت به بلاد الشمال الافريقى فى البحر المتوسط يوم أن عرفت كيف تفرض وجودها بقوتها البحرية المدعمة بتقدمها فى فنون البحر ويعطى المؤرخ الامريكى جاردنر والن فى كتابه عن البحرية الامريكية وقراصنة الشمال الافريقى والذى صدر فى 1905 باسم « بحريتنا وقراصنة المغرب » (3) معلومات هامة عن البحرية الامريكية وعلاقاتها ببحرية بلاد الشمال الافريقى ، وقد

(1) جورج فضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة د. يعقوب بكر – القاهرة مكتبة الانجلو – ص 84

(2) Lame - Pole, Stanbey ; The Barbary Corsairs - London 1896, P.P. XVIII - 316.

(3) Gardner W. Allen ; Our Navry and The Barbary - Corsaire - Boston, New-York - Chicago 1905 P.P. XVIII 354

حاولت الولايات المتحدة الامريكية الوصول الى تسوية مع بلاد الشمال الافريقى تضمن لسفنها التجارية سلامة المرور فى البحر المتوسط بعد أن حصلت على استقلالها من بريطانيا وأصبحت مسؤولة عن حماية سفنها التجارية وكان للولايات المتحدة مساعى دبلوماسية فى هذا الخصوص مع دول الشمال الافريقى · وقام المستر جون آدمز عندما كان يشغل منصب وزير مفوض (4) فى لندن بمقابلة الشيخ عبد الرحمن سفير طرابلس الغرب (ليبيا) فى لندن لتوسية العلاقات الامريكية مع طرابلس الغرب وقد وصف الوزير الامريكى هذه المقابلة فى خطاب له الى جون جى وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية فى خطاب له بتاريخ 17 فبراير 1786 م حيث جاء فى هذا الخطاب ما يأتى :

« يكفى القول أن سعادته أثار تساءلات كثيرة بخصوص أمريكا ومناخها وتربتها وحرارتها وبردها ·· الخ ولاحظ بأنها بلاد كبيرة جدا ولكن طرابلس الغرب فى حرب معها · وردا عليه سئل كيف تكون هناك حرب بين أمتين ليست بينهما عداوة ولا اساءة ولا اهانة أو دافع آخر بين الجانبين · وأجاب سعادته بأن تركيا وطرابلس الغرب وتونس والجزائر وامراكش كانت سيدة للبحر المتوسط وأنه لا يمكن لاى أمة أن تعبر ذلك البحر بدون معاهدة سلام معها » (5) ·

وكان من أهم نتائج الصراع البحرى بين بلاد الشمال الافريقى والدول الاوروبية أن وقع الكثير من الاسرى الاوربيين فى أيدى مسلمى الشمال الافريقى · وقد استطاع هؤلاء الاسرى أن يطلعوا على الكثير من جوانب الحياة عند مسلمى الشمال الافريقى وأن ينقلوها معهم عند عودتهم الى بلادهم · ويساهم بعض الذين جاءوا الى موانىء الشمال الافريقى للتجارة أو للاشراف على عمليات تبادل الاسرى فى نقل الكثير من معالم حضارة المسلمين ومعلوما تهم عن بلاد السودان التى كان أهلها على اتصال وثيق بمسلمى

---

(4) من مواليد 30 أكتوبر 1735 ومات فى 4 يوليو 1826 أى بعد نصف قرن من اعلان استقلال الولايات المتحدة الامريكية 4 يوليو 1776 وكان جون آدم أول مبعوث دبلوماسى لتمثيل بلاده فى لندن (1782 – 1787) عاد الى بلاده واختير نائبا لرئيس الجمهورية ثم رئيسا لها (1796 – 1800) بعد رئاسة جورج واشنطن .

(5) انظر الملحق

الشمال الافريقى بحكم اتصالهم المستمر فى الميدان التجارى بفضل نشاط تجارة القوافل وازدهارها • وهكذا جاءت المعلومات الأولية عن بلاد السودان الى أوروبا بفضل جهود مسلمى بلاد الشمال الافريقى فى الكشف عن بلاد السودان والتعرف عليها والوصول اليها ، وقد عرف الاوربيون كيف يستفيدون من هذه المعلومات عندما نشطت جمعياتهم العلمية فى سبيل استكشاف القارة الافريقية فى أواخر القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر،ونذكر فى هذا الخصوص المستر سيمون لوكاس Simon Lucas الذى كان يقوم بالترجمة الى اللغة العربية ومنها فى القصر الملكى بلندن والذى كان أول من استعانت به الرابطة الافريقية African Association بلندن فى مشروعاتها الكشفية للقارة الافريقية بحكم خدمته السابقة فى شمال افريقية عندما أسره رجال بحرية المغرب وقد عاش أسيرا يعمل فى قصر سلطان المغرب لمدة ثلاث سنوات حيث أتيحت له الفرصة ليتعلم الكثير مما أهله فيما بعد ليعمل نائبا لقنصل انجلترا فى مراكش لمدة ستة عشرة سنة حتى اذا عاد الى لندن التحق بخدمة القصر الملكى فى لندن ، وبعد ذلك وقع عليه اختيار الرابطة الافريقية ليكون أول رجالها المبعوثين لاستكشاف بلاد السودان والوصول الى نهر النيجر عن طريق مدينة طرابلس ، ولكن لم يستطع التقدم بعد مدينة مسراته بعد وصوله الى طرابلس واكتفى بجمع معلومات أهلها عن المناطق الداخلية فى افريقية بحكم نشاطهم التجارى معها • وعاد لوكاس الى لندن مكتفيا بما حصل عليه من معلومات ولكنه ما لبث أن عاد الى مدينة طرابلس كقنصل لبلاده فيها •

وبلاد الشمال الافريقى بحكم موقعها الجغرافى هى المنفذ الطبيعى لبلاد السودان وقد عرف أهلها كيف يقومون بواجبهم فى هذا الخصوص قبل أن يعرف الاستعمار الاوربى طريقه هناك • ولم تكن الصحراء الكبرى بجفافها الشديد عائقا فى ربط العلاقات بين شمالى افريقية واجزائها الوسطى والغربية بل كانت عاملا منظما ، وكانت واحاتها محطات للراحة والتبادل ومراكز لنشر الثقافة الاسلامية وعن طريقها عرف الاسلام طريقه الى بلاد السودان ، وقد حمله تجار القوافل معهم • وعن طريق المراكز الثقافية فى واحات الصحراء انتشرت اللغة العربية ، واستطاع أهالى شمالى افريقية بنشاطهم التجارى والثقافى أن يكونوا حلقة الوصل بين أهالى السودان والعالم الخارجى

وعندما بدأت الجمعيات العلمية الاوروبية فى استكشاف المناطق الداخلية لافريقية وخاصة بلاد السودان فى أواخر القرن الثامن عشر كان اعتمادها الاكبر على ما كتبه علماء بلاد الشمال الافريقى ، وفى مقدمتهم البكـــرى من رجال القـــرن الحادى عشر والادريسى الجغرافى الكبير من رجال القرن الثانى عشر ، وابن خلدون المؤرخ التونسى من رجال القرن الرابع عشر والذى يعتبر بدراساته الاجتماعية المؤسس الاول لعلـــم الاجتماع والحسن الوزانى المعروف بليون الافريقى من رجال القـــرن السادس عشر . وقد نقلت معلومات هؤلاء العلماء الى أوروبا عن طـــريق الترجمة وخاصة الى اللغـــة الفرنسية . ويعتبر ما كتبه كل من الادريسى والحسن الوزانى عن الصحراء الكبـــرى والسودان من أو فى ما قدمـــه المؤرخون والجغرافيون القدماء عن هذه المنـــاطق . ومما يؤسف له أنه لا توجد طبعة عربية لموسوعة الحسن الوزانى مع أنها ترجمت من اللاتينية الى معظم اللغات الحية كان آخرها فيما أعلم الطبعة الفرنسية (6) التى ترجمت عـــن اللغة الايطالية وقد صدرت الطبعة الفرنسية المشار اليها فى جزئين بباريس فى سنة 1956 .

وكان اعتماد « الرابطة الافريقية » كبيرا فى نشاطها الكشفى على هـذه الموسوعة ويستحق الحسن الوزانى المعروف بليون الافريقى دراســـة خاصة لاهميـــة موسوعته وفضلها فى التعريف على افريقية عند الاوربيين بل لاهمية الدور الذى قام به فى حركة النهضة الايطالية بعد أن وقع فى الاسر البحرى بالقرب من جزيرة جربة فى طريق عودته الى المغرب بعد رحلته الى اسطنبول . وقد باعه البحارة المسيحيون الى البابا ليون العاشر الذى اكتشف مواهبه وعرف كيف يستفيد منه بعد أن احتضنه وضمـــه الى العقيدة المسيحية ولقبه بليون الافريقى . وكان لحسن الوزانى دور كبير فى الجامعات الايطالية بمساهمته العلمية حتى اذا مات البابا ليون العاشر جاء الحسن الوزانى الى تونس حيث عاد الى عقيدته الاسلامية وقضى أيامه الاخيرة ومات فيها .

واستمر أهالى الشمال الافريقى يقومون بدورهم الحضارى على أحسن ما يكـــون فى الربط بين بلاد السودان والعالم الخارجى حتى عرف الاستعمار الاوربى طريقه الى بلاد السودان مستفيدا من نشاط تجارة القوافل التى كانت تربط بـــلاد الســـودان بالمنافذ البحرية على ساحل البحر المتوسط فى الشمال . ونجح الاستعمار الاوربى فى

(6) Jean-Léon l'Africain : description, l'Afrique Nouvelle. Edition traduite de l'italien par E. Epaulard. Paris 1956, 2 vols.

تغيير اتجاه الاتصال بين أهل السودان والعالم الخارجي بانشاء منافذ جديدة على ساحل المحيط الاطلسي . والآن وقد تحررت بلاد السودان وأخذت بلاد الشمال الافريقي تعمل على تجديد الدور الذي كانت تقوم به في السابق مع البلاد الواقعة الى جنوبي الصحراء الكبرى كمنفذ طبيعي لها بدأت الجزائر بمد الطرق المعبدة لربط موانيء الجزائر ببعض مناطق السودان . وبقي على بقية بلاد الشمال الافريقي أن تعطي اهتمامها الى هذا النوع من المواصلات وعلينا أن نستفيد من تقنية العلوم الحديثة في تمهيد الطرق الصحراوية ومدها وصناعة السيارات وتكييفها والمهمة التي ستقوم بها مع العناية بالخدمة ووسائل السلامة والامن . وبهذا يمكن تحديد نشاط الحضارة الاسلامية وعلاقاتها بهذه المناطق التي يقع على أهالي الشمال الافريقي الـــدور الهام في تطويرها على أســاس انساني حضاري بحكم الموقع الجغرافي واستمرارية التاريخ لعلاقاتنا التي حكم عليها أن تقف بعد تغلغل الاستعمار الاوربي في بلاد السودان ·

وبلاد الشمال الافريقي تقع بجزئها الغربي على ساحل المحيط الاطلسي وهي بذلك تواجه الى حد كبير العالم الجديد كما واجهت بساحلها الطويل الدول الاوربية وبواحاتها الجنوبية بلاد السودان . وبحكم هذا الموقع على المحيط الاطلسي كان لاهالي المغرب دور كبير في المحاولات التي بذلت لكشف ما وراء المحيط الاطلسي قبل أن ينجح كولومبس في اكتشافه الجغرافي . ومن الثابت أن كولوبمس اعتمد على بعض الخرائط العربية في رحلته البحرية التي أدت به في النهاية الى بداية كشف العالم الجديد . وهناك دراسات تاريخية يقوم بها بعض الاساتذة الامريكيين للكشف عن تاريخ امريكا فيما قبل اكتشاف كولومبس لها والمحاولات التي بذلت قبله كما حـــدثني بذلك الاستاذ ارثر جيفــري Arthur Jefférey في مايو 1958 عندما كان رئيسا لقسم اللغات الشرقية بجامعة كولومبيا في مدينة نيويورك . ومن المتوقع أن تؤدي تلك الدراسات الى معلومات هامة تفيد في الكشف عن الدور الذي قام به بعض رجال المغـــرب في كشف العالم الجديد حتى اذا قامت الثورة الامريكية ضد التبعية البريطانية ونجحت في تحقـــيق اعـلان استقلال الولايات المتحدة الامريكية يوم 4 يوليو 1776 كانت دول الشمال الافريقي ممثـــلة في بلاد المغرب في مقدمة الدول التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الامريكية وكان ترتيبها الثالث بعد كل من فرنسا واسبانيا في الاعتراف بكيان الولايات المتحـــدة

الامريكية ، وقامت بلاد الشمال الافريقى بتبادل التمثيل الدبلوماسى معها ، كان ذلك فى الوقت الذى لم تكن فيه الكثير من الدول الاوربية وغيرها على علم بتلك الجمهـورية الامريكية الناشئة فضلا عن الاعتراف بوجودها ٠

أما كيف تجمد الفكر الاسلامى فى بلاد الشمال الافريقى بعد ازدهاره وكيف أصبح أهالى الشمال الافريقى فى مؤخرة التقدم بعد أن كانت لهم الصدارة مع أن الفـــرق الزمنى لا يساوى ذلك الفرق الحضارى الكبير اذا قارنا ما كان عليه الحال فى بلاد الشمال الافريقى والولايات المتحدة الامريكية فى نهاية القرن الثامن عشر ، وقد رأينا كيـــف كانت تسعى الاخيرة لكسب صداقة دول الشمال الافريقى فهذا ما يمكن تلخيصه فى العوامل الآتية مع ضرورة الاهتمام بالعلاج السريع لاستئناف المسيرة الحضارية ٠

أولا : ان الجهد الشاق المستمر الذى بذله أهالى الشمال الافريقى فى مغالبة الغزو الاوربى بعد أن تم طرد المسلمين من اسبانيا وسقوط غرناطه آخر معقل اسلامى فى الاندلس فى 1492 م وما صحب هذا الجهد من تركيز جميع الامكانيات والقوى لصـــد العـــدوان وبالتالى رده على أعقـــابه ، وقد استنزف هذا الصراع الامكانيات البشرية والاقتصادية ، ولم يعط الوقت الكافى للتأمل والتفكير والابتكار ٠

ثانيا : توحيد كلمة الاوربيين بعد مؤتمر فينا 1815 تجـاه دول الشمال الافريقى واتفاق الدول الاوربية الكبرى فيما بينها على اقتسام بـــلاد الشمال الافريقى وبالتالى استعمارها ٠

ثالـــا : ما دب بين حكام بـــلاد الشمال الافريقى من خلافات وخصومات ساعدت الاجنبى على استغلالها لتنفيذ خطته الاستعمارية ـ بضرب بلاد الشمال الافريقى ببعضها فى سبيل اضعافها وبالتالى الاستيلاء عليها ٠

رابعا : الشعور بالحساسية المطلقة وعدم قابليتنا للنقد الذاتى الذى هو مرحلـة أساسية فى مراحل الابتكار والخلق والانشاء ٠

خامسا : تركيز كل الجهود وتخصيصا لحركة التحرير من الاستعمار الاوربى طيلة النصف الاول من القرن العشرين والانصراف الكلى للخروج من مرحلة التخلف بتوجيه العناية الى تنمية البلاد وتطويرها بعد النجاح فى الحصول على الاستقلال السياسى ٠

سادسا : تغلغل الاستعمار الاوربى فى افريقية ونجاحه فى عزل بلاد الشمال الافريقى عن بلاد السودان التى أوجد لها منافذ بحرية على ساحل المحيط الاطلسى بعد أن زعزع الثقة بين أهالى السودان وأهالى افريقيا . ولابد من اعادة هذه الثقة لارجاع العلاقات المتينة بينهم وتطويرها لمصلحة الطرفين ٠

سابعا : يجب أن يعود البحر المتوسط لاهله مع ضمان سلامة الملاحة فيه وحريتها للجميع حتى يطمئن سكان الشمال الافريقى فينصرفوا الى الابتكار والتجديد وحتى يكون هذا البحر مصدر خير لهم بدلا من أن يكون مصدرا للخطر الذى يتهددهم ويقطع عليهم أمنهم وسلامتهم . وعلى شعوب هذه الدول أن يتضافروا مع الشعوب الاخرى التى تقع على سواحل البحر المتوسط فى سبيل تحقيق هذه الغاية ٠

ثامنا : الاهتمام باحياء تراثنا القديم ونشر ما تركه علماء الشمال الافريقى مع ضرورة ترجمة كل ما كتبه الاوربيون عن هذه البلاد وهو شىء كثير وغنى بالمعلومات ، وعلى جامعات الشمال الافريقى أن تقوم بتنسيق هذه المهمة فيما بينها وتخصيص الاموال والاشخاص الاكفاء للترجمة مع التعليق عليها واظهار ما فيها من خفايا ، ولنا فيما تركه الفرنسيون والاسبان والايطاليون ما يحتم علينا ضرورة الاسراع بهذا الاهتمام حتى لا تضيع المادة الموجودة وحتى يمكن الاستفادة من العناصر الوطنية المهيئة للقيام بهذه المهمة ٠

تاسعا : ضرورة اعادة النظر فى مناهجنا الدراسية على أسس تحقق ما نهدف اليه مع العناية بالمدرس فى كافة مراحل التعليم من حيث الاستعداد والاعداد مع العناية بتشجيع البحث فى الجامعات والاساتذة الاخصائيين ، وقد آن الاوان لاعطاء العناية للكيف لا للكم بحكم ما تستلزمه مرحلة البناء والانطلاق ٠ ولا أغالى اذا قلت أن هذه الناحية هى محور الانطلاق لاستئناف المسيرة الحضارية وعليها يتوقف تحقيق أهدافنا وبرامج التنمية فالمعلم بحكم مهنته هو خالق الاجيال ومنشىء الامم ٠

وأخيرا بقى علينا أن نتكاتف جميعا فى سبيل استئناف المسيرة الحضارية بعد أن نجحنا فى تحقيق استقلالنا السياسى ، وعلى أبناء الجيل الجديد ممثلين فى جميع قطاعات المجتمع أن يحافظوا على ما خلفه الاجداد والآباء من تراث وأن يعملوا على تنميته وتطويره على أحسن ما يكون ٠

المثقف المغربي
بين الفاعلية والسلبية

د . محمد زنيبر
كلية الآداب
جامعة محمد الخامس بالمغرب

في الوقت الذى تنقسم فيه شعوب العالم المعاصر الى كبيرة وصغيرة ، وقوية وضعيفة ، ومتقدمة ومتخلفة وتحاول القوية منها السيطرة على الاخرى تحت شعار العالمية والاممية ومسايرة العصر .. وما الى ذلك من المثل البراقة والمغرية يصبح من حق الشعوب الفتية ان تستمسك باستقلالها وان تعطى لهذا الاستقلال معنى كاملا تتجلى شموليته فى كل مظاهر حياتها العادية والعقلية والروحية . وهذا المعنى لا يمكن أن يكون هو الانعزال والانطواء . ولا يمكن أن يكون هو التعصب القومى أو العداء للغير أو جحد الفضائل والمزايا التى توجد عند سائر المجتمعات والشعوب .

بل انه يملى موقفا أكثر ايجابية وفعالية يمكن تلخيصه فى المبادىء التالية :

1) بناء الاستقلال الفتى على أساس اكتساب كل ما يمكن من القوة العادية الضرورية فى

هذا العصر • وهذا يقتضى سلوك طريق الاتصال والتفتح للاستفادة من تجارب الغير ومساعدتهم • 2 ـ بناء مجتمع جديد مبنى على التخلص من رواسب الاستعمار ومخلفات الاقطاعية القديمة وتحرير المواطن من كل انواع العبودية والتبعية حتى يصبح قادرا على الانتاج والخلق والابتكار • 3 ـ محاولة فهم الهوية الذاتية للجماعة وتحديدها فى عالم تتصارع فيه الايديولوجيات والحضارات ، ويتحول هذا الصراع ـ فى النهاية ـ الى تمييع كل القيم والمثل ، وخلق بلبلة فى العقول الضيقة والاذهان الموسوسة والنفوس المتهورة • وهذا المبدأ الثالث هو الذى سنحاول ان نركز حوله افكارنا فى هذا الحديث المقتضب الذى لست اعتقد انه سيعطى الموضوع حقه ، اذ هو موضوع يتطلب بحثا طويلا وتحليلا واسعا ، ولكن ما لا يدرك كله ، لا يترك بعضه •

وهذه الهوية الذاتية لمجتمعاتنا لا يمكن ان نلمسها عن كثب ، فى مجتمعاتنا ، الا من خلال الواجهة الثقافية • وهذا مر طبيعى لان دور الثقافة هو ان تعبر عن المجتمع •

فالمجتمع يعى بنفسه عن طريق الثقافة التى يخلقها • الا ان الثقافة ، حينما نريد ان نتدبرها ككل متماسك ، تكشف لنا عن جانب واسع ومعقد فى الحياة الاجتماعية •

فهى بمشاكلها وعناصرها توازى الحياة الاقتصادية • وهذا ما يتطلب تحليلا دقيقا نكتفى منه الآن ببعض الخطوط الرئيسية :

1 ـ أغراض الثقافة :

باعتبار الموضوعات التى تتناولها ، فان اغراض الثقافة عديدة ويصعب حصرها • فمنها ما يتصل بالدين أو الفلسفة ، أو بالعلم الوضعى أو بالشعر أو بالسياسة أو بالتقنيات المختلفة ، أو بالترفيه عن النفس •• الخ •• الخ •

2 ـ ألوان الثقافة :

للثقافة ألوان مختلفة • وقد اعتدنا ان نستعمل كلمة الثقافة بمعنى التكوين العقلى او مجمل الآداب والعلوم • وهذا استعمال ضيق • والحقيقة ان الثقافة تشمل الآثار المكتوبة او المروية • وتشمل الى جانبها كل فنون التعبير الاخرى : **التصويرية** ، مثل الرسم والحت والنحت ، والهندسة المعمارية ، والنقش والتطريز وسائر الفنون اليدوية • **الموسيقى** بمختلف اشكالها وما يتصل بها من فنون كالرقص والدر اما

الغنائية والنشيد الفردي والجماعي ، يضاف الى كل هذا مجموعة من التقاليد الثقافية التي تتصل بالطهي او حياة المنزل أو الآداب الاجتماعية أو الحفلات والاعياد ·

3 ـ مستويات الثقافة :

وللثقافة أيضا مستويات متعددة في المجتمع ، وهذا ما تبرزه كل الابحاث الاجتماعية لدى مختلف الشعوب · فهناك الثقافة **المحلية** التي ترتبط بقربة أو بمجموعة بشرية محدودة تعيش في ناحية صغيرة · وهنالك الثقافة **الاقيمية** التي تعبر عن المجتمع الاقليمي بمعطياته الخاصة · وهنالك ما يسمى الثقافة القومية التي تدل على ارفع مستوى في الاعمال الثقافية على صعيد الوطن بكامله · وفي هذا الاطار ، يجب ان نميز بين ما يسمى الثقافة الشعبية والفولكلور ، من جهة وثقافة المثقفين من جهة أخرى ·

4 ـ الثقافة والزمان :

الثقافة ليست بشيء آني ، بل هو عمل مبني على تراكم الازمنة والعصور · ولذلك فهي تشمل **تراثا** متخلفا عن الاجيال السابقة ، **وانتاجا معاصرا** يكون آخر حلقات التطور في المجتمع ·

هذه بعض النقط الرئيسية في هذا التحليل قدمتها باقتضاب لنستطيع فيما بعد ان نفهم علاقة الثقافة بالهوية الذاتية · وقضية الهوية الذاتية تطرح علينا بحدة حينما نواجه المستقبل ونريد ان نبتكر ونبدع في الميدان الثقافي · وطبيعي ان يكون جيلنا طموحا ، بعد خوض معركة الاستقلال ، فهو يريد ان يخلق ثقافة جديدة تناسب المرحلة التاريخية الجديدة التي دخلنا اليها · وهذه المرحلة الجديدة لا تعني في شيء الرجوع الى الماضي ، سواء منه القريب أو البعيد ، بل انها تعني ان تكون ثقافتنا تعكس مجتمعنا في وضعيته الحالية اي ان تسايره وتحاوره وتتجاوب معه · ومن ثم كان من واجب المثقف الواعي ان يبحث عن هوية المجتمع الذي ينتمي اليه · وهذا ، في اعتقادي ، هو الاساس الاول لالتزامه ·

وسيتخلى عن هذا الالتزام اذا زاغ عن هذه الطريق وسار مع بعض الانحرافات التي يمكن ان نصنفها كما يلي :

1 ـ **الجمود** : كل من يعتقد ان التاريخ وقف فى عصر من العصور الماضية فهـو **الجمود** معناه الدعوة الى حرمان الاجيال الناشئة من حريتها فى التفكير والبحث واعادة النظر فى كل الاشياء • وهنالك ، بكل اسف ، طائفة من المثقفين يقفـون هذا الموقف ويدافعون عنه ، مع انهم لو تفرسوا فى مجتمعهم لراوه ينشد التطور والتغيير •

2 ـ **الاغراب** : هنالك بالعكس ، انحراف آخر يدفع بالمثقف الى التحمس السريع لكل فكرة جديدة غربية • فتراه يبشر بها ويدافع عنها ويبحث عن اغرب منها احيانا • وهذا ، فى الغالب ، موقف المثقف الذى يعيش بعيدا عن الواقع • فهو يأخذ الفكـرة مجردة عن سياقها التاريخى والبيئة التى برزت فيها ويحاول ان ينقلها الى مجتمـع آخر دون الاهتمام بظروف ذلك المجتمع وملابساته • ولربما صادف عمله صدى ، ولكن فى دائرة ضيقة ومحدودة ، بحيث يؤول به الامر الى ان يكون مثقفا برجوازيا ، لانـه لا يستطيع ان يتفتح على الجمهور الواسع ولا ان يتجاوب معه • وانا لا انكر ان نية هذا المثقف ربما كانت حسنة ، وربما كان يسعى الى الخير والتقدم • الا انه يأتى البيـوت من غير أبوابها •

3 ـ **الذاتية الفردية** : هنالك المثقف الذى يعيش لنفسه ومع نفسه • فهو يعتبـر نفسه فى جزيرة خالية ، فلا يتحدث الا عما يعجبه فى عالمه الخاص • ويستطيع ان يكتب ويؤلف ، ولكنه لا يخرج عن ذاتيته ، ويظل بسبب ذلك بعيدا عن الغاية الكبرى المنشودة من الثقافة • الثقافة ليست غاية فى ذاتها ، بل ان لها تطلعات انسانية واجتماعية •

انها تهدف الى الحوار ، الى اثارة التفكير لدى الغير • فالميقف الذى لا يستطيـع الخروج من قوقعته ، يؤول به الحال الى ان يصبح من الجفاليين الخلص الذين ينشدون الفن للفن أو من المفكرين التجريديين الذين يتوهمون ان التعمق هو الابتعاد عن الواقـع المألوف والملموس • من كل هذا يتبين ان الالتزام الاساسى بالنسبة للمثقف يمكن فى اختيار واضح ، الا وهو ان يقبل ان يعيش فى مجتمعه بما له وما عليه كعضو متواضع ولكنّه واع يقظ للستطيع ان يقوم بمسؤوليته على الوجه الاكمل • يجب ان يتعاطف مع مجتمعه ، مهما كانت عيوبه ، كما يتعاطف مع اسرته • وفى نفس الوقت نطالبه بان يكون ثوريا فى تفكيره أى ان يكون ساعيا الى التغيير والتجديد ، ان يرفض الاستكانة والجمود • وهنا يترامى لنا لاول وهلة ، بعض التناقض :

فنحن نطالبه بالتعاطف مع مجتمعه ونطالبه فى نفس الوقت ان يثور عليه ، ولكننا سرعان ما ندرك ان التناقض ان التناقض آت من سوء فهمنا للكلمات التى نستعملها • فكلمة ثورة هى من الكلمات الرائجة بكثرة فى قاموسنا المعاصر ، ونستعملها بصورة تلقائية دون ان نتدبر مفهومها بطريقة عقلية مقنعة • والكلمة حينما نشرع فى تحليلها نجدها تجمع بين قوة **العقل والعاطفة** •

هى ثورة لانها تعبر عن شعور قوى كامن فى النفوس • لقد تجاوزت مستوى الفكرة المجردة واستحوذت على الذات بكاملها ، واصبحت قوة عاطفية دافعية الى التحرك والعمل موحية بنبذ اشياء وتحبيذ اشياء ، باعادة النظر الى الواقع حسب صورة جديدة • انها رغبة ملحة فى التجدد تدفع الى بتر كل ما هو ميت ويابس وتحطيم كل الحواجز التى تعوق عن التقدم • كما تدفع الى البحث عن لقاحات جديدة تؤدى الى بلوغ الاهداف من أقصر الطرق •

وهى كقوة عاطفية تنطوى على كراهية وحب تتجلى بوضوح فى ردود الفعل التلقائية الصادرة عن المجتمع الثورى • الا ان القوى العاطفية ، كما هو معلوم كثيرا ما تتجاوز اهدافها فى اندفاعها العارم • فهى طاقة كامنة فى النفوس واذا ما فسح لها المجال ، تستطيع ان تذهب ابعد مما كان منتظرا ، وفى اطار هذا الانطلاق العرفوى تتعرض لانحرافات ومبالغات تعود عليها بالانتكاس ، فيكون مد يتبعه جزر • وتتاح الفرصة آنذاك لدعاة الجمود لان يظهروا بمظهر العقلاء والحصفاء الذين حذروا ونصحوا فى الوقت المناسب ، ولكن لم يستمع اليهم احد • ولذلك فالثورة لها أيضا **جانب عقلى** • فالعقل ، بفضل وسائله الخاصة المبنية على العلم والتقييم والموازنة ، يستطيع ان يخطط لكل التغييرات التى يتطلبها المجتمع ويرسم لها حدودها ، وينسق بين معطياتها ونتائجها بحيث ان رؤية الثورة من خلال العقل هى غير رؤيتها من خلال العاطفة ، وان كانت الاهداف واحدة • الا انه لابد من اضافة حرارة العاطفة الى برودة العقل لتكون الثورة ثورة • والذى يقع احيانا فى مجتمعاتنا العربية هو اننا لا نوازى بين هذين الجانبين حينما ننشد التجديد • فننطلق مع تيار العاطفة فى تفكيرنا وان كنا نظهر بمظهر الباحثين المرتكزين على العقل والمنطق ذلك ان العاطفة ، لا تظهر عيانا وجهارا وانما تبقى فى الخلفية بمسلماتها ومرفوضاتها • وعن ذلك تتولد مواقف متصلبة تعوزها المرونة

الضرورية للمزيد من الاطلاع وروح التفهم والتدقيق التى لابد منها عند معالجة شؤون المجتمع • ومن هنا تنشأ بعض الاحكام العشوائية التى تحرق الاخضر واليابس وتضر من حيث انها تستهدف النفع • ومن بين هذه الاحكام التى تلمح ضمنيا فى عدد من المواقف الفكرية اننا وجدنا الفراغ الكامل فى مجتمعاتنا ويجب ان نملأ هذا الفراغ • بماذا ؟ ان نجلب له من هنا وهناك من بلاد أوروبا المتحضرة الجهاز المادى والفكرى الذى يسده • وهنا يكمن الخطر قد يصح لنا ان نقول اننا وجدنا نقصا ، ولكن لا يعقل ان نقول اننا وجدنا فراغا كاملا • والكلمات يجب استعمالها بمعناها الدقيق • فالنقص هذا أمر مسلم به ولا يجادل فيه الا المتعصبون • وهذا النقص هو الذى عنى بكلمة أخرى اكثر استعمالا وهو **التخلف** • والتخلف لا يعنى الفراغ أو العدم وانما يعنى فقط توقفا فى مرحلة لا زالت بعيدة نسبيا عن الاهداف التى كان يجب ادراكها • وعلى هذا فالمجتمع المتخلف قائم فى مرحلة ما•وقيامه يدل على وجوده ككائن حى•فالفرق بين المجتمع المتخلف والمجتمع المتقدم ليس هو الفرق بين الوجود والعدم ، وانما هو الفرق بين درجتين فى الوجود • والمجتمع المختلف ، على أى حال ، موجود • ووجوده هذا يمنعنا ان نتكلم عن الفراغ المطلق • هذه الدرجة من الوجود التى يستمتع بها هى التى أردت ان ادعاها هويته • ويجب ان ننظر اليها الآن لا كمرشدين وانما كعلماء اجتماعيين يكتفون بتسجيل الظواهر وتحليلها وربطها ببعضها • ولكى نستطيع ان نقوم بهاته المهمة ، يجب ان نتحلل من عدد من العادات الفكرية التى درجنا عليها واعتقدنا تلقائيا انها صالحة • فقد ألف مثقف عندنا ان يتحدث عن المجتمع وهو لا يعرف منه الا ذلك الوسط الضيق الذى يحيط به وسط الاسرة والاصدقاء والهيئة المهنية التى ينتمى اليها • وطبيعى ان تكون الملاحظات والامثلة التى يرتكز عليها فى تفكيره مستقاة فى أغلب الاحيان من هذه الدائرة الضيقة ، اللهم الا اذا بذل مجهودا فى التغلب على تلك العادة ليوسع منظوره ويتحرر من ايحاءات الاتصالات اليومية • هنالك يظهر عندنا ما نستطيع ان نسميه مجتمع المثقفين • وهو مجتمع يعيش مع نفسه ولنفسه داخل المجتمع الكبير • وليست النية الحسنة هى التى تعوزه ولا الرغبة فى خدمة الصالح العام • ولكن مستواه الفكرى يجعله يشعر بنوع من التمايز عن الغير ، ويدفعه الى شىء من الالتفات على بعضه ولو كانت المنافسات والخصومات تقوم بين افراده • وكثير من المثقفين حينما يتحدثون عن

المجتمع لا يخرجون عن دائرة هذا المجتمع الصغير الصغير • فالحياة بالنسبة اليهم تجمعت كلها فى تلك الدائرة•وانتقاداتهم وملاحظاتهم ونظرياتهم تبقى مرهونة بحدودها• انهم يعايشون فقط مجتمعهم الكبير ويعيشون فى مجتمعهم الصغير • وبهاته الطريقة ينزلون فى اسواء موقع لادراك الهوية الاجتماعية ، وبما ان المجتمع الثقافى عندنا ، فى الظروف الراهنة ، ظروف التخلف ، يعيش فكريا مع الخارج اكثر من الداخل فهو يعيش فى حلقة لا تخلو من افتعال الشيء الذى لا يؤهله لان يكون ممثلا حقيقيا للمجتمع فى كليته • هذا الجو المفتعل الذى يسود مجتمعنا الثقافى ، والذى يتكون من ايحاء المقرؤات والنظريات المجردة ومن عادة الاجترار المتواصل لنفس الافكار والصور والجداول يؤول فى النهاية الى خلق تصورات صلبة وكثيفة تكون حواجز حقيقية عن رؤية الواقع • انها مثال آخر من الجمود الفكرى الذى لا يريد ان يعترف بنفسه • ولعل هذه الظاهرة ، اذا تدبرناها بامعان ، هى أيضا من ارث الماضى الذى حافظنا عليه بدون وعى ولا انتباه • فقد ألف المثقفون المغاربة ، فى الازمان السالفة ان يكونوا مجتمعنا خاصا له مظاهره ومميزاته التى تجعل منه كيانا مستقلا وطفيليا فى آن واحد بالنسبة للجمتع العام • انه يعيش حينه ويستفيد منه ولكنه يتجاهله ويرفض ان يندمج فيه • وهذا ما يفسر لنا عددا من الاحداث والظواهر التاريخية التى لا محل لذكرها هنا • ولذلك فان المستثنيات من بين لجال الثقافة فى بلادنا كان لهم صدى عميق ، لانهم خرجوا عن القاعدة المتبعة • فرجل مثل ابن خلدون ، برغم انتمائه الى هذه الطبقة المحظوظة من رجال الفكر والقلم لم يغتر بهاته المكاسب واستطاع ان يخرق هذه الحواجز التى تخلقها الاسرة والبيئة والجاه ، ليذهب بكل تواضع الى البادية فيدرس مجتمعها ويبحث فى انسانيتها ، وينظر الى عوامل قوتها وضعفها مع الحرص على تفهم كل الجزئيات واستقصاء كل المعلومات • ومن المعلوم اننا ندرك هوية المغرب فى العصر الوسيط احسن ادراك من خلال ما كتبه ابن خلدون • فعلى اكتاف هذا الرجل الفذ قامت شهرة عدد من المستشرقين والعلماء العرب المعاصرين • والمثال الذى يقدمه لنا لا زال صالحا الى اليوم كموقف فكرى • انه يستند قبل كل شيء ، الى الواقع ويعتمد على طريقة الاستقراء ولا يغامر بنظرية الا بعد ان يكون وجد لها شواهد من الحياة •

ورجل مثل الحسن اليوسى ، سليل البادية المغربية ، لم يغير بتضلعه فى العلوم الرائجة فى عصره فكان فقيها يردد المحفوظات والمرويات ، بل تجول فى البادية وصعد

الجبال وانصت الى الكبير والصغير واستطاع فيما كتبه ان يعبر بصدق لا عن ذلك المجتمع المصطنع الذى يكونه المثقفون حينما يعتبرون انفسهم طبقة خاصة ، ولكن عن المجتمع المغربى فى شموليته • فهو فى هذا العمل ، يتجاوز نفسه كما يقول فلاسفة اليوم • ولكن كم هم العلماء الذين استطاعوا ان يسيروا فى هذا السبيل ؟ انهم قلة وسط كثرة هائلة • والذى يخشى منه على مجتمعنا الثقافى اليوم هو ان يحافظ على نفس السلوك بدون وعى ، فيعيش على هامش المجتمع لان افراده بدافع الغرور أو الكبرياء أو الكسل يرفضون ان يندمجوا فيه ليدركوا هويته على حقيقتها • اننا نطالب المثقف ان يكون ثوريا فى تفكيره • والثورة تعنى ماذا ؟ تعنى تغيير الواقع الموجود ، نقله من الصورة الراهنة الى صورة أحسن منها • وفى هذا الحال هل يستطيع ان يغير وهو يجهل ماذا يريد ان يغير ؟ طبعا ، هو لا يعترف بهذا الجهل ويقول انه يعرف ادواء مجتمعه ويحللها ويبين علاجها • ولكنه فى هذا الموقف يظل انسانا ينظر الى الأشياء من الخارج ، من بعيد ، ينظر اليها بنظرة الكيكانيكى الذى يقصر نظره على ملاحظة تفاعل القوى فيما بينها • ولكن الميكانيكى على صواب فى موقفه لانه يتداول الاشياء • اما المثقف فهو مخطىء حينما يقتصر على هذا النهج وحده لانه يواجه البشر • وليس وضع البشر كوضع الاشياء • وهنا يكمن السر فى ان العلوم الانسانية لا زالت لحد الساعة لم تندمج فى بقية العلوم الوضعية برغم كل المحاولات• وما دام الامر هكذا، فلا مندوحة للمثقف من ان يغير موقفه الفكرى ، فيتخلى ولو مؤقتا عن هذه الصور والاشكال النظرية الصلبة التى رسخت فى ذهنه ليعيد التجربة الخلدونية فى عصرنا الجديد ، فيخترق سياج الافكار المقبولة والمسبقة ، ويتجرد من كبرياء العالم ويذهب ليرى كيف يعيش الناس وبماذا يعيشون فى مجتمعه • ولديه هنا برنامج حافل من الاعمال المفيدة التى يمكن ان تبرز سواء فى ميدان البحث والدراسة أو فى ميدان الابداع الادبى والفنى أو فى مجال بعث التيارات الجديدة التى تسرى فى المجتمع بكامله وتكون من عوامل التغييرات الثورية ، فيد واثرها فى تطور العقليات ومظاهر الحياة المادية على السواء •

وهذه الناحية الاخيرة يجب أن تستلفت نظرنا بالخصوص فنحن لا نريد أن نجعل المجتمع فى خدمة المثقف ، بل المثقف فى خدمة المجتمع • ان القطيعة الموجودة حاليا بين

المجتمع والمثقف بسبب انعزال هذا الاخير تجعل دروة متضائلا ما عدا في وسط محدود ·
وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل يستطيع المثقف أن يؤدى دوره بصورة احسن ؟

والجواب نعم لاننا عرفنا من التحليل السابق الاسباب الرئيسية التى تعوقه عن اداء مهمته على حقيقتها والتى يمكن أن نجملها فى النقط التالية :

ـ انه يعيش فى طبقة تكاد تكون منعزلة وقلما يحاول أن يخرج من حدود تلك الطبقة·

ـ مما يقوى انعزال تلك الطبقة غرورها بالعلم النظرى واقتناعها بأنها تعرف كل شيء عن المجتمع وانها فى غنى عن أى اتصال أو تجربة اضافية ·

ـ طغيان الثقافة الاجنبية على العقول بصورة تتجاوز الاحتياجات الحقيقية وتتحول الى تضخم فى الاستهلاك لمجرد الاستهلاك ·

ـ التوهم بأن مجتمعنا لا ينطوى الا على فراغ وان هويته الفكرية منعدمة ·

من كل هذا يتضح ان مثقفنا فى انطلاقته يبقى فى وسط الطريق ولا يسير فيها الى النهاية· فهو يقطع جزءا من مسيرته ويتخلى عن الجزء الآخر· انه يحاول بمجهوده الشخصى وذكائه أن يكون فى مستوى ، المثقف العالمى ، · وكثيرا ما حالفه التوفيق · ولكن حينما يصل الى هذا المستوى لا يقدر المسافات الطويلة التى أصبحت تفصله فكريا عن مجتمعه (المتخلف) · انه يقنع بهاته النتيجة كتحرر ذاتى ، فيرى نفسه كالفرد الذى نجا من وسط الجماعة وترك الجماعة وراءه · فهو ينظر الى هاته النتيجة كأنها (غاية الغايات) فى حين انها من الوجهة الفكرية ليست الامرحلة تتبعها مرحلة ثانية ·

والمرحلة الثانية ، التى يمكن أن تعتبر هى غاية الغايات تجعله يتحول من طور المثقف العالمى ، الى طور المثقف الملتزم ، أى المثقف الذى ينزل من سماء النظريات الى صعيد الحياة الحقيقية ليلابسها ملابسة يومية ويحاول أن يؤثر فيها بشكل من الاشكال · وهذا الاتصال لا يمكن أن يتم الا عن طريق المشاركة العالمية فى حياة المجتمع ، بمعناه الكامل · وهذا هو السبيل الوحيد الذى يتيح له أن يكون فى آن واحد فاعلا ومنفعلا ، أى أن يجد لحياته ونشاطه معنى حقيقيا · ان هوية مجتمعنا تتجلى قبل كل شيء ، فى هاته العلاقة التى يمارسها الانسان المغربى منذ آلاف السنين مع الارض · فالارض · هى محط اماله ومسرح نشاطه · وتلك حقيقة يمكن أن تتغير مع نمو التصنيع ولكن الى

الآن لا زالت الارض هى القاعد الاساسية التى ترتكز عليها حياته المادية والثقافيـــة ٠ ولنترك يوما بيوتنا ومكاتبنا لنخرج الى البادية نتجول فى اسواقها ونستمع الى أهاليها ونحضر فى افراحهم ومواسمهم لنستخلص من استقراءاتنا الفكرة الاسياسية التى تدور عليها حياة المجتمع فى البادية ٠

وسنكشف انها العلاقة مع الارض بما تتضمنه من عطاء وشح وكدح وجهد وأمـل ويأس ٠ فاذا عدنا الى المدينة نجد ان البادية لا زال لها امتداد كبير هنالك ٠ فكثير من أهل المدن لهم ارتباط بالبادية اما عن طريق العلاقة العائلية أو عـــن طريـق النشاط الاقتصادى أو عن طريق الوظيفة والمهنة ٠ فالارض اذن هى الحقيقة الكبرى التى تنبنى عليها هوية مجتمعنا بكل مظاهرها ٠ وهى التى تفسر عقليته وطريقة تفكيره ٠ وما نسميه الادب الشعبى أو الفولكلور ما هو الا تعبير عن هاته الحقيقة ٠ وكل الصراعات الـــتى جرت فى تاريخنا كان منشؤها الارض ٠ وكل الاحتكاكات بين القبائل الرحل والمستقرة تعود بنا الى قضية الارض ٠ والمؤسسات الاجتماعية على نطاق القرية والجماعة تهدف الى احكام العلاقة بين الانسان والارض ٠ فالتفاعل المثمر بين المثقف والمجتمع لا يمكن ان يتم الا اذا تشبع المثقف بمعطيات هذه الهوية الجماعية واستطاع ان يتمثل هاته التجربة التى يعيشها مجتمعه بكيفية عادية وتلقائية ٠ وبعبارة أخرى ، لابد له من ان ينتقل من هذه (الثقافة العالمية) التى تمثل مستوى من التحليق فوق الواقع الملموس والتى قـد تغرى بجمال منطقها وتناسق افكارها ونظرياتها ولكنها تظل نوعا من النموذج المثـــالى على شكل المثل الافلاطونية ، الى (ثقافة الواقع) المبنية على التجربة المباشرة وعلى الاتصال الانســانى الواقــع الــذى لا يتقيـد بأى قيـود ٠ والابحاث الاجتماعيـــة المعـــاصرة تشــير الى ديناميــة الثقافــة الاجتماعيــة ـ وهــذا عنـــوان دراســة قيمـــة لاحـــد الباحثين المرموقين ابراهام مولس ـ أى الى قابليــة اليقانــة للتحــرك داخـــل المجتمــع بقوتها الذاتية ٠ وهذه الحركة تتمثل فى الحلقة الطبيعية التى تدور منهـا الثقافـــة ٠ فالمثقف ينشىء الشيء الجديد ـ نظرية ، رواية مسرحية الخ ٠٠٠ ويبرزه للجمهور ٠ ومنذ ذلك الحين يسلك اثره فى مدار يتسع أو يضيق حسب طبيعة ما انشاه ٠ ففى مرحلـــة أولى ، ينزل انتاجه فى الدائرة الضيقة التى تتكون من مجتمع المثقفين ٠ فهم أول مـــن يتداولونه ويتحدثون عنه ، ويتناقشونه فيما بينهم ٠ وفى مرحلة ثانية ، ينتقل صـدى

ذلك الانتاج الى جمهور اوسع عن طريق الصحافة ووسائل الاعلام وهنا يختلف مصيره فقد يصبح من المكاسب الثقافية التى يغتنى بها فكر الجمهور ، بالمعنى الاوسع • وهذا لا يتم الا اذا كان هنالك تجاوب فعلى بين المثقف والجمهور أى الا اذا استطاع المثقف ان يخترق عالمه المصطنع لينفذ الى الواقع المجتمعى فى سائر ابعاده • ذلك ان المثقف يتعلم هو بدوره على المجتمع فى تكوين ثقافته الملتزمة • فهناك دور يدور باسترسال بين الجانبين • المثقف يمد المجتمع بانتاجه ويرى أثره فيه والمجتمع ، من جهته ، يصحح رؤية المثقف عن طريق الاحتكاك المتواصل •

تلك هى الحالة المثلى ولكن هناك حالة ثانية ، وهى التى يقابل فيها الانتاج بالرفض أو الاهمال ، فيكون الصدى ضعيفا أو منعدما فى الجمهور • وهنا تضيق الحلقة التى يدور فيها ذلك الانتاج ليقتصر استهلاكه على دائرة جد محدودة • حينئذ يجب على المثقف ان يبدأ باتهام نفسه • نعم ، قد يكون سابقا لأوانه ، وقد يكون عبقريا فاجأ الناس بما لم يتعودوا عليه فانصرفوا عنه وقابلوه بالصدود • ولكن هذه حالات نادرة فى التاريخ والنادر لا حكم له • ثم ان أسباب الاتهام هنا ليست هى عدم فهم الجمهور أو شدة المفاجأة بالنسبة اليه • بل هى تكمن فى اشياء أخرى اهمها ان الانتاج لا يتصل فى شيء مع حياة ذلك الجمهور ، اذ لا يبرهن على أى مجهود صادق فى تفهم عقليته وردود فعله ومثله وتطلعاته الجماعية ولا ينزل الى عمق الوضعية التى يعيشها مكتفيا بالرؤيا السطحية • وبعبارة أوضح انه لا يبرهن عن أى نوع من تجربة الواقع والاستفادة منه ، ويظل حبيسا فى قفص ، (الثقافة العالمية) يتقلب بين تجريداتها ومفاهيمها فى حين ان تلك الثقافة ما هى الا منطلق لغزو الواقع • ومعنى كل هذا انه يبقى بعيدا عن الاصالة التى هى نهاية النهايات فى كل عمل فكرى أو اخلاقى أو فنى فالاصالة هى الارتباط بالاصل النابع من المجتمع • ولا يمكن التوصل اليها الا بالبحث فى الطرق المباشرة أو الملتوية ، التى يحاول المجتمع ان يسلك منها نحو تحقيق حريته بصورة من الصور • اشرنا فيما سبق الى هذه العلاقة الوثيقة التى تربط مجتمعنا بالارض فى ظروفه الراهنة • وهى علاقة تقترن بعبوديات وترضيات وتخضع لمصادفات تتجاوز الطاقة البشرية وترتهن باسرار الكون والطبيعة وكل مجهودات مجتمعنا منذ عشرات القرون كانت تتجه الى فتح باب نحو الحرية فى نطاق هذه العلاقة التى تتشخص فيها الحياة بكل تعبيراتها • وابسط

رقصة من رقصات الفلاحين تعبر بصورة من الصور عن هذا التطلع الى الحرية • ان الارض بتقلبها بين الشح والعطاء ، تمثل المادة التى تتجاهل الانسان وتفرض عليه ان يدخــل معها فى صراع مستمر يتحرر من حاجاته الاولية • بينما الثقافة التى تعبر عــن روح الانسان ، تحافظ له فى كل صيغة من صيغها على هذه الارادة الكامنة فى التحرر وتجعله يصمد ويكافح ويثابر ويعيد تجربته باستمرار • وهذا ما يعطى لوجوده معنى ساميا • وسنتفهم هويتنا وأصالتنا اذا تعمقنا فى معرفة هذه العلاقة بين الانسان المغربى والارض التى لها معطيات خاصة استطاع ابن خلدون فى فترة ما ان يلمسها ، ويجب علينا اليوم ان نعيد النظر فيها بنفس العمل والشمولية اللذين سار فيهما مفكرنا المغربى الكبير • نعم ان دخولنا فى عهد التصنيع قد يغير بعض هذه المعطيات ، ولكن لا زالت ، الى حــد الساعة رائحة التراب اقوى فى بلادنا من رائحة المداخن ، ولا زال الفــلاح بأرض أو بدون أرض هو الممثل الاول لشعوبنا المغربية • فالمثقف الذى لا يحاول ان يرتبط ، بوجه من الوجوه مع هذه الاصالة سيظل بعيدا عن كل تأثير وستكون اقوى من فعاليته •





العائلة
والتطوّر الحضاري في المجتمع العربي

الدكتور هشام شرابي

نواصل نشر ابحاث الندوة الفكرية التى انعقدت فى الكويت حـول « ازمـة التطور الحضارى فى الوطـن العربى » حسبما اعلنا عنـه فى العـدد الماضى .

ان الاهتمام الذي يدفعنا الى القيام بهذه الدراسة ليس اهتماماً نظرياً بل عملياً.

(*) أود أن أسجل ديناً لايمكن تسديده لزميلي الاستاذ مختار عاني لما استفدته منه خلال أحاديث طويلة في خريف عام ١٩٧٢ ، وقد تناولنا فيها العديد من الشؤون والقضايا الواردة في هذا البحث ، والكثير من الافكار والمشاهدات التي اعتمدتها هي نتيجة هذه الاحاديث ، كذلك فاني مدين له بالاتجاه في بحثي نحو موضوع العائلة والطفل والسعي لدرس العلاقات بينها وبين سلوكنا الاجتماعي .

وأود أيضاً أن أسجل عميق تقديري للاستاذ حنا دميان الاخصائي في التربية والتحليل النفسي ، الذي قام بترجمة هذا البحث الى العربية ترجمة دقيقة صادقة لم يكن بامكان غيره القيام بها .

ان دراستنا هذه هي في الاساس محاولة لتحقيق المعرفة الذاتية ، واذا كان الوعي الصحيح أساساً للنقد البناء فهو أيضاً أساس السلوك العقلاني ، وكما أننا نرى ان اي تغيير فعلي من المجتمعات لايمكنه ان ينبثق الا من صميم ذلك المجتمع (أي بتغيير الذات) ، التحرر الصحيح لايمكن ان يحصل الا من خلال عملية تنبثق من قلب المجتمع (أي التحرر الذاتي) ، كذلك نقول بأن المعرفة السليمة لذلك المجتمع لابد ان تصدر عن ذالك المجتمع نفسه ، وان كانت المعرفة تقصد العمل لا الفكر فحسب ، يجب ان تكون معرفة ذاتية قائمة على معرفة النفس ومستمدة من اختبار داخلي صميم .

قد تتعرض هذه الدراسة عند نشرها الى كل أنواع الهجوم من جانب المجتمع التي هي موجهة اليه ، قد يتهمنا البعض بارتكاب الاخطاء والمغالطات ، وقد يقدم البعض الآخر على رفض بعض فرضياتنا ونتائجنا ، كما اننا قد نتهم بالنية السيئة بسبب « قولنا أشياء كهذه » عن بني قومنا ، كذلك فاننا قد نتهم بمؤازرة أعداء العرب لمجرد نشرنا هذا البحث بلغة أجنبية .

والواقع ان هذا الاحتمال الاخير هو الذي أقلق بالنا نوعاً ما ، واذا كنا قد قررنا الاستمرار في مشروعنا فلان المجتمع العربي واقع لايمكن اخفاؤه ، وقد غدا موضوعاً لعدد متزايد من الاستقصاءات يقوم بها علماء الاجتماع والانتروبولوجيا واختصاصيون بعلم النفس الاجتماعي والعلوم السياسية ، واذا كانت دراستنا هذه قد زادت في المعرفة المتوفرة حتى الآن ، فيجب النظر اليها كثمن يجب علينا دفعه لتحقيق المعرفة الذاتية التي نصبو اليها .

ان القسم الأول من دراستنا الملخصة في هذا البحث يتناول قضية العائلة وتكون الشخصية في اطار العائلة ، ويتركز التحليل في هذا البحث على الارتباط الموجود بين العائلة والمجتمع الذي تعيش فيه ، كما يتركز على أثر طرق تربية الطفل وتجارب الطفولة في تكوين السلوك الاجتماعي في الفرد ، ونحن نأمل أن نقدم فكرة عامة عن كيفية معالجة الموضوع وعن الاطار الفكري العام لهذه الدراسة ، ولعل من الضروري أن نشير هنا الى أن السهولة النسبية في وصف الارتباطات القائمة بوضوح بين بعض الظواهر لاتقابلها سهولة مماثلة في تبيان العلاقات الضرورية القائمة بين هذه الظواهر . مثال ذلك ، عندما نقول بأن تخجيل الطفل يؤدي الى اضعاف شعوره بالذنب وبالتالي الى اعاقة نمو الأنا الاعلى (Super - Ego) عند البالغ ، فاننا بذلك لانقول بوجود علاقة سببية

ضرورة (Causal relationship) بل اننا نكتفي بتوضيح الروابط التي يمكنها أن تفسر الظواهر الاجتماعية أو النفسية عندما يتم النظر اليها في اطار معين ، ان امكانية اثبات هذه الروابط كفرضيات (لا امكانية البرهان عليها تجريبياً) تنبع أساساً من تصور الروابط هذه في اطار نظام عام للعلاقات الاجتماعية . وأملنا ألا تقتصر هذه الدراسة على ناحيتها النقدية ، وبذلك تكون أيضاً عامل تنبيه لعلماء الاجتماع عندنا للقيام بأبحاث تتناول قضايانا الاجتماعية الحيوية ولا تقف عند الابحاث الاكاديمية التي اعتدنا على تناولها بسبب ثقافتنا الاجنبية .

ان منطلقنا الاساسي في هذا البحث هو ان العائلة كمؤسسة اجتماعية هي الوسيط الرئيسي بين شخصية الفرد والحضارة التي ينتمي اليها وان شخصية الفرد تتكون ضمن العائلة ، وان قيم المجتمع وأنماط السلوك فيه تنتقل الى حد كبير وتتقوى من خلال العائلة .

أما القواعد التي ترتكز عليها في هذا المنطلق فيمكن تلخيصها كما يلي :

١ – عندما يولد الطفل تكون ذاته غير متكونة وهي تتكون بصورة تدريجية كنتيجة للتفاعل بينها وبين ذوات أشخاص آخرين .

انها في الواقع سلوك متعلم يتكون قبل بلوغ الفرد وعيه الذاتي .

٢ – ان الذات منظمة تنظيماً تصاعدياً وهي مؤلفة من عدة مستويات يجري اكتسابها في سياق النمو والتجربة ، والمستوى الاول هو الأكثر أهمية اذ عليه يرتكز اطار الشخصية الأساسي، وتمثل الأم فيه دوراً حاسماً من حيث أثرها في تكون شخصية الطفل . أما المستويات الأخرى التي تشمل التعلم في الطفولة والمراهقة والادراك والوعي في سن البلوغ فهي ذات أهمية مختلفة .

٣ – ان الانسان حصيلة عوامل وراثية وبيئوية وهو ، تعريفاً حيوان اجتماعي وبالتالي مجموعة العلاقات الشخصية المشتركة .والواقع ان الأنماط التي تتخذها هذه العلاقات فيما بعد تتكون الى حد كبير في السنوات الأولى في حياة الطفل .

٤ – ان طرق تربية الطفل تمثل دوراً حاسماً في تعيين نوعية الشخصية من حيث ارتباطها بمجتمع معين ، ودلالاتها عليه ، ولذا فان فهم طرق تربية الطفل يؤدي الى فهم السلوك الاجتماعي ودوافعه في المجتمع .

٥ – ان المواقف التي يتخذها الوالدان ضمن العائلة تؤثر تأثيراً حاسماً في نمو الشخصية ، وذلك لأنها تؤثر في حاجات الطفل الأساسية وتأمين استمراره في الوجود وتمتعه بالاطمئنان العاطفي ، ويستمر الوالدان طول مرحلة الطفولة في تمثيل دور خطير الأهمية في مايتعلق بضبط دوافع الطفل وارواء حاجاته وتحديد مقاييسه والتأثير في مختلف مراحل نمو الأنا كما في نتائج هذا النمو(١) .

والواقع ان الفرد البشري يعيش في هذه الحقبة من حياته حساسية قصوى بالنسبة الى شروط البيئة وسائر العوامل المؤثرة .

٦ – ان التغييرات التي تطرأ على طرق تربية الطفل وعلى تجارب الطفولة تنبع قبل كل شيء من موضع الطبقة الاجتماعية التي تنتمي اليها العائلة ، أي من مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، كما من وضعها الأثني والديني والاقليمي . ان هذا البحث يتركز على نموذج عائلة عربية تجسد القيم والمواقف السائدة في وسط اسلامي مدني ، وفي طبقة اجتماعية وسطى او أقرب الى الوسطى، هذا مع العلم ان بعض التعليمات يمكنها أن تنطبق على سائر الفئات الاجتماعية في المجتمع العربي بما فيها البدو والفلاحون .

العائلة الكبيرة (Extended Family):

ان الشكل السائد في بنية العائلة العربية هو العائلة الكبيرة ، وفي ما خلا بعض الاستثناءات فان العائلة الكبيرة لا تسكن عادة في بيت واحد ، ففي المدن الصغيرة والكبيرة نجد ان العائلة قد تعيش في حي واحد أو قد تتوزع على عدة أحياء من المدينة، فالفقراء قد يتكدسون في غرفة أو غرفتين ، بينما يعيش الميسورون في فيلات أنيقة ، أو في شقق مختلفة الحجم .

وكما سيبدو لنا بوضوح فان الخاصة المميزة للعائلة هي استمرار الانماط الاساسية للروابط العشائرية في تنظيم العائلة وعلاقاتها ، وبالرغم من أن سيطرة الاب على العائلة قد فقدت من شدتها ، فان وضعه فيها يبقى أساسياً ، وهناك ، في بلدان « متقدمة » كسوريا ولبنان عائلات كبيرة من الطبقة الوسطى والاقرب الى الوسطى تنعكس فيها

---

(١) David p. Ansbal and Edmund V. sullivanTheory and problems of child Development « New Vork , 2 nd. ed· 1970 » , P. 303 .

المعرفة م– ١٠

بوضوح بنية العائلة العشائرية ، ويمكننا ان نطلق على هذه العائلات تسمية العشيرة أو العائلة لان العشيرة والعائلة تصبحان في الواقع شيئاً واحداً ، وتجدر الاشارة هنا الى ان الروابط العشائرية هي أقل متانة في الطبقــات الفقيرة خاصة بين فقراء المدن من جهة وأوساط الطبقة الوسطى ذات الثقافة الغربية من جهــة أخرى . ومع ذلك فان الاب يظل يمارس سلطة واسعة في هــذه الاوساط بالذات . والزواج في العائلة يجري في معظم الاحيان في اطار القربى العائلية. والمرأة يجري تدريبها لتصبح امرأة مكرسة للواجب، وواجبها الاول في الزواج لا تتوثق عراه قبل انجاب الاولاد ، والصبي الباكر هو أثمن ما تملكه العائلة . انه « روح » أمه « وحبيب قلبها » الذي « سيقبرها » ويظل البكر، حتى ولادة أطفال آخرين ، عــالم أمه الوحيد ودليل قيمتهــا كامرأة ، وضماناً لحياتها في المستقبل .

والعائلة ميدان تفاعلات مستمرة وشديدة بين مختلف أعضائها ، وهذا في الواقع مصدر كل ما في الحياة العائلية من سعادة وتعاسة ، فعاطفة الحب لا تشكل لحمة العائلة ولا توجد في اطارها تعبيرات واضحة عن الحب ، ما خــلا بعض العواطف الحارة التي تبديها النســاء تجاه الصبي ، وحتى ولو كان الاب لطيفــاً وحنوناً فهو يبقى بعيداً عن متناول أطفاله لما يبديه من ابتعاد وتعال ، ولذلك فان الطفل في معظم العائلات ينمو ويشعر على درجات متفاوتة بأنه غير مرغوب فيه ومظلوم وتعيس ويصف هذا الشعور شاب تونسي مسلم ترعرع في عائلة من عائلات الطبقــة الاقرب الى الوسطى في مدينة تونس فيقول :

« من منا نحن العرب يستطيع ان يزعم بأن عائلته أو البيئة التي قد عــاش فيها قد أرادته وقبلته وأحبته واعترفت بذاتيته ؟ لا أحد بكل تأكيد اذ كيف يمكن للانسان أن يكون محبوباً عندما ينحصر وجوده في كونه شيئاً مفيداً قد جرى انتاجه من أجل استمرار العائلة وضمان شيخوخة الوالدين ، أو من أجل ارضاء كبرياء الاب الذي يثبت رجولته بكثرة أطفاله ... »(١)

وسرعان ما يكتشف الطفل النزاع والتوتر الموجودين في صلب العائلة ، كما يظهران.

---

(١) I. M, homed Karoui , « one fois Un Arabe ... Une fois des Arabes ... , « Les Temps Moderne , s Septembre - octobre , 1972 » , P. 347 .

في عداء الام عند الاب وهو في كثير من الاحيان عداء مبطن ، وكما في عداء الاخ نحو أخيه والاولاد نحو والديهم .

الا ان أشد عداء يشعر به الطفل الذكر هو تجاه أبيه ، منبه السيطرة التي تحطمه وتجعل العائلة تعيش في جو من الطغيان . وهذا ما يعبر عنه الشاب التونسي بقوله :

« انه (أي الاب) لا ينجبنا من أجل ذاتنا ، بل من أجل نفسه ، وليس نحن الذين نأتي الى العالم ، بل هو الذي يرى حياته مطبوعة بطابع التبرير والقيمة ، وهكذا فان ولادتنا ليست ابداعاً حراً ، بل محاولة لتمديد حياة الاب ، انه ينجبنا لنكون سنداً لحياته ، وبالتـالي فهو يحرمنا من حياتنا نحن . فنحن لا نعيش بل نتيح له ان يعيش هو من خلالنا ، وهذا ما يجعل حياتنا مزيفة منذ البدء والواقع ان هذه الخاصة لا يتصف بها العربي وحده بل اننا نجدها في مختلف المجتمعات والعصور ولكننا نحن العرب نذهب بها الى ابعد الحدود »(١) .

ان تماسك العائلة يتحقق بواسطة ادراج الطفل في المجتمع من خـلال اعتماده على العائلة وربطه بها ودعمه اياها .

ومن أهم نتائج هذا الاعتماد ان الطفل ينمو وشعوره بأن مسؤوليته الاساسية هي تجاه العائلة لا تجاه المجتمع ، والابن المتحمس بواجبه هو الذي تدفعه تربيته الى الشعور بأن واجبه هو من جهة التضحية في سبيل والديه واخوته ومن جهة أخرى بذل كل ما في وسعه من أجل أقربائه . فهو مثلاً لا يتزوج اذا كان اشقاؤه الصغار ما زالوا في المدرسة او اذا كانت شقيقاتهم يتزوجن بعد ، او اذا كان والده في حاجة الى الاعالة، وفي اطار هذه الشروط النفسية والاقتصادية لا يبقى سوى مجال صغير للشعور بالواجب تجاه المجتمع الاكبر الذي يتصوره الفرد كفكرة مجردة لا ينطبق عليها مفهوم المسؤولية بصورة طبيعية ، وبالنسبة الى الفرد المرتبط عائلياً بهذا الشكل ، لا يمثل المجتمع سوى عالم الصراع والكفاح بحيث ينتزع الفرد لنفسه مكاناً ليدعم كيانه وكيان العائلة ورفاهها.

ان العائلة مرتبطة بالمجتمع في علاقة ديالكتيكية فهي تدعم المجتمع وتناقضه في آن واحد ، واذا اتفق وجود مطالب اجتماعية وعائلية متناقضة فمن الأسهل على الفرد أن

---

(١) المصدر نفسه .

يوفق بين الجهتين، بالقيام بواجبه تجاه العائلة ، وهذا ماثبت مراراً عديدة في وقت الازمات كما جرى عند نزوح الفلسطينيين عن ديارهم في عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ .

والعائلة في خصائصها الاساسية صورة مصغرة عن المجتمع ، فالقيم التي تسودها من سلطة وتسلسل وتبعية وقمع ، هي التي تسود العلاقات الاجتماعية بصورة عامة . فالنزاع والتضاد والتنافر هي عوامل تميز العلاقات بين أعضاء المجتمع ، كما تميز العلاقات بين أعضاء العائلة ، كذلك فان بنية العائلة القائمة على السلطة والتسلسل تقابلها بنية اجتماعية مماثلة أيا كان النظام الاجتماعي ، مع العلم أن الفرد مضطهد في كل منها على حد سواء . ومن حيث هي نظام ، تقوم العائلة في آن واحد بتجسيد ودعم النظام الاجتماعي الاكبر ، كما أن جميع المؤسسات التي تمثل دور الوسيط بما في ذلك المؤسسات التربوية والدينية ، تقوم هي أيضاً بتعزيز القيم والمواقف التي بواسطتها تدرج العائلة أعضاءها في الحياة الاجتماعية، وغني عن القول أن قيم ومؤسسات الطبقات المهيمنة اجتماعياً (الطبقات البورجوازية الاقطاعية) هي القيم السائدة في هذا المجتمع ، وبقدر مايكون الفقراء في المدن والارياف تحت سيطرة الثقافة السائدة فانهم جزء من المجتمع ، كما أنهم يخرجون عنه بقدر ماينفلتون من هذه السيطرة ، ومن الواضح أن تغيير المجتمع يقضي تغيير العائلة والعكس بالعكس، ولكن اذا كان هذا التناقض يتجاوز ارادة أو قدرة الفئات المسيطرة اقتصادياً والحاكمة سياسياً فقد يستقر الامر بالاتجاه الذي سيتخذه في السنين المقبلة التطور العفوي في أوساط الشعب .

السيطرة

وكما أن الصبي يشعر بأن أباه يضطهده ، فهو يشعر أيضاً بأن أمه تسحق شخصيته، وأما البنت فيمكنها أن تكون محبوبة ، الا أنها تنتمي الى فئة مختلفة ، وهي تلقى في العائلة معاملة مختلفة ، ان استعمال كلمة رضيعتي للدلالة على الشقيقة وعضدي للدلالة على الشقيق الذي نجده في الكويت وغيرها من البلدان العربية ، يشير بوضوح الى ذلك التمييز والواقع ان الانثى يجري تمييزها عن الذكر بصورة أساسية ، فهو كسب للعائلة ، وهي عبء عليها . والبنت منذ نعومة أظفارها تدفعها العائلة الى الشعور بأنها غير ضرورية ، وتعلمها على قبول وضعها كأنثى ، وهذا صحيح خاصة في العائلات المحافظة أكثر من غيرها .

من المتوقع اذن أن تلقى البنت في أثناء الطفولة اهتماماً أقل من الذي يلقاه الصبي، ومن النادر أن تكون مركز الاهتمام الاول في العائلة اذا كان لها أشقاء ولكن هذا يتيح لها أن تنمو بحرية أكثر ، وأن تتعلم كيف تواجه المصاعب بنجاح لأنها لاتخضع للضغط نفسه الذي يخضع له الصبي ، ولذلك فهي تميل الى النضوج نضوجاً أسرع ، وتتعلم كيف تواجه مشكلات الحياة بصورة أكثر فعالية من الصبي ، ولعل هذا أحد الأسباب الذي يجعلها تنجح في مجابهة نظام اجتماعي يحاول سحقها باستمرار . ان المرأة في المجتمع العربي قد لاتمثل في الحياة العامة سوى دور محدود . ولكن أثرها الخفي في العائلة وفي علاقتها مع الرجل كزوجة وأم وشقيقة وجدة هو أثر عميق . فهناك في المجتمع العربي كما في سائر المجتمعات المرتكزة على الرجل ميل عفوي الى الافراط في تضخيم دور الرجل والتقليل من أثر المرأة .

ونعود فنقول ان الأم مع سائر الاناث الموجودات في البيت يؤثران ابلغ تأثير في نمو الطفل اثناء السنين الاولى من حياته . أما الاب فيبقى على الهامش ولا يبدي اهتماماً جديا بالطفل إلا بعد ان يكبر ، وهو في هذه الحقبة نادراً مايهتم بأطفاله إلا عندما يخطر على باله ان يلاعبهم أو ان يعرفهم على الضيوف ، وهكذا فان الصبي هو ، في شخصيته الاساسية والى حد كبير حصيلة عمل أمه لا أبيه . انه من ممتلكاتها الخاصة ، وهو موضوع اهتمامها وعنايتها الدائمين ، بالاضافة الى عناية واهتمام شقيقاته وخالاته وعماته .

وهذا ، يعني قبل كل شيء ، ان العائلة لاتتيح للطفل سوى مجال ضيق لتحقيق استقلاله الذاتي ، فاذا حاول الطفل تسلق الدرج أو فتح الباب او زحزحة الكرسي يجد من يقوم بهذا العمل بدلاً عنه ، وكذلك فهو سرعان مايتعلم العزوف عن النشاط المستقل، منتظراً من الآخرين ان يقوموا بالاعمال التي يتوجب عليه القيام بها ، ومن نتائج ذلك ان الافراط في الاتكال يؤدي عند معظم الاطفال الى شعور بالعجز . كما يؤدي عند البعض الى استغراق الطفل في ذاته واكتساب عادة الخجل والجبن وأشكال أخرى من السلوك اللا اجتماعي . ان نظام التربية متشدداً كان أم متساهلاً ، لايكتفي بتعليم الطفل أنه عاجز عن فعل شيء بنفسه ، بل يعلمه أيضاً أنه عاجز عن تحقيق الاحترام الذاتي ، بمعنى أنه لايكتسب أهمية الا اذا اعترف الآخرون ومنحوه المكانة والتقدير ، ان الطفل يتعلم كيف يبني صورته الذاتية ، وبالتالي كيف يغذي احترامه لنفسه على أساس رأي الآخرين

فيه ، وهو لايلقى أي تشجيع في تكوين مقاييس تتميز عن مقاييس الآخرين وتمكنه من تكوين رأي مستقل في نفسه وشؤونه وفي كل الشؤون الأخرى ، ان هذه الظاهرة كما سنرى فيما بعد ، تجد دعماً في عدد من أنماط الحياة الاجتماعية لايعلق أهمية كبرى على تنمية قدرة التساؤل الحر عند الفرد ونضوجه الذهني بشكل مستقل . ان النظام التربوي والاجتماعي يثني الطفل عن الثقة في آرائه الخاصة ويشجعه على قبول آراء الآخرين دون تردد او تساؤل وهذا ماينمي في نفسه الاذعان للسلطة أي لأبيه والشيخ والمعلم وفيما بعد لكل من هو أقوى منه أو أعلى منزلة أو جاهاً ، وهو ، إذ يكبر ، يتعلم ان يكون متحفظاً والا يتخذ موقفاً نهائياً في أي موضوع ، لذلك نراه يكتسب عادة «استشارة » الاخرين و « أخذ رأيهم » ليخفي الصعوبات التي يعانيها في اتخاذ قراراته ، وأسوة بشعوره بالخجل فان شكه في نفسه يقوى بسبب فقدانه السيطرة على ذاته ، كما بسبب تزايد السيطرة الخارجية عليه بدخوله المعترك الاجتماعي .

ولا شك في أن الافراط في الحماية كما في العقاب له أثر كبير في نمو شخصية الطفل وتكاملها ، مثل ذلك ان الأم التي لاتسمح لطفلها ان يلعب وحده في الحديقة او في الشارع فتبقيه دوماً الى جانبها تعيق تحقيق امكاناته تحقيقاً مليئاً حراً . فالطفل « العاقل » هو ، في نظر الأم ، الذي يجلس الى جانبها هادئاً ، ساكناً ، مطيعاً ، فهي تتصور ان الطفل الحسن التربية هو الذي لايحدث ضجة كبيرة والذي يفعل مايطلب اليه فعله والذي يحترم من يكبره سناً . وبنتيجة ذلك يصبح الطفل في كثير من الاحيان ، طفلاً خجولاً يهرب في وجه التهديد ولا يقاتل عندما يعتدي عليه طفل آخر . يبكي ويشتكي ويلتمس الرحمة عندما يقع في الصعوبات ، وهناك حادثتان شاهدتهما في دمشق وفي بوسطن تعبران أفضل تعبير عن طبيعة هذه التربية ونتائجها في تكوين الشخصية وما ينبثق عنها من سلوك اجتماعي .

فؤاد له من العمر ست سنوات ، وبينما هو يلعب في الشارع أمام منزله دق الباب فجأة وهو يبكي ، وقال لامه أن ولداً آخر ضربه وأخذ منه طابته ، فكيف كان تصرف الأم حيال هـذا الوضع ؟ كان أنها أظهرت غضبها على الولد السارق واحتضنت ابنها الباكي ، وأخذت تطمئنه وتواسيه وتقول له « انتظر حتى يجيء أبوك ، وشوف شو رح يعمل بها الولد ، هو بيرجعلك الطابة ما تخاف » .

هذه الحادثة شبيهة بالحادثة الاخرى التي جرت في بوسطن وهي أن جوني وعمره

سبع سنوات ، رجع الى البيت بعد شجار مع صبي يكبره بأربع سنوات أخذ منه طابة البيسبول التي كان أبوه قد اشتراها له ، ولما أخبر امه عما به ، ماذا قالت له ؟ قالت : أنصحك بأن تعود الى الملعب وتفتش عن ذلك الصبي وتسترد الطابة منه ، والا غضب أبوك كثيراً .

ومن الامور التي يتعلمها الاطفال بصورة خاصة عرفان الجميل الى الوالدين ونجد أن الخصام بين الوالدين كثيراً ما يتخذ شكل المنافسة على كسب خضوع الطفل والاستئثار بعاطفته ، فالطفل مدفوع الى الشعور بأنه مدين لوالديه أو لاحدهما بكل شيء ، والام بسبب قربها من الطفل ، لها حظ أكبر في كسبه الى جانبها ، فكلما كبر الولد كلما امتعض في شعوره بالدين ، ولكنه يقمع هذا الشعور ، ثم يقوى هذا الامتعاض في مرحلة المراهقة التي هي أشد المراحل ضغطاً وحرماناً بالنسبة الى الطفل العربي ، ذكراً كان أم انثى ، فالصبي يعتمد على أبيه ويرغب في التحرر من الاتكالية ، وهو بسبب القيود الاجتماعية القاسية ، يتشدد في قمع ميوله الجنسية والعاطفية ، لامكانة له في هذا العمر لانه مازال يعتمد اقتصادياً على أبيه ويعيش تحت جناحه ، انه ملزم على الذل والخنوع ، وبما ان شعوره بعدم التلاؤم يبلغ القمة في هذه المراحل فهو مسحوق بما يشعر به من عجز وتفاهة ، ولذلك لما أن يبلغ سن الرشد حتى يكون متعطشاً الى ابراز ذاته واعتراف الآخرين به والى الحصول على المكانة الاجتماعية والسلطة .

الخجل والشعور بالذنب :

ومن أهم الطرق المتبعة في تربية الطفل عائلات الطبقة الوسطى طريقة التخجيل، لقد أشار العالم النفسي اريك فروم الى فعالية هذه الطريقة بقوله : « لاشيء أكثر تأثيراً وفعالية في سحق معنويات الفرد من اقناعه بأنه تافه ورديء » .

ان وظائف الطفل البيولوجية ، وبصورة خاصة الوظائف الجنسية تصبح أداة لسيطرة. فالطفل يبدأ يخجل من جسده ومن وظائفه الجسدية وهو يتعلم باكراً الجمع بين وظيفتي التبول والتغوط وعدد من الموانع الاجتماعية القاسية ، فهو يدفع قسراً الى تعلم النظافة (Toilet training) وذلك قبل نضوج عضلات الابراز بفترة طويلة ، مما يؤثر في نمو شخصيته تأثيراً سلبياً قد تكون عواقبه وخيمة ، ونجد ان في العائلات الاكثر محافظة تشديداً على الطهارة الجسمانية تؤدي الى تعزيز وعي الطفل بعدم طهارته وبالتالي الى زيادة شعوره بالارتباك في ما يتعلق بجسده ،

ان موضوع الجنس موضوع محرم في العائلة ، والحياة الجنسية يلفهـا غشاء من التكتم والسرية، وبالتالي فان تجربة الجنس عند الطفل تتصف بالفوضى والألم والغموض، وفيما يلي حادثة جرت في دمشق في صيف ١٩٧٢ في بيت عائلة مسلمة من عائـلات الطبقة الوسطى :

كان طفل يبلغ السادسة أو السابعة من عمره يجلس بعد الغداء مع ضيوف والديه في غرفة الاستقبال، كان الوالدان موجودين وكان هناك أطفال من بيت الجيران يلعبون في الطرف الآخر من الغرفة ، وكانت بنت في الثامنة من عمرها تلعب معهم فتقفز وتقع على أرض الغرفة وكان الصبي يحدق فيها ، واذا بأبيه يقفز ويصفعه في وجهه صائحـاً « اخرج ياقليل الحياء ، الخ » .

وبالرغم من أن موضوع الجنس هو أقوى وسيلة تجعل الطفل يشعر انه شريرفهي ليست الطريقة الوحيدة لتخجيله من نفسه، فهناك طريقة فعالة اخرى هي الاستهزاء، الذي يرتكز على التخجيل .

فاذا ارتكب الطفل أمام الضيوف خطأ في القول أو في العمل فان تصحيح خطأه يتم في معظم الاحيان بواسطة الاستهزاء ، وتأثير هذا الاستهزاء بوجود الضيوف تأثير مؤلم بقدر ايلام الصفعة ، وهو ذو مفعول مماثل في تكون شعوره بالتفاهـة ان واقع الاذلال يجعل الطفل يوجه غضبه نحو ذاته ويعلمه على الخضوع ، الذي يتحول عادة الى موقف من مواقف الدفاع الذاتي ، ان الخجل المؤلم الذي يعانيه الاطفال الصغار لاينجم فقط عن خجلهم من الغرباء، بل أيضاً عن فقدان ثقتهم بأنفسهم والخوف من الاستهزاء بهم.

وهناك تمييز دقيق واضح بين الشعور بالخجل والشعور بالذنب أو الخطيئة، والجدير بالذكر ان الطفل العربي ، في عائلات الطبقة الوسطى يتلقى تربيـة تجعله يشعر بالخجل أكثر مما يشعر بالذنب ، فالدافع الى الخجل هو ان الآخرين يشاهدون ما ارتكبه من عمل سيء لا لأنه يشعر داخلياً بالندم على ذلك العمل السيء حاكماً على نفسـه كما يجب أن يحكم . وفي شروط تربوية كهذه تنعدم القدرة على نقد الذات وإدانتها فينشأ مقابل ذلك مجرد رد فعل للضغط والنقد الاجتماعيين ، ان الشعور بالخجل يتكون بتأثير مايتصوره الفرد عن رأي الآخرين فيه أكثر مما يتكون بسبب رأيه في نفسه، فالانسان العربي يقول: « أنا خجلان من نفسي » ولكن كلمة أنا وكلمة نفسي لاتدلان هنا على شيء واحد فكأن الأنا ، بحكمه على نفسه يعود الى عامل خارجي ، بمعنى ان الشعور بالخجل نتيجـة أثر

خارج عنه ، والواقع ان ذلك التعبير يعني فقط : « أرجو المعذرة اذا كنت قد جرحت شعورك » ، وليس هناك مجال للقول : « اني أشعر بالذنب وشعوري هذا يعذبني » ولعل وجود بطل كالبطل الشكسبيري هاملت أمر لا يمكن تصوره في المجتمع العربي .

ومن الناحية العملية فالعيب الذي يشعر به الفرد العربي هو « مايقوله عنه الناس» بمعنى ان لا عيب في ما لا يراه الناس وما لا يسمعونه ، وهذا ليس فقط تمييز بين مايفعله الانسان وما يجب أن يفعله بل انه يفترض موقفاً هو موقف الكتمان ، الذي يتحول في سلوك الراشدين الى عادة اخفاء النوايا والحذر مما يقوله الآخرون ، وبذلك تصبح أعمال الناس غير ماتبدو عليه ، بحيث ان هناك دوماً معنى مبطناً ونية مكتومة وراء كل كلمة وكل ايماءة عند الآخرين .

ان هذا بالطبع يتصل بالأخلاق ولكن اهتمامنا هنا ليس بالجوانب الأخلاقية بل بالنتائج العملية الناجمة عن التكتم في السلوك اليومي مثال ذلك : عندما تقول الأم لطفلها في مكان عام (حديقة عامة مثلا) ، ان لا مانع من التبويل لأن « ماحدا عم يتطلع » ، فانها في الواقع تعلمه التكتم والتخفي ، قائلة له بأن لا مانع من فعل ما هو محرم طالما ان عيون الغير لم تقع عليه، ولذلك لايمكن للطفل أن ينظر الى الامور المحرمة نظرة جدية أو الأقل بنوع من التحفظ ومن هذا القبيل فان التميز بين سلوك ظاهر وسلوك باطن يتخذ الصفة العملية ، بمعنى ان وجود مقياس مزدوج للسلوك ليس فقط أمراً مقبولاً ضمنياً بل هو موضوع تشجيع في هذا الاطار التربوي .

ومن المفيد هنا ان نتساءل كيف يتأثر نمو الأنا الأعلى (Super ego) بهذا النوع من التربية ، نستطيع مثلاً أن نتسائل : هل يتمكن الطفل الذي يخضع للقسر والتخجيل من تحويل القيم الأساسية التي يتلقاها من المجتمع الى حوافز داخلية ، أم انه يكتفي باكتساب عادات وتعلم حيل تساعده على تدبير أموره ؟

والفرد المتحرر من الضغط الخارجي (من الخوف والاتكال) هل ينزل الى التقيد بما في السلوك الظاهر من قيم أساسية أم بما في السلوك الباطن من قيم عملية ؟ وما هي الشروط التربوية التي تشجع نمو هذا النمط من السلوك أو ذاك ؟ وبصورة أخص الى أي حد يتأثر نمو الضمير الأخلاقي والشعور بالمسؤولية بهذا النمط من أنماط التربية الاجتماعية وبتجاوب الطفولة المرتبطة به ؟

من الواضح ان نمو الأنا الأعلى نمواً كافياً يفترض نوعاً من القدرة على الشعور

بالمسؤولية ولكن الطفل الخاضع التخجيل قد كون في نفسه شعوراً بأنه ليس مسؤولا في كل حال وان لا مجال للومه على الاطلاق وكم مرة تقول الأم دفاعاً عن طفلها عندما يصفعه والده لانه كسر قدحا أو فشل في المدرسة أو ماشاكل، كم مرة تقول « الحق مش عليه » ، « هو ماعملها » ، وأسوة بما يجري فيموقف التخفي ، فرد الفعل هو « لا لوم علي » ، أنا غير مسؤول » « المسؤول شخص آخر » ، بحيث ان الفرد ينظر الى نفسه على انه مظلوم أي ضحية الآخرين ، وكثيراً مانجد المتهم فيمركز الشرطة ، أدخل قاعة المحكمة ، يعلن ، وان كان بريئاً ، بأنه مظلوم ، أي انه يقول « أنا مظلوم » بدلا من قولة « أنا بريء » ان كونه بريئاً وكونه مظلوماً هو ، في نظره شيء واحد ، وذلك لان الذات هي الموضوع وبالتالي فلا يمكنها أن تكون مسؤولة .

ولان الطفل لا يمكنه أن يلجأ الا للخضوع من أجل الدفاع عن نفسه ضد الغضب والاستهزاء فلا يمكنه أنيعتبر نفسه مسؤولا بل مظلوماً، فكيف يمكن للشعور بالمسؤولية أن ينمو اذا كان الفرد يشعر بالعجز شعوراً مستمراً ؟ وبما ان الفرد يرفض بصورة لا شعورية التي تسحقه فهو يعفي نفسه من المسؤولية ، مما يؤدي الى غياب النقد الذاتي وإرادة العمل .

لذلك نجد ان الآنا الأعلى ، بدون الشعور بالمسؤولية ، يبقى كياناً غامضاً ، وغير تام ، أي مجرد مركز لعادات اجتماعية وقواعد شكلية للسلوك ، مما يجعل ارتباط الانا بالانا الأعلى ارتباطاً ضعيفاً ، ويبين فرويد كيف ان وصفاً كهذا يسهل عملية التطابق (Identificaa) وعملية تكون الجماعات المصطنعة Artificial group) (formation (١) .

ان الطفل الذي يخضع للاذلال والقمع عليه ان يتحمل سلطة أبيه الى انيستطيع التخلص منها ، فهي سلطة لاقيمة ضمنية لها ويمكن رفضها دون ألم أو ندم بمجرد انها لم تعد قادرة على فرض نفسها . اما التعويض الذي يحصل عليه الانا فهو في تخلصه من الضغط الثقيل الذي كان يرزح تحته وبالعثور على مخرج لحاجاته المكبوتة واما شكل

---

(1) « Group Psychology and the Analysis of the Ego »,in the Complete works of Siqmund Freud « London , 1955 » , Vol .II, P . 105 F f .

السلوك الذي يتخذه هـذا التعويض فهو بالضبط مايجري بصورة طبيعية عند أفراد الطبقات الوسطى في المجتمع العربي ، أي سلوك التأكيد بالذات والتمركز حولها بشكل المجتمع التي هي في النهاية مصلحته أيضاً .

ان التعليم كما يجري في اطار العائلة وخارجها يتميز بصفتين رئيسيتين ، فهو من جهة ، يقلل من أهمية الاقناع والمكافأة ، ومن جهة أخرى يزيد من أهميـة العقاب الجسدي والتلقين .

ان ضرب الاولاد طريقة مقبولة لضبط السلوك ، وهذا يتم بأشكال مختلفة لكن أكثرها شيوعاً هو الصفعة التي قد لاتكون مؤلمة بقدر ماهي وسيلة اذلال ، وهـذا مايفسر فعاليتها ، فالصفعة يمكن توجيهها بسرعة ودون سابق انذار ، والطفل المعتـاد على هذا النوع من العقاب يرفع ذراعه فوق وجهه بصورة آليـة عندما يتعرض لأي تهديد والى جانب كونها وسيلة تأديب ، فالصفعة وسيلة أخرى لتأكيد السلطة وفرض الخضوع الفوري ، والواقع ان الطاعة في العائلة العربية هي نتيجة الخوف أكثر مما هي نتيجة الحب والاحترام .

ان هذا الشكل من أشكال ضبط السلوك يجعل الطفل يشعر بالعجز وفقدان الحماية . والطفل الذي يلقى معادلة كهذه يعتاد على البـكاء والنحيب ويكتشف ان عليه لحماية نفسـه ان يستحدي الرحمة والغفران ، وان يبرر نفسه ويهدد ويبكي بأشدمايمكن. وهنا نجد أيضاً ان احترام الطفل لذاته هو الثمن الذييدفعه لتعزيز سلطة الاب،والسلوك العدواني الذي يتبعه الاطفال الكبار تجاه الصغار ليس مجرد استشـاد عليهم بل هو أيضاً محاكاة لسلوك الكبار ووسيلة للتفريج عما يعانونه من اذلال.وفيما بعد يصبح تحقير الآخرين طريقة عفوية في توكيد الذات بمعنى ان الفرد يشعر بالرفعة اذا حط من قدر الآخرين باذلالهم والاستهزاء بهم والتقليل من قيمتهم .

اما التلقين فهو الشكل الأكثر تنظيماً من أشكال فرض السلطة وتثبيتها ، فهو يجمع بين العقاب والتشريب (Indoctrination) وهو طريقة تعتمد على الترديد والحفظ بحيث لايبقى مجال للتساؤل والبحث والتجريب .

والهدف من التلقين هو نقل قيم المجتمع وعاداته الثابتة في مواجهة العالم الى صميم التركيب الذهني في الفرد . ان الفرد هنا يتلقى نماذج متكاملة فيحولها الى نمط سلوكي دونما

كفهم او نقد ، وفيا هو يفعل ذلك يعتاد على رؤية الأشياء وتقييمها بصورة تدعم نزعـة الامتثال وتضعف طاقـة الابداع والتجديد ، وبذلك فان طاقات الابداع والتجديد يجري توجيهها نحو اشكال مسبقة في التفكير والتصرف ، مما يساعد على تعزيز نزعـة الامتثال .

والتلقين من حيث هو طريقة خارجية في التعليم يجعل المتعلم يستجيب باكتساب عادة الصم (او البصم) . اي الدراسة والتعلم بالاستظهار . ان مايدرسه الطفـل بهذه الطريقة يحفظه كما هو بمعنى ان الفرد المتعلم لايتأثر بموضوع التعلم لانه لايهتم بفهمه وادراكه، بل باستنساخه وحفظه ، والتلميذ المجتهـد هو الذي يثبت ذاته وينال المكافأة لا بطموح الاسئلة الملائمة بل باعطاء الاجوبة الصحيحة (الملقنة) . ان المعرفة في اطار كهذا تصبح بالضرورة معرفة « مجردة » ليس لها سوى علاقة واهية بتجارب الحياة اليومية . انهـا ذات وظيفة متعالية كجزء من طقوس واحتفالات وترفيه اجتماعي، وبالتالي فهي ليست عملية وهنا نجد ان التمييز بين المعرفة النظرية والتطبيق هو تمييز متصلب لا وساطة حية فيه ، انه تمييز يحافظ على الفصل الموجود عند الفرد بين الفكر والعمل وبين الحلم والواقع، والفرد المتعلم عندما يحول السلطة الخارجية (الأب ، المعلم ، الرئيس) الى شيء في داخله ينتظر منه ان يستجيب استجابة منفعلة دون تساؤل كما يفعل الأطفال في مدرسـة الكتاب . ان الطفل يتعلم باكراً جداً ان يستجيب طوعاً للتلقين ، فما ان يبدأ بالكلام حتى يجري تدريبه على ترديد الكلمات خاصة الاسماء كأسماء الاهل والاقارب وينال مكافأة جزيلة على استجاباته الصحيحة ، ثم يجد في المدرسة الابتدائية وبعدها ، ان أسلم طريقـة للدراسة وأكثرها ارضاء للمعلم هي طريقة الصم (البصم) .

ان الحياة عند العربي تبدأ وتنتهي بالتلقين أما العنصر المشترك بين التلقين والعقـاب فهو ان كلا منها يشدد على السلطة ويستبعد الفهم والادراك ، أي ان كلا منهـا يدفع الى الاستسلام ويمنع حدوث التغيير ، ان الطفـل يتعلم ان يقبل دون اعتراض او تساؤل سيطرة القوي والمتعـلم ، وهو من خـلال ذلك يتعـلم الغو (Overcommunication) .

وما اللغو سوى نتيجة لكثرة التشديد على المعاني الكلامية واستعمال العواطف في التعبير وفي الاوضاع العملية وخاصة في الازمات يؤدي اللغو الى الغموض ، اي الى حوار فاشل،انه نتيجة للاثارةوالاهتياج وتعابيره مطبوعة بسوء التصور والافراط ، ومن أشكال اللغو المبالغة والتقليل ، مثال ذلك ان القول « هو غني » يصبح عنده «مصاري بحر » وأنالقول « هو قريبجداً» يصبح « هو على خطوتين من هنا » . ومن اللغو ماهو افراط فياستعمال تعابير الامر والخطاباتالحماسية ، وكذلك المبالغة فيالتعبير عن طريق الكلام والحركات الجسدية ، كما في تعابير الفرح والحزن والدهشة وما شاكل .

والواقعأن نمط التعامل الاجتماعي السائد هو المشحون بالافراط والمبالغةفالنقاش العادي عندنا قد يبدو للرجل الغريب عراكاً شديداً قد يؤدي الى سفك الدماء ، كذلك فان الميل الى الافراط في التعبير يجد له دعماً في التصورات الشعرية والدينية التي هي جزء من حضارتنا العربية ، والطفل اذ يتشرب هذا النمط منالتعامل ويقتبسه ، يعتاد من جهة ، على رؤية العالم فيصورة أضخم من الواقع ، ومن جهة أخرىالقبول بالسلوك العاطفي كنمط سلوك سوي . انه يعتاد على ما في تحذيرات والديه وتهديداتها من مبالغة وافراط ، مثال ذلك الأقوال التالية : (والله لو نقلت هذا لأبيكلقطعت لسانك قطعاً» والقول الآخر : « والله ان فعلت هذا مرة أخرى لقطعت رأسك » . وإذ يتعلم الطفل كيف يحل رموز الكلام اليومي يبدأ بتصور احداث الحياة اليومية تصوراً خاطئاً ، وذلك بنتيجة المبالغة واللغو .

اناللغو يتلاءمبصورة خاصة مع المسايرة الاجتماعية حينما ينطلقالناس فيالحوار « الاجتماعي » دون أن يشعروا بأية حاجة الى الحوار ، كما سنرى فيما بعد والواقع ان خاصة اللغو الاساسية تظهر جلياً على انها تجسيد للمسايرة ، أيفي الواقع شكل منأشكال عدم الحوار .

الخلاصة ان هذا الوجه من وجوه التعلم ، بما له من واقع اجتماعي ، يعمل على تعزيز السلطة وتشجيع البصم واستبعاد التساؤل والبحث، كما يعمل على تعطيل طاقة الابداع وتكون أنماط جامدة من التعامل والحوار .

حب المعاشرة

ان العائلة العربية توجه الفرد منذ طفولته الاولى نحو الاشخاص أكثر مما توجهه نحو الاشياء « فأول تدريب يتلقاه الطفل هو فن المعاشرة : « قل مرحباً لعمو » قل مع السلامة جدو » الخ .. وهكذا فان الطفل ينمو ويكبر دون أن يجد نفسه وحيداً في أي وقت من الاوقات ، لأنه دائماً محاط بالناس ، فما أن يستيقظ من النوم حتى يجد من يستلمه ويأتي به ليجتمع بالآخرين ، وإذا اتفق له أن يسترسل في النوم فان والدته تقلق عليه وتقول لأحد من أفراد البيت : « اذهب وانظر اذا كان الولد قد استيقظ من النوم » ، أما اذا كان مستيقظاً (وهو يلعب فرحاً أو يرقب العالم من حوله) فسرعان مايؤتى به الى مكان الاجتماع بحيث ان العائلة تستولي على حياته الخاصة منذ ذلك الحين .

ان تدريب الطفل على المعاشرة يتم باشراكه في الحديث وفي الحفلات الاجتماعية وكلما كبر الطفل كلما ازداد تدريبه لتمثيل الادوار الاجتماعية . انه يعتاد قبول نفسه دون انقطاع كفرد من الجماعة ، كما يعتاد على النظر الى بقائه وحيداً كأمر غريب أو شاذ ، وهكذا يدفع الطفل الى القبول بحاجة توكيد نفسه في اللقاءات الاجتماعية على انها أمر طبيعي ، وبالتالي فهو يشرع في محاكاة الكبار في ايماءاتهم وطريقة حديثهم ، فالطفل الذي يبقى صامتاً يصبح هدفاً للاستهزاء لأنه لا يشترك في الحديث فيقولون عنه : مسكين هذا الولد له فم ليأكل وليس له فم ليتكلم (مسكين هل الولد له تم ياكل وماله تم يحكي) .

وبالرغم من أن الاطفال العرب يشعرون عامة بالخجل أمام الغرباء ، فلا عجب ان يعتادوا في خلال نموهم على التهذيب والدماثة والتملق ، وبما أنهم يبدأون بالتعامل مع الناس في سن مبكرة سرعان مايتعلمون فن ارضاء الآخرين ومسايرتهم ، بحيث ان الطفل المرضي عليه هو الذي يعرف كيف يتفوه بالقول المناسب أمام الاقرباء والضيوف .

واذا سلمنا مع لسلي هوايت (Leslie White) ان المعرفة هي القدرة على التصرف بصورة ملائمة في وضع معين » فان أثمن معرفة في بيئة كهذه هي معرفة أصول التعامل مع الناس : « فالقول ان سمير ولد شاطر » يعني أنه يعرف كيف يتدبر أمره مع الآخرين ، أي كيف يتعامل مع بيئته المؤلفة من والديه وأشقائه وأقربائه وجيرانه ،

ولكن الطفل العربي اذا وجد في بيئة أخرى ، اي في الطبيعة ، شعر بالارتباك (الا اذا ترعرع في القرية) لأن ماينقصه بالضبط هو القدرة على التعامل مع الاشياء .

ان التدريب على فن المعاشرة هو في الواقع تدريب على المسايرة ، والمسايرة تعني أن يسير المرء مع الآخر ويرافقه ويتلاءم معه ، والمسايرة من حيث فن التلاؤم والتسوية ذات وظيفة اجتماعية تؤدي من جهة الى تخفيض توتر التفاعل الاجتماعي ، ومن جهة أخرى الى تقوية حب المعاشرة . ان وجهها الايجابي هو في تلك الدماثة والضيافة اللتين يتصف بها المجتمع ككل ، انها وضع اجتماعي يسحر الغرباء لأنها تبعث على الراحة والاطمئنان ، كما أنها تزيد من لذة التفاعل الاجتماعي وتدعيم ميل الحياة الاجتماعية الى التسلية .

ولكن للمسايرة مساوىء اجتماعية عديدة ، فما لاشك فيه ان العمل الاجتماعي الذي تسيطر عليه روح التسلية والمجاملة لايمكنه ان يؤدي الى نتيجة فعالة ، فمعالجة المشكلات المطروحة معالجة فعالة أمر صعب التحقيق عندما يكون التعامل الاجتماعي مطبوعاً بالمسايرة والتهذيب الشكلي . والواقع ان المسايرة تضع عراقيل هائلة في طريق العمل ، بحيث يتعذر التعبير عن الخلافات أو حلها عند لقاء الناس وجهاً لوجه وبحيث ان المعارضة المكبوتة تستمر في الغليان ، فتصبح القضايا مرهونة بالاشخاص انفسهم ، وهكذا فان التمييز ، في الحياة العامة بين الناس وأفكارهم يبقى تميزاً مستحيلاً .

والمسايرة أكثر من مجرد سلوك تقليدي ، فهي تفترض موقفاً ذهنياً يتهرب من المواجهة المباشرة ومن معالجة المشكلات في جذورها ، موقفاً يفتش عن الحلول في تسويات موقته ، والطفل اذ يتعلم كيف يتكيف مع الناس يفعل ذلك ليس فقط لتعلم ما يلائم من أسلوب الحديث والتصرف بل أيضاً لتكييف ذاته نفسياً مع فن التعامل الاجتماعي .

ولا شك في أن الافراط في المعاشرة الاجتماعية يولد حساسية مرهفة تجاه الناس ، فالطفل ، الذي بطبيعته يحاول لفت الانتباه اليه ، يتحول الى ممثل . انه يصبح واعياً لذاته ويقظاً ، ولكن ما يهمه ليس معنى الكلمات ، بل كيفية تمثيل دوره بصورة عامة . كذلك نجد ان المتكلم في حديث عادي أو في مناقشة خاصة أو عامة يميل الى توكيد ذاته وارضاء الآخرين . وأسوة بالطفل الصغير الذي يسمع درساً يتقنه فان المتكلم الراشد حريص على كسب اطراء الناس سواء بهز الرأس دليلاً على الموافقة او الابتسام دليلاً على الاعجاب أو بالتعليق بصورة مؤاتية ، ومن الشائع جداً في اللقاءات الاجتماعية ان

يتبارى المتكلمون وان يقاطعوا بعضهم بعضاً . ان العدوانية في حالات كهذه تنبع من حاجة الفرد الى توكيد ذاته ، وبالتالي فهي تعزز ما في المناقشة من « تمثيل » .

ان المستمع الصبور لا مكان له في اطـار كهذا ، فهناك انتقاص لدور المستمع لان الصمت يعتبر تقصيراً ونقصاً في المكانة الفكرية أو الاجتماعية .

ان الدور الذي يمثله المتكلم يتصف الى حد كبير بردود الافعـال التي يتصورها المتكلم عند المستمعين ، فالافكار والايحاءات تتبدل بحسب رد الفعل المفترض من جانب المستمعين ، والاطراء الذي يبديه هؤلاء لا يعكس مجرد استجـابة موضوعية للافكار ، بل حكماً في قيمة المتكلم — الممثل ككل ، وبالتالي لا يمكن للنقد ان يكون موضوعياً بل هو سلاح هجوم ، ذلك أن مـا هو أقل من الاطراء الشديد يعتبر نوعـاً من الذم والاستخفاف ، وهكذا نجد بوضوح ان المسايرة ، في مجتمعنا ، لا تسيطر على اللقاءات الاجتماعية فحسب بل ايضاً على التعامل الفكري .

ان الرياء الذي ترتكز عليه المسايرة يؤدي بصورة تلقائية الى تغـذية الروح العدوانية التي تظهر خاصة في الاستغابـة ، أي في النيل من سمعة الآخرين ، وبالاضافة الى ان الاستغابة وسيلة للتفريج عن العدوانية المكبوتة ، فهي تدعم الميل الى المعاشرة، فالطفل يتعلم الاستغابة عندما يلاحظ ان والديه وغيرهمـا من الكبار ينالون من سمعة أشخـاص يعرفهم ، وهو ، اذ يتعلم كيف يخاطب الناس ، يتعلم ايضاً كيف يستغيبهم والواقع ان الاستغابة هي الوجه الآخر للمسايرة ، ونتيجة من نتائجها الحتمية .

ويمكن الاستنتاج من ذلك ان التوافق الظاهري الذي تحققه المسايرة يؤدي الى الواقع الى توتر مبطن ، وبدلاً من ان يتيح الناس لخلافاتهم وتناقضاتهم ان تنحل بصورة صريحة وواضحة نجدهم يكتمونها ويجعلونها تتأزم في نزاع باطني ، ولذلك فان التفاعل الاجتماعي لايجري الا على مستوى المجاملات . أما سائر مستويات التفاعل الاجتماعي فهي كلها مستقطبة حول العداء والمخاصمة والنزاع .

ان الميل الى المعاشرة ماهو إلا نمط حضاري آلي في خدمة الامتثال الاجتماعي . وكما رأينا سابقاً ، فالطفل يجري تدريبه على الانتماء الى الجماعة عن طريق الرضوخ الى ارادتها ، وقبل كل شيء الى ارادة أبيه الذي يعبر عن هذه الارادة ويجسدها . واذا كان في البيت أشخاص آخرون يحاولون تمثيل دور الاب ، فالطفل يصبح عندئذ فريسة دوافع فوضوية عليه ان يصارعها ويقمعها ، ومن الواضح أنه في ظروف كهذه يحتاج

الى كثير من الحظ . ومن طاقـة الاحتيال ، ليبني في ذاته استجابات اجتماعية فعالة ومنسقة .

ان الميل الى المعاشرة يجمع بين النـاس في علاقات التسلية ويفرق بينهم في العلاقات العملية . وأسوة بالاغتياب والرياء فان سوء الظن هو جزء لايتجزأ من الموقف الناتج عن الميل الى المسايرة والمعاشرة ، انه الموقف القائل « بان الاشياء ليست كما تبدو » .

ونجد ان الفرد ، في التعامل الاجتماعي لايثق عفوياً في كلام الآخرين لأنه يعي نوعية الستار الاجتماعي الذي يختبيء الجميع وراءه ، وهـذا مايؤدي الى تغليب الشك والاغتياب في مايتعلق بنوايا الآخرين ودوافعهم ، كما رأينا سابقاً .

وباستثناء حالات الصداقة الحميمة فان الفرد لايقبل الآخرين على الشكل الذي يظهرون فيه ولا ينظر الى تعهداتهم على انها ملزمة ، كذلك من الصعب الاجابة بالرفض في لقاءات الناس وجهاً لوجه ، وحتى في اللقاءات العملية ، كما أنه من السائد النظر الى تعهدات الآخرين نظرة استخفاف ، كما في القول « هذا كلام بكلام » (هذاحكي بحكي) أي أنها كلمات لاتلزم صاحبها بالفعل ، كذلك نجد ان القول ان كلمته لايمكنها ان تكون كلمتين (كلمته مابتصير تنتين) ، أي ان الوعد ملزم هو في الواقع إشارة الى الاستثناء بالنسبة الى القاعدة المتعارف عليها ضمناً ، وحتى الاتفاق الرسمي لايعتبر اتفاقاًعلى الاطلاق، ولو كان بين رؤساء دول والواقع ان التعهدات تتم بصورة مجردة عن الواقع الذي تشير اليه ، وهي ليست مرتبطة مباشرة إلا بالمناسبة الاحتفالية ذاتها .

وكما ذكرنا سابقاً فان ما يقال عن الفرد وما يعلمه هو أو ما يظنه من قول الآخرين فيه يمثل دوراً حاسماً في تعيين مواقفه تجاه الآخرين وتجاه نفسه ، ان سوء الظن ينبع من وعي واقع الاغتياب ، وبمـا انه يتعذر التمييز بين الصواب والخطأ في ما يتعلق بشخص من الأشخاص فان موقف الفرد يصبح موقفاً ازدواجياً ، فهو اما أن يلقي ثناءاً ومديحاً واما أن يجري الحط من قدره ، وفي كلتا الحالتين تنشأ عنده صورة مشوهة عن رأي الآخرين ، ونتيجة ذلك ، من الناحية النفسية ، ان الفرد مدفوع الى القبول بعالم الاشخاص والاشياء ليس كما يراه هو بل في خلال اطار مفروض عليه وبعيد عن الحقيقة. انه يبث في واقع التجربة معاني واهدافاً لاتظهر بوضوح في ذلك الواقع ومما لاشك فيه أن المخاوف والرغبات هي عوامل تسهم في عملية التشويه ، إلا أن جذور هـذه العملية موجودة في الازدواجية الأساسية التي يجري التعبير عنها في تفاعل الفرد مع الآخرين .

ان التعامل مع أشخاص من خارج العائلة هو ، بالنسبة الى الطفل ، تعامل مع غرباء ، ولذلك فان سوء الظن الذي يتعلمه في محيط العائلة يصبح قاعدة لتعامله في المجتمع وذلك مع شيء من المبالغة ، وهكذا فان الفجوة القائمة بين العائلة والمجتمع تزداد سوءاً فما أن يدخل المرء في الحياة الاجتماعية حتى يشعر بعدم الاطمئنان ، كما يشعر بأنه في تعامله مع الآخرين دائماً مخدوع أو مستغل ، ومعرض للانسحاق اذا لم يتخذ موقف الهجوم . ان تجربته عن العالم الخارجي تجربة تخيب آماله فتعيده الى كنف العائلة،وهذا ما يجعل العائلة تقوى قبضتها عليه عندما يكبر فتمنعه من تحقيق الاستقلال الذاتي ، وبالتالي من تنمية وعيه الاجتماعي .

ومما يسهل مهمة العائلة هذه ان المجتمع في تركيبه القائم يضطهد الفرد ويلفظه اذا ما استقل عن العائلة أو العشيرة أو الطائفة ، والواقع أن سوء الظن الذي أشرنا اليه من حيث هو موقف نفسي ونمط من أنماط السلوك يؤدي الى دعم العلاقات الاجتماعية القائمة والتي ينبثق منها هذا الموقف .

وهكذا فان التقابل بين المجتمع والعائلة يبدو كآلية من الآليات التي تلجأ اليها الثقافة الاجتماعية المسيطرة لضبط التغيير والمحافظة على استقرار النظام الاجتماعي الذي هو بدوره مبني على النمط السائد في توزيع الثروة والسلطة والمكانة الاجتماعية .



تعليق
على دراسة
«العائلة والتطور الحضاري في الوطن العربي»

الدكتور اسحق يعقوب القطب

مقدمة :

انه لمن دواعي السرور ان تتناول الحلقة بحوث ودراسات حيوية تناقش القضايا الرئيسية في هذه المرحلة الانتقالية التي يمر بها المجتمع العربي المعاصر . ان المجتمع العربي يواجه أزمة حضارية في الحجم والنوع لم يواجهها منذ عدة قرون ذلك أن المرحلة التاريخية التي تمر بها المجتمعات العربية والمواقف الحضارية العالمية بالاضافة الى الارادة الذاتية للتغيير والتطور لها آثار مباشرة في تشكيل الحضارة العربية المعاصرة

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحلقة هو اين تقف المجتمعات العربية من الحضارة المعاصرة ، هل تعتبر متخلفة أم متقدمة على غيرها من الدول التي تعاني المزيد من التخلف ام هي في نقطة الوسط على الامتداد الحضاري ؟

ويتبع ذلك سؤال آخر وهو هل يمكن أن نصنف جميع البلاد العربية بدرجة متساوية على المقياس الحضاري بعناصره المادية والمعنوية وهل تتماثل الخصائص الحضارية بين المجتمعات البدوية والريفية والحضرية داخل المجتمع الواحد ؟

ويؤكد علماء الاجتماع ان التغير والتطور يتفاوت بين مجتمع وآخر وبين المجتمعات المحلية داخل البلد الواحد وكذلك بين الجوانب المادية والمعنوية بسبب عدة عوامل تاريخية وسياسية واقتصادية وراثية وتربوية واسرية تجعل من التعميم امراً صعباً مالم تكون الدراسات العلمية التي تجري على مستوى الوطن العربي مشتملة على عينة ممثلة للخصائص والمقومات والمعطيات القائمة في البيئات الاجتماعية والفيزيقية . اي يجب ان يكون علماء العلوم الانسانية شديدي الحذر عند اجراء تعميات حول الظواهر السلوكية السليمة والمعتلة على حد سواء بالرغم من الخصائص الحضارية المشتركة بين الدول العربية من المحيط الى الخليج .

ان الدراسات الاجتماعية النظرية والميدانية على مستوى الوطن العربي (Macro Studies) محدودة ولا تشمل كافة البلاد العربية . إلا أن هناك العديد من الدراسات الديمغرافية والاسرية وتلك التي تتعلق بالمشكلات الاجتماعية والسلوك الانحرافي والتغير والنظام الطبقي والمجتمعات المستحدثة قد أجريت في العشر سنوات الاخيرة في معظم البلاد العربية وبصورة خاصة (مصر ولبنان والاردن والعراق والكويت وتونس وليبيا والجزائر والمغرب) ، مقتصرة على دراسة الخصائص الاجتماعية في داخل البلد الواحد وبصورة جزئية في معظم الاحيان (Micro Studies) باستثناء التعدادات السكانية (والتي تحتاج الى المزيد من الدقة العلمية) الشاملة في معظم البلاد العربية ،

وهناك ملاحظة أخرى في مقدمة التعليق لابد من الاشارة اليها والمتصلة بحلقة البحث . وهو التمييز بين مصطلح التطور او التغير الحضاري والتطوير أو التغيير الحضاري . والثاني يشير الى التغيير المخطط الذي يتحدد بأهداف وفي اطار خطة متكاملة تسعى الى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة ذلك ان طبيعة التغير

Change هو التلقائية والجزئية وتسير بسرعة معينة بحسب معطيات معينة . وكذلك التطور (Evolution) .

وان كان من أهداف الحلقة هو تحليل الواقع الحضاري في الميادين المختلفة إلا أنه من الاهمية بمكان دراسة اتجاهات المستقبل في التطوير الحضاري للمجتمع العربي في الجوانب المادية والمعنوية وفي الميادين المختلفة. وهذا يتطلب المزيد من البحوث والدراسات المتخصصة على الصعيدين القومي والعربي .

وفي التعليق على هذا البحث القيم ، أود أولاً ان اقدم تقديري للجهود التي بذلها الدكتور الشراني في الاعداد لهذه الدراسة والجرأة العلمية التي نحن بأمس الحاجة اليها والتي تضع المثقف العربي أمام الحقائق الاجتماعية التي نعيشها في حاضرنا وستبقى الى فترة زمنية في مستقبلنا . ونحن بأمس الحاجة الى مثل هذه الدراسات والبحوث حتى نواجه انفسنا أولاً ونقدم للأجيال القادمة الواقع الحضاري العربي بكافة جوانبه المادية والمعنوية الظاهر منها والمستتر ، الايجابي والسلبي على حد سواء ... والمهم في هـذا المجال الوقوف على الحقائق بأسلوب علمي وبطريقة موضوعية تاركاً المجال للمسؤولين في الميادين المختلفة ترجمة نتائج البحوث الى برامج ومشروعات تستهدف التطوير والتحسين .

وسوف اتناول في التعليق على هذه الدراسة ثلاثة مجالات على النحو التالي :

الاول : الدراسة من حيث الهدف والاسلوب والعينة والاطار النظري.

الثاني : علاقة الأسرة كنظام اجتماعي بالنظم الأخرى من حيث البناء والتركيب والوظيفة .

الثالث : العوامل التي تؤثر في الوضع الراهن للتربية الأسرية في الوطن العربي مثل الأسرة ، الوضع الديمغرافي ، الأسرة والمواطنة الصالحة ، والأسرة والقيم العربية المعاصرة .

أولا : الدراسة من حيث الهدف والاطار النظري :

يتناول البحث العلاقة بين الأسرة والمجتمع وآثر طرق تربية الطفل وتجارب الطفولة في تكون السلوك الاجتماعي والشخصية على اعتبار ان الاسرة كمؤسسة اجتماعية تعمل كوسيط بين الفرد والحضارة التي ينتمي اليها .

وقد تحدد اطار البحث في المواقف النفسية والاجتماعية والتربوية والوراثية التي تحيط بالطفل وتؤثر في تكوين شخصيته . والدراسة في اطارها النظري تتناول مفاهيم فرويـــد في تكوين « الانا » – (Ego) والانا الاعلى (Super Ego) ، كذلك مفاهيم عالم النفس الامريكي Eric From خاصة الاتجاهات الواردة في مؤلفـاته التي تربط تكوين الشخصية بالاسرة والبيئة من حولها .

وقد ذكرتني هذه الدراسة بدراسة قامت بها الدكتورة سونيا حمادة في كتابهـا The Temperemant and Character of the arab الـتي تسجد الواقـع الاجتماعي المرير الذي يعاني منه الفرد في الوطن العربي في مختلف مراحل حيـاته وفي المجتمعات البدوية والريفية ، دون أن تتطرق الى الايجابيات المـادية أو المعنوية في التكوين الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية ، للمجتمع العربي في الخمسينات .

أما المنهج الذي اتبعته الدراسة فهو منهج دراسة الحالة الذي يتمثل في تقديم أمثلة لحالات فردية من واقع بعض المجتمعات العربية لتمثل فئة اجتماعية أكبر وهي التي أشار اليها بالطبقة الوسطى . واما البيانات التي يتضح من مقدمة الدراسة تعتمد على تحليـل المحتوى للدراسات النفسية والاجتماعيـة والتربوية والانطباعـات الشخصية كما ورد في مقدمة الباحث .

وبالنسبة الى العينة التي يرجع اليها البحث كمقياس للاسرة العربية المعاصرة هي الاسرة في الطبقة الوسطى « او القرينـة من الطبقـة الوسطى في المجتمع العربي على حـد تعبير الباحث . ان الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والتربوية التي تميز هذه الطبقةفهي بحاجة الى تحديد حتى يتضح الاطار الذي يدور حوله التحليل النفسي – الاجتماعي – التربوي الذي انتهجته الدراسة والطبقة الاجتماعية الوسطى في الوطن العربي هي حديثة العهد ولا تتعدى في تكوينها العقدين الأخرين من الزمن ان لم تكن أحـدث من ذلك في بعض البلدان العربيـة مثل اليمن أو دول وامارات الخليج . وحتى تتضح لنا عينة البحث من الطبقة الوسطى فـلا بد من الاشارة الى ان أفراد هـذه الطبقة هم مزيج من الطبقة العليا التي سمحت لأفرادها بالانطلاق الى ميادين العلم والعمل خـارج الاهتمامات الاقطاعية للاسرة ذات الحسب والنسب واحتلال المراكز الادارية قبل ان يصل اليهـا الآخرون ومن الطبقة الدنيا (الفلاحون والعمال وذوي الدخـل المحدود) التي دفعت بأفرادها وبأعداد كبيرة الى المدارس والى خارج القرى من أجل التعليم بدوافع متنوعة

ومن خلال الفرص المتاحة للتعليم والعمل بعد حصول البلاد العربيـة على الاستقلال والتحرر من الاستعمار . وبعبـارة أخرى فـان أفراد الطبقـة الوسطى يمتازون بالتعليم والثقافة ويكونون الكادر الوظيفي في الحكومة أو القطاع الخاص على المستويات الفنية والادارية . الا ان الاحتكاك والتفاعل بين أفراد الطبقتين العليا والدنيا لم يشكل قيماً جديدة شاملة في نطاقها وجـذرية في عمقها لتحل محـل القيم التقليدية المرتبطة بالطبقـة الاصلية التي يمثلها كل منهم وبذلك نجد ان أفراد الطبقةالوسطى متأثرين بالقيم التقليدية في مختلف مجالات العلاقات الاسرية . أي انـه بالرغم من وجود بعض المظـاهر الحضارية المادية التي يتسم بها أفراد الطبقة الوسطى التي قد تتشابه بأفراد مثيلاتها في المجتمعات المتقدمة الا أن المضمون الفكري والقيم والمعتقـدات لم تتبلور أو تتغير بنفس القوة والحجم والاتجاه مع التقدم المادي ويسمي علماء الانثروبولوجيا مثل هذا الوضع بالهوة الثقافية (Cultural Laq.) أو ما يـسميه علماء الاجتماع والتربية بصراع الاجيال ونسوق على سبيل المثال ما كشفت عنه بعض الدراسات الاجتماعية التي يقوم بها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في اتجاهات الاسرة المصرية المعاصرة بأن عدداً من الفتيات اللواتي أتممن التعليم الجـامعي يترددن على جلسـات « الزار » لحل المشكلات النفـسية هذا بالاضافة الى أن قراءة الحظ بالصحيفة والمجـلات تحتل اهتمام المثقفين والموظفين قبل الاخبار أو التعليقات الادبية .

ونخلص منذلكبأننا عندما ندرس عينة من الطبقة الوسطى لابد وأن يتماختبار العينة منالناحيتينالكمية والنوعية لتعكس العينة صورة حقيقية من أفراد هذا القطاع العريض المتباين من الافراد الذين ينتمون الى اتجاهات فكرية وعقائدية وقيم قد تكون غربية ، أو شرقية ، أو عربية تقليدية .

الاسرة العربية المعاصرة :

يركز الباحث في دراسته على مفهوم الاسرة العربية الممتدة التي يعيش افرادها الذين يتكونون من الآباء والابناء والاحفاد والأقارب المباشرين الذين يعيشون فيمنطقة واحدة أو حتى تسود بينهم العلاقات العشائرية . ان التعريف المعاصرة للاسرة الحديثة هو كما يقول وليم أو جبرن « رابطة اجتماعية من زوج وزوجة وأطفالها أو بدونأطفال

او من زوج بمفرده مع أطفاله أو زوجة بمفردها مع أطفالها »(١) .

ان العلاقات الاسرية في الوطن العربي لاتتحدد فقط في اطار القرابة بل نتيجة المصاهرة أيضاً ، فنجد أن الزواج بين شاب وفتاة من فئات اجتماعية مختلفة هو تكوين روابط وعلاقات جديدة بين اسرتين أو عشيرتين يرتبطان بعلاقات معقدة ليس في أنها تضيف أدواراً جديدة على كل من الزوج والزوجة بل أحياناً تثقل كاهل الزوجين مادياً واجتماعياً ونفسياً ، اذا ماقام كلاهما بدورهما المتوقع على الوجه المطلوب .

ولكن لابد من الاشارة في هذا المجال ان أفراد الطبقة الوسطى في الاسرة العربية المعاصرة بدأوا ينفصلون تدريجياً من نمط الاسرة الممتدة الى نمط الاسرة النووية وفق التعريف المشار اليه خاصة وأن المثقف والمثقفة (الزوج أو الام العاملة) بحكم العمل والوظيفة كثيراً ما ينتقلون من بلد الى آخر (أو من القرية الى المدينة) أو من مدينة الى اخرى الأمر الذي يؤثر في تركيب الاسرة وبنائها ويضعف من نفوذ وسيطرة الاسرة الممتدة وان استمر الولاء للوالدين والاجداد والشعور بالانتماء للقرية أو الحي الا أن العلاقات تأخذ شكلا جديداً ونمطاً مغايراً عن النمط التقليدي . أي أن الزوج أينما كان عمله او اقامته يشعر بالمسؤولية المادية والاجتماعية والمعنوية تجاه اخوانه واخواته ووالديه الكبار . والتحديات العديدة التي تواجه الزوجين في البيئة الجديدة وتكوين أصدقاء ومعارف جدد تأخذ جزءاً من الولاء والانتماء وبالتالي فان الرابطة بين الاسرة النووية والاسرة الممتدة آخذة بالتغير والاتصال غير المباشر بين الاعضاء أخذ يحل محل التفاعل المباشر .

وظيفة الاسرة العربية المعاصرة :

بعد أن تبين لنا ان بناء وتركيب الأسرة العربية المعاصرة أخذ بالتغير من الاسرة الممتدة فان هذا التغيير يؤثر في وظيفة الاسرة العربية المعاصرة اذ أن الوظائف التقليدية المعروفة للاسرة تتحدد في استمرار انتاج أفراد جدد وإعالتهم وتنشئتهم اجتماعياً وروحياً وسد الوظائف الخالية بهم(١) .

---

(١) W . Ogburn + M . Nimcoff — A Handbook of Sociology — London . 1947 .

(١) الدكتور عبد الباسط محمد حسن وزملاؤه – اصول علم الاجتماع – مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٢ ص ١٨٦ .

والتغيير الحضاري والتنمية الاقتصادية والاجتماعية التي شهدته المجتمعات العربية قد ساهم بطرق متفاوتة في تغيير البناء الأسري وأثر في الحركة السكانية المستمرة من البادية والريف الى المدن وزيادة عدد السكان وزاد عـدد الادوار المترتبـة على الاسرة وأفرادها الأمر الذي دعى الحكومة الى انشاء العديد من المؤسسات الحكومية والاهلية في المجالات الاقتصادية والاسرية والدينية والسياسية والتربوية لتحل محل الوظـائف التي كانت تؤديها الاسرة الممتدة أو المجتمع المحلي أي ان الوظائف التي تؤديها الاسرة كماً ونوعاً قد تغيرت كماً ونوعاً. والمشكلة تنشأ عندما ينتقل الفرد بعد بلوغه من « اسرة التوجيه» الى الاسرة النووية أو اسرة الانجـاب « التي ينجب فيها أولاده وتنشأ علاقات متصلة ومنفصلة في نفس الوقت تؤدي الى بلبلة وصراع نفسي وحضاري تختلف قوة وضعفاً حسب البنيان الاجتماعي حيثما ينتقل الفرد من مكانه الخـاضع في اسرة « التوجيه » الى مكان الاستعلاء في « اسرة الانجاب ». كما أن الصراع التقليدي بين « الكنة والحماة» والصراعات الأخرى داخل الاسرة الممتدة قد ينعكس في تربية الاجيال .

ونخلص من ذلك ان التربية في السنوات الاولى قد اصبحت مشتركة بين الاسرة والمدرسة في دور الحضانة ثم في الصفوف النظامية ، وبيئة المدرسة وأسلوب معـاملة المعلمين والمعلمات للاطفـال وتوجيههم يؤثر على تكوين الشخصية وان اختلفت درجة التأثير على الطفل من تأثير الاسرة .

كما ان الكيفية التي تقوم الاسرة بتأدية وظائفهـا والاساليب المتبعة يتوقف الى حد كبير على بعض المتغيرات التي لها أهميتها في التنشئة وتربية الاطفال التي تحتاج الى مزيد من المعالجة في البحث . وأهم هذه المتغيرات :

١ ـ مستوى التعليم للوالدين أو الزوجين :

ويبدو ان هناك تفاوتاً ملحوظاً في مستويات التعليم بين أفراد الطبقة الوسطى في المجتمع العربي لكل من الزوج والزوجة الأمر الذي يؤثر في سياسة التوجيه والتنشئة وما قد ينتج من تضارب وخلاف بين الزوجين على أسس التربية ونمط العلاقات والقيم.. اذ قـد ينجو كل منهم الى اتجاه معين وينعكس هـذا التضارب والخـلاف في اتجـاه تكوين القيم .

٢ـ المهنة والوظيفة والمسؤولية لكل من الزوجين او لاحدهما :

اذ أن الاستقرار الوظيفي والمستوى الاجتماعي للوظيفة يؤثر في نشوء علاقات اجتماعية جديدة ليس بين أفراد الاسرة الممتدة أو النوويةفحسب بل فيالوسط الاجتماعي، وهذا يؤثر في اكتساب قيمجديدة قد تتغاير مع القيم التقليدية . مثل الفرد المثقف منأبناء القرية الذي يعمل مديراً لمؤسسة ويعيش في المدن وتتطلب مهنته القيام بأدوار مختلفة قد تتعارض مـــع قيم الريف ، ومن هنا ينشأ الصراع النفسي والاجتماعي لدى الفرد وبين أفراد الأسرة .

٣ ـ الدخل :

الدخل أثر كبير في العلاقات الاسرية والمكانة الاجتماعية والتقدم الحضاري المادي وامتلاك الادوات المنزلية الحضارية ذات المكانة الاجتماعية ، الامر الذي يؤثر في نوع المسكن والمأكل والملبس وقضاء وقت الفراغ في محيط الاسرة !

٤ ـ مكان الاقامة :

اذ أن المحاكاة الاجتماعية في المجتمع العربي لاتقل في حدتها أو مشكلاتها عن تلك في المجتمعات الغربية هذا بالاضافة الى نشوء علاقات جديدة بين النساء في الحي الواحد بحكم الجوار وبالتالي فان الفرد بالاسرة يرتبط بجماعات المهنة والجوار التي تؤثر في التفاعـــل والاختلاط بين الفرد وهذه الجماعات من ناحية وبينه وبين أفراد الاسرة الممتدة .

ان هذه المتغيرات تؤثر بدرجة كبيرة على وضع الاسرة لدى افراد الطبقة الوسطى في المجتمع العربي المعاصر والتي يجبأن تؤخذ بعين الاعتبار عند دراسةخصائص واتجاهات القيم لدى أفراد هذه الطبقة وطريقة تربية الاطفال وتنشئتهم ، وتتخذ أشكالاً متفاوتة بحسبالاختلافات في المهنةوالدخل والمسكن ومستوى التعليم بين فئات وافراد الطبقة الوسطى نفسها .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هل نعتبرالطبقة الاسرة ـطبقةواحدةـ أو كما قسم لويد ورنر (Loyed Warner) الانثروبولوجي الامريكي في سلسلة مؤلفاته حول مدينة يانكي (Yanky City Series) في المجتمع الامريكي ، الطبقة

الوسطى الى ثلاث مستويات وهي الطبقة : الوسطى العليا والطبقة الوسطى والطبقة الوسطى الدنيا ولاغراض الدراسات الاجتماعية وتحليل القيم ومستويات التربية وحتى يمكن تحديد أو التباين والتماثل بين فئات الطبقة الوسطى فان مثل هذا التقسيم يعتبر ذو خصائص عملية وعلمية ان أمكن تجربته في اطار مثل هذه الدراسات أو اختبار فعاليته على الاقل.

الاسرة كنظام اجتماعي The Family as a Social System

لاغراض تحليل دور الاسرة في التطور الحضاري بصفتها الوحدة الاجتماعية الاساسية في المجتمع العربي ، وكما اتخذها الباحث في دراسته لوسيط بين الفرد والمجتمع : وللوقف على نقاط القوة والضعف في بنيان الاسرة والوظائف التي تؤديها فان الاتجاه الذي يتبعه علماء الاجتماع فهو اعتبار الاسرة نظاماً اجتماعياً يتفاعل مع النظم الاخرى المساندة في المجتمع ويؤثر فيها ويتأثر بها .

وحتى نقف على أهمية تقييم مختلف جوانب النظام الاسري التي تؤثر في طرق وأساليب التربية وتحديد المعالم البارزة للاتجاهات التي حددتها الدراسة في مجالات بنـــاء الطفل وتكوين شخصيته لابد من تحديد عناصر النظام الاجتماعي كما حددها شارلز لومس (C. Loomis) في كتابه النظام الاجتماعي (The Social System) ، وسوف نطبقه على الاسرة العربية بايجاز :

الاهداف والاغراض :

ماهي الاهداف التي تسعى الاسرة العربية في الطبقة الوسطى الى تحقيقها – الاهداف الكمية والنوعية ، المادية والمعنوية والى أي درجة تختلف عن أهداف وأغراض الطبقتين العليا والدنيا ؟ وهل هذه الاهداف متركزة حول الانجاب ، حماية الطفل وتنشئته ، أم الاهداف الاقتصادية والمكانة الاجتماعية هي وراء السعي لتحقيق الاسرة الكبيرة العدد ؟ أم ان هناك اتجاه في الاسرة العربية المعاصرة نحو الاعداد القليلة من الاطفـال والاهتمام بنوعية الاطفال على العدد ؟

٢ ـ العادات والتقاليد (Norms)

ان الاسرة لاتكتفي بغرس الاهداف والاغراض التي يسعى الافراد لتحقيقها في الحياة فحسب بل تضع المعايير والاساليب والطرق المشروعة لتحقيق هذه الاهداف مثل

ماهو صحيح وخطأ صالح وباطل ، مناسب او غير مناسب ... الخ .

وماهي المعايير والمقاييس التي تتبعها الطبقة الوسطى في المجتمع العربي .

٣ ـ الدور والمركز (Status — Role)

المسؤوليات التي تناط بالفرد تحدد دوره ومكانته في الاسرة مثل دور الاب ، دور الأم ، الابن ، الجد ، العم ... الخ . مثل الأب يعمل في الخارج والأم تربي الاولاد وتعد الطعام وترعى شؤون البيت ؟

وهل الادوار والمراكز العائلية في الطبقة الوسطى مازالت كما هي أم حصل عليها تغيير خاصة وان الزوجة المتعلمة أصبحت تعمل خارج البيت وتمارس نشاطات اجتماعية ؟ ماهو نطاق وأثر التغير في الادوار والمراكز على القيم الأسرية للطبقة الوسطى وبالتالي كيف ينعكس ذلك على تربية الاطفال ؟

٤ ـ السلطة (Power)

الحقوق والواجبات والسلطات ودرجة التأثير على الغير . ويتضح ان الأب (أو الزوج) هو صاحب السلطة العليا وله الكلمة الاخيرة في كل الأمور حتى الطلاق إلا ان الزوجة قد تكون لها تأثير أكبر من الزوج إذا ما اتبعت الاسلوب المناسب في شتى أمور الأسرة ومع المستوى التعليمي الذي وصلت اليه المرأة والفتاة المعاصرة . هل يمكن ان نتصور أن السلطة في شؤون الأسرة أصبحت مشتركة ، خاصة واننا نسمع في الوطن العربي صيحات لتحرير المرأة ، وفي عدد من الدول فقد خطت المرأة خطوات كبيرة في المطالبة بالحقوق السياسية والمدنية والشرعية والمساواة في المجالات الوظيفية ... الخ . ثم كيف ينعكس انتقال السلطة التدريجي من وضع كان فيه كل شيء بيد الرجل الى الوضع الذي أخذت المرأة تشاركه في ممارسة الصلاحيات والواجبات داخل المنزل وخارجه على تربية الاولاد وهل هذه الاتجاهات تؤثر في تغيير القيم الأسرية ؟

٥ ـ المكانة الاجتماعية (Social Rank)

وبالرغم من نشوء الطبقة المتوسطة في المجتمعات العربية ، الا ان هنالك تصنيفات للأسرة فنجد أن أسرة فلان لها مكانة مرموقة بالبلد وأسرة فلان لم يسمع بها أحد ،

أو اسرة فلان معظم أفرادها يشغلون وظائف عالية ولهم مراكز في الدولة الأمر الذي يحدد مكانة الأسرة . وينطبق ذلك على المرأة التي تشغل مناصب في المجتمع فان الادوار التي تلعبها تؤثر بصورة مباشرة على مكانة الأسرة تماماً مثل الرجل .

وفي مثل هذا الوضع الاجتماعي المتحرك والمتغير دائماً ماذا يحدث للاسرة الريفية الاصل في الطبقة الوسطى خاصة عندما تسعى لرفع مكانتها الاجتماعية واتباع قيم جديدة في الوسط الاجتماعي الحضري !!

وما هو الثمن هل ينعكس ذلك في ارتفاع نسبة الطلاق أم في تربية الاولاد وتنشئتهم .

الجزاءات والمكافئات (Sanctions) يضع المجتمع وكذلك الاسرة مفاهيم ولوائح (مكتوبة أو غير مكتوبة) لفرض العقوبة على الفرد الذي ينحرف عن السلوك والمعايير والقيم التي يضعها المجتمع للاسرة وذلك للحفاظ على توازن المجتمع وتماسك الاسرة والحد من الانحلال مثل الانحلال بالشرف أو الهروب من المسئوليات الاسرية.. الخ والمكافئات أيضاً ضرورية للاسرة حيث يحصل الفرد الذي يسير بالطريق القويم على الرضا النفسي وثناء الآخرين. والجزاءات والمكافئات نوعان مادية ومعنوية – وتختلف أشكالها وصورها.

هل للاسرة في الطبقة الوسطى في المجتمع العربي المعاصر المعايير والمفاهيم المكتوبة وغير المكتوبة التي تحدد العقوبة والمكافئة على السلوك وما هي أنماط السلوك والقيم التي تتميز بها الطبقة الوسطى دون غيرها والتي تؤثر في الحفاظ على توازن الاسرة وتماسكها وعلى توجيه الاطفال وتربيتهم .

النشاط Activity النشاط عبارة عن الاعمال والبرامج والمراسيم والاحتفالات والمراسيم اليومية والشهرية والسنوية التي تشترك فيها الاسرة والتي تقوم بها سواء لوحدها أو بالاشتراك مع أسر أخرى في المجتمع أو مع أفراد الاسرة الممتدة ونوع النشاط ومدى اشتراك أفراد الاسرة فيه له أهمية كبيرة في كيان الاسرة واستمرارها .

ماهي أبرز سمات نشاط الاسرة في الطبقة الوسطى في المجتمع العربي في المجالات الاقتصادية والاسرية والتربوية والمواطنة الصالحة والدينية وهل يسهم جميع اعضاء الاسرة بهذا النشاط وكيف تعد الطبقة المتوسطة الطفل للقيام بمختلف النشاطات التي تعود على الطفل والاسرة والمجتمع بالعائد الأكبر من النواحي النفسية والاجتماعية والعضوية » .

وتتفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض وتؤثر كل منها بالآخر وتتأثر به وهي في مجموعها مهمة جداً وضرورية لحيوية الاسرة والمجتمع وبقائها وتنظيم العلاقـات بين العناصر المتفاعلة .

ان أيدراسة اجتماعية ونفسية للاسرة العربية المعاصرة لا بد من تحليلالعلاقات والمتغيرات الجزئية من خلال النظام الاسريككل وليسمن خلال جزئيات محددة دونما أي اعتبار للعناصر الاخرى من النظام خاصة اذا مـا أردنا دراسة التغير والتطور في الكيان الاسري في المجتمع العربي المعاصر لقصد الوقوف على نقـاط القوة والضعف في مختلف جوانب النظام الاسري ومدى موائمـة الواقع الحالي مع معطيات التراث العربي والاسلامي وتحقيق ماتسعى اليه الامة العربية في الحفاظ على كيانها ولمسايرة التقـدم الحضاري ولا يتم ذلك الا في تماسك الاسرة ووضوح أهدافها وتكامل العناصر المكونـة للنظام الذي تسير عليه .

الاسرة وازمة التطور الحضاري :

لقد أوردت الدراسة العديد من المواقف المعاصرة في الاسرة العربية خاصة بين أسر الطبقة الوسطى والتي تعكس الاتجاهات السلبية على تربية الطفـل ونموه في مجتمع يتعايش مع الذرة والتكنولوجيا.وقد اتضحت هذه الاتجاهات في اتكالية الطفل والتمييز في المعاملة بين الذكر والانثى والاستهزاء به وأن الاسرة توجه الطفل نحو الاشخاصاكثر ما توجهه نحو الاشياء .

واذا افترضت الدراسة أن الاسرة كمؤسسة اجتماعيـة تعمل كوسيط بين شخصية الفرد والحضارة التي يرتبط بها وينتمي اليها ، فان التحليل يجب أن لا يقف عند حـد تحليل أساليب المعاملة التي يتلقاها الطفل من احدى أو كلا الوالدين أو من أعضاءالاسرة الممتدة فحسب بل لا بد من النظر في النظم الاخرى السائدة في المجتمع والتي تؤثر في كيان الاسرة وتركيبها والوظائف التي تؤديها .

أي أن ما يحدث حالياً للطفل كما عرضته الدراسة أو على الاقل الجانب السلبي من الموضوع لا يمكن أن يعزي بسبب الاسرة وحدها بل ان المجتمع هو المسؤول أيضاً عن مثل هـذه المواقف ؟ ويقرر الدكتور الشرابي في بحثه أن تغيير المجتمع يقضي بتغيير المجتمع والعكس بالعكس أي أن العلاقة متبادلة بين الاسرة كنظام اجتماعي مع المجتمع

بأنظمته المختلفة الأخرى مثل النظام التربوي والاقتصادي والسياسي والديني .

وسوف نتناول كل جانب من هذه الجوانب بشيء من الايجاز لتحديد بعض المواقف التي تسبب الاختناق Bottleneck في مسيرة الحضارة والتقدم الحضاري والتي تتصل بالأسرة من حيث علاقتها بالنظم الاخرى .

علاقة الاسرة بالنظام التربوي :

يذكر الدكتور شرابي في البحث بأن التعليم الذي يتلقاه في اطار العائلة وخارجها يقلل من أهمية الاقناع والمكافأة ويزيد من أهمية العقاب الجسدي والتلقين .. وهذا بالتالي يؤدي الى أضعاف قدرات الطفل للابداع والتجديد ويمنع حدوث التغيير ويزيد من تعلم اللغو .

وسواء أكان هذا التعليم الذي يحصل عليه الطفل في اطار الاسرة أو في داخل جدران المدرسة أو في خارجها ، فالسؤال هو ماذا يجب أن يتم لتصحيح هذا الوضع وتوجيه التربية بحيث يزيد من أهمية الاقناع والمكافأة ومساعدة الطفل على تنمية قدراته ومواهبه .

فاذا أخذنا موقف الاسرة من تعليم الطفل والطرق التي يمكن اتباعها في التطوير والتحسين .

اليس من الممكن تزويد الأب والأم بالمعلومات والمهارات واتاحة الفرصة لهم بالانتساب الى المعاهد والجامعات في برامج خاصة لكبار (Adult Education) وكذلك اليس من الممكن اقامة برامج ضمن وسائل الاتصال الجماهيرية المختلفة مثل الراديو والتلفزيون والصحف تخاطب الكبار وتناقش القضايا الأساسية والمشكلات التي تعاني منها الاسرة العربية مع تشخيص هذه المشكلات وتقديم احتمالات وبدائل للحلول .

اليس من الممكن أن ينشأ معهد خاص على مستوى الدول العربية يكرس للبحوث والدراسات والاهتمام بالاسرة العربية خاصة في هذه المرحلة الانتقالية التي بها المجتمعات الحضارية والتي تعاني فيها من أزمة التطور الحضاري ما تعانيه ؟

وكذلك ما هو الدور الذي تقوم به الأجهزة الحكومية والتطوعية تجاه الاسرة ؟ أهو دور علاجي (وهذا ما هو قائم على الأرجح) أم هو دور وقائي ؟

أليس هذا هو الوقت المناسب لتقييم مختلف البرامج والانشطة التي تعنى بشؤون الاسرة البدوية والريفية والمدينية على حد سواء (لان التحضر والحضارة ستصل يوماً الى قلب هذه المجتمعات) وتحديد نقاط القوة والضعف فيها من حيث الاهداف والخطط والانجـازات التي تم تحقيقهـا والآثار الايجابية والسلبية للتغيير والتطور على الاسرة العربية المعاصرة .

ثم اذا نظرنا الى النظام التربوي الرسمي في المستوى الابتدائي وتفحصنـا دور المدرسة في تربية الاطفـال وتزويدهم بالمعارف والمهارات التي تساعدهم في التعرف على ميولهم واتجاهاتهم صقل قدراتهم ومواهبهم وتوجيههم نحو الجماعة والمجتمع بالاضافةالى ولائهم للاسرة .

أليس من الممكن أن يعاد النظر في الكتب والمناهج المدرسية ومدى ما تتضمن من موضوعات تحقق الاتجاهات المشار اليها وصياغة المناهج التي تتنـاسب مع روح العصروالتكنولوجيا . أليس من الممكن كذلك توفير المدارس والابنية الصحيةوالامكانيات والموارد التي تهيء للطفل المناخ الملائم للتعليم ؟ ثم أليس من الممكن تدريب المعلم والمعلمة وتأهيلهم نظرياً وعملياً للقيام بمهـام التعليم واثارة الاهتمام لدى الطالب للتعلم وتجريب الوسائل التعليمية المختلفةالتي تعمق خبرات الطفل وتزيد من اقباله على التعلم والاستطلاع ؟

واذا كانت التنشئة مشتركة بين المدرسة والبيت أليس من الضروري توثيق الصلة بينهما وتنظيمها والتنسيق بينهما وانشاء الخدمات المدرسية اللازمة لمساعدة الطالب في اجتياز الصعوبات والعقبات التي يواجهها في التكيف الى المجتمع خارج بيئةالبيتوالحي.

ثم ما هو موقف البحوث التربوية ؟ من هو المسؤول عنها ، واين وصلت وماذا بالنتائج التي تم التوصل اليهاوماذا تم بشأن المشكلات التي كشفت عنها الدراسات المختلفة؟ ومن هو المسؤول عن البحث وما دور الجامعات ومعاهد البحوث في هذا المجال ؟ وهل ترصد الاموال الكافية للقيام بالدراسات المطلوبة ؟ وهل هناك برامج للدراسات المقارنة على المستوى العربي .

الاسرة والوضع الديمغرافي :

من المعروف أن الاسرة العربيـة كبيرة في حجمها ويتضاعف هـذا الحجم اذا

ما أخذنا بمقياس الاسرة الممتدة . ويعتبر معدل حجم الاسرة العربية (حوالي ٦،٣ شخص للاسرة الواحدة) من النسب العالية في الدول النامية .

وقد واكبت المجتمعات العربية مجموعة من القيم التي تستهدف حجم الاسرة الكبير حيث أن الاسرة الكبيرة « عشروة » وتوفر الايدي العاملة ، وتخلد اسم العائلة ، وتريح الوالدان عند الكبر ، وتجلب الراحة النفسية للكبار عندما يروا الصغار يرتعون في البيت ويعيشون بمحتوياته .

ولم تجر دراسات الا في نطاق محدود مثل دراسة الاتجاهات لحجم الاسرة الامثل بين المثقفين والمهنيين(١) التي اجريت في مصر والاردن وبعض البلاد العربيةالاخرى .

واذا نظرنا الى اتجاهات الطبقة الوسطى ، أليس من الممكن أن يكون الاتجاهنحو الاسرة المحدودة العدد والتي تتساح لها الفرص لتربيسة الاولاد تربية صالحة ومناسبة (النوعية) بدلاً من الاتجاه نحو الكم وانجاب الاعداد الكبيرة دونما أي تخطيط أوتنظيم لتوفير فرص الحياة والرعاية المناسبة ؟

وفي هـذا المجال ألا يمكن أن تقام برامج ومشروعات لتنظيم حيـاة الاسرة من جوانبها المختلفة مثل أسس تربية الاطفال ، الترفيه ، الجوانب الاقتصادية والروحيـة والجنسية (التباعد بين الولادات) ... الخ وفق ما تقتضيه ظروف كل مجتمع عربي حيثأنالهدفهو رفاهيةالاسرة وتزويد الاطفال بالرعاية والحماية والغذاءوالاهتماماللازم؟

هذا بالاضافة الى الهجرة الفردية (الزوج أو المعيل في الاسرة) أو الجماعيـة (الاسرة بكاملها) من البادية والريف الى مراكز المدن ومن مدينـة الى اخرى ومن البلد الواحد الى بلدان عربية واجنبية سعياً وراء التعليم وكسب الرزق بسبب عوامل الجذب والطرد والتي أخذت تزداد حدة بحيث أصبحت تشكل عبئاً ادارياً (للخدمات) واجتماعياً (السلوك الانحرافي واللاأخلاقي) على الدولة .

أليس من الضروري في مثل هذه الحالة دراسة المشكلة السكانية وتحديد السياسة

---

(١) مثل الدراسة التي قام بها المعلق في عمان بعنوان :

Characteristics and Problems of the Professional Elite in Amman — 1969 .

الديمغرافية المناسبة لظروف كل دولة بشرط المحافظة على تلاحم الاسرة وتماسكها ورعايتها وتقديم الخدمات اللازمة لها وأينما كانت ؟

وبالنسبة الى الجوانب الديمغرافية والاهتمام بنوعية الوافدين الجدد الى الحياة أليس من الممكن أن تصدر تشريعات تؤخر الحد الادنى لسن الزواج عند المرأة حتى تتاح لها فرصة التعليم واكتساب خبرات في الحياة الاسرية تمكنها من القيام بدورها في تربية الاطفال ؟

الاسرة والمواطنة الصالحة

يقصد بالمواطنة الصالحة معرفة الفرد لحقوقه وواجباته والتزاماته تجاه المجتمع وغيره من الناس . ويذكر الدكتور الشرابي في بحثه أن الدور المتوقع من الطفل هو التضحية في سبيل والديه واخواته واقربائه ، أي أن اتجاهاته تتكون نحو الاسرة أكثر مما تتكون نحو المجتمع ؟

أنه من الطبيعي أن تقوم الاسرة بتعريف الطفل بنفسه وذويه وأقربائه وغرس حبه واحترامه وتقديره لكل عضو في الاسرة النووية أو الممتدة وأن تزوده بالقيم الاجتماعية . في مختلف مجالات التفاعل والتعايش مع أهله وعشيرته. ولكن ماهي مساوىء الاستمرار في هذا الاتجاه على شخصية الطفل واتجاهاته ، ومن ثم من أين يستمد الطفل عناصر الانتماء للمجتمع والولاء والاخلاص لهذا الاطار الاجتماعي من حوله .

ومن ناحية أخرى فان النظريات التربوية تؤكد على تعلم الطفل وتأثره بالخبرات المحسوسة والمواقف التي تعود عليه بالمكافئة المادية والمعنوية .

ويقودنا هذا الوضع الى البحث أن الطرق والوسائل والفعاليات التي تنظم وتوجه نحو الطفل في مختلف مراحل نموه وتعريفه بالمجتمع من حوله سواء العناصر الاجتماعية والانسانية أم العناصر المادية الطبيعية والاشياء الاخرى .

كيف نزود الطفل بالخبرات والمهارات والمعلومات التي تخرجه من قوقعة نفسه ومن بين جدران عشيرته لينظر الى المجتمع من حوله بشكل يتفق مع قدراته وطاقاته وتحدث أكبر تأثير ممكن وبأسرع وقت وبأقل تكلفة ؟ كيف يمكن أن نزيد من مشاركة الاطفال في المحافظة على البيئة من حولهم وجمالها ونظافتها، وكذلك كيف ندعم الشعور بالولاء والاخلاص، ومساعدة الغير والتعاون مع الجماعة في انجاز البرامج التي تخدم الغير؟

ثم كيف يمكن أن نعرف الطفل بالدور الذي تقوم به المؤسسات المختلفة مثل الشرطة، والجيش، والموظفين والخدمات العامة بأسلوب يدرك أهميتها والوظائف التي تؤديها حتى تنمي ادراكه وخبراته المباشرة نحو الغير والمجتمع، وكما قال ريسمان (Reisman) كيف نجعل الفرد متجهاً نحو المجتمع (Society Oriented) .

أليس من الممكن أن يتم التعاون بين الاجهزة الاعلامية والباحثة والتربوية والاسرية والادارية (البلدية) والداخلية القيام بمشروعات وبرامج مشتركة توجه نحو الاطفال في مختلف البيئات والمجتمعات ؟ وهل تصل الخدمات للطفل في البادية والقرية مثلما تصل للطفل في المدينة من حيث الكم والنوع ؟

الاسرة والقيم العربية المعاصرة

لقد ورد في بحث الدكتور الشرابي العديد من القيم الاسرية التي تتعلق بمفهوم الاسرة العربية ودور الرجل والمرأة ومكانة الطفل الذكر والانثى، وتدريب الطفل على الاتكال وفقدان الثقة بنفسه والتخجيل والاذلال في مختلف المواقف السلوكية خاصــة تلك التي تتعلق بموضوع الجنس وتوجيه غضبه نحو ذاته ... الخ .

ونلاحظ أن المجتمعات العربية في العقدين الاخيرين قد شهدت تطوراً حضاريـاً (اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ودينياً وأسرياً) ملحوظاً في الجوانب المادية والمعنوية . ويختلف هذا التطور كماً ونوعاً من مجتمع عربي الى آخر وفي مختلف المناطق داخــل المجتمع الواحد .

غير ان هذا التطور السريع قد جر وراءه أنواعاً متباينة من المشكلات الاجتماعية والنفسية والتربوية ويرجع السبب في ذلك الى أن مضمون التطور متأثر بدرجة كبيرة في الحضارات المعاصرة المتفوقة (الغربية والشرقية) من ناحية وعلى صعوبة تكييف الفرد العربي بأسلوب يحافظ على قيمه وعاداته وتقاليده ويتقبل التغير بالقدر والنوع الذي يتلاءم مع الاحتياجات والتطلعات الفردية والمحلية والقومية من ناحية أخرى .

والواضح تماماً هو ان للحضارات الغربية والشرقية المادية منها والمعنوية تراث خصائص ومميزات نشأت من خلال تجارب وخبرات هذه الدول عبر القرون، ووصلت الى ماوصلت اليه بسبب عدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ساعدت على تحقيق الانجازات التي نراها اليوم ونقف مذهولين أمامها ؟

كما أن للعرب تراث وحضارة عريقة أخذت مكانتها في العالم من بضع قرون مضت ، الا أن الحقيقة التي يجب ان نواجهها هي أننا متخلفين عن الحضارات الغربية والشرقية في الظروف المعاصرة ويؤكد علماء الانثروبولوجيا ان الحضارات المتخلفة تستورد عناصر حضارية من الحضارات المتقدمة (وهذا لايعني ان حضارة الغرب أفضل من الحضارة العربية الاصيلة) . ونجد مظاهر هذا الانتشار الثقافي في كثير من الادوات والمعدات في مختلف مجالات الحياة ؟

وكما قال الدكتور الشراني في محاضرته في نادي الاستقلال بالكويت حول هذا الموضوع أن الانسان العربي ممزق بين اتجاهين حضاريين الأول يشده نحو الحضارة الغربية والثاني يشده الى التراث العربي ولكل من الاتجاهين قوى وفعاليات تحاول ان تجذبه بمختلف الوسائل . فأين الانسان العربي اليوم هل هو لايزال على مفترق الطرق ، واذا كان الجواب ايجابياً فالى متى سيبقى في مثل هذا الوضع ، اذ ان التطور الاجتماعي لايعرف (الحياد) أو (عدم الانحياز) كما هو معروف في عالم السياسة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل جميع القيم العربية المتعلقة بشؤون الأسرة من حيث التكوين والبناء والعلاقات بين داخل الأسرة النووية والأسرة الممتدة ، والدور والمركز لكل من الذكر والأنثى الصغير والكبير والمكافئات والجزاءات وأهم من ذلك كله الأهداف والأغراض التي تسعى الأسرة الى تحقيقها ، هل جميع هذه القيم متوائمة مع معطيات المجتمع العربي المعاصر ؟ أم أن هناك شعور أنه بالامكان ، بل والضرورة تدعو الى النظر في تطوير القيم الأسرية وأستبدال بعضها بقيم جديدة ؟ واذا كان الأمر كذلك ماهي القيم الجديدة التي تحتاج اليها الاسرة العربية في المجالات التالية : التعليم، الاقتصاد، الزواج ، السكن ، المواطنة الصالحة ، والدين والمجالات المجتمعية الأخرى للصبي والبنت والرجل والمرأة للوالدين والابناء على حد سواء .

اليس بالامكان اتاحة الفرصة لعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا والنفس والتربية للقيام بالدراسات والبحوث الميدانية لدراسة القيم العربية وتحديد المواقف والمجالات التي تحتاج فيها هذه القيم الى تطوير وتغيير وصقل وبلورة بحيث تخفف التوتر الاجتماعي والنفسي والاختناقات التي تواجهها العلاقات والقيم الأسرية في المجتمع العربي المعاصر .

أن تحديات العصر تفرض علينا أن ننظر الى واقعنا بمنظار علمي ونواجه أنفسنا، ونقولها بصراحة أن أساليب التربية والنظام الاسري تعاني أزمات واختناقات والتي

تحتاج الى دراسات علمية لتشخيصها والوقوف على خصائصها والعوامل المؤثرة فيها وتحديد المشكلات والاختناقات في المجتمعات الريفية والبدوية والمدنية (أي دراسة شاملة للاسرة العربية) يشترك فيها فريق من العلماء المشار اليهم على نطاق المجتمع العربي وعلى مستوى المجتمعات المحلية في نطاق المجتمع العربي الواحد .

ان انشاء معهد للدراسات والبحوث الاسرية في هذه المرحلة من التطور الحضاري في المجتمع العربي المعاصر لا يقل أهمية عن معهد للدراسات البترولية أو الحيوانية أو الادارية ، ذلك أن من صميم أهداف المعهد الاسري تزويد المخططين للسياسات الاجتماعية بالمعلومات والمؤشرات والبيانات التي تساعدهم في تطوير التشريعات والتنظيمات والخدمات والمشروعات والنشاطات التي تسهم في التطوير البنائي والوظيفي للاسرة العربية المعاصرة.

هذا بالاضافة أن مثل هذا المعهد يمكنه تخطيط سياسة التدريب والتأهيل لمختلف مستويات العاملين في الرعاية الاسرية في مجالاتها المختلفة حيث أن الهدف من برامج الرعاية هو التنمية الاجتماعية الشاملة وليس علاج حالات المعوقين والكبار والحالات الخاصة ؟

ولا بد من التنسيق بين مثل هذا المعهد والجامعات ومراكز البحوث حتى تكمل بعضها بعضا ، وأن تعزز برامج كليات الآداب ومعاهد تدريب المعلمين والمعلمات لتتضمن الموضوعات التي تناقش الاسرة العربية وقضاياها ومشكلاتها وأفضل الطرق لتطويرها .

وأخيراً فان الدراسة التي تقدم بها الاستاذ الدكتور الشرابي تعتبر خطوة عملية وعلمية في تسليط الضوء على الواقع الاسري والتربية في المجتمع العربي المعاصر في مرحلة التطور الحضاري ، يجب أن تتبعها دراسات على المستوى العربي لتعالج الموضوعات من الزوايا الاجتماعية والانثروبولوجية والتربوية بالاضافة الى النفسية التحليلية والتطرق الى مختلف مناشط واتجاهات الحياة الاسرية بالاضافة الى الاتجاهات التربوية .

أزمة التطوّر الحضاري

معناها وملابساتها

بالنسبة للجامعات العربية الحديثة

الدكتور محمد جواد رضا

لعل خير المداخل التي تبين علاقة الجامعات العربية الحديثة بأزمة التطور الحضاري في الوطن العربي هو البدء بشيء من التنظير Theorization في طبيعة هذه العلاقة التفاعلية بين شعوب عريقة ومؤسسات علمية شابة فلقد يبدو ان كثيراً من العنت الذي تعرضت له جامعاتنا الحديثة حتى الآن وليس هناك ما يمنع من احتمال تعرضها اليه مستقبلا – انما نجم عن هذا التعارض المثير بين عراقة المجتمع العربي برؤاه الغيبية لذاته

والكون المحيط به .. وبين شباب الجامعات العربية ببناها ووظائفها العلمانية التي دخلت بها اليه . ونحن على كثرة ما نفكر أو نكتب عن وظيفة الجامعة في المجتمع نغفل أو نهمل – عن وعي أو غير وعي – مهمة تنظير هذا الدور وتنظير المؤسسة التي تمارسه . ان غياب التنظير هنا كان سبباً دائماً في غبش رؤانا الجامعية العامة ذلك الغبش الذي غدا بدوره عنصراً رئيسياً بين عناصر الازمة التي نتدارس في هذه الندوة ذلك اننا لم نتفق للآن – بله ان نجمع – على أجوبة موحدة للاسئلة المعلقة حول وظيفة الجامعة في المجتمع العربي المعاصر ... هل هي تغيير هذا المجتمع ؟ أم المحافظة عليه ؟ هل واجب الجامعة تقوية الوضع القائم وتدعيمه ؟ أم العمل على تحسينه وتطويره ؟ واذا كنا نسلم جميعاً بوجود ازمة تطور .. ففي أي اتجاه يتوجب على الجامعة أن تسهم في تذليل ازمة التطور هذه ؟ باستعارة حلول موروثة من الماضي لمواجهة مشاكل العصر فيكون واجبها آنئذ العناية بالتراث ؟ أم البحث عن حلول ملائمة زمنياً لهذه المشاكل ويكون واجبها عندئذ تأكيد طرائق التفكير العلمي في تربية الشباب ؟ بعبارة موجزة .. هل نريد لجامعاتنا أن تكون امراس رسو في موانىء التاريخ ؟ أم أشرعة أبحار في محيط الحياة ؟

ان الطريق الى التنظير تبدأ بتقرير المقولات الثلاث الاتيات .

المقولة الأولى :

اذا سلمنا بأن للجامعة مسؤولية مقررة في التماس الحلول لمشاكل المجتمع فان المنطق يستتبع بالضرورة التسليم بأن هذه المشاكل ليست موروثة من الاعصر الخالية فقط وانما يشترك في صنعها الظروف المادية التي تجابه الانسان منذ الثورة الصناعية وما أحدثته من تبديل شامل في وسائل الانتاج الصناعي والزراعي وما ترتب على ذلك من المشاكل الانسانية المعاصرة . واذا كان ذلك كذلك فان المجتمع لايقدر أن يطمع في حل المشاكل الجديدة بحلول عتيقة لمشاكل قديمة ربما حملت وجهاً من أوجه الشبه بمشاكلنا الحديثة ولكنها لاتمثلها تمثيلا تاماً لتباين الظروف الموضوعية التي خلقت كلا منها . واذا كان

هذا صحيحاً ـ وهو صحيح فعلاً ـ فانحلول الجامعة لمشا كل المجتمع لايمكن أن تلتمس في التاريخ بقدر مايمكن ـ وينبغي ـ أنتستقرأ بمنطق المختبر وطريقته في فهم المشكلة وحلها .

وواضح هنا أن الفرق بين التاريخ والمختبر هو فرق مابين الرواية والتجربة .

المقولة الثانية :

ان الجامعة مؤسسة علمية . ومعنى كونها مؤسسة علمية هو ان التأثير الوحيد الذي تستطيع ان تتركه في المجتمع هو تأثيرعلمي بالمعنى العام للعلم الذي بلورته الحركة العلمية في القرون الثلاثة الاخيرة . ان هذا هو الاختيار الوحيد للجامعة الحقيقية في الازمنة الحديثة وكما تستطيع الجامعة ممارسة تأثيرها العلمي هذا فلا بد من توفر الحرية اللازمة لذلك . ان الحرية هنا ضرورة وليست ترفاً . الحرية هنا هى الضمان الاكيد والوحيدضد احتمالات الانحراف بالجامعة عن كونها حرما للبحث عن الحقيقةالى جعلها مؤسسة ـ تبشيرية .

المقولة الثالثة :

ان للجامعيين الحقيقيين حقاً غير منازع كما ان عليهم واجباً اخلاقياً صريحاً في تعميق المفاهيم العلمية عن الجامعة وعملها بين افراد المجتمع وبهذا وحده يمكنهم ان يجعلوا من انفسهم قوة قيادية في حياة شعوبهم . وكيما يقيض لهم لعب هذا الدور القيادي يجب ان يظلوا على وعي صحيح ودائم بحاجات مجتمعهم الحقيقية لا المتوهمة وتوجيه فعالياتهم العلمية باتجاه تنضيج تلك الحاجات في عقول افراد المجتمع

والايحاء بحلول ملائمة لها. ان اي انعزال عن مشاكل الجماهير الشعبية سيفرض على الجامعيين غربة قاسية عن القطاعات المنتجة في المجتمع ويخلق ازدواجية جديدة يدفعون هم اكثر من سواهم ثمنها .

على ضوء هذه المقولات الثلاث يبرز مكان الجامعة العربية الحديثة من أزمة التطور ثلاثي الأبعاد لثلاثية القوى التي تتعامل معها الجامعة .. النمط الفكري الموروث في المجتمع العربي .. الدولة .. الطلاب .

الجامعة العربية الحديثة

والنمط الفكري الموروث في المجتمع العربي

المفتاح لفهم علاقة الجامعة العربية الحديثة بالنمط الفكري الموروث في المجتمع العربي يكمن في التعارض بين عراقة المجتمع العربي وحداثة الجامعة . وإذا ماتجاوزنا الجامعات العربية الدينية فان تسع عشرة جامعة من الجامعات الثلاث والعشرين في العالم العربي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية ، وواحدة خلال الحرب نفسها واثنتان في العشرينات وواحدة في عام ١٩١٩ . ازاء هذه الحداثة في الممارسة الجامعية يشمخ المجتمع بقرونه الاربعة عشر اسلامياً وضعف ذلك من القرون حضارياً . وإذا كان الزمن يخلق تعارضاً بين الجامعة والمجتمع فان النظرة الى الذات تخلق تضاداً بينهما وهو تضاد يمثل أحسن تمثيل جوهر الازمة الحضارية في الوطن العربي . فمنذ الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد تيقظ العرب الى حاجتهم لاعادة بناء وجودهم الاقتصادي ومضوا في ذلك قدماً على انه أكثر حاجاتهم القومية دعاءاً الى التركيز .

وإذ كان الغرب هو مالك القوة التكنولوجية فلم يكن هناك من مناص الا في استعارة طرائقه وأساليبه في عملية اعادة البناء فكانت مطالع التنمية الاقتصادية . ولما كانت تلك التنمية مستعارة الوسيلة والاسلوب فلم يصاحبها افراز مماثل من الحضارة الغربية في طرق التفكير العامة عند الجماهير العربية فتوقفت عندما وجدت اباءها عليه من طرق التفكير في الحياة والعلاقات الانسانية . وفي الوقت الذي رحب فيه المجتمع العربي بمعطيات الغرب الآلية والمادية استعصى على مصاحباتها الاخلاقية والانسانية وحاول الاستعصام منها . بعبارة أخرى .. ان التنمية الاقتصادية رافقها جمود اجتماعي

وبقدر ما كانت التنمية غريبة ووافدة كان الجمود وطنياً وأصيلاً. وهكذا ولدت الجامعات العربية الحديثة كان من قدرها أن ترتطم بهذا الوضع المعقد وتكون رمزاً عليه . ذلك ان هذه الجامعات صيغت على صورة الجامعات الغربية فجاءت جامعات علمانية مسؤولة عن نشر التفكير العلمي وطريقة البحث العلمية . وفي غمرة الترحاب القومي بميلاد الحياة الجامعية الجديدة لم يتنبه الناس الا بعد حين الى الازدواجية الجديدة التي خلقها الوجود الجامعي . ومن هنا كان أحد المصادر الدائمة لقيام الازمات في الحياة الجامعية العربية الجديدة مطالبتها بتكييف نفسها بالخصائص الاساسية للثقافة الموروثة في المجتمع العربي تلك الخصائص التي تقوم – كما يقول الاستاذ زكي نجيب محمود – على التفريق « تفرقة حاسمة بين الله وخلقه، بين الفكرة المطلقة وعالم التحول والزوال، بين الحقيقة السرمدية وحوادث التاريخ ، بين سكونية الكائن الدائم وديناميه الكائن المتغير فالاول جوهر لا يتبدل والثاني عرض يظهر ويختفي . على انها تفرقة لا تجعل الوجودين على مستوى واحد بل تتخذ من عالم الحوادث رمزاً يشير الى عالم الخلود فمهما تكن طبيعة الواقع والاحداث مما يقع عليه البصر والسمع فليست هي الا علاقات تشير – لصاحب البصيرة النافذة – الى الكائن الروحي الكامن وراءها الى مبدعها ومجريها ، وسواء نظرنا الى الانسان باعتباره عالماً صغيراً أو نظرنا الى الكون كله باعتباره انساناً كبيراً وهي مقابلة يكثر ورودها في ثقافة العرب الاقدمين فان مادة الجسم في كلتا الحالتين انما هي ستار يستر وراءه روحاً يمتنع على الفناء » و « من هنا كان بين الاسس العميقة في بناء الثقافة العربية الصميمة أن تكون – للارادة – أولوية منطقية على – العقل – فالارادة فعل ، والفعل باطنه قيمة توجهه . وما دامت مجموعة القيم قائمة أمامنا لم نصنعها بل نشخص اليها لنحذو حذوها فلم يبق للعقل اذن من مهمة يؤديها الا ان يرسم الطريق المؤدية الى تحقيق ما تقتضيه تلك النماذج العليا المنصوبة أمامنا . ومعنى ذلك ان مجال العقل منحصر في دنيا التنفيذ بحيث نلتمس به السبل المؤدية الى الغاية المطلوبة أما الغاية نفسها فلا شأن له بها لأنها تنتمي الى عالم القيم . فليختلف الناس كيف شاؤوا في أي الطرق يسلكون لكن الغايات مرسومة لهم تسدد الخطى كأنها أنجم السماء تهدي السائرين في تيه الفلاة »(١) .

---

(١) زكي نجيب محمود .. موقف الثقافة العربية الحديثة في مواجهة العصر بحث مقدم الى مؤتمر الاصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة – القاهرة – ١٩٧١ .

لقد وجدت الجامعة العربية نفسها ترتطم بهذا الاستشراف والحصر المسبق لعمل العقل . ذلك ان الجامعة بحكم كونها مؤسسة علمانية لا تستطيع الا أن تأخذ بالنظرة النسبية الى الاشياء وترفض المطلقات وهذا ما وضعها في موقف الجابهة مع النمط الفكري الموروث القائم أصلاً على التسليم بالمطلق . والجامعة كمؤسسة علمية تجد ان واجبها الاول ان تحصر اهتمامها بالظواهر الطبيعية ثم هي مضطرة بالتبعية ان تنظر الى « الانسان نفسه كظاهرة من ظواهر الطبيعة يخضع للبحث العلمي بالطريقة نفسها التي تخضع لها الفيزياء أو علوم الحياة »(١) على حين ان النمط الفكري الموروث لا يجامل في رفض هذه النظرة الى الانسان أو ذلك الالتزام بالظواهر الطبيعية ولا يساوم عليها.

يقول واحد من البق الناطقين بلسان النمط الفكري الموروث ....

« اننا نرفض الحتمية العلمية لاننا نرفض الحياة داخل قفص الحضارة التكنولوجية والتضحية بالعديد من مزايانا وخصالنا الانسانية ونعتقد ان الروح العلمية ليست كل شيء في الحياة فالانسان عاش حوالي خمسين الف سنة قبل ان يكتشف الطريقة التجريبية ويتفهم حقيقة الحرارة والجاذبية والنور . والسلوك الانساني لايخضع دائماً للنواميس العلمية في برودتها وصرامتها والانسان محتاج الى الحرية وممارسة الفعل والى جانب النظرة العلمية التي تكشف وجهاً من الحقيقة والواقع هناك الرؤيا الروحانية للأشياء والرؤيا الشعرية والرؤيا الفنية وبصفة عامة الرؤيا الشاملة للكون ومنزلة الانسان فيه »(٢).

---

(١) زكي نجيب محمود ... المرجع السابق .

(٢) محمد مزالي ... الاصالة والانفتاح... بحث مقدم الى مؤتمر الاصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة ، القاهرة ١٩٧١ .

غير أن الناطقين بلسان هذا النمط الفكري الموروث عندما يحسون أن منطقهم لا يكاد يكون مقنعاً يفيئون الى مثابة العقل الشرقي التي لا مجال للجدل فيها ولا نفع... يفيئون الى الموت وما فيه من توهين لقدرة الانسان على المساءلة والتقرير والفصل ، ومن محاولة لتعجيز العلم نفسه فيدفعون بأنه :

« سواء نشطت الغدة الدرقية ام لم تنشط وسواء تغيرت طبيعة العلاقات الاجتماعية أم لم تتغير فان الانسان لايزال حائراً في امره ازاء الموت والمصير وهو اللغز الذي عجزت عن حله كل المذاهب ولا بد ان يفلسف الانسان ذاته وبالتابع لابد ان يفلسف كل وطن نفسه ويستهدي سلوكه بوحي من القيم التي يضمنها الحياة في كل ابعادها الوجودية . وفي ذلك يتجلى الوفاء الاصيل لاصيل الاشواق البشرية [1] .

وهكذا يعود انصار النمط الفكري الموروث الى لغتهم الصوفية مكرسين الانفصال عن الواقع . ومبررين له ولائذين من الحياة بالموت .

لقد كان من بعض افرازات هذا التضاد بين الجامعة والنمط الفكري الموروث ظهور دعوة علنية محدثة لتدريس الدين في الجامعة بأسلوب ولغاية قريبين من الأسلوب والغاية التي يدرس بها في المدارس الابتدائية والثانوية . فقبل عامين نشر عالم من علماء الازهر(٢) مقالة في « مجلة اتحاد الجامعات العربية » تحت عنوان « تدريس الدين في الجامعات العربية » قرر فيه ان « الغريزة الدينية كامنة بصفة عامة في طبيعة النفس الانسانية وقد تظهر عند المنكرين أنفسهم حينما تحزبهم حوازب الحياة أو تلم بهم بعض الكوارث أو المحن » ، ثم خلص من ذلك الى المطالبة بالعناية « الكاملة بالتعليم الديني في جامعاتنا حتى نحفظ شبابنا وهم عدة المستقبل من الاخطار النفسية والاجتماعية المحدقة بهم وعلينا ان نجلو لهم تعاليم الدين على حقيقتها وان نربطها بحياتهم وان نتأتى لهم من

(١) محمد مزالي .... المرجع السابق .

(٢) الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض...تدريس الدين في الجامعات العربية .. مجلة اتحاد الجامعات العربية ... العدد الثالث ، نوفمبر ٧٢ القاهرة .

أبسط الطرق التي تقنعهم ومن أقوى البراهين الكونية والنفسية التي تقضي على ماران على نفوسهم من ترهات واباطيل » .

لا ريب ان هذه الدعوة الجديدة – اذا ما اكتسبت قوة مفاجئة وليس هناك ما يمنع من وقوع ذلك – ستضيف بعداً جديداً الى الازمة بين الجامعة والنمط الفكري الموروث فهي أولاً تتميز بالجرأة على علمانية الجامعة العربية الحديثة التي كادت ان تصبح تقليداً على حين لم تفكر الجامعة في فتح باب المجابهة حول قضية كهذه . اما من الجهة الاخرى فان الدعوة تكشف عن وجه آخر من أوجه التضاد بين الفكر الموروث وعمل الجامعة . فتقرير أن « الغريزة » الدينية كامنة بصفة عامة في طبيعة النفس الانسانية «لا يتفق اطلاقاً مع موقف العلم من الغرائز وبخاصة علم النفس حيث أصبحت مسألة الغرائز لا تحمل أكثر من قيمة رمزية الى مرحلة من مراحل تطور هذا العلم ناهيك عن تقرير أن هناك « طبيعة خاصة في النفس الانسانية » بكل هذا اليقين والحسم في وقت يثبت البحث العلمي أكثر فأكثر العلاقة الوطيدة بين الكيماويات الحياتية والظواهر السلوكية للانسان حتى لتنبؤنا الكيمياء العضوية انه « يكفي ان تحرم البلازما من بعض عناصرها الكيمائية حتى يتلاشى من الروح أنبل ما فيها فعندما تتوقف الغدة الدرقية مثلاً عن افراز مادة التايروكسيد في الاوعية الدموية تزول ملكة الذكاء ويفقد الانسان حس الجمال والتدين » وان « الغدد على اختلافها هي التي تجعل الحب والحقد والحماس والفرح ممكنة » .

ان من المهم جداً أن نلاحظ هنا أن المجابهة بين الجامعة والفكر الموروث ليست حتمية ولا لازمة الا اذا كان ذلك مراداً لذاته . وعندما تترك الجامعة حرة في تعاملها مع الأشياء تعاملاً علمياً صرفاً فان الفكر الموروث والذي هو اكبر تحدياتها يمكن أن يقع ضمن مسؤولياتها في البحث عن الحقيقة وهي بهذه الكيفية ربما استطاعت أن تكتشف لعلاقتها به صيغة جديدة تستطيع بها أن تتعايش معه وتطوعه لمعاييرها الخاصة ومن ثم تجلو عناصر البقاء فيه وبهذا تخدمه على طريقتها الخاصة . وعندما يقع هذا فانالجامعة تستطيعالانصراف الى معالجة مشاكل المجتمع الملحة مثل مشكلة الطاقة الانتاجيةالواطئة والاستثمار القاصر للطاقات البشرية والتوزيع المبرأ من العدل للدخل القومي والتخلف التكنولوجي من دون اضطرار الى تكريس اهتمامها لاجتناب نقاط الاحتكاك بشواهد الفكر الموروث .

حقاً ان هذه العلاقة المعضلة بين الجامعة والنمط الفكري الموروث في المجتمع العربي هي احدى أكبر الازمات في العالم العربي الحديث . وهي تهدأ حيناً لتثور أحياناً وفي كل مرة تثور تأخذ لها صفوة من الجامعيين ضحايا وقرابين . ولو وقفت المسألة عند حد التضحية والقربان لهانت . ولكنها أسوأ من ذلك بكثير . انها حجر صارم على ارادة الجامعة لتحرير العقل العربي من قيوده التاريخية .

الدولة
والحريات الجامعية
في المجتمع العربي الحديث

يلاحظ الدكتور متى عقراوي ان كون الجامعات العربية جامعات صغيرة السن وكونها لم تبلور تقاليد جامعية ، وحقيقة ان دور هذه الجامعات ليس دائماً مفهوماً من قبل الرأي العام وأحياناً أخرى هو ليس مفهوماً حتى من قبل الحكومات نفسها ، وأخيراً ... كون الزمن الذي نحيا فيه هو زمن الازمات المتكررة ، كل هذه العوامل تخلق حالة رخوة في العلاقات بين الحكومات والجامعات في البلاد العربية(١) .

ان مايزيد في رخاوة هذه العلاقات كون أغلب الجامعات العربية معتمدة اعتماداً كبيراً على الحكومات في تدبير حاجاتها المالية كما ان خوف الحكومات من نقد الاساتذة الجامعيين لسياساتها الداخلية والخارجية قد فرض عليها درجة عالية من الحساسية نحو الجامعات .

مظاهر الخوف والريب والحاجة التي تحدد علاقة الجامعة بالجهاز السياسي مزيداً عليها ضغط الفكر الموروث تضعنا وجهاً لوجه أمام واحدة من أعقد قضايا حياتنا الجامعية الحديثة ، قضية الحريات الجامعية ، أو ماتسالح التعارف عليه باسم الحرية الاكاديمية .

يرتبط مبدأ الحرية الاكاديمية أصلاً بقضيتين أساسيتين من قضايا التعليم العالي قديماً

---

(١) عقراوي ... الجامعة والحكومة في الشرق ... ص ٣٣٥ من كتاب « العلم والتكنولوجيا في البلدان النامية » المنشور باللغة الانجليزية – جامعة كمبردج – ١٩٦٨ .

وحديثاً ، قضيتين أشبه مايمكن ان تشبها به هو وجها القطعة الواحدة من النقد ، وهو يكاد يختزلها في ذاته حتى ليجعل منها تعبيرين عن نفسه . اولى هاتين القضيتين ... حق الانسان في المعرفة وحقه في التماس الحقيقة وحقه في تفهم طبيعة علاقته بالكون المحيط وحقه في اعادة تقدير طبيعة هذه العلاقة بين حين وحين من عمر المسيرة الانسانية التي يطلق عليها اصطلاحاً اسم التاريخ . وحقه في تجديد فهمه لنفسه وادراكه لوجوده بين منازل مسيرته تلك على ضوء مايتراكم بين يديه من مستجد الحقائق والاحداث ثم حقه في المدى البعيد في أن يعيد تقييم علاقته بأخيه الانسان وفي ان يعيد تنظيم مجتمعه على نحو جديد يتوافق مع التقييم الجديد . ومن نافلة القول ان قضية البحث عن الحقيقة قديمة قدم الانسان، وان تعطش الانسان الى معرفة حقيقة الاشياء لم يبرأ منه حتى الانبياء الموحى اليهم . وقد سأل ابراهيم ربه ان يريه كيف يحيي الموتى ؟ فلما سأله الله « ألم تؤمن » قال « بلى ولكن ليطمئن قلبي » .

وقصة الخضر مع موسى كما يسردها القرآن الكريم رائعة في التعبير عن هذا القلق الخلاق من أجل المعرفة . فقد شرط الخضر على موسى لقاء رضاه باصطحابه له الا يسأل عما لم يحط به خبراً . ووعد موسى أن يفعل . ولكن الخضر عاد يحذره من أنه لن يستطيع معه صبراً . فلما قتل الخضر صبياً اتهمه موسى بقتل النفس الحرام . ولما خرق السفينة رماه بالخرق . ولما رمم جداراً خربا عجب من فعله . آنئذ انبئه الخضر نبأ الولد القتيل والسفينة المخروقة والجدار المرمم ثم قال له هذا فراق مابيني وبينك .

ولا ندري اذا لم تكن الحكمة الخفية في النص القرآني قد أرادت ان تقول ان حاجة موسى الى صحبة الخضر قد انتهت مع معرفته ماكان يجهل . ربما ارادت ذلك . ولكن الشيء الذي نعرفه معرفة محققة هو ان تحرق موسى الى اسباب أفاعيل الخضر كان تحرقاً انسانياً أصيلاً وأن الحافه في سؤال الخضر عما نهاه عن المساءلة فيه هو تعبير عن هذا القلق الخلاق الذي يقود الى العلم والذي يترجم عنه البحث العلمي الحديث حين يعرف المشكلة ProBlem بانها حالة من التناقض بين الكائن الحي وبين بيئته الخارجية تفقده استقراره أو توازنه الداخلي ولا تعيده اليه مرة ثانية الا عندما يزول التناقض ... أي عندما يعلم الانسان مالم يكن يعلم ... ويطمئن قلبه »(١) .

---

(١) محمد جواد رضا ... الحرية الاكاديمية ... بغداد — ١٩٦٨ .

لقد تجنب الجامعيون العرب حتى الآن طرح هذه المسألة بما هي أهل له من الصراحة والمباشرة والاستمرار . ولعل الخشية من السلطان السياسي كانت تقف وراء هذا التجنب . وفي تقديري ان خشية كهذه لامبرر لها . ذلك ان الاتفاق على حدود هذه الحرية فيه اكثر من منفعة لاكثر من طرف واحد . فالجامعة العربية الحديثة أحوج ما تكون الى ضمانات قانونية وعرفية عامة لحقها في البحث عن الحقيقة وتعليمها سواء كانت هذه الحقيقة مادية أم اخلاقية دينية أم اجتماعية ، سياسية أم اقتصادية . فهي بغير هذه الضمانات ستهبط حتماً الى حيث العقم الفكري وفي هذا خسران مبين للجامعة والمجتمع والدولة على حد سواء ذلك أن مشاكل العلم والمجتمع لايتصدى لها ولا يفض مغاليقها ولا يبتكر الحلول لها إلا العقل الحر الجريء المتقحم الطلعة غير المكبوت وغير المحجور عليه . وليس في هذا كله أي تهديد للسلطان السياسي تقدمياً كان أم محافظاً اذا كان واثقاً من قوة الركائز التي يقوم عليها . وفي كلتا الحالتين يستطيع السلطان السياسي أن يجد في الجامعة الخلاقة المبتكرة عوناً له على مواجهة مشاكل السياسة والاجتماع وما اليها اذا ما اطلق يد الجامعة في دراستها وتشخيص مسبباتها واقتراح الحلول لها .

صحيح ان الطلاب الجامعيين العرب كانوا رأس الحربة في كل حركة ثورية في الازمنة الاخيرة مما جعل الاجهزة السياسية تنظر الى الجامعة كما لو كانت مكاناً لصناعة القلق الاجتماعي . ان الواقع ينفي ذلك بطبيعة الحال . كل ما فعلته الجامعات العربية بعلمانيتها ورؤاها المستقبلية انها فتحت بصائر الاجيال الشابة على حقيقة عوامل الوهن في الحياة العربية الحديثة . وحيثما كان السلطان السياسي مرناً وراغب في معالجة تلك العوامل لم تقع المجابهة بينه وبين الجامعيين . المجابهة كانت تقع فقط عندما كان النظام السياسي ينغلق على نفسه ويهرب من مواجهة الواقع ويفقد ثقته بمبررات وجوده .

سنعرض فيما يلي لاتجاهات ثلاثة في فهم الحرية الاكاديمية .

الاتجاه الاول عربي يلخصه الدكتور عقراوي على النحو التالي :

الحرية الاكاديمية هي حرية أساتذة الجامعات في التعليم والقيام بابحاثهم العلمية الخاصة والتعبير عن وجهة نظرهم ونظرياتهم بحرية كاملة وان يكونوا محصنين ضد الاضطهاد بسبب النظريات التي يؤمنون بها أو يعلمونها . والحرية الاكاديمية تعني بالاضافة الى ذلك

حرية الجامعة في ادارة شؤونها الداخلية ووضع مناهجها الدراسية الخاصة وتعيين طرق التدريس وقواعد الامتحانات ومنح الدرجات العلميـة .

الجامعة يجب أن تكون قادرة على ممارسة هذه الوظائف مع أقل قدر ممكن من سيطرة الوكالات الاجتماعية الاخرى[1] .

الاتجـاه الثاني اتجـاه امريكي اقرته الجمعية الامريكية لاساتذة الجـامعات A . A . U . P . عام ١٩١٥ وهو معمول به حتى الآن مع بعض التحويرات . في هذا المفهوم تعرف الحرية الاكاديمية على النحو التالي :

« ... لايمكن للجامعة أن تضع أية تقييدات أو موانع أو كوابت على حرية الاستاذ الجامعي في البحث الا اذا كان نشاطه يقود الى التدخل في واجباته التدريسية أو يتعارض معها . كما لايحق لها أن تحدده بأية حدود تحول بينه وبين نشر نتائج بحثه العلمي داخل الصفوف أو المحاضرات العامة أو من خلال النشر في المطبوعـات خارج الجامعة إلا في تلك الحالات التي تقضي بشيء من ذلك ضرورات تكييف التعليم لحاجات الطلبة الناشئين قليلي الخبرة الذين لم يستكملوا من أسباب الرشد مايضمن الاطمئنان الى حسن أحكامهم وصوابهـا وإلا في الحالات التي تكون فيها الجامعة مؤسسة طائفية أو دينيـة يحمل وجودها تبريراً أخلاقياً لمثل هذه الحدود من وجهة نظر منشئها والداخلين فيها .

كما أنه لايحق لاي استاذ جامعي من الناحية الاخرى أن

---

(١) عقراوي .... التقليد الجامعي في الشرق الاوسط .... في كتاب .... الجامعة وانسان الغد .... بيروت ١٩٦٧ .

ينتفع من امتيازاته الجامعية في اثارة القضايا الجدلية التي هي خارج اختصاصه . كذلك على الجامعات أن تعترف بأن الاستاذ الجامعي في مايقوله أو يمارسه من نشاط خارج الحرم الجامعي وخارج حدود اختصاصه العلمي انما يفعل ذلك بحكم أهليته للتمتع بذات الحقوق التي يتمتع بها سائر المواطنين والتقيد بذات القيود التي يتقيدون بها[1].

أما الاتجاه الثالث فهو سوفييتي وقد صاغه في اللغة العربيـة مباشرة الاستاذ الكساندر كوفالوف مدير معهد اللغات الشرقية في جامعة موسكو في محاضرة عامة القاها في كلية التربية بجامعة بغداد بتاريخ ٢٠/٢/١٩٦٠ .

قال كوفالوف :

« . يفترض بعض الزملاء في البلاد الاجنبية بأن نظـام الجامعات الحكومية قد يؤدي الى نكران الدور النشيط الذي تلعبه الجامعات في المجتمع من حيث انه يتعين عليها ان تتبع آيديولوجيـة حكومتها .

في هذا الرأي فكرة صحيحة وهي الاعتراف بوجود تأثير معين من جانب الحكومات على الجامعات. وهذا التأثير أمر لامشاحة فيه في جميع الحالات بصرف النظر مما اذا كانت الجامعة للحكومة او للافراد او للهيئات على اختلاف مشاربها كاثوليكية كانت أم غير ذلك ، ولقد صدق لينين في خطابه الذي القاه في المؤتمر الاول لرجال التربية والتعليم في الاتحاد السوفياتي حيث صرح بأن القول بانفصال المدارس عن الحيـاة وعن السياسة كذب وبهتان ورياء . فليست المسألة مسألة اثبات او انكار لوجود تأثير من جانب الدولة على الجامعات . ولكن الامر المهم في هذا هو وجهة هذا التأثير .

---

(١) تقرير الجمعية المشار اليها .

فاذا اخذنا الدولة السوفياتية لوجدناها توجه جهودها نحو تحسين حالة الشعب المادية و كفالة رفاهيته ونحو ازدهار العلوم والفنون وتنشىء الشبيبة على حب الكدح والعمل وعلى روح التآخي واحترام جميع شعوب العالم . وفي هذه الحالة لا توجد تناقضات بين مطامع الدولة وما يصبو اليه الشعب ، بين ايديولوجية الدولة ونزعة العلوم الحرة ، بين سياسة الدولة ومناهج الجامعات . فالدولة تطلب من مديري الجامعات ان ينظموا وان يربوا الناشئة لا في روح خانعة راضية مستكينة وانما في روح وثابة تصبو دائماً وابداً الى التقدم المستمر الى الامام ، الى الزحف على العوالم التي لم تصل اليها معارف الانسان بعد . . »

بعد هذا اثبت كوفالوف حق الجامعة في انتقاء طلابها على أساس الامتياز العقلي فقال :

« من المعلوم انه لا يتسنى للجامعات أن تتقدم وتتطور تطوراً طبيعياً مطرداً الا إذا تمكنت من اختيار طلابها من بين أكثر الناس نبوغاً وأوسعهم معارف واستعداداً من العاطلين على التعليم الاعدادي والتوجيهي القادرين على استيعاب المعارف الجامعية . . »

يتضح من هذه الاتجاهات الثلاثة انه مع التسليم التام بحق الجامعة وحريتها في رسم برامجها الاكاديمية كتقرير المناهج والامتحانات وسياسة القبول وتعيين مستويات التخرج وطرق التدريس الا أن هذه الحرية وهذا الحق ليسا من غير ضوابط اجتماعية عامة . فالدكتور عقراوي قد سلم « بأقل قدر ممكن من سيطرة الوكالات الاجتماعية الاخرى » على عمل الجامعة . والجمعية الامريكية لاساتذة الجامعات قيدت الاستاذ بالبحث عن الحقيقة واذاعتها ولكنها حرمت عليه الانزلاق الى كل ما يتدخل في مسؤولياته الاساسية — مسؤوليات البحث العلمي والتعليم — ويتعارض معها على انها ميزت بين ذلك كله وبين نشاطاته الاجتماعية كمواطن تام الاهلية لاستعمال حقوق المواطن

خارج جدران الجامعة ولكنها حرمت عليه الانتفاع بحصاناته الاكاديمية لممارسة فعاليات تقع ضمن حقوق المواطنة وواجباتها . اما الاتجاه السوفياتي فلا يماري في وجود تدخل من الدولة في شؤون الجامعة ولا يعترض عليه طالما ان هـذا التدخل يقود الى ما يخدم المجتمع ويدفعه في طريق التقدم .

ان كل هذه القيود تبدو طبيعية مادامت الجامعة جزءاً من المجتمع ولا تعمـل في فراغ اجتماعي وهي قيود تبدو مبررة أخلاقياً مادامت تلزم الجامعة بالعمل على تقدم المجتمع على اعتبار أن الجهل والغفلة هما أسوأ أنواع التخلف . ويزيد في تبرير هذه القيود من الناحية الاخلاقية ان قضية الحرية الاكاديمية لم تبرز أصلاً الا عندما أصبح حق الانسان في البحث عن الحقيقة مهدداً ، والا عندما حاولت قوى المحافظة والتخلف في المجتمعات الانسانية أن تحجر على حركة العقل الانساني وتصادر حقه في فهم اسباب الظواهر الطبيعية والاجتماعية التي كانت ترهب الانسان وتدمر ارادته في التحرر .

ان تاريخ هذه الصراعات مدون وموثق ولا حاجة الى الوقوف عنده ، غير أن انصار حرية الجامعة في البحث عن الحقيقة لايفوتهم أن يدعموا مناصرتهم هـذه بالقانون الطبيعي نفسه . فهم يرون أن التبرير الاخلاقي لحق الانسان في البحث عن الحقيقة ، قائم في القانون الطبيعي العام نفسه ، أي في مجموعة القوانين الفاعلة في الطبيعة ، وهم يرون أن مسؤولية العالم أو الاستاذ الجامعي وولاءه منصرفان أساساً الى الحقيقـة ذاتها وليس الى شيء آخر . واذا كانت الحقيقة مطوية في طبيعة الاشياء وصلبها فكذلك حق الانسان في البحث عنها وفي التماس السبل اليها هو الآخر جزء مكمل لطبيعة الاشياء في هذا الوجود. واذا كان ذلك كذلك فان حق الجامعيين في البحث عن الحقيقة –طبيعية كانت أم اجتماعية– هو الآخر قديم قدم الطبيعة نفسها وباق بقاءها .

حقاً ... ان الحقيقة الطبيعية لم تعد تثير أزمات بين الجامعة والمؤسسات الاجتماعية الأخرى ، فقد دخلت في باب المألوفات اليومية . غير أن مايثير الأزمات بين الجامعة ومؤسسات المجتمع الاخرى هو الحقيقة الاجتماعية التي ظلت تقبع وراء تناول البحث العلمي لها ردحاً من الزمن طويلاً جداً . ان مسألة توزيع القوة الاجتماعية داخل المجتمع وعلاقة الفرد العـادي بالثروة القومية وتقرير نصيبه منها وامثال ذلك من قضايا الحياة الانسانية الاساسية هي احدى بؤر التفجر بين الجامعة العربية الحديثة ومراكز القوى داخل البنية الاجتماعية .

الجامعة العربية الحديثة
وطلابها

يتمثل ضغط الطلاب على الجامعة في اتجاهين . الاول تزايد اعداد الطلبة بسرعة لاقدرة للجامعة على مجاراتها الأمر الذي يترك امكانيات الجامعة العلمية والفنية والبشرية والمالية تلهث وراء حجم الزيادة في اعداد طلبتها . وتشير احصاءات الامم المتحدة الى ان عدد المقبولين للدراسة في الجامعات العربية قد زاد بين عامي ١٩٦٠ — ١٩٧٠ بنسبة ٦٠٪ فارتفع من ٨٠٥ مليونا عام ١٩٦٠ الى ١٣٠٧ مليونا عام ١٩٧٠ وقد فرضت هذه الزيادة في اعداد الطلاب زيادة مماثلة في نفقات التعليم العالي فارتفعت بدورها خلال الفترة ذاتها بمقدار ١٢٠٠ مليون دولار أي بنسبة مقدارها ٦٧٪ عما كانت عليه في العقد المتقدم على هذا العقد . وتعادل هذه الزيادة في نفقات التعليم العالي في العالم العربي ١٥٠٧٪ من اجمالي ميزانيات الدول العربية ، و ٤،٨٪ من اجمالي الدخل القومي العام لهذه الدول .

على أن هذه الارقام لاتستطيع اعطاءنا احساساً بالرضا عن الوضع الجامعي العربي وذلك لأمرين :

الامر الاول :

ان تقديرات الاجهزة المتخصصة للأمم المتحدة تشير الى أنه عندما يتضاعف عدد الطلبة في الجامعات فان التكاليف الحقيقية لتعليمهم تعليماً جيداً تزيد باربعة أمثالها .وعلى هذا فان زيادة الـ ٦٧٪ من ميزانيات التعليم المشار اليها لاتمثل الا درجة تخلف الميزانية وراء تعاظم أحجام الطلبة وان من بعض آثار هذا الوضع الانخفاض المستمر في نسبة عدد الاساتذة الى اعداد الطلبة حتى لقد بلغت هذه النسبة في الجامعات المصرية — وهي مؤشر جيد لوضع التعليم العالي العربي — استاذاً واحد الى كل ١٥ تلميذاً في حقل الدراسات الطبية واستاذاً واحداً الى كل ٣٦ طالباً في الفروع الأخرى عموماً وذلك في النصف الثاني من الستينات . واذا ماقارنا هذه الصورة بنسبة الـ ١ — ٩ في الدراسات العلمية و ١ — ١٢ في الدراسات الانسانية في الجامعات الامريكية تبين لنا ماتنوء به جامعاتنا من عبء تعليمي فادح .

لقد واجهت جامعاتنا هذا الضغط بكرم عظيم ففتحت ابوابها لطلبة العلم واحتملت

في سبيل ذلك مافاق طاقاتها البشرية انسجاماً منها مع تقاليدنا العلمية الموروثة من جهـة وتقديراً منها لدور العلم في عملية التطوير الاجتماعي .

الامر الثاني:

الذي لايبرر احساسنا بالرضا عن وضع التعليم الجامعي هو التباين القائم في فرص هذا التعليم بين البنين والبنات ، هذا التباين الذي يكاد يكون تمييزاً . وعلى الرغم من الشعور المتعاظم في الاوساط العربية المستنيرة بان « دور المرأة في أي مجتمع هو سمة من السمات الاساسية المميزة لحضارة ذلك المجتمع ، سمة تشمل الوضع القانوني للمرأة وحظها من التعليم ومشاركتها في الحياة العامة »(١) فان حظ البنات من التعليم الجامعي لايـكاد يساوي ثلث حظ البنين في هذا التعليم على النطاق القومي وان آخر الاحصاءات المتوفرة تشير الى أن نسبة البنين الى البنـات في التعليم الجامعي العربي المعاصر هو ٢،٨ - ١ . وبعبارة أخرى أنه ازاء كل فتاة جامعية هناك مايقارب ثلاثة أولاد . على ان هذه الصورة تـكاد تكون مشرقة إذا ماقيست بالصورة المماثلة لهـا أقليمياً وهي على النحو التالي :

---

(١) الدكتور شكري عياد ... مفهوم الأصالة والتجديد والثقافة العربية المعاصرة ... (مؤتمر الأصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة) القاهرة ١٩٧١ .

نسبة البنات الى البنين في التعليم الجامعي العربي *		
البلد	البنات	البنون
الجزائر	١	٤
البحرين	١	٢
مصر	١	٣
العراق	١	٣
الكويت	١	١
لبنان	١	٣
ليبيا	١	٨
المغرب	١	٩
السعودية	١	١٥
السودان	١	١٠
سوريا	١	٥
تونس	١	٦

(*) حسب احصاءات ١٩٦٩ الواردة في الكتاب الاحصائي السنوي للأمم المتحدة لعام ١٩٧١ .

واضح من هذه الاحصائية البسيطة انه باستثناء الكويت حيث تكون النسبة ولداً واحداً لقاء كل بنت في الجامعة فان في ثلاثة من البلدان العربية هي مصر والعراق ولبنان هناك بنت واحدة في التعليم الجامعي لقاء كل ثلاثة من الاولاد . في الجزائر هناك بنت واحدة ازاء كل أربعة أولاد . وفي ليبيا كل ثمانية أولاد تقابلهم بنت واحدة وفي المغرب النسبة هي بنت واحدة الى كل ٩ أولاد وفي سوريا ١ — ٥ وفي تونس هي ١ — ٦ . أما في السعودية فهناك بنت واحدة بازاء كل ١٥ ولد . ان هذا يمثل مشكلة اجتماعية من الطراز الاول حيث تظل المرأة متخلفة عن الرجل في فرص النمو الفكري والاجتماعي والمهني بهذه الآماد الكبيرة .

على انه مهما كانت الضغوط التي توجهها مشكلة الأعداد الطلابية والاختلاف الكبير في فرص تعليم البنات والبنين ، فانها بمجموعها لم تتسبب في وقوع احتكاك حقيقي بين الجامعة وطلابها . الاحتكاك والتأزم جاءا من الضغط الآخر الذي وجهه الطلاب الى الجامعة وهو ضغط نفسي وعقلي في واحد . ولقد يبدو ان العقلية الجامعية السائدة في كثير

من جامعاتنا الحديثة كانت مسؤولة عما افرزه هذا الضغط من أزمات ومجابهات بين الجامعات العربية وطلابها .

وجوهر المشكلة هنا هو اننا نواجه في جامعاتنا نوعية جديدة من الطلبة الجامعيين.. طلبة يتميزون بدرجة عالية من الوعي لما يقع حولهم وربما بدرجة عالية نسبياً من العقائديات السياسية والاجتماعية وفي كل الاحوال برغبة أكيدة لممارسة تقرير المصير ، المصير الفردي على الاقل . هذه هي القضية في نطاقها العالمي خصوصاً في أعقاب ماصار يعرف بثورة الطلبة . هذه القضية تجعل – فيما يبدو – عسيراً على بعض الجامعيين العرب التكيف لهذا الواقع الطلابي الجديد وقد يغريهم ذلك أحياناً برفض التعامل الايجابي معه . ان من بعض مايتسبب في الاغراء بهذا الرفض هو مادرجنا عليه عموماً من توقع العكس من الطالب الجامعي العربي . ان هذا التحول في الوضع النفسي للطالب العربي قد لايرضينا ولكنه بصرف النظر عن رضانا به أو رفضنا له هو بعض حقائق الحياة الجامعية الحديثة التي يتوجب علينا أن نتعلم العيش معها .

ان مايزيد في تعقيد هذا الموقف ويفرض عليه درجة عالية من التوتر هو أن الجامعات العربية تعتمد – في الاعم الاغلب – اسلوباً مبسطاً جداً في توزيع الطلبة على التخصصات العلمية . انها تعتمد الدرجات أو العلامات الامتحانية معياراً لهذا التوزيع مع الاغفال التام لكل الحقائق التربوية والنفسية التي تؤكد ان العلامات الامتحانية لاينبغي أن تعني حكماً نهائياً على التلميذ وان لرغبات الطالب ولطموحه الاجتماعي دوراً مهماً في اختيار دراسته العالية ، وان ذلك الدور يجب أن يحسب له حساب جدي عند توزيع الطلاب الجامعيين على التخصصات العلمية . لقد اصبحت العلامة الامتحانية في تراتيبنا الجامعية ضرباً من القضاء والقدر ، ضرباً من الحكم النهائي على التلميذ .. حكماً غير قابل للاستئناف ولا التمييز . وكثيراً ماصار الطالب عندنا يجد نفسه وقد نزل في قسم أو كلية لا لأنه أراد الانتساب اليها ولكن لأن درجاته في الامتحانات قد وضعته حيث نزل. ان في هذا بطبيعة الحال سخرية هائلة بكل ماكشف عنه علم النفس التربوي من ضرورة احترام رغبة الطالب الجامعي في اختيار حقل دراسته . لقد نجم عن هذا درجة عالية من الرتابة الفكرية والذوقية عند طلابنا جردتهم من المساهمة الايجابية والمجزية في تقرير مصيرهم العقلي والعلمي والمهني وحرمتهم بهجة المغامرات العقلية . اننا لم نتنبه للآن الى ضرورة الاذن للطالب بقدر من الحرية في اختيار دروسه وأساتذته ومجالات دراسته وثقل مايستطيع حمله من الاعباء الدراسية في وقت معين .

ثم هناك قضية شائكة اخرى تقف بين جامعاتنا وطلابنـا . للطلبة الجـامعيين اهتماماتهم السياسية والاجتماعية . بعض الجامعيين يشجبون هـذه الاهتمامات ويرفضونها مصرين على أن عمل التلميذ في الجامعة هو طلب العلم من دون أن يسألوا أنفسهم .. العلم بمـاذا ؟ ولماذا ؟ أليست معرفة أسباب الفقر والتمييز الاجتماعي والاستعمار واستغلال الانسان للانسان .. أليست هذه كلها جزءاً مما ينبغي أن يعلم ؟ أو ليس من حق الشاب الجامعي أن يفهم مشاكل مجتمعه الانساني فهماً يوازي على الأقل معرفته التركيب العضوي للاميبا مثلاً ؟ اننا مدعوون ولا ريب الى الاعتراف بان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعي العربي هي من دون أدنى ريب خير مطلق . ان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والغنى ، الحرمان والبذخ ، الجهل والعلم ... ان وعيهم لهذه المعضلات .. ما هو إلا دليل على توظيف هذا الجيل لذكائه وطاقته ووقته وشبابه في خدمة قضايا المجتمع والانسان . وهو تضحية لامراء فيها . والجامعة مدعوة الى أن تجد في هذا التحدي الجديد باباً آخر من أبواب البحث عن الحقيقة . وعندما تسلم الجامعة باخلاقية الاهتمامات الطلابية فانها تستطيع أن تقتحم أكبر العقبات بينها وبينهم ولن يتعذر عليها اخضاع السلوك الطلابي الجماعي للبحث العلمي والتعامل معه على ضوء ذلك بدلاً من الاكتفاء بنقده والتشهير به . وعندما يقع ذلك فلن يكون هناك ما يتنافى وكرامة الجامعة في الاعتراف للطالب الجامعي بحرياته الاكاديمية اعترافها للاستاذ الجامعي بهذه الحريات . فما هي حقوق الطلبة الجامعيين في اطار مفهوم الحرية الاكاديمية العام ؟

يتفق فقهاء التشريع التربوي على أن هناك أربع قضايا أساسية يمكن التسليم بها على انها حقوق طلابية غير منازعة هي:

أولاً :

حق الطالب في المشاركة التربوية التي تأتي في صورة التشاور . فمن حق الطلاب الجامعيين أن تسمع وجهة نظرهم في دراستهم وفي مؤسستهم العلمية . ومن حقهم أن يجابوا على كل ما يستفسرون عنه أو يطلبون ايضاحاً له . ومن حقهم أن يقدموا ما يرون من اقتراحات وحلول حول أي اجراء تربوي يؤثر في دراستهم وحياتهم عموماً وهـذا يشمل بطبيعـة الحال الجوانب المالية وفروض التخرج ونظام التقويم . حق محتويات المناهج لهم أن يحاججوا فيها اذا ما قدموا لذلك تفسيراً مقنعاً .

ثانياً :

الحق الثاني من حقوق الطلبة هو حقهم في تفريد المنهج Individualization ان جاز هذا الاشتقاق .. أي جعل المنهج ملائماً لكل تلميذ على انفراد للتجاوب مع قدراته الخاصة . لقد أصبح من أوليات المعرفة التربوية المعاصرة أن الطلاب لايتساوون في قدراتهم العقلية ولا في أذواقهم ولا في طموحهم . ولقد كان ويليام جيمس يقول : صحيح أن الفرق بين انسان وانسان قد لايكون كبيراً . ولكن هذا الفرق القليل القائم بينهما هو كل الفرق بينهما في الدنيا وهذا ما يبرر المطالبة بتعليم ملائم لكل منهما على انفراد .

ثالثاً :

الحق الثالث من حقوق الطالب الجامعي ولعله ان يكون أهم حقوقه على الاطلاق هو حقه في تعليم ممتاز . لقد ثبت في أحيان كثيرة وأماكن كثيرة أن اسوأ انواع التعليم هو الذي يقع في الجامعات والكليات خصوصاً حين لا يكون البحث العلمي جزءاً من عملية التعليم. وأن أقبح ما يمكن ان يقع للطالب الجامعي هو الملل والسأم كما ان خير التفسيرات التي قدمت للآن يعزو ظاهرة السأم داخل الجامعة الى غياب جو الاثارة العقلية الذي يخفق بعض الاساتذة في خلقه . كما ثبت ان لا علاقة لصعوبة المادة العلمية بالسأم الذي يعاني منه بعض الطلاب أحياناً . ان الطلاب يتجاوزون جفاف الاستاذ وتشدده في مقاييسه اذا وجدوا أنفسهم يتعلمون منه شيئاً مهماً واذا كان هو يستطيع ان يفتح أمامهم آفاقاً عقلية وجمالية جديدة .

رابعاً :

الحق الرابع من حقوق الطلبة... هو حقهم في تنظيم حياتهم الاجتماعيةواختيار قياداتهم والتمتع بكافة الحقوق التي يؤهلون لها كمواطنين على أن يعرفوا في الوقت ذاته انهم مسؤولون عن صيانة هذا الحق وانهم بهذا يتحملون ما يتحمله المواطنون العاديون من مسؤوليات سوء استعمال الحقوق .

ختاماً : ..

اعتقد ان حديثنا عن الجامعات العربية ومسؤولياتها في مواجهة أزمة التطور

يظل حديثاً طوبائياً لا محتوى له ان لم نكن نقصد بالجامعات العربية الجامعيين العرب . الجامعة تظل شيئاً فرضياً ما لم يمنحها الجامعيون حياة حقيقية بالمواقف التي يتخذونها الى جانب ضرورات التقدم ... الى جانب الحقيقة .... طبيعية كانت أم اجتماعية ... والى جانب الحقوق الانسانية المشروعة لابناء شعوبهم... أي ما لم يمارسوا مسؤولياتهم الاخلاقية بنفس الحرص والاخلاص اللذين يؤدون بهما واجباتهم العلمية . ذلك ان كلتا المسؤوليتين داخل الجامعة وازاء المجتمع غير قابلتين للفصل عن بعضهما . ويخطىء الجامعيون كثيراً اذا ميزوا بين حريتهم وحرية المجتمع . ان حركة التاريخ تتعامل مع الكتلة الاجتماعية ككل وليس مع ذرات معينة من تلك الكتلة ... وعندما نضع انفسنا في مسار التعامل العام مع حركة التاريخ سنجد لنا معنى خاصاً في كلمات هنري ثورو :

انا لا نزال نولد

ونحن لا نملك الا رؤية ناقصة عن الاشياء

حقاً ايها السادة

ان الرؤى الكاملة هي رؤى الغد الذي لم يولد بعد . ولذا فان من حقنا ان نعي ان علاقة الشعوب بالتاريخ هي علاقة ولادة دائمة .

ولقد توقفت ولادتنا منذ زمن طويل

ولهذا نحن نعاني من شيء اسمه

ازمة التطور ....

لاننا لم نعد نولد باستمرار



من فصيح العربية في العامية الجزائرية

2

محمد الصالح رمضان

10) ــ **بابابا** (بتفخيم الباء الموحدة وتكرارها مع المد) : كلمة تعجب واستهوال وتعظيم ٠ شائعة كثيرة الاستعمال بين العوام فى البادية والحاضرة ينطق بها الانسان اذا هاله الامر أو استعظمه أو تعجب منه ، وهو استعمال عربى فصيح ، أصله **به به** : كلمة اعظام وتعجب وقد تقلب هاء الكست ألف مد كما فى استعمالنا ٠

قال الشاعر :

من عزانى قال : به به ! سنخ ذا اكرم أصل

11) ــ **الباط** : هو الابط ، كما تتلفظ به عامتنا فى تلمسان ونواحيها (بحذف الهمزة ومد الباء الموحدة المفتوحة) أى باطن المنكب فى الانسان والحيوان ، وباطن الجناح فى الطير (ج) **آباط** عربى فصيح ٠ قال الشاعر الهندلى :

*) تابع لما نشر فى العدد 23 من هذه المجلة

شربت بجمـــه وصـــدرت عنـــه   وأبيض صـــارم ذكـــر **إباطى**

أى سيف صارم تحت ابطى . فقد استعمل الشاعر لفظ **اباط** (بمد الباء) مكـان **ابط** كما يستعمله التلمسانيون ولكن باثبات الهمزة بدلا من تسهيلها . والتسهيل فى عاميتنا هو الغالب وهو شائع فى العربية . بل هو من أضرب التخفيف المستحبـــة فى اللغة الشاعرة الموسيقية وبه قراءة ورش التى نقرأ بها القرآن فى بلاد المغرب العربى كله . **وتأبط الشىء** : جعله تحت ابطه .

12) ــ **البخنوق** : نوع مـن الثياب غير مخيط ولا محيط . يوضع على رؤوس النساء . ويشد تحت الفك أقل من الملاية (الملاءة) لا يتجاوز الحزام من وسط الانسان . يكـــون عادة مطرزا ومزركشا شائع فى بوادينا أو بعضها على الاقل . وهو لفظ فصحيح مــع بعض التحريف فيه . قال الشاعر الشعبى فى أغنية لطيفة : **بخنوق** بنت المحاميد عيشة (عائشــة) ريشه بريشه (أى خيط بخيط) وعامين ما يكملوش النقيشه (أى النقشة) يريد لا يكفى فى تطريزه وقت لدقة نقشه وكثرة زركشته . عربية الفصيح **البخنـــق** (بضم الباء والنون من غير مد) وهو خرقة تتقنع بها الجارية وتشد طرفيها تحت فكيهـا لتقى الخمار من الدهن . والدهن من الغبار . كما قال الجوهرى (ج) **بخانـــق** . قال أبو الطيب المتنبى : يقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع **بخنق** المولود وقال ذو الرمـــة : عليه من الظلماء جل و**بخنـــق** .

13) ــ **البلبلة والتبليل** : (بتفخيم اللام) وصوت التيس عند الهياج والسفاد . نقول (العتروس **يبلبل** وكذلك **يلبلب**) والثانى أصح عربية ، كما نقول فى المجاز (فـلان **يبلبل** أو **يلبلب**) تشبيها له بالتيس فى صوته الجهورى وكلامه المتتابع الذى لا فائـدة ترتجى منه . (راجع زيادة بيان فى **لبلب** من هذا المعجم (بحرف اللام) .

14) ــ **البدلة او التبديلة** : (راجعها فى التاء من هذا المعجم)

15) ــ **البريق** : وعاء من معدن أو فخار له اذن أو عروة يرفع منها . وخرطوم يصب منه الماء ونحوه . فصيحة **الابريق** خفف بتسهيل الهمزة . كما يقع غالبا فى العربية أو فى بعض لهجاتها (ج) **أباريق** . قال تعالى : « **يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق**»

وقال عدى بن زيد : ودعا بالصبوح يوما فجاءت دقينة فى يمينها **ابريق** .

وقال آخر :

كأن **أباريق** المدام لديهم ظباء بأعلى الرقبتين قيام

وجمع **البريق** عندنا **برقوات** على غير قياس وكلاهما بالقاف الحضرية ٠

16) ـ **البرق :** (بالقاف البدوية وبفتح الباء والراء) : الضوء الذى يلمع فى السماء بين السحب على أثر انفجار كهربائى فى السحاب يسمع له دوى كبير هو الرعد ، **والبرق** : هو ذلك الخط الضوئى المتكسر اللامع الذى يكاد يخطف البصر ٠ وصوابه **البرق** (بفتح فسكون وبالقاف الحضرية) قال تعالى : « **يكاد سنا برقه يذهب بالابصار**»٠

17) ـ **البريق** (بضم الباء وتضعيف الراء بعدها ياء ساكنة وقاف بدوية) الزجاج والبلار الذى يلمع ، وكل ما **يبرق** فهو **بريق** لانه **يبرق** ٠

18) ـ **البرواق** : نبات لا يصلح الا للوقيد عندما ييبس ، وهو يزهر فى الربيع ويثمر فى الصيف له حب صغير أسود فى حجم الحمص ، لا ترعاه الحيوانات الا اذا لم تجد غيره لان رائحته كريهة ويؤلمها فى بطونها ٠ واليه تنسب بلدة **البرواقية** فى ولاية التيطرى بالهضا بالعليا من وطننا ٠ وحى حديث كبير فى ابن عكنون من ضواحى العاصمة ولكن اسم هذا الحى بالفرنسية Les Asphodèles أنشأه الفرنسيون فى حرب التحرير الجزائرية ضمن مشروع قسنطينة الذى حاول به ديغول تحسين الوضع فى الجزائر وتهدئة الخواطر وتلهية الشعب ولكن (الصيف ضيعت اللبن) كما فى المثل العربى القديم أى فات أوان الاصلاح (وأسفوديل) هذا هو اسم البرواق بالفرنسية ٠ وصواب **البرواق** هو **البروق** من غير مد الواو ، واحده **بروقة** ففى لسان العرب : أخبرنى أعرابى قال : **البروق** : نبت ضعيف ريان له خطرة دقاق فى رؤوس قماميل صغار ٠٠٠ قال وتقول العرب (هو أشكر من **بروق**) وذلك لانه يعيش بادنى ندى ٠٠٠ وقيل لانه يخضر اذا رأى السحاب (أى أحس بالندى والرطوبة) ، **وبرقت** الابل والغنم (بكسر الراء) **تبرق برقا** (بفتحها) : اذا اشتكت بطونها من أكل **البروق** ، ويقال أيضا (أضعف من **بروقة**) قال جرير : كأن سيوف التيم عيدان **بروق** ، اذا نضبت عنها لحرب جفونها ٠

19) ـ **البرنوس**: لباس أنوس عندنا (بفتح الباء ونونه مضمومة بعدها واو مد) وهو لباس وطنى علوى واسع فضفاض ، يكسو الذات كلها من الرأس الى القدمين مفتوح من أمام مشدود عند الصدر ، له جناحان كبيران وقلنسوة من

أصله وهو أصناف والوان يصنع محليا وأغلبه من الصوف الابيــض ، وقـد يتخــذ مـــن ملـف أو وبـر أو حرير أو كتان عـــلى حسب الحاجة وأقـدار الناس ، وهـو ضيق مـن أعلى واسع مـن أسفل يلبســه الرجال والاطفال عادة فى أغلب فصـــول السنة لان منـه الكثيـف والخفيف وهو من أقدم أنواع الالبسة ٠

وفى العهد التركى بالخصوص كان لباسا رسميا لأصنـاف مـــن الجند والموظفـين ، منـه : الاحمر والازرق والاســود ، كـل لون لصنف منهم أو من الاعيان وهـو اليـــوم مـع القشابية لباس عامة الناس وخاصتهـــم فى القرى والمـدن الداخلية وفى البادية وقـد بدأ يغزوه اللباس الاوروبى حتى بات من النادر رؤيـة **البرنوس** فى كبريات المدن والبلـــدان الساحليـة ٠

وقد كان وما يـزال من مميزات المغاربة عـن المشارقة فى العالـم العـربى رغـــم الالتحـام الحـضارى والاجتماعى العريق بينهما ، وقيــل (من علامات البربر لبـــس **البرنوس** وأكــل الكسكوس وحلـق الرؤوس) وهـو يجمـع عـلى **برانس وبرانيـــس** وهناك قبيلة بربرية عرفت فى التاريخ باسم **البرانس** ، وقرية فى الاوراس ما تـزال تدعى **البرانيس** شمال بسكرة ٠

والبرنوس لفظ عربى أو معـرب وأصلـه **برنس** بـلا مـد ٠ فـفى لسان العرب : « **البرنس** كل ثوب رأسه منـه ملتـزق به دراعة كان أو ممطرا أو جبـة ٠ وفى حديث عمر (ض) : (سقط **البرنس** عن رأسى) وهو من ذلك ٠٠٠ قال الجوهـرى : وهـومـن **البرس** (بكسر الباء) أى القطن والنون زائـدة وقيـل إنه غـير عربى » اهـ ٠ وجـــاء فى صحيح البخارى فى باب **البرانس** من كتا باللبـاس ما يـلى : « حدثـنا معتمـــر سمعت ابى قال رأيت على أنس **برنسا** أصفر من خز » وفيـــه أيضا : حديث مالـــك عن نافع عن ابن عمر (وهذا السند عند المحدثين هو سلسلة الذهب) ـ « أن رجـــلا قال يا رسول الله ما يلبس المحرم من الثياب ؟ قـال (ص) : لا تلبســوا القمـــص ولا العمائم ولا السراويلات ولا **البرانس** ولا الخفاف الا أحد لا يجـــد النعلـين » اهـ ٠ **والبرنس** عندنا من نسيج النساء فى المنازل اذا كان من صوف أو وبر ، والصوف هـو الشائـع الاعـم ، وهو لباس الذكران دون النسوان ٠ ومن الناس من يكتفى بطرحـــه

علـى كتفيه كالمعطف ـ وهو فعل الوجهاء والافاضل ـ ومنهم من يلبسه وهـو صنيـــع العامة والدهماء · فاذا تضايـق منه لابســه واستغنى عنه في الطريـق نزعه ووضعـه على منكبه كالمعلق حتى يعود الى منـــزله · هذا هو **البرنوس** عندنا أما تلك القلنســوة الطويلة التى كان النساك يلبسونها في صدر الاسلام ··· ويطلقون عليها اسم **البرنس** فهى غـير **برنوسنـا** شكلا ومعنى ·

20) ـ **برق** عينه (بالقاف البدوية وتشديد الراء) : وسعها وأحد النظر اذا هـدد أو توعد · نقول (**برق** عينيه فى) أى نظر اليى بشدة مهددا أو محذرا ، فصيح جيد ومنه المثـل العربي (برق لمـن لايعرفك) أى هدد من لا علم له بك فان من عـــرفك لا يعبأ بـــك ·

وبعضنا يقول (بلـق عينه فيى) باللام بدلا من الراء ولعـل ذلك أيضـا وجـــه في العـربيـــة ·

ونقول : الزجاج **يبرق** والسيف **يبرق** وكل شيء يلمع نقول فيه **يبرق** (بتضعيف الراء) والصواب **يبرق** من غير شد للراء · وأما قولنا (فلان يبحلق فى عينيه) فمعناه ينظر متفحصا لا مهددا ولا متوعدا ·

21) ـ **البزار** أو **البازار** : كلمة تطلق عندنا على ذلك النوع من المحلات والدكاكين التجارية الكبرى العصرية التى تكثر فيها البضائع وتتنوع · لعل اللفظ معرب مـــن الفارسية ، ففى دائرة المعارف الاسلامية « البازار مجموعة من الدكاكين فى شـــارع مسقوف ··· له بابان يقفلانه من طرفيه » وانتشرت الكلمة فى اللغات الاروبية الحديثة وهى تطلق على ذلك النوع من المحلات التجارية الكبرى كما تقدم · وفى قسنطينة نهج مسقوف يدعى **دروج البزار** ·

22) ـ **بزق يبزق** : رمى **البزاق** او **البصاق** من فمه (تتعاقب فيه الـزاى والصاد) **والبزاق او البصاق** هو التفل الذى نسميــه فى عاميتنا **(الدفال)** بقلـب التـاء دالا · **فالبزاق** عربى فصيح فى لفظه ومعناه من **بزق يبزق بزقا وبزاقا** بمعنى بصق (بالصاد)

23) ـ **البسيسة** : طحين دقيق يخلط بالسمن أو بالزبد أو بالزيت ويخلط مـــع العسل أو السكر لتحليته ، ويؤكل من غير أن يبل بالماء أو يطبخ أو يقلى · فصيح فى لفظه ومعناه ·

وخبز **مبسس** وكسرة **مبسسة** أى فيهما سمن أو زبـد أو زيـت يجعلها تتفتت بسهولة · فصيح جيد كذلك · من **بس** السويق أو الدقيق **يبسه بسا :** اذا خلطه بسمن ونحوه ، وذلك هو **البسيسة** قال اللحيانى : هى التى تلث أى تخلط بسمن أو زيـت ولا تبل ولعل (**الملتوت**) المعروف فى شمالى قسنطينة هو هذا المخلوط بالسمن ونحوه **والبسبوسة** فى مصر هى **البسيسة** · **فالبس** فى العربية : هو اتخاذ **البسيسة** قال الراجز : (لا تخبزا خبزا **وبسا بسا**) وفى القرآن الكريم « **وبست** الجبال **بسا** » أى فتتت تفتيتا يوم القيامة فصارت كالدقيق أو كالتراب تذرود الرياح كما جاء هذا المعنى فى آية أخرى من القرآن عن الجبال وزوالها يوم القيامة قال تعالى : « ينسفها ربـــى نسفا » صدق الله العظيم ·

24) ــ **بسل** فلان : فسد وسمج أو سخف وثقل عند الغير ، فهو **باسل** أى سخيف ركيك لا يحتمل · نقول : فلان **بسل أو يبسل** علينا (بتضعيف السين) أى يثقل علينا بما يأتى من أقوال او أفعال لا تناسب ولا تليق بالمقام ، ونقول (بركه **ما تبسل**) أى حسبك سخفا لا تقلقنا ولا تثقل علينا · **فالباسل** عندنا : هو ثقيل الظل ضد خفيف الروح · **والبسالة والسماطة** فى استعمالنا بمعنى واحد (راجع سمط) ·

أما **البسالة** فى العربية فهى الشجاعة والبطولة والاقدام كما هو معروف ، وليس مرادا فى كلامنا هذا المعنى · ولم أجد للمعنى الدارج عندنا ما يماثلـه او يقاربه فى الفصحى سوى : **بسل اللحم** اذا خم أو أخم أى نتن وفسد ، **ولبن باسل** أى كـــريه الطعم حامض ، ومثله النبيذ والخل اذا فسد طعمهما وتغير · **وبســــل الشىء** : كـرهه **والبسيل :** الكريه الوجه · راجع كتب اللغة فى ذلك ·

25) ــ **بغى** (بسكون الباء الموحدة وفتح الغين المعجمة بعدها ألف لينة) : فعل ماض بمعنى أحب وأراد أو طلب ، مضارعه **يبغى** (بكسر الغين) أى يريد ويطلب استعمال عام شائع عندنا وهو فصيح لا غبار عليه ، مثل ما يستعمله الحجازيون وربما غيرهم فى المشرق والمغرب مع بعض التغيير فى المبنى او المعنى وهو من **البغية** (بكسر الباء وضمها) اى الحاجة والطلبة او من **الابتغاء** اى الاحتياج والطلب يستعمل مجردا ومـــزيدا فى العربية وأكثر ما يستعمل فى معنى الطلب : **ابتغى لا بغى** والامثلة على ذلك كثيرة فى القرآن والحديث وفى كلام العرب ، وفى المجرد **(بغى)** يقول عامر بن الطفيل ·

وبالمـــردات قـد لاقـــين غنمـــا   ومن أهل اليمامة ما **بغينا** (أى أردنا)

ومن ذلك **البغى** التى **تبغى** الاتصال بالرجال اتصالا غير شرعى ٠

26) ـ **البقشيش** او **الباقشيش** : ما يقدم من فلوس الصانع والقاضى والـــدلال وغيرهم ممن يرجون فى قضاء المصالح من غير الاجـــرة المستحقة المعينة لهم ٠ وذلـك للمساومة والرشوة ونحو ذلك ، كالعطايا والهبات التى تقدم لقضاء الحاجات وهذا على حد قولنا فى ألامثال الشعبية : (ادهن السير يسير) و (أطعم الفم تستح العين) الخ ٠

وكلمة **بقشيش** دخيلة غير أصيلة ربما جاءتنا فى العهد التـــركى أو فى العهـد الرستمى لانها من أصل فارسى **(بخشيش)** انظر دائرة المعارف الاسلامية ٠ عربيها : **الحلوان** (كالغفران) والحلوان (بضم الاول وسكون الثانى) من التحلية والحلاوة ضد المرارة ٠ نقول فى امثالنا (عل باش تول) أى ذق الحلاوة لتعود مرة أخرى ٠ أو كما قال الشاعر العربى :

فلو كنت تعطى حين تســأل سامحت   لـــك النفس واحلولاك كل خلـــيل

أى حلالك ٠ **والحلوان أيضا :** أن يأخذ الرجل من مهر ابنته شيئا لنفسه وهو عـــار وقبيح منهى عنه شرعا وعرفا ، قالت امرأة تمدح بعلها : (لا يأخذ **الحلوان** عن بناتنا)

27) ـ **بلج الباب يبلجه** (بتضعيف اللام) : أغلقه **بالبلج** : وهو نـوع من الاقفال للابواب كالمزلاج يدار باليد ، لم أجد ما يقابله فى لفظه ومـعناه سوى **بلـــج البـاب يبلجه** بلجا أى فتحه ، ضد ما نستعمله نحن (مضعفا) **فبلج** المضعف (عندنا) عربية **زلج** بالتخفيف من غير لفظه ، ومنه **المزلاج** أى القفل قال الشاعر التلمسانى ابن خميس :

أبـــوابهـم مفتـــوحـة لضيــوفهم   أبـدا بلا قفـــل ولا **مـزلاج**

28) ـ **بلارج :** الطائر المعروف فى مصر بـ (اللفلق) وفى تلمسان وما جاورها بـ (بوشقشاق) وهو كبير طويل القوائم والعنق والمنقار ، أسود ريش الجناحين أبيض ريش البطن والرقبة وربما الظهر أيضا ٠ يبنى عشه فى أعالى المبانى والاشجار بالاعـــواد الدقيقة والاغصان اليابسة ٠ وهو من الطيور الفصلية المهاجرة التى تظهر فى بـلادنا فى فصلى الربيع والصيف بمنطقتى التل والهضاب ولا يصل الى الصحراء ٠ قال ابن الخطيب الوزير الاندلسى يصفه :

وغريبة الاوطان فى طلب العـــلا جـاءت تبشر بالزمـــان المقبــل
بسط الــربيع لـها بساط زبرجد فمشــت من العقيان فيه بأرجـل
مـدت جنـــاح الابنوس مرصعـا بالعــاج مهما قهقهــت بالصنــدل

وتسمية هذا الطائر **بيلارج** تسمية محلية ولعلها مغربية أو أندلسية لم أعثر عليها بعد·

29) ـ **البنة** (بفتح الاول وتشديد الثانى) لذة الطعم وطيبه · نقول عند ذواق أى شيء اذا استحسنا طعمه واستطبنا ذوقه : (**طعم بنين**) أى لذيذ طيب أو نقول (**فيه بنة**) أى فيه لذاذة وطيب · لم أجد ما يشبهه أو يقاربه فى العربية سوى : **البنــة** بمعنى الرائحة الطيبة · تقول العرب : (شممت منه **بنة** طيبة) · و (أجد فى هذا الثوب **بنة** تفاح او سفرجل) أى رائحتهما ، ولذلك قيل الروض الانف والبستان المعطار : **البنان والبنانة** (بضم الاول فيهما) لطيب الرائحة ·

30) ـ **البنج** ـ (بضم الباء الموحدة وسكون النون) : مادة مخدرة منومة كالحشيش وغيره من المواد والعقاقير المخدرة والمسكرة · وقد يدعى **السيكران** أيضا لانه يسكر ·

نقول : (**بنج** الطبيب المريض) اذا نومه وخدره كما نقول **سكره فالتبنيج والتسكير** عندنا بمعنى التخدير والتنويم ، ونقول : المريض **مبنج** أو **مسكر** (اسم مفعول) أى فاقد للحس والشعور واليقظة · لعل كلمة **بنج** معربة من الفارسية فقد وردت بهذا اللفظ وهذا المعنى فى المصنفات الطبية وغيرها لمؤلفين فارسيين يكتبون بالعربية كالــرازى وابن سينا وغيرهما ، ومن طريقهم دخلت الى العربية · ومن طريق العـــرب أنفسهم الذين عاشوا فى الفرس وتأثروا باللغة الفارسية ، لان الملاحظ أن هذه الكلمة لم تكن معروفة بلفظها ومعناها عند العرب قبل الاسلام وفتوحاته فى الفرس واستعملها أطباء المغرب والاندلس ـ وهم تابعون لاهل المشرق فى لغتهم وثقافتهم ـ كاسحاق بن سليمان وابن الجزار وغيرهما · ولا غرابة فى ذلك ولا ضير فالتعريب من مستلزمات الحضــارة الاسلامية ، ومن مقتضيات الرقى اللغوى والتوسع الثقافى لدى كل الشعوب فى كل عصر

وهكذا تعربت كلمة **بنج** وخضعت لقواعد اللغــة العــربية وأحكامها واستؤنست وعم استعمالها فى المشرق والمغرب ، واشتقت منها الافعال والاسماء بشتى الصيغ العربية

فنقول مثلا **بنج** الطبيب المريض **ينبجه تبنيجا** فالطبيب **مبنج** والمريض **مبنج** وهذا **بنج** قوى المفعول وهكذا ، مثل ما نقول : خدر يخدر تخديرا فهو مخدر والآخر مخدر الخ ··

أما ابن منظور صاحب لسان العرب فيقول : « **البنج** (بفتح الاول) : ضرب من النبات قال : ابن سيده وأرى الفارسى قال : انه مما ينتبذ به أو يقوى به النبيذ » . وعندى أن هذا النبات هو المعروف **بالسيكران** أما **البنج** فهو مادة وعقار طبى مخدر كما تقدم وقد يكون مستخرجا من أنواع النبات المخدر ·

31) ـ **البوس** : التقبيل لعله معرب من الفارسية · نقول **باسه يبوسه بوسا :** اذا قبله ، وقد ننطق بسينه صادا فى بعض الجهات والسين أصح · ففى أساس البلاغة للزمخشرى : « **باس** له الارض **بوسا** · وتقول : اليوم بساطك **مبوس** وغدا أنت محبوس · وأيها **البائس** ما أنت الا **البائس** . كل ذلك بالسين ·

32) ـ **البطحاء** مثل **الرحبة :** ساحة فسيحة وميدان واسع ، وبعضنا يسميها **الطحطاحة** كما فى وهران وما جاورها ، والاوليان أصح ·

(يتبع)

مناقشات



حول مقال : المسرح الحديث بدأ مع جيش التحرير



محي الدين باش تارزي

لقد قرأنا فى العدد 22 من مجلة « الأصالة » مقالا بعنوان « المسرح الحديث بدأ مع جيش التحرير » بقلم جروه علاوه وهبى ، ونحن نشكر هذا الكاتب عنايته واهتمامه بمسرحنا الجزائرى ، اذ نحن فى حاجة ماسة الى مزيد من الحقائق والوثائق التى تزيد فى اثراء تاريخنا ، وكلما اكتشفنا مؤرخا جزائريا يكتب فى أى موضوع من مواضيع تاريخ وطننا ، ازددنا فخرا واعتزازا ، خاصة اذا كان الكاتب نزيها وخاليا من الاغراض التى قد تجره الى التزوير والتشويه • ونحن نقول لحضرة الكاتب جروه ما قاله الشاعر العربى : علمت شيئا وغابت عنك أشياء • ولا ندرى أغابت عنه أم تغابت ، لان ما قرءناه فى المقال المذكور مغاير للحقيقة ، وأخشى اذا نحن لم نضع حدا الى مثل هذا النوع من الدراسات التى ينقصها التحرى والتمحيص ، فاننا نفقد ثقة القراء العارفين بتاريخ المسرح الجزائرى والمزودين •

لا ريب كاتب المقال تجاهل ما كتبناه في مذكراتنا على تاريخ المسرح الجزائرى من سنة 1919 الى سنة 1939 وتجاهل أيضا ما كتبته الصحف والمجلات الجزائرية المناضلة في تلك السنوت لاسباب أتجاوز عن معرفتها انما أكتفى بالفات نظر القراء الى الغلط الذى ارتكبه الكاتب المذكور ٠

أوله : نشأ المسرح الجزائرى سنة 1919 وليس سنة 1926 كما اعتقد صاحب المقال ٠ فالمرحلة الاولى حينئذ , بدأت من سنة 1919 ومثلت فيها فى الجزائر العاصمة روايات هزلية فكاهية فى غالب الاحيان اجتماعية مسماة « سكاتش » (فى العالم المسرحى بأجمعه وليس فى الجزائر فحسب) ٠ هذا النوع من تمثيليات ذلك العهد , كان من تأليف دحمون سعد الله وعلالو سلالى الذى لا زال على قيد الحياة ومثلت على خشبات مسرح « الكورصال » فى حى باب الواد بالجزائر العاصمة الى سنة 1923 ٠

ففى هذه السنة نشأت فرقة التمثيل بالعربية الفصحى التى مثلت روايات : « فى سبيل الوطن » « فتح الاندلس » وكذلك رواية « الجهلاء المدعون بالعلم » من تأليف خادمكم محى الدين باش طرزى , ودامت الى سنة 1926 ٠

أما المرحلة الثانية فقد بدأت فى هذه السنة بنشأة « فرقة الزاهية » التى أسسها علالو سلالى ومثلت رواياته : « جحا » « أبو الحسن « الخليفة والصياد » « عاشور وأخيه » « عنتر الحشايشى » « أبو عقلين » الخ ٠ وفى هذه الرواية الاخيرة , وزعوا دورا لرشيد القسنطينى , ولما قام بتمثيله ببراعة أدهشت العقول , أصبح نجما ساطعا فى زمن اقل من القليل بمواهبه ٠ ألف ومثل أكثر من ثلاثين رواية أذكر من بينها : « العهد الوفى » « بن كوجو » « بابا قدور الطماع » « زغيربان » « المرسطان » — « عايشة وباندو » « تشرتش » « ثقبة فى الارض » « ياحسراه عليك » « بونقاب » « نحب كتابى » الخ ٠ فهذه المرحلة التى تعد أعظم مرحلة فى حياة المسرح الجزائرى , انتهت سنة 1934 ٠ لقد كانت للرشيد القسنطينى فرقته التمثيلية الخاصة التى أسسها مع رفيقته سوسان , ولم يعمل مع أى فرقة أخرى منذ سنة 1927 عندما ألف روايته الاولى « العهد الوفى » الى أن ترك التاليف الروائى سنة 1934 وانخرط فى فرقة صديقه عبدكم محى الدين باش طرزى ليساعده فى مشروعه ٠

فان روايات « فاقو » « على النيف » « بنى وى وى » « خالد » « الخداعين » وكذلك رواية « الكذابين » فهم من تاليف عبدكم المذكور وكلها مثلت من سنة 1934 الى سنة 1938 ٠ كان الرشيد القسنطينى يقوم بالادوار الرئيسية الفكاهية فى هذه الروايات , وهذا الى سنة 1938 عندما قام الاستعمار بتحطيم هذه الفرقة وتشتيتها كليا بعد افلاس مؤسسها ٠

أما فى المرحلة الثالثة ، أعنى الحرب العالمية الثانية فقد تصدى الرشيد القسنطينى لتأليف الاناشيد النقدية الهزلية المعروفة عند الخاص والعام • وكان مع ذلك يقوم بأدوار رئيسية فى روايات « المشحاح » « الشرف » « سليمان اللك » « عايشة أم الزبايـــل » « ولد الليـــل » المقتبسة من التمثيليـات الغربيـة الى أن وافـاه الاجـل المحتـــوم سنـــة 1945 •

فالمرحلة التى أسميها الرابعة ، فسنتحدث عنها بكل تفصيل فى الجزء الثانى مـــن المذكرات التىستصدر قريبا بالشركة الوطنية للطبـــع والتوزيـــع •

والجدير بالذكر انه منذ سنة 1946 أى منذ تأسيـس أول فرقة رسميـة عربيـة جزائرية بالجزائر العاصمة بفضل نواب الحركة الوطنية الجزائرية المنتخبـين فى ذلـك العهد والتى جمعت كل الممثلـين الجزائريـين أمثال مصطفى كاتب • محمـد التـورى • حبيب رضا • رويشد • عبد الحليم رايس • مصطفى بديـع • حسن الحسنى• أبو الحسن • مصطفى قزدرلى • كلثوم • نورية • الخ • مثلت منذ نشأتها الى سنة 1955 ، أكثـر مـن مائة رواية • أذكر منها : آذان الفجر • الوصيف الابيض • المنافقون • عباسة أخـــت الرشيد • خالد • عطيل • الهجرة • بطل قريش • عبلة وعنتر • فى سبيل الشرف • الواجب • حنبعل • جيل اليوم • ولاده وابن زيـــدون • نكبـة البرامكه • تحى الاخوة • صلاح الدين الايوبى • الصحـراء • يد اللـه • عـدو الشعـب • عياض • الــخ •

كانت لجنة القراءات تتالف من أعضاء منتخبين من طـرف البلدية بمشاركة مدير المسرح ووكيله تحت اشراف الاستاذ أحمد توفيق المدنى • وهذه اللجنة لم تسمـــح قط بأى رواية مثلت أو قرأت كروايات « العودة الى الارض » « السعادة » أو « العائلة » كما زعم الكاتب فى مقاله • أما قوله بأن مذكرات محى الدين باش طرزى تجاهلـــت حركة التمثيـــل فى عاصمتى قسنطينة ووهران • فاننا ننبهــه بأن المذكـرات كانـــت خاصة بعهد ما قبـــل 1939 عندما كانـتالحركة المسرحية متركزة فى الجزائر العاصمة فحسب •

هذه هى الحقيقة • حقيقة طبعت فى صحف العهد المذكور ، وصورها موجودة حاليا كوثائق رسمية • وهذا كله معروف لدى جميع من لهم المام بتاريخ المسرح الجزائرى من ممثليـن ومؤلفـين روائـيـين ممـن لا يزالون على قيد الحياة • ونحن مستعـدون لنشر صور كل هذه الوثائــق اذا لزم الامر .·لاننا نعتقد جازمـين أن كل ما كتب حول فتـرة ما قبل سنة 1954 ليس له أى نصيب من الصحـة •

فهـــرس العـــدد

تكلم لغة قومك [1]

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بلابل الجزائر والمعري

قلنا في المقال الاخير ان رسالة التعريب هذه ليست رسالة الحكومة وحدها ـ فلديها من المشاكل الاخرى الكثير ـ وان المسؤولية الكبرى تلقى قبل كل شيء على عاتق المثقفين بالعربية وعلى المسؤسسات الثقافية والشعب كله ، فالحكومة هي المحرك والمنفذ ولكنها لا تستطيع وحدها وبنوع من مصباح علاء الدين أو خاتم سليمان جعل جميع بلابل الجزائر تنشد ابا الطيب وابا العلاء !

الراديو للامخاخ

ولئن اردنا اليوم العودة الى الاذاعة ـ وكثير من الاخوان هناك اصدقاء قدماء ـ فانما ذلك لتقديرنا التقدير الحقيقي لاهمية رسالتها التثقيفية التوجيهية للشعب في مختلف الميادين .

فمعروف وقع الاثر في الجهاز العصبي ، وهو شيء تقدره

(1) نشرت في المجاهد الاسبوعي بتاريخ 1962/11/29 .

شركات الاعلان لترويج البضائع،والاحزاب السياسية فى دعايتها الانتخابية ، حق التقدير ، كما ان استعماله فى تثقيف الشعب شائع فى أوروبا خاصة . (2)

ولذا نعود اليها اليوم ونطلب منها ــ ومن التلفزة ــ ما يأتى :

I ــ تغليب الفصحى على العامية فى نشرات الاخبار وغيرها من حصصها الكلامية (وتغليب هذه الحصص الكلامية على الغنائية) . وهنا أود ان اشكر جميع من اشتركوا واشتركن فى حصة « عجيب وغريب » . ولئن كنت من انصار الفصحى انى اعجبت بهذه الحصة لا من حيث محتواها فحسب (ضرورة التكلم بالعربية ، عدم الزواج بالاجنبيات الخ ...) ، بل وأيضا من حيث شكلها : فقد كانت بلغة دارجة مهذبة منظومة بامثال شعبية مثل :

اذا تزوجت ابن على الساس ،
واذا ملست ملس من طينك ،
اذا ما جا برمة يجى كسكاس ، الخ ...

على ان يكون الاتجاه العام دائما تغليب الفصحى الى ان تعود طبيعة،ونستغنى تماما عن العامية،أو تمحى بذاتها ــ على الاقل بشكلها القشتالى الحالى .

ب ــ اذاعة مسرحيات بالفصحى . فهناك مسرحيات عربية سهلة ممتعة،لتوفيق الحكيم، مثلا،وشوقى،وغيرهما . وهناك أخرى مترجمة عن لغات اجنبية ترجمة جميلة،أو على الاقل سليمة .

(1) لقد تم شىء من هذا فيما بعد .

ج ـ قراءة كتب ومحاضرات كل يوم بضع صفحات وفى حلقات متسلسلة حتى آخر الكتاب كما تفعل كثير من الاذاعات الاوروبية .

د ـ تنظيم دروس بالعربية ـ بمساعدة التلفزة (1) ـ كما تفعل أغلب اذاعات العالم ، على ان يكون الشرح بالفرنسية ليفهم المستمع المشاهد دقائق الشرح بالمقارنة، وهنا أيضا ما على الاذاعة الا ان تأخذ بعض الكتب الموجودة وتعرضها فى حلقات متسلسلة ـ وفى أوقات مناسبة ، كوقت الغداء، والعشاء، والصباح أيام العطل والاعياد ، على أن تكون منتظمة، أو يعلن فى آخر كل درس عن التالى .

هـ ـ اذاعة محاضرات رأسا من الجامعة بالعربية (2) ـ كما تفعل الاذاعة الفرنسية مثلا التى تذيع محاضرات في الآداب، والفلسفة، والتاريخ ، والفنون ، رأسا من السربون ومن قاعة المحاضرات ، وان امكن تسجيلها وعرضها مرة اخرى فى المساء .

2 ـ من صحافتنا الفرنسية اللغة تخصيص ركن يوميا لنشر دروس من كتب عربية مشروحة بالفرنسية . فقد استعملت هذه الطريقة الصحافة الاسرائيلية فى فلسطين للمهاجرين الآتين من اكثر من تسعين بلدا ، وكانت هذه الطريقة ـ فيما يقال ـ ناجحة ، كما تنشر الجريدة الانجليزية « الاوبزرفر » الاسبوعية بانتظام درسا فى اللغة الروسية لقرائها مشروحا بالانجليزية .

---

(1) لقد تم هذا فيما بعد .

(2) لقد تم شيء من هذا أيضا، وان كان بغير انتظام

3 ـ من التجار الكتابة على دكاكينهم بالعربية ، أو على الاقل بالعربية والفرنسية كما فعل الاخوان التونسيون وغيرهم . (1)

الشطحات الغرابية ،

4 ـ من المثقفين بالعربية نريد التخلص من مرضهم بالتقليد ـ تقليد الغراب لمشية الحمام ـ والاقلاع عن الميل الى الترطن (2) بالفرنسية ـ وخاصة عندما لا يحسنونها ـ وهذا حتى فيما بينهم ، وهم فى غنى عن هذا . نفهم ان يعجز المثقفون بالفرنسية عن التعبير بالعربية الدارجة عن بعض المفاهيم المجردة ونعذرهم ـ مؤقتا ـ ولكن ليس هذا حال المثقفين بالعربية .

فلم اذن هذه الشطحات الغرابية ؟ وبأى حق يعاتبون الآخرين ؟ ففى الوقت الذى يعمل كثير من المثقفين بالفرنسية على بعث العربية فى هذا البلد نجد المعنيين بالامر يجنحون الى الترطن !

تكلم بلغة قومك !

على هؤلاء ينطبق ذلك المثل الشعبى : « جا يعاونو على قبر أمو هربلو بالفاس » ! لم هذا الترطن ؟ لم هذه السخافة ؟ الا تشعرون انكم بهذا تضعون انفسكم فى حالة اقل ما يقال فيها انكم لا تغبطون عليها ؟ كيف تتصورون اذن هذا التعريب ؟ ام تظنون الحكومة ستعرب البلد بالملائكة ؟ اهذه هى مساهمتكم ؟ ان لينين نفسه احتفظ بموظفى القيصرية بعد انتصار ثورة أكتوبر ، وكان يود احلال آخرين محلهم، ولكنه كان يحتاج اليهم

(1) هذا أيضا تحقق منه الكثير الآن .

(2) هذا ما لم يتحقق فيه أى شىء ، بل هو، بالعكس ، فى تفاقم !

كفنيين . وهؤلاء المتفرنسون لغة فحسب، أو لغة وشيئا آخر الى ذلك، اذ يسمعونكم تترطنون لا يزيدون الا احتقارا لكم واللغة التى كان ينتظر منكم الدفاع عنها . أبدأوا بأنفسكم ، تكلموا لغة قومكم ، وكلما سمعتم احدا منكم يرطن قولوا له : » تكلم لغة قومك »! واذ ذاك فقط تحق لكم مطالبة الحكومة بمضاعفة جهودها فى التعريب؛ أو بالعمل على ذلك اذا لم تقم بهذه الجهود .

العربية فى المدارس العربية

5 ــ نريد من المعلمات والمعلمين أن يفرضوا على التلامذة الا يتكلموا الا بالفصحى فى المدارس وحتى فى أوقات اللعب . فقد كان معلمو الفرنسية فى المدارس الابتدائية الفرنسية في الجزائر يفرضون على الاطفال عدم التكلم الا بالفرنسية داخل وجوار المدرسة . وكانوا يعاقبون التلميذ الذى يتلفظ بلفظة واحدة غير فرنسية ، وذلك لتعويد الطفل التدرب على الفرنسية . فلم لا نقلدهم فى هذا ونطبقه على لغتنا نفسها ؟ أى أن يفرض التكلم بالفصحى وبالفصحى وحدها فى جميع معاهد التعليم بمختلف درجاته ــ على أن يشمل ذلك المعلمين، والمعلمات، والاساتذة ــ على الاقل فى أوقات الدروس العربية، وذلك الى أن يتم تعريب التعليم، ويطبق هذا الفرض على جميع المعاهد ، وطبعا « بالتنوين » . فالجهد الذى يبذله الطفل فى الاوقات الاولى للتمرن على التكلم بالفصحى أحسن رياضة عقلية له ، كما ان فى ذلك جانبا تربويا، اذ يتدرب الطفل بذلك منذ الصغر على بذل الجهد، وتذليل الصعوبات، وضبط النفس، ومراقبتها، وهو يشاهد بنفسه يوميا التقدم الذى يحرزه بجهده هذا .

وهذا لا معنى له طبعا الا اذا كان « بالتنوين » ، نعم بالتنوين، اذ التنوين معناه الإعراب،وماهى العربية بدون إعراب ؟ وليعرف أعداء التنوين ان اليونانية القديمة واللاتينية لا تفهمان بدون مراعاة النحو ، اذ انهما ـ كسائر اللغات الكبرى ذات الآفاق والتقاليد الثقافية العريقة ـ لا تتصوران بدون مراعاة النحو مراعاة دقيقة . بل يعتبر ذلك مقياسا لأصالة اللغة،وعلميتها،وعظم تراثها واقدميتها فى المجال الثقافى . وليس هذا خاصا باللغات القديمة ، بل نجد ان بعض اللغات الحديثة تتجاوز هذه اللغات القديمة فى الخضوع « للتنوين » .

فالالمانية مثلا لها اربع حالات اعراب،لا ثلاثة فحسب،كما فى العربية : الرفع والنصب والجر . وبالاضافة الى ذلك لا يكتفى فيها باعراب آخر الكلمة كما فى العربية ، بل تعرب حتى أداة التعريف أيضا ، أى ان هناك « تنوينا » مزدوجا . ورغم ذلك لم يسخر حتى اليوم ولا ألمانى واحد من هذا .

وفى اللغات السلافية كالتشيكية ، والبولونية ، والروسية ، تعرب حتى اسماء الاعلام،ويحدث لها بذلك تغير كبير حتى فى مخارج الحروف . بل ويتغير شكل الكلمة احيانا الى حد الغرابة عن الاصل بتغير حال الاعراب . فكلمة « براها » (براغ) مثلا فى حالة الرفع تصبح « برازى » فى حالة الجر . (1)

(1) Praha (رفع) ; Prahu (نصب) Prazé (جر)

الكسل العقلى :

وفى الروسية ست حالات اعراب ، لا ثلاث فقـــط كما فى العربية .

وفي الفنلندية اثنـا عشرة حالة،لا ثلاث،أو اربع،أو ست فحسب، ولم يتذمر لا الالمان ، ولا الروس ، ولا الفنلنديـون بعد مـــن « تنوينهم » هذا ، لانهم لم يصابوا بهذا الكسل العقلى والمرض النفـــسى .

6 ــ نريد من العائلات ــ وخاصة الامهات ــ والام « ربـــة الدار » ــ ان تحرم على أولادها الترطن،وتفرض عليهم التكلـم بلغة قومهم ، على الاقل فى الوسط العائلى،لتكمل بذلـك عمـل المعلم فى المدرسة . ولتقتد فى ذلك بكثير من العائلات الفرنسية نفسها،والالمانية،والاوروبية الاخرى التى تزجـر ابناءهـا عن التكلم لا بالاجنبية فحسب ، بل وبلغة قومية ركيكة ضعيفـة أو لهجة عامية . فهناك عائلات المانية كثيرة تقول لاولادها : « تكلموا بالالمانية » عندما يتكلمون فى الدار بالمانية سوقية . فالالمانيـة فى نظر هذه العائـلات هى الالمانية كمـا تكتب ، أى الالمانيـة « المنونة » . ولنقل نحن لكل من نسمعه يترطن : « تكلم بلغـة قومك » !

بهذا سوف لا نحيى العربية فى الجزائر فحسب . بل سنساعد على جعلها لغة الحياة القومية فى السلوك العملى اليومى فى البلاد العربية جمعاء .

ولنكن قدوة للمشرق

وبهذا سنسن سنة حميدة . فقد ظلمت هذه اللغة في بلدهـا كثيرا وطويلا،فلم لانرجع لها مكانتها الاولى،ونخط الطريق لجميع البلاد العربية الاخرى المحتاجة الى هذا هى أيضا ؟ لم لايرجـع الفضل الى الجزائر فى هذا ؟ فقد فتحت الجزائر فيما مضى الطريق، على الاقل فى المغرب والاندلس ، فأول نحو عربى شامل وضع فى المغرب والاندلس هو الفية ابن معطى الزواوى الجزائرى التى أشاد بها ابن مالك الاندلسى فى بدء الفيته ، وهكذا كان ابـن معطى الجزائرى نوعا من أبى الاسود الدؤلى للمغرب والاندلس . ـ لنبدأ نحن ـ فى حدود الامكـان ـ باستعمـال الفصحى فى المغرب ، وسيتبع المشرق ،

سياسة ثقافية لتوحيد افريقيا

وهنا موضوع آخر بهذا الصدد : اذا كنا حقيقة ننوى انتهاج سياسة لتوحيد افريقيا فلم لا نفكر منذ الآن فى اقامة معاهـد ثقافية عربية ـ فى المستقبل القريب ـ فى أهم المدن الافريقيـة لمقاومة سموم مختلف المدارس التبشيرية الاستعمارية هنـاك ؟ وقد نحتاج الى تأسيس معاهد خاصـة هنا فى الجزائـر لتعليـم افريقيين آخرين وغيرهم العربية واعدادهم للدراسة فى جامعة المستقبل ، جامعة الجزائر التى سيدرس فيها كـل شىء بلغـة الجزائر . فالمانيا لها معاهد « غوته » المنتشرة فى المانيا نفسهـا وفى الخارج،وبريطانيا وايطاليا لهما معاهدهما ،وامريكا وفرنسا لهما جامعات فى الخارج، وروسيا لها جامعتها «الافريقية»،والسويد

أنشأت أخيرا معهدا فى ابسالا لدراسة اللغات الافريقية وجلب افريقيين، وفرنسا غزت قلو بالعالم بمعاهدها المنتشرة فى الخارج وبثقافتها، مما أعمى الكثير مدة طويلة عن سياستها الاستعمارية ... وجعل الناس لا يصدقون أن فرنسا ...

« أخذ الثأر » من اخواننا ،

وهناك نقطة أخرى : فقد عشنا مدة طويلة عالة على بعض البلاد العربية فيما يخص لغتنا . فلم لا نأخذ «ثأرنا» فى المستقبل القريب جدا وذلك بانشاء معاهد فى العواصم الاوروبية وغيرها، يدرس فيها، الى جانب اطفالنا هناك ، ابناء العرب الصغار حيث لا توجد ولا مدرسة عربية واحدة ، بقطع النظر عن الاوروبيين أنفسهم الذين يرغبون فى تعلم لغتنا . فقد علمت العربية بضعة أشهر في المانيا متطوعا فيمدرسة ثانوية(1) ورأيت اقبال الالمان على تعلمها وحسن نطقهم بها، واهتمامهم تبعا لذلك لا بالجزائر وحدها، بل وبالعالم العربى كله .

(1) Moritz-Arndt Gymnasium (in der Naehe der SPD - « Baracke » in Bonn.)

فتـــاو :

فتوى
بجـــواز تعـــويض الـــذبح في الحج نقـدا

بسم الله الرحمن الرحيم

اجتمعت لجنـة الافتاء المركزية بالمركز الثقافى الاسلامى ، الكائن بشارع على بومنجل ، رقم 12 ، الجزائر العاصمة ، يـومى الاثنين والثلاثاء 6 و 7 جمادى الثانية 1395 هـ ، الموافق لـ 16 و 17 **يونيو** 1975 م ، **تحت** اشراف السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية ، وبحضور كبار مساعديه وحضر هذا الاجتماع ، بالاضافة الى أعضاء اللجنة ، بعض مفتشى وزارة التعليم الأصـلى والشؤون الدينيـة بالولايات ، وبعض أعضاء الوفدين الرسمى والدينى الذين حجـوا هذه السنـة ، وبعض أساتذة الطب بالجامعة .

وكان موضوع الاجتماع :

« ذبح الاضاحى والهدى فى موسم الحج بمنى ، ومـا يتسبب فيه من هلاك عدد من الحجـاج نتيجة التزاحم على المذبح ، فضـلا عن ضياع قيمة الذبائح لعدم الاستفادة منها ، مما يفـوت على الأمة الاسلامية مقصد الشريعة من هذا الهدى ، وللنظر فى امكان ايجاد حلول أخرى طبقا لروح الشريعة ومقصدها » .

وقد افتتـح السيد الوزير الجلسة بكلمة توجيهية تبعتهـا مناقشات طويلة ، مؤكدا بأنه يطلب من اللجنة البحث عن امكان **اصدار فتوى فى الموضوع تكون شرعية لا ادارية ،** أى أنه يترك طبعا مطلق الحرية لكل عضو فى اللجنة ، والعهدة على ضمائرهم .

وفى صبـاح يوم الثلاثاء 7 جمادى الثانية 1395 هـ المـوافق لـ 17 يونيو 1975 م ، اجتمع الاعضاء المدعوون من خارج العاصمة القادمون خصيصا لهذا الغرض ، لتمهيد الاعمـال وجمـع النصوص التى بيد كل عضو من أعضاء اللجنة وكانت الجلسـة تحت اشراف رئيس المجلس الاسلامى الأعلى .

وتجددت المناقشات حـول نفس الموضوع ، وتـلا بعض الحاضرين نصوصا فقهية من الكتاب والسنة ، وبعض الاقتراحات من بعض كبار العلماء ، ممادل على أن اصل المشكلة قـديم ، ولاحظه كثير من علماء المسلمين والحجاج ، وشاهدوا ما نشاهده اليوم ، واستنكروا ما عليه الوضع فى منى فيما يتعلق بالذبائح وعدم الانتفاع بها ، وكلهم يطالبون بأن يهتم المسلمون بدراسة هذه المشكلة وايجاد حلول لها .

وكان من بين هاته النصوص ما يلي باختصار :

1) من القرآن الكريم : جاء في سورة المائدة قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام** » ، وفى سورة الحج قوله تعالى : « **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ..** »

وجاء فيها قبل ذلك قوله تعالى : « **ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام** » ، وفى سورة البقرة قوله تعالى : « **واتموا الحج والعمرة لله ، فان احصرتم فما استيسر من الهدى ، ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله** » .

وجاء فيها قوله تعالى : « **فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك** » ، وجاء فى سورة المائدة قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما** » .

2) ومن الحديث الشريف : جاء فى أول حديث جـابر رضي الله عنه ، (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج . ثم أذن فى الناس فى العاشرة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس ان يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل مثل عمله ، فخرجنـا معه ، ثم ساق الحديث ، وفيه ، (... ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل من شيء عملنا به) .

وروى عبد الرحمن بن معاذ التميمى قال : (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمنى) قال : (ففتحت اسماعنا حتى ان كنا لا نسمع ما يقول ونحـن فى منازلنا) ، قـال : (فطفق يعلمنا مناسكنا حتى بلغ الجمار .. الخ ، الحديث) . وقال صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : (خذوا عنى مناسككم) ، وفى حديث جابر ، (ثم انصرف ـ أى رسول الله (ص) ـ فنحر ثلاثا وستين بدنـة بيده ، ثم أعطى عليا فنحـر ما بقى وأشركه فى هديه) ، ثم قال نبى الله صلى الله عليه وسلم ، (قد نحرت ها هنا ومنى كلها منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر ، فانحروا فى رحالكـم) . ـ

وسئل رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ، أى الحج أفضـل ؟ قال : (العج والثج) فالعج رفع الصوت فى التلبية ، والثـج سيلان الدم ، دم البدن .

وبعد الدراسة الدقيقة والمستفيضة لهذه النصوص وغيرها ، اذ لا يتسع المقام لذكرها جميعا ،

وبعد استعراض الطريقة السيئة التى يؤدى بها هذا الواجب الدينى ، وتجارب أغلب اعضاء اللجنة الذين حجوا وشاهدوا فى عين المكان مظاهر غير لائقة ،

وبعد اجماع أعضاء اللجنة على أن الحالة الراهنة التى عليها الوضع فى منى لا تشرف الاسلام والمسلمين ، والاسلام ينـــزه أتباعه عن العبث ، والتبذير ، وتضييع الاموال ،

وبعد أن تقرر بأن هذا مفسدة من المفاسد المنهى عنها شرعا ، لان قتل الحيوان بدون منفعة فساد فى الارض ، وان ذلك منكـر يجب تغييره ، والآية الكريمة تقول : « **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام، واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسـل والله لا يحب الفساد** » (سورة البقرة) ،

وبعد أن لاحظ الجميع المجهودات المشكورة التى ما فتئت تقوم بها خاصة فى المدة الاخيرة السلطات فى المملكة العربية السعودية لتحسين أداء فريضة الحج فى جميع المجالات ،

ونظرا لسهولة المواصلات وكثرتها جـوا ، وبرا ، وبحرا ، بعد فتح قناة السويس ، وامكان تزايد عدد الحجاج فى السنوات المقبلة ، اكثر من ذى قبل ،

اجمع الحاضرون على وجوب الاسراع بتنظيم عمليات ذبح الهدى بما يلى :

1) الاكثار من المذابح فى منى وفى سائر احياء مكة وضواحيها بمقدار كاف لتجنب التزاحم المفضى الى المآسى ، وليمكن توزيع لحومها على الفقراء والمساكين فى جميع احيائها،

2) اشراف ذباحين مهرة على عملية الذبح ، والسلخ ، والتقطيع، لمنع فساد اللحوم وضياعها بدون الانتفاع بها ، كما هو الحال الآن حيث يتركها الكثير تتعفن فى المكان ولا يأخذون منها الا ما خف وزنه وغلا ثمنه،

3) اقامة ثلاجات مجهزة تجهيزا حديثا داخل المذابح وثلاجات متنقلة لحفظ اللحوم،

4) تأسيس مصنع لتصبير اللحوم وتعليبها ، والاستفادة من جلودها وسائر أجزائها ، عند عدم استطاعة توزيعها .

وفى حال تعذر هذا التنظيم ، أو عدم كفايته وحده لحل المشكل ، رأى البعض المحافظة على شعيرة الذبح ، رغم العنت الشديد ، أو الصيام عند العجز المالى ، أو الجسمى ، أو التعذر عموما ، وقوفا عند النصوص التى لا يسوغ معها اعمال الرأى ، أو الاجتهاد ، فى نظرهم .

ويرى الجمهور ، مع احترام النصوص ووجوب المحافظة على الشعائر الاسلامية طبعا ، زيادة عن بــــدل الصيام الوارد فى القرآن ، وكذلك الصدقة فى الفدية وهدى الصيد ، أنه :

أ) نظرا لتعذر تنظيم الذبح فى الوقت الحاضر كما تقدم ، مع بقاء المفسدة على حالها ، بل وربما ازديادها مع تزايد عدد الحجاج،

ب) واقتداء بما ذكره بعض الحاضرين من أن العلامة الشيخ محمد البشير الابراهيمى رحمه الله ، وهو من علماء الاسلام ، قد افتى فى البقاع المقدسة بجواز تعويض الذبائح بدفع أثمانها وهى فتوى شفوية ، لم يكن لها نص مكتوب ، أو لم يعثر عليه ، وانما تواتر ذكرها ، ونفذها المرحوم الشيخ محمد الغســيرى عندما كان سفيرا للجزائر بجدة ، وتبعه فى ذلك كثيرون،

ج) واستنادا الى ما يجرى به العمل من دفع الكثير من الحجاج اثمــان الذبائح الى المطوفين وعمالهم بصفــة التوكيل ، بحيث لا يباشرون بأنفسهم عمليات الشراء ، والــذبح ، والتصــدق باللحوم ، لتعذر ذلك عليهم ، وخوف الهلاك من شدة الازدحام ،

د) وعملا بالمبدا الاصولى المعروف فى الشريعة الذى يقــرر بأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وبالتالى ،

ر) درءا للمفاسد عن الامة ، وجلبا لمصالحها معا ، بجعل هذا المال الذى كان يضيع فى التراب يفيــد الفقراء ، والمساكين ، وفى سبيل الله :

يجوز دفع ثمن الذبائح نقدا لفقراء المسلمين والمساكين بمكة المكرمة والبقاع المقدسة ، وفى سبيل الله عموما ،

وبذلك يصبح هذا الرأى فتـــوى شرعية بالنسبة للحجــاج الجزائريين .

هذا ، ونذكر بأن هذه المسألة ستعالج ضمن موضوع الحــج الذى هو النقطة السادسة فى جدول أعمال الملتقى التاسع للفكر الاسلامى الذى سينعقد فى تلمسان فى الشهر القادم .

الجزائر فى 8 جمادى الثانية 1395 هـ

الموافق لـ 18 يونيو 1975 م .

انتظـروا :

عـدد «الأصـالـة» الخـاص

بتلمســـــان

النظرة الإسلامية إلى الحياة

د . عبد الكريم جرمانوس
استاذ التاريخ الحديث
بجامعة بودابيست ـ المجر

كان من اثمن ذكرياتى التقائى بالاستاذ البشير الابراهيمى المبشر بتحرير الجزائر ، وذلك فى القاهرة فى سنى الثلاثينيات ، ولا ازال احتفظ بصورته الشمسية التى التقطت له معى مع نفر من اصدقائنا .

اذكر عندما كنت طالبا فى الجامع الازهر اننى اعتدت ان اجلس القرفصاء مقعيا على ارضية محل كتبى صغير ، بينما كان البائع ينشر امام ناظرى كنوزه الثمينة كلها . وكنت استغرق استغراقا عميقا فى التهام وتقليب الصفحات ، الواحدة بعد الاخرى ، من أعمال السلف الصالح مندمجا فى عالمهم ذاك لدرجة كنت افيق بعدها مندهشا امام حياة القاهرة اليومية الحالية بعرباتها التى لا تعد ولا تحصى ، حيث بدا لى كل ذلك غريبا وعجيبا الى حد مثير . ولقد تصرمت قرون عديدة من الزمن ودفنت تحت انقاضها الكثير من الفكر السامية ، فاتحة المجال فى الوقت نفسه امام تطلعات وآمال جديدة .

ان عصور تاريخ الانسانية تتقدم ببطء من مرحلة الى أخرى ، ويكون طابعها مصاحبا ومتسما بالانجازات الروحية والمادية للبشرية ٠.وكل عصر منها يكشف لنا عبر طرازه الذاتى فردية فريدة من نوعها مرتبطة بقوة الظروف المادية للعصر مدار البحث ٠ ومن السهولة بمكان ملاحظة الصلة الحميمة التى تربط الظروف المادية بالرغبات الروحية لتلك العصور ٠

ان هيرودتس ، وهو ابو التاريخ ، والذى كان اغريقيا متعلما ، ذا المام كامل باللغة الفارسية القديمة ، قد بقى ، وذلك عندما توخى وصف رحلاته فى بلاد فارس ، غير مأخوذ بالقرابة اللغوية ما بين اللغة الفارسية وبين لهجته الايونية الاغريقية ٠

ولقد لاحظ بنوع من عدم الارتياح ، خجل الفارسيين من العرى الانسانى ، بينما كان الاغريقيون يمجدون جمال الجسد العارى مخلدين اياه فى اعمال نحت كثيرة ٠ وهكذا فان ما جذبه وفتنه هو الفرق فى الحضارة الملية (وليس اللغة) وهو أمر كان أكثر استكراها بالنسبة لعقليته الاغريقية ٠

لقد تقدم العالم ببطء وتغير وئيدين لكون المنجزات المادية تتولد نتيجة الاستيقاظ الروحى منتقلا من الاشكال الفطرية ليتخذ اشكالا أكثر تعقيدا ٠ وهكذا فان مراكب النقل البحرية الخاصة بالقرون الوسطى ترينا تفرقا جزئيا محدودا متى ما قارناها بقوارب التجذيف والسفن الشراعية الغابرة ٠ كما ان الاسلحة التى خاض بها اناس القرون الوسطى حروبهم لا تدلل الا على تقدم بسيط مقارنة بالسيوف والدروع والمنجنيقات والتحصينات القديمة ٠ كما ان الفرسان الآسيويين من اقليم طورانيا فى العصور الوسطى هم الذين جلبوا استخدام ركاب السرج الى أوروبا ، بعد ان كان مجهولا بالنسبة للامم الكلاسيكية ٠ اما مسحوق البارود ، الذى اخترع أولا فى الصين ثم انتشر تدريجيا فى بلدان الغرب ، فقد كان اشارة ايذان بتغيير كامل فى بناء المجتمع واسهم بصورة فعالة فى تصفية امتيازات طبقة الاشراف الفرسان وغرس بذرة صعود العناصر الديمقراطية ٠ كما أن شعار ، بل صرخة الحرب فى القرون الوسطى لم تعد بعد رمزا لتباين ملى وطنى ، بل احتل محلها عنصر روحى جديد الا وهو الدين ٠

وارتقت الشعوب الى مرتبة الامم وانقسمت الى معسكرات متباغضة ، وكان الشكل الخارجي لتباينها ذاك هو الشكل المتمايز لآلاتها الحربية • وكان الاسلام والمسيحية يشكلان المعتقدين الاساسيين ، ورغم كونهما ينطلقان بصور جوهرية من ذات المبدا الاخلاقى للوجود ، فقد وقفا على طرفى نقيض من بعضهما البعض كأعداء الداء •

ان عقلية القرون الوسطى ، وعقلية انسان القرون الوسطى بطبيعة الحال الذى كان يعمل ، مستخدما معداته ، التى يشغلها اما باليد أو بالقدم ، وكذلك انتقال التجارة بواسطة العربات التى تجرها الخيول والسفن الشراعية ، كانت كلها تشبه بناء هندسيا تتحكم بأمره قوانين جاذبية لا مرد لقضائها ، وكانت النظرة العامة لانسان القرن الوسطى ذى المعرفة العلمية المحدودة قد غدت بحاجة ماسة الى روح منظمة وهادية لتنقل ذلك الانسان عبر الظنون الآنية خلال تقلبات الحياة • ولقد ساعدت الاديان السماوية المنزلة ، بما جاءت به من تعاليم ، الانسان على تعزيز نفسه ضد قوى الطبيعة التى كانت ترهبه وتخفيه •

حيث ان الدين وفر له قاعدة صلبة ليقف عليها ويعيش على ظهرها • ، لان الانسان وجد فى الدين هداية روحية له • ولقد كانت التعاليم الدينية تتسم تماما بذات الطابع الذى تتسم به بديهيات العلوم الطبيعية : هى لا تحتمل البرهنة العقلانية الا ان صلاحيتها المطلقة لا يمكن انكارها على أية حال • ان بديهيات الرياضيات والهندسة تفتقر الى البرهان العقلى ، الا انه بدون مبادئها الاولية لا يمكن تصور وجود الرياضيات أو الهندسة •

وابان الحروب الاصلاحية ، التى ترجع الى كشف جزئى عن المسببات الطبيعية للظواهر الطبيعية فان المعتقدات الغيبية للكنيسة المسيحية قد فقدت الكثير من ارجحية صحتها وقدرتها على الجدل •

وقد اقدم ابطال الاصلاح على ترجمة التوراة الى لغاتهم الوطنية وهكذا فان اساطير المذاهب الرسمية قد ظهرت بصفتها اوهاما وتوهيمات والاعيب كنسية • ونتيجة لتلك الترجمات فان اسفار التوراة قد غدت معروفة على نطاق اوسع بكثير ، بل انها فسرت تفسيرا ممحصا من قبل مبشرى العلوم بشكل لم يسبق حدوثه ذى قبل •

كما ان قراءة تلك الاسفار باللغات الوطنية قد اعطى زخما لنهضة للوعى القــومى معادية لكل القوانين السائدة والملفقة من قبل الامبراطورية الرومانية المقدسة وكاثوليكية البابوية المصطنعة ٠ ولقد كان استقياظ الوعى القومى يمثل الخطوة الاولى باتجـــاه الدنيوية ٠ ورغم ان الحروب كانت ما تزال تخاض تحت الرايات المتمايزة للدين ، الا ان مبدأ جديدا للتمايز قد اندرج قيد الاستعمال : الا وهو مبدأ اللغة ٠

ان القرن الثامن عشر للميلاد قد انشأ ، جنبا الى جنب مع اتجاهه الدنيوى الفريـد فى التفكير ، فكرة الحمى ، التى كانت أصلا مجرد « الوطن الام » ، ثم تطورت عبر مدلول متميز جلى فى الارتفاق الى الجماعة التى تتكلم لغة معينة والتى هى متميزة بعدا عن أيـة جماعة أخرى تتكلم لغة أو لسانا آخر ٠ وبالتدريج فان الوعى القومى قد حفر أو غرس التقاليد القومية فى الآداب والفنون مميزا تلك المجموعة عن غيرها ، بل ووصل به الامر الى حد اعتبار الاغراب كأعداء الداء مضطهدين (بكسر الدال) ٠

وهكذا فان البنية الاجتماعية المحكمة والمشرف عليها فى أوروبا من قبل الكنيســة الكاثوليكية قد تحطمت الى عناصر غير متجانسة ، الامر الذى اضطرها والحال كذلك الى الاقرار بالمبادىء الوطنية المختلفة فيما يتعلق بالتراث الدينى ٠ وهكذا بدأت الدنيوية تشق طريقها منعطفة باتجاه عقلية جديدة ٠

ولقد غدا الدين الموحى به من لدن الارادة السماوية والمشروح من قبل رجال ديـن متعلمين ، حجر الاساس للمجتمع الذى تمسك بعناصر متعددة النغمات فى آن واحــد وفى منتهى الانسجام الكامل ٠ وقد غدا كذلك سندا ترتكز عليه الحكومات كأقوى حليف لها ، حيث ان نظرته الى الوجود كانت متجانسة الى ابعد حد مع الادعاءات الخاصة بالاصل الالهى (المقدس) للدولة ٠

لقد كان الدين بمثابة المعلم الذى لا معدى عنه لاخلاقيات الانسان ولسلوكه العـام تجاه أمر الالوهية الغامضة الغيبية المستحيلة الفهم ، وكذلك تجاه اخوته فى البشرية ٠ والدين الاسلامى بتطوراته الغنية وهب الناس فكرا عمليا ليواجهوا بنجاح عراقيل الحياة الدنيوية ، ووعد بالسلوان والنعيم مقابل رعب الموت ٠ ولا يوجد انسان ، فى أى عصر

من عصور التاريخ ، يستطيع الاستغناء عن معتقد دينى بغض النظر عن صفة ذلـــك الدين • والعلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية تتمسك بمذاهبها المتعددة تماما كما يتمسك أى مؤمن متدين بمعتقده الدينى الذى يغار عليه •

هل بامكان الدنيوية ان تصرف النظر عن عقلية تشبع بصورة كاملة كافة تطلعات الحياة الانسانية ؟ وهل بوسعها ، بموافقة السواد الساحق للناس ، ان توجد الحلـول لكافة الرغبات المادية والروحية لفكر وروح الانسان ؟

ان الفرق الجذرى ما بين المبدأ الدينى والمبدأ الدنيوى يكشف عن نفسه عبر الاقرار بأن وجهة النظر الدينية ترى بأن الانسان يولد وهو مثقل بالوعى بالمسؤولية ، بينمـا تمنح وجهة النظر الدنيوية للانسان حقوقا مكتسبة •

ان العالم قد شهد خلال حركته التاريخية ومن خلال السير الحثيث للتقدم انقلابا شاملا فيما يتعلق بالبنية الاجتماعية والنظرة الروحية • لقد غدت الاكتشافات التقنية العلمية تحمل الانسان الى سطح القمر ، ولكن هل تراها اتاحت للانسانية ان تكون افضـــل واسعد حالا ؟ وهل زودت الانسان بقانون روحانى ينظم سلوكه ؟ لا شك ان المسلمين هم فى وضع افضل فى هذا المضمار من معاصريهم الغربيين ، حيـث ان الاســلام فى تعاليمه ، كما جرى تفسيرها من قبل المفكرين والمنكبين على علوم الديـــن قـــد أورث المؤمنين به عطية مكتملة هى بمثابة علاج واق ضد التردد والخور العقليين •

ترى أمن الحرى بى ان استشهد بأولئك الذين بينوا الصراط الصحيح للسلوك ان فى السراء أو فى الضراء ؟ اننى بكل بساطة استشهد ببعض الفقرات والعبارات مـــن أعمال بعض المرشدين الاثيرين عندى ، وذلك عبر الدرب الشائك لمسيرة الايمان والشك •

ان احد خلصائى القدامى ، عبر صفحات الكتب ، سواء ابان سنى شبابى ، أو الآن فى سنى شيخوختى هو ابو طالب ، محمد بن ابى عطية الحارثى المكى فى كتابه « قـوت القلـــوب » •

ولما كنت متشكل الطبع فى المدارس الاوروبية حيث تشربت بكافة اشكال الغواية الخادعة لحرية الفكر ، وواقعا فى اسار فيض الاشعار الغنائية ، مناديا بحرية فى المبدأ

لا حدود لها ، كما كنت مسحورا الى حد التقديس بفلاسفة المثل المجردة وممثلى مبـــدأ كفاية العقل العلمى ، الا اننى برغم ذلك مازلت اجد ميلا لا يقاوم للغوص فى الفصــول الثمانية والاربعين لهذا الكتاب التعليمى المنير للعقل ٠ حيث انه يتضمن معلومات وافية مكتملة لكل مسالك الحياة ، وهو رفيق مستعد على الدوام لتقديم المشورة والنصح فى مختلف مجالات الوجود الانسانى ٠ وهذا الكتاب والكتاب اللاحق له ولكن الاوسع منه الا وهو كتاب « احياء علوم الدين » للغزالى الذى اقتفى باخلاص خطى سلفه ، حبذا لو قرئا مرات ومرات من قبل شبابنا ومعمرينا على حد سواء ٠

لقد كان للقرن الرابع للهجرة تاريخ روحى حافل وراء ظهره ٠ فالاسلام كاعتقـــاد ارتقى الى دين وانشأ مجتمعا راسخا متعدد المصالح المادية والروحية ٠ فقـــد اثـــرت التأثيرات الروحية الاجنبية ولونت تفسير سر الوحى الالهى ، وفقا لنظم تفكير عديدة ٠ وحكومة الدولة الاسلامية شدت من أزر الانظمة الروحية بصفتها دعما وتنظيما لها هى ٠

الا ان التفسيرات الجامدة للوحى الالهى لم تقنع الكثيرين من المؤمنين المحصين ، ممن كانوا يبحثوا عن تفسير اكثر قبولا ٠ وكانت الاسئلة الملحة المتعلقة بازلية عالم الله ، وتوافق الصفات الالهية وبالقضاء والقدر ، المستقل عن ارادة الفرد ، كلها كانت تهتف طالبة حلولا لها ٠

وهكذا فان حزب الشيعة ، حزب احفاد الرسول ، بناء على المبدأ الخاص بالـــوحى المقدس قد طور نظاما دينيا غنيا بالنسبة لشرعية الحكم ٠

ان تهويمات الحنين الدائمة للنفس الانسانية باتجاه خالقها ، والاستعداد لتحقيـــق وحدة مطلقة فى الطبيعة وفى عالمها الصغير الذى هو الانسان ، كلها اسهمت فى تلوين واثراء آراء المفكرين المسلمين ٠ ومع ذلك فان الحديث النبوى لم يتوقف عن كونه الاطار الذى يحتوى السلوك الانسانى ٠

وفى القرن التاسع الميلادى ، فان العالم المالكى ابو عبد الله محمد بن سالم (المتوفى عام 909 م) وأولاده ، ابو الحسن احمد وابن سالم (المتوفى عام 960) ، قد تبنوا نهجا قوبل بمعارضة شديدة من قبل علماء المذهب الحنبلى مثل أبو نصر السراج (المتوفى عام

987 م) ، وذلك فى كتابه « اللمع » · والمظاهر الرئيسية لهذه الطريقه التى اصطلح على تسميتها بالسالمية هى : ان الله يخلق بدون انقطاع وفى كل لحظة ، وقدرته تلك على الخلق ، التى هى غير مخلوقة (تفعيل) تجعله حاضرا فى كل مكان خصوصا على السنة من يتلون القرآن · كما ان الله يمتلك قدرة غير مظهرة « مشيئة » ، بالاضافة الى « الارادة » التى هى قرار واع ومدروس · والامتثال لنصوص القانون يتم عن طريق الاكتساب المتعمد طوعا · كما ان الاحتمال يستحق الحمد بصورة تفوق ما يستحقه التمتع · والمؤمن الصادق يستطيع ان ينال الاندماج الصوفى مع السر الالهى عن طريق بلوغه ادراك ذات نفسه الى درجة تماثل حالها عندما منحت اليه من قبل سر الربوبية ·

ان المعارضين الحنابلة لتعاليم وافكار السالمية مثل ابو يعلا القرا (المتوفى عام 1065 م) ، والذى خلف لنا عبر ذلك كتابه « الاحكام السلطانية » وابن تيمية (المتوفى عام 1328 م) وابن القيم الجوزيه (المتوفى عام 1350 م) ، والذى اختط ، خلال مؤلفاته العديدة ، خطا موازيا لكتاب ابن حزم « طوق الحمامه » وذلك عن طريق كتابه « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » منتقدا فيه الاتجاهات شبه المعتزلية لمذهب السالمية ·

وما تزال السالمية متمسكة بالاعتقاد القائل بأن الروح تواصل تواجدها الشخصى (فى الفترة ما بين الموت الذى لا مناص منه وما بين يوم النشور) ، وهذا الاعتقاد حمل الكثيرين من علماء السنة على القبول بالتعاليم الوحدانية وبممثل تلك التعاليم ابو طالب المكى ·

بل ان علماء الاندلس فى القرن الثانى عشر مع ابداء بعض الميل الى الاسماعيلية ، مثل ابن براجان (المتوفى عام 1141) وابن قصى ، وابن العربى (المتوفى عام 1240 م) قد اظهروا نوعا من التفهم والتعايش مع مقولة الاسماعيلية بخصوص الوحدانية ، وفى نفس الوقت فان بعض المبادىء السالمية الاخرى قد حوفظ عليها ضمن شعائر الطريقة الشاذلية ·

وقد اطنب ابن خلكان فى ذكر صاحبنا ، وذلك فى مؤلفه « وفيات الاعيان » (المجلد الاول الصفحة 622) · واستنادا الى هذا المرجع فان ابا طالب كان رجل صدق وصلاح ، وكان صاحب اجتهاد فى القضايا الدينية ، تلك الامور التى ادلى بها برأيه فى المسجد

الجامع • ولقد ولد فى « جبل » وهى مكان يقع ما بين بغداد وواسط • أى انه لم يكن من مواليد مكة المكرمة ، ولكنه عاش هناك ردحا من الزمن ، ومن هنـا حصـل عـلى لقـب « المكى » • وقد لوحظ عليه الاعتدال ، كما اعتاد على كبح جماح نفسه وعلى اقتيات القبول ونتيجة لهذا الامر كان لون جلده يميل الى الاخضرار •

وقد اجتمع هناك الى عدد من العلماء وشيوخ الطريقة من رواة الحديث • وعقب وفاة ابو حسن ، ابن سالم الذى كان تابعا له ، انتقل الى البصرة ، ثم اتجه قاصدا بغـداد حيث قام بالقاء المواعظ على سواد الناس ، ولكن ذكر انه خلط فى اشياء تافهـة ممـا جعلهم ينفضون من حواليه •

ويذكر محمد بن طاهر المقدسى (المتوفى عـام 1113) ، وذلك فى مؤلفـه المسـمى « كتاب الانساب » ان الناس فى بغداد قد وصموه باتيان بدعـة خارجـة عـن الشرع وهجروه •

وثمة محدث من حقبة متأخرة الا وهو حاجى خليفة التركى (المتوفى عام 1658) ، يقول فى كتابه « كشف الظنون » بأن رأى جمهرة المتعلمين فى عصره وفى كل الاقطار قد اجمع على انه لم يوضح كتاب آخر يماثل كتابه « قوت القلوب » الذى يناول طريقـة العبادة مرشدا الى عتبة التوحيد ، وانه لم يسمع عما يشابهه فى كافة بقاع المسكونة •

الا أن ذلك الكتاب قد سقط فى غياهب النسيان ، الى ان عاد واشتهر من جديد تحت اسم « دقائق الطريقة » ، وجرى اختصاره من قبل زين الدين محمد بن خلف الامـوى من دمشق (المتوفى عام 1342) ، وذلك تحت عنوان « الوصول الى الغرض المطلو بـمن جواهر قوت القلوب » •

ولامراء فى أن كتاب قوت القلوب يشتمل كما يوحى بذلك اسمه الكامل ، على ارشاد مكتمل لسلوك الانسان الجسدى والروحى والخلقى على حد سواء • وهو يظهر من فصله الاول وحتى الاخير ، ان الانسان يحتل مرتبة بالغة الاهمية فى خطة الله الخالصة بالخلق ، وانه قد كتب عليه أن يتدبر امره بما يتفق مع ارادة الله الخالق ، حتى يتأتى له الرضى والسعادة فى الحياة الدنيا ، والطمأنينة فى الحياة الاخرى • ولا يوجد هناك أى نامـوس

دنيوى (وضعى) يستطيع توفير قناعة من هذا القبيل • وكل التحذيرات ترتكز عـــلى سور قرآنية وعلى تراث متين ومجرب •

والاسلوب الذى يتخلل الاجزاء الاربعة بكاملها جلى طلى متألق ، وكثيرا ما يرتقى الى مرتبة الذرى الشعرية ، خاصة فى الفصول المتناولة للامور العاطفية • ومثال ذلــك الجزء الاول الذى يتضمن النصائح المتعلقة بالعبادة وممارســة الشعائـر الدينية خلال النهار والليل فى كل يوم من أيام الاسبوع ، وكذلك فى الاعياد والمناسبات الدينيـــة الخاصة ، بينما يقدم الجزء الثانى شرحا للكتاب المقدس ، مثنيا على المتعلمين ومقـــرعـا للكسالى والمهملـــين •

وفى الفصل السابع والعشرين يكشف الحجاب عن سر السلوك الواجب انتهاجــه من قبل شيخ الطريقة تجاه مريديه • كما يذكر الامور الثلاثة الــتى تشكــل الغوايات الرئيسية التى تحرف الناس عن الطريق المستقيم وهى : حب المال ، حب الاستئثـــار بالسلطة والتهالك على النساء ، وبالاضافة الى ذلك فان بعض الراسخين فى العلم قـــد افتوا بأن ثلاثا تبعد المرء عن خالقه : فقدان الاخلاص فى القرار ، الجهل بالنهج القويم ، وحديث العالم السىء الطويـــة •

والغزالى (احياء علوم الدين المجلد الاول ، الصفحـة 90) يفسر اللاهـوت الـــذى لا يحتضن فقط تعريفه الدينى الذى يمثل انكارا لكـافة التصورات الانسانية المعزوة اليه وحسب ، وانما يسبب اضطرابا كاملا فى الوحدانية العلمية الخاصة بفلسفة النشوء والارتقاء فى القرن التاسع عشر •

وأبو طالب يأمر بالاخلاص الكامل فى العبادة وبالخضوع والاجـلال الكاملين نحو الله تعالى • ويعلن الغزالى فى كتابه « احيـاء علـوم الديـن : المجلـد الاول ص ، 153 » ان الخضوع يحتل المقام الاول فى الدين وهو حصيلة الاعتقاد بأن الله على كل شىء قدير • وهو الذى أنعم عليه وبورك له بهذا اليقين صاغر ذليل فى ابتهاله وفى كافة الأحـــوال الاخـــرى •

والغزالى مثله فى ذلك مثل سلفه أبى طالب ، يعطى وزنـا خاصا واهميـــة حيوية للطابع المقدس لكل عمل يؤتى (احياء علوم الدين : المجلد الاول ص ، 240) ، وتبعـــا

لذلك فان مراسم الحج لا يمكن ان تؤدى ابتغاء لأى غرض دنيوى أو تجارى أو بهدف الربح . وهكذا فان كل عمل يتعلق بالعقيدة يجب ان يشتمل على استغراق كامل فى التيقن والايمان بأن المخلوق هو عبد صاغر ومذعن مطيع ممتن لربه ، خالق كل شىء . حيث ان الانسان لا يمتلك أى استقلال فى مبدئه الروحى ، اذ انه يحمل فى روحه غرسة القدرة الالهية ، ويجب ان يظل جسده محيطا بهذه التبعية السماوية : وهى مقولة ذات اخلاقيات رفيعة يمكن ان يبنى على اساس منها مجتمع متين الصرح ، راسخ البنيان .

وابو طالب (قوت القلوب : المجلد الثانى ص ، 17) يؤكد فى سياق تناوله للعلم ، مثله فى ذلك مثل خلفه الغزالى (احياء علوم الدين : المجلد الاول ، ص 43) ان العالم الحق لا يمكنه الاستغناء البتة عن الاخلاقيات . بل انه فى تذييلاته يندفع فى أسلوب روائى يقص علينا احاديث الناس فى زمانه وهم يلتقون فى الطرقات ، فكل منهم يستفهم الآخر عن عمله ، وغالبيتهم العظمى تتحدث عن اعمالها وتجارتها ، مفصحة بذلك عن روح دنيوية خاصة بالحياة الفانية (المجلد الثانى ، ص 42) . وهو عدا عن ذلك ينبههم الى حقيقة كون النجاح فى الحياة يرتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك القويم ، بل هو محصلة ذلك السلوك الذى ارسيت نواميسه فى القرآن والحديث وفى تفسيراتهما المعتمدة ، وهو انذار وتحذير لشد ما ينطبق بصدق على ايامنا هذه حيث اناس كثيرون يشكون اليك ما أصابهم من غم ، ويغفلون عن نعم الله عليهم فى حياتهم .

وهو يستنكر ــ مشيرا الى نقيضه ابن حنبل ــ البذخ فى البناء وفى الزخرف وفى اقتناء وسائل الترف ، وكل ضرب من ضروب البدع المنافية للشرع ، والتى سرعان ما تغدو تقليدا يتبع ويقلد ، وتقود الى الضلال والخروج على الدين الحنيف . (قوت القلوب : المجلد الثانى ، ص 68) .

والالتزام الاخلاقى بالتوبة تجاه الله هو واجب على ابن آدم ، بحيث لا يقترف الاثم ابدا ضد أخيه الانسان ، ولكن متى ما حدث واقترف امرا من هذا القبيل فعليه ان يطلب الغفران . والتهويل بكبر الخطيئة فى الوعى يقلص من اثرها الى ادنى حد . وكل فعل خير هو بحد ذاته ثواب ونوال . وهو يوجه اشد الاستنكار والتقريع ساردا الامثلة

الكثيرة من القرآن ومن الحديث ومشيرا الى مراجعها ، الى كافة انواع الغطرسة والعظمة الزائلة التى هى بمثابة عصيان ضد الله ٠

والغزالى ايضا يروى قصة ربيع بن الخيثم (المجلد الاول ، ص 153) الـذى كـان متواضعا وحييا الى درجة انه كان دائما يخفض نظره الى الارض لدرجة ان بعضا مـن الناس حسبوه اعمى لا يبصر ٠

وبعد ان يذكر بأن الصبر هو ميزة المؤمنين الصادقين (قوت القلوب : المجلد الثانى ص 87) ، يأتى للحديث عن الشكر والامتنان ، وهما برأيه واجب اخلاقى تجاه اللـه وتجاه الانسان ٠ وهو يؤكد على ان الحمد هو جزء من العقيدة ، داعما ذلك بطائفة مـن اقوال النبى (صلعم) ٠ وهذا التنبيه القيم مفيد لجيلنا الحاضر ، الذى كما يبدو قد فقد هذه الدعامة من دعامات الحياة الاجتماعية بين الناس (قوت القلوب : المجلـد الثانى ، ص 105) ٠

كما ان مقاطع تحتل صفحات عديدة تتناول مسالة الخوف ٠ وهو يبين بمنتهى الجـلاء ان المؤمن الصادق لا يعرف الخوف ، ولا يجد الخوف طريقا الى نفسه ، نتيجة وعيه الواثق بالعدالة الالهية ٠

اذ انه مما لا شك فيه ان الخوف ينبثق من ارتكاب المعاصى ، وما تخلفه من اثـر فى الروح الانسانية ٠ وهكذا فان البشر الابرياء الذين لم يقترفوا أى نقض ضد التعاليـم الالهية ، هم بمثابة معصومين ، ويعيشون حياة ورع وتقى ٠ وهؤلاء الناس هم القـوم الزاهدون ممن انعم الله عليهم بالمعرفة الحقيقية ، معرفة اوامر الله ومعرفة الافعال المنكرة المحرمة عليهم ، وهذا النفر من الناس ذو ضمائر نقية خالصة لا تشوبها شائبة ٠

ويعد ابو طالب السائرين على النهج القويم بالجنة ، ويتوعد الاشقياء الضالين بسعير جهنم ٠ وانسان القرون الوسطى كان اكثر ميلا لتقبل المرتبات الاخلاقية الناتجة عـن افعاله من الانسان الدنيوى التعليم المادى والتفكير من أهل القرن العشرين ٠ وهـذا الاخير يمكن ، ولكن بعسر وصعوبة ، حصره ضمن حدوده عن طريق عقوبات دنيويـة (وضعية) ، ليمتنع عن ارتكاب الآثام المنكرة بحق اخوته بنى البشر وبحق المجتمع ٠

ونتيجة للعلمانية فان الانسان المعاصر قد اضحى يضرب صفحا عن الالتزامات الاخلاقية ، تلك التى كانت فى الاسلام تمثل القوة المحركة الرئيسية لمراقبة الاعمال الانسانية • ونحن متى ما قرأنا مؤلفات ابو طالب والغزالى ، آخذين هذه الحقيقة بعين اعتبارنا ، فسوف ندرك بشكل كامل ونفهم اهمية النظرة الاخلاقية بصدد الحياة بالنسبة للفرد أو بالنسبة للمجتمع سواء بسواء •

ان السعادة الحقيقية تكمن فى التواضع طالما راح الانسان يمد من تطلعاته باتجاه ما يترتب عن افعاله من نتائج ، وطالما ضرب صفحا عن المتع الآنية الزائلة • وهو يستشهد بقول ابو سعيد الخضرى : « ايها الناس ، ليس للشدائد والمسغبة ان تؤدى بكم الى التماس الكفاية بسلوك مسالك الفعال المنكرة » •

أما القسم الثالث من كتاب قوت القلوب ، فانه مكرس لدراسة المرتبة التى يحتلها كل من الايمان والتواكل على الله ، وبالنسبة لانسان القرن العشرين المعبأ بالنظرة المادية المتجمدة الى الحياة ، فان تسيير أمور الحياة بواسطة نواميس اخلاقية وتعاليم روحية محضة ، يبدو أمرا شديد الغرابة ، ويصعب على الفهم والادراك ، وموقفه هذا ينبعث من ثقافته العلمانية ، التى تشيد بحرية وهمية يمكن أن تؤدى بكل سهولة الى التردى فى هاوية اللا مسؤولية ، وعدم الاكتراث تجاه نواميس واعراف الاخلاقيات الخاصة بالمجتمع •

ان ادراك المسؤولية ورفعها الى اعلى مراتب التشريع ، التى تمثل اقرارا بالوحدانية الالهية ، أمر من شأنه أن يعقل لجام ضعاف النفوس ويردعهم عن ارتكاب المعاصى والانغماس فى الملذات الحرام ، وعن كافة الاشكال الاخرى التى تميز الحياة اللااخلاقية • ولا نبالغ فى قولنا بأن مجتمعات هذه الايام تعانى من كافة هذه الشرور الدنيوية المأفونة •

ويقول ابو طالب بأن التوكل على الله تعالى هو اعلى المراتب وأشرفها مقاما ، يختص به المقربون من ربهم • وان الله يغدق رحمته على أولئك الذين وضعوا ايمانهم به (المجلد الثالث الصفحة رقم 3) • ويزين قوله هذا بسرد قصة ، جريا على عادته كلما رأى فى ذلك ما يلائم الغرض المتوخى ، وهى قصة حسن الذى رفض قبول هدية من

أحد الناس رغم انه قبل الهدية المقدمة من قبل شخص آخر ، وعندما سئل فى ذلـــك اجاب موضحا بأن الاول قد منح له الدعم ابتغاء هدف ذاتى ، ربما ليحصل على الشهـرة والمجد بين الناس ، أما الثانى فقد وهب ما وهب انطلاقا من اجلاله لله تعالى وحسب • بل ان التعبد بحد ذاته يغدو محط اللوموموضعه متىما تم ابتغاء للحصول علىاستحسان الجمهور ، اما التعبد والتصرف بهدف مقدس ، فهو أمر يستحق الحمد والثناء •

ويبدو للوهلة الاولى ان ابا طالب يفرض العديد من الواجبات الاخلاقية على الانسان المتردد بغية تجنيبه وبال نار جهنم • وهو يتناول هذه الواجبات بالشرح والتفسير وذلك فى الفصل الثانى الذى يعالج قضايا الاكتساب الحلال والعمـــل الصـــادق الشريف والسلوك المخلص تجاه الاخوة فى الدين ، وكذلك الاستعمال المتدبر والواعى للمبتكرات الانسانية •

وليس هناك من عمل من اعمال الحياة الانسانية فى طريقها المرسوم من المهــد الى اللحد ، الا ويمثل الالهام الالهى وتفسيرات علماء الدين قيمة عملية لاحد لها بالنسبــة اليه • وكل هذه الامور محللة ومفسرة بناء على النظام المسنـــود الى ابى طالب وكـــل الشرائع الدينية المتعلقة بالشهادة والعبادات وكذلك كافة الشعائر المتعلقة بممارسـة الواجبات الدينية المسنونة على المؤمن قد أوضحها تفصيلا فى الفصول الثالث والثلاثين، الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين • وربما كانت هذه الفصول هى التى تركت أعمق الاثر فى فكر الغزالى •

ويتحدث ابو طالب بأسهاب واسع حول أهمية النية ، وذلك فى الفصل الثامـــن والثلاثين • ويذكر بأن الاعمال كافة تنبع من النية وتصدر عنها ، وان لكـــل أمـرىء ما نوى • ويذهب قائلا بأنه حتى الشيعة يعتقدون بأن الله لا يقبل أية كلمـة الا متى ما كانت مدعومة بالفعل ، وانه ليس هنالك من قول أو فعل الا ويصدر اصلا عن النية • ويستشهد بحديث رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول بأنه الى جانب كافة أفعال الخير التى أمر بها الله تعالى ، فان صدق النية يقف فى المقدمة ، ويفسر عبـد الرحيـــم ابن يحيى الاسود معنى هذه الجملة القائلة بأن نية المرء افضل من واجبه وابقى ، عـــلى

النحو التالى : "ان النية الخالصة التى هى الدافع الكامن وراء افعال الانسان هى افضل من تلك الافعال ذاتها ·

وتقع على عاتق كل انسان واجبات عدة تجاه ربه واتجاه اخوته فى البشرية · وهذه الواجبات واسعة النطاق وتشير الى السلوك الرزين الواجب انتهاجه تجاه المحيط وتجاه البيئة التى يعيش فيها : الوالدين ، الاقارب ، والبنين والجيران بالاضافة الى كل شخص تربطه به علاقة ما ·

وهذه المنظمات تتعلق بكافة الافعال ابتداء من الطهارة الجسمانيـــة وحتى النقـــاء الاخلاقى · ويمعن ابو طالب النظر فى التفاصيل الدقيقة عن طريق تعداد امكانيات كل عمل من تلك الاعمال السالفة الذكر ·

ان هذه الفصول تستأهل ان تترجم وتنقل بحذافيرها بغية ان تكون دليلا هاديـــا لشباب أوروبا الجديد الذى جرى تعليمه بطريقة علمانية ، وللجيل الاكبر سنا ممن فقدوا أرضيتهم الاخلاقية فى مسالك الحياة نتيجة لما عانوه من مآسى حربين عالميتين · ولا مراء فى ان الاهداف المادية تتحكم بجيلنا الحاضر ·

ان الثراء ، المكتسب بأية وسيلة من الوسائل ، والترامى المهين على الوصـــول الى المناصب العالية عـلى حساب الكادحين من النـاس ، قد اصبحا الهدف المثالى للانسية العلمانية · من ذلك يتبين ان العالم قد وصل الى مفترق طرق ، وهنا ينتصب امامنـــا سؤال ملح وحاد : الى أين تتجه البشرية ؟ الى مهاوى اللاشيئية ، العدمية ؟ أم تراهـــا تثوب الى رشدها وتؤوب الى طريق الصواب ، طريق الهادين الى الاخلاق والى الاذعـــان للارادة السماوية الغير مرئية والعامة لكل شىء ؟

ان قراءة « قوت القلوب » وقراءة « احياء علوم الدين » سوف تهيب بالنـــاس لان يعيدوا النظر فى سلوكهم ، وسوف تقود خطى اخوتنا الى ابتغاء سلوان ، اسمى واشرف بكثير ، مما تستطيع العلمانية المموجة ان تمنحه لهم ·

ابن حزم الظاهري الاندلسي

مبـروك العـوادي
استاذ
بوزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية

1 ـ نشأة المذهب الظاهري ٠

ان المذهب الظاهري حدث كرد فعل طبيعي للمذهب القياسي والاسراف فيه ، على النحو الذي نراه باطراد في تاريخ العلم ، فالوقوف عند النص يقابل الاسراف فيـه والغلو في تجاوزه ، والمبالغة والاغراق في الاستنتـاج منه ، وتحميله الكثير مما يحتمل ومما لا يحتمل كالذي تراه في التفاسير من تحميل آياته ما تطيق وما لا تطيق ، واجتلاب الاخبار والآراء من هنا وهنا ، والتكثر من ذلك لاقحامها في تفسير القرآن ٠

وكالذي تراه في رواية الحديث حتى تحرج قوم من الرواية نتيجة تكثر قوم منها والامر في تاريخ الفقه شبيه بذلك ٠

وقد ظهرت بوادره الاولى فى صورة ما عند معتزلة البصرة ، ازاء أهل الرأى فى الكوفة ثم ظهر فى صورة أخرى عند الامام أحمد بن حنبل ثم برز كمذهب تشريعى كامل مستقل فى القرن الثالث للهجرة فى بغداد على يد أبى سليمان ، داود بن على بن خلف الاصفهانى المتوفى عام سبعين ومائتين للهجرة على اثر وفاة الامام أحمد بن حنبل ٠

على أن المحدثين هم أيضا ـ وهم سدنة السنة والقوامون عليها وحماتها ـ وقفـوا معارضين لاصحاب الرأى والقياس وعلى رأسهم أو من جلتهم الامام البخارى ٠

وقد عظم شأن المذهب الظاهرى فى الشرق فى القرن الرابع الهجرى ، وكان بين اتباعه كثير من أصحاب الجاه بايران ٠

وكان الداودية بفارس يتقلدون الاعمال والقضاء ، وكانت لهم الغلبة ، لان السلطان عضد الدولة البويهى كان يتقلد هذا المذهب ، بل ان هذا المذهب اعتبر رأيه فى الخلاف بين المجتهدين قبل أن يعتد بخلاف الحنابلة ٠

ابو محمد على ابن حزم المجتهد ومجدد القرن الخامس الهجرى .

ابن حزم من أينع الثمرات التى انشق عنها فردوسنا المفقود (الاندلس) ٠

فهو من أعلام الدين والشعر والادب والتاريخ والفلسفة ، وممن ولى الوزارة هـو وأبوه العالم النبيل أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ـ أول داخـل للاندلس ـ ابن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسى مولى يزيد بن أبى سفيان ٠

ان أبا محمد عليا هذا فقيه ظاهرى أحيا فقه داود الاصفهانى وسلك به مسلكا اتسم بسمته فوسع رحابه وأيده بالادلة ، وناقض مخالفيه فى أقوال صارمة ، وجـدل غلـب الافحام والالزام وأفاض فى شرح فقه الصحابة والتابعين ، وأخرج من ذلك كنوزا نافعة ٠

واستخرج من ذلك الخضم الزجاج من الآثار السلفية نفائـس انفرد باستخراجها وكشفها ٠

وان أبا محمد ابن حزم فوق أن فقهه لون من الاستنباط غير ما عليه الاربعة ومـن قاربهم هو فى شخصه نوع منفرد بين الفقهاء ، فهو الباحث والمحدث المجيد ، وهو عالـم

الملل والنحل المجادل فيها الاريب، وهو الشاعر الناثر الذى يقارب شعره فحول الشعراء، ويمتاز نثره الفنى بالبراعة فى المعنى وجودة الخيال، ونصاعة اللفظ، واشراق الاسلوب .

أبو محمد رجل قوى الشخصية الى ابعد مدى ، عظيم الاعتداد بنفسه الى أبعد غاية ولكنه اعتداد قوامه الفهم العميق، والعقل المحكم الوثيق ، والعلم الواسع الدقيق، والايمان القوى ، والقدرة البالغة على التغلغل فى بواطن الموضوعات التى يعالجها ، **واستشفاف** ما عسى أن يكمن وراءها ، وعلى الجدل والمناظرة ، وعلى الاقناع والافحام .

خذ مثلا كتابه المحلى فأنت تجده كيف يعرض المسألة من مسائل الفقه الاسلامى ، مقررا فيها رأيه ، وهو رأى لا يستند الا الى الادلة المأثورة : القرآن وما صح من الحديث كما هو مذهبـــه .

ثم يعرض آراء الائمة السابقين : من مثل : امام دار الهجرة مالـك والشافعى وابى حنفية والاوزاعى ومن اليهم فى هذه المسألة نفسها مع ايراد ادلتهم وبيانها أجلى بيان ثم تفنيدها ، اذ انه يعرضها على الآثار المروية الصحيحة ، أو يعرض الآثار التى اعتمدها هؤلاء الرجال على النقد ، اذ ينقد اسانيدها ويتحدث عن رجالها ،

ثم ينتهى بان يصك برأيه فيها صكا ، لا يتجمل ولا يترفق ولا يتلطف .

وما ظنك برجل يستطيع ان يتناول الامور التشريعية **كلهـا** : عباداتها ومعاملاتها ، ويقضى فيها دون أن يرجع فى شىء منها الا الى الكتاب والسنة الصحيحة والاجمـــاع الثابت المنقول عن الصحابة نقلا صحيحا على ما هو مذهبه .

أما القياس والرأى فباطل ومنكر وفساد كبير .

ثم هو يستطيع مع هذا أن يحتج لجميع ما ذهب اليه من ذلك احتجاجا يمضى **نحـــو الاقناع أو الافحام** .

وخذ أيضا كتابه « الفصل فى الملل والاهواء والنحل » تجده هو هو سعة علم وقوة عقل ومهارة فى المناظرة ، وبراعة فى ادراة الخصم ، وثقة بالنفس واعتداد بها ، يريك الشمس فى ظلام الليل الاسحم أو اذا شئت يريك الظلام الحالك فى رابعة النهار .

ثم بعد ذلك له لسان حاد عنيف لادغ ، قد يغتفر له ذلك لتلك الصفات العلمية الرائعة ·

قد يغتفرها له من ينكر هذا اللون من ألوان المناقشة وينفر منها ويفزع ، لتلك السمات الجميلة الاخاذة من شخصيته ·

ومن لك بأخيه ·

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ·

هذا الفذ انه من الاندلس التى مازال ذكرها يدمى القلوب ، ويذهب بالنفس حسرات، ويثير العبرات ، ويلقى بالنفس المؤمنة اشد أنواع الحزن ، انها مأساة التاريخ الاسلامى ·

هذا النابغة هو الذى وقف أحد خلفاء الموحدين وأعظمهم على قبره خاشعا فى وسط الحاشية والجمهور وقال : «أشهد بالله ان كل العلماء عيال» على ابن حزم ·

نسبه ومولده :

هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان ابن سفيان بن يزيد الفارسى ، وكان جده الاعلى يزيد نصرانيا فارسيا أسلم على يد يزيد ابن أبى سفيان الذى كان القائد لجيش الاردن أيام الفتح لعهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما والمتوفى عام 18 هـ وأول من دخل الاندلس من أجداده هو خلف الجد الخامس وقد استوطنوا قرية « منت ليشم » أو « متلجتم » فى اقليم الزاية من عمل (أونبة (من كورة (لبلة) وتعرف بلبلة الحمراء وهى غرب الاندلس وغرب قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق اشبيلية خمسة أيام أو أربعة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين اشبيلية اثنان وأربعون ميلا وهى برية بحرية وفيها آثار قديمة · ثم سكن آباؤه قرطبة ·

ولد بقرطبة بالجانب الشرقى من ربض منية المغيرة بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر ليلة الاربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان سنة 384 هـ بهذا كتب ابن حزم بخط يده الى القاضى صاعد بن أحمد الجيانى الاندلسى صاحب طبقات الامم التوفى 462 هـ. وأحد تلاميذه ·

هذا وقد كان والده أحمد بن سعيد وزيرا من وزراء هشام الثانى المؤيد بن الحاكم الثانى ·

المستنصر بن عبد الرحمن الثالث الناصر ، الذى تولى الخلافة 399 ـ وحاجبه المنصور ابن أبى عامر ومن كبار رجال دولتيهما ·

وأبو عمر أحمد بن سعيد هذا يعد من أهل العلم والرواية ويسلك اسمه فى سلك علماء قرطبة وشيوخها الكبار من مثل عبد الله بن محمد بن مغيث الانصارى ، وعبد الله ابن محمد بن عبد البر النمرى والد الحافظ أبى عمر بن عبد البر المشهور ، وغيرهما ·

وكان له قصر فى الجانب الشرقى من قرطبة بالقرب من قصر الزاهرة فى مدينة الزاهرة التى اختطها المنصور بن أبى عامر ، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الاعظم ليضاهى بها الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر ·

فى هذا القصر نشأ على نشأة مترفة فى نعمة موفورة سابغة بين مظاهر الطبيعة الفاتنة وصور الترف البالغة حدا من الافتنان والروعة بعيدا ·

فى هذا القصر أمضى ابن حزم حياته الاولى من لدن خرج الى الوجود الى أن بلغ الخامسة عشرة من عمره لا يكاد يغادر ذلك القصر الا حين تتقدم به السن ، ثم هو لا يغادره الا الى قصر وزير آخر أو رئيس أو قصر الحاجب نفسه المنصور أو ابنه المظفر فى بعض الاحيان·

وفى هذا القصر تلقى تعليمه فى هذه الفترة من حياته ، فلم يختلف الى استاذ يأخذ عنه ، وقد ظل محجوبا مدة صباه محدودا بدائرة الحرم لا يتجاوزها الا ان يكون الى قصر من القصور الاخرى ، ولم يتصل بما خارج القصر الا بعد أن تبقل وجهه ·

أما قبل ذلك فالنساء وحدهن بطانته وصحابته واساتذته ، اليهن وكل أمره وبهن نيط تعليمه وتربيته ، فلقد علمنه القراءة والكتابة أى تحصيل الاداة الاول للمعرفة ، ثم يلى ذلك حفظ القرآن ورواية الشعر ·

فقد كانت اذن تربية ترمى فى حقيقتها الى تكوين الذوق الفنى وتثقيفه ، والى اعداد اللسان وتقويمه وهو أداة التعبير عما يستشعره الذوق وما يحسه من صور الفن ·

وشيء آخر في طفولته وهو ما يشير اليه من أنه أصيب في تلك الفترة من حياته بخفقان القلب · واذا كان يرجع في بعض كلامه ـ ما لاحظه عليه معاصروه من حدة في الطبع ، وعنف في المناقشة وعجز عن ضبط نفسه فيها ـ الى ما كان يعانيه من مرض الكبد أو الطحال ، فقد يكون لهذا المرض الذي عرض له في صباه أثره الباقي في كيانه الجسمي والنفسي ·

ولعل أن هذا المرض الذي أصابه صغيرا كان من الامور التي أحاطته بجو خاص من العطف والرعاية ، وملأ القلوب اشفاقا عليه ورحمة له ، وحذارا أن يناله شيء من المكروه يعرضه للخطر وأن هذا المرض وما يثيره من خوف ، وما يبعث عليه من اشفاق وحذر ، كان من أول الاسباب التي جعلتهم يأخذون بألوان من التدليل والملاطفة في مثل تلك البيئة المؤلفة من الجواري والقيان يرعينه رعاية أمثالهن لمثله ، ويتولين تعليمه وتربيته ، ويؤخذ بتلك النشأة المقصورة أشد القصر ، المحدودة الافق ، التي ظلت مفروضة عليه خمسة عشر عاما لا يتجاوز نطاقها المضروب ·

وهو في هذه المرحلة الاولى من حياته قد اتخذ الشعر مجالا ومستراحا يستروح فيه ويشغل به نفسه ويعبر به عنها ، ويرى فيه أهواءه ونوازعه وخوالج نفسه وأحاديث قلبه ومكنونات ضميره متمثلة بين يديه في صورة جميلة من صنعه · وتلك هي بداية ذلك الشاعر الذي لم يمنعه بعد امعانه في الدرس واستغراقه في العلم أن يبلغ من الشعر مرتبة مذكورة ، حتى ليعلق أبو مروان بن حيان المؤرخ الاندلسي الكبير ومعاصر الامام ابن حزم بقوله : « يالبدائع هذا الحبر ـ على ابن حزم ـ وغرره ! ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها » ·

وحتى يقول عنه تلميذه المبرز الحميدي ، وهو الذي صحبه زمانا واختص به ونقل مذهبه الظاهري الى الشرق ، وعني بجمع شعره :

« كان لشيخنا أبي محمد بن حزم في الشعر والادب نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت أسرع بديهة منه ، وشعره كثير » ·

وقد امتدت هذه المرحلة الاولى من حياته الى سنة 399 هـ ·

المرحلـة الثانيـــة .

تبدأ هذه المرحلة من حيث انتهت الاولى أى من سنة 399 وتمتد خمس سنين أى الى سنة 404 هـ . ففى هذه المرحلة يبدأ الفتى ابن حزم دور التحصيل المنظم بالسماع من أئمة العلم ، والتلقى عن رجال الادب ، ورواية فروع المعرفة المختلفة بالجلوس الى أولئك الشيوخ فى مجالسهم التى يتخذونها أو حلقاتهم التى يعقدونها فى مسجد قرطبة الجامع وما اليها من المساجد . وفى أثناء هذه المرحلة وقعت أحداث وفتن وانقلابات وحصار لقرطبة ، ومن أشد ما وقع عليهم فى ذلك مرض الوباء سنة 401 هـ ، جعل من دور قرطبة موطنا للحزن والفزع ، ونال بيت ابن حزم نصيبه من ذلك .

وفى أثناء تلك الفتنة والاحداث الجسام انتقل والد ابن حزم أو التجأ من دوره المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة فى ربض الزاهرة الى دوره القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة وذلك فى جمادى 399 هـ وانتقل الشاب على مع والده .

ثم حدثت أحداث متعاقبة أثرت أبلغ التأثير فى نفس الفتى وآلمته أشد الالم .

أما أولها فموت أخيه أبى بكر الذى كان يكبره بخمس سنوات ، وهو الذى كان أليفه ورفيقه فى الحياة الاولى ، فقد أصابه الطاعون الذى أناخ على قرطبة وعاث فيها فقضى نحبه فى شهر ذى القعْدة سنة 401 هـ .

وثانيها فانه لم يكد ينقضى على ذلك الحادث الذى تفرقت له نفسه عام واحد حتى فجع فى والده فتوفى رحمه الله .

ثم بلغ السيل الزبى بعد انقضاء الحصار وتسليم قرطبة لسليمان المستعين ودخلوها بجنوده لقد وقع انتهاب الجند لمنازل آل حزم فى الجانب الغربى بقرطبة والنزول فيها . وماذا عسى أن يكون بعد أن أجلى آل حزم عن دورهم فى الجانب الغربى من قرطبة كما أجلوا من قبل عن دورهم فى الجانب الشرقى منها ؟

انما هو الجلاء عن قرطبة جميعا مع زمر الهاربين منها ، فلم تعد لابن حزم دار مقام . واذن يدبر ابن حزم أمره للرحيل عنها ويجلو عنها وكان ذلك فى مستهل عام 404 هـ .

ترك ابن حزم قرطبة وهو فى العشرين من عمره شديد الحسرة عليها وأين يلتجىء ؟

التجأ الى المرية فدخلها فى المحرم 404 هـ وأقام بها الى سنة 407 هـ (ثلاث سنوات) ·
وظل متابعا فيها دارسته الدينية وتلقيه عن شيوخ الحديث والفقه ·

وفى المرية نراه يجلس فى دكان اسماعيل بن يوسف الطبيب الاسرائيلى الذى كان مشهورا بالفراسة وقد جعل ابن حزم وكده منذ البدء باثبات التحريف والتناقض والتبديل على التوراة ، ولذلك درسها دراسة مستانية ، وكان هو رائد ابن خلدون فى المنهج الذى اتبعه فى نقد الخبر التاريخى أعنى الناحية الزمنية والعددية ·

وكان من أوائل من لقيه ابن حزم من يهود هو اسماعيل ـ أو أشموال ـ بن يوسف الكاتب المعروف بابن النغرالى ، ووصفه بأنه أعلم اليهود وأجدلهم ، وقد ذكر أنه لقيه مرة عام 404 هـ وابن حزم فارق قرطبة قبل ذلك بقليل وسكن ما لقه ، وفى هذا اللقاء وقعت بينهما مناظرات ·

وتاريخ اللقاء بين ابن حزم وابن النغرالى يدل على أن اهتمام ابن حزم بشؤون الملل الاخرى بدأ فى دور مبكر · ومازال ينمو حتى تمثل على أتمه فيما حواه كتاب الفصل من ذلك ·

ولم يكن ابن حزم يعرف اللغةالعبرية بدليل ما قاله فى الفصل : « ولقد أخبرنى بعض أهل البصر بالعبرانية » ·

واذا تحدث عن أسفار التوراة استعمل اسماء معربة أو استعمل الاسماء العبرية ·

ولا شك أن ما وقع من التحريف فى الاسماء انما هو من جهل النساخ وأن ابن حزم كان يعرف الوجه الصحيح منها ·

هذا وأن اليهودى يوسف بن اسماعيل بن النغريلة خلف والده فى الوزارة لباديس ابن حبوس فى الاندلس وهو الذى سم بلكين بن باديس ولى العهد ، وكانت هذه الحادثة مما أثار الناس على هذا اليهودى حتى هموا بقتله ، لان بلكين كان مرجوا لديهم ·

ولم يكف هذا اليهودى عن حبك المؤامرات واثارة الفتن والعداوة والتفريق وضرب هذا بهذا والتعرض لنقد الاديان والتطاول عليها فى سخرية ، حتى كان اليهود أنفسهم غير راضين عنه ، ويتشاءمون باسمه ويتظلمون من جور حكمه ·

ومن الاديان التى تهجم عليها وانتقدها جهارا الاسلام فقد نقل عنه أنه قال : انــه ينظم القرآن شعرا وموشحات . وكانت له مطامح سياسية كبيرة حتى « طلب ان يقيـم لليهود دولة » كما يقول ابن عذارى مما انتهى بقتله سنة تسع وخمسين وأربعمائة .

أما الاسباب التى أدت الى مصرعه فيمكن اجمالها فيما يلى :

أولا : توسع شأن اليهود وتسلطهم على المسلمين فى حكومته وحكومة أبيه اسماعيل الذى كانت له منزلة عند حبوس صاحب غرناطة وقد اتاحت له هذه المنزلة أن يعلى من شأن اليهود ، حتى يستطيلوا على المسلمين مما جعله حريصا على ابراز مقومات الشخصية اليهودية ، وتحصيل التراث اليهودى ، والمباهاة به ، والمناظرة فيه .

ثم نفور المسلمين من دفع الجبايات لهــم خصوصا وأن باديس لم ياذن ـ رسميا ـ لليهودى بمطالبة المسلمين بالمال ، ولكن يوسف وأعوانه كانوا يحتالون لذلك .

على أن السلطان الذى أحرزه والده اسماعيل مكن لليهود كثيرا فى الشؤون الادارية والمالية ، لانه كان يختار الموظفين منهم ، فاكتسبوا الجاه فى أيام اسماعيل واستطالوا على المسلمين ، ثم ان هذا الجاه الدنيوى هو الذى ساعد الجماعة اليهودية يومئذ على تثبيت اللغة اليهودية وبعث الثقافة اليهودية والظهور بذلك .

ثانيا : عدم تورعه عن نقد الاديان ومنها الدين الاسلامى .

ثالثا : مؤامرته على أكابر صنهاجة .

رابعا : ثورة الاتقياء على هذا الوضع أى على وضع الثقة فى شخص غير مسلم وغيرها من الاسباب ومن ذلك نجمت قصيدة الشيخ أبى اسحاق الالبيرى التى يحرض فيهـا صنهاجة على التخلص من اليهود والوزير اليهودى .

يقول فيها :

وانــى احتللــت بغـرناطــة ... فكنــت اراهــم بهـا عابثــين
وقـــد قسموهـا وأعمـالـها ... فمنهـــم بكـــل مكـــان لعين
وهــم يقبضـــون جبـــاياتها ... وهـــم يخصمون وهـم يقسمون

وهـــم يلبســـون رفيـــع الكســـا   وانتـــم لأوضاعهـــا لابســـــون
وهـــم أمناكـــم عـــلى سركـــم   وكيف يكـــون أمينـــا خـؤون

وكان لهذه القصيدة أثر فى تحريك النفوس ·

وقد رد ابن حزم على ابن النغريلة برسالة · وطريقته فى الرد **تنقسم** الى قسمين :

أولا : المشكلات التى أثارها ابن النغريلة الذى كتب كتابا فى تناقض كلام الله تعالى ـ بزعمه ـ ورد ابن حزم على كل مشكلة منها ، وهو لا يكتفى بالرد على النغريلى بـــل يشفعه بانتقاد احدى المسائل التى وردت فى التوراة لافتا ابن النغريلة الى أن بيته من زجـــاج ·

والقسم الثانى ناقش فيه ابن حزم بعض ما يسميه « الطوام » التى وردت فى كتب يهود ، وهو الجانب الذى أفاض فيه فى كتاب الفصل · واعتذر فى ختام الرسالة عـــن ايراد شنع اليهود بمثل ما اعتذر به فى الفصل فذهب الى أن الله تعالى قص علينا مـن كفرهم ، فاقتدى هو بكتاب الله فى ذلك ·

ويختم الرسالة بقوله :

« وبالله تعالى نعوذ من الخذلان ، ومن معارضة الله تعالى فى حكمه باعزاز من أذله الله تعالى » ·

وفى المرية اعتقل ابن حزم ثم نفى عنها فاتجه الى بلنسية ، ثم عاد الى قرطبة فى شوال عام 409 هـ ، بعد غيبة طويلة عنها قاربت سبع سنين ·

وقد عاد ليبدأ فترة جديدة من حياته ·

ولكن ابن حزم حين عاد الى قرطبة عاد رجلا ناضجا قوى الشخصية مستكمل الارادة ·

وقد كانت المجالس التى اتيحت له فى المرية ، ونجاحه فيها ، وشهادة مناظريه له ، مما سدده فى سبيل النظر المستقل والرأى الذى لا يخضع الا لما يجتمع له من أداة تقنعه فى مسائل العلم والدين ·

دراسات ابن حزم الدينية فى هـــذه الفترة :

ظل ابن حزم متابعا دراساته الدينية فى هذه المرحلة أيضا وتلقيه عن شيوخ الحديث والفقه وممن جدد الصلة به من شيوخه منذ عاد الى قرطبة استاذه عبد الله بن يوسف الرهونى الذى يكثر الرواية عنه كثرة ملحوظة وقد عاش استاذه هذا الى سنة 435 هـ ٠

وفى هذه الفترة قتل الخليفة المستظهر وتولى المستكفى فنكل بشيعة المستظهر وأخذ ابن حزم سجينا وبقى فى السجن الى أن سقطت دولة هذا المستكفى الذى يقــول فيــه ابن حيان : حمار فى صورة انسان ٠

وبعد خروجه من السجن اتجه الى العامريين فى شاطبة ، شرق الاندلس وتخلص من خوض السياسة وخلص للعلم والدين والكفاح العلمى والمذهبى ثم انتقل الى قلعة البونت ثم الى ميورقة فى حماية حاكمها أحمد بن رشيق وأخذ ينشر علمه ومذهبه وهنا تتلمذ عليه حامل علمه الحافظ الحميدى ، ولكن فقهاء ميورقة سخطوا عليه وأثاروا الاحقـــاد ضده واستنجدوا بالباجى فورد على الجزيرة وناظر ابن حزم فكان سببا لمفارقة ابن حزم الجزيرة واستئنافه التجوال بل تحامله على ابن حزم كان سببا فى احراق كتبه ـ ابـــن حـــزم ـ فى اشبيلية وتمزيقها بأمر المعتضد العبادى صاحب اشبيلية ٠

ولما خرج من ميورقة قصد اشبيلية فكاده فقهاؤها حتى أفسدوا الامر بينــه وبـين المعتضد العبادى ، ومن اشبيلية ذهب الى قريته التى كانت ملكا له ولآبائه فى لبلة وهناك انقطع الى العلم تدريسا وتأليفا وقد مزقت كتبه وأحرقت باشبيلية ـ كما ذكرنا آنفا ـ وهو اذ ذاك فى قريته منت ليشم بكورة لبلة فى غرب قرطبة ، غرب الاندلس وتوفى رحمه الله تعالى ورضى الله عنه هناك عام 456 هـ ٠

مزاج ابن حــزم :

تميز ابن حزم بمزاج حاد عنيف سيطر عليه طول حياته ، وجر عليه ما جر من تأليب الناس ٠ وقد كان رحمه الله تعالى يعزو حدته لمرض فيه ٠

فهو فى نقاشه غير هادىء ، فكثيرا ما ينزل على المخالفين له لعنة الله وغضبه وقتاله ، وكثيرا ما يصمهم بالضلال والمروق والكفر والفسوق ، وأكثر من ذلك طعنه فى عقولهم وعلومهم ونياتهم ، وللاسف أن يقع فى هذا عالم جليل جاد الزمان بمثله ٠

ولكن لندع ما لا حيلة فيه ، ولنلتمس العذر لهذا النفس الخيرة والعقل الكبير ٠

لم تترك الصراحة والحدة والصلابة لابن حزم صديقا ولا شفيعا عند الناس ، يجتهد فى الرأى الاجتهاد الصائب ويتصيد الحجج القوية المحكمة ، ثم يشوه ذلك كله بعبارات التقريع حتى يزهد السامع فى خير الكلام وشره ، وحتى لا يكون عنده فى اجتهاده الصائب وحجته السديدة شافع لهفوته وحدته وبقى رحمه الله طول حياته يتلقى عواقب مزاجه مما لا يحمله أقوى الرجال رجولة ، ولا يزيده ذلك الا مضيا فى سبيله ، وعنادا فى جداله وحماسة فى كفاحه وعنفا فى خطابه ٠

والحق ان اندفاعه وغلوه فى الدعوة وحماسته لها لم تكن الا عن عقيدة واخلاص وتفان

والحق ان اندفاعه وغلوه فى الدعوة وحماسته لها لم تكن الا عن عقيدة واخلاص وتفان فيما يراه أنه الحق ، ومن كان فى هذه المرتبة من الجهاد لم يبال الهفوات الصغار من هاهنا وها هنا ٠

ولقد أشار ابن حيان بعض الاشارة الى هذا حين قال : « كان يحمل علمه ويجادل من خالفه فيه على استرسال فى طباعه ، وبذل بأسراره ، واستناد على العهد الذى أخذه الله على العلماء من عباده : « لتبيننه للناس ولا تكتمونه » ٠

على هذه الطباع قامت علائق ابن حزم مع الناس موافقين ومخالفين ٠

أخلاق ابن حزم :

البيت الذى نشأ فيه أبو محمد بن حزم بيت فضل وتهذيب ونبل ، فلا عجب اذا نشأ كريم الخلق ، جم المزايا ، طيب النفس ، وقد أجمع من ترجموا له على صدقه وتحريه وتدينه وزهده وورعه وحشمته وسؤدده وتواضعه وعفته (المقرى والذهبى وابن بشكوال وياقوت والفتح بن خاقان) عنى والده ـ وكان جليلا محتشما كبير الشأن ـ بتنشئته أحسن العناية ، ورأى هو من أفراد أسرته السرية من كانوا مثال الكمال وعلو الاخلاق ، وعاش محاطا بجماعة من طبقته فلم يصب بمعاشرة سفلة الناس ، وكان بمنأى عن الحاجة التى تعرض صاحبها للذل والاحتيال ، وجد الدنيا تجر أذيالها فى داره فتقلب فى نعيمها

ما شاء وبلغ من جاهها حتى منصب الوزارة ، ثم صدف عن ذلك كله وعكف على طلب العلم والمعـــالى ٠

أما أبوه الذى عرف أن السعادة لا تدوم لكائن ، فقد أخذ ولده بتوطين نفسه عـــلى الخشونة والقلة والنكد ، وكان فيما أوصاه : « اذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن على حالة الا رضيت بدونها» وأول ما تشاهده من كبر نفسه زهده فى جاه حاضر ، ودنيا مقبلة، مع مجد طريف وتالد فى الوزارة له ولابيه قبله مع تحريه الحق مهما جر عليه ٠

ثم صلابته فى المضيى فيه متحملا المكاره والشدائد ، ولم يذكروا من هناته « الا طول لسانه، واستخفافه ووقوعه فى أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأفظ محاورة وأمنع تمـرد » (تذكرة الحفاظ للذهبى) ٠

واذا طرحنا جانب المبالغة فى هذا القول وجدنا عذره فى ذلك ما كان يدفعه من مزاجه ومن حماسته فى سبيل ما يعتقد انه الحق ، ثم اندفاعه فى الجدل والنضال عن مذهبه ، مرخيا لحدته العنان ، وانكم لتعرفون أن أصحاب العقائد من الناس أبعد ما يكونون عن المجاملة والمداراة ٠

أما فيما لا يمس العقيدة والعلم فقد كان ابن حزم مطبوعا ــ كما قال : « على التـانى والتربص والمسالمة ما أمكنت » ٠

وعلى مقدار تشدد هذه الطبقة فيما يمس العقيدة تجد فيهم تساهلا وتسامحا فيمـا يمس أنفسهم وحظوظهم لدرجة يظنها الجاهل ، عجزا ورهبة ، وما هى بهما ، وانما وجهوا مواهبهم وعزائمهم جهة واحدة سامية صرفوا اليها جهودهم ووقفوا عليها تفكيرهم وقواهم وجعلوها محورا تركز كل شعورهم ، فلا يشغلهم عنها شاغل مهما أكبـــره النـــاس واهتموا بـــه ٠

وهذا هو السر فى زهد الانبياء ومن وليهم من طبقات المصلحين أولى العقـائد فى حظوظ أنفسهم وعدم الانتصار لها ومقابلتهم السوء بالاحسان ٠

حتى ليتجرأ عليهم ــ مع قوتهم ــ أضعف الناس ومن لا يدفع عن نفسه ٠

ولعل هذا أيضا يفسر لك اعراض ابن حزم عن دنيا نشأ فيها ووزارة ذاق حلاوتها ٠

أما وقوعه فى أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة فلا اخالك واجدا شاهدا عليها قط ·

وليس فى مخالفة أئمة الاجتهاد فى آرائهم ما يعد من هذا القبيل ، وما كان تركك اجتهادا ليعد طعنا فى صاحبه ·

والذى يعرف عن ابن حزم أنه كان جم التواضع جم الادب مع الاحياء والاموات ·

سبب اختياره للاجتهاد على طريقة الظاهرية :

بعد أن عاد شيخنا ابن حزم الى قرطبة لم تلبث مظاهر شخصيته القوية المستقلة أن أخذت فى الظهور والاعلان عن نفسها ، فلم يكفه أن خرج على المذهب المالكى السائدين أهل الاندلس واصطنع مذهب الشافعى حتى تجاوز بعيدا الى مذهب آخر يرفض هذه المذاهب المعروفة جميعا ، اذ يخالفها فى أحد الاصول الاولى التى بنت عليها وهو القياس، وذلك هو مذهب داود بن على الاصبهانى ، رأس المذهب فى الشرق ، ان هذا المذهب يعد غريبا بين أهل الاندلس ، وان وجد بعض الاتباع له فيهم ·

ـ كقاضى الحضرة الشهير منذر بن سعيد البلوطى ، وأبى الخيار أستاذ ابن حزم ـ مع ما فى ذلك من مواجهة الاذى والتعرض للمكروه ·

اختار امامنا ابن حزم طريقة لاجتهاده شبيهة بطريقة الظاهرية وعلى رأسهم أبى سليمان ، اذ رأى أن صناعة القياس أخذت تبسط سلطانها ، ويشتد اغراؤها للفقهاء ، فيذهبون بها المذاهب المختلفة فى التشريع والافتاء ·

وقد أتيح له أن يدرس الفقه فى مذاهبه المختلفة ، وأن يقرأ من كتب المذاهب المعتبرة طائفة غير قليلة ، يمكنك أن تعرفها فى رسالة « فضل علماء الاندلس » التى نقلها صاحب النفح بنصها ، وأن يمعن فى الاحكام التشريعية التى جاءت بها هذه المذاهب ، ودونتها هذه الكتب نظرا وتأملا وتتبعا وفحصا بتعرف مصادرها وموادها ·

وأسباب التخالف بينها ، واختلاف السبل بها ، وكيف كان هذا التفاوت البعيد فيها ، اذا كانت تصدر عن أصول لم يختلف المسلمون عليها : وهى الكتاب ـ كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة بصحة أسانيدها وعدالة رواتها وناقليها ·

فما بال الاختلاف البعيد والافتراق الشديد اذن ؟

انما هو القياس والرأى يحكمونه فى هذه النصوص ، ويمعنون فى هذا التحكيم ·

فاذا هى خاضعة لهم هم ، اذ كان هذا القياس شيئا مختلفا ، لا ميزانـا ، ثابتـا عـادلا ·

فهم انما يصدرون اذن فى هذه الاحكام التشريعية عن الهوى الذى يسمونه قياسـا ورأيـا ·

ومن ذلك كان اختلاف هذه الاحكام ذلك الاختلاف المتباعد الاطراف ، وذلك التشتت الذى لا يكاد يضبطه ضابط ·

« وجميع أهل القياس مختلفون فى قياساتهم ، لا تكاد توجد مسألة الا وكل طائفة منهم تأتى بقياس تدعى صحته ، تعارض له قياس الاخرى ، وهم كلهم مقرون على انـه ليس كل قياس صحيحا ، ولا كل رأى حقا » (المحلى) ·

وأيضا ان الفساد الذى تعرضت له الحياة الاجتماعية فى الاندلس عامة ، وفى قرطبة خاصة ، كان له أثره فى البيئات الفقهية والقضائية ·

وكان القياس وما اليه من الاستحسان مركبا ذلولا طيعا استطاع به جماعة مـن الفقهاء أن يوائموا بين أحكامهم وفتاواهم ، وبين مقتضيات الحياة الفاسدة التى اطرحت فيها مبادىء الخلق والضمير اطراحا ، ومسخت فيها كل أصول الدين وآدابه مسخـا ، وأصبح الرجل العاقل فيها هو « من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد » كما يقـول أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم ·

فمثل هذه « الوصولية » التى أصبحت خلق العصر ، وذلك النفاق الذى أصبـح قوام الحياة « العاقلة » لا يمكن الا ان يضع ميسمه ويترك أثره على الحياة التشريعية فى قرطبة خاصة ·

وبذلك لم يقف القياس والاستحسان واعتبار المصلحة عند الحدود التى وضعت لها ، بل اتسع فيها وتسومح فى رعاية الشروط المفروضة لها ، والقيود المضروبة عليها ·

وذلك شيء يشبه الفوضى التى لا ضابط لها ·

فكان من الطبيعى الذى يجارى منطق الامور أن يحدث لهذا رد فعل ، كالذى حدث فى بغداد فى القرن الثالث الهجرى بمنع القياس البتة ، فضلا عما عداه مما هو أبعد مدى عن قيود النص ·

وكان ابن حزم أصلح من تظهر على يديه حركة رد الفعل فى شكل ثابت قوى ، اذ كان رجلا عالما واسع الاطلاع على المذاهب والآراء المختلفة ، واذ كان رجلا من أصحاب المبادىء الذين يضعون دينهم وخلقهم وضميرهم ومعتقدهم فوق كل اعتبار ·

واذ كان رجلا صريح النفس ، مستقيم الخلق ، لا تغشيه غاشية ، ولا يقوم دون ضميره حجاب ، يكره المواربة ، ويبغض الالتواء ، ويمقت التأول ، يمضى الى غايته قدما لا يخاف فى الله لومة لائم ، ويأخذ السبيل الى هدفه مباشرة ، دون مداورة ·

ثم كان مع هذا كله شديد الثقة بنفسه ، والاعتداد بها ، والاعجاب بمواهبها ·

وبعد هذا كله فهو رجل سيء الظن بالناس ، وسوء الظن هذا صفة أصيلة عنده ، نشأت معه فى حياته المقصورة الاولى، وقوتها الاحداث التى عركها وعركته، حتى كان ذلك كالطبيعة له ، فكان يقول : « محن الانسان كثيرة ، وأعظمها محنة بأهل نوعه من الانس » ويقول : « داء الانسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة ، والافاعى الضارية لان التحفظ من كل من ذكرنا ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الانسان أصلا » ·

وهو بذلك لم يكن يعد هذا الخلق عيبا من عيوبه ، بل يقره وينكر على من ينكره ، اذ يقول : « وأما سوء الظن فيعده قوم عيبا على الاطلاق ، وليس كذلك ، الا اذا صاحبه ما لا يحل فى الديانة أو ما يقبح فى المعاملة ، والا فهو حزم ، والحزم فضيلة » (الاخلاق والسير) ·

بهذا الخلق الناقم المتشائم ، وبهذا الطبع الصريح المستقيم الواضح جعل ابن حزم ينظر الى هؤلاء الفقهاء والقضاة ، وما يستنبطونه من الاحكام ويقضون به ـ فاذا هو سيء الرأى فيهم ، شديد النقمة عليهم ـ ·

وانما هو القياس عنده هو الذى مكن لهم أن يقولوا فى الدين برأيهم ، ويحكموا فى كلام الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أهواءهم ، حتى كانت هذه الفوضى التشريعية فى رأيه ٠

وهكذا أتيح لظاهرة « رد الفعل » أن تجد فيه معبرا عنها ٠

فانصرف ابن حزم عن المذهب الشافعى الذى لم يخل فى اعتناقه من مؤاخذة مواطنيه، الى الاجتهاد على طريقة المذهب الظاهرى الذى يرجع بالدين وأحكامه الى ظاهر النص وحده ٠

وأيضا يمكن أن يكون ابن حزم قد تأثر بأستاذه أبى الخيار اذ كان « داودى المذهب لا يرى التقليد » ، كما يمكن انه تأثر أيضا بالقاضى منذر بن سعيد اذ كان منذر هذا « داودى المذهب قويا على الانتصار له » وكان ابن حزم معجبا به ومكبرا له وقد اطلع على كتبه ٠

وبدأ ابن حزم بذلك عهدا جديدا تعرض فيه لنوع آخر من الاضطهاد ، اضطهاد الفقهاء ، وجمهرة علماء الدين ، استطاع أن يثبت له ٠

كما بدأ عهدا جديدا من النشاط العقلى فى تقرير مذهبه هذا وتوطيد أركانه والدفاع عنه ، ظهرت فيه شخصيته أقوى ظهور ، بما كان يعقده ويديره من المناظرات المتصلة العنيفة بينه وبين أولئك الفقهاء ٠

وقد امدته ملكاته العقلية وشدة مراسه ، وحافظته الواسعة القوية وطلاقة لسانه ومتانة خلقه ، بما اظهره فى هذه الخصومة من الناحية العقلية ومن حضور الدليل واستحضار الشواهد وأذاع من شأنه فى البيئات العلمية ٠

وأنت يمكنك ان تتصفح كتابه « المحلى » لترى مناظرة الامام ابن حزم فى هذا المذهب الذى اصطنعه لنفسه ولترى اندفاعه فى المهاجمة دون هوادة أو مصانعة ٠

ولم يكن ابن حزم ظاهرى المذهب فى أمور الفقه ومسائل التشريع فحسب ٠

بل ان ظاهريته كانت أعمق واكثر من أن تنحصر فى دائرة الفتيا والتشريع وأصول الفقه ، فقد وجهت آراءه فى العقائد والمذاهب الكلامية وجهتها ، وطبعتها بطابعها ، فهو ظاهرى فيها كما هو ظاهرى فى الفقه والتشريع ٠

ولم تكن الفوضى فى هذه الدائرة ـ دائرة العقائد ـ أقل منها فى مجال الفقه ، ان لم تكن أكثر وأخطر ٠

وقد أجمل أبو محمد مذهبه هذا فى قوله :

« وجملة الخبر كله ان تلزموا ما نص عليه ربكم تعالى فى القرآن بلسان عربى مبين ، وما صح عن نبيكم صلى الله عليه وسلم ، برواية الثقات من أئمة اصحاب الحديث رضى الله تعالى عنهم ، مسندا اليه عليه السلام ، فهما طريقتان يوصلانكم الى رضى ربكم عز وجل (الفصل) ٠

وهذه النصوص كافية مبينة عن نفسها بنفسها ، لا شىء من دين الله خارج عنها أو مستتر وراءها : « واعلموا ان دين الله ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لاسر تحته ، كله برهان لا مسامحة فيه ٠ واتهموا كل من يدعو الى أن يتبع بلا برهان ، وكل من ادعى للديانة سرا باطنا ، فهى دعاوى ومخارق ٠

واعلموا ان رسول الله صلى الله وسلم ، لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ، ولا أطلع أخص الناس به ، من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب على شىء من الشريعة كتمه عن الاحمر والاسود ورعاة الغنم ولا كان عنده عليه السلام سر ، ولا رمز ، ولا باطن ، غير ما دعا الناس كلهم اليه ، ولو كتمهم شيئا لما بلغ كما أمر ٠ ومن قال بهذا فهو كافر ، فاياكم وكل قول لم يبن سبيله ، ولا وضح دليله ، ولا تعوجوا عما مضى عليه نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضى الله عنهم » (الفصل) ٠

ودلالة هذه النصوص التى هى المرجع الاصيل فى العقيدة الاسلامية هى الدلالة اللغوية :

« وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغة فرض لا يجوز تعديه ، الا بنص أو اجماع ، لان من فعل ذلك أفسد الحقائق والشرائع كلها ، والمعقول كله » (الفصل) ٠

« ومن أحال شيئا من الالفاظ اللغوية عن موضوعها فى اللغة بغير نص محيل لهـا ، ولا باجماع من أهل الشريعة ، فقد فارق حكم أهل العقول والحياء ، وصار فى نصـاب من لا يتكلم معه » (الفصل) ٠

فالرجوع الى النص والاعتماد عليه انما يكون بوساطة هذه الدلالة اللغوية المتفـق عليها بين أهل اللغة ٠

وذلك ما يصر ابن حزم عليه اصرارا ، ويكرره تكرارا ، فى كل مناسبة ، وفى سياق كثير من المناقشات التى يمتحن بها آراء خصومه ، كقوله فى سياق الكلام عن تحديـد الجسم ، والفرق بينه وبين الشىء والحق والحقيقة والمثبت ٠

« هذا حكم هذه الاسماء فى اللغة التى هذه الاسماء منها ، فمن أراد أن يوقع شيئـا منها على غير موضوعها فى اللغة ، فهو مجنون وقاح ، وهو كمن أراد أن يسمى الحـق باطلا والباطل حقا ، وأراد أن يسمى الذهب خشبا ٠

وهذا غاية الجهل والسخف ، الا أن يأتى نص ينقل اسما عن موضوعه الى معنى آخر، فيوقف عنده ، والا فلا ، وانما يلزم كل مناظر يريد معرفة الحقائق أو التعريف بها أن يحقق المعانى التى يقع عليها الاسم ، ثم يخبر بعد بها أو عنها بالواجب ، وأما مـزج الاشياء وقلبها عن موضوعاتها فى اللغة ، فهذا فعل السوفسطائية الوقحاء الجهال العابثين لعقولهم وانفسهم » (الفصل) ٠

وفى جميع هذه الاقوال تجده انما يجيز العدول عما يدل عليه الوضع اللغوى حين يكون هناك نص محيل لهذه الدلالة ، أو اجماع يصرفها ٠

وقد زاد حالة ثالثة فى موضوع آخر فصل فيه القول ، وهى ضرورة الحس ، وذلك اذ يقول : « ان كلام الله تعالى واجب أن يحمل على ظاهره ، ولا يحال عن ظاهره البتـة ، الا أن يأتى نص أو اجماع أو ضرورة حس ، على أن شيئا منه ليس على ظاهره ، وانـه قد نقل عن ظاهره الى معنى آخر ٠

فالانقياد واجب علينا لما أوجبه ذلك النص أو الاجماع أو الضرورة ، لان كلام اللـه تعالى وأخباره وأوامره لا تختلف ، والاجماع لا يأتى الا بحق ، والله تعالى لا يقول الا الحق ، وكل ما أبطله برهان ضرورى فليس بحق » (الفصل) ٠

هذه النصوص بيان لظاهرية ابن حزم فى ناحية الاصول ٠

لقد استطاع أن يقيم هذا المذهب فى جميع المسائل الكلامية ، وأن يطبق مبادئـه تطبيقا بارعا دقيقا ٠

وأن يحتج برأيه فى هذه المسائل احتجاجا قويا ، وأن يخاصم فيه جميع المتكلمين دون استثناء مخاصمة عنيفة ، يبسط فيها حجته بسطا رائعا ، كما يبسط فيهم لسانه أحيانا بسطا لاذعا ، انتصارا لهذا المذهب الذى اصطنعه فى الكلام ، كما اصطنعـه فى الفقـــه ٠

ولا نعرف أن له فيه سلفا يقرره هذا التقرير ويبسط مبادئه ذلك البسط ، انما هى بعض المسائل المفردة يذكرها هو لمثل الشافعى وداود الاصفهانى (الفصل) ٠

وهكذا اوقف ابن حزم وحده هنا فى مسائل الكلام ، كما وقف وحده هناك فى مسائل الفقه والتشريع ٠

وكان ابن حزم قد اتيح له أن يدرس المذاهب المختلفة دراسة عميقة مفصلة ، وأن يستحضر فى ذهنه تفصيلاتها ودقائقها استحضارا دائما ، وأن يعرف من تاريخ هـــذه المذاهب وسير أصحابها ما يعينه على امتلاك ناصية القول فيها ٠

ولقد يمكنك من خلال قراءة كتابه (الفصل) أن تتمثل فى سير مبلـغ مطالعاتـــه الكثيرة ودراساته المفصلة لكتب المتكلمين من أهل المذاهب المختلفة من المشارقة والمغاربة كالنظام والجاحظ والباقلانى وأبى جعفر السمناى ومحمد بن زكرياء الانصارى ومحمـــد ابن الحسن بن فورك وابن مسرة الى كثير غيرهم ٠

ومهما يكن من أمر فان ابن حزم أخذ يهاجم هذه المذاهب والآراء الكلامية المختلفة ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما اتيحت له الفرصة لمهاجمتها ، بل لـــم يكتف بمجالس المناظرة التى كانت تنعقد بينه وبين خصومه من هذه الطوائف المختلفة ، وقد كانـــت

ممثلة فى الاندلس تمثيلا وافيا ، بل انه جعل يضع فى ذلك الرسائل والكتب ، كذلك الكتاب الذى أشار اليه فى الفصل واضافة اليه : وهو « النصائح المنجية من الفضائح المخزية ، والقبائح المردية ، من أقوال أهل البدع ، من الفرق الاربع ، المعتزلة ، والمرجئة، والخوارج ، والشيع » • وهذه الفرق الاربع كانت معروفة منتشرة فى أرجاء الاندلس فى ذلك الوقت ، كانت كل واحدة منها تنطوى على فرق مختلفة وآراء متعارضة ومذاهب كثيرة ، وان يكن يجمعها أصل المذهب الذى تنتمى اليه •

وكل ذلك مما كان يجعل الفكر الاسلامى أقرب الى الفوضى التى لا ضابط لها •

والى جانب هذه الطوائف الاسلامية كانت هناك طوائف اليهود والنصارى والملاحدة تضطرب بمختلف النوازع ، وشتى الآراء والاهواء ، وتصطنع فى ظهورها والتعبير عن نفسها المظاهر المختلفة والاساليب الكثيرة •

كل ذلك كان يتمثله ابن حزم فى ذهنه تمثيلا واضحا متميزا •

وقد وقف من هؤلاء جميعا موقف الرجل المكبر لنفسه ، المعتد أكبر الاعداد برأيه ، المؤمن القوى الايمان بمذهبه ، وقد اتسمت مناظراته لهؤلاء ومناقشاته بقوة الحجة وسطوح الدليل • كما اتسمت فى أكثر الاحيان بعنف الكلام والتهجم على المناظر بألوان مختلفة من السباب والتسفيه والتكفير والتفسيق •

وهى سمة ترجع فى بعضها الى ما كان يعانيه من مرض عضوى يتصل بكيانه الجسدى وهو المرض الذى أشار اليه وهو يتأمل نفسه ويحلل حالاته ويعللها ، فيقول :

« ولقد أصابتنى علة شديدة ، ولدت على ربوا فى الطحال شديدا ، فولد على ذلك من الضجر وضيق الخلق ، وقلة الصبر ، والنزق ، أمرا حاسبت نفسى فيه ، اذ انكرت تبدل خلقى واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح ، اذا فسد تولد ضده » (رسالة الاخلاق) •

ومهما يكن من أمر ، فهكذا كان شأن ابن حزم فى خصومته العلمية والدينية ، وفى موقفه من علماء عصره ، سواء الفقهاء والمتكلمون ، وسواء المسلمون وغير المسلمين ، وذلك أول ما تحسه فى كتابه « الفصل » •

وقد كان ذلك من أول ما أفسد بينه وبين معاصريه ، وأثار عليه الزوابع والاعاصير ·
وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وأهل عصره ، وما زال هذا الصدع يتفاقم ويتسع ، وما زالت الاعاصير تهزه من كل جانب ، وهو ماض فى سبيله لا يكاد يعبأ بها فهو يرى نفسه موكولا اليه محاربة هذه المذاهب والآراء ، واذاعة المذهب الذى يراه هو المذهب الحق ، وانه بأداء هذه الرسالة يحقق الحق ويبطل الباطل ، وأن ايمانه بهذا على هذا الوجه يجعله لا يقيم وزنا لانكار الناس وما يثيرونه عليه وما يحيطونه به من تنفير العامة عنه ·

بل انه ليرى فى موقفه من انكار الناس فضيلة من أكبر فضائله ، ونقيبة من أجل ما يجب أن يحرص عليه من نقائبه : « وهو اطراح المبالات بكلام الناس ، واستعمال المبالات بكلام الخالق عز وجل » على حد تعبيره ، وكما يقول فى هذا الموضع نفسه :

« من حقق النظر ، وراض نفسه على السكون الى الحاقائق ، وان آلمتها فى أول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس اياه ، أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم اياه » (رسالة الاخلاق والسير) ·

فهو اذن لا يكتفى بعدم المبالات بانكار الناس عليه ، بل يلذ له ذلك الانكار ، ويستشعر الغبطة به

أسلوبه :

يغلب على أسلوب بن حزم الاطناب بدل الايجاز · فهو لا يكتفى الا بالقول المسهب · وربما كرر بعض معانيه فيردد القول فى كل مكان احتاج اليه ، وكذا لا مانع أن يذكر المعنى الواحد فى كتاب واحد فى مواضع كثيرة منه ·

ولذلك الاطناب جاءت كتبه بينة واضحة ، لا اغلاق فيها ولا ابهام ، بل المعانى فيها ضاحية مكشوفة قريبة ·

وانه لهذا الاطناب يثبت المعانى التى يقصد اليها فى قلب القارىء ، وانه ليعتمد على ذلك التكرار فى تثبيتها ، وتوثيقها ·

ومثله مثل الخطيب الذى يكرر معانيه التى يريد تقويتها ليكون لها مجرى فى نفس السامع ، من غير أن يكون التكرار مملا ولا ذاهبا برونق القول وجمال التعبير·

جـدل ابن حـــزم :

كان ابن حزم رجلا جدليا بحق .

وأول وصف لمنهاجه فى الجدال انه كان مخلصا فى طلبه الحق ، ولا يبغى بجدله الغلب المجرد ولا الاستطالة بلسانه أو قلمه ، أو اختيار المجالس والسيطرة عليها ، انما كان يقصد طلب الحق لذات الحق فى نظره ، وتحرير القول فى دين الله .

ولقد صرح هو بذلك ، وانه مستعد لترك ما يقول الى غيره ان تبين له وجه الصواب فيما يقولهمخالفه ، فان طالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله حيث يكون .

وابن حزم فى مناقشته مع غير المسلمين وصد هجومهم عن الاسلام كان مسلكه غير مسلكه مع علماء المسلمين من حيث أصل الاستدلال ، لا من حيث شكل المناقشة .

لقد كان يعتمد فى مناقشة الفلاسفة على العقل المجرد ، فهو فى ابطالــه أقوالهـــم فى أن العالم صدر عن الله صدور العلة عن المعلول ـ اعتمد على البدهيات العقلية المجردة التى ترد اليهاالمقدمات المنطقية العقلية .

وفى مناقشته اليهود والنصارى قد اعتمد على بدهيات العقول ، وسلك سبيـــل الالزام لافحامهم والزامهم بنصوص محترمة عندهم .

وانه لا يكتفى بالدفاع عن الاسلام ، بل ينتقل الى الهجوم ، فيحلل نصوص التوراة بتحليل الخبير العالم بموارد هذه النصوص ومصادرها ، ويشرح أخبارهم وأحوالهم فى استقصاء دقيق عام .

هذه هى طريقة مناقشته لاقوال غير المسلمين .

أما مناقشته لاقوال علماء المسلمين من الفرق وأصحاب المذاهب والمقلدين لهـــا ، فقد كان لها منهاجان لانهما نوعان يختلف كل نوع باختلاف منهاجه .

فالفرق الكلامية كالمعتزلة تجده فى مناقشتها يعتمد كثيرا على العقل ، لانهم تصدوا لمسائل عقلية فهو يناقشهم مناقشة عقلية ، ويحاول أن يرد ما يدعيه الى أصل بدهى ، ويرد ما يدعى خلافه الى أقوال غير اسلامية ، وهو فى أثناء ذلك يشدد فى القول شأنـــه دائمـــا .

أما مناقشته لاقوال الفقهاء والمحدثين فانها نوع آخر • عمل العقل فيها محدود ، وليس بكثير فلا يعتمد على العقل المجرد فى مناقشة هذه الآراء ، بل يعتمد على النصوص والآثار وقواعد استنباط الفقهاء •

وتراه فى هذه الدراسة ومناقشة الاقوال المختلفة يرسل اليها ارسالا من الفكر الاسلامى من الاحاديث النبوية ، والآيات القرآنية •

انه يبتدىء فى مناقشته لاقوال مخالفيه ، بعرض الامر موضوع الخلاف ، يعرضه فى صورة واضحة نيرة محررا موضع النزاع فى دقة ، حتى لا يكون للابهام موضع ، وكأنه يرى رأى سقراط : وهو أن تحرير موضع النزاع يذهب الخلاف ، وان كان الخلاف قد تفاقم •

واذا حرر موضع النزاع ساق حجة المخالف له نـيرة واضحة ، وأحيانا يفصلها تفصيلا ، وأحيانا يوجز فى سياقه لها ، ولا يفصل القول فيها ، ولكنه فى اجماله وتفصيله لا يترك حجة يمكن أن تقال •

واذا بين ذلك أخذ يفند هذه الحجج فى عنف فى أكثر الاحيان ، وبعد ذلك التفنيد يسوق حججه فى هذا الموضوع • وفى بعض الاحوال القليلة يقدم الاثبات على التفنيد بأن يقدم الحجج الذى يبنى عليها رأيه على تفنيد أقوال مخالفيه •

وهو فى تفنيد لاقوال مخالفيه يعمد مع الرد الايجابى الذى يعتمد على أصول دينية ثابتة عنده ــ الى طريق الافحام والالزام •

فيرد أقوال المخالف بمناقضتها لاقوال أخرى قد قررها المخالف فى غير هذا الوضع ، وكل ذلك فى دائرة اعتقاده ــ ابن حزم ــ وظنه •

مصنفاتـــه :

أحصاها بعضهم فبلغت نيفا وخمسين مؤلفا • وقد ذكر أبو مروان بن حيان : أنـه كمل من مصنفات ابن حزم وقر بعير لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيهـا ، حتى لأحرق بعضها باشبيلية ومزقت علانية • وقال صاعد : أخبرنى ابنه الفضل المكنى

أبا رافع ، بن علي أبو محمد « أنه اجتمع عندى بخط أبى من تواليفه فى الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب، والرد على المعارضين، نحو أبعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ٠ ثم قال صاعد : « وهـــذا شيء ما علمناه من أحد ممن كان فى دولة الاسلام قبله الا لأبى جعفر بن جرير الطبرى ، فانه أكثر أهل الاسلام تاليفا الخ » ٠



الخطابة فى النثر الجزائرى الحديث

د ٠ عبد الله ركيبى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

كانت الخطابة فى العصر الجاهلى احدى الفنون الادبية التى انتشرت بصورة كبيرة لانها تلائم ظروف ذلك العصر ، كانت القبائل العربية تعيش حياة مضطربة فى كثير من الاحيان ، وكان الخطيب لسانها مثل الشاعر يعبر عن مواقفها فى السلم والحرب ٠

ومع أننا لا نجد كثيرا من الخطب التى قيلت فى ذلك الوقت لعدم التدوين حينذاك ، فان ما بقى من بعض الخطب يدل على قدرة فى الارتجال امتاز بها العرب ويؤكد ما عرف به الخطباء من فصاحة وبلاغة ٠ ثم تطورت الخطابة بعد ظهور الاسلام وتغيرت فى اسلوبها ومحتواها ، نظرا للعقيدة الجديدة وطريقة نشرها وتعددت أساليبها وتنوعت أفكارها ٠

ولكن حين جاء العهد الاموى رجعت الخطابة الى ما يشبه عصر الجاهلية من حيث المنافحة عن القبيلة والدفاع عنها ، ولكنها القبيلة السياسية والحزب السياسى ، ووجد الخطباء مجالا خصبا فى هذا الصراع السياسى والصراع الدينى بين الفرق الاسلامية لذلك اتسعت الموضوعات وتعددت الاساليب وبرز خطباء لهم شهرة فائقة امثال « الحجاج ابن يوسف » الذى عرف بالبيان والارتجال والصياغة ·

ولما جاء عهد العباسيين استمر الصراع أيضا وتنوعت الثقافة العربية وتوسعت لتستوعب ثقافات أخرى ، الامر الذى أسهم فى أن تصبح الخطابة فنا منظما أكثر منه فنا مرتجلا ، على أن العباسيين قضوا على المصارعة نسبيا ومن ثمة اتجه الخطباء الى الدين والموعظة والتنويه بالخلفاء وغير ذلك ·

وحين تدهور الادب العربى فى العصور التالية حتى عصر الاتراك باتت الخطابة تقليدا أكثر منه ابداعا وفنا ، ومالت الى الرتابة ، بحيث ظهر التكلف فى اسلوبها وطابعها العام وبلغت الخطابة نهاية التدهور فى العهد التركى، واقتصرت اغراضها على المناسبات الدينية، يكرر الخطيب معانى السابقين ولكن باسلوب ضعيف وصياغة جامدة ·

وما كان يمكن ان تستمر الخطابة على هذا النحو فى الجزائر بعد الاحتلال ، لولا ظهور الامير عبد القادر ، وبعض المثقفين الجزائريين الذين ملكوا ناصية القول ، وادركوا خطر الخطابة فى الدعوة الى الجهاد واستنفار الذين يحاربون الاعداء ، خاصة وان فترة الاحتلال كانت تساعد على هذا اللون من النثر ، لان الصراع بين الجزائر والاستعمار ، بلغ ذروته فى الثلاثينات والاربعينات من القرن الماضى ، الامر الذى ساعد على ان يتغير أسلوب الخطابة ومضمونها أيضا ، فالنماذج التى بقيت لنا من تلك الفترة تدل على أن الخطابة تحررت من اسلوب السجع المتكلف ، المقصود لذاته · ومالت الى البساطة فى التعبير والقصد فى القول ، دون اطناب الا فى المناسبات التى تقتضى الاقناع ، فحينئذ يكون المجال مجال تفصيل أما فى الاستنفار للكفاح والحرب فان المجال يقتضى التركيز والايجاز ، ويقتضى التعابير الحماسية الفياضة المتفجرة ·

فخاصية الحماسة فى تلك الخطب من أبرز السمات التى نلاحظها فى انتاج الخطباء فى ذلك العصر لان الخطيب كان فى موقف يحتاج معه الى ان يدعو الناس الى القتال

ومكافحة الفرنسيين الغزاة · وهناك خاصية أخرى بارزة للعيان وهى ان النظرة الدينية تطغى فى الخطب التى بقيت من تلك الفترة ، فالنظرة الدينية كانت تغلب لا على الخطباء وحدهم ، بل على المجتمع الجزائرى بوجه عام ، فقد كان الغزاة فى نظر الناس كفارا ، جاءوا لاحتلال بلد عربى مسلم · ويتضح هذا فى الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة التى كان الخطيب يستشهد بها على موضوعه ، ويؤكد رأيه بهذه الشواهد القاطعة ، ليثير الحوافز الكامنة فى النفوس والتى تستجيب للعقيدة الدينية بقوة اليقين فيها ؛ أما الخاصية الاخرى التى نلحظها فى هذه الخطب وهى أن أسلوبها كما أشرنا اسلوب واضح لا تكلف فيه ، وان السجع يأتى تلقائيا ، ولكن العناية به ليست مقصودة ، وانما تأتى عفو الخاطر الا فى النادر ، حين يقصد اليه الخطيب قصدا لاظهار قدرته وبراعته فى اللغة وتبحره فيها ومعرفته الواسعة بمفرداتها وأساليبها ، ولكن على العموم فان الخطيب فى تلك المرحلة قد خطا بالخطابة خطوة طيبة من حيث الصياغة فتحررت من الركاكة ومن التعقيد ومن التراكيب المحفوظة وأصبحت فنا هدفه الابانة والافصاح عن الرأى لا التلاعب بالالفاظ والتقليد الجامد للاقدمين ·

وكما ذكرنا فان الحرب ضد المستعمرين وظروف الصراع أسهمت فى أن تصبح وظيفة الخطابة هى التعبير عن قضية وطنية ، أو عن عقيدة روحية بدل ان كانت قبل الاحتلال تعبيرا عن موضوعات مستهلكة ، ولا شك انّ التغيير الذى طرأ على البيئة الجزائرية فى مرحلة الصراع ضد الاعداء قد لون هذه الخطب بلون الحماسة ، كما ذكرنا ، وساعد على أن تنشأ خطابة عربية سليمة فى هدفها وأسلوبها ·

فالامير فى احدى خطبه يوضح موقفه تجاه السلم والحرب ، خاصة حين نقض الاعداء احدى المعاهدات فلا يجد سوى هذا الاسلوب الحماسى الذى يحث على القتال ، طريقا لاستنهاض الهم ، وبعث النخوة فى النفوس حين يقول :

(أما بعد ، فلا يخفى أن الله تعالى قال فى كتابه المجيد : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يولونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ») ·

فالبداية بالقرآن تحرك نفوس الجنـود ، وتساعد على التـأثير فى نفوسهم وتهيئهم لأن يقتنعوا بالافكار التى فيها حث على قتال الفرنسيـين بعد أن نقضوا العهد : (وهؤلاء القوم قد عادناهم فنكثوا العهد وصدقناهم وصابرناهم فلم يصبروا وان تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة) • ونحس من هذه التعابير تأثرا بأسلوب « على بن أبى طالب » وطريقته فى مراعاة الفواصل •

وبعد أن أعد النفوس للأمر الذى يهدف اليه وبـين كيف أن الاعداء لم يحافظوا على المواثيق والعهود ، يتجه الى جنوده يدعوهم لتلبية نداء الجهاد : (فهيا بنا أيها المسلمون الى الكفاح ، وهلموا اليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل ، وأزيلوا من قلوبكم دواعى الخوف والوجـل • **أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا ومن بقى نال الفخـار وعاش سعيدا**) •

ويلفت نظرنا فى هذا النص هذا الشعار الذى نردده اليوم ، بينما ردده الامـير منذ أكثر من قرن ونصف تقريبا • الامر الذى يؤكد هذا التواصل بـين الاجيال فيما يتعلق بالوطن ومصيره ونظرة الاجيال الى حرب التحرير ، والتضحية من أجل حريته واستقلاله•

ويؤكد هذا الاسلوب ان الامـير استخدم الخطابة للتأثـير وهذا هدف الادب والفن • كما استخدم التعابـير المنتقاة ، واختار لافكاره ألفاظا فيها البساطة بقدر ما فيها مـن الايجاز ، وهى طريقة تناسب غرضه فى موقفه ونظرته للمعركة واذا لاحظنا السجـع فانه غـير متكلف ، كما انه ليس عاما فى خطبه وليس مقصودا لذاته • ثـم ان الامـير لا يطيل فى هذه الخطبة ولا يطنب بحيث نحس بالملل حـين نقرأ خطبه كما لا يجرى وراء المعانى الدقيقة وانما يوجز فى كل ذلك بصورة واضحة •

على أن عمه أبا طالب فى خطبة أخرى ، يتحدث بكثير جدا من الاطناب ويعنى بتفصيل الاحداث ويوازن بـين السجع والارسال فى سلامة ظاهرة ، وربما كان للمناسبة أثرها ، فى اطنابه ، لانه أراد أن يقنع قادة الجيوش الجزائرية واقناع الناس بالهدنة مع الفرنسيين، فكان يعيد الى الاذهان هذا الموقف ، أو ذاك فيتحدث عـن الاوضاع التى كانت عليهـا البلاد ، وما حدث فيها بعد الاحتلال • وهو يريد أن يلفت النظر الى الاضطراب الـذى

حدث فى المجتمع والامراض الاجتماعية التى انتشرت بين الناس ويعتمد على العاطفة الدينية ليعظ الناس ويؤثر فيهم أيضا • يقول : « قد علمتم أيها السادة ، انه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمال ومن وافقهم على ارتكاب المآثم ، انتقم الرب تعالى منهم وعمنا ذلك معهم • قال تعالى : واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ••• » ولكى يصل الى غرضه وهو وعظ الناس بالواقع الذى تدهور بسبب المآثم التى ارتكبها المسؤولون عن الشعب فى عهد الاتراك ، واستغلوه ولم يراعوا الاخلاق وما يأمر به الدين ، فان الخطيب مهد لغرضه هذا ليصل الى ما يريد فيقول : « فسلط الله علينا عدو ديننا فتكالب على بلادنا واستولى عليها **واستبدل مساجدها بالكنائس** » •

فهذه الفقرة تشير الى نظرة الخطيب تجاه الاحتلال ، وهى نظرة دينية اخلاقية ولكنها تشير الى أن المحتلين أخذوا منذ البداية فى تغيير المعالم الوطنية الروحية الثقافية حتى أقفرت : (من الدرس والدارس) ، ومن هنا ينطلق لوصف الحياة المضطربة التى كان عليها الشعب فى عصره وينقل لنا هذا التغيير والاضطراب ، والقلق الذى يسيطر على النفوس سواء فى عهد الاتراك أو عند بداية الاحتلال ، وهو وصف حى للواقع الذى عرفته الجزائر فى عصر طغت فيه المظالم على الشعب بحيث سكن الناس فى الخيام ، هربا من الاضطهاد ، وضاقت بهم الارض رغم امتدادها ، واتساعها ، من شدة الهول وقسوة الحياة : « فخرج لذلك أهل قطرنا وضاقت بهم أرض مغربنا واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر ومضارب الوبر وتفرقوا أوزاعا فى المواطن وتباينوا فى الموارد والمعاطن وتغيرت الاحوال واشتبه الممكن بالمحال وتوالى الحل والارتحال ، وضعف الرجاء فى أن يؤوب المسافر ويعود الشارد النافر الى أن طالت القصة وعزما ندفع به هذه الغصة ، ومالت شمس الاتفاق الى الافول وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول » •

هكذا وصف عم الامير فى خطبته ما آل اليه الامر ، يصف ذلك بدقة وبتفصيل واضح بغرض التأثير فى الناس وتصوير حياتهم التى تدهورت بسبب الظلم والجور • وأيضا يصف التناحر والتنافر بين الجماعات ، والخلافات التى سادت حياة المجتمع قبل ظهور الامير ، ليصل من خلال ذلك الى مدح الامير واظهار مكانته وشجاعته وبالتالى يدعوهم الى الالتفاف حول القائد الشاب الذى برهن على حنكة وجرأة : « فاظهر الله تعالى بلطفه

بدر الدين ومؤيد كلمة المؤمنين ابن أخي هذا السيد عبد القادر بن محى الدين فبـــذل جهده في الدفاع عن الدين والوطن وأتى في ذلك بالعجائب والغرائب ما هو به قمين فكم من حروب أضرم نارها وكم من كروب أزالها عن المسلمين وأطفأ أوارها وكم ضيق على العدو وأخذ بخنقه وصيره محجورا فى أحرج مكان وأضيقه » • وبعد هذا الوصف للواقع المتغير وللامير المنقذ وهو وصف اختار الخطيب كلماته وتعابيره لينفذ منها الى مآربه وهو الدعوة الى الهدنة فيقول : « ثم لا زال العدو يتكاثر ويجلب من بلاده العساكـــر والذخائر بالعدد الوافر حتى كاثره بجنوده وجاء بما ملأ جميع أغوار الوطن فاستمر القتل فى المسلمين وتوالى عليهم التمحيص فى سبيل رب العالمين » • فهذه مبررات يمهد بها الى ما يقصد اليه فهو حين يصف قوة العدو وامعانه فى اظهار جيشه وعتاده ، يعد بذلـك الاذهان لما يأتى ولكنه يكتفى بهذا بل يضرب أمثلة بين تخاذل القادة المسلمين فى الاقطار الاخرى التى استنجد بها الامير فلم ينجدوه ، « وقد استدعى حضرة الامير ، كما لا يخفى ملوك الاسلام من أقاصى البلاد ، فاستنصرهم للجهاد ، فأعاروه أذنا صماء ، ولم يسمعوا له نداء ، بل أجاب لسان الحال : لا حياة لمن تنادى ولا معين على من تعادى » •

وبهذه المبررات يدعو الناس الى الموافقة على مهادنة العدو ، بل يعمل على التخويف والتهويل فى الامر • وهذه خاصة من صفة الخطابة التى تعالج مثل هذا الموضـــوع : « فاذا تمادى الامر أيها السادة على ما نحن عليه ولم ينجح الامير الى ما دعاه العدو اليـه فلا حرج أننا نكون قد القينا بأيدينا الى التهلكة وتسببنا فيما يضيق على كل منا مسلكه، ونكون قد اعنا أهل الفساد على انفسنا ومهدنا لهم السبيل الى ما يؤذينا » •

ثم يستشهد بأبيات فى هذا الغرض ، وهى سمة من سمات الخطابة العربية ، الهدف منها الاعتبار والذكرى ، واقامة الحجة والبرهان على الغاية المقصودة • ويبدو أن عم الامير من الخطباء الذين يعرفون أسلوب الاقناع كما أنه يراوح فى خطبته بين أمور كثيرة مما يدل على ادراكه لهذا الاسلوب فى التأثير على مستمعيه فهو بعد أن ساق حججا كثـيرة يعود الى الامير عبد القادر فيمدحه ، ويشيد بفضله ، ولكنه يقرن ذلك بالدعوة الى السلم وأن الامام هو صاحب الرأى الاخير ، كما أن حقوق دماء المسلمين واجب ويستدل عـلى رأيه هذا بالدين حتى يستجيب القادة لهذا الموقف الضعيف « وصون دماء المسلمين فرض

متعين حتى فى الجهاد ، وقد قيل سلامة مسلم واحد خير من فتح حصن لكافر معـاند ٠ وقد ورد فى الحديث النبوى : من أعان على قتل مسلم ولو بنظرة ، كلمة ، جىء به يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيسا من رحمة الله ، والمتسبب كالمباشر ٠ وورد أيضا مـــن تشكل بغير شكله وتطور بغير تطوره وحام حول حمى سفك الدماء وهتك المحارم ، فقد باء بغضب من الله ورسوله » ٠ وحتى يكون كلامه أكثر اقناعا على هذه الهدنة ، فانــه يعود الى التخفيف من جديد لينتهى الى دعوة الرؤساء والجنود للصلح والسلم ٠

ومهما يكن من أمر فان هذه الخطبة طويلة ، نقلنا منها أغلب فقراتها لندلل عـــلى ان الخطيب فيها اطنب بسبب الموضوع والموقف الذى يستدعى الاقناع والاطناب كما استخدم قدراته وموهبته لتبرير الموقف الذى اضطر اليه الامير ٠ على ان أسلوب الخطيب كمـا أشرنا يمتزج فيه السجع ومراعاة الفواصل بالاسترْسال فى الجمل والتعابير ، ولكنــه أسلوب واضح سهل يمتاز بسلامة اللغة وبالتصوير ومراعاة المقام ، دون صنعة متكلفة زائدة ٠ والنموذجان اللذان أشرنا اليهما يدلان على مستوى الخطابة العربية وعلى مستوى النثر فيها فى المرحلة المشار اليها ٠ وهو مستوى يدل على ان اللغة العربية ما زالت تتمتع بتفوقها وقوتها وقدرتها على البيان رغم الظروف الصعبة التى واجهتها أثناء الاحتلال ، منذ بدايته، وفى نفس الوقت يدل هذان النموذجان على ان الخطابة استخدمت أداة لتصوير الواقع بحيث عكست ما كان فى البيئة الجزائرية فى ذلك الوقت، فهى شاهد صادق على أن الاديب حين يكون صادقا يكون مرآة للعصر ، وصورة تعكس الواقع بما فيه من استقرار واضطراب وبما فيه من صراع أو جمود ٠ وفى النهاية فانها أسلوب آخر مـنَ النثـــر للتعبير عن الفكر ، والشعور بالواقع والحياة ، فهى من هذه الناحية أداة للتبليغ وطريق لربط الماضى بالحاضر ٠

على أن لخطابة بعد عصر الامير يبدو انها قد تدهورت لظروف تتصل بالحياة الادبية والثقافية والفكرية والسياسية فقد هيمن الاستعمار على الواقع وأثر فى مجرياته ، فكان تأثـــيره شديدا على أداة الخطـــابة أى عـلى اللغـــة العـــربية التى ضعفت بـــل وكادت تختفى من الحياة الادبية الامر الذى أثر فى أسلوب الخطابة كما أثر فى أسلـوب غيرها من الفنون الادبية والنثرية خاصة بعد منتصف القـرن الماضى ٠ وهذه الظروف

المختلفة المتشابكة قد أدت بالخطابة ، ان تنحصر فى دائرة وتعيش بعيدة عن واقع المجتمع وظروفه ، وأصبحت تدور فى حلقة مفرغة وآوت مثل اللغة الى المساجد والزوايا وباتت تقليدا لعصور الانحطاط بل أشد منها سواء من حيث أسلوبها أو موضوعها · ومن هذا رأينا تلك الخطب المحنطة فى الاوراق الصفراء تلقى فى أيام الجمعة أو فى يوم المواسم أو فى الاعياد بصيغة واحدة وبأفكار جامدة متشابهة فى البيئة الجزائرية التى سادتها الخرافات والاوهام ساعد عليها الاستعمار وادارته التى سيطرت على الدين وأئمته وقضاته وشاهدت الخطابة أحلك فترة لها فى الجزائر ما بين الثلث الاخير من القرن الماضى وبين الربع الاول من هذا القرن خاصة فى المساجد الرسمية التابعة لهذه الادارة الاستعمارية حتى انه يمكن القول بأن الخطابة الرسمية أسهمت فى الابتعاد على الجمود الادبى والفكرى والدينى أيضا لانها كانت تشجع على القدرية والتواكل وساعدت بشكل أو بآخر فى بقاء الخرافة والوهم والخوف من العدو · فكان أسلوبها ضعيفا وركيكا غثا لا يرقى الى الاسلوب الادبى اطلاقا ، كما ان الخطباء كانوا عبارة عن نسخة واحدة مكررة لانهم يرددون ما كتب بلا فهم ، لان ثقافتهم ضحلة وتعليمهم جد بسيط الامر الذى أعان على انتشار هذا اللون من الخطب فترة طويلة ، وكان عائقا قويا أمام تطور الخطابة فى تلك الفترة التى أشرنا اليها ·

ولكن بعد ان انتشرت الافكار الاصلاحية واتصلت الجزائر بمن حولها ونشأت النوادى التى ساعدت على ظهور خطابة جديدة ، فى أسلوبها ومضمونها وموضوعها ، وكان لابد أن تنشط الخطابة فى جو يمتاز بالحركة والصراع والدعوة الى فكر جديد يستمد أصالته من عصور الخطابة العربية الذهبية ويعتمد على الفصاحة العربية والبيان العربى ، وقد ظهرت جمعية العلماء فى مرحلة كانت تحتاج الى خطباء فصحاء يدعون الى أفكارها وينشرونها بين الناس ، ذلك أن بث الفكرة الاصلاحية تتطلب قدرة على الاقناع واتصالا مباشرا بالجماهير فى شتى أنحاء الوطن · فكانت الخطابة أداة صالحة لاذاعة هذه الافكار فهى أداة ضرورية اقتضتها الحاجة الى الدعوة واستنهاض الهمم وعلى الرغم من معظم الخطب التى قالها رجال الفكر الاصلاحى ، لم تسجل ، ولم يعن بها الدارسون ، وان ما بقى خطيب بمميزاته الخاصة ، على امتداد عشرات السنين حتى ثورة نوفمبر 1954 وهذا

الموهبة وعلى الثقافة وعلى الارتجال فى كثير من الاحيان ويبدو من الصعب أن نشير الى معظم الخطباء أو الى أغلب انتاجهم فى هذا المجال ، لان هذا يحتاج الى دراسة كاملة لكل خطيب بمميزاته الخاصة ، على امتداد عشرات السنين حتى فترة ثورة نوفمبر 1954 وهذا العمل أو هذا المسح الشامل للبيئة التى ظهرت فيها الثقافة أو ظهر فيها خطباء الحركة الاصلاحية وكثر عددهم يصعب عن دراسة مثل هذه مخصصة لرصد الملامح العامة للخطابة فى النثر الجزائرى الحديث ، يصعب الالمام بذلك ، وغاية الامر ان نشير الى بعض النماذج التى قد لا تعطى فكرة شاملة عن الموضوع ولكن ترسم الطريق لمن يريد التوسع فى الموضوع والافاضة فيه ودراسته من مختلف وجوهه ، والوصول فيه الى نتائج واضحة ٠

والاتجاه الثالث فى الخطابة العربية فى الجزائر يتمثل فى الخطب التى بقيت لنا من آثار الحركة الاصلاحية ورجالها ، وهو اتجاه يختلف فى أسلوبه ومضمونه عن الخطابة فى النوعين الذين أشرنا اليهما سابقا ٠ وكان هذا نتيجة ظروف سياسية واجتماعية وثقافية ، ونتيجة مرحلة جديدة عاشتها الجزائر منذ أوائل القرن الحالى حتى قيام الثورة سنة 1954 ٠

ولا شك ان اتصال الجزائر بمن حولها ونشأة الصحافة الوطنية وانتشار الاندية والجمعيات الدينية الاصلاحية وظهور حركات سياسية وطنية ، الى جانب اليقظة الفكرية التى برزت بعد الحرب العالمية الاولى ، لهذه الاسباب كلها وغيرها ظهرت الخطابة العربية الاصلاحية والسياسية أيضا ، وكان لها أثرها فى تطور الخطابة تعبيرا ومحتوى ٠ خاصة وان رجال الفكر الاصلاحى اعتمدوا فى ثقافتهم على التراث العربى الاسلامى وحاولوا احياءه بوسائل مختلفة من بينها الخطابة ٠ يضاف الى هذا أن جمعية العلماء بعد تكوينها سنة 1931 ، اعتمدت فيما اعتمدت عليه من بث أفكارها بين الجماهير على الخطابة التى تساعدها على ذيوع آرائها ودعوتها الى النهوض والتحرر من الوهم والافكار القديمة البالية ٠ وكان لابد أن تنشط الخطابة وتصبح فنا له سماته وخصائصه وله أهميته بالنسبة لرجال الاصلاح ودعوتهم الجديدة ، ذلك ان بث الفكرة الاصلاحية يعنى الدعوة الى تطور ويعنى تغيير النظرة الى الماضى والحاضر معا ، بل والمستقبل أيضا ٠ ومن هنا كانت تلك العناية

الكبيرة للخطابة ، لانها منبر ساعد المصلحين على الاتصال بالجماهير والحديث اليها مباشرة دون حاجز ولان هذه الجماهير أمية فى الاغلب ونسبة المتعلمين فيها كانت قليلة بالقياس الى تعدد السكان فى ذلك الوقت فجاءت الخطابة لتملأ هذا الفراغ وتعوض المحرومين من القراءة فى أن يعرفوا قليلا أو كثيرا من مبادىء الجمعية وأهدافها ٠

وفوق هذا فان فن الخطابة من الفنون التى اشتهر بها العرب وهى من تقاليد النثر العربى منذ العصور القديمة والاحتفال بها قديم منذ العصر الجاهلى كما أشرنا ، وفكرة الاحياء من الاهداف التى سعت اليها الحركة الاصلاحية ٠

ورغم هذه العناية بالخطابة لدى رجال الحركة الاصلاحية فان ما بقى يعد قليلا بالقياس الى ما قيل من خطب ، فلم تسجل كل الخطب ولا معظمها ، وانما بقى القليل منها نتيجة ظروف ثقافية ومادية حالت دون تسجيلها ، فالمعروف أن الحركة الاصلاحية كانت تبعث بوعاظها ومرشديها وخطبائها الى مختلف انحاء الوطن بمناسبة خاصة أو للدعوة والارشاد ونشر الفكرة الاصلاحية ، ومع هذا فان الخطب التى بقيت لا تساعد الدارس لهذا اللون من النثر أن يقطع براى كامل فى مستواها وموضوعاتها وسماتها ٠ وانما يمكن القول بأن الخطابة تنوعت ، أسلوبا وموضوعا ومضمونا ، بنوع الخطباء وتنوع ثقافتهم وتجاربهم ونظرتهم ومدى قدرتهم على التعبير وتفاوتهم فى ذلك ٠

ويأتى فى مقدمة الخطباء الذين اشتهروا بالفصاحة والبيان الشيخ بن باديس ، والابراهيمى ، والعقبى ، وتوفيق المدنى ، وغيرهم ممن بقيت بعض آثارهم وسجلت فى صحف جمعية العلماء مثل « الشهاب » و « البصائر » القديمة والجديدة و « السنة » و « الصراط » و « الشريعة » وغيرها من المصادر ٠

أما خطباء «حزب الشعب» فان كثيرا من آثارهم قد ذهبت ، لان خطبهم كانت سياسية وطنية تهاجم الاستعمار بجرأة وشجاعة وصراحة فائقة ، الامر الذى يصعب معه أن تنشر فى الصحف ، لان الرقابة كانت لا تسمح بذلك ، ولان صحفهم كانت تصادر باستمرار وأغلب الظن أن بعضها يمكن ان يكون لدى الخاصة من رجال الحزب الامر الذى يحتاج الى بحث طويل ودراسة متأنية والى الاتصال بالاشخاص الذين لعبوا دورا فى السياسة وفى الخطابة معا ، وفيهم من الخطباء باللغة القومية ممن لا يختلف عن خطباء الحركة الاصلاحية فصاحة وبلاغة وقدرة على الارتجال ٠

على أنه لابد من التفرقة بين الخطابة لدى الاصلاحيين ورجال حزب الشعب ، ومنشأ هذه التفرقة يأتى من أن الموضوع يختلف الى حد ما ، فالطابع العام الذى تتسم به خطب المصلحين هو طابع الدين والوعظ والتركيز على فكرة الآحياء والرجوع الى الماضى • بينما خطب رجال حزب الشعب يغلب عليها طابع السياسة ، والحماسة والانفعال القوى والهجوم على الاستعمار وأتباعه والدعوة الى النضال من أجل الاستقلال • وهذه التفرقة بين خطب هؤلاء وأولئك تصلح لموازنة بين نموذجين من الخطابة يكون مجالا خصبا للدراسة والكشف عن الاساليب المختلفة للخطباء الجزائريين فى مرحلة لعبت فيها الخطابة دورا خطيرا فى التوعية ونشر المبادىء والعمل على دفع الجماهير الى مقاومة الاستعمار الفرنسى وأهدافه المعروفة • فضلا عن فكرة التشبث بالخطابة بوصفها فنا أدبيا عريقا فى الادب العربى • على أن كثيرا من خطباء حزب الشعب كان يستخدم الفرنسية بسبب التعليم ، أو يستخدم العامية بقصد التوصيل •

وحين يكون الحديث عن الخطابة لدى المصلحين فان الذهن يتجه الى الشيخ «بن باديس» الذى سبق الجميع فى الدعوة الى الفكرة الاصلاحية وتزعمها فى تلك المرحلة قد شهر بيانه بقدرته على الارتجال فى خطبه • ونسجل بأن خطبه التى كتبها والقاها أكثر من التى ارتجلها حسب المصادر التى نقلت لنا هذه الخطب ، ولكننى أعتقد ان الخطب التى ارتجلها اكثر من التى سجلها وبقيت لنا ، لان رئيس جمعية العلماء كان كثير الاتصال بالجماهير وهذا يقتضى خطبا مرتجلة حسب المناسبة • ومن ثم فان الذى بقى من هذه الخطب يبدو قليلا بالنسبة لما قاله الشيخ بن باديس وان التى كتبت هى تلك التى كان يلقيها بين رجال الحركة الاصلاحية فى نادى الترقى أو فى غيره من النوادى فى مناسبات خاصة يستعد لها ، ويحتاج فيها الى التروى والدقة والتفصيل ، لانه يخاطب علماء ورجال فكر وثقافة مما يتطلب عناية فائقة بالصياغة والتنظيم الدقيق • أما تلك التى تقال أمام الجماهير فانها تهدف الى بث الفكرة الاصلاحية ولا تحتاج الى عناية بالصياغة لانها مرتجلة فى لحظتها ومناسبتها الخاصة ، ولان المتلقى لها هو مزيج من مستويات كثيرة فى فهمه وتجربته وثقافته ، ومن هنا نجده حينا يركز على الدين فى بعض الخطب ، وحينا على

الاصلاح والاجتماع وأحيانا أخرى على السياسة والاصلاح معا ، وعلى التربية والاخلاق في كثير من الاوقات ٠

ففي احدى خطبه سنة 1939 ، التي ألقاها بنادي الترقي يتحدث عن العرب والقرآن وارتجلها أمام رجال الاصلاح ، وأراد أن يحث الناس على التمسك بالوطن والقومية العربية ويدعوهم الى التعلق بالقيم السامية ، يقول : « من الطبيعة العربية أنها لا تخضع للاجنبي في شيء لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها ، ولذلك ترى القرآن يذكرها بالشرق » ٠ ويطنب في وصف الشرق وهدفه هو تحريك النفوس ودفعها الى التمسك بالحق والدفاع عنه ٠ كما يستمر في تبيان فضل القومية العربية في أسلوب واضح فيه سهولة وفيه غوص على المعاني البعيدة ، بل وفي تفلسف في كثير من الاحيان ٠

ومن سمات « ابن باديس » في خطبه أنه لا يتكلف أو يتظاهر بالفصاحة ، كما أنه لا يستخدم الخطابة لاظهار قدرته على القول ، وانما يستخدمها لتؤكد أغراضه وأهدافه الاصلاحية والوطنية ، لذلك ينتهز الفرصة لتوضيح هذه الافكار ونشرها بين الناس ، وهو يختصر الكلام حين يرتجل ، ولكنه حين يكتب يطيل ولا يوجز ٠ والبداية دائما تكون بالحمد والصلاة على الرسول (ص) ثم يأخذ في عرض الموضوع ، كما فعل في خطبة أخرى سنة 1933 عرض فيها لنشاط جمعية العلماء أثناء هذه السنة ، ولكنه يربط بين الشعب الجزائري وبين الشعوب الاخرى ، وغايته من ذلك بعث الهمم وتحريك النفوس ، يقول : « لنا مواهب مثل ما لغيرنا ، ولنا في هذه القومية العربية الخالدة مثل ما لغيرنا ولنا من هذا التاريخ البعيد مجد وملك مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا ٠٠٠ » ويطنب في مقارنة الجزائر بغيرها من الشعوب ويشيد بالقومية العربية وبالدين الاسلامي كما يشيد بالجزائر وطنا للجزائريين ، وينوه باللغة القومية ، وغرضه ان يصل الى أن الجزائر مثل غيرها من الشعوب التي تستحق الحياة والحرية ٠

وكما يقارن في خطبه بين الجزائر وغيرها من البلدان ويغوص في ذلك ، فانه يغوص في مناسبات كثيرة عن الافكار الدقيقة التي تنبيء عن ثقافة واسعة عميقة ، كما فعل في خطبة أخرى قالها سنة 1933 في الاجتماع السنوي العام لجمعية العلماء ٠ وأسهب فيه عن الجمعية وأعمالها وعن خصومها ، وأعدائها ، وعن نشاطها وأهدافها ، وعن وجودها

نفسه ، يقول فى معرض تصنيف أعداء الجمعية وخصومها : « فأما الذين استغربوها فهم طائفة من السذج يقيسون الحقيقة الانسانية بوجودهم ويقيسون التاريخ الانسانى بأعمارهم ويقيسون الاجتماع الانسانى ببيت تجمع زوجا وزوجة وأولادهما ، يفرقهم الصباح للكد على القوت ويجمعهم المساء للنوم تحت السقف . فأى نقطة فى الحياة عند هؤلاء تحتاج الى مظاهر الحشد والاجتماع وضم رأى لرأى ، وبهذا المقياس يقيسون الدين فهو عندهم اسم متعارف بين المسلمين وصلاة مفروضة تؤدى أولا تؤدى وانتساب الى الاسلام يجرى مجرى القانونيات فى زماننا هذا ... » .

فهو فى هذه الخطبة يحلل موقف المستغربين من جمعية العلماء وهم أولئك السذج الذين لا يتطلعون الى المستقبل ، وانما يأخذون الحياة بلا طموح أو تفكير وبلا كد أو كفاح .

واذا كانت الافكار الاصلاحية محل عنايته فى خطبته ، فان فكرة العروبة سيطرت على جزء كبير منها فى فترة كان كثير من الساسة والمصلحين والكتاب لا يعنى بها ولا يوليها اهتماما كبيرا خاصة فى الثلاثينات وقبلها بل وربما بعدها من هذا القرن .

ففى احدى خطبه سنة 1937 يشيد بالعروبة والعربية معا فيقول :

« أما بعد فحياكم الله أبناء العربية والاسلام وانصار العلم والفضيلة حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها ومسخ فيكم نطقها ، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر ، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل ، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكليى والمفاصل .. » .

كما ان ابن باديس كان يمزج بين الاصلاح والسياسة والوطنية فى مناسبات كثيرة فهو لا يفتأ معرضا بالاستعمار من جهة وحاثا رجال الجمعية على المقاومة من جهة أخرى . يقول فى احدى خطبه سنة 1938 . حين سجن الوطنيون الجزائريون : « أما بعد فسلام عليكم يا أنصار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين ، وسلام على مساجينكم فى المساجين ، وسلام على متهميكم فى المتهمين ، وسلام على منكوبيكم فى المنكوبين سجون واتهامات ونكبات ثلاث ، لا تبنى الحياة الا عليها ، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة الا على أسسها .. » .

ويأخذ فى ضرب الامثلة وذكر الاشخاص الذين اضطهدهم الاستعمار من رجال الحركة الاصلاحية ، ويستشهد بالقرآن على غرضه ·

وكثيرا ما يرمز الى الاستعمار ويدعو الى مقاومته ، ويفسر الابيات التى يستشهد بها أثناء خطبته ، ليعمق فى النفوس والاذهان فكرة النضال والاستمرار فى المقاومة رغم كل شيء ، كما فعل فى خطبة قالها سنة 1936 فهو مثلا يستشهد بهذا البيت للاحنف بن قيس ·

ان على كل رئيس حقا   أن يخضب الصعدة أو تندقا

ويشرحه بقوله : « والصعدة هى الرمح ، يريد أنها تخضب بالدماء أو تنكسر ، وتندق فى يده أثناء محاربته للاعداء ، ولكن صعدتنا التى نخضبها هى القلم (وخضابة الحبر) ولكنه لا يندق فى هذا القلم جتى تندق أمامه جبال من الباطل ·· » ·

وفكرة الرمز فى خطبه من خضائص أسلوب ابن باديس ، كما فعل فى خطبة أخرى سنة 1933 · حين كان يتحدث عن الصعوبات التى اعترضت الجمعية ومحاربة الاستعمار لها ، فنرى ابن باديس يهدد رامزا بأن هذا الامر لابد أن يتغير ، يقول : « وما حيلة من يسلك سبيلا ، فتعترضه الصخور حتى لا يجد عنها محيدا ، ان الضرورة تقضى عليه أن يجتهد فى نزعها واماطتها ثم لا يكون جهده فى ذلك الا كتمادية فى السير ··· » ·

فهو اذا كان يرمز مرة فانه يصرح مرات أخرى فى وضوح وجرأة ·

والواقع انه من الصعب أن نعرض بالتفصيل لافكار ابن باديس فى خطبه لانها متنوعة وكثيرة ، وانما أشرنا لها فقط لنبين ان الخطابة قامت بدور لا يقل عن المقال أو غيره من أشكال التعبير فى النثر الجزائرى الحديث · خاصة وان ابن باديس عنى بالدين فى خطبه كما عنى بالاجتماع وبالثقافة والسياسة احيانا وبغيرها من الميادين الاخرى ·

والملاحظ أن أسلوب ابن باديس يمتاز بالوضوح والدقة واختيار الكلمات وتفصيل القول كما أشرنا ، ولكنه يستخدم السجع فى أحيان قليلة ويكون عفو الخاطر ، لا يقصد اليه قصدا ، كما فى بداية بعض خطبه مثل قوله :

« الحمد لله معطى الفلح لباذل المهج ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله الذى جاءنا بها حنفية سمحة لا اصر فيها ولا حرج ، وعلى آله الطيبين ، الطاهرين ، وعلى أصحابه فرسان الرهج ، الذين أقاموا بالحق كل عوج ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين عدد من دب ودرج » ·

ومن الخصائص التى أشرنا اليها ، أن ابن باديس كان يستشهد بالقرآن والحديث والشعر فى خطبه لتأكيد المعنى الذى يهدف اليه أو توضيح المغزى ، أو لغير ذلك من الاغراض الاخرى الكثيرة فى خطبه المتنوعة أسلوبا وموضوعا وغاية ·

كما ان الجدية المطلقة تبدو فى خطبه ، فهو لا يعمد للفكاهة أو النكتة أو السخرية الجارحة ، لان شخصيته لا تميل الى هذا الاسلوب وانما تميل للجد والرزانة والهدوء فى التعبير والقصد فى القول والهجوم على الموضوع بلا تزويق أو تنميق أو بهرجة أو شقشقة لفظية ، فهو من خطباء المعانى لا الالفاظ · لذلك فخطبه يمكن أن تكون مصادر أمينة تساعد المؤرخين والدارسين على فهم تلك المرحلة وادراك معطياتها وأحداثها ·

وخطبه مثل مقالاته سجل لمرحلة من أخطر المراحل التى مر بها الشعب الجزائرى فهى مرآة صادقة تعكس ما كان يجرى فى بيئتها فى فترة تعددت فيها الاتجاهات وتصارعت فيها الافكار وكثرت فيها المشارب نتيجة عوامل شتى ·

ويأتى الشيخ البشير الابراهيمى فى مقدمة من أشرنا اليهم من الخطباء البلغاء ، فقد ملك ناصية القول واستوعب البيان العربى وتبحر فى اللغة العربية وآدابها ، ورزق ملكة توليد الكلام ، وامتاز بالحافظة القوية وبالقدرة الفذة على الارتجال · ولم يبق من خطبه الا القليل ، فقد تنقل فى ربوع كثيرة وخطب فى المحافل الكثيرة ، داخل الوطن وخارجه ، ولو كشفت آثاره فى هذا الميدان وأطلع عليها الباحثون فربما تغيرت النظرة تجاه الخطابة الادبية فى الجزائر · فالابراهيمى أديب مصلح ، لا عالم مصلح فقط والفرق بين الاديب والعالم ان الاول يعبر من مشاعره وعواطفه بلغة جميلة موحية ، وهدفه احداث اللذة الادبية والامتاع الى جانب الفكرة وخدمة الانسان ، بينما تنصب عناية الثانى على الجانب العقلى والتفكير المتزن والوضوح فى التعبير لا بهدف اللذة

الفنية وانما بهدف توصيل الافكار • فاللغة عنده أداة ووسيلة ، بينما هى لدى الاديب وسيلة وهدف ، وبتعبير آخر ، فان وظيفة اللغة لدى الاديب هى التصوير واحداث المتعة الادبية وتعميق الفكرة من خلال هذا الاسلوب أو ذاك فى حين ان وظيفتها لدى العالم أو المفكر هى نقل الافكار وتوصيلها الى الآخرين بصرف النظرة عن الجمال أو عدمه•

ولعل هذه التفرقة تساعد على فهم أسلوب الشيخ باديس وزميله الابراهيمى فلكل أسلوبه الخاص فى خطبه بل و فىمقالاته • وهذا راجع الى المزاج الخاص ، فمزاج الابراهيمى مزاج الاديب المنشىء ومزاج باديس مزاج العالم الزعيم ان صح هذا التعبير • كما أن الثقافة قد لعبت دورا فى ميل باديس الى الفكر الواضح والمنطق الذى يسبغ على كتاباته منهجية معينة ، وهى ثقافة دينية بالدرجة الاولى •

بينما ثقافة الابراهيمى لغوية أدبية وان تشبع بالعلوم الدينية ودرسها وبالفكر الاصلاحى ومبادئه ، ولكنه فى واقع الامر مزج بين الامرين بين المصلح والاديب فى حياته الثقافية • وهذا يعطى طابعا خاصا لخطبه ولكتاباته كلها •

وهذا التمييز بين الشخصين يصلح موضوعاللموازنة طريفة وخصبة بين خصائص كل منهما وتكشف عن الشخصية الانسانية والادبية ، وعن الاسلوب الخاص لهذين المثقفين الجزائريين • ومجال هذه الدراسة خاص برصد أنواع الخطابة وتطورها وسماتها وتيارها العام ، لا الحديث عن كل شخصية بمفردها وعن سماتها الخاصة •

ويتفق الشخصان فى موضوعات كثيرة ، وبوجه خاص تلك التى لها صلة بالافكار الاصلاحية ، وبما يتصل بمبادىء جمعية العلماء وأهدافها ، وهذا يشمل الخطباء الآخرين الذين ينتمون للحركة الاصلاحية • فخطبهم فى هذه الموضوعات متشابهة ولكن الخلاف يأتى فى الصفات الخاصة بكل واحد منهما نتيجة الثقافة والتربية والتكوين والنظرة المعينة والاسلوب الخاص وما الى هذا السبيل •

ولا شك أن الشيخ البشير الابراهيمى ، يمتاز بأسلوبه الخاص فى النثر خطابة أو مقالا ، فهو فى تعبيره يميل الى الجزالة والضخامة ، ويعنى بأساليب البلاغة العربية من جناس وطباق وتورية وتشبيه واستعارة ومجاز وما الى ذلكمن أنواع البديع والبيان •

فهو فى هذا المجال ينتمى الى مدرسة البلغاء العرب وكتابهم وخطبائهم المشهورين بالقدرة على توليد المعانى والاحتفال الذى يأتى عفو الخاطرة ، أو يقصد لذاته أحيانا ٠

ففى خطبة للابراهيمى قالها بمناسبة مهرجان شوقى بالجزائر ، نرى الخطيب يحتفل بالسجع كقوله : « حياكم الله واحياكم وابقاكم للعروبة تحيون مآثرها ، وتجـــددون مآثرها » ثم يسترسل على هذا النسق فيمدح الشاعر شوقى لينتقل الى الحديث عـــن العربية والعروبة ويربط بينهما فى ذكاء ووعى ، كما يربط بين الماضى والحاضر ، وينقد الشاعر لمدحه فرنسا فى قصيدته المعروفة :

سـلام مـن صبا بـردى أرق ودمـع لا يكفكـف يا دمشـق

ففى هذه القصيدة يعرض شوقى للثورة الفرنسية مشيدا بها وبشعاراتها المعروفة ولكن «الابراهيمى» لا يرى فى ذلك سوى تمويها على الشعوب ، ففرنسا تأخذ أكثر مما تعطى وليس ما تفعله خالصا لوجه الحرية والتحرير ، و « الابراهيمى » يدرك عن تجربة أن « فرنسا » ترفع الشعار وتحققه لابنائها لا للجزائريين ٠ أو لمن استعمرتهم واحتلت أراضيهم واستغلت عرقهم وجهودهم ٠

وللابراهيمى خطب كثيرة فى مناسبات مختلفة ، خطب فى فتح مدارس جمعيـــة العلماء ، فى شتى أنحاء الوطن ، وحين تبنى المساجد التى يؤسسها الشعب بماله الخاص٠ كذلك خطب فى رحلاته داخل الوطن أو خارجه ، وفى كل هذه الخطب يصدر عن نظرة اصلاحية ولكن بأسلوب أدبى ، كما يصدر فيها عن روح عربية أصيلة تتعلق بفكـــرة القومية العربية وبالتاريخ العربى والحضارة العربية الاسلامية ٠

ويلتقى فى هذا مع « توفيق المدنى » فى فكرة القومية العربية ولكنهما يختلفان فى المعالجة ، فطريقة « الابراهيمى » ـ كما اشرت ـ طريقة الاديب يعنى بالتعبير الجميـــل والاسلوب الرصيف ، بينما توفيق المدنى ـ لميله للسياسة ـ يعنى بالبساطة فى التعبير والوضوح مع مسحة أدبية ، الامر الذى يجعل من خطبه ـ كمقالاته ـ كتابات ينطبـق عليها وصف «الاديب السياسى» ٠ ويتفقان فى الارتجال فكلا الخطيبين يمتاز بملكـــة

الارتجال وحسن الالقاء وتوليد المعانى • غير ان المدنى يمتاز بالمقارنات فى خطبه ويضرب الامثلة من التاريخ بسبب اهتمامه بالتاريخ والكتابة فيه •

وهناك خطيب آخر اشتهر بالقدرة على الخطابة والارتجال والنفس الطويل ، وهو الشيخ « الطيب العقبى » الذى كان من رجال الحركة الاصلاحيين البارزين بل من المؤسسين لها والمدافعين بحماس عن مبادئها وأهدافها • وقد عرف بمقالاته الجريئة ضد الطرقيين كما عرف بخطبه الاصلاحية التى تهاجم البدع والخرافات وتدعو الى التحرر من رواسب الماضى • وهو من الخطباء المشهورين فى العصر الحديث • وقد جمع بين العلم والشعر ولم يلق العناية الكبيرة من الباحثين • وربما يرجع السبب الى ان انتاجه ما زال بعيدا عن أيدى الباحثين ، فرغم ان العقبى له انتاج وفير فى الخطابة الا انه لم يطبع أو لم يسجل أصلا ، لان معظم خطباء الحركة الاصلاحية لم يعنوا بالتسجيل والكتابة كما ذكرنا، لذلك لا نعثر على خطب كثيرة ، بالرغم من أن الحركة ، الاصلاحية ، قامت على المنبر فى جانب كبير منها •

وجملة القول ان الخطابة فى النثر الجزائرى الحديث اذا كانت قد استندت على التراث العربى القديم وأثرت بالاساليب العريقة ، استخدم أصحابها السجع أحيانا واستشهدوا بالقرآن أو الحديث أو الشعر ولكنها اختلفت عن ذلك فى المحتوى والموضوع من جهة ، كما أنها تحررت من الزخرف اللفظى ومالت الى الوضوح والبيان العربى الاصيل من جهة أخرى ، وأعادت بذلك للاسلوب العربى مكانته فى الادب الجزائرى الحديث •

ومع هذا فان الخطابة فى الادب الجزائرى تحتاج الى دراسة أوسع وأشمل لان دورها لا يقل عن دور المقال فى بث الافكار والآراء السياسية والاصلاحية • فهناك خطباء اتخذوا من السياسة مجالا لخطبهم بالعربية والفرنسية وعرفوا بالفصاحة والقدرة على التعبير والاقناع • وبصرف النظر عن أن الخطب السياسية كانت تلقى فى الانتخابات أو فى مناسبات سياسية معينة ، فانها أسهمت فى توعية الجماهير وتوعيتها بالواقع المؤلم الذى عاشه الشعب الجزائرى تحت الاحتلال •

كذلك فان الثورة قد فتحت مجالا جديدا خصبا للخطباء على السواء واستخدمت الخطابة أداة ووسيلة لتعميق المفاهيم الثورية فى أذهان جنود جيش التحرير وأفراد الشعب يوجه

عام ، ولكن لسوء الحظ ، فقد ضاع معظم هذه الخطب التى قيلت أثناء الثورة ولو عثرنا على جزء منها لأمكن استخلاص بعض السمات والخصائص للخطابة فى وقت الكفاح التحريرى ولعثرنا على نصوص تصور لنا الاسلوب والافكار التى طغت فى تلك المرحلة ٠

أما بعد الاستقلال فان الظروف تغيرت وتغير موضوع الخطابة لتغير الواقع ، وربما أمكن القول بأنها ضعفت من حيث صياغتها لان العناية بها من الناحية الادبية الفنية قلت وأصبح الهدف هو التعبير عن الفكرة وتوصيلها الى الجماهير بقطع النظر عن الجمال الادبى أو عدمه ، ونحن لا نقصد أسلوب المحاضرات ولكن نقصد الخطابة المرتجلة غالبا ٠

ومهما يكن من أمر فان الخطابة فى النثر الجزائرى الحديث قد لعبت دورا هاما سواء فيما يتصل بالقضايا الاجتماعية والسياسية للشعب أو فيما يتعلق بالناحية الادبية والثقافية ، وبذلك ملأت فراغا كبيرا فى الادب والنثر بصورة خاصة وأسهمت فى تطوير اللغة العربية والابقاء عليها وعلى مرونتها كما أنها أسهمت فى نشر الافكار والمبادىء والاهداف التى آمن بها الشعب وضحى من أجلها ٠

واذا كنا لم نشر الى الخطب التى رددها بعض العملاء التابعين للادارة الفرنسية نفاقا أو تملقا للاجنبى ، فلأن ذلك لا يضيف جديدا لما ذكرناه بالنسبة لتطور الخطابة أسلوبا وصياغة ، لان الخطب التى قالها أصحابها تنويها بمجهودات رجال الادارة الفرنسية تقربا منهم ، فهى من النوع الفاتر الذى تغلب عليه العجمة والتكلف والتهافت ٠

على أننا عنينا بالخطابة الاصيلة التى ساعدت على تطور النثر الجزائرى الحديث وحملت فى كثير منها قيما أدبية وانسانية ، وعمقت معانى الخير والنضال وحب الحرية فى نفوس الناس وبذلك كانت وسيلة وأداة ساعدت على التقدم والازدهار والتطور فى الفكر والذوق والشعور ٠

علاقة العامية بالفصحى

أو محاولة احلال العاميات محل اللغة الفصحى في الوطن العربي

د. رابح تركي
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

1 ـ تحديد المصطلحات

أ ـ ما المقصود باللغة العربية الفصحى ؟

اللغة العربية الفصحى هى اللغة التى تستخدم فى تدوين الشعر والنثر ، والانتاج الفكرى والعلمى عامة ، وهى تخضع لقوانين تضبطها ، وتحكم عباراتها . وهى تتوخى الايضاح والاصالة . والاعراب احدى وسائلها الى تحقيق هذه الغاية ، غاية الايضاح والافصاح عن صلات الكلمات بعضها ببعض وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

ب ـ ما المقصود باللغة العربية العامية ؟

أما اللغة العامية فهى لغة الحديث التى تستخدم فى الشؤون العادية · ويجرى بها الحديث اليومى فى البيت والسوق والشارع ، وهى لا تخضع لاية قوانين لغوية ضابطة لانها تلقائية ، ومتغيرة تبعا لتغير الاجيال وتغير الظروف المحيطة بهم : ومن أبرز مميزاتها خلوها من ظاهرة الاعراب ·

2 ـ مقدمة عامة

لابد ونحن نحاول احلال اللغة العربية الفصحى محل اللغة الاجنبية فى حياتنا الادارية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية أن نتحدث عن ظاهرة العامية أو العاميات التى تعيش منذ قرون جنبا الى جنب مع اللغة الفصحى · وذلك بقصد معرفة طبيعة العلاقة الموجودة بينها ، وكيف ينبغى أن توضع هذه العلاقة فى اطارها السليم ·

ذلك أنه قد يعترض علينا البعض مثلا قائلين ان اللغة العربية التى تريدون أن تكون لها السيادة المطلقة فى الجزائر لا تعانى فقط من مشكلة مزاحمة اللغة الاجنبية لها فى عقر دارها مزاحمة شديدة · فى شتى مجالات الحياة الوطنية ولكنها تعانى كذلك من مزاحمة اللغة العامية واللهجات المحلية المتداولة فى بعض جهات الوطن · فلماذا التركيز فى عملية التعريب على مشكلة اللغة الاجنبية وحدها ؟ ومحاولة القفز فوق مشكلة العامية أو العاميات ؟ أليست هى الاخرى تكون بدورها أيضا ازدواجا لغويا له أخطاره ومضاره على تعليم الاطفال فى المدارس وتوحيد لغة الثقافة والتعامل والتوجيه للمجتمع فى الوطن ؟

ومن هنا رأينا أن من الضرورى ونحن نعالج قضية التعريب معالجة جذرية فى هذه الندوة أن نلقىضوءا كافيا على مشكلة العامية فى علاقتها بالفصحى حتى لا نترك أية فرصة لاى متشكك فى قضية التعريب يحاول من خلالها اثارة الغبار حولها أو حول أهميتها · ووجوب الاسراع فى تحقيقها حتى نخرج من هذه البلبلة التى نضطرب فيها منذ الاستقلال بسبب سيطرة لغة أجنبية سيطرة طاغية على كافة المرافق الاستراتيجية فى البلاد ·

3 ـ نظرة تاريخية الى طبيعة علاقة العامية بالفصحى :

واذا بحثنا عن طبيعة العلاقة القائمة بين اللغة الفصحى من جهة ، واللغة العامية أو العاميات من جهة أخرى • فاننا نجدها فى كل لغات العالم تقريبا علاقة قديمة تضرب بجذورها فى أعماق تاريخ نشأة اللغات المكتوبة • بل ان الفصحى كانت فى احدى مراحل تاريخها عبارة عن لغة عامية ، تطورت نتيجة لعوامل مختلفة لا مجال لتفصيل الحديث عنها الى لغة فصحى •

ومن هذه النظرة كان اللغويون العرب القدماء مثلا يعتبرون اللغة العامية عبارة عن تحريف غير مقصود للعربية الفصحى • وليست لغة مختلفة عن اللغة الفصحى اختلافا جذريا •

ولذلك كانت مؤلفاتهم فى دراسة العامية تعتبر فرعا من دراستهم للغة الفصحى وخدمة لها ، ومحافظة عليها ، من التحريف ، واللحن ، والدخيل وليست دراسة مستقلة للعامية عن الفصحى تمام الاستقلال كما هو شأن الباحثين اللغويين المعاصرين •

ومن هنا لم يكن اهتمام اللغويين العرب القدماء بدراسة العامية وعلاقتها بالفصحى يهدف الى تدوينها كلغة قائمة بذاتها • وانما كان من أجل تصحيحها لكى تصبح جزءا سليما من اللغة الفصحى وليست جزءا منافسا لها •

4 ـ مؤلفات اللغويين العرب القدماء فى العامية :

ونظرة سريعة الى مؤلفات اللغويين العرب القدماء ـ وهى كثيرة جدا فى هذا المجال ـ توضح لنا بكل تأكيد ما نذهب اليه •

ومن بين تلك المؤلفات نذكر على سبيل المثال ما يلى :

أ ـ ما تلحن به العامة ـ للامام الكتانى (189 هـ) وهو من علماء القرن الثانى الهجرى •

ب ـ ما تلحن به العامة ـ لابى العباس أحمد بن يحيى ثعلب (291هـ) وهو من علماء القرن الثالث الهجرى •

ج ـ لحن العامة ـ لابى بكر بن محمد المازنى (248هـ) وهو من علماء القرن الثالث الهجـــرى ٠

د ـ لحن العامة ـ لابى عبيدة (209هـ) وهو من علماء القرن الثالث الهجرى ٠

هـ ـ لحن الخاصة ـ لابى هلال العسكرى (1) (395هـ) وهو من علماء القرن الرابع الهجرى ، وغيرهم كثيرون ٠

ان استعراض هذه المؤلفات التى ذكرناها والتى لم نذكرها لضيق المقام يوضح لنا أن العامية قد لازمت العربية الفصحى منذ أقدم عصورها دون أن تزحزها عـن مكانتهـا الادبية أو العلمية أو الثقافية أو الدينية ٠

وقد عاشت العامية الى جانب الفصحى هذا الزمن الطويل وخصوصا بعد ظهـــور الاسلام دون أن يحدث بينهما تنافس فى الميدان الادبى أو العلمى الذى اختصت بـــه اللغة الفصحى وحدها حتى العصر الحديث ٠

5 ـ متى بدات مشكلة العامية فى البلاد العربية فى العصر الحديث ؟

لقد بدأت العامية كمشكلة تطرح نفسها لاول مرة فى العصر الحديث على العــالم العربى ببداية ظهور حركة الاستعمار الاروبى للاقطار العربية فى القرن التاسـع عشر حيث قام بعض المستشرقين والمبشرين والمستعمرين كل فى مجاله الخاص ٠ وبطريقته الخاصة أيضا ٠ بشن حملة واسعة النطاق ضد اللغة العربية الفصحى بهدف القضــاء عليها باعتبارها لغة القرآن الذى هو مصدر الدين الاسلامى ، ولغة الثقافة العربية التى هى فى جوهرها ثقافة القرآن ، والحضارة الاسلامية ثم أخيرا باعتبارها الرابطة العظمى التى تربط بين العرب فى شتى أقطارهم وأمصارهم ، ولذلك فان القضاء عليها سوف يحقق لهم عدة أهداف فى وقت واحد ٠

ا ـ القضاء على الدين الاسلامى الذى هو مصدر القوة والمقاومة للعرب المسلمـين وهذا يحقق هدف المبشرين الحاقدين على الاسلام ٠

---

(1) انظر تاريخ الدعوة إلى العامية للدكتورة نفوسة سعيد/دار المعارف بالقاهرة سنة 1964 ـ ص 7 .

ب ـ القضاء على الثقافة العربية عن طريق فصل الاجيال العربية الجديدة عن تراثهم الثقافى المدون بالحروف العربية لان بعض المستشرقين دعوا فيما دعوا اليه الى استبدال الحروف العربية فى الكتابة بالحروف اللاتينية ·

جـ ـ القضاء على اللغة العربية الفصحى واستبدالها باللغات العامية المحلية لكل قطر عربى · وهذا يحقق هدفا استراتيجيا للاستعمار لا يقل أهمية وخطورة عن الهدفين السابقين وهو فضم عرى الوحدة القومية بين أقطار الامة العربية حتى يمكن استعباد العرب جميعا بعد أن تذهب قوتهم التى تتمثل فى اتحادهم وتكاتفهم وتضامنهم وذلك طبقا للقول الاستعمارى المعروف « فرق تسد » ·

ومن هنا واجهت العربية الفصحى هذه الحرب الضارية التى تعاونت فيها جهات متعددة واستهدفت الدعوة الى استعمال العاميات بدلها الى أن تلاقى نفس المصير الذى آلت اليه اللغة اللاتينية منذ قرون بعد أن صارت اللهجات العامية المتفرعة عنها وهى الفرنسية والاسبانية والايطالية والرومانية لغات رسمية لشعوبها · وبالتالى ماتت اللاتينية فى الحياة العامة ولم يبق سوى فى بطون الكتب · ومتاحف التاريخ فقط ·

والدليل على سوء نية المستشرقين والمبشرين والمستعمرين ضد اللغة العربية الفصحى هو هذه الموجات الضخمة من الدراسات المغرضة التى قام بها البعض منهم لنصرة اللغات العامية ، بقصد خلق الفرقة وتعميق أسباب الخلاف بين أبناء الوطن العربى فى لسانهم الذى هو اللسان الموحد ثم لكى يجعلوا من قضية اللهجات العامية مشكلة قائمة فى العرب أنفسهم تلهيهم عن الانصراف الى معالجة قضاياهم المهمة والحيوية فى التطور الفكرى والثقافى ، والنهوض الاقتصادى والاجتماعى للبلاد العربية ، ومقاومة مخلفات الاستعمار (2) الثقافى الذى لا يزال جاثما على عقول البعض من أبناء العروبة ·

ولولا أن العربية هى لغة القرآن · ولغة الدين والحضارة الاسلامية لتحقق لاعداء العرب ما كانوا يرمون الى تحقيقه من وراء نشاطهم المحموم فى الدعوة الى العامية

والكتابة بالحروف اللاتينية · ولعله من نافلة القول أن نعيد الى الاذهان بأن أكثر

(2) انظر مجلة اللسان العربى/عدد 3 ـ ص 72/الرباط سنة 1965 .

الهاجمين على استعمار الوطن العربى خلال القرن التاسع عشر ، والثلث الاول من القرن العشرين كانوا يرون أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم لهم كما يريدون ما دامت هناك لغة واحدة يتكلمها العرب فى جميع أقطارهم وأمصارهم ، وما دام هنالك حرف عربى يربط حاضر العرب الى تراثهم الثقافى فى الماضى ، فاذا نجح أعداء العــرب فى الدعوة الى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية أصبح لكل قطر عربى لغته الخاصــة أو ربما لغاته الخاصة لان لكل قطر عربى مجموعة من اللهجات العامية ، كذلك فان الصلة التى كانت تربط العرب بتراثهم الثقافى سوف تنقطع بعد الاستغناء عن الكتابة بالحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية كما فعلت تركيا مثلا وعندئذ سوف يصبح العرب مجموع « وحدات » لغوية متنافرة مما يسهل عملية اخضاعهم بخلاف ما اذا بقوا يكونون كتلة روحية وفكرية (3) ولغوية متماسكة ·

يقول الاستاذ ساطع الحصرى فى هذا المعنى : « لقد فكـــر المستعمرون أن اللغـــة الفصحى هى التى تصل البلاد العربية بعضها ببعض ، وهى التى تنقل الافكار والنزعات من قطر عربى الى آخر · فاذا توقفت حركة نشر اللغة الفصحى فى البلاد العربية ، وقامت فيها بعكس ذلك حركة جديدة ترمى الى انعاش وتدعيم اللغات العامية فلا بد من أن يصبح بعد مدة كل قطر من الاقطار العربية ذا لغة خاصة به فيزول بذلك خطر انتشار فكـــرة الاستقلال · كما ينتفى احتمال قيام فكرة الاتحاد بين مختلف الاقطار العربية ·

وقد وجدت هذه الفكرة قبولا حسنا فى المحافل الانجليزية والفرنسية على حد سواء وأخذ القوم يتحمسون لها ويبثون الدعايات للغات العامية فى كــل البــلاد العربيـــة ، ولا سيما فى المستقلة والمتقدمة منها ، واشترك فى هذه الدعاية عدد غير قليل من مشاهير رجال الفكر والاستشراق · (4)

وتشرح مجلة «الثقافة العربية»[5] اللبنانية دور المبشرين فى الدعوة الى العامية بقصــد القضاء على اللغة الفصحى فتقول : « ان الارساليات التبشيرية وخاصة اليسوعية منهــا

(3) راجع كتاب ، التبشير والاستعمار فى البلاد العربية/ط 3 بيروت سنة 1964 ـ ص 224 .

(4) راجع كتاب «أحاديث فى التربية والاجتماع»/ط 1 بيروت سنة 1962 ـ ص 113

(5) عدد ابريل سنة 1973 ص 55 /بيروت .

بعد أن لعبت دورها الهام فى ابراز الشخصية العربية المتميزة عن الشخصة الغثمانية فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين · وذلك عن طريق احياء اللغـــة العربية ونشرها على نطاق واسع ضمن أهداف الدول الاوروبية فى محاربة البـــاب العالى ـ أخذت الارساليات اليسوعية بعد انهيار الرجل المريض (تقصد انهيار الخلافة العثمانية) تعيد النظر فى تقديرها « للغة العربية » وأخذت تدعى من خلال خريجيهـا عامة وبعض « الهائمين » بالحضارة الفرنسيـة اللاتينيـة أو البحـر المتوسط أمثـال (سعيد عقل ، ورينية حبشى) وباسم الوطنية ضرورة التركيز على اللغة اللبنانيـــة » و « الثقافة اللبنانية » امعانا منها فى تمزيـق الكيان العربى · والشخصيـة القوميـــة العــربيـــة ·

6 ـ متى بدأ اهتمام الاوروبيين بدراسة العامية العربية ؟

لقد بدأ اهتمام الاوروبيين بدراسة اللهجات العربية العامية التى أطلقـوا عليهـــا اسم اللغات العربية العامية منذ بداية ظهور حركة الاستعمار الاوروبى للعالم العربـى فى القرن التاسع عشر · وقد تجلى ذلك فى مظهرين هامين :

المظهر الاول ، ـ هو ادخالهم تدريس اللهجات العامية فى مدارسهم ومعاهدهـــم وجامعاتهـــم ·

المظهر الثانى ، ـ تجلى فى اتجاههم الى التاليف فى اللغة العامية فى مختلف الاقطار العربيـــة ·

وقد برز المظهر الاول كالآتى :

1 ـ ففى ايطاليا درست اللهجات العربية العامية فى « مدرسة نابولى للدروس الشرقية » التى تاسست فى عام 1727 ووقع تجديدها فى عام 1888 ·

2 ـ وفى النمسا أنشئت مدرسة فى « فيينا » سنة 1754 أطلقوا عليها اسم « مدرسة القناصل » لانها كانت تعلم لغات الشرق ومن بينها اللغة العربية الفصحى ولكنها وجهت اهتمامها الاكبر لدراسة العامياتالعربية ·

3 ـ وفى فرنسا درست اللهجات العربية العامية ابتداء من أواخر الثلث الاول من القرن التاسع عشر فى « مدرسة اللغات الشرقية » التى تاسست فى عام 1759 ·

4 ـ وفى روسيا القيصرية انشئت مدرسة « لازارف الايكلريكية » التبشيرية للغات الشرقية » فى موسكو سنة 1814 وكانت تعلم العربية الفصحى واللهجات العامية العربية فى وقت واحـــد ·

5 ـ وفى المانيا أنشئت مدرسة كبيرة لتدريس اللغات الشرقية ومن بينها اللغـــات العربية ولهجاتها العامية ·

6 ـ أما فى بريطانيا فقد انشئت جامعة (5) «لندن» فى أوائل القرن التاسع عشر فرعا فيها لتدريس العربية الفصحى ولهجاتها العامية فى مختلف الاقطار العربية الى غير ذلك من بقية البلدان الاوروبية الاخرى التى كـــانت لها مطامـــع استعمارية فى بلاد العرب ، وقد كان الهدف الاستعمارى واضحا من اهتمام الدول الاوروبية بدراسة اللهجـــات العامية الى جانب العربية الفصحى وذلك لكى يتمكنوا من التفاهم بها فى مستعمراتهم فى الوطن العربى ، واستغلالها فى عملية الجوسسة والاتصال بافراد الشعب ولم يكـن اهتمامهم بدراسة العاميات العربية هو البحث العلمى النزيه كما قد يتبادر الى الاذهان ·

أما المظهر الثانى لاهتمام الاوروبيين بدراسة اللهجات العامية فيتجلى فى اتجاههـــم الى التاليف فيها والدعوة الى كتابتها بالحروف اللاتينية والدعوة كذلك الى استعمالها بدل العربية الفصحى فى التعليم والادارة ، والثقافة بهدف القضاء على اللغة الفصحى ·

وقد ظهرت مجموعات كبيرة من المؤلفات الاوروبية عن العاميات العربية فى مختلف بلاد العرب نشير الى طائفة منها فقط على سبيل المثال نظرا لضيق المجال ، ومن بينها المؤلفات التاليـــة :

1 ـ كتاب قواعد العربية العامية فى مصر تاليف الدكتور ولهلم سبيتا باللغـة الالمانيـة فى عام 1880 ويعتبر هذا الكتاب هو الرائد فى هذا الميدان حيث سار على منواله بقيـــة المؤلفـــين ·

2 ـ كتاب اللهجة العربية الحديثة فى مصر تاليف الدكتور كارل فولرس باللغـــة الالمانية نشر 1890 ·

(5) انظر كتاب تاريخ الدعوة الى العامية/المرجع السابق ـ ص 9 .

3 ـ كتاب لغة بيروت العامية تاليف مانويل ماتسون باللغة الفرنسية سنة 1911 ٠

4 ـ كتاب قواعد العامية الشرقية والمغربية تاليف كوسان دبرسفال بالفرنسية نشر سنة 1858 ٠

5 ـ كتاب عربية مراكش تاليف لويس مارسيير بالفرنسية سنة 1925 ٠

6 ـ كتاب عامية دمشق بالالمانية ، وقد طبع فى هانوفر سنة 1924 ٠

7 ـ كتاب لهجة بغداد العربية (6) للمستشرق الفرنسى لويس ماسينيون باللغة الفرنسية نشر سنة 1912 ٠

وغير ذلك من الكتب الاخرى وبمختلف اللغات الاوروبية ، وكلها تقريبا تدعو الى استعمال العامية بدل العربية الفصحى والى كتابتها بالحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ٠

ومما لا شك فيه ان هذه الابحاث التى تناولت دراسة العاميات العربية والدعوة الى كتابتها بالحروف اللاتينية ، ومحاولة ضبطها ، واستنباط قواعد علمية لكتابتها ٠

والعمل على محاولة استبدالها باللغة الفصحى فى التعامل والثقافة معا انما كان يهدف الى القضاء على اللغة العربية الفصحى ، باعتبارها الرابطة الكبرى التى تربط بين العرب فى حاضرهم ومستقبلهم ، كما ربطت بينهم فى ماضيهم وفى تراثهم الثقافى والحضارى ٠

8 ـ من هم رواد الدعوة الى العامية فى البلاد العربية ٠

من الاروبيين ؟

يعتبر المستشرقون الالمان هم الرواد الاوائل فى الدعوة الى العاميات العربية ، كما يعتبرون الرواد الاوائل فى الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية ـ بدل الحروف العربية ٠

---

(6) انظر دراسة مفصلة عن تاريخ دراسة اللهجات العربية فى مدارس أروبا وجامعاتها للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف تحت عنوان اللهجة العربية العامية نشر فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ج 3 (1936) من ص 349 الى 371 .

ويأتى بعدهم المستشرقون الانجليز الذين استوطنوا مصر عقب الاحتلال الانجليزى لها فى عام 1882 ، ثم المستشرقون الفرنسيون وغيرهم ٠

ويعتبر الدكتور ولهلم سيبتا صاحب كتاب قواعد العامية (7) العربيـــة فى مصر والالمانى الجنسية الذى تولى ادارة دار الكتب المصرية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر هو الرائد الاول لكل من كتب فى العامية المصرية حيث ألف أول كتاب له فى هـذا الموضوع سنة 1880 ٠

ومن هذا الكتاب انبثقت الدعوة فى العالم العربى الى اتخاذ العامية لغة أدبية وفى هذا الكتاب وضع أول اقتراح لاتخاذ الحروف اللاتينية فى كتابة العامية العربية بـــدل الحروف العربية ـ ومن هذا الاقتراح نبعت فيما بعد الدعوة الى كتابة العربية الفصحى نفسها بالحروف اللاتينية خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ٠

وقد سار على منوال الدكتور ولهلم سيبتا عدد من المستشرقين الاوروبيين من بينهم الدكتور كارل فولرس ، والقاضى الانجليزى فى المحاكم المصرية ولمور الذى وضع كتابا باللغة الانجليزية عن العامية المصرية اسمه العربية المحكية فى مصر سنة 1901 وباول وفيلوت اللذين اشتركا فى تاليف كتاب فى العامية المصرية اطلقا عليه اسم « المقتضب فى عامية مصر » وذلك فى عام 1926 ٠

كما يعتبر المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون من دعاة الكتابة بالحروف اللاتينيـة بدل الحروف العربية ـ وقد دعا الى فكرته هذه فى عام 1929 فى محاضرة عامة فى باريس٠

نشاط المبشر والمهندس الانجليزى وليم ولكوكس فى الدعوة الى العامية والكتابـــة بالحروف اللاتينية ٠

واذا كان الدكتور ولهلم سيبتا الالمانى الجنسية يعتبر الرائد فى الدعوة الى استعمال العامية والكتابة بالحروف اللاتينية كما قلنا فان المبشر والمهندس الانجليـــزى وليـــم ولكوكس الذى قدم الى مصر عقب الاحتلال الانجليزى لها ، بعام واحد فقط يعتبر اكبـر

(7) انظر مجلة المقتطف عدد نوفمبر سنة 1881 السنة السادسة من ص 352 الى ص 354 .

داعية الى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية فى البلاد العربية وقد جعل منها شغله الشاغل لمدة طويلة ٠

وقد استهل دعوته الى العامية بمحاضرة القاها فى نادى الازبكية بالقاهرة فى شهر يناير سنة 1892 تحت عنوان : لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ زعم فيها ان سبب تخلف المصريين عن الاروبيين فى العلوم والاختراعات انما يعود الى تمسكهم باللغة العربية الفصحى ، وعدم استخدامهم لغة الحديث العامية بدلها ، ثم دعاهم الى نبذ اللغة الفصحى ـ ونبذ الكتابة بالحروف العربية ، واستعمال العامية كما فعلت أروبا فى نبذ اللغة اللاتينية واتخاذ العاميات المحلية لغة رسمية بدلها ٠

وقد دعم دعوته بعدة اعمال منها :

1 ـ قام بترجمة عدة نصوص من كتابات شكسبير الى العامية المصرية ٠

2 ـ قام بترجمة الانجيل الى العامية المصرية سنة 1926 ٠

3 ـ ألف رسالة تحت عنوان « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطة تتكلم اليونانية لا العربية » وقد نشرها سنة 1926 ٠

4 ـ ألف كتابا دينيا بالعامية المصرية تحت عنوان «الاكل والايمان» حاول فيه ان يدخل العامية فى نماذج علمية ، ويحتوى الكتاب على ارشادات صحية وفوائد طبية مصطبغة بتعاليم الدين المسيحى ـ وقد نشر هذا الكتاب عقب الحرب العالمية الاولى ٠

8 ـ من هم دعاة العامية من العرب :

واذا كانت الجهود التى بذلها المستشرقون والمبشرون والتى اشرنا الى بعضها قد فشلت فى تحقيق اهدافها فى القضاء على اللغة العربية الفصحى وفصل العرب عن تراثهم الثقافى فى الماضى فانها قد نجحت فى تكوين تلاميذ لهم من ابناء العرب انفسهم اصبحوا دعاة متحمسين لاستعمال العامية فى الانتاج الادبى والفكرى بدل الفصحى والكتابة بالحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ٠

ويلاحظ أن معظم هؤلاء التلاميذ هم من المسيحيين الحاقدين على الاسلام ولغة القرآن ، نذكر من بينهم على سبيل المثال ٠

ـ الخوری مارون غصن اللبنانی ـ الذی ألف فی عام 1925 كتابا فی اللهجة العامية اللبنانية ـ وقد تنبأ فيه بموت العربية الفصحی ثم دعا الی الكتابة فی العامية ·

ـ وسعيد عقل ـ الذی ألف مجموعة من الكتب باللهجة اللبنانية والذی لا يزال حتی الآن يواصل دعوته الی استعمال العامية بدل العربية الفصحی ، ثـــم رينيه حبشیء ، وسلامة موسی ، ثم لطفی السيد ، فی فترة من حياته ثم عبد العزيز فهمی ، صاحب الدعوة الی الكتابة بالحروف اللاتينية فی اللغة الفصحی فی الثلاثينات وغيرهم ·

9 ـ الدعوة الی البربرية والفرنسة فی اقطار المغرب العربی :

واذا كانت الدعوة الی استعمال العاميات كلغات أدب وعلم لكی تحل محل اللغـــة العربية الفصحی قد بدأت فی المشرق العربی علی نحو ما ذكرنا فان السبب فی ذلـــك يعود الی أن اللغة العربية كانت راسخة الجذور فی الثقافة والادارة والتعليم فی أقطـــار المشرق العربی ، وهی اللغة السائدة فی المجالات المذكورة : لذلك اتجه خصومها واعداؤها والحاقدون عليها الی محاولة طعنها من الخلف عن طريق الدعوة الی العامية ، والكتابـــة بالحروف اللاتينية ·

أما فی أقطار المغرب العربی وهی تونس والجزائر والمغرب فان الوضع كان يختلف عن المشرق العربی اختلافا كبيرا ـ ذلك أن الاستعمار الفرنسی ـ وخصوصا فی الجزائر ـ قد أقام سياسته منذ البداية علی محاربة العربية الفصحی والعامية معا ، حيث طارد اللغة العربية من الادارة والتعليم ووسائل الثقافة المختلفة وأحل اللغة الفرنسية محلها فی كل تلك المجالات ومن هنا فهو لم يكن فی حاجة مثل الاستعمـــار الانجليـــزی فی المشرق العربی ـ الی الدعوة الی العامية العربية ومحاولة احلالها محل اللغة الفصحی ، ما دام قد عمل علی محاربة اللغة الفصحی ولهجاتها العامية فی وقت واحد وشجع الحديث باللهجات البربرية لكی تحل الی جانب اللغة الفرنسية محل اللغة العربية الفصحی والعاميـــة العربية فی الحديث وكل المجالات الاخری ·

وقد عرفت هذه السياسة (8) فی تاريخ الاستعمار الفرنسی بالمغرب العربی بالسياسة البربرية وسياسة الفرنسة ·

(8) انظر كتاب « التعليم القومی والشخصية الوطنية للدكتور تركی رابح قيد الطبع الفصل الثانی بعنوان « موقف الاحتلال من اللغة العربية والثقافة العربية ».

يقول الكومندان مارتى وهو أحد دعاة السياسة البربرية فى مراكش فى كتابه « مغرب الغد » ان المدرسة الفرنسية البربرية هى مدرسة فرنسية بتعليمها وحياتها بربرية بتلاميذها ، وبيئتها اذن فليس ثمة واسطة أجنبى كل تعليم عربى وكل تدخل من الفقيه ، وكل ظاهرة اسلامية (9) يجب منعها بصرامة تامة ٠

وكتب السيدموريس لوجلاى أحد موظفى الاقامة العامة فى المغرب فى مقال له سنة 1921 بعنوان « المدرسة الفرنسية لدى البربر » ـ ما ياتى ـ يجب أن نحذف تعليم الديانة الاسلامية واللغة العربية فى مدارس البربر وأن نكتب اللهجات البربرية (10) بحروف لاتينية ٠

وقد كانت السياسة البربرية التى سارت عليها فرنسا فى أقطار المغرب العربى ترمى الى فرنسة هذه الاقطار لغويا وسياسيا وقضائيا ٠ وتتخذ الى ذلك وسائل التفرقة بين عنصرى البلاد وهما العرب والامازيغ ٠

أما فى الجزائر فقد كان التعليم الابتدائى الذى تتكون فيه شخصية المواطن التكوين القومى والوطنى فى كل بلاد العالم ـ مفرنسا بنسبة 100 ٪ ولا تدرس اللغة العربية سوى فى التعليم الثانوى وكلغة أجنبية فقط ثم هى مقسمة الى لغتين ـ عربية فصحى (كلاسيك) وعربية عامية (مودرن) كما كانت ادارة الاحتلال تطلق عليها ٠

وكانت ادارة التعليم تعمل على توجيه الجزائر بين الراغبين فى دراسة العربية الى جانب الفرنسية الى دراسة العامية بدل الفصحى امعانا منها فى محاربة العربية ٠

أما فى جامعة الجزائر فقد كانت اللغة العربية تدرس فيها كلغة ميتة مثل اللغة اللاتينية واليونانية القديمة ٠

ولم يكن للغة العربية ـ خارج نطاق مدارس التعليم العربى الحر والزوايا التى كان الشعب يؤسسها ويمولها ـ مكانة فى مدارس الاحتلال سوى فى ثلاث مدارس فقط هى المدارس المعروفة بالمدارس الفرنسوية الاسلامية حيث كانت تنال حظا لا باس به

(9) انظر علال الفاسى/« الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى »/طبعة الرسالة بالقاهرة سنة 1948 ص 164 .

(10) نفس المرجع ونفس الصفحة .

الى جانب اللغة الفرنسية غير أن هذه المدارس كانت قليلة لا تتجاوز ثلاث مدارس فقط توجد فى كل من ، العاصمة ، وقسنطينة ، وتلمسان ، كما أن عدد طلبتها كان محدودا للغاية ولذلك لم تلعب دورا يـــذكر فى نهضة اللغة العربية فى البلاد ـ وانما كان دورها مقصورا على تخريج مجموعة من الموظفين فى الترجمة والشؤون الدينية فقط ٠

وهكذا عملت الدول الاستعمارية وفق خطة مرسومة استهدفت فى جوهرها القضاء على اللغة العربية بكل الوسائل الممكنة ـ سواء عن طريق الدعوة الى العامية ، والحروف اللاتينية كما حدث فى المشرق العربى أو عن طريق اعتبارها لغة أجنبية كما حـــدث فى الجزائر ٠

ويلاحظ أن الميدانين اللذين حارب الاستعمار فيهما اللغة العربية هما التعليم والادارة ٠ وقد اختلفت أساليبه فى هذه الحـــرب ٠

أما بريانيا فقد عملت على محاولة تغليب الانجليزية فى التعليم والادارة على اللغـــة العربية فى الاقطار التى خضعت لاستعمارها وهى مصر ، والسـودان وفلسطـــين ، والعــــراق ٠

أما ايطاليا وفرنسا فقد عملتا منذ البداية على ابعاد اللغة العربية من الادارة والتعليم معا ابعادا كاملا بل ومن كافة مجالات الحياة فى ليبيا والجزائر بهدف القضاء النهائى عليها ٠

10 ـ قصور العامية فى التعبير ، وفقرها فى المفردات :

ومع التسليم بوجهة نظر دعاة استعمال العامية فى الانتاج الادبى والعلمى ، لكيى تحل محل اللغة العربية الفصحى ـ فهل هى قادرة فعلا على الوفاء بمطالب الفكر والعلـــم والتكنولوجيا ٠

الواقع كما يؤيد ذلك كل الباحثـين اللغويين تقريبا أن العامية سواء فى البلاد العربية أو غيرها من البلدان الاخرى لغة قاصرة جدا فى التعبير الا فى المجالات البسيطة كما أنها فقيرة فقرا شديدا فى مفرداتها ولا يشتـمل متنها على أكثر من الكلمات الضروريـــة للحديث العادى فقط ، وهى فوق ذلك كله لغة مضطربة كل الاضطراب فى قواعدهـا ،

وأساليبها ، ومعانى ألفاظها وتحديد وظائف الكلمات فى جملها (11) ، وربط الجمل بعضها ببعض الى غير ذلك كما أنها لغة تخلو من المصطلحات العلمية ، ومن الدقة فى التعبير وأداة هذا شأنها لا يمكن ان تقوى مطلقا على التعبير عن المعانى الدقيقة ، ولا عن حقائق العلوم والآداب والانتاج المنظم • ولذلك فهى لا تصلح أن تكون أكثر من لغة تخاطب فى الشؤون العادية • ومن ثم لا يجوز اتخاذها اداة للكتابة وما يطلب بها من أغراض ـ لهذا فهى لا تصلح أن تكون لغة عامة لانه من السخافة كما يقول الكاتب الكبير عبد القادر المازنى ـ أن نتخذ لغة قاصرة غير وافية لا يفهمها الا عدد محدود من الناس (نظرا لاختلاف العاميات حتى فى البلد الواحد) وأن نهجر لغة ، يفهمها كل واحد فى كل بلد •

وفوق ذلك أية عامية يمكن استخدامها بدلا من العربية الفصحى ؟ فلكل قطر عربى عامية خاصة بل عامياته الخاصة به فعامية مصر غير عامية الشام وعامية العراق غير عامية الحجاز ـ أو الجزائر أو المغرب ، الخ •

ان الدعوة الى العامية واستعمالها بدل العربية الفصحى سوف يقودنا الى بلبلة فكرية ، واضطراب ثقافى واجتماعى خطيرين للغاية •

وقد سبق أن ذكرنا بان ظاهرة العامية الى جانب الفصحى هى ظاهرة عامة وطبيعية فى كل لغات العالم وليست قاصرة على اللغة العربية وحدها ، حتى أن الكاتب الارلندى المعروف برنارد شوقال فى احدى قصصه ساخرا من اختلاف نطق الانجليز للغة الانجليزية باختلاف مناطق انجلترا ، وكيف أن أهل كل منطقة يسخرون من نطق بقية المناطق • قال : « انه ما من انجليزى يفتح فمه بكلمة انجليزية الا ويجد انجليزيا آخر يضحك ساخرا من نطقه ولهجته ، لان الانجليز (12) لم يتفقوا بعد على طريقة التكلم بلغتهم •

وما يصدق على اللغة الانجليزية يصدق بدون شك على اللغة العربية وعامياتها المتفرعة عنها •

---

(11) انظر علم اللغة للدكتور عبد الواحد وافى، ط 5 سنة 1962 ـ ص 150 .

(12) انظر كتاب العربية بين أنصارها وخصومها للاستاذ أنور الجندى ـ ص 281

فاذا تجاوزنا عن جوانب قصور العامية فى التعبير ، وعن فقرها فى المفردات ، وعن اختلافها من قطر عربى الى قطر عربى آخر ، الى ناحية أخرى هى ناحية التراث الثقافى والحضارة الاسلامية ، فان اصطناع اللغة العامية كما يزعم دعاتها ـ فى الآداب والعلوم ، والكتابة بها بدل اللغة الفصحى من شأنه أن يحول عاجلا أو آجلا بين الاجيال العربية الجديدة على امتداد الوطن العربى وبين الانتفاع بالتراث العربى المدون باللغة العربية الفصحى حيث تصبح هذه اللغة بعد اصطناع العامية ، والكتابة بالحروف اللاتينية لغة غير مفهومة الا لطائفة قليلة من خاصة الناس ، وهم الذين يتوفرون على دراستها كما يتوفر الآن بعض علماء أوروبا على دراسة اللغة اللاتينية أو اليونانية القديمة ٠

ولسنا فى حاجة الى شرح الكارثة التى تصيب الثقافة العربية بضياع هذا التراث وعدم استطاعة الانتفاع به لمعظم المتعلمين من الاجيال العربية الصاعدة ٠

ومن هنا نجد استنكارا يكاد يكون شاملا من المفكرين العرب الحريصين على التراث العربى على محاولة استخدام العاميات بدل اللغة الفصحى (13) فى الكتابة الادبية والعلمية ٠

يقول الدكتور طه حسين محذرا من مغبة استخدام العامية فى الانتاج الفكرى « أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شىء خطير ما أرى أنهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير هو أن العالم العربى الآن وكثيرا من أهل العالم الشرقى كله يفهم العربية الفصحى ، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح القوى ، بين أقطاره المتباعدة فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية ٠ فيمعن كل قطر فى لهجته وتمعن هذه اللهجة فى التباعد، والتدابر ويأتى يوم يحتاج فيه المصرى الى أن يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين وكما يترجم هؤلاء عن

(13) انظر دفاع الكاتب الكبير عباس محمود العقاد عن اللغة الفصحى فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج 11 سنة 1959 ـ ص 72 .

الفرنسيين ويضيف طه حسين الى ذلك قوله ولنسأل أنفسنا أيهما خير أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق أم تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التي تتألف منها اجزاؤه وان يترجم بعضه عن بعض كما يترجم بعض الاوروبيين عن بعض ٠ (14)

11 ـ الاخطار التى تترتب على استبدال العامية بالفصحى ٠

ان الاستعاضة عن اللغة الفصحى بالعامية أو اللهجات المحلية كما يدعو الى ذلك خصوم العربية الفصحى لن يحل أي مشكلة للعالم العربى ، وانما هو سوف يخلق له مشاكل جديدة هو فى غنى عنها من أبرزها انفصام الوحدة القومية بين مختلف أقطار الامة العربية التى تلعب فيها اللغة الفصحى الدور الاساسى باعتبارها العامل الاساسى فى وجود الشخصية القومية وفى بقائها ٠

وذلك عندما يستخدم كل قطر عربى عاميته الخاصة به كلغة علم وثقافة بل هو سوف يخلق مشكلة خطيرة لكل قطر عربى على حدة حيث ستنشأ فيه من اللغات بعدد العاميات واللهجات الموجودة فى مختلف مناطقه الجغرافية وأضرب مثلا على ذلك بالجزائر يوضح لنا خطورة هذه المشكلة ٠

فهناك العامية التى هى غالبا عبارة عن عربية فصحى محرفة ٠ وهناك الى جانبها عدة لهجات أمازيغية يستعملها بعض المواطنين كلغات تخاطب الى اجانب العربية العامية فى بعض جهات الوطن ـ فأية لغة أو أية لهجة نتخذها اذا نحن سرنا مع دعاة العامية ـ كلغة وطنية للثقافة والانتاج الادبى والعلمى ٠ ؟ ثم من يضمن لنا أن سكان بقية المناطق يقبلون بسيادة لهجة لا يعرفونها على لهجتهم التى يعرفونها فالامر الطبيعى أن كل طائفة سوف تتعصب للهجة أو العامية التى تتحدث بها عن اللهجة أو العامية التى لا تتحدث بها ، مما قد يتسبب فى نزاعات جهوية وهو ما سوف يؤدى لا محالة الى تصدع الوحدة الوطنية مما لا يرضاه عاقل لوطنه ٠

---

(14) انظر مجلة اللسان العربى/عدد 3 الرباط سنة 1965 ـ ص 75 ٠

اذن فالدعوة الى العامية بغض النظر عن مصدرها ، وبغض النظر عن الحجج التى يتذرع بها دعاتها هى دعوة غير قابلة للتطبيق العملى سواء على مستوى الوطن العربى ككل • أو على مستوى كل قطر عربى على حدة •

وعلى كل حال فان الدعوة الى العامية قد خفت حدتها فى السنوات الاخيرة فى الوطن العربى ولم يزل يتمسك بها سوى قلة ضئيلة من دعاة الانفصال والانعزالية ممن لهم علاقات مشبوهة بجهات استعمارية حاقدة على وحدة العالم العربى وهم يتركزون فى الوقت الحاضر فى لبنان •

12 ـ الدعوة الى العامية وقضية تيسير اللغة العربية :

وترتبط بقضية علاقة العامية بالفصحى قضية أخرى هى قضية تيسير اللغة العربية الفصحى وبادىء ذى بدء هناك فارق جوهرى بين الدعوة الى تيسير اللغة الفصحى فى قواعدها ، وفى حروف كتابتها • وفى طريقة شكلها ، لكى تزداد سهولة ويسرا على المتعلمين وخصوصا الاطفال الصغار والاجانب الذين يرغبون فى تعلمها ـ وبين الدعوة الى العامية بهدف التخلص نهائيا من الفصحى ، فالعمل على محاولة تيسير اللغة الفصحى متنا وكتابة وشكلا عمل مشروع بل هو واجب على كل أبناء الضاد نحو لغتهم • مثلما تفعل جميع أمم الارض حيث تلاحق لغاتها بعمليات التيسير والضبط والتطوير بين وقت وآخر •

وقد بذلت محاولات عديدة ومنذ وقت طويل من أجل تيسير قواعد اللغة النحوية والصرفية • ومحاولات أخرى فى ضبط حروف الكتابة حتى يتخذ الحرف الواحد صورة واحدة سواء كان فى أول الكلمة أو فى وسطها أو فى مؤخرتها ان هذه المحاولات الاصلاحية الهامة التى تجرى الدعوة اليها ضمن نطاق اللغة الفصحى هى أمر واجب تحتمه سنة التطور وهو ليس مرغوبا فيه فحسب بل هو واجب من أهل لغة الضاد نحو لغتهم ولذلك فنحن بقدر ما نستنكر الدعوة الى العاميات والى الكتابة بالحروف اللاتينية للاسباب التى شرحناها نبارك بل وندعو الى العمل بكل جد وموضوعية على تيسير العربية الفصحى

فى القواعد • والكتابة والشكل الى غير ذلك مما تدعو الحاجة اللغوية اليـــه حتى تصبح لغتنا سهلة ميسرة على المتعلم والمعلم معا • وهذا ما يساعدنا على سرعة تحقيق التعريـب فى أقرب وقت ممكن •

13 ـ الخـــلاصـــة •

ومن هذا العرض السريع لطبيعة العلاقة بين اللغة الفصحى واللغة العامية قديمـــا وحديثا ـ والعوامل التى جعلت من هذه العلاقة الطبيعية والعلمية مشكلة شغلت الاذهان والكتاب فى العصر الحديث نستخلص الحقائق التالية :

أولا : ان ظاهرة وجود لهجة أو حتى عدة لهجات عامية الى جانب اللغة الفصحى هى ظاهرة عامة فى كل لغات العالم سواء منها القديمة مثل العربية أو الحديثـة مثـل الفرنسيـــة والانجليزية وبناء على ذلك فاننا مثلا لم نر الانجليز والفرنسيين والالمان يدعون الى نبذ لغتهم الفصحى والاستعاضة عنها باللغات العامية ، وانما نشاهدهم يبذلون أقصى الجهد مـن أجل المحافظة على لغتهم والعمل على نشرها فى مختلف بلاد العالم كما انهم يعملون على تكوين المجامع اللغوية لصيانة اللغة واصلاح كل خلل يطرأ عليها والعمل عـلى ادخال الكلمات الجديدة واسماء المخترعات الجديدة الى متن لغاتهم حتى تصبح مسايرة للتقـدم العلمى والتكنولوجى والحضارى كما انهم يحاولون من جهة أخرى التقريب بين لغة الكتابة من جهة ولغة التخاطب العادية من جهة أخرى ليقل التباعد بينهما ما أمكن ذلك •

ثانيا : ان الدعوة الى استعمال العاميات فى الوطن العربى هى فى الاصل والمنشأ دعوة استعمارية ماكرة قام بها وروج لها بين العرب وألف بها مستشرقون من خدام الاستعمار ومبشرون حاقدون على الاسلام ولغته العربية تنفيـذا لمخطط استعمـارى وصليبى حيث كان يرمى الى تمزيق وحدة الامة العربية عن طريق القضاء على الرابطة الكبرى التى تربط بين شعوبها فى المشرق والمغرب معا ألا وهى اللغة العربية لغة القرآن والثقافة العـربية الاســـلامية •

ثالثا : ان معظم الدعاة الى اللغة العامية والكتابة بالحروف اللاتينية من العرب هـم من أصحاب الاقليمية الضيقة وهم فى جملتهم من الحاقدين عـــلى العروبة والاســـلام والمناوئـين لقيام أية وحدة بين اقطار الامة العربية •

رابعا : ان مشكلة الازدواج اللغوى التى تنشأ بالنسبة لتعليم الاطفال فى المدارس حيث يتعلمون بالفصحى فى المدرسة ويتحدثون بالعامية فى المنزل والشارع والسوق ليست مثل الازدواجية اللغوية التى تنشأ من وجود لغتين مختلفتين تمام الاختلاف فى كتابتهما ونطقهما وقواعدهما الى غير ذلك من الاختلافات الجوهرية وذلك مثل اللغة العربية واللغة الفرنسية ٠

فالعامية المحلية مثلا هى فى الاصل عربية محرفة وليست لغة أجنبية وقد عاشت الى جانب اللغة الفصحى قرونا عديدة فى تفاعل طبيعى ولم تصبح مشكلة تشغل الاذهان والعقول والاقلام الا فى العصر الحديث نتيجة دعاية استعمارية ماكرة تريد تفرقة كلمة العرب ووحدة صفهم ٠

خامسا : ان انتشار التعليم على نطاق واسع وتحقيق ديمقراطية الثقافة بالنسبة الى جماهير الشعب ونشاط وسائل الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزة كفيل بالتخفيف من حدة هذه المشكلة لانه سوف يرفع من مستوى العامية حتى تقترب من الفصحى كما انه سوف يعمل على تقريب الفصحى من لغة الحديث وبذلك سوف توجد لغة يمكن أن نطلق عليها تجاوزا اسم اللغة الوسطى أو المشتركة تصبح لغة الحديث فى السوق والشارع والمنزل والتعليم فى المدرسة وبذلك لن تبقى العامية كمشكلة تطرح نفسها على الساحة العربية كما هى عليه فى الوقت الحاضر ٠

سادسا : أن مشكلة التعريب التى نعانيها فى الوقت الحاضر هى من جملة التركة الثقيلة التى ورثناها من العهد الاستعمارى وهى أثر من آثار الحرب الضارية التى شنها الاستعمار الفرنسى على اللغة العربية حتى اصبحت لغة أجنبية فى عقر دارها والعمل الثورى الخلاق الذى ينبغى علينا اليوم بذله هو تصحيح هذا الوضع الشاذ بالنسبة للغتنا الوطنية بحيث تعود الى سابق عهدها الذى كانت عليه فى البلاد قبل دخول الاحتلال الاجنبى الى الجزائر ٠ وهى كونها اللغة الوحيدة التى لها السيادة الكاملة فى هذه البلاد اداريا وثقافيا ، وتربويا وتعود اللغة الاجنبية الى مكانها الطبيعى كلغة أجنبية ليست لها أية امتيازات خاصة فى هذا الوطن وانما هى كغيرها من اللغات الاجنبية احدى النوافذ الثقافية التى يطل منها شعبنا على ثقافات العالم وفكره وحضارته فقط ٠

والله ولى التوفيق ٠

ملحمة بنت العشرين !

صَدقَ الوعدُ !

شعر : مفدى زكريا

صدق الوعد ، فاطفحي يا بشائر   ودنا السعد ، فامرحي يا جزائر !

ومضى الزحف يجرف السد لما   أن طغى المد من دماء المجازر !

وسمعنا ـ يا بنت عشرين ـ صوتا   قدسيا يحدو ركاب المقادر !

فاجتلى الرب ، يوم كلمه الشعب ، وناجاه في الذرى كل ثائر !

فدنا من كليمه وتدلى   قاب قوسين ، عاصفا بالجبابر

واستوى الفلك ، يوم أن قيل بعدا   وانطوى الشك عن ضمير الدياجر

وصدقنا الفدآ ... فرعنا المنايا   وسبقنا المدى ، فقدنا المصائر

وأردنا البقآ ... فدسنا غرور الد   هر ... فانقاد راغم الأنف صاغر

وسخرنا من مزعجات الليالي   وهزأنا من كبرياء المخاطر

الجزائر ـ يوم فاتح نفمبر 1974 ـ الذكرى العشرينية لاندلاع الثورة الجزائرية .

وأتى أمرنا ... فأطـرقت الدنـــيا خشوعا ... وأذعنت للأوامر !
وحـرقنـــا نفوسنا ... فصنعنا من شعاليلها ، مصير الجزائـــر !

* * *

بنت عشرين ... يوم مولدك الدامى ، رأينا دماك تبنى الجزائـــر
وبغلت الفطام ... بعـد ثمـان فسمعنـا حجاك ... ناه وآمـر !
يا سمـــــاء اقلـــعى ... ويا أرض ميـدى
واسـم يا عقـــل ... واخلصى يا ضمائـــر
أينع الغرس مـــن رماد الضحايا ونما الزهر مـــن رفات المقابـر
ونفـوس المضرجـين تصـــاعـد ن بخورا مـن عابقات المجامـــر
زغردى ... تصرخ الدمآ ـ بنت عشرين ـ وتنبض بها عروق الجزائـر
واخفقى يا بنود ... تخفق لك الد نيا...ويغمر سناك أرض الجزائر
حــولى هـــذه المشانـق عيـدانا ... وألواحها الغضاب مزاهـــر
وافتـلى من حبالهـا الحمـر أوتا را ... بها تعزفـين لحـن الجزائر
وصرير الأغلال فى السجن ، أوزا نا وأقفالها الغـلاظ مـزامـــر
وأنـــين المعذبـــين تســـابيـــح ، بها تلهبين أسمى المشاعـــر
والحنايا مـــن الضلـوع محاريـــب ... وأكبادها الحرار منابـــر
وابعثوا مـــن تنهدات العـــذارى فى سراديبها ... نبـوغ العباقـر
أنا . من فيض وحيها ... نبع الها مى...ولولا العذاب،ما كنت شاعر

كم تغنيت فى الدنا ... ببطـــولا ت بلادي ، وكم غزوت المخاطــر
وعلى الشاهقات ، والســاح وقعــت خطى الثائر الشجاع المغامر !
وتخطى قعــر السجون نشيـدى طائرا فى الفضاء مــع كل طائــر
وتسامى مخلـدا كـــل ذكــرى يقنص الوحى مــن جهاد الجزائــر
ومضى فى ملاحم الثـورة الكبـر ى يروع الدنا ، ويشدو المفاخـر
وتنـــادى بمغـــرب عـــربى وحدته ـ طوع الجراح ـ الأواصر
لم يزل صادحا على كـــل غصــن من ذرى مغـرب الأباة القســاور
عاشقا كل مابه ... كل مـــن فيـــه ... ومن فوقه ... ومن بالمقابر
مغربى جنـة ... أفى جنـة اللـــه سوى كل مستقيـم وطاهـــر ؟
واذا ما مدحت قـــومى ، أليسوا من دمى ؟؟ من حماة حرب الجزائر ؟
ان مـــن يجحـد البطـولات نـذل والـذى يغمط الرجـال مكابـــر
يشكــر الله كــل من يشكــر النـــاس ، ومن يكتم الشهادة . كافر !

* * *

بنت عشرين ... خلدى اليوم ذكرا ك ، عساها تنير بعض البصائــر
عمر المجد ، أنت ... لا عمر الور د ، وفى الورد مسحة تتناثــــر !
أنت كالشــم ، رفعـــة وشموخا أبدا لن تنـــال منـــك الأعاصر
ما وضعت السلاح فى الثورة الكـــبرى ، ومازلت تصنعين المصائــر
ثورة الزرع والبناء ، وما شئت ...وشـــاء الـنهى لخـــير الجزائـــر

يرث الأرض كل مـــن يزرع الأر   ض ، وللخانعين دمـــع المحاجر !

* * *

بنت عشرين...والغرام ابن عشر   ين ... وعمر الشباب ريان ناضر

لم أزل عاشقا ولوعا ، وان جـــاو   زت خمسين ، وابن خمسين ماهر ! !

عمر الشاعر الأصيـــل شبـــاب   أزلى ، مثـــل الحظوظ البواكـــر

ان من يزرع الشبيبة فى الأعمار ،... لا ينحنى أمـــام المخـــاطـــر

يرضع الحب والجمال حناياه ......ويرعى صبـاه ، فيض الخواطـــر

أنا مــن همت بالجمـــال قديمـا   وتغنيـت بالعيـــون الفواتـــر

وعشقت الأصيل ، والنهر ، والواحـة ، والرمل ، والمهـاو الجئـــاذر

والصباح الرضيع ، والورد والشا   طىء ، والليل ، والنجوم الزواهر

مذ عرفت الجمال ... آمنت بالله .... وآمنت بعـــده بالجـزائـــر !

وطن المعجزات ، والسحـر والشعـر ، ومرعى الظبا . وربض القساور

ان يكن خـالق الجمـــال جميـلا   هاهنا رف حسنـــه بالجـزائـــر

هاهنا مـــن جمالـــه لمســـات   في الربى،في الذرى،وخلف المقاصر

حار أهل الفضول ، فى رؤيـة اللـــه ، وضلوا عن وجهه فى الجزائر !

حســـدونا عـــلى الجزائـر لمـا   خـط فردوسه بـأرض الجـزائر

وحباها مـــلء الجمـــال جـلالا   طأطأت دونـه رؤوس الجبابـــر

وطنى ... أنت بدعـــة صنعتها   من طلاسيم فنهـا يـد ســـاحـر

وطنى ... أنت بسمة الرب في الأر ض ، ومرآة حبه المتواتر
وعلى الاطلس المريد ، يداه تقد حان الزناد من كف ثائر
وبساح الفداء صرختـه الكبرى تدوي ، فتستفز المشاعر
وطنى لو دخلت جنة عدن

ـ وعدونى ... ! ! ـ لم افتتن بالمظاهر
واذا كان من جمالك فيها تبت لله من جميع الكبائر . !
لك أخلصت قانتا صلواتى وتعلقت خاشعا ـ بالستائر
وبأنفاسك الزكية تسمو كلماتى .... وأستمد الخواطر
أنت فى المغرب الموحد كالنسر ، جناحاه ، لحمة وأواصر !
كم تناجى (قرطاج)[1] (سرتا)[2] فيهفو لحديث الغرام (وادى الجواهر[3])
(تونس الحب) والجزائر ، والمغر ب شعب موحد متئازر
لا فروق ـ لا غربة ـ لانشاز لا انحياز ـ لا نزعة ـ لا عناصر
والطباع السماح حظ مشاع بين هذا وذا وأرض الجزائر !
والجمال البديع فيها شريك أينما كنت لم تزل فى الجزائر
فاتركونى أثمل بحب بلادى ، وذرونى أحفل بحسن الجزائر
قف (بأبيارها[4]) الحوالم يسكر ك من الورد عطره المتقاطر
والمها ، فى دروب (حيدر[5]) نشوى يتباغمن بالعيون الكوافر
والمنار العذول فى (القبة[6]) الحيرى يروع الظبا ، ويفشى السرائر

آية الحسن فى (الشريعة)[7] تتلوها خميلات لا بطون الدفاتر
نمنمتها (جواسق) كالأمانى، بين خاف عن العيون ، وظاهر
دس قوس السمآ ، على قدميها أثرا من شفاهه الحمر ، سافر
وتملى بحب (مليانة)[8] القلب، وفيها للعاشقين (عناصر)
ولو ان (النسور) لم ترد العين ، تصورت أنها عين ساحر
ولو ان الملوك لم تقصر الحب ، على حبها ، لماعاث ماكر !
واسألوا (جرجرا) أعلمها الزيتون ، اصرارها حيال المكابر ؟
صمدت مثله تجاه المنايا وطوت مثله عروش القياصر
وأسألوا نبل أرزنا ... كيف أبقى أرز لبنان ـ وحده ـ يتفاخر ؟
وأسألوا دولة (الكروم (بمتيجة) هل كرمت بنيها المئاثر ؟
و (بسرتا) آتئد ، وسل (جبل الوحش) (ووادى الهوآ) وجسر المخاطر
هل رآى النهر والروابى ، سجالا يتراقصن ، يجتذبن الخواصر ؟
لم تزل (قلعة ابن حماد) تاجا مشرقا فى جبينها بالمفاخر
و (تلمسان) و (الوريط) يناغيها ، ويصطاد ظبيها فى المعابر
لم يزل شامخا (بمشورها) زيا ن) لما تدر عليه الدوائر
وكأن لم يزل هناك (شعيب أبن حسين) تروى هداه المنابر ...
وبصحرائنا ... يخيم (هارو ت) حريص على اقتناص الجئاذر
ماله ـ والعيون تنضح نفطا أشعل النار من عيون السواحر ؟

وسل البحر ـ عن زوارقه السكرى ، تهادى على ضفاف الجزائر
والنسيم العليل يعبث بالشا طىء . كما تعبث المنى بالخواطر
جل كورنيشنا (فلم يسخ بالرو شة) للمقنانطين ، بل للعساكر !!

* * *

ايها السائلون ... هذى بلادى هذه معجزات أرض الجزائر ! !
ايها الناس ، هاهنا نبع الهامى ... ومن هاهنا تنبأ شاعر
هاهنا . ركز الكرامة والعزة والنبل والندى (عبد قادر) !
كلما جاء بالكتاب نبى جئتكم فى يدى كتاب الجزائر !

* * *

بنت عشرين باسم عشرين أشدوا ملء سمع الدنا نشيد الجزائر
وبذكرى الخلاص ، فى ليل عرس قمت ، والشعب بالهتافات هادر
وجموع البلاد ، تزحف كالسيل اندفاعا . وكالحيا المتقاطر
والبنود المرنحات نشاوى راقصات ، محمومة تتخاصر
والصبايا . ذكرن آدم بالتفاح ، يرتج ، نافذ الحكم قاهر
وسرت رعشة الزغاريد فى آد م ، فاهتز ، يستزيد السواحر
وشياطين للصحافة حيرى فى الثنايا ، ما بين ساه وساهر
وعيون المصورين سهارى تعصر الوهم من خلال المناظر
ان تنفست ، أو تبسمت ، طارت نشرات عبر الفضا تتقاطر

والأعازيف ـ مرحبا بنت عشرين ... بموج الأثير ، تغزو الحواضر
حدث رائع . وعيد جليل طيروه لا تحفلوا بالمصادر
واذكروا مجد بنت عشرين تلثم قديمها الدنا . وتهفوا المقادر
وتبارك بعيدها ، قمة المجد ، تعيد الصفآ ، وتحدوا المصائر
يا بناة الخلود ، فوق الضحايا فوق أنقاض ماردات القياصر
أنتم مطمح الجزائر فى الجلى ، واشعاع نورها ، فى الدياجر
وضمام الأمان فى وحدة الشعب ، اذا رام كيدها متئامر
ورجاء الغد السعيد ، اذا ما عاث مستهتر ، وزور ماكر !
حرروها ، من الرواسب والاطماع،والدس. واعصفوا بالسماسر !
طهروها من الخنافس ، والأحلاس ، والعابثين ملء المعابر !
والأولى نافسوا الكواعب غنجا ودلالا ... وما وراء الستائر ! !
واحذروا فى دنا الثقافة (حركيين) كم ضللوا شباب الجزائر !
حرفوهم عن الأصالة فكرا ولسانا ، وعفة ، و ضمائر !
ان جيلا (مخنثا) ليس يبنى لغد . غير بؤرة من صراصر !
فانبذوا بالعراء كل عميل أجنبى الطباع ، أجرب غادر
ليس فى الشعب بقعة لعميل ليس بالخائنين تبنى الجزائر ! !
ثقة الشعب ذمة فارقبوها واتقوا الله...يوم تبلى السرائر !
ان فعلتم فالمجد لابنة عشرين ... وطول البقآ لشعب الجزائر

- تعـليقـات -

(1) (قرطاج) . عاصمة القرطاجنيين ـ ضاحية بالشاطىء التونسى .

(2) (سيرتا) اسم لبلدة قسنطينة بالناحية الشرقية من البلاد الجزائرية وهو اسم رومانى .

(3) (وادى الجواهر) النهر الذى يخترق مدينة فاس ويجرى من تحتها رخاء .

(4) الأبيار ضاحية جميلة من مرتفعات عاصمة الجزائر .

(5) (حيدرة) أروع ضاحية فى مرتفعات الجزائر العاصمة .

(6) (القبة) من مفاتن ضواحى عاصمة الجزائر ، وبها منار يغمرها دفئا ونورا .

(7) (الشريعة) سلسلة جبال تبعد عن عاصمة الجزائر بخمسين كيلو مترا وتقع على ارتفاع 1800 متـــرا فوق سطح البحر وهى من روائع الطبيعة فى الجزائر تنافس جبال سويسره جمالا وجلالا وطيب مناخ .

(8) (مليانة) تبعد عن العاصمة بثمانين كيلو مترا وتمتاز برقة هوائها وعذوبة مائها . (والعناصر) اشارة الى منابع العيون بمرتفعات المليانة . و (النسور) أعلى قمة بمليانة ويسمى) عين النسور) .

اشتهـرت مدينـة المليانـة كتلمســان بجـودة (حب الملوك) ولذتــه . وفى ذلك يقول لسان الدين ابن الخطيب : « وما فيها من حب الملوك . أغرى بها حب الملوك » والملـــوك آنذاك لا تفريهم غير بطـــونهم وملذاتهم للاغارة على بلدان غيرهم ! ! !



منشــــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة

صدر أخـيرا:





الأمير عبد القادر
ومشروع قناة قابس والبحر الافريقي

يحيى بوعزيز

لقد شهدت أوروبا خلال القرنين 16 و 17 حركة تجارية واسعة دعيت « بالثورة التجارية » وذلك كنتيجة للكشوف الجغرافية الاستعمارية • فتجمع لدى الهيآت والشركات رؤوس أموال ضخمة ، استثمر جزء منها في حركة « الثورة الصناعية » التي ظهرت في القرن 19 • اما الباقي فقد خرجت أوروبا لميدان الاستعمار في افريقيا وآسيا وأمريكا من أجل استثمارها في مشاريع أخرى اقتصادية جريا وراء الارباح دائما ، ومن ضمنها مشروع قناة السويس •

وكان فرديناند دو ليسبس نائبا للقنصل الفرنسي بالاسكندرية خلال عهد محمد علي حتى عام 1849 ، فوثق صلته بابنه الامير سعيد ، واهتم بدراسة مشروع شق قناة في برزخ السويس تربط البحرين الاحمر ، والمتوسط ، تسهيلا للملاحة الدولية بين الشرق

والغرب ، وخدمة للمشاريع الاستعمارية فى المنطقة العربية وجنوب آسيا والمحيــط الهادى والهندى ٠

وعندما عين الامير سعيد خديويا على مصر خلفا لابيه ، سعى فرديناند لديـه حتى اقنعه بمشروع القناة دون صعوبة ، بعد ان أوضح له بأن اسمه سيخلد فى التاريـخ مثلما خلدت اسماء فراعنة بناة الاهرامات ، بفضل هذا المشروع ، ويذكر دو ليسبس بانه خلال عمله بمصر كنائب للقنصل ، كان يعمل على التخفيف من القساوة التى يتعرض لها الامير سعيد من طرف أبيه (1) وهو الامر الذى جعل العلاقات بينهما وطيدة ، وسهل له النجاح فى مهمته ٠

وهكذا وافق الخديوى سعيد على الفكرة عام 1854 ، وأمضى عقد الشركة عام 1856 ٠ وشرعت الشركة فى العمل عام 1859 ٠ وكان من ضمن بنود الاتفاق حق الشركة فى امتلاك أراضى واسعة على جانبى القناة دون مقابل وبلا ضريبة ٠ وسعى دو ليسبس حتى حصل على موافقة الدولة العثمانية عام 1866 رغم معارضة الانجليز ، وفى نوفمبر 1869 دشنت هذه القناة فى حفل بهيج كان من ضمن المدعوين اليه الامير عبد القادر بدمشق ٠

مشروع قناة قابس والبحر الافريقى الداخل :

وفى الوقت الذى أصبحت فيه قناة السويس حقيقة واقعة ، وشرع دوليسبس فى دراسة واعداد مشروع قناة باناما بأمريكا الوسطى للربط بين المحيطين الاطلسى والهادى برز مغامر آخر بمشروع شق قناة جديدة فى شمال افريقيا ٠ هذا المغامر هو القائـد رودير le commandant Roudaire ، والمشروع هو شق قناة بين مدينة قابس فى خليج قابس ، واحواض منخفض الجريد الداخلية غربا ٠ فما هو حقيقة هذا المشروع ؟

تعتبر المنطقة المحصورة بين خليج قابس شرقا ، وجبال أولاد نايل ، وهضبة مزاب غربا ، وجبال الاوراس والنمامشة وتبسه ، والظهر التونسى شمالا ، وجبال مطماطـة والهقار جنوبا ، حوضا داخليا واسعا يدعى العرق الشرقى الكبير ٠ ويشتمل على عدد كبير من الاحواض والشطوط الداخلية المالحة خاصة فى الشمـال الشرقى والغـربى

---

1) *Bulletin de la société de géographie commerciale de Paris.* (Paris 1882-1883) T. 5 pp. 338-340.

أهمها : منخفض الجريد الذى يشتمل على شط فجاج ، وشط الجريد ، وشط الغرسة ، ولا يبعد كثيرا عن خليج قابس بتونس • ومنخفض ملغيغ الذى يشتمل على شط عسلوج، وشط ملغيغ ، وشط مروان ، وذلك بالجزائر غرب منخفض الجريد •

ويمتد الى جنوب أحواض ملغيغ عدد آخر من الشطوط تمثل جزءا من منخفض وادى ايغرغر الذى ينحدر من السفوح الشمالية لجبال الهقار • والى الشمال الغربى من منخفض ملغيغ توجد بالهضاب العليا مجموعة من الاحواض والشطوط الداخلية المالحة فى خـط شبه مستقيم من الشرق الى الغرب أهمها : شط الحضنة ، والزاغر الشرقى ، والغربى ، والشط الشرقى ، مفصولة عن حوض ملغيغ بمرتفع الزاب والزيبان بين بسكرة وباتنة وحوض الحضنة •

وتدعى بعض النظريات الجغرافية والجيولوجية بأن هذه الاحواض كانت تمثـل فى بعض العصور القديمة بحرا داخليا واحدا له ثلاثة منافذ الى البحار ، واحد الى البحـــر المتوسط شمالا عبر مجرى نهر الشلف ، والثانى الى المحيط الاطلسى غربا عبر ممـــر تازة ، والثالث الى خليج قابس شرقا عبر شط فجاج ، ثم ان هذا البحـــر جفت بعض أجزائه ، وبقى البعض على شكل أحواض وشطوط وزواعز داخلية ، أهمها مجموعـــة أحواض منخفض الجريد ، ومجموعة أحواض منخفض ملغيغ ، ومجموعة أحواض الهضاب العليـــا •

وتقع أحواض منخفض الجريد على انخفاض 25 مترا من مستوى سطح البحر ، وحولها مناطق سهلية واسعة ، ذات تربة رسوبية التكوين ، وكذلك الامر بالنسبـــة لاحواض منخفض ملغيغ • وفى نفس الوقت تنتشر فيه عدد من القرى العمرانية ذات الكثافـــة السكانية العالية خاصة منطقة وادســـوف جنوب منخفض ملغيغ ومروان •

ويسود هذه المنخفضات مناخ صحراوى قاسى ، جاف وحار ، صيفا ، وبارد شتاء • ومن أجل ذلك يعانى السكان باستمرار كوارث الجفاف غالبا ، وتضطرب أوضاعهـــم الاقتصادية الفلاحية والحيوانية • وشاعت فكرة لبعض الجيولوجيين فى القرن الماضى وحتى فى القرن الحالى ، بأنه يمكن خلق بحر داخلى فى هذه المنطقة من أجل أحداث تغيير فى مناخها الذى سيؤدى الى تغيير فى أوضاعها الاقتصادية والعمرانية لفائدة السكان •

وهـذا البحر تكون نواته الاولى أحواض شط الجريد ، والغرسة ، وفجاج ، الـتى ستربط بقناة الى خليج قابس الذى لا يبعد كثيرا عن خليج فجاج ، الذى يمثل النراع الشرقى لشط الجريد الكبير • ثم بعد ذلك يربط فى مرحلته الثانية بأحواض منخفض ملغيغ بوادى ريغ فى الجزائر • على أن يربط فى مرحلته الثالثة بشط الحضنة فى اقليم الهضاب العليا بالشمال الشرقى عبر ممر الزاب ، والزيبان ، وحوض ايغرغر فى الجنوب عبر وادى سوف •

انه مشروع ضخم حقا ، وعظيم الفائدة لو قدر له النجاح • وقد أهتم به السيــد رودير ، ووضع عنه دراسة قدمها الى المجلس العلمى بالاكاديمية الفرنسيــة بباريس ، فأحالها هذا،على السيد فرديناند دوليسبس عضو المجلس على اثر عودته من مصر بعـد تدشين قناة السويس ، فاستحسنه وشجعه • ومع أننا لم نتمكن من معرفــة أهداف روديو من وراء اهتمامه بهذا المشروع ، الا ان دوليسبس كان صريحـا فى أهدافـه الاستعمارية • فقد اصطحب معه روديو ، وتقابل مع رئيس مجلس الـوزراء الفرنسى ليقنعه بأهميته ، وأكد له بأن انجازه سيحول دون قيام الثورات ضد السيطرة الفرنسية بجنوب الجزائر وتونس ، ويقضى على محاولة الدولة العثمانية فى استعادة سيطرتها على تونس ، ويوقف اطماع الانجليز ويساعد فرنسا على الفور باحتلال تونس فى النهاية • (2)

الامـير عبد القادر يؤيـد المشروع :

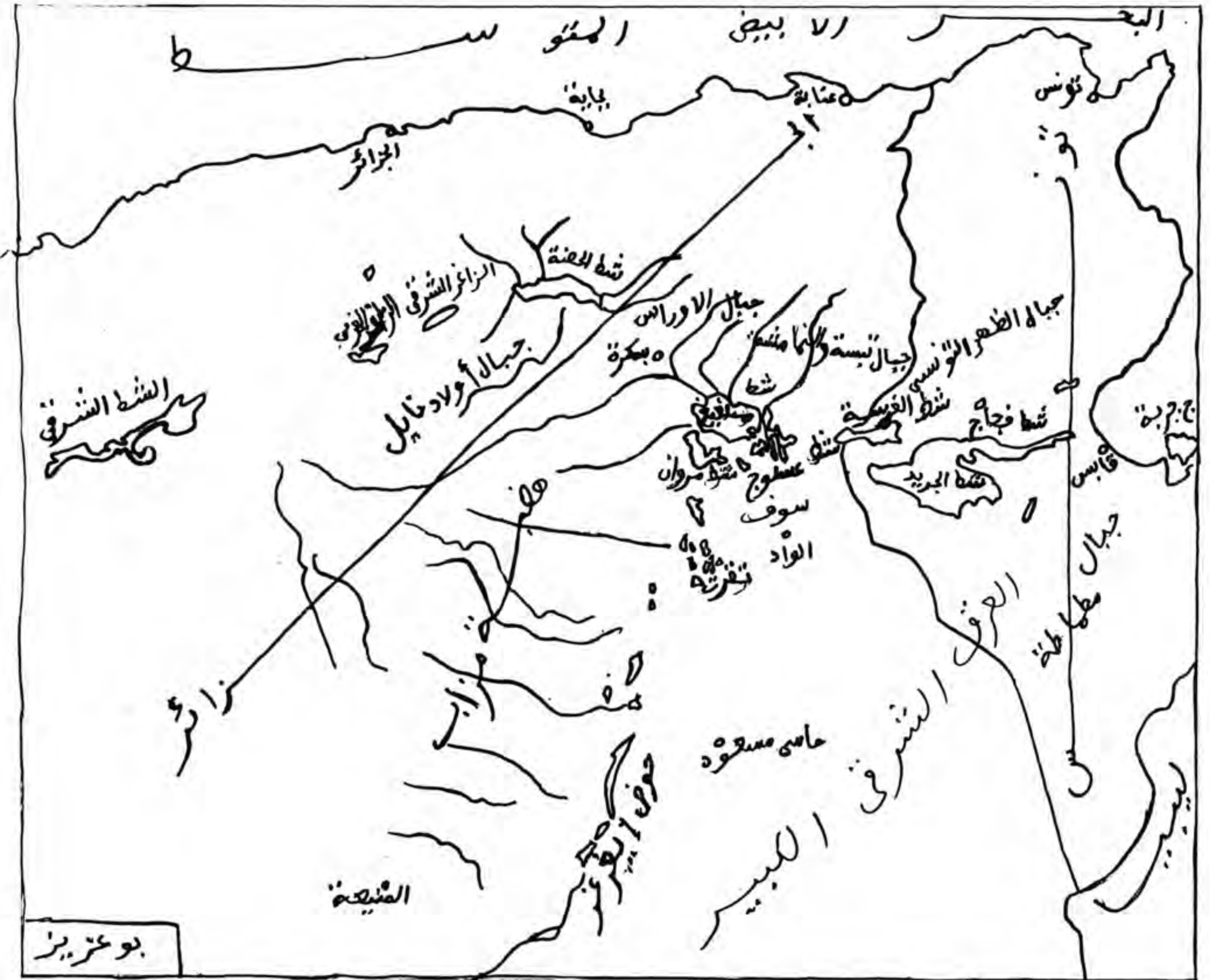
ورغم ان الأمير عبد القادر كان بعيدا عن الميدان ، يعيش فى منفاه بدمشق ، الا انه رمى بدلوه فى الموضوع ، وعرض تأييده للمشروع ، فكاتب دى ليسبس مهنئا ومشجعا له (3) ، وكاتب سكان قابس والمناطق المجاورة لها يحثهم على تأييد المشروع ، ويسليهم عن بعض الخسائر التى ستلحقهم من جراء خلق ذلك البحر الداخلى الذى سيغمر لهــم بعض القرى والاراضى الزراعية • (4)

---

(2) نفس المصدر ـ ص 342 .

3) *L'exploration du Globe.* Journal des conquêtes de la civilisation sur tous les points (Paris 24-11-1879) n° 149 pp. 825 - 826.

4) *L'Afrique Explorée et civilisée.* Journal mensuel (Genève, Suisse. novembre 1879) n° 5 pp. 81 - 82.



البحر الابيض المتوسط
تونس
عنابة
بجاية
الجزائر
شط الحضنة
جبال الاوراس
بسكرة
جبال أولاد نايل
الشط الشرقي
الشط الغربي
جبال الظهر التونسي
شط فجاج
شط الجريد
شط الغرسة
قابس
ج. جربة
جبال مطماطة
سوف
الوادي
تقرت
حاسي مسعود
العرق الشرقي الكبير
المنيعة
ليبيا
بوعزيز

ويدعى الفرنسيون بأن تأييد الامير عبد القادر للمشروع كان « تلقائيا » وليس بايعاز من أحد ، كما أن دى ليسبس اعتبر هذا التأييد بمثابة « جواز مرور » لانجاح المشروع (5) وليس باستطاعتنا ، ان نجزم بصحة هذا الادعاء ، أو نفيه ، لاننا لم نتمكن من الاطلاع على أصول الوثائق العربية وكل الوثائق الاخرى المتصلة بالموضوع ٠ ولكن هناك بعض القرائن يمكن ان تساعد على اعطاء الجواب على تأييد الامير « التلقائى » للمشروع ٠

هل كان الامير عبد القادر مرشحا لتنصيبه ملكا على مملكة قناة السويس :

لقد كان الامير عبد القادر على صلة بالشخصيات العلمية والسياسية بأوروبا ، وعين عضوا فى المجتمع العلمى الفرنسى باكاديمية باريس بعد ان قدم له كتابه : ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ٠ وبسبب عضويته هذه متن صلاته بفرديناند دى ليسبس وافراد عائلته ٠ خاصة شقيقه جول دى ليسبس ٠ وبسبب هذه الصلة المتينة أهدت له شركة قناة السويس قطعة أرض فى « بوبلح » بمدينة بور سعيد ، ورشحه دو ليسبس لينصب أميرا على مملكة قناة السويس التى تسعى الشركة من أجل فصلها عن باقى تراب مصر ٠ (6)

وعندما دعى لحضور حفلة تدشين قناة السويس ، اجتمع اليه رؤساء الكومبانية يقدمهم الرئيس الاول مسيو فرديناند دو ليسبس وفاوضوه فى أمر أرض بوبلح التى كانوا أهدوها له فاخبرهم بان اسماعيل باشا خديوى مصر غير موافق لهم على هذه المنحة واطلعهم على ما كتبه اليه فى ذلك فصمموا على تنفيد أمرهم بأى وجه كان فابان لهم انه لا يريد وقوع الشحناء بينهم وبين اسماعيل باشا بسببه ثم تبين ان اسماعيل باشا انما قصد بمنعه هذا وانكاره ان يستأثر بهذه الارض دون غيره فلما اطلع الامير على الحقيقة سمح فيها للكومبانية وسقط فى يد المانع الماكر » ٠ (7)

---

5) *Bulletin de la société de géographie*. pp. 342 - 343.

(6) تراجع فى هذا الموضوع وثائق قناة السويس بمكتبة قصر عابدين ، ومكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة التى تتحدث عن محاولة تنصيب عبد القادر ملكا على مملكة القنال .

(7) الامير محمد ـ **تحفة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر** (الاسكندرية 1903) ، ج 2 ص 185 ـ 186 .

ان أهداف الشركة من وراء إهدائها قطعة أرض في بور سعيد الى الامير واضحـــة وهو ما جعل الخديوى اسماعيل باشا يعارض ذلك بشدة ، ويعلن ان القناة هى التى لمصر وليست مصر هى التى للقناة ، ولذلك دخل فى مفاوضات عويصة معها حتي تنازلـت عن البند الذى ينص على حقها فى ملكية أراض واسعة حول القناة ، ومع ذلك لم تتوقف عن محاولاتها لفصل القناة عن بقية البلاد المصرية ·

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : كيف سمح الامير عبد القادر لنفسه أن يكـــون « دمية » فى يد شركة قناة السويس · « وعميلا » لهـا ، تنفـــذ بواسطته ، مشاريعها الاستعمارية ، وتحطم به وحدة مصر الترابية ، ان هذا السؤال سيبقى مطروحا ما دام لم تكتشف وثائق أخرى تبطله · وهذه « العمالة » لشركة قناة السويس ، وزعيمها فرديناند دو ليسبس ، هى التى جعلت الامير عبد القادر يعلن تاييده لمشروع قناة قابس ويتوجـه بذلك التأييد الى دى ليسبس بدلا من رودير صاحب المشروع ·

وهذا التأييد يرجح ان يكون « تلقائيا » نظرا للعلاقات الخاصة التى كانت تربـط الامير وابنه محمد بدى ليسبس وافراد عائلته خاصة أخيه جول دى ليسبس فلقـد كان يراسل باستمرار فرديناند وأخاه جول الذى كان وكيلا للحكومـــة التونسية بباريس ويستشيرهما فى بعض الامور · فبعد قيام جمهورية الرابع سبتمبر 1870 كاتب عبـد القادر جول دى ليسبس واستشاره فى أمر قدومه الى باريس لتهنئة رجال العهــــد الجمهورى الجديد ، فرد عليه بالقبول والاستحسان وفعل مثله ابنه محمد فكاتب المذكور طالبا منه أن يتدخل له لدى رجال العهد الجديد حتى يكون صاحب حظوة لديهم ، وطالبه أيضا بالتدخل لدى باى تونس من أجل الحصول على نيشان لاحد كتاب أبيه الاوروبيين ·

وقد فعل الامير عبد القادر نفسه ذلك فكتب الى الوزير التونسى مصطفى بواسطته يطلب نياشين الى بعض الاوروبيين بمدينة معسكر · (8)

وليس من الطبيعى ان تكون هذه الصلات والعلاقات بين الطرفين ، عائلة الامـــير ، ودى ليسبس ، لله وفى الله · بل هناك أسباب ودواعى ، فشركة قناة السويس بزعامة

---

(8) ارشيف الحكومة التونسية ، صندوق 78 ملف 929 وثائق 69 و 70 و 71 و 72 و 91 .

فرديناند دى ليسبس · لا يمكن لها أن تقوم باهداء قطعة أرض فى منطقة قناة السويس الى الامير عبد القادر ، لو لم تكن تستهدف تحطيم وحدة مصر الترابية · ولو كان عملها هذا لله ، فلماذا لا تهدى له قطعة أرض فى أوروبا مثلا فى باريس أو لندن ، ولماذا لا تستشير مسبقا صاحب الارض الحقيقى ، خديوى مصر اسماعيل باشا وحكومته ؟

والامير عبد القادر تورط ووقع فى حبال فرديناند دى ليسبس وشركة قناة السويس، ولم يتفطن لاهدافها ومراميها ، أو انه كان على علم بها ، ولكنه تغاضى لغاية فى نفسه · ورغم ان هذه الغاية لم تتحقق للشركة ، الا انه أصبح يشعر بثقل افضالها عليه ، ولم يجد ما يرد به لها ، بعض جميلها ، فسارع لتأييد مشروع قناة قابس والبحر الافريقى الداخلى ، كتعويض لجزء من ذلك الجميل ، دون أن يعرف أيضا ما تهدف اليه من وراء ذلك ، ولربما يكون تاييده للمشروع عن طيبة ، ولكن لابد من الحذر خاصة تجاه مثل هذه الاحداث والمشاكل ، وخاصة بالنسبة لاشخاص كالامير عبد القادر · ولعل وثائق أخرى تظهر فيما بعد ، تزيد وضوحا ، لهذا الموضوع وتكشف لنا أسرارا أخرى ·

نصوص وثائق البحث :

أولا ـ رسالة الخديوى اسماعيل باشا الى الامير عبد القادر حول قضية قطعة الارض المهداة له ·

جناب الامير (9) المحترم والملاذ المكرم الامير عبد القادر ·

بعد اهداء السلام التام وكمال الاحترام اللائق بالمقام نبدى لجنابكم أنه قد بلغنا تشريف حضرتكم وتوجهكم الى ترعة السويس بقصد الاستيلاء على قطعة الارض التى كنتم موعودين بها من طرف الكومبانية على ما قيل وبما انه لما كنتم مشرفين هذا الطرف وحصلت المقابلة مع جنابكم وأخبرتمونا بأن الكومبانية ستعطيكم قطعة أرض وانكم انتم ترغبون فى التوطن هناك وفى ذلك الوقت جاوبنا حضرتكم مشافهة بأن الكومبانية لا يمكنها تمليك شىء من تلك الارض حيث أنها الى الآن لم تثبت لها حيازتها وأشرنا وأومينا لجنابكم بألطف اشارة وأليق عبارة أننا لا نوافق على توطنكم هناك لما فى ذلك

(9) الامير محمد ـ ج 2 ـ ص 186 .



الحمد لله وحده

سعادة الخليل الوفي والصديق الصافي الفاضل الكامل السيد البارون جولي
دلسيبس الافخم دام بالعز والنعم اما بعد سؤال خاطركم الشريف واستفسار عن
مزاجكم المنيف فانه وصلني الاعز كتابكم والالذ الاشهى خطابكم وفرحت
بعافيتكم وسلامتكم التي هي عندنا غاية المراد وان سعادتكم ما اخبرتمونا عن
عايلتكم جميعا فاننا نطلب سلامة جميعكم ونفرح بفرحكم ونتضرر بضرركم
دفع الله تعالى عنكم كل باس وشر ونخبر سعادتكم ان بعض الناس اشاروا
على ان نطلب الاذن من حكومة افرانسا الجديدة في زيارتهم وتهنيتهم
بما حصل من راحة افرانسا على ايديهم وانا اطلب رايكم في هذا الامر فاني لا
اعرف حبيبا عاقلا ناصحا مثلكم والله تعالى يخلق ما يشاء وارجوكم ان
تسألوا خاطر جميع احبابنا بنيابة عنا اخر ربيع الاول
١٢٨٨

المخلص
عبد القادر



من مخالفة الافكار • وبما أن عقب أخبارنا لجنابكم بما ذكرناه كنا تحدثنا أيضا مع جناب قنصل جنرال دولة فرنسا وبعدها جنابه اخبرنا رسميا مشافهة أن ذات حشمة الامبراطور لا يأذن فى اقامتكم هنا ما دام ذلك مخالفا لرغبتنا وضدا لافكار الاهالى والحكومة كما والحالة هذه أيضا مضمون الحكم المحترم الامبراطورى الصادر فى حق مادة هذه الترعة لم يصرح بالترخيص للكمبانية أنها تملك أرضا من هناك لاحد ما ، ومن حيث ان توطن جنابكم بهذا الطرف لا تساعدنا عليه افكار الاهالى والحكومة معا ، كما أن حكم الامبراطور المفخم لا يساعدكم على استملاك أرض فى هذا الطرف فمع غاية التأسف صرت مجبورا على اخطار جنابكم عن ذلك ، ونؤمل عدم المؤاخذة ودمتم •

ثانيا ـ رسالة الخديوى اسماعيل الثانية الى الامير عبد القادر حول نفس الموضوع •

حضرة المحترم (10) الامير المبجل المكرم بعد السلام وكمال الاحترام اللائق بالمقام قد وصلنا عزيز مكتوبكم الذى ارسلتموه على يد حضرة الباشا باش معاوننا وبه عرفتم عن حضور حضرتكم لاجل استلام الارض التى اعطتها الكومبانية لجنابكم الى غاية ما ذكر فيه صار معلوما والحال انه قبل وصول مكتوبكم هذا لما بلغنا تشريف حضرتكم الى الاسكندرية والتعجيل بالتوجه الى جهة القنال ثانى يوم تشريفكم لنجاز المقصود بوقته حررنا لحضرتكم مكاتبة واضحة عن الحقيقة وبها عرفنا جنابكم أن الكومبانية لم يكن لها اذن ولا صلاحية فى ان تعطى أراض ولا املاكا فى تلك الجهة لاحد كما هو مصرح عن ذلك بالحكم الصادر من ذات فخامة الامبراطور المعظم المتعلق بمادة الاراضى الكائنة فى تلك الجهة ولا يجوز لها فى تمليك شىء منها لاحد ثم افهمنا حضرتكم ان مقتضيات الاحوال لا تساعد على قبول توطن حضرتكم فى هذه الجهات كما ان فخامة الامبراطور ما أجاز توطنكم هنا مع عدم رضانا وقبولنا ، ومن تاريخ مكتوبكم يعلم ان وصول تحريرنا كان بعد تحريره ولا بد أنه علم لديكم منه ما يكفى عن الاطالة فى الشرح والاطناب فى الاعتذار بهذا الخصوص نظرا للضرورة ودمتم •

ثالثا ـ رسالة الامير عبد القادر الى جول دى ليسبس يستشيره فى موضوع قدومه الى فرنسا لتهنئة العهد الجديد •

(10) الامير محمد ـ ج 2 ـ ص 186 ـ 187 .

الحمد لله وحده (11)

سعادة الخليل الوفى والصديق الصافى الفاضل الكامل السيـــد البارون جـــول دى ليسبس الافخم دام بالعز والنعم أما بعد ، سؤال خاطركم الشريف واستفسار مراجكم المنيف فانه وصلنى الاعز كتابكم والالذ الاشهى خطابكم وفرحت بعافيتكم وسلامتكـم التى هى عندنا غاية المراد وان سعادتكم ما أخبرتمونا عن فميليتكم جميعا فاننا نطلـب سلامة جميعكم ونفرح بفرحكم ونتضرر بضرركم دفع الله عنكم كل بأس وشر ونخبر سعادتكم ان بعض الناس أشاروا على ان نطلب الاذن من حكومة فرنسا الجديدة فى زيارتهم وتهنئتهم بما حصل من راحة افرنسا على ايديهم وأنا أطلب رأيكم فى هذا الامر فانى لا أعـرف حبيبا عاقلا ناصحا مثلكم والله تعالى يخلق ما يشاء وارجوكم ان تسالوا خاطر جميـــع أحبابنا نيابة عنا • آخر ربيع الاول 1288 (12) •

المخلص عبد القادر

رابعا ـ رسالة الامير محمد ابن الامير عبد القادر الى جول دى ليسبس وكيل تونس فى باريس فى موضوع الوساطة لدى حكومة فرنسا •

من الشام فى 15 ربيع الثانى سنة 1288 (13) •

الحمد لله وحده (14)

سعادة المعظم الارفع والهمام الانفع موسيو جول دو ليسبس الافخم •

غب أهداء كثرة الاشواق الوافرة الوافية لمشاهدة طلعتكم السنية البهية نعـرض أنه قد تقدمت منى عدة معروضات لناديكم وما حصلت على الجواب وعلمت ان المانع لعدم مجاوبتكم الارتباكات التى وقعت فى فرنسا الذى اناخ الشر ناقته فى وسط مركزها الذى هو ينبوع التمدن واللطف والاختراعات والمعارف والسعادة والتنعم والحـظ والسرور فيا

(11) ا. ح. ت. صندوق ـ 929 ملف 78 وثيقة 71 .

(12) الموافق ـ حوالى 19 جوان 1871 .

(13) الموافق حوالى 4 جويلية 1871 .

(14) ا. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة 72 .

من الشام في ١٥ ربيع الثاني ٨٨ ٨٤ عكر



الحمد لله وحده

سعادة المعظم الارفع والهمام الانفع موسيو جول دوليبس الافخم

غب اهداء كثرة الاشواق الوافرة الوفية لمشاهدة طلعتكم السنية البهية نعرض انه
قد تقدمت مني عدة معروضات لناديكم وما حصلت على الجواب وعلمت ان المانع
لعدم مجاوبتكم الارتباكات التي حصلت في اوانها الذي اناخ الشر ناقته في وسط
مركزها الذي هو منبع التمدن واللطف والاختراعات والمعارف والسعادة والتنعم
والحظ والسرور فيا اسفا ومن المعلوم لدى الخاص والعام ان الذي وقع هو فخر لرجال دولة
فرانسة الحاليه يسطر ويدخر في بطون الدفاتر لاخر الدهر لانهم اقاموا ناموس فرانسا
بثباتهم في الحصار ومغالبتهم للالمانيين مغالبة لم تكن منتظره وما اجروه من السياسة
حينما انبث نيران الحروب الاهليه في باريز وضواحيها والذي عارف ومطلع على حقيقة
احوال فرانسا ورجالها يعلم يقينا ان تلاطم الفتن التي اندفعت بشاني فرانسا بنفع عظيم
كما اتتها به الفتن الماضية التي عظمتها واصلحتها واصلحت اوروبا معها هذا واني امل
كلي بهمتكم وانظاركم ومساعدتكم تكون لمخلصكم هذا محسوبيه وحظ عند الحكومة
الجديدة ونعلم يقينا انه لا يحصل لي هذا الا بانظاركم فنرجوا عدم اخراجي من افكاركم
بعدما تستقيم الاحوال وتنجلي الافكار ثم اني قد اطمنت على صحتكم الشريفة من مكتوبكم
للوالد المورخ في ٨ ابريل ١٨٧١ فسررت جدا وشكرت الباري تعالى على ذلك والمرجو ان تنوب
عني في اهداء كثرة اشواق واوفر احتراماتي لجميع الاصحاب الذين تعرفت بهم حينما كنت
متشرف بمحلكم العامر ونرجوا ان وجدتم فرصه مع الرجاء بعدم المواخذة ان تعرفني عن
سعادة اخيكم موسيو فردينان واولاده والتطمين عن صحتهم لاني حررت لسعادته وكذلك
والدي حرر له ولم ياتنا جواب من طرفه وكذلك تعرفني عن حبيبي موسيو شارمونتوبان
وموسيو شارقابو الذي كان ترجمان بالوزارة الحربية سابقا ولسعادتكم الفضل علينا بذلك
ارجو من سعادتكم قبول احتراماتي الفايقة لا فنديكم الموقر ودمتم كما رمتم

المخلص محبكم
محمد ابن الامير عبد
القادر

أسفا ومن المعلوم لدى الخاص والعام ان الذى وقع هو فخر لرجال دولة فرانسة الحالية يسطر ويدخر فى بطون الدفاتر لآخر الدهر لانهم أقاموا ناموس فرانسا بثباتهم فى الحصار ومغالبتهم للالمانين مغالبة لم تكن منتظرة وما أجروه من السياسة حينما شبت نيران الحروب الاهلية فى باريز وضواحيها والذى عارف ومطلع على حقيقة أحوال فرنسا ورجالها يعلم يقينا أن تلك الفتن التى اندفعت ستأتى فى فرانسا بنفع عظيم ، كما أتتها به الفتن الماضية التى عظمتها واصلحتها واصلحت أوروبا معها هذا وانى لى أمل كلى بهمتكم وانظاركم وساعدتكم تكون لمخلصكم هذا محسوبية وحظ عند الحكومة الجديدة ونعلم يقينا انه لا يحصل لى هذا الا بانظاركم فنرجوا عدم اخراجى من أفكاركم بعد ما تستقيم الاحوال وتتجلى الافكار ثم أنى قد أطمنت على صحتكم الشريفة فى مكتوبكم للوالد المؤرخ فى 8 ابريل 1871 فسررت جدا وشكرت البارى تعالى على ذلك والمرجو ان تنوب عنى فى اهداء كثرة أشواقى ووافر احتراماتى لجميع الاصحاب الذين تعرفت بهم حينما كنت متشرف بمحلكم العامر ونرجو ان وجدتم فرصة مع الرجاء بعدم المؤاخذة أن تعرفنى عن سعادة أخيكم مسيو فردنان وأولاده والتطمين عن صحتهم لاننى حررت لسعادته وكذلك والدى حرر له ولم ياتنا جواب من طرفه وكذلك تعرفنى عن حبيبى موسيو شار مونتوبان وموسيو شار قابو الذى كان ترجمان بالوزارة الحربية سابقا ولسعادتكم الفضل علينا بذلك أرجو من سعادتكم قبول احتراماتى الفائقة لافنديكم الموقر ودمتم كما رمتم •

المخلص فى محبتكم محمد ابن الامير عبد القادر

خامسا ـ تقرير من جول دى ليسبس الى الوزير التونسى مصطفى حول بعض التطورات فى فرنسا مع احالة رسالتين له من الامير عبد القادر وابنه محمد •

الحمد لله (15)

تعريب مكتوب للصدر الهمام جناب الولى الوزير الاكبر أمير الامراء سيدى مصطفى من البارون جول دى ليسبس وكيل المعظم الارفع مولانا الملك بباريس فى 2 أغشت سنة 1871 •

---

(15) ا. ح. ت. صندوق 78 ملف 429 وثيقة 69 .

الحمد لله تعريب مكتوب للصدر الهمام جناب المولى الوزير الاكبر امير الامراء
سيدي مصطفى من البارون جول دي لسبس وكيل المعظم الارفع
بمقام المملك بباريس في ٢ اغشت ١٨٧١

ثم بعد فانه لم يقع بفرانسا الجمعة الفارطة ما تكون فيه مصلحة
خصوصية تمس تونس واهم الامور التي وقعت هو تمام انتخاب
الاعضاء للمجلس البلدي بباريس يوم الاحد الفارط واكثرية الاعضاء
هم من محبي السلم والعافية لكنه قد حصل للحزب الاحمر الذي هو
عكسه مقدار وافر من الاعضاء حتى انه توهم منه العقلاء من
اهل الرياضة الذين يودون قبل كل شيء اصلاح ما وقع لوطنهم من
الشر بان الحرب الاهلي ومن اغارة الاجانب بواسطة الحزبية وكما
يلزم البناء على ما حصل من الفوز في الانتخاب لهولاء الناس ان اهل
باريس مبنيون على الشر فانه يلزم ملاحظة عدد السكان الذين لم
يتداخلوا في ملحمة الانتخاب تجنبا من بعضهم واهمالا من غيرهم
وهذا يدل على عدم مشاركة كثير من الناس لحزب الثورة والنازلة
الواقعة بين السلطان وبين خديوي مصر مع كونها دخلت في طريق
[illegible] على ما لها لم تنفصل والجرنالات بنت على ذلك اراء
متناقضة هذا ولما كان كل ما يتعلق باحوال العرب واحوال الجزاير
بالخصوص يمس دولة المعظم سيدنا فلذلك اتشرف بان اوجه
لجنابكم نسخة من مكتوبين وردا لي من الامير عبد القادر ومن ابنه
فان جناب الامير المشار اليه لما كانت له علقة ووداديه قديمة
معي ويستشيرني دايما في الامور الرقيقة سالني هل يناسب
قدومه لفرانسا يهني بنفسه رجال الدولة بخت نازلة مهمة كثيرة
ولم ار انه يتيسر لي التدرك لفصلها وحدي فلذلك خاطبت
مسيو تيار في هذا الشان مشافهة وبالكتابة فاجابني بواسطة
كاتب سره بجواب لطيف مضمونه انه استحسن خطابي له وان
الامير عبد القادر لما يقدم لفرانسا يقع له من القبول الحسن
ما هو اهل به فعند ذلك تناجهت باعلام الامير المشار اليه بما لدولة
فرانسا من الاعتناء به هذا ما لزم عرضه لكم

الحاق خبر وهو انه في ساعة التاريخ ورد لي اعلام من مطبعة ميلاد
بواتيين بانها وجهت لجنابكم صحبة هذا بابور صندوقين اخرين
ضمنهما ازمة من الرقاع الجديدة

69

أما بعد فانه لم يقع بفرانسا الجمعة الفارطة ما تكون فيه مصلحة خصوصيــة تمس تونس وأهم الامور التى وقعت هى اتمام انتخاب الاعضاء للمجلس البلدى بباريس يوم الاحد الفارط وأكثر الاعضاء هم من محبى السلم والعافية لكنه قد حصل للحزب الآخر الذى هو عكسه مقدار وافر من الاعضاء حتى انه توهم منه العقلاء من أهل الرياضـــة الذين يودون قبل كل شيء اصلاح ما وقع لوطنهم من الشر من الحرب الاهالى ومن اغارة الاجانب بواسطة الخدمة ولا يلزم البناء على ما حصل من الفوز فى الانتخاب لهؤلاء الناس أن أهل باريس مبنيون على الشر لانه يلزم مراعاة عدد السكان الذين لم يتداخلوا فى مادة الانتخاب تجنبا من بعضهم واهمالا من غيرهم وهذا يدل على عدم مشاركة كثـير من الناس لحزب الثورة والنازلة الواقعة بين السلطان وبين خديوى مصر مع كونها دخلت فى طريق المساعدة فانها لا زالت لم تنفصل والجرنالات بنت على ذلك آراء متناقضة هذا ولما كان كلما يتعلق بأحوال الغرب وأحوال الجزائر بالخصوص يمس دولة المعظم سيدنــا فلذلك اتشرف بأن أوجه لجنابكم نسخة من مكتوبين وردا لى من الامير عبد القادر ومــن ابنه فان جناب الامير المشار اليه لما كانت له علقة ودادية قديمة معى ويستشيرنى دائما فى الامور الدقيقة سألنى هل يناسب قدومه لفرانسا ليهنى بنفسه رجال الدولة فهذه نازلة مهمة جدا ولم أر انه يتيسر لى التدرك لفصلها وحدى فلذلك خاطبت مسيو تيار فى هذا الشأن مشافهة وبالكتابة ، فاجابنى بواسطة كاتب سره بجواب لطيف مضمونه أنه استحسن خطابى له وأن الامير عبد القادر لما يقدم لفرانسا يقع له من القبول الحسن ما هو أهل به فقد ناجزت باعلام الامير المشار اليه بما لدولة فرانسا من الاعتناء به هذا ما لزم عرضة الخ ٠

الحاق خبر وهو انه فى ساعة التاريخ ورد لى اعلام من مطبعة مدام يواتفين بانها وجهت لجنابكم صحبة هذا البابور صندوقين آخرين ضمنها رزمة من الرقاع الجديدة ٠

سادسا ــ رسالة جول دى ليسبس الى الوزير التونسى مصطفى خزندار حول رسالـــة الامير محمد الذى يطلب نياشين لبعض الاوروبيين ٠



الحمد لله   تعريب مكتوب الصدر الأعظم جناب المولى الوزير الأكبر أمير
الأمراء سيدي مصطفى من البارون جول دي لسبس وكيل المعظم
لما دفع نكولا الثالث بباريس في ٢٠ ديسمبر ١٨٧١

أما بعد فإني أتشرف بأن أوجه لجنابكم صحبة هذا المكتوب مكتوبا
وردني من دمشق من ابن الأمير عبد القادر يطلب فيه بالنيابة
عن أبيه نيشانا من الصنف الثالث للمسيو بول دماس كاتب
[illegible] والده فليتفضل جنابكم ما يظهر لكم في شأن المطلب
المذكور [illegible] انتهى هذه العرضة لتوجه لجنابكم تحريرية
تتضمن تقييد النياشين التي وعدت منذ مدة أنفار معتبرين
وما زالت لم توجه لهم والمناسب توجيهها لهم فورا والمرغوب من
فضل جنابكم الاعتناء بمطلبي المذكور   هذا ما لزم عرضه آخر

ألحاق خير والمرغوب من فضل جنابكم أن توجهوا على يدي الجواب
الذي يظهر لدولة المعظم سيدنا إعطاءه على مطلب الأمير عبد
القادر وأنا أوجهه له من غير تعطيل ه

الحمـد للـه (16)

تعريب مكتوب للصدر الهمام جناب الوزير الاكبر أمير الامراء سيدى مصطفى مـن البارون جول دى ليسبس وكيل المعظم الارفع مولانا الملك بباريس فى 20 دجنبر 1871 ٠

أما بعد فانى اتشرف بان أوجه لجنابكم صحبة هذا المكتوب مكتوبا ورد لى من دمشق من أبن الامير عبد القادر يطلب فيه بالنيابة عن أبيه نيشانا من الصنف الثانى للسنيور بول دفاس كاتب وترجمان عند والده فلينظر جنابكم ما يظهر لكم فى شأن المطلـب المذكور هذا وانى انتهز هذه الفرصة لتوجه لجنابكم تجريدة تتضمن تقييد النواش التى وعدت منذ مدة الانفار معتبرين ولا زالت لم توجه لهم والمناسـب توجيهها لهم فـورا والمرغوب من فضل جنابكم الاعتناء بمطلبى المذكور ٠ هذا ما لزم عرضه ٠

الحاق خبر ٠ والمرغوب من فضل جنابكم أن توجهوا على يدى الجواب الذى يظهر لدولة المعظم سيدنا أعطاه على مطلب الامير عبد القادر وانا أوجهه له من غير تعطيل ٠

سابعـا : رسالة الامير عبد القادر الى محمد باشا طالبا منه منح نياشين الى عدد من الاوروبيين بمدينة معسكر ٠

الحمـد للـه (17)

المقام العظيم قدره الجليل عزه وفخره سند الوزارة العظمى والمنصب الاعز الاسمى مقام رب السيف والقلم والفضائل والحكم وزير الامراء وأمير الوزراء سعادة محمد باشا الاعظم لازال رفيع القدر والهمم أما بعد ابداء واجب المقام الجليل من الاحتفال والتبجيل فقد تلقيت بيد التكريم كتابكم الكريم وتلوته بكمال السرور وابتهاج العيون والصـدر حيث بشرنى بدوام عز وجودكم ومزيد اقبالكم وسعودكم وشكرت الله تعالى على صفاء مودتكم الحميدة ووفور نعمه رفاهية ذاتكم المجيدة ادام الله فى أوج السعادة ارتقاءها وعلى دست الوزارة الكبرى بقاءها هذا ولما كان السيد چنانقى سـواربيعي حاكم دائرة معسكر فى بلاد الجزائر قد اقام ثم من سنة 1832 الى الآن وتزوج وله ستة أولاد نوادر وخـدم

(16) ا. ح. ت. صندوق 929 ملف 78 وثيقة 70 .

(17) ا. ح. ت. صندوق 929 ملف 78 وثيقة 91 .

٩١

الحمد لله وحده

المقام العظيم قدره الجليل عزه وفخره مسند الوزارة العظمى والمنصب الأعز الأسنى مقام رب السيف والقلم والفضائل والهمم

الأمجد الأوحد واحد الوزراء سعادة محمد باشا الأعظم لا زال رفيع القدر والهمم أما بعد أداء واجب المقام الجليل من الاحترام والسلام

فقد وصلت بيد التكريم مشافهتكم الكريم وتلوته بكمال السرور وابتهج به الفؤاد والصدر حيث بشرنا بدوام عز وجودكم [illegible]

وسروركم وشكرت الله تعالى على ذلك [illegible] مودتكم الحميدة [illegible] أدام الله [illegible] في السعادة [illegible]

الوزارة الكبرى بقاها هذا ولما كان السيد [illegible] حاكم دائرة العسكر في بلاد الجزائر [illegible] ١٢٩٦ [illegible]

[illegible] وخدم الدولة الفرنساوية في تلك البلاد أكثر من ثلاثين سنة وحصل نيشان من الرتبة الأولى [illegible]

وله أخوان [illegible] جنرال كبير حاكم مدينة [illegible] ونال نيشان [illegible] والثاني [illegible]

[illegible] نيشان الوردة من الأمبرير وكان ذلك من أفضل المخلصين إلينا والمظهرين تمام المحبة لدينا وله عناية وافية باحترام

إخواننا في الجزائر ورعاية كافية لكافة أصحابنا وارد أو صادر فنحو المكافأة له على حسن خصاله المتصف بها بالنيشان [illegible]

الشأن الفاخر والاعتناء إليه بالإنعام به الوسام الزاهر حسبما عودتنا أسلافكم الكرام بالإنعام على أصحابنا وذوي الاحترام [illegible]

[illegible] شكرنا وثناءنا ومزيد امتناننا بقبول رجائنا أدام الله معاليكم [illegible] والسلام

من الشام [illegible] ذي القعدة ١٢٩٦

الداعي المخلص
عبد القادر الحسني
الجزائري

نيشان الرابع

الدولة الفرنساوية فى تلك البلاد اكثر من ثلاثين سنة وحصل نيشانا من الدرجة الاولى المستحسنة وله اخوان معتبران أحدهما أى ديفزيون جنرال كبير حاكم مدينــة لانقى وحايز نيشان يسمى الحمالة والثانى قبطان بمدينة باريز ومعه نيشان الوردة من الا بريز وكان ذلك من أخص المخلصين الينا والمظهرين تمام المحبة لدينا وله عناية وافية باخواننا فى الجزائر ورعايته كافية لكافة أخصائنا واردا وصادرا فنرجو مكافاة له عـــلى حسن هذه المعاملة التفضل عليه بالنيشان ذى الشان الفاخر والاحسان اليه بالاتسام بهـــذا الوسام الزاهر حسبما عودتنا اسلافكم الكرام بالانعام على اخصائنا وذوى الاحترام وبه تغنمون جزيل الشكر وثنائنا ومزيد أمتناننا بقبول رجانا أدام الله مقامكم منهلا لكل قاصد وموئلا للمكارم والمحامد والسلام • من الشام فى غرة ذى القعدة سنة 1294 (18) •

الداعى المخلص عبد القادر الحسينى الجزائرى •

ثامنا ـ رسالة الامير عبد القادر الى فرديناند دى ليسبس حول قنال قابس والبحــــر الافريقى •

الحمد لله وحده (19)

الى صاحب السعادة السيد فرديناند دو ليسبس بعد ارسال التحيات الخالصـــة والاحترامات الطيبة اللائقة بمقامكم السامى ، نعلمكم باننا عندما قرأنا صحـــف مصر وسوريا • اطلعنا على مقالات مترجمة من جرائد أوروبا لخصت محاضراتكم واحاديثكـم التى ألقيتموها فى عدة مدن فرنسية ، وفى مدينة لندن ، حول العمل الذى اقترحتموه عن رغبة ومحبة من أجل التقدم ، وهو فتح قنال قابس فى افريقيا • ان كـــل الناس يعرفون ان سعادتكم تمتازون عند الله بحضوة واعتبار ، وتحققوا من ذلك بمناسبـــة افتتاح قناة السويس ونجاحها ، رغم ان عددا كبيرا من العلماء الاوروبيين صرحوا قبــل ذلك بأنه عمل مستحيل وهم يجهلون بأن رعاية الله تقرب كل بعيد وتفتح الابـــواب

---

(18) الموافق حوالى 7 اكتوبر 1877 .

(19) عربت هذه الرسالة بتصرف من المصدر التالى :

L'exploration du Globe. Journal des conquêtes de la civilisation sur tous les points (Paris 24-11-1879) n° 149 pp. 825 - 826.

المغلقة ، انهم يجهلون أن ارادة الله نظرت الى ذلك العمل بعين فاحصة فانمحى بذلك الانتقاد ، واصبحت الاماكن الخطيرة ملاجىء ، وحولت حبال الاعناق الى حجب أو خيوط للالجمة ٠

انه من المستحيل على رجل عاقل ان يجحد فرائد هذا المشروع الذى تحدثتم عنه ، والنتائج التى يجب ان تستخلص لكل الناس البيض والسود ، العرب والاوروبيين ان المشروع سينجح اذا اقتنع به أصحاب رؤوس الاموال الاوروبيين ، وأعطى رؤساء الدول مساعدتهم وتأييدهم له ٠

لقد عرفنا أن صاحب الجلالة ملك بلجيكا أعطى كل تاييده لهذا المشروع القيم بواسطة تاثيراته ، وجلالته جدير ان يكون المحرك الاول والممهد للطريق لهذا العمل المثمر الفريد والعظيم ، اتوسل الى الله من أجل افلاحه ونجاحه وتوفيقه بفضل عنانيكم ودمتم ٠

فى 15 رمضان 1296 (20) ٠

الصديق المخلص عبد القادر الحسينى

تاسعا ـ رسالة الامير عبد القادر الى سكان قابس يحثهم فيها على تاييد مشروع قنال قابس ٠

الحمد لله (21) الذى صلى على من لا نبى بعده عنده ٠

الى سكان قابس والمناطق المجاورة السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد اعلموا ان المشروع الذى يعده القائد رودير ويؤيده ويعمل لانجازه السيد فرديناند دو ليسبس هو فتح قنال فى منطقة قابس ٠ وهذا المخطط المبارك عبارة عن مشروع مفيد ونافع لسنين طويلة يتوارث الابناء عن الآباء فوائده ونتائجه الطيبة التى لا يستطيع أى رجل عاقل ان ينكرها ٠

---

(20) الموافق حوالى 31 أوت 1879 .

(21) عربت هذه الرسالة بتصرف من المصدر التالى :

L'Afrique explorée et civilisée. Journal mensuel Genèvre, Suisse. novembre 1879) n° 5 pp. 81 - 82.

ان الله تعالى خلق الدنيا كلها عاليها وسافلها لفائـــدة الانســـان لكى يسخـرها ويستفيد منها • وخلق النجوم والكواكب والشمس والقمر والسماوات لكى يعمـــل ويحصل على نتائج وفوائد ، وخلق كل ما على سطح الارض من حيوانات ونبات ومعادن ، واخضعها للانسان لكى يتطور ويتضاعف ويتكاثر •

وقد أمر الله الانسان ونصحه كثيرا فى القرآن ان يسخر البحر ، ويمخر عبابــه للتجارة وجلب الفوائد والارباح فقال : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائــغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تاكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونهـا وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » • وبهذه الآيات حدد التجارة وخصصها ، وفى القرآن الكريم آيات أخرى مماثلة لهذا المعنى • أليس الاسكندر هـو الذى فتح للناس البحر المتوسط الذى يبلل شواطىء أوروبا وافريقيا والبلاد العربية ؟

أليس البحر هو الذى ساهم فى ربط الصلات والعلاقات بين مخلوقات الله ، وسمح بتبادل العلوم والفنون ونقل السلع فيما بينهم وهو ما يسمح بخلق التجارة •

وقد أعلن الله فى الكتاب العتيق للناس ، فى كل القرون والعصور الماضية واللاحقة ، بانه سيخلق أيضا لهم أشياء لا يعرفونها ولم يحدد لهم طبيعتها • فقال تعالى: « ويخلـق ما لا تعلمون » ، وربما سيكون فتح هذا القنال من بين هذه الاشياء التى سيخلقها للناس فى هذا القرن •

وفى غضون هذا اعلموا الآن بان هذه المنفعة العامة ، والفوائد القيمة لهذه المنافـــع الغير المحدودة ، يمكن أن ينتج عنها خسارة وضرر ، وتخريب لبعض الاراضى والقرى ، ولكن لا ينبغى أن نعدل عنها لهذا السبب • ان الله تعالى العارف أكثر من كل العارفين لم يعدل عن خلق النار لفائدة كل الناس ، لانها تحرق الديار والبائسين ، ومخلوقات الله • ولم يعدل عن خلق الحديد الذى يستغله كل المخلوقات الانسانية ، لانه سيستغل لقتـل الناس الذين سيعودون اليه مثل الرسل والعلماء ، والرجال العظماء الآخرين الـذين عاشوا لفائدة ومصلحة مخلوقات الله • ولم يعدل عن انزال المطر التى هى خير وفائدة لكل المخلوقات والحيوانات التى خلقت لخدمة الانسان ، لانها سنتج عنها فياضانات وتخريـب للديار والبلدان •

كذلك اذن المنفعة العامة وفوائد الجميع ، لا ينبغى أن يضحى بها لسبب بعض الاضرار والعواقب الوخيمة التى يمكن أن تنتج عنها ويجب على كل الناس أن يؤيدوا القائد رودير قولا وعملا ، سرا وعلانية ، ويعترفوا بجميله وشرفه لانه يعمل لهدف نافع لعباد الله وكل الشعوب عائلة واحدة لله · تلك هى النصيحة التى أوحى اليى بها الدين أقدمها لكـــم والســـلام ·

دمشق فى 15 رمضان 1296 (22)

عبد القادر بن محى الدين الحسينى

(22) الموافق حوالى 31 أوت 1879 .

كنا أعلنا فى افتتاحية العدد الاول من هذه المجلة أن ننشر فيها محاضرات ملتقيات الفكر الاسلامى تباعا ريثما تصدر فى كتب الملتقى التى تضمها كلها .

وقد بدأنا فى هذا فعلا وان لم نطبقه بانتظام لاسباب عدة .

ووفاء بوعدنا ، واستجابة لرغبات الكثير نستانف العمل بهـذه السنة بانتظام ، وسننشر فى المستقبل على مراحل حتى المحاضرات التى تكون قد صدرت فى كتب الملتقى ولم تنشر بعد فى المجلـــة حيث ان هذه الاخيرة بحكم طبيعتها تنتشر اكثر من الكتاب .





وضع الجاليات الأوربية
فى العالم العربى الإسلامى إبان الحكم العثمانى

الدكتورة ليلى الصباغ
أستاذة التاريخ بجامعة دمشق
الجمهورية العربية السورية

قد يستفاد من جدول ابحاث (الملتقى) المطروح بين أيدينا ان المقصود من دراسة موضوع الجاليات والاقليات وبخاصة الاسلامية منها هو دراسة للقائم منها حاليا فى أنحاء العالم لا بحثا فى ماضيها • الا اننى رأيت أن دراسة أوضاع الجاليات الاوروبية فى العالم العربى الاسلامى بعامة والمشرقى منه بخاصة فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) بالذات ، دراسة هامة وذات مغزى للموضوع العام ، وتدخل فى صلبه ، وتكون واحدة من نواه الكبرى للاسباب التالية :

اولا : قدرة الماضى على اشعاع أضواء تكشف حنايا الحاضر وتزوده بطاقة ديناميكية تساعده على التحرك فى الطريق القويم ، وتنير لهذا الحاضر بعض طريق المستقبل ومسالك الخطوفيه • ففى الدراسة للجاليات المعاصرة يمكن لهذا الموضوع أن يقدم تجارب خصيبة ودروسا مستفادة •

ثانيـا : تعريف الاجيال العربية والاسلامية الحاضرة وهى تعيش مجابهات وتحديات مع العالم الغربى بجاليات هذا العالم التى حطت رحالها فى الماضى على الارض العربيـة الاسلامية ، وبأسباب نزوحها اليها ، وأهدافها منها ، ونشاطاتها ، والدور الذى لعبتـه فى حياة المجتمع العربى على الرغم من قلة عددها · وهذه ناحية من نواحى حياة هــذا المجتمع فى تلك العصور لم يسلط عليها المؤرخون العرب المسلمون ، الماضون والمعاصرون أضواء كافية ، ولم يعـيروها الاهتمام اللازم ، بل أن الماضـين منهم قد صمتوا حيالهـا مع انها ـ كما أثبتت أحداث التاريخ ـ كانت ذا أثـر فعال وكبير فى حياته ولا سيما فى المنحيـين الاقتصادى والسياسى ·

ثالثـا : تعريف الاجيال العربية والاسلامية الحاضرة بالموقف الانسانى السمح للفكر الاسلامى من تلك الجاليات الغريبة عنه دنيا وقومية ومشاعر ، ذلك الموقف الذى تبدى فى العهود والمواثيق التى وقعتها الدولة العثمانية مع دول تلك الجاليات والتى تطلـق عليها كتب الحقوق الدولية والتاريخ العالمى اسم (الامتيازات) Capitulations

تلك المواثيق التى حولتها الدول الاوروبية نتيجة تهافت الدولة العثمانية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من « عهود أمان » واتفاقات تجارية سمحة الى امتيازات فعلية يستثمر الاوروبيون بواسطتها خيرات البلاد العربية لمصالحهم فقط ، ويفرضون بموجبها سيادتهم · وقد ظلت هذه الامتيازات قائمة فى مصر حتى عام 1937 ، وفى سوريـة الى عام 1947 م · وقد أقامت الدول الغربية علاقاتها مع الصين فى القرن التاسع عشر على غرارها وكانت المنفذ لها للتدخل بشؤونها واستغلالها تجاريا ·

وفى الحقيقة لابد للباحث فى موضوع الجاليات بعامة فى تعريف كلمة (جاليـــة) وتحديد المعنى الحقيقى لها · فاذا ما رجع الى المصدر الاول لتعريف الالفاظ وهو معاجـم اللغة لوجد أن لفظ (جالية) قد اشتق من فعل (جلا) و (جلا القوم عن أوطانهم يجلون اذا خرجوا منها الى بلد آخر ، ويجلون عن الحوض أى ينفون ويطردون) · ويضيـف صاحب (لسان العرب) الى تعريفه ذلك قوله : (وقيل لاهل الذمة) (الجالية) لان عمر ابن الخطاب اجلاهم عن جزيرة العرب لما تقدم من أمر النبى فيهم فاسموا (جالية) ولزم هذا الاسم أهل الذمة أين حلوا ، ثم لزم كل من لزمه الجزية من أهل الكتاب بكل بلـد

وان لم يجلوا عن أوطانهم • ويستدل من ذلك التعريف ان للجالية معنيين احدهما عام وهو الاول والثانى خاص • والمقصود فى بحثنا هذا بالطبع المعنى العام ، أى أن الجاليات الاوروبية هى الجماعات غير العرب المسلمين التى جلت عن أراضيها فى أوروبا لتستقر على الارض العربية وتعمل فى حدودها فكلمة (جالية) بالعربية اذن تقابل كلمة (كولونيا Colonie) اللاتينية التى تعنى فى أصلها تملك مجموعة من المهاجرين أرضا قريبة أو بعيدة عن مواطنها ، وقد ينفصل هؤلاء المهاجرون تماما عن الوطن الام ويؤسسون كيانات مستقلة لهم ومثل على ذلك المستعمرات اليونانية فى القرن العاشر ق•م• فى جزر بحر ايجة وشواطىء آسيا الصغرى ، وقد يبقون أعضاء فى مجتمعهم الاول الذى نزحوا منه • ولقد تطور مفهوم (كولونيا) على مدى العصور ، وأصبح لفظ (كولونى) Colonie بالفرنسية و (Colony بالانجليزية يعنى منطقة اقامة رعايا دولة ما خارج حدود أراضيها ، كما أطلق على مجموعة من الافراد من رعايا دولة ذات السيادة يعيشون فى حدود دولة أخرى ، أو مجموعة من البشر من قومية أصلية واحدة قبلوا غرباء أو لا مواطنين دولة أخرى •

والنزوح عن الاوطان أو بمعنى آخر (الجلاء) عنها أو الهجرة منها له أسباب عديدة يبحثها علماء الاجتماع وتلخص بأن بعضها ارادى وبعضها الآخر لا ارادى أى أن خروج افراد أو جماعة من أوطانهم ليقيموا فى بلاد أخرى يكون اما لرغبة منبثقة من ذواتهم كالرغبة فى البحث عن عيش أفضل ومستوى حياتى أرفع أو استقصاء لعمل ورزق لا توفرهما لهم مواطنهم أو حبا فى المغامرة والانطلاق فى آفاق الدنيا الواسعة والتعرف على مختلف نواحيها أو طلبا للعلم أو الاستزادة منه ، أو لان المهنة التى اختاروها لانفسهم تتطلب ذلك الترحال والنزوح كالتجارة مثلا • ويكون النزوح لا اراديا اذا فرضت السلطات الحاكمة هذا الامر على بعض رعاياها عقابا لهم على جرم اقترفوه أو لانهم لا يمالئون سياستها ويعتنقون دينها ومذهبها وتكون الهجرة أحيانا ارادية الا إنها تحدث تحت ضغوط منفرة من الاوطان كالاضطهاد السياسى نتيجة احتلال أجنبى أو حكم استبدادى وطنى ، والاضطهاد الدينى ، والتخمة السكانية ، أو نتيجة لحدوث بعض الكوارث الطبيعية كالزلزال والبراكين والجفاف والفيضانات والاوبئة الخ ••• وأخيرا

قد ينزح أفراد أو جمعات من مواطنهم لتأدية مهمات معينة أو رسالات محددة تكلفهم بها ضمائرهم أو المؤسسات المختلفة التى يرتبطون بها ·

ويستخلص من كل ذلك أن الجاليات هى هجرات بشرية محدودة العدد نزح أفرادها من مواطنهم لاحد تلك الاسباب الآنفة الذكر أو لمجموعة من تلك الاسباب واحتفظت فى البلاد التى انتقلت اليها بطوابعها الخاصة لاسباب قومية أو دينية ، كما احتفظت أحيانا بارتباطاتها بالوطن الام ·

ويصل الدارس لنشوء الجاليات الاوروبية فى العالم العربى منذ العصور القديمة وتطورها حتى نهاية الوسيطة ، الى أن العالم العربى بموقعه الاستراتيجى الهام على مفترق ثلاث قارات كانت هى كل العالم القديم والوسيط ، وبسيطرته على قسم من شرقى البحر الابيض المتوسط وجنوبه وهو مركز الثقل الاقتصادى والسياسى فى تلك العصور وبمرور طرق التجارة العالمية الكبرى منه ولا سيما تلك المنطقة من مدنه وموانئه الى أقاصى شرق آسيا وأواسط افريقيا والعائدة اليها وبخاصة منها طريقا التوابل والحرير ، وباحتضان هذا العالم للاماكن المقدسة من اسلامية ومسيحية ويهودية ، فانه جذب اليه انظار العالم الاوروبى وغدا مطمعا من مطامعه · فاندفع اليونان والرومان فى العصور القديمة والصليبيون فى العصور الوسيطة يحتلون أرضه ، ويجوسون فى مغانيه ، ويزرعون جالياتهم ومدنهم فى ربوعه ويفسحون المجال لتجارتهم كى يبحثوا فى مخازنه الطافحة بمختلف المنتوجات الزراعية والصناعية ، المحلية منها والمستوردة من أقاصى شرقى آسيا وأواسط افريقيا) عن المكاسب الاقتصادية الضخمة التى سيحققونها لو حملوا تلك السلع والبضائع الى أوروبا· وبالاضافة الى هذا تدفق الحجاج الاوروبيون المسيحيون بخاصة الى مشرقه متلمسين فى أماكنه المقدسة المسيحية ما يقربهم الى ربهم · وهكذا كان العالم الاوروبى منذ العصور القديمة محطا لهجرات أوروبية محدودة العدد وعديدة ، استقرت وفودها على أرضه وعاشت بين ربوعه ولا سيما فى مدنه قبل الحروب الصليبية وابانها وبعدها · واذا كانت الفرصة قد اتيحت لتلك الجاليات الاوروبية كى تعيش فى العصور القديمة ابان الاحتلالين اليونانى والرومانى وفى العصور الوسيطة ابان الحروب الصليبية فى مناخ مشابه لمناخ حياتها العامة فى بلادها ، بسبب كون السلطة السياسية

منها ، ومن ثم مارست نشاطاتها المختلفة بحرية وكأنها فى مواطنها ، ونمت واينعت وكونت مدنا واحياء خاصة بها ، فانها حاولت بعد انتهاء الحروب الصليبية أن تحتفظ بمكاسبها فى هذه البقاع وبنشاطاتها الاقتصادية ، وأن تخلق جوا ملائما لها عند الحكام المسلمين السائدين ووسط السكان المغايرين لها دينا ولغة وقومية وعادات وتقاليد ، وأن يكون هذا الجو اقرب ما يكون الى المناخ الذى كانت تعيش فيه سابقا أو الذى تعيش فى ظله فى بلادها . وهكذا يشاهد أن دول الجاليات المنزوعة على الارض العربية الاسلامية وهى بخاصة من مدن ايطاليا كالبندقية وجنوة وبزة ، واماالفى ومن بعض مدن فرنسا فى البروفنس قد سعت حثيثا كى توقع الاتفاق تلو الاتفاق مع الحكام المماليك المسلمين السائدين فى مصر وسوريا ، ومع أمراء شمالى افريقيا لتامين سبل التجارة وبقاء جالياتها العاملة على الارض العربية حرصا منها على المغانم الضخمة التى كانت تدرها عليها عمليات الاتجار فى تلك البقاع ، ولا سيما أن بلاد الشام ومصر كانت معبرا للبضائع الهندية ومخزنا للبهارات التى تباع بارباح طائلة فى أوروبا ومحطا لكثير من الصناعات التى تتهافت عليها أوروبا .

ولم تكتف هذه الجاليات الاوروبية بعد الحروب الصليبية بممارسة نشاطها التجارى بل أن بعضها وهو ضئيل العدد كان من الرهبان الكاثوليك ــ وبخاصة من رهبنة الفرانسيسكان ــ وبقى يمارس نشاطه الدينى فى مدينة القدس .

وفى الحقيقة لقد حاولت هذه الجاليات التى كانت أشبه بجزر صغيرة فى خضم بحر اسلامى ، أكانت مدنية أو دينية ، أن تلعب دورا سياسيا خفيا الى جانب ممارستها الظاهرة للدين والتجارة وهذا الدور كان لصالح الامارات والمالك المسيحية فى أوروبا : فعملت عيونا للبابا وملوك الفرنجة وأمرائهم تحمل اليهم أخبار المسلمين والسلاطين ، وتحثهم بين آونة وأخرى على القتال والحرب وتساعدهم على حبك المؤامرات ضد المسلمين . وعلى الرغم من أن الحكام المسلمين كانوا يشعرون أن افراد هذه الجاليات هم دعاة وخدام للفكرة الصليبية وانهم خطر داخلى وخارجى يهدد كيان الدولة الاسلامية فانهم رحبوا بهذه الجاليات وسمحوا لها بالاقامة ومنحوها الكثير من الحقوق التى تضمنتها المعاهدات المعقودة ، وذلك رغبة منهم فى الربح الناجم عن التبادل التجارى بينهم وبين

العرب ، وحرصا على كسر طوق الحصار الاقتصادى المفروض عليهم من أوروبا بعد الحروب الصليبية • الا أن هذا لم يمنعهم بالمقابل من مراقبة تلك الجاليات مراقبة شديدة ومن تطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية عليها عندما كانت سواحلهم تتعرض لهجوم القراصنة الاوروبيين أو عندما تتأزم علاقاتهم مع الدول الاوروبية ، أى أنهم كانوا يقبضون عليهم أو على قنصلهم ويصادرون أموالهم وبضائعهم ويحرمونهم من الحقوق الممنوحة لهم •

وجاءت العصور الحديثة لترى تطورا كبيرا فى الاوضاع الاوروبية وفى أحوال العالم العربى الاسلامى : فقد خضع معظم هذا العالم فى مشرقه ومغربه فى الربع الاول من القرن السادس عشر لدولة اسلامية واحدة هى الدولة العثمانية التى أعادت لصالحها بناء « الدولة العربية الاسلامية الموحدة » والامبراطورية البيزنطية فامتدت سيادتها على كل شرقى البحر الابيض المتوسط وشرقى أوروبا حتى وصلت أسوار فيينا وكان على أوروبا أن ترد على الخطر المحدق بكيانها واقتصادها ، وبالفعل فانها عادت الى التفكير بحملات صليبية جديدة ، الا ان مشروعات الحملات الصليبية الجامعية على الرغم من تحقيق بعضها لم تنجح لأن أوروبا العصور الحديثة غير أوروبا العصور الوسيطة : فأوروبا العصور الحديثة كانت تعيش فى القرن السادس عشر (أكبر من ثورة) فى تاريخها ، بل فى تاريخ العالم ولا سيما من الناحية الاقتصادية : فالاقتصاد الرأسمالى أو بمعنى أدق الرأسمالية التجارية التى نمت فى أواخر العصور الوسيطة نجحت فى القضاء على الاحتكارات التجارية الدولية السائدة ، كاحتكار مدن ايطاليا وبخاصة البندقية لتجارة البحر الابيض المتوسط مشتركة فى ذلك مع الممالك المسلمين ، وكاحتكار العصبة الهانسية للتجارة فى بحار شمالى أوروبا ، وذلك عن طريق ايجاد طرق جديدة ، توصلها الى تجارة الشرق دون وسيط اسلامى واستطاعت أن تكشف اثناء بحثها عن تلك الطرق قارة بكرا جديدة ، فيها الخير والذهب والفضة وهى أمريكا وهكذا انقلبت موازين الاقتصاد العالمى رأسا على عقب وسقط البحر الابيض المتوسط والدول المطلة عليه عن عرشها الاقتصادى وانتقلت حركة النقل التجارى البحرى الى المحيطات وسيطرت عليه دول أوروبية حديثة التكوين القومى كالبرتغال واسبانيا وهولاندة وفرنسا وانجلترا ورافق هذه الثورة الاقتصادية العالمية الكبرى ظهور التمايز القومى فى أوروبا الغربية ، ذلك

التمايز الذى حول الاقتصاد الاوروبى الى اقتصاد خاص يبحث فى الآفاق الواسعة المكتشفة حديثا عن اسواق تدر عليه الذهب والفضة وفى خضم هذه الثورة الاقتصادية والسياسية لم يغب عن بال أوروبا الغربية العالم العربى الاسلامى على الرغم من انه كان يقع فى قبضة الدولة الاسلامية القوية التى تهددها بالخطر : فقد بقى محطا لمطامعها الاقتصادية ولا سيما بعد ان بعثت حياة تجارة آسيا عبر الطرق البرية وتدفق النشاط التجارى الى مـــدن القوافل فى الداخل ، وغدت أراضى الامبراطورية العثمانية والدولة الفارسية وسيطة للنقل التجارى البرى بين أوروبا من طرف والهند والصين من طرف آخـــر · فالقصر النسبى للطرق البرية وأمنها جعلاها تتفوق على طريق رأس الرخاء الصالح البحريـــة المكتشفة جديدا ، والطويلة والمحفوفة بالمخاطر · وهكذا على الرغم من ضعف مركز البحر الابيض المتوسط والبلدان المطلة عليه تجاريا فانه بقى محافظا طيلة القرن السادس عشر على بعض أهميته لسيطرته على منافذ طريق الحرير البرية الآسيوية وطرق القوافل الوافدة من افريقيا الوسطى والغادية اليها · وأمام هذا الاغراء الاقتصادى اندفعت دول غـربى أوروبا كفرنسا وانكلترا بالاضافة الى مدن ايطالية وبخاصة البندقية وفلورنسا نحـو ايجاد مراكز تجارية لها فى انحاء الامبراطورية العثمانية أو تثبيت السابقة ، لتكـــون محطات تجارية وسيطة بينها وبين الشرق الاقصى وأواسط افريقيا ، ومراكـــز تبادل للسلع بينها وبين اجزاء الامبراطورية العثمانية ذاتها · ويلاحظ أنها أخذت تتخلى تدريجيا عن مفهوم الحملات الصليبية المشتركة أو بمعنى أوسع عن الدفاع عن المسيحية ، ذلك المفهوم الذى كانت البابوية والامبراطورية الجرمانية المقدسة لا تزال تنادى به · فحل اذن محل فكرة القضاء على الدولة العثمانية الاسلامية مفهوم اقامة علاقات سليمة معها ، تؤمن لها مصالحها القومية الخاصة وتحافظ بها على ميزان القوى العالمية ، ويعتمد فيها عـــلى الدبلوماسية أكثر من الاعتماد على الحرب والقوة العسكـرية · وشرعت دول أوروبـا وبخاصة الغربية منها تسعى جاهدة لدى الدولة العثمانية لتعقد معها اتفاقات تجاريـــة تحقق لها تجارة آمنة فى أراضيها واقامة سليمة لجالياتها على تلك الاراضى · وبالفعـــل فانها ارسلت البعثة تلو الاخرى الى السلطان العثمانى لتحقيق هذا الغرض ، واقامـــت علاقات دبلوماسية بينها وبينه ·

وفى الوقت ذاته كانت جالياتها تتجه لتستقر فى مدن العالم العربى الاسلامى وموانئه عاملة بالتجارة والاستثمار الاقتصادى غير المباشر لبعض منتوجات هذا العالم وبخاصة الحرير والقطن · ولم تلبث أن نظمت هذه الجاليات شبه (مستعمرات) أو (دويلات صغيرة) ضمن الامبراطورية العثمانية تتمتع فيها بشروط حياتية مشابهة لتلك التى كانت تعيش فى ظلها ضمن أوطانها : فقد عاشت كل جالية أو (أمة) Nation كما كانت تسميها فرنسا فى كل (اسكلة) ، فى جماعة متلاصقة وضمن مبنى واحد كان يطلق عليه اسم (الوكالة) أو (الخان) أو (الفندق) ، وهو عادة من الاملاك الوقفية · وكان لكل جالية دولة تنظيمها الادارى الخاص ، الا انه على الرغم من اختلاف هذا التنظيم بين جالية وأخرى فانه كان يتشابه فى خطوطه الكبرى · فهذه (الجاليات) كانت اشبه بجمهوريات صغيرة لها رئيسها (أى القنصل) ومجالسها ، وموازنتها ، وقضاؤها ، وتحكم نفسها بنفسها بحسب قوانينها وتقاليد بلادها · وكانت تتبع فى رئاستها العليا لسلطة سفير بلادها فى القسطنطينية ، أو لغرفة تجارة قائمة فى موطنها أو للشركة التى لها امتياز العمل التجارى فى المنطقة · وعلى الرغم من خضوع هذه الجاليات غير المباشر للسلطات العثمانية ومراقبتها ، وعلى الرغم من شكاويهم الدائمة من (بلص) هذه السلطات لهم بحجة سوء تصرفهم احيانا وذلك بمصادرة بضائعهم وارغامهم على دفع الرشاوى والهدايا والغرامات ، وعلى الرغم من أن أفراد هذه الجاليات حرموا من الحياة العائلية ـ اذ كانت سلطاتهم المسؤولة لا تسمح لهم بحمل أسرهم معهم ـ فانهم عاشوا حياة اجتماعية لا تخلوا من الرفاه والمتعة واللهو ، وتنقلوا فى انحاء البلاد نزهة واطلاعا وكونوا صداقات مع بعض سكان البلاد والسلطات الحاكمة ·

وفى الواقع لم تكن تلك الجاليات أو (المستعمرات) المحدودة العدد سوى مظهر مجتزا من مظاهر الاستعمار الاوروبى الذى قام اثر الكشوف الجغرافية ، والذى امتد الى أمريكا وافريقيا وجنوبى شرق آسيا · فهى طليعة الاستعمار الغربى الاوروبى الكبير الذى اتضحت معالمه فى القرنين التاسع عشر والعشرين · وليس أدل على ذلك مما قاله : « شوازول غوفيه » ، آخر سفير للمملكة الفرنسية لدى « الدولة العثمانية » ان ثغور

الليفانت هى اجمل ممتلكات المملكة » ، وعلق المؤرخ الفرنسى « فاندال » على ذلك قائلا : (بأنها امبراطورية استعمارية بثمن زهيد) ٠

واذا كانت التجارة وأرباحها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر هى الدفاع الاول الذى دعـا كثيرا من الاوروبيين من فرنسيين وانجليـز وهولانديين وبنادقـة وجنوبيين الى النزوح عن أوطانهم والاستيطان المؤقت فى اسكالات الشرق ، فان السياسة المسيحية الجديدة التى ارتاءتها البابوية كانت العامل الثانى : فقد ادت الثورة الفكريـة الاوروبية فى مطلع العصور الحديثة الى تحول بالفكرة الصليبية التى سادت أوروبا ابان العصور الوسطى من مفهومها الحربى الى مفهومها السلمى : أى أن العالم العربى الاسلامى يجب أن لا يغزى بالجنود المسيحيين والحراب وانما يجب أن يشق الطريق فيه للمسيحية على المذهب الكاثوليكى بالفكر والاقناع والسلام والمحبة ٠ ومن ثم أخذت الدول الاوروبية وبخاصة فرنسا تسعى للبعثات التبشيرية لدى البلاط العثمانى ليسمح لها بالاقامة على الارض العربية ٠ وبالفعل شرعت البعثات التبشيرية الكاثوليكية اليسوعية والكبوشية والكرملية بالتسلل والاستقرار على الرغم من مقاومة الدولة العثمانية لها ، وذلك بصفة أن افرادها من رعايا الدولة المتعاقد معها وأخذت فرنسا تدريجيا على عاتقها حماية هذه البعثات لدى الباب العالى ٠ واتخذت هذه «الجاليات الدينية» اهدافا لها نشر المذهـب الكاثوليكى بين مسيحى العالم العربى الاسلامى ، وتوحيد الكنائس الشرقية مع كنيسة روما ، ومنع تسرب الهرطقة البروتستانتية الى هذه المنطقة ، ونشر المسيحية اذا امكن بين المسلمين ، وتثبيت قدم أوروبا فى هذه البقاع ولا سيما فرنسا ، وذلك عن طريق الوعظ والتعليم وتقديم الخدمات الاجتماعية ٠

وبذلك أصبح يرى على أرض العالم العربى الاسلامى فى العصور الحديثة جاليـات مدنية تعمل بالتجارة بخاصة وجاليات دينية تتكون من رجال الدين المرافقين لتلـك الجاليات المدنية ومن الرهبان العاملين فى نطاق بعثاتهم ٠ وكانت هذه الجاليات كلهـا تعمل ضمن مخططات اقتصادية وسياسية ودينية لصالح دولها الاوروبية ٠

ان الحديث عن الجاليات الاوروبية فى العالم العربى الاسلامى فى العصور الحديثـة يستدعى مباشرة فى الواقع البحث فى الاتفاقات التى عقدتها دول هذه الجاليات مـع

الدولة العثمانية لانها هي العمود الفقري في وجودها وتموينها · ولقد منحت الدولـــة العثمانية أولى هذه الاتفاقات للبنادقة عام 1521 م أى بعد فتح السلطان سليـــم الاول لسورية ومصر بأربعة أعوام فقط ، واتبعته بآخر مع الفرنسيين والكتلانيين عام 1528 م الا أن أكثر هذه الاتفاقات شهرة ذلك الذى عقد بين الملك فرنسوا الاول ملك فرنســـا والسلطان العثمانى سليمان القانونى عام 1535 م والذى قلدته الدول الاوروبية الاخرى فى السنوات التالية كانكلترا وهولاندة وغيرها · ولقد نصت تلك العهود التى يطلـــق عليها اسم (الامتيازات) بصورة عامة على السماح للاوروبيين بدخول الاراضى العثمانية والاستقرار فى أى جزء من اجزائها دونما ضغط أو ازعاج ، والمتاجرة بحرية فى مدنهـا وموانئها ، وحرية التنقل بين جنباتها · كما أنها نظمت ظروف تلك التجارة ، وسمحت لتجار الدول المتعاقدة باستيراد جميع البضائع وتصديرما هو مسموح به ، وحددت رسوم الجمرك على تلك البضائع ، وحظرت على موظفى الدولة العثمانية ورعاياها استخدام العنف او الضغط على التجار والبحارة ، أو الاستيلاء على متاعهم المستورد أو المصـــدر ، أو تقاضى ضرائب منهم غير منصوص عليها فى المواثيق أو غير مشروعة ·

وعلى الصعيد الشخصى ضمنت الدولة العثمانية فى تلك الاتفاقات للمقيمين على أرضها من هؤلاء الاوروبيين الحرية الشخصية فمنحتهم حرية الديانة وسمحت لهم بممارســة طقوسهم الدينية شريطة ألا يخرجوا عن الحدود المرعية ، وأعفتها من دفع الجزية وأقرت أن ما يملكون يرجع الى ورثتهم فى ديارهم الاصلية اذا ما حضرتهم الوفاة على أرضهـــا دون أن يتدخل أحد من الموظفين العثمانين بالامر أو يعيقه ·

وقد اذنت هذه الاتفاقيات للدول المتعاقد معها أن تقيم ممثلين عنهـــا فى استانبول العاصمة تحت اسم ، سفير أو مقيم أوبيل ، وفى المدن الاخرى التى تختارها قناصل · وأجازت لهؤلاء الاخيرين أن يشرفوا على مواطنيهم وأن يحلوا النزاعات والخصومات التى قد تنجم بينهم وأن يدافعوا عنهم اذا ما أحاق بهم ضيم أو حيف · وبذلك لم يعد هؤلاء الاوروبيون خاضعين لسلطة الحكام المحليين المسلمين ، فالسفير والقناصل هم ممثلـــو مواطنيهم بالقرب من السلطات التركية من ناحية ومن ناحية أخرى هم مفوضو حكوماتهم بالقرب من مواطنيهم · وهكذا وجد وتوطد التمثيل الدبلوماسى بين الدولـة العثمانية

المسلمة وبين الدول الاوروبية المسيحية • ولقد اتخذ هذا التمثيل فى بدئه طابعا تجاريا لان العلاقات بين الطرفين كانت تحمل هذا المضمون ولانه كان مرتبطا الى حد كبير بالشركات والمؤسسات التجارية للدول المتعاقدة ، الا انه تطور مع الزمن حتى أخذ مضمونه السياسى •

ويلاحظ أن الهم الاول للسفير والقناصل هو الدفاع عن أشخاص مواطنيهم وأملاكهم ومصالحهم والسهر على تطبيق ما جاء فى المواثيق ، والحصول بين آونة وأخرى على تثبيت لها أو تجديد ، أو اضافة بنود مستحدثة عليها اثبتت الايام والممارسة التجارية الفعلية والتجارب الحياتية الواقعية للجاليات ضرورتها • الا أن هذه المهمة الاساسية لهؤلاء المثلين ما لبثت أن امتزجت بمناروات سياسية تلعب فيها أصابع الدول الاوروبية ما تشاء فى شؤون الدولة العثمانية وسياستها الخارجية بل والداخلية •

ان بنود هذه الاتفاقات بعموميتها متشابهة الا ان كل دولة كانت تسعى للحصول على أكبر قدر من الحماية والرعاية لمواطنيها وأوسع نفوذ لدى الدولة العثمانية • ففرنسا مثلا تمكنت من الحصول نتيجة صداقتها للدولة العثمانية وتحالفها معها على حق خضوع جميع الاجانب المتاجرين فى انحاء الامبراطورية للراية الفرنسية ما عدا البنادقة وفيما بعد الانجليز • وتوصلت الى ان يكون لسفرائها حق التقدم فى السير والجلوس على جميع سفراء الملوك الامراء المسيحيين ، هذا بالاضافة الى تحقيقها تدريجيا مطامحها الدينية باضافة بنود عن الحفاظ على الاماكن المقدسة وتامين زيارة الحجيج المسيحى الاوروبى وأخيرا حق حماية المسيحيين الكاثوليك فى الامبراطورية وصلاحية القضاء على مراكب بحارة شمالى افريقيا أو كما كانت تسميهم القراصنة اذا ما هاجموا مراكبها •

ولقد أثارت هذه الاتفاقات بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية ابتداء من اتفاق 1535 م ، مع فرنسا تساؤلات كثيرة فى جميع الاوساط العلمية ونقاشا طويلا ودراسات واسعة كونت مع الزمن أدبا تاريخيا وحقوقيا ضخما وبجميع اللغات يدور كله حول هذه الاتفاقات والعهود والمواثيق ومضموناتها ووجهات نظر الحقوقيين والمؤرخين بها • فقد استثار الكثيرين أن تمنح الدولة العثمانية المسلمة قناصل الدول الاوروبية المسيحية وسفرائها استقلالا شبه تام فى تقرير شؤون مواطنيهم وتنظيمها فى النواحى التجارية

والحقوقية والجزائية وأن يتم هذا وفقا لقوانينهم الخاصة ودون أن يتبع ذلك معاملة بالمثل من قبل تلك الدول · فهى بحسب رأيهم (امتيازات) فعلية ، فهى بذلك بدعة ونزول من السلطان عن حقوقه وسيادته لمصلحة الدول الاجنبية ، فالوضع الطبيعى للاجانب فى مختلف الدول حاليا هو أن يكونوا خاضعين لقوانين البلاد التى يقيمون بها ولسلطاتها وهذا نتيجة طبيعية لسيادة الدولة على ارضها · وأن أكثر ما أدى الى دهشة الحقوقيين قبول الدولة العثمانية وهى فى ذروة قوتها ومجدها وجبروتها هذا الوضع الذى يطلق عليه فى اطار القانون الدولى اسم (Exterrorialiste) اى اعفاء الاجانب من قضاء الدولة التى يقيمون فيها وامتداد قوانينهم الى حيث يقيمون خارج حدود أوطانهم ، وهذا طعن صريح بسيادة الدولة المستقبلة لهم واستقلالها ·

ولقد حاول بعض المؤرخين ايجاد تسويغ لهذا الامر فقال بأن الدولة العثمانية وهى الدولة الاقوى قد منحت مثل هذه العهود كرما منها ونظرت اليها كلفتة عطف من سيد كبير وكريم نحو أمير غربى صغير ، كما فسره بعض آخربالعامل الاقتصادى البحت فبين أن القلق الذى سببه تحول تجارة الشرق الاقصى من ممتلكات الدولة العثمانية الى طريق رأس الرجاء الصالح ، واهتمام العالم الاوروبى بأمريكا بدلا من الليفانت وحاجة الدولة العثمانية للمال الذى كان يأتيها عن طريق هذه التجارة العالمية ، من حصيلة للجمارك واستيراد للنقد الفضى،وشعورها أن التجارة الخارجية لديها لا يمكن ان تنشط الا بوساطة الاوروبيين ، كل هذا دفع الدولة العثمانية لتكون أكثر مرونة فى علاقاتها التجارية مع الاوروبيين والمسيحيين وأكثر تسامحا ·

وفى الحقيقة أن معظم الناقدين لتلك العهود يدرسونها فى ضوء التطور الحاضر للحقوق الدولية لا فى ضوء الاوضاع السائدة فى تلك القرون ، كما انهم نادرا ما يتعرضون الى التشريع الاسلامى وموقفه من هذا الامر · فالمستعرض لمعاملة الاجانب أو الغرباء فى بلد ما عبر العصور التاريخية القديمة والمتوسطة يثبت له أن المواثيق التى اصدرتها الدولة العثمانية لصالح الدول الاوروبية ليست فى معظم بنودها وفقراتها بما فيها (القضاء الخاص) شيئا جديدا أو مبتدعا فى تاريخ العلاقات الدولية انما هى امتداد لتقليد دولى وأعراف تجارية سارت عليها الامم المختلفة فى العصور القديمة

الوسطى فى اتفاقاتها ومواثيقها التى كانت تسير التبادل التجارى وأوضاع الاجانب فيها حتى الدول الاسلامية منها ٠

وان الدارس للشريعة الاسلامية التى هى (شريعة عامة لجميع البشر لا للمسلمين فحسب) والتى تبنتها الدولة العثمانية على المذهب الحنفى ، يرى فى صلبها احكاما خاصة (بالمستأمنين) لا تخرج فى الواقع عما ورد فى تلك الاتفاقات والمواثيق فى بدايات منحها ٠ فالاجانب فى دار الاسلام هم (المستأمنون) ، وهم فى الاصل أهل (دار الحرب) طلبوا الامان من المسلمين فى (دار الاسلام) فمنحوه من امام المسلمين أو من آحادهم ٠ وهذا الامان يمنح عادة اذا لم يكن منه ضرر على مجموع المسلمين ٠ ولقد قررت الشريعة الاسلامية للستأمن فى دار الاسلام من الحقوق ما يقرب من حقوق الذمى لان المستأمن هو بمثابة اهل الذمة فى دار الاسلام ٠ فمن حق المستأمن أن تحميه الدولة ولا تؤذيه ولا تسبب له الاذى لانه فى حمايتها ورعايتها وأمانها ٠

وله الحق فى الرواح والمجيء وفى حماية شخصه من أى اعتداء أو حبس أو عقوبة بغير وجه حق ، وله الحرية فى التنقل فى دار الاسلام والاقامة حيث يشاء الا ما يخص الحرم والحجاز اذ يسرى عليه ما يسرى على الذمى وله حق التمتع بمرافق الدولة وبالحقوق الخاصة مثله مثل الذميين وهؤلاء فيها كالمسلمين مع بعض استثناءات ، وله حق مباشرة جميع التصرفات القانونية لكسب المال وسواء باشرها مع المسلمين أو مع الذميين ، وأن حق الملكية حق مصون له ، وحكم أمواله هو حكم أموال المسلمين فى حرمتها ٠ ويخضع المستأمنون لضريبة تجارية تفرض على أموالهم المعدة للتجارة وهى فى الاساس العشر ومن الجائز أن تكون أقل أو أكثر على قاعدة المعاملة بالمثل، الا انهم معفيون من ضريبة الجزية ٠

أما كيف يسمح للاجانب بالقضاء وفق قانونهم الخاص وفض خصوماتهم أمام قناصلهم بدلا من تطبيق نصوص التشريع الاسلامى عليهم ونظر القضاء المسلم فيهم فان المذهب الحنفى الذى سارت عليه الدولة العثمانية أجاز فى الواقع تقليد الذمى القضاء على أهل الذمة وجواز تولية المستأمن القضاء على المستأمنين اذا كانوا جميعا من دار واحدة ، ومن هنا لم يكن حكم القنصل فى الخلافات بين مواطنيه بدعة أو امتيازا ٠ أما حول الشريعة

التى يتم الحكم بموجبها فان معظم الفقهاء لا يقبلون الحكم بغــير شرع الاســلام فى دار الاسلام الا ان مراعاة بعض الامور المتعلقة بدين هؤلاء المستأمنين وأحوالهم الخاصـــة لا يخرج فى الواقع عن اطار الشريعة الاسلامية ومفهوماتها العميقة فهى استثناءات اقتضتها ظروف المستأمن وتشبه تلك التى خص بها الذميون ·

ومن كل ما ذكر سالفا يتبين أن جميع العهود والمواثيق الممنوحة للاجانب فى الدولة العثمانية لم يخرج فى بداياته الاولى عما رسم فى الشريعة الاسلامية فكأن تلك الاتفاقات فى مطالعها عهود أمان أو عهود ذمة أوضحت للاوروبيين وثبتت تسجيلا ما كانوا يجهلونه من القانون الاسلامى بحقهم ، واذا كانت هذه العهود قد أثارت الدارسين الغربيين ببنودها ذات الروح الانسانية السمحة وبفهمها العميق لحريات الانسان وحقوقه الطبيعية فلانها أتت مغايرة لتصوراتهم ومعتقداتهم وشرائعهم القائمة ، آنذاك ·

الا ان أوروبا استغلت تلك الروح الانسانية الكريمة عندما ضعفت الدولة العثمانية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وتغلغل النفوذ اللااسلامى فيها ، فوسعت حـق القضاء الممنوح لها حتى أصبح لكل دولة قضاء خاص بها بمحاكمه وشهوده وقانونـه ، كما انشئت المحاكم المختلفة وهذا ما دعا الى تسمية تلك العهود والمواثيق بالامتيازات · ويلاحظ أن من رعايا الدولة العثمانية نفسها من انضوى تحت حماية قناصل الـدول (الممتازة) وهؤلاء من المسيحيين بخاصة ، وقد سمح لهؤلاء القناصل باصدار براءات تعطى لبعض من يعمل معهم من الرعايا العثمانين حق التمتع بما يتمتع به مواطنوهم من (الامتيازات) ·

والآن ما هو الدور الذى لعبته هذه الجاليات الاوروبية فى العالم العربى الاسـلامى ؟ لقد أشرنا فى مقدمة البحث أن هذه الجاليات قد لعبت دورا هاما فى حياة المجتمع العربى على الرغم من انعزاليتها الظاهرة ضمن اسوار الخانات أو الفنادق التى اقامت فيها وقلة عددها ، وفى الحقيقة لقد كان فى هذا الدور ايجابيات وسلبيات على المجتمع العربى وان كانت سلبياته أكبر واقوى من ايجابياته :

ففى المنحى الاقتصادى انعشت الجاليات الاوروبية بتجارتها فى العـالم العـربى الاسلامى التجارة الخارجية العربية بعد ان أصابها الركود نتيجة تحول طرق التجـارة

العالمية عن البحر الابيض المتوسط وربطتها ثانية بالتجارة العالمية التى انتقلت بخاصة الى المحيط الاطلنطى • كما ان هذه التجارة فى بدايتها أدت الى نشاط صناعى ملحوظ فى هذا العالم والى تطور زراعى هام أخرج الزراعة العربية من حدودها الضيقة المرتبطة بالاستهلاك المحلى الى زراعة واسعة تعمل بهدف التصدير الخارجى وسد حاجة أوروبا من بعض المنتوجات كالقطن والحرير والى ادخال مزروعات جديدة كالتبغ والطماطم وغيرها • الا ان هذا الانتعاش الاقتصادى الذى عاشه العالم العربى الاسلامى فى بعض مدنه وموانئه كان انتعاشا سطحيا « ومحدودا » اذ أن الجاليات الاوروبية سعت حثيثا لاخراج التجارة الخارجية تدريجيا من ايدى أصحابها الوطنيين لتجمع كل خيوطها المحركة من ايديها ، توجهها كيفما تشاء : ويتضح هذا فى اغراق البلاد بنقدها ولا سيما المزيف منه، وفى الاستعانة بفئة ضئيلة من سكان البلاد تعاطفت معها لتقاربها الدينى أو لمصلحتها الخاصة كالمسيحيين واليهود • وبذلك كانت هذه التجارة الخارجية لصالح تلك الجاليات وقلة ضئيلة جدا من المواطنين الذميين ، فهى أشبه بزرقة مورفين لمريض تمنح انتعاشا «أوليا» الا انها لا تلبث أن تضعف قواه وتسيطر على ملكاته وتفقده ارادته • كما أنها كانت لصالح صناعتها التى نمت فى بلادها فأخذت تنافس بها صناعة العالم العربى الاسلامى وتميتها تدريجيا • ونفس الشىء يقال عن الزراعة التى لم يستفد من تطورها الجديد الا هى والاقطاعيون • وعلى الرغم من أن هذه الجاليات قد حملت الى الاسكالات أساليب عملها التجارى المتطورة الا أن التجار العرب ولا سيما المسلمين لم ياخذوا بها فظلوا محافظين على انماطهم التقليدية التى تعودوها •

أما أثرها فى المنحى الاجتماعى فقد عاشت هذه الجاليات على حواف المجتمع العربى لان اكثريته المسلمة عزلتها وانكمشت عنها ، ولم تنظر اليها نظرة ود وترحاب • وبالطبع فانها بحثت فى هذا المجتمع عن الفئات التى يمكن أن تتقارب منها ، ووجدت فى تلك المنسجمة معها دينا كالمسيحيين واليهود مطلبها ، ووجد هؤلاء بالمقابل مصلحة اقتصادية كبيرة فى التعامل معها ، فعملوا عملاء تجاريين لها ومترجمين ووسطاء ، وبذلك انتعشت هذه الفئات اقتصاديا واجتماعيا ، وكون المسيحيون منهم بخاصة طبقة بورجوازية جديدة محدودة العدد تختلف فى عقليتها عن مسيحى القرى والمدن الصغيرة : اذ أخذت تميل

الى تقليد أوروبا فى عملها حتى أصبح لها هي الاخرى ممثلين تجاريـــين فى بعض موانى أوروبا ومدنها كليفورن فى ايطاليا مثلا ، كما شرعت تقلب الجاليات التى تعمل معها فى كثير من مظاهر حياتها ولباسها • ولقد دفعها هذا (التأغرب) الى الانفصام عن حياتهـا الشرقية بل واحتقارها ، فضعف ولاؤها للدولة الحاكمة ولا سيما أنها تختلف عنها دينا، وأخذت تسعى لتربط نفسها بالدول الاوروبية حتى أن بعضها طلب براءات رسميـــة تمنحه رعوية تلك الدول • هذا بالاضافة الى ان غنى هذه الفئة أغرى كثيرا من القرويين بالهجرة الى المدن للعمل فى التجارة الخارجية ، وكان من نتائج هذه الهجرة اختلال التوازن الاجتماعى السابق فى المدن الكبرى وتوسع الشقوق الصغيرة التى كان يشكو منها تركيب المجتمع العربى والتى كادت تلتئم من جراء الحياة المشتركة المتسامحة التى كانت تعيشها فئاته على الرغم من الاختلافات الدينية الموجودة بينها • ولم يكن هذا التصدع الجديـــد فى التركيب الاجتماعى نتيجة لزيادة عدد الاقليات الدينية فى بعض المدن فحسب وانما نتيجة استغلال الجاليات الاوروبية الدينية لتلك التجمعات المسيحية الكبيرة نسبيا لتقوم بعملها التبشيرى بينها ، ذلك العمل الذى نجح فى قسم كل طائفة من الطوائف المسيحية الشرقية الى فريقين متنازعين وخلق كنيسة كاثوليكية ترتبط بكنيسة روما • هــذا فى الاوساط المسيحية أما فى الاوساط اليهودية فقد ادت تجارة الجاليات الى ازدياد القــوة الاقتصادية والمالية لليهود نتيجة تعاملها معهم ولا سيما فى نطاق العمليات التجاريـــة المصرفية حتى غدوا عصب التجارة الخارجية ومحركها الاول • وقد أدى هذا بالتالى الى نمو شعورهم بضرورة التضامن مع يهود أوروبا والعالم لتكوين تكتل يهودى تغذيه (الكابالية) الصوفية التى اتخذت (صفدا) مركزا من مراكز بثها الفكرى • وبالاضافة الى كل تلك الآثار الاجتماعية السلبية فان الأحتكاك بـين الجاليات الاوروبية والاقليات الدينيةقـــد نقل معه بعض العادات والتقاليد كتدخـين التبغ ولعب الورق ، والرغبـة فى تقليـــد الاوروبيـين فى انماط لهوهم وحياتهم • وفى الحقيقة أن الاثر الاجتماعى قـــد بان فى الاقليات الدينية التى احتكت بهم أكثـر مما ظهر فى مجموع المجتمع ، الا أن ذلك المسرب المحدود ما لبث ان اتسع وانتقل الى الاوساط الاسلامية تدريجيا بالاحتكاك مـــع تلـك الاقليـــات •

والامر نفسه يقال عن الاثر الثقافى ، فالى جانب تاثـر اللغة العربية ببعض الكلمات التجارية الاجنبية ولا سيما الايطالية ، فـان المدارس التى أوجدتها البعثات التبشيرية فى بعض المدن والقرى قد حملت انماط التعليم الاوروبى والعلوم الجديثـة الى العالـم العربى الاسلامى • وقد رافق هذا ادخال الطباعة بالعربية فى القرن السابع عشر ممـا ساعد على خلق نهضة فكرية فى الاوساط المسيحية اتجهت الى احياء الآداب العربيـة ، والدراسات الدينية المسيحية ، والبحث عن المخطوطات العربية ، مقلدة بذلك خط عمل المبشرين الدينيـين الاوروبيـين أنفسهم •

واذا كانت هذه المسيلة من النهضة الفكرية عملا ايجابيا سيعطى أكله فى القرن التاسع عشر فان وجود الجاليات الاوروبية المدنية والدينية على الارض العربيـة وكثـير منهـا متعلم ومثقف كان عاملا فى (سلب) العالم العربى قسما كبـيرا من كنوزه الحضاريـة : فقد اهتمت هذه الجاليات بحضارات هذا العالم ومخلفاته ، وعرفت مواطنيها بها عن طريق أدب رحلات غزير وبحث حثيث عن الآثـار القديمة والوسيطة الناجمة عن تلك الحضارات وعما تركته وراءها فى هذا العالم من مخطوطات عربية وعبرية وسريانية وغيرها • ولم تكتف بذلك بل سعت الى اقتنائها بكل الوسائـل وارسالها خفية الى أوروبا • ويمكن القول أن أكبر نزح شاهدته المكتبة العربية المخطوطة يرجع فى الواقع الى القرنـين السادس عشر والسابع عشر اذ كانت هناك حملة علمية مركزة لهذا الغرض أسهم فيها الملـوك والأمراء والعلماء والمستشرقون الاوروبيون واعتمدوا فيها على الجاليات لتحقيقها •

هذا قليل من كثـير من نتائـج وجود الجاليات الاوروبية على الارض العربية ولكـن أهمها النتيجة السياسية التى تلخص بأنها كانت مقدمة استطلاعية للاستعمار السياسى الذى تلا بعد قرون • ولن نقول كما قال المؤرخ (مانتران) بأن هذا كان انتقاما للمسيحية الاوروبية من الاسلام المنتصر دوما ، وانما نقول أن الدولة العثمانية بسلبيتها وجهلهـا لمقومات الثـورة الاوروبية فى العصور الحديثـة كانت العامل الرئيسى كسلطة حاكمـة فى تقديم العالم العربى الاسلامى لقمة سائـغة لشراهة الاقتصاد الاوروبى الحديـث ، لا باغلاقها هذا العالم فى وجهه كما درج على القول كثير من المـؤرخين ـ وانما فتحها له وهذا العالم سادر فى تقوقعه وجمود مفهوماته الحضارية •

وأخيرا وبعد ، ما المغزى من هذه الدراسة بالنسبة لحاضرنا ؟ اننى أرى فى العرض اللاهث السابق عظا تواضحة لنا فى تعاملنا مع أوروبا والعالم الخارجى بمجموعه بجميع كتله السياسية والمذهبية ، فهو يزودنا بوعى أكبر لحاضرنا ومستقبلنا ، وما يمكن أن يكون للجاليات الغريبة عن عروبتنا من آثار سلبية وايجابية فى مجتمعاتنا ٠ فلنسع بتعاملنا معها واعين ، الى اعدام السلبى منها وتنمية الايجابى لصالحنا واخصابه ٠ هذا بالنسبة للجاليات فى أطر مجتمعاتنا ٠ أما حول جالياتنا المنبثة فى كل ركن من أركان المعمورة فعلينا أن نؤمن أنها قادرة مهما قل عددها أن تلعب دورا ما لصالح اقتصادنا وقضايانا وتطورنا ٠ فهى قادرة بتجمعها وتنظيم نفسها تنظيما لا يتعارض مع نظم المجتمعات التى تعيش فى نطاقها ، وبمتابعة ارتباطاتها بأوطانها عن طريق ايجاد منظمات فى تلك الاوطان تشرف عليها وتوجهها ، وعن طريق اعلام متبادل بينها عبر المجلات والنشرات والصحف والكتب والاذاعة والتلفزيون والمراسلات الخاصة ، أن تخدم هذا المجتمع بأن تحمل اليه كل ما هو جديد سليم فى المجتمعات التى تعيش بينها وذلك فى جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية ـ كما فعلت الجاليات الاوروبية فى الماضى ـ وأن تحمل من مجتمعها الام الى تلك المجتمعات زبدة الحضارة العربية الاسلامية ، وتنقل قضايا مجتمعها اليها لتتحسس بها وتعاونها على ايجاد حلول صحيحة لها كجزء من التضامن الانسانى العام ، على أن يكون التعريف بتلك الحضارة والقضايا لا عن طريق النشر الكلامى المنطوق والمطبوع فحسب وانما عن طريق السلوك القويم والتعامل الرفيع والعمل الجدى المثمر لصالح تلك المجتمعات وصالحها ٠ الا أنه لابد لدول هذه الجاليات العربية أو لأية منظمة عربية مشتركة يمكن أن تنشأ فى المستقبل لجمعها والتخطيط لها ، أن تبقى هذه الفئات على صلة وثيقة بمجتمعاتها وقضاياها الكبرى بشتى وسائل الاعلام والاتصال ، وأن تتعرف باستمرار على جميع نشاطاتها ، وأن تستفيد من تلك النشاطات فى مواطنها ، وأن تزودها دائما بالعون فى جميع المجالات وألا تتركها تغرق وسط زحام المجتمعات الاخرى التى تعيش بين ظهرانيها ٠

أما الاقليات الاسلامية المنبثة فى كل ركن من أركان العالم فهى على الغالب مواطنة محلية تدين بالدين الاسلامى ، وعلى المجتمع الاسلامى أن يبحث فى طرق تعليمها الدين

الصحيح وقيمه وكيفية بثها لصالح مجتماعتها ، كما يمكن للجاليات العربية المقيمة معها والمماثلة لها دينا أن تقوم بالتقرب منها عن طريق انشاء علاقات اقتصادية واجتماعية وفكرية واسعة معها ، لتكون تلك الاقليات بتطبيقها مبادىء الدين القويم عنصر حياة خصبة وسلا مومحبة فى مجتمعاتها ٠

فالجاليات العربية والاقليات الاسلامية فى العالم يجب أن تكون رسل الحضارة التى تحملتها أى رسل سلام ومحبة وتسامح ، وتعاون ، وعمل مثمر لصالح المجتمعات التى تعمل فيها وتعيش بين ظهرانيها ، ولصالحها ، وأخيرا لصاالح المجتمعات التى انبثقت منها والمبادىء الدينية الانسانية التى تؤمن بها ٠



وضع الجاليات الأوربية فى المغرب

د. سلفاتورى بونو
استاذ تاريخ بجامعة روما
- ايطاليا -

ليسمح لى اولا بتوجيه تشكراتى الى السيد الوزير مولود قاسم لدعوته لى بالمشاركة فى هذا الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى . فانا ممنون له على الخصوص للفرصة التى اتاحها لى للتعرف على مدينة بجاية الحماديين التى ستثار مرة اخرى حضارتها وازدهارها عبر التاريخ فى هذا الملتقى .

ويحلو لى التذكير باننا نجد فى الوثائق الايطالية كثيرا من الاخبار ذات العلاقة بالتطور التجارى والصناعى لهذه المدينة التى تحتضننا اليوم . ففى القرن الرابع عشر مثلا ، تحدث الفلورانسى « فازيو ديغل أوبيرتى » صاحب القصيدة الشعرية المشهورة « ايل ديتاموندو» عن هذه المدينة قائلا : لقد رايت بجاية التى يحمدها العالم اجمع .

ان اختيار مسالة الاقليات والجاليات المهاجرة كموضوع أول فى هذا الملتقى ليبدو لى ملائما جدا . فهذا المشكل يستأثر اليوم اكثر فاكثر باهتمام المسؤولين السياسيين

والاختصاصيين فى الموضوع الذين ينظرون اليـــه مـــن مختلف جوانبـه القانونيةـ والسوسيولوجية ، والانتروبولوجية الثقافية ، والتاريخية • ففى شهر ماى القـــادم سيعقد بايطاليا ، وفى تريستا على وجه التحديد ، مؤتمر دولى لبحث مشكل الاقليات •

وسيدرس ملتقانا ـ كما ينبغى ـ هذا الموضوع الهام فى أوسع أبعـاده وذلـك بالرجوع الى كل القارات مع العناية الخاصة باقليات وجاليات الهجرة الاسلامية ، وسينظر الى المشكل خاصة من وجهة الواقع السياسى الاجتماعى الراهن •

ومن ناحيتى ، أود أن اسدى لاشغال الملتقى حول هذا الموضوع مساهمة مـن نمط تاريخى تهم المغرب • فبامكان التاريخ فى الواقع ـ وهذه هى القناعة التى تقود اعمالى واعمال كل المؤرخين ـ أن يمنحنا أمثلة ويقدم لنا مقترحات عمل فى الواقع المحيـط بنا • وفى اطار هذه العقلية ، حاولت أن أتفحص المعالم البارزة لتاريخ وجود الجاليات والاقليات الاوروبية فى المغرب •

واذا ما طرقنا موضوعنا مباشرة امكننا أن نلاحظ باديء ذى بدء أن المغرب منذ فجـر الاسلام حتى القرن الماضى ، غالبا ما كان يأوى ، بل ونستطيع ان نقول : « دائما » ابتداء من القرنين 12 و 13 ضمن دوله ومجتمعاته عناصر وفئات وجاليات من مختلف الاقطار الاوروبية وخاصة من البلاد المتوسطية ايطاليا وفرنسا واسبانيا • ويمكن ان نقول منذ الآن بان هذا الوجود لم يكن ينطوى على أى مظهر أو علاقة استعمارية ، ويمكن أن نتحدث عن استعمار أو امبريالية سابقين لاوانهما ـ مثل النورمانديين أو الاراغونيين ، القشتاليين أو الفرنسيين ـ عند التحدث عن احتلال هذه الدول الاوروبية لبعض القلاع المحصنة أو لبعض جهات المغرب لحقب تقصر أو تطـول • لكن هذا الموضوع يشكل ظاهرة مستقلة تختلف تماما عن الظاهرة التى نريد ان نعنى بها هنا •

ان هذا الوجود لعناصر أو لطوائف أوروبية مستقرة بصورة قانونية فى مدن المغرب وخاصة فى المدن الساحلية ليشكل مظهرا يتميز به تاريخ المغرب ، فالوجـود السلمى لهذا الائتلاف الاجنبى ، الخاضع للقانون والمحمى من قبل هذا القانون نفسه ، وكون هؤلاء الناس اندمجوا بصورة منظمة ومفيدة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية المحلية ، بـل

واختلاطهم وامتزاجهم بالعنصر المحلى الى درجة ما ، ليشكل واحدا من ملامح تنوع وثراء مظاهر الحضارة فى المغرب ، وتمثل ـ مع غيرها ـ جزءا من اسهام المغـــرب الاصيل فى التاريخ والحضارة العالمية ٠

وقبل الخوض فى موضوع هذا الوجود الاوروبى بالذات من الوجهة العرقية والسياسية قد يكون من المناسب الاشارة الى مكان يوجد فى المغرب الاسلامى من مجموعات صغـيرة مـــن السكان ـ الاهالى منهم أو احفاد الرومان والبيزنطيين ـ الذيـــن استمـروا فى اتباع المسيحية ٠ وصحيح ان ما نملكه بهذا الصدد من وثائق تاريخية قليل جدا ، وكل ما لدينا ان هو الا اشارات وتلميحات غالبا ما تكون متسرعة غير واضحة ، نجدهـا فى آثار المؤرخين والجغرافيين العرب ، وبعض الوثائق الواردة من الجهات الدينية المسيحية ، وشواهد مما نجده فى نصوص غربية ، وشهادات أثرية ٠

ففى بلاد طرابلس مثلا ، تشهد كتابات ضريحية بوجود مسيحى حتى العـام الالف تقريبا ، وفى القيروان كانت توجد كنيسة فى القرن التاسع ، وعثر فيها كذلك على قبور مسيحية ترجع الى نصف القرن الحادى عشر ٠ وبعض الجموع من المسيحيين الذين هربوا من المدن الساحلية أمام زحف قوات الفتح الاسلامى بحثت عن ملاجىء لها فى المناطق الجبلية أو فى محلات متاخمة للصحراء ، وظلت تحافظ لمدة من الزمن على معتقـــدات وتقاليد مسيحية ٠ وفى عام 1068 كتب الجغرافى العربى البكرى يقول : « توجـد فى تلمسان آثـار لبنايات قديمة وبقايا لسكان مسيحيـين ما يزالون موجودين ليومنا هذا ، وهناك أيضا كنيسة ما يزال يتردد عليها المسيحيون » ٠ ان عدد الجماعات المسيحيـــة بافريقيا ـ التى سادت من بينها لمدة طويلة جماعة قرطاجنة نظـرا لسمعتها ولسلطتها ـ راح يتضاءل ويتناقص عبر العصور خصوصا عـلى اثر وصول القبائـل الهلالية الى المغرب فيما بـين القرنـين السابع والحادى عشر ٠ واستطاعت هذه الجماعات ان تحافظ عـــلى بعض العلاقات مع المركـز البابوى على الرغم من أن هذه العلاقات لم تكن وثيقة كمـــا تشهد بذلك بعض رسائـل البابوات « ليون التاسع » ، « وغريغوار اسابع » ٠

ونود أن نذكر فى هذه المدينة بالذات أن الامـير الحمادى الناصر تحـــلى بالعـدل والسخاء ازاء الجماعات المسيحية التى تقيم بالتراب الذى كان يحكمه، وكان لهذه الجماعات

من حين لآخر علاقات مع المركز البابوى ، وبخاصة فى عهد البابا الاكبر « غريغوار السابع • وبمناسبة زيارة أحد ممثل المجمع الكنسى المحلى لروما ، بعث الامير الناصر برسالة وببعض الهدايا الى البابا « غريغوار » الذى أجابه فى عام 1076 وشكره على لطفه ، وحمد له أريحيته وشهامته • ومما كتبه البابا للملك المغربى ما يلى : « ان الله القادر على كل شىء الذى يقضى بان ينقذ كل الناس ، وبان لا يقع أحد منهم فى الهلاك ، لا يقبل منا فى الواقع أكثر من حبنا لامثالنا ، بعد المحبة الواجبة علينا نحوه ، والعمل بما يفرضه الاثر القائل : (عامل غيرك بما تحب أن يعاملوك به) • ونحن أى المسيحيون والمسلمون ، يتعين علينا خاصة وأكثر من الشعوب الاخرى أن نعمل بفضيلة الاحسان ، نحن واياكم الذين نعبد ، باشكال مختلفة ـ نفس الاله الواحد ، والذين نحمد فيه ونقدس كل يوم ، خالق الدهور ورب العالمين •

واستمر الحماديون فى حماية المسيحيين طيلة ملكهم ، وفى القلعة عاصمة المملكة الاولى كانت توجد عام 1114 كنيسة أهديت لمريم العذراء وكان يسكن فيها أحد الاساقفة •

ان هذه المظاهر من تاريخ المغرب لما يزيد عن قرون ، وهذه العلاقات القائمة على احترام متبادل كامل بين الاسلام والمسيحية لتشرف ـ على ما نعتقد ـ حضارة المغرب وتفند اتهامات النزعة التعصبية الموجهة فيما بعد الى الاسلام من قبل الاستعمار لتبرير ما يهدف اليه من هيمنة وقمع • وفى نفس الحقبة من ناحية أخرى ، فى صقلية التى كان يحكمها العرب قبلا ولمدة تقارب القرنين ، كان الملوك النورمانديون يحترمون ويحمون الذى تبقوا من المسلمين بالجزيرة • وكان « روجر الثانى » يستقبل بكل اجلال وتكريم فى قصره رجال العلم والعلماء من العالم الاسلامى ، ومن بينهم الرحالة الشهير الادريسى الذى أهداه مصنفه فى الجغرافية وتقويم البلدان •

ان وجودا آخر للعناصر المسيحية بالمغرب الوسيط قد يدهشنا اذا ما قابلناه بتصوراتنا وبعقليتنا الراهنة • ونحن نشير هنا الى رجال الميلشيا المسيحيين الذين كانوا يخدمون سلاطين المغرب ، وأول ما نعلمه مما يتعلق بهذا الامر جاءنا من العربى ابن الاثير : ان فيلقا من الجيوش المسيحية (الفرنج) كان فى خدمة المرابطين ، غير أنه لم يقم بواجبه

كما ينبغى حين هاجمهم الموحدون عام 1142 • وكذلك جند الموحدون قوات مسيحية وقد استصحب السلطان عبد المؤمن معه الى المغرب فيلقا قوامه ما بين عشرة أو اثنى عشر ألف رجل من الاسبانيين الذين قدموا من الاندلس • واحتفظ بهذا الفيلق من القوات ـ بفضل تجنيدات تالية ـ خلفاؤه كما تشهد بذلك بعض الرسائل البابوية التى كانت تهتم بالمصير الروحى لهؤلاء المسيحيين • ولدى ملوك تلمسان وتونس نجد فيالق مماثلة من القوات المسيحية من عدة آلاف تدعى « الرماة المسيحيين » ، أو « الجيوش الفرنجية » أو الميليشيا المسيحية » ، وهذه القوات التى يوافق على تجنيدها الأمراء المسيحيون بل وحتى البابوات ، تاتمر بأوامر رؤساء وقادة من أمتها ومن دينها ، لكنها تتلقى جراياتها المالية وأوامرها العامة من الحكومة العربية • واذا ما ولد أمير من الامراء ، كانت الميليشيا تاتى شانها شان باقى هيئات الدولة للاعراب عن ولائها للملك الجديد • ولم يكن الموحدون يقبلون المسيحيين فى صفوف جيوشهم فحسب • بل كانوا غالبا ما يدعونهم الى خدمة القصر ، ولشغل مناصب فى الحكومة حتى ولو كان عدد هؤلاء الخدمة أو الموظفين المسيحيين ظل محدودا على الدوام •

والوجود الأكثر انتشارا ـ حتى لو كان من حيث العدد أقل ثباتا ـ للعناصر الاوروبية فى مدن المغرب كان مرتبطا بالتجارة • فالبحر الابيض المتوسط لم يقم عائقا خلال العصور الاخيرة ، بل على العكس من ذلك ساعد على قيام العلاقات بين سكان سواحله المتقابلة ، لكون المسافات البحرية كانت لغاية مطلع القرن الماضى أسهل للعبور كثيرا مما كانت عليه المسالك البرية القارية ، ومنذ القرون الاولى للفتح الاسلامى لافريقيا الشمالية ، أعيد تنشيط المبادلات مع بلدان أوروبا المتوسطية ، وهى مبادلات كانت من قبل مزدهرة فى عهد الفينيقيين واليونان ، والرومان ، وكانت التجارة مع امتزاجها فى الاحداث السياسية بالمفاهمات أو الصراعات بين الاسلام والمسيحية ، تجرى فى خطوط مستمعلة بعض الشىء ، وتحظى بالاسبقية بالنسبة الى العلاقات السياسية ، وبالاستمرارية لما وراء انقطاعات مؤقتة ، ويرجع ذلك الى كون العلاقات التجارية تحقق منفعة متبادلة حقيقية •

وطوال القرون الاولى من الحساب الهجرى ، كانت معلوماتنا نادره جدا وجزئية تماما ، وابتداء من القرن الحادى عشر اغتنت هذه المعلومات ، وانتهت الينا خلال القرون التالية كذلك نصوص اتفاقات وعقود ووثائق أخرى ٠

وكان الايطاليون وبخاصة الجمهوريات البحرية التى تحتل مكان الطليعة فيما يتعلق بالملاحة والتجارة بالعالم المتوسطى فى العصر الوسيط الاوائل ، وظلوا أكثر نشاطا ، فى المبادلات مع المغرب ٠ فاولا كان سكان « آمالفى » ثم « البندقية » ، ثم البيزنيين » ثم سكان جنوة ٠ وكانوا يستوردون الصوف ، والجلود الخام ، والجلود المدبوغة ، وزيت الزيتون ، والشمع ، وكان شمع بجاية مشهورا لجودته ، وتدعى بجاية بالايطالية « بوجيا » الذى يعنى بالضبط « بوجى » وحامل الشمعة ٠ ان التجار الايطاليين الذين ينظم اليهم الكاطاليون والمرسيليون وأوروبيون آخرون يبيعون المواد المعدنية من النحاس والحديد والقصدير ، وأقمشة من القطن والصوف والخيط والحرير ، والقنب وأسلحة ومصنوعات زجاجية ، وصموغ ، وطلاءات ومختلف الاوانى الخشبية والمعدنية ، وتستفيد الظروف الاقتصادية للمغرب المتوسطى من هذه التجارة حيث يتولى المغرب كذلك دور الوسيط بين أوروبا وبلدان ما وراء الصحراء ، بلاد السودان الذى يأتى منه الذهب الثمين فى الاقتصاد المتوسطى ٠

ولمتطلبات تجارية ، يحدث أن يستقر شيئا فشيئا بعض الاوروبيين فى مراكز المغرب التجارية ، وفى بعض المدن ٠ وقد تكونت فى القرن الثالث عشر مجموعات ، وجاليات صغيرة حقيقية ، ولهذه الجاليات تضمن المعاهدات المبرمة بين الحكومات الاوروبية والملوك المحليين سلامة الاشخاص والممتلكات ،والحرية والتسهيلات لممارسة التجارة ، وفى نفس الوقت تفرض قواعد وواجبات محددة ٠ ففى كل من تونس وطرابلس وقابس والمهدية وبجاية وعنابة ووهران وسبتة وغيرها تملك مختلف الجماعات الوطنية من البيزانيين والفينيسيين والجنويين ، والماجوركأن ، والبروفانسيين ، والاراغونيين ، والمرسليين ، والفلورانسيين مجموعات من المنازل والمساكن مما نسميه مستودعات وبالايطالية « فونداكو » (وهو ماخوذ من الفندق بالعربية) وهذه المنازل والمساكن والمستودعات تبلغ فى بعض الاحيان أبعاد حى صغير مخصص لمواطنى جنسية معينة ٠

ففى المستودع يجدون علاوة عن المساكن ، ديوانا قنصليا وفرانا ، وحماما • وبهـذا الصدد ، حين لا يكون الحمام موجودا داخل المستودع ، تنص الاتفاقيات على تخصيص الحمامات العمومية فى يوم من أيام الاسبوع ، لافراد الجالية المعنية •

وتوجد مستودعات الجاليات المسيحية على العموم الواحد الى جانب الآخر فى نفس الحى من المدينة الذى يدعى عموما الحى الفرنجى ، وأحيانا يوجد فى ربض خارج المدينة • وللقناصلة الاوروبيين حسب المواثيق والمعاهدات ، الحق المقصور عليهـم فى رعايـة مواطنيهم ، وهذا كان يتماشى مع القانون الدولى حينئذ • ومن ناحية أخـرى كانت المعاهدات تفرض على الاوروبيين أن لا يطرقوا ، الا لضرورة ملحة ، الا مراسى السواحل المنصوص عليها فى المواثيق والمعاهدات ، أو بموجب استعمال قطعى توثيقى مثل الاسواق المفتوحة للتجارة الخارجية • وقد ضبطت هذه القاعدة لضمان الرقابة الجمركية والماليـة للعمليات التجارية • وتوجب الاتفاقات على الاوروبيين من ناحية أخرى أن يتجنبوا كل ما من شانه أن يجرح السكان والمشاعر الدينية للعرب ، وكنتيجة لذلك ، أن لايباشروا حرية اداء الشعائر المسيحية الا داخل الكنائس أو المؤسسات المخصصة لسكنى الاجانب•

وفى المغرب الوسيط ، نجد الى جانب التجار والقناصلة ، والقوات الاوروبية الـتى تخدم الملوك المحليين ، عناصر أخرى من أصل أوروبى خاصة ، وليس بالضرورة مـن البلاد المطلة على البحر الابيض المتوسط ووجود هذه العناصر التى سنتحدث عنهـا الآن مرتبط بظاهرة انتشرت فى المتوسط لذلك العهد • وهى حرب السباق ، والقرصنة الحقيقية فى بعض الاحيان التى تشن أو تمارس خارج كل قانون ، أو كل اذن حكومى • وهذا الضرب من الحرب البحرية المعروف فى البحر الابيض المتوسط منذ الازمان الغابرة،

لم يختف نهائيا ، بل كان المسيحيون والمسلمون فى العصر الوسيط يمارسونهـا على حد سواء • ولم تترك حرب السباق هذه ، نظرا لطبيعتها ، الا قليلا مـن الآثار فى الوثائق وفى المصادر التاريخية ، لذلك ، فمن الصعب التأكيد بكل يقين أى الجانبين فقد السيطرة فيها ، وفى أى تاريخ كان ذلك •

ان ممارسة السباق تتضمن ، الى جانب القبض على سفن الاعداء وغنائم أخرى مـن شتى الانواع ، استعباد الرجال الماسورين من الملاحين والمسافرين على ظهر تلك السفن •

فالى نشاط القراصنة يرجع اذن وجود العبيد فى البلاد المسيحية ، كما فى البلاد الاسلامية أولئك العبيد الذين يصبحون بدورهم موضوع مبادلات ومتاجرة ، وانها لحقيقة تاريخية يمكن ان تدهشنا ، وتتناقض أكيدا مع مفاهيمنا القانونية والاخلاقية الراهنة ، لكن لا يسعنا ابدا أن نتجاهلها أو ان نقلل من أهميتها ٠

وابتداء من مطلع القرن السادس عشر ، ارتفع نشاط القراصنة الذين ينطلقون من سواحل المغرب بوصول رؤساء قراصنة أتراك محنكين جريئين ـ ممن لعبوا دورا هاما فى حياة المغرب ٠ فقد غدا عروج وخير الدين الاخوان بربروس سادة الجزائر وجعلا منها مركزا نشيطا جدا للحرب السريعة ، واستقر رؤساء قراصنة آخرون فى محلات أخرى ، ومن بينها تونس فى آخر الامر بمرساها « لاغوليت » وطرابلس ٠ واستمرت الحوادث المعقدة للنزاع المجدد بين أوروبا المسيحية بقيادة امبراطورية هاسبورغ » والاسلام المتوسطى الذى تشكل الامبراطورية التركية طليعته حتى حوالى نهاية القرن 16 ، وجرت فى نهاية الامر الى دعم ثلاث مدن كبرى من دولة القراصنة فى المغرب ، وهذه المدن « الدول » هى الجزائر وتونس وطرابلس ، وهى الايالات البربرية كما كانت تعرف منذ ذلك العهد في الاستعمال الاوروبى ٠

ومن نهاية القرن الخامس عشر حتى العقود الاولى من القرن الاخير، ظلت حرب السباق واقعا دائما فى البحر الابيض المتوسط ، وكان البربريون فيها ابطالا ، ولكن كان هناك ايضا قراصنة أوروبيون ومن هذا القبيل يجب ان نعتبر فرسان مالطة وفرسان « سانت اتيان » من أجل الموضوعية التاريخية ٠ وكان البربريون يمارسون حرب السباق ليس فقط على حساب السفن التى تجوب البحر المتوسط ، بل أيضا بالنزول فى الشواطىء الاوروبية وبمهاجمة المدن ، وكان ينجم عن ذلك تدفق مستمر للعناصر الاوروبية المستعبدة على المدن البربرية ٠ وهذه الظاهرة معروفة جيدا وتؤيدها شواهد كثيرة وعدة نصوص لكتاب أوروبيين يجنحون على العموم ، الى رسم لوحة أكثر قتامة مما هى عليه فى الواقع ، والى السعى فقط الى اثارة ما يدعو الى التنديد والتشنيع بالمسلمين دون ان ينظروا فى ذلك الى كل الجوانب ٠ وواضح اننا نذكر هنا هذا الجانب من تاريخ المغرب دون ان تكون لنا أية نية لاثارة الجدل أو الخصام اللفظى ، ودون أى سوء للتقدير ٠ فنحن نعرف

فى الواقع ، وقد سبق ان قلنا ذلك ، أن هذه الظاهرة تشترك فيها ضفتا البحر الابيض المتوسط • فبينما كان المستعبدون المسيحيون يتألمون فى المدن البربرية ، كان مسلمو المغرب ـ يحتفظ بهم كعبيد فى ظروف قاسية جدا ، بالعديد من مدن الساحل الاوروبى •

وتهمنا ظاهرة الاستعباد بالنسبة الى الموضوع الذى نريد معالجته بهذه المناسبة ، فلنحاول بادىء بدء اعطاء بعض الاشارات الكمية : ففى الفترة الحاسمة من حرب السباق فيما بين القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، كان بمدينة الجزائر التى أصبحت فى عهد ما المدينة الاكثر ازدحاما بالسكان والمدينة الاقوى فى المغرب ، ما بين 25 و 30 ألف عبيد ، وفى نفس الوقت كان عدد العبيد الاوروبيين يرتفع الى عشرة آلاف فى تونس ، وما بين أربعة أو خمسة آلاف فى طرابلس • وخلال القرن السابع عشر ، حين أخذت حرب السباق تتضاءل وتغرب ، أخذ عدد العبيد (يتناقص) تدريجيا فى المدن البربرية الثلاث مع زيادة فقط خلال عهد نابوليون •

وزيادة على العبيد ، كان مثل السابق ، أوروبيون آخرون فى المدن البربرية ، فقد كان يوجد بها ممثلون قنصليون ، وتجار ، ورجال دين ، وقد اقيمت العلاقات القنصلية الاولى من قبل فرنسا التى احتفظت بأحسن العلاقات مع الاسلام ، حتى خلال احتدام النزاع المتوسطى ، وكنا بعد ذلك نشهد قنصليات لدول أوروبية أخرى • وقد يبدو وجود تجار أوروبيين متناقضا مع وجود حرب السباق ، لكن هذه الحرب التى تخللتها فى الواقع فترات هدنة مبدئية على الاقل مع هذه الدولة الاوروبية حينا ، ومع تلك الدولة الاخرى حينا آخر،لم تكن تحول دون التجارة حسب المتطلبات المتبادلة للتبادل التقليدى، بل يمكن القول بانها هى التى كانت تمول التجارة جزئيا • فالتجار الاوروبيون يشترون فعلا مغانم القراصنة لشحنها من جديد الى أوروبا ، وهم من ناحية أخرى يلعبون دور الوسطاء لاعادة شراء العبيد ويحصلون على فوائد وأرباح معتبرة من هذا النشاط • وكان رجال الدين أخيرا أول الاوروبيين الذين يؤمون المدن البربرية لغايتين اثنتين : مساعدة العبيد المسيحيين روحيا ، والسعى الى تحصيل المبالغ اللازمة لافتدائهم فى حدود الاموال المتاحة لهم ، والواردة اليهم من صدقات المحسنين الاوروبيين • وكان بعض رجال الدين يتوجهون الى بلاد البربر لفترات قصيرة للقيام بالدور الذى انيط بهم والمتمثل فى تدبير

الفتداءات محددة ، وكان آخرون ، بالمقابل ، يقيمون بصورة دائمة فى المدن البربرية حيث أسس ابتداء من تاريخ ما سلم تبشيرى منتظم يخضع لمجمع الدعوة المسيحية ، وهذا من جديد برهان آخر على روح التسامح والاحترام حيال الدين المسيحى من الجانب الاسلامى ، وهو موقف كان أقل انتشارا بكثير فى الارض المسيحية ٠

والى جانب « الاقلية » التى يمثلها العبيد المسيحيون ، وتجمعات الاوروبيين الاحرار، من التجار والقناصلة ورجال الدين ، واعوانهم ومساعديهم ، وبعض المسيحيين الآخرين الذين يعملون فى هذا القطاع أو ذاك ، نجد فى الاطار الواسع المتنوع الذى تمثله أى مدينة بربرية تجمعا آخر من أصل أوروبى لكنه عميق الاندماج بالمجتمع الاسلامى ، أى أولئك الذين نبذوا الديانة المسيحية واعتنقوا الاسلام ٠ انهم فى معظمهم عبيد دفعتهم الى اعتناق الدين الجديد الظروف التى كانوا يعيشونها ، لكنهم فعلوا ذلك على العموم عن طواعية واختيار ، على انه حدث كذلك أن رغب أوروبيون بمطلق ارادتهم فى ترك العالم المسيحى لاعتناق العقيدة الاسلامية ، والانضواء تحت لواء البربرية ، وكان هؤلاء الاوروبيون من التجار ، وأرباب السفن أو من البحارة الذين قدموا الى بلاد البربر من أجل العمل ، ومن العسكريين الذين فروا من الحاميات الاسبانية خصوصا من وهران ، وثمة أوروبيون آخرون كانوا يقدمون الى المدن البربرية من أجل اعتناق الاسلام والاندماج فى عالم أكثر حرية وعدلا من العالم الذى اتوا منه ، فقد كانت عدة بلدان أوروبية يجتاحها فى الواقع لذلك العهد نظام « سياسى واجتماعى » تحكمى « استبدادى » وقمعى ٠ فلقد كانت ولادة أى فرد تشرط تماما حياته الاجتماعية حيث تقوم امتيازات البعض ـ وهم النبلاء والاغنياء ، وذوو البأس الاقوياء بالتمايز عن الآخرين الذين خلقوا للطاعة والانقياد ٠ وكانت المدينة البربرية تتراءى لهؤلاء باسم الاسلام ، عالما من التسامح والمساواة والحرية ٠

وكان اعتناق الاسلام يدمج فى العالم البربرى وفى مساواة تامة ، رجالا يأتون من بلدان أوروبية مختلفة ٠ فقد كانت تتاح لهم امكانية الاغتناء السريع والارتقاء فى سلم المراتب الاجتماعية ، واحتلال حتى أعلى مناصب المسؤولية فى الحياة السياسية والعسكرية للايالات ٠ ولنذكر فقط على وجه المثال اسماء حسن آغا السردينى الذى حكم الجزائر

لحساب خير الدين بربروس ودافع عنها ضد هجوم الامبراطور « شارل كانت » ، وحسن باشا ، وهو في الاصل من مدينة البندقية الذي حكم الجزائر من عام 1577 حتى عـــام 1580 ، ثم علج علي الشاب الكالابري الاصل الذي غدا باشا طرابلس بعد وفاة «دراغوت» ثم سلطانا للجزائر · لكن الذي يعنينا اكثر في موضوعنا هذا ليس فقط هؤلاء الابطال الافراد ، مهما كان امرهم يبهرنا ، بل العدد الكلي لهؤلاء البربريين الذين هم من أصـــل أوروبي · فلقد كان منهم بالجزائر في سنة 1580 نحو خمسة آلاف ، وكان لبعضهـــم أسرة ، وبلغ عددهم في سنة 1600 ثمانية آلاف زيادة على 1200 امرأة ، وكان عددهـــم في النسبة مماثلا في تونس وطرابلس ·

ان هذه التوجدات الاوروبية المتنوعة لتغني اللوحة ـ هي متنوعة من قبل ـ التي تمثل الائتلاف العرقي والاجتماعي للعالم البربري : فلقد كان في الجزائر في حدود نهايـــة القرن 16 خمسة عشر الف تركي ومشرقي وردوا من مختلف الجهات ، وخمسة وعشرون ألفا من العرب المهاجرين من اسبانيا ، واثنا عشر ألفا من المغاربة العرب والبربر الذيـن أتوا من داخل البلاد ، وستة آلاف من الكراغلة ابناء الاتراك من أمهات جزائرية ، وما بين خمسة أو ستة آلاف يهودي ، وبضعة آلاف من الملونين الافارقة · فقد كانت الجزائـــر لذلك العهد ، وظلت كذلك طويلا ، المدينة الاكثر ايواء لمختلف الاجناس في العـــالم · وليس من السهل ان يصف المرء باختصار حيوية وتنوع الحياة في المدن البربرية لكـــن يمكن بمنتهى السهولة أن نتخيل ـ واملنا أن تكشف عن ذلك ابحاث مقبلة ـ مدى نشاط المبادلات وشدة التأثيرات وعمق الاندماجات في هذه البوتقة مـــن السكـــان المختلفي الثقافات هذه البوتقة التي يمثلها العالم البربري · وينبغي بالخصوص ان نعجب من هذه الحياة المشتركة المنظمة والسلمية بجماعات عرقية واجتماعية مختلفة فيما بينها وقليلة التجانس داخل هذه المدن · ان هذا الانجاز للعالم البربري العالم الذي ظل طويلا موضع احتقار واتهامات حادة ، ليستحق ان يلاحظ وأن يقدر حق قدره في مجموع التاريـخ المتوسطي ، والتاريخ العالمي على السواء · فمن العالم البربري ـ ومن العدل في نظري ابراز ذلك ـ نشأت فيما بيننا نحن المغاربة والاوروبيين صلة ليست فقط من نسيـــج الاحداث التاريخية ، بل وهي كذلك وبصورة اكثر محسوسة ـ رابطة من الدم · وكما

قلنا ، فان عهد الثورة الفرنسية والحروب التى خاضها نابوليون سجل زيادة ملحوظـة لنشاط القراصنة البربريين ، وبعد سقوط نابوليون ، بمناسبة المفاوضات الديبلوماسية الرامية الى منح أوروبا استقرارا سياسيا ، وضعت المسالة البربرية بجدول الاعمال فى التوصية التى اقرتها بحزم كل الدول بهدف وضع حد لكل نشاط قرصنى فى البحـر الابيض المتوسط ، وتحت التهديد بالقوة ، ابلغت وفرضت على الحكومات البربريـة القرارات التى شاركت فى اتخاذها الدول الاوروبية • والواقع انه حصل فى السنوات التالية بعض حلقات القرصنة لكن نشاط السباقين أخذ فى الانتهاء شيئا فشيئا •

وفى الجزائر حصل فى عام 1830 مع بداية الاحتلال الفرنسى انتقال فورى من العهد البربرى الى العهد الاستعمارى • وعلى العكس من ذلك ، فقد شهدت بقية بلاد المغـرب قبل عهد الاستعمار ، فترة تاريخية أخرى دامت نصف قرن بالنسبة الى تونس ، وثمانين عاما تقريبا بالنسبة الى المغرب الاقصى وليبيا • فبخصوص ليبيا يجب القاء الضوء على النقطة التى ـ حسب تاكيدها السابق ـ نعتبر فيها الاحتلال الايطالى بمثابـة عهـد استعمارى ، حتى ولو كانت عودة حكومة الاتراك المباشرة فى عام 1835 تشكل ـ يقينا ـ نوعا من التدخل والحكم الاجنبى •

ان الفترة التى تبدأ من نهاية العهد البربرى الى بداية الهيمنة الاستعمارية لتسجل تطورا سياسيا واجتماعيا ملحوظا لبلدان المغرب هذه ، وفى نطاق هذا التطور ، يتغـير أيضا ، بالنسبة الى الماضى ، وزن وتشكيل ، ومركز الجاليات الاوروبية التى قد تاخـذ فى وقت من الاوقات طابع « الاقلية » الحقيقى • فعدد الاوروبيين يرتفع فى الواقع ، ويكون مظاهر جديدة لا يمكن الحكم عليها من بعض الجوانب ، ولنبادر الى القول ، بانه يكون عاملا ايجابيا للحياة المحلية •

وعلى اثر مبادرات التحديث والتقدم التقنى والاقتصادى ، التى اتخذتها الحكومات المحلية ، خصوصا فى تونس من قبل الباى أحمد ، وظف العديد من الاوروبيين لخدمـة الادارة المحلية أو مباشرة لخدمة القصر • وهؤلاء كانوا اطباء واطارات وموظفين من مختلف اختصاصات الادارة العمومية ، ومن المدربين العسكريين • ونذكر على وجه المثال واحدا منهم ، وليسمح لى باختياره من بين الايطاليين ، وهو « لويجى كاليغاريس » الذى نـزل

بتونس فى عام 1833 بعد ان خدم لعدة سنوات الجيش العثمانى كمستشار عسكرى • وقد اضطلع مهمة تدريب القوات المسلحة التونسية ، وشرع فى تسطير برامج تمهيد لتاسيس جيش تونسى نظامى • وباقتراح من « كاليفاريس » هذا ، ظهرت عام 1838 المدرسة البوليتيقنية التى تولى ادارتها واجتهد وثابر للحفاظ عليها ، وهناك ايطاليون آخرون اسهموا فى خدمة تونس كمدربين فى المدرسة البوليتيقية أو فى جيش الباى •

ومن بين الذين اسهموا مباشرة فى الحياة السياسية الادارية المحلية نذكر ، وعلى وجه المثال دائما ، « جيوسيبى ماريارافو » وهذا الاخير المولود بتونس من ابوين يرجعان بالاصل الى « ليغورا » استطاع بفضل مبادرات ذكية فى قطاع صيد المرجان والتون ، ان يكسب ثروة هائلة ، ثم أصبح مستشارا ذا نفوذ فى قصر باردو ، وانتهى باستلام منصب « وزير خارجية » الباى المنصب الذى تولاه لمدة عشرين عاما فى حدود نصف القرن الاخير والذى اضطلع به بولاء ووفاء مطلقين للبلد الذى شهد فيه النور والذى يعتبره وطنا له •

وهاجر أوروبيون آخرون الى بلاد المغرب لممارسة مهنة حرة ، أو للقيام بنشاطات أو اقامة مؤسسات تجارية أو صناعية مختلفة • وكان لبعضهم مبادرات ثقافية : مثل فتح مدارس حرة ، والقيام بناشاطات تتعلق بالنشر والطباعة • وغير ذلك ••• لقد كانت بلدان المغرب تشكل فى القرن 19 أرضا مضيافة ، وملجأ آمنا لكثير من المغتربين السياسيين المجبرين على مغادرة أوروبا ، وهم بالخصوص من الايطاليين الذين يسعون بذلك الى الافلات من الاعتقالات والاضطهادات الناجمة عن فشل العديد من مؤتمرات الثوريين والاحرار والوطنيين • فكثير من الوطنيين الايطاليين قضوا بضع سنوات أو حقبا طويلة من حياتهم حتى مماتهم فى بلدان المغرب • ولدينا اخبار الكثير منهم ممن كانوا انصار « مازينى » أو « غاريبالدى » البطلين الكبرين لحركة « ريزوزجيمانتو » الايطالية ـ الذين التجأوا الى تونس وطرابلس • ومن هاتين المدينتين تابع بعضهم نشاطهم فى الدعوة السياسية • ومن هؤلاء المغتربين من اختار نفس المصير الذى اختاره مارقو العهد البربرى : فقد اعتنقوا الاسلام ، واندمجوا كلية فى وطنهم الجديد ، ومن

ذلك ما حصل بتونس بالنسبة للمناصر السابق « لغاريبالدى » وهو « بييتروماكارو » الذى اضحى العضد الايمن للوزير الاول خير الدين ٠

ان هذا الاندماج من العناصر الاوروبية المتزايد عددهم باستمرار فى الحياة السياسية والادارية لبلدان المغرب ـ حتى وكان معظمهم من أوفى الخدمة للحكومات التى كانـــوا يتبعونها ، لم يكن يخلو من الخطر ، وقد اتاح فى بعض الاحيان فرصا خطيرة للنفـــوذ والتدخل من قبل الحكومات الاوروبية ٠ ثم ان اضرارا وخطـرا أشد وضوحا وأكثــر مباشرة بالنسبة لمصير بلدان المغرب التاريخى ، كانا يتمثلان فى مظهر آخر جديد مـن الوجود الاوروبى الذى ظهر خلال القرن 19 ، وذلك فى تونس أولا ـ كما يبدو لنا ـ ثم فى المغرب الاقصى وفى طرابلس الغرب ٠ وقد أخذت فى الوصول الى بلدان المغـــرب، وخاصة ابتداء من نصف القرن الثانى مجموعات لايفتا عددها فى ازدياد من المهاجرين الباحثين عن العمل ، وهم فى هذه المرة عناصر قليلو الخبرة والتأهل من وجهـة المعرفـة والاعداد ، من الحرفيين البسطاء ، وصغار الباعة ، والعمال والشغالين اليدويين عـــلى العموم ، ومن عمال الاشغال البحرية والصيادين ٠ وكثير منهـــم كانوا مـــن المالطيين والايطاليين ، وكان معظم هؤلاء الاواخر من سكان الجنوب الايطالى ومن الجزر ٠

وهكذا تقفز المجموعات الاوروبية هذه من بضع مئات من الاشخاص الى الف ، الى بضعة آلاف ثم الى عدة آلاف الى ان تبلغ عشرات الآلاف مثل ما حدث فى تونس قبيـــل فرض الحماية ٠ ولدينا بهذا الصدد كثير من المعطيات وبعض الدراسات ، غير انه ما يزال من المتعذر تقديم ارقام يقينية وكاملة ٠

وفى نفس الحقبة ، تغير مظهر الوجود الاوروبى فى اتجاه آخر : ذلك ان روح المبادرة لبعض العناصر فى المجال الاقتصادى ، امتدت فى صورة مبادرات جديدة ملحوظة ٠ فقد شرع مثلا فى استغلال موارد البلد الطبيعية مثل منجم جبل رصاص فى تونس ، وفتحت خطوط للملاحة البحرية مثل الخط الرابط بين تونس ومالطا وطرابلس الذى اقامتـــه شركة ، « روباطينو » ، وفتحت مصانع من مختلف الانواع ، وأقيمت المزارع الكبـرى ونظمت شبكات تجارية ، وهذه المبادرات العديدة والمتضاعفة جلبت عناصر أوروبيـــة

أخرى باحثة عن العمل مما زاد في عدد الجماعة الاوروبية وفى نفس الوقت ، تعمل هذه المبادرات فى بعض الاحيان على تعكير صفو الاقتصاد المحلى ، بل وقد تذهب الى حد الاضرار به مباشرة، بينما تعمد العناصر الاوروبية الى زحزحة اليد العاملة المحلية والحلول محلها ٠

خلال القرن التاسع عشر ، وقد تغيرت مميزاته بالقياس الى الماضى ، لم يعد الوجود الاوروبى يشكل أو على الاقل لا يشكل دائما ـ مثل القرون السابقة ، علامة وعاملا من عوامل النشاط الاقتصادى للمغرب بل قد تحول هذا الوجود شيئا فشيئا الى عامل خطر ٠ فابتداء من السبعينات شرعت الحكومات الاوروبية تأخذ مبادرات لتشجيع زيادة التوغل الاقتصادى ، والوجود الديموغرافى لرعاياها ، فقد دخلت فى منافسات فيما بينها ، وراحت تطالب بمواقع مقصورة عليها ، وباحتكارات ، وبأسبقيات ، ومنذ ذلك العهد اخذت أوروبا تتحفز لتحقيق مراميها الاستعمارية الخاصة فى كامل انحاء العالم وأصبح وجود مصالح اقتصادية أو جاليات هذه الدولة أو تلك بمثابة صكوك للمطالبة بحقوق مضمونة للتوسع ، وغدت مبررات وفرصا للتدخلات الفعلية ، والجاليات الاوروبية من جهتها عمدت كذلك فى بعض الحالات ، وفى بعض الاحيان ، ان بصورة مكشوفة أو سرية الى تحريضات وضغوط لدى حكوماتها طالبة منها التدخل الاستعمارى ٠

وبعد ان بحثنا ـ ولو سطحيا ـ تطور الوجود الاوروبى فى المغرب قبل الاستعمار يجدر بنا ان نحاول استخلاص بعض الاعتبارات الختامية من هذه الحوادث التاريخية ٠ ان وجود عناصر أوروبية فى المغرب لم ينجم عنه أى ضرر بالمنطقة طيلة قرون عديدة بل قد ساعدت على قيام العلاقات مع الخارج ، مسهمة فى ازدهاره ٠ واستمر الامر كذلك طالما أن الاوروبيين اندمجوا كلية فى البلاد مما جعلهم يصبحون جزءا من سكانه ، أو اعتبروا انفسهم اجانب تحدد نشاطاتهم وتحكمها القوانين ، أى تخضع لمصالح الدول التى يعملون فيها ٠

ولكن الوضع تغير كما قلنا حين ازداد الوجود الديموغرافى ، والتغلغل الاقتصادى للاوروبيين ، وحين تدعم ليتجاوز مستوى الافادة للحياة الاقتصادية المحلية ٠

لقد لقننا التاريخ درسه الذى يجب ان نترجمه ونكيفه مع الظروف الراهنة ٠ والحقيقة أن مغرب اليوم من مراكش الى ليبيا قد استخلص العبرة جيدا من التاريخ فى الدفاع عن استقلاله وعن حضارته ٠

الإسلام والمسلمون فى الهند

د ٠ محمد نجاة الله الصديقى
أستاذ الاقتصاد
بجامعة على كره المسلمة ـ الهند

الاسـلام هـو رسالة الله الخالدة الى الناس وعـلى الامة المسلمة يقع عبء توصيل هذه الرسالة بهدف اعادة بناء الانسانية حسب رضا الله تعالى عن طريق الاقناع كما جاء فى محكم التنزيل ٠

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء عـلى الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (البقرة : 132)

« كنتم خير أمة اخرجت للناس تامرون بالمعـروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (آل عمران : 1100)

أعتقد ان هذه الآيات الكريمة تلقى ضوءا على الطريقة المثلى للبحث عـن الاسـلام والمسلمين ليس فى الهند فحسب بل فى أى قطر من الاقطار اذ يتساءل المرء هل الامـة المسلمة تقوم بالدور المنوط بها كما جاء فى القرآن الكريم وان كان الجواب لا ، فلماذا وما هى طريق علاج العيوب حتى يمكنها ان تلعب دورها كاملا من غير نقصان ٠

وفى مقدمة موضوعى هذا ارجو ان اوضح الحقائق الآتية :

1 ـ المسلمون فى الهند والهنود عامة يغلب عليهم الفقر والجهل بتعاليم الاسـلام السمحة ٠

2 ـ علاقة المسلمين فى الهند ببقية السكان غير طبيعية ٠ ولعل الصراع السياسى منذ التجزئة ترك هذه العلاقات غير مرضية ومما زاد الحالة سوء التدهور المستمـر فى العلاقات بين الهند والباكستان ٠

3 ـ ان 89 فى المائة من السكان الهنود بعيدين عن الاسلام ويجهلونه جهلا تامـا ٠ ويغلب سوء الفهم بالاسلام وتعاليمه فى الفئة القليلة التى لها المام به ٠ وليس هنالك بحوث عن الاسلام باللغات الاقليمية فى الهند الا قليل منها ـ على الرغم من ان هنالك خمسة عشر لغة كبرى ـ وذلك لعدم اهتمام العلماء بتلك اللغات ٠ وبعد ان قل استعمال « الاردية » وزاد الاهتمام باللغات الاقليمية انكسرت حلقة الوصل بين الكتاب والمتحدثين من جانب وبقية السكان من جانب آخر ٠ ونتج عن ذلك ان الجيل الجديد من المسلمين قد نشأ وهو يجهل الاسلام ٠

4 ـ ان المسلمين المتعلمين ينقسمون الى قسمين : أغلبية تلقت تعليمها حديثا وأقلية فقيرة على علم باللغة العربية والتعاليم الاسلامية بطريقة تقليدية فى المعاهد الدينيـة ٠ ونجد ان البون شاسع بين هاتين المجموعتين ٠ ويندر ان نجد من يلمون بالفهم الدينى الصحيح والعلم الحديث٠ والتعليم الحديث لا يبالى واحيانا يعادى مفهومنا عن الايمان ٠ اما عن التعليم الدينى وتعليم اللغة العربية فهو لا يواكب تحديات الحياة العصرية وعليه فان الاغلبية الجاهلة تقع تحت نفوذ الاقلية المتعلمة دينيا خصوصا فى المسائل الدينية ٠ لكن هذا التأثير اصبح غير ذى معنى لانه اخفق من ان يستجيب الى تعقد وتغير نظام الحيـاة فى الهند ٠ انه يهتم بالمظهر اكثر من الروح والجوهر ويعنى بالاختلافات الفكرية بـين الطوائف المختلفة ٠ وعليه فان دوره الدينى غير مهم ان لم يكن عكسيا لانه فشـل فى مجابهة الاتجاهات اللادينية التى انبعثت من اليقظة الغربية ٠

5 ـ وعقبة أخرى فى طريق الارشاد والوعظ الدينى هى الاهتمام الاكثر بالتقليد والبعد عن النظرة الموضوعية فى الشؤون الدينية ٠ ان عامة المسلمين فى الهند قد تربوا

على الطاعة العمياء لتعاليم رجال الدين الطائفة التى ينتمون اليها تحت اسم الاســـلام ولعل مبعث ذلك يرجع الى الخوف من الآراء المعارضة فى المجموعة الاسلامية نحو الاوان الاخيرة فى التاريخ الاسلامى عندما لم تكن معرضة للتحديات الايديولوجية وعليـــه فان التغير كان بطيئا • ولكن منذ السبعينيات فان هذا الوضع قد اختلف كليا • لانه حتى فى الهند فان الوعى الذى نتج عن التطلع نحو المعرفة وظهور وسائل الاعلام والتعليـــم الحديث يهدد بزوال ذلك المفهوم التقليدى خاصة وان المدافعين عن الايمان غير مهيئـين لهذه الحالة • وهذا يقودنا للب الموضوع فيما يتعلق بالاسلام والمسلمين ليس فى الهند فحسب بل فى العالم أجمع : الحاجة الملحة لفهم جديد لاصول الحياة الاسلامية على ضوء التوحيد وتوجيه المجموعة الاسلامية نحو رسالتها الخالدة بقوة وعزيمة •

التوحيد يحوى الفكر الانسانى ويحمى كرامة الفرد ويوجهنا نحو التفكير المستقيم والحكم الصحيح الذى يبعد عن الاهواء والعواطف ويدفعنا للايمان باهداف الحياة حسب رضا الله سبحانه وتعالى • ورضا الله يتمثل فى القرآن الكريم وعن طريقة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحدد الحرية التى فى آطارها يتمكن الانسان من ان يدبر أمور نفسه ومجموعته سياسيا واقتصاديا • هذه خصائص الحياة الاسلامية متضمنة الحقائق التى تتعلق بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية • متميزة عن شؤون الفـــرد الشخصية والاسرية • التى يمكن ان تقتبس من التعاليم الربانية بواسطة المجهود الفردى خاصة فى العالم المتغير من آن لآخر ولد فان الاجتهاد اصبح اساس الحياة العصرية الحديثة لاننا لو أخذنا الحياة ككل نجد انها عملية تستدعى من كل فرد فى المجموعة ان يشاركه مشاركة فعالة فيها • ان موضوع الساعة هو التفكير والتعلم من التجارب الانسانيـــة وتفسير تطبيق اوامر الله سبحانه وتعالى • ان السلبية ومحاولة التقليد من الصعوبـة ان تمكن الانسان من ان يعيش حياة اسلامية خالصة فى العصر الحديث •

المفهوم الجديد للاجتهاد يتمثل فى «الدعوة الى الخير» التى تربط بين المجموعة الاسلامية والانسانية جمعاء • ولكيما نستوعب هذا المفهوم فى الحالة الهندية ينبغى ان نعود بذهننا الى تاريخ الاسلام المبكر فى مكة • ان التوحيد هو الموضوع الاساسى الذى نادى به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالاضافة الى تعاليم التوحيد فان سيرة الرسول وخصاله

الحميدة واعمال الصحابة الانسانية أوضحت عالمية الدعوة وشقت الطريق نحو الفتـــح المبـــين ٠

ان كل الناس عيال الله هذا هو الشرط الاساسى الذى يحدد علاقات المسلمين مـع جيرانهم واخوانهم الذين جاءوا من أب واحد وأم واحدة حسب مشيئة الله التى ارادت ان يخدم الانسان الآخرين ٠ وعلى الرغم من العداء الذى واجهه المسلمون الا انهم كانوا يطعمون الجائع ويساعدون الارامل واليتامى وياخذون بيد الضعفاء والمساكين ٠ وعليه فان المساواة والعدالة والتعاون التى ادخلت فى مكة لم تنبثق من التوحيد فحسب بل ازدهرت عن طريقة المعاملة الحسنة التى قام بها المسلمون الاوائل ٠ وكان لذلك اثر كبير وجميـد فى مكة ٠ ان السور المكية عن القرآن الكريم ركزت وأوضحت الفرق بـين المسلمـــين واعدائهم فى هذا المجال ٠ وكثير من الاحاديث والقصص أوضحت تاثر المكيين بســيرة النبى واصحابه ٠ ولعل اصدق مثل لذلك قصة ابن دغنه الذى أخذ سيدنا أبا بكر فى حماه محاولا ان يثنيه عن ترك مكة وقائلا ان شخصية مثل أبى بكر تخدم الناس لها كل الحقوق ان تعيش فى مكة ٠ اننى ارى ان هذا الجانب الانسانى من الحركة الاسلامية مهم جدا فى تحديد الايديولوجية ٠ واعتقد ان الامة الاسلامية اذا ربطت بين التوحيد والاجتهاد كمعلمين بارزين فى الحركة الاسلامية فى تفسيرهم وتطبيقهم للرسالة المحمدية فان هذا سيحدث تقدما ملحوظا حتى بالنسبة للحالة الهندية ٠

ان المعلمين المشار اليهما اعلاه يمكن ان يطبقا فى حالة المسلمين الهنود اليوم للاسباب الآتية ٠ ان عدد سكان الهند يبلغ ستمائة مليونا ومتوسط دخل الفرد 28 دولار امريكى٠ نسبة التعليم 30 فى المائة مع محاولة تحسينها ولقد اعطاهم القادة نظرة الدولة الـتى تتمتع بالحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ٠ بل هنالك نظرة ضيقة للقيم الاخلاقيـــة وعلاقة الانسان باخيه الانسان لا تترفع كثيرا عن صلات الانعام بعضها ببعض ٠ ولا عجب فان ثمار التقدم لـم يجنها الا فئة قليلة وحتى أولئك الذين نالوا قـدرا مـــن الثـروة والتعليم الحديث قد فشلوا من تحقيق المساواة مع المنبوذين بالميلاد ٠ وموضوع الساعة هو أن تتغـير العقول والقلوب ٠ ولا شك أن الهندوسية غـير قادرة عـلى ايجاد البعـث الروحى والاخلاقى الذى يقود لبناء المجتمع الصـالح الذى تسوده الحريـــة والمســاواة

والعدالة الاجتماعية • والاتجاه نحو الغرب لـن يحقق النظام المنشود • واليـوم الهند قد أدركت الفراغ الروحى وانعدام المثـل والاخلاق على مستوى الفرد والجماعة وان الشعـب الهندى يحس بانتشار الفساد فى الدوائـر الحكومية وانشغال القادة بمصالحهم الخاصـة وهنا يأتى الدور الذى يمكن أن تلعبه المجموعة الاسلامية باحياء التراث الاسلامى فى مكة وتوجيه سواد الشعب نحو تحقيق الاهداف السامية • ولانى اعتقد أن المسلمين الهنـود ـ رغم بعض التناقضات ـ يمكنهم أن يلعبوا دورهم كاملا اذا آمنوا به وأزالوا العوائـق المشار اليها آنفا • ليتهم يشاركون بقلوب مفتوحة فى بناء الامة الهندية الناهضة ليتهم يشتركون فى حوار مفتوح مع مواطنيهم بغرض اشعارهم بالحاجة الملحـة للمثـل الروحية والاخلاقية التى تحقق المجتمع الصالح • وقبل كل ذلك ليتهم يبحثون عن الاخطاء بهدف تصحيحها وتهيئة الفهم للقيام بذلك الدور كاملا من غير نقصان •

وفى البداية ينبغى الاهتمام بالتعليم خاصة فى النواحى الاسلامية لان ذلك ينتـج المسلمـين المفكرين العارفـين بأمور دينهم ودنياهم والقادرين على العمل الجاد المثمر • وهذا بلا شك يفترض ضرورة الاهتمام بالاحوال الاقتصادية والصحية والغذائية الـتى تتعلق بالناس كافة وانه مما يثلـج الصدر أن بعض المؤسسات الاسلامية فى الهند تضع أسبقية لذلك العمل فى برامجها • لقد طال انتظارنا لاعادة النظر فى نظام التعليم الاسلامى فى الهند حتى يواكب احتياجات المجتمع وهذا يعنى الاجتهاد مع بعض التصرف • وهذا يتطلب اتجاه جديد نحو تأليف الكتب الدينية بكل اللغات المحلية فى الهند وتدريـب الموظفـين على التحدث بتلك اللغات حتى يتم توصيل التعاليم الاسلامية لعامة الشعـب •

ويمكننا أن نشير الى بعض العقبات التى تتعرض الاسلام فى الهند والظلم الذى يقع على المسلمـين ونذكر على سبيل المثال لا الحصر حوادث العدوان ضد المسلمـين التى قتلت كثيرين من الابرياء وأزمة اللغة الاردية ومشكلة الجامعة الاسلامية • بعلى كره ـ والمحاولات التى تهدف لازالة قانون الاحوال الشخصية الاسلامية ـ ولكننى أعتقـد ان هذه المشاكل يمكن أن تحل بمزيد من الوعى والمشاركة الفعالة فى بناء الوطن والايمان بالاهـداف القومية مع ضرورة الاهتمام بالدور الذى يمكن أن تلعبه الامة كمـا ذكرنا سابقـا • ان

المواجهة ليست من مصلحة المسلمين ولا القطر عامة لانها تزيل الحوار المطلوب والاتصال المباشر الذى قد يقنع الهندوس بتقدير الاسلام واحترامه ·

ان رسالة الله الخالدة ستجد استجابة فى قلب كل انسان وعليه فاننى لا أرى مبررا لعزل غير المسلمين فى الهند · خصوصا اذا علمنا انه لم يكن مجهود مركز لادخالهم فى الاسلام فى الماضى القريب · أضف الى ذلك ان الاسلام يكسب باستمرار أراضى جديدة كلما ازداد الوعى والادراك بمحدودية العقل البشرى واخفاقاته · ويسرنى أن أوضح ان المجهود المتواضع الذى تقوم به « الجماعة الاسلامية فى الهند والمؤسسات الاخرى قد حققت نتائج مشجعة فى التبشير بالاسلام وتعاليمه ويبدو أن هذا الاتجاه مثمر أكثر من المجابهة التى تتعرض لها شبه القارة الهندية من آن لآخر · ولعل أفضل النتائج هى شعور الثقة والشجاعة بين المسلمين الهنود وايمانهم بالاتجاه للبشر بالرسالة الربانية التى ستحقق الخير للانسانية جمعاء ·

ملحقه :

ان العالم الاسلامى له كل الحقوق للاهتمام باحوال المسلمين الهنود بل هو واجب حتمى يقضى بمعرفة تطلعاتهم وآمالهم فى المجالات الآتية :

(1) بحث الخطوات المناسبة للالمام بمشاكل المسلمين الهنود خاصة فيما يتعلق بأمور الدين والنشاطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية · ان الحالة الراهنة فيما يتعلق بالموضوعات المذكورة أعلاه غير مرضية بأى حال من الاحوال · ان كل المعلومات تجمعها السفارات المختلفة من الصحف الانجليزية فى حين أن الحقائق المجردة توجد فى الصحافة الاردية أو المطبوعات الاسلامية بمختلف اللغات المحلية · ومعظم مؤلفات المفكرين الاسلاميين فى الهند مكتوبة باللغة الاردية وعليه أصبح من الضرورى خلق وكالات مختلفة بواسطة المفكرين فى العالم العربى الاسلامى لتقوم بترجمة هذه المؤلفات حتى تلم الشعوب الناطقة باللغة العربية بالتطورات الاسلامية فى الهند · ومن الجانب الآخر ينبغى أن تقوم مؤسسات مماثلة بترجمة المؤلفات العربية للغات المسلمين الهنود المحلية مثل المليالم وبنغله وتامل والكجراتى والهندى حتى يتعرف المسلمون بالمؤلفات الاسلامية الحديثة فى العالم العربى ·

(2) ويجب دعوة المسلمين الهنود للمؤتمرات العالمية لحثهم للاشتراك فى الموضوعات الاسلامية المتنوعة والنشاطات الدينية والندوات الاكاديمية · لان هذا سيوطد العلاقات

الاخوية بينهم وبين أشقائهم فى العالم العربى مما يعود بالنفع والخير للجميع ٠ ينبغى تنظيم زيارات دائمة يقوم بها المفكرون الاسلاميون للهند من الخارج للآثار الحميدة والفوائد الجمة المترتبة على تلك الزيارات ٠

(3) أرى انه من الاهمية بمكان النظر للهند باعتبار انها تظم سبعين مليونا من المسلمين لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات على الرغم من الفرق الواضح بين النظرية والتطبيق ٠ وعليه ينبغى توطيد العلاقات بين الدول العربية وهذا القطر لان به مجموعة كبيرة من المسلمين ولا شك أن التعاون الاقتصادى مرغوب فيه بين الهند والاقطار الاسلامية النامية ٠ لان المواجهة بين الدول الاسلامية والغرب أصبح حتميا فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وهنالك أمل كبير لكسب الهند لجانب الدول الاسلامية متى ما توفر الفهم المتبادل للامور المتعلقة بينهما ٠

يجب أن نقر بنظرة التشكك من جانب الهند للعطف الذى يحضى به المسلمون الهنود من الاقطار الاسلامية وذلك لتشككها من تلك الاقطار وسياستها المؤيدة لباكستان مما جعل الهند تعتبر أن اهتمامهم بالمسلمين الهنود ما هو الا وسيلة لتحقيق تلك السياسة المعادية للهند ٠ ـ ولحسن الحظ ان الامور بدأت تسير بطريقة حسنة لازالة تلك الحساسيات ـ وعندما يزول سوء الفهم بين الهند والاقطار الاسلامية فان المناخ سيكون صالحا لمزيد من التعاون الذى يعود بالنفع للهند عامة والهنود المسلمين خاصة ولا شك أن التجارة مزدهرة بين الدول الاسلامية والهند والخطوة الثانية هى أن يزداد التبادل الثقافى والمنح الدراسية حتى يتمكن الهنود من تعلم اللغة العربية وتلقى الدراسات الاسلامية ويتم توزيع المؤلفات الاسلامية المناسبة ٠

وحسب ما أوضحت أعلاه فان أهم حلقة فى الاخذ بيد الهنود المسلمين وبعث الاسلام هى ايجاد الامكانيات التعليمية الصحيحة وعليه يجب على المساعدات الخارجية أن تركز على هذه النقطة التى تتعلق بالتعليم والتربية الدينية ٠ اننى واثق كل الثقة انه متى تم ايجاد معادلة صحيحة بين الاقطار الاسلامية والهند مبنية على المصالح المشتركة فان الدور الذى يمكن أن يلعبه المسلمون فى الهند سيكون كبيرا وفعالا فى ازدهار الاسلام فى ذلك الجزء من العالم ، ولا شك ان النتائج التاريخية ستكون بعيدة المدى ٠

دور المفكر اليوم وعلى مر العصور



د . صـــلاح الصـــاوى
استـاذ الادب العـربى بكليـة الآداب
جامعـــة طهـران ـ ايـران

بسم الله الرحمن الرحيم

« افغير الله ابتغى حكما ، وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وان تطع اكثر من فى الارض ، يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن ، وان هم الا يخرصون» (×).

افتتاحيـــة :

الدليل دليل على نقص ، فهو لمن يعوزه الدليل ، أما العظماء فقد شاهـدوا عظمـة المطلق ، فلم يتقيدوا . وكل من تقيد آل الى محدود وانتهى عند جزئى .

+) الأنعام : 6 ، ى : 114 ـ 116 .

ومشكلة الانسانية اليوم كما هى منذ فجر الوجود ، مشكلة النفس الانسانيـــة · فالانسان أنى وانى كان يحاول جاهدا أن يقطع الصلة بينه وبين مبدئه ، تسول له نفسه أن يستقل فيكون الها ، وتكون الحياة الزائلة خلودا · وثمة كان القلب فى الاوضـــاع والتنكر للقيم · وتفاقم ذلك حتى صارت الارض حلية بحيل الشيطان :

فالسلاح للعدوان لا للامان ، والاقتصاد للامتصاص لا لتوفير مقومات الحياة ، والتعليم للتضليل واستهلاك الطاقات الفكرية ، والفكر سمسار لكل بدعة ، والروحانية جلـــد الثعالب ، والاخلاق دموع التماسيح ، والفن مومس لكل فاجر ، والشرف أرخص مـــن لقمة ذليلة ، والحرية عنوان سجن ، والمقاليد جسور وانفاق اغراض ، والمنزل ميدان حرب شعواء ، والاسرة منتدى للنفاق ، والدين لعق على الشفاه كذب ورياء والرياء والكذب دين ، والانسان يحسد النمال على سعادتها ميت يتشبث بالحياة فى طرف كفن ، هذا الامن رحم ربى وكان يمشى سويا على صراط مستقيم · وليس هناك مـــن مظاهـــر الانحطاط والوحشية وتحكم الغرائز البهيمية واستلائها على عناصر الخير فى الانسان الا هذا الوحش الاستعمارى أو الاحتكارى الذى يخفى مخالبه المدماة فى أكمامه الحريرية وأنيابه النتنة خلف ابتسامته الصفراء الجشعة وما أثخن فى جسم الارض من الجراح وما اراق من دم الانسانية وأهدر من دموع ونواح وما طرد الناس من ديارهم وسلب حقوقهم ومقدراتهم لقد تلاشى جانب الجمال والرحمة من الانسان وانحاز نهائيا الى جانب القهارية والجبروت جانب المظهر وما اسفر عنه من عصيان « الا عبادك منهم المخلصين » فكان عليه ان يدفـــع الثمن ، ثمن خطيئة الدماء ، عبادة النفس والمادة ، فالدم يظمأ للدم ، والسلام المزعـــوم مصحف قرآن على طرف رمح فى صفين ·

فلا عجب اذا وقد كشف العلم بدوره عن جبروته وقهاريته فى أن تواجه الانسانية اليوم أخطر ما مرت به من مراحل ، حيث يتهددها الخطر من داخل الانسان ، من نفسه الـــتى استعبدته وكادت تخنقه ، ومن خارجه ، من الطبيعة التى اعتدى على قداستها وأمنهـــا وكادت تطرده · وليس للنفس من شكيمة تردعها الا العقل ، يعود بالانسان الى جـــادة الصواب والحكمة ، أوينزاح الستار بين جبروته النسبى والجبروت المطلق ، حتى يـــؤمن بعبودية القهر ما دام قد مرق من العبودية الحرة عبودية الحب والخير والجمال ·

مـع المـوضـوع

عندما استقر رأيي على اختيار هذا الموضوع « دور المفكر ٠٠٠ » من بين ما طرحه الملتقى من موضوعات كلها ذات حساسية وطرافة ، لم أملك الا أن استبد بفكري ذلك التشبيه المعروف لافلاطون في جمهوريته « تشبيه الكهف أو المغارة » ٠ وعبثا حاولت الانصراف عنه فلا جديد فيه على حضرات السامعين من حيث العلم بمغزاه وبقيمته الفكرية٠ الا أن الراحة العقلية التي أحدثها تكامل وجه الشبه بينه وبين موضوعنا وانطباقه عليه من حيث شموله لتصوير المفكر وموضوعه وواجبه في حدود هذا الموضوع ، كانت الجديد في نظري الذي يستدعيهم للنظر اليه من هذه الزاوية ولو بمجرد السماع :

لقد شبه افلاطون أولئك الذين تعوزهم الفلسفة « بالمسجونين في كهف بحيث لا يستطيعون النظر الا في اتجاه واحد ، لانهم موثقون ، وقد اشتعلت وراءهم نار ، وقام قبالتهم جدار ، وليس ثمة ما يحول بينهم وبين الجدار ، فكل ما يرونه عليه هو ظلالهم هم وظلال الاشياء الكائنة وراءهم ، التي تلقيها النار بضوئها على الجدار ، فلا مناص لهم اذن من أن يعدوا هذه الظلال كائنات حقيقية دون أن تكون لديهم فكرة ما عن الحقائق التي القت امامهم هذه الظلال ٠ وأخيرا استطاع أحدهم أن يفر من الكهف الى حيث ضوء الشمس فيرى الاشياء الحقيقية لاول مرة ويدرك أنه كان حتى الساعة مخدوعا بظلال » ٠ ثم قال افلاطون : « فلو أن ذلك الرجل كان من قبيل الفيلسوف الذي يصلح أن يكون حارسا ، فسيشعر أن من واجبه ازاء أولئك الذين كانوا من قبل زملاء في السجن أن يهبط اليهم من جديد في سجنهم ويعلمهم كنه الحقيقة ويهديهم الى الطريق الذي يصعد بهم اليها ٠ ولكنه سيجد اقناعهم عسيرا لانه بسبب انتقاله من حيث تسطع الشمس ، سيرى الظلال أقل وضوحا مما يرونها هم ، ولذا فسيبدو لهم أغبى ادراكا مما كان قبل فراره من الكهف » ٠ (1)

ولا اخالنا مضيفين الا أن مغارة افلاطون هي النفس الانسانية في يومنا الحاضر ٠ واذا كان هو قد جرد من ذلك الفكر حاكما لجمهوريته ، فما احوجنا اليوم الى المفكر الذي يحكم جمهورية النفس التي اعتمت واكتنفها الظلام من كل جانب وتحجرت على الاوهام ٠ لقد سيطرت النفس تماما على الانسان وشلت ملكاته الفاضلة وتحاول الآن أن تخضع كل شيء

حتى الحقيقة الكلية لمعاييرها ، ولاضياع للعقل والحقيقة بعد ذلك • الا أن مهمة هذا المفكر ستكون بالغة الصعوبة وسيشق عليه تحرير الانسان من نفسه وأغلالها لانه سيناشد عقله وعقله مقهور نفسه ولن يستطيع بالفكر وحده أنّ يبطل ما تغرى به النفس من لذة أد من عليها الانسان ، فهو وهو المتنور لا يرى فى هذه اللذة ما يراه حبيس الظلام • ولهذا سيكون أغبى ادراكا ، ما لم يهدم جدار المغارة ويبدد ما ران عليها من ظلمات حتى تقتحمها الشمس وتمحو الظلال والاوهام • الامر الذى يطالبنا برسم حدود شخصية هذا المفكر وامكانياته اللازمة •

نعم ما كان أغنانا عن تناول هذا الاصطلاح « الفكر » بالبحث أو حتى بالاشارة الى مدلوله، لولا الواقع الملموس فيما نراه من تعقد المشكلة ومن أن أغلب المفكرين فى الفترة الاخيرة ، قد أصبحوا عللا مزمنة فى ابدان مجتمعاتهم ، لا تلبث أن تولد أوبئة تتغشى فتصيب الانسانية التى أصبحت بدورها من الضعف والهزال بحيث لا تجد المناعة الشخصية ضد أى وباء يطرأ عليها • الا أننا لا زلنا نرى أنه لا بأس من أن ننطلق انطلاقة أخرى تقرب الينا حقيقة المفكر حتى نتبين الفارق بين ما هو عليه اليوم وما كان عليه بالامس والامس الاول ، أو بعبارة أخرى ما كان عليه وما صار اليه •

فدونك مثلا الديانة الهندوكية • فهى تقسم أهداف الحياة الى أربعة ، تحت نوعين من الحكمة :

الهدف الاول ، آرتها Artha : وتعنى التملك المادى للشىء أو العين أو الجوهر ، بمعنى حيازة ما يملكه الانسان من الاشياء الملموسة ، والاقتصاد والصناعة والسياسة فى خدمة هذا الهدف والمحافظة على بقائه واستمراريته •

والهدف الثانى ، كاما Kama وتعنى اللذة والعشق بالمعنى الاصلى لا بالمفهوم الشهوانى الغربى اليوم •

والهدف الثالث ، دهارما Dharma : وهى مجموعة الوظائف الدينية والاخلاقية • وهناك فى كتاب الشرائع المعروف باسم : Dharma Sastras توجد جميع الشعائر الدينية والاسس الاجتماعية للطبقات ، حيث تقسم الطبقات ، وحيث يعتبر الحكيم المفكر درجة أعلى من السلطان ومن صاحب الثورة •

وهذه الاهداف الثلاثة التى يطلق عليها Trivargo والتى ترتبط بالحكمة العملية فى الاعمال الدنيوية ضرورة لكل فرد • الا أن المفكر دون الجميع عليه أن يتزود علاوة عليها بالهدف الرابع المرتبط بالحكمة النظرية ، وهو :

موكشــا Moksa : وتعنى النجاة أو الخلاص ، وهو الهدف الغائى للحياة • ومـن هنا أطلق على المفكر اسم Paramarcha Vid أى العارف أو العالم بالهدف العالى • (2)

وهكذا نرى أن المفكر منذ فجر المجتمعات يمثل فى هذه الديانة المبكرة همزة الوصل بين الكون والحقيقة أو بين المظهر المبدأ •

هذا ، على حين نرى أن المفكر الاسلامى قد ارتفع الى درجة النبوة بالذات ، بغض النظر عما ذهب اليه امثال ابن تيمية من تفضيل المفكر أو الفيلسوف الكامل على النبى ، والفكر على الدين (3) فهذا ابن رشد مثلا يقول : « يقوم دين الفيلسوف عـــلى دراسة ما هو كائن ، وذلك لان أرفع عبادة يمكن أن يعبد الله بها تقوم على معرفة ما صنـــع ، لما يؤدى اليه هذا من معرفتنا اياه على حقيقته كلها ، وهذا هو اصلح الاعمال عند الله • وذلك مع كون أخس الاعمال هو أن ينسب إلى الضلال والزهو الباطل من يرد الى هـذه العبادة التى هى اكرم العبادات ، ومن يعبده بهذا الدين هو خير الاديان » • (4)

وفسر موسى بن ميمون قول استاذه هذا بقوله :

« والعلم هو العبادة الحقيقية الواجبة نحو الله • أجل يمكن أن تبدأ رؤية اللـه فى هذه الدنيا ، ولكن الحصول على العلم ليس سهلا للجميع ، فالله أقام النبوة مقام العلـم من أجل البسطاء • والنبوة حال طبيعية أكمل من حال العامى ينتهى اليها بعض الاخيار• ولا يختلف الوحى النبوى من حيث الاساس عن افاضة العقل الفعال ، وان شئت فقـل دوام وحى العقل » • (5)

وليس من هدفنا هنا أن نتعرض لمدى فهم هذا القبيل من المفكرين فى مسالة النبوة ، وانما القصد هو بيان مقام المفكر ، وأنه لدى فريق من المتفكرين الاسلاميين هو والنبى ســواء •

أما شيخ الاستشراق السهروردى ، فيرتفع بالمفكر الى درجة التاله ، « فهو يقسم الراغبين فى العلم أربع طبقات ··· الرابعة منها طبقة من استكملوا مرحلة الفلسفة الاستدلالية ثم ادركوا مرحلة الاشراق والعرفان ، وهو يدرج فى هذه الطبقة التى يطلق على افرادها لقب « حكيم متأله » (بمعنى من ارتبط بمبدأ الوحى) فيثاغدرس وافلاطون، كما يدرج نفسه شخصيا تحتها فى العالم الاسلامى · هذه الصفة التى أصبحت لقبا لسلسلة من الحكماء منذ ذلك الحين ، حتى اطلق على الحكيم الصفوى العظيم فى القرن العاشر « ملا صدرا » لقب صدرا المتالهين » · (6)

وهكذا لا زال المفكر فى الاسلام منذ البداية حتى الآن كما عرفه الجرجانى بانه هو : من تشبه بالاله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الابدية كما أمر الصادق (ص) فى قوله : « تخلقوا بأخلاق الله » أى تشبهوا به فى الاحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات · (7)

وعليه نشاهد ان المفكر لدى افلاطون هو الحاكم ، ولدى الهندوكية أعلى من الحاكم ورب المال درجة ، ولدى المتفكرين الاسلاميين نبى أو أعلى درجة ثم هو أخيرا متاله · ولا اخال درجة بعد هذا ، والا ، لارتفع مقامه اليها ·

فاذا ما عدنا الى ماثورنا ومنقولنا ، لشاهدنا أن الاسلام يضع المفكر مكانة أسمى من الشهيد : « وزن حبر العلماء بدم الشهداء فرجح حبر العلماء » ، ومن العابد : « تفكر ساعة خلو من عبادة ستين سنة » ـ ، ولتجلى لنا شرف مقامه وعظم مسؤوليته : « ان أول ما خلق الله العقل » ـ ، و « ما قسم الله بين عباده شيئا أفضل من العقل » ـ ، و « الرسول عقل من الخارج والعقل رسول من الداخل » ـ · ثم ان القرآن الكريم ما نزل الا لقوم يعقلون ، يتفكرون ، الا لاولى الابصار أولى الالباب أولى النهى : (سبح لله ما فى السموات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ، فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الابصار) · (الحشر : 59 ، ى : 1 ـ 2) و (ان فى

+) احاديث نبوية .

خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض : ربنا ما خلقت هـــذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) (آل عمران : 3 ى : 190 ، 192) و : (قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الاولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى ، كلـــوا وارعـــوا انعامكم ، ان فى ذلك لآيات لاولى النهى ، منها خلقانكم وفيها نعيدكم ومنهم نخرجكم تارة أخرى) (طه : 20 ى : 39 ـ 55) ٠

فالكتاب الكريـم ـ عقـــل الوجود وموضوع تعقله ـ بما يتضمن من وجهات النظر المختلفة كونية أو انسانية طبيعية أو ما ورائية وما يشير اليه من الآيات الانقسيــــة والآفاقية يقدم نظاما عقليا كاملا للمفكر الحق ، بل انه بذلك ليناشد المفكر اذ يقدم لـــه الموضوع الاول موضوع الوجود وما وراء الوجود بهذه الصورة الاستدلالية العقلية مـرة والتجريبية الحسية أخرى أن يرتفع بفكره الى أعلى مستويات الحقيقة المكية الكامنة وراء المظاهر الناطقة بلغة المظاهر ٠ ومن هنا كان المفكر هو المخاطب الاول للسماء والقرآن هو الموضوع الاول بين المفكر والسماء فهل بقى بعد هذا شرف يطمح فيه المفكر ٠

ولعل الفرصة قد حانت لنسأل عن المفكر فى يومنا هذا ، من يكون من ذا الذى يمكننا على معيار ما قدمنا أن نعتبره مفكرا فى هذا العصر الحاضر الذى التاثت فيه العقول وانحصر الفكر فيما دون الحجاب الحاجز للانسان ٠ فمن العسير أن أحدد دور المفكر اليوم مالـــم اتعرف حدوده ٠

ان أمامنا منذ القرن الرابع عشر الميلادى حتى اليوم فى أوروبا هذا الكتالوج الضخم من المفكرين وعقائدهم المختلفة ، التى كانت تصدر الى بلادنا تحت ابط الاستعمار حتى انتهى شبحه وانقطع دابره أخذت تجدد من الاساليب التنكرية فى الادب والفن والازيـاء وتبنى الاشياع واصطياد الاتباع ما يكفل لها التسلل الى مجتمعنا والتفريخ خاصة فى روح

+ +) استعمال مجازى معنى انه اذا اكتمل فى عقل كمل وانه يطالب المسلم بتعقله اولا .

شبابنا واجيالنا الصاعدة التى تجتاز فترة رومانيسه نتيجة لما لقيناه من الاستعمار الذى شغلنا عن العناية بها وتثقيفها حسب مبادئنا ومثلنا ومعاييرنا الثقافية والدينية والحضارية، وهذا يعنى اننا قد جربنا بالفعل كل ما صدر الينا من انتاج الفكر الحديث فى أوروبا ، بل لا زالت هذه الانماط الفكرية تؤثر فى مجتمعاتنا نسبيا ولا زالت تجد فريستها من كل من يجهل قيمته الحقيقية او من هان على نفسه مفرط فيها ، على حين أنها قد ماتت فى مهدها الاول منذ تجربتها الاولى ، ولم تقم لها مجتمعاتها وزنا أو تعترف بها رغم أنها ولدت فيها ، ولا اتصور التمسك بهذه الافكار والعقائد الا حمقا ما بعده حمق فالمثل يقول : من جر بالمجرب حلت به الندامة ، فهل يمكننا أن نعتبر داروينيا أو فرويديا أو يونجيا أو ماركسيا مثلا مفكر الساعة والمستقبل الذى سيحل مشكلات أمته والانسانية كلها ؟ اذن ولماذا لم تحل ؟ ولماذا زادت بلة الطين ؟

الواقع ونفس الامر ان التجربة الاوروبية برمتها فاشلة مضطربة اضطراب الاثم ، فعلى حين نلاحظ أن الارسطية لا زالت تهيمن وبطريق غير مباشر على الفكر الاوروبى حتى على من أراد القضاء عليها وبناء فلسفة جديدة ، نرى أن الفكر الحديث أشبه ما يكون فى تقلباته ونوباته بمصاب الحمى المتقطعة قد تغلب عليه التطور الفجائى • وأن التشعب الذى منى به هذا الفكر منذ عصر النهضة الاوروبية قد اتاح الفرص لكل من يوسع على دور النشر حتى يصبح صاحب نظرية أو مذهب فى عصر الصواريخ التقريحية لذتها فى زوالها وانتظار غيرها يتصف بكل شىء الا العقل ويرتبط بكل شىء الا الحقيقة الثابتة ويعنون بكل شىء الا الانسانية وان اطلق عليه المذهب البشرى مثلا • لقد صفق الغربيون كثيرا لهذه الصواريخ ولكن الظلام هو الذى بقى ، فليس هناك أسوأ حالا مما وصل اليه المجتمع الغربى من تفكك وضياع وانهيار فى المبادىء الاخلاقية والاسس الاجتماعية والقيم الانسانية ، ولم يعد يملك الا الركوع على صعيد الحقيقة والتنازل عن كبريائه وغطرسته التقليدية وقضمته صور الاعتراف والعجز مما يعرف الآن من مشاهد الاستهتار واللاابالية والاباحية بل وجنايات الضمائر الميتة • من ذلك الذى كان يتصور أوروبيا يفرط فى انقته ويخرج من احدى العواصم الى النيبال فى صورة « هى بى » ووجهه يقسم بالتمرد والقذارة أن لا وجود للصابون فى حياته ؟ أو أن الاسرة الواحدة تيتم وترمل احياء

على جانب خط برلين الفاصل بين المانيا ، وألمانيا ؟ أو ان يطفىء ذاك الرصاص فى قلوب الاطفال والامهات ويغتصب الاراضى والمقدرات ؟ سكرة عمياء مزاجها الحزف والتشبث بالعيش مكنت للشر من أن يشوه الحياة · الامر الذى حرك عقلاء الغرب الى استنكار جناية الفكر الحديث والبحث عن خلاص من هذه الوخامة والدمامة الروحية ·

أما دارسوا الفكر الغربى فهم فى حيرة أمام هذه الظواهر والتقلبات فكل هذه الافكار والنظريات ليس الا مظاهر للصفاة الشيطانية وسيطرتها على الفكر ويا ليتها كانت على شىء من أصالة الفكر الشيطانى فلا زال الشيطان أول مخلوق فكر أو بتعبير اصح أول مخلوق قاس ، وشتان بين القط والنمر ·

وشهد شاهد من اهلها هو ول ديورانت الامريكى قال :

« والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج هو أن ترتفع عن النظر الى الشوارد والاجزاء حتى نتأمل الكل ··· وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطيرة لاننا اغنياء فى الآلات فى الاغـراض » ·

والفلسفة على هذا النحو الذى دونت به خلال المائة عام الاخيرة قد تكون جديرة بهذه الاستهانة وهذا الاغفال · ولقد انصرف ذلك العقل الذى كان يمكن ان يصنع الملـــوك والفلاسفة الى تعميق البحث فى تحليل الادلة التى تؤيد أو تنفى امكان وجود النجـــوم والمحيطات والبكتيريا ، والحيرة فى عدم ادراكها ، وقد استمرت هذه المعركة التى تشبه المعركة بين الضفادع والفئران ـ مائتين وخمسين عاما دون أن تخرج بثمرة لها قيمتها فى الفلسفة أو فى الحياة ، وبفائدة لاى شخص اللهم الا فائدة طابع الكتب · كما قال : « ألنا أن تقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها ؟ وان الفلاسفـة جميعا خاضعون لثورة جنون قتل الاخوة ، فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كـل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة » · (1)

ونعود لنقول ، الواقع أنه لا حديث فى الفلسفة الحديثة الا عناصر المروق ومحاولات النسيان التى وجدت من فساد الزمان والاوضاع وتلاشى الحدود فرصة تسمح لهـا بأن تهتك ثوب الحياء وتخرق اسباب المروءة : مروق الانسان من الخير الالهى ونسيان الجانب

المتعالى الوجود ، ومروقه من الخير الانساني ونسيانه لامانة الانسان والقيم الانسانية ٠
لقد خشى أحدهم على الفلسفة يوما من أن تصبح خادمة للالهيات Aneïlla théasla أو بغيا يقضى منها علماء اللاهوت وطرهم Meretrix théologorum فكيف به اذن وقد تحولت الى ما هو اسوأ وغدت بغيا للسياسة Meretrix Politieorum ان كونها جارية للدين لا يعيبها فالدين بجانبه المتيافيزيقى سيحقق لها موضوعها الاصلى ولكن العار الفاضح أن تمتهن وتسلب حريتها لتصبح بغيا لعنصرية من العنصريات مهما كانت أو للتجربيات وواقعية منحطة أو للصناعة والوثنية الحديثة أو تصبح أخيرا معلمة للبغاء ٠ (9)

لقد بدأ الفكر الاوروبى ينحت الاصنام منذ قدم ديكارت بفلسفته ، الا أن الوثنية الجاهلية كانت تتخذ الاصنام رمزا يقربها الى الله زلفى فهناك وراء الصنم علة غائية ـ فترة كانت النفس لا تزال قريبة عهد بالمبدأ ولم تكن قد التاثت كما التاث البحر الابيض اليوم بمخلفات المصانع ـ أما الاصنام الحديثة فهى الغاية فى حد ذاتها وليس وراءها أو امامها من شىء وعندما تغرب الفكرة يبرز الصنم ، وعندما قال نيتشه ان « الله قد مات » كان يشير الى فراغ الحياة الفكرية للانسان الاوروبى من المعنى ، والمعنى المطلق والبعد المتعالى والعلة الغائية ٠ وهذا ما يؤكده أيضا محمد اقبال بقوله :

«ان مثالية أوروبا لم تكن مطلقا من العوامل الحية التى تؤثر فى وجودها ، ولهذا أدت الى خلق شخصية ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات تنكر التسامح وكل همها استغلال الفقير لحساب الغنى ٠٠٠ وصدقونى أن أوروبا اليوم تمثل أكبر حجر عثرة فى سبيل الانسان والرقى الاخلاقى ٠ (10)

ولعلنا لو تعمقنا فى البحث عن السبب فيما آل اليه الفكر الاوروبى الحديث نكون قد اقتربنا من تحديد هوية المفكر الذى تحتاجه الانسانية اليوم ، فالسبب كما يبدو لنا راجع الى تصور المسيحية عن الانسان أو على حد الاصطلاح الانثبرويولوجى المسيحى ، فالمسيحية تعتبر الانسان ارادة ، وأن هذه الارادة قد منيت بالخلل والانحراف بسبب الصلة الاولى للهبوط ، واشترطت لزوال هذا الخلل غسل التعميد والايمان بالمسيح (ع) وهناك بعد أن يتلاشى الخلل يستطيع الانسان أن يتعقل ، فالانسان فى نظر المسيحية ارادة أولا أضيف اليها العقل ثانيا ، ومن ثم صرح كبار المفكرين المسيحيين منذ بدء التاريخ

المسيحى بأن على الانسان أن يؤمن أولا ثم يتعقل بعد ذلك ، أو على حد تعبير القديس انسلم . آمن أولا وتعقل ثانيا ، ومن ثم انكر الكلام المسيحى قدرة العقل على ادراك الكليات ، فكف يد العقل بالكلية عن العلم ، كما أوجد صدى فى محاولة القديسين أوجستين وتوماس من بعد للتوفيق بين الايمان والعقل .

وفى هذا الصدد يقول الاستاذ سيد حسين نصر ـ من أتشرف بالنيابة عنه فى هذا المقام والذى حملنى تمنياته الطيبة للملتقى بالتوفيق وتحقيق الاهداف المرجوة وشكره وسلامه للقائمين عليه والحاضرين فيه ـ يقول :

« وكان على العقل أن يثبت وجوده وأن يتحرر من الشك الفلسفى . وهذا ما حققته الرناقس فقد جعلت من الانسان ، وكان نصفه ملاكا ونصفه حيوانا ، وكانت احدى رجليه فى السماء والاخرى فى الارض ، انسانا ارضيا كاملا ، الارض موضوعه والعقل اداته . ومن هنا استقلت قوة استدلالية صرفته داخل البشر ، بها يجد طريقه الى العلم بكل شىء ، ولما كان طريق وصال الحقيقة قد تحدد بالارادة والايمان دون العقل ، فان ضعف الايمان ومحدودية العقل بالاستدلال قد ضيقا وصال الحقيقة المطلقة أو على الاقل قد حدداه ، ثم حدث فى القرن السابع عشر فى اعقاب قرنى الشك نوع جديد من اليقين الفلسفى الى حد ما على يد ديكارت ، الا أن هذا اليقين الفلسفى هو الآخر لم يكن مبنيا على نظر كلى بالنسبة للانسان وانما حدده بالاستدلال أو او بحسب ما قال ديكارت تكون الحقيقة قائمة على أساس تعقل الشخص من نفسه ، يعنى انه جعل « نحن نفكر » أساسا لـ « نحن موجودون » التى تاتى فى الدرجة الثانية بعدها . وعليه فهو فى الواقع قد الغى الوجود بمعنى واقعية كلية ، نعتبر نحن الجماعة ومرتبة منها وجعل الوجود الفردى والبشرى معيارا لمعرفة العالم العينى والواقى الخارجى . والحقيقة انه وان لم يستطع أن يحدث تحولا كليا فى جميع شؤون الفلسفة الا ان قد بدأ طريقا يبدو فى نظرى مثارا للتأسف الشديد فقد افضى الى المنغلق الذى يعانيه الفكر الاوروبى اليوم . (11)

هذا هو السبب وتلك كانت النتيجة ، نخرج منها بأنه لا مفكر بدون حضارة ، ولا حضارة بدون دين ، ولا دين الا ما يدخل الانسان بجميع جوانبه فى نظر الاعتبار .

أما حضارة عصر الحديد فلن تغرنا ، لانها مجدت الحديد وامتهنت الانسان ، فما كانت الا لتجعل من الانسان سيد المخلوقات طعما للآلة ومن المادة تابوتا للروح ومن العقل مسخا وأضحوكة فى التاريخ حتى اصبح الفرد سيد البشرية وصاحب الفضل عليها فى الوجود ، ولن نخطىء التقدير بل سنضع كل شىء فى نصابه • وبالغا ما بلغت التجارب وما ابدع المختبر فلن يملأ الخير الذى رسمه الدين فى أذهاننا عن رمزية الدجال الضال المضل وخوارقه الا اذا اكتمل الدجال نموه وظهر على حقيقته فهو لا زال فى دور الطفولة يتربى بين المعامل والمختبرات • الشرق لا يأخذ من الغرب ، واللاحق لا يتقدم السابق • فاذا ما طلعت الشمس من الغرب فقد انقلبت موازين الحياة بأسرها ، شىء اعمق من تصور الظل أو المد أو الرياح والامطار أو مجارى الانهار أو اضطراب نظام الفلك أو تحرك الموتى فى القبور أو انكشاف المستور واستتار المكشوف أو سقوط كل ما فى يد الانسان من ضمانات وركائز وهى من التوازن الى اللاتوازن ، بشىء عبر عنه الاسلام بالقيامه • التى بدأت علامتها فى الظهور • (12)

لقد ظل الشرق يعطى الغرب ، والغرب يفسد ما اخذ • وارسل مبالغ فى دهشته أمام الظهور المفاجىء للمدينة اليونانية • فقد كانت امرا طبيعيا وسيرا تدريجيا قام على عناصر شرقية وظل الفكر اليونانى شرقيا حتى ارسطو فنقل الاصالة من الماهية الى الوجود وحدد الفكر بالمنطق ، وكل تحديد الفكر قضاء عليه •

وتعرض الفكر الاسلامى للفلسفة الغربية وتبين : مرة فى العصر العباسى والاخرى فى العصر الحديث • والذى حدث فى المرة الاولى أن اعلام المفكرين الاسلاميين كالكندى والفارابى والشيخ الرئيس ابن سينا ومن لف لفهم، استوعبوا كل ما طرحه الفكر اليونانى عليهم وهضموه وتعاملوا معه بكل رحابة صدر وحلم من قرون الزمان • وحسبنا أن نشير الى مأثرة الكندى مؤسس الفلسفة الاسلامية التى استقبل بها الحقيقة أيا ما كان موطنها وجنسها (13) • ومع هذا فقد اسفرت المحاولة لدمج الفلسفة اليونانية فى وجهة النظر الاسلامية عن تقاصر هذا النوع من الافكار عن بلوغ المدارج العالية التى رسمها الاسلام أمام مفكريه • ولم يكن أمام المذهب المشائى الذى حاز قصب السبق اذاك الا أن يطوى حصيرته من المشرق وبها جر الى المغرب ثم لا يلبث سراجه أن ينطفىء بنضوب حياة الى

الوليد وقبيله من الابناء . فلا تمسك بها الفلاسفة لقناعة بجانبها النظرى ولا بكتهـا عيون الجماهير لما فاءت عليها من جانبها العملى . ولا اخال وجودها فى الفترة بين الكندى وابن سينا الا ضرورة استعمالها كسلاح للرد على الكلام المسيحى والعقائد السابقة التى استخدمتها سلاحا ضد الاسلام . فقد انتشر انذاك الاسلام على أرض ملقمة بالافكار والقصائد اليونانية . ثم بقيت تمارس تحت الموازين والضوابط الاسلامية الى أن ثبت عدم تسانخها . أما ما بقى منها بعد ذلك منذ أن امدها خواجه نصير الدين الطوسى بنفس رافىء حفظ لها نوعا من الوجود فى البلاد الاسلامية وما أضفاه عليها صدر الدين الشبرانى من تكييف فهو ذلك الجانب منها الذى تتقبله وجهة النظر الاسلامية أو فلنقل تلك بضاعتنا ردت الينا وتعرف الشرق على ما كان له فى الفلسفة اليونانية سواء عند افلاطون الالهى أو الافلاطونيين المحدثين أو ارسطو .

وحسبنا أن نشير الى تصريح ابن سينا عميد المشائيين الاسلاميين . الذى ورد فى مقدمة « منطق المشرقيين » حيث يصرح بأن كتبه الفلسفية المشائية الشهيرة كالشفاء والنجاة لا تخرج عن كونها كتابات ظاهرية قصد بها عوام الناس ثم يرثى أن يبسط الفلسفة الشيخ الاكبر محى الدين المشرقية التى يقصد بها الصفوة والتى يطلق عليها علم الخواص (14) أو نشير الى الفصل الذى عقده ابن عربى لقائه مع ابن رشد والاخير فى أخريات أيامه ، والذى ختمه مشيعا جنازة زعيم المشائية بقوله :

« هذا الامام وهذه اعماله : . يا ليت شعرى هل أتت آماله ؟ ! (15) فقيامة حجة الاسلام الغزالى ومناهضته للمشائيين ليست الا دليلا على أن الاسلام لم ياخذ شيئا من الغرب وانه يطرد كل ما لا يتفق معه فى وجهة القطر ، وانه ليس فى حاجة الى ما يملكه من الفكر الغربى . وأخيرا أنه من الثقة فى نفسه واليسر فى المعاملة حتى ليسمح للعقول بان تتريض بشطرنج استجريطى أو اجطاطاليس قد تستفيد بل لقد استفادت منه منطقا لزمها فى فترة ، ثم لم يسلم بعد ذلك من حملات امثال السهروردى ، والبيرونى وابن بكر الرازى وابن تيمية .

أما أن ترين المشائية على الفكر الاسلامى وتزاحم نبوغه الخاص وتعرقل نمو حياته العقلية ، فهذا ما يدعو الى ما صارت اليه .

وأما الحكمة العملية فى الاسلام فتفوق نظيرتها عند أرسطو بمراحل تتجاوز التصور • فالاسلام قائم على أساس تعهد الحياة البشرية على مستوى عالمى كلى وفى تمام شـــؤون الحياة دقيقها وجليلها مادية واخلاقية ومعاملات وما يشمل جميع جوانب الانسان من ادق خصوصياته واسراره وأحواله وأطواره وآماله واهدافه ونزعاته ، فمن خجلة فكره وهاجى قلبه الى أعلى مستويات يقينه ، ومنه وهو نقطة فى الاصلاب اليه وهو وريقة فى التراب، كل هذا بمنتهى الحساسية والدقة العملية ، ان من الصنج التى يوزن بها فى ميـــزان الاسلام صنجة اسمها مثقال حبة من خردل » واخرى اسمها « مثقال ذرة » • ومن ثـم كانت المدينة الفاضلة الارسطية أو جمهورية افلاطون أو بمعنى أعـم الحكمـة العمليـة اليونانية اذا قيست بمكة المكرمة أو المدينة المنورة أيام الرسول (ص) أو بمعنى أعـم بالحكمة العملية الاسلامية ، لا تعدو قطرة كدرة ملوثة آسنة فى مقابل محيط زاخر طاهر زلال • مثلا بينما نرى ان الجملة أو العبارة اليونانية المشهورة « لا تعلموا أبناء السفلة العلم » تنقل عدواها الى ابن سينا فيوحى فى ختام الاشارات والتنبيهات بالفن بالفلسفة وقصرها على الخواص (16) يتقدم السهروردى بسواعده الفتية الشابة ليكتسح ارسطو نفسه من الطريق ويفتح الابواب على مصارعها أمام الجميع فى مقدمة حكمة الاشراف يقول : « فليس العلم وقفا على قوم ليغلق بعدهم باب الملكوت ويمنع المزيد من العالمين » • (17)

والواقع أن الاسلام استطاع باصالته وتماميته أن ينقض بعد البحث والتمحيص كل ما لا يردف له من الفكر اليونانى بجانبيه النظرى والعملى ، عن كاهله •

وكان من الامانة بحيث وضع الصحيح مكانه واقره وجب غير الصحيح وأبطلـه • وهذا ما نستنتجه علاوة على ما ذكرنا من عدم توفر القناعة الكافية لدى الحكماء المسلمين من بعد بالفكر اليونانى • وما كان هذا لولا أن الاسلام بحكمته النظرية والعلمية وبجانبيه الظاهرى والباطنى وبمنطقيه الصورى الاستدلالى والتجريبى الاستقرائى كان قد وسع آفاق الفكر أمامهم ورفعهم درجات فوق ما قدم لهم ذلك الفكر • الامر الذى حداهم الى العودة الى أساطين الحكمة فيما قبل سقراط مسقطين الدورة الهلستينية من حسابهم • بل لقد ذهب السهروردى الى اعتبار الحكمة اليونانية فرعا من فرعين انشقت الحكمـــة

الادريسية السماوية اليهما ، أحدهما فى فارس والآخر فى مصر ، ومن مصر انتقلت الى اليونان ٠

وأما المرة الثانية فذات ظروف وملابسات مغايرة ٠ وآية ذلك أن الفكر فى أوروبا كان قد بدأ ينحرف منذ عصر النهضة ورأى الاستعمار فيه خير سلاح للقضاء على مقومات شخصية البلاد المستعمرة وأصالة الرأى فيها ، وذلك بعد أن جربه فى الشعوب الاوروبية ذاتها ونجحت التجربة ٠ فسدد ذلك السلاح بشتى اشكاله وامكانياته وطرق الاستفادة منه الى ما لها من عقائد وما عقدت عليه مجتمعاتها وحياتها وثقافتها من مبادىء وما احتفظت به من تراث حضارى ٠ فالموقف اذا ليس موقفا فكريا مجردا وانما هو سطو فكرى مسلح بالاستعمار ٠ وهذا من شأنه أن يستقطب العناصر الانهزامية من الانتهازيين والوصوليين والقشريين والذيليين والنقاعيين والامعات وجميع الفصائل المصابة بالفراغية كما يهيج فى جسم الامة تمددا شرسة من الاقليات الحاقدة ويلهب زوائد دودية لم تكن فى حساب الصورة الاجتماعية ، ويكون منها قاعدة له يتحرك منها الى مكامن الاصالة ، وبالتالى يحدث ما نراه الآن من الامراض الفكرية والعلل الاجتماعية فى جسم المجتمع الاسلامى ٠ وخاصة أن المتلقى فى هذه المرة لم يعد هو الامة الاسلامية الصاعدة الفتية فى عصرها الذهبى وأوج اندفاعها وأعلى ما سجلت من قمم المد الفكرى والحيوى والحضارى وانما كانت أمة منهكة القوى خامدة الفكر ضعضعتها نوبات المغيرين الطامعين واستهلكتها الحروب والفتن والانقسامات الداخلية وغربت فى الزمان عن مشارق الوحى واستكانت قوة الابداع فيها الى التكرار والاجترار وفقدت قوة التمييز بين ما ينفعها وما يخدعها وما هو لها وما هو عليها، تتضاءل وأوروبا الصاعدة بثورتها الصناعية واطماعها التوسعية تزلزل جدران بيتها عليها من كل جانب وتقتحم اسوارها بوقاحة ٠ ومع هذا لم يعدم الاسم هذه المرة أيضا من ينتفض الانتفاضة الجذرية التى ايقظت العالم الاسلامى وبصرته بحقيقة موقفه ومصيره فكانت « النهضة الحديثة » وكان رجال « الاصلاح والتجديد » وعلى رأسهم جمال الدين الاسد ابادى المعروف الافغانى أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وغيرهما فى كل مكان وامتد ثلها الغيور الى هذا الشمال الافريقى فكان صالح بن مهنا وعبد القادر المجاوى وابن باديس ٠ ولا شك فى أن ما نراه من مظاهر التحرر فى

العالم الاسلامى عامة والعربى خاصة اليوم هو ثمرة هذه النهضة التى شقت الطريق أمام الامة والقت على عاتقها مسؤولية التحرر من الاستعمار بشتى اشكاله واطواره والنهوض بالاسلام الى ما يليق بالامة الاسلامية فى عالم اليوم ·

الا أن الكلمة التى تقال هنا ، هى أن طبيعة الموقف فى مواجهة المغرب كانت تتطلب حركة نضالية اكثر منها فكرية ، وأن هذه الطبقة من الزعماء كانت ما تتطلبه هذه المرحلة فقد كانوا مسلحين بصدق النوايا وقوة العزائم ومناعة العقيدة الاسلامية أما الوقوف على الفكر الغربى لمواجهة الفكر الغربى ، فلم يكن هذا الشرط متوفرا فيهم · ولهذا ظل الدور نضاليا حتى اليوم برز على مسرحه فى كل بقعة من العالم الاسلامى ابطال احرار صناديد ان ضاق المقام حتى عن الاشارة الى اسمائهم فلن يضيق بهذه المناسبة عن الاشارة الى عبد القادر الجزائرى ، وعبد الكريم الخطابى فى هذا الشمال الافريقى · ثم ورث هذا الجيل الطليعى الكفاح ابناءه البررة القائمين اليوم ممن ادوا دور البطولة على خير وجه ولا يزالون على العهد والطريق بما يشهد لهم بالشرف فى التاريخ ·

أما الآن فالدور دور الفكر · لقد انتهى دور البطل والدور اليوم للمفكر · وهذا الذى نشاهده من انشاء المراكز الفكرية وتشكيل المؤتمرات العلمية والملتقيات الثقافية والفكرية وانبعاث صيحات الاقلام الواعية الرائدة وما تبشرنا به المطابع من تحول جدى فى الاتجاه الفكرى وما تبديه الحكومات من جهود لبعث التراث العلمى ، كل هذا وغيره ، ان دل انما يدل على أننا قد بدأنا جهادنا الاكبر ، فى معركة التحرير الفكرى ، وبعث الثقافة الاسلامية وتصحيح المفاهيم ورد الاعتبار للقيم ونفض الغبار عن تراثنا الحضارى وتعبئة الجهود للانطلاق فى بعث حضارى يحقق للاسلام عزته وللامة الاسلامية كرامتها · كما يدل على مدى احتياجنا للفكرين العباقرة الذين يستطيعون أن يستقبلوا مدا فكريا حان أوان ارتفاعه ، فتبنى له السدود الراقية ويصرف فى الوجهة الايجابية البناءة ، فالحرية من شانها أن تفك عقال العقول وتفتح شهيتها ، وما احوجنا الى غذاء لهذه العقول التى جاعت قرونا ، هذا الجوع الذى ادى بها فى مستهل العصر الحديث الى الانكباب بوعى وبغير وعى على موائد الفكر الغربى الحديث حتى كادت تنسى مذاق ثقافتها الخاصة ، وبعدت الشقيقة بينها وبين انفراجها الاصيل فلم تعد تهضم ما تقدمه لها الموائد الشرقية ·

وأعود لاقول انه ان دل أخيرا فانما يدل ـ بالرغم مما أحدثته سطوات الفكر الغربي الحديث في عالمنا الفكري من اضطرابات وانحرافات وما نقلت من عدواها الى روح أجيالنا الصاعدة ـ على أن كل ما هبت به الرياح الغربية من بذور الفكر والعقائد لم تجد في أرض الاسلام ما يكفيها من شروط الانبات • وأن مبادئنا الاجتماعية لا زالت مسيطرة والاسلام ما أنفك القوى الذي يطرد كل ما لا يتفق معه في وجهة النظر كما هو دائما • الا أن هذه الحقيقة يجب الا تكون باعثا على التواكل فنسمح لانفسنا بالمبالغة في التفاؤل بها والاطمئنان اليها تاركين الامور على عواهنا فقد تغير الزمان وضعفت روح الايمان واضمحل العقل الانساني تحت سطوة النفس وتآكلت الشكائم وتصرمت الاعنة • فالحالة تقتضي منا دقة فائقة وعناية بالغة في مراحل ثلاث : مرحلة استئصال الطفيليات فمرحلة النقاهة وتكامل الشفاء فمرحلة توفر الحصانة الداخلية والمناعة الذاتية •

والآن فلنبحث في اطاري الزمان والمكان ، على أن هناك عالما فكريا أو عقائديا لم نكن قد خبرناه بعد وثبت أن أمته راضية به ، فنجربه ونتخذه مثالا لنا ، والا فلنعد الى الاسلام صاغرين شاكرين • فلنعد الى القرآن ، لا على سبيل محاولة الاستفادة من تطبيق الامكانية القرآنية على قدر الامكان ، فالدين حقيقة سماوية لا يمكن رغم مرونتها أن تخضع لما نريده منها بل نحن الذين يجب أن نخضع لها ونتطابق معها • لنعد اليه طيرا قتله الظمأ وطال به السرى في فيافي الفكر والتجارب العقيمة ونطفيء هيمنا في ينبوع الوحي المتدفق بالري والنور • لنعد الى قائدنا الاعظم الذي أخرج من حرار مكة مجتمعا مثاليا كان خير امة أخرجت للناس ولا يزال هذا على الرغم من كل شيء • لقد أدت الاديان المرحلة دورها وسجلت نتائجها فكانت جوانب جزئية وادوارا في سبيل التكامل • ومن هنا كان الاسلام آخر الاديان وكان الدين عند الله الاسلام • وعليه فالاسلام ومفكروه هم المسؤولون عن الحياة عن الانسانية والانسان اليوم • حقيقة اثبتها الواقع الحي واكدتها مواقف الاسلام من كل ما ورد اليه من الخارج على مختلف العصور منذ كبرت المئذنة ودفيء المحراب بأنفاس المصلين • واعترف بها كثير من فضلاء الغرب واكابره •

وقبل أن اتعرض لدور المفكر أود ان أقدم بالتالى :

لقد كانت كلمة جاهلة صدرت فى أكثر من مكان من العالم الاسلامى فى مستهل العصر الحديث عندما باغتتنا وجوه الاستعمار تقول : ان الاسلام فى ذلك الوقت كان قد قال كلمته الاخيرة ولم يعد لديه شىء يضيفه بعد دور الحواشى والحواشى على الحواشى والتذييلات على هذه وتلك · ولا يعنينا قائلها فكفى بنفسه عليه اليوم حسيبا وانما تعنينا الحقيقة فى أن الاسلام ليس له كلمة أولى وكلمة أخيرة يغلق عليها كتابا أو يختم بها دورا فكلمته الاولى والاخيرة هى « لا اله الا الله » الابدية الازلية المنزهة عن حدود الزمان المنفتحة على اللانهاية أولا وأخيرا · فالكلمة الاخيرة للاسلام هى العلة الغائية من هذا الوجود · واذا كان الاسلام قد استهلك فى جانبه الظاهرى طبقات من محترفى صناعة التحشية والتذيل ، فليس معنى ذلك أن ظاهره قد استهلك هذا بله جانبه الباطنى · فالاسلام هو اللقاء بين الله والانسان والارتباط الثابت الباقى فى الانسان بالدائم الباقى سبحانه ولهذا كان باقيا بقاء رب العالمين سار مع الانسان حتى يوم يبعثون · والاسلام بما يتمتع به من الكلية التى تؤهله للاستمرارية ليس من البساطة حتى يستهلكه هؤلاء البسطاء أو أن يسبر أغواره أولئك الحشويون الذين تطلعوا على فتوحات غيرهم آبقين من استلهام الاسلام ما يجب أن يضيفوه فى عصورهم التى وصموها بالانحطاط ·

والقرآن اشبه ما يكون بالمرآة يرى فيها المفسرون انفسهم فقد استعرض المفسرون سيان الظاهرى منهم والباطنى أفكارهم وانطباعاتهم حسب ما غلب عليهم من جوانب العلم المختلفة وما توفر لديهم من علوم الاوائل · ثم دار اللاحقون فى فلك السابقين والحقيقة القرآنية لا زالت لم تفض بعد باكثر مما كان لديهم · أما بالنسبة لنا نحن اليوم فليس لنا تفسير يتناسب مع ما يقتضيه هذا الزمان فلكل زمان فهم وتفسير أوسع وأعمق من سابقه وان قام على أساسه لان الكون يتكشف كل يوم عن المزيد من أسراره ونواميسه وحقائقه والتجربة تتسع بالانسان فتزداد معارفه ، بما لو عاد به الى القرآن ونواميسه قوله تعالى : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) وقوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) · وليس معنى هذا أنه بمجرد أن تصنع المكواة أو تتكشف الذرة عن طاقتها

يذهب بعض من سامحهم الله على تصديهم للمسؤولية دون توفر امكان الاضطلاع بها ، الى القول بأن المكواة فى القرآن مستدلين بقوله : (يوم تكوى ٠٠) والذرة فى القرآن مستدلين بقوله : (مثقال ذرة خيرا يره ٠٠) فالقرآن وجود تدوينى ، بؤرة تجمع فيها الوجود ، بذرة كمنت فيها الشجرة بكل ما قدر لها من امكانية الوجود والحياة ففيه كل ما فى الوجود من نواميس كلية ومبادىء عامة ٠ ومع أن حظ المفسرين وهم فرسان هذا الميدان وأرباب هذا البيان كان من الضآلة الى هذا القدر فما بال غير المسلمين بالعربية الالمام الكافى حتى يسلموا ويستسلموا تسليم عمر واستسلام لبيد ، بل وما بال الغرباء عن العربية مع أن القرآن رحيق مختوم اذا فض فى الترجمة ضاعت فوحته السماوية وتلاشت نهكته الروحية وهيهات لكلمة البشر أن تملأ فراغ الكلمة السماوية وهيهات أن يتوفر للغات الاخرى ما للعربية من امكانيات وروحانيات تمكنها من تلقى ضغط المعانى والافكار والضلال الجانبية والايحاءات والايماءات والحركات الظاهرية والباطنية والايقاع والترنيم وسحر الرتم وجمال الفنون البلاغية وتاثيرها مما جعل الترجمات أقرب الى الشروح السطحية ، والواقع الملموس أن البيئات الاسلامية الغريبة على العربية هى التى تصدر دائما النحل الشاذة والعقائد الباطلة والمذاهب المنحرفة التى لا تزيد فى نظرى عن كونها تطفلا سمجا على الاسلام ، يجد من جهل الناس بالعربية وبحقائق الاسلام ومما فى عقولهم الباطنة من رواسب ومما يشاهدونه من سوء الاستفادة من الاسلام ما تجده النار فى الهشيم اليابس والذئب الضارى فى القطيع النائم ٠ ثم يقال ان الاسلام دين تخلفناه ولم يعد صالحا ٠ وما هذا الا لأن العقل اليوم اتسع عن التفاسير الموروثة واللغة اليوم ضاقت عن فهم مضامينه وبين هذه السعة وهذا الضيق منزلق لمن شاء الخيانة والمروق أو شاء التحرر من التزام الحق ٠

ثم ان الاسلام فى الزمان بمعنى وجوده الارضى التاريخى قد مر بمراحل ثلاث حددها المفكر الجزائرى مالك بن نبى بمرحلة الروح والايمان وتنتهى عند واقعة صفين ٠ ومرحلة العقل وبناء الحضارة وتنتهى عند ابن خلدون ومرحلة الغريزة وتنتهى بوهن الروح والخلود الى الارض بمعنى العودة الى البدائية (18) ٠ وهو تقسيم

صحيح فى نظرنا . والسؤال هنا فى أى هذه المراحل حدث أن طبق الاسلام تطبيقا كاملا أو أتيحت له الفرصة الكافية لتطبيق جانبه العملى فى اخراج المجتمع الاسلامى المثالى ؟ أو بمعنى أصح المجتمع الحضارى الذى تتمثل فيه جميع قيم الاسلام ومبادئه وتعاليمه ومثله بحيث يمكننا أن نقيس على غراره ؟ ! وهذه النقطة وان كانت خارجة عن حوصلة هذا البحث فهى تحتاج الى بسط فى الموضوع الا أن الجواب هو أن الاسلام لم يطبق للآن تطبيقا سليما كاملا . بل لقد ولد غريبا وعاش غريبا وعاد غريبا وطوبى للغرباء . فهل لنا أن نغامر مرة ونسمح له باخراج المجتمع الاسلامى الحضارى المثالى حتى يكون قدوة للناس جميعا . وهل يمكننا أن نكف عن نعت الاسلام بالقصور والتخلف حتى نكون قد جربناه تجربة عملية صحيحة فتكون أحكامنا عليه أحكاما قطعية لا ضروبا من التذيل لآراء المغرضين والحاقدين .

اننا نحن المسلمين المسؤولين عن الاسلام لا المستشرقون ولا مفكرو الغرب الذين ابتلوا الاسلام بآفاتهم الفكرية وأولوه حسب عقائدهم الشخصية ثم حكموا عليه بمنطق الحاقد أو الناقد وهم فى الحقيقة يجهلون أبسط مبادئه وليس لديهم الا مكان للتمشى معه الا ريثما تغلب عليهم حزازات ربتها بيئاتهم فى قلوبهم فينقلبون على اعقابهم مفلسين ناقمين . انه الاسلام الذى حمل الدنيا على يديه ثلاثة عشر قرنا أمد العالم فيها ولا يزال يمدها بالنور والحضارة . ولا زالت اقدام الاوروبيين تقرع الطريق الى كنوزه الفكرية طلبا للمزيد من المعرفة حتى اليوم . فهل لنا أن نرتفع الى مستوى المسؤولية والواجب التاريخى حتى نستطيع أن نقدم الاسلام للدنيا على حقيقته التى تجب كل ما كدسته الايام والاوهام من شبهات عليه فى نظر العالم والغربى خاصة وهل لنا قبل ذلك أن ندرك أن الاسلام حقيقة كلية نازلة من السماء لا ترتبط بمحدوديات زمنية أو دنيوية ولا تتقيد باعراض فكرية تطرأ عليها ، فنخلصه من كل ما تطفل عليه من عقائد ومذاهب ونزعات فكرية متضاربة ، وتعود به دينا خالصا كما يريده الله لا كما ارادته السياسة أو كما حرفته الفرق ، دينا كما قدمه لنا رسول الله (ص) جماله وقوته وعمقه وعبقريته وغناه ووسعته وفعاليته وتاثيره فى بساطته الساحرة الآخذة . ونقدمه فى ثوب زماننا وعلى قدر عقولنا وتجاربنا ومنطقنا ؟ فمن طبيعة الاسلام انه مرن يسير مع الزمان الى الامام

وليس من طبيعة الانسان أن يعود الى الوراء وخاصة من أجل الدين · تجربة سبقت وحدثت فى العالم الاسلامى قام بها الغزالى مع الفارق على كل حال الا أنها حدثت بالفعل ولا زال اثرها قويا حتى اليوم واستحق لذلك لقب « المجدد فى الدين » ·

وبعد هذه المقدمات وعودا على بدء لم يبق لى الا أن أهمس فى اذن المفكر بهذه الكلمة التى قالها عظيم من عظماء هذا القرن هو فريدهوف شووان لعلى ارسم بها خطا بيانيا لمشكلة الانسانية فى حقيقتها وأضع نقطة البداية فى يده ، قال : « ان خطأ الرجل الحديث أنه يريد أن يصلح الدنيا دون أن تكون لديه الارادة أو القدرة على أن يصلح الانسان · وهذا التناقض الفاضح ، هذه المحاولة لايجاد عالم افضل على قاعدة انسانية أسوأ لا يمكن أن تنتهى الا الى الاضمحلال ، اضمحلال حتى ما هو انسانى مما يؤدى الى فقدان السعادة أيضا · واصلاح الانسان يعنى ربطه مرة أخرى بالسماء واستحكام الحلقة المكسورة مرة أخرى · انه يعنى انتشاله من مملكة الاهواء من عبادة المادة الكمية والمكر ودمجه مرة أخرى فى دنيا الروح والصفاء ، حتى يمكن أن يقال انه فى دنيا علته الغائية » · (19)

فان كانت هناك كلمة فلنقلها ضمن توديع المكان شاكرين صبر الحضرات وتكرمهم بالاستماع الى ما لا يقاس بامكانياتهم العلمية معتذرين عن القصور والتقصير، وهى أن على المفكر أن يعود فعلا الى المغارة وليتحمل مشقة اقناع زملائه حتى ولو بدا لهم أغبى ادراكا مما كان قبل فراره من المغارة · فانقاذهم بالفعل لا بالقوة هو ما يبهج الدنيا بميلاد مفكر حق فى عصر ضال ·

فيظل فى التاريخ القمة التى تطالب بنظيرتها فى المستقبل · ولا يكون الا بصدق النية والعزم والتماس العون من الله : (ربنا لا تؤاخذنا بذنوبنا واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) ·

I – 2) رسل ، برتراند : « تاريخ الفلسفة الغربية » ترجمة زكى نجيب واحمد امين ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، مصر 1967 ، ج I ، ص 207 .

3) لمزيد من الاطلاع ارجع الى ابن تيمية فى كتاب « منهاج السنة » ج I ، ص 88 حيث حدد موقف الفلاسفة من الرسل والرسالات ورأيهم فى العبادات ، وهناك يقال : « فقالوا أن » الرسل لم تبين العلم والحقائق التى

يقوم عليها البرهان فى الامور العملية . ثم منهم من قال ان الرسل علمت بذلك وما بينته . ومنهم من يقول انها لم تعلمه وانما كانوا ضارعين فى الحكمة العملية ولكن خاطبوا الجمهور بخطاب تخيل ، خيلت لهم فى أمر الايمان بالله واليوم الآخر ما ينفعهم اعتقاده فى سياستهم وان كل اعتقادا باطلا لا يطابق الحقائق . وهم يقرون بالعبادات لكن يقولون : مقصودها اصلاح أخلاق النفس ويقولون : انها تسقط عن الخاصة العارفين بالحقائق » (نقلا عن الدين والضمير ، لمحمود الشرقاوى مصر الانجلو المصرية ، 1958) شيء يذكرنا بما كيافلى « الغاية تبرر الوسيلة » . واعتقد اننا قد اشرنا الى رأينا بالجملة الاولى فى هذا البحث .

4) رينان ، ارنست : « ابن رشد والرشدية » ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، 1957 ، ص 176 .

5) المرجع السابق ، ص 190 .

6) السهروردى ، الشيخ شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك الشهير بالقتول : (

ج 2 ، تصحيح هنرى كربن ، طهران ، 1952 ، ص 10 ــ 11 ، وارجع أيضا الى س . ج . نصر « ثلاثة حكماء مسلمين » ترجمة صلاح الصاوى بيروت ، دار النهار ، 1971 ، ص 85 ، والقسم الثانى من الحواشى ص 189 ، الحاشية رقم 25 : والطبقات الثلاث هى :

أ ــ طلبة بدأوا يحسون الظما للمعرفة وبالتالى اقدموا على البحث عنها .

ب ــ طلبة اكتسبوا المعرفة الكلية واتموا الفلسفة الاستدلالية ولكنهم بقوا غرباء عن العرفان والسهروردى يعد الفارابى وابن سينا من هذه الطبقة ، يقنعوا باشكال المعرفة الاستدلالية على الاطلاق ولكنهم طهروا انفسهم حتى بلغوا درجة الحدس العقلى والاشراق الباطنى كالحلاج والبسطامى والتسترى .

7) الجرجانى ، على بن محمد : « التعريفات » لقد استفدنا من تعريف الجرجانى للفسلفة فى مورد الفيلسوف

8) نقلا عن « الفلسفة الحديثة فى الميزان ، محمد بدران ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة 1389 ، 1969 ، ص 44 ــ 45 ، نقلا « مباهج الفلسفة » وهو عبارة عن ترجمة .

تـاليـف

نيـو يورك 1952 .

9) ارجع الى مجلة ديوجين ، القاهرة دار العلم ، العدد الثالث ، مايو 1966 ، ص 156 وما يليهـا مقـال « القصة والاسطورة فى التاريخ ، لالفريد شتيرن ، ترجمة عبد العزيز حلمى ، وارجع أيضا الى

فى

ترجمه الى الفارسية أحمد آرام تحت عنوان « احياى فكر دينى دار السلام » طهران 1968 ، ص 204 .

10) اقبال لاهورى محمد

11) س . ج . نصر : عن حديث صحفى مع مندوب مجلة « تلاش » الايرانية تحت عنوان « انسان ، فلسفة » وجود واجز ياستانسياليزم » سنة 1347 ، شمس العدد 9 . وقد نقله الداعى الى العربية ونشر فى مجلة دعوة الحق المغربية الا انها لم تتكون حتى بارسال نسخة للمترجم . وهنالك عقد المقارنة على النحو التالى : لقد جعل ديكارت الاستدلال معيارا للمعرفة ، صحيح ما يقال من أو ارسطو كان استدلاليا أيضا ولكن الوجود فى الفلسفة الارسطية يعنى واقعية واسعة فيما وراء الفرد وافكاره يشاهدها الفرد من نفسه على حين يأتى ديكارت ويجعل الاستدلال الواقعى اساسا أى يجعل الذهن أو الاستدلال أساسا لادراك الواقعية بل كونه أساسا للحقيقة » .

12) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقويم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة .. وحتى يبعث دجالوان كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلزال ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض

حتى يهم الرجل من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه لا قبل لى به وحتى يتطاول الناس فى البنيان وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتنى مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس يعنى آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو اكتسبت فى ايمانها خيرا ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعناه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن بقرته فلا طعمه ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع اكلته الى فيه فلا يطعمها » .

(البخارى طبع صبيح ، ج 9 ، ص 74 ، عن أبى هريرة عن النبيى صلى الله عليه وسلم .

13) « ينبغى لنا أن لا نستحى من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وان أتى من الاجناس القاصية عنا والامم المباينة (لنا) ، فانه لا شىء أولى بطالب الحق من الحق وليس (ينبغى) بخس الحق ، ولا تصغير بقائله ولا بالآتى به ، ولا أحد بخس بالحق ، بل كل يشرفه الحق « رسائل الكندى الفلسفية » لابى زيدة ص 102 ـ 103 .

14) س . ج . نصر: « ثلاثة حكماء مسلمين » دار النهار ، بيروت ، 1971 ، ص 59 .

15) ذكر ابن عربى قصة اللقاء بناء على سعى ابن رشد وتحقيقا لرغبته لما سمع عن فتوح ابن عربى بعد الخلوة فلما التقيا اقر ابن عربى على حاله وقال : هذه حال اثبتناها وما رأينا لها اربابا فالحمد لله الذى أنا فى زمان فيه واحد من اربابها الفاتحين مغاليق ابوابها والحمد لله الذى خصنى برؤيته » كما قال ابن عربى ان ابن رشد شكر الله تعالى الذى كان فى زمان رأى فيه من دخل الخلوة جاهلا وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة . (موقف تراجم من ابن رشد يذكرنا بتراجع ابن سينا) الفتوحات المكية ، القاهرة ، 1329 ، ج 1 ، ص 153 ـ 154 .

16) ابو على سينا « الاشارات والتنبيهات » ، طهران ، 1339 شمس ، ص 169 ـ 170 تحت عنوان « خاتمة ووصية » .

17) السهروردى ، شهاب الدين يحيى بن حبش بن اميرك : « مقدمة حكمة الاشراق » طهران 1331 شمس .

18) بن نبى ، مالك : « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » مصر ، 1957 ، ص 56 .

19) شووان ، فريد هوف

« ترجمة صلاح الصاوى » تحت الطبع .

دور المفكر اليوم وعلى مر العصور

د . راشد الراجح
عميد كلية الدراسات الاسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز
جدة ـ المملكة العربية السعودية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

الحمد لله القائل : (قل هل يستوى الاعمى والبصير افلا تتفكرون) سورة الانعام . والصلاة والسلام على البشير النذير ، صاحب الرسالة الخالدة ، والنبوة الخاتمة ذى الفكر الثاقب ، والعقل النير والهدى المستقيم . الذى ارسله الله بالحجة والبرهان فدعا الناس جميعا الى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم . صلاة وسلاما دائمين الى يوم يبعثون وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين .

أيها السادة الكرام :

انه لمن دواعى الغبطة والسرور أن أشارك فى هذا الملتقى العالمى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى بجزائرنا الحبيبة بحديث لا أدعى فيه الاحاطة والشمول لان مثل هذا الموضوع ـ كما أتصوره ـ يستأهل أن تقدم فيه رسالة جامعية ، بل يستحق أن تقدم فيه

عدة رسائل لاعلى درجة جامعية ، ولكنى على اى حال سأختصر الموضوع واتناوله من زاوية اسلامية أراها جديرة بالتنويه والاشارة على سبيل المشاركة والاسهام . فاقول وبالله التوفيق .

لن أخوض فى تعاريف لغوية وفلسفية دقيقة لمعنى الفكر والمفكر ، والعقل والعاقل، وما فى معناهما ـ نظرا لكون تلكم معانى معلومة لديكم ، وتعريف المعرف تنكير ـ كما يقال ـ . كما أننى من الزاوية التى اريد الحديث فيها عن الموضوع اتفق مع من يرى ان الفكر والادراك والعقل بمعنى واحد فهى أسماء متعددة لمسمى واحد .

ويطلق الفكر ويراد منه التفكير ، أى العملية التفكيرية ، وقد يطلق ويراد منه نتيجة الفكر اى متوصل اليه الانسان من العملية التفكيرية . وليس الفكر بمعنى التفكير عضوا خاصا به ، حتى تصح الاشارة اليه بل هو عملية معقدة ، تتكون من الواقع المحسوس(1)، واحساس (2) الانسان (سواء بحساسة واحدة من حواسه أو بحواسه كلها)، ودماغه(3) والمعلومات (4) السابقة لديه .

وما لم تجتمع هذه الاشياء الاربعة فى عملية معينة لا يمكن ان يحصل فكر ولا ادراك ولا عقل . (يراجع الفكر الاسلامى ـ لمحمد محمد اسماعيل . ص 67) .

وعلى هذا فان البحث فى تركيب العقل وتكوينه ومادته غير داخل فى حديثنا . لان الذى يهمنا فى هذا المؤتمر الفكرى الاسلامى ، أن نتحدث عن العمليات التفكيرية التى يقوم بها العقل وما يترتب على ذلك من نتائج .

وسواء عرف العقل بتعريف مادى محسوس أو قيل فيه ما قيل فى تعريف الكهرباء (لا يدرك كنهها وحقيقتها ، ولكنها تعرف بآثارها) فان اهتمامنا كما قلت على المحصول الذى تقدمه لنا تلك الموهبة العقلية العظيمة التى وهبها الله بنى آدم تكريما وامتحانا (ليبلوكم أيكم احسن عملا) .

أيها المؤتمرون الكرام :

ان تاريخ الفكر والمفكرين مرتبط بتاريخ الانسانية منذ وجودها . تكلمت الاديان القديمة عن العقل والفكر وبحث فى هذا الموضوع قدماء الفلاسفة من اغريق وسواهم .

وظهر فى المسلمين كثير من الفلاسفة كابن رشد والفارابى وغيرهما كما ان هناك كثيرا من العلماء والمفكرين الذين قدموا للانسانية ـ على مدى تاريخها المديد ـ كثيرا من الاختراعات والمكتشفات التى سعدت بها البشرية وأسهمت اسهاما فعالا فى الحضـــارة والتقـــدم والازدهار ، وان ما نشاهده اليوم من تقدم ورقى فى المجالات الفضائية والعلمية لهــو نتيجة لتلك الجهود الجبارة ، والافكار المبدعة التى هى ـ بلا شك ـ استمرار لافكار أقوام سابقين ربما بدأت بمحض الصدفة ثم اتخذت شكلا فكريا منظما قام على قواعد دقيقــة ونظريات سليمة أثبتت الايام صدقها وصوابها ومن ثم قدمت للاسرة البشرية الكبرى خدمات لا تنكر فى مجالات مختلفة فتحت لها آفاق المستقبل الزاهر ، والامل المرتجى والسعادة المرتقبة ··· ولا اعتقد أن هناك أحدا يجادل فى قيمة الفكر ودور المفكر فى نهضة امته ومن ثم العالم بأسره ·

كما لا أعتقد ان هناك أحدا ينازع فى أن التقدم التكنولوجى والرقى الحضـــارى ، والانماء الاقتصادى ، والتوسع العمرانى والتكيف الاجتماعى المزدهر فى العصر الحديث كل ذلك حصيلة حتمية لجهود المفكرين والعلماء من مسلمين وغيرهم ·

« والمعرفة حصيلة انسانية وشركة بشرية » ·

ويجدر بنا ونحن فى هذا المقام أن نلقى نظرة سريعة على موقف الاسلام من كـــل هذا ، من الحقائق الثابتة أن الاسلام دين فهم وعقل وتفكير وادراك فهو ليس مـــن دعاة « الطاعة العمياء » أو « اغمض عينيك وانقد وأنت أعمى » كلا · الاسلام أيها الســـادة دين الحجة والبرهان ، انه دين قام على ذلك ولم يقم أو ينتشر بالسيف والاكراه (لا اكراه فى الدين) انه دين يحترم العقل ويدعو الى التأمل واستعمال الفكر (وفى انفسكم أفلا تبصرون) ·

تعالوا بنا فى رحلة قصيرة ننصت خاشعين الى بعض الآيات من القرآن الكريم تـــرفع من شأن المفكرين والعلماء وتدعو الى استخدام هذه الجوهرة الغالية لما فيه الخير والصلاح فى الدين والدنيا ·

قال الله تبارك وتعالى : (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) ـ (سورة العنكبوت) · (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) (سورة

المؤمنون) ، (كذلك نفصل الآيات لقوت يعقلون) (سورة الروم) • (أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) • (سورة البقرة) • (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت الثوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلـون) (سورة آل عمران) • (واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزؤا ولعبا ذلـك بانهـم قوم لا يعقلون) (سورة المائدة) • (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطـن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) • (سورة الانعـام) • (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) • (سورة البقرة) •

ولعلكم تدركون أيها السادة أن الخطاب فى فى هذه الآيات الكريمات هو خطاب للعقل عامة ـ ومنه ما ينطوى على العقل الوازع • وفى الآيات التاليات نجد الخطاب موجهـا الى العقل المدرك • قال تعالى : (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب لعلكـم تتقون) (سورة البقرة) • (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب) • (سورة البقرة) • (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب) • (سورة الزمر) • (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الالباب لعلكم تفلحون) • (سورة المائدة) • (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولـو الالباب) • (سورة آل عمران) •

والآن نأتى الى نوع ثالث وهو الذى يندرج نصا تحت عنوان المحاضرة وهو العقـل الذى يفكر ويستخلص من ذلك زبدة الرأى والروية ـ كما يقول العقاد رحمه الله ـ وقـد عبر عنه بعبارات مختلفة تتفق فى المدلول والمعنى مما هو مندرج تحت **الملكات الذهنيـة** فكرا ونظرا وبصرا وتدبرا وما الى ذلك •

قال سبحانه وتعالى : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكـرون فى خلق السموات والارض) « سورة آل عمران » • ومن ذلك الآية الكريمة التى صدرنا بها المحاضرة : (قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) « سورة الانعـام » • (أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) « سورة الانعام » • (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء) الآية من « سورة الاعراف » • (أفلا ينظـرون

الى الابل كيف خلقت) « سورة الغاشية » · (أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) « سورة السجدة » · (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته) « سورة ص » · (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) « سورة محمد » · (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) « سورة الزمر » · والآيات كثيرة جدا والوقت لا يسمح بسردها ولعل فيما اقتبسنا أكبر دليل على فرضية التفكير فى الاسلام ، فهذه الجوهرة الثمينة لم يخلقها الله عبثا بل هى مسؤولية كبرى لها ما بعدها ·

فالعقل الوارد فى النصوص القرآنية المذكورة آنفا هو ـ كما قلنا ـ العقل الذى يخاطب الضمير ، ويميز بين الاشياء الضارة والنافعة ويوازن بين الاضداد · هو العقل القادر على التأمل والروية · وهو العقل الذى يقابله الجمود والتحجر ـ ان صح التعبير ـ والتعنت وليس بالعقل الذى يقابله الجنون فذاك عقل بلا شك ، ولكن الجنون يسقط التكليف فى جميع الاديان والشرائع · أما الجمود فلا يسقط التكليف الشرعى كما هو معروف ·

اذن فالمقصود هو استعمال الفكر لما هو أبعد مدى · وعلى سبيل الخروج بنتائج مثمرة ومفيدة · وفى قوله : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) ما يدل على ذلك فالدين الاسلامى ليس كالديانات الاخرى التى يوغل بعضها فى الجانب الروحى ويهمل الجانب الدنيوى بتاتا (لا رهبانية فى الاسلام) أو يوغل بعضها الآخر فى الجانب المادى فيعطيه أكثر مما يستحق · كلا فالدين الاسلامى وسط بين متطرفين وحقيقة بين نظريتين · فهو دين يشرع الاحكام الدينية والدنيوية ويمنح العقل جانبا كبيرا لفهم تلك الاحكام وتطبيقها مع مراعاة الجانب التعبدى فيها أحيانا ·

وباختصار فالدين الاسلامى دين محراب · ودين سياسة وحكم وعقل وتفكير · لا يعرف الانقياد الاعمى بأى شكل من الاشكال ، فانه دين اكتشاف واختراع ، ودين مختبرات ومعامل وتكنولوجيا أو بعبارة أخرى (دين دنيا ودين) فهو يعارض فكرة (ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر) ، بل لقد جعل صلة العبد بربه فى كل مجال وفى كل حركة يقوم

بها والكل لله ! (قــل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمـين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ٠

واذا كان كذلك فدور المفكر المسلم اليوم وعلى مر العصور فى أمته وتجاه الانسانية فى كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل دور ذو أهمية كبرى ٠ وقــد قدم المفكرون الاسلاميون فى الماضى لامتهم الاسلامية وللبشرية جمعاء جلائل الاعمال وأعظم المكتشفات والمخترعات التى ساعدت على ازدهار المجتمعات الانسانية فى كل من ميادين التشريـع ، والاقتصاد ، والصناعة والطب والعلوم والفلسفة وغيرها ، مما يطول ذكره فيما لو تعرضنا لذكر الاسماء ٠ ومما لا شك فيه ان النهضة الحديثة فى الغرب هى نتيجة لتلك الجهــود الفكرية الاسلامية ، وليست نهضة اوروبا التى تحققت فى عهد احياء العلوم ونقلــت الانسانية من العصر الوسيط الى العصر الحديث الا امتدادا لنهضتها الاولى التى استمدت مقوماتها من علوم العرب وآدابهم وفنونهم خلال القرن الثانى عشر ـ (انظر رحلة الادب العربى الى أوروبا ـ لمحمد مفيد ـ ص 21) ٠

ويقول المستشرق الايطالى فرانشيسكو (لم تكن قرطبة وحدها خلال أيامها الزاهرة فى القرن العاشر ، مركزا هاما للثقافة العربية الاندلسية، ولكن طليطلة واشبيليا وغرناطة وبلدان ريفية أخرى ، كانت كذلك مراكز كبرى لهذه الثقافة ، بل لقد ظل بعضها عــلى تلك الحال حتى بعد ان استردها المسيحيون ٠٠٠ ولم يكن للنشاط الفكــرى والروحى يومها فى تلك الآونة الخصبة التى امتدت فى القرن الثالث عشر أية حدود سياسيــة أو دينية ، بل ظل فخرا للحضارة العربية ، وما نما من قبساتها فى التربية الاوروبيــة ـ (انظر كتابه « العرب » الطبعة الفرنسية ـ ص 172) ٠ هذه شهادة أوروبى للفكــر الاسلامى وللحضارة العربية الاسلامية بالتأثير للفكر الاوروبى ابان نهضته ٠ واذا كان المسلمون قد أصيبوا بنكسات وانحطاط فيما بعد فالعيب ليس عيب الاسلام ولكنه عيب المسلمين انفسهم ٠ (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) ٠

ولكن طلائع العودة الى المجد الاسلامى العظيم والتضامن وتوحيد الصف بين الشعـوب الاسلامية قد اخذت فى البروز بشكل يدعو الى التفاؤل ولله الحمد ، وما مؤتمر القمــة الاسلامى الذى عقد قبل أيام بلاهور منا ببعيد !

وان ما يقوم به رؤساء الدول الاسلامية وعلى رأسهم جلالة الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية وفخامة الرئيس هوارى بومدين رئيس الحكومة الجزائرية الشقيقة وبقية ملوك ورؤساء الدول الاسلامية من جهود لاكبر دليل على تحقيق وحدة الفكر الاسلامى ومن ثم وحدة الامة الاسلامية صفا وهدفا· لتستعيد مكانتها الحقيقية بين أمم العالم كما كانت فى عهدها الزاهر · وما ذلك على الله بعزيز ·

أعود فاقول ان أهمية الفكر ودور المفكر اليوم وعلى مر العصور فى أمته وتجاه الانسانية فى كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل جد هام ولولا المفكرون وما يقومون به من أدوار تساعد على الاكتشاف والتنظيم والتخطيط والسعى لخير البشرية لكان هذا العالم فى مستوى متخلف بدائى يعجز عن توفير قوت يومه ومشربه وملبسه ! ولعاثت فيه الفوضى فسادا ·

يقول الاستاذ محمد الشوباشى : « ان الازدهار الحضارى الحالى ، المادى منه والمعنوى هو ثمرة عمل الانسان ، وخبرته المكتسبة من العمل ، وهذا العمل وهذه الخبرة رفعا مستوى ذكائه ووسعا أفق علمه ، ثم زاده ارتفاع مستوى ذكائه واتساع أفق علمه اتقانا لعلمه واستفادة من خبرته ، وظل هذا التأثير والتأثر المتبادلان المتواصلان يرفعان على التوالى مستوى حياته المادية ومستوى فنونه ، وآدابه على السواء ··· ان الادب والفن لا يعيشان بمعزل عن الناس ، ولا يتجاهلان معتقداتهم وميولهم ، بل يعبران عنها ويشرحانها · ويسموان بمقدار سمو تلك المعتقدات والميول ولا تخفى الرابطة بين هذا السمو وتقدم العلوم والمعارف « ان السعادة الحقيقية لا تتوفر للانسان الا باستشعار قدراته وهو يواصل العمل الابداعى للوصول بحياته الاجتماعية من الناحية المادية والمعنوية الى مستويات مطردة الارتقاء وتوطيد النظام الذى يكفل للناس جميعا الاستمتاع على قدم المساواة بالرفاهية التى يسفر عنها مسعاه · وعندئذ يسود الصفاء والاخاء فعلا » ·

نعم ان دور المفكر هام جدا · وتأتى أهميته عندما ننعم النظر فى التقدم البشرى فى الماضى والحاضر والمستقبل ، اذ لا يمكن بأى حال تصور هذا التقدم العظيم بدون وجود مفكرين عظماء قدموا لنا عصارة أفكارهم لفتح آفاق جديدة من السعادة والازدهار لمستقبل الانسانية فى شكل آراء مؤيدة بالادلة والحجج والبراهين وفى شكل بحوث ودراسات

واكتشاف فى مجال المعرفة البشرية ، **فالمفكر يقف خلف كل تقدم وبكل ما تعنيه هـــذه الكلمـــة**

ولكن هناك نقطة هامة جدا يجب الانتباه لها وأخذها بعين الحيطة والاعتبار ٠ ان المفكر يستطيع ان يكون عضوا عاملا فى اصلاح أمته والبشرية جمعاء ، كما يستطيع أن يكـون معولا هداما فى بناء مجتمعه العقدى والثقافى والحضارى ٠ وما نشاهده اليوم فى انحـاء العالم من رخاء وسعادة ، أو شقاء وضيق وحرب وتدمير كل ذلك نتيجة لادوار المفكرين المعتدلين او المنحرفين كل بحسبه ٠

فمثلا المفكر المسلم يختلف تماما عن المفكر الشيوعى الذى لا يعترف بدين ولا باله ٠ المفكر المسلم له هدف فى هذا الوجود يختلف كل الاختلافات عن الهدف الذى يهدف اليه المفكر المادى المنكر للبعث والحساب ٠

ومن هنا تاتى اهمية دور المفكر وخطورته ، وهذا بيت القصيد ٠ المسلم له مبـادؤه وأهدافه ومصادر تفكيره ومنابع وجدانه، ودوافع تأملاته ٠ انه يستمد تشريعاته من الكتاب العزيز والسنة المطهرة **ومن هنا نبدأ** ٠ من هنا المطلق والى هنا المصير ٠

المفكر المسلم له **أخلاقه وضميره** الذى يحاسبه فى السر والعلن ٠ أما **المفكر غير المسلم** سواء كان غربيا أو شرقيا فان مصادر تفكيره وأهدافه ونظرته الى الوجود وتقويمه للأشياء يختلف اختلافا واضحا عن مصادر وأهداف ونظرات المسلم ٠

ولذا فان دعاة التوفيق بين الفكرين يصطدمون بعقبة كأداء فى كثير من الاحيان !
ولا أعنى بذلك انكار ما قدمه الفكر الانسانى بعامة للاسرة البشرية من تقدم علمى وتطـور حضارى فكما قلنا **ان المعرفة حصيلة انسانية وشركة بشرية** ٠ ولكن المراد ان الفكـــر **الاسلامى يحول تلك الاكتشافات وتلك العلوم الى ما فيه صالح البشر واسعـادهـم فى دينهم ودنياهم ٠ انه فكر أخلاق ومثل ومبادىء ٠**

أما الفكر غير الاسلامى فانه غالبا يتخذ من تلك الجهود الفكرية والمخترعات العلمية الحديثة الهائلة وسائل تدمير للبشرية وتعذيب وابادة ٠ وكثيرا ما يسخر الاستعمار مفكريه لخدمة اغراضه الدنيئة وكبت حريات الشعوب والقضاء على المفكرين الصادقين والاحـرار

المناضلين · **وانتفاضة الجزائر ورجالها الابطال ضد الاستعمار الاجنبى قد اثبتت قـــوة ايمان الشعب الجزائرى المؤمن بعقيدته واخلاقه ومثله الاسلامية الفاضلة ·**

فعلى الشعب الجزائرى الشقيق المسلم وسائر الشعوب الاسلامية ان يتخذوا من ذلك درسا وان يعلموا انه لن يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها أن **لا حاكمية الا لله وحـده** ، وان الازدواجية فى أى شىء فكريا كان أو غيره تحدث البلبلـــة والاضطراب · وعلى المسلمين جميعا ان يحذروا الافكار المستوردة فهى وان لاح بريقها ولان ملمسها ففى ثناياها السم الزعاف والخطر المحدق · والحذر والحيطة مطلوبان فى كل شىء وما لم يكن المفكر مستمدا تفكيره من مبادئه ومثله وبيئته فانه يعيش غريبا فى مجتمعه وينطبق عليه المثل (أعرج وان رقص) وديننا ولله الحمد غنى بافكاره البناءة ومثله وأخلاقه المتـازة لبناء مجتمع انسانى متكامل مؤمن بربه يعمل بكل اخلاص فى سبيل مستقبل أفضـــل وحياة سعيدة للاسرة الانسانية بكاملها ·

والله الهادى الى سواء السبيـــل ···



مسؤولية المؤرخ كمفكر نحو المجتمع

د ٠ هوريست غريكه
« الجمهورية الديمقراطية الالمانية »

مرة اخرى تسمح لى الدعوة الكريمة للحكومة الجزائرية أن اشترك فى هذا الملتقى الكريم للتعرف على الفكر الاسلامى وأن يكون لى شرف لالقاء محاضرة فى هذه المجموعة الطيبة المؤلفة من طلاب الحاضر والمستقبل ٠

وارجو أن تسمحوا لى أيها السادة والسيدات ، ان اعبر لحضراتكم قبل كل شىء عن شكرى العميق للحفاوة البالغة التى قوبلنا بها فى مدينتكم الرائعة بجاية عاصمة الحماديين السابقة ، ذات التقاليد الفنية العريقة ، كما اود ان ابلغ لكم اطيب التمنيات من اصدقاء بلدكم الكثيرين فى جمهوريتنا ٠

ان الشعب فى وطنى ـ وخاصة جيل الشباب من ابنائه ـ ليتابع باهتمام بالغ وتقدير عميق التاثير السياسى المتزايد للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ٠

ان الجزائر اليوم تعتبر مثالا رائعا وقدوة طيبة للبلدان المتحررة فى قارتى آسيا وافريقيا ، فهى تلعب دورا كبيرا وملموحا تتزايد أهميته يوما الى يوم فى المعسكر المعادى للامبريالية ٠

ولعل سبب هذه الاهمية الزائدة يرجع فى المقام الاول الى ذلك الدور البطولى الذى لعبه الشعب الجزائرى عندما اراد التغلب على تبعات الاستعمار والتخلص من آثاره فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كما يرجع ذلك أيضا الى تلك السياسة الرشيدة الواعية لهدفها ، التى ينتهجها مجلس الثورة الجزائرى وجبهة التحرير الوطنى الجزائرية فى المجالين الداخلى والخارجى ٠

ولهذا فقد طلب منا طلابنا بالحاح ـ بعد عودتنا من الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى فى صيف عام 1972 ـ أن نخبرهم بما لمسناه فى بلدكم العظيم من نواحى التقدم والازدهار وأن نحدثهم بشىء عن تاريخه المشهور وعن قصص البطولة الملحمية فى مقاومة الجزائر العنيدة ضد الاستعمار والامبريالية ٠

أيها الاصدقاء الاعزاء ،

وأنتم تحتفلون فى هذا العام بمرور عشرين عاما على ملحمة الكفاح المجيدة لشعبكم فان قلوبا كثيرة فى انحاء العالم المتحرر تخفق مع هذه الذكرى الرائعة ، ولن تمر هذه المراسم الجليلة دون الاحتفال بها فى مدارس جمهوريتنا ومصانعها ، وان لجنة الصداقة بين الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية وجمهورية المانيا الديمقراطية والتى أتشرف أنا بعضويتها لتعمل جاهدة على تعزيز أو اصر الصداقة وتوثيق الروابط والعلاقات بين البلدين كما انها تؤدى دورا اعلاميا كبيرا عن جمهوريتكم فى كل الاوساط الجماهيرية بجمهوريتنا ٠

أيها الاصدقاء الاعزاء ،

اسمحوا لى أن أتقدم الى الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى نيابة عن لجنة الصداقة الجزائرية الالمانية بعاطر تحياتى متمنيا له كل التوفيق والنجاح ٠

دارت محاضراتى فى الحلقة الدراسية السادسة حول تأثير العالم الاسلامى فى اوروبا وابان العصور الوسطى ، وبوجه خاص حول نصيب العالمين الجليلين ابن سينا وابن رشد فى تطوير التفكير العلمى . واليوم أود أن أتناول طائفة من الافكار التى أدليت بها آنذاك واصلها بغيرها ، ثم ابتدى بعض الملاحظات حول مسؤولية العالم بصفة عامة والمؤرخ بصفة خاصة ازاء المجتمع .

كثيرا ما يطلق على زمننا الحاضر عصر العلم ، يقصدون بذلك أن تأثير المعارف العلمية فى تطور المجتمع الانسانى وفى حياة الفرد آخذ دائما فى الازدياد والعمق وليس هذا التأثير ايجابيا دائما ، بل كثيرا ما يكون سلبيا . والاصوات التى تبرز الجانب السلبى وتخصه بالذكر ، تشتد وتعلو حتى لتصل فى أحوال ليست نادرة الى درجة معاداة العلم. والدوافع الى مثل هذا الموقف متعددة الجوانب . ان هذا الموقف المتشائم لا يثبت الا اذا اغفلنا أو تغافلنا الوجهين الملازمين لمفهوم العلم . ذلك أن العلوم تنهض من ناحية بمهمة البحث عن الخصائص الرئيسية ، وارتباط العلة بالمعلول والقوانين فى الطبيعة والمجتمع والتفكير ، ثم صياغة ما مرت به من تجارب فى صورة نظريات وفروض وقوانين . ومن ناحية أخرى ، تتخذ المعارف الجديدة المكتسبة أساسا لعمل بشرى آخر ، وتوضع موضوع التطبيق العملى . ولا تنفصل الوظيفتان الاجتماعيتان الموضوعيتان للعلم عن بعضهما الا فى النظرية . أما فى الحقيقة والتطبيق فذلك محال .

ان الدعوة التى تنادى - اعتمادا على التقاليد واحيانا بحسن نية ، الى العلم للعلم كغاية فى ذاته تزاوله الخاصة وترفض كل فكرة لاستخدامه واستغلال اثره على انها دنيوية أو مادية ، أقول ان مثل هذه الدعوة بعيدة عن الواقع وعواقبها ضارة . فهى تفضى بالعلم حتما الى الجمود لانها تسلبه دليل صحته الذى لا يثبت الا بالتطبيق ومن خلاله ، وتنزل به الى درجة اللعب بالافكار الذى لا طائل تحته .

اتضح لنا اذن أن اكتساب المعارف واستخدامها يؤلفان وحدة لا تنفصم عراها . كما لا يوجد علم لذاته ، لا يوجد استعمال « لذاته » دون فائدة تجنى منه ، بل أن كل معرفة علمية فى وسعها أن تعود على المجتمع البشرى بالنفع ، كما تصيبه أيضا بالضرر .

فاقتحام عالم الفيروسات والجراثيم مثلا قد مكن الانسان من مكافحة كثير من الامراض الخطيرة ومن زيادة خصوبة الارض الزراعية الى غير ذلك من الانتصارات الباهرة فى مجال تحسين الحياة ٠

ولكن من جانب آخر استخدمت نفس هذه المعارف استخداما اجراميا بشعا فى صناعة اسلحة الجراثيم التى تبيد سكان أقاليم باكملها وتجعلها خرابا لا يسكن ومثال آخر : بمساعدة علم الوراثة سيتمكن الناس من زيادة المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية زيادة هائلة وبهذا يسهل مكافحة الجوع فى العالم ٠ ومع هذا فان نفس هذا الاطلاع على القوانين الطبيعية يفتح أيضا آفاقا مروعة تطل على عالم من الاشباح ، مسخت فيه الاحياء بيولوجيا ، حتى لانها تصبح أقرب الى الانسان الآلى منها الى البشر ٠

وازاء هذه الآفاق المفزعة والمنذرة بالخطر ينبغى على العالم ، اليوم أكثر من أى وقت مضى ، الا يتنصل من المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه لاستخدام معارفه استخداما صحيحا ، حتى لو شعر أن فى ذلك تكليفه ما لا يطيق ، لان ليس له سلطان يذكر على الاستخدام الفعلى لنتائج عمله ٠ وفى المرحلة الاخيرة يناط استخدام نتائج البحث العلمى سواء أكان ايجابيا أو سلبيا بالطابع الانسانى أو غير الانسانى للدول والمجتمع اللذين يسخران العلم فى خدمتهما ٠

لهذا من الضرورى تحليل هذا الطابع تحليلا شاملا والتعرف اليه حتى يمكن تغييره بمساعدة كل واحد من العلماء والتزامه الواعى ، وبذلك لا يمكن تسخير الغايات الانسانية السامية للروح العلمى فى منفعة فئة قليلة فى ظلم الشعوب والامم الاخرى ، وفى مصالح الاستعمار والاستعمار الجديد ، بل تستخدم من أجل رخاء كافة الشعوب وتوفير السعادة والسلام لها ٠

والمقدمة لحل هذه المشكلة هى المعرفة الصحيحة للعوامل والبواعث التى تفضى بالمجتمع الى التغيير وتدفع تطوره الى الامام أو تعوقه ٠ ولا يمكن الوقوف على هذه العوامل من مجرد تحليل الظواهر والظروف المعاصرة فحسب ، بل يجب تتبع العلائق والروابط المنطقية حتى نشوئها وتكونها ٠ ان من يعرف الماضى ويدركه هو وحده الذى يستطيع ان يفهم الحاضر ، وأن يملك زمام المستقبل ٠

وخليق أن ننوه هنا فى بجاية بذكر واحد من أوائل المفكرين فى تاريخ البشرية الذى وضع الاشتغال بالماضى الى درجة العلم ، وأعنى به : ابن خلدون ، فقد تقلد هنا كما لا يخفى ، منصبا سياسيا هاما من 1365 ــ 1368 وجمع بالتأكيد اثناء ذلك جزءا من خبراته التى عرضها بعد ذلك بسنوات فى المقدمة وفى الجزء الاول من تصنيفه المشهور « كتاب العبر » • واليوم بعد انقضاء قرابة 600 سنة على تاليف هذا الكتاب ، لا تزال لكثير من افكاره جدتها وتنتزع الاعجاب والتقدير •

ولا يحق بالطبع لمن لا يستطيع قراءة المقدمة فى لغتها الاصلية ، بل يقرأها مترجمة أن يتحدث فى جمع من خيرة العارفين بابن خلدون حديثا عاما عن عالم من الطراز الاول مثله، بل ليس له أن يشترك فى النزاع حول تفسير عبارة أو أخرى لهذا السياسى والديبلوماسى وأهمية ابن خلدون البالغة بالنسبة لى كغير مسلم ترجع الى انه حاول فى القرن الرابع عشر أن يتعمق فى دراسة الاسباب الطبيعية والموضوعية لعملية التطور التاريخى وأنه استطاع أن يستخرج قوانين معينة لسير التاريخ • وبهذه المفاهيم فاق جميع معاصريه، وسبق الى أفكار لم تنشأ فى أوروبا الا بثلاثمائة سنة بعد ذلك على يد الطبقة الوسطى التقدمية •

ومع ذلك فمن الخطا قبول جميع آراء ابن خلدون ومنهجه كله دون نقد ، ولا يمكن أن نفهمه حق الفهم الا من خلال عصره والظروف التى سادت فيه ، فتصوره مثلا لدورة الحدث التاريخى الدائمة هى انعكاس لخبرات عصره ، ابن خلدون عالم بنشأة العالم العربى ونهضته وازدهاره ، وها هو يشهد اضمحلاله وانقسام شمال افريقيا بين أسر حاكمة كثيرة تدب بينها العداوة والبغضاء ويشهد أيضا الاضرار الفادحة التى نزلت بالتجارة والحرف والزراعة والعلوم والفنون من جراء الهجمات الدائمة لقبائل البدو المنتقلة • وحسب ابن خلدون يمر كل مجتمع بطور شباب أو بداوة يقوم على الحياة والقيم البدوية الخشنة ، ثم يعقبه نتيجة لحياة الحضارة عصر ترف وازدهار ، تذهب فيه القيم البدوية الى غير رجعة ، ويكون فى ختامه تبعا لذلك الانقسام والخراب على يد مجتمع جديد ما زال يقف على اعتاب طور الشباب والبداوة •

ونحن ندرك اليوم القيود التاريخية لنظرية الدورة هذه ولا نستطيع أن تقبلها فى هذه الصورة ٠وحسب فهمنا يبالغ ابن خلدون فى أهمية العصبية وروح الجماعة ٠ من المؤكد أن الوعى بالتضامن بين مجموعة بشرية تنتسب الى عرق واحد ، قد يكون ذا أهمية تاريخية ، الا أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تقوم بدور المحرك الرئيسى فى التطور الاجتماعى ، كما يصورها ابن خلدون ، وقد بين لنا التاريخ دائما ، أن الروابط العائلية أو العرقية لا تثبت طويلا أمام الاعباء الثقيلة ٠ وابن خلدون نفسه يعترف بهذا على الاقل فى فترة الاضمحلال ٠ ويغض النظر من كل هذا فان الانكباب اليوم على كتاب هذا العالم المغربى أجدى بكثير من مطالعة كثير من المحدثين ٠ فبينما يعترف ابن خلدون بقواعد ومقاييس تسود التاريخ وينصح بمقارنة الحاضر بالماضى حتى نستخلص العبر من التاريخ ، نجدهم اليوم فى أوروبا الغربية وامريكا كثيرا ما يستبدلون التاريخ بعلم اجتماع لا تاريخى ، أو يضعون نصب أعينهم عدم الاعتراف بالقوانين ، وانما يكتفون باعطاء وصف مجرد للاشياء الفريدة فى نوعها ٠ وهم يرفضون استخراج العبر من التاريخ ، متعللين بان التاريخ متسم بالاضطراب والفوضى ٠ ويبلغ هذا الفهم ذروته فى القول بعدم جدوى التاريخ مطلقا ، وبذلك ينكرون المعالم المنطقية لعملية التاريخ ويذهبون الى أن استمرار سير التاريخ يبقى مفتوحا على الاطلاق ٠ ان هذا التشاؤم العميق ازاء التاريخ ليس من شانه فقط تدمير العلاقة بين الانسان وماضيه ، وانما يحول أيضا دون استلهام الماضى واستمداد القوة منه لخلق اعمال ومآثر جديدة ٠

ومن المميزات الواضحة للدول الوطنية المتحررة ان مثل هذا الموقف ازاء التاريخ لا يوجد فيها أو يكاد ـ لقد أيقظ تطور حركة التحرير الوعى التاريخى المتزايد بين الشعوب المكافحة من أجل استقلالها ـ ان تذكر التقاليد المجيدة قد أسهم فى كثير من الاحيان فى الصمود أثناء الكفاح وفى تكليله بالنصر ، وانى أسوق هذه الحقيقة ، التى لا نزاع فيها ، دليلا على أن الوعى التاريخى المتفتح يؤثر تاثيرا فعالا فى الاعمال السياسية ـ الفعلية للبشر ـ من هذا يتضح لنا الاهمية البالغة لمسؤولية المؤرخ ازاء المجتمع ٠ فعلى سبيل المثال اتضح من ماضى بلادنا أنه من الممكن استغلال تاثير التاريخ لاهداف رجعية ذلك أنهم فى القرن التاسع عشر قد الهبوا حماس الشباب بوجه خاص

للروح العسكرية والحكم الاستبدادى والاستعلاء القومى وروح الانتقام والعنصرية . وزجت به مثل هذه الافكار الفاسدة التى غذتها مصالح الاستعمار الالمانى الاجرامية ، فى حربين عالميتين ، لقى فيهما حتفه .

ولهذا كان على عاتق علم التاريخ فى جمهورية المانيا الديمقراطية أن يستخرج من ذلك عبرة ، وأن يقوض الصورة التاريخية القديمة التى قامت على تقاليد قومية ورجعية وأن يرسى فى مجالى البحث والتعليم الاسس لوعى تاريخى سليم عند كل المواطنين ، ولا سيما الشباب منهم ، يعكس فى دقة الواقع التاريخى . وفى مدارس ألمانيا الديمقراطية يحظى تدريس التاريخ بأهمية خاصة ابتداء من الصف الخامس حتى الصف الحادى عشر . ان برنامج التعليم عندنا يسعى جاهدا أثناء عرضه لخصائص تاريخ شعبنا ، بنهضاته ونكساته ، الى ربطه بالاحداث التاريخية العالمية . ومن خلال ذلك يؤكد على وجوه الاتصال المتنوعة والعلاقات والتأثير المتبادل بين الشعوب ، تحاشيا من البداية لكل صورة تاريخية قومية تتسم بالتحيز .

ان تربية الروح الوطنية التقدمية والروح العالمية الحقة هذه ، ستقاوم فى وعى تام الاستعلاء القومى والمغالات فى الوطنية (الشنوفينية) . والتمييزين العنصرى والثقافى واحتقار الشعوب ، وهذه كلها أمور تدفع الاستعمار الى تزييف التاريخ وتشويهه .

وعلى هذا النحو يمكن أن يحقق التاريخ وظيفته الاجتماعية ويضع حجر الاساس لوجهة نظر سياسية سليمة ولعمل اجتماعى واعى الاهداف ، كيلا تفنى البشرية نفسها عن طريق اساءة استخدام العلم . وانما نستخدم روح البحث الدائبة فى التقدم نحو سلام البشر وسعادتهم

والسلام عليكم .

نشأة علم الكلام فى الإسلام

د . جوزيف فان ايس
مدير المعهد الشرقى بجامعا كوبنجن
جمهورية المانيا الديمقراطية

ليس علم الكلام ظاهرة من صميم الاسلام كما هى الحال فى المسيحية فنظام التعليم فى العصور الوسطى الاسلامية ركز على الفقه والحديث ، والمدارس والمساجد أمنحت كراسيها للشريعة وليس لعلم الكلام ، وحتى المدرسة النظامية الشهيرة التى أسسها الوزير نظام الملك قبل الحرب الصليبية الاولى بعدة عقود والتى اعتبرها البحث الاوروبى زمنا طويلا صاحبة فضل التحول الى النقيض، أى انتصار علم الكلام الاشعرى - فانها لم تسهم كثيرا فى تغيير الوضع وعندما يحاول الاسلام فى أيامنا هذه أن يتكيف وفق متطلبات العالم الحديث فانه لا يفعل ذلك بتمرسه بالمفاهيم الكلامية والفلسفية وانما بتوفيره حلولا جديدة لمشكلات شرعية عايشها مجتمعه المتدين منذ البداية غير أن المستشرقين الغربيين يحافظون على طريقتهم فى تقييم الامور حيث يفهمون تاريخ الفكر الاسلامى بالدرجة الاولى على انه تاريخ كلام وفلسفة ، وليس تاريخ فقه .

واذا كنا لا نرغب فى أن نغير من أساليبنا الخاصة فلا بد ـ على الاقل ـ من تقديم مسوغ لذلك . ويكمن هذا المسوغ فى ان علم الكلام كما يبدو قد حظى بالاهتمام فى القرون الاسلامية الاولى حينما لم تكن الحياة العقلية قد استقرت استقرارا كاملا ، وأن علماء اشتغلوا بعلم الكلام ممن لم نسمع كثيرا عن اشتغالهم بالفقه ولعبوا دورا هاما لدى بلاط العباسيين الاول فى العاصمة بغداد المدينة الجديدة ولم يطغ الفقه على سخر علم الكلام الا فى وقت لاحق بعد المحنة التى شرعتها الحكومة فى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى حتى صار الفقه علم الامان . فاختلاف الرأى فيه لا يوجب الحظر والمقاضاة . اما علم الكلام فاكتسب صفة اللعبة الخطرة التى لا يمارسها الا المفكرون المنغلقون على أنفسهم .

أما الآن وقد عرفنا أن ما قامت به الدراسات الاسلامية فى أوروبا لم يكن قط عبثا فلنتحاشى على تسويغ تحيز منهجى ثان اتسمت به الدراسة الاوروبية ويكمن أيضا فى صيغة موضوعنا هذا وذلك هو الاعتقاد فى أن البدايات أمتع وأهم من النهايات فالفلاسفة قبل سقراط يسحرون عقولنا أكثر من افلوطين وحسن البصرى أشد اثارة لنا من عضد الدين الايجى ، والعلماء الشباب يبشرون بالخير اكثر من العلماء الشيوخ ، على أن البداية تحدثنا عن كيفية مجىء الشىء الى الوجود وأحيانا عن سبب ذلك . فلا شىء فى التاريخ واجب الوجود ، وانما يدرك الامر بعد وقوعه وحينذاك يساورنا شعور بأن ما حدث كان لا محالة حادثا . ورغم ان علم الكلام لازم الاسلام تقريبا على الدوام ، فانه لا يجوز القول ان الاسلام لم يكن بقادر على أن يستغنى عن علم اللاهوت الى الحد الذى نماه الاسلام ، وعندما فعلت ذلك (يخطر فى بالى سعديا القيومى) انما فعلت ذلك تأثرا بالاسلام وبين المسلمين عدد كبير ممن يمنوا على دينهم الاستغناء عن علم الكلام فلماذا اذن علم الكلام وكيف بدأ ؟

يحاول المستشرقون أن يجدوا الجواب على وجه العموم بالرجوع الى المعتزلة premiers penseurs de l'Islam كما دعاهم البير نصرى نادر . ويعنى ذلك العودة الى القرن الثانى الهجرى ، الى واصل بن عطاء المتوفى عام 130 هـ أو عمرو بن عبيد المتوفى حوالى 144 وضرار بن عمرو شخصية « المدرسة » الاولى من لدينا عن تصوراته الكلامية

معلومات تكاد تكون كافية ، المتوفى حوالى 200 • وكان ضرار صاحب منهج بخلاف واصل الذى قلما كان • وربما نعرف الكثير عن مقاصد واصل الاصلية لو عرفنا جيدا غـرض دعاته المعروفين والذين ذكرهم صفوان الانصارى فى شعر له ، هل هم مبشرون بعثـوا ليدعوا غير المسلمين الى الاسلام ، وكان هؤلاء منتشرين فى المعمورة الاسلامية ، فى المدن بل هم اكثر فى الارياف • وكان واصل مشتغلا بالدفاع عن الاسلام ، ولا زالت الاجيال المتعاقبة تتذكره بالالف مسألة كتبها فى الرد على المانوية وهكذا قدر لعلم الكلام أن يبدأ على شكل صراع الدفاع بالحجة ضد الكافرين •

غير اننا لسنا بحاجة على أن ندخل فى تخمينات حول هذه النشاطات فواصل والمعتزلة ليسوا كما يبدو مفتاح مسألتنا • علم الكلام موجود قبل المعتزلة وفى القـــرن الاول الهجرى ، فمن غير المحتمل أن كل الحركات الغرقية التى وسمت الحياة الفكرية فى زمن الامويين الاول ــ الخوارج والقدرية والمرجئة ــ خاضت معترك السياسة دون أن تنمى أية بقية نظرية فوقية • أجل بامكاننا أن نثبت عكس ذلك فحوالى 75 هـ بدأ الخليفـة عبد الملك بن مروان مراسلة الاباضية فى البصرة وما زالت الرسالة محفوظة فى مصدر خارجى متأخر • وحوالى الوقت نفسه وليس بعد 80 هـ على الاقل كتب الحجاج واليه على العراق وبتحريض منه رسالة الى الحسن البصرى طالبا منه أن يوضح أصول العقيـــدة القدرية وحججها • ورد الحسن البصرى لا زال محفوظا • ومنذ أن حقق H. Ritter النص فى عام 1933 لم يشك أحد فى صحته شكا جديا • واستنادا الى الحجج كلها معا ، اظن أن ذلك يستحيل حقا •

وتبقى مشكلتان لابد من حلهما : فلا زالت كمية النصوص ضئيلة جـدا رغم تلـك الوثائق ولم يعثر فى الوثيقتين المذكورتين بعد على الاسلوب الفنى الخاص بعلم الكـــلام المعتزلى ذلك التركيب الجدلى بين السؤال والجواب والمسمى كلاما وهو المصطلح المميـز الذى حدد به العرب دائما طبيعة ما يقال له باللغة الفرنساوية ،« théologie »فينبغى ان نلاحظ الفرق بين المصطلحين المسيحى والاسلامى • يسمى ما يفعل فى هـــذا العلـــم بالفرنساوى أو اليونانى وفقا للمضمون. théologie أى معرفة اللغة فبينما يسمى فى الاسلام وفقا لشكل الجدول كلم الخصم أى سأله مسائل وحصر موقفه فى أقوال لا

معنى لها . ولا يعنى هذا انعدام طريقة أخرى للتعبير كلا ولكن ذلك يؤكد طغيان هذه الاداة الاسلوبية المعينة وفيها وجد الهدف الجدلى فى علم الكلام المعتزلى المبكر شكلها الملائم . ويختلف الوضع فى القرن الاول الهجرى فكل من رسالتى الاباضية والحسن البصرى علم الكلام على اعتبار انها تعنى بمسائل كلامية غير انها ليست أسلوب كلام ، هل نستنتج من ذلك أن لا كلام قط فى تلك الايام ؟ ربما من العجل أن ندعو ذلك نتيجة لمجرد انها بقيت على حجة الصمت ومن النصين المذكورين نفهم أنهما لا يفضلان استعمال الكلام فلا الحسن البصرى طلب منه الدخول فى حوار خيالى مع خصومه ولا الاباضيون كما يفترض عادة فى نصوص الكلام المتأخرة . وانما طلب منهم تبيان افكارهم وهذا ما فعلوه اضف الى ذلك أنه اذا كنا حقا نبحث عن مادة تومى الى الاتجاه المعاكس فقد نخرج بفقرات قليلة وثيقة الصلة بالموضوع ليس الا محمد الباقر امام الشيعة الخامس المتوفى سنة 117 هـ يرد ذكره على أنه استعمل حجة كلامية ضمن رواية أوردها المؤلف الشيعى الكلينى فى كتابه الكافى عمر بن عبد العزيز (حكم من 99 الى 101 قيل انه شدد على مهارته فى الكلام ولا سيما فيما يتعلق بمناقشاته مع الشيعة . وأحدهم صحار العبدى والذى كان وثيق الصلة بالاحنف بن قيس وبمعاوية وقيل أنه عاش زمنا فى حياة النبى روى عنه المؤلف المتأخر الشماخى الخارجى أنه نصح فى القدريين بما يلى : « كلموهم فى العلم فان اقروا به نقضوا ، وان انكروا كفروا » . وسحار العبدى هو معلم العالم الاباضى المعروف أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمه التميمى الذى عاش فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى فيصح أن نفترض أن لديه نظرية جبرية معتدلة تشبه تلك التى لدى الاباضية وتشبه الفقرة السالفة الذكر فى محتواها تقريبا ما قد يتوقعه المرء من رجل كصحار . أما فى الفاظها وتراكيبها فتنتظرنا مفاجأة واذا كانت الفقرة صحيحة فيكون قد ثبت لدينا أن الفعل كلم وربما الاسم كلام جارى الاستعمال فى هذا النوع من النقاش الكلامى بل أنه ثبت لدينا أيضا أن ملمحا من أكثر الملامح الفنقية تكرارا فى الجدل المتأخر وهو الابتداء بالتخبير بمن شبيئين واستعمال الفنقلة لم يكن غير معروف لدى علماء القرن الاول .

فهل ياترى هذه النصوص صحيحة ؟ لنعتبر بتحذير النظام المعتزلي حشد الاكاذيب لا يؤدى الى الصدق ونحن نقول بلسان حالنا ان حشدا من الشكوك لا يمكن أن تبنى عليه حقائق تاريخية والشك قائم فى صحة هذه الشواهد فمما يشك فيه أن أئمة الشيعة ولا سيما جعفر الصادق واباه محمد الباقر كانوا بمثابة تعلة تتخذ تنتسب اليهم افكـار من لحقهم من الرواة وصورة عمر بن عبد العزيز التاريخ مشوهة فقد حاول المؤرخـون المعاصرون له أن ينعتون بمصلح بنى أمية الكبير بل هو فى رأيهم مهدى سنة الحمـار (100) وكما اسلفنا القول فان المصدر الذى يروى لنا عن صحار العبدى متأخر فالشماخى توفى سنة 928 هـ وابن سعد ذكر صحارا بكلمات قليلة فقط فالنظرية المطروحة اذن والتى نود ان ندافع عنها ـ وهى أن الحضارة الاسلامية لم تتم علم الكلام ولا سيما فى الكلام وانما نمت معه ـ لا يكفى ان تقام على مواد مفككة كهذه لا سيما وهى نظريـة جذرية • لقد ألفنا الرأى القائل عرب الصحراء هم ارباب الشعر واللغة وانهم لا يثقفوا صنعة المدن كعلم الكلام بدأت حضارتهم من فراغ ثم تخلصوا شيئا فشيئا من سجاياهم الموروثة كما اننا نلتزم بالرأى السائر وهو أن الادب فى أيام الامويين كان يروى شفويا ولذلك يصعب علينا قبل امكانية الانتاج الكلامى المدون آنذاك • فنحن بحاجـة اذن الى أكثر من شاهد للتدليل على ذلك والشواهد متوفرة ورغم ان امكانية الشك فيها قائمـة الا انها ترسى قاعدة لنقاشنا أعرض واثبت فمن بين كتابات الامام الزيدى الهـادى الى الحور يحيى بن الحسين المتوفى 298 رد على رسالة زعم أن الحسن بن محمد بن الحنفيـة كتبها ضد القدريين والامام الهادى هو مؤسس الجماعة الزيدية فى اليمن وحفيد القاسم ابن ابراهيم الرنسى المشهور • والحسن بن محمد بن الحنفية هو حفيد على وأخو ابن هاشم المعروف الذى اتخذه الكيسانية أماما وقيل انه بلغ تركته الى العباسيين ورد الهـادى محفوظ فى مخطاطات عدة مرفق به عدد كبير من نفس النص الذى يجاوز ويعود بنا هذا النص مرة أخرى الى القرن الاول الهجرى فقد توفى الحسن بن محمد بن الحنفية بين سنة 99 وسنة 101 ان لم يكن قبل ذلك وفى هذا النص نلتقى مرة أخرى أيضا بتركيب الفنقلة نفسه الذى كنا قد وجدناه فى نصيحة صحار العبدى مع ما يرافق من نقاش طويل حول

تفسير آيات من القرآن وثيقة الصلة بالموضوع . على أن التركيب هنـا ليس مفككـا ولا مشتتا بل يتخلل النص كاداة تعبير مقصودة ولنضرب على ذلك مثلا أو مثلين :

يقول الحسن بن محمد بن الحنفية مخاطبا خصومه من القدريين أخبرونا الخير اراده الله بهم (يعنى بالعباد) فوضعها (النار) فيهم أم الشر اراد بهم ؟ فان قالوا الخير اراده بهم فيقال لهم وكيف ذلك وقد جعلها (يعنى النار) وقد علم انهم لا ينتفعون بها وانهـا لا تكون الا فى مضرتهم . وان زعموا أنه جعلها فيهم ليضربهـم انتقـض عليهـم قولهـم « ولربما كانت هذه المحاجة محتاجة الى تعليق فهو يقول ان كانت النار قـد خلقت منـذ البدء فقد قدر الله الشر والا كان هذا الفعل لا معنى له والحجة كما تبدو قاصرة فقد غفل عن ذكر اعتراضين على الاقل، فقد تجيب القدرية ان الله لم يقدر الشر وانما كان على سابق علم به ، وسبق المعـرفة لا تعنى الجبر وقـد تدعى القدرية ان النار لم توجـد بعد وانما ستوجد بعد يوم الحساب عندما تدعو الضرورة لذلك وكلا الاعتراضين معروف فقد اقترح الاعتراض الاول الحسن البصرى فى رسالته الى الخليفة عبد الملك والثانى قال به ضرار ابن عمرو . المتكلم المعتزلى فى القرن الثانى الهجرى وبما ان المؤلف قد غفل عن ذكرهافىهذا النص فان ذلك دلالة كما يبدو على انه لم يكن يعرفهما اذ انه لو لم يذكر فعـلا كـل الذرائع التى يمكن توقعها من القدرية فان ذلك يعنى ان رسالته ليست كتاب الاشـاد للجبرية فى كيفية تناول حجم الفردية والفقرة التالية تبين ان ذلك بالفعل كان مقصده قال الحسن فيها :

« هل يستطيعون (يعنى القدرية) ان يجهلوا ما جعلهم اللـه بـه عارفـين ام لا يستطيعون ؟ فان قالوا : لا فقد انتقض قولهم عليهم ان قالوا : نعم فقل هل يستطيعون ان يجهلوا معرفة الله فلا يعرفون انه خالق كل شىء ومصدر كل شىء ؟ فان قالوا هذه الفطرة وليس يثاب احد عليها فالخلق كلهم يعرفون انه الله ، فقال : هل يستطيعون ان يجهلوا الليل والنهار والسماء والارض والدنيا والآخرة والناس والخلق كلهم ان اللـه جعلهم كما شاء وكيف شاء ؟ فان قالوا : نعم فقد كذبوا والناس كلهم شهود على كذبهم . وان قالوا : لا فقد تابعوك » .

وكما رأينا فان الخطة نفسها قد طبقت فى خطوات عديدة لتضم كل الحجج المقارعة المعروفة فى الفترة التى كتب فيها الكتاب ومستوى النقاش يتلاءم والوضع فى أواخر القرن الاول وكان عيلان الدمشقى الذى اعدم أيام الخليفة هشام بن عبد الملك (105 ـ 125) قد استعمل مصطلح الفطرة بمعنى خاص ولدينا شواهد كافية تدل على أن ظهور هذا المفهوم يعود الى القرن الاول الهجرى • القرآن وحديث الفطرة المشهورة الذى رواه ابو هريرة والحجة التى أبرزها الحسن بن محمد بن الحنفية قاصرة فما من قدرى ينفى ان من يعرف شيئا لا يستطيع أن يجهله ، ولكن القدرية ترى ان بجانب الفطرة كثيرا من المعلومات لا يعرفها الانسان ضرورة وانما يكتسب معرفتها بالنظر الفعلى فالموقف ـ كما نرى ـ غير مسلم الماما جيدا بالاعتراضات التى يمكن أن يطرحها الموقف القدرى وقد كان مقصده ان يؤلف كتابا مرشدا يتناول فيه « بدعة » القدرية تناولا حسنا ولكن الافكار التى يحيل اليها أو يأتى بها نفسه أفكار غير ناضجة وهو أمر يدعو الى العجب على ان هذه البدائية صفة تقم بها كل تلك النقط تقر وخير توضيح لذلك هو الافتراض ان تاريخ هذا الكتاب يعود الى زمن كان علم الكلام فيه لايزال فى أول أمره ، مع العلم انه ليس فى الا ربعين قطعة التى نسخها الهادى الى الحق اثبات داخلى يشير الى بطلان النص •

على ان مقاومة اغراء الشك أمر عسير هل مجرد على ان نفترض ان كتابا كهذا قد كتب فى زمن مبكر حين كان صنع الورق فى بلاد العرب غير معروف وورق البردى وجلد الرق من الغلاء بمكان ؟ هل تستحق القدرية مثل هذا العناء وتلك الاثمان فى زمن كانت ميادين النشاط الادبى الاخرى لا زالت محدودة : ؟ أضف الى ذلك أن تحامل الحسن بن محمد بن الحنفية على القدرية وهو أمر نسلم به الآن ـ قد أهملته كتب التراجم فنسمع فقط انه كان يعنى بمسائل الكلام غير انه يبدو ان وجهة نظره كانت مختلفة اذ قلما نسى مصدر • « ذكر كون أول المرحلة أو اقتباس بعض ما فى كتابه ما فى الارجاء وهو أول كتاب فى موضوعه على أن لهذا الاثبات السلبى ناحية ايجابية فاذا كان الحسن بن محمد ابن الحنفية حقا قد ألف كتاب الارجاء فلسنا بحاجة الى ان نفكر مليا حول امكانية وجود انتاج كلامى فى زمن الامويين الاول بل اننا أكثر استعدادا للتصديق فان المؤلف نفسه

قد كتب كتـابا آخـر حول مسائـل كلامية وكونـه مـن المرجئة لا يعنى أنه كان جبريا فالموقفان كثيرا ما اجتمعنا ٠

وقد اقتبس الذهبى المتوفى 748 أو 752 فى كتابه تاريخ الاسلام وابن حجر المتوفى 852 فى كتابه تهذيب التهذيب كثيرا من كتاب الارجاء فالكتاب اذن كا نمتداولا حتى القرن التاسع واذا لم يكن قد عرف منفردا فقد عرف من خلال مصادر ثانوية وقد درس W. Madelung هذه الاقتباسات وشدد على صحتها وفيما بين ذلك من الزمن استطعنا أن نوسع من قاعدتنا فقد حصلنا على المصدر الذى اقتبس منه ابن حجر وهو كتاب الايمان لابى عمر العدنى المتوفى 243 وفيه يرد النص كاملا كتب على ثلاث ورقات تقريبا ونحن قد لا نفيد من النص فى مهمتنا الا وهى البحث عن امثلة لعلم الكلام اذ يرد على صيغـة رسالة كتبت الى الشيعة والعراق أى كرسالة الحسن البصرى الى عبد الملك كما انهـا قد لا تسهل علينا مهمتنا فتعطينا بعض الملامح الفنية الكلامية التى ذكرناها آنفا ولكنها تعطينا معلومات غزيرة عن موقف المؤلف السياسى وبذلك تتيح لنا فرصة الحكم عـلى مواقفه الكلامية وهذه فقرة منالرسالة يقول «فمن أراد أنيسايلنا فىأمرنا ورأينا فانا قوم: الله ربنا والاسلام ديننا والقرآن امامنا ومحمد نبينا ونرضى من أمتنا بابى بكر وعمـر ونرضى أن يطاعا ونسخط أن يعصيا ونعادى لهما من عاداهما ونرجى منهم أهل الفرقـة الاول ونجاهد فى أبى بكر وعمر الولاية فان أبا بكر وعمر ولم تقتل فيهما الامة ولم تختلف فيهما ولم يشك فى أمرهما وانما الارجاء فيمن عاب الرجال ولم نشهده وممن نعادى فيهم سبئية متمنية ظهروا بكتاب الله واعلنوا الحربعلى بنى أمية ٠٠٠٠٠ ينقمون المعصية على من عملها ويعملون بها اذا ظهروا بها يبصرون فتنتها وما يعرفون المخرج منها اتخذوا أول بعث من العرب اماما وقلدوهـم دينهم تقلدن على حبهم ويفارقون عـلى بعضهم جفاة على القرآن اتباع الكهان يرجون دولة تكون فى بعث يكون قبل الساعة ٠٠٠ حرفـوا كتاب الله وارتشوا فى الحكم وسعوا فى الارض فسادا والله لا يحب المفسدين ٠

ومن خصومة هذه السبئية التى أدركنا ان يقولوا : هدينا بوحى ضل عنه الناس وعلم خفى ويزعمون أن نبى الله كتم تسعة أعشار القرآن ولو كان نبى الله كاتما شيئا مما أنزل الله لكتم شأن امرأة زيد ٠٠٠٠٠

املى الحسن بن محمد بن الحنفية هذه الرسالة على مولاه عبد الواحد بن أبى وكان كما يبدو على وفاق معه وكان عبد الواحد مقيما بمكة فطلب منه أن يتلو الرسالة فى كل مكان كما اننا نسمع عن استماتته فى عقيدته لدى خلفه النسابة الكوفى ابن الصقيب جخذب ابن حرب فلا ريب .اذن من أن الرسالة قد وجهت بالدرجة الاولى الى المتطرفين من فرق الشيعة المنشقة فى الكوفة فالسبئية الذين يهاجمهم هم اتباع المختار · اذ انهم بعد اخفاق المختار فى ثورته وقتله على يد مصعب بن الزبير دأبوا على أن ينفذوا آمالا انتظاريــة واستندوا فى تسويفهم ذلك الى الاجزاء السرية من القرآن والتى ادعوا انها كتمت ولــم تبلغ لى بقية الامة · والمختار هو الذى يقتل من اعتبرهم مسؤولين عن قتل الحسين كان قد « نقم المعصية على من عملها » و (عمل بها) نفسه والمختار هو الذى « اتخذ أهــل بيت من العرب (يعنى أهل البيت) اماما » · وقد اعلن الحسن بن محمد بن الحنفيــة ضمنا أن ولاء المختار لابيه لم يكن سوى تطفل وانتحال ورغم انه علــوى وأحد اقطاب العائلة العلوية آنذاك فان دوره فى مجرى الاحداث كان معتدلا ومحايدا وهو أمر يدعــو للعجب فهو لم يعلن اشتراكه فى الدعوة ضد الامويين كما انه قبل خلافتى أبى بكــر وعمر الراشديين · وموقفه من « أهل الفرقة الاول » الذين اشتركوا فى الفتنة الاولى هو موقف المتجنب والممتنع فى اصدار أى حكم عليهما : أى يرجى الحكم عليهما يعــنى على عثمان ـ وعــلى ·

وربما أن بدا فى الامر مفاجأة ولكن المفاجأة تزول عندما نتوقف عن النظر فى الامر بمنظار مقاييس العصور اللاحقة حين اتسعت شقة الخلاف بين الشيعة والسنة فالحســن ابن محمد بن الحنفية علوى ولكنه ليس بالضرورة شيعيا · وهناك علويون كثــيرون وبين احفاد على أيضا من لا يحضر ببالهم أن يعارضوا الحكم الاموى بل فضلوا العيش بهدوء قانعين بما يصرف لهم من عطاء والذى استانف الاعتراف بأبى بكر وعمر هو زيد بن على الذى قتل فى ثورته سنة 122 ومؤلفنا لا بد وأنه قد عرفه اذ كان احد اخواله القاصــين وتشدد مصادرنا على أن موقفه هذا هو سبب فقده لاتباعه من الكوفيين وقد وافقــت المعتزلة الاولى على موقفه الارجائى من عثمان وعلى وطورته بينما فهمت المرجئة مصطلــح الارجاء فهما آخر كل هذه الامور مجتمعة مع ما تتميز به الرسالة من نكهة خاصة ودقة

فى رسم المناخ العام ـ نشير الى أن الوثيقة هذه صحيحة (1) وانى أشارك الرأى فـان الحسن بن محمد بن الحنفية عقد بهذا التصريح صلحا مع الحكم الاموى ٠

واذا كانت هذه هى الحال حقا فلا بد من أن نسأل سؤالا آخر ما الذى حمل الحسن على التخلى عن دعوة المختار ومجاهرته بالعداء للتطرف والثورة ؟ نفترض ان وراء ذلـك نوعا من الضغط السياسى أو قل نوعا من الاغراء فقد حافظ شقيقه ابو هاشم على علاقته الودية مع اتباع المختار الذين دعوا فى وقت لاحق ٠ بالكيسانية وكانوا حينذاك يدعون بالسبئية ، وأما الحسن فكان قد حاول لما صار موقف المختار فى العراق يائسا أن ينضم اليه ولكنه قدم الكوفة بعد موته ثم قام بمحاولة مخفقة لخلق نواة للمقاومة فى نصيبين الا أن جنود عبد الله بن الزبير قبضوا عليه وزجـوا بـه فى السجـن وحسـب رأى Madelung المدعم بحجج مقنعة فقد كتب كتاب الارجاء بعد 72 بوقت قريب ووقتها كان عبد الملك قد نجح نهائيا فى القضاء على ابنى الزبير وبدأ يحاول لم شعث امبراطوريته التى تقطعت اربا وارهقتها نزاعات الماضى الجامحة مستعملا فى ذلك سياسة حذرة همها الانسجام الدينى ٠ وما أن حلت سنة 72 حتى اعترف أبو المؤلف يعنى محمد بن الحنفية بسياسة الامر الواقع وبايع عبد الملك كخليفة ويبدو ان أبنه شاركه رأيه الوضعى ذاك ٠

وربما طرأ أمر آخر اذ ليس من غير المحتمل ان يعيد عبد الملك من ضعف العلويين المالى المزمن فنحن نعرف ان معاوية كان يدفع للحسن بن على وروى ان الحسين سأل مروان ان يهبه 4000 ديناراوقبض زين العاسدين مالا من المختار بل وسر عندما سمح له عبد الملك بالاحتفاظ به وعلى المنوال نفسه زار محمد بن الحنفية عبد الملك فى دمشق ليقر أمامـه بأنه غارق فى ديونه فقام الخليفة بواجبه نحوه خير قيام مع انه أبدى بعض التحفظ نحو ديون موالى محمد بن الحنفية وهذا يثبت ان قطب العائلة العلوية لم يكن يتحدث باسمه فقط وانما باسم كل من هو أسير نعمته وينطوى تحت لوائه ٠ أى أن اقطاب بنى هاشم وجدوا انفسهم يقومون بالدور نفسه الذى كان يقوم به رؤساء القبائل قبل الاسـلام على أن هذا الشرف المسدى اليهم يتطلب منهم عطاء يفوق طاقتهم ولكنهم اذا تقبلوا المال من هؤلاء القريشيين الذين احتفظوا بثراهم وازدادوا ثراء بحكم توصلهم الى مناصب

(1) Madelung.

للولاية وغيرها من المناصب المغرية ـ اذا فعلوا ذلك فلا بد لهم من دفع ثمن هذا القبول وهكذا بايع محمد بن الحنفية الخليفة وخضع لضغط خفيف اثناء زيارته لدمشق فسلم سيف النبى الذى كان الى ذلك العهد فى عهدة العائلة فليس من المستبعد اذن أن ابنه الحسن قد كتب كتاب الارجاء رمزا للثناء واعترافا بالجميل ·

ومثله فى الدلالة ما بدا على انه المأثور الوحيد من تفسير القرآن مروى عن الحسين ابن محمد بن الحنفية فى تفسير الطبرى وبدور التفسير حول مشكلة مالية حلها الحسين حلا عمليا · ففى سورة الانفال (41/8) حيث ينص القرآن على كيفية تقسيم الغنائم يرد ان الخمس الذى لا يعطى للمجاهدين تستحقه ست فئات منها اللـه والرسول وذوى القربى · فما لله وهو يسير يخصص لصيانة الكعبة وما للرسول وذوى القربى مبرز امامها صعوبات فالرسول متوفى وذوى القربى مصطلح يحتاج الى تحديد فتكثر الآراء ويتسابقوا ومعظمها تعبر عن مصالح شخصية وكان على زين العابدين وهو معاصر للحسن قد حاول أن يحصر معنى ذى القربى على بنى هاشم على أن الدولة لم تعر هذه التفسيرات اهتماما بالغا كما يستفاد من مصادر أخرى فعندها ذوى القربى هم قريش كلها أو هم على حد قول قتادة بن دعامة خليفة حسن البصرى فى خلفته فى البصرة جميع من فى الحكم بعد النبى غير أن الحسن بن محمد بن الحنفية يرى أن نصيب الرسول ينبغى أن يكون من نصيب اقربائه وهم بنو هاشم ، أما نصيب ذوى القربى فمن نصيب اقرباء الخليفة · فالحسن يعلم ان المشكلة موضع خلاف منذ أيام أبى بكر وعمر · وبحله هذا يحاول تقرير فرض عائلته تقريرا واقعيا حتى يحصل على بعض المال الذى يتولى الامويون الاشراف عليه وليس مستبعدا ان الطبرى ومن روى عنهم رووا هذه الفتوى لانها مثلت فى وقت ما طريقة تقسيم كان عبد الملك يتبعها ·

واذا كان هذا الاستطراد قد نجح فى التدليل على صحة كتاب الارجاء فلربما ساعدنا أيضا فى التدليل على صحة كتاب الحسن فى الرد على القدرية فقد كان عبد الملك من انصار الجبرية وكان همه أن يؤمن رغبته بأن الملك الذى يعده ويعد عائلته حق الابقى وملك لا يجوز التصرف فيه سوى وفق المشيئة الالهية والخلافة هى الهدى كما نعته بذلك الشاعر الفرزدق ومخالفوها هم فى الضلالة اضف الى ذلك ان فى المذهب القدرى ما يسوغ الثورات ويبدو هذا واضحا ايام يزيد بن الوليد فى أواخر العصر الاموى وربما

أيضا أيام هشام وقد الح الى ذلك عمرو بن سعيد الاشدمى فى دعوته عندما كان يدبر الثورة على عبد الملك فى سنة 63 وهنا استجاب الحسن بن محمد لمطالب الخليفة أو قل كان عند حسن ظنه ومن حسن حظنا ان لدينا شاهدا رواه مصدر آخر على نقض الحسن القدرية وهو ابن بطة الحلى فى كتابه الابانة وخلافا لما حدث لكتاب الارجاء فان كتب التراث من تراجم ومصنفات تهمل كتاب الرد ، على القدرية فربما مرد هذا الاهمال الى ان الزيدية احتفظت بالكتاب لانها تتفق مع الحسن فى موقفه اللين من الخليفتين أبى بكر وعمر كما انها حافظت على آرائه فى الجبرية لعدة اجيال فلما غيرت رأيها فى أواسط القرن الثالث واعتنقت آراء المعتزلة كان لابد أيضا من رفض النص الذى احترمته زمنا ولهذا وصلنا النص وبرفقته تصحيحات الهادى الى الحق .

ويترتب على هذا الاستنتاج نتائج كثيرة فالاسئلة التى وجهناها فى بادىء الامر وبدأت كانها تزيد من شكوكنا يمكن أن يرد عليها الآن ردا قاطعا نعم كان فى القرن الاسلامى أقول كتابة مدونة وكان فيه المام بفن الكلام مع العلم انه كان حينذاك لا زال مغلوبا على أمره والمصطلح « كلام » كان لا يزال فى طريقة الاستعمال وكل من الحسن بن محمد ابن الحنفية وصحار العبدى افترض معنى اصطلاحيا من حذر اللفظ الاول باستعماله تكلم والثانى باستعماله كلم .

والنتيجة الاولى سهلة القبول اذ ان هناك كتبا أخرى دونت فى أوائل عصر الامويين وقد أشار R. Blachère الى مؤلفات عبيده بن شرية ووهب بن منبه فى مقالة حول هذا الموضوع وقد ذكرنا نحن رسالة الحسن البصرى ومراسلة عبد الملك والاباضيين . كما يمكن أن نشير أيضا الى تاريخ سالم بن حطيئة وهو كتاب يقتبس منه البر ادى المؤلف الخارجى كثيرا فى كتابه الجواهر المنفقات والى رسائل جابر بن زيد الازدى الاباضى المتوفى 93 هـ المكتشفة منذ عهد قريب طبعا لابد وان نحذر الزيف فكثير من شواهد القرن الاول لا تعدو عن كونها شواهد اعطيت تواريخ سابقة للتواريخ العملية على ان بعدا لا يعنى ان كل شىء كان مزورا أو انه لم يدون قط فلم تعد الثقافة العربية من فراغ بل استمرت الحياة فى سيرها كما كانت تسير من قبل فسوريا ومصر كانتا دوما متحضرتين وغلاء اثمان أوراق البردى وجلد الرق لم يؤثر على انتاج اليونان والسريان وربما عاق

الغلاء فقراء الناس عن التعبير المدون على انهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك على كل حـال اما الدولة فتحتاج الى وثائق مدونة وسجلات وقد أورد M. Bravmann بعض المعلومات التى تشهد بانه كان لعثمان فى المدينة ما يشبه ارشيف الدولة واذا ما اعرنا هذه الحقيقـة اعتبارا فليس غريبا ان يكتب الحسن بن محمد بن الحنفية كتابه فى المدينة : والمدينة لـم تكن صحراء وانما كانت مركز الامبراطورية الاسلامية حتى نهاية فترة عبد الله بن الزبير ولم يكن وجود ورق البردى وجلد الرق بالامر الجديد على هذه البقعة من العالم كما ان وضع الحسن المالى كان يمكنه من دفع ثمن ذلك هذا اذا لم يكن قد نال ذلك هبة من مجلس الخليفـة ٠

فهل هذا يعنى ان المجلس قدم له مساعدات خاصة بعلم الكلام ؟ قد يساعدنا هـذا الأفتراض على تعليل بدء استعمال اسلوب الكلام فى وقت مبكر اذ أن هذه النقطة بالذات ما تزال تستقطب اهتمامنا ومنها عادت عجلة التاريخ قرنا الى الوراء ولكن هل نحتاج فعلا الى افتراض كهذا ؟ اذ انه من المعروف أن الاسلوب الجدلى وتعاقب السؤال والجواب والحوار المتخيل امور عرفها علم الكلام المسيحى وفى أيام الامويين كتب يوحنا الدمشقى كتابه : Dialexis Christianon kai Sarakenon ولم يقض الحسن حياته فى المدينة فقط ، بل زار العراق مرارا حيث كان علم الكلام المسيحى قد ازدهر هناك قرونا ، وفى شبابه كان فى نصيبين المدينة التى اجتذبت مدرستها النسطورية المع العقول فترة طويلة نحن لا نقول هناك بالتأثير المسيحى وانما نود القول ان الناس واصلوا ما كانوا قبل ذلـك يفعلون ٠ وحتى لو لم يكونوا قد فعلوه انفسهم بان الفرص التى هيأها لهم عالمهم الذى يتسع بسرعة ، أتاحت لهم أن يكونوا على يقضة من ذلك وهناك ما يمكن تسميته بالمخزون المشترك ٠ أما أن يكون هناك تأثير كان يكون المسلمون قد استجابوا لقضايا معينـة نتيجة حجج المسيحيين المعارضة أو أنهم اضطروا لتصحيح موقفهم ليتجنبوا تحـرش المسيحيين ثار لم يعهده ٠ الجدل المسيحى لم يؤثر على حرية القدرية ولم يوجدها كما اعتقـد احـد المستشرقـين الالمـان فى مقـالة مشهورة ٠ فكلا الامرين وجـه للحـوار الكلامى الذى أثر على المسيحية والاسلام معا ، أما كون المسيحية قد عرفت هذه القضايا قبل الاسلام فذلك لسبب بسيط وهو ان المسيحية سبقت الاسلام ٠ وما قول القدرية

فان الله غير مسؤول عن الزنا الذى يرتكبه الانسان الا تكرارا لنقاش البايان المسطور ٠ ضد رأى حنانا رئيس مدرسة نصيبين المتوفى 71 الذى قال بالجبر على انهم لم يكــرروا الحجة تاثرا للجدول المسيحى وانما افادوا من مخزون مشترك ٠

أما ثارهم بيوحنا الدمشقى ففيه وارد رغم أنه عمل مع المسلمين كما كان أبوه سرجون وجده اللذين عاشا بعض الوقت فى بلاط المسلمين وربما كان لشعور سادته بالتفــوق الاسلامى اثر فىاعاقته عن أن يؤثر تاثيرا ملموسا فى أمور الكلام ٠ ولم نسمع كثيرا عن نقاش دار بين المسلمين والمسيحيين فى بلاط معاوية وعبد الملك والوليد كما سمعنا بعد ذلك فى بلاط الخليفة العباسى المنصور عن النقاش بين المسلمين والمجوس ٠ أما يوحنــا فقد كتب محاورته بين المسيحى والمسلم بعد ترك بلاط الامويين ولجأ الى ديرمار سابا ، وحجته التى نقض به مسؤولية الله فيما يختص بارتكاب الزنا معقدة وفريدة ولم ترد قط على هذا النحو فى أى مصدر اسلامى ٠

وكان المسلمون لا زالوا يعيشون فى مجتمع اكثره مسيحيون ورغم ذلك فالصلات الدينية كانت ضعيفة ٠ وكانوا فى الوقت نفسه بحاجة الى المسيحيين وربما رفعوا مــن اقدارهم احيانا كما هو الحال عند الاخطل مثلا ٠ ولكنهم لم يكونوا ليسالوا فى أمـــور الكلام فهناك الكثير ممن اعتنقوا الاسلام ومن هم قادرون حينذاك على حل هذه المشكلات استنادا الى تجاربهم السابقة والتى احضروها معهم الى الدين الجديد فقد قاموا بشؤون الادارة وجمع الضرائب بل سمح لهم ببناء الكنائس خلافا للعهد المشهور المنسوب خطــأ الى عمر بن الخطاب ، غير ان المسلمين يبدو انهم نفروا فى البداية من تعليمهم القـــرآن ويمكن مقارنة الوضع بما يحدث اليوم فى مدينة كبيروت حيث تعيش فئات مختلفـــة جنبا الى جنب ويتعاملوا بعضهم مع بعض ويؤدون أعمال الادارة وأمور السياسة معا ، دون أن يتحدثوا عن اديانهم بل انهم يجهلون جهلا يدعو الى العجب معتقدات جيرانهــم ورغم هذا الولاء فهناك صد وازدراء ملحوظان فلو كان آنذاك اتصال دينى لكان هنــاك جدل وليس لدينا نص يشير الى ذلك وقد اثبت C. H. Becker أن الاخبار المسيحية عن الاسلام فى القرن الاول الهجرى وهى بادرة خالية من العداء اذ لم يحث على موضوعات الجدل المطروحة المعروفة فى المصادر المتأخرة ويبدو أن المسيحيين اعتبروا الاسلام بدعة

من سلسلة البدع التى تعودوا عليها • وكان هذا خطأ افترضوه ولكنه خطأ معـذور • فالاسلام حينئذ كان لا زال يرسى قواعده الاعتقادية ولم يكن له صبغة واضحة الحدود بعد ولم يكن المسلمون بقادرين على أن يبدأوا بالهجوم أو قل أنهم كانوا يترفعون عن ذلـك فعلم الكلام فى الاسلام يبدأ جدالا ضد الكافرين والاسلوب الكلامى لم ينم ولم يطـور للرد على غير المسلمين كالمانويين كما قد يخيل للمرء عندما يرى أصل الكلام ونشاطات المعتزلة التبشيرية علم الكلام فى الاسلام بدأ حواراً اسلاميا داخليا حينما انمحت سذاجة الماضى بما فيها من اعتزاز بالنفس نتيجة التباس الوضع السياسى على الناس ويحر عقولهم بالفتن والاختلاف • أما من رفع مستوى هذا النقاش الى مستواه ذاك فهو كما يبدو الخليفة عبد الملك اذ كان محتاجا الى حوار ليهدىء من التوترات القائمة ولينشر آراءه السياسية والكلامية وتوفرت لديه الكفاءات اللازمة والمصادر المالية ليشرع فى ذلك • واتخاذ عبد الملك لهذا الموقف مع ما صحبه من خطوات أخرى انما هو مواصلة للتراث الذى وجده فى بلد قرر أن يختار فيه عاصمته : تراث الامبراطورية البيزنطية الذى كان قد شكل المجتمع السورى قرونا •



أصالة الفلسفة الإسلامية
وأثرها في الفكر الغربي

د · عثمـــان امـــين
أستاذ شرفى للفلسفة فى كلية الآداب
وعضو مجمع اللغة العربيـة بالقاهرة

ماذا نعنى بالفلسفة الاسلامية ؟

نعنى بها تلك المذاهب من النظر العقلى المتعلق بالله والانسان والكون ، تلك التى أقامها الفلاسفة المسلمون القدامى أمثـــال الفارابى ، وابن سينا ، وابن رشـــد والفلاسفة المسلمون المحدثون ، أمثال الافغانى ، ومحمد عبده ومحمد اقبال ·

ولكن الباحثين الغربيين اختلفوا فى أمـــر الفلسفة الاسلامية منذ ظهور الدراسات الاستشراقية ، اختلفوا فى اسمها كما اختلفوا فى وجودها : فمنهم من رأى ان الاولى أن يطلـق عليهـــا اســـم (الفلسفة العربية) لان رجالها كتبوا آثارهم باللغة العربية التى كانت لغة الثقافة فى العالم الاسلامى ، ومنهم من رأى أنها ليست عربية لان جمهرة أهلها لم يكونوا عربا · ولم يقتصر الخلاف على اسم الفلسفة الاسلامية ، بل تعداه الى انكار وجودها :

فمن الباحثين من نازع فى أن يكون لها وجود مستقل ، زاعما أنها أشبه بأن تكون خليطا من آراء القدماء ، تعددت منابعها وانعدم الاتساق بين مواردها ٠ ومنهم من ذهب الى أن فلاسفة الاسلام انما اشتقوا فكرهم من الفلسفة اليونانية التى كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سورية والوثنيين من أهل حران ، واضافوا اليها عناصر اقتبسوها من الهند وفارس ، ومنهم أخيرا من حكم على الفلسفة الاسلامية اجمالا بأنها جاءت شرحا مشوها لمذهبى أرسطو والافلاطونيين المحدثين ٠ أما نحن فلكى نكون منصفين يجب ان نعترف بأن الفلسفة الاسلامية تحتوى على عناصر هامة من الفكر اليونانى، وأنها تفترض :

أولا : هضم الفلسفة اليونانية ٠ ولكننا نقرر مع ذلك بأن الفلسفة الاسلامية أو العربية شىء ، وأن مجرد الهضم والتمثيل للفلسفة اليونانية شىء آخر ٠ ان المذاهب للفلسفة الكبرى فى العصور الحديثة متأثرة الى حد كبير بالفلسفة اليونانية ٠ وأثر تلك الفلسفة ظاهر للعيان فى مذاهب (بيكون) و (ديكارت) وكانط ٠ ولكن من ذا الذى ينكر ما فى مذاهب هؤلاء الفلاسفة من اصالة ؟ واذن فكيف ساغ للبعض أن يظنوا أن عقلا كعقل الفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد كان عقلا جديبا لم ينتج فى الفلسفة شيئا اصيلا ، وانه لم يكن الا مقلدا لليونان ٠

ويجب أن لا تغيب عن بالنا مسالة لها خطرها ٠ وهى أن أغلب كتاب الغرب ممن كتبوا عن الفلسفة الاسلامية قد عجزوا عن أن يتبينوا أصالتها وخصائصها واتجاهاتها فمن جهة نجد أن المستشرقين ممن تيسر لهم أن يقرأوا اللغة العربية التى كتبت بها الفلسفة الاسلامية عجزوا عن أن يحققوا لانفسهم فكرة واضحة عن تلك الفلسفة ٠ ومن جهة أخرى نجد الكتاب الغربيين المتخصصين فى تاريخ الفلسفة يكشفون عن عجزهم حين يواجهون الفلسفة الاسلامية ، ويرجع ذلك فى الغالب الى جهلهم باللغة العربية ٠ وليس يسمح المقام بالخوض فى مناقشة الاقوال التى أدلى بها فى هذا الصدد الباحثون من مستشرقين ومؤرخين غربيين ٠

* * *

ولكن أبادر فأقول ان للفلسفة الاسلامية مكانتها التى يشهد بها الواقفون على أسرارها ٠ وحسبنا لكى نتبين مدى الاسهام الفكرى الاصيل الذى كان لها أن نشير الى أهم

نظرياتها التى كان لها فى العصر الوسيط كله صدى بعيد · أول عمل جليل أصيل قام به فلاسفة الاسلام هو محاولتهم التوفيق بين الفلسفة والدين : لانهم اعتقدوا بوجه عام أن الفلسفة والدين متآخيان متوافقان فى المسائل الاساسية للحياة الانسانية المثلى·

وأى تعارض بينهما لا يكون تعارضا حقيقيا ، وانما يكون نتيجة سوء فهم لكل منهما ·

وقد بين لنا ابن رشد فى كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) أن الاسلام يحث المسلم على النظر العقلى ويدعوه الى التأمل الفلسفى ، وان القرآن يحض على طلب المعرفة والبحث عن الحقيقة · وللفلسفة والدين عنده هدف واحد هو توجيه نشاط الانسان لبلوغ الكمال الذى تهفوا اليه النفس الناطقة · ولفلاسفة الاسلام أيضا مشاركة فلسفية ذات اصالة ، هى نظريتهم فى النبوة · وقد بسط الفارابى هذه النظرية فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) · وتفرقة الفارابى بين (النبى) و (الفيلسوف) سنجدها بنص عباراتها تقريبا بعد عصره بسبعة قرون فى (الرسالة اللاهوتية السياسية) للفيلسوف اسبينوزا· واصالة فلاسفة الاسلام واضحة فى مسألتين أخريين : قدم العالم، وعلم الله بالكليات : ذهبوا الى أن المادة أزلية ومخلوقة معا · فقولنا ان العالم محدث (أى بدأ فى زمان معين ، قول على سبيل المجاز ، لان الله من حيث هو العلة الاولى هو صانع المادة والعالم ، ولكنه تعالى خلق المادة والعالم بفيض من فيوضاته الازلية ، اذ لا يمكن أن يقع صنع الله فى زمان ، وانما نسبة الله الى صنعه كنسبة العلة الى معلولها) · والعلة غير منفصلة عن المعلول — ومن قال بحدوث العالم فكأنه قال ان الله قد خلق العالم بمشيئة فى زمان ما · ويعنى ذلك ان الله كان ينقصه شىء قبل انفاذ مشيئته ، وهذا ما يجب أن ينزه الله عنه · لان الله هو الكمال المطلق ، وليس كمثله شىء ·

وذهبوا الى ان علم الله محيط بالكليات ، أو بالاشياء العامة ، وبعبارة أخرى ان علم الله لا يتعلق بالجزئيات ، أى بالاشياء العرضية الفردية ، وانما يحيط بالنواميس الكلية·

ولو كان الله يعلم الجزئيات والاعراض لحدث تغير زمانى فى علمه ولاقتضى ذلك تغيرا فى ذاته ، والله منزه عن كل تغيير · وواضح أن موقف الفلاسفة الاسلاميين من المسائل التى أوردناها موقف متميز عن مواقف فلاسفة اليونان من جهة ومواقف المتكلمين

المسلمين من جهة أخرى ٠ واذن فمن التجنى على الفلسفة الاسلامية الزعم بانها انما هى شرح مشوه لفلسفة أرسطو ـ والافلاطونيين المحدثين ٠ والحقيقة أنها صاغت لنفسها مذهبا ضافيا له أصالاته ، وهى كما قال أحد الباحثين الغربيين : توشك أن تكون تقلبت فى كل الاطوار التى مرت بها الفلسفة فى العالم الغربى بعدها بقرون ٠

* * *

ان من المسلم به الآن لدى الباحثين الغربيين أن الفارابى كان له أثر كبير فى فلسفة العصور الوسطى : فقد ترجم كتابه (احصاء العلوم) الى اللغة اللاتينية وكانت له فى المذاهب الفلسفية المسيحية واليهودية منزلة مرموقة ويظهر ذلك الاثر على الخصوص عند روجر بيكون وريمون لول ٠ وترتيب الفارابى للعلوم هو نفس الترتيب الذى أخذ به الفلاسفة المسيحيون فى القرون الوسطى مع فروق بسيطة ٠ أما ابن سينا فيكفى أن نذكر كتابه (القانون) فى الطب ، وأثره فى الفكر المسيحى مشهور ٠ وقد جرى القديس (توما الاكوينى) على نهج ابن سينا فى التدليل على وحدانية الله وتنزيهه عن الجسمية ٠ وسلك ديكارت فى اثبات وجود النفس وروحانيتها واستقلالها عن البدن مسلكا شبيها الى حد كبير بمسلك ابن سينا من قبل ٠ وقد بين الاستاذ (جيلسون) مدى الاثر الذى كان لابن سينا فى الفكر الاوروبى فى العصور الوسطى المسيحية ٠ واوضح الصلات الوثيقة بين الفيلسوف الاسلامى واللاهوتيين المنتمين الى مذهب القديس (أوغسطين) ، وقرر أن الفلسفة الغربية فى القرن الثالث عشر عبارة عن مختلف المواقف من أرسطو وابن سينا وابن رشد ، واقترح (جيلسون) أن يطلق على هذا التيار الفكرى فى أوروبا اسم (الاوغسطينية النازعة الى السينوية) ثم جاء الاب (دوفو) وبين أن اللاهوتيين المسيحيين ـ النازعين الى السينوية (كانوا يغترفون من منهل الفيلسوف الاسلامى ويتخذونه مصدرا لالهامهم ولكن وجد الى جانب هؤلاء مفكرون آخرون كانوا يتابعون مذهب ابن سينا حتى فى الموضوعات التى تخالف العقيدة المسيحية : وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم (الاب دوفو) اسم السينويين اللاتينيين) واول مفكر مسيحى تأثر بابن سينا هو (جنديسا لينوس) رئيس ديوان الترجمة فى اسبانيا ، كتب رسالة فى النفس

بدأ فيها من ابن سينا وانتهى باوغسطين • وقد اقتبس براهين ابن سينا عـن النفس مبينا أنها جوهر لا عرض ، وانها خالدة وروحية • واقتبس من ابن سينا أيضا رمـزه المشهور المسمى برمز الرجل المعلق فى الفضاء ، الذى لا صلة له بالعالم الخارجى ، ولكن فكره يكشف له أنه ذات مفكرة وانها موجودة • وهذا الرمز نفسه قد ذكره كثيرون مـن مؤلفى العصور الوسطى للمسيحيين • ولذلك كان من الممكن ان يكون ديكارت قد اطلع عليه فكان له صدى فى تأملاته ، ولا سيما ان (الكوجيتو) الديكارتى قريب منه مؤيـد له • واللاهوتى (جيوم الاوفرنى) يذكر ابن سينا فى كتبه حوالى أربعين مرة ، معارضا أقواله تارة ومقتبسا تعريفاته وأمثلته تارة أخرى : يأخذ تعريف ابن سينا للحق بانـه ما يكون فى الذهن مطابقا لما هو عليه خارج الذهن ، ويقتبس من ابن سينا تفرقته بـين الماهية والوجود ، كما يقتبس تدليله على أن النفس تدرك ذاتها بذاتها دون حاجـة الى البدن • والحق أن ابن سينا قد أضاف الى الثروة الفلسفية والعلمية اضافات جعلته من مفاخر الانسانية المفكرة • فاذا انتقلنا الى ابن رشد وجدنا ان الاعجاب بشروحه لأرسطو كان عظيما فى أوروبا حتى سماه الشاعر (دانتى : الشارح الاكبر) ومن المشهور أن مدرسة بادوا فى ايطاليا كانت تنتمى الى مذهب ابن رشد، وأن سيجرد وبرايان كان زعيم المدرسة الرشدية فى فرنسا ابان القرن السادس عشر ، وقد ظل المذهب الرشدى متدارسا عند الاوروبين فى الكتب والجامعات من منتصف القرن الثالث عشر حتى أوائل القرن السابع عشر • وقد يجد الباحث فى فلسفة اسبينوزا أن موقف ذلك الفيلسوف من مسائـل الفلسفة والدين والوحيى والنبوة ، يشبه الموقف الذى سبقه اليه الفارابى وابن رشد • ولعل اسبينوزا عرف شيئا من نظريات المسلمين عن طريق موسى بن ميمون ، وعرف فلسفة ابن رشد خاصة عن طريق الطبيب اليهودى (جوزاف دل ميدجو) أحد أنصـار الفلسفة الرشدية فى القرن السابع عشر • ولابد أخيرا من أن نشير الى فضـل الفلسفة الاسلامية على الفلسفة اليهودية • وحسبنا هنا أن نذكر أن كتب ارسطو لم تنتقـل الى اللغة العبرية ، وان اليهود قنعوا فى معرفتها بما كتبه المسلمون من ملخصات وشروح • ولقد تبين للباحثين الغربيين أن أصحاب اللاهوت من اليهود قد ساروا خطوة فى اثـر فلاسفة الاسلام ، وان المفكرين الذين سبقوا موسى بن ميمون مدينون بمنهجهم وآرائهم

فى الدين لفلاسفة المسلمين ، وأن كتاب (دلالة الحائرين) لموسى بن ميمون وان يكن حافلا بنقد آراء الاسلاميين ومحاولة تفنيدها والرد عليها ، يجد قارئه فى كل صفحة منه ما يشهد شهادة قاطعة بأهمية الفلسفة الاسلامية وبعد أثرها فى الفكر اليهودى ٠ ولسنا نحب أن يتسرب الى وهم أحد من الناس أننا ننتحل الاسباب للاشادة بفضل الفلاسفة المسلمين على غير حق ٠

فالواقع أن كل ما أوردناه هنا فى ايجاز شديد انما هو مقتبس من شهادة علماء الغرب فى العصور الوسطى وفى عصرنا هذا ٠ وهى شهادة تقطع بأن ثقافة الغرب قد استفادت بقسط موفور من المواد التى قدمها اليها مفكرو الاسلام ٠

* * *

أما تخلف الفكر والفلسفة فى العالم الاسلامى ابان العصور المتاخرة فأسبابه معروفة، وان يكن أكثر الناس لا يريدون أن يعترفوا بها وأن يواجهوها اذا هم تبينوها ٠ وليس من شك فى أن هذه الاسباب راجعة فى جوهرها الى سببين أساسيين :

الاول : الابتعاد عن روح الدين وعن روح العلم ٠

والثانى : التنكر للاجتهاد وفقدان الحرية ، والقعود عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠ وقد نتج عن هذا التخاذل العقلى والاخلاقى تخاذل الارادات الفردية وتهافت (الروح المعنوية) كما يقال اليوم ٠ لقد ذهبت الارادة الاخلاقية التى تزكى فى كل انسان عقله ، وقلبه ، وتجعله مركز اشعاع جوانى ، وحل محلها جملة من العادات الموروثة لا تسوق الناس الى العمل الا بفضل بقية من قوة الانزلاق والقصور الذاتى كما يقول علماء الطبيعة ٠ وذهبت الروح المعنوية القوية الايجابية وحل محلها ما يسمى الآن بالرأى العام ، وهو شىء هوائى مصطنع متقلب يحركه فى أغلب الاحيان أناس من الوصوليين أو على الاقل من المغرضين ٠ وقد ألف المسلمون فى عصور الاستبداد وانحصار الفكر الحر أن يفزعوا من الحرية ، حتى أصبح الرأى العام واهنا هزيلا ضعفت مناعته من كثرة التوقى والحذر والتحوط والوسوسة ٠ فاذا أراد المسلمون حقا أن يستعيدوا مجدهم الفكرى الحضارى فلا بد لهم من العودة الى فهم حقيقة دينهم ؛ عندئذ يتبينون أن حياتهم قوامها تحقيق الرسالة الاسلامية على الحقيقة : وهى تزكية الوعى وتزكية الضمير ، وانما تكون تزكية الوعى بالاتجاه الى العلم والنور ، وتكون تزكية الضمير بمراعاة الذمة واتقان العمل ٠

وليس من سبيل الى الاصلاح الا أن يقتنع الجميع من حاكم ومحكوم بأن الحرية لازمة لحياة النفوس لزوم التنفس لحياة الابدان • والواجب اذن أن يمارس ـ المسلمون حرية الفكر والعمل ممارسة دائمة موصولة غير مقطوعة • وواجبهم على الخصوص أن يشعروا فى قرارة أنفسهم بانهم يستطيعون دائما أن يعلنوا آراءهم فى اصلاح بلادهم دون أن يتعرض واحد منهم للأذى والتنكيل • ولا بد لهم من الشعور بالامن الحقيقى الذى لا يوجد الا فى كنف الحرية والنور وهما الحد الادنى لكفالة الكرامة الانسانية • ان كثيرين من مفكرى الغرب قد تعرضوا لازمة الانسان المعاصر فصوروا الفراغ الروحى الذى يؤدى الى الشعور بالغربة واللامعقولية • ولكن ما عذرنا نحن المسلمين فى الخوف من دعوة أنفسنا ودعوة الانسانية كلها الى العودة الى مبادىء الاسلام ، وهو دين يؤكد منذ البداية أن التفكير فريضة وانه فرض عين لا فرض كفاية ، كما يقول فقهاؤنا • وهو أيضا يؤكد حرية الانسان ، ويكرم المرأة ، ويتجه الى تدعيم الاسرة واستتباب السلام بين الطبقات ، واقامة المساواة فى الحقوق والواجبات ، وينبه الى ما فى المجتمع من آفات نفسية ، ويحث على علاجها لتقسيم للمؤمنين الحياة على الارض ولكى تتم للانسان خلافة الله عليها • اذا أراد المسلمون سلوك الطريق الصحيح فى الفكر والعمل ، فيجب عليهم أن ينزعوا من نفوسهم كثيرا من الاوهام عن العلم والايمان ، ويجب أن ـ يعلموا أن الكشوف العلمية والانجازات العملية لا يمكن أن تتم بقرارات رسمية ، وأن الموهبة وحدها لا تكفى ، بل يلزم الفكر الدائب والعمل المتواصل • وليس هذا الذى نقوله جديدا ولا تقليدا للغربيين، بل لقد دعا اليه الرسول الكريم فى قوله :

« ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » • فالمشكلة الاولى والاخيرة فى اصلاح الفكر والعمل هى مراعاة الضمير والسعى الى الاتقان • واملنا اليوم ، بعد أن ظهرت فى الافق بوارق فجر لنهضة اسلامية جديدة ، أن تتفجر طاقات الامة ، فتمضى قدما الى ارساء قواعدها على فلسفة الاسلام الخالدة وهى فلسفة مثالية وواقعية فى آن واحد ، لانها تحرص على الاصالة ، كما ترحب بالتفتح ، وتدعوا الى تنوير الاذهان سبيلا الى تحرير النفوس •

* * *

بين التعصّب والإسلاميّة

أو الإسلام من خلال بعض الشخصيات في العالم المسيحي

د • ميغال دى ايبالـزا
(اسبانيـا)
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

ـ معالى سيادة وزير التعليم الاصـلى والشـؤون الدينيـة ،

ـ أيها السادة الافاضل

ـ أيها الزملاء الاعزاء ،

قبل كل شيء أريد أن اعتذر لكم لسوء نطقى فى اللغة العربية • أنا اجنبي وكالبعض منكم انى لا اتكلم جيـدا هذه اللغة القيمة • ولربما يوجد هنا من يتكلمون لغتى أحسن كأنها لغتهم • والى هؤلاء جميعـا اعتذارتى ان أسات الى هذه اللغة ، واتمنى ان نستطيع التفاهم عند الكلام عن المواضيع التاريخية التى تمس فى آن واحد بلدكم وبلدى •

وبالفعل سوف اتكلم لكم عن فترة من التاريخ المشترك لمدينة بجاية وجزيرة مايورك، تلك الجزيرة التى تلقيت فيها تربية • وان سألنا سكانها يوما عما يعرفونه عن مدينـة

بجاية فيجيبوا كلهم أن رامون يول مات هناك • اما المؤرخون فانهم لا يعرفون عنه ان توفى فى مدينة بجاية أم فى البحر • ولكن المايوركيين يظنون أنه مات فى هذه المدينة التى أصبحت مشهورة فى مايوركة ومدينة بجاية قديمة جدا وما زالت قائمة حتى الآن • فالمسافة بين المنطقتين 160 ميلا ولكن العلاقات التاريخية كثيرة بينهمـا • فلنذكر أيها السادة البعض منها :

ـ فى العصور القديمة كانت السفن الفنيقية تعبر البحر الابيض المتوسط من بجاية والجزائر متجهة الى اسبانيا فتتوقف بجزر مايورك وايبزة •

ـ عندما استقر الاسلام فى الاندلس توجه عدد كبير من المسلمين الى البقاع المقدسة لاداء فريضة الحج عن طريق البحر فتوقفوا بمايوركة وبجاية كمثل عصام الجولانى الذى فتح الجزيرة لامراء قرطبة فى أواخر القرن الثامن للهجرة •

ـ خلال الصراع السياسى الذى نشب بـين فاطميى افريقيـا وأمويى الاندلس فى القرن الثالث الهجرى ، كانت بجاية ومايوركة مناءين عدوين بعضهما البعض واستعملا للحروب البحرية بين الدولتين •

ـ وبعد وقت طويل أى خلال الحروب التى نشبت بين المرابطين والموحدين هيأ بن غنى أمراء مايوركة المرابطون جيشا للكفاح ضد الموحدين فى المغرب وقد دخل هـــذا الجيش مدينة بجاية ومنها ابتدأ حربه ضد الموحدين فى كل المغرب الشرقى •

ـ وبعد وقت مضى عقد ملوك أراغون ومايوركة عهودا واحلافا سياسية وتجارية مع الامراء المغاربة ، تسمح لهم التجارة مع هذه البلدان • وقد انشات قنصلية لمايوركـــة فى بجاية أما التجارة فقد كانت مزدهرة كما كانت ، عليه منذ قرون وقرون •

ـ وفى القرن الثامن لجا الى بجاية يهود مايوركة هربا من اضطهاد المسيحيين لهـم ، ومكثوا بها تحت حماية الدين الاسلامى الذى هو دين تسامح •

ـ وخلال القرن التاسع والعاشر حاولت القوات الامبرياليـــة لفرنانـــد المسيحى الاراغونى والامبراطور شارل الخامس والمانيا ، أخذ المدينة فارسلوا عدة حملات مـــن مايورك • وقد يعرف فشل هذه الحملات العسكرية •

ـ خلال العصر الحديث أى ما بين القرن العاشر والثانى عشر كان عدد كبير من سكان مايورك فى بجاية منهم المسافرون والاسرى كما وجد عدد كبير من أسرى ومسافرى بجاية فى مايورك والجزر المجاورة • وهذه هى الفترة المؤسفة والمؤلمة فى علاقات بلدينا • حيث عرفت بالحرب المستمرة التى دامت ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا •

ـ أما الآن ومع استرجاع الاستقلال كثر عدد الجزائريين الذين يزورون أو يعبرون مايورك كما أن المايوركيين الذين يأتون لزيارة بلدكم وهذه المدينة الجميلة هم دائما فى ازدياد ملحوظ •

ـ وأخيرا انى أتكلم لكم اليوم باسم مواطنى مايورك جيرانكم الشماليين مع ذكر السلام والاخوة السائدة بين البلدين المجاورين • هذا السلام الذى يعد آخر رباط لتواريخ عريضة مشتركة والتى تواصل سيرها نحو المستقبل مع أجمل التمانى •

فلنترك أيها المستمعون الحاضر والمستقبل ونعيد نظرة الى الماضى وبالاحرى الى رامون يول ووقته ونحو رحلاته واقامته فى بجاية حتى وفاته فى البحر بين بجاية ومايورك ـ انها تواريخ الماضى ولكن يجب التعرف عنها لانها جزء من تواريخ تظهر تارة مؤسفة وتارة مسرة ـ وهى تراث مشترك للبلدان الجارين •

ان رامون يول رجل دينى من مايورك كان فيلسوفا ، رياضيا وشاعرا ويعد من كبار وعظماء الادباء الاسبان فى اللغة الكاتالانية ، وكان رامون يول أول فيلسوف أوروبى لم يكتب باللغة اللاتينية ، ولكنه كتب باللغة الكاتالانية تلك اللغة الشعبية • جال كثيرا فى أوروبا ومصر وتونس وفى كل المغرب • وتعرف رامون يول بأهم الشخصيات لعصره فى أوروبا • وقد يلاحظ تأثر بعض المفكرين الاوروبيين بأفكاره الفلسفية • كان يحسن اللغة العربية ومتأثرا بها فى مؤلفاته • وهكذا أثر رامون يول اكثر من غيره من الفلاسفة الاوروبيين فى التيار الاسلامى للفكر الاوروبى فى القرون الوسطى •

وقد كان أيضا رجلا دينا تابعا لنظام فرانسسكو • وان مثل حياته الدينية وتبشيره يرينا كيف كان يريد نشر الدين المسيحى فى كل انحاء أوروبا وشمال افريقيا • فقد بشر رامون يول وكتب باللغة اللاتينية والكتالانية فى أوروبا وتعلم العربية من أجل

التبشير والكتابة بها فى المغرب ، وانشأ فى تلك الفترة فرانسسكو دى أسيس النظام التبشيرى من أجل نشر الدين المسيحى فى أوروبا والعالم كله ٠

ان رجال الدين المسمين فرانسسكانيين نسبة الى فرانسسكو بشروا فى كل أوروبا بزهد وتعبد ٠ ولكنهم كانوا يريدون التبشير وسط المسلمين الذين لم يعرفوا الدين المسيحى ٠ فابتدأت هذه الحملة التبشيرية بمشاركة سان فرانسسكو نفسه وقد كان دائما ضد الحروب الصليبية لانه كان يظن انها عسكرية وليست دينية ٠ ولهذا الغرض سافر الى المشرق للابتعاد عن الحروب الصليبية ومن أجل التبشير هناك ٠ وهكذا فقد استقبل استقبالا حارا من طرف السلطان صلاح الدين الايوبى فى مصر ٠ فاستمع اليه السلطان باهتمام ومراعاة ورجع فرانسسكو الى أوروبا مسرورا بالاهتمام الذى تظاهرت به شخصية كصلاح الدين الايوبى ٠ ولكنه لم يستطع اقناعه وأما تبشيره فقد كان معتدلا ومحترما بدون مهاجمة رسول الاسلام ولهذا فقد احترمه المسلمون لانهم رأوا فيه رجلا دينا يؤمن بدينه ومن أولئك الذين يطلب القرآن احترامهم ٠

ولكن رجال الدين الفرانسسكانيين لم يكونوا كلهم محترمين كمؤسسهم وفى نفس الوقت أتت الى المغرب جماعة من رجال الدين ليبشروا بالمسيح ولكنهم هاجموا الرسول والدين الاسلامى ٠

– فى 1219 انتقلت جماعة تظم 6 من رجال الدين الفرانسسكانيين من ايطاليا الى المغرب لتدعوا الناس على الايمان بالمسيح ٠ فعبروا ايطاليا وجنوب فرنسا ثم اسبانيا والبرتغال ووصلوا أخيرا الى اشبيلية التى كانت تحت حكم الموحدين ٠ كانت المدينة اسلامية ولكن المسيحيين كثيرون فيها وكان الحاكم يقيم علاقات دبلوماسية حسنة مع مسيحى الشمال وخاصة مع التجار الذين يزورون المدينة ويشاركون فى تنميتها بتجارتهم ٠

وعندما سكن هؤلاء – رجال الدين الستة – عند تاجر مسيحى ، وقفوا أمام باب مسجد وبدأوا التبشير ٠ فلم يرض المسلمون بهذا وأرغموهم على السكوت فلجأوا الى الحاكم وطلب منهم ما هو هدفهم فأجابوا انهم أتوا للتبشير بالايمان وكذلك بطلان الدين

الاسلامى فسجنوا فى برج الذهب بجانب الوادى الكبير وبعد محاكمتهم سألهم الى أين يريدون أن يطردهم • نحو الشمال فى البلدان المسيحية أم الى الجنوب ، أى الى المغرب فاختاروا الذهاب الى المغرب • وهكذا طردوا الى المغرب كمشوشين وان الحاكم لم يرد تطبيق حكم الاعدام رغم انهم شتموا النبى وذلك لانه اتهمهم انهم مجانين ولان هذه الحادثة لم يسبق لها مثيل فى الاندلس •

فى الحقيقة يلزم التكلم عن تعصب هؤلاء رجال الدين الذين لم يحترموا العقائد المسلمة • فعندما وصلوا الى المغرب خرجوا ثلاث مرات من السجن أو مطرودين فرجعوا الى عاصمة الموحدين للتبشير علانية • وان مسيحى مراكش خاصة منهم دان بيدرو البرتغالى الذى كان يعيش هناك •

الخليفة المستنصر بالله ، كانوا يريدون اقناع المسلمين أن المبشرين كانوا سريين فى تبشيرهم ومحترمين للدين الاسلامى • ولكن المسيحيين والسلطات الاسلامية كانت تخشى ثورة الشعب وأخيرا وفى 16 جانفى من 1220 قطع الخليفة نفسه رؤوس هؤلاء رجال الدين • فجمع دان بيدرو البرتغالى اجسامهم واخذها الى أوروبا عندما رحل من المغرب ليتم أيامه فى جزيرة مايورك •

وهنا نرى فى هذه التواريخ المؤسفة نتيجة عدم احترام هؤلاء الرجال الدينين للاسلام وذلك انهم كانوا لا يعرفون الدين الاسلامى واللغة العربية • ورغم هذا أرادوا التبشير فى بلد مسلم • فخلقوا اضطرابات وحاصروا المسلمين بمهاجمتهم للاسلام وشتمهم للنبى • كانوا يحملون بايمان ولكن تعصبهم الدينى لم يؤد الى أية نتيجة •

ولكن وضعية وحالة رجل دين فرانسسكى آخر تختلف تماما عن وضعية الرجال الست الاولين وهو أنسالم تورميدا الذى ذهب الى تونس حوالى 1390 ، ودخل الاسلام تحت اسم عبد الله الترجمان • ان هذه التواريخ مهمة فى العلاقات بين مايورك والمغرب فى العصور الوسطى •

لقد ولد أنسالم تورميدا فى مدينة مايورك وهو رجل دينى فرنسسكانى أيضا درس فى مايورك وليردا وبولونيا بايطاليا وعند الثلاثينيات من عمره اتجه الى تونس ليدخل

الاسلام · وكان ذلك أمام السلطان التونسى وأخذ منصب ترجمان فى جمارك ميناء تونس ومنه وصل الى منصب قائد الجمارك وشغل مناصب هامة فى الادارة المالية فى مملكة الحفصيين الذين كانوا فى قمة مجدهم وشهرتهم وقد وصلت فتوحاتهم حتى بجاية ·

ان انسالم تورميدا رجل سياسى ودينى وكذلك كاتب ذو مكانة عظيمة لانه كتب من تونس عدة مؤلفات باللغة الكاتالانية وبعثها الى بلاده عن طريق التجار · وكان لهذه المؤلفات اهتماما كبيرا وأثرا عظيما · ويعتبر فى هذه اللغة كاتبا كلاسيكيا · وفى آخر حياته كتب كتابا باللغة العربية وهو « تحفة الاديب فى الرد على أهل الصليب » وفيه يذكر حياته ودخوله الى الاسلام والامراء التونسيين الذين خدمهم ونقضه العريض للمسيحية على الخصوص هذا الدين الذى كان يعرفه جيدا لانه قسيسا ورجلا دينا مسيحيا ·

وكان لهذا الكتاب صدى كبيرا فى العالم العربى والاسلامى · وقد وجدت أنا 46 مخطوطة يدوية بالعربية والتركية بين الرباط وبغداد وثلاث منشورات بالعربية وثلاثة أخرى بالتركية · الاخيرة منها وجدتها سنة 1970 ، أنا أظن أنه المؤلف الوحيد الذى كتب بالعربية وبلغة أوروبية واستطاع ان يكون فى الاثنتين · ولهذا فان حياة هذا الرجل الدينى مهمة · فرنسسكانى من مايورك استسلم وكتب بالعربية ولكنه لم يتراجع عن ثقافته المايوركية وحافظ على علاقته الاخوية مع شخصيات من جزيرته وكتب بلغته كما كتب بالعربية وعلى نفس المستوى ·

ان الفترة التى جاء فيها رامون يول الى بجاية تتراوح بين تعصب الفرنسسكانيين المراكشيين واستسلام الفرنسسكانى التونسى ·

ولد رامون يول حوالى 1232 فى مايورك سنتين أو ثلاثة بعد أن احتلت الجزيرة من طرف ملك أراغون وقد كان صاحب وسام وملازما باب الملك الى أن اهتدى الى الايمان وعمره 33 سنة · فترك عائلته وأشغاله وراح يبذل المجهودات فى نشر دينه فى أوروبا بكتابته وتبشيره · وبما أنه عاش وسط المسلمين أراد أيضا أن يدفع المسلمين الى الايمان بالعقيدة المسيحية · فتعلم العربية وارغم البابا وبعض الامراء المسيحيين على

انشاء مدارس تعلم اللغة العربية لكى يتعلمها المبشرون فيتعرفون على الدين الاسلامى والثقافة العربية ·

ورغم أنه ادعى نشر المسيحية قبل كل شىء فرامون يول هو واحد من الذين أثروا فى الثقافة الاوروبية بقيم عربية من خلال كتابته ومباداهاته التربوية وهكذا ألف كتاب التأمل الذى حرره بالعربية أولا ثم بالكاتالانية · ودرس فى مختلف جامعات أوروبا ·

ولكنه فكر أيضا فى نشر العقيدة المسيحية بين المسلمين فرحل حوالى 1280 الى المشرقعامة والى الاماكن والبقاع المقدسة المسيحية فى فلسطين · وبعد اثنتى عشرة سنة اتجه الى تونس وتحادث أياما وأياما مع العلماء المسلمين متعقلا فى ايمانه أمامهم ومحاولا تفهم براهنهم · وان تأثره بهذه المحادثات لا يستطاع نفيها فى كتبه التى تلت المحادثات· فتكلم دائما عن الايمان الاسلامى وصفات الله · ولا مبتدأ بالعقائد المسيحية · كما كان يعمل معلمو اللاهوتية الاوروبيين ·

وكانت هذه المحادثات خطيرة من جانب آخر لرامون يول · لانه اتهم أمام السلطان أنه أمعن وبالغ فى التكلم عن دينه · ولحسن حظه اقنعت احدى الشخصيات السامية الملك بأن لا يؤخذ أمر فى شأن رامون يول وانما يلزم ارجاعه الى أرضه وكانت حجته هى التالية : ان قتلنا هذا الرجل الذى جاء هنا للتبشير فان المسيحيين لن يقبلوا المسلمين الذين يريدون نشر العقيدة الاسلامية فى أراضيهم · انها حجة غريبة ولكنها كانت فعالة واستطاعت ان تنقذ رامون يول من الهلاك فى تونس ، فرجع الى ايطاليا وحث البابا والشخصيات الكنائسية على الاهتمام بالتبشير عامة وبين المسلمين خاصة ·

وبعد ان واصل يكتب ويسافر فى كل انحاء أوروبا اقدم فى الخامسة والسبعين من عمره على القيام برحلة من جزيرة مايورك الى المغرب والى مدينة بجاية فبدأ تبشيره العلنى ومهاجمته للدين الاسلامى فالقى القاضى الحكم عليه وقال له : أى جنون سمح لك بمهاجمة ديننا الحنيف علنية ، فسجنه ولكنه انتظر مجىء العلماء المسلمين للتحادث معه واقناعه عن حقيقة الدين الاسلامى ، فاستجاب له وراح يكتب ليلا ليجمع ثمار هذه المحادثات والافكار وهكذا ألف فى بجاية كتاب مجادلة رامون يول المسيحى مع 'lama Sarrasino

وأخيرا بعثه أمير أو حاكم بجاية فى باخرة متجهة الى مدينة بيزة بايطاليا · وهكذا واصل هذا العجوز الذى لا يخضع لشىء كاتبا ومرتحلا عبر كل أوروبا وكان جديرا بحقيقة الدين المسيحى وكان دائما فى استعداد لنشر هذا الدين حتى عند البابا والامراء المسيحيين · ولكنه لن ينسى المسلمين ففى 1314 رجع مرة أخرى الى بجاية وهو فى الثانية والثمانين من عمره ومنها انتقل الى تونس حيث طلب من ملك أراغون أن يرسل له ترجمانا وكاتبا يساعداه فى أعماله ، ورجع مرة أخرى الى بجاية حيث مات فى السفينة التى كانت تنقله الى مايورك ·

وجاء فى بعض الاساطير أن رامون يول اضطهد فى بجاية وفى الحقيقة نحن لا نعلم شيئا عن آخر أيامه التى قضاها فى بجاية · وان سكان مايورك يكنون له احتراما واكراما عظيمين اذ أنه يوم الاحتفال بذكرى وفاته توضع صورته على مقدم بلدية بالمة ولقد رأيتها أنا عندما كنت ولدا · وهكذا نرى بين تعصب بعض من زملائه الفرانسسكانيين ودخول الاسلام من طرف آخر شخصية رامون يول العظيمة · ورغم انه دافع فى بعض الاحيان عن الحروب الصليبية ككثير من رجال القرون الوسطى · فقد اشتغل خاصة بالتبشير الدينى بكلامه ومؤلفاته متعلما اللغة العربية والحضارة الاسلامية · وهو رجل ركز تبشيره على الحوار المنظم هكذا ومريدا ان يؤثر فى المسلمين كان المعلم اللاهوتى المسيحى الذى تأثر أكثر من غيره من المسلمين · وهذا مثل لتأثير الحضارة العربية الاسلامية فى أوروبا خلال القرون الوسطى كلها ·

وأنا أظن أن اهتمام رامون يول بالمسلمين وتأثيرهم فيه كان من أسبابها أنه عاش فى جزيرة وسط البحر الابيض المتوسط قابلا جميع تيارات هذا البحر المشترك · ولهذا الغرض نصب تمثال رامون يول فى ميناء بالما بمايورك رمز للضيافة والانزال ولانفتاح العقل لجميع التيارات الفكرية فى أوقات رامون يول ·

وفيما يتعلق بانفتاح رامون يول دعونى أيها الاخوة اختم كلامى بهذه الحكاية عن هذا التمثال المشهور لميناء بالما ·

لقد أقاموه منذ سبعة سنوات وخطر لشخصية مايوركية أن توضع جملة فى كل اللغات كتب بها رامون يول أى باللاتينية والكاتالانية والعربية · هذه اللغات التى كانت

لغات ثقافية فى عصره ولاختيار الجملة العربية اتصلوا بى عندما كنت استاذا بجامعة ليون بفرنسا ففكرت أنه من الاحسن أن يختارها عربى مسلم وعلى الخصوص جزائرى لان رامون يول عاش فى الجزائر وتوفى فى بجاية • ولهذا الغرض عرضت الفكرة على زميلى الاستاذ الدكتور على مراد الذى كان له اللطف فى اختيار جملة ثمينة لرامون يول وهى « لا محبة بدون ارادة ولا ارادة بدون محبة » وأرسلها الى مايورك •

ولكن الجملة كانت كلها فى سطر واحد أفقى أما قاعدة التمثال كانت عمودية وضحت القاعدة غير كافية لكتابة الجملة فى سطر واحد فلجأ زملائى الماركيون الى قطع الجملة من اليسار الى اليمين أى ابتدأوها من الاخير فوضعوا آخرها فى السطر الاول ووسطها فى السطر الثانى أما أول الجملة فوضعوه فى آخر سطر من البلاطة • وهكـذا أصبحـت الجملة غير مفهومة وغامضة فى اعين الناس •

أما أنا فقد كنت فى جامعة ليون ولم أطلع عن هذا الحادث • فاشتكـت الناس فى مايورك قائلة ان ما كتب غامض جدا وغير مفهوم • فقام الشخص وأتى بالفكرة بعـــدة مجادلات فى الصحافة قائلا أنه استشار أساتذة جامعات حذيرين بما يعملون وأنه عرض البلاطة على بعض العرب وأنهم فهموا المعنى العام للجملة الا أنهم قالوا انها تظهر غريبة شيئا ما • واستنتج اننا ترجمنا نص الجملة الى عربية العصور الوسطى ولهذا لم تفهم جيدا واستطاع بهذه الوسيلة أن يقضى على احتجاجات الناس •

وبعد مدة من الزمن مررت بمايورك فرأيت التمثال وما فعلوه بها • فتلفتت الى السيد الجليل وقلت له أن هناك غلطة عظيمة ذات أهمية • فتعجب قائلا : انت كذلك تشكو الآن بعدما اقنعت الناس جميعا ان الجملة مفهومة ولكن الغلطة أصلحت ونستطيع اليوم رأى تمثال رامون يول وهو فاتح ذراعيه فى ميناء بالما • ذراعان مفتوحتان الى العالم وموجهة الى بجاية خصيصا هذه الارض التى توفى فيها •

كل هذه الاحداث هى تواريخ العصور الوسطى ـ أما الآن فقد طرأ تغيير شامل بين بلدى وبلدكم بين الدين الاسلامى والمسيحى ولكن جملة رامون يول التى اختارها زميلى الجزائرى على مراد ما زالت صالحة ولها شأن فى علاقات المايوركيين مع جـيرانهم سكان

بجاية . واختم كلامي أيها الاخوة المستمعون قائلا : « لا محبة بدون ارادة ولا ارادة بدون محبة » .

والســلام عليكم

مـراجـع عـربيـــة

البكـــري (ابو عبيد الله) كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب . طبعة دي سلان . باريس 1965 .

الادريسي (الشريف) كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

؟ (كتاب الاستفسار في عجائب الابصار) . طبعة دي كريمير فيانا 1952 .

الغبـريني (أبو العباس احمد بن أحمد ...)

« عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » طبعة الجزائر 1910 .

ابن خلـدون (عبد الرحمن) كتاب العبر ... ج 6 .

الفكر الاسلامي
آثاره وأسباب قوته وضعفه

د . الحبر يوسف نور الدايم
كلية الآداب ـ جامعة الخرطوم
ـ السودان ـ

لعل من نافلة القول بيان أن العرب ـ قبل الاسلام ـ لم تكن لهم فلسفة متكاملة ولا نظرة شاملة للوجود وانما هى نظرات مبعثرة وخطرات مفرقة ، ولفتات مشتتة تعبر عن تجاربهم المحدودة فى الحياة كقول طرفة ابن العبد فى داليته :

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى
لكا لطول المرضى وتبيناه باليد

ثم جاء الاسلام فابدع فى كل شعبة من شعب الحياة وأثر فى كل ناحية من نواحيها فكان نورا ورحمة ، وهداية ورشدا • وسنحاول أن نبين بعض تلك الآثار الضخام فى شىء من الايجاز والاقتضاب :

أثـر فى العقائـد :

من المعلوم ان معظم العرب قبل الاسلام كانوا اهل وثنية ، وكان لكل قبيلـــة (1) صنعها بل قد يتخذ بعض الافراد اصناما خاصة يقدسونها ويدينون لها بالطاعة والولاء

(1) من الاصنام المذكورة : هبل واللات والعزى ومناة واساف ونائلة ـ انظر كتاب الاصنـــام لابن الكلبى وسيرة ابن هشام ـ ج 1 ـ ص 78 وما بعدها .

ويسألونها النجاح والفلاح . وهذا لا يعنى انهم ما كانوا يعرفون عن الله شيئا ولكنها المعرفة الغامضة غير العميقة التى لا تؤثر فى السلوك والعمل . ومن الجاهلين من شك فى جدوى تلك الاصنام فطفقوا يبحثون عن دين تطمئن اليه النفس ، ويرتاح اليه الضمير، ويركن اليه الفؤاد .

كما فعل زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه ، ونهى عن فعل المنكرات ، وقتل المؤودة ودان بالتوحيد :

أربا واحدا أم ألف رب أدين اذا تقسمت الأمور (2)

ولم تك قضية التوحيد قضية سهلة ميسورة كما يظن بل جاهد فى سبيلها الرسول صلى الله عليه وسلم ، جهادا كبيرا ، ومكث يدعو اليها سنين عديدة حتى دخل الناس فى دين الله افواجا . ولم تكن المسألة خاصة بالعرب عباد الاصنام والاوثان الذين تساءلوا منكرين مندهشين حائرين :

(اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب ص ـ 5) بل تجاوزتهم الى أهل الكتاب الذين حرفوا الكلم عن مواضعه ، وابتدعوا عقائد ما أنزل الله بها من سلطان . فاليهود يزعمون أن عزيزا ابن الله والنصارى يزعمون أن المسيح ابن الله ثم يخترعون نظرية الثالوث .

فيأتى القرآن بالقول الفصل ، والحكم الحاسم (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد . مائدة/73) ثم عادوا جميعا ـ اليهود والنصارى ليدعوا انهم ابناء الله وأحباؤه (وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق . مائدة/18) .

جاء الاسلام ناقدا تلك الدعاوى ، مفندا تلك الاباطيل ، نافيا تلك الاوهام ولا عجب اذ يقول تعالى (وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ، مائدة/48) فهذه الهيمنة هى التى تعطى الاسلام حق التقويم والتعديل والتصحيح ... تصحيح الاوضاع الجائرة فى كل جانب من جوانب الحياة ...

(2) ابن هشام ـ ج 1 ـ ص 241 .

صحح عرب الجاهلية الذين سكنوا الى حجارة لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تعى ، وصحح اليهود والنصارى الذين أتوا بعقائد من تلقاء انفسهم واعطوا انفسهم حق التبديل والتحوير والتحريف ·

التوحيد اعظم عقيدة جاء بها الاسلام وهى الاساس الذى تبنى عليه الحياة الانسانية الفاضلة الرشيدة ولهذا عظم الله سبحانه وتعالى الشرك وعده ظلما عظيما ، وجرما كبيرا لا يغفر · والمعتزلة الذين نبغوا فى واخر العصر الاموى واستووا على سقوهم فى العصر العباسى جعلوا التوحيد الاصل الاول والاهم عندما اقروا الاصول الخمسة التى تجمعهم وسموا انفسهم أهل التوحيد · ثم جاء على المسلمين زمان انحرفوا فيه بعقيدة التوحيد عن الجادة فاخترعوا نظرية الاتحاد التى يمثلها ابو المغيث الحسين بن منصور الحلاج كما ابتدعوا نظرية وحدة الوجود التى يمثلها محى الدين بن عربى الحاتمى · فهب الامام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى وغيره من علماء المسلمين لاثبات يذودون عن دين الله ، ويردون ما جاء به القوم فى منطق قوى ، وفكر مستقيم ·

عظم الاسلام الشرك بالله لان التوحيد واستقامة العقيدة هى التى تدفع بالناس فى الطريق السوى الاقيم ، والصراط المنيع المستقيم · وليس من اللازم ان يعبد الانسان صنما أو وثنا أو بقرة ليكون مشركا بالله فقد يعبد الهوى والغرائز والنوازع والشهوات (أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا · الفرقان/43) والانسان الذى يلغى عقله ، ويضرب عن الفكر ولا يرى ولا يسمع ولا يفكر الا بأعين الآخرين وآذانهم وعقولهم الانسان الذى يسمع ويطيع من غير مناقشة ولا أخذ ولا رد ولا أعمال فكر ··· مثل هذا الانسان عابد لغيره لان العبادة تعنى الطاعة والتسليم وهذا ما فات على عدى بن حاتم فى خبر الآية (3) المشهور ·

ومن العقائد السابقة التى جاء بها الاسلام ايضا عقيدة البعث لا شك ان الموت من الحقائق التى استوقفت الجاهليين قليلا ، ودفعتهم الى شىء من التامل والتفكير أما ما بعد

(3) هى قوله تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم . التوبة/3I) فقال عدى وكان نصرانيا وقتا ما كنا نعبدهم فقال له (ص) ألم يحرموا عليكم الحلال ويحلوا لكم الحرام فاطعتموهم . قال نعم ـ قال فتلك عبادتكم اياهم .

الموت فقد اختلفوا فيه اختلافا بعيدا • منهم من آمن به ومنهم من حقد عنه ومنهم من وقف حائرا مضطربا ولعل زهيرا بن ابى سلمى كان من المؤمنين بالبعث والحساب يدلك على ذلك قوله فى المعلقة :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

الا ان ايمان المؤمنين بالبعث كان مرتبطا بالخرافة الجاهلية والاوهام المتهافتة فقد كانوا يعقلون الرواحل عند الاجداث ويتركونها من غير طعام ولا رى حاسبين ان الميت لابد منشور (4) عليها •

أما طائفة الشاكين غير المستيقنين الذين لم يقطعوا برأى فيما بعد الموت فيمثلهم قوله تعالى (ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين الجاثية/32) وقوله بل ادراك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون • النمل/66) •

والكثرة الكاثرة من الجاهليين كانت تنكر البعث انكارا ، وتستبعده استبعادا وهم الذين جادلوا الرسول (ص) وأكثروا جدالته ، وفتتوا له العظام النخرة البالية سافرين منكرين مستهزئين • ونشأت بينهم طائفة عرفت بطائفة الدهريين واليهم يشير القرآن الكريم حين يقول (ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر • الجاثية/24) والقرآن يصور لنا انكار الجاهليين للبعث تصويرا رائعا نجتزىء منه بقوله تعالى (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد افترى على الله كذبا ام به جنة • سبأ 8/7) •

لقد أثارت هذه العقيدة الجديدة دهشة الجاهليين وعبروا عن هذه الدهشة فى اسفارهم كما فى قول الآخر :

يخبرنا ابن كبشة سوف نحيا وكيف حياة اصداء وهام (5)

(4) ومنها ايضا الهامة قال ذو الاصبع العدوانى :
يا عمرو الا تدع شتمى ومقصتى اضربك حيث تقول الهامة اسقونى . وانظر المفضليات .
(5) ند على موضع هذا البيت ولعله فى سيرة ابن هشام .

ولم يكتف القرآن الكريم بالتقرير المجرد لهذه القضية بل ساق الادلـــة والحجـج والبراهين التى تسند صحة دعواه فالله الذى أنشا النشأة الاولى قادر على ان يعيدهـا مرة أخرى وهى أهون عليه ولله المثل الاعلى (من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مـــرة الاسراء/51) وفى الظواهر الطبيعية شاهد ودليل ··· الارض الميتة ينزل عليها المـاء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج (ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربتان الذى أحياها لمحي الموتى انه على كل شيء قدير ـ فصلت/39) وفى النوم واليقظة دليل (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) · والناس مختلفون فى الاعمال ، متباينون السلوك ، متفاوتون فى الافكار ولا بد من محاسبة وتقييـم وهـــذه ضرورة اخلاقية لا مناص منها (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمـــون · القلـــم 35 ـ 36) · هذه العقيدة ··· عقيدة البعث آمن بها المسلمون الاوائل ايمانا عميقـــا فاثرت فى سلوكهم تأثيرا عنيفا ، وكان ايمانهم بها ـ كايمانهم بالتوحيد ـ بسيطا عميقا فى آن ··· آمنوا بها ، صدقوا الرسول ، ولم يسألوا عن كيفية البعث ثم جاء اخلافهم من بعدهم فما فتئوا يتساءلون عن كيفية البعث فعقدوا المسألة تعقيدا ، وفقد النـاس حرارة الايمان فأستبدلوها بالجدل والكلام · عاد الناس يسألون هل تبعـــث الارواح وحدها وتفنى الاجسام أم هل تبعث الاجسام والارواح جميعا ؟ أما الكثرة ممن نسميهم فلاسفة (6) اسلاميين فقد زعموا ان الروح عنصر خالد باق دائم والجسم عنصر مادى فان متحلل والبعث انما يكون للارواح التى تطلق من محبسها الذى تمثله الاجسام ولقد سخر احدهم من هؤلاء فقال :

زعـــم المنجـم والطبيب كلاهمـــا   لا تبعـــث الاجسام قلـــت اليكمـا
ان صـــح قولكمـــا فلست بخاسر   أو صـــح قولى فالوبـــال عليكمـا

وظاهر ان القرآن الكريم يبشر بنعيم مادى روحى ، وينذر بعـــذاب روحى مـــادى والانسان نفسه مادة وروح فلا معنى لمن قال تبعث الارواح دون الاجسام ·

هذا الحديث عن التوحيد والبعث ان هو الا محاولة متواضعة لتبيين بعض ما للاسلام

(6) هذه واحدة من المسائل التى كفر بها الامام الغزالى الفلاسفة . انظر تهافت الفلاسفـــة ود . راشـد البراوى/قادة الفكر 333 وما بعدها .

من اثر فى عقائد الناس · واثر الاسلام لا يقتصر على ما استحدث من افكار وعقائد كان لها دورها العظيم فى تاريخ الفكر البشرى · وعلينا ان نذكر دائما ان الاسلام حث وشجع وطالب الناس باعمال الفكر ، وايقاظ الشعور ، وتربية الحس (قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) (قل انظروا ما فى السموات والارض) (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب · آل عمران/190) · (7)

وجد الاسلام الناس يدينون بعقائد متباينة ، ويسلكون سبلا مختلفة فدعاهم دعوة ملحة لا معان النظر ، والتجرد عن الهوى والغرض وحمل حملة عنيفة على تقليد الاباء والاجداد من غير بصر ولا تدبر (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا ، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ البقرة/170) والامام الغزالى بما له من معرفة وثيقة بالدين وقواعده ، والاسلام وروحه يهاجم التقليد والمقلدين هجوما عنيفا وحق له ان يفعل فالتقليد دليل على البلادة ، وضيق **العطن** ، وطمس البصيرة وفى ذلك يقول الامام الحجة (فان زعم ان حد الكفر ما يخالف مذهب الاشعرى أو مذهب المعتزلى ، أو مذهب الحنبلى أو غيرهم فاعلم أنه نظر بليد قيده التقليد فهو اعمى من العميان (8) ·

وفى موضوع آخر نجده يستمر فى هجومه على المقلد محتدا محتد ما قائلا (وشرط المقلد أن يسكت ويسكت عنه لانه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ولو كان أهلا له كان مستتبعا لا تابعا ، واماما لا مأموما فان خاض المقلد فى المحاجة فذلك منه فضول، والمشتغل به صار كضارب فى حديد بارد ـ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟) · (9)

فالتفكير فى الاسلام واجب شخصى ، ومسؤولية فردية والجماعة لن تغنى عن الفرد شيئا فى هذا المجال · وما من أحد يطيع أحدا طاعة عمياء فيضله الا ناله غضب الله ،

(7) جمع الاستاذ العقاد جملة صالحة من الآيات التى تنحو هذا المنحى فى كتابه (التفكير فريضة اسلامية فليراجع) .

(8) البراوى : قادة الفكر/210 .

(9) نفسه/211 .

وندم حيث لا ينفع الندم ، وتحسر حيث لا تجدى الحسرة (ويوم يعض الظالم على يديه يقو ل يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا · الفرقان/27 ـ 29) والرسول (ص) يرشد الانسان قائلا (لا تكن امعة تقول فان أحسن الناس أحسنت وان أساؤوا أسات ، ان تتجنبوا اساءتهم) وكل هذا يناقض مناقضة صريحة مذاهب الجاهليين فى التفكير والعمل خذ على ذلك مثلا قول (10) دريد بن العتمة :

وهل أنا الا من غزية اذ غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

والاسلام يوسع دائرة النظر المستقل ، والتامل المفرد فالكون كله مادة للفكر ، ومجال للنظر ومسرح للتدبر قال تعالى (وسخر لكم ما فى السموات والارض جميعا منه · الجاثية/13) وقال (وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون · يوسف/105) ·

أما حديث تفكروا فى مخلوقاته ولا تفكروا فى ذاته فليس حجرا على الفكر ولا منعا للنظر ولكنه حفظ له من الضياع وضن به من التبدد ولقد اثبت تاريخ الفكر الفلسفى صحة هذه النظرة ، فالفلاسفة الذين شغلوا انفسهم بميدان ما وراء الطبيعة وهو ما يسمى ـ Metaphysique فراحوا يتصورون حقيقة الذات الالهية المقدسة كما تتخيلها أوهامهم لم ياتوا بطائل ابدا وان هى الا تهويمات لا يسندها دليل ، وتخيلات لا يعضدها برهان ·

ولم تتقدم الفلسفة الاسلامية شبرا واحدا فى هذا الميدان · ولقد ادرك الفلاسفة الغربيون بتأثير من النظرة الاسلامية ان طريق ما وراء الطبيعة طريق مسدود لم يخلق له العقل الانسانى فأضربوا عنه اضرابا وهكذا وجدنا من يسمي بالفلاسفة التجريبين Empiristes الذين خطا العلم الحديث بفضل جهودهم خطوات واسعات موفقات ·

(10) عن دالية مشهورة يرثى فيها اخاه عبد الله مطلعها (أرث جديد الحبل من ام معبد) .

وهذا هو الخط الذى سلكه علماء المسلمون فى العصور الوسطى فاستطاعوا أن يجنوا نتائج ايجابية باهرة اعتمدوا فيها على الملاحظة الدقيقة ، والمشاهدة المتكررة والتجارب المعادة والاستقراء العلمى المتاز . وعندما اتصل العرب المسلمون بغيرهم من الامم ، واحتكوا بثقافات أجنبية ، وفلسفات غريبة لم يكونوا ضعافا باهتى الشخصية وانما كانوا أقوياء استمدوا قوتهم من اعتزازهم بما يحملون من مبادىء وافكار وتعاليم وقيم مما جعلهم العنصر المسيطر على الاوضاع المهيمن على الحياة ، المسير للامور والاحداث فان افتخر غيرهم بما كانوا من زخرف وزينة ومتاع منهم لا يعتزون الا بما عندهم من نور وهدى ومعرفة بالله رب العالمين (اذا سلم دينى فأهون بالمصاب) . (11)

(ولست أبالى حين اقتل مسلما	على أى جنب كان فى الله مصرعى)
(ابى الاسلام لا أب لى سواه	اذا افتخروا بقيس أو تميم)
(دعى القوم ينصر مدعية	ليلحقه بذى الحسب الصميم)
(ولا كرم وان كرمت جدود	ولكن التقى هو الكريم) (12)

ولو كان انتصار العرب انتصارا عسكريا ليس الا لذابوا فى المجتمعات الجديدة التى احتلوها ولما تسنى لهم ان يكونوا قادة الفكر وحداة النظر ، وبناة الحضارة . ولو كان انتصارا عسكريا مجردا لخضعوا فى مسائل الفكر والآداب والفن للبلاد المفتوحة خضوع الرومان لليونان لان اليونان كانوا ارسخ قدما ، واطول باعا ، واقطع ضرسا فى مجال الافكار والآداب من الرومان المتفوقين عسكريا الذين لم يجدوا بدا من النقل والتقليد والمحاكات (وما التكحل فى العينين كالكحل) (13) . اما المسلمون فقد كانوا يملكون مقياسا لا يخطىء يفصلون به بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ذلكم هو القرآن الكريم الذى انزله الله سبحانه نورا وبرهانا ومرشدا ودليلا (14) .

---

(11) هذا مثل يضرب .

(12) الابيات لنهار بن توسعة من شعراء الدولة الاموية . الشعر والشعراء – ج 1 – 537)
انظر الكامل للمبرد أيضا .

(13) شطر مشهور لابى الطيب المتنبى .

(14) يقول : M. M. Sharif
(هناك حقيقة هامة تغافل عنها او لم يفطن لها الكتاب المسيحيون الذين كتبوا عن تاريخ الحضارة الاسلامية وهذه الحقيقة هى ان القوة الدافعة التى جعلت المسلمين يهتمون بالعلم مصدرها القرآن الكريم وأحاديث الرسول . الفكر الاسلامى – 25) وهو قول صحيح له من الشواهد ما يؤيده .

وتعاليم الاسلام بما فيها من سحر اخاذ ، ونور ثاقب وحق متبلج استطاعت ان تفعل فعلها بفضل جهود بعض الافراد الافذاذ حتى عندما اخلد جمهور المسلمين الى الارض واطمأنوا بالحياة الدنيا ورضوا بها فضربت عليهم الذلة والمسكنة واذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون فبدلوا بؤسا بعد نعمة ، وذلة بعد عز ، وضعفا بعد قوة وسلط الله عليهم قوما غلاظا شدادا قاسية قلوبهم لا يرقبون فيهم الا ولا ذمة أولئك هم التتار الذين عاثوا فى الارض الفساد ، وخربوا الديار ، وحرقوا الكتب ، وسفكوا الدماء ونهبوا الاموال (15) ... أقول انه بفضل جهود بعض المسلمين البررة الذين تجلت فيهم عظمة الاسلام وسماحته هيأ الله لبعض أولئك الهمج الرعاع من أمرهم رشدا ، فدانوا بدين الحق . فالتتار بالرغم من تفوقهم المادى ، وقوتهم العسكرية الضاربة الا انهم لم يكونوا الرأس المقدم فى مسائل الفكر والعلم والمعرفة . وحملت الفئة الصالحة التى آمنت منهم راية الاسلام فخلقوا خلقا جديدا وصار نشئا آخر فتبارك الله احسن (16) الخالقين .

هكذا اثر الاسلام فى افكار الناس وفى طريقة تفكيرهم وهناك جوانب أخرى نود ان نلمسها لمسا خفيفا فالاسلام اثره فى كل ناحية . وجد الاسلام الناس مستمسكين بمثل جاهلية ، وقيم موروثة فهدم بعضها ، وقوم بعضها وترك بعضها على ما هى عليه على ان ينظر الناس نظرة جديدة مستحدثة مستشعرين وجود الخالق وعظمته فى كل تصرف وتصور . حرم الخمور والميسر والاستمتاع غير المشروع بالنساء ووجه بسالة العرب ، وحبهم للمغامرة وركوبهم المخاطر وجهة اسلامية جديدة تركيزا للجهاد واعلاء كلمة الله وسما بنظرتهم فلم تعد الحروب سلبا ونهبا وكسبا رخيصا (ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ـ النساء/94) خالطت هذه النظرة الجديدة قلوب الناس ، وخامرت عقولهم فاصبحوا لا يصدرون الا عنها فالاموال مثلا لم تعد ملكا خالصا للناس وانما هى تمليك وتخويل يجب ان يحسن الانسان التصرف فيه قال عبده بن الطبيب (17) :

(15) انظر نقولا زيادة : دراسات اسلامية 23 ـ 24 .
(16) انظر ابا الحسن الندوى : ربانية لا رهبانية/24 وما بعدها .
(17) شاعر مخضرم شهد القادسية : انظر المفضليات .

رب جبانـــا بأمـــوال مخولـــة   وكـــل شيء حباه اللـه تخـويـل

ومن آثار الاسلام الخالدات تنظيمه لحياة الناس ، ومدهم بالقانون الذى يحتكمون اليه فى صغائر الامور وكبائرها فلم تعد الامور فوضى ضاربة لا ضابط لها كما كانت من قبل وقد ادرك العرب هذه الحقيقة واحسوا ان وجه الحياة قد تغير ، وان القيم قد تبدلت قال ابو فراش الهذلى :

وليس كعهـــد الـدار يا أم مالك   ولكن احاطت بالرقـاب السلاسـل

وعاد الفتى كالشيـخ ليس بقائـل   سوى الحق شيئا واستراح العواذل

اضف الى ذلك كله ان الاسلام اثر تأثيرا لغويا بعيد الغور فبفضله حفظت اللغة حتى لولا القرآن لما وضع شيء من كتب اللغة البتة كما يقول الاستـــاذ مصطفى صـــادق الرافعى (18) ، وبفضله اتسعت اللغة ونمت وازدهرت ، وبفضله اصبحت لغة عالمية ، وصارت لغة الفنون والعلوم والافكار ۰ والقرآن بلغته الادبية الفذه المعجزة صار المثـل الاعلى للبلاغة العربية ، والمعين الذى لا ينضب ، الذى ورده الادباء والكتاب والشعـراء والمنشؤون وما زالوا يردونه ويفيدون منه ، ويتفحصون به ۰ والاحاديث النبوية بما لها من صياغة أدبية رفيعة محكمة موجزة كانت هى الاخرى رياضا دمنات يتانق فيهن المتأمل ويجتلى النظر ، ويجنى الثمار ۰

بعد ان تحدثنا فى اجمال عن اثر الاسلام فى العرب نود ان ننتقل الى اثره فى الحضارة الانسانية على وجه العموم وهو انتقال شكلى اذ المسالة واحدة فتأثير الاســـلام ذلكـــم التأثير البليغ فى حياة العرب ونقلهم تلك النقلة الفكرية الحضارية الضخمة يعتبر بلا ريب تأثيرا مباشرا فى التاريخ البشرى ، والقمم البواذخ التى صنعها الاسلام كأبى بكر وعمر لا تعد مفخرة للعرب فحسب بل هى مفخرة على المستوى الانسانى العـــام ۰ وتاريـــخ الحضارة الانسانية حلقات متصلة أخذ بعضها برقاب بعض وقد شاركت فى صياغـــة أمم وشعوب ودور الاسلام فى الحضارة الانسانية قديمها وحديثها لا ينكره الا مكابـــر جهول ۰ ومن المؤسف ان بعض المسلمين جهلا منهم ، وغفلة وسوء نظـــر يحسبون ان

(18) قال ذلك فى مقدمته لشرح ادب الكتاب .

العلوم التى ينعم الناس بثمرتها اليوم لن هى الا جهد خالص للاوروبيين وفضل سابغ لا يشركهم فيه احد ٠ وهم فى هذا انما ينسون ان هذه العلوم ثمرة تجارب طويلة ضاربة فى أعماق التاريخ ٠

واثر المسلمين فى العلوم يتجلى لنا فى اتجاهين : الاتجاه الاول فى المنهج العلمى الدقيق الذى التزموه فكانوا متجردين عن الهوى والغرض ، مخلصين للحق والحقيقة ، باذلين الجهد كله للوصول الى نتائج مقنعة مبرهنة (19) والاتجاه الثانى فى النتائج التى وصلوا اليها بعد ان اتبعوا ذلك المنهج العلمى العظيم ٠ فقد استطاعوا ان يبهروا عالم العصور المظلمة عند الغربيين بما احرزوه من تقدم علمى منير فى كثير من الميادين ٠ ففى الكيمياء برز جابر بن حيان الذى قيل فيه (ان لجابر بن حيان فى الكيمياء ما لأرسطو فى المنطق وفى الحساب والجبر ابدع محمد بن موسى الخوارزمى ، وفى علم الفلك اشتهر البتانى ، وفى الطبيعة علا كعب ابن الهيثم ، وفى النبات طارت شهرة ابن بيطار الى غير هؤلاء ممن لا يحصرهم العد ، ولا يحيطهم الحبر ٠

بالاضافة الى هذه العلوم التجريبية التى اعتمدوا فيها على التجربة والمشاهدة اهتم المسلمون أيضا بالعلوم الدينية كعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه بفروعه وأصوله ، كما اهتموا بالعلوم اللسانية من نحو وصرف وعلوم بلاغة ومعاجم ، وبذلوا فى علوم التاريخ والجغرافيا والفلسفة وسائر العلوم الانسانية جهدا جاهدا ناصبا ٠ هذه الجهود لم تذهب عبثا ولم تمض سدى ، بل أدت دورها كاملا فى تقدم الانسانية وازدهار الحضارة ولم تكن حضارة شوهاء حولاء تنظر بعين واحدة وتسعى بساق واحدة ، وتتنفس من منخر واحد حتى كانها شق الذى تصوره لنا الخرافة الجاهلية شق انسان بل كانت حضارة متكاملة تقف وراءها عقول صافية مؤمنة ، ونفوس آمنة مطمئنة وقلوب عامرة واعية ٠ وما من باحث منصف الا ويعترف اعترافا كاملا بالمسؤولية الضخمة التى نهض بها المسلمون دون كلل او ملل ، يقول أحد المفكرين : (وبدافع القرآن رفع المسلمون لواء الحكمة وخدموا العلم والمعرفة ، واحيوا علوم السابقين وعلموا الفلسفة

(19) انظر فصل النزعة العلمية فى التراث العربى من كتاب العلوم عند العرب ، لقدرى حافظ طوقان — 77 وما بعدها .

والطلب والفلك ومن البناء في أسمى صورة الى الغرب والشرق على السواء مما اتاح لنا ان نصل الى النهضة العلمية الحديثة ولهذا يجدر بنا الا نكف عن البكاء كلما تذكرنا اليوم الذى سقطت فيه غرناطة) • (20)

هذه الحضارة التى حاولنا ان نصف بعض جوانبها والتى كان يغذيها ذلك الفكر النير الجسور ضعفت وتضعضعت بض... المسلمين وتضعضعهم وكان لذلك الضعف والتضعضع دوافعه ودواعيه من تلك الدوافع ضعف الوازع الدينى فى النفوس فجذور القرآن التى كانت ممتدة فى النفوس تملأها حماسا للعمل ، وتحثها حثا عنيفا على أعمال الفكر وامعان النظر بدأت تخبو وتبوخ فأصاب الناس كسل قاتل وخمول مريع ماتت منه الهمم وخبت له النفوس فسيطرت الشهوات وسيرت الناس الاهواء (فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا • مريم/59) • وعندما يترك الناس الاجتهاد والمجاهدة والجهاد ••• عندما يترك الناس التعلق بالمثل العليا ، والاهداف السامية والاغراض النبيلة ••• عندما يكون همهم الاكل والشرب والسبق فقد أذنوا بزوال (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل • سبأ/16) •

هذا اقوى الدوافع التى ارجعت المسلمين القهقرى ثم كانت عامل مساعدة عجلت بالنهاية منها تكالب الاعداء من الخارج فالتتار والصليبيون والاستعمار الحديث انزلوا ضربات قاصمات ، وصبوا سوط عذاب على المسلمين الذين كانوا يعانون من امراضهم الداخلية الفتاكة ويكفى ان كثيرا من المسلمين كانوا عونا وظهيرا وناصرا لاولئك المعتدين على اخوانهم المسلمين • ومن العوامل التى أدت الى عواقب وخيمة وبيلة سخافة العقول وضحالة الفكر • ففى فترة السكوف التى عاشها المسلمون عم الجهل بحقائق الدين والدنيا وتعلق الناس بالقشور والاعراض والاشكال وافرغت الشعائر الدينية من معناها وانتشرت الاوهام (21) والخرافات واستهان الناس بالواجبات (22) والفرائض وتعصبوا وتدابروا فى مسائل فرعية لا تغنى ولا تسمن من جوع (23) وهكذا ، وهكذا مما يدعو للحزن والاسف •

(20) M. M. Sharif : الفكر الاسلامى ـ 27 .

(21) قال الآخر : برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب ومن قوم اذا ذكروا علينا يردون السلام على السحاب .

(22) زعم بعض المتصوفة ان الفرائض اغلال ترفع عن العارفين .

(23) كان بعضهم لا يجوز الانكاح للمخالفين فى المذهب .

ولعبث الفكر الاسلامى من جديد لابد من رجوع الناس الى القرآن الكريم دراسة وتحصيلا وفهما وتطبيقا وهذا لا يمكن ان يحدث ما لم تقم الدول بواجباتها فالدولة فى الاسلام ليست هدفا فى ذاتها بل هى وسيلة من وسائل اعلاء كلمة الله (الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر · الحج/41) · ولابد ،ن يقوم الافراد العلماء بواجبهم أيضا فالاسلام لا يضيعه الا حاكم مستبد أو عالم مداهن · والعالم فى الاسلام ينصح ويعظ ويرشد والحاكم يستشير ويسمع ويطيع كلمة الحق وتاريخنا ملىء بسير العلماء العاملين الابطال الذين ادوا الامانة وحفظوا العهود ولم يمالئوا باطلا كيف وعبادة بن الصامت يقول بايعنا رسول الله (ص) على ان نقول الحق لا نخشى فيه لومة لائم ·

لقد دخلت فى افكار المسلمين مسائل لا تمت الى الاسلام بسبب فلا بد من النظر فى التراث الذى خلفته القرون المواضى نظرة فاحصة نافذة تنفى الشوائب التى علقت بالاذهان فالناظر فى تاريخ الفرق والمذاهب الاسلامية يجد ان كلا منها قد بالغ وتطرف فى جوانب على حساب جانب آخر ودين الله وسط بين الافراط والتفريط ··· منهم من زعم ان الانسان مجبر مكره لا يملك من أمره شيئا ومنهم من زعم انه حر حرية مطلقة ··· منهم من دعا الى تنقية الباطل واهمل الظاهر ومنهم من اهتم بالظاهر واغفل الباطن ··· منهم من كفر مرتكب الكبيرة ومنهم من تهاون زاعما لن تضر مع الايمان معصية وهكذا ·

وفى مجال الفقه لابد من الاسترشاد والاستنارة بآراء الفقهاء السابقين (24) ولكن ذلك لا يعنى ان آراءهم حجة ملزمة يصار اليها فهم رحمهم الله بذلوا جهدهم لحل قضايا عصرهم هم · وعلماء المسلمين اليوم لابد ان يبذلوا جهدهم لحل قضاياهم بعد ان يحاولوا محاولة جادة تسيير الحياة وفق تعاليم الدين وهداه ·

هذا ونحن نعيش فى مجتمع يضطرب من المعارف العلمية فهذه لابد من الاخذ باسبابها فالحكمة ضالة المؤمن وهناك تمويه وخداع من كثير ممن تاثروا بالحضارة الغربية اذ يزعمون ان الحضارة لا تتجزأ فهى اما ان تؤخذ جملة أو تترك وهؤلاء يريدون منا ان نكون حطاب

---

(24) احسن السيد سيد سابق صنعا فى فقه السنة اذا لم يتقيد الا بالدليل .

ليل ناخذ الغث والسمين كانا مشلولو الادارة • نحن نريد أن ناخذ بأسباب العلم لان ديننا يدعونا لذلك وهو بعد حق من حقوقنا شاركنا فيه مشاركة فعلية ولكننا لا نريد ان نرث امراض القوم وآفاتهم •

وعلينا ان نتابع ما تخرجه المطابع فبعضه جيد نافع وبعضه يهاجم الفكرة الاسلامية هجوما بواحا وبعضه يهاجمها من وراء حجاب فباسم التقدمية والقومية والاشتراكية والواقعية يهاجم الدين (25) وتذبح الفضيلة •

ان ظلام الجهل المتراكم لا يقطعه الا نور المعرفة الوهاج والمعرفة لا تنال الا بالجهد الدائب والتوفيق المتالب وليست المعرفة ـ بعد ـ ترفا ذهنيا ولا حلية ترتدى وانما العبرة بما تخلفه من اثر فى النفس والشعور وبين ايدينا علم غزير وأدب جم وكنز ثمين متمثل فى كلام الله وحديث الرسول والمحروم من حرم منهما فقد جاء فى الحديث الذى اتفق عليه الشيخان (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير اصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا واصاب منها طائفة أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، (26) وما من نهضة ترجى للمسلمين والقرآن مهجور والحديث مهدوم ، والشريعة معطلة •

(25) انظر مذاهب هدامة فى فكرنا العربى المعاصر للدكتور محمد محمد حسين .

(26) زاد المسلم 2/393/394 .

بعض مـراجـع البحـث

1) القرآن الكريم .

2) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم للشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى .

3) سيرة ابن هشام ـ تحقيق وشرح مصطفى السقا وآخرين، مصر 1936 م .

4) ترجمة احمد شلبغ Muslim thought (Its. Origin and Achievements)
تاليـف : M. M. Sharif

5) العلوم عند العرب : قدرى حافظ طوقان القاهرة ـ 1960 م .

6) ربانية لا رهبانية : أبو الحسن الندوى ـ بيروت ـ 1966 م .

7) قادة الفكر الاسلامى فى ضوء الفكر الحديث دكتور راشد البراوى ، القاهرة ـ 1969 م .

8) دراسات اسلامية : د. نقولا زيادة ـ بيروت 1960 وهو مقالات لجماعة من المستشرقين الامريكيين نقلـوا الى العربية، جماعة .

الوحدة والتنوع فى الثقافة الإسلامية

د• ايفـادى فتـرى مايرفيتش
أستاذة بكلية البنات بجامعة الازهر
(القاهـرة)
وعضوة فى المركز الفرنسى للبحث العلمى
(باريس)

اسمحوا لى ـ كمقدمة ـ أن أروى لكم حكايتين من تلك الحكايات التى تعين على فهم المقصود من الكلام بايراد الامثال • والحكايتين مقتبستان مـن المثنوى الواسـع المكتوب باللغة الفارسية ، والذى ندين به لذلك العبقرى الفذ جلال الدين الرومى الذى عاش ـ كما تعلمون ـ فى القرن الثالث عشر بالاناضول •

كان بدوى فقير يعيش فى الصحراء ، وفى حالة من العوز والفقر المدقع • وذات يوم ـ نزولا عند الحاح اسرته ـ عز على الرحيل الى بغداد واستجداء الخليفة ، ولما كان راغبا فى تقديم هدية لهذا الاخير ، ظن أن أنفس هدية لا يمكن الا ان تتمثل فى ذلك الماء الذى تعد كل قطرة منه ذات قيمة بالنسبة اليه ، مهما كان هذا الماء ملحا أجاجا • واستطاع البدوى المسكين بكثير من الجهود والعناء ، أن يحمل الى العاصمة مثل هذه الهدية الغريبة التى قدمهـا باعتـزاز للخليفـة • وما كان مـن هـذا الاخير الا ان تظاهر بالدهشـة

والاعجاب بهذه الهدية ، وان يرد البدوى وهو محمل بالعطايا والثروات ، على انه أمر باصطحابه ، مشيرا الى ان الطريق الذى يجب ان يسلكه ، ينبغى الا يمكنه من رؤية النهر ذى الماء العذب الفرات الذى يجرى على مقربة من قصره ·

ولعلكم أدركتم ان الذى أريده هو ان تعذروا هذا الادعاء الذى خول لى التحدث هنا عن ثقافة ليست بثقافتى الاصلية · وأرجو أن يبلغ تسامحكم معى مبلغ تسامح هذا الخليفة ·

والحكاية الثانية هى حكاية شخص فى بغداد يدعى عليا · وبعد ان بدد هذا الاخير ثروته وميراثه ، ودعا الله ان يمده بالعون من عنده : رأى فى المنام ان كنزا كان مخبوءا بمكان ما فى مدينة القاهرة · ورحل الى هذه المدينة ، وتعرف المكان الذى رآه فى المنام ، وكان يتأهب للشروع فى عملية الحفر حين مرت به دورية للشرطة فأوقفته ، وانتهت الى انتزاع الاعتراف منه بانه اذا كان يجوب الشوارع فى مثل هذه الساعة من الليل ، وبرغم قانون منع التجول ، فانما ذلك من أجل العثور على كنز كان قد رآه فى الحلم · وسخر منه ضابط الشرطة قائلا : « أرى أنك لست سارقا ولا جوالا ، وانما انت غبى » · فلقد طالما رأيت أنا فى المنام ان لدى شخص يدعى عليا من سكان الدار كذا ، والنهج كذا ، فى بغداد ، كنزا مخبوءا · فهل ترانى مجنونا مثلك حتى أجشم نفسى مشقة مثل هذه الرحلة ؟) وعاد على الى منزله ببغداد ، فاكتشف فى عقر داره الثروات التى وضعت حدا لتعاسته وشقائه · ولكن كان لابد له ان يغترب للعثور عليها ·

وربما تعين القيام بمثل هذا الاغتراب ، وتحويل المركز الروحى ، للحصول على مزيد من الوعى الحاد بالكنز الذى تختزنه أى ثقافة فانا لا أطالب اذا بالمعذرة والتجاوز الا لانى القيت نظرة غير معتادة على ثقافتكم · وما أنا بمستطيعة كذلك أن اعرض عليكم الا بعض أفكار قد الهمتنى اياها مثل هذه الرحلة · فكما ان المسافر بعد اكتشافه الكلى لمناظر طبيعة ، يحاول تحليل مكوناتها ، أو يحاول ، بالمقابل ، اذا ما حصل على صور جزئية أن يعيد تركيب المجموع ، كذلك أنا انما أود ــ ضمن هذه الثقافة العظيمة المترامية الاطراف ، الممتدة من أقصى عالم الى أقصاه ، منذ ثلاثة عشر قرنا ، والتى يتقاسمها مئات من ملايين الناس ــ أن أجتهد فى التمييز بين بعض العناصر التى تتردد ــ كما يبدو لى ــ

بصورة ثابتة الى حد ما : وأعنى بها ما يظل أكثر جوهرية ، أى البنيات التى تشرط عقلية جماعية تنتقل من جيل لآخر ، وما تزال مستمرة .

والذى يتراءى لى أكثر بروزا بصورة عامة : هو **القيمة الجامعة الشمولية للاسلام** ، والتى تتجلى على كافة المستويات .

ان سورة التوحيد (الاخلاص) وآية سورة الروم اللتين تذكران بأن اختلاف الشعوب والثقافات آية من آيات الله لتبرزان هذه الوحدة الاساسية الثاوية تحت تعدد الظواهر . فالواقع النهائى واحد ، والحقيقة واحدة ، وبالتالى فلا يمكن للوحى الا ان يكون واحدا ، ولا للرسالة النبوية التى تعبر عنه الا أن تكون واحدة هى الاخرى . وانما تفكير الناس هو الذى أقامها حينا ، وعكرها حينا آخر .

اختلاف فى الالسن وفى الالوان ـ كما تشير الآية واختلاف اذن فى الحساسية على مستوى التجربة والظرف المعاش . وكما ان قوانين الطبيعة لا تتغير ، وانما تتجلى فى سورة « مناخات » متقلبة ، فان الاسلام الخالد ، وغير المتغير ، كذلك يتجلى لنا بمظاهر مختلفة . وهكذا فالمساجد التى كانت فى لاهور ، أو قرطبة ، أو اسطنبول ، أو كازامنسا (فى الساحل الغربى للسنغال) وحتى هذه الدوائر المتواضعة من الحجارة التى نجدها فى الصحراء ، تعكس تلك « النية » التى تتوقف عليها قيمة وصحة كل من فعل من أفعال الحياة الاسلامية ، والتى ترمز اليها فى الزمان والمكان وجهتها الجغرافية والروحية : فهى اذ تبنى حول أو فى اتجاه القبلة انما تتحدد بالنسبة الى تعال لا يمكن ان يتصور أو أن يتمثل . واذا ما كانت وضعية أو ترتيب المواد البنائية مما يمثل مفاهيم وتصورات المهندس المعمارى ، وبالتالى ، النظرة الخاصة الى حقبة من الحقب الزمانية ، واذا ما كان رسم الآيات القرآنية المنقوشة فى الحجر أو الرخام أو الملاط ، قد تختلف اسلوبا ، فان المحتوى أو المضمون يخترق التاريخ . انها كلمة صادرة عما وراء الزمان والمكان .

ان الثقافة الاسلامية برمتها محصلة تلك العطاءات المتلاقية : فقد احتضنت تراث اليونان ، ثم جاء العرب ، والسوريون ، والفرس ، والاتراك ، والاسبان ، والمصريون لاثرائها دون تقويض هذا التجانس الذى يمنحها اصالتها الخاصة ، وهذا على الرغم مما

حصل عبر العصور ـ من انتقال لمراكز الثقافة : الكوفة والبصرة فى القرن الثامن وبغداد ثم القاهرة ابتداء من القرن التاسع ، دون أن نغفل تلك المراكز الكبرى فى شمال افريقيا التى كانت مبعث اشعاع العلم والايمان ، ولا ما أسهمت به ايران ثم العثمانيون ٠

ولو ذهبنا الى حصر الخصائص الاساسية للثقافة الاسلامية الفينا ابدا وعلى الدوام مفهوم قدسية الدين وطابعه العالمى ، ووجدنا مثلا أعلى للاخاء الذى يتجاوز ود القوميات ، وروح البحث التى تبرزها شتى الاحاديث الشهيرة ٠

ومن ناحية أخرى فان بعض الثوابت تشرط ضربا من النظرة الى العالم ، وتسهر مجموعة بشرية ، بفضل تصورات وممارسات مشتركة ان واحدا من (لا متغيرات) هذه النظرة لتتمثل ـ كما تبدو لى ـ فى تصور خاص للزمن ٠ ونحن نعرف ان هذه المسالة قد استهوت دائما المفكرين ٠ والمتصوفة المسلمين ، ثم ان اختلاف الليل والنهار ، فى القرآن آية من الآيات الكبرى للخالق ٠

وعند الفلاسفة ورجال الفن في الاسلام ، تعلب فكرة (الآن) دورا اساسيا ٠ (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) ، (انى لا أحب الآفلين) ذلك كان رد ابراهيم (عليه السلام) ٠

فالله وحده هو الدائم الباقى ٠ ومن هذا المعطى الاساسى للتوحيد المتعالى المتمثل فى أن (لا حقيقة الا الحقيقة) يتفرع التصور لزمان يقول عنه الجرجانى انه (اتساع الحضرة الالهية) ٠

وقد عبر المفكر المعاصر محمد اقبال عن هذه الفكرة فى عبارة أكثر عصر نــــة ٠ (فالزمان الطبيعى ـ كما كتب ـ هو الديمومة الخالصة وقد جزأها الفكر ٠ وهو ضرب من الاسلوب الذى بواسطته يمنع الواقع القياس الكمى نشاطه الخلاق المستمر) ٠

وقد جاء منضرو المدرسة السنية للفلسفة الاسلامية ٠ الاشاعرية ـ ضنوا مذهبا مفاده ان الطريقة الخلافية للقوة الالهية ذرية ٠ وقد اعتبروا المكان والزمان كما لو كانا مؤلفين من نقاط وآنات ، وابتدعوا فكرة (الطفرة) أو (الوثبة) التى هى اشبه ما تكون ـ على ما يبدو ـ بنظرية (الكمات) (كونتا) فى الفزياء الحديثة ـ هذا التصور للزمن المؤلف

من أنات ، المجرد من الديمومة قد طبع الميتافيزيقيين والمؤرخين على السواء • ومن بين هؤلاء الطبرى الذى نجده يعرض الاحداث التاريخية كما لو كانت آنات زمنية لا صلة بينها من الداخل • فليس ثمة (كلام عن التاريخ العام ، بل احداث معينة تثبت بشهادات صحيحة •

ثم ان المفهوم الذرى للزمان قد شرط تقدم الرياضيات فى الاسلام باتجاه الجبر والتحليل (لوغارتمات الخوارزمى) فى حين كان الفكر الاغريقى فكر المساحين (المهندسين) الحاسبين •

ويبدأ « الآن » الاساسى للجامعة الاسلامية فى الشريعة بظهور الهلال الجديد الذى تجب رؤيته بالعين المجردة بشهادة شاهدين •

وهذه النظرة للعالم التى يعرضها الفلاسفة وعلماء الكلام فى مذاهب من الفكر المنطقى ، ورجال الفن ، والشعراء ، والمتصوفة المسلمون فى أخذة وجودية لعدم قابلية « الآن » للوصف ، وللاشراقة الآنية التى تنم عن الوحدة فى التعدد سيتخذون منها رمزيتهم ذاتها أما قيل بأن الوليى « ابن الآن » ؟ وهو أيضا مشاهده ، لان من خلاله ينكشف الخلود الحى •

أما الفن الاسلامى فنحن نعلم ان السنية تحرم من حيث المبدأ تجسيد الصور وتمثيلها • فهو يبتغى ـ كما قال (لويس مانسيون) السمو الى ما وراء الاشكال وعدم التمكين من عبادة الصور والتماثيل ، بل انما ينزع نحو الاتجاه الى ما وراء ذلك ، نحو الذى ينفخ فيها الروح ، ويبعث فيها الحركة • تماما كالذى يحدث من الحركة فى الفانوس السحرى وفى مسرح الظلال « وسيكون فنا انطباعيا فى جوهره تسيطر فيه الفسيفساء والزخارف العربية ، والتكرار الذى لا حد له لنفس الفكرة ، والموسيقى ، الموزونة ، ان شكل الغزالى ليعكس هذه النقطية « السيكولوجية ذاتها المتالفة من بيوت مستقلة بعضها عن بعض ، يعطى كل واحد منها معنى كاملا بذاته • وهو ما يترك لدى القارىء الغربى غير المتهىء انطباعا بالمتقطع والمنفتق ، وهى مع ذلك تشكل كلا لا يتجزء بفضل وحدة الالهام الثاوية ـ والحال ـ الذى سواء اكان سرورا أم كآبة ، يربط ما بين هذه « النوطات » الايقاعات النفسية والآبدة فى نفس الوقت •

وعن جلال الدين الرومى ، ذلك الشاعر المسلم من ابناء القرن الثالث عشر ، الـذى ذكرته آنفا ، والذى كتب قبل سبعة قرون من ظهور الفيزياء النووية انه لو جزئت الذرة لوجدت فيها نوا ت، وشمس وأفلاك تدور جولها · (عن هذا الرجل) أقتبس الوصـف لما يسميه بـ « عالم الزمان » « انك فى كل لحظة تموت وتحيا » · ما هذه الدنيا الا لحظة ، كما جاء فى معنى الحديث « انما فكرنا سهم سدده الله : فكيف يمكن لهذا السهـم ان يظل فى الفضاء ؟ انه صائر اليه تعالى » ·

« فى كل لحظة وآن تتجدد هذه الدنيا ، ونحن لا نعى ولا نـدرك تغيرهـا الدائـم » الحياة تتدفق دائما من جديد، على الرغم من أنها ـ جسميا ـ تظهر بمظهر الاستمرار وانما ـ لسرعتها ـ تبدو مستمرة مثل الشرارة التى تديرها فى يدك » ·

« الزمان والديمومة ظاهرتان تتولدان عن سرعة الفعل الالهى » · كما ان الجمرة التى تدورها تتراءى كما لو كانت خطا طويلا من النار » ·

ومثل الزوال السريع لظواهر الكون التغير الدائم للافكار على صفحة الذهن : وان هى الا انعكاسات **للموجود** الذى هو الدائم وحده : كل شىء فكرة : وتلك هى مادة الكون· والله خالق الافكار هو نفسه الفكرة الاسمى التى تستمد منها أصلها كل الاشياء الـتى ما هى الا مسرح لتجلياته ، والتالى انعكاسه : لكن الجاهل يأخذ الانعكاس على انه حقيقة وواقـع ·

وقد سار كبار أساتذة الاسلام بالاستبصار ودراسة الاحوال النفسية حيث يحس الزمن فلا يتصور ولا يحسب ، الى درجة من الدقة واللطافة لا تعادلها أى ثقافة أخـرى ، وهاهنا أيضا يتعين الوصول الى تجاوز المحسوس ، الى ادراك وفهم ان كلامن الانعكاس والسراب ، والصدى يشير الى شىء ثابت غير قابل للزوال ·

ومن هنا سيتفرع خط مميز آخر للثقافة ـ ولثقافات الاسلام : ويتمثل هذا الخط فى استخدام الرمزية كوسيلة للمعرفة ·

ومعروف ان كلمة « الرمز» ذاتها ترجع بالاشتقاق فى اللغات الاوروبية الى كلمـة Tessère التى تعنى (قسيمة تذكرة) هذه القطعة الصلصالية التى كان يتخذ منها

اداة اختبار وتعرف فى العصور اليونانية اللاتينية الغابرة ، فقد كان المسافر يسلم نصف القسيمة لمضيفه كدليل عرفان بالجميل ، ويكفى لهذا الاخير أن يستظهر بها للاستفادة فى يوم من الايام بحسن الضيافة لدى ضيفه الاول ·

فالرمز اذن هو قبل كل شيء كمال يجب ان يستكمل ، فنحن لا نعطى الا المؤشر : (القرينة وعلينا ان ننفذ بفهمنا الى الحقيقة التى يتضمنها ، وعلينا ان نفسر الرمز وأن تطلق من هذا الرمز الى ما يدل عليه ، لهذا المسعى يدعونا كل المفكرين فى الاسلام ، وهم ، بذلك ، انما يقتدون بتعاليم القرآن الذى يلفت على الدوام نظر الانسان الى الدلائل والآيات التى بثها الله فى الخلق ، وهكذا يدعونا الكتاب المقدس الى التأمل واعمال الفكر فى التجربة الماضية والحاضرة للبشرية ، والى دراسة ظواهر الطبيعة · وما (اختلاف الناس فى الالسن والالوان) ـ كما رأينا ـ الا جزء من هذه الرموز ·

ولقد كان هذا النداء الدائم المستمر الى التفكير المعتمد على وقائع ملموسة أساسا لكل الطريقة التجريبية الحديثة · وبينما ينسب الاكتشاف الى « روجير باكون » فى أوروبا ، نجد هذا الاخير لا يفتأ يردد بأن المعرفة الحقة انما تقوم فقط على روح البحث ، ووسائل الملاحظة والتنقيب لمفكرى الاسلام · ان روح الثقافة الاسلامية روح واقعية ومحسوسة · فهى على طرفى تقيض مع التقليد والجمود · وهذا أمر على غاية الاهمية بالنسبة لانسان اليوم · فهذا الموقف الذهنى هو الذى قاد العرب الى التجريب والملاحظة ، وهو ما كان أصلا للاكتشافات الخارقة التى انتقلت وراثتها الى الغرب ·

ومن ناحية أخرى ، فان العلماء المسلمين كانوا ، على الدوام ، يعتبرون دراسة الطبيعة لا غاية فى ذاتها ، بل وسيلة لمعرفة الخالق الذى يعكس خلقه حكمته بحيث ان دراسة الحكمة المنعكسة هذه تقود الى معرفة الخالق ذاته ومنذ بداية نزول القرآن نجد نوعا من الاصطفاء للمعرفة ، اذ قيل لنا بأن الكتاب سيكون اماما لاولئك الذين يملكون الاستعداد لتلقى التعليم ، والذين لا يتخذون من ذهنيتهم الذاتية مقياسا للحقيقة : أليس « الذين يؤمنون بالغيب » على استعداد للاعتراف بوجود بعد آخر للواقع يقصر العقل البشرى دون الوصول اليه ؟ ان هذا الاستسلام للواقعى الملموس يعتبر فى حد ذاته ، الشرط الاساسى لعقلية علمية خالصة ، وهى الشرط كذلك للاسلام ·

وهذا الموقف على طرفى نقيض مع الموقف الاطمئنانى السلبى • ذلك لان كل مسلم أو مسلمة ، بعد الاعتراف بالعجز والقصور ، يجد لزاما عليه ان يتعلم • وقد اقام هذا العقل الايجابى فى جوهره ـ كما قلنا ـ أسس الثقافة الحديثة ، أو على الاقل بعض مظاهرها الهامة •

ومما يسترعى الانظار ان نلاحظ ان السورة الاولى فى ترتيب نزول القرآن تتحدث عن المعرفة ، وتلفت النظر دفعة واحدة الى علم النمو وتكون الاجنة (العلق) • وثمة رسالة عجيبة لاحد المفكرين المسلمين فى العصر الوسيط تبرز فى هذا الصدد المسعى المتمثل فى الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وبالارتكاز على معطيات الواقع •

« لقد خلق الله الاسباب ، بحيث ان نطفة لا سمع لها ولا عقل ولا بصر ، ليس لها خاصية السيد المالك ، ولا خاصية العبد ، نطفة لا تعرف سرورا ولا ألما ، ولا رفعة ولا دونية ، وقد أودعها الله رحم الام ، ثم حول هذا الماء الى دم ، وجعل الدم لحما ، وفى هذا الرحم حيث لا توجد ايد ولا أدوات ، خلق نوافذ الفم والعينين والاذنين ، وصور اللسان والحلق • وكنز الصدر حيث وضع قلبا هو فى الآن ذاته قطرة وعالم ، وجوهرة ، ومحيط ، وعبد ، وملك • فاى عقل يستطيع ان يدرك بأنه هو الذى أخرجنا من هذه الحال من الجهل والمهانة الى المستوى الذى نحن عليه • وقد نبهنا الله الى ان نستخدم سمعنا وبصرنا لنعرف من أين جئنا والى أين ستصير • واليوم أيضا أقول لك : انى لن اتركك هنا أبدا ، وسآخذك الى ما وراء هذه السماء والارض الى أرض النعيم ، وسماء لا يمكن ان تتخيل أو ان تخطر على بال • طبيعتها هى ان تشرح النفس وتبعث فيها الحبور ، وما كان جديدا فى هذا المقام الرحب لن يغدو قديما ، لا شىء فيه يفسد أو يتلف وما من أحد يموت ، ولا من شخص صاح فيها هو بنائم ، لان النوم انما جعل للراحة ولطرد الالم ، وفى هذا المكان لا الم ولا كآبة • واذا لم تصدق بهذا ، فما عليك الا أن تفكر مليا : كيف يمكن لهذه القطرة ان تصدقك لو قلت بان الله خلق عالما آخر غير عالم الظلمات هذا عالما ، فيه سماء ، وشمس ، وضياء قمر ، فيه أقاليم ، ومدن ، وقرى ، وحدائق ، حيث يوجد صناع من بينهم ملوك ، واغنياء ، واناس أصحاء ، ومرضى ، وعمى ؟ والآن عليك أن تخشى ايتها القطرة فحين تخرجين من هذا المقر الدامس المظلم ، ستنتمين الى أية فئة ؟

انه ما من خيال أو عقل يستطيع ان يصدق هذه الحكاية ، من انه يوجد خارج هذه الظلمات ، وهذا التغذى من الدم ، عالم آخر ، وغذاء غير هذا الغذاء ، لكن على الرغم من أن هذه القطرة كانت تجهل وتنكر مثل هذا الامكان الا انها لم تستطع مع ذلك ان تمتنع عن الخروج ، ذلك لانها دفعت اليه دفعا » ·

ثم اختتم يقول : « وستجدين نفسك خارج هذا العالم بمكان اشبه ما يكون ببطن الام ، وستغادرين هذه الارض لتدخلى مكانا ارحب وأوسع » ·

مع العلم ان آية (وأرض الله واسعة) « تشير الى هذه المنطقة الواسعة التى وصل اليها الاولياء والصالحون ·

ان هذه الرسالة لتكتسى فى نظرى أهمية خاصة فى تجسيدها لطراز من الفكر الذى سبق ان تحدثت عنه ، والمتمثل فى الانتقال من الدال الى المدلول · وكما ان النطفة (النواة) قد لا تقوى على تخيل بعد آخر للاشياء ، فان الفكر كذلك يعجز عن تصور ما وراء الوضعية البشرية · ومع ذلك فهذا العالم الآخر موجود ، وذلك ما سيؤيده ـ من ناحية ـ اعجاز القرآن ، ومن ناحية أخرى ، مختلف الدلائل والآيات التى يؤيد بعضها بعضا ·

وبصدد علم النمو وتكون الاجنة هذا ، أود ان الاحظ بالمناسبة ان مدرسة فلسفية حديثة بفرنسا « ربموند روير » وباحنى « نانسى » قد توصلوا الى مذهب روحى بالاعتماد على مكتشفات أحدث لعلم النمو · وذلك حين لاحظوا ان كل شىء يجرى كما لو كان نمو أى مخلوق يتم حسب نموذج ابوى مثالى ·

وبالاضافة الى هذه الغاية الداخلية ، توجد غاية أخرى خارجية · فكثيرا ما يدعونا القرآن الى ملاحظة ان كل شىء فى العالم يخدم حاجات الانسان أى مسخر له · فالحياة ستكون عسيرة على هذا الاخير لولا وجود الليل للراحة والسكون ووجود النهار للنشاط والحركة · « ومن رحمته ان جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » (71 ـ 73) « والقمر قدرناه منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (7) ، «والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ···وتحمل أثقالكم···» (، 7)،

« وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (66 ـ 68) ، « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون ٠٠٠ وتحمل أثقالكم ٠٠٠ » (7) ، « وهو الذى سخــر البحــر لتاكلوا منه لحمـا طريا ٠٠٠ الثمرات » (16 ـ 3) ٠

ان موقفا فكريا كهذا من الوجهة السيكولوجية ليمثل تحريرا كبيرا ٠ فليس هنـاك من قوة خفية ٠ والله وحده الذى لا تدركه الابصار هو النور والحياة لكل الخلق ، وليس للانسان ان يخشى ظواهر الطبيعة ، فهو مخلوق لتسخيرها ـ كما لاحظ « اقبال » والله حين علم آدم الاسماء كلها منحه امكانية صياغتها فى مفاهيم ، ومن ثم التصرف فيها ٠

وهكذا فان الكون ـ مثل القرآن ـ كتاب يجب ان تحل رموزه ٠ ومهما حدث ، أليس لهما ـ كما لاحظ محمد عبده ـ الله واحد ؟

والسلسلة الثانية من الآيات والرموز التى يلفت القرآن الانظار اليها ، هى التاريخ ، وقد جاء فيه ان الحضارات نشأت وازدهرت ثم تلاشت واندثرت ٠ وتحدث عن عـاد ، وثمود ، وعن قوم نوح ، وقوم فرعون ، وعن مدين التى جاءها النبى شعيب ، ودمرهـا الزلزال ٠ وللامم مثل الافراد آجال مكتوبة ينتهون عندها ٠ « نحن الحضارات » كما قال الكاتب الفرنسى (بول باليرى) « نعلم اننا فانية » ٠

ان المفهوم الثاوى هو دائما استمرار ودوام الحقيقة النهائية تحت التغيرات الزمنية ٠ وتشهد هذه التغيرات ذاتها بنظرة دينامية للتاريخ ، الى جانب كونها تطالـب بالــولاء لا للعرش ولكن لله الذى هو وحده الدائم ٠ وفيه كذلك تاكيد وابراز للطابع غير الاقليمى الذى يتسم به الاسلام ٠ فالغاية المنشودة هى اعطاء نموذج من تنظيم اجتماعى بجلـب اعضائه من مختلف الطبقات ثم بتحويل هذا الخليط الى أمة واعية لذاتها ، ويجسد ابن خلدون هذا التصور للتاريخ بوصفه حركة مستمرة جماعية ، وفى تطور حتمى داخـل الزمــن ٠

وهذا يقودنا الى التأمل فى نمط من الآيــات والرموز : أى ما تمنحــه ايـانـا السيكولوجيا ٠ وقد قال الله فى كتابه بأنه كشف عن آياته فى الذات الانسانية ، وخارج

الذات الانسانية « وفى الارض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (20 ، 21) « وكاين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (105) • وقد سبق أن سجلنا بان البحوث فى السيكولوجيا الدينية قد توغلت فى الثقافة الاسلامية الى أبعد الآماد •

ان مفهوم السر الانطولوجى للكائن ـ للغيب ـ يقود فى مجال السيكولوجيا الى ادراك معرفة الذات انطلاقا من الحدس الاساسى المتمثل فى أن (الانسان يتجاوز الانسان الى ما لا نهاية) ففى قلب الانسان يوجد هذا كل شيء اصل تماما كما يوجد هذا الاصل فى كل ذرة من ذرات الكون • والتوحيد الموضوعى يقابله التوحيد الذاتى والله يتجلى فى الخارج كما يتجلى فى الباطن •

هذه القيمة الجامعة الشمولية للاسلام ستترجم على صعيد الحياة اليومية بما يمكن أن نسميه قومية فوقية ، فمن طنجة الى جاكارطا ، تقضى السنة بان يتبادل الناس التحية ، وبأن يتوضأوا ، ويفطروا في شهر رمضان بنفس الطريقة • وفوق ذلك كله ، بأن يتعالوا ويساموا فى التعين والانتساب : فالمرء مسلم قبل أن يكون مواطنا لهذا البلد أو ذاك •

وهذه الثقافة التى ثبتها الايمان ، ثبتتها اللغة كذلك • فبين اللغة وعلوم الدين ارتباط وثيق • ذلك لان اللغة كانت أصلا للعلوم القرآنية : فقه الله ، التفسير ، السنة (الحديث) ، الشريعة والكلام • وانما جاءت العلوم العقلية والتجريبية مثل المنطق ، والميتافيزيقا ، والرياضيات ، والفلك ، والطب بعد ذلك •

واللغة العربية ، لغة الحضارة التى طبعها الاسلام العالمى النزعة تمثل ـ كما أكد ذلك « ماسينيون » بقوة ـ هذا الطابع الاصيل المتأصل فى كونها لغة الرسالة والدعوة الدينية ، ولغة ايصال المواد العلمية فى الآن ذاته • ان اللغة العربية « وهى نموذج من الكلاسيكية المنفتحة على التصعيد ، الموفقة بين ما هو عقلى وما هو قدسى » ما تزال بالنسبة الى سبعمائة مليون من المسلمين ، ومعظمهم ليس عربى اللسان ، لغة الطقوس والشعائر الدينية ، لغة الصلاة • اللغة التى يجب أن يعرف المسلم منها ولو بعض النصوص • ثم ان المفردات المستعملة فى التقنية وفى الفلسفة والقانون والتصوف عربية فى كل لغات البلاد الاسلامية كتركيا ، وافغانستان ، وايران وغيرها •••

ونحن نعرف ما قاله العالم الكبير « البيرونى » من أن « العلوم انتقلت الى العربية بواسطة الترجمة من كل انحاء العالم • وقد زانتها هذه اللغة ، واصبحت تنفذ الى القلوب، وقد جرت محاسن هذه اللغة مع ما نقلته من العلوم فى عروقنا وشرايينا » • ويحكى الامام الغزالى ان سلطانا أحضر بين يديه فريقين من المزخرفين احدهما من الصين ، والثانى من الروم ، وأخذ الفريقان يتنافسان فى ترصيع وزخرفة احدى قاعات قصر السلطان • وهناك ستار يقسم الحجرة شطرين ، ويفصل بين المتنافسين المتواجهين لكن دون أن يتمكن أى طرف من رؤية الطرف الآخر ، وبينما كان فريق منهما يعكف على تزيين الحائط الداخلى من القاعة ، كان الفريق الثانى ـ الصوفيون ـ يكتفى بالعمل دون هوادة على صقل الجدار الذى كلف وجاء يوم التدشين ، فاخذ السلطان أولا بجمال الوان الفريق الاول ، لكن سرعان ما رفع الستار الحاجز فاذا بالصور الملونة تنعكس فى الحائط الابيض المصقول كالمرآة • وبدت الصور المنعكسة أجمل من الواقع •

ومن خاصيات الرمزية انها تمكن من أن نقرأ على مستويات عدة ما ليس متناقضا ، بل يغنى بعضه ببعض • فاذا كان هذا المغزى يرمى الى تجسيم ضرورة الزهد من أجل أن يتمكن القلب وقد أضحى « ناصعا كالثلج » من امتلاك اللمحة الخاطفة للحظة اتصال خالدة ، حين يتم الكشف ، عن طريق الاشعاع الروحى الفورى ، امكن الاعتقاد كذلك بان مثل هذا الجمال مرتبط بهذه النظرة ـ التى وصفناها ـ الى العالم • فالاشياء طرا فانيه ، وغير دائمة مثل الاشعة التى تعكسها المرآة • ثم ان البياض علامة تركيب أو تاليف فى صفائه التام وهو يتضمن كل الالوان التى يعكسها الموشور ويضاعفها ، وهكذا فان الاسلام فى وحدته التى لا تقبل التجزئة يجمع كل القيم التى نقلتها اليه عبر العصور « شعوب مختلفة »•

وكيف ننهى حديثا عن ثقافة الاسلام دون التنويه بالذى كان ملقن هذه الثقافة ، والذى اعطاها انطلاقتها الاولى •

فنحن لا نقتبس عن مسلم ، بل عن كاتب فرنسى كبير هو « الفونس دى لامارتين » هذه اللوحة للنبى (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) « انه ما من رجل غير محمد

نذر نفسه قصدا أم عن غير قصد ، لهدف اسمى كهذا الهدف . فقد كان هذا الهدف مما يفوق القدرة البشرية . هدم المعتقدات الباطلة التى تتخذ زلفى وواسطة بين الخالق والمخلوق . رد الله الى الانسان ، والانسان الى الله . الفكرة العقلانية والقدسية للالوهية الصحيحة فى هذا السديم من الشرك والوثنية » .

« وما من رجل سواه أنجز بمثل وسائله الضعيفة عملا كهذا العمل الذى يتجاوز المألوف ويفوق طاقة البشر . ذلك لانه لم يعتمد فى تصور وانجاز مقصد عظيم كهذا المقصد الا على نفسه . ثم قلة من الاجلاف فى ركن من أركان الصحراء » .

« ثم انه ما من رجل عدا محمد استطاع أن ينجز فى مثل هذا الوقت القصير ثورة فى العالم ترقى الى مثل هذه العظمة والاستمرار اذ ما ان مضى أقل من قرنين على نبوته حتى ساد الاسلام المبشر به والمسلح أرجاء البلاد العربية كلها ، كاسبا لتوحيد الله كلا من الفرس .وخراسان ، وجنوب الاتحاد السوفياتى ، والقوقاز ، واسبانيا ، وجزءا من بلاد الغال » .

فاذا كانت عظمة المقصد ، وقلة الوسائل ، وضخامة النتيجة ، تمثل المقاييس الثلاثة لعبقرية الرجل فمن ذا الذى يجرؤ على أن يقارن بمحمد ــ من الوجهة الانسانية ــ رجلا من عظماء رجال التاريخ المعاصر ؟ ان أشهر هؤلاء الرجال لم يهزوا الا أسلحة ، وقوانين ، وامبراطوريات ، ولم يؤسسوا (اذا أسسوا شيئا على الاطلاق) سوى قوى مادية غالبا ما تنهار قبلهم . أما هذا الرجل فقد هز أسلحة ودساتير ، وامبراطوريات ، وشعوبا ، ومما لك وملايين الرجال على ثلث المعمورة . غير انه زاد فهز أسلحة مذابح المعابد ، والآلهة ، والديانات ، والافكار ، والمعتقدات ، والارواح . وأسس فى كتاب كل حرف فيه قد غدا قانونا ، وقومية روحية تشمل شعوبا من كل لسان ولون ، وأوحى ، كطابع لا يمحى لهذه الوطنية الاسلامية ، كراهية الآلهة الزائفة ، ومحبة الاله الواحد المتنزه عن المادة .

وكانت هذه القومية المنتقمة من مدنسى السماء فضيلة ابناء محمد ، وكان كسب ثلث الكرة الارضية لعقيدته هى معجزته ، بل ولم تكن تلك معجزة رجل ، وانما هى معجزة

العقل . ان فكرة توحيد الله التى نودى بها ، بعد خفوت وتهافت لاهوتيات خرافية ، كانت تنطوى فى حد ذاتها على فضيلة تتمثل فى انها ـ حين تفجرت على الشفاه ـ احرقت معابد الاوثان المتداعية ، وسطعت باشعتها على ثلث العالم .

ان حياته وخشوعه ، ووقفاته البطولية ضد معتقدات بلاده الباطلة ، وجرأته فى مواجهة صلف المشركين ، وثباته فى تحمل المقام بمكة لمدة خمسة عشر عاما وقيامه بدور الفاضح العمومى ، وكاد يكون الضحية بين مواطنيه، ثم هجرته ، ودعوته التى لا تعرف الكلل ، وحروبه غير المتكافئة ، وثقته فى النصر ، وطموحه النزيه المترفع ، وسلامته الخارقة فى النكسات ، وصبره الكبير عند النصر الذى لا يقصد من ورائه السيطرة وصلاته التى لا تنتهى . ومناجاته الصوفية لله ، ووفاته ، وظفره بعد الموت ، كل ذلك يشهد بقناعة لا غش فيها ولا تدجيل .

هذه القناعة هى التى منحته القوة على تجديد عقيدة ، وهذه العقيدة تقوم على ثنائية ، وحدة الاله ، وتنزهه عن المادة . احداهما تبين ما يجب ان يوصف به تعالى ، والاخرى ما ينبغى ان ينزه عنه ، احداهما تطيح بالسيف آلهة الباطل ، والثانية تدشن بالكلمة فكرة .

فيلسوف ، خطيب ، نبيى ، مشرع ، محارب ، فاتح افكار ، مجدد العقائد المعقولة مقيم لشريعة لا صور فيها ولا ظلال ، مؤسس لعشرين امبراطورية أرضية ، ولامبراطورية روحية ، ذلكم هو محمد .

«أى رجل أعظم منه فى كل المراقى التى تقاس فيها العظمة الانسانية » ؟



التخلف السياسي وأبعاده الحضارية

الدكتور خاشع المعاضيدي

التخلف السياسي وأبعاده الحضارية :

أود ان أشير منذ البداية الى مافي عنوان هـذه الندوة « ازمة تطور الحضارة العربية » من اضطراب وابهام فيما يتصل بمفهوم « التطور » الذي يختلف فيه العلماء والباحثون اختلافاً كبيراً ، كما ان عنوان بحثي « التخلف السياسي وأبعاده الحضارية » الذي هو وجه من وجوه هذه الندوة ، ينطوي هو الآخر على مفهوم يعتوره الغموض والابهام ، ويكثر فيه الخلاف والتباين بين المختصين فيه – الذين تتكون منهم عائلة العلوم

الاجتماعية ، ذلك هو مفهوم « الحضارة » الوارد في عنوان هذا البحث ، فقد يقصر بعض الباحثين مفهوم « الحضارة » على الجانب المعنوي من التراث الاجتماعي ، ويرى فريق ثان منهم ، انه يدل على الجانب المادي من التراث الاجتماعي ، ويذهب فريق ثالث ، الى استعماله مرادفاً للتراث الاجتماعي كله بشقيه المادي والمعنوي ، وهذا كما لايخفى يعرض الباحث في موضوع كهذا الى بلبلة فكرية أود ان اشير اليها منذ البداية أيضاً .

يضاف الى ذلك ، ان الشارحة التوضيحية المرفقة بعنوان هذه الندوة والبحث ، تنطوي هي الاخرى على مفهوم آخر يختلف فيه المختصون اختلافاً كبيراً ، ذلك هو مفهوم « الديمقراطية » وهذا الوجه من الاختلاف لا اعتقد انني بحاجة الى تفصيل الحديث فيه ، الا بمقدار ماينسجم مع وجهة نظرنا .

ومن زاوية النظر الى الحاشية التوضيحية المشار اليها ، يتبين اتجاه مخططي هذه الندوة ، اذ هم يشيرون ، عن طريق التلميح لا التصريح الواضح ، الى ان التخلف السياسي ، يعني انعدام الحياة الديمقراطية وضعف اجهزتها في بعض الاقطار العربية ، وان مفهوم السياسة الديمقراطية . يعني الحكم الشعبي ، بشكل أو بـآخر ، من خلال منظمات برلمانية واحزاب وما يجري هذا المجرى أو ذاك ، وهذا كله في الواقع مجـال اختلاف كبير واجتهادات شتى يختلف فيها المعنيون بهذا الجانب في الاقطار العربية ذاتها وفي بلدان العالم الاخرى .

كل هذه الاشارات التمهيدية ، تدفعني اذن الى تحديد موضوع البحث حتى لا افرط في وقتكم وفي وقتي أيضاً ، بالخوض في افكار غير منظمة وليست لها وجهة واضحة نبتغيها ، وعليه فأن السياسة على ما أرى : « هي اسلوب توجيه وقيادة الامة العربيـة نحو تحقيق اهدافها الكبرى المتمثلة في وحدتها وتحررها وتحقيق العدالة الاجتماعية بين مواطنيها » . وهذه الاهداف بالذات ، هي التي تقرر لنا نوعية الاساليب والاجهزة والوسائل التي تحققها ، هذا ولما كان موضوع بحثي وهو : « التخلف السياسي وابعاده الحضارية » فسأبدأ بتشخيص مظاهر وابعاد هذا التخلف ، ثم اخلص بعد ذلك الى النواحي الايجابية فأتناول تلك الاساليب والاجهزة والوسائل التي يجب ان نهيأها لتحقيق ذلك الهدف الامثل .

أن من أهم وجوه التخلف السياسي في الاقطار العربية مايلي :

١ – الاخذ بالمفهوم التقليدي للسياسة ، أعني اعتبار السياسة أسلوباً من أساليب ضبط الجماهير وتوجيهها دون مراعاة المصالح العامة للشعب ، وهذا الفهم للسياسة يضمن للحاكم البقاء في مركز الحكم ، ولا يضمن للشعب التقدم والازدهار ، كما لايضمن الحياة الديمقراطية المثلى ، وقد يلجأ الحاكم عن طريق هذه الهيمنة الى اضعاف القوى والحركات أو محاربتها ، كما يلجأ الى شق الصفوف ، وخلق النعرات وبعث الرواسب الدفينة التي تجزأ المجتمع ، كما يلجأ الى التعامل مع القوي الاجنبية لضرب مصالح الشعب ، ويتعلق بأيدولوجيات تخدم أهدافه الخاصة ، وهذا كله نجد له أمثلة واضحة في الاقطار العربية المختلفة .

٢ – طغيان الشكلية وروح المحافظة على الفئات الحاكمة في بعض الاقطارالعربية، فمن المعلوم والواضح في التاريخ والسياسة والاجتماع ، ان الحكم التقليدي المزمن لفئة حاكمة من هذا القبيل ، يؤدي بالضرورة الى الشكلية والجمود والتمسك بروح المحافظة ، وهذا يعني ، بشكل أو بآخر ، مقاومة التجديد والتقدم والتفكير الحديث ومقاومة الاخذ باسباب الحياة الجديدة لمواكبة التقدم البشري في مناطق أخرى من العالم حفاظاً منهم على مراكزهم من التهديد أو الذبذبة ، أو تحدي الظروف والعوامل والتيارات الجديدة لهذه المراكز .

ولذا فان هذه الفئات الحاكمة تصطنع كل ما من شأنه أن يحافظ على هذه الشكلية وهذا الجمود والمحافظة ، عن طريق غلق الحدود ، الى تقوية أجهزة الشرطة والامن ، الى الاكثار من السجون والمعتقلات الى منع وسائل الاعلام والثقافة التي تحمل الفكر الجديد، الى اثارة الحزازات والعصبيات والتناحر بين الفئات ، الى وسم المجددين والمطالبين بالاصلاح ، بالكفر أو المروق أو العمالة أحياناً وما يجري هذا المجرى أو ذاك .

ان استغلال الرواسب التاريخية من أجل تحقيق هذه السياسة أمر يكاد يكون بيناً في كل مكان من الوطن العربي ، فالطائفية والشعوبية ، والعشائرية والاقليمية أو القطرية ، والتقدمية المغلقة ، وحتى القومية أحياناً وحركات الانبعاث القومي أو الحضاري أو العنصري أو الديني ، هي بعض أسلحة هذه الفئات لبقائها في الحكم .

٣) وجود نفوذ ومصالح أجنبية استعمارية في الوطن العربي ، أدى الى ظهور التجزئة العربية ، وأوجد نظماً سياسية مختلفة ، وحرف سياساتها عن قضايا الشعب الاساسية ، الأمر الذي أدى الى خلق فئات أو جماعات معينة تتعامل مع القوى الاجنبية

ضد مصالح أهل البلاد ، وقامت فئات حاكمة مصلحية مختلفة مارست ضرب أية حركة تحررية تهدد تلك المصالح ، ووضعت كل العراقيل أمام وعي الجماهير الشعبية لمصالحها المشتركة ، وبتأثير من الاستعمار زجت هـــذه الفئات والحكومات في الوطن العربي ، خلافات وخصومات مصطنعة ضد بعضها البعض ، بين آونة وأخرى ، سراً أو علناً ، وشجعت ظاهرة التهريج السياسي بأنواعها المختلفة ، وخلقت زعامات وخططت انقلابات وحركات هنا وهناك ، لخداع هذه الشعوب . وهذه اساليب اصطنعها الاستعمار الجديد في العالم خلال ربع القرن الأخير ، وقد تبدو هذه الظاهرة واضحة في الاقطار النامية وبالأخص في أمريكا اللاتينية وافريقيا .

ومن أساليب الاستعمار بهذا الشأن أيضاً تشجيع الحركات الرجعية في بعض الاقطار العربية باسم قدسية الماضي ، وباسم قدسية التراث مما يتهدده من تيارات وافكار العصر الحديث ، بحيث بقي الشعب العربي في بعض الاقطار العربية ، وهو يحيى في اطار الماضي السحيق منغلق على نفسه لا علاقة له بالعصر الحديث في وجوه كثيرة من حياته .

٤) اختلاف أنظمة الحكم في الاقطار العربية ، وتبنيها فلسفات سياسية متباينة ، بل متعارضة في كثير من الأحيان ، فهناك أنظمة ملكية ، وأخرى جمهورية ، اضافـة الى عدد من الامارات والمشيخات وبعضها تتبنى الاشتراكية . وأخرى رأسمالية واقطاعية وغيرها تتبنى النظرية الدينية ، وفضلاً عن ذلك ، فان الدول التي تتبنى الاشتراكية تختلف هي الأخرى عن بعضها فى هذا المفهوم وتطبيقه ، ان هذا التباين يؤدي بالضرورة الى انعدام وحدة الهدف بين الاقطار العربية على الصعيدين القطري والقومي ، كما يؤدي الى فقدان التنسيق السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وحتى العسكري بين العرب جميعاً .

ان التآمر الاستعماري الصهيوني الرجعي ، يرتكز في صراعه مع قوى التحرر والثورة والاشتراكية في الوطن العربي ، على قاعدة انطلاق أساسية ، هي استغلال كافة التناقضات التي ورثها الواقع العربي ، واصطنعها التطور المزيف بتأثير القوى المعادية لأهداف الامة العربية . فهو يحاول صرف العرب عن التناقضات الرئيسية في مجتمعهم ، ويحاول ان يقضي على المنابع والجذور التي يستمد منها النضال العربي قوته وحيويتـــه واندفاعه . وأهم هذه المنابع ، فكرة الوحدة العربية ، وفكرة الثورة على الواقع الفاسد ، التي تتميز بهما الايديولوجية العربية الثورية .

٥) ان انعدام الاجماع السياسي العربي على الصعيدين القطري والقومي ، ادى الى ظهور اتجاهين أو نوعين من الانظمة العربية ، من حيث نظرتها لحل القضية الفلسطينية حلاً جذرياً وصحيحاً ، باعتبارها أولى وأم القضايا السياسية العربية ، وقد يرجع سبب تأخر حل هذه القضية بما يزيد عن ربع قرن من الزمن ، الى هذا الاختلاف في السياسات العربية التي كان للاستعمار اثر كبير في صرفها عن طريقها الصحيح .

٦) وجود التجزئة العربية ، وعدم اتمام أي نمط من أنماط الوحدة بين الاقطار العربية في صالح الجماهير وقضاياها الاصيلة ، وقد يرجع السبب في ذلك . الى أن الانظمة العربية القائمة : قد لاتضمن البقاء في مواقع السلطة في حالة قيام وحدة شعبية ديمقراطية في الوطن العربي . فضلاً عما تتعرض له مصالح هذه الحكومات والفئات التي تمثلها من الخطر .

ان المنطق القومي العربي ، لايعترف بالكيانات القطرية في الوطن العربي ، وانما يرى في التجزئة الراهنة ، مرحلة طارئة أوجدها الاستعمار ، ومهدت لها أوضاع الجمود والتخلف في المجتمع العربي .

ان الوحدة العربية بمفهومها الثوري الصحيح ، تعتبر العامل الهام في تعميق كل تغيير حقيقي في المجتمع العربي ، لان الحرية التي يسعى اليها كل قطر عربي على انفراد، لايمكن أن تبلغ من العمق والشمول والمعنى الايجابي ، ما تبلغه الحرية التي تحققها الامة العربية في وحدتها ، كما أن الاساس المادي للاشتراكية ، وتحقيق العدل الاجتماعي بين المواطنين العرب ، يأخذ مداه الصحيح ، عندما يكون مجاله التطبيقي الوطن العربي كوحدة سياسية وجغرافية وبشرية .

ان تشخيص الاوضاع والظروف السياسية الصعبة التي تجتازها الامة العربية اليوم ، تدعونا لأن نرفع صوتنا عالياً من أجل العدول عن السياسات الخاطئة التي سهلت للاعداء توجيه الضربات الى حركة التحرر العربي ، ونحن اذ ندعو الى الكف عن الجري وراء الأوهام التي أثبتت التجارب المتتالية عدم جدواها ، فاننا في ذلك انما نعبر عن مشاعر وطموحات الجماهير العربية وطلائعها القومية التقدمية والوطنية ، ونحن بذلك نخلق أوسع الفرص للقاء بين كافة القوى والانظمة العربية الوطنية لمواجهة الاخطار المحدقة بها ، وهي اخطار لايمكن أن يتخلص منها أي نظام عربي معاد للاستعمار والصهيونية والرجعية ، ولا تتخلص منها أية قوة وطنية .

ان الاوضاع الراهنة في الوطن العربي ، التي تتسم بالضعف والتداعي ، لايمكن الخروج منها ، كما لايمكن مواجهة اعداء الامة العربية مواجهة فعالة ، الا باقامة وحدة حقيقية ثابتة قائمة على أسس شعبية ديمقراطية تتحقق من خلالها الوحـدة الوطنية في كل قطر عربي .

٧ – وجود التفاوت الطبقي والاجتماعي والاقتصادي والفكري بـين المواطنين العرب في كل مكان من وطنهم الكبير ، كسبب ونتيجة لهذا التخلف السياسي السائد في الوطن العربي ، ولا يخفى ، أن بعض الانظمة العربية نفسها تغـذي هـذا التفاوت ولا تلغيه ، لكي تضمن البقاء في السلطة ولكي تحافظ على مصالحها الخاصة .

٨ – يمثل النظام البرلماني الشكلي الذي وجد في بعض الاقطار العربية ، احدوجوه التخلف السياسي في الوطن العربي . فقد أثبتت هذه التجربة فشلها في التعبير عن رأي ومصالح الجماهير وتمثيلها كما كان الحال عليه في القطر العراقي قبل ثورة الرابع عشرمن تموز عام ١٩٥٨ وفي غيره من الاقطار العربية الاخرى ، ذلك لان البرلمانيـة ، كانت واجهة شكلية لخداع الجماهير العربيـة ، ووسيلة من وسائل شرعية أساليب الحكومات العربية في حكم الجماهير وقمرها ، وغير خاف على المواطنين العرب ، عمليات التزييف والتزوير التي رافقت انتخابات تلك البرلمانات العربية .

ومع ذلك،فان صح الأخذ بنظام البرلمانية وهذا ما سنعالجه في بحثنا – في الوطن العربي كوسيلة من وسائل الحكم الصحيحة لتقبل الامة العربية من حالة التخلف السياسي الى حالة التقدم السياسي – كما تشير الشارحـة التوضيحية لهذه الندوة – فهل يتـاح للاقطاعيين والرأسماليين والرجعيين والمستغلين لمصالح الجماهير العربية ، ممارسة حقوقهم البرلمانية والديمقراطية واذا كان ذلك ممكناً ، فهل هذا يعني الاقتراب من مصالح الجماهير وضمانها وهل ذلك يعني ، امكانية تعايش وتآخي جماهير الشعب مع مستغليها واعدائها .

ومحصلة هذا كله ، ان تدهورت الحياة في الاقطار العربيـة بمختلف وجوهـها السياسية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، تحتم على الامة العربية اليوم ، رسم طريق جديد لسياستهـا تتمكن بواسطته الانتقال من حالة التخلف الى حالة التقدم ، وسنعالج هـذا التخلف من زاوية مفهومنا للحرية أو ممارسة الديمقراطية الواردة في هذه الندوة .

يبدو أن الديمقراطية بمفهومها العام ، معروفة عند العرب منذ ما قبل الاسلام بعدة قرون ، يؤيد ذلك ، ماجاء في القرآن الكريم (سورة النمل) بشأن النبي سليمان عليه السلام وملكة سبأ :

بسم الله الرحمن الرحيم « قالت يا أيها الملأ ، اني القى الى كتاب كريم انـه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ، قالت يا أيها الملأ ، افتوني في أمري ، ماكنت قاطعة امراً حتى تشهدون قالوا نحن أولي قوة وأولي بأس شديد، الأمر إليك ، فانظري ماذا تأمرين .. قالت ، ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ، واني مرسلة اليهم بهدية . فناظرة بم يرجع المرسلون » صدق الله العظيم .

على انه يمكن اعتبار الديمقراطية بهذا المعنى ، سمة من سمات الفرد أو المواطن العربي ، وذات علاقـة بفردية الشخصية العربية ، التي عاشها العرب في جزيرتهم قبـل الاسلام ، حيث لم يكن العربي ليعترف بوجود شيء أعلى منه سوى السماء .

ولما جاء الاسلام ، على يد رسولنا الكريم محمد (ص) بمبادئـه الرفيعة السامية ، هذب النزعة الفردية . ونظم الديمقراطيةالمطلقة عند المواطنين العرب ، ودعا الى شورى الحكم الذي طبق في عصر الرسول (ص) والخلفـاء الراشدين ، وفي ذلك قـال تعالى ، بسم الله الرحمن الرحيم، « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون » ، صدق الله العظيم .

لكن الفردية السياسية، أو الحكم السياسي الفردي ، بعد ذلك، الغى الحرية الفردية للمواطنين (الجماهير الشعبية) في الدولة الاسلامية، كما ألغيت الحرية الاجتماعية البسيطة أو تضاءلت، عند العرب، الأمر الذي أدى الى نشوء المشاكل المختلفة في الدولةالاسلامية، وخصوصاً مايتعلق منها بالديمقراطية والحرية السياسية عبر تاريخ العرب الطويل وتلاشي دور الشعوب في تلك الأحداث الكثيرة .

وقد أثرت النزعة القبلية عنـد العرب ، بما لها من معايير ومقاييس وتقاليـد على الاحوال السياسية عندهم بعـد تأسيس دولتهم الاسلامية الواسعة ، ونشأت التحزبات المؤيدة والمعارضة للحكومات من قبل المواطنين العرب وغير العرب على حد سواء ، وخاصة في العصر الأموي الذي أصبحت فيه القبليةاحدى سمات الحكم السياسية.

اما في العصر العباسي والذي يعتبر عصر نضج الحضارة العربية الاسلامية ، فقد ضعف فيه شأن العرب ، ولعبت فيه الشعوبية دوراً كبيراً في تحريك السياسة . وتسلط القواد والامراء والاقطاعيون على الامور ، الامر الذي أدى الى حرمان المواطنين عموماً من معظم حقوقهم بما فيها الحرية السياسية أو الممارسة الديمقراطية .

ولما خضعت الاقطار العربية للحكم العثماني ، الذي ادعى الحكم باسم الاسلام ، وهو بعيد عنه ، فقد مر الوطن العربي بمرحلة من التخلف في كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وانعدمت الحريات بأبسط أشكالها ، وعاش شعبنا العربي في ظل هذا الحكم الذي استمر زهاء أربعة قرون ، في فترة من الظلام والتأخر والتدهور ، بما لا حدود له ، وما زال الامر على ذلك ، حتى خضعت الاقطار العربية الى السيطرة الاستعمارية التي كرست التجزئة ، بكل أشكالها ، وقد خلفت هذه المسيرة الطويلة لتاريخ العرب بكل ما فيها من سلبيات ، رواسب كثيرة وكبيرة في الوطن العربي ، أهمها مسألة التخلف السياسي وانعدام الديمقراطية .

ونتيجة لكل ما تقدم . ومن أجل معالجة « التخلف السياسي في الوطن العربي » من زاوية مفهومنا للحرية ، أو ممارسة الديمقراطية فأننا نرى ما يلي :

يعيش شعبنا العربي اليوم ظروفاً عربية ودولية ، يسودها قمع شديد للحرية ، وتزييف بالغ لها ، بسبب بقاء النفوذ الاستعماري المباشر في بعض الاقطار العربية ، بينما تمارس الرجعية المحلية في البعض الآخر ، مهام الاستعمار وتتعاون معه ، وقد مارست هذه الحكومات وتلك من خلال مواقعها في السلطة عملية تزييف شعارات الحرية والديمقراطية وأفرغتها من محتواها الحقيقي ، وأصبحت الديمقراطية مجرد واجهة تخفي طغيان الفئات الحاكمة ، وتخفي تزييفها واستثمارها للطبقات الشعبية .

فالحرية كوسيلة لتحرير الانسان العربي كلياً وجذرياً ، تعني التحرر الكامل سياسياً واقتصادياً وثقافياً ، من كافة أشكال السيطرة الاستعمارية ، وعلى هذا الاساس فان مسألة الكفاح ضد الاستعمار وضد كافة أشكال السيطرة الاستثمارية ، سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية ، من الامور الاساسية لمعالجة التخلف السياسي العربي .

ان قدرة الجماهير العربية ، على فضح تزييف الطبقات الرجعية للحرية ، وتعرية للتطبيق المشوه والكاذب للديمقراطية البرجوازية وفضح المفهوم البرجوازي – الاقطاعي

الحرية ، وايجاد أساس نظري جديد لمفهوم محدد وملموس للحرية والديمقراطية ، في اطارها الاشتراكي هو أيضاً من الامور الاساسية لممارسة التقدم للامة العربية .

ان الطابع الانساني للاشتراكية العربيــة ، يعتبر من أهم سمات المرحلة ، لأن عبودية الانسان ، في أنظمــة الاستغلال ، هي أخطر شكل ، من أشكال ضياع الحرية الانسانية ، وتبعاً لهذا . فان ازاحة أنظمة الاستغلال وتصفيتهـا ، وتبديل علاقات الانتاج الرأسمالية ، هي وحدها التي تتيح الظروف الموضوعية الملائمة لتحرر الانسان وخلاصهمن الضياع والاستغلال، وبذلكفانها ضرورة ان تلازم الحرية والعدلالاجتماعي، باعتباره القاعدة المادية المتينة لنمو حرية الانسان .

على أن مسألة النضــال ضد الاستعمار الغربي ، واعتبار المعسكر الاشتراكي قوة ايجابية فعالة في النضال ضد الاستعمار ، لا تمنع الامة العربية من اتباع سياسة خارجية عربيــة مميزة ، تلك هي سياسة الحيــاد الايجابي ، وعدم الالتزام العضوي بأي من المعسكرين ، رغم ان المنطلقات الاساسية والمبدئية التي يمارسها المعسكر الاشتراكي اكثر انسجاماً مع مصالح الامة العربية ، وأشد تعاطفاً مع قضاياها المصيرية .

ان سياسة عدم الالتزام ، وان كانت تعني في مفهومها المباشر ، تجنب الانسياق وراء التبعية ، والابتعاد عن الانغمار في معارك المعسكرين اليومية المباشرة والخاصة ، الا انها تعني في نفس الوقت ، التزام سياسة مبدأية وثورية على الصعيد الدولي ، تعملعلى تخفيف حدة التوتر الدولي ، وتدعم حركات التحرر القومي والوطني في العالم .

وعلينا اليوم ، أن نرفض كافة أنواع التشويه والقسر التي لحقت بحرية الانسان العربي بوجه خاص ، وحرية الانسان بوجه عام ، وأن ندين دكتاتورية الفرد ، كما تــدين دكتاتورية البيروقراطية، وأنتحدد بوضوح نظرتنا الىالديمقراطية البرلمانية البرجوازية ونظرتها للحرية السياسية .

ان التغيير الاجتماعي ، الذي تنشده الأمــة العربية ، لايتحقق – برأينا – عن طريق النظام البرلماني بمفهومه البرجوازي ، لأن البرلمانية بمفهومها هذا ، لا يمكن أن تكون أداة تحويل اجتماعي جذري ، انما هي أداة شكلية للديمقراطية ، تخفي وراءهــا نفوذ الاقطاع والبرجوازية الكبيرة .

ان النضال الجماهيري ، هو وحده طريق التغيير في الوطن العربي وليس البرلمانية

البرجوازية ، وإذا كانت الطبقات الاقطاعية والفئات العليا من البرجوازية ، قد لعبت دور الحليف مع الاستعمار القـديم ، فان البيروقراطية والبرجوازية ، تلعب اليوم دور الحليف مع الاستعمار الجديد ، ويشتركان معاً في استغـلال جماهير الشعب ، وربما باسم الديمقراطية البرلمانية المزيفة .

لم تكن الحرية بشكلها السياسي ، مفهومها مجرداً مطلقاً ، بـل هي ذات مفهوم اجتماعي محدد ، منحت لطبقة ، ومنعت - بشكل أو بآخر - عن أخرى . فلمـا قادت البرجوازية الثورة ضد الاقطاع ، في أوروبا ، نادت بالحرية المثالية المطلقة للشعب كله ، ولكنها عندما استلمت السلطة اقتصرت الحرية على طبقة محددة ، ولم تتردد البرجوازية عن ضرب الجماهير الشعبية عندما تعرضت مصالحها للخطر ، وتحولت الحرية المطلقـة ، أو مايسمى (بحقوق الانـسان) الى حرية أو مصلحة طبقية .

ان النظام البرلماني في أوروبا الغربية ، يمثل الغلاف السياسي للنظـام الاقتصادي البرجوازي ، لأن البرجوازية التي تتمتع بامتيازات فعلية ، استطاعت أن تحول النشاط البرجوازي الى خـادم للاقتصاد الرأسمالي ، ولم يؤد دخول الطبقة العـاملة في برلمانات أوروبا الغربية الى قلب سلطة البرجوازية، بل اضطرها الى تبني أشكال وأساليب جديدة أكثر مرونة وفهمـاً لمتطلبات الواقع ، فأمنت بعض المطالب العمالية ، وبردت النضـال الثوري للجماهير ، واستمرت البرجوازية في الحكم .

ولما كان النظام البرلماني ، هو طريق البرجوازية الغربية في الحكم ، وكونه جزءاً من البناء القومي لتلك المجتمعات ، فقد جاء تطبيقه في بعض الاقطار العربية مجرد نقل لواجهة غربية مقطوعة عن جذورها الاساسية والاقتصادية والاجتماعيـة ولم يتولد من معطيات الحركة القومية الاشتراكية وحاجاتها العملية المباشرة .

ان المجتمعات في الاقطار العربية ليست مجتمعات برجوازية ، بل هي مجتمعات شبه اقطاعية - قبلية - برجوازية ، ولذلك بقيت البرلمانية في الوطن العربي مجرد بناء سياسي هزيل ونسخة مزيفة عن البرلمانية الغربية ، لم تستطع مواجهة النضال القومي الاشتراكي من جهة ، كما لم تستطع ترسيـخ جذورها في الحياة السياسية من جهة أخرى ، ولذلك أصبحت ظاهرة الانقلابات العسكرية ملازمة لهذا النظام في وطننـا الكبير ، وقد عكست البرلمانية العربية الوضع الاجتماعي المتخلف ، شبـه الاقطاعي -

العشائري – الطائفي ، ومن خلال التناقض بين تطلعات الجماهير وبين واقع البرلمانية الرجعي ، انفجرت هذه الانقلابات العسكرية ، وتعاقبت الديمقراطية البرلمانية تحمل كل منها بذور الاخرى لتجهضها .

ان فشل البرلمانية وسقوطها في الاقطار العربية ليس ناجماً عن تطبيقها السيء من قبل جماعات سيئة فقط ، بل املاها الواقع الموضوعي الملموس ، ومعطيات تطور النضال الاجتماعي والسياسي في الوطن العربي ، والبلدان المتخلفة في العالم عموماً .

وفي الظروف الراهنة ، حيث يجري الانتقال من المجتمع الاقطاعي – الرأسمالي ، في عدد من الاقطار العربية ، يجب ان تنتقل السلطة من أيدي الطبقات الاقطاعية البرجوازية الى الطبقات الكادحة وعلى هذا الاساس ، فأنه يجب ان نتخطى البرلمانية باعتبارها أحد أشكال سيطرة تلك الطبقات على الجماهير الشعبية من العمال والفلاحين والكسبة والكادحين .

ان تخطي البرلمانية لايعني الانتقال الى الحكم الدكتاتوري الفردي أو البيروقراطي أو العسكري ، بل يعني زوال الاطار البرجوازي شبه الاقطاعي للديمقراطية ، والانتقال الى ديمقراطية أوسع وأعمق تلك هي الديمقراطية الشعبية .

ان مفهوم الديمقراطية الشعبية ، ينطوي على توفير ديمقراطية واسعة للجماهير الشعبية ، ويؤكد في الوقت نفسه ضرورة عزل القوى الطبقية والسياسية المعادية للثورة والاشتراكية . وهذا العزل ينبغي ان يأخذ شكله القانوني من جهة وشكله الشعبي من جهة أخرى . ان فكرة التعاون الطبقي في اذهان بعض الناس ، ينبغي ان تسقط وتصفى ، لان المعركة مع القوى الرجعية المعادية للثورة ولمصالح الجماهير ، تقتضي نضالاً طويلاً متنوع الاشكال بغية استئصالها من الجذور وحيث ان الرجعية لم ترحم الجماهير الكادحة طوال آلاف السنين من تاريخ الانسانية لذلك يجب ان تضع الجماهير العربية مسألة الصراع الطبقي ضد الطبقات الرجعية بشكل واضح وحاسم ، فأما ان تعيش الجماهير ، أو تعيش الرجعية وحلفاؤها في الداخل والخارج ، وكل تسوية وسط بينها : اكذوبة وخدعة نتيجتها انقاذ الرجعية ، لان الرجعية المحلية في الوطن العربي – مها بدت ضعيفة – تملك قوى هائلة ، واسلحة مادية ومعنوية كثيرة ، وتمتد

جذورها في كافة اجهزة السلطة ، وهي مع ذلك تملك نفساً طويلاً في المقاومة ضد الجماهير الشعبية عن طريق التخريب والتآمر وعرقلة التحول الجديد .

على ان الديمقراطية الشعبية لاتتم دون اطار سياسي ثوري وطلائع ثورية منظمة، تتمتع ببعد نظر سياسي وكفاءة في العمل ، مليئة بروح التضحية ، ومخلصة لأقصى حد لقضية الجماهير ، ولتحافظ على صلات عميقة وحية بالجماهير ، تعلمها وتتعلم منها ، ومن خلال هـذه الطلائع الثورية المنظمة يتحقق الطابـع المركزي والديمقراطي للسلطة الشعبية ، التي تقوم على أساس المؤسسات والمجالس الشعبية ، على ان مركزية السلطة الديمقراطية ، يجب ان لاتلغي الانتخاب وتحوله الى عملية شكلية لهذه المجالس ، لأن الشرط الاساسي لديمقراطية المجالس الشعبية وثوريتها هو في تكوينها عن طريق الانتخاب الحر المباشر على جميـع المستويات في القرية ، والمدينة والمحافظة ، ثم على المستوى القطري والقومي .

ان مهمة الطلائع القومية الاشتراكية في الوطن العربي ، تأمين الجميع ، بـين ثورية مبدأ الاقتراع الشعبي وحريته في انتخاب الهيئات التنفيذية والمجالس الشعبية ، ان مثل هذه المهمة لايمكن أن تتحقق الا اذا استطاعت هـذه الطلائع تأمين التفـاف الاكثرية الساحقة من الجماهير حولها ، باعتبار الجماهير هي قاعدة الثورة وحاميتهـا ، وبالتالي رفض مبدأ الوصاية على الشعب ، أو ممارسة السلطة عن طريق التفويض نيابة عن الشعب .

ان تطبيق الديمقراطية الشعبية ، على نحو ثوري سليم ، لايتم عن طريق تكرار شعارات الحرية والديمقراطية ، بل عن طريق خلق موضوعية تكفل حريةلهذا التطبيق، واصالة ، عن طريق اقتدار الطليعة الثورية على قيادة اكثرية الجماهير الساحقة ، قيادة قائمة على أساس الثقة الحرة والعميقة لهذه الطليعة .

ان مبدأ المركزيةالديمقراطية ، هو الاساس الملائم لنجاح السلطة الثوريةالشعبية، وان ديمقراطية هذه السلطة تتم عن طريق انتخاب هيئاتها السياسية من الشعب ، وتأمين رقابة شعبية على هذه الهيئات ، وانتخاب الهيئات العليا من الهيئات الدنيا ، وانعقاد مؤتمرات المجالس الشعبية والمنظمات بصورة دورية ، وبذلك تتدرج الديمقراطيـة وهي صاعـدة الى أعلى ، الى أن يصبح مبدأ جماعيـة القيادة الصورة الديمقراطية للسلطة الثورية في القمة .

أما المركزية في التنظيم السياسي ، أو التنظيمات السياسية للسلطة ، فتحقق عن طريق خضوع الاقلية للاكثرية خضوعاً طوعياً مخلصاً ، وخضوع الهيئات الدنيا الى الهيئات العليا ، وخضوع الهيئات والمنظمات لقرارات القيادة المركزية وتوجيهاتها ، مادامت منبثقة عن ارادتها الحرة ومعبرة عن مصالحها .

ان ممارسة الجماهير الشعبية لحقوقها الديمقراطية بشكل صحيح ، يتطلب توعيتها سياسياً واجتماعياً وفكرياً ، عن طريق اقامة نقابات للعمال والفلاحين واتحادات الطلبة ومنظمات الشبيبة والموظفين والمستخدمين ، والاتحادات النسائية ، لان المجالس الشعبية قد لاتستنفذ كافة اشكال التنظيم الشعبي وبدون الاطارات التنظيمية المهنية والمجالس الشعبية ، تتحول الجماهير الى سديم بلا قوة ، وبلا وعي ، وبلا انضباط واعٍ مسؤول.

ان ربط الديمقراطية ، ربطاً عضوياً بتعدد الاحزاب ، يمثل المنطق البرجوازي في فهم الديمقراطية ، ان هذه القضية يجب أن تفهم على اساس الظروف التاريخية الملموسة للصراع الاجتماعي والسياسي في كل قطر في العالم .

ان حزباً رئيسياً – مثلا – يقود جبهة من القوى السياسية تمارس السلطة الثورية ، لايؤدي بالضرورة الى الابتعاد عن الديمقراطية ، ان مبدأ الحزب القائداصبح أمراً تمليه الظروف المرحلية ، لانه يقيم سلطة مركزية ثابتة تقود عملية التغيير ، وقد أكدت التجارب الثورية الاشتراكية في العالم ذلك ، وبنوع خاص في ظروف البلدان النامية ، الا أن ممارسة شعبية للديمقراطية – وهي شرط لنجاح البناء الاشتراكي – يتوقف على شرطين أساسيين :

الأول ، قدرة التنظيم السياسي أو الحزب على قيادة الاغلبية الساحقة من الجماهير الشعبية ، وأن يؤمن التفافها الطوعي الواعي حوله .

الثاني : ممارسة الديمقراطية الداخلية ضمن صفوفه .

ان ممارسة الديمقراطية داخل التنظيم السياسي ، أو الحزب القائد ، ينبغي أن تتوافر لها ظروف موضوعية داخل تنظيمه منها : أن تكون سياسته واضحة ومحددة دوماً ، منسجمة مع منطلقاته النظرية لا الاستراتيجية ، ومنها استمراره في الكفاح اتجاه ظواهر التخلف والانحراف التي قد تتسرب من الواقع البرجوازي الاقطاعي – العشائري الى صفوفه ومنها أن تستمر عملية التثقيف السياسي العلمي الدائم بين صفوفه .

والحقيقة – وفي ظروف الانتقال الى الاشتراكية – فقد شهدت معظم التجارب الثورية، ظاهرة سلبية خطيرة ضمن مرحلة رأسمالية الدولة ، تلك هي نشوء طبقـة جديدة بيروقراطية ، استفحل أمرها وأصبحت عقبة أمام تطوير الديمقراطية، واتخذت موقعاً فوقياً على جماهير الشعب ، ان نظام رأسمالية الدولة ، في حالة ضعف الطبقة العاملة عددياً وتنظيمياً ، هو الذى يخلق الظروف الموضوعيـة لنمو البيروقراطيـة ، لذلك اصبحت الادارة الديمقراطية لوسائل الانتاج شرطاً أساسياً لممارسة الديمقراطية على الصعيد السياسي، وينبغي ان تضطلع المجالس العمالية بدور أساسي في إدارة المشروعات الانتاجية والصناعية ، والوقوف بوجه نمو البيروقراطية الجديدة .

إن القوى الثورية التي تستلم السلطة ، في أي قطر عربي ، مطالبة وبشدة بتطوير أجهزة الدولة ، بحيث تصبح هذه الاجهزة في خدمة الجماهير لا عبئاً عليها ، ولتصبح قادرة على المساهمة الفعالة في قضايا البناء الاشتراكي .

إن الممارسة العملية للديمقراطية الشعبية ، تقتضي عدم ابعاد الجيش عن السياسة، لأن إبعاده يحرم قطاعاً هـاماً من المواطنين من ممارسة حقوقه السياسية ، ان فكرة إبعاد الجيش عن السياسة مبدأ التزمته الرجعية والبرجوازية في الحكم، لأن جعل العسكرية حرفة مصحوبة بالامتيازات المادية، يجعل من الجيش أداة طيعة بأيدي الطبقات المستثمرة ولذلك أصبح العمل السياسي في القطاع العسكري حقيقة أساسية في التطور التـاريخي لنضال الأمة العربية في المرحلة الراهنـة ، وكل محاولة لانكار هـذه الحقيقة لا بد أن تكون تحريفاً للثورة ، وعرقلة لسير التحول الاشتراكي . ولا شك فان التثقيف السياسي والايديولوجي للجيش لا يقل أهمية – بحال من الأحوال – عن التدريب العسكري ، بل بالعكس ، فأنه يخلق مناخاً ملائماً لقيام مفهوم ثوري جديد للانضباط ، يقوم على أساس الايمان بالمثل العليا لا الخوف من القسر: كما يلغي الاساليب البرجوازية الاحتراقية في العلاقات بين الرئيس والمرؤوس .

ان التزام الحقيقة عامل أساسي في ممارسة الديمقراطية الشعبية على نحو ثوري ، لأن الحقيقة ثورة وأخلاق في نفس الوقت ، والتزام الحقيقة هو وحده الذي يميز الثورية عن الانتهـازية ، وهو الذي يميز الدعوة عن الدعـاية ، وهو الذي يميز التقدمية عن الديماغوجية ، ان حجب الحقيقة عن الجماهير ، يعتبر تنكر لابسط مقتضيات الديمقراطية

وهو شك في حكمتها وقدرتها على التمييز بين الخطأ والصواب . وان الشك بحس الجماهير السليم ، أول مراحل الانزلاق نحو المفاهيم الفاشستية ان التزام الحقيقة أمـام الجماهير ، وسيلة لتثقيفها وعاملاً أساسياً في تكامل نضجها السياسي ، ولهذا فان التنظيمات الثورية وسلطتها مطالبة دوماً بمصارحة الشعب بكل مـا يتعلق بشؤونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، مطالبة بأن تكشف الاخطـاء ، معتمدة كانت أو عفوية ، وكل محاولة لحجب الحقيقة عن الشعب هي انحدار علني من الثورية الى الانتهازية .

ان انتشار الامية بين الجماهير الشعبية ، يعرقل ممارستها للديمقراطية ولذلك أصبح من الضروري تصفية الأمية تصفية تامـــة وسريعة ، والعمل على تعليم المواطنين الاميين ، لا القراءة والكتابة فحسب بل تمكينهم من استيعاب حـد معين من المعـارف يتيح لهم ممارسة حقوقهم الديمقراطية بوعي ، ان تصفية الأمية واجب ملح على السلطة الثورية وجميع المنظمات الجماهيرية .

ان الممارسة الكاملة للديمقراطية الشعبية . ستبقى مبتورة ما دامت المرأة بعيدة عن الحياة العامة للمجتمع ، لذلك أصبح تحرير المرأة العربيـــة ضرورة ديمقراطية ، بالاضافة الى كونها ضرورة انسانية . ان النظرة الفوقيـــة للمرأة . جزء لا يتجزأ من فكر المجتمع الاقطاعي – العشائري . وعليه فان تحرير المرأة يقع في مقدمـــة مهمات الثورة القومية الاشتراكية وان بناء مجتمع عصري ديمقراطي متحرر ، لا يمكن ان يكون تاماً وسليما الا اذا واجه قضية تحرير المرأة مواجهة مبدئية شاملة وجزئية وعلى السلطة الثورية ، ان تعمل على مكافحة العقلية السلبية تجاه المرأة ، وتعمل على تصفية آثار الاقطار الرجعية ، وتتيح للمرأة المسـاهمة الفعلية في الحياة العامة والنضال ، هذه المساهمة الفعليـــة هي التي ترفع كل القيود التي تمنع تطور المرأة ونفح شخصيتها الانسـانية ، وعلى السلطةالثورية ان تقف في نفس الوقت ، بوجه المفاهيم السطحية الشكلية البرجوازية لتحرير المرأة المنافية للجوانب الايجابية في التقاليد العربية والمعرقلة في ذات الوقت لقضية البناء الاشتراكي .

ان حرية المرأةالحقيقية ، لايمكن ان تتوفر الا بالنضال على جبهتين : جبهةالنضال ضد الاطر والتقاليد والعادات المتخلفة وجبهة النضال ضد المفهوم البرجوازي الشـكلي للحرية ، وربط هذا المفهوم الجديد – لحرية المرأة بقضية البناء الاشتراكي للمجتمع العربي.

ان ظروف التأخر الاقتصادي الذي يعاني منها وطننا العربي ، مقترناً بوجود البيروقراطية والبرجوازية في القيادة السياسية ، ستؤدي الى تدعيم نفوذ الاستعمار الجديد واستمراره ، ولذلك فان السلطة تمثل مصالح الجماهير ، هي وحدها القادرة على وقف التسلل الاستعماري الجديد وتصفية مصالحه .

ان سياسة مبدأية ثورية على الصعيد الخارجي ، نابعة من المفهوم الاشتراكي الذي يرفض جميع اشكال الاستغلال داخل الوطن العربي وخارجه ، سياسة قائمة على الثقة بقوة الجماهير العربية ، هي وحدها التي تمكن الأمة العربية من الالتقاء – على الصعيد الدولي– مع حلفاء ثابتين لقضية النضال ضد الاستعمار . ان تعزيز التفاعل مع بلدان العالم الثالث – ونحن منه – التي تنتهج سياسة الحياد الايجابي وتعميق الصلات معها (على نحو متفاوت تبعاً لظروف الحكم فيها ودرجة استغلالها الاقتصادي) ، سيسام – بالتأكيد – في تقوية جبهة الكفاح ضد الاستعمار .

واذا كان تحرير فلسطين ، رهناً بوحدة القوى التقدمية في الوطن العربي ونموها بالأساس ، فان سياسة مبدئية مرنة وثورية هي التي تستطيع أن تدفع القوى التقدمية في العالم ، الى تأييد قضية الشعب العربي في فلسطين .

ان حركة القومية العربية ، باعتبارها حركة شعب مضطهد ، لايمكن الا ان تعتبر نفسها ، دوماً ، جزءاً لايتجزأ من حركة نضال جميع الشعوب في العالم ضد الاستعمار .

تعـــليق
على بحث الدكتور خاشع المعاضيدي

الأبعـاد الحضارية لأزمة التخلف السياسي العربي

الدكتور حسن صعب

الأبعاد الحضارية لأزمة التخلف السياسي العربي هي أبعاد قانونية وايديولوجية وقومية واقتصادية واجتماعية وتنظيمية . ان هذه الأبعاد هي خصائص مشتركة ، وان يمكن على درجات متفاوتة، للنظم السياسية العربية وهي كلها نظم انتقالية لدول نامية، يتوقف تطورها على عملية تحولها من طور التخلف الى طور التقدم .

ويتجلى البعد القانوني لأزمة التخلف السياسي العربي في التراوح بين سيادة القانون سيادة عامة بالسواء على الحكام والمحكومين معاً ، وبين سيادة ادارة الحكام وأهوائهم بديلة لسيادة القانون .

ويتجلى البعد الايديولوجي في التراوح بين الايديولوجيات السلفية والعصرية .

ويتجلى البعد القومي ، بعد الهوية أو الذاتية ، في التراوح بين العصبية القومية العربية العامة والعصبيات الخاصة القطرية والفئوية .

ويتجلى البعد الاقتصادي في التراوح بين أوج الثروة البترولية والعجز عن تثمير هذه الثروة في الانتاج تثميراً عقلانياً يؤدي الى نموه نمواً ذاتياً خلاقاً ومطرداً .

ويتجلى البعد الاجتماعي في التراوح بين القيم والبنيات الاولية التقليدية وبين القيم والبنيات الانجازية العصرية .

ويتجلى البعد التنظيمي في التراوح بين اللاتنظيم الحزبي، والتنظيم الحزبي الأحدي، والتنظيم الحزبي التعددي .

كما يتجلى التخلف التنظيمي في التراوح بين التنظيم الاداري العشوائي التقليدي المتمحور تمحوراً شخصياً أو عائلياً أو قبلياً ، أو طائفياً، وطبقياً، والتنظيم الاداري العقلاني المتحرك تحركاً مؤسسياً اختصاصياً ذاتياً . ويتجلى أيضاً في التراوح بين علوية السلطة المدنية أو السلطة العسكرية في التقرير السياسي .

ويبلغ التخلف التنظيمي أوجه في فقدان الأصول القانونية الحية للتناوب الطوعي في الحكم فما يزال التناوب الطوعي في الحكم الاستثناء والتغالب القسري في الحكم هو القاعدة .

ان هذه المعضلات يمكن أن توصف بالأبعاد الحضارية لأزمة التخلف السياسي العربي أو بالأبعاد السياسية لأزمة التخلف الحضاري العربي . ان السياسة هي في ذروتها عملية صناعة القرارات. وذروة العملية صناعة القرارات الحضارية. وهذا هو مصدر تصورنا السياسة بأنها صناعة الحضارة وتصورنا للنظام السياسي الأفضل بأنه النظام الصالح للحضارة. وهذا التصور ألزم للدول النامية ، التي يمكن أن تعتبر العملية الانمائية لتطورها من التخلف للتقدم ، بمفهومها الشامل والمتكامل ، عملية تحول حضاري كلي .

ان السياسة في ذروتها التقريرية هي مجموعة اختيارات حضارية . والاختيارات الحضارية هي اختيارات انمائية او سياسية . وابعاد ازمة التخلف السياسي العربي هي ابعاد او معضلات تواجهها سائر الدول النامية . وهي أيضاً على هذا الصعيد الدولي العام مجموعة معضلات او اختيارات حضارية وانمائية وسياسية . واذا كنا نؤثر وصفها بالاخيارات Option ، فذلك لان وعي المعضلات ، الذي تحركه تجارب العالم الثالث، وتعمقه ، بالملاحظة المقارنة ، علوم الحضارية والسياسة لا والانماء يتيح لنا ان نعتمد لمعضلات الانماء حلولاً خلاقة ومسؤولة ، وعلى ان نتناولها بسياسات او استراتيجيات مستقبلية ابداعية لابسياسات ماضوية اجترارية .

ان هذه المعضلات هي متغيرات حضارية حركية لا مقولات حضارية سكونية . وهي بهذا حوافز للتحرك في طريق التقدم اكثر مما هي موانع للتحرك . وتنطوي المتغيرات الحضارية الحركية على احتمالات تطورية متعددة لا على حتمية تطورية واحدة . فالحتمية الحقيقية هي الاحتمالية أي حتمية الحرية . ولذلك فان الاستجابة لتحدي المعضلة الحضارية هي اختبار ارادي بين عدة احتمالات لاتقرير آلي لاحتمال واحد ، وتجربة السادس من تشرين هي اقرب برهان محسوس على ضرورة التمييز بين الحركية والسكونية ، والاحتمالية والحتمية ، والاختيار الارادي والتقرير الآلي . انها التجربة التي قلبت فجأة في ساحة المعركة ، المتقدمين متخلفين والمتخلفين متقدمين . وقلبت في ساحة العلاقات الدولية ، بالسلاح البترولي ، تفوق المتقدمين تهافتاً ، وتهافت المتخلفين تفوقاً . وبلغ تقييم هذا التفوق حداً حمل المعلقين الغربيين على تشبيه المفعول السياسي للطاقة البترولية العربية بما كان عليه مفعول البحرية البريطانية البترولية بالامس. وربما هو عليه مفعول الطاقة النووية اليوم(١) . واما المقيمون لمفعول الطاقة البترولية الانمائي . فقد ذهبوا لحد التحدث عن العالم الرابع . عالم الغنى البترولي المتفوق على العوالم الاول والثاني والثالث (٢) .

واذا أعدنا تقييم ابعاد أزمة التخلف السياسي والحضاري العربي بعد هذه التجربة.

---

(1) International Herald Tribune Lessons of the Embargo , March 15 , 1974 , P . 4

(2) Theo Sommer , And Now The Fourth world , Neusweek March 25 , 1974 , P . 17

لجاز لنا ان نصورها . بدون ان نبالغ في تبسيطها . بأزمة المفارقة او الهوة بين طاقة العرب البترولية التي بلغت منزلة طاقة المتقدمين . وتنظيمية العرب . التي ماتزال في مستوى تنظيمية المتخلفين . والتحدي الحضاري والانمائي والسياسي الاكبر للعرب . فيما بعد السادس من تشرين . هو تحدي رفع مستوى التنظيم الى مستوى الطاقة . وهذا الوضع العربي الفريد هو دليل آخر على ان « الهوة الانمائية » ليست بالضرورة هوة بين عالم وعالم . ولا بين اقليم واقليم . ولا بين أمة وأمة . ولا بين دولة ودولة . بل هي هوة محتملة او مستفحلة داخل العالم الواحد . والاقليم الواحد . والامة الواحدة . والدولة الواحدة . والنظام الواحد .

ان مفارقة التخلف التي تدام العرب الآن هي الهوة بين مستوى الطاقة العربية ومستوى التنظيم العربي . والهوة الانمائية بين المتقدمين والمتخلفين كثيراً ماتوصف بانها هوة تنظيمية .

فكيف نرفع مستوى التنظيم العربي لمستوى الطاقة البترولية العربية ؟

وأي تنظيم نعني ؟

التنظيم السياسي والاداري ؟

التنظيم القانوني الدستوري ؟

التنظيم الاقتصادي والاجتماعي ؟

التنظيم الايديولوجي ؟

أو التنظيم الحضاري والانمائي الكلي ؟

ان نوع التنظيم يتحدد بتحديد وظيفته أو مهمته . فليس أي تنظيم غاية في حد ذاته بل هو ادارة لمهمة وآلة لخدمة الانسان واسعاده . ان التنظيم المنشود هو التنظيم الذي يكافىء به طاقة العرب البترولية وطاقتهم التنظيمية . ان الطاقة البترولية هي الطاقة المتقدمة والمتفوقة في السنوات العشر القادمة . فالتنظيم أو المشروع التنظيمي المنشود هو المشروع القادر على أن يصير طاقة العرب العابرة طاقة انتاجية أو ابداعية عربية دائمة ، تظل تنمو ، بعد تهافت البترول أو نفاذه ، نمواً ذاتياً مطرداً . ان مثل هذا المشروع وهو مشروع اعجازي انمائي .فأي تنظيم يحقق المعجزة أو أن عهد المعجزات قد ولى وفات.

عرف العرب بأنهم أهل الاعجاز ولكن عليهم أن يصنعوا م المعجزة هذه المرة .

انهم أغنياء بأحسن ماأعطى المتقدمون من موارد انسانية وطبيعية ومالية . ولكنهم فقراء بالمركب التنظيمي العلمي التكنولوجي لعقلنة عملية انماء او انتاج هذه الموارد . ولا بد أن تكون هذه العقلنة مشروعاً تنظيمياً عبقرياً عربياً . فلا احد يستطيع ان يصدرها او ان يصنعها للعرب . ويمكن ان يكون هذا المشروع مشروع تنظيم ديمقراطي شعبي، كالذي اقترحه باحثنا الدكتور الماضيدي ، جواباً على أزمة التخلف السياسي العربي .

ولكن الذي نخشاه هو أن تكون الفرصة التاريخية النادرة قد فاتت ، قبل ان يوضع المشروع وينفذ ويعمم على العرب ولذلك نقترح مشروعاً تنظيمياً أقرب متناولاً وأسرع تطبيقاً . ونعني به مشروع خطة عربية متكاملة لتحقيق ثورة علميــة تكنولوجية عربية .

ووضع العرب خطة الحظر البترولي، ونفذوها بمفعول شبه بمفعول السلاح النووي، وكان للعلم العربي وللفكر العربي داخل الجامعات وخارجهـــا ، وداخل كليات الهندسة والسياسة والاقتصاد ، دورهمـــا الخلاق في وضع وتنفيذ الخطتين . وكتاب « المصالح الاقتصادية في خدمة القضايا العربية » شاهدحي على ماقام به المفكرون والخبراء العرب في هذا السبيل . وهم الآن امام تحدي التخطيط العلمي والتكنولوجي كما كانوا بالامس امام تحدي التخطيط الدفاعي والبترولي .

دخل الفكر العلمي الانساني طور البحث التطبيقي والتنظير التطبيقي . فالانماء يقتضي فكراً وتنظيراً ونمذجة يمكن أن تترجم ترجمة تطبيقية في مشاريع وخطط وقرارات وميزانيات . وهذا مايتحدانا به التخطيط الانمائي للسنوات العشر القادمة . ويواجه التحدي التفكير والتنظيم والتخطيط السياسي كمـــا يجابه أي وجه آخر من تفكيرنا أو تنظيمنا أو تخطيطنا .

ولذلك نفضل ان نستنير بمنهجية التنظير التطبيقي واستراتيجية الاهــداف المنشودة ، لكي نحدد أهــدافنا ووسائلنا العربية المشتركة في السنوات العشر المقبلة ، ونخطط لها تخطيطاً تكاملياً ونعطي الاولوية للتخطيط للتحول أو للتطور العـلمي والتكنولوجي . وذلك لأن الطاقة العلمية والتكنولوجية هي محور الطاقة الانمائية والدفاعية معاً . وهي طاقة انسانية تنظيمية ابداعية قبل ان تكون طــاقة صناعية أو آلية أو أدواتية . وكأننا ونحن نعطي الاولوية للعلم والتكنولوجيا انما نعطي الاولوية للانسان القادر على اقتباسها اقتباساً ابداعياً فعلى صناعتها صناعة ابداعية .

وليس مفعول الطاقة الابداعية العلمية التكنولوجية مفعولاً اقتصادياً فحسب ، ولكنه مفعول انتشاري يمتد الى كل فعاليات الانسان وقطاعــاته ، ويتراوح ما بين التكنولوجيا السياسية والتكنولوجيا الجيولوجية والتكنولوجيا الفضائية .

والتخطيط العربي للتحول العلمي والتكنولوجي هو تخطيط تكاملي بالضرورة على الصعيد القطاعي وعلى الصعيد الاقليمي . فهو اذاً تخطيط سياسي واجتماعي بمقدار ما هو تخطيط فني أو صناعي أو اقتصادي . ان السياق الحقيقي لازمــة التخلف السياسي العربي ولكل أزمة التخلف العربي هو السياق الحركي للتحول من طور حضاري لطور آخر ، أي من طور مــا قبل صناعي الى طور علمي تكنولوجي ، يوصف ايضاً بأنه طور ما بعد صناعي .

ان كل سياسة عربية ، اما ان تكون سياسة « عبور » ما بين الطورين ، واما ان لا تكون سياسة .

وكل تنظيم عربي ، امــا ان يكون تنظيماً لعملية « العبور » بأسرع ما يمكن وأقوم ما يمكن واما ان لا يكون تنظيماً .

وليس لنا الا هذا الفكر المستقبلي الابداعي هادياً لخطة تحررنا من تخلفنا السياسي ومن كل وجه آخر من وجوه تخلفنا الحضاري . اننا بين اختبارين ، الارتفاع بتخلفنا لمستوى تفوقنا البترولي أو الانحدار بتفوقنا البترولي لمستوى تخلفنا . ونحن قادرون على الاختيار الاول ، فلماذا نأخذ بالثاني ؟

وتحقيق هذا الاختيار يتوقف على مبادرة مؤسسة من مؤسسات الجامعة العربية ، أو منظمة الدول العربية المصدرة للنفط ، على مبادرة جامعــة عربية أو معهد عربي للانماء أو هيئة علمية أو فكرية عربية ، مبادرة تؤدي الى تعبئة أحسن الأدمغة العربية داخــل الوطن العربي وخارجه لوضع خطــة متكاملة لابلاغ العرب المستوى العــلمي والتكنولوجي للدول المتقدمة في السنوات العشر القادمة . ثم تعرض هذه الخطة على مؤتمر لوزراء التخطيط والمالية العرب لاقرارها واعتماد الميزانية اللازمــة لتنفيذها ثم ترفع الخطة والميزانية لمؤتمر ذروة لرؤساء الدول العربية لاقرارها وتأليف هيئة عربيــة للاشراف على تنفيذها من قبل الدول والهيئات العربية المعنية .

وآمل أن يعلن هذا الاقتراح في قرار أو توصية تصدر عن المؤتمر .

المراجع

البيلاوي ، حازم – المجتمع التكنولوجي الحديث ، المعـــارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٢

صعب ، حسن – الانسان العربي وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية، دار العلوم للملايين ، بيروت ١٩٧٣ .

معلوف ، الياس – البحث العلمي والانماء ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ .

Ellul, Jacques : The Technological Society, Knopf, New York 1964

Frekis, Victor C : Technological Man, The Myth and the Reality, George Braziller, New York, 1969

Garric, Daniel : L'homme elec tribal ou la civilisation de l'ordinateur, Grasset, Paris, 1972

Jones, Graham : The Role of Seience anb Technology in Developing Countries, Oxford University Press, London, 1971

Kahn, Herman : end Wiener, Anthony J : The year 2000, A Framework for Speculation on the Next Thirty Three years, Macmillan, New York, 1967

Meier, Richard L : Science and Economic Development, New Patterns of living : The Massachusetts Technology 1966

Nader, Claire Zahlan, A.B. editors: Science and Technology in Developing Countries, University Press. Cambridge, 1969

Nations Unies — Plan d'Action Mondiale pour l'application de la Science et de la Technique au Developpement, New York, 1971

O. E. C. D. — Technological Forcasting in Perspective, Paris, 1967

O. E. C. D. — The Conditiens for Succes in Technological Innovation, Paris, 1971

UNESCO — Le Developpement par la Science, Paris, 1969

UNESBOB — Blements foı a Regional Plan for the Application of Science and Technology to Development in Selected Countries of the Middle East, Beirut, 1972

الاستعمار
وأزمة التطوّر في الوطن العربي

الدكتور ابراهيم أبو لغد

– ان عنوان هذه الورقة الذي اختارته االجنة التحضيرية يدل بحد ذاته على أهم آثار الاستعمار الغربي في الوطن العربي ، الا وهو قبول وتقبل نظريات تاريخية واجتماعية نشأت في أوربا في ظروفها الخاصة ومن ثم تم انتقالها الى شعوب العالم الثالث . فعندما نتكلم عن أزمة تطور في الحضارة ، نحن نسلم بأن الحضارة « تسير من نقطة معينة ثم تنشأ وترتقي الى شكل آخر. وهذا النمط من التفكير انتقل الى العلوم الاجتماعية والانسانية من بدايته في العلوم الطبيعية والحيوانية ، فبعد ان كانت نظرية النشوء والارتقاء الدارونية محاولة جادة لتفسير التغيرات الاساسية في النبات والحيوان ، انتقلت هذه

النظرية عن طريق سبنسر وغيره من علماء الغرب الى تفسير التغييرات الاجتماعية والانسانية .

ويمكن للعلماء أن يتدارسوا هذه النظرية ويناقشوا صحتها نظرياً الا انه معلوم لدى كثير من الناقدين الاجتماعيين في العالم الثالث ، وحتى في أوربا وأمريكا ، بأن المجتمعات الغربية ، ومفكريها الذين ساهموا مساهمة فعالة في ارساء دعائم الاستعمار الغربي استخدموا وما زالوا يستندوا الى هذه النظرية الداروينية الاجتماعية في محاولاتهم المتكررة ، على الصعيد العلمي والسياسي ، أن يميزوا بين التقدم في الغرب والتخلف في العالم الثالث . وما التغييرات المختلفة التي يستخدمها علماء الغرب وغيرهم في تصنيف المجتمعات المعاصرة ، الا محاولات مستترة لتأكيد صحة هذه النظرية الداروينية في العلوم الاجتماعية والانسانية ، وما علينا في هذا المجال الا أن نشير الى بعض المصطلحات التي يجري استخدامها يومياً في الصحافة والكتب والجامعات الغربية والمتأثرة بها . فمن منا لايعلم حقيقة مايقصد به « بالتخلف » وبالتحدث » وبالتجديد » وبالتنمية » وبالتطور وبالعلمانية » وبالعقلانية » أو بالعلمية » أليس المقصود بكل هذه الصفات التي يتميز بها مجتمعات معينة أن نستنتج بان المجتمعات التي لاتجري عليها هذه الصفات بانها تقليدية «رجعية» غير متطورة تتغلب عليها التفسيرات الدينية وهذه بالتالي لا علمية ولا عقلانية وأليس المقصود بذلك أن نستنتج بان المجتمعات الغربية التي تتحلى بالصفات الاولى أرقى وأكثر تطوراً من المجتمعات الاخرى ، عربية كانت أو أفرو – آسيوية وأليس المقصود بذلك أن يحاول مسيرو هذه المجتمعات أن يتقبلوا هذه المقاييس وأن يتبعوا سياسات وبرامج متكاملة يكفل تطوير مجتمعاتهم بحيث تساير النمط الحديث! اذا سلمنا بصحة هذه النظرية جاز لنا أن نتصور ان هناك أزمة « تطور » حضاري في العالم العربي ، وأن الاستعمار ساهم مساهمة فعالة في احداث هذه الازمة « الا انني اختلف في تصوري لما يجري في الوطن العربي على الصعيد الحضاري وسأحاول في الصفحات التالية أن أوضح مفهومي لأزمة الحضارة في الوطن العربي .

١ – الوجود الاستعماري في الوطن العربي :

اتخذ الوجود الاستعماري في الوطن العربي أشكالاً مختلفة لا بد من تحديدها .

١) الاستعمار غير المباشر الذي تم عن طريق استخدام التهديد بالقوة دون استخدامها ، وعن طريق استخدام قوته الاقتصادية لسيطرة الاقتصادية ولسلب الموارد

الطبيعية في الوطن العربي ، ولفتح الاسواق العربية للبضائع الغربية، ولتقبل أي محاولة لتقوية الاقتصاد القومي والتصنيع ، ولتعطيل التعامل الاقتصادي الطبيعي بين البلاد العربية والآسيوية والافريقية، وأخيراً للتضييق على الحضارة العربية التي استندت الى التعاليم الاسلامية وذلك عن طريق التبشير والارساليات العربية التي تسترت أحياناً بغطاء تربوي أو صحي . ونستطيع أن نقول بان محاولات خنق مصر في أوائل القرن التاسع عشر ، والتضييق على دول المغرب والخليج ، وبداية التدخل الغربي في سوريا ولبنان وفلسطين دون الاحتلال العسكري، توضح التدخل الاستعماري في المنطقة وهذا ماأعنيه بالاستعمار الغير مباشر . وكان لهذا النوع من الوجود الاستعماري آثار عديدة سأتكلم عنها فيما بعد .

٢) الاستعمار المباشر والذي تم باحتلال المنطقة عسكرياً وبالتالي تسييرها سياسياً وثقافياً واقتصادياً بحيث تخدم أهداف المستعمر وكان لهذا الوجود الاستعماري آثار أخرى تختلف عن سابقتها .

٣) الاستعمار الاستيطاني والذي تم باحتلال أجزاء من الوطن العربي عسكرياً وبالتالي القبض على زمام الامور بها ، واحلال أجناس أوربية ومختلفة بدل المواطنين كما كان الحال في الجزائر والى حد ما في ليبيا وفلسطين وكان لهذا الوجود الاستعماري آثار أكثر خطورة على الحضارة العربية ومستقبلها من سابقيها .

٣ — روج المؤرخون الغربيون ومن جاراهم من مؤرخي العرب الذين تتلمذوا عليهم فكرة خطيرة جداً تتلخص بأن العالم العربي قبل الوجود الغربي أو قبل التحدي الغربي ، كان في سبات عميق ، حضارياً تجمد في القرون الوسطى ، وأن اوضاعه السياسية والاجتماعية كانت على درجة عالية من الاستقرار نتيجة لتسلط سياسي واجتماعي لفئات معينة ، وانه بدأ يتحرك ويتساءل ويحاول التغيير اثر صدمة القوة الغربية . ورغم أن هذه الفكرة ما زالت مسيطرة على معظم ما يكتب عن العالم العربي إلا أن البحوث والدراسات القليلة الجديدة التي رفضت الاسس الفكرية للعصور والتاريخي الاستشراقي تدل دلالة واضحة على أن حركات التغيير في العالم العربي ، ومحاولات استئناف النشاط الفكري والسياسي سبقت الوجود الاستعماري في المنطقة ، وكان للوجود الاستعماري أثر سلبي على هذه الحركات الأصيلة بحيث انه شوهها وحول وجهتها وأهدافها وسلبها أصالتها — والجدير بالاشارة اليه بانه أصبح مسلما بها ، بان الفترة التي

رافقت الوجود الاستعماري الغير مباشر أطلق عليها العرب فترة النهضة ، وان كان لهذه التسمية دلالة ، فما هي الا التسليم الفكري التصور العربي لما كان عليه العرب ولماحاولت الفئات المطالبة بالتغيير أن تصل اليه . وما علينا في هذا المجال إلا أن نشير الى تلك الحركات التي سبقت هذا الوجود الاستعماري والتي كانت محاولات جادة لممارسة النشاط الحضاري العربي أو لاحداث تغييرات سياسية أو اجتماعية من شأنها أن تحقق قدراً أكبر من العدل والحرية والتكامل الاجتماعي . فحركة الوهابيين في نجد ومنطقة الخليج ، والحركات المتكررة لاحداث تعديلات في نظرية وبنيات المعرفة في مصر عن طريق تعديل وتوسيع برامج الأزهر ، وحركة ظاهر العمر في فلسطين ، والشهابيين في لبنان، ومحاولات لحم المجتمع في الجزائر وتونس بوضع حد للفصل الكامل بين الحاكم الشركسي — التركي والمواطن العربي كلها جاءت قبل الوجود الاستعماري والتحدي الغربي المباشر . والجديد بالأمر ان هذه الحركات جاءت نتيجة لاحساس داخلي بضرورة تعديلات في لبنات المجتمع وبضرورة استمرار حيوية الحضارة العربية استناداً الى اصولها الفكرية الاسلامية ، وعلينا أن نلاحظ أيضاً أن التدخل الاستعماري جاء بعد أن أوشكت هذه الحركات على النجاح . فاحتلال الجزائر مثلا تم بعد فترة انجازات اجتماعية ضخمة كان من شأنها لو لم يتدخل الاستعمار أن تعيد للجزائر حيويته الفكرية والسياسيةوارتباطاته بالمنطقة العربية . ونستطيع أن نضيف الى هذا بأن التحول الاستعماري الغير مباشرالى احتلال عسكري مباشر جاء في الكثير من الحالات وربما كان رد فعل طبيعي للاستعمار لانجازات اجتماعية وسياسية وفكرية كان من شأنها أن تقوي شوكة هذه المجتمعات ، ونستطيع في هذا المجال أن نشير الى ان الاحتلال الانكليزي لمصر والاحتلال الفرنسي لتونس جاء بعد أن نجحت الفئات الوطنية في مصر وتونس في وضع اسس طيبة للحكم الوطني،إذ أن الحركاتالوطنية والفكرية في مصر وتونس عبر القرن التاسع عشرصارعت الفئات الحاكمة للحصول على مزيد من حرية العمل والفكر ، ولتحديد الحكم المطلق للولاة منها ووضع اسس دستورية وتشريعية كفيلة بالمساهمة الشعبية في الحكم . وكذلك الحال في سورية ولبنان اذ أن الحركة القومية العربية التي صارعت السلطة التركية وصلت الى مرحلة تسمح لها بالسيطرة ابان الحرب العالمية الاولى ، وبدل أن تستقل هذه البلدانعن الامبراطورية العثمانية ، كان لها أن تخضع للاستعمار البريطاني والفرنسي وان تصارعها للحصول على الاستقلال الذي هدفته سابقاً .

٤ – ان الحركات التي هدفت إلى التغيير الاجتماعي أو الحضاري أو السياسي في الوطن العربي قبل التحدي الغربي استلهمت التراث العربي والفكر العربي والاصول العربية في تحديد وجهتها واعتقدت بأن هذه الاصول كفيلة باحداث التغيير المناسب بحيث تعيد للمجتمع العربي حيويته الفكرية والسياسية والاجتماعية . الا ان الوجود الاستعماري الغير مباشر اضاف الى هذه الاصول والاسس ، اسساً أخرى غربية ، وكان للقوة الاستعمارية اثرها الواضح في احداث تغير جوهري في تصور الطريق الى المستقبل . فا كان للفئات الحاكمة ، وللمفكرين الذين خدموا هذه الفئات الا أن يتقبلوا بعض التصورات الغربية كحقيقة التطور . فجاءت التنظيمات الجديدة مقتبسة من الغرب بحيث تكفل في تصور الحاكم في الوطن العربي ، تجديد وتقوية المجتمع فجاء الجيش والمصنع وملكية الارض ، والتنظيم الاقتصادي وانظمة التعليم ، والقوانين الجديدة كلها مستوردة من نظام غربي معين وكان لهذه التنظيمات اثرها الكبير على الجوار الفكري الذي ميز العالم العربي منذ القرن التاسع عشر . فبدل ان يكون هناك نظام تربوي واحد للمجتمع ، واجه المواطن نظامين مختلفين اختلافاً كلياً، نظام تستند في أسسه المعرفية والتنظيمية الى اصله العربي، ونظام تربوي يستند الى أصله الاسلامي العربي . وقد عرف المواطن بأنه ان أراد أن يصل الى القمة الاجتماعية – الاقتصادية عليه ان يقبل النظام الجديد. وكان لهذا التطور « أثر خطير على المستقبل العربي ، اذ انه كرس التصنيف الاجتماعي والسياسي في المجتمع بحيث سمح للقلة التي تثقفت غربياً أن تسيطر في النهاية على الوطن العربي ، وساهمت بايجاد نظامين متوازيين في المجتمع لينشىء أجيالاً موازية لايربطها ببعض الا أضعف العلاقات . ونحن نتعلم جميعاً كيف نظرت القلة المستغربة الى الاكثرية الساحقة في المجتمع العربي .

الا ان المهم في كل هذا أن أزمة الحضارة في الوطن نشأت ابان هذه التغييرات الجوهرية في بنيات المجتمع العربي وفي منطلقاته . وعلينا أن نشير هنا الى ان الدعوة الحضارية والاجابة الحضارية اثناء هذه الفترة جاءت مناسبة لهذا التمزيق الفكري . اذ اننا نلاحظ ان ما اصطلحنا على تسميته بالمصلحين « العرب انقسموا فيا بينهم الى قسمين رئيسيين: نعتقد مثلاً ان جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وخيرالدين التونسي ومحمود قباضو ، ساهموا مساهمة فعالة في النهضة الحديثة الا انهم فكرياً وحضارياً ينتمون الى مدرسة فكرية استمدت جذورها من الحضارة العربية الاسلامية ، وبهذا

جاءت دعوتهم استجابة اصيلة لجمل التساؤلات والقلق الفكري الذي ميز المجتمعات في تلك الازمنة . وبآن واحد نعتقد بان بطرس البستاني ، وشبلي الشميل ، وأديب اسحق كذلك ساهموا مساهمة فعالة في ارساء أسس العلمانية والعلمية في المجتمع العربي ولعتبرهم مصلحين كذلك ، الا ان استجابتهم اختلفت كثيراً عن تلك الاستجابات التي تميز بها الافغاني وعبده وغيرهم ... بالرغم من ان هنالك فوارق جوهرية بين الفئتين الا انه من المعروف بأن حواراً دائماً رافق الانتاج الفكري لهذه الفئات مما كان له أثراً جيداً على ديمومة الصلة بين الفئات المثقفة وبتكشيف الوجود الاستعماري المباشر وتبنيه لتلك الفئات التي قبلت تصوراته وقيمه انقطع الحوار ، وكان لسيطرة المستغربين السياسية والاجتماعية أثراً كبيراً في تسيير المجتمعات العربية دون اعتبار للاصول العربية أو الاسلامية فجاءت انظمة التعليم ، والاقتصاد ، والسياسة تؤكد اهمية وحيوية الوجهة الغربية للمجتمع العربي وان الامل الوحيد للتقدم العربي يكمن في التغلب على تقليدية المجتمع وعلى قبول المنطلقات الفكرية والاجتماعية الغربية .

ويجدر بنا في هذا المجال ان نشير الى محاولتين لاستئناف الحوار بين الفئات المختلفة دون ان يكون لأي منها أثر ايجابي يذكر : محاولة علي عبد الرزاق في كتابه الاسلام واصول الحكم والذي حاول غيره ان يؤكد بعض الأسس الاسلامية للحكم السياسي العصري بأشكاله المختلفة ، وبغض النظر عن صحة أقواله او خطأها ، الا اننا نستطيع ان نعتبرها محاولة جادة في المحافظة على اصول المجتمع العربي الاسلامي مع تعديلات جوهرية في ممارسة الحكم السياسي . أما المحاولة الثانية فهي محاولة الدكتور طه حسين في «مستقبل الثقافة في مصر» حيث تبنى فيه فكرة ارتباط مصر بالحضارة الاوسطية ، حيث أكد بأن مستقبل مصر الحضاري يرتبط الى حد بعيد بالتيارات الفكرية والحضارية المنتشرة بالدول الاوسطية ، وهو بهذا عنى حقاً ارتباط مصر الفكري باوربا وان لا أمل لمصر – او لأية دولة اخرى في المنطقة – ان تنهض وتتطور دون ارتباطها بالفكر والحضارة الاوربية .

ان هذه المحاولات رغم جرأتها الفكرية لم تسمح للمفكرين آنذاك أن يدخلوا في حوار علمي واضح حول المستقبل الحضاري للوطن العربي وكل ما جرى حقيقة ان انقسم المجتمع الى فريقين : فريق أكد الصلة العربية او الاسلامية للمجتمع العربي وربما كان هذا الفريق اكثر صيحة من الآخر ، بينما استمر الفريق الثاني رغم هزيمته أمام الجماهير

بتكريس التنظيمات التربوية والاجتماعية والسياسية بحيث تؤدي في النهاية الى ارتباط العرب الحضاري بالغرب ولا بد لنا هنا من أن نشير إلى حركة ثالثة تبلورت حول افكار معينة محددة ، ثم تطورت الى حركة سياسية ، وهي حركة القومية السورية التي نادت بالوجود السوري والشخصية السورية الفريدة ورغم انها اعترفت بوجود اللغة العربية في سوريا الكبرى وبارتباط سوريا بالتاريخ العربي الا انها اكدت المميزات الخاصة السورية للشعب السوري وكما لم يكن لعلي عبد الرزاق ولطه حسين ان ينجحا في مصر ، لم يتسنى للحركة السورية ان تنجح في منطقة الهلال الخصيب .

ه – ربما يعود فشل هذه الحركات الفكرية الى طبيعة الاوضاع السياسية والاجتماعية التي سادت المنطقة العربية في القرن العشرين ، اذ ان الوطن العربي فقد استقلاله وتمزق شمله ولم يعد الحوار المطلوب ، حواراً عربياً داخلياً بين فئات تتصارع لرسم المستقبل العربي ، بل أصبح صراعاً محلياً – غربياً على الصعيد السياسي والعسكري . فحركات المقاومة السياسية العسكرية نشأت للقضاء على السيطرة العسكرية السياسية للمستعمر الغربي ، ورغم حرص حركات المقاومة على الاستقلال السياسي للاجزاء المختلفة للوطن العربي إلا انها قبلت بمبدأين خطيرين : الاول انها اعترفت بمقاييس الاستعمار ومعاييره الحضارية ، وبذلك قبلت فكرة التخلف والتقدم وادعت بأنها اقدر من الاستعمار على تطوير المجتمع العربي بحيث يصبح أكثر حداثة وتقدماً . أما المبدأ الثاني وقد قبلته تدريجياً ، هو مبدأ التجزئة العربية وقبولها فكرة الدول المستقلة . وهنا نلفت النظر الى الفرق الجوهري بين أي حركة هدفت التغيير قبل الاستعمار وبعده . اذ ان الحركات السابقة انطلقت من منطلقات عربية – اسلامية وهدفت الى تغيير شامل في الوطن العربي ككل بينما نجد ان الحركات الوطنية التي رافقت وحلت محل الاستعمار انطلقت من منطلقات عربية – غربية وهدفت أصلاً الى تحرير ذلك الجزء من الوطن العربي الذي نشأت فيه . ولا نود ان نقول بانها رفضت فكرة الوحدة العربية أو وحدة الوجود العربي ، الا أنها مع ذلك مارست هذا الرفض على الصعيد العملي . ونستثني من قولنا هذا الحركات القومية العربية الكبيرة كالبعث والناصرية أو القوميين العرب مثلاً . وتعود أهمية هذا الاختلاف بين الحركات القديمة والجديدة حضاريا الى حقيقة ملموسة بانعدام

الحوار الحضاري على المستوى العربي ككل اذ ان مانلمسه اليوم وما نعرفه هو ان الثقافة العربية في المغرب مثلاً مجهولة لدى الدول الشرقية وان التساؤلات الكثيرة الدائرة في دمشق يجهلها المواطن او المثقف التونسي ، وان الانتقادات الحضارية في الجزائر تكاد تكون مجهولة في الجزيرة العربية . وتكاد تكون هذه الحقيقة عكس ماكان يجري في القرن التاسع عشر مثلاً . اذ أن حركة التغيير في تونس كان لها صدى في لبنان وكان من الطبيعي للشيخ محمد عبده ان يقف في تونس ليتحدث الى التنمية الاسلامية ويتعرف على حقيقة ماتنشده هذه التنمية والتجزئة السياسية اذن والتي احدثها الاستعمار قبلها ومارستها الحركات الوطنية التي استلمت الحكم في هذه الدول وبدل ان تحاول العودة الى ربط الامة العربية ولاستئناف الحوار الحضاري بين فئاتها المختلفة نجد ان الحكم الوطني بالغ في التشديد على استقلالية الوطن الصغير وبالسيطرة على وسائل الثقافة والاعلام في هذا الوطن مما ساعد على منع الحوار الثقافي والحضاري الذي يجب أن يجري على المستوى القومي .

ورغم أن التجزئة السياسية للوطن العربي ، والتي عجزت جامعة الدول العربيةأن تتغلب على أسوأ آثارها ، حرمت هذا الوطن من الافادة من العقل العربي ككل ، إلا أن الحكم السياسي المحلي ربما يشكل خطراً أكبرعلى مستقبل الحوار الحضاري في هذا الوطن . اذ أن ما حدث نتيجة للوجود الاستعماري السياسي والفكري وتغلب التفكير الغربي ان الأقطار العربية قبلت باشكال من السيطرة السياسية وبنظريات الحكم المستمدةمن الفكر الغربي الليبرالي والفاشتي والماركسي منه ، ولم يعد للفكر السياسي العربي الاصلي اي انعكاس في الحكم في العالم العربي إلا في المناطق التي نعتها بالتقليدية والمشيخية . فان كان هنالك حوار معاصر حول مستقبل الحاكم والمواطن في هذا الوطن أو ذاك فانني لا أبالغ ان قلت بان هذا الحوار يقتصر اولاً على تلك الفئات التي تثقفت غربياً أو تلك التنظيمات السياسية التي استلهمت التنظيمات السياسية الغربية نموذجاً لما ترغبه . أما الممارسة الحقيقية للساسة على الصعيد الشعبي في القرى والجبال والاماكن الشعبية فلم تعد لها قيمة في الفكر أو الممارسة السياسية . ورغم ان اهتمامنا في هذه الدراسة لايتركز على السياسة الا انني اشير الى هذه الفجوة لاوضح نقطة اساسية هامة وهي ان الفكر يرتبط ببيئته ويستمد اصوله من ممارسات الشعب وتاريخه . وممارسات الشعب العربي لاتنعكس في الفكر السياسي العربي المعاصر أو ما ينشده هذا الفكر . ويعود هذا الفصل

الى أن الفكر العربي الذي دوماً يفكر لصالح « الشعب » حقيقة يفكر وينظر وهو يعتقد انه يحاور المفكر الغربي . فعندما يقبل الديمقراطية كأساس للحكم او الشيوعية او اي مذهب آخر ، يقبل هذه كما وردت اليه من الغرب وليحصل على قبول ورضى الغرب بآن واحد . ورغم ان هناك محاولات احياناً جادة للربط بين الفكر العربي المستورد والاصول العربية كنعت الاشتراكية باشتراكية عربية ، الا ان الواقع ان المفكر العربي لم يعد الى التاريخ العربي ليدرس ويوضح الاسس الاشتراكيـة لمجتمع عربي سابق وكأنه باستخدام شعار معين اثبت الاصول التاريخية للفلسفة الغربية المستوردة . واذا اردنا القول بان المجتمع العربي او على الأقل فئة منه تمارس الديمقراطية بطبيعتها . علينا اذن ان ندرس علمياً ممارسات هذه الفئة لنظهرها على حقيقتها. واستطيع القول بانه ان كان للحضارة العربية مستقبل فعلى المفكر العربي أن يقوم بمهمتين أساسيتين : المهمة الاولى أن يعيد كتابة التاريخ العربي من منظور عربي ومن بعد عربي بحيث يتمكن المواطن العربي أين كان أن يقف حقيقة تاريخه بحسناته وسيئاته، وأما المهمة الثانية أن يدرس الواقع العربي – سياسياً واجتماعياً وحضارياً – على المستوى القومي والوطني والمحلي بحيث تكون مجمل هذه الدراسات منطلقة من منطلقات عربية وتسمح في نهـاية الأمر الى أن يلهم الواقع الفكر المعاصر . فان تحقق لنا هذا يكون قد تغلبنا على أثرين سلبيين للاستعمار الغربي كما كرسه الحكم الوطني : اعـادة الصلة التاريخية للمواطن العربي بين ماضيه وحاضره وعلى المستوى الافقي يكون الانسان العربي حقيقة الاصل في الكتابة التاريخية وثانياً اعادة الصلة الاجتماعية والسياسية التي تربط بين فئـات المجتمع بحيث يستفيد المفكر من ممارسات الشعب بدل أن يستلهم ممارسات الغرب في تفكيره وفي تنظيره وتتضح أهمية هذه النقطة في المثال التالي : يتكلم الكثيرون عن الصراع الطبقي في العالم العربي تاريخياً ، الا انني اشك كثيراً في وجود دراسات عربية علمية توضح الطبقات الاقتصادية التي تتشكل منها المجتمع العربي فهناك دراسة واحدة عن الصراع الطبقي في مصر ، وهناك دراسة عن الصراع الطبقي في العراق في عهد عبـد الكريم قاسم ، ولا نعرف القليل أو الكثير عن الطبقات الاقتصادية في تونس والكويت وسوريا والاردن الخ..

فبدل أن يتكلم المفكر العربي عن الصراع الطبيعي في المنطقة يجدر بنا تمهيداً لتوضيح صورة المستقبل العربي أن تعرف علمياً حقيقة الوجود الطبقي في المجتمع العربي ويتكلم الكثيرون عن الـدثار الفن المعماري العربي وتنقصنا الدراسات عن وجوده وامكانيـة المحافظة عليه مع العلم بأن المهندسين العرب يدرسون العمارة في الغرب أو مدارس اتخذت

النمط الغربي نموذجاً لها تتكلم عن الفلاح العربي ولا نعرف عدده واختلاف أنماط معيشه ، والتاجه المادي والفني وتتكلم عن ضرورة تحديثه » دون أن نعرف مايمكن أن يساهم به في نمو الحضارة العربية . وهكذا .

ولا نغالي ان قلنا بأن المستقبل الحضاري في الوطن العربي يعتمد اعتماداً أساسياً على مايستمده المفكر العربي من حقائق الأوضاع العربية ، ومن الانسان العربي في ابداعه وفي قلقه وفي تقليده للغير وفي مشاكله النفسية والاجتماعية لتشكل هذه أسس تصوراته وتظهيره في محاولاته لتفسير مايجري في الوطن العربي أو في مايصبوا الى تحقيقه .

٦ — ما أشرنا اليه سابقاً ، ينطبق على أجزاء الوطن العربي ككل ويمكننا أن نعزو الكثير من المشاكل الحضارية الى الآثار التي تركها الاستعمار المباشر والغير مباشر . ورغم أن كل هذا ينطبق على الأجزاء التي رزحت تحت وطأة الاستعمار الاستيطاني ، الا أن هنالك آثاراً أخرى لابد من الاشارة اليها خاصة بالأوطان التي صارعت هذا النوع من الاستيطان إذ أن الأخير لم يهدف فقط الى ماهدف اليه الاستعمار بشكل عام من تغيير وتشويه الحضارة العربية والاستغلال الاقتصادي بل حاول جاهداً ان يستأصل الحضارة العربية بكل مظاهرها من جذورها في هذه الاوطان فقد حاول الاستعمار الاستيطاني في الجزائر أن يطمس اللغة العربية بكاملها ، وان يستأصل الدين والتراث الاسلامي وان يحول الاكثرية الساحقة من المواطنين الجزائريين الى طبقة كادحة فرنسية اللغة دون أن تشارك في السير الحضاري . كما حاول أن يستأصل الفن العربي والفنون الشعبية المختلفة ورغم ان المحاولة الايطالية في ليبيا كانت أقل وطأة منها في الجزائر ، الا أن المستوطن الايطالي كان يبغي نفس الهدف فحاول تدريجياً عرقلة النمو الفكري والتعليمي بحيث يتمكن في نهاية الامر من طمس المعالم العربية الليبية . والمستوطن الصهيوني في فلسطين حاول ونجح الى حد بعيد أن يغير الوجه الطبيعي لفلسطين فهودها ، وهدم آثارها العربية وأخذ جاداً يضعف النفسية العربية للمواطن العربي الذي أصر على البقاء في فلسطين بعد الاحتلال . فبالاضافة الى ان هذا النوع من الاستعمار حرم المجتمع العربي ككل من مساهمة عناصر فعالة من أعضائه في الحضارة العربية ، وحرم هذه الاجزاء من الوطن العربي من معرفة أصولها وتراثها العربي فانه ساهم بمرور الزمن بايجاد شكوك في العقل والنفسية العربية في هذه الأماكن .
وما نعرفه من دراسات تؤكد بأن المواطن الجزائري اثناء فترة الاحتلال ، والمواطن الفلسطيني تحت الحكم الصهيوني تبنى أفكار المستعمر ووجهات نظره في طبيعة الارتباطات

الانسانية والعلاقات السائدة بين الشعوب . وتدل هذه الدراسات بأن المواطن العربي ينشأ في مجتمعات سياسية عنصرية قليل الثقة في حضارته وثقافته ، وبالتالي بمستقبلها ونجده اكثر تهافتاً على تبني ثقافة وحضارة الشعب السائد، ولا نستغرب اذن مساهمته الضعيفة في السير الحضاري العربي . وهذا بالطبع لاينفي استمرارية الرفض الحضاري للمجتمع العنصري كما يتجلى في الأدب والشعر المقاوم . الا أن هناك مشكلة أخرى ، اشار اليها الاخ عبدالله العروي في كتاب أخير والمتعلقة باستخدام الصراع السياسي مع الاستعمار الاستيطاني لتحويل الصراع الحضاري القائم في المنطقة لخدمة الفئات التقليدية فقد لاحظ الأستاذ العروي بأن الصراع القائم حول مستقبل فلسطين يستخدم كذريعة في بعض المناطق لخنق الصراع الفكري ولتقوية الفئات السلفية التي عارضت الوجود الغربي لكل اشكاله وان استمر هذا التيار السلوكي ، فمما لاشك فيه ان ماتبقى من حرية فكرية للنقاش حول المستقبل الحضاري سينقرض وسيكون له أسوأ الآثار على الحضارة العربية . اذ ان ماظهر في بعض البلاد العربية ان السلطات الحاكمة بها تتبنى سياسات فكرية وحضارية وتربوية من شأنها أن تقوي شوكة الفئات السلفية وتصنيف الحركات الليبرالية او الاشتراكية جرياً وراء الثقة الشعبية ويجدر بنا في هذا المجال أن نشير الى بعض ردود الفعل الفكرية للواجهة العربية الاسرائيلية في حزيران ١٩٦٧ اذ تبين ان هناك تياران فكريان حاولا ان يفسرا الهزيمة العربية ، التيار الراديكالي والذي طرح جملة من المصورات للوضع العربي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري اكدت بأن الطريق الوحيد للمواجهة الناجحة تكمن في اختيار راديكالي للمستقبل يتطلب المعرفة الشاملة وتقويض الاسس والتنظيمات القائمة وتبني انماطا ثورية جديدة كاملة ، اما التيار الثاني جاء اسلامياً غريباً فسر الهزيمة ببعد الاوضاع القائمة عن الاصول الاسلامية العربية وان المواجهة الناجحة تتم بالعودة والتمسك بهذه الاصول والظاهر بأن الدول العربية اختارت بدائل اخرى تتميز بالمزج والخلط بين هاذين النقيضين . الا ان الذين يخشون على المستقبل الحضاري العربي يعتقدون بأن استمرار التحدي الاستيطاني سيؤدي الى مواجهة كاملة بين هذين النقيضين ولربما يؤدي الى سيطرة العناصر الفكرية السلفية على المجتمع مما يؤدي في نهاية الامر الى الافلاس الفكري .

٧ — حاولنا في الصفحات السابقة ان نشير الى الخلفية السياسية والفكرية لازمة الحضارة في الوطن العربي . وأريد الآن ان أشير الى بعض الخطوط العريضة للمحاولة الناجحة لمعالجة هذه الازمة .

اصبح واضحاً ان التقبل العربي – وبالتالي تقبل العالم الثالث – للتكنولوجيا الغربية ادى سابقاً الى التسليم بالسيادة الفكرية والحضارية للغرب وان المسيرين لدفة الامور في العالم الثالث حاولوا جاهدين تبني العديد من الافكار والتنظيمات والمؤسسات الغربية . كذلك اصبح واضحاً ان هذا الخلط بين مبادىء عامة وافكار وتنظيمات تتبلور بالمجتمعات الخاصة لامبرر له وفي النهاية فاشل آن الاوان اذن ان يتدارس مثقفو العالم العربي في الاسس الفكرية والاجتماعية التي يمكنها ان تساهم في سير الحضارة العربية . ورغم ان الحرية الفكرية في الوطن العربي مقيدة بشكل عام ، إلا ان المجتمعات العربية التي تتوفر بها هذه الحريات بامكانها ان تساهم مساهمة طيبة في تشجيع النقاش الفكري لكل الامور التي يحسن مناقشتها وتوفير الوسائل المادية والادبية والمعنوية للمفكرين من سائر الاوطان العربية . فلماذا مثلاً لانؤسس اكاديمية عربية للبحث العلمي والتاريخي تكفل لنخبة من علماء الغرب بشكل دوري حرية البحث والكتابة والنشر لتساهم هذه النخبة بايجاد فلسفة عربية أصيلة مستمدة من مجمل التراث العربي من شأنها ان تحدد طرق النمو العربي ولماذا لانسمح لمثل هؤلاء العلماء أن يعيدوا النظر كاملاً في نظم التعليم المعاصرة والمناهج المتبعة بحيث تصبح هذه ملائمة للتحديات العديدة التي يواجهها المجتمع العربي ككل اذ أننا نعلم بان أنظمة التعليم في العالم العربي أنظمة مستوردة ، وتنظيم المعرفة بها مستورد دون اصالة ومناهجها ضعيفة ، متباينة لا تخدم التراث العربي ولا يخدم المستقبل العربي ، فلماذا لانواجهها بجرأة وكفاءة دون اللجوء الى خبراء نستوردهم من اليونسكو واسلافهم الذين أرسوا تنظيم التعليم العربي في القرن التاسع عشر ونظموا المعرفة فيها وهكذا .

لقد نجحنا في استعادة استقلالنا السياسي من المستعمر مع العلم بأننا مازلنا نواجه بابشع مظاهرة في فلسطين : الا ان اثارة السياسة في تمزيق الوطن العربي الى اجزاء تحرص على استقلالها ، وبالتالي تمكنها من الحد من التفاعل الطبيعي بين اعضائها ، وأثاره الفكرية والحضارية والتي شوهت الكثير من قيمنا والتي نجحت في تحويل الدفة الحضارية للمجتمع العربي ، وأثاره الاجتماعية التي ساهمت في خلق فجوة كبيرة بين فئة مستغربة وأخرى متمسكة أو مرتبطة في الماضي مازلنا نعانيها والى ان يصبح التاريخ والتراث العربي

جزءاً حيوياً من الواقــع المعاصر والى ان يستعيد العربي ثقته في حضارته الثقافية عن طريق الانجاز العربي ، والى ان يستعيد الوطن ارتباطات فئاته المتعددة بحيث يكون المواطن العربي بحياته ومشاكله وآماله محور الانتاج الفكري العربي سيبقى الوطن العربي في أزمته الحضارية التي اتينا لدراستها . وهنالك اشارات عديدة يلشر بالخير منهـا هذه الندوة بالذات التي سمحت لعدد من المفكرين العرب بالمناقشة الحرة ، والله ولي التوفيق .



مناقشات



حول قرية موقع برشك

زهير الزاهري

كتب المؤرخ الكبير الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مقالا في مجلة الاصالة عدد 23 محرم 1395هـ ـ جانفي 1975م في موضوع موقع برشك ، ذكر فيه اقوال الادريسي وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين في تحديد موقع برشك وحدده تقريبا بين خمس قرى ، والتحقيق انها تبعد عن الاولى Novi بنحو 25 كلم ، وعن الثانية Gouraya بنحو 19 كلم ، وعن الثالثة Fontaine Dugénie بنحو 4 كلم ، وفي هذه ضريح سيدي ابراهيم الذي ربما كان من الاشراف السليمانيين (1) أمراء تنس ، كما يوجد بها آثار فينيقية ورومانية ، ولقد كانت مركزا مهما أيام ملوك البربر :

يريد المؤلف ـ العبد الواديين ومن قبلهم (2) وهي مسقط رأس ابني الامام وغيرهما من الاعلام ، ومكانها الاصلي يسمى Gumugu وعن الرابعة Villebourg بنحو 6 كلم وعن الخامسة Ténès بنحو 19 كلم وعن تنس Duplaix 57 كلم .

فالشكر التام للشيخ عبد الرحمن الجيلالي ولمدير الاصالة المحترم الذي وجه اليه السؤال عن موقع برشك ، وهذا نص ما عثرت عليه بالفرنسية والمسؤولية على المؤلف لا على الناقل ، وليست كلمتي بتعقيب ، بل هي تتميم وتعميم للفائدة فقط .

---

1) راجع تاريخ الشيخ مبارك الميلي ج 2 ص 57.

2) 〃 〃 〃 〃 〃 170 في التعريف ببرشك .

LA CITE BRESK, OU SE TROUVE ?

D'après le livre « Les guides bleus » (Prosper Ricard).
ALGERIE-TUNISIE page 128 (Hachette) 1950
D'Alger à Cherchel, 96 km, itinéraire décrit page 77

La route suit une bande étroite resserrée entre la mer et les collines et traverse de beaux vignobles. 99 km. Les Rosiers. A droite on voit le Cap Rouge.

103 km. NOVI (hôtel modeste), d'une commune de 3 874 habitants. Pont sur l'oued Arilas. A droite, pointe des oliviers.

De NOVI à (61 km sud) Duperré par une piste muletière, page 137.

109 km. FONTAINE DU GENIE ; sur la place, magnifique monolithe romain de 10 mètres de haut et de 1 mètre de diamètre ; au sud du village dans le Djebel DJAOUT (537 m) ; carrières de granit ; débarcadère. - 113 km. Estuaire de l'oued Messelmoun, qu'après un détour la route traverse (114 km). - 117 km, pont sur l'oued Essebt. - 118 km, ferme à gauche. - 121 km, Domaine St Georges à gauche. Désormais, les exploitations seront plus rares. - Montée en lacets surplombant la mer.

124 km. GOURAYA. (hôtel du commerce), petite ville de 7 400 habitants. Nombreux gisements de fer dans les massifs montagneux avoisinants, dont 2 sont exploités. Débarcadère.

126 km. LE BOIS SACRE, grande maison de plaisance, dans un parc ombreux. A droite du cap LARES pointe l'îlot TOKIKT INNDICH.

128 km. KOUBBA DE SIDI BRAHIM, près de laquelle sont les ruines GUMIGU, comptoir phénicien et colonie romaine, qui sous le nom de BRESK, garda une certaine importance à l'époque berbère.

131 km. - Embarcadère au bord de la route en corniche, qui devient sinueuse.

133 km. - Pont sur l'oued MELAH.

134 km. - VILLEBOURG (hôtel du Roulage), petit vilage viticole. Au sud mines de fer du LERHAT (408 m. d'altitude) - 140 km, belles forêts de pins d'Alep.

147 km. - DUPLEIX (auberge), ancien oued DAMOUS, que l'on traverse sur une passerelle métallique, pour s'élever à la hauteur du Cap SIRAT.



من فصيح العربية في العامية الجزائرية

3

محمد الصالح رمضان

22) ـ **تاهل** عندنا بمعنى تزوج أى صار **ذا أهل** وبيت فصيح جيد لان من معانى **الاهل** : الزوجة ، ففى العربية **تاهل** اى اتخذ أهلا ، وأهل البيت سكانه ، وقد **اهل الرجل ياهل** (بالتخفيف) تزوج مثل **تاهل** وكذلك **ائتهل** ٠ وكلمة **أهل** تستعمل استعمالات واسعة فى العربية ، منها ما يدل على الزوجة والتزوج كما تقدم ، ومنها غير ذلك مثل **مكان آهل وماهول** ، أى فيه أهل وسكان ، وفلان **اهل لكذا** أى مستحق له ٠٠ الخ ٠٠وفى الحديث (ان النبى (صـ) أعطى العزب حظا وأعطى **الآهل** حظين) ورجل **آهل** أى متزوج ٠

ومثل **تاهل** عندنا **استبيت** أى تزوج **واتخذ بيتا واهلا فاستبيت من البيت** ومن معانى **البيت** فى العربية : **أهل الرجل وعياله** ، يقال (**تبيتت المراة**) : اذا **صار لها بيت** وبعل ، فهى**متبيتة** (بدلا من **مستبيتة** عندنا) ، ومن معانى **البيت** أيضا : المسكن ، والعيال والزوجة، تقول (**بيت الرجل**) وأنت تقصد امراته أو عياله أو داره ٠

ومن استعمالاتنا فيه يقول الرجل : (**مولاة بيتى**) أو زوجتى وربة منزلى ، وتقول هى (**مولى بيتى**) أى زوجى ٠

35) ـ **ترتر يترتر** : ارتعد يرتعد من الخوف أو الهيبة أو نحو ذلك ، نقول (فلان **يترتر** من الخوف أى يرتعد ويرتجف ، وهي حالة تعترى الانسان عند الخوف والفزع ينخلع

لها القلب وترتعد الفرائص خوفا وهلعا فلا يكاد يثبت كما قال طرفة بن العبد :

لدى موطن يخشى الفتى عنده الردى　　متى تعترك فيـه الفرائص ترعــد

عربى فصيح من قولهم : (قبض على يده يترتره) أى يهزه ويزعزعه **فالترترة** كالزعزعة والزلزلة وزنا ومعنى ، قال أبو الفوارس :

ألم تعلمى أنى اذا الـدهــر مسنى　　بنـائبـة زلت ولـم **أتتــرتـر**

أى لم أفزع فأتزلزل أو أتقلقل كما فسره ابن منظور وغيره ٠

والتراتر : الشدائد قال هذيل الأشجعى :

وحتى تقولوا بعد ما يشمت العدا　　بكم ان أصــل الحرب فيها **التراتر**

والطرطرة بالطاء عندنا أبلغ وأشنع من **الترترة** ، ورغم ان التاء والطاء تتعاقبان فى لساننا على كثير من الكلمات حتى لا نكاد نفرق بينهما أحيانا **فالطرطرة** تعنى أقصى درجات الفزع والهلع فى كلامنا ، وهى الحالة التى يسلح فيها الانسان على نفسه ، وتلك غايـة فزع الجبان الرعديد الذى ينخلع قلبه وترتجف فرائصه ،.وكأن **الطرطرة** هنا اسم صـوت يتصل بالسلح ٠

فقولنا فلان **يترتر** معناه خائف يرتعد فقط ، وأما **يطرطر** فمعناه أنه لا يتماسك من شدة الخوف ولا يتحكم فى نفسه من شدة الفزع والهلع حتى انه يبول أو يسلح لا اراديا ٠

36) ــ **التسنين** : طلوع الاسنان فى الاطفال معروف ، ومن معانيه أيضا عندنا : تحديد آلات القطع المعدنية بآلة أخرى أو **بحجر السن** المعروف **بالمسن** (كما سيأتى) ومنها **سنن** النجار ، المنشار : اذا حدد أسنانه وشحذها لتصير قاطعة وحادة ، وفى المجاز تقول العرب (هذا مما **يسنك** على الطعام) أى يشحذك ويشهيك فى الاكل ٠ **وأسنان الفم** واحدها **سـن** وهى (الثنايا والرباعيات) فى مقدم الفم ، سميت بذلك لانها حادة قاطعة وتسمى أيضـا قواطع ، تليها (الانياب) للتمزيق ، ثم (الاضراس) للطحن ويطلق على جميعها **أسنــان** تجوزا فيقولون فى الفم عشرون أو اثنان وعشرون سنا فى كــل فك : ثنيتان ورباعيتان ونابان وخمسة أضراس أو أربعة ٠

37) ــ **التفرسن والتفرسين** عندنا بمعنى الاتقان والاجادة للشىء والحذق فيه والمهارة ٠ نقول (**تفرسن** الولد فى القراءة) اذا برع فيها وأتقنها ، وكذلك العامل والصانع والمحترف اذا أتقن عمله وأجاده ، فهو **متفرسن** أى **فارس** فيه كأن ذلك من **الفروسية** بمعنى البراعة ٠

فالتفرسن والتفرســين والمتفرسن كله بنون زائدة فى الاخـير ، لعله مشتق من **الفراسة والتفرس** أى العلم والخبرة بالشىء ، تقول العرب (رجل **فارس النظر**) من الفراسة أى اصابة الرأى، و (هو **فارس بالامر**) اذا كان عالما به خبـيرا، و (**تفرس فيه**) : تثبت وتروى، و (**تفرس فيه الشىء**) : توسمه فيه وتخيله ، و (**تفرس فى فلان الخير**) : تعرفـه بالنظر الصائب أو رأى فيه مخائـل الخـير ٠

وهكذا **للفراسة** (بكسر الفاء) معنيان أحدهما : المهارة فى تعرف بواطن الامور مـن ظواهرها ، ومنه حديث (اتقوا **فراسة** المؤمن فانه ينظر بنور الله) ؛ وثانيهمـا : الـرأى الصائب المبنى على **التفرس** ٠ أما **الفراسة** (بفتح الفاء) فهى **كالفروسة والفروسية** أى الحذق بركوب الخيل ، وقد **فرس** (بضم الراء) بالخيل : أى حذق أمرها فهـو **فـارس** بها ، **فالتفرسن** عندنا هو ولا شك من **الفراسة** (بكسر الفاء) **والتفرس** ، أو مـن **الفراسـة** (بفتحها) أى **الفروسية** وكله جائز فتأمـل ٠

ومن غرائب اللغة التى كثيرا ما تجمع بين النظائر والأضداد ، نص ذكره ابن منظور فى لسان العرب ــ وذكر غيره ممن جاء بعده ــ جاء فيه : « وقال الليث **الفرنسة** (بـزيادة نون قبل السين) حسن تدبير المرأة لبيتها ٠ يقال : انها امرأة **مفرنسة** » اهـ٠ومثل ذلك فى القاموس ومختاره : « **فرنسة المرأة** : حسن تدبيرها لامور بيتها » اهـ ٠ كلاهما بنون زائدة كما فى لفظنا (التفرسن) ولكنها قبل السين (تفرنس) وفى لفظنا بعد السين (تفرسن) فتأمل غرابة الاتفاق فى المعنى أو فى بعضه على الاقل وفى اللفظ كذلك مع تقديم أو تأخير النون الزائدة ! ومعنى **التفرنس** عندنا : هو التشبه **بالفرنسيين** والتخلق بأخلاقهم والتكلم بلغتهم ، وكان من سياسة الحكم الاستعمارى عندنا **فرنسة الجزائر والجزائريين** للقضاء عـلى شخصيتنا ومقوماتها ومن اهمها : الاسلام والعروبة او العربية ، لذلك حاربهما الاستعمار بكل وسيلة وفرض علينا (**التفرنس**) والاندماج فيه ٠ يقول مفـدى زكريـا فى احــد أناشيـده الوطنيـة :

فلسنـا نرضى الاندمـاج   ولا نرتـد فرنسيـــا

ويقول الشاعر الفكه الامين العمودى فى طبيب جزائرى تزوج فرنسية ورزق منهـا ولدا سماه (صالحا) وسمته أمه (موريسا) :

حى الطبيب ولا تنسى قرينتــه   فهـو سليمان والمـادام بلقيس

له غـلام أطـال الله مـدته   تنازع العـرب فيه والفرنسيس

لا تعذلوه اذا ما خـان ملتـه   فنصفه (صالح) والنصف(موريس)

منشـــورات
وزارة التعليـم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـــدر كتـــاب :

ـ الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى
ـ « الخامس « «
ـ « السادس « «
في خمســة اجـــزاء
ـ الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى تأليف أحمد ابن سحنون الراشدى ـ تحقيق : المهدى البوعبدلى
ـ اللهـب المقـدس ، للشاعر مفـدى زكريا

منشـــورات
وزارة التعليـم الأصلى والشؤون الدينيـة

انتظـــروا :

ـ الياذة الجزائر التى نظمهـا الاستـاذ مفـدى زكـريا خصيصا للملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى مع ترجمتها (بالفرنسية)

ـ الملتـقى السـادس للتعـرف عـلى الفكـر الاسـلامى فى ستة اجزاء (بالفرنسية)

ـ الملتـقى السابـع للتعــرف عـلى الفكـر الاسـلامى فى خمسة اجزاء (بالعربية)

ـ الملتـقى الثامـن للفكـــر الاسـلامى فى أربعة اجزاء (بالعربيـة)

ـ مبــادىء أوليـــة فى النظريـــة الموسيقيـــة للدكتور حكيم بن عطية ، مدير المعهـد الموسيقى البلـدى بالجزائر (بالعربية والفرنسية)